عيون الأدب الأجنبي

4

ترجمة : إلياس بديوي

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروست



سادوم و عامورة

« البحث عن الزمن المفقود » مغامرة كائن رائع الذكاء ، مريض الإحساس ، ينطلق من طفولته في البحث عن السعادة المطلقة ، فلا يلقاها في الأسرة ولا في الحب ولا في العالم . ويرى نفسه منساقاً إلى البحث عن مطلق خارج الزمان ، شأن المتصوفين من الرهبان ، فيلقاه في الفن ، مما يؤدي إلى اختلاط الرواية بحياة الروائي ، وإلى انتهاء الكتاب لحظة يستطيع الراوي ، بعدما استعاد الزمان ، أن يبدأ كتابه ؛ فتنقلب بذلك الحيّة الطويلة على نفسها لتغلق الحلقة العملاقة .

رواية تقارب المليون كلمة ، بأشخاص تبلغ المائتين ، أشبه ما تكون بالتمثال الروحي الذي يصمدُ كالصخر في وجه العاديات . إنها مرثاةٌ للدمار الذي يصنعه الزمن بالأشياء والناس إن غَفلَت .

دار شرقيات للنشر و التوزيع

البحث عن الزمن المفقود

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل پروست

ترجمة: الياس بديوي

A la recherche du temps temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

الجزء الرابع:

صادوم وعامورة

Sodome et Gomorrhe

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق - القاهرة.

ت: ٣٩٠٢٩١٣ س . ت: ٢٦٩١٩٨

الغلاف الأخير: الصفحة الأخيرة من مخطوطة هذا العمل بقلم مارسيل بروست

تصميم الغلاف: محيى الدين اللباد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة

رقم الايداع ١٤٦٨٩/١٩٩٧

الترقيم الدولي ISBN 977 - 283 - 066 - 3

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

4

سادوم وعامورة

دار شرقيات للنشر و التوزيع

الجزء الأول

أول ظهور للرجال ـ النساء. هم من نسل الذين وفرتهم نار السماء من سكّان صادوم.

«فللمرأة عامورة وللرجل صادوم»
(ألفريد دوفيني)

معلوم أني قبلما مضيت في ذلك اليوم (اليوم الذي أقيمت فيه أمسية الأميرة «دوغيرمانت»)لأقوم بزيارة الدوق والدوقة التي جئت على روايتها كنت ترصّدت عودتهما واتّفق لي، في أثناء فترة ترصّدي، اكتشاف يتّصل على وجه الخصوص بالسيد «دوشارلوس»، ولكنّه هامّ في حدّ ذاته إلى حدّ أني أرجأت روايته إلى الآن وحتّى الفترة التي يسعني فيها أن أخصّه بالمكان والمساحة المتوخّيين. وكنت، كما قلت، قد تخلّيت عن الإطلالة الرائعة المعدّة إعداداً مريحاً إلى حدّ بعيد في أعلى المنزل، ومنها تحيط العين بالسفوح المتموجة التي تصعد عبرها حتى فندق «بريكيني» والتي يزيّنها زينة تبهج العين على النحو الإيطالي البرج الوردي الذي يعلو المستودع العائد للمركيز «دو فريكور». وكنت رأيت أقرب إلى الواقع، حينما ظننت الدوق والدوقة على وشك العودة ، أن أتخذ موقعاً على الدرج. وقد داخلني بعض الأسف على مقامي في الأعالي. ولكنما كان لديّ في تلك الساعة، وهي ساعة ما بعد الغداء، القليل ممّا آسف له، فلعلّني ما كنت رأيت، شأني في الصباح، أشخاص اللوحات الصغيرين جداً الذين ينقلب إليهم عن بعد خدّام فندق «بريكيني» و«تريم»، يتسلقون الهوينا السفح الوعر وبيدهم منفضة، بين أوراق البلق العريضة الشفافة التي تبرز بروزاً حلواً على أكتاف الجبال الحمراء. ولئن فاتني تأمّل الجيولوجي فقد حزت على الأقلّ تأمّل عالم النبات وكنت أنظر عبر منافذ الدرج شجيرة الدوقة والنبتة الثمينة المعروضتين في الباحة بمثل الإلحاح الذي نبديه في إرسال الشبان الذين حان زواجهم في نزهات، وكنت أتساءل إن كانت الحشرة غير المحتملة سوف تجيء بفعل مصادفة من صنع العناية الإلهية لزيارة المدقّة التي تُقدّم ذاتها وتُهْمَل في آن. وإذ بعث فيّ الفضول جرأة تتنامى شيئاً فشيئاً انحدرت حتّى نافذة الطابق الأرضي المفتوحة بدورها وكانت مصاريعها نصف مغلقة. كنت أسمع بوضوح «جوبيان» وهو يستعدّ للرحيل، وما كان يستطيع اكتشافي خلف ستارتي حيث مكثت لا حراك بي إلى حين ارتميت جانباً على نحو مفاجئ مخافة أن يراني السيد «دوشارلوس» الذي كان يجتاز الباحة وهو يمضي الهوينا في طريقه إلى منزل السيدة «دو فيلبا ريزيس» بطيئاً متشيباً يزيده وضح النهار شيخوخة. لقد انبغى أن تلمّ وعكة بالسيدة «دو فيلباريزيس» (نتيجة لمرض المركيز «فيير بوا» الذي كان شخصياً على خلاف قاتل وإياه) كيما يقوم السيد «دو شارلوس»، ربّما لأول مرّة في حياته، بزيارة في تلك الساعة. ذلك لأن البارون بهذا التفرد الذي يطبع آل «غيرمانت» إذ يعدّلون في الحياة المجتمعيّة، بدلاً من التقيّد بها، وفق عاداتهم الشخصية (وهي غير مجتمعية فيما يعتقدون. وإنها أهل بالتالي لأن يُذلّ أمامها هذا الشيء الذي لا قيمة له، يعني حياة المجتمعات ـ من ذلك أن السيدة «دومارصانت» ما كان لها يوم محدّد، ولكنها تستقبل صديقاتها كل صباح من العاشرة إلى الظهر)، كان يحتفظ بهذا الوقت للقراءة والبحث عن التحف العتيقة، الخ، ولا يقوم البتة بزيارة إلا ما بين

الرابعة والسادسة مساءً. وفي السادسة كان يمضي إلى مركز الفروسية أو للتنزه في «الغابة». وقمت بعد لحظة بحركة ارتدادية كي لا يبصرني «جوبيان»، فعمّا قليل ساعة انطلاقه إلى المكتب الذي لا يعود منه إلا للعشاء، وهو حتّى لا يفعل دائماً منذ أسبوع انقضى على ذهاب ابنة أخيه بصحبة المتدرّبات عندها إلى الريف بغية إنجاز فسطان في منزل واحدة من زبائنها. ثمّ عزمت، وقد تبيّنت أن ليس من يستطيع مشاهدتي، أن لا أكلّف نفسي عناءً من بعد مخافة أن أفوّت عليّ، إمّا وقعت المعجزة، الوصول الذي يكاد أن يكون الأمل فيه مستحيلاً (عبر الكثير من العقبات والبعد والمخاطر المعاكسة والأخطار)، وصول الحشرة المرسلة من البعيد البعيد إلى العذراء التي تطاول انتظارها منذ فترة طالت. كنت أعلم أن ذاك الانتظار لم يكن أكثر سلبية منه عند الزهرة الفحل التي استدارت أسديتها تلقائياً كي تستطيع الحشرة استقبالها بيسر أكبر. كذلك هو شأن الزهرة الأنثى التي كانت هنا، فلعلها كانت تقوّس «حاملات سماتها»، إن جاءت الحشرة، وتقطع بحركة تخفى على الملاحظة، بغية أن تدع لها أن تغلّ فيها بصورة أفضل، مثلها مثل شابة ماكرة ولكنها متقدة العاطفة، نصف الطريق إليها. إن قوانين عالم النبات إنما تحكمها بدورها قوانين أكثر فأكثر سموّا. ولئن كانت زيارة الحشرة، ونعني جلب بذرة زهرة أخرى، ضرورية بعامة لتلقيح الزهرة فلأن التلقيح الذاتي، تلقيح الزهرة نفسها بنفسها، قد يحمل معه، كما هي الزيجات التي تتكرّر في الأسرة ذاتها، انحطاط النوع والعقم في حين يَهَبُ التهجين الذي تقوم به الحشرات، يَهَبُ الأجيال اللاحقة من النوع نفسه زخماً تجهله الأجيال السابقة. ولكنّ هذه الانطلاقة ربّما تجاوزت الحدّ فتتامى بها النوع تنامياً مفرطاً. وإذ ذاك مثلما مضاد السُمين يدفع المرض، ومثلما الغدّة الدرقيّة تنظم كرشنا وتشكل الهزيمة عقاباً للكبرياء والتعب للمتعة، ومثلما يريح النوم بدوره من التعب هكذا يجيء فعل تلقيح ذاتي استثنائي في الوقت المناسب ليشد البراغي والمكابح فيعيد إلى القاعدة السوية الزهرة التي سبق أن حادت عنها بما يجاوز الحدّ. كانت أفكاري قد اتبعت منحى سوف أصفه فيما بعد وكنت استخلصت مذ ذاك من تحايل الأزهار الظاهر نتيجة تنسحب على قسم لا واعٍ من الأعمال الأدبية حينما أبصرت السيد «دو شارلوس» خارجاً من منزل المركيزة. ولم يكن انقضى منذ دخوله إلاّ بضع دقائق. فربما علم من قريبته العجوز نفسها أو من أحد الخدّام فحسب التحسّن الكبير أو بالأحرى الشفاء التام مما لم يكن لدى السيدة «دوفيلباريزيس» سوى مجرد وعكة. كان السيد «دو شارلوس» في هذه اللحظة التي لا يَحْسَبُ أحداً يراه فيها وقد أسدل جفنيه صوب الشمس، كان قد راخى على وجهه هذا التوتّر وأطفأ هذه الحيوية المصطنعة اللذين تستبقيهما عنده حرارة الحديث وقوّة الإرادة. كان شاحباً كقطعة مرمر، كبير حجم الأنف وقسماته الرقيقة لا تزوّدها من بعد نظرة حازمة بدلالة مختلفة يمكن أن تشوّه جمال خطوطها. كان يبدو، ولاشيء فيه من بعد إلا لآل «غير مانت»، وقد نُقش مذ ذاك، هو «بالاميد» الخامس عشر، في كنيسة «كومبريه». ولكنّما كانت تلك القسمات العامّة لكامل الأسرة تتخذ في وجه السيد «دوشارلوس» رهافة أكثر روحانيّة وأكثر عذوبة على وجه الخصوص. وكنت آسف له أن يزيّف عادة بهذا القدر من صنوف العنف والغرابات المزعجة وأشكال القيل والقال والقسوة وسرعة التأثّر والصلف، أن يخفي خلف فظاظة مستعارة الوداعة والطيبة اللتين أراهما تنداحان على وجهه بهذا القدر من البساطة ساعة يغادر منزل السيدة «دو فيلباريزيس». كان يبدو، إذ ترفّ عيناه صوب الشمس، وكأنه يكاد يبتسم وألفيت في وجهه، وقد برز لي مرتاحاً وكأنما على طبيعته، شيئاً من المودّة

والسكينة بلغ حداً لم أستطع معه الحؤول دون أن أفكر كم لعل السيد «دوشارلوس» كان سيغضب لو أمكن أن يعلم أنه مراقب. ذلك لأن ما كان يذكرني به هذا الرجل الذي كان مولهاً إلى حد بعيد، الذي كان يباهي إلى أبعد حدّ بالفحولة والذي يبدو له الجميع مخنثاً على نحو بغيض، ما كان يدفعني إلى التفكير به فجأة لشدة ما يحمل منه بصورة عابرة القسمات والتعبير والابتسامة إنما كان امرأة.

كنت أهم بتكليف نفسي عناء جديداً كي لا يستطيع مشاهدتي، فلم يتسع لي الوقت ولا ظلت بي حاجة. فما الذي رأيته! وجهاً لوجه، في هذه الباحة التي لم يلتقيا بالتأكيد يوماً فيها (إذ لا يجيء السيد «دوشارلوس» إلى فندق آل «غيرمانت»، إلا بعد الظهر ساعة يكون «جوبيان» في مكتبه، كان البارون بعد ما فتح عينيه وسعهما، وكانتا نصف مغلقتين، ينظر بانتباه شديد إلى صانع الصداري القديم على عتبة دكانه فيما تسمّر هذا الأخير فجأة في مكانه أمام السيد «دوشارلوس» وهو ينغرس مثلما النبتة ويتأمل باندهاش كرش البارون المتشيخ. ولكن الأمر الأكثر غرابة أن وقفة «جوبيان»، بعد ما تغيرّت وقفة السيد «دوشارلوس»، شرعت في الحال تنسجم معها وكأنما وفق قوانين فن خفي فالبارون الذي يحاول الآن إخفاء الانطباع الذي أحس به ولكنه يبدو، على الرغم من لامبالاته المتكلفة، وكأنه يبتعد آسفاً، كان يذهب ويجيء وينظر في الفراغ بالطريقة التي يظن أنها تبرز أفضل ما تبرز جمال حدقتي عينيه، ويتخذ هيئة مزهوة مهملة مضحكة. فكان أن فقد «جوبيان» في الحال الهيئة المتواضعة الطيبة التي عهدتها دائماً فيه ووقف منتصب الهامة ـ يناظر بذلك البارون تماماً ـ وهو يولي قامته هيئة مستكبرة ويضع قبضته على خصره بوقاحة بشعة ويبرز قفاه ويتخذ أوضاعاً بالغنج الذي لعل زهرة الأوركيدا كانت تبديه إزاء الدبور الذي طلع فجأة غير متوقع . وما كنت أعلم إمكان أن يبدو منفراً إلى هذا الحد. ولكني كنت أجهل كذلك أنه قادر أن يقوم على نحو مفاجئ بدوره في هذا النوع من مشهد الأبكمين الذي يبدو (مع أنه يقف للمرة الأولى في حضرة السيد «دوشارلوس») أنه جرى تكراره فترة طويلة . ـ وليس يبلغ المرء تلقائياً هذا الكمال إلا حينما يلتقي في بلاد الغربة مواطناً له يجري التفاهم إذ ذاك معه من تلقاء ذاته إذ الوساطة متماثلة، ودون أن يكون أحدهما رأى الآخر في يوم.

لم يكن هذا المشهد على أي حال مضحكاً على نحو إيجابي فلقد كانت تطبعه غرابة، أو إن شئت فطرة، كان جمالها آخذاً في التنامي. فعبثاً كان السيد «دو شارلوس» يتخذ هيئة المتجرد، ويخفض جفنيه ساهياً، لقد كان يرتفع بهما بين الحين والحين ويلقي إذ ذاك على «جوبيان» نظرة فاحصة. لكنّما (ولأنه كان يظنّ دونما شك أنه لا يمكن لمشهد كهذا أن يتطاول إلى مالا حدود في هذا المكان، إما لأسباب سوف ندركها فيما بعد، وإما من منطلق هذا الإحساس بقصر الأشياء جميعها والذي يجعلنا نبتغي سداد كل ضربة نضربها ويجعل مشهد أي حب مؤثراً إلى هذا الحد) كان السيد «دو شارلوس» يتدبر أمره في كل مرة ينظر فيها إلى «جوبيان» كي تترافق تلك النظرة وكلمة ما، وهو ما كان يجعلها مختلفة إلى ما لا حدود عن النظرات التي نلقيها عادة على شخص نعرفه أو لا نعرفه. كان ينظر إلى «جوبيان» محدّقاً تحديق من يزمع أن يقول لك: «أستميحك عذراً لتطفلي، ولكني أرى خيطاً أبيض طويلاً عالقاً على ظهرك» أو «لابد أنني غير مخطئ، فإنك حتماً من «زوريخ» أنت أيضاً ويبدو أني بالتأكيد التقيتك كثيراً لدى بائع الآثار». على هذا النحو

كان يبدو السؤال نفسه، كل دقيقتين، موجهاً بتركيز شديد إلى «جوبيان» في غمزة عين السيد «دو شارلوس»، كمثل جمل «بيتهوفن» الاستفهامية تلك التي تتردد تردداً غير محدود على فترات متساوية والتي تُعدُّ ـ بفيض مفرط من التحضيرات ـ لبروز فكرة جديدة، وتبدل في النغمة، و«عودة لحن». إلا أن جمال نظرات السيد «دو شارلوس» و«جوبيان» كان ناجماً بالعكس من أن هذه النظرات ما كان يبدو، على الأقل مؤقتاً، أنها تهدف إلى الإيصال إلى شيء. وإنما كنت أرى البارون و«جوبيان» للمرة الأولى يكشفان عن ذاك الجمال. ففي عيني كل منهما طلعت منذ قليل لا سماء زوريخ، بل سماء مدينة شرقية لم أحزر بعد اسمها. وأياً تكن النقطة التي كان يمكن أن تستوقف السيد «دو شارلوس» وصانع الصداري فقد كان يبدو أن الاتفاق بينهما قد أبرم وأن ليست تلك النظرات اللامجدية سوى توطئات طقسية شبيهة بالحفلات التي تقام قبل زواج مقرر. لكأنهما، إن اقتربنا أكثر من الطبيعة ـ وإن كثرة وجوه التشبيه إنما يزيد من كونها طبيعية أن ذات الرجل إن تفحصته على مدى بضع دقائق بدا لك على التوالي رجلاً أو رجلاً طائراً، أو رجلاً حشرة، إلخ ـ لكأنهما طائران، ذكر وأنثى يحاول الذكر التقدم فيما لا تستجيب الأنثى ـ «جوبيان» ـ من بعد بأية إشارة لهذه المناورة ولكنها تنظر إلى صديقها الجديد دونما استغراب، نظرة ثابتة ساهية تحكم دونما شك أنها أكثر إثارة ومجدية وحدها، بما أن الذكر قام بالخطوات الأولى، فتكتفي بصقْل ريشها. وبدا أخيراً أن لا اكتراث «جوبيان» لم يعد كافياً له، ولم يظل بين يقينه أنه استمال أحدهم وحمله على ملاحقته واشتهائه سوى خطوة يخطوها وخرج «جوبيان»، وقد قرر الذهاب إلى عمله، من البوابة الرئيسية. على أنه لم ينطلق إلا بعدما أدار رأسه مرتين أو ثلاثاً إلى الشارع حيث اندفع البارون بقوة، وهو يرتعد مخافة أن يفقد أثره (ويصفّر بعنترية دون أن يغفل أن يقول للبواب صائحاً «إلى اللقاء»، ولكن هذا الأخير لم يسمع حتى ماقال، وهو نصف ثمل يقدم طعاماً لمدعوين في الركن القصي من مطبخه). وفي اللحظة نفسها التي اجتاز فيها السيد «دوشارلوس» البوابة الرئيسية وهو يصفر مثل دبور كبير دخل آخر، وكان حقيقياً، إلى الباحة. ومن ذا يعلم إن لم يكن ذاك الذي انتظرته زهرة الأوركيدا منذ زمن طويل وهو يقبل الآن حاملاً إليها الطلع النادر جداً الذي ربما مكثت عذراء بدونه؟ ولكنني سهوت عن متابعة لهو الحشرة، ذلك لأن «جوبيان» استرعى انتباهي أكثر فقد عاد (ربما ليأخذ رزمة حملها فيما بعد وكان نسيها من جراء الانفعال الذي سببه له ظهور السيد «دو شارلوس»، وربما لمحض سبب أقرب أن يكون طبيعياً) يتبعه البارون. وقد سأل هذا الأخير، بعد ما صمم على تسريع الأمور، سأل صانع الصداري ناراً ولكنه لاحظ في الحال: «إني أسألك ناراً ولكني أرى أني نسيت علبة «السيكار». وتغلبت قوانين الضيافة على قواعد الدلال؛ وقال صانع الصداري الذي حل الفرح على محياه محل الازدراء: «ادخل وسوف تعطى كل ما تشاء». وانغلق باب الدكان عليهما ولم يسعني سماع شيء من بعد. وكنت قد ضيعت الدبور وما كنت أعلم إن كان الحشرة المناسبة لزهرة الأوركيدا ولكني ما عدت أشك، فيما يخص حشرة شديدة الندرة وزهرة سجينة، بإمكان اقترانهما بأعجوبة، في حين أن السيد «دو شارلوس»، (والأمر محض تشبيه للمصادفات التي من فعل العناية الإلهية، أية كانت، ودون أقل ادعاء علمي بتقريب بعض قوانين علم النبات مما يسمونه أحياناً وبئست التسمية اللواطة)، وماكان يرتاد منذ سنوات هذا المنزل إلا في ساعات لا يكون فيها «جوبيان» هناك. كان قد التقى، بمصادفة وعكة ألمت بالسيدة «دوفيلباريزيس»، صانع الصداري ومعه الحظّ السعيد الذي يدخره لأناس

من صنف البارون أحد هؤلاء الأفراد الذين يمكن أن يكونوا أوفر شباباً إلى ما لا حدود من «جوبيان» وأكثر جمالاً، الرجل المقدر سلفاً كيما يحصل هؤلاء على حصتهم من الملذات على هذه الأرض، الرجل الذي لا يحب سوى المسنين.

ما جئت على ذكره هنا على أية حال هو ما كنت لن أدركه إلا بعد بضع دقائق لشدة ما تلتصق بالواقع هذه الخصائص في أن يكون لا مرئياً إلى أن تجرده منها مناسبة ما. لقد كنت في تلك اللحظة على أية حال في أشد الإزعاج لعدم سماعي من بعد حديث صانع الصداري السابق والبارون. ولمحت حينذاك الدكان المعروضة للإيجار والتي يفصلها عن دكان «جوبيان» محض قاطع رقيق جداً. وما كان عليّ لبلوغ المكان سوى معاودة الصعود إلى شقتنا والذهاب إلى المطبخ والانحدار على درج الخدمة إلى الأقبية والمرور فيها من الداخل على كامل عرض الباحة ثم بعد ما أصل في القبو إلى المكان الذي كان تجار الموبيليا يحشر فيه أخشابه منذ بضعة شهور مضت وحيث كان يعتزم «جوبيان» خزن فحمه، صعود الدرجات القليلة التي تفضي إلى داخل الدكان. وهكذا أُتمّ قطع كامل طريقي غير مكشوف ولا يراني أحد. كانت تلك الوسيلة الأوفر حذراً ولم تكن تلك التي تبنّيتها بل سرت بمحاذاة الجدران ودرت في الهواء الطلق حول الباحة أجهد ألاّ يراني أحد. وإن لم يقع ذلك فظنّي أنّي أدين بالأمر للمصادفة أكثر منه لتعقّلي. وإنّي أرى ثلاثة أسباب ممكنة، على افتراض أن ثمة سبباً، لاتخاذي قراراً متهوّراً إلى هذا الحدّ حين كان السير في القبو بمثل ذاك الأمان. نفاد صبري أولاً، وربما بعد ذلك تذكّر غائم للمشهد في «مونجوفان». وأنا أختبئ أمام نافذة الآنسة «فانتوي». والواقع أن الأمور التي شهدتها من هذا القبيل حملت دائماً في إخراجها الطابع الأكثر تهوّراً والأقل حقيقة، كما لو انبغى أن لا تكافئ مثل هذه الإفشاءات سوى فعلة مليئة بالمخاطر مع أنّها تجري في جزء منها في الخفاء. وأخيراً أكاد لا أجرؤ على الإقرار بالسبب الثالث الذي كان في اعتقادي التام حاسماً على نحو لا شعوريّ، وذلك من جرّاء طابعه الصبيانيّ. فمنذ أن تابعت بكثير من التفصيل حرب «البوير»، كيما أقتفي آثار مبادئ «سان لو» العسكريّة ـ وأشهد كذبها ـ رأيتني مرغماً على إعادة قراءة قصص قديمة عن الاكتشافات والرحلات. وقد شُغفت بتلك القصص فكنت أطبقها في الحياة العاديّة كي أبعث في نفسي مقداراً أكبر من الشجاعة. فحينما أرغمتني بعض النوبات على المكوث عدّة أيام وعدّة ليال وقد حرمت لا النوم فحسب بل الاستلقاء والشراب والطعام وحين يبلغ الإنهاك والعذاب مبلغاً أتصوّر معه أني لن أتخطّاهما في يوم، حينذاك كنت أفكر بذاك المسافر الملقى على رمل الشاطئ وقد سمّمته الأعشاب الضارّة، وأرجفته الحمىّ في ثيابه التي بلّلها ماء البحر، والذي كان يحسّ مع ذلك أنه تحسن بعد انقضاء يومين فيعاود المسير على غير هدى باحثاً عن سكان أيّ سكان وربّما كانوا من آكلي لحوم البشر. كان مثالهم يشدّ من عزائمي ويردّ لي الأمل فأخجل أن ألمّت بي ساعة تخاذل. وإذ أفكّر بالبوير الذين ما كانوا يخشون، والجيوش الإنكليزية في مواجهتهم، أن يعرّضوا أنفسهم حينما ينبغي لهم أن يجتازوا أجزاء من الأرض المكشوفة قبل بلوغ دغل من الشجر، كنت أفكر قائلاً: «ما أحلى أن أكون رعديداً أكثر منهم حينما مسرح العمليات مجرّد باحتنا وحينما السيف الوحيد الذي يفترض أن أخشاه، أنا الذي اتفق لي منذ فترة قريبة عدّة مبارزات دون أن ينتابني خوف بسبب قضية «دريفوس»، هو عيون الجيران ولديهم اهتمامات غير النظر في الباحة».

ولكن حين أصبحتُ في الدكّان، وأنا أتفادى إحداث أيّة فرقعة في الأرضيّة الخشبيّة إذ تبيّنت أن أضعف ضجّة في دكّان «جوبيان» كانت تسمع في دكّاني، فكّرت كم كان «جوبيان» والسيد «دوشارلوس» قليلي الحذر وكم كان الحظّ إلى جانبهما.

وما كنت أجرؤ على الحركة. لقد سبق بالتأكيد أن نقل سائس آل «غيرمانت»، مستغلاً دونما شكّ غيابهم، إلى الدكّان التي أقف فيها سلّماً رُكِنَ حتىّ ذاك في المرآب. ولو ارتقيته لأمكنني أن أفتح الكوّة وأسمع كما لو كنت عند «جوبيان» بعينه. ولكنّي كنت أخشى أن تصدر عنيّ ضجّة. وكان ذلك غير مجد بأيّ حال، فلم يقع عليّ حتىّ أن آسف لوصولي بعد بضع دقائق إلى دكّاني. فإني أفترض، حسبما سمعت بادئ الوقت في دكّان «جوبيان» وكان مجرّد أصوات مغمغمة، أن القليل من الكلمات جرى النطق بها. صحيح أنّ هذه الأصوات بلغت من العنف مبلغاً ربّما أمكنني الظنّ معه، لو لم تكن استعيدَتْ على الدوام في خانة الجواب بأنّة موازية، أن شخصاً كان يذبح آخر في جانبي وأن القاتل والضحيّة التي بعثَتْ حيّة كانا يستحمان بعد ذلك ليمحوا آثار الجريمة. وخلصتُ فيما بعد إلى أن ثمّة أمراً بمثل صخب العذاب هو اللذّة ولا سيّما إن انضافت إليها ــ في غياب الخوف من مجيء الأطفال، والأمر غير وارد هنا على الرغم من مثال «الأسطورة الذهبيّة» ــ اهتمامات مباشرة بالنظافة. وأخيراً، وبعد انقضاء نصف ساعة تقريباً (كنت في أثنائها قد ارتقيت سلّمي أختلس الخطى كي أنظر عبر الكوّة التي لم أفتحها)، بوشرَ بالحديث. كان «جوبيان» يرفض بقوّة المال الذي يبتغي السيّد «دوشارلوس» أن يعطيه إيّاه.

ثمّ خطا السيّد «دوشارلوس» خطوة خارج الدكّان. «لمَ ذقنك محلوق على هذه الشاكلة، يقول للبارون بلهجة مغناجة، فما أجملها اللحية الجميلة!» فأجاب البارون: «تفاً له! باللقرف». وكان لايزال يتباطأ على عتبة الباب ويسأل «جوبيان» معلومات حول الحيّ. «تراك لا تعلم شيئاً عن بائع الكستناء في الحيّ، لا إلى اليسار، فما أشنعه، بل في الجانب الزوجيّ، عتريس ضخم أسود تماماً؟ والصيدلاني في الجهة المقابلة لديه درّاج لطيف جدّاً يحمل أدويته». وليس من شكّ أن «جوبيان» استاء من تلك الأسئلة، فقد أجاب وهو ينتصب بامتعاض امرأة مغناج مخدوعة: «يخيّل إليّ أنّك تحمل فؤاداً متقلّباً». ولابدّ أن هذا العتاب الذي أُلقي بلهجة وجعى باردة متكلفة أثّر في السيّد «دوشارلوس» الذي وجّه إلى «جوبيان» كيما يغطّي على الانطباع السيىء الذي خلّفه فضوله، ولكنّما فعل بصوت أخفض من أن أميّز تماماً الكلمات، رجاءً ربّما استلزم دون شكّ أن يطيلا إقامتهما في الدكّان وأثّر إلى حد في صانع الصداري كيما يزيل ألمه، إذ تأمّل وجه البارون السمين المحتقن تحت شعره المتشيّب تأمل غارق في السعادة أقدم منذ قليل على دغدغة اعتزازه بنفسه، وقال «جوبيان»، وقد عزم على منح السيّد «دوشارلوس» ما سبق أن سأله إيّاه منذ قليل، قال للبارون، بعد ملاحظات خلو من الكياسة من مثل: «ما أضخمها أداة تحملها!» بهيئة بائسة بادية التأثّر متفوّقة ممتنّة: «أجل، هيّا، أيّها الصبيّ الكبير!».

وعاد السيد «دوشارلوس» يقول بإصرار: «إن كنت أعود إلى مسألة سائق الحافلة الكهربائية فلأن ذلك، بصرف النظر عن كلّ شيء، يمكن أن يأتي ببعض الفائدة بشأن العودة. فإنّه يتفق لي، شأن الخليفة الذي كان يطوف في بغداد ويظنونّه مجرّد تاجر، أن أتنازل للحاق بشخصيّة غريبة فتيّة أشاع قدّها السرور في نفسي».

وقمت هنا بالملاحظة عينها التي سبق أن وجهتها حول «بيرغوت». فلو وقع عليه في يوم أن يقدم إجابة أمام المحكمة لما استخدم جملاً من شأنها إقناع القضاة، بل ينتقي من تلك الجمل «البيرغوتيّة» التي يوحي بها إليه مزاجه الأدبي الخاصّ بصورة طبيعيّة وتجعله يصادف متعة في استخدامها. كان السيّد «دوشارلوس» على نحو مماثل يستخدم مع صانع الصداري اللغة عينها التي لعلّه لجأ إليها مع أرباب مجتمع من عصبته، بل يبالغ في المُسْتَغْرَب من عاداتها إمّا لأن الوجل الذي يجهد في مكافحته كان يدفعه إلى عجرفة مفرطة، وإمّا لأنّه يرغمه، إذ يحول دون أن يتمالك نفسه (لأنك أكثر اضطراباً في حضرة من ليس من وسطك)، على الكشف عن طبيعته وتعريتها، وكانت بالحقيقة مستكبرة وعلى شيء من الجنون، حسبما تقول السيدة «دوغيرمانت». وأردف يقول: «وكي لا أفقد أثرها أقفز على غرار أستاذ صغير، على غرار طبيب فتيّ وسيم، في ذات الحافلة التي تستقلّها الشخصية اللطيفة التي لا نتحدّث عنها بصيغة التأنيث إلا إتبّاعاً للقاعدة (مثلما نقول في حديثنا إلى أحد الملوك[1]: هل تشعر جلالتكم أنّها بصحة جيدة؟). فإن بدّلَتْ الحافلة أخذتُ، ربّما مع جرائيم الطاعون، هذا الشيء الذي لا يصدّق والمدعوّ «تبديلاً»، أي رقماً ليس على الدوام الرقم ١ مع أنه يُسلَّم لي أنا! وهكذا أبدّل «العربة» ثلاث أو حتّى أربع مرات. وأراني أحياناً أرسو في الحادية عشرة مساء في محطة «أورليان»، ولابدّ من العودة! ولو اقتصر الأمر على محطة «أورليان» فحسب! ولكنّي مضيت مرّة، على سبيل المثال، إذ لم أفلح في مباشرة الحديث قبل ذلك، حتىّ «أوريان» نفسها في واحدة من تلك العربات الشنيعة حيث المنظر المتوافر، بين مثلثات من القطع المشغولة تسمّى «الشبك»، قوامه صور الروائع المعمارية الرئيسيّة العائدة لشبكة الخطوط. ولم يكن ثمة سوى مكان واحد خال، وكان قبالتي بمثابة أثر تاريخيّ «منظر» لكاتدرائيّة «أورليان»، وهي الأقبح في فرنسه وتورثني في النظر إليها على هذا النحو رغماً عنّي ما يماثل إرهاقي لو أرغمت على تثبيت أبراجها داخل الكرة الزجاجيّة التي لمسكات الرِّيَش البصرية تلك التي تورثك رمداً. ونزلت في محلّة «أوبريه» في الوقت الذي نزلت صغيرتي اللطيفة التي كانت أسرتها، من أسف، تنتظرها على الرصيف (في حين كنت أفترض فيها جميع العيوب باستثناء أن يكون لها أسرة)! وكان عزائي الوحيد، بانتظار القطار الذي سيعيدني إلى باريس، منزل «ديانا» في «بواتييه». وعبثاً فَتَنَ فيما مضى لبّ أحد أسلافي الملكيّين فإنّني كنت فضلت جمالاً أوفر حياة. ولذلك وبغية تفادي ضجر تلك الرجعات وحيداً تراني راغباً في معرفة نادل في عربات النوم، وسائق حافلة». وختم البارون حديثة قائلاً: «لا يصدمك كلامي على أيّ حال، فكل ذلك مسألة طريقة. فإني فيما يخصّ شبان العالم الراقي مثلاً لا أرغب في أيّ امتلاك جسدي ولكنّي لا أطمئن نفساً إلا بعد ما أكون لمستهم، ولست أعني مادياً بل أعني لمس الوتر الحسّاس لديهم. فحالما لا يكفّ شاب عن الكتابة إليّ، عوضاً عن ترك رسائلي دون جواب، ويصبح بتصرّفي أدبياً حتى تهدأ نفسي أو ربّما هدأتْ على الأقلّ لو لم يداخلني بعد قليل همٌّ آخَرَ غيره. في الأمر شيء من الغرابة، أليس كذلك؟ وإذ نحن بصدد شبان المجتمع الراقي، ألست تعرف أحداً من بين الذين يجيئون إلى هنا؟» ـ «لا يا صغيري. آه بلى، أسمر فارع الطول، بنظّارة أحاديّة، دائم الضحك والتلفّت». ـ «لست أرى من تعني». وأكمل «جوبيان» الصورة وما كان السيّد «دوشارلوس» يستطيع أن يفلح في العثور على من كان يقصد إذ كان يجهل أنّ صانع الصداري السابق من نفر هم أكثر ممّا نظنّ، لا يتذكّرون لون شعر الناس الذين يعرفونهم معرفة هيّنة. أمّا أنا الذي كان يعرف عاهة

(١) استبدلنا بالأمراء (الواردة في النصّ) الملوك ليمكننا إحلال «الجلالة» محلّ «السموّ» (مذكّر).

«جوبيان» تلك واستبدل بالأسمر الأشقر فقد بدا لي الرسم ينطبق تماما على الدوق «دوشاتيلّرو». وعاد البارون يقول: «كما أعود إلى الشباب الذين ليسوا من الشعب، فإني في هذه الفترة يدوّخني صبيّ غريب، بورجوازي صغير ذكيّ يبدي إزائي قلّة تهذيب باهظة. وليس يملك أي تصوّر عن الشخصيّة الهائلة التي أمثلها والجرثومة الجهريّة التي يمثلها . وما همّ على أيّة حال، فبوسع هذا الحمار الصغير أن ينهق ما وسعه النهيق أمام سموّ ثوب المطران الذي يلفّني». وصاح «جوبيان»: «مطران!» وما كان فهم شيئاً في الجمل الأخيرة التي نطق بها السيّد «دوشارلوس» ولكنّ كلمة «مطران» أذهلته فقال: «ولكنّ ذلك لا يتماشى والدين». وأجاب السيّد «دوشارلوس»: «في أسرتي ثلاثة باباوات ولي الحقّ أن ألف نفسي بالأحمر بسبب لقب كردينالي»(١)، إذ أنّ ابنة أخ الكردينال جدّي لعمّي قد حملت لجدّي لقب الدوقيّة الذي استبدل. وأرى أنّ الصور المجازيّة تخلّيك أصم وتاريخ فرنسه لا مبالياً. وأضاف قوله ربّما بمثابة تحذير أكثر منه بمثابة ختام: «هذا الجاذب الذي يمارس عليّ الشبّان الذين يتهربون منّي بداعي الخشية بالطبع، فالاحترام وحده هو الذي يطبق أفواههم عن أن يصيحوا بي أنّهم يحبّونني، إنما يقتضيهم مرتبة اجتماعية عالية. ثم إن لا مبالاتهم المتكلّفة يمكن أن ينجم عنها على الرغم من ذلك النتيجة العكسية تماماً. فإن تطاولتُ على غباء أثارت اشمئزازي. وكيما أضرب مثالاً على ذلك في طبقة تكون أقرب إلى المألوف لديك: حينما جرى إصلاح فندقي مضيت، تفادياً لإيجاد غيارى بين سائر الدوقات اللواتي كنّ يتنازعن شرف أن يسعهنّ القول إنّهن استضفنني، لقضاء عدّة أيّام في «الفندق» على حدّ ما يقولون. وكان أحد مستخدمي الطابق معروفاً عندي فَدَلّلْتُه على صبيّ فندق غريب كان يغلق أبواب العربات وظلّ يقاوم عروضي. وفي النهاية عيل صبري فقدّمت له، كيما أبرهن أنّي طاهر المقاصد، مبلغاً كبيراً إلى حدّ يثير السخرية لمجرّد أن يصعد ويكلّمني خمس دقائق في غرفتي. وانتظرته دون جدوى. حينئذ بلغ بي الاشمئزاز منه مبلغاً صرت أخرج معه من باب الخدم كي لا ألمح وجه هذا الصغير اللعين الغريب الأطوار. وعلمت مذذاك أنّه لم يستلم في يوم أيّاً من رسائلي التي احتجزتْ أولاها على يد المستخدم في الطابق وكان حسوداً، والثانية على يد البواب النهاري وكان فاضلاً، والثالثة على يد البواب الليلي الذي كان يحبّ الخادم الفتيّ ويضاجعه ساعة يطلع القمر. ولكنّ ذلك لم يقلّل من دوام اشمئزازي، وحتّى لو جاؤوني بالخادم كمجرّد طريدة صيد لدفعته عنّي باقياء. ولكنّما المصيبة أنّنا تكلّمنا عن أمور جديّة والآن انتهى ما بيننا بخصوص ما كنت أؤمّل. على أنّك تستطيع أن تؤدّي لي خدمات جلّى وتتوسّط لي. ولكن لا، تلك الفكرة وحدها تردّ لي بعض المرح وأحسّ أنْ لم ينته شيء».

لقد وقع منذ بداية هذا المشهد انقلاب داخل السيّد «دوشارلوس» بالنسبة إلى عينيّ اللتين سقطت الغشاوة عنهما، انقلاب تامّ ومباشر كما لو ضربته عصا سحريّة. ولم أكن أبصرت حتى ذاك لأنني لم أدرك من قبل، إن الرذيلة (هكذا يقولون لتيسير الكلام)، رذيلة كلّ منا إنّما ترافقه على غرار ذلك الجنيّ الذي كان خفيّا على الناس ماداموا يجهلون وجوده. إن الطيبة والمكر والاسم والعلاقات المجتمعية لا تكشف عن ذاتها والمرء يحملها مخبّأة. و«أوليسيوس» نفسه ما كان يتعرّف «أثينا» بادئ الأمر. ولكنّ الآلهة تدركهم مباشرة، والشبه بمثل السرعة شبهه وكذلك كان حال السيّد «دوشارلوس» و«جوبيان». لقد وجدتني حتىّ الآن قبالة

(١) كردينال : من المراتب الكنسية العليا.

السيد «دوشارلوس» على غرار رجل شارد الفكر يصر أمام امرأة حامل لم يلاحظ قدّها المتثاقل، فيما تردّد أمامه مبتسمة: «أجل إني متعبة بعض الشيء في هذه الفترة»، يصر على سؤالها بصورة مفضوحة: «وما الذي أصابك؟» وليقل له أحدهم: «إنّها حبلى»، وفي الحال يلمح البطن ولن يصر من بعد سواه. وإنّما العقل الذي يفتح العينين، ويمنحنا الخطأ الذي زال، حاسّة إضافية.

ليس على الأشخاص الذين لا يحبّون الرجوع، بمثابة أمثلة على هذا القانون، إلى معارفهم من أمثال السادة «دوشارلوس» الذين ظلّوا فترة طويلة لا يرتابون بأمرهم إلى اليوم الذي جاءت تبرز فيه على الصفحة المستوية للفرد الشبيه بالآخرين، وقد خطت بحبر سريّ حتّى ذاك، الحروف التي تؤلف المفردة العزيزة على قلوب قدماء اليونانييّن، ليس عليهم، كي يوقنوا أن العالم المحيط بهم إنّما يتجلّى لهم بادئ الأمر عارياً وخلواً من ألف زينة يبرزها لأكثرهم اطلاعاً، إلا أن يتذكّروا كم مرة اتّفق لهم في بحر الحياة أن يكونوا على شفا ارتكاب هفوة. فليس شيء على الوجه الخلو من الميّزات لهذا الرجل أو ذاك يمكن أن يحملهم على افتراض أنّه بالضبط أخ أو خطيب أو عشيق امرأة يزمعون أن يقولوا عنها: «أية بقرة هذه!» ولكنّ ثمّة لحسن الحظ كلمة يهمس بها جار لهم توقف اللفظة القاتلة على شفاههم. وفي الحال تبرز، وكأنّها «منَا، تَقلْ، فَرَس»[1]، هذه الكلمات: إنّه خطيب أو شقيق أو عشيق المرأة التي لا يليق أن تدعى أمامه: «بقرة». هذا المفهوم الجديد وحده سوف يؤدّي إلى اعادة تجميع كامل، إلى سَحْب أو تقديم قسم الأفكار التي كنّا نحملها عن باقي الأسرة، وقد اكتملت مذذاك. وعبثاً كان يقترن كائن آخر بالسيّد «دوشارلوس» يميّزه عن الرجال الآخرين، مثلما الحصان في القنطور[2]، وعبثا يتّحد هذا الكائن بالبارون فإني لم ألمحه في يوم. أما الآن فقد اتخذ المجرّد شكلاً مادياً، وفقد الكائن في الحال بعد ما أُدْركت قدرته على البقاء خفيّاً، وأضحت استحالة السيد «دوشارلوس» شخصاً جديداً تامّةً إلى حد أصبحت معه لا وجوه للتعارض في وجهه وصوته، بل تقلّبات علاقاته بي إذ استرجعها في صعودها وهبوطها، وكلّ ما بدا حتىّ ذاك مفككاً في خاطري، أصبحت قريبة الإدراك وبدت بديهية مثل جملة لا تحمل أي معنى مادامت مفكّكة وانتظمت حروفها كيفما اتفق، ولكنها تعبّر إن عادت حروفها فوضعت ضمن الترتيب اللازم عن فكرة لن تستطيع نسيانها من بعد.

ثم إني أخذت أدرك الآن لماذا أمكنني أن أجد أن السيّد «دوشارلوس» كان يبدو امرأة حينما شاهدته خارجا من منزل السيّدة «دوفيلباريزيس»: فلقد كان كذلك! لقد كان من صنف هذه الكائنات الأقلّ تناقضاً مما تبدو عليه والتى اتخذت مثلا أعلى رجوليّا لأن طبعها بالضبط انثوي وهي في الحياة شبيهة بالرجال الآخرين في الظاهر فقط؛ فحيثما يحمل كل واحد طيفاً محفوراً على صفحة الأحداق وقد خطّ في تلك العينين اللتين يبصر من خلالهما كلّ شئ في الكون، فالطيف فيما يخصّهم ليس لحورية بل لفتى جميل. ذلك الصنف الذى تثقله اللعنة وينبغي له أن يعيش في الكذب والأيامين الكاذبة إذ هو يعلم أنّ ما يشتهي وما يؤلّف في نظر أيّ مخلوق أفضل مطارح عذوبة العيش إنما يقع تحت طائلة القانون وهو مخزٍ لا يمكن الجهر به؛ والذي

(١) كلمات ثلاث وردت في العهد القديم، سفر دانيال (٢٥/٥) : منَا = قَاسِ، تَقَلْ = وزَن و«فَرس» وتعني في الوقت نفسه «قَسَمَ» كما تذكّر باسم الفرس وتفسير الكلام : منا = أحصى الله أيام ملكك وأنهارها، وتقَل = وزنت في الميزان فوجدت ناقصاً، وفرس = قسمت مملكتك وأسلمت إلى ميديا الفرس.

(٢) كائن خرافي نصفه العلوي رجل والسفلي حصان.

ينبغي له أن ينكر إلهه لأنّه يقع عليهم، وإن كانوا مسيحيّين، حينما يمثلون أمام المحكمة بصفة متّهمين أن ينكروا أمام المسيح وباسمه بمثابة افتراء عليهم ما يؤلّف حياتهم ذاتها؛ هم الأبناء ولا والدة لهم، الذين يضطرّون أن يكذبوا عليها حتىّ ساعة يطبقون عينيها؛ الأصدقاء ولا صداقات على الرغم من جميع تلك التي توحي بها فتنتهم، وكثيراً ما يقرّ بها، والتي قد يحس بها فؤادهم وهو في الغالب على طيبة. ولكن أيمكن أن ندعو بالصداقات تلك العلاقات التي لا تنمو إلا بفضل كذبة والتي ربّما عملت أول اندفاعة ثقة وصدق قد يخطر لهم أن يبدوها إلى استبعادهم باشمئزاز ما لم تكن صلتهم بأحد العقول النزيهة، بل المتعاطفة، ولكنّها حينذاك تستخلص، وقد ضلّلتها بشأنهم سيكولوجيا اصطُلحَ عليها، من الرذيلة المُقَر بها الودادَ الأكثر بعدا عنها مثلما يفترض بعض القضاة ويعذرون بسهولة أكبر القتل لدى الشاذّين والخيانة لدى اليهود لأسباب مستخلصة من الخطيئة الأصليّة والقدريّة العرقية؟ وأخيرا ـ على الأقل طبقا للنظرية الأولى التي اختططتها عنه حينذاك، وسنراها تتبدّل فيما بعد، ولعلّ هذا الأمر كان أغضبهم فيها فوق كلّ شيء لو لم يحْجُبْ ذلك التناقض عن عيونهم من جرّاء الوهم نفسه الذي كان يجعلهم يبصرون ويعيشون ـ العشّاق الذين سدّ في وجههم تقريباً احتمال هذا الحبّ الذى يوليهم الأملُ فيه قوةً لتحمّل هذا القدر من المخاطر وأسباب العزلة بما أنّهم بالضبط مغرمون برجل ليس فيه من المرأة شيء، رجلٍ غير شاذ ولا يستطيع بالتالي أن يحبّهم، ممّا يجعل رغبتهم غير ممكنة الأشباع في يوم لو لم يسلِّمْ إليهم المال رجالاً حقيقيّين ولو لم يجعلهم الخيال في نهاية المطاف يضعون موضع رجال حقيقيّين الشاذّين الذين وهبوهم ذواتهم. دونما شرف إلاّ العابر منه، ودون حريّة إلا المؤقّت منها إلى حين اكتشاف الجريمة، ودون مركز إلاّ ما كان منه غير ثابت، مثلما هو أمر الشاعر، وكان البارحة موضع حفاوة في جميع منتديات لندن وتهليل في جميع مسارحها وفي الغد يُطرد من جميع النُزل المفروشة دون أن يسعه ايجاد وسادة يسند إليها رأسه، ويدير حجر الرحى مثل شمشون، ومثله يقول:

«سوف يموت الجنسان كلّ على حدة.»

بل يُستَبعَدُونْ، فيما عدا أيّام التعاسة الكبرى التي يتألّب فيها العدد الأكبر حول الضحيّة، مثلما اليهود حول «دريفوس»، من عطف ـ وأحياناً من مجتمع ـ أشباههم الذين يبعثون فيهم القرف لرؤيتهم ما هم عليه وقد رسِم في مرآة تبرز، إذ هي لا تحسّن صورتهم عن بعد، جميع العاهات التي لم يشاؤوا من قبل ملاحظتها في ذواتهم، وتجعلهم يدركون أن ما كانوا يدعونه حبّهم (والذي ألحقوا به، بالتلاعب بالكلمة، يدفعهم إلى ذلك الحس الاجتماعي، كلّ ما أمكن أن يضيفه إلى الحبّ الشعرُ والرسمُ والموسيقى والفروسيّة والنسك) إنّما ينتج لا عن مثل أعلى للجمال اتخذوه بل عن مرض لا شفاء له؛ مثلهم مثل اليهود أيضاً (باستثناء بعض منهم لا يودّون الاختلاط إلا ببني جنسهم ولاينفكّون يرددون الكلمات الشعائريّة والمزحات الشائعة) يتهرّب بعضهم من بعض ويسعون إلى من كانوا الأكثر مناهضة لهم ولا يريدونهم، يصفحون عن صدودهم وينتشون بمجاملاتهم؛ بل هم يجمعهم إلى أمثالهم النّبْذُ الذي يطالهم والخزي الذي تردّوا فيه، وقد بلغ بهم في النهاية، من جرّاء اضطهاد شبيه بالذي أصاب إسرائيل، أن يتخذوا المزايا الجسميّة والأخلاقية التي تطبع أحد الأجناس، فأحياناً على جمال والأغلب على بشاعة، ويلقون (على الرغم من جميع صنوف السخرية التي يصبها ذاك الذي يبدو في الظاهر نسبياً، وهو أكثر اختلاطاً بالجنس المعادي وأوفر اندماجا به، الأقل شذوذاً على

الذى لبث أكثر شذوذاً) مفترجاً في مخالطة أشباههم، بل سنداً في حياتهم إلى حدّ أنّهم، فيما ينكرون أنّهم يؤلفون جنساً (يشكّل اسمه أعظم شتيمة)، يفضحون بطيبة خاطر أولئك الذين يفلحون في إخفاء انتمائهم إليه كي يجدوا عذرا لأنفسهم أكثر منهم لإيذائهم، وهم لا يكرهون ذلك، ويمضون يبحثون، مثلما الطبيب عن الزائدة الدودية، عن الشذوذ حتىّ في بطون التاريخ ويغبطهم أن يذكّروا بأن سقراط كان واحدا منهم كما يقول الاسرائيليون[1]، إن يسوع كان يهودياً دون أن يفكّروا أن لم يكن شاذّون حين كان الشذوذ هو القاعدة ولا معادون للمسيحيّين قبل المسيح وأن العار وحده صانع الجريمة لأنّه لم يبْقِ إلا على الذين تمرّدوا على أيّ كرازة وأي مثال وأي قصاص بموجب استعداد فطري خاص إلى حد أنه يثير اشمئزاز الرجال الآخرين (مع أنّه قد يترافق وصفات أخلاقية سامية) أكثر مما تفعل بعض المعايب الأخرى التي تناقضه كالسرقة والقسوة وسوء النيّة التي إذ تدركها عامّة الناس بصورة أفضل فإنما تعذرها بالتالي أكثر؛ ويشكلون جمعية ماسونية أكثر اتساعا وأوفر نجاعة وأقل مدعاة للشبهة من ماسونية المحافل لأنها قائمة على تماه في الأذواق والحاجات والعادات والأخطار والتدرّب والمعرفة والاتجار والمصطلحات، وتتبيّن فيها أن الأعضاء أنفسهم الذين يتمنون أن لا يعرف أحدهم الآخر يتعرّف بعضهم بعض في الحال بفضل علامات طبيعية أو اصطلاحية، لا إرادية أو مقصودة، تكشف للمتسوّل أحد أشباهه في السيّد الكبير الذي يغلق له باب عربته، وللوالد في خطيب ابنته، ولمن كان ابتغى الشفاء والاعتراف وكان عليه أن يدافع عن نفسه في الطبيب والكاهن والمحامي الذي مضى للقائه؛ وكلهم مضطرّون أن يصونوا سرهم ولكنهم يحوزون نصيبهم من سر لدى الآخرين لا يرتاب بوجوده باقي البشر وبه تبدو روايات المغامرات الأكثر بعداً عن الواقع حقيقية في نظرهم؛ ذلك لأن السفير، في هذه الحياة الخياليّة المناقضة لزمانها، صديق الشقي الكادح؛ والأمير، ببعض الحرية في المسلك التي توليه التربية الارستقراطية والتي لعلّها لا تتوافر لبورجوازي صغير راعش، يمضي عند مغادرته منزل الدوقة للتداول مع قاطع الطريق؛ هذا الجزء الذي تشجبه الجماعة الإنسانية، ولكنه جزء هام يرتاب بأمره حيث لا نجده وينتشر وقحاً بمنجى عن العقاب حيث لا يستشف؛ لديهم منتسبون أنّى كان، في صفوف الشعب والجيش، في المعبد والسجن وفوق العرش، ويعيشون في النهاية، العدد الكبير منهم على الأقلّ، في إطار الألفة المهدهدة الخطرة بين رجال العرق الآخر يستفزهم ويلهو معهم في التحدّث عن عيبه كما لو لم يكن منه، واللعبة يسهّلها غباوة الآخرين أو زيفهم لعبة يمكن أن تطول سنوات إلى يوم الفضيحة الذي يفترس فيه هؤلاء المروّضون، وقد أرغموا حتىّ ذاك على إخفاء حياتهم وعلى الإشاحة بأبصارهم عما يؤدّون التحديق إليه وعلى التحديق إلى ما يودون صرف الأنظار عنه، وعلى تغيير جنس الكثير من الصفات في جملة مفرداتهم، وذلك التزام اجتماعي طفيف إذا ما قوبل بالالتزام الداخلي الذي يفرضه عليهم عيبهم، أو ما يسمّى كذلك مجازاً، لا تجاه الآخرين من بعد بل تجاه أنفسهم وعلى نحو لا يبدو لهم معه عيباً. ولكن بعضهم، وهم عمليّون أكثر وأكثر استعجالاً ولا يملكون الوقت للتسوّق والتخلّي عن تبسيط الحياة وكسب الوقت الذي يمكن أن ينجم عن التعاون، جعلوا لأنفسهم مجتمعَين يتألّف الثاني حصراً من أشباه لهم.

ذلك مدهش لدى من كانوا فقراء، جاؤوا من الأرياف ولا معارف لديهم ولا شيء سوى الطموح في أن يكون أحدهم طبيباً أو محامياً مشهوراً، يملكون فكراً لايزال خلواً من الآراء وجسماً عديم العادات ينوون

(١) بالمعنى الدينيّ القديم.

تزويقه بسرعة كما ربّما يشترون أثاثاً لغرفتهم الصغيرة في الحي اللاتيني حسبما يلاحظون ويقلّدون ما كان لدى الذين «وصلوا» في المهنة المفيدة والجدية التي يتمنون الالتحاق بها وبلوغ الشهرة فيها. وربّما بدا لدى هؤلاء أن ميلهم الخاص الذي ورثوه دون علم منهم كمثل الاستعداد الفطري للرسم والموسيقى والعمى، هو التفرّد الوحيد الراسخ المستبدّ ـ والذي يضطرّهم في بعض العشيّات إلى تفويت اجتماع أو آخر مفيد لحياتهم المهنيّة بأناس يتبنون في كل ما تبقى طريقتهم في التحدث والتفكير وفي ما يلبسون ويعتمرون. وسرعان ما تراهم يكتشفون في حيّهم، حيث لا يخالطون، لولا ذاك، سوى زملاء أو معلّمين أو مواطناً لهم «أدرك النجاح» وشملهم بعطفه، شباناً أخرين يقربهم منهم الميل نفسه مثلما هي الحال في مدينة صغيرة يرتبط فيها بعرى الصداقة أستاذ الأول الثانوي والكاتب العدل وكلاهما يحبّان موسيقى الحجرة وأشياء العاج من العصر الوسيط؛ وهم إذ يطبّقون على موضوع تسليتهم الغريزة النفعية نفسها والروح المهنية نفسها التي تقود خطاهم في حياتهم المهنية يعودون فيلتقونهم في جلسات لا يقبل فيها أي غريب غير مطلع أكثر منه في الجلسات التي تجمع هواة مساعط قديمة ولوحات يابانية مطبوعة وأزهار نادرة وحيث يسود، من جرّاء متعة التعلّم وجدوى المبادلات وخشية المنافسات، كما هي الحال في بورصة للطوابع البريدية، التفاهم الوثيق بين الاختصاصيين والمنافسات الشرسة بين أصحاب المجموعات في الآن نفسه. وليس يدري أحد على أيّ حال في المقهى الذي يجلسون فيه ما عسى يكون هذا الاجتماع، وإن كان اجتماع جمعيّة صيد أسماك أو أمناء تحرير أو أبناء مقاطعة «الآندر» لشدّة ما كان ملبسهم لائقاً وهيئتهم متحفّظة جافية ولشدة ما لا يجرؤون النظر إلا اختلاسا إلى الشبان الذين يماشون عصرهم، الفتيان «الأسود» الذين يثيرون على بعد بضعة أمتار أعظم الصخب حول عشيقاتهم، وسوف يعلم الذين يتأملونهم باعجاب دون أن يجرؤوا على رفع عيونهم، ولكن عشرين عاما بعد ذلك، وحينما يكون بعضهم على وشك دخول أحد المجامع العلميّة والآخرون رجال منتديات مسنّين، سوف يعلمون أن الأكثر فتنة من بينهم، وهو الآن «شارلوس» بدين متشيّب، كان بالحقيقة شبيها بهم ولكن في غير مكان، في عالم آخر، تحيط بهم رموز خارجية أخرى وتحكمهم علامات غريبة ضلّلهم الفارق فيها. ولكنّ التجمعات أكثر أو أقل تقدما، ومثلما يختلف «اتحاد أحزاب اليسار» عن «الاتحاد الاشتراكي» وجمعيّة موسيقى «مندلسون» عن «مدرسة المغنيّن»، ثمة في بعض العشيات متطرفون على طاولة أخرى يدعون لإسوارة أن تبرز تحت سوار القميص وأحيانا لعقد في فتحة ياقتهم ويرغمون بنظراتهم الملحاحة وقهقهاتهم وضحكاتهم ومداعباتهم فيما بينهم زمرة من طلبة الثانويات على الهرب أسرع ما يكون الهرب، ويقوم على خدمتهم بتأدّب يغتلي الغيظ تحته نادل ربما كان يغبطه، شأنه في العشيات التي يقوم فيها على خدمة مناصري «دريفوس»، أن يمضي لاستدعاء الشرطة لو لم تكن له مصلحة في قبض الإكراميّات.

وإنما يقيم الفكر التعارض بين هذه التنظيمات الاحترافية وميل الانعزاليّين ودون أن يحتال للأمر كثيراً بما أنه لا يعدو في ذلك تقليد الانعزاليين أنفسهم الذي يظنون أن ليس ما يختلف عن الرذيلة المنظمة أكثر من هذا الذي يبدو لهم حباً لا يفهمه الآخرون، ولكن بشيء من الحيلة مع ذلك لأن هذه الاصناف المختلفة إنما تقابل على السواء نماذج فيزيولوجية متنوّعة وفترات متعاقبة من تطور مرضي أو اجتماعي فحسب. ذلك لأنه يندر جدا أن لا يُقْبِلَ الانعزاليون في يوم أو في آخر إلى الانصهار حصراً في مثل هذه التنظيمات لمجرّد السأم

أحياناً ولبلوغ الراحة (مثلما ينتهي الأمر بتركيب الهاتف في منزلهم أو باستقبال آل «إيينا» أو بالشراء من مخزن «بوتان» بمن كانوا الأكثر عداء لهذه الأمور). ولا يُحسن استقبالهم فيها بعامة لأن نقص التجربة في حياتهم الطاهرة نسبياً والأشباع عن طريق الأحلام التي يقتصرون عليها قد أبرزا إبرازاً أشد في ذواتهم سمات التخنّث الخاصة تلك التي حاول المحترفون طمسها. ولا بدّ من الإقرار بأن المرأة لدى بعض هؤلاء الوافدين الجدد ليست تتّحد بالرجل داخلياً فحسب ولكنّها ظاهرة بصورة بشعة إذ هم تهزّهم بتشنّج هيستيري ضحكة حادة تُقبّضُ ركبهم وأيديهم وليسوا أكثر شبها بعامة الناس من هؤلاء القردة بعيونهم الحزينة المتعبة وأيديهم اللاقطة الذين يرتدون السموكن وربطة عنق سوداء، حتى إن هؤلاء المنتسبين الجدد إنما يحكم من هم أقل طهارة منهم أن معاشرتهم مجلبة للخطر وقبولهم صعب. ويجري مع ذلك قبولهم ويفيدون إذ ذاك من تلك التسهيلات التي بدّلت بها التجارة والمنشآت الكبرى حياة الأفراد وجعلت في متناول أيديهم سلعاً كانت حتّى ذاك باهظة على مقتنيها بل عسيرة الإيجاد فيما تغرقهم الآن بالفيض الذي لم يفلحوا وحدهم في اكتشافه عبر الجماهير العريضة. ولكن القيود الاجتماعية، على الرغم من هذه المخارج التي لا تحصى، تبقى ثقيلة على بعض منهم من الذين نجدهم على وجه الخصوص في صفوف الذين لم تطلْهم بعد القيود العقلية والذين لايزالون يعتبرون نوع حبّهم أكثر ندرة مما هي حاله. فلندع الآن جانبا أولئك الذين يحتقرون النساء ممن يجعلهم الطابع الاستثنائي في ميلهم يعتقدون بأنهم يسمون عليهن والذين يجعلون من الشذوذ الجنسي ميزة النوابغ العظام والعصور المجيدة وحينما يحاولون حمل الناس على مشاطرتهم ميلهم فإنهم يفعلون أقل بالنسبة إلى من يبدو أنهم يحملون استعدادات مسبقة لذلك مثلما يفعل مدمن المورفين بالنسبة إلى المورفين منهم تجاه من يبدون أهلا له، عن اندفاع للتبشير، مثلما يكرز آخرون بالصهيونية ورفض الخدمة العسكرية والسان سيمونية والنباتية والفوضى. ويبدي بعضهم، إما فاجأتهم في الصباح وهم بعد نيام، سحنة أنثوية رائعة بمقدار ما تبدو العبارة عامة وترمز إلى الجنس بكاملة؛ فإن الشعر بعينه يؤكد ذلك، وانثناءته أنثوية إلى حد كبير، فإن نشرَ تدلى ضفائر على الخد على نحو طبيعي حتى ليُدْهشكَ أن عرفت المرأة الشابة، الفتاة «غالاتيا»[1] التي تستفيق لماماً في لا وعي هذا الجسم الرجولي الذي سجنت فيه، بهذا القدر من البراعة ومن تلقاء ذاتها دون أن تكون علمته من أحد، كيف تفيد من أقل منافذ سجنها وتجد ما كان ضروريا لحياتها. وليس من شك أن الشاب الذي يملك هذا الرأس الرائع لا يقول: «إني امرأة» بل هو إن عاش مع امرأة ـ لأسباب ممكنة كثيرة ـ استطاع أن ينكر أمامها أن يكون امرأة وأن يقسم لها أنه لم يقم قط علاقات مع الرجال. فإما نظرتْ إليه على نحو ما عرضناه منذ قليل وهو يستلقي في سرير بالبيجاما حاسر الذراعين عاري الجيد تحت شعور سوداء، انقلبت البيجاما قميص امرأة والرأس رأس أسبانية حلوة. وتراع العشيقة من هذه المسارّات الموجّهة لناظريها، وهي أكثر حقيقة مما يمكن أن تكون عليه الأقوال وحتى الأفعال ذاتها، والتي لن يفوت الأفعال على كلّ حال، إن لم تكن فعلت، أن تؤكدها، لأن كلّ كائن يسلك درب لذّته، وإن لم يكن هذا الكائن يتجاوز الحد في فسقه فإنه يبحث عنها في الجنس الذي يضاد جنسه. وإنما تبدأ الرذيلة فيما يخص الشاذ لا حينما يقيم علاقات (لأن الكثير الكثير من الأسباب يمكن أن يفرضها)، بل حينما يجد متعة مع النساء. لقد كان الشاب الذي حاولنا

(١) هي حوريّة البحر التي أحبّها «بوليفيموس» ذو العين الواحدة.

وصفه منذ قليل امرأة على نحو بادي الجلاء إلى حد أن النساء اللواتي كن ينظرن إليه ويشتهينه كن محكومات (ما لم يكن ثمة ميل خاص) بذات خيبة اللواتي تخيب ظنهن في مسرحيات شكسبير الهازلة فتاة متنكّرة تتظاهر بأنها فتى. والتضليل متساو والشاذ نفسه يعلمه ويحرز الخيبة التي ستصيب المرأة بعد ما يُنزَعُ اللباس التنكري ويحس إلى أيّ حدّ يمثل الخطأ حول الجنس ينبوعاً من الشعر الطريف. وعبثا على أيّ حال لا يعترف لعشيقته المتطلبة (إن لم تكن «عامورِيّة») قائلا: «إني امرأة»، فبأيّة حيل وأية خفة وبأي عناد نبتة متسلقة تبحث المرأة اللاواعية الظاهرة للعيان في داخله، عن العضو الذكوري! ما عليك إلا أن تنظر إلى هذا الشعر الجعد على الوسادة البيضاء كيما تدرك أن هذا الشاب إن أفلت في المساء من يدي أبويه على الرغم منهما، على الرغم منه، فلن يكون الأمر ليمضي للقاء النساء. بإمكان عشيقته أن تعاقبه وتسجنه إلا أن الرجل المرأة يكون قد وجد في الغد وسيلة للتعلق برجل مثلما تلقي الدودية الأرجوانية بمبارمها حيث توجد فأس ويوجد مشط. فلماذا نُعجَب بلطائف تؤثر فينا في وجه هذا الرجل وبظرف وغياب تكلف في اللطف لا يتفق للرجال مثلهما ويغمنا أن نعلم أن هذا الشاب يبحث عن الملاكمين؟ إنها وجوه مختلفة لحقيقة واحدة. بل إن الجانب الذي يثير اشمئزازنا هو الأكثر تأثيرا فينا لأنه يمثل جهداً رائعاً لاواعياً تبذله الطبيعة: فإن تعرّف الجنس لذاته على الرغم من خدَع الجنس يبدو على أنه المحاولة غير المعترف بها للهروب إلى ما وضعته غلطة بدئية للمجتمع بعيداً عنه. إنهم، بالنسبة إلى بعض منهم، أولئك الذين اتسمت طفولتهم دون شك بأكبر قدر من الاستحياء، يكادون لا يهتمون بالنوع المادي للمتعة التي ينالونها بشرط أن يمكنهم رد ذلك إلى وجه ذكوري، فيما يحدّد آخرون، ممن يملكون حواس أكثر عنفاً دون شك، مواضع حتمية قاهرة لمتعتهم المادية. ربما صدم أولئك باعترافاتهم وسطيَّ الناس، فهم يعيشون ربما على نحو أقل حصراً تحت تأثير تابع الكوكب زحل لأن النساء، فيما يخصهم، لسن مستبعدات كلياً كما هي الحال بالنسبة إلى الأولين الذين لا وجود لهن إزاءهم بدون المحادثة والغنج وأهواء العقل. ولكن الآخرين يبحثون عن اللواتي يحببن النساء فبمقدورهن أن يهيّئن لهم فتى ويزدن المتعة التي يصيبونها من وجودهم معه. هذا، وإنهم يستطيعون بالطريقة نفسها أن يصيبوا معهن ما يصيبون من متعة مع رجل. من ذاك ينجم أن الغيرة لا تستثيرها بالنسبة إلى الذين يحبون الأولين إلا المتعة التي يمكن أن يصيبوها مع رجل والتي تبدو لهم وحدها خيانة، بما أنهم لا يشاركون في حب النساء ولم يمارسوه إلا بحكم العادة وكيما يضمنوا لأنفسهم إمكان الزواج ويتصورون أقل القليل ما يمكن أن يولي من متعة إلى حد لا يطيقون معه أن يتذوّقه من يحبونه، فيما يغلب أن يثير الآخرون الغيرة من جرّاء صنوف غرامهم مع النساء. فانهم يؤدّون، في علاقاتهم بهن، بالنسبة إلى المرأة التي تحب النساء دور امرأة أخرى، فيما تقدم لهم المرأة في الوقت نفسه ما يجدونه لدى الرجل على وجه التقريب إلى حد أن الصديق الغيور يعاني من الإحساس بأن من يحبه يلتصق التصاقاً وثيقاً بالتي تقارب أن تكون في نظره رجلاً فيما يحس أنه يكاد يفلت منه، لأنه في نظر أولئك النساء شيء لا يعرفه ونوع من المرأة. ولا تتحدثن كذلك عن هؤلاء الشباب المجانين الذين يبدون، بنوع من النزعة الصبيانية، وكيما يزعجوا أصدقاءهم ويصدموا أهليهم، ضرباً من الإصرار على اختيار ملابس تشبه الفساتين وعلى تحمير شفاههم وتسويد عيونهم؛ فلندعهم جانباً، فهم من سنعود فنلقاهم، بعدما يكونون حملوا بفيض من المرارة جزاء تصنعهم، يقضون كامل حياتهم يحاولون عبثاً أن يصلحوا بلباس متزمت بروتستانتي الضرر الذي ألحقوه بأنفسهم حينما كان يدفعهم إلى ذلك ذات الشيطان الذي يدفع نساء شابات

من حيّ «سان جيرمان» إلى العيش عيشاً فاضحاً والتحرر من جميع الأعراف والهزء من أسرتهن إلى اليوم الذي يشرعن فيه بدأب ودونما فلاح بارتقاء السفح الذي سبق أن وجدن تسلية كبرى في حدوره أو هنّ بالأحرى لم يستطعن الامتناع عن ذلك. ولندع أخيراً إلى ما بعد الذين عقدوا حلفاً مع «عامورة» وسوف نحكي عنهم حينما يعرضهم السيد «دوشارلوس». ولندع جميع الذين سيظهرون بدورهم، من هذا النوع أو ذاك، ولا نقولن كلمة، لختام هذا العرض الأول، إلا عن أولئك الذين باشرنا الحديث عنهم منذ قليل، عنينا المتوحدين. فقد مضوا، إذ هم يعتبرون نقيصتهم استثنائية أكثر مما هي عليه، يعيشون وحيدين من اليوم الذي اكتشفوها فيه بعد ما حملوها طويلاً دون أن يعرفوها، فترة أطول من غيرهم فحسب. ذلك أنه ما من أحد يعرف لأول وهلة أنه شاذ أو شاعر أو سنوبي أو شرير. فهذا الطالب الذي كان يحفظ أبياتاً في الحب أو يتطلع إلى صور خليعة كان يخيل إليه، إن هو التصق حينذاك برفيق له، أنه يشاركه فحسب ذات الرغبة في المرأة. فكيف يظن أنه لا يشبه الجميع حينما يتعرف جوهر ما يعانيه وهو يقرأ «مدام دو لا فاييت» و«راسين» و«بودلير» و«والترسكوت» في حين لايزال قليل القدرة إلى حدّ بعيد على ملاحظة نفسه كي يتبين ما يضيفه من عنده وأنه إن كان الشعور واحد فموضوعه يختلف وأن ما يشتهي هو «روب روي» وليس «ديانا ڤيرنون»[1]؟ فلدى الكثيرين، ومن جراء احتراس دفاعي للغريزة يسبق رؤية العقل الأكثر وضوحاً، تختفي المرآة والجدران في غرفتهم تحت صور بالألوان لممثلات؛ وهم يؤلفون أبياتاً كهذه:

لست أحب في العالم سوى «كلوييه»

إنها رائعة، إنها شقراء

وقلبي يغرق في الحب.

أفينبغي لذلك أن نضع في بداية هذه الحيوات ميلاً لن يتفق لنا أن نعود فنلقاه لديهم فيما بعد، كخصلات الأطفال الشقراء التي ستصبح بعدها من أكثرها سواداً؟ فمنذا يعلم إن لم تكن صور النساء بداية نفاق، وبداية كراهية كذلك للشاذين الآخرين؟ ولكن المتوحدين هم بالضبط أولئك الذين يؤلمهم النفاق. ربما لم يكن مثال اليهود، مثال الجالية المختلفة، بالقوة الكافية ليوضح كم التربية قليلة التأثير عليهم وبأي فن يفلحون في العودة، لا إلى أمر في مثل فظاعة الانتحار ربما (وإليه يعود المجانين أية كانت الاحتياطات المتخذة، فإن أنقذوا من النهر الذي ارتموا فيه، تناولوا السم، تزودوا بمسدس، الخ) بل إلى حياة لا يدرك رجال الجنس الآخر متعها الضرورية ولا يتصورونها ويمقتونها، وليس ذلك فحسب، بل تلك الحياة التي يرعبهم خطرها المتكرر وخزيها الدائم. وربما انبغى، في سبيل وصفهم، أن نفكر في الحيوانات التي لا تدجّن، في الأشبال المدجنة المزعومة ولكنها لبثت أُسوداً، وإلا فعلى الأقل بالسود الذين تورثهم حياة البيض المريحة يأساً فيفضلون عليها مخاطر حياة التوحش ومسراتها التي تمتنع على الإدراك. فحينما حل اليوم الذي ألفوا أنفسهم فيه عاجزين عن الكذب على الآخرين والكذب على الذات في آن، مضوا إلى العيش في الريف يتجنبون أشباههم (ويظنونهم قليلي العدد) من هول البشاعة أو مخافة الاغراء، وباقي البشرية من خجل. وإذ هم لم يبلغوا في يوم

(١) «روب روي» و«ديانا ڤيرنون» شخصيّتان من رواية لـ «والترسكوت» عنوانها «روب روي».

النضج الحقيقي وأضحوا نهب الكآبة فإنهم يمضون بين حين وآخر ذات يوم أحد غير مقمر، في نزهة على طريق يفضي إلى مفرق حيث جاء ينتظرهم، دون أن يكون أحدهم قال كلمة للآخر، أحد أصدقاء الطفولة الذي يقطن قصراً مجاوراً. ويعودان إلى ألعاب الأمس فوق العشب في الظلام، دونما كلمة يتبادلانها. ويلتقي أحدهما الآخر في بحر الأسبوع فيتحدثان عن أي شيء دون تلميح إلى ما جرى كما لو بالضبط لم يفعلا شيئاً ولن يعودا إلى فعل شيء، فيما عدا قليل من الفتور والسخرية والنزق والضغينة والكره أحياناً في علاقاتهما. ثم يذهب الجار في رحلة قاسية على ظهر حصان ويرتقي القمم على ظهر بغل وينام في الثلج؛ ويدرك صديقه الذي يماثل بين عيبه الخاص ووهن في الطبع والحياة البيتوتية الوجلة أن العيب لن يستطيع الاستمرار من بعد داخل صديقه الذي تحرر وعلى ارتفاع هذا القدر من آلاف الأمتار فوق سطح البحر. ويتزوج الآخر بالفعل، بيد أن المهجور لا يشفى (على الرغم من الحالات التي سنتبين فيها أن الشذوذ قابل للشفاء). فهو يطالب بأن يتسلم بنفسه في الصباح وفي مطبخه القشدة الطازجة من يدي أجير الحلاب وفي الأمسيات التي تضطرب رغباته في صدره فتتجاوز الحد، يبلغ به الضياع أن يعيد سكيراً إلى دربه وأن يرتب صدرية الأعمى. وليس من شك أن حياة بعض الشاذين تبدو وكأنما تتبدل وعيبهم (كما يقال) لا يظهر من بعد في عاداتهم. ولكن لا شيء يضيع والجوهرة المخبأة نعود فنلقاها؛ وحينما تتناقص كمية بول المريض فلأنه بالتأكيد يتعرق أكثر، ولكن لابد أن يتم الاطراح على الدوام. فذات يوم يفقد هذا الشاذ ابن عم شاب فتدرك لحزنه الذي لا يقبل العزاء أن الرغبات إنما انتقلت بالمناقلة إلى هذا الحب، الذي ربما كان عفيفاً وأكثر حرصاً على الاحتفاظ بالتقدير منه على بلوغ الامتلاك، مثلما يجري نقل بعض المصروفات داخل الموازنة إلى باب آخر دون تغيير في المجموع. ومثلما هي حال بعض المرضى الذين تذهب نوبة الحكة لديهم إلى حين باعتلالاتهم الطفيفة المعتادة يبدو أن الحب الظاهر الموجه لقريب شاب قد حل مؤقتاً لدى الشاذ، بطريق الانتقال، محل عادات سوف تستعيد ذات يوم مكان الداء الذي قام مقام غيره وشفي.

وفي هذه الأثناء يكون جار المتوحد الذي تزوّج قد عاد. وإزاء جمال الزوجة الشابة والحنان الذي يبديه زوجها لها يوم يضطر الصديق أن يدعوهما إلى العشاء يخجل من الماضي. ولكنها ينبغي، وهي مذ ذاك في وضع يدعو للاهتمام، أن تعود في ساعة مبكرة تاركة زوجها؛ ويطلب هذا الأخير حين تحل ساعة العودة أن يرافقه لمسافة قصيرة صديقه الذي لا تداخله بادئ الأمر أية ريبة ولكنه يلقي نفسه في تقاطع الطرق وقد أُلقي به على العشب متسلق الجبال الذي يزمع أن يصبح أباً، دون أن ينبس بكلمة. وتعود اللقاءات ثانية إلى اليوم الذي يجيء فيه ليقيم في مكان غير بعيد من هناك أحد أبناء عم المرأة الشابة والذي يذهب الزوج الآن دوماً للتنزه معه. فإن جاء المهجور لزيارته وحاول الاقتراب منه أبعده الزوج وقد تملكه أشد الغضب وبه الحنق الذي يوليه أن لا يكون الآخر على لباقة يستشف معها الاشمئزاز الذي يوحي به منذ الآن. وذات مرة يجيء مجهول بعثه الجار غير الوفي، ولكن المهجور لا يستطيع لكثرة مشاغله أن يستقبله ولا يدرك إلا فيما بعد الهدف الذي جاء الغريب من أجله.

حينئذ يضنى الانعزالي وحده، وليس يملك غير متعة الذهاب إلى محطة الحمامات البحرية المجاورة يستعلم واحداً من مستخدمي السكك الحديدية. ولكن هذا الأخير حصل على ترقية وعُيِّن في الطرف الآخر

من فرنسه، ولن يستطيع الانعزالي من بعد أن يمضي ليسأله مواعيد القطارات وثمن مقاعد الدرجة الأولى، وقبل أن يعود ليحلم في برجه، كما تفعل «غريزيليديس»[1]، يتريث على الشاطئ، مثل «أندرو ميده»[2]، غريبة لن يقْبل أي مغامر لتخليصها، وكـ «ميدوسة» عقيمة سوف تهلك على الرمال، أو هو يظل متكاسلاً على الرصيف قبل انطلاق القطار، يلقي على المسافرين نظرة تبدو لامبالية أو مزدرية أو ساهية بالنسبة إلى من كانوا من جنس آخر ولكنها، شأن الألق الوضاء الذي تزدان به بعض الحشرات لاجتذاب من كانوا من النوع نفسه، أو الرحيق الذي تقدمه بعض الزهور لاجتذاب الحشرات التي ستلقحها، لن تخدع الهاوي، ويكاد يتعذّر وجوده، هاوي متعة تقدم له، مفرطة الخصوصية بالغة الصعوبة في ايجاد موضع لها، والزميل الذي يستطيع اختصاصيًّا أن يتكلم وإياه اللغة غير المألوفة؛ أكثر ما هنالك أن يتظاهر لابس ثياب رثّة على الرصيف بالاهتمام بها، ولكنما لقاء مكسب مادي فحسب، شأن أولئك الذين يمضون، في «الكوليج دو فرانس» وفي القاعة التي يحاضر فيها أستاذ «الصانصكريتية» دون مستمعين، لمتابعة الدرس، ولكنما ليستدفئوا فحسب. المدوسة! وزهرة الأوركيدا! حينما كنت لا أنساق إلا وراء غريزتي كانت المدوسة تثير اشمئزازي في «بالبيك»؛ فإن عرفت كيف أنظر إليها، مثل «ميشليه»، من وجهة نظر التاريخ الطبيعي وعلم الجمال، كنت أبصر فيها حزمة رائعة من ضياء لازوردي. أفليست تبدو بمتخمل تويجياتها الشفاف وكأنها أزهار أوركيدا البحر الخبازية، وكمثل الكثير من مخلوقات عالم الحيوان وعالم النبات، كمثل النبتة التي تنتج الفانيليا، فيما يقولون، والتي تبقى عقيمة لأن العضو الذكري عندها يفصله عن العضو الأنثوي حاجز، إن لم تنقل الطيور الطنانة أو بعض النحلات الصغيرة غبار الطلع من هذه إلى تلك، أو إن لم يلقحها الإنسان صناعياً، كان السيد «دوشارلوس» (وينبغي أن تؤخذ كلمة التلقيح هنا بالمدلول المعنوي بما أن اقتران الذكر بالذكر بالمعنى المادي عقيم، بيد أنه ليس غير ذي بال أن يستطيع شخص إدراك المتعة الوحيدة التي يستطيع تذوقها وأن تستطيع «كل نفس في هذه الدنيا» أن تعطي أحدهم «موسيقاها أو نارها أو عطرها»)، كان من هؤلاء الرجال الذين يمكن دعوتهم بالاستثنائيين لأنهم مهما كبر عددهم فإن تلبية حاجاتهم الجنسية، وما أسهلها لدى آخرين غيرهم، رهن بتوافق الكثير من الشروط التي يصعب جدا توافرها.

وبالنسبة إلى رجال من طينة السيد «دوشارلوس» (ومع مراعاة التسويات التي ستبرز شيئاً فشيئاً والتي أمكن منذ الآن توقعها وقد اقتضتها حاجة إلى المتعة تسلم بإنصاف موافقات)، فإن الحب المتبادل يضيف، إلى جانب المصاعب الكبيرة جداً التي يصادفها عند عامة الناس، ويستحيل تجاوزها أحياناً، مصاعب خاصة إلى حدّ أن ما كان على الدوام شديد الندرة بالنسبة إلى كل الناس قارب أن يكون مستحيلاً فيما يخصهم، وأن سعادتهم، إن وقع لهم لقاء يطبعه حسن الطالع بالحقيقة أو تظهره لهم الطبيعة على تلك الحال، تتسم، بما يجاوز كثيراً سعادة العاشق العادي، طابعاً غريباً مختاراً عميق الضرورة. إن بغض آل «كابوليه» وآل «مونتيغو» ما كان يساوي شيئاً مقارنة بالعوائق المختلفة التي جرى تذليلها والإلغاءات الخاصة التي اضطرت الطبيعة أن توقعها بالمصادفات غير الشائعة كثيراً التي تحمل معها الحب قبل أن يترنح صانع صدار سابق، كان يتأهب للذهاب

(١) Grisélidis بطلة أسطورية هي رمز الاخلاص الزوجي.

(٢) Andromède ابنة ملك أثيوبيا و«كاسيوبيه»، عاقب إله البحر «بوسيدون» الملكة والدتها لكبريائها فأرسل وحشاً بحرياً روّع البلاد ولانجاة منه إلا بموت الابنة ولكنّ بيرسيه Persée وصل وقتل الوحش بالسيف الذي سبق أن ضرب به «المدوسة» لقاء وعد بالزواج منها.

إلى مكتبه «بخوف الله» مفتونا أمام خمسيني مكرش. ويستطيع «روميو» هذا و«جولييت» هذه أن يعتقدا بحق أن حبهما ليس نزوة لحظة عابرة بل قدر حقيقي أعدته تناغمات مزاجهما، لا مزاجهما الخاص فحسب بل مزاج من سلف منهما والوراثة الأكثر إغراقاً في الماضي إلى حد أن الشخص الذى يقترن بهما يخصهما قبل الولادة وقد اجتذبهما بقوة شبيهة بتلك التي توجه العوالم التي قضينا فيها حيواتنا السابقة. لقد ألهاني السيد «دوشارلوس» عن أن أنظر إن كان الدبور يحمل إلى زهرة الأوركيدا غبار الطلع الذي كانت تنتظره منذ زمن طويل والذي لاحظٌ لها في وصوله إليها إلا بفضل مصادفة قليلة الاحتمال إلى حد أنه يمكن تسميتها نوعاً من الأعجوبة، بيد أن ما شهدته منذ قليل إنما كان كذلك أعجوبة من النوع ذاته تقريباً ولا يقل عنها روعة. وما إن نظرت إلى ذلك اللقاء من الزاوية تلك حتى بدا لي كل شيء موسوماً بالجمال. فالحيل الأكثر اتساماً بالغرابة التي استنبطتها الطبيعة لتجبر الحشرات على توفير تلقيح الأزهار التي من دونها ما كانت لتستطيع ذلك لأن الزهرة المذكرة بعيدة جداً عن الزهرة الأنثى، أو الحيلة التي، إن كانت الريح هي التي ستؤمن نقل غبار الطلع، تجعله أوفر سهولة في انتزاعه من الزهرة المذكرة وذلك بازالة إفراز الرحيق الذي لم يعد مجدياً إذ ليس من حشرات تجتذب، وحتى ألق التويجات التي تجتذبها، والحيلة التي تحمل الزهرة، كيما تُكرَّس للطلع اللازم الذي لا يمكن أن يثمر إلا داخلها، على إفراز سائل يحصّنها ضد أنواع الطلع الأخرى ما كانت كلها لتبدو لي أكثر روعة من وجود نوع فرعي من الشاذين معد لتوفير متع الحب للشاذ المتشيخ: نوع الرجال الذين يجتذبهم لاسائر الرجال، ولكن ــ من جرّاء ظاهرة توافق وتناغم شبيهة بتلك التي تنظم تلقيح الزهور المختلفة الحوامل والثلاثية الشكل كزهرة Lythrum Salicana ــ الرجال الذين يتجاوزونهم سناً إلى حد كبير فحسب. لقد قدم لي «جوبيان» منذ قليل مثالاً على هذا النوع الفرعي مع أنه أقل إثارة من أمثلة أخرى يستطيع كل جامع أعشاب بشري وكل عالم نبات أخلاقي ملاحظتها على الرغم من ندرتها ويقدم لهم شاباً ناحل الجسم كان ينتظر مفاتحات خمسيني مكرش صلب العود ويلبث لا مبالياً بمفاتحات الفتيان الآخرين بمثل ما تبقى عليه من عقم أزهار الـ Primula Veris ذات الحامل القصير مادامت لا تلقحها سوى أزهار الـ Primula Veris ذات الحامل القصير أيضاً، فيما ترحب فرحة بطلع الـ Primula Veris ذات الحامل الطويل. فأما ما كان من أمر السيد «دوشارلوس»، فقد تبينت بعد ذلك على أي حال أن ثمة عدة أنواع اتصالات فيما يخصه كان بعضها يذكر، بتعدده وآنيته التي تكاد لا تراها العين وبانعدام الاتصال على وجه الخصوص بين الفاعلين، يذكّر أكثر من أي شيء آخر بتلك الأزهار التي يجري تلقيحها داخل حديقة بطلع زهرة مجاورة لن تلمسها في يوم. فقد كان ثمة بعض أشخاص يكفيه أن يحملهم على المجيء إلى منزله وأن يخضعهم على مدى بضع ساعات لسلطان كلامه كيما تهدأ رغبته التي ألهبها لقاء، أي لقاء. كان الالتقاء يتم بمحض أقوال تقال بمثل البساطة التي يتم بها في عالم النقاعيات. وأحياناً يجري الإشباع، مثلما وقع له ذلك دون شك معي في العشية التي دعاني فيها بعد عشاء آل «غيرمانت»، بوساطة تأنيب عنيف كان البارون يقذف به في وجه الزائر مثلما بعض الأزهار ترش عن بعد بفضل نابض الحشرة التي تشارك لا شعورياً بالجرم وترتبك. كان السيد «دوشارلوس» وقد انقلب من مُسيطَر عليه إلى مسيطر، يحس أنه تطهر من قلقه وهدأ، ويطرد الزائر الذي توقف في الحال عن الظهور مظهر المشتهى عنده. وإن الشذوذ نفسه أخيراً، إذ ينجم عن أن الشاذ قريب من المرأة إلى حد أكبر من أن يستطيع معه إقامة صلات مفيدة معها، إنما يرتبط من هنا بقانون أشمل يبقى من جرّائه مقدار

كبير من الأزهار الخنثى عقيماً، أي بعقم التلقيح الذاتي. صحيح أن الشاذين غالباً ما يكتفون في بحثهم عن ذكر بشاذ بمثل تخنثهم، ولكنما يكفي أن لا ينتموا إلى جنس النساء الذي يحملون في داخلهم شيئاً منه لا يستطيعون استخدامه، وهذا ما يتفق للكثير من الزهور الخنثى وحتى لبعض الحيوانات الخنثة كالحلزون التي لا تستطيع أن تلقح نفسها بنفسها ولكنما يمكن تلقيحها من جانب خناث غيرها. وبذلك ربما رجع الشاذون الذين يحبذون الانتماء إلى الشرق القديم أو إلى عصر اليونان الذهبي إلى ما كان أبعد، إلى عصور التجربة تلك التي لم يكن فيها لا الأزهار الثنائية المساكن ولا الحيوانات الوحيدة الجنس، إلى ذلك التنخث البدئي الذي يبدو أن بعض أوليات الأعضاء الذكرية في تشريح المرأة والأعضاء الانثوية في تشريح الرجل تحفظ أثرها. كنت أجد إيمائية «جوبيان» والسيد «دوشارلوس»، وهي بادئ الأمر غير مفهومة لدي، بمثل غرابة تلك الحركات الاغرائية التي توجهها للحشرات، فيما يرى «داروين»، الأزهار المسماة بالمركبة إذ ترفع أنصاف أزاهير رويساتها كيما تشاهد من مسافة أبعد،كمثل واحدة من مختلفة حوامل السمات تقلب أسديتها وتعطفها لتفتح طريق للحشرات أو تقدم لها غسولاً هو بكل بساطة مماثل لعطور الرحيق والتماع التويجات التي كانت في هذه اللحظة تجتذب الحشرات في الباحة• منذ ذلك اليوم كان لابد أن يغير السيد«دوشارلوس»ساعة زيارته للسيدة«دوفيلباريزيس»لا لأنه ماكان يمكنه التقاء«جوبيان»في مكان آخر وبصورة مريحة أكثر، بل لأن شمس مابعد الظهر وأزهار الشجيرات كانت ترتبط ولا شك بذكراه، مثلما كانت بالنسبة إليّ تماماً• ولم يكتف على أية حال بأن يعهد بأسرة«جوبيان»إلى السيدة«دوفيلباريزيس»والدوقة«دوغيرمانت»وإلى جماعة كاملة من الزبائن اللامعين الذين تزايدت مواظبتهم لدى الطرازة الشابة بقدر ما كانت بعض السيدات اللواتي قاومن أو تأخرن فحسب موضع عمليات انتقامية مريعة من جانب البارون إما ليكن عظة لمن يتعظ وإما لأنهن ايقظن حنقه ووقفن في وجه محاولات تسلطه• وجعل موقع«جوبيان»متزايد المرابح إلى أن اتخذه سكرتيراً له بصورة نهائية وأقامه ضمن الشروط التي سنشهدها فيما بعد• «آه ما أسعده رجلاً«جوبيان»هذا، تقول«فرانسواز»،وبها ميل إلى إنقاص أو تضخيم صنوف الطيبة حسبما تكون موجهة إليها أو إلى سواها• وما كان بها حاجة هنا إلى الغلو على أي حال ولا يداخلها شعور بالغيرة من جانب آخر إذ هي تحب«جوبيان»حباً صادقاً• وتضيف قولها:«آه البارون ما أطيبه رجلاً،وما أحسنه وأتقاه وما أكثر ما هو لائق! لو كان عندي ابنة أزوجها وكنت من عالم الأغنياء لأعطيتها للبارون مغمضة العينين»، فتقول أمي بهدوء: «ولكن يا«فرانسواز»سيكون لها الكثير من الأزواج تلك الابنة• تذكري أنك وعدت بها«جوبيان» • وتجيب«فرانسواز»قائلة:«أجل،فهو بدوره أحد من يسعدون امرأة أشد السعادة• وعبثاً نرى ثمة أغنياء وفقراء معدمين فإن ذلك لايؤثر في الطبيعة؛ البارون و«جوبيان»،إنهما من طينة الأشخاص ذاتها». وقد بالغت حينذاك كثيراً، على كل حال، إزاء هذا الكشف الأول، في الطابع الاصطفائي لظرف منتقى إلى هذا الحد• صحيح أن كلا من الرجال أشباه السيد«دوشارلوس»مخلوق خارق، فإنه إن كان لا يقوم بتنازلات لإمكانات الحياة، إنما يسعى أساساً إلى حب رجل من الجنس الآخر، يعني رجلاً يحب النساء (ولا يستطيع بالتالي أن يحبه)، فخلافاً لما كنت أظنه في الباحة حيث رأيت«جوبيان»منذ قليل يحوم حول السيد«دوشارلوس»مثلما زهرة الأوركيدا توجه دعوات للدبور، فان هؤلاء الأشخاص الاستثنائيين الذين نرثي لحالهم يشكلون جمهوراً، كما سنرى ذلك على صفحات هذا الكتاب، لسبب لن يكشف عنه إلا في النهاية، وهم يشكون من أنهم بالأحرى مفرطو العدد لا قليلو العدد•

ذلك لأن الملاكين اللذين أقيما على أبواب صادوم ليعلما، فيما يقول سفر التكوين،إن كان سكانها قد فعلوا بالكامل كل هذه الأشياء التي تعالت صرختها حتى الأبدى السرمدي قد جرى اختبارهما، ولا يسعنا إلا أن نبتهج لذلك، أسوأ اختيار على يد الرب الذي لعله ما كان انبغى أن يكل هذه المهمة إلا للواطي. فما كانت أعذار من قبيل«والد لستة أطفال، لديّ عشيقتان، الخ». لتحمل هذا الأخير على أن ينزل طوعاً السيف الملتهب ويخفف العقوبات• ولعله كان أجاب: «أجل، وان زوجتك تكابد عذاب الغيرة• ولكنك حتى حينما لم تقدم على اختيار هاتيك النساء بنفسك في عامورة تقضي لياليك مع حارس قطعان من حبرون»[١]. ولكان رده في الحال على أعقابه إلى المدينة التي ستدمرها أمطار النار والكبريت• ولكنهم فسحوا على العكس فى مجال الهرب لجميع اللواطيين الذليلين، وإن أداروا الرأس إذ يلمحون صبياً شاباً كامرأة لوط، دون أن ينقلبوا لذلك تماثيل ملح مثلها• وعلى هذا النحو كانت لهم ذرية كثيرة لبثت تلك الحركة عادية عندها تشبه تلك التى تبدر عن النسوة الخليعات اللواتي يدرن الرأس باتجاه طالب فيما يتظاهرن بالنظر إلى معرض أحذية موضوع خلف واجهة• وذرية اللواطيين هذه، وهي كثيرة حتى يمكن أن نطبق عليها الآية الأخرى من سفر التكوين: «إن استطاع أحد أن يحصي تراب الأرض استطاع أيضاً أن يحصي هذه الذرية»، استقرت في الأرض كلها وامتهنت سائر المهن ودخلت إلى النوادي الأكثر انغلاقاً وأفلحت إلى حد تكون فيه الكرات السوداء، حينما لا يقبل لواطي فيها، كرات تعود غالبيتها للواطيين ولكنهم يحرصون على الطعن باللواطية إذ ورثوا الكذب الذي مكن جدودهم من مغادرة المدينة الملعونة• ومن الممكن أن يعودوا إليها ذات يوم• إنهم يؤلفون بالتأكد في جميع البلدان جالية شرقية مثقفة موسيقية نمامة تتسم بمزايا رائعة وعيوب لا تطاق• وسوف نشاهدهم على نحو أكثر عمقاً في الصفحات التالية• ولكنما ابتغي مؤقتاً اتقاء الخطأ المشؤوم الذي قوامه، على النحو الذي جرى فيه تشجيع حركة صهيونية، إنشاء حركة لواطية وإعادة بناء صادوم• ولكن اللواطيين يهجرون المدينة ما إن يصلوا ويتخذون زوجات لهم وينفقون على عشيقات في مدن أخرى يجدون فيها من جانب آخر جميع التسليات الملائمة• ولا يمضون إلى صادوم إلا في أيام الضرورة الفائقة حينما تفرغ مدينتهم وفي تلك الأوقات التي يدفع فيها الجوع الذئب خارج الغابة، أي أن كل شيء يجري بإجمال القول، شأنه فى لندن أو برلين أوروما أو بيتروغراد أو باريس• لم تمض بي أفكاري بأية حال في ذلك اليوم، وقبل زيارتي للدوقة، بعيداً إلى هذا الحد وكنت شديد الأسف أن يكون ربما فاتني، لانشغالي بالتقاء «جوبيان وشارلوس»، أن أشهد تلقيح الزهرة من جانب الدبور.

(١) هي مدينة الخليل.

الجزء الثاني

الفصل الأول

[السيد «دوشارلوس» في المجتمع ـ طبيب ـ وجه السيدة «دوڤوغوبير» المميز ـ السيدة «دارپاجون»، نافورة «هوبيرروبير» ومرح الدوق الأكبر «ڤلاديمير» — السيدة «دامونكور»، السيدة «دوسيتري»، السيدة «دوسانت أوڤيرت»، الخ — محادثة غريبة بين «سوان» والأمير «دوغيرمانت» ـ «ألبيرتين» على الهاتف — زيارات بانتظار ثاني وآخر إقامة لي في «بالبيك» ـ الوصول إلى «بالبيك» — مشاعر الغيرة تجاه «ألبيرتين» ـ تقلبات القلب ٠]

لما كنت غير معجل في الوصول إلى أمسية آل «غيرمانت» تلك التي لم أكن أكيداً من أني مدعو إليها فقد بقيت عاطلاً في الخارج، ولكن النهار الصيفي لم يكن أكثر مني استعجالاً في التحرك ٠ ومع أن الساعة جاوزت التاسعة فهو الذي كان لا يزال في ساحة «الكونكورد» يضفي على مسلة الأقصر هيئة «نوغا» وردية ٠ ثم هو غير لونها وقلبة مادة معدنية فإذا المسلة بذلك تضحي لا أكثر نفاسة فحسب بل تبدو مرققة وتكاد تكون لينة، كان يخيل إليك أنه بمقدورك، لو شئت، ليّ هذه الجوهرة وأنه ربما جرى تزييفها تزييفاً طفيفاً ٠ كان القمر الآن على صفحة السماء كشطر برتقالة قشر بلطف مع أنه بوشر بقضمه قليلاً ٠ ولكنه لابد سيصنع فيما بعد من الذهب الأكثر صلابة ٠ وحدها كانت تختفي وراءه نجمة صغيرة تعيسة سوف تكون بمثابة الرفيقة الوحيدة للقمر المتوحد فيما سينتضي هدا الأخير، وهو يحمي صديقته ولكنه أوفر جرأة ويمضي قدماً، ينتضي بمثابة سلاح لا يقاوم، بمثابة رمز شرقي، هلاله الذهبي الواسع الرائع ٠

التقيت الدوق «دوشاتيلرو» أمام فندق الأميرة «دوغيرمانت»، وما عدت أتذكر أن الخشية كانت لا تزال تعذبني قبل نصف ساعة — وسوف تعود لتمسك بي بعد قليل على أية حال — خشية المجيء دون أن أكون دعيت ٠ والمرء يجزع، وإنما يتذكر جزعه فترة طويلة أحياناً بعد انقضاء ساعة الخطر، وقد نسيه بفضل التلهي ٠ وحييت الدوق الشاب ودخلت إلى الفندق ٠ ولكن لابد لي هنا من الإشارة بادئ الأمر إلى ظرف زهيد سوف يمكّن من إدراك واقعة تتبع بعد قليل ٠

كان ثمة في ذلك المساء كما في سابقاته، واحد يفكر تفكيراً جماً بالدوق «دوشاتيلرو» دون أن يرتاب على أية حال بمن يكون: إنه حاجب السيدة «دوغيرمانت» (وكان يدعى في ذلك الحين «النبّاح») ٠ كان السيد «دوشاتيلرو»، وما أبعد أن يكون أحد أُلأف الأميرة — مثلما كان أحد أبناء عمومتها — يرحب به للمرة الأولى في منتداها ٠ كان والداه قد اختصما معها منذ عشر سنوات وتصالحا وإياها منذ خمسة عشر يوماً وإذ اضطرا إلى التغيب في ذلك المساء عن باريس فقد عهدا لابنهما بتمثيلهما ٠ وقبل ذلك ببضعة أيام كان حاجب الأميرة قد التقى في «الشانزيليزيه» شاباً ألفاه فاتناً ولكنه لم يفلح في إثبات هويته ٠ لا لأن الشاب لم يبد لطفاً بمثل نبله ٠ فجميع صنوف المعروف التي تصور الحاجب من واجبه أن يقدمها لسيد حديث السن إلى

هذا الحد كان على العكس قد نالها هو. بيد أن السيد«دوشاتيلرو»كان خوافاً بقدر ما كان قليل التبصر. وكان تصميمه على أن لا يكشف عن تنكره يزداد بمقدار ما يجهل مع من يتعامل. ولعله كان أحسّ بخشية أكبر – مع أنها في غير محلها – لو عرف ذلك. كان الدوق قد اكتفى بأن يوهم أنه انكليزي واقتصر إزاء جميع الأسئلة المتحمسة التي يوجهها الحاجب الراغب في الوصول إلى شخص يدين له بهذا القدر من السرور والعطايا، اقتصر على أن يجيب على امتداد شارع «غابرييل»: I do not speak French (لست اتكلم الفرنسية[1].

ومع أن الدوق«دوغيرمانت» – بسبب نسب ابن عمه لأمه – كان يتظاهر على الرغم من كل شيء بأنه واجد شيئاً من آل«كورفوازييه»في صالة الأميرة «دوغيرمانت – بافيير» ، فقد كانوا يحكمون بعامة على روح المبادرة والتفوق الفكري لدى هذه السيدة انطلاقاً من تجديد ما كنت تصادفه في أي مكان آخر في هذا الوسط. فقد كانت المقاعد بعد العشاء، وأية كانت أهمية الحفلة التي ستعقبه، مرتبة في منزل الأميرة «دوغيرمانت»على نحو يشكلون معه جماعات صغيرة تتظاهر إن قضت الحاجة. كانت الأميرة تبرز حينذاك حسها الأجتماعي إذ تمضي للجلوس مع إحداها وكأنما تفضلها. وما كانت تخشى بأية حال أن تختار وتجتذب أحد أعضاء جماعة أخرى. فإن حملت الأميرة السيد«دوتاي»مثلاً، وهو وافق بالطبع، على أن يلاحظ أى عنق جميل كانت تملكه السيدة «دوفيلمور»، وكان مكانها في جماعة أخرى يكشفها من جهة ظهرها، فما كانت تتردد في رفع صوتها قائلة: «ياسيدة«دوفيلور»، السيد«دوتاي»بوصفه رساماً عظيماً ينظر باعجاب إلى عنقك». وتحس السيدة «دوفيلمور»في ذلك دعوة مباشرة إلى الحديث، وبالمهارة التي يوليها تعود الحصان تدير كرسيها على مهل وفق قوس يساوي ثلاثة أرباع الدائرة وتجلس، دون أن تزعج جيرانها في شيء، فى مواجهة الأميرة تقريباً. وتسأل ربة البيت التي لم تكفها الاستدارة الماهرة المحتشمة التى قامت بها مدعوتها: «ألا تعرفين السيد«دوتاى»؟ – «لست أعرفه ولكني أعرف أعماله»، تجيب السيدة«دوفيلمور»بهيئة كلها احترام وجاذبية وبحضور بديهة كان كثيرون يحسدونها عليه، فيما توجه للرسام المشهور الذي لم تكن المناداة عليه كافية لتقديمه لها بصورة رسمية تحية تكاد لا تلحظ، وتقول الأميرة:«تعال يا سيد«دوتاي»فسأقدمك للسيدة«دوفيلمور»». فكانت هذه تبدي براعة فى إيجاد مكان لوضع لوحة «الحلم» بمقدار ما فعلت منذ قليل لتستدير صوبه. أما الأميرة فكانت تدفع لنفسها بكرسي، فهي ما نادت على السيدة «دوفيلمور» إلا لتجد حجة لترك الجماعة الأولى، حيث أمضت الدقائق العشر النظامية، وخص الثانية بمدة مساوية. وعلى مدى ثلاثة أرباع الساعة كانت الجماعات كافة قد حظيت بزيارتها التي تبدو كأنما يوجهها في كل مرة إلا الارتجال وضيوف الايثار. ولكنما مرادها على وجه الخصوص أن تبرز بأية تلقائية «تعرف سيدة كبيرة كيف تستقبل». بيد أن المدعوين إلى الأمسية أخذوا بالتوافد الآن وجلست ربة البيت في مكان غير بعيد من المدخل – منتصبة مهيبة في جلالها الذي يقرب أن يكون ملوكياً، فيما تلتمع عيناها من جراء توجهما الذاتي – بين صاحبتي سمو يعوزهما الجمال وزوجة سفير اسبانية.

كنت أنتظر دوري خلف بعض المدعوين الذين سبقوني، وكان قبالتي الأميرة التي لم يكن جمالها

(١) وردت بالانكليزية في متن النصّ.

وحده دون شك، من بين الكثير سواه، ما يذكّرني بذلك الاحتفال. ولكن وجه ربة البيت كان شديد الكمال، كان محفوراً كميدالية جميلة إلى حد أنه احتفظ بالنسبة إليّ بخاصية تذكرية. وكان من عادة الأميرة أن تقول لمدعويها حينما تلتقيهم بضعة أيام قبل إحدى أمسياتها:«سوف تأتون، أليس كذلك؟» كما لو داخلتها رغبة كبيرة في التحدث إليهم. ولما لم يكن عليها على عكس ذلك أن تحدثهم في شيء فقد كانت تكتفي حالما يصلون أمامها، ودون أن تنهض، بقطع حديثها المقيم مع صاحبتي السمو وزوجة السفير وباسداء الشكر وهي تقول:«لطيف أنكم جئتم»، لا لأنها ترى أن المدعو أبدى لطفاً بمجيئه بل لتزيد أيضاً من لطفها، ثم تضيف قولها وهي تدفع به في الحال إلى النهر «ستجد السيد«دوغيرمانت»على مدخل الحدائق»، وعلى هذا النحو كانوا يمضون في الزيارة ويدعونها وشأنها. وما كانت حتى تقول شيئاً لنفر منهم وتكتفي بأن تريهم عينيها الرائعتين اللتين من عقيق اليمان كما لو أنهم أقبلوا إلى معرض للحجارة الكريمة فحسب.

كان أول شخص يمر قبلي الدوق «دوشاتيلرو».

ولما كان عليه أن يرد على سائر الابتسامات والتحيات باليد التي ترده من الصالة فإنه لم يلحظ الحاجب. ولكن الحاجب تعرفه منذ اللحظة الأولى. وهذه الهوية التي طالما رغب في الاطلاع عليها سوف يعرفها بعد فترة وجيزة. وما كان الحاجب متأثراً فحسب وهو يسأل «انكليزى» قبل البارحة عن الاسم الذي ينبغي أن يعلن عنه بل كان يحكم أنه متطفل وغير لبق. كان يبدو له أنه يزمع أن يكشف لكل الناس (مع أنهم لن يرتابوا بشيء) سراً كان من الإثم اكتشافه بهذه الطريقة وإعلانه على الملأ. وإذ سمع جواب المدعو:«الدوق «دوشاتيلرو» أحس باضطراب ناجم عن اعتزاز ظل معه حيناً أبكم صامتاً. ونظر إليه الدوق فعرفه وظن أنه هالك فيما كان الخادم، وقد استعاد رباطة جأشه وإذ يحيط بقدر كاف من تصنيف الشعارات كيما يكمل بنفسه تسمية مفرطة في تواضعها، كان يصرخ بالعزم الاحترافي الذي يطريه حنان خفي:«سمو الدوق «دوشاتيلرو»! ولكن جاء دوري الآن ليعلنوا عن اسمي.

وإذ كنت غارقاً في تأمل ربة البيت التي لم تكن رأتني بعد فإني لم أفكر في الوظيفة الرهيبة بالنسبة إليّ – وإن كان على غير ما كانت عليه بالنسبه إلى السيد «دوشاتيلرو» – التي يشغلها هذا الحاجب الملتحف بالسواد كمثل جلاد يحيط به فريق من الخدم يرتدون الحلل الأكثر إشراقاً من أشخاص أقوياء شديدي البنية على استعداد للقبض على أي دخيل والإلقاء به خارجاً. وسألني الحاجب عن اسمي فقلته له بمثل الآلية التي يسمح بها محكوم بالإعدام بأن يوثق إلى الخشبة. ورفع رأسه في الحال بجلال، وقبلما يمكنني أن أرجوه تقديمي بصوت خافت لمراعاة اعتزازي بنفسي إن لم أكن مدعواً واعتزاز الأميرة «دوغيرمانت» إن كنت مدعواً، زعق بالمقاطع المخيفة بقوة يمكن أن تزعزع قبة الفندق.

يروي «هكسلي»الذائع الصيت (الذي يشغل ابن أخيه حاليا مركزاً متقدماً في دنيا الأدب الأنكليزى) أن إحدى مريضاته لم تعد تجرؤ على ارتياد المجتمع الراقي إذ غالباً ما كانت ترى في المقعد نفسه الذي يدلونها عليه بحركة متأدبة سيداً عجوزاً يجلس فيه. وكانت على يقين تام من أن الإشارة التي يدعونها بها أو وجود السيد العجوز كانا من باب الهلوسة، فما كانوا ليدلوها هكذا على مقعد مشغول، وحينما أرغمها

«هكسلي»بغية شفائها على العودة في حفلة الأمسية مرت بلحظة من التردد المؤلم وهي تسائل النفس إن كانت الإشارة اللطيفة الموجهة إليها هي الشيء الحقيقي أم أنها امتثال لرؤية لا وجود لها، تزمع الجلوس علناً على ركبتي سيد بلحمه وعظمه. وكانت حيرتها الوجيزة قاسية عليها. وربما كانت أقل من حيرتي. فقد اضطررت منذ اللحظة التي وافاني فيها اسمي كقصف الرعد وكالهزيم الذي يسبق كارثة محتملة،اضطررت، كي أدافع عن حسن نيتي وكأنما لا يقلقني أي شك أن أتقدم من الأميرة واثق النفس.

وأبصرتني وأنا على بضع خطوات منها وعوضاً عن أن تلبث جالسة شأنها مع المدعوين الآخرين نهضت وأقبلت إليّ، الأمر الذي لم يدع لي أن أشك بأنني كنت ضحية مكيدة. واستطعت بعد ثانية أن أطلق تنهيدة ارتياح مريضة «هكسلي»حينما عزمت على الجلوس على المقعد فوجدته خالياً وأدركت أن السيد العجوز إنما كان ثمرة الهلوسة. كانت الأميرة قد مدت لي يدها وهي تبتسم، ولبثت واقفة على مدى لحظات بنوع اللطافة الخاص بمقطع شعري بـ«ماليرب»هذا ختامه:

«ويقف الملائكة لتكريمهم»[1].

واعتذرت عن أن الدوقة لم تكن بعد وصلت كما لو انبغى أن يصيبني الملل بدونها. وقد قامت من حولي لتبلغني تلك التحية، وهي تمسك بيدي، بتحويمة تفيض ظرفاً كنت أحسني مأخوذاً في دوامتها. وكدت أتوقع أن تسلمني حينئذ، مثل مشرفة على حفلة مسافر، عصا بعقفة عاج أو ساعة يد. ولكنها لم تعطني بصريح العبارة شيئاً من ذلك، وكما لو أنها استمعت بالأحرى، بدلاً من أن ترقص«البوستون»، إلى رباعية قدسية لـ«بيتهوفن»خشيت أن تعكر ماسما من أصواتها، أوقفت الحديث عند هذا الحد أوهي بالأحرى لم تباشره بل أطلعتني فحسب، ولا يزال وجهها يشرق من أنها أبصرتني داخلاً، على مكان وجود الأمير.

وابتعدت عنها وخانتني الجرأة بعدها على الاقتراب منها، إذ أحسست أن ليس عندها على الاطلاق ما تقوله لي وأن هذه المرأة الرائعة قامةً وجمالاً والنبيلة نبل الكثيرات من السيدات الكبيرات اللواتي اعتلين منصة الإعدام بهذا القدر من الاعتزاز، ما كانت تستطيع، بارادتها الطيبة التي لا تحد، وإذ تنقصها الجرأة على أن تقدم لي ماء الترنجان، إلا أن تكرر ما سبق أن قالته لي مرتين:«تلقى الأمير في الحديقة». ولكن الذهاب إلى الأمير إنما كان يعني الإحساس بشكوكي تعود فتولد بشكل آخر.

كان ينبغي في جميع الأحوال العثور على من يقدمني. وكنت تسمع جعجعة السيد«دوشارلوس»التي لا تنضب تطغى على سائر الأحاديث الأخرى، وكان يتحدث إلى معالي الدوق«دوسيدونيا»الذي تعرف إليه منذ قليل. والناس يستشف بعضهم بعضاً بين مهنة وأخرى، وكذلك بين عيب وآخر. وقد استشم في الحال كل من السيد «دوشارلوس» والسيد «دوسيدونيا» عيب الآخر، وعيب كليهما في دنيا المجتمع أن يكونا من محترفي

---

(١) Malherbe شاعر من القرن السّابع عشر هيّأ للكتابة الكلاسيكيّة بسعيه إلى الوضوح والصياغة المحكمة. والقصيدة عن الأطفال الأبرياء الذين أمر هيرودس ملك اليهوديّة بقتلهم علّه يقضي بذلك على المسيح.

«المفاجأة الذاتية» إلى حد لا يطيقان معه أية مقاطعة· ولما حكما في الحال أن الداء لا دواء له، كما تقول قصيدة مشهورة، فقد صمما لا على التزام الصمت بل أن يتحدث كل منهما دون أن يهتم لما قد يقوله الآخر· وقد تحققت بذلك تلك الضجة المبهمة الناجمة في مسرحيات«موليير»الهزلية عما يقوله عدة أشخاص في الآن نفسه من أشياء مختلفة· كان البارون متيقناً على أية حال أن تكون له الغلبة بصوته الداوي وأن يغطي صوت السيد«دوسيدونيا»الضعيف دون أن تفتر مع ذلك همة هذا الأخير، ذلك لأن الفترة الفاصلة، حينما يستعيد السيد«دوشارلوس»أنفاسه، كانت تملؤها وشوشة كبير القوم في اسبانية الذي كان يوالي حديثه رابط الجأش· ولعلني كنت سألت السيد«دوشارلوس» أن يقدمني للأمير «دوغيرمانت» ولكني كنت أخشى (وكنت أكثر من محق) أن يكون غاضباً مني· فلقد نهجت معه النهج الأكثر عقوقاً إذ أهملت للمرة الثانية عروضه ودون أن يصدر عني ما يشير إلى أني حي أرزق منذ العشية التي صحبني فيها إلى البيت بذلك القدر من الود· وماكنت أملك مع ذلك بمثابة حجة مسبقة المشهد الذي رأيته منذ قليل، وفي هذه العشية ذاتها، يجري بين «جوبيان»وبينه. فما كنت أرتاب بشيء من هذا القبيل. صحيح أني قبل ذلك بقليل، وفيما كان والداي ينعيان عليّ كسلي وأني لم أتكلف بعد عناء كتابة كلمة إلى السيد«دوشارلوس»، لمتهما لوماً عنيفاً لما يريدان حملي على قبول عروض غير شريفة· ولكن الغضب وحده والرغبة في العثور على الجملة التي يمكن أن تكون من أكثرها إزعاجاً لهما أمليا علي ذلك الجواب الكاذب· فما كنت بالحقيقة تخيلت أي أمر شهواني ولا حتى عاطفي في عروض البارون، وقد قلت ذلك لوالدي من باب الحماقة المحضة· ولكن المستقبل يسكن أحياناً في صدورنا دون أن ندري وكلماتنا التي نخالها كاذبة وإنما ترسم واقعاً آتياً·

لعل السيد«دوشارلوس»كان غفر لي قلة امتناني، إلا أن ما كان يثير حنقه أن حضوري في هذا المساء إلى منزل الأميرة «دوغيرمانت» وإلى منزل ابنة عمها كذلك منذ بعض الوقت كان يبدو وكأنه يسخر من التصريح العلني التالي:«ليس يدخل أحد إلى هذه الصالات إلا بأمر مني»، كان خطأً جسيماً وجرماً يكاد لا يغتفر أني لم أسلك السبيل التراتبي· والسيد«دوشارلوس»يعلم تمام العلم أن الصواعق التي يلوح بها ضد الذين لايمتثلون لأوامره أو الذين أخذ يكرههم شرعت تبدو، حسب رأي الكثيرين وأياً كان الحنق الذي يشحنها به، صواعق من ورق ولم يعد بمقدورها أن تقضي عن أي مكان كائناً من كان· لكنه ربما ظن أن سلطته المنتقصة، ولاتزال كبيرة، لبثت كاملة غير منقوصة في نظر المبتدئين أمثالي· ولذلك لم أحكم أني أحسن الاختيار إن سألته خدمة لي في حفلة كان يبدو محض وجودي فيها تكذيباً يسخر من ادعاءاته.

في تلك اللحظة استوقفني رجل سوقي إلى حد ما هو الأستاذ أ... لقد أدهشه أن رآني في منزل آل«غيرمانت»ولم تكن دهشتي بأقل أن أجده هناك إذ لم يبصر أحد فيما مضى ولن يبصر فيما تلا شخصاً من طرازه في منزل الأميرة. فقد كان شفا الأمير منذ فترة من مرض ذات الرئة الانتاني، بعدما مسح المسحة الأخيرة[1]· وكان من شأن الامتنان الخاص الذي حملته له السيدة «دوغيرمانت»إزاء ذلك الأمر أن جرى تجاوز العرف والعادة وتمت دعوته· ولما كان لا يعرف أحداً البتة في تلك الصالات ولا يستطيع التجوال وحيداً إلى مالا نهاية شأن رسول الموت فقد أحس بعد ما عرفني، وللمرة الأولى في حياته، بطائفة من الأشياء يود أن

(١) في طقوس المسيحيين وتمنح عادة قبيل الوفاة، فهي تشير إذا إلى دنو الأجل.

يقولها لي، الأمر الذي كان يوليه تماسكاً، وكان ذلك أحد الأسباب التي من أجلها أقبل إليّ. كان ثمة سبب آخر. لقد كان يولي اهتماماً كبيراً أن لا يقع يوماً في خطأ تشخيصي. ولكن بريده كان كثيراً إلى حدما كان يتذكر معه تماماً وعلى الدوام، إن لم ير المريض سوى مرة واحدة، إن كان المرض قد سار تماماً سيره الذي حدده له. فلعلنا لم ننس أنني بادرت ساعة النوبة التي ألمت بجدتي إلى مرافقتها إلى منزله في المساء الذي كان يطلب أن يخيطوا له ذاك المقدار من الأوسمة. وماعاد يذكر منذ الزمن الذي انقضى بطاقة النعية التي أرسلت إليه في ذلك الحين. «إن السيدة جدتك قد ماتت، أليس كذلك؟» يقول لي بصوت يلطّف فيه شبه اليقين تخوفاً طفيفاً. «آه؛ أجل، فمنذ أول دقيقة شاهدتها فيها جاء تقديري قاتماً جداً، أذكر ذلك تماماً».

هكذا عرف الأستاذ أ... أو عاد فعرف بموت جدتي دون أن يبدي، ولابد من أن أقول هذا مدحاً له، وهو مديح يطال الهيئة الطبية بأسرها، أو ربما دون أن يداخله شعور بالرضى. إن أخطاء الأطباء لا تحصى. فهم عادة يفرطون في تفاؤلهم فيما يخص الحمية وفي تشاؤمهم فيما يخص الخاتمة. «بعض النبيذ؟ بكميات معتدلة لا يمكن أن يصيبك أذى من ذلك، فهو باجمال القول منشط... المتعة الجسدية؟ إنها في النهاية وظيفة. أسمح بذلك دون إفراط، تفهمني تماماً؛ فالشطط في كل أمر معابة». وأي إغراء من ذاك يدفع المريض للتخلي عن هذين المرممين للصحة: الماء والعفة! وفي المقابل ان كان ثمة شيء في القلب أوكان زلال، الخ.. فلن يطول بك المشوار. وما أسرع ما تعزى اضطرابات خطيرة ولكنها وظيفية لسرطان متخيل. ولا فائدة من موالاة زيارات لا يمكن أن توقف داء لا مفر منه. فان فرض المريض إذ ذاك على نفسه، وقد ترك وشأنه، حمية قاسية وشفي بعدها أو لبث على الأقل على قيد الحياة، فإن الطبيب، حينما يسلم عليه في شارع الأوبرا فيما كان يظنه منذ فترة طويلة في المقبرة، سوف يبصر في القبعة هذه لفتة وقحة مستهزئة. وإن نزهة بريئة تجري تحت سمع وبصر رئيس محكمة الجنايات ماكانت لتثير في صدره غضباً أعظم، رئيس محكمة الجنايات الذي أصدر قبل سنتين حكماً بالاعدام على المتسكع الذي يبدو عديم الخوف. والأطباء (والأمر لا يتعلق بجميعهم بالطبع ولسنا نغفل، في ذهننا، استثناءات رائعة) أكثر استياء بعامة وأكثر اغتياظاً لبطلان حكمهم منهم ابتهاجاً بتنفيذه. ذلك ما يفسر أن عرف الاستاذ أ... كيف لا يكلمني إلا بلهجة حزينة عن المصيبة التي ألمت بنا، أياً كان السرور الفكري الذي أحس به دونما شك إذ رأى أنه لم يخطىء. لم يكن حريصاً على تقصير المحادثة التي كانت تزوده بالتماسك وبسبب للبقاء. وحدثني عن الحر الشديد الذي يسود في هذه الأيام ولكنه قال لي، مع أنه مثقف وكان يمكن أن يتكلم بفرنسية صحيحة:«ألا تعاني من زيادة «الحرارة»هذه؟» ذلك لأن الطب حقق بعض وجوه التقدم الطفيفة في معلوماته منذ «موليير» ولكنه لم يحظ بشيء منه في مفرداته. وأضاف محدثي يقول:«ما ينبغي هو تجنب «التعريق»الذي يسببه طقس كهذا ولا سيما في الصالات التي بولغ في تدفئتها. ويمكنك تلافي ذلك، حينما تعود وتوافيك الرغبة في الشرب، بالحرارة (التي تعني بالبداهة الأشربة الساخنة).

كان الموضوع يثير اهتمامي نظراً للطريقة التي توفيت بها جدتي، وكنت قرأت مؤخراً في كتاب لعالم كبير أن التعرق يلحق الضرر بالكليتين إذ يدفع عن طريق الجلد ما كان مخرجه من مكان آخر. كنت آسف لفترات الحر هذه التي ماتت جدتي في اثنائها وكنت على شفا اتهامها. لم أحدث الدكتور أ... بالأمر ولكنه

قال لي من تلقاء نفسه: «من مزايا فترات الحر الشديد هذه التي تشهد غزارة في التعرق أن الكلية تصيب من ذلك انفراجاً بالمقدار نفسه». وليس الطب علماً دقيقاً.

كان هم الأستاذ أ... الوحيد، وقد تشبث بي، أن لا يتركني. غير أني كنت لمحت منذ قليل المركيز «دوفوغوبير» وهو يوجه للأميرة «دوغيرمانت» تحيات وانحناءات واسعة ذات اليمين وذات الشمال بعدما تراجع خطوة إلى الوراء. وكان السيد «دونوربوا» قد يسر لي مؤخراً التعرف به وكنت آمل أنني واجد فيه من يستطيع تقديمي لسيد البيت. إن حجم هذا المؤلف لا يسمح لي بأن أوضح هنا على أثر أية أحداث في صباه أصبح السيد «دوفوغوبير» أحد الأشخاص الوحيدين في دنيا المجتمع (وربما الوحيد) ممن اتفق لهم أن يلجوا ما كانوا يدعونه في صادوم «عالم أسرار» السيد «دوشارلوس». ولإن كان لوزيرنا لدى الملك «تيودوز» بعض معايب البارون نفسها فما كان ذلك إلا على صورة ظلال لها باهتة جداً. فما كان يبدي إلا بصيغة ملطفة إلى مالا حدود عاطفية بلهاء هذه التناوبات في الود والبغضاء التي تدفع البارون إليها رغبته في الإبهار ثم خشيته –وهي أيضاً من نسج الخيال– من أن يُحتقر أو يُكتشف على الأقل. ومع أن تلك التناوبات أضحت مدعاة للسخرية من جراء تعفف و«أفلاطونية» لديه (ضحى في سبيلهما، فعل الطامح الكبير، بكل متعة وذلك منذ أن بلغ سن المسابقة)، ومن جراء عجزه الفكري خصوصاً، فقد كان السيد «دوفوغوبير» يعاني منها مع ذلك، تلك التناوبات. وفيما كانت صنوف المديح المفرطة لدى السيد «دوشارلوس» تُكال بأعلى الصوت بألقِ بلاغي حقيقي وتُتبل بأكثر صنوف السخرية رهافة وأشدها إيلاماً من تلك التي تطبع المرء مدى الحياة، فان الود لدى السيد «دوفوغوبير» كان يُلقي تعبيره على العكس في ابتذال انسان من أرذل طراز ورجل من المجتمع الراقي وموظف، والمآخذ (وهي بعامة مختلفة تماماً كحالها عند البارون) تعبر عنها نزعة للإساءة لا تكل ولكنها خلو من النباهة ويزيد من طابعها المنكَر أنها كانت تناقض عادة الأقوال التي سبق أن أدلى بها الوزير قبل ستة أشهر وربما يدلي بها ثانية بعد انقضاء بعض الوقت: وهي انتظام في التغيير كان يولي مختلف مراحل حياة السيد «دوفوغوبير» شاعرية تكاد تكون فلكية وإن لم يكن أحد لولا ذاك يُذكّر أقل منه بالأفلاك.

لم يكن في تحية المساء التي رد بها على شيء مما ربما كانت عليه تحية السيد «دوشارلوس». فقد كان السيد «دوفرغوبير» يضفي على تلك التحية المسائية، بالإضافة إلى الأنماط الألف التي يظنها أنماط المجتمع الراقي والديبلوماسية، مظهراً بعيداً عن اللياقة رشيقاً بشوشاً ليبدو مفتوناً بالحياة من جهة – فيما يجتر في داخله خيبات حياة وظيفية لا ترقية فيها يلاحقها تهديد الإحالة على التقاعد – وفتيّاً قوي الشكيمة فاتناً، في حين كان يرى، ولا يجرؤ من بعد حتى أن يمضي ويشاهد في المرآة، التجاعيد تنحفر في حوافي وجه ود أن يحتفظ به مليئاً بصنوف الفتنة. وليس يعني ذلك أنه كان تمنى «غزوات» فعلية كان يخشى محض فكرتها بسبب القيل والقال والفضائح والابتزاز. كان يبدو، وقد انتقل من تهتك يكاد يكون طفولياً إلى تعفف مطلق بدأ من اليوم الذي فكر فيه بـ «الكيه دورسيه»[1]. وعزم على بناء مستقبل زاه، كان يبدو مثل وحش في قفص يُنقّل في

(١) مركز وزارة الخارجيّة الفرنسية.

كل اتجاه نظرات يعمرها الخوف والشهوة والغباء. كان غباؤه عظيماً إلى حد لا يفكر معه أن «زُعران» فترة مراهقته ليسوا بعد صبية ويرتعش، حينما يصيح بائع صحف في وجهه قائلا:«الصحافة!»، يرتعش هلعاً أكثر منه شهوة إذ يظن أنه عُرِف واكتشف.

بيد أن السيد«دوفوغوبير»، في غياب المتع المضحى بها على مذبح عقوق «الكي دورسيه»، كان يحس اندفاعات مفاجئة في فؤاده – ولذلك كان يود أن يلبث موضع إعجاب. والله يعلم عدد الرسائل التي كان يرهق بها الوزارة وأية حيل شخصية يلجأ إليها وعدد الاقتطاعات التي يجريها استناداً إلى سمعة السيدة «دوفوغوبير» (التي يظنونها، بسبب ضخامتها وطيب محدتها ومظهرها الرجولي وبسبب ضعف زوجها على وجه الخصوص، صاحبة قدرات بارزة وتقوم بمهام وزارية حقة) كي يُدخل في مِلاك البعثة الوظيفي دون أي سبب مقبول شاباً يفتقر إلى أي مؤهل. صحيح أنه بعد انقضاء عدة أشهر أوعدة سنوات، ولأقل ما يبدو أن الملحق الباهت أبدى، دون أن يكون ثمة ذرة من سوء النية، ما ينم عن فتور إزاء رئيسة فإن هذا الأخير كان يبدي في معاقبته، إذ يظن أنه موضع ازدراء أو خيانة، ما كان يُبدي بالأمس من اندفاع هستيري في غمره بالخيرات. كان يحرك السماوات والأرض كي يجري استدعاؤه ويتسلم مدير الشؤون السياسية في كل يوم رسالة:«ما عساكم تنتظرون لتخليصي من هذا الماكر؟ روضوه قليلاً لمصلحته. وإنما حاجته أن يُرغَم قليلاً على شظف العيش». كانت وظيفة الملحق لدى الملك «ثيوودوز»غير مستحبة بعض الشيء بسبب ذلك. بيد أن السيد «دوفوغوبير»كان في كل ما تبقى، وبفضل حس رجل المجتمع السليم لديه، أفضل ممثلي الحكومة الفرنسية في الخارج. فحينما حل مكانه فيما بعد رجل مزعوم التفوق وديمقراطي متزمت كان عالماً في كل الأمور لم تلبث الحرب أن اندلعت بين فرنسه والبلاد التي كان يحكمها الملك.

والسيد «دوفوغوبير»ما كان يحب، على غرار السيد «دوشارلوس»أن يكون البادئ بالتحية. فكلاهما كانا يفضلان «رد التحية»إذ يخشيان على الدوام الأقاويل التي ربما سمعها عنهما منذ أن لم يرياه ذاك الذي كانا مدا له اليد لتحيته لولا ذاك. أما بالنسبة إليّ فلم يقع على السيد «دوفوغوبير»أن يطرح السؤال على نفسه فقد كنت الأول في الذهاب لتحيته، إن لم يكن لأمر فلفارق السن على الأقل. ورد عليّ ذاهلاً مفتوناً، فيما توالي عيناه اضطرابهما كما لو كان في كل جانبٍ برسيمٌ حُظِرَ رَعيُهُ. وظننت من اللياقة أن التمس منه تعريفي بالسيدة «دوفوغوبير»قبل تعريفي بالأمير الذي اعتزمت أن لا أكلمه إلا فيما بعد. وبدا أن فكرة القيام باتصالات مع زوجته تملؤه بهجة بالنسبة إليه وإليها على السواء ومضى بي بخطى ثابتة إلى المركيزة. بيد أنه لبث، بعدما وقف أمامها وأشار إليّ باليد والعينين وبكل مظاهر التقدير الممكنة، لبث معقود اللسان وانسحب بعد بضع ثوان يهزه الفرح ليدعني وحيداً مع زوجته التي بادرت في الحال تمد لي يدها ولكن دون أن تعلم إلى من توجه أمارات التلطف تلك، فقد أدركتُ أن السيد «دوفوغوبير» نسيَ كيف يدعونني، بل لعله لم يتعرفني ولم يشأ بداعي التأدب أن يقر لي بذلك فجعل التقديم مجرد عملية إيمائية. ورأيتني لذلك لم أكسب الكثير. فكيف أحمل امرأة لا تعرف اسمي على تقديمي لسيد البيت؟ كما رأيتني ملزماً بالتحدث لحظات إلى السيدة

«دوڤوغوبير». وكان الأمر يزعجني من وجهتي نظر اثنتين. فما كنت أحرص على المكوث دهراً في هذه الحفلة اذ سبق لي أن اتفقت و«ألبيرتين» (وكنت قدمت لها مقصورة لمسرحية «فيدر»[1]) لتأتي لملاقاتي قبل منتصف الليل بقليل. ما كنت بالتأكيد مغرماً بها، وإنما انسقت في طلب مجيئها في هذا المساء لرغبة شهوانية بحتة على الرغم من أننا في تلك الفترة اللاهبة من العام حيث تفضل النزعة الشهوانية المحررة التوجه إلى مطارح ذوق والبحث على وجه الخصوص عن الابتراد. فهي أكثر عطشاً إلى شراب برتقال، إلى استحمام، بل إلى تأمل هذا القمر المقشور الريان الذي يطفئ ظمأ السماء منها إلى قبلة فتاة. لكني كنت أنوي مع ذلك التخلص إلى جانب «ألبيرتين» — وهي تذكرني على أية حال بندوة الموج — من صنوف الأسف التي لابد أن يخلفها في نفسي الكثير من الوجوه الفاتنة (إذكانت الأمسية التي تقيمها الأميرة أمسية للفتيات والسيدات في الآن نفسه). ثم إن وجه السيدة «دوڤوغوبير» من ناحية أخرى، وهو «بوربوني»[2] كئيب، ما كان به أي جاذب.

كانوا يقولون في الوزارة، دون أن يضمّنوا الأمر ذرة خبث، إن الزوج من كان في الأسرة يلبس التنانير والمرأة البناطيل. وكان ثمه قسط من الحقيقة أكبر مما يظنون. فالسيدة «دوڤوغوبير» كانت رجلاً. فهل كانت تلك حالها على الدوام أم أنها أصبحت ماكنت أراها فيه، لا أهمية للأمر فإننا واجدون في كلا الحالين إحدى أكثر معجزات الطبيعة تأثيراً في النفس من التي تقرّب، ولا سيما الثانية منها، مملكة الإنسان من مملكة الأزهار. فالطبيعة في الافتراض الأول — إن سبق أن كانت السيدة «دوڤوغوبير» العتيدة على الدوام بالمظهر الرجولي المتثاقل هذا — تولي الفتاة، بحيلة شيطانية مفيدة، هيئة رجل مضللة. ويسعد المراهق الذي لا يحب النساء ويبتغي الشفاء، في العثور على مخرج قوامه اكتشاف خطيبة تمثل له عتريساً من سوق الهال. وفي الحالة المقابلة إن لم تملك المرأة منذ البداية المزايا الرجولية فإنها تتخذها شيئاً فشيئاً لتروق زوجها حتى بصورة لاواعية بهذا النوع من التقليد الذي تتخذ به بعض الأزهار مظهر الحشرات التي« تبغي اجتذابها. فأسفها أن لا تكون محبوبة وأن لا تكون رجلاً يجعلها «تسترجل». فمن ذا لم يلاحظ، حتى خارج نطاق الحالة التي تشغلنا، إلى أي حد يُخلص الأزواج العاديون كأكثر ما يكون إلى التشابه فيما بينهم، بل إلى تبادل صفاتهم أحياناً؟ كان أحد مستشاري ألمانيه السابقين، وهو الأمير «دوبولوڤ»، قد تزوج إيطالية. وقد لوحظ على مر الأيام فوق «البينتشيو» كم اكتسب الزوج الجيرماني من رهافة إيطالية والأميرة الايطالية من خشونة ألمانية. وكل منا يعرف، كما نخرج إلى نقطة خارج مركز القوانين التي نرسمها، دبلوماسياً فرنسياً بارزاً لا يوحي بأصله إلا اسمه وهو من أكثرها شهرة في الشرق. وإذ نضج وشاخ تكشف داخله الشرقي الذي لم يرتّب قط بوجوده، وإنك لتأسف إذ تراه لغياب الطربوش الذي يستكمله.

وكما نعود إلى ألوان من السلوك مجهولة تماماً لدى السفير الذي جئنا منذ قليل على التذكير بخطوط صورته المتكاثفة منذ الجدود، فإن السيدة «دوڤوغوبير» كانت تحقق النموذج المكتسب أو المقدر الذي تمثل

(١) Phedre من المسرح الكلاسيكي في القرن السابع عشر وهي لكبير المسرحيّين آنذاك «راسين».
(٢) من طراز آل «بوربون» ومنهم ملوك فرنسه.

صورته الخالدة أميرة منطقة «البالاتينا» وهي دوماً بلباس الفرسان والتي بعدما أخذت من زوجها ما كان أكثر من الرجولة، وتمثلت عيوب الرجال الذين لا يحبون النساء تددت في رسائلها، رسائل المرأة الثرثارة، بالعلاقات التي يعقدها فيما بينهم كبار الأسياد في بلاط لويس الرابع عشر. وإن أحد الأسباب التي تزيد من المظهر الرجولي لنساء من طينة السيدة «دوڤوغوبير» هو الإهمال الذي يدعهن الزوج فيه والخزي الذي ينتابهن من جرائه فيصمن بالعار كل ما كان من المرأة لديهن. ويخلصن في نهاية المطاف إلى اتخاذ المزايا والعيوب التي لا يملكها الزوج. فكلما ازداد طيشاً وتخنثاً وسلوكاً فاضحاً أصبحن وكأنهن الصورة التي فقدت سحرها للفضائل التي ينبغي للزوج أن يمارسها.

كان ثمة آثار من الخزي والملل والحنق تكدر وجه السيدة «دوڤوغوبير»المتنظم الخطوط. وكنت أحس للأسف أنها تتأملني باهتمام وفضول كواحد من هؤلاء الشبان الذين كانوا يروقون السيد «دوڤوغوبير» والتي كم لعلها كانت تريد أن تشبههم الآن وقد أصبح زوجها المتشيخ يفضّل الشباب. كانت تنظر إليّ باهتمام جماعة من الريف ينسخون من دليل مخزن للأزياء الحديثة الحلة النسائية التي ما أكثر ما تليق بالمرأة الحلوة المرسومة فيه (وهي واحدة في الحقيقة على سائر الصفحات ولكنها تعددت بالوهم نساء مختلفات بفضل اختلاف الوقفات وتنوع التسريحات). لقد بلغ الجاذب النباتي الذي يدفع بالسيدة «دوڤوغوبير»صوبي حدا جعلها تمسكُ بعنف بذراعي كي أمضي بها لاستقاء كوب من شراب البرتقال. ولكنني تملصت بحجة أني لم أكن بعدُ تعرفت سيد البيت وأنا أزمع الرحيل بعد قليل.

لم تكن المسافة التي تفصلني عن مدخل الحدائق حيث كان يتحدث إليّ بعض الناس كبيرة جداً ولكنها تبعث فيَّ قسطاً من الخوف أكبر مما لو اضطررت لاجتيازها أن أتعرض لإطلاق نار مستمر.

كان في الحديقة كثير من النساء اللواتي بدا لي من الممكن حملهن على تقديمي، وكن هناك لا يعلمن ما يفعلن فيما يتظاهرن بالإعجاب الشديد. والحفلات التي من هذا القبيل تجري بعامة قبل أوانها، إذ تكاد لا تُضْحي واقعاً إلا في الغد حيث تشغل اهتمام الجماعة التي لم تُدْعَ. إن الكاتب الحقيقي المجرد من اعتزاز غبي بالنفس يبديه الكثير من رجال الأدب، إن قرأ مقالة ناقد أظهر له على الدوام أعظم الاعجاب فرأى فيها أسماء مؤلفين ضحلين مذكورة فيها من دون اسمه، لا متسع لديه من الوقت للتوقف إزاء ما قد يكون في نظره موضع استغراب، فإن كتبه تستدعيه. ولكنما لاشيء لدى امرأة المجتمعات تفعله وإذ ترى في صحيفة «الفيغارو»: «بالأمس أقام أمير وأميرة «غيرمانت»أمسية كبيرة، الخ..» فإنها تصيح متعجبة:«كيف ذلك؛ منذ ثلاثة أيام تحدثت على مدى ساعة إلى«ماري جيلبير»دون أن تقول لي شيء عن ذلك» وينفلق رأسها لتعلم ما الذي أمكن أن تفعله لآل«غيرمانت». ولابد أن نقول بخصوص حفلات الأمير إن الاستغراب كان أحياناً لدى المدعوين بمثل حجمه لدى من لم يُدْعَوْا. فقد كانت تنطلق حينما تتوقعها أقل ما تتوقع ويستدعون فيها أناساً نسيتهم السيدة «دوغيرمانت»على مدى سنوات. إن سائر ناس المجتمعات تقريباً تافهون إلى حد أن كلا من أمثالهم لا يتخذ مقياساً للحكم عليهم سوى لطفهم فيعزهم مدعوا ويمقتهم مستبعداً. ولئن كانت الأميرة فيما يخص هؤلاء لا تدعوهم، وإن كانوا في عداد أصدقائها، فإنما مرد ذلك في الغالب خشيتها إغضاب

«بالاميد»الذي ألقى عليهم الحرْمَ. كان يسعني لذلك التأكد من أنها لم تكلم السيد «دوشارلوس»عني وإلا لما وجدتني هناك. لقد اسند مرفقه الآن، بمواجهة الحديقة وإلى جانب سفير ألمانية، إلى درابزون الدرج الكبير الذي يعيدك إلى الفندق حتى إن المدعوين، على الرغم من ثلاث أو أربع معجبات تجمعن حول البارون وكن يحجبنه تقريباً، كانوا مرغمين على المجيء لتحيته تحية المساء. كان يرد التحية وهو يدعو الناس باسمائهم. وكنت تسمع على التوالي:«مساء الخير سيد«هازيه»، مساء الخير سيدة «دولاتور دوپانڤير كلوز»، مساء الخير سيدة«دولاتور دوپان غوڤيرنيه»، مساء الخير«فيليبير»، مساء الخير أيتها السفيرة العزيزة، الخ..» كان ذلك يحدث زعقات مستمرة تقطعها توصيات مجانية وأسئلة (ما كان ينتظر الجواب عنها) وكان السيد«دوشارلوس»يوجهها بلهجة ملطفة متكلفة، كي يظهر اللامبالاة، ورقيقة:«إحرص أن لا تصاب الصغيرة بالبرد فالحدائق دوماً على رطوبة قليلة. مساء الخير مدام «دوبرانت»، مساء الخير مدام«دوميكلمبور». هل جاءت الفتاة؟ وهل ارتدت فسطانها الزهري الرائع؟ مساء الخير «سان جيران». كان في ذلك التصرف شيء من الكبرياء بالتأكيد. فقد كان السيد «دوشارلوس»يعلم أنه «غيرمانتي»يشغل مركزاً راجحاً في هذا الاحتفال. ولكن لم يكن ثمة كبرياء فحسب، وكانت كلمة احتفال ذاتها تذكّر، بالنسبة للرجل ذي المواهب الجمالية، بالمعنى الفخم الغريب الذي يمكن أن تحمله لو أقيم هذا الاحتفال لا في منزل جماعة من دنيا المجتمعات بل في لوحة لـ«كارپاتشيو»أو «ڤيرونيز». بل الأرجح أن الأمير الألماني الذي يمثله السيد «دوشارلوس» كان لابد يتصور بالأحرى الاحتفال الذي يجري في «تانهويزر»، وهو نفسه على أنه «المارغراف»يقدّم على مدخل «ڤاربورغ» كلمة طيبة دانية الجانب إلى كل من المدعوين فيما تحييّ تدفقهم في القصر أو الحديقة الجملة الطويلة التي تستعاد مئة مرة والواردة في «المارش» المشهورة.

كان لابد لي مع ذلك أن أحزم أمري. كنت فعلاً أتعرف نساء تحت الشجر كنت على علاقة صداقة تزيد أوتقل معهن ولكنما يبدو أنهن تحولن لأنهن في منزل الأميرة لا في منزل ابنة عمها وأني أشاهدهن جالسات لا أمام طبق من خزف «ساكسوني» بل في ظل أغصان شجرة كستناء. وما كانت أناقة الوسط لتغير في ذلك شيئاً ولعل الاضطراب نفسه كان سكن صدري حتى لو أن الاناقة جاءت أقل إلى مالا حدود مما هي في منزل «أوريان». فأما إن انطفأت الكهرباء ووقع علينا أن نستبدل بها مصابيح زيتية فإن كل شيء يبدو لنا وقد تغير. وانتزعتني السيدة «دوسوڤريه»من دائرة شكوكي، وقالت لي وهي تقبل إليّ:«مساء الخير. هل مضى زمن طويل دون أن تشاهد الدوقة «دوغيرمانت»؟ كانت تجيد في إكساب هذا النوع من الجمل نبرة تبرهن أنها ما كانت تقولها بمحض غباء شأن أناس لا يعلمون ما يتحدثون به فيوافونك ألف مرة بذكر خبر شائع يغلب أن يتسم بالابهام الشديد، ولكنها قدمت على العكس بالعين خيطاً موجهاً دقيقاً يعني:«لا تظنن أني لم أتعرفك، فإنك الشاب الذي رأيته في منزل الدوقة«دوغيرمانت». أتذكر تماماً». ومن أسف أن هذه الحماية التي تبسطها فوقي هذه الجملة الغبية في ظاهرها اللطيفة في مقصدها كانت هشة أشد الهشاشة وتلاشت حالما أردت استعمالها. فقد كانت السيدة «دوسوڤريه» تملك، إن انبغى لها دعم التماس لدى واحد من ذوي النفوذ، الفن الذي تبدو به في نظر طالب الالتماس وكأنها توصي به وفي نظر الشخصية الرفيعة المستوى وكأنها لاتوصي بالطالب بطريقة تولي بها هذه اللفتة المزدوجة المعنى قسطاً من العرفان بالجميل إزاء هذا الأخير

دون أن تحمله أي دين إزاء الآخر. وقد أفادت هذه السيدة، بعدما شجعتني لطافتها على أن أسألها تقديمي للسيد«دوغيرمانت»، من لحظة لم تكن فيها أنظار سيد البيت موجهة صوبنا فأخذت بي من كتفي مأخذ الأم ودفعت بي، وهي تبتسم للأمير الذى أشاح بوجهه فلا يستطيع أن يراها، دفعت بي بحركة حانية مزعومة ومقصودة في لاجدواها ألفيتني معها معطلاً وفي ما يقارب نقطة البداية. ذلكم خور أهل المجتمع الراقي.

أما عن جبن سيدة أقبلت لتحييني وهي تدعوني باسمي فقد كان بعد أعظم. كنت أحاول العثور على اسمها فيما اتحدث إليها، وأتذكر بالتمام أني تناولت عشائي وإياها كما أتذكر الكلمات التي قالتها. ولكن انتباهي المنصب على المنطقة الداخلية التي تقبع فيها ذكرياتي عنها ما كانت تستطيع اكتشاف هذا الاسم، مع أنه كان هناك. وباشر فكري كأنما نوعاً من اللعب معه لإدراك تقاطعه والحرف الذي يبدأ به ولوضعه بكليته في الضوء في نهاية المطاف. ولايجديني ذلك فتيلاً؛ كنت أحس تقريباً كتلته ووزنه، أما بشأن أشكاله فكنت أقول في نفسي، وأنا أقارنها بالسجين الغامض القابع في الظلمة الداخلية:«ما هو هذا». ربما كان فكري بالتأكيد قادراً على إبداع الأسماء الأكثر صعوبة. والمصيبة أنه لم يكن عليه أن يبدع بل أن يقلد. فكل حركة للفكر على يسر إن لم تخضع للواقع.

وهنا كان لابد لي من الخضوع له. وأخيراً جاءني الاسم كله دفعة واحدة:«السيدة داربجون». لكن من الخطأ القول إنه جاء، فإنه لم يظهر لي، فيما أعتقد، باندفاعة ذاتية. ولست أظن كذلك أن الذكريات البسيطة الجمة التي تتعلق بتلك السيدة والتي لم أفتأ أسألها العون لي (بصنوف من التحريض من هذا القبيل:«ويحك، إنها تلك السيدة صديقة السيدة «دوسوڤريه» والتي تكن لڤيكتورهوغو اعجاباً شديد السذاجة يخالطه الكثير من الذعر والفظاعة»). لست أعتقد أن هذه الذكريات جميعاً، وهي تتنقل مرفرفة بيني وبين اسمها، قد جاءت بأية فائدة في إعادته إلى السطح. ليس في هذه «التخباية» الكبرى التي تجري في الذاكرة حينما نبتغي العثور ثانية على أحد الأسماء، ليس ثمة سلسلة من المقاربات المتدرجة. فإنك لا تبصر شيئاً ثم يظهر فجأة الاسم الصحيح والمختلف كثيراً عما يخيل إلينا أننا حزرنا. فما هو الذي جاء إلينا. لا، وإني أظن بالأحرى أننا كلما امتد بنا العيش أمضينا الوقت في الابتعاد عن المنطقة التي يكون فيها الاسم مميزاً واضحاً وأني بتدريب لإرادتي وانتباهي كان يزيد من حدة نظرتي الداخلية اخترقت فجأة منطقة نصف العتمة وأبصرت بوضوح. وإن يكن في جميع الأحوال أطوار انتقالية بين النسيان والتذكر فإن هذه الأطوار إذ ذاك لاشعورية. ذلك لأن الأسماء المرحلية التي نعبر منها قبل أن نجد الاسم الحقيقي خاطئة ولا تقربنا في شيء منه، وهي ليست حتى أسماء بالمعنى الحقيقي ويغلب أن تكون مجرد صوامت لا نعود فنلقاها في الاسم الذي عثرنا عليه. ومهما يكن من أمر فإن عمل الفكر هذا الذي ينتقل من العدم إلى الحقيقة خفي إلى حد يمكن معه أن تكون تلك الصوامت الخاطئة خشبات انقاذ أعدت سلفاً ومدت بغير ما مهارة لمساعدتنا في إدراك الاسم الصحيح. سوف يقول القارئ: «كل ذلك لا ينبئنا بشيء عن قلة كياسة تلك السيدة، ولكن بما أنك توقفت طويلاً إلى هذا الحد، دعني، سيادة المؤلف، أضيع عليك دقيقة إضافية لأقول لك إنه من المؤسف، وأنت بمثل شبابك آنذاك (أو هو بطلك إن لم يكن أنت)، أن تكون قليل الذاكرة إلى حد لا تستطيع معه تذكر اسم سيدة كنت تعرفها أحسن المعرفة». الأمر

مؤسف حقاً ، سيادة القارئ. وأكثر مدعاة للحزن مما تظن حينما تحس فيه ما ينبئ بالزمن الذي ستختفي فيه الأسماء والكلمات من منطقة الفكر الواضحة والذي ينبغي فيه التخلي إلى الأبد عن أن نذكر لذاتنا أسماء من عرفناهم أفضل المعرفة. إنه لمن المؤسف حقاً أن نضطر إلى هذا العناء منذ شبابنا لنلقى أسماء نعرفها تماماً. ولو لم تقع هذه العاهة إلا بخصوص أسماء لانكاد نعرفها ويطويها النسيان بصورة طبيعية جداً وكنا لا نريد أن تكلف النفس عناء تذكرها لما كانت العاهة تلك لتخلو من المزايا. «وأية مزايا، رجوتك؟» هيه! يا سيد، ذلك أن الداء وحده هو الذي يحملك على الملاحظة والتعلم ويسمح بتفكيك الآليات التي ماكنا لنعرفها بدونه. إن رجلاً يهوي كل مساء كما الكتلة في سريره ولاحياة فيه من بعد حتى لحظة الاستيقاظ والنهوض من النوم، هل يفكر مثل هذا الرجل في يوم بأن يقدم على الأقل ملاحظات صغيرة حول النوم إن لم يفلح في تقديم اكتشافات كبيرة؟ إنه يكاد لا يعرف إن كان نائماً. قليل من الأرق ليس عديم الجدوى لتقدير النوم وإسقاط بعض من نور على ذلك الليل. والذاكرة التي لا تخونك ليست محرضاً قوياً لدراسة ظاهرات الذاكرة. «وهل قدمتك السيدة «دارباجون» في النهاية للأمير؟ » لا، ولكن اصمت ودعني أعاود روايتي.

كانت السيدة «دارباجون» أكثر جبنا بعد من السيدة «دوسوثريه» ولكنما لجبنها أعذار أكثر. فقد كانت تعلم أنها لاتزال تملك شيئاً من النفوذ في المجتمع، وقد ضعف ذلك النفوذ من جراء العلاقة التي سبقت لها مع الدوق «دوغيرمانت» ؛ وكانت الضربة القاضية في تخلي هذا الأخير عنها. وقد نجم عن تعكير المزاج الذي أثاره طلبي إليها أن تقدمني للأمير صمت بلغت السذاجة لديها أن تظنه تظاهراً بأنها لم تسمع ما قلت، بل هي حتى لم تلاحظ أن الغيظ يقطب حاجبيها. وربما لاحظت ذلك على العكس ولم تأبه للتناقض واستخدمته في درس للتكتم يمكنها أن تلقنني إياه دون إفراط في الفظاظة، وأقصد درساً صامتاً لم يكن لذلك أقل بلاغة. كانت السيدة «دارباجون» بأية حال على ضيق كبير إذ إن الكثير من العيون ارتفعت صوب شرفة من طراز «النهضة» كانت تطل في زاويتها، بدلاً من التماثيل الضخمة التي غالباً ما أقيمت فيها تلك الحقبة، الدوقة «دوسورجيس لودوك» الرائعة، ولا تقل عنها جمال شكل، وهي التي خلفت منذ قليل السيدة «دارباجون» في فؤاد «بازان دوغيرمانت». كنت تبصر تحت قماش التول الأبيض الخفيف الذي يحميها من برودة الليل جسمها ينطلق مرناً انطلاقة تمثال «النصر». ولم يعد لي ملجأ إلا لدى السيد «دوشارلوس»الذي عاد إلى قاعة فى الأسفل تفضي إلى الحديقة. واتسع لي كامل الوقت (فيما كان يتظاهر بالاستغراق في لعبة «ويست» يتصنعها وتسمح له أن لا يبدو وكأنه يرى الناس) لأتأمل باعجاب البساطة المتعمدة والفنية في سترته الرسمية التى تبدو، من جراء أشياء لاتذكر لا يتيسر تمييزها إلا لخياط، وكأنها «تآلف» من أسود وأبيض من أعمال «ويستلر» ؛ بل من أسود وأبيض وأحمر لأن السيد «دوشارلوس» كان يتقلد صليب وسام مالطا الديني من رتبة فارس وهو من المينا البيضاء والسوداء والحمراء علق بشريط عريض في فتحة الرداء. وفي هذه اللحظة قطعت السيدة «دوغالاردون» لعبة البارون وهي تقود ابن أخيها الفيكونت «دوكورفوازييه» ، وهو شاب جميل المحيا وقح المظهر. وقالت السيدة «دوغالاردون» : «اسمح لي يا ابن العم أن أقدم لك ابن أخي«أدالبير». «أدالبير» ، أنت تعلم، أنه العم المشهور «پالاميد» الذي تسمع دوماً من يتحدث عنه». وأجاب السيد «دوشارلوس» قائلاً: «مساء الخير، سيدة «دوغالاردون»، وأضاف يقول حتى دون أن ينظر إلى الشاب:«مساء الخير ياسيد»، بهيئة فظة

وصوت شديد القحة إلى حد أذهل الجميع. وربما حرص السيد «دوشارلوس»، إذ يعلم أن السيدة «دوغالاردون» تساورها الشكوك حول أخلاقه ولم تستطع أن تقاوم مرة متعة التلميح إليها، أن يقطع دابر كل ما كان يمكن أن تضيف من منمقات حول استقبال لطيف يخص به ابن أخيها، وأن يجاهر في الوقت نفسه مجلجلاً بلامبالاته حيال الشبان؛ وربما لم يتضح له إنه كان «أدالبير» المذكور قد استجاب لأقوال عمته بمظهر يتسم بقسط وافر من الاجلال. وربما كان راغباً في أن يمضي أبعد من ذلك في معرفة ابن عم لطيف المعشر إلى هذا الحد فشاء أن يوفر لنفسه مكاسب عدوان مسبق على غرار الملوك الذين يدعمون التحرك الديبلوماسي قبل مباشرته بتحرك عسكري.

لم تكن استجابة السيد «دوشارلوس» لطلبي أن يقدمني بمثل الصعوبة التي ظننت. فإن هذا الـ«دون كيشوت» قد قاتل، على مدى السنوات العشرين الأخيرة، الكثير من طواحين الهواء (وهي في الغالب أقارب يزعم أنهم أساءوا التصرف تجاهه)، ومنع، وما أكثر ما كرر المنع، «على أنه شخص يستحيل استقباله»، دعوة إلى منزل هؤلاء أوهاتيك من آل«غيرمانت» إلى حد أن هؤلاء أخذوا يخشون الاختصام مع كل الناس الذين يحبونهم وأن يحترموا حتى الممات تردد بعض الوافدين الجدد عليهم وهم في شوق إلى معرفتهم، من أجل تبني الأحقاد الصاخبة، ولكنما لا تفسير لها، لصهر أو ابن عم ربما أراد أن تهجر في سبيله الزوجة والشقيق والابناء. لقد أخذ السيد «دوشارلوس» يتبين، وهو أوفر ذكاء من باقي«الغيرمانتيين» أنهم لا يتقيدون من بعد بما يأمر من استبعاد إلا مرة من اثنتين وشرع، استباقا للمستقبل وخشية أن يأتي يوم يكون هو من يستغنى عنه، شرع يسلم ببعض التراجع ويخفض أسعاره كما يقال. أضف أنه إن كان باستطاعته أن يوفر لشهور وسنين حياة مماثلة لشخص بغيض –وما كان ليسمح بتوجيه دعوة لمثله ولكان قاتل بالأحرى قتال عتالٍ مع ملكة، إذ ان صفة ما يقف حائلاً دونه لا حساب لها عنده من بعد –فقد كانت تنتابه في المقابل نوبات غضب أكثر تواتراً من ألا تصبح مجزأة مبعثرة إلى حد ما. «يا للأبله والنذل الشرير! سوف نعيد ذلك إلى مكانه ونكنسه في المجارير حيث لن تسلم المدينة لسوء الحظ من أذاه»، هكذا كان يصرخ، وإن يكن وحيداً في بيته، لدى قراءة كتاب يحكم أنه خال من الاحترام أو حينما يتذكر قولاً ردد على مسامعه. ولكن غضباً جديداً يصبه على معتوه ثان كان يلاشي الآخر فإن بدا الأول على شيء من الاحترام تم نسيان الأزمة التي سببها فهي لم تدم بما يكفي لتشكل أساساً من الحقد يشاء عليه، ولعلي لذلك –على الرغم من سخطه عليّ– لعلي كنت نجحت لديه حينما سألته أن يقدمني للأمير لو لم تخطر لي الفكرة المشؤومة في أن أضيف توخياً للدوقة وكي لا يمكنه أن يفترض لدي فظاظة في أن أكون دخلت وقد احتطت لأمري بأني سأعتمد عليه ليستبقيني:«تعلم أني أعرفهم تمام المعرفة، وكانت الأميرة شديدة اللطف معي». «حسن؛ وإن كنت تعرفهم فما حاجتك بي لأقدمك؟» يجيبني قائلاً بلهجة قاطعة فيما يدير لي ظهره ويعود إلى ما يتظاهر به من لعب مع القاصد الرسولي وسفير ألمانيا وشخص ما كنت أعرفه.

حينئذ تنامى إليّ، من أقاصي تلك الحدائق التي كان الدوق «ديغيون»يهتم فيها بتربية الحيوانات النادرة، وعبر الأبواب المشرعة، صوت اشتمام كان يستنشق هذه الأناقات الكثيرة ولا يريد أن يضيع شيئاً منها، واقترب الصوت فتوجهت تحسبا لكل طارئ في اتجاهه إلى حد جاءت فيه كلمة «مساء الخير» همسا في أذني على

لسان السيد «دوبريوتيه»، لا كالصوت المقعقع المثلم لسكين يجلخ بغية شحذه، ولا حتى كصوت الخَتّوص مخرب الأراضي المزروعة، بل كصوت منقذ محتمل. كان أقل اقتداراً من السيدة «دوسوفريه» ولكنه أقل منها إصابة في الصميم بالإعراض عن خدمة الآخرين وأكثر ارتياحاً مع الأمير من السيدة «داربانجون» وربما ساورته أوهام حول وضعي في وسط آل «غيرمانت» أو ربما عرفها أفضل مني، ولكني صادفت في الثواني الأولى بعض المشقة في الاستحواذ على انتباهه لأنه، إذ ترف فتحات أنفه ويتوسع منخراه، كان يجابه في كل جانب وهو يحملق بصورة غريبة عبر نظارته الوحيدة كما لو ألفى نفسه أمام خمس مئة رائعة فنية. ولكنه بعدما سمع سؤالي تقبله بارتياح وصحبني إلى الأمير وقدمني له بهيئة نهمة متكلفة عامية كما لو أنه أمرّ إليه طبق حلويات محمصة وهو ينصحه بها. وبقدر ما كان استقبال الدوق «دوغيرمانت»، حينما يشاء ذلك، لطيفاً يتسم بالرفاقية ودوداً أليفاً بقدر ما ألفيت استقبال الأمير متكلفاً رسمياً متعالياً. كاد لا يبتسم لي ودعاني بلهجة رزينة: «يا سيد». وغالباً ما سمعت الدوق يهزأ من غطرسة ابن عمه. بيد أني أدركت في الحال في أول كلمات قالها لي، وكانت تتناقض بفتورها وجديتها أشد التناقض مع حديث «بازان»، أدركت أن الرجل المستخف في أعماقه كان الدوق الذي كان يحدثك منذ الزيارة الأولى حديث «الند للند»، وأن من كان يملك البساطة الحقة من ابني العم الاثنين إنما كان الأمير. فقد لقيت في تحفظه إحساساً أعظم، لا أقول بالمساواة، فلعل الأمر ما كان ممكن التصور بالنسبة إليه، بل على الأقل بالتقدير الذي يمكن أن تخص به مرؤوساً، كما هي الحال في سائر الأوساط الوثيقة التراتب، في القصر العدلي على سبيل المثال وفي كلية جامعية حيث ربما أخفى مدع عام أو «عميد» وعيا وظيفتهما السامية قسطاً أوفر من البساطة الحقيقية وحينما تتعرفهما أكثر من ذي قبل فمقداراً أعظم من الطيبة والبساطة الحقة والوداد في تعاليهما التقليدي مما يبدي من كانوا أكثر عصرية منهم في تصنع الرفاقية الممزاحة وقال لي بلهجة متحفظة إلا أنها تنم عن الاهتمام: «هل تنوي السير على خطو السيد والدك؟» فأجبت عن سؤاله اجابة موجزة وقد أدركت أنه لم يطرحه إلا بداعي التلطف وابتعدت لأدع له أن يستقبل الوافدين الجدد.

وأبصرت «سوان» وأردت التحدث إليه ولكني رأيت أن الأمير «دوغيرمانت» قام في الحال، بدلاً من تقبل تحية زوج «أوديت» المسائية في مكان جلوسه، بسحبه معه إلى أقصى الحديقة، ولكن بعض الناس قالوا لي «كيما يطرده من المنزل».

وإذ كنت شديد الشرود في دنيا المجتمع إلى حد أني لم أعلم إلا ما بعد الغد من الصحف أن أوركسترا تشيكية قد عزفت طوال الأمسية وأن الأسهم النارية الملونة توالت بين دقيقة وأخرى، استعدت بعض القدرة على الانتباه إذ وافتني فكرة المضي لمشاهدة نافورة الماء الشهيرة من أعمال «هوبير روبير».

في فرجة من الغابة تحتجزها أشجار جميلة، كان بضعة منها بمثل قدمها، كنت تراها من البعيد، وقد غرست جانباً، ممشوقة لاحراك بها متصلبة لاتدع للأنسام أن تهز سوى الجزء المتساقط الأكثر خفة من عمامتها الشاحبة الراعشة. كان القرن الثامن عشر قد صفى أناقة خطوطها ولكنه بدا، وقد ثبت طراز النافورة، كأنه أوقف نبض الحياة فيها، فقد كنت من تلك المسافة تحس الفن فيها أكثر من إحساسك الماء. كانت

السحابة الندية نفسها التي تتراكم دون انقطاع في أعلى قمتها تحتفظ بطابع العصر كتلك التي تتجمع في السماء حول قصور «ڤيرساى» ولكنك كنت تتبين عن قرب أنها، فيما تراعي، شأن الحجارة في قصر قديم، الرسم الذي سبق اختطاطه، كان ثمة على الدوام مياه جديدة تندفع فكانت إذ تبغي الانصياع لأوامر المهندس القديمة لا تنفذها بالدقة إلا حين تبدو وكأنها تنتهكها إذ تستطيع الآلاف من قفزاتها المبعثرة وحدها أن توليك من البعيد انطباعاً باندفاعة واحدة، وكانت هذه في الواقع متقطعه بمثل تواتر تبعثر سقتها في حين كانت بدت لي في البعيد لا تقبل اللّي كثيفة لا فجوة في تواليها. وكنت ترى من مسافة قريبة أن هذا اللا انقطاع، وهو في الظاهر خطيّ تماماً، إنما كانت توفره على جميع نقاط تصاعد نافورة موازية تفد إليها بانطلاقة جانبية وتصعد إلى نقطة أعلى من الأولى وبعدما تمضي بدورها إلى ارتفاع أعلى ولكنه مرهق لها كانت ثالثة تحل محلها. وعن قرب كانت بعض نقاط فقدت القوة تنثني ساقطة عن عمود الماء فتلتقي على دربها شقيقاتها الصاعدات فترفرف أحيانا ممزقة وقد علقت في دوامة هواء حركة هذا التفجر الذي لا يعرف الكلل، ترفرف قبل أن تهوي في الحوض. وقد كانت تعاكس، بصنوف ترددها ومسارها في الاتجاه العكسي وتحجب بضبابها اللين استقامة وتوتر هذا الجذع الذى يحمل من فوقه سحابة متطاولة تؤلفها آلاف من القطيرات ولكنها في الظاهر خُطت بلون رمادي مذهب لا يتحول وكانت ترتفع لا تَقَوّضَ فيها ثابتة مديدة سريعة لتنضم إلى سحب السماء. ولكن هبة ريح كانت كافية لسوء الحظ لتهوي بها في خط مائل إلى الأرض؛ بل إن محض نافورة متمردة كانت تغير أحياناً اتجاهها ولعلها كانت بللت حتى العظام الجمهور المتهور المتأمل لو لم يقف على مسافة كافية منها.

وقد وقع أحد تلك الحوادث التي ما كانت تقع إلا لحظة يهب النسيم فكانت مزعجة إلى حدما لقد أُوهِمت السيدة «دارباجون» بأن الدوق «دوغيرمانت» -ولم يكن وصل في الحقيقة- كان بصحبة السيدة «دوسورجيس» في الأروقة التي من رخام وردي والتي يبلغون إليها بطريق صف الأعمدة المزدوج المحفور في الداخل والذي ينطلق صعوداً من حافة الحوض. بيد أن هبة قوية من أنسام حارة لوت، في اللحظة التي كانت السيدة «دارباجون» تزمع فيها سلوك طريق أحد صفي الأعمدة، نافورة الماء وغمرت السيدة الجميلة غمراً تاماً إلى حد أنهل تبللت، والماء يتقطر من تدويرة الصدر داخل فسطانها، كما لو انها غطست في حوض استحمام. حينئذ دوى على مسافة غير بعيدة منها غمغمة موزونة قوية حتى ليستطيع سماعها جيش بأكمله وكانت تمتد بين الفينة والفينة كما لو أنها وجهت لا إلى مجمل القوات بل إلى كل قسم منها على التوالي؛ وكان الدوق الأكبر «ڤلاديمير»الذي كان يضحك بملء الفؤاد وهو يشهد تغطيس السيدة «دارباجون»، الأمر الذي كان أطرف ما شهده في حياته كلها، كما كان يحلو له أن يقول فيما بعد. وإذكان بعض الأشخاص من محبي الخير يلفتون الرجل المسكوبيّ إلى أن كلمة عزاء منه ربما كانت مستحقة وبعثت السرور في فؤاد هذه المرأة التي كانت، على الرغم من تمام سنيها الأربعين وفيما هي تتنشف بمنديلها دون أن تطلب معونة أحد تحاول التخلص على الرغم من الماء الذي يبلل بخبث حافة الحوض، ظن الدوق الأكبر، وكان على طيبة قلب، ظن من واجبه الامتثال، فتناهى إلى الأسماع ما إن كادت تهدأ آخر جلجلات ضحكته العسكرية هزيم آخر أشد عنفاً من الأول. كان يصرخ قائلاً وهو يصفق كأنما داخل المسرح:«مرحى أيتها العجوز»! ولم يرق للسيدة

«دارياجون» أن تمتدح مهارتها على حساب شبابها. ولما قال لها أحدهم وقد أصمه ضجيج الماء، مع أنه كان يغلب عليه صوت سيادته الراعد: «أعتقد أن سموه الامبراطوري قال لك شيئاً»، أجابت قائلة: «لا؛ كان ذلك موجهاً للسيدة «دوسوڤريه».

اجتزت الحدائق وصعدت الدرج حيث كان غياب الأمير الذي اختفى جانباً بصحبة «سوان» يزيد حول السيد «دوشارلوس» من جمهور المدعوين مثلما كان يتجمع عدد أكبر من الناس، لدى غياب لويس الرابع عشر عن «ڤيرساي»، في منزل «السيد» شقيقه. واستوقفني البارون وأنا أمر به فيما كان خلفي سيدتان وشاب يقتربون لتحيته.

وقال وهو يمد إليّ يده: «لطيف منك أن أراك هنا». «مساء الخير سيدة «دولاتريمواي»، مساء الخير يا عزيزتي «هيرميني». ولاشك أن تذكر ماسبق أن قاله لي حول دوره كرئيس في فندق آل «غيرمانت» كان يبعث فيه الرغبة في أن يبدو وكأنه يحس، تجاه ما كان يغضبه ولكنه لم يستطع أن يحول دونه، ارتياحاً أكسبه مابه من وقاحة السيد الكبير وتشتت هستيري، أكسبه في الحال شكلاً من السخرية المفرطة فأردف يقول: «لطيف منك ولكنما طريف جداً على وجه الخصوص». وأخذ يطلق قهقهات بدت وكأنها تبرز في الآن نفسه سروره وعجز الكلام البشري عن التعبير عنه، فيما أخذ بعض الأشخاص، وهم يعلمون كم كان عسير الملتقى ومهيأ «للفورات» الوقحة، يقتربون وبهم فضول ثم يطلقون سيقانهم للريح باستعجال يكاد يخلو من اللياقة. وقال لي وهو يلمس كتفي بلطف: «لا يسوؤك ذلك، فانك تعلم أني أودك. مساء الخير يا «أنتيوش»، مساء الخير «لوي رونيه»،. ثم سألني بنبرة توكيدية أكثر منها مساءلة: «هل ذهبت لرؤية النافورة؟ شيء جميل جداً، أليس كذلك؟ شيء رائع. بل ربما أمكن بالطبع أن يكون بعد أفضل بحذف بعض الأشياء، وليس إذ ذاك شيء يماثلها في فرنسه. ولكنها في وضعها الراهن في عداد أفضل الأشياء. سيقول لك «بريوتيه» إنهم أخطؤوا في وضع فوانيس ملونة في محاولة ينسى بها أنه هو صاحب الفكرة. ولكنه في النهاية لم يفلح إلا أقل القليل في «تقبيحها»، فانه لأصعب بكثير أن تشوه رائعة من أن تبدعها. وكنا ارتبنا منذاك قليلا بأن «بريوتيه» أقل اقتداراً من «هوبير روبير».

وعدت إلى صف الزائرين الذين كانوا يدخلون إلى الفندق. وسألتني الأميرة التي هجرت منذ قليل مقعدها في المدخل وكنت أصحبها في عودتها إلى الصالات: «هل مضى زمن طويل على لقائك ابنة عمي الشهية «أوريان»؟ وأضافت ربة البيت تقول: «لابد أن تجيء هذا المساء، فقد رأيتها بعد الظهر ووعدتني بذلك. أعتقد على أي حال أنك تتعشى مع كلينا لدى ملكة ايطاليه، يوم الخميس في السفارة. سوف يكون هناك كل ما أمكن من أصحاب السمو، وسيشيع ذلك الكثير من الرهبة». وما كان يمكن أن يرهبوا الأميرة «دوغيرمانت» التي كانت صالاتها تغص بهم والتي كانت تقول: «أعزائي من آل «كوبور» كما لعلها تقول «كلابي العزيزة». ولذلك قالت السيدة «دوغيرمانت»: «سيشيع ذلك الكثير من الرهبة» عن محض غباء وهو بين ناس المجتمعات راجح حتى على الغرور. فقد كانت فيما يخص أنسابها أقل علماً بها من حامل شهادة «الأستاذية» في التاريخ. أما فيما يتعلق بمعارفها فقد كانت تحرص أن تبدي أنها تعرف الألقاب التي اطلقت

عليهم. ولما سألتني الأميرة إن كنت سأتناول العشاء في الأسبوع التالي في منزل المركيزة «دولاپومليير» التي كثيراً ما كانوا يدعونها «لاپوم» صمتت على مدى لحظات بعد أن حصلت مني على جواب بالنفي. ثم أضافت قولها، دونما سبب آخر غير عرض مقصود لنزارة علمية غير مقصودة وتفاهة ومجاراة للروح السائدة: «إنها لامرأة على شيء من الإمتاع «لاپوم» !».

وفيما كانت الأميرة تتحدث إليّ كان الدوق والدوقة «دوغيرمانت» يهمان بالضبط بالدخول. لكني لم أستطع بادئ الأمر أن أبادر للقاءهما فقد تلقفتني زوجة سفير تركيا لدى مروري بها وصاحت وهي تدلني على ربة البيت التي تركتها منذ قليل، صاحت وقد أمسكت بذراعي: «ما أطيب الأميرة امرأةً؛ وأي كائن يفوق الجميع؛ يبدو لي أني لو كنت رجلاً»، تضيف قولها بشيء من السفالة والشهوانية الشرقيتين، «لوقفت حياتي لهذا المخلوق السماوى». وأجبت أنها تبدو لي فاتنة ولكنني كنت أكثر معرفة بالدوقة ابنة عمها. وقالت لي زوجة السفير: «ولكن ليس ثمة مقارنة البتة. إن «أوريان» امرأة مجتمع فاتنة تستمد نباهتها من «ميميه» و«بابال»، فيما «مارى جيلبير» شخصية مهمة».

لست شغوفاً البتة بأن يقال لي هكذا دون اعتراض الرأي الذي ينبغي أن أتخذه في أناس أعرفهم. ولم يكن ثمة سبب أي سبب كي يتيسر لزوجة سفير تركيا حكم على قيمة الدوقة «دوغيرمانت» أكثر صواباً من رأيي. ثم إن ما يفسر كذلك انزعاجي من زوجة السفير أن عيوب مجرد واحد من المعارف، بل حتى الصديق، إنما تؤلف بالنسبة إلينا سموماً حقيقية نحن لحسن الحظ محصنون ضدها بالتعود. ولنقل مع ذلك، دون أن نأتي بأدنى وسيلة لمقارنة علمية ودون التحدث عن العوار، ان ثمة في صميم علاقات الصداقة أو العلاقات المجتمعية البحتة عداء شفي مؤقتاً ولكنه يعاود على شكل نوبات. والمرء يعاني عادة القليل من هذه السموم مادام الناس «طبيعيين». لكن زوجة سفير تركيا، آن تقول «بابال» و«ميمية» لتشير إلى أناس لا تعرفهم، كانت توقف مفاعيل «تعود السموم» التي تجعلها عادة محتملة. فكانت تزعجني، والأمر يتزايد طابع الظلم فيه بقدر ما كانت تتحدث على هذا النحو لتفلح في حملك على الاعتقاد بأنها وثيقة الصلة بـ«ميمية» ولكن من جراء معرفة بالأمور عجولة تدفعها إلى تسمية هؤلاء السادة النبلاء وفق ما تعتقد أنه العرف في البلاد. فقد أنجزت دراستها في بضعة شهور ولم تتبع التسلسل الدراسي. ولكنني كنت أجد لانزعاجي في المكوث إلى جانب زوجة السفير، وأنا أعمل الفكر فيه، سبباً آخر. فلم يكن مضى زمن طويل منذ قالت لي هذه الشخصية الدبلوماسية في منزل «أوريان» بمظهر محفز جاد إن الأميرة «دوغيرمانت» كانت صراحة ثقيلة الظل. ورأيت حسناً أن لا أتوقف عند هذا الانقلاب، فإنما جاءت به الدعوة إلى حفلة هذا المساء. لقدكانت زوجة السفير صادقة تمام الصدق ساعة تقول لي إن الأميرة «دوغيرمانت» مخلوق رائع، وقد اعتقدت ذلك على الدوام. ولما لم تُدع البتة إلى الآن إلى منزل الأميرة فقد ظنت من واجبها أن تعطي هذا النوع من غياب الدعوة شكل امتناع طوعي قائم على مبادئ. أما الآن وقد دعيت وستظل منذ الأن مدعوة على الأرجح فقد أضحى بمقدورها التعبير بحرية عن ودادها. فليس ثمة حاجة، كما نفسر ثلاثة أرباع الآراء التي نبديها في الناس، أن نذهب إلى حد خيبات الحب، إلى حد الاستبعاد من السلطة السياسية. فالحكم يظل معلقاً وإنما تحدده دعوة رفضت أو قبلت. وزوجة سفير تركيا على أية حال «كانت تقع موقعاً حسناً» كما كانت تقول الدوقة

«دوغيرمانت» التي تولت معي تفتيش الصالات. لقد كانت على وجه الخصوص مفيدة جداً. إن نجمات المجتمع الحقيقيات يمللن الظهور فيه. ومن كان راغباً في رؤيتهن عليه في الغالب الهجرة إلى نصف كرة آخر حيث يكن وحيدات تقريباً. ولكن مثيلات زوجة السفير العثماني، وهن كلهن حديثات العهد في دنيا المجتمعات، فلا يكففن عن التألق فيها وفي كل مكان في الآن نفسه إن جاز القول. وهن مفيدات في أنواع التمثيليات تلك المدعوة أمسية أو حفلة راقصة وحيث يفضلن أن يجرجرن محتضرات على أن تفوتهن الحفلة. إنهن الممثلات الصامتات اللواتي يمكن دوماً الاعتماد عليهن، المندفعات كي لا يفوتهن احتفال. لذلك يبصر الشبان الأغبياء فيهن، إذ يجهلون أنهن نجمات مزيفات، ملكات للأناقة في حين لابد من درس كي يوضح لهم بموجب أية أسباب تبدو السيدة «ستانديس» التي يجهلونها والتي ترسم مساند بعيداً عن العالم، تبدو على الأقل سيدة بمثل مرتبة الدوقة«دو دودوڤيل».

كانت عينا الدوقة «دوغيرمانت» في نطاق الحياة العادية ساهيتين وبهما شيء من الحزن. كانت تجعل فيهما فحسب التماع ألق روحي في كل مرة يقع عليها أن تحيي صديقاً كما لو كان بالضبط إحدى لطائف الكلام أو نكتة ممتعة أو أطايب لجماعة مرهفة خلف تذوقها على وجه الذواقة مسحة من رقة وابتهاج، ولكنها كانت ترى، بخصوص الأمسيات الكبيرة وإذ يقع عليها إلقاء فرط من التحيات أنه ربما أرهقها أن تطفئ في كل مرة النور بعد كل واحدة منها. ومثلما ذواقة الأدب، حين يمضي إلى المسرح ليشهد جديد أحد أربابه، مثلما يبدي من يقين من أنه لن يقضي أمسية تعيسة إذ يكون قد هيأ شفته، وهو يسلم حاجاته للعاملة، لابتسامة بادية الذكاء وأذكى نظرته من أجل موافقة ساخرة، هكذا كانت الدوقة توقد، حال وصولها، على امتداد كامل الأمسية. وفيما كانت تسلم معطفها المسائي، وهوأحمر رائع من حمرة «تييولو» وقد أفسح المجال لرؤية غل حقيقي من الياقوت الأحمر يحتبس عنقها، وبعدما ألقت على فسطانها تلك النظرة الأخيرة السريعة، نظرة الخياطة الدقيقة المكتملة وهي نفسها نظرة امرأة المجتمعات، تأكدت «أوريان» من بريق عينيها بما لا يقل عن مجوهراتها الأخرى. وعبثا سارعت بعض «الألسنة الخيرة» من أمثال السيد «دوجوڤيل» إلى الارتماء على الدوق لمنعه من الدخول:«أفتجهل إذن أن «ماما» المسكين يشرف على الموت؟ لقد منح الأسرار المقدسة منذ قليل». وأجاب السيد «دوغيرمانت» وهو يبعد الرجل المزعج عن دربه ليدخل:«أعرف، أعرف. إن القربان الأخير قد جاء بأعظم الأثر»، يضيف قوله وهو يبتسم ابتهاجاً بفكرة الحفلة التي قرر أن لا تفوته في أعقاب أمسية الأمير. وقالت لي الدوقة:«ما كنا نريد أن يعلم الناس أننا عدنا. وما كانت ترتاب بأن الأميرة سبق أن أبطلت صحة هذا القول حينما روت لي أنها شاهدت لفترة وجيزة ابنة عمها التي وعدتها بالمجيء. وقال الدوق بعد نظرة طويلة حط بها، على مدى خمس دقائق، ثقيلة على امرأته:«لقد حكيت لـ«أوريان» عما ساورك من شكوك». وصرحت أنها غير معقولة وقد تبينت الآن أنها لا أساس لها وأنه لا يقع عليها أي مسعى تقوم به لمحاولة تبديدها فمازحتني طويلاً:«أية فكرة هذه أن تظن أنك غير مدعو؛ الدعوة قائمة على الدوام. ثم إني أنا هناك. أفتظن أني ماكنت قادرة على أن تدعى إلى منزل ابنة عمي؟» ولابد أن أقول إنها كثيراً ما فعلت فيما بعد من أجلي أموراً تتجاوزها كثيراً في الصعوبة. بيد أني احترست من أخذ كلامها بما يعني أني كنت قد بالغت في التحفظ. فقد شرعت أعرف القيمة الصحيحة للغة المنطوقة أو الصامتة الصادرة عن اللطافة

الارستقراطية، هذه اللطافة التي يسعدها سكب البلسم على الشعور بالدونية الذي يحسه أولئك الذين توجه إليهم دون أن يبلغ بهم أن يبددوه إذ لعلها تكون فقدت إذ ذاك سبب وجودها. فقد كان يبدو أن آل «غيرمانت» يقولون عبر أفعالهم جميعاً:«ولكنك ند لنا إن لم تكن أكثر» ، ويقولونه بأكثر ما يمكن تصوره من لطف من أجل أن يحبهم الناس ويعجبوا بهم، لامن أجل أن يصدقوهم. فأن يكشف الناس الطابع الوهمي لذاك اللطف، ذلك ما كانوا يدعونه حسن التهذيب؛ وأما الاعتقاد بحقيقة اللطف فذلك هو سوء التهذيب. وقد تلقيت على أي حال بعد قليل من ذلك درساً أطلعني في النهاية بأتم الدقة على امتداد وحدود بعض أشكال اللطف الارستقراطي. وكان ذلك في أثناء حفلة بعد الظهر أقامتها الدوقة «دومونمورانسي» على شرف ملكة انكلتره؛ وتشكل ضرب من الموكب الصغير للتوجه إلى المائدة المفتوحة وكانت الملكة تسير في المقدمة وقد أخذ بذراعها الدوق «دوغيرمانت» . ووصلت في تلك اللحظة. ولوح الدوق بيده الطليقة من مسافة أربعين متراً على الأقل، لوح لي بألف إشارة دعوة ووداد كان يبدو أنها تقول بالامكانية المتاحة لي للتقدم دونما تهيب وانني لن أُلتهم نيئاً بدلاً من السندويتشات. ولكنني، وقد بدأت أبلغ الكمال في لغة البلاط، قمت بدلاً من الاقتراب حتى خطوة واحدة بانحناءة كبيرة من مسافة الأربعين متراً التي أقف فيها، ولكن دون أن أبتسم، كما لعلني فعلت في حضرة من أكاد لا أعرفه، ثم تابعت المسير في الاتجاه المعاكس. ولو أني كتبت رائعة أدبية لكرمني آل «غيرمانت» لذلك أقل مما يفعلون لهذه التحية. فلم تمر دون أن يلحظها الدوق مع أنه انبغى له أن يجيب أكثر من خمس مئة شخص، وليس ذلك فحسب بل دون أن تلحظها الدوقة التي التقت والدتي فروت لها عن ذلك وتحاشت تماماً أن تقول لها إني كنت على خطأ وإنه كان عليّ أن اقترب فقالت لها إن زوجها قد فتنته تحيتي وإنه يستحيل تضمينها أموراً أكثر. ولم يكفوا عن إيجاد كل المزايا لهذه التحية دون أن يذكروا مع ذلك الميزة التي بدت من أكثرها ثمناً، عنينا أنها كانت متكتمة، ولم يكفوا كذلك عن توجيه المديح لي وقد فهمت منه أنه كان مكافأة على الماضي أقل منه توجيهاً للمستقبل على نحو ذاك الذي يزود به مدير معهد تربوي طلابه بصورة رقيقة: «لاتنسوا، أيها االأبناء الأعزاء، أن هذه الجوائز لأهليكم أكثر مما هي لكم وذلك من أجل أن يعيدوكم في العام القادم». ومن ذلك أن السيدة «دومارصانت» كانت، حينما يدخل وسطها فرد من عالم مختلف، تمتدح في حضرته الناس المتكتمين «الذين تلقاهم حينما تذهب بحثاً عنهم ويعملون على أن تنساهم باقي الوقت» ، مثلما يُبلّغ على نحو غير مباشر خادم كريه الرائحة أن عادة الاستحمام ممتازة للصحة.

وفيما كنت أتحدث إلى السيدة «دوغيرمانت» حتى قبل أن تكون غادرت الردهة سمعت صوتاً من نوع كان لابد أن أميزه في المستقبل دون إمكان الوقوع في الخطأ. وكان في هذه الحالة الخاصة صوت السيد «دوڤوغوبير» يتحدث إلى السيد «دوشارلوس» . فليس يحتاج الطبيب السرير حتى أن يرفع المريض الموضوع تحت الملاحظة قميصه أو أن يستمع للتنفس، فالصوت يكفي. وكم مرة أدهشتني في إحدى الصالات نبرة هذا الرجل أو ضحكته مع أنه ينقل نقلاً دقيقاً لغة مهنته أو تصرفات الوسط الذي ينتمي إليه فيتصنع تأنقاً صارماً أوبذاءة أليفة، ولكن صوته الزائف كان كافياً لينقل:«إنه من أمثال شارلوس» إلى أذني المتمرسة كما هو منغام ضابط الأنغام ! وفي تلك اللحظة مرّ موظفو إحدى السفارات جميعهم وحيوا السيد «دوشارلوس» . ومع أن

اكتشافي لنوع المرض المعني إنما يعود فقط لليوم نفسه (الذي أبصرت فيه السيد «دوشارلوس» و«جوبيان») فلعلي ماكنت بحاجة، كيما أقدم تشخيصاً، إلى طرح الأسئلة والاستماع بالأذن. ولكن السيد «دوفوغوبير» في حديثه إلى السيد «دوشارلوس»بدا محيراً، مع أنه كان ينبغي أن يعلم حقيقة الأمر بعد تريبات المراهقة. يظن الشاذ أنه من نوع وحيد في العالم، وفيما بعد فقط يتخيل –وهو غلو آخر– أن الاستثناء الوحيد هو الرجل الطبيعي. ولكن السيد «دوفوغوبير» الطموح الخواف لم يكن قد انصرف منذ فترة طويلة إلى ما لعله كان المتعة في نظره. فقد كان للسلك الديبلوماسي في حياته أثر الدخول في سلك الرهبنة. وإذ امتزج بالمثابرة على الدوام في مدرسة العلوم السياسية فقد وقفه منذ سنيه العشرين على عفة المسيحيين. ومثلما تفقد كل حاسة من قوتها وحيويتها وتضمر حين لا تستخدم من بعد، كان السيد «دوفوغوبير»، مثله مثل الرجل المتحضر الذي لا يقوى من بعد على تمارين القوى ولاعلى السمع المرهف الذي يميز رجل الكهوف، قد فقد نفاذ البصيرة الخاص الذي قل أن يخطئ لدى السيد «دوشارلوس». ولم يعد الوزير المطلق الصلاحيات قادراً، على الموائد الرسمية، إن كان في باريس أو البلاد الأجنبية، حتى على تعرف من كانوا تحت قناع البزة الرسمية، أشباهه أصلاً. وقد أثارت بعض أسماء نَطق بها السيد «دوشارلوس»، وبه حنق إن ذكر فيما يخص ميوله ولكنه دائم الغبطة في فضح ميول الآخرين، أثارت في نفس السيد «دوفوغوبير» استغراباً لذيذاً لا لأنه فكر بعد هذه السنين الكثيرة في الإفادة من أية فرصة سانحة. ولكن هذه الكشوفات السريعة، الشبيهة بتلك التي تنبئ «آتالي» و«أبنير» في مسرحيات «راسين» أن «جواس» من نسل داوود وأن لـ«ايستير» الجالسة فوق الأرجوان أبوين يهوديين، وإذ تغير مظهر مفوضية س..... أو هذه الدائرة في وزارة الخارجية، كانت تجعل تلك القصور باسترجاع الماضي بمثل غموض معبد القدس أو قاعة العرش في «سوزا». وإزاء هذه السفارة التي أقبل موظفوها الشباب برمتهم ليشدوا على يد السيد «دوشارلوس» اتخذ السيد «دوفوغوبير» الهيئة المفتونة التي تتخذها «ايليز» وهي تصرخ قائلة في مسرحية «ايستير»:

«يا الله! أي سرب كبير من الحسناوات البريئات

يبرز حاشداً لناظري ويتوارد من كل جانب!

وأي خفر محبب يرتسم على محياهن!

وإذ كان راغباً في «اطلاع» أوفر ألقى على السيد «دوشارلوس» وهو يبتسم نظرة بلهاء في تساؤلها شهوانية، فقال السيد «دوشارلوس» بهيئة العالم المتبحر الذي يحدث جاهلاً :«ويحك!، بالطبع». وفي الحال لم يعد السيد «دوفوغوبير» يحول ناظريه بعيداً عن هؤلاء الأمناء الشباب (وهو ماأزعج السيد «دوشارلوس» كثيراً)، ولم يكن سفير س. في فرنسه اختارهم كيفما اتفق. كان السيد «دوفوغوبير» صامتاً ولا أرى سوى نظراته. ولما تعودت منذ الطفولة أن ألبس حتى ماكان صامتاً لغة الكلاسيكيين فقدكنت أحمل عيني السيد «دوفوغوبير» ماتقوله الأبيات التي توضح بها «ايستير» لـ«إيليز» أن «مردخاي» حرص، غيرة منه على دينه، أن لا يضع لدى الملكة سوى فتيات ينتمين إليه :

ولكن حبه لأمتنا

عمر هذا القصر ببنات صهيون

هذه الزهرات الفتية الغضة التي يحركها القدر

والتي نُقلت وزرعت مثلي تحت سماء غريبة.

وفي مكان بعيد عن أعين الشهود

يصرف(أي السفير الممتاز) في تربيتهن بحثه واهتماماته.

وأخيراً تكلم السيد «دوڤوغوبير» بغير نظراته، وقال بلهجة حزينة:«من ذا يعلم إن لم يكن الشيء ذاته موجوداً في البلد الذي أقيم فيه؟» وأجاب السيد «دوشارلوس» قائلاً:«ذلك محتمل، بدءاً بالملك «تيودوز»، مع أني لا أعرف أي شيء إيجابي حوله». –«أوه؛ لاشيء من هذا على الإطلاق»؛ –«ليس مسموحاً إذاً أن يبدو ذلك عليه إلى هذا الحد. وهو يتصنع بعض الحركات. إنه من نوع «ياعزيزتي»، النوع الذي أمقته أكثر ماأمقت. ولعلني لا أجرؤ على الظهور معه في الشارع. ولابد على أية حال أنك تعرف تمام المعرفة ماهو أمره، فإنه معروف كما هي حال الذئب الأبيض». –«إنك مخطئ تماماً حوله، وهو بأي حال ظريف. ففي اليوم الذي وقع فيه الاتفاق مع فرنسه بادر الملك إلى تقبيلي، في يوم بمثل تأثري». –«كانت اللحظة مناسبة لتقول له ما كنت راغباً فيه». –«آه؛ ياإلهي، ياالهول الأمر لو ساوره محض شك! ولكنما لا يداخلني خوف بهذا الشأن». وقد سمعت هذه الكلمات لأنني كنت غير بعيد وقد حملتني على أن أقرأ على نفسي داخل فكري:

«إن الملك يجهل حتى هذا اليوم من أكون،

وإن هذا السر يكبل على الدوام لساني».

لم يدم هذا الحوار، ونصفه صامت والنصف جهري، إلا لحظات قليلة ولم أكن بعد قمت إلا ببضع خطوات في الصالات بصحبة الدوقة «دوغيرمانت» حينما استوقفتها سيدة سمراء قصيرة بالغة الجمال:«أود كثيراً أن أراك. لقد أبصرك «دانونريو» من إحدى المقصورات وسطر للأميرة «دوت..» كتاباً يقول فيه إنه لم ير في يوم ماكان بمثل هذا الجمال. وإنه ليبذل حياته كلها في مقابل عشر دقائق من حديث يجريه معك. والكتاب في جميع الأحوال في حوزتي، حتى إن لم تستطيعي أو تشائي ذلك. لابد أن تحددي لي موعداً، فثمة بعض أمور سرية لا أستطيع قولها هنا». وأضافت توجه الحديث إليّ:«أرى أنك لاتتعرفني؛ لقد عرفتك في منزل الأميرة «دوبارما» (ولم أكن ذهبت إلى منزلها في يوم). يود امبراطور روسيا أن يجري إرسال والدك إلى «بيترزبورغ». لو أمكنك المجيء يوم الثلاثاء، فـ«إيڤولڤسكي» سيكون بالضبط هناك، وسوف يتحدث وإياك في الأمر». وأضافت تقول وقد استدارت صوب الدوقة:«عندي هدية سأقدمها لك أيتها العزيزة وماكنت أقدمها لسواك. إنها مخطوطات لثلاث مسرحيات لـ«إيبسن» حمّلها ممرضه العجوز إليّ. سأحتفظ بواحدة وأعطيك

الاثنتين الأخريين».

ولم يهلل الدوق «دوغيرمانت» لهذه العروض، فقد أخذ يرى، وهو غير متأكد إن كان «إيبسن» أو «دانونريو» قد قضيا أم هما حيان يرزقان، كتاباً ومسرحيين يقبلون على زيارة امرأته وإدخالها في مؤلفاتهم. ورجال المجتمعات يحلو لهم تصور الكتب بمثابة ضرب من المكعب نزِع أحد وجوهه إلى حد أن المؤلف يسارع إلى «إدخال» الأشخاص الذين يلتقيهم إلى داخله. ذلك بالطبع مناف للنزاهة وماكان هؤلاء إلا من قليلي الذمة. صحيح أنه قد لا يكون من المزعج أن تراهم «في معرض الحديث» لأننا نعرف بفضلهم، إن قرأنا كتاباً أو مقالة، «الجانب الآخر من ورق اللعب» ويمكننا «نزع الأقنعة». ولكنما الأوفر حكمة، على الرغم من كل شيء، أن نكتفي بالمؤلفين الأموات. كان السيد «دوغيرمانت» يرى أن السيد الذي يضع قسم الموتى في صحيفة «الغالي»(le Gaulois) كان وحده «لائقاً تماماً». فقد كان هذا يكتفي على الأقل بذكر اسم السيد «دوغيرمانت» في رأس قائمة الأشخاص الذين برزوا «بصورة خاصة» في الجنازات التي تسجل فيها الدوق. وحينما كان يفضل أن لا يظهر اسمه كان يبعث بكتاب تعزية إلى أسرة المتوفى يؤكد لهم فيه مشاعره الحزينة جداً. فإن طلبت تلك الأسرة أن يوضع في الصحيفة:«نذكر من بين الرسائل الواردة رسالة الدوق «دوغيرمانت»، الخ..» فما كان ذلك خطأ المخبر الصحفي، بل خطأ ابن المتوفاة أوشقيقها أو والدها الذين يصفهم الدوق بالوصوليين ويقرر مذ ذاك أن لاتكون له علاقات بهم (وما كان يدعوه، وهو لا يعلم بالدقة معنى التراكيب، «قشة يقاسمهم إياها»)[1]. ومهما يكن من أمر فإن اسمي «إيبسن» و«دانونزيو» والشك في كونهما على قيد الحياة جعلت الدوق يقطب حاجبيه، ولم يكن بعد على بعد كاف منا كي لا يكون سمع صنوف اللطف المختلفة التي جادت بها السيدة «تيموليون دارمنكور». لقد كانت امرأة فاتنة ذات ظرف، على غرار جمالها، رائع حتى لكان أحد الاثنين أفلح وحده في الإمتاع. ولكنها، إذ ولدت خارج الوسط الذي كانت تعيش فيه الآن، ولما لم تطمح بادئ الأمر إلا إلى منتدى أدبي وكانت على التوالي وعلى نحو حصري صديقة -لاعشيقة، فقد كانت طاهرة الأذيال -كل كاتب كبير كان يعطيها مخطوطاته كافة ويؤلف لها كتباً، وإذ أدخلتها المصادفة حيّ «سان جيرمان» فقد ساعدتها تلك الامتيازات الأدبية هناك. لقد كانت الآن في وضع لا يقع عليها فيه أن توزع من النعم سوى تلك التي يدفقها حضورها من حولها. ولكنها إذ تعودت فيما مضى لباقة التعامل والمناورات والخدمات الواجب إسداؤها فقد واظبت على تلك الأمور مع أنها لم تعد لازمة. كان لديها على الدوام سر من أسرار الدولة تكشفه لك وعاهل تعرفك به ومائية لأحد أرباب الفن تقدمها لك. كان ثمّة بالتأكيد في سائر تلك المغريات اللامجدية شيء من الكذب ولكنها كانت تجعل من حياتها مسرحية هازلة متلألئة التعقيد وصحيح أنها كانت تسهم في تعيين المحافظين والألوية.

كانت الدوقة «دوغيرمانت»، فيما تمشي إلى جانبي، تدع لضياء عينيها اللازوردي أن يسبح أمامها، إنما في الفراغ، كي تتجنب أناساً تحرص أن لا تقيم علاقات معهم وكانت تكشف من بعيد أحياناً ما يتهددها من خطر. كنا نتقدم عبر سياج مزدوج من المدعوين كانوا يودون على الأقل، وهم يعلمون أنهم لن يعرفوا «أوريان» في يوم، أن يدلوا امرأتهم عليها وكأنما على أمر غريب:«هيا يا «أورسول»، هيا أسرعي لتري

(١) avoir maille's Partir دخل في نزاع، تنازع من أجل أمر طفيف، والتلاعب بالألفاظ واضح في الفرنسية ويصعب ردّه في العربية.

السيدة «دوغيرمانت» تتحدث إلى هذا الشاب». وكنت تحس أنه لايفصلهم الكثير عن اعتلاء الكراسي ليشاهدوا بشكل أفضل، على نحو ما يجري في استعراض ١٤ تموز (يوليو) أو في سباق الجائزة الكبرى. وليس يعني ذلك أن الدوقة «دوغيرمانت» تملك صالة أكثر ارستقراطية من ابنة عمها. فقد كان يتردد إلى منزل الأولى أناس ماكانت الثانية لترضى بدعوتهم في يوم، بسبب زوجها على وجه الخصوص. فما كانت لتستقبل في يوم السيدة «ألفونس دوروتشليد»، وهي صديقة حميمة للسيدة «دولاتريمواي» والسيدة «دوساغان»، كما هي حال «أوريان» نفسها، وتتردد كثيراً على منزل هذه الأخيرة. والأمر واحد أيضاً فيما يخص البارون «هيرش» الذي صحبه الأمير «دوغال» إلى منزلها وليس إلى منزل الأميرة التي كان ساء في عينها؛ وهو كذلك أمر بعض كبار المشاهير «البوناپرتيين» أو حتى الجمهوريين الذين كانوا يثيرون اهتمام الدوقة ولكن الأمير، وهو ملكي ثابت القناعة، ماكان ليرضى باستقبالهم. ولما كان عداؤه للسامية مبدئياً فلم يكن يلين إزاء أية أناقة مهما لاقت قبولاً، ولئن كان يستقبل «سوان» الذى كان صديقاً له على الدوام، وهو بأية حال «الغيرمانتي» الوحيد الذي يدعوه «سوان» وليس «شارل» فلأنه كان يعلم أن جدة «سوان»، وهي بروتستانتية زوجت يهودياً، كانت عشيقة الدوق «دوبيرى» فيحاول بين الحين والحين أن يؤمن بالأسطورة التي تجعل من والد «سوان» الابن غير الشرعى للأمير. وماكان «سوان»، ضمن هذه الفرضية، وهو ابن كاثوليكي هو نفسه ابن أحد آل «بوربون» وأم كاثوليكية، ماكان به شيء إلا مسيحياً.

قالت لي الدوقة وهي تحدثني عن الفندق الذي كنا فيه:«كيف ذلك؟ ألست تعرف هذه الروائع؟ ولكنها بعدما امتدحت «قصر» ابنة عمها سارعت تضيف أنها تفضل ألف مرة «جحرها المتواضع». «ههنا شيء رائع «للزيارة»، ولكني كنت أموت غماً لو انبغى أن أبقى لقضاء الليلة في حجرات كانت مسرحاً لكثير من الأحداث التاريخية. فربما خيل إليّ أنني بقيت بعد ساعة الإغلاق ونسيت في قصر «بلوا» أو «فونتينيلو» أو حتى «اللوفر» ولاحيلة لي من بعد ضد الحزن إلا أن أقول في نفسي إنّني في الحجرة التي اغتيل فيها «مونالدسكي»، وذلك غير كاف لهضم مثل هذه المصيبة، عجباً، هي ذي السيدة «دوسانتوفيرت». لقد تناولنا تواً طعام العشاء في منزلها. وظننت، بما أنها تقيم في غد آلتها السنوية الكبرى، أنها ربما بادرت إلى النوم. ولكنها لاتستطيع تفويت حفلة. ولو أن هذه أقيمت في خارج المدينة لفضلت أن تكون استقلت عربة نقل أثاث على أن لا تكون حضرتها.

والواقع أن السيدة «دوسانتوفيرت» جاءت هذا المساء كيما تضمن نجاح حفلتها وتجند آخر المنتسبين وتستعرض في آخر لحظة نوعاً ما القوات التي ستأخذ في الغد بالتحرك بصورة رائعة في حفلتها الراقصة في الحديقة أكثر منها من أجل متعة أن لا تفوتها حفلة لدى الآخرين. ذلك أنه منذ عدد لايستهان به من السنين لم يعد المدعوون إلى حفلات «سانتوفيرت» ذات من كانوا فيما مضى يفدون إليها. فالوجيهات من وسط آل «غيرمانت»، وما أندرهن آنذاك، أخذن يجئن شيئاً فشيئاً بصديقاتهن -بعد أن غمرتهن ربة البيت بالمجاملات-. أما السيدة «دوسانتوفيرت» فقد عملت، بحركة موازية في تدرجها ولكن في الاتجاه المعاكس، على أن تقلص سنة فسنة عدد الأشخاص المجهولين في مجتمع الأناقة. فقد كفوا عن رؤية هذا، ثم ذاك. فقد عمل نظام

«الخبزات» وقتاً ما، وكان يسمح، بفضل حفلات تكتم أخبارها، بدعوة المنبوذين إلى المجيء للهو فيما بينهم، ويعفيك ذلك من دعوتهم مع القوم المحترمين. وم يمكن أن يشتكوا؟ أفليس لديهم (panem et cir-censes)[١] حلوى محمصة وبرنامج موسيقي حافل؟ لذلك ما عدت ترى، وعلى نحو متناظر نوعاً ما مع الدوقتين المنفيتين اللتين شوهدتا فيما مضى، حينما بوشر بصالة «سانتوفيرت»، تحملان شأن تمثالي «كرياتيد»[٢] قمتها المتداعية، ماعدت ترى في هذه السنوات الأخيرة سوى شخصين يخالفان الجنس الغالب هما السيدة «دوكامبرمير» العجوز وامرأة مهندس ذات صوت جميل يضطرون في الغالب إلى مطالبتها بالغناء. ولكنهما تبدوان، إذ لا تعرفان أحداً من بعد في منزل السيدة «دوسانتوفيرت» وتبكيان من فقدتا من رفيقاتهما وتحسان أنهما سبب ضيق للآخرين، وكأنما أوشكتا على الموت برداً شأن سنونوتين لم تهاجرا في الوقت المناسب. لذلك لم تدعيا في السنة التالية. وحاولت السيدة «دوفرانكتو» القيام بمسعى في صالح ابنة عمها التي تحب الموسيقى حباًجماً. ولما لم تستطع أن تحصل لها على جواب أكثر وضوحاً من هذه الكلمات: «بوسع المرء على الدوام أن يدخل لسماع الموسيقى إن يحل له فليس في الأمر جريمة!»، فلم تر السيدة «دوكامبرمير» أن في الدعوة ما يكفي من إلحاح وامتنعت.

كان بوسعك أن تعجب، ومثل هذا التحول الذي أجرته السيدة «دوسانتوفيرت» على صالة بُرّص قلبتها صالة سيدات راقيات (هي الصيغة الأخيرة الشديدة الأناقة في ظاهرها التي اتخذتها)، من أن الشخص الذي كان يقيم في الغد الحفل الأكثر تألقاً في الموسم كان بحاجة إلى المجيء في العشية ليوجه نداء أخيراً لقواته. ذلك لأن أفضلية صالة «سانتوفيرت» لم تكن قائمة إلا بالنسبة إلى من قوام حياتهم المجتمعية مجرد قراءة خلاصة حفلات العصر والمساء في صحيفتي «لو غولوا» أو «لو فيغارو» دون أن يكونوا ذهبوا في يوم إلى أي منها. فقد كان يكفي هؤلاء المجتمعيين الذين لا يشاهدون المجتمع إلا عبر الصحيفة تعداد زوجات سفراء انكلتره والنمسا، الخ.. ودوقات «أوزيس» و«لاتريمواي» الخ.. الخ.. كي يتخيلوا تلقائياً صالة «سانتوفرت» بمثابة الأولى في باريس بينما هي في عداد الأخيرات. وليس يعني ذلك أن البيانات كانت كاذبة، فمعظم الأشخاص المذكورين كانوا حاضرين فعلاً، ولكن كلا منهم جاء على إثر توسلات ومجاملات وخدمات وبه شعور من يولي السيدة «دوسانتوفيرت» أعظم الشرف. إن مثل هذه المنتديات، والناس أقل سعياً إليها مما يتهربون منها وإليها يمضون، إن جاز القول، كأنما في مأمورية، لا توهم إلا قارئات «أخبار المجتمع». فهن يمررن مرور الكرام على حفلة هي بالحقيقة أنيقة وفيها لا نطلب ربة البيت، وإنها لتستطيع إحضار الدوقات جميعاً وهن يتحرقن إلى أن يكن «في عداد المختارين»، إلا حضور اثنتين أو ثلاث ولا تشير بوضع أسماء مدعويها في الصحيفة. ولذلك فإن هؤلاء النساء اللواتي يتجاهلن أو يزدرين السلطان الذي يتمتع به الإعلان في يومنا أنيقات في نظر ملكة اسبانيا ومجهولات من جانب الجمهور لأن الأولى تعلم والثاني يجهل من هن.

لم تكن السيدة «دوسانتوفيرت» في عداد هاتيك النساء، بل كانت تُقبل، جانية مجدة، تجمع للغد كل ما كان مدعواً. ولم يكن السيد «دوشارلوس» مدعواً فقد رفض على الدوام الذهاب إلى منزلها. ولكنه كان

(١) وردت باللاتينية في متن النصّ وتعني: الخبز والعروض المسليّة.
(٢) هي أعمدة على هيئة نساء منحوتة في معبد صغير على هضبة الأكروبوليس في أثينا.

على خلاف مع عدد كبير من الناس إلى حد أن السيدة «دوسانتوفيرت» كانت تستطيع رد ذلك إلى طباعه.

ولو لم يكن ثمة سوى «أوريان» لوسع السيدة «دوسانتوفيرت» بالتأكيد أن لا تزعج نفسها بما أن الدعوة وُجهت مشافهة وقُبلت بأية حال بطيبة الخاطر الرائعة المضللة التي يبرز فيها أعضاء المجامع أولئك الذين يغادرهم المرشح متأثراً غير مرتاب بأنه يسعه الاعتماد على صوتهم. لكنها لم تكن الوحيدة هناك. فهل يجيء الأمير «داغريجانت» ؟ وهل تفعل السيدة «دو دورفور» ؟ لذلك ظنت السيدة «دوسانتوفيرت» ، بداعي الاحتراس، أن الأيسر لها أن تنتقل بذاتها. كانت ملاحة مع بعضهم وآمرة مع الآخرين وتعلن للجميع بكلمات مبطنة عن تسليات لا تخطر ببال ولن تتوفر رؤيتها مرة ثانية، وتعد كلاً منهم أنه واحد عندها الشخص الذي يرغب في لقائه أو الشخصية التي يحتاج لقاءها. كانت تلك الوظيفة التي تولاها مرة في العام -على نحو بعض وظائف القضاء في العالم القديم -وظيفة الشخص الذي سيقيم في الغد أضخم احتفال موسمي في الهواء الطلق توليها سلطة وقتية. كانت لوائحها قد وضعت وأقفلت، الأمر الذي يكسبها، فيما تطوف في صالات الأميرة على مهل كي تسكب في كل أذن:«لاتنسني في الغد»، مجداً عابراً قوامه أن تشيح بعينيها وهي توالي ابتساماتها إن هي لمحت امرأة قبيحة لابد من تجنبها أو نبيلاً ريفياً حكمت رفقة الدراسة بقبوله في منزل «جيلبير» ولن يضيف حضوره احتفالها شيئا إليه. كانت تفضل أن لا تتحدث إليه كي يمكنها أن تقول فيما بعد: «لقد وجهت دعواتي شفاهاً ولم ألتق بك لسوء الحظ». وهكذا كانت تقوم، وهي«سانتوفيرت» لا أكثر، بعينيها المتفحصتين بعملية انتقائية في تركيبة أمسية الأميرة، وتظن بفعلتها هذه أنها دوقة حقيقية من آل «غيرمانت».

ولابد أن نقول إن هذه لم تكن تملك بدورها، وبقدر مانظن، حرية توجيه تحياتها وابتساماتها. وليس من شك أنها كانت، حينما ترفض توجيهها، إنما تفعل في قسم منها بملء إرادتها، فتقول: «ولكنها تزعجني، فهل يقع عليّ أن أكلمها عن أمسيتها على مدى ساعة ؟».

وأبصرنا دوقة شديدة السواد تمر وكان قبحها وبلاهتها وبعض انحرافات سلوكية قد أقصتها لاعن المجتمع، بل عن بعض الدوائر الحميمة الأنيقة. وهمست السيدة «دوغيرمانت» بنظرة الخبير الصائبة غير المتوهمة إذ تعرض عليه حلية مزيفة: «عجباً؛ يستقبلون صنفاً كهذا هنا!» كانت السيدة «دوغيرمانت» تقيس القيمة الضحلة لهذه الأمسية منطلقة من مجرد رؤية السيدة نصف العايبة والتي يزدحم وجهها بفيض من تحببات شعور سوداء. لقد سبق أن نالت قسطها من التهذيب ولكنها قطعت كل علاقاتها بهذه السيدة ولم تردّ لها تحيتها إلا بإشارة من رأسها من أكثرها جفاء. وقالت لي كأنما لتعتذر: «لست أفهم أن تدعونا «ماري جيلبير» مع كل هذه الحثالة. بوسعنا أن نقول إنه تجمع ههنا من سائر الرعايا. لقد كان الأمر أفضل ترتيباً لدى«ميلاني بورتاليس». كان بمقدورها أن تستقبل في بيتها المجمع المقدس[1] وجماعة معبد المصلى[2] إن حلا لها ذلك ولكنهم كانوا على الأقل لا يستقدموننا في تلك الأيام». لكنما كان ذلك، في نظر الكثيرين، بداعي الوجل ومخافة شجار مع زوجها الذي ماكان يريد أن تستقبل فنانين، الخ.. (كانت «ماري – جيلبير»

(١) أو السينودس : مجمع كنسي كان يقود الكنيسة الروسيّة.
(٢) دير لجمعية كهنة من غير الرهبان.

تحمي الكثير منهم ولابد لها أن تحترس من أن تقترب منها مغنية ألمانية مشهورة)، ومن جراء بعض الخشية إزاء النزعة القومية، وكانت، إذ هي تجسد على غرار السيد «دوشارلوس» روح آل «غيرمانت»، تحتقرها من وجهة النظر المجتمعية (فهم كانوا يقدمون الآن جنرالاً من عامة الشعب على بعض الدوقة وذلك من أجل تعظيم ضباط الأركان) ولكنها، إذ تعلم أنها موضوعة في مصاف سيئي الاتجاه الفكري، تقدم لها تنازلات واسعة إلى حد تتهيب معه أن تمد يدها لمصافحة «سوان» في هذا الوسط المعادي للسامية. وسرعان ما اطمأنت بالاً بهذا الشأن بعدما علمت أن الأمير لم يدع لـ «سوان» أن يدخل وأن «نوعاً من المشادة» جرى بينهما. فلم يكن ثمة احتمال للتحدث علانية مع «المسكين شارل» الذي تفضل أن تعزه في السر.

وصاحت السيدة «دوغيرمانت» وهي تبصر سيدة صغيرة غريبة المظهر بفسطان أسود بسيط حتى لتخالها بائسة توجه إليها، وكذلك فعل زوجها، تحية واسعة: «ومن عساها تكون هذه أيضاً؟». ولم تتعرفها واعتدلت كما لو أهينت ونظرت دون أن تجيب، وبها مثل هذه الوقاحات، وسألت مستعجبة: «ومن تكون هذه المرأة يا «بازان؟»، فيما كان السيد «دوغيرمانت» يحيي السيدة ويشد على يد الزوج سعياً لتدارك سوء تهذيب «أوريان». «ولكنها السيدة «دوشوسبيير»، لقد كنت سيئة التهذيب إلى أبعد حد.» – «لست أعلم شيئاً من أمر «شوسبيير» – «ابن أخ «العمة» العجوز «شانليفو» – «لست أعرف شيئاً من كل هذا. من هي المرأة، ولماذا تحييني؟» – «ولكنك لا تعرفين غيرها، إنها ابنة السيدة «دوشارلڤال»، «هنرييت موغورانسي» – «آه؛ ولكني عرفت والدتها تمام المعرفة، وكانت رائعة شديدة الظرف. فلماذا تزوجت كل هؤلاء القوم الذين لا أعرفهم؟ تقول إنها تدعى السيدة «دوشوسبيير»؟ تضيف قولها وهي تتهجى هذه الكلمة الأخيرة بمظهر المتسائل وكما لو خشيت أن تقع في الخطأ. وحدجها الدوق بنظرة قاسية – «ليس مثار سخرية بقدر مايبدو لك أن يدعى المرء «شوسبيير»؛ فإن «شوسبيير» العجوز كان شقيق «شارلوڤال» التي سبق ذكرها والسيدة «دوسينكور» والڤيكونتيسة «دوميرلورو»، وإنهم لنعم القوم». وصاحت الدوقة التي ماكانت تريد البتة، كما هي حال المروضة، أن يبدو أنها تتهيب نظرات الوحش المفترسة: «كفى؛ إنك تولينى فرحاً وابتهاجاً يا «بازان». لست أعلم من أين تنبش هذه الأسماء ولكني أهنئك كل التهنئة. ولئن كنت أجهل «شوسبيير» فقد قرأت «بلزاك» ولست وحدك من فعل، وكذلك قرأت «لابيش». إني أقدر «شانليڤو» ولا أكره «شارلوڤال»، ولكني أقر أن «دوميرلورو» هو رائعة الروائع. هيا نعترف على أية حال أن «شوسبيير» ليس سيئاً بدوره. لقد قمت بتجميع كل هذا، ذلك ليس ممكناً. ثم قالت لي: «أنت يا من يود وضع كتاب يجدر أن تحفظ «شارلوڤال» و«دوميرلورو» فلن تلقى أفضل من ذلك» – سوف يجني فقط دعوى تقام عليه ويمضي الى السجن. أنت تسدين له أسوأ النصح يا «أوريان» – «آمل له أن من حوله أشخاصاً أوفر شباباً إن رغب في سؤال نصائح السوء، ولا سيما إن حلا له اتباعها. فأما إن لم يشأ أن يفعل ماكان أسوء من كتاب!» وعلى بعد كاف منا كانت تبرز بلطف بفسطان أبيض كله ماسات و«تول» امرأة شابة رائعة مهيبة. ونظرت إليها السيدة «دوغيرمانت» وهي تتكلم أمام مجموعة كاملة يشدها مغناطيس حسنها وقالت وهي تمد كرسياً للأمير «دوشيميه» الذي كان ماراً من هناك: «شقيقتك هي الأجمل في كل مكان؛ إنها فاتنة هذا المساء». وجاء اللواء «دوفروبيرڤيل» (وكان عمه الجنرال الذي يحمل الاسم نفسه) وجلس بجانبنا، وفعل السيد «دوبريوتيه» مثله فيما كان السيد «دوڤوغوبير» يعود وهو يتمايل (من جراء غلو في

التأدب يحافظ عليه حتى حينما يلعب كرة المضرب حيث كان يلحق الهزيمة حكماً بفريقه لكثرة ما يطلب أذون الشخصيات البارزة قبل أن يلتقط الطابة) قرب السيد «دوشارلوس» (وهو تغطيه تقريباً حتى ذاك تنورة الكونتيسة «موليه» الواسعة وكان يجاهر باعجابه بها من بين النساء جميعاً)، وبطريق المصادفة في اللحظة التي كان يقبل فيها عدة أعضاء من بعثة ديبلوماسية جديدة في باريس إلى تحية البارون. ولدى رؤية سكرتير شاب بادي الذكاء بصورة خاصة ثبت السيد «دوفوغوبير» على السيد «دوشارلوس» ابتسامة يتفتح فيها بوضوح سؤال واحد. ولعل السيد «دوشارلوس» كان ورط أحدهم راضياً ولكنما أثار حنقه أنه هو مورط بهذه الابتسامة التي تجيء من غيره ولا يمكن أن يكون لها إلا مدلول واحد. «لست أعرف شيئاً على الإطلاق وأرجوك أن تحتفظ لنفسك بطرائفك، فهي لا تخلف فيَّ إلا فتوراً. وإنك ترتكب على أية حال خطأ من الطراز الأول في هذه الحالة الخاصة، فإني أرى هذا الشاب على عكس ذلك تماماً». وما كان السيد «دوشارلوس»، وقد أغضبه أن يكون أحمق قد كشف سره، يقول الحقيقة هنا، فلعل السكرتير كان استثناء في تلك السفارة لوصدق البارون في ما قال. فقد كان يؤلفها شخصيات شديدو الاختلاف فيما بينهم، وبعضهم شديدو الضحالة، حتى إنك إن بحثت عما أمكن أن يكون سبب الخيار الذي وقع عليهم فلا يمكن أن تكتشف سوى الشذوذ. كان يبدو، وهم يجعلون على رأس «صادوم» الديبلوماسية الصغيرة هذه سفيراً يعشق على عكسهم النساء بالمبالغة المضحكة التي يبديها مسؤول عرض يحرك أصولاً كتيبة المتنكرين من ممثليه. فعلى الرغم مما كان يراه لم يكن يعتقد بالشذوذ، وقد أقام في الحال البرهان على ذلك فزوّج شقيقته قائماً بالأعمال كان يظنه زوراً زير نساء. وقد أضحى مذ ذاك مزعجاً إلى حد ما فأحلوا محله «سعادة» جديدة ضمنت تجانس المجموعة. وحاولت سفارات أخرى منافستها ولكنها لم تفلح في مغالبتها على الجائزة (كما هي الحال في المسابقة العامة حيث تحوزها على الدوام ثانوية معينة) وكان لابد أن ينقضي أكثر من عشرة أعوام قبل أن تفلح سفارة أخرى، بعدما تسللت عناصر غير متجانسة داخل هذا الكل المتناهي كمالاً، في انتزاع قصب السبق المشؤوم والسير في المقدمة.

وبعدما اطمأنت السيدة «دوغيرمانت» حول خشيتها من أن يقع عليها التحدث إلى «سوان» لم تعد تحس إلا بالفضول بخصوص الحديث الذي أجراه مع سيد البيت. وسأل الدوق السيد «دوبريوتيه» قائلاً: «أتعلم بأي شأن كان؟» فأجاب: «سمعت من يقول إنه كان بشأن فصل تمثيلي صغير كان الكاتب «بيرغوت» قد نظم تمثيله في منزلهم. وكان ذلك رائعاً على أي حال. ولكنما يبدو أن الممثل كان قد قلد هيئة «جيلبير»، ولعل السيد «بيرغوت» كان يود على أية حال رسم صورته». وقالت الدوقة وهي تبتسم ابتسامة حالمة: «لقد كان أعجبني ذلك، ويحك، أن أشاهد من يقلد «جيلبير». وأردف السيد «دوبريرتيه» يقول وهو يمد فك القوارض الذي يحمله: «إنما طلب «جيلبير» تفسيرات من «سوان» حول هذه التمثيلية الصغيرة وقد اكتفى هذا بالجواب التالي الذي عده الجميع في غاية النباهة: «لا، على الإطلاق، ذلك لا يشبهك في شيء، فإنك أشد سخفاً من ذلك!» وعاد السيد «دوبريوتيه» يقول: «فضلاً من ذلك يبدو أن هذه المسرحية القصيرة كانت تخلب الألباب. كانت السيدة «دوموليه» حاضرة وكان مرحها عظيماً فقالت الدوقة مستعجبة: «كيف ذلك؟ أو تغشى السيدة «دوموليه» المكان؟ لابد أن «ميميه» دبر الأمر. هذا ما تنتهي إليه الأمور على الدوام في تلك الأماكن. فالكل يشرع ذات يوم في الذهاب هناك، وأنا التي استبعدت نفسها بمحض إرادتها أجدني وحيدة أتضجر في زاويتي».

وكانت الدوقة «دوغيرمانت» قد تبنت، منذ القصة التي أقدم السيد «دوبريوتيه» على روايتها، تبنت (إن لم يكن حول صالة «سوان» فعلى الأقل حول افتراض لقائها «سوان» بعد لحظة) وجهة نظر جديدة. وقال اللواء «دوفروبيرڤيل» للسيد «دوبريوتيه»: «إن الشرح الذي تقدمه لنا مختلق في كل أجزائه ولدي أدلة أعرف بها ذلك. لقد وقعت مشادة فحسب بين الأمير و«سوان» وقد «علّمه»، كما كان يقول آباؤنا، أنه لم يعد له ما يخوله الظهور في منزله بسبب ما يبدي من آراء. وعمي «جيلبير» على حق وألف حق، لا أن يطلع بهذه المشادة فحسب، بل ربما انبغى أن يتخلص منذ نيف وستة أشهر من مناصر مكشوف لـ«دريفوس».

أما السيد «دوڤوغوبير» المسكين فقد ألفى نفسه، وقد انقلب هذه المرة من لاعب مضرب خامل إلى طابة مضرب جامدة تقذف دون مداراة، يلقى به صوب الدوقة «دوغيرمانت» التي أعرب لها عن مشاعر احترامه. وقد جرى استقباله استقبالاً سيئاً إلى حدما، إذ يعيش في صدر «أوريان» اليقين من أن سائر الديبلوماسيين -أو رجال السياسة- في عالمها مغفلون.

لابد أن السيد «دوفروبيرڤيل» أفاد من الوضع المتميز الذي خص به العسكريون في المجتمع منذ فترة وجيزة، ومن أسف أن المرأة التي سبق أن تزوجها، إن كانت على قربى حقيقية من آل «غيرمانت»، فقد كانت كذلك شديدة الفقر وقد فقدت ثروتها شأنه هو، ويكاد لا يتيسر لهما معارف فكانا في عداد من يتركون جانباً فيما عدا المناسبات الكبرى حينما يسعفهم الحظ بفقد أو زواج قريب. حينذاك كانا يصبحان جزءاً حقيقياً من علية القوم، كمثل أولئك الكاثوليك بالاسم الذين لا يقربون المائدة المقدسة إلا مرة في العام. ولعل وضعهما المادي كان تعيساً لو لم تقم السيدة «دوسانتوڤيرت»، في إخلاصها للمودة التي خصت بها المرحوم الجنرال «دوفروبيرڤيل»، بمساعدة الزوجين بكل الطرق مقدمة الملابس وأدوات التسلية للابنتين الصغيرتين. ولكن اللواء الذي كان يعتبر فتى طيباً لم يكن عامر النفس بالامتنان. فقد كان حاسداً لمظاهر الأبهة التي تحيط بفاعلة خير كانت تبرزها بدورها دون توقف ولا هوادة. والحفلة السنوية في الهواء الطلق تبدو له ولزوجته وأولاده متعة رائعة لعلهم ماكانوا اعتزموا تفويتها في مقابل كل ذهب الدنيا، ولكنها متعة تسممها فكرة مسرات الاستكبار التي تصيبها منها السيدة «دوسانتوڤيرت». والإعلان عن هذه الحفلة في الهواء الطلق على صفحات الصحف التي تضيف على الأثر، عقب رواية مفصلة، تضيف بلهجة مكياڤيلية: «سوف نعود إلى هذه الحفلة الجميلة»، والتفصيلات الإضافية حول ملابس النساء التي قدمت على مدى عدة أيام متعاقبة، كل ذلك كان يجلب لأسرة «فروبيرڤيل» عذاباً يبلغ بهم، هم المحرومون من المسرات والذين يعرفون أنهم يستطيعون الاعتماد على مايصيبون منها في حفلة بعد الظهر هذه، أن يتمنوا في كل عام أن تعرقل رداءة الطقس نجاحها وأن يستطلعوا مقياس الضغط الجوي وأن يتلذذوا باستباق نذر عاصفة يمكن أن تفشل الاحتفال.

وقال السيد «دوغيرمانت»: «لن أجادلك في أمور السياسة يا «فروبيرڤيل»، ولكني أستطيع أن أقول بصراحة، فيما يخص «سوان»، إن تصرفه إزاءنا كان شائناً. لقد قيل لي عنه، هو الذي رعيناه في دنيا المجتمع ورعاه دوق «شارتر»، إنه يناصر «دريفوس» علنا. وماكنت لأتوقع ذلك منه في يوم، هو الذواقة المرهف والعقل

العملي، هاوي المجموعات والكتب القديمة عضو نادي الفرسان والرجل الذي يحوطه التقدير العام، الخبير بأفضل العناوين الذي كان يبعث إلينا بأفضل خمور «البورتو» للشراب، هذا المولع بالفنون ورب أسرة مثله. آه؛ لقد ضُللت أيما تضليل. ولست أحكي عن نفسي فمن المسلم به أني مغفل عجوز لا يعتد برأيه ومن صنف المتشردين، ولكنما كان ينبغي أن لايفعل ذلك كرمي لـ«أوريان» لا لأمر آخر، وكان يجدر به أن يشجب علنا اليهود ومحازبي المحكوم عليه».

وأردف الدوق قائلاً : «أجل، بعدما أبدت له زوجي على الدوام من مودة»، وكان يحسب بداهة أن الحكم على «دريفوس» بالخيانة العظمى، أيا كان الرأي الذي تحمله في قرارة نفسك عن مدى ذنبه، إنما يؤلف نوعاً من الامتنان للطريقة التي جرى بها استقبالك في حي «سان جيرمان»، «كان يجدر به أن يعدل عن تضامنه. فاسألوا «أوريان»، كانت تكن له صداقة حقة». وإذ ظنت الدوقة أن اللهجة الساذجة الهادئة ربما أولت كلامها قيمة أكثر مأساوية وصدقاً فقد قالت بصوت تلميذة مدرسة وكأنما تدع للحقيقة أن تنطلق ببساطة من فمها وفيما تحمّل عينيها فحسب دلائل شيء من الحزن: «ذلك صحيح، فليس من سبب لأخفي أني كنت أكن صادق المودة لـ«شارل»!» - «هيه، ترون بأنفسكم، ولست أقوّلها ما تقول. وبعد ذلك يبلغ بنكران الجميل أن يكون من أنصار «دريفوس»!».

وقلت: «يبدو، إذ نحن بصدد مناصري «دريفوس»، أن الأمير «فون» منهم». وصاح السيد «دوغيرمانت» قائلاً: «حسنا فعلت أن حدثتني عنه، فكنت أوشك أن أنسى أنه سألني المجيء إلى الغداء يوم الاثنين. فأما أن يكون من مناصري «دريفوس» أو لا يكون فالأمر عندي سواء إذ هو أجنبي ولست أهتم مطلقاً لذلك. أما بالنسبة إلى فرنسي فالأمر مختلف. صحيح أن «سوان» يهودي، ولكني حتى هذا اليوم -عذرك يا «فروبيرفيل»- تلطفت واعتقدت بأن اليهودي يمكن أن يكون فرنسياً، أقصد اليهودي المحترم المنتمي إلى دنيا المجتمعات، و«سوان» كان ذلك بكامل معنى الكلمة. وأنت ترى! إنه يرغمني على الإقرار بأني كنت على خطأ إذ هو ينحاز إلى جانب «دريفوس» هذا (الذي لا ينتمي إلى وسطه، إن كان مذنباً أولا، ولعله ماكان ليلتقيه في يوم) ضد مجتمع سبق أن تبناه وعامله كأحد خاصته. وغني عن القول إننا ضمنا جميعنا «سوان» ولعلني كنت ضمنت وطنيته كما أفعل فيما يخصني. إنه يكافئنا شر مكافأة؛ وإني أعترف أني ماكنت أتوقع منه مثل هذا في يوم. كنت أعده أفضل من ذلك. كان صاحب نكتة (على طريقته بالطبع». أعرف تماماً أنه سبق أن ارتكب حماقة في زواجه المخجل. خذوا مثلاً، هل تعرفون واحداً أصابه غم كبير من زواج «سوان» ؟ تلكم زوجتي. فغالباً مايصيب «أوريان» ما أدعوه بتصنع غياب الإحساس، ولكنها في الحقيقة تحس بقوة غير عادية» . كانت السيدة «دوغيرمانت» تصغي بادية التواضع مأخوذة بهذا التحليل لطابعها ولكنها لا تنبس ببنت شفة مخافة أن توافق على المديح وعلى الأخص خشية أن تقاطعه. ولعل السيد «دوغيرمانت» كان استطاع التحدث على مدى ساعة حول هذا الموضوع وما تحركت هي أكثر مما تفعل لو أقدموا على عزف بعض الموسيقى أمامها. «حسن! أذكر أنها حينما علمت بزواج «سوان» أحست بالإساءة ورأت أن الأمر غير لائق من جانب من سبق أن أبدينا له هذا القدر من الود؛ كان حبها لـ «سوان» كبيراً وقد حل بها غم عظيم. أليس

كذلك يا «أوريان» ؟ وظنت السيدة «دوغيرمانت» من واجبها الإجابة إزاء مثل هذا النداء المباشر حول واقعة تسمح لها، دون أن تبدي من ذلك شيئاً، أن تؤكد ألواناً من المديح تحس أنها انتهت. فقالت بلهجة خجولة ساذجة وهيئة يزداد تصنعها بمقدار ماتبغي أن تظهر مظهر «ماكان وليد الإحساس»، قالت بعذوبة متحفظة: «صحيح، إن «بازان» لا يخطئ» – «ومع ذلك لم يكن الأمر بعد نفسه. ماعساك تريد، الحب هو الحب، مع أنه ينبغي أن يلبث ضمن حدود معينة. فربما بلغ بي أن أعذر فتى شاباً ومغروراً صغيراً ينساق لأوهامه. ولكن «سوان»، هذا الرجل الذكي ذو الرهافة المجربة وخبير اللوحات المرهف وأليف دوق «شارتر» و«جيلبير» نفسه!» كانت اللهجة التي يقول بها السيد «دوغيرمانت» ذلك، كانت ودية تماماً لا تشوبها شائبة مما كان يبدي في الغالب من سوقية. كان يتكلم بحزن يلونه شيء من الغيظ، ولكن كل شيء فيه يوحي بهذا الوقار الحلو الذي هو أساس السحر العذب الرحب المنبعث من بعض أشخاص «رامبرانت» كالعمدة «سيكس» على سبيل المثال. كنت تحس أن مسألة اللا أخلاقية في سلوك «سوان» إزاء «القضية» لم تكن حتى واردة بالنسبة إلى الدوق لقلة مافي الأمر من شك. كان يحس منها بأسى والد يرى أحد أبنائه الذي قدم أعظم التضحيات في سبيل تربيته يقوض عامداً المركز العظيم الذي أعده له ويلحق العار باسم محترم من جراء صنوف طيش لا يمكن لمبادئ الأسرة أو آرائها المسبقة أن تقبل بها. والصحيح أن السيد «دوغيرمانت» لم يبد فيما مضى استغراباً بمثل هذا العمق وهذا الألم حينما بلغه أن «سان لو» كان من مناصري «دريفوس». إلا أنه بادئ الأمر كان يعد ابن أخته شاباً سلك طريق الشر ولا يمكن أن يستغرب أمراً منه إلى أن يكون اصطلح، فيما كان «سوان» ما كان يدعوه السيد «دوغيرمانت» «بالرجل الرزين، رجل يشغل موقعاً من الطراز الأول». ثم إن زمناً طويلاً على وجه الخصوص انقضى إن بدا في أثنائه أن الأحداث، من وجهة النظر التاريخية، تبرر في جزء منها طرح تيار «دريفوس» فإن المعارضة المناهضة لـ «دريفوس» ضاعفت من عنفها وانقلبت من سياسية محضة بادئ الأمر اجتماعية. لقد أضحى الأمر الآن مسألة نزعة عسكرية، نزعة وطنية، وإن أمواج الغضب التي تعصف بالمجتمع قد اتسع لها الوقت لتكتسب هذه القوة التي لا تملكها البتة في بداية العاصفة. وعاد السيد «دوغيرمانت» يقول: «ترى، لقد ارتكب «سوان»حتى على صعيد يهوده الأعزاء، بما أنه يحرص على مساندتهم حرصاً مطلقاً، غلطة لايمكن تقدير أثرها. فإنه يقيم البرهان على أنهم كلهم متحدون في السر وأنهم ملزمون نوعاً ما بمساندة أحد بني جنسهم وإن لم يعرفوه. إنهم خطر عام، وقد بالغنا على نحو جلي بالتساهل والغلطة التي يرتكبها «سوان» سوف يكون لها صدى يتعاظم بمقدار ماكان مقدراً وحتى مرحّباً به وأنه كان تقريباً اليهودي الوحيد الذي كان معروفاً. وقد يقول قائل: ab uno disce omne (من واحد تعرف الجميع) – ونور الارتياح الناجم عن أنه عثر في ذاكرته في اللحظة المحددة على استشهاد مناسب إلى هذا الحد، نور وحده بابتسامة مستكبرة حزن هذا السيد الكبير الخيب الآمال –.

كان بي رغبة شديدة في أن أعلم ماجرى بالضبط بين الأمير و«سوان» وأن ألتقي هذا الأخير إن لم يكن غادر بعد الأمسية. وأجابتني الدوقة التي كنت أحدثها عن رغبتي تلك: «سأقول لك إنني لا أحرص حرصاً كبيراً على لقائه فإنه يبدو، حسبما قيل لي في الحال في منزل السيدة «دوسانتوفيرت»، أنه يود قبل موته أن أتعرف بزوجته وابنته. يا إلهي، يغمني أعظم الغم أن يكون مريضاً، ولكني آمل أولاً أن لا يكون الأمر خطيراً

إلى هذا الحد، ثم إن ذلك ليس في النهاية سبباً لأن الأمر سيكون بالغ السهولة، وما على كاتب تعوزه الموهبة إلا أن يقول: «أعطني صوتك في المجمع العلمي لأن زوجتي تشرف على الموت وأريد أن أوفر لها هذه الفرحة الأخيرة». لن يبقى ثمة منتديات إن اضطررنا إلى التعرف بالمحتضرين جميعاً. وبمقدور حوذيّ أن يصرح لي: «ابنتي في أسوأ حال لها فاعملي على أن تستقبلي الأميرة «دوبارما». إني أحب «شارل» حباً جماً وقد يغمني كثيراً أن أرفض ولذلك أفضل تجنب أن يسألني ذلك. آمل من كل قلبي أنه غير مشرف على الموت مثلما يقول، ولكن إن كان لابد أن يقع ذلك فليس هنا فيما يخصني آوان التعرف بهاتين المخلوقتين اللتين حرمتاني أحب صديق إليّ على مدى خمسة عشر عاماً والذي سوف يهملني ساعة لا أستطيع حتى الإفادة من ذلك في رؤيته هو بما أنه سيكون في عداد الأموات».

على أن السيد «دوبريوتيه» لم يكف عن اجترار التكذيب الذي وجهه إليه اللواء «دوفروبيرڤيل» وقال: «لست أشك في صحة روايتك أيها الصديق العزيز، ولكني أنقل روايتي عن مصدر ثقة، فإن الأمير «دولاتور دوڤيرنيي» هو الذي قصها علي». وقاطعه الدوق «دوغيرمانت» قائلاً: «أعجب أن يوالي عالم مثلك القول بالأمير «دولاتور دوڤيرنيي»، فأنت تعلم أنه ليس على أدنى شيء من ذلك، ولم يعد ثمة سوى عضو واحد من هذه الأسرة. إنه عم «أوريان»، الدوق «دوبويون». وسألت: «أهو شقيق السيدة «دوڤيلپاريزيس» ؟»، وقد تذكرت أن السيدة كانت آنسة من عائلة «دوبويون» –«بالضبط. «أوريان»، السيدة «دولامبرساك» تقرئك السلام».

كنت ترى بالفعل بين الحين والحين ابتسامة واهنة توجهها الدوقة «دولامبرساك» إلى شخص تعرفته، ابتسامة تتشكل وتمرّ مرّ الشهاب. ولكن هذه الابتسامة بدلاً من أن تتوضح في توكيد فاعل، في لغة صامتة ولكنها واضحة، كانت تغرق في الحال تقريباً في نوع من الانخطاف المثالي الذي لايميز شيئاً فيما ينحني الرأس بحركة مباركة مطمئنة تذكر بالحركة التي ينحني بها صوب جمهور المتناولات أسقف به بعض ارتخاء. ولم تكن السيدة «دولامبرساك» تشكو من ذلك على الإطلاق. ولكني كنت قد عرفت هذا النوع الخاص من اللياقة البالية. فقد تعودت سائر صديقات جدتي في «كومبريه» وباريس أن يحيّين في اجتماع لعلية القوم بهيئة ملائكية تشبه حالهن لو يبصرن أحد معارفهن في الكنيسة لحظة رفع القربان أو في أثناء جنازة فيلقين إليه بتحية متهالكة تنتهي صلاة. وإن جملة للسيد «دوغيرمانت» كانت ستكمل المقاربة التي كنت أعقدها. فقد قال لي السيد «دوغيرمانت»: «ولكنك رأيت الدوق «دوبويون»، فقد كان خارجاً للتو من مكتبتي وأنت تدخل إليها: رجل قصير القامة كله بياض». وكان من سبق أن حسبته بورجوازيا صغيراً من «كومبريه» والذي كنت أستخلص الآن بالتفكير شبهه بالسيدة «دوڤيلپاريزيس». وأخذ تماثل التحيات المتلاشية الصادرة عن الدوقة «دولامبرساك» وتحيات صديقات جدتي يثير اهتمامي إذ أبرز لي أن العادات القديمة في الأوساط الضيقة المغلقة، إن كانت من البورجوازية الصغيرة أوطبقة الأشراف العليا، إنما تستمر وتسمح لنا وكأنما لعالم آثار أن نعود فنلقى ماكانت عليه التربية والجزء الذي تعكسه من النفس في زمن الڤيكونت «دارلنكور» و«لوييزا پوجيه». بل أفضل من ذلك أن التطابق التام في المظهر بين الدوق «دوبويون» وبورجوازي صغير من «كومبريه» بمثل سنه كان يذكرني الآن (وهو ماسبق أن أدهشني أيما إدهاش حينما أبصرت جد «سان لو» لأمه، الدوق «دولاروشفوكو»، على صورة يشبه فيها شقيق جدي تماماً ثياباً وهيئة وحركات) بأن الفوارق الاجتماعية،

وحتى الفردية، إنما تنصهر على بعد المسافة في تماثل يفرضه العصر. والحقيقة أن تشابه الملابس وكذلك عكس الوجه لروح العصر إنما يشغلان حيزاً لدى الشخص أوفر أهمية بما لا يقاس من طبقته التي لا تشغل مكانة عظيمة إلا داخل اعتزاز المعنى بذاته وفي مخيلة الآخرين، وأن لا ضرورة للطواف في أروقة «اللوفر» كما تتبين أن سيداً عظيماً من عصر «لوي فيليب» أقل اختلافاً عن بورجوازي من عصر «لوي فيليب» منه عن سيد عظيم من عصر لويس الخامس عشر.

في ذلك الحين حيا «أوريان» موسيقي «باڤاري» طويل الشعر ممن ترعاهم الأميرة «دوغيرمانت». وردت هذه بانحناءة من الرأس، ولكن الدوق استدار، وقد ثارت ثائرته إذ رأى امرأته تلقي تحية المساء على شخص لا يعرفه غريب الشكل وهو، على قدر ما يعلم السيد «دوغيرمانت»، سيئ السمعة إلى حد بعيد، استدار صوب امرأته بهيئة متسائلة مخيفة كما لو يقول: «أي شيء هو هذا العديم التهذيب؟» كان موقف السيدة «دوغيرمانت» المسكينة مذ ذاك على شيء من التعقيد، ولو أبدى الموسيقي قليلاً من الإشفاق على هذه الزوجة الشهيدة لابتعد كأسرع مايكون، لكن الموسيقي، إما رغبة منه في أن لا يلبث على الإذلال الذي سِيْمَهُ منذ قليل على رؤوس الأشهاد وسط أقدم أصدقاء ندوة الدوق، وربما كان وجودهم إلى حد ما سبباً لانحناءته الصامته وليظهر أنه حييٌّ السيدة «دوغيرمانت» بحق لا عن غير معرفة، وإما انصياعاً للإلهام المبهم الذي لا يقاوم للهفوة التي دفعته –في لحظة كان انبغى له فيها أن يعول بالأحرى على الروح– إلى تطبيق حرفية البروتوكول بذاتها، تقدم أكثر من السيدة «دوغيرمانت» وقال لها: «سيدتي الدوقة، أود التماس شرف تعريفي بالدوق». كانت السيدة «دوغيرمانت» تعيسة بالتأكيد. ولكن عبثاً تراها زوجة مخدوعة فقد كانت مع ذلك دوقة «غيرمانت» ولا يمكن أن تبدو وكأنها مجردة من حقها في أن تقدم لزوجها الأشخاص الذين كانت تعرفهم فقالت: «اسمح لي يا «بازان» أن أقدم لك السيد «ديرڤيك». وقال اللواء «دوفروبيرڤيل» للسيدة «دوغيرمانت» كي يبدد الانطباع الثقيل الذي خلفه طلب السيد «ديرڤيك» الذي في غير محله: «لست أسألك إن كنت ستذهبين في الغد إلى منزل السيدة «دوسانتوڤيرت»، فباريس كلها ستكون هناك». وفي أثناء ذلك استدار الدوق «دوغيرمانت»، دفعة واحدة وكأني به قطعة واحدة، استدار صوب الموسيقي المتطفل يواجهه ضخماً صامتاً في غيظه كأنه «جوبيتير» الراعد وبقي كذلك لا حراك به بضع ثوان تلتمع عيناه غضباً ودهشة فيما يبدو شعره الأجعد وكأنه يندفع من فوهة بركان. ثم بدا كأنما تحمله اندفاعة كانت وحدها تمكنه من إنجاز التأدب الذي طلب منه وبعدما ظهر بوقفة التحدي التي يقفها وكأنما يشهد الحضور كلهم أنه لا يعرف الموسيقي الباڤاري وصالبَ خلف ظهره يديه بقفازيهما الأبيضين وانقلب إلى الأمام ووجه إلى الموسيقي تحية شديدة العمق يطبعها فيض من الدهشة والسخط فجائية عنيفة إلى حد أن الموسيقي ارتد إلى الوراء مرتجفاً وهو ينحني كي لا تطاله نطحة هائلة في بطنه، «ولكنني بالضبط لن أكون في باريس، تجيب الدوقة اللواء «دوفروبيرڤيل»؛ سأقول لك (وهو مالا يجدر بي أن أقر به) إنني بلغت سني هذا دون أن أعرف زجاجيات «مونفورلاموري». الأمر مخز ولكنها تلك حالي. وقد اعتزمت، بغية التكفير عن هذا الجهل الفاضح، أن أذهب في الغد لزيارتها». وابتسم السيد «دوبريوتيه» ابتسامة رهيفة؛ فقد أدرك أن الدوقة إن استطاعت أن تلبث حتى سنها هذا دون أن تعرف زجاجيات «مونفولالاموري» فإن هذه الزيارة الفنية ماكانت تتخذ فجأة طابع التدخل

«على الحامي» الملح وربما أمكن دون خطر تأخيرها أربعاً وعشرين ساعة بعدما أرجئت على مدى أكثر من خمسة وعشرين عاماً. والمشروع الذي قررته الدوقة كان ببساطة القرار الصادر على طريقة آل «غيرمانت» والقاضي بأن صالة «سانتوفيرت» ليست بالتأكيد بيتاً صالحاً تماماً، بل بيت يدعونك إليه ليتزينوا بك في الخلاصة التي تنشر على صفحات «لوغولوا»، بيت ربما أضفى طابعاً من الأناقة الرفيعة على اللواتي، أو ان لم تكن سوى واحدة، على التي لن يشاهدوها فيه. إن اللهو الناعم الذي يصيبه السيد «دوبربوتيه» والذي تبطنه تلك المتعة الشاعرية لدى أرباب المجتمع الراقي إذ يشهدون السيدة «دوغيرمانت» تقدم على أمور لا يسمح لهم موقعهم الأدنى بتقليدها ولكن مجرد رؤيتها يبعث على شفاههم ابتسامة الفلاح المرتبط بأرضه إذ يبصر أشخاصاً أكثر تحرراً وأوفر مالاً يمرون من فوق رأسه، تلك المتعة الرقيقة ماكانت تمت بصلة إلى الافتتان المكتوم والعنيف مع ذلك الذي داخل في الحال السيد «دوفروبيرفيل».

كانت الجهود التي يقوم بها السيد «دوفروبيرفيل» كي لا تتناهى ضحكته إلى الأسماع قد جعلته أحمر كعرف الديك، ومع ذلك فقد صاح بصوت شفوق وهو يقطع كلماته بتعتعات الفرح: «أوه؛ مسكينة الخالة «سانتوفيرت»، أي مرض سينتابها من جراء ذلك؛ لا، لن تحصل المرأة التعيسة على دوقتها، يالها ضربة تلك؛ إن في ذلك مايكفي للقضاء عليها!» يضيف قوله وهو يتلوى من الضحك. ولايستطيع في نشوته أن يحول دون أن يقوم بإشارات بقدمه وأن يفرك يديه. وخلصت السيدة «دوغيرمانت»، وهي تبسم بعين وبزاوية واحدة من فمها للسيد «دوفروبيرفيل» الذي كانت تقدر مقصده اللطيف دون أن يتناقص شعورها بالملل القاتل، إلى العزم على فراقه.

وقالت له، وهي تنهض، بهيئة التسليم الحزين وكما لو كان الأمر مصيبة تحل بها: «اسمع، سوف أضطر لأن أتمنى لك ليلة سعيدة». وكان صوتها الموسيقي الناعم بتأثير سحر عينيها الزرقاوين يذكر بشكوى جنية شعرية. «يريدني«بازان» أن أذهب في زيارة قصيرة لـ«ماري». وكانت في الواقع قد ضاقت ذرعاً بالاستماع لـ«فروبيرفيل» الذي لم يعد يكف عن إبداء حسده لها لذهابها إلى «مونفورلاموري» حين تعلم تمام العلم أنه يسمع الحديث عن تلك الزجاجيات للمرة الأولى وأنه من ناحية أخرى ما كان ليتخلى مقابل أي شيء في الدنيا عن حفلة «سانتوفيرت» في العصر. «إلى اللقاء؛ كدت لا أكلمك، الأمر على هذه الشاكلة في المجتمع الراقي، الناس لا يلتقون ولا يقولون الأشياء التي يودون أن يقولها أحدهم للآخر، والأمر واحد على أية حال في الحياة في كل مكان. نأمل أن الأمور ستكون أفضل ترتيباً بعد الممات. على الأقل لن نكون دوماً بحاجة إلى الكشف عن الكتفين، ثم من ذا يعلم؟ فربما عرض المرء عظامه وديدانه في الحفلات الكبرى، ولم لا؟ خذ مثلاً، انظر إلى الخالة «رامپسيون»، فهل ترى فارقاً كبيراً بين هذا وبين هيكل عظمي بفسطان مفتوح؟ وصحيح أنها تملك كافة الحقوق لأنها بلغت المئة على الأقل. فقد كانت واحداً من أولئك الممثلين العظام الذين كنت أرفض الانحناء أمامهم حينما باشرت بداياتي في المجتمع الراقي. كنت أظنها ماتت منذ زمن طويل، ولعل هذا الأمر يؤلف التفسير الوحيد للمشهد الذي تقدمه لنا. إنه مؤثر وطقسي، ومن فن المقابر!» وكانت الدوقة قد فارقت «فروبيرفيل» فاقترب منها: «أود أن أقول لك كلمة أخيرة». فقالت باستعلاء

وبها شيءمن الضيق: «ما وراءك أيضاً؟» أما هو فقال وبه خشية أن تعدل عن رأيها في اللحظة الأخيرة بالنسبة إلى «مونفورلاموري»: «لقد خانتني الجرأة في أن أحدثك عن الأمر بسبب السيدة «دوسانتوفيرت» وكي لا أبعث الغم في نفسها، ولكن بما أنك لا تعتزمين الذهاب فبوسعي أن أقول إني سعيد من أجلك، فداء الحصبة في بيتها!» وقالت «أوريان» التي كانت تخشى الأمراض: «آه؛ يا إلهي ! ولكن الأمر لا أهمية له فيما يخصني، فقد سبق أن أصبت بها ولا يمكن الإصابة بها مرتين» - «إنما الأطباء من يقولون ذلك، فإني أعرف أناساً أصيبوا بها حتى أربع مرات. لقد حذرتك على أية حال». أما فيما يخصه، فلعله كان انبغى أن يصاب حقاً بتلك الحصبة الوهمية وأن تسمره على فراشه كي يسلم بتفويت حفلة «سانتوفيرت» التي ينتظرها منذ أشهر عدة. فسوف يصيب مسرة بمشاهدة الكثير من أرباب الأناقة؛ بل يتعاظم سروره بملاحظة بعض الأمور الفاشلة، وسيسره على وجه الخصوص أن يستطيع الفخار زمناً طويلاً بأنه كسب صداقة الأولين، وأن يأسف للأخرى بعدما يبالغ فيها أو يختلقها.

وانتهزت فرصة كانت الدوقة تغيّر فيها مكانها كي أنهض بدوري للذهاب باتجاه قاعة المدخنين للاستعلام عن «سوان»، فقالت لي :«لاتصدّق كلمة ممّا رواه «بابال»، فما كانت الصغيرة «موليه» لتذهب في يوم وتحشر نفسها هناك يقولون لنا ذلك لاجتذابنا. إنّهم لايستقبلون أحداً ولايُدْعون إلى أيّ مكان؛ وهو نفسه يقرّ بالأمر: «نظل نحن الاثنين وحدنا قرب نار الموقد». وإذ يقول على الدوام «نحن»، لا بلغة الملك بل من أجل امرأته، تراني لا أُلحّ. ولكنّي مطّلعة أتم الاطّلاع»، تضيف الدوقة قولها. والتقينا، هي وأنا، شابّين يستمدّان جمالهما العظيم والمختلف من المرأة نفسها، وكانا ولدي السيّدة «دوسورجيس» عشيقة الدوق «دو غير مانت» الجديدة. كانا يتألّقان بمواطن الكمال في والدتهما، ولكنّما كلّ بآخر غير الذي لذاك. فقد انتقل إلى الأول هيبة السيّدة «دوسورجيس» الملكيّة متماوجة في جسم رجولي، فيما يتدفّق الشحوب اللاهب الأصهب المقدّس نفسه في مرمر وجنتي الوالدة وهذا الابن. أمّا شقيقه فقد اكتسب الجبين اليونانيّ وكمال الأنف وجيد التماثيل وعينين تتّسعان إلى مالا نهاية. كان ازدواج جمالهما الذي تشكّل على هذا النحو من تَقَادم متنوّعة قامت الإلهة بتقسيمها يوليك متعة الظنّ المجرّدة بأن علّة ذاك الجمال قائمة في خارجهما؛ لكأنّما تجسّدت خصائص أمّهما الرئيسيّة في جسدين مختلفين وكان لأحد الشابّين قوام أمّه ولونها والآخر نظرتها كمثل الكائنين الإلهيّين وإن هما إلاّ قوّة وجمال «جوبيتير» أو «مينيرفا» كانا يفيضان احتراماً للسيّد «دو غير مانت» الذي يقولان عنه: «إنّه صديق كبير لوالدينا»، بيد أنّ البكر ظنّ من الفطنة أن لا يُقْبِلَ لتحيّة الدوقة التي يعرف كراهيتها لوالدته، ربّما دون أن يدرك السبب، فأشاح قليلاً برأسه لدى رؤيتنا. أمّا الابن الأصغر، الذي كان يقلّد أخاه على الدوام إذ هو غبيّ وقصير النظر إلى ذلك فلا يجرؤ على اتخاذ رأي شخصيّ، فقد مال برأسه وفق الزاوية نفسها وانسلّ الاثنان صوب قاعة اللعب يتبع أحدهما الآخر وهما أشبه بشخصيّتين رمزيّتين.

لحظة وصولي إلى تلك القاعة استوقفتني المركيزة «دوسيتري»، ولاتزال جميلة ولكنّما يكاد الزبد يتطاير من أسنانها. كانت على شيء من نبل المحتد فبحثت وعقدت زواجاً لامعاً باتخاذ السيّد «دوسيتري» زوجاً لها وكانت جدةّ جدّته من أسرة «أومال لورين». وما أن أصابت من ذلك مسرّة حتّى جعلها طبعها النكّار تكره

جماعة المجتمع الراقي كرهاً لايستبعد بصورة مطلقة الحياة المخملية. فلم تكن تكتفي في أمسية مابالهزء بالجميع ولكنّما كان في ذلك الاستهزاء شيء من العنف شديد إلى حدّ أن الضحك نفسه لم يكن فيه ما يكفي من قسوة فينقلب صغيراً ينطلق من الحلق. وقالت لي وهي تريني الدوقة «دو غير مانت» التي فارقتني منذ قليل وأضحت على مسافة منّي: «آه! ما يذهلني أنّها تستطيع أن تحيا مثل هذه الحياة.» أفكانت هذه الكلمة لقديّسة يتأكّلها الغيظ وتعجب أن لايُقْبِلَ الوثنيّون من تلقاء نفسهم إلى الحقيقة، أم لفوضويّة تحرّكها شهوة المذابح؟ وفي جميع الأحوال لم يكن لتلك الالتفاته ممّا يبرّرها إلاّ أقلّ القليل. وأوّل الأمر أن «الحياة التي كانت تحياها» السيّدة «دو غير مانت» قليلة الاختلاف (باستثناء ماتبدي من حنق عن حياة السيّدة «دوسيتري»). كانت السيّدة «دوسيتري» مذهولة أن تلفي الدوقة قادرة على هذه التضحية القاتلة، عنينا حضور أمسية لـ«ماري جيلبير». وينبغي أن نقول في هذه الحالة الخاصّة أن السيّدة «دوسيتري» كانت تحبّ الأميرة حبّا جمّاً وكانت هذه بالفعل طيّبة جدّاً، وإنّها تعلم أنّها توليها بحضورها أمسيتها سروراً عظيماً ولذلك ألغت، بغية المجيء إلى هذه الحفلة، دعوة راقصة كان تظنّ لها نبوغاً وسوف تدخلها في أسرار تصاميم الرقص الروسيّ. وثمّة سبب آخر كان ينزع بعض القيمة عن الحنق المركّز الذي ينتاب السيّدة «دوسيتري» حين ترى «أوريان» تلقي التحيّة على هذا المدعوّ أو تلك المدعوّة وقوامه أن السيّدة «دو غير مانت» تعاني من أعراض الداء الذي يفتك بالسيّدة «دوسيتري» وإن يكن في حالة أقلّ تطوّراً. وقد لوحظ بأيّة حال أنّها كانت تحمل بذوره منذ مولدها. ولعلّه كان للسيّدة «دو غير مانت» أخيراً، وهي أكثر ذكاء من السيّدة «دوسيتري»، حقوق أكثر منها بتلك العدميّة (التي لم تكن خاصّة بالمجتمع الراقي فحسب)، ولكنّما الصحيح أن بعض المزايا تساعد على تحمّل عيوب الآخرين أكثر ممّا تسهم في التألم منها، وإنّ شخصاً عظيم الموهبة إنّما يولي بالعادة اهتماماً أقلّ بغباء الغير ممّا يفعل رجل أحمق. لقد وصفنا بتطويل كاف نوعيّة فكر الدوقة كيما يجري الإقناع بأنّها، إن كانت لاتشبه في شيء الذكاء الرفيع، إنّما هي فكر على الأقلّ، فكر ماهر في استخدام أشكال مختلفة من النحو (على غرار المترجم). وما كان يبدو أن شيئاً من ذلك يؤهل السيّدة «دوسيتري» لازدراء مزايا ما أشبهها بمزاياها. كانت ترى جميع الناس بلهاء ولكنّما يغلب أن تظهر في حديثها وفي رسائلها أدنى من الناس الذين تعاملهم بهذا القدر من الازدراء. كان بها على أيّة حال حاجة إلى الهدم عظيمة حتىّ أنّ المتع التي بحثت عنها حينذاك، حينما تخلّت عن الدنيا تقريباً، عانت الواحدة بعد الأخرى من قدرتها الرهيبة على الإفساد. لقد شرعت تقول بعدما هجرت الحفلات المسائية إلى جلسات موسيقيّة: «أفتحبّ سماع مثل هذا، هذه الموسيقى؟ آه! ياإلهي، الأمر رهن بالأوقات. ولكن كم يمكن أن يكون ذلك مملاً! «بيتهوفن»، ياللسأم!» أمّا بالنسبة إلى «فاغنر» ثمّ إلى «فرانك» و«دوبوسّي» فما كانت حتىّ تكلف نفسها عناء أن تقول «ياللسأم» بل تكتفي بتمرير يدها على وجهها كما يفعل الحلاّق. وغدا كلّ شيء باعثاً على السأم» «الأشياء الحلوة، ما أكثر ما تبعث على السأم! واللوحات شيء يورث الجنون. كم أنت على حقّ، فأيّ ملل في كتابة الرسائل!» وكانت الحياة نفسها في نهاية المطاف ما أعلنت تقول عنها إنّها أمر مملّ دون أن ندري تماماً أين كانت تأخذ وجه المقارنة.

لست أعلم إن كان ذلك بسبب ما قالت السيّدة «دو غير مانت»، في أول مساء تناولتُ فيه طعام العشاء في منزلها، حول هذه الحجرة، ولكنّ قاعة اللعب أو التدخين بتصاوير بلاطها ومناصبها الثلاثية وصور الآلهة

والحيوانات فيها وهي تنظر إليك وأشكال أبي الهول الممدّدة على أذرع المقاعد ولاسيّما الطاولة الهائلة المصنوعة من الرخام أو الفسيفساء المرصّعة المغطّاة بعلامات رمزيّة تقلّد في كثير أو قليل الفن «الايتروسكي» والمصري، قاعة اللعب تلك بدت لي غرفة مسحورة حقيقيّة. فعلى مقعد جرى تقريبه من الطاولة المتلألئة العرافيّة كان السيّد «دوشار لوس»، هو الذي لايلمس ورقة لعب واحدة، وغير الآبه بما يجري من حوله والعاجز عن ملاحظة أنّي دخلت منذ قليل، كان يبدو بالضبط ساحراً يوجّه كامل قوّة إرادته وعقله لاستخلاص طالع ما. كانت عيناه تخرجان من رأسه كمثل متنبّئة على كرسيّها الثلاثي الأرجل، وليس ذلك فحسب، بل هو وضع إلى جانبه، بغية أن لا يصرفه أمر عن الأعمال التي تقتضي إيقاف أبسط الحركات، (وكمثل حاسب لا يريد القيام بأيّ أمر آخر مادام لم يجد حلاً لمسألته)، السيكار الذي كان في فمه قبل وقت قليل والذي لم يعد يملك حريّة الفكر اللازمة لتدخينه. وربّما تبادر إلى الذهن، إذ تبصر الإلهين المقعيين على ساعدي الكنبة الموضوعة قبالته، أن البارون يحاول كشف لغز أبي الهول لو لم يكن الأمر بالأحرى لغز «أوديب» شاب وحيّ يرزق يجلس بالضبط على هذه الكنبة حيث اتّخذ مكانه ليلعب. وإنّما كان الوجه الذي يصبّ عليه السيّد «دوشار لوس» كامل قدراته الروحيّة وبهذا المقدار من التركيز والذي لم يكن والحقّ يقال من تلك التي تُدْرَسُ عادة «بطريقة هندسيّة»، كان ذاك الذي تقدّمه له خطوط وجه المركيز الشاب «دوسور جيس». كان يبدو، لشدّة ماكان السيّد «دوشار لوس» مستغرقاً أشدّ الاستغراق أمامه، وكأنّه كلمة ما في معيّن، أحجية ما، مسألة جبر حاول أن يكشف لغزها أو يستخلص صيغتها. كانت العلامات المبهمة المعاني والصور المنقوشة على لوح الشريعة هذا تبدو وكأنّها كتاب الطلاسم الذي سيمكّن الساحر العجوز من معرفة المنحى الذي تنحوه مصائر الشاب. وتبيّن فجأة أني أنظر إليه ورفع رأسه كأنّما يطلع من حلم وابتسم لي وقد اكتسى وجهه حمرة. وفي تلك اللحظة جاء ابن السيّدة «دوسورجيس» الآخر بالقرب من ذاك الذي كان يلعب، جاء يستطلع أوراقه. وحينما علم السيّد «دوشار لوس» منّي أنّهما شقيقان لم يفلح وجهه في إخفاء الإعجاب الذي تبعثه فيه أسرة تبدع روائع بهذا الألق وهذا الاختلاف. ولعلّ ماكان زاد من حماسة البارون أن يعلم أن ولدي السيّدة «دوسورجيس لو دوك» لم يولدا لأمّ واحدة، بل لأب واحد أيضاً. إن أبناء «جوبيتير» مختلفون، ولكنّ مردّ ذلك أنّه تزوّج بادئ الأمر «ميتيس» التي قُدِّرَ عليها أن تهب الحياة لأبناء عقلاء، ثمّ «تيميس» وبعدها «أوريمون» و«منيموزين» و«ليتو» وفي آخر المطاف فقط «جونون». إلاّ أن السيّدة «دو سورجيس» ولدت من أب واحد ولدين ورثا الجمال عنها، ولكنّما جمال مختلف لكلّ منهما.

وسرّني أخيراً أنْ دخل «سوان» إلى هذه الغرفة التي كانت كبيرة جدّاً إلى حدّ أنّه لم يبصرني بادئ الأمر؛ والسرور يداخله الحزن، حزن ربّما لم يعانِ منه المدعوّون الآخرون ولكنّما قوامه لديهم هذا النوع من الانجذاب الذي تخلّفه الأشكال اللامتوقعة والفريدة لموت قريب، موت تحمله على وجهك، كما تقول العامة. وبذهول يقرب أن يكون مجافياً ويداخله فضول مفضوح وقساوة وعطفة على الذات هانئة مهتمّة في آن معاً (هي خليط من «كم يلذّ للمرء، فوق البحر الفسيح» و«تذكّر، بما أنّك تراب» كما لعل «روبير» كان قال)[1] تعلّقت جميع الألحاظ بذلك الوجه الذي تأكّل المرضُ وجنتيه، على غرار قمر متناقص، إلى حدّ أنّ دائرتهما كانت،

(١) مزيج من الشعر اللاتيني لهوراس: «كم يلذّ للمرء، حينما تثير الرياح الأمواج فوق البحر الفسيح، أن يشاهد من اليابسة المخاطر الرهيبة التي تحيق بالغير». ومن صلاة الميت لدى الطوائف المسيحيّة: «تذكّر أيها الإنسان، لأنّك تراب وإلى التراب تعود».

فيما عدا زاوية محدّدة، هي دونما شكّ تلك التي ينظر منها «سوان» إلى نفسه، تتوقّف فجأة كزينة مسرحيّة لاقوام لها يضيف إليها الخداع البصري وحده مظهر العمق. كان أنف «سوان» الكراكوزي، وقد ظلّ فترة طويلة مقلّصاً في إطار وجه لطيف، كان يبدو الآن ضخماً متورّماً قرمزيّاً، أقرب أن يكون لعبريّ عتيق منه لـ«ڤالوزيّ»[1] مستهجن، إمّا بسبب غياب هاتين الوجنتين، وليستا هنا من بعد لتقليصه، وإمّا لأن تصلّب الشرايين، وهو تسمّم بدوره، يحمّره كما لعلّ إدمان الكحول يفعل أو يشوّهه كما لعلّ «المورفين» تفعل. وربّما عاد العرق من جانب آخر في هذه الأيّام الأخيرة لديه، ربّما عاد يبرز بصورة أوضح النموذج الجسدي الذي يميّزه والإحساس في الوقت نفسه بتضامن ماديّ مع اليهود الآخرين، تضامن بدا أن «سوان» أغفله طوال حياته فأيقظه المرض القاتل ومسألة «دريفوس» والدعاوى المناهضة للسامية وقد انضاف بعضها إلى بعض. فثمّة بعض اليهود ممّن يكمن لديهم، مع أنّهم مرهفون إلى حدّ كبير وأرباب مجتمع رقيقون، يكمن احتياطاً وبعيداً عن الأنظار كيما يدخلا في ساعة معيّنة من حياتهم،كما هو الأمر في مسرحيّة، انسان فظّ ونبيّ. صحيح أنّه تبدّل تبدّلاً كبيراً بوجهه الذي اختفى منه بسبب المرض أقسام بكاملها، كما هي الحال في كتلة ثلج تذوب وقد تهاوت منها جوانب كاملة. ولكنّي ماكنت أقوى على الحؤول دون أن أدهش إلى أيّ حدّ تغير أكثر من ذلك بالنسبة إليّ. فهذا الرجل الممتاز المثقّف الذي ما أبعد ماكنتُ عن التضجّر بلقائه ماكنت أفلح في إدراك الكيفيّة التي استطعت بها أن أزرع فيه سرّاً عظيماً إلى حدّ أن ظهوره في «الشانزيليزيه» كان يخفق به قلبي إلى حدّ أن أخجل من الاقتراب من معطفه المبطّن بالحرير وأني على باب الشقّة التي كان يعيش فيها مثل هذا الإنسان ماكنت أستطيع قرع الجرس دون أن يتملكني اضطراب وذعر لاحدّ لهما؛ وقد زال كلّ ذلك لا من مسكنه فحسب، بل من شخصه، وإن فكرة التحدّث إليه كان يمكن أن تروقني أو لا تروقني ولكنّها ما كانت تخلّف أيّ أثر في جملتي العصبيّة.

ثمّ كم هو تغيّر منذ عصر هذا اليوم نفسه الذي التقيته فيه – أي قبل بضع ساعات– في مكتب الدوق «دو غير مانت»! فهل وقعت بالحقيقة مشادّة بينه وبين الأمير بلبلته؟ لم يكن الافتراض ضرورياً، فإن أقلّ جهود تطلب من شخص مريض جدّاً سرعان ماتضحي بالنسبة إليه إرهاقاً مفرطاً. فإن تعرّض أقلّ مايتعرّض، وهو متعب، لحرّ إحدى الأمسيات تفككت قسمات وجهه وعلتها الزرقة،كما يحلّ في أقلّ من يوم بإجّاصة تناهى نضجها أو بحليب يوشك أن يحمض. ثمّ إن شعر «سوان»، وقد تناقص في بعض المواضع وأصبح بحاجة، كما تقول السيّدة «دو غير مانت»، لفرّاء، كان يبدو كأنّما دهن بزيت الكافور وأسيئ الدهان. كنت أزمع اجتياز صالة المدخّنين والتحدّث إلى «سوان» حينما حطّت لسوء الحظّ يد على كتفي: «مرحباً ياصغيري. أنا في باريس لثمان وأربعين ساعة. لقد مررت إلى بيتك وقيل لي إنّك هنا، فأنت إذاً من يولي عمّتي شرف حضوري إلى حفلتها.» وكان «سان لو».فقلت له كم أجد البيت جميلاً.– «أجل، يبدو عليه شكل البناء التاريخي إلى حدّ ما. أمّا أنا فأجد ذلك قاتلاً ولكن لانقفنّ قريباً من عمّي «پالاميد» وإلاّ اختطفنا. وبما أن السيّدة «دومولييه» (وهي التي بيدها الحبْل في هذه الفترة) غادرت منذ قليل تراه في أشدّ الحيرة. ويظهر أن الأمر كان مسرحيّة حقيقيّة، فلم يفارقها قيد أنملة ولم يتركها إلاّ بعدما وضعها في العربة. لست حاقداً على عمّي ولكنّما

(١) الأسرة التي حكمت فرنسه في أوائل القرن الرابع عشر إلى أواخر السادس عشر.

أستغرب أن يكون مجلسي العائلي الذي بدا دوماً بالغ القسوة عليّ مؤلفاً بالضبط من أقارب هم أكثر مَنْ عزف وقصف ابتداءً بأكثرهم إعراساً، عمّي «شار لوس»، وهو المشرف على الوصيّ عليّ، الذي كان له من النساء مثل ماكان لـ«دون جوان» والذي لايحطّ برحاله وهو في مثل سنّه. وقد بحثوا ذات مرّة أن يجري تعيين مجلس قضائي لي. وأظنّ أن هؤلاء المشّائين العتاق حينما كانوا يجتمعون للنظر في الأمر ويرسلون في طلبي ليعظوني ويقولوا لي إني كنت أغمّ والدتي فلا بدّ أنهم ما كانوا يستطيعون أن ينظر واحدهم إلى الآخر دون أن يضحكوا. فانظر في تشكيلة المجلس فإنما يبدو أنهم اختاروا عامدين أكثر من لاحقوا النساء». وباستثناء السيّد «دوشار لوس» الذي ماكان يبدو لي أنّ لاستغراب صديقي فيما يخصّه مبرّرات أكثر، ولكن لأسباب أخرى كانت على أيّ حال ستتبدّل فيما بعد في خاطري، فقد كان «روبير» على ضلال مبين حينما يرى من غير المألوف أن تعطى دروس في التعقّل لشابّ على لسان أقارب سلكوا سلوك المجانين أو هم لا يزالون يسلكون.

فإن كانت السابقة الوراثيّة والتشابهات العائليّة هي المتهمّة وحدها فلا بدّ للعمّ الذي يُوبِّخ من حمل العيوب نفسها التي يحملها ابن الأخ الذي كُلّف تأنيبه. وليس يبدي العم في ذلك أيّ رياء إذ تخدعه مَلَكَة في الناس تحملهم على الاعتقاد لدى كلّ ظرف جديد بأنّ الأمر «غير الأمر»، ملكة تخولهم تبنيّ أخطاء فنيّة وسياسيّة، الخ.. ، دون أن يتبيّنوا أنّها بعينها تلك التي عدّوها لعشر سنين خلت حقائق بشأن مدرسة رسم أخرى كانوا يدينونها، ومسألة سياسيّة أخرى يظنّونها تستحقّ كراهيتهم، فعادوا عن المواقف وتبنّوها دون أن يتعرّفوها خلف قناعها الجديد. وحتّى إن جاءت أخطاء العم مختلفة عن أخطاء ابن الأخ فيمكن أن لايقلّل ذلك من أنّ الوراثة هي إلى حدّ ما القانون المسبّب لها، لأن المعلول لايشبه العلّة دوماً مثلما النسخة الأصل، وحتّى إن جاءت أخطاء العمّ أكثر سوءاً فإن بمقدوره تماماً أن يظنّها أقلّ خطورة.

حينما كان السيّد «دوشار لوس» يوجّه تأنيباً يخالطه السخط الشديد لـ«روبير» الذي لم يكن يعرف على أيّة حال ميول عمّه الحقيقيّة، فلعلّه كان يمكن في تلك الفترة، حتّى لو كانت تلك التي كان البارون يستقبح فيها ميوله الخاصّة، أن يكون صادقاً إذ يجد من وجهة نظر رجل المجتمعات أنّ «روبير» أقبح ذنباً منه بما لايقاس. أفلم يوشك «روبير» يوم كُلّفَ عمّه بأن يثنيه عن غيّه، أن يُقصى خارج عالمه؟ أفما كان إلاّ القليل كيما يستبعد من نادي الخيول؟ ألم يكن موضع استهزاء من جرّاء الإنفاقات الجنونيّة التي يقدم عليها في سبيل امرأة من أدنى فئة، ومن جرّاء علاقات المودّة التي تربطه بأناس، من كتّاب وممثّلين ويهود، ليس منهم واحد من المجتمع الراقي، ومن جرّاء آرائه التي لا تختلف عن آراء الخونة، والعذاب الذي يسبّبه لذويه جميعاً؟ فأي وجه ممكن للشبه بين هذه السيرة الفاضحة وسيرة السيّد «دوشار لوس» الذي أفلح حتىّ الآن لا في الحفاظ على وضعه كواحد من آل «غير مانت» فحسب بل في تنمية ذاك الوضع، إذ هو في المجتمع شخص مميّز تماماً يسعى إليه ويدلّله المجتمع الأكثر اصطفاء وقد عرف بعد زواجه من أميرة من آل «بوربون»، وهي امرأة لامعة، كيف يسعدها وقد خصّ ذكراها بتكريم أكثر حرارة ودقّة ممّا هو مألوف في دنيا المجتمع فكان بذلك زوجاً صالحاً كما كان ابناً صالحاً؟

وسألت قائلاً: «ولكن هل أنت متأكد من أن السيّد «دوشار لوس» قد اتّخذ هذا العدد من العشيقات؟»

دون أن تداخلني بالتأكيد نيّة شيطانيّة أكشف بها لـ«روبير» السرّ الذي سبق أن فاجأته ولكنّما يضايقني أن أسمعه يؤكد خطأ بهذا القدر من اليقين والعجب. واكتفى بالارتفاع بمنكبيه جواباً عمّا ظنّه سذاجة من جانبي. «ولكنّي بأيّة حال لا ألومه وأرى أنّه على حقّ تماماً.» وشرع بخط لي نظريّة لعلّه كان استهالها في «بالبيك» (وما كان يكتفي فيها بالتنديد بالمغوين إذ يبدو له الموت العقاب الوحيد الذي يتناسب والجريمة). ذلك لأنّه كان لايزال حينذاك عاشقاً غيران، وقد بلغ به أن يمتدح لي بيوت الدعارة. «هناك فقط تجد ماتبحث عنه ومانسميّه المقاس في الكتيبة.» فلم يعد به إزاء هذا النوع من الأماكن القرف الذي داخله في «بالبيك» حينما لمحت إليها، وقلت له وأنا أسمعه الآن أنّ «بلوك» عرّفني على بعض منها، ولكنّ «روبير» أجابني أن البيت الذي كان يتردّد إليه «بلوك» «لابدّ بائس تماماً وجنّة الفقير». «ولكن ربّما على أيّ حال، فأين يقع؟» ولبثت في المبهم الغامض إذ ذكرت بالفعل أنّ «راشيل» تلك التي أحبّها «روبير» حبّاً جمّاً كانت تهب ذاتها هناك في مقابل ليرة ذهبيّة. «سوف أعرّفك في جميع الأحوال على ماهو خير منه تماماً وحيث تتردّد نسوة مدهشات.» وإذ سمعني أبدي رغبة في أن يقودني في أقرب فرصة ممكنة إلى البيوت التي كان يعرفها ولابدّ أنّها تفوق كثيراً البيت الذي سبق أن دلّني عليه «بلوك»، أبدى هو أسفاً صادقاً لما لا يستطيع ذلك هذه المرّة إذ إنه يعود في الغد، وقال: «سيكون ذلك في عودتي القادمة»؛ وأضاف يقول بهيئة يلفّها الغموض: «سوف ترى. هنالك حتىّ فتيات، آنسة صغيرة من .. أظنّ من «أورجفيل»، وأقول لك بالضبط، إنّها ابنة أناس من خيرة القوم؛ ولعلّ الأم مولودة لآل «لاكروا ليفيك»؛ إنّهم جماعة من الصفوة وعلى بعض قربى، إن لم تكذب الذاكرة، بعمتّي «أوريان». تكفي في جميع الأحوال رؤية الصغيرة حتّى تشعر أنّها ابنة أناس ذوي مستوى (وأحسست مقدار لحظة بظلّ عبقريّة آل «غير مانت» يمتدّ فوق صوت «روبير»، يمتدّ كسحابة ولكن على ارتفاع عال دون أن يتوقّف). ذلك يبدو لي تماماً مسألة رائعة. فالوالدان مريضان على الدوام ولا يستطيعان الاهتمام بها. يا الله! إن الصغيرة تدفع عن نفسها الملل وإني أعتمد عليك لتوفير تسليات لهذه الطفلة!» —«آه! ومتى تعود؟ »— «لست أدري؛ وإن كنت لا تتمسّك تماماً بالدوقات (إذ لقب الدوقة في نظر الارستقراطيّين هو الوحيد الدالّ على مرتبة لها ألقها الخاصّ، كما يقال في جمهور الأميرات)، فلديك في طراز آخر الوصيفة الأولى للسيّدة «بوتبوس».

وفي تلك اللحظة دخلت السيّدة «دوسورجيس» إلى صالة اللعب تبحث عن ولديها. ولمّا رآها السيّد «دوشارلوس» أقبل عليها بلطف فوجئت به المركيزة مفاجأة تزايد إبهاجها بمقدار الفتور الكبير الذي كانت تتوقّعه من البارون الذي وقف دوماً وقفة المحامي عن «أوريان» وظلّ وحده في العائلة (وهي في الكثير الغالب تراعي تطلّبات الدوق بسبب ميراثه وبداعي الغيرة من الدوقة) يستبعد عشيقات أخيه. ولعلّ السيّدة «دوسورجيس» كانت أدركت لذلك تمام الادراك دواعي الموقف الذي تخشاه من جانب البارون، ولكنّما لم يخطر ببالها إطلاقاً دواعي الاستقبال المناقض كليّاً الذي خصّها به وحدّثها بإعجاب عن الرسم الذي أنجزه لها «جاكيه» فيما مضى. واهتاج هذا الإعجاب فبلغ حدود الحماسة التي إن كانت نفعيّة في جزء منها كي تحول دون ابتعاد المركيزة عنه، كي «تستدرجها» على حدّ مايقول «روبير» عن جيوش عدوّة نريد إجبار قوّاتها على البقاء مشتبكة في نقطة معينّة، فربّما كانت صادقة أيضاً. فإنه إن حلا للجميع أن يعجبوا في الابنين بما

أورثتهما السيّدة «دوسورجيس» من هيئة لها ملكيّة وعينين، فقد كان بوسع البارون أن يحس بمتعة معكوسة ولكنّها بمثل حدّتها في العثور على هذه المفاتن وقد تجمّعت حزمة واحدة لدى والدتهما وكأنّما في رسم لايبعث في حدّ ذاته بأيّة رغبات ولكنّه يغذّي تلك التي يوقظها بالاعجاب الجماليّ الذي يثيره. وكانت هذه الرغبات تزوّد رسم «جاكيه» ذاته على نحو استذكاريّ بسحر شهواني ولعلّ البارون كان ابتاعه راضياً في تلك اللحظة كي يدرس فيه النّسَبَ الفيزيولوجيّ للشابيّن «سورجيس».

وقال لي «روبير» : «ترى أنّي ماكنت مبالغاً. فانظر قليلاً إلى تهالك عمي على السيّدة «دوسورجيس». وإنما يثير ذلك عجبي حتىّ ههنا، فلو علمت «أوريان» بذلك لاستشاطت غيظاً. هنالك، صراحة، مايكفي من النساء كي لا يبلغ بك بالضبط أن ترتمي على هذه»، يضيف قوله. كان يتصوّر، شأن جميع من ليسوا عاشقين أن المرء يختار الشخص الذي يحبّ إثر ألفٍ من المشاورات وطبقاً لمزايا وتوافقات مختلفة. وفيما كان «روبير» من جانب آخر يخطئ بخصوص عمّه الذي يظنّه منصرفاً إلى النساء، كان في حقده يتحدّث عن السيّد «دوشار لوس»بطيش مفرط. فلستَ ابن أخ أحدهم ولايناَلُك دوماً شيء من ذلك، فإنّه يغلب كثيراً أن تنتقل إحدى العادات الوراثيّة عاجلاً أو آجلاً عن طريقه. وربّما استطعنا على هذا النحو إقامة مجموعة من الرسوم الشخصيّة تحمل عنوان الملهاة الألمانية «العم وابن أخيه» نرى فيها العم يحرص حرصاً شديداً، وإن يكن دون ماقصد، أن يشبهه ابن أخيه في نهاية المطاف.بل أضيف أن هذه المجموعة ربّما كانت غير كاملة إن لم ندرج فيها الأعمام الذين ليسوا على قربى حقيقيّة وإن هم إلاّ أعمام زوجة ابن الأخ. والسادة من أمثال «دوشار لوس» متيقّنون أنّهم الأزواج الوحيدون الصالحون بالإضافة إلى أنّهم الوحيدون الذين لايثيرون غيرة النساء إلى حدّ أنّهم بعامّة يحملون ابنة أخيهم حبّاً بها على الزواج من أمثال «شارلوس» ، الأمر الذي يعقّد خريطة التشابهات. ويقترن حبّ ابنة الأخ أحياناً بشيء من الحبّ لخطيبها. أمثال تلك الزيجات ليست نادرة وهي في الغالب مايدعونه بالزيجات السعيدة.

«عمَّ كنّا نتحدّث ؟ أجل، عن هذه الشقراء الطويلة وصيفة السيّدة «بوتبوس». إنّها تعشق النساء أيضاً ولكنّي أظنّ الأمر عندك سواء؛ يمكنني أن أقول لك بصراحة إني لم أبصر يوماً امرأة بمثل جمالها.» -«أتخيلها إلى حدّ ما من شخصيات «جورجونه»! «جورجونه» إلى أبعد الحدود ! آه لو توافر لي وقت أقضيه في باريس، فكم من أمر رائع يمكن إتيانه! ثم تنتقل إلى أخرى غيرها. أمّا ما كان من أمر الحبّ ، ترى، فإنّه مزحة طيبّة، وقد عدلت عن رأيي فيه.» ولاحظت بعد قليل أنّه لم يكن أقلّ عودة عن رأيه في الأدب في حين بدا لي في آخر لقاء لنا أنّه مخيِّب الرجاء بالأدباء فحسب («إنّهم جميعاً من بني وغد وشركاهم»، كما سبق أن قال لي)، وهو ما كان يمكن تفسيره بحقده المبرّر على بعض أصدقاء «راحيل». فقد كانوا أقنعوه أنّها لن يتوافر لها موهبة في يوم إن هي سمحت لـ «روبير»، «وهو رجل من طينة أخرى»، أن يبسط نفوذه عليها، وكانوا وإيّاها يسخرون منه في حضرته وفي أثناء حفلات العشاء التي يقيمها لهم. والواقع أن حبّ «روبير» للأدب لم يكن على شيء من العمق ولايصدر عن طبيعته الحقّة وهو مستمدّ حصراً من حبّه لـ«راحيل» وقد امّحى مع هذا الحبّ، في الوقت نفسه الذي امّحى فيه كرهه لجماعة المتع واحترامه الخاشع لفضيلة النساء.

قال السيّد «دوشار لوس» وهو يدلّ السيّدة «دوسورجيس» على ولديها وكأنّه يجهل تماماً من يكونان: «كم يبدو مظهر هذين الشابيّن غريباً! انظري إلى هذا الولع الغريب باللعب أيّتها المركيزة. لابدّ أنهما شرقيان فلديهما بعض القسمات المميّزة، وربّما كانا تركييّن»، يضيف قوله ليؤكد براءته المتكلّفة ويظهر شيئاً من النفور الغامض والذي سيقيم البرهان حينما يخلي مكانه للوداد على أن هذا الأخير إنّما يُوَجّه فحسب لمن يتمتّع ببنوّة السيّدة «دوسورجيس» إذ لم يبدأ إلاّ بعدما علم البارون من يكونان. وربّما كان يفيد السيّد «دوشار لوس»، والوقاحة لديه هبة من الطبيعة تلذّه ممارستها، ربّما كان يفيد من الدقيقة التي يفْترض في أثنائها أنّه يجهل من يكون ذانك الشابّان كيما يتلهى على حساب السيّدة «دوسورجيس» وينصرف إلى صنوف تهكّمه المعتادة مثلما يستغلّ «سكابّان»[1] تنكّر سيّده لينهال عليه بعصاه.

وقالت السيّدة «دوسورجيس»: «إنّهما ولداي»، وقد كست وجهها حمرة ماكانت لتغشاه لو أنّها كانت أكثر رهافة دون أن تكون أوفر فضيلة، فلعلّها كانت أدركت إذ ذاك أن مظهر اللامبالاة المطلقة أو الاستهزاء الذي يبديه السيّد «دوشار لوس» إزاء أحد الشباب لم يكن يرتدي صدقاً أكثر ممّا يعبّر الإعجاب السطحيّ تماماً الذي يبديه لإحدى النساء عن مكنون طبيعته. فلعلّ التي كان يمكن أن يسمعها دون انقطاع الأقوال الأكثر امتداحاً، لعلّها استطاعت أن تكون غيرى من النظرة التي يرمي بها، فيما يحدّثها، رجلاً يتظاهر فيما بعد بأنّه لم يلاحظه. ذلك لأن تلك النظرة كانت غير تلك التي يخصّ بها السيّد «دوشار لوس» النساء، كانت نظرة خاصّة تصاعدت من الأعماق ولا تستطيع حتّى في أثناء أمسية أن تمتنع عن التوجّه ببساطة إلى الفتيان مثلما نظرات الخيّاط تفضح مهنته جرّاء الطريقة التي تعلق بها فوراً بالثياب.

وأجاب السيّد «دوشار لوس» بلهجة لاتخلو من الوقاحة: «آه! ما أغرب ذلك»، وهو يبدو وكأنّه يحمل فكره على قطع مشوار طويل ليردّه إلى حقيقة تختلف اختلافاً تامّاً عن تلك التي كان يتظاهر بافتراضها. وأضاف قوله: «ولكنيّ لا أعرفهما»، وهو يخشى أن يكون مضى بعيداً بعض الشيء في التعبير عن النفور وشلّ لدى المركيزة نيتّها في تعريفهما به. وسألت السيّدة «دوسورجيس» بلهجة خجولة: «أتراك تسمح لي بأن أقدمهما لك؟» ورتّل السيّد «دوشار لوس» باللهجة المتردّدة الفاترة التي لشخص تُنتزع منه مجاملة: «ولكن، يا إلهي! أنا، حسبما أراك تعتقدين، موافق تماماً، وربما لم أكن شخصاً مسلياً جدّاً بالنسبة إلى فتيين بمثل شبابهما». وقالت السيّدة «دوسورجيس»: «آرنولف» ڤيكتورنيان، هيّا بسرعة». ونهض «فيكتورنيان» بتصميم، وتبعه «آرنولف» طائعاً دون أن ينظر إلى أبعد من شقيقه.

وقال لي «روبير»: «جاء دور الأبناء الآن. شيء يقطع الأنفاس من الضحك. إنّه يجهد حتّى في إرضاء كلب المنزل. والأمر يزداد غرابة بقدر مايكره عمّي «المزوبنين». ثمّ انظر كيف يصغي إليهما بجديّة. ولو شئت أنا أن أقدّمهما له كم لعلّه أبدى من خشونة في طردي .. اسمع، ينبغي أن أمضي لتحيّة «أوريان». فإن مالديّ من وقت أقضيه في باريس قليل حتىّ لتراني مصمّماً على محاولة أن ألتقي هنا سائر الناس الذين كنت مضيت لولا ذاك فوضعت لهم بطاقات في منازلهم. كان السيّد «دوشار لوس» في أثناء ذلك يقول «كم يبدوان على حسن تهذيب، وما أجمل تصرّفاتهما» فتجيب السيّدة «دوسورجيس» مبتهجة: «أهذا ماترى؟».

(١) هو الخادم فى مسرحيّات «موليير» الهزليّة.

وإذ شاهدني «سوان» أقترب من «سان لو» ومنّي. كان المرح اليهوديّ لدى «سوان» أقلّ رهافة من مزحات رجل المجتمع الراقي. وقال لنا: «مساء الخير. يا إلهي! ثلاثتنا جميعاً، سوف يظنّون أن ثمّة اجتماعاً للنقابة. وإن هو إلاّ القليل حتّى يبحثوا أين يوجد الصندوق!» ولم يكن قد لاحظ أن السيّد «دو بوسيرفوي» كان خلفه وكان يسمعه. وقطبّ الجنرال حاجبيه دونما قصد. كنّا نسمع صوت السيّد «دوشارلوس» قريباً جداً منا: «عجباً! تُدعى باسم «ڤيكتورنيان» كما هو الأمر في (مكتب القدماء)»[1]، يقول البارون كي يطيل الحديث مع الشابيّن. وأجاب بكر عائلة «سورجيس»: لبلزاك، أجل»، وما كان قرأ قطّ سطراً واحداً لهذا الروائي ولكنّ أستاذه كان أشار قبل بضعة أيّام إلى التماثل بين اسمه واسم «ديسغر ينيون». كانت السيّدة «دوسورجيس» مفتونة إذ ترى ابنها يتألق والسيّد «دوشار لوس» مأخوذاً إزاء هذا القدر من العلم.

قال «سوان لـ «سان لو»، ولكن بصوت أخفض هذه المرّة كي لا يسمعه الجنرال، «سوان» الذي أضحت علاقات زوجته الجمهورية أهمّ في نظره منذ أن أصبحت قضيّة «دريفوس» في مركز اهتماماته: «يبدو أنّ «لوبيه» إلى جانبنا كلياً، والأمر من مصدر موثوق تماماً. وإنّما أقول لك ذلك لأني أعلم أنّك ماضٍ معنا إلى أبعد حدّ».

وأجاب «روبير» قائلاً: «ولكن ليس إلى هذا الحدّ، إنّك مخطئ كليّاً. تلك مسألة بدأت بداية سيّئة وآسف أنّي حشرت نفسي فيها ولم تكن لي أيّة مصلحة فيها. ولو وقع عليّ أن أعيد الكرّة لوقفت منها على الحياد. إنني جندي وولائي للجيش أولاً. إن بقيت فترة مع السيّد «سوان» فسأعود إليك في الحال؛ إني ذاهب بالقرب من عمّتي». ولكنّي رأيت أنّه إنّما مضى للتحدّث مع الآنسة «دامبرساك» وداخلني الغمّ إذ خطر لي أنّه كذب عليّ حول خطوبتهما المحتملة. وهدأ روعي حينما علمت أنّ السيّدة «دومارصانت» أقدمت قبل نصف ساعة على تقديمه لها، وكانت راغبة في هذا الزواج إذ إن أسرة «امبرساك» غنيّة جدّاً.

وقال السيّد «دوشار لوس» للسيّدة «دو سورجيس»: «وأخيراً أجد شاباً مثقفاً قارئاً يعرف أيّ شيء هو «بلزاك»، وأضاف يقول وهو يلحّ على هذه الكلمات: «وإنّما يزيد من سروري أن ألقاه حيث أصبح الأمر من أشدّها ندرة، في منزل أحد أندادي، في منزل واحد منّا.» وعبثاً يتظاهر آل «غير مانت» باعتبار كلّ الناس سواسية، فما كانوا في المناسبات الكبرى التي يلتقون فيها بأناس «كريمي المحتد»، بل على وجه الخصوص «أقلّ كرم محتد»، يشتهونهم ويمكن أن يدغدغوا عوطفهم، ما كانوا يتردّدون في استحضار الذكريات العائليّة العتيقة. وأردف البارون يقول: «كانت كلمة أرستقراطيّين تعني فيما مضى الأفضلين عقلاً وقلباً. وها إني أرى أوّل واحد منّا يعرف من هو «ڤيكتورنيان ديسغرينييون». ولكنّي مخطئ إذ أقول الأوّل، فثمّة واحد أيضاً من آل «پولينياك» وواحد من آل «مونتسكيو»، يضيف السيّد «دوشار لوس» وهو يعلم أن هذه المُماثلة المزدوجة لايمكن إلاّ أن تنتشي بها المركيزة. «لدى ولديك على أيّ حال من يأخذان عنه، فجدّهما لأمّهما كان يملك مجموعة مشهورة من القرن الثامن عشر». وقال لـ«ڤيكتورنيان» الشابّ: «سوف أريك مجموعتي إن تفضّلت وأوليتني مسرّة في المجيء للغداء ذات يوم. وسأريك طبعة غريبة من «مكتب القدماء» تحمل تصحيحات بيد «بلزاك»، وسوف يروقني أن أقارن بين شخصيّتي «ڤيكتورنيان».

(١) رواية لـ «بلزاك» من مجموعته «مشاهد من الحياة في الريف».

ماكنت أستطيع حمل النفس على فراق «سوان». فقد كان بلغ هذا الحدّ من التعب الذي ليس جسم المريض فيه سوى معوجّة يجري فيها متابعة تفاعلات كيميائيّة. وكان يبرز على وجهه نقاط صغيرة من زرقة داكنة تبدو وكأنّها لاصلة لها بعالم الأحياء وتصدر هذا النوع من الرائحة الذي يجعل المكوث في صفّ «علميّ» في المدرسة الثانويّة غير مستحبّ إلى حدّ بعيد في أعقاب «التجارب». وسألته إن لم يكن تحدّث طويلاً إلى الأمير «دو غير مانت» وإن كان لا يودّ أن يقول لي أيّ حديث كان. فقال: «أجل، ولكن امضِ أوّلاً بعض الوقت مع السيّد «دوشار لوس» والسيّدة «دوسورجيس» وسأنتظرك هنا».

لم يكن السيّد «دوشار لوس» بالفعل، بعدما اقترح على السيّدة «دوسورجيس» مغادرة هذه الغرفة لفرط الحرّ فيها والذهاب ليجلس فترة وإيّاها في غرفة أخرى، لم يكن قد سأل الولدين المجيء مع أمهما بل سألني أنا. كان يتّخذ بهذه الطريقة مظهر من لا يتمسّك بالشابيّن بعدما رمى بالطعم إليهما. ثمّ إنّه كان يخصّني بمجاملة سهلة، إذ السيّدة «دو سورجيس لو دوك» سيّئة السمعة إلى حدّ ما.

وما كدنا لسوء الحظّ نجلس في شرفة لا فسحة لها حتّى مرّت بنا السيّدة «دو سانتوفيرت»، وكانت هدفاً لصنوف هزء البارون. أمّا هي، وربما شاءت أن تخفي أو أن تزدري صراحة ماتولد من مشاعر قبيحة في صدر السيّد «دوشار لوس» وأن تبدي على وجه الخصوص أنّها على صلة حميمة بسيّدة تتحدّث بهذه الألفة إليه فقد ألقت بتحيّة ودّ يلوّنه الازدراء إلى ذات الجمال المشهورة التي ردّت وهي تختلس النظر إلى السيّد «دوشار لوس» بابتسامة ساخرة. ولكنّ الشرفة كانت ضيّقة إلى حدّ أن السيّدة «دوسانتوفيرت». حينما شاءت من خلفنا الاستمرار في البحث عن مدعويها في الغد، ألفت نفسها في الفخّ ولم تفلح في التخلّص بسهولة، وكانت لحظة ثمينة حرص السيّد «دوشار لوس» أتمّ الحرص، وهو راغب في إظهار ألق قريحته الوقحة أمام والدة الشابيّن، على الإفادة منها. ووفّر له سؤال أبله طرحته عليه دون خبث فرصة إنشاد مقطع ظافر لم يسع «سانتوفيرت» المسكينة، وقد جمدّت خلفنا تقريباً، أن تضيّع منها كلمة واحدة فقال وهو يدلّ السيّدة «دو سورجيس» عليّ: «هل تصدّقين أن هذا الشاب الوقح قد سألني منذ قليل، دون أدنى اهتمام بوجوب إخفاء مثل هذه الحاجات، إن كنت أذهب إلى منزل السيّدة «دوسانتوفيرت»، يعني، في ظنّي، إن كنت أعاني من المغص. ولعلّني أحاول في جميع الأحوال أن أفرّج عن نفسي في مكان تتجمّع فيه أسباب الراحة أكثر ممّا هي الحال في منزل امرأة كانت تحتفل بعيد ميلادها المئويّ، إن لم تخنّي الذاكرة، يوم بدأت أرتاد عالم المجتمعات، أي في غير منزلها. ومع ذلك من ذا يكون أكثر إمتاعاً منها إمّا سمعتها؟ فكم من ذكريات تاريخيّة شاهدتها وعاشتها في زمن الامبراطورية الأولى وفترة إعادة الملكيّة، وكم من قصص حميمة كذلك ماكانت بالتأكيد تتّسم بشيء من «القداسة» وكان لابدّ أن تكون شديدة المجون إن صدّقنا الساق التي ظلّت خفيفة لدى «النطّاطة» المحترمة! وما قد يمنعني عن مساءلتها حول هذه الأوقات المشوّقة إنّما حساسيّة جهاز الشمّ عندي. يكفي القرب من السيّدة، وأقول في نفسي فجأة: «ياإلهي! لقد أحدثوا ثغرة في الجورة الفنيّة عندي» فإذا هي المركيزة فقط فتحت فاها منذ قليل بهدف دعوة ما. وتدركين أنّي لو فجعت بالذهاب إلى منزلها لتكاثرت جورتي الفنيّة فانقلبت برميلاً هائلاً من الأقذار. مع أنها تحمل اسماً روحانياً يذكّرني دوماً، وفي النفس ابتهاج، مع أنّها تجاوزت منذ زمن طويل زمن ابتهاجها بيوبيلها، يذكّرني ببيت الشعر الغبيّ هذا الذي يدعونه «مائعاً»:

«آه! للنفس الخضراء ! كم كانت نفسي خضراء في ذلك اليوم..» ولكنّما يلزمني خضرة أكثر نظافة. يقولون لي إن المشّاءة التي لا تكلّ تقيم حفلات راقصة في الهواء الطلق، أمّا أنا فأدعو ذلك «دعوات للنزهة في المجارير». «هل ستمضين للتمرّغ هناك؟» يقول للسيّدة «دوسورجيس» التي أحسّت هذه المرّة بالضيق. ذلك أنها إذ تبغي التظاهر بالامتناع عن الذهاب إزاء البارون، وتعلم أنّها تفضّل أن تدفع أيّاماً من عمرها على أن تفوّت حفلة العشيّة لدى «سانتوفيرت»، فقد تخلّصت بحلّ وسط، أي باللاتأكيد. وقد اتخذ اللاتأكيد لديها شكل بلاهة الهاوي ودناءة الخيّاطة إلى درجة لم يعد السيّد «دوشار لوس» يخشى معها إهانة السيّدة «دو سورجيس» مع أنّه راغب في أن يروقها فشرع يضحك ليبدي لها أن «الضربة لم تكن صائبة».

وقالت : «إنّي معجبة على الدوام بالذين يصمّمون على أمر؛ فغالباً ما أعدل عن مقصدي في اللحظة الأخيرة، ثمّة مسألة فسطان صيفيّ يمكن أن تغيّر الأمور، وسوف أتصرّف بوحي اللحظة».

لقد ثارت ثائرتي، فيما يخصّني، للخطاب الصغير المنكر الذي ألقاه منذ قليل السيّد «دوشار لوس». فلعلّي وددت أن أغمر بالخيرات منظّمة الحفلات الراقصة في الهواء الطلق. ولكنّ الضحايا في دنيا المجتمعات، ودنيا السياسة على حدّ سواء، جبناء لسوء الحظّ إلى حدّ لا يسعك معه أن تحقد فترة طويلة على الجلاّدين. ذلك أن السيّدة «دو سانتوفيرت» بعدما أفلحت في التخلّص من الشرفة التي كنّا نسدّ مدخلها لمست البارون لدى مرورها لمساً خفيفاً ودونما قصد فصاحت، كأنما تركع أمام سيدها، بردّة فعل سنوبيّة قضت على أيّ غضب في النفس، بل ربّما بأمل تمهيد من نوع لابدّ أنّها لم تكن أوّل محاولة فيه: «عفوك! سيّد «دوشار لوس»، آمل أنني لم ألحق بك أذى». ولم يتواضع فيجيب بغير ضحكة عريضة ساخرة وتفضّل فحسب بكلمة «مساء الخير» التي، إذ بدا وكأنّه لم يتنبّه لوجود المركيزة إلاّ لحظة كانت البادئة بالسلام عليه، كانت إهانة إضافيّة. ثمّ إن السيّدة «دوسانتوفيرت» اقتربت منّي واذا تنحت بي جانباً قالت لي بإسفاف بالغ تألّمت منه لأجلها: «ولكن، ما تراني فعلت للسيّد «دوشار لوس»؟ وأردفت وهي تضحك بملء فيها: «يزعمون أنّه لا يراني على أناقة كافية». ولبثت جديّاً؛ فقد كنت أرى من الغباء أن يبدو أنّها تعتقد أو تدفع إلى الاعتقاد بأنْ ليس أحد بالتأكيد بمثل أناقتها؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الناس الذين يضحكون بمثل هذه الشدّة ممّا يقولون إنّما يعفوننا، إذ يأخذون جوّ المرح لحسابهم، من المشاركة فيه.

«ويؤكّد آخرون أنّه مستاء من أنّي لا أدعوه. ولكنّه لا يشجّعني كثيراً. لكأنّه يجافيني (وبدت لي العبارة ضعيفة). حاول أن تعرف وتعال في الغد لتقول لي ذلك. فإن بكّته ضميره وشاء مرافقتك فأت به، فلكلّ ذنب مغفرة. بل ربّما أبهجني ذلك إلى حدّ بسبب السيّدة «دوسورجيس» التي سيسوؤها الأمر. أدَعُ لك حرّية التصرّف فإن حسّك بهذه الأمور كلّها هو الأكثر رهافة وليس مرادي أن أبدو كمن يستجدي مدعوّين. ومهما يكن من أمر، فإني أعتمد عليك أنت كلّ الاعتماد».

وفكّرت أن «سوان» لابدّ كان يتعب في انتظاري، وماكنت بأيّ حال أبغي العودة متأخراً جدّاً لسبب «ألبيرتين» فاستأذنت السيّدة «دوسورجيس» والسيّد «دوشار لوس» بالانصراف ومضيت للقاء مريضي في قاعة

اللعب. وسألته إن كان ماقاله للأمير في حديثهما في الحديقة هو بالضبط مانقله لنا السيّد «دو بريوتيه» (الذي لم أذكر له اسمه) وله علاقة بفصل قصير من مسرحيّة لـ «بيرغوت»، فانفجر ضاحكاً: «ليس ثمّة كلمة صحيحة، ليس ثمّة كلمة واحدة، ذلك مختلق تماماً ولعلّه كان غبيّاً غباء مطلقاً. ذلك بالحقيقة أمر لا يصدّق هذا التوالد التلقائيّ للخطأ. لا أسألك من قال لك ذلك، ولكن ربّما كان بالحقيقة طريفاً في إطار محدّد كهذا أن نرتقي من الأقرب فالأقرب لنعرف كيف تشكل ذلك وكيف يمكن على أية حال أن يثير ما قاله لي الأمير اهتمام االناس؟ الناس فضوليّون جداً، أمّا أنا فما كنت فضولياً في يوم إلاّ عندما صرت عاشقاً وعندما صرت غيوراً. وفي مقابل ماعرفته من ذلك! هل أنت غيور؟» وقلت لـ «سوان» إنني لم أعانِ من الغيرة في يوم وانني لا أعرف حتّى ماعساها تكون. «حسن ! إني أهنّئك على ذلك. وإن يكن المرء على قليل منها فما ذلك بمزعج تماماً من ناحيتين. فمن جهة لأنّ ذلك يمكّن الناس غير الفضوليين من الاهتمام بحياة الآخرين أو بحياة آخر على الأقلّ. ثم لأنّ ذلك يجعلك تشعر إلى حدّ ما بحلاوة الامتلاك والصعود إلى عربة بصحبة امرأة وأن لا تدعها تمضي وحيدة. وإنما يكون ذلك في فترات الداء الأولى أو حينما يكون الشفاء ناجزاً تقريباً. وفي الفترة الفاصلة تكون من أفظع أنواع العذاب. ولابدّ أن أقول لك على أيّة حال إني كنت على اطّلاع قليل حتّى على صنفيّ الحلاوة اللذين أحدّثك عنهما: الأول من جرّاء طبيعتي التي تعجز عن التأمّلات المتطاولة، والثاني من جرّاء الظروف، بسبب المرأة، بل النساء اللواتي أثرن غيرتي. ولكن، لا عليك، فحتّى حينما لاتهتّم من بعد بالأشياء فليس غير ذي بال أن تكون اهتممت، إذ كان ذلك دوماً لأسباب تخفى على الآخرين. إن ذكرى تلك المشاعر إنّما نحسّ أنّها حصراً في داخلنا ولابدّ أن نعود إلى داخلنا لنشاهدها. لا تسخر كثيراً من هذه اللغة المثاليّة، ولكنّ ما أبغي قوله أنّني أحببت الحياة حبّا جمّا وأحببت الفنون حبّاً جمّاً. أمّا الآن وقد أصبحت تعباً بما يجاوز قليلاً قدرتي على العيش مع الآخرين فإن ما أحسست به من عواطف خاصّة بي إنّما تبدو لي، كما هو هوس سائر هواة المجموعات، ثمينة جداً. إني أفتح قلبي لذاتي وكأنّما تلك إحدى الواجهات، وأنظر إلى مواضع العشق الكثيرة واحداً فواحداً، تلك التي لم يعرفها الآخرون. وأقول لنفسي عن تلك المجموعة التي أتمسّك بها الآن أكثر من الأخريات، أقول إلى حدّ ما مثل «مازارين» عن كتبه، ولكن دون أيّ ضيق، إن فراق كل ذلك سوف يكون مزعجاً جداً. ولكن هيّا ننتقل الآن إلى حديثي مع الأمير، فلن أروي عنه إلاّ لشخص واحد، وستكون أنت ذلك الشخص». كان يربكني في سماعه الحديث الذي كان السيّد «دوشار لوس» يطيل فيه إلى مالاحدود على قرب شديد منّا، بعد ما عاد إلى قاعة اللعب. وسأل الكونت «آرنولف» الذي ماكان يعرف حتّى اسم «بلزاك»: «وأنت أيضاً تقرأ؟ وما الذي تفعله؟» كان قصر نظر «آرنولف»، إذ يرى كلّ شيء صغيراً جداً، يظهره بمظهر من يبصر من البعيد البعيد إلى حدّ أن نجوماً غامضة كانت ترتسم في حدقة عينيه، وهي لمسة شاعريّة نادرة في إله يوناني بجمال التماثيل المنحوتة.

وقلت لـ «سوان» :«هلاّ قمنا ببضع خطوات في الحديقة ياسيّدي»، فيما كان الكونت «آرنولف»، بصوت مزأزئ كأنّما يشير إلى أنّ نموّه العقليّ على الأقلّ لم يكن كاملاً، يجيب السيّد «دوشار لوس» بدقّة فيها لطف وسذاجة: «أمّا أنا فاتّجاهي بالأحرى «الغولف» وكرة المضرب والقدم والجري وعلى وجه الخصوص «البولو» كذلك «مينيرڤا» كانت، بعدما تجزّأت، قد كفّت في مدينة معيّنة عن كونها إلهة الحكمة وجسّدت

جزءاً من ذاتها في إلهة رياضيّة محضة، رياضة الخيل، في «أثينا الفروسيّة». وهو يقصد «سان مورتز» كذلك للتزلّج لأنّ «بالاس ابنة تريتون»[1] ترتاد القمم العالية وتلحق بالفرسان. وأجاب السيّد «دوشار لوس»: «آه!» بابتسامة المثقّف المتعالية، المثقف الذي لايجهد حتّى في كتم سخريته ويظنّ على أيّ حال أنّه يفوق الآخرين كثيراً وهو يحتقر ذكاء من كانوا الأقلّ غباء إلى حدّ يكاد لايميّزهم فيه عمّن كانوا الأكثر غباء ماداموا يستطيعون أن يحسنوا في عينيه بطريقة أخرى. كان السيّد «دوشار لوس» يرى أنّه يمنح «آرنولف» بمجرّد التحدّث إليه سموّاً ينبغي أن يحسده الجميع عليه ويقرّوا به. وأجابني «سوان» قائلاً: «لا، إنّي متعب جداً ولا أستطيع المسير، فلنجلس بالأحرى في زاوية فما عدت أستطيع الوقوف». كان ذلك صحيحاً مع أن الشروع في التحدّث ردّ إليه بعض الحيويّة. ذلك لأن ثمّة في التعب الأكثر حقيقة، ولاسيّما لدى العصبيّين، جزءاً يرتبط بالانتباه ولايحتفظ به إلاّ في الذاكرة. فإنّك تُنْهَكُ فجأة ما إن تخشى ذلك ويكفي أن تنسى تعبك لاسترداد قواك. والأكيد أن «سوان» لم يكن تماماً من هؤلاء المنهكين ممّن لايعرفون الكلل والذين يصلون مفكّكي القسمات ذاوين لايقوون من بعد على الوقوف فيستعيدون قواهم في الحديث مثلما الزهرة في الماء وبوسعهم أن يستمدّوا على مدى ساعات قوّة من أقوالهم ذاتها، والقوّة لاينقلونها لسوء الحظّ إلى من يصغون إليهم ويبدون أكثر فأكثر خائري القوى كلّما أحسّ المتحدّث ازدياد يقظته. ولكنّ «سوان» كان ينتمي إلى هذا العرق اليهودي القويّ الشكيمة الذي يبدو أن أفراده أنفسهم يشاركون في طاقته الحيويّة ومقاومتة الموت. فإنّهم يتلجلجون إلى مالا نهاية، وكل منهم يعاني من أمراض خاصّة، مثلما يعاني هو من الاضطهاد، في احتضارات رهيبة يمكن أن تتطاول فتجاوز كلّ حدّ معقول حينما لا ترى من بعد سوى لحية نبيّ يعلوها أنف هائل يتوسّع ليستنشق النسمات الأخيرة قبل ساعة الصلوات الطقسيّة وقبل أن يبدء موكب الأقارب الأباعد الدقيق في موعده يتقدّم بحركات آليّة كأنّما فوق إفريز آشوريّ.

ومضينا للجلوس ولكنّ «سوان» لم يملك، قبل أن يبتعد عن المجموعة التي كان يؤلفها السيّد «دوشارلوس» مع الشابيّن «سورجيس» ووالدتهما، إلاّ أن يسمّر على صدريّة السيّدة نظرات خبيرة طويلة واسعة شهوانيّة، ووضع نظّارته كي يبصر بصورة أفضل وكان يلقي بين الحين والحين، فيما يحدّثني، نظرة باتجاه تلك السيّدة. ثم قال لي بعدما جلسنا: «إليك حديثي مع الأمير كلمة فكلمة، وإن تذكّرت ماقلته لك منذ قليل فسترى لماذا اختارك مساراً لي. ثمّ لسبب آخر سوف تعرفه ذات يوم. «قال لي الأمير» «دو غير مانت»: اعذرني ياعزيزي «سوان» إن بدا أنّي أتجنّبك منذ بعض الوقت. (ولم أكن لاحظت ذلك البتّة إذ أنا مريض وأتجنّب الجميع بنفسي). لقد سمعت بادئ الأمر من يقول، وكنت أتوقّع تماماً، إنّك تحمل في هذه القضيّة التي تقسم البلد آراء تناقض آرائي تناقضاً تامّاً. ولعلّه كان شقّ عليّ كثيراً أن تجهر بها في حضرتي. لقد كان توتّري العصبيّ كبيراً إلى حدّ أن الأميرة حينما سمعت لسنتين خلتا سلفها كبير دوقة «هيسّه» يقول إن «دريفوس» كان بريئاً لم تكتف بأن تلحظ مقالته بعصبيّة ولكنّها لم تردّدها أمامي كي لا تغيظني. وفي الفترة نفسها تقريباً جاء صاحب السموّ الملكي أمير السويد إلى باريس، وإذ يحتمل أنّه سمع من يقول إنّ الامبراطورة «أوجينيا» كانت

(١) أحد ألقاب الإلهه «أثينا»، ولكن ثمّة أسطورة تقول إنها رفيقة ملاعب أثينا وهي ابنة «تريتون» مرافق إله البحر «بوزيدون»، ويمثلونه بعامّة رجلاً ينتهي بذيل وينفخ في بوق صدفيّ.

من أنصار «دريفوس» فقد خلط بينها وبين الأميرة (والخلط مستغرب، كما ستقرّ بذلك، بين امرأة من مرتبة زوجتي واسبانيّة أقلّ كرم محتد ممّا يقولون وقد زوّجت بونابرتيّاً بسيطاً) وقال لها: «أيتها الأميرة، سعادتي بلقائك مزدوجة لأنني أعلم أنّك تحملين ذات أفكاري حول قضيّة «دريفوس»، الأمر الذي لا أستغربه بما أن سموّك باڤاريّة». وقد جرّ ذلك على الأمير الجواب التالي: «لست من بعد، ياسيّدي، سوى أميرة فرنسية وإني أعتقد مايعتقد مواطنيّ». والحقيقة ياعزيزي «سوان» أن حديثاً جرى بيني وبين الجنرال «دو بوسيرفوي» منذ عام ونصف على وجه التقريب جعلني أشكّ بأنّ مخالفات قانونية خطيرة ارتكبت في سير الدعوى وليس خطأ واحداً فحسب».

وقطع علينا حديثنا (إذ كان «سوان» حريصاً على أن لا تُسمع قصّته) صوت السيّد «دوشار لوس» الذي كان يمرّ (دون أن يأبه لنا على أيّ حال) برفقة السيّدة «دوسورجيس» لوداعها فتوقّف محاولاً الاحتفاظ بها إمّا بسبب ولديها أو بسبب الرغبة التي تداخل آل «غير مانت» في أن لاتنتهي الدقيقة الراهنة، تلك الرغبة التي كانت تزجّهم في نوع من العطالة المقلقة. وبعد ذلك بقليل أطلعني «سوان» بهذا الصدد على أمر نزع في نظري عن اسم «دوسورجيس لودوك» كلّ الشاعريّة التي كنت ألفتيها فيه. فقد كانت المركيزة «دوسورجيس لودوك» تشغل مكانة اجتماعيّة وتملك مصاهرات رفيعة أكثر من ابن عمّها الكونت «دوسورجيس» الذي كان فقيراً فيعيش في أرضه. ولكنّ كلمة «لودوك» التي ينتهي بها اللقب ماكان لها البتّة الأصول التي زعمتها لها وجعلتني أقرّب في تصوّري بينها وبين «بورسلابيه» و«بوا- لوروا»، الخ. كان أحد «كونتات» [1]. «دوسورجيس»، بكل بساطة، قد تزوّج في فترة عودة الملكيّة ابنة صناعيّ طائل الثراء اسمه السيّد «لودوك»، وهو نفسه ابن مصنّع موادّ كيماويّة وكان الأوفر ثراء في عصره ومن أعيان فرنسه أيضاً. وقد أنشأ الملك «شارل» العاشر من أجل الصبيّ المولود من هذا القران «مركيزيّة» «سورجيس لودوك»، إذ إنّ «مركيزيّة» «سورجيس» كانت موجودة في الأسرة. ولم تحل إضافة الاسم البورجوازيّ دون تصاهر هذا الفرع من جرّاء ثروته الطائلة وأسر المقدّمة في المملكة. ولعلّه كان بإمكان مركيزة «دوسورجيس لودوك» الحاليّة، وهي من سلالة عظيمة، أن تحوز مركزاً من الطراز الأول. ولكن شيطان الشرّ دفعها، في ازدرائها لهذا المركز الجاهز، إلى هجر بيت الزوجيّة والعيش عيشة فاضحة كأكثر ماتكون. ثم إن المجتمع الذي ازدرته في العشرين وهو على قدميها تخلّى عنها بقسوة في الثلاثين «حين لم يعد يسلّم أحد عليها منذ عشر سنوات باستثناء ندرة من الصديقات المخلصات، فاعتزمت أن تعود فتسترجع قطعة فقطعة ماكانت تملك بمولدها (وليست هذه الجيئة والرواح بنادرة الوقوع).

أما بالنسبة للسادة الكبار من أهليها، وقد أنكرتهم بالأمس فأنكروها بدورهم، فقد كانت تعتذر عن المسّرة التي ستصيبها من إعادتهم إليها بذكريات طفوليّة يمكن أن تستذكرها وإياهم. وإذ تقول ماتقول لإخفاء سنوبيّتها فربّما كانت تكذب أقلّ ممّا تظنّ. «إن «بازان» يمثّل كامل صباي»، تقول يوم عاد إليها. وبالفعل كان في ماتقول شيء من الصحّة، ولكنّها أخطأت في حسابها حينما اختارته عشيقاً لها، لأنّ سائر صديقات الدوقة «دو غير مانت» سوف يقفن إلى جانبها وهكذا سوف تنزلق السيّدة «دوسورجيس» للمرّة الثانية على ذاك السفح الذي صادفت مشقّة عظيمة في تسلّقه. كان السيّد «دوشار لوس» يقول لها في تلك الأثناء وهو

(١) جمع «كونت» من ألقاب النبلاء في فرنسه.

حريص على إطالة الحديث: «حسن! اجعلي احتراماتي على أقدام الرسم الجميل. فكيف حاله؟ وماذا حلّ به؟» فأجابت السيّدة «دوسورجيس»: «ولكنّك تعلّم أنّه لم يعد لديّ، فإن زوجي لم يسّر به» – «لم يسّر به! بإحدى روائع عصرنا» وهي مساوية للدوقة «دو شاتورو دو ناتييه»، وما كانت تبغي بأي حال تثبيت إلهة أقلّ جلالاً وأقلّ فتكاً! آه يالبياقة الصغيرة الزرقاء! أردت أن أقول إن «فيرمير» لم يرسم في يوم قماشاً وهو أكثر ملكة لفنّه، ولا نقولنّ ذلك بصوت مرتفع كي لا يهاجمنا «سوان» بقصد الثأر لرسّامه المفضّل سيّد «دلفت» واستدارت المركيزة وهي توجّه ابتسامة وتمدّ يدها لـ «سوان» الذي كان نهض قليلاً لتحيّتها. وما أن شاهد «سوان» صدر المركيزة عن قرب ومن علٍ وهو يشدّ على يدها حتىّ أرسل، دونما كتمان ربّما نزع التقدّم في السنّ من صدره الرغبة الأدبيّة في إبدائه من جرّاء اللامبالاة بالرأي العام، أو القدرة الجسميّة عليه من جرّاء جنون الرغبة وضعف الدوافع التي تعين على إخفائه حتىّ أرسل نظرة فاحصة جادّة مستغرقة يقرب أن تكون قلقة في خبايا صدريّتها وخفقت فتحات أنفه، وقد انتشت بعطر المرأة، شأن فراشة تزمع أن تحطّ على الزهرة التي لمحتها. وانتفض فجأة من الدوار الذي أصابه، وكتمت السيّدة «دوسورجيس»، وإن على ضيق، نفساً عميقاً لشدّة ما تكون الرغبة معدية أحياناً. وقالت للسيّد «دوشار لوس»: «لقد استاء الرسّام واستعاده. وقيل إنّه الآن في منزل «ديانا دوسا نتوفيرت»». فردّ البارون قائلاً: «لن أصدّق قطّ أن يكون لرائعة ذوق رديء إلى هذا الحدّ». وقال لي «سوان» وهو يتكلّف لهجة متباطئة سوقية ويلاحق بنظراته الثنائيّ وهما يبتعدان: «إنّه يحدّثها عن رسمها، وربّما حدّثتها عن هذا الرسم بمثل جودة حديث «دوشار لوس»»، ثم أضاف قوله: «ولعلّي أصيب بالتأكيد متعة أكثر من «شار لوس»». وسألته إن كان مايقال عن السيّد «دوشار لوس» صحيحاً وكنت أكذب في ذلك كذبة مزدوجة، فإني إن كنت لا أعلم أنّهم قالوا أيّ شيء في يوم فقد كنت أعلم في المقابل تمام العلم منذ قليل أن ما أبغي قوله كان صحيحاً. وارتفع «سوان» بمنكبيه كما لو تفوّهت بأمر مستحيل. «أعني أنّه صديق رائع، ولكن هل بي حاجة إلى أن أقول إن الأمر أفلاطوني تماماً. كلّ ما في الأمر أنّه عاطفي أكثر من غيره. ولما كان من جانب آخر لايذهب قطّ بعيداً جدّاً مع النساء فقد أكسب ذلك الشائعات اللامعقولة التي تنوي التحدّث عنها نوعاً من المصداقيّة. ربّما أحبّ «شارلوس» أصدقاءه حبّاً جمّاً، ولكن ليكن مؤكّداً لديك أن الأمر ماجرى في يوم في غير ما رأسه وقلبه. وأخيراً ربّما نعمنا بثانيتين من الهدوء. لقد تابع الأمير «دو غير مانت» إذاً يقول: «سأقرّ لك بأن فكرة وجود لا قانونية ممكنة في سير الدعوى كانت شاقّة جدّاً عليّ بسبب التقديس الذي تعلم أني أحمله للجيش. لقد عدت فكلّمت الجنرال عن ذلك، ولم يعد لديّ، من أسف، أيّ شكّ بهذا الشأن. سأقول لك بصراحة إنّه لم تخامرني في كلّ ذلك فكرة إمكان فرض العقوبة الشائنة كأكثر ماتكون بحقّ بريء. ولكنّما عذّبتني فكرة اللاقانونيّة تلك فشرعت أدرس ماسبق أن رفضت قراءته فإذا بالشكوك جاءت هذه المرّة تقضّ مضجعي لاحول اللاقانونيّة فحسب، بل حول البراءة. ولم يخطر لي أنّه ينبغي لي أن أفاتح الأميرة بذلك، والله يعلم أنّها أضحت فرنسيّة بقدر ماكنت، وعلى الرغم من ذلك فقد أبديت لها منذ اليوم الذي تزوّجتها فيه صنوفاً من التأنّق كثيرة في إراءتها فرنسه في كامل جمالها، وأروع ماتملك في نظري، عنيت جيشها، حتىّ يبدو لي من القسوة بمكان أن أطلعها على شكوكي التي لم تكن تطال بالحقيقة سوى بعض الضبّاط. ولكنّي من أسرة عسكريّة وما كان في نيتّي أن أصدّق أنْ يستطيع ضبّاط الوقوع في

الخطأ. فعدت وكلّمت «بوسيرفوي» مرّة أخرى في الأمر فأقرّ بأنّ ثمّة دسائس إجرامية دُبّرت وأنّ الجدول ربّما لم يكن من عمل «دريفوس» ولكنّ البرهان الساطع على الجرم كان موجوداً. وكان البرهان وثيقة «هنري». وقد عُلِمَ بعد بضعة أيّام أنّها مزورّة. ومنذ ذلك الحين، شرعت أقرأ كلّ يوم في الخفية عن الأميرة صحيفتي «القرن» و«الفجر». وسرعان مالم يعد لديّ أيّ شك ولم أستطع النوم من بعد. وفاتحت صديقنا الأب «پواريه» بآلامي النفسيّة فلقيت عنده، وعجبت للأمر، القناعة نفسها وسألته إقامة قداديس على نيّة «دريفوس» وزوجته البائسة وأطفاله. وفي هذه الأثناء، رأيت، ذات صباح كنت أمضي فيه للقاء الأميرة، وصيفتها تخفي شيئاً كان في يدها. وسألتها ضاحكاً ماعسى أن يكون، فكست الحمرة وجهها ولم تشأ أن تقول لي عن ذلك. كنت أثق أعظم الثقة بزوجتي ولكنّ هذه الحادثة بعثت فيّ اضطراباً شديداً (وكذلك فعلت بالأميرة التي لابدّ أن وصيفتها روت لها عنها) فقد كادت عزيزتي «ماري» لاتكلّمني» في أثناء الغداء الذي أعقب ذلك. وسألت الكاهن «پواريه» في ذلك اليوم إن كان بوسعه إقامة قدّاسي في الغد على نيّة «دريفوس». وصرخ «سوان» بصوت خافت وهو يقطع حديثه: «هيا بنا، حسن!» ورفعت رأسي فأبصرت الدوق «دو غير مانت» يقبل إلينا. «عذراً عن الإزعاج يا أولادي». وقال موجّهاً الحديث إليّ «ياصغيري ، لقد انتدبتني إليك «أوريان». فإنّ «ماري» و«جيلبير» سألاها البقاء إلى مائدتهما للعشاء بمصاحبة خمسة أو ستّة أشخاص فقط: الأميرة «دو هيسّه» والسيّدة «دولينيي» والسيّدة «دو تارانت» والسيّدة «دو شڤروز» والدوقة «دارنبرغ». ولسنا نستطيع البقاء لسوء الحظ لأننا ذاهبان إلى نوع من الحفلة الراقصة.» كنت أصغي، ولكنّنا في كلّ مرّة يقع علينا أن نفعل أمراً في وقت محدّد نكلف في داخلنا شخصاً ما تعوّد هذا النوع من العمل مراقبة الساعة وإخطارنا في الوقت المناسب. وذكّرني هذا الخادم الجوّاني، مثلما سبق أن رجوته منذ ساعات، أن «ألبيرتين»، وهي في هذا اللحظة بعيدة جداً عن خاطري، سوف تجيء إلى منزلي حال انتهاء المسرح. ولذلك رفضت العشاء. وليس يعني ذلك أنني لم أكن أجد متعة في منزل الأميرة «دو غير مانت» وهكذا يمكن أن يصيب الرجال عدّة أنواع من المتع، والمتعة الحقيقيّة هي تلك التي يهجرون الأخرى في سبيلها. ولكن هذه المتعة إن كانت ظاهرة، أو كانت حتىّ وحدها ظاهرة، يمكن أن تخدعك حول تلك وتطمئن الحسّاد أو تضلّلهم وتغرّر ببصائر الناس. على أنّه قد يكون قليل من السعادة أو العذاب كافياً كي نضحّي بهذه في سبيل تلك. وثمّة أحياناً طراز ثالث من المتع أكثر رزانة وأكثر جوهريّة ليس بعد موجوداً بالنسبة إلينا نحن الذين لايتمثل احتمال وقوعها بالنسبة إلينا إلاّ بإثارة صنوف الندم وتثبيط العزائم. ومع ذلك ترانا ننصرف فيما بعد إلى هذه المتع بالذات. فإن عسكريّاً في زمن السلم،كيما نقدم مثالاً ثانويّاً تماماً، سوف يضحّي بحياة المجتمعات الراقية في سبيل الحبّ، فإن اندلعت الحرب فبالحبّ في سبيل هوى القتال، وهو أقوى من الحبّ، (حتىّ دونما حاجة لإدخال فكرة الواجب الوطنيّ). وعبثاً كان «سوان» يقول إنّه سعيد برواية قصّته لي فقد كنت أحسّ أن حديثه إليّ، بسبب الساعة المتأخّرة ولأنّ آلامه مبرحة، كان من نمط صنوف العناء تلك التي تخلّف لدى الذين يعلمون أنّهم يقتلون أنفسهم بالسهر وصنوف الإفراط، تخلّف عند عودتهم ندماً ساخطاً شبيهاً بذاك الذي يثيره في صدور المبذّرين ما أقدموا عليه من إنفاق جنونيّ والذي لن يحول دون أن يُلقوا في الغد مالهم من النوافذ. فكلّ متعة يصيبها المرء على حساب نومه وخارج نطاق عاداته، وكلّ إفراط إنّما ينقلب إزعاجاً ابتداءً من درجة معيّنة من الوهن،

أكان من جرّاء السنّ أو المرض. وإن المتحدّث ليوالي حديثه بداعي التأدب والاهتياج، ولكنّه يعلم أن الساعة التي كان بعدُ قادراً فيها على الإغفاء قد انقضت، كما يعلم ماسيوجّه لنفسه من لوم في غضون الأرق والتعب التاليين. من جانب آخر، حتىّ المتعة المؤقتة انتهت مذ ذاك والجسم والفكر أفرغا من قواهما حتىّ لايستطيعان أن يصيبا متعة في ما يبدو تسلية لمحدّثك. لكأنّهما شقّة في يوم سفر أو إخلاء تبدو فيه الزيارات التي نستقبل زائرينا فيها جلوساً على الحقائب والعيون مسمرة على الساعة الجداريّة محض أعمال سخرة. وقال لي: «وحدنا أخيراً، ولست أعلم أين أنا من حديثي. أليس أنّي قلت لك إنّ الأمير كان سأل الكاهن «پواريه» إن كان يمكنه إقامة قدّاسه على نيّة «دريفوس»؟ وردّ عليّ الكاهن قائلاً: «لا»، (وأقول «عليّ»، يضيف «سوان»، لأن الأمير هو الذي يكلّمني، تدرك ذلك؟) «فإن لديّ قدّاساً آخر كلّفت إقامته في هذا الصباح على نيتّه». فقلت له: «كيف ذلك؟ أهناك كاثوليكيّ آخر غيري مقتنع ببراءته؟» - «لابدّ أن الأمر كذلك.» - «ولكنّ قناعة هذا النصير الآخر لابدّ هي أقلّ قدماً من قناعتي.» - «بيد أن هذا النصير كان يسألني إقامة قداديس يوم كنت لاتزال تظنّ «دريفوس» مذنباً.» - «آه! أرى تماماً أنّه ليس واحداً من وسطنا» - «بل العكس» - «وهل بيننا حقّاً مناصرون لـ «دريفوس»؟ إنّك تثير فضولي. وددت لو أتكاشف وإيّاه، لو عرفتُه، هذا الطائر النادر» - «وإنّك تعرفه» - «فما اسمه؟» - «الأميرة «دو غير مانت».» وفيما كنت أخشى أن أجرح آراء زوجتي العزيزة القوميّة ومعتقدها الفرنسيّ خشيت هي زعزعة آرائي الدينيّة ومشاعري الوطنيّة. ولكنّها من جانبها كانت تفكّر تفكيري ذاته، مع أنّها فعلت قبلي بكثير. وماكانت خادمتها تخفيه وهي تدخل إلى غرفتها وما كانت تمضي لشرائه كلّ يوم إنّما كان صحيفة «الفجر». منذ تلك اللحظة ياعزيزي «سوان» فكّرت بما أوليك من سرور حينما أنقل إليك إلى أيّ حدّ كانت أفكاري حول هذه النقطة قريبة من أفكارك، واغفر لي إن لم أفعل ذلك من قبل. وإن عدتَ إلى الصمت الذي التزمتُه في مواجهة الأميرة فلن يدهشك أن التفكير بطريقة مطابقة لفكرك ربّما أبعدني عنك أكثر من التفكير بطريقة مغايرة. فقد كانت تشقّ عليّ مباشرةُ ذاك الموضوع أيّما مشقّة. وكلّما اعتقدت أن خطأً، بل جرائم ارتكبت كلّما نزفتُ دماً في حبّي للجيش. ولعلّي كنت ظننت أنّه ماكان لآراء شبيهة بآرائي أن تبعث في نفسك الألم ذاته، حينما نُقِلَ إليّ ذاك اليوم أنّك تندّد تنديداً شديداً بالشتائم الموجّهة للجيش وبأن يقبل مناصرو «دريفوس» بالتحالف مع شتّاميه. لقد دفعني ذلك إلى اتخاذ قراري، وأعترف بأنّه شقّ عليّ أن أقرّ لك بما أراه حول بعض الضبّاط وهم قلّة لحسن الحظّ، وإنّه لمفترح بالنسبة إليّ أن لا يقع عليّ من بعد المكوث بعيداً عنك وأن تحسّ على وجه الخصوص أنه إن أمكن أن أحمل مشاعر أخرى فلأنّي ماشككت قطّ بصحّة الحكم الصادر وما إن داخلني شكّ حتىّ ماعدت أبتغي سوى أمر واحد: إصلاح الخطأ». وإنيّ أقرّ بأن أقوال الأمير «دو غير مانت» أثّرت فيّ تأثيراً عميقاً. ولو كنت تعرفه مثلي أنا وعلمت من أين وقع عليه أن يعود ليصل إلى حيث وصل لامتلأت إعجاباً به وإنّه لأهل بذلك. ثم إن رأيه لا يدهشني فهو على استقامة عظيمة!» وقد نسي «سوان» أنّه سبق أن قال لي بعد الظهر أن الآراء حول قضيّة «دريفوس» هذه تحكمها الوراثة، وهو استثنى على الأكثر الذكاء لأنه أفلح لدى «سانلو» في التغلب على الوراثة وجعل منه مناصراً لـ«دريفوس». ولكنه تبيّن منذ قليل أن ذاك الانتصار كان قصير المدّة وأن «سان لو» قد عبر إلى الفريق الآخر. كان الآن إذاً يخصّ استقامة القلب بالدور الذي كان يخصّ به الذكاء منذ قليل.

وإننا في الواقع نكتشف دوماً بعد الأوان أنْ كان لخصومنا داع لأن ينخرطوا في الحزب الذي هم فيه وأنّه لاعلاقة له. بما يمكن أن يكون صحيحاً في هذا الحزب، وأنّ الذين يفكّرون طبقاً لما نفعل فإنّما الذكاء، إن كانت طبيعتهم الخلقيّة، أكثر سفولاً من أن يتذرّع بها، أو الاستقامة إن كان نفاذ بصيرتهم ضعيفاً، ما دفعهم إلى ذلك دفعاً.

كان «سوان» يرى الآن الذين يوافقونه الرأي على ذكاء دونما تمييز بينهم من صديقه القديم الأمير «دو غير مانت» إلى رفيقي «بلوك» الذي كان استبعده حتىّ ذاك وقد دعاه إلى الغداء. وقد أثار «سوان» اهتمام «بلوك» إذ قال له إن الأمير «دو غير مانت» من أنصار «دريفوس». «ينبغي أن نطلب إليه التوقيع على لوائحنا من أجل «بيكار»، فإنّ اسماً مثل اسمه ربّما كان عظيم الأثر». أماّ «سوان» الذي كان يجمع إلى يقين اليهوديّ المتّقد الاعتدال الديبلوماسيّ الذي يميّز رجل المجتمعات، وكان قد اكتسب من عاداته مايحول دون إمكان التراجع عنها في هذا الوقت المتأخر، فقد رفض السماح لـ«بلوك» بأن يبعث إلى الأمير بمنشور لغرض توقيعه، حتىّ إن بدا الأمر تلقائياً. وكان «سوان» يردّد قوله: «لايمكنه أن يفعل ذلك وينبغي أن لا نطلب المستحيل. ذلكم رجل رائع قطع آلاف الفراسخ للمجيء إلينا، ويمكن أن يكون عظيم الفائدة لنا. فإن وقّع لائحتك جازف بسمعته فحسب لدى جماعته وقد يعاقب بسببنا وربّما ندم على ما أسرّ به إلينا ولم يفعل ذلك من بعد». أضف أنّ «سوان» رفض اسمه ذاته، فقد كان يراه مفرطاً في عبرانيّته حتى لايخلّف أثراً سيئاً. ولئن كان يقرّ كل مايمتّ بصلة إلى إعادة الدعوى، فانّه كان لا يريد البتّة أن يزجّ به في الحملة المناهضة للنزعة العسكرية. وكان يعلّق الوسام الذي كسبه في عام السبعين كغيره من المجنّدين الشباب، ولم يكن حتىّ ذاك فعل من قبل، وقد أضاف إلى وصيّته ملحقاً يطلب فيه، خلافاً لترتيباته السابقة، أن يصار إلى تقديم المراسم العسكريّة لرتبة الفارس التي يحملها في جوقة الشرف. وقد جمع ذلك حول كنيسة «كومبريه» كوكبة كاملة من هؤلاء الفرسان الذين كانت «فرانسواز» فيما مضى تبكي مستقبلهم حينما كان يلوح لها احتمال الحرب. وقصارى القول إن «سوان» رفض توقيع منشور «بلوك» إلى حدّ أنّه إن بدا للكثيرين نصيراً مهووساً لـ«دريفوس» فقد ألفاه صاحبي فاتراً مصاباً بعدوى القوميّة ووطنياً متزمّتاً.

فارقني «سوان» دون أن يشدّ على يدي كي لا يضطرّ أن يقوم بعمليات الوداع في هذه القاعة التي تعجّ بأصدقاء له ولكنّه قال لي: «يجدر بك أن تأتي لزيارة صديقتك «جيلبيرت». لقد كبرتْ حقّاً وتغيّرتْ وقد لا تتعرّفها. لعلّها تسعد أعظم السعادة بذلك!» ماعدت أحبّ «جيلبيرت». لقد كانت في نظري أشبه بمتوفّاة بكيناها طويلاً، ثمّ حلّ النسيان، ولو بعثت حيّة لما استطاعت من بعد الانخراط في حياة لم تعد معدّة لأجلها. لم تعد بي رغبة في لقائها ولاحتىّ تلك الرغبة في أن أظهر لها أني لا أحرص على لقائها، وهو ماكنت أمنّي النفس، حينما كنت أحبّها، باظهاره لها يوم لن أحبّها من بعد.

وإذ لم أعد أبحث إلاّ عن أن أبدي إزاء «جيلبيرت» أنّي رغبت من كلّ فؤادي في لقائها ثانية ومنعني عن ذلك ظروف يقولون «هي خارجة عن إرادتي» وهي لا تقع بالفعل، على الأقلّ بنوع من الترابط، إلا حينما لاتعارضها الإرادة، فإني، عوضاً عن أن أواجه دعوة «سوان» بتحفّظ، لم أفارقه حتّى وعدني بأن يوضح لابنته بالتفصيل الظروف الطارئة التي حرمتني وسوف توالي حرماني من الذهاب للقائها. وأضفت قولي: «على أية

حال سوف أكتب إليها على الفور لدى عودتي. ولكن قل لها إنه كتاب تهديد لأنني سوف أكون حرّاً طليقاً بعد شهرين ولترتجف آنذاك لأنّني سوف أكون في منزلكم حتىّ بمقدار ماكنت أفعل بالأمس».

وقبل فراق «سوان» قلت له كلمة حول صحّته، فأجابني قائلاً: «لا، الأمور ليست سيئة إلى هذا الحدّ، وكما كنت أقول لك على أيّ حال فإني متعب بعض الشيء وأقبل سلفاً بكامل التسليم مايمكن أن يحدث. على أنّي أقرّ فقط أن موتي قبل نهاية قضيّة «دريفوس» سوف يزعجني كثيراً، فلدى هؤلاء الرعاع جميعاً أكثر من سهم في جعبتهم لست أشكّ أنّهم مغلوبون في النهاية، ولكنّهم أقوياء جدّاً ويملكون أعواناً في كلّ مكان. وحينما تكون الأمور على أفضل حال يتداعى كلّ شيء. وددت لو أعيش كفايتي لأرى «دريفوس» وقد رُدّ إليه اعتباره و«بيكار» برتبة لواء».

عدت، بعد ماذهب «سوان»، إلى الصالة الكبرى حيث الأميرة «دو غير مانت» التي ماكنت أعلم آنذاك أنيّ سأكون ذات يوم وثيق الصلة بها. أمّا الغرام الذي أحسّت به تجاه السيّد «دوشار لوس» فلم يتكشّف بادئ الأمر لناظريّ. لقد لاحظت فحسب أن البارون أخذ، بدءاً من فترة معينّة ودون أن يأخذه ضدّ الأميرة «دو غير مانت» أيّ من مظاهر العداء التي ماكانت تُستغرب لديه وفيما استمرّ يبدي لها المقدار نفسه من الودّ، بل ربّما أكثر أيضاً، أخذ يُبدي استياءً وانزعاجاً في كلّ مرة يحدّثونه عنها. وما عاد البتّة يذكر اسمها ضمن لائحة الاشخاص الذين يرغب في تناول العشاء معهم.

صحيح أنّه سبق لي قبل ذلك أن سمعت رجلاً سيئاً جدّاً من دنيا المجتمعات يقول إن الأميرة تغيّرت تماماً وإنّها مغرمة بالسيّد «دوشار لوس» ولكنّما بدت تلك النميمة ضرباً من المحال وأثارت ثائرتي. وقد كنت لاحظت باستغراب، حينما كنت أروي عن شيء يخصّني، أن انتباه الأميرة، إن ورد في مجرى الحديث اسم السيّد «دوشار لوس» كان يبلغ في الحال هذه الدرجة القويّة التي لمريض يسمعنا نتحدّث عن أنفسنا ويفعل بالتالي بطريقة ساهية كسولة ثمّ يتعرّف فجأة اسماً هو اسم المرض الذي يعاني منه فيثيره الأمر ويبهجه. كذلك كانت الأميرة، إن قلت لها: «كان السيّد «دوشار لوس» يروي لي بالضبط..»، تستعيد زمام انتباهها المرخيّ. وفي مرّة قلت أمامها إن السيّد «دوشار لوس» كانت تحركه في هذه الفترة عاطفة قويّة إزاء إحدى النساء أدهشني أن رأيت في عيني الأميرة انغراس هذا الخط المختلف والمؤقّت الذي يرسم في الحدقتين كأنّما أخدود شقّ والذي ينجم عن فكرة حرّكتها أقوالنا دون علم منها في الكائن الذي نتحدّث إليه، فكرة خفيّة لن تتجسّد في كلمات بل تصعد من الأعماق التي حرّكناها على صفحة النظرة التي تغيّرت مقدار لحظة. ولئن أثرت كلماتي في نفس الأميرة فإنّي لم أرتب بالطريقة التي تمّ بها ذلك.

ولقد شرعت على أيّ حال تحدّثني بعد انقضاء وقت قليل عن السيّد «دوشار لوس» ودون مواربة تقريباً. ولئن كانت تلمح إلى الشائعات التي يطلقها قلّة من الناس من حول البارون فكأنّما تشير فحسب إلى اختلاقات قذرة غير معقولة. ولكنّها كانت تقول من جانب آخر: «في اعتقادي أنّه يجدر بامرأة تقع في غرام رجل يملك الشأن العظيم الذي لـ«پالاميد» أن تتمتّع بما يكفي من سموّ النظرة ومايكفي من التفاني كي تقبل به وتفهمه جملة واحدة وكما هو، كيما تحترم حريته ونزواته، كيما تسعى فحسب لتذليل مصاعبه

ومواساته في أحزانه». وإنّما كانت الأميرة «دو غير مانت» تكشف بهذه الأقوال، مع أنّها شديدة الغموض، عما كانت تحاول أن ترفع من شأنه على نحو ماكان يفعل أحياناً السيّد «دوشار لوس» نفسه .أتراني لم أسمعه مراراً وتكراراً يقول لأناس كانوا حتىّ ذاك غير متيقّنين إن كان يُفْتَرى عليه أم لا: «أنا الذي خبر الكثير من الحلو والكثير من المرّ في حياته ومن عرف كلّ صنف من البشر، اللصوص والملوك على حدّ سواء، بل يجدر بي أن أقول بتفضيل طفيف للصوص، ومن لاحق الجمال بكل أشكاله، الخ».. وكان بتلك الأقوال التي يظنّها بارعة، وإذ يكذّب شائعات ما كان أحد يرتاب بسريانها (أو ليفرد للحقيقة، عن ميل واحتياطاً ومن منطلق المعقوليّة، حصّة يحكم وحده أنّها ضئيلة)، كان ينزع آخر شكوك بعض الناس حوله ويوحي بأولها لمن لم يكن لديهم شكوك بعد. فإن أخطر جرائم الإخفاء جميعها جريمة إخفاء الذنب نفسه في فكر المذنب. وإن المعرفة الدائمة التي يملكها عنه إنّما تحول دون أن يفترض إلى أي حدّ هو مجهول بعامّة وكم لعلّ الكذبة الكاملة يسهل تصديقها، وأن يتبيّن في المقابل بدءاً من أيّ درجة حقيقة تطبع الأقوال التي يظنّها بريئة يبدأ الإقرار في نظر الآخرين. ولعلّه كان في جميع الأحوال أخطأ خطأ جسيماً في محاولة كتمانه لأنه ليس من عيوب إلاّ وتلقى في عالم الأغنياء أسناداً وتغاضياً ولقد شهد الناس قلباً شاملاً لتنظيم أحد القصور بغية أن تنام شقيقة بالقرب من شقيقتها حالما علموا أنّها لاتحبّها محض حبّ الشقيقة» على أنّ ماكشف لي فجأة حبّ الأميرة كان واقعة خاصّة لن ألحّ عليها هنا لأنّها تؤلف جزءاً من القصّة المختلفة تماماً التي فضّل فيها السيّد «دوشار لوس» أن يسمح بموت ملكة على أن يخطئ حلاّقه الذي كان سيجعّد شعره بالمكواة الصغيرة من أجل مراقب سيارات نقل عام ألفى نفسه فزعاً أشدّ الفزع أمامه. ولكن هيّا نقلْ كيما ننتهي من حبّ الأميرة، أيّ شيء زهيد فتح عينيّ.كنت في ذلك اليوم وحيداً معها في عربتها. وقد أمرتْ بالتوقّف لحظة كنا نمّر أمام مركز بريد؛ ولم تكن اصطحبت خادماً خاصّاً؛ فأخرجت رسالة إلى النصف من فراء يديها وباشرت حركة النزول لتودعها في علبة البريد. وأردت إيقافها فتلجلجت قليلاً وأخذنا نتبيّن كلانا مذذاك أن حركتنا الأولى كانت فيما يخصّها مثيرة للشبهة إذ تبدو وكأنّها تصون سرّاً، وفيما يخصّني متطفلة إذ كنت أقاوم تلك المحافظة. وكانت هي من عادت فتماسكت وكانت الأسرع بيننا. وكست وجهها فجأة حمرة شديدة فأعطتني الرسالة ولم أجرؤ من بعد على رفض أخذها، إلا أنّي رأيت، دونما قصد وأنا أضعها في علبة البريد، أنها موجّهة إلى السيّد «دوشار لوس».

والآن عودة إلى الوراء وإلى تلك الأمسية الأولى في منزل الأميرة «دو غير مانت»، فقد مضيت لأودّعها لأن ابن عمّها وابنة عمّها كانا يعودان بي وهما على عجلة كبيرة من أمرهما. ولكنّ السيّد «دو غير مانت» كان يودّ أن يستودع أخاه. ولما اتّسع الوقت للسيّدة «دو سورجيس»، وهي على عتبة أحد الأبواب، لتقول للدوق إن السيّد «دوشار لوس» كان لطيفاً معها ومع ولديها فإن هذا اللطف العظيم من جانب شقيقه، وهو الأوّل الذي أبداه بهذا الشأن، كان عميق الأثر في نفس «بازان» وأيقظ لديه عواطف عائليّة ماكانت البتّة طويلة الغفوة. وقد حرص فيما كنّا نودّع الأميرة، دون أن يفضي جهاراً بشكره للسيّد «دوشار لوس»، أن يفصح له عن رقيق مشاعره، إمّا لأنّه صادف عنتاً في كبتها وإما ليتذكّر البارون أن نوع الفعلة التي بادر إليها هذا المساء «لا تمرّ مرور الكرام» في نظر شقيق له، مثلما تعطي قطعة سكرّ لأحد الكلاب لغرض أن تبعث

للمستقبل بتداعيات ذكريات ملائمة. وقال الدوق وهو يستوقف السيّد «دوشار لوس» ويأخذ برفق بذراعه: «عجباً، أيّها الشقيق العزيز! هكذا يمرّ الناس بالشقيق الأكبر دون تحيّة بسيطة. ماعدت أراك يا «ميميه» ولا تعلم كم أفتقد ذلك. لقد لقيت في بحثي عن رسائل قديمة، لقيت بالضبط رسائل من الوالدة المسكينة وكلّها رقيقة جدّاً فيما يخصّك». وأجاب السيّد «دوشار لوس» بصوت متهدّج، فما كان يستطيع البتّة التحدّث عن والدتهما دون تأثّر «شكراً لك يا «بازان». وأردف الدوق قائلاً: «يجدر بك أن تحزم أمرك وتسمح بإقامة جناح لك في «غير مانت». وقالت الأميرة لـ«أوريان» :«لطيف أن تشهد الشقيقين بمثل مايبديان من رقّة، أحدهما للآخر» – «آه! أجل، لست أظنّ أن ثمّة إمكاناً في وجود كثير من الأشقاء هذه حالهم». ووعدتني بقولها: «سوف أدعوك معه؛ ألست وإياه على مايرام؟» وأضافت تقول بلهجة يداخلها القلق إذ هي لاتسمع بالتمام أقوالهما: « ولكن ما الذي يمكن أن يقوله أحدهما للآخر؟» فقد داخلها على الدوام غيرة من المتعة التي يصيبها السيّد «دو غير مانت» من التحدّث إلى أخيه عن ماض يمسك بزوجته بعيداً عنه. كانت تحسّ أن وصولها لايسرّهما حينما كانا سعيدين أن يكون الواحد قرب الآخر وتقبل هي للانضمام إليهما إذ لم تعد قادرة على لجم فضولها المتحفّز. بيد أن غيرة أخرى جاءت تنضاف في هذا المساء إلى غيرتها المعتادة. فلئن كانت السيّدة «دوسورجيس» قد روت للسيّد «دو غير مانت» عن أفضال شقيقه عليها كيما يشكره على ذلك فإن صديقات مخلصات للزوجين «غير مانت» ظننّ من واجبهن إخطار الدوقة بأن عشيقة زوجها شوهدت وحيدة مع شقيقه.وداخل السيّدة «دو غير مانت» من جراء ذلك اضطراب شديد. وعاد الدوق يقول موجهاً حديثه للسيد «دوشار لوس»: «تذكّر كم كنّا سعيدين بالأمس في «غير مانت». فلو عدت أحياناً إليها في الصيف لاستعدنا حياتنا الطيّبة. هل تتذكّر العمّ العجوز «كورفو» : لماذا يبلبل «باسكال» الفكر؟ لأنه مُبَلْ..مبلْ..» – بَل، يقول السيّد «دوشار لوس» وكأنّه بعدُ يجيب أستاذه. «ولماذا هو مبلْبَل؟ لأنّه مُبَلْ..مبلْ.. – «بل» جيّد جدّاً ، إنّك من الناجحين وستنال بالتأكيد درجة وتعطيك السيّدة الدوقة معجماً صينيّاً». – «فإنّك تذكر يا«بازان» في ذلك الوقت يا «بازان» افْتُتِنْتُ باللغة الصينيّة.» «إن كنت أذكر، بلى ياعزيزي «ميميه»! والإناء الصيني العتيق الذي جاءك به «هيرڤيه» من «سان دوني»؛ لا زلت أراه. وكنت تهدّد بالذهاب نهائيّاً لقضاء حياتك في الصين لشدّة ماكنت مغرماً بذلك البلد؛ كنت تحبّ مذذاك القيام بنزهات طويلة. آه! لقد كنت فريداً من نوعك إذ يمكن القول إنّه لم يتّفق لك قطّ أن ماشيت ميول سائر الناس في شيء....» وماكاد الدوق يقول هذه الكلمات حتىّ كست الحمرة وجهه إذ كان عالماً بسمعة شقيقه على الأقلّ إن لم يكُ عالماً بأخلاقه. ولمّا كان لايحدّثه بالأمر على الإطلاق فقد زاد ذلك من ضيقه لأنّه قال شيئاً ربّما بدا أنّه يتعلّق به وزاد في الطين بلّة أن بدا ضيقه ذاك، فقال، بعد أن صمت ثانية، كيما يمسح أثر كلماته الأخيرة :«من ذا يعلم، ربّما كنت عاشقاً لصينيّة قبل أن تحبّ الكثير من البيضاوات وتروقهنّ إن حكمتُ على ذلك من خلال سيّدة أشعتَ في صدرها الكثير من السرور هذا المساء في حديثك إليها. لقد سعدتْ بك.» كان الدوق قد اعتزم أن لايأتي على ذكر السيّدة «دوسورجيس» ولكنّه في خضمّ الضياع الذي بعثته داخل أفكاره الزلّة التي ارتكبها ارتمى على الفكرة الأقرب، وهي بالضبط الفكرة التي ماكان يجدر أن تظهر في الحديث مع أنها الباعث عليه. إلاّ أن السيّد «دوشار لوس» كان لاحظ احمرار وجه أخيه، فأجاب قائلاً، على نحو مايفعل جناة لايريدون أن يبدو الارتباك عليهم من أن يجري الحديث أمامهم عن الجريمة التي يفترض أنّهم لم

يرتكبوها فيظنّون من واجبهم تطويل حديث ينطوي على مخاطر :«سرّني ذلك أعظم السرور، ولكنّي حريص على العودة إلى جملتك السابقة التي تبدو صحيحة إلى أبعد الحدود. كنت تقول إنّه لم يتّفق لي قطّ أفكار سائر الناس، ماكنت تقول الأفكار بل تقول الميول. كم يبدو ذلك صحيحاً! فلم يتّفق البتّة لي أن ماشيت ميول سائر الناس في شيء، كم يبدو ذلك صحيحاً ! كنت تقول إن لي ميولاً خاصّة». واحتجّ السيّد «دو غير مانت»، وماكان بالفعل قال تلك الكلمات ولا كان ربّما يعتقد بحقيقة ماتعنيه لدى شقيقه :«لا، لا !». وعلى أيّ حال، هل كان يظنّ لنفسه الحقّ في مضايقته لتصرّفات غريبة ظلّت في جميع الأحوال موضع شك وطيّ الكتمان بما يكفي كي لا تلحق أيّ ضرر بمركز البارون الضخم؟ ثمّ إن الدوق، إذ يحسّ بوضع شقيقه وهو يجعل نفسه بتصرف عشيقاته، كان يقول في نفسه إن الأمر يساوي بعض التغاضيات في المقابل. ولو أن السيّد «دو غير مانت» كشف في هذا الحين علاقة ما «خاصّة» لشقيقه لمرّ بها، أملاً بالدعم الذي سيوفره له هذا الأخير، والأمل مقرون بذكرى الزمن الغابر الطيّبة، مرور الكرام ولأغضى عنها ومدّ يد العون إن دعت الحاجة. وقالت الدوقة: «هيّا يا «بازان، مساء الخير يا «بالاميد»، قالت يتأكّلها الحنق والفضول ولا تطيق من بعد اصطباراً» : «إن قررت قضاء الليلة هنا فالأفضل أن نبقى للعشاء فإنّك تمسك بنا، أنا وماري، وقوفاً منذ نصف ساعة». وفارق الدوق شقيقه بعد عناق ملفت ونزلنا ثلاثتنا درج فندق الأميرة الفسيح.

وعلى الجانبين فوق أعلى الدرجات كان ينتشر أزواج ينتظرون أن تُقدَّم عربتهم. كانت الدوقة تقف منتصبة القامة على حدة، وإلى جانبيها زوجها وأنا، على يسار الدرج وقد التفّت بمعطفها وياقتها حبيسة سحّاب الياقوت الأحمر تلتهمها عيون النساء والرجال في بحثها لاقتناص سرّ أناقتها وجمالها. وكانت السيّدة «دو غالاردون»، بانتظار عربتها على نفس درجة السلّم التي تقف عليها السيّدة «دو غير مانت» ولكن في الطرف المقابل، كانت، وقد فقدت منذ فترة طويلة أيّ أمل في أن تحظى يوماً بزيارة ابنة عمّها، تدير ظهرها كي لايبدو أنها تراها وكي لاتوفّر على وجه الخصوص البرهان على أن هذه الأخيرة لاتسلّم عليها. كانت السيّدة «دو غالاردون» معكّرة المزاج إلى حدّ بعيد لأنّ سادة كانوا معها ظنوا من واجبهم أن يحدّثوها عن «أوريان» وقد أجابتهم تقول: «لست أحرص إطلاقاً على لقائها، وقد لمحتها على أيّ حال منذ قليل وهي بدأت تشيخ ويبدو أنّها لاتستطيع تعودّ ذلك. «بازان» نفسه يقول ذلك. وإني أدرك الأمر بالطبع فإنّها تحسّ تماماً، بما أنّها ليست على ذكاء وأنّها خبيثة خبث القرع وسيّئة الشكل، أنّه لن يبقى لديها شيء على الإطلاق حين لن تعود جميلة.»

وكنت ارتديت معطفي فلامني على ذلك السيّد «ذو غير مانت» الذي كان يخشى البرد، لامني وهو ينزل معي بسبب الحرّ السائد. وإنّ جيل النبلاء الذي كان على علاقة كثيرة أو قليلة بسيادة المطران «دو بانلو» يتكلّم فرنسية سيّئة (باستثناء آل «كاستيلان») إلى حدّ أن الدوق أعرب عن فكرته على النحو التالي: «الأفضل أن لاتكون ثقيل الملبس قبل الخروج خارجاً، على الأقلّ «كطرح عام».» وإنّي أعود فأرى هذه الهجمة إلى الخارج بكاملها، أعود فأرى، إن لم أضعه خطأً على هذا الدرج، وكأنّما رسم ينفصل عن إطاره، الأمير «دو ساغان» الذي لابدّ أن الأمسية كانت آخر أمسية مجتمعيّة له وهو يرفع قبعّته كي يقدّم مظاهر احترامه للدوقة

بحركة دائرية من قبعته العالية يرسمها واسعة جداً بيسراه ذات القفاز الأبيض التي تتجاوب وزهرة الغردينيا في عروة سترته حتىّ لتعجب أن ليست من نوع اللبدُ المريّش من نظام ماقبل الثورة الذي تتكرّر عدة وجوه سالفة منه في وجه هذا السيّد الكبير. لم يلبث سوى وقت قليل بالقرب منها، لكنّ وقفاته حتىّ للحظة واحدة كانت كافية لتأليف لوحة كاملة حيّة وما يشبه مشهداً تاريخياً. ولما قضى نحبه مذذاك وكنت لمحته فحسب في حياته فقد أصبح بالنسبة إليّ شخصيّة من التاريخ، من تاريخ المجتمعات الراقية على الأقلّ حتىّ ليتّفق لي أن أدهش حين أفكّر أن امرأة ورجلاً أعرفهما هما شقيقته وابن شقيقه.

وفيما كنا ننزل الدرج كانت تصعده بمظهر من الإعياء يلائمها امرأة تبدو في حوالي الأربعين من عمرها مع أنّها أكبر سنّاً، هي الأميرة «دورڤييه» التي كانت، فيما يقال: الابنة غير الشرعية لدوق «پارما» والتي يقطّع انسيابَ صوتها العذب نبرة نمساوية مبهمة. كانت تتقدّم مديدة القامة حانيتها في فسطان من حرير أبيض مزدان بالزهور فيما تدع لصدرها الشهيّ المختلج المنهك أن يخفق عبر قلائد من الماس واللازورد. وكانت فيما تهزّ رأسها على نحو ماتفعل فرس ملكيّة تضيق بلآلئ مقودها التي لاتقدر بثمن ولا يريحك وزنها، كانت تحطّ ههنا وهناك بنظراتها العذبة الساحرة والتي من زرقة أخذت تضحي أكثر لطافة بعد كلّما وافاها الضنى وتستودع بحركة وديّة من رأسها معظم المدعوّين المغادرين. وقالت الدوقة: «تصلين في ساعة متأخّرة يا «پوليت». – «آه! ما أشدّ أسفي. ولكن لم يكن ثمّة إمكان ماديّ»، تجيب الأميرة «دورڤييه»، وكانت أخذت عن الدوقة «دو غير مانت» هذا النوع من الجمل ولكنّما تضيف إليه عذوبتها الطبيعيّة وهيئة الصدق المنبعثة من زخم نبرة جيرمانية بعيدة تغلّف صوتاً بالغ النعومة.. كانت تبدو كأنّما تلمّح إلى تعقيدات في الحياة أطول من أن تروى ولا تقصد أن تشير بابتذال إلى أمسيات مع أنّها عائدة في هذا الحين من عدد منها، ولكنّما لم تكن هي التي تضطرّها إلى المجيء في وقت متأخر إلى هذا الحدّ. فإذا كان الأمير «دو غير مانت» قد منع امرأته على مدى سنوات طويلة من استقبال السيّدة «دورڤييه»، فقد اكتفت هذه الأخيرة بعدما رفع الحظر بأن تردّ على الدعوات كي لايبدو أنّها متعطّشة إليها بمجرد بطاقات تودعها المنزل. وبعد انقضاء سنتين أو ثلاث على هذه الطريقة أخذت تجيء بنفسها، ولكن في ساعة متأخرة جداً كما هي الحال بعد المسرح. كانت تتظاهر بتلك الطريقة بأنّها لاتحرص بتاتاً على الأمسية ولا على أن تُشاهَد فيها بل همّها مجرد المجيء لزيارة الأمير والأميرة ومن أجلهما فقط وحبّاً بهما حينما يكون ثلاثة أرباع المدعوّين قد غادروا «فتنعم بهما أكثر». وهمهمت السيّدة «دو غالاردون» تقول: «حقّاً لقد سقطت «أوريان» إلى أسفل درك، ولست أفهم «بازان» إذ يدعها تتحدّث إلى السيدة «دورڤييه». وليس السيّد «دو غالاردون» من لعله كان سمح لي بذلك». أمّا فيما يخصّني فقد تعرّفت في السيّدة «دورڤييه» المرأة التي كانت ترميني، قرب فندق آل «غير مانت»، بنظرات طويلة مستهامة وتستدير وتتوقّف أمام مرايا الدكاكين. وقدّمتني السيدة «دو غير مانت»، وكانت السيّدة «دورڤييه» رائعة: لامُبالغةَ في اللطف ولا مثارة؛ ونظرت إليّ نظرتها إلى كلّ الناس بعينيها الحلوتين. بيد أني لن يتّفق لي من بعد في يوم أن أحصل منها إن التقيتها على واحدة من تلك الدعوات التي بدا أنّها تعرض نفسها فيها. ثمّة نظرات خاصّة يبدو كأنّها تتعرفك ولايحظى بها شاب البتّة من بعض النساء –وبعض الرجال– إلا في اليوم

الذي يعرفونك فيه ويعلمون أنّك صديق جماعة تربطهم بهم علاقة صداقة أيضاً.

ونودي بأن العربة أُحضرت. فأمسكت السيّدة «دو غير مانت» بتنّورتها الحمراء كأنهما لتنزل وتستقلّ العربة ولكنّها ربّما أخذ منها الندم أو الرغبة في إشاعة السرور وعلى وجه الخصوص في الإفادة من ميزة القصر التي تفرضها الاستحالة المادّية في تطويل فعلة مملّة إلى هذا الحدّ فنظرت إلى السيّدة «دو غالاردون»، ثمّ إنها عادت، كما لو انّها تشاهدها للتوّ فحسب، وقد داخلها إلهام، فاجتازت كامل طول الدرجة وإذ وصلت إلى ابنة عمّها المفتونة مدت لها يدها. وقالت لها الدوقة: «ما أطول المدة!»، قالت كي لايقع عليها البحث مطوّلاً في كلّ مايفترض أن تتضمّن تلك العبارة من صنوف الأسف والأعذار المشروعة واستدارت صوب الدوق بهيئة فزعة وكان، بعدما نزل برفقتي باتّجاه العربة، يصيح بأعلى صوته وهو يرى أن امرأته انطلقت باتجاه السيّدة «دو غالاردون» قاطعة بذلك سير العربات الأخرى. وقالت السيّدة «دو غالاردون» :«لاتزال «أوريان» مع ذلك كثيرة الجمال ! يضحكني الناس حينما يقولون بفتور بيننا، فبمقدورنا لأسباب لا حاجة بنا لوضع الآخرين في سرّها أن نلبث سنوات دون أن ترى إحدانا الأخرى، فإننا نملك من الذكريات المشتركة أكثر من أن نستطيع الانفصال الواحدة عن الأخرى في يوم، وهي في الأساس تعلم حقّ العلم أنّها تودّني فوق كثير من الناس من الذين تلقاهم كلّ يوم وليسوا من دمها.» كانت السيّدة «دو غالاردون» بالفعل على غرار هؤلاء العاشقين المزدرين الذين يريدون أن يحملوك بكل جهد مستطاع على الاعتقاد أنّهم محبوبون أكثر من أولئك الذين تعزّهم معشوقتهم. وقد أقامت (بصنوف المديح التي كالتها وهي تتحدّث عن الدوقة «دو غير مانت» دونما اهتمام بالتناقض وماسبق أن قالت قبل قليل) البرهان على نحو غير مباشر على أن هذه الأخيرة تحيط تماماً بالقواعد المأثورة التي ينبغي أن توجّه في مسيرة الحياة سيّدة كبيرة أنيقة يجدر بها أن تعرف، في الآن الذي تثير فيه أروعُ أثوابها الغيرة إلى جانب الإعجاب، كيف تجتاز كامل الدرج لتنزع فتيلها. «حاذري على الأقلّ أن لايبتلّ حذاؤك» (وكان هطل مطر رعدي خفيف)، يقول الدوق، ولايزال شديد الحنق أن انتظر.

وفي طريق العودة ومن جرّاء ضيق العربة الشديد اتفّق اضطراراً أن يكون الحذاء الأحمر قليل البعد عن حذائي ولمّا خشيت السيّدة «دو غير مانت» أن يكون لامسه فقد قالت للدوق: «سوف يضطرّ هذا الشاب أن يقول لي كما هو الأمر في كاريكاتور لست أعلم من بعد ماهو : «سيدتي قولي لي في الحال إنّك تحبّينني ولكن لاتدوسي هكذا على قدمّي» . » كان فكري على أيّ حال يسرح بعيداً عن السيّدة «دو غير مانت». فمنذ أن كلّمني «سان لو» عن فتاة كريمة المحتد كانت ترتاد أحد بيوت الدعارة وعن وصيفة البارون «دوبوتبوس» اختصرت في هاتين الشخصيّتين بعدما تجمّعت كتلة واحدة الرغبات التي كانت توحي بها إليّ الكثير من الحسناوات ممّن ينتمين إلى طبقتين، فالعاميّات البهيّات المهيبات من وصيفات الأسر الكبيرة المنتفخات كبراً ويقلن «نحن» حين يتحدثن عن الدوقات من جهة، ومن جهة أخرى هاتيك الفتيات اللواتي كان يكفيني أحياناً، حتىّ دون أن أكون رأيتهنّ يمررن بي في عربة أو سيراً على الأقدام، أنْ قرأت اسمهنّ في ملخصّ حفلة راقصة حتىّ أقع في غرامهن، ثمّ بعد ما أكون بحثت بحثاً دقيقاً في «دليل القصور» أين يقضين الصيف (وأدع لنفسي في الغالب أن يضيعني اسم مماثل) أن أحلم في المبادرة إلى السكنى بالتناوب في سهول

الغرب وكثبان الشمال وغابات الصنوبر في الجنوب. ولكنّي عبثاً كنت أصهر كامل المادة الجسديّة الأكثر روعة كي أؤلف منها طبقاً للصورة المثلى التي رسمها «سان لو» الفتاة الطائشة ووصيفة السيّدة «دو بوتبوس» فقد كانت تفتقر الحسناوان اللتان أمنّي النفس بهما إلى ماكنت أجهل مادمت لم أشاهدهما، عنيت الطابع الفرديّ. كنت سأنهك نفسي عبثاً في محاولتي أن أتصور، في أثناء الشهور التي تنصبّ فيها رغبتي بالأحرى على الفتيات، كيف ومن كانت تلك التي حدّثني عنها «سان لو» وفي أثناء الشهور التي لعلّني فضّلت فيها الوصيفات، وصيفة السيّدة «دوبوتبوس». ولكن أية طمأنينة أصبت، بعدما كنت على الدوام مضطرب النفس من جرّاء مايداخلني من رغبات قلقة حيال كثرة من مخلوقات متهربة ماكنت أعرف في الغالب حتىّ اسمها، وكانت في جميع الأحوال صعبة اللّقيا وأصعب تعرفاً وربّما استحال الفوز بها، من أنني اقتطعت من كامل هذا الجمال المبدّد المتهرّب المجهول نموذجين مختارين مزودين ببطاقة أوصافهما وكنت على الأقلّ متيقّناً من الظفر بهما ساعة أشاء! وكنت أؤجل ساعة الشروع بهذه المتعة المزدوجة ومثلها ساعة العمل، ولكنّ اليقين الذي بي من إصابتها حينما أشاء كان يغنيني أو يكاد عن أخذها كمثل تلك المضغوطات المنومة التي يكفيك أن تكون في متناول يدك كي لاتحتاج إليها وتنام. ولم أعد أبغي في الكون إلاّ امرأتين ماكنت بالحقيقة أفلح في تصوّر وجهيهما، ولكنّما سبق أن أطلعني «سان لو» على اسميهما وضمن تساهلهما. ولئن كان خصّ مخيلتي بعمل شاق من جرّاء أقوال تفوّه بها للتو فقد وفرّ بالمقابل لإرادتي استرخاء ثميناً وراحة مستديمة.

وقالت لي الدوقة :«هيّا نَر! ألا يمكنني فيما عدا حفلاتك الراقصة أن أفيدك في شيء ؟ وهل عثرت على صالة تودّ أن أقدمك فيها؟» فأجبتها أنني أخشى أن تكون الوحيدة التي أتوق إليها هينة الأناقة إلى حدّ بعيد في نظرها. وسألتني بصوت متوعد أجشّ ويكاد لاينفرج فمها: «ومن عساها تكون» ؟ – «البارونه «پوتبوس». وأبدت هذه المرّة غضباً حقيقياً .«لا ! ياللعجب! أظنّك تسخر منّي. ولست حتىّ أعلم بأيّة مصادفة أعرف اسم هذه الدابّة. إنها حثالة المجتمع، فكما لو أنك تسألني أن أقدمك لبائعة الخردوات عندي. وحتىّ هذه لا، فإن بائعتي هذه رائعة. بك بعض مس ياصغيري المسكين. وفي جميع الأحوال أسألك أن تتلطّف فتكون مهذّباً مع الأشخاص الذين قدّمتك إليهم وأن تدع لهم بطاقات وأن تمضي لزيارتهم وأن لا تحدّثهم عن البارونة «پوتبوس» المجهولة لديهم.» وسألت إن لم تكن السيّدة «دورڤيبه» على شيء من الخفّة. «لا على الإطلاق، إنّك تخلط، وربّما كانت بالأحرى متزمتّة. أليس أنّها يا«بازان»؟ وقال الدوق: «أجل، وفي جميع الأحوال لا أعتقد أن تكون أُخذت في يوم بأمر».

وسألني قائلاً : «ألا تود مرافقتنا إلى الحفلة الراقصة؟ سوف أزودك بمعطف من البندقية وأعرف شخصاً ربّما سرّه ذلك أيما سرور، «أوريان» أوّلاً، ذلك غنيّ عن القول، فأميرة «پارما» خصوصاً. إنّها تنشد طوال الوقت مدائحك ولاتقسم إلا باسمك. أنت محظوظ –إذ هي ناضجة نوعاً ما– أن تكون على احتشام مطلق، ولولا ذاك لاتّخذتْ منك بالتأكيد خادماً ملازماً كما كانوا يقولون في شبابي، ونوعاً من العاشق المتيمّ».

ماكنت حريصاً على الحفلة الراقصة، بل على موعدي مع «ألبيرتين» ولذلك رفضت. كانت العربة قد توقفت، وطلب الخادم الخاصّ فتح البوّابة الرئيسيّة وضربت الخيل الأرض بسنابكها إلى أن فتحت على

مصراعيها ودخلت العربة إلى فناء المنزل. وقال الدوق: «إلى لقاء جديد». وقالت الدوقة: «لقد أسفت أحياناً لسكناي قريبة إلى هذا الحدّ من ماري، فإن كنت أودّها كثيراً فإني أودّ أقلّ بقليل رؤيتها. ولكنّي لم آسف في يوم لهذا القرب بقدر ماأفعل اليوم لأن ذلك يقصرّ إلى هذا الحدّ من بقائي معك». – «هيّا يا «أوريان» كفّي عن الخطاب». ودّت الدوقة لو أدخل لحظة إلى منزلهم. وضحكت كثيراً وكذلك فعل الدوق حينما قلت إنّني لاأستطيع لأنّ فتاة ستأتي الآن بالضبط لزيارتي، وقالت لي: «تلك ساعة غريبة لك لاستقبال زائراتك.» وقال الدوق مخاطباً زوجته: هيّا ياصغيري، فالساعة الثانية عشرة ليلاً إلا ربعاً وماهو إلاّ أن نرتدي ثيابنا..» واصطدم على بابه بالسيّدتين حاملتي العكّاز، وكانتا تحرسانه بحزم وماخشيتا الانحدار ليلاً من «علاليهما» كيما تحولا دون وقوع فضيحة. «لقد حرصنا على تنبيهك مخافة أن تشاهد في هذه الحفلة الراقصة. فقد مات «أمانيان» المسكين للتو، منذ ساعة مضت». وداخل الدوق لحظة هلع، فقد أخذ يشهد حفلته الراقصة تنهار أمامه بما أن هاتين الجبليّتين اللعينتين أخطرتاه بموت السيّد «دوسمون». ولكنّه تمالك نفسه بسرعة كبيرة ورمى في وجه ابنتي عمومته هذه الكلمة التي أدرج فيها إلى جانب تصميمه على أن لا يتخلّى عن إحدى المتع عجزه عن تمثّل قوالب اللغة الفرنسيّة تمثّلاً دقيقاً «إنّه مات ! لا ، إنهّم يغالون، إنّهم يغالون!» ودون أن يهتمّ من بعد بقريبتيه اللتين تزمعان، وقد تسلّحتا بعصويهما الجبليتين، القيام بالتسلّق في عتمة الليل، ألقى بنفسه يتسقّط الأخبار مسائلاً خادمه الخاصّ : «هل وصلت خوذتي بالتأكيد؟ «أجل، سيّدي الدوق.» – «وهناك حتماً ثقب صغير للتنفّس؟ فلست أرغب في الموت اختناقاً، ياللعنة!» ـ «أجل سيدي الدوق» ـ آه ! ياقدرة الله، هذا مساء المصائب. نسيت يا «أوريان» أن أسأل «بابال» إن كان الحذاء المثلّثي الرأس لك!» – «ولكن، ياعزيزي، مادام صانع ألبسة الأوبرا الهزليّة هنا فسوف ينبئنا عن ذلك. أمّا أنا فلا أظنّه يتماشى ومهمازيك.» وقال الدوق: «هيّا نلق صانع الملابس. إلى اللقاء ياصغيري. كنت قلت لك أن تدخل وإيّانا فيما نجرّب بغية تسليتك. ولكننا قد تمضي في حديث والليل أوشك أن ينتصف وينبغي أن لا نصل متأخّرين كيما يكتمل الاحتفال».

كنت بدوري على عجلة من أمري لفراق السيّد والسيّدة «دو غير مانت» أسرع مايكون الفراق. كانت مسرحيّة «فيدر» تنتهي حوالي الحادية عشرة والنصف. وماهو إلا أن أجيء حتىّ تكون «ألبيرتين» قد وصلت. ومضيت رأساً إلى «فرانسواز»: «هل وصلت الآنسة «ألبيبرتين»؟ – «لم يجئ أحد.» ياإلهي، أفكان يعني ذلك أنْ لن يجيء أحد ؟ لقد أخذني القلق إذ تبدو لي زيارة «ألبيرتين» الآن أكثر اشتهاء بقدر ما يتناقص ثبوتها. و«فرانسواز» انزعجت هي الأخرى وإنما لسبب مغاير تماماً . فإنّها أجلست ابنتها منذ قليل إلى الطاولة لوجبة شهيّة. ولمّا سمعتني «فرانسواز» مقبلاً وتبيّنت أنّها إنّما يعوزها الوقت لرفع الأطباق وتجهيز الأبر والخيوط وكأنما الأمر أمر عمل لا أمر عشاء فقد قالت لي : «لقد أخذتْ ملعقة من الحساء وأجبرتها على مصّ بعض العظام» ، لتقلّص بذلك إلى لا شيء عشاء ابنتها وكما لو ان وفرته ضرب من الإجرام. وكانت «فرانسواز» تتظاهر حتىَ على الغداء أو العشاء إن اقترفتُ ذنب الدخول إلى المطبخ أنّهم انتهوا، بل هي تعتذر بقولها: «كنت أردت تناول «كسرة» أو «لقمة» ولكن سرعان مايطمئنّ المرء إذ يرى تعدّد الأطباق التي تغطّي الطاولة والتي لم يتّسع الوقت لـ«فرانسواز» ، وقد باغتها دخولي المفاجئ كما هي حال شقيّ لم تكنه، كي تزيلها، ثم أضافت قولها:«هيا، بادري إلى النوم فإنّك هكذا قد عملت كفايتك اليوم (إذ هي تبغي أن تبدو ابنتها وكأنّها لا

تكلّفنا شيئاً، وليس ذلك فحسب، بل هي تعيش من صنوف الحرمان وهي حتىّ تقتل نفسها في العمل من أجلنا). أنت تعرقلين الحركة في المطبخ فحسب وتضايقين على وجه الخصوص السيّد الذى ينتظر زيارة». وعادت تقول: «هيّا اصعدي»، وكأنّما تضطّر أن تستخدم كامل سلطتها لترسل ابنتها إلى النوم، ابنتها التي لم تعد ههنا إلاّ من قبيل الخدعة مادام العشاء قد فشل، ولو مكثت خمس دقائق إضافية لولّت الأدبار من تلقاء نفسها. ثمّ التفتت إليّ وقالت بهذه الفرنسيّة الحلوة الشعبيّة، مع أنّها فرديّة نوعاً ما، التي تميزّها: «ليس يرى سيّدي أن حاجتها إلى النوم تشوّه وجهها.» وظللت في قمّة السعادة أن لم يقع عليّ أن أتحدّث إلى ابنة «فرانسواز».

قلت إنّها كانت من بلد صغير يجاور تماماً بلد أمّها مع أنّه يختلف عنه بطبيعة الأرض والمزروعات واللهجة المحليّة وعلى وجه الخصوص ببعض خصائص السكّان. من ذلك أن «اللحّامة» وابنة شقيق «فرانسواز» ماكانتا تتفاهمان بصورة مقبولة ولكنّهما تشتركان، حينما تمضيان للتسوّق، في هذه النقطة التي قوامها المكوث ساعات «عند الشقيقة» أو «عند ابنة العمّ» إذ هما عاجزتان تلقائياً عن إنهاء محادثة، محادثة كان يغيب عنهما في أثنائها السبب الذي دعاهما إلى الخروج حتىّ إذا قيل لهما لدى عودتهما: «هيّا نَر، هل يمكن رؤية المركيز «دونوربوا» في السادسة إلا ربعاً» ؟ ماكانتا حتىّ تلطمان الجبين قائلتين: «آه! لقد نسيت»، بل: «آه! لم أفهم أن سيّدي طلب ذلك، ظننت فقط أنه ينبغي إلقاء التحيّة عليه». ولئن كانتا «تضيّعان رأسيهما» على هذا النحو بالنسبة إلى أمر قيل قبل ساعة فقد كان يستحيل بالمقابل أن تنزع من رأسيهما ماسبق أن سمعتاه مرّة على لسان الشقيقة أو ابنة العم. من ذلك أن «اللحّامة» إن سمعت من يقول إن الإنكليز شنّوا علينا حرباً في عام السبعين إلى جانب البروسيّين (وعبثاً حاولت أن أوضح أن الأمر كان خاطئاً) فقد كانت اللحّامة تردّد في كلّ ثلاثة أسابيع في غضون حديث بيننا: «ذلك بسبب تلك الحرب التى شنّها علينا الإنكليز في عام السبعين إلى جانب البروسيّين» - و«لكنّي قلت لك مئة مرّة إنّك على ضلال». فكانت تجيب، والأمر يتضمّن أنّ قناعتها لم تتزعزع: «في جميع الأحوال ليس ذلك سبباً يدعو إلى كراهيتهم، فقد تغيرت أمور كثيرة منذ حرب السبعين، الخ..». وفي مرّة أخرى كانت تحبّذ فيها حرباً على انكلتره كنت أشجبها قالت: «بالتأكيد، الأفضل على الدوام أن لا تكون حرب، ولكن بما أنّه لابدّ من ذلك فالأفضل أن نبادر إليها في الحال. إن المعاهدات التجاريّة، كما أوضحت الشقيقة منذ قليل، تفقرنا منذ تلك الحرب التي شنّها علينا الانكليز في عام السبعين. وبعد ما نكون هزمناهم لن نسمح بدخول إنكليزي من بعد إلى فرنسه دون أن يدفع ثلاث مئة فرنك رسم دخول، مثلما نفعل نحن للدخول إلى انكلتره».

تلكم كانت طباع السكّان في هذا البلد الصغير الذى لايبلغ عددهم فيه الخمس مئة والذي تحيط به أشجار الكستناء والصفصاف وحقول البطاطا والشوندر، دون احتساب الكثير من الاستقامة وعناد مبهم، حين يتحدثون، كي لايسمحوا بمقاطعتهم ويعيدوا الكرة عشرين مرّة من حيث وصلوا إليه حينما قوطعوا، وهو ماكان يوفر لأقوالهم في النهاية الصلابة التي لاتتزعزع لمتابعة لـ«باخ».

أما ابنة «فرانسواز» فقد كانت تتكلّم بالعكس، إذ تظنّ نفسها امرأة عصرها وقد هجرت الدروب المغرقة في القدم، اللهجة المحليّة الباريزيّة ولاتفوّت واحدة من النكات الملتصقة بها. فإذ قالت لها «فرانسواز» إنني آتٍ من

منزل إحدى الأميرات قالت: «آه! أميرة بجوز الهند [1] دون شكّ» وتظاهرت، وقد لاحظت أنني في انتظار زيارة لي، أنني أدعى «شارل»، فأجبت بسذاجة أنْ لا، وقد مكنّها ذلك من أن تضيف: «آه! خلت ذلك. وكنت أقول في نفسي «شرّ مُنْتَظَر» (شارل ينتظر) ولم تكن من ذوق جدّ رفيع. إلا أنني أبديت لامبالاة أقلّ حينما قالت لي بمثابة عزاء لتأخّر «ألبيرتين» :«أعتقد أنّك تستطيع انتظارها «مؤبّداً»، فلن تجيء من بعد. آه يالوقحات هذا الزمان!».

وهكذا كانت لغتها مختلفة عن لغة أمّها؛ ولكن الأغرب أن لغة أمها كانت مختلفة عن لغة جدتها المولودة في «بايولوبان» وهي قريبة جداً من بلدة «فرانسواز» ومع ذلك كانت اللهجتان المحليتان على اختلاف طفيف شأن المنظرين الطبيعيّين. فقد كانت بلدة أمّ «فرانسواز» على سفح مائل ينحدر صوب واد صغير ويغطيه شجر الصفصاف. فيما كان ثمّة على بعد كبير من هذا المكان، كان على العكس منطقة صغيرة يتكلّمون فيها اللغة المحليّة نفسها المتداولة في «ميزيكليز» تقريباً. وقد اكتشفت الأمر وعانيت من الإزعاج الذي يورثه في الآن نفسه. فقد لقيت «فرانسواز» ذات مرّة في حديث طويل مع وصيفة في المنزل كانت من تلك البلدة وتتكلّم تلك اللغة المحليّة. كانت إحداهما تفهم الأخرى على وجه التقريب ولا أفهمها على الإطلاق وهما على علم بالأمر ولاتكفّان لذلك، وتظنّان عذراً لهما في أنّهما من ذات المنطقة مع أن واحدتهما ولدت بعيداً جداً عن الأخرى، عن موالاة الحديث أمامي بهذه اللغة الأجنبية، كما هي الحال حين لاتريد أن يفهمك الآخرون. وتوالت هذه الدراسات الطريفة في الجغرافية الألسنية والرفاقية الخدميّة كل أسبوع في المطبخ دون أن أصيب منها أيّة متعة.

ولمّا كان البوّاب يضغط على زرّ كهربائي يضيء الدرج في كلّ مرة تنفتح فيها البوّابة الكبيرة وإذ لم يلبث مستأجرون لم يعودوا إلى منازلهم فقد تركت في الحال المطبخ وعدت فجلست في غرفة الانتظار أرقب المكان الذي تسمح فيه الستارة المفرطة الضيق إلى حدّ ما فلا تغطّي تماماً باب شقّتنا المزجّج بدخول الخطّ العموديّ القاتم الناجم عن نصف عتمة الدرج. فإن أضحى هذا الخطّ فجأة أشقر مذهباً فإنّما يعني أن «ألبيرتين» ربّما دخلت منذ قليل في الأسفل وسوف تكون بعد دقيقتين بالقرب منّي، وليس من شخص آخر يمكن أن يجيء في هذه الساعة. ولبثت لا أستطيع صرف عينيّ عن الخطّ الذي يصرّ على البقاء عاتماً. كنت أميل بكامل جسمي لأتأكد من أني أرى تمام الرؤية. ولكن عبثاً كنت أنظر فما يوليني الخط الأسود العمودي، على الرغم من رغبتي الحارّة، البهجة المسكرة التي كانت حلّت بي لو رأيته ينقلب، من جرّاء لمسة سحريّة مفاجئة ذات دلالة، قضيباً ذهبيّاً مضيئاً. ذلك كان اضطراباً مفرطاً بشأن «ألبيرتين» هذه التي لم أفكّر فيها ثلاث دقائق في أثناء أمسية آل«غير مانت» ! ولكنّ الحرمان المحتمل من مجرد متعة جسديّة يوقظ مشاعر الانتظار التى عانيت منها بالأمس بشأن فتيات أخريات، ولاسيّما «جيلبيرت» حين تتأخرّ في المجيء، فيسبب لي عذاباً نفسيّاً قاسياً.

كان لابدّ لي من العودة إلى غرفتي. وتبعتني «فرانسواز» إلى داخلها. وكانت ترى، وقد عدت من أمسيتي، أن لافائدة من احتفاظي بالوردة التي في عروة سترتي وأقبلت لتنزعها مني. وقد سبّبت لي الحركة

(١) لا سبيل إلى ردّ هذا التلاعب اللفظيّ، والعبارة تعنى : لا قيمة لها والترجمة تفقدها التكرار مع أنّها قد توحي بالقيمة الهيّنة. وربّما حالفني الحظّ فى الدعابة الأخرى Char la tan, Charles attend («شارل ينتظر» و«مهرّج»)

التي قامت بها، إذ تذكرّني بأن «ألبيرتين» يمكن أن لاتجيء من بعد وإذ تضطرّني كذلك إلى الإقرار بأنني كنت راغباً في الظهور بمظهر أنيق من أجلها، غضباً تضاعف من جرّاء أنني، فيما أحاول التخلص بحركة عنيفة، غضّنت الزهرة وأنّ «فرانسواز» قالت لي: «كان من الأفضل أن تدعني أنزعها عوضاً عن أن تفسدها على هذا النحو». كانت أقلّ كلماتها على أيّ حال تثير حنقي، فإن المرء يعاني في الانتظار من غياب مايشتهي إلى حدّ أنّه لايطيق احتمال حضور آخر.

وفكّرت بعدما خرجت «فرانسواز» من الغرفة، أنّه من المؤسف حقّاً، إن كان ذلك لمحض أن أبلغ الآن حدّ إبداء بعض التأنّق إزاء «ألبيرتين»، أن أكون طلعت إليها مرّات كثيرة بأسوأ حلاقة وبلحية تعود لعدة أيّام في الأمسيات التي كنت آذن لها بالمجيء فيها لنعيد الكرّة في مداعباتنا. كنت أحسّ أنّها لاتهتمّ بي فتتركني وحيداً. وعدت فوضعت، بغية تجميل غرفتي قليلاً، إن قدّر أن تجيء «ألبيرتين» بعد وللمرّة الأولى منذ سنوات على الطاولة التي قرب سريري، تلك المحفظة المزيّنة بأحجار الفيروز التي حملتني «جيلبيرت» على صنعها لتغليف كتيّب «بيرغوت» والتي أردت لفترة طويلة الاحتفاظ بها في أثناء نومي إلى جانب كلّة العقيق، إذ كانت أحد أجمل ما أملك من حاجات. ثمّ إن وجود «ألبيرتين» في هذه اللحظة في «مكان آخر» ألفيتُه بالتأكيد أكثر إمتاعاً وماكنت أعرفه كان يسببّ لي، ربّما بمقدار ماتفعل «ألبيرتين» نفسها، وهي بعد لم تجئ، شعوراً مؤلماً كان يمكن أن ينقلب، على الرغم ممّا سبق أن قلته لـ«سوان» منذ مايقرب الساعة حول عجزي عن أن أكون غيوراً، لو التقيت صديقتي في فواصل زمنيّة أقلّ بعداً، حاجة يشوبها القلق وقوامها أن أعلم أين كانت تقضي وقتها وبصحبة من. ماكنت أجرؤ أن أرسل أحداً إلى بيت «ألبيرتين»، ولكنّي، أملاً منّي بأنّها ربّما تتناول طعام العشاء بصحبة صديقات في مقهى وسوف توافيها فكرة الاتصال بي هاتفيّاً، أدرت مفتاح النور وأعدت الخطّ إلى غرفتي وقطعته بين مكتب البريد ومسكن البوّاب الذي كان موصولاً به عادة في تلك الساعة. ولعلّ وجود جهاز استقبال في الممر الصغير الذي تطلّ عليه غرفة «فرانسواز» كان أكثر بساطة وأقلّ إزعاجاً ولكنّه غير ذي فائدة. إن وجوه تقدّم الحضارة تسمح لكلّ فرد أن يكشف عن صفات لاتخطر ببال أو عن معايب جديدة تجعلهم أعزّ على قلوب أصدقائهم أو أكثر ثقلاً عليهم. من ذلك أن اكتشاف «أديسون» مكّن «فرانسواز» من اكتساب عيب إضافي قوامه رفض استخدام الهاتف مهما تكن فائدة الأمر وضرورته. كانت تلقى وسيلة للهرب حينما يبغون تعليمها ذلك كما يفعل آخرون ساعة يحين تلقيحهم. ولذلك وضع الهاتف في غرفتي وجعلوا رنّة الجرس مجرّد طقطقة خشبيّة كي لايسببّ إزعاجاً لوالدي. ومكثت دون حراك مخافة أن لا أسمعه. وقد بلغ لا حراكي مبلغاً لاحظت معه للمرّة الأولى منذ شهور تكتكة ساعة الحائط. وجاءت «فرانسواز» ترتّب بعض الحاجات. كانت تكلّمني ولكنّي كنت أمقت ذاك الحديث الذي كانت مشاعري تتغيّر من دقيقة إلى أخرى في استمراريّته المتساوية في سخفها، فتنتقل من الخشية إلى ضيق النفس، ومن الضيق إلى الخيبة التامّة. كنت أحسّ وجهي، في اختلافه عن الأقوال الغائمة الراضية التي أظنّني ملزماً بتوجيهها إليها، تعيساً إلى حدّ أنني زعمت أني أعاني من الرثية لأفسّر الاختلاف الكائن بين ما أتظاهر به من لامبالاة وهذه الملامح المعذّبة. ثم أخذت أخشى أن تحمل الأقوال التي تجود بها «فرانسواز»، بصوت خافت على أيّ حال، (لابسبب «ألبيرتين»، إذ كانت ترى أن ساعة مجيئها المحتمل قد انقضت منذ وقت طويل)

خطر الحؤول دون سماعي النداء المنقذ الذي لن يصلني من بعد. وأخيراً مضت «فرانسواز» لتنام، فصرفتها برفق حازم كي لاتغطّي الضجّة التي قد تصدر عنها ساعة ذهابها صوت الهاتف. وعدت إلى الإصغاء والمعاناة، فإنّه يبدو، حين ننتظر، أنّ الرحلة المزدوجة، من الأذن التي تجمع الأصوات إلى الفكر الذي يفرزها ويحللّها ومن الفكر إلى الفؤاد الذي ينقل إليه الفكر نتائجه، يبدو أنّها سريعة إلى حدّ أنّنا لانستطيع حتىّ تبيّن مدّتها وأنّه يخيلّ إلينا أننّا نصغي مباشرة بفؤادنا.

كانت تعذّبني عودة لاتتوقّف لرغبة، يزداد على الدوام اضطرابها ولاتُشْبَعَ قطّ، في صوت نداء. وبعدما بلغت أعلى نقطة في صعود معذّب داخل لوالب غمّي المتوحّد وافاني فجأة، بجوار مكتبتي ومن أعماق باريس المكتظّة الليليّة وقد قربت بغتة منّي، وافاني ميكانيكيّاً رائعاً، كما هو في «تريستان» أمر المنديل الخافق في الهواء أو شبّابة الراعي، صوت خذروف الهاتف. وانطلقت فكانت «ألبيرتين».– «ألست أزعجك بندائي في مثل هذه الساعة؟» فقلت وأنا أكتم فرحي لأن ماكانت تقول بشأن الساعة غير المناسبة إنّما كان دونما شكّ للاعتذار عن مجيئها بعد حين، في وقت متأخرّ جداّ، ولايعني أنّها لاتزمع المجيء :«لا، لا ..» ثم سألتها بلهجة لامبالية: «وهل أنت آتية؟»– «بالطبع..لا، إن لم تكن بك حاجة أكيدة إليّ».

ثمّة جزء منيّ يودّ الآخر اللحاق به كان داخل «ألبيرتين». فكان لابدّ أن تجيء ولكنيّ لم أفض إليها بالأمر في البداية، ولما كنّا على اتّصال قلت في نفسي إنني أستطيع دوماً اضطرارها في الثانية الأخيرة إمّا أن تأتي إلي وإمّا أن تسمح لي بالإسراع إليها. «أجل إني قريبة من منزلي، تقول، وبعيدة قليلاً عن منزلك. لم أكن أحسنت قراءة كلمتك، وقد وجدتها منذ قليل وخفت أن تكون في انتظاري». كان يداخلني شعور بأنّها تكذب وكنت أودّ الآن في سورة غضبي إرغامها على المجيء تدفعني حاجة بي إلى إزعاجها أكثر منّي إلى رؤيتها. ولكنّي كنت حريصاً بادئ الأمر على رفض ماسأسعى إلى الحصول عليه بعد لحظات. ولكن أين عساها كانت؟ فإنّ أصواتاً أخرى تختلط بكلماتها: زمّور درّاج وصوت امرأة تغني وجوقة أبواق في البعيد كانت تدوّي بمثل وضوح الصوت الغالي كأنّما لتريني أنّ من كان بالقرب منّي في هذه اللحظة إنّما «ألبيرتين» في وسطها الراهن، مثل مدرة انتزعت معها كلّ النجيليات التي تحيط بها. كانت ذات الأصوات التي أسمعها تدوّي في أذنيها وتشكّل عائقاً لانتباهها: إنّها أجزاء من الحقيقة غريبة عن الموضوع وغير مفيدة في حدّ ذاتها وإنّها لتتزايد بالمقدار نفسه ضرورتها لتكشف لنا وضوح المعجزة؛ إنّها خطوط بسيطة ورائعة تصوّر شارعاً باريسيّاً، خطوط حادّة وقاسية لأمسية مجهولة منعت «ألبيرتين» بعد مسرحيّة «فيدر» من المجيء إلى منزلي. وقلت لها: «أنبّهك في البداية أنْ ليست غايتي أن تجيئي لأنّك في مثل هذه الساعة ستضايقينني كثيراً، فقد هدّني النعاس، ثم إنّ هناك ألفاً من التعقيدات. ويهمنّي أن تعرفي أنّ لم يكن ثمّة أي إمكان لسوء تفاهم في رسالتي. لقد أجبتني بأن الأمر حاز الموافقة. فإن كنت لم تفهمي فما الذي تقصدينه بذلك؟»– «قلت إنْ الأمر متّفق عليه ولكنّي ماعدت أذكر كثيراً موضوع الاتفاق. ولكنّي أراك مغتاظاً وذلك يزعجني. إني آسفة أنْ ذهبت إلى مسرحيّة «فيدر»، لو علمت أن ذلك سيجرّ الكثير من المتاعب..» تضيف قولها مثل جميع الناس الذين أذنبوا في أمر فيتظاهرون بالاعتقاد بأن ما يلامون عليه أمر آخر. «لادخل لـ«فيدر» في استيائي بما أنّني سألتك بنفسي الذهاب إلى هناك» – «إذاً فأنت حاقد عليّ والمزعج أن الوقت تأخّر كثيراً هذا المساء وإلاّ

لمضيت إلى بيتك، ولكنيّ سأجيء غداً أو بعد غد لأعتذر» – «لا، لا! رجوتك يا «ألبيرتين»، فبعد ماضيّعت لي أمسيتي دعيني على الأقلّ وشأني في الأيام التالية، ولن أكون حرّاً طليقاً قبل خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع. اسمعي، إن كان يزعجك أن نبيت على شعور بالغضب، وربّما كنت في الأساس على حق، فإني أفضّل إذ ذاك، والتعب واحد، وبما أني انتظرتك حتىّ هذه الساعة ولاتزالين خارجاً، أن تأتي في الحال، وسأتناول شيئاً من القهوة لأظلّ صاحياً» – «أليس يمكن تأجيل الأمر للغد؟ لأن الصعوبة...». وفيما كنت أسمع كلمات الاعتذار هذه ينطق بها وكأنها لاتزمع المجيء شعرت أن عنصراً مختلفاً تمام الاختلاف عن رغبتي في أن أرى ثانية الوجه المخمليّ الذي سبق أن كان يوجّه في «بالبيك» كامل أيّامي صوب اللحظة التي سأكون فيها، أمام بحر أيلول البنفسجيّ، بجوار هذه الزهرة الورديّة، شعرت أنّه يقوم بمحاولة مؤلمة كي يتحد بتلك الرغبة. هذه الحاجة المخيفة إلى شخص في «كومبريه» قيّضَ لي أن أعرفها بشأن أمّي وإلى حدّ اعتزام الموت إن ارسلتْ تقول لي مع «فرانسواز» إنّها لن تستطيع الصعود. وهذا الجهد الذي يبذله الشعور السابق ليتّحد ويؤلّف عنصراً وحيداً مع الشعور الآخر الأحدث الذي لم يتّخذ مادّة لشهوته سوى المساحة الملوّنة، سوى البشرة الورديّة لزهرة الشاطئ، إن هذا الجهد إنّما لايفضي في الغالب إلاّ إلى استيلاد (بالمعنى الكيميائي) جسم جديد قد لايدوم سوى بضع لحظات. ولكنّ العنصرين لبثا منفصلين في ذلك المساء ولفترة طويلة. بيد أني أخذت أدرك، لدى سماع آخر كلماتها على الهاتف، أن حياة «ألبيرتين» واقعة (لابالمعنى الماديّ بالتأكيد) على مسافة كبيرة منّي حتىّ ليقتضيني على الدوام القيام باستكشافات مرهقة كي أقبض عليها، وهي إلى ذلك منظّمة على هيئة استحكامات ميدانية هي، إمعاناً في الأمان، من نوع تلك التي جرت العادة فيما بعد على تسميتها، بـ« المموّهة». كانت «ألبيرتين» على أيّ حال، وفي مرتبة أعلى من المجتمع، في عداد أناس من النوع الذي تَعدُ البوّابة حامل رسالتك بتسليمها إيّاها حينما تعود– إلى اليوم الذي تتبيّن فيه أنّها هي بالضبط، تلك المرأة التي التَقَيْتَها خارجاً وأجزت لنفسك أن تكتب إليها، البوّابة، وإذ هي تسكن بالتأكيد– إنّما في شقّة البواب– المسكن الذي دلتك عليه (وهو إلى ذلك بيت صغير للدعارة السريعة قوادته البوابة)، أو من النوع الذي يعيّن عنوانه في بناء يعرفه فيه شركاء لن يفضحوا أمامك سرّه ومن هنا يبلغونه رسائلك ولكنّه لايقطنه وقد ترك فيه على الأكثر بعض الحاجات. إنّها صنوف من العيش رُتِّبَتْ على خمسة أو ستّة خطوط انسحاب حتىّ إنّك يوم أردت لقاء تلك المرأة أو الاطلاع على أمر جئت تقرع أكثر إلى اليمين أو أكثر إلى اليسار أو أكثر إلي الأمام أو أكثر إلى الخلف ويمكن أن تجهل كلّ شيء على مدى شهور وسنوات. كنت أحسّ ، فيما يخصّ «ألبيرتين»، أنني لن أطّلع على شيء في يوم وأنني لن أفلح البتّة في تدبّر أمري عبر تعدد وتشابك التفاصيل الحقيقيّة والوقائع الكاذبة، وأن الأمور ستبقى دوماً على هذه الشاكلة مالم تودِّع السجن حتىّ النهاية (مع أنّهم يهربون منه). ولم تبعث تلك القناعة ذلك المساء فيّ سوى شيء من القلق ولكنّي كنت أحسّ فيه رعشة مايشبه استباقاً لعذابات طويلة.

وأجبت قائلاً : «لا، لا! سبق أن قلت إنني لن أكون حرّاً قبل ثلاثة أسابيع، ولن أكون في الغد أكثر من أي يوم آخر» – «حسن، إذاً .. سوف أجيء عدواً .. الأمر مزعج لأني في منزل صديقة لي هي...» كنت أحسّ أنْ لم يدخل في روعها أنّني سوف أقبل اقتراحها بالمجيء، فلم يكن صادقاً إذاً وأردت إحراجها. «وماذا

يهمّني من صديقتك؟ تعالي أو لاتجيئي، ذلك أمر يخصّك، فما أنا من يسألك المجيء، أنت من اقترحتْ الأمر عليّ». «لاتغضب، سأقفز داخل عربة وأكون عندك في عشر دقائق». وهكذا، ومن باريس هذه التي انطلقت من أعماق ليلها حتىّ غرفتي الرسالة الخفيّة تقيس مدى تأثير كائن بعيد، فإن ماكان يزمع أن يطلع فجأة ويظهر بعد هذه البشارة الأولى إنّما «ألبيرتين»تلك التي سبق أن عرفتها تحت سماء «بالبيك» حينما كان نور الشمس الغاربة يبهر نُدل الفندق الكبير وهم يعدّون المائدة، وأنفاس المساء الخفيّة تمرّ، وقد سحب زجاج النوافذ كليّاً، تمرّ دونما عائق من الشاطئ حيث يتباطأ آخر المتنزّهين، إلى قاعة الطعام الفسيحة حيث لم يجلس بعد أوائل المتعشّين إلى موائدهم، فيما يمرّ عبر المرآة التي جُعلت خلف طاولة المشرب وهج جسم السفينة الأحمر ويطيل المقام ظلّ رماديّ للدخان المنبعث من آخر مركب متجه إلى «ريفبيل». لم أعد أسأل نفسي ما الذي أمكن أن يؤخر «ألبيرتين»، وحينما دخلت «فرانسواز» إلى غرفتي تقول لي: «وصلت الآنسة» «ألبيرتين»، فإن كنت أجبت حتىّ دون أن أحرّك رأسي فقد كان ذلك لمحض التستّر :«وكيف تجيء الآنسة «ألبيرتين» متأخّرة إلى هذا الحدّ؟» ولكنّي حين رفعت ناظريّ إلى «فرانسواز» وكأنّما بي فضول لأحظى بإجابتها التي ينبغي أن تعزّز الصدق الظاهر في سؤالي تبيّنت بإعجاب وحنق أن «فرانسواز» ، وكانت قادرة على منافسة «لابيرما» نفسها في فنّ إنطاق الأثواب الجامدة وقسمات الوجه، قد أفلحت في تلقين صُدرتها درساً وكذلك فعلت بشعورها التي أعيد أكْثَرها بياضاً إلى السطح وعُرضتْ وكأنّها خلاصة شهادة ميلاد، وبعنقها الذي لواه التعب والطاعة. كانت كلها ترثي لحالها أنْ أُوْقظَتْ من نومها وأخرجت من دفء السرير في أنصاف الليالي وفي سنّها وقد اضطرّت أن ترتدي ملابسها بأقصى سرعة مجازفة باصابتها باحتقان رئوي. ولذلك قلت، وقد خشيت أن يكون بدا أنّي أعتذر عن وصول «ألبيرتين» متأخرة: «وإني في جميع الأحوال مسرور جداً من أنّها جاءت، وكل شيء على مايرام»، وأطلقت العنان لعميق ابتهاجي. ولم يلبث فترة طويلة لاتشوبه شائبة بعدما سمعت جواب «فرانسواز». فإنّها أخذت، دون أن تطلق أيّة شكوى، بل هي تبدو وكأنّها تكتم جاهدة سعالاً لايقاوم، وتكتفي بمصالبة شالها عليها وكأنما حلّ بها البرد، أخذت تحكي لي كلّ ماقالته لـ«ألبيرتين»، إذ لم يفتها أن تسألها عن أخبار عمتها. «كنت بالضبط أقول لها لاشكّ أن سيّدي خشي أن لاتجيء الآنسة من بعد لأنّ الساعة ليست مناسبة للمجيء فقد أوشك يطلع الصباح. ولكن لابدّ أنها كانت في أماكن تلهو فيها أحسن اللهو فهي حتىّ لم تقل لي إنّها انزعجت من اضطرارها سيّدي للانتظار وأجابت بلهجة من يسخر من الناس: «تأخير ولاقطيعة!» وأردفت «فرانسواز» تقول هذه الكلمات التي اخترقت فؤادي: «لقد كشفت سرّها إذ تقول ماتقول لعلّه كان بودّها أن تتستّر، ولكن..».

لم يكن ثمّة ماأستغربه كثيراً، فقد قلت منذ قليل إن «فرانسواز» نادراً ماكانت تنقل إليك في الخدمات التي تكلّف بها، إن لم يكن ماقالته هي وماكانت تسترسل فيه بطيبة خاطر، فالجواب المنتظر على الأقلّ. فأمّا إن ردّدت استثناءً على مسامعنا الأقوال التي صدرت عن أصدقائنا فقد كانت تدبر أمرها بعامّة كي تضفي عليها طابعاً مهيناً بوساطة ماتؤكّد أنّه رافقها من دلائل ولهجة لدى الضرورة. كانت ترتضي، عند اللزوم، أن تكون لحقت بها إهانة، ويرجّح أن تكون خياليّة على أية حال، على يد مورّد أرسلناها إليه شرطَ أن تطالنا تلك الإهانة، إذ هي موجّهة إليها هي التي كانت تمثّلنا وتكلّمت باسمنا، على نحو ارتدادي. ولعلّه ماكان بقي لنا

سوى أن نجيبها بأنّها أساءت الفهم وأنها مصابة بهذيان الاضطهاد وأنْ لم يتحالف التجّار جميعهم ضدّها. وكنت على أيّ حال قليل الاهتمام بمشاعرهم. وماكان الأمر واحداً بالنسبة إلى مشاعر «ألبيرتين». لقد ذكرّتني «فرانسواز» في الحال، وهي تعيد عليّ هذه الكلمات الساخرة: «تأخير ولاقطيعة!» بالأصدقاء الذين ختمت «ألبيرتين» أمسيتها بصحبتهم التي راقتها إذا أكثر مما تروقها صحبتي. وأضافت «فرانسواز»، ونادراً ما تشاطرني انطباعاتي ولكنّها تحسّ بحاجة إظهار انطباعاتها، أضافت تقول كأنّما تسخر من «ألبيرتين» :«إنّها مضحكة وتعتمر قبّعة صغيرة مسطحة تضفي عليها، إلى جانب عينيها الكبيرتين، هيئة عجيبة ولاسيّما بمعطفها الذي لعلّها أحسنت صنعاً لو بعثت به إلى «الرفّاءة» فهو متآكل كلّه. إنّها تضحكني». ماكنت حتىّ أودّ الظهور بمظهر من يدرك أن تلك الضحكة كانت تعني الازدراء والسخرية ولكنّي بغية رد الضربة بضربة أجبت «فرانسواز» مع أنّي لا أعرف القبعّة الصغيرة التي تتحدّث عنها :«ماتسمّينه «بالقبعّة الصغيرة المسطّحة» شيء محض رائع».. فقالت «فرانسواز» معبّرة تعبيراً صريحاً هذه المرّة عن ازدراء حقيقي: «يعني أنّها لاتساوي فلساً يتيماً». حينئذ توجّهت إلى «فرانسواز» بهذه الكلمات القاسية (وبلهجة لطيفة متباطئة كي يبدو أنّ إجابتي الكاذبة إنّما تعبّر لاعن غضبي، بل عن الحقيقة، ودونما إضاعة للوقت مع ذلك كي لا أضطرّ «ألبيرتين» إلى الانتظار) قلت بلهجة معسولة: «أنت رائعة، ولطيفة، وتملكين ألفاً من الصفات، ولكنّك لاتزالين حيث كنت يوم جئت إلى باريس إن كان ذلك فيما يخصّ خبرتك بأمور الملبس أو في حسن لفظ الكلمات أو تحاشي النطق الخاطئ». وكان اللوم يتّصف بغباء فريد لأن تلك الكلمات الفرنسيّة التي نبدي اعتزازاً كبيراً بصحّة نطقها لاتعدو أن تكون محض «نطق خاطئ» جادت به أفواه غاليّة كانت تلفظ اللاتينية أو الساكسونية لفظاً أعوج، إذ ليست لغتنا سوى النطق السيئ لنفر غيرهم. إن عبقريّة اللغة بوضعها الحيّ ومستقبل الفرنسيّة وماضيها، ذلك ماكان يجدر الاهتمام به في أخطاء «فرانسواز». أفليست «الرتاءة» بدلاً من «الرفّاءة» غريبة غرابة تلك الحيوانات الباقية من عصور سحيقة، كالحوت أو الزرافة، والتي ترينا الحالات التي مرت بها حياة الحيوان؟ وأضفت قولي: «وبما أنّك لم تفلحي في التعلّم منذ هذه السنوات الكثيرة فلن تتعلّمي في يوم. ويمكن أن تتعزّي عن ذلك فليس يحول دون أن تكوني امرأة طيّبة جداً وتبدعين في تحضير لحم البقر بالخثيرة وألف من الأشياء الأخرى. إن القبّعة التي تظنينها بسيطة منقولة عن قبعة لأميرة «غير مانت» كلفت خمس مئة فرنك. وإني عازم على أية حال على إهداء الآنسة «ألبيرتين» واحدة تفوقها جمالاً عمّا قريب». كنت أعلم أن مايمكن أن يزعج «فرانسواز» أكثر الإزعاج إنما إنفاق المال على أناس لاتحبّهم. فأجابتني ببضع كلمات جعلها فقد مفاجئ لأنفاسها غير مفهومة كثيراً. وحينما أعلمت فيما بعد أنّها تشكو من مرض في القلب يا ما أصابني من ندم أن لا أكون حجبت عن نفسي المتعة الضارية العقيمة المتمثلّة في الرد على أقوالها على هذا النحو! كانت «فرانسواز» على أيّ حال تكره «ألبيرتين» لأنّ «ألبيرتين» لا يمكنها، وهي فقيرة، أن تزيد ممّا تعتبر «فرانسواز» أنّه مواضع تفوّقي. فكانت تبتسم برقّة في كلّ مرّة تدعوني فيها السيّدة «دو فيلبا ريزيس»، ولكنّها بالمقابل تثور ثائرتها من أن لاتقوم «ألبيرتين» بالمعاملة بالمثل. وقد بلغ بي أن أضطرّ إلى اختراع هدايا مزعومة تقدّمها هذه الأخيرة ولم تصدّق «فرانسواز» في يوم أقلّ مايكون التصديق وجود مثلها. كان غياب المعاملة بالمثل يصدمها بوجه الخصوص في حقل الطعام. فأن تقبل بأعشية تقدّمها والدتي، إن لم نكن مدعوّين

في منزل السيدة «بونتان» (مع أن هذه الأخيرة كانت تغيب عن باريس نصف الوقت إذ كان زوجها يقبل ببعض «المناصب» شأنه فيما مضى حينما كان يضيق ذرعاً بالوزارة)، فإنّما يبدو لها ذلك من جانب صديقتي قلة ذوق كانت تستنكرها على نحو غير مباشر بتلاوة هذا القول المأثور الشائع في «كومبريه»:

«هيّا نأكل رغيفي.

– بكلّ طيبة خاطر.

– هات نأكل رغيفك.

– لم أعد جائعاً».

تظاهرت بأني أكتب، فقالت لي «ألبيرتين» وهي داخلة: «لمن كنت تكتب؟»

– لصديقة لي جميلة، لـ «جيلبيرت سوان»، ألا تعرفينها؟» – «لا !» وأقلعت عن طرح أسئلة على «ألبيرتين» حول أمسيتها إذ كنت أحس أنّي سوف أوجّه إليها اللوم وأنّه لن يتّسع لنا الوقت من بعد، بسبب تقدّم الساعة، لمصالحة كافية بيننا كي ننتقل إلى القُبل والمداعبات. ولذلك أردت أن أبدأ بها منذ الدقيقة الأولى. ولئن كنت في جميع الأحوال هدأت بعض الشيء فما كنت أحسني سعيداً. فإن فقدان أيّة بوصلة وأيّ اتّجاه، وهو مايميّز الانتظار، إنما يستمرّ بعد وصول الشخص المنتظر وإذ يحلّ فينا محلّ الهدوء الذي كنّا بفضله نصوّر مجيئه بمثابة متعة معيّنة فإنّه يحول دون تذوّقنا أية متعة. لقد حضرت «ألبيرتين» أمّا أعصابي المفكّكة فلا تزال، إذ توالي اضطرابها، تنتظرها. «هل أقدر أن أنال قبلة طيبّة يا «ألبيرتين»؟ فقالت لي بكامل طيبتها، وماكنت رأيتها في يوم بمثل جمالها: «أنت ومانتشاء» .– «أأضيف أخرى؟ فأنت تعلمين أن ذلك يوليني أعظم متعة.» فأجابت تقول: «ويولينيي أنا مايزيد ألف مرّة .آه! ياللمحفظة الجميلة التي تقتنيها!» – «خذيها، إنّي أهبك إيّاها للذكرى» – «لطف زائد منك..» لعلّ المرء كان يشفى من عالم الخيال إلى الأبد لو شاء، بغية التفكير بمن يحبّها، محاولة أن يكون الشخص الذي سيؤول إليه حينما لن يحبّها من بعد. إن المحفظة وكرة «جيلبيرت» التي من عقيق، كلّ ذلك إنما استمدّ بالأمس أهميته من حالة داخليّة محضة، إذ هما الآن في نظري محفظة وكرة عاديّتان.

سألت «ألبيرتين» إن كانت تريد شراباً، فقالت لي: «يبدو لي أنّي أبصر هنا برتقالاً وماء. فالأمر على مايرام». وأمكنني هكذا أن أتذوّق، إلى جانب قبلاتها، تلك البرودة التي كانت تبدو لي وكأنّما تفوقها في منزل الأميرة «دو غير مانت». كان يبدو أن البرتقالة المعصورة في الماء تحمل إليّ شيئاً فشيئاً، كلما مضيت في الشراب، حياة نضجها الخفيّة وتأثيرها الطيّب على بعض حالات هذا الجسم الإنساني الذي ينتمي إلى مملكة مختلفة إلى حدّ بعيد وعجزها عن إحيائه، وفي المقابل صنوف الريّ التي يمكن أن تخدمه بها، ومئة سرّ كشفتها الثمرة لإحساسي وليس لعقلي.

بعدما ذهبت «ألبيرتين» تذكرّت أنّي وعدت «سوان» بأن أكتب لـ «جيلبيرت» ورأيت قدراً أكبر من الكياسة في أن أفعل في الحال. وكان أن خططت على المظروف اسم «جيبليرت سوان»، وكنت أعطي به

فيما مضى دفاتري لأوهم نفسي بتبادل الرسائل وإيّاها، ففعلت دونما تأثّر وكأنّما أخطّ آخر سطر في وظيفة مدرسيّة مملّة. ذلك لأنّي إن كنت أنا من يكتب بالأمس ذاك الاسم فإن المهمّة الآن قد عَهِدتُ بها العادة إلى واحد من أمناء السرّ الكثيرين الذين تتّخذهم.كان بمقدور هذا الأخير أن يخطّ اسم «جيلبيرت» بهدوء يزيد منه أنّه، لمّا وضعته العادة عندي منذ وقت قريب وأدخل مؤخراً في خدمتي، لم يكن عرف «جيلبيرت» وهو يعلم فحسب أنّها فتاة كنت عاشقاً لها، دون أن يفطن هذه الكلمات بأيّ واقع، لأنّه سمعني أتحدّث عنها.

ماكان بوسعي أن أتّهمه بالجفاف، فالشخص الذي كنته الآن إزاءها كان أفضل «شاهد» اختير ليفهم ماسبق أن كانته هي. فقد أضحت المحفظة وكرة العقيق في نظري إزاء «ألبيرتين» ما سبق أن كانتا في نظر «جيلبيرت» وما لعلهما كانتا بالنسبة إلى أيّ شخص لم يرسل على صفحتهما وهج حبّ داخلي. إلا أن اضطرابا كان يداخلني الآن ويشوه بدوره القوّة الحقيقية للأشياء والكلمات. وإذ كانت «ألبيرتين» تقول لي، كيما تشكرني أيضاً: «كم أحبّ حجارة الفيروز!» أجبتها قائلاً: «لاتدعي هذه تموت»، وأنا أستودعها هكذا كما أفعل مع حجارة، مستقبل صداقتنا التي لم تكن أكثر قدرة على الإيحاء لـ «ألبيرتين» بشعور معيّن ممّا سبق أن كانت للحفاظ على العاطفة التي كانت تجمعني بـ«جيلبيرت» فيما مضى.

وقد برزت في تلك الفترة ظاهرة لاتستحقّ الذكر إلاّ لأنّنا نلقاها في حقب التاريخ الهامّة كافّة. ففي اللحظة ذاتها التي كنت أكتب فيها لـ«جيلبيرت» كان السيّد «دو غير مانت» يفكّر، وهو بعد عائد من الحفلة الراقصة ولايزال يعتمر خوذته، أنّه سيضطرّ في الغد إلى لبس الحداد رسميّاً، فقرّر تقديم موعد الاستشفاء بالحمّة الذي كان عازماً على القيام به ثمانية أيّام. وحينما عاد منه بعد ثلاثة أسابيع (واستباقاً للأمور بما أنّني أنهيت منذ قليل فقط رسالتي لـ«جيلبيرت») كان أن عقدت الدهشة ألسنة أصدقاء الدوق الذين سبق لهم أن رأوه، وهو في البداية شديد اللامبالاة، ينقلب مناهضاً شرساً لـ «دريفوس»، حينما سمعوه يجيبهم (وكأنّما لم يفعل الاستشفاء فعله في المثانة فحسب): «حسن ! سوف يعاد النظر في الدعوى وتعلن براءته، فليس يمكن الحكم على رجل غير مطلوب في أمر. هل رأيتم قطّ خرِفاً على شاكلة «فروبيرفيل». هذا ضابط يعدّ الفرنسيّين للمذبحة (ويقصد الحرب). ما أغربه عصر هذا وإن الدوق «غير مانت» كان تعرّف في منطقة المياه في تلك الأثناء إلى ثلاث سيّدات فاتنات (أميرة إيطالية وشقيقتي زوجها). فإذ سمعهنّ الدوق يقلن بضع كلمات حول الكتب التي يقرأنها ومسرحيّة يجري تمثيلها في الكازينو أدرك في الحال أنّه يتعامل مع نساء رفيعات الثقافة وأنّه لم يكن معهن، كما يقول، في موقع قوة. وقد ازداد من جرّاء ذلك سعادة أن دعته الأميرة للعب البريدج. ولكنّه ماأن وصل إلى منزلها، وإذ كان يقول لها في حماسة مشاعره المعادية لـ«دريفوس»عداء قاطعاً : «عجباً، ما عادوا يحدثوننا عن إعادة النظر في قضية «دريفوس» الذائع الصيت»، حتى تعاظمت دهشته لدى سماعه الأميرة وشقيقتي زوجها يقلن: «ما كانوا في يوم بمثل قربهم من ذلك، فلا يمكن الاحتفاظ بمن لم يفعل شيئاً في السجن». وتمتم الدوق بادئ الأمر قائلاً :«ماذا؟ ماذا؟» كأنّما لدى اكتشاف لقب غريب يستخدم في هذا المنزل للاستهزاء بشخص خَالَه حتىّ ذاك ذكيّاً. ولكن الدوق بعد عدّة أيّام، ومثلما يصرخون من جبن ووروح تقليد قائلين دون أن يعرفوا السبب: «هيه، يا «جوجوت»!» لفنّان كبير يسمعون من يطلق عليه هذه التسمية في هذا المنزل، كان يقول، ولايزال مرتبكاً جداً جرّاء العادة الجديدة: «بالفعل، إن لم يكن اقترف

ذنباً». كانت السيّدات الفاتنات الثلاث يرين أنّه لايتقدّم بسرعة كافية ويعنّفنه بعض الشيء: «ولكن مامن شخص ذكيّ في الأساس استطاع أن يظنّ ثمّة شيئاً». وفي كلّ مرّة تجري فيها واقعة «دافعة» ضدّ «دريفوس» ويمضي الدوق لينقل إليهنّ الخبر ظنّاً منه أن ذلك سيردّ للطريق القويم السيّدات الثلاث الفاتنات كنّ يضحكن كثيراً ولايجدنَ مشقّة في أن يبرهنّ له برهافة كبيرة في الجدل أنّ الحجّة غير ذات بال ومضحكة تماماً. وقد عاد الدوق إلى باريس مناصراً مهووساً بـ«دريفوس».نحن لانزعم بالتأكيد أن السيّدات الفاتنات الثلاث لم يكنّ في هذه الحالة رسولات حقيقية. ولكنّما يجب أن نلاحظ أنّه يتّفق في كلّ عشر سنوات، بعدما تركنا رجلاً تعمر صدره قناعة حقيقيّة، أن يدخل في صحبته زوجان ذكيّان أو سيّدة فاتنة وحيدة وأن يصار به بعد انقضاء بضعة شهور إلى آراء مناقضة. وثمّة الكثير من البلدان تتصرّف تصرّف الرجل الصادق بصدد هذه النقطة، الكثير من البلدان التي تركناها تعمر ديارها الكراهية لشعب والتي غيّرت بعد ستّة أشهر من مشاعرها وقلبت أحلافها.

ماعدت رأيت «ألبيرتين» بعض الوقت ولكنّي واظبت، في غياب السيّدة «دو غير مانت» التي لم تعد تحرّك خيالي، على زيارة فاتنات أخريات ومساكنهنّ وهي لا تنفصل عنهنّ مثلما لاينفصل الصفق الذي من صدف أو مينا أو برج الصّدفة المحزّز عن الرخويّة التي صنعته وتحتمي في داخله. ولعلّني ماكنت أستطيع تصنيف تلك السيدات، فصعوبة المسألة ناجمة عن أنها تافهة بقدر ما يستحيل حلّها، ناهيك عن طرحها. كان لابدّ قبل السيّدة من الوصول إلى الفندق الساحر. وبما أن إحداهن تستقبل كل يوم بعد الغداء على مدى أشهر الصيف كان لابدّ، حتىّ قبل الوصول إلى منزلها، من إنزال غطاء العربة لشدّة ماتسفع الشمس التي سوف تداخل ذكراها، دون أن أكون انتبهت للأمر، الانطباعَ الكلّي. كنت أظنّ فقط أنّني ذاهب إلى «كور لارين»، فيما أحسّ في الواقع قبلما أصل إلى الاجتماع الذي ربما كان سخر منه رجل عملي، أحس مثلما في رحلة عبر إيطاليا، بانبهار وملاذّ لن ينفصل الفندق عنها من بعد في ذاكرتي. أضف أن السيّدة، بسبب الحرّ الناجم عن الفصل والساعة، كانت قد أحكمت إغلاق المصاريع في صالات الطابق الأرضي المستطيلة الفسيحة حيث يجري استقبالها. كنت بادئ الأمر لا أتعرّف تماماً ربّة المنزل وزوّارها وحتىّ الدوقة «دو غير مانت» التي كانت تطلب إليّ بصوتها الأجشّ المجيء للجلوس بجانبها في مقعد منجّد بقماش «بوڤيه» يمثّل «اختطاف أوروبا». ثمّ أبصرتُ على الجدران السجّاد الحائطيّ الواسع الذي من القرن الثامن عشر ويمثّل سفناً بصوار تزهر عليها ورود الخطمى ووجدتني تحتها وكأنّي لا في قصر «السين» بل في قصر «نبتون» على ضفّة نهر أوقيانوس حيث تنقلب الدوقة «دو غير مانت» وكأنّها واحدة من آلهات المياه. ولو عددت جميع القصور المختلفة عن هذا لما انتهيت. والمثال كافٍ ليُظهر أني كنت أضمّن أحكامي المجتمعيّة انطباعات شعريّة ماكنت أدخلها البتّة في الحسبان حينما أقوم بالجمع حتىّ أني حينما كنت أحسب فضائل إحدى الصالات لم يكن جمعي صحيحاً البتّة.

أجل لم تكن أسباب الخطأ تلك هي الوحيدة ولكنّما لايتّسع الوقت من بعد، قبل سفري إلى «بالبيك» (حيث سأقضي لسوء حظّي، فترة ثانية سوف تكون الأخيرة أيضاً)، كيما أبدأ برسم لوحات للناس سوف تجد مكاناً لها بعد هذا بكثير. دعنا نقول فقط إن «أوديت» كان يمكن أن تضيف إلى هذا السبب الأول الكاذب (حياتي الطائشة نسبياً والتي تقود إلى افتراض حبّ أمور الدنيا) لتسطير رسالتي لـ«جيلبيرت» ومايبدو أنّه يشير

إلى عودة إلى عائلة «سوان»، سبباً ثانياً هو كالأوّل غير صحيح. وإني لم أتخيّل حتىّ الآن الوجوه المختلفة التي يتّخذها العالم بالنسبة إلى الشخص نفسه إلاّ بافتراض أن العالم لايتغيّر: فإن يتّفق للسيّدة نفسها التي ماكانت تعرف أحداً ارتياد مطارح كلّ الناس فيما تهجُرَ سيّدة أخرى كانت تملك موقعاً أساسيّاً استهوانا أن لا نرى في ذلك سوى تقلّبات محض شخصيّة من صعود وهبوط تفضي بين حين وآخر وفي ذات المجتمع على إثر مضاربات في البورصة إلى سقوط مدوّ أو إثراء يجاوز الآمال. بيد أنّ الأمر ليس هذا فحسب، إذ تبدو التظاهرات المجتمعيّة (وهي أدنى كثيراً من الحركات الفنيّة والأزمات السياسيّة والتطوّر الذي يحوّل الذوق العام وجهة المسرح الفكريّ، ثم إلى الرسم الانطباعيّ، ثم إلى الموسيقى الألمانية والمعقدّة، ثم إلى الموسيقى الروسيّة والبسيطة، أو وجهة الأفكار الاجتماعيّة وأفكار العدالة والردّة الدينيّة والانتفاضة الوطنيّة) انعكاساً لها بعيداً مهشّماً غامضاً مضطرباً متغيّراً. حتىّ الصالونات إذاً لا يمكن وصفها في جمود ساكن استطاع حتىّ الآن أن يناسب دراسة الطباع التي ينبغي لها هي الأخرى أن تنساق في حركة شبه تاريخيّة. إن حبّ الجديد الذي يدفع رجال المجتمع، ممّن يتعشّقون بصدق كثير أو قليل الاطّلاع على التطوّر الفكري، إلى التردّد على الأوساط التي يستطيعون أن يتابعوا فيها ذاك التطوّر، يجعلهم يفضّلون عادة ربّة منزل مجهولة حتىّ ذاك وتمثل آمالاً لاتزال يانعة تماماً في ذهنيّة متفوّقة، آمالاً ذبلت وبهتت لدى النساء اللواتي زاولن منذ فترة طويلة السلطة المجتمعيّة واللواتي يعرفون نقاط القوّة والضعف لديهنّ فلا يثرنَ من بعد خيالهم. وهكذا نجد كلّ عصر مشخّصاً في نساء جديدات، في جماعة جديدة من النساء اللواتي يبدين، بارتباطهّن الوثيق بكلّ مايستثير صنوف الفضول الأكثر جدّة، وكأنهن بأثوابهن يظهرن في تلك الفترة فقط بمثابة جنس مجهول نجم عن آخر طوفان، ونساء ذوات جمال لايقاوم في كلّ فترة «قنصليّة» جديدة وكل فترة «مديرين» جديدة. لكنّ ربّات المنازل الجديدة ماهنّ في الغالب، شأن بعض رجال دولة في أوّل وزارة لهم، وهم كانوا منذ أربعين عاماً يقرعون جميع الأبواب دون أن تفتح لهم، سوى نساء ماكنّ معروفات في المجتمع ولكنّهن يستقبلن مع ذلك منذ زمن طويل بعض «الخلّص القليلين» لغياب الحلّ الأفضل. ليست الحال بالطبع كذلك على الدوام، فحينما ظهرت، مع الازدهار الهائل الذي شهدته فرق الباليه الروسيّة والذي أبرز على التوالي «باكست» و«ينجنسكي» و«بونوا» وعبقريّة «سترافنسكي»، حينما ظهرت الأميرة «يوربيليتييف»، العرّابة الشابّة لسائر هؤلاء الرجال العظام الجدد، تضع على رأسها ضمّة ريش واسعة خفّاقة لاتعرفها الباريسيّات وحاولن كلهّن تقليدها، أمكن الظنّ بأنّ هذه المخلوقة الرائعة قد جاء بها الراقصون الروس في أمتعتهم التي لاتحصى وكأنّما هي أثمن كنز لديهم. ولكنّنا حينما سنبصر إلى جانبها، في مقدّمة المسرح وفي سائر عروض «الروس»، السيّدة «فيردوران» تجلس مثل جنّية حقيقيّة وهي مجهولة حتىّ هذا اليوم من جانب الأرستقراطيّة فسيمكننا أن نجيب الجماعات الراقية التي ستظنّ بيسر أن السيّدة «فيردوران» قد وصلت منذ فترة قريبة مع فرقة «دياغيليف»، نجيبها أن هذه السيّدة سبق أن وُجدت في أزمنة مختلفة ومرّت بتحوّلات مختلفة لايمتاز عنها هذا التحوّل إلاّ بأنّه الأول الذي يحمل إليها أخيراً النجاح الذي طالما انتظرته «المعلّمة» وعبثاً فعلت، وقد أصبح منذ الآن مؤكّداً يسير متسارع الخطى. أمّا فيما يخصّ السيّدة «سوان» فالصحيح أن الجدّة التي كانت تمثّلها لم تكن تتسّم بالطابع الجماعيّ نفسه. فقد تبلورت صالتها حول رجل، رجل على شفا الموت انتقل دفعة واحدة تقريباً، في اللحظات التي استنفدت فيها موهبته، من العتمة إلى قمّة المجد. لقد كان التهافت على آثار «بيرغوت» عظيماً لاحدّ له. كان يمضي كامل

نهاره في الصدارة في منزل السيّدة «سوان» التي كانت تهمس في أذن رجل ذي نفوذ: «سوفَ أكلّمه وسيجّهز لك مقالة». لقد كان بأيّة حال قادراً على فعل ذلك وحتىّ على مشهد صغير للسيّدة «سوان». كانت صحّته أقلّ سوءاً، وهو أقرب إلى الموت، منها في الفترة التي كان يجيء فيها مستطلعاً أخبار جدّتي. ذلك لأن آلاماً جسديّة كبيرة فرضت عليه الحمية؛ والمرض أكثر من يصغى إليه من الأطباء :فالمرء إزاء الطيبة والمعرفة لايتوقّف عن الوعود ولكنّه يطيع الألم.

صحيح أنّ عشيرة آل «ڤيردوران» الصغيرة كان لها الآن اهتمام حيّ يختلف عمّا كانت عليه الصالة ذات النزعة القوميّة بعض الشيء، بل الأدبيّة إلى ذلك والبيرغوتيّة قبل كلّ شيء. فقد كانت العشيرة الصغيرة مركزاً نشطاً لأزمة سياسيّة طويلة بلغت أقصى شدّتها، عنينا «الدريفوسيّة». ولكنّ أهل المجتمعات كانوا في غالبيّتهم معارضين لإعادة النظر في الدعوى إلى حدّ تبدو معه الصالة الدريفوسية شيئاً بمثل استحالة صالة تساند «الكومونه» في عصر آخر. صحيح أن الأميرة «دو كاپرا رولا» التي سبق أن تعرّفت إلى السيّدة «ڤيردوران» بمناسبة معرض كبير نظّمته قد قامت بزيارة طويلة لهذه الأخيرة أملاً في إغواء بعض العناصر من ظرفاء العشيرة الصغيرة وفي ضمّهم لصالتها الخاصّة، زيارة اتّخذت الأميرة في غضونها (مؤدّية بذلك دوراً مصغّراً لأمثال الدوقة «دو غير مانت») عكس الآراء الشائعة وأعلنت أن من يؤلفون عالمها أغبياء، وقد رأت السيّدة «ڤيردوران» في ذلك شجاعة كبيرة. ولكنّما لم تبلغ بها تلك الشجاعة فيما بعد حدّ التجرّؤ على تحيّة السيّدة «ڤيردوران» في ميدان سباق «بالبيك» بمواجهة سهام تنطلق من ألحاظ سيّدات قوميّات. أمّا فيما يخصّ السيّدة «سوان» فقد كان مناهضو «دريفوس» يقرّون على العكس بفضلها أن تكون «مستقيمة الرأي» وإن لها بذلك، وهي زوجة ليهوديّ، فضلاً مزدوجاً. ومع ذلك فالذين لم يسبق لهم أن ذهبوا مرّة إلى منزلها كانوا يتخيّلون أنّها تستقبل فحسب بعض اليهود المغمورين وتلاميذ لـ«بيرغوت». ويصنّفون على هذا النحو نساء يتمتّعن بكفاءات أرفع من السيّدة «سوان» في آخر درجة من السلّم الاجتماعي إمّا بسبب منبتهنّ، وإمّا لأنهنّ لا يملن إلى الأعشية في المدينة والأمسيات التي لا يُشاهَدْن فيها البتة، والأمر يظنّونه خطأ، ناجماً عن أنهنّ ربّما لم يدعين، وإمّا لأنّهن لايتحدّثن البتّة عن صداقاتهنّ المجتمعيّة بل يقتصرن على الأدب والفنّ، وإمّا لأنّ الناس يطلبون الخفية لارتياد منازلهنّ أو يبتغون الخفية لاستقبالهن كي لايرتكبوا وقاحة إزاء الآخرين، وأخيراً لألف من الأسباب تجعل في النهاية من هذه أو تلك من بينهنّ في نظر بعض منهم المرأة التي لايستقبلونها. تلك كانت الحال بالنسبة إلى «أوديت». ولمّا وقع لي السيّدة «ديپينوا»، بمناسبة دفعة كانت ترغب في تأديتها لرابطة «الوطن الفرنسي»، أن تذهب لزيارتها، كما لو أنّها تدخل إلى دكّان عقّادتها، وهي بأي حال على يقين من أنّها لن تلقى سوى وجوه هي حتىّ غير محتقرة ولكنّها مجهولة، لبثت مُسمّرة في مكانها حينما انفتح الباب لاعلى الصالة التي كانت تفترضها بل على قاعة سحريّة تعرّفت فيها، وكأنّما بفضل تبدّل يتمّ حين الطلب في مشهد سحريّ، تعرّفت عبر ممثّلات صامتات فاتنات، صاحبات السموّ والدوقات نصف ممدّدات على دواوين، جالسات على كنبات، ينادين على ربّة المنزل باسمها، هنّ اللواتي كانت تصادف هي نفسها، أميرة «ديپينوا»، عنتاً عظيماً في اجتذابهن إلى منزلها واللواتي كان المركيز «دي لو» والكونت «لويس دو تورين» والأمير «بورغيز» والدوق «ديستريه»، وهم يحملون شراب البرتقال ومحمّصات الحلوى، يقومون في هذه اللحظة

لديهنّ مقام حمّالي الخبز والسقاة. ولما كانت الأميرة «ديبينوا» تضع، دونما انتباه للأمر، الصفة المجتمعيّة في داخل الأشخاص فقد اضطرّت أن تنزع عن السيّدة «سوان» مظهرها الجسماني وتعيد تجسيدها في امرأة أنيقة. وهكذا يلقي الجهل بالحياة الحقيقيّة التي تحياها نساء لايعرضنها في الصحف حجاباً من الأسرار فوق بعض الحالات (مسهماً بذلك في تنويع الصالات). فإنّه فيما يخصّ «أوديت» أقبل بادئ الأمر بضعة رجال من أرقى طبقات المجتمع للعشاء في منزلها في جوّ حميم وبهم توق إلى التعرّف بـ«بيرغوت». وقد أبدت من حسن الذوق الذي اكتسبته مؤخّرا ماحال دون أن تنشر الأمر على الملأ. هنا كانوا يجدون المائدة ممدودة- والأمر ربّما يذكّر بالنواة الصغيرة التي حافظت «أوديت» منذ الانشقاق على تقاليدها. كانت «أوديت» تمضي بهم بصحبة «بيرغوت» إلى «العروض الأولى» المثيرة- وهو ماكان يوجّه له في النهاية الضربة القاضية. وحكوا عنها لبعض نساء من محيطهم قادرات على صرف انتباههن إلى هذا القدر من الجدّة. كنّ متيقّنات أن «أوديت»، وهي في سرّ «بيرغوت»، ساهمت في كثير أو قليل في مؤلّفاته ويظننّها أذكى ألف مرّة من أبرز نساء «الحيّ» للسبب نفسه الذي من أجله يعلّقن كامل آمالهنّ السياسيّة على بعض الجمهوريّين «الثابتي اللون» من أمثال السيّد «دومر» والسيّد «ديشانيل»، فيما يرين فرنسة في الدرك إن عهدَ بها إلى الجماعة الملكيّة التي يستقبلنها على العشاء من أمثال «شاريت» و«دودوڤيل»، الخ هذا التبدّل في وضع «أوديت» كان ينْجَزُ من جانبها بتكتّم يجعله مؤكّداً أكثر وأكثر سرعة ولكنّه لايفسح للجمهور أن يرتاب بأمره، الجمهور الميّال إلى الاتكال بشأن تقدّم صالة أو انحطاطها على أنباء صحيفة «الغالي» حتىّ كانت ذات يوم، في عرض تمهيدي لمسرحيّة لـ«بيرغوت» جرى في قاعة من أكثرها أناقة لصالح أحد الأعمال الخيريّة، مفاجأة حقيقيّة حينما شهدوا في المقصورة المواجهة، وكانت مقصورة المؤلّف، السيّدة «دو مارصانت» تقْبِلُ وتجلس بجانب السيّدة «سوان» ومعها تلك التي كانت في سبيلها لتصبح اللبؤة وملكة العصر، الكونتيسّة «موليه»، وذلك من جرّاء التنحّي التدريجي للدوقة «دو غير مانت»(التي أشبعت تكريماً وقضت على نفسها عن طريق الجهد الأقلّ). «حين كنّا حتىّ لا نرتاب بأنّها باشرت دربها الصاعد» يقولون فيما بينهم عن «أوديت» إذ يشاهدون الكونتيسّه «موليه» في المقصورة، «لقد اجتازت آخر درجة.» وكان بوسع السيّدة «سوان» حتىّ أن تعتقد أنّي كنت أتقربّ من ابنتها بدافع السنوبيّة. وعلى الرغم من صديقات «أوديت» المتألّقات فإنّها لم تكن أقلّ إصغاء للمسرحيّة وبانتباه شديد كما لو أنّها كانت هناك لمجرّد أن تسمعها، مثلما كانت تجتاز بالأمس «الغابة» لداعٍ صحّيّ ولإجراء التمارين. وإذا برجال، وكانوا بالأمس أقل استعجالاً من حولها، يقبلون إلى «البلكون» وهم يزعجون الجميع ليتعلّقوا بيدها بغية الاقتراب من الوسط المهيب الذي يحيط بها. أمّا هي فكانت تجيب بابتسامة لاتزال أقرب بالأحرى إلى اللطف منها إلى السخرية، تجيب بطول أناة عن اسئلتهم وتتصنّع هدوءاً يفوق مالعلّهم كانوا يظنّون وربّما كان صادقاً إذ لايعدو هذا العرض المتباهي كونه عرضاً متأخراً لألفة معتادة أبقيت طيّ الكتمان. كان وراء هاتيك السيّدات الثلاث اللائي يجتذبن الأنظار كلّها «بيرغوت» يحيط به أمير «أغريجانت» والكونت «لويس دو تورين» والمركيز «دو بريوتيه». ومن اليسير، بالنسبة إلى رجال كانوا موضع ترحيب في كلّ مكان ولا يمكن أن يتوقعوا ازدياداً في الرفعة إلاّ من البحث عن المُبتكَر، أن ندرك أنّ هذا الإبراز لقيمتهم والذي يظنّون أنّهم يقومون به إذ يفسحون المجال لتجتذبهم ربّة منزل اشتهرت بمستواها الفكريّ الرفيع ويتوقعون أن يلتقوا عندها سائر المؤلّفين المسرحيّين والروائيّين الرائجين إنّما كان أشدّ إثارة وحيويّة من تلك الأمسيات في منزل الأميرة

«دو غير مانت» والتي كانت تتوالى منذ سنوات كثيرة دون أي برنامج أو جاذب جديد، وهي شبيهة في كثير أو قليل بهذه التي أقدمنا على وصفها وصفاً مفصّلاً. وفي هذا العالم الكبير، عالم آل «غير مانت» الذي كان الفضول يعْرض عنه قليلاً، لم تكن الصيغ الفكريّة الجديدة تتجسّد تسليات على صورتهم ومثالهم، مثلما في هذه المقطوعات الشعرية الخفيفة التي يكتبها «بيرغوت» للسيّدة «سوان»، ومثلما في جلسات «الإنقاذ العام» الحقيقيّة التي يجتمع فيها في منزل السيّدة «فيردوران» «بيكار» و«كليمنصو» و«زولا» و«ريناك» و«لابوري» (لو كان وسع العالم أن يهتمّ بقضيّة «دريفوس»).

كانت «جيلبيرت» ذات فائدة كذلك في أوضاع والدتها، فإن عمّاً لـ«سوان» خلّف منذ قليل للفتاة زهاء ثمانين مليون فرنك، الأمر الذي جعل حيّ «سان جيرمان» يشرع في التفكير بها. أمّا قفا الميداليّة فإن «سوان»، وهو مشرف على الموت بأيّ حال، كان يجهر بآراء مناصرة لـ«دريفوس»، ولكنّ ذلك ماكان يمسّ زوجته بل كان يخدم مصلحتها. وما كان الأمر يمسّها إذ كانوا يقولون :«إنّه خرف غبيّ ولايهتمّ أحد به وليس ثمّة سوى زوجته يحسب حسابها وهي رائعة.» حتىّ نزعة «سوان» الدريفوسيّة كانت مفيدة لـ«أوديت». فلعلّها كانت سمحت لنفسها، لو تُركت وماتريد، أن تقوم بمحاولات تقرّب من النساء الأنيقات تقودها إلى التهلكة. ففي العشيّات التي كانت تجرّ فيها زوجها للعشاء في حيّ «سان جيرمان» كان «سوان»، وهو قابع بعنف في زاويته، لايجد حرجاً، أن رأى «أوديت»، تطلب تعريفها بسيّدة قوميّة النزعة، في أن يقول بصوت عالٍ : «ويحك يا «أوديت» إنّك مجنونة، ورجائي أن تحافظي على هدوئك. فإنّما تفاهة منك أن تطلبي تعريفك بمناهضين للساميّة. إنّي أمنعك من ذلك.» وجماعة المجتمع الراقي التي يلْهثُ الكلّ خلفها لم تتعوّد لا هذا القدر من العزّة ولا هذا القدر من سوء التهذيب، فهي تشهد للمرّة الأولى شخصاً يظنّ نفسه «أكثر منهم». كانوا يتناقلون غمغمات «سوان» تلك فتنهال البطاقات على منزل «أوديت». وحينما تكون هذه في زيارة إلى منزل السيّدة «دارپاجون» تقوم حركة نشطة محبّبة يثيرها الفضول. كانت السيّدة «دار پاجون» تقول: «لم يزعجك أنّني عرفتك بها. إنّها لطيفة جدّاً. «ماري مارصانت» هي التي عرّفتني بها» – «بالطبع لا، بالعكس، ويبدو أنّها من أكثرهنّ ذكاء وهي رائعة. كنت أرغب على العكس لقاءها؛ هيّا قولي لي أين تسكن». كانت السيّدة «دار پاجون» تقول للسيّدة «سوان» إنّها وجدت أعظم التسلية لديها قبل البارحة وقد هجرت بسرور السيّدة «دوسانتوڤيرت» من أجلها. وكان ذلك صحيحاً لأن تفضيل السيّدة «سوان» إنّما تبدي به أنّك ذكيّ مثلما ذهابك إلى حفلة موسيقيّة بدلاً من الذهاب إلى حفلة شاي. ولكن حينما كانت السيّدة «دو سانتوڤيرت» تجيء إلى منزل السيّدة «دارپاجون» ساعة مجيء «أوديت»، ولما كانت السيّدة «دوسانتوڤيرت» على قدر من السنوبيّة كبير وكانت السيّدة «دار پاجون» حريصة على حفلات استقبالها مع أنّها تعاملها ببعض الاستعلاء لم تكن السيّدة «دارپاجون» تعرّف بـ«أوديت» كي لا تعلم السيّدة «دوسانتوڤيرت» من عساها تكون. كانت المركيزة تتصوّر أنّها لابدّ أميرة ما نادرة الزيارات كي لا تكون شاهدتها في يوم، فتطيل من زيارتها وتردّ ردّاً غير مباشر على ماتقوله «أوديت»، ولكنّ السيّدة «دارپاجون» ظلّت لاتلين. وحينما تمضي السيّدة «دوسانتوڤيرت» وقد غُلبت على أمرها كانت سيّدة المنزل تقول لـ«أوديت» :«لم أقدّمك لأنّهم لايودّون كثيراً الذهاب إلى منزلها وهي كثيرة الدعوات وماكنت ربّما تستطيعينَ التخلّص منها». فتقول «أوديت» بشيء من الأسف: «آه!

لا أهميّة لذلك». ولكنّها كانت تحتفظ بالفكرة التي مفادها أنّهم لايودّون ارتياد منزل السيّدة «دوسانتوفيرت»، والأمر صحيح إلى حدّ ما، فتستخلص من ذلك أنّها تتمتّع بموقع يفوق كثيراً موقع السيّدة «دوسانتوفيرت» مع أن هذه الأخيرة تملك موقعاً عظيماً جداً ولا تملك «أوديت» شيئاً منه.

ولم تكن تنتبه للأمر، ومع أنّ صديقات السيّدة «دو غير مانت» كافّة كنّ يرتبطن بصداقة مع السيّدة «دار باجون» فإنه حينما كانت هذه الأخيرة تدعو السيّدة «سوان» كانت «أوديت» تقول بلهجة المتحسّب: «إنّي ذاهبة إلى منزل السيّدة «دارباجون»، ولكنّما ستلقونني من نمط قديم جداً، والأمر يصدمني بسبب السيّدة «دو غير مانت» (التي ماكانت تعرفها على أيّ حال). كان الرجال اللامعون يظنّون أن معرفة السيّدة «سوان» لعدد قليل من عالم المجتمع الراقي مردّها أنّها لابدّ كانت امرأة متفوّقة وربّما كانت موسيقيّة عظيمة وأنّه لضرب من الألقاب التي من خارج المجتمع الراقي أن يذهب المرء إلى منزلها، كما هو بالنسبة إلى دوق أن دكتوراه في العلوم. أمّا النساء العديمات الكفاءة تماماً فكان يجذبهنّ إلى «أوديت» سبب معاكس. فقد كنّا يستخلصن، وقد علمن أنّها تذهب إلى حفلات «كولون» الموسيقيّة وتعلن أنّها من أنصار «ڤاغنر»، أنّها لابدّ «مهرّجة» فتستثيرهنّ إلى أبعد حدّ فكرة التعرّف إليها. ولكنّهن يخشين، وهن قليلات الوثوق بوضعهنّ الخاصّ، أن يتعرّضن للشبهة علانية لما يبدو أنّهن يرتبطن بـ«أوديت»، فإن شاهدن السيّدة «سوان» في حفلة موسيقيّة خيريّة أشحن بأبصارهنّ إذ يرين من المستحيل إلقاء التحيّة تحت سمع السيّدة «دوروششوار» وبصرها على امرأة بمقدورها تماماً أن تكون ذهبت إلى «بايروت»— وذلك يعني ارتكاب «السبعة ومابذمتها».

كان كلّ شخص في زيارة لدى آخر يضحي مختلفاً. فقد كان السيّد «دوبريوتيه»، بصرف النظر عن التحوّلات الخارقة التي تجري على هذا النحو لدى الجنيّات، وقد برز فجأة من جرّاء غياب الناس الذين يحيطون به عادة، ومن جرّاء الهيئة الراضية التي يتّخذها إذ يلغي نفسه هنا في مثل حسن حاله لو وضع نظّارتيه المستديرتين ليختلي في قراءة «مجلّة العالمين» بدلاً من الذهاب إلى حفلة، ومن جرّاء الطقس الغامض الذي يبدو أنّه يمارسه في مجيئه لزيارة «أوديت»، كان السيّد «دو بريوتيه» نفسه في صالة السيّدة «سوان» إنساناً جديداً. ولعلّني كنت أعطي الكثير لأرى صنوف التحوّل التي كانت أصابت الدوقة «دومنمورانسي— لوكسمبور» في هذا الوسط الجديد. ولكنّها كانت من قوم لا إمكان البتّة في تعريف «أوديت» بهم. كانت السيّدة «دومونمورانسي»، وهي أكثر تسامحاً إزاء «أوريان» من هذه إزاءها، تدهشني كثيراً إذ تقول لي بشأن السيّدة «دو غير مانت»: «إنّها تعرف أناساً ظرفاء والجميع يحبّونها وأعتقد أنّها لو اتّفق لها قدر أكبر من المثابرة لأفلحت في أن تكون لها صالة. والحقيقة أنّها ماكانت حريصة على ذلك، وهي على حقّ، فهي سعيدة على هذا النحو إذ يسعى الجميع إليها». وإن لم يكن لدى السيّدة «دو غير مانت» «صالة» فما عسى أن تكون «الصالة» إذاً؟ ولم تكن الدهشة التي خلّفتني فيها تلك الكلمات أكبر من تلك التي سبّبتها للسيّدة «دو غير مانت» وأنا أقول لها إنّي كنت أودّ كثيراً الذهاب إلى منزل السيّدة «دو مونمورانسي»، فقد كانت «أوريان» ترى أنّها عجوز بلهاء وتقول: «أمّا أنا فمرغمة على ذلك فهي عمّتي، أمّا أنت! إنّها حتىّ لا تعرف كيف تستقطب الناس الظرفاء». وما كانت السيّدة «دو غير مانت» تنتبه إلى أن الناس الظرفاء ماكانوا يحرّكون فيّ ساكناً وأنّي حينما كانت تقول لي «صالة أرباجون» كنت أرى فراشة صفراء، أو «صالة صوان» (وكانت

السيّدة «سوان» في منزلها شتاءً من السادسة إلى السابعة) ففراشة سوداء يبطنّ جناحيها الثلج. مع أنّ هذه الصالة الأخيرة، وماهي من الصالة بشيء، إنّما كانت ترى فيها، على الرغم من كونها بعيدة المنال بالنسبة إليها، عذراً لي بسبب «جماعة الظرفاء» أمّا السيّدة «دو لوكسمبور»! فلعلّها كانت خلصت، لو سبق أن «أنتجت» شيئاً لفت الأنظار، إلى أن شيئا من السنوبيّة يمكن أن يقترن بالموهبة. وبلغت بخيبتها أقصى حدّ لها فأقررت أني ماكنت أمضي إلى منزل السيّدة «دو مونمورانسي» (حسبما تظنّ) من أجل «تدوين ملاحظات» و«القيام ببحث». وماكانت السيّدة «دو غيرمانت» بأيّ حال على خطأ أكثر من روائييّ « المجتمع الراقي الذين يحلّلون من الخارج أفعال سنوبيّ أو مايزعمون أنّه كذلك تحليلاً قاسياً، ولكنّهم لايقيمون البتّة داخله، في الوقت الذي يزهر فيه في المخيلة ربيع اجتماعيّ كامل. حتىّ أنا أصبت بشيء من الخيبة حينما أردت أن أعلم أيّة متعة كبيرة إلى هذا الحدّ كنت أصيب من ذهابي إلى منزل السيّدة «دو مونمورانسي». فقد كانت تقطن، في حيّ «سان جيرمان»، مسكناً قديماً مليئاً بأجنحة تفصل بينها حدائق صغيرة. وكان تحت القبّة تمثال صغير، يقولون من أعمال «فالكونيه»، يمثّل نبعاً تتقطّر منه، على أيّ حال، رطوبة دائمة. وعلى مسافة قليلة منه كانت البوّابة بجمر عينيها الدائم إما من غمّ أو وهن عصبيّ أو شقيقة أو رشح، ولاتجيبك البتّة بل تقوم بإشارة غامضة تنبئ بأن الدوقة موجودة وتدع لبضع قطرات أن تتساقط من جفنيها فوق كأس مليء بزهر «لاتنسني». كانت المتعة التي أصيبها من مشاهدة التمثال الصغير، لما يذكّرني ببستانيّ صغير من الجبس كان قائماً في إحدى حدائق «كومبريه»، هيّنة لا تذكر في مقابل مايبعثه فيه من متعة الدرج الكبير الرطب الداوي المليء بالأصداء الشبيه بدرج بعض منشآت الحمّامات القديمة ذات المزهريات المليئة بزهر الرماديّ– زرقة فوق زرقة– في الردهة، وعلى وجه الخصوص رنين الجرس الصغير الذي يشبه بالضبط الرنين المنبعث من غرفة «أولالي». كان ذلك الرنين يبلغ بي أقصى درجات الحماسة ولكنما يبدو لي أكثر تواضعاً من أن أستطيع إيضاحه للسيّدة «دومونمورانسي»، إلى حدّ أن تلك السيّدة كانت تراني دوماً في نشوة لم تكشف في يوم سببها.

تقلّبات الفؤاد

كان حلولي الثاني في «بالبيك» مختلفاً عن الأوّل، فقد جاء المدير شخصيّاً ينتظرني في «بون لاكولوڤر» وهو يردّد كم كان حريصاً على زبائنه «الملقّبين»، الأمر الذي جعلني أخشى أن يضعني في طبقة الأشراف إلى أن أدركت أن «الملقّب» كان يعني في عتمة ذاكرته القواعديّة «الرسميّ». لقد كان على أيّة حال كلّما تعلّم لغات جديدة ازداد تحدّثه بالقديمة سوءاً. وقد بلّغني أنّه أنزلني أعلى قسم في الفندق وقال: «آمل أنّك لن ترى في ذلك «قلّة عدم تهذيب» وقد أزعجني أن أعطيك غرفة «أنت غير أهل لها»، ولكنّي فعلت «للصلة بالضجيج»، فهكذا لن يكون فوقك أحد ليخزق صملاخ (يقصد صماخ) أذنك. اطمئنّ، سآمر بإغلاق النوافذ كي لا تصطفق، فإني بهذا الخصوص «لا أطاق» (لم تكن هذه الكلمات تعرب عن فكره إذ هو يقصد أنّهم سيجدونه دوماً «لايطيق غير ذلك»، ولكنّها ربّما أعربت عن فكر خدَمه في الطوابق). كانت الغرف في جميع الأحوال غرف إقامتي الأولى نفسها، فلم تكن أدنى منها، ولكنّما ارتفعت أنا في نظرة المدير إليّ. ويمكنني أن آمر بالتشعيل إن راقني الأمر (لأنّني قد رحلت منذ عيد الفصح عملاً بأمر الأطباء) ولكنّه يخشى أن يكون ثمّة

«شقّات» في السقف. «وانتظر دوماً على وجه الخصوص» من أجل إشعال «وجبة» أن تكون السابقة استهلكت (أي رمّدت). فالمهم أن تتجنّب إحراق الموقد ولاسيّما أنّي جعلت فوقه لإشاعة البهجة «مستعارة» (آنية) صينيّة كبيرة وقديمة ويمكن أن تلحق بها الأذى».

وأعلمني بكثير من الأسى بموت نقيب محامي «شيربور»: «كان رجلاً روتينياً»، يقول، (ويعني على الأرجح محنّكاً) ويفهمني أنّ نهايته عجّلت فيها حياة كلّها خيبات، ويعني كلّها مجون «سبق منذ بعض الوقت أن لاحظت أنّه كان «يخبو» قليلاً في الصالة (يريد دون شكّ أن يقول يغفو). لقد تأخّر في الفترة الأخيرة كثيراً إلى حدّ أنّك لو لم تعلم أنّه هو لكدت إذ تراه لاتعترف به (ويقصد دون شك لاتعرفه).

وكان رئيس «كان» قد قُلّد منذ فترة قريبة «وساد» جوقة الشرف من رتبة «كومندور»، والتعويض جاء موفقاً. «من الأكيد أنّه يتمتّع بقدرات ولكنّما يبدو أنّه مُنحه على وجه الخصوص بسبب «عجزه» الكبير». كانوا يذكرون على أيّة حال عن هذا الوسام في عدد الأمس من «صدى باريس»، ولم يكن المدير قرأ بعدُ سوى «النقرة الأولى» (ويقصد الفقرة). وقد حملوا فيه على سياسة السيّد «كايّو» أيما حملة، فقال: «أرى على أي حال أنّهم على حقّ فإنّه يبالغ في وضعنا في موقع تُبَعيّة إزاء ألمانيه» (ويقصد «تبَعيّة»). ولمّا بدا لي هذا النوع من الموضوعات مملاً إذ يعالجه صاحب فندق فقد توقّفت عن السماع. كنت أفكّر بالصور التي حملتني على العودة إلى «بالبيك»، فقد كانت شديدة الاختلاف عنها فيما مضى، فالصورة التي جئت أبحث عنها كانت جليّة بقدر ماكانت الأولى غائمة، وكان لابدّ أن تخمل لي الخيبة. إن الصور التي تصطفيها الذكرى اعتباطيّة ضيّقة لاتدرك مثلما هي تلك التي شكلّها الخيال وهدمها الواقع. فليس من سبب كيما يمتلك مكان حقيقي، في خارج ذواتنا، لوحات الذاكرة أكثر منه لوحات الحلم. ثمّ إنّ واقعاً جديداً ربّما أنسانا، بل كرّهنا الرغبات التي سبق أن جئنا بسببها.

أمّا تلك التي حملتني على الذهاب إلى «بالبيك» فمردّها جزئياً أنّ آل «فيردوران» (الذين لم أُفدْ في يوم من دعواتهم لي والذين سيسعدهم بالتأكيد استقبالي إن مضيت إلى الريف أعتذر عن أنّي لم أَستطع قطّ زيارتهم في باريس) إذ علموا أن عدداً من الخُلّص سوف يقضون العطلة على هذا الشاطئ واستأجروا بسبب ذلك أحد قصور السيّد «دو كامبرمير» («لاراسبلييرا») على مدى كامل الموسم، كانوا قد دعوا إليه السيّدة «بوتبوس». وفي المساء الذي علمت فيه بالأمر (في باريس) أرسلتُ، كمثل مجنون حقيقيّ، خادمنا الخاصّ يستعلم إن كانت تلك السيّدة ستصطحب إلى بالبيك وصيفتها. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً. وتأخّر البوّاب كثيراً في فتح الباب ولم يطرد رسولي بأعجوبة ولم يطلب استدعاء الشرطة واكتفى باستقباله أسوأ استقبال فيما كان يزوّده بالخبر المطلوب. قال إن الوصيفة الأولى سوف ترافق بالفعل معلّمتها إلى حمّامات المياه في ألمانيه أوّلاً، ثم إلى «بياريتز» وأخيراً لدى السيّدة «فيردوران». وداخلتني مذذاك الطمأنينة وطبت نفساً أنّ حصلت على مايشغلني. فقد استطعت أن أعفي النفس من تلك المطاردات في الشوارع التي كنت مجرّداً فيها لدى الحسان اللواتي أصادفهنّ من رسالة التعريف التي يمثّلها لدى غانية «جورجونه» أن أكون تعشّيت في المساء نفسه مع سيّدتها في منزل آل «فيردوران». وربّما حملت عنّي، من جانب آخر، فكرة أفضل ساعة

تعلم أنّي لا أعرف مستأجري «لاراسبلييز» البورجوازيّين فحسب، بل مالكيه أيضاً ولاسيّما «سان لو» الذي لم يستطع أن يوصي الوصيفة بي عن بعد (إذ هي تجهل اسم «روبير» فكتب بشأني رسالة تفيض حرارة إلى آل «كامبرمير». كان يظنّ أنّه، إلى جانب الفائدة التي يمكن أن يمثّلوها لي، سوف تثير السيّدة «دو كامبرمير» اهتمامي في حديثها معي، وهي كنتّهم واسمها قبل الزواج «لوغراندان». وكان أكد لي قائلاً : «إنّها امرأة ذكيّة؛ إلى حدّ ما بالطبع، فلن تفضي إليك بأشياء نهائيّة» (وكانت الأشياء «النهائية» قد أحلّها «روبير» محلّ الأشياء «الفائقة» وكان يبدّل في كلّ خمس أو ستّ سنوات بعض التعابير المفضّلة لديه فيما يحتفظ بالرئيسيّة منها)، «إن لها طبيعة مميزة وتملك شخصيّة لها وحدساً في الأمور وتجود في الوقت المناسب بالكلام اللازم. وهي بين الحين والحين مثيرة للأعصاب وتلقي بالحماقات لتظهر مظهر النخبة،والأمر مثير للسخرية ويزيد منه أنْ ليس ماكان أقلّ أناقة من آل «كامبرمير» كما أنّها ليست على الدوام «ابنة زمانها» ولكنّها لاتزال في الإجمال في عداد من كانت عشرتهم الأكثر احتمالاً».

وما إن بلغتهم توصية «روبير» حتىّ شرع آل «كامبرمير»، إمّا بداعي السنوبيّة التي تجعلهم يرغبون في أن يبدوا لطفاً غير مباشر تجاه «سان لو» وإمّا بداعي عرفان الجميل لما سبق أن أبداه تجاه أحد أبناء أشقائهم في «دونسيير»، وعلى الأرجح خصوصاً بداعي الطيبة وتقاليد الضيافة، شرعوا يكتبون رسائل طويلة تطلب مني السكنى لديهم، وهم على استعداد، إن كنت أفضل استقلالية أكبر، لأن يبحثوا لي عن مسكن. وحينما اعترض «سان لو» بقوله إنّي سأقطن في فندق «بالبيك» الكبير، أجابوا أنّهم ينتظرون على الأقلّ زيارة حال وصولي، فإن تأخرّت بما يجاوز الحدّ فلن يفوتهم المجيء لملاحقتي ودعوتي إلى حفلاتهم الراقصة.

ليس من شكّ أنْ لم يكن شيء يربط على نحو أساسيّ وصيفة السيّدة «بوتبوس» بمنطقة «بالبيك»، فلعلّها لن تكون فيها بالنسبة إليّ مثل الفلاحة التي ماأكثر ماطلبتها عبثاً، وأنا وحيد على طريق «ميزيكليز»، بكلّ عنف رغبتي.

لكنّي كنت كففت منذ فترة طويلة عن محاولة استخراج الجذر التربيعي للمجهول لدى امرأة والذي ماكان في الغالب يقف في وجه تعريف بها بسيط. على الأقلّ سوف يتّفق لي في «بالبيك» التي لم أذهب إليها منذ فترة طويلة هذه الحسنة التي مفادها أن حسّ الواقع، في غياب الصلة الضروريّة التي لم تكن موجودة بين البلد وهذه المرأة، لن تلاشيه بالنسبة إليّ العادة مثلما في باريس حيث ماكانت المتعة التي ألقاها بجانب امرأة، إمّا في بيتي الخاص وإمّا في غرفة معروفة، تستطيع أن توليني، مقدار لحظة في قلب الأمور اليوميّة، الوهم بأنّها تفتح لي درباً إلى حياة جديدة. (فلئن كانت العادة طبيعة ثانية فإنّها تحول دون أن نعرف الأولى التي لا تملك لا صنوف قسوتها ولا ضروب افتتانها). ولكنّ ذاك الوهم ربّما اتّفق لي، أمام شعاع شمس، في بلد جديد يولد فيه الإحساس ثانية وحيث تبلغ بي بالضبط تمام الإثارة الوصيفة التي كنت أشتهيها: لكنّنا سنرى أن الظروف عملت لا على أن لاتجيء تلك المرأة إلى «بالبيك» فحسب بل على أن لا أخشى شيئاً بمقدار ماأخشى أن يسعها المجيء إليها، حتىّ إن الهدف الرئيسي لرحلتي لم يتحقّق ولا هو لوحق. صحيح أن السيّدة «دوبوتبوس» ماكانت ستبكّر إلى هذا الحدّ في الموسم في مجيئها إلى منزل آل «ڤيردوران»؛ ولكنّ هذه المتع التي اخترناها يمكن أن تكون بعيدة إن كان مجيئها مؤكداً واستطعنا بانتظارها أن ننصرف حتىّ ذاك إلى

الكسل في البحث عن الإمتاع وإلى العجز عن الحبّ. وماكنت أذهب إلى «بالبيك» على أيّ حال بعقليّة تساوي المرّة الأولى في ضَعْف طابعها العمليّ؛ وثمّة على الدوام أنانيّة أقلّ في التخيل الصرف منها في التذكّر؛ وكنت أعلم أنني سألقى نفسي بالضبط في واحد من تلك الأماكن التي تعجّ بالحسان المجهولات، فليس يقدّم لك الشاطئ أقلّ من الحفلة الراقصة وكنت أفكّر سلفاً بالنزهات أمام الفندق وفوق السدّ بنوع المتعة نفسها التي كانت وفرّتها لي السيّدة «دو غير مانت» لو أنّها، عوضاً عن أن تعمل على دعوتي إلى أعشية باهرة، أكثرت من إعطاء اسمي لربّات البيوت اللواتي تقام حفلات الرقص في منازلهنّ بغية وضعه على لوائح الفوارس لديهنّ. ولعلّ التعرّف إلى النساء في «بالبيك» سيُسهل عليّ بمقدار ماعَسُرَ فيما مضى إذ كان يتوافر لي الآن من الصداقات وصنوف الدعم بمقدار ما افتقرت إليه في رحلتي الأولى.

وانتشلني من أحلام يقظتي صوت المدير الذي لم أصغ إلى محاضراته السياسيّة فقد روى لي بعدما غير موضوع الحديث عن اغتباط الرئيس الأول حينما علم بوصولي وأنّه سوف يجيء لزيارتي في غرفتي في هذا المساء. وقد أصابني من جرّاء فكرة الزيارة هذه، إذ أخذت أحسّني متعباً، فزع شديد إلى حدّ أنْ رجوته الحؤول دون ذلك (وهو ما وعدني به) وأن يأمر، زيادة في الأمان في أوّل مساء، بأن يقوم مستخدموه بحراسة طابقي. وبدا أنّه لايودّهم كثيراً. «إني مضطرّ طوال الوقت أجري خلفهم إذ ينقصهم الكثير من «الخمول» .ولو لم أكن حاضراً لما تحرّكوا. سوف أضع عامل المصعد «خادماً» على بابك». وسألت إن كان أصبح أخيراً «رئيساً للخدم الموزّعين» . فأجابني قائلاً: «لم يمضِ عليه بعد وقت طويل في الدار ولديه رفاق أكبر منه سنّاً وقد يثير ذلك لغطاً. لابدّ في كلّ أمر من «تحرّج» (تدرّج). أنا أقرّ أنّه حسن «المنظر» (يقصد المظهر) أمام مصعده، ولكنّه لايزال صغيراً بعض الشيء على مثل هذه الحالات، وسوف يجرّ ذلك إلى تناقض إزاء آخرين هم أكثر قدماً. ينقصهم قليل من الجديّة، وهي الميزة «البدائيّة» (ويقصد دونما شكّ الرئيسيّة، الميزة الأكثر أهميّة). ولابدّ أن يكون أثقل جناحاً (ويقصد محدّثي أن يقول أثقل دماغاً). عليه على أيّ حال أن يمنحني ثقته فإنّي خبير في الأمر؛ لقد خطوت خطواتي العسكرية الأولى في زمن «بايّار» قبل أن أحوز رتبتي مديراً للفندق الكبير». وقد أثّر فيّ هذا التشبيه وشكرت المدير لمجيئه شخصيّاً حتىّ «بونتا كولوفر» . «آه! ليس ما يستحقّ الشكر، فلم أضيّع في ذلك سوى وقت «لايحصى» (يقصد لايذكر) .» وكنّا قد وصلنا على أيّ حال.

هنا انقلاب في كامل شخصيّتي. فلمّا كنت منذ الليلة الأولى أعاني من نوبة وهن قلبي وفي محاولة للسيطرة على ألمي انحنيت بتؤدة وحذر لخلع حذائي.ولكنّي ماكدت ألامس أوّل زرّ في حذائي العالي حتىّ انتفخ صدري وقد امتلأ حضوراً مجهولاً إلهيّاً وهزّتني زفرات الحزن وانهمرت الدموع من عينيّ. فالشخص الذي أقبل يمدّ لي يد العون وينقذني من إقفار نفسي كان ذاك الذي دخل، قبل عدّة سنوات، في لحظة من الضيق والوحدة المماثلين، في لحظة لم أعد أملك فيها شيئاً من أناي فردّني إلى ذاتي، إذ كان ذاتي وأكثر من ذاتي (المحتوي الذي هو أكثر من المحتوى وكان يحمله إليّ) . لقد لمحت منذ قليل في ذاكرتي الوجه الحنون ينحني فوق تعبي، وجه جدّتي مهتمّاً مخيّب الآمال، على نحو ماكانت في ذلك المساء الأوّل لوصولنا؛ وجه جدّتي، لاتلك التي دهشْتُ ولمت نفسي لقلّة ما أسفت لفقدها وماكانت تملك منها غير اسمها، بل جدّتي الحقيقيّة التي عدت ألقى، للمرّة الأولى منذ «الشانزيليزيه» حيث أصابتها أزمتها القلبيّة، عدت ألقى عبر

ذكرى لا إراديّة وكاملة حقيقتها الحيّة. وهذه الحقيقة لا وجود لها بالنسبة إلينا مادام فكرنا لم يُعدْ إبداعها (وإلاّ لكان كلّ من شاركوا في معركة جبّارة ملحميّين كباراً)؛ وهكذا فإنّي، في اندفاعة مجنونة للارتماء بين ذراعيها، عرفت توّاً فقط- بعد أكثر من عام على دفنها، من جرّاء هذا اللاتزامن الذي يحول في الكثير الغالب دون تطابق تسلسل الأحداث وتسلسل المشاعر- أنّها قضت نحبها. لقد تحدّثت عنها كثيراً منذ ذلك الوقت وفكّرت بها كذلك، إلاّ أنّه لم يكن ثمّة، خلف أقوال وأفكار الشاب العاقّ الأناني القاسي الذي كنته، شيء يشبه جدّتي لأنني كنت لا أحمل في داخلي، بسبب طيشي وحبّي للملذّات وتعوّدي رؤيتها مريضة، لا أحمل إلاّ بالقوّة ذكرى ماسبق أن كانت عليه. وإن نفسنا الكلّيّة لاتملك، في أيّة لحظة تأمّلناها فيها، سوى قيمة تقرب أن تكون وهميّة على الرغم من الرصيد الكبير الذي لثرواتها، فإن هذه طوراً وتارة تلك غير متوافرة، سواء أكان الأمر على أيّ حال أمر ثروات فعليّة أم ثروات الخيال، وسواء أكان الأمر فيما يخصّني أمر ثروات عالقة باسم «غير مانت» القديم أم ثروات عالقة بالذكرى الحقيقيّة لجدّتي، والثروات هذه هي الأكثر خطراً. ذلك لأنّ تقلّبات القلب مرتبطة باضطرابات الذاكرة. وإنّما وجود جسدنا، وهو شبيه فيما يخصّنا بإناء يحتوي روحيّتنا، هو الذي يحملنا على افتراض أن خيراتنا الباطنة جميعها وأفراحنا الماضية وآلامنا كلّها هي بحوزتنا أبداً. وربّما كان غير صحيح أيضاً أن نعتقد أنّها تفلت منا أو تعود إلينا. وإن هي بقيت في داخلنا فإنّها في جميع الأحوال في نطاقٍ مجهول لاتؤدي لنا فيه أيّة خدمة وحيث يُقْصَى، حتىّ ماكان أكثرها شيوعاً، من جانبِ ذكريات من نوع مختلف تستبعد أيّ تزامن معها في الشعور. ولكنّها، إن أعيد امتلاك إطار الأحاسيس الذي تحفظ فيه، إنّما تمتلك بدورها تلك القدرة نفسها على إقصاء كلّ مالا يتماشى وإيّاها وأن تُقيمَ في داخلنا الأنا التي عاشتها وحيدة. وبما أن الأنا التي عدتُ فأضحيتها منذ قليل لم تكن موجودة منذ ذلك المساء القصيّ الذي خلعتْ فيه جدّتي ملابسي لدى وصولي إلى «بالبيك»، فإنيّ انخرطت في الدقيقة التي انحنت فيها جدّتي صوبي، لا في أعقاب النهار الحاليّ التي كانت تلك الأنا تجهله، بل حالاً بعد المساء الأول بالأمس، ودون أيّ انقطاع- كما لو كان داخل الزمان مجموعات مختلفة ومتوازية. لقد عادت الأنا التي كنتها حينذاك واختفت فترة طويلة جدّاً، قريبة منّي إلى حدّ أن بدا لي أيضاً أنّي أسمع الأقوال التي سبقت مباشرة مع أنّها لم تعد سوى حلم، مثلما يظن رجل لم يستيقظ تماماً أنّه يسمع قريباً جدّاً منه أصوات حلمه الهارب. ماكنت من بعد سوى ذاك الإنسان الذي يحاول الالتجاء بين ذراعي جدّته وأن يمحو آثار غمّها بقبلاته، ذاك الإنسان الذي لعلّي كنت صادفت في تصوّره، حينما كنت هذا أو ذاك من أولئك الذين تعاقبوا في داخلي منذ بعض الوقت، قدراً من الصعوبة يساوي ماينبغي لي من جهود، وهي عقيمة على أيّ حال، كي أحسّ برغبات ومسرّات أحد أولئك الذين لم أكنهم من بعد، على الأقلّ على مدى فترة معيّنة. كنت أتذكّر كيف أنّي، قبل ساعة من الوقت الذي انحنت فيه جدّتي على هذا النحو، بمبذلها، صوب حذائي، ظننت، وأنا هائم على وجهي في حرّ الشارع الخانق أمام الحلواني، أنني لن أستطيع البتّة، بالحاجة التي كانت بي لتقبليها، انتظار الساعة التي لابدّ أن أقضيها بعد بدونها. والآن حين تعود تلك الحاجة ثانية كنت أعلم أني أستطيع الانتظار ساعات تعقبها ساعات وأنّها لن تكون بعد اليوم بجانبي، وقد اكتشفت الأمر توّاً إذ علمت منذ قليل، وأنا أحسّها لأوّل مرّة حيّة حقيقيّة ينتفخ بها قلبي حتىّ لينفطر، وأنا أعود أخيراً فألقاها، أنني فقدتها إلى غير رجعة. فقدتها إلى غير رجعة؛ ماكنت أستطيع أن أفهم وكنت أتدرّب على معاناة الألم الناجم عن هذا

التناقض: فمن جهة وجود وحنان باقيان في داخلي مثلما سبق أن عرفتهما، يعني أنّهما جُعلاَ لأجلي، وحبّ يجد كلّ شيء فيه تمامه فيّ وهدفه واتجاهه الثابت إلى حدّ أن عبقريّة رجال عظام وجميع العبقريّات التي أمكن أن تكون منذ بداية العالم ماكانت لتساوي في نظر جدّتي عيباً واحداً من معايبي؛ ومن جهة أخرى أن أحسّ، حالما عدت فعشت ذلك الهناء وكأنه قائم، أنّه إنما يخترقه اليقين ينطلق انطلاقة ألم جسديّ متكرّر، يقين عدمٍ محا صورتي من ذلك الحنان وهدم ذلك الوجود وألغى في الماضي قَدرَنَا المشترك وجعل من جدّتي، لحظة عدت ألقاها كأنّما في مرآة، محض غريبة جعلتها المصادفة تقضي بجانبي بضع سنوات كما لعلّ ذلك كان ممكناً إلى جانب شخص آخر، ولكنّي ماكنت أمثّل لها، قبلُ وبعدُ، شيئاً ولن أمثّل شيئاً.

لعلّ المتعة الوحيدة التي كان يمكن أن أتذوّقها في هذه اللحظة، بدلاً من المتع التي سبق أن أصبتها منذ بعض الوقت، لعلّها كانت، بالعودة إلى الماضي، أن أخفّف الآلام التي تكبّدتها جدّتي فيما مضى. على أنّي ماكنت أتذكّرها فقط في ذلك المبذل، وهو لباس مناسب، إلى حدّ يقارب أن يضحي فيه رمزيّاً، للمشقّات التي تحمّلتها من أجلي، مشقّات هي ضارّة دون شكّ ولكنّها عذبة أيضاً؛ فقد رأيتني شيئاً فشيئاً أتذكر سائر المناسبات التي انتهزتها كيما أوليها، وأنا أبرز لناظريها وأضخّم لدى الضرورة آلامي، غمّاً أتصور فيما بعد أنّ قُبَلي تزيله كما لو كان حناني بمثل قدرة سعادتي على صنع سعادتها. بل الأنكى من ذلك أنّي، أنا الذي ماكان يتصوّر الآن سعادة أعظم من أن يجد شيئاً منها ينتشر داخل الذكرى على صفحات ذلك الوجه، صفحات صاغها وأحناها الحنان، حاولت فيما مضى بحنق مجنون أن أنتزع منها حتىّ أدنى المسرّات، كمثل ذلك اليوم الذي صوّر فيه «سان لو» جدّتي والذي لم أستطع أن أكتمها فيه الصبيانيّة المضحكة تقريباً في ماتبدي من غنج في وقفاتها وقبعتها ذات الحوافي العريضة وفي نوع من الظلال المناسبة، فبلغ بي المقام أن أهمس ببضع كلمات متعجّلة جارحة أحسست لانقباض في وجهها أنّها بلغت غايتها وأصابتها؛ أمّا الآن وقد استحال إلى الأبد عزاؤها بألف من القبلات فقد كانت تمزّقني أنا.

لكنما لن أستطيع بعد في يوم طمس هذا الانقباض في وجهها وهذا العذاب في فؤادها أو بالأحرى في فؤادي؛ فإنّه لما كان الأموات لا وجود لهم من بعد إلاّ في داخلنا فإنما نحن من نضرب دون هوادة حينما نصرّ على تذكرّ الضربات التي وجهناها لهم. وتلك الآلام، مهما تكن قاسية، فقد كنت أتمسّك بها بكلّ قواي إذ كنت أحسّ أنّها ناجمة عن تذكرّ جدّتي وهي البرهان على أن هذه الذكرى التي أحملها كانت حاضرة تماماً في داخلي. كنت أحسّ أنّني لاأتذكرّها حقّاً إلاّ بالألم ووددت لو تنغرز تلك المسامير التي تربط ذكراها به انغرازاً أوثق في نفسي. ماكنت أحاول جعل العذاب أرفق بي وبتجميله والتظاهر بأن جدّتي غائبة فحسب وأنّها متوارية عن الأنظار مؤقّتاً، وذلك بالتوّجه بأقوال ورجاء إلى صورتها (تلك التي سبق أن صورها «سان لو» وكانت معي) وكأنّما إلى شخص انفصل عنّا ولكنّه إذ احتفظ بفرديته يعرفنا ولايزال يرتبط بنا بتناغم لاتنفصم عراه. إنّي لم أفعل ذلك البتّة، فإنيّ ما كنت أصرّ على العذاب فحسب، بل على احترام أصالة عذابي على نحو ماعانيت منه فجأة دونما قصد وكنت أبغي الاستمرار في معاناته وفقاً لقوانينه هو في كلّ مرّة يعود فيها ذاك التناقض الغريب جداً للبقاء والعدم المتشابكين في داخلي. ذاك الانطباع المؤلم اللامدرك، ماكنت أعلم

بالتأكيد إن كنت سأستخلص منه شيئاً من الحقيقة ذات يوم، ولكنّي أعلم أنّه إن أمكنني في يوم استخلاص هذا النزر اليسير من الحقيقة فلن يمكن استخلاصه إلاّ منه، هو الخاصّ جدّاً، التلقائيّ جدّاً ولم يرسمه عقلي ولابدّل اتّجاهه أو خفّفه فزعي ولكنّ الموت نفسه، الكشف المفاجئ عن الموت، حفره كالصاعقة في داخلي حسب خطّ بيانيّ خارق لا إنساني على شكل أخدود مزدوج غامض. (فأمّا نسيان جدّتي الذي عشت فيه حتىّ الآن فما كنت حتىّ أفكّر في الانصراف إليه لأستخلص منه شيئاً من الحقيقة بما أنّه لم يكن في حدّ ذاته سوى نفي، سوى إضعاف للفكر العاجز عن إعادة خلق لحظة حقيقيّة من الحياة فيُضْطَرّ أن يُحل محلّها صوراً مألوفة وغير ذات بال). لعلّني مع ذلك، إذ أخذت غريزة البقاء وبراعة العقل في وقايتنا من الألم تبنيان فوق خرائب لم تنطفئ بعدُ نارها وتضعان الأساسات الأولى لعملهما المفيد والمشؤوم، لعلّني تذوّقت بما يجاوز الحدّ حلاوة أن أتذكّر هذه الآراء أو تلك يبديها هذا الكائن العزيز، أن أتذكّرها كما لو استطاعت أن تبديها بعد، كما لو كانت موجودة كما لو أنّي لا أزال موجوداً بالنسبة إليها. ولكن ما إن أفلحت في النوم، في تلك الساعة الأوفر صدقاً التي انغلقت فيها عيناي دون أشياء الخارج حتىّ عكس عالم النوم (الذي لم يعد بمقدور العقل والإرادة على عتبته، وقد شُلاّ وقتيّاً، أن ينتزعاني من قساوة انطباعاتي الحقيقيّة) وبعثر الجميعة المؤلمة للبقاء والعدم في الأعماق العضويّة التي أصبحت شافّة، أعماق الأحشاء التي يضيئها نور خفيّ. عالم النوم الذي تسرّع فيه المعرفة الباطنة، وقد جعلت في تبعيّة اضطرابات أعضائنا، ضربات القلب أو تواتر الأنفاس لأنّ ذات كميّة الهلع أو الحزن أو الندم تعمل بقوّة تتضاعف مئة مرّة إن هي زرقت على هذا النحو في أوردتنا؛ وما إن نكون ذهبنا، كيما نطوّف فيه في طرقات مدينة الأعماق، فوق أمواج دمنا السوداء وكأنّما فوق «ليتيه»[1] داخليّ سداسيّ الثنيات، حتىّ تظهر لنا وجوه مهيبة عظيمة تقترب منّا وتفارقنا مخلّفة إيّانا في دموعنا. وعبثاً بحثت عن وجه جدّتي حالما نزلت في المداخل المظلمة، مع أني كنت أعلم أنّها ماتزال على قيد الحياة، ولكنما حياة ناقصة باهتة كما الذكرى. كانت العتمة تتعاظم، وكانت الريح؛ ولا يصل والدي وكان ينبغي أن يقودني إليها. وفجأة تقطّعت أنفاسي وأحسست قلبي كأنّما تقسّى، فقد تذكّرت منذ قليل أنني نسيت أن أكتب إلى جدّتي منذ أسابيع طويلة. فما عساها ستفكّر بي؟ كنت أقول في نفسي: «ياإلهي، كم ينبغي أن تكون تعيسة في هذه الغرفة الصغيرة التي استؤجرت من أجلها صغيرة مثلما هي لخادمة قديمة، وهي فيها وحيدة تماماً مع الممرّضة التي أقيمت للعناية بها، وهي لاتستطيع حراكاً لأنّها لاتزال مشلولة بعض الشيء ولم تشأ أن تنهض مرّة واحدة! هي لابدّ تعتقد أنّي أنساها منذ أن قضت نحبها وكم ينبغي أن تحسّ أنّها وحيدة ومهجورة! آه! لابدّ أن أسرع للقائها، فلا أطيق الانتظار دقيقة واحدة ولا أستطيع أن أنتظر وصول والدي، ولكن أين هي؟ وكيف أمكن أن أنسى العنوان؟ وليتها لا تزال تعرفني! كيف أمكن أن أنساها على مدى شهور؟» الليل حالك ولن أهتدي والريح تمنعني من التقدّم. ولكن هو ذا والدي يخطر أمامي، فأصيح به: «أين جدّتي؟ قل لي العنوان، هل هي بصحّة جيّدة؟ أكيد أنّه لا ينقصها شيء؟» فقال لي والدي: «بالطبع لا، بامكانك أن تطمئن، فانّ ممرّضتها امرأة منظّمة. ومن حين إلى آخر نبعث بمبلغ زهيد كي يمكنهم أن يشتروا لها القليل الضروريّ لها. وهي تسأل أحياناً كيف أصبحت حالك. لقد قالوا لها إنّك تزمع وضع كتاب وبدت

(١) نهر النسيان في ميثولوجيا الإغريق.

مسرورة ومسحت دمعة». حينئذ خلتني أتذكر أن جدّتي قالت لي بعد موتها بقليل وهي تجهش بالبكاء وبلهجة متواضعة كمثل خادمة عجوز صرفت من عملها وكامرأة غريبة: «سوف تسمح لي بالطبع بأن ألقاك أحياناً على الرغم من كلّ شيء، فلا تدعني سنوات طويلة دون أن تزورني، وفكّر أنّك كنت حفيدي وأنّ الجدّات لا ينسين». وإذ عدت أرى أيّ وجه لها شديد الاستسلام، شديد التعاسة، شديد الوداعة أردت أن أجري في الحال وأقول لها ماكان انبغى لي أن أجيبها حينذاك: «ولكن سترينني ياجدّتي قدر ما تشائين فليس لي في الدنيا سواك ولن أفارقك البتّة من بعد». لكم انبغى أن يبكيها صمتي منذ هذه الشهور الكثيرة التي لم أمضِ فيها إلى حيث هي نائمة! فماذا أمكن أن تقول في نفسها؟ وقلت بدوري لوالدي وأنا أجهش بالبكاء: «العنوان، بسرعة، بسرعة، خذني إليها». أمّا هو: «ذلك... أني لا أعلم إن كنت تستطيع أن تراها. ثمّ إنّها واهنة، واهنة جداً، ترى، ولم تعد ذاتها وأظنّ أن ذلك سوف يشقّ عليك بالأحرى. ثم إنتي لا أذكر الرقم الصحيح للشارع» — «ولكن هيّا قل لي، أنت يامن يعلم، ليس صحيحاً أنّ الأموات لايحيون من بعد. ليس الأمر صحيحاً مع ذلك، على الرغم ممّا يقال، بما أن جدّتي لاتزال موجودة». وابتسم والدي ابتسامة حزينة: «آه! أقلّ القليل، ترى، أقلّ القليل. وأظنّ أن الأفضل لك أن لاتذهب هناك. لاشيء ينقصها، إنّهم يجيئون لترتيب كلّ الأمور» — «ولكنّها غالباً وحدها؟» — «أجل، ولكنّ ذلك خير لها. فخير لها أن لاتفكّر إذ لا يمكن إلاّ أن يغمّها الأمر، فغالباً مايجلب التفكير الغمّ. وعلى أي حال، تدري، إنّها واهنة جداً. سوف أترك لك بياناً دقيقاً كي تتمكّن من الذهاب إليها؛ لست أرى ماالذي يمكن أن تفعله هناك ولا أظنّ أن الممرضة ستسمح لك برؤيتها». — «تعلم تماماً مع ذلك أنّني سأعيش على الدوام إلى جانبها، الأيايل، الأيايل «فرنسيس جام»، شوكة». لكنّي كنت قد عدت مذذاك فاجتزت النهر ذا التعرّجات المظلمة وعدت فصعدت إلى الصفحة حيث ينفتح عالم الأحياء. ولئن كنت لاأزال أردّد «فرنسيس جام، الأيايل، الأيايل» فإن تتمّة هذه الكلمات لم تعد توفّر المعنى الواضح والمنطق اللذين كانت تعبّر عنهما تعبيراً طبيعيّاً جداً بالنسبة إليّ للحظة خلت ولم أعد أستطيع تذكرهما. وماعدت حتىّ أفهم لماذا عنت لي كلمة «أياس»[1] التي قالها لي والدي منذ قليل، عنت في الحال ودون احتمال أي شك: «حاذر أن يصيبك البرد». وكنت نسيت إغلاق المصاريع ولابدّ أن شمس الضّحى أيقظتني. لكنّي لم أطق احتمال أن أسرّح ناظريّ بأمواج البحر هذه التي كانت جدّتي فيما مضى تستطيع تأمّلها على مدى ساعات، فإنّ الصورة الجديدة لجمالها اللامبالي كانت تُستكمل في الحال بفكرة أنّها لاتراها. ووددت سدّ أذنيّ دون صخبها لأن تمام ضياء الشاطئ كان يحدث الآن فراغاً داخل فؤادي. كان كل شيء يبدو كأنّما يقول لي مثل تلك الممّرات والمروج في حديقة عامة كنت أضعتها فيها بالأمس حينما كنت طفلاً صغيراً: «لم نرها»، فأحسّ أنفاسي تضيق تحت استدارة السماء الشاحبة الرائعة وكأنّما تحت ناقوس هائل مائل للزرقة يسدّ أفقاً لا وجود فيه لجدّتي. واستدرت صوب الجدار كي لا أشهد شيئاً من بعد، ولكنّ ماكان يواجهني للأسف إنّما ذاك الحاجز الذي كان يقوم فيما مضى بمهمّة رسول الصباح بيننا، ذاك الحاجز الذي كان يعرب، طيّعاً طواعية كمانٍ في ردّ جميع ألوان إحساس ما، وبدقّة كبيرة، لجدّتي عن خشيتي في الآن نفسه من إيقاظها، فإن تك مستيقظة فمن أن لا تكون سمعتني ولاتجرؤ لذلك على الحركة، وعلى إثرها

(١) «أياس» أو «أجاكس» الذي يقارن «بروست» بين جنونه إذ يذبح قطعان الماشية وهو يظنّها يونانيّين بجنون «هنري فان بلارنبيرغ» قاتل أبيه.

في الحال كأنّما جواب آلة ثانية تنبئني بمجيئها وتدعوني إلى الهدوء. ماكنت أجرؤ على الاقتراب من ذاك الحاجز أكثر ممّا أفعل من «بيانو» سبق أن عزفت عليه جدّتي ولايزال يرنّ من لمستها. فقد كنت أعلم أنه يمكنني الآن أن أقرعه، حتى قرعاً متزايد الشدّة، فلن يستطيع شيء من بعد أن يوقظها، ولن أسمع جواباً ولن تجيء جدّتي من بعد. وما كنت أسأل الله، إن كان ثمّة جنّة، أكثر من أن أستطيع فيها أن أضرب على هذا الحاجز الضربات الثلاث الصغيرة التي ستتعرّفها جدّتي من بين ألف منها والتي ستردّ عليها بتلك الضربات الأخرى التي تعني: «لاتضطرب أيّها الفأر الصغير، أفهم أنّك نفد صبرك، ولكنّي آتية»، وأن يدع لي أن أمكث معها الدهر كلّه الذي لن يطول علينا نحن الاثنين.

وجاء المدير يسألني إن كنت لا أبغي النزول، فإنّه تحسّباً للطوارئ قد أشرف على «مكانتي» في قاعة الطعام. ولمّا لم يرني فقد خشي أن لا تكون عاودتني اختناقاتي بالأمس. كان يأمل أن لايكون ذلك سوى «وباء صغير في الحلق» وأكّد لي أنّه سمع من قال إنّها تسكن بما يسمّونه «الألكينا».

وسلّمني كلمة صغيرة من «ألبيرتين». ماكان عليها المجيء إلى «بالبيك» في هذا العام، ولكنّها بعدما بدّلت في مقاصدها حلّت منذ ثلاثة أيّام، لا في «بالبيك» نفسها بل في محطّة مجاورة على مسافة عشر دقائق بالحافلة. فقد خشيتْ أنْ أتعبتني الرحلة فامتنعت عن الحضور أوّل مساء ولكنها أرسلت تسألني متى يمكنني استقبالها. واستعلمتُ إن كانت جاءت بنفسها لا لأراها بل لأتدبّر نفسي كي لا أراها. وأجاب المدير قائلاً: «أجل، بالطبع، ولكنّها تودّ أن يكون ذلك في أقرب وقت ممكن، إلاّ «أن لايكون لديك» أسباب «ضارّة» تماماً». وختم بقوله: «ترى أن الجميع هنا «يشتهونك» «في المنتهى». أمّا أنا فما كنت أريد رؤية أحد.

على أنّني كنت أحسستني البارحة لدى وصولي وقد عاودني السحر في حياة حمّامات البحر. وكان عامل المصعد نفسه قد أدار المصعد بصمت بداعي الاحترام هذه المرّة لا بداعي الازدراء وقد احمرّ اغتباطاً. وإذا ارتفعتُ على صفحة العمود الصاعد عدت فاجتزت ماسبق أن كان بالأمس بالنسبة إليّ سرّ الفندق المجهول حيث يلقي عليك، حينما تصل سائحاً دونما حماية ولا مهابة، كلّ زبون يعود إلى غرفته وكلّ فتاة تنزل للعشاء وكلّ خادمة تجتاز الممرات التي خُطّطت بصورة غريبة والفتاة التي جاءت من أميركا مع مرافقتها والتي تنزل للعشاء، نظرة لاتقرأ فيها شيئاً ممّا وددت قراءته. إلا أني تذوّقت هذه المرّة، على العكس، المتعة المريحة جدّاً التي قوامها أن أقوم بالصعود إلى فندق معروف كنت أشعر فيه أنّني في بيتي وقد أنجزت فيه مرّة أخرى هذه العمليّة التي ينبغي دوماً إعادتها وهي أطول وأصعب من قلب الجفن وقوامها أن نطرح على الأشياء النفس المألوفة لدينا بدلاً من نفس لها كانت تفزعنا. أفينبغي لي الآن، أقول في نفس غير مرتاب بالتغيّر النفسيّ المفاجيء الذي ينتظرني، أن أمضي دوماً إلى فنادق أخرى أتناول فيها غدائي للمرّة الأولى ولا تكون العادة قتلت فيها في كلّ دور وأمام كلّ باب التنّين الذي كان يبدو كأنّما يسهر على حياة مسحورة، وحيث يقع عليّ أن أقترب من هاتيك النساء المجهولات اللائي إنّما تجمعهنّ كبريات الفنادق والكازينوهات ومسابح الشاطئ ليقمن فيها حياة مشتركة على غرار المجموعات المرجانيّة؟

لقد أحسست متعة حتىّ في أن يكون الرئيس الأوّل المزعج على عجلة من أمره للقائي. كنت أبصر لليوم

الأوّل أمواجاً وسلاسل جبال البحر اللازورديّة وجليديّاته وشلّالاته وتعاليه وجلاله اللامبالي– لمحض اشتمامي للمرّة الأولى منذ فترة طويلة جدّاً وأنا أغسل يديّ تلك الرائحة الخاصّة بصابون الفندق الكبير المبالغ في تعطيره– والتي إذ يبدو أنّها تعود للفترة الراهنة وللإقامة الماضية كانت تطفو بينهما مثلما السحر الحقيقيّ لحياة خاصّة لا يعود المرء إليها إلاّ ليبدّل ربطة عنقه. ولعلّ أغطية السرير التي جاوزت حدّ النعومة والخفّة والاتساع واستحال طيّ أطرافها وتثبيتها ولاتزال منفّخة حول اللحف لوالب رجراجة، لعلّها كانت بالأمس بعثت الأسى في نفسي. ولكنّها هدهدت فحسب فوق تكوّر حجبها غير المريحة المقبّبة الشمس البهيّة الملأى بالآمال في أوّل صباح. إلاّ أنّه لم يتسنّ لهذا الأخير أن يطلع، ففي الليلة نفسها عاد فبُعث الحضور الرهيب الرائع. فرجوت المدير أن ينصرف وأن يأمر بأن لا يدخل أحد. وقلت له إنّي سألازم سريري ورفضت عرضه بأن يرسل في طلب العقار الممتاز لدى الصيدلي. فسرّ أعظم السرور لرفضي إذ كان يخشى إزعاج بعض الزبائن من جرّاء رائحة «الألكينا». وقد غنمت من ذلك المديح التالي: « أراك ضمن الحركة» (وكان يقصد: «في الخطّ الصحيح») والتوصية التالية: «احذر أن لاتتّسخ بالباب فإني،بشأن الأقفال، قد «داهنتها» بالزيت؛ فإن تجرّأ مستخدم وقرع باب غرفتك فسوف «يتّسع» ضرباً وليعتبروا أنّهم بُلّغوا الأمر فلست أحبّ «التردّدات» (كان ذلك يعني بالبداهة: لا أحبّ تكرار الأمور مرّتين). ولكن ألست ترغب بغية تنشيط قواك قليلاً في نبيذ عتيق أحتفظ منه في القبو «بطنّ» كبير (يقصد بدون شكّ «بدنّ» كبير). لن أجيئك به على طبق من الفضّة مثل رأس «جونثان»[1] وألفت انتباهك إلى أنّه لن يكون من نوع «شاتولافيت» ولكنّه «مشبوه» تقريباً (ويقصد «مشابه») . ويمكن، إذ هو خفيف، أن تقدّم لك واحدة من سمك موسى مقليّة». ورفضت كلّ شيء ولكنّما أدهشني أن أسمع اسم السمكة (Le sole) يلفظ كاسم الشجرة (Le soule – الصفصاف) على لسان رجل لا بدّ أوصى على الكثير منها في حياته.

وعلى الرغم من وعود المدير جاؤوني بعد قليل ببطاقة المركيزة «دو كامبرمير» مثنيّة الزاوية. كانت السيّدة العجوز قد بعثت، إذ جاءت لزيارتي، تسأل إن كنت موجوداً وحينما علمتْ المركيزة بوصولي البارحة فقط وأنني أعاني أوجاعاً لم تلحّ وعادت أدراجها إلى «فيتيرن» في عربتها القديمة ذات الثمانية نوابض التي يجرّها حصانان (ولا يفوتها دون شكّ أن تتوقف أمام الصيدلي أو بائعة الكلف فيدلف خادمها الخاصّ إليهما بعدما يقفز من مقعده ليدفع فاتورة أو يأخذ بعض المؤن). وغالباً ماكانوا يسمعون على أيّ حال صلصلة عجلاتها ويتأمّلون بإعجاب أبّهتها في شوارع «بالبيك» وبعض قرى الشاطئ الصغيرة الأخرى الواقعة بين «بالبيك» و«فيتيرن». لا لأنّ هذه المواقف لدى بعض الموردين كانت غاية تلك الجولات، بل كانت الغاية على العكس «عصرونية» أو حفلة استقبال في بيت نبيل ريفيّ أو بورجوازي لايليق إطلاقاً بالمركيزة. لكنّ هذه، على الرغم من تفوّقها الكبير جدّاً مولداً وثروة على طبقة صغار النبلاء في المحيط، كان يعتريها في طيبتها وبساطتها التامّتين خوف عظيم من تخييب أمل من سبق أن دعاها إلى حدّ أنّها كانت ترتاد أكثر اللقاءات المجتمعيّة تفاهة في الجوار. صحيح أن السيّدة «دو كامبرمير» كانت فضّلت، بدلاً من قطع مسافة طويلة إلى هذا الحدّ لتقْبل وتسمع في حرّ صالة صغيرة ذات جوّ خانق مغنيّة تفتقر إلى الموهبة بعامّة وينبغي لها بعد ذلك، بصفتها

---

(١) هو في الحقيقة رأس يوحنّا المعمدان الذي وعد به «هيرودس» «سالومي» بعدما رقصت أمامه.

سيّدة كبيرة في المنطقة وموسيقيّة مشهورة، المبالغة في تهشتها، أن تذهب في نزهة أو تمكث في حدائق«فيتيرن» الرائعة التي يقبل الموج الناعس لخليج صغير ليلفظ أنفاسه على حضيضها بين الزهور. ولكنّها كانت تعلم أن مجيئها المرجّح سبق أن أعلن عنه ربّ البيت، سواء أكان أحد النبلاء أو بورجوازي حقيقي من «مينڤيل لاتانتوريير» أو «شاتنكور لورغويّو». فإن خرجت السيّدة «دو كامبرمير» في ذلك اليوم دون أن تثبت حضورها في الاحتفال فربّما أمكن لهذا أو ذاك من المدعوّين ممّن جاؤوا من أحد الشواطئ الصغيرة التي تحاذي البحر أن يكون سمع ورأى عربة المركيزة ولعلّ ذلك كان قضى على عذرها عن أنّها لم تستطع مغادرة «فيتيرن». ثم عبثاً يكون أرباب البيوت أولئك قد رأوا كثيراً السيّدة «دو كامبرمير» ترتاد حفلات موسيقيّة تقام لدى أناس يرون أنْ ليس ثمّة مكانها، فإن التراجع البسيط الذي يلحق في نظرهم بمكانة المركيزة المفرطة الطيبة كان يزول حالماً يكونون هم الذين يستقبلون، فيتساءلون تساؤلاً محموماً إن كانوا سيحظون بها أم لا في «عصرونيّتهم» البسيطة. وأيّ تفريج لصنوفٍ من القلق يحسّون بها منذ بضعة أيام إن أعلن أحد المدعوّين، بعد أول مقطوعة غنّتها ابنة أصحاب البيت أو هاوٍ يصطاف هناك، أنّه شاهد جوادي العربة الشهيرة متوقّفين أمام الساعاتي أو العطّار (وهي علامة لاتخيب بأنّ المركيزة تزمع المجيء إلى حفلة العصر)! حينئذ كانت السيّدة «دو كامبرمير» (التي لن يطول بها الوقت بالفعل للدخول تتبعها كنّتها ومدعوّون يقيمون باستمرار عندها في هذه الآونة وسبق أن استأذنت باصطحابهم فاستجيب طلبها بأيّما غبطة)تستعيد كامل بريقها في نظر أصحاب البيت الذين ربّما كانت مكافأة مجيئها المرتقب السبب الحاسم اللامعلن للقرار الذي اتّخذوه قبل شهر مضى، أي تحمله إرباكات وتكاليف إقامة حفلة في فترة العصر. كانوا يذكرون، إذ يشاهدون المركيزة في حقل «عصرونيّتهم»، لاتلطفها بالذهاب إلى حفلات جيران غير مؤهلين لذلك، بل عراقة أسرتها وفخامة قصرها وفظاظة كنّتها (وشهرتها «لوغراندان» قبل زواجها) التي كانت تعدّل ، بوقاحتها، من الطعم التفه الذي لطيبة حماتها. ويظنّون مذ ذاك أنهم يقرؤون في الزاوية المجتمعيّة في صحيفة «الغالي» الخبر الصغير الذي سيعدّونه بأنفسهم داخل الأسرة، بعد إيصاد الأبواب جميعاً بالمفتاح، حول «الزاوية الصغيرة في «بريتانيه» التي يلهون فيها أشدّ اللهو وحفلة العصر المنتقاة تماماً التي لم يفترقوا فيها إلاّ بعدما حملوا أصحاب البيت على الوعد بالعودة عما قريب». وينتظرون الصحيفة كلّ يوم وبهم قلق أنْ لم يشهدوا عصريّتهم بعد على صفحاتها ويخشّون أن لا يكونوا فازوا بالسيّدة «دوكامبرمير» لمدعوّيهم فقط وليس لجمهرة القرّاء. وأخيراً يحلّ اليوم المبارك: «للموسم في «بالبيك» هذا العام ألق استثنائيّ، والشائع هنا الحفلات الموسيقيّة الصغيرة بعد الظهر، الخ». إن اسم السيّدة «دو كامبرمير» جاء صحيحاً إملائيّاً و«ورد ذكره مصادفة» ولكن في رأس القائمة. ولم يبق من بعد سوى أن يبدو أنّهم يضيقون بهذا التطفّل للصحف الذي يمكن أن يقود إلى خلافات مع الأشخاص الذين لم يستطيعوا دعوتهم، وأن يسألوا بلهجة منافقة في حضرة السيّدة «دو كامبرمير» من ذا بلغ به الغدر أن يبعث بهذا الخبر الذين كانت المركيزة تقول عنه بادية العطف وبنفسيّة السيّدة الكبيرة : «أفهم أن يزعجكم الأمر، أمّا فيما يخصّني فما كنت إلاّ سعيدة جداً بأن يعرفوا أنّي في منزلكم.

كانت السيّدة «دو كامبرمير» قد خربشت على البطاقة التي سُلّمت إليّ أنّها تُحيي حفلة عصر بعد الغد. والأكيد أنّني منذ يومين فقط ومهما كنت متعباً من الحياة المجتمعيّة فربّما أحسست فيما يخصّني بمتعة

حقيقيّة في أن أتذوّقها وقد نقلت إلى هذه الحدائق حيث كانت تنبت في ترابها، بفضل معرض «فيتيرن»، أشجار التين والبلح وأغراس الورود وتمتدّ حتىّ البحر وهو في الغالب بهدوء وزرقة المتوسّط وفوق مياهه يذهب يخت المالكين الصغير ليجيء قبيْل بدء الاحتفال بأهّم المدعوّين من مسابح شاطئ الجانب الآخر من الخليج، ويستفاد منه، بفضل شوادره الممدودة قبالة الشمس وبعدما يصل الجميع، كقاعة طعام لتناول العصرونية، ثمّ يعود في المساء ليعيد الذين سبق أن نقلهم. والبذخ بديع ولكنّه مكلف إلى حدّ أن السيّدة «دو كامبرمير» إنّما حاولت أن تزيد مداخيلها بطرق مختلفة.

وكان ذلك جزئياً من أجل تدارك المصاريف التي يتسبّب فيها، وقد فعلت على وجه الخصوص بأن أجرت للمرّة الأولى أحد أملاكها: «لاراسبليير»، وهو مختلف تماماً عن «فيتيرن». أجل، كم لعلّ حفلة عصر كهذه يعمرها نبلاء صغار مجهولون، كم لعلّها قبل يومين كانت غيّرت ضمن إطار جديد من حياتي الباريسيّة «الراقية»! أمّا الآن فلم يعد للمتع أيّ معنى في نظري. وكتبت إلى السيّدة «دو كامبرمير» أعتذر إليها مثلما أمرت قبل ساعة بصرف «ألبيرتين»: فإن الغمّ كان ألغى فيّ إمكان الرغبة تماماً كما تقطع الحمّى الشديدة الشهيّة. كانت والدتي تزمع المجيء في الغد. وكان يبدو لي أنني أكثر استحقاقاً للعيش بجانبها وأنّني سوف أفهمها بصورة أفضل الآن وقد أفسحت حياة بأكملها غريبة عنيّ ومهينة في المكان لتصاعد الذكريات الأليمة التي تكلّل وتزمع قدر نفسي ونفسها باكليل شوكها. ذلك ماكنت أظنّ، ولكن شتّان في الواقع مابين الأحزان الحقّة كما هو حزن أمّي- التي تنزع منك حياتك بالمعنى الحرفي للكلمة لفترة طويلة وأحياناً على الدوام، ما إن فقدت الشخص الذي تحبّ- وتلك الأحزان الأخرى، وهي عابرة على الرغم من كلّ شيء، كما لابدّ كان حزني، وتمضي سريعاً مثلما جاءت متأخّرة، ولست تعرفها إلاّ بعد انقضاء فترة طويلة على الحادث لأنّك احتجت «أن تدركه» كيما تحسّ بها. أحزان كتلك التي يعاني منها الكثيرون والتي ماكان يختلف عنها ذاك الذي يعذّبني الآن إلاّ من حيث طريقة التذكّر اللاإراديّ تلك.

أمّا بشأن الحزن الذي يوازي في عمقه حزن أمّي فسوف أُخبِرُه ذات يوم، كما سنرى ذلك في تتّمة هذه القصّة، ولكن ليس الآن ولا بالصورة التي كنت أتخيّلها. ومثلما يعرف راوٍ كان يجدر به أن يحفظ دوره ويكون في مكانه منذ فترة طويلة ولكنّه وصل في الثانية الأخيرة فقط ولم يسبق أنه قرأ سوى مرّة واحدة ماينبغي أن يقول، مثلما يعرف كيف يستر أمره بما يكفي من حذاقة، حينما تحين اللحظة التي ينبغي أن يجيب فيها، كي لايستطيع أحد ملاحظة تأخّره، كذلك مكّنني حزني الجديد كلّ الجدّة أن أتحدّث إلى والدتي حينما وصلتْ وكأنّما كان على الدوام مثله اليوم. واعتقدتْ فحسب أن رؤية هذه الأمكنة التي سبق أن كنت فيها مع جدّتي (وما كان الأمر كذلك على أيّ حال) قد أيقظته. وتبيّنت للمرّة الأولى إذ ذاك، ولأنّني أعاني ألماً ماكان يساوي شيئاً قياساً على ألمها ولكنّه يفتح عينيّ، تبيّنت بهلع ما كان يمكن أن تعاني. وأدركت لأوّل مرّة أن تلك النظرة الثابتة غير الدامعة وهي نظرتها منذ وفاة جدّتي (ومامنجم عنها من قلّة رثاء «فرانسواز» لحالها) إنّما حطّت على هذا التناقض الممتنع الإدراك بين التذكّر والعدم. وكنت من جانب آخر أكثر دهشة، على الرغم من استمرارها في ارتداء براقعها السوداء وأثواب أوفر ستراً في هذا البلد الجديد، من التحوّل الذي تمّ في شخصها. فليس يكفي أن نقول إنّها فقدت مرحها أيّاً كان، فقد كانت تبدو، وقد ذابت وتجمّدت في مايشبه

صورة ضارعة، أنّها تخشى أن تسيء بحركة مفرطة النزق أو بصوت مفرط في ارتفاعه إلى الحضور الأليم الذي ماكان يفارقها. ولكنّي لاحظت على وجه الخصوص، ما إن رأيتها تدخل بمعطفها الذي من الحرير المموج- والأمر كان فاتني في باريس- أن من تقع عليها عيني لم تعد أمّي بل جدّتي. ومثلما في الأسر الملكيّة والدوقية يتّخذ الابن لدى موت الزعيم لقبه فينقلب من دوق «أورليان» أو أمير «تارانت» أو أمير «لوم» إلى ملك فرنسه أو دوق «لاتريمواي» أو دوق «غير مانت» كذلك كان يتّفق في الغالب، من جرّاء حدوث أمر من نوع آخر ومن مصدر أكثر عمقاً، أن يمسك الميت بالحيّ الذي يصبح خليفته الذي يشبهه ومكملَ حياته التي توقّفت. وربّما اقتصر دور الغمّ الكبير الذي يلي، لدى ابنة على غرار أمّي، موت والدتها على تحطيم الخادرة قبل الأوان. والتعجيل في التحوّل وبروز كائن جديد نحمله في داخلنا وماكان، لولا هذه الأزمة التي نحرق بها المراحل ونجتاز الفترات الزمنيّة دفعة واحدة، ماكان ظهر إلاّ ببطء أشد. وربّما كان في الأسف على التي فارقت نوع من الإيحاء يجلب في النهاية على قسماتنا تماثلات كنّا على أيّ حال نختزنها بالقوّة في داخلنا، وكان ثمّة على وجه الخصوص توقّف لنشاطنا الأكثر فرديّة وخصوصيّة (ولدى والدتي توقّف حسّها السليم ومرحها الساخر الذي أخذته عن والدها) والذي ماكنّا نخشى ممارسته مادام الحبيب على قيد الحياة، حتىّ لو جاءت الممارسة على حسابه، وكان يوازن الطبع الذي أخذناه حصراً عنه. فما إن تكون ماتت حتىّ يؤنّبنا ضميرنا إن كنّا سوى ذلك ولا نعجَب من بعد إلاّ بما كانت عليه، ما كنّاه نحن مذ ذاك ولكنّما ممزوجاً بشيء آخر، وما سنضحي عليه وحده من الآن فصاعداً. وبهذا المعنى (لابذاك الغامض جداً الزائف جداً الذي يقصدونه بعامّة) يمكن أن نقول إن الموت ليس غير ذي فائدة، وإن الميت يستمر في التأثير فينا. وإنّه يؤثر فينا حتىّ أكثر ممّا يفعل الحيّ لأنّنا، لمّا كان الواقع الحقيقي لايستخلص إلاّ بالفكر وكان موضوع عمليّة فكريّة، إنّما لانعرف حقّاً إلاّ ما اضطررنا إلى إعادة خلقه بالفكر وماتخفيه عنّا حياتنا اليومية ... ثمّ إننا في طقوس الأسف على موتانا إنما نخصّ ما أحبوه بعبادة صنميّة. فقد كانت والدتي لاتستطيع الافتراق عن حقيبة جدّتي وقد أضحت أثمن ممّا لو كانت من ياقوت وماس، وليس ذلك فحسب بل عن فروة يديها وجميع تلك الملابس التي كانت تزيد من تشابه المظهر بينهما، بل حتىّ عن مجلّدات السيّدة «دو سيڤينييه» التي كانت جدّتي تحملها على الدوام معها، ولعلّ والدتي ماكانت لتستبدل بتلك النسخ مخطوطة «الرسائل» نفسها. كانت تمازح فيما مضى جدّتي التي ماكانت تكتب لها مرّة دون أن تستشهد بجملة للسيّدة «دوسيڤينييه» أو السيّدة «دو بوسيرجان» وفي كلّ من الرسائل الثلاث التي وردتني من أمّي قبل وصولها إلى «بالبيك» استشهدت لي بالسيّدة «دوسيڤينييه» كما لو أن تلك الرسائل لم تكن موجّهة إلي من جانبها بل وجّهتها جدّتي إليها. وابتغت النزول إلى السدّ لترى هذا الشاطئ الذي كانت جدّتي تحدّثها عنه كلّ يوم في كتبها. ورأيتها من النافذة تمسك بيدها شمسيّة والدتها وتتقدّم كتلةً سوداء بخطى خجولة ورعة، على الرمال التي داستها قبلها قدمان غاليتان، وكانت تبدو كأنّما تمضي للبحث عن ميتة لابدّ أن تعيدها الأمواج. واضطررت أن أنزل معها كي لا أدعها تتناول وحدها طعام العشاء. وتقدّم الرئيس الأوّل وأرملة رئيس نقابة المحامين طالبين تعريفها بهما. كان كلّ مايتعلّق بجدّتي شديد التأثير عليها إلى حدّ أنّها تأثرت إلى أبعد الحدود واحتفظت على الدوام بالذكرى والامتنان لما قاله لها الرئيس الأوّل مثلما عانت يهزّها الحنق من أنّ زوجة رئيس النقابة لم تنطق بكلمة تتذكّر بها الميتة. والحقيقة أن الرئيس الأوّل ماكان يهتمّ بها أكثر من زوجة رئيس النقابة. فلم تكن كلمات الأوّل

العاطفيّة وصمت الأخرى، مع أن أمّي أقامت بينهما مثل تلك المسافة، سوى طريقة مختلفة للإعراب عن تلك اللامبالاة التي يوحي لنا الأموات بها. لكنّي أظنّ أنّ والدتي أحسّت على وجه الخصوص بشيء من الرقّة في الكلمات التي أمررت فيها غضب نفسي قليلاً من العذاب، فما كان يمكن إلاّ أن يسعد والدتي (على الرغم من كلّ الحنان الذي تكنّه لي)، كمثل كل مايضمن لجدّتي بقاء في الصدور. لقد نزلت والدتي في الأيّام التالية جميعاً تجلس على الشاطئ لتفعل بالضبط ماسبق أن فعلت والدتها وكانت تقرأ كتابيها المفضّلين عندها، «مذكّرات» السيّدة «دوبوسيرجان» و «رسائل» السيّدة «دوسيفينييه». وهي لم تستطع، ولم يستطع أيّ منّا، احتمال أن تدعى هذه الأخيرة «المركيزة الظريفة» ولا أن يدعى «لافونتين» «الدرويش». ولكنّها حين كانت تقرأ في الرسائل الكلمة التالية: «ابنتي» كانت تظنّ أنّها تسمع والدتها تحدّثها.

وكان من سوء طالعها أن التقت، في واحدة من تلك الزيارات المقدّسة التي ماكانت تودّ أن يضايقها أحد فيها، التقت على الشاطئ سيّدة من «كومبريه» تتبعها بناتها. وأظن اسمها كان السيّدة «بوسّان»، ولكنّنا لم نكن ندعوها فيما بيننا سوى «ستزوّدني بالأخبار»، فإنّها كانت تحذّر بناتها بهذه الجملة التي تردّدها أبداً من الشرور التي يعددنها لأنفسهنّ، كأن تقول لواحدة منهنّ كانت تفرك عينيها: «يوم يصيبك رمد شديد فستزوّدينني بالأخبار». ولوّحت من البعيد لوالدتي بتحيّات طويلة حزينة لا بمثابة تعزية بل كنوع من حسن التربية. وحتىّ لو أننا لم نفقد جدّتي ولو لم يتّفق لنا سوى أسباب تقضي بأن نكون سعداء لفعلتْ مافعلت. فانّها إذ كانت تعيش وقد اعتزلت إلى حدّ ما في «كومبريه» في حديقة مترامية الأطراف لم تكن تجد البتّة أي شيء على قدر كاف من النعومة وتدخل على كلمات وأسماء اللغة الفرنسية نفسها مخفّفات. فكانت تجد خشونة في تسمية قطعة الأواني الفضيّة التي تصبّ بها شراباتها «ملعقة» وتقول بالتالي «ملئكة» ولعلها كانت خشيت مخاشنة منْشد «تليما خوس» الرقيق إذ تدعوه باسم «فينْلون» القاسي– مثلما كنت أفعل أنا عن معرفة وقصد إذ كان أعزّ صديق عندي الشخص الأوفر ذكاء، الطيّب الشجاع الذي لا يمكن أن ينساه كلّ من عرفه، عنيت «بيرتران فينْلون»– فلا تقول قطّ إلا «فينيلون» لما ترى أنّ «الإمالة»تضيف بعض الليونة.أمّا صهر السيّدة «بوسان» الأقلّ رقّة والذي نسيت اسمه، وكان كاتباً عدلاً في «كومبريه» فقد استولى على الصندوق وأفقد عميّ بوجه الخصوص مبلغاً كبيراً إلى حدّما، ولكن غالبيّة أهالي «كومبريه» كانوا على أفضل علاقة بأعضاء الأسرة الآخرين إلى حد لم ينجم معه أيّ فتور واكتفوا بالرثاء لحال السيّدة «بوسّان». لم تكن تقيم حفلات استقبال، لكنّ الناس كانوا يتوقّفون، في كلّ مرة يمرّون فيها أمام سياجها، يتأمّلون مظلاّتها الرائعة دونَ أن يمكنهم تمييز شيء آخر. وهي كادت لاتضايقنا في «بالبيك» حيث لم ألقها إلاّ مرة واحدة في لحظة كانت تقول فيها لابنتها التي توالي قضم أظافرها: «حينما تصابين بداحس شنيع تزودينني بالأخبار».

كنت ألبث وحيداً في غرفتي في أثناء ماتقرأ والدتي على الشاطئ. وكنت أتذكّر الفترات الأخيرة في حياة جدّتي وكلّ مايرتبط بها، وباب الدرج الذي أبقي مفتوحاً بعدما خرجنا في آخر نزهة لها. في مقابل ذلك كلّه كان مابقي من العالم يبدو وكأنّه يكاد أن لا يكون حقيقياً وكان ألمي يفسده عليّ بكامله. وأخيراً أصرّت والدتي عليّ بالخروج. لكنّما ثمّة في كل خطوة أخطوها جانب منسيّ من الكازينو، من الشارع الذي سبق أن مضيت فيه، وأنا أنتظرها أوّل مساء، حتىّ نصب «دو غاي تروان» يمنعني من المضيّ قدماً، مثل ريح لا يسعك

مقاومتها، وكنت أغضّ الطرف كي لا أرى. كنت أعود باتّجاه الفندق بعدما أستعيد شيئاً من قواي، الفندق الذي أعلم أنّه يستحيل منذ الآن، مهما طال انتظاري، أن ألقى فيه جدّتي، جدّتي التي سبق أن لقيتها فيما مضى في المساء الأول لوصولنا. ولما كانت تلك أول مرّة أخرج فيها فقد نظر إليّ كثيرون من الخدم الذين لم أكن بعد رأيتهم نظرات مستغربة. وعلى عتبة الفندق ذاتها رفع خادم موزّع شاب قبّعته ليحييني وأعادها بخفّة. وظننت أن «إيميه» قد نقل إليه، حسبما يقول، «تعليمات» بضرورة مراعاتي. ولكنّي رأيته في اللحظة نفسها يرفعها ثانية لشخص آخر كان عائداً. والصحيح أنّ هذا الشابّ ماكان يعرف في الحياة غير نزع قبّعته وإعادتها. ويفعل ذلك على أكمل وجه. ولما أدرك أنّه لايستطيع غير ذلك وأنّه يجيد عمله ذاك فقد كان ينجزه أكثر مايمكنه من مرّات في اليوم، الأمر الذي كان يكسبه من جانب الزبائن مودّة غير مفضوحة ولكنّها عامّة، ومودّة كبيرة كذلك من جانب البّواب الذي كان مكلّفاً تعيين الخدم الموزعّين والذي لم يستطع، حتّى هذا الطائر النادر، أن يجد واحداً لم يصْرَف في أقلّ من ثمانية أيّام، فيدهش ذلك «إيميه» أعظم الدهشة فيقول: «مع أنّهم لايطالبونهم في هذه المهنة إلاّ بالتهذيب وليس ينبغي أن يكون ذلك صعباً إلى هذا الحدّ.». والمدير بدوره كان يحرص أن يتمتّعوا بما كان يسمّيه «حضوراً» جميلاً، ويعني ضرورة أن يبقوا هناك، أو هو بالأحرى لم يحفظ بصورة صحيحة كلمة «هيبة». وكان مظهر المرج الذي يمتدّ خلف الفندق قد تبدّل من جرّاء إنشاء بضعة أحواض مزهرة ورفع شجيرة جيء بها من البلاد الأجنبيّة وكذلك موزّع كان يزيّن في السنة الأولى المدخل الخارجيّ بخيزران قامته ولون شعره الغريب. كان قد رافق كونتيّسه بولونية جعلت منه أمين سرّها، مقلّداً بذلك أخويه اللذين يكبرانه وأخته ضاربة الآلة الكاتبة وقد انتزعتهم من الفندق شخصيّات من بلدان عدّة وجنس مختلف وقعوا أسرى سحرهم. وحده الأخ الأصغر بقي وماكان أحد يبغيه لأنّه يعاني من الحَوَل. وكان شديد السعادة حينما تجيء الكونتيسّة البولونية وحاميا الاثنين الآخرين لقضاء بعض الوقت في فندق «بالبيك»، فإنّه يحب إخوته، على الرغم من أنّه كان حاسداً لهم، ويستطيع هكذا أن ينمّي على مدى بضعة أسابيع عواطف عائليّة. أفلم تتعوّد رئيسة دير «فونتفرو»، وتفارق لذلك راهباتها، المجيء لنيل نصيبها من الضيافة التي كان يوفّرها «لويس الرابع عشر» للسليلة الثانية لآل «مورتمار»، عنينا عشيقته السيّدة «دومونتسبان»[1] أمّا هو فقد كانت أوّل سنة له في «بالبيك»، ولم يكن بعد يعرفني، إلاّ أنّه سمع الأكثر قدماً من رفاقه يتْبعون كلمة السيّد اسمي حينما يكلّمونني فحذا من المرّة الأولى حذوهم بهيئة الراضي إمّا عن إبراز علمه فيما يخصّ شخصيّة بحكم أنّها معروفة، وإمّا عن التزامه عادة كان يجهلها قبل خمس دقائق ولكنّما يبدو له من الضرورة بمكان أن لايخالفها. كنت أدرك تماماً السحر الذي يمكن أن يوفّره هذا الفندق الكبير لبعض الناس. فقد كان مقاماً على غرار مسرح وتعمره بالنشاط طائفة كثيرة من الممثّلين الصامتين تملؤه حتّى السقوف. ومع أنّ الزبون لم يكن أكثر من متفرّج فقد كان يُشْرَكُ على الدوام في العرض، لا كما في تلك المسارح التي يمثّل فيها الممثّلون مشهداً في القاعة بل كما لو أن حياة المتفرّج تجري وسط مظاهر الأبّهة في المسرح. كان لاعب كرة المضرب يستطيع العودة بسترة من الفانيلا البيضاء فإنّ البوّاب قد ارتدى بزة زرقاء زيّنت بشرائط فضيّة ليسلّمه رسائله. فإن لم يشأ لاعب كرة المضرب الصعود سيراً على الأقدام فما كان ذلك يقلّل من اختلاطه بالممثّلين

(١) عشيقة ملك فرنسه الذائعة الصيت وكانت شقيقة رئيسة الدير المذكور آنفاً التي وفدت مراراً على البلاط وأثارت إعجاب لويس الرابع عشر.

إذ يقف إلى جانبه لتشغيل المصعد العامل المكلّف وقد ارتدى ثياباً فاخرة. كانت ممرّات الأدوار تختلس فرار خادمات وموزّعات، جميلات على صفحة البحر كإفريز ملاعب الإلهة «أثينا»، وإلى غرفهنّ الصغيرة يدلف هواة جمال النادلات بعد لفّات مدروسة علميّاً. أمّا في الأسفل فكان العنصر الذكوري سائداً يجعل من هذا الفندق، من جرّاء حداثة سنّ الخدم الكبيرة وبطالتهم، نوعاً من المأساة اليهوديّة المسيحيّة تجسّدت ويجري تمثيلها إلى مالا نهاية. ولذلك لم أكن أستطيع الحؤول دون أن أُلقي على نفسي لدى رؤيتهم، لابالتأكيد أبيات «راسين» التي خطرت على بالي في منزل الأميرة «دو غير مانت» فيما كان السيّد «دوڤوغوبير» ينظر إلى سكرتيري سفارة شبان يحيّون السيّد «دوشار لوس»، بل أبيات أخرى لـ «راسين» لا من مسرحيّة «إيستير» هذه المرة بل «أتالي»: فإنّه من أوّل البهو، أي ما كانوا يُسمونه الأروقة في القرن السابع عشر، كانت تقف جمهرة من الندل الشباب تفيض عافية، ولاسيّما ساعة «العصريّة»، على غرار الفتيان اليهود في جوقات «راسين» ولكنّي لا أظنّ أنْ كان أحد يستطيع أن يقدّم حتىّ الإجابة الضعيفة التي يلقاها «جواس» لـ «أتالي» حينما تسأل هذه الأخيرة الطفل الأمير: «ماهو عملك إذن؟» إذ لا عمل لهم البتّة. ولو أنّهم سألوا أيّاً منهم، كما فعلت الملكة العجوز:

«ولكن ما الذي يفعله

هذا الشعب الحبيس كلّه داخل هذا المكان؟»

فلعلّ أقصى ماكان يمكن أن يقوله:

«إني أشاهد النظام الفخم في هذه الاحتفالات»

وأسهم فيه».

كان أحد الممثّلين الصامتين الشباب يمضي أحياناً إلى شخصيّة أكثر أهميّة ثم يعود الفتى الجميل إلى الجوقة، والجميع، إن لم يكن الوقت لحظة استراحة تأمّليّة، كانوا يشابكون خطوط حركاتهم اللامجديّة المجلّة التزيينيّة اليوميّة. فإنّهم، فيما عدا «يوم عطلتهم»، ولمّا «نشئوا بعيداً عن العالم» ولايجاوزون فناء الهيكل، كانوا يعيشون ذات العيشة الرهبانيّة التي للاويّين(١) في مسرحيّة «أتالي»، وكان بوسعي أمام «هذه الفرقة الفتيّة المخلصة» التي تلهو على حضيض الأدراج المغطّاة بطنافس رائعة أن أتساءل إن كنت أدخل إلى فندق «بالبيك» الكبير أو إلى هيكل سليمان.

كنت أعود فأصعد مباشرة إلى غرفتي وقد غُلّتْ أفكاري عادة بالأيّام الأخيرة من مرض جدّتي، بتلك العذابات التي أعيشها من جديد فأزيد عليها هذا العنصر الذي يصعب احتماله حتىّ أكثر من عذاب الآخرين نفسه والذي تضيفه إليها شفقتنا التي لاترحم، فحين نظنّ أنّنا نستعيد فحسب آلام شخص عزيز علينا فإنّ إشفاقنا يضخّمها. ولكنّه هو مَنْ ربّما كان على حقّ أكثر من وعي هذه الآلام من جانب الذين يعانون منها والذين يخفى عليهم ذلك الحزن في حياتهم، الحزن الذي يراه الإشفاق ويتعذّب من جرّائه. على أنّ إشفاقي

(١) الذين كرّسوا أنفسهم لخدمة الهيكل لدى اليهود من عشيرة «لاوي».

كان جاوز في اندفاعة جديدة عذابات جدّتي لو عرفت إذ ذاك ماجهلته زمناً طويلاً من أنّها عشيّة وفاتها، وفي هنيهة وعي وإذ تأكد لها أنّي لست هناك، أمسكت يد والدتي وقالت لها بعدما ألصقت بها شفتيها المحمومتين: «الوداع يا ابنتي وداعاً لا لقاء بعده». وربّما تلك كانت أيضاً الذكرى التي لم تنفكّ والدتي تحدّق إليها. ثم كانت الذكريات الحلوة تعود إليّ. فقد كانت جدّتي وكنت حفيدها. وكانت تعابير وجهها تبدو كأنّما سطّرتْ في لغة خُصصتْ بها وحدي. لقد كانت كلّ شيء في حياتي ولا وجود للآخرين إلاّ بالنسبة إليها وإلى الحكم الذي قد تزوّدني به عنهم. ولكن لا، لقد كانت علاقاتنا أكثر من عابرة لأنّها لم تكن عرضيّة. إنّها لا تعرفني من بعد ولن أعود فأراها في يوم. فلم نكن ولدنا فقط الواحد للآخر، لقد كانت غريبة. وتلك الغريبة كنت أنظر صورة لها أخذها «سان لو». كانت والدتي قد ألحت، بعد لقائها «ألبيرتين» كي أستقبلها بسبب الأشياء اللطيفة التي قالتها لها حول جدّتي وحولي. وكنت مذذاك قد حدّدت لها موعداً. وأخطرت المدير كي يطلب إليها الانتظار في الصالة. فقال لي إنّه يعرفها منذ زمن طويل هي وصديقاتها وقبلما بلغن «سنّ الرشاد»، ولكنّه حاقد عليهنّ لأمور قلنها عن الفندق.«لابدّ أنّهن غير «مضطلعات» تماماً للتكلّم على هذا النحو، مالم يكن ذلك افتراء بحقّهنّ.» وأدركت بسهولة أنّ «الرشاد» قيلت عن «الرشد». وبانتظار ساعة الذهاب للقاء «ألبيرتين» ظللت أحدّق، وكأنّما برسم يبلغ بك في النهاية أن لا تراه من بعد لكثرة مانظرت إليه، إلى الصورة التي كان أخذها «سان لو» حينما عدت أفكّر فجأة: «إنّها جدّتي وإنّي حفيدها» مثلما يعود فاقد الذاكرة فيلقى اسمه ومثلما يغيّر مريض شخصيته. ودخلت «فرانسواز» لتخبرني أنّ «ألبيرتين» حضرت وإذ رأت الصورة الشمسيّة: «ياللسيّدة المسكينة، هذه هي تماماً، وحتىّ الشامة على خدّها؛ لقد كانت على مرض شديد في ذلك اليوم الذي صوّرها المركيز فيه، وقد أغمي عليها مرتّين؛ وهي قالت لي :«خصوصاً يا «فرانسواز» يجب أن لايدري حفيدي بذلك». وكانت تتستّر على الأمر تماماً، إذ كانت دائمة المرح بين الناس. وحينما تكون وحيدة مثلاً، كنت أراها تبدو أحياناً رتيبة الفكر، ولكن سرعان ماينقضي ذلك. ثمّ إنّها قالت لي هكذا: «إن أصابني أمر ذات يوم فلا بدّ أن يكون لديه رسم لي، وأنا لم أوص مرّة أن ينفّذ واحد لي». حينئذ أرسلتني لأقول للسيّد المركيز، وهي توصيه بأن لايروي لسيّدي أنّها هي من طلبت ذلك، إن كان لا يستطيع أن «يسحب» صورة لها. وحينما عدت لأقول لها أنْ نعم، لم تعد قابلة لأنّها تجد وجهها متعباً جداً، وتقول لي: «إنّه حتىّ أسوأ من غياب الصورة تماماً». ولكنّها لما لم تكن غبيّة تدبّرت أمرها في النهاية إلى حدّ أنّها إذ وضعت قبّعة كبيرة مرخاة الأطراف لم يعد يبدو عليها شيء من ذلك حينما لا تكون في تمام الضوء. لقد سرّت أيّما سرور بصورتها لأنّها لم تكن تعتقد آنذاك أنّها تعود إلى «بالبيك». وعبثاً كنت أقول لها: «سيّدتي، يجب أن لا تتكلّمي مثلما تفعلين، فما أحبّ أن أسمع سيّدتي في مثل حديثها هذا» فقد سكنتها تلك الفكرة. والحقيقة أنّها لم تكن قادرة على تناول طعامها منذ عدّة أيّام. لذلك كانت تدفع سيّدي إلى الذهاب لتناول العشاء بعيداً جداً بصحبة السيّد المركيز. وكانت تتظاهر حينذاك، بدلاً من القيام إلى المائدة، بالقراءة وما أن تنطلق عربة المركيز حتىّ تصعد للنوم. ثمّة أيّام كانت تريد فيها أن تخطر سيّدتي بالمجيء لتراها أيضاً، ثم تخشى أن تفاجئها إذ لم يسبق أن قالت لها شيئاً. «ترين يا «فرانسواز»، خير لها أن تبقى مع زوجها». وسألتني «فرانسواز» فجأة، وهي تنظر إليّ إن كنت «أحسّني منحرف الصحّة» فقلت لها أنْ لا: «ثم إنّك

تكبلني هكذا في الحديث معك وربّما وصلت زائرتك. ينبغي أن أنزل، فليست شخصاً جديراً بهذا المكان. إذ يمكن «لمُسْتَعْجلَة» مثلها أن تكون عادت أدراجها، إذ هي لاتحبّ الانتظار، ويحك ! الآنسة «ألبيرتين» الآن أصبح لها وزناً» . –«أنت على خطأ يا «فرانسواز» ، إنّها مقبولة، بل أكثر من ذلك بالنسبة إلى المكان. ولكن هيّا أعلميها أنّني لن أستطيع لقاءها اليوم» .

أيّة خطب ومراثٍ كنت أيقظت في صدر «فرانسواز» لو أنّها أبصرتني أبكي! وتواريت بعناية، ولولا ذاك لحزتُ عطفها. على أنّي وهبتها عطفي. فإنّنا لاندخل إلى حدّ الكفاية في صدور هاتيك الوصيفات اللائي لايقوين على مشاهدتنا نبكي كما لو أن البكاء يؤلمنا؛ أو هو ربّما يؤلمهنّ، إذ قالت لي «فرانسواز» حينما كنت صغيراً: «لاتبك هكذا فلا أحبّ أن أراك تبكي كما تفعل» . لسنا نحبّ الجمل الفخمة وصنوف القسم، وإننا لعلى ضلال، إذ نغلق على هذا النحو قلوبنا دون العنصر المأسويّ في الأرياف، دون الأسطورة التي تطلقها الخادمة المسكينة، وقد طردت، ربّما ظلماً، بتهمة السرقة، تطلقها شاحبة اللون تماماً وقد أضحت فجأة أكثر اتّضاعاً كما لو كان الاتّهام جريمة، وهي تستشهد بنزاهة أبيها ومبادئ أمّها ونصائح الجدّة. صحيح أن هؤلاء الخدم أنفسهم الذين لايستطيعون احتمال دموعنا يتسبّبون دون رعشة ضمير بإصابتنا بالتهاب رئوي لأنّ الوصيفة في الدور الذي تحتهم تحبّ التيّارات الهوائيّة وقد لا يكون من حسن التربية إزالتها. ذلك لأنّه لابدّ لمن كانوا على حقّ، مثل «فرانسواز» ، أن يخطئوا هم أيضاً كي يجعلوا من العدالة أمراً مستحيلاً. فحتّى متع الخادمات المتواضعة تستثير إمّا رفض أسيادهن أو سخريتهم. والأمر على الدوام غير ذي بال ولكنّه عاطفيّ على غباء وغير صحيّ. ولذلك يمكن أن يقلن: «كيف ذلك، أنا التي لاتطلب إلاّ هذا في بحر العام ولايمنحونني إيّاه» . مع أن الأسياد ربّما أعطوا مايجاوز ذلك كثيراً مما لايتّسم بالسخف أو الخطورة عليهنّ – أو عليهم. أجل، لا يقدر المرء أن يقاوم اتّضاع الوصيفة المسكينة المرتعشة المستعدّة للإقرار بما لم تقترف يداها وتقول «سأرحل هذا المساء إن انبغى ذلك» . ولكنّما يجب كذلك أن نعرف كيف لانبقى فاقدي الإحساس، على الرغم من تفاهة الأشياء التي تقولها ولهجتها المتوعّدة وميراثها لجهة أمّها وكرامة «الحظيرة» ، أمام طبّاخة عجوز تدثّر حياتها وشرف الأسلاف وتمسك بالمكنسة كما تمسك بصولجان، وتصل بدورها حيّز المأساة تقطّعه بالدموع وتعود لتنتصب بجلال. لقد تذكّرت في ذلك اليوم أو تخيّلت مثل تلك المشاهد ونسبتها إلى خادمتنا العجوز، .ومنذ ذلك الحين، وعلى الرغم من كلّ الإساءة التي أمكن أن تلحقها بـ«ألبيرتين» أحببت «فرانسواز» حبّاً متقطّعاً بالحقيقة ولكنّه من النوع الأكثر قوّة، الحبّ الذي أساسه الإشفاق.

أجل، لقد تألّمتّ طوال النهار وأنا مقيم أمام صورة جدّتي. كانت تعذّبني، أقلّ مع ذلك ممّا فعلت في المساء زيارة المدير. فقد سمعته فيما كنت أحدّثه عن جدّتي وهو يعيد عليّ تعازيه، سمعته يقول لي (إذ كان يحبّ استعمال الألفاظ التي يسيء تلفّظها) : «ذلك كمثل اليوم الذي أصيبت فيها جدّتك بالغَشْيان» ، وكنت أودّ إعلامك بالأمر فانّه بسبب الزبائن، ترى، كان يمكن أن يسيء ذلك للدار. كان خيراً لها أن ترحل في المساء نفسه. ولكنّها توسّلت إليّ أن لا أقول شيئاً ووعدتني أن لن تصاب «بالغشيّان» من بعد أو أنّها سترحل لأوّل مايصيبها. غير أنّ المشرف على الدور نقل إليّ أنّها أصيبت بآخر. ولكنكم كنتم من قدامى الزبائن الذين

كنّا نسعى لإرضائهم، ولمّا لم يشتك أحد» ... هكذا إذن كانت جدّتي تعاني من إصابات بالغشيان وقد أخفتها عنّي، ربّما في الفترة التي كنت أبدي لها أقلّ اللطف وتضطرّ فيها، في غمرة الألم، أن تنتبه لأن تكون طيّبة المزاج كي لاتغيظني ولأن تبدو في أحسن عافية كي لا تطرد من الفندق. و«الغشيان» كلمة ماكنت لأتخيّلها في يوم بلفظها هذا ولعلّها كانت بدت لي مضحكة إن انطبقت على آخرين غيرها، ولكنّها في جدّتها الصوتيّة الغريبة التي تشبه جدّة نشاز طريف لبثتْ فترة طويلة ماكان قادراً أن يوقظ فيّ الأحاسيس الأكثر أيلاماً.

في الغد ذهبت بناء على طلب أمّي للتمدّد قليلاً على الرمال، أو بالأحرى في الكثبان حيث يحتجب المرء داخل ثنياتها وحيث أعلم أن «ألبيرتين» وصاحباتها لن يسكنهنّ العثور عليّ. كانت جفوني المرخيّة لاتسمح إلاّ بمرور نور وحيد ورديّ تماماً كان ذاك المنبعث من الجدران الداخليّة لعينيّ. ثمّ انغلقت تماماً. حينئذ ظهرت لي جدّتي جالسة على مقعد. كانت تبدو، بضعفها الشديد، وكأنما تحيا أقلّ من شخص آخر. ومع ذلك كنت أسمعها تتنفّس. وأحياناً كانت إشارة منها تبرهن أنها فهمت ماكنّا نقوله أنا ووالدي. وعبثاً كنت أوالي تقبيلها فما أفلح في بعث نظرة حنان في عينيها وبعض لون على خدّيها. كانت تبدو، وقد غابت عن ذاتها، كأنّها لا تحبّني ولا تعرفني وربّما لا تراني. وما كنت أستطيع كشف سرّ لامبالاتها وانحطاط قواها واستيائها الصامت. وانتحيت بأبي جانباً وقلت له: «ها أنت ترى مع ذلك أنّه لا غبار على أنّها أدركت كلّ شيء تمام الادراك. إنّه وهم الحياة التامّ. فلو استطعنا استقدام ابن عمّك الذي يزعم أنّ الأموات لا يحيون! فإنّه انقضى نيّف وعام على وفاتها ولا تزال بالإجمال حيّة. ولكن لمَ لا تريد تقبيلي» —«أنظر، هذا رأسها المسكين يهوي» . —«ولكنّها تودّ الذهاب عمّا قريب إلى «الشانزيليزيه» . —«ذلك ضرب من الجنون» —«حقّاً، أتظنّ ذلك يجرّ عليها الأذى وأنّها ربّما ازدادت موتاً؟ لا يمكن أن لاتحبّني من بعد. وعبثاً سأقبّلها، أفلن تبتسم لي قطّ» ؟ «وماعساك تريد، الأموات هم الأموات» .

وبعد بضعة أيّام أخذت أستعذب النظر إلى الصورة التي سبق أن صوّرها «سان لو» ، فلم تعد توقظ فيّ الذكرى التي قالت عنها «فرانسواز» لأنّها لم تفارقني من بعد وقد تعوّدتها. ولكنّ الصورة، في مقابل الفكرة التي كنت أحملها عن وضعها الخطير جدّاً والأليم جدّاً في ذلك اليوم، إذ أفادت من الحيل التي تفتّق عنها ذهن جدّتي والتي كانت تفلح في خداعي حتىّ منذ أن كُشفَتْ لي، كانت تبرزها لي شديدة الأناقة، شديدة اللامبالاة تحت القبّعة التي كانت تحجب وجهها بعض الشيء إلى حدّ أن كنت أراها أقلّ تعاسة وأوفر عافية ممّا تصوّرتها. ولكن، لمّا كانت وجنتا جدّتي قد اتخذتا دون علم منها ملامح خاصّة بهما، شيئاً ما كامداً رمادياً مضيعاً كنظرة حيوان يحسّ أنّه اختير وعيّن، فقد كان لها هيئة من حكمت بالإعدام، هيئة متهجّمة دونما قصد فاجعة دون وعي منها وكانت خافية عليّ ولكنّها حالت دوماً دون أن تستطيع والدتي النظر إلى تلك الصورة، تلك الصورة التي كانت أقلّ ما تبدو صورة لوالدتها.منها لمرضها والإهانة التي طبعها ذلك المرض على وجه جدّتي بصفعاته القاسية.

ثمّ صممّت ذات يوم أن أبعث من يقول لـ«ألبيرتين» إنّي سأستقبلها قريباً، ذلك أنّه ذات صباح ساده

حرّ شديد مبكّر كانت آلاف صيحات الأطفال الذين كانوا يلعبون والسباحين في مزحاتهم وبائعي الصحف قد وصفت لي بخطوط من نار وشراوات متشابكة الشاطئ الملتهب الذي تقبل الموجات الواحدة تلو الأخرى لتبلّله برطوبتها. حينئذ بدأ الحفل السمفوني تختلط به طبطبة الماء وكانت الكمنجات تئزّ فيه أزيز سرب نحل ضلّ طريقه فوق البحر. وفي الحال حضرتني الرغبة في سماع ضحكة «ألبيرتين» مجدّداً وأن أعود فألقى صديقاتها، هاتيك الفتيات اللواتي يبرزن على صفحة الموج ولبثن في ذاكرتي السحر الذي لاينفصل عن «بالبيك» ونباتها المميّز، وكنت عقدت العزم على إرسال كلمة لـ«ألبيرتين» بوساطة «فرانسواز» أدعوها في الأسبوع المقبل، فيما يتعالى البحر بهدوء ويغطّي تماماً في كلّ تكسّر موجة بدفقات من الكريستال اللحن الذي تبدو جمله ينفصل بعضها عن بعض كأولئك الملائكة من حملة المزاهر الذين يرتفعون في أعلى الكاتدرائيّة الإيطالية بين قمم من السمّاقي الأزرق واليشب المزبد. ولكن الطقس في اليوم الذي جاءت فيه «ألبيرتين» ساء مجدّداً وأصبح بارداً ولم تتح لي الفرصة على أيّة حال لسماع ضحكتها فقد كانت معكّرة المزاج إلى حدّ بعيد. وقالت لي «بالبيك» مزهقة في هذا العام وسأحاول أن لا أمكث طويلاً. تعلم أنّي هنا منذ الفصح وقد مضى على ذلك أكثر من شهر. ليس هنا من أحد، فإن اعتقدت أن الأمر ممتع». وعلى الرغم من الهطل الأخير والسماء المتقلّبة في كلّ دقيقة فقد مضيت، بعدما صحبت «ألبيرتين» حتىّ «ايبرفيل» لأنّ «ألبيرتين» كانت تقوم برحلات «مكوكيّة»، حسب تعبيرها، بين هذا الشاطئ الصغير الذي تقوم عليه دارة السيّدة «بونتان» و«انكرفيل» حيث تستضاف من جانب والدي «روزموند»، مضيت وحيداً في نزهة باتجاه ذلك الطريق الطويل الذي كانت تسلكه عربة السيّدة «دوفلباريزيس» حينما كنّا نذهب في نزهة برفقة جدّتي. كان ثمّة برك ماء صغيرة لم تجفّفها الشمس الساطعة فتجعل من الأرض مستنقعاً حقيقيّاً وأخذت أفكّر بجدّتي التي ماكانت تستطيع فيما مضى أن تخطو خطوتين دون أن تتلطّخ بالطين. ولكنّي ما أن وصلت إلى الطريق حتىّ بهرت. فحيث لم أكن شاهدت برفقة جدّتي في شهر آب سوى الأوراق ومايشبه موضع أشجار التفّاح، كانت على مدى النظر في تمام إزهارها وفي بذخ لايصدّق، تذهب سوقها في الوحل وهي في أثواب الرقص دون أن تحتاط كي لا تفسد أروع ساتين زهري وقعت عليه عين في يوم وكان يلتمع في ضوء الشمس. كان الأفق البعيد يوفّر لأشجار التفّاح كأنّما خلفيّة لوحة يابانيّة مطبوعة. فإن رفعت رأسي لأنظر إلى السماء عبر الأزهار التي كانت تظهر زرقتها المطمئنّة عنيفة أو تكاد، كانت تبدو كأنّما تتباعد لتبرز عمق هذا الفردوس. كان ثمّة نسيم خفيف ولكنّه بارد يبعث، تحت تلك الزرقة، رعشة خفيفة في الباقات المحمرّة. وتقبل قراقب زرقاء لتحطّ على الأغصان وتتقافز بين الأزهار متسامحة كما لو أن الأمر أمر هاوي غرابات وألوان اصطنع هذا الجمال النابض بالحياة، على أنه كان يؤثر فيك حتىّ ليستدرّ دموعك لأنك تحسّ، مهما مضى بعيداً في تأثيرات يشيعها فنّه المرهف، أنّه جمال طبيعيّ وأن أشجار التفّاح تلك قائمة هناك في قلب الريف كمثل فلاّحين على طريق واسعة من طرق فرنسه. ثم خلفت أشعّة الشمس فجاءة حبال المطر. فجرحت كامل الأفق ودفنت صفوف شجر التفّاح في شباكها الرماديّة. ولكن هذه الأخيرة ظلّت تنتصب، بجمالها المزهر الورديّ، في الريح التي أصبحت قارسة البرودة تحت وابل المطر المنهمر: كان ذلك واحداً من أيّام الربيع.

الفصل الثاني

[خبايا «ألبيرتين» – الفتيات اللواتي تشاهدهنّ في المرآة – السيّدة المجهولة– عامل المصعد – السيّدة «دو كامبرمير» – متع السيّد «نسيم بيرنار»– خطيطة أولى في طباع «موريل» الغريبة – السيّد «دوشار لوس» على العشاء في منزل آل «ڤيردوران».]

كنت أحاول، في خشيتي أن تُضْعِفَ المتعة التي أصبتها في هذه النزهة المتوحدّة تذكّر جدّتي، أن أبعثه من جديد بالتفكير بواحد من العذابات النفسيّة الكبيرة التي عانت منها؛ وكان ذلك العذاب يحاول، استجابة لدعوتي، أن يتكوّن في فؤادي فيطلق فيه أعمدته الهائلة؛ لكن فؤادي كان دونما شكّ مفرط الضيق بالنسبة إليه ولم يجتمع لي من القوّة ما أقوى به على حمل ألم عظيم إلى هذا الحدّ وكان انتباهي يشرد لحظة يتشكّل بكامله فتنهار أقواسه قبل التلاقي مثلما تتهاوى الأمواج قبل اكتمال عقدها.

على أنه كان يسعني بمحض أحلامي حين أغطّ في نومي أن أعلم أنّ اغتمامي بموت جدّتي آخذ في التناقص، فقد كانت تظهر فيها وكأن الفكرة التي أتصورّها عن عدمها أقلّ ضغطاً عليها. كنت أراها دائمة المرض ولكنّما على درب التعافي، فأجدها خيراً من ذي قبل. فإن بادرت إلى التلميح إلى ماسبق أن عانته كنت أغلق فاهها بقبلاتي وأطمئنها أنّها شفيت الآن نهائياً. كان بودّي حمل المتشكّكين على ملاحظة أن الموت بالحقيقة مرض يعود المرء منه، ولكنّي ماعدت ألقى لدي جدّتي تلقائيّة الأمس الخصبة. فلم تكن أقوالها سوى جواب واهن طيّع ويقرب أن تكون محض صدى لأقوالي؛ ولم تعد سوى انعكاس لفكري الخاصّ.

لما كنت بعدُ عاجزاً عن الإحساس مجدّداً برغبة جسديّة، فان «ألبيرتين» أخذت من جديد مع ذلك توحي لي كأنّما برغبة في السعادة. إن بعض أحلام الحنان المتبادل التي تسبح دوماً في داخلنا تمتزج بيسر من جرّاء نوع من التجانس بالذكرى التي تخلّفها فينا امرأة أصبنا لذّة معها (بشرط أن تكون الذكرى أصبحت على شيء من الإبهام). كان ذلك الشعور يذكرني بجوانب من وجه «ألبيرتين» أكثر نعومة وأقلّ مرحاً وتختلف إلى حدّ عن تلك التي لعلّ الرغبة الجسديّة كانت ذكّرتني بها. ولما كان بمثل قلّة إلحاح هذه الرغبة فلعلّي كنت أجّلت تحقيقه طائعاً إلى الشتاء القادم دون أن أجهد في لقاء «ألبيرتين» ثانية في «بالبيك» قبل رحيلها. ولكنّ الرغبة الجسديّة تطلع ثانية حتىّ في قلب غمّ لا يزال حيّاً. فقد كنت أتمنّى من سريري الذي يأمرونني بالمكوث فيه كلّ يوم فترة طويلة للراحة أن تأتي «ألبيرتين» لنعاود صنوف لهونا بالأمس. أفلسنا نرى زوجين، في الغرفة نفسها التي فقدا فيها ولداً وقد عادا سريعاً إلى العناق ليخلّفا شقيقاً للمتوفي الصغير؟ كنت أحاول أن أتلهىّ عن تلك الرغبة بالمضيّ حتىّ النافذة لأشاهد بحر ذلك اليوم. ونادراً ماكانت البحار، شأنها في العام الأوّل، ذاتها من يوم إلى آخر. ولكنّها على أيّة حال كادت لا تشبه بحور السنة الأولى إمّا لأن الربيع حلّ الآن بأعاصيره، وإمّا، حتىّ لو جئت في التاريخ نفسه الذي وفدت فيه في المرّة الأولى، لأنّ أزمنة مختلفة أكثر تقلّباً كان يمكن أن لا تشير بهذا الشاطئ على بعض البحور الكسولة الضبابية الهشّة التي سبق أن رأيتها على مدى أيّام قائظة تغفو على الشاطئ فيما يرفع صدرها الضارب إلى الزرقة على نحو يكاد لايلحظ خفقان هادئ، وإمّا

على وجه الخصوص لأنّ عينيّ اللتين درّبهما «ايلستير» على أن تحتفظا بالضبط بالعناصر التي كنت أستبعدها بالأمس بمحض إرادتي كانتا تتأمّلان طويلاً مالم تكونا تحسنان رؤيته في العام الأوّل ، ولم يعد ذلك التعارض الذي كان يدهشني إلى حدّ بعيد بادئ الأمر بين النزهات الحقليّة التي أقوم بها بصحبةالسيّدة «دو ڤيلباريزيس» وهذا الجوار السائل العزيز المنال الأسطوري للمحيط الأزلي ، لم يعد قائماً في نظري. وفي بعض الأيّام كان البحر الآن يبدو لي على العكس ريفيًا بدوره . وفي أيّام كان الطقس فيها جميلاً حقًّا، وهي نادرة إلى حد ما . كان الحرّ قد خطّ على المياه ، وكأنّما عبر الحقول ، طريقاً مغبرّة ، بيضاء تطلّ من خلفها مقدمة مركب صيد رشيقة كقبة جرس قرويّة. وكانت هناك قاطرة لاترى سوى مدخنتها تنفث دخانها في البعيد شأن مصنع منعزل، فيما يذكّرك مربّع أبيض محدّب وحيد في الأفق وقد رسمته دون شك كفّ شراع ولكنّما يبدو كثيفاً ويقرب أن يكون كلسيًا ، يذكّرك بالزاوية المشمسة لبناء منعزل ، أمشفى كان أم مدرسة . وكانت السّحب والريح ، في الأيّام التي ينضاف شيء منها إلى الشمس ، تتمّ إن لم يكن الخطأ في التقدير، فعلى الأقلّ وهم النظرة الأولى والإيحاء الذي توقظه في الخيال، ذلك لأن تعاقب مساحات لونيّة واضحة الاختلاف كتلك الناجمة في الأرياف عن تلاصق زراعات مختلفة ، والفروق الحادّة الصفراء التي تقرب أن تكون موحلة على صفحة البحر والتلال الردميّة والتلاع التي كانت تحجب عن العين قاربًا يبدو فيه فريق من البحّارة الرشاق وكأنّه في حصاد، كلّ ذلك كان يجعل من المحيط في الأيّام العاصفة شيئاً في مثل تنوّع وتماسك وتموّج ووفرة سكان وتحضّر الأرض السالكة التي كنت أمضي عليها بالأمس ولن أتأخّر في القيام بنزهات فوقها، وذات مرّة لم يسعني الوقوف في وجه رغبتي فارتديت ثيابي بدلاً من أن أعود إلى النوم وذهبت في طلب «ألبيرتين» في «أنكرڤيل» سوف أسألها مرافقتي حتّى «دوڤيل» حيث أقوم في «فيتيرن »بزيارة للسيّدة «دوكامبرمير» وفي قصر «لاراسپليير» بزيارةللسيّدة «ڤيردوران»، وستنتظرني «ألبيرتين» في أثناء ذلك على الشاطئ ،ونعود بعد ذلك سويّة في الليل، وذهبت لأستقلّ الخط الحديديّ الصغير ذا الفائدة المحلية الذي أطلعتني «ألبيرتين» وصاحباتها فيما مضى على سائر ألقابه في المنطقة ، فكان يدعى فيها تارة «الملفاف » بسبب انعطافاته التي لاتحصى ، و«الحنتور» لأنّه لا يتقدم، و«عابر المحيطات» بسبب صفّارة مريعة كانت له كي يحيد المارّة عن دربه، و«ديكوڤيل»[(١)] و«القطار السلكيّ» مع أنّه لم يكن سلكيًا في شيء بل لأنّه يتسلّق الجرف، ولا كان «ديكوڤيل» بالمعنى الصحيح للكلمة بل لأن سكّته كانت بعرض ٦٠ ، والـ «ب ا غ» لأنه يمضي من «بالبيك» إلى «غراتڤاست» مرورا بـ «أنجرڤيل» و«الترام» والـ«ح ج ن» لأنّه جزء من خطّ «حافلات جنوب النورماندي » .

وجلست في عربة كنت فيها وحيداً، كان الطقس مشرقاً رائعاً، وكان الحرّ خانقاً فانزلت الستارة الزرقاء التي لم تفسح في مجال المرور إلاّ لخطّ من الشمس . ولكنّي رأيت في الحال جدّتي مثلما كانت جالسة في القطار لدى رحيلنا من باريس إلى «بالبيك» حينما فضّلت، في العذاب الذي تعانيه لدى رؤيتي أحتسي «البيرة» ، أن لا تنظر إليّ وأن تغمض عينيها وتتظاهر بالنوم. وأنا الذي ماكان يطيق فيما مضى احتمال العذاب الذي ينتابها حينما يحتسي جدّي الكونياك فقد أذقتها لاعذاب أن تراني فحسب أحتسي بدعوة من آخر غيري

(١) اسم الصناعي الذي اقترح خطاً حديدياً ضيقاً لأغراض النقل الصناعي.

شراباً تظنّه مشؤومًا عليّ، بل أرغمتُـهـا أن تطلق حريّتي في الاحتساء منه ماطاب لي . بل الأنكى أنني اضطررتها بصنوف غضبي ونوبات الاختناق التي تصيبني أن تساعدني في ذلك وتنصحني به بنوع من التسليم الأخير الذي كنت أحتفظ منه أمام الذاكرة بصورة خرساء يائسة مغمضة العينين كي لاتبصر. وقد أعادت لي مثل تلك الذكرى، وكأنّما ضربة عصا سحرية، أعادت لي من جديد الروح التي كنت آخذاً في فقدها منذ فترة. فما عساي كنت أفعل بـ «روزموند» وشفتاي بكل أجزائهما لا تجول فيهما سوى الرغبة في تقبيل ميتة؟ وماعسى كنت أستطيع أن أقول لآل «ڤيردوران» وآل «كامبرمير» حينما يخفق فؤادي خفقاً شديداً إذ يعود فيتشكّل فيه في كل لحظة العذاب الذي عانت منه جدّتي؟ ولم أستطع المكوث في تلك العربة. وما أن توقّف القطار في «مينڤيل لاتانتورير» حتّى نزلت وقد تخلّيت عن مشروعاتي، وكانت «مينڤيل» قد اكتسبت منذ حين أهمية عظيمة وسمعة خاصة لأن مديراً لكازينوهات كثيرة، وهو من بائعي الرفاه، كان قد ابتنى في مكان غير بعيد من هناك، وببذخ قادر أن ينافس في سوء ذوقه ما نراه ماثلاً في فندق كبير، منشأة سوف نعود إليها وكانت بصريح العبارة أول بيت بغاء للطبقات الراقية خطرت فكرة بنائه على شواطئ فرنسه. وكان الوحيد. صحيح أن لكلّ مرفأ بيته ولكنّه لا يصلح إلاّ للبحّارة ولهواة الطرافة الذين يلهون بأن يشاهدوا قريباً جدّاً من الكنيسة المغرقة في القدم، «ربّة الدار» وهي قديمة جليلة مطحلبة مثلها، تقف أمام بابها السيء السمعة بانتظار عودة مراكب الصيد .

وابتعدت عن بيت «المتعة» البديعة الذي يشمخ هنا بوقاحة على الرغم من احتجاجات الأسر التي وُجِّهَتْ دون جدوى للعمدة، وعدت إلى الجرف أسلك طرقه المتعرجة إلى «بالبيك»، وسمعت دون استجابة منّي نداء أزهار الزعرور. كانت تجاور، على ثراء أقلّ، أزهار التفّاح فتراها على ثقل كبير فيما تقرّ باللون النديّ الذي لبنات صانعي عصير التفّاح الكبار ذوات البتلات المورّدة. وكانت تعلم أنها، وان تكن أقل مهوراً، مرغوبة أكثر ويكفيها لتروق الناس شيء من بياض جعد .

حينما عدت سلّمني بواب الفندق ورقة نعوة ينعي فيه المركيز والمركيزة «دوغونڤيل» والفيكونت والفيكونتيّه «دامفرڤيل» والكونت والكونتيّسة «دو بيرنڤيل» والمركيز والمركيزة «دو غرانكور» والكونت «دامنونكور» والكونتيّسه «دومينڤيل» والكونت والكونتيسه «دوفرانكتو» والكونتيّسه «دوشا ڤيربي» المولودة «ديغلڤيل» ، أدركت منها أخيراً سبب إرسالها إليّ حينما تعرّفت أسماء المركيزة «دوكامبرمير» المولودة «دومينيل لا غيشار» والمركيز والمركيزة «دوكامبرمير» وتبيّنت أن المتوفّاة، وهي من بنات عمومة آل «كامبرمير» وتدعي «ايليينور – أوفرازي – هومبرتين دوكامبرمير» ، كونتيّسه «كريكتو». لم يكن ثمّة على كامل امتداد هذه الأسرة الريفية التي يغطّي تعدادها سطوراً ناعمة متراصّة، بوارجوازي واحد، كما لم يكن ثمّة أيّ لقب معروف على أيّ حال، بل كامل مجموع النبلاء وردفائهم في المنطقة الذين تصدح أسماؤهم – وأسماء سائر الأماكن الهامّة في المنطقة – ذات النهايات المرحة: «ڤيل»، و «كور» وأحيانا «تو» الأقلّ رنينا. كانت تلك الأسماء تبدو، وقد ألبست قرميد قصرها أو ملاط كنيستها، والرأس متداع يكاد لا يجاوز عقد القبّة أو جسم المسكن، وإن فعل فلمحض أن يعتمر المنور النورماندي أومفرغات السطح المخروطيّ، كانت تبدو وكأنّها تبوّق لحشد سائر القرى الجميلة المصفوفة أو المبعثرة في دائرة قطرها خمسون فرسخاً وأنّها رتّبتها ضمن تشكيلة متراصّة دونّما فراغ

فيها ودون أيّ دخيل في اللوحة الكثيفة المستطيلة للرسالة الأرستقراطيّة المؤطّرة بالسواد.

كانت أمّي قد صعدت مجدّدا إلى غرفتها وهي تمعن الفكر في جملة السيّدة «دو سيڤينيه» هذه: « لست أرى أحدا من أولئك الذين يودّون تسليتي، الأمرالذي يعني بكلمات مستورة أنّهم يبغون صرفي عن التفكير بك، وذلك ليسيىء إليّ»، لأن الرئيس الأوّل كان قال لها إنّه يجدر بها أن تتسلّي. أمّا أنا فقد همس في أذني قائلا: «إنّها الأميرة دو پارما». وزالت خشيتي إذ تبيّنت أنّ المرأة التي كان يدلّني عليها القاضي لا صلة لها البتّة بسموّها الملكي، ولكنّها إذ سبق أن حجزت غرفة لقضاء الليلة لدى عودتها من منزل السيّدة «دو لوكسمبور»، فقد كان من تأثير الخبر على الكثيرين أن جعلهم يعدّون كلّ سيّدة جديدة وفدت الأميرة «دوپارما» — وعليّ أن جعلني أصعد للاحتباس داخل علّيّتي. وماكنت أبغي البقاء فيها وحيداً كانت الساعة تناهز الرابعة، فسألت «فرانسواز» أن تذهب في طلب «ألبيرتين» لتأتي لقضاء أواخر العصر معي .

أظنني أكذب لو قلت أن بدأ منذ ذاك الارتياب المؤلم والدائم الذي سوف توحي لي به «ألبيرتين»، ومن باب أولى ماكان سيرتديه ذلك الارتياب من طابع خاصّ وسحاقيّ على وجه الخصوص. أجل أصبح انتظاري منذ ذلك اليوم — على أنّه لم يكن الأوّل — يشوبه شيء من القلق. لقد مكثت «فرانسواز» بعدما ذهبت، فترة طويلة إلى حدّ أن أخذت أفقد الأمل. لم أكن أضأت مصباحاً، وضوء النهار كاد يولّي. كانت الريح تحرّك راية الكازينو فتصطفق. وكان ثمّة أرغن يدوي صغير توقّف أمام الفندق يعزف رقصات ڤالس من ڤيينا وبدا أشدّ وهناً في سكون رمال الشاطئ التي يزحف فوقها البحر، وكأنّه صوت ترجم وضاعف الإبهام المزعج لتلك الساعة القلقة الزائفة. وأخيراً وصلت «فرانسواز» إنّما وحدها. «لقد رحت بما أمكنني من السرعة، ولكنّها ما كانت تود المجيء من جرّاء أنّها لا تجد تسريحتها مرضية تماما. ولئن لم تمكث ساعة دوّارة تضع المساحيق والكريمات فهي لم تمكث خمس دقائق على أيّ حال ، وسوف يصير هنا مركز عطارة حقيقي، إنّها آتية؛ لقد بقيت في الخلف لتصلح حالها أمام المرآة، ظننت أنّي سأجدها هنا». وطال بنا الوقت أيضاً قبل أن تصل «ألبيرتين» ولكنّ ما أبدت هذه المرّة من مرح ولطف بدد غمّي. وأخبرتني (بعكس ما كانت قالت ذلك اليوم) أنّها باقية طوال الفصل وسألتني إن لم يكن بإمكاننا الالتقاء كلّ يوم شأننا في السنة الأولى. فقلت لها إنّي في حزن شديد في هذه الفترة وإنّي بالأحرى سوف أرسل في طلبها بين الحين والحين في آخر لحظة كما كانت الحال في باريس .فقالت لي: «إن أحسست بالغمّ في يوم أو رغبت في ذلك فلا تتردّد وأرسل في طلبي أقبل إليك بسرعة وإن لم تخش أن يثير الأمر فضيحة في الفندق بقيت قدر ماتشاء». كانت «فرانسواز» قد بدت سعيدة، وهي تعود بها ، شأنها في كل مرّة تحمّلت مشقّة في سبيلي وأفلحت في إيلائي بهجة وسرورا. لكنّ «ألبيرتين» ذاتها لم تكن في شيء من تلك المسرّة وكانت «فرانسواز» ستقول لي منذ الغد هذه الكلمات العميقة المغزى: «يجدر بسيّدي أن لا يلتقي هذه الآنسة، فإني أرى تماماً نوعيّة الطباع التي هي عليها وسوف تسبب لك صنوفًا من الغم ». وقد رأيت عبر قاعة الطعام المضاءة، وأنا أرافق «ألبيرتين» مودّعا، الأميرة «دوپارما». ونظرت إليها فحسب فيمّا تدبّرت أمري كي لا تراني ولكنّي أقرّ أنّي وجدت شيئاً من العظمة في التأدب الملكي الذي سبق أن بعث ابتسامة على شفتيّ في منزل آل «غيرمانت». فإنّه لمبدأ أن يكون الملوك في بيتهم أينما حلّوا وإن المراسم تجسّد ذلك في عادات ميتة لا قيمة لها كالعادة التي تقضي بأن يمسك ربّ

البيت قبعته بيده في منزله ذاته كي يبرز أنّه لم يعد في بيته بل لدى الأمير. على أن الأميرة «دوبارما» ماكانت ربّما تعرب لذاتها عن هذه الفكرة، ولكنّها كانت تشرّبتها إلى حدّ أن سائر أفعالها التي تختلقها تلقائياً في المناسبات كانت تجسّدها. وحينما غادرت المائدة أعطت «إيميه » إكرامية كبيرة كما لو كان هناك من أجلها فقط وكانت تكافئ وهي تغادر أحد القصور رئيس خدم أفرد لخدمتها. ولم تكتف بالإكرامية على أيّ حال بل وجهت إليه بابتسامة عذبة بعض كلمات تجمع اللطف إلى الإطراء وكانت والدتها زوّدتها بها. ولو زادت قليلا لقالت له إنّه بقدر ماكان الفندق حسن الإدارة بقدر ما كانت مقاطعة النورماندي مزدهرة وإنّها تفضّل فرنسه على جميع بلاد الدنيا. وانسلّت قطعة نقود أخرى من يدي الأميرة إلى الساقي الذي أرسلت في طلبه وحرصت أن تعرب له عن رضاها مثل جنرال أقدم على استعراض. وكان عامل المصعد قد جاء يحمل لها جواباً فكانت له كلمته وابتسامة وإكرامية والكلّ يمتزج بكلمات تشجيع متواضعة من شأنها إقامةالبرهان على أنّها لم تكن أفضل من واحد منهم. ولمّا ظن «إيميه والساقي وعامل المصعد والآخرون من غير التهذيب أن لا يبتسموا حتّى آذانهم لمن كان يبتسم لهم، فإنّها سرعان ما أحاط بها فريق من الخدم تحدّثت إليهم بعطف. ولمّا كانت هذه التصرفات غير شائعة في الفنادق الكبيرة فقد ظن من كانوا يمرّون على الشاطئ، وهم يجهلون اسمها أنهم يشاهدون واحدة ممّن يرتادون «بالبيك»، وأنّها بسبب ضآلة مولدها أو لمصلحة مهنيّة (فربّما كانت زوجة مروّج لمبيعات الشامبانيا) كانت أقلّ اختلافاً عن الخدم من الزبائن الراقين حقاً. أمّا أنا ففكّرت في قصر «بارما» والنصائح التي نصفها ديني والنصف سياسيّ والتي أسديت لهذه الأميرة التي كانت تتصرّف مع الشعب وكأنّما كان لزاماً عليها أن تستميله لارتقاء العرش ذات يوم، بل أكثر من ذلك كأنّما كانت جالسة على العرش.

وصعدت إلى غرفتي ولكنّي لم أكن وحيداً فيها. كنت أسمع أحدهم يعزف بعذوبة مقطوعات لـ «شومان». صحيح أنّه يتفق للناس، وحتّى لأفضل من نحبّ منهم، أن يبلغوا مرحلة الإشباع جرّاء الحزن أو الإزعاج الصادر عنّا. ولكنّما ثمّة شيء يملك قدرة على نفاد صبرك لن يبلغ إليها امرؤ في يوم : إنّه البيانو.

كانت «ألبيرتين» قد أملت عليّ التواريخ التي ستغيب فيها وتذهب لدى صديقات لقضاء بضعة أيام وطلبت إليّ تسجيل عناوينهنّ إمّا كنت بحاجة إليها في واحدة من تلك الأمسيات إذ لم تكن أيّة منهنّ تسكن بعيدا جدّا. وقد نجم عن ذلك أنّه، في سبيل العثور عليها بالانتقال من فتاة إلى أخرى، انعقد من حولها على نحو طبيعيّ تماما روابط من زهور. وإنّي لأجرؤ فأقرّ بأنّ كثيرات من صديقاتها – وما كنت بعد أحبّها – وفرّن لي على هذا الشاطئ أو ذاك لحظات إمتاع. وما كانت تبدو تلك الرفيقات الشابّات العطوفات كثيرا جدّاً، لكنّي عدت ففكّرت فيهنّ مؤخرا وعاودتني أسماؤهن، وقد عددت أن اثنتي عشرة وهبنني آيات حبهنّ العابرة في ذلك الفصل وحده. وحضرني اسم فيما بعد فكان المجموع ثلاث عشرة. وانتابني حينذاك ما يشبه الخوف الصبياني من أن أمكث على هذا العدد. ورحت أفكّر، واأسفي، أنني نسيت الأولى، «ألبيرتين» التي طواها الموت وكانت الرابعة عشرة.

كنت سجلت، كيما أعود إلى قصتي، أسماء وعناوين الفتيات اللواتي ربّما وجدتها عندهنّ في يوم لا تكون فيه في «انكرفيل»، ولكنّي فكّرت أنّي ربّما أفدت من تلك الأيّام بالأحرى للذهاب إلى منزل السيّدة

«ڤيردوران» على أنّ رغباتنا الموجّهة لنساء مختلفات ليست تملك على الدوام القوّة نفسها. فإننا لا نستطيع ذات مساء أن نكون في غنى عن واحدة تكاد لا تثيرنا بعد ذلك على مدى شهر أو اثنين. ثم إنّه بالإضافة إلى أسباب التناوب التي ليس مجال النظر فيها هنا وفي أعقاب الإرهاقات الجسدية الكبيرة فإن المرأة التي تلازم صورتها شيخوختنا المؤقّتة امرأة كدنا ربّما لا نقوم بأكثر من تقبيلها على جبينها. أمّا «ألبيرتين» فكنت أراها نادراً وفي أمسيات متباعدة جدًا فحسب كنت لا أستطيع فيها الاستغناء عنها بغيرها. فإن تنازعتني مثل تلك الرغبة وهي بعيدة عن «بالبيك» بعداً يحول دون أن تستطيع «فرانسواز» بلوغ مكانها كنت أرسل الخادم الخاصّ إلى «ايبرڤيل» و «لاسونيي» و «سان فريشو» بعدما أطلب منه إنهاء عمله أبكر قليلاً. وكان يدخل غرفتي ولكنّه يدع الباب مفتوحا فإنّه على الرغم من انجازه الوجداني لعمله، وكان شاقًا جداً ويقوم منذ الخامسة صباحاً على عمليّات تنظيف كثيرة، لم يكن يستطيع القيام بجهد إغلاق الباب، وإن أشرت إليه أنّه مفتوح كان يعود أدراجه ويدفعه دفعاً خفيفاً بالغاً بذلك أقصى حدّ في جهده. وبالكبرياء الديمقراطية التي كانت تطبعه والتي لا يبلغ إليها في الأعمال الحرّة أعضاء مهن كثيرة إلى حدّ ما من محامين وأطبّاء وأدباء لا يدعون إلاّ محامياً آخر أو طبيباً أو أديبا «أخًا» لهم، كان هو يستخدم بحقّ مصطلحًا مخصّصاً للهيئات المحدودة كالمجامع العلمية على سبيل المثال فيقول لي وهو يكلّمني عن موزّع يضحي خادماً خاصًا مرّة كلّ يومين: «سأنظر في أمر إحلال «زميلي » محلّي». وما كانت كبرياؤه تلك تمنعه، بغية تحسين ماكان يدعوه «مرتّبة »، عن قبول مكافآت لقاء مشاويره جعلت «فرانسواز» كارهة له. «أجل، ربّما أعطيته لأوّل مرة تراه جسد الربّ دونما اعتراف[(١)] ، ولكنّه في بعض الأيّام مهذّب كما هو باب السجن. كلّ هؤلاء من نوع الحراميّة». وهي فئة غالبا ما وضعت فيها «أولا لي»، وكانت من أسف، إزاء كلّ المصائب التي سيجرّها الأمر فيما بعد، تحشر فيها مذذاك «ألبيرتين» لأنّها كثيراً ما كانت تراني أطلب من أمّي لصديقتي الرقيقة الحال حاجات صغيرة وحلي رخيصة، وهو ما كانت «فرانسواز» لا تغتفره مطلقاً إذ لم يكن لدى السيّدة «بونتان» سوى خادمة لمشاغل البيت جميعها. وسرعان مابرز عامل المصعد، بعدما خلع بزّته وماكان يدعوه ثوبه، برز بقبّعة قشّ وعصا وهو يهتم بخطرته منتصب القامة إذ أوصته والدته بأن لا يتّخذ مظهر «العامل» أو «الموزّع». ومثلما يغدو العلم، بفضل الكتب، في متناول العامل الذي لا يعود عاملاً بعد ماينهي عمله، كذلك كانت الأناقة بفضل القبّعة وزوج الكفوف تغدو في متناول عامل المصعد الذي كان يظنّ، وقد كفّ في السهرة عن نقل الزبائن إلى فوق، شأن جرّاح شابّ خلع صدريته أو الرقيب «سان لو» إذ يخلع بزّته، أنّه أصبح بالتمام والكمال من رجال الطبقة الراقية، ولم يكن بأيّه حال عديم الطموح أو الموهبة كذلك كيما يتحكّم بمصعده ولا يوقفك بين دورين بيد أنّ لغته كانت ملأى بالعيوب. كنت أصدّق طموحه إذ كان يقول في حديثه عن البواب الذي كان هو تابعاً له: «بوّابي» بذات اللهجة التي لعلّ رجلاً يملك في باريس، ما ربما سمّاه الموزّع «فندقا خاصًا». كان تحدّث بها عن بوّابه. أمّا بخصوص لغة عامل المصعد، فالغريب أن يسمع أحدهم الزبون يقول خمسين مرّة في اليوم «مصعْد» ولا يقول هو البتّة إلاّ «مَصعَد»، وكانت بعض الأمور تزعجك إلى أبعد حدّ لدى عامل المصعد: فقد كان مهما قلت له يقاطعني بعبارة «ها أنت ترى!» أو «تأمّل!» التي تبدو وكأنّها تعني إمّا أنّ ملاحظتي من البداهة إلى حدّ أن كان وجدها كلّ الناس، أو أنّه يردّ الفضل إلى نفسه كما لو أنّه هو من يلفت انتباهي

(١) إشارة إلى أحد الأسرار المقدّسة لدى المسيحيّين وهو التقرّب إلى المائدة المقدّسة في حال الطهارة التامّة.

للأمر. كانت عبارة «ها أنت ترى!» أو «تأمّل!» التي تنطلق بأعظم زخم، تعود كلّ دقيقتين على لسانه في معرض أمور ما كان لينتبه لها في يوم، وهو أمر كان يثير حنقي إلى حدّ أني كنت أشرع في الحال في قول العكس لأظهر له أنّه ماكان يفقه في الأمر شيئًا. ولكنّه إزاء توكيدي الثاني، ومع أنّه لا يتّفق مطلقًا مع الأوّل، كان يجيب مع ذلك : «ها أنت ترى!» أو «تأمّل!» وكأنّما لايمكن تفادي هذه الكلمات، وكنت أغفر له بصعوبة استخدامه بعض مصطلحات مهنته، والتي ربّما كانت بسبب ذلك مناسبة تماماً بمعناها الحقيقي، بالمعنى المجازيّ فقط، الأمر الذي كان يضفي عليها مقصداً تظرّفيًا على شيء من الغباء، كالفعل «دوّس» مثلا، فإنّه لم يستخدمه قطّ بعد قيامه برحلة على الدرّاجة ولكنّه. إن أسرع في سيره على قدميه كي يصل في الساعة المحددة، كان يقول: «ها أنت ترى كم دوّسنا !» وعامل المصعد كان أقرب أن يكون قصيراً سيء البنية وعلي قبح كافٍ. ولا يحول ذلك في كلّ مرّة تحدّثه فيها عن فتى طويل القامة مديد ممشوق دون أن يقول: «آه ! أجل، أعرف، هو واحد بطولي تماماً». وفي يوم كنت أنتظر جواباً منه، وإذ سمعت من يصعد الدرج قمت، وقد عيل صبري لسماع وقع خطاه، ففتحت باب غرفتي وأبصرت موزّعاً جميلاً جمال «أنديميون»[1] كامل القسمات إلى حدّ لا يصدّق وقد جاء من أجل سيّدة ماكنت أعرفها. وبعدما عاد عامل المصعد رويت له، وأنا أخبره بأيّ نفاد صبر كنت أنتظر جوابه، أنني ظننته هو يصعد ولكنّما كان موزعاً من فندق «النورماندي» فقال لي : «آه ! أجل ، أعرف من هو ، ليس ثمة آخر سواه، إنّه صبيّ بقامتي. وهو بالوجه كذلك يشبهني إلى حدّ يمكن أن نؤخذ به الواحد مكان الآخر؛ لكأنه شقيقي بالتمام والكمال». وأخيراً كان يريد أن يبدو عليه أنّه فهم كلّ شيء منذ اللحظة الأولى، فكان لذلك يقول ما إن يوصونه على أمر :«نعم، نعم ، نعم ، نعم ، نعم أنا فاهم تماماً» بوضوح ولهجة ذكيّة أوهماني زمناً ما؛ ولكنّ الأفراد كلما ازددنا معرفة بهم أشبه بمعدن غمس في مزيج مفسد، فتراهم يفقدون شيئا فشيئاً صفاتهم (كما يفقدون أحياناً عيوبهم). وقبل أن أسمعه توصياتي رأيت أنّه ترك الباب مفتوحاً، فحملته على ملاحظة الأمر إذ خشيت أن يسمعونا. ونزل عند رغبتي وعاد وقد قلّل الفتحة. «ذلك كرمي لك، فليس أحد بعد في الدّور سوانا». وسمعت في الحال أحدهم يمرّ، ثم اثنين فثلاثة، كان الأمر يزعجني بسبب إفشاء ممكن للأمور، بل على وجه الخصوص لأني أرى أن ذلك لايدهشه البتّة وأن الجيئة والرواح أمر طبيعيّ. «أجل إنّها الوصيفة التي بجانبنا تمضي لجلب حاجاتها، آه ! لا أهميّة لذلك ، إنّه الساقي يصعد بمفاتيحه. لا ، لا ، لا شيء هناك يوسعك أن تتحدّث، إنّه زميلي يبدأ نوبته». لما كانت دواعي الناس للمرور لا تقلّل من انزعاجي أن يمكنهم سماعي فقد مضى نزولاً عند طلبي الصريح لا ليغلق الباب، فالأمر يجاوز قوى هذا الدرّاج الذي كان راغباً في «درّاجة ناريّة»، بل ليدفعه أكثر قليلاً. «وهكذا ترانا مطمئنّين تماماً».

وكنّا كذلك إلى حدّ أن أميريكيّة دخلت وانسحبت تعتذر عن أنّها أخطأت غرفتها، فقلت له بعد أن صفقت بنفسي الباب بكلّ ما أملك من قوّة (فدعا ذلك موزّعا آخرليتأكد أن لم يكن ثمّة نافذة مفتوحة). «تذكّر تماماً: إنّها الآنسة «ألبيرتين سيمونيه» ذلك على المغلّف بأيّة حال. ما عليك إلاّ أن تقول لها إن الأمر من جانبي وستأتي بكلّ طيبة خاطر» أضيف قولي لأشجعه على أن لا يبالغ في إذلالي. — «ترى ذلك!» —

(١) راع شاب على جمال عظيم في الأساطير اليونانية وقعت «سليني» (القمر) في حبّه فسألت كبير الآلهة «زيوس» راحة البال والخلود له فقبل على أن يأخذه النوم إلى الأبد.

«لا، على العكس، فليس طبيعياً أن تأتي عن طيب خاطر، لأنّ المجيء من «بيرنڤيل» إلى هنا ينطوي على إزعاج كبير». - «فهمت ! » - «قل لها أن تأتي مع». - «نعم، نعم، نعم ، نعم ، أفهم تماما»، يجيب قوله بتلك اللهجة الواضحة الدقيقة التي كفّت منذ فترة طويلة عن إيلائي «انطباعاً طيّباً» لأنني كنت أعلم أنّها تقرب أن تكون آلية وأنّها تخفي خلف وضوحها الظاهر الكثير من الإبهام والغباء.

«وفي أيّة ساعة تكون عدت ؟» فيجيب عامل المصعد وهو يذهب بالقاعدة التي سنّها «بيليز»[1] لتجنّب تكرار أداتي نفي إلى حدّها الأقصى فيكتفي على الدوام بأداة واحدة، ويقول: «لن يطول غيابي. ويمكنني تماما أن أذهب. والحقيقة أنّ الطلعات أُلغيت بعد الظهر هذا إذ كان ثمّة صالة بعشرين مقعداً أعدّت للغداء، وكان دوري في الطلعة بعد الظهر. فإن خرجت قليلا في هذا المساء فالوقت يكاد لا يكفي. آخذ درّاجتي معي وهكذا أكون أكثر عجلة». وكان يعود بعد ساعة قائلاً: «لقد انتظر سيّدي طويلاً، ولكن الآنسة تأتي معي. إنّها تحت». -«آه ! شكراً، والبوّاب ألن يغضب مني»؟ - «السيّد بول»؟ إنّه حتّى لا يعلم أين ذهبت.حتّى مشرف الباب لا علاقة له». ولكن حينما قلت له ذات مرّة: «لابدّ أن تعود بها»، قال لي وهو يبتسم: «تعلم أنّي لم ألقَها، فليست هناك ولم أستطع البقاء أكثر، فقد خفت أن أصبح مثل زميلي الذي «سفّروه» من الفندق»، (ذلك لأن عامل المصعد الذي كان يقول «عاد» بشأن وظيفة يدخلها المرء للمرّة الأولى: «بودّي أن «أعود» إلى البريد»، كان بداعي التعويض أو لتخفيف الأمر إن تعلّق به، أو للتلميح به بلهجة متكلّفة اللطف أوغادرة إن تعلّق بآخر غيره، يقول «سفّروه» : «أعرف أنّهم سفّروه»). وما كان يبتسم عن خبث بل من جرّاء استحيائه. كذلك إن كان قال لي :«تعلم أنّي لم ألقها»، فما ذلك لأنه يعتقد أنّي عالم بالأمر. فهو على العكس ما كان يشكّ بأني أجهله وكان على وجه الخصوص في هلع منه ولذلك تراه يقول: «تعلم» ليجنّب نفسه الأهوال التي سيقطعها وهو ينطق بالجمل المعدّة لإطلاعي عليه. فيجدر بنا أن لا تثور ثائرتنا على أولئك الذين إذ نأخذهم بذنبهم إلينا يشرعون بالقهقهة، فإنما يفعلون مايفعلون لا لأنهم يسخرون ولكنّما يرجفون من إمكان أن نستاء فلنظهر إشفاقاً كبيراً ولنبرز لطفاً كبيراً إزاء من يضحكون. لقد حمل اضطراب عامل المصعد لنفسه، على نحو أزمة قلبية تماماً، لا احمرار السكتة فحسب بل تشوّهاً في اللغة التي أضحت فجأة دارجة. وقد أوضح لي في نهاية المطاف أن «ألبيرتين» لم تكن في «ايبرڤيل» وأنّها لن تعود إلا في التاسعة، فإن اتّفق لها أحيانا، ويقصد إن صادف أن تعود أبكر من ذلك فسوف يبلّغونها الرسالة وتكون في جميع الأحوال عندك قبل الواحدة صباحاً.

على أنّ شكوكي المؤلمة لم تبدأ بعد بالتماسك في ذلك المساء. لا، وكيما أقول ذلك في الحال، ومع أن المسألة لم تحدث إلاّ بعد عدّة أسابيع، فقد نجم الأمر عن ملاحظة أدلى بها «كوتار». لقد أرادت «ألبيرتين» وصاحباتها أن يدفعنني إلى كازينو «انكر ڤيل» في ذلك اليوم، وما كنت للنصيب لحقت بهنّ إلى هناك (حيث أبغي الذهاب لزيارة السيّدة «ڤيردوران» التي سبق أن دعتني عدّة مرّات) لو لم يوقفني في «آنكرڤيل»نفسها عطل في الحافلة يقتضي إصلاحه بعض الوقت. وإذ كنت أذرع المكان طولاً وعرضاً بانتظار إنجازه رأيتني فجأة وجها لوجه مع الدكتور «كوتار» الذي جاء إلى «انكرڤيل» في استشارة. كدت أتردّد في

---

(١) أحد شخوص مسرحيّة لـ «موليير» بعنوان «النساء العالمات» وتنصّ قاعدته على نبذ استخدام نفيين في آن واحد ne...pas. nes ، علما بأنّ ne ..pas أداة واحدة وهنا يكمن خطأ عامل المصعد، والقاعدة لا تنطبق إلاّ على الفرنسية ولذلك نراها غائبة في الترجمة.

تحيّته لأنّه لم يكن أجابني على أيّة من رسائلي. ولكنّ اللطف لا يتجلّى لدى الجميع بالطريقة نفسها. فلمّا لم تلزم التربية «كوتار» بقواعد آداب السلوك الثابتة ذاتها التي تلزم جماعة الطبقة الراقية، فقد كان يفيض من طيب نوايا يجهلها الناس وينكرونها إلى اليوم الذي تحين فيه الفرصة لإظهارها، واعتذر، وكان قد تسلّم رسائلي وبلّغ آل «ڤيردوران» عن وجودي وهم بشوق كبير للقائي وهو ينصحني بالذهاب إلى منزلهم. كان حتّى يريد اصطحابي إليهم في المساء نفسه لأنّه يعتزم أن يستقلّ القطار الصغير المحلّي كي يمضي للعشاء عندهم. وإذ كنت متردّداً ولا يزال لديه قليل من الوقت ليستقلّ القطار بما أن العطل سيمتدّ فترة لا بأس بها، أدخلته إلى الكازينو الصغير، وهو من تلك التي كانت بدت لي بالغة الحزن في أول مساء لوصولي، فيما يعجّ الآن بضوضاء الفتيات اللواتي كن يتراقصن في غياب الراقصين. وأقبلت «أندريه» إليّ بزحلقات تقوم بها، وكنت أعتزم الذهاب بعد فترة قصيرة بصحبة «كوتار» إلى منزل آل «ڤيردوران» حين رفضت عرضه رفضاً نهائيا وقد تملّكتني رغبة مفرطة الشدّة في المكوث مع «ألبيرتين». ذلك لأنني سمعتها منذ قليل تضحك، فتذكّرني الضحكة في الحال بألوان البشرة الموردة والجوانب المعطّرة التي كان يبدو أنّها احتكّت بها منذ قليل والتي تبدو، في حدّتها وشهوانيّتها وسمتها الكاشفة كمثل رائحة الجيرانيوم، وكأنّها تنقل معها بضع ذرّات يقرب أن تكون وزونة ومثيرة وخفيّة.

جلست إحدى الفتيات، وما كنت أعرفها، إلى البيانو، وطلبت «أندريه» من «ألبيرتين» أن ترقص الڤالس وإيّاها، وإذ كنت في ذاك الكازينو الصغير سعيدا بالتفكير في أنني سأمكث مع تلك الفتيات لفتُّ «كوتار» إلى أيّ درجة كنّ يجدن الرقص. ولكنّه أجابني من وجهة نظر الطبيب الخاصّة وبسوء تهذيب لم يكن يأخذ في الحسبان أنّني أعرف هاتيك الفتيات اللواتي لابد رآني أحييهنّ، أجابني قائلاً: «أجل، ولكنّ الأهل قليلو التبصّر إلى حدّ بعيد إذ يفسحون لبناتهم باكتساب مثل هذه العادات. ما كنت بالتأكيد أسمح لبناتي بالمجيء إلى هنا. لعلّهنّ جميلات على الأقل؟ فإني لا أميّز ملامحهنّ». وأضاف يقول، وهو يريني «ألبيرتين» و«أندريه» ترقصان ببطء وقد التصقت إحداهما بالأخرى التصاقاً شديداً: «هيّا، انظر. لقد نسيت نظّارتي فلا أرى بوضوح، ولكنّهما بالتأكيد في أقصى المتعة. فليس يعلم الناس تماماً أنّ النساء يبلغنها خصوصاً عن طريق النهدين. ألا انظر، إن نهودهما في تماسّ كامل». والتماسّ بالتأكيد لم ينقطع بين نهود كلّ من «أندريه» و«ألبيرتين»، ولست أعلم إن هما سمعتا أو حزرتا ملاحظة «كوتار» ولكنّهما انفصلتا قليلاً الواحدة عن الأخرى فيما تواليان الرقص. وقالت «أندريه» آنذاك كلمة لـ «ألبيرتين» فضحكت هذه ذات الضحكة النافذة العميقة التي سبق أن سمعتها منذ قليل، ولكنّ الاضطراب الذي حملته إليّ هذه المرّة ما كان إلاّ قاسياً عليّ. فقد بدا أن «ألبيرتين» تظهر بها لـ «أندريه» وتحملها على ملاحظة رعشة مهيّجة خفيّة. لقد كانت ترنّ مثلما التساوقات اللحنيّة الأولى أو الأخيرة في احتفال مجهول. ومضيت مع «كوتار» وأنا ساهٍ في حديثي معه ولا أفكّر إلاّ لماماً بالمشهد الذي رأيته منذ قليل. وليس يعني ذلك أن حديث «كوتار» كان ممتعا، بل هو اكتسى في هذه اللحظة طابع الحدّة إذ لمحنا منذ قليل الدكتور «دوبولبون» الذي لم يشاهدنا، لقد جاء يقضي وقتاً في الجانب الآخر من خليج «بالبيك» حيث كان يُستشار كثيرا، ومع أنّ «كوتار» تعوّد التصريح بأنّه لا يمارس الطبّ أثناء عطلته فقد كان راوده أمل أن يوفّر لنفسه زبائن مختارين، بيد أن «دو لولون» كان يقف عقبة دون

ذلك. أجل، لم يكن بمقدور طبيب «بالبيك» أن يضايق «كوتار». ولكنّما كان طبيباً كبير الوجدان يعرف كل شيء وما كنت تستطيع أن تكلّمه عن أدنى حكّة دون أن يدلّك في الحال على المرهم أو السائل أو المروخ المناسب. كان يعرف، كما تقول «ماري جينيست» بلغتها الجميلة، كيف «يسحر» الجروح والقروح ولكنّه لم يكن على شهرة. صحيح أنّه تسبّب بإزعاج طفيف لـ «كوتار»، فقد جعل هذا من صنوف التسمّم اختصاصاً له منذ أن شاء أن يستبدل بكرسيّه كرسيّ علم المداواة. والتسمّم، وهو تجديد في الطبّ ينطوي على مخاطر، يفيد في تجديد ملصقات الصيادلة فيصرّح عن كلّ منتج لهم بأنّه غير سامّ، بعكس الأدوية المشابهة، بل يشفي من التسمّم. إنّها الدعاية الرائجة، وكاد لا يبقى في الأسفل التوكيد بأن المنتَج جرى تعقيمه بعناية تامّة، وقد خطّ بحروف غير مقروءة وكأنّه أثر طفيف لصيغة راجت سابقا، والتسمّم يفيد كذلك في طمأنة المريض الذي يغبطه أن يعلم أن الشلل الذي أصابه إن هو إلاّ عارض سمّيّ. فإن دوقاً أكبر جاء يقضي بضعة أيّام في «بالبيك» وكانت عينه بها انتفاخ عظيم فاستقدم «كوتار» الذي عزا، في مقابل بضع ورقات من فئة المئة فرنك (وماكان الأستاذ يكلّف نفسه لأقلّ من ذلك)، سبب الالتهاب إلى حالة سمّيّة وأمر بحمية مضادّة للتسمّم. ولما لم يذهب انتفاخ العين تحوّل الدوق الأكبر إلى طبيب «بالبيك» العاديّ الذي استخرج في خمس دقائق ذرّة تراب. وفي الغد لم يكن يبدو شيء من ذلك. وكان ثمّة خصم أشدّ خطراً هو أحد مشاهير الأمراض العصبيّة. كان رجلاً أحمر ممراحاً لأنّ مخالطة ذوي الانحطاط العصبيّ ماكانت تحول دون أن يكون بأحسن عافية وكيما يطمئن مرضاه في الآن نفسه بالضحكة العريضة التي تخالط تحيّته واستئذانه بالرحيل، وإن كان سيساعد بذراعيه القويّتين في إلباسهم سترة المجانين عنوة فيما بعد. إلا أنّك ما إن كنت تتحدّث إليه في جماعة راقية، إن كان في سياسة أو أدب، حتّى تراه يصغي إليك بعطف وانتباه كأنّي به يقول: «ما الأمر؟» دون أن ينطق بها في الحال كما لو أن الأمر أمر استشارة. لكنّ هذا في النهاية كان اختصاصيًا أيّة كانت مواهبه. لذلك كان كامل حنق «كوتار» ينصبّ على «دولولبون». وقد فارقت بعد قليل على أيّة حال، بغية العودة، الأستاذ صديق آل «ڤيردوران» وأنا أعده بالذهاب لزيارتهم.

كان الضرر الذي ألحقته بي أقواله بخصوص «ألبيرتين» و«أندريه» بالغاً، لكنّ أسوأ الآلام لم أحسّها في الحال مثلما هو أمر هذه الصنوف من التسمّم التي لاتفعل فعلها إلاّ بعد انقضاء وقت معيّن.

لم تجئ «ألبيرتين» في ذلك المساء الذي مضى فيه عامل المصعد في طلبها على الرغم من توكيداته، صحيح أن مواطن الفتنة لدى امرئ سبب للحبّ أقلّ تواتراً مما هي جملة من هذا القبيل: «لا، لن أكون دون ارتباط هذا المساء». ونكاد لانعير هذه الجملة انتباهنا، إن كنّا بصحبة أصدقاء، فإنّنا نمرح طوال الأمسية ولانهتمّ بصورة معيّنة، وإنّها في هذه الأثناء يغمرها المزيج الضروري، حتّى إذا عدنا لقينا الصورة السالبة وقد ظهّرت وأوضحت واضحة تمام الوضوح. ونتبيّن أن الحياة لم تعد الحياة التي لعلّنا كنا هجرناها في العشيّة لقاء أقلّ الأمور لأنّنا وإن لبثنا غير هيّابين للموت لانجرؤ من بعد على التفكير بالهجران.

على أني منذ الساعة الثالثة صباحا، لا الواحدة (وهي الساعة التي كان حدّدها عامل المصعد) لم يعد يداخلني كما بالأمس ألم الإحساس بتناقص حظّي في أن تمثل أمامي. وحمل إليّ يقيني بأنّها لن تجيء من بعد هدوءاً تامّاً وحيويّة. فهذه الليلة محض ليلة شبيهة بليال كثيرة أخرى ماكنت أراها فيها؛ من تلك الفكرة

كنت أنطلق، ومذذاك كانت فكرة أني قد أراها في الغد أو في أيّام أخرى تضحي، إذ تبرز على صفحة هذا العدم المسلّم به، رفيقة بي. إن ضيق النفس ناجم أحياناً، في أمسيات الانتظار تلك، عن دواء تناولناه فإن الذي يعاني من العذاب يظنّ، بعد تفسير خاطئ له أنّه مضطرب من جرّاء تلك التي لاتجيء. وإنّما يولد الحبّ إذ ذاك، كما هي حال بعض الأمراض العصبية، من تفسير غير صحيح لضيق مؤلم. وليس يفيد تصحيح ذاك التفسير على الأقلّ في نطاق الحبّ، وهو شعور مضلّل على الدوام (أيّا كان سببه).

وفي الغد، عندما كتبت إليّ «ألبيرتين» أنّها عائدة تواً من «ايبرڤيل» وأن رسالتي لم تصلها إذن في الوقت المناسب وأنّها ستجيء للقائي في المساء إن أذنت بذلك، خلتني أحسّ خلف كلمات رسالتها مثلما خلف الكلمات التي سبق أن قالتها لي ذات مرّة بالهاتف، بوجود متع وأشخاص فضّلتهم عليّ مرّة أخرى هزّ كامل كياني فضول أليم في أن أعلم ماعساها كانت تفعل، وكذلك فَعَلَ الحبّ الكامن الذي نحمله دوماً بين جوانحنا، وأمكنني الاعتقاد هنيهة أنّه سيربطني حالا بـ «ألبيرتين» ولكنّه اكتفى بالارتعاش في مكانه واندثرت آخر أصوات ضوضائه دون أن يكون تحرّك.

لقد أسأت في إقامتي الأولى في «بالبيك» فهم طباع «ألبيرتين» -وربّما فعلت «أندريه» مثلي-، لقد ظننت من قبيل طيش ساذج تبديه أن لا تفلح توسّلاتنا كلّها في استبقائها وتفويت حفلة راقصة عليها أو نزهة على ظهور الحمير أو وجبة طعام في الهواء الطلق. وراودني في إقامتي الثانية في «بالبيك» شكّ بأنّ ذاك الطيش إن هو إلاّ مظاهر، والحفلة الراقصة ستار، إن لم تكن ابتداعا فقد كان يجري بأشكال مختلفة الأمر التالي (وأقصد الأمر الذي أراه أنا من الزجاج الذي من جانبي، ولم يكن شفّافاً على الإطلاق، دون أن يمكنني معرفة ماكان صحيحاً من الجانب الآخر) .كانت «ألبيرتين» تسمعني أكثر توكيدات الحنان عاطفة متّقدة. كانت تنظر إلى الساعة لأنّها عازمة على الذهاب لزيارة سيّدة تستقبل، فيما يبدو، الساعة الخامسة من كل يوم في «انفرڤيل». ولما كان الشكّ يعصف بي وأحسست على أيّ حال أنني منحرف الصحّة سألت «ألبيرتين» وتوسّلت إليها أن تمكث معي كان ذلك مستحيلاً (بل هي لم يبق لها أكثر من خمس دقائق تمكث فيها) لأن الأمر ربّما أغضب السيّدة وهي غيرمضيافة وسريعة التأثّر وتميتك ضجراً، تقول «ألبيرتين». «ولكن من الممكن تماماً تفويت زيارة واحدة». -«لا، فقد علّمتني عمّتي أنّه لابدّ لي أن أكون مهذّبة قبل كلّ شيء». -ولكنّي كثيراً مارأيتك على سوء تهذيب». -«ولكنّ الأمر ليس واحداً، فسوف تحقد عليّ هذه السيّدة وتسبب لي المتاعب مع عمّتي ولست بعد على مايرام وإيّاها، وهي تحرص على أن أكون ذهبت مرّة لزيارتها». -«ولكن إن كانت تستقبل في كلّ يوم». وهنا غيّرت «ألبيرتين» السبب الداعي وقد أحسّت أنّها «غالطت نفسها».

-«هي بالطبع تستقبل في كلّ يوم ولكنّي اليوم ضربت موعداً عندها لصديقات لي، وهكذا نكون أقلّ مللاً». -«أتراك يا «ألبيرتين» تفضّلين السيّدة وصديقاتك عليّ بما أنّك تفضّلين أن تدعيني وحيداً مريضاً حزيناً؟» -«قد يستوي الأمر عندي أن تكون الزيارة مملّة. ولكنّي أفعل بداعي الإخلاص لهنّ، فسوف أنقلهنّ في العودة في عربتي. وإلاّ فلن يتوافر لهنّ أيّة وسيلة نقل». وأشرت على «ألبيرتين» أن ثمّة قطارات من «انفرڤيل» حتّى العاشرة مساء -«صحيح ولكن تدري، من الممكن أن يسألونا البقاء على العشاء، فهي مضيافة

جداً» -«حسن ! ترفضين إذاً» . -«سأغضب عمّتي أيضاً» -«على أيّ حال، يمكنكم تناول العشاء ثم تستقلون قطار العاشرة» . -«قد لا يتّسع الوقت» -«فلست أستطيع في يوم إذاً أن أتعشّى في المدينة وأعود بالقطار. ولكن دونك يا «ألبيرتين» سنقوم بأمر بسيط جداً: إنّي أحسّ أن الهواء سيكون نافعاً لي، وبما أنّك لا تستطيعين هجر السيّدة فسأرافقك حتّى «انفرڤيل» . لا تخشي شيئا، فلن أمضي حتّى «برج ألِيزابيث» (وهي دارة السيّدة)، ولن ألتقي لا السيّدة ولا صديقاتك » . وبدا أن «ألبيرتين»تلقّت ضربة مخيفة. فقد كان كلامها متقطّعاً، وقالت إن حمامات البحر ما كانت تجدي معها.

«إن كان يزعجك أن أرافقك » ؟ -«ولكن كيف يمكنك أن تقول ذلك، وتعلم تمام العلم أن أعظم غبطة عندي أن أخرج وإيّاك» ؟ لقد حدث انقلاب مفاجئ داخلها فقالت لي: «بما أننا نمضي للنزهه سويّة فلمَ لا نذهب إلى الجانب الآخر من «بالبيك» فنتناول طعام العشاء سويّة، ويكون ذلك لطيفاً جداً، إن ذاك الشاطئ في الأساس أكثر جمالا، لقد سئمت نفسي «انفرڤيل» وكلّ هذه الأمكنة الصغيرة المنعزلة ذات الخضرة الداكنة» . -«ولكنّ صديقة عمّتك ستغضب إن لم تذهبي لزيارتها» . -«ويزول غضبها ، ويحك» . -«لا، يجب أن لا نُغضب الناس » -«ولكنّها لن تنتبه حتّى للأمر، فإنّها تستقبل في كلّ يوم. فإن ذهبت في غد أو بعد غد أو بعد ثمانية أيّام أو خمسة عشر يوماً فسيفي ذلك بالغرض» -«وصديقاتك » ؟ -«ما أكثر ما هجرنني، وقد حان الآن دوري» . -«ولكن ليس ثمّة قطار بعد التاسعة في الجانب الذي تقترحينه لي» . -«آه ! ما أعسرها مسألة ! الساعة التاسعة توافقني تماما. ثمّ ينبغي أن لا توقفنا البتّة مشاكل العودة. فسنلقى دوماً عربة نقل أو درّاجة، فإن لم يكن، فساقينا» . -«نلقى دوماً، يا «ألبيرتين» ، ما أعجب ما تذهبين إليه فمن جانب «أنفرڤيل» حيث المحطّات الخشبيّة الصغيرة التي يلتصق بعضها ببعضها الآخر، أجل. ولكنّ الأمر ليس نفسه في الجهة المقابلة» . - «بل حتى في الجهة المقابلة. إنّي أعدك بأن أعيدك صحيحاً سالماً» كنت أحسّ أنّ «ألبيرتين » تتخلى من أجلي عن شيء مدبّر لم تشأ أن تقوله لي وأن ثمّة واحداً سوف يكون تعيساً كما كنت. وإذ رأت أنّ ما ابتغت لم يكن ممكناً بما أنّي أودّ مرافقتها، تخلّت صراحة عنه، وكانت تعلم أنْ ليس الأمر ممّا يتعذّر إصلاحه. ذلك لأنّها، شأن سائر النساء اللواتي هنّ على أمور عدّة في حياتهنّ، كانت لديها نقطة الاستناد هذه التي لا تضعف في يوم، عنينا الشكّ والغيرة، صحيح أنّها ما كانت تحاول إثارتهما، بل على العكس. ولكنّ المحبيّن شديدو الريبة حتّى ليستشعرون الكذب في الحال، إلى حدّ أن «ألبيرتين، وليست خيراً من أخرى سواها، كانت تعلم بالتجربة (ودون أن تحزر أقلّ ماتحزر أنّها مدينة بذلك للغيرة) أنّها متيقّنة على الدوام بأنّها ستلتقي ثانية الناس الذين «باعتهم» ذات مساء. فالشخص المجهول الذي كانت تتركه من أجلي سوف يتألّم ويزداد حبّاً لها من جرّاء ذلك (ولا تعلم «ألبيرتين» أنّه يفعل بسبب ذلك) ، وكي لا يستمر في عذابه فإنّه يعود إليها من تلقاء ذاته كما لعلّي كنت فعلت. ولكنّي لم أكن أبغي لا غمّ الناس ولا إرهاق نفسي ولا الدخول في دروب التقصّيات المخيفة والمراقبة المتعدّدة الأشكال التي لاحصر لها «لا، يا «ألبيرتين» ، لست أريد إفساد متعتك، فأمضي إلى سيّدتك في «أنفرڤيل» ، أو إلى الشخص الذي يختبئ وراء اسمها، فالأمر عندي سواء. أمّا السبب الحقيقي لإحجامي عن الذهاب برفقتك فأنك لا ترغبين في ذلك وأنّ النزهة التي قد تقومين بها برفقتي ليست تلك التي كنت تودّين القيام بها، والبرهان على ذلك أنّك ناقضت نفسك أكثرمن خمس مرات دون

أن تتبيّني ذلك». وخشيت «ألبيرتين» المسكينة أن تكون تناقضاتها التي لم تنتبه لها أكثر خطراً فهي لا تعرف بالضبط الكذبات التي وقعت فيها: «ممكن جدًا أن أكون ناقضت نفسي. إن هواء البحر لا يدع لي أي منطق. فإني أستبدل على الدوام بالأسماء غيرها، ثم إنّي أحسست (وبرهن الإحساس أنّها ما كانت الآن لتحتاج الكثير من التوكيدات العذبة كيما أصدّقها) ما يشبه ألم الجرح وأنا أسمع هذا الإقرار بما لم أكن افترضته إلاّ افتراضًا ضعيفاً، وقالت بصوت يطبعه الأسى، ولم تفعلٍ دون أن تنظر إلى الساعة لتتبيّن أنّها لم تكن متأخّرة بالنسبة إلى الآخر مادمت أوفّر لها الآن الحجّة كي لا تمضي الأمسية معي. «أنت قاس مفرط القسوة فإنّي، أبدّل كلّ شيء لأقضي أمسية حلوة معك وأنت من لا يريد وتتّهمني بالكذب. لم أرك بعد قطّ بمثل قسوتك. سيكون البحر لحدي ولن ألقاك بعد في يوم. (وخفق فؤادي لدى سماع هذه الكلمات مع أنّي كنت متيقّنا من أنّها ستجيء في الغد، وقد حصل). سوف أغرق، سألقي بنفسي في الماء». —«مثل سافو»[1]. —«وهذه شتيمة تضيفها، فلست ترتاب بما أقول فحسب، بل بما أفعل». —« ولكنّي ياصغيرتي ما كنت أحمّلها أيّ قصد، أقسمت على ذلك، فتعلمين أنّ «سافو» ألقت بنفسها في البحر». —«بلى، بلى، لا ثقة لك فيّ مطلقاً». ورأت أن الساعة تشير إلى الدقيقة الأربعين وخشيت أن يفوتها ماينبغي لها أن تفعله فاختارت أقصر صيغة وداع (اعتذرت عنها بأيّة حال إذ جاءت لزيارتي في الغد؛ والأرجح أن الشخص الآخر كان مرتبطا في ذلك الغد)، وفرّت تجري صارخة: «ودائما لا لقاء بعده»، وهي بادية الأسى. وربّما كانت تلك حالها، فإذ كانت عالمة بما تفعل في هذه اللحظة أفضل منّي وكانت أكثر قسوة وأوفر مسامحه لذاتها ممّا كنت إزاءها، فربّما ساورها مع ذلك شكّ بأنّي لا أودّ استقبالها من بعد على إثر الطريقة التي هجرتني بها. وإنّي اعتقد أنّها كانت حريصة عليّ إلى حدّ أنّ الشخص الآخر كان أكثر غيرة منّي.

وبعد بضعة أيام في «بالبيك» وإذ كنّا في قاعة الرقص في الكازينو دخلت شقيقة «بلوك» وابنة عمّه وقد أضحت كلتاهما على جمال كبير، ولكنّي لم أعد أسلّم عليهما بسبب صديقاتي لأن أصغرهما سنًّا وهي ابنة العم كانت تعيش على رؤوس الأشهاد مع الممثلة التي سبق أن تعرّفت إليها في أثناء إقامتي الأولى. وقالت لي «أندريه» لدى تلميح إلى الأمر جرى بصوت خفيض: « آه ! إنّي بخصوص هذه المسألة شبيهة بـ«ألبيرتين» فليس ما ينفّرنا كلتينا مثل ذلك». أمّا «ألبيرتين» فقد أدارت ظهرها للفتاتين السيّئتي المسلك وقد شرعت في التحدث إليّ على الكنبة التي كنّا نجلس عليها. على أنّي كنت لاحظت قبل هذه الحركة وآن بدت الآنسة «بلوك» وابنة عمّها، لاحظت في عيني صديقتي التماع ذاك الانتباه المفاجىء العميق الذي كان يضفي على وجه الفتاة الخبيثة أحيانا هيئة جديّة، بل رزينة ثم يخلّفها حزينة. ولكنّ «ألبيرتين» أدارت في الحال صوبي نظراتها التي ظلّت مع ذلك جامدة حالمة بصورة غريبة. وغادرت الآنسة «بلوك» وابنة عمّها المكان في نهاية المطاف بعدما ضحكتا ضحكاً شديداً وأطلقتا صرخات غير لائقة إلى حدّ ما، فسألت «ألبيرتين» إن لم تكن الشقراء الصغيرة (تلك التي كانت صديقة الممثّلة) هي نفسها التي حازت البارحة جائزة سباق عربات الزهور. فقالت «ألبيرتين»: «آه ! لست أعلم، هل ثمّة من هي شقراء منهما؟ سأقول لك إنّهما لاتثيران كبير اهتمامي لم أنظر إليهما البتّة». ثمّ سألت صديقاتها الثلاث بلهجة متسائلة متجرّدة قائلة: «هل ثمّة شقراء بينهما»؟ وبدا

(١) شاعرة يونانية ولدت في جزيرة «ليسبوس» (التي أورثت السحاقيات اسمها بالفرنسية) وقد ألقت بنفسها في البحر لحبّها للمراكبّي «فاون» الذي كان يزدري صحبتها.

لي ذلك الجهل إذ ينطبق على اشخاص كانت «ألبيرتين» تلتقيهم كلّ يوم فوق السدّ، بدا لي مبالغاً جداً كي لا يكون متكلّفا وقلت لـ«ألبيرتين»: «ولا يبدو عليهما كذلك أنّهما تنظران إلينا»، ربّما بافتراض أن «ألبيرتين»، والافتراض ما كنت انظر إليه على نحو واعٍ بأيّة حال، كانت تحبّ النساء وكيما انزع من نفسها أيّ أسف حينما أبدي لها أنهّا لم تسترع انتباههما وأنّه لم تجر العادة بعامّة، حتّى بالنسبة إلى أكثرهنّ فسقاً، أن تهتمّ بالفتيات اللواتي لا تعرفهنّ. وأجابتني «ألبيرتين» على نحو طائش بقولها: «لم تنظرا إلينا؟ إنّهما لم تفعلا غير ذلك طوال الوقت». فقلت لها: «ولكنّما ليس بمقدورك معرفة ذلك فقد كنت تولينهما ظهرك». فأجابتني: «وهذه ويحك»؟ وهي تريني مرآة كبيرة قبالتنا مركّبة في الجدار، ولم أكن لحظتها وأخذت أدرك الآن أيّ صديقتي لم تكفّ، فيما تحدّثني، عن التحديق إليها بعينيها الجميلتين اللتين تفيضان همّاً.

منذ اليوم الذي دخل فيه «كوتار» برفقتي إلى كازينو «أنكرفيل» الصغير، ودون أن أشاطره الرأي الذي أبداه، بدا لي أنّ «ألبيرتين» لم تعد هي نفسها، فقد كانت رؤيتها تثير حنقي. وكنت تبدّلت بدوري بقدر ما كانت تبدو لي مختلفة. وكففت عن تمنّي الخير لها وكنت أتحدّث عنها بالطريقة الأوفر تجريحا في حضرتها وفي غيابها حينما يمكن أن يُنقل إليها ذلك. ولكنّما كان ثمّة فترات مهادنة. فقد كان يبلغني ذات يوم أنّ «ألبيرتين» و«أندريه» قبلتا كلتاهما دعوة إلى منزل «ايلستير». واذ لا أشكّ أنّ الأمر تمّ باعتبار أنّهما ربّما استطاعتا أن تلهوا في طريق العودة كطالبات داخليّات وذلك بتقليد الفتيات سيّئات المسلك وتلقيان في ذلك متعة خفيّة تحسّ بها العذارى وتضيّق عليّ أنفاسي، كنت أصل فجاءة إلى منزل «ايلستير» دون خبر منّي لإزعاجهما وحرمان «ألبيرتين» من المتعة التي كانت تتوقّعها. ولكنّي لا ألقى هناك غير «أندريه»، فـ «ألبيرتين» كانت قد اختارت يوما آخر تزمع عمّتها الذهاب فيه. حينئذ كنت أقول في نفسي إن «كوتار» أخطأ دونما شكّ. وكان الانطباع المناسب الذي خلّفه لديّ وجود «أندريه» بدون صديقتها يتطاول ويبعث في نفسي استعدادات أكثر رقّة تجاه «ألبيرتين» ولكنّها لا تدوم أكثر من الصحّة الهشّة التي لهؤلاء الأشخاص الضعاف البنية الذين يفيدون من فترات تحسّن عابرة ويكفي أقلّ القليل ليردّهم إلى مرضهم. كانت «ألبيربين» تدفع «أندريه» إلى صنوف من اللعب ربّما لم تكن، وإن هي لا تذهب بعيداً جداً، بريئة تماما. وإذ كنت أعاني من ذلك الارتياب فقد كنت أستبعده في نهاية المطاف. ولكنّي« لا أكاد أنجو منه حتّى يعاودني بشكل آخر. فقد اتّفق أن رأيت «أندريه» منذ قليل في واحدة من تلك الحركات الظريفة الخاصة بها تلقي برأسها بغنج ودلال على كتف «ألبيرتين» وتقبّلها في عنقها وهي نصف مغمضة العينين. أو هما تبادلتا نظرة سريعة، أو أن كلمة أفلتت من شخص سبق أن رآهما وحيدتين معاً ذاهبتين للسباحة، وكلّها أمور صغيرة من مثل مايعمر الجوّ المحيط بصورة طبيعيّة فيبتلعها القسم الغالب من الناس طوال النهار دون أن تتأثّر صحبتهم أو يفسد مزاجهم، ولكنّها مسقمة تورث من كان لديه استعداد مسبق آلاماً جديدة. بل كنت أحياناً، دون أن أكون رأيت «ألبيرتين» مجدّداً ودون أن يكون أحد حدّثني عنها، كنت أعود فألقى في ذاكرتي وقفة لـ «ألبيرتين» بالقرب من «جيزيل» وكانت بدت لي بريئة آنذاك. فكانت تكفي الآن للقضاء على الهدوء الذي أمكنني أن أستعيده، بل لم تعد بي حاجة للذهاب واستنشاق جراثيم خطيرة في الخارج فقد كنت سمّمت نفسي، كما لعلّ «كوتار» كان قال. وفكّرت حينئذ في كلّ ماعرفته عن حبّ «سوان» لـ «أوديت» وعن الطريقة التي خدع بها

«سوان» طوال حياته. وإن كنت في الأساس أبغي التفكير في الأمر فإن الفرضيّة التي جعلتني أبني شيئاً فشيئاً كامل طباع «ألبيرتين» وأقوم بتفسير مؤلم لكلّ لحظة في حياة ماكان بوسعي مراقبتها كليًّا إنّما كانت تذكّرني طباع السيّدة «سوان» والفكرة الثابتة عنها على نحو مانقل إليّ أنّها كانت. وقد أسهمت هذه القصص في أن جعلت خيالي في المستقبل يقوم بلعبة يفترض بها أنّ «ألبيرتين» ربّما استطاعت، بدلاً من أن تكون فتاة صالحة، أن تكون على ذات الفجور وذات القدرة على الخداع التي تميّز عاهرة سابقة وأخذت أفكر في صنوف العذاب جميعها التي كانت ستنتظرني في هذه الحالة لو انبغى لي أن أحبّها في يوم.

وكنت قمت ذات يوم، أمام الفندق الكبير الذي كنا مجتمعين فيه فوق السدّ، بتوجيه أكثر العبارات قسوة وإذلالاً لـ «ألبيرتين» فتقول «روزموند»: «آه! ما أكثر ماتبدّلت مع ذلك بالنسبة إليها، فما كان أمر فيما مضى إلاّ لها، وهي التي كانت تمسك الحبل، والآن لم تعد تصلح لتلقي طعامًا للكلاب». وكيما أبرز أكثر من ذلك موقفي من «ألبيرتين» كنت آخذاً في توجيه كلّ اللطائف الممكنة إلى «أندريه»، وكانت تبدو لي، إن هي كانت مصابة بالعيب نفسه، أوفر عذراً لأنّها كانت مريضة موهنة الأعصاب، حينما رأينا عربة السيّدة «دوكامبرمير» تطلع خبباً بحصانيها في الشارع المعامد للسدّ الذي كنا نقف في زاويته، وابتعد الرئيس الأول الذي كان يتقدّم باتّجاهنا في تلك اللحظة، ابتعد بقفزة واحدة حينما عرف العربة كي لا يشاهد بصحبتنا. ثم إنّه حينما ظنّ أن نظرات المركيزة سوف تلاقي نظراته انحنى محيّيا بحركة واسعة بقبّعته. ولكن العربة توارت خلف مدخل الفندق بدلاً من متابعة سيرها عبر شارع «البحر» كما بدا ذلك مرجّحاً. وكان انقضى تمامًا عشر دقائق على ذلك حينما أقبل عامل المصعد يبلّغني متقطّع الأنفاس: «إنّها المركيزة «دو كامبرمير» جاءت إلى هنا للقاء سيّدي. لقد صعدت إلى الغرفة وبحثت في قاعة القراءة فما استطعت أن ألقى سيّدي. ومن حسن حظّي أن خطر لي أن ألقي نظرة على الشاطئ». وما كاد ينهي روايته حتى تقدمت المركيزة نحوي تتبعها كنتها وسيد شديد التصنع، وكانت آتيه على الأرجح من حفلة بعد الظهر أو جلسة شاي في الجوار وقد تقوّس ظهرها أقلّ تحت عبء الشيخوخة منه جرّاء طائفة الحاجات الكماليّة التي تظنّ من الألطف والأجدر بمكانتها طرحها فوق جسمها كي تبدو أكثر مايمكن «كمالَ ملْبَس» في عيون من جاءت لزيارتهم، وخلاصة القول أنّه إنّما جرى في الفندق ذاك «الحلول المفاجئ» لآل «كامبرمير» الذي كانت جدّتي بالأمس توجس منه أشدّ الخوف حينما تودّ أن يظلّ «لوغراندان» جاهلاً أنّنا ربّما ذهبنا إلى «بالبيك». وكانت أمّي تضحك حينذاك من المخاوف التي يوحي بها حادث تراه مستحيلاً. فإذا هو يقع في نهاية المطاف، إنّما بسبل أخرى ودون أن تكون لـ «لوغراندان» يد فيه. وسألتني «ألبيرتين» (التي ظلّ في عينيها بضع دمعات لاحظتها دون أن أُبدي أنّي أراها، وليس دون أن أغتبط لذلك، وقد جاءت بها الأشياء القاسية التي وجّهتها إليها منذ قليل): «هل يمكنني البقاء إن كنت لا أضايقك فربّما كان لديّ ما أقوله لك». كانت قبّعة مريّشة يعلوها دبّوس من الياقوت قد وُضعت كيفما اتّفق على شعر السيّدة «دوكامبرمير» المستعار مثل شارة إبرازها ضروري ولكنّه كافٍ وموقعها قليل الأهميّة وأناقتها مبتذلة وثباتها لا جدوى منه. كانت السيّدة العجوز قد ارتدت على الرغم من الحرّ معطفًا حالك السواد شبيهًا بـ «دلماسيّة»[1] تتدلّى من فوقه تلفيعة من فرو القاقوم يبدو أنّ ارتداءها لا

(١) ثوب طويل من قماش فاخر كان يرتديه عظماء الرومان وقد ورثته عنهم الكنسية البيزنطيّة ولا يزال يرتديه الأساقفة والشمامسة في الخدمة الدينيّة.

علاقة له بدرجة الحرارة والطقس بل بطابع الاحتفال. وعلى صدر السيّدة «دوكامبرمير» يتدلّى تاج بارونة معلّق بسلسلة صغيرة كمثل صليب معلّق على الصدر. وكان السيّد محاميًا مشهوراً من باريس من عائلة نبيلة وقد جاء لقضاء ثلاثة أيّام في منزل آل «كامبرمير». كان واحداً من أولئك الرجال الذين تجعلهم خبرتهم المهنيّة التامّة يزدرون مهنتهم بعض الشيء فيقول مثلاً: «أعلم أنّي أترافع بصورة جيّدة ولذا لم تعد المرافعة تبهجني»، أو «ليس يستهويني من بعد إجراء العمليّات فإني أعلم أني أجيد العمليّات». وإذ هم أذكياء و«فنانون» فإنّهم يشهدون من حول نضوجهم الذي يرفده النجاح رفداً قوياً التماع ذاك «الذكاء» وطبيعة «الفنان» تلك التي يقرّ لهم اخوانهم بها والتي توليهم مايقرب أن يكون ذوقاً وتمييزاً. ويشغفون لابرسم فنان كبير بل فنان لامع جداً مع ذلك يستخدمون في شراء أعماله الدخول الكبيرة التي توفّرها لهم مهنتهم الناجحة. كان «لوسيدانير» هو الفنّان الذي اختاره صديق عائلة «كامبرمير» الذي كان من جانب آخر ممتعاً جداً. كان يجيد الحديث عن الكتب، ولكن لا عن كتب المعلّمين الحقيقيّين، أولئك الذين ملكوا ذواتهم. ولكنّ العيب الوحيد المزعج الذي يبديه هذا الهاوي أنّه كان يستخدم بعض العبارات الجاهزة بصورة مستديمة من مثل: «في أكبر قسم منه»، ممّا يضفي على ما كان يريد التحدّث عنه شيئاً من الأهمية واللا اكتمال. كانت السيّدة «دوكامبرمير» قد أفادت، فيما قالت لي، من حفلة بعد الظهر نظّمها أصدقاء لها في ذلك اليوم بالقرب من «بالبيك» كما تأتي لزيارتي مثلما سبق أن وعدت «سان لو» بذلك. «تعلم أنّه سيجيء عمّا قريب لقضاء بضعة أيّام في المنطقة، إن عمّه «شارلوس» يصطاف فيها في منزل زوجة الدوقة «دولوكسمبور» وسيستغلّ السيّد «دوسان لو» الفرصة ليذهب لتحيّة عمّته وزيارة كتيبته السابقة حيث يحيطونه بحبّ وتقدير عظيمين. فكثيراً مانستقبل ضبّاطاً يشيدون به أجمل الإشادة في أحاديثهم، وكم عساكما تبديان من لطف لو أوليتمانا سروراً بمجيئكما إلى «فيتيرن»». وقدّمت لها «ألبيرتين» وصديقاتها. وذكرت السيّدة «دو كامبرمير» أسماءنا لزوجة ابنها، فمدّت هذه يدها، هي الفاترة أشدّ الفتور إزاء صغار النبلاء الذين يضطرّها الجوار في «فيتيرن» إلى مخالطتهم، هي المتحفّظة جداً مخافة التعرّض للشبهات، مدّت لي يدها على العكس بابتسامة مشعّة وقد وجدت نفسها في وضع أمين بهيج في حضرة صديق لـ «روبير دو سان لو» كان هذا الأخير، الذي يتمتّع بقدر من الرهافة المجتمعيّة يجاوز مايبرز فيه للعيان، قد نقل لها عنه أنّه وثيق الصلة بآل «غيرمانت». وهكذا كانت السيّدة «دوكامبرمير»، بعكس حماتها، تملك صنفين من التأدّب مختلفين أشدّ الاختلاف. ولعلّها كانت خصّتني على الأكثر بالصنف الأوّل الجاف الذي لايطاق لو أنّي عرفتها عن طريق شقيقها «لوغراندان» ولكنّها ما كانت تختزن مايكفي من ابتسامات لصديق لآل «غيرمانت». كانت الحجرة الأكثر ملاءمة للاستقبال قاعة المطالعة، هذا المكان الرهيب جداً بالأمس الذي كنت الآن أدخله عشر مرات في اليوم وأغادره حرّاً سيّداً كأولئك المجانين ذوى الإصابة الهيّنة وهم نزلاء مستشفى العاهات العقليّة من فترة طويلة إلى حدّ أنْ استودعهم الطبيب مفتاحه، لذلك عرضت علي السيّدة «دوكامبرمير» أن أصحبها إليها. ولمّا لم أعد أوجس خيفة من تلك الصالة ولم تعد تأسر فؤادي لأنّ وجه الأشياء يتغيّر بالنسبة إلينا كما يتغيّر وجه الأفراد، فقد عرضت عليها ذلك المقترح دونما اضطراب. ولكنّها رفضت مفضّلة البقاء خارجاً وجلسنا في الهواء الطلق في شرفة الفندق. ولقيت فيها فحملت معي كتاباً للسيّدة «دو سيفينييه» لم يتّسع وقت أمّي لحمله في هربها المفاجئ حينما علمت أنّ ثمّة زائرين يجيئون إليّ. فقد كانت تخشى غزوات الغرباء تلك بقدر ماتفعل جدّتي مخافة أن

لايسعها الإفلات من بعد إن هي حُوِّطت فتنجو بتفسها بسرعة كانت تجعلنا على الدوام أنا ووالدي نسخرمنها. كانت السيّدة «دوكامبرمير» تحمل في يدها إلى جانب عصا شمسيّتها عدّة أكياس مطرّزة ومفرّغة جيوب وكيس نقود من ذهب تتدلّي منه خيوط حمراء رمّانيّة ومنديل من الدانتيلا. كان يبدو لي من الأنسب لها لو تضعها على كرسي ولكنّما أشعر من غير اللائق وغير المفيد أن أسألها التخلّي عن حلي جولتها الراعوية وكهنوتها الدنيويّ. كنّا ننظر إلى البحر الهادئ تطفو فوقه نوارس مبعثرة شأن تويجات بيضاء. ورأيتني من جرّاء مستوى «الوسيط» المحض الذى ينزلنا إلى دركه حديث الدنيويّات وكذلك رغبتنا في أن نروق غيرنا لا بوساطة ميزاتنا التي تخفى علينا بل بوساطة مانظنّ أنّه لابدّ مقدّر من جانب من هم معنا رأيتني أشرع غريزيّاً بالتحدث إلى السيدة «دوكامبرمير» المولودة «لوغراندان» بالطريقة التي لعلّ شقيقها كان انتهجها، فقلت وأنا أتحدّث عن النوارس: «إنّ بها جمود وبياض أزهار النيلوفر». وكانت بالفعل تبدو كأنّما توفّر هدفاً ثابتاً للموجات الصغيرة التي تتقاذفها إلى حدّ أن هذه الموجات كانت تبدو بالمقابل، وهي تلاحقها مدفوعة بمقصد معيّن، كأنّما تدب فيها الحياة. كانت المركيزة الوريثة لا تكلّ من الإشادة بمنظر البحر الرائع الذي يتوافر لنا في «بالبيك» وتحسدني هي التي ما كانت تشاهد الأمواج من «لاراسپلييير» (الذي ماكانت تقطنه بأي حال في هذا العام) إلاّ من بعيد جدّاً. كان بها عادتان فريدتان ناجمتان في الآن نفسه عن حبّها المتّقد للفنون (ولاسيّما الموسيقى) وعن قصورها السنّي. ففي كلّ مرّة كانت تتحدّث فيها عن علم الجمال كانت غددها اللعابيّة، كما هي حال غدد بعض الحيوانات في فترة النزو، تدخل مرحلة من فرط الإفراز يبلغ بفم السيّدة العجوز الأدرد أن يسمح بمرور بعض قطرات في زاوية الشفتين اللتين يكسوهما شارب خفيف، وهي هنا في غير محلّها، فكانت تسترجعها في الحال في تنهيدة كبيرة كمن يستردّ أنفاسه، فإن تعلّق الأمر أخيراً بجمال موسيقيّ عظيم كانت في حماستها ترفع ذراعيها وتتفوّه ببعض الأحكام المختصرة التي تلوكها بحزم وتنطلق من الأنف لدى الضرورة على أنى ما ظننت في يوم أنّ شاطئ «بالبيك» العاديّ يمكن أن يوفّر بالفعل «إطلالة بحريّة»، فكانت أقوال السيّدة «دوكامبرمير»البسيطة تغيّر أفكاري بهذا الشأن. وكنت في المقابل سمعتُ على الدوام مَنْ يشيد بالمنظر الفريد من «لاراسپلييير» الواقع على قمّة الهضبة حيث يطلّ صفّ كامل من نوافذ صالة كبيرة بموقدين، يطلّ من أقصى الحدائق وبين أوراق الشجر على البحر إلى مايجاوز «بالبيك»، ويطلّ الصفّ الآخر على الوادي. «كم أنت لطيف وما أحسن ماتقول: البحر بين أوراق الشجر. ذلك رائع، لكأنّه .... مروحة». وأحسست في تنفّس عميق مهيّأ لاسترجاع اللعاب وتنشيف الشاربين أن الإشادة كانت صادقة. ولكنّ المركيزة المولودة «لوغراندان» لبثت باردة لتبدي استهانتها لا بأقوالي بل بأقوال حماتها. وما كانت تستهين على أيّة حال بعقل هذه الأخيرة فحسب بل كانت تأسى للطفها إذ تخشى على الدوام أن لايكوّن الناس فكرة كافية عن آل «كامبرمير». وقلت: «وكم هو جميل الاسم. وددت لو نعرف أصل هذه الأسماء جميعا». وأجابتني السيّدة العجوز برفق قائلة: «أمّا بشأن ذاك فأستطيع أن أقوله لك. إنّه مسكن عائلي يعود لجدّتي «أراسپيل» وليست أسرة مشهورة، ولكنّها أسرة كريمة وعريقة جداً من الريف». وقاطعت زوجة ابنها الحديث بلهجة جافّة: «كيف هذا، غير مشهورة؟ ثمّة زجاجية كاملة في كاتدرائية «بايّو» مليئة بشعاراتها فيماتحتفظ الكنيسة الرئيسيّة في «أفرانش» بأضرحتها. فإن كنت تجد تسلية في هذه الأسماء القديمة فقد تأخرّت سنة في المجيء، تضيف

قولها. ذلك أنّنا كنّا عينًا في خورنيّة[١] «كريكتو»، على الرغم من كلّ الصعوبات الكائنة في تبديل «الأبرشيّة»[٢]، عميد كهنة منطقة أملك فيها أراضي بعيداً جداً من هنا، في «كومبريه»، حيث أخذ يحسّ الكاهن الطيّب أنّه يعاني من وهن الأعصاب. لكنّ هواء البحر لم يناسب لسوء الحظّ كبر سنّه، فقد زاد وهن أعصابه فانثنى عائداً إلى «كومبريه». على أنّه وجد سلوى حينما كان جاراً لنا في المبادرة للاطلاع على القوانين القديمة جميعها، وألف نشرة صغيرة طريفة إلى حدّ ما حول الأسماء في المنطقة. وقد استملح الأمر على أيّ حال إذ يبدو أنّه يشغل آخر سني عمره في تأليف كتاب كبير حول «كومبريه» والمنطقة المحيطة بها. وسأبعث لك عمّا قريب نشرته حول المنطقة المحيطة بـ «فيتيرن» إنّه أشبه بعمل «بندكتّي»[٣]. سوف تقرأ فيه أموراً مثيرة حول أرضنا القديمة في «لاراسپليير» التي تتحدّث عنها حماتي بتواضع مفرط جدّاً». وأجابت السيّدة «دوكامبرمير» الوريثة قائلة: «لم يعد قصر «لاراسبليير» هذه السنة قصرنا في جميع الأحوال ولست أملكه. على أني أحسّ لديك سليقة رسّام. جدير بك أن ترسم وكم وددت أن أريك «فيتيرن» فهي أفضل كثيراً من «لاراسپليير». ذلك أنّه منذ أن أجرّ آل «كامبرمير» هذا المسكن الأخير لأسرة «ڤيردوران» كفّ موقعه المشرف فجأة عن أن يبدو لهم ما سبق أن كان في نظرهم على مدى سنوات طويلة، يعني أنّه يتمتّع بميزة فريدة في البلاد قوامها الإطلالة على البحر والوادي في آن واحد، وأبرز لهم في المقابل فجأة –وبعد فوات الأوان– السيّئة التي مفادها اضطرارهم المستمرّ للصعود والنزول للوصول إليه ومغادرته، ولعلّه بوجيز العبارة ساد الظنّ بأنّ السيّدة «دوكامبرمير» إن كانت أجرّته فلتريح جيادها أكثر منها لتزيد عائداتها. وكانت تصرّح أنّها في غاية الغبطة أن يمكنها أخيراً امتلاك البحر على مدى كامل الوقت وعن قرب شديد في «فيتيرن» هي التي مارأته على مدى فترة طويلة جدّاً إلاّ من عل وكأنّما ضمن مشهد عام وتنسى فترة الشهرين التي تقضيها على شاطئه. «ها إنّي أكتشفه في سنّي، تقول، وكم استمتع به! وأيّة فائدة أجنيها! ربّما أجّرت «لاراسپليير» مقابل لا شيء كي اضطرّ إلى سكنى «فيتيرن»».

وأردفت شقيقة «لوغراندان» التي كانت تقول للمركيزة العجوز: «أمّي»، ولكنّها تبنّت على مرّ السنين تصرفات تتّسم بالوقاحة إزاءها: «نعود إلى موضوعات أوفر إثارة، كنت تتحدّثين عن أزهار النيلوفر: وأظنّك تعرفين تلك التي رسمها «مونيه» ياله من عبقري! ذلك يثير اهتمامي ولاسيّما أن ذلك المكان على مقربة من «كومبريه» حيث قلت لك إني أملك أرضاً ...» ولكنّها فضّلت أن لا تفرط في الحديث عن «كومبريه». وصاحت «ألبيرتين» ولم تكن قالت شيئاً حتّى ذاك: «آه! تلك بالتأكيد المجموعة التي كلّمنا عنها «ايلستير» اعظم الرسّامين المعاصرين». وصاحت السيّدة «دوكامبرمير» التي شرقت دفقة لعاب وهي تأخذ نفسًا عميقاً: «آه! واضح أن الآنسة تحبّ الفنون». وقال المحامي وهو يبتسم ابتسامة العارف: «اسمحي لي ياآنسة أن أفضّل «لوسيدانير» عليه». ولمّا سبق أن تذوّق أو شهد من تذوّق بعض «مواطن الجرأة» لدى«ايلستير» أضاف قوله: «كان «ايلستير» موهوباً، وهو حتّى كان جزءاً من الطليعة تقريباً، ولكنّي لا أعلم لماذا كفّ عن اللحاق بالركب، لقد أفسد حياته». وأقرّت السيّدة «دوكامبرمير» بصواب ما قال المحامي بخصوص «ايلستير» ولكنّها

(١) مقرّ الحورى أو كاهن الرعيّة. (٢) مجمل البلدان والقرى الواقعة تحت سلطة الأسقف أو المطران لدى الطوائف المسيحيّة.
(٣) الآباء البندكتيّون الذين ينتمون للرهبانيّة التي أسّسها القديس بندكتوس اشتهروا بمباحثهم المعمّقة المتأنيّة في علوم الدين والمجالات الأخرى، والصفة تطلق على أي عمل يتّصف بالعمق والدقّة والتأنّي.

ساوت «مونيه» بـ «لوسيدانير» ممّا أولى مدعوّها غمّاً كبيراً. لا يمكن أن نقول إنّها كانت غبيّة؛ لقد كانت تفيض ذكاء أحسّه لا طائل تحته كليّاً بالنسبة إليّ. كانت النوارس صفراء بالضبط الآن والشمس تنحدر على الأفق كما هي حال أزهار النيلوفر في لوحة أخرى من مجموعة «مونيه» نفسها. فقلت إني أعرفها وأضفت (وأنا أوالي تقليد كلام الشقيق الذي لم أكن جرؤت بعد على ذكر اسمه) أنّه من المؤسف أنْ لم تخطر لها بالأحرى فكرة المجيء البارحة فلعلّها كانت استطاعت في الساعة نفسها أن تشاهد ضياء على طريقة «پوسّان»، لعل السيّدة «دوكامبرمير- لوغراندان» كانت دونما شكّ انتفضت كمن مُسَّتْ كرامتها في حضرة واحد من نبلاء الريف النورماندي يجهله آل «غيرمانت» ويقول لها إنّه كان يجدر بها أن تجيء البارحة. ولكنّي ربّما استطعت أن أكون بعد أكثر ألفة ولا تكون هي إلا نعومة طريّة ذائبة. كنت أستطيع في حرّ أواخر العشيّة الجميلة تلك أن أسرح كما يحلو لي في قرص العسل الضخم الذي يندر جدّاً أن تكونه السيّدة «دوكامبرمير» والذي حلّ محلّ المحمّصات الصغيرة التي لم يخطر لي أن أقدّمها. بيد أنّ اسم «بوسان» أثار احتجاجات الهاوية دون أن يبدّل من وداعة امرأة المجتمعات الراقية. وإذ سمعت السيّدة «دوكامبرمير» ذاك الاسم أصدرت ستّ مرّات متوالية لا يفصل بينها تقريبا أيّ فاصل زمني نقرة اللسان الصغيرة تلك على الشفتين والتي تفيد في إبلاغ طفل يرتكب حماقة لوماً على أنّه بدأ ونهياً عن المتابعة في الآن نفسه. «بحق السماء لاتبادر، بعد رساما مثل «مونيه» هو بكلّ بساطة عبقريّ، إلى تسمية مؤلّف مبتذل قديم تعوزه الموهبة من أمثال «پوسّان». سأقول لك بصراحة مكشوفة إني أجده من أكثر من يوردونك الملل. ماعساك تبغي، لست أستطيع تسمية ذلك رسماً. «مونيه»، «دوغا»، «مانيه»، أجل هؤلاء رسّامون! إنّه لأمر غريب جدّاً، تضيف قولها وهي تثبّت نظرة متفحّصة مبهورة على نقطة مبهمة في الفراغ كانت تلمح فيها فكرتها الخاصّة، إنّه لأمر غريب جدّاً، كنت فيما مضى أفضّل «مانيه»؛ والآن لا أزال معجبة بـ«مانيه» بالطبع، ولكنّي أظنّ أنّي ربّما أفضل عليه «مونيه» أيضا. آه! يا للكاتدرائيّات!» كانت تلجأ إلى قدر متساوٍ من الدقّة المتحسّبة والتلطف لإطلاعي على خطّ التطوّر الذي سلكه ذوقها. وكنت تحسّ أن المراحل التي تقلّب فيها هذا الذوق لم تكن في رأيها، أقلّ أهميّة من الأساليب المختلفة لدى «مونيه» نفسه. وماكان لي بأيّة حال أن اعتزّ بأنّها تُسرُّ إليّ بمواطن إعجابها لأنّها لم تكن تقوى، حتّى إزاء الريفيّة الأكثر محدوديّة، على البقاء خمس دقائق دون أن تحسّ بحاجة الإقرار بها. فحينما كانت سيّدة من نبلاء «أڤرانش»، لعلّها كانت عاجزة عن التمييز بين «موزارت» و «ڤاغنر» تقول في حضرة السيّدة «دوكامبرمير»: «لم يتوافر لناجديد مشوّق أثناء إقامتنا في باريس، فقد ذهبنا مرّة إلى دار «الأوبرا الهازلة، وكانوا يمثّلون فيها «بيلياس ومليزاند»، وياللقباحة»، لم تكن السيّدة «دوكامبرمير» تغلي فحسب بل تحسّ بحاجتها أن تصرخ: «إنّها على العكس رائعة مُلفتة»، و«تناقش». ربّما كانت تلك عادة في «كومبريه» اقْتُبِسَتْ عن شقيقات جدّتي اللواتي يسمّين ذلك «الكفاح في سبيل القضيّة الصحيحة» ويعشقن الأعشية التي يعلمن أنّهن مدعوّات فيها كلّ أسبوع إلى الدفاع عن آلهتهنّ ضدّ «غلاظ القلوب».

كذلك كانت السيّدة «دوكامبرمير» تحبّ أن «تهتاج» وهي في «شجار» حول الفنّ كأخريات حول السياسة. كانت تنحاز إلى «دوبوسّي» كما لعلّها تفعل بشأن واحدة من صديقاتها تُتّهم في سلوكها. على أنّه كان يجدر بها أن تدرك أنها لا تستطيع بقولها: « لا، إنّها رائعة مُلفتة» أن ترتجل لدى الشخص الذي كانت

تؤنّبه كامل التدرّج في تطوّر الثقافة الفنيّة الذي لعلّهما اتّفقا في نهايته دون أن تكون بهما حاجة إلى النقاش. وقال لي المحامي: «ينبغي أن أسأل «لوسيدانير» فكرته عن «پوسّان». إنّه انطوائي سكوت ولكنّي سأعرف كيف أدفعه إلى الكلام».

وتابعت السيّدة «دوكامبرمير» تقول: «إنّني على أيّ حال أنفر من مشاهد الغروب، فهي رومانتيكية، وهي أوپرالية. ولذلك أكره منزل حماتي بنباتاته الجنوبيّة. إنّه يبدو، كما سترى، كحديقة في «مونته كارلو»؛ ولذلك تراني أفضّل شاطئكم. إنّه أشدّ حزناً وأوفر صدقاً، وثمّة درب صغير لاترى البحر منه، وليس فيه في الأيّام الماطرة سوى الأوحال، إنّه عالم قائم بذاته، ذلك كمال البندقية، فإنّني أكره القناة الكبرى ولا أعرف شيئاً مؤثراً بقدر ما هي الجادّات الصغيرة، إنها مسألة محيط بأيّة حال». فقلت لها وبي إحساس بأن الطريقة الوحيدة لردّ اعتبار «پوسّان» في عيني السيّدة «دوكامبرمير» هي إطلاع هذه السيّدة على أنّه عاد فأصبح رائجاً: «ولكنّ السيّد «دوغا» يؤكّد أنّه لا يعرف ماهو أفضل من لوحات «پوسان» في «شانتيبي»».

وقالت السيّدة «دوكامبرمير» وهي لاتبغي أن تكون من رأي مخالف لـ«دوغا»: «عجباً! لست أعرف لوحات «شانتيبي» ولكنّي أستطيع التحدّث عن لوحات «اللوڤر» وهي قبيحة منفّرة». -«وإنّه لمعجب بها كذلك أشدّ الإعجاب». -«لابدّ أن أعود فأراها، فكلّ ذلك على شيء من قدم العهد في رأسي»، تجيب قائلة بعد لحظة صمت وكأنّما الحكم الإيجابي الذي ستطلقه بالتأكيد عمّا قريب على «پوسّان» إنّما يرتبط وجوباً لا بالخبر الذي حملته إليها منذ قليل، بل بالامتحان الإضافي والنهائي هذه المرّة التي كانت تعتزم إخضاع لوحات «پوسّان» في اللوڤر له كي يسعها الرجوع عن رأيها. واكتفيت بما كان بداية تراجع، بما أنّها إن لم تكن بعد معجبة بلوحات «پوسّان» كانت تؤجّل الأمر لمداولة أخرى، وبغية أن لا أدعها فترة أطول نهب العذاب قلت لحماتها كم حدّثوني عن الأزهار الرائعة في «فيتيرن». فتحدّثت بتواضع عن الحديقة المتنوّعة الصغيرة الكائنة في الخلف حيث كانت تذهب بمبذلها بعدما تدفع باباً لتلقى بالطعام لطواويسها وتجمع البيض وتقطف زينيّات أو وروداً كانت على حافّة الطاولة تجعل إطاراً من الزهر للبيض بالكريما أو الأطعمة المقليّة فتذكّرها بممرّاتها. وقالت لي: «صحيح أنّ لدينا الكثيرمن الورود، ومشتل الورود يكاد يكون قريبا جدّاً من بيت السكن، وثمّة أيّام يورّثني فيها صداعاً. والمتعة أعظم من شرفة «لاراسپليير» حيث تحمل الريح عطر الورود، ولكنّه أقلّ نفاذا مذذاك». والتفت إلى الكنّة وقلت لها كي أرضي ميلها إلى النزعة العصرية: «إنّها تماماً «پيلياس» رائحة الورود هذه التي تتعالى إلى الشرفات، وهي قويّة في التقسيم الموسيقي إلى حدّ أنّي كنت آخذ بالعطس، إذ أنا مصاب بحمّى القشّ وحمّى الورد، في كلّ مرّة كنت أسمع فيها ذاك المشهد»، صاحت السيّدة «دوكامبرمير» قائلة: «أيّة رائعة هي «پيلياس»! إنّي مشغوفة بها». واقتربت منّي بحركات امرأة متوحشّة ودّت لو تسبّب لي إزعاجا مستعينة بأصابعها لتنقر علامات موسيقيّة وهميّة وأخذت تدمدم شيئا افترضت أنّه يمثّل بالنسبة إليها وداع «پيلياس» وتابعت باصرار وعنف كما لو كان من الأهميّة بمكان أن تذكّرني السيّدة «دوكامبرمير» في هذا الوقت بذلك المشهد، أو ربّما أن تريني بالأحرى أنّها كانت تتذكّره، وأضافت قولها: «أظنّ أنّها حتّى أجمل من «پرسيفال» لأنّه إنّما ينضاف إلى أعظم مطارح الجمال في «پرسيفال» هالة من الجمل اللحنيّة، يعني التي عفّي عليها الزمن بما أنّها تطريبيّة». وقلت للوريثة: «أعرف أنّك موسيقيّة عظيمة

ياسيّدتي. وددت كثيراً لو أسمعك». ونظرت السيّدة «دوكامبرمير - لوغراندان» إلى البحر كي لا تشارك في الحديث. وإذ ترى أن ماكانت تحبّه حماتها لم يكن من الموسيقى في شيء فقد كانت تعتبر الموهبة (المزعومة في نظرها والبارزة كأكثر ماتكون في الواقع) التي يقرّون أنّها تتمتّع بها براعة لا طائل تحتها. صحيح أن تلميذة «شوبان» الوحيدة التي ماتزال على قيد الحياة كانت تصرّح بحقّ أن طريقة عزف المعلّم، أن إحساسه لم ينتقل عبرها إلاّ إلى السيدة «دو كامبرمير»، ولكنّ العزف على طريقة «شوبّان» ما أبعده كان عن أن يؤلفّ مرجعيّة في نظر شقيقة «لوغراندان» التي لاتزدري أحداً بقدر ازدرائها للموسيقي البولوني. وصاحت «ألبيرتين» قائلة: « آه ! إنّها تطير»، وهي تدلّني على النوارس التي تخلّت للحظة عن تنكّرها زهراتٍ وارتفعت جميعها صوب الشمس. وقالت السيّدة «دوكامبرمير» وهي تخلط بين النوارس وطيور القطرس: «تحول أجنحتها العملاقة دون مسيرها». وقالت «ألبيرتين»: «إنّي أحبّها كثيراً وكنت أشهد منها في «امستردام». إنّها تحسّ البحر وتُقبل لتنشّقه حتّى عبر أحجار الشوارع». وسألت السيّدة «دوكامبرمير» سؤال الآمر: «آه ! كنت في هولنده، فهل تعرفين الـ«فيرمير»[1]؟ تقولها بلهجة من لعلّه قال: «هل تعرفين آل «غيرمانت» ؟»، لأن السنوبيّة إن هي غيّرت موضوعها لا تغيّر لهجتها. وأجابت «ألبيرتين» أنْ لا لأنّها كانت تظنّهم أحياء يرزقون؛ ولكنّما لم يبدُ شيء من ذلك. وقالت لي السيّدة «دوكامبرمير»: «كان أسعدني أن أعزف لكَ شيئا من الموسيقى. ولكنّكَ تعلم، أنا لا أعزف سوى أشياء لا تثير اهتمام بني جيلك من بعد. فقد نشأت على حبّ «شوبان»، تقولها بصوت خفيض إذ كانت تخشى كنّتها وتعلم أن هذه ترى أنّ «شوبان» إذ ليس من الموسيقى في شيء فإنّ إجادة عزفه أو إساءة عبارتان لا معنى لهما. كانت تقرّ بأن حماتها تملك الآلية وتجيد العزف السريع». وتخلص السيّدة «دوكامبرمير - لوغراندان» إلى القول: «لن يحملوني يوماً على التصريح بأنّها موسيقيّة». لأنّها كانت تظنّ نفسها «متقدمة» وأنّها (في نطاق الفنّ فحسب) «لم تكن إلى اليسار بما يكفي البتّة»، فقد كانت تتصوّر أن الموسيقى لا تتطوّر فحسب، بل هي تفعل على خطّ وحيد وأن «دوبوسي» درجة تضاف نوعا ما إلى «فاغنر» وأنه متقدّم قليلاً على «فاغنر» .وما كانت تتنبّه إلى أن «دوبوسي» إن لم يكن مستقلاً عن «فاغنر» بقدر ماسوف تفتقده هي بعد بضع سنوات لأنّ المرء إنّما يستخدم الأسلحة التي غنمها كي يتحرر نهائيا من ذاك الذي غلبه مؤقّتا، فقد كان يجهد مع ذلك، في أعقاب الاكتفاء الذي يحسّ به المرء من الأعمال الكاملة المكمّلة التي تعبّر عن كلّ شيء، في إرضاء حاجة مغايرة. كان ثمّة نظريات بالطبع تدعم مؤقتاً ردّة الفعل هذه وهي مشابهة لتلك النظريات التي تساند في نطاق السياسة القوانين المناهضة للجمعيّات الدينيّة والحروب في الشرق (التعليم المضادّ للطبيعة، والخطر الأصفر، الخ.. الخ ....). كانوا يقولون إن عصر العجلة يناسبه فنّ سريع، تماما كما لعلّهم قالوا إن الحرب الآتية لا يمكن أن تدوم أكثر من خمسة عشر يوماً، أو أنّ الأركان الصغيرة الغالية على عربات الخيل سوف تهجر بظهور القطارات مع أن السيارة سوف تعيدها إلى الصدارة. وكانوا يوصون بأن لايرهقوا انتباه المستمع كما لو أننا لا نملك صنوف انتباه مختلفة يعود للفنّان بالضبط أن يوقظ أسمى أنواعها. فإن الذين يتثاءبون تعباً بعد عشرة سطور من مقالة ضحلة سبق أن أمّوا في كلّ عام «بايروت» لسماع «الرباعيّة». وعلى أيّ حال كان لابدّ أن يجيء اليوم الذي يعْلَن فيه لفترة من الزمن أن «دوبوسي» بمثل هشاشة «ماسّنيه» وأن

(١) تسأل عن لوحات الرسام الشهير «فيرمير» والسؤال بالفرنسيّة ملتبس ويعني آل «فيرمير» ولوحات «فيرمير».

انتفاضات «ميليزاند» انحدرت إلى مصاف انتفاضات «مانون». ذلك لأن النظريات والمدارس، شأن الميكروبات والكريّات، تتناهش وتضمن بصراعها استمرار الحياة، ولكن هذا الزمن لم يكن بعد قد حلّ.

ومثلما هي الحال في البورصة عندما يحدث ارتفاع ويفيد من ذلك قطاع كامل من القيم الماليّة، كان عدد من المؤلفّين المُزْدَرَيْن يفيد من ردّة الفعل، إمّا لأنّهم ماكانوا يستحقّون ذاك الازدراء، وإمّا لأنّهم تعرّضوا فحسب لذاك الخطر –الأمر الذي كان يفسح المجال لقول الجديد لدى امتداحهم–. بل كانوا يمضون باحثين في الحقب الخوالى عن بعض مواهب مستقلّة ماكان يبدو أن الحركة الراهنة سيكون لها أثر على سمعتهم ولكنّما نُقِلَ عن أحد أربابها الجدد أنّه قرن اسمهم بالتقدير. وكان ذلك في الغالب لأن الأستاذ، أي أستاذ، ومهما كانت مدرسته مقصورة حصريّة، إنّما يبدي رأيه في عاطفة أصيلة ويوفّي الموهبة حقّها حيثما وجدت، بل يفعل بالنسبة إلى إيحاء ممتع عرفه فيمامضى ويرتبط بفترة حبيبة من يفاعته، أكثرمنه بالنسبة إلى الموهبة. وأحيانا لأنّ بعض الفنانين من حقبة أخرى قد حقّقوا فى مقطوعة واحدة شيئا يشبه ماتبيّن الأستاذ شيئاً فشيئاً أنه كان يودّ أن يفعله بنفسه. حينئذ يبصر فى ذاك القديم كأنّما سلفاً له ويحب عنده بلبوس آخر، جهداً هو بصورة وقتية وجزئيّة أخويّ. فثمّة قطع من «تورنر» فى أعمال «بوسّان» وجملة لـ«فلوبير» في «مونتسكيو». وأحيانا كانت شائعة إيثار الأستاذ تلك نتيجة خطأ لا يعرف أحد أين نشأ وتناقلوه في المدرسة. ولكن الاسم المذكور كان يفيد آنذاك من المؤسّسة التي سبق أن دخل في الوقت المناسب في حمايتها لأنّه إن كان ثمّة بعض الحريّة وميل حقيقيّ في اختيار الأستاذ فإن المدارس فيما يخصّها لا تتوجّه من بعد إلاّ وفقا للنظريّة. وهكذا كان الفكر، في اتّباعه مجراه الطبيعي الذي يتقدّم استطراداً فينعطف مرّة في اتجاه والمرّة التالية في الإتجاه المعاكس، يعيد النور من فوق على عدد من الأعمال أضافت إليها الحاجة إلى العدالة أو التجديد، أو ذوق «دوبوسيّ» أو نزوة عابرة لديه أو كلام ربّما لم يقله، أعمال «شوبان». وإذ أوصى بها القضاة، وهم موضع ثقة تامة، وأفادت من موجة الإعجاب التي أثارتها «بيلّياس» فقد عادت فلقيت ألقاً جديداً وأضحى أولئك الذين لم يسبق أن عاودوا الاستماع إليها تتملّكهم رغبة شديدة في حبّها حتّى ليفعلون ذلك رغما عنهم وإن كانوا يتوهّمون الحرية في تصرفهم. ولكنّ السيّدة «دوكامبرمير – لوغراندان» كانت تقضي قسماً من العام فى الريف، بل هي، لمرضها، كانت حتّى في باريس تعيش كثيراً داخل غرفتها. صحيح أن مساوئ الأمر كان يمكن أن تحسّ بها على وجه الخصوص في اختيار التعابير التي تظنّها السيّدة «دوكامبرمير» رائجة ولعلها كانت تناسب بالأحرى اللغة المكتوبة، وهى فوارق ما كانت تميّزها، لأنّها أخذتها عن القراءة أكثر منها عن المحادثة. والمحادثة ليست ضرورية لمعرفة الآراء بدقّة ضرورة التعابير الجديدة. علـى أنّ تجـديد «الليليّات»[1] لم يكن بعد قد أُعلن من جانب النقّاد. وقد ذاع خبره فقط عن طريق محاضرات جماعة من الشبّان، وكان لا يزال مجهولاً لدى السيّدة «دوكامبرمير–لوغراندان». وقد لذّني أن أنقل إليها، ولكنّي أفعُل موجّها الحديث إلى حماتها، مثلما تلعب في البليـاردو على الجوانب بغيّة إصابة إحدى الكرات، أنّ «شوبّان» كان الموسيقيّ المفضّل لدى «دوبوسّي» وما كان متقادم العهد وما أبعد أن يكون. وقالت الكنّه في ابتسامة: «عجباً، ذلك ممتع»، كما لو لم يكن الأمر سوى مفارقة ألقى بها مؤلّف «بيلّياس». على أنّه كان من المؤكد الآن أنّها لن

(١) مقطوعات من تأليف «شوبان».

تسمع «شوبّان » من بعد إلاّ بإحلال وحتّى بغبطة. ولذلك فإن كلماتي التي دقّت منذ قليل ساعة الخلاص بالنسبة إلى الوريثة أشاعت في محيّاها علائم الامتنان لي ولاسيّما الغبطة. والتمعت عيناها مثل عيني «لاتود» في المسرحية التي عنوانها «لاتود أو خمسة وثلاثون عاماً في الأسر» وتنسّم صدرها هواء البحر بذاك الاتّساع الذي أجاد «بيتهوفن» إلى حدّ بعيد في الإشارةإليه في أوبرا «فيديليو» حينما يستنشق سجناؤه أخيراً «ذاك الهواء المحيي». وخلت أنّها ستطبع على خدّي شفتيها «المشوربتين». «كيف هذا، تحبّ «شوبّان» ؟ إنّه يحبّ «شوبّان»، يحبّ «شوبّان»، تصرخ قائله في خنّة حماسيّة كما لعلّها كانت تقول «عجباً، تعرف كذلك السيّدة «دو فرانكتو» ؟» يفارق أن علاقاتي بالسيّدة «دوفرانكتو» ربّما كانت غيرذات بال إلى أبعد حدّ في نظرها فيما دفعتها معرفتي لـ«شوبان» إلى ضرب من الهذيان الفنّيّ. ولم يعد فرط الإفراز اللعابي كافياً. وهي حتّى لم تحاول أن تفهم دور «دوبوسي» في اعادة اكتشاف «شوبان» بل أحسّت فحسب أن الحكم الذي أصدرته كان لصالحه، وتملّكتها الحماسة الموسيقيّة. «إيلودي! إيلودي! إنّه يحبّ «شوبان». وارتفع نهداها وضربت الهواء بذراعيها، وصاحت قائلة: «لقد شعرت تماماً أنّك موسيقيّ. وإني أدرك أنّك تحبّ ذلك، وأنت «فنّان» بطبيعتك فيالجماله !» وكان صوتها حصيّاً كما لو أنّها في سبيل التعبير عن تحمّسها لـ«شوبان» ملأت فمها، مقلّدة بذلك «ذيموستين»[1] بحصى الشاطئ جميعها. ثمّ كان الجزر فبلغ حدّ غلالة الوجه التي لم يتّسع لها الوقت لوضعها في مكان آمن وجرى اختراقها، وأخيراً مسحت المركيزة بمنديلها المطرّز الزبد الراغي الذي بلّلت ذكرى «شوبّان» شاربيها به.

وقالت لي السيدة «دو كامبرمير – لوغراندان»: «يا إلهي، أظنّ أن حماتي تبالغ قليلاً في تأخّرها وتنسى أنّنا نستضيف على العشاء عمّي «دو شنوفيل». ثمّ إن «كانكان» لا يحبّ الانتظار». ظلّت «كانكان» غير مفهومة عندي وظننت الأمر ربّما عنت به كلباً. أما فيما يخصّ أبناء عم «شنوفيل» فدونك الأمر. لقد خفّت لدى المركيزة الشابّة المتعة التي كانت تحسّها في نطق اسمها على هذا النحو، وقد سبق لها مع ذلك أن قرّرت الزواج للتمتّع بنطقه، وكانوا في جماعات أخرى من المجتمعات الراقية حينما يتحدّثون عن آل «شنوفيل» قد اتخذوا عادة التضحيّة بصائت «دو» (على الأقل في كلّ مرّة يكون الحرف فيها مسبوقاً باسم نهايته صائت، إذ هم مضطرّون في الحالة المقابلة أن يتّخذوا من «دو» نقطة استناد، فاللغة لاتطيق أن يقال «مدام دشنونسو»). فكانوا يقولون: « السيّد «دشنوفيل». وكان التقليد معكوساً في أسرة «كامبرمير» ولكنّه بمثل حتميّته، فقد كان ما يحذف على الدوام هو صائت شنوفيل» فتقال «شنوفيل». وسواء كان الاسم مسبوقاً «بابن عمّي أو ابنة عمّي» فقد كان على الدوام «دو شنوفيل» وما كان في يوم «دو شنوفيل». (أمّا بالنسبة لوالد أفراد أسرة «شنوفيل» فقد كانوا يقولون «عمّنا» إذ لم يكونوا على قدر كاف من النخبويّة في «فيتيرن» ليقولوا «عمّو» كما لعل آل«غيرمانت» كانوا فعلواء هم الذين كانت لغتهم الغريبة المقصودة التي يحذفون السواكن فيها ويضفون شكلاً وطنيّاً على الأسماء الأجنبيّة صعب الفهم صعوبة الفرنسيّة القديمة أو اللهجات المحكيّة الحديثة). كان كلّ شخص يدخل في أسرة «كامبرمير» يتلقّى في الحال حول هذه النقطة المتعلّقة

(١) خطيب مفوّه من عصر «فليبّس» المقدوني والد الاسكندر الكبير، وكان في بداياته ألثغ متعثّر اللفظ، فلم يزل يجهد في ذلك بوضع الحصاة تحت لسانه حتّى استقام أمره.

بآل«شنوڤيل» تحذيراً لم تكن الآنسة «لوغراندان» بحاجة إليه. وإذ سمعت ذات يوم في زيارة لها فتاة تقول: «عمّتي دوزيه» و«عمّو دو روان»[1] فإنها لم تتعرّف في الحال الاسمين الشهيرين اللذين تعوّدت أن تلفظهما «أوزيس» و«روان» وقد أخذ منها العجب والارتباك والخجل الذي يصيب واحداً يجد أمامه على المائدة أداة اخترعت حديثاً لا يعرف كيفية استخدامها فلا يجرؤ على مباشرة الأكل بها. ولكنّها في الليلة التالية والغد ردّدت مفتونة: «عمّتي دوزيه» بحذف حرف السين الأخير، وهو ما سبق أن أذهلها البارحة ولكنّما يبدو لها الآن من قبيل الابتذال الشديد أن لا يعرفها المرء إلى حدّ أن الآنسة «لوغراندان» أجابت واحدة من صديقاتها حدّثتها عن تمثال نصفي للدوقة «دوزيس» أجابت بامتعاض وبلهجة مستكبرة: «بمقدورك على الأقلّ أن تتلفّظي كما ينبغي أن تفعلي: مام (مدام) دوزيه». لقد أدركت مذذاك أنّه بمقتضى استحالة الموادّ الصلبة عناصر أكثر فأكثر خفّة ورقّة فإن الثروة الضخمة المكتسبة بصورة شريفة جدّاً والتي ورثتها عن والدها والتربية الشاملة التي حازتها ودوامها ومثابرتها في «الصوربون»، سواء على دروس «كارو» أو دروس «برونتيير» وحفلات «لامورو» الموسيقيّة، كل ذلك كان ينبغي أن يتبخّر ويلقى تصعيده الأخير في متعة أن تقول ذات يوم: «عمّتي دوزيه».

ولكنّما لايقصي من فكرها أنّها ستستمرّ، على الأقلّ في الفترات الأولى التي تلي زواجها، في عشرة، لا بعض الصديقات اللواتي تحبّهنّ واللواتي تسلّم بالتضحية بهنّ، بل بعض الأخريات اللواتي لاتحبّهنّ وتودّ أن يمكنها أن تقول لهنّ «إذ هي ستتزوّج لهذه الغاية»: «سأقدّ مكنّ لعمّتي دو شنوڤيل» و«سوف أوفر لكنّ عشاء مع أسرة «أوزيه»». وقد وفّر زواج الآنسة «لوغراندان» من السيّد «دوكامبرمير» وفّر لها فرصة أن تقول الأولى من هاتين الجملتين لا الثانية إذ لم يكن المجتمع الذي يرتاده حمواها ذاك الذي ظنّت والذي ما انفكّت تحلم به. وهكذا فإنّها بعدما قالت لي عن «سان لو» (متّخذة لذلك عبارة لـ «روبير»، إذ كانت، إن أنا تكلّمت للحديث معها مثلما يفعل «لوغراندان»، تجيبني بإيحاء معاكس بلهجة «روبير» التي لاتعرف أنّها مقتبسة من «راحيل»)، وهي تقرّب إبهامها من سبابتها في نصف إغماضة كما لو انّها تنظر إلى شيء في غاية الدقّة تمكّنت من التقاطه: «إنّه يملك فكراً من نوعية محبّبة»، امتدحته بقدر من الحماسة كبير حتّى لأمكن الظنّ أنّها كانت مغرمة به (وكانوا زعموا بأيّة حال أنّ «روبير» فيما مضى، حينما أقام في «دونسيير»، كان عشيقاً لها)، ولكنّها فعلت في الواقع لمحض أن أردّد ذلك على مسامعها ولتصل إلى هذا: «إنّك وثيق الصلة بالدوقة «دوغيرمانت»، وإنّي أكابد الآلام وأكاد لا أخرج وأعرف أنّها تظلّ حبيسة حلقة من الأصدقاء المختارين، وهذا ما أراه جيّداً جدّاً، ولذلك فمعرفتي بها هيّنة جدّاً ولكنّي أعرف أنّها امرأة رفيعة المستوى». وإذ كنت أعلم أن السيّدة «دو كامبرمير» تكاد لا تعرفها وكيما أجعل نفسي صغيراً بقدر ما كانت هي فقد مررت مرور الكرام على هذا الموضوع وأجبت المركيزة بأني عرفت بوجه الخصوص شقيقها السيّد «لوغراندان». واتّخذت لدى سماع هذا الاسم الهيئة المتهربة نفسها التي اتخذتها بشأن السيّدة «دوغيرمانت»، ولكنّما أضافت إليها ملامح استياء لأنّها ظنّت أنّني قلت ذلك لا لأذلّ نفسي بل لأذلّها. فهل كان يتأكلّها اغتمامها أن تكون ولدت

(1) d'Uzai بدلاً من d'Uzès، وRouan بدلاً من Rohan.

لآل«لوغراندان» ؟ ذلك على الأقلّ ما كانت تزعمه شقيقات وبنات حمي زوجها، وهنّ سيّدات نبيلات من الريف ما كنّ يعرفن أحداً ولايعرفن شيئاً ويحسدن السيّدة «دوكامبرمير» ذكاءها وتعليمها وثروتها والمفاتن الجسمانيّة التي كانت لها قبل أن يداهمها المرض. «إنّها لا تفكّر في أيّ أمر آخر وهذا مايقتلها»، تقول تلك الخبيثات حالما يتحدّثنّ عن السيّدة «دو كامبرمير» إلى أحدهم، والأفضل إلى أحد أبناء الطبقة الدنيا إمّا لإضفاء قيمة أوفر، بالتوكيد على مافي الطبقة الدنيا من خزي، على اللطف الذي يبدينه له، إن كان مغروراً غبياً، فإن كان خجولاً مرهفاً ويطبّق القول على نفسه فليصبن متعة فيما يحسنّ استقباله في توجيه وقاحة غير مباشرة إليه. ولكن إن ظنّت تلك السيّدات أنهنّ يقلن الحقيقة بالنسبة إلى نبت حميهنّ فقد كنّ على ضلال. فإن هذه قد تقلّصت معاناتها من أنّها ولدت لآل«لوغراندان» بقدر ما كانت قد نسيت ذكراها. واستاءت من أني رددت ذلك عليها وصمتت كما لو لم تفهم إذ لا ترى ضرورة في توفير ايضاح ولا حتّى توكيد لأقوالي.

«ليس أهلنا السبب الرئيسيّ لتقصير زيارتنا»، تقول السيّدة «دو كامبرمير» الوريثة التي كانت على الأرجح أكثر لامبالاة من زوجة ابنها بشأن المتعة الناجمة عن قولها: «شنوفيل» ؛ ولكن السيّد، تقول وهي تشير إلى المحامي، لم يجرؤ، بغية أن لا يتعبك بمزيد من الناس، على إحضار زوجته وابنه إلى هنا وهما يتنزّهان على الشاطئ بانتظارنا ولا بدّ أنّهما بدأا يتضجّران» وطلبت وصفهما لي وصفاً دقيقاً وأسرعت لإحضارهما. كان للمرأة وجه مستدير شبيه ببعض الأزهارمن فصيلة الشقيقيّات وفي زاوية العين علامة نباتيّة على اتّساع كاف. وإذ تحتفظ أجيال الناس بسماتها شأن فصيلة من النباتات، فإن العلامة نفسها، كما هي الحال على وجه الوالدة المتغضّن، العلامة التي ربّما أمكن أن تعين على تصنيف نوع معيّن، كانت تنتفخ في أسفل عين الابن. لقد أثّرت عنايتي بزوجة المحامي وبولده في نفسه. فأبدى اهتماماً بشأن اقامتي في «بالبيك». «لابدّ أنّك تجد نفسك في جوّمن الغربة، فههنا أجانب في الكثير الغالب». وكان ينظر إليّ فيما يحدّثني لأنّه يودّ، وهو لا يحبّ الأجانب مع أن كثيرين منهم من زبائنه، أن يتأكدّ أنّي لا أناهض عداءه للأجانب فلعلّه كان تراجع إذ ذاك قائلا: «يمكن بالطبع أن تكون السيّدة «س» امرأة رائعة. إنّها مسألة مبادئ». ولمّا لم أكن أحمل في تلك الحقبة أيّ رأي حول الأجانب فلم أبد أيّ استنكار وأحسّ أنّه في أرض آمنة. وبلغ به أن سألني المجيء ذات يوم إلي بيته في باريس لمشاهدة مجموعة «لوسيدانير» التي يملكها وأن أحمل أسرة «كامبرمير» على المجيء معي وكان يظنّ بجلاء أني على علاقة حميمة بهم. «سوف أدعوك بصحبة «لوسيدانير»، يقول وهو واثق أنّي لن أعيش من بعد إلاّ بانتظار هذا اليوم المبارك. وسترى أيّ رجل رائع هو، وتفتنك لوحاته. لا يسعني بالطبع منافسة كبار أصحاب المجموعات ولكنّي أظنّ أنّي من يملك العدد الأكبر من لوحاته المفضّلة. وسوف يزيد من اهتمامك وأنت من «بالبيك»، أنّها في القسم الأكبر منها على الأقلّ لوحات بحريّة». كانت المرأة والابن اللذان يتّسمان بالطابع النباتي يصغيان خاشعين. وكنت تحسّ أن فندقهما في باريس نوع من المعبد مكرّس لـ«لوسيدانير» ومثل هذه المعابد ليس غير ذي جدوى فالإله حينما تنتابه شكوك حول ذاته يسدّ بيسر شقوق رأيه بشهادات لاتدحض يجود بها أناس كرّسوا حياتهم لأعماله.

كانت السيّدة «دو كامبرمير» تزمع النهوض بناء على إشارة من كنّتها وتقول لي: «بما أنّك لا تنوي الإقامة في «فيتيرن» أفلست تريد المجيء للغداء في أحد أيّام الأسبوع، في الغد مثلاً» وأضافت بلهجة رفيقة

وكيما تقنعني: «سوف تعود فتلقى الكونت «دوغريزنوا»، وما كنت أضعته في يوم، والسبب أني ما كنت أعرفه. وكانت آخذة بعرض اغراءات أخرى عليّ، ولكنّها توقّفت على الفور. فإن الرئيس الأوّل الذي علم لدى عودته أنّها في الفندق بحث عنها خفية في كلّ مكان وانتظرها فيما بعد وأقبل وهو يتظاهر بأنّه يلتقيها مصادفة ليقدّم لها مظاهر احترامه. وأدركت أن السيّدة «دوكامبرمير» لم تكن حريصة على أن تشمله الدعوة على الغداء التي وجّهتها إليه منذ قليل، مع أنه كان أسبق منّي إلى معرفتها بفترة طويلة إذ كان منذ سنوات أحد روّاد حفلات العصر في «فيتيرن». وما أكثر ما كنت أشتهيها طوال إقامتي الأولى في «بالبيك»، ولكنّ القدَمَ لا يمثّل كلّ شيء في نظر ناس المجتمع الراقي، وهم يفضّلون أن يخصّوا بحفلات الغداء المعارف الجدد الذين لا يزالون يستثيرون فضولهم ولاسيّما إن جاؤوا تسبقهم توصية مهيبة حارّة كتوصية «سان لو». وقدّرت السيّدة «دوكامبرمير» أن الرئيس الأول لم يسمع ماقالته لي ولكنّها توجّهت إليه بألطف القول لتهدّئ ما تعانيه من ندم. وأبصرنا في ضياء الشمس الذي كان يغرق في الأفق شاطئ «ريفبيل» المُذهب، ولا يرى عادة، أبصرنا بوضوح أجراس «التبشير» الصغيرة تقرع في محيط «فيتيرن» وهي تكاد لا تنفصل عن زرقة السماء المشرقة وتطلع من المياه وردّية فضيّة الرنّة تكاد لا تسمع. ولفتُّ السيّدة «دوكامبرمير – لوغراندان» قائلاً: «ذلك أيضاً من لون «بيلياس» إلى حدّ ما؛ تعرفين المشهد الذي أعنيه». –«اعتقد تماما أني أعرف»؛ ولكنّما صوتها ووجهها اللذان لم يتّخذا قالب أيّ ذكرى، وكذلك ابتسامتها السائبة التي لا مرتكز لها كانت كلّها تعلن قائلة: «لست أعرف على الإطلاق» كانت الوريثة في ذهول أن يصل صوت الأجراس إلى هنا ونهضت وهي تفكّر بالسّاعة، وقلت: « ولكن بالفعل لسنا نرى عادة ذلك الشاطئ من «بالبيك»، كما لا نسمعه أيضا. لابدّ أن يكون الطقس تبدّل وضاعف من اتّساع الأفق؛ ما لم تكن أقبلتْ تبحث عنك إذ أراها تحملك على الرحيل، فهي بالنسبة إليك جرس العشاء». كان الرئيس الأوّل، وهو قليل التأثّر بالأجراس، يتطلّع خلسة إلى السدّ الذي تغمّه رؤيته بهذا الإقفار. وقالت لي السيّدة «دوكامبرمير»: «إنّك شاعر حقيقيّ، ويحسّك المرء عميق الانفعال وفناناً إلى أبعد حدّ». وأضافت تقول وهي ترفع ذراعيها بهيئة المتهلّل وتنطق كلماتها بصوت أجشّ يبدو وكأنّه ينقلّ حصى: «تعال، سأعزف لك من موسيقى «شوبان».» ثم جاء دور بلع اللعاب ومسحت السيّدة العجوز بمنديلها شعر شاربها الخفيف المصفوف على الطريقة الأميركيّة وفعلت بصورة عفويّة. وأدّى لي الرئيس الأوّل دونما قصد خدمة كبيرة جدًا وهو يمسك بذراع المركيزة ليصحبها إلى عربتها، إذ يملي مقدار من السوقيّة والجرأة والميل إلى التباهي سلوكًا ربّما تردّد الآخرون في حمل مسؤوليته وما أبعد أن يسوء في دنيا المجتمعات. وكان على أيّ حال قد تعوّد ذلك أكثر مني منذ سنوات كثيرة. وفيما كنت أباركه لم أجرؤ على تقليده وسرت إلى جانب السيّدة «دوكامبرمير – لوغراندان» التي أرادت أن ترى الكتاب الذي كان بيدي. ودفعها اسم السيّدة «دو سيفينييه» إلى قلب شفتها؛ وسألتني، وهي تلجأ إلى كلمة سبق أن قرأتْها في بعض الصحف ولكنّها كانت إذ ينطق بها وتؤنّث وتنطبق على كاتب من القرن السابع عشر تخلّف أثراً غريباً: «أو تجدها بالحقيقة ذات مواهب» ؟ وزودت المركيزة الخادم الخاصّ بعنوان حلواني ينبغي أن تمرّ به قبل أن تنطلق ثانية في الطريق الورديّة من غبار المساء وحيث أخذت الجروف المتدرّجة تكتسي زرقه وقد تشكّلت أردافاً، وسألت حوذيّها الشيخ إن كان أحد جيادها، وكان بَرِيداً، قد أصاب قسطاً كافياً من الدفء وإن كان حافر

الآخر لا يؤلمه. وقالت لي بصوت خافت: «سأكتب إليك عمّا يجدر الإتفاق حوله. لقد لاح لي أنك كنت تتحدّث عن الأدب مع كَتّي»، وأضافت تقول: «إنّها رائعة»، مع أنّها لا تظنّ ذلك ولكنّها تعوّدت - واحتفظت بعادتها تلك عن كرم نفس - أن تقول في غمغمة أخيرة متحمّسة: «ثمّ إنّها فنّانة، وأيّة فنّانة!» ثم استقلّت عربتها وهي ترجّح رأسها وترفع عصا شمسيّتها وانطلقت عبر شوارع «بالبيك» تثقلها أثواب كهنوتها، شأن مطران شيخ في جولة تثبيت[1].

قال لي الرئيس الأول بنبرة قاسية بعدما ابتعدت العربة وعدت برفقة صديقاتي: «لقد دعتك إلى الغداء. ونحن على فتور علاقة، فإنّها ترى أنّي أهملها. أجل، إنّي سهل معايشتي، فإن كانوا بحاجة إليّ فإنّي على الدوام هنا لأجيب: «حاضر». ولكنّهم أرادوا الاستئثار بي. أمّا هذا، يضيف قوله بهيئة متذاكية وهو يرفع إصبعه كمن يفرّق ويحاجّ، فلست أسمح به، وإنّمايعني المساس بشؤون عطلتي، لقد اضطررت أن أقول: « مكانك، قف!» تبدو على مايرام معها. وعندما تبلغ عمري ستتبيّن أنّ المجتمع الراقي أمر هيّن جدّا وستندم على ايلائك هذا القدر من الأهميّة لهذه الهنات. وهيّا، سأقوم بجولة قبل العشاء». وصاح كأنّما لا يكلّم أحداً وكأنّه ابتعد خمسين خطوة: «الوداع يا أولاد»!

حينما استودعتُ «روزموند» و«جيزيل»، أبصرتا بدهشة «ألبيرتين» متوقفة لا تتبعهما. «ويحك، يا «ألبيرتين» ما عساك تفعلين، أو تعرفين الساعة»؟ فأجابتهما بقوّة: «عودا أنتما»، وأضافت قولها وهي تشير إليّ بخضوع: «لديّ حديث معه». ونظرت «روزموند» و«جيزيل» إليّ وقد داخلهما احترام جديد في النظرة إليّ. كان يغبطني أن أشعر، لبرهة على الأقلّ، أني كنت في نظر «روزموند» و«جيزيل»، شيئا أكثر أهميّة بالنسبة إلى «ألبيرتين» من ساعة العودة ومن صديقاتها وأنّه يمكن أن يكون بيننا أسرار خطيرة يستحيل إشراكهما بها». -«وهل نراك هذا المساء»؟ -«لست أدري فالأمر مرهون به. إلى الغد في جميع الأحوال». وقلت لها بعدما ابتعدت صديقتاها: «هيا نصعد إلى غرفتي». وأخذنا المصعد، فصمتت أمام عامل المصعد. ذلك أن عادة الإضطرار للجوء إلى الملاحظة الشخصيّة والإستقراء لمعرفة شؤون الأسياد، هؤلاء الناس الغريبو الأطوار الذين يتحدّثون فيما بينهم ولا يكلّمونهم إنّما تنمّي لدى «الموظفين» (كما كان عامل الصعد يدعو الخدم) قدرة على التكهّن أعظم ممّا يتوافر «لأرباب العمل». فإن الأعضاء تضمر أو تصبح أكثر قوّة أورهافة حسبما تتعاظم الحاجة اليها أو تتناقض. ومنذ نشأة الخطوط الحديدية علّمتنا ضرورة أن لا يفوتنا القطار أن نحسب حساب الدقائق فيما المفهوم لدى قدماء الرومان الذين لم يكن علم الفلك عندهم أكثر بدائيّة فحسب بل كانت الحياة عندهم أقلّ استعجالا، فإنّ مفهوم الدقائق بل حتى مفهوم الساعات المحدّدة، كاد يكون معدوما. ولذلك كان عامل المصعد قد أدرك أنّنا، أنا و«ألبيرتين» قلقان ويعتزم أن يروي عن ذلك لرفاقه. ولكنّه كان يكلّمنا دون انقطاع إذ هو يفتقر إلى اللياقة. بيد أنّي كنت أرى هيئة من الانكسار والاضطراب الغريبين ترتسم على وجهه وقد حلّت محلّ شعور الودّ والغبطة المعتاد لديه من جرّاء اصطحابي في صعده، ولمّا كنت أجهل سببهما فقد قلت له في محاولة منّي لصرف انتباهه عنهما، ومع أنّي كنت أكثر انشغالا بـ«ألبيرتين» قلت له إنّ السيّدة التي غادرت توّاً تدعى المركيزة «دوكامبرمير» وليس «دوكامنبير». وأبصرت في الدور الذي كنّا نمر أمامه

(١) من الطقوس الكنسيّة لدى المسيحيّين وهو مكمّل لطقس المعموديّة.

حينذاك وصيفة دميمة تحمل مسنداً وقد حيّتني بإجلال وهي تأمل اكراميّه عند الرحيل. وددت لو أعلم إن كانت هي التي اشتهيتها كثيراً في عشيّة حلولي الأول في «بالبيك» ولكنّي لم أفلح البتّة في بلوغ أيّ يقين بهذا الشأن. وأقسم لي عامل المصعد بصدق معظم شهود الزور، ولكن دون أن تفارقه هيئته اليائسة، بأن المركيزة طلبت منه تقديمها باسم «دوكامنبير». وكان من الطبيعي، كي نصدق القول، أن يكون سمع اسماً سبق أن عرفه. ثمّ لمّا كان يملك حول طبقة النبلاء وطبيعة الأسماء التي تصاغ بها الألقاب المفاهيم الشديدة الغموض التي يحملها كثيرمن الناس ليسوا عمّال مصاعد، فقد بدا له اسم «كامنبير» محتملاً يزيد من احتماله أنه، لمّا كانت هذه الجبنة معروفة في كلّ أنحاء العالم، ماكان ينبغي أن ندهش من أنّهم استخلصوا لقب مركيز من سمعة ماجدة إلى هذا الحدّ، مالم يكن اللقب نفسه هو الذي أعطى الجبنة شهرتها. ولكنّه لما لاحظ أني لاأودّ الظهور بمظهر من أخطأ وكان يعلم أن الأسياد يحبّون أن تُطاع أهواؤهم الأكثر تفاهه وتُقبل كذباتهم الأكثر وضوحاً وعدني وعد الخادم الطيّب أن يقول: «كامبرمير» من الآن فصاعداً، صحيح أنّه ما كان لدكّانيّ في المدينة ولا لفلاّح في الضواحي حيث كان اسم وشخص آل«كامبرمير» معروفين تمام المعرفة ان يقعا في يوم في مثل خطأ عامل المصعد، ولكنّ مستخدمي «فندق بالبيك الكبير» لم يكونوا من أبناء المنطقة؛ فهم يجيئون مباشرة بكامل معدّاتهم من «بياريتز» و«نيس» و«مونته كارلو»، فيُوَجّه قسم إلى «دوڤيل» وآخر إلى «دينار» والثالث يُخَصّص لـ «بالبيك».

ولكنّ ألم عامل المصعد وقلقه لم يكفّا عن التنامي. كان لابدّ أن تكون حلّت به مصيبة كي ينسى هكذا أن يُعرب لي عن إخلاصه بابتساماته المعتادة، فربما كانوا صرفوه. وعزمت في مثل هذه الحال أن أحاول الحصول على استبقائه إذ وعدني المدير بالمصادقة علي كلّ ما أقرّر بخصوص مستخدميه «تستطيع دوماً أن تفعل ماتشاء فإني «أصدّقك» سلفا.» وأدركت فجأة وأنا أغادر المصعد ضيق عامل المصعد ومظهر الذهول لديه. ذلك أني لم أكن أعطيته بسبب وجود «ألبيرتين» المئة فلس التي تعوّدت أن أنقده إيّاها في صعودي. وكان ذلك المعتوه قد أخذ يرتجف مفترضاً أن الأمر انقضى إلى غير رجعة وأنني أعطيه شيئاً من بعد، بدلاً من أن يدرك أنّني ما كنت أريد أن أقدّم إكراميّاتي للآخرين على رؤوس الأشهاد. كان يتصوّر أنّي زلّت بي القدم إلي «درك العوز» (كما لعلّ الدوق «دوغيرمانت» كان قال) وما كان افتراضه يوحي إليه بأيّ إشفاق عليّ بل بخيبة أمل أنانيّة رهيبة. وقلت في نفسي إنني كنت أقلّ بعداً عن الصواب مّما ترى أمّي حينما لا أجرؤ أن لا أعطي ذات يوم المبلغ المغالي فيه والمُنتَظر على نار الذي سبق أن أعطيته البارحة. كذلك بدا لي المدلول الذي أعطيته حتّى ذاك، ودون أن يداخلني أيّ شكّ، لمظهر الغبطة المعتاد الذي ما كنت أتردّد أن أبصر فيه دلالة حبّ، بدا لي غير مؤكّد المعنى تماماً، وإذ رأيت عامل المصعد على استعداد في خضمّ يأسه أن يلقي بنفسه من الدور الخامس أخذت أتساءل، لو اتّفق لشروطنا الاجتماعيّة أن تتبادل فيما بينها من جرّاء ثورة على سبيل المثال، إن لم يكن عامل المصعد ألقى بي، وقد أضحى بورجوازيّاً، من فوق المصعد بدلاً من قيادته بشكل لطيف من أجلي، وإن لم يتوافر لبعض طبقات الشعب قدر من النفاق أكبر ممّا يقع في المجتمع الراقي حيث يحتفظون دونما شكّ لغيابنا بالأقوال المسيئة، ولكنّما لا يكون موقفهم منا مُهيناً لو كنّا تعساء.

على أنّه لا يسعنا أن نقول إنّ عامل المصعد كان الأكثر نفعيّه في فندق «بالبيك»، فقد كان المستخدمون

ينقسمون من وجهة النظر هذه إلي فئتين: فمن جهة الذين يقيمون فروقاً بين الزبائن وهم أكثر تأثراً بالإكرامية المعقولة التي يقدّمها نبيل عجوز (قادر من جانب آخر على تجنيبهم ٢٨ يوماً إذ يوصي بهم الجنرال «دوبوتريبي») منهم بالعطايا غير المتروّية يقدّمها حديث نعمة يكشف بذلك عن افتقار لحسن التصرّف يدعونه في حضرته فقط طيبة. ومن جهة أخرى، الذين لا وجود عندهم لنبل وذكاء وشهرة ومركز وسلوك وقد غطّى عليه رقم. وما كان في نظر هؤلاء سوى مراتبية واحدة هي مقدار ما لديك من مال، أو بالأحرى ماتعطي من مال. وربّما كان «إيميه» نفسه، مع أنّه يزعم لنفسه، بسبب عدد الفنادق الكبير الذي خدم فيه، مقداراً كبيراً من معرفة أمور المجتمع، ربّما كان ينتسب إلي تلك الفئة. كان علي الأكثر يضفي مظهراً اجتماعياً وشيئاً من معرفة الأُسَر على نمط التقدير ذاك فيقول عن الأميرة «دولوكسمبور» مثلا: «أهنالك مال كثير»؟ (وعلامة الاستفهام هنا كيما يستعلم أو يتحقّق نهائياً من المعلومات التي جمعها قبل أن يوفّر لأحد الزبائن رئيس طبّاخين في باريس أو يضمن له طاولة على اليسار في المدخل مع إطلالة على البحر في «بالبيك»). وهو على الرغم من ذلك، ودون أن يخلو من المصلحة، ما كان ليبرزه على الملأ باليأس الأحمق الذي أبداه عامل المصعد. ربّما كانت سذاجة هذا الأخير على أيّ حال تبسّط الأمور. إن التيسير الذي يوفّره فندق كبير أو بيت من نحو ما كان فيما مضى بيت «راحيل» أنّ رؤية ورقة من فئة المئة، وكم بالأحرى فئة الألف فرنك، حتّى إن أُعطيت هذه المرّة لآخر غيره، إنّما تشيع، دونما وسطاء، ابتسامة وعروضاً على وجة مستخدم أو إمرأة ظلّ حتّي ذاك جامداً. ثمّة على العكس في السياسة وفي علاقات العاشق بعشيقته أشياء ما أكثرها تقوم بين المال ولين العريكة، أشياء كثيرة حتّى ليعجز في الغالب هؤلاء الذين يوقظ المال البسمة لديهم في نهاية المطاف عن تعقّب السيرورة الباطنة التي تربط بينها ويظنون أنّهم أكثر رقّة، وأنّهم لكذلك. ثمّ إنّ ذلك يخلّص المحادثة المهذّبة من الشوائب التي من قبيل «أعرف مايقع عليّ فعله بعد، ففي غد يجدونني في غرفة عزرائيل». لذلك تصادف في المجتمع المهذّب القليل من الروائيّين والشعراء وجميع الشخصيّات الرفيعة التي تتكلّم بالضبط عمّا لاينبغي قوله.

وما أن أضحينا وحدنا وولجنا الممرّ حتّى قالت لي «ألبيرتين»: «ماالذي تتهمني به؟» فهل كانت قسوتي عليها أكثر إيلاما لي؟ وهل كانت من جانبي محض حيلة لا شعوريّة تبغي إيصال صديقتي في مواجهتي إلى موقف الخشية والرجاء ذاك الذي قد يمكنّني أن أسألها وربّما أن أعلم أيّ الفرضيتين اللتين كوّنتهما عنها كانت هي الصحيحة؟ ومهما يكن من أمر، فإني حينما سمعت سؤالها أحسستني فجأة كمن يبلغ هدفاً تمنّاه منذ زمن طويل. وقبل أن أجيبها صحبتها إلى بابي. وردّ الباب إذ انفتح النور الورديّ الذي كان يملأ الغرفة ويبدّل قماش الموسّلين الأبيض الذي صنعت منه الستارات المرخاة على العشيّة قماش «لمباس»[1] بلون الشفق. وذهبت حتّي النافذة. كانت طيور النورس قد حطّت من جديد على الماء ولكنّها ورديّة الآن. ولفتّ «ألبيرتين» إلي ذلك فقالت: «لاتغيّر خطّ الحديث وكن صريحاً معي». فكذبت وصرّحت لها أنّه ينبغي أن تصغي إلى إقرار يسبق ذلك وهو عن شغف عظيم كان يعتمل فيّ منذ زمن إزاء «أندريه»، وقد فعلت ببساطة وصراحة جديرتين بالمسرح ولكنّما لايوافيانك في حياتك إلاّ بشأن صنوف الحبّ التي لا تحس بها. واستعدت الكذبة التي سبق أن استخدمتها مع «جيلبيرت» قبل إقامتي الأولى في «بالبيك» ولكنّما بدّلت فيها وبلغ بي، كي

(١) قماش حريري واسع الرسمات يكثر استعماله فى أثاث البيوت.

أحملها بيسر أكبر على تصديقي حينما كنت أقول لها الآن أنني لا أحبّها، أن أسرّب ما مفاده أني كنت فيما مضى على وشك الوقوع في غرامها، ولكنّما انقضى زمن طويل على ذلك ولم تعد بالنسبة إليّ أكثر من رفيقة ولعلّه لن يمكنني من بعد، ولو قصدت ذلك ، أن أحسّ ثانية تجاهها بعواطف أكثر اتّقادا. وإذ كنت أشدّد هكذا أمام «ألبيرتين» على إثبات فتوري نحوها فما كنت - بسبب ظرف خاص وفي سبيل هدف خاصّ - إلاّ أبرز وأشير بقوّة أكبر إلى الإيقاع الثنائي الذي يتّخذه الحبّ لدى سائر الذين يفرطون في الشكّ في ذواتهم كي يصدّقوا أن امرأة يمكنها في يوم أن تحبهم وأن يستطيعوا هم كذلك أن يحبّوها حقّا. وإنّهم يعرفون أنفسهم معرفة كافية كي يعلموا أنهم لدى أكثرهنّ اختلافاً كانوا يحسّون بالآمال نفسها وصنوف الضيق نفسها ويبتدعون الروايات نفسها وينطقون بالأقوال نفسها من جرّاء أن اتضّح لهم أنّ عواطفهم وأفعالهم لا تدخل في علاقة وثيقة وضرورية بالمرأة المحبوبة بل تمرّ من جانبها وترشّها وتداورها مخادعة كالموجة التي تنفضّ من حول الصخور، ثم إن الشعور باللا استقرار لديهم إنّما يزيد أيضاً من ارتيابهم بأن هذه المرأة التي ما أكثر مايودّون أن تحبّهم لا تحبّهم. فلماذا شاءت المصادفة، بما أنّها لا تعدو كونها عارضاً وُضع أمام تفجّر رغباتنا، أن نكون نحن هدف الرغبات التي بها؟ لذلك وفيما نحسّ بحاجة البوح بكل هذه العواطف الموجّهة إليها وهي شديدة الاختلاف عن العواطف الإنسانية المحضة التي يوحي لنا بها القريب، تلك العواطف الخاصّة جدّا التي تمثّلها عواطف الحبّ بعدما نكون خطونا خطوة إلى الأمام باقرارنا لمن نحبّ بمودّتنا لها وآمالنا، فإننا في الحال نخشى إن نسوء في عينها ويخجلنا كذلك أن نحسّ أن الكلام الذي خاطبناها به لم يُصَغْ خصّيصًا لها وأنّا استخدمناه وسوف نستخدمه مع أخريات غيرها، وأنّها إن كانت لا تحبنا فلا يمكن أن تفهمنا وأننا تكلّمنا حينذاك بقلّة ذوق وقلّة احتشام المتحذلق الذي يوجّه إلى جاهلين جملاً دقيقة المعاني، فترى هذه الخشية وهذا الخجل يحملان معهما الإيقاع المضادّ والتراجع والحاجة إلى معاودة الهجوم والإمساك مجدّدا بالتقدير والسيطرة، وإن تمّ ذلك بالتقهقر أوّلا والإسراع في سحب المودّة التي سبق الإقرار بها. إن الإيقاع المزدوج واضح للعيان في مختلف الفترات العائدة للحبّ نفسه وفي سائر الفترات المقابلة العائدة لصنوف حبّ مشابهة لدى جميع الأشخاص الذين يحلّلون أنفسهم أفضل من إفراطهم في تقدير ذواتهم. ولئن بدا مع ذلك أكثر بروزاً في شدّته من المعتاد عبر الخطاب الذي كنت أوجّهه لـ«ألبيرتين» فإنّما لمحض تمكيني من الانتقال بسرعة أكبر وزخم أشدّ إلى الإيقاع المضادّ الذي ستؤكده مودّتي.

وكما لو انبغي أن تصادف «ألبيرتين» عنتا في تصديق ما كنت أقوله حول استحالة أن أحبّها ثانية لسبب طول الفاصل الزمني أخذت أدعّم ما كنت أدعوه غرابة أطواري بأمثلة أخذها عن أشخاص سبق أن أضعت الساعة التي كان عليّ أن أحبّهم فيها، بسببهم أو بسببي، دون أن يمكنني، مهما رغبت في ذلك، أن أعود فألقاها. كنت أبدو بذلك وكأنّي أعتذر إليها عن عجزي عن معاودة حبّها وكأنّما عن سوء تهذيب، فيما أحاول إفهامها الأسباب النفسيّة الكامنة وراء ذلك كما لو أنّها خاصّة بي، ولكنني إذ كنت أبرّر نفسي على هذا النحو، وأسترسل في موضوع «جيلبيرت» التي سبق بالفعل أن كان صحيحاً تماماً فيما يخصّها ما كان يضحي قليل الصحّة إن طبق على «ألبيرتين» ، فإنّما كنت فقط أجعل مزاعمي ممكنة التصديق بقدر ما أتظاهر بالظنّ أنّها قليلة الاحتمال.

وإذ أحسست أن «ألبيرتين» كانت تقدّر ماتظنّه «صراحة في القول» وترى في استنتاجاتي وضوح البداهة، اعتذرت عن الأولى قائلاً إني أعلم تمام العلم أنّنا نسوء دوما في عين الناس بقولنا الحقيقة وأنهّ لابدّ أن تبدو لها هذه الحقيقة عسيرة الفهم. ولكنّها شكرت لي على العكس صراحتي وأضافت أنّها إلى ذلك تدرك أحسن الإدراك حالة ذهنيّة شائعة جدّا وطبيعية جداً.

إنّ هذا الإقرار لـ «ألبيرتين» بعاطفة وهميّة نحو «اندريه» وفيما يخصّها هي بلا مبالاة أكدت لها عرضاً، وكأنّما بداعي إفراط في التهذيب، وكيما تبدو صادقة تماماً وغير مبالغ فيها، أنّه يجدر بها أن لا تأخذها كثيراً بالمعنى الحرفي، استطعت أخيراً أن أكلّم «ألبيرتين» به برقّة امتنعت عنها طويلاً وبدت لي لذيذة دون خشية لديّ أن ترتاب بوجود حبّ فيها. كنت الأمس تقريباً بجيّتي، وتغرورق بالدمع عيناي وأنا أحدّثها عن صديقتها التي أحبّها. ولكنّي قلت لها في النهاية، وقد انتقلت إلى الأساسيّ من أمرنا، إنّها تعلم ما هو الحبّ وحساسيّاته وآلامه وأنّها ربّما تهتمّ، بوصفها صديقة قديمة لي، بإيقاف صنوف الكربة الكبيرة التي تسبّبها لي لا على نحو مباشر بما أنّها ليست هي من أُحبّ، إن حالفتني الجرأة في ترداد ذلك دون أن أغمّها، بل على نحو غير مباشر إذ تصيبني في حبّي لـ«أندريه». وتوقّفت لأنظر وألفت «ألبيرتين» إلى طائر كبير وحيد عجلان كان يمرّ أمامنا في البعيد وهو يضرب الهواء بخفق جناحيه المنتظم، يمرّ بأقصى سرعة فوق الشاطئ الذي تبقعه ههنا وهناك انعكاسات ضوء شبيهه بقطع ورقية صغيرة حمراء ممزّقة، ويجتازه بكامل طوله دون أن يبطّئ انطلاقته ودون أن يصرف انتباهه ودون أن يحيد عن طريقه كمبعوث يمضي ليحمل إلى مكان بعيد جدّا رسالة ضروريّة هامّة. فقالت لي «ألبيرتين» بمظهر اللائم: «هو على الأقلّ يمضي رأسًا إلى هدفه !» –«تقولين ماتقولين لأنّك لا تعلمين ماوددت أن أقوله لك. ولكنّ الأمر صعب حتّى لأفضّل التخلّي عن ذلك، فإني على يقين من إغضابك ولن يفضي بي ذلك إلاّ إلى الأمر التالي: لن يزيدني الأمر سعادة مع من أحبّها حبًا حقيقيًا وأكون فقدت رفيقة طيّبة» . –«ولكنْ مادمت أقسم لك أنّني لن أغضب». كان مظهرها من رقّة وخضوع حزين كمن تنتظر منّي سعادتها إلى حدّ كان يشقّ عليّ معه أن أتمالك عن تقبيل هذا الوجه – عن تقبيله بنوع المتعة التي ربّما أصبتها بتقبيل والدتي – هذا الوجه الجديد الذي لم يعد يوفّر ذاك المحيّا النابض بالحياة وحمرة الخجل لهرّة ثائرة شريرة بأنفها الصغير المورّد المرفوع بل يبدو في تمام حزنها المُضني وكأنّما يمتزج سكبات عريضة مسطّحة متدلّية في مساحة من الطيبة. وأخذت، وقد صرفت النظر عن حبّي وكأنّما عن جنون مزمن لا علاقة له بها ووضعت نفسي مكانها، أخذت أرقّ نفسًا أمام هذه الفتاة الطيّبة التي تعوّدت أن يسلك الناس معها مسالك لطيفة ومستقيمة والتي كان الرفيق الطيّب الذي أمكنها الاعتقاد بأني كنته بالنسبة إليها يلاحقها منذ أسابيع بأنواع من القسوة بلغت في النهاية الذروة. ولأنني بدأت أتّخذ وجهة نظر إنسانية محضة خارجة عن نطاقنا نحن الاثنين ويتلاشى فيها حبّي الغيران أخذت أحسّ إزاء «ألبيرتين» بذاك الاشفاق العميق الذي لعلّه كان أقلّ عمقًا لو لم أكن أحببتها. وفي هذا الترجّح الموزون الذي ينتقل بين البوح والاختصام (الوسيلة الأكيدة كأكثر ما تكون، الناجعة في خطورتها كأكثر ما تكون كي تشكّل بحركات متعارضة ومتعاقبة عقدة لا حلّ لها تربطنا بكائن ما ربطًا قويًا) ما جدوى أن نميّز، في صميم حركة التراجع التي تؤلّف أحد عنصري الإيقاع، ارتدادات الإشفاق الإنساني التي تقابل الحبّ والتي تحدث في جميع الأحوال الآثار نفسها مع أنّها

ربّما نجمت لا شعورياً عن السبب نفسه؟ وحينما نتذكر فيما بعد مجموع ما فعلناه من أجل امرأة نتبيّن في الغالب أنّ الأفعال التي أوحت بها الرغبة في أن نبدي أننا نحب وأن نُحَبّ وأن نفوز بصنوف الحظوة لا تشغل حيّزا أكثر من تلك الناجمة عن الحاجة الإنسانية إلى إصلاح أخطائنا تجاه الشخص الذي نحبّه تلبية لمحض واجب أدبيّ وكأننا لانحبّه. وسألتني «ألبيرتين» قائلة: «ولكن ماالذي أمكن أن أفعله. وقُرع الباب فكان عامل المصعد. لقد توقّفت عمّة «ألبيرتين» وكانت تمرّ أمام الفندق في عربتها، توقّفت تحسّبا لأيّ طارئ لترى إن لم تكن هناك وتعود بها. وأرسلت «ألبيرتين» تجيب أنّها لا تستطيع النزول وأن يتناولوا طعام العشاء دونها وأنّها لا تعلم في أيّة ساعة تعود. «ولكنّ عمّتك سوف تغتاظ؟» -«تظنّ ذلك! سوف تفهم تمام الفهم».

وهكذا كان الحديث يبدو معي، بسبب الظروف، -وعلى الأقل في هذه اللحظة وبصيغته التي ربّما لن تعود- كان يبدو في عيني «ألبيرتين» أمراً ذا أهميّة بديهية إلى حدّ كان ينبغي معه تقديمه على أيّ شيء آخر ولاتشكّ صديقتي في أن تجد عمّتها من الطبيعيّ تماماً أن يضَحّى بساعة العشاء، وتستند في ذلك دونما شكّ بصورة غريزية إلى اجتهاد عائليّ فتعدّد الظروف التي لم يبالوا فيها بتكاليف رحلة حينما كان مستقبل السيّد «بونتان» المهنيّ في خطر. كانت «ألبيرتين» تدفع إليّ بتلك الساعة البعيدة التي تقضيها بدوني في منزل ذويها فتهبني إيّاها، وكان بوسعي استخدامها كما يحلو لي. وانتهى بي الأمر بأن تجرّأت وقلت لها إنّهم رووا لي عن نمط حياتها وأنّي على الرغم من القرف الشديد الذي كانت توحي به إليّ النساء اللواتي يعانين من العيب نفسه لم أهتمّ للأمر إلى أن ذكروا لي اسم شريكتها في الجرم وهي تستطيع أن تدرك بيسر أيّ ألم أحسست به من جرّاء ذلك لكثرة ما أحبّ «آندريه». ولعلّ قولي بأنّهم ذكروا لي نساء أخريات أيضا، إنّما من اللواتي كنت لا أبالي بهنّ، لعله كان بدا أكثر حذاقة. ولكنّ الكشف المفاجئ الرهيب الذي باح لي به «كوتار» كان نفذ إلي صدري يمزّقني حسبما أورده كاملاً ولكن دونما زيادة. ومثلما لم تكن لتراودني في السابق من تلقاء نفسي فكرة حبّ «ألبيرتين» لـ«أندريه» أو على الأقلّ أن يكون ثمّة مداعبات ممكنة معها لو لم يلفتني «كوتار» إلي وضعهما وهما ترقصان الفالس، كذلك لم أفلح في الإنتقال من هذه الفكرة إلى أخرى ثانية مختلفة جدّا في نظري ومفادها إمكان أن تكون «ألبيرتين» علي علاقة مع نساء أُخر غير آندريه ولاتكون المودّة حتىّ عذراً لها. أما البيرتين فأبدت، حتّى قبل أن تقسم لي أن الأمر ليس صحيحا، أبدت، شأن كلّ شخص نُقلَ إليه منذ قليل أنّهم تناولوه بمثل ذاك الحديث، غضباً واغتماماً، وأمّا بحق المفتري المجهول ففضول الحانق ليعلم من عساه كان والرغبة في مواجهته لتستطيع أن تسومه الخزي والهوان. ولكنّها أكّدت لي أنّها، على الأقلّ فيما يخصّني، لم تكن حاقدة عليّ. «لو كان ذلك صحيحاً لكنت أقررت به. فإننا أنا و«أندريه»نكره كلانا هذه الأمور الكره نفسه. ونحن لم نبلغ هذا القدر من عمرنا دون أن نرى نساء بشعور قصيرة لهنّ مسالك الرجال وهنّ من النوع الذي تقول وليس مايثير اشمئزازنا بهذا القدر». كانت «ألبيرتين» تقسم بشرفها فحسب بكلام قاطع لا يستند إلى براهين. وكان ذلك بالضبط ما يمكن أن يهدّئ روعي كأفضل مايكون، إذ تنتمي الغيرة إلى تلك الأسرة من الشكوك المرضيّة التي يتغلّب عليها الحزم في التوكيد أكثر من مظهر الحقيقة فيه. وإنّ من مميّزات الحبّ على أيّ حال أنّه يجعلنا أكثر تشككاً وأسرع تصديقاً ويحملنا على التشكيك بمن نحبّ بأسرع ممّا لعلنا كنّا نفعل بغيرها، وعلى تصديق صنوف انكارها بيسر أكبر. لا بدّ أن نحبّ كيما يساورنا القلق بأن

ليس ثمّة نساء شريفات فحسب، وهو كمثل قولنا أن نتنبّه للأمر، كما لابدّ أن نحبّ أيضاً كيما نتمنّي، يعني كيما نتأكدّ أنّهنّ موجودات. وإنّه لمـّا يميّز الإنسان أن يبحث عن الألم وأن يبحث في الحال عن التخلّص منه؛ والمقترحات القادرة على النجاح في هذا المضمار إنّما تبدو لنا صحيحة وبسهولة فلسنا نماحك كثيراً في أمر مهدّئ يفعل فعله. ثم إنّ الشخص الذي نحبّه يستطيع مهما كان متعدّدا، أن يقدّم لنا في جميع الأحوال شخصيّتين أساسيّتين حسبما يبدو لنا على أنّه خاصّتنا أو أنّه يوجّه رغباته وجهة غيرنا، وتملك أولى هاتين الشخصيّتين القدرة الخاصّة التي تحول دون أن نؤمن بحقيقة الثانية والسرّ المحدّد ليسكّن الآلام التي سبّبتها هذه الأخيرة. ويمثّل الشخص المحبوب على التوالي الداء والدواء الذي يوقف ويعمل على تفاقمه. وليس من شكّ أنني كنت مهيّأ منذ فترة طويلة، من جرّاء التأثير الكبير الذي لمثال «سوان» على مخيّلتي وقدرتي على الإنفعال، لأعدّ صحيحاً ما كنت أخشاه بدلا ممّا كنت تمنّيته. لذلك أوشكت العذوبة التي حملتها إليّ توكيدات «ألبيرتين» أن تكون لفترة في خطر لأنّني تذكّرت قصّة «أوديت». ولكنّي قلت في نفسي إنّه، إن كان من الصحيح أن نحسب حساب الأسوأ لا حينما حاولت، بغية إدراك آلام «سوان»، أن أضع نفسي مكانه فحسب، بل حين أبحث الآن، والأمر يتناولني أنا وكأنّه يتعلّق بآخر غيري، فليس ينبغي مع ذلك أن يفضي بي الأمر، بداعي القسوة على ذاتي، كجندي يختار لا المركز الذي يمكن أن يكون الأكثر فائدة فيه بل ذاك الذي يكون فيه أكثر عرضة للخطر، إلى خطأ احتساب فرضيّة أكثر صحّة من غيرها لمحض أنّها أكثر إيلاماً. أفلم تكن ثمّة هوّة بين «ألبيرتين» الفتاة التي من أسرة بورجوازيّة طيّبة المستوى إلى حدّ ما و«أوديت» تلك العاهرة التي باعتها أمّها منذ الطفولة؟ وما كان يمكن مقارنة عهد الواحدة بعهد الأخرى. ولم يكن لـ«ألبيرتين» على أيّة حال في الكذب عليّ المصلحة نفسها التي لـ«أوديت» على «سوان». أضف أنّ «أوديت» كانت أقرّت لهذا الأخير بما أنكرته «ألبيرتين» منذ قليل. وكنت ارتكبت أذا خطأ في المحاكمة العقليّة بمثل فداحة ذاك الذي كان صرفني إلى فرضيّة ما –وإن تكن عكسيّة– لأن هذه كانت أورثتني عذابا أقلّ من الأخريات إن لم آخذ في اعتباري تلك الاختلافات الفعليّة في المواقف وإن اعدت رسم مراحل حياة صديقتي الحقيقيّة بالاستناد فقط إلى ماسبق أن عرفته عن حياة «أوديت». كان أمامي «ألبيرتين» جديدة، سبق والحق يقال أن استشففتها عدّة مرات في أواخر إقامتي الأولى في «بالبيك»، صريحة طيبة، «ألبيرتين» اغتفرت لي منذ قليل بداعي مودّتها لي شكوكي وحاولت تبديدها. وأجلستني إلى جانبها فوق سريري. وشكرتها عمّا قالته لي وأكدّت لها أن مصالحتنا استكملَتْ وأنني لن أكون في يوم قاسيًا عليها من بعد. وقلت لـ«ألبيرتين» إنّه يجدر بها مع ذلك أن تعود للعشاء. وسألتني إن لم أكن هكذا بأحسن حال. وجذبتْ إليها رأسي لمداعبة لم يسبق أن خصّتني بها من قبل وربّما كنت أدين بها لخصامنا الذي انتهى فأمرّت لسانها مرّاً خفيفاً علي شفتيّ تحاول فتحهما. ولم أفتحهما في البداية، فقالت لي: «ما أكثر ماتبدي من خبث!».

كان يجدر بي أن أرحل في ذلك المساء دون أن أعود فألقاها في يوم. فقد كنت استشعر مذذاك أن المرء يمكنه في الحبّ غير المتبادل –والأحرى أن نقول في الحبّ لأنّ ثمّة قومًا لا وجود للحبّ المتبادل في نظرهم– أن يتذوّق من السعادة محض ذلك المظهر الخارجيّ الذي كان يقدّم لي منها في إحدى تلك اللحظات الفريدة التي يطبق في أثنائها لطف المرأة أو نزوة لديها أو المصادفة على رغباتنا، في نوع من التطابق

تامّ، ما تأتيه من أقوال وأفعال كما لو كنّا محبوبين حقّا. ولعلّ الحكمة كانت قضت بأن أتأمّل بفضول وأمتلك بالتذاذ هذه الرقعة الصغيرة من السعادة التي كنت لولاها قضيت نحبي دون أن أرتاب بما يمكن أن تكون لقلوب أقلّ تشدّداً أو أكثر حظوة، وبأن أفترض أنّها جزء من سعادة واسعة دائمة كانت تظهر لي في هذه النقطة فحسب، وأن لا أحاول، كي لا يجيئني الغد بتكذيب لذاك التظاهر، طلب معروف إضافي بعد الذي دان بحدوثه لمجرّد حيلة صنعتها دقيقة استثنائية. كان يجدر بي أن أغادر «بالبيك» وأسجن نفسي في عزلتي وأبقى داخلها في تناغم مع آخر رعشات الصوت الذي أفلحت في جعله مغرماً مقدار لحظة والذي ما كنت لأطالبه من بعد بشيء سوى الكفّ عن توجيه مزيد من الحديث إليّ، مخافة أن يجيء كلام جديد، ما كان يمكن أن يجيء مذذاك إلا مختلفاً، فيجرح بنشازه صمت الحواسّ الذي ربّما أمكن لرنّة السعادة فيه أن تتردّد، كأنّما بفضل دوّاسه ما، طويلا في داخلي.

وإذ وفّر لي استيضاحي لـ«ألبيرتين» قسطاً من الطمأنينة عاودت العيش فترات أطول بالقرب من أمّي. كانت تحبّ أن تحدّثني برفق عن الفترة التي كانت فيها جدّتي أحدث سنّاً. ولما كانت تخشى أن ألوم نفسي على صنوف الغمّ التي أمكن أن أكدّر بها أواخر حياتها فقد كانت ترجع بادية السرور إلى السنوات التي أشاعت فيها دراستي الأولى في نفس جدّتي بهجة أخفوها إلى الآن دومًا عنّي. كنّا نعاود الحديث عن «كومبريه». وقالت لي والدتي إنّي كنت أقرأ هناك على الأقل ويجدر بي أن أفعل أيضا في «بالبيك» إن لم أكن أعمل. فأجبت إنّي أحبّ أن أعيد قراءة «ألف ليلة وليلة» كي أحيط نفسي فعلا بذكريات «كومبريه» وبالصحون الجميلة المصوّرة. وكما كان شأنها بالأمس في «كومبريه» حينما كانت تعطيني كتباً في عيدي أمرت أمّي سرّاً بإحضار كتابي «ألف ليلة وليلة» من ترجمة «غالان» و«ألف ليلة وليلة» من ترجمة «ماردروس» كي تفاجئني بالأمر. ولعلّ أمّي بعدما ألقت نظرة على كلا الترجمتين كانت فضّلت أن أكتفي بترجمة «غالان» فيما تخشى التأثير عليّ بسبب الإحترام الذي تكنّه للحريّة الفكريّة والخوف من التدخّل في حياة فكري والشعور أنّها لما كانت امرأة فإنّما ينقصها من جهة، فيما تظنّ، الكفاءة الأدبية اللازمة، كما ينبغي لها من جهة أخرى أن لا تحكم على قراءات الشباب انطلاقاً ممّا يجرح إحساسها. وكان أثار ثائرتها، إذ وقعت على بعض الحكايات، الفجور في الموضوع وبذاءة التعبير. ولم يكن بوسع والدتي على وجه الخصوص، وهي تحافظ بعناية كبيرة، كأنما على ذخائر مقدّسة، لا على مشبك أمّها والمظلّة والمعطف ومجلّد السيّدة «دوسيفينييه» فحسب، بل على عاداتها الفكريّة والكلاميّة أيضا، وتبحث في كلّ مناسبة، عمّا لعلّها كانت أبدت من رأي، لم يكن بوسعها أن تشكّ في الإدانة التي كانت أصدرتها جدّتي ضدّ كتاب «ماردروس». كانت تتذكّر أن جدّتي، بينما كنتُ قبل الذهاب في نزهة على الأقدام إلى جانب «ميزيكلير» أقرأ «أوغوستان تييرّي»، كانت، وهي مسرورة بقراءاتي ونزهاتي، تثور ثائرتها مع ذلك لرؤيتها ذاك الذي ظلّ اسمه يرتبط بصدر بيت الشعر هذا: «ثمّ كان مَلْكُ «ميروفيه» المدعوّ «ميروفيغ»، وترفض أن تقول «الكارولنجيّين» بدلا من «الكارلوفنجيّين» الذين بقيت مخلصة لهم. وكنت أخيراً قد رويت لها عن رأي جدّتي بالأسماء اليونانية التي كان «بلوك» يطلقها على آلهة «هوميروس» متأثرا بـ «لوكونت دو ليل»، حتّى ليبلغ به، بالنسبة لأبسط الأمور، أن يجعل من تبنّي الإملاء اليوناني واجباً دينياً يظنّ الموهبة الأدبيّة قائمة عليه. فقد كان يكتب، إن وقع عليه

مثلاً أن يقول في رسالة إن الخمر الذي يحتسي في داره كان من رحيق حقيقي (Nectar) ، (Nektar) بحرف الـ K، وهو ما كان يسمح له بالقهقهة لدى سماع اسم «لامارتين». فإن لم تعد «الأوذيسّة» ، في نظرها، إن غاب عنها اسما «أوليس» و«مينيرفا»، هي «الأوذيسّة» ، فما كان عساها تقول وهي ترى عنوان «ألف ليلة وليلة» الذى تعهده، مشوّهاً على الغلاف وإذ لا تلقى فيه من بعد اسمى «شهرزاد» و«دنيازاد» الشائعين أبداً، وقد خطّا بالتمام مثلما تعوّدت على الدوام لفظهما، وحيث «الخليفة» الظريف والجنّ الأشدّاء يكادون، وقد تغيّرت أسماؤهم في المعمودية، إن حالفتنا الجرأة في استعمال اللفظة في الحكايات الإسلاميّة، لا يتعرّفون أنفسهم إذ هم يدعون الآن «الخَلِيْفَة» بالنسبة للأوّل و«الجنيّون» بالنسبة للآخرين؟ مع ذلك سلّمتني أمّي الكتابين وقلت لها إني سأقرأهما في الأيام التي أكون فيها متعباً جداً فلا أتنزّه.

وماكانت تلك الأيّام كثيرة جداً على أيّة حال. وكنا نمضي لتناول «العصرونية» جماعة، شأننا بالأمس، أنا و«ألبيرتين» وصديقاتها فوق الجرف أو في مزرعة «مارى انطوانيت». ولكنّما كان ثمّة مرّات توليني فيها «ألبيرتين» هذه المتعة العظيمة إذ تقول لي: «بودّى اليوم أن أمكث وإيّاك وحيدين فخير لنا أن نلتقي كلانا». حينئذ كانت تقول إنّها مشغولة وإنّها غير ملزمة بتأدية حساب عن ذلك، وكي لا تستطيع الأخريات اللحاق بنا، إن هنّ ذهبن مع ذلك للنزهة وتناول «العصرونيّة» ، كنّا نمضي وحدنا كعاشقين إلى «باغاتيل» أو إلى «لاكروا هولان» فيما الجماعة التي ماكان ليخطر لها في يوم أن تبحث عنّا هناك ولا تذهب البتّة إلى ذلك المكان كانت تلبث زمناً غير محدود في «مارى انطوانيت» على أمل أن ترانا نصل إلى المكان. وإني أتذكّر الطقس الحارّ الذي كان سائداً حينذاك حيث كانت تسقط نقطة عرق من جبين أجراء المزرعة الشباب الذين يعملون في الشمس، تسقط عموديّة منتظمة متقطّعة كمثل نقطة ماء من خزّان متناوبة مع سقطة الثمرة الناضجة التي تهوي من الشجرة في «البساتين» المجاورة. وقد ظلّ الطقس اليوم أيضاً، إلى جانب سرّ المرأة المخبّأة هذا، الجزء الأكثر تماسكاً لأيّ حبّ يفد إليّ. تلك امرأة يحدّثونني عنها، وما كنت لأفكّر فيها لحظة، فأراني أعطل مواعيدي كلها في بحر الأسبوع لأتعرف إليها إن كان أسبوعاً يسوده مثل ذلك الطقس وإن كنت سألتقيها في مزرعة منعزلة. وعبثاً أعرف أن مثل هذا الطقس وهذا الموعد لا يدَ لها فيهما فإنّهما الطعم، وهو معروف لديّ تماماً، الذياستسلم له ويكفي ليملك فؤادي. أعلم أن هذه المرأة كان بوسعي أن أشتهيها في طقس بارد وفي مدينة أيّة مدينة، ولكن دون أن يترافق ذلك بعاطفة خياليّة ودون أن أصبح عاشقاً. وليس يكون الحبّ لذلك أقلّ قوّة حالما يكون قيّدني بفضل ظروف معينة، إنّه أكثر كآبة فحسب على نحو ماتضحي في الحياة العواطف التي نكنّها لأشخاص معيّنين كلّما ازددنا إدراكاً للحيّز المتزايد صغراً الذى يشغلونه فيها وبأن الحبّ الجديد الذي نتمنّاه يدوم ويدوم سوف يكون، وقد قُصِّرَ مثلما قصّرت حياتنا ذاتها، هو الحبّ الأخير.

لم يكن بعدُ إلاّ القليل من الناس في «بالبيك» والقليل من الفتيات. وكنت أبصر أحياناً هذه أو تلك منهنّ متوقّفة على الشاطئ، دونما اغتباط على الرغم ممّا يبدو من تطابقات كثيرة تثبت لي أنّها هي نفسها التي سبق أن يئست من إمكان الاقتراب منها وهي تغادر مضمار الألعاب أو مدرسة الرياضة برفقة صاحباتها. فإن كانت هي نفسها (وقد تحاشيت أن أحدّث «ألبيرتين» عنها)، فالفتاة التي ظننتها فتّانة لم تكن موجودة. ولكنّما لم يكن بمقدوري بلوغ اليقين لأن وجه تلك الفتيات لم يكن يشغل مساحة على الشاطئ ولا يقدّم

شكلاً دائماً لأنّه كان متقبّضاً متمدّداً متحوّلاً من جرّاء أملي ذاته أو اضطراب الرغبة لديّ أو هناء يلقي كفايته في ذاته أو الأزياء المختلفة التي يرتدينها أو سرعة مسيرهنّ أو جمودهنّ. كانت اثنتان أو ثلاثة منهنّ يبدون لي مع ذلك فاتنات عن كثب، وفي كلّ مرّة كنت أشاهد إحداهنّ تتملّكني رغبة اصطحابها إلى شارع «التماري» أوإلى كثبان الرمال والأفضل من هذا وذاك فوق الجرف. ولكن على الرغم من أنّه يداخل الرغبة مذذاك، بالمقارنة مع اللامبالاة، تلك الجرأة التي تؤلّفها بداية التحقّق وإن من طرف واحد فقد كان مع ذلك، بين رغبتي والفعل الذي قد يشكّله ابتغائي عناقها، كان ثمّة كامل «الفراغ» اللامحدّد للتردّد والخجل. حينئذ كنت أدخل دكّان الحلواني بائع الليموناضة وأشرب سبع إلى ثماني كؤوس من «البورتو» الواحدة تلو الأخرى.ويخطّ الكحول فوراً، بدلاً من المسافة الفاصلة التي يستحيل ردمها بين رغبتي والفعل، خطّاً يربط بين الاثنين. فلا مكان من بعد للتردّد أو الخوف.كان يبدو لي أن الفتاة تزمع الطيران إليّ، فأذهب إليها وتخرج هذه الكلمات من شفتيّ من تلقاء ذاتها: «أودّ التنزّه برفقتك، ألا تريدين أن نمضي إلى الجرف، فليس يزعجنا هناك أحد خلف الحرجة الصغيرة التي تحمي من الريح البيت القابل للتفكيك وغير المأهول حاليًا؟». لقد ذُللت جميع صعوبات الحياة ولم يبقَ ثمّة عقبات أمام تعانق جسدينا. لا عقبات بالنسبة إليّ على الأقلّ. فإنّها لم تكن تبخّرت بالنسبة إليها هي التي لم تحتس «البورتو». وحتّى لو فعلت وفقد العالم بعضاً من حقيقته في عينيها فلعلّ الحلم الذي طال الشوق إليه والذي كان سيبدو حينذاك فجأة ممكن التحقيق، لعلّه ما كان على الإطلاق أن ترتمي بين ذراعيّ.

لم تكن الفتيات قليلات العدد فحسب بل هنّ في هذا الفصل الذي لم يكن «الموسم» بعد لا يمكثن إلاّ وقتاً يسيراً. وإنّي أتذكّر واحدة ذات لون بحمرة زهرة الغمد وعينين خضراوين ووجنتين صهباوين ويشبه وجهها المزدوج الخفيف البذور المجنّحة لبعض الأشجار. لست أعلم أي نسيم جاء بها إلى «بالبيك» وأي نسيم آخر عاد فحملها معه. لقد جاء الأمر مفاجئاً إلى حدّ أن أصابني منه على مدى عدّة أيّام غمّ تجرأت واعترفت به لـ«ألبيرتين» حينما أدركت أنّها رحلت إلى غير رجعة.

ينبغي القول أن كثيرات كنّ إمّا فتيات لا أعرفهنّ البتّة أو أني ما رأيتهنّ منذ سنوات. وكثيراً ما كنت قبل لقائهنّ أكتب إليهنّ، فإن حملتني إجابتهنّ على الاعتقاد بحبّ ممكن فيالفرحتي! ولا يستطيع المرء في بداية صداقة يكنّها لامرأة، حتّى إن لم تتحقّق بعد ذلك، أن ينفصل عن هذه الرسائل الأولى التي يتسلّمها، إنّه يبغي أن تكون طوال الوقت بالقرب منه شأن أزهار جميلة وردته، ولا تزال نديّة يانعة، فلا يكفّ عن النظر إليها إلاّ ليشمّها فيقرّبها منه أكثر. إن الجملة التي نعرفها عن ظهر القلب إنّما يمتعنا أن نعيد قراءتها ، أمّا الجمل التي حفظناها بصورة أقلّ حرفيّة فإننا نودّ أن نتحقّق فيها عن مدى الحنان الكامن في عبارة. فهل كتبت «إن كتابك العزيز»؟ هناك خيبة أمل طفيفة في العذوبة التي نتنسّمها لا بدّ من أن نعزوها إمّا إلى قراءة مفرطة السرعة، وإمّا إلى كتابة مراسلتنا التي تستعصي على القراءة؛ فهي لم تكتب: «وكتابك العزيز»، بل «حينما رأيت هذه الرسالة». ولكنّ الباقي رقيق رقيق. آه ! فلتأت مثل هذه الزهرات في الغد ! ثمّ لا يكفي ذلك وينبغي مقابلة الكلمات المكتوبة بالنظرات، بالصوت. ونضرب موعداً فأذا بنا -دون أن تكون ربّما تغيّرت- نجد، حيث كنّا نظنّ، بناء على الوصف المُقدَّم أو الذكرى الشخصيّة، أنّنا ملاقون الجنيّة «فيفيان»، «الهرّ صاحب

الجزمة». ونضرب لها موعداً في الغد مع ذلك لأنها لا تزال على الرغم من كلّ شيء «هي»، وهي ما كنّا نشتهي. على أن هذه الأشواق إلى امرأة حلمنا بها لا تجعل جمال هذا الملمح المعيّن أو ذاك ضروريًا. فهذه الأشواق هي الشوق إلى هذا الكائن فحسب، وهي غامضة غموض العطور، مثلما كان الأُصْطرك هو الشوق الذى بـ«بروتيرايا» والزعفران الشوق الأثيرىّ والطيوب شوق «هيرا» والمرّ عطر الغيوم والمنّ شوق «نيكيه» والبخور عطر البحر. ولكنّ تلك العطور التي تتغنّى بها أناشيد «أورفيوس» تقلّ كثيراً عن عدد الآلهة التي تهواها؛ فالمرّ عطر الغيوم، ولكنّه إلى ذلك عطر «پروغنوس» و«نپتون» و«نيريه» و«ليتو»؛ والبخور عطر البحر، ولكنّه إلى ذلك عطر «ذيكيه» الجميلة و«ثيميس» و«كيركيه» وربّات الشعر التسع و«إيوس» و«فيموزين» والنهار و«ذيكايوسينيه». أمّا بشأن الأُصْطرك والمنّ والطيوب فلعلنا لا ننتهي من ذكر الآلهة التي توحي بها لكثرة عددها. فـ«أنْفيتيس» يملك العطور جميعها فيما عدا البخور، و«غايا» لا تستبعد منها سوى الفول والطيوب. كذلك كان شأن تلك الأشواق التي بي إلى الفتيات. فإنّها لمّا كانت أقلّ عدداً منهنّ كانت تستحيل خيبات وكآبات قريبة الشبه الواحدة بالأخرى. وإنّي لم أقبل بالمرّ في يوم وقد خصصت به «جوپيان» والأميرة «دوغيرمانت»، إنّه شوق «پروتوغنوس» «حامل الجنسين الذي له خوار الثور ذو القصوف الكثيرة الجدير بالذكر الذي يمتنع على الوصف وينحدر جذلان إلى أضاحي «الأورجيوفانت».»

ولكن سرعان ما عجّ الموسم بروّاده، ففي كلّ يوم وصول جديد، وكان في أساس كثرة نزهاتي التي تنامت فجأة فحلّت محلّ قراءة «ألف ليلة وليلة» المتعة سبب خلو من المتعة كان ينغّصها كلّها. لقد عمرت الفتيات الشاطئ الآن ولمّا جعلتني الفكرة التي أوحى لي بها «كوتار»، ولم توفر لي شكوكاً جديدة، لمّا جعلتني أكثر حساسية وهشاشة من هذا الجانب ومحاذراً أن لا أدع لمثلها أن تتشكّل في داخلي فقد كنت أحسّني غير مرتاح ما إن تصل امرأة شابّة إلى «بالبيك» فأقترح على «ألبيرتين» أكثر النزهات بعداً كي لا تستطيع التعرّف بها، بل كي لا تستطيع أن ترى الوافدة الجديدة إن أمكن. وكنت بالطبع أكثر خشية بعد من اللواتي يلاحَظ سوء سلوكهنّ وتشيع سمعتهنّ الرديئة، فكنت أحاول إقناع صديقتي أن تلك السمعة السيئة لا أساس لها البتّة وأنّها افتراء، وربّما أفعل دون أن أقرّ لنفسي بذلك لخشية لا تزال لا واعية بأن تحاول مصادقة الفاسدة أو تأسف أنّها لا تستطيع محاولة ذلك بسببي أو تعتقد بسبب عديد الأمثلة أن عيباً منتشراً إلى هذا الحدّ ليس مستنكراً. وماكنت أنزع، وأنا أنفيه عن كلّ مذنب، إلى أقلّ من الزعم بأنّ السحاق لا وجود له. كانت «ألبيرتين» تتبنّى موقفي المتشكّك بشأن فجورهذه أو تلك: «لا، اعتقد أنّه محض مظهر خاصّ تحاول الظهور به، إنّها تريد الظهور بمظهر خاصّ». ولكنّي كنت آسف تقريباً حينذاك لأني انتصرت للبراءة إذ كان يسوءني أن يسع «ألبيرتين»، هي المتشدّدة جداً فيما مضى الظنّ أن ذاك «المظهر» أمر يبعث على الزهو وهو مشرّف إلى الحدّ الذي حاولت فيه امرأة بعيدة عن هذه الميول أن تظهر بمظهرها. وددت أن لا تجيء امرأة من بعد إلى «بالبيك». كنت أرتعد وأنا أفكّر، إذ كانت الفترة تقريباً هي تلك التي ستصل فيها السيّدة «بوتبوس» إلى منزل آل «ڤيردوران»، بأن وصيفتها التي لم يخف «سان لو» عنّي ميولها يمكن أن تجيء في رحلاتها حتّى الشاطئ وأن تحاول، إن وقع ذلك في يوم لا أكون فيه بالقرب من «ألبيرتين»، جرّها إلى مواطن الفساد. وبلغ بي أن أتساءل، إذ لم يكن «كوتار» أخفى عني أن آل «ڤيردوران» حريصون جدًا على صحبتي ولعلّهم فيما يأنفون الظهور وكأنّهم

يتعلّقون بأذيالي، على حدّ قوله لعلّهم كانوا يضحّون بالكثير في مقابل ارتيادي منازلهم، إن لم يكن بوسعي، في مقابل وعود باصطحاب آل«غيرمانت» جميعهم دونما استثناء إلى باريس، أن أحصل من السيّدة «ڤيردوران» على تحذير توجّهه بحجّة أو بأخرى إلى السيّدة «بوتبوس» بأنّه يستحيل عليها الاحتفاظ بها في منزلها وأن تأمر بترحيلها بأقصى سرعة.

وعلى الرغم من تلك الأفكار وبما أنّ وجود «أندريه» هو الذي كان يقلقني على وجه الخصوص فإن الطمأنينة التي وفّرتها لي أقوال «ألبيرتين» كانت لا تزال مستمرّة إلى حدّ. كنت أعلم على أيّة حال أنّني سوف أكون عمّا قريب أقلّ حاجة إليها، فـ«أندريه» سوف ترحل مع «روزموند» و«جيزيل» في الفترة التي يصل فيها الجميع تقريباً ولم يبق لها سوى بضعة أسابيع تمكث فيها إلى جانب «ألبيرتين». وقد بدا في أثنائها على أيّ حال أن «ألبيرتين» تدبّر كل ما تفعله وكلّ ما تقوله من أجل القضاء على شكوكي إن بقيت شكوك أو للحؤول دون عودتها. كانت تتدبّر أمرها كي لا تلبث البتّة وحيدة مع «أندريه» وتلحّ عليّ حينما نعود كي أرافقها حتّى بابها وأعود لإصطحابها منه حينما ينبغي أن نخرج. وكانت «أندريه» في تلك الأثناء تتحمّل من جانبها المشقّة نفسها وتبدو كأنّها تتجنب لقاء «ألبيرتين». ولم يكن ذاك التفاهم الظاهر بينهما المؤشّر الوحيد على أن «ألبيرتين» لا بدّ أطلعت صديقتها على حديثنا وطلبت منها أن تتلطّف وتهدّئ شكوكي اللامعقولة.

في حوالي تلك الفترة وقعت في فندق «بالبيك» الكبيرفضيحة لم يكن من شأنها تغيير مواطن عذابي. فقد كانت شقيقة «بلوك» تقيم منذ وقت يسير علاقات خفيّة مع ممثلة سابقة ولم تعد تكفيهما تلك العلاقات بعد قليل. فقد بدا لهما أن مشاهدتهما إنّما تضيف فسقاً إلى متعتهما وتريدان لذلك إمتاع عيون الجميع بصنوف لهوهما الشريرة. كانت البداية مداعبات يمكن بالإجمال أن نعزوها إلى ألفه الأصدقاء في صالة اللعب وحول طاولة «البكارا». ثم تجاسرتا. وذات مساء، وفي زاوية من قاعة الرقص الفسيحة حتّى غيرمظلمة لم تتورّعا فوق إحدى الكنبات أكثر ممّا لو كانتا في سريرهما. واشتكى ضابطان إلى ا لمدير وكانا غير بعيدين من هناك برفقة زوجتيهما. وظنّ الناس بعض الوقت أن احتجاجهما سوف يثمر إلى حدّ ما. ولكنّما كان في غير صالحهما أنهما، لما جاءا من «نيتلهوم» حيث سكناهما إلى «بالبيك» لقضاء أمسية واحدة، لم يكن بوسعهما أن يفيدا المدير في شيء، فيما يمتد فوق الآنسة «بلوك» حتّى دون علم منها وأيّا تكن الملاحظة التي يوجّهها المدير إليها جناح السيّد «نسيم بيرنار». ولابدّ أن نقول سبب ذلك. كان السيّد «نسيم بيرنار» يتعاطى أعلى درجات الفضائل العائلية. فقد كان كلّ عام يستأجر «ڤيلا» رائعة في «بالبيك» لصالح ابن اخيه وما من دعوة كانت قادرة على صرفه عن العودة للعشاء في منزله الذي كان بالحقيقة منزلهم. ولكنّه ماكان قطّ يتناول غداؤه في منزله، فقد كان ظهر كلّ يوم في الفندق الكبير. ذلك لأنّه كان ينفق، مثلما يفعل غيره على راقصة أوپرا، على «مستخدم» قريب الشبه بأولئك الموزّعين الذين تكلّمنا عنهم والذين كانوا يذكّروننا بالفتيان الإسرائيليّين[1] في مسرحيّتي «استير» و«آتالي». والحقيقة أن السنوات الأربعين التي كانت تفصل بين السيّدة «نسيم بيرنار» والمستخدم الشاب كان وجب أن تحمي هذا الأخير من اتّصال غير محبّب. ولكن حسبما يقول

(١) الكلمة مأخوذة بالمعنى الديني كما وردت في المسرحيّتين المذكورتين في متن النصّ.

«راسين» بعميق حكمته في نشيد الجوقات نفسها:

«يا إلهي بأى خطى غير ثابتة تمضي
الفضيلة الوليدة بين عظيم المخاطر!
وكم تجد النفس التي تبحث عنك وتبغي أن تكون بريئة
من عقبات لما عقدت العزم عليه !»

فعبثا نشأ المستخدم الشاب «بعيداً عن العالم» في هيكل (فندق) «بالبيك»، فهو لم يتبع مشورة «جواد»:

«لاتجعل من الثراء والذهب سنداً لك».

وربّما سلّم بذلك وهو يقول في نفسه: «إن الخطأة يغطّون وجه الأرض». ومهما كان من أمره ومع أن السيّد «نسيم بيرنار» لم يكن يأمل مهلة قصيرة إلى هذا الحدّ فإنّه منذ اليوم الأوّل

«إمّا فزَعاً أو مداعبة له
أحسّ به يطوّقه بذراعيه البريئتين».

ومنذ اليوم الثاني، وفيما يأخذ «نسيم بيرنار» المستخدم في نزهة «كان مَقْدَمه المُعدي يشوّه براءته». ومنذ ذلك الحين تبدّلت حياة الصبيّ الصغير وعبثاً تراه يحمل الخبز والملح مثلما يأمره بذلك رئيس زمرته، فقد كان محيّاه كلّه ينشد:

«من زهور إلى زهور ومن متع إلى متع
هيّا ننقّل رغباتنا
فإن عدد سنينا الزائلة غير ثابت.
فلنسارع اليوم إلى الاستمتاع بالحياة!
وإنّما التكريم والوظائف
ثمن الطاعة العمياء الوادعة،
فمن ذا يبادر ويرفع صوته
ليساند البراءة الحزينة»(١).

منذ ذلك اليوم لم يفُت السيّد «نسيم بيرنار» البتّة أن يجئ ليشغل مكانه على الغداء (كما كان فعل في قاعة المسرح ذاك الذى يتولّى الإنفاق على ممثلة صامتة، ممثلة من نمط شديد التميّز ولا يزال ينتظر «دوغا»

(١) كل الاستشهادات مأخوذة من مسرحيّة «آتالي» وهي آخر مسرحيّات «جان راسين» المسرحيّ الفرنسي الشهير في القرن السابع عشر، وكان واقعا آنذاك تحت تأثير جماعة «الجانسينيّن» المتشددة.

يتبناه). وكانت تلك متعة السيّد «نسيم بيرنار» أن يلاحق بنظره في قاعة الطعام وحتّى الآفاق البعيدة حيث تتربع أمينة الصندوق في ظلال نخلتها حركات الفتى اليافع الحريص المبادر إلى الخدمة، خدمة الجميع، وأقلها لـ«نسيم بيرنار» منذ شرع ينفق عليه، إمّا لأنّ ابن الجوقة الصغير لم يكن يرى ضرورة في ابداء مقدار اللطف نفسه لمن يظنّ أنّه محبوب عنده بالقدر الكافي، وإمّا لأن ذاك الحبّ يثير حنقه وإمّا لإنه يخشى أن يفوّت عليه، أن اكتشف، فرصاً أخرى. لكن ذاك الفتور بعينه كان يروق السيّد «نسيم بيرنار» في كلّ مايخفي خلفه. فقد كان يصادف متعة غريبة، إن كان من جرّاء مايجري في عروقه من إرث عبراني أو تدنيساً للشعور المسيحيّ، في هذا الاحتفال «الراسينيّ»، سواء أكان يهوديًا أوكاثوليكيًا. ولوكان ذاك تمثيلاً حقيقياً لـ«أستير» أو «آتالي» لأسف السيّد «نسيم بيرنار» أن لا يكون اختلاف القرون مكّنه من معرفة المؤلّف، «جان راسين»، كي يحصل للمحسوب عليه دوراً أرفع شأناً. ولمّا كان حفل الغداء لا يصدر عن أيّ كاتب فقد كان يكتفي بعلاقات طيّبة مع المدير ومع «ايميه» كيما يرقّي «الإسرائيلي الشابّ» للوظيفة المبتغاة، فإمّا نصف رئيس أو حتى رئيس مجموعة. وكانوا عرضوا عليه وظيفة مدير مؤن. ولكن السيّد «بيرنار» ألزمه برفضها إذ لن يسعه من بعد المجيء في كلّ يوم ليراه يجري في قاعة الطعام الخضراء وأن يقوم هو على خدمته كأحد الغرباء. لقد كانت تلك المتعة قويّة إلى حدّ أن السيّد «بيرنار» كان يعود كلّ عام إلى «بالبيك» ويتناول فيها طعام غدائه خارج منزله، وهما عادتان كان السيّد «بلوك» يبصر في الأولى منهما ميلاً شاعرياً إلى الضياء الجميل وساعات غروب الشمس في هذا الشاطئ الذي يفضّل أيّ شاطئ آخر، وفي الثانية هوس عازب عجوز مستعصياً.

والحقيقة أن خطأ وَالدَيْ السيّد «نسيم بيرنار»، وما كانا يرتابان بالسبب الحقيقي لعودته السنويّة إلى «بالبيك» وبما كانت السيّدة المتحذلقة «بلوك» تدعوه «حياناته المطبخيّة»، ذاك الخطأ إنّما كان حقيقة أكثر عمقًا ومن الدرجة الثانية. ذلك أن السيّد «نسيم بيرنار» نفسه كان يجهل ما يمكن أن يداخل من حبّ لشاطئ «بالبيك» والمنظر الذي يطلّ من المطعم على البحر، أو من عادات مهووسة الميل الذي به في الإنفاق، وكأنّما على راقصة أوبرا من نوع آخر لا يزال ينقصها «دوغا» يتولّى أمرها، على واحد من خدمه الذين كانوا بدورهم فتيات. لذلك كان السيّد «نسيم بيرنار» يقيم مع مدير هذا المسرح الذي هو فندق «بالبيك»، ومع المخرج ومدير المسرح «إيميه» —وما كان دورهما في كل تلك المسألة من أصفاها— علاقات ممتازة. وذات يوم تقوم ترتيبات ومناورات للحصول على دور كبير ربّما كان مركز رئيس خدم. وبإنتظار ذلك كانت متعة السيّد «نسيم بيرنار»، مهما تكن شاعريّة تأمّلية هادئة تتسم إلى حدّ ما بطابع أولئك الرجال الباحثين عن النساء الذين يعلمون على الدوام —وهي حال «سوان» بالأمس مثلاً— أنّهم في ارتيادهم دنيا المجتمع الراقي سوف يلتقون عشيقتهم. فما إن يكون السيّد «نسيم بيرنار» جلس حتّى يرى محطّ أمنياته يتقدّم على خشبة المسرح حاملاً في يده فواكه أو مجموعة سيكار على طبق. فكان يتأكله لذلك كلّ صباح، بعدما يقبّل ابنة أخيه ويبدي اهتمامه بمشاغل صديقي «بلوك» وبعدما يلقّم جياده قطعاً من السكّر موضوعه على راحته الممدودة، استعجال محموم في الوصول إلى طعام الغداء في الفندق الكبير. ولعلّه لو شبّ حريق في بيته أو حلّت أزمة قلبية بإبنة أخيه، لعلّه كان لا ريب مضى مع ذلك. وهو لذلك يخشى، خشيته من الطاعون، رشحًا يلزمه الفراش —إذ هو مصاب بوسواس المرض— ويضطره أن يطالب «إيميه» بإرسال صديقه الشاب إلى منزله قبل ساعة «العصرونيّة».

لقد كان يحبّ من جانب آخر كامل متاهة الممرّات والحجرات السريّة والصالات والمشالح وغرف المؤونة والأروقة التي يمثلها فندق «بالبيك». وكان يحبّ من جرّاء منابته الشرقيّة، الحرُم فتراه حين يخرج في المساء يستكشف خلسة الزوايا منها والخفايا.

وفيما كان السيّد «نسيم بيرنار»، فيما كان يجازف بالذهاب حتّى الأقبية ويحاول مع ذلك أن لا يراه أحد وأن يتجنّب الفضيحة، ويذكّر في بحثه عن الفتيان اللاويّين بهذه الأبيات من مسرحية «اليهودية»(١):

يا إله آبائنا

حُلّ فيما بيننا

واخْفِ أسرارنا

عن أعين الأشرار !

كنت أصعد على العكس إلى غرفة شقيقتين رافقتا إلى «بالبيك» بصفة وصيفتين سيّدة أجنبية مسنّة. كانتا مايدعى في لغة الفنادق ساعيتين وفي لغة «فرانسواز» التي تظنّ أن الساعي أو الساعيّة إنّما يُفيدان في القيام بالمشتريات، «شاريتين». أمّا الفنادق فقد توقّفت فيما يخصّها بصورة أكثر شهامة في الفترة التي كانوا ينشدون فيها: «إنّه ساع لأحد المكاتب».

وعلى الرغم من صعوبة وصول أحد الزبائن إلى غرف الوصيفات، والعكس بالعكس، فسرعان ما ربطتني صداقة قويّة جداً وإن تكن عفيفة جداً بهاتين الشابّتين: الآنسة «مارى جينيست» والسيّدة «سيليست ألباريه». كانتا تبدوان، وقد ولدتا على حضيض جبال وسط فرنسه العالية على ضفاف سُسواق وسيول (كان الماء يجرى حتّى تحت منزل الأسرة حيث تدور طاحونة والذي خرّبه الفيضان عدّة مرّات)، وكأنهما احتفظتا بطابعها. فكانت «مارى جينيست» بصورة أكثر انتظاماً سريعة متقطّعة الحركة، و«سيليست ألباريه» أكثر رخاوة ووهناً تنبسط مثل بحيرة ولكن بردّات فوران مخيفة يذكّر غضبها فيها بخطر الفيضانات والأعاصير المائيّة التي تقذف بكلّ شيء وتخرّب كلّ شيء. كانتا تجيئان في الغالب صباحاً للقائي وأنا بعد في سريري. وإني ماعرفت يوماً أناساً بمثل جهلهما المتعمّد وما كانتا تعلّمتا شيئاً في المدرسة وكانت لغتهما مع ذلك ذات مسحة أدبيّة إلى حدّ تظنّ معه، لولا الطابع الوحشيّ تقريباً الذي يطبع لهجتهما، أن أقوالهما متكلّفة. وكانت «سيليست» تقول لي، بألفة لا أغيّر فيها على الرغم من صنوف المديح (وليست هنا للإشادة بي بل للإشادة بعبقريّة «سيليست» الغريبة) والانتقادات، وهي مختلقة بدورها ولكنّها صادقة تماماً، التي يبدو أن تلك الأقوال تتضمّنها بالنسبة إليّ فيما كنت أغمس معجّنات في فنجان الحليب: «آه ! أيّها الشيطان الأسود الصغير ذو الشعر الفاحم، يا للخبث العميق ! لست أعلم بما كانت تفكّر أمّك حين صنعتك، ففيك من العصفور كلّ شيء. هيا انظرى يا«مارى»، أليس يخيّل إليك أنّه يصقل ريشة ويدير عنقه، وبمرونه؟ ويبدو شديد الخفّة؛ لكأنّما يتعلّم الطيران. آه ! إنّك لمحظوظ أنْ ولدك من صنعاك في مرتبة الأغنياء؛ فما عساك كنت أضحيت وأنت بمثل تبذيرك؟ ها

(١) مسرحيّة الكاتب «هاليفي» (١٨٣٥).

إنّه يرمي بقرص معجّناته لأنّه لامس سريره. عجباً، ها هو يريق الحليب، فانتظر لأضع لك فوطة لأنّك لن تفلح في هذا الأمر، وإني ما رأيت يومًا أحداً بمثل غبائك وقلّة مهارتك». حينذاك كنت تسمع الضجّة الأكثر انتظاماً لسيل «ماري جينيست» التي تمضي حانقة تكيل التوبيخ لشقيقتها: «هيّا يا «سيليست» ، هلاّ صمتّ ؟ وهل جننت لتكلّمي السيّد مثلما تفعلين؟» ولا تردّ «سيليست» بغير الابتسامة، ولما كنت أكره أن يربطوا لي فوطة حول عنقي:« ولكن لا، انظرى إليه يا«ماري» ، «بنغ»! هو ذا هو ينتفض منصبا كما الحيّة، حيّة حقيقيّة أقول لك». كانت تسرف على أيّ حال في التشبيهات الحيواناتية، فما كانوا يعرفون حسب رأيها متى كنت أنام، وكنت أحوم طوال الليل تحويم فراشة وفي النهار كنت سريعاً سرعةتلك السناجب، «تعرفين ياماري» ، من مثل مانرى عندنا، رشيقة حتّى لا تستطيعين ملاحقتها بالعين» . -«ولكنّك تدرين يا «سيليست» أنّه لا يحبّ وضع فوطة حينما يأكل»- « ليس الأمر أنّه لا يحبّ ذلك، بل ليقول بوضوح إنّه لا يمكن أن يغيروا مشيئته. إنّه سيّد ومراده أن يظهر أنّه سيّد، سنغيّر الملاءات عشر مرّات إن لزم الأمر لكنّه لن يكون تراجع. ملاءات البارحة انجزت مشوارها، ولكنّها اليوم مدّت منذ قليل فحسب وينبغي منذ الآن تغييرها. آه ! كنت على حقّ إذ قلت إنّه لم يخلق ليولد بين الفقراء. انظرى، إن شعره ينتصب وينتفخ جرّاء الغضب مثل ريش الطيور. أيّها المريّش المسكين!» وهنا لم تعد «ماري» وحدها هي التي تحتجّ بل كنت أنا، لأنّني ما كنت أحسّني البتّة سيّداً. ولكنّ «سيليست» ماكانت تصدّق البتّة ضراحتي وقاطعتني بقولها: «آه ! ياجعبة الأحابيل! يا للعذوبة! ويا للغدر! أيها المحتال بين المحتالين، الجفس بين الأجفاس! آه يا «موليير»!» (كان الاسم الوحيد الذي تعرفه لكاتب ولكنّها تعزوه لي وتقصد بذلك من كان قادراً على تأليف المسرحيّات وتمثيلها في آن معًا) . وتصيح «ماري» بلهجة آمرة: «سيليست!» وهي تخشى لجهلها اسم «موليير» أن تكون شتيمة جديدة. وتعود «سيليست» إلى الإبتسام : « أفلم ترى في درجة صورته حينما كان طفلاً؟ لقد شاء أن يجعلنا نصدّق أنّهم كانوا يلبسونه دوما الثياب الأكثر بساطة. وههنا بعكّازه الصغيريبدو كلّه فراء ودانتيلا مثلما لم يحزه أمير من قبل. وليس ذلك شيئاً إزاء مهابته العظيمة وطيبته التي تفوقها عمقًا. ويزمجر السيل الذي اسمه «ماري» قائلاً : «ويحك، ها إنّك تنقّبين الآن في دروجه». وسألت «ماري» كي أهدّئ من مخاوفها عمّا تظنّ أن السيّد «نسيم بيرنار» يفعله. «آه ! ياسيّدي إنّها أمور ما كان يسعني الظنّ بأنّها موجودة: كان لابدّ من المجيء هنا» وتغلّبت هذه المرّة على «سيليست» بمقالة أكثر عمقاً: «آه ! تدري ياسيّدي، لا يمكن أن نعرف البتّة ما يمكن أن تتضمّنه حياة أحدهم» . وكلّمتها بغية تغيير الموضوع عن حياة والدي الذي كان يعمل ليل نهار. «آه ! ياسيّد، تلك حيوات لايحتفظ المرء بشيء منها لنفسه، لا يحتفظ بدقيقة واحدة ولا بمتعة واحدة؛كل شيء،كل شيء تمامًا تضحية في سبيل الآخرين؛ إنّها حيوات «موهوبة» ... انظرى ياسيليست، إن لم يكن إلاّ في وضع يده على غطاء السرير وأخذ فطيرته، أيّة أناقة تلك ! يمكنه أن يأتي الأمور الأكثر تفاهة، وتخالين كامل نبلاء فرنسه حتّى جبال «البيرينيه» ينتقلون في كلّ من حركاته».

كنت أصمت وقد حطّمتني تلك الصورة القليلة القرب من الحقيقة إلى هذا الحدّ، فتبصر «سيليست» في الأمر حيلة جديدة: «آه ! ياجبيناً يبدو شديد النقاء ويخفي أموراً ما أكثرها، ياوجنتين صديقتين يانعتين كقلب لوزة، أيّتها اليدان اللتان من ساتين يغطّيه الوبر، والأظافر التي تشبه المخالب، الخ.. ويحك يا «ماري» ، انظري إليه

يشرب حليبه بخشوع أتوق معه إلى القيام إلى صلاتي. وأيّ مظهر جدّيّ! ينبغي أن يوضع رسمه في هذا الوقت. كلّ مافيه من الأطفال. أهو شرب الحليب مثلهم ماحفظ لك لون وجههم الفاتح؟ آه! يا للشباب! يا للبشرة الحلوة! لن تشيخ في يوم. أنت محظوظ فلن تضطرّ البتّة أن ترفع يدك على أحد لأنّك تملك عينين تعرفان كيف تفرضان مشيئتهما. ثمّ ها إنّه يتملّكه الغضب الآن. إنّه ينتصب واقفاً كالحقيقة الجليّة».

لم تكن «فرانسواز» تحب مطلقاً أن تجيء اللتان كانت تدعوهما الساحرتين للتحدّث على هذا النحو معي. أمّا المدير الذي كان يرصد بمستخدميه كلّ مايجري فقد لفت نظري بلهجة رزينة إلى أنّه لا يليق بأحد الزبائن أن يتحدّث إلى الساعيات. وأما أنا الذي كان يرى «الساحرتين» تفوقان زبائن الفندق جميعاً فقد اكتفيت بالانفجار ضاحكًا في وجهه ليقيني بأنّه لن يفهم إيضاحاتي. وتعود الشقيقتان: «انظري يا«ماري» قسماته الرقيقة جدًا. يا للمنمنمة الكاملة الأكثر جمالاً من أثمن ما قد يشاهد خلف واجهة، فإنّ له حركات وأقوالاً من مثل مايغري سماعه أيّامًا وليالي».

من أعاجيب الزمان أنْ استطاعت سيّدة أجنبية اصطحابهما، فإنّهما دون معرفة للتاريخ والجغرافية كانتا تمقتان من باب الثقة الإنكليز والألمان والروس والإيطاليّين «وحثالة» الأجانب ولا تحبّان مع بعض الاستثناءات سوى الفرنسيّين. فقد كان وجههما احتفظ برطوبة غضار سواقيهما المطواع إلى حدّ أنّ «سيليست» و«ماري»، ما إن يجرى الحديث عن أجنبي يقيم في الفندق حتّى تلصقا، بغية ترداد ماسبق أن قال، على وجهيهما وجهه ويصبح فمهما فمه وأعينهما عينيه، وحبّذا لو جرى الاحتفاظ بأقنعة المسرح الرائعة هذه. بل كانت «سيليست»، وهي تتظاهر بأنّها لاتردّد إلاّ ما قاله المدير أو فلان من أصدقائي، كانت تدسّ في روايتها الصغيرة أقوالاً متكلّفة ترسم فيها بخبث عيوب «بلوك» جميعها أو عيوب الرئيس الأوّل دون أن تبدي من ذلك شيئًا. وكان ذلك رسمًا لا يجارى على هيئة عرض لمهمّة بسيطة تكلّفتها متلطّفة. ما كانتا تقرأان قطّ شيئًا، حتّى ولا صحيفة. لكنّهما ذات يوم وجدتا كتاباً على سريري، وكانت قصائد رائعة ولكنّها غامضة لـ«سان ليجيه ليجيه». وقرأت «سيليست»بضع صفحات وقالت لي: «ولكن هل أنت متيقّن أنّها أبيات شعريّة، أفليست بالأحرى أحجيات؟» كان ثمّة بالبداهة، بالنسبة إلى امرئ تعلّم في طفولته قصيدة واحدة: «أزهار الليلك تموت جميعها على هذه الأرض الدنيا»، مرحلة وسيطة ناقصة. وفي اعتقادي أن عنادهما في رفض تعلّم أيّ شيء إنّما يرتبط قليلاً ببلدهما غير الصحيّ. وكانتا مع ذلك على مثل مواهب الشاعر. إلى جانب اتّضاع ليس للشعراء بعامّة. فإن سبق أن قالت «سيليست» شيئًا ملفتًا ولم أذكره تماماً فسألتها أن تذكّرني به كانت تؤكّد أنّها نسيت. إنّهما لن تقرأ اكتباً في يوم ولكنّهما لن تؤلفا كتباً بالمقابل.

لقد أثّر في «فرانسواز» إلى حدّ أنْ علمت أنّ شقيقي هاتين المرأتين البسيطتين جدًا تزوّجا، الأوّل ابنة شقيق رئيس أساقفة «تور»، والثاني قريبة لمطران «روديز» ولعلّ الأمر ما كان عنى شيئاً للمدير. كانت «سيليست» تنعي على زوجها أحياناً أنّه لايفهمها، أمّا أنا فكنت أعجب أنْ يطيق احتمالها. ذلك لأنّها كانت في ارتعاشها وحنقها وتخريبها كلّ شيء مقيتة في بعض الأحايين. يزعمون أن السائل المالح الذي هو دمنا إن هو إلاّ الأثر الداخلي الباقي للعنصر البحريّ البدائيّ. وفي اعتقادي كذلك أن «سيليست» كانت تحتفظ، لا في

صنوف غيظها فحسب بل في ساعات انحطاط قواه ، بإيقاع سواقي بلادها. فحين تكون منهكة فعلى شاكلتها، وتراها تجفّ حقّاً. وما من شيء حينذاك يمكن أن يردّ إليها نشاطها. ثم يعود الجريان فجأة في جسمها الطويل الرائع الخفيف، وينساب الماء في الشفافية اللبنيّة لبشرتها المائلة إلى الزرقة. كانت تبتسم في ضياء الشمس فتضحي أكثر زرقة بعد. لقد كانت في تلك الأوقات سماويّة[1] بحق.

عبثًا لم تكن أسرة «بلوك» ارتابت في يوم بالسبب الذي من أجله لم يكن عمّها يتناول غداءه في المنزل وقبلت بالأمر منذ البداية على أنّه هوس عازب عجوز، فإن كلّ ما كان يتعلّق بالسيّد «نسيم بيرنار»، ربّما لضرورات صلة مع إحدى الممثّلات، كان محرّمًا بالنسبة إلى مدير فندق «بالبيك». لذلك ودون أن يكون حتّى رجع إلى العمّ لم يجرؤ في نهاية المطاف أن يخطئ ابنة الأخ فيما يوصيها في الوقت نفسه بشيء من الحيطة. وإذ ذاك سعدت الفتاة وصديقتها، وكان خيّل إليهما على مدى بضعة أيّام أنّهما مستبعدتان عن الكازينو والفندق الكبير، سعدتا إذ تريان كلّ شيء يتدبّر شأنه، أن تظهرا لآباء الأسر الذين كانوا يستبعدونهما أنّهما تستطيعان دونما عقاب أن تأتيا ما تشاءان. ليس من شكّ أنّه لم يبلغ بهما أن تكرّرا المشهد العلنيّ الذي أثار اشمئزاز الجميع. لكنّ تصرّفاتهما عادت شيئاً فشيئاً وعلى نحو تكاد لاتحسّه. وذات مساء كنت خارجاً فيه من الكازينو وأنا نصف مطفأ برفقة «ألبيرتين» و«بلوك» الذي التقيناه من قبل، فمرّتا بنا وهما في عناق لا تكفّان عن القبل وإذ أصبحتا بموازاتنا أطلقتا ضحكات مكتومة وقهقهات وصيحات غير محتشمة. وأطرق «بلوك» كي لا يبدو أنّه يتعرّف شقيقته وكنت أنا في عذاب وأنا أفكّر أنّ هذا الكلام الخاصّ والمريع ربّما كان موجّها إلى «ألبيرتين».

وإن حادثاً آخر زاد من تركيز اهتمامي على جانب «عامورة». فقد كنت رأيت على الشاطئ إمرأة شابّة جميلة مديدة القامة شاحبة اللون كانت عيناها تسطّران حول مركزهما خطوطاً مضيئة هندست حتّى لتفكّر إزاء نظرتها باحدى المجموعات النجميّة. وفكّرت كم كانت هذه الفتاة أوفر جمالاً من «ألبيرتين» وكم يبدو التخلّي عن الثانية أكثر حكمة. أكثر ما هنالك أن وجه هذه المرأة الشابّة الجميلة قد مرّ عليه مسحاج خفيّ، مسحاج دناءة كبيرة في الحياة والقبول المستمرّ لوسائل وأمور دنيئة إلى حدّ ينبغي معه أن لاتشعّ عيناها، مع أنّهما أوفر نبلاً من باقي الوجه، إلاّ شهوات ورغبات. ولكنّي لاحظت في الغد، وكانت تلك المرأة الشابّة أجلست بعيدًا جداً عنّا في الكازينو، أنها لا تنفكّ تحطّ بأنوار ألحاظها المتناوبة الدوّارة على «ألبيرتين». لكأنّما كانت تعطيها إشارات وكأنّما بمصباح. كان يعذّبني أن ترى صديقتي أنّها تسترعي الانتباه إلى هذا الحدّ وكنت أخشى أن تحمل هذه النظرات المتقدّة باستمرار الدلالة المألوفة لموعد حبّ يضرب للغد. ومن ذا يدري؟ ربّما لم يكن هذا الموعد هو الأوّل، إذ يمكن أن تكون المرأة الشابّة ذات العينين المشرقتين جاءت إلى «بالبيك» في سنة أخرى. وإنّما كانت تجيز لنفسها توجيه تلك الإشارات اللمّاعة لأنّه ربّما سبق أن استجابت «ألبيرتين» لرغباتها أو لرغبات إحدى الصديقات. كانت تلك الإشارات تقوم حينئذ بأكثر من المطالبة بأمر يتّصل بالحاضر، كانت تتوسّل لذلك بساعات الماضي الحلوة.

---

(١) تلاعب لفظيّ لأن اسم السيّدة Celeste يعني بالفرنسيّة «سماويّة».

والموعد في هذه الحال كان ينبغي أن لا يكون الأوّل بل التتمّة لحفلات أقيمت معًا في سنوات أخرى. ذلك أن النظرات ما كانت تقول: « هل تودّ؟» فما أن تسنّى للمرأة الشابة أن تبصر «ألبيرتين» حتّى أدارت رأسها تمامًا وأرسلت باتّجاهها بريق نظرات محمّلة بالذكرى كما لو خشيت واعتراها ذهول أن لا تتذكّر صديقتي. أمّا «ألبيرتين» التي كانت تبصرها تمامًا فقد لبثت رابطة الجأش لا حراك بها إلى حدّ أن كفّت الأخرى، بذات التكتّم الذي يبديه رجل يشاهد عشيقته السابقة مع عشيق آخر، عن النظر إليها والاهتمام بها أكثر ممّا لو لم تكن موجودة.

ولكنّما توافر لي بعد بضعة أيّام البرهان على ميول تلك المرأة الشابّة وكذلك على أرجحيّة أن تكون عرفت «ألبيرتين» فيما مضى. فغالبًا ماكان يقع، حينما يتّفق لفتاتين في قاعة الكازينو أن تشتهي إحداهما الأخرى، ما يشبه الظاهرة الضوئيّة ونوعاً من السحابة الفوسفورية تنتقل من الواحدة إلى الأخرى. ولنقل في معرض حديثنا أن «عامورة» إنّما تسعى بمثل هذه التجسيدات ، وأن تمتنع على القياس، وبمثل هذه العلامات النجميّة التي تلهب جزءاً من الجوّ بكامله، تسعى «عامورة» المشتّتة، في كلّ مدينة وكلّ قرية، إلى التقاء أعضائها المنفصلين، وإلى إعادة تشكيل مدينة العهد القديم، فيما تتوالى الجهود نفسها، وإن يكن في سبيل إعماد متقطّع، على يد من يهزّهم الحنين والمنافقين وأحيانًا الشجعان المنفيّين من «صادوم».

وذات مرّة أبصرت المجهولة التي تظاهرت «ألبيرتين» بأنّها لا تعرفها بالضبط في وقت كانت تمرّ فيه ابنة عمّ «بلوك» . وتلألأت عينا المرأة الشابة، ولكنّما بدا تمامًا أنّها ما كانت تعرف الآنسة اليهوديّة. إنّها تبصرها للمرّة الأولى وتحسّ رغبة، وليس من شكّ تقريباً أنْ لم يكن ثمّة البتّة ذات اليقين الذي أبدته تجاه «ألبيرتين»، «ألبيرتين» التي لابدّ أنّها اعتمدت عليها إلى حدّ أنّها أحسّت إزاء فتورها بدهشة غريب من رواد باريس ولكنّه لا يقطن فيها ويرى بعدما عاد لقضاء بضعة أسابيع فيها أنّهم ابتنوا مصرفاً في مكان المسرح الصغير الذي تعوّد أن يمضي فيه أمسيات جميلة.

ومضت ابنة عم «بلوك» فجلست إلى طاولة قلّبت عليها مجلّة مصوّرة. وسرعان ما أقبلت المرأة الشابة لتجلس إلى جانبها بهيئة ساهية. ولكن سرعان ما كان يمكن أن ترى تحت الطاولة اصطخاب أقدامهما، فالسوق والأيدي التي تمازجت. وأعقبت ذلك الكلمات وانعقد الحديث ودهش زوج الشابّة الساذج الذي كان يبحث عنها في كلّ مكان أنْ لقيها تعقد مشروعات للأمسية نفسها مع فتاة لم يكن يعرفها. وقدّمت له زوجته إبنة عمّ «بلوك» على أنّها صديقة طفولة باسم غيرمفهوم إذ كان فاتها أن تسألها عن اسمها. إلاّ أن وجود الزوج أكسب ألفتهما خطوة إضافية فقد رفعتا الكلفة بينهما إذ كانتا تعارفتا في الدير، وهوالحادث الذي ضحكتا منه فيما بعد، ومن الزوج المخدوع أيضاً، بمرح كان مناسبة لصنوف من الرقّة جديدة.

أمّا «ألبيرتين» فلست أستطيع أن أقول إنّها سلكت في أي مكان، في الكازينو على الشاطئ، سلوكًا مفرط الحريّة مع إحدى الفتيات. بل كنت أرى لديهما فرطًا من الفتور والتفاهة كان يبدو حيلة من شأنها تبديد الشكوك أكثر منه ثمرة تربية صالحة. فقد كانت لها طريقة سريعة باردة محتشمة في إجابتها إحدى الفتيات بصوت عال: «أجل، سأذهب في حوالي الخامسة إلى كرة المضرب، وسأستحمّ في صباح الغد حوالي الساعة

الثامنة»، ومفارقة الفتاة التي وجّهت الحديث إليها في الحال، حديثًا يبدو بعنف أنّه يبغي التضليل وضرب موعد أو بالأحرى، بعد ما تكون حدّدته بصوت خفيض، أن تقول بصوت قويّ تلك الجملة التافهة بالفعل «كي لا تلفت الانتباه إليها». وما كنت أستطيع حينما أراها تمتطي درّاجتها وتنسلّ بأقصى سرعة، ما كنت أستطيع أن أصرف نفسي عن التفكير بأنّها ماضية لالتقاء تلك التي لم تكد تكلّمها.

وأكثر مافي الأمر أن «ألبيرتين» ماكان يسعها الإحجام عن الإلتفات حينما تنزل امرأة شابّة جميلة من السيارة في زاوية الشاطئ. وتوضح في الحال قائلة: «كنت أنظر إلى الراية الجديدة التي رفعوها أمام المسابح. كان بوسعهم أن يتكلّفوا أكثر في ذلك. لقد كانت الأخرى بائسة، لكنّي أعتقد حقًّا أن هذه أكثر قبحًا بعد».

وذات مرّة لم تكتف «ألبيرتين» بالفتور فزاد الأمر من تعاستي. كانت تعلم أنّه يزعجني أنْ تستطيع أحياناً لقاء صديقة لعمّتها كانت سيّئة المسلك وتجيء أحياناً لقضاء يومين أو ثلاثة في منزل السيّدة «بونتان». وكانت «ألبيرتين» قالت لي بلطف إنّها لن تحيّيها من بعد. وتقول «ألبيرتين» حينما تجيء تلك المرأة إلى «أنكرڤيل»: «تعلم بالمناسبة أنّها هنا. هل قيل لك ذلك؟» كأنّما لتبرهن لي أنّها لا تراها خفية. وقد أضافت في يوم كانت تنقل إليّ فيه الأمر: «أجل، لقد التقيتها على الشاطئ متقصّدة، من منطلق الفظاظة، لقد لامستها تقريباً وأنا أمرّ بها، لقد دفعتها». حينما قالت لي «ألبيرتين» ذلك عادت بي الذاكرة إلى جملة للسيّدة «بونتان» لم أكن افتكرتها ثانية البتّة، تلك التي قالت فيها للسيّدة «سوان» في حضرتي كم كانت ابنة أخيها «ألبرتين» وقحة وكأنّما تلك ميزة، وكيف أنّها قالت لمن لست أذكر من نساء الموظفين أن والدها سبق أن كان مساعد طبّاخ. ولكن قولاً قالته من نحبّ لا يحتفظ به طويلاً في نقائه؛ إنّه يفسد ويتعفّن. وعدت بعد مساء أو اثنين ففكّرت في جملة «ألبيرتين» ولم يعد مابدا أنّها تعنيه هو سوء التهذيب الذي كانت تفاخر به —وما كان بوسعه إلاّ رسم ابتسامة على شفتيّ— بل كان أمرًا مغايراً، وأن «ألبيرتين»، حتّى دون هدف واضح ربّما، وكيما تثير حواس تلك السيّدة أو تذكّرها بخبث بعروض سابقة ربّما جرى القبول بها قديماً، لامستها لمسًا سريعًا وظنّت أنّي ربّما عرفت بالأمر إذ وقع في العلن فشاءت أن تستبق تفسيراً في غير صالحها.

ومهما يكن من أمر فإن غيرتي التي تبعثها النساء اللواتي ربّما أحبّتهنّ «ألبيرتين» كانت ستتوقّف على نحو مفاجئ. كنت و«ألبيرتين» أمام محطّة القطار المحليّ الصغير في «بالبيك». وكنّا طلبنا من سيّارة الفندق الكبيرة نقلنا بسبب رداءة الطقس. كان السيّد «نسيم بيرنار» غير بعيد عنا مورّم العين. فقد كان منذ وقت يسير يخون ابن جوقات «آتالي» مع عامل فتيّ في مزرعة مجاورة كثيرة الزبائن تدعى «أشجار الكرز». كان هذا الصبيّ الأحمر ذو القسمات الحادّة يبدو كأنّما يحمل بمثابة رأس «قرص بندورة». ويشكّل «قرص بندورة» يشبهه تمام الشبه رأساً لأخيه التوأم. ثمّة بالنسبة إلى المتأملّ المتجرّد عنصر على قدر كاف من الجمال في تلك التشابهات التامّة بين توأمين قوامه أن تبدو الطبيعة وكأنّها انقلبت صناعيّة مؤقتة فتزوّدنا بمنتجات متماثلة. ولكنّ وجهة نظر السيّد «نسيم بيرنار» كانت لسوء الحظّ مغايرة والتشابه ذاك محض خارجيّ. فقرص البندورة رقم ٢ كان يجد متعة جنونية في توفير ملذات السيّدات حصراً، أمّا القرص رقم ١ فلم يكن يأنف من مماشاة ميول بعض السادة. وفي كلّ مرّة كان السيّد «بيرنار» يحضر فيها إلى «أشجار الكرز» يهزّه شأن فعل ارتكاسيّ

تذكّر الساعات الحلوة التي قضاها مع قرص البندورة رقم ١، كان اليهوديّ العجوز، وهو قصير النظر (وقصر النظر لم يكن ضرورياً بأيّ حال للخلط بينهما)، يخاطب الشقيق التوأم، وهو يمثّل دون علم منه «أمفيتريون»[(١)]، ويقول له: «هل تكرّمت بموعد لي لهذا المساء؟» وكانت ترده في الحال سلسلة من الكلمات القويّة. بل اتّفق أنْ تجدّدت أثناء وجبة الطعام نفسها حيث كان يواصل مع الآخر مابدأ من حديث مع الأوّل. وقد أصابه طول المدّة وبتداعي الأفكار قرف شديد من البندورة، حتّى ما كان منها أكيلاً، إلى حدّ أنّه كان في كلّ مرّة يسمع فيها مسافر يطلب شيئاً منها بالقرب منه في الفندق الكبيرة يهمس في أذنه قائلاً: «عذراً ياسيّد عن أنّي أخاطبك دون أن أعرفك، ولكنّي سمعتك تطلب شيئاً من البندورة. إنّها متعفّنة اليوم؛ وإني أقول ما أقول لمصلحتك، فالأمر واحد عندي بما أنيّ لا أتناولها البتّة». فيشكر الغريب بفيض من الكلام هذا الجار المحبّ للناس المتجرّد ويستدعي النادل ثانية ويتظاهر بالعدول عن رأيه قائلاً: «لا، لا بندورة بالتأكيد.». أمّا «إيميه» العارف بالمشهد فقد كان يضحك وحده ويفكّر قائلاً: «السيّد «بيرنار» هذا، يا للعجوز الماكر، لقد تمكّن مرّة أخرى من تغيير الطلبيّة». لم يكن السيّد «بيرنار» يحرص على تحيّتنا أنا و«ألبيرتين» وهو ينتظر الحافلة المتأخرة، بسبب عينه المورّمة. وكنّا أقلّ منه حرصاً على التحدّث إليه. ولعلّه ماكان يمكن تجنّب ذلك لو لم تنقضّ علينا بأقصى سرعة في تلك اللحظة درّاجة. وقفز عامل المصعد عنها فاقد الأنفاس. كانت السيّدة «ڤيردوران» قد اتّصلت هاتفياً بعد ذهابنا بمدّة وجيزة كي أحضر للغداء ما بعد الغد؛ وسنرى بعد قليل لأيّ سبب. ثم فارقنا عامل المصعد بعدما زوّدني بمضمون الهاتف مفصّلاً وأضاف، على غرار هؤلاء «المستخدمين» الديمقراطيّين الذين يتكلّفون الاستقلاليّة إزاء البورجوازيّين ويعودون فيقيمون بينهم مبدأ السلطات، أضاف وهو يقصد أن البوّاب وسائق العربة يمكن أن يستاءا إن هو تأخّر: «سأنثني عائداً بسبب رؤسائي».

كانت صديقات «ألبيرتين» قد رحلن فترة من الزمن. وكنت أودّ إلهاءها. كنت أعلم، بافتراض أن تكون شعرتْ بالسعادة في قضاء فترات العصر معي وحدي في «بالبيك»، أن السعادة لا تسمح البتّة بأن تُمتلَكَ امتلاكاً كاملاً وأن «ألبيرتين»، ولا تزال في السنّ «التي لا يتجاوزها البعض» والتي لم يكتشف المرء فيها أن هذا العيب مرتبط بمن يحسّ السعادة لا بمن يعطيها، كان يمكن أن تنساق إلى ردّ سبب خيبتها إليّ. وكنت أفضّل أن تعزوه للظروف التي نسجتها أنا فلا تيسّر لنا المكوث سويّة فيما تحول دون بقائها في الكازينو أو فوق السدّ بمعزل عنّي. لذلك سألتها في ذلك اليوم أن ترافقني إلى «دونسيير» حيث سأمضي للقاء «سان لو». وفي سياق هدف إشغالها نفسه كنت أشير عليها بالرسم الزيتي الذي سبق أن تعلّمته فيما مضى، فإنها لن تتساءل حين تعمل إن كانت سعيدة أو تعيسة. ولعلّي كنت اصطحبتها بكلّ طيبة خاطر للعشاء بين حين وآخر في منزل آل «ڤيردوران» وآل «كامبرمير» وكان هؤلاء وأولئك استقبلوا بالتأكيد بكلّ سرور صديقة قدّمتها أنا، لكنّما كان ينبغي أن أتيقن أوّلا من أن السيّدة «بوتبوس» لم تكن بعد في دارة «لاراسپلپيير» وما كان بوسعي تبيّن الأمر إلاّ في موقعه ولمّا كنت أعلم مسبقاً أن «ألبيرتين» مضطرّة للذهاب بعد الغد برفقة عمّتها إلى الضواحي المحيطة فقد استغللت الأمر لأبعث بعجالة إلى السيّدة «ڤيردوران» أسألها إن كان بوسعها استقبالي يوم الأربعاء. فإن كانت السيّدة «بوتبوس» هناك تدبّرت أمري للقاء وصيفتها والتأكد إن كان يحتمل أن تجئ إلى

(١) مسرحيّة هزليّة لـ«موليير» يجري الخلط فيها بين شخصين متشابهين.

«بالبيك» وأن أعلم والحالة هذه متى يكون ذلك كي أذهب بـ«ألبيرتين» بعيداً في ذلك اليوم. كان القطار المحلّي الصغير يقوم بانعطافة لم تكن موجودة حينما استقللته برفقة جدّتي فيمرّ الآن بـ«دونسيير لاغوبي»، وهي محطّة كبيرة تنطلق منها قطارات هامة، ولا سيما القطار السريع الذي جئت فيه من باريس لزيارة «سان لو» وعدت به. وحملتنا سيّارة الفندق الكبير أنا و«ألبيرتين» بسبب رداءة الطقس إلى محطّة الحافلة الصغيرة «بالبيك الشاطئ».

لم يكن القطار الصغير قد وصل بعد إلاّ أنّك كنت ترى سحابة الدخان التي خلّفها في طريقه خاملة بطيئة والتي اقتصرت الآن على محض وسائلها الخاصّة كسحابة قليلة الحركة فأخذت تتسلّق ببطء السفوح الخضراء لجرف «كريكتو».

وأخيراً وصل القطار الصغير الذي كان ذاك قد سبقه ليتّخذ اتجاهًا عموديًا، وصل بطيئاً بدوره. وتباعد المسافرون الذين يزمعون استقلاله كي يفسحوا له في المكان ولكن دونما استعجال إذ يعلمون أنهم يعاملون سيّاراً ليّن العريكة يكاد يكون من البشر ولا يحتمل، إذ تقوده إشارات مدير المحطّة المتساهلة، وكأنّما درّاجة مبتدئ، لا يحتمل في وصاية الميكانيكي النافذة أن يسقط أحداً ولكان توقّف حيثما يرغبون.

كانت عجالتي تفسّر هاتف آل«ڤيردوران» وكان يزيد من حسن توقيتها أن الأربعاء (واتفق أنّ بعد الغد كان يوم أربعاء) كان يوم حفلة عشاء كبرى بالنسبة إلى السيّدة «ڤيردوران» في «لاراسپليير» وباريس على حدّ سواء، وهو ما كنت أجهله. وما كانت السيّدة «ڤيردوران» تقيم حفلات عشاء، ولكنّما كان لها «أيّام أربعاء»، وكانت أيّام الأربعاء أعمالاً فنيّة. وفيما تعلم السيّدة «ڤيردوران»أنْ ليس لها من شبيه في أيّ مكان فقد كانت تدخل فروقًا فيما بينها وتقول: «هذا الإربعاء الأخير ما كان يساوى السابق. ولكنّي اعتقد أن المقبل سيكون أحد أنجح مانظمته فى يوم». وكان يبلغ بها أحياناً أن تعترف قائلة: «هذا الأربعاء لم يكن خليقًا بالأخريات. ولكنّي في المقابل احتفظ لكم بمفاجأة كبيرة للتالي». وفي الأسابيع الأخيرة من الموسم الباريسي وقبل الإنطلاق إلى الريف كانت ربّة البيت تعلن ختام أيّام الأربعاء، وهي مناسبة لشحذ عزائم الخلّص، فتقول: «لم يبقَ إلاّ ثلاثة أيّام أربعاء، لم يبق إلا يومان»، باللهجة التي تعني أنّ العالم على وشك أن ينتهي، «لن تفوّت الأربعاء القادم وهو للختام». ولكنّ الختام ذاك كان مصطنعًا، فقد كانت تنبّه قائلة: «الآن لم يعد ثمّة أيّام أربعاء. لقد كان الأخير بالنسبة إلى هذا العام. لكني مع ذلك سأكون هنا نهار الأربعاء، وسوف نحتفل بالأربعاء فيما بيننا؛ ومن يدري؟ ربّما كانت أيام الأربعاء هذه الهيّنة الحميمة من أكثرها إمتاعا». كانت أيّام الأربعاء في «لاراسپليير» محدودة حكماً، وبما أنّهم كانوا يدعون في هذه العشيّة أو تلك أيّ صديق التقوه يمرّ مروراً عارضاً فقد كانت كلّ الأيّام تقريبا أربعاء. وكان عامل المصعد قال لي: «لست أذكر تماماً اسم المدعوّين ولكنّي اعرف أن السيّدة المركيزة «دوكامنبير» هناك»؛ ولم يكن تذكّر إيضاحاتنا المتعلّقة بآل«كامبرمير» أفلح في الحلول نهائياً محلّ الكلمة القديمة التي كانت مقاطعها المألوفة المليئة بالمعاني تهبّ لمساعدة المستخدم الشاب حينما يربكه هذا الاسم الصعب فيفضّلها في الحال ويتبنّاها لا تكاسلاً وكأنّما تلك عادة قديمة لا يقوى على اقتلاعها، بل من جرّاء الحاجة إلى المنطق والوضوح اللذين ترضيهما .

وسارعنا للوصول إلى عربة خالية أستطيع فيها معانقة «ألبيرتين» طوال الرحلة. ولما لم نجد شيئاً من هذا القبيل صعدنا إلى مقصورة كانت تجلس فيها سيّدة ضخمة الوجه قبيحة مسنّة ذكريّة القسمات أسرفت في لباسها وتقرأ «مجلة العالمين». كانت على الرغم من سوقيّتها متصنّعة في حركاتها وتلهّيت في مساءلة نفسي عن الفئة الإجتماعية التي يمكن أن تنضوى تحت لوائها. وخلصت في الحال إلى أنّها لابدّ مديرة بيت كبير للمومسات، قوّادة فى رحلة لها. كان وجهها وكلّ تصرّفاتها تبرز ذلك بوضوح. ولكننى كنت فقط جاهلا حتّى ذاك أنّ تلك السيّدات يقرأن «مجلة العالمين». ودلّتنى عليها «ألبيرتين» ولم يفتها أن تغمز بعينها وهى تبتسم لى. كانت السيّدة تبدو شديدة الوقار؛ ولما كنت من جانبى أعى تمام الوعى أنّى كنت مدعواً فى الغد فى آخر محطّة للقطار الصغير إلى منزل السيّدة «ڤيردوران» الشهيرة وأن «روبير دوسان لو» ينتظرنى في محطّة وسيطة وأنني إلى أبعد بقليل كنتُ أشعتُ أعظم السرور في نفس السيّدة «دوكامبرمير» لو أقبلتُ للسكنى في «فيتيرن» فقد كانت عيناي تلتمعان استهزاء وأنا أتأمل تلك السيّدة الخطيرة التي يبدو أنّها تظنّ نفسها شخصيّة أرفع شأناً منّي بسبب لباسها المتكلّف والريش الذي يعلو قبّعتها و«مجلة العالمين» التي تحملها. وكنت آمل أنْ لن تمكث السيّدة أكثر ممّا فعل السيّد «نسيم بيرنار» وأنّها ستغادر على الأقل في «توتانڤيل»، وخاب الأمل. وتوقّف القطار في «ايبرڤيل» ، فلبثت جالسة؛ وكذلك الأمر في «مونمارتان سورمير» و«پارڤيى لابنغار» و«أنكرڤيل» حتّى أني شرعت من يأس، وبعد ما غادر القطار «سان فريشو»، وكانت آخر محطّة قبل «دونسيير»، بمعانقة «ألبيرتين» دون أن أهتمّ بالسيّدة. وفي «دونسيير» كان «سان لو» قد جاء ينتظرنى في المحطّة متجشّماً أعظم الصعوبات، يقول، فإنه اذ يسكن عند عمّته لم تصله برقيتى إلاّ للتوّ ولن يستطيع أن يخصّني إلاّ بساعة واحدة لأنّه لم يسعه تدبير وقته سلفًا. وبدت لي تلك الساعة للأسف مفرطة في طولها لأن ألبيرتين» لم تعد تهتمّ حالما نزلنا من العربة إلاّ بـ«سان لو». فلم تكن تتحدّث إليّ وتكاد لا تجيبني إن خاطبتها وقد أبعدتني حين اقتربت منها. وكانت في المقابل تضحك بصحبة روبير» ضحكتها المغرية وتحدّثه بطلاقة كبيرة وتلاعب الكلب الذي معه وتحتكّ فيما تستثير الحيوان إحتكاكًا طفيفًا متعمّدًا بسيّده وتذكّرت أني في اليوم الذي سمحت فيه «ألبيرتين» بأن أقبّلها للمرّة الأولى ابتسمت ابتسامة امتنان للغاوى المجهول الذي أدخل في نفسها تحوّلا عميقًا إلى هذا الحدّ وسهّل لي المهمّة بدرجة كبيرة. أمّا الآن فكنت أفكر فيه باشمئزاز. ولابدّ أن «روبير» تبيّن أن «ألبيرتين» لم تكن غير ذات شأن بالنسبة إليّ فهو لم يستجب لصنوف غنجها، الأمر الذي أوغر صدرها عليّ. ثم إنّه كلّمني كما لو كنت وحدي، وقد رفع ذلك من قدري عندها حينما انتبهتْ للأمر. وسألنى «روبير» إن كنت لا أودّ محاولة العثور، بين الأصدقاء الذين كان يدعوني للعشاء وإيّاهم كل مساء في «دونسيير» حين أقمت فيها من قبل، على من لا يزال منهم هناك. ولما كان ينزع هو نفسه إلى نوع التباهي المزعج الذي يستهجنه قال: «مانفع أن تكون أبديت ما أبديت لهم من إغراء بذاك القدر من المثابرة إن كنت لا تريد لقاءهم ثانية؟» ورفضت اقتراحه إذ لم أكن أودّ المجازفة بالابتعاد عن «ألبيرتين» ولأني كنت كذلك قد انفصلت عنهم الآن. عنهم، يعني عن ذاتي. فإننا نرغب أعنف الرغبة أن تكون ثمّة حياة أخرى نماثل فيها مانحن عليه في الحياة الدنيا. و لكننا لا نفكر أننا حتّى دون انتظار تلك الحياة الأخرى، وفي هذه نفسها، لا نظلّ مخلصين لما كنّا عليه وما كنّا نودّ أن نلبثه خالدين فيه. وحتّى دون افتراض أنّ الموت يبدّلنا أكثر من تلك

التغيّرات التي تحدث في بحر الحياة، فإننا لو صادفنا في تلك الحياة الأخرى الأنا التي كنّاها لأعرضنا عن ذواتنا إعراضنا عن أولئك الأشخاص الذين ارتبطنا بصداقتهم ولكنّنا لم نلتقِ بهم منذ فترة طويلة –كأصدقاء «سان لو» مثلا الذين كان يمتعني أكثر ما يمتعني أن الحق بهم كلّ مساء في مطعم «التدرج الذهبيّ» والذين لن يكون حديثهم بالنسبة إليّ الآن سوى إزعاج ومضايقة. ولعلّ نزهة بهذا الخصوص في «دونسيير»، ولأنّي فضّلت أن لا أذهب إليها لألتقي ما سبق أن أمتعني فيها، لعلّها كانت استطاعت أن تبدو لي وكأنّها تمثّل مقدّما الوصول إلى الجنّة. والمرء يحلم كثيرا بالجنّة أو بالأحرى بجنّات كثيرة متعاقبة ولكنّها جميعًا، وقبلما نموت، جنّات مفقودة وربّما أحسّ المرء أنّه ضائع فيها.

وفارقنا في المحطّة وهو يقول: «ولكن ربّما وجب أن تنتظر قرابة الساعة. فإن قضيتها هنا فسترى دون شكّ عمّي «شارلوس» الذى يعود ليستقلّ القطار عمّا قليل إلى باريس عشر دقائق قبل قطارك. لقد سبق لي أن ودّعته لأنّي مضطرّ أن أكون عدت قبل إقلاع قطاره . ولم يكن بوسعي أن أحدّثه عنك لأن برقيّتك لم تكن بعد وصلتني» . وأجابتني «ألبيرتين» عن اللوم الذي وجّهته إليها بعدما فارقنا «سان لو» أنّها ابتغت من فتورها معي أن تمحو، تحسّبًا لكلّ طارئ، الفكرة التي أمكن أن تراوده لو أنّه رآني لحظة توقّف القطار أنحني فوقها وأمرّر ذراعي حول خصرها. وكان لاحظ بالفعل ذاك الوضع (وما كنت لمحته وإلاّ لاتخذت جلسة أكثر لياقة إلى جانب «ألبيرتين») واتّسع له الوقت كي يهمس في أذني: «أهؤلاء هنّ الفتيات اللواتي حدثتني عنهنّ واللواتي ما كنّ يبغين عشرة الآنسة «دوستيرماريا» لأنهنّ يرين أنّها سيّئة المسلك؟» وكنت بالفعل قلت لـ«روبير» وبمنتهى الصراحة حينما ذهبت من باريس لإلتقائه في «دونسيير» وإذ كنّا نعيد الحديث عن «بالبيك» إنّه لا مجال للأقدام على أيّ شيء مع «ألبيرتين» إذ كانت الفضيلة مجسّدة. أمّا الآن وقد علمت بنفسي منذ فترة طويلة أن الأمر غيرصحيح فقد كنت بعد أكثر رغبة في أن يظنّ «روبير» أنّ ذلك صحيح. ولعلّه كان كفاني أن أقول لـ«روبير»إنّي أحبّ «ألبيرتين». فقد كان من هؤلاء الناس الذين يعرفون كيف يحجمون عن متعة ليجنّبوا صديقهم آلاماً ربّما أحسّوا بها وكأنّها آلامهم. وأضفت أقول بادي القلق: «أجل، إنّها طفوليّة إلى أبعد حدّ. ولكن ألا تعرف شيئا عنها؟» –«لا شئ سوى أنّي رأيتكما تتّخذان وضعيّة حبيبين» .

وقلت لـ«ألبيرتين» بعد أن فارقنا «سان لو» : «لم يكن موقفك يمحو شيئاً البتّة» . فقالت: «صحيح، لقد كنت خرقاء وأشعت الغمّ في نفسك وإنّي لحزينة جدّا من أجلك. وسترى أنّي لن أكون البتّة كذلك من بعد. سامحني» ، تقول وهي تمدّ لي يدها بهيئة كئيبة. وأبصرت في تلك اللحظة من أقصى قاعة الانتظار التي كنّا نجلس فيها، السيّد «دوشارلوس» يمرّ بطيئاً يتبعه على مسافة قصيرة مستخدم كان يحمل حقائبه.

ما كنت في باريس حيث لا ألتقيه إلاّ إبّان السهرة جامداً لاحراك به متحزّماً بلباس أسود، يحفظ له اتجاهه العمودى انتصاب قامته المستكبرة واندفاعه ليروق للناس وانطلاقة حديثه، وما كنت أتبيّن إلى أيّ حدّ تقدّمت به السنّ. أمّا الآن، وإذ يرتدي بدلة سفر بلون فاتح يبدو بها أوفر سمنة، وإذ يسير ويتمايل مرجّحا كرشًا يتكوّر وعجزاً يكاد يكون رمزيًا، فقد كانت قسوة ضياء النهار تحلّل كلّ ما كان بدا على أنوار المصابيح حيوية في لون الوجه لدى شخص لا يزال فتيًا، تحلّله خضابا على الشفتين وبودرة ثبّتتها الكريما على طرف الأنف وسواداً

على الشاربين المصبوغين اللذين يتعارض سوادهما الفاحم والشعر المتشيّب.

كنت فيما أتحدّث إليه، إنّما باقتضاب بسبب القطار الذي سيستقلّه، أنظر إلى عربة «ألبيرتين» كي أومئ إليها بأنّي آت. وحين ملت برأسي صوب السيّد «دوشارلوس» سألني أن أتكرّم وأدعو مجنّداً قريباً له كان في الجانب الآخر من السكّة كما لو أنّه يزمع بالضبط أن يستقلّ قطارنا ولكن في الإتجاه المعاكس وفي الجهه التي يبتعد بها عن «بالبيك». وقال لي السيّد «دوشارلوس»: «إنّه في موسيقى الكتيبة. وإذ يسعفك الحظّ في كونك على شباب كاف، ويتعسني أنا أنّي هرمت إلى حدّ، مما يمكنّك تجنيبي اجتياز الخطّ والذهاب حتّى هناك...» ورأيت من واجبي أن أمضي إلى الجنديّ المعيّن وتبيّنت بالفعل من القيثارات المطرّزة على ياقته أنه من جماعة الموسيقى. ولكن أيّة دهشة ألمّت بي، بل يمكن أن أقول أيّة متعة أصبت لحظة كنت أزمع الوفاء بما كُلِّفْتُ به حينما تعرّفت «موريل» ابن خادم عمّي الخاصّ والذي كان يذكّرني بأشياء ما أكثرها! ونسيت من جرّاء ذلك القيام بالمهمّة التي كلّفني بها السيّد «دوشارلوس». «عجباً، أأنت في «دونسيير»؟ -«أجل وقد أُلحقت بفرقة الموسيقى في مجموعة آلات النقر». ولكنّه أجاب يقول بلهجة جافّة متعالية. فقد كان أضحى شديد التكلّف ولم تكن رؤيتي لتروقه وهي تذكّره بمهنة والده. وأبصرت السيّد «دوشارلوس» فجأة ينقضّ علينا. فمن الواضح أن تأخّري أفقده صبره، وقال لـ«موريل» دون أيّة مقدّمات: «ربّما رغبت في سماع بعض الموسيقى هذا المساء وإنّي أدفع ٥٠٠ فرنك للأمسية وربّما أمكن أن يكون ذلك موضع اهتمام أحد أصدقائك إن توافر في مجموعة الموسيقى. وعبثًا كنت أعرف وقاحة السيّد «دوشارلوس» فقد أذهلني أن لم يقل حتّى مرحبى لصديقه الشاب. ولم يدع لي البارون على أيّة حال وقتاً للتفكير فقد مدّ يده بصورة ودّية وقال: «إلى اللقاء أيّها العزيز» ليبلّغني بأنْ ليس عليّ سوى الذهاب. وكنت على أيّ حال بالغت في ترك عزيزتي «ألبيرتين» فترة طويلة، وقلت لها وأنا أصعد ثانية إلى القطار: «ترين، إنّ حياة الحمّامات البحرية وحياة الأسفار تفهمانني أن في مسرح الدنيا ديكورات أقلّ من الممثلين، وممثلين أقلّ من «المواقف». -«بأي شأن تقول لي ذلك؟» -«لأن السيّد «درشارلوس» سألني منذ قليل أن أبعث إليه واحداً من أصدقائه عرفت فيه في هذه اللحظة تماماً وعلى رصيف هذه المحطّة واحداً من أصدقائي». وكنت فيما أقول ذلك أبحث كيف يمكن للبارون أن يعرف «موريل»، فإن التفاوت الاجتماعي الذي لم تراودني فكرته بادئ الأمر كان شاسعا جداً. وخطر لي أولاً أن الأمر تمّ عن طريق «جوبيان» الذي بدا أن ابنته، كما نذكر، أُغرمت بعازف الكمان. على أن ما كان يذهلني أن يكون البارون طلب سماع الموسيقى في «دونسيير» وهو يعتزم الذهاب إلى باريس بعد خمس دقائق. ولكنّي إذ عدت أرى إبنة «جوبيان» في ذكرياتي شرعت أرى أن «صنوف التعرّف»، وهي الوسيلة التعيسة التي تلجأ إليها الأعمال الأدبية المصطنعة، إنّما هي التعبير على العكس عن جزء هام من الحياة إن عرفنا كيف نذهب حتّى حدود الخياليّ الصحيح، حينما برق في خاطري بارق مفاجئ وأدركت أنّي كنت في غاية السذاجة. فما كان السيّد «دوشارلوس» على أدنى معرفة بـ«موريل»، ولا «موريل» بالسيّد «دوشارلوس» الذي بهره وأفزعه جندي ما كان يحمل مع ذلك سوى قيثارات فطلب منّي في غمرة اضطرابه أن أجيئه بمن لم يكن يرتاب بأنّي أعرفه. ولا بدّ في جميع الأحوال أن يكون عرض الخمس مئة فرنك قد حلّ في نظر «موريل» محلّ انتفاء العلاقات السابقة، فقد رأيتهما يواليان حديثهما دون أن يخطر لهما أنّهما بجوار حافلتنا. وإذ تذكّرت الطريقة التي أقبل بها السيّد

«دوشارلوس» نحوي ونحو «موريل» أخذت أدرك شبهه ببعض أهليه حينما يتصيّدون إمرأة في الشارع، ولكنّ الموضوع المستهدف تبدّل جنساً. فإنّه ابتداء من سنّ معينة وحتّى لو تحقّقت في داخلنا تطوّرات مختلفة، كلّما أصبح المرء ذاته كلّما برزت القسمات العائليّة. لأنّ الطبيعة فيما توالي باتّساق خطوط نسيجها إنّما تقطع رتابة التأليف بفضل تنوّع الرسوم المدرجة فيه. ومهما تكن الحال فإن التعالي الذي حدج به السيّد «دوشارلوس» عازف الكمان نسبيّ حسب وجهة النظر التي نعتمدها منطلقا. ولعلّ ثلاثةأرباع أفراد دنيا المجتمع كانوا اقرّوا بذلك، وهم يسلّمون بالأمر، لا مفوّض الشرطة الذي أمر بمراقبته بعد بضع سنوات.

وقال المستخدم الذي كان يحمل الحقائب: «لقد جرى الإعلان عن قطار باريس ياسيّد». «ولكنّي لا أستقلّ أي قطار، فضع كلّ ذلك في مستودع الأمانات ويحك!» يقول السيّد «دوشارلوس» وهو ينقد عشرين فرنكًا المستخدم الذي أذهله الإنقلاب وفتنته الإكرامية. واجتذب هذا الكرم في الحال بائعة زهور. «خذ هذه القرنفلات، هاك هذه الوردة الجميلة، أيّها السيّد الطيّب، فسوف تجلب لك الحظّ» فمدّ لها السيّد «دوشارلوس»، وقد نفد صبره، أربعين فلساً قدّمت له المرأة في مقابلها تبريكاتها وزهورها مرّة ثانية. «يا إلهي، لو أمكن أن تدعنا وشأننا» ، يقول السيّد «دوشارلوس» موجّها حديثه بلهجة ساخرة باكية شأن رجل متوتّر الأعصاب، إلى «موريل» الذي كان يجد شيئاً من العذوبة في طلب مساندته. «فإن ماينبغي لنا أن نقوله بلغ كفايته من التعقيد» . ربّما لم يكن السيّد «دوشارلوس» حريصًا أن يكون من حوله حضور كبير إذ لم يكن مستخدم الخطّ الحديدى بعيداً جداً بعد، وربّما سمحت هذه الجمل العارضة، ربّما سمحت لحيائه المستكبر أن لا يتعرّض مباشرة لطلب المواعيد. أمّا الموسيقيّ فقد استدار بهيئة صريحة، هيئة الآمر المصمّم، صوب بائعة الزهور ورفع فى وجهها راحة كانت تدفعها بعيداً وتعلن لها أنّهم لا يريدون أزهارها وأن عليها أن تمضى فى سبيلها بأسرع ما يمكن. ورأى السيّد «دوشارلوس» باغتباط تلك الإشارة الحازمة الرجولية تقوم بها اليد الناعمة والتى كان ينبغى أن تكون بعد ثقيلة عليها وقاسية ضخمة، تقوم بها بحزم ومرونة سابقين لأوانهما ويوليان هذا المراهق الأمرد هيئة «داود» شابّ قادر على الإضطلاع بأعباء مقاتلة «جليات» . كان إعجاب البارون يمتزج عن غير ما قصد بتلك الإبتسامة التى نحسّ بها إذ نرى على وجه أحد الأطفال تعابير تفوق برزانتها سنّه. وقال السيّد «دوشارلوس» فى نفسه: «هو ذا شخص أحببت أن يرافقنى في أسفارى ويساعدنى فى أمورى، وكم لعلّه يسهّل أمور حياتي!» .

انطلق قطار باريس (الذى لم يستقلّه البارون) . ثمّ صعدنا إلى قطارنا أنا و«ألبيرتين» دون أن أكون علمت ما الذي حلّ بالسيّد «دوشارلوس» و«موريل» . وعادت «ألبيرتين» تقول لي في إشارة إلى حادثة «سان لو» : «يجب أن لا نتنازع بعد اليوم، وإنى استميحك عذراً» ؛ وأردفت تقول برقّة: «يجب أن نظلّ كلانا لطيفين. أمّا فيما يخصّ صديقك «سان لو» فإن ظننت أني أهتمّ به لأمر آيًا نظل كلانا لطيفيين . أمّا فيما يخصّ صديقك «سان لو» ، فإن ظننت أني أهتمّ به لأمر آيًا كان فأنت على ضلال كبير. ما يروقني منه فقط ما يبدو أنّه يكنّه لك من حبّ عظيم» . فقلت: «إنّه فتى طيّب جداً» ، قلت وأنا أتحاشى أن انسب إلى «روبير» مزايا عظيمة خياليّة كما لعلّه لم يكن فاتني أن أفعل مودّة له لو كنت مع شخص آخر غير«ألبيرتين» ؛ «إنّه شخص ممتاز صريح خدوم صادق يمكن الاعتماد عليه في كلّ شيء» . وكنت إذ أقول ذلك أكتفي، تمنعني غيرتي، بإيراد

الحقيقة بشأن «سان لو» بيد أن ما أقول كان عين الحقيقة. وواقع الحال أنّها كانت تستخدم بالضبط ذات الألفاظ التي سبق أن استخدمتها السيّدة «دوفيلباريزيس» لتحدّثني عنه حين لم أكن أعرفه بعد وأتخيّله مختلفاً جدّاً متعاليًا جدّاً وأقول في نفسي: «يرونه طيّباً لأنّه سيّد كبير». كذلك تصوّرت، حينما قالت لي: «سوف يَسْعَد كثيراً»، بعد ما شاهدته أمام الفندق جاهزاً للإنطلاق، أن أقوال عمّته كانت مجرّد ترّهات مجتمعيّة ترمي إلى مداهنتي. وتبيّنت بعد ذلك أنّها قالت صادقة وهي تفكّر بما يثير اهتمامي وبقراءاتي ولأنّها كانت تعلم أن ذلك ما كان يحبّه «سان لو» كما كان سيتّفق لي أن أقول بصدق لواحد كان يؤلّف قصّة عن جدّه «لاروشفوكو» واضع كتاب «الحِكَم» ودّ لو يذهب لإستشارة «روبير»: «سوف يسعد كثيراً». ذلك أني كنت تدرّبت على معرفته.

ولكنّي يوم رأيته أوّل مرّة لم أصدق أن عقلاًمشابها لعقلي يمكن أن يتجلبب بهذا القدر من الأناقة ملبساً وموقفاً . وكنت حكمت من مظهره أنّه من نوع آخر. و«ألبيرتين» الآن هي من قالت لي، ربّما لأن «سان لو» كان فاتراً معها إلى هذا الحدّ ترفقًا بي، ما سبق أن فكّرت به فيما مضى: «آه! إنّه خدوم إلى هذا الحدّ! فإني ألاحظ أنّهم يرون دومًا كلّ الفضائل تجتمع للناس إن كانوا من حيّ «سان جيرمان».» أمّا أن يكون «سان لو» من حيّ «سان جيرمان» فذلك أمر ما عدت فكّرت فيه مرّة واحدة خلال تلك السنين التي أبرز لي فيها فضائله وقد تجرّد من مكانته. إنّه تغيّر في المنظور في نظرتنا إلى الناس وهو أكثر جلاء في الصداقة منه في العلاقات الإجتماعية المحضة، وكم هو بعدُ أكثر جلاء في الحبّ حيث يضع الشوقُ على مقاس واسع جدّاً ويضخّم أدنى علامات الفتور بنسب عظيمة إلى حدّ أنّه انبغى لي قدر منه أقلّ كثيراً من الفتور الذي يبديه «سان لو» لأوّل وهلة كي أظنّ في الحال أن «ألبيرتين» تزدريني وأن أتخيّل صديقاتها بمثابة كائنات غير بشرية إلى حدّ عجيب وأن أردّ إلى محض التسامح الذي نبديه للجمال ولنوع من الأناقة حكم «ايلستير» حين كان يقول لي حول المجموعة الصغيرة ما كان تماماً من قبيل ما قالت السيّدة «دوفيليباريزيس» حول «سان لو»: «إنّهنّ فتيات طيّبات». على أن هذا الحكم ليس هو الذي كنت أصدرته مختاراً حينما أسمع «ألبيرتين» تقول: «أملي في جميع الأحوال، أخدومًا كان أو غير خدوم، أن لا ألقاه ثانية بما أنه جلب الخصام بيننا. ينبغي أن لا نختصم من بعد. أليس ذلك لطيفًا؟» كنت أحسّ، إذ بدا أنّها تشتهي «سان لو»، أنّي شفيت بعض الوقت من فكرة أنّها تحبّ النساء، لأني كنت أرى تناقضاً في ذلك. وفي مواجهة المشمّع الذي كانت «ألبيرتين» تبدو فيه وقد أضحت امرأة أخرى، جوّالة الأيّام الماطرة التي لاتكلّ، ذاك المشمّع الملتصق الطيّع الرماديّ في هذه اللحظة الذي يبدو وكأنّه جعل أقلّ ما جعل لحماية ثيابها من الماء وأكثره لماهي بلّلته فالتصق بجسد صديقتي كأنّما ليرفع خطوط تقاطيعه لأحد النحّاتين، رأيتني انتزع ذاك الرداء الذي يلاصق بعناية لهفى صدرها المشتهى وجذبت «ألبيرتين» إليّ وقلت لها:

«وأنت، ألست تريدين، أيتها المسافرة المتراخية، أن تحلمي فوق كتفي وقد ألصقت بها جبينك؟»(١)

---

(١) من كتاب «المصائر» للشاعر ألفريد دو فيني، والقصيدة بعنوان «بيت الراعي».

قلت وقد أخذت رأسها بين يديّ وأريتها المروج الواسعة الغارقة الصامتة المنبسطة في الضياء الغارب حتّى الأفق الذي تسدّه سلاسل متوازية من تموّجات أودية بعيدة ضاربة إلى الزرقة.

كنت بعد الغد، في ذاك الأربعاء الشهير وفي ذات القطار الصغير الذي أخذته من «بالبيك» للذهاب إلى «لاراسپليير» وتناول العشاء هناك، كنت شديد الحرص على أن لا تفوتني فرصة لقاء «كوتار» في «غرانكور سان ڤاست» حيث نقل إليّ هاتف جديد للسيّدة «ڤيردوران» أنّي ملاقيه هناك. كان عليه أن يصعد إلى القطار الذي استقلّه ليدلّني أين ينبغي لي النزول لأجد العربات التي يبعثون بها من «لاراسپليير» إلى المحطة. وبما أنّ القطار لا يتوقّف سوى لحظة في «غرانكور»، وهي المحطّة الأولى بعد «دونسيير»، فقد أقمت سلفًا على الباب لخوفي الشديد أن لا أرى «كوتار» أو لا يراني هو، وعبثًا ساورتني المخاوف! فلم أكن تبيّنت إلى أيّ حدّ كانت العشيرة الصغيرة قد صاغت «روّادها» جميعًا على الشاكلة نفسها فأصبح من السهل، وهم فوق ذلك بلباس العشاء الرسميّ ينتظرون على الرصيف، التعرّف إليهم في الحال من جرّاء هيئة لهم تتّسم بالثقة والأناقة والألفة ونظرات تجتاز صفوف الدهماء المكتظّة، كأنّما تلك مساحة فارغة ليس فيها ما يستوقف الانتباه، وتترصّد وصول واحد من الروّاد استقلّ القطار في محطة سابقة وتلتمع مذذاك استمتاعا بالحديث الآتي. وما كانت تلك العلامة المختارة التي طبعت بها عادة تناول العشاء سويّة أعضاء المجموعة الصغيرة، ما كانت تميّزهم فقط حينما كانوا يحتشدون بكثرة وقوّة فيؤلّفون بقعة أكثر لمعاناً وسط قطيع المسافرين -وما كان «بريشو» يدعوه الدهماء- الذين لا يمكن أن تقرأ على وجوههم الكامدة أيّة فكرة تتعلّق بآل«ڤيردوران» وأيّ أمل في تناول العشاء يومًا في «لاراسپليير». ولعلّ هؤلاء المسافرين السوقة كانوا أبدوا اهتماماً أقلّ منّي على أيّة حال لو جرى أمامهم النطق بأسماء هؤلاء الخلّص -على الرغم من الشهرة التي اكتسبها بعض منهم- وكنت أعجب لما أراهم يوالون تناول عشائهم في المدينة فيما كان بضعة منهم يفعلون ذلك، وفقاً للقصص التي سبق أن سمعتها، قبل مولدي وفي فترة هي في الآن نفسه بعيدة وغامضة حتّى ليغريني أن أبالغ في بعدها عنّي. وأن التعارض بين استمرارهم لا على قيد الحياة فحسب بل في التمتّع بكامل قواهم وزوال الكثير من الأصدقاء الذين رأيتهم يختفون ههنا وهناك كان يوليني الشعور نفسه الذي ينتابنا حينما نقرأ في «أخبار آخر ساعة» في الصحف الخبر الذي كنّا بالضبط ننتظره أقلّ ما ننتظر، كخبر وفاة مبكّرة على سبيل المثال تبدو لنا مفاجئة لأن الأسباب التي هي مآلها لبثت مجهولة لدينا. ذلك الشعور مفادة أن الموت لا يصيب جميع الناس بالتساوي، ولكن موجة أكثر تقدمًا في هجمتها المأساوية تزهق حياة واقعة على مستوى حيوات أخرى توفّرها الموجات اللاحقة فترة طويلة بعد. وسوف نرى فيما بعد على أيّ حال أنّ تنوّع الميتات التي تتنقّل على نحو خفيّ إنّما تشكّل سبب المفاجأة الخاصّ التي تمثلها في الصحف زاوية الوفيّات. ثمّ كنت أرى أن مواهب حقيقية يمكن أن تعايش أتفه صنوف الحديث تتكشّف وتفرض نفسها مع مرّ الزمن وليس ذلك فحسب بل أنّ أفراداً ضحلي المستوى يبلغون تلك المقامات العالية التي تقترن في مخيلة طفولتنا ببعض الشيوخ المشهورين دون أن نفكّر بأن تلاميذهم سوف يضحون كذلك بعد انقضاء عدد من السنين وقد أصبحوا أساتذة بدورهم وهم الآن يوحون بالاحترام والمهابة اللذين كانا يداخلانهم بالأمس. ولئن كانت أسماء الخلّص مجهولة لدى «الدهماء» فإن مظهرهم كان يكشفهم أمامها. فإنّه حتّى في القطار (حين تجمعهم كافة فيه مصادفة ما انبغى أن يفعله هؤلاء

وأولئك في أثناء النهار)، ولا يقع عليه من بعد أن ينقل معه من المحطّة التالية سوى شخص بمفرده، كانت العربة التي يجتمعون فيها، وقد أبرزها مرفق النحّات «سكي» وصحيفة «الزمان» التي يحملها «كوتار» تتلألأ من البعيد مثل عربة باذخة وتلحق الرفيق المتأخّر بالمحطّة المقصودة. والوحيد الذي أمكن أن تفوته من جرّاء نصف عماه علامات الميعاد تلك كان «بريشو». ولكنّما كان أحد الروّاد يقوم طواعية إزاء الأعمى بمهامّ الراصد وما أن يبصروا قبّعة القشّ التي يعتمرها ومطرته الخضراء ونظارتيه الزرقاوين حتّى يقودوه برفق واستعجال إلى المقصورة المختارة. إلى حدّ أنْ ليس من مثال على أن أحد الخلّص، مالم يثير أخطر شكوك العربدة أو أنّه حتّى لم يستقلّ «القطار»، لم يلتق الآخرين وهو في الطريق إليهم. ويقع العكس أحياناً: فقد اضطرّ أحد الخلّص أن يمضي بعيداً بعد الظهر وانبغى له بالتالي أن يقطع قسمًا من المسير بمفرده قبل أن تلتحق به المجموعة. وما كان في الكثير الغالب إلاّ ليخلّف بعض الأثر وإن كان بمفرده على ذاك النحو وكان وحيداً من جنسه. فإنّ «الآتي» الذي يمضي شطره كان يلفت إليه نظر الجالس على المقعد المواجه فيقول في نفسه: «لا بدّ أنّه ذو خطر» ويميّز بالتبصّر الغامض الذي لمسافري «عمّادس» مايشبه الهالة حتّى حول قبّعة «كوتار» أو قبّعة «سكي» ولا تأخذه إلاّ نصف دهشة حينما يستقبل جمهور أنيق في المحطّة التالية، إن كانت المحطّة الأخيرة، المخلص على عتبة المقصورة ويمضي معه باتجاه إحدى العربات التي تنتظر، يحيّيهم جميعاً أفضل تحيّة المستخدم في «دوفيل»، فإن كانت محطّة وسيطة اجتاح المقصورة. ذلك ما فعلته الجماعة التي أطلقها «كوتار» رملاً باتجاه العربه التي رأى إشاراتي تنطلق من نافذتها، وقد فعلت باستعجال لأنّ الكثيرمنهم وصل متأخرا وفي اللحظة عينها التي يزمع فيها القطارالمتوقّف من قبل فى المحطّة معاودة سيره. و«بريشو» الذي كان في عداد أولئك الخلّص أصبح أكثر إخلاصاً في بحرهذه السنوات التي حدّت بالنسبة إلى آخرين من مثابرتهم. ذلك أن بصره إذ تراجع تدريجاً اضطرّه حتّى في باريس إلى تخفيض أعماله المسائية أكثر فأكثر. وكان على أيّ حال قليل الميل إلى الصوربون الجديدة حيث أخذت افكار الدقّة العلميّة تتقدّم على الاتجاه الإنساني. كان يقصرعمله الآن حصراً على درسه المقرّر وعلى اللجان الفاحصة، فيتوافرلديه وقت أكثر يصرفه لأمور الدنيا، يعني للأمسيات في منزل آل«ڤيردوران» أو لتلك التي يحييها أحياناً لآل«ڤيردوران» هذا المخلص أو ذاك وهو يرتعش انفعالاً. وصحيح أن الحبّ كاد يفعل مرّتين متواليتين ما لم تعد الأعمال تقوى عليه، أي فصل «بريشو» عن العشيرة الصغيرة. لكنّ السيّدة «ڤيردوران» التي كانت تسهر على الأمور قد أفضى بها الأمر على أيّة حال، وكانت تعوّدت ذلك لصالح منتداها، إلى إصابة متعة خالية الغرض في هذا النوع من الفواجع والإجراءات فجعلته يختصم على نحو نهائيّ مع الشخص الخطير، إذ هي تعلم، كما كانت تقول، كيف تتدارك الفوضى وكيف تضرب الحديد حاميًا. وقد زاد من يسر الأمر عليها بالنسبة إلى إحدى المرأتين الخطرتين أنّها كانت مجرّد غسّالة «بريشو» ولم يقع على السيّدة «ڤيردوران»، وهي مخوّلة بدخول الدورالخامس الذي يقطنه الأستاذ ويكتسي وجهها استكباراً لوناً قرمزيّاً حينما تتفضّل وتصعد أدوارها الخمسة، لم يقع عليها إلاّ أن تطرد تلك المرأة التي لا قيمة لها، فقد قالت البارونة لـ«بريشو»: «ويحك! تشرّفك امرأة مثلي بالمجيء إلى بيتك وتستقبل مخلوقة كهذه؟» ولم ينس «بريشو» في يوم الصنيع الذي قدّمته له السيّدة «ڤيردوران» إذ حالت دون أن تغوص شيخوخته في الأوحال وأخذ يزداد تعلّقا بها فى حين أخذت «المعلّمة»، خلافاً لتجدّد الودّ ذاك

وربّما بسببه، تنفر من مُخْلِص مفرط في خضوعه وهي متيقّنة سلفاً من طاعته. على أنّ «بريشو» كان يجني من حال الألفة مع آل«ڤيردوران» ألقاً يميّزه بين زملائه جميعاً في الصوربون. فقد كانت تبهرهم القصص التي يرويها عن أمسية لن يُدعَوا إليها في يوم، وكذلك ذكره في المجلات أو رسمه المعروض في الصالة، وقد أقدم عليهما هذا الكاتب أو ذاك الرسّام الشهير الذي كان أصحاب الكراسي العلميّة الأخرى في كليّة الآداب يقدرون موهبته ولا يسعفهم الحظ إطلاقاً في إثارة اهتمامه، وأناقة الملبس نفسها التي يبرز بها فيلسوف المجتمع المخمليّ، أناقة أخذوها بادئ الأمر على أنّها من باب الإهمال إلى أن تكرّم زميلهم وأوضح لهم أن القبّعة العالية تقبل طائعة أن توضع أرضاً في أثناء زيارة وليست مقبولة في حفلات العشاء في الأرياف مهما تكن أنيقة ولا بدّ أن تستبدل بها القبّعة الطريّة التي تليق تماماً «بالسموكن». لم أستطع أثناء الثواني الأولى التي اندفعت فيها المجموعة الصغيرة داخل العربة، لم أستطع حتّى التحدّث إلى «كوتار» فإنّه ضاقت أنفاسه لا من جرّاء أنّه جرى كي لا يفوته القطار، بل من جرّاء دهشته أن يكون لحق به في الوقت المناسب تماماً. لقد أصابه من ذلك أكثر من فرحة النجاح، وما يقارب الضحك الناجم عن «مقلب» سارّ. وقال بعدما استعاد هدوءه: «آه! شيء عظيم! ولو زدنا القليل، ويحك لكان ذلك ما يسمّونه الوقوف على الحافّة تماماً!»[1] يضيف قوله وهو يغمز بعينه لا ليسأل إن كان التعبير صحيحاً، إذ كان يفيض الآن ثقة بنفسه، بل بداعي الرضى عن الذات. وأخيراً استطاع أن يذكر اسمي أمام أعضاء المجموعة الصغيرة الآخرين. وأزعجني أن أبصر أن الجميع تقريباً كانوا يرتدون مايدعى بـ«السموكن» في باريس ؛ وكنت نسيت أنّ آل«ڤيردوران» باشروا تطوّراً خجولاً باتّجاه المجتمع الراقي بطأّت منه قضيّة «دريفوس» وسرّعته الموسيقى «الجديدة»، تطوّراً جرى بأيّة حال تكذيبه من جانبهم وربّما والوا التكذيب إلى أن ينجح، كما هي حال تلك الأهداف العسكرية التي لا يعلنها الجنرال إلاّ بعد ما يبلغها كي لا يبدو أنّه غُلب إن أخطأها. وكان المجتمع الراقي فيما يخصّه على أتمّ الإستعداد للتقدّم في اتجاههم. وكان لا يزال بعد يعتبرهم أناساً لا يذهب إليهم أحد من كبار القوم ولكنّهم لا يشعرون بأيّ أسف من ذلك. كان منتدى آل«ڤيردوران» يعدّ معبداً للموسيقى، فهناك فيما يؤكّدون لاقى «ڤانتوي» الوحي والتشجيع. ولئن ظلّت «سوناتا» «ڤانتوي» غير مفهومة كليّا ومجهولة تقريباً فقد كان اسمه، ويذكرونه كأعظم موسيقيّ معاصر، يشيع من حوله مهابة خارقة. ثمّ إن بعض فتيان «الحيّ» تنبّهوا إلى وجوب أن يكونوا بمثل ثقافة البورجوازيّين فكان ثلاثة من بينهم قد تعلّموا الموسيقى وحازت سوناتا «ڤانتوي» عندهم شهرة عظيمة. وكانوا يحكون عنها بعد ما يعودون إلى منازلهم، للوالدة الذكيّة التي دفعتهم إلى تثقيف أنفسهم. والأمهّات المهتمّات بدروس أبنائهن كنّ في الحفلة الموسيقيّة يتطلّعن باحترام إلى السيّدة «ڤيردوران» وهي تتابع مجموعة العزف من مقصورتها الأماميّة. هذه الصبغة المجتمعيّة الكامنه لدى آل«ڤيردوران» لم يكن يجسدها سوى واقعتين. فقد كانت السيّدة «ڤيردوران» من جهة تقول عن الأميرة «دوكاپرارولا»: «آه! هذه ذكيّة، إنّها امرأة ظريفة، وما لا أطيق احتماله هم البلهاء، الناس الذين يضجرونني، إنّهم يثيرون جنوني». الأمر الذي يخال معه من كان على قليل من رهافة الفكر أن الأميرة «دو كاپرارولا»، وهي امرأة من علية القوم، قامت بزيارة السيّدة

(١) العبارة تعني بالفرنسية «الوصول في الوقت المناسب» وفي الأصل «السقوط عمودياً في النقطة المطلوبة»، وهو تلاعب لفظي يصعب ردّه، وقد آثرنا الاحتفاظ بما يوحي بشيء من الخطر.

«ڤيردوران»، بل هي تفّوهت باسمها في أثناء زيارة مؤاساة قامت بها للسيدة «سوان» بعد وفاة زوج هذه الأخيرة وسألتها إن كانت تعرفهم. فأجابت «أوديت» بلهجة أضحت فجأة حزينة: «كيف تقولين؟» -«ڤيردوران». فعادت تقول بأسى: «آه! أراني أعلم الآن، لست أعرفهم، أو أنا بالأحرى أعرفهم دون أن أعرفهم، هم جماعة التقيتهم فيما مضى لدى أصدقاء، منذ زمن بعيد، وإنّهم على ظرف». وبعدما ذهبت الأميرة «دو كاپرارولا»، ودّت «أوديت» لو أنّها قالت الحقيقة دون سواها. لكنّ الكذبة الفوريّة لم تكن نتاج حساباتها بل الكاشف عن صنوف خشيتها ورغباتها. فلم تكن تنكر ما لعلّه كان من اللباقة انكاره بل ما ودّت أنْ لم يكن حتّى إن انبغى أن يعرف محدّثك بعد ساعة أنّ ذلك كان بالفعل. وبعد قليل كانت قد استعادت ثقتها بنفسها وراحت حتّى تستبق الأسئلة بقولها، بغية أن لا يبدو أنّها تخشاها: «السيّدة «ڤيردوران»، ياعجبي، لقد عرفتها كثيراً»، تقول بتصنع التواضع شأن سيّدة كبيرة تقصّ عليك أنّها استقلّت الحافلة الكهربائية. وتقول السيّدة «دوسوڤريه»: «لقد كثر الحديث عن آل«ڤيردوران» منذ حين». فتجيب «أوديت» بابتسامة دوقة مستكبرة: «أجل، يبدو لي بالفعل أنّ الحديث عنهم كثير. ثمّة بين الحين والحين أناس جدد من هذا القبيل يحلّون في المجتمع»؛ دون أن يخطر لها أنّها هي من أقربهنّ عهداً. وأردفت السيّدة «دوسوڤريه» تقول: «لقد تناولت الأميرة «دوكابرارولا» عشاءها هناك»، فأجابت «أوديت» وهي تزيد من ابتسامتها: «آه! ليس يدهشني ذلك، فهذه الأمور تبدأ دومًا بالأميرة «دوكاپرارولا»، ثمّ تأتي أخرى غيرها، كالكونتيسّه «موليه» مثلاً». وإذ تقول «أوديت» ما تقول، تبدو وكأنّها تزدري ازدراء عميقاً السيّدتين الكبيرتين اللتين تعوّدتا استباق الجميع إلى دخول المنتديات المفتتحة حديثاً، وكنت تحسّ في لهجتها أن ذلك إنّما يعني أنّهم لن يفلحوا في وضعها، هي «أوديت» والسيّدة «دوسوڤريه» على حدّ سواء، في مثل هذه المراكب.

بعد الإقرار الذي أعلنت فيه السيّدة «ڤيردوران» عن ذكاء الأميرة «كاپرارولا» كانت العلامة الثانية التي تشير إلى أنّ آل«ڤيردوران» كانوا يعون المصير الآتي أنّهم كانوا يرغبون رغبة شديدة (دون أن يكونوا طلبوا ذلك رسميًا بالطبع) أن يجيئهم الناس الآن للعشاء عندهم بلباس المساء الرسميّ؛ كان يمكن الآن تحيّة السيّد «ڤيردوران» دونما خجل من جانب ابن أخيه، ذاك الذي كان «يحلّ أخيرا في التصنيف».

كان «سانييت» في عداد الذين صعدوا إلى عربتي في «غرانكور»، وسبق فيما مضى أن طرده ابن عمّه «فورشيڤل» من منزل آل«ڤيردوران»، ولكنّه عاد من جديدٍ. كانت عيوبه فيما مضى، على صعيد حياة المجتمعات الراقية، -على الرغم من مزايا عالية المستوى- تقرب أن تكون من نمط عيوب «كوتار»: خجل ورغبة في أن يروق الآخرين وجهود غيرمثمرة لبلوغ ذلك. ولئن كانت الحياة ألبست «كوتار»، إن لم يكن لدى آل«ڤيردوران» حيث لبث إلى حدّ ما على حالة بفضل الإيحاء الذي تمارسه علينا الدقائق الماضية حينما نعود فنلقى أنفسنا في وسط تعوّدناه، فعلى الأقلّ بين زبائنه وداخل قسمه في المشفى وفي الأكاديمية الطبية، لئن ألبسته مظاهر من البرودة والاستعلاء والرزانة كانت تتزايد وهو يلقي على طلابه الذين يجاملونه تلاعباته اللفظيّة فأحدثت فجوة حقيقيّة بين «كوتار» الحالي والقديم، فقد تعاظمت العيوب نفسها على العكس لدى «سانييت» كلّما حاول أن يصطلح. فإذ كان يشعر أنّه يثير في الغالب الملل وأنّهم لا يصغون إليه فإنّه عوضاً

عن الإبطاء حينذاك كما لعلّ «كوتار» كان فعل وشدّ الإنتباه إليه بمظهر السلطة عنده، لم يكن يحاول فحسب أن يطلب العفو عن طابع الجديّة المفرطة الذي يسم حديثه باللجوء إلى لهجة هازلة بل كان يسرّع إلقاءه ويمهّد له السبيل ويلجأ إلى الاختصارات ليبدو أقلّ تطويلاً وأكثر ألفه مع الأشياء التي يتحدّث عنها ويفلح فقط، إذ يجعلها متعذّره الفهم، في أن يبدو مطوّلاً لا ينتهي. لم تكن ثقته بنفسه كثقة «كوتار» الذي كان يجمّد الدم في عروق مرضاه فيجيبون من يمتدحون لطفه في المجتمع قائلين: «إنّه لا يلبث الرجل نفسه حينما يستقبلك في مكتبه، أنت في الضوء وهو بعكس الضوء وبعينيه الثاقبتين». فلم تكن تفرض الإحترام وتحسّ أنّها تخفي الكثير من الحياء وأن أقلّ القليل يكفي لحملها على الهرب، و«سانييت» الذى قال له أصدقاؤه دوما إنّه يفرط في لا ثقته بنفسه والذي كان يرى أناسًا يحكم بحقّ أنّهم أدنى منه كثيراً يبلغون بيسر نجاحات تحجب عنه، «سانييت» ما عاد يباشر قصّة دون أن يبتسم لغرابتها مخافة أن لا ترفع الهيئة الجادّة من شأن بضاعته إلى الحدّ الكافي. ويمنون عليه بالصمت الشامل أحيانًا إذ يولون ثقتهم طابع الهزل الذي يبدو أنّه هو ملاقيه في ما سيقول. ولكنّ الحكاية تفشل فشلاً ذريعاً. وكان أحد المدعوين ممّن حباهم الله طيب القلب يمرّر أحياناً لـ«سانييت» تشجيعاً خاصاً ويقرب أن يكون خفيًا في ابتسامة استحسان يبلّغه إيّاها خلسةدون أن يثير الانتباه كما لو يمرّر رسالة صغيرة. ولم يكن يبلغ بأحد أن يتحمّل مسؤوليّة قهقهة تنطلق وأن ينسبها لنفسه علنًا. ويظلّ «سانييت» وحده، بعد انتهاء الحكاية وفشلها، يبتسم لذاته كإنما يتذوّق فيها ولذاته اللذّة التي يتظاهر باعتبارها كافية والتي لم يحسّ بها الآخرون. أمّا النحّات «سكي»، وقد دعي هكذا بسبب الصعوبة التي يلقونها في النطق باسمه البولوني، ولأنّه كان يبدي علنًا منذ أن بدأ يعيش في مجمتع معيّن أنّه لا يريد أن يخلطوا بينه وبين أقارب مرموقي الموقع ولكنّهم مملّون إلى حدّ وكثيرون جدّاً، فقد كان، وهو في الخامسة والأربعين وعلى قبح شديد، يبدي نوعاً من «الشقاوة» والنزوات الحالمة التي ظلّ يحتفظ بها إذ كان حتّى العاشرة أروع طفل معجزة في العالم ومالك ألباب السيدات جميعاً. كانت السيّدة «فيردوران» تزعم أنّه أعمق فناً من «ايلستير». وماكان يشاطر هذا الأخير على أيّة حال إلا وجوه شبه خارجيّة بحتة؛ وكانت كافية لتبعث في صدر «ايلستير»، الذي سبق أن التقى «سكي» مرّة واحدة، النفور العميق الذي يثيره فيناً، حتّى أكثر من الأشخاص الذين يضادّوننا تماماً، أولئك الذين يشبهوننا على جودة أقلّ والذين ينداح فيهم ما كان الأسوأ عندنا، العيوب التي شفينا منها، فيذكروننا على نحو مزعج بما أمكن أن نبدو عليه في عيون بعض الناس قبل أن نكون أصبحنا مانحن عليه. ولكن السيّدة «فيردوران» كانت تعتقد أن «سكي» يملك شخصية أقوى من «ايلستير» لأنّه لم يكن فنّ إلاّ وكان سهلاً عليه ويقينها أن هذه السهولة كان يمكن أن يبلغ بها حدّ الموهبة لو أنّه بدا أقلّ كسلاً، بل يبدو هذا الكسل لـ«المعلّة» موهبة إضافيّة بما أنّها عكس الشغل الذي تظنّه قسمة الأشخاص الذين لا نبوغ لهم. كان «سكي» يرسم ما تشاء على أزرار الأكمام وعلى القسم العلويّ من الأبواب. وكان ينشد بصوت ملحّن ويعزف من الذاكرة مضيفاً على البيانو الانطباع الذي تعطيه الأوركسترا والأمر ناجم أقلّ ما ينجم عن براعته وأكثره عن نشازات في القرار تدلّ على عجز الأصابع أن تدلّ على وجود بوق هنا وكان يقلّده على أيّة حال بفية وإذ يبحث عن كلماته في حديثه ليحمل على الاعتقاد بانطباع غريب مثلما كان يؤخّر أئتلافاً لحنياً يعزفه فيما بعد وهو يقول: «پنغ» كي يشعرك بوجود الآلات النحاسيّة، كان يعدّ

رائع الذكاء ولكن أفكاره كانت تختصر في الواقع باثنتين أو ثلاثة شديدة الايجاز. فقد كان صمّم، إذ تزعجه سمعته كشخص غريب الأطوار، أن يبرهن أنه رجل عمليّ واقعي ممّا بعثّ لديه تصنّعاً ظافراً لدقة كاذبة وسلامة تفكير زائغة يزيدهما سوءاً أنّه لا ذاكرة البتة له وأنّ معلوماته غير صحيحة على الدوام. ولعلّ حركات رأسه وعنقه وساقيه كانت بدت محبّبة لو كان بعد في التاسعة بخصل شقراء وقبّة دانتيلا واسعة وحذاء صغير من الجلد الأحمر. ولمّا كانوا وصلوا قبل الوقت المحدّد إلى محطّة «غرانكور» بصحبة «كوتار» و«بريشو» فانّهم تركوا «بريشو» في قاعة الانتظار ومضوا في جولة. وحينما أبدى «كوتار» رغبة في العودة أجاب «سكي» قائلاً: «ولكن لا داعي للعجلة، فالقطار اليوم ليس المحليّ بل قطار المقاطعة». وإذ أخذ منه العجب أن يرى الأثر الذي يخلّفه في نفس «كوتار» هذا الفارق في الدقّة أضاف وهو يتحدّث عن نفسه: «أجل، لأن «سكي» مغرم بالفنون ويشكّل عجينة الغضار يظنّونه غير عمليّ. فليس من يعرف السكّة أفضل مني». ولكنّهم عادوا مع ذلك باتّجاه المحطّة حينما أبصروا فجأة دخان القطار الصغير وهو مقبل وصاح «كوتار» وقد أطلق صرخة قويّة: «لابدّ أن نجري بأقصى سرعة.». وقد وصلوا بالفعل في الوقت المناسب، إذ التمييز بين القطار المحليّ وقطار المقاطعة لم يكن إلاّ من نسج خيال «سكي». وسأل «بريشو» بصوت مدوّ: «ولكن أليست الأميرة في القطار؟» فيما تبدو نظّارتاه الضخمتان، وهما تلتمعان كالعاكسات التي يعلّقها أطبّاء الحنجرة فوق جبينهم ليضيئوا حنجرة مرضاهم، وكأنّما استمدّتا من عيني الأستاذ حياتهما فتبدوان، ربّما بسبب الجهد الذي يبذله كي يطابق بينهما وبين رؤيته، حتّى في أقلّ اللحظات أهميّة، كأنّهما تنظران بذاتهما بانتباه متّصل وتحديق ثابت خارق. وكان المرض على أيّ حال قد كشف لـ«بريشو»، وهو يسلبه الرؤية شيئاً فشيئاً، عن مواطن الجمال في هذه الحاسّة مثلما ينبغي لنا غالباً أن نحزم أمرنا لفراق حاجة ما، كأن نهديها على سبيل المثال، كيما ننظر إليها ونتأسّف عليها ونتأمّلها باعجاب. «لا لا، لقد صحبت الأميرة حتّى «مينفيل» مدعوّين لدى السيّدة «فيردوران» سيستقلّون قطار باريس وذلك لوداعهم. وليس يستحيل أن تكون السيّدة «فيردوران» بصحبتها إذ كان عليها قضاء بعض الحاجات في «سان مارس»! ولعلّها، وهذه حالها، تسافر معنا ونقطع الطريق جميعنا سويّة ويكون الأمر ممتعاً، وإنما يقع علينا أن تظلّ عيننا مفتوحة في «مينفيل»، والعين المطلوبة! آه! لا بأس علينا، يمكننا أن نقول إنّنا كنّا على شفا تفويت العربة. وحينما رأيت القطار أسقط في يدي. ذلك ما يدعونه الوصول في اللحظة النفسيّة المناسبة. أرأيت ذلك لو فاتنا القطار وتبيّنت السيّدة «فيردوران» أنّ العربات تعود بدوننا: يالها من لوحة!»، يضيف الدكتور قوله، وما كان بعد هدأ روعه. «تلك مغامرة غير عاديّة». وعاد الدكتور يسأل بشيء من الاعتزاز: «هات نَرَ، يا «بريشو»، ما عساك تقول في مغامرتنا الصغيرة؟» فأجاب «بريشو» قائلاً: «صدقاً، لو أنكم بالفعل لم تجدوا القطار لكانت وقعة وسخة، كما لعلّ «ڤيبمان» كان قال». أمّا أنا، وقد شرد ذهني منذ اللحظات الأولى من جرّاء هؤلاء الناس الذين لا أعرفهم، فقد تذكّرت فجأة ما سبق أن قاله لي «كوتار» في قاعة الرقص في الكازينو الصغير، وكما لو انّ حلقة خفيّة أمكن أن تقرن بين عضو وصور الذاكرة كانت صورة «ألبيرتين» وهي تضغط بنهديها على صدر «أندريه» تصيبني بألم رهيب في القلب. ولم يدم ذاك الألم إذ لم تعد فكرة قيام علاقات ممكنة بين «ألبيرتن» ونساء أخريات تبدو لي ممكنة منذ ما قبل البارحة يوم أثارت «الدعوات» التي وجّهتها صديقتي لـ«سان لو» غيرة جديدة في صدري أنستني الأولى. فقد كنت ساذجاً

سذاجة قوم يظنّون أن ميلاً إنمّا يستبعد حتماً ميلاً آخر. وفي «أرامبوڤيل»، ولمّا كان القطار مزدحماً، صعد إلى مقصورتنا مزارع بمريلته الزرقاء وليس بيده سوى بطاقة من الدرجة الثالثة. وإذ رأى الدكتور أنّه لا يمكن أن ندع الأميرة تسافر معه استدعى مستخدماً وأبرز بطاقته بصفته طبيباً لشركة كبرى للخطوط الحديديّة وألزم رئيس المحطّة بانزال المزارع. وقد آلم هذا المشهد فؤاد «سانييت» الطيّب وأثار مخاوفه حتّى إنّه ما إن شهد بدايته وخشي منذ ذاك، من جراء عدد الفلاحين الكبير الواقفين على الرصيف، أن يتّخذ حجم ثورة على السلطة تظاهر بأوجاع في البطن وكي لا يمكن اتهامه بحمل قسم من المسؤولية في فعلة الدكتور العنيفة سلك الممرّ وهو يتظاهر بالبحث عمّا كان «كوتار» يسمّيه «بيوت الماء». ولمّا لم يجدها أخذ يحدّق في المنظر في الطرف الآخر من السكّة. وقال لي «بريشو» في حرصه على إبراز مواهبه أمام «مستجدّ» مثلي: «إن كانت هذه بداياتك لدى السّيدة ڤيردوران»، فستلاحظ أن ليس من وسط تحسّ أفضل إحساس فيه بـ«حلاوة العيش»، كما كان يقول أحد مخترعي نزعتة الهواية في الفنّ ونزعة اللامبالاة ونزعات أخرى كثيرة رائجة عند سنوبيّاتنا الصغيرات، عنيت السيّد الأمير «دوتاليران».» ذلك أنّه حينما كان يتحدث عن موالي الماضي العظام كان يرى من النباهة ومن قبيل «إضفاء لون العصر» أن يجعل قبل اللقب كلمة «سيّد» فيقول السيد الدوق «دولاروشفوكو» والسيّد الكاردينال «دوريتز» الذي كان يدعوه أيضاً بين الحين والحين: «هذا النضال[1] في سبيل الحياة» المدعوّ «غوندي» وذاك «البولانجيّ» المدعوّ «مارسياك»[2]. وما كان يفوته في يوم أن يدعو «مونتسكيو» من خلال ابتسامة حين يتحدّث عنه: «السيّد الرئيس سوغوندا دومونتسكيو». ولعلّ رجل مجتمع نبيهاً كان تضايق من هذه الحذلقة التي تفوح منها رائحة «المدرسة». لكنّ ثمّة في تصرّفات رجل المجتمعات التي لا غبار عليها إذ يتحدث عن أحد الأمراء حذلقة أيضاً تكشف النقاب عن طبقة مميّزة أخرى، تلك التي يضعون فيها قبل اسم «غليوم» كلمة «الامبراطور» والتي يكلّمون فيها صاحب الجلالة بضمير الغائب. وعاد «بريشو» يقول في حديثه عن «السيّد الأمير «تاليران»: «آه: هذا لابدّ من تحيّته بمظاهر الاحترام العميق، فإنّه من الأجداد». وقال «كوتار»: «إنّه وسط رائع وستجد فيه شيئاً من كلّ شيءٍ لأنّ السيّدة ڤيردوران» ليست حصريّة في خياراتها: فعلماء مشهورون من أمثال «بريشو» وطبقة الأشراف العليا كالأميرة «شيرباتوف»، هذه السيّدة الروسيّة العظيمة صديقة الدوقة الكبرى «أودوكسي» التي تراها حتىّ وحيدة في الساعات التي لا يقبل فيها بدخول أحد. فانّه لمّا كانت الدوقة الكبرى «أودوكسي» لا تهتمّ بأن تجيء الأميرة «شيرباتوف»، التي لم يعد يستقبلها أحد منذ فترة طويلة إلى منزلها حينما لعلّه كان بمقدورها استقبال بعض الناس عندها فقد كانت لا تأذن لها بالمجيء إلاّ في ساعة مبكّرة جدّاً حينما لا يكون لدى صاحبة السموّ أيّ من الأصدقاء ممّن ربما كان التقاؤه الأميرة غير مستحبّ عنده بقدر ما هو سبب ضيق بالنسبة إليها. ولمّا كانت السيّدة «شيرباتوف» تبادر منذ ثلاث سنوات، حالما تكون فارقت شأن عاملة «مانيكور» الدوقة الكبرى، إلى الذهاب إلى منزل السيّدة «ڤيردوران» التي أفاقت توّاً من نومها ولا تفارقها من بعد، فإنه يمكن القول إن إخلاص الأميرة كان يتجاوز إلى ما لا حدود حتّى إخلاص «بريشو» مع أنّه كان شديد المثابرة على أيّام الأربعاء تلك التي يلذّه فيها أن يظنّ نفسه، في باريس،

(١) العبارة واردة بالانكليزيّة على نحو ما يلفظها الفرنسيون «Struggle for Lifer» وغوندى هو لقب الكاردينال دوريتز.
(٢) هو «لاروشفوكو» صاحب كتاب «الحكم». أمّا «مونتسكيو» فهو المفكّر الفرنسي المعروف الذى عاش فى القرن الثامن عشر. وتبدو المقارنة غير مقنعة بين عصر «التمّرد والعصيان» فى السابع عشر وعصر الجنرال «بولانجيه» فى التاسع عشر.

مايقرب أن يكون «شاتوبريان» في «آبيبي أوبوا»[١]، وفي الأرياف كان يورث انطباعاً بأنّه أضحى معادلاً لما كان يمكن أن يكون عليه لدى السيّدة «دو شاتلية» ذاك الذي كان يدعوه دوماً (بمكر وارتياح الأديب): «السيّد دو ڤولتير».»

لقد سمح انعدام المعارف لدى الأميرة «شيرباتوڤ» أن تمحض آل«ڤيردوران» منذ بضع سنوات إخلاصاً جعل منها أكثر من «مخلصة» عاديّة، المخلصة النموذج والمثل الأعلى الذى ظنّته السيّدة «ڤيردوران» عسير المنال وتراه اليوم، بعد ما بلغت من اليأس، مجسّداً في هذه المتطوّعة الجديدة. وأيّة كانت الغيرة التي عانت منها «المعلّمة» فلم يكن ثمة مثال على أن أكثر المثابرين من بين المخلصين لها لم «يتخلّوا» عنها مرّة. فإن أكثرهم ملازمة لبيته كان يقع في حبال رحلة ما، وأكثرهم تعفّفاً أصاب فرصة طيّبة، وأكثرهم صلابة كان يمكن أن تصيبه الوافدة؛ والاقلّ انشغالاً أن تشغله الثمانية وعشرون يوماً[٢]، والأكثر لامبالاة أن يمضي ليغمض عيني والدته المحتضرة. وعبثاً كانت السيّدة «ڤيردوران» تقول لهم حينذاك، مقالة الامبراطورة الرومانية[٣]، إنّها الجنرال الوحيد الذي تجب طاعته، ومقالة المسيح أو القيصر[٤]، إن من أحبّ أباه وأمّه قدر حبّه لها ولم يكن مستعداً لهجرهما ليتبعها فليس يستحقّها، وإن أفضل ما يفعلون أن يمكثوا إلى جانبها، هي الدواء الوحيد واللذّة الوحيدة. ولكنّ القدر الذي يروقه أحياناً أن يجمّل الأيّام الأخيرة في حيوات تتطاول كثيراً جعل السيّدة «ڤيردوران» تلتقي الأميرة «شيرباتوڤ». فإذا كانت الأميرة اختصمت مع أسرتها ونفيت من بلادها ولا تعرف من بعد سوى البارونة «پوتبوس» والدوقة الكبرى «أودوكسي» اللتين لا تذهب إلى منزليهما، لأنّها ما كانت ترغب لقاء صديقات الأولى فيما لا ترغب الثانية أن تلتقي صديقاتها الأميرة، إلاّ في ساعات الصباح الأولى حيث السيّدة «ڤيردوران» لا تزال بعد نائمة، وإذا لا تذكر أنّها مكثت في غرفتها مرّة واحدة منذ سن الثانية عشرة التي أصيبت فيها بداء الحصبة، وكانت أجابت في ٣١ كانون الأوّل (ديسمبر) السيّدة «ڤيردوران» التي سألتها في قلقها من المكوث وحدها إن لم يكن باستطاعتها البقاء للنوم عندها بصورة مباغتة وعلى الرغم من يوم رأس السنة: «ولكن ما الذي يحول دون أن أفعل ذلك في أي يوم؟ وفي هذا اليوم على أيّة حال يبقى الناس بين أسرهم وإنّك أنت أسرتي»، وإذ تعيش في نزل وتبدّله حينما يخلي آل«ڤيردوران» منزلهم وتلحق بهم في أماكن اصطيافهم فقد حقّقت للسيّدة «ڤيردوران» أفضل ما يكون التحقيق بيت «ڤينيي» القائل:

«وحدكِ أنت بدوت لي بصورة ما نبحث دوماً عنه»

إلى حدّ أن رئيسة الحلقة الصغيرة سألتها، وهي راغبة أن تضمن لنفسها «إحدى المخلصات» حتّى في موتها، وأن تأمرمن من الاثنين تموت أخيراً بأن تدفن إلى جانب الأخرى. كانت الأميرة «شيرباتوڤ» تحرص إزاء الغرباء –الذين لابدّ أن نحصي بينهم على الدوام ذاك الذي يشقّ علينا أكثر ما يشقّ أن يزدرينا، عنينا ذاتنا– أن تصوّر صداقاتها الثلاث الوحيدة –على الدوقة الكبرى وآل«ڤيردوران» والبارونة «پوتبوس»– على أنّها

---

(١) حيث كان منتدى السيّدة «ريكامييه» الشهيرة.
(٢) المدّة التي يقضيها المدعوّون لخدمة الاحتياط ويحاولون التأجيل باللجوء إلى معارفهم أو إلى شهادات طبيّة.
(٣) «أغريپينا» زوجة «كلاوديوس» ووالدة «نيرون».
(٤) غليوم الثانى الذى كتب فى سجل دار البلدية فى «ميونخ» (١٨٩١) العبارة التالية: «مشيئة الملك رأس القوانين».

الوحيدة لا التي أفسحت لها كوارث خارجة عن إرادتها مجال البروز من وسط الدمار الذي حلّ بكلّ ما بقي، بل تلك التي جعلها الاختيار الحرّ تفضّلها على ما عداها والتي جعلها ميل معيّن إلى العزلة والبساطة تقتصر عليها. «لست أرى أحداً غيرهم»، تقول وهي تؤكّد على الطابع الذي لا يلين لما كان يبدو قاعدة يفرضها المرء على نفسه أكثر منها ضرورة تفرض نفسها عليه، وتضيف قولها: «لست أتردّد إلاّ على ثلاثة بيوت»، كهؤلاء المؤلّفين الذين يعلنون أن مسرحيتهم لن تمثّل إلاّ ثلاث مرّات إذ هم يخشون أن لا يمكنهم بلوغ الرابعة. سواء أصدّق السيّد والسيّدة «ڤيردوران» ذلك التخييل أم لا فقد ساعدا الأميرة على إدخال ذلك في روع الخلّص. وكان أولئك متيقّنين في الآن نفسه أن الأميرة اختارت من بين آلاف المعارف الذين يتوافرون لها، آل«ڤيردوران» وحدهم وأن آل«ڤيردوران» الذين يخطب ودّهم كبار الارستقراطيّين جميعاً لم يرتضوا إلا استثناء واحداً جاء لصالح الأميرة.

ما كانت الأميرة، وهي في نظرهم تفوق إلى حدّ كبير وسطها الأصليّ كي لا تحسّ بالملل فيه، ما كانت تجد بين الكثيرين ممّن كان يمكن أن تخالطهم إلاّ آل«ڤيردوران» وحدهم ممتعين، وفي المقابل لم يقبل هؤلاء، وقد صمّوا آذانهم دون محاولات كامل الارستقراطيّين الموجّهة إليهم، إلاّ باستثناء واحد لصالح سيّدة كبيرة أوفر ذكاء من مثيلاتها هي الأميرة «شيرباتوف».

كانت الأميرة بالغة الثراء، فقد كانت لها في حفلات العروض الأولى كافة مقصورة كبيرة تصطحب إليها، بعد استئذان السيّدة «ڤيردوران»، الخلّص وحدهم ولا أحد سواهم. كانوا يتدالّون على تلك المرأة الغامضة الشاحبة التى شاخت دون بياض في شعرها، بل احمرار بالأحرى كما هي حال بعض ثمار الأسيجة المعمّرة المتكرّشة. ينظرون باعجاب إلى اقتدارها وتواضعها في آن معاً إذ يصحبها على الدوام عضو في الأكاديمية هو « بريشو» وعالم مشهور هو «كوتار» وأوّل عازف بيانو آنذاك والسيّد «دوشارلوس» فيما بعد، وتجهد دوماً مع ذلك في حجز متقصّد لأكثر المقصورات عتمة وتبقى في ركنها القصيّ ولاتهتمّ بأمر القاعة البتّة وتعيش حصراً للمجموعة الصغيرة التى تنسحب قبل نهاية العرض قليلاً تتبع هذه السلطانه الغريبة التى لا تخلو من جمال خجول فاتن متعب. ولئن كانت السيّدة «شيرباتوف» لا تنظر إلى القاعة وتلبث في العتمة فلمحاولة أن تنسى أن ثمة عالماً حيّاً تشتهيه بشغف ولاتستطيع أن تعرفه؛ فقد كانت «العصبة» المجتمعة «في مقصورة»، كانت بالنسبة إليها ما هو بالنسبة إلى بعض الحيوانات التيبّس الجثي تقريباً في مواجهة الخطر. على أن الميل إلى الجدّة والغرابة الذي يعتمل في صدور أرباب المجتمع كان يدفعهم ربّما إلى إيلاء هذه المجهولة التي تكتنفها الأسرار انتباهاً أكبر ممّا يولون مشاهير المقصورات الأولى الذين يُقْبلُ كلّ إلى زيارتهم. كانوا يتخيلونها مختلفة عن الأشخاص الذين يعرفونهم وأن ذكاء خارقاً مقروناً بطيبة تكهنيّة كانت تمسك من حولها بذاك الوسط الصغير من الناس البارزين. كانت الأميرة إن حدّثوها عن أحدهم أو قدّموه لها مرغمة على تكلّف فتور عظيم للابقاء على وهم كرهها للعالم. بيد أن بعض الجدد كانوا يفلحون بمساندة «كوتار» أو السيدة «ڤيردوران» في التعرف إليها وكانت نشوتها بمعرفة أحدهم تبلغ حدّا تنسى معه خرافة العزلة المتعمدّة وتصرف إلى حدّ الجنون من جهدها فى سبيل الوافد الجديد. فإن كان شديد الضحالة عجب كلّ منهم. «أي أمر غريب هو أمر الأميرة التي

لا تبغي التعرّف بأحد وتبادر إلى استثناء واحدٍ قليل التميّز إلى هذا الحدّ!» لكن هذه المعارف المثرية كانت نادرة والأميرة تعيش قابعة بين الخلّص.

كان «كوتار» يقول: «سألتقيه نهار الأربعاء في منزل آل«فيردوران» أكثر من قوله «سألتقيه نهار الثلاثاء في المجمع العلمي». كان يتحدّث كذلك عن أيام الأربعاء وكأنما عن شغل يساويه أهمّية وحتميّة. وكان «كوتار» على أيّة حال من أناسٍ قلّ أن يسعى إليهم الآخرون ويرون واجباً ملحّاً في الذهاب إلى دعوة كما لو تشكلّ أمراً، كدعوة عسكريّة أو قضائيّة. كان لا بدّ أن تستدعيه زيارة هامّة جداً كيما يتخلّى عن آل«فيردوران» نهار الأربعاء، والأهمية بأيّة حال تتعلّق بصفة المريض أكثر منها بخطورة المرض، فـ«كوتار»، وإن كان رجلاً طيّب القلب، كان يتخلى عن حلاوة يوم الأربعاء لا من أجل عامل ألمّ به أزمة قلبيّة بل من أجل رشح أصاب وزيراً. على أنّه كان في حالة كهذه يقول لزوجته: «اعذريني لدي السيّدة «فيردوران» والفتيها إلى أني سأصل متأخراً. ولعلّ سيادته كان استطاع انتقاء يوم آخر ليصاب بالرشح». وذات أربعاء قطعت فيه طبّاختهم العجوز وريد ذراعها، وكان «كوتار» ارتدى السموكن للذهاب إلى منزل آل«فيردوران»، فارتفع بمنكبيه حينما سألته زوجته وجلة إن لم يكن يستطيع تضميد الجريحة وصاح بلهجة نائحة: «ولكني لا أستطيع يا «ليونتين»، فانّك ترين أني وضعت صدريّتي البيضاء. وأرسلت السيّدة «كوتار»، كي لا يضيق زوجها ذرعاً بها، في طلب رئيس العيادة بالسرعة القصوى. وكان هذا الأخير قد استقلّ سيّارة ليمضي بسرعة أكبر وإذ دخلت إلى الباحة لحظة كانت سيّارة «كوتار» تزمع الخروج لتقلّه إلى منزل آل«فيردوران» فقد أضاعوا خمس دقائق في التحرّك إلى الأمام والخلف. وشعرت السيّدة «كوتار» بضيق من أن يرى رئيس العيادة معلّمة في ثياب السهرة. وكان «كوتار» يتعالى صراخه جرّاء تأخرّه، وربّما بسبب تبكيت ضميره ومضى بمزاج مقيت اقتضاه سائر متع نهار الأربعاء كي يفلح في تبديده.

وإن سأل أحد الزبائن «كوتار» قائلاً: «هل تلتقي أسرة «غير مانت» أحياناً؟» كان الأستاذ يجيب باصفى نيّة في العالم: «ربّما ليس بالضبط آل«غير مانت»، لست أدرى. ولكنّي ألتقي كلّ أولئك القوم لدي أصدقاء لي. لقد سمعتم بالتأكيد عن أسرة «فيردوران» فانّهم يعرفون سائر الناس. ثمّ إنهّم ليسوا على الأقلّ قوماً متأنّقين تهاوت إمكاناتهم، إذ لديهم مايكافئ ذلك. فهم يقدرون بعامةً أن السيّدة «فيردوران» ثريّة بما يبلغ خمسة وثلاثين مليوناً. خمسة وثلاثون مليوناً، ويحك! ذلك رقم لا يستهان به. وهي لذلك لا تهتمّ بما تصرف وتتكلّف. كنت تحدّثني عن الدوقة «دوغير مانت» وسوف أقول لك الفارق: إن السيّدة: «فيردوران» سيّدة كبيرة والدوقة «دوغير مانت» بؤس كلّها على الأرجح. وإنّك تدرك الفارق، أليس كذلك؟ وفي جميع الأحوال، وسواء ذهب آل«غير مانت» أم لا إلى منزل السيّدة «فيردوران» فإنها تستقبل ما كان أفضل، من آل«شيرباتوف» و«فورشفيل» ومثلهم كثر، أناس من أرفع المستويات وكامل طبقة النبلاء في فرنسه و«ناڤار» وتراني أتحدّث إليهم حديث الندّ للندّ. ثمّ إن هذا النمط من الناس يطيب له أن يبحث عن أمراء العلم»، يضيف قوله بابتسامه اعتزاز مطمئنة رسمها على شفتيه شعور بالرضى والتعالي، لا لأن العبارة التي قُصِرَتْ فيما مضى على أمثال «بوتان» و«شاركو» كانت تنطبق عليه الآن، بل لأنه يعرف أخيراً كيف يستخدم كما ينبغي

أن يفعل سائر العبارات التي تقرّها العادة والتي أصبح يملك ناصيتها بعد ما سبر أغوارها فترة طويلة. لذلك كان «كوتار» يضيف بعد ما ذكر لي الأميرة «شير باتوف» في عداد الأشخاص الذين تستقبلهم السيّدة «ڤيردوران»، يضيف وهو يغمز بعينه: «فأنت ترى نمط الدار وتدرك ما أودّ أن أقول؟» وهو يودّ أن يقول ما كان أكثر أناقة. على أن استقبال سيّدة روسيّة لا تعرف سوى الدوقة الكبرى «أودوكسي» كان أمراً هيناً. لكنما كان يمكن حتّى أن لا تعرفها الأميرة «شيرباتوف» دون أن يضعف الرأي الذي يحمله «كوتار» بخصوص أرفع درجات الأناقة التي يملكها منتدى آل «ڤيردوران» وغبطته أن يرحب به فيه. فليس الروعة التي يخيّل إلينا أن من نعاشرهم من الناس يرتدونها أكثر التصاقاً بهم من روعة شخوص المسرح الذين لايجدي على الإطلاق أن يصرف مدير على ملابسهم مئات ألوف الفرنكات لشراء بزّات أصيلة ومجوهرات حقيقيّة لن تخلّف أيّ أثر في حين يعطي عنهم زخرفيّ كبير انطباعاً بالغنى يفوقها ألف مرّة بذخاً بتسليط شعاع صنعيّ على صدار من قماش غليظ نثرت فوقه قطع زجاجية وعلى معطف من ورق. وهذا رجل أمضى حياته بين ظهراني عظماء الأرض وما كانوا في نظرة سوى أقارب مملّين أو معارف يولونك سأماً لأنّ عادة اكتسبها في المهد جرّدتهم من أيّة مهابة في عينيه. ولكنّما كان كافياً في المقابل أن تنضاف تلك المهابة بفعل المصادفة إلى أشخاص مغمورين كأكثر ما يكون كيما يكون عاش قوم لا يحصون من أمثال «كوتار» وقد بهرتهم نساء ذوات ألقاب خيّل إليهم أنّ منتداهنّ كان مركز الأناقات الارستقراطية وما كنّ حتّى ما كانت عليه السيّدة «دوڤيلپاريزيس» وصديقاتها (أي سيّدات كبيرات فقدن مكانتهنّ وما عادت الطبقة الارستقراطيّة التي تربّت وإيّاهن تتردّد عليهنّ)؛ لا، أولئك اللائي شكلّت صداقتهن اعتزاز الكثيرين من الناس فما من أحد، لو نشر هؤلاء الناس مذكّراتهم وذكروا فيها أسماء هاتيك النساء وأسماء من كنّ يستقبلنهنّ، يستطيع أن يعرف هويتّهن، لا هوية السيّدة «دوكامبرمير» ولا السيّدة «دوغيرمانت». ولكن ما همّ! فإن من كان مثل «كوتار» يملك هكذا بارونته أو مركيزته التي هي في نظره «البارونة» أو «المركيزة» مثلما هي عند «ماريڤو» البارونة التي لا يذكر اسمها البتّة والتي لايخطر حتّى لنا البتّة أنْ كان لها اسم ذات يوم، ويعتقد «كوتار» أنّه يجد فيها اختصاراً للأرستقراطية -التي تجهل تلك السيّدة- ويزيد من اعتقاده أنّه كلّما كانت الألقاب موضع شكّ كلّما شغلت التيجان مكاناً أكبر على الكؤوس والفضيات وورق الرسائل والحقائب. كثيرون من أمثال «كوتار»، ممن ظنّوا أنهم قضوا حياتهم في قلب حيّ «سان جيرمان»، إنّما فتنت خيالهم الأحلام الإقطاعيّة أكثر من أولئك الذين سبق بالفعل أن عاشوا بين الأمراء تماماً كما هي حال التاجر الصغير الذي يذهب أحياناً يوم الأحد لزيارة أبنية من «العصور الغابرة» فإنّه إنما يوافيه أكثر ما يوافيه شعور بالعصر الوسيط أحياناً في الأبنية التي تعود كلّ حجارتها إلى عصرنا والتي دهنت قبابها على يد تلاميذ «ڤيوليه لودوك» باللون الأزرق ونثر عليها نجمات ذهبيّة. «ستكون الأميرة في «مينڤيل» وستسافر معنا. ولكنّي لن أعرّف بكم في الحال، فالأفضل أن تقوم السيّدة «ڤيردوران» بذلك، ما لم تتفق لي صلة وصل أخرى، فاعتبروا إذ ذاك أنّها لن تفلت من يدي». وقال «سانييت» الذي تظاهر بأنّه كان مضى يتفسّح: «عمّ كنت تتحدّث؟» فقال «بريشو»: «كنت أذكر للسيّد كلمة تعرفها تماماً لمن هو في نظري أول «جماعة نهاية القرن» (أقصد الثامن عشر) وهو المدعوّ «شارل مورس» رئيس إقطاعة «بريغور»[1]. فقد كان وعد في البداية أن يكون صحفياً ممتازاً، ولكنه انتهى نهاية سيئة، أعني أنّه أصبح وزيراً!

(١) تاليران.

فإن في الحياة تقلّبات تسوء المرء. وكان على أيّة حال سياسياً قليل التحرّج ولا يربكه، بما يبدي من صنوف تعالي السيّد الكبير الأصيل، أن يعمل في ساعات فراغه دون أن يجني من ذلك شيئاً، وهو ما ينبغي التنويه به إذ مات وهو يلبس لبوس يسار الوسط.».

في «سان بيير ديزيف» صعدت فتاة رائعة لم تكن لسوء الحظ من الجماعة الصغيرة. وما كنت أستطيع صرف النظر عن بشرتها التي بلون زهر المانيوليا وعينيها السوداوين والهندسة الرائعة المديدة لقالب جسمها. وما أن انقضت ثانية حتّى ودّت فتح زجاج النافذة فالطقس كان حارّاً بعض الشيء في المقصورة وإذ لم تشأ أن تستأذن الجميع وكنت الوحيد الذي لا يرتدي معطفاً، فقد قالت لي بنبرة سريعة ريّانة ضاحكة: «ليس يزعجك الهواء يا سيّد؟» وددت لو أقول لها: «تعالي معنا إلى منزل آل«ڤيردوران»، أو «أخبريني عن اسمك وعنوانك». فأجبت قائلاً: «لا، ليس يزعجني الهواء يا آنسة». وقالت بعد ذلك، ودون أن تغادر مكانها: «والدخان، أليس يزعج أصدقاءك؟» وأشعلت لفافة. وفي المحطّة الثالثة نزلت بقفزة واحدة. وفي الغد سألت «ألبيرتين» من يمكن أن تكون. فإني، إذ ظننت بغباء أن المرء لا يحبّ سوى أمر واحد، إذ أخذتني الغيرة من موقف «ألبيرتين» من «روبير»، كنت مطمئن النفس بخصوص النساء. قالت «ألبيرتين»، وأظنها فعلت بصدق كبير، إنّها لا تعلم، فصرخت قائلاً: «كم أودّ لقاءها ثانية!» فتجيب «ألبيرتين»: «اطمئن بالاً، فالناس يلتقون ثانية على الدوام». وكانت على خطأ في هذه الحالة الخاصة، فما عدت التقيت ولا عرفت هويّة الفتاة ذات السيجارة. وسوف نرى لاحقاً لماذا اضطررت أن أكف فترة طويلة عن البحث عنها. ولكنيّ لم أنسها، وكثيراً ما يتّفق لي إذ أفكر فيها أن تتملكني رغبة جامحة. ولكن عودات الرغبة هذه تضطرّنا إلى التفكير بأنّه لابدّ لنا، إن أردنا التقاء هاتيك الفتيات ثانية بالمتعة ذاتها، من العودة أيضاً إلى السنة التي تلتها مذ ذاك عشر أخريات خبت في اثنائها نضارة الفتاة. فإننا نستطيع أحياناً التقاء شخص ثانية، لا أن نلغي الزمن، وكلّ ذلك إلى اليوم اللا متوقّع الحزين كليلة من ليالي الشتاء حيث لا نبحث من بعد عن تلك الفتاة ولا عن أخرى غيرها، وحيث يبلغ بك حتّى أن تخيفك اللقيا. فإنك لا تحسّ من بعد بما يكفي من الجاذب لتمتع ومن القوة لتحبّ. وليس يعني ذلك أننا عاجزون بالمعنى الحقيقي للكلمة. فإنّه بشأن الحبّ ربّما أحببنا أكثر من أي وقت مضى. ولكننا نحسّ أنّها عمليّة تتجاوز كثيراً النزر اليسير ممّا نحتفظ به من قوى. فإن الراحة الأبديّة قد وضعت فواصل زمنيّة لا تستطيع فيها الخروج أو الكلام. وإن وضع قدمك على الدرجة المناسبة نجاح كمثل أن لاتخطئ القفزة الخطيرة. فأن تراك في حالتك هذه الفتاة التي تحبّ حتّى إن احتفظت بوجه شبابك وبكامل شعورك الشقراء! ليس يستطيع المرء من بعد تحمّل تعب مماشاة الشباب. وليكن ما يكون إن الشهوة الجنسية تضاعفت عوضاً عن أن تنطفئ فإنّنا نجيء لها بامرأة لا نهتّم بأن نحسن في عينيها ولن تقاسمنا فراشنا إلاّ ليلة واحدة ولن نعود فنلقاها في يوم.

وقال «كوتار»: «لابد أنهّم بعد بدون أخبار عن عازف الكمان». فقد كان حدث الساعة في العشيرة الصغيرة هجر عازف الكمان المفضّل لدي السيّدة «ڤيردوران». وكان يمضي خدمته العسكريّة بالقرب من «دونسيير» ويجيء ثلاث مرّات في الأسبوع للعشاء في «لاراسبليير» إذ هو مأذون حتّى منتصف الليل. لكنّ

الخلّص لم يفلحوا للمرّة الأولى قبل البارحة في اكتشافه في الحافلة، وافترضوا أنّه لم يلحق بها. وعبثا أرسلت السيّدة «ڤيردوران» من ينتظر الحافلة التالية ثم الأخيرة وعادت العربة فارغة. «لقد أودع السجن بالتأكيد، فليس من تفسير آخر لهربه. وأنت تدري، ويحك، أنّه يكفي مع هؤلاء الفتيان في مهنة العسكر مساعد واحد شكس». وقال «بريشو»: «سوف يزيد من جرح كرامة السيدة «ڤيردوران»، إن تخلّى هذا المساء أيضاء، أنّ مضيفتنا المحبوبة تستقبل بالضبط على العشاء وللمرّة الأولى الجيران الذين أجّروها «لاراسبلييير»، المركيز والمركيزة «دوكامبرمير». وصاح «كوتار» قائلاً: «المركيز والمركيزة «دوكامبرمير»، في هذا المساء! ولكني ما علمت عن ذلك شيئاً. كنت أعلم بالطبع مثلكم جميعاً أنهما لابّد آتيان في يوم ولكنّي ماعلمت أنّ الأمر قريب إلي هذا الحدّ». وقال وهو يلتفت صوبي: «يا عجبي، ماالذي قلته لك: الأميرة «شيرباتوف» والمركيز والمركيزة «دوكامبرمير». وبعد ما ردّد تلك الأسماء وهو يهدهد النفس بأنغامها قال لي: «ترى أنّنا نبذل في ذلك جهوداً طيّبة. ومهما يكن فإنّك في بداياتك تصيب الهدف في الصميم. وسوف تتوفرهنامجموعةاستثنائية في تألقّها». وأضاف وهو يستدير نحو «بريشو»: «لابدّ أن المعلّمة تستشيط غيظاً وقد آن الآوان لنُقبل ونمدّ لها يد العون». فمنذ أن أقامت السيّدة «ڤيردوران» في «لاراسپلييير» أخذت تتظاهر إزاء الخلّص أنّها بالفعل ملزمة ومغتمّة من جرّاء دعوة أصحاب المنزل مرة واحدة. فقد تتوافر لها هكذا شروط أفضل في السنة التالية، تقول، وهي لا تقدم علىالأمر إلاّ لمصلحة. ولكنّها تزعم أنّ بها هلعاً عظيماً وتتصوّر وحشاً في هذا العشاء برفقة أناس ليسوا في المجموعة الصغيرة إلى حدّ كانت ترجئ معه دوماً ذاك العشاء. وكان إلى ذلك يبعث الذعر في صدرها للأسباب التي كانت تعلنها وهي تبالغ فيها، إن هو يفتنها من جانب آخر لأسباب سنوبيّة تفضل السكوت عنها. لقد كانت إذاً نصف صادقة وتظنّ العشيرة الصغيرة شيئاً فريداً في العالم وواحدة من تلك المجموعات التي يقتضي تشكيل مثيلتها قروناً إلى حدّ أنها كانت ترتجف لفكرة أن يلجأ أناس من الريف يجهلون الرباعيّة و«الأساتذة» ولا يسعهم القيام بالقسم الخاصّ بهم في «تخت» المحادثة العامّة ويستطيعون بحضورهم إلى منزل آل«ڤيردوران» تخريب أحد أيام الأربعاء الشهيرة، هذه الروائع التي لا تضاهى والسريعة العطب الشبيهة بزجاجيّات البندقية التي تكفي نغمة ناشزة لتحطيمها. وكان السيّد «ڤيردوران» قد قال: «لابّد أن يكونوا إلى ذلك أكثر الناس مناهضة لـ«دريفوس» وحبًّا للجيش». وأجابت السيّدة «ڤيردوران»»: «أمّا بهذا الخصوص فالأمر عندي سواء، فإنهم يتحدثون عن تلك القصّة منذ فترة ليست بالقصيرة»، ولعلّها، وهي صادقة في مناصرتها «دريفوس»، لعلّها ودّت أن تجد في رجحان منتداها الدريفوسيّ النزعة مكافأة مجتمعية. إلاّ أن الدريفوسية كانت لها الغلبة على الصعيد السياسّي لا على الصعيد المجتمعيّ.

فقد لبث «لابوري» و«ريناك» و«بيكار» و«زولا» في نظر رجال المجتمع من أصناف الخونة الذين لا يمكن إلاّ أن يبعدوهم عن النواة الصغيرة. لذلك كانت السيّدة «ڤيردوران» حريصه على العودة إلى الفن بعد هذه الغزوة في دنيا السياسة. ومن ناحية أخرى ألم يكن «داندي» و«دوبوسّي» في موقع غير مريح بالنسبة إلى القضية؟ فقالت: «بخصوص القضية، ما علينا إلاّ أن نضعهم إلى جانب «بريشو» (وكان الجامعي هو الوحيد بين الخلّص الذي انحاز إلى جانب ضباط الأركان، وقد خفض ذلك كثيراً من مكانته في تقدير السيّدة «ڤيردوران»). فلسنا ملزمين بالتحدث أبداً عن قضية «دريفوس». لا، الحقيقة أن آل«كامبرمير» يزعجونني». أمّا

بالنسبة إلى الخُلصّ، وهم تستثيرهم رغبتهم المكتومة في التعرّف إلى آل«كامبرمير» بقدر ما يخدعهم الانزعاج المتكلف الذي تقول السيّدة «ڤيردوران» إنّها تعاني منه في استقبالهم، فكانوا يردّدون كلّ يوم في حديثهم إليها الحجج الرديئة التي كانت تقدّمها هي في صالح تلك الدعوة ويجهدون في جعلها دافعة لا تردّ. كان «كوتار» يردّد قوله: «احزمي أمرك نهائياً تحصلي على تنازلات في الإيجار، فهم يدفعون للبستاني وتتصرّفين أنت بالمرج. إن ذلك كله يساوي إنزعاجك سهرة واحدة وما حديثي في ذلك إلاّ من أجلك»، يضيف قوله، مع أن قلبه خفق ذات مرة لاقى فيها في الطريق وهو داخل عربة السيّدة «ڤيردوران» عربة السيّدة العجوز «دوكامبرمير»، وأنّه على وجه الخصوص أُذلّ في نظر مستخدمي السكّة الحديديّة حينما كان يقف في المحطّة بالقرب من المركيز. ولمّا كانت أسرة «دوكامبرمير» تعيش بعيداً جداً عن الحركة المجتمعية كيما يمكنها حتّى الارتياب بأن بعض النساء الأنيقات كنّ يتحدّثن عن السيّدة «ڤيردوران» بشيء من الاعتبار، فقد كانوا يتصورون أن هذه السيّدة امرأة لا يمكنها أن تعرف غير المتشردين وربّما لم تكن حتّى متزوجة زواجاً شرعياً وأنّها فيما يخص الناس «الكريمي المحتد» لن تلتقي غيرهم في يوم. ولم يسلموّا بأمر تناول العشاء عندها إلاّ ليكونوا على علاقة طيبّة بمستأجرة يأملون عودتها لمواسم كثيرة، ولا سيما بعدما علموا في الشهر الفائت أنها ورثت الكثير من الملايين. وكانوا يستعدون لليوم المحتوم بصمت ودون مزحات قليلة الذوق. أمّا الخّلص فما عادوا يأملون أن يحلّ في يوم لكثرة ما سبق أن حدّدت السيّدة «ڤيردوران» في حضرتهم تاريخه الذي تغيره دوماً. كانت تلك القرارات الكاذبة تهدف لا إلى التظاهر بالازعاج الذي يسببه لها هذا العشاء فحسب، بل إلى انتظار محيرّ تفرضه على أعضاء المجموعة الصغيرة الذين يقطنون في الجوار ويميلون أحياناً إلى التخلي عنها. وما ذلك لأن «المعلّمة» حزرت أن «اليوم العظيم» كان يمتعهم بقدر ما يمتعها بل لأنها كان يمكن، بعدما أقنعتهم بأن ذاك العشاء كان في نظرها من أشد أعمال السخرة، أن تستنهض إخلاصهم. «لن تدعوني وحدي في مواجهة هؤلاء الصينيين! ينبغي على العكس أن نكون كثيرين لتحمل الملل. لن يسعنا بالطبع التحدث عن شيء يشوقنا. ما باليد حيلة! سوف يكون يوم أربعاء فاشل».

وأجاب «بريشو» موجّهاً حديثه إليّ: «بالفعل، أعتقد أن السيّدة «ڤيردوران»، وهي ذكية جداً وتعدّ أيّام أربعائها بأناقة عظيمة، لم تكن تحرص كثيراً على استقبال هؤلاء النبلاء الريفيين الذين من سلالة عريقة ولكنهم لا نباهة لديهم. فلم تستطع أن تقرّر دعوة المركيزة الوريثة فاكتفت بالابن والكنّة. وقال «كوتار» بابتسامة ظنّ أنّه يجدر به أن يضمنّها شيئاً من المجون والرقة المتكلفة على الرغم من أنه يجهل إن كانت السيّدة «دوكامبرمير» جميلة أم لا: «ماذا! سنلتقي المركيزة «دوكامبرمير»؟ «ولكنّ لقب المركيزة كان يوقظ في نفسه صوراً رائعةغراميّة. وقال «سكي» الذي كان التقاها مرّة كان يتنزه فيها مع السيّدة «ڤيردوران»: «آه! إني أعرفها». وقال الدكتور «لست تعرفها بمعنى الكتاب المقدس»؟ قال وهو يرسل نظرة مشبوهة من تحت نظّارته، وكانت تلك إحدى مزحاته المفضّلة وقال لي «سكي»: «إنّها ذكيّة». وعاد يقول إذ يرى أني لا أتفوّه بكلمة ويشدّد وهو يبتسم على كل كلمة: «بالطبع هي ذكيّة وليست ذكيّة وتفتقر إلى التعليم وهي طائشة ولكنّها تتمتع بغريزة الأشياء الجميلة. إنها تسكت ولكنهّا لن تفوه بحماقة في يوم. ثمّ إن لها لون بشرة جميلاً». وأضاف قوله وهو يطبق عينيه نصف إطباقه كما لو ينظر إليها وهي تقف إزاءه وقفة الجليس: «ولعلّه رسم كان

من المثير إنجازه». ولما كنت أفكر بما يناقض تماماً ما كان «سكي» يعبرّ عنه بفيض من التدرّجات الدقيقة فقد اكتفيت بقولي إنّها شقيقة مهندس مرموق جداً يدعى السيّد «لوغراندان». وقال لي «بريشو»: «ها أنت ترى، سوف يعرّفونك بامرأة جميلة وليس يعلم أحد ما قد ينجم عن ذلك. فلم تكن «كليوباترا» حتّى سيّدة كبيرة، بل السيّدة العاديّة، السيّدة الهيّنة الطائشة المزعجة التي نجدها لدى «ميلاك»، وهيا انظر إلى النتائج، لا بالنسبة إلىٰ ذاك المغفل «أنطونيوس» فحسب، بل على صعيد العالم القديم». فأجبت: «سبق أن عرّفت بالسيّدة «دوكامبرمير».» —«فستكون إذاً في بلاد تعرفها». وأجبت قائلاً: «سوف يزيد من سعادتي بلقائها أنّها كانت وعدتني بكتاب لكاهن «كومبريه» السابق حول أسماء الأماكن في هذه المنطقة وسوف يسعني أن أذكرّها بما وعدت. وإني أهتمّ بهذا الكاهن وبالاشتقاقات والأصول». وأجاب «بريشو»: «لا تبالغ في الوثوق بتلك التي يشير إليها. إن الكتاب الذي في «لاراسپليير» والذي تلّهيت بتقليب صفحاته لايساوي في شيئاً ذا قيمة وهو محشوّ بالأخطاء، وسوف أعطيك مثالاً عن ذلك. فكلمة «bricq» تدخل في تكوين عدد من أسماء الأمكنة في المناطق المحيطة بنا. وقد خطرت لرجل الدين الطيّب فكرة غريبة إلى حدّ ما قوامها أنّها مستقّة من «briga» وتعني مُرْتَفَع والمكان المحصّن. وهو يراها قبلاً في الأقوام السيلتيّة: «لاتوبريج» و«نيميتوبريج»، الخ، ويلاحقها حتّى السماء مثل «بريان» و«بريون»، الخ. نعود إلى المنطقة التي يسرّنا اجتيازها الآن برفقتك، فـ«بريكبوسك» تعني حينذاك حرج المرتفع و«بريكفيل» مسكن المرتفع و«بريكبيك» التي سنتوقف فيها بعد قليل قبل الوصول إلى «مينفيل» المرتفع قبل الساقية. وليس من ذلك شيء إطلاقاً من جرّاء أن « bricq» هي الكلمة الزوجية القديمة التي تعنى بكلّ بساطة «جسر». وكذلك «fleur» التي يجهد محميّ السيّدة «دوكامبرمير» جهداً عظيماً في إلحاقها باللفظات الاسكندنافية «floi» و«flo» تارة وطوراً بالايرلندية «ae» و«aer»، فهي على العكس كلمة «fjord» الدانمركية وتعني «مرفأ» لا ريب في ذلك. وكذلك يعتقد الكاهن الطيّب أن محطّة «سان مارتان لو ڤيتو» التي تجاور «لاراسپليير» تعني «سان مارتان لو ڤيو» (Vetus)[1]. والأكيد أنّ كلمة «Vieux» لعبت دوراً كبيراً في أسماء بلدان هذه المنطقة. وكلمة «Vieux» (مسنّ ــ قديم) مشتقة بعامّة من «Vadum» وتعني مخاضة، مثلما هو المكان المسمّى «ليه ڤيو»، وهو ما كان الانكليز يدعونه «ford» (أكسفورد، هيرفورد)، ولكن «ڤيو» (Vieux) مشتقة في هذه الحالة الخاصّة لا من (Vatus) بل من Vastatus وتعني المكان الخرب العاري. ولديك على مقربة من هنا «سوتّفاست» (Sottvast)أي «خربة سيتولد» و«بريلفاست» أي «خربة بيرولد». وإن ما يزيد يقيني من خطأ الكاهن أن «سان مارتان لوڤيو» سمّيت فيما مضى «سان مارتان دو غاست» وحتّى «سان مارتان تيرغات». ولكنّ حرفي «v» و«g» في هذي الكلمات حرف واحد، فيقولون خرّب وكذلك أتلف، والأرض البور والمقفرة تحمل ذاك المعنى نفسه... و«تيرغات» هي إذن «تيراڤاستا». أمّا بخصوص «سان مارس»، وهي بالأمس «سان ميرد»[2] (وملعون كلّ من ساء ظنّه)، و«سان ميداردوس»، وهي تارة «سان ميدار» وطوراً «سان مارد» و«سان مارك» و«سانك مارس» وحتّى «دمّاس». ويجب أن لا يغيب عنا على أية حال أن أمكنه قريبة جداً من هنا تحمل اسم «مارس» هذا إنما تثبت فحسب أصلاً وثنياً (إله الحرب مارس) ظلّ حياً في هذه المنطقة ولكنّ الرجل القديس يرفض الإقرار بالأمر. إن

(١) أي القديم من Vêtus فيما الأصل Le Vêtu هي من اللاتينية Vastatus وتعني خراب ــ قفر.
(٢) «سان ميرد»: القسم الأخير من الكلمة يعنى خـ...... في العربية، وهو ما يفسّر الملاحظة اللاحقة.

المرتفعات المكرّسة للآلهة كثيرة بوجه الخصوص، كجبل «جوبيتير» مثلا (جومون Jeumont» أمّا كاهنك فلا يريد أن يرى شيئاً من هذا القبيل وفي مقابل ذلك ترى في كل مكان خلفّت المسيحية فيه آثاراً أنّها تخفى عليه، لقد مدّ رحلته حتّى«لوكتودي»، وهو اسم غريب، يقول، فيما هو «لوكس سانكتي توديني» (أي بيت القديس تودينوس) ثم إنّه إلى ذلك لم يكشف في لفظه «سامُرْ كول» اسم «سانكتوس مارسياليس» (القدّيس مارس).» وأردف «بريشو» يقول وقد لاحظ أنّه يثير اهتمامي: «إن كاهنك يرد الكلمات المنتهية بـ «holm, hon, home» إلى كلمة «holl» (hullus) التي تعني «رابية» فيما هي مشتقة من النروجية «holm» التي تعني جزيرة، وتتعرفها تماماً في «ستوكهولم» وهي كثيرة الانتشار في هذه المنطقة: «لاهولم»، «أنغوهوم»، «تاهوم»، «روبهوم» ،«كيتْهو» الخ..». وقد ذكرتني هذه الأسماء باليوم الذي اعتزمت فيه «البيرتين» الذهاب إلى «امفرڤيل لابيغو» (نقلاً عن اسم اثنين من أربابها المتعاقبين، على حدّ ما قاله لي «بريشو») واقترحت بعدها عليّ أن نتناول العشاء معاً في «روبهوم». أمّا «مونمارتان» فكنّا على وشك المرور فيها بعد وقت قصير. وسألت قائلا: «أليست «ينهوم» على مقربة من «كاركتوي» و«كليتور» ؟» -«تماماً، «نيهوم» هي «هولم»، أي جزيرة أو شبه جزيرة الڤيكونت «نيجيل» الذي بقي اسمه أيضاً في «نيڤيل». أمّا «كاركتوي» و«كليتور» اللتين تحدّثني عنهما فمناسبة تسمح لحميّ السيّدة «دوكامبرمير» بارتكاب أخطاء أخرى. وهو لا شك يرى تماماً أن «كارك» تعني كنيسة وهي اللفظة الألمانية «كيرشه» (Kirsche). وأنت تعرف «كيركڤيل» و«كاركبو»، ناهيك عن دانكيرك»، فإنّه من الأفضل لنا إذ ذاك أن نتوقّف عند كلمة «دون» (dun) المشهورة التي كانت تعني للسلتيّين «المُرتفَع»، وهذا ما أنت واجده في كلّ أنحاء فرنسه. وكاهنك هذا يقف مبهوراً أمام «دونڤيل». ولكنّه لقي في مقاطعة «أور إي لوار» «شاتودون»، وفي مقاطعة الـ«شير» «دون لو روا»، و«دونو» في الـ«سارت»، و«دون» في الـ«أريبج»، و«دونَ ليه بلاس» في الـ«نييڤر» ،الخ، الخ.. وكلمة «دون» هذه تدفعه إلى خطأ غريب فيما يتصل بـ«دوڤيل» التي سننزل فيها وحيث تنتظرنا عربات السيّدة «ڤيردوران» المريحة. «دوفيل»، يقول، من اللاتينية «دونڤيلا». و«دوڤيل» تقع بالفعل على حضيض مرتفعات كبيرة. وكاهنك العارف بكل شيء يحس مع ذلك أنه ارتكب خطأ فاحشاً. فإنه قرأ في سجل كنسي قديم اسم «دومڤيلا»، فتراجع آنذاك، وإذا «دوڤيل» في نظره إقطاعة لرئيس كهنة (domino abbati) جبل «سان ميشيل». ويسعد بذلك، وهو أمر غريب إلى حد ما نفكر بالحياة الفاضحة التي كانوا يعيشونها في جبل «سان ميشيل» وقد لا يكون أكثر غرابة من أن ملك الدانمارك سيد هذا الشاطئ بكامله حيث كان يدعو إلى ممارسة عبادة «أودين»[1] أكثر منه عبادة المسيح. ثم إن افتراض تحوّل حرف «n» إلى حرف «u» لا يصدمني ويقتضي تغيراً أقل من تغير «ليون» الصحيح تماماً فهي بدورها مشتقة من «دون» (Lugdunum). ولكن الكاهن مخطئ في النهاية، فـ «دوفيل» لم تكن في يوم «دونڤيل» بل «دوڤيل» (Eudonis villa) أي قرية «أود». ذلك أن «دوڤيل» كانت تدعى فيما مضى «إيسكالكليف»، أي درج المنحدر. وفي حوالي ١٢٣٣ مضى «أودلوبوتيبيه» سيّد «ايسكالكليف» إلى الأراضي المقدّسة وفي حين الرحيل سلّم الكنيسة إلى دير «بلانشلاند» وكان تبادل في الخدمات المؤداة فاتخذت القرية اسمه الذي منه «دوڤيل» الحاليّة، ولكني أضيف أن علم التسميات المكانية

(١) إله الأساطير الإسكندنافية.

الذي أنا جاهل أشد الجهل فيه ليس علماً دقيقاً، فلو لم تتوافر لنا هذه الشهادة التاريخية فربما أمكن اشتقاق «دوڤيل» من «أوڤيل»، يعني المياه. فالصيغ التي ترد بـ«ai» (مثل «إيغمورت»– Aigues-Morts) من اللاتينية «aqua» (ماء) كثيراً ما تستحيل «eu» و«ou». والحقيقة أنه كان ثمة عيون ماء مشهورة قريبة جداً من «دوڤيل» وتتصور أن الكاهن كان شديد الغبطة أنْ وجد هناك أثراً مسيحياً على الرغم مما يبدو من أن المنطقة كانت صعبة على صعيد التبشير إذ انبغى أن يعيد الكرة فيها على التوالي القديس «أورسال» والقديس «غوفروا» والقديس «بارسنور» والقديس «لوران دو بريڤدان» الذي أوكل المهمة أخيراً إلى رهبان «بوبيك». لكن المؤلف يخطئ بشأن «توي» (tuit) فيرى فيها أحد أشكال «توفت» (toft)، بمعنى كوخ، كما هي حال «كريكتو» و«ايكتو» و«إيڤتو»، فيما هي «تفيت» (thveit) وتعني «إعشاب» أو «استصلاح الأراضي» كما هو شأن «براكتوي» و«لو توي» و«رينتوي» ،الخ... وإن كان ايضاً يتعرف في «كليتور» الكلمة النورماندية «تورب» (Thorp) التي تعني «قرية» فإنّه يريد اشتقاق القسم الأول من الاسم من «كليڤوس» (clivus) التى تعنى «منحدر» فيما هو مشتق من «كليف» (clife) وتعنى «صخرة» لكن أكثر عثراته فداحة ناجم أقل ماينجم عن جهله منه عن أحكامه المسبقة. أفينبغى لنا، مهما كنا فرنسيين في الصميم، انكار البديهات وأن نعتبر أن القديس «لوران آن بريه» هو الكاهن الروماني الذائع الصيت، فيما الأمر أمر القديس «لورانس أوتول» رئيس أساقفة «دوبلن»؟ على أن الرأى الديني القبلي الذي يحمله صديقك إنما يوقعه، أكثر من شعوره الوطني، في أفدح الأخطاء. من ذلك أن ثمة موقعيّ «مونمارتان» في مكان غير بعيد عن مضيفينا في «لاراسپليير»: «مونمارتان سورمير» و«موغارتان آن غريني». أما فيما يخصّ«غرينيي» فلم يرتكب كاهننا الطيّب خطأً، إذ رأى بوضوح أن «غرينيي»، وهي في اللاتينية «غرانيا» وفي اليونانية «غريني»، إنما تعني مستنقعات، سبخات، وكم «كريسماس» و«كروين» و«غرينڤيل» و«لانغرون» يمكننا الاستشهاد بها؟ ولكن عالم اللسانيات المزعوم مصمِّم حكماً، بخصوص «مونمارتان» انّ الأمر يتعلق برعيات[1] مكرّسة للقديس «مارتان». وهو يستند في ذلك إلى أنّ القديس شفيعها، ولكنّه لاينتبه إلى أن الأمر لم يؤخذ على هذا المحمل إلاّ بعد التسمية، أم تراه تعميه كراهيته للوثنية فلا يريد أن يتبين أنهم كانوا قالوا «مون سان مارتان» مثلما يقولون «مون سان ميشيل» لو أنّ الأمر يدور حول «سان مارتان»، فيما ينطبق اسم «مونمارتان» من وجهة نظر أقرب إلى الوثنية على معابد مكرّسة للإله «مارس»، وهي معابد لم يبق منها بين أيدينا، والحق يقال، أطلالاً أخرى، ولكن وجود معسكرات رومانية ضخمة لايرقى إليها الشكّ في الجوار تجعلها أكثر معقولية حتّى بدون اسم «مونمارتان» الذي يقطع الشك باليقين. ترى إذاً أن الكتاب الصغير الذي ستجده في «لاراسپليير» ليس من أفضلها صنعة». ورددت بأن الكاهن في «كومبريه» كثيراً ما علمنا اشتقاقات مثيرة. «من المرجح أنّه كان أفضل على أرضه فلا بدّ أن الرحلة في «نورمانديا» ضيّعته». فأضفت قائلاً: «ولم تشفه، فقد كان جاء إليها موهن الأعصاب ورحل عنها مصاباً بالرثية». –«آه: إنّما الذنب ذنب وهن الأعصاب فقد وقع من وهن الأعصاب في الفيلولوجيا (علم اللغة)، كما لعلّ معلّمي الطيّب «بوكلان»[2] كان قال. ولكن قل لي يا «كوتار» أيخيل إليك أنّ وهن

(١) آثرنا «رعيّات» على «رعايا» للتمييز ونقصد بها مجموعة المؤمنين التي يخدمها كاهن أو كهنة في كنيسة ما.
(٢) هو المسرحيّ الهزلي «موليير».

الأعصاب يمكن أن يؤثر تأثيراً سيئاً في الفيلولوجيا، والفيلولوجيا يمكن أن تخلف أثراً مهدّئاً في وهن الأعصاب وأن يقود الشفاء من وهن الأعصاب إلى الرثية» ؟- «بالضبط، فإن الرثية ووهن الاعصاب شكلان بديلان من التهاب المفاصل العصبي، ويمكن المرور من الواحد إلى الآخر بظاهرة الانتقال». وقال «بريشو»: «يتحدث الأستاذ البارز، سامحني الله، بفرنسية تخالطها اللاتينية واليونانية من مثل ما كان استطاع السيّد «بورغون» المولييريّ الذكر نفسه أن يفعل! إليّ، ياعمّي، بل يا ناقدنا الوطني «سارسيه»[1] ...» ولكنّه لم يتمكن من إنهاء الجملة، إذ كان الأستاذ قد انتفض وأطلق صيحة مدّوية: «يا لعنة الـ.. ما..»، يقول وهو ينتقل أخيراً إلى لغة واضحة النطق، لقد تجاوزنا، «مينڤيل» (هيه! هيه!) وحتّى «رينڤيل».» وكان لاحظ منذ قليل أن القطار توقف في «سان مارس لوفيو» حيث نزل المسافرون جميعهم تقريباً. «لابدّ أنهم لم يتجاوزوا الموقف مع ذلك. ولعلنا لم ننتبه ونحن في حديثنا عن آل«كامبرمير».» -«اسمعني يا «سكي»، مهلاً، فسأقول لك «شيئاً يسترك»»، يقول «كوتار» الذي كان أعجب بهذه العبارة المستخدمة في الأوساط الطبية. «لابدّ أن الأميرة في القطار ولعلها لم تشاهدنا وصعدت إلى مقصورة أخرى. هيا نبحث عنها، والمهّم أن لا يفضى الأمر إلى الفوضى»! واصطحبنا جميعاً للبحث عن الأميرة «شيرباتوف». ولقيها في زاوية عربة فارغة تقرأ «مجلة العالَمين». فقد كانت تعوّدت منذ سنوات طويلة، مخافة جفاء الاستقبال، أن تبقى في مكانها، وتلبث في ركنها في الحياة والقطار على حد سواء، وأن تنظر أن يقرئوها السلام كي تمدّ يدها. واستمرت في قراءتها حينما دخل الخلّص إلى عربتها. وتعرفتها في الحال؛ تلك المرأة التي يحتمل أن تكون فقدت مركزها، ولكنها مع ذلك من منشأ رفيع وهي في جميع الأحوال لؤلؤة منتدى من طراز منتدى آل«فيردوران»، إنما كانت هي السيّدة التى ظننت قبل البارحة أنها قد تكون مديرة محلّ عمومي. وأصبحت شخصيتها الاجتماعية المشكوك فيها إلى أبعد حدّ واضحة لعيني في الحال حينما عرفت اسمها، شأننا حينما نعرف أخيراً، بعدما بذلنا من جهد انصّب على أحجية، الكلمة التي توضح كلّ ما ظلّ غامضاً والتي هى الاسم فيما يخصّ الأشخاص. وإن إطلاعنا بعد الغد على اسم الشخص الذي سافرنا إلى جانبه في القطار دون أن نفلح في العثور على مركزه الاجتماعي مفاجأة أبعث للسرور من أن نقرأ في عدد جديد من إحدى المجلات كلمة السرّ المقترحة في العدد السابق. إن المطاعم الكبري والكازينوهات وقطارات المناطق هي المتحف الذي يضمّ عائلات هذه الألغاز الاجتماعية. «ربما فاتنا لقاؤك في «مينڤيل» أيتها الأميرة، فهل تسمحين لنا بالجلوس في مقصورتك» ؟ فقالت الأميرة: «أجل، ياله سؤال!» وإذ سمعت «كوتار» يكلّمها رفعت حينذاك فقط عن المجلة التي تقرأها عينين كانتا، شأن عيني السيّد «دوشارلوس» وإن على وداعة أوفر، تبصران تماماً الأشخاص الذين تتظاهر بأنها لا تلاحظ وجودهم. أما «كوتار» الذي فكر في أن دعوتي مع أسرة «كامبرمير» كانت بالنسبة إليّ توصية كافية فقد قرّر بعد حين أن يقدّمني للأميرة التي انحنت بتأدبٍ كبير ولكنما بدا أنّها تسمع اسمي للمرّة الأولى. وصاح الدكتور قائلاً: «يا للعنة، لقد نسيت امرأتي تبديل أزرار صدريّتي البيضاء. آه: يا للنساء، إنهن لا يفكّرن في شيء». ثم قال لي: «لا تتزوج البتّة، فأنت ترى». ولمّا كانت تلك إحدى المزحات التي يعتبرها مناسبة حينما لايحضرك شيء تقوله، فقد نظر من طرف عينه إلى الأميرة والخلّص الآخرين الذين ابتسموا، إذ هو

(١) أحد أشهر النقّاد المسرحيّين في النصف الثاني من القرن ١٩.

أستاذ وعضو أكاديمية، وهم يعجبون لظرافة طباعه وعدم غطرسته. وأعلمتنا الأميرة أنهم عثروا على عازف الكمان الشابّ. فقد لازم الفراش بالأمس جراء صداع نصفي ولكنّه سيجيء هذا المساء ويصطحب معه صديقاً قديماً لوالده التقاه في «دونسيير» لقد علمت ذلك عن طريق السيّدة «ڤيردوران» التي تناولت إفطارها معها في الصباح، تقول لنا بنبرة سريعة تسمع فيها دحرجة حروف «الراء» الروسيّة تدور بغمغمة لطيفة في أقصى الحنجرة كما لو كانت حروف «لام» لا «راء». وقال «كوتار» للأميرة: «آه! لقد تناولت إفطارك هذا الصباح معها»، ولكنّه إذ يقول ينظر إليّ لأن تلك الأقوال كانت ترمي إلى إبراز مدى حميميّة علاقة الأميرة «بالمعلمة». «إنك لمخلصة أنت!» –«أجل، إنى أحبّ هذا المنتدي الصغيل[1] الذكيّ الظليف غير السيئ البسيط جداً غيل المتحذلق وحيث يمتلئ الناس ظلفاً حتّي أطراف أظافرهم». –«يا للعنة! لابدّ أنّي أضعت بطاقتي، فإني لا أجدها»، يقول «كوتار» صارخاً دون أن يداخله قلق كبير. فقد كان يعلم أن الموظّف في «دوڤيل»، حيث ستنتظرنا عربتان، سوف يسمح له بالمرور دون بطاقة وسوف ينحني انحناءة أكبر محيّياً بقبعته كي يوفّر بهذه التحية تفسيراً لتساهله قوامه أنّه تعرّف في شخص «كوتار» أحد روّاد منزل آل «ڤيردوران». وخلص الدكتور إلى القول: «لن أوضع في قاعة الشرطة بسبب ذلك». وسألت «بريشو»: «كنت تقول يا سيّد إن ثمة على مقربة من هنا مياها مشهورة، فكيف يعلمون ذلك؟» –«إن اسم المحطّة التالية، من بين أدلّة أخرى كثيرة، يشهد بذلك، فإنها تدعي «فيرڤاش»». –«لست أفهم ما تعنيه»، تقول الأميرة مغمغمة باللهجة التي لعلها كانت قالت بها ملاطفة: «أليس أنّه يزعجنا؟» –«ولكن، «فيرڤاش» أيتها الأميرة تعني المياه الساخنة، ‹fervida aqua›[2]... وأردف «بريشو» يقول: «نسيت بخصوص عازف الكمان الشاب أن أنقل إليك الخبر الهامّ يا «كوتار»؛ فهل جاءك أن صديقنا المسكين «دوشامبر»، عازف البيانو السابق المفضل لدى السيّدة «ڤيردوران» قد قضى نحبه منذ فترة وجيزة؟ إنّه لأمر مخيف». فأجاب «كوتار»: «كان بعد فتيّا، ولكن لابد أنّه كان يعاني من كبده، ولابدّ أن ثمة أمراً غير حميد في هذا الجانب، فقد كان وجهه متعباً منذ بعض الوقت». وقال «بريشو»: «لكنه لم يكن فتياً إلى هذا الحدّ، فمنذ أن كان «ايلستير» و«سوان» يرتادان منزل السيّدة «ڤيردوران» كان «دوشامبر» ذائع الصيت في باريس، وأروع الأمر أن شهادة نجاحه لم تأته من البلاد الأجنبيّة. آه! ما كان صاحبنا من أتباع الانجيل بحسب القدّيس «بارنوم»[3]. –«أنت تخلط، فما كان بوسعه الذهاب إلى منزل السيّدة «ڤيردوران» في تلك الفترة، إذ كان بعد في الحضانة». –«ولكنما يبدو لي، ما لم تخنّي ذاكرتي العتيقة، أن «دوشامبر» كان يعزف «سوناتا» ڤانتوي لـ«سوان» حين كان هذا المنتدى الذي تعوزه الارستقراطية يكاد لا يرتاب بأنّه سيضحي ذات يوم الزوج المُبَرْجَز لأميرتنا الوطنية «أوديت»». –«مستحيل، فسوناتا «ڤانتوي» عزفت في منزل السيّدة «ڤيردوران» بعد فترة طويلة من الوقت الذي لم يعد «سوان» يرتاد فيه منزلها»، يقول الدكتور، وأمره أمر من يعملون كثيراً ويظنّون أنهمّ لابدّ يحفظون الكثير من الأشياء التي يتخيّلون أنها مفيدة فينسون الكثير غيرها، وذلك ما يسمح لهم بالافتتان إزاء ذاكرة أناس ليس لديهم ما يفعلونه. وأردف الدكتور مبتسماً: «أنت تسيء إلى معلوماتك مع أنّك لم تبلغ مرحلة الخرف». وأقرّ «بريشو» بغلطته. توقف

(١) الأميرة تلفظ «الراء» أقرب إلى «اللام».
(٢) وردت باللاتينيّة فى متن النص.
(٣) مهرج اميركى مدير سيرك كتب سيرة حياته وكتابا آخر عنوانه: «كيف تكسب الملايين»؛ والمقصود واضح.

القطار، وكانت محطة «لاسونيي»، وشغل الاسم بالي فقلت لـ«كوتار»: «كم وددت أن أعلم ماذا تعنيه كلّ هذه الأسماء». ـ«ولكن، هيّا اسأل السيّد «بريشو» فربمّا عرف ذلك». «لاسونيي تعني اللقلق وهي «سيكونيا» (Sicinia) اللاتينية»، يجيب «بريشو» الذي كنت أتحرّق لسؤاله عن اسماء أخرى كثيرة.

بادرت السيّدة «شيرباتوف»، وقد فاتها أنهّا تحرص على «ركنها الخاصّ»، فعرضت عليّ بلطف مبادلتي مكاني كي يمكنني التحدّث بصورة أفضل إلى «بريشو» الذي كنت أودّ سؤاله اشتقاقات أخرى تثير اهتمامي، وأكدّت أنها لا تعير اهتماماً للسفر إلي الأمام أو الخلف أو وقوفاً، الخ.. كانت تقف موقف الدفاع مادامت تجهل مقاصد الوافدين الجدد، لكنّها كانت تحاول، ما إن تكون عرفت أنها لطيفة،تحاول بجميع السبل إدخال السرور على قلب كلّ منهم. وأخيراً توقّف القطار في محطّة «دوڤيل–فيتيرن» التي تقع على مسافة تقرب أن تكون متساوية بين قرية «فيتيرن» وقرية «دوڤيل» فحملت لهذه الخاصيّة اسميهما. وصاح الدكتور «كوتار» حينما وصلنا أمام الحاجز حيث تؤخذ البطاقات متظاهراً بالتنبّه للأمر آنذاك فقط: «يا عجبي! لا أستطيع العثور على بطاقتي ولابّد أضعتها». لكنّ المستخدم أكدّ وهو يرفع قبعته أنّ الأمر لا أهمية له وابتسم باحترام. أمّا الأميرة فقد اصطحبتني إلى جانب «بريشو» في إحدى» العربتين (وهي تزوّد الحوذي بتعليمات كما ربّما كانت فعلت إحدى وصيفات السيّدة «ڤيردوران» التي لم تستطع بسبب أسرة «كامبرمير» المجيء إلى المحطّة، وقليلاً ما تفعل على أيّة حال). واستقل العربة الأخرى الدكتور و«سانييت» و«سكي».

كان الحوذي على صغر سنّه أول حوذي لدى آل«ڤيردوران» والوحيد الذي كان حقاً حوذياً رسمياً. فقد كان ينقلهم نهاراً في سائر نزهاتهم، إذ هو يعرف الدروب جميعها وفي المساء يمضي فيجيء بالخلّص ويعيدهم فيما بعد . كان يرافقه يوم تدعو الحاجة إضافيّون (يختارهم). كان فتًى طيّباً قنوعاً ماهراً ولكنّ له واحداً من تلك الوجوه الكئيبة التي تعني النظرة المفرطة في ثباتها أن المرء يقلق لأقل الأمور، بل تراه نهب الأفكار السوداء. لكنه كان شديد السعادة في هذه اللحظة لأنه أفلح في توظيف شقيقه، وهو من طينة رجال رائعة أخرى، في منزل آل«ڤيردوران». واجتزنا بادئ الأمر «دوڤيل»، وفيها حدبات معشوشبة تنحدر مجموعات واسعة حتّى البحر يكسبها إشباع الرطوبة والملح كثافة ونعومة وحيويّة في الألوان عظيمة. كانت جزيرات «ريڤيبل» وتقاطيعها وهي هنا أكثر قرباً منها في «بالبيك» تكسب هذا الجزء من البحر المظهر الجديد بالنسبة إليّ لمستو مجسّم. ومررنا أمام شاليهات صغيرة أجرّت جميعها تقريباً لرسّامين وسلكنا درباً سدّت علينا الطريق فيه أبقار طليقة أصابها ما أصاب جيادنا من ذعر على مدى عشر دقائق سلكنا بعدها طريق الشاطىء. وسأل «بريشو» فجأة قائلاً: «سألتكم بالآلهة الخالدين أنْ دعونا نعود إلى ذلك المسكين «دوشامبر»؛ أتظنون السيّدة «فيدوران» على اطلاع؟ وهل قيل لها؟» فالسيدة «ڤيردوران» كحال بني المجتمعات الراقية جميعاً على وجه التقريب، ولأنها بالضبط كانت بحاجة إلى مخالطة الآخرين، ما كانت تفكر يوماً واحداً من بعد فيهم بعدما لا يسعهم، وقد طواهم الموت، المجيء إلى أيّام الأربعاء أو السبت أو العشاء بمباذلهم. وما كان باستطاعتك أن تقول عن العشيرة الصغيرة، وهي في ذلك صورة عن سائر المنتديات، إنهّا تتألّف من عدد من الأموات يفوق عدد الأحياء إذ يضحي الأمر ما إن يموت المرء وكأنّما لم يكن في يوم. لكن السيّد «ڤيردوران»، تجنّباً للازعاج الناجم عن

التحدّث عن المتوفّين، بل عن تعليق حفلات العشاء، وهو أمر لا تطيقه «المعلّمة»، من جرّاء حداد، كان يتظاهر بأن موت الخلّص يؤثر في زوجته إلى حدّ ينبغي معه الاقلاع عن التحدث عنهم في سبيل صحّتها.

ولأن موت الآخرين ربمّا كان يبدو له بالضبط حادثاً نهائياً وعادياً إلى أبعد حدّ فإن فكرة موته هو كانت ترعبه فيتجنّب أيّة ملاحظة يمكن أن تتعلّق به. أمّا «بريشو» فإذ كان طيّب القلب إلى أبعد الحدود وقد خدعه تماماً ما كان يقوله السيّد «ڤيردوران» عن زوجته، فقد كان يخشى على صديقته من الانفعالات الناجمة عن غمّ كهذا، وقالت الأميرة: «أجل إنّها تعرف كلّ شيء منذ هذا الصباح ولم نستطع إخفاء الأمر عنها». وصاح «بريشو» قائلاً: «آه! يا ألف صاعقة للإله «زيوس»! لابدّ أنهّا كانت ضربة رهيبة، هذا الصديق منذ خمسة وعشرين عاماً! ذلكم واحد كان من جماعتنا!» وقال «كوتار»: «بالطبع، بالطبع، وما بيدنا نحن، إنهّا مناسبات تشق عليك دوماً، ولكن السيّدة «ڤيردوران» امرأة قوية، إنهّا امرأة عقل أكثر منها انفعالية». -«لست أرى تماماً رأى الدكتور»، تقول الأميرة التي يكسبها كلامها السريع ونبرتها المهموسة بالتأكيد هيئة المستاءة النبيهة في آن واحد. «إن السيّدة «ڤيردوران» تخفي كنوزاً من الحساسية خلف مظهر البرودة لديها. لقد قال لي السيد «ڤيردوران» إنّه صادف عنتاً كبيراً في الحيلولة دون ذهابها إلى باريس لحضور المأتم، فقد اضطرّ أن يوهمها بأن كلّ شيء سيجري في الريف». -«هكذا إذن! كانت تبغي الذهاب إلى باريس. ولكني أعلم تماماً أنها حسّاسة، بل ربما مفرطة الحساسية. مسكين «دوشامبر»! وكما كانت تقول السيّدة «ڤيردوران» منذ أقل من شهرين: «پلانتيه»، «پاديريڤسكي» وحتّى «ريسلر»، ليس ثمة في مواجهته ما يوازيه». آه! لقد وسعه أن يقول بالضبط أكثر من ذاك المزهوّ «نيرون» الذي استطاع تضليل العلوم الألمانية نفسها: أيّ مبدع يموت بموتي[1]! لكنّه هو، «دوشامبر»، لابدّ مات وقد أنجز كهنوته في جوّ من ورع موسيقي «بيتهوڤن»، وقضى بشجاعة، لا ريب في ذلك ولعلّ كاهن الموسيقى الألمانيّة هذا كان يستحقّ بالعدل والانصاف أن يقضي وهو يحتفل بـ«القدّاس الذي من مقام ريه»[2]. بيد أنّه كان مع ذلك من صنف رجال يستقبلون الموت بالزغردة إذ كان هذا العازف العبقريّ يجد في أسلافه هو «الشامبانيّ» الذي لبس لبوس الباريسيّين صنوفاً من الجسارة والأناقة تَسِمُ الحرس الفرنسيّ».

لم يعد البحر يتبدّى من المرتفع الذي كنّا نقف فوقه، كما هي حاله من «بالبيك»، شبيهاً بتموّجات جبال متدافعة، بل على العكس مثلما تبدو من قمّة أو من طريق يلفّ حول الجبل جليديّة ضاربة إلى الزرقة أو سهل يخطف الأبصار، والكلّ واقع على ارتفاع أقلّ. كان يبدو تقطع المياه المضطربه وكأنّما جمّد وخطّ نهائياً دوائره المتراكزة. حتّى ميناً البحر الذي كان يبدّل من لونه لا شعوريّا كان يتّخذ في أقصى الخليج حيث ينشق مصبّ البياض الأزرق الحليبيّ الذي بدت فيه عالقة كما الذباب معدّيات صغيرة سوداء لا تتحرّك إلى الأمام. لم يكن يبدو لي أنّه يمكن من أي مكان اكتشاف لوحة أكثر اتّساعاً. بيد أن قسماً جديداً كان ينضاف في كل منعطف، وحينما بلغنا «مركز الميرة» في «دوڤيل» تراجع أنف الجرف الذي حجب عنّا حتّى ذاك نصف الخليج الصغير وأبصرت فجأة على يساري خليجاً بمثل عمق ذاك الذي كنت أراه حتّى ذاك أمامي ولكنّه كان

(١) العبارة المنسوبة إلى «نيرون» لدى وفاته : Qualis artifex pereol
(٢) لـ«بيتهوڤن» واسمه الآخر «القدّاس الاحتفاليّ».

يبدّل في أبعاده ويضاعف من جماله. والهواء في هذه النقطة الشديدة الارتفاع أخذ يتّسم بنشاط ونقاء أنتشي بهما. لقد أخذت أحبّ آل «ڤيردوران». وأن يكونوا بعثوا إلينا بعربة كان يبدو لي متّسما بطيبة مؤثرة، ووددت لو أعانق الأمير، وقلت لها إني لم يسبق لي أن رأيت ما كان بمثل هذا الجمال. وصرّحت بأنّها تحبّ أيضاً هذه المنطقة أكثر من أيّة منطقة أخرى. لكنّما كان يداخلني إحساس بأن المسألة الهامّة في نظرها ونظر آل «ڤيردوران» على السواء لا تكمن في تأمّلها تأمّل السائحين، بل في تناول وجبات طيّبة وأن يستقبلوا فيها مجتمعاً يروقهم ويكتبوا رسائل فيها ويقرأوا ويعيشوا فيها باختصار القول، فكانوا يدعون لجمالها أن يغمرهم دونما تدخّل من قبلهم أكثر من أن يجعلوا منه موضع اهتمامهم.

وإذ توقّفت العربة حيناً على ارتفاع كبير فوق البحر إلى حدّ أن منظر الهاوية الضاربة إلى الزرقة كاد، كأنّما من فوق إحدى القمم، يخلّف الدوار فتحت زجاج «مركز الميرة». كانت الضجّة الواضحة التي توافيك من كلّ موجة تتكسّر تملك في عذوبتها ووضوحها طابعاً رائعاً. أفلم تكن مؤشّر قياس يرينا، وقد قلب انطباعاتنا المعتادة أن المسافات العمودية يمكن مماثلتها بالمسافات الأفقية، بعكس التصور الذي يكوّنه فكرنا عنها عادة، وأنها، إذ تقرّب السماء منّا، ليست كبيرة، بل هي أقلّ اتّساعاً بالنسبة إلى صوت يجتازها كما كان يفعل دويّ هذه الأمواج الصغيرة بما أن الوسط الذي يقع عليها اجتيازه أكثر نقاء؟ فانّنا بالفعل إن تراجعنا مترين فحسب خلف «مركز الميرة» ما عدنا نميّز صوت الأمواج الذي لم تفقده مئتا متر من الجرف وضوحه الرقيق الدقيق العذب. كنت أقول في نفسي إن جدّتي ربما كانت أحسّت تجاهه بذاك الإعجاب الذي تبعثه في نفسها تجلّيات الطبيعة أو الفنّ التي نقرأ في بساطتها العظمة والجلال، كانت حماستي قد بلغت الأوج فترفع كلّ ما يحيط بي. وكنت متأثراً من أن تكون أسرة «ڤيردوران» كلفت من يصطحبنا من المحطة. وأعربت للأميرة عن الأمر فبدا أنّها ترى منّي مغالاة كبيرة إزاء مجاملة بسيطة إلى هذا الحدّ. وإني أعرف أنّها أقرّت فيما بعد لـ«كوتار» أنها تجدني شديد الحماسة، فأجاب أني أفرط في انفعالاتي وأني ربما كنت بحاجة إلى مهدئات وإلى القيام بنزهات. كنت ألفت الأميرة إلى كلّ شجرة وكلّ منزل صغير يتهاوى تحت وروده، واستثير إعجابها بكلّ شيء، بل وددت لو أضمّها هي إلى صدري وقالت لي إنّها على بيّنة من موهبتي للرسم بالزيت وإنّه يجدر بي أن أرسم وإنّها فوجئت أن لم يعرب لي أحد عن ذلك بعد. وأقرّت بأن المنطقة رائعة فعلاً. واجتزنا قرية «أنغليسكيڤيل» الصغيرة («انغلبيرتي ڤيلا»، حسبما قال لنا «بريشو») الجاثمة فوق الرابية. «ولكن هل أنت متيقّنة تماماً من أن عشاء هذه الليلة قائم أيتها الأميرة على الرغم من وفاة «دوشامبر»؟» يضيف قوله دون أن يفكّر في أن حضور العربات التي كنّا نستقلّها إلى المحطّة إنّما كان جواباً. فقالت الأميرة: «أجل، فقد حرص السيّد «فيلدولا» على أن لا يؤجّل كي يحول بالضبط دون «تفكّر» زوجته. ثمّ إن هذا التغيير في عاداتها، بعد هذه السنوات الكثيرة التي لم يفتها فيها أن تستقبل يوم أربعاء، كان يمكن أن يؤثّر فيها. فإنّها عصبيّة جداً في هذه الآونة». «لقد كان السيّد «ڤيردوران» سعيداً بوجه الخصوص أنْ جئتَ للعشاء هذا المساء إذ يعلم أن الأمر سيكون سلوة كبيرة للسيّدة «ڤيردوران»، تقول الأميرة، متناسية ماتصنّعت من أنّها لم تسمع من يتحدّث عنّي» وأضافت الأميرة قولها: «أظنّ أنّه يحسن بك أن لاتجيء على ذكر شيء في حضرة الأميرة». فأجاب «بريشو» بسذاجة: «حسنا تفعلين بقولك ذلك، وسأنقل التوصية لـ«كوتار». توقّفت العربة لحظة، وعاودت سيرها ولكنّ

الضجّة المنبعثة من العجلات في القرية انقطعت. وكنّا دخلنا في ممرّ الشرف في «لاراسپلييز» حيث كان السيّد «ڤيردوران» ينتظرنا على الدرج الخارجي، فقال: «حسناً فعلت أن ارتديت «السموكن»، وقد لاحظ باغتباط أنّ الخلّص يرتدون «السموكن» أيضاً، «بما أنّ لديّ رجالاً أنيقين إلى هذا الحدّ». وإذ أخذت اعتذر عن سترتي: «هيّا، إنّها تمام التمام. فهما أعشية بين رفاق. كنت عرضت عليك أن أعيرك إحدى بزّاتي السموكن ولكنّها لن تناسبك». أمّا المصافحة التي تنضح تأثّراً والتي خصّ بها «بريشو» ربّ البيت، وهو يدخل ردهة «لاراسپلييز» وكنوع من التعازي بموت عازف البيانو، فلم تثر أيّ تعليق من جانب هذا الأخير. وأعربت له عن إعجابي بهذه المنطقة. «آه! نعم الأمر، وأنت لم تشاهد شيئاً، وسوف نريك إيّاها. فلم لاتجيء للسكنى بضعة أسابيع هنا؟ إن الهواء رائع». وخشي «بريشو» أن لا تكون مصافحته أدركت فقال، ولكن بصوت خفيض مخافة أن تكون السيّدة «ڤيردوران» غير بعيدة: «يا له، هذا المسكين «دوشامبر»!» وأجاب السيّد «ڤيردوران» بلهجة مرحة: «أمر فظيع». فأردف «بريشو» قائلاً: «بشبابه هذا». فردّ السيّد «ڤيردوران» وقد أزعجه التثاقل على هذه الأمور غير المفيدة، ردّ بلهجة معجلة وأنّة أكثر من حادّة، لا من غمّ بل من نفاد صبر حانق: «أجل، أجل، ولكن ماعساك تريد، لا نستطيع في ذلك شيئاً، فلن تردّ أقوالنا الروح إليه، أليس كذلك؟» وقال السيّد «ڤيردوران» وقد عادت إليه دماثته مع نبرة المرح: «هيا، أيها الطيّب «بريشو»، ضع حاجاتك بسرعة، فإن عندنا حساء بالسمك لا يطيق انتظاراً. ولكن بحق السماء إيّاك أن تتحدّث عن «دوشامبر» للسيّدة «ڤيردوران»! فأنت تعلم أنها تخفي إلى حدّ بعيد ما تحسّ به. ولكنّ بها مرض حساسيّة حقيقيّاً. لا، أقسمت لك، لقد كادت تبكي حين علمت أنّ «دوشامبر» قضى نحبه»، قال بلهجة تهكّميّة كبيرة. ولعلّه يخيّل إليك إذ تسمعه أنّه لابدّ من نوع من الجنون كيما تأسف على صديق في الثلاثين من عمره، وكنت تستشفّ من جانب آخر أن الوحدة الدائمة التي تجمع السيّد «ڤيردوران» وزوجته ما كانت تمضي من جانبه هو دون أن يبدي رأيه فيها وأن تضايقه في الغالب. «إن حدّثتها بالأمر فسيوافيها المرض مرّة أخرى. وذلك مؤسف بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على ما أصابها من التهاب قصبات. وفي هذه الحالة تراني أنا الممرّض، وإنّك تدرك أني فعلت من فترة وجيزة. تأسّ على مصير «دوشامبر» في صميم فؤادك ما طاب لك. فكر بالأمر ولا تتحدّث عنه. كنت أحبّ «دوشامبر» بالتأكيد، ولكنك لا تستطيع ملامتي أن أحبّ زوجتي أكثر منه. دونك، هذا «كوتار»، وبوسعك أن تسائله». وكان يعلم بالفعل أن طبيب الأسرة يستطيع تأدية الكثير من الخدمات الصغيرة، كأن يصف لك مثلاً ضرورة أن لا تغتمّ.

وكان «كوتار» رجل الطاعة قد قال «للمعلّمة»: « هيّا، لتضطرب نفسك على هذا النحو فاذا بك تهيّئين لي ترفعاً حروريّا يبلغ ٣٩°»، كما لعلّه كان قال للطبّاخة: «هيّئي لي للغد طبقاً من لوز العجل»، فالطبّ، إن هو لم يشف، يهتّم بتغيير معاني الأفعال والضمائر.

أحسّ «السيّد «ڤيردوران» بالسعادة إذ لاحظ أنّ «سانييت» لم يهجر النواة الصغيرة على الرغم من صنوف الجفاء التي أصابها أوّل البارحة. ذلك أنّ السيّدة «ڤيردوران» وزوجها كانا قد اكتسبا في البطالة غرائز قاسية لم تعد المناسبات الكبرى، وهي نادرة، كافية لها. لقد أمكنهما فعلاً إفساد العلاقة بين «أوديت»

و«سوان»، وبين «بريشو» وعشيقته. ولعلّهما يعيدان الكرّة مع آخرين، ذلك أمر مفروغ منه. ولكنّ المناسبة ما كانت تسنح كلّ يوم، فيما يوّفر لهم «سانيت»، بفضل حساسيته المرهفة وخجله المتهيّب السريع الاضطراب، كبش محرقة يومياً. لذلك كانا يحرصان، مخافة هجرانه، على دعوته بكلمات ودودة مقنعة كتلك التي تحضر قدماء المدرسة التجهيزيّة ومتقدّمي الكتيبة لغرّ يريدون ملاطفته ليمكنهم وضع اليد عليه لمجرّد مداعبته آنذاك ولإساءة معاملته حين لا يستطيع الإفلات من بعد. وذكّر «كوتار»، وما كان سمع السيّد «فيردوران»، ذكّر «بريشو» قائلاً: «الصمت، الصمت بوجه الخصوص في حضرة السيّدة «فيردوران»». –«لا تخش يا «كوتار» فالأمر بين يدي حكيم، كما يقول «ثيوكريت». وأضاف قوله: «والسيّد «فيردوران على حقّ في جميع الأحوال، فما عسى أن تفيد شكاوانا؟» ذلك أنّه كان قادراً على تمثّل صيغ فعليّة معيّنة والأفكار التي تبعثها في نفسها ولكنّه إذ لم يكن يملك الحسّ المرهف فقد أعجبه في أقوال السيّد «فيردوران» نزعة التجلّد الأكثر شجاعة. –«مهما يكن من أمر فإن موهبة عظيمة صارت إلى زوال». –«عجباً، لازلتم تتحدّثون عن «دوشامبر»؟ «يقول السيّد «فيرودران» وكان سبقنا فعاد أدراجه إذ رأى أننا لا نلحق به، قال لـ«بريشو»: «اسمع، يجب تحاشي الغلوّ في أيّ أمر. فليس من سبب إذ هو مات أن نجعل منه عبقريًا لم يكنه. كان يعزف عزفاً لا غبار عليه، ذلك مفروغ منه، وكان على وجه الخصوص محوّطاً على أحسن حال هنا. فإن رحَل لم يعد له وجود. لقد شغفت به زوجتي فصنعت شهرته، وتعرف ما فُطرت عليه. بل أزيد فأقول إنّه في صالح شهرته ذاتها مات في الوقت المناسب، في الوقت المحدّد كما هو شأن جراد البحر المشويّ حسب تعليمات «بامبيي»[1] التي لا مثيل لها، هذا أملي (ما لم تستمرّ أبد الدهر في مراثيك في هذه القصبة المعرّضة لرياح الأرض جميعها). لست تقصد مع ذلك أن نهلك جميعنا لأن «دوشامبر» قضى نحبه وحينما كان يضطرّ منذ عام أن يعزف عدداً من السلالم قبل مباشرة حفلته الموسيقيّة كي يستعيد وقتيًا، وقتيًا ليس إلاّ، رشاقته. وسوف تسمع هذا المساء على أيّ حال، أو تلتقي على الأقلّ، لأن هذا النابح كثيراً ما يهجر بعد العشاء الفنّ للعب الورق، من كان فناناً من غير طراز «دوشامبر»، فتى اكتشفته زوجتي (كما سبق أن اكتشفت «دوشامبر» و«يادرفسكي» والباقين): إنّه «موريل». لم يصل ذاك اللعين بعد. سأضطرّ إلى إرسال عربة إلى القطار الأخير. إنّه آتٍ بصحبة صديق قديم لعائلته عاد فالتقاه وهو يبعث في نفسه أشدّ السأم ولكنّما يقال إنّه كان اضطرّ لولا ذاك أن يبقى معه، تجنّبا لشكاوى والده، في «دونسيير» ليؤانسه في مجلسه: إنّه البارون «دوشارلوس». ودخل الخلص. أمّا السيّد «فيردوران» الذي بقي في المؤخّرة وأنا أنزع أغراضي فقد أمسك بذراعي ممازحاً مثلما يفعل ربّ البيت حين لا يتوافر له العشاء مدعوّة يقدمّها لك لاصطحابها. «هل قمت برحلة مريحة؟» فقلت، وأنا أفكّر بالاشتقاقات ولأني سمعت من يقول إن آل«فيردوران» كانوا يمحضون «بريشو» إعجابا كبيراً: «أجل، لقد علّمني السيّد «بريشو» أموراً استهوتني كثيراً». فقال لي السيّد «فيردوران»: «لعلّني كنت عجبت أن لم يعلّمك شيئا، فإنه رجل شديد الاتّضاع قليل الحديث عن الأمور التي يعرفها». ولم يبد لي هذا المديح منصفاً جدّا، فقلت: «إنّه يبدو ظريفاً». فأجاب السيّد «فيردوران»: «رائع، لذيذ، ليس فيه ظلّ حماقة، غريب الأطوار خفيف

(١) الاسم المستعار الذي كانت توقّع به السيّدة «ليون دوديه» مقالاتها في باب الأزياء والطبخ، و«ليون دوديه» هو مدير صحيفة «العمل الفرنسي».

الظلّ تعبده زوجتي وأنا كذلك»، أجاب بلهجة تعمرها المغالاة كمن يتلو درسه. حينذاك فقط أدركت أنّ ما قاله عن «بريشو» كان من باب التهكّم. وتساءلت إن كان السيّد «فيردوران» لم يزح عنه نير وصاية زوجته منذ الزمن الذي سمعتهم يتحدّثون عن ذلك.

وعجب النحّات أشدّ العجب أنْ علم أن أسرة «فيردوران» كانت ترتضي استقبال السيّد «دوشارلوس». ففي حين كانوا في حيّ «سان جيرمان» حيث كان السيّد «دوشارلوس» معروفاً على نطاق واسع لا يأتون البتّة على ذكر أخلاقه (ويجهلها السواد الأعظم وهي موضع شكّ بالنسبة إلى آخرين يظنّون الأمر بالأحرى صداقات لاهبة، ولكنّها أفلاطونية، وصنوفاً من قلّة الحذر، فيما يتستّر عليها بعناية المطّلعون على الأمور فيرتفعون بمناكبهم إن جازفت هذه الـ«غالاردون» السيّئة المقاصد أو تلك بتلميح ما)، تلك الأخلاق التي يكاد لا يعرفها إلا بعض الآلاف كانت على العكس موضع مذمّة يوميّة بعيداً عن الوسط الفني الذي يعيش فيه، شأن بعض ضربات المدفع التي لا تسمعها إلاّ بعد تداخل مع منطقة ساكنة. وفي تلك الأوساط البورجوازيّة والفنيّة التي كان يُعدّ فيها التجسيد الحيّ للشذوذ كانت مكانته الاجتماعية الرفيعة ونبل محتده مجهولين على أيّة حال جهلاً تامّاً من جرّاء ظاهرة شبيهة بتلك التي تجعل اسم «رونسار» لدى الشعب الروماني معروفاً على أنّه اسم سيّد عظيم فيما آثاره الشعريّة مجهولة هناك. وأكثر من ذلك أن نبالة «رونسار» قائمة في رومانية على خطأ. كذلك إن كان للسيّد «دوشارلوس» في عالم الرسّامين والممثّلين سمعة سيّئة إلى هذا الحدّ فمردّ ذلك إلى أنهم كانوا يخلطون بينه وبين «كونت» اسمه «لوبلوا دوشارلوس» لم يكن يمتّ إليه بأيّة صلة قربى أو هي بعيدة جدّاً، وسبق أن أُلقي القبض عليه ربّما خطأً في واحدة من مداهمات الشرطة ظلّت مشهور. وخلاصة القول أن القصص التي كانت تروى عن السيّد «دوشارلوس» كانت تنطبق جميعها على المزيّف. كان الكثيرون من المحترفين يقسمون أنّهم ارتبطو بعلاقات مع السيّد «دوشارلوس» وكانوا صادقين إذ يظنّون «شارلوس» الزائف هو الحقيقي، وربّما سهّل الزائف التباساً نصفه تباه بالنبالة والنصف الآخر طمس للمنكر، والالتباس ظلّ فترة طويلة بالنسبة إلى الحقيقة (البارون الذي نعرفه) مصدر ضرر ثم أصبح فيما بعد، حين انزلق وفق ميوله، مصدر راحة إذ امكنّه أن يقول بدوره: «لست أنا». والآن ما كانوا بالفعل يتحدثون عنه. ثمّ إن ما كان يزيد من زيف التعليقات على واقعة حقيقيّة (هي ميول البارون) أنّه سبق أن كان الصديق الحميم والطاهر إلى أبعد حدّ لمؤلّف كانت له في عالم المسارح، دونما سبب معروف، تلك السمعة وماكان يستحقّها البتّة، فحينما كانوا يشاهدونهما معاً في واحد من العروض الأولى كانوا يقولون: «أنت تعلم»، مثلما يظنّون أن الدوقة «دوغيرمانت» تقيم علاقات لا أخلاقيّة مع الأميرة «دوبارما» والأسطورة عسيرة الزوال لأنّها ما كانت لتتلاشى إلاّ باقتراب من هاتين السيّدتين العظيمتين لن يصل إليه على الأرجح في يوم الناس الذين كانوا يردّدونها إلاّ باستكشافهما بالمنظار في المسرح والافتراء عليهما لدى شاغل المقعد المجاور. وكان النحّات يبدي رأيه في أخلاق السيّد «دوشارلوس» بتردّد يتناقص حجما بقدر السوء الذي لابدّ كان عليه وضع البارون في المجتمع الراقي وبمقدار ما لا يملك أيّ نوع من المعلومات حول الأسرة التي ينتمي إليها السيّد «دوشارلوس» وحول لقبه واسمه. ومثلما كان يعتقد «كوتار» أنّ الجميع يعرفون أن لقب دكتور في الطبّ لا يعني شيئاً ولقب طبيب داخلي في المشافي يعني شيئاً ما، يخطئ أرباب المجتمع الراقي إذ يتخيلون أن الجميع

يملكون الأفكار نفسها التي يملكونها هم والذين من وسطهم حول أهميّة اسمهم الاجتماعية.

كان أمير «أغريجانت» غريباً مشبوه الثروة في نظر خادم ندوة يدين لها بخمسة وعشرين فرنكا ذهباً ولا يستعيد أهميّته إلاّ في حي «سان جيرمان» حيث يتوافر له ثلاث شقيقات دوقات لأن السيّد العظيم إنّما يخلّف بعض الأثر لا في نفوس الناس المتواضعين الذين يبدو قليل القدر في نظرهم، بل في نفوس اللامعين الذين يحيطون بالحال التي هو فيها. وكان سيتاح للسيّد «دوشارلوس» على أيّة حال أن يتبيّن منذ المساء نفسه أنّ ربّ المنزل كانت معلوماته حول أشهر الأسر الدوقيّة تفتقر إلى العمق. وظنّ النحّات من واجبه، وقد أيقن أن آل«ڤيردوران» سيقعون في خطأ سببه الجهل إذ يفسحون لرجل فاسد أن يدخل منتداهم المصطفى إلى أبعد حدّ، أن ينتحي بالمعلّمة جانباً. فأجابت السيّدة «ڤيردوران»: «إنّك على ضلال مبين، وأنا بأيّة حال لا أصدّق البتّة مثل هذه الأمور وسأقول لك، بافتراض أنّها صحيحة، إنّها لن تعرّضني كثيراً للشبهات فيما يخصّني»، أجابت وبها حنق لأنّها كانت تحرص قبل كلّ شيء، إذ يمثّل «موريل» العنصر الرئيسيّ في أيّام أربعائها، على أن لا تثير استياءه. أمّا «كوتار» فلم يتمكّن من ابداء رأيه إذ كان طلب الصعود برهة «القيام بمسعى صغير» في «بيت الخلاء» ولكتابة رساله عاجلة جداً بعد ذلك لأحد المرضى في غرفة السيّد «ڤيردوران».

وقفل ناشر كبير باريس جاء في زيارة وظن أنهّم سيستبقونه، قفل راجعاً بحركة عنيفة سريعة وقد أدرك أنّه لم يكن على أناقة كافية بالنسبة إلى العشيرة الصغيرة. كان رجلاً مديد القامة قوياً شديد السّمرة مجدّاً وبه ما يشبه الحدّ القاطع. كان يبدو كأنه قاطعة ورق من خشب الأبنوس.

كانت السيّدة «ڤيردورن» قد وقفت هنيهة من لعبة تُنازل فيها صديقاً وذلك كيما تستقبلنا في صالتها الفسيحة حيث تتناوب طاقات من النجيليات والخشخاش وزهر الحقول قطفت في ذات اليوم والموضوع نفسه الذي رسمه بلون متدرّج فنّان رائع الذوق قبل قرنين، واستأذنتنا إنهاءها بدقيقتين فيما توالي الحديث معنا. ولم يرقْ لها ما نقلت من انطباعاتي إلاّ جزئيًا بأيّة حال. فقد صدمني باديء الأمر أن ألاحظ أنّها وزوجها كانا يعودان أدراجهما فترة طويلة قبل ساعات المغيب التي تعتبر عظيمة الجمال إمّا شوهدت من ذلك الجرف، وأكثر من ذلك من سطح «لاراسپلييز»، وكنت قطعت أميالاً في سبيلها. وقالت السيدة «ڤيردوران» بدون تروّ وهي تلقي نظرة على النوافذ الفسيحة التي تبدو كأنّها باب مزجّج: «أجل، لا مثيل لذلك، وعبثاً نشاهده في كلّ يوم فإنّنا لا نملّه»، ثمّ عادت بعينيها إلى ورق اللعب. على أن اندفاعي نفسه كان يجعل منّي شخصاً متطلباً. فأخذت أشكو من أنني لا أشاهد من الصالة صخور «درانتال» التي سبق أن قال لي «ايلستير» إنّها بديعة في هذا الوقت الذي تعكس فيه الكثير الكثير من الألوان، «آه! لا يسعك مشاهدتها من هنا ولابدّ من الذهاب إلى أقصى المنتزه، في موقع «منظر الخليج»، فمن الموقع الظاهر هناك تحيط بالمشهد بكامله. ولكنّك لا تستطيع الذهاب إلى هناك فقد تضلّ الطريق». وأضافت تقول بلهجة فاترة: «سأصحبك إلى هناك إن شئت». ـ«كلاّ، ويحك، ألا تكفيك الأوجاع التي انتابتك ذلك اليوم فتريدين أخرى جديدة؟ سوف يعود ويشاهد منظر الخليج في مرّة ثانية». ولم ألحّ وأدركت أنّه يكفي آل«ڤيردوران» أن يعلموا أن تلك الشمس الغاربة كانت حتّى داخل صالتهم وقاعة طعامهم بمثابة لوحة رائعة وميناء يابانية ثمينة تبرّر الثمن المرتفع الذي يؤجّرون به «لاراسپلييز»

مفروشة بالكامل ولكنّهم نادراً ما يرفعون الأنظار إليها. فإن الشأن العظيم هنا هو العيش والاستمتاع والذهاب في نزهات والطعام الجيّد والحديث واستقبال أصدقاء ممتعين يحملونهم على لعب أدوار مسلّية من البلياردو ووجبات طيبة وعصرونيّات مرحة. ولكنّي تبيّنت فيما بعد بأيّ ذكاء سعوا إلى تعرّف المنطقة إذ يحملون ضيوفهم على القيام بنزهات «مبتكرة» كالموسيقى التي يسمعونهم إيّاها. لقد كان الدور الذي تلعبه الأزهار في «لاراسپلیير» والدروب على امتداد البحر والبيوت القديمة والكنائس المجهولة في حياة السيّد «فيردوران» كبيراً إلى حدّ كاد لا يسع الذين ما كانوا يلتقونه إلاّ في باريس وكانوا فيما يخصّهم يستبدلون بالحياة على شاطئ البحر وفي الأرياف من بذخ المدنية أن يدركوا معه الفكرة التي يحملها عن حياته ذاتها والأهميّة التي تضفيها مسرّاته عليه في نظره هو. وتتزايد هذه الأهميّة من جرّاء أن آل«فيردودران» كانوا على يقين من أن «لاراسپلیير» التي يعتزمون شراءها عقار فريد في العالم. وقد برّر هذا التفوّق الذي يعزوه اعتزازهم بذاتهم إلى «لاراسپلیير»، برّر في نظرهم حماستي التي ربّما كانت أزعجتهم لولا ذاك بعض الشيء بسبب خيبات الأمل التي تتضمّنها (كتلك التي سبّبها لي فيما مضى سماعي لـ«لابيرما») والتي كنت أكشف لهم بصدق عنها.

وهمست المعلّمة فجأة تقول: «ها إنّي أسمع العربة تعود وأملنا أنّها وجدتهم». لم تعد السيّدة «ڤيردوران»، ونقولها بوجيز العبارة، لم تعد حتّى فيما عدا التغيّرات التي يفرضها السنّ لا محالة تشبه ما كانت عليه في الزمن الذي كان «سوان» و«أوديت» يسمعان الجملة الصغيرة في منزلها. فلم تعد ملزمة، حتّى حينما يجري عزفها، بهيئة يضنيها الإعجاب تتّخذها فيما مضى لأن هيئتها تلك أصبحت وجهها. لقد اتّخذ جبين السيّدة «ڤيردوران»، تحت تأثير الآلام العصبيّة التي تسبّبها له موسيقى «باخ» و«ڤاغنر» و«ڤانتوي» و«دوبوسي» أبعاداً هائلة كحال الأعضاء التي تشوّهها الرثية في نهاية المطاف. كان صدغاها، ويشبهان دائرتين جميلتين ملتهبتين موجعتين بلون الحليب، وفيهما يدوّي على الدهر توافق الأنغام، تُلقيان من كل جانب خصلا فضيّة وتعلنان لحساب المعلّمة ودون أن تكون بها حاجة للكلام: «إني أعلم ما الذي ينتظرني هذا المساء». فلم تعد قسماتها تجهد في أن تصيغ على التوالي انطباعات جماليّة مفرطة القوّة إذ كانت هي ذاتها كأنّها التعبير الدائم عنها في وجه متغضّن مستكبر. كانت وقفة التسليم بالآلام الآتية على الدوام التي يوقعها الجمال بها والشجاعة التي أُبديت في ارتداء فسطان وهي لم تكد تشفى من آخر «سوناتا»، كانت تفضي بالسيّدة «ڤيردوران» إلى أن تحتفظ بوجه هادئ ينضح استخفافاً حتّى من أجل سماع الموسيقى الأكثر إيلاماً، بل هي تختبئ لابتلاع ملعقتي أسبيرين صغيرتين.

وصاح السيّد «ڤيردوران» مشروح الصدر وهو يرى الباب ينفتح في وجه «موريل» يتبعه السيّد «دوشارلوس»: «آه! أجل، ها هما». وبدا هذا الأخير، وما كان العشاء في منزل آل«ڤيردوران» يعني له البتّة ارتياد المجتمع الراقي بل التردّد على مكان مشبوه، بدا متخوّفاً كطالب بجهيز يدخل أوّل مرة المحلّ العمومي ويبدي الكثير من الاحترام لـ«لباترونه». لذلك سادت رغبة السيّد «دوشارلوس» المعتادة في أن يبدو على رجولة وفتور (حينما طلع في الباب المفتوح) أفكار التأدّب التقليديّة التي تستيقظ ما إن يقضي الخجل على موقف متصنّع ويلجأ إلى وسائل اللاوعي. فإذا فعل شعور تأدّب غريزيّ وراثيّ من هذا القبيل فعله في نفس أمثال

«شارلوس» هذا، سواء أكان نبيلاً أو بورجوازياً، فإن روحَ قريبةٍ أنثى مُعينة كإلهة أو متجسّدة شأن صنبوله هي التي تتولّى على الدوام التعريف به في صالة جديدة وقولبة موقفه إلى أن يكون وصل أمام ربّة المنزل. فهذا رسّام شاب ربّته ابنة عمّ بروتستانية قدّيسة سيدخل مائل الرأس مرتعشاً والعين عالقة بالسماء واليدان تتشبّثان بمقبض خفيّ يعين شكلُه الموحى به ووجوده الحقيقي المنقذ الفنّانَ المتهيّب على اجتياز المسافة المليئة بالهاويات الكائنة بين الردهة والصالة الصغيرة دون خوف يعتريه من الأماكن العامّة، هكذا كانت القريبة الورعة التي توجّهه اليوم ذاكراها تدخل لسنين كثيرة خلت وبهيئة المتأوّه حتّى ليتساءل المرء أية مصيبة جاءت تنقل أخبارها فإذا به يدرك منذ كلماتها الأولى، كما هو شأن الرسام الآن، أنّها جاءت في زيارة هضميّة. وبمقتضى هذا القانون نفسه الذي يقضي بأن تعمل الحياة، لصالح الفعل الذي لم يُنجَزّ بعد، على الإفادة من مواريث الماضي الأُكثر مدعاة للاحترام، والأوفر قدسيّة أحياناً والأكثر براءة مرّات فقط واستخدامها وتشويهها في حركة تعّهر مستمرّة، ومع أنّها تولّد آنذاك مظهراً مختلفاً، فقد كان ذاك الذي من بين أشقّاء السيّدة «كوتار» كان يغمّ أسرته بتصرّفاته المخنّثة وعلاقاته الاجتماعية يدخل دوماً دخول المتهلّل كما لو يعتزم أن يفاجئك بأمر أو يبشّرك بإرث وقد نوّرت وجهه سعادة لعلّ من العبث سؤاله عن سببها المرتبط بموروثه اللاواعي وجنسه المهاجر. كان يمشي على رؤوس أصابعه ويعجب دونما شك من نفسه أن لا يحمل في يده دفتر بطاقات زيارة ويمدّ يده وهو يفتح فاه على هيئة قلب كما شاهد عمّته تفعل ولاتتّجه النظرة القلقة الوحيدة لديه إلاّ إلى المرآة التي يبدو أنّه يبغي التحقّق فيها من أن قبعّته، مثلما سبق أن سألت السيّدة «كوتار» ذات يوم «سوان»، لم تكن مائلة، مع أنّه كان حاسر الرأس، أمّا السيّد «دوشارلوس» الذي كان المجتمع يزوّده في هذه الدقيقة الحرجة بأمثلة مختلفة وخطوط زخرفية أخرى للطافة وأخيراً بالحكمة القائلة بأنّه لابّد في بعض الحالات من أن نعلم، بالنسبة إلى محض بورجوازيّين صغار، كيف نصنع ونُفيد من مواطن الظرف الأكثر ندرة والتي يحتفظ عادة على سبيل الاحتياط، فقد توجّه صوب السيّدة «ڤيردوران» وهو يحرّك جسمه بلطف متكلّف وبالاتّساع نفسه الذي يوليه ويقيّد فيه لُبس التنّورة تمايلاته وبهيئة من تدغدغ مشاعره وتكرّمه إلى حدّ يخيّل إليك معه أنّ التعريف به في منزلها كان في نظره أرفع منّة تُسدى إليه. وكان وجهه نصف المائل الذي يتنازعه الارتياح والتهذيب تغضّنه تجاعيد صغيرة من اللطافة. وربّما خلتَ السيّدة «دومارصانت» تتقدّم نحوك لشدّة ما تبرز في هذه اللحظة المرأة التي جعلتها هفوة للطبيعة في جِسم السيّد «دوشارلوس». صحيح أن البارون جدّ كثيراً لطمس تلك الهفوة واتخاذ مظهر ذكوري. ولكنّه ما كاد يفلح في هذا الأمر وإذ احتفظ في الوقت نفسه بالميول نفسها، فإن عادة الشعور شعور المرأة أخذت تكسبه مظهراً أنثوياً جديداً ناجماً لا عن الوراثة بل عن الحياة الفرديّة. ولمّا أخذ يتوصّل شيئاً فشيئاً إلى التفكير حتّى في الأمور الاجتماعية بالمؤنّث، وذلك دون انتباه منه، فليس يكفّ المرء عن ملاحظة كذبه لا لفرط ما يكذب على الآخرين فحسب بل لفرط مايكذب على نفسه، ومع أنّه طالب جسده أن يُبرز بشكل جليّ (حين كان داخلاً إلى منزل آل«ڤيردوران») كامل التأدّب الذي يميّز السيّد الكبير، فإن هذا الجسد الذي أدرك تماماً ما كفّ السيّد «دوشارلوس» عن فهمه أبرز، إلى حدّ لعلّ البارون استحقّ معه صفة «مشابه السيّدة»، جميع صنوف إغراء السيّدة الكبيرة. وهل يمكننا من جانب آخر أن نفصل فصلاً تاماً بين مظهر السيّد «دوشارلوس» ومسألة أن الأبناء، وليسوا دوماً على شبه بالأب إنّما يتمّون، حتّى دون أن يكونوا شاذّين

وفي بحثهم عن النساء، يتمّون في وجههم تدنيس اسم والدتهم؟ ولكن لندع جانباً ههنا ما ربّما كان أهلاً بفصل منفرد: الأمّهات اللواتي تدنّس أسماؤهن.

ومع أنّ ثمة أسباباً أخرى توجّه هذا التحوّل الحاصل لدى السيّد «دوشارلوس» وأن خمائر ماديّة خالصة تخمرّ المادّة لديه وتنقل جسمه شيئاً فشيئاً إلى فئة الأجسام الانثويّة، فإن التحوّل الذي تشير إليه هنا كان ذا منشأ روحيّ. والمرء لفرط مايخال نفسه مريضاً يصيبه المرض ويهزل ولا يقوى من بعد على القيام ويصاب بالتهابات معويّة عصبيّة. ولفرط مايفكر المرء بالرجال تفكيراً رقيقاً يصبح امرأة ويقيّد فسطان مستعار خطاك. إن الفكرة الثابتة تستطيع أن تغيّر في تلك الأحوال الجنس (مثلما الصحّة في أحوال أخرى). وأقبل «موريل» الذي كان معه يحيّيني. وقد خلّف في نفسي منذ ذلك الوقت، بسبب تحوّل مزدوج جرى في داخله (ولم أفلح في وقت مبكّر كافٍ للأسف في أخذه في الاعتبار)، انطباعاً سيئاً. وإليك السبب. لقد قلت إنّ «موريل» الذي أفلت من عبوديّة والده، كان يستحلي بعامّة ألفه شديدة التعالي. فقد سبق أن كلّمني يوم جاءني بالصور الشمسيّة دون أن يقول لي مرّة واحدة يا سيّد وعاملني معاملة الأعلى للأدنى. وبالدهشتي في منزل السيّدة «فيردوران» إذ رأيته ينحني انحاءة عظيمة أمامي، وأمامي وحدي وسمعت منه، حتّى قبل أن يتفوّه بأيّ كلام آخر، لفظتي احترام ويفيض احتراماً يوجّهها إليّ —وكنت أظنّ من المستحيل ورود هاتين الكلمتين على شفتيه أو أن يجري بهما قلمه! وداخلني في الحال انطباع مفاده أنّ لديه أمراً يطلبه منّي. وانتحى بي بعد دقيقة ناحية وقال لي، وقد بلغ به هذه المرّة أن يكلّمني بصيغة الغائب: «سوف يؤدّي لي سيّدي خدمة كبيرة جدّاً إن أخفى تماماً عن السيّدة «فيردوران» ومدعوّيها نوع المهنة التي كان يشغلها والدي في منزل عمّها. والأفضل أن يُقال إنّه كان في عائلتكم قيّما على أملاك واسعة حتّى ليجعل منه ذلك مساوياً تقريباً لوالديك». كان مطلب «موريل» يغيظني إلى مالا حدود لا لأنّه يضطرّني إلى تضخيم وضع والده، وما كان يهمّني ذلك، بل إلى تضخيم ثروة والدي ظاهريّا على الأقلّ، وهو ما أجده مضحكاً. ولكنّ هيئته بدت تعيسة جداً ملحاحة إلى حدّ أني لم أرفض. وقال متوسّلاً: «لا، قبل العشاء، فلدى سيّدي ألف حجّة كي ينتحي بالسيّدة «فيردوران» جانباً». وذلك ما فعلت محاولاً أن أرفع ما وسعني الأمر من بريق اسم والد «موريل» دون أن أفرط في تضخيم نمط معيشة والديّ وما يملكان تحت الشمس. ومرّ ذلك مرور رسالة في البريد، على الرغم من استغراب السيّدة «فيردوران» التي سبق لها أن عرفت جدّي معرفة سطحيّة. ولمّا كانت تعوزها اللباقة وكانت تكره الأسر (هذا العنصر الحالّ للنواة الصغيرة) فقد قالت لي، بعد ما أخبرتني أنّها لمحت والد جدّي في الماضي وكلّمتني عنه وكأنّما عن رجل يكاد يكون مخبولاً ولعلّه ما كان ليفهم شيئا في المجموعة الصغيرة، و«ما كان منها»، حسب تعبيرها: «الأسر بأيّة حال باعثة على الملل وتوقنا الوحيد أن نخرج منها»؛ وروت لي في الحال عن والد جدّي سمة كنت أجهلها مع أنّي كنت ارتبت في المنزل (وما كنت عرفته ولكنّهم كثيراً ما كانوا يتحدّثون عنه) ببخل لديه نادر (يقابله كرم يتجاوز قليلاً حدّ البذخ يتّسم به شقيق جدّي صديق السيّدة ذات الأثواب الورديّة وربّ عمل والد «موريل»): «بما أن أجدادك كانوا يملكون مدير أعمال أنيقاً إلى هذا الحدّ فإنّما يعني ذلك أن ثمّة أناساً من كلّ لون في داخل الأسر. لقد كان والد جدّك بخيلاً إلى حدّ أنه، وهو يقارب الخرف في آخر العمر ‐ فما كان في يوم، والأمر بيننا، صلب العود وإنّك تفتديهم جميعاً ـ، لم يكن يقبل بانفاق ثلاثة فلوس

أجرة سيارة النقل العامّة. وهكذا اضطرّوا أن يرسلوا من يتبعه ويوهم العجوز الشحيح بأن صديقه السيّد «دوبيرسينبي» وزير الدولة قد حصل له على التنقّل مجاناً في سيّارات النقل العامّة، وإنّي بأيّة حال مسرورة جدّاً أنْ كان والد «موريل» على مثل مكانته. وكنت فهمت أنّه مدرس في المدرسة الثانويّة، وما همّ فقد كنت أخطأت الفهم. ولكنّما الأمر قليل الأهميّة لأنني سأقول لك إنّنا لا نقدر هنا إلاّ القيمة الذاتية والإسهام الشخصي وما أسمّيه المشاركة، بشرط أن يكون المرء من دنيا الفنّ، وبوجيز العبارة أن يكون من الجماعة، أما الباقي فقليل الأهميّة». والطريقة التي كان بها من المجموعة –بقدر ما وسعني أن أعلم– أنّه كان يحبّ النساء والرجال بما يكفي كي يمتّع كل جنس بوساطة ما سبق أن جرّبه على الآخر، وهذا ما سوف نراه لاحقاً. لكنّ ما كان من الجوهريّ قوله هنا أني ما إن أعطيته عهداً بالتدخّل لدى السيّدة «ڤيردوران»، وما إن فعلت ذلك على وجه الخصوص ودون تراجع ممكن حتّى تبخّر «احترام» «موريل» الموجّه إليّ وكأنّما بسحر ساحر واختفت عبارات الاحترام، بل هو تجنّبني بعض الوقت وهو يتدبرّ أمره كي يبدو وكأنّه يزدريني حتّى إنّه إن أرادت السيّدة «ڤيردوران» أن أقول له شيئاً ما وأن أطلب منه هذه المقطوعة الموسيقيّة أو تلك كان يوالي حديثة مع أحد الخلّص ثم ينتقل إلى آخر ويبدّل مكانه إن مضيت إليه. وكانوا يضطرّون أن يقولوا له حتّى ثلاث مرّات أو أربع إنّي توجّهت بالحديث إليه، وبعد ذلك كان يردّ عليّ بهيئة المرغم وباختصار إلاّ إذا كنّا وحدنا. وإذ ذاك كان كثير الكلام ودوداً إذ يملك أقساماً رائعة في طباعة. لكن ذلك لم يحل دون أن أخلص من هذه الأمسية الأولى إلى أنّ طبيعته لابدّ كانت خسيسة وأنّه لا يحجم إن اقتضى الأمر عن أيّ إسفاف وأنّه يجهل عرفان الجميل، وكان يشبه في ذلك السواد الأعظم من الناس. بيد أنّي، لمّا كنت أحمل في داخلي شيئاً من جدّتي وكان يروقني تنوّع الناس دون أن أنتظر حاجة منهم أو أحقد عليهم، أهملت دناءته وراقني مرحة حيثما توافر ذلك، بل راقني ما أظنّه كان صداقة صادقة من جانبه حينما تبيّن، بعدما استعرض كامل معارفه الزائفة عن الطبيعة البشريّة تبيّن (بشكل غير منتظم، إذ كانت له ردّات غريبة إلى عشوائيّته البدائيّة العمياء) أن رقّتي معه كانت غير مغرضة وأن تسامحي لا يصدر عن قلة تبصّر بل عمّا دعاه طيبة، وفتنني على وجه الخصوص فنّه الذي كاد يكون محض مهارة رائعة ولكنّها كانت تسمعني من جديد أو تعرّفني كمّاً كبيراً من الموسيقى الجميلة (دون أن يكون موسيقيّا حقيقيّا بالمعنى الثقافي للكلمة). وقد أفلح على أيّة حال مدير أعمال هو السيّد «دوشارلوس» الذي كنت أجهل لديه تلك المواهب (مع أن السيّدة «دوغيرمانت» التي سبق أن عرفته مختلفاً جدّاً في شبابهما زعمت أنّه ألّف لها «سوناتا» ورسم مروحة يدويّة، الخ..) وكان متواضعاً فيما يخصّ مواطن تفوّقه الحقيقيّة ولكنّه من الطراز الأوّل، أفلح في وضع هذه المهارة في خدمة حسّ فنّي متعدّد زادها عشرة أضعاف. فلنتصوّر فنّاناً من الباليه الروسي يتمتّع بمهارة بحتة ثمّ يهذّب ويدرّب ويطوّر على يدي السيّد «دياغيليف».

كنت نقلت منذ قليل الرسالة التي كلّفني «موريل» حملها إلى السيّدة «ڤيردوران» وكنت أحدّث السيّد «دوشارلوس» عن «سان لو» حينما دخل «كوتار» إلى الصالة يعلن، وكأنّما ثمّة حريق، عن وصول آل«كامبرمير». ولم تحرّك السيّدة «ڤيردوران» ساكنا كي لا تبدي في حضرة أغرار من أمثال السيّد «دوشارلوس» (الذي لم يكن رآه «كوتار») ومثلي أنّها تولي هذا القدر من الأهميّة وصول آل«كامبرمير» ولم تردّ على

إعلان هذا الخبر واكتفت بأن قالت للدكتور وهي تحرّك مروحتها برشاقة وباللهجة المتكلّفة نفسها التي لمركيزة في المسرح الفرنسيّ: «كان البارون يقول لنا بالضبط..»، وكان ذلك كثيراً على «كوتار»! فصاح بحماسة أقل ممّا كان فعل فيما مضى، لأنّ الدراسة والمراكز العالية التي شغلها كانت قد بطّأت إلقاءه، ولكنّما بذاك الانفعال الذي يلقاه مع ذلك لدى آل «ڤيردوران»: «بارون! أين هو البارون؟ أين هو البارون؟»، صاح وهو يبحث عنه بعينيه بدهشة تقارب الشكّ واللاتصديق. وأجابت السيّدة «ڤيردوران» باللامبالاة المتكلّفة التي تبديها ربّة بيت لخادم أتى أمام المدعوّين على كسر كأس ثمينة، وبالنبرة المصطنعة المبالغ في ارتفاعها التي يتّخذها حامل جائزة الكونسرڤاتوار الأولى وهو يمثّل نصاً لـ«دوما» الابن، أجابت وهي تشير بمروحتها إلى حامي «موريل»: «إنه البارون «دوشارلوس» الذي سأعرّفه باسمك... يا سيادة الأستاذ «كوتار».» ولم يكن يسوء السيّدة «ڤيردوران» على أيّة حال أن تسنح فرصة لعب دور السيّدة الكبيرة. ومدّ السيّد «دوشارلوس» إصبعين شدّ عليهما الأستاذ بابتسامة «أمير العلم» المجانيّة، ولكنه توقّف في الحال إذ رأى أسرة «دوكامبرمير» داخله فيما كان السيّد «دوشارلوس» يدفع بي إلى زاوية ليقول لي كلمة، ولا يفعل دون أن يتلمّس عضلاتي، وهي طريقة ألمانيّة. لم يكن السيّد «دوكامبرمير» يشبه كثيراً المركيز العجوز، فقد كان «بالتمام من جهة والده»، كما تقول بصوت حنون. كان مظهره الجسماني يدهش بالنسبة لمن لم يسمع إلاّ من يتحدّث عنه أوحيتّى عن رسائل منه تنبض بالحياة وقد صيغت صياغة مناسبة. كان لابدّ من التعوّد على الأمر دونما شكّ، لكنّ أنفه كان قد اختار، بغية أن يتّخذ مكاناً له موارباً فوق فمه، ربما الخطّ المائل الوحيد من بين الكثير غيره الذي ما كانت لتوافيك فكرة اختطاطه على ذاك الوجه والذي كان يعني غلطة فظّة يزيد منها مجاورتها للون نورمانديّ أحمر حمرة التفّاح. ومن الممكن أن تكون عينا السيّد «دوكامبرمير» احتفظتا في الجفنين بشيء من سماء «الكوتنتان» وما أحلاها في الأيّام الجميلة المشمسة التي يتلهّى فيها المتنزّه بأن يشاهد ويعدّ بالمئات ظلال أشجار الصفصاف المتوقّفة على حافّة الطريق، ولكنّ هذه الجفون الثقيلة الرمضاء السيئة الإطباق كانت حالت حتّى دون مرور الفكر نفسه. لذلك كنت ترتدّ إلى الأنف الكبير الموارب، وقد حيرّتك هزالة تلك النظرة الزرقاء. فكان السيّد «دوكامبرمير» بمناقلة بين الحواس ينظر إليك بأنفه. وما كان أنف السيّد «دوكامبرمير» هذا قبيحاً، بل هو إلى حدّ أكثر من جميل، مفرط البروز مفرط الاعتزاز بأهميّته. كان بعقفته وصقله ولمعانه وجدّته التامّة مهيّأ تماماً للتعويض عن قصور النظرة الروحي. ولئن كانت العينان أحياناً العضو الذي يتكشّف فيه الذكاء، فإن الأنف لسوء الخطّ (أيّا يكون من جهة أخرى التضامن الحميم والتأثير غير المتوقّع للقسمات بعضها في بعض) هو العضو الذي تنكشف فيه البلاهة بعامّة كأيسر ما يكون الانكشاف.

عبثاً كانت لياقة الأثواب القاتمة التي يرتديها السيّد «دوكامبرمير» على الدوام، حتّى في الصباح، تطمئن أولئك الذين كان يبهرهم ويثير حنقهم الألق الوقح لبزّات الشاطىء التي يرتديها أناس ما كانوا يعرفونهم، فما كان بوسعك أن تدرك كيف تعلن زوجة الرئيس الأوّل بهيئة الفطين ولهجة صاحب السلطة، وبوصفها شخصاً أكثر خبرة منك بالمجتمع الراقي في «آلانصون»، أن المرء في حضرة السيّدة «دوكامبرمير» يحسّ نفسه في الحال، حتّى قبلما يعرف من عساه يكون، في حضرة رجل رفيع السويّة، رجل مهذّب أكمل التهذيب يعطيك صورة من غير نمط «بالبيك»، رجل تستطيع بجواره أن تتنفّس. لقد كان في نظرها، هي

التي تختنق من جرّاء وفرة السائحين في «بالبيك» ممّن لا يعرفون عالمها، كأنّما قارورة أملاح. وبدا لي على العكس من فئة أناس كانت وجدتهم جدّتي في الحال «سيئين جداً»، ولعلّها وهي لا تفهم السنوبيّة كانت دهشت أن أفلح في أن تتزوّجه الآنسة «لوغراندان» التي لابدّ كانت متشدّدة بأمور التأنّق هي التي كان شقيقها متأنّقاً إلى هذا الحدّ، كان يمكن بالأكثر أن نقول عن دمامة السيّد «دوكامبرمير» المألوفة أنّها إلى حدّ ما من المنطقة وتتسم بشيء من الطابع المحلي القديم جداً. كنت إزاء قسماته المغلوطة التي وددت لو تقوّمها تفكّر بأسماء تلك المدن النورمانديّة الصغيرة التي كان الكاهن الذي أعرفه يخطىء في أصولها لأن الفلاحين أساؤوا لفظ أو فهم الكلمة النورمانديّة أو اللاتينيّة التي تدلّ عليها فثبّتوا في نهاية المطاف معنى خاطئاً ولفظاً مشوّهاً في صيغة مغلوطة فاضحة تجدها مذ ذاك في سجلاّت الكنائس، حسبما كان قال «بريشو». والحياة في هذه المدن الصغيرة القديمة يمكن على أيّة حال أن تكون ممتعة ولابدّ أن السيّد «دوكامبرمير» كان يملك صفات مميّزة لأنه إن كان من خصائص الأمّ أن تفضّل المركيزة العجوز ابنها على كنّتها فإنّها في المقابل، هي التي وُلد لها عدّة أولاد اثنان منهم على الأقلّ لا يخلوان من المزايا، كثيراً ما كانت تعلن أن المركيز في رأيها أفضل أسرته. وكان رفاقه في الفترة القليلة التي أمضاها في الجيش قد أطلقوا عليه، إذ يجدون تطولاً مفرطاً في قولهم «كامبرمير»، لقب «كانكان» الذي لم يكن استحقّه في شيء في جميع الأحوال. كان يعرف كيف يزين حفل عشاء إذ يقول ساعة تقديم السمك (وإن تفسّخ السمك) أو الطبق الأوّل: (ماذا عساني أرى، يبدو لي أن ذلك صيد ثمين». وإذ تبنت زوجته حين دخولها الأسرة كل ماظنّت أنّه في صميم طراز ذاك المجتمع فقد أخذت ترتفع إلى مستوى أصدقاء زوجها وتحاول أن تحسن في عينه على غرار عشيقة وكما لو سبق أن كانت في صلب حياته يوم كان عازباً فتقول بهيئة طلقة حينما تحدّث ضبّاطاً عنه: «ستلتقون «كانكان» عمّا قليل؛ لقد ذهب «كانكان» إلى «بالبيك» ولكنّه سيعود في المساء». وكانت حانقة من أنّها تعرّض نفسها للشبهات هذا المساء في منزل آل«ڤيردوران» وهي لا تفعل إلاّ نزولاً عند رغبة حماتها وزوجها ولصالح الإيجار. لكنّها. وهي أقلّ تهذيباً منهما، لم تكن تخفي السبب وكانت تهزأ من ذلك العشاء مع صديقاتها منذ خمسة عشر يوماً. «تعلمن أنّنا نتناول عشاءنا في منزل مؤجّرينا، والأمر يستحق زيادة في الإيجار. وبي فضول في الأساس أن أعلم ما الذي أمكن أن يفعلوه بمبنى «لاراسبلييرا» العتيق المسكين (وكأنّما ولدت وتعثر فيه على ذكريات أهليها جميعاً). لقد قال لي حارسنا العجوز البارحة أيضاً أنْ لم يعد شيء بعد معروفاً. وتخونني الجرأة في التفكير بكل ما لابدّ يجرى في الداخل، وفي اعتقادي أننا نحسن فعلاً إن أمرنا بتطهير كلّ شيء قبل العودة للإقامة فيه». قدمت متعالية مقطّبة ولها هيئة سيّدة عظيمة يحتل الأعداء قصرها بسبب حرب وقعت، ولكنّها تحسّ مع ذلك أنّها في بيتها وتحرص على أن تبين للمنتصرين بأنّهم دخلاء. لم تستطع السيّدة «دوكامبرمير» أن تراني بادئ الأمر لأنّني كنت في شرفة جانبيّة مع السيّد «دوشارولس» الذي كان يقول لي إنّه علم من جانب «موريل» أنّ والده سبق أن كان «مدير أعمال» في أسرتي وأنّه، هو «شارولوس»، يعتمد اعتماداً كافياً على ذكائي وشهامتي (والكلمة مشتركة بينه وبين «سوان») كي أمتنع عن المتعة السافلة الخسيسة التي لن يتردّد أغبياء صغار منحطّون (وهكذا بلغني التحذير) في اتخاذها في مكاني وذلك بأن يكشفوا لمضيفينا تفاصيل ربّما ظنّها هؤلاء تحطّ من شأنه. وخلص البارون إلى القول: «أن مجرّد اهتمامي به وحمايتي له يتّسمان بشيء

من الرفعة الزائدة وبيطلان الماضي». وفيما أصغي إليه وأعده بالصمت الذي كنت لزمته حتّى دون أمل أن يراني بالمقابل ذكيّاً وشهماً، كنت أنظر إلى السيّدة «دوكامبرمير». وعسر علي أن أتعرّف الشيء الذائب اللذيذ الذي كان في ذاك اليوم بالقرب منّي ساعة العصرونيّة، على شرفة «بالبيك»، في الفطيرة النورماندية التي كنت أراها قاسية كالحصاة وعبثاً كان الخلّص سيحاولون نهشها. فإذ تملكها الحنق سلفاً من الجانب الساذج الذي ورثه زوجها عن أمّه والذي ربّما أكسبه مظهر «المُتَشرّف» حينما يقدّمون له الخلّص، ورغبة منها مع ذلك في القيام بوظيفتها كامرأةٍ من المجتمع الراقي فقد شاءت، حينما ذكروا لها اسم «بريشو»، أن تعرّفه إلى زوجها إذ سبق لها أن شاهدت صديقاتها الأوفر أناقة يفعلن هكذا، ولكن الحنق أو الكبرياء تغلّب على التباهي بحسن التصرّف فقالت، لا كما لعلّه انبغى أن تفعل: «اسمح لي أن أقدّم لك زوجي»، بل «أقدّم لك زوجي»، رافعة بذلك عالياً راية آل«كامبرمير» رغم أنفهم لأنّ المركيز انحنى أمام «بريشو» انحناءة تساوي ما كانت توقّعته. إلاّ أن كامل مزاج السيّدة «دوكامبرمير» هذا تغيّر فجأة حينما أبصرت السيّد «دوشارلوس» الذي كانت تعرفه شكلاً. ولم تكن أفلحت في يوم أن يعرّفوها به حتّى في فترة العلاقة التي ربطتها بـ«سوان» لأن السيّد «دوشارلوس»، إذ كان يتّخذ على الدوام جانب النساء، جانب زوجة أخيه ضدّ سائر عشيقات السيّد «دوغيرمانت»، و«أوديت» وهي غير متزوجة حينذاك ولكنّ علاقتها بـ«سوان» قديمة، ضدّ الجديدات، كان قطع لـ«أوديت» وعداً –برّ به–، هو المدافع الصارم عن الأخلاق وحامي الأزواج المخلص، بأن لا يسمح بذكر اسمه للسيّدة «دوكامبرمير». ولم ترتب هذه الأخيرة بالتأكيد بأنّها لن تتعرّف هذا الرجل الذي يصعب الاقتراب منه إلاّ في منزل آل«فيردوران». وكان السيّد «دوكامبرمير» يعلم أن الأمر يمثل في عينيها فرحاً عظيماً إلى حدّ أحسّ معه أن نفسه رقّت به ونظر إلى زوجته بهيئة من يعني: «ها إنّك راضية أن تكوني قرّرت المجيء، أليس كذلك؟» كان قليل الكلام على أيّ حال وهو يعلم أنّه تزوّج امرأة متفوّقة. «أنا غير أهل»، يقول في كل لحظة ويستشهد بكلّ سرور بمثل لـ«لافونتين» وآخر لـ«فلوريان» يبدو أنّهما ينطبقان على جهله ويمكّنانه من جانب آخر بأشكال من التملّق المتعالي أن يبرهن لرجال العلم الذين ليسوا من نادي الخيول أنّه يمكنك الصيد وأن تكون قرأت أمثالاً. أمّا المصيبة فأنّه كاد لا يعرف إلاّ مثلين، ولذلك كثيراً ما كان يرد ذكرهما. لم تكن السيّدة «دوكامبرمير» غبيّة ولكن بها عادات مختلفة مزعجة جداً. فلم يكن تشويه الأسماء عندها يتسم على الإطلاق بشيء من التعالي الارستقراطيّ. فليس هي من لعلّها، شأن الدوقة «دوغيرمانت» (التي كان ينبغي من جرّاء نبل محتدها أن تكون في مأمن من تلك المزيّة المضحكة)، كانت قالت كي لايبدو أنّها تعرف الاسم القليل الأناقة (في حين هو الآن اسم واحدة من النساء اللواتي يصعب أكثر ما يصعب الاتصال بهن)، اسم «جوليان دو مونشاتو»: «سيّدة هينة هي السيّدة «بيك دولاميراندول».» لا، فحينما كانت السيّدة «دوكامبرمير» تذكر خطأً أحد الأسماء فمن باب العطف وكي لا يبدو أنّها تعرف شيئاً ما، وحتّى حينما كانت تقرّ بالأمر من باب الصراحة فلظنّها أنّها تخفيه بنزع علامته المميّزة. فإن كانت على سبيل المثال تدافع عن امرأة كانت تحاول أن تتستّر، فيما تودّ أن لا تكذب على من يتوسّل إليها أن تقول الحقيقة، على أن السيّدة فلانة هي الآن عشيقة السيّد «سيلفان ليفي» وكانت تقول: «لا... لست أعلم شيئاً عنها على الإطلاق، وأظنّ أنّهم لاموها على أنّها أشعلت نار الهوى في صدر سيّد لا أعرف اسمه، شيء على شاكلة «كان»، «كون»، «كين». وأظنّ

على أيّة حال أنّ هذا السيّد قضى منذ فترة طويلة جداً وأنْ لم يقع البتّة شيء بينهما». إنّها الطريقة الشبيهة بطريقة الكذّابين ـ(وهي نقيض طريقتهم)ـ الذين يتصوّرون، إذ يحرّفون مافعلوا حين يروون عنه لعشيقه أو لمجرّد صديق، أنّ هذا أو تلك لن تتبيّن في الحال أن الجملة المحكيّة (على غرار «كان» و«كون» و«كين») مدسوسة وأنّها من غير نوع الجمل التي تؤلّف الحديث وأنّها مزدوجة القعر.

سألت السيّدة «ڤيردوران» زوجها همساً: «هل آخذ بذراع البارون «دوشارلوس»؟ فلعلّنا استطعنا، بما أن السيّدة «دوكامبرمير» ستكون على يمينك، مصالبة المجاملات». فقال السيّد «ڤيردوران»: «لا، لأنّ الثاني أرفع مرتبة (ويقصد بذلك أن السيّد «دوكامبرمير» مركيز)، وأن السيّد «دوشارلوس» باختصار القول أدنى منه». —«حسن، أقيمه إذاً إلى جانب الأميرة». وعرّفت السيّدة «ڤيردوران» السيّدة «شيرباتوف» بالسيّد «دوشارولوس»، وانحنى الاثنان بصمت وكأنّما يعرفان الكثير الواحد عن الآخر ويعد كلٌ منهما الآخر بسريّة متبادلة وقدّمني السيّد «ڤيردوران» للسيّد «دوكامبرمير». كانت قامته المديدة ومحيّاه النضر يبرزان في تأرجحهما، حتّى قبل أن يكون تحدّث بصوته القويّ المتلعثم، بعض الشيء، التردّد العسكري لدى قائد يحاول طمأنتك ويقول لك: «لقد كلّموني، وسوف نتدبّر الأمر؛ على رفع عقوبتك، فلسنا مّصاصي دماء؛ سيكون كلّ شيء على مايرام». ثمّ قال لي وهو يشدّ على يدي: «أظنّ أنّك تعرف والدتي». وفعل «أظنّ» كان يبدو له من جهة أخرى أنّه يناسب التحفّظ الذي يسود أوّل تعريف بك ولا يعبّر مطلقاً عن شك، إذ أضاف يقول: «وإني على أيّة حال أحمل رسالة منها إليك». كان السيّد «دوكامبرمير» يحسّ سعادة ساذجة أن يعود فيرى أماكن عاش فيها فترة طويلة. فقال للسيّدة «ڤيردوران»: «ها إني اعرف طريقي»، فيما تلتمع الدهشة في عينيه لتعرّفه لوحات الأزهار المرسومة فوق الأبواب والتماثيل الرخاميّة النصفيّة على قواعدها العالية. كان يمكن مع ذلك أن يحسّ بالغربة لأنّ السيّدة «ڤيردوران» كانت قد حملت معها الكثير من الأشياء القديمة الجملية التي تملكها. وما كانت السيّدة «ڤيردوران» من هذه الزاوية، وفيما يعتبر آل«كامبرمير» أنّها تقلب كلّ شيء رأساً على عقب، ثوريّة بل محافظة ذكية بمعنى لا يدركونه، كانوا كذلك يتّهمونها زوراً بأنّها تمقت هذا المنزل القديم وأنّها تحطّ من قدره بلوحات بسيطة بدلاً من مخاملهم الفاخرة، مثلما يلوم كاهن جاهل مهندساً في دار الأسقفيّة لأنّه يعيد إلى مكانها خشبيات قديمة محفورة كانت وضعت جانباً وظنّ رجل الدين من الأفضل أن يحل محلّها زينات ابتاعها في ساحة «سان سولبيس». ثمّ إن حديقة متعدّدة النباتات أخذت تحلّ أمام القصر محلّ الأحواض التي كانت موضع اعتزاز آل«كامبرمير» وبستانيّهم من قبلهم. وكان هذا يعتبر آل«كامبرمير» وحدهم أسياده ويئنّ من جور آل «ڤيردوران» كما لو احتلّ الأرض مؤقّتاً غازٍ وجماعة من الأجلاف، فيروح سرّاً يتظلّم إلى المالكة التي نزعت ملكيّتها وتثور ثائرته للمكانة الزريّة التي يضعون فيها شجيرات «الأروكارية» وأزهار «البيغونية» والمخلّدات والدهلية المزدوجة ولأنّهم يجرؤون في منزل غنيّ إلى هذا الحدّ على غرس أزهار بمثل ابتذال الأقحوان وشعر الأرض. وكانت السيّدة «ڤيردوران» تحسّ تلك المقاومة الخفيّة وقد عقدت العزم إن هي أقدمت على إيجار طويل الأمد أو ابتاعت «لاراسپليير» أن تشترط صرف البستاني الذي تحرص عليه صاحبة البيت العجوز أشدّ الحرص. فقد خدمها مقابل شيء زهيد في الأيّام الصعبة وكان يعبدها. ولكنّه كثيراً ما كان يقول عن السيّدة «دوكامبرمير» التي اضطرّت عام ٧٠ وقد فأجأها الغزو في قصر كانت تملكه في الشرق أن

تتحملّ على مدى شهر الاتصال بالألمان، يقول، من جرّاء هذا التجزىء الغريب في رأى عامّة الناس حيث يداخل الأزدراء الأدبيّ الأكثر عمقاً التقدير الذي يتّسم بأشدّ الحماسة والذي يمتزج بدوره بأحقاد دفينة: «ما عابوا أشدّ العيب على السيّدة المركيزة أنّها اتخذت في أثناء الحرب جانب البروسيّين وأنّها حتّى أسكنتهم في بيتها. ولعلّني في وقتٍ آخر كنت فهمت، لكنّها ما كان ينبغي أن تفعل في زمن الحرب. فذاك غير صحيح». وهكذا كان يخلص لها حتّى الموت ويكرّمها لطيبتها ويؤكّد أنّها ارتكبت جريمة الخيانة. وغاظ السيّدة «ڤيردوران» أن يزعم السيّد «دوكامبرمير» أنّه يتعرّف بهذا التمام «لاراسپلييير». وأجابت تقول: «لابدّ مع ذلك أن تجد بعض التغييرات؛ فثمّة بادئ الأمر تماثيل ضخمة من البرونز من أعمال «باربديين» ومقاعد لعينة موبّرة سارعت إلى إرسالها إلى التسقيفة وهي أكثر ممّا تستحقّ». وبعد هذا الردّ اللاذع الموجّه إلى السيّد «دوكامبرمير» مدّت له ذراعها للذهاب إلى المائدة. وتردّد لحظة يقول في نفسه: «ليس يصحّ مع ذلك أن أمرّ قبل السيّد «دوشارلوس».» ولكنّه قرّر، إذ فكّر أن هذا صديق قديم لأهل الدار بما أنّه لم يخصّ بمقعد الشرف، قرّر أن يأخذ الذراع الممدودة إليه وقال للسيّدة «ڤيردوران» كم كان فخوراً بقبوله في الندوة (هكذا سميّ النواة الصغيرة دون أن يفوته أن يضحك قليلاً اعتزازاً بمعرفة تلك اللفظة). أمّا «كوتار» الذي كان يجلس بجانب السيّد «دورشارلوس» فكان ينظر إليه من تحت نظّارته للتعارف وكسر الجليد» بغمزات تزيد كثيراً في إلحاحها عمّا لعلّها كانت بدت فيما مضى ولا تقطّعها صنوف من الخجل. ولم يعد زجاج نظّارته يحتوى نظرات الإغراء عنده، وقد تعاظمت بابتسامته فتفيض عنه من كلّ جانب. ولم يشك البارون الذي كان يبصر بيسر أشباهاً له في كلّ مكان، لم يشكّ أنّ «كوتار» واحد منهم وأنّه يغمز له بعينه. فأبدى للأستاذ في الحال قسوة الشاذّين، وهم في احتقارهم لمن يحسنون في عينه بمثل تهالكهم الشديد على من يحسن في عينهم. وليس من شك، مع أن الجميع يتحدّثون كذباً عن العذوبة التي يحجبها القدر على الدوام والمتمثّلة في أن تُحَبَّ، ليس من شكّ أن ليس يسري على أمثال «شارلوس» فحسب القانون العامّ الذي قوامه أنّ الشخص الذي لا نحبّه ويحبّنا إنّما يبدو لنا عسير الاحتمال. واننا نفضّل على ذلك الشخص، على تلك المرأة التي لن نقول عنها إنّها تحبّنا بل هي تتشبث بنا، صحبة أيّة امرأة أخرى لا تتمتع لا بسحرها ولابفتنتها ولا بظرفها. ولن تعود فتكتسبها فى نظرنا إلا بعدما تكف عن حبّنا. ويمكن بهذا المعنى أن لا نبصر في الحنق الذي يثيره في صدر أحد الشاذّين رجل يسوء في عينه ويسعى في إثره سوى نقل لهذه القاعدة الشاملة بصيغة مضحكة. ولكنها أكثر قوّة عنده. ففي حين يحاول سواد الناس إخفاءها فيما يحسّون بها في الوقت نفسه فإن الشاذّ يُشْعُِر بها دون شفقة ذاك الذي كان سبباً لها مثلما لعله بالتأكيد لن يُشْعِرَ امرأة بها، كما هو أمر السيّد «دوشارلوس» مثلاً مع الأميرة «دوغيرمانت» التي كان غرامها يزعجه ولكنّه يدغدغ مشاعره. ولكنّهم حين يبصرون رجلاً آخر يبدي نحوهم ميلاً خاصًا حينئذ، إمّا لعدم إدراكهم أنّه ذات الميل الذي بهم، وإمّا تذكّر مزعج بأن هذا الميل الذي يجمّلون فيه ما داموا هم الذين يحسّون به إنّما يُعَدُّ عيباً، وإمّا رغبةً منهم في ردّ الاعتبار لذواتهم بتصرّف أرعن في ظرف لا يكلّفهم فيه شيئاً، وإمّا خشية من افتضاح أمرهم تعود تداخلهم فجأة حينما لا تقودهم الشهوة من بعد معصوبي العينين من تهوّر إلى آخر، وإمّا من حنق أن يلحق بهم، من جرّاء موقف ملتبس يقفه آخر، الضرر الذي ما كانوا يخشون إلحاقه بآخر غيرهم من جرّاء موقفهم إن راقهم ذاك الآخر،

حينئذ يمكنك أن تسمع أولئك الذين لا يجدون حرجاً في ملاحقة شاب على مدى مسافات ولا يحوّلون أنظارهم عنه في المسرح حتّى إن كان برفقة أصدقاء، فيعرّضونه بذلك للاختصام معهم، يمكنك لأقلّ ماينظر إليهم آخر لا يروقهم أن تسمعهم يقولون: «من تظنّني ياسيد؟ (لمجرّد أنّهم يأخذونهم على حقيقتهم)، لست أفهمك، ولا جدوى من الالحاح فأنت مخطئ»، ويبلغ بهم الأمر إن دعت الضرورة حدّ الصفعات ويثورون في حضرة من يعرف المتهوّر قائلين: «ويحك، أو تعرف هذا القبيح؟ وأيّة طريقة في النظر إليك! يا له من تصرّف!» أمّا السيّد «دوشارلوس» فلم يذهب بعيداً إلى هذا الحدّ، ولكنّه اتخذ هيئة المُهان الجافي التي تتّخذها نساء حينما يبدو أنك تظنّهن طائشات ولسن كذلك، بل يزدن إن كنّ كذلك. والشاذ إن وضعته في حضرة شاذّ آخر ليس يرى على أيّ حال صورة مزعجة لذاته فحسب، لا تستطيع، إذ هي محض صورة جامدة، إلاّ ايذاء كبريائه، بل ذاتا أخرى له حيّة تنشط في الاتجاه نفسه وهي قادرة والحالة هذه على ايذائه في مطارح حبّه. لذلك تراه من منطلق غريزة البقاء يطعن بمنافس محتمل إمّا مع من يستطيعون إيذاءه (ودون أن يبالي الشاذّ رقم ١ بأن يُعَدّ كاذباً حين ينهال على هذا النحو على الشاذّ رقم٢ في نظر أشخاص يمكن أن يكونوا على اطّلاع على حالته الخاصّة) إمّا مع الشابّ الذي «كشّه» والذي ربّما اختطف منه ولابدّ من إقناعه بأن الأشياء ذاتها التي يصلح له أن يفعلها معه ربّما تسبّبت في خراب حياته إن قادته النفس إلى تعاطيها مع الآخر. وفيما يخصّ السيّد «دوشارلوس» الذي كان يفكّر ربّما بالمخاطر (وهي من نسيج الخيال) التي كان وجود «كوتار»، وهو من يفهم خطأً ابتسامة يعرّض «موريل» لها لم يكن الشاذّ الذي لا يروقه صورة كاريكاتورية عنه فحسب بل كان إلى ذلك خصماً مختاراً. فإن تاجراً، ويعمل في تجارة نادرة، إن رأى، وهو يحلّ في المدينة الريفيّة التي يأتي للإقامة فيها مدى الحياة، في الساحة نفسها قبالته بالضبط التجارة نفسها يديرها منافس لن يكون أكثر خيبة من أشباه «شارلوس» يمضون ليخبّئوا حبّهم في منطقة هادئة فيبصرون في يوم وصولهم نبيل المنطقة أو الحلاّق اللذين لا يدع له مظهرهما وتصرفاتهما أيّ شك. والتاجر يكنّ في الغالب الكراهية لمنافسه، والكراهية تنقلب أحياناً كآبه، فإن اتّفق أقلّ قدر محمّل بالوراثة إلى حدّما رأيت في المدن الصغيرة التاجر يظهر بدايات جنون لا شفاء لها إلاّ إذا دُفع إلى بيع تجارته وهجر بلده. أمّا حنق الشاذّ فأشدّ تعذيباً بعد. لقد أدرك منذ الثانية الأولى أن النبيل والحلاّق اشتهيا رفيقه الشابّ. وعبثاً يردّد مئة مرّة في اليوم أمامه أن الحلاّق والنبيل لصّان قد يلحق به الاقتراب منهما العار فانّه مضطر، شأن «هارباغون»، أن يسهر على كنزه وينهض ليلاً ليتأكد أنّهم لا يأخذونه منه، وهذا دونما شكّ ما يجعل الشاذ يكتشف الشاذ بسرعة ويقين يكادان لا يخيبان حتّى أكثر مما تفعل الشهوة أو التلاؤم في العادات المشتركة وعلى قدر خبرة المرء بذاته تقريباً، وهي الوحيدة الحقّة. من الممكن أن يخطئ حيناً ولكنّما تردّه إلى جادّة الصواب كهانة سريعة. لذلك كان خطأ السيّد «دوشارلوس» قصير المدّة. وقد أبرز له وضوح البصيرة السماوي بعد مضيّ لحظة أن «كوتار» لم يكن من عجينته وأنْ ليس عليه أن يخشى تودّده لا على نفسه، وما كان ذلك إلاّ ليغيظه، ولا على «موريل»، وهو ما كان بدا له أشدّ خطراً، واستعاد هدوءه، ولمّا كان بعد تحت تأثير مرور «ڤينوس» الخنثى أخذ يبتسم لأسرة «ڤيردوران» ابتسامة باهتة بين حين وآخر دون أن يكلّف نفسه عناء شق فمه مكتفياً ببسط زاوية من شفتيه فيما يشعل مقدار ثانية نار الدلع في عينيه هو الكلف بالرجولة، كما لعلّ زوجة أخيه الدوقة «دوغيرمانت» كانت بالضبط فعلت. وقالت السيّدة

«ڤيردوران» للسيدّ «دوكامبرمير» بلهجة يلوّنها الازدراء: «تذهب كثيراً إلى الصيد يا سيّد؟» وسأل «كوتار» المعلّمة قائلاً: «هل روى لك «سكي» أنّه وقع لنا حادثة طريفة؟» وأجاب السيّد «دوكامبرمير»: «أذهب إلى الصيد في غابة «شانتبي» على وجه الخصوص». وقال «سكي»: «لا، لم أرو عن شيء». —«وهل هي أهل لهذا الاسم؟» يقول «بريشو» موجّهاً سؤاله إلى السيّد «دوكامبرمير» بعدما نظر إليّ بطرف عينه إذ سبق أن وعدني بالكلام عن الاشتقاقات فيما سألني أن أخفي عن آل«كامبرمير»الازدراء الذي توحي به اشتقاقات كاهن «كومبريه». وقال السيّد «دوكامبرمير»: «لابدّ أنّي عاجز عن الفهم، ولكنّي لا أدرك معنى سؤالك». فردّ «بريشو» قائلاً: «مرادي أن أقول: هل يغنّي فيها الكثير من طيور العقعق؟» وكان «كوتار» يعاني في تلك الأثناء من أن السيّدة «ڤيردوران» تجهل أنّهم أوشكوا أن يفوتهم القطار. —«هيّا، ويحك»، تقول السيّدة «كوتار» لزوجها بغية تشجيعه، «أحكِ عن مغامرتك العجيبة». فقال الدكتور وهو يعيد سرد قصّته: «إنّها في الحقيقة غير عاديّة. فحينما شاهدت القطار في المحطّة وقفت ذاهلاً. الذنب في كل ذلك ذنب «سكي». ما أقرب أن تكون غريب الأطوار في معلوماتك يا عزيزي! و«بريشو» الذي كان ينتظرنا في المحطة!» فقال الجامعي وهو يلقي من حوله ما تبقّى له من نظر ويبتسم بشفتيه الرقيقتين: «كنت أظنّ أنكم إن كنتم تأخرتم في «غرانكور» فلأنّكم التقيتم إحدى المشّاءات». فقال الأستاذ: «هلاّ خرست! أما إن سمعتك زوجتي! فالزوجة التي لنا «غيور» فصرخ «سكي»، وقد أيقظت فيه مزحة «بريشو»الماجنة مرحه التقليدي: «آه! «بريشو» هذا، إنّه لا يتغيّر»، مع أنّه ما كان يعلم والحقّ يقال إن سبق أن كان الجامعيّ ماجناً. وكما يضيف إلى هذه الأقوال التي ثبّتها العرف الإشارة الشعائريّة تظاهر بأنّه لا يقوى على مقاومة رغبته في قرص ساقه». وأردف «سكي» يقول «إنّه لا يتغيّر هذا الرجل»، وأضاف دون أن يفكّر بالطابع الحزين والمضحك الذي يسبغه على هذه الكلمات شبه العمى الذي أصابه: «هناك على الدوام نظرة سريعة إلى النساء». وقال السيّد «دوكامبرمير»: «انظر أي أمر هو أن تلتقي عالماً. فإنّي اصطاد منذ خمسة عشر عاماً في غابة «شانتبي» ولم أفكّر يوماً في ما يعنيه اسمها. وحدجت السيّدة «دوكامبرمير» زوجها بنظرة قاسية، فيما كان بودّها أن يتّضع هكذا أمام «بريشو». وزاد استياؤها بعد حينما أخذ «كوتار» إزاء كلّ عبارة «جاهزة» يستخدمها «كانكان»، أخذ يبرهن للمركيز، وكان يعرف مواطن القوّة والضعف فيها إذ سبق أن جدّ في تعلّمها، أنّها لا تعني شيئاً، فيما يقرّ المركيز بغبائه: «لماذا: غبيّ كالملفوف؟ أتظنّ أن الملفوف أكثر غباء من أي شيء آخر؟ وتقول: ردّد الأمر ذاته ستاً وثلاثين مرّة؛ فلمَ ست وثلاثون تخصيصاً؟ ولمَ قولك: نام مثل وتد؟ ولمَ رعود «بريست»؟ ولم قولك: عمل الأربع مئة عَمْلة؟»(١) ولكنّ الدفاع عن السيّد «دوكامبرمير» كان يتولاّه آنذاك «بريشو» الذي كان يفسّر منشأ كلّ عبارة. أمّا السيّدة «دوكامبرمير» فكان يشغلها على وجه الخصوص أن تنظر في التغييرات التي أدخلها آل«ڤيردوران» على «لاراسپليير» كي تتمكّن من انتقاد بعضها واصطحاب غيرها إلى «فيتيرن» أو ربّما ذاك البعض نفسه. «إنّي أتساءل ما عسى تكون الثريّا التي تتدلّى مواربة تماماً. أكاد لا أتعرّف «راسپليير» القديمة التي سكنتها»، تضيف قولها بلهجة مألوفة ارستقراطيّتها كما لعلّها كانت تكلّمت عن خادم تزعم أقل ما تزعم الإشارة إلى سنّه والأكثر أن تقول إنّه حضر ميلادها. ولمّا كانت لغتها مستمدّة من الكتب أضافت تقول بصوت خفيض: «يبدو

(١) كقولنا: عمل السبعة وذمّتها.

لي مع ذلك أنّني لو كنت أقطن منزل غيري لداخلني استحياء من تغيير كلّ شيء على هذا النحو». وقالت السيّدة «ڤيردوران» للسيّد «دوشارلوس» و«موريل» وهي تأمل أن السيّد «دوشارلوس» يشارك «في الاستعراض» وسوف يمتثل للقاعدة القائلة بأن يصل الجميع في القطار نفسه: «من أسف أن لاتكونا وصلتما معهم.» وأضافت تقول لتبرهن أنّها كانت تشارك بوصفها سيّدة البيت في جميع الأحاديث في وقت واحد: «أمتيقّن أنت أن «شانتپى» تعني طائر العقعق الذي يغني؟» وقالت لي السيّدة «دوكامبرمير»: «كلّمني قليلاً عن عازف الكمان هذا، فإنّه يثير اهتمامي. إنّي أعشق الموسيقى وإخالني سمعت من يتحدّث عنه، فهيّا علّمني». وكانت علمت أن السيّد «موريل» جاء مع السيّد «دوشارلوس» وبودّها إذ تحضر الأوّل أن تحاول الارتباط بصداقة الثاني، على أنها أضافت كي لا يسعني استشفاف ذاك السبب: «والسيّد «بريشو» يثير اهتمامي أيضاً». فإن كانت السيّدة «دوكامبرمير» واسعة الثقافة، فإنّها، مثلما يكاد بعض الذين يبدون استعداداً للبدانة لا يأكلون ويمشون طوال النهار دون أن يكفّوا عن السمنة على مرأى منك، كانت بدورها أيضاً تعمق عبثاً، ولاسيّما في «فيتيرن»، فلسفة أكثر فأكثر باطنيّة وموسيقى أكثر فأكثر علمية ولا تخرج من هذه الدراسات إلاّ لحبك دسائس تمكّنها من «قطع» صداقات شبابها البورجوازية وإقامة علاقات ظنّت بداية أنّها جزء من مجتمع أسرة زوجها، وتبيّنت فيما بعد أنّها واقعة على درجة أكثر علوًّا وأكثر بعداً. قال فيلسوف لم يكن على حداثة كافية بالنسبة إليها، وهو «لا يبنيتس»، إن المسافة طويلة من العقل إلى القلب. والمسافة تلك لم يتفق للسيّدة «دوكامبرمير» أكثر ممّا اتّفق لأخيها من قوّة لاجتيازها. فقد كانت، وهي لا تنصرف عن قراءة «ستيورات ميل» إلاّ إلى قراءة «لاشلييه»(١)، كلما قلّ إيمانها بحقيقة العالم الخارجي زاد ما تصرف من سعي حثيث في محاولة إيجاد موقع طيّب لها فيه قبل مماتها. واذ هي مغرمة بالفنّ الواقعي لم يكن ثمة شيء محسوس يبدو لها على وضاعة كافية كي يستخدم نموذجاً للرسام أو الكاتب. ولعلّ لوحة أو رواية موضوعهما المجتمع الراقي كانتا أورثتاها غثياناً، فيما يمثل «موجيك» تولستوي وفلاّح «ميييه» الحد الاجتماعي الأقصى التي لا تسمح للفنان بتجاوزه. ولكنّما تجاوز الخطّ الذي يحدّ علاقاتها الخاصة، والارتفاع به حتّى مخالطة الدوقات إنما يشكلّ هدفاً لكامل جهودها وذلك لقلّة مايبدو العلاج الروحي الذي تخضع عن طريق دراسة أمّهات الكتب ناجعاً ضدّ السنوبيّة الفطريّة المرضيّة التي تتنامى في نفسها. بل بلغ بتلك السنوبيّة في نهاية المطاف أن تشفيها من بعض ميول إلى البخل والزنى كانت تنزع إليها في صباها في ما يشبه تلك الحالات المرضيّة الغريبة الدائمة التي يبدو أنها تحصّن المصابين بها ضدّ الأمراض الأخرى. وماكنت أستطيع بأيّة حال، وأنا أسمع حديثها، الحيلولة دون أن أنصف، ولا أصيب من ذلك أيّة متعة، العناية المثلى في اختيار تعابيرها. فقد كانت تلك التي يستخدمها في عصر معيّن كلّ الذين يمتازون بالسعة الفكريّة ذاتها إلى حدّ تزوّدك معه العبارة المرهفة في الحال، كمثل قوس الدائرة، بوسيلة خطّ وتحديد كامل الدائرة. لذلك كان من شأن تلك التعابير أن يبعث في نفسي الملل في الحال أولئك الذين يستخدمونها على أنّهم معروفون لديّ ولكنّما يعدّون من طينة متفوقة وكثيراً ما أعطيتهم جيراناً رائعين وغير محبّذين. «لست تجهلين يا سيّدتي أن الكثير من مناطق الغابات تأخذ اسمها من الحيوانات التي تعيش فيها. فإلى جانب غابة «شانتپى» يقع حرج «شانترين»(٢). فقال السيّد

(١) Jules Lacheller, Stuart Mill : فيلسوفان انكايزى وفرنسى على التوالي، الأوّل مناهض للحدس والاستقراء بجميع أشكاله والثاني مناد به.

(٢) يخيّل لأوّل وهلة ان الاسم يعني : حيث تغنّي الملكة وهذا ما يبرّر ملاحظة السيّد «دوكامبرمير».

«دوكامبرمير»: «لست أعلم أيّة ملكة يعنون، ولكنك لست كيّساً إزاءها». وقالت السيّدة «ڤيردوران»: «خذها يا «شوشوت». وبخلاف ذلك هل انقضت الرحلة على ما يرام؟» -«لم نلتق سوى خيالات بشر كانت تملأ القطار. ولكنّي أجيب عن سؤال السيّد «دوكامبرمير»»: فلفظة «رين -reine» هنا لا تعني زوجة الملك بل الضفدعة، وهو الاسم الذي لبثت عليه أمداً في هذه المنطقة كما هو جليّ في محطة «رينڤيل - Reineville» التي يجب أن تكتب «Reineville» وقال السيّد «دوكامبرمير» للسيّدة «ڤيردوران» وهو يشير إلى سمكة أمامه: «يبدو لي أن ثمة صيداً ثميناً». كان ذلك من المجاملات التي يظنّ أنّه يدفع بها حصّته في حفل عشاء ويردّ المجاملة مذ ذاك بمثلها. (فكثيراً ما كان يقول وهو يحدّث زوجته عن أصدقاء لهما: لاداعي لدعوتهم، فقد ابتهجوا كثيراً لوجودنا بينهم وهم من كانوا يشكروننا)». «ويجدر بي من ناحية أخرى أن أقول إني أذهب كل يوم تقريباً إلى «رينڤيل» ومنذ سنوات كثيرة، ولم أجد فيها ضفادع أكثر من غيرها. وكانت السيّدة «دوكامبرمير» قد أرسلت في طلب كاهن رعية تملك فيها أرزاقاً كثيرة وكان من ذات طرازك الفكريّ فيما يبدو، وقد ألّف كتاباً». فأجاب «بريشو» منافقاً: «اعتقد ذلك، وقد قرأته باهتمام عظيم». وقد بعث الارتياح الذي يوليه إيّاه هذا الجواب بصورة غير مباشرة ضحكة طويلة لدى السيّد «دوكامبرمير». «آه! حسن، إن مؤلّف، كيف عساني أقول، هذه الجغرافية، هذا المعجم، يعلق تعليقاً طويلاً على اسم قرية صغيرة كنّا فيما مضى، إن جاز لي القول، أسيادها وتدعى «پونتاكولوفر» (Ponta Coulevore). ولست بالطبع سوى جاهل فظّ بالمقارنة ببحر العلم هذا، ولكنّي ذهبت ألف مرة إلى «پونتاكولوفر» وهي واحدة بالنسبة إليه، وليأخذني الشيطان إن كنت رأيت فيها في يوم واحدة من تلك الحيّات الشنيعة، أقول الشنيعة على الرغم من المديح الذي يكيله لها هذا الطيّب «لافونتين» («الرجل والثعبان» واحد من المثلين)». وأجاب «بريشو»: «أنت لم تر منها واحدة وأنت من أصاب إذ رأى. إن الكاتب الذي تتحدث عنه يعرف موضوعه حق المعرفة بالتأكيد فقد ألف كتاباً ممتازاً». وصاحت السيّدة «دوكامبرمير» قائلة: «بل الكتاب والقول بالتأكيد في محلّه، من عمل راهب بندكتي(١) حقيقي». -«لاشكّ أنّه رجع إلى بعض السجلاّت الكنسيّة (والمقصود بذلك لوائح الدخول الكنسيّة ومقارّ الرعايا في كلّ دائرة اسقفية)، وهو ما أمكن أن يزوّده باسم المسؤولين العلمانيّين وموزّعي المُقْطَعات الماليّة من رجال الدين. ولكنّ ثمة مصادر أخرى، وقد استقى منها أحد أكثر أصدقائي علماً، وقد وجد أنّ المكان نفسه كان يدعى «پونتاكيلوڤر» (Pontà-Quileavre) وقد دفعه هذا الاسم الغريب إلى العودة إلى ما كان أبعد من ذلك، إلى نصّ لاتينيّ يُطْلَقُ فيه على الجسر الذي يظنّه صديقك مرتعاً للثعابين اسم Pons cui aperit (الجسر لمن يفتحه)، وهو جسر مغلق لا يُفتح إلاّ مقابل أجر مناسب». -«تتكلّم عن الضفادع. أمّا أنا فإخالني، إذ أراني وسط جماعة عالمة إلى هذا الحدّ، الضفدعة أمام المحكمة العليا في أثينا» (وهو المثل الثاني)، يقول «كانكان» الذي كثيراً ماكان يطلق هذه المزحة في جوّ من الضحك الشديد ويظنّ بذلك، تواضعاً منه وبشيء من حضور البديهة في آن، أنّه يقرّ بجهله ويبرز معارفه. أمّا «كوتار» الذي سدّ عليه صمت السيّد «دوشارلوس» الأبواب وحاول التزوّد بالهواء في الجوانب الأخرى فقد استدار صوبي وطرح عليّ واحداً من تلك الأسئلة التي كانت تدهش مرضاه إن أصاب فتبرهن بذلك أنه يقيم داخل جسمهم؛ فإن كان

(١) الرهبان البندكتيون اشتهروا بدقة معارفهم وعمق مؤلفاتهم.

العكس ولم يصب سمحت له بتصويب بعض النظريّات وتوسيع وجهات النظر القديمة. وسألني قائلاً، وهو متيقّن من إثارة الإعجاب بمعارفه أو من إكمالها: «حينما تصل إلى هذه المواقع العالية نسبيًا كهذا الذي نحن فيه الآن هل تلاحظ أن ذلك يزيد من نزعة الاختناقات لديك؟» وسمع السيّد «دوكامبرمير» السؤال وابتسم وأطلق نحوي عبر الطاولة قوله: «لا أستطيع أن أقول لك كم يضحكني أن أعلم عن اختناقاتك». ماكان مراده أن يقول إن الأمر يشيع السرور في نفسه وإن كان ذلك صحيحاً بدوره. ذلك لأن هذا الرجل ما كان يسعه سماع من يتحدث عن مصيبه الغير دونما شعور بالراحة ومرح عصبيّ سرعان ما يخليان المكان لإشفاق قلبه الطيّب. ولكنّما كان لجملته معنى آخر أوضحته الجملة التي أعقبتها: «ذلك يضحكني، يقول، لأنّ شقيقتي تعاني بالضبط منها». وخلاصة القول أن الأمر كان يشيع السرور في نفسه كما لو كان سمعني أذكر بمثابة أحد أصدقائي واحداً ممّن تردّدوا كثيراً على منزلهم. «ما أصغر العالم»، تلك كانت الخاطرة التي أدلى بها ذهنياً وأبصرتها مخطوطة على وجهه المشرق حين كلمني «كوتار» عن اختناقاتي. وقد أصبحت هذه منذ ذلك العشاء ضرباً من العلاقة المشتركة ما كان يفوت السيّد «دوكامبرمير» البتّة أن يسألني عن أخبارها حتّى لمحض أن يزوّد شقيقته بالأخبار عنها.

كنت أفكّر، فيما أجيب عن الأسئلة التي تطرحها عليّ زوجته حول «موريل»، بحديث جرى بيني وبين والدتي عصراً. ولما كانت والدتي تذكّرني، فيما لا تنهاني عن ارتياد منزل آل«ڤيردوران» إن أمكن أن يفرّج الأمر عنّي، بأنّه وسط ما كان ليروق جدّي ولعلّه كان صاح من جرّائه: «حذار! حذار!» فقد أضافت قولها: «اسمع، لقد قال لي الرئيس «توروي» وزوجته إنهما تناولا طعام الغداء مع السيّدة «بونتان». لم يطلب أحد منّي شيئاً ولكنّما خلتني فهمت أن قراناً بينك وبين «ألبيرتين» ربّما شكّل حلم عمّتها. في اعتقادي أن السبب الحقيقي لذلك أنّك قريب جداً إلى قلب الجميع. ومع ذلك فليس البذخ الذي يظنّوك قادراً أن توفّره لها ولا العلاقات التي يعلمون في كثير أو قليل أننا نقيمها، ليس كلّ ذلك بمنأى عن الأمر وإن كان ثانوياً. وما كنت لأحدّثك عن الأمر لأنّني غير حريصة عليه ولكنّني فضّلت إذ أتصوّر أنّهم سيحدثونك عنه، أن أكون السبّاقة». وقد سألت أمّي قائلاً: «ولكن كيف ترينها أنت؟» –«ولكن لست أنا من سيتزوّجها: بوسعك بالتأكيد أن تفعل أفضل ألف مرّة على صعيد الزواج، ولكنّي اعتقد أن جدّتك ما كان بودّها أن يؤثروا فيك. لا أستطيع أن أقول لك حاليًا كيف أجد «ألبيرتين»، فإني لا أجدها، وسأقول لك مثل السيّدة «دوسيڤينييه»: «إن لها صفات طيّبة، ذلك اعتقادي على الأقلّ. ولكنّي في هذه البداية لا أعرف أن أمدحها إلاّ بجمل منفيّة، فليست هذا، وليست تملك لهجة مدينة «رين» وربّما قلت مع مرّ الزمن: إنّها هذا. وسأجدها دوماً على مايرام إن كان لابد أن تسعدك». لكنّ أمّي وضعتني، بهذه الكلمات ذاتها التي تعيد إليّ أمر تقرير سعادتي، في حالة من الشكّ سبق أن أقمت فيها حينما أحسستني فجأة، بعد ما أذن لي والدي بالذهاب إلى مسرحيّة «فيدر» وعلى وجه الخصوص بأن أصبح أديباً، أحمل مسؤوليّة كبيرة عليّ ويسكنني هاجس غمّة وتلك الكآبة التي تداخلك حينما تكفّ عن الخضوع لأوامر تحجب عنك المستقبل يوماً فيوماً وتبين أنّك شرعت أخيراً تعيش حياتك جدياً على غرار شخص بالغ، الحياة الوحيدة التي في متناول كلّ منّا.

ربّما كان خيراً لي أن أنتظر قليلاً، وأن أبدأ بلقاء «ألبيرتين» شأني في الماضي لأحاول أن أعلم إن كنت أحبّها حقاً. بوسعي أن أصطحبها إلى منزل آل«ڤيردوران» كي أسرّي عنها، وذكّرني ذلك بأني لم أجرؤ بنفسي هذا المساء إلاّ لأعلم إن كانت السيّدة «پوتبوس» تقطن هناك أم هي تزمع المجيء. ولم تكن تتناول عشاءها على أيّ حال. «بشأن صديقك «سان لو»، تقول السيّدة «دوكامبرمير» مستخدمة هكذا عبارة تنّم عن ترابط أكبر في الأفكار ممّا كانت دلّت عليه جملها، لأنّها إن كلّمتني عن الموسيقى فقد كانت تفكّر بآل«غيرمانت»، «تعلم أن الجميع يتحدّثون عن زواجه بابنه شقيق الأميرة «دوغيرمانت». وسأقول لك فيما يخصّني أنّي لا أهتمّ البتّة بكلّ هذا الهذر المجتمعيّ». وتملّكتني خشية أن أكون تكلّمت دون وداد في حضر «روبير» عن تلك الفتاة الزائفة في طرافتها والتي تتساوى ضحالة فكرها وعنف طباعها. ليس من خبر تقريباً يُنقَلُ إلينا إلاّ ويجعلنا نأسف على أحد أقوالنا. وأجبت السيّدة «دوكامبرمير»، وكان الجواب صحيحاً بكلّ حال، أني لا أعلم عن ذلك شيئاً وأن الخطيبة أيّاً كان الأمر، تبدو لي حديثة السنّ». -«ربّما لم يكن الأمر بعدُ رسميّا لهذا السبب، ولكنّما الحديث كثير حوله في جميع الأحوال». وقالت السيّدة «ڤيردوران» للسيّدة«دوكامبرمير»: «أفضل أن أحذّرك»، قالت بلهجة جافّة، وقد سمعت أنّ هذه الأخيرة حدّثتني عن «موريل» وإذ ظنّت حينما خفضت صوتها لتكلّمني عن خطبته «سان لو» أنّها توالي الحديث عنه. «ليس ما يُقدّم هنا من الموسيقى الهيّنة. فإن المخلصين لأيّام الأربعاء عندي، أو من أدعوهم بمثابة أبنائي، متقدّمون تقدّماً مذهلاً»، تضيف قولها بنوع من الهلع المستكبر؛ « وأحياناً أقول لهم: «أيّها الناس الأعزّاء الطيّبون، أنتم تمضون أسرع من معلّمتكم التي لا يبدو أن صنوف الجرأة أخافتها في يوم». وفي كلّ عام تمضي الأمور أبعد قليلاً، وإنّي عمّا قريب أرى اليوم الذي لن يهزّهم فيه «ڤاغنر» و«داندي». وتقول السيّدة «دوكامبرمير»: «ولكن حسن جدّا أن يكون المرء متقدّماً، فليس يبلغ في يوم حدّا كافيا، تقول وهي تتفحّص كل زاوية في قاعة الطعام وتحاول تعرّف الحاجات التي تركتها حماتها وتلك التي جاءت بها السيّدة «ڤيردوران» وأن تأخذ هذه بجرم قصور الذوق المشهود. وكانت آنذاك تحاول أن تحدّثني عن الموضوع الذي يشغلها أكثر ما يكون، عن السيّد «دوشارلوس». فقد كان يحرّك مشاعرها أن يبسط حمايته على عازف كمان. «إنّه يبدو ذكيّا». فقلت: «بل شرّ القريحة بالنسبة إلى رجل تقدّم به العمر قليلاً». -«تقدّم به العمر؟ ولكنّه لايبدو مسنّا. هيّا انظر، فإن «الشعرة» لبثت فتية». (فمنذ ثلاث سنوات أو أربع استعملت كلمة «شعرة» بصيغة المفرد من جانب أحد هؤلاء المجهولين الذين يروّجون للصرعات الأدبيّة، وكلّ الذين يملكون طول موجة السيّدة «دوكامبرمير» كانوا يقولون «الشعرة»، دون أن تفوتهم ابتسامة متكلّفة. ولا يزالون يقولون في الوقت الراهن «الشعرة» ولكنّ الجمع سوف يطلع من جديد من الإفراط في المفرد). وأضافت تقول: «مايستهويني على وجه الخصوص لدى السيّد «دوشارلوس» أنّك تحسّ الموهبة عنده. وسأقول لك أني استخفّ بالعلم وإنّ مايتعلّمه المرء لا يثير اهتمامي». وما كانت تلك الأقوال تناقض القيمة الخاصّة بالسيّدة «دوكامبرمير» التي كانت بالضبط ثمرة التقليد والاكتساب. على أن أحد الأمور التي كان ينبغي بالضبط معرفتها في تلك الفترة أن المعرفة لا تساوى شيئاً ولا تزن قشّة بجانب الطرافة. وكانت السيّدة «دوكامبرمير» قد تعلّمت، شأن الأمور الأخرى، أنْ ليس ينبغي تعلم أي شيء. «ولذلك، تقول لي، فإن «بريشو» الذي يملك جانباً طريفاً، لأنّني لا أزدري شيئاً من التبحرّ المستملح، إنمّا يستهويني مع ذلك أقلّ».

ولكنّ «بريشو» لم يكن يشغله في تلك اللحظة سوى شيء واحد: فإنّه إذ سمعهم يتحدّثون عن الموسيقى أخذ يرتعد من أن يذكّر الموضوع السيّدة «ڤيردوران» بموت «دوشامبر». وكان يودّ أن يقول شيئاً ليستبعد الذكرى المشؤومة. فوفّر له السيد «دوكامبرمير» الفرصة بهذا السؤال: «هيّا قل، أتحمل الأماكن المحرّجة دائما أسماء الحيوان». —«بالطبع لا»، يجيب «بريشو»، وقد أسعده أن يبسط علمه أمام هذا العدد الكبير من المستجدّين الذين كنت قلت له إنّه واجد بالتأكيد بينهم واحداً على الأقلّ يثير اهتمامه. «يكفيك أن ترى إلى أيّ حدّ يتم الحفاظ على شجرة في أسماء الأشخاص أنفسهم مثل نبتة سرخس داخل الفحم الحجري، فإنّ واحداً في مجلس شيوخنا يدعى السيّد «دوسولس دو فريسينيه» الذي يعني، إن لم أكن مخطئاً، المكان المزروع بشجر الصفصاف والدردار (Salix et fraxinetum)(١)؛ أما ابن أخيه السيّد «دو سيلف» فيجمع بعد أشجاراً أكثر بما أنّه يدعى «دوسيلف» (sylva)». أمّا «سانييت» فكان يرى باغتباط أن الحديث يتخذ منحى حامياً إلى هذا الحدّ. وكان بإمكانه، إذ يوالي «بريشو» الكلام طوال الوقت، أن يصمت صمتاً يجنّبه أن يكون موضع هزء السيّد والسيّدة «ڤيردوران». وإذ أصبح في غمرة فرحة بالنجاة أكثر إحساساً بعد فقد تأثر لسماعه السيّد «ڤيردوران» يقول لرئيس الخدم، على الرغم من السمعة الرسميّة لمثل ذلك العشاء، أن يضع قارورة ماء قرب السيّد «سانييت» الذي لم يكن يشرب شراباً آخر. (فالجنرالات الذين يرسلون إلى الموت أكبر عدد من الجنود يحرصون على أن يُغَذّوا أحسن التغذية). ثم إن السيّدة «ڤيردوران» ابتسمت مرّة لـ«سانييت» في نهاية المطاف. بالتأكيد كانا من الأناس الطيّبين، ولن يُعَذَّب من بعد. وفي هذه اللحظة جرى تعطيل الطعام من جانب مدعوّ نسيت أن أذكره، وهو فيلسوف نروجي مشهور كان يتكلّم الفرنسية بصورة جيّدة جداً ولكن ببطء شديد وذلك لسبب مزدوج، أولا لأنّه إذ تعلّمها منذ وقت قليل ولايود الوقوع في أخطاء (مع أنّه كان يقع في بعضها) كان يرجع كلّ كلمة إلى ماكان من قبيل المعجم الداخلي، ثم لأنّه كان يفكر دائماً، بوصفه عالماً ميتافيزيقياً، في ماينبغي أن يقوله أثناء مايقوله، الأمر الذي يكون سبباً في البطء حتّى لدى أحد الفرنسيّين. وكان على أيّة حال إنساناً رائعاً وإن يكن يشبه كثيرين غيره، باستثناء نقطة واحدة. ذلك أن هذا الرجل الشديد البطء في كلامه (فبين كلّ كلمة كان ثمّة صمت) كان يضحي ذا سرعة مدوّخة لينجو بنفسه ما إن يقول وداعاً كان استعجاله يحمل على الظنّ للمرّة الأولى بأنّه أدركه المغص أو حتّى حاجة أكثر إلحاحاً.

وقال لـ«بريشو»: أيها الزميل —العزيز»، قال، بعدما قلّب في فكره إن كانت لفظة «زميل» هي اللفظة المناسبة، «يداخلني نوع من ـ الرغبة لأعلم إن كان ثمة أشجار أخرى في ـ جدول مصطلحات لغتكم الجميلة ـ الفرنسيّة ـ اللاتينيّة ـ النورمانديّة. قالت لي سيدتي (ويقصد السيّدة «ڤيردوران» مع أنه لا يجرؤ على النظر إليها) إنّك تعرف كلّ هذه الأشياء. أفليس هذا بالضبط وقتها؟» فقاطعته السيّدة «ڤيردوران» إذ رأت أن العشاء لا ينتهي: «لا، إنمّا الوقت وقت طعام». فأجاب الاسكندنافيّ يُطأطىء الرأس في قصعته بابتسامة حزينة مستسلمة: «حسن إذا؛ ولكنّما يجدر بي أن أُلفت سيّدتي إلى أني إن سمحت لنفسي بهذا الاستقصاء ـ عفوك بهذا «الاستسآل»(٢) ـ فلأنّي ينبغي أن أعود إلى باريس للعشاء «لدى» البرج الفضيّ أو «لدى» فندق

(١) الاسم اللاتيني للشجرتين المذكورتين، كما هو أمر sylva التالي ويعني الغابة.
(٢) نصح بين مزدوجتين ماكان من قبيل الأخطاء التي يرتكبها الفيلسوف النرويجي.

«موريس». إن زميلي ـ الفرنس ـ السيّد «بوترو» سوف يحدّثنا في أثنائه عن جلسات مناجاة الأرواح ـ عفوك عن «الاستحضارات الروحية» –التي «ترقّبها». فقالت السيّدة «ڤيردوران» بادية الضيق: «هذا البرج الفضيّ ليس طيّباً مثلما يقولون، حتّى إنّي أقمت فيه حفلات مقيتة». –«ولكن هل أنا مخطئ، أو ليس الطعام الذي نأكله في منزل سيّدتي من أفخر مايقدّم في المطبخ الفرنسيّ؟» وأجابت السيّدة «ڤيردوران» وقد هدأت نفسها: «يا إلهي ليس شيئا تماماً وإذا جئت يوم الأربعاء القادم فسيكون أفضل». –«ولكنّي ذاهب الاثنين إلى مدينة الجزائر ومن هناك أتوجّه إلى «الرأس». وعندما أكون في «رأس الرجاء الصالح» فلن يتسنى من بعد لقاء زميلي الذائع الصيت ـ عفوك لن يتسنّى لي من بعد لقاء زميلي في العمل». وبعدما قدّم هذه الأعذار بعد الأوان أخذ يأكل طائعاً بسرعة مدوّخة. لكنّ «بريشو» كان يفيض سعادة إذ تسنّى له أن يقدم أصولاً نباتيّة جديدة وأجاب فأثار اهتمام النروجي إلى حدّ أنّ هذا الأخير كفّ ثانية عن الأكل ولكن وهو يومئ بأنّهم يستطيعون رفع قصعته الملأى والانتقال إلى الطبق الثاني وقال: «إن أحد الأربعين يدعى «هوسيّه» (Houssaye) من المكان المزروع بنبـات «شـرّابة الراعي» (houx)؛ وإنّك واجـد في اسم ديبلومـاسيّ رقـيق هو «دورمـيـسّـون» (d'Ormesson) شجرة الدردار (l'orme) وهي اللاتينيّة «Ulmus» العزيزة على قلب «ڤيرجيليوس» والتي أعطت اسمها لمدينة «أولم» (Ulm)، وفي اسم زملائه السيّد «دولا بوليه» شجرة السَّندر (le bouleau) والسيد «دونيه» (d'Aunay) شجرة جار الماء (l'aulne) والسيد «دوبوسّيير» (de Bussière) شجرة الشمشاد (le buis) والسيد «ألباريه» خشب الشكير (l'aubier) واعتزمت أن أقول ذلك لـ «سيليست» والسيد «دوشوليه» (de Cholet) الملفـوف (le chou) وشجرة التفّاح في اسم السيّد «دولاّ پومريّه» (de la Pommeray) الذي سمعناه يُحاضر، هل تذكر ذلك يا «سانييت»، في الفترة التي أرسل فيها «پوريل» الطيّب قنصلاً في إقليم «أوديونيا» في أقاصي الدنيا؟» ولدى سماع اسم «سانييت» على لسان «بريشو» رمى السيّد «ڤيردوران» زوجته و«كوتار» بنظرة ساخرة أفقدت الخجول رباطة جأشه. وقلت لـ «بريشو»: «كنت تقول إن «شوليه» مشتقّة من «Chou» (ملفوف). فهل المحطّة التي مررت فيها قبل الوصول إلى «دونسيير» واسمها «سان فريشو» «Saint-Frichoux» مشتقة أيضا من «Chou»؟ –«لا، «سان فريشو» هي «Sanctus Fructuosus» مثلما «Sanctus Ferreolus» أعطتنا «سان فارجو» (Saint-Fqrgeau) ولكنّها ليست نورمانديّة على الأطلاق». وقوقأت الأميرة بصوت خافت: «إنّه «يعلف» «الكثيل» من الأمور ويزعجنا». –«هناك الكثير مما يستهويني من أسماء أخرى ولكنّي لا أستطيع أن أسألك كلّ شيء مرّة واحدة.» ثمّ استدرت صوب «كوتار» قائلاً: «هل السيدة «پوتبوس» حاضرة؟» فأجابت السيّدة «ڤيردوران» وكانت سمعت سؤالي: «لا، حمداً لله، فقد جهدت في حرف أيّام اصطيافها وجهة البندقية وتخلّصنا منها في هذا العام». وقال السيّد «دوشارلوس»: «سيكون لي الحقّ أنا بشجرتين، فقد حجزت لي تقريباً بيتاً صغيراً بين «سان مارتان دوشين» (Saint-Martin-du-Chêne) و«سان بيير ديزيف» (Saint-Pierre-des-Ifs)(١). «ولكنّ المكان قريب جداً من هنا، فآمل أن تجيء كثيراً برفقة «شارلي دوموريل» وما عليك سوى الاتفاق ومجموعتنا الصغيرة فيما يخصّ القطارات، فإنّك على خطوتين من «دونسيير»، تقول السيّدة «ڤيردوران» التي كانت تكره أن لايجيئوا على القطار نفسه وفي الساعات

(١) Chêne تعني سنديان و if تعني سرو، وهو ما يفسّر حتّى «دو شارلوس» بشجرتين.

التي تبعث فيها بعربات. كانت تعلم كم الصعود قاس إلى «لاراسپليير» حتّى بسلوك دروب دائريّة من خلف «فيتيرن» ممّا يستبحرّ نصف ساعة تأخير، وتخشى أن لا يجد من ينفردون بالمجيء عربات تقلّهم أو أن يمكنهم، وقد مكثوا بالحقيقة في بيوتهم، أن يحتجّوا بأنّهم لم يلقوا عربات في «دوڤيل-فيتيرن» وأنّهم لم يؤانسوا من ذواتهم القوّة لسلوك مثل تلك الطريق الصاعدة سيراً على الأقدام. واكتفى السيّد «دوشارلوس» بانحناءة صامتة للردّ على هذه الدعوة. «إنّه لابدّ غير سهل في سلوكه اليوميّ وهو بادي الانزعاج»، يقول الدكتور همساً لـ«سكي»، وقد ظلّ شديد البساطة على الرغم من طبقة استكبار سطحيّة فلا يحاول إخفاء أنّ «شارلوس» كان يعامله بفوقيّة. «إنّه يجهل دون شك أن الأطبّاء في مدن الحمّامات جميعها وحتّى في العيادات في باريس، وأنا بالطبع «المعلّم الكبير بالنسبة إليهم، يصرّون على شرف تقديمي لسائر النبلاء الحاضرين والذين يحرجون أماني». وأضاف قوله بلهجة مستخفّة: «وذلك يجعل الاقامة في مراكز الحمّامات ممتعة إلى حدّ بالنسبة إليّ، بل انّ الرائد في الكتيبة في «دونسيير» وهو طبيب آمر اللواء المعالج، دعاني للغداء معه وهو يقول لي إنني في مركز من هو أهل لتناول العشاء مع الجنرال. والجنرال هذا سيّد من النبلاء. ولست أدري إن كانت وثائقه أكثر أو أقلّ قدماً من وثائق هذا البارون». وأجاب «سكي» بصوت خافت: «لا تأخذك الحميّة فإنّه تاج هيّن جدّاً»؛ وأردف يقول شيئاً غامضاً ومع فعل ميّزت فيه فحسب المقطعين الأخيرين «arder» إذ كنت مشغولاً بسماع ماكان «بريشو» يقوله للسيّد «دوشارلوس». «لا، ليس لديك على الأرجح، ويؤسفني قول ذلك، إلا شجرة واحدة، فلئن كانت «سان مارتان دوشيف» فهي بالتأكيد «Sanctus Martinus juxta quereum»(١)، فيمكن أن تكون لفظة «if» بالمقابل مجرّد الجذر ave, eve الذي يعني «رَطْب» كما هو شأن «أڤيرون» (Aveyron) و«لوديڤ» (Lodeve) و«إيڤيت» (Yvette) والذي تراه بعد قائماً في المجال في مطابخنا (eviers) إنّه الماء الذي يدعى في اللغة البريتانية «ستير» (Ster) ,Ster- en- dreuchen,Stermaria. «Sterlaer, Sterbouest» ولم أسمع الخاتمة إذ مهما تكن المتعة التي كنت أصبتها من سماع اسم «ستيرماريا» مجددا كنت اسمع على الرغم منّي «كوتار» الذى كنت بالقرب منه يقول لـ«سكى» بصوت خافت جدّاً: «آه! ما كنت أعلم. فهو إذا سيّد يعرف كيف يتدبّر أمره في الحياة. ويحك! إنه من الجماعة! وليس له مع ذلك عينان بحواسٍ من «الجمبون»(٢). ينبغي أن أنتبه لقدميّ تحت الطاولة، فلن يلزمه إلاّ أن يقرص نيابة عنّي. ولا أتعجّب على أيّة حال كلّ العجب من ذلك؛ فإنني أشاهد عدّة نبلاء في الحمّام بحلّة آدم وهم منحلّون أخلاقيّاً بمقادير تكثر أو تقلّ وإنني لا أتحدّث إليهم لأني موظّف باختصار القول ويمكن أن يؤذيني ذلك. ولكنهم يعلمون تمام العلم من أنا. أمّا «سانييت» الذي أفزعته المناداة عليه من جانب «بريشو» فقد أخذ يتنفّس الصعداء شأن من يخشى العاصفة ويتبين أن البرق لم يعقبه أي صوت للرعد حينما سمع السيّد «ڤيردوران» يسأله فيما يسمّر عليه نظرة لا تترك المسكين وشأنه مادام يوالي الحديث كيما يفقده في الحال رباطة جأشه ولايدع له أن يعود إلى صوابه. «ولكنّك أخفيت عنّا دائماً أنّك تتردّد عل حفلات العصر في مسرح «أوديون» يا «سانييت»؟ «فأجاب «سانييت» وهو يرتجف كمجنّد في حضرة رقيب مشاكس ويضفي

---

(١) القديس مارتينوس الذي بجانب السنديانة.

(٢) لحم الخنزير.

على جملته أصغر الأبعاد الممكنة كي تتوافر لها أحسن الحظوظ في تجنّب الضربات: «مرّة واحدة إلى «الباحثة». وصاح السيّد «فيردوران» بأعلى صوته: «ما الذي يقوله؟» صاح بهيئة المشمئزّ الساخط وهو يقطّب الحاجبين وكأنّما لا يكتفي بكامل انتباهه ليفهم أمراً يمتنع على الإدراك. «ليس يفهم المرء بادئ الأمر ما تقول فما الذي في فمك»، يقول السيّد «فيردوران» متزايد العنف ملمّحاً إلى عيب التلفّظ لدى «سانييت». فقالت السيّدة «فيردوران» بلهجة الإشفاق الكاذب وكي لا تدع لأحد أن يشكّ في المقصد الوقح الذي يبيّته زوجها: «يا لـ«سانييت المسكين»، لا أريد أن تجعل منه رجلاً تعيساً.» «كنت في البـ...» –«بـ...بـ... بـ...»، يقول السيّد «فيردوران»، «حاول أن تتكلّم بوضوح، فإني حتّى لا أسمعك». لم يكن أحد من الخلّص تقريباً يملك نفسه عن القهقهة ويبدون وكأنّي بهم زمرة من آكلي لحوم البشر أيقظ فيهم جرح أحد البيض شهوة الدم. ذلك لأن غريزة التقليد وغياب الشجاعة إنمّا يحكمان المجتمعات مثلما يحكمان الجماهير. والجميع يضحكون ممّن يرون الناس يضحكون منه، على أن يجلّوه بعد عشر سنوات في منتدى هو فيه موضع إعجاب. وإنمّا يطرد الشعب الملوك أو يرحّب بهم بالطريقة نفسها. وقالت السيّدة «فيردوران» «ليس الذنب ذنبه ويحك.» –«وليس ذنبي أنا أيضاً؛ والناس لا يتناولون عشاءهم في المدينة حينما لا يستطيعون النطق من بعد». –«كنت في «الباحثة عن الفكر» لـ«فافار». –«ماذا؟ أهي «الباحثة عن الفكر» التي تسمّيها «الباحثة»؟ آه! ذلك رائع، كان يمكن أن أبحث مئة عام دون أن أجد»، يقول السيّد «فيردوران» صارخاً، مع أنّه كان حكم من المرّة الأولى أنْ ليس أحدهم مثقّفاً وفناناً و«ليس من الجماعة» لو سمعه يقول العنوان الكامل لبعض المؤلّفات. كان ينبغي عل سبيل المثال أن يُقال «المريض» أو «البورجوازي» ولعلّ من يضيفون «بالوهم» أو «النبيل» لعلّهم كانوا برهنوا على أنّهم غرباء عن «الدار»، مثلما يبرهن أحدهم في منتدى على أنّه ليس من المجتمع الراقي إن قال: السيّد «دومونتسكيو –فزنزاك» بدلاً من السيّد «دومونتسكيو». وقال «سانييت» فاقد الأنفاس جرّاء انفعاله ولكنّه يبتسم مع أنّه غير راغب في ذلك: «ولكن ليس الأمر خارقاً إلى هذا الحدّ». وصاحت السيّدة «فيردوران» مقهقهة وقد ثارت ثائرتها: «بلى، وتيقّن أنه مامن أحد في العالم كان استطاع أن يحزر أن الأمر يعني «الباحثة عن الفكر». وعاد السيّد «فيردوران» يقول بصوت رقيق موجّهاً حديثه لـ«سانييت» و«بريشو» معًا: إنّها لمسرحية جميلة على أية حال هذه «الباحثة عن الفكر». وقد أولت هذه الجملة البسيطة التي قيلت بلهجة جديّة ولا تجد فيها أثراً لخبث، أولت «سانييت» فائدة وأثارت في نفسه مقداراً من الامتنان يساوي ما تثيره مجاملة. ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة وصمت صمتاً تغمره السعادة. وكان «بريشو» أكثر كلامًا فأجاب «فيردوران» قائلاً: «هذا صحيح، وإن عددناها من أعمال مؤلّف Sarmate أو اسكندنافي أمكن أن نرشّح «الباحثة عن الفكر» لموقع الرائعة الأدبية، وهو شاغر. ولكن دعنا نقول دون أن نسيء إلى روح «فافار» الطيّب إنه لم يكن «إيبسنيّ»(١) المزاج. (وكسته الحمرة في الحال حتّى أذنيه إذ فكّر بالفيلسوف النروجيّ الذي كان يبدو تعيساً لأنّه يحاول عبثاً أن يعرف أيّ بنات يمكن أن تمثّله شجيرة الشمشاد التي ذكرها «بريشو» منذ قليل بخصوص «بوسّيير»). وبما أنّ مرزبة «پوريل» هي بأية حال مشغولة الآن من جانب موظّف

(١) نسبة إلي الكاتب الشهير هنريك إبسن (Henrik Ibsen).

من أتباع «تولستوى» المتشدّدين فمن الممكن أن نشاهد «آنا كارنينا» و«القيامة» تحت سقف الـ«أوديون» (١).
وقال السيّد «دوشارلوس»: «إنيّ أعرف رسم «فافار» الذي تودّين الحديث عنه. لقد رأيت صورة جميلة جدّا له في منزل الكونتيسّه «موليه». وخلّف اسم الكونتيسّه «موليه» انطباعاً شديداً في نفس السيّدة «ڤيردوران» فصاحت قائله: «آه! إنّك تزورالسيّدة «دوموليه». كانت تظنّهم يقولون «الكونتيسّة موليه» و«السيّدة موليه» لمحض الاختصار مثلما كانت تسمعهم يقولون آل«روهان» أو بداعي الازدراء مثلما تقول بدورها «مدام لاتريمواي».
وما كان يخالجها أيّ شكّ بأن الكونتيسّة «موليه»، وهي تعرف ملكة اليونان والأميرة «دوكاپرارولا»، لا يدانيها أحد في استحقاقها للحرف «دو» (de)(٢) وكانت عازمة هذه المرّة على إطلاقها على شخصيّة متألّقة إلى هذا الحدّ وسبق أن أبدت لها الكثير من اللطف. ولذلك عادت تقول كيما تبرز أنهّا إنمّا تكلّمت على ذاك النحو قاصدة، وماكانت تتردّد فى منح الكونتيسّة حرف الـ«دو»: «ولكنّى ما كنت أعلم على الإطلاق أنّك تعرف السيّدة «دو» موليه!» كما لو كان ثمّة غرابة مزدوجة: أن يكون السيّد «دوشارلوس» عرف تلك السيّدة وأن لا تعرف السيّدة «ڤيردوران» أنّه يعرفها. ولكنّما يؤلّف العالم، أو على الأقلّ ما كان السيّد «دوشارلوس» يطلق عليه تلك التسمية، كلاً متجانساً نسبياً ومغلقاً فبقدر ما تدرك بسهولة أن يقول محام فى خضمّ البورجوازية المتباين لواحد يعرف أحد رفاقه فى المدرسة الثانوية: «ولكن كيف تعرف فلاناً ويحك؟» يكاد استغرابك فى المقابل من أن يعرف فرنسيّ معنى لفظة «معبد» أو «غابة»، يكاد لا يكون أكثر غرابة من أن تعجب بالمصادفات التى أمكن أن تجمع بين السيّد «دوشارلوس» والكونتيسّه «موليه». أضف إلى ذلك أنّه حتّى لو لم تنجم مثل تلك المعرفة بصورة طبيعيّة عن القوانين المجتمعيّة وكانت ثمرة المصادفة فكيف يكون غريبا أن تجهل السيّدة «ڤيردوران» الأمر وهى ترى السيّد «دوشارلوس» أوّل مرّة وما أبعد أن تكون علاقاته بالسيّدة «موليه» الشىء الوحيد الذي لا تعلمه فيما يتّصل به هو الذى ما كانت والحقّ يقال تعرف عنه شيئا؟ وسأل السيّد «فيردوران» يقول: «من ذا الذى كان يمثل هذه «الباحثة عن الفكر» يا صغيرى «سانييت»؟ «وتردّد أمين المحفوظات السابق فى الإجابة مع أنّه أحسّ العاصفة مرّت. «ولكنّك إلى ذلك تلقي الرعب في فؤاده، تقول السيّدة «فيردوران»، فإنّك تسخر من كلّ ما يقول ثم تريده أن يجيب». وأردفت السيّدة «ڤيردوران» وهى تلمّح بخبث إلى الخربة التى قذف «سانييت» بنفسه فيها ومراده إخراج زوجين من أصدقائه منها: «قل من كان يمثّلها وسوف تعطى هلاميّة جاهزة تحملها معك». فقال «سانييت»: «أذكر فقط أن السيّدة «ساماري» كانت تقوم بدور «لازيربين».
وصرخ السيّد «ڤيردوران» كأنمّا ثمّة حريق: «لا زيربين؟ أيّ شىء هو هذا؟» –«إنهّا عادة مستقاة من المجموعة المسرحيّة المعدّة للتمثيل، خذ مثلاً فى «الكابتن فراكاس»، كأن تقول «ترانش مونتانيى»(٣) والمتحذلق».
وصاح السيّد «ڤيردوران» قائلاً: «آه! إنمّا المتحذلق أنت. «لازيربين»! لا، إنّه مختلّ العقل». ونظرت السيّدة «ڤيردوران» إلى مدعوّيها ضاحكة كأنمّا لتجد العذر لـ«سانييت». «لازيربين» يتصوّر أن الجميع يعرفون فى الحال ماعسى يعنى ذلك. إنّك مثيل السيّد «لونجپيير» الرجل الأكثر غباء ممّن عرفت والذى كان يقول لنا يومذاك، قول من ألف الأمر، الـ«بانات». ولم يعرف أحد عمّا يبغى التحدّث. وعلم القوم أخيراً أنها مقاطعة

(١) أحد المسارح الباريسية.
(٢) هو الحرف الذي يسبق ءسماء النبلاء في فرنسا، وهذه الأسماء مأخوذة بعامة من القصور أو الإقطاعات المختلفة.
(٣) أي قاطع الجبل.

من «صربيا». وبغية وضع حدّ لعذاب «سانييت» الذى كان يؤلمنى أكثر منه سألت «بريشو» إن كان يعلم ما تعنيه «بالبيك» فقال لى: «بالبيك على الأرجح صيغة مشوهة لـ«دالبيك». وربمّا انبغى أن نستطيع الاطّلاع على صكوك ملوك انكلترة، وهم سادة «نورمانديا»، لأن «بالبيك» كانت تابعة لبارونيّة «دوڤر» وغالباً ما كانوا يقولون بسبب ذلك «بالبيك ما وراء البحر» و«بالبيك اليابسة». ولكن بارونيّة «دوڤر» كانت تخضع بدورها لأسقفيّة «بايّو»، وعلى الرغم من الحقوق التى كانت لفرسان الهيكل مؤقّتا على الدير بدءاً من «لويس داركور» بطريرك القدس وأسقف «بايّو» فإن أساقفة هذه الأبرشيّة هم الذين تولّوا توزيع ريوع أملاك «بالبيك». ذلك ما شرحه لى عميد «دوڤيل»، وهو رجل أصلع بليغ خياليّ ذوّاق يعيش فى طاعة «برياسڤاران» وقد عرض لى بعبارات غامضة بعض الشيء نظريات تربويّة محيّرة فيما يطعمنى أروع البطاطا المقليّة». وفيما كان «بريشو» يتبسم ليظهر ما كان من ظرف فى جمع أشياء متباينة إلى هذا الحدّ وفى استخدام لغة رفيعة المستوى وضحكة للتعبير عن أمور مألوفة، كان «سانييت» يحاول الإتيان بنكتة يمكن أن تنتشله من سقطته القريبة. والنكتة كانت ما يدعونه بـ«التقريبيّ» ولكنهّا بدّلت شكلها لأن ثمّة تطوّراً فى النكات اللفظية كما هي الحال بالنسبة إلى الانواع الأدبيّة والأوبئة التي تزول اذ تحلّ أخرى محلّها، الخ. وكان شكل «التقريبيّ» فيما مضى «القمّة»، ولكنّها كانت متقادمة العهد وليس من يستخدمها من بعد ولم يظلّ سوى «كوتار» ليقول أحياناً في أثناء لعبة ورق: «أتعلمون ما هي قمّة شرود الذهن؟ أن تأخذ مرسوم «نانت» على أنه امرأة انكليزيّة»(١). ثمّ إن لفظة القمّة استبدلت بها الألقاب وقد لبثت في الأساس «التقريبيّ» القديم ولكن لم يكن أحد ينتبه للأمر إذ كان اللقب شائعاً في حينه. وحينما كانت تلك «التقريبيّات»، لسوء حظّ «سانييت»، من غير وضعه وهى عادة مجهولة لدى النواة الصغيرة، كان يلقيها بلهجة خجولة إلى حدّ أن لم يكن أحد يفهمها على الرغم من الضحكة التى يذيّلها بها لإبراز طابع الدعابة فيها. فإن كانت الكلمة على العكس من وضعه، وإذ كان وجدها بعامّة وهو يتحدث إلى أحد الخلّص فردّدها هذا وقد خصّ نفسه بها فقد كانت حينذاك معروفة ولكن لا على أنهّا من وضعه. ولذلك كانوا حينما يهمس بواحدة منها يتعرّفونها ولكنّهم يتهمونه بالتقليد لأنّه هو واضعها.
وأردف «بريشو» يقول: «إذن، «بيك» فى اللغة النورمانديّة تعني «ساقية». وهناك دير الـ«بيك» و«موبيك» أي ساقية المستنقع («مور» أو «مير» كانت تعنى المستنقع كما هي الحال في «موڤيل»أو في «بريكمار» و«ألڤيمار» و«كامبرمير»)؛ و«بريكبيك» وهى ساقية المرتفع واشتقّت من «بريغا» (Briga) أي المكان المحصّن، كما هي حال «بريكڤيل» و«بريك بوسك» و«لوبريك» و«بريان»، أو من «بريس» (Brice) أى الجسر وهي ذات «بروك» (Bruck) الألمانية «إنسبروك» و«بريدج» (bridge) الانكليزية التي ترد فى الكثير من أسماء المكان (كامبريدج، الخ.) لديك أيضاً «نورمانديا» عدد آخر كبير من اشتقاقات «بيك»: «كودبيك» «بولبيك»، «لوروبيك»، «لوبيك هيلوان» «بيكريل». وتلك هي الصيغة النورمانديّة التي تقابل الألمانية «باخ» (Bach)، مثل «أو فنباخ و«آنسباخ». و«ڤاراغبيك» جاءت من كلمة «ڤارينيى» المساوية لـ«غارين» (garenne) أي

(١) تلاعب لفظي لامجال لردّه، أما مرسوم «نانت» الشهير هو الذي أصدره هنري الرابع عام ١٥٩٨ ويقرّ فيه حرية المعتقد للبروتستانت وللتقريب يمكن كتابة l'Edit de Nantes بالعربية «ليدي دو نانت» أو «الليدي دونانت» للتمكن من فهم التلاعب اللفظي Lady Denant.

الأحراج والمستنقعات المحميّة». وعاد «بريشو» يقول: «أمّا «دال» (dal) فهي شكل من «تال» (thal) أي الوادي: «دارنتال» و«روزندال» وحتّى بالقرب من «لوڤييه» «بيكدال». أمّا النهر الذي أورث «دالبيك» اسمها فرائع. فإن شاهدته من جرف (falaise) (وهي fels الألمانية، بل لديك، على مسافة غير بعيدة من هنا وفوق مرتفع، مدينة «فاليز» الجميلة)، فإنّه يجاور سهميّ قباب الكنيسة، وهي واقعة في الحقيقة على مسافة بعيدة، ويبدو كأنّما يعكسهما في مياهه». فقلت: «ذلك ما أعتقد، فإنه من الموثرات التي يحبها «ايلستير» كثيراً، وقد رأيت منها عدّة خطيطات في منزل». وصاحت السيّدة «ڤيردوران»: «ايلستير! أتعرف «تيش»؟ تدري أني عرفته بأحسن ما تكون الألفة. شكراً لله أني لا أراه من بعد. ولكن لا، هيّا اسأل «كوتار» و«بريشو» فقد كان مكانه معدّاً على مائدتي وكان يجيء كلّ يوم. ذاك واحد يمكن أن تقول إن هجره لنواتنا الصغيرة لم يكن خيراً عليه. سأريك عمّا قليل أزهاراً رسمها من أجلي، وسترى أيّ فارق بينها وبين ما يفعل اليوم ولا أحبّه على الإطلاق، أقول على الإطلاق! كيف ذلك! لقد طلبت إليه أن ينفذ رسماً لـ«كوتار»، ولا أُدخل في الحساب كلّ ما فعله من رسوم لي». -«وكان قد جعل للأستاذ شعراً بنفسجياً»، تقول السيّدة «كوتار» وقد فاتها أنّ زوجها لم يكن حتّى يحمل «الأكريكاسيون» آنذاك (١). «لست أدري يا سيّدي إن كنت تجد لزوجي شعراً بنفسجياً». فقالت السيّدة «ڤيردوران» وهي ترفع ذقنها بهيئة المزدري للسيّدة «كوتار» والمعجب بمن كانت تتحدّث عنه: «لا أهميّة لذلك، فقد كان من صنع خبير ألوان كبير ورسام مجيد». وأضافت تقول وقد توجّهت صوبي ثانية: «فيما لا أعلم إن كنت تسمّي فنّاً كلّ هذه التأليفات الغريبة وهذه الأشياء الضخمة التي يعرضها منذ أن كفّ عن المجيء إلى منزلي. إنّني أسمّي ذلك تلطيخاً ورسماً مكروراً، ثم إنّه ينقصه التميّز والشخصيّة فإن فيه كلّ واد عصا». وقال «سانييت» معجلاً وقد تقوّى وردُّه إليه عزيمته من جرّاء ما أبديت من لطف: «إنّه يردّ إلينا رشاقة القرن الثامن عشر ولكن بصورة عصريّة. على أنّي أفضّل «هيلّو». وقالت السيّدة «ڤيردوران»: «لا صلة له البتّة بـ«هيلّو». -«بلى، إنه شيء من الثامن عشر محموم، إنّه «واتّو» بخاري» (٢)، وطفق يضحك. -«آه! معروفة، معروفة تماماً، فهم يأتونني بها من سنين»، يقول السيّد «ڤيردوران» الذي كان «سكي» بالفعل قد روى له ذلك فيما مضى، ولكن على أنّه من صنعه. «يا خيبة حظّك أنّك في المرّة اليتيمة التي تنطق فيها بأمر مفهوم يتّسم بشيء من الغرابة لا أراه من صنعك». وأردفت السيّدة «ڤيردوران»: «يشقّ عليّ ذلك لأنّه كان شخصاً موهوباً، لقد قضى على نفسيّة فنان ملفتة، آه! لو لبث ههنا، فلعلّه كان أصبح أوّل رسّام لوحات طبيعية في عصرنا. وإن ما أوصله إلى هذا الدرك امرأة! ليس يدهشني الأمر على أي حال لأن الرجل كان ممتعاً ولكنه سوقيّ. لقد كان في الأساس قليل الذكاء. وسأقول لك إني أحسست ذلك في الحال، وهو في الأساس لم يثر في يوم اهتمامي. كنت أودّه، لا أكثر. ثم إنّه أولاً، يا لقذارته! أتحب كثيراً، أنت، أناساً لا يغتسلون البتة؟» وسأل «سكي» قائلاً: «أي شيء هو هذا الذي نأكله وهو بمثل جمال اللون هذا؟» فقالت السيدة «ڤيردوران»: «إنّه قشدة بالفريز». -«ولكنه رائع، ولابد أن يصار إلى فتح زجاجات من نبيذ «شاتو مارغو» و«شاتولافيت» ومن «البورتو». -«لا أستطيع أن أقول لك كم يضحكني، فإنّه لا يشرب إلاّ الماء»، تقول السيّدة

---

(١) شهادة تخصص واسع تلي الإجازة فدبلوم الدراسات العليا. أما لقب الأستاذ فلا يطلق إلاّ على حاملي الدكتوراة من أرباب الكراسي في الجامعات.

(٢) التلاعب اللفظي لا يظهر إلاّ بالفرنسية (boteau à vafeur) مركب بُخاري و (Watteau à vapeur)

«فيردوران» كي تخفي ستار المتعة التي تلقاها في هذا السلوك الطريف الهلع الذي يبعثه في نفسها ذاك الاسراف فأردف «سكي» قائلاً: «ما ذلك لغاية الشراب، بل تملؤون بها كؤوسنا جميعاً ويأتوننا بثمرات درّاق رائعة وزليقات ضخمة، هنا قبالة الشمس الغاربة، وستكون وفرة ألوان كمثل لوحة جميلة لـ«ڤيرونيز»». وقال السيّد «ڤيردوران» همساً: «وتكلّف ما تكلفه اللوحة تقريباً.» ولكن ارفعوا هذه الأجبان القبيحة ألوانها»، يقول وهو يحاول انتزاع قصعة ربّ المنزل الذي دافع عن حصّته من جبنه «الغروييَر» بكامل قواه. وقالت السيّدة «فيردوران»: «أنت تدرك أنّي غير آسفة على «ايلستير»، فإن هذا حبته الطبيعة أكثر من ذاك. إن «ايلستير» يعني العمل، الرجل الذي لا يقوى على هجر رسمه حينما يرغب في ذلك. إنه التلميذ المجدّ ووحش المباريات أمّا «سكي» فلا يعرف سوى نزواته، وتراه يشعل سيكارته في أثناء عشائه وقال «كوتار»: «لست أعلم في الواقع لماذا لم تودّي استقبال زوجته، إذا لكان هنا كما في السابق». -«قل ويحك، هلاّ كنت مهذّبا يا أنت؟ فلست استقبل مومسات يا سيادة الأستاذ»، تقول السيّدة «فيردوران» وكانت على العكس بذلت ماوسعها من جهد لاسترجاع «ايلستير» حتّى برفقة زوجته. ولكنّها حاولت قبلما يتزوجان أن تزرع الخصام بينهما، فقالت لـ«ايلستير» إن المرأة التي يحبها غبية قذرة طائشة وسبق أن سرقت. ولم تفلح في القطيعة هذه المرّة، وإنما قطع «إيلستير» علاقاته بمنتدى آل«ڤيردوران» وكان يغتبط لذلك كما يبارك المرتدون إلى الإيمان المرض أو النكسة التي دفعتهم إلى الاعتزال وكشفت لهم طريق الخلاص. «إنه لرائع الأستاذ، تقول؛ قل بالأحرى على الملأ إن منتداي بيت لقاءات. لكأني بك لا تعرف ما عسى تكون السيّدة «ايلستير». ولعلني أفضل عليها استقبال أسوأ العاهرات! لا، لا: ليست تلك مشاربي. سأقول لك على أية حال أن لعلّني كنت سأبدي في غض النظر عن المرأة غباء يتزايد بمقدار ما لم يعد الزوج يثير اهتمامي، ذلك انقضى عهده، بل هو لم يعد حتّى رسماً، فقال «كوتار»: «ذلك غريب بالنسبة إلى رجل بمثل ذكائه». فأجابت السيّدة «ڤيردوران»: «لا، لا! ما كان يضايقك، حتّى في الفترة التي كان فيها صاحب موهبة، إذ كان الوغد ذا موهبة بل فيض من الموهبة، أنّه لم يكن ذكياً على الاطلاق». على أنّ السيّدة «فيردوران» لم تنتظر لتطلق هذا الحكم على «ايلستير» اختصامهما وغياب حبّها لرسمه ذلك أنّه كان يتّفق، حتّى في الفترة التي كان فيها في عداد المجموعة الصغيرة، أن يقضي «إيلستير» أياماً كاملة بصحبة امرأة كانت السيّدة «ڤيردوران» بحق أو بغير حقّ تجدها غبية، وما كان ذلك برأيها من فعل رجل ذكي. ثم قالت بلهجة المنصف: «لا. اعتقد أنه وزوجته خلقا على أكمل وجه ليناسب أحدهما الآخر، ويعلم الله أني لا أعرف امرأة على وجه البسيطة أبعث على الملل منها وأنني قد يأخذني أشدّ الحنق لو انبغى أن أمضي ساعتين معها. ولكنما يقال إنّه يجدها ذكية جداً ذلك أنّه لابّد من الإقرار بأنّ «تيشيه» كان على وجه الخصوص مفرط الغباء! فقد رأيته تدهشه نساء لا تتصورها، بلهاوات ساذجات ما كنّا لنقبل بهنّ البتة ضمن عشيرتنا الصغيرة والعجيب أنّه كان يكتب إليهنّ ويناقشهن هو «ايلستير»! لكن ذلك لايحول دون جوانب ساحرة، آه! ساحرة، ساحرة ورائعة في عبثيّتها بالطبع». ذلك أنّ السيّدة «ڤيردوران» كانت متيقّنة أن الرجال المرموقين حقاً يأتون ألفاً من الحماقات وهي فكرة خاطئة مع أنّها تتضمن شيئاً من الحقيقة. صحيح أن «حماقات» الناس لا تطاق. ولكنّ الخلل الذي لا نكتشفه إلاّ مع الأيّام إنما ينجم عن دخول لطافات في دماغ الإنسان وهو غير معَدّ لها عادة. مما يجعل غرابات الناس الظرفاء باعثة على الحنق، ولكنّما ليس من

أناس ظرفاء إلاّ كانوا من جانب آخر غريبي الأطوار. وقالت لي وقد رأت زوجها يشير إليها بامكان مغادرة المائدة: «هيّا، سيكون بوسعي أن أريك في الحال أزهاره». وعادت تتأبط ذراع السيّد «دوكامبرمير». وودّ السيّد «ڤيردوران» أن يعتذر للسيّد «دوشارلوس» حالما فارق السيّدة «دوكامبرمير» وأن يقدّم له دوافعه وذلك على وجه الخصوص في سبيل متعة التحدث عن هذه الفوارق المجتمعيّة الدقيقة إلى رجل صاحب ألقاب هو مؤقتا أدنى من أولئك الذين كانوا يعينون له المكان الذي يحكمون أنّه حق له. ولكنّه حرص بادئ الأمر أن يُبدي للسيّد «دوشارلوس» أنّه يضعه على الصعيد الفكريّ في مرتبة أرفع من أن يظنه قادراً على الالتفات إلى هذه التفاهات. وبدأ يقول: «عفوك أني اكلمك عن هذه التوافه لأني أفترض أنّك لا تقيم لها وزنا. العقول البورجوازية تأبه بها، فأمّا الآخرون، الفنانون، الناس الذين هم حقّا من الجماعة فلا يلتفتون إليها. وإني منذ الكلمات الأولى التي تبادلناها أدركت أنّك منها». أمّا السيّد «دوشارلوس» الذي كان يولي هذه العبارة معنى شديد الاختلاف فقد انتفض مرتعشاً. فإن صراحة «المعلّم» المهينة، في أعقاب غمزات الدكتور، كانت تقطّع أنفاسه. وأردف السيّد «ڤيردوران» يقول: «لا ترفع صوتك بالاحتجاج أيّها السيّد العزيز، فإنّك منها، فانّك منها، ذلك واضح وضوح الشمس. لاحظ أني لا أعرف إن كنت تمارس أيا من الفنون، ولكن ليس الأمر ضروريا وليس يكفي دائماً «دوشامبر» الذي قضى نحبه منذ قليل كان يعزف على الوجه الأكمل وبالآلية الأكثر متانة ولكنّه لم يكن منها؛ كنت تحسّ في الحال أنّه ليس منها و«بريشو» ليس منها. أمّا «موريل» فمنها، وزوجتي منها، وأحسّ أنّك منها...» وقاطعه السيّد «دوشارلوس» وقد شرع يطمئن إلى ما يرمي إليه السيّد «ڤيردوران» ولكنّه يفضّل أن يخفّف من الصراخ بتلك الأقوال المزدوجة المعاني: «ماذا كنت تزمع أن تقول لي؟» فأجاب السيّد «فيردوران»: «لقد وضعناك إلى اليسار فقط». وردّ السيّد «دوشارلوس» بابتسامة متفهمة بسيطة وقحة: «لا عليك! فلا أهميّة البتّة لذلك، هنا!» وأطلق ضحكة خفيفة كان يتميز بها ـ ضحكة يُرجّح أنها انتقلت إليه من جدّة من «بافار» أو «اللورين» وقد ورثتها بدورها مماثلة تماماً لذاتها من جدّة لها فكانت تجلجل هكذا دونما تغيير منذ عدد لا بأس به من القرون في البلاطات الأوروبية الصغيرة العتيقة ويتذوقون نوعيّتها الثمينة كما هي حال بعض الآلات القديمة الشديدة الندرة. فهناك أوقات ينبغي فيها، بغية رسم أحدهم رسماً متكاملا، أن تقترن المحاكاة الصوتية بالوصف، وربما جاء وصف الشخصية التي يصطنعها السيّد «دوشارلوس» ناقصاً بسبب غياب هذه الضحكة الصغيرة الرقيقة الخفيفة كمثل بعض متتابعات لـ«باخ» لا يجري في يوم ردّها ردّا دقيقاً لأن الأوركسترات تفتقر إلى تلك «الأبواق الصغيرة» ذات الجرس الخاصّ جداً والتي كتب لها المؤلفّ هذا القسم أو ذاك. وقال السيّد «ڤيردوران» المجروح موضحاً: «ولكنّ ذلك متعمدّ؛ على أنّي لا أُولي ألقاب النبلاء أيّة أهميّة»، يضيف قوله بتلك الابتسامة المتعالية، حيال جدتي وأمي، والتي رأيت كثيرين ممّن عرفت يتخذونها إزاء الأشياء التي لا يملكونها، في حضرة من لن يسعهم والحالة هذه، فيما يعتقدون، أن يجعلوا منها أداة تفوّق عليهم. «ولكن بما أن السيّد «دوكامبرمير» حاضر بالضبط هنا وهو مركيز وأنت بارون فحسب...» وردّ السيّد «دوشارلوس» باستعلاء على السيّد «ڤيردوران» الذي أخذته الدهشة: «اسمح لي، فإنيّ إلى ذلك دوق «برابان» وفتى «مونتارجيس» وأمير «أوليرون» و«كارانسي» و«ڤياريجيو» و«دون». على أن ذلك لا يهمّ على الإطلاق، فلا تعذّب نفسك»، يضيف قوله وهو يستعيد ابتسامته الرقيقة التي اشرقت على وقع هذه الكلمات

الأخيرة: «لقد تبينت في الحال أنك لم تتعود هذه الأمور».

وجاءت إلى السيّد «فيردوران» لتريني أزهار «ايلستير». ولئن أولاني فعل الذهاب في المدينة، وقد اضحى منذ زمن طويل ذي شأن في نظري، لئن أولاني على العكس، بالشكل الذي كان يجدّده كلياً، شكل رحلة على امتداد الشاطئ يعقبها صعود بالعربة إلى ارتفاع مئتي متر فوق البحر، نوعاً من النشوة، فإن هذه لم تتلاش في «لاراسبليير». وقالت لي «المعلمة «هاك، انظر إلى هذا»، وهي تدلني على وردات لـ«ايلستير» ضخمة رائعة ولكن حمرتها القرمزية الناعمة وبياضها المندوف كانا يعطيان بروزاً على بعض إفراط في شكلها القشديّ فوق حامل الأصص الذي وضعت عليه. «أتظنّه يملك بعدُ يداً على قدر من المهارة ليلتقط كلّ هذا؟ وأيّة قوّة فيه! ثم إن هذا جميل كمادّة أوّلية وقد يشوقك أن تتقرّاه لمساً. لا أستطيع أن أقول لك كم كان يفرحني أن أراه يرسمها، إذ كنت تحسّ أنّه مهتمّ بالبحث عن هذا الأثر الذي تخلّفه». وتوقفت نظرة المعلّمة حالمة على حاضر الفنّان هذا الذي تُختَصر فيه لا موهبته العظيمة فحسب، بل صداقتهما الطويلة التي لم تلبث حيّة إلاّ في هذه الذكريات التي ورثتها عنه. فقد كان يخيّل إليها أنها ترى من جديد، خلف الأزهار التي قطفها فيما مضى من أجلها، اليد الجميلة التي رسمتها صبيحة يوم تنضح نضارة إلى حدّ أنّها استطاعت أن تمثّل الورود، وهي بعد حيّة، ورسْمها، الذي يشبهها إل يحدّ، يتقابلان، في غداء المعلّمة، هذه على الطاولة والآخر المركون على مقعد في قاعة الطعام، قلنا يشبهها إلى حدّ، لأن «إيلستير» لا يقوى على النظر إلى زهرة إلاّ إذا نقلها بادئ الأمر إلى ذاك البستان الداخليّ الذي نضطر إلى المكوث فيه على الدوام. وقد أبرز في هذه اللوحة المائية ظهور الورود التي رآها والتي ما كانت قطّ عُرفت لولاه، حتّى ليمكن القول إنّها كانت نوعاً جديداً أغنى به هذا الرسّام، على نحو مايفعل جنائنّي حاذق، فصيلة الورد. وقالت: «منذ اليوم الذي فارق فيه النواة الصغيرة قضى على الرجل. ويبدو أن حفلات العشاء عندي كانت تضيع وقته وأني كنت أسيء إلى تطوّر عبقريته»، تقول بلهجة ساخرة؛ ورفعت صوتها بحركة مستكبرة: «كما لو أمكن أن لا تكون عشرة امرأة مثلي مفيدة لفنان!» وعلى مقربة منّا همّ السيّد «دوكامبرمير»، وكان جالساً منذ ذاك، همّ إذ رأى السيّد «دوشارلوس» واقفاً يبغي القيام وأن يعطيه كرسيّه. ربمّا لم يكن هذا العرض يوافق في فكر المركيز سوى نية في مجاملة غير محدّدة المعالم. وفضّل السيّد «دوشارلوس» أن يقرن بها الدلالة على واجب يعلم النبيل البسيط أنه يقع عليه الوفاء به تجاه أمير وما ظن بمقدوره تثبيت حقّة في أن يتقدم غيره إلاّ برفضه. لذلك صاح قائلاً: «ولكن كيف يكون ذلك! رجوتك! ما أغربه أمر! لقد اتّسمت لهجة الاحتجاج المتحايلة في عنفها، اتّسمت مذ ذاك بشيء من طابع آل«غيرمانت» برز أكثر فأكثر في الحركة الآمرة اللامجدية الأليفة التي ضغط بها السيّد «دوشارلوس» بكلتا يديه، وكأنما ليرغمه على الجلوس ثانية على كتفي السيّد «دوكامبرمير» الذي لم يكن نهض من مكانه، وألحّ البارون يقول: «عجباً لك ياعزيزي! ما أحوجنا إلى مثل هذا! ليس ما يدعو إلى ذلك! فمثله مقصور على أمراء الأسرة المالكة». لم يتأثر لا آل«كامبرمير» ولا السيّدة «فيردوران» بما أبدى من حماسة إزاء منزلهم. ذلك لأنيّ كنت فاتراً إزاء جمالات يدلونني عليها وأتحمّس لذكريات مبهمة، بل كنت أقرّ لهم أحياناً بخيبة أملي إذ لا أجد ماكان مطابقاً لما سبق أن أثاره اسمه لديّ من تخيّلات. وقد أثرت حفيظة السيّدة «دوكامبرمير» إذ قلت لها إنّي ظننته أكثر طابعاً ريفيّاً. وفي المقابل توقّفت مسحوراً أستنشق رائحة ريح تنسلّ عبر الباب. «أرى أنك تحبّ

مجاري الهواء. ولم يصادف ما أثنيت به على قطعة صقيلة من الحرير الأخضر سُدّ بها لوح زجاج مكسور نجاحًا أوفر، إذ رفعت المركيزة صوتها تقول : «ياللفظاعة!» وطفح الكيل إذ قلت: «كان أعظم فرح أصبته حينما وصلت، فعندما سمعت وقع خطايي في الممرّ لست أعلم في أي مكتب عمديّة قرية تحوى خارطة المنطقة خلتني دخلت». وفي هذه المرّة أدارت لي السيّدة «دو كامبرمير» بحزم ظهرها. وسألها زوجها بالعناية المُشفقة نفسها التي كان اتّخذها لو استعلم كيف احتملت زوجته احتفالاً حزيناً: «لم تجدى في كلّ ذلك سوء ترتيب مفرطاً؟ فثمة أشياء جميلة». ولكن، لما كان سوء الطويّةيجد كلّ شيء قابلاً للانتقاد لدى الذين حلّوا محلّنا ، سواء في شخصهم أو منزلهم حين لا تفرض عليها قواعد ثابتة في الذوق السليم حدوداً حتميّة، فقد قالت :«أجل، ولكنها ليست في مكانها، ثمّ هل هي بمثل هذا الجمال؟». —«لقد لاحظت، يقول السيّد «دوكامبرمير» باغتمام يحدّ منه شيء من الحزم ، ثمّة لوحات لـ«جوي» بانت خيوطها، وأشياء متهرّئة تماماً في هذه الصالة».

—«وقطعة القماش هذه بورودها الضخمة كما هو لحاف فلاّحة»، تقول السيّدة «دوكامبرمير» التي كانت ثقافتها المصطنعة تنطبق حصراً على الفلسفة المثالية والرسم الإنطباعيّ وموسيقى «دو بوسّي». وكي لا يكون الإدعاء باسم البذخ حصراً، بل باسم الذوق أيضًا أضافت: «ثم إنّهم أقاموا صادّات للريح! فأيّ خطأ في الأسلوب! ما عساك تريد هؤلاء الناس لايعرفون وأين عساهم كانوا تعلّموا؟ لابدّ أنّهم تجّار كبار اعتزلوا، وهذا شيء لا بأس به بالنسبة إليهم». وقال المركيز: «لقد بدت لي الشمعدانات جميلة»، دون أن يعلم أحد لماذا كان يستثني الشمعدانات، مثلما كان مايادر دومًا، لا محالة في ذلك ، في كلّ مرّة يجرى الحديث فيها عن كنيسة، سواء أكانت كاتدرائية «شارتر» أو «رانس» أو«أميان» أو كنيسة «بالبيك»، إلى ذكره على أنّه رائع هو: «طاولة الأرغن والمنبر وأعمال الرحمة». «أما الحديقة، فلا داعي للحديث عنها، تقول السيّدة «دوكامبرمير»، إنها لمجزرة، تلك الممرّات التي تمضي كلها بالمقلوب»!

وانتهزت فرصة تقديم السيّدة «فيردوران» القهوة لأبادر إلى إلقاء نظرة على الرسالة التي سلّمني إيّاها السيّد «دوكامبرمير» والتي تدعوني أمّة فيها إلى العشاء. كان الخطّ بهيّن الحبر ذاك يعبّر عن شخصيّة أصبحت منذ الآن معروفة لديّ من بينها جميعاً دون أن تكون حاجة من بعد إلى اللجوء إلى فرضيّة يراعات خاصّة أكثر ممّا يلزم الرسّام ألوان نادرة خفيّة الصنعة ليعبّر بها عن رؤيته الفريدة، ولعل مشلولاً أصيب بفقد الكتابة بعد أزمة قلبية وقُضي عليه أن ينظر إلى الحروف على أنّها رسم دون أن يعرف كيف يقرؤها، لعلّه كان أدرك، حتّى هو، أن السيّدة «دوكامبرمير» تنتمي إلى أسرة عريقة بعث فيها تعاطي الآدآب والفنون الحماسيّ شيئًا من الجوّ الرحب للتقاليد الأرستقراطية؛ وكان حزر أيضًا في أيّة سنوات تقريباً تعلّمت المركيزة في الآن نفسه الكتابة وعزف «شوبان». ذلك كان العصر الذي كان فيه الناس الحسنو التهذيب يتقيّدون بقاعدة التزام اللطف والقاعدة المسمّاة بالصفات الثلاث. وكانت السيّدة «دوكامبرمير» تآلف بين الإثنتين. فما كانت تكفيها صفة مادحة فتتبعها (بعد خطّ صغير) بأخرى ثمّ بثالثة (بعد خطّ ثان). لكنّ ما كان خاصًا بها أنّ تعاقب الصفات الثلاث، خلافاً للهدف الاجتماعي والأدبي الذي ترمي إليه، لم يكن يرتدي في وريقات السيّدة «دوكامبرمير» طابع التدرج الصاعد بل شكل التناقص، فقد نقلت إليّ السيّدة «دوكامبرمير» في هذه الرسالة الأولى أنّها

التقت «سان لو» وقدّرت أكثر من أي وقت مضى صفاته «الفريدة – النادرة – الحقيقيّة» وأنه سيعود مع أحد أصدقائه (ذاك الذي بالضبط كان يحبّ الكَنَة) وأنّي إن وددت المجيء إلى «فيتيرن» برفقتهم أو بدونهم للعشاء فسوف «يفتنها ذلك – يسعدها – يفرحها ». ربّما كان ذلك بسبب أن الرغبة في اللطف لديها لم تكن توازيها خصوبة الخيال وثراء المفردات، وأنّ هذه السيّدة التي تحرص على إطلاق ثلاث صيغ تعجّب لم يكن يتوافر لها من القوّة في الثانية والثالثة سوى صدى ضعيف للأولى، حتى إن اتفق ثمّة صفة رابعة لم يبق شيء من اللطافة الأوليّة. ثمّ إنّ السيّدة «دوكامبرمير» كانت قد تعوّدت، جرّاء بساطة مرهفة لابد أنّها ولّدت انطباعًا ضخمًا في الأسرة وحتّى في دائرة معارفها، أن تستبدل بكلمة «صادق» التي كان يمكن في النهاية أن تبدو كاذبة كلمة «حقّ». وكيما تظهر تمامًا أن الأمر يتعلّق بالفعل بشيء صادق، كانت تكسر الحلف التقليديّ الذي يضع كلمة «حقّ» قبل الإسم وتغرسها بشجاعة بعده. فكانت رسائلها تختتم بالكلمات التالية: «أرجو أن تتأكدوا من ودّي الصادق»، «أرجو أن تتأكدوا من تعاطفي الصادق»، ولكنّما أصبحت تلك لسوء الحظّ عبارة معتادة إلى حدّ أن ذاك التظاهر بالصراحة أخذ يخلّف إنطباعًا بالمجاملة الكاذبة أكثر من العبارات القديمة التي لم نعد نفكّر بمعناها. كنت مربكًا على أيّة حال في قراءتي من جرّاء لغط الأحاديث الغامضة التي يطغى عليها الصوت الأكثر إرتفاعا للسيّد «دوسارلوس»الذي لم يتخلّ عن موضوعه وكان يقول للسيّد «دوكامبرمير»: «كنت تذكّرني في مرادك أن أخذ مكانك، برجل بعث إليّ هذا الصباح برسالة يوجّهها «إلى سموّ البارون دوسارلوس» ويبدأها بلقب «سيّدي». فأجاب السيّد «دوكامبرمير» وهويستسلم لضحكة خفيفة: «كان مراسلك بالفعل يبالغ بعض الشيء». وكان السيّد «دوشارلوس» قد أثار تلك الضحكة ولكنّه لم يشاطره إيّاها، فقال: «ولكن في الأساس ياعزيزي لاحظ أنه هو من كان على حقّ من منظور الشّعارات، لست أجعل من الأمر مسألة شخصية، لابدّ تعلم ذلك. إني أتحدّث عن الأمر كما لو تناول آخر غيري. ولكنّ ما عساك تريد، التاريخ هو التاريخ ولا حيلة لنا فيه وليس يعود لنا أن نعيد صناعته. فلن أذكر لك الإمبراطور «غليوم» الذي لم يكفّ قطّ في «كيل» عن مناداتي بـ«سيّدي». وقد تناهى إليّ أنّه كان يدعو على هذا النحو سائر الدوقة الفرنسيّين، وفي الأمر إفراط، وربّما كان محض لفتة لطيفة موجّهة من فوق رؤوسنا إلى فرنسه». –«لطيفة وفي الصراحة بين بين»، يقول السيّد «دوكامبرمير». وأضاف السيّد «دوسارلوس»: «لا أوافقك الرأي. لاحظ أن سيّداً من أدنى طراز كهذا الـ «هوهنزوليرن»، وبروتستنتيّ إلى ذلك، وقد انتزع أملاك ابن عمّي ملك «هانوفر»، لا يمكن فيمايخصّني شخصيًا، أن يروقني»، وقد بدا أن «هانوفر» أقرب إلى قلبه من «الألزاس واللورين». «ولكنّي أظنّ الميل الذي يدفع بالإمبراطورنحونا صادقًا عميقًا، سيقول الهبل إنّه امبراطور مسرح، ولكنّه على العكس رائع الذكاء. إنّه غير خبير في الرسم وقد أرغم السيّد «تشودي» على سحب لوحات «ايلستير» من المتاحف الوطنيّة. لكن «لويس الرابع عشر» ما كان يحبّ الأساتذة الهولنديّين وكان كذلك ميّالا إلى الأبّهة وكان بمجمل القول ملكاً عظيمًا، أضف أن «غليوم الثاني» سلّح بلاده على الصعيد العسكري والبحريّ كما لم يفعل «لويس الرابع عشر» وآمل أن لا يشهد حكمه في يوم النكسات التي أظلمت بها نهاية حكم من يدعى ابتذالاً الملك ــ الشمس. لقد ارتكبت الجمهورية فيما أرى خطأ كبيراً برفضها لفتات سليل «الهوهنزوليرن» أو بأن لم تردّها له إلاّ بالقطّارة. ويتبيّن ذلك بنفسه بأوضح شكل ويقول بما يملك من موهبة تعبير: «ما أبغيه

مصافحة بالأيدي لاتحيّة بالقبّعات». إنّه سافل كإنسان، فقد هجر وسلّم وأنكر أفضل أصدقائه في ظروف كان سكوته فيها بائساً بقدر ما كان سكوتهم عظيمًا»، يقول السيّد «دوسارلوس» مواليًا فكرته وكان ينزلق، مدفوعًا على الدوام على سفح انحداره، باتّجاه قضية «أو لنبورغ» ويتذكر الكلمة التي وجّهها إليه أحد المتهمين الأعلى مكانة :«أفينبغي أن يثق الإمبراطور برقّة نفوسنا كي يكون مجْرأ وسمح بمثل هذه الدعوى! لكنّه لم يخطىء على كل حال إذ وثق بتكتمّنا، فلعلّنا كنّا حبسنا ألسنتنا حتّى على المقصلة». كلّ ذلك لا دخل له، أيًّا كان الحال، مع ما كنت أبغى قوله، وأعني أنّنا بوصفنا أمراء يستمدّون السلطة من غيرهم، أصحاب السموّ الرفيع في ألمانية، فيما كانت مكانتنا كأصحاب سموّ في فرنسه مقرّاً بها علنًا. أمّا «سان سيمون» فيزعم أنّنا أخذنا اللقب تجاوزاً وهومخطىء تماماً فيما مضى إليه. وإن الحجّة التي يقدّمها في ذلك، وقوامها أن لويس الرابع عشر أمرنا بالامتناع عن دعوته الملك المسيحيّ جداً وأصدر أمره إلينا بدعوته الملك فحسب، إنّما تبرهن فقط أننا كنّا مرتبطين به لا أنّنا ما كنّا نملك الإمارة؛ وإلاّ لا نبغى إنكارها على دوق «دولورين» وكثيرين غيره! على أيّ حال عدّة ألقاب جاءتنا من أسرة «دولورين» عن طريق «تيريز ديسپينوا» جدّة جدّتي التي كانت إبنة الفتى «دوكومّيرسي». «وإذ انتبه السيّد «دو شارلوس» أنّ «موديل» كان يصغي إليه فقد توسّع أكثر في أسباب إدعائه فقال :« لقد لفتّ شقيقي إلى أن النبذة حول أسرتنا لابدّ أن تكون موجودة في الجزء الثاني من دليل «غوتا»[1] إن لم تكن في الأول، وليس في الثالث»، قال دون أن يتبيّن أن «موريل» ما كان يعلم ما عسى يكون دليل «غوتا». «ولكنّ الأمر يتعلقّ به، إنّه رئيسي في السلاح وبما أنه يرى أن الأمر حسن كذلك ويدع الأشياء على سجيّتها فما عليّ إلاّ أن أغمض عينيّ دونها». وقلت للسيّدة «ڤيردوران» وهي تقبل إليّ وفيما كنت أضع رسالة السيّدة «دوكامبرمير» في جيبي: «لقد استهواني السيّد «بريشو» كثيراً». فأجابتني بفتور: «إنه رجل مثقف وطيّب القلب. وهو يفتقر بالطبع إلى الظرف والذوق، ويتمتّع بذاكرة مخيفة. كانوا ينقلون عن «جدود» الناس الذين نستقبلهم هذا المساء، عنيت المهاجرين، أنهم لم ينسوا شيئًا. ولكنهم كانوا يلقون على أيّ حال عذراً، تقول وقد أخذت لحسابها كلمة لـ«سوان»، في أنّهم لم يتعلّموا شيئًا، فيما يعرف «بريشو» كلّ شيء ويقذفنا في أثناء العشاء بأكداس من المعاجم؛ وعندي أنّك لا تجهل شيئًا من بعد ممّا يعنيه اسم هذه المدينة وتلك القرية». وفيما كانت السيّدة «ڤيردوران» تتكلّم تذكّرت أنني كنت عازمًا على سؤالها عن أمر ولكنّي عجزت عن أن أتذكر ما كان ذاك الأمر. وقال «سكي»: «يقيني أنكما تتحدّثان عن «بريشو». «شانبيي» و«فريسينيه»، لم يسامحكما بشيء. لقد راقبتك أيتها «المعلّمة» العزيزة». ـ«لقد رأيتك بدوري وأوشكت أنفجر». لا يسعني أن أقول اليوم أيّة ملابس كانت ترتديها السيّدة «ڤيردوران». وربما لم أكن أكثر علماً بذلك في تلك اللحظة نفسها لأنّي لا أتمتع بروح الملاحظة. بيد أنني قلت لها، وقد أحسست أنّ ملابسها لا تخلو من نزعة تباه، قولاً لطيفًا، بل يتّسم بالإعجاب، لقد كانت كالنساء جميعهنّ تقريبًا اللواتي يخيّل إليهن أن الثناء الموجّه إليهنّ إنّما يمثّل التعبير عن الحقيقة حصراً وأنّه حكم يطلق دون محاباة وعلى نحو لا يقاوم وكأنّما الأمر أمر حاجة فنية لا ترتبط بشخص، ولذلك طرحتْ عليّ هذا السؤال الذي يتّسم بالاعتزاز والسذاجة، وهو عاديّ في مثل هذه الأحوال، طرحته بجديّة كستني منها حمرة الخجل من نفاقي: «يروقك

(١) هو دليل ديبلوماسي وأنسابي، نشر في «غوتا» (ألمانية) بدءاً من عام ١٧٦٣.

ذلك ؟» وقال السيّد «ڤيردوران» وهو يقترب منّا :«تتحدّثون عن «شانبتيي»، إني متيقّن من ذلك». لقد كنت الوحيد، وأنا أفكّر بقماشي الأخضر اللمّاع وبرائحة تنبعث من الخشب، في أنّي لم ألاحظ أنّ «بريشو» أثار السخرية منه وهو يعدّد تلك الاشتقاقات. ولما كانت الانطباعات التي تكسب الأشياء قيمتها في نظري من تلك التي لا يحسّها الآخرون أو يكبتونها دون ا لتفكير بها على أنّها غير ذات بال، وأنّها كانت لبثت بالتالي غير مفهومه أو كانت موضع إزدراء لو استطعت الإفصاح عنها، فقد كانت بالنسبة إليّ غير ذات فائدة إطلاقاً وتحمل إلى ذلك خطر احتسابي غبيّاً في نظر السيّدة «ڤيردوران» التي بدا لها أنّي أصدّق السيّد «بريشو» مثلما سبق أن بدوت للسيّدة «دوغيرمانت» لأنني كنت أستحلي المكوث في منزل السيّدة «دارياجون». أمّا بالنسبة إلى «بريشو» فثمّة سبب آخر قوامه أنّي لم أكن من العشيرة الصغيرة. وفي كلّ عشيرة، سواء أكانت من دنيا المجتمع، أم سياسية أم أدبيّة يكتسب المرء سهولة شرّيرة في اكتشاف كلّ ما لم يكن ليخطر للقارئ النزيه أن يجده في حديث أو خطاب رسمّي أو أقصوصة أو قصيدة قصيرة. فكم مرّة اتّفق لي، وأنا أقرأ بشيء من الانفعال حكاية نسجها بمهارة عضو أكاديمية فصيح اللسان على شيء من القدم، أن أجد نفسي على شفا أن أقول لـ«بلوك» أو للسيّدة «دوغيرمانت»: «ما أجمل هذا!» فإذا بهما يصيحان كلّ بلغة مختلفة قبلما أكون فتحت فمي: «إن أردت قضاء فترة طيّبة فاقرأ حكاية لفلان، فالغباء البشري لم يبلغ قطّ الحدّ الذى يبلغه». أمّا ازدراء «بلوك» فناتج على وجه الخصوص من أنّ بعض المؤثّرات الأسلوبيّة، وهي ممتعة على أيّ حال، كانت قد خبا إلى حدّ بريقها؛ وأمّا ازدراء السيّدة «دوغيرمانت» فمن أن الحكاية تبدو كأنّما تبرهن بالضبط عن عكس ما قصد إليه المؤلّف لأسباب واقعة كانت تبرع في استخلاصها ولكنّها ما كانت لتخطر لي على بال. وكانت دهشتي أن أرى السخرية التي تختفي وراء لطف آل«ڤيردوران» الظاهر إزاء «بريشو» تساوي دهشتي لسماع آل«كامبرمير» يقولون لي بعد بضعة أيّام في «فيتيرن» في مقابل المديح الحماسيّ الذي أوجّهه لقصر «لاراسپلير»: «لا يمكن أن تكون صادقاً بعد الذي فعلوه به». صحيح أنّهم أقرّوا بأن آنية الطعام كانت جميلة، وما كنت رأيتها أكثر ممّا رأيت صادّات الريح التي تؤذيك رؤيتها. وقال السيّد «ڤيردوران» بلهجة ساخرة: «باختصار القول، سوف تعلم الآن حينما تعود إلى «بالبيك» ما تعنيه «بالبيك». وكانت الأمور التي يطلعني عليها «بريشو» هي بالضبط مايثير اهتمامي، أمّا ما كانوا يدعونه ظرفه فقد كان بالضبط هو نفسه الذي كانوا يستسيغونه إلى حدّ كبير داخل العشيرة الصغيرة، فقد كان يتكلّم بذات السهولة التي تبعث فيك الضيق، ولكن كلامه لم يعد مؤثراً وكان عليه أن يغالب صمتاً عدائيّاً أو أصداء مزعجة، ولم يكن ما يقول هو الذي تغيّر، بل شروط السماع في الصالة وميول الجمهور. وقالت السيّدة «ڤيردوران» وهي تدل على «بريشو» : «حذار !» ولمّا كان هذا قد حافظ على حاسّة سمع أكثر نفاذاً لديه من الرؤية فقد حدج «المعلّمة» بنظرة أحسر وفيلسوف سرعان ما مال بها عنها. ولئن كانت عيناه أقلّ صلاحاً فإن عيني فكره كانتا في المقابل تلقيان في الأشياء نظرة أشمل. فقد كان يبصر القليل الذي يمكن توقّعه من صنوف الودّ الإنساني وقد سلّم بذلك. كان بالتأكيد يعاني العذاب من جرّائه، إذ يتّفق حتّى لذاك الذي يكشف ذات مساء واحد، داخل وسط تعوّد أن يكون فيه موضع استحسان، أنّهم وجدوه إمّا شديد الطيش أو مفرط الحذلقة أو شديد الهوج أو مُفرطاً في جرأته، الخ ..، أن يعود إلى منزله تعيساً. وغالباً ما يكون بدا لغيره غير معقول أو من نمط قديم بسبب مسألة

آراء معيّنه، نظام معين. وغالبًا ما يعلم حقّ العلم أن هذا الغير لا يساويه؛ وربّما استطاع بيسر تشريح السفسطات التي حكموا بها عليه ضمنيًا ومراده أن يمضي للقيام بزيارة، لكتابة رسالة: ولكنّه أكثر حكمة فلا يقدم على شيء وينتظر دعوة الأسبوع المقبل. وأحياناً كان فقدان الحظوة ذاك يدوم شهوراً بدلاً من أن ينتهي في أمسية واحدة. فإذا هو ناجم عن تقلّب الأحكام المجتمعيّة فإنّه يزيد منه أيضًا، لأنّ الذي يعلم أنّ السيّدة «س» تحتقره ويحسّ أنّه موضع تقدير أكبر لدى السيّدة «ع...» فإنّه يعلن هذه الأخيرة أفضل منها ويهاجر إلى منتداها. وليس هنا على أيّ حال مجال وصف هؤلاء الناس الذين هم أعلى مستوى من الحياة المجتمعيّة ولكنّهم لم يفلحوا في تحقيق ذاتهم خارجها، الذين يسعدهم أن يُستقبَلوا ويغيظهم أن يتجاهلهم الآخرون، الذين يكتشفون في كلّ عام عيوب ربّة البيت التي كانوا يمجّدونها ونبوغ تلك التي لم يقدروها حقّ قدرها، على أن يعودوا إلى حبّهم الأوّل بعدما يكونون عانوا من سيّئات الثاني وتكون سيّئات الأوّل طواها النسيان إلى حدّ. ويمكننا انطلاقًا من فترات فقدان الحظوة القصيرة هذه أن نقدّر الغمّ الذى يلحقه بـ«بريشو» غياب الحظوة الذي يعلم أنّه نهائيّ. فلم يكن يجهل أن السيّدة «ڤيردوران» تسخر منه في العلن أحياناً وحتى من عاهاته، وإذ يعلم أنّ ما ينبغي توقّعه من الوداد البشريّ قليل وقد سلّم به فإن ذلك لم ينتقص من اعتباره «المعلّمة» بمثابة أفضل صديقه له. إلا أنّ السيّدة «ڤيردوران» أدركت من الحمرة التي كست وجهه الجامعيّ أنّه سمعها فاعتزمت أن تكون لطيفة معه في أثناء السهرة. ولم استطع أن أمسك عن قولي لها إنّها كانت تبدي منه القليل القليل لـ«سانييت». «ما بالك تقول غير لطيفة! ولكنّه يعشقنا ولست تعلم ما نمثّل بالنسبة إليه! إن زوجي يحسّ أحياناً بشيء من الضيق من جرّاء غبائه، ولابدّ من الإقرار بأن ثمّة مايبرّره، ولكن لماذا لا يثور أكثر ممّا يفعل في تلك الأحيان بدلاً من اتخاذه مظهر الكلب الخنوع؟ ذلك يفتقر إلى الصراحة ولست أحبّه. ولا يحول ذلك دون أن أحاول دومًا تهدئة زوجي لأنّه إن تمادى فلن يظلّ لـ«سانييت» إلا أن لايعود؛ ولست راغبة في الأمر لأنني سأقول لك إنّه لم يعد يملك شروى نقير وهو بحاجة إلى حفلات العشاء هذه. فإن تكدّر على أيّ حال فعليه أن لا يعود، فليست تلك مشكلتي، وحين تحتاج الآخرين تحاول أن لا تكون بمثل ذاك الغباء». وكان السيّد «دوشارلوس» يوضح للسيّد «دوكامبرمير» قائلاً: «كانت دوقيّة «أومال» على مدى فترة طويلة من أملاك أسرتنا قبل أن تؤول إلى إسرة «فرنسة»، ويفعل في حضرة «موريل» الذاهل والذي إن لم يكن كامل هذا البحث موجهاً إليه فقد كان على الأقلّ غايته. «فقد كان لنا حقّ التقدّم على سائر الأمراء الأجانب، وبوسعي أن أعطيك ألف مثال عن ذلك. منها أن الأميرة «دوكروا» إذ أرادت أن تجثو راكعة أثناء جنازة «السيّد»(١) بعد جدّة جدّتي فقد أفهمتها بلهجة قاسيّة أن ليس لها الحق في الوساد وأمرت ضابط الخدمة برفعة ورفعت الأمر إلى الملك الذي أمر السيّدة «دوكروا» بالمبادرة إلى الإعتذار من السيّدة «دوغيرمانت» في منزلها؛ وأن الدوق «دو بورغونيي»(٢) إذ جاء إلى منزلنا برفقة حجّابه وهم يرفعون العصا، فقد حصلنا من الملك أن يأمر بخفضها. أعلم أنه من غير المستحبّ التحدّث عن فضائل الأقارب، إلاّ أنّه من الذائع أن أهلنا كانوا دائماً في المقدّمة ساعة الخطر. وأن صيحة الحرب التي اعتمدناها بعدما أقلعنا عن تلك الخاصّة بدوقة

(١)هو دوق أورليان وشقيق لويس الرابع عشر.

(٢) هو لويس، ولي عهد فرنسا، حفيد لويس الرابع عشر ووالد لويس الخامس عشر.

«دوبراباناً» كانت «احتلّ المقدمة». وهكذا يبدو بوجيز القول مشروعًا إلى حدّ ما أن نكون حصلنا فيما بعد على ذاك الحقّ الذي سبق أن خصصنا أنفسنا به قرونًا طوالاً في الحرب، أن نكون حصلنا عليه في البلاط. والحقّ أنّه أقرّ لنا فيه على الدوام. سأذكر لك أيضًا برهانًاعلى ذلك الأميرة «دوبادن»، فإذا بلغ بها النسيان أنْ اعتزمت منازعة الدوقة «دوغيرمانت» نفسها التي كنت أكلّمك عنها توًا مكانتها وهمّت تريد الدخول أوّلاً لدى الملك مستغلّة حركة تردّد ربّما بدرت من قريبتي (مع أنّه لم يكن ما يدفع إليها) صاح الملك بحزم: «هيا، ادخلي يا ابنة العمّ، فإن السيّدة «دوبادن» أكثر علمًا بما تدين به لك». وإنّما كانت تحتلّ تلك المكانة بما هي دوقة «دوغيرمانت»، مع أنّها من جانبها سليلة أسرة عظيمة إلى حد ما إذ هي بوالدتها إبنة شقيقة ملكة بولونيا وملكة المجر وناخب «الپالاتينا» والأمير «دوساڤوا كارينيان» وأمير «هانوڤر»، وهو فيما بعد ملك انكلتـره. وقـال «بريشـو»: "Maecenasatairs edite regibus" (مـيكينس الذى ينحـدر من جـدود ملكيّين)(١)، قال متوجهًا إلى السيّد «دو شارلوس» الذي ردّ على هذه المجاملة بانحناءة بالرأس طفيفة. وقالت السيّدة «ڤيردوران» تسائل «بريشو» الذي ودّت لو تحاول التكفير عن كلمات تفوّهت بها منذ قليل: «ما الذي تقوله؟» —«كنت أتكلّم، يسامحني الله عن رجل شديد التأنّق كان زهرة الصفوة (وقطّبت السيّدة «ڤيردوران» حاجبيها)، في دوائر عصر «أغسطس» (واتخذت السيّدة «ڤيردوران»، وقد هدأ من روعها بعد تلك الصفوة، هيئة أكثر صفاء)، عن صديق لـ«ڤيرجيليوس» و«هوراسيوس» وكانا يذهبان بالتملّق إلى حدّ التصريح له في حضرته عن أسلاف له أكثر من ارستقراطيّين، أسلاف ملكيّين؛ كنت بوجيز القول أتكلّم عن «ميكينس»، عن جليس مكتبات صديق لـ«هوراسيوس» و«ڤيرجيليوس» و«أغسطس». وإنّي لعلي يقين أن السيّدة «دوشارلوس» يعلم تمام العلم وعلى جميع الوجوه من كان «ميكينس»». وأرسل السيّد «دوشارلوس» من طرف عينه نظرة لطيفة إلى السيّدة «ڤيردوران» لإنّه سمعها تضرب موعدًا لـ«موريل» في مابعد الغد وخشي أن لا يدعى فقال: «أعتقد أن «ميكينس» هو ما يقرب أن يكون «ڤيردوران» العصور القديمة». ولم تستطع السيّدة «ڤيردوران» أن تكبت نصف ابتسامة بعثها الارتياح. وذهبت إلى «موريل» وقالت له: «إنّه محبّب، صديق أهلك، واضح أنّه رجل متعلّم وحسن التهذيب وسوف ينسجم مع نواتنا؛ فأين يقطن في باريس؟» وصمت «موريل» صمت المتعالي وطالب فقط بلعبة ورق. وأصرّت السيّدة «ڤيردوران» قبل ذلك على شيء من الكمان. ورافق السيّد «دوشارلوس» الذي ما كان يتكلّم في يوم عن المواهب العظيمة التي يتمتّع بها، رافق، فأثار دهشة الجميع، بالأسلوب الأكثر صفاء، المقطوعة الأخيرة (القلقة المعذّبة «الشومانيّة» الطابع(٢)، ولكنّها سابقة لسوناتا «فرانك») من سوناتا «فوريه» للبيانو والكمان، كنت أحسّ أنّه سيزوّد «موريل» ذا المواهب الرائعة في نطاق الصوت والبراعة، بما ينقصه بالضبط، أي الثقافة والأسلوب. ولكنّي فكّرت باستغراب بالذي يقرن لدى شخص واحد نقيصة جسميّه وموهبة روحيّة، ولم يكن السيّد «دوشارلوس» كثير الإختلاف عن أخيه الدوق «دوغيرمانت». بل هو منذ قليل (وكان الأمر نادرًا) تكلّم فرنسيّة بمثل سوء فرنسيّته. وإذ لامني (دونما شك

(١) كان ميكينيس في العصر الروماني حامياً وسنداً (بالنفوذ والمال) للشاعرين الكبيرين فريجيليوس وهو راسيوس وغداً اسمه فيما بعد يعني راعي الأدب والفن والمحسن إلى الأدباء والفنانين. Mécène

(٢) الموسيقي الكبير ذو النزعة الغنائية.

بغية أن أتحدّث بلغة أكثر حرارة عن «موريل» إلى السيّدة «فيردروان»» على أنّي لا أمضي البتّة إلى زيارته، فيما تعلّلت أنا بالتزام التحفّظ، أجابني قائلاً: «ولكن بما أنني أنا من يطلب ذلك فليس سواي من يمكن أن يستاء جرّاءه». كان يمكن أن يجيء ذلك على لسان الدوق «دو غير مانت». والسيّد «دوشارلوس» في نهاية المطاف إن هو إلاّ «غير مانتيّ». لكنّما كان كافيًا أن تحدث الطبيعة خللاً كافيًا في منظومته العصبيّة كيما يفضّل على امرأة، كما لعلّ أخاه الدوق كان اختار، أحد رعاة «فيرجيليوس» أو تلميذاً لأفلاطون، وفي الحال جعلت صفات يجهلها الدوق «دوغيرمانت»، وغالبًا ما ارتبطت بذاك الخلل، جعلتني السيّد «دو شارلوس» عازف بيانو رائعًا ورسّامًا هاويًا لا يخلو من ذوق ومتحدّثًا بليغًا. والأسلوب السريع القلق الساحر الذي كان السيّد «دوشارلوس» يعزف به الجزء «الشوماني» من سوناتا «فوريه»، من ذا كان يستطيع أن يتبيّن أن هذا الأسلوب يجد مقابله ـ ولا نجرؤ أن نقول سببه ـ في أقسام جسميّة حصراً، في صنوف من الخلل عصبيّة لدى السيّد «دوشارلوس» ؟ سوف نوضح فيما بعد عبارة «الخلل العصبيّ» هذه ولأيّة أسباب كان يمكن أن يكون يونانيّ من زمن «سقراط » ورومانيّ من زمن «أغسطس» ما عهدك به فيما يلبثان من الرجال الطبيعيّين تماماً، لا من الرجال ـ النساء على نحو ما نرى اليوم من هذا القبيل. كذلك كان السيّد «دوشارلوس»، إلى جانب استعدادات فنيّة حقيقيّة لم تبلغ حدّها، قد أحبّ والدته أكثر كثيراً من الدوق، وأحبّ زوجته، بل كان حينما يحدّثونه عنها بعد سنوات يفيض دمع من عينيه، ولكنّه سطحيّ، شأن تعرّق رجل مفرط السمنه يتندّى جبينه عرقًا لأقل ما أمر. مع فارق أنّك تقول لهؤلاء: «ما أشدّ مابك من حرّ!» فيما تتظاهر بأنّك لا تبصر دموع الآخرين. وإنّما أعني بك الناس، لأنّ الشعب يقلق أن يرى من يبكي كما لو كان الإنتحاب أشدّ خطراً من النزيف. أمّا الحزن الذي أعقب موت زوجة السيّد «دوشارلوس» فما كان يتنافى لديه، بفضل تعوّده الكذب، وحياة تطابقه. بل بلغت به النذالة فيما بعد أن يسرّب بأنّه تسنّى له في أثناء الاحتفال الجنائزي يسأل الفتى معاون الكاهن اسمه وعنوانه. وربما كان ذلك صحيحاً.

وفي ختام المقطوعة أذنت لنفسي بالمطالبة بموسيقى لـ«فرانك»، وقد بدا أن ذلك بعث في نفس السيّدة «دوكامبرمير» من العذاب ما منعني من الإلحاح. وقالت لي: «لا يمكن أن تحبّ مثل هذا». وطلبت عوضًا عنها مقطوعة «أعياد» لـ«دوبوسي» ممّا جعل الناس يصرخون من أوّل نوطة: «آه ! باللروعة !» ولكنّ «موريل» تبيّن أنّه لا يعرف سوى الفواصل الأولى وباشر، بفعل تصرّف صبيانيّ، ودونما مقصد تضليل، لحنًا عسكرياً لـ«مايربير»، ولمّا لم يدع لسوء الحظ سوى اليسير من الفواصل الإنتقالية ولم يتولّ إعلان الأمر فقد ظنّ الجميع أن موسيقى «دوبوسي» مستمرّة ولم ينفكّوا عن الصراخ قائلين: «يا للروعة!» وقد بعث «موريل» إذ أعلن أن المؤلف ليس واضع «بيلّياس» بل «روبير لو ديابل» شيئاً من الحرج. ولم يتّسع الوقت للسيّدة «دوكامبرمير» كيما تحسّ به لنفسها إذ كانت اكتشفت منذ قليل دفتراً لـ«سكارلاتي» وانصرفت إليه باندفاعة هيستيريّة، وكانت تصرخ قائلة: «آه! اعزف هذه، إليك هذه إنّها سماويّة». ولكنّ ما كانت تصطفيه في استعجالها المحموم، من ذاك المؤلّف الذي طال ازدراؤه ووضع منذ فترة وجيزة في أعلى مراتب التكريم إنما واحدة من تلك المقطوعات اللعينة التي غالبًا ما زادت عنك المنام وتقبل تلميذة خلت من الشفقة على تكرارها إلى مالانهاية في الدور الملاصق للدور الذي تسكن فيه. لكنّ السيّد «موريل» كان قد ملّ الموسيقى ولمّا

كان حريصاً على لعب الورق فقد ودّ السيّد «دوشارلوس» من أجل المشاركة في اللعب لو تكون لعبة «الويست». وقال «سكي» للسيّدة «ڤيردوران»: «لقد قال منذ قليل لربّ المنزل إنّه أمير، وليس الأمر صحيحاً فهو من مجرّد أسرة بورجوازيّة من صغار المهندسين». وعادت السيّدة «ڤيردوران» تقول لـ«بريشو»: «أريد أن أعرف ما كنت تقول عن «ميكينس»، فإن ذلك يمتعني أنا، بلى»، تقول بلطف انتشى به هذا الأخير. فقال ومراده التألّق في نظر «المعلّمة» وربّما في نظري: «لكنّ «ميكينس»، والحقّ يقال ياسيّدتي، يثير اهتمامي على وجه الخصوص لأنّه الرسول الأول المتميّز لهذا الإله الصينيّ الذي فاق عدد أتباعه اليوم أتباع «براهما»، بل أتباع المسيح نفسه، الإله القدير« Je - Men foy »[1] (لست أبالي). ما كانت السيّدة «ڤيردوران» تكتفي في تلك الحالات بدفن رأسها في راحة يدها، فقد كانت تهوي بفجائية الحشرات المدعوّة «ابنة يومها» على الأميرة «شيرباتوف»؛ فإن كانت هذه على مسافة قليلة تعلّقت «المعلّمة» بإبط الأميرة وأنشبت فيه أظافرها وأخفت رأسها على مدى لحظات كطفل يلعب لعبة «التخبابة». كان يُفترض أنّها خلف هذه الستارة التي تحميها، تضحك حتّى لتدمع منها العين كما يمكن أن لا تفكر في شيء مثلها مثل الذين يحتاطون لأنفسهم بحكمة أثناء ما يقومون بصلاة على شيء من الطول فيدفنون وجههم في أيديهم. كانت السيّدة «ڤيردوران» تقلّدهم وهي تصغي لرباعيّات «بيتهوفن» كي تبديَ أنّها تأخذها مأخذ صلاة وكي لا تدع لأحد في الوقت نفسه أن يرى أنّها نائمة. وقال «بريشو»: «إنّي جادّ تمامًا في ما أقول ياسيّدتي. فإني اعتقد أن عدد الذين يقضون الوقت في النظر إلى سرّتهم على أنّها مركز العالم هو اليوم كبير جداً، وليس لي، وفق صحيح العقيدة، من اعتراض على ما لست أدرى أيّ «نيرڤانا» تنزع إلى إذابتنا في الكلّ الأعظم (الذي هو، شأن «ميونخ»، واكسفورد، أكثر قرباً إلى باريس من «آنيير» أو «بواكولومب»، ولكنّما ليس من شيم الفرنسيّ الطيّب ولا حتّى الأوروبي الطيّب أن يبادر قوم مشركون مناهضون للروح العسكرية بنقاش رزين حول فضائل الشعر الحرّ الرئيسيّة حينما اليابانيون ربّما على أبواب «بيزنطة» وظنّت السيّدة «ڤيردوران» بإمكانها ترك كتف الأميرة المعذّب وسمحت بظهور وجهها من جديد، دون أن يفوتها التظاهر بمسح عينيها واسترداد أنفاسها مرّتين أو ثلاثًا. لكن «بريشو» أراد أن أحصل على نصيبي من الوليمة، وإذ احتفظ من مناقشات الأطروحات التي كان يترأسها أفضل من أيّ سواه أنّك لا تدغدغ مشاعر الشباب في يوم بقدر ما تفعل بتعنيفهم وإيلائهم أهميّة وبحملهم على رميك بالرجعيّة، قال وهو يختلس إليّ النظرة التي يلقيها الخطيب خلسة على واحد من الحضور يذكر اسمه: «لا أودّ التجديف على آلهة الشباب، ولا أودّ أن يقضى عليّ بالهلاك على أنّي هرطوقيّ[2] أو مرتدّ في معبد «مالارميه» حيث لابدّ أن صديقنا الجديد قد خدم القداس الباطنيّ شأن جميع من هم في سنّه، على الأقل بصفة مساعد للكاهن، وأبدى أنّه منحلّ أو من جماعة «روزكروا». ولكننا والحق يقال رأينا كثيرين من هؤلاء المثقّفين الذين يتعبّدون للفنّ بالمعنى القويّ للكلمة والذين حينما لايكتفون من بعد بالانتشاء بخمرة «زولا» يأخذون حقنات من «ڤيرلين». وربما لم يعودوا قادرين، وقد أدمنوا المخدّرات إخلاصاً لـ«بودلير»، على بذل الجهد الرجولي الذي يمكن أن يطلبه الوطن منهم في هذا اليوم أو ذاك وقد تخدّروا جرّاء العصاب

(١) أثبتنا الاسم المزعوم بالفرنسية لابراز الشكل الصيني «جو- مان- فو» والجناس اللفظي الذي يتم على أساسه المزاح، والعبارة الفرنسية تعني «اللامبالاة»، مع تضمين الإهانة» وهي شعبية تقابلها عندنا «ط...»

(٢) خارج على تعاليم الدين القويم

الأدبي الكبير في الجوّ الحارّ المثير المُثقل بروائح عفنة ضارّة والمنبعث من رمزيّة محشـشة أفيون». ولمّا كنت عاجزاً عن التظاهر بأدنى الإعجاب بأبيات «بريشو» السخيفة المرقّشة انصرفت إلى «سكي» وأكّدت له أنّه مخطيء تماماً بشأن العائلة التى ينتمي إليها السيّد «دوشارلوس»، فأجابني أنّه متيقّن ممّا أورد وأضاف أنّه حتّى سبق لي أن قلت له أن اسمه الحقيقي «غاندان»، «لوغاندان». فأجبته: «لقد قلت لك إن السيّدة «دوكامبرمير» هي شقيقة مهندس يدعى «لوغراندان»، ولم أحدّثك البتّة عن السيّد «دوشارلوس». فثمّة صلة مولد بينه وبين السيّدة «دوكامبرمير» بقدر الصلة القائمة بين «كوندي الكبير» و«راسين». وقال «سكي» : «آه ! ظننت»، قال مقالة طيش دون أن يعتذر عن خطأه أكثر ممّا فعل قبل بضع ساعات عن الخطأ الذي أوشك أن يفوّت علينا القطار. «هل تنوي المكوث فترة طويلة على الشاطئ؟» تقول السيّدة «ڤيردوران» للسيّد «دوشارلوس» الذي كانت تتوسّم فيه أحد الخلّص وترتعد من أن تراه يعود إلى باريس أبكر ممّا ترغب. فيجيب السيّد «دوشارلوس» بصوت أخنّ متباطئ: «يا الله، ليس الأمر أكيداً. فبودّي البقاء حتّى آخر أيلول». فقالت السيّدة «ڤيردوران»: «إنّك على حقّ، فإنّها فترة العواصف الشديدة». –«ليس ذلك في الحقيقة ما قد يدفعني إلى الجزم. فإني بالغت منذ بعض الوقت في إهمال رئيس الملائكة القديس ميخائيل شفيعي وأود تعويضه عن ذلك بالبقاء إلى عيده في ٢٩ أيلول في دير «التلة»، وسألت السيّدة «ڤيردوران» قائلة: «تهمّك كثيراً هذه المسائل؟»، ولعلّها كانت أفلحت في إسكات عدائها الإكليروسي الذي أصيب في الصميم لو لم تخش أن تؤدّى رحلة بهذا الطول إلى «هجران» عازف الكمان والبارون مدّة ثمان وأربعين ساعة. وأجاب السيّد «دوشارلوس» بوقاحة: «ربّما عانيت من صمم متقطّع، فقد قلت لك إن القدّيس ميخائيل أحد شفعائي الأماجد». ثم أضاف وهو يبتسم بافتتان رفيق وقد علقت عيناه في البعيد وتعاظم صوته جرّاء حماسة بدت لي أكثر من جماليّة ولكنّها دينيّة: «ما أجمل ذلك لحظة التقدمة[1] حينما يقف ميخائيل على قدميه قرب المذبح بالثوب الأبيض يرجّح مبخرة من ذهب وبأكداس من العطور كبيرة حتى لتصعد رائحتها حتّى عرش الله!» واقترحت السيّدة «ڤيردوران» قائلة على الرغم من كرهها للقلنسوة: «يمكن أن نذهب إلى هناك جماعة»، وأردف السيّد «دوشارلوس» يقول، وما كان يجيب البتّة لدى مقاطعته ويتظاهر بأنّه لم يسمعها على غرار مايفعل الخطباء المفوّهون في المجلس ولكنّما تحدوه أسباب أخرى: «وإنّه لرائع في تلك اللحظة وحال التقدمة أن تشاهد صديقنا الشابّ يتمايل ويعزف حتّى لحناً لـ«باخ» وسوف يطير الكاهن الطيّب هو الآخر فرحًا، وإنّه لأعظم تكريم، أعظم تكريم علنيّ على الأقلّ، يمكن أن أحيط به شفيعي القدّيس، وأيّة هداية للمؤمنين! سوف نتحدّث عن ذلك في الحال لـ«انجيليكو» الموسيقي الشابّ، وهو عسكريّ كالقديس ميخائيل».

وأعلن «سانييت»، إذ دُعي لينهض بدور الميت، أنّه لايعرف لعبة «الويست». وإذ تبيّن «كوتار» أنّه لم يعد ثمّة متّسع كبير من الوقت قبل ساعة القطار باشر في الحال لعبة «استبعاد»[2] مع «موريل». أمّا السيّد «ڤيردوران» فقد أقبل على «سانييت» بهيئة مخيفة وصاح قائلاً: «أنت إذن لاتحسن اللعب بشيء!» وقد هزّه الحنق أن أضاع فرصة لعبة ورق عليه، والطرب أن صادف فرصة لشتم مدير المحفوظات السابق. واتخذ هذا

(١) أي تقديس الخبز والخمر في القدّاس لدي الطوائف المسيحية
(٢) لعبة ورق يجري فيها التخلّي عن كلّ ورقة لايريدها اللاعب ويستبدل بها غيرها.

الأخير، وقد دبّ فيه الهلع، هيئة المتظرّف وقال: «بلى، فإنني أحسن العزف على البيانو».

وكان «كوتار» و«موريل» قد جلسا وجهًا لوجه. وقال «كوتار»: «تفضّل أنت». وقال السيّد «دوشارلوس» للسيد «دوكامبرمير»: «هلاّ اقتربنا قليلاً من طاولة اللعب»، وقد أقلقه أن يبصر عازف الكمان بصحبة «كوتار»، «فذلك مشوّق كمثل أمور آداب السلوك التي لم تعد تعني الكثير في عصرنا. إن الملوك الوحيدين الذين مازالوا لدينا، في فرنسه على الأقلّ، هم «ملوك» لعبة الورق؛ ويبدو لي أنّهم يقبلون بأعداد كبيرة بين يدي الموسيقار الشابّ»، يضيف بعد قليل قوله بداعي إعجاب بـ«موريل» أخذ يمتدّ إلى طريقة لعبه كما يدغدغ مشاعره أيضاً وليفسّر في نهاية المطاف الحركة التي ينحني بها فوق كتف عازف الكمان. وقال «كوتار»: آني بَقْطَع»، وهو يقلّد لهجة الثريّ الغريب التي انفجر لها الأطفال بالضحك كما كان يفعل طلاّبه ورئيس المستوصف حينما كان «المعلّم» يطلق، حتّى أمام سرير مريض إصابته خطرة وهو يتّخذ قناع مصروع جامد القسمات، إحدى نكاته المعتادة. وقال «موريل» مستشيراً السيّد «دوكامبرمير»: «لست أدرى تماماً مايجدر بي أن ألعبه». —«أنت وما تشاء، فأنت مغلوب علي جميع الوجوه، هذا أو ذاك، سيّان». وقال الدكتور وهو يرسل باتّجاه السيّد «دوكامبرمير» نظرة مخادعة مجّانيّة: «سيّان ..... «سيّان ماريبه»؟ لقد كانت ماندعوه سيّدة الغناء الحقيقيّة، كانت الحلم، كانت «كارمن» من نوع لن نراه ثانية، لقد كانت امرأة الدور المخصّص لها. كنت أحبّ كذلك أن أسمع بالدور نفسه «أما سيّان ماريبه»[1]. ونهض المركيز بتلك السوقيّة المستكبرة التي تصدر عن ناس كريمي المحتد لا يدركون أنّهم يحقّرون ربّ البيت إذ يبدو وكأنهم غير متأكدّين من أنّه يمكن مخالطة مدعوّيه، ويحتجّون بالعادة الإنكليزية ليتسنّى لهم استخدام عبارة تتّسم بالإزدراء: «من السيّد الذي يلعب الورق؟ وما الذي يفعله في الحياة؟ وماذا «يبيع»؟ فإني أحبّ أن أعرف مع من أقيم كي لا تكون لي علاقة بأيّ كان. والمسألة أني لم أسمع اسمه حينما أوليتني شرف تعريفه بي». لو أن السيّد «ڤيردوران» كان قدّم، تأسيساً على هذه الكلمات الأخيرة، السيّد «دوكامبرمير» لمدعوّيه، لرأى هذا الأخير الأمر في غاية السوء. ولكنّه إذ كان يعلم أن ما جرى هو العكس فقد كان يرى من الظريف أن يظهر بمظهر الساذج المتواضع دونما خطر يلمّ به. هذا وأن الاعتزاز الذي يداخل السيّد «ڤيردوران» لعلاقته الحميمة بـ«كوتار» ما انفك يتعاظم منذ أن أصبح الدكتور أستاذاً مشهوراً، ولكنه لم يعد يظهر للعيان بالشكل الساذج الذي كان بالأمس. حينذاك، وعندما كان «كوتار» معروفًا على نطاق ضيّق، كان السيّد «ڤيردوران» يقول، إن حدّثوه عن آلام الأعصاب الوجهيّة لدى زوجته: «ليس هناك ما يمكن فعله»، يقول بالإعتزاز الساذج الذي لقوم يظنّون أنّ ما يعرفونه مشهور وأن الجميع يعرفون اسم أستاذ ابنتهم في الغناء. «لو كان طبيبها من النسق الثاني لأمكن البحث عن علاج آخر، ولكن حينما يدعى ذلك الطبيب «كوتار» (وكان يلفظ الاسم كما لو كان «بوشار» أو «شاركو») فليس بعد من أمل». ولجأ السيّد «ڤيردوران» إلى أسلوب عكسيّ، وهو يعلم أنّ السيّد «دوكامبرمير» قد سمع بالتأكيد من يحدّث عن الأستاذ المشهور «كوتار»، فاتخذ مظهر السذاجة. «إنّه طبيب العائلة، رجل طيّب القلب نعشقه وقد يقدم على أيّ شيء في سبيلنا، ليس طبيباً، بل صديق، لا أظنّ أنّك تعرفه أو أن اسمه يوحي إليك بأي شيء،

(١) التلاعب اللفظي مُختلق، وغني عن التبيان أنّه يستحيل ردّ التلاعب الوارد في النص وهو. Egal...Golll-Marié Ingalll-Marié وهما مغنّيتان شهيرتان في القرن التاسع عشر.

أمّا فيما يخصّنا فإن اسمه في جميع الأحوال اسم رجل طيّب جداً وصديق عزيز جداً، «كوتار». وخدع الاسم، وقد جرى النطق به بهمس متواضع، خدع السيّد «دوكامبرمير» الذي ظنّ الأمر يتعلّق بآخر غيره. «كوتار؟ لست تحدثني عن الأستاذ «كوتار؟» كان يتناهى بالضبط إلى الأسماع صوت الأستاذ المذكور الذي كان يقول ممسكاً بأوراقه وقد حار في لعبة: «ههنا أدرك الأثينيّون بعضهم بعضاً». وقال السيّد «ڤيردوران»: «آه! بلى، بالضبط إنّه أستاذ». -«يا عجبي! الأستاذ «كوتار»! لست تخطيء القول! وأنت متيقّن تمام اليقين أنّه هو نفسه! هو الذي يسكن في شارع «لوباك»! -أجل، إنّه يسكن في شارع «لوباك» ـ٤٣ فهل تعرفه؟»- ولكنّ الجميع يعرفون الأستاذ «كوتار» فهو من الجهابذة، وكما لو أنّك تسألني إن كنت أعرف «بوف دو سانبليز» أو «كورتوا سوفي». لقد تبيّنت تماماً وأنا أصغي إلى حديثه أنّه رجل غير عادي، لذلك سمحت لنفسي أن أسألك». وكان «كوتار» يسأل قائلاً: «هات نر، ما الذي تنبغي إضافته؟ الورقة الرابحة؟» ثمّ اتّخذ «كوتار» فجأة، وقد صمم على لعب الورقة الرابحة، هيئة متجهّمة، هيئة «الرجل المتهور»، وفي تلميح إلى الذين يخاطرون بحياتهم لعب ورقته وكأنّما تلك حياته، وصاح بسوقيّة لعلّها كانت أورثت إزعاجاً حتّى في ظرف بطوليّ يبغي فيه أحد الجنود أن يولي إزدراءه للموت تعبيراً مألوفاً ولكنّها تصبح مضاعفة الغباء في إطار ألهيّة الورق الخلو من الخطر،صاح قائلاً: «إلى جهنّم في كلّ الأحوال!» وما كان يجب أن يلعب كما فعل ولكنّما أصاب عزاء بعده، فإنّ السيّدة «كوتار» كانت، إذ استسلمت، في مقعد عريض في وسط الصالة، لمفعول فترة ما بعد الغداء، قد أسلست القياد بعد جهود غير مجدية لنعاس واسع خفيف كان يتملّكها. وعبثاً كانت تستقيم في لحظات لتبتسم إمّا هزءاً بنفسها وإمّا مخافةً أن تدع دون جواب كلمة لطيفة ربّما وجّهت إليها، فقد كانت تعود فتهوي رغماً عنها فريسة داء لذيذ لا يرحم. ماكان يوقظها هكذا على مدى ثانية فحسب إنّما كانت النظرة أكثر منها الضجّة، النظرة (التي كانت تراها من فرط حنان حتّى مغمضة العينين وتتوقّعها، لأنّ المشهد نفسه كان يجري كلّ مساء ويسكن نومها كالساعة التي يقع عليك أن تنهض فيها من نومك) والتي كان يبلغ بها الحاضرين عن نوم زوجته. كان يكتفي بداية بالنظر إليها والإبتسام، فإنّه إن كان بوصفه طبيباً يذمّ هذا النوم بعد العشاء (كان على الأقل يقدّم هذا السبب العلميّ من أجل أن يغضب في النهاية. بيد أنّه ليس أكيداً أنّه سبب جازم لكثرة ما كان لديه من نظريّات متنوّعة حول الموضوع)، كان بوصفه زوجاً كليّ الاقتدار نكداً يغبطه أن يسخرمن زوجته وأن لا يوقظها بادئ الأمر إلاّ نصف إيقاظة كي تعود فتنام ويصادف متعة في إيقاظها ثانية.

كانت السيّدة «كوتار»تنام الآن ملء جفونها. فصاح بها الأستاذ: «ما دهاك يا«ليونتين»، إنّك نائمة». فأجابت السيّدة «كوتار» بصوت ضعيف: «إني أصغي إلى ما تقول السيّدة «سوان» ياصاحبي»، وأهوت ثانية في سباتها. وصاح «كوتار» قائلاً: «ياللجنون، ستؤكّد لنابعد قليل أنّها لم تنم. إنّها كمثل أولئك المرضى الذين يمضون إلى المعاينة ويزعمون أنّهم لا ينامون البتّة». فقال السيّد «دوكامبرمير» ضاحكاً: «إنّهم يتخيّلون ذلك ، ربّما». لكنّ الدكتور كان يحبّ المعارضة بقدر ما يحبّ التنكيد وما كان يقبل على وجه الخصوص أن يتجرأ على الحديث عن الطبّ غريب عنه، فأعلن بلهجة حازمة: «لا يتخيّل المرء أنّه لا ينام»، فأجاب المركيز وهو ينحني باحترام كما لعلّ «كوتار» كان فعل فيما مضى: «آه!» وأردف «كوتار» يقول»: «واضح أنّك لم تعط مثلي

مايصل إلى غرامين من «التريونال» دون أن تفلح في إحلال النوم». فأجاب المركيز ضاحكاً وقد اتّخذ هيئة مناسبة: «فعلاً، فعلاً، لم أتناول «التريونال» في يوم ولا أيّاً من تلك العقاقير التي سرعان ما تكفّ عن التأثير ولكنّها تخرّب معدتك. حينما تصطاد مثلي طوال الليل في غابة «شانتبي» فإني أؤكّد لك أنّك لست تحتاج «التريونال» لتنام». وردّ الأستاذ قائلاً: «الجهلة من يقولون ذلك. فإن «التريونال» يرفع أحيانًا بصورة لافتة النشاط العصبيّ. تتحدّث عن «التريونال»، فهل تعرف على الأقلّ ما عسى أن يكون؟» —«حسن... لقد سمعت من يقول إنّه دواء يعين على النوم». فعاد الأستاذ يقول بلهجة تعليميّة، وكان ثلاث مرّات في الأسبوع من لجان الإمتحان في الكليّة: «لست تجيب عن سؤالي. فإني لا أسألك إن كان ينوّم أم لا، بل ما هو. فهل تستطيع أن تقول لي مايحتوي عليه من أجزاء من «الأميل» و«الإيتيل». فأجاب السيّد «دوكامبرمير» محرجاً: «لا؛ وإنّي أفضّل كأساً من ماء الحياة الجيد أو حتّى الـ«پورتو» ٣٤٥». فقاطعه الأستاذ: «وهما عشر مرّات أكثرسميّة»، وقال السيّد «دوكامبرمير» محاذراً: «بخصوص «التريونال»، فإن زوجتي تعوّدت كلّ ذلك، ولعلّ من الأفضل أن تتحدّث إليها عن ذلك». —«ولابد أنّها تعرف عنه قدر ماتعرف أنت تقريباً. على أيّ حال ، إن كانت زوجتك تتناول «التريونال» لتنام فأنت ترى أن زوجتي لا حاجة لها به. هيّا يا«ليونتين» تحرّكي، فإنّك تتصلّبي ، أتراني أنام بعد العشاء أنا؟ وما عساك تفعلين في الستّين من عمرك إن كنت الآن تنامين مثل امرأة عجوز؟ سوف تستكرشين وتوقفين دورتك الدمويّة ... ها إنّها لم تعد حتّى تسمعني». وقال السيّد «دوكامبرمير» كيما يردّ اعتباره لدى «كوتار»: إنّها ضارّة بالصحّة تلك الإغفاءات اليسيرة بعد العشاء، أليس أنّها كذلك، دكتور؟ على المرء بعدما يكثر من الطعام القيام بالتمارين». فأجاب الدكتور قائلاً: «حكايات! فقد رفعوا ذات كميّة الطعام في معدة كلب ظلّ ساكناً ومعدة كلب آخرقام بالجري، وكان الهضم في مرحلة أكثر تقدّماً لدى الثاني». —«النوم إذاً هو الذي يوقف عمليّة الهضم؟» —«الأمر يختلف باختلاف صنوف الهضم على صعيد المريء والمعدة والأمعاء. ولا فائدة من إعطائك ايضاحات قد لا تفهمها بما أنّك لم تقم بدراسة الطبّ. هيّا يا«ليونتين»، أمام ... سر! لقد حان وقت الرحيل». وما كان ذلك صحيحًا لأنّ الدكتور كان ينوي فقط إنهاء لعبة الورق، ولكنّه يأمل بذلك أن يقاوم بصورة أعنف نوم الخرساء التي كان يوجّه إليها أكثر صنوف الحضّ علميّة دون أن يصله منها أيّ جواب. ثم إن رأس السيّدة «كوتار» أطيح به آليّا من اليسار إلى اليمين ومن الأسفل إلى الأعلى وكأنّه شيء جامد في الفراغ، إمّا لأنّه لا يزال لديها عزم على مقاومة النوم حتّى وهي نائمة، وإمّا لأنّ المقعد ما كان ييسّر مسنداً لرأسها، فبدت في ترجح الرأس وكأنّها تصغي إلى الموسيقى تارة وطوراً كأنّها دخلت في آخر مرحلة النزاع. وأفلح شعورها بحماقتها حيث أخفقت صنوف تأنيب زوجها المتزايدة عنفًا، فهمست تقول: «حمّامي جيّد بخصوص السخونة»، ثم صرخت وهي تستوي في مقعدها: «ولكن ريش معجمي ... آه! يا إلهي كم أنا غبيّة! ما الذي أقوله؟ كنت أفكّر في قبّعتي ولابدّ أنّي تفوّهت بحماقة، لولا القليل لأغفيت، إنّها تلك النار اللعينة». وأخذ الكلّ يضحكون، فلم يكن ثمّة نار .

«انكم تسخرون منّي»، تقول السيّدة «كوتار» نفسها ضاحكة وتمحو بحركة من يدها عن جبينها، بخفّة المنوّم المغناطيسيّ ومهارة امرأة تعيد تصفيف شعرها، آخر آثار النوم، «وأودّ تقديم عذري المتواضع للسيّدة العزيزة «فيردوران» ومعرفة الحقيقة من فمها». ولكن سرعان ما أضحت ابتسامتها حزينة لأن الأستاذ الذي كان يعلم

أن زوجته تحاول أن تحسن في عينه وترتعد أن لا تفلح في ذلك كان قد صاح بها: «انظري إليك في المرآة فإنّك اكتسيت حمرة كما لو أصابك طفح من حبّ الشباب وتبدين كأنّك فلاّحة عجوز». وقالت السيّدة «ڤيردوران»: «تدرون، إنّه ظريف ولديه جانب حلو من الطيبة الساخرة ثمّ إنّه ردّ زوجي عن أبواب القبر بعد ما حكمت الكليّة بأسرها أنّه هالك. لقد أمضى ثلاث ليال إلى جانبه دون أن ينام. ولذلك فإن «كوتار» بالنسبة إلى شيء مقدّس لو تدرون!»، تضيف قولها بلهجة رزينة تكاد تكون متوعّدة وهي ترفع يدها إلى كرتي صدغيها الموسيقيّين بخصلهما البيضاء وكما لو أردنا المساس بالدكتور، «بوسعه أن يطلب ما يشاء، وإني على كلّ حال لا أدعوه الدكتور «كوتار» بل الدكتور «العليّ القدير»! وإني حتّى افتري عليه إذ أقول ذلك لأنّ هذا «العلي القدير» يصلح ما أمكن الإصلاح جزءاً من المصائب التي تقع مسؤوليّتها على عاتق الآخر». وقال السيّد «دوشارلوس» لـ«موريل» وقد بدت السعادة على وجهه: «العب الورقة الرابحة». وقال عازف الكمان: «الورقة الرابحة للاستطلاع». فقال السيّد «دوشارلوس»: «كان ينبغي الإعلان عن الملك الذي تحمله أوّلاً، إنّك شارد الفكر، ولكن كم تحسن اللعب!» فقال «موريل»: «الملك في يدي». وأجاب الأستاذ: «إنّه رجل حسن الطلعة». وسألت السيّدة «ڤيردوران» وهي تدلّ السيّد «دوكامبرمير» على شعار رائع النحت فوق الموقد: «ماهو هذا الشيء مع هذه الأوتاد؟» وأضافت تقول بإزدراء يفيض استهزاء: «أهو شعاركم؟» فأجاب السيّد «دوكامبرمير»: «لا، ليس شعارنا، لأن شعارنا ذهبيّ له ثلاثة أشرطة في الوسط محزّزة بالأحمر ومعكوسة الحزوز لكلّ شريط خمس قطع تحمل كلّ منها ورقة نفل ذهبيّة. لا، هذا الشعار هو لآل«أرّاشبيل» الذين ما كانوا من فصيلنا ولكنّا ورثنا عنهم المنزل ولم يشأ الذين من ذريّتنا أن يبّدلوا فيه شيئا البتّة. وكان لآل«أرّاشپل» (وهم فيما مضى آل«پيلڤيلان» فما يقال) شعار بترس ذهبيّ بخمسة أوتاد حمراء متلّمة الرأس. وحينما ناسبوا آل«فيترن» تبدّل ترسهم ولكنّما لبث مزوّداً في زواياه بعشرين صليبًا صغيراً أعيد رسمها في الوتد الذي يتوسّط الترس والمغموس بالذهب والى اليمين جناحان من فرو القاقم». وقالت السيّدة «دوكامبرمير» بصوت خفيض: «إليك هذه». -«كانت جدّة جدّتي من آل«أرّاشبيل» أو «دو راشبيل» كما تشائين، لأنّنا نجد الأسمين في الصكوك القديمة»، يعلن السيّد «دو كامبرمير» موالياً قوله وقد كست وجهه حمرة شديدة إذ خطرت له حينذاك فقط الفكرة التي بعثت زوجته الفزعَ منها في نفسه وخاف أن تكون السيّدة «ڤيردوران» نسبت لنفسها أقوالاً ما كانت موجّهه إليها البتّة. «وفي الرواية أن أوّل «أرّاشپيل» في القرن الحادى عشر، وهو «ماسيه» المدعوّ «پيلڤيلان»، أبدى مهارة خاصّة في انتزاع الأوتاد في الحصار، ومنها جاء لقب «أرّاشبيل» الذي أصبح نبيلاً على أساسه والأوتاد التي لاتزال مستمرة في شعارهم على مدى القرون، وإنما أعني الأوتاد التي كانوا يغرزونها، واسمحوا لي أن أقول «يدقّونها» في الأرض أمام الحصون ليضاعفوا من صعوبة الإقتراب منها، وكانت توصل فيما بينها. وهي ما كنتم تدعونها المجموعات الوتديّة والتي لا علاقة لها بالعصيّ الطافية لدى ذاك الطيّب «لافونتين»(١). ذلك أنّها اشتهرت باكساب المناعة التامّة لحصن ما، والأمر بالطبع أدعى إلى السخرية مع المدفعيّة الحديثة. ولكنّما ينبغي أن نتذكّر أنّ الأمر يعود إلى القرن الحادى عشر». وقالت السيّدة «ڤيردوران» «ذلك تعوزه الراهنيّة، ولكن برج الأجراس يتّسم بطابع خاصّ». وقال «كوتار»: «حظك حظّ مهراجًا،

(١) من أمثال «لافونتين»: «الجمل والعصيّ الطافية».

والكلمة يردّدها عادة لتجنّب كلمة «موليير»(١). «أتعلم سبب صرف ملك الديناري من الخدمة». وقال «موريل» الذي كانت تزعجه الخدمة العسكريّة: «وددت لو أكون مكانه» وصاح السيّد «دو شارلوس» الذي لم يتمالك عن قرص أذن عازف الكمان: «آه! يا للوطنيّ السّيء!» وعاد «كوتار» يقول، وكان حريصاً على مزحاته: «لا، لست تعرف سبب صرف ملك الديناري من الخدمة؟ لأنّه لا يملك سوى عين واحدة». وقال السيّد «دوكامبرمير» ليبرهن لـ«كوتار» أنّه كان يعلم من هو: «أمامك خصم قويّ يادكتور». وقاطع السيّد «دوشارلوس» الحديث بسذاجة وهو يدلّ على «موريل»: «هذا الشاب مدهش؛ إنّه يلعب لعب الآلهة». ولم ترق الفكرة الدكتور كثيراً فأجاب: «من يعش يرَ، والمخادع نقابله بأكثر من مثله». وأعلن «موريل» بلهجة ظافرة، وكان الحظّ إلى جانبه: «البنت، الأص». وأطرق الدكتور برأسه وكأنّما لايقوى على انكار هذا الحظّ وأقرّ ذاهلاً: «جميل ذلك». وقالت السيّدة «دوكامبرمير» للسيّدة «ڤيردوران»: «لقد سررنا سروراً جمّاً بتناول العشاء مع السيّد «دوشارلوس». فأجابت السيّدة «ڤيردوران»: «أما كنت تعرفينه؟ إنّه مسلّ إلى حدّ وذو طابع خاصّ وينتمي إلى عصر» (ولعلّه كان أحرجها أشدّ الحرج أن تقول أي عصر)، أجابت بابتسامة الرضى التي تطبع الهاوية والقاضي وربّة المنزل، وسألتني السيّدة «دوكامبرمير» إن كنت سآتي إلى «فيتيرن» بصحبة «سان لو». ولم أفلح في احتباس صرخة إعجاب وأنا أبصر القمر معلّقا كمثل فانوس في عقد شجر السنديان المنطلق من القصر. ــ«ليس في الأمر شيء يذكر حتّى الآن وسوف يصبح ألف مرّة أكثر جمالاً حينما يكون القمر بعد قليل أكثر إرتفاعا ويمتدّ الضياء على الوادى. ذاك ما لا يتوافر لكم في «فيتيرن»! تقول بلهجة مستكبرة للسيّدة «دوكامبرمير» التي لا تعلم بمَ تجيب إذ لا تبغي الإنتقاص من قيمة أملاكها ولا سيّما في حضرة المستأجرين وسأل السيّد «دو كامبرمير» السيّدة «كوتار» قائلاً: «أتمكثين بعد بعض الوقت في المنطقة ياسيّدتي؟»، الأمر الذي كان يمكن اعتباره من قبيل النيّة الغامضة في دعوتها وكان يغني في الوقت الحاضر عن موعد أكثر دقّة. -«آه! بالتأكيد ياسيّد، فإنّي جدّ حريصة بالنسبة إلى الأولاد على هذه «الطلعة» السنويّة. وعبثا يقولون، فلابدّ لهم من الهواء الطلق، ربّما كنت في ذلك شديدة البدائيّة ولكنّي أرى أنْ ليس من علاج يساوي الهواء الطلق بالنسبة إلى الأطفال حتّى وإن أقاموا البرهان على العكس بـ آ+ب. لقد تغيّرت منذ الآن وجوههم الصغيرة تغيرًا تامًّا. كانت الكليّة عازمة على إرسالي إلى «ڤيشي»، ولكنها محصورة أكثر ممّا ينبغي وسوف أهتمّ بمعدتي بعد ما يكون هؤلاء الصبية الكبار قد كبروا بعد قليلاً. ثم إن الأستاذ يبذل على الدوام جهداً كبيراً في الأعمال الإمتحانية التي يجريها، وإن فترات الحرّ تتعبه كثيراً. ثم إني أرى أنّ المرء يحتاج راحة حقيقية حينما يلبث مثله طوال العام دائبًا. سوف نمكث فى جميع الأحوال نيّفًا وشهراً بعد». -«فنحن إذاً ممّن سيلتقون».

-«مايزيد على أى حال من اضطرارى للبقاء أنّ زوجي يجب أن يذهب في جولة إلى مقاطعة «سافوا» ولن يعود إلى إقامة ثابتة هنا إلاّ بعد انقضاء خمسة عشر يوماً». وعادت السيّدة «ڤيردوران» تقول: «أفضّل بعد جانب الوادي على جانب البحر. سوف يتوافر لكم طقس رائع للعودة». وقال لي السيّد «ڤيردوران»: «ينبغي حتّى التأكدّ من أنّ العربات أسرجت إن كنت حريصاً تماماً على العودة إلى «بالبيك» هذه الليلة، فإني أنا لا أجد

(١) كلمة «المقرون» (من نبتت له قرون) أو الزوج المخدوع، ترد في مسرحيات لـ «موليير» كاتب الهزليات الشهير.

ضرورة في ذلك، وغداً صباحاً يعيدونك في العربة ويكون الطقس جميلاً بالتأكيد، والطرق رائعة». فقلت إن الأمر مستحيل. واعترضت المعلّمة قائلة: «لم تحن الساعة بعد في جميع الأحوال، فدعهم وشأنهم فإن الوقت يتّسع لهم. سوف يكسبون الكثير في الوصول إلى المحطّة قبل ساعة من الموعد. إنّهم هنا أفضل حالاً». ثم قالت لـ«موريل»: «وأنت أيّها المحبّب موزار»، ولا تجرؤ التوجّه مباشرة إلى السيّدة «دوشارلوس»، ألست تريد البقاء؟ فإنّ لدينا غرفًا جميلة تطلّ على البحر». وأجاب السيّد «دوشارلوس» عن اللاعب المشدود الإنتباه الذي لم يكن قد سمع: «ولكنّه لا يستطيع، فإجازته حدّها منتصف الليل، ولابدّ أن يعود لينام، فعْلَ الوالد المطيع العاقل»، يضيف قوله بصوت مجامل متكلّف ملحاح كما لو يجد متعة ساديّة في استعمال هذا التشبيه العفيف وفي تثاقل صوته كذلك، في معرض الحديث، على ما يتّصل بـ «موريل»، وفي لمسه إن لم يكن باليد فبكلام يبدو وكأنّه يتحسّسه .

استخلص السيّد «دوكامبرمير» من العظة التي وجهها إليّ «بريشو» أني من أنصار «دريفوس» ولمّا كان مناهضاً لـ«دريفوس» إلى أبعد حدّ ممكن فقد شرع مجاملةً منه لأحد الأعداء يكيل المديح للواء يهودي كان دومًا عادلاً جدًّا إزاء ابن عمّ لآل«شوفينيي » وعمل على إعطائه الترفيع الذي يستحقّه. «وكان ابن عمّي يحمل أفكاراً معارضة تمامًا»، يقول السيد «دوكامبرمير» وهو يمرّ سريعًا على ما كانت عليه تلك الأفكار التي احسستها بمثل قدم وسوء تكوين وجهه، أفكار لابدّ أن بعض أسر من بعض مدن صغيرة كانت تحملها منذ زمن طويل جدًّا. وخلص السيّدة «دوكامبرمير» إلى القول: «إيه، تدري، إنّي أجد ذلك جميلاً جدًّا!» صحيح أنّه ما كان يستخدم كلمة «جميل» بالمعنى الجماليّ الذي لعلّه كان أشار بالنسبة إلى والدته أو زوجته إلى أعمال مختلفة، ولكنّما هي أعمال فنّية. أمّا السيّد «دو كامبرمير» فكان يستخدم هذه الصفة بالأحرى في تهانيه لرجل ناحل الجسم على سبيل المثال سمن قليلاً. «عجبًا، كسبت ثلاثة كيلوات في مدى شهرين؟ تدري أن هذا جميل جدًّا!» وكان على إحدى الطاولات مرطّبات معدّة. ودعت السيّدة «ڤيردوران» الرجال إلى المبادرة بأنفسهم إلى اختيار الشراب الذي يرتؤونه، ومضى السيّد «دوشارلوس» فشرب كأسه وقفل سريعًا للجلوس بالقرب من طاولة اللعب ولم يبد من بعد حراكًا. وسألته السيّدة «ڤيردوران»: «هل أخذت ممّا أعددت من شراب البرتقال؟» حينئذ أجاب السيّد «دوشارلوس» بابتسامة ناعمة وصوت بصفاء الكريستال نادراً مايتّخذه وبألف من زمّات فمه وتخلع في القامة: «لا، لقد فضّلت عليه جاره وهو من شراب توت الأرض فيما أعتقد، إنّه لذيذ». والغريب أن بعض صنوف الأعمال السريّة تكون نتيجتها الظاهرة طريقة في الكلام أو حركات لليدين تكشفها. ولئن آمن رجل أو لم يؤمن بالحبل بلا دنس أو ببراءة «دريفوس» أو بتعدّد العوالم وابتغى السكوت عن ذلك فلن تجد في صوته أو مشيته ما يمكن أن يكشف عن فكره لكنّما كان يسعك أن تقول، وأنت تسمع السيّد «دوشارلوس» يقول بذاك الصوت الحاد وتلك الإبتسامة وحركات ذراعيه: «لا، لقد فضّلت جاره شراب توت الأرض»، ويحك، إنّه يحبّ الجنس الخشن» باليقين نفسه الذى يتيح بإصدار الحكم، بالنسبة إلى القاضي على مجرم لم يعترف، وبالنسبة إلى طبيب على مصاب بشلل عام ربّما لا يعرف هو نفسه داءه ولكنّه وقع في أخطاء تلفّظيّة من شأنها أن يُستخلص منها أنّه سيكون في عداد ا لأموات بعد ثلاث سنوات. وربما لم يكن أولئك الذين يستنتجون من طريقة قول أحدهم: «لا، فضّلت عليه جاره شراب توت الأرض»

حبّاً يسمّونه مضاداً للطبيعة، ربّما لم يكونوا بحاجة إلى هذا الكم من العلم. وإنّما الأمر هنا أن ثمّة صلة أكثر مباشرة بين الإشارة الكاشفة والسرّ. فأنت تحسّ دون أن تصرّح بذلك بوضوح لنفسك أن من يجيبك سيّدة عذبة مفترّة الثغر وأنّها تبدي تصنّعًا لأنّها تتظاهر بأنّها رجل وأنّك لم تتعوّد رؤية الرجال يقومون بهذا القدر من صنوف التصنّع. وربّما كان من الألطف أن نعتقد أن عدداً من النساء الملائكيات حشرن خطأ منذ زمن طويل في جنس الذكور حيث يعرفن، وهنّ منفيّات فيما تخفق أجنحتهنّ عبثاً باتّجاه رجال يبعثن نفوراً جسديّاً في صدورهم، كيف يرتّبن صالة ويهندسن منازل من الداخل. ما كان السيّد «دوشارلوس» يهتم لأن تكون السيّدة «ڤيردوران» واقفة وظلّ يوالي الجلوس على كنبته ليكون أكثر قرباً من «موريل». وقالت السيّدة «ڤيردوران» للبارون: «أتعتقد أنْ ليس من باب الإجرام أن يجلس هذا الشخص الذي يمكن أن يفتننا بكمانه إلى طاولة لعبة «الاستبعاد»، وحين يعزف على الكمان كما يفعل!» –«إنّه يحسن لعب الورق ويحسن كلّ ما يفعل، وهو شديد الذكاء»، يقول السيّد «دوشارلوس» فيما يتابع سير اللعب كي يسدي النصح لـ«موريل». لم يكن ذلك على أيّ حال السبب الوحيد لامتناعه عن القيام من مقعده أمام السيّدة «ڤيردوران». فقد كان إلى جانب الخليط الغريب الذي ألّفه من مفاهيمه الاجتماعية، مفاهيم السيّد الكبير وهاوي الفنون في آن معاً، كان يصنع لنفسه، بدلاً من أن يكون مهذّبا كما لعلّ رجلاً من مجتمعه كان، أنواعًا من اللوحات الحيّة يأخذها عن «سان سيمون»؛ وكان في هذا الوقت يتسلّى بتمثيل دور الماريشال «دوكسيل» الذي كان يثير اهتمامه بجوانب أخرى والذي قيل عنه إنّه كان معتزّاً بنفسه إلى حدّ لا ينهض معه عن مقعده بنوع من الكسل الظاهر أمام ما كان الأكثر رفعة في البلاط. وقالت السيّدة «ڤيردوران وقد شرعت تبدي ألفة: «ألا قل لي يا «شارلوس»، أليس في حيّكم من نبيل عجوز فقد ثروته ويمكن أن يقوم عندي مقام بوّاب؟» وأجاب السيّد «دوشارلوس» وهو يبتسم بهيئة ساذجة: «بلى... بلى ... ولكنّي لا أنصحك به». –«ولماذا؟» –«أخشى من أجلك أن لا يمضي الزوّار الأنيقون إلى أبعد من حجرة البوّاب»، كانت تلك أوّل مناوشة بينهما، وكادت السيّدة «ڤيردوران» أن لا تتنبّه له. وسوف تتبعها في باريس، لابدّ في ذلك، مناوشات أخرى لسوء الحظّ. ولبث السيّد «دوشارلوس» لا يغادر مقعده. ما كان على أيّ حال يستطيع أن يملك النفس عن ابتسامة خفيّة وهو يرى إلى أي حدّ كان إخضاع السيّدة «ڤيردوران» الذي حصل عليه بيسر عظيم يؤكّد حكَمَه المفضّلة حول مهابة الأرستقراطيّة وجبن البورجوازيين. لم يبدُ البتة أنّ المعلّمة دهشت من وضعة البارون، ولئن فارقته فلأنّها قلقت فحسب إذ رأت السيّد «دو كامبرمير» يلاحقني. ولكنّها كانت تبغي قبل ذلك أن تستوضح مسألة علاقات السيّد «دوشارلوس» بالكونتيسّة «موليه». وسألت تقول: «أنبأتني أنّك تعرف السيّدة «دوموليه». فهل تذهب إلى منزلها؟» تقول وهي تولي الكلمات: «تذهب إلى منزلها» ما يعني أنّه يجري استقباله في منزلها وأنّه حصل منها على إذن بالذهاب لالتقائها. وأجاب السيّد «دو شارلوس» بعطفة في الصوت يلوّنها الإزدراء وتكلّف في الدقّة ولهجة مرتّلة: «أحياناً». وبعثت كلمة «أحياناً» هذا شكوكاً في صدر السيّدة «ڤيردوران» فسألت: «وهل التقيت هناك بالدوق «دوغيرمانت» ؟» –«آه! لست أذكر». وقالت السيّدة«ڤيردوران»: «آه! ألا تعرف الدوق «دوغيرمانت» ؟ فأجاب السيّد «دوشارلوس» وقد موّجت فمه ابتسامة: «ولكن كيف لي أن لا أعرفه؟» وكانت الإبتسامة ساخرة ، إلاّ أن البارون قطعها ،وقد خشي من إظهار سنّ له من ذهب، وبإرتداد من شفتيه ممّا جعل الإلتواءة الحاصلة التواءة

ابتسامة رفيقة. -«ولماذا تقول: كيف لي أن لا أعرفه؟» -«كيف ذلك وهو أخي»، يقول السيّد «دوشارلوس» بلهجة لامبالية ويخلّف السيّدة «ڤيردوران» غارقة في ذهولها وحيرتها في أن تعلم إن كان ضيفها يسخر منها أم هو ابن من خارج الزواج أم ابن من زواج آخر. ولم تخطر لها فكرة أن يُدعى شقيق الدوق «دوغيرمانت» البارون «دوشارلوس». وقصدت إليّ تقول: «سمعت منذ قليل أنّ السيّد «دو كامبرمير» يدعوك للعشاء. أمّا أنا، فأنت تدرك أنّ الأمر عندي سواء. ولكنّي آمل لصالحك أنّك لن تذهب، فالمكان بادئ الأمر يعجّ بالمُبرمين، أمّا إذا كنت تحبّ تناول العشاء بصحبة «كونتات» و«مركيزات» من الريف لا يعرفهم أحد فأنت وما تشتهي».
-أظنّني مضطراً للذهاب إلى هناك مرّة أو مرتين، ولست بأيّ حال خالي الأشغال كثيراً، فإن لي إبنة عمّ شابّة لا يمكن أن أدعها وحدها (وكنت أرى أن هذه القرابة المزعومة تبسّط الأمور للخروج بمعيّة «ألبيرتين»).
ولكن لما سبق فيما يخصّ آل«كامبرمير» أن عرّفتها بهم...» -«إفعل ما تشاء. ما يمكن أن أقوله لك أن المكان غير صحّي على الإطلاق. وبعدما تكون جنيت نزلة صدريّة أو رثيات الأسر اللطيفة المحبّبة أتراك تكون كسبت الكثير؟» -«ولكن أليس المكان جميلاً جداً؟» -«اننننعم....إن شئت. أمّا أنا فأقرّ صراحة أني أفضل مئة مرّة الإطلالة على هذا الوادي من هنا. وبادئ الأمر ما كنت لآخذ البيت الآخر حتّى لو تقدونا مالاً بالمقابل لأن هواء البحر قاتل بالنسبة إلى السيّد «ڤيردوران». حسبك أن تكون إبنة عمّك عصبيّة... ولكنّك عصبيّ أنت أيضاً على أيّ حال فيما اعتقد... وتصاب باختناقات. حسن! سوف ترى. امضِ إلى هناك مرّة ولن تنام لثمانية أيّام. لا، ليس يناسبك ذلك». ودون أن تفكّر في ما ستحمله جملتها الجديدة من تناقض مع سابقاتها: «إن سرّك أن تزور البيت الذي لا بأس به»، فقد نغلو إن قلنا الجميل، ولكنّه ممتع بأي حال، بالخندق القديم والجسر المتحرّك العتيق، وبما أنّه لا بدّ لي من الإمتثال للأمر وأن أتناول فيه طعام العشاء مرّة، فتعال إلى هناك في ذلك اليوم وسأحاول اصطحاب كلّ جماعتي الصغيرة وإذ ذاك يكون الأمر لطيفًا. بعد غد سنمضي إلى «أرامبوڤيل» في عربتنا. إن الطريق رائع وهناك عصير تفّاح لذيذ. فتعال إذن. وأنت يا«بريشو» تعال بدورك. وأنت أيضًا يا «سكي»، سوف تكون تلك حفلة لابدّ أن زوجي على كلّ حال دبّرها سلفًا. لست أعلم الكثير عمّن دعا. سيّد «دوشارلوس» هل أنت من الركب؟» وانتفض البارون الذي لم يسمع سوى هذه الجملة، وما كان يعلم أن الحديث يدور حول رحلة إلى «أرامبو ڤيل»، وهمس بلهجة ساخرة أحسّت السيّدة «ڤيردوران» أنّها تمسّها في الصميم: «سؤال غريب». وقالت لي: «من جانب آخر وبانتظار عشاء آل«كامبرمير» لماذا لا تصطحب ابنة عمّك إلى هنا؟ أهي تحبّ المحادثة والقوم الأذكياء؟ وهل هي ظريفة؟ أجل، جيّد جداً والحالة هذه. تعال وإيّاها، فإنّ في العالم غير آل«كامبرمير». إنّي أدرك أن يسعدوا بدعوتها فهم لا يفلحون في الحصول على أحد. ستجد هنا جوّاً طيّباً وأناساً أذكياء على الدوام. وأحسب في جميع الأحوال أنّك لن تتخلّى عنّي يوم الأربعاء القادم. وقد نُمي إليّ أن لديك عصرونية في «ريڤبيل» بصحبة ابنة عمّك والسيّد «دوشارلوس» ولست أعلم مَنْ بعد. يجب أن تتدبّر أمر نقل كلّ ذلك إلى هنا، وربّما كان لطيفًا أن تصلوا جماعة. إن المواصلات من أيسرها إطلاقاً والدروب رائعة، ولدى الضرورة آمر بالمجيء بكم. لست أعلم على أيّ حال ما الذي يمكن أن يجذبكم إلى «ريڤبيل» فإنّها يملؤها البعوض. ربّما آمنت بشهرة فطائر الرقاق . إن طبّاخي يضعها بجودة غير هذه ، وسأطعمك أنا فطيرة الرقاق النورمانديّة الحقيقيّة والمرمّلات، ولن أقول لك غير هذا. أمّا إن كنت حريصاً

على القذارة التي يقدّمونها في «ريفبيل» فهذا لا أريده. إنّي لا أقتل المدعوّين عندي ياسيّد، وحتّى لوشئت ذلك فإن طبّاخي ما كان ليقبل أن يضع هذا الشيء الذي لا يسمّى وكان غيّر هذا البيت. هذه الفطائر هناك لستَ تعلم من أي شيء صنعت. إني أعرف فتاة مسكينة أورثها ذلك إلتهاباً في الحجاب الحاجز قضى عليها في ثلاثة أيّام، ولم تكن تجاوزت السابعة عشرة ذلك محزن بالنسبة إلى أمّها المسكينة»، تضيف السيّدة «ڤيردوران» قولها بادية الكآبة تحت دوائر صدغيها المثقلين بالخبرة والألم. «ولكن هيّا اذهب إلى عصرونيّتك في «ريفبيل» إن سرّك أن يسلخ جلدك وتلقي بما لك من النوافذ. إنّما، رجوتك، إنّها مهمّة قائمة على الثقة أكلفك أيّاها: حينما تدقّ السادسة جئني بجماعتك كلّها إلى هنا ولا تدع الناس ينثنون عائدين كلّ إلى منزله مشتّتي الصفوف. تستطيع اصطحاب من تشاء؛ وما تراني أقول ذلك لسائر الناس، ولكنّي متيقّنة أن أصدقاءك لطفاء، فإنّي أرى منذ الساعة أنّنا متفاهمان. وفي يوم الأربعاء يجيء بالإضافة إلى النواة الصغيرة أناس هم بالضبط ظرفاء جدّاً. ألا تعرف السيّدة الشابة «دولونپون»؟ إنّها فاتنة كثيرة الظرف غير متحذلقة على الإطلاق، سوف ترى أنّها ستروقك كثيراً». وأضافت السيّدة «ڤيردوران» تقول لتُظهر أنّها من طراز طيّب وتشجّعني بالمثال الصالح: «وهي بدورها ستصطحب زمرة كاملة من الأصدقاء. وسوف نرى من يكون الأوفر نفوذاً ويصطحب أوفر عدد من الناس، «دوبارب – دولونپون» أم أنت. في ظنّي كذلك أنّهم سيصطحبون «بيرغوت» أيضاً، «تضيف قولها بطريقة مغمغمة إذ أصبحت مشاركة شخصية شهيرة كهذه أكثر من بعيدة الإحتمال جرّاء ملاحظة نشرت صباحاً في الصحف تعلن أن صحّة الكاتب الكبير توحي بأشدّ المخاوف. «سوف ترى بمختصر القول أنّه سيكون من بين أكثر أيّام الأربعاء التي أدعوا إليها نجاحاً ولست أريد نساء مزعجات. ومهما يكن من أمر، فلا تحكم قياساً على أربعاء هذا المساء فقد كان فاشلا تماماً. لا ترفع صوتك بالإحتجاج، فلا يمكن أن تكون تضجّرت أكثر منّي، فقد ألفيته بنفسي قاتلاً. لن تكون الأمور دوماً كهذا المساء تدري! وإنّي على كلّ حال لا أتحدّث عن أسرة «كامبرمير» فهم لا يحتملون، ولكني عرفت جماعة من علية القوم كانوا يعدون من الظرفاء، ولكنّهم كانوا لا وجود لهم بجانب نواتي الصغيرة. سمعتك تقول إنّك ترى «سوان» على ذكاء. رأيي بادئ الأمر أن هذا مبالغ فيه كثيراً، ولكن حتّى دون الكلام عن طبيعة الرجل الذي وجدته على الدوام منفّرا إلى أبعد حدّ وخبيثاً ومتستّراً فغالباً ما كان في عداد المدعوّين إلى العشاء يوم الأربعاء. حسن! بوسعك أن تسأل الآخرين، فـ«سوان» حتّى لو قارنته بـ«بريشو»، وما أبعد أن يكون هذا نسراً وهو أستاذ ناجح في الثاني الثانوي أدخلته المعهد، ما كان مع ذلك ليظلّ على شيء. يا الله كم كان باهتاً!» وإذ كنت أبدي رأياً مخالفاً: «الأمر كذلك. ولست أريد أن أقول لك شيئاً ضدّه بما أنّه كان صديقاً لك. كان على أيّة حال يحبّك حبّ جمّاً وقد حدّثني عنك حديثاً حلواً، ولكن أسأل هؤلاء الناس إن كان قال في يوم شيئاً مشوّقاً على موائد عشائنا؛ ذلك والحق يقال حجر المحكّ. عجبا! لست أدرى سبباً لذلك، ولكنّ «سوان» في منزلي لم يكن يعطي شيئاً، لم يكن ينتج شيئاً. والقليل الذي يساويه إنّما كسبه هنا». وأكّدت أنّه كان شديد الذكاء. «لا، إنّما تعتقد ذلك لمحض أنّك تعرفه من فترة تقلّ عن معرفتي له. وفي الحقيقة ما أسرع ما كنت تحيط بكل شيء لديه. أمّا أنا فكان يقتلني. (وترجمتها: كان يرتاد منزل آل«لاتريمواي» وآل«دوغيرمانت» ويعلم أنّي لا أذهب إلى هناك). بوسعي أن احتمّل كلّ شيء فيما عدا الملل. أمّا هذا فلا!» كان النفور من الملل يمثّل الآن في نظر السيّدة

«ڤيردوران» السبب المكلف بتفسير تركيبة الوسط الصغير. فهي بعد لا تستقيل دوقات لعجزها عن الملل عجزها عن القيام برحلة بحريّة بسبب دوار البحر، كنت أقول في نفسي إن ما تقوله السيّدة «ڤيردوران» لم يكن خطأً بالمطلق، ففي حين كان يمكن أن يعلن آل«غيرمانت» أن «بريشو» هو الرجل الأكثر غباء ممّن ربّما التقوهم في يوم كنت غير متيقّن إن لم يكن بالحقيقة يفوق «سوان» نفسه أو على الأقلّ أولئك الذين اكتسبوا روح آل«غيرمانت» ولعلّه تيسّر لهم من سلامة الذوق ماجعلهم يتجنبون، ومن الحياء ما يحمّرون به خجلاً من نكاتة الحذلقية، كنت أسائل النفس عن ذلك كما لو أمكن أن تتضح طبيعة الذكاء إلى حدّ ما بالإجابة التي أقدّمها لنفسي وبجديّة مسيحيّ متأثّر بتعاليم «پورويّال» يطرح على نفسه مشكلة النعمة. وتابعت السيّدة «ڤيردوران» تقول: «سوف ترى، حينما يجتمع لديك أناس من المجتمع الراقي وأناس أذكياء حقًّا، أناس من وسطنا، فإذ ذاك يجدر بك أن تلتقيهم، وإن رجل المجتمع الراقي الأكثر ظرفًا في مملكة العميان ليس من بعد هنا سوى أعور. أضف إلى ذلك أنّه يجمّد الآخرين الذين لا يشعرون من بعد أنّهم في جوّ ثقة. إلى حدّ أني أتساءل إن لم أرتّب لنفسي، عوضاً عن اللجوء إلى تخليط يفسد كلّ شيء، مجموعات للمبرمين فحسب حتّى أجد أحسن المتعة في نواتي الصغيرة. الخلاصة الآن: تجيء بصحبة ابنة عمّك. اتفقنا. حسن. هنا على الأقلّ سيتوافر الطعام لكليكما. أمّا في «فيتيرن» فالجوع والعطش. آه! أمّا إن كنت تحبّ الجرذان فامض إليها في الحال وسيتوافر لك منها ما تشتهي ويحتفظون بك قدر ما تشاء. وتموت وحقّك جوعًا. وفي جميع الأحوال عندما أذهب سأتناول طعام عشائي قبل الذهاب. ويجدر بك، كي يكون الجوّ أكثر مرحًا، أن تأتي لاصطحابي. فنتناول العصرونية بجدّ ونتناول العشاء لدى العودة. هل تحبّ الفطائر بالتفّاح؟ تحبّها، حسن! إن طبّاخنا يصنعها كما لا يفعل أحد سواه. ترى أني كنت على حقّ بقولي إنّك خُلقت لتعيشْ هنا. فهلمّ إذن واسكن فيه. تعلم أن المكان عندي متّسع أكثر ممّا يبدو. وأني لا أقول ذلك كي لا أجتذب المزعجين. بوسعك اصطحاب ابنة عمّك بصورة دائمة، وسيتوافر لها هواء غير هواء «بالبيك». وإنّي أزعم أني أشفي بالهواء الذي هنا من لا شفاء لهم، وقد شفيت منهم، أقسمت، وليس اليوم فحسب. ذلك أني سكنت فيما مضى، قريباً جداً من هنا، شيئاً كنت اكتشفته وحصلت عليه مقابل كسرة خبز وكان له طابع غير الذي لقصر «لا راسپلييره». سأريك ذلك إن ذهبنا في نزهة. على أنّي أقرّ أن الهواء منشّط حقًّا حتّى هنا. بيد أنّي لا أريد الإفراط في التحدّث عن ذلك إذ لن يبقى للباريسيّين سوى الشروع في تعشّق ركني الخاص. ذاك كان على الدوام نصيبي. باختصار القول انقل ذلك لابنة عمك وسوف تعطيان غرفتين جميلتين تطلاّن على الوادي، وستشهد ذلك في الصباح، والشمس وسط الضباب! وأيّ شيء هو هذا، «روبير دو سان لو» الذي كنت تتحدّث عنه؟»، تقول بادية القلق إذ سبق أن سمعت أنّني أزمع الذهاب للقائه في «دونسيير» وخشيت أن يحملني على هجرها. «يمكنك بالأحرى أن تجيء به إلى هنا إن لم يكن من المزعجين. لقد سمعت «موريل» يتحدّث عنه»، تقول السيّدة «ڤيردوران» وهي تكذب تماماً لأن «سان لو» و«موريل» ما كان أحدهما يعلم حتّى بوجود الآخر. ولكنّها ظنّت وقد سمعت أن «سان لو» كان يعرف السيّد «دوشارلوس» أن ذلك كان عن طريق عازف الكمان وأرادت أن يبدو أنّها على إطّلاع. «أليس يُحتَمل أنّه يدرس الطبّ أو الآداب؟ فأنت تعلم، إن كنت بحاجة إلى توصيات في الإمتحانات، أنّ «كوتار» قادر على كل شيء وأنّي أفعل به ما أشاء. أمّا بخصوص الأكاديميّة، وذلك لما بعد إذ أعتقد أنّه لم

يبلغ السنّ، فإنّ بتصرّفي عدّة أصوات، وقد يحسّ صديقك هنا أنّه في بلد يعرفه وربّما سرّه أن يشاهد البيت. و«دونسيير» ليست متعة ومسرّات». وختمت تقول: «خلاصة القول، تفعل ما تشاء وأفضل ما تراه مناسبا لك»، تقول دونما إلحاح كي لايبدو أنّها تحاول التعرّف بالنبلاء ولأنها كانت تطمح أن يُدعى النظام الذي تفرض على الخلّص العيش في ظلّه، عنينا الاستبداد، حرّية. ثمّ قالت: «ويحك، ما بك؟» وهي تشاهد السيّد «فيردوران» يتّجه، بيتشو من نفد صبره، نحو الشرفة التي من ألواح خشبية تمتدّ من أحد جوانب الصالة فوق الوادي، وكأنّه رجل يختنق غيظاً وبه حاجة إلى الهواء: «هو «سانييت» أيضاً أزعجك؟ ولكن مادمت تعلم أنّه معتوه فسلّم بالأمر ولا تبلغ مثل هذه الأطوار». وقالت لي: «لست أحبّ ذلك فهو يلحق به الأذى ويسبّب له احتقاناً. لكنّما ينبغي لي أن أقول إنّه لابد أحياناً من صبر أيّوب لاحتمال «سانييت» وأن نتذكّر على وجه الخصوص أن من الإحسان إيواءه. أمّا أنا فأقرّ أن روعة غبائه مدعاة بالأحرى لسروري. وفي ظنّي أنّك سمعت نكتته بعد العشاء: «لست أحسن لعبة «الويست» ولكني أحسن العزف على البيانو». يالجمالها! إنّها واسعة اتّساع العالم وهي كذبة على أيّ حال، فهو لا يعرف هذا ولا تلك. لكنّ زوجي بظواهره الخشنة حسّاس جدّا طيب جدًا، ونوع الأنانية التي يبديها «سانييت» ،وهو دائم الإهتمام بالأثر الذي يخلفه، إنّما يخرجه عن طوره... هيّا ياعزيزي، هدّئ من روعك، فأنت تعلم أن «كوتار» قال إن ذلك مؤذ لكبدك. وإنّما سيرتد كلّ شيء عليّ»، تقول السيّدة «فيردوران». في غد يأتي «سانييت» يجرّر نوبة أعصابه ودموعه. ياللرجل المسكين! إنّه مريض جدّا، على أن ذلك ليس سبباً كافياً ليقتل الآخرين. ثمّ إن غباءه يضع حدّا قاطعاً لإشفاقك عليه حتّى في الفترات التي يعاني فيها كثيراً وتودّ فيها أن ترثي لحاله. إنّه مفرط الغباء. ما عليك إلاّ أن تقول له بلطف شديد أن هذه المشاهد تعلّكما كليكما وأن يمتنع عن العودة. وبما أن ذلك أخشى مايخشاه فسوف يكون له أثر مهدّئ على أعصابه»، تقول السيّدة «فيردوران» لزوجها همساً.

كنت تكاد لا تميّز البحر من النوافذ التي إلى اليمين. لكنّ النوافذ من الجانب الآخر كانت تكشف الوادي الذي انهمر عليه الآن ثلج ضياء القمر. وكان يتناهى إليك بين الحين والحين صوت «موريل» وصوت «كوتار»: «معك الصنف الرابح؟» –"yes" (أجل) –«آه! معك من أحسنها أنت»، يقول السيّد «دوكامبرمير» لـ«موريل» جوابًا عن سؤاله إذ رأى أن أوراق الدكتور مليئة بالصنف الرابح. وقال الدكتور: «هذه بنت الديناري. وهي من الصنف الرابح، تعرف ذلك؟ «آني» أقطع و«آني» آخذ ... ولكن لم يعد ثمّة صوربون»، يقول الدكتور للسيّد «دوكامبرمير»، ليس ثمّة سوى جامعة باريس». وأقرّ السيّد «دوكامبرمير» أنّه يجهل لماذا وجّه إليه الدكتور تلك الملاحظة. وأردف الدكتور يقول: «ظننتك تتحدّث عن الصوربون. وكنت سمعت أنّك تقول: انفخ في «الصور وبنْ»، يضيف قوله وهو يغمز بعينه ليُظهر أن الأمر من باب النكتة. وقال وهو يدلّ على خصمه: «انتظر، فإني أعدّ له وقعة جبل طارق(١)». ولابدّ أن الضربة كانت عظيمة من جانب الدكتور، فإنّه شرع في غمرة ابتهاجه يهزّ كتفيه بتلذّذ وهو يضحك، الأمر الذي كان يعني في الأسرة وفي «طراز» كوتار سمة تقرب أن تكون حيوانية للانشراح. كان يرافق تلك الحركة لدى الجيل السابق حركة فرك اليدين كما

(١) إشارة إلى هزيمة نابليون والأسطول الأسباني الفرنسي أمام الأنجليز عام ١٨٠٥.

لوتغسلان بالصابون. وسبق أن استخدم «كوتار» نفسه بادئ الأمر تلك الإيمائيّة المزدوجة في آن واحد، ولكنّ حركة فرك اليدين اختفت ذات يوم دون أن يعرف عن أيّ تدخّل كان ذلك ناجماً، تدخّل الزوجة وربّما الأستاذ. كان الدكتور يكتفي حتّى في لعبة «الدومينو» وحين يرغم شريكه على أخذ مجموعة من الأحجار وصولا إلى «الستّتين»، وهو في نظره أشدّ صنوف المسرّات، كان يكتفي بحركة كتفيه. وحينما كان يذهب إلى مسقط رأسه بضعة أيّام –وهو أندر النادر– فيلتقي ابن عمّه الشقيق الذي كان يرافق لا يزال على حركة فرك اليدين، كان حين عودته يقول للسيّدة «كوتار»: «لقد وجدت «رنيه» المسكين عاديّا جداً». ثمّ قال وهو يستدير صوب «موريل»: «معك من ذاك الشيء الصغير؟ لا؟ ألعب إذاً داوود العجوز(١) هذا». –«ويحك معك خمسة منه، لقد ربحت!». وقال المركيز: «إنّه لنصر مؤزّر يادكتور». –«نصر كانتصار «بيروّس»(٢)، يقول «كوتار» مخاطباً المركيز فيما ينظر من فوق نظّارته ليحكم على الأثر الذي تخلّفه نكتته. وقال لـ«موريل»: «إن كان ثمّة متّسع من الوقت فإني أفسح لك في الثأر. دوري أنا في ... ولكن لا، فهاهي العربات، موعدنا يوم الجمعة وسأريك خدعة ليست بالأمر القليل». ورافقنا السيّد والسيّدة «فيردوران» خارجا. وأبدت المعلّمة رقّة خاصّة تجاه «سانييت» كي توقن أنّه سيحضر في الغد. لكنّما لا يبدو لي أنّك لم تثقل في اللباس ياصغيري»، يقول لي السيّد «فيردوران»، وكان تقدّمه في السنّ يسمح له بهذا النداء الأبويّ، «إذ يخيّل إليّ أن الطقس تبدّل». وملأتني هذه الكلمات حبوراً وكأنّما انبغى أن تؤذن الحياة العميقة، وإنبثاق تأليفات جديدة تقتضيها في الطبيعة، بتغيّرات أخرى، وهذه تجرى في حياتي، وأن توفّر فيها امكانات جديدة. فإنّك تحسّ، بمجرد فتح الباب على الحديقة قبل الإنطلاق، أن «طقسًا» آخر يشغل خشبة المسرح منذلحظة. فقد أخذت أنسام عليلة، هي ملذّات الصيف، تهبّ في حرجة الصنوبر (حيث كانت السيّدة «دوكامبرمير» تحلم بالأمس بـ«شوبان») وبدأت، على نحو يكاد لا يلحظ وفي تثنّيات رقيقة وارتدادات غير متوقّعة، ليليّاتها الرشيقة. ورفضتُ الغطاء الذي كنت سأرتضيه في الأمسيات التالية حينما تكون «ألبيرتين» هناك في سبيل سريّة المتعة أكثر منّي اتّقاء لخطر البرد. وعبثًا جرى البحثُ عن الفيلسوف النرويجي، فهل ألمّ به مغص؟ وهل خشي أن يفوته القطار؟ وهل أقبلت طائرة لنقله؟ أم هو حملته ظاهرة صعود؟ لقد اختفى في جميع الأحوال، دون أن يتّسع الوقت لملاحظة ذلك، شأن إله. وقال لي السيّد «دوكامبرمير»: «أنت مخطىء، فالبرد يقصّ المسمار». وسأل الدكتور قائلاً: «ولمَ يقصّ المسمار؟» وعاد المركيز يقول: «حذار من الاختناقات. إن شقيقتي لا تخرج البتّة في العشية. وهي الآن في جميع الأحوال مقيّدة بأسوأ ارتهان. لا تلبث على أي حال هكذا حاسر الرأس وسارع إلى وضع غطاء رأسك». وقال «كوتار» بلهجة قاطعة: «ليست اختناقات afrigore (٣) (ناشئة عن البرد)». وردّ السيّد «دوكامبرمير» وهو ينحني: «آه! إذاً، مادام ذلك رأيك ...» –«رأيي إلى القارىء!» يقول الدكتور وهو يسرّح نظراته خارج نظّارته ليبتسم، وضحك السيّد «دوكامبرمير»، ولكنّه كان مقتنعًا أنّه على حقّ فألحّ قائلاً: «ومع ذلك فإن شقيقتي تصاب بنوبة في كلّ مرّة تخرج فيها مساءً». وأجاب الدكتور: «لا جدوى من المماحكة»،

(١) ملك البستوني.
(٢) هو نصر يحرزه المرء بعد ما يُمنىٰ بخسائر كبيرة (إشارة إلى انتصار «بيرّوس» علي الرومان على إثر خسائر فادحة في معركة «اسكولوم» (٢٧٩ق.م).
(٣) باللاتينية وهي طريقة كان يتصنعها أطباء أوربا ومجال سخرية منهم يلجأ إليه منتقدوهم.

دون أن ينتبه إلى سوء تهذيبه. «وإنّي على أيّ حال لا أقوم بالتطبيب على شاطئ البحر، إلا إذا استُدعيت في استشارة. فإني هنا في عطلة». وكان كذلك أمره ربّما أكثر ممّا لعلّه أراد. فإنّ «كوتار»، إذ قال له السيّد «دوكامبرمير»، وهو يستقلّ العربة وإيّاه: «إننا محظوظون أن يكون على مقربة كبيرة منّا (ليس من جانب الخليج الذي تطلّ عليه، بل من الآخر ولكنّه ضيّق جداً في ذلك المكان) شخصيّة طبيّة أخرى مشهورة: الدكتور «دوبولبون»، وكان يمتنع عادة، تمسكًا بشرف المهنة، عن انتقاد زملائه، لم يملك نفسه عن أن يصرخ، مثلما سبق أن فعل أمامي في اليوم المشؤوم الذي ذهبنا فيه إلى الكازينو الصغير: «ولكنّه ليس طبيباً، إنّه يتعاطى الطبّ الأدبي وفنّ مداواة غريب وشيئًا من التهريج نحن على أيّ حال متفاهمان تماماً، ولو لم أكن مضطراً للتغيّب لبادرت في المركب للقائه ذات مرّة». ولكنّي أحسست إزاء الهيئة التي اتّخذها «كوتار» للكلام عن «دوبولبون» مع السيّد «دو كامبرمير»، أحسست أن المركب الذي لعلّه كان استقلّه بسرور للقائه ربّما كان أشد شبهاً بتلك السفينة التي استأجرها أطباء «ساليرن» للمبادرة إلى تخريب المياه التي اكتشفها طبيب أديب آخر هو «فيرجيليوس» (الذي كان يحرمهم أيضا كامل زبائنهم)، ولكنّها غرقت وإيّاهم في أثناء العبور(١). «إلى اللقاء ياعزيزي «سانييت» ولا تنسَ أن تجيء غداً، فأنت تعلم أن زوجي يودّك كثيراً. إنّه يحبّ ظرفك وذكاءك. بلى، تعلم ذلك تماماً، إنّه يحبّ اتخاذ مظاهر فظة ولكنّه لايقوى على الاستغناء عنك. إنّه دومًا السؤال الأوّل الذي يطرحه عليّ: «هل يأتي «سانييت»؟ فشدّ ما أريد لقاءه!» وقال السيّد «فيردوران» لـ«سانييت»: «ما قلت ذلك في يوم»، قال بصراحة متكلّفة كانت تبدد وكأنّها توفّق تمام التوفيق بين ما تقول المعلّمة والطريقة التي يعامل بها «سانييت». ثم نظر إلى ساعته كي لايطيل دونما شك فترات الوداع في برودة المساء فأوصى الحوذيّة بأن لا يتباطؤوا وأن يتوخّوا الحذر أثناء النزول وأكد أننا سنصل قبل القطار. وكان سيتولّى نقل الخلّص، هذا إلى هذه المحطّة وذاك إلى أخرى فينتهي بي، إذ لا يمضي آخر غيري إلى ما كان في بعد «بالبيك» ويبدأ بأسرة «كامبرمير»، وكانوا استقلّوا القطار معنا، كي لا يصعدوا بأحصنتهم ليلاً حتّى قصر «لاراسبلبير» في «دوڤيل فيتيرن». ولم تكن هذه بالفعل الأقرب إلى منازلهم، وهي على بعد يسير عن القرية وأكثر بعداً عن القصر، بل محطّة «لاسونييي». وحرص السيّد «دوكامبرمير» لدى وصوله إلى محطّة «دوڤيل فيتيرن» أن ينقد حوذيّ آل«ڤيردوران» «قطعته»، كما كانت تقول «فرانسواز»، (وكان بالضبط الحوذيّ اللطيف الحسّاس صاحب الأفكار الكئيبة) ذلك أنّ السيّد «دوكامبرمير» كان كريماً وكان أقرب في ذلك إلى «جانب أمّه». ولكنّما كان يحسّ، إمّا لأنّ «جانب والده» كان يتدخّل هنا، كان يحسّ فيما يعطي هاجس خطأ يقع -إمّا على يده هو إذ قد يعطي، لسوء الرؤية، فلسًا عوضًا عن فرنك، وإمّا من جانب المتلقّي الذي قد لا يتبيّن أهميّة الهبة التي يقدّمها له. ولذلك لفت الانتباه إلى تلك الأهمية، وقال للحوذيّ وهو ينقل بريق القطعة في الضوء وكيما يستطيع الخلّص ترداد ذلك على مسامع السيّدة «ڤيردوران»: «ما أعطيك فرنك، أليس كذلك؟ إنّها عشرون فلسا مادام المشوار قصيراً، أليس كذلك؟» وفارقنا هو والسيّدة «دوكامبرمير» في محطّة «لاسونيي». وأعاد على مسمعي قوله: «سأنقل لشقيقتي أنّك تصاب باختناقات وإنّي متأكد من إثارة أهتمامها». وفهمت من ذلك أنّه

(١) يقال أن شاعر الرومان الأكبر فيرجيليوس كان يتعاطى الطب إلى جانب الشعر وإنه اكتشف مياها ذات مفعول سحري على مقربة من نابولي مما أوغر صدر الأطباء عليه وكان ماكان.

يقصد: إشاعة السرور في نفسها. أمّا زوجته فقد استخدمت وهي تستودعني اثنين من تلك الإختصارات التي كانت تصدمني حينذاك وإن مسطّرة في رسالة مع أنّ الناس تعوّدوا الأمر مذ ذاك، ولكنّها إمّا قيلت لا تزال تبدو لي حتّى في يومنا هذا وكأنّها تحمل في لا مبالاتها المقصودة وألفتها المكتسبة شيئاً من الحذلقة لا يحتمل. وقالت لي: «سرّني أن قضيت الأمسية بصحبتك؛ مع مشاعر المودّة لـ«سان لو» إن كنت تراه». وقالت السيّدة «دوكامبرمير» «سان لوپ» وهي تدلي بجملتها تلك. ولم أتبيّن في يوم من الذي سبق أن نطقها على هذا النحو أمامها أو ما الذي حملها على الظنّ بأنّه لابدّ من نطقها على هذا النحو. ومهما يكن من أمر فقد لفظتها «سان لوپ» على مدى بضعة أسابيع وكذلك فعل رجل كان يبدي إعجاباً كبيرا بها ولا يؤلّف وإيّاها سوى كائن واحد. وان قال آخرون غيرهما «سان لو» كانا يلحّان ويلفظان بقوّة «سان لوپ» إمّا ليعطيا الآخرين درساً غير مباشر وإمّا ليتميّزا عنهم. وليس من شك أن نساء أكثر تألقًا من السيّدة «دو كامبرمير» قلن لها أو أفهمنها بصورة غير مباشرة أنْ ليس ينبغي لفظها هكذا، وأنّ ما كانت تأخذه مأخذ التفرّد كان غلطة ربّما حملت على الظنّ بأنّها قليلة الإحاطة بأمور الدنيا، إذ عادت السيّدة «دو كامبرمير» تقول بعد وقت قصير «سان لو» وأوقف المعجب بها كذلك أيّة مقاومة، إمّا لإنّها عنّفته في ذلك وإمّا لأنّه لاحظ أنّها لم تعد تشدّد على الحرف الأخير وقال في نفسه إنّه لابدّ كيما تتراجع امرأة بذلك القدر وتلك الهمّة وذاك الطموح فلابدّ أن تفعل عن حسن تبصّر ودراية. وكان أسوأ المعجبين بها زوجها. فقد كانت السيّدة «دوكامبرمير» تستحسن توجيه مضايقات للآخرين غالبًا ما تكون شديدة الوقاحة. وحالما كانت توجّه على هذا النحو سهامها إمّا إليّ أو إلى آخر غيري كان السيّد «دوكامبرمير» يأخذ في النظر إلى الضحيّة ضاحكاً. ولما كان المركيز أحول —والأمر يولي حتّى مرح المعتوهين مقصد الظرف— فقد كان من أثر تلك الضحكة أن تردّ شيئًا من الحدقة إلى بياض العين وهو لولا ذاك كامل. كذلك تلقي فرجة شيئاً من الزرقة في سماء تلبّدت بالغيوم. كانت النظّارة تحمي على أيّة حال هذه العمليّة الدقيقة مثلما زجاج فوق لوحة ثمينة. أمّا بخصوص مقصد الضحك نفسه فلست تعرف تماماً إن كان لطيفًا: «آه! أيها اللعين! يمكن أن تقول إنّك محسود. فإنّك لقيت حظوة في عين إمرأة صلبة المراس»؛ أو فظّاً: «والآن، ياسيّد، آمل أنّهم يتدبّرون أمرك، فما أكثر ماتبلع من أمواس»؛ أو خدومًا: «تعلم أنّي هنا، إني آخذ الأمر بالضحك لأنّه مزاح صرف، ولكنّي لن أدع لهم أن يقسوا عليك». أو محرّضًا قاسياً: «ليس لي أن أتدخّل في مالا يعنيني ولكنّك تراني أتلوّى وأنا أشهد كلّ الإهانات التي تكيلها لك. إنّي أضحك ملء الأشداق، وأوافق بالتالي، أنا زوجها، فإن حلالك أن تثور فستجد من يقف في وجهك أيّها السيّد العزيز. سوف أوجّه لك بادئ الأمر زوجًا من الصفعات المرتّبة، ثم نمضي نتقارع بالسيف في غابة «شانتيبي».

ومهما يكن من أمر هذه التفسيرات المختلفة لمرح الزوج، فإن نزوات الزوجة سرعان ما كانت تبلغ نهايتها. حينئذ كان السيّد «دوكامبرمير» يكفّ عن الضحك وتزول الحدقة المؤقّته وبما أن عادة العين البيضاء كلّها فُقدت منذ بضع دقائق فقد كانت تُكسب هذا النورماندي الأحمر شيئًا من الشحوب والذهول في آن معاً كما لو أجريت للمركيز عمليّة قريبة أو كان يلتمس من السماء، من تحت نظارته، أكاليل الشهادة.

الفصل الثالث

[أحزان السيِّد «دوشار لوس». –مبارزته الوهميّة. –محطات «عابر الأطلسيّ». –مرادي، وقد سئمت «ألبيرتين»، أن أقطع علاقتي بها].

كنت أترنّح من النعاس. وحُملت في المصعد حتّى الدور الذي أسكنه، لا من جانب عامل المصعد، بل من جانب صبيّ الفندق الأحول الذي بادر إلى الحديث ليحكي لي أنّ شقيقته ما زالت مع السيّد الشديد الثراء وأنها إذ رغبت ذات مّرة في العودة إلى منزل ذويها بدلاً من البقاء على رصانتها فإن رجلها مضى فالتقى والدة صبيّ الفندق الأحول والأولاد الآخرين الأوفر حظاً، وأنّ الوالدة أعادت الحمقاء بالسرعة القصوى إلى صديقها. «تدري ياسيّد، إن شقيقتي لسيّدة عظيمة الشأن. فهي تداعب البيانو وتتكلّم الاسبانيّة. وقد لا تصدّق ذلك، بالنسبة إلى المستخدم البسيط الذي يجيئك بالمصعد، إنهّا لا تحرم نفسها شيئا. فللسيّدة وصيفتها الخاصّة، ولن يدهشني أن تكون لها ذات يوم عربتها. إنهّا حلوة جداً لو رأيتها، على شيء من فرط الاعتزاز، ولكن ذلك مفهوم بالطبع. وهي على قدر كثير من الذكاء. وليست تغادر فندقاً في يوم إلا قضت حاجتها في خزانة أو صوانة لتخلّف تذكاراً صغيراً للخادمة التي يقع عليها القيام بالتنظيف. بل هي تفعلها أحياناً في عربة وبعدما تدفع أجرة مشوارها تختبيء في زاوية لمجرّد أن تضحك وهي ترى الحوذيّ يحتجّ إذ يضطر أن يغسل عربته. وقد كانت «وقعة» والدي عظيمة كذلك إذ عثر لشقيقي الأصغر على ذاك الأمير الهندي الذي كان عرفه فيما مضى. ذلك بالطبع طراز آخر، ولكنّ المكانة رفيعة، ولو لم تكن ثمّة رحلات لكان غاية المنى. وحدي حتّى الآن بقيت على الحصير. ولكن ما من أحد يستطيع أن يعلم، فالحظّ مقيم في أسرتنا، ومن ذا يعلم إن كنت لن أصبح يوماً رئيساً للجمهورية؟ ولكنيّ أحملك على الثرثرة (ولم أكن قلت كلمة واحدة وشرعت أغفو وأنا أصغي إلى ما يقول). مساءً سعيداً ياسيّد. أوه! شكراً ياسيّد. لو كان الكلّ بمثل طيبة قلبك لما بقي تعساء من بعد. ولكن لابدّ كما تقول شقيقتي أن يبقى منهم دوماً كيما أستطيع الآن وقد أصبحت غنيّاً أن «أحرق دينهم» بعض الشيء، اسمح لي بالعبارة. ليلتك سعيدة ياسيّد».

ربّما قبلنا في كل مساء احتمال أن نعيش، ونحن نيام، آلاماً نحسبها كأنّها لم تكن لأننا نكون أحسسنا بها في أثناء غفوة نظنّها لاوعي فيها.

وكان يتملّكني في تلك العشيّات التي كنت أعود فيها متأخراً من «لاراسپلبير» نعاس شديد. ولكن ما إن أقبل البرد حتىّ لم أعد أستطيع الإغفاء في الحال لأن النار كانت تتوهّج كما لو أضيء مصباح. على أن ذلك لم يكن أكثر من هبّة إذ لايلبث ضياؤها الشديد –كالمصباح أيضاً وكالنهار حينما يحلّ المساء– أن يتخافت. فكنت ألج النوم، وهو بمثابة شقّة ثانية نملكها ونمضي للنوم فيها وقد هجرنا شقّتنا. وإن له أجراسه، وأحياناً يوقظنا فيه بعنف رنين جرس سمعته اذننا بوضوح في حين لم يدقّ أحد. كما له خدمه وزوّاره الخاصون الذين يجيئون لاصطحابنا في نزهة حتىّ إننا على استعداد للنهوض فيما لا يسعنا إلاّ أن نلاحظ، فور هجرتنا تقريباً إلى الشقّة الأخرى، شقة اليقظة، أن الغرفة خالية وأنْ لم يجيء أحد. إن الجنس الذي يسكنها، شأن جنس البشريّين الأوائل، من صنف الخناث. ويظهر فيها بعد لحظة رجل بهيئة امرأة. والأشياء مؤهلة فيها

أن تصبح بشراً، والبشر أصدقاء وأعداء. والوقت الذي ينقضي بالنسبة إلى النائم في أثناء هذه الاغفاءات مختلف تمام الاختلاف عن الوقت الذي يجري فيه حياة الانسان اليقظان. فتارة يكون جريانه أكثر سرعة فيبدو ربع الساعة نهاراً، وأحياناً أكثر طولاً فنظنّ أننّا لم نصب إلاّ إغفاءة هيّنة في حين نمنا اليوم بكامله. حينئذ ننحدر على عربة النوم إلى أعماق لايستطيع التذكّر من بعد اللحاق بها فيما اضطرّ العقل أن يعود أدراجه قبل أن يبلغها. إن عربة النوم، مثلها مثل عربة الشمس، تذهب بخطوٍ متساو، وفي جوّ لا يمكن لأيّة مقاومة فيه أن توقفها من بعد إلى حدّ أنّه لابدّ من حصاة نيزكيّة صغيرة غريبة عنّا (ألقى بها أي مجهول من القبّة الزرقاء؟) لتصيب النوم المنتظم (الذي ما كان ثمّة داع لتوقّفه لولا ذلك وربمّا دام بحركة متشابهة إلى أبد الآبدين) وتردّه في انعطافه مفاجئة إلى الواقع وتجعله يحرق المراحل ويجتاز المناطق المجاورة للحياة –حيث سيسمع منها النائم عمّا قليل الضوضاء الذي لا يزال غامضاً تقريباً ولكنّه مسموع منذ ذاك وإن يكُ مشوّهاً– ويحطّ فجأة على أرض اليقظة. حينئذ يستيقظ المرء من تلك الاغفاءات العميقة في فجر لا يعرف فيه من يكون، إذ هو لا أحد، وهو جديد متأهب لكلّ شيء وقد أُفرغ دماغه من ذاك الماضي الذي كان حتّى ذاك الحياة. وربّما كان أجمل بعد حين يكون هبوط اليقظة عنيفاً ولا يتّسع الوقت لأفكار النوم، وقد حجبها غطاء من النسيان، للعودة تدريجاً قبل أن يتوقّف النوم. حينئذ نطلع من العاصفة السوداء التي يبدو لنا نحن أننا اجتزناها (ولكنّنا لا نقول حتىّ «نحن»)، نطلع منطرحين مجرّدين من الأفكار وكأنّما ثمّة «نحن» بدون مضمون. فأية ضربة مطرقة أصابت الكائن أو الشيء بالأحرى الذي أمامنا كيما يجهل كل شيء وهو في ذهول إلى اللحظة التي تردّ له الذاكرة فيها، وقد سارعت إليه، وعيه أو شخصيّته؟ على أنّه لابدّ، فيما يخصّ هذين النوعين من الاستيقاظ، أن لا ننام، وإن يكن النوم عميقاً، تحت سلطان العادة. لأنّ العادة إنّما تراقب كلّ ماتضمّه في شباكها؛ فينبغي الافلات منها وولوج النوم في اللحظة التي كنا نظنّ فيها أنّنا فاعلون أيّ شيء آخر ما عدا النوم، وباختصار القول أن نلج ذاك النوم الذي لا يقيم تحت وصاية التبصّر وبرفقة التفكير وإن مستتراً. كان كل شيء يجري، على الأقلّ في صنوف اليقظة على نحو ماجئت على وصفه، وهي في الغالب ما كان يجري لي بعدما أكون تناولت العشاء الليلة البارحة في «لاراسبليير»، وكأن الأمور على هذا المنوال، وأستطيع أن أشهد للأمر أنا الكائن الغريب الذي يعيش، بانتظار أن يعتقه الموت، ومصاريعه مغلقة لا يعلم شيئاً عن الدنيا ويظلّ لاحراك به كطائر البوم أو كمثله لا يبصر بشيءٍ من الوضوح إلاّ في الظلمات. كلّ شيء يجري وكأن الأمور على هذا المنوال، ولكن وحدّها طبقة من مُشاقة الكتّان ربّما حالت دون أن يسمع النائم حوار الذكريات الداخلي وثرثرة النوم التي لا تنقطع. ذلك لأنّ النائم في اللحظة التي تتمّ فيها اليقظة (الأمر الذي يمكن تفسيره تماماً في النمط الأوّل، وهو أكثر اتّساعاً وآوفر أسراراً وأقرب إلى عالم النجوم) يسمع صوتاً داخليّا يقول له: «أتراك تأتي في هذا المساء للعشاء أيها الصديق العزيز؟ كم يسّرني ذلك! «ويفكر في نفسه»: «أجل، وكم نُصيب من مسّرة، سوف أذهب»؛ ثمّ تتزايد اليقظة فيتذكّر فجأة: «لمَ يبق لجدّتي سوى بضعة أسابيع تعيشها فيما يؤكد الدكتور». ويقرع الجرس ويبكي إذ تداخله فكرة أن لن تكون، شأنها بالأمس، جدتّه، جدّته التي تحتضر،بل خادم غير مبال سوف يقبل ليردّ عليه. وفي جميع الأحوال، حينما كان النوم يحمله بعيداً جداً خارج العالم الذي يسكنه التذكر والفكر عبر أثير كان فيه وحده ليس إلاّه، لا يتوافر له حتىّ ذاك الرفيق الذي يبصر ذاته فيه، كان

خارج الزمن ومقاييسه. فها هو ذا الخادم الخاصّ يدخل، ولا يجرؤ أن يسأله عن الساعة لأنّه يجهل إن كان نام وكم ساعة نام (بل يتساءل إن لم يكن السؤال «كم يوماً» لشدّة ما يعود منهوك الجسم مرتاح الفكر يملأ قلبه الحنين وكأنّما من رحلة أبعد من أن لا تكون دامت فترة طويلة). أجل يمكن الزعم أنْ ليس ثمّة سوى زمن واحد للسبب التافه الذي مفاده أنّنا إنّما لاحظنا بالنظر إلى ساعة الحائط أن ما ظننّاه نهاراً إن هو إلاّ ربع ساعة. ولكنّنا حين نلاحظ الأمر فانّنا بالضبط رجل مستفيق مغموس في زمن الناس المستيقظين وقد هجر الزمن الآخر، بل ما كان ربّما أكثر من زمن آخر: حياة أخرى. إن المتع التي نصيبها في النوم لا نضعها في حساب المتع التي نحسّ بها خلال حياتنا. وكي لا نلمّح إلاّ إلى أكثرها ابتزالاً في شهوانيتها، من منّا لم يشعر لدى استيقاظه ببعض الازعاج من أنّه أصاب في نومه متعة لن يستطيع، إمّا استفاق ولم يشأ أن يفرط في إرهاق نفسه، أن يكرّرها بلا حدود في ذلك اليوم ؟ لكأنما ذلك خير نفقده. لقد أصبنا متعة في حياة أخرى ليست حياتنا. إن آلام ومتع الحلم (التي سرعان ما تتلاشى بعامّة حين اليقظة) لو أدرجناها في موازنة فلن يكون ذلك في موازنة الحياة اليوميّة.

قلت بزمنين، وربّما ليس ثمّة سوى واحد؛ وما ذلك لأن زمن المستيقظ صالح للنائم، بل لأنّ الحياة الأخرى، الحياة التي ننام فيها، قد لا تكون –في قسمها العميق– خاضعة لفئة الزمن. كنت أتصوّر ذلك حينما كنت أنام غداة حفلات العشاء في «لاراسپليير» ذلك النوم الكامل الشامل. وإليك السبب. كنت آخذ بالاغتمام لدى استيقاظي إذ أرى أن الخادم الخاصّ لم يكن جاء بعدما قرعت الجرس عشر مرّات. وفي المرّة الحادية عشرة كان يدخل. ولم تكن تلك سوى الأولى. أمّا الأخريات العشر فإن هي إلاّ خطوط أوّلية كنت أخطّها في أثناء نومي الذي ما يزال قائماً عن قرع الجرس الذي أبغيه؛ وما كانت يداي المخدرتان حتىّ تحرّكتا. على أن جهدي في تلك الصبيحات (وذلك ما يحملني على القول إن النوم ربّما كان جاهلاً لقانون الزمن) من أجل أن استيقظ إنما كان يقوم على جهد إدخال الكتلة الغامضة غير المحدّدة للنوم الذي عشته منذ قليل في أُطر الزمن. وليست المهمة سهلة؛ فالنوم الذي لا يعرف إن كنّا نمنا ساعتين أو يومين لا يمكن أن يزوّدنا بأيّ معلم. فان لم نلقَ معلماً في الخارج فانّنا نعود، إذ لا نفلح في ولوج الزمن، إلى النوم مدّة خمس دقائق تبدو لنا ثلاث ساعات.

لقد قلت دوماً –وجرّبت– أنّ أشدّ المنوّمات هو النوم. فبعدما نمنا ساعتين نوماً عميقاً وتقاتلنا مع الكثير من العمالقة وعقدنا على مدى الدهر الكثير من الصداقات، يبدو الاستيقاظ أكثر صعوبة ممّا هو الأمر بعدما تناولنا عدّة غرامات من مادّة «الڤيرونال». ولذلك أدهشني أن أعلم، وأنا أنقّل الفكر بين هذه وذاك، من الفيلسوف النروجيّ الذي أخذه عن السيّد «بوترو» «زميله الشهير–بل أخوه الشقيق، عفواً»، ما كان يعتقده «بيرغسون» حول التشوهات الخاصّة التي تصيب الذاكرة جرّاء المنوّمات. وكان «بيرغسون»، على حدّ قول الفيلسوف النروجي، قد قال للسيّد «بوترو»: «بالطبع، لا تأثير للمنوّمات التي يجري تناولها بين الحين والحين بكميّات معتدلة على تلك الذاكرة المتينة لحياتنا اليوميّة المستقرّة في داخلنا على أفضل أساس. لكنّ ثمّة ذاكرات أخرى أرفع مكانة واقلّ استقراراً أيضاً. إن أحد زملائي يدرّس مقرّراً في التاريخ القديم، وقد قال لي إنّه إن تناول في العشيّة قرصاً لينام فقد كان يصادف عنتاً في العثور أثناء درسه على الشواهد اليونانية التي

يحتاجها.

وقد أكّد له الدكتور الذي كان أوصى بتلك الأقراص أنْ ليس لها تأثير على الذاكرة. وقد أجابه المؤرّخ دون أن يغفل شيئاً من الاستعلاء الساخر: «ربّما يعني ذلك أنْ ليس عليك الإتيان بشواهد يونانيّة».

لست أدري إن كان هذا الحديث بين السيّد «بيرغسون» والسيّد «بوترو» صحيحاً. والفيلسوف النروجي ربّما أساء الفهم مع أنّه عميق الفكر واضحه إلى حدّ بعيد ويهيم بالدقّة أشد الهيام. وقد زوّدتني تجربتي فيما يخصّني بنتائج عكسيّة. فإن فترات النسيان التي تعقب في الغداة تناول بعض المخدّرات تشبه جزئيّاً فقط، ولكنّما الشبه مقلق، النسيان الذي يسود في ليلة من النوم الطبيعيّ العميق. فان ما أنساه في كلا الحالين ليس هذا البيت لـ«بودلير» الذي يرهقني بالأحرى «كما تفعل آلة التامينون»، وليس ذاك المفهوم لأحد الفلاسفة المذكورين، بل حقيقة الأشياء العادية التي تحيط بي– إن كنت نائماً– والتي يبعث فيّ لا إدراكها الجنون؛ وليس كذلك –إن كنت يقظان وخرجت على إثر نوم اصطناعيّ– منظومة «پورفيروس» أو «أفلوطين» التي أستطيع الجدال فيها كما هي حالي في يوم آخر، بل الجواب الذي وعدت بتقديمه عن دعوة حلّ محلّ تذكّرها حيّز أبيض تماماً. لقد لبثت الفكرة السامية في مكانها، أمّا ما جعله المنوّم خارج التداول فإمكان الفعل في الأشياء الصغيرة، في كلّ ما يتطلب نشاطاً لتعود فتمسك في الوقت المناسب، لتقبض على هذه الذكرى من الحياة اليوميّة. وعلى الرغم من كل ما يمكن أن نقوله عن البقاء بعد تلف الدماغ فاني ألاحظ أن كل تشوّه في الدماغ يقابله جزء من الموت. إنا لانملك ذكرياتنا جميعها إن لم نملك القدرة على استذكارها، يقول نقلاً عن السيّد «بيرغسون» الفيلسوف النروجي الكبير الذي لم أحاول؛ تحاشياً للإبطاء، محاكاة لغته؛ إن لم يملك القدرة على استذكارها. ولكن ما عسى أن تكون ذكرى لا نتذكرها؟ أو دعنا نمض أبعد من ذلك. إنّنا لانتذكّر ذكرياتنا العائدة للسنوات الثلاثين الأخيرة؛ ولكنّها تغمرنا من كلّ جوانبنا؛ فلم نتوقّف، والحالة هذه، عند السنوات الثلاثين ولمَ لا نمدّ إلى ما وراء الولادة تلك الحياة السابقة؟ وبما أنّني لا أعرف قسماً كاملاً من الذكريات الكائنة ورائي وبما أنها خافية عليّ ولا أملك القدرة على استدعائها إليّ، فمن ذا يقول لي أن ليس في هذه الكتلة المجهولة لديّ ذكريات تعود إلى ما كان أبعد من حياتي البشريّة؟ وإن أمكن أن يقوم في داخلي ومن حولي هذا الكم من الذكريات التي لا أتذكرها فان هذا النسيان (على الأقلّ النسيان الواقع بما أني لا أملك القدرة على رؤية شيء) يمكن أن ينسحب على حياة عشتها في جسم رجل آخر وحتىّ فوق كوكب آخر. ثمه نسيان واحد يمحو كلّ شيء. ولكن ما الذي يعنيه والحالة هذه خلود النفس ذاك الذي كان الفيلسوف النروجي يؤكد حقيقته؟ فالفرد الذي سأكونه بعد الموت لا دواعي لديه لتذكّر الشخص الذي كنته منذ مولدي أكثر ممّا يتذكّر هذا الأخير ما كنته قبل مولدي.

وكان الخادم الخاصّ يدخل ولا أقول له إني قرعت الجرس عدّة مرات اذ كنت أتبين أني لم أقم حتىّ ذاك بغير الاحتلام بأني أقرع الجرس. على أنني كنت فزعاً من التفكير بأن هذا الحلم اكتسب وضوح المعرفة. فهل تكتسب المعرفة بالمثل لا واقع الحلم؟

ولكني في المقابل كنت أسأله من ذا الذي بالغ إلى هذا الحدّ في قرع الجرس هذه الليلة، فيجيبني «لا

أحد» وباستطاعته أن يؤكّد ذلك لأن «لوحة» الأجراس كانت سجّلت ذلك. ومع ذلك كنت أسمع الضربات المتكرّرة الحانقة تقريباً والتي لا تزال ترنّ في أذني وسوف تظلّ مسموعة لديّ على مدى عدّة أيّام. مع أنه يندر أن يلقي النوم على هذا النحو في حياة اليقظة ذكريات لا تموت معه. ويمكن إحصاء هذه النيازك. فإن كانت فكرة صنعها النوم فانّها تتفكّك بسرعة عظيمة قطعاً دقيقة لا يمكن العثور عليها. ولكن النوم هنا كان قد صنع أصواتاً أكثر ماديّة وأشدّ بساطة فتدوم أكثر. لقد دهشت للساعة الباكرة نسبيّاً التي ذكرها لي الخدام الخاصّ، ولكنّما لم أكن أقلّ ارتياحاً لذلك. فإنّ صنوف النوم الخفيف هي التي تدوم طويلاً لأنها متوسّطة بين اليقظة والنوم، وإذ تحتفظ من الأولى بفكرة غائمة المعالم قليلاً ولكنّها ثابتة فإنّما تقتضي كيما تريحنا وقتاً أطول بما لا يقاس ممّا يقتضي النوم العميق الذي يمكن أن يكون قصيراً. وكنت أحسّني مرتاحاً تماماً لسبب آخر. فإن كان كافياً أن يتذكّر المرء أنّه تعب كيما يوافيه شعور بمرارة التعب فإن قوله لنفسه: «قد استرحت» كاف لبعث الراحة لديه. وإنّي حلمت أن السيّد «دوشارلوس» بلغ المئة وعشر سنوات وأنه اقدم منذ قليل على توجيه صفعتين لوالدته السيّدة «ڤيردوران» لأنها ابتاعت باقة بنفسج لقاء خمسة مليارات؛ لقد كنت على يقين إذاً من أني نمت نوماً عميقاً وحلمت بعكس مفاهيمي في اليقظة وامكانات الحياة العاديّة جميعها، وكان ذلك كافياً كما أحسّني مرتاحاً تماماً.

لعلّني كنت أدهشت أمّي، وما كان بمقدورها فهم مواظبة السيّد «دوشار لوس» لدى آل«ڤيردوران»، لو رويت لها مع من جاء السيّد «دوشارلوس» لتناول طعام العشاء في صالة الفندق الكبير في «بالبيك» (في ذلك اليوم بالضبط الذي كنّا أو صينا فيه على قلنسوة «ألبيرتين» دون أن نبدي لها من ذلك شيئاً كي تُفاجأ بها). فلم يكن المدعوّ سوى الخادم الخاصّ لواحدة من بنات عمومة آل«كامبرمير». وكان هذا الخادم يرتدي ملابس عظيمة الأناقة، وحينما اجتاز البهو برفقة البارون بدا في نظرالسيّاح «وكأنّه من علية القوم»، كما لعلّ «سان لو» كان قال. حتّى الخدم من الشبّان و «اللاويّون»[1] الذين كانوا ينحدرون جمّاً غفيراً على أدراج المعبد في ذلك الوقت، إذ كان وقت التبديل، لم يعيروا الوافدين انتباهاً، وقد حرص أحدهما، وهو السيّد «دوشارلوس»، أن يبدي وهو يطرق برأسه أنّه لا يعيرهم إلا القليل القليل، كان يبدو وكأنّه يشقّ لنفسه طريقاً فيما بينهم. ثمّ قال وهو يتذكّر أبياتاً لـ«راسين» يستشهد بها بمعنى مختلف أشدّ الاختلاف: «ازدهر يا أملاً غالياً لأمّة مقدّسة». وسأل الخادم الخاص، وهو قليل الاطّلاع على الأدباء الكلاسيكيّين، قائلاً: «بمَ تفضّلت؟» ولم يجبه السيّد «دوشار لوس» إذ كان يجد بعض الاعتزاز في أن لايأخذ في اعتباره الاسئلة وأن يمضي في خطّ مستقيم أمامه كما لو لم يكن في الفندق زبائن سواه، كأنّما ليس في الدنيا سواه، هو البارون «دوشارلوس». لكنّه بعدما تابع أبيات «جوزابيت»: «هيّا، إليّ يابناتي» شعر أنّه نهب القرف ولم يضف كما فعلتْ: «لابدّ من دعوتهنّ»، لأن هؤلاء الأولاد الصغار ما كانوا بلغوا بعد السنّ الذي يكون الجنس فيه كامل التكوين والذي كان يروق السيّد «دوشارلوس». ولئن كتب إلى خادم السيّدة «دوشفرونيي» الخاصّ لأنّه ما كان يشكّ في سهولة انقياده فقد كان يتمنّاه على أيّة حال أوفر رجولة. وكان يجده من حيث مظهره أكثر تخنّثاً ممّا لعلّه أراد. وقال له إنّه خيّل إليه أنّه يتعامل مع آخر سواه لأنّه كان يعرف بالوجه خادماً خاصّاً آخر للسيّدة «دوشفرونيي»

(١) من هم من قبيلة «لاوي» لدى العبرانيين وكانوايعدّون لخدمة الهيكل.

كان بالفعل لفت انتباهه فوق العربة. كان من صنف الفلاّح الخشن، تماماً نقيض هذا الذي كان يرى ألطافه المتكلّفة على العكس بمثابة مواطن تفوّق ولا يشكّ أنّ صفات رجل المجتمع الراقي تلك هي التي لعلّها فتنت السيّد «دوشارلوس» فلم يفهم حتىّ عمّن كان البارون يبغي التحدّث. «ولكن لا رفيق لي إلا واحد لا يمكن أن تكون نظرت إليه، فانّه دميم ويشبه فلاّحاً غليظاً». وإذ خطر له أن ذاك الفظّ ربّما كان هو الذي شاهده البارون أحسّ بوخزة في كرامته. وحزرها البارون فوسّع من دائرة بحثه: «ولكنيّ لم أقطع على نفسي عهداً خاصاً بأن لا أتعرّف إلاّ على جماعة السيّدة «دو شفرونيي»، يقول؛ أفلا تستطيع، هنا أو في باريس، بما أنّك راحل عمّا قليل، أن تعرّفني بكثيرين من رفاقك، من هذا البيت أو ذاك؟» فأجاب الخادم الخاصّ: «لا، لا فإنّي لا أخالط أحداً من طبقتي ولا أحدثهم إلاّ بشأن الخدمة. ولكنّ ثمّة واحداً من أحسنهم يمكنني أن أعرّفك به». وسأل البارون قائلاً: «ومن ذا يكون؟» «الأمير «دو غير مانت»». واغتاظ السيّد «دوشارلوس» من أنّه لايُقَدَّمُ له سوى رجل هذا عمره ولم يكن على أي حال يحتاج بشأنه توصية خادم خاصّ. ولذلك رفض العرض بلهجة جافّة. وعاد، دون أن يدع لعزيمته أن توهنها مطامع الخادم المجتمعيّة، عاد يوضح له ما هو راغب فيه، النوع والنمط، ولنقل فارس سباق، الخ.. وإذ خشي أن يكون سمعه الكاتب العدل الذي كان يمرّ طريقه في ذلك الحين، ظنّ من النباهة أن يبرز للعيان أنّه كان يتكلّم عن أمر مغاير تماماً لما لعلّه أمكن اعتقاده وقال مشدّداً وموجّهاً خطابه لشخص لاتراه ولكن كمن يتابع فحسب حديثه: «أجل لقد بقيت على الرغم من سنّي على حبّ البحث عن القديم، حبّ التحف الجميلة وإنّي يجنّ جنوني إزاء برونزيّة عتيقة، إزاء ثريّا عتيقة. انّي أعشق الجمال». على أنّ السيّد «دوشارلوس» بغية إفهام الخادم الخاصّ ما أجراه بتلك السرعة من تغيير في موضوعه، كان يتثاقل على كلّ كلمة ويصرخ بها جميعها، كي يسمعه الكاتب العدل، بقوّة ربّما كانت كلّ هذه التمثيليّة كافية معها لتكشف ماكان يخبّئه بالنسبة إلى آذان أكثر تمرّساً من أذني المأمور القضائيّ. ولم يرتب هذا الأخير بشيء ولا أيّ زبون آخر في الفندق، وقد رأوا جميعاً في الخادم الخاص الحسن الملبس أجنبيّاً أنيقاً. ولئن أخطأ أولو المجتمع الراقي الحكم فحسبوه اميركياً ذا أناقة بالغة، فإنّه ما كاد في المقابل يطلع أمام الخدم حتّى حزروا من هو، مثلما المحكوم بالأشغال يتعرّف المحكوم، بل بسرعة أكبر، بالاشتمام عن بعد مثلما الحيوان من جانب بعض الحيوانات، ورفع قادة الرتل نظرهم إليه، ورماه «إيميه» بنظرة ارتياب. أمّا الساقي فارتفع بمنكبيه وقال من خلف يده، إذ ظنّ ذلك من باب التأدّب، جملة تنضح بالاساءة تناهت إلى مسمع الجميع. حتّى عزيزتنا «فرانسواز» العجوز، التي كان بصرها آخذاً بالتراجع وكانت تمرّ في تلك اللحظة في أسفل الدرج لتذهب للعشاء في «موقع البرد»، تعرّفت خادماً حيث لم يرتب نزلاء الفندق به– مثلما تتعرّف المربّية العجوز «أوريكليه» «أوليس» قبل طلاّب الزواج الجالسين إلى مائدة الوليمة– وبدا عليها إذ رأت السيّد «دوشارلوس» يسير وإيّاه مسيرة الألاّف علائم الأسى كما لو اكتسبت فجأة أقوالُ سوء سمعتها تذاع ولم تصدّقها، كما لو اكتسبت فجأة شكل الحقيقة المؤلم. ولم تكلّمني البتّة، ولا كلّمت سواي عن تلك الواقعة ولكنّها لابدّ تسبّبت بعمل هائل لدماغها لأنّها في كلّ مرّة سنحت لها فرصة لقاء «جوليان» الذي أحبّته حتىّ ذاك حبّا جمّاً أبدت له على الدوام شيئاً من التأدّب ولكنّما كان أصابه الفتور وانضاف إليه دوماً كميّة من التحفّظ. ولكن تلك الواقعة نفسها دفعت على العكس آخر غيره إلى استيداعي سرّاً. وكان «ايميه». فحينما

التقيت السيّد «دوشارلوس» صاح بي، وما كان يتوقّع لقائي: «مساء الخير»، وهو يرفع يده باللامبالاة الظاهرة على الأقل التي يبديها السيّد الكبير الذي يظنّ كلّ شيء جائزاً له ويرى براعة أكبر في الظهور مظهر من لايتستّر. بيد أن «ايميه» الذي كان يرقبه في تلك اللحظة بعين الريبة والذي أبصرني أحيّي رفيق ذاك الذي كان متيقّناً أنّه يبصر فيه خادماً سألني في المساء نفسه من عساه كان. فإن «إيميه» منذ بعض الوقت كان يحبّ الحديث أو «الجدال» بالأحرى كما كان يقول كي يبرز دونما شك الطابع الفلسفي الذي يراه لهذه الأحاديث. ولمّا كنت أقول له في الغالب إنيّ أشعر بالازعاج من أن يلبث واقفاً بالقرب منّي وأنا أتناول طعام العشاء فيما كان يمكنه الجلوس ومشاركتي الطعام كان يعلن أنّه لم يشهد قطّ زبوناً «صحيح المحاكمة إلى هذا الحدّ». كان في ذلك الوقت يكلّم خادمين. وقد سلّما عليّ وما كنت أدري سبب ذلك. كان وجهاهما مجهولين لديّ مع أن في حديثهما رنّة غمغمات ما كانت تبدو لي جديدة. كان «ايميه» يعنّفهما كليهما بسبب خطبتهما التي كان يستنكرها. واستشهد بي على ذلك فقلت إنه لا يمكنني تكوين رأي بما أني لا أعرفهما. وذكّر اني باسمهما وأنّهما كثيراً ما قاما على خدمتي في «ريفييل». ولكن أحدهما كان أطلق شاربه والآخر حلقه وقصّ شعره. وبسبب ذلك ومع أنّ ما وضع على كتفيهما انّما كان رأسهما بالأمس (وليس آخر كما هي الحال في أعمال الترميم الخاطئة في كنيسة نوتردام) فقد لبث خفيّاً عليّ كما هي تلك الأشياء التي تخفى على صنوف التفتيش الأكثر دقّة والملقاة على أبسط صيغة فوق الموقد أمام أعين الجميع الذين لا يلاحظونها. وما أن عرفت اسمهما حتيّ تعرّفت بالضبط غنّة صوتهما المبهمة لأنّي عدت أرى وجههما السابق الذي كان يحدّدها. وقال لي «إيميه»: «إنهما يبغيان الزواج وهما حتّى لا يعرفان الانكليزيّة!»، وما كان يفكّر أنّني قليل الاطّلاع على المهنة الفندقيّة ولا أفهم تماماً أنّه لا يمكنك الاعتماد على مركز عمل إن كنت لا تعرف اللغات الأجنبيّة. أمّا أنا الذي ظنّ أنّه سوف يعرف بسهولة أن «المتعشّي» الجديد هو السيّد «دوشارلوس»، بل تصوّر أنّه لابدّ سيتذكّره إذ قام على خدمته في قاعة الطعام حينما جاء البارون في أثناء اقامتي الأولى في «بالبيك» لزيارة السيّدة «دوڤيلباريزيس»، فقد ذكرت له اسمه، ولكنّ «ايميه» ما كان يتذكّر البارون «دوشارلوس»، وليس ذلك فحسب بل بدا أن الاسم يخلّف لديه انطباعاً عميقاً. وقال لي إنّه سوف يبحث في الغد بين أغراضه عن رسالة ربّما استطعت أن أفسّرها له. وقد زاد من دهشتي أنّ السيّد «دوشارلوس» حينما شاء أن يعطيني كتاباً لـ«بيرغوث» في السنة الأولى في «بالبيك» كان بعث بشكل خاصّ في طلب «ايميه» الذي لابدّ أنّه عاد فلقيه في مطعم باريس ذاك الذي تناولت فيه طعام الغداء بصحبة «سان لو» وعشيقته حيث جاء السيّد «دوشارلوس» يتجسّس علينا. صحيح أن «ايميه» لم يستطع القيام شخصيّا بهاتين المهمّتين إذ كان مرّة في سريره وفي الثانية في أثناء خدمته. على أنّي كانت تساورني شكوك كبيرة حول صدقه حين كان يزعم أنّه لايعرف السيّد «دوشارلوس». فلابدّ من جهة أنّه كان يناسب البارون. فإن «ايميه»، كما هي حال سائر المشرفين على الأدوار في فندق «بالبيك»، وكما هي حال عدّة خدّام لدى الأمير«دوغيرمانت» كان ينتمي إلى سلالة أكثر عراقة من سلالة الأمير وبالتالي أوفر نبلاً. وحينما كنت تطلب صالة كنت تظن باديء الأمر أنّك وحيد. ولكن سرعان ما كنت تلمح في غرفة الخدمة رئيس خدم منحوت البنية، من ذلك النوع الايتروسكيّ الأصهب الذي كان «ايميه» نموذجه، وقد شاخ قليلاً جرّاء إفراط

«الشمبانيا» وهو يرى اقتراب الساعة التي لابدّ منها للانصراف إلى مياه «كونتركسيڤيل»[(١)] وما كان سائر النزلاء يطلبون أن يبادَرَ إلى تقديم الطعام لهم فحسب. أمّا المستخدمون الذين كانوا صغاراً دقيقين معجلين تنتظرهم عشيقة في المدينة فكانوا يتهربون. وكان «ايميه» يأخذ عليهم لذلك أنّهم غير جدّيّين. وكان له الحقّ في ذلك، فقد كان جدّياً هو، وكانت له زوجة وأبناء، وطموح في سبيلهم. وما كان يرفض والحالة هذه محاولات التقرّب التي تجيئه من غريبة أو غريب وان انبغى المكوث طوال الليل. فالعمل يحلّ قبل أي شيء آخر. كان إلى حدّ بعيد من النمط الذي يمكن أن يروق السيّد «دوشارلوس» حتّى شككت أنّه يكذب حينما قال لي إنّه لا يعرفه. وكنت مخطئاً. فقد كان الساعي نقل بمنتهى الصدق إلى البارون أنّ «ايميه» (الذي مرّر إليه صابونة في الغد) كان في سريره (أو هو خرج) وفي المرّة الثانية أنّه قائم على الخدمة. ولكنّ الخيال يفترض ما هو أبعد من الواقع. ويحتمل أن يكون ارتباك الساعي قد أثار في صدر السيّد «دوشارلوس» شكوكاً حول صدق أعذاره جرحت لديه مشاعر ما كان «ايميه» يرتاب بوجودها. كذلك رأينا أن «سان لو» كان قد منع «ايميه» من الذهاب إلى العربة التي أصيب السيّد «دوشارلوس» فيها، وكان حصل، ولا أعرف كيف، على العنوان الجديد لرئيس الخدم، بخيبة أمل ثانية. وأحسّ «ايميه» الذي لم ينتبه للأمر بدهشة يمكن أن نتصوّرها حينما تسلّم في ذات مساء اليوم الذي تناولت فيه طعام الغداء برفقة «سان لو» وعشيقته رسالة مختومة بخاتم يحمل شعار آل«غيرمانت» وسوف أذكر منها هنا بعض مقاطع مثالاً على الجنون الأحاديّ الطرف لدى رجل ذكيّ يخاطب معتوهاً سليم الحسّ. «لم أفلح ياسيّد، على الرغم من جهود ربّما أدهشت الكثيرين ممّن يحاولون عبثاً أن استقبلهم وأسلّم عليهم، في التوصّل إلى أن تصغي الى بعض إيضاحات لم تكن تطالبني بها ولكنّي ظننت من كرامتي وكرامتك أن أقدمها لك. سوف أخطّ هنا إذن ما لعلّه كان من الأيسر أن أقوله لك مشافهة. ولن أخفيك أن وجهك بدا لي صراحة في أول مرّة رأيتك فيها في «بالبيك» منفّراً». ويعقب ذلك خواطر حول الشبه– الذي لوحظ في اليوم الثاني فقط– بصديق متوفيّ كان يكنّ له السيّد «دوشارلوس» مودّة عظيمة. «حينذاك وافتني للحظة فكرة أنك ربّما استطعت، دون أن تربك عملك البتّة، أن تجيء وتوهمني بأنّه لم يمت وذلك بالقيام معي بلعبات الورق التي كان مرحه يفلح بها في تبديد كآبتي. وأيّا تكن طبيعة الافتراضات الحمقاء إلى حدّ ما التي أرجّح أنّك قمت بها وهي أقرب إلى فكر الخادم (الذي لايستحقّ حتّى هذا الاسم بما أنّه رفض أن يخدم) من إدراك شعور بذاك السموّ، فالمرجّح أنّك ظننت أنّك تضفي أهميّة على نفسك متجاهلاً من أنا وما أنا عليه حين تبعث من يجيبني، إذ كنت أرسلت إليك في طلب كتاب، أنك تنام في سريرك. ولكنمّا من الخطأ الظنّ بأن أسلوباً سيّئاً يزيد في يوم من ظرف أنت على أي حال خلو منه تماماً. وكنت توقّفت عند هذا الحدّ لو لم يتّفق لي مصادفة أن أتحدّث إليك في صباح الغد. وقد تزايد الشبه بينك وبين صديقي المسكين، ممّا أزال حتّى شكل ذقنك البارز الذي لا يطاق، إلى حدّ أدركت معه أن المتوفّي هو الذي كان يمدّك في تلك الفترة بمظهره الطيّب كي يمكّنك من لمّ شتات نفسي والحؤول دون أن تفوتك الفرصة الفريدة التي تسنح لك. ولعلّي كنت سعدت بالفعل أشد السعادة، مع أنني لا أريد أن أخلط في كلّ ذلك مسائل مصلحيّة فظة بما أن كلّ ذلك لم يعد ذا موضوع، بأن أنصاع لرجاء الميت (لأنّني اعتقد

(١) مياه معدنية معروفة في فرنسه.

بشراكةالقديسين وابتغائهم التدخّل في مصير الأحياء) أن أتصرّف معك تصرّفي معه هو الذي كان يملك عربته وخدمه والذي كان من الطبيعي أن أكرّس له القسم الأعظم من دخلي بما أنني كنت أحبّه كابنٍ لي. وقد قرّرت خلاف ذلك. فقد أرسلت تجيب طلبي إليك بأن تحمل إليّ كتاباً أنك مضطرّ للخروج. وحينما طلبت منك المجيء هذا الصباح إلى عربتي انكرتني للمرة الثالثة إن وسعني التحدث على هذا النحو دون تدنيس للمقدّسات. أرجو أن تعذرني أن لا أضع في هذا المغلّف الإكراميات الكبيرة التي كنت اعتزم أعطاءك إيّاها في «بالبيك» والتي كان يشقّ عليّ الاكتفاء بها إزاء شخص ظننت حيناً مشاطرته كلّ شيء. ولعلك تستطيع على الأكثر تجنيبي القيام لديك وفي مطعمك بمحاولة رابعة غير مجدية لن يبلغ اصطباري حدودها. (وهنا كان السيّد «دوشارلوس» يدلي بعنوانه وبتحديد الساعات التي يجدونه فيها، الخ..) الوداع ياسيّد. واذ اعتقد أنّك لا يمكن أن تكون، وأنت تشبه إلى هذا الحدّ الصديق الذي فقدته، غبيّاً تماماً وإلا لكان علم الفراسة علماً كاذباً فانيّ متيقّن أنّك إن فكّرت ثانية بهذه الحادثة ذات يوم فلن يتمّ ذلك دون بعض الأسف وشيء من الندم. أمّا فيما يخصّني، فثق أني بكل صدق لا أحمل منها أيّة مرارة. لعلّني كنت فضّلت أن نفترق عند ذكرى أقلّ سوءاً من ذاك المسعى الثالث اللامجدي. وسوف ننساه بسرعة فإننا شبه تلك السفن التي لابدّ أنّك شاهدتها أحياناً من «بالبيك» وتلاقت حيناً؛ وربّما كان لكلتيهما منفعة في التوقّف، ولكن إحداهما ارتأت غير ذلك. وعما قليل لن يتسنّى لأيّ منهما من بعد حتىّ أن ترى الأخرى في الأفق ويمحّي اللقاء. ولكنّ كلّ واحدة منهما تحيّي الأخرى قبل هذا الفراق النهائيّ. ذاك مايفعله هنا ياسيّد البارون «دوشارلوس» وهو يتمنّى لك حظاً سعيداً».

لم يكن «ايميه» حتىّ قرأ تلك الرسالة إلى نهايتها إذ هو لا يدرك فيها شيئاً ويخشى من خدعة ما. وحينما أوضحت له من يكون البارون بدا حالماً بعض الشيء وأحسّ بذاك الأسف الذي توقّعه له السيّد «دوشارلوس». ولست حتّى أقسم أن لا يكون كتب حينذاك يعتذر إلى رجل كان يعطي عربات لأصدقائه. ولكن السيّد «دوشارلوس» كان تعرّف في تلك الأثناء إلى «موريل». وكان السيّد «دوشارلوس» يبحث في الأكثر بين حين وآخر، إذ ربّما كانت علاقاته بهذا الأخير أفلاطونية، عن رفقة لمساء واحد كتلك التي التقيته معها منذ قليل في البهو. لكنّه ما كان يستطيع من بعد أن يصرف عن «موريل» العاطفة العنيفة التي كان غاية مطلبها، يوم هي حرّة قبل بضع سنوات، الالتصاق ب«ايميه» وقد أملت الرسالة التي كنت أشعر بالضيق بشأنها إزاء السيّد «دوشارلوس» والتي سبق أن أراني إيّاها رئيس الخدم. وكانت بسبب الحبّ المخالف للنظام الاجتماعي الذي يمثله حبّ السيّد «دوشارلوس» مثالاً أكثر جلاءً على القوّة غيرالمحسوسة والشديدة التي لتيارات الهوى تلك التي سرعان ما يغيب منظر الأرض جراءها عن عين العاشق كما هي حال السبّاح الذي تجرفه دون أن يلاحظ ذلك. وليس من شكّ أن حبّ الرجل الطبيعي يستطيع بدوره، حينما يبني العاشق بالاستنباط المتلاحق لرغباته وصنوف أسفه وخيبات أمله ومشروعاته رواية كاملة حول امرأة لا يعرفها، أن يمكّن من قياس تباعد هامّ إلى حدّ مابين ساقي فرجار. وكان مثل ذاك التباعد مع ذلك يزداد اتّساعه على نحو فريد من جرّاء طابع عشق ليس متبادلاً بعامّة ومن جرّاء اختلاف الأوضاع الاجتماعية لكلّ من السيّد «دوشارلوس» و«ايميه».

كنت كلّ يوم أخرج برفقة «ألبيرتين». وكانت اعتزمت العودة إلى الرسم واختارت باديء الأمر بقصد

العمل كنيسة «سان جان دو لاهيز» التي لم يعد أحد يتردّد عليها وهي معروفة لدى القلّة القليلة ويصعب الاستدلال عليها، يستحيل اكتشافها دون دليل ويطول المسرى إليها في عزلتها وهي على أكثر من نصف ساعة من محطّة «ايبرڤيل» بعدما تكون جاوزت منذ فترة طويلة آخر منازل قرية «كيتهولم». لم ألقَ توافقاً بخصوص اسم «ايبرڤيل» بين كتاب الكاهن ومعلومات «بريشو». فقد كانت «ايبرڤيل» حسب أحدهما «سپريڤيلا» القديمة، أمّا الآخر فكان يشير إلى «أپريڤيلا» بمثابة أصل لها. وفي المرّة الأولى أخذنا القطار الصغير في الاتجاه المعاكس لـ«فيتيرن»، أي باتّجاه «غراتڤاست». ولكنّ الوقت كان قائظاً وسبق أن كان الانطلاق بعد الغداء مباشرة أمراً مريعاً. ولعلّي كنت فضلت أن لا أخرج في وقت مبكّر إلى هذا الحدّ؛ وكان الهواء المشرق الحارق يوقظ أفكاراً كلها خمول واسترطاب. وكان يملأ غرفتينا، أنا وأمي، حسب اتّجاههما، وبدرجات حرارة غير متساوية وكأنّما هي غرف استشفاء بالحمّامات. وكانت حجرة ملابس والدتي التي تفرّض الشمس حواشيها، وهي من بياض ساطع مغربي، تبدو كأنّما تغوص في قعر بئر بسبب جدران الجصّ الأربعة التي تطلّ عليها فيما السماء في أعلى مكان وفي المربّع الذي ترك فارغاً، السماء التي كنتَ تشهد أمواجها الطريّة المتناضرة تنزلق بعضها فوق بعض، تبدو (بسبب الرغبة التي بك) كأنّها حوض سباحة واقع فوق سطح (أو يشاهد بالمقلوب في مرآة علّقت بالنافذة) وقد امتلأ مياهاً زرقاء مخصّصة للاغتسال. وعلى الرغم من تلك الحرارة الخانقة بادرنا إلى ركوب قطار الساعة الواحدة. ولكنّ «ألبيرتين» عانت من الحرّ الشديد في عربة القطار وعانت أكثر من ذلك أثناء سيرها الطويل وخشيتُ أن يصيبها البرد وقد لبثت بعد ذلك لا حراك بها في هذا التجويف الرطب الذي لاتبلغه الشمس. ثمّ إنيّ لمّا تبيّنت منذ زياراتنا الأولى لـ«ايلستير» أنهّا ربّما لم تتوقّف عند حبّ البذخ بل هي تتجاوزه إلى شيء من الرفاهة يحول دونه افتقارها إلى المال، فقد اتفقت مع مؤجّر في «بالبيك» كي يجيء في كل يوم عربة لنقلنا. وكنّا نسلك طريق غابة «شانتپي» لنقلّل من معاناة الحّر. وإن احتجاب الطيور التي لا تحصى، وبعضها نصف بحريّة، والتي كانت تتنادى إلى جانبنا في الأشجار، كان يخلّف فيك ذات الانطباع بالراحة الذي تحسّ به مغمض العينين. وكنت أصغي إلى تلك الحوريات البحرية إلى جانب «ألبيرتين» وقد كبّلني ذراعاها في أقصى العربة. وحينما كنت ألمح مصادفة أحد أولئك الموسيقيّين يمرّ من ورقة تحت أخرى ثانية كانت العلاقة الظاهرة بينه وبين أنغامه يسيرة إلى حدّ أني ما كنت أظنّني ألقى سبب هذه في الجسم الصغير المتقافز الوضيع المستغرب الذي لانظر له. وما كان بامكان العربة المضيّ بنا حتّى الكنيسة، فكنت أطلب إيقافها لدى مغادرة «كيتهولم»وأستودع «ألبيرتين» ذلك أنهّا أفزعتني وهي تقول لي عن هذه الكنيسة، كشأنها عن أوابد أخرى وعن بعض اللوحات: «أيّة متعة أصيبها أن أزور كل ذلك برفقتك!» فما كنت أحسّني قادراً على توفير تلك المتعة، ولا يداخلني إحساس ذلك أمام الأشياء الجميلة إلاّ إذا كنت وحيداً أو تظاهرت بأني كذلك وصمتّ. ولكن بما أنّها ظنّت أنها قادرة بفضلي أنا على الشعور بأحاسيس فنيّة لا تبثّ على هذا النحو فقد رأيت قسطاً أوفر من الحذر في قولي لها إنّي مفارقها وسوف آتي لاصطحابها آخر النهار، ولكنّما ينبغي لي حتّى ذاك أن اعود بالعربة لأقوم بزيارة للسيّدة «ڤيردوران» أو لأسرة «دوكامبرمير» أو حتّى لقضاء ساعة مع والدتي في «بالبيك»، ولا أذهب أبعد من ذلك البتّة، في البداية على الأقل. ذلك أن «ألبيرتين» قالت لي ذات مرّة تدفعها نزوة عابرة: «مزعج أن تكون الطبيعة أساءت إلى هذا الحدّ

في صنع الأمور فجعلت «سان جان دولاهيز» في جانب و «لاسبليير» في جانب آخر وأن تظلّ النهار بطوله سجين المكان الذي اخترته»، وما أن تسلّمت القلنسوة والثوب الرقيق حتىّ أوصيت لسوء حظيّ على سيّارة في «سان فارجو» (صانكتوس فيرّيولوس– Sanctus Ferréolus – حسبما ورد في كتاب الكاهن). ودهشت «ألبيرتين» التي جاءت لتصحبني، وكنت تركتها في جهل عمّا يجرى، دهشت إذ سمعت أمام الفندق أزيز المحرّك واغتبطت حين علمت أن تلك السيّارة لنا. وأصعدتها حيناً إلى غرفتي. كانت تقفز فرحاً. «سنقوم بزيارة لآل«فيردوران» ؟ –«أجل، ولكن خير لك أن لا تمضي إلى هناك بهذا اللباس بما أنّك ستحصلين على سيّارتك. خذي، ستكونين هكذا أفضل». وأخرجت القلنسوة والثوب الرقيق وكنت خبّأتهما. فصاحت وهي تطوّق عنقي: «أهذا لي؟ آه :كم أنت لطيفّ! «وإذا التقانا «ايميه» على الدرج وداخله الاعتزاز لأناقة «ألبيرتين» وواسطة النقل التي حزناها، لأن أمثال تلك السيارات كانت نادرة في «بالبيك»، فقد وفّر لنفسه متعة النزول خلفنا، ولمّا كانت «ألبيرتين» راغبة أن يشاهدها الناس قليلاً في حلّتها الجديدة فقد طلبت إليّ رفع الغطاء، على أن نرخيه فيما بعد كي نكون أكثر حريّة في مكوثنا معاً. وقال «ايميه» للميكانيكي الذي لم يكن يعرفه على أيّ حال والذي لم يبرح مكانه :«هيّا، ألا تسمع أنهم يقولون لك أن ترفع الغطاء» ؟ ذلك أن «ايميه» الذي حركته حياة الفنادق التي حصل فيها بأية حال على مركز مرموق لم يكن بمثل خجل حوزيّ العربة الذي كانت «فرانسواز» في نظره «سيّدة». وعلى الرغم من غياب التعارف المسبق فقد كان يكلّم دونما كلفة أفراد الشعب الذين لم يكن التقاهم في يوم، دون أن يتّضح تماماً إن كان الأمر من جانبه استخفافاً ارستقراطيّاً أم تآخياً شعبيّاً. وأجاب السائق الذي ما كان يعرفني: «لست خالي الارتباط، وقد أوصى عليّ لصالح الآنسة «سيمونيه»، ولا استطيع اصطحاب السيّد». وقهقه «إيميه» قائلاً في ردّه على الميكانيكيّ، وقد أقنعه في الحال: «ويحك أيّها الأهبل الكبير، هذه بالضبط الآنسة «سيمونيه» والسيّد الذي يأمرك برفع الغطاء هو بالضبط معلّمك». ولمّا كان «ايميه» فخوراً بسببي باللباس الذي كانت «ألبيرتين» ترتديه، مع أنّه لا يكنّ شخصيّاً أيّة مودّة لها، فقد همس في أذن السائق: «لو أمكنك لاصطحبت كلّ يوم، هيه، أميرات من هذا القبيل!» في هذه المرّة الأولى لم أكن أنا الوحيد من استطاع الذهاب إلى «لاراسبليير» مثلما فعلت في أيّام أخرى أثناء ما ترسم «ألبيرتين»، فقد أرادت المجيء إليها برفقتي. صحيح أنّها كانت تعتقد أنّ بوسعنا التوقّف ههنا وهناك في طريقنا، ولكنّها ترى من المستحيل أن نبدأ بالذهاب إلى «سان جان دولاهيز»، يعني في اتجّاه آخر، وأن نقوم بنزهة يبدو أنّها مكرّسة ليوم آخر. ولكنّها علمت من الميكانيكي خلافاً لذلك أنّ ليس ما كان أسهل من الذهاب إلى «سان جان» حيث يصل في عشرين دقيقة وأنّه يمكننا المكوث فيها إن أردنا بضع ساعات أو المضي إلى أبعد من ذلك لأنّه لن يستغرقه من «كيتهولم» إلى «لاراسبليير» أكثر من خمس وثلاثين دقيقة. وأدركنا ذلك حالما اجتازت السيّارة في انقضاضها عشرين خطوة لجواد ممتاز دفعة واحدة. فليست المسافات سوى نسبة المدى إلى الزمن وهي تختلف باختلافها. وإننا نعبّر عن الصعوبة التي نصادفها في الذهاب إلى مكان ما بمنظومة من الفراسخ والكيلو مترات تصبح مغلوطة ما إن تتناقص هذه الصعوبة. حتىّ الفنّ يتبدّل بذلك، فإنّ قرية كانت تبدو في عالم غير عالم قرية أخرى تضحي جارتها ضمن منظر تغيّرت أبعاده. ومهما يكن من أمر فلعلّ سماعك بامكان وجود عالم يساوي فيه ٢و٢ = ٥ ولا يكون فيه الخطّ المستقيم أقصر طريق

بين نقطة وأخرى كان أقلّ ادهاشاً لـ«ألبيرتين» من سماع الميكانيكي يقول لها إنّه من السهل الذهاب في العصر نفسه إلى «سان جان» و«لاراسپليير». فقد أقبلت «دوڤيل» و«كيتهولم»، و«سان مارس لوڤيو» و«سان مارس لوڤيتو»، و«غورڤيل» و «باليبك لوفيو»، و«تورڤيل» و «فيتيرن»، وهي سجينة احتُبِسَتْ باحكام حتّى ذاك في زنزانة الأيّام المختلفة شأنها شأن «ميزيكليز» و «غيرمانت» بالأمس، ولا تستطيع العيون نفسها أن تحطّ عليها في عصر يوم واحد، فإذا هي تحرّرت الآن على يد العملاق الذي حذاؤه سبعة فراسخ، أقبلت تجمع حول ساعة عصرونيّتنا قباب أجراسها وأبراجها وحدائقها التي يسارع الحرج المجاور إلى الكشف عنها.

بعدما وصلت السيّارة إلى أسفل الطريق الشاطئيّ صعد دفعة واحدة بضجيج متّصل كأنّما سكين تُشحذ، فيما البحر الذي هبط يتّسع من تحتنا. وتراكضت بيوت «مونسورڤان» القديمة الريفيّة وهي تشدّ إلى صدرها كرمتها أو شجيرة وردها. وجرى صنوبر «لاراسپليير» وهو أكثر اضطراباً منه حين تهبّ ريح المساء، جرى في كل صوب ليتجنبّنا، وأقبل خادم جديد لم يسبق أن رأيته البتّه ليفتح لنا الأبواب في مطلع الدرج فيما كان ابن البستاني يتلع بعينيه موضع المحرّك كاشفاً بذلك عن استعدادات مبكّرة. وماكنّا نعلم، واليوم ليس يوم اثنين، إن كنا سنلقى السيّدة «ڤيردوران»، فإنّه باستثناء ذاك اليوم الذي تستقبل فيه لم يكن من الحكمة أن تذهب لزيارتها مباغتاً. ليس من شكّ أنّها كانت تمكث في منزلها «مبدئيّاً»، ولكن هذا التعبير الذي كانت السيّدة «سوان» تستخدمه في الزمن الذي كانت تحاول فيه هي الأخرى تأليف عشيرتها الصغيرة واجتذاب الزبائن وذلك بأن لا تبرح مكانها وإن بلغ بها في الغالب أن لا تحصل على نتيجة مابذلت من جهد، وكانت تترجمه خطأً بعبارة «التزاماً بالمبدأ»، إنّما كان يعني فقط «بصورة عامّة»، أي باستثناءات كثيرة. فلم تكن السيّدة «ڤيردوران» تحبّ الخروج فحسب، بل كانت تبلغ بالتزامات المضيفة حدّاً بعيداً، فقد كان البرنامج يتضمّن، إن اتفق لها أن استقبلت جماعة على الغداء، فور تناول القهوة والمشروبات الهاضمة ولفائف التبغ (وعلى الرغم من الاسترخاء الأولي وليد الحرّ والهضم والذي لعلّك فضّلت فيه مشاهدة باخرة «جيرسيه» من خلال خضرة الأغصان في الشرفة، تنزلق فوق بريق مينا البحر) سلسلة من النزهات كان المدعوّون في اثنائها يحملون رغماً عنهم، بعدما أُجلسوا عنوة في العربة، إلى هذا المطلّ أو ذاك، وهي كثيرة جدّاً حول «دوڤيل». ولم يكن هذا القسم الثاني من الاحتفال (بعد مابذلت جهدك في النهوض والصعود إلى العربة) لم يكن القسم الذي يسرّ المدعوّين أقلّ ما يسرّهم وقد أعدّوا نفسيّاً جرّاء الأطباق اللذيذة أو الخمور النفيسة أو شراب التفّاح الفوّار كي يستسلموا بيسر للنشوة المنبعثة من نقاوة الأنسام وروعة المناظر. وكانت السيّدة «ڤيردوران» تنظّم زيارة تلك المواقع للغرباء كما لو كانت أماكن (قريبة أو بعيدة) ملحقة بأملاكها ولا يمكنك الامتناع عن الذهاب لزيارتها ما دمتَ تأتي لتناول الغداء في منزلها، وما كنت بالمقابل لتعرفها لو لم يُرَحّب بك في منزل المعلّمة. وما كان عزمها على الاستئثار بحقّ تنفرد به على النزهات كما على عزف «موريل»، وعزف «دوشامبر» بالأمس، وإلزام المناظر بأن تؤلّف جزءاً من العشيرة الصغيرة، ما كان على أيّة حال بمثل مايبدو عليه من استحالة للوهلة الأولى. فقد كانت السيّدة «ڤيردوران» تسخر من غياب الذوق الذي يبديه، حسب رأيها، آل«كامبرمير» لا في تأثيث «لاراسپليير» وترتيب الحديقة فحسب، بل في النزهات التي يقومون بها أو يدعون إليها في الجوار. ومثلما ترى أن «لاراسپليير» مابدأت تضحي ماكان ينبغي أن تكون عليه إلّا منذ أصبحت

منتجعاً للعشيرة الصغيرة، كذلك كانت تؤكّد أنّ آل«كامبرمير» كانوا يسكنون المنطقة بصورة دائمة ولكنّهم لايعرفونها إذ هم يقطعون على الدوام بعربتهم وعلى طول السكّة الحديديّة على شاطىء البحر الطريق الشنيعة الوحيدة الكائنة في المناطق المحيطة. وكان في ذلك الأدعاء شيء من الصحّة. فلم يكن آل«كامبرمير» يغادرون منزلهم إلاّ ليمضوا دوماً إلى الأماكن نفسها وفي الدروب نفسها، بداعي الروتين أو غياب الخيال أو اللاافضول إزاء منطقة تبدو مطروقة لأنّها قريبة جداً. كانوا يسخرون بالتأكيد من ادّعاء آل«ڤيردوران» بأنّهم يعلّمونهم منطقتهم. ولكنّهم لو أُحرجوا لعجزوا هم وحتّى حوذيهّم عن اصطحابنا إلى الأماكن الرائعة الخفيّة بعض الشيء التي يأخذنا إليها السيّد «ڤيردوران» فيرفع هنا حاجز مُلك خاصّ ولكنّه مهجور وما كان غيره يظنّ بوسعه أن يغامر في الدخول إليه، وهناك ينزل من العربة ليسير في درب لم يكن صالحاً لسير العربات، ولكنّما كلّ ذلك تصحبه المكافأة الأكيدة المتمثّلة في مشهد ساحر. ولنقل على أيّ حال أن حديقة «لاراسپليير» كانت تختصر نوعاً ما كلّ النزهات التي يمكن القيام بها على مسافة كيلو مترات كثيرة في المنطقة المحيطة. أولاً بسبب موقعها المشرف الذي يطلّ من جهة على الوادي ومن الأخرى على البحر، ثمّ لأنّ ثمّة، حتّى من جهة واحدة، جهة البحر على سبيل المثال، فرجات كانت شقّت وسط الأشجار حتّى لتشهد من هنا هذا الأفق ومن هناك ذاك الآخر. وكان في كلّ من تلك المطلاّت مقعد، وكانوا يقبلون للجلوس بالتناوب على هذا الذي تكشف منه «بالبيك» أو «پارڤيل» أو «دوڤيل». وكانوا قد وضعوا حتّى في الاتجاه نفسه مقعداً يقرب أن يكون عمودياً على الجرف أو متراجعاً عنه قليلاً. كان لديك من هذين المقعدين طليعة أولى من الخضرة وأفق يبدو مذ ذاك أوسع مايكون ولكنّه كان يتعاظم إلى مالا نهاية إن واليت السير على درب صغير فمضيت حتّى المقعد التالي حيث يحيط النظر بكامل دائرة البحر. من هنا كنت تسمع ضجّة الأمواج التي ما كانت تصل بعكس ذلك إلى الأقسام الأكثر إيغالاً في الحديقة حيث لا يزال الموج ماثلاً للعيان ولكنّك لا تسمعه. كانت أماكن الاستراحة هذه تحمل بالنسبة إلى صاحِبَيْ المنزل في «لاراسپليير» اسم «المطلاّت». ولقد كانت بالفعل تجمع حول القصر أجمل المطلاّت على المناطق المجاورة أو الشواطىء أو الغابات، وتشاهد مقلّصة جداً جرّاء البعد، مثلما سبق أن جمع «هدريانوس» في دارته مجسّمات مصغّرة عن الأبنية الأثريّة الأوفر شهرة في مختلف المناطق. أما الاسم الذي كان يعقب كلمة «المطلّ» فلم يكن اضطراراً اسم مكان على الشاطىء، بل في الغالب على الضفّة المقابلة من الخليج وكنت تكتشفها وقد حافظت على شيء من التضاريس على الرغم من اتّساع المنظر الشامل. ومثلما كنت تأخذ مجلّداً في مكتبة السيّد «ڤيردوران» لتمضي إلى ساعة قراءة في «مطلّ بالبيك» كذلك كنت تمضي، إن كان الوقت صحواً، لتناول مشروبات مقبلّة في «مطلّ ريڤبيل»، ولكن بشرط أن لا تكون الرياح قويّة جداً إذ كان الهواء هناك قارساً على الرغم من الأشجار التي زرعت على كلّ جانب. نعود الآن إلى النزهات التي كانت السيّدة «ڤيردوران» تنظّمها في العربات بعد الظهر، فقد كانت المعلّمة تتظاهر أنّها في قمّة السعادة إن وجدت لدى عودتها بطاقات أحد أرباب المجتمعات «لدى مروره العابر على الشاطىء»، ولكنّها كانت مغتمّة لما فاتتها زيارته فكانت تسارع (مع أنّهم لايجيئون بعد إلاّ لمشاهدة «البيت» أو التعرّف يوماً واحداً على امرأة صاحبة منتدى فنيّ شهير ولكنّما يصعب ارتياده في باريس) إلى دعوته على يد السيّد «ڤيردوران» للمجيء لتناول طعام العشاء يوم الأربعاء القابل. ولما كان السائح مضطراً في

الغالب إلى العودة قبل ذلك أو هو يخشى العودة متأخراً فقد كانت السيّدة «ڤيردوران» قد وافقت على أنّهم سيلقونها نهار السبت دوماً ساعة العصر ونيّة. ولم تكن حفلات العصرونية تلك كثيرة وسبق أن عرفت في باريس ما كان أكثر روعة في منزل الأميرة «دوغيرمانت» وفي منزل السيّدة «دوغاليفيه» أو السيّدة «دارپاجون». ولكنّما المكان هنا ليس بالطبع باريس من بعد وإن سحر المحيط لم يكن يؤثرفي نظري في محض بهجة اللقاء، بل في نوعيّة الزوّار. فإن التقاء رجل مجتمعات، وما كان ليورثني في باريس أيّ متعة ولكنّه في «لاراسپليير» التي جاءها من بعيد مروراً بـ«فيتيرن» أو بغابة «شانتپي»، يتغيّر طابعاً وأهميّة، كان يضحي حدثاً ممتعاً. وكان أحياناً واحداً أعرفه تمام المعرفة وما كنت لأقوم بخطوة واحدة للقائه في منزل آل«سوان». بيد أن اسمه كان له رنّة مختلفة فوق هذا الجرف، كما هو اسم ممثّل تسمعه كثيراً في المسرح وقد طُبِعَ بلون آخر في الاعلان المخصّص لحفلة تمثيليّة استثنائية واحتفالية تتعاظم فيه شهرته فجأة من جرّاء السياق اللامتوقّع. ولمّا كان الناس في الأرياف لا يقيّدون أنفسهم فإن رجل المجتمعات كان يأخذ على عاتقه في الغالب اصطحاب الأصدقاء الذين يقطن عندهم مؤكداً بصوت خافت للسيّدة «ڤيردوران» على سبيل الاعتذار أنّه لا يستطيع التخلّي عنهم وهو يسكن في بيتهم، فيما يتظاهر في المقابل بأنّه يوفر لهؤلاء المضيفين نوعاً من المجاملة في اطلاعهم على هذا النوع من التسلية في حياة الشاطىء الرتيبة، تسلية قوامها الذهاب إلى وسط يتّسم بالطرافة وزيارة مسكن رائع والحصول على عصرونية ممتازة. وكان ذلك يؤلف في الحال اجتماعاً لبضعة أشخاص متوسّطي القيمة. ولئن اكتست حديقة صغيرة جداً تؤلفها بضع شجرات، وربّما بدت غير ذات بال في الريف، سحراً فريداً في شارع «غبرييل» أو شارع «دومونسو» حيث يتيّسر لأصحاب الملايين الكثيرة فحسب أن يقتنوها، فإن سادة هم بالعكس من النسق الثاني في أمسية باريسيّة كانوا يكتسبون كامل قيمتهم عصر الاثنين في «لاراسپليير». فما إن يجلس هؤلاء المدعوّون حول الطاولة التي يغطيّها سماط مطرّز بالأحمر ويُقَدّم لهم عليها تحت الفرجات المتدرّجة اللون الكعك والحلوى النورماندية المورّقة وفطائر على شكل قوارب مملؤة بكرز كأنّه درّ مرجانيّ وحلوى البودينغ حتّى يطرأ عليهم جرّاء الاقتراب من الكوب اللازوردي العميق الذي تنفتح عليه النوافذ ولاسبيل لرؤيته إلاّ وإيّاهم، تغيّر وتحوّل عميق كان يقلبهم شيئاً أكثر نفاسة. ثم إن القوم، حينما يجيئون يوم الاثنين إلى منزل السيّدة «ڤيردوران»، ولم تكن لهم في باريس سوى نظرات أتعبتها العادة يلقونها على العربات الأنيقة المتوقّفة أمام أحد الفنادق الفخمة، كانوا حتّى قبلما يرونها يحسّون قلوبهم تخفق لدى رؤية النجّادتين أو الثلاث المهلهلة المتوقّفة أمام «لاراسپليير» تحت الصنوبرات الكبيرة، وما ذلك دونما شكّ إلاّ لأنّ الاطار الريفي كان مختلفاً وأن الانطباعات المجتمعيّة كانت تعود فتصبح أكثر جدّة بفضل هذا الانتقال. وكذلك لأن العربة المهلهلة التي يستقلّونها للذهاب لزيارة السيّدة «ڤيردوران» كانت تذكّر بنزهة جميلة «وسعر مقطوع» مكلف اتُّفِقَ عليه مع حوذيّ سبق أن طلب «هذا القدر» في اليوم. لكنّما الفضول المشوب بشيء من الانفعال إزاء الوافدين، ويستحيل بعد تمييزهم، كان ناجماً كذلك عن أنّ كلاً كان يتساءل: «من يكون هذا؟» والسؤال كان يصعب الاجابة عنه، إذ لا تعلم من أمكن أن يجيىء لقضاء ثمانية أيّام لدى أسرة «كامبرمير» أو في مكان آخر، ويحبّ المرء أنْ يطرحه على ذاته في مناطق العيش الريفي المنعزل حيث يكفّ التقاء شخص لم نره منذ فترة طويلة، أو التعريف بشخص لا نعرفه، عن كونه ذاك الأمر المملّ الذي يشكّله في حياة باريس ويقطع

بصورة تَلَذُّكَ جوّ الفراغ في الحيوات المفرطة في عزلتها التي تضحي فيها ساعة البريد ذاتها ممتعة. وفي اليوم الذي جئنا فيه بالسيّارة إلى «لارسپليير» لابدّ أن السيّد والسيّدة «ڤيردوران»، إذ لم يكن يوم الاثنين، كانا نهب تلك الحاجة إلى التقاء الناس التي تقلق الرجال والنساء وتبعث في نفس المريض الذي حجر عليه بعيداً عن ذويه من أجل استشفاء بالعزلة الرغبة في القاء نفسه من النافذة. ذلك لأن الخادم الجديد ذي القدمين الأوفر سرعة والذي ائتلف تلك التعابير إذ أجاب أن «السيّدة إن لم تكن خرجت فلابدّ أنها «في مَطلّ «دوڤيل» وأنّه ماض ليرى»، فقد عاد في الحال يقول لنا إنهّا ستستقبلنا. ووجدناها مشعّثة الشعر قليلاً إذ كانت تعود من الحديقة وخمّ الدجاج والمبقلة حيث ذهبت لتطعم طواويسها ودجاجتها وتجلب البيض وتقطف الفاكهة والزهور «لتعدّ دربها الزخرفي فوق الطاولة»، درباً يذكّر بصورة مصغّرة بدرب الحديقة، بيد أنّه كان يوفّر على الطاولة هذه العلامة المميّزة بأنّه لايحملها مجرّد أشياء مفيدة وصالحة للأكل، فمن حول هبات الحديقة الأخرى التي تؤلّفها ثمار الإجاص وبياض البيض المخفوق كانت ترتفع سوق أزاهير الأفعى والقرنفل والورد وزهر البقّ، ومن خلالها تبصر، وكأنمّا بين أوتاد اتّجاه مزهرة، تبصر من زجاج النافذة المراكب في أعلى البحر تنتقل الهوينى.

واتّضح لي من الدهشة التي أبداها السيّد والسيّدة «ڤيردوران» بتوقّفهما عن ترتيب الأزهار لاستقبال الزائرين المعلن عنهما حينما تبيّن لهما أنّ هذين الزائرين إن هما إلاّ أنا و«ألبيرتين»، اتّضح لي أن الخادم الجديد الذي يفيض حماسة ولكنّما لم يكن اسمي بعدُ مألوفاً لديه قد أخطأ في ترداده وأنّ السيّدة «ڤيردوران»، إذ تناهى إلى مسمعها اسم ضيفين مجهولين، قد أمرت مع ذلك بادخالهما لمّا كانت بحاجة للقاء أيّ شخص كان. أمّا الخادم الجديد فكان يتأمّل هذا المشهد على الباب كي يكون على بيّنه من الدور الذي ننهض به في البيت. ثمّ ابتعد جرياً يخطو خطىً واسعة إذ لم يكن قد عُيّن إلاّ البارحة. وبعدما أرت «ألبيرتين» قلنسوتها وثوبها الرقيق لآل «ڤيردوران» رمتني بنظرة تذكّرني بها أنّه لم يكن أمامنا وقت كثير إزاء ماكنّا راغبين أن نقوم به. كانت السيّدة «ڤيردوران» تودّ أن تنتظر العصرونية ولكنّنا رفضنا حينما انكشف فجأة مشروع ربّما كان قضى على جميع المتع التي كنت أمنيّ النفس بها من نزهتي بصحبة «ألبيرتين» : فالمعلّمة كانت تريد العودة معنا اذ لم تستطع أن تحمل النفس على فراقنا أو ربّما على الافساح لتسلية جديدة بأن تفوتها. وإذ تعّودت منذ فترة طويلة أن لاتحمل عروض من هذا القبيل من جانبها أيّة مسّرة ولم تكن على الأرجح متيقّنة أن هذا العرض سوف يولينا سروراً فقد أخفت تحت فيض من الثقة بالنفس الخجل الذي تحسّه بتوجيهه لنا وإذ لم يبدُ حتىّ أنّها تفترض امكان وجود شك بجوابنا فإنّها لم تطرح علينا أيّ سؤال بل قالت لزوجها وهي تكلّمه عن «ألبيرتين» وعنّي وكأنّما تولينا منّة : «سوف أعيدهما أنا!» وارتسمت في الوقت نفسه على فيها ابتسامة ماكانت تخصّها هي ابتسامة سبق أن رأيتها لبعض الناس وهم يقولون لـ «بيرغوت» بلهجة رقيقة: «لقد اشتريت كتابك، ياحسنه»، واحدة من تلك الابتسامات الجماعية الكليّة التي يستخدمها الأفراد حينما يحتاجون إليها –مثلما يستخدمون السكّة الحديديّة وعربات نقل الأثاث– ماعدا بعضاً منهم من أكثرهم رهافة، من أمثال «سوان» أو السيّد «دوشار لوس»، من الذين لم أشاهد يوماً تلك الابتسامة تحطّ على شفاههم. ومذ ذاك فسدت زيارتي، وتظاهرت بأني لم أفهم. وأصبح واضحاً بعد هنيهة أن السيّد «ڤيردوران» سيحضر بدوره. فقلت: «ولكن ذلك سيطول بالنسبة الي السيد «ڤيردوران». وأجابت السيّدة «ڤيردوران» بلهجة المُتَفَضّل المبتهج: «لا،لا، فإنه يقول

إنّه سيسّره كثيراً أن يقطع مع هذه الشبيبة ذاك الطريق الذي ما أكثر ماقطعه فيما مضى. وإن دعت الحاجة جلس إلى جانب السائق فليس يفزعه ذلك، ثمّ نعود كلانا بهدوء في القطار كما يفعل الأزواج المحمودو السيرة. هيّا انظرا، فهو يبدو شديد الاغتباط.» كان يبدو وكأنها تتحدّث عن رسّام كبير عجوز يفيض طيبة يبني مسّرته، وهو أكثر شباباً من الشباب، على «خربشة» صور لإضحاك أحفاده. وما كان يزيد من غميّ أنْ كانت «ألبيرتين» تبدو كأنّها لاتشاطرني إيّاه وتجد متعة في الطواف على هذا النحو مع الزوجين «ڤيردوران» في كلّ المنطقة. أمّا أنا، فإن المتعة التي منيّت النفس بأن أصيبها معها كانت ملحّة إلى حدّ أني لم أشأ أن أفسح للمعلّمة في مجال تخريبها. واختلقت أكاذيب كانت تهديدات السيّدة «ڤيردوران» المغيظة تبّررها، ولكن «ألبيرتين» ، للأسف، كانت تكذّبها. فقد قلت: «ولكن علينا أن نقوم بزيارة» . فسألتْ «ألبيرتين» :«أيّة زيارة؟»

– «سوف أوضح لك، لابدّ من ذلك» . وقالت السيّدة «ڤيردوران» وقد سلّمت بكلّ شيء: «إذاً سوف ننتظركما» . وبعث في نفسي في آخر المطاف قلقي من أن أحسّ سعادة مشتهاة إلى هذا الحدّ تنتزع منّي الشجاعة في أن أبدو عديم التهذيب. فرفضت رفضاً قاطعاً وهمستُ في أذن السيّدة «ڤيردوران» متذرّعاً بأنّه لابدّ من بقائي وحيداً مع «ألبيرتين» بسبب غمّ ألمّ بها وهي راغبة أن تستشيرني حوله. واتّخذت المعلّمة مظهراً مغضباً وقالت لي بصوت يهدّجه الغيظ: «حسن، لن نجيء» . وأحسستها مغتاظة إلى حدّ أني قلت بغية أن أبدو وكأني أتراجع قليلاً: «ولكن ربّما كان بوسعنا...» فأردفت تقول متزايدة الحنق: «لا، وحينما أقول لا فأعني لا» . وظنتني اختصمت وإيّاها ولكنّها استدعتنا من الباب كي توصينا بأن لا «نُخلف الوعد» يوم الأربعاء في الغد وأن لانحضر بهذا «الشيء» الذي يشكلّ خطراً في الليل، بل بالقطار مع كامل المجموعة الصغيرة؛ وأمرت بإيقاف السيّارة وقد تحرّكت في ممرّ الحديقة المتّجه نزولاً لأنّ الخادم الجديد نسي أن يضع في الغطاء قطعة الفطيرة ومرّملات الحلوى التي كانت لفتّها لنا. وعدنا تواكبنا فترة قصيرة البيوت الصغيرة التي سارعت إلينا بأزهارها. وبدا لنا شكل المنطقة وقد تغيّر كليّاً لفرط مايبدو أنّ مفهوم المكان في الصورة الطوبوغرافية التي نكوّنها عن كلّ منها بعيد عن أن يكون المفهوم الذي ينهض بالدور الأعظم. وقلنا إن مفهوم الزمان يباعدها أكثر. ولكنّه ليس الوحيد بدوره. فان بعض الأماكن التي نراها على الدوام معزولة تبدو لنا وكأنّما تفوق كلّ ماعداها، كأنّما هي خارج العالم تقريباً، كمثل أولئك الناس الذين عرفناهم في فترات منفصلة من حياتنا، في الجيش، في زمن الطفولة، ولا نربط بينها وبين أيّ شيء آخر. كان ثمّة في السنة الأولى لإقامتي في «بالبيك» ، مرتفع تحبْ السيّدة «دوڤيلپاريزيس» أن تصحبنا إليه إذ كنتَ لاترى من هناك سوى الماء والأحراج، وكان يدعى «بومون» . وبما أنّ الطريق الذي كانت تأمر بسلوكه للوصول إليه، وتراه من أجملها بسبب أشجاره العتيقة، كان في صعود مستمرّ فقد كانت عربتها مضطرّة للسير الهوينى فتستغرق وقتاً طويلاً جدّاً. وما إن تصل إلى فوق حتىّ كنّا ننزل ونتنزه قليلاً ثمّ نستقل العربة ثانية ونعود في الدرب نفسه دون أن نصادف أيّة قرية وأيّ قصر. كنت أعرف أن «بومون» شيء غريب جدّاً، بعيد جدّاً، عالٍ جدّاً، ولكنّما لافكرة لديّ البتّة عن الجهة التي يقوم فيها إذ لم أسلك في يوم طريق «بومون» للذهاب إلى مكان آخر، وكنّا بأيّة حال ننفق وقتاً طويلاً في العربة لبلوغه. كان الموقع بالطبع جزءاً من مقاطعة «بالبيك» نفسها، ولكنّه في نظري واقع في مستوى آخر ويتمتّع بميزة الأرض الخارجة عن حكم المحيط. ولكنّ السيّارة التي لاتحترم أيّ سرّ وبعد أن

تجاوزت «أنكرفيل» التي كانت بيوتها مازال تسكن عينيّ، وإذ كنّا نسلك المنحدر المختصر الذي يفضي إلى «پارڤيل» وأبصرت البحر من سطح كنّا عليه سألت كيف يدعون هذا المكان وتعرّفت، حتىّ قبل أن يجيبني السائق، «بومون» الذي كنت أمرّ هكذا بجانبه دون أن أعرفه في كلّ مرّة كنت أستقلّ فيها القطار الصغير، إذ كان على مدى دقيقتين من «پارڤيل». وكمثل ضابط في كتيبتي كان بد الي كائناً خاصاً، مفرط الطيبة والبساطة كما يكون من أسره كبيرة، مفرط البعد كثير الأسرار كي يكون فقط من أسرة كبيرة، ثم عرفت أنّه صهر أو ابن عمّ لهؤلاء أو أولئك ممّن كنت أتناول طعام عشائي معهم في المدينة، كذلك فقد «بومون» الذي ارتبط فجأة بأمكنة كنت أظنه مختلفاً تمام الاختلاف عنها، فقد سرّه واتخّذ مكانه داخل المنطقة وجعلني أفكّر بهلع أن «مدام بوڤاري»و «لاصا نسيڤيرينا» ربّما كانتا بدتا لي امرأتين شبيهتين بغيرهما لو اني التقيتهما في غير جوّ الرواية المغلق. وربّما بدا أن عشقي للرحلات التي تفتن الألباب بالسكك الحديديّة كان لابدّ أن يحول دون مشاطرتي «ألبيرتين» افتتانها أمام السيّارة التي تحمل حتىّ مريضاً إلى حيث يشاء وتحول دون احتساب الموقع كما سبق أن فعلت حتى ذاك– بمثابة العلامة الفرديّة والجوهر الذي لابديل له للجمالات التي لاتحول ولاتزول. ذاك الموقع دون شك ماكانت السّيارة تجعل منه، مثلما السكّة الحديديّة بالأمس حين جئت من باريس إلى «بالبيك»، هدفاً متحرّراً من طوارىء الحياة العاديّة، يقرب أن يكون مثاليّاً لدى الرحيل ويبدو إذ يلبث على حاله تلك عند الوصول، الوصول إلى هذا المسكن الكبير الذي لايقطنه أحد ويحمل فحسب اسم المدينة، عنينا المحطّة، وكأنّه يعد بامكان الوصول إليها كما ربّما كانت هي تجسيداً له. لا، لم تكن السيّارة تأخذنا على هذا النحو المسحور إلى مدينة كنّا نراها بادىء الأمر ضمن المجموعة التي يختصرها اسمها وبأوهام المشاهد في القاعة. لقد كانت تدخلنا في كواليس الشوارع وتتوقّف لتسأل أحد السكّان بعض المعلومات. ولكنّ لدينا في مايقابل هذا التقدّم المألوف إلى هذا الحدّ تلمّسات السائق الحائر في طريقه والذي يعود خطاه القهقرى، وتقاطعات المنظور التي تدفع قصراً إلى لعبة الزوايا الأربع مع هضبة وكنيسة والبحر فيما نقترب منه على الرغم ممّا يختبىء عبثاً تحت ظلال شجره العتيق، وتلك الدوائر التي تضيق أكثر فأكثر والتي تخطّها السيّارة حول مدينة مفتونة كانت تهرب في كلّ صوب كي تفلت منها والتي تنقضّ عليها في نهاية المطاف بخطّ مستقيم عمودي إلى قعر الوادي حيث تظلّ مطروحة أرضاً. وهكذا فإن هذا الموقع، وهو النقطة الوحيدة.التي يبدو أن السيّارة جرّدتها من أسرار القطارات السريعة، إنّما تولينا هذه النقطة على العكس انطباعاً باكتشافه وبتحديدنا له وكأنّما بفرجار وبمساعدتنا على أن نتحسّس بيد تكتشف بحبّ أعظم ودقّة أوفر هندسة الأرض الحقيقيّة ومقاسها الجميل.

ماكنت أجهله لسوء الحظّ في تلك الفترة ولم أطّلع عليه إلاّ بعد نيّف وسنتين أنّ أحد زبائن السائق كان السيّد «دوشار لوس» وأنّ «موريل» المكلّف بأن يدفع له والذي كان يحتفظ لنفسه بجزء من المال (وذلك يحثّ السائق على مضاعفة عدد الكيلومترات ثلاث مرّات وخمس مرّات) كان قد ارتبط بعلاقة وثيقة معه (فيما يظهر بمظهر من لايعرفه في حضرة الناس) وكان يستخدم سيّارته في مشاوير بعيدة. ولو أني عرفت ذلك في حينه وأن الثقة التي سرعان ماوضعها آل «ڤيردوران» في ذلك السائق إنّما كانت ناجمة عن ذاك دون علم منهم لكنت تفاديت الكثير من غموم حياتي في باريس في السنة التالية والكثير من المصائب المتعلّقة بـ

«ألبيرتين» ولكنيّ ماكنت أرتاب بالأمر البتّة. لم تكن نزهات السيّد «دوشار لوس» بصحبة «موريل» بالسيّارة، لم تكن في حدّ ذاتها موضع اهتمام خاصّ بالنسبة إليّ. فقد كانت تقتصر على أيّة حال في الغالب على غداء أو عشاء في مطعم على الشاطىء يحسبون السيّد «دوشار لوس» فيه خادماً عجوزاً مفلساً و «موريل» المكلف دفع الحساب نبيلاً مفرط الطيبة. وسأروي عن واحدة من تلك الوجبات يمكن أن تزوّد بفكرة عن الأخريات. كان ذلك في مطعم مستطيل الشكل في «سان مارس لوڤيتو». «ألا يمكن رفع هذه؟» يقول السيّد «دوشار لوس» ل «موريل» وكإنّما لوسيط وكي لايوجّه الكلام إلى النذل مباشرة. وكان يعني بـ «هذه» ثلاث وردات ذابلة ظنّ رئيس خدم حسن النيّة من واجبه أن يزيّن بها الطاولة. فأجاب «موريل» مربكاً :«بلى.. ألا تحبّ الورود؟» — «ربّما برهنت على العكس بالطلب الذي تقدّمت به أني أحبّها إذ ليس من ورود هنا (وبدت الدهشة على «موريل») . على إني في الحقيقة لا أحبها كثيراً. وإنيّ أتأثّر بالأسماء إلى حدّ ما، فما أن تكون وردة على شيء من الجمال حتىّ تعلم أنّها تدعى «البارونة دو روتشيلد» أو «الماريشالة نييل»، الأمر الذي يوليك فتوراً. هل تحبّ الأسماء؟ وهل لقيت عناوين حلوة لمقطوعاتك الموسيقيّة الصغيرة؟» — «هناك واحدة تدعى «قصيدة حزينة». فأجاب السيّد «دوشار لوس» بصوت حادّ مفرقع مثلما الصفعة: ذلك مريع. ولكنيّ كنت طلبت شمبانيا؟» يقول لرئيس الخدم الذي ظنّ أنّه يجيء بشيء منها وهو يضع إلى جانب الزبونين كوبين من النبيذ الفوّار. — «ولكن ياسيّد..»— «أبعد هذا القرف الذي لاعلاقة له بأردأ الشمبانيا. إنّه المقيّيء الذي يسّمونه «كب» (cup) والذي يلقون فيه بعامّة ثلاث حبّات من توت الأرض متعفّنة في مزيج من الخلّ وماء «سيلتز»....» وأردف قوله وهو يستدير صوب «موريل» :«أجل، يبدو أنّك تجهل ماعسى يكون العنوان. وحتىّ في تنفيذ ماتعزفه أفضل مايكون العزف يبدو أنّك لاتتبيّن الجانب الوسيطيّ في الأمر» وسأل «موريل» :« ماذا تقول ؟»، وقد خشي، بعدما لم يفهم شيئاً ممّا قاله البارون، أن يفوّت على نفسه معلومة مفيدة من قبيل دعوة على الغداء على سبيل المثال.ولمّا أحجم السيّد «دوشار لوس» عن اعتبار «ماذا تقول؟» بمثابة سؤال فقد ظنّ «موريل» إذ لم يصله بالنتيجة جواب، ظنّ من واجبه تغيير الحديث واعطاءه طابعاً شهوانياً: «هيّا انظر، الشقراء الصغيرة التي تبيع تلك الزهور التي لاتحبّها، فهذه واحدة أيضاً لديها بالتأكيد صديقة صغيرة. وكذلك العجوز التي تتناول عشاءها على طاولة الركن القصيّ:» وسأل السيّد «دوشار لوس» وقد أدهشه علم «موريل» المسبق بالأمور :«ولكن كيف تعلم كلّ هذا الشيء؟»

— «آه ! أحزرهنّ في مدى ثانية. ولو تجوّ لنا كلانا داخل جمهور من الناس لرأيت أنّني لا أخطىء مرّتين.» ولعلّ من كان شهد «موريل» في تلك اللحظة بمظهره البنوتيّ في إطار جماله الذكوري، لعله كان أدرك العرافة الغامضة التي ماكانت تدلّ بعض النساء عليه أقلّ ممّا تدلّه عليهن. كان يصبو إلى الحلول محلّ «جوبيان»، وبه رغبة غامضة في أن يضيف إلى مرتّبه الثابت الدخولَ التي يستجرّها صانع الصداري، فيما يظنّ، من البارون. «أمّا بخصوص الفتيان الذين تتعهّدهم عشيقاتهم فإني أكثر خبرة بأمورهم وسوف أجنّبك الأخطاء جميعها. وعمّا قليل يقام المعرض في «بالبيك» وسوف نلقى أشياء كثيرة؛ ناهيك عن باريس حيث سترى أنّك واجد صنوفاً من اللهو.» ولكنّ حذر الخادم الوراثي جعله يعطي الجملة التي كان آخذاً بها منحى آخر، حتىّ ظنّ السيّد «دوشار لوس» أن الأمر مازال يدور حول الفتيات. وقال «موريل» وهو راغب في إثارة حواسّ البارون

بطريقة يظنّها أقلّ توريطاً له (مع أنّها في الواقع أكثر إغراقاً في اللا أخلاق): «تدري، حلمي أن ألقى فتاة طاهرة جدّاً وأن أحملها على حبيّ ثمّ أسلبها عذريتّها.» ولم يملك السيّد «دوشار لوس» نفسه عن فرك أذن «موريل» برقّة، ولكنّه أضاف بسذاجة: «وماعساك تفيد من ذلك؟ إن سلبتها بكارتها فستضطر أن تتزوّجها.» وصاح «موريل» قائلاً: «أتزوجها؟»، وهو يحسّ ان البارون قد انتشى، أوهو ماكان يفكّر أنّ الرجل الذي يتحدّث إليه هو باجمال القول أكثر تحسّباً للأخلاق مما يظنّ، «أتزوّجها؟ هراء! ربّما وعدت بذلك، ولكن ما إن تتمّ العملية الصغيرة على مايرام حتىّ أهجرها في المساء نفسه.» كان السيّد «دوشار لوس» قد تعوّد، حينما يستطيع وهم ما أن يتسبّب له بمتعة حسيّة مؤقتة، أن يوافق عليه، على أن يسحب موافقته كاملة بعد انقضاء لحظات على نفاد المتعة. وقال لـ «موريل» وهو يضحك ويشدّه أكثر فأكثر إليه: «أحقّا تفعل ذلك؟» — «بالطبع أفعل! يقول «موريل» وهو يرى أنّه ماكان يسوء في عين البارون وهو ماضٍ في شرح صادق لما كانت بالفعل إحدى رغباته. وقال السيّد «دوشار لوس»: هذا أمر وبيل العاقبة». — «أحزم حقائبي سلفاً واطلق ساقيّ للريح دون أن أترك عنواناً.» وسأل السيّد «دوشار لوس»: «وأنا؟» وسارع «موريل» يقول: أصطحبك معي بالطبع»، وماكان فكّر بما يصير إليه البارون الذي كان أقلّ مايهتمّ له. — «اسمع، ثمّة صغيرة قد تروقني كثيراً لذلك، إنها خيّاطة صغيرة دكّانها في فندق السيّد الدوق.» وصاح البارون فيما كان الساقي يدخل: «ابنة جوبيان»! وأضاف يقول: «لا! على الاطلاق!» إمّا لأن وجود شخص ثالث ربّما بعث فتوراً في نفسه، وإما لأنّه ما كان ربّما يستطيع عقد العزم على اقحام أشخاص يكنّ لهم مشاعر الصداقة في مثل هذه الطقوس السوداء التي كان يحلو له فيها تدنيس أكثر الأمور قدسيّة، «إن «جوبيان» رجل طيّب القلب والصغيرة رائعة ومن الشنيع أن نغمهّما.» وأحسّ «موريل» أنّه تمادى فسكت، ولكنّ عينه والت في الفراغ التحديق بالفتاة التي ودّ ذات يوم أن أدعوه في حضرتها «بالفنّان العزيز العظيم» والتي أوصى لديها بصدريّة. وما كانت الصغيرة، وهي عظيمة الجدّ في عملها، قد أفادت من عطلتها، ولكنيّ علمت مذ ذاك أنّها لم تكفّ، فيما كان عازف الكمان في جوار «بالبيك»، عن التفكير بمحيّاه الجميل وقد أولاه نبلاً أنّها بعدما رأت «موريل» بصحبتي حسبته أحد «السادة».

قال البارون: «ماسمعت» شوبان» يعزف في يوم، مع أني ربّما وسعني ذلك، فقد كنت أتلقّى دروساً لدى «ستاماتي»، ولكنّه منعني من الذهاب لسماع سيّد «الليليّات» في منزل عمتّي «شيميه». فصرخ «موريل» قائلاً: «أيّة حماقة ارتكب!» وردّ السيّد «دوشار لوس» بصوت عنيف حادّ: «بالعكس، كان يقيم برهاناً على ذكائه، فقد أدرك أنني «طبيعة» مميّزة وأنني قد أقع تحت تأثير «شوبان». ولكن لابأس، بما أني هجرت الموسيقى صغيراً جدّاً، كأي شيء آخر على أي حال.» وأضاف يقول بصوت أخن مبطأ متهالك: «ثمّ إنّك تتخيلّ الأمر قليلاً، فثمّة على الدوام أناس سمعوا، ويزوّدونك بفكرة. على أنّ «شوبان» كان حجّة فحسب للعودة إلى الجانب الوسيطيّ الذي تهمله.»

نلاحظ أنّ لغة السيّد «دوشار لوس»، بعد إدراجة للغة العاميّة، عادت فجأة فأصبحت بمثل تصنّعها وتعاليها المعتادين. ذلك لأنّ الفكرة التي مفادها أن «موريل» قد يهجر دون تبكيت من ضمير فتاة اغتصبتْ أذاقته فجأة متعة كاملة. وقد هدأت حواسّه مذ ذاك بعض الوقت وولّى الساديّ هارباً (هو الوسيطيّ حقّا) ذاك الذي كان

حلّ على مدى لحظات محلّ السيّد «دوشار لوس» وأعاد الكلام للسيّد «دوشار لوس» الحقيقيّ الذي يفيض رقّة فنيّة وحساسيّة وطيبة. «لقد عزفتَ ذاك اليوم نَسْخَ الرباعيّة الخامسة عشرة على البيانو، وهو بادىء الأمر من اللامعقول إذ ليس ماكان أقلّ موافقة للبيانو. وقد صُمّمَ للناس الذين ترهق أذانهم أوتار الأطرش العظيم التي بولغ في شدّها، ولكنّما تلك الصوفيّة بالضبط، ويقرب أن تكون مزّة الطعْم، هي الإلهيّة. وقد عزفتَها في جميع الأحوال أسوأ عزف بتغييرك لجميع الحركات. ينبغي أن تعزفها كما لوانّك تؤلفها :«موريل الشابّ» الذي ألمّ به صمم وقتيّ وعبقريّة غير موجودة يبقى لحظة دون حراك؛ ثمّ يأخذه الهذيان المقدّس فيعزف ويؤلّف المقاطع الأولى؛ وإذ ذاك ينهار وقد خارت قواه جرّاء مباشرة مثل هذا الجهد تاركاً خصلة شعره الجميلة تهوي ليروق السيّدة «ڤيردوران»، ثم إنّه بذلك يستغلّ الوقت ليرمّم الكميّة الهائلة من المادّة الرماديّة التي اقتطعها من أجل التجسيد العرافيّ. حينئذ ينطلق، بعدما استعاد قواه وتملّكه وحي جديد فائق، صوب الجملة الرائعة التي لاتنضب والتي سيروح الموسيقار البرليني (ونظن السيّد «دوشار لوس» يقصد بذلك «منديلسّون») يقلّدها دونما كلل. بهذه الطريقة، وهي وحدها متسامية حقّا ومحرّكة للنفس، سأجعلك تعزف في باريس.» كان «موريل»، حين يقدّم له السيّد «دوشار لوس» آراء من هذا القبيل، أشدّ فزعاً من أن يرى رئيس الخدم يحمل معه ورداته وكوبه المزدراة إذ كان يتساءل بقلق أيّ أثر سوف يخلّف ذلك في «حلقة الدارسين». لكنّما لم يكن بوسعه التوقّف عند هذه الأفكار إذ كان السيّد «دوشار لوس» يقول له بلهجة الآمر :«إسأل رئيس الخدم إن كان لديه «مسيحيّ» من النوع الصالح»— «مسيحيّ من النوع الصالح؟ لست أفهم.» — «تلاحظ تماماً أنّنا بمرحلة الفاكهة، فهي إجّاصة إذن. وتأكدْ أنّ السيّدة «دوكامبرمير» لديها إجّاص لأن الكونتيسّة «ديسكار بنياس» (١) وهي وإيّاها سواء لديها شيء منه. فالسيّد «تيبوديه» يبعث به إليها وتقول هي: «هذا من صنف المسيحيّ الصالح وهو جميل جدّاً» — «لا، ماكنت أعرف» — «أرى على أيّ حال أنّك لاتعرف شيئاً. إن كنت حتىّ لم تقرأ «موليير».. هيّا إذاً، بما أنّك لابدّ لن تحسن الطلب أكثر من غيره فاسألهم فقط إجّاصة يجمعونها بالضبط على مقربة من هنا: «لويزة الطيّبة» من «أڤرانش». — «لويـ......»— على رسلك، بما أنك أخرق إلى هذا الحدّ فسوف أطلب بنفسي غيرها من التي أفضّلها :يارئيس الخدم، هل عندك من صنف «دوايينّيه دي كوميس»(٢). «شارلي»، هلاّ قرأت الصفحة الرائعة التي كتبتها الدوقة «اميلي دو كليرمون تونّير» حول هذه الإجّاصة.» — «لا، ياسيّد، ليس عندي منها.»— «وهل لديك «تريونف جودوانيي»؟ — «لا ،ياسيّد.»— «ومن صنف «ڤيرجيني داليه»؟ و«پاس كولمار»؟ لا؟ إذاً سوف نمضي بما أنكم لاتملكون شيئاً. إن «دوقة أنغوليم» لم تنضج بعد؛ هيّا، فلنذهب يا «شارلي». إن غياب الحسّ السليم لدى السيّد «دوشار لوس»، لسوء حظّه، وربّما العلاقة العفيفة التي تربطه على الأرجح بـ«موريل» جعله يسعي جاهداً منذ تلك الفترة لغمر عازف الكمان بألطاف غريبة ماكان بوسع هذا أن يفهمها ولاتستطيع طبيعته، وهي من النوع المجنون، ولكنها ناكرة للجميل خسيسة، أن تردّ عليها إلاّ بجفاء أو عنف متزايدين على الدوام وكانا يغرقان السيّد «دوشار لوس»—

(١) من هزليات الكاتب «موليير» (سيد الكوميديا في القرن السابع عشر) وكان «تيبوديه» يستعين باسم الإجّاص هذا ليعبّر عن حبّه للكونتيسّة ويفعل كالمسيحي الصالح الذي يقابل الشرّ بالخير ، فيبعث بالإجّاص فيما تقابلة بالجفاء أي بالشرّ .

(٢) آثرنا عدم الترجمة لأخذها مأخذ الاسم العلم والحقيقة أنّ Doyenne' des comices تعني «عمادة جماعات المزارعين» وهي من نوع الإجاص اللذيذ الذائب. وحكم مايلي من اصناف حكمها.

وهو شديد الاعتزاز فيما مضى واليوم يمتلئ خجلاً –في نوبات من اليأس الحقيقيّ . وسوف ترى كيف فهم «موريل»، وهو من خال أنّه أضحى «دوشار لوس» آخر ألف مرّة أعظم خطراً، كيف فهم بالمقلوب في أهون الأشياء تعاليم البارون المستكبرة فيما يخصّ الارستقراطيّة وذلك بأخذها بمعناها الحرفيّ. دعنا نقل الآن فقط، فيما تنتظرني «ألبيرتين» في «سان جان دولاهيز»، إنّه إن كان من أمر يضعه «موريل» فوق الارستقراطية (والأمر من حيث المبدأ فيه بعض النبل ولاسيّما من جانب من كانت متعته في البحث عن البنات الصغيرات– «لامن رأى ولا من عرف»– مع السائق)، فإنما سمعته الفنيّة وما يمكن أن يروادهم من أفكار في «حلقة الكمان الدراسيّة».

وليس من شك أنّه من القبح بمكان أن يبدو، لأنه يحسّ السيّد «دوشار لوس» ملك يديه، وكأنّه ينكره ويسخر منه، على النحو نفسه الذي عاملني به معاملة الأعلى للأدنى حالما وعدته بالتزام السرّ حول وظيفة والده لدى شقيق جدّي ولكنّما كان اسمه «موريل»، كفنّان يحمل شهادة، كان يبدوله فوق «الاسم». وحينما كان السيّد «دوشارلوس» يودّ، في أحلام الوداد الأفلاطونية لديه، أن يحمل «موريل» على اتّخاذ أحد ألقاب أسرته، كان يرفض الأمر رفضاً حازماً.

حينما كانت «ألبيرتين» ترى أنّ البقاء للرسم في «سان جان دولاهيز» أوفر حكمة، كنت أستقلّ السيّارة، وما كان بوسعي الذهاب، قبل العودة لاصطحابها، إلى «غورفيل» و «فيتيرن» فحسب، بل إلى «سان مارس لوفيو» وحتىّ «كريكتو». وفيما كنت أتظاهر بالانشغال عنها بأمور أخرى، وبأني مضطرّ إلى هجرها إلى متع أخرى، كنت لا أفكّر إلا بها. وكنت في الكثير الغالب لا أمضي أبعد من السهل الكبير الذي يطلّ على «غورفيل»، ولمّا كان يشبه قليلاً السهل الذي يبدأ فوق «كومبريه» باتّجاه «ميزيكليز» فقد كان يسعدني التفكير، حتىّ على مسافة كبيرة إلى حدّ ما من «ألبيرتين»، أنّه إن لم تقوَ نظراتي على الذهاب إلى حيث هي، فإن نسيم البحر القويّ العليل هذا الذي يمرّ بجانبي ويمتدّمداه أبعد منها لابدّ سينحدر مسرعاً دون أن يثنيه شيء حتىّ «كيتهولم» ويقبل ليهزّ أغصان الأشجار التي تغمر «سان جان دولاهيز» بأوراق أغصانها فيما يداعب محيا صديقتي ويقيم بذلك بيني وبينها رباطاً مزدوجاً في هذه الخلوة التي تعاظمت إلى مالانهاية، ولكن دونما مخاطر كما هو الحال في تلك الألعاب التي يتفّق لولدين فيها أن يكون كلّ منهما خارج مرمى صوت وبصر الآخر ويمكثان فيها على صلة على الرغم من بعد الواحد عن الآخر. كنت انثني راجعاً في تلك الدروب التي تبصر منها البحر وحيث كنت أغمض عينيّ فيما مضى قبل أن يطلع بين الأغصان كي أفكّر تماماً بأن ماسوف أراه أنّما هو جدّ الأرض الشاكي يوالي، كحاله يوم لم يكن بعد كائنات حيّة، اضطرابه المجنون المغرق في القدم. أما الآن فلم تعد في نظري سوى وسيلة لموافاة «ألبيرتين». وحينما كنت أتعرّفها مشابهة تماماً لذاتها اذ أعلم إلى أين تعدو في خطّها المستقيم وأين تنعطف كنت أتذكّر أنيّ سرت فيها وأنا أفكّر بالآنسة «دوستيرماريا» وأن الاستعجال نفسه لالتقاء «ألبيرتين» سبق أن أحسسته في باريس وأنا أنحدر في الشوارع التي تمرّ فيها السيّدة «دوغير مانت» كانت تتّخذ بالنسبة إليّ الرتابة العميقة والدلالة الأخلاقية التي لنوع من الخطّ الذي تتبعه طبائعي. كان ذلك طبيعياً، بيد أنّه لم يكن غير ذي بال؛ فقد كانت تذكّرني أنّ قدري هو أن لا ألاحق سوى أشباح، سوى كائنات كانت حقيقتها في جزء كبير منها داخل مخيّلتي. فثمّة

بالفعل أناس– وتلك كانت حالي منذ شبابي– لايقيمون وزناً لكلّ مايحمل قيمة ثابتة يمكن للغير ملاحظتها : الثروة والنجاح والمراكز العليا. أمّا ماينبغي لهم فالأشباح. إنهم يضحّون في سبيلها بكلّ ماعداها ويحرّكون كلّ شيء ويوجّهون كل شيء ليفيد في التقاء هذا الشبح أو ذاك. ولكن سرعان مايتلاشى هذا الأخير. حينئذ يجرون خلف آخر غيره، على أن يعودوا إلى الأول فيما بعد.وما كانت المرّة الأولى التي أسعى فيها إلى «ألبيرتين»» ، تلك الفتاة التي شاهدتها في السنة الأولى أمام البحر. والحقيقة أنّ أخريات من النساء أدرجن بين «ألبيرتين» التي أحببتها أولّ مرّة وهذه التي أكاد لاأفارقها في هذه الفترة، أخريات من بينهنّ على وجه الخصوص الدوقة «دوغير مانت».ولكن ربّ قائل يقول لماذا يحمّل المرء نفسه كل هذه الهموم بشأن «جيلبيرت» ويتحمّل كلّ هذا العناء في سبيل السيّدة «دو غير مانت» إن كان ذلك، وقد أضحى صديق هذه الأخيرة، لمحض أن لايفكر فيها من بعد بل يقصر التفكير على «ألبيرتين» ؟ كان بوسع «سوان» أن يجيب قبل وفاته وهو من كان غاوى أشباح.كانت دروب «بالبيك» تلك مليئة بأشباح تلاحق وتنسى ويسعى إليها مجدّداً للقاء وحيد أحياناً وبهدف لمس حياة غير حقيقيّة كانت في الحال تمعن في الهرب. كان يبدو لي في تفكيري بأن أشجارها، أشجار الإجّاص والتفاح والطرفاء، سوف تبقى من بعدي أنني آخذ منها نصيحة بالانصراف أخيراً إلى العمل مادامت لم تزف بعد ساعة الراحة الأبدية.

كنت أنزل من السيّارة في«كيتّهولم» وأجري في الدرب المحفّر الوعر وأقطع الساقية على لوح من الخشب وألتقي «ألبيرتين» التي كانت ترسم أمام الكنيسة التي كلها قبب صغيرة وهي شائكة حمراء تزهر مثلما شجيرة ورد. وحدها الجبهة المثلّثة كانت صقيلة، وعلى صفحة الحجارة الضاحكة كانت تبرز ملائكة يوالون أمام زوج من ناس القرن العشرين القيام باحتفالات القرن الثالث عشر والشموع بأيديهم. هم من كانت «ألبيرتين» تحاول نقل صورهم على قماش لوحتها المعدّة وتخطّ في تقليدها لـ«ايلستير» ضربات ريشة واسعة تحاول بها الالتزام بالايقاع السامي الذي يجعل أولئك الملائكة، كما سبق أن قال لها المعلم الأكبر، شديدي الاختلاف عن كلّ من كان يعرف. ثم كانت تستعيد حاجاتها ونعود فنصعد في الدرب المحفّر وقد مال يستند واحدنا على الآخر، تاركين الكنيسة الصغيرة تصغي، بمثل هدوئها لو لم تبصرنا، إلى صوت الساقية الذي لاينقطع. كانت السيّارة تنطلق بعد قليل وتحملنا في العودة على درب غير درب الذهاب، فكنّا نمرّ أمام «مركوفيل المستكبرة» . وكانت الشمس الغاربة تلقي على كنيستها التي نصفها جديد والنصف مرمّم طبقة في مثل جمال الطبقة التي يخلّفها الزمان. وكانت النقوش تبدو من خلالها وكأنّها لاتشاهَد إلاّ تحت طبقة مائعة نصفها سائل والنصف منير. كانت العذراء والقدّيسة «أليصابات» والقديس «يواكيم» يسبحون بعدُ في الموجة المرتدّة العصيّة على اللمس في ما قارب الجفاف، يسبحون على وجه الماء أو وجه الشمس. والتماثيل الحديثة الكثيرة كانت تطلع فجأة في الغبار الساخن وتنتصب فوق أعمدة تبلغ نصف ارتفاع حجب الغروب المذهبة، وأمام الكنيسة تبدو شجرة سرو وكبيرة وكأنّها في مايشبه الأرض المسيّجة المكرّسة. وكنا ننزل قليلاً لمشاهدتها ونمشي بضع خطوات. كان لدى ألبيرتين» شعور مباشر بقلنسوتها القشّ الايطالية ومنديلها الحرير (وماكانا بالنسبة إليها مركز أحاسيس بالهناء أقلّ) بمقدار وعيها لأعضاء جسمها، ويجيئها منهما، فيما تطوف أرجاء الكنيسة ، نوع آخر من الدفع يجسّده ارتياح جامد كنت أراه مع ذلك على لطافة. وما كان المنديل والقلنسوة

سوى جزء حديث طارئ من صديقتي، ولكنّ الجزء كان غالياً عليّ من ذاك وكنت أتعقّب بالعين خطّه على امتداد شجرة السّرو في ريح المساء. وماكانت هي نفسها تستطيع رؤية ذلك ولكنّها كانت تشكّ أن هذه الأناقات إنّما تليق بها لأنها كانت تبتسم لي فيما توفّق بين ركزة رأسها والعمرة التي تكمّلها. وقالت لي: «ليست تعجبني فقد جرى ترميمها»، وهي تدلّني على الكنيسة وتتذكّر ماسبق أن قال لها «ايلستير» عن جمال الحجارة القديمة الثمين الذي يمتنع على التقليد. كان بمقدور «ألبيرتين» أن تتعرّف الترميم في الحال، وما كان يسعك إلاّ أن تعجب لسلامة الذوق الذي قد كسبته في فن العمارة في مقابل الذوق الرديء الذي يلازمها في الموسيقى. وماكنت أحبّ تلك الكنيسة كما هو شأن «ايلستير»، وكانت واجهتها المشمسة قد أقبلت تقف أمام ناظريّ دون أن توليني متعة، ولم أنزل لمشاهدتها إلاّ لأحسن في عين «ألبيرتين». وكنت أرى مع ذلك أنّ الانطباعيّ القدير كان يناقض نفسه؛ فلماذا هذه الصنميّة التي تتمسّك بالقيمة الهندسيّة الموضوعيّة دون أن تأخذ في اعتبارها تحوّل الكنيسة في الغروب؟وقالت لي «ألبيرتين»: «لا،لست أحبّها بالتأكيد؛إني أحبّ اسم المستكبرة لديها. لكنْ ماينبغي التفكير بسؤال «بريشو» عنه هو لماذا يدعون «سان مارس» باللابس. نذهب في المرّة القادمة، أليس كذلك؟ تقول وهي تنظر إليّ بعينيها السوداوين اللتين ترخي فوقهما قلنسوتها مثلما بالأمس قبّعتها الصغيرة. كان حجابها يخفق في الهواء؛ وكنت استقلّ السيارة برفقتها ثانية وتغمرنا السعادة أنْ سنضطرّ إلى الذهاب سويّة في الغد إلى «سان مارس» الذي كان برجا أجراسه العتيقان يبدوان، في مثل هذاالطقس اللاهب الذي لايفكّر فيه المرء إلاّ بالاستحمام، وبلونهما المورّد ومعيّنات آجرّهما كأنهّما، بانحناءتهما الطفيفة وما يشبه الخفقان فيهما، سمكتان قديمتان حادّتا الخطوط متداخلتا الحراشف راغيتان صهبا وان ترتفعان، دون أن تبدو لهما حركة، في مياه صافية زرقاء. كنّا ننعطف لدى مغادرتنا «ماركوڤيل»، بغية تقصير الطريق، على ملتقى طرق تقوم إلى جانبه مزرعة. وكانت «ألبيرتين» أحياناً تأمر بالتوقّف وتسألني الذهاب وحيداً لأجلب لها شراب «الكالڤادوس» أو شراب التفاّح كي تتمكّن من تناوله في السيّارة؛ وكانوا يؤكدّون أنّه غير فوّار فيصيبنا منه بلل تامّ. كنّا نلتصق واحدنا بالآخر ويكاد الناس في المزرعة لايرون «ألبيرتين» في السيّارة المغلقة. وكنت أعيد لهم الزجاجات، وننطلق من جديد وكأنمّا لموالاة هذه الحياة الثنائية، حياة العاشقين التي كان يمكن أن يفترضوها بيننا ولعلّ التوقّف للشرب ماكان سوى برهة زهيدة منها. ولعلّ الافتراض كان بدا أقلّ مايمكن بعداً عن الحقيقة لو رأونا بعدما تناولت «ألبيرتين» زجاجة شراب التفّاح، فقد كان يبدو حينذاك أنّها لاتقوى على احتمال وجود مسافة بيني وبينها، وما كان ذاك عادة مصدر ضيق لها. كانت ساقاها تضغطان على ساقيّ تحت تنورتها التي من كتّان، وكانت تقرّب من وجنتيّ وجنتيها اللتين أضحتا شاحبتين وحارقتين حمراوين في أعلاهما وبهما شيء من اللهيب والذبول كما هو أمر بنات الضواحي. كانت في تلك الأوان تبدّل صوتها بمثل السرعة التي تبدْل فيها شخصيتّها، فتفقد صوتها لتأخذ آخر غيره به بحّة وجرأة ومايقرب أن يكون فجوراً. كان الظلام قريب الحلول؛ وأيّة متعة أن أحسّها ملتصقة بي، بمنديلها وقلنسوتها إذ أتذكرّ أنّنا إنّما نلتقي العشاق دوماً على هذا النحو جنباً إلى جنب. ربّما كان بي عشق لـ «ألبيرتين» ولكنّي لا أجرؤ على إظهاره لها،بحيث أنّه إن كان موجوداً في داخلي فلا يمكن أن يكون ذلك إلاّ بمثابة حقيقية لاوزن لها إلى أن نكون استطعنا التحكّم بها عن طريق التجربة. ولكنّما كان يبدو لي غير

قابل للتحقيق وخارج مرتسم الحياة. فأمّا غيرتي فكانت تدفعني إلى مفارقة «ألبيرتين» أقلّ القليل مع أني أعرف أنّها لن تشفى تماماً إلاّ بافتراقي عنها دونما رجعة. بل كنت أستطيع أن أحسّ بها بالقرب منها، ولكنّي أتدبّر نفسي آنذاك كي لاأدع للمناسبة التي أيقظتها في صدري أن تتجدّد. من ذلك أننّا ذهبنا في يوم صحو لتناول طعام الغداء في «ريفبيل» وكانت الأبواب الواسعة المزجّجة لقاعة الطعام، لذاك البهو الذي على شكل ممّر وكان يستخدم في حفلات الشاي، كانت مفتوحة على مستوى المروج التي كستها الشمس ذهباً والتي يبدو المطعم الفسيح المنور كأنّه جزء منها. كان النادل ذو الوجه المورّد والشعر الأسود المفتول على هيئة لهب ينطلق في كامل هذه المساحة الواسعة بسرعة تقلّ عمّا كانت عليه بالأمس، إذ لم يعد مستخدماً بل رئيس مجموعة. ولكنّك كنت تلمحه، بسبب نشاطه الطبيعي أحياناً في البعيد، في قاعة الطعام، وأحياناً اقرب من ذلك، إنمّا في الخارج في خدمة زبائن فضّلوا تناول غدائهم في الحديقة، فطوراً هنا وتارة هناك كتماثيل متعاقبة لإله شاب يعدو، بعضها في داخل منزل يستطيل مروجاً خضراء، والداخل جيّد الاضاءة على أيّ حال، وبعضها الآخر في ظلال الشجر وضياء الحياة في الهواء الطلق. ووقف برهة على مقربة منّا. وأجابت «ألبيرتين» عمّا كنت أقول لها ساهية. كانت تنظر إليه بعينين موسّعتين. وأحسست على مدى بضع دقائق أنّه يمكنك أن تكون قرب الشخص الذي تحبّ ولا يكون معك على الرغم من ذلك. كانا يبدوان وكأنهما في لقاء انفرادي غامض أصبح صامتاً جرّاء وجودي وربّما أعقب مواعيد قديمة ماكنت أعرفها أو محض نظرة رماها بها– وكنت فيه الشخص الثالث المزعج الذي يُتَكَتَّمُ عليه. وحتىّ حينما ابتعد بعدما استدعاه ربّ عمله بلهجة عنيفة كان يبدو على «ألبيرتين»، فيما توالي تناول غدائها، أنّها تحسب المطعم والحدائق محض حلبة مضاءة يظهر فيها ههنا وهناك داخل أطر متنوّعة الإله العدّاء ذو الشعر الأسود. وتساءلت لحظة إن لم تكن عازمة على تركي وحيداً إلى طاولتي كي تتبعه. ولكنيّ منذ الأيام التالية أخذت أنسى للأبد ذاك الانطباع المؤلم، فقد كنت عزمت أن لا أعود البتّة إلى «ريفبيل» وطلبت إلى «ألبيرتين» التي أكدّت لي أنّها جاءت إلى هذا المكان للمرّة الأولى أنّها لن تعود إليه في يوم. وأنكرتُ أنْ لم تكن للنادل ذي القدم الرشيقة عين إلاّ لها كي لايتبادر إليها أن صحبتي حرمتها من متعة معينّة. لقد اتفّق لي أحياناً أن أعود إلى «ريفبيل» ولكن وحيداً، وأن أبالغ في الشراب كما سبق أن فعلت هناك. وفيما أفرغ كوباً أخيراً كنت أنظر إلى نجمية مرسومة على الجدار الأبيض وأصبّ عليها المتعة التي كنت أحسّ بها. كانت وحدها موجودة في العالم بالنسبة إليّ، كنت ألاحقها وألمسها طوراً وطوراً أفقدها بنظرتي المتهرّبة وكنت غير مبالٍ بالمستقبل أكتفي بنجميتّي شأن فراشة تدور حول فراشة جاثمة سوف تضع معها حدّاً لحياتها في فعلة شهوانيّة أخيرة. على أني كنت أرى خطراً في أن أسمح بأن يقيم في داخلي، حتىّ بصورة خفيفة،مرض يشبه تلك الحالات المرضيّة المعتادة التي لانعيرها انتباهاً ولكنّها كافية، إن حلّ به فجأة أقلّ عارض غير متوقّع ولامفرّ منه، لتكسبه في الحال خطورة بالغة. وربّما كانت الفترة قد أحسن اختيارها إلى حدّ بعيد للتخلّي عن امرأة ماكان أيّ عذاب قريب العهد شديد يضطرّني أن أطلب منها هذا البلسم الشافي للمرض، البلسم الذي تملكه اللائي تسبيّن بذاك المرض. كانت تلك النزهات عينها تشيع الهدوء في نفسي وكانت، مع أني ما اعتبرتها في أوانها سوى انتظار لغد لن يكون على الرغم من الرغبة التي يبعثها، مختلفاً عن الأمس، تحمل سحر كونها انتُزعتْ من الأماكن التي عمرتها «ألبيرتين» حتىّ ذاك

وماكنت معها : في منزل عمّتها ولدى صديقاتها؛ لاسحر ينبعث من فرح إيجابيّ، بل من هدأة اضطراب فحسب، مع أنّه قويّ جدّاً. فحين كنت أعود،بعد انقضاء بضعة أيّام، إلى التفكير بالمزرعة التي شربنا أمامها عصير التفّاح أو بمجرّد الخطوات القليلة التي خطوناها أمام «سان مارس لوفيتو»، وإذ أتذكّر أن «ألبيرتين» كانت تمشي بقلنسوتها إلى جانبي،كان الاحساس بوجودها يضيف قوّة مفاجئة إلى صورة الكنيسة الجديدة التي لا آبه لها، قوّة يبدو لي معها، لحظة تقبل الواجهة المشمسة لتحطّ هكذا من تلقاء ذاتها في ساحة ذكرياتي، كأنّما تُلْصَق على صفحة قلبي كمادّة كبيرة مهدّئة.كنت أُنْزل «ألبيرتين» في «پارفيل» ولكن كيما أعود فألتقيها مساء وأمضي لأستلقي إلى جانبها على رمل الشاطئ في الظلام. ليس من شك في أني ماكنت ألقاها كلّ يوم ولكنّما كنت أستطيع أن أقول في نفسي :«لو أنّها تروي عن جدول توزيع وقتها وحياتها لكنت أنا من يحتلّ المكان الأوسع فيه». وكنّا نقضي سويّة ساعات طوالاً على التوالي تشيع في أيّامي نشوة عذبة إلى حد أنيّ ماكنت أحسّني، حتىّ حينما تقفز في «پارفيل» من السيّارة التي سأعيدها إليها بعد ساعة، أكثر وحدة في السيّارة منّي لو انّها تركت فيها قبل مغادرتها زهوراً. كان بوسعي ان أكون بغنى عن لقائها كلّ يوم؛ وكنت سأفارقها سعيداً وأحسّ أنّ الأثر المهدّئ لتلك السعادة يمكن أن يدوم عدّة أيّام. ولكنيّ كنت حينئذ أسمع «ألبيرتين» تقول وهي تفارقني، لعمتّها أو واحدة من صديقاتها :«إذن، في غد الساعة الثامنة والنصف. ينبغي أن لاتتأخري فسيجهزون منذ الثامنة والربع.» ان حديث امرأة نحبّها يشبه أرضاً تحوي مياهاً جوفيّة خطيرة، فانّك تحسّ في كلّ لحظة وراء الكلمات وجود طبقة خفيّة وبرودتها النفاذة، وتلمح ههنا وهنالك ارتشاحها الغادر، ولكنّها هي تلبث في الخفاء. وما إن تناهت إليّ جملة «ألبيرتين» حتىّ تهاوى هدوئي. كان بودّي أن أسألها التقاءها في صباح الغد بغية الحؤول دون ذهابها إلى موعد الثامنة والنصف الغامض هذا والذي لم يجر الحديث عنه أمامي إلاّ بكلمات مبطّنة. ولعلّها كانت أطاعتني بالتأكيد في المرات الأولى وبها أسف مع ذلك للتخلّي عن مشاريعها؛ ثم لعلّها كانت اكتشفت حاجتي الدائمة إلى تخريبها فكنت ذاك الذي يختبئون عنه في كلّ أمر. ثمّ إنّه من الأرجح أن تلك الحفلات التي كنت أُقصى عنها كانت تقوم على أقلّ القليل وأنهم ماكانوا يدعونني ربّما مخافة، أن ألتقي مدعوّة سوقيّة أو مبرمة. على أن هذه الحياة الشديدة الامتزاج بحياة «ألبيرتين» ماكانت من أسف تؤثّر في وحدي، فقد كانت توليني هدوءاً فيما تحمل لأميّ هواجس قضى الإفصاح عنها على ذاك الهدوء. وفيما كنت أعود منشرح الصدر وقد عزمت على أن أضع بين يوم وآخر حدّاً لعيش كنت أظن نهايته رهناً بمحض مشيئتي قالت لي أميّ، وقد سمعتني أوصي بأن يمضي السائق لاصطحاب «ألبيرتين» بعد العشاء : «ما أكثر ماتنفق من مال ! (وكانت «فرانسواز» تقول بلغتها البسيطة المعبّرة وبزخم أكبر: «المال يطير.») وأردفت والدتي تقول :«اجهد أن لاتضحي كـ «شارل دو سيفينييه» الذي كانت أمّه تقول عنه :«يده بوتقة ينصهر فيها المال.» واعتقد إلى ذلك أنّك أكثرت حقّاً من الخروج برفقة «ألبيرتين». وأؤكدّ لك أنّ الأمر مبالغ فيه وأنّه يمكن أن يبدو موضع سخرية حتىّ بالنسبة إليها. لقد اغتبطت لماّ يروح ذلك عنك. لست أسألك الامتناع عن لقائها، وإنّما أن لايكون التقاؤكما الواحد دون الآخر مستحيلاً.» وعادت حياتي مع «ألبيرتين»، وهي خلو من المتع البالغة– المتع البالغة المرئيّة على الأقلّ–، تلك الحياة التي كنت اعتزم تغييرها بين يوم وآخر باختيار ساعة من الصفاء، عادت فأصبحت فجأة ضروريّة لي إلى حين عندما

ألفيتها مهدّدة من جرّاء أقوال أمّي. وقلت لوالداتي إن أقوالها أخّرت ربّما مدّة شهرين القرار الذي تطالب به والذي كان ربّما اتُّخذ لولاها قبل ختام الاسبوع. وشرعت أميّ تضحك (كي لا تغمنّي) من الأثر الفوريّ الذي أحدثته نصائحها ووعدت أن لاتتحدّث عنها ثانية كي لاتحول دون انبعاث طيبٍ مقاصدي. ولكن في كل مرّة كانت والدتي، منذ وفاة جدّتي، تستسلم فيها للضحك كانت الضحكة المنطلقة تتوقّف للحال وتنتهي باعراب عن الألم قريب من النحيب، إمّا لملامة ذاتها أن استطاعت أن تنسى مقدار لحظة، وإمّا للزيادة التي أجّج بها ذاك النسيان الهيّن قلق نفسها الأليم. لكنّي شعرت أن قلقاً آخر ينضاف إلى القلق الذي تسببّه ذكرى جدّتي المقيمة في صدر أمي وكأنمّا فكرة ثابتة، قلقاً يتعلّق بي وبما كان والدتي تخشى من عقابيل أُلفتي و«ألبيرتين»، ألفة لم تجرؤ مع ذلك على اعتراض سبيلها بسبب ماقلت لها منذ قليل. ولكنّما لم يبدُ أنها اقتنعت بأنّني غير مخطئ. كانت تتذكّر كم سنة لم تبادر في أثنائها هي وجدّتي في التحدّث إليّ عن عملي وعن منهج حياتيّ اكثر سلامة كان الاضطراب الذي تزجّني فيه ارشاداتهما يحول وحده، فيما أقول دون مباشرته ولم أستمرّ في الأخذبه على الرغم من سكوتهما وإذعانهما.

كانت السيّارة تُعيد «ألبيرتين» بعد العشاء والوقت لايزال على بقيّة من ضياء. كان الهواء. أقلّ سخونة؛ ولكننا بعد يوم لاهب كنّا نحلم كلانا بصنوف ابتراد مجهولة. حينئذ بدا القمر لعيوننا المحمومة دقيقاً جداً بادئ الأمر (مثله في المساء الذي ذهبت فيه إلى منزل الأميرة «دو غير مانت» والذي هاتفتني فيه «ألبيرتين») وكأنّه القشرة الخفيفة الرقيقة ثم القطعة النديّة لثمرة أخذت موسى خفيّة تنزع قشرتها في السماء. وأحيانا كنت أمضي أنا لاصطحاب صديقتي، ويكون ذلك حينئذ في وقت متأخّر قليلاً. كان عليها أن تنتظرني أمام قناطر السوق في «مينڤيل». وماكنت أميزّها في اللحظات الأولى فيأخذ في القلق مذاك من أنّها لن تجيء وأن تكون أساءت الفهم. حينذاك كنت أبصرها بقميصها الأبيض المنقّط بالأزرق تقفز إلى جانبي في العربة قفزة رشيقة أقرب أن تكون لحيوان صغير منها لفتاة، وكمثل كلبة أيضاً شرعت في الحال تداعبني مداعبات لاتنتهي. وبعدما يرخي الليل سدوله وتتناشر(١) (كما كان يقول لي مدير الفندق) النجوم على كامل صفحة السماء كنّا، إن لم نذهب في نزهة في الغابة نحمل معنا زجاجة شمبانيا، نتمدّد على حضيض الكثبان دونما اهتمام للمتنزّهين وهم بعد يمشون الهوينى على السدّ الضعيف الانارة، ولعلّهم ماكانوا ميزّوا شيئاً على خطوتين منهم فوق الرمل الأسود. وذاك الجسد عينه الذي تنبض رشاقته بكل السحر الانثوي والبحريّ والرياضي، جسد الفتيات اللواتي رأيتهنّ يخطرن أوّل مرّة أمام أفق الماء، كنت أمسك به وأشدّه إليّ تحت الغطاء نفسه وبمحاذاة شاطئ البحر الساكن الذي يقسمه شعاع راعش. كنّا نصغي إليه دونما كلل وبالمتعة نفسها إمّا حين يمسك أنفاسه ويطيل إلى حدّ تظنّ معه أنّ الموجة الراجعة توقّفت، وإمّا حين يلفظ على أقدامنا همسته المنتظرة المؤجّلة. وفي النهاية كنت أعود بـ«ألبيرتين» إلى «پارڤيل». كان لا بدّلي حين وصولي إلى بيتها من قطع قبلاتنا مخافة أن يشاهدونا. ولّما لم تكن راغبة في النوم فقد كانت تعود معي حتىّ «بالبيك» وأعود بها من هناك آخر مرّة إلى «پارڤيل»، فقد كان سائقو تلك الفترات الأولى من عمر السيّارات من قوم ينامون في أيّة ساعة. وما كنت بالفعل أعود إلى «بالبيك» إلاّ مع نداوة الصباح الأولى، أعود وحيداً هذه المرّة ولكنّما لايزال

(١) يخلط المدير المتحذلق بين الكلمات ونحاول إيجاد المقابل ولو بصعوبة؛ المقصود بالطبع «تتناثر» وليس «تتناشر».

يغمرني حضور صديقتي وأغرقْتُ في مؤونة من القبل يطول نفادها كنت ألقى على طاولتي برقية أو بطاقة بريديّة، والكلّ من «ألبيرتين» أيضاً. لقد سطّرتهما في «كيتهولم» أثناء ماذهبت في السيّارة وحدي كي تقول لي إنّها تفكّر فيّ. وكنت أندسّ في فراشي وأنا أعيد قراءتهما. حينئذ كنت أبصر فوق الستائر خطّ النهار الطالع فأقول في نفسي إنّنا لابدّ متحابّان على أيّ حال بما أننا قضينا الليل في عناق. وحينما كنت ألتقي «ألبيرتين» في صباح الغد فوق السدّ كانت تتملكّني خشية عظيمة من أن تجيب بأنّها مرتبطة في ذلك اليوم وأنّها لاتستطيع النزول عند طلبي إليها الخروج سويّة إلى حدّ أني كنت أؤجّل ما استطعت توجيه ذاك الطلب وكان قلقي يتزايد بقدر ما تبدو باردة مهتمّة. ويمرّ أناس من معارفها؛ لاشكّ أنّها خططّت لمشروعات بعد الظهر كنت مقصيّ عنها. فكنت أنظر إليها، أنظر إلى ذلك الجسم الرائع، ذلك الرأس المورّد لـ«ألبرتين» يرفع قبالتي لغز نواياها، القرار المجهول الذي سيكون سرّ سعادتي أو تعاستي في فترة مابعد الظهر. إنّها حالة نفسيّة بتمامها، مستقبل حياتيّ كامل قد اتّخذ أمامي شكل فتاة رمزياً قاتلاً. وحينما كنت أحزم أمري في نهاية المطاف، حينما كنت أسأل بأقصى ماأستطيع من اللامبالاة : «هل نتنزّه سويّة بعد قليل وفي هذا المساء؟» وتجيبني:«بكلّ سرور» ، حينئذ كان التبدّل المفاجئ الكامل على الوجه المورّد، تبدّل قلقي المديد طمأنينة لذيذة، يجعل تلك الأشكال أكثر قيمة لديّ تلك الأشكال التي أدين لها على الدوام بالهناء، بالهدوء الذي تحسّه بعد أن ثارت العاصفة. وكنت أردّد بيني وبين ذاتي :«كم هي لطيفة وأيّة مخلوقة رائعة هي!» في حماسة أقلّ خصباً من تلك الناجمة عن السكر، وتكاد لاتتجاوز في عمقها تلك الناجمة عن الصداقة ولكنّها تفوق كثيراً تلك التي توليها الحياة المجتمعيّة. وماكنّا نلغي حجز السيّارة إلاّ في الأيّام التي يقام فيها حفل عشاء لدى آل «ڤيردوران» ، والأيام التي ربمّا كنت أفيد منها، إذ لاتستطيع «ألبيرتين» لانشغالها الخروج برفقتي، لإخطار من كانوا يرغبون في لقائي بأنني باق في «بالبيك». كنت أجيز لـ«سان لو» المجيء في تلك الأيّام، ولكن في تلك الأيّام فقط. ذلك لأنّني فضّلت ذات مرّة وصل فيها على حين غرّة أن احترم رؤية «ألبيرتين» على أن أجازف بالتقائه إيّاها وبتعريض حال الهدوء السعيد الذي كنت فيه منذ وقت يسير للخطر وبتجدّد غيرتي. ولم يطمئنّ فؤادي إلاّ بعدما قفل «سان لو» راجعاً. ولذلك كان يلزم نفسه آسفاً، ولكنّما الالتزام دقيق، بأن لايجيء في يوم إلى «بالبيك» دون دعوة منّي. وكنت بالأمس أولي التقاءه ثمناً أيّ ثمن وأنا أفكّر حاسداً بالساعات التي تقضيها السيّدة «دو غير مانت» بصحبته. إنّ المخلوقات لاتنفكّ تبدّل مكانها بالنسبة إلينا. وإننا نعتبرها في مسيرة العالم غير المحسوسة والدائمة مع ذلك على أنّها جامدة في لحظة رؤية معيّنة هي من القصر حتىّ لا تلاحظ الحركة التي تدفعها. ولكن ماعلينا إلاّ أن نختار في ذاكرتنا صورتين أخذتا لها في أوقات مختلفة ولكنّها متقاربة بما يكفي كي لاتكون تغيّرت في حدّذاتها على نحو محسوس على الأقلّ، واذ ذاك يقيس اختلاف الصورتين الانتقال الذي قامت به بالنسبة إلينا. وقد أقلقني افظع القلق وهو يكلّمني عن آل «ڤيردوران» وخشيت أن يطلب إليّ أن يستقبل عندهم ولعلّ ذلك كان كافياً لإفساد كامل المتعة التي كنت أصيبها لديهم بصحبة «ألبيرتين» بسبب الغيرة التي ماكانت لأتوقّف عن الإحساس بها. لكن «روبير» أقرّ أمامي لحسن الحظّ أنّه كان راغباً على العكس أن لايعرفهم. وقال لي :«لا، فاني أجد هذاالنوع من الأوساط الاكليروسيّة مثيراً للحنق.» ولم أفهم بادئ الأمر صفة «الاكليروسيّ» التي تطلق على آل «ڤيردوران» ، ولكنّ آخر جملة «سان لو» كشفت

فكرته وانجرافه خلف أشكال كلاميّة كثيراً مايدهشنا أن يتبنّاها أناس أذكياء، فقد قال لي:«إنها أوساط يلتقون فيها قبائل وجمعيّات وطوائف. ولن تقول لي إنّها ليست طائفة، فإنّهم «سمن وعسل» لمن كانوا منها، ولايملكون مايكفي من ازدراء لمن ليسوا منها. ليست المشكلة، كما هي الحال بالنسبة إلى «همليت»، أن تكون أو لاتكون، بل أن تكون منها أو لاتكون منها. وإنّك منها، وخالي «شارلوس» منها. ماعساك تريد ؟ أنا ماأحببت في يوم هذا الصنف وليست تلك غلطتي.»

أمّا القاعدة التي فرضتها على «سان لو» بأن لايجيء لزيارتي إلاّ على إشارة منيّ فقد سننتها بالطبع بشكلها القاطع هذا بالنسبة لأيّ من الأشخاص الذين ارتبطت شيئاً فشيئاً بصداقة معهم في «لاراسپليير» و«فيتيرن» و «مونسورڤان» وغيرها. وحينما كنت أبصر من الفندق دخان قطار الساعة الثالثة الذي كان يخلّف في تجاويف جروف «پارڤيل» سحابته الثابتة التي كانت تلبث فترة طويلة عالقة على جنبات السفوح الخضراء لم أكن أتردّد إطلاقاً حول الزائر الذي كان سيجيء لتناول العصرونية معي ولايزال محتجباً عنيّ خلف تلك السحابة الصغيرة، مثله في ذلك مثل إله. وإني مضطرّ أن اعترف أن ذاك الزائر الذي أذنت له مسبقاً بالمجيء لم يكن البتّة تقريباً «سانييت»، وكثيراً مالمت نفسي على ذلك، ولكن وعي «سانييت» لبعث الملل لدى الآخرين (أكثر بالطبع حين يجيء في زيارة منه حين يروي قصّة) كان ينجم عنه أن يبدو من المستحيل، مع أنّه كان أوسع علماً وأوفر ذكاء وأفضل من كثيرين غيره، أن تحسّ بالقرب منه بأيّة متعة، بل بغير ملل يكاد لايطاق يفسد عليك كلّ فترةالعصر. ولو أن «سانييت» كان أقرّ صراحة بذاك الملل الذي كان يخشى إشاعته فالأرجح أنّك ماكنت لتخشى زياراته. والملل واحد من الشرور الأقلّ خطراً من تلك التي يقع علينا تحمّلها، وربما لم يكن ذاك الملل موجوداً إلاّ في مخيلّة الآخرين أو هو أدخل في خلده بنوع من الإيحاء صادر عنهم، إيحاء تمكّن من تواضعه المحبّب. ولكنّه كان شديد الحرص على أن لايبدي أنّه غير مرغوب فيه إلى حدّ لايجرؤ معه أن يعرض نفسه على الغير. كان بالتأكيدعلى حقّ أن لايفعل مايفعل الناس الذين يغبطهم أن يحيّوا تحيّات واسعة في مكان عام إلى حدّ أنهّم، إن لم يروك منذ فترة طويلة وأبصروك في مقصورة برفقة أشخاص لامعين لايعرفونهم، يلقون عليك تحيّة خاطفة مدوّية وهم يعتذرون عمّا يصيبون من متعة، عماّ يصيبهم من انفعال لدى رؤيتك، لدى اكتشافهم أنّك تعود إلى متع الحياة، وأن صحّتك تحسّنت، الخ »أمّا «سانييت» فكان يفتقر على العكس إلى الكثير من الجرأة، كان بوسعه أن يقول لي، في منزل السيّدة «ڤيردوران» أو في القطار الصغير، إنّه قد يسرّه أعظم السرور أن يأتي لزيارتي في «بالبيك» لولا إنّه يخشى ازعاجي.وما كان مثل ذاك الاقتراح ليفزعني. ولكنّه كان على العكس لايقترح شيئاً، بل يقول بوجه معذّب ونظرة بمثل صلابة المينا المشويّة، ولكنّما يداخلها، إلى جانب رغبة لاهثة في لقائك– مالم يجد آخر غيرك أكثر تفكهة–، العزم على أن لايبدي شيئاً من تلك الرغبة، يقول لي بمظهر متجرّد :«لست تعلم ما أنت فاعل هذه الأيّام؟ لأني سأذهب دونما شكّ بالقرب من «بالبيك». لا،لا، لابأس، كنت أسألك ذلك عرضاً.» والمظهر ذاك ما كان يخدع أحداً والعلامات العكسيّة التي نعرب بوساطتها عن مشاعرنا بما كان عكسها واضحة القراءة إلى حدّ أنّنا نتساءل كيف يمكن أن يكون ثمّة أناس يقولون على سبيل المثال :«لديّ الكثير الكثير من الدعوات حتىّ لا أعرف إلى أين أتوجّه» كي يخفوا أنّهم لايُدْعَوْن. أضف أنّ ذاك المظهر المتجرّد، بسبب ماكان على الأرجح يدخل في تركيبه الغامض، كان يسبّب

لك مالم يكن بوسع خشية الملل أو الاقرار الصريح برغبة التقائك أن يفعل في يوم، عنينا هذا النوع من الانزعاج، هذا النفور الذي يعادل في رتبة علاقات المجاملة الاجتماعيّة البحتة ماكان على صعيد الحبّ العرض المقنعّ الذي يقدّمه المحبّ لسيّدة لاتحبّه بأن يلتقيها في الغد فيما يحتجّ بأنّه غير حريص على ذلك، أو حتىّ مالم يكن ذاك العرض، بل موقف يتّسم بفتور كاذب. وكان ينبعث في الحال من شخص «سانييت» مالست أدري ممّا يحملك على أن تجيبيه باللهجة الأكثر رقة في العالم :«لا، للأسف، هذا الأسبوع، سوف أوضح لك..» وكنت أفسح في المجال لمجيء أناس غيره ماأبعد أن يساووه ولكنّما لم يكن لهم نظرته المثقلة بالكآبة وفمه الذي يلتوي بكامل المرارة لكلّ الزيارات التي كان يرغب في القيام بها لدى هؤلاء وأولئك وهو يكتمهم تلك الرغبة. وكان من النادر جداً لسوء الحظّ أن لايصادف «سانييت» في القطار الصغير المدعوّ الذي جاء لزيارتي، هذا إن لم يكن هذا الأخير حتىّ قال لي في منزل آل «ڤيردوران» :«لاتنسى أنّني سأزورك يوم الخميس»، اليوم الذي قلت بالضبط فيه لـ«سانييت» إنّني لن أكون حرّاً. وبذلك كان يخلص إلى تصوّر الحياة وكأنّها ملأى بصنوف من اللهو تنظّم دون علم منه، إن لم يكن حتىّ ضدّه. وبما أن المرء من جانب آخر لايكون البتّة واحداً موحّداً فإنّ هذا الشديد التكتّم كان فضولياً إلى حدّ المرض. فقد كانت رسالة ممّن لست أدري مرميّة، في المرة الوحيدة التي جاء فيها مصادفة لزيارتي على الرغم منّي، على الطاولة. ولاحظت بعد برهة أنّه لايصغي إلاّ ساهياً لما كنت أقوله له. فإن الرسالة التي كان يجهل مصدرها تماماً كانت تخلب لبّه وكنت أظنّ في كلّ لحظة أن حدقتيه الملتمعتين توشكان الإفلات من محجريهما للحاق بهذه الرسالة العادية ولكنّ فضوله كان يمغنطها. لكأنه طائر يزمع الانقضاض لامحالة على حيّة. ولم يستطع في نهاية المطاف اصطباراً فبدّل مكانها بادئ الأمر وكأنمّا ليرتّب غرفتي. ولمّا لم يكْفه ذلك أخذها وقلبها وأعاد قلبها وكأنما على نحو آليّ. ثمّ إن شكلاً آخر من فضوله كان يتمثّل بأنّه موثق بك فلا يستطيع فكاكاً. ولمّا كنت يومها متألماً فقد طلبت إليه أن يعود فيستقلّ القطار التالي ويغادر في مدى نصف ساعة. وما كان يشكّ بأني أتألمّ ولكنّه أجابني قائلاً : «سأمكث ساعة وربع الساعة وبعد ذلك أنصرف.» ومنذ ذلك الحين تألّمت لأنني لم أسأله، في كلّ مرّة كنت أستطيع ذلك فيها، أن يجيء. فمن ذا يعلم؟ ربّماكنت دفعت عنه شرّاً يبيّت له وكان دعاه آخرون غيري فكان حينها هجرني في الحال إليهم، وهكذا كانت أفضت دعواتي إلى مكسب مزدوج في إعادة السرور إلى نفسه وإنقاذي منه.

في الأيام التي تعقب تلك التي كنت أستقبل فيها لم أكن بالطبع أنتظر زيارات وكانت السيّارة تعود لتقلّنا أنا و«ألبيرتين». وحينما كنّا نعود ماكان «ايميه» يستطيع، على أول درجة من الفندق، أن يحول دون النظر بعينين مشغوفتين فضوليتّين نهمتين ليرى أيّ إكراميّة أعطي السائق. وعبثاً كنت أدفن قطعة أو ورقة النقود في يدي المطبقة فقد كانت نظرات «إيميه» تباعد أصابعي. وكان يدير رأسه بعد ثانية إذ كان غير فضولي وحسن التهذيب وكان حتّى يكتفي بمكاسب صغيرة نسبياً فيما يخصّه. ولكن المال الذي يرد غيره كان يثير في صدره فضولاً لايستطيع أن يكبته ويسيل له لعابه. كان يبدو في تلك اللحظات القصيرة متيقّظاً محموماً كولد يقرأ رواية لـ«جول ڤيرن»، أو كرجل يتناول عشاءه ويجلس في مكان غير بعيد عنك في أحد المطاعم، وهو إذ يرى أنّهم يقطّعون لك تدرج لايستطيع هو أو لايريد أن يطلبه يهجر لحظة أفكاره الجدّيّة ليسمّر على الطير نظرة

يبعث فيها الحبّ والرغبة إشراقة ابتسامة.

هكذا كانت تتتالى في كلّ يوم تلك النزهات بالسيّارة. إلاّ أن عامل المصعد قال لي ذات مرّة لحظة كنت أستقلّ المصعد إلى فوق :«لقد جاء هذا السيّد وكلّفني بمهمّة بشأنك. «قال لي عامل المصعد تلك الكلمات بصوت مرتعش تماماً وهو يسعل ويبصق في وجهي. وأضاف قوله:« ياله رشح أعانيه! كما لو لم أكن قادراً على تبيّن ذلك وحدي. «يقول الدكتور إنّه السعال الديكي» ، وطفق يسعل من جديد ويبصق عليّ. فقلت له بمظهر اللطف الذي كنت أتصنّعه :«لا تتعب نفسك بالحديث» ، وبي خشية من أن أصاب بالسّعال الديكي الذي ربّما كان شقّ كثيراً عليّ إمّا اقترن باستعدادي للاختناقات. ولكنّه على غرار عازف ماهر لايودّ أن يعدّوه مريضاً، جعل اعتزازه في الكلام والتفّ طوال الوقت، وقال :«لا ، لا أهميّة لذلك (وقلت في نفسي :في نظرك، وليس في نظري). على أيّ حال سأعود إلى باريس عمّا قليل (ونعمَ مايفعل، على أن لاينقله إليّ قبل ذلك). وأردف يقول : «يبدو أن باريس شيء بالغ الروعة. ولابدّ أن يكون ذلك أكثر روعة من هنا ومن «مونته كارلو» مع أنّ بعض الخدم الفتيان وحتىّ بعض الزبائن بل رؤساء الخدم الذين كانوا يذهبون إلى «مونتة كارلو» في الموسم كثيراً ما قالوا لي إن باريس أقلّ روعة من «مونتة كارلو» . ربّما كانوا مخطئين، على أنّه ينبغي أن لايكون المرء معتوهاً كي يصبح رئيس خدم. فلتسجيل الطلبات جميعها وحجز الطاولات أيّ رأس أنت بحاجة إليه! لقد قيل لي إن الأمر ربّما كان أقسى من كتابة المسرحيّات والكتب.» وكنّا وصلنا تقريباً إلى الدور الذي أسكنه حينما أنزلني عامل المصعد إلى أسفل لأنه كان يرى أن المفتاح لايعمل تماماً وأصلحه بلمح البصر، وقلت له إني أفضلّ الصعود سيراً على الأقدام وهو ماكان يعني ويخفي أنني أفضّل أن لا أصاب بالسعال الديكي. ولكن عامل المصعد عاد فدفع بي إلى المصعد بنوبة من السعال وديّة معدية. «لاخطرمن بعد، الآن، فقد أصلحت المفتاح.» وإذ اتضّح لي أنه لايكفّ عن الكلام وفضّلت معرفة اسم الزائر والرسالة التي تركها لي على المقارنة بين جمالات «بالبيك» وباريس و «مونته كارلو» قلت له (كأنّما لمغنّي «تينور»(١) يرهقك بـ«بنيامين غودار» : غنّ لي بالأحرى لـ«دو بوسّي») : ولكن منذا الذي جاء يزورني ؟» – «إنّه السيّد الذي خرجتَ البارحة برفقته. سأمضي لجلب بطاقته المودعة لدى بوّابي.» لماكنت أوصلت «روبير دو سان لو» في الليلة البارحة إلى محطّة «دونسيير» قبل أن أمضي لاصطحاب «ألبيرتين» فقد خلت عامل المصعد يودّ الحديث عن «سان لو» ، ولكنّه كان السائق. وكان، حين يشير إليه بهذه الكلمات: «السيّد الذي خرجتَ برفقته» ، علّمني بالمناسبة نفسها أن عاملاً هو سيّد تماماً بقدر ما يكون رجل مجتمعات سيّداً. وهو درس كلمات حسب، فما أقمت فارقاً في يوم بالنسبة إلى قوام الأمر، بين الطبقات. ولئن أخذتني، لدى سماعهم يدعون السائق سيّداً، ذات دهشة الكونت س.. الذي لم يكن «كونت» إلاّ منذ ثمانية أيّام والذي جعلته إذ قلت له : «يبدو أن الكونتيسه متعبة» يدير رأسه إلى الوراء ليرى عمّن كنت أود الحديث، فلمجرّد نقص في تعوّد الألفاظ؛ انني لم أقم في يوم فارقاً بين العمال والبورجوازيّن وكبار السادة ولعليّ كنت اتخذت من هؤلاء وأولئك على السواء أصدقاء، مع شيء من التفضيل للعمّال يليهم كبار السادة، لا عن ميل ولكن لعلمي بامكان مطالبتهم بتهذيب أكبر تجاه العمّال ممّا يمكن الحصول عليه من جنب البورجوازيّين، إمّا لأن كبار

(١) مغنّي الطبقة العالية في تصنيف أصوات الرجال.

السادة لايزدرون العمّال كما يفعل البورجوازيّون. أو لأنهّم مهذّبون تلقائياً تجاه أيّ كان، مثلهم مثل النساء الجميلات اللواتي يسعدن بتقديم ابتسامة يعلمن أنّها تُستقبل بفرح عظيم. لست أستطيع أن أقول على أيّة حال إن تلك الطريقة، التي كانت طريقتي في وضع عامّة الناس على قدم المساواة مع ناس المجتمع الراقي، إن كانت تصادف أحسن القبول لدى هؤلاء، كانت ترضي في المقابل والدتي تمام الرضى. وليس ذلك لأنّها كانت تقيم فارقاً، أيّ فارق، بين الناس على الصعيد الإنساني، وإن اتفق أن أصاب «فرانسواز» غمّ أو شكت من ألم فقد كانت تلقى العزاء والعناية على الدوام من جانب أميّ بالوداد نفسه والتفاني نفسه الذي تبديه أفضل صديقة. ولكنّ أميّ كان يطبعها أنّها ابنة جدّي إلى حدّ يحول دون أن لا تأخذ في اعتبارها الطبقات على الصعيد الاجتماعي. وعبثاً يبدي أهل «كومبريه» شهامة ورقّة مشاعر ويأخذون بأفضل النظريات حول المساواة الإنسانيّة فإن أميّ، حين يتحرّر خادم ويقول ذات مرّة «أنت» وينزلق انزلاقاً تدريجيّاً إلى الإقلاع عن مخاطبتي بشخص الغائب، كانت تبدي إزاء هذه التعدّيات ذات الاستياء الذي يتفجّر في «مذكّرات» «سان سيمون» كلّما انتهز أحد السادة فرصة يتّخذ بها لقب «السمّو» في صكّ رسميّ ولاحقّ له بذلك، أو لايؤدّي للدوقة مايتوجب عليه إزاءهم ومايعفي نفسه منه شيئاً فشيئاً. كان ثمّة «ذهنيّة لكومبريه» مستعصية إلى حدّ ينبغي معه قرون من الطيبة (وطيبة أميّ لاحدّ لها) ومن نظريات المساواة لنفلح في تطويعها. وليس يمكنني القول إن بعض أجزاء من تلك الذهنيّة لدى والدتي لم تظلّ مستعصية على الحلّ. ولعلّها كانت استصعبت مدّ يدها لأحد الخدم بمثل السهولة التي كانت تهبه بها عشرة فرنكات (التي كانت توليه بأيّة حال سروراً أعظم) . لقد كان الأسياد في نظرها، سواء أقرّت بالأمر أم لم تقرّ، هم الأسياد والخدم هم الذين يتناولون طعامهم في المطبخ.وحينما كانت ترى سائق سيارة يتناول عشاءه بصحبتي في قاعة الطعام لم تكن راضية تماماً وكانت تقول لي: «يبدو لي أنّه بوسعك أن تلقى أفضل من ميكانيكيّ صديقاً لك» كما لعلّها كانت قالت لو أن الأمر أمر زواج :«باستطاعتك أن تلقى مع ماكان أفضل كزوجة. وكان السائق (وإنّي لحسن الحظّ لم أفكّر البتّة في دعوة هذا الأخير) قد جاء يقول لي إن شركة السيّارات التي أرسلته إلى «بالبيك» للموسم تأمره بالعودة إلى باريس منذ الغد. وبدا لنا أن هذا السبب لابدّ مطابق للحقيقة، لاسيّما أنّ السائق كان ظريفاً ويتكلم ببساطة كبيرة حتىّ ليخيل إليك على الدوام أنّها أقوال من الإنجيل. وما كان إلاّ نصف مطابق لها. فلم يبق بالفعل ماتقوم به في «بالبيك» . وكانت الشركة ترغب في جميع الأحوال، اذ لاتثق ثقة كاملة بصدق الانجيلي الشاب، المستند إلى عجلة تقديسه، أن يعود أسرع ماتكون العودة. فلئن كان الرسول(١) الشاب ينجز عجائبيّاً تكثير الكيلو مترات حينما يعدّها للسيّد «دوشار لوس» فقدْ كان بالمقابل يقسم على ستة ماقد جناه حالما يقع عليه أن يؤدي حساباً للشركة. وكانت الشركة نتيجة لذلك، وفي اعتقادها إمّا أنْ لم يعد أحد يقوم بنزهات في «بالبيك» ، والموسم يجعل الأمر محتملاً، وإمّا أنّهم يسرقونها، كانت ترى في كلّ من الافتراضين أنّ من الأفضل استدعاءه إلى باريس حيث لايقومون على أيّ حال بالكثير، كانت رغبة السائق أن يتجنّب موسم الكساد إن أمكن ذلك. لقد قلت –وهو ماكنت أجهله حينذاك ولعلّ معرفته كانت جنّبتني الكثير من الهموم– إنّه كان وثيق الصلة بـ «موريل» (دون أن يبديا البتة أن أحدهما يعرف الآخر أمام الآخرين) . ومنذ

(١)فضلناها على الحواريّ لنبقى في جوّ الكاتب.

اليوم الذي استُدعي فيه دون أن يعلم بعد أنّ لديه إمكانيّة الامتناع عن الذهاب، اضطررنا أن نكتفي لنزهاتنا باستئجار عربة أو جياد ركوب أحياناً لتسلية «ألبيرتين» إذ كانت تحبّ ركوب الخيل. كانت العربات سيئة، فتقول «ألبيرتين» : «ياللعربة المهلهلة!» ولعلّي كثيراً ما أحببت على أيّ حال أن أكون فيها بمفردي. كنت أتمنّى، دون أن أبغي تحديد التاريخ، أن تنتهي هذه الحياة التي آخذ عليها أنّها تضطرّني إلى التخلّي لاأقصد أن أقول عن العمل بل عن المتعة. على أنّه كان يتّفق أيضاً أن تلغى على نحو مفاجئ العادات التي كانت تمسك بي، وكان ذلك في الأغلب حينما تحلّ «أنا» قديمة تفيض رغبة في عيش مرح محلّ الأنا الحاليّة على مدى لحظة. وقد أحسست على وجه الخصوص برغبة الهروب تلك ذات يوم تركت فيه «ألبيرتين» في منزل عمّتها ومضيت على صهوة جواد لزيارة آل «ڤيردوران» فسلكت في الغابة طريقاً موحشاً سبق أن أشادوا لي بجماله. كان يماشي أشكال الجرف فيصعد تارة وطوراً يضيق بين الأجمات فيغوص في مضائق موحشة. وعلى مدى لحظة طفت أمام ناظريّ، كأنّما أجزاء من عالم آخر، الصخور الجرداء والبحر الذي يتراءى من شقوقها: لقد تعرّفت المنظر الجبليّ والبحريّ الذي جعل منه «ايلستير» إطاراً لما ئيتيه الرائعتين : «شاعر يلتقي ربّة شعر»و «شاب يلتقي قنطوراً»، اللتين شاهدتهما في منزل الدوقة «دو غير مانت». كان ذكرهما يعيد وضع الأماكن التي أقف فيها خارج العالم الراهن إلى حدّ أنيّ ماكنت دهشت لو أني، على غرار الشابّ الذي من عصور ماقبل التاريخ والذي يرسمه «ايلستير»، التقيت شخصاً اسطوريّاً في أثناء نزهتي، وفجأة اهتاج جوادي وشبّ، فقد سمع ضجّة غريبة وصادفت عنتاً في السيطرة عليه وتفادي السقوط أرضاً ثم رفعت عينين يملؤهما الدمع صوب النقطة التي يبدو أن الضجّة كانت تنبعث منها وأبصرت على قرابة خمسين متراً فوقي في الشمس وبين جناحين عظيمين من الفولاذ الملتمع كانا يحملان كائناً بد الي وجهه القليل الوضوح كأنّما يشبه وجه إنسان. وقد بلغ بي الانفعال المبلغ الذي يمكن أن يبلغه بيوناني يشاهد للمّرة الأولى نصف إله. كنت أبكي أيضاً، إذ كنت مهيّأ النفس للبكاء مادمت قد عرفت أن الضجّة تجيئني من فوق رأسي –وكانت الطائرات نادرة بعد في هذه الفترة–، لدى التفكير بأن ما أزمع أن أراه أوّل مرّه إنّما كان طائرة. حينئذ ماكنت أنتظر إلاّ أن أكون أبصرت الطائرة حتىّ تنهمر الدموع من عينيّ كحالك حينما تحسّ بورود كلام مؤثر في صحيفة. وبدا الطيّار في تلك الأثناء وكأنّه يتردّد حول خطّ طيرانه؛ كنت أحسّ طرق الفضاء والحياة جميعها مفتوحة أمامه– وأمامي لو لم توقعني العادة أسيراً لها. واندفع إلى أبعد من ذلك وحلقّ لحظات فوق البحر ثم عقد العزم فجأة وبدا أنّه ينقاد لجاذب معاكس لذاك المنبعث من الجاذبيّة، وكما لو يعود إلى موطنه انقضّ رأساً شطر السماء بحركة خفيفة لجناحيه المذهبين.

هيّا نعد الآن إلى الميكانيكيّ، فقد سأل «موريل» لا أن يتّخذ آل «ڤيردوران» سيّارة محلّ عربتهم فحسب (وكان ذلك سهلاً نسبيّاً بالنظر إلى سخاء آل «ڤيردوران» تجاه الخلّص) بل أن يستبدلوه، هو السائق، بحوذيّهم، الرئيسيّ، الشاب الحسّاس النزّاع إلى الأفكار السوداء، والأمر أكثر صعوبة. وقد جرى تنفيذ ذلك في بضعة أيّام على النحو التالي. لقد بدأ «موريل» بتسهيل سرقة كل ماكان ضروريّاً للإسراج من الحوذيّ ففي يوم لايلقى اللجام، وفي آخر لايلقى الزرد. وفي مرّات أخرى كان مسند المقعد هو الذي يختفي، وحتىّ سوطه وغطاؤه والمقرعة والاسفنجة وجلد «الشاموا». ولكنّه تدبّر أمره دوماً مع الجيران؛ لكنّما كان يحضر متأخراً وكان ذلك

يثير حنق السيّد «ڤيردوران» عليه ويغرقه في حال من الحزن والأفكار السوداء. وأعلن السائق لـ «موريل» ،وهو في عجلة من أمره للدخول، أنّه يزمع العودة إلى باريس كان لابّد من ضربة قويّة وأقنع «موريل» خدم السيّد «ڤيردوران» أن الحوذي الشابّ سبق أن أعلن أنّه سيوقعهم جميعاً في مكيدة وأنه يأخذ على نفسه أن يقهرهم هم الستّة، وقال لهم إنّه لايمكنهم التغاضي عن ذلك. ولم يكن بوسعه فيما يخصّه أن يقحم نفسه في الأمر ولكنّه يحذّرهم كي يبادروا هم أوّلاً. واتُّفق أن ينهال الجميع على الشاب في الاسطبل عندما يكون السيّد والسيّدة «ڤيردوران» وأصدقاؤهما في نزهة. وسوف أنقل هنا أنّه كان ثمّه في ذلك اليوم صديق لأسرة «ڤيردوران» يصطاف لديهم وكانوا يودّون حمله على القيام بنزهة سيراً على الأقدام قبل رحيله الذي حدّد في المساء نفسه، مع أن هذا الأمر كان محض مناسبة لما سيجري.

ماأدهشني كثيراً حين ذهبنا في نزهة أن «موريل» قال لي، وكان جاء برفقتنا في نزهة على الأقدام يقع عليه أن يعزف فيها الكمان بين الأشجار: «اسمع، إن ذراعي تؤلمني ولا أودّ قول ذلك للسيّدة «ڤيردوران»، ولكن اسألها أن تصطحب أحد أجرائها، «هاوسلر» مثلاً، ليحمل الآتي». فأجبت قائلاً :«في اعتقادي أنّ آخر غيره قد يكون اختياراً أفضل، فهم بحاجة إليه لحفل العشاء.» ولاحت أمارات الغضب على وجه «موريل»: «لا، لا، لا أريد أن أعهد لأيّ كان بكماني.» وأدركت فيما بعد سبب هذا الإيثار، فقد كان «هاوسلر» الشقيق المحبوب جداً للحوذي الشاب ولو أنه مكث في البيت لاستطاع أن يمدّ له يد المساعدة. وقال «موريل» في أثناء النزهة وبصوت خفيض لايستطيع معه الأخ الأكبر «هاوسلر» أن يسمعنا : «هذا صبيّ طيّب ، وأخوه طيّب كذلك. ولو لم تكن به عادة الشراب المشؤومة تلك..» وقالت السيّدة «ڤيردوران» وقد امتقع لونها إذ فكّرت بأنّ لديها حوذيّاً يشرب «كيف ذلك، شراب» ؟ –«لست تلاحظين ذلك. وإني أقول دوماً في نفسي إنّها لمعجزة أن لايكون وقع له حادث حينما يقود السيّارة بك.»– «أتراه يحمل آخرين غيري؟» – «يكفيك أن تلاحظي كم مرّة انقلب : فوجهه اليوم تملؤه الكدمات. لست أدري كيف لم يقتل نفسه، لقد كسر محفّته.» وقالت السيّدة ڤيردوران» وهي ترتعش إذ تفكّر بما كان يمكن أن يقع لها هي: «لم أره اليوم، وإنّك تغمّني» وابتغت تقصير النزهة لتعود، واختار «موريل» لحنا لـ «باخ» يحتمل تنويعات لاتحصى كيما يطيل فيها. ومضت فور عودتها إلى الحظيرة وشاهدت المحفّة على جدّتها و«هاوسلر» يلطّخه دمه. كانت تزمع أن تقول له، دون أن تبدي له أيّة ملاحظة، إنّها لم تعد بحاجة لحوذيّ، وأن تعطيه مالاً، ولكنّه طلب من تلقاء ذاته أن ينصرف، إذ لايريد اتّهام رفاقه الذين كان يعزو بعد الأوان إلى عدائهم السرقة اليوميّة التي تتناول سروجة جميعها، الخ.، وبذلك سوّيَ كلّ شيء. ودخل السائق في الغد وقد أحسّت السيّدة «ڤيردوران» فيما بعد (وكانت اضطرّت أن تستخدم آخر) بالرضى الشديد عنه إلى حدّ أنّها أوصتني به بحرارة وكأنّما برجل يوحي بثقة مطلقة. وأخذته في باريس بالمياومة أنا الذي كان يجهل كلّ شيء. ولكن ما أكثر مااستبقت الأمور فكلّ ذلك سنعود فنلقاه في قصّة «ألبيرتين». أمّا في هذه الفترة فإنّي في «لاراسپلييرِ» التي أحضر للعشاء فيها أوّل مرّة بصحبة صديقتي، والسيّد«دوشار لوس» بصحبة «موريل» الابن المفترض «لمدير» يكسب ثلاثين ألف فرنك سنويّاً كدخل ثابت ويملك عربة وعدداً من القهرمانات ذوي المراتب الدنيا والبستانيّين والمشرفين والمزارعين الذين يأتمرون بأمره. ولما كنت قد سبّقت كثيراً، فإني لا ابتغي مع ذلك أن أخلّف لدى القارئ انطباعاً بخبث

مطلق انطوت عليه نفس «موريل». فقد كان بالأحرى يفيض تناقضات وكان قادراً في بعض الأيّام على إبداء لطف حقيقي.

لقد دهشت تماماً بالطبع إذ علمت أن الحوذيّ قد طُرد، وأكثر من ذلك أن أتعرّف في شخص بديله السائق الذي أخذنا في نزهات أنا و«ألبيرتين». ولكنّه ألقى على مسامعي قصّة معقّدة كان يفْترَض وفقاً لها أن يكون عاد إلى باريس حيث طلبوه من أجل آل «ڤيردوران»، ولم يخالجني الشك مقدار ثانية. فإن طرد الحوذيّ كان سبباً في حديث قليل أدلى أدلى به «موريل» كي يعرب لي عن حزنه بالنسبة إلى رحيل هذا الشاب الطيّب. وإذ رأى «موريل» من جانب آخر، حتى خارج اللحظات التي كنت فيها وحدي والتي كان يثب إليّ فيها، بالمعنى الحرفيّ للكلمة، بفيض من السرور، إذ رأى أن الجميع كانوا يحتفون بي في «لاراسپلييير» وشعر أنّه يقصي نفسه طوعاً عن ألفة شخص لا يشكّل خطراً عليه بما أنه نسف كلّ الجسور من حولي وجرّدني من أيّة امكانيّة للظهور مظهر الحامي له (الذي لم أفكّر البتّة على أيّ حال في اتخاذه) فقد كفّ عن البقاء بعيداً عنيّ. وعزوت التبدّل في موقفه إلى تأثير السيّد «دوشارلوس» الذي كان يجعله أقل محدوديّة حول بعض النقاط وأكثر فنّاً ولكنّه كان يزيد من غبائه حول نقاط أخرى كان يطبقّ فيها حرفياً قواعد معلّمه البليغة الكاذبة، والمؤقتة على أي حال. فالشيء الوحيد الذي افترضته كان بالفعل ما أمكن أن يقوله له السيّد «دوشارلوس». فكيف كان لي أن أحزر حينئذ ماقيل لي فيما بعد (ومالم أتيقّن به في يوم، إذ بدت لي توكيدات «أندريه» في كلّ مايتعلّق بـ«ألبيرتين»، ولاسيّما فيما بعد، بدت لي دوماً مشكوكاً فيها إلى حدّ بعيد، ذلك لأنّها حسبما تبيّناه في السابق، لم تكن صادقة في حبّ صديقتي وكانت تغار منها)، وما أُخفي عنّي في جميع الأحوال، إن كان صحيحاً، بصورة ملفتة من جانبهما كليهما: عنيت أنّ «ألبيرتين» كانت على معرفة وثيقة بـ«موريل»؟ لقد سمح لي الموقف الجديد الذي وقفه منيّ «موريل» حوالي تلك الفترة من طرد الحوذيّ، بتغيير رأيي فيه. فقد احتفظت من طبعه بالفكرة البشعة التي حمّلتني إيّاها الدناءه التي أبداها لي ذلك الشابّ حينما كانت به حاجة إليّ وأعقبها فور تأدية الخدمة ازدراء بلغ به حدّ الظهور مظهر من لايراني. وكان لابدّ أن نضيف إلى ذلك وضوح صلات له بالسيّد «دوشارلوس» تطبعها الرشوة إلى جانب الغرائز البهيميّة التي لاعاقبة لها والتي كان نقص إشباعها (إمّا اتّفق ذلك) أو التعقيدات التي تحملها معها تسبّب أحزانه. لكنّ ذلك الطبع لم يكن متماثل القبح إلى هذا الحدّ وكان مليئاً بالتناقضات. كان يشبه كتاباً عتيقاً من العصر الوسيط مليئاً بالأخطاء والتقاليد اللامعقولة والبذاءات، وكان مزيجاً عجيباً من عناصر شتىّ. وظننت في البداية أنّ فنّه الذي امتلك حقّاً ناصيته قد أولاه صنوفاً من التفوّق تتجاوز براعة العازف العاديّ. وفي مرّة كنت أعرب فيها عن رغبتي في مباشرة العمل قال لي: «هيّا اعمل وصر مشهوراً.» فسألته: «ولمن القول؟» – «من «فونتان» إلى «شاتوبريان»». كان يعرف كذلك مراسلات غرامية لـ«نابليون». وفكرت قائلاً: حسن، إنّه مثقّف. ولكنّ تلك الجملة التي لا أعلم أين قرأها كانت دون شكّ الوحيدة التي يعرفها في كلّ الأدب القديم والحديث إذ كان يردّدها على مسامعي كلّ مساء. كان ثمّة أخرى يردّدها أكثر كي يمنعني أن أقول عنه شيئاً لأحد هي هذه التي كان يظنّها أدبيّة أيضاً وتكاد لاتكون فرنسيّة أو هي على الأقلّ لا تتضمّن أيّ معنى إلاّ ربّما في نظر خادم نزّاع إلى الخفاء: «فلنحذر منْ طبعهم الحذَر». ولعلّنا بانتقالنا من هذا القول المأثور وصولاً إلى جملة «فونتان» إلى

«شاتوبريان»، لعلّنا نكون طفنا في الأساس بقسم كامل من طبع لـ «موريل» منوّع ولكنّه أقلّ تناقضاً ممّا يبدو. فهذا الفتى الذي كان فَعَل، بشرط أن يكسب من ذلك مالاً، أيّ شيء ودون تبكيت ضمير -وربّما لم يخلُ الأمر من تكدّر غريب يصل حدّ التهيّج العصبيّ الشديد ولكن اسم تبكيت الضمير قد لاينطبق عليه تماماً-، والذي كان أشاع الأسى أو حتىّ الحداد، إن رأى في ذلك مصلحته، في نفوس عائلات بأسرها، هذا الفتى الذي كان يضع المال فوق أيّة منزلة، وبصرف النظر عن الطيبة، فوق مشاعر الإنسانية البحتة الأكثر قرباً من الطبيعة، هذا الفتى نفسه كان يضع مع ذلك فوق المال دبلوم الجائزة الأولى الذي حصل عليها من الكونسرفاتوار وأن لايسع أحداً أن يقول قولاً يتناوله بالسوء في درس الناي أو «الكونتربوان». لذلك كانت أعظم صنوف غضبه ونوبات اهتياجه الأكثر كآبة والأقلّ تبريراً ناجمة عمّا كان يدعوه (وهو يعمّم دون شكّ بعض الحالات الخاصّة التي صادف فيها بعض السّيئي الطويّة) بالخداع الشامل. وكان يباهي بتحاشيه وذلك بأن لايتكلّم عن أحد البتّة وباخفاء أوراقه وبابداء الحذر من الجميع. (ولكنّ حذره، لسوء حظيّ وبسبب ماكان سينتج عنه بعد عودتي إلى باريس، لم يفلح إزاء سائق «بالبيك» الذي لاشكّ أنهّ تعرّف فيه مثيلاً له، أي بعكس حكمته المأثورة محاذراً بالمعنى الجيّد للكلمة، محاذراً معانداً في صمته في حضرة الشرفاء وتراه في الحال شريكاً للخليع.) كان يبدو له -وما كان الأمر خطأً تماماً- أن ذلك الحذر سوف يمكّنه من التخلّص دوماً من أيّة ورطة والانسلال خفيّاً لاتدركه العين عبر أكثر المغامرات خطورة ودون أن يستطيع أحد المجيء بشيء ضدّه في معهد شارع «بيرجير»(١)، ناهيك عن إقامة البرهان على شيء ضدّه. سوف يعمل ويصبح مشهوراً وربّما أضحى في يوم، والكرامة محفوظة لامساس بها، رئيس اللجنة الفاحصة للكمان في مسابقات هذا المعهد الشهير.

ولكن ربّما بالغنا في مانضع من منطق في دماغ «موريل» بأن نخرج منه التناقضات بعضها من بعض. والحقيقة أن طبيعته كانت حقّاً كورقة جعلوا فيها من الثنيات في كلّ اتجاه ما يستحيل معه الاهتداء فيها. كان يبدو أنّ لديه مبادئ سامية إلى حدّ ما وكان يقضي ساعات يكتب فيها إلى شقيقه، بخطّ رائع تشوّهه أبشع الأخطاء الإملائيّة، أنّه أساء التصرّف مع شقيقاته وأنّه الكبير بينهم وهو سندهم، وإلى شقيقاته أنهنّ كنّ غير لائقات تجاهه هو. بل إنّك بعد قليل حينما كنت، والصيف في أواخره، تنزل من القطار في «دوفيل» ماكانت الشمس، وقد خفّفها الضباب، ماكانت في السماء ذات اللون الخبازيّ المتساوي سوى كتلة حمراء. وكان ينضاف إلى السكون الكبير الذي يحلّ في المساء على هذه المروج الكثيفة الملْحيّة والذي كان نَصَحَ الكثيرين من الباريسيّين، وغالبيّتهم من الرسّامين، في المبادرة إلى الاصطياف في «دوفيل» رطوبة تحملهم على الرجوع في ساعة مبكّرة إلى الشاليهات الصغيرة، وفي كثير منها كان المصباح قد أوقد. وحدها بعض الأبقار كانت تلبث في الخارج تنظر إلى البحر وهي تخور، بينما تبدي أخرى غيرها اهتماماً أكبر بالإنسانية فتصرف انتباهها إلى سيّاراتنا. وثمّة رسّام كان، بعدما نصب حامل لوحاته على رابية صغيرة، يعمل وحده في محاولة ردّ هذا السكون العظيم وهدأة الضياء. وربّما كانت الأبقار عازمة على أن توفّر له نماذج على نحو غير واع وتطوّعي إذ أنّ مظهرها التأملي ووجودها المفرد بعدما يكون البشر قد عادوا، كانا يسهمان على طريقتهما في هذا الانطباع

(١) حيث المعهد العالي للموسيقى.

القويّ من السكينة المنبعث من المساء. ولم تكن عمليّة النقل بعد انقضاء عدّة أسابيع أقلّ امتاعاً حينما أضحى النهار بتقدّم الخريف قصيراً جداً وانبغى إتمام هذه الرحلة ليلاً. فإن قمتُ بجولة بعد الظهر كان لابدّ من العودة في الخامسة على أبعد حدّ لارتداء ثيابي، وكانت الشمس حينها قد انحدرت مستديرة حمراء وسط المرآة المائلة الممجوجة فيما مضى، وأخذت تلهب، شأن نار روميّة، مياه البحر في زجاج مكتباتي كافّة. وإذ أثارت حركة تعزيميّة، فيما كنت أرتدي لباسي الرسميّ، الأنا الرشيقة الطائشة التي كانت لي حينما كنت أمضي بصحبة «سان لو» للعشاء في «ريفبيل» وفي العشيّة التي خلتني سأصطحب فيها الآنسة «دوستير ماريا» لتناول العشاء في جزيرة الغابة، أخذت أدندن على نحو غير واعٍ لحن ذاك الحين نفسه؛ وكنت حينما ألاحظ ذلك فقط أتعرّف من الأغنية المغنّي «المعاود» الذي ماكان يعرف بالفعل غيرها. فأول مرّة غنيتها فيها كنت آخذاً في حبّ «ألبيرتين» ولكنّي كنت أظنّ إنني لن أعرفها في يوم. وكان ذلك فيما بعد في باريس حينما توقّفت عن حبّها وبعد بضعة أيّام على امتلاكي لها أوّل مرّة. والآن كان ذلك وأنا آخذ في حبّها من جديد ولحظة الذهاب لتناول طعام العشاء معها فأثير أسف المدير الذي كان يعتقد أني سوف أسكن في النهاية في «لاراسپليير» وأتخلّى عن فندقه والذي كان يؤكّد أنّه سمع من يقول أن ثمّة حمّات تتسيّد المكان ناجمة عن مستنقعات «دوبيك» ومياهها «العاسنة»(١) كنت سعيداً لهذا التعدّد الذي أراه على هذا النحو في حياتي المنشورة على ثلاثة مستويات. ثمّ إنّك حينما تعود فتصبح على مدى لحظة إنساناً سابقاً، أعني مختلفاً عن الإنسان الذي أنت عليه منذ زمن بعيد، فإن الحساسيّة إذ لم تعد تكسر العادة من حدّتها تجني من أدنى الصدمات انطباعات حادّة إلى درجة أنّها تحجب كلّ ماسبقها وأننا نتعلّق بها، من جرّاء شدّتها، بالحماسة العابرة التي تهزّ السكّير. كان الليل قد حلّ حينما كنّا نستقل الحافلة أو العربة التي كانت ستنقلنا إلى المحطة لنستقلّ القطار الصغير. وكان الرئيس الأول يقول لنا في الردهة :«آه ! تذهبون إلى «لاراسپليير» يالها، السيّدة «ڤيردوران»؛ وأيّة جسارة أن تحملكم على قضاء ساعة في القطار في أثناء الليل لمحض أن تتناولوا طعام العشاء، ثمّ تعاودون المشوار في العاشرة ليلاً عبر رياح جهنّميّة، واضح تماماً أنّه لابدّ أن ليس لديكم ماتفعلونه» يضيف قوله وهو يفرك يديه. ولاشكّ أنّه كان يتكلّم على هذا النحو لاستيائه من أنّه لايُدعى وبسبب الارتياح الذي يحسّه الناس «المشغولون»– حتىّ بأكثر الأعمال غباء– في «أن لايتوافر لهم الوقت» ليقوموا بما تقوم به. وإنّه لمن المشروع بالتأكيد أن يحسّ الرجل الذي يسطّر تقارير ويراكم الأعداد ويردّ على رسائل تجاريّة ويتابع أسعار البورصة، عندما يقول لك مقهقهاً: «هذا يناسبك أنت الذي ليس عنده مايفعله»، بمتعة الشعور بتفوّقه، ولكنّ هذا التفوّق كان يتجلّى بذات القدر من الاستكبار، بل وأكثر (فالعشاء في المدينة يفعله الرجل المشغول أيضاً)، إن قامت تسليتك على كتابة «هاملت» أو على قراءته فحسب، وفي ذلك يفتقر الرجال المشغولون إلى التفكير. ذلك لأن الثقافة الخالية الغرض التي تبدو لهم تسلية من فعل عاطلين عن العمل حينما يضبطونها في لحظة قيامك بها إنمّا ينبغي التفكير بأنّها هي ذاتها التي تضع في مكانة فذّة داخل مهنتهم رجالاً ربّما ليسوا قضاة أو مديرين أفضل منهم ولكنّهم ينحنون أمام تقدمهم السريع قائلين :«يبدو أنّه مثقّف كبير وشخص متميّز تماماً.» ولكنّ الرئيس الأوّل ماكان يتبيّن على وجه الخصوص أنّ مايروقني في حفلات العشاء هذه في «لاراسپليير»

(١) يريد بها «الآسنة».

أنّها «تمثّل رحلة حقيقيّة» كما كان يقول بحق، وإن كان على سبيل الانتقاد، رحلة كان يبدو سحرها متزايد القوّة بقدر مالم تكن هدفاً لذاتها ولايبحثون فيها البتّة عن المتعة، فهذه مخصّصة للاجتماع الذي يمضون إليه والذي لايكفّ عن التبدّل الشديد من جرّاء الجوّ الذي يحيط به. كان الليل قد حلّ الآن حينما كنت أستبدل بحرارة الفندق -الفندق الذي أصبح بيتي- عربة القطار التي كنت أصعد إليها برفقة «ألبيرتين» والتي يطلعني انعكاس المصباح على زجاجها في بعض مواقف القطار الصغير المنهوك القوى على أننا وصلنا إلى محطّة. وكي لا أجازف بأن لايبصرنا «كوتار»، ولمّا لم أسمع باسم المحطّة ينادون عليه، فقد كنت أفتح باب العربة، ولكنّ ما يهرع إلى العربة كانت الريح والمطر والبرد وليس الخلّص. وكنت أميزّ في العتمة الحقول وأسمع البحر فقد كنّا في أرض مكشوفة. كانت «ألبيرتين» قبل أن نلحق بالنواة الصغيرة تنظر في مرآة صغيرة تخرجها من صندوق زينة ذهبيّ تحمله معها. فقد كانت السيّدة «ڤيردوران» في المرّات الأولى قد أصعدتها إلى حجرة ملابسها كي تتزيّن قبل العشاء وأحسست أنا في صميم الطمأنينة العميقة التي كنت أعيش فيها منذ بعض الوقت بشيء من الاضطراب والغيرة لاضطراري أن أترك «ألبيرتين» في مطلع الدرج وشعرت بضيق عظيم فيما كنت في الصالة وحيداً وسط العشيرة الصغيرة اتساءل عمّا كانت صديقتي تفعل فوق إلى حدّ إني بادرت في الغد فأوصيت برقيّاً، بعدما سألت السيّد «دوشارلوس» حول ماكان أكثر أناقة في هذا المضمار، على صندوق زينة لدى «كارتييه» كان يبهج «ألبيرتين» ويبهجني. لقد كان بالنسبة إليّ عربون طمأنينة وكذلك عربون عطف صديقتي. فقد حزرتْ بالتأكيد أني ما كنت أودّ أن تمكث بدوني لدى السيّدة «ڤيردوران» فكانت تتدبّر أمرها فتقوم في عربة القطار بكامل الزينة التي تسبق العشاء.

كان السيّد «دوشارلوس» قد أصبح الآن منذ عدّة شهور في عداد روّاد منزل السيّدة «ڤيردوران» وأكثرهم جميعاً إخلاصاً. فقد كان المسافرون الذين يتوقّفون في قاعات الانتظار أو على رصيف «دونسيير» الغربيّة يشاهدون بانتظام ثلاثاً في الأسبوع هذا الرجل السمين يمرّ بشعره الأبيض وشاربه الأسود وشفتيه الحمراوين بفعلِ خضاب يلاحظ في آخر الموسم أقلّ منه في الصيف حيث يجعله الضياء الساطع أكثر التماعاً والحرّ نصفَ مائع. وماكان يستطيع، وهو يتوجّه إلى القطار الصغير، أن يملك نفسه (من جرّاء عادة الخبير لديه فحسب، بما أن لديه الآن إحساساً كان يجعله عفيفاً أو على الأقل مخلصاً في غالب الأحيان) عن أن يلقي على الرجال الكادحين والعسكريّين والشبّان بلباس كرة المضرب نظرة يختلسها قاسية هيّابة في آن معاً يرخي بعدها جفنيه في الحال على عينيه المطبقتين تقريباً بعذوبة رجل دين يصلّي مسبحته، وتحفّظ زوجة نذرت نفسها لحبّها الوحيد أو فتاة حسنة التهذيب. كان يزيد من قناعة الخلّص بأنّه لم يبصرهم صعوده إلى مقصورة غير مقصورتهم (كما كانت تفعل في الغالب أيضاً الأميرة «شيرباتوف») فعلَ رجل لايعرف إن كان يسرّك أو لا يسرك أن تشاهَد بصحبته فيدع لك أن تأتي للقائه إن رغبت في ذلك. والرغبة لم يكابدها الدكتور في المرّات الأولى وقد شاء أن ندعه وحده في مقصورته. وإذ كان يبرز عالياً، منذ أن أصبح يشغل مكانة طبيّة كبيرة، طبعه المتردّد فقد قال وهو يبتسم وينقلب إلى الوراء وينظر إلى «سكي» من فوق نظّارته، قال بخبث أوكي يفاجئ مواربة رأي رفاقه : «تدركون، لو كنت وحدي، عازباً.. ولكنّي أتساءل إن كنت استطيع، بسبب زوجتي، أن أدع له أن يسافر معنا بعد الذي قلتموه لي» يضيف الدكتور همساً. وسألت السيّدة «كوتار» تقول

: «ماالذي تقول ؟» فأجاب الدكتور وهو يغمز بعينه :«لاشيء والأمر لايعنيك وليس للنساء»، أجاب بجلال الراضي عن نفسه، جلال هو الوسط بين مظهر المُضحك الذي لايَضحك الذي يحتفظ به أمام تلاميذه ومرضاه والقلق الذي كان يرافق نكاته فيما مضى في منزل آل «ڤيردوران»، وتابع كلامه بصوت خافت. ولم تتبيّن السيّدة «كوتار» سوى لفظتي «من الجماعة» و«لسان»(١)،ولما كانت الأولى تعني في لغة الدكتور جنس اليهود والثانية اللسان الثرّ الكلام فقد خلصت السيّدة «كوتار» إلى أن السيّد «دوشارلوس» لابّد كان يهودياً ثرثاراً. ولم تفهم أن يجري استبعاد البارون بسبب ذلك وحكمت أن من واجبها كعميدة للعشيرة أن تطالب بأن لايتركوه وحده واتخذنا جميعاً طريقنا إلى مقصورة السيّد «دوشارلوس» ودليلنا إليه «كوتار» الدائم الارتباك. ولمح السيّد «دوشارلوس» ذاك التردّد من الركن الذي كان يقرأ فيه كتاباً لـ «بلزاك»، مع أنّه لم يرفع ناظريه. ولكن مثلما يعرف الصمّ البكم من مجرى هواء لايحسّه الآخرون أنّ أحدهم يجيء على إثرهم كان يملك فرط حدّة إحساس حقيقيّة كيما يتنبّه للفتور الذي يواجه به. وقد ولّدت تلك الحدّة لدى السيّد «دوشارلوس» عذابات وهميّة كما تعوّدت أن تفعل في سائر المجالات. وعلى غرار مرضى الأعصاب الذين يستشفّون حين يحسّون برودة خفيفة أنّه لابدّ ثمّة من نافذة مفتوحة في الدور العلوي فيثورون غاضبين ويأخذون بالعطاس، كان السيّد «دوشارلوس» يستخلص، إن أبدى أحدهم انشغالاً وهمّاً في حضرته، أنّهم لابدّ ردّدوا لذاك الشخص قولاً سبق أن قاله فيه. بل لم تكن ثمّة حاجة أن يبدو المرء ساهياً أو متجهّماً أو مستهزئاً فقد كان يبتدع تلك المظاهر .وكانت المودّة في مقابل ذلك تحجب عنه بيسر ضروب النميمة التي لايعرفها. وإذ حزر في المرّة الأولى تردّد «كوتار»، ولئن مدّ يده فأثار إلى حدّ بعيد دهشة الخلّص، ويظنّون أن القارئ المطرق الرأس لم يبصرهم بعد، لئن مدّ لهم يده حينما أصبحوا على مسافة مناسبة فقد اكتفى بالنسبة إلى «كوتار» بانحناءة لكامل جسمه، الذي سارع في الحال فاعتدل، دون أن يأخذ بيده التي يكسوها قفّاز من السويد اليد التي كان الدكتور قد مدّها له. وقالت السيّدة «كوتار» للبارون بلهجة تفيض طيبة :«لقد حرصنا كلّ الحرص ياسيّد على مرافقتك وعلى أن لاندعك هكذا وحيداً في ركنك الصغير. إنّه لسرور عظيم نصيبه. » وتلا البارون بلهجة فاترة وهو ينحني :«لقد نلت شرفاً عظيماً. »-«سعدت كثيراً حين علمت أنّك اخترت هذا البلد بصورة نهائية لتقيم فيه مظ....» لقد أوشكتْ أن تقول مظلّتك، ولكنّ الكلمة بدت لها عبريّة ومكدّرة بالنسبة ليهوديّ يمكن أن يرى فيها تلميحاً. فاستدركت بغية اختيار تعبير آخر من تلك المألوفة لديها، ونعني بها عبارة رسميّة :«لتقيم فيه، قصدت أن أقول «آلهة بيتك» (صحيح أن هذه الآلهة ماكانت بدورها تنتمي إلى الديانة المسيحيّة بل إلى أخرى اندثرت منذ فترة طويلة جداً حتىّ لم يعد لها أتباع تخشى الإساءة إليهم) . أمّا نحن فلا نستطيع، لسوء الحظ، بسبب افتتاح المدارس وعملْ الدكتور في المشفى، لا نستطيع البتّة اختيار مسكن لنا في المكان نفسه.» ثمّ قالت وهي تريه بطاقة دعوة :«انظر على أيّ حال كم نحن النساء أقلّ حظاً من الجنس الخشن فإننا نضطرّ في ذهابنا إلى مكان بمثل قرب منزل أصدقائنا آل «ڤيردوران» أن نحمل معنا طائفة من الحاجات.» أمّا أنا فكنت أنظر في هذه الاثناء إلى مجلّد «بلزاك» خاصّة البارون. لم يكن طبعة بغلاف عاديّ ابتيعت مصادفة

(١) الحقيقة أن كلمة «Tapette» تعني «لسان» في اللغة الدارجة و«لوطي سلبي» في اللغة البذئية، وإن كنا اخترنا المعنى الأول فليتماشى مع مايلي مع أن الثاني هو المقصود.

مثل مجلّد «بيرغوت» الذي أقرضني إيّاه في السنة الأولى. لقد كان واحداً من مجلّدات مكتبته وكان يحمل بصفته تلك الشعار التالي :«انّي أخصّ البارون «دوشارلوس» الذي تفسح له في المجال أحياناً، إبرازاً لميل لدى آل «غير مانت» إلى العمل المجدّ، مثل هذه «In praeliis nom semper» (ليس في المعارك دوماً)، وأخرى أيضاً مثل : «Non sine labore» (لاشيء يجيئك دون جهد). ولكنّنا سنجدها عمّا قليل وقد حلّ محلّها أخرى في محاولة منه ليحسن في عين «موريل». وباشرت السيّدة «كوتار» بعد فترة موضوعاً كانت ترى أنّه ألصق بشخص البارون، فقالت له بعد فترة وجيزة: «لست أدري إن كنت تشاركني الرأي يا سيّد، ولكنّي رحبة الفكر إلى حدّ بعيد، والأديان كلّها حسبما أرى صالحة، بشرط أن يمارسها المرء باخلاص. ولست من هؤلاء الناس الذين يجعلهم منظر أحد البروتستانتيّين .. يخشون المياه.» فأجاب السيّد «دوشارلوس» :«لقد علّموني أن ديني هو الحقّ». وفكّرت السيّدة «كوتار» قائلة :«إنّه متعصّب. لقد كان «سوان» أكثر تسامحاً إلاّ في أواخره، وصحيح أنّه كان قد اهتدى إلى الإيمان.» ولكنّ البارون، على العكس تماماً، لم يكن مسيحيّاً على نحو ماهو معلوم فحسب، بل كان تقيّاً على طريقة العصر الوسيط. لقد كانت الكنيسة المسيحيّة بالمعنى الحيّ للكلمة، في نظره ونظر النحّاتين في القرن الثالث عشر على السواء، تعمرها طائفة من الكائنات يعتقد أنّها حقيقيّة تماماً : أنبياء ورسل وملائكة وقدّيسون من كل نوع يحيطون بالكلمة المتجسّد ووالدته وزوجها الآب الأزليّ، والشهداء ومعلّموا الكنيسة جميعاً حتىّ إن جمهرتهم تتدافع بارزة النقوش على البّوابة أو تملأ صحن الكاتدرائيّات. وكان السيّد «دوشارلوس» قد اختار من بينهم بمثابة أولياء شفعاء له رؤساء الملائكة ميخائيل وجبرائيل ورفائيل الذين كان يجري معهم أحاديث متعدّدة كي ينقلوا توسّلاته إلى الآب الأزلي الذي يقفون أمام عرشه. ولذلك أضحكتني غلطة السيّدة «كوتار» كثيراً.

ولنقل، كيما ندع الميدان الديني جانباً، إنّ الدكتور الذي جاء إلى باريس يحمل زوّادة يسيرة قوامها نصائح والدة فلاّحة، ثم شغلته الدراسات المادّيّة المحضة تقريباً التي يضطرّ من يبغون الذهاب بعيداً في مهنتهم الطبيّة أن يصرفوا النفس إليها على مدى سنوات كثيرة لم يتثقّف في يوم. لقد اكتسب قسطاً أوفر من النفوذ، ولكنّه لم يكتسب خبرة. وقد أخذ كلمة «أصبنا شرفاً» بالمعنى الحرفيّ فاغتبط بها إذ كان مغروراً واغتمّ لها إذ كان فتى طيّباً في آن معاً. وقال في المساء لزوجته :«دوشارلوس المسكين، ياله، لقد شقّ عليّ حينما قال لي إنّه نال شرفاً عظيماً بسفره برفقتنا. تحسّ أنّه، المسكين، لا معارف له وأنّه يذلّ نفسه.»

لكنّ الخُلّص أفلحوا بعد قليل، ودونما حاجة بهم أن تقودهم السيّدة «كوتار» الشفوقة، في السيطرة على الحَرَج الذي عانوا جميعاً منه إلى حدّ ما في البداية لأن يكونوا بجانب السيّد «دوشارلوس». فليس من شكّ أنّهم ما كان يغرب عن بالهم وهم في حضرته ذكرى تصريحات «سكي» وفكرة الغرابة الجنسيّة التي ينطوي عليها رفيق أسفارهم. بيد أن هذه الغرابة عينها كانت تمارس عليهم نوعاً من الجاذب. كانت تولي حديث البارون في نظرهم، وهو ملفت على أيّ حال ولكنّما في أجزاء يكاد أن لا يسعهم تقديرها، نكهة كانت تظهر حديث أكثرهم إشارة، وحتىّ «بريشو» نفسه إلى جانبه، على أنّه تافه بعض الشيء. وقد طاب لهم منذ البداية على أيّ حال أن يقرّوا بأنّه ذكيّ «العبقرية يمكن أن تجاور الجنون»، يعلن الدكتور قوله، فإن ألحّت الأميرة، في نهمها إلى التعلّم، لم يكن ليزيد على ذلك إذ المسلّمة هذه كلّ ماكان يعرف عن العبقريّة وهي لاتبدو له

من جانب آخر واضحة البرهان وضوحَ كلّ ماتعلّق بالحمّى التيفيّة والتهاب المفاصل. ولمّا كان قد أضحى متعجرفاً ولبث سيء التهذيب: «لا أسئلة أيتها الأميرة، لاتسأليني فإني على شاطئ البحر لأستريح. ولن تفهميني بأيّة حال، فلست عارفة بالطبّ.» وكانت الأميرة تصمت وهي تعتذر إذ ترى «كوتار» رجلاً ظريفاً وتدرك أنّ ليس مشاهير الناس دوماً لينّي الجانب. لقد خلصوا في هذه الفترة الأولى إذن إلى اعتبار السيّد «دوشارلوس» ذكيّاً على الرغم من المعيبة التي به (أو مايطلقون عليه هذا الاسم بعامّة). والآن كانوا بسبب تلك النقيصة، ودون أن يتبيّنوا ذلك، يرون أنّه أوفر ذكاء من الآخرين. كانت أبسط الحكم التي ينطق بها السيّد «دوشارلوس»، وقد استشاره بمهارة الجامعيّ أو النحّات، حول الحبّ والغيرة والجمال، كانت تكتسب في نظر الخلّص، بسبب التجربة الفريدة والخفيّة والمرهفة والرهيبة التي استقاها منها، سحر الشعور بالغربة الذي ترتديه سيكولوجية شبيهة بتلك التي قدّمها لنا على الدوام أدبنا المسرحي في مسرحيّة روسيّة أو يابانيّة يقوم بأدوارها ممثّلون من هناك. كانوا بعدُ يجازفون، حينما لايسمح، بالقاء مزحة مستنكَرة؛ فكان النّحات يهمس لدى رؤيته مستخدماً شابّاً بأهداب كثيرة الألوان طويلة لم يستطع السيّد «دوشارلوس» أن يملك نفسه عن التفرّس فيه:«آه! إن شرع البارون يغمز بعينه للمفتّش فلن نصل عن قريب وسيمضي القطار القهقرى. فهيّا شاهدوا بأيّة طريقة ينظر بها إليه، وبعدُ ليس مانحن فيه قطار صغير، إنّه «معْجَزَة»(١) ولكنّهم كانوا في الأساس يحسّون بالخيبة تقريباً إن لم يجئ السيّد «دوشارلوس»، للسفر بين مجردّ أناس مثل كلّ الناس وأن لايكون بالقرب منهم ذاك الشخص الذي تغطيّه الأصباغ المتنفخ المغلق الذي يشبه علبة أجنبيّة مشبوهة تنبعث منها الرائحة الغريبة التي لفواكه تكفي فكرة مجرّد تذوّقها لتصاب بالغثيان. ومن وجهة النظر هذه كان الخلّص من الذكور يصيبون مسرّات أكثر شدّة في الجزء القصير من الرحلة الذي يقطعونه بين «سان مارتان دوشين» حيث يصعد السيّد «دوشارلوس» و «دونسيير» حيث يلحق بهم «موريل». فما كان السيّد «دوشارلوس»، مادام عازف الكمان غير موجود هناك (وإن أقامت السيّدات و«ألبيرتين» بعيداً وقد انتحين جانباً كي لاينكّدن عليهم الحديث) ماكان يتحرّج كي لا يبدو أنّه يتجنّب بعض الموضوعات ويتكلّم «عمّا اصطلح على تسميته بسوء الأخلاق.» ماكان بوسع «ألبيرتين» أن تضايقه إذ كانت على الدوام برفقة السيّدات وذلك تلطّفاً من فتاة لاتودّ أن يحدّ وجودها من حريّة الحديث. أمّا أنا فكنت أحتمل بيسر أن لاتكون إلى جانبي ولكن بشرط أن تمكث في العربة نفسها. فأنا الذي كان لايحسّ من بعد لا بالغيرة عليها ولا بالحبّ تقريباً ولايفكّر بما كانت تفعل في الأيام التي لايراها فيها، إنّما كان حاجز بسيط، ساعة أكون حاضراً، ويمكن لدى الاقتضاء أن يخبّئ خيانة، كان عسير الاحتمال في نظري، فإن مضت برفقة السيّدات إلى المقصورة المجاورة كنت بعد حين لا أطيق المكوث في مكاني فأنهض مجازفاً بتكدير من كان يمسك بزمام الكلام،«بريشو» أو «كوتار» أو «دوشارلوس» الذين ماكان بمقدوري أن أوضح لهم سبب هربي، فأتركهم هناك وانتقل إلى الجوار لأرى إن لم يكن ثمّة أمر غير طبيعيّ. وكان السيّد «دوشارلوس» يتحدّث حتىّ «دونسيير»، إذ لاخشية به من خدش الأسماع، حديثاً شديد الفجاجة أحياناً عن عادات يعلن أنّه لايراها فيما يخصّه حسنة أو سيّئة. كان يفعل ذلك عن مكر كيما يظهر سعة فكره

(١) نحاول ما أمكن ردّ التلاعبات اللفظيّة، وهي بذيئة في هذا السياق (funiculeur , funiculaire)

إذ هو على يقين أن ممارساته تكاد لاتثير أيّ ارتياب في أذهان الخلّص. كان يعتقد جازماً أن في الكون بضعة أشخاص كانوا حسب تعبير أصبح فيما بعد مألوفاً عنده، «على بيّنة من أمرهم فيما يخصّه». ولكنّه كان يتصوّر أن أولئك الأشخاص لايتجاوزون الثلاثة أو الأربعة وأن ليس واحد منهم على الشاطئ النورماندي. ومثل هذا الوهم يمكن أن يثير العجب من جانب شخص بمثل رهافته وبمثل تحسّبه. فقد كان يمنّي النفس حتىّ بالنسبة إلى من يظنّهم على بعض اطّلاع بأنّ ذلك إنّما يحيط به الغموض، ويزعم أنه، حسبما يقول لهم هذا الشيء أو ذاك، يضع هذا الشخص أو ذاك خارج نطاق افتراضات محاور كان يتظاهر تأدّباً بتقبلّ أقواله. كان يتصوّر، حتىّ إن شكّ بما يمكن أن أعرفه أو افترضه حوله، أن ذاك الرأي، الذي يظنّه أكثر قدماً فيما يخصّني ممّا كان في الواقع، كان عامّاً جدّاً، وأنّه يكفيه إنكار هذا التفصيل أو ذاك كيما يصدّقوه في حين أن معرفة الإجمال إن كانت على العكس تسبق دوماً معرفة التفاصيل فإنّها تسّهل إلى أبعد حدّ البحث عنها ولاتمكّن من يبغي كتم الأمور، بعدما قضت على إمكان التخفيّ، من إخفاءه مايحلو له إخفاؤه. صحيح أنّ السيّد «دوشارلوس» حينما كان يلجأ، إذ يدعوه واحد من الخلّص أو واحد من أصدقاء الخلّص إلى حفل عشاء، إلى أكثر المداورات تعقيداً ليسوق ضمن أسماء الأشخاص العشرة الذين يذكرهم اسم «موريل» ماكان يرتاب أنّ مضيفيه كانوا يضعون محلّ الأسباب المختلفة على الدوام التي كان يقدّمها حول البهجة أو الارتياح الذي يمكن أن يصادفهما في ذلك المساء إن هو دعي معه، وفيما يتظاهرون بأنّهم يصدّقونه تماماً، سبباً وحيداً لايتبدّل البتّة وهو يظنه مجهولاً لديهم، عنينا أنّه كان يحبّه. كذلك كانت السيّدة «ڤيردوران» تبدو دوماً وكأنّها تقبل تماماً الأسباب التي نصفها فنيّة ونصفها إنسانيّة التي يقدّمها السيّد «دوشارلوس» عن الاهتمام الذي يوليه لـ «موريل» فلا تنفكّ تشكر البارون بانفعال على الألطاف المؤثرة، تقول ،التي يبديها لعازف الكمان. ولكن كم لعلّ السيّد «دوشارلوس» كان دهش لو أنه سمع، ذات يوم تأخر فيه هو و«موريل» ولم يأتيا بطريق السكّة الحديديّة، المعلّمة تقول:«لسنا ننتظر من بعد سوى هاتين الآنستين»! ولعلّ البارون كان ازداد ذهوله بمقدار ما كان يظهر في «لاراسپلييير» وهو يكاد لايغادرها، مظهر كاهن كنيسة أو رئيس دير، وكان يقضي فيها أحياناً (عندما يتوافر لـ«موريل» إذن بثماني وأربعين ساعة) ليلتين متواليتين. كانت السيّدة «ڤيردوران» تختار لهما حينذاك غرفتين متّصلتين وتقول كيما توفّر لهما الراحة النفسيّة : وإن طاب لكما بعض العزف فلا تتردّدا في ذلك، فالجدران أشبه بجدران الحصون وليس أحد في الدور الذي أنتما فيه وزوجي ينام نوماً ثقيلاً.» كان السيّد «دوشارلوس» في تلك الأيّام يحلّ محلّ الأميرة في الذهاب لاصطحاب الجدد من المحطّة ويلقى العذر للسيّدة «ڤيردوران» لأنّها لم تجئ بسبب وضع صحّي كان يحسن وصفه إلى حدّ أن المدعوّين كانوا يدخلون بوجه يناسب الوضع ثمّ يطلقون صيحة استغراب إذ يجدون المعلّمة واقفة تفيض نشاطاً وبفسطان يكشف نصف كتفيها.

ذلك أنّ السيّد «دوشارلوس» أصبح مؤقتاً بالنسبة إلى السيّدة «ڤيردوران» المخلص من بين المخلصين ونموذجاً آخر من الأميرة «شير باتوف». كانت أقلّ ثقة بوضعه في المجتمع الراقي منها بوضع الأميرة إذ تتصوّر أنّه إن لم ترغب هذه الأخيرة إلاّ بلقاء النواة الصغيرة فإنّما ازدراءً للآخرين وإيثاراً لها. ولمّا كانت تلك الحيلة هي بالضبط مايميّز آل «ڤيردوران» الذين كانوا يحسبون كلّ من لا يستطيعون مخالطتهم مبرمين فليس يصدّق أن يكون

وسع المعلّمة أن تظنّ للأميرة روحاً فولاذيّة تكره الأناقة. ولكنّها ظلّت تتشبّث برأيها وتوقن أنّه، فيما يخصّ السيّدة الكبيرة أيضاً، إن لم تكن تخالط المبرمين فإنما تفعل بصدق ومن جرّاء ميل إلى أمور الفكر. والمبرمون على أيّة حال كان يتناقص عددهم بالنسبة إلى آل «فيردوران». فإن الحياة في الحمّامات البحريّة كانت تفقد التعريف النتائج المستقبليّة التي ربّما خشي المرء منها في باريس. وإن رجالاً لامعين جاؤوا إلى «بالبيك» بدون زوجتهم، الأمر الذي كان يسهّل كلّ شيء، كانوا يقومون في «لاراسپلبير» بمحاولات تقرّب ومن مبرمين ينقلبون ظرفاء. وكانت تلك حال الأمير «دو غير مانت» الذي ماكان غياب الأميرة ليحمله على الذهاب «بصفة عازب» إلى منزل آل «فيردوران» لو لم يكن مغناطيس مناصرة «دريفوس» قوياً إلى حدّ أنّه جعله يصعد دفعة واحدة السفوح التي تقود إلى «لاراسپلبير» في يوم كانت المعلّمة لسوء الحظّ قد خرجت فيه. والسيّدة «فيردوران» لم تكن على أيّ حال متيقّنة من أنّه ينتمي والسيّد «دوشارلوس» إلى العالم نفسه. لقد سبق بالحقيقة أن قال البارون إن الدوق «دوغير مانت» شقيقه، ولكن ربّما كانت تلك كذبة مغامر. لقد كانت المعلّمة تتردّد تقريباً في دعوته مع الأمير «دو غيرمانت» مهما يكن أبدى من أناقة ولطف وإخلاص لآل «فيردوران». واستشارت «سكي» و«بريشو» :«البارون والأمير «دو غير مانت»، هل يستقيم الأمر بهما؟»

– «ياإلهي، أظنّني ياسيّدتي أستطيع أن أقول بخصوص أحد الاثنين..»

– «أحد الاثنين، وماعسى أن يهمّني ذلك؟» «تقول السيّدة «فيردوران» مغتاظة، «أسألك إن كان الأمر يستقيم بكليهما» ؟ – «آه ! ياسيّدتي، تلك أمور ما أصعب أن نعرفها.» وما كانت السيّدة «فيردوران» تضمّن الأمر أيّ خبث؛ فقد كانت متيقّنة من أخلاق البارون، ولكنّها لم تكن حينما تتحدّث على نحو مافعلت تفكّر فيها البتّة بل لمحض أن تعلم إن كان بالإمكان دعوة الأمير والسيّد «دوشارلوس» سويّة وإن كان الأمر يستقيم بذلك. لم تكن تضمّن أيّ مقصد سوء تلك العبارات الجاهزة التي تستخدمها والتي تحبذّها «الجماعات الصغيرة» الفنّية. وكيما تباهي بالسيّد «دو غير مانت» كانت تودّ اصطحابه بعد الظهر الذي يلي الغداء إلى حفل خيري سوف يمثّل فيه بحّارة من الساحل عمليّة إقلاع. ولما كان لايتّسع لها الوقت للاهتمام بكلّ شيء فقد عهدت بمهامّها إلى المخلص من بين المخلصين، إلى البارون «تدرك أنت أنّه ينبغي أن لا يلبثوا جامدين كالقوالب، يجب أن يروحوا ويجيئوا وأن تُشاهَد «القيامة القائمة»، ولست أدري ما اسم كلّ ذلك. لكنّك ربّما استطعت أنت الذي كثيراً مايذهب إلى مرفأ «بالبيك الشاطئ» أن تدعو إلى القيام بتجربة دون أن تتعب نفسك. لا بدّ ياسيّد «دوشارلوس» أنّك خبير بالأمر أكثر منّي في قصّة تحريك بحّارة صغار. ولكنّنا في نهاية المطاف نبذل جهوداً كبيرة من أجل السيّد «دو غير مانت»، فربّما كان معتوهاً من نادي الخيول. آه ! ياإلهي، إني أتناول بالسوء نادي الخيول ويبدو لي أنّي أتذكّر أنّك من أهله. هيه، أيّها البارون، أنت لاتجيبني، فهل أنت منهم؟ ألا تودّ الذهاب في رحلة معنا؟ هاك، هو ذا كتاب وصلني، وأعتقد أنّه سيحظى باهتمامك. إنّه من أعمال «روجون» وعنوانه جميل :«بين الرجال».

كنت فيما يخصّني أزداد سعادة بأن يحلّ السيّد «دوشارلوس» مرّات عدّة محلّ الأميرة «شيرباتوف» بقدر ماكنت على أسوأ حال معها لسبب عديم الشأن وعميق في الآن نفسه. ففي يوم كنت فيه في القطار الصغير

أغمر بصنوف حَدبي، كما هي حالي دوماً، الأميرة «شيربا توف» شاهدة السيّدة «دو ڤيلپا ريزيس» تستقلّه. لقد جاءت بالفعل لقضاء بضعة أسابيع لدى الأميرة «دو لوكسمبور»، ولكنيّ لم أستجب يوماً، إذ كانت تقيّدني حاجتي اليوميّة لرؤية «ألبيرتين»، لدعوات المركيزة ومضيفتها الملكيّة المتكرّرة. وأنّبني ضميري إذ رأيت صديقة جدّتي وبداعي محض الواجب (ودون أن أفارق الأميرة «شير باتوف») تحدّثت إليها فترة طويلة إلى حدّ ما. كنت أجهل تماماً على أيّة حال أنّ السيّدة «دو ڤيلپاريزيس» تعلم حقّ العلم من كانت جارتي ولكنّها لاتريد أن تعرفها. وفي المحطّة التالية غادرت السيّدة «دوڤيلپاريزيس» عربة القطار وبلغ بي أن لمت نفسي على أنيّ لم أُعنْها على النزول. ومضيت لأجلس من جديد إلى جانب الأميرة. ولكنّما خيلّ إليّ أن تغييراً يحلّ تحت ناظريّ —وهو انقلاب غير نادر الحدوث لدى الأشخاص الذين تشكو أوضاعهم من قلّة المتانة والذين يخشون أن تكون سمعت من يتناولهم بسوء وأن تحتقرهم. كادت السيّدة «شيرباتوف»، وهي غارقة في «مجلة العالَمَيْن»، لاتجيب إلاّ من أطراف شفتيها على أسئلتي وقالت في نهاية المطاف إني أسبّب لها الصداع. ماكنت أفهم شيئاً في أمر جريمتي. وحينما ودّعت الأميرة لم تشرق الابتسامة المعتادة على وجهها وأقبلت تحيّة جافّة تخفض ذقنها وهي حتىّ لم تمدّ إليّ يداً ولم تكلّمني مذذاك في يوم. لكنّها لابدّ كلّمت أسرة «ڤيردوران» —بغية أن تقول ماذا، لست أدري— فاتّهم حالما كنت أسألهم إن يكن يحسن بي أن أجامل الأميرة «شيرباتوف» كانوا يسارعون جميعاً بصوت واحد: «لا، لا، لا، خصوصاً لا، فإنّها لاتحبّ الملاطفات!» ماكانوا يفعلون ذلك كيما يوقعوني في خلاف معها، ولكنّها أفلحت في حملهم على الاعتقاد بأنّها لاتهزّها صنوف المراعاة ولاتأخذ منها أباطيل هذه الدنيا. ينبغي أن تكون شاهدت السياسيّ الذي يعدّونه الأكثر تصلّباً والأكثر تشدّداً والأصعب اتّصالاً منذ أن جاء إلى السلطة، ينبغي أن تكون شاهدته في زمن زوال الحظوة يستجدي بوجل وبابتسامة عاشق مشرقة التحيّة المتعالية لصحفيّ عاديّ؛ لابّد أن تكون شاهدت ارتداد قامة «كوتار» (الذي كان مرضاه الجدد يعدّونه قضيباً من حديد) وأن تعلم من أيّ صنوف حنق العاشقين وأي إخفاقات السنوبيّة تشكلّ التعالي الظاهريّ ومناهضة السنوبيّة التي يقرّ بها الجميع للأميرة «شيرباتوف» كي ندرك أن القاعدة في الإنسانية —القاعدة التي تحتمل استثناءات بالطبع— هي أنّ القساة ضعاف لم يرغب بهم أحد، وأن الأقوياء الذين قليلاً مايهتمّون بأن يرغب بهم أحد أو لايرغب يملكون وحدهم تلك الوداعة التي تحسبها العامّة ضعفاً.

يجدر بي على أيّة حال أن لاأحكم حكماً قاسياً على الأميرة «شيرباتوف»، فما أكثر حالتها! فإن رجلاً مرموقاً كان إلى جانبي دلّني ذات يوم، إبّان دفن أحد آل «غيرمانت»، على رجل ممشوق القوام رزق محيّا جميلاً، وقال لي جاري: «إن هذا من بين آل «غيرمانت» جميعهم هو الأكثر إدهاشاً والأكثر غرابة. إنّه شقيق الدوق.» فأجبته غير محاذر أنّه يخطئ الظنّ وأن هذا السيّد الذي لاتربطه بآل «غيرمانت» أيّة قرابة يدعى «فورنييه سارڤوليز». فأدار لي الرجل المرموق ظهره وما عاد مذذاك حيّاني.

ومرّ موسيقيّ كبير عضو في المجمع ومن أصحاب المقامات الرسميّة العالية، وكان يعرف «سكي»، مرّ بـ «أرامبوڤيل» حيث كانت له ابنة أخ وجاء أحد أيّام أربعاء آل «ڤيردوران». وقد أبدى له السيّد «دوشارلوس» لطفاً خاصّاً (بناء على طلب «موريل») وذلك على وجه الخصوص كيما يمكّنه عضو المجمع لدى عودته إلى باريس من حضور مختلف الجلسات الخاصّة والحفلات التجريبيّة، الخ.. التي كان عازف الكمان يعزف فيها.

ووعد عضو المجمع، وقد راقه الأمر وهو إلى ذلك رجل ظريف، وبرّ بوعده. وقد تأثر البارون بالغ التأثر بسائر صنوف الحفاوة التي أحاطه بها هذا الرجل (وهو على أي حال فيما يخصّه عاشق للنساء فحسب والعشق عظيم) وبكل التسهيلات التي وفّرها له للقاء «موريل» في الأماكن الرسمية التي لايدخلها الغرباء عن الفنّ وبسائر الفرص المهيّأة من جانب الفنان الشهير للموسيقار الشاب كي يظهر ويعرّف بنفسه وذلك بتعيينه وتفضيله على سواه، بتساوي الموهبة، في حفلات موسيقيّة يُنتَظر أن تكون لها أصداء واسعة. ولكن السيّد «دوشارلوس» ماكان يرتاب أنّه يدين للأستاذ بامتنان يتعاظم بقدر مالم يكن هذا الأخير، وهو مزدوج الفضل أو إن فضّلتَ مزدوج الجرم، يجهل شيئاً من علاقات عازف الكمان والحامي الكريم له. وقد يسّرها، دونما تعاطف معها بالتأكيد إذ لايستطيع أن يفهم حبّاً غير حبّ المرأة الذي كان الملهم لكلّ موسيقاه، بل بداعي اللامبالاة الأخلاقيّة والمجاملة وحبّ الخدمة المهنيّ واللطافة الاجتماعيّة والسنوبيّة. فأمّا عن الشكوك بطبيعة هذه العلاقات فقد كان لديه منها القليل القليل حتىّ إنّه سأل :«سكي» منذ أوّل عشاء له في «لاراسپليير»، سأله وهو يتحدّث عن السيّد «دوشارلوس» و«موريل» كما لعلّه كان فعل عن رجل وعشيقته :«هل مضى زمن طويل على وجودهما معاً؟» لكنّ صفة رجل المجتمع عنده كانت أقوى من أن يدع شيئاً من ذلك يظهر للمعنيّين، كما كان على استعداد، إن جرى بين رفاق «موريل» تداول بعض القيل والقال، أن يخمده ويطمئن «موريل» وهو يقول بلهجة أبويّة :«يقولون ذلك عن كلّ الناس في يومنا»، فلم يكفّ عن غمر البارون بصنوف اللطف التي ألفاها هذا الأخير رائعة ولكنّما طبيعيّة إذ كان عاجزاً عن افتراض هذا القدر من الرذيلة هذا القدر من الفضيلة لدى الأستاذ الذائع الصيت. ذلك لأنّ الكلمات التي كانوا يقولونها في غياب السيّد «دوشارلوس» و«التقريبيّات» بحقّ «موريل» لم يكن أحد يملك مايكفي من نذالة ليردّدها أمامه. ومع ذلك فإن هذا الوضع البسيط كافٍ ليُظهر أن هذا الشيء المذموم في العالم أجمع والذي لعلّه لايجد مدافعاً عنه في أيّ مكان، عنينا «القيل والقال»، فإنّه حتىّ هو، وسواء كنّا نحن موضوعه وأضحى بذلك مقيتاً بشكل خاصّ في نظرنا أو أطلعنا بشأن شخص ثالث على أمر كنّا نجهله إنّما يملك قيمته السيكولوجيّة. فهو يمنع الفكر من الإغفاء على الرؤية الزائفة التي يأخذها عمّا يظنّه الأشياء وليس سوى ظاهرها. فيقلب هذا الظاهر بمهارة فيلسوف مثاليّ ساحرة ويقدّم لنا بسرعة زاوية غير متوقّعة من قفا القماش. أفلعلّ السيّد «دوشارلوس» كان استطاع أن يتخيلّ هذه الكلمات تدلي بها قريبة رقيقة القلب :«كيف تريد «ميميه» أن يكون عاشقاً لي؟ أفغاب عنك إذاً أنني امرأة أنا!» ولكنّها تبدي مع ذلك تعلّقاً حقيقيّاً عميقاً بالسيّد «دوشارلوس». فكيف نعجب إذاً، فيما يخصّ آل «فيردوران» الذين لم يكن له أيّ حقّ في الاعتماد على ودادهم وطيبتهم، أنْ كانت الأقوال التي يدلون بها بعيداً عنه (وما كانت أقوالاً فحسب كما سنرى) شديدة الاختلاف عمّا يتخيلّها، يعني مجرّد انعكاس لتلك التي كان يسمعها حينما يكون حاضراً؟ تلك فقط كانت تزيّن بنقوش المودّة المبنى الصغير المثاليّ الذي كان السيّد «دوشارلوس» يقصده أحياناً ليحلم وحيداً حينما يُدخل خياله زمناً يسيراً في الفكرة التي يحملها آل «فيردوران» عنه. لقد كان الجوّ هناك محبباً وديّاً إلى حدّ بعيد والراحة تشدّ العزيمة إلى حدّ أنّ السيّد «دوشارلوس» حينما كان يجيء قبل النوم ليروّح عنه همومه حيناً ما كان يغادره البتّة دون أن تشرق على شفته إبتسامة. لكنّ هذا النوع من المباني مزدوج بالنسبة إلى كلّ منّا. فقبالة المبنى الذي نظنّه

الوحيد هناك الآخر الذي لاتراه عيننا عادة، وهو الحقيقيّ الموازي للذي نعرفه ولكنّه شديد الاختلاف عنه وربّما أفزعتنا نقوشه التي لانتعرّف فيها شيئاً مّ كنّا ننتظره وكأنّما صنعت من الرموز البشعة لعدائيّة لم نرتب بها. فأي ذهول كان أصاب السيّد «دوشارلوس» لو دخل أحد تلك المباني المعادية بفضل «قيل وقال» وكأنّما بوساطة واحد من سلالم الخدم خطّت كتابات بذيئة على أبواب الشقق بيد موردين مستائين أو خدّام مفصولين! ولكنّا بمقدار ماحرمنا من حسّ التوجّه الذي تتّصف به بعض الطيور فإنّا نفتقر إلى حسّ الرؤية كما نفتقر إلى حسّ المسافات فنتخيّل على قرب شديد منّا اهتمام أناس هم على العكس لايفكّرون البتّة بنا فيما لانرتاب بأنّنا في الوقت نفسه همّ غيرهم الوحيد. هكذا كان السيّد «دوشارلوس» يعيش مخدوعاً كالسمكة التي تظنّ أن الماء الذي تسبح فيه يمتد خلف زجاج حوضها الذي يريها انعكاسه، فيما لاتبصر بالقرب منها في العتمه الجذلان الذي يراقب صنوف مرحها أو مربّي الأسماك الجبّار الذي سيخرجها دونما إشفاق، في اللحظة اللامتوقّعة المحتومة، واللحظة مؤجّلة الآن فيما يخصّ البارون (الذي سيكون مربّي الأسماك في باريس بالنسبة إليه هو السيّدة «ڤيردوران»)، الوسط الذي كان يروقها العيش فيه ليلقي بها في آخر سواه. أضف أن الشعوب بما هي تجمّعات أفراد يمكن أن توفّر أمثلة أوسع، ولكنّها مماثلة في كلّ من أجزائها، عن ذلك العمى العميق العنيد المحيّر. ولئن تسبّب حتىّ الآن في أن يدلي السيّد «دوشارلوس» ضمن العشيرة الصغيرة بأقوال تتّسم بمهارة لاجدوى منها أو بجرأة تثير ابتسامات في الخفاء فإنّه لم يجرّ بعد عليه ولن يكون له في «بالبيك» مغبّات خطيرة. فليس يحول قليل من الزلال والسكر ولاانتظام ضربات القلب دون استمرار الحياة طبيعيّة بالنسبة إلى من لايتنبّه حتىّ لذلك في حين يرى الطبيب وحده ماينبىء فيه عن وقوع كوارث. أمّا الآن فإن ميل السيّد «دوشارلوس» إلى «موريل» -أفلاطونيّاً كان أم لا- إنّما كان يجده جميلاً جدّاً ظنّاً منه أن الأمر سوف يجري سماعه ببراءة كليّة ومتصرّفاً في ذلك تصرّف رجل مرهف الحسّ لايخشى، وقد دعي للإدلاء بشهادته أمام المحكمة، الدخول في تفاصيل تبدو في ظاهرها في غير صالحه ولكنّها لهذا السبب نفسه تتّسم بطبيعيّة أكبر وبسوقيّة أقلّ من الاحتجاجات التقليديّة لمتهّم مسرحيّ. وكان يطيب للسيّد «دوشارلوس» أن يتكلّم بالحريّة نفسها، وعلى الدوام بين «دونسيير الغربيّة»و «سان مارتان دوشين» -أو العكس في رحلة العودة- عن أناس لهم، فيما يبدو، عادات غريبة، وكان حتىّ يضيف قائلاً :«إني على كلّ حال أقول غريبة دون أن أدري سبب ذلك إذ ليس في الأمر ماكان غريباً إلى هذا الحدّ»، كي يبرهن لنفسه كم كان مرتاح النفس مع جمهوره. وكذلك كان بالفعل بشرط ان تكون مبادرة العمليات بيده وأن يعلم أن جمهور المشاهدين أبكم باسم مغلوب على أمره من جرّاء سذاجته أو حسن تربيته.

عندما لم يكن السيّد «دوشارلوس» يتكلّم عن إعجابه بجمال «موريل» كما لو لم تكن له صلة بميل يدعونه عيباً كان يبحث في ذلك العيب ولكن كما لو لم يكن العيب عيبه. وما كان يتردّد أحياناً في أن يسميّه باسمه. ولمّا كنت أسأله، بعدما تأملت التجليد الفاخر لكتاب له لـ«بلزاك»، مالذي يفضّله في «الكوميديا الإنسانيّة» أجابني وهو يوجّه فكره صوب فكرة ثابتة : «هذا بالكامل أو ذاك بالكامل، المنمنمات

الصغيرة من مثل «كاهن تور» و«المرأة المهجورة»، أو الجداريات الكبيرة كسلسلة «الأوهام الضائعة». عجباً! ألا تعرف «الأوهام الضائعة»؟ إنّها لغاية في الجمال تلك اللحظة التي يسأل فيها «كارلوس هيرّيرا» عن اسم القصر الذي تمرّ عربته أمامه: إنّه «راستينياك» مسكن الشابّ الذي أحبّه فيما مضى. ويستغرق الكاهن حينذاك في حلم كان «سوان» يدعوه، وفي ذاك ظرف كثير، «كآبة أو لمپيو» اللواطة(١). ثمّ موت «لوسيان»! لست أذكر أيّ رجل ذوّاقة حضره هذا الجواب، وكانوا يسألونه أيّة حادثة بعثت أعظم الأسى في حياته: «انّه موت «لوسيان دو روبامبريه» في كتاب «مباهج الحياة وشقاؤها». وقاطعه «بريشو» قائلاً: «أعرف أنّ «بلزاك» كثير الرواج في هذا العام كما هي حال التشاؤم في العام الماضي. ولكنّي أقرّ، حتىّ إن جازفت ببعث الأسى في نفوس تعاني من قلّة احترام «بلزاك»، دون أن أدّعي لنفسي، يالعنة الله! دور دركيّ الآداب وأسطّر ضبوطاً لأخطاء قواعديّة، أقرّ إذاً بأن المرتجل الضخم الذي يبدو لي أنّك تبالغ كثيراً في تقييم صنوف هذيانه المريعة قد بدا لي دوماً ناسخاً تنقصه الدقّة الكافية. لقد قرأت تلك «الأوهام الضائعة» التي تحدّثنا عنها أيّها البارون وأنا أسوم نفسي العذاب لبلوغ حرارة المتدرّبين وأقرّ بكلّ بساطة قلب أنّ هذه الروايات المسلسلة التي سطّرت بلغة مفخّمة وبنوع من الابهام مضاعف ومثلّث («سعادة استير» و«أين تقود دروب السوء» و «كم يكلّف الحبّ الشيوخ»(٢) قد وقعت دوماً منّي موقع أسرار «روكمبول»(٣) الذي رقّي بفعل امتياز يصعب تفسيره إلى موقع الرائعة المشكوك فيه». -«تقول ذلك لأنّك غير عارف بالحياة»، يقول البارون وقد شعر بضيق مزدوج لأنه كان يحسّ أن «بريشو» لن يفهم لا أسبابه كفنّان ولا الأسباب الأخرى. فأجاب «بريشو» قائلاً: «أدرك تماماً أنّك تبغي أن تقول، كيما أتكلّم بطريقة الأستاذ «فرانسوا رابليه»، إنّني لوذع لوذعي أصمعي. مع ذلك فانّني أحبّ بقدر مايفعل الرفاق أن يخلّف الكتاب انطباعاً لديّ بالصدق ونبض الحياة، فلست من رجال العلم أولئك..» وقاطعه الدكتور «كوتار»، لا بلهجة المتشكّك من بعد بل بلهجة المتأكّد المتظرّف: «ساعة دفع الحساب». - «... الذين ينذرون النفس للآداب باتّباع نظام دير «لابيّيى أو بوا» وفي طاعة السيّد الڤيكونت «دوشاتوبريان»، كبير أساتذة التصنّع، وفق نظام الإنسانيّين الصارم. إن السيّد الڤيكونت «دو شاتوبريان».. -«شاتوبريان مع البطاطا؟»يقول «كوتار» مقاطعاً. -«إنّه هو سيّد الجماعة»، يضيف «بريشو» قوله دون أن يلحظ مزاح الدكتور الذي أثارت مخاوفه في المقابل جملة الجامعيّ فنظر إلى السيّد «دوشارلوس» بادي القلق. لقد بدا أنّ «بريشو» أخلّ باللياقة في حقّ «كوتار» الذي رسم تلاعبه اللفظيّ ابتسامة دقيقة على شفتي الأميرة «شيرباتوف»، فقالت تلطفاً وكي تبدي أن «نكتة» الطبيب لم تمرّ بها مرور الكرام: «إن السخرية اللاذعة للارتيابي الكامل لاتفقد البتّة مع الأستاذ حقوقها.» فأجاب الدكتور: «الرجل الحكيم ارتيابيّ حتماً. ومايدريني أنا؟ كان سقراط يقول: اعرف نفسك. ذلك صحيح تماماً، فالغلوّ في كلّ شيء نقيصة. ولكنّما أظلّ مذهولاً حين أفكّر بأنّ ذلك كان كافياً لدوام اسم سقراط إلى يومنا هذا. فما عسانا نجد في هذه الفلسفة؟ القليل القليل باختصار القول. وحينما نفكّر بأنّ «شاركو» وسواه قدّموا أعمالاً ألف مرّة أكثر روعة وتستند على الأقل إلى شيء ما، إلى إلغاء

---

(١) Tristesse d'olympio من أشهر قصائد الشاعر «ڤيكتور هوغو» في مجموعته «الاضواء والظلال» وفيها يروي عن بدايات حبّه لمن ستصبح زوجته: «جوليت درويه».

(٢) هي العناوين الأول والثالث والثاني من كتاب «بلزاك»: «مباهج حياة الخلائل وشقاواتها».

(٣) بطل ثلاثين رواية كتبها «بونسون دو تيراي» في القرن التاسع عشر ويمثل المغامر الذي لاتصدّق مغامراته.

منعكس حدقة العين بوصفه متلازمة الشلل العام، وهم الآن منسيّون تقريباً! ومجمل القول أنّ سقراط ليس أمراً خارقاً. إنّهم أناس ماكان لديهم مايفعلونه وكانوا يقضون النهار كلّه في التنزّه و«المشاحنة». ذلك كحال يسوع المسيح: أحبّوا بعضكم بعضاً، ذلك جميل جداً» ورجته السيّدة «كوتار» :«يا صديقي..» –زوجتي تحتجّ بالطبع، إنهنّ عصابيّات جميعهنّ.» وقالت السيّدة «كوتار» همساً :«ولكنّي لست عصابيّة يادكتوري العزيز.» –«كيف لاتكون عصابيّة؟ وحينما يكون ابنها مريضاً تنتابها أعراض أرق. على أنني في النهاية أعترف بأن سقراط وماتبقّى أمر ضروريّ من أجل ثقافة عالية وكي تمتلك مواهب في العرض. إني استشهد دوماً بـ«اعرف نفسك» أمام طلاّبي في الدرس الأول. وقد هنأني على ذلك الأب «بوشار» بعدما أخذ علماً به» وأردف «بريشو» يقول :«لست من مناصري الشكل للشكل كما لعلّني لن أكتنز في الشعر القافية الغنيّة جدّاً. ولكنّ «الكوميديا الانسانيّة» –القليلة الإنسانية إلى حدّ بعيد– تتجاوز كثيراً كونها عكس تلك المؤلفات التي يتجاوز فيها الفنُّ المضمون كما يقول ذاك الكديش الطيّب المدعوّ «أوفيد»(١). ومن المسموح به تفضيل درب في نصف المنحدر يقودك إلى مقرّ رعيّة «مودون»(٢)أو إلى صومعة «ڤيرنيه»(٣) على مسافة متساوية من «لاڤاليه أولو»(٤)،حيث كان «رونيه» يفي على نحو رائع بواجبات حبريّة لاتعرف الغفران والمُسامحة، و«جادي»(٥) حيث ماكان يكفّ «هونوريه دو بلزاك» الذي يلاحقه مبلّغو المحاكم عن خربشة الرسائل إلى البولونيّة، فعلَ رسول متحمّس للرطانات المبهمة.» وأجاب السيّد «دوشارلوس» ولايزال شديد التشرّب بذوق «سوان» كي لايغيظه «بريشو» : «إن «شاتوبريان» أوفر حيويّة ممّا تقول و«بلزاك» كاتب كبير مع ذلك، ثمّ إنّ «بلزاك» قد عرف حتىّ تلك الأهواء التي يجهلها الجميع أوهم لاينظرون فيها إلاّ للتنديد بها. هذا، وإنّ «سارازين» و«الفتاة ذت العينين الذهبيّتين» و«عشق في الصحراء» وحتّى «العشيقة الكاذبة» المحيّرة بعض الشيء وبصرف النظرعن «الأوهام الضائعة» الخالدة، إنّما تعزّز كلّها أقوالي. وحينما كنت أكلّم «سوان» عن هذا الجانب «الخارق الطبيعة» لدى «بلزاك» كان يقول لي: «إنّك من رأي «تين» (Taine) وأردف السيّد «دوشارلوس» قائلاً :«وماكنت تشرّفت بمعرفة «تين» (يقول بهذه العادة المُغيظة في استخدام كلمة «السيّد»التي لاتجدي نفعاً، عادة لدى علية القوم كما لو ظنّوا أنّهم باطلاقهم صفة «السيّد» على كاتب كبير إنّما يولونه شرفاً وربّما يلزمون الناس حدودهم ويعلمونهم تماماً أنّهم لايعرفونه) ، ماكنت أعرف السيّد «تين» ، ولكنّما أحسبني نلت شرفاً عظيماً أنْ كنت من ذات رأيه.» لقد كان السيّد «دوشارلوس» على أيّة حال ذكيّاً جدّاً على الرغم من تلك العادات الجتمعيّة المضحكة. ومن المرجّح أنّه كان أحسّ، لو وفّر زواج قديم رباط قرابة بين أسرته وأسرة «بلزاك» ، بارتياح (لايقلّ على أيّة حال عن ارتياح «بلزاك») لعلّه ماكان ملك نفسه مع ذلك عن الاعتداد به وكأنّه علامة تنازل رائع من قبله.

كان يستقل القطار أحياناً في المحطّة التي تلي «سان مارتان دوشين» بعضُ الفتيان. وماكان السيّد

(١) من كبار شعراء الرومان، اشتهر على وجه الخصوص بكتاب «التحوّلات» (Me'tamorphoses)
(٢) Meudon : كان «رابليه» (من مشاهير كتّاب العصر الوسيط وكان راهباً) قد عيّن لخدمة هذه الرعيّة.
(٣) بيت ريفيّ سكنه «ڤولتير» (مفكر فرنسي وكاتب كبير من القرن الثامن عشر) من ١٧٥٨ الى ١٧٧٨ .
(٤) بيت اشتراه «شاتو بريان» (واسمه «رونيه» عام ١٨١١ وسكن فيه عدّة سنوات .
(٥) المنزل الذي سكن فيه «بلزاك» من عام ١٨٣٧ وحتىّ ١٨٤٠ والبولونية المعنيّة لاحقاً هي السيّدة «هانسكا» التي تزوجها عام ١٨٥٠

«دوشارلوس» يستطيع الحؤول دون النظر إليهم، ولما كان يختصر ويخفي الاهتمام الذي يصرفه إليهم فقد كان ذاك الاهتمام يبدو وكأنّه يخفي سرّاً أكثر خصوصيّة بعد من السّر الحقيقيّ؛ لكأنّما كان يعرفهم ويتبدّى ذلك رغماً عنه بعد ماسلّم بتضحيته قبل أن يستدير صوبنا كما يفعل أولئك الأطفال الذين مُنعوا في أعقاب اختصام بين الأهلين من تحيّة رفاقهم ولكنهم لايستطيعون حينما يلتقونهم الامتناع عن رفع رؤوسهم قبل أن يهووا من جديد تحت سوط مربّيهم.

لدى سماع الكلمة المأخوذة عن اليونانية(١) التي أتبع بها السيّد «دوشارلوس» في حديثه عن «بلزاك»، التلميح إلى «كآبة أولمپيو» في «مباهج الحياة وشقاواتها» نظر «سكي» و«بريشو» و «كوتار» بعضهم إلى بعض بابتسامة ربّما كانت أقلّ سخرية من اتّسامها بالرضى الذي قد يصيبه متعشّون أفلحوا في حمل «دريفوس» على التحدّث عن قضيتّه أو الامبراطورة عن عهدها.كنّا ننوي دفعه قليلاً حول هذا الموضوع ولكنّها «دونسيير» وصلناها حيث كان «موريل» يلحق بنا. وكان السيّد «دوشارلوس» يراقب حديثه بعناية في حضرته وحينما أراد «سكي» أن يعيده إلى حبّ «كارلوس هيريرا» لـ «لوسيان دو روبنپريه» اتخذ البارون هيئة متكدّرة غامضة ثم قاسية انتقاميّة في آخر المطاف (إذ رأى أنّهم لايُصغون إليه)، هيئة والد يسمع من يتفوّه ببذاءات في حضرة ابنته. ولما أبدى «سكي» شيئاً من العناد في موالاة حديثه قال السيّد «دوشارلوس» وقد جحظت عيناه وتعالى صوته، قال بلهجه ذات دلالة وهو يدلّ على «ألبيرتين»، مع أنّها لاتستطيع أن تسمعنا وقد شغلها الحديث مع السيّدة «كوتار» واBlgميرة «شيرباتوف»، وبنبرة مزدوجة المعنى لمن يبغي تلقين درس لجماعة سيّئي التهذيب :«في اعتقادي أن الوقت ربّما حان للتحدّث عن أمور يمكن أن تثير اهتمام هذه الفتاة». لكنّي أدركت تمام الادراك أن الفتاة في نظره لم تكن «ألبيرتين» بل «موريل». وقد أظهر فيما بعد على أيّة حال صحّة تفسيري بالعبارات التي استخدمها حين طلب أن لايكون بينهم أحاديث من هذا القبيل أمام «موريل». وقال لي وهو يكلّمني عن عازف الكمان :«تعلم أنّه ليس البتّة ماقد تظنّ. إنّه صغير شريف جدّاً وقد لبث دوماً عاقلاً وجدّياً إلى أبعدِ حدّ». كنت تحسّ في هذه الكلمات أنّ السيّد «دوشارلوس» كان يعدّ الشذوذ الجنسيّ خطراً يتهدّد الشباب بقدر مايفعل البغاء بالنسبة إلى النساء وأنّه إن كان يستخدم صفة الجدّية بالنسبة إلى «موريل» فانّما بالمعنى الذي تتّخذه إن طبقّت على عاملة صغيرة. حينذاك سألني «بريشو» بغية تغيير الحديث إن كنت أنوي المكوث بعد طويلاً في «انكرڤيل». وعبثاً سبق لي أن حملته عدّة مرّات على ملاحظة أنّي لم أكن أقطن «انكرڤيل» بل «بالبيك»، فقد كان يرتكب دوماً الخطأ نفسه إذ كان يطلق على هذا القسم من الشاطئ اسم «انكراڤيل» أو «بالبيك انكرڤيل». ثمّة على هذا النحو أناس يتكلّمون عن الأمور نفسها التي نتكلّم عنها ويطلقون عليها اسماً مختلفاً بعض الشيء. كانت سيّدة من حيّ «سان جيرمان» تسألني دوماً حينما تبغي الكلام عن الدوقة «دو غير مانت» إن كان مضى وقت طويل لم ألتق فيه «زينابيد» أو «أوريان زينابيد». وكنت لذلك لاأفهم لأول وهلة. والأرجح أن كان ثمّة زمن كانت قريبة للسيّدة «دوغيرمانت» تدعى «أورباني» فدعيت هي، بغية تجنّب الخلط «أوريان زينابيد». وربّما كان ثمّة بادئ الأمر محطّة واحدة فقط في «انكرڤيل» وكانوا

(١) سبق أن ذكر «دوشارلوس» الكلمة في الحديث عن «كآبة أولمپيو لواطة الأولاد» والكلمة الفرنسية pédérastie مأخوذة عن اليونانيّة.

يمضون من هناك إلى «باليبك» بالعربة. وقالت «ألبيرتين» مستعجبة من لهجة والد الأسرة المهيبة التي انتحلها السيّد «دوشارلوس» منذ قليل :«عمّ كنتم تتحدّثون؟» وسارع البارون يجيب :«عن «بلزاك»، وانّك بالضبط ترتدين في هذا المساء أثواب الأميرة «دوكادينيان»، لا الأولى، أثواب العشاء، بل الثانية. » كان مردّ هذه المصادفة أنيّ كنت استلهم لاختيار أثواب لـ«ألبيرتين» الذوق الذي كوّنته لذاتها بفضل «ايلستير» الذي كان يقدّر أعظم التقدير اعتدالاً ربّما أمكن أن ندعوه بريطانياً لو لم ينضف إليه قدر أكبر من النعومة والطراوة الفرنسيّة. فقد كانت الفساطين التي يفضّلها تبسط في الأغلب للناظرين تآلفاً متّسقاً من الألوان الرماديّة شأن «ديان دو كادينيان». كاد لايكون ثمّة غير السيّد «دوشارلوس» ليعرف كيف يقدر حقّ قدرها أثواب «ألبيرتين»، فقد كانت عيناه تكتشفان في الحال مايؤسّس ندرتها وقيمتها؛ وما كان في يوم ليقول اسم قماش آخر وكان يتعرّف الصانع. على أنّه كان يفضّل -فيما يخصّ النساء- شيئاً من الألق واللون يجاوز قليلاً ماكان يقبل به «ايلستير». ولذلك فقد رمتني ذاك المساء بنظرة نصفها ابتسامة والنصف قلق وهي تحني أنفها الصغير، أنف الهرّة المورّد. وبالفعل كانت سترتها التي من صوف الشوفيوت الرماديّ توهم وهي تغطّي تنورتها التي من كريب الصين الرماديّ أن «ألبيرتين» كلّها باللون الرماديّ. ولكنّها، إذ أشارت إليّ بأن أساعدها لأنّ أكمامها المنفّخة كانت بحاجة أن تُملّس أو تُرفع كي ترتدي أو تخلع سترتها، خلعت تلك السترة، ولمّا كانت تلك الأكمام من قماش اسكتلندي ناعم جداً ورديّ اللون وأزرق باهت وضارب إلى الخضرة ومتموّج الألوان فقد بدا كأنّما تشكلّ قوس قزح في سماء رماديّة. وكانت تتساءل إن كان ذلك سيروق السيّد «دوشارلوس»، فصاح هذا مفتوناً :«ذلكم شعاع وموشور ألوان. إني أقدّم كلّ تهانيّ.» فأجابت «ألبيرتين» بلطف وهي تشير إليّ «لكنّ الفضل يعود للسيّد وحده»، إذ كان يحلو لها أن تبرز مايأتيها عن يدي. وأردف السيّد «دوشارلوس» يقول :«ليس من يخشى اللون سوى النساء اللائي لايحسنّ اختيار ملابسهنّ. فيمكن أن تكون المرأة متألّقة دون سوقيّة وناعمة دون تفه. وليس لديك على أيّة حال ذات أسباب السيّدة «دو كادينيان» لابتغاء الظهور مظهر المتجرّدة عن الحياة، إذ تلك كانت الفكرة التي تريد أن تغرسها في صدر «آرتيز» بتلك الأثواب الرماديّة» أمّا «ألبيرتين» التي كانت تهتّم بلغة الفساطين الصامتة تلك فقد سألت السيّد «دوشارلوس» عن الأميرة «دو كادينيان» فقال البارون بلهجة حالمة :«آه! إنّها أقصوصة رائعة. وإني أعرف الحديقة الصغيرة التي تنزّهت فيها «ديان دوكادينيان» مع السيّدة «ديسپار» فهي حديقة إحدى بنات عمومتي.» وهمس «بريشو» في أذن «كوتار»: «إنّ مسائل حديقة ابنة عمّه مجتمعة، وكذلك سلسلة أنسابه، يمكن أن تكتسب ثمناً بالنسبة إلى هذا البارون الطيّب. ولكن مافائدة ذلك بالنسبة إلينا نحن الذين لم يسعفهم الحظّ بالتنزّه فيها ولانعرف تلك السيّدة ولانملك ألقاب نبلاء؟» فما كان «بريشو» يظنّ أنّه يمكن لامرئ الاهتمام بفسطان وبحديقة اهتمامه بعمل فنيّ وأن السيّد «دوشارلوس» كان يعود فيرى ممّرات السيّدة «دو كادينيان» الصغيرة كما هي واردة لدى «بلزاك». وتابع البارون يقول: ولكنّك تعرفها»، يقول لي وهو يتكلّم عن ابنة العم تلك ويوجّه الحديث إليّ بغية دغدغة عواطفي وكأنما لمن كان منفياً داخل العشيرة الصغيرة. وإن لم يكن في نظر السيّد «دوشارلوس» من من عالمه فقد كان على الأقلّ يرتاد عالمه. «لابدّ في جميع الأحوال أن تكون رأيتها في منزل السيّدة «دوفيلپاريزيس». وسأل «بريشو» بهيئة المفتون :«هي المركيزة «دو فيلپاريزيس» التي تملك قصر «بوكرو» ؟

فسأله السيّد «دوشارلوس» بجفاء :«أجل،وتعرفها؟» فردّ «بريشو» قائلاً: «كلاّ، ولكنّ زميلنا «نوربوا» يقضي في كل عام قسماً من عطلته في «بوكرو»، وقد تسنّى لي أن أكتب إليه إلى هناك.» وقلت لـ«موريل» ظنّاً منّي أنّي أثير اهتمامه إنّ السيّد «دو نوربوا» كان صديق والدي. لكنّما لم تتبيّ حركة في وجهه عن أنه سمع لشدّة مابعّد والديّ من أناس هيّنين ولايقربون من بعيد جداً ماسبق أن كان شقيق جدّي الذي كان والده يعمل خادماً خاصاً عنده والذي خلّف لدى خدّامه ذكرى مبهورة إذ كان يحبّ بعكس باقي أسرته «أن يخلق المتاعب». «يبدو أن السيّدة «دو ڤيلپاريزيس» امرأة متفوّقة، ولكنّما لم يتسنّ لي في يوم أن أحكم على الأمر بنفسي ولا لزملائي على أيّ حال لأنّ «نوربوا» لم يقدّم أيّامنا للمركيزة، مع أنّه من جانب آخر يفيض تأدّباً ولطفاً في المجمع. ولست أعلم أن استقبل أحد من جانبها سوى صديقنا «تورو دانجان» الذي كانت تربطه بها علاقات عائليّة قديمة، وكذلك «غاستون بواسيّة» الذي رغبت في معرفته على إثر دراسة كانت تحوز اهتمامها على نحو خاصّ. فقد تناول عشاءه مرّة هناك وعاد وهو تحت تأثير السحر. وفوق ذلك لم تدعُ السيّدة «بواسيّيه». وابتسم «موريل» تحناناً لدى سماع تلك الأسماء، وقال لي بهيئة يساوي الاهتمام فيها اللامبالاة التي أبداها حين سمع من يتحدّث عن المركيز «دونوربوا» وعن والدي :«آه! تورو دانجان»! «تورو دانجان» كان يؤلّف زوج أصدقاء مع عمّك، وحينما كانت تريد سيّدة مكاناً في الوسط بمناسبة استقبال في المجمع كان عمّك، يقول :«سأكتب إلى «تورو دانجان» ،وكان المكان طبعاً يرسل في الحال، فأنت تدرك تماماً أن «تورو دانجان» ماكان ليجازف برفض أيّ أمر لعمّك الذي كان اقتصّ منه في أوّل فرصة تلوح. كذلك يبهجني أن أسمع اسم «بواسيّيه»، فإنّما كان شقيق جدّك يقوم هناك بالتوصية على مشترياته كافّة للسيّدات في فترة رأس السنة. أعرف ذلك لأنّني أعرف الشخص الذي كان مكلّفاً بالمهمّة.» وكان أكثر من عارف له، فقد كان والده. كان بعض من تلميحات «موريل» الرقيقة تلك إلى ذكرى عمّي على علاقة بانتفاء نيّتنا أن نوالي البقاء في فندق آل «غير مانت» حيث لم نجئ للسكنى إلاّ بسبب جدّتي. وكان الحديث يجري أحياناً عن انتقال محتمل. ولابدّ أن نعلم، بغية فهم النصائح التي كان «شارل موريل» يسديها لي بهذا الشأن، أن شقيق جدّي كان يسكن فيما مضى في البناء رقم ٤٠ مكرّر من شارع «مالزيرب». وقد نجم عن ذلك في الأسرة أنّهم كانوا يقولون، بما أنّنا كنّا نرتاد كثيراً منزل العمّ «أدولف» إلى اليوم المشؤوم الذي حملت فيه والديّ على الاختصام معه إذ رويت لهم عن السيّدة ذات الأثواب الورديّة، كانوا يقولون «إلى الرقم ٤٠ مكرّر» بدلاً من أن يقولوا «إلى منزل عمّك» . وكانت بعض بنات عمومة أميّ يقلن لها أبسط مايكون القول: «آه! لن يمكننا أن نستضيفكم يو الأحد، فإنكم تتناولون عشاءكم في الرقم ٤٠ مكرّر». وإن ذهبت لزيارة قريبة لي كانوا يوصونني بالذهاب أوّلاً «إلى الرقم ٤٠ مكرّر» كي لايتفق أن يستاء عمّي من أن البداية لم تكن به. فقد كان مالك البيت وكان يبدي، والحقّ يقال، تشدّداً كبيراً في انتقاء مستأجريه الذين كانوا كلهم أصدقاء أو هم يصبحون. وكان العقيد البارون «دوڤاتري» يجيء كلّ يوم ليدخّن سيجاراً وإيّاه كي يحصل بيسر أكبر على بعض الإصلاحات. كانت بوّابة العربات مغلقة دوماً. وإن لمح عميّ قماشاً أو سجّادة على نافذة كان يتملّكه الغيظ ويأمر بنزعها بأسرع ممّا يفعل عناصر الشرطة في يومنا. ولكنّما لايحول ذلك دون تأجير قسم من البيت فلا يستبقي له سوى دورين والاسطبلات. وكانوا على الرغم من ذلك، وإذ يعرفون كيف يسرّونه بامتداح جودة

الصيانة في المنزل، يشيدون بوسائل الراحة في «الفندق الصغير» كما لو كان عميّ شاغله الوحيد وكان يدعهم يقولون دون أن يكذّبهم كما كان يجدر به أن يفعل. كان «الفندق الصغير» بالتأكيد مريحاً (إذ كان عمي يدخل إليه مخترعات العصر كافّة) .ولكنّما لم يكن فيه شيء خارق. وحده عميّ كان، فيما يقول بتواضع زائف «كوخي الصغير القذر»، على يقين أو هو أدخل في روع خادمه الخاص وزوجته والحوذيّ والطاهية أن ليس في باريس ماكان شبيهاً بالفندق الصغير من حيث وسائل الراحة والبذخ والترفيه. وكان «شارل موريل» قد نشأ على هذا الإيمان، ولبث عليه. ولذلك كان، حتىّ في الأيّام التي لايبادلني فيها الحديث، إن كلّمت أحدهم في القطار عن احتمال انتقال من بيتنا، كان يبتسم لي في الحال ويقول وهو يغمز بعينه غمز من كان على اطّلاع :«آه ! مايلزمكم هو شيء من قبيل الرقم ٤٠ مكررّ ! فهناك تجدون راحتكم التامّة! ويمكننا أن نقول إنّ عمك كان خبيراً بهذا الشأن. وإنّي متأكدّ تماماً أن ليس في باريس مايساوي الرقم ٤٠ مكرّر».

لقد أحسست تماماً في الهيئة الكئيبة التي اتخذها السيّد «دوشارلوس» في كلامه عن الأميرة «دو كادينيان» أن تلك الأقصوصة ماكانت تذكرّه بمحض حديقة صغيرة لابنة عمّ لاتثير اهتمامه إلى أحدّ ما. وشرد في تفكير عميق وصاح كأنّما يكلّم نفسه :«أسرار الأميرة «دو كادينيان»، يالها رائعة ! وكم هي عميقة ومؤلمة سمعة «ديان» السيّئة تلك التي تخشى أكثر ماتخشى أن يطّلع عليها الرجل الذي تحبّه! وأيّة حقيقة أزليّة وأكثر عموميّة ممّا يبدو عليه الأمر ! وما أبعد مايذهب إليه!» وقد تلفّظ السيّد «دوشارلوس» بتلك الكلمات بكآبة كنت تحسّ مع ذلك أنّه لايراها تخلو من الروعة. صحيح أنّ السيّد «دوشارلوس» ماكان يعرف بالضبط إلى أيّ حدّ كانت أخلاقه معروفة أو غير معروفة فيرتعد منذ بعض الوقت من أن تتدخّل عائلة «موريل»، بعدما يكون هو قد عاد إلى باريس وشاهدوه وإيّاه، وتتعرّض سعادته للخطر. وماكان ذلك الاحتمال بدا له حتىّ ذاك على الأرجح إلاّ بمثابة أمر مزعج ومكدّر إلى حدّ بعيد. ولكنّ البارون كان فنّاناً عميق الفنّ. واذ أصبح الآن منذ فترة يخلط مابين وضعه والوضع الذي وصفه «بلزاك» فقد أخذ يحتمي نوعاً ما خلف الأقصوصة وكان يجد العزاء لسوء الطالع الذي يتهدّده ربّما، ومازال في جميع الأحوال يفزعه، في ما يجده داخل قلقه نفسه ممّا لعلّ «سوان» وكذلك «سان لو» كانا دعياه شيئاً «ذا طابع بلزاكيّ عميق». وقد سهّل من ذاك التماهي وأميرة «دو كادينيان»، سهّله على السيّد «دوشارلوس» النقل الذهنيّ الذي أخذ يصبح عاديّاً عنده والذي سبق أن قدّم أمثلة عدّة عنه.وكان كافياً من جانب آخر كما يطلق في الحال مجرّد استبدال المرأة، بما هي الشخص المحبوب، بفتى شابّ كلّ طائفة التعقيدات الاجتماعية التي تتنامى حول علاقة عاديّة، من حوله، حينما ندخل لسبب أيّ سبب، وعلى نحو نهائيّ، تعديلاً على تقويم أو مواعيد عمل، وإن حدّدنا بداية السنة بعد بضعة أسابيع وجعلنا الساعة تدقّ منتصف الليل قبل ربع ساعة فكّل ماينجم عن قياس الزمن سيبقى واحداً بما أن الأيّام ستتألّف في جميع الأحوال من أربع وعشرين ساعة والشهور من ثلاثين يوماً. يمكن أن يكون كلّ شيء قد تغيّر دون أن يستجرّ ذلك أي اضطراب بما أن النسب بين الأعداد ستبقى متماثلة دوماً. وهذا هو شأن الحيوات التي تتبنّى «توقيت أوروبا الوسطى» أو التقاويم الشرقية. بل يبدو أن الاعتزاز الذي يداخل المرء لدى انفاقه على ممثّلة إنّما يلعب دوراً في هذه العلاقة. أجل لقد اطلع السيّد «دوشارلوس» حينما استعلم عمّا كانت عليه حال «موريل» على أنّه من منبت متواضع، ولكنّ الغانية التي نحبّها لاتفقد من مهابتها في نظرنا لأنّها ابنة أناس

فقراء. وفي المقابل أجاب الموسيقيون المعروفون الذين أمر بالكتابة إليهم –دون أن يكون ذلك حتىّ عن مصلحة شأن الأصدقاء الذين وصفوا «أوديت» وهم يعرّفون بها «سوان» بأنّها أكثر تصعّباً ومرغوبة أكثر ممّا كانت–، أجابوا البارون لمجرد عادة لرجال بارزين يرفعون من قدر مبتدئ: «آه موهبة كبيرة ومكانة بارزة بما أنّه بالطبع حديث السنّ ومقدّر أعظم التقدير لدى الخبيرين بالأمور، مستقبل باهر.» ولعادة مستهجنة لدى الناس الذين يجهلون الشذوذ أخذوا في الحديث عن جمال الذكور :«ثمّ إنّه جميل حين تراه يعزف، وهو أفضل من أيّ آخر في المجموعة الموسيقيّة، وله شعر جميل ووقفات متميّزة، والرأس منه رائع ويبدو كأنّه عازف كمان في لوحة. لذلك كان السيّد «دوشارلوس» يباهي، وقد اهتاج من جانب آخر من جرّاء أنّ «موريل» ماكان يدعه يجهل كم عرض كان يوجّه إليه، باصطحابه في عودته وبأن يبني له عليّة يعود إليها مرّات عدّة فقد كان يريده حرّاً باقي الوقت، الأمر الذي أصبح ضرورياً جرّاء عمله المستقبليّ الذي كان السيّد «دوشارلوس» يرغب في استمرار «موريل» فيه مهما اضطرّ أن يقدّم له من مال، إمّا بسبب هذه الفكرة ذات الطابع «الغير مانتيّ» العميق القائلة بأنّه لابدّ أن يفعل المرء شيئاً وأن لاقيمة له إلاّ بعمله وأنّ طبقة النبلاء أو المال إن هما إلاّ الصفر الذي يضاعف قيمة ما، وإمّا لأنّه خشي أن يصيب الملل عازف الكمان إذ هو عاطل عن العمل وإلى جانبه على الدوام. وما كان يريد أخيراً أن يحرم نفسه المتعة التي كان يصيبها إبّان بعض الحفلات الموسيقيّة الكبيرة، متعة أن يقول في نفسه :«إن الذي يهتفون له في هذه اللحظة سيكون عندي في هذه الليلة.» إن القوم الأنيقين حينما يحبّون وبأيّة طريقة أحبّوا يفاخرون بما يمكن أن يدمّر المكاسب السابقة التي لعلّها كانت أرضت غرورهم.

وإذ أحسّ «موريل» أني أخلو من الخبث إزاءه وأني صادق التعلّق بالسيّد «دوشارلوس» وأني على الصعيد الجسديّ لا أبالي على الاطلاق بكليهما فقد خلص في النهاية إلى أن يبدي تجاهي مشاعر المودّة الحارّة نفسها التي تبديها غانية تعلم أنّك لاتشتهيها وأن عشيقها يرى فيك صديقاً صدوقاً لن يحاول جرّه إلى الاختصام معها. فلم يكن يكلّمني بالضبط كما كانت تفعل «راحيل» عشيقة «سان لو» فحسب، بل هو، حسبما كان السيّد «دوشارلوس» يردّده لي، يقول له عنّي في غيابي الأمور نفسها التي كانت «راحيل» تقولها عنّي لـ«روبير». :وفي النهاية كان السيّد «دوشارلوس» يقول لي :«إنّه يحبك كثيراً» كما كان يقول «روبير» :«أنّها تحبّك كثيراً». وكان العمّ يطلب إليّ في الغالب المجيء لتناول العشاء معهم عن طريق «موريل»، كما كان ابن الأخ عن طريق عشيقته. ولم يكن يثور بينهما على أيّة حال نزاعات أقلّ ممّا كان بين «روبير» و «راحيل». أجل لم يكن السيّد «دوشارلوس»، بعدما يذهب «شارلي» (موريل، يتوقّف عن كيل المديح له مردّداً كم كان عازف الكمان كيّساً بحقّه. الأمر الذي كان يزهو به. ولكنّما كان جليّاً مع ذلك أنّ «شارلي» كان يبدو في الغالب حانقاً حتىّ في حضرة الخلّص جميعهم، بدلاً من أن يبدو دائم السعادة والإذعان كما لعلّ البارون كان تمنىّ. وقد بلغ به هذا الحنق فيما بعد، من جرّاء الضعف الذي كان يدفع السيّد «دوشارلوس» إلى مغفرة مواقف «موريل» غير اللائقة، الحدّ الذي لايحاول فيه عازف الكمان اخفاءه، أو كان حتىّ يتكلّفه. لقد شاهدت السيّد «دوشارلوس» في دخوله إلى عربة قطار كان «شارلي» فيها برفقة عسكريّين من أصدقائه، شاهدته تستقبله هزّات أكتاف الموسيقيّ ترافقها رفّات عين لرفاقه. أو هو يتظاهر بالنوم شأن من يرهقه وصوله

ضجراً. أو يأخذ بالسعال فيضحك الآخرون ويتصنّعون بقصد الاستهزاء الكلام اللطيف المتكلّف الذي لرجال من طينة السيّد «دوشارلوس»، وينتحون جانباً بـ«شارلي» الذي كان يعود في نهاية المطاف وكأنّما مرغماً بالقرب من السيّد «دوشارلوس» الذي كانت تخترق فؤاده كلّ هذه السهام. وإنّه لمما يفوق التصوّر أن يكون احتملها. وكانت أشكال العذاب المختلفة في كلّ مرّة تطرح على السيّد «دوشارلوس» مجدّداً مشكلة السعادة وترغمه لا على طلب المزيد فحسب، بل على الرغبة في شيء آخر إذ إن التركيبة السابقة قد أفسدتها ذكرى رهيبة. ومع ذلك لابدّ من الإقرار، ومهما كانت تلك الاختصامات فيما بعد شاقّة، بأن عبقرية رجل الشعب في فرنسه كانت ترسم لـ «موريل» وتلبسه أشكالاً رائعة من البساطة والصراحة الظاهرة، بل من الاعتزاز الاستقلالي الذي يبدو كأنّما يوحي به التجرّد. وكان ذلك زائفاً، ولكنّ مكسب الموقف كان أكثر فأكثر إلى جانب «موريل» بقدر مايبدو يسيراً، فيما يضطرّ من يحبّ أن يعيد الكرّة ويزايد على الدوام :يبدو يسيراً على العكس على من لايحبّ أن يتبّع خطّاً مستقيماً صلباً ناعماً. وكان قائماً بفضل الامتياز العرقيّ في المحيّا المتفتح جداً لـ«موريل» هذا ذي الفؤاد المغلق باحكام، ذاك المحيّا الذي يزدان بالحسن الهلّينستي الذي يزهر في كنائس شامپانيه. وعلى الرغم من أنفته المصطنعة كثيراً ماكان يشعر بالضيق عن العشيرة الصغيرة إذ يبصر السيّد «دوشارلوس» في حين لا يتوقّع ذلك، فتكسو الحمرة وجهه ويخفض عينيه فينتشي البارون فرحاً وهو يرى في ذلك رواية كاملة. كان ذلك مجرّد علامة حنق وخجل. والأولّ كان يجد تعبيره أحياناً، إذ مهما بدا مظهر «موريل» هادئاً بالعادة وشديد الاحتشام فما كانت تمضي الأمور دونما فتور في الغالب. بل كانت تنطلق أحياناً من جانب «موريل» لدى كلمة يوجّهها إليه البارون ، تنطلق بلهجة قاسية إجابة وقحة تصدم الجميع. وكان السيّد «دوشارلوس» يطأطئ الرأس حزيناً ولايجيب البتّة ولايتوقّف مع ذلك عن كيل المديح لعازف الكمان بهذه القدرة التي يبديها الآباء المحبّون على الاعتقاد بأنْ لم يُلاحظ شيء من جفاء وقسوة أبنائهم. على أنّ السيّد «دوشارلوس» لم يكن دوماً بمثل ذاك الخنوع ولكنّ مظاهر تمرّده ماكانت تبلغ بعامّة هدفها ولاسيّما أنّه كان يأخذ في الحسبان، وقد عاش بصحبة علية القوم وفي احتساب ردّات الفعل التي يمكن أن يثيرها، السفالة الأصليّة، فإن لم يكن فعلى الأقلّ تلك المكتسبة بالتربية. ولكنّه كان يصادف ما كان لدى «موريل» بعض نزعة شعبية إلى لامبالاة مؤقتة بيد أنّ السيّد «دوشارلوس» ماكان يدرك لسوء حظّه أنّ كلّ شيء كان يتهاوى أمام المسائل التي للمعهد والسمعة الطيّبة في المعهد دخلٌ فيها (ولكن هذا الذي لابدّ سيكون أكثر خطراً لم يكن مطروحاً الآن). من ذلك على سبيل المثال أن البورجوازيّين يسهل عليهم تغيير اسمهم بداعي التباهي وكبار الموالي بداعي المصلحة. أمّا بالنسبة إلى عازف الكمان الشاب فقد كان اسم «موريل» على العكس يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجائزة الكمان الأولى التي نالها ويستحيل والحالة هذه تبديله. وأمّا السيّد «دوشارلوس» فلعلّه ودّ أن يستمدّ «موريل» كلّ شيء منه، حتىّ اسمه. واذ تبيّن أن اسم «موريل» كان «شارل» الذي يشبه «شارلوس» وأن العقار الذي يلتقيان فيه يدعى «ليه شارم» فقد عزم على إقناع «موريل» بأنّه يجدر بالعازف الماهر أن يتّخذ دون تردّد اسم «شارمل»، وهو تلميح من طرف خفّي إلى مكان لقاءاتهما، فإن اسماً جميلاً يُمتعك قوله إنّما يؤلّف نصف الشهرة الفنيّة. وارتفع «موريل» بمنكبيه. وخطرت للسيّد «دوشارلوس» بمثابه حجّة أخيرة الفكرة المشؤومة بأن يضيف بأنّه اتخذ خادماً خاصّاً كان يدعى هكذا. ولم يفد ذلك إلاّ في

إثارة حنق مجنون لدى الشابْ. «لقد كان زمن فاخر فيه جدودي بلقب خادم الملك الخاصّ ورئيس ندل الملك.» فأجاب «موريل» باعتزاز:«وكان زمن آخر أمر فيه أجدادي بقطع رأس أجدادك.» ولعلّ السيّد «دوشارلوس» كان دهش أيّما دهشة لو وسعه أن يفترض، وقد سلّم، إن لم يكن ب«شارميل»، فباعتماد «موريل» وباعطائه أحد ألقاب أسرة آل «غيرمانت» التي بحوذته إلاّ أنّ الظروف كما سنرى لم تمكّنه من تقديمه لعازف الكمان، بأن هذا الأخير كان سيرفض وهو يفكّر بالسمعة الفنيّة الملازمة لاسم «موريل» وبالتعليقات التي ربّما أقدموا عليها «داخل الدرس». فلشدّ ماكان يضع شارع «بيرجير» فوق حيّ «سان جيرمان» ! ولم يسَع السيّد «دوشارلوس» في حينه إلاّ الاكتفاء بأن يصنع لـ«موريل» خواتم رمزيّة تحمل النقش القديم التالي:«Plus ultra Carol's»(١) صحيح أنّه كان ينبغي للسيّد «دوشارلوس» في مواجهة خصم من نوعيّة لايعرفها أن يغيّر من خطّته الآنيّة. ولكن من ذا يقوى على ذلك؟ فلئن كان يعزى من جانب آخر بعض الرعونة للسيّد «دوشارلوس» فلم يكن «موريل» ليخلوا منها هو الآخر. ثمّ إن ماسوف يودي به لدى السيّد «دوشارلوس»، مؤقتاً على الأقلّ (ولكن ذاك المؤقت انقلب نهائيّاً)، فأكثر كثيراً من الظرف نفسه الذي سبّب القطيعة ومفاده أنّ مابه لم يكن قاصراً على الدناءة التي كانت تجعله ينبطح أمام القسوة ويردّ على النعومة بالوقاحة. فقد كان ثمّة، في موازاة تلك الدناءة الطبيعيّة، وهن عصبيّ يضاعفه سوء تربية يستفيق في كلّ ظرف كان فيه مذنباً أو أصبح ثقيلاً فتجعله، في الوقت الذي ربّما احتاج فيه كامل لطفه وكلّ عذوبته وكامل مرحه لتهدئة البارون، متجهّماً شكساً يحاول مباشرة نقاشات يعلم أنّهم لا يوافقونه الرأي فيها فيؤيد وجهة نظره العدائيّة بحجج ضعيفة وعنف قاطع يزيد من ذاك الضعف نفسه. ذلك أنّه سرعان ماكان يعوزه البرهان فيستنبط مع ذلك براهين تنبسط فيها كامل مساحة جهله وغبائه، وكادا لايظهران حينما كان لطيفاً ولايبحث إلاّ عن أن يروق الآخرين. فيما كنت على العكس لاتبصر غيرهما في نوبات تجهّم مزاجه حيث ينقلبان من أمرين غير مؤذيين إلى أمرين مقيتين. حينئذ كان السيّد «دوشارلوس» يحسّ أنّه عيل صبره فكان لايجعل أمله إلاّ في غدٍ أفضل فيما كان «موريل»، وقد نسي أن البارون كان يوفّر له معيشة باذخة، يبتسم ابتسامة ساخرة متعالية في إشفاقها ويقول: «لم أقبل في يوم شيئاً من أحد، وهكذا ليس من شخص أدين له بقولة شكراً.»

وعلى هذا كان السيّد «دوشارلوس»، كما لو تعامل مع واحد من رجال المجتمع الراقي، يوالي ممارسة صنوف غضبه الحقيقي أو المصطنع،على أنّه أصبح لاجدوى منه. ولكنّه لم يكن دوماً كذلك. ففي يوم (يقع على أيّ حال بعد هذه الفترة الأولى) كان فيه البارون يعود برفقة «شارلي» ورفقتي من حفل غداء في منزل آل ڤيردوران»، وفي اعتقاده أنّه سيمضي آخر العصر والسهرة بصحبة عازف الكمان في «دونسيير»، سبّب وداع هذا الأخير الذي أجاب حال خروجه من القطار: «لا، لديّ مايشغلني»، سبّب للسيّد «دوشارلوس» خيبة أمل شديدة إلى حدّ أني رأيت، على الرغم من محاولته مواجهة الشدائد برباطة جأش، دموعاً تذيب طلاء أهدابه فيما يقف ذاهلاً أمام القطار. وكان ذاك الألم شديداً إلى حدّ أني همست في إذن «ألبيرتين» وكنّا ننوي هي وأنا أن ننهي نهارنا في «دونسيير»، أني أودّ أن لاندع السيّد «دوشارلوس» وحيداً وكان يبدو لي مغتمّاً دون أن أدري السبب. وقبلت الصغيرة العزيزة طائعة. وسألت السيّد «دوشارلوس» حينذاك إن لم يكن يودّ أن أرافقه

(١) هو شعار «شارلماني» (ومعناه :شارل الكبير) باللاتينيّة ويعني :أبْعَدَ من ذلك يا شارل .

بعض الوقت. وقبل بدوره ولكنّه رفض إزعاج ابنة عميّ لذاك السبب. ولقيت شيئاً من العذوبة (وللمرّة الأخيرة دون شكّ إذ كنت عازماً على قطع صلتي بها) في أن آمرها بلطف كما لو كانت زوجتي: «عودي من جانبك وسوف ألحق بك هذا المساء»، وفي سماعها تأذن لي، كما لعلّ زوجة كانت فعلت، بأن أفعل ما ابتغيه، وتقرّني على ذلك، وأن أضع نفسي بتصرّف السيّد «دوشارلوس» الذي تحبّه إن كان بحاجة إليّ. ومضينا أنا والبارون، هو يمايل جسده السمين ويخفض عيني اليسوعيّ لديه (١) وأنا أتبعه إلى مقهى جاؤونا فيه بشيء من الجعة. وأحسست بعيني السيّد «دوشار لوس» عالقتين قلقاً بمشروع ما. وفجأة طلب ورقاً ومداداً وطفق يكتب بسرعة فريدة. وفيما كان يسوّد الورقة تلو الأخرى كان يتلألأ في عينيه حلم غاضب. وبعدما سطّر ثماني صفحات قال لي: «هل يمكن أن أسألك خدمة كبرى؟ اعذرني أنّي أغلق هذه الكلمة، ولكن لابدّ من ذلك. تستقلّ عربة، بل سيّارة إن استطعت لتمضي بسرعة أكبر. سوف تلقى بالتأكيد «موريل» وهو بعد في غرفته حيث مضى ليبدّل ثيابه. ياللصبيّ المسكين، أراد أن يظهر بمظهر المتباهي لحظة فراقنا، ولكن تأكدّ أنّه أشدّ حزناً منّي. سوف تعطيه هذه الكلمة، فإن سألك أين رأيتني تقول له إنّك قد توقّفت في «دونسيير»، (وهي الحقيقة على أيّ حال) كي تلتقي «روبير» (وهو ماكان ربّما غير ذلك)، ولكنّك صادفتني مع رجل لاتعرفه وكنت أنا أبدو وقد تملكني الغيظ وأنّه خيلّ إليك أنّك تسمع اختلاساً كلمات تقول بارسال شهود (فإنّي غداً في نزال). لاتقل له خصوصاً إنّي أطلبه ولاتحاول اصطحابه، ولكن إن أراد المجيء معك فلا تمنعه عن ذلك. هيّا يابنّي، ذلك في صالحه، وتستطيع الحؤول دون مأساة كبيرة. في أثناء ذهابك سوف أكتب إلى شهودي. لقد منعتك من التنزّه برفقة ابنة عمّك، وأملي أنّها لم تحقد عليّ لذلك،بل اعتقد ذلك. فإنّها امرأة نبيلة وأعرف أنّها من اللواتي يعرفن كيف لايرفضن عظمة الظروف. ينبغي أن تشكرها عنّي وإنّي أدين لها شخصيّاً ويروقني أن يكون الأمر كذلك.» وداخلني إشفاق عظيم على السيّد «دوشار لوس»، فقد كان يبدو لي أنّ «شارلي» كان يستطيع الحؤول دون هذه المبارزة التي ربّما كان سببها، وكان يثير حنقي والحالة هذه أن يكون مضى بتلك اللامبالاة بدلاً من تقديم المعونة لمن يحميه.وتعاظمت ثورتي حينما تعرّفت،لدى وصولي إلى البيت الذي كان يقطنه «موريل»، صوت عازف الكمان الذي كان، للحاجة التي به لنشر المرح من حوله،يغنّي من أعماق فؤاده: «مساءَ السبت بعد العمل!» (٢) ويا ليت السيّد «دوشار لوس» المسكين كان سمعه، هو الذي كان يودّ أن يُعتقد أو هو كان يعتقد أنّ «موريل» مجروح الفؤاد في هذا الوقت! وأخذ «شارلي إذ شاهدني يرقص ابتهاجاً. «آه ! ياشيخ، (أعذر لي أنيّ أدعوك هكذا فإنّك تتّخذ عادات وسخة في هذه الحياة العسكريّة اللعينة) يالحظّي أنّني ألتقيك! ليس لديّ ماأفعله في أمسيتي، فلنقضيها سويّة رجوتك. نمكث ههنا إن طاب لك، أو نمضي في قارب إن كنت تفضلّ، أو نعزف الموسيقى، فليس عندي ماأفضّله.» قلت له إنّي ملزم بتناول عشائي في «بالبيك»، وكان شديد الرغبة في أن أدعوه إليها ولكنّي ماكنت أودّ ذلك. «ولكن لِمَ جئت إن كنت معجّلاً إلى هذا الحدّ؟» — «إنّي أحمل إليك كلمة من السيّد «دوشار لوس». وزال كلّ مرحه

(١) اليسوعيون : جمعية دينية كاثوليكية أسسها «أغناطيوس دوليولا» في القرن السادس عشر واشتهروا باتجاه إلي الجدال المفرط ولاسيما علي الصعيد الأخلاقي، ويطلق عليه بالفرنسية كلمة: Casuistique

(٢) أغنية شعبيّة مطلعها : «هيا ياحلوتي» وتعود إلى مطلع القرن العشرين.

لدى سماع ذاك الاسم وتقبّض وجهه. «كيف ذلك! أفينبغي أن يأتي حتىّ هنا لمطاردتي! فانّني عبد والحالة هذه! كن لطيفاً ياعزيزي، فلن أفتح الكتاب؛ قل له إنك لم تلقني.» «أليس من الأفضل أن تفتحه؟ فإني أتصوّر أنّ ثمّة أمراً خطيراً.» — «لا، مئة مرّة، فلستَ تعرف الأكاذيب والحيل الجهنّميّة لدى هذا القرصان العتيق. إنّها خدعة كي أمضي للقائه. وبعدّ، فلن أذهب، وليدعني وشأني هذا المساء. وسألت «موريل»: «ولكن، أليس هناك مبارزة في الغد؟»، وكنت أظنّه كذلك على اطّلاع. فقال مذهولاً :«مبارزة؟ لست أعلم كلمة من ذلك. لست أبالي على أيّ حال، ويستطيع ذلك العجوز المقرف أن يذهب إلى الذبح إن طاب له ذلك. لكنّك والله تشغل بالي، وسوف ألقي نظرة على رسالته مع ذلك. وتقول له إنّك تركتها تحسّباً لكلّ طارئ إن أنا عدت.» وفيما كان «موريل» يكلّمني كنت أتطلّع بدهشة عظيمة إلى الكتب الرائعة التي سبق أن أعطاه إيّاها السيّد «دوشار لوس» وكانت الغرفة تزدحم بها. ولمّا رفض عازف الكمان الكتب التي تحمل عبارة: «إنّي ملك يد البارون، الخ» والشعار يبدو له مهيناً بما هو علامة امتلاك، فإن البارون، بتلك المهارة العاطفيّة التي تلذّ الحبّ غير الموفّق، كان قد نوّع فيها بأخرى جاءته من جدود له ولكنّما أوصي بها إلى عامل التجليد وفق ظروف صداقة كئيبة. فقد كانت أحياناً مختصرة واثقة كمثل: «Spes mea» (أملي) و «Expectata non eludet» (لن يخيّب الآمال) (١)، وأحياناً فقط مستسلمة، مثل «سأنتظر»؛ وبعضها غراميّة: «متعة السيّد نفسها»، أو هي تنصح بالعفّة كمثل الشعار المأخوذ عن آل «سيميان» والذي تنتثر فوقه الأبراج اللازورديّة وأزهار الزنبق، وقد حرف معناه «Sustentant lilia turres» (الأبراج تساند الزنابق)، وغيرها أخيراً يائس يضرب موعداً في السماء لمن أعرض عنه على الأرض: «Manet ultima caela» (النهاية مُلْك السماء)(٢). وإذ يجد السيّد «دوشار لوس» العنقود الذي أخفق في الوصول إليه حصرماً كلّه ويتظاهر بأنّه لم يَسْعَ إلى مالم يحصل عليه فقد كان يقول في أحدها: «Non mortale quod opto» ليس طموحي إلى زوال) (٣)، ولكنّما لم يتّسع لي الوقت لأراها جميعاً.

ولئن بدا السيّد «دوشار لوس»، وهو يخطّ على الورق هذه الرسالة، وكأنّما تحت سلطان شيطان الوحي الذي يجري به قلمه، فما أن فضّ «موريل» الخاتم «Atavis et armis» (بالجدود والسلاح)(٤) الذي يعلوه فهد إلى جانب وردتين باللون الأحمر حتّى أخذ يقرأ بسرعة محمومة تساوي تلك التي أبداها السيّد «دوشارلوس» وهو يكتب، وما كانت عيناه تجريان على تلك الصفحات التي سُوّدت بسرعة جهنّميّة بأقلّ ماكان يجري به قلم البارون. وصاح قائلاً :«آه! ياإلهي !ماكان ينقصنا غير ذلك! ولكن أين نجده؟ الله يعلم أين هو الآن.» وألحت إلى أننّا إن حثثنا السير ربّما لقيناه لايزال في مقهى أوصى فيه على جعة ليستعيد هدوءه. وقال لعاملة المنزل: «لست أعلم إن كنت سأعود»؛ وأضاف يقول بصوت خافت: «ذلك رهن بالمنحى

(١) االشعار الأوّل هو للملك «هنري الثالث» ونصّه الأصلي :«الله أملي». أمّا الثاني فلزوجة «هنري الرابع» الأولى واسمها «مرغريت دوڤالوا»

(٢) شعار آخر للملك «هنري الثالث»

(٣) هو شعار «شارل دو لورين»

(٤) شعار الكونت «دانجيفلييه» مدير أبنية «لويس السادس عشر»

الذي ستتخذه الأمور.» وماهي إلاّ دقائق حتّى وصلنا إلى المقهى. ولاحظت هيئة السيّد «دوشار لوس» ساعة لمحني. وإذ أبصرني لاأعود وحيداً شعرت أن أنفاسه وأن الحياة رُدّت إليه. ولمّا لم يكن بحالة تمكّنه من الاستغناء عن «موريل» فقد ابتدع أنّهم نقلوا إليه أن ضابطين من الكتيبة تناولاه بالسوء بشأن عازف الكمان وأنه عازم أن يرسل إليهما شهوداً. ورأى «موريل» الفضيحة وحياته التي أضحت مستحيلة في الكتيبة فُهرع إليه. ولم يكن تماماً على خطأ في مافعل. ذلك لأن السيّد «دوشار لوس» كان قد كتب إلى صديقين (كان أحدهما «كوتار») ليسألهما أن يكونا شاهدين له وذلك ليجعل الكذبة أكثر قرباً إلى الحقيقة. ولو لم يجئ عازف الكمان فالأكيد أنّ السيّد «دوشار لوس» كان، بالجنون الذي به، (وكيما يبدّل حزنه غيظاً)، أرسل بهما كيفما اتّفق إلى ضابط، أيّ ضابط، لعلّ منازلته كانت فرّجت عنه. وفي أثناء ذلك تذكّر السيّد «دوشارلوس» أنّه من عرق أكثر صفاء من آل البيت في فرنسه فكان يقول في نفسه ما أحسنه أن يجزع كلّ هذا الجزع من أجل ابن رئيس خدم لعلّه ماكان تنازل أن يتردّد على سيّده. ولئن لم يعد يستمتع من جانب آخر بغير معاشرة حثالة الناس فإن العادة المتأصلة التي لديهم في عدم الإجابة عن رسالة وفي الإخلاف بموعد دون سابق إنذار ودون الاعتذار بعده كانت تعبث في نفسه، اذ الأمر في الغالب أمر غرام، الكثير من الانفعالات، وكانت تسبّب له فيما تبقّى من الوقت الكثير من الازعاج والضيق والحنق حتّى ليبلغ به أن يتأسف أحياناً على كثرة الرسائل التي تُسطّر في أمر زهيد وعلى الدقّة المفرطة في مواعيد السفراء والأفراد الذين إن هم للأسف لايثيرون اهتمامه كانوا يولونه على الرغم من كل شيء نوعاً من الراحة. وإذ كان السيّد «دوشار لوس» قد ألف تصرّفات «موريل» ويعلم إلى أي حدّ لاسلطان له عليه وأنّه عاجز عن الانسلال داخل حياة كانت الصحبات السوقية، ولكنّما كرّستها العادة مع ذلك، تأخذ حيّزاً من المكان والزمان أكثر من أن يُحتفَظ بساعة للسيّد الكبير المُقصى المتكبّر المتوسّل عبثاً، فقد كان متيقّناً أن الموسيقيّ لن يعود وبه خشية أن يكون اختصم إلى الأبد معه لأنّه تجاوز الحدّ حتىّ إنّه صادف عنتاً في كتم صوت صراخه حين رآه. ولكنّه حرص وقد ألفى نفسه منتصراً على إملاء شروط السلام واستخلاص ما استطاع من المكاسب. فقال له :«ماذا جئت تفعل هنا؟» وأضاف قوله وهو ينظر إليّ: «وأنت؟ لقد أوصيتك على وجه الخصوص أن لاتعود به إليّ.»– «لم يكن يريد العودة بي»، يقول «موريل» وهو ينقّل باتجاه السيّد «دوشار لوس»، بسذاجة دلاله، نظرات مصطلح حزنها متعبة في تقادمها وقد اتّخذ هيئة حكم دون شكّ أنها لاتقاوم، هيئة من يبغي عناق البارون وبه رغبة في البكاء، «فأنا من جاء على الرغم منه. ها أنا ذا آتي باسم صداقتنا لأتوسّل إليك جاثياً على ركبتيّ بأن لاتقدم على هذا الجنون.» كان السيّد «دوشار لوس» قد جُنّ فرحاً. لقد كانت ردّة الفعل شديدة على أعصابه ولكنّه ظلّ يسيطر عليها مع ذلك. وأجاب بجفاء :«كان يجدر بالصداقة التي تدّعيها بغير مناسبة أن تحملك على العكس على اقرار ماأفعل حينما لا أرى لزوماً عليّ التغاضي عن سفاهات أحد الحمقى. ولو شئت من جانب آخر أن أستجيب لتوسّلات مودّة عرفتها أفضل إلهاماً فلن تتوافر لي القدرة على ذلك فإن رسائلي إلى شهودي أرسلت ولست أشك بقبولهم. لقد تصرّفت دوماً إزائي تصرُّف الأبله الكامل وبدلاً من أن تفاخر، كما كان لك الحقّ أن تفعل، بالإيثار الذي أبديته لك، بدلاً من أن تُفهم حثالة مساعدي الضبّاط أو الخدّام الذين يضطرك القانون العسكري إلى العيش بين صفوفهم أيّ باعث على الاعتزاز الذي لايدانيه اعتزاز تؤلّفها بالنسبة إليك صداقة كما هي

صداقتي، حاولت الاعتذار، بل حتىّ أن تفاخر بغباء بأن لاتبدي لي مايكفي من امتنان. أعلم أن لاذنب لك في ذلك سوى أنّك أتحت لغيرة الآخرين مجال دفعك إلى ذلك»، يضيف قوله كي لا يبدي إلى أيّ حدّ أذلّته بعض المشاحنات. ولكن كيف تكون في مثل سنّك طفلاً إلى حدّ ما (وطفلاً سيء التهذيب إلى حدّ ما) كي لاتكون حزرت في الحال أن اصطفائي لك وسائرالمكاسب التي ستنجم عنه فيما يخصّك سوف تثير حسد الآخرين؟ وأن رفاقك جميعاً سيعملون على احتلال مكانك فيما يستثيرونك لتختصم معي ؟ ولم أرَ من واجبي لفتك إلى الرسائل التي وردتني بهذا الشأن من كلّ الذين توليهم أكثر ثقتك. فأني أزدري على السواء محاولات التقرّب التي يقوم بها هؤلاء الخدّام وصنوف سخريتهم التي لاتجدي فتيلاً. الشخص الوحيد الذي أعبأ به هو أنت لأني أحبّك حقّاً ولكنّ للوداد حدوداً وكان يجدر بك أن تتوقّع ذلك.» ومهما أمكن أن تكون لفظة «خادم» قاسية على مسامع «موريل» الذي سبق لوالده أن كان خادماً، بل بالضبط لأنّه كان كذلك، فإن تفسير سائر الحوادث الاجتماعية المؤسفة «بالغيرة»، وهو تفسير ساذج وغير منطقي، ولكنّه لايبلى ويصادف على الدوام لدى طبقة ما نجاحاً لايخيب شأن الخدع القديمة لدى جمهور المسارح أو التهديد الناشئ عن خطر رجال الدين في المجالس، إنّما كان يلقى لديه إيماناً يساوي في قوّته إيمان «فرانسواز» أو خدم السيّدة «دو غير مانت»، وكانت في نظرهم السبب الوحيد لمصائب البشريّة. ولم يشكّ في أن يكون رفاقه حاولوا أن يخطفوا منه مكانه فإذا به أكثر تعاسة جرّاء هذه المبارزة المفجعة والوهمية على أيّ حال. وصاح «شارلي» قائلاً: «آه! يالغمّي ! فلن أبقى من بعده. ولكن ألا ينبغي أن يلتقياك قبل الذهاب للقاء ذاك الضابط؟– «لست أدري، وفي اعتقادي أن بلى. لقد بعثت أقول لأحدهم إنّني سأمكث هنا هذا المساء وسوف أزوّده بتعليماتي.» وسأله «موريل» بلهجة رقيقة قائلاً :«آمل أن أكون أقنعتك حتىّ مجيئه. اسمح لي فقط أن أمكث بجانبك.» كان ذلك جلّ مايبتغي السيّد «دوشار لوس» ولكنّه لم يتراجع من أوّل مرّة. «لعلّك تغلط إن طبّقت هنا مقولة «من أحبّ كثيراً عاقب بصرامة»، فإنّك أنت من احببت كثيراً ومرادي أن أعاقب حتىّ بعد خصامنا أولئك الذين حاولوا محاولة جبانة أن يسيئوا إليك. ولم أجب حتىّ الآن عن تلميحاتهم المتسائلة التي تجرؤ أن تستوضحني كيف يستطيع رجل مثلي أن يكون على صلة ب«زبون» من طينتك نبت من لاشيء إلاّ بشعار أبناء عمومتي من آل «لاروشفوكو»؛ «ذلك يروقني». بل أبرزت لك عدّة مرّات أن تلك المسّرة يمكن أن تصبح أعظم مسّرة لديّ دون أن ينتج عن ارتفاعك التحكّمي حطّ لمنزلتي» وصاح في نبرة استعلاء يقارب الجنون وهو يرفع ذراعيه: «Tantus ab uno splendor!» (كلّ هذه الروعة من واحد) (١). فليس التنازل نزولاً»، يضيف قوله بهدوء أكبر في أعقاب هذا السيل العارم من الاعتزاز والفرح، «آمل على الأقلّ أن الدم الذي يجري في عروق خصميّ، على الرغم من اختلاف المكانة، يمكن أن أريقه دونما خجل. وقد جمعت بهذا الصدد بعض المعلومات السريّة التي طمأنتني. ولعلّه يجدر بك، إن احتفظت لي بشيء من الجميل، أن تفخر على العكس لما ترى من أنّني استعيد بسببك المزاج الحربيّ الذي لجدودي فأقول مثلهم إن حلّت النهاية المحتومة، الآن وقد أدركت أيّ شخص غريب الأطوار أنت: «الموت حياة لي.» وكان السيّد «دوشار لوس» يقول ذلك صادقاً لابداعي حبّه لـ«موريل» فحسب بل لأنّ ميلاً للقتال يظنّ بسذاجة أنّه أخذه عن جدوده كان

(١) شعار «لويز دو لورين» ارملة الملك هنري الثالث.

يوليه قدراً من الحبور لدى التفكير بالاقتتال إلى حدّ إن تلك المبارزةالمدبّرة بادئ الأمر لمحض استقدام «موريل» ربّما أحسّ الآن بالأسف للتخليّ عنها. فلم يكن واجه أمراً في يوم دون أن يظنّ نفسه في الحال مقداماً ومماثلاً للقائد العام الشهير «دو غير مانت»، في حين يبدو له الذهاب إلى ميدان المبارزة بالنسبة لآخر سواه عملاً في غاية التفاهة. وقال لنا بصدق وهو يرتّل كلّ لفظة: في اعتقادي أنّها ستكون جميلة جدّاً. فماعسى أن تكون مشاهدة «ساره بيرنار» في مسرحيّة «النسر الصغير»؟ خ... و«مونيه سوليّ» في مسرحيّة «أوديب»؟ خ.. وهو على الأكثر يستمدّ بعض شحوب يتبدّل به وجهه حينما يجري الأمر في حلبات «نيم». ولكن ماعسى أن يكون ذلك مقابل هذا الشيء الخارق أن تشهد قتال واحد من نسل القائد العام بالذات؟» وشرع السيّد «دوشار لوس» لدى ورود هذه الفكرة وحدها، شرع وهو لايتمالك نفسه من الفرح يقوم بحركات دفاعيّة كانت تذكّر بـ«موليير» ودفعتنا إلى أن نقرّب منّا محاذرين أكوابنا وأن نخشى من أوّل عناق للسيوف أن يجرح الخصمين والطبيب والشاهدين. وقال لي: «أيّ مشهد مغر لرسّام هو هذا! وأنت يامن يعرف السيّد «ايلستير» يجدر بك أن تجيء به» فأجبت أنّه ليس على الساحل. فألح السيّد «دوشار لوس» إلى إمكان الإبراق له، وأضاف قوله في مواجهة سكوتي: «آه! أقول ذلك من أجله، فانّه لمفيد دوماً بالنسبة لأستاذ- وإنّه لكذلك فيما أرى- أن يثبّت مثالاً على مثل هذا الانبعاث الإثني، وربّما لم يكن ثمّة واحد منه على مدى قرن.»

ولئن كان السيّد «دوشار لوس» يغتبط بفكرة نزال ظنّه بادئ الأمر مجرّد وهم، فقد كان «موريل» يفكّر يهلع بالأقاويل التي يمكن أن تنقل من «موسيقى» الكتيبة، بسبب الضجّة التي ستثيرها تلك المبارزة، إلى معبد شارع «بيرجير». وإذ خيّل إليه أن «الصفّ» أصبح مطّلعاً على كلّ شيء فقد أضحى أكثر فأكثر إلحاحاً لدى السيّد «دوشار لوس» الذي كان يوالي التشوير بيديه إزاء فكرة النزال المسكرة. وتوسّل إلى البارون أن يأذن له بأن لايفارقه إلى مابعد الغد، وهو يوم المبارزة المفترض، كي يرقبه عن كثب ويحاول أن يسمعه صوت العقل. وقد قضى عرض رقيق إلى هذا الحدّ على آخر معاقل التردّد لدى السيّد «دوشار لوس»، فقال إنّه سيحاول إيجاد مخرج وإنّه سوف يعمل على تأجيل القرار النهائي إلى مابعد الغد. كان السيّد «دوشار لوس» إذ لايتدبّر الأمر دفعة واحدة، كان بامكانه الاحتفاظ بـ«شارلي» يومين على الأقلّ والإفادة منهما كي يحصل منه على تعهّدات للمستقبل في مقابل تخلّيه عن المبارزة، هذا التمرين الذي يغتبط له، يقول، أشدّ الاغتباط ولن يمتنع عنه دونما أسف. وكان فيما يقول صادقاً فقد وجد على الدوام متعة في ارتياد حلبات المبارزة حينما يقتضي الأمر أن يقاتل بالسيف خصماً أو يبادله الرصاص. وأخيراً وصل «كوتار» وأن يكن تأخر كثيراً، ذلك لأنّه كان شديد الغبطة بأن يكون شاهداً، ولكنّه كان بعدُ أكثر انفعالاً فاضطرّ أن يتوقّف في سائر المقاهي أو المزارع على الطريق يسأل أن يتكرّموا ويدلّوه على الرقم «١٠٠» أو «بيت الخلاء الصغير». وما أن وصل حتىّ اصطحبه البارون إلى حجرة منفردة إذ كان يرى أقرب إلى النظام أن لانحضر اللقاء أنا و«شارلي» وكان يجيد في أن يجعل من غرفة عاديّة غرفة تخصّص مؤقتاً لتكون قاعة عرض أو مداولات. وما إن أصبح وحده مع «كوتار» حتىّ صرّح له أنّه يبدو على الأرجح أنّ الأقوال المردّدة لم يجر الكلام بها في الحقيقة وأن يتكرّم الدكتور ضمن هذه الظروف باخطار الشاهد الثاني بأن الحادثة اعتبرت منتهية إن لم تطرأ تعقيدات. وإذ تباعد الخطر أصيب «كوتار» بخيبة أمل، بل خطر له حيناً أن يعبّر عن غضبه ولكنّه تذكّر أن أحد أساتذته الذي نجح أعظم

نجاح في عصره على الصعيد الطبيّ كتم غيظه وتحمّل مصيبته بعد مافشل في المرّة الأولى في المجمع بفارق صوتين فحسب ومضى فشدّ على يد غريمه المنتخب. ولذلك أعفى الدكتور نفسه من الاعراب عن حنق ماكان ليغيّر شيئاً من بعد، وأضاف بعدما همس، هو أشدّ الرجال خوفاً، بأنّ ثمّة أموراً لايمكن أن ندعها تمرّ مرور الكرام، أضاف أنّ الأمر هكذا أفضل وأن هذا الحلّ يدخل السرور الى قلبه. وبادر السيّد «دوشار لوس»، رغبة منه في الاعراب عن امتنانه للدكتور، وبالطريقة نفسها التي لعلّ شقيقه الدوق كان رتّب بها ياقة معطف والدي ولفّت لها دوقة على وجه الخصوص خصر واحدة من العامّة، فقربّ كرسيّه بملاصقة كرسيّ الدكتور على الرغم من القرف الذي يوحي به هذا الأخير. وكيما يودّع الدكتور أخذ يده، ولم يفعل دون أيّة متعة ماديّة فحسب بل فيما يغالب نفوراً جسديّاً، فعلَ واحد من آل «غير مانت» لافعلَ شاذّ، وداعبها حيناً بلطف سيّد يدغدغ خطم جواده ويعطيه قطعة سكّر. ولكنّ «كوتار» الذي لم يكشف في يوم للبارون أنّه حتىّ سمع أقاويل سوء غامضة يجري تناقلها حول أخلاقه،ولم يكن في قرارة نفسه أقلّ احتساباً له على أنّه من صنف «الشاذين» (فقد كان حتىّ باستخدامه العاديّ للألفاظ في غير معانيها الصحيحة وبلهجة أكثر ماتكون جديّة يقول عن أحد خدم السيّد «فيردوران» «أليس أنّه «عشيقة» البارون؟») وهم قوم كان قليل الخبرة بهم، تخيلّ أن تلك المداعبة باليد كانت التمهيد المباشر لعمليّة اغتصاب أوقعه البارون في سبيل اتمامها، والمباراة لم تكن سوى حجّة، في فخّ وساقه إلى هذه الصالة المنفردة حيث سيؤخذ عنوة. وإذ لايجرؤ على مغادرة كرسيّه حيث يسّمره الخوف، فقد كان ينقّل عينيه هلعاً وكأنهما وقع بين يدي متوحّش لم يكن متيقّناً تماماً من أنّه لايتغذّى بلحوم البشر. وأخيراً أفلت السيّد «دوشار لوس» يده وقال وهو يودّ أن يكون لطيفاً حتىّ النهاية «ستتناول شيئاً معنا، كما يقولون، ماكان يدعى بالأمس «مازا غران» أو «غلوريا» (١)، وهما من الأشربة التي لا نجدها من بعد، بوصفها غرائب أثريّة، إلاّ في مسرحيّات «لابيش» ومقاهي «دونسيير»، وربّما ناسب فنجان «غلوريا» المكان إلى حدّ ما، أليس كذلك؟ والظروف، فما قولك؟ «فأجاب «كوتار»: «إنّي رئيس رابطة مناهضة الكحول، ويكفي أن يصادف مرور «طبيّب» من الريف كي يقال إنّي «لا أعظ بالمثل الصالح Os homini sublime dedil caelum que tueri.»(وهب الانسانَ وجهاً يتّجه به صوب السماء)، يضيف قوله مع أن الأمر لاصلة له البتّة وإنّما لأنّ مخزون استشهاداته اللاتينيّة كان هيّناً إلى حدّ ما، ولكنّه كاف على أيّة حال كي يدهش تلاميذه. وارتفع السيّد «دوشار لوس» بمنكبيه وعاد بـ«كوتار» إلينا بعدما طلب إليه سرّاً كان يهمّه بقدر يزيد منه أنّه كان لابدّ، وسبب المبارزة التي أجهضت كان من نتاج الخيال البحت، من الحؤول دون بلوغه مسامع الضابط الذي اتهّم تعسّفاً. وفيما كنّا نشرب نحن الأربعة دخلت السيّدة «كوتار» التي كانت تنتظر زوجها في الخارج أمام الباب وقد رآها السيّد «دوشار لوس» بوضوح تام ولكنّه ماكان يهتمّ بلفت نظرها، وحيّت البارون الذي مدّ يده إليها وكأنمّا لخادمة دون أن يتحرّك من كرسيّه فعلَ ملك يتقبلّ آيات الاحترام في جزء، وفي آخر فعلَ سنوبيّ لايريد أن تجلس إلى طاولته امرأة هينّة الأناقة، وفي جزء ثالث فعلَ أنانيّ يصيب متعة في أن يكون وحيداً برفقة أصدقائه ولايودّ أن يزعجه أحد. ولبثت السيّدة «كوتار» والحالة هذه واقفة تتحدّث إلى السيّد «دوشار لوس» وإلى زوجها. ولكن، ربّما لأن الأدب، أي مايقع عليك أن

(١) Mazagran و gloria : نوعان من مشروب القهوة يضاف إليه بعض «الروم»، والثاني محلى بقليل من السكّر.

تفعل، ليس امتيازاً قاصراً على آل «غير مانت» ويمكن فجأة أن ينير ويوجّه العقول الأكثر تردّداً، أو لأنّ «كوتار» كثيراً ماكان يخدع زوجته فيحسّ بين الحين والحين حاجة، جرّاء نوع من الثأر لها، إلى حمايتها ممّن كان يقصّر معها، قطّب الدكتور فجأة حاجبيه، وهو مالم يسبق أن رأيته يفعل في يوم، ودون أن يستشير السيّد «دوشار لوس» قال بلهجة صاحب الأمر:«هيّا يا «ليونتين» ، لاتلبثي هكذا واقفة، واجلسي.» - «ولكن ألست أزعجكم؟» تقول السيّدة «كوتار» بلهجة خجولة للسيّد «دوشار لوس» الذي لم يحر جواباً وقد فاجأته لهجة الدكتور. وعاد «كوتار» يقول دون أن يوفّر له الوقت لذلك للمرّة الثانية:«لقد قلت لك أن تجلسي.»

وتفرّقوا بعد حين وقال السيّد «دوشار لوس» حينذاك لـ«موريل»: «استخلص من مجمل هذه القصّة، وقد جاءت خاتمتها أفضل ممّا كنت تستحقّ، أنّك لاتحسن التصرّف وأنّي سأعيدك أنا في ختام خدمتك العسكرية إلى والدك كما فعل رئيس الملائكة «رفائيل» الذي أرسله الله إلى «طوبيا» الشاب.» وطفق البارون يبتسم بمظهر من العظمة وفرح لم يبدُ أنّ «موريل» كان يشاطره إيّاه اذ لم تكن فكرة إعادته على هذا النحو لتروق له. ولم يعد السيّد «دوشار لوس» يفكّر، وقد انتشى بتشبيه ذاته برئيس الملائكة و«موريل» بابن «طوبيّا»، بهدف جملته الرامية إلى استطلاع المكان ليعلم إن كان «موريل» سيقبل بالمجيء وإيّاه إلى باريس كما كان يبدي من رغبة. ولم يبصر البارون أو هو تظاهر بأنّه لايبصر، وقد أسكره حبّه أو اعتزازه بنفسه، العبوس الذي ظهر على وجه عازف الكمان، فقد قال لي بعدما ترك هذا الأخير وحده في المقهى، قال بابتسامة مستكبرة: «هل لاحظت كيف كان يطير فرحاً حينما شبهّته بابن «طوبيّا». ذلك لأنّه أدرك فوراً، إذ هو شديد الذكاء، أنّ «الأب» الذي سوف يعيش إلى جانبه من الآن فصاعداً ليس أباه بالجسد، وهو لابدّ خادم خاصّ قبيح بشاربين، بل أبوه بالروح، أي أنا. فأي فخار بالنسبة إليه، وكم كان يرفع الرأس باعتزاز! وأي فرح يحسّ به لادراكه ذلك، وإني متيقّن من أنه سيقول كلّ يوم: «اللهّم يامن جعلت من رئيس الملائكة «رفائيل» الطوباوي دليلاً لخادمك «طوبيّا»في رحلته الطويلة، هبنا نحن خدّامك أن يحامي عنّا ويزودنا بمعونته على الدوام.» وأضاف البارون قوله وهو على قناعة تامّة أنّه سوف يجلس يوماً أمام عرش الله: «ولم تكن حتىّ بي حاجة أن أقول له إني رسول السماء إليه، فقد أدرك الأمر من تلقاء ذاته وأرتجّ عليه من السعادة!» وصاح السيّد «دوشار لوس» (وما كانت السعادة على العكس تفقده الكلام). وهو قليل الاهتمام ببعض المارّة الذين استداروا وفي ظنّهم أن الأمر أمر مجنون، صاح وحده وبكل قوّته وهو يرفع يديه: «هللّويا!»

ولم تضع هذه المصالحة حدّاً لهموم السيّد «دوشار لوس» إلاّ إلى حين. فكثيراً ماكان «موريل» يمضي في مناورات أبعد من أن يتيسّر للسيّد «دوشار لوس» أن يلتقيه ويرسلني للتحدّث إليه، فكان يخطّ للبارون رسائل يائسة رقيقة يؤكدّ له فيها أنّه ينبغي له أن يضع حدّاً لهذه الحياة لأنّه بحاجة من أجل أمر مريع لخمسة وعشرين ألف فرنك. وما كان يقول أيّ شيء كان ذلك الأمر المريع، ولو انّه قاله لكان دون شكّ ابتداعاً. ولعلّ السيّد «دوشار لوس»، فيما يخصّ المال نفسه، لعلّه كان بعث به راضياً لو لم يحسّ أن ذلك يوفّر لـ«شارلي» وسيلة الاستغناء بغيره عنه وأن ينال حظوة لدى آخر غيره. ولذلك كان يرفض وكانت برقيّاته باللهجة الجافّة القاطعة التي لصوته. وكان، حين هو أكيد من أثرها، يتمنّى أن يكون أبدَ الدهر على خلاف معه، فهو إذ يوقن أنّ ماسيجري هو العكس كان يتبيّن المضايقات التي ستنجم ثانية عن هذه العلاقة المحتومة. فإن لم يرد أيّ

جواب من «موريل» عاد لا ينام ولم يظل له لحظة هدوء لضخامة عدد الأشياء التي نعيشها دون أن نعرفها والحقائق الباطنيّة العميقة التي تلبث خفيّة علينا. حينذاك كان يصوغ كلّ الافتراضات حول هذه الهفوة الفاحشة التي تجعل «موريل» بحاجة إلى خمسة وعشرين ألف فرنك فيوليها كلّ الأشكال ويربط بها بالتناوب الكثير من أسماء العلم. وأعتقد أن السيّد «دوشار لوس» كان لابدّ يتذكرّ في تلك اللحظات (مع أن سنوبيّته في تلك الفترة، وهي في تراجع، لحق بها على الأقلّ إن لم يكن جاوزها فضول البارون المتعاظم إزاء الشعب) بشيء من الحنين الزوابع اللونيّة الرشيقة المتعدّدة التي تؤلفها اللقاءات الاجتماعيّة والتي ماكان أكثر النساء والرجال فتنة يسعون فيها إليه إلاّ للمتعة المجرّدة التي كان يوليهم إيّاها والتي ماكان ليفكّر أحد بأن يخدعه ويبتدع «أمراً مريعاً» يبدي جراءه استعداده لأن يقتل نفسه إن لم يرده في الحال خمسة وعشرون ألف فرنك. وأعتقد أنّه كان لابدّ حينئذ، ربّما لأنّه لبث مع ذلك من «كومبريه» أكثر منّي وطعّم الاعتزاز الاقطاعي بالاستكبار الألماني، أن يجد أن المرء لايمكن أن يكون عاشق خادم دونما عقاب، وأن الشعب ليس تماماً العالم الراقي وما كان يولي الشعب ثقته كما فعلت أنا على الدوام.

تذكرّني محطّة القطار الصغير التالية، وأقصد «مينفيل» تذكرّني بالضبط بحادث له علاقة بـ« موريل» والسيّد «دوشار لوس». وقبلما أحكي عن ذلك لابدّ لي أن أقول إنّ التوقّف في «مينفيل» (حين كانوا يصطخبون إلى «بالبيك» وافداً أنيقاً كان يفضّل، بغية أن لايُزعج، أن لايقطن «لاراسپليير» كان مناسبة لمشاهد تشقّ عليك أقلّ من هذا الذي سأروي عنه بعد لحظة. كان الوافد، وهو يحمل أغراضه اليسيرة في القطار، يجد الفندق الكبير بعامّة على شيء من البعد، بيد أنّه، إذ لم يكن ثمّة قبل بلوغ «بالبيك» سوى شواطئ صغيرة بدارات غير مريحة، كان يسلّم طائعاً، من جرّاء ميل إلى البذخ والرفاهيّة، بالرحلة الطويلة حينما كان يبصر فجأة في فترة وقوف القطار في «مينفيل» فندق «الپالاس» يشمخ أمامه وما كان يمكن أن يرتاب بأنّه بيت بغاء. فكان يقول حكماً للسيّدة «كوتار»، وهي امرأة معروفة بتفكيرها العمليّ وحسن المشورة: «هيّا، لانذهبنّ أبعد من ذلك، فهذا كلّ ماينبغي لي. فما فائد المضيّ حتىّ «بالبيك» حيث لن تكون الأمور أفضل بالتأكيد؟ أنيّ أحكم، لمجرد المظهر، أنيّ واجد كل الراحة ويمكنني تماماً استقدام السيّدة «ڤيردوران» لأنّني أنوي في مقابل مجاملاتها إقامة بعض اللقاءات الصغيرة على شرفها، ولن يقع عليها السير بقدر مالو كنت أسكن في «بالبيك». يبدو لي أن ذلك يناسبها تماماً، ويناسب زوجتك ياأستاذي العزيز. لابّد أن ثمّة صالات نستقدم إليها هاتيك السيّدات. لست أفهم، وأقولها فيما بيننا، لماذا لم تجئ السيّدة «ڤيردوران» للسكنى هنا بدلاً من استئجار «لاراسپليير» فالمكان صحيّ أكثر من بيوت قديمة على شاكلة «لاراسپليير» وهي حتماً رطبة دون أن تكون نظيفة على أيّة حال، ولايتوافر فيها الماء الساخن فلا تستطيع الاغتسال كما تشاء. تبدو لي «مينفيل» أوفر متعة وكانت السيّدة «فيردوران» نهضت فيها بدور المعلّمة على أكمل وجه. لكلّ في جميع الأحوال ذوقه، أمّا أنا فسأقيم هنا. ألا تريدين النزول وإيّاي ياسيّدة «كوتار»؟ على أن نتوخّى السرعة فلن يلبث القطار أن ينطلق من جديد. وربّما أرشدتني في هذا المنزل الذي سيكون منزلك أيضاً ولابدّ أنّك تردّدت عليه كثيراً. إنّه بالتمام الإطار الذي يناسبك.» لقد صادفوا كلّ صنوف المشقّة لحمل الوافد المنكود الحظّ على السكوت، ولاسيّما لمنعه من النزول، وكان بالعناد الذي ينجم في الغالب عن كبير الهفوات يلحّ ويحمل حقائبه ويرفض سماع أيّ

شيء إلى أن يكونوا أكّدوا له أن لن يجيء للقائه هنا لا السيّدة «ڤيردوران» ولا السيّدة «كوتار» «سأحدّد هنا مكان أقامتي في جميع الأحوال، وما على السيّدة «ڤيردوران» إلاّ أن تكتب إليّ هذا المكان.»

أمّا الذكرى المتعلقة بـ«موريل» فتعود لحادثة من نمط أكثر خصوصيّة. لقد وقعت حادثات أخرى، ولكنّما أكتفي هنا، كلّما توقّف القطار الصغير وصاح المستخدم يقول «دونسيير»، «غرا ثڤاست»، «مينڤيل»، الخ.، بتسجيل مايذكّرني به الشاطئ الصغير أو الثكنة. لقد سبق أن تحدّثت عن «مينڤيل» (Media Villa) المدينة المتوسّطة) وعن الأهمية التي كانت تكتسبها بسبب دار البغاء الفخمة التي بنيت فيها مؤخراً ، ولم يتمّ ذلك دون إثارة احتجاجات لأمهّات الأسر لاطائل تحتها. ولكن لابدّ لي، قبل أن أقول مانوع الصلة في ذاكرتي بين «مينڤيل» و«موريل» والسيّد «دوشارلوس»، من ملاحظة التفاوت (الذي يقع عليّ التعمّق فيه فيما بعد) بين الأهميّة التي يعلقّها «موريل» على الاحتفاظ ببعض الساعات خالية من أيّ ارتباط وتفاهة المشاغل التي يزعم أنّه يخصّصها لها، أذ نلقى هذا التفاوت نفسه داخل الايضاحات التي من نوع آخر والتي كان يقدّمها للسيّد «دوشارلوس». فهو الذي كان يمثّل دور المتجرّد مع البارون (ويمكنه أن يفعل دون مخاطر نظراً لكرم حاميه) حينما كان يرغب في قضاء الأمسية بمفرده ليعطي درساً، الخ، لم يكن يفوته أن يضيف إلى حجّته هذه الكلمات التي يقولها بابتسامة ملؤها الجشع: «ثمّ إن ذلك يمكن أن يكسبني أربعين فرنكاً وليس ذلك بالقليل، فاسمح لي بالذهاب هناك فتلك مصلحتي كما ترى. وأنا بالطبع لادخول لي مثلك، وعليّ أن ابني نفسي، وقد آن أن أكسب المال.» ولم يكن «موريل» غير صادق تماماً في رغبته بإعطاء درسه. فأن لايكون للمال لون غير صحيح من جهة، فإن طريقة جديدة في كسبه تولي القطع التي أفقدها الاستعمال لمعانها جدّة. فلو انّه خرج حقيقة من أجل درس يعطيه فيمكن أن تكون ليرتان ذهبيّتان نقدتهما بداية إحدى التلميذات خلّفتا في نفسه أثراً مخالفاً لليرتين تأتيانه من يد السيّد «دوشارلوس». ثمّ إن أغنى رجل ربّما قطع في سبيل ليرتين كيلو مترات تصبح فراسخ إن كنت ابن خادم خاصّ. على أن السيّد «دوشارلوس» كان ينتابه في الغالب شكوك حول درس الكمان تتعاظم بقدر ماكان الموسيقيّ يتذرّع في الغالب بحجج من نوع آخر ومن طراز متجرّد تماماً على الصعيد الماديّ وهي مخالفة للمنطق على أيّ حال. من ذلك أنّ «موريل» ماكان يستطيع حجب النفس عن أن يقدّم صورة عن حياته ولكنّها عن قصد أو غير ما قصد أيضاً شديدة العتمة إلى حدّ أن بعض الأجزاء فقط كانت تتّضح معالمها. وقد وضع نفسه على مدى شهر بتصرّف السيّد «دوشارلوس» بشرط أن يحتفظ بأمسياته حرّة لأنه كان يرغب في المثابرة على دروس الجبر. فأمّا المجيء للسؤال عن السيّد «دوشارلوس»؟ آه ذلك مستحيل،فالدروس كانت تستمرّ أحياناً حتىّ ساعة متأخّرة. ويتساءل البارون قائلاً :«حتّى إلى ما بعد الثانية صباحاً؟»– «أحياناً»– «ولكنّ الجبر يمكن تعلّمه بالسهولة نفسها في كتاب.»– «بل بسهولة أكبر لأنيّ لا أفهم الكثير في الدروس»– إذاً؟ والجبر لايمكن في جميع الأحوال أن يفيدك في شيء.»– «هذا شيء أحبّه كثيراً، فانّه يزيل وهن أعصابي.» وكان السيّد «دوشارلوس» يقول في نفسه: «لايمكن أن يكون الجبر مايدفعه إلى طلب مأذونيات ليليّة. أتراه ملحق بالشرطة؟» وفي جميع الأحوال، وأيّا كان الاعتراض، فإن «موريل» كان يحتفظ ببعض الساعات المتأخرة، سواء أكان ذلك بسبب الجبر أو الكمان. وذات مرّة لم يكن السبب لاهذا ولا ذاك، بل الأمير «دو غيرمانت» الذي جاء لقضاء بضعة أيّام على هذا

الشاطئ لزيارة الدوقة «دو لوكسمبور» فالتقى الموسيقيّ دون أن يعرف من عساه كان ودون أن يكون معروفاً لديه علاوة على ذلك وعرض عليه خمسين فرنكاً لقضاء الليلة بصحبته في دار النساء في «مينفيل»؛ والمتعة مزدوجة بالنسبة إلى «موريل»، متعة المكسب الذي جاءه من جانب السيّد «دو غير مانت» واللذّة لما تحيط به نساء نهودهن السمراء تبرز مكشوفة. لست أدري كيف بلغت السيّد «دوشار لوس» فكرة ماجرى والمكان، ولكن من دون الغاوي. وجنّ من الغيرة وبادر بغية معرفته فأبرق لـ«جوبيان» الذي وصل بعد يومين، وعندما أعلن «موريل» في أول الأسبوع التالي أنه يزمع أيضاً أن يغيب سأل البارون «جوبيان»إن كان سيأخذ على نفسه شراء مديرة المؤسسة وأن يحصل منها على إخفائها هو و«جوبيان» لحضور المشهد. وأجاب «جوبيان» يقول للبارون: «مفهوم، سوف أهتم بالأمر ياصغيري العزيز.» لانستطيع أن نفهم إلى أيّ حدّ كان هذا القلق يهيّج عقل السيّد «دوشار لوس» وبذلك أثراه مؤقتاً. فالحبّ يسبّب هكذا اندفاعات جيولوجيّة حقيقية في الفكر. وفي فكر السيّد «دوشار لوس»، الذي كان يشبه لأيّام خلت سهلاً متساوي الصفحة إلى حدّ أنه ماكان استطاع أن يبصر في المجال الأبعد فكرة على وجه الأرض، انتصبت فجأة كتل من الجبال قاسية كالحجر، ولكنّها جبال نُحتت كما لو أن مثّالاً نقش الرخام في مكانه بدلاً من أن يحمله معه فتتلوّى فيه بمجموعات عملاقة جبّارة الحنق والغيرة والفضول والحسد والحقد والألم والكبرياء والهلع والحبّ.

وفي هذه الأثناء حلّ المساء الذي ينبغي أن يتغيّب فيه «موريل». لقد نجحت مهمّة «جوبيان». كان على البارون وعليه المجيء في حوالي الحادية عشرة مساء وسوف يخبئونهما. كان السيّد «دوشار لوس» يمشي على أطراف قدميه قبل ثلاثة شوارع من بلوغه بيت البغاء الرائع ذاك (الذي كانوا يفدون إليه من جميع الضواحي الأنيقة) ويكتم صوته ويتوسّل إلى «جوبيان» أن يتكلّم بصوت أخفض مخافة أن يسمعهما «موريل» من الداخل. ولكن ما إن دخل السيّد «دوشار لوس» يسترق الخطو إلى البهو، وقليلاً ماتعوّد هذا الصنف من الأماكن، حتّى ألفى نفسه، يلفّه الخوف والذهول، في مكان أكثر ضجيجاً من البورصة أو فندق المبيعات. فعبثاً كان يوصي خادمات حلوات تجمّعن من حوله بخفض أصواتهنّ. وكان يغطّي أصواتهنّ على أيّة حال ضجيج الدلالة والمناقصات الصادر عن «نائبة رئيسة» عجوز ذات شعر مستعار فاحم السواد ووجه يتشقّق وقار الكاتب العدل أو الكاهن الاسباني فيه، وكانت تصرخ في كل دقيقة كهزيم الرعد إذ تأذن بالتناوب بفتح الأبواب وإعادة إغلاقها، مثلما يجري تنظيم سير العربات: «ضع السيّد في الرقم ٢٨ في الغرفة الاسبانية.» «لادخول بعد الآن»«أعد فتح الباب، فهذان السيّدان يطلبان الآنسة «نعومي»، وهي تنتظرهما في الصالة الفارسيّة. «كان السيّد «دوشار لوس» فزعاً مثل ريفيّ يقع عليه أن يجتاز الجادّات الكبرى. وكيما نأخذ تشبيهاً أقل انتهاكاً للقدسيّات بما لايقاس من الموضوع المصوّر في تيجان بوّابة الكنيسة القديمة في «كوليفيل»، كانت أصوات الخادمات الشابّات تردّد بطبقة أخفض ودونما كلل أمر نائبة الرئيسة كتلك التعاليم الدينيّة التي نسمع التلاميذ يرتلونها في جوّ كنيسة ريفيّة رخيم. والسيّد «دوشار لوس» الذي كان يرتعد في الشارع أن يسمعه أحدهم وهو موقن أنّ «موريل» كان يقف إلى النافذة، ربّما لم ينتبه، مهما أصابه من خوف، الفزع نفسه في زمجرة هذه اللالم الفسيحة التي يدرك فيها المرء أنْ ليس مايمكن أن يُشاهد من الغرف.وأخيراً وجد في ختام محنته الآنسة «نعومي» التي كان ينبغي أن تخبّئه مع «جوبيان»، ولكنّهاا بدأت فحبسته في صالة فارسيّة فخمة جداً ماكان

يبصر منها شيئاً. وقالت له إن «موريل» سبق أن طلب تناول عصير برتقال وإنّهم سيصطحبون المسافَرين ما إن تقدّم له، إلى صالة شفّافة. وبانتظار ذلك، ولمّا كانوا يرسلون في طلبها، وعدتهما، كما في الحكايات، أن ترسل لهما بغية تمضية الوقت «سيّدة حلوة ذكيّة» فإنّها هي كانوا ينادون عليها. والسيّدة الحلوة الصغيرة كانت ترتدي مئزراً فارسياً تهمّ أن تخلعه. فطلب إليها السيّد «دوشار لوس» أن لا تفعل، فأوصت أن يأتوها بالشمابانيا إلى فوق وكانت تكلّف أربعين فرنكاً للزجاجة الواحدة. أمّا «موريل» فقد كان بالحقيقة في تلك الأثناء بصحبة الأمير «دو غير مانت». وتظاهر شكلاً بأنّه ضلّ الطريق إلى غرفته ودخل إلى غرفة كان فيها امرأتان سارعتا إلى ترك السيّدين وحدهما. كان السيّد «دوشار لوس» يجهل كلّ ذلك، ولكنّه يزبد غضباً ويريد فتح الأبواب، وأرسل ثانية في طلب «نعومي» التي لما تناهى إلى مسامعها أن السيّدة الحلوة الذكيّة تزوّد السيّد «دوشار لوس» بتفاصيل حول «موريل» غير مطابقة لتلك التي أقدمت هي على تزويد «جوبيان» بها أمرت بطردها وأرسلت بعد قليل للحلول محلّ السيّدة الحلوة الذكيّة «سيّدة حلوة لطيفة» لم تُرهما أكثر من تلك ولكنّها قالت لهما كم الدار جديّة وطلبت شمپانيا بدورها. وطلب البارون وهو يرغي ويزبد عودة «نعومي» التي قالت لهما : «أجل، الأمر طويل بعض الشيء فهاتيك السيّدات يتصنّعن الوقفات وليس يبو أنّه راغب أن يفعل شيئاً. «وأخيراً، وازاء وعود البارون وتهديداته مضت الآنسة «نعومي» ضيقّة النفس وهي تؤكدّ لهما أنّهما لن ينتظرا أكثر من خمس دقائق. والدقائق الخمس تلك دامت ساعة اصطحبت بعدها «نعومي» دونما ضجّة السيّد «دوشار لوس» الذي كان يتميزّ غيظاً و«جوبيان» الشديد الأسف باتجاه باب مشقوق وهي تقول :«سوف تبصران تماماً. وليست الأمور مثيرة على أيّ حال في هذه الفترة، فهو برفقة ثلاث سيّدات ويحكي لهنّ عن الحياة في الكتيبة.» وأخيراً استطاع البارون أن يشاهد من فتحة الباب وكذلك في المرايا، ولكنّما اضطرّه رعب قاتل أن يستند إلى الجدار. إنّه بالتمام «موريل» من يشاهده أمامه بيد أنّه كان بالأحرى،وكأنّما الأسرار الوثنيّة وصنوف السحر لاتزال موجودة، ظلٌّ «موريل» ، «موريل» محنّطاً، لم يكن حتىّ «موريل» الذي أُقيم من بين الأموات كلعازر، بل تراءٍ لـ«موريل» ، شبح لـ«موريل» ، «موريل» عائداً أو مذكراً في هذه الغرفة (حيث الجدران والدواوين تردّد في كل مكان رموز السحر) وكان يقف جانبياً على أمتار منه، كان «موريل» قد فقد كلّ لون كما هي الحال بعد الموت، وظلّ ساكناً بين تلك النساء اللائي بدا وكأنّما كان انبغى أن يسرح ويمرح بينهنّ، مكفهّر اللون في جمود مصطنع. وكيما يشرب كوب الشمانيا الذي أمامه كانت ذراعه الواهنة تحاول أن تمتدّ ببطء وتعود فتهوي. كان يوافيك انطباع بهذا الالتباس الذي يفضي إلى أن يتكلّم دين ما عن الخلود ولكنّه يعني به شيئاً لايستبعد العدم. كانت النساء يضيّقن عليه بالأسئلة: «ترى، إنّهنّ يكلّمنه عن حياته في الكتيبة،تقول الآنسة «نعومي» للبارون بصوت خفيض، أليس أنّ هذا مسلّ؟ – وتضحك– هل أنت مسرور؟ إنّه هادئ، أفليس كذلك؟ » ،تضيف قولها كما لعلّها قالت عن مشرف على الموت. كانت أسئلة النساء تلحّ على «موريل» ولكنّه لاتتوافر له القوّة على الإجابة وهو لاحراك به. حتىّ معجزة كلمة واحدة مهموسة لم تحدث ولم يتردّد السيّد «دوشار لوس» سوى لحظة وأدرك الحقيقة وأنّهم، إمّا لقلّة براعة لدى «جوبيان» حينما مضى للاتفاق معهم، وإمّا لقوة الانتشار في مايستودع من أسرار والتي تفضي إلى أن لاتُحفظ في يوم، وإمّا لطبع في تلك النساء غير حافظ للسّر، وإمّا للخوف من الشرطة، كانوا قد أخطروا «موريل» أن رجلين دفعا

ثمناً كبيراً لرؤيته وأخرجوا الأمير «دو غير مانت» بعدما انقلب ثلاث نساء ووضعوا «موريل المسكين» مرتجفاً تشلّه الدهشه بحيث أنّه، إن كان السيّد «دوشار لوس» لايراه بوضوح، فقد كان هو، وقد أخذ منه الهلع وانعقد لسانه وهو لايجرؤ على الامساك بكأسه مخافة أن يُسقطه أرضاً، يبصر البارون كليّاً.

ولم تكن الحكاية على كلّ حال أفضل خاتمة بالنسبة إلى الأمير «دو غير مانت». فحينما أخرجوه كي لايشاهده السيّد «دوشار لوس» تملكه الحنق لخيبة أمله دون أن يشتبه بمن كان صانعها فتوسّل إلى «موريل»، وهو على الدوام عازم أن لايعرّفه من تراه كان، أن يضرب له موعداً في الليلة التالية في الدارة الصغيرة جدّا التي سبق أن استأجرها والتي بادر، على الرغم من الوقت اليسير الذي سيمضيه فيها وطبقاً للعادة المجنونة التي لاحظناها فيما مضى لدى السيّدة «دو ڤيليا ريزيس»، إلى تزيينها بطائفة من التذكارات الأسريّة كي يشعر شعوراً إضافياً بأنّه في بيته. وفي الغد إذن انتهى الأمر بـ«موريل»، وهو يدير الرأس في كلّ دقيقة ويرتجف أن يكون لحقه وترصّده السيّد «دوشار لوس»، وإذ لم يلحظ أحداً من المارة يشتبه به، بالدخول إلى الدارة. وأدخله خادم إلى الصالة وهو يقول له إنّه سيبادر إلى إخطار السيّد (فقد كان أوصاه مولاه أن لايتلفّظ بلفظة أمير مخافة إثارة الشكوك). ولكن حينما بقي «موريل» بمفرده، وشاء أن يرى في المرآة أن كانت خصلة شعره لم تفقد ترتيبها، أصيب بما يشبه الهلوسة. فقد جمدّته بادئ الأمر هلعاً الصور الشمسيّة الكائنة فوق الموقد، وهي سهلة التعرّف لدى عازف الكمان إذ سبق أن رآها في منزل السيّد «دوشار لوس» والعائدة إلى الأميرة «دو غير مانت» والدوقة «دو لوكسمبور» والسيّدة «دو ڤيليا ريزيس». ولمح في الآن نفسه صورة السيّد «دو شار لوس» التي كانت إلى الخلف قليلاً. وبدا البارون كأنّه يسمّر على «موريل» نظرة غريبة. فجنّ «موريل» من الرعب، وإذ أفاق من ذهوله الأول ولم يشكّ أن ذلك فخّ أوقعه فيه السيّد «دوشار لوس» ليمتحنه في إخلاصه له كرّ بضع درجات الدارة أربعاً فأربعاً وطفق يعدو وقد أطلق ساقيه للريح فوق الطريق، وحينما دخل الأمير «دو غير مانت» إلى صالته (بعدما ظنّ أنّه أخضع أحد معارفه من عابري السبيل للتدريب المطلوب، ولم يفعل دون أن يكون تساءل إن كان ذلك من حسن التبصّر وإن لم يكن الشخص خطيراً) لم يلقَ فيها أحداً. وعبثاً استكشف وخادمه، وهو شاهر مسدّسه مخافة عملية سطو، كامل المنزل ، ولم يكن كبيراً وخبايا الزوايا في الحديقة الصغيرة والقبو فقد اختفى الرفيق الذي ظنّ حضوره مؤكداً.وقد صادفه عدّة مرّات في بحر الأسبوع التالي، وفي كل مرّة كان «موريل» ذاك الشخص الخطير، هو الذي ينجو بنفسه وكأنما كان الأمير أشدّ خطراً منه. ولبث «موريل» متشبثاً بشكوكه فلم يبدّدها البتّة وكانت رؤية الأمير «دو غير مانت» حتىّ في باريس كافية لحمله على الفرار، وذلك ماحمى السيّد «دوشار لوس» من خيانة كانت تبعث اليأس في نفسه وثأر له دون أن يتخيّل ذاك في يوم ودون أن يتصوّر على وجه الخصوص كيفيّة ذلك.

ولكنّما حلّ من ذاك محلّ الذكريات التي رُويت لي حول هذا الموضوع أخرى غيرها لأنّ «قطار جنوب النورماندي»، وقد عاود مسيرته المخلّعة، لايزال يجلب أو يأخذ المسافرين إلى المحطات التالية.

فقد كان السيّد «بيير دوڤير جوس»، وهو الكونت «دو كريسي»، يستقلّه أحياناً في «غراتڤاست» حيث تسكن شقيقته التي جاء يقضي العصر معها (وكانوا يدعونه الكونت «دو كريسي» فحسب)، وهو نبيل فقير

ولكنّه ذو أناقة فائقة، وكنت عرفته عن طريق آل «كامبرميرِ» ولم يكن على أي حال وثيق الصلة بهم. وإذ أوصلته الأيّام إلى حال من ضنك العيش، بل مايقارب البؤس، فقد كنت أحسّ أن سيجاراً وأنّ «مشروباً» هما من الأشياء التي تبهجه كثيراً إلى حدّ أنيّ تعوّدت دعوته إلى «بالبيك» في الأيّام التي لايتسنّى لي فيها لقاء «ألبيرتين». كان مرهفاً جدّاً، طليق العبارة إلى أبعد حدّ، كلّه بياض إلى عينين زرقاوين ساحرتين وكان يتحدّث على وجه الخصوص، من أطراف شفتيه وبنعومة فائقة، عن صنوف رفاه حياة الأسياد التي سبق أن عرفها بالتأكيد وكذلك عن الأنساب. وإذ سألته عمّا كان منقوشاً على خاتمه قال لي بابتسامة متواضعة: «إنّه غصن لحصرمه الكرمة». وأضاف يقول بمتعة الذوّاقة: «شعارنا غصن لحصرم الكرمة– شيء رمزيّ بما أنّني أدعى «ڤيرجوس»(١) – بسويقات وأوراق خضر.» ولكنيّ أظنّ أنّه كان خاب أمله خيبة شديدة لو لم أقدّم له في «بالبيك» سوى عصير الحصرم شراباً فقد كان يحبّ أكثر الخمور ثمناً من جرّاء الحرمان دونما شك، وعن معرفة عميقة لما كان محروماً منه، وعن ذوق، وربّما كذلك عن ميل مفرط. وكان لذلك، حينما أدعوه إلى الطعام ويشرب على وجه الخصوص، إذ يأمر بتدفئة الخمور التي تتطلّب ذلك وتبريد تلك التي تقتضي أن تكون في الثلج. كما كان قبل العشاء وبعده يحدّد التاريخ أو الرقم الذي يريد بالنسبة إلى مشروب «الپورتو» أو ماء الحياة الفاخر كما لعلّه كان فعل فيما يخصّ تشييد مقرّ إحدى المركيزيّات، وهو مجهول بعامّة ولكنّه كان يعرفه كذلك تمام المعرفة.

ولما كنت في نظر «إيميه» زبوناً مفضّلاً فقد كان يغبطه أن أقيم مثل هذه المآدب ويصيح بالنُدُل: «بسرعة جهّزوا الطاولة ٢٥ »؛ ولم يكن يقول «جهّزوا» بل «جهّزوا لي» كما لو كان ذلك من أجله. وإذ ليست لغة رؤساء الندل بالتمام لغة رؤساء الفئات ونوابهم والمستخدمين، الخ، فقد كان يقول حينما كنت أطلب المجموع، يقول للنادل الذي قام على خدمتنا بحركة مكرورة مُطَمْئِنَة من قفا يده كما لو يودّ تهدئة حصان على وشك أن يجمح: «لاتبالغ (في المجموع)، على رسلك، وخفّف ماوسعك التخفيف.» وإذ كان النادل يمضي وقد تزوّد بتلك المذكّرة وخشي «ايميه» أن لاتُتّبع تعليماته بالتمام فقد كان يستدعيه ثانية: «انتظر، سأقيّد بنفسي.» ولما كنت أقول له أنّ ليس يهمّ ذلك: «إنّما المبدأ عندي، كما تقول العامّة، أن لانضحك على ذقن الزبون.» أمّا المدير فقد كان يكتفي، إذ يرى الأثواب البسيطة، وهي واحدة لا تتغيّر، والرثّة إلى حدّ ما التي يرتديها مدعوّي (ولعلّه ماكان أحد أجاد مثله ممارسة فنّ اللباس على نحو باذخ، وكمثل متأنّق لدى «بلزاك»، لو توافرت له الوسائل)، كان يكتفي من أجلي أنا أن يتحرّى عن بعد إن كان كلّ شيء على مايرام وله نظرة من يأمر بوضع دعمة تحت قائمة طاولة غير متوازنة. وليس يعني ذلك أنّه ماكان ليعلم كيف يباشر أموره بنفسه كغيره، على الرغم من إخفائه بداياته غطّاساً. كان لابدّ مع ذلك من مناسبة استثنائية كي يقطّع ذات يوم بيده الأديباك الروميّة. وكنت قد خرجت ولكنّي علمت أنّه فعل ذلك بجلال كهنوتي يحيط به، على مسافة من خزانة المائدة يفرضها الاحترام، طوق من الندل يحاولون بذلك إبراز انفسهم أكثر منهم أن يتعلّموا ويظهرون بمظهر المُعجَب الراضي. أمّا أن يكون رآهم المدير (وهو يغوص بحركة بطيئة في أحشاء الضحايا ولايحوّل عنها

(١) ڤيرجوس تعني الحصرم.

عينيه المتشبّعتين بوظيفته السامية أكثر ممّا لو انبغى له أن يقرأ فيها نبوّة ما) فلم يكن شيء من ذلك البتّة. ولم يتتبه مقدّم الذبائح حتّى لغيابي، وحين علم به اغتمّ لذلك. «عجباً، ألم ترني أقطّع بنفسي الفراخ الروميّة؟ فأجبته أنّي، إذ لم يتيسّر لي حتىّ الآن زيارة «رومه» والبندقيّة «وسيينّا» و «البرادو» ومتحف «دريسدن» وبلاد الهند و«ساره» في مسرحية «فيدر»، كنت على إلمام بالتسليم بالأمور وأني سأضيف إلى لائحتي تقطيعه للأدياك الروميّة. وكانت المقارنة بالفنّ المسرحي («ساره» في مسرحيّة «فيندر») الأمر الوحيد الذي بدا أنّه يفهمه لأنه كان يعلم نقلاً عنّي أن «كوكلان» الابن الأكبر سبق أن قبل في أيّام العروض الكبرى أدوار مبتدئين، وحتّى دور شخصيته لاتنطق بغير كلمة واحدة بل لاتقول شيئاً. «سيّان عندي، وإني أشعر بالأسى فيما يخصّك. متى أقوم بعملية تقطيع جديدة ؟ لابّد من حدث تاريخي، لابّد من حرب.» (وانبغى لذلك بالفعل هدنة.) ومنذ ذلك اليوم تغيّر التقويم وأخذوا يحسبون هكذا: «كان ذلك في غد اليوم الذي قطّعت فيه بنفسي الأدياك الروميّة.» كان ذلك بالضبط بعد ثمانية أيّام أعقبت تقطيع المدير بنفسه للأدياك الروميّة.» وهكذا كانت عملية التقطيع تلك، مثلها مثل مولد المسيح والهجرة، نقطة انطلاق لتقويم مختلف عن سواه ولكنّما لم يبلغ مابلغا من اتّساع ولاساواهما مدّة.

كان مردّ الكآبة التي تغمر حياة السيّد «دو كريسي» أنْ لم يبقَ لديه جياد ومائدة شهيّة وأن لايجاور في الآن نفسه سوى قوم يمكن أن يعتقدوا أنْ «كامبرمير» و«غير مانت» أنّما هم شيء واحد. وحينما تبيّن أني أعلم أنّ «لوغراندان» الذي كان يسمّي نفسه الآن «لوغران دو ميزيكليز» لم يكن له أيّ حقّ في ذلك أحسّ، وقد اهتاج من جانب آخر من الخمرة التي كان يشربها، بنوع من فورة الفرح. وكانت شقيقته تقول لي بهيئة المتخابث: «لايَسعد شقيقي إلى هذا الحدّ في يوم إلاّ حينما يستطيع التحدّث إليك.» فقد أخذ يحسّ بالفعل أنّه موجود منذ اكتشف واحداً يعرف ضحالة آل «كامبرمير» وعظمة آل «غير مانت»، واحداً يرى أنّ العالم الاجتماعي موجود. مثله مثل عالم في اللاتينيّة عجوز يعود، بعد حريق مكتبات الكرة الأرضيّة قاطبة وصعود عرق بشريّ جهله مطبق، فضع قدماً في الحياة يقرنها بالثقة يوم يسمع من يستشهد أمامه ببيت من شعر «هوراسيوس». ولئن لم يكن يغادر العربة البتة دون أن يقول لي: «إلى متى اجتماعنا المحبّب؟» فَلنَهمَ المتبحّر في العلم بقدر ما لجشع الطفيليّ ولأنه كان يعدّ مآدب «بالبيك» فرصة للتحدّث في الوقت ذاته عن الموضوعات العزيزة على قلبه والتي لا يستطيع التكلّم فيها مع أحد، وهي تشبه في ذلك حفلات العشاء التي تجتمع فيها في أوقات محدّدة، إلى مائدة نادي الاتحاد الشهيّة، جمعيّة «هواة الكتب». ولمّا كان فائق التواضع فيما يتعلّق بأسرته ذاتها فانّي لم أعلم من جانب السيّد «دوكريسي» أنّها كانت كبيرة جدّاً وفرعاً حقيقيّاً بقي في فرنسه من أسرة أنكليزيّة تحمل لقب دو كريسي». وحين علمت أنّه «كريسي» أصيل رويت له أن ابنة أحد أشقّاء السيّدة «دو غير مانت» كانت تزوّجت اميركيّاً باسم «شارل كريسي» وقلت له إني أظنّ أنْ لاصلة له البتّة به. فقال : «لاصلة البتّة، كما انّه لاصلة لكثير من الاميركيين الذين يدعون «مونتغمري» أو «بيري» أو «شاندوس» أو «كابيل» بأسر «پامبروك» أو «بكنغهام» أو «إيكس» أو بالدوق «دو بيرّي». وخطر لي مرّات عدّة أن أقول له على سبيل التسلية إنني كنت أعرف السيّدة «سوان» التي كانت تعرف كغانية فيما مضى باسم «أوديت دو كريسي». ولكنّما لم يخالجني شعور، مع أن دوق «دالنصون» ماكان ليتكدّر ممّن يحدّثه عن

«اميليين دالنصون» (١)، بأني ارتبط بصداقة كافية بالسيّد «دو كريسي» كي أبلغ بممازحته ذلك الحدّ. وقال لي السيّد «دومونسورڤان» ذات يوم: «إنّه من إسرة كبيرة جداً، واسم عائلته «سيلور». وأضاف أن شعار الأسرة القديم لايزال ظاهراً للعيان على قصره القديم الكائن فوق «انكرڤيل» وقد أضحى على أيّ حال غير قابل للسكنى تقريباً وإنّه، على الرغم من مولده الفائق الثراء، أكثر فقراً اليوم من أن يرمّمه. وألفيت الشعار جميلاً جداً سواء طبّقته على غليان جنس من الجوارح عشّش في ذاك الوكر الذي كان يقلع منه بالأمس، أو اليوم على تأمّل غروب الحياة وانتظار الموت القريب في هذه الخلوة المشرفة الموحشة. فبازدواجيّة المعنى هذه كان يتلاعب باسم «سيلور» ذاك الشعار القائل: «Ne scais l'heure» (٢)(لا أعرف الساعة).

كان يستقلّ القطار في «هيرمونڤيل» أحياناً السيّد «دو شيڤرنيي» الذي يعني اسمه كاسم السيّد «دو كابريير»، يقول «بريشو»، «المكان الذي تجتمع فيه الماعز». وكان قريباً لآل «كامبرمير» فكانوا لذاك السبب وبتقدير خاطئ للأناقة يدعونه في الغالب إلى «فيتيرن» ولكن حين لايتيسّر لهم مدعوّون يبغون إبهارهم فحسب. ولمّا كان السيّد «دوشيڤرنيي» يمضي السنة بطولها في «بوسوليي» فقد ظلّ يطبعه الطابع الريفيّ أكثر منهم. ولم يكن لذلك، حين كان يمضي لقضاء بضعة أسابيع في باريس، يوم واحد ضائع بالنسبة إلى كلّ ما كان «ينبغي إن يراه»، إلى حدّ أنّه كان يتّفق له أحياناً، حينما يسألونه إن كان شاهد إحدى المسرحيات، أن لايكون متأكداً تماماً وقد دوّخه قليلاً عدد العروض التي ازدردها بسرعة مفرطة. ولكنّ ذاك الغموض كان نادراً، فقد كان يعرف أشياء باريس بذلك التفصيل الذي يميّز الناس الذين قليلاً مايأتون إليها. وكان ينصحني «بالجديد» الذي لابدّ من مشاهدته («ذلك جدير بالمشاهدة»)، ولاينظر إليه على أيّة حال إلاّ من وجهة نظر الأمسية الطيبة التي يسمح بقضائها، وهو يجهل وجهة النظر الجماليّة حتّى لايشكّ بأنّه يمكن أن يشكلّ أحياناً «جديداً» في تاريخ الفنّ. من ذلك أنّه كان يتحدّث عن كل شيء على المستوى نفسه فيقول لنا: «ذهبنا مرّة إلى «الأوبرا الهازلة» ولكن العرض ليس عظيماً انّه يدعى «بيلياس وميليزاند» وهو غير ذي بال. إن «بيرييه» يجيد دوماً في تمثيله ولكنّما الأفضل أن تشاهده في عرض آخر. وفي المقابل يجري في صالة الجمباز عرض «صاحبة القصر» . لقد عدنا مرّتين لمشاهدته؛ لايفوتنّك الذهاب إلى هناك فهو جدير بالمشاهدة، ثم إنّه مثل أروع تمثيل، فلديك «فريڤال» و«ماري مانييه» و«بارون» الابن»؛ وكان حتّى يذكر لي أسماء ممثّلين لم أسمع قطّ من ينطق اسمهم ودون أن يقرنهم بلقب سيّد أو سيّدة أو آنسة كما لعلّ الدوق «دو غير مانت» كان فعل، وكان يتحدّث بذات اللهجة المتكلّفة التي يلوّنها الازدراء عن «أغنيات الآنسة «إيڤيت غيلبير» و«تجارب السيّد «شاركو». وما ان السيّد «دو شيڤرنيي» يسلك السلوك نفسه، فكان يقول «كورناليا» و«دوهيلّي» كما لعلّه قال «ڤولتير» و«مونتسكيو» ذلك لأن الرغبة لديه، إزاء الممثّلين وكلّ ماكان باريسيّاً على حدّ سواء، في الظهور مظهر المزدري الذي يلازم الارستقراطيّ إنّما هزمتها الرغبة في الظهور مظهر الألوف الذي يلازم الريفيّ.

عقب العشاء الأول مباشرة والذي تناولته في «لاراسپليير» برفقة من كانا بعد يدعيان في «فيتيرن» بـ

(١) من غانيات باريس الشهيرات في أواخر التاسع عشر وبدايات العشرين.

(٢) يذكرّ الشعار بمن يسهرون الليل والنهار لصون الديار وبما جاء في الكتب المقدسة حول الموت الذي لايعرف أحد يومه ولاساعته.

«الزوجين الشابين»، مع أن السيّد والسيّدة «كامبرمير» ليسا من بعد في أوّل الشباب، وما أبعد أن يكونا، سطّرت لي المركيزة العجوز واحدة من تلك الرسائل التي لعلّك كنت تعرّفت كتابتها بين ألف من أمثالها. كانت تقول لي: «إئت بابنة عمّك الرائعة- الفاتنة- الممتعة، وسوف يكون ذلك فتنة ومتعة»، مفوّتة على الدوام على نحو لايخيب بتاتاً التدرّج المنتظر من جانب ذاك الذي كان يتسلّم رسالتها إلى حدّ أنيّ غيرّت في نهاية المطاف رأيي حول طبيعة تلك «المتناقصات» واعتقدتها مقصودة ووجدت فيها انفساد الذوق نفسه- منقولاً إلى المقام الدنيوي- الذي كان يدفع «سانت بوف» إلى تحطيم التآلفات الكلامية كافة وتبديل أية عبارة مألوفة إلى حدّ. كان ثمّة طريقتان جاءتا دونما شك على يد أساتذة مختلفين تتناقضان في أسلوب الرسائل هذا، إذ تغتفر الثانية للسيّدة «دو كامبرمير» تفاهة الصفات المتعدّدة في استخدامها في سلّم متنازل وفي تجنّب الوصول إلى التساوق التامّ. وكنت أميل في المقابل إلى أن أبصر في هذه التدرّجات المعكوسة لا الرفاهة كما هو أمرها حين تؤلفها المركيزة الورثية، بل انعدام المهارة حين يستخدمها المركيز ابنها أو بنات عمّها. ذلك لأنّ قاعدة الصفات الثلاث في الأسرة قاطبة وحتىّ درجة بعيدة بعض الشيء كانت، جرّاء محاكاة قائمة على الاعجاب بالعمّة «زيليا»، كانت توضع في المقام الأول إلى جانب طريقة معينّة حماسيّة في استعادة أنفاسه أثناء الحديث . والمحاكاة أصبحت في دمهم على أيّة حال. وحينما كانت بنيّة منذ الطفولة تتوقّف في حديثها لتبلع ريقها كانوا يقولون : «إنّها تشبه العمّة «زيليا»، ويحسّون أن شفتيها سرعان ماستتّجهان إلى الاكتساء بشارب خفيف، ويعقدون النيّة على تنمية ما سيتوافر لها من استعدادات للموسيقى. ومالبثت علاقات عائلة «كامبرمير» أن أضحت أقلّ جودة مع السيّدة «ڤيردوران» منها معي لأسباب مختلفة. فقد كانا يبغيان دعوتها، وتقول لي المركيزة «الشابّة» بلهجة مستكبرة: «لست أرى لماذا لاندعوها، تلك المرأة، فإننا في الريف نلتقي أيّاً كان، ولا يفضي ذلك إلى نتيجة.» ولكنّهما كانا لايكفّان، وهما على شيء من الانفعال في الأساس، عن استشارتي حول الطريقة التي ينبغي بها تحقيق رغبتهما في لفتة المجاملة تلك. ولما كانا دعيانا إلى العشاء أنا و«ألبيرتين» برفقة أصدقاء لـ «سان لو» وهم قوم أنيقون يملكون قصر «غورڤيل» ويمثّلون أكثر قليلاً من الزبدة النورمانديّة، التي كانت السيّدة «ڤيردوران» شغوفة بها دون أن تبدي أنّها تمدّ إليها يداً، فقد أشرت على عائلة «كامبرمير» بدعوة «المعلمّة» إلى جانبهم. ولكن صاحبي قصر «فيتيرن» خوفاً منهما (لشدّة خجلهما) أن يغضبا اصدقاءهما النبلاء، أو (لشدّة سذاجتهما) أن يتضجّر السيّد والسيّدة «ڤيردوران» بصحبة أناس لم يكونوا مثقّفين، أو كذلك (بما أنّهما كان تشرّبا روح الروتين الذي لم تخصبه التجربة) أن يخلطا بين الأنواع ويرتكبا خطأً فاحشاً، صرحا أن لن يكون توافق بينهم ولن «تمشي» الأمور وأنّه يُفَضّلَ الاحتفاظ بالسيّدة «ڤيردوران» (التي سيدعوانها وكامل مجموعتها الصغيرة) لعشاء آخر. أمّا بالنسبة إلى القادم- الأنيق، ويضمّ أصدقاء «سان لو»-فلم يدعوا إليه من النواة الصغيرة سوى «موريل» كي يطّلع السيّد «دوشارلوس» على نحو غير مباشر بالناس المرموقين الذين يستقبلانهم، وكيما يكون الموسيقيّ إلى ذلك عنصر تسلية للمدعوّين إذ سوف يسألونه المجيء بكمانه. وضمّوا إليه «كوتار» إذ صرّح السيّد «دو كامبرمير» أنّه يمتاز بالحيويّة و «يَحْسُن» في حفل عشاء. ثمّ إنّه من المناسب أن تكون على علاقة طيّبة بطبيب إن اتّفق أن يكون أحدهم مريضاً. ولكنّه دُعي بمفرده «كي لايباشروا شيئاً مع المرأة». وحنقت السيّدة «ڤيردوران» أشدّ الحنق حينما علمت أن عضوين من

المجموعة الصغيرة دُعيا من دونها إلى العشاء في «فيتيرن» «ضمن لجنة صغيرة». وأملت على الدكتور الذي جاءت حركته الأولى تحمل القبول جواباً ينضح اعتزازاً ويقول فيه: «إننّا نتناول عشاءنا هذا المساء في منزل السيّدة «ڤيردوران»، وصيغة الجمع ينبغي أن تكون درساً لأسرة «كامبرمير» وتبرهن لهم أنه لايمكن فصله عن السيّدة «كوتار». أمّا بشأن «موريل»، فلم تكن السيّدة «فيردوران» بحاجة لأن ترسم له سلوكاً غير مهذّب التزم به تلقائياً، وإليك السبب. فلئن كان يبدي إزاء السيّد «دوشار لوس» وفيما يخصّ متعه الخاصّة استقلاليّة تغمّ البارون، فقد رأينا أن تأثير هذا الأخير كان أكثر بروزاً في حقول أخرى وأنّه وسّع على سبيل المثال معلوماته الموسيقيّة وجعل أسلوب الموسيقار أكثر صفاء. ولكنّه لم يكن بعد، في هذه الفترة من قصتّنا على الأقلّ، سوى تأثير. وفي المقابل كان ثمّة حقل يصدّق وينفّذ «موريل» دونما تبصّر كلّ ماكان يقوله السيّد «دوشار لوس» حوله. دونما تبصّر وبجنون، ذلك لأنّ تعاليم السيّد «دوشار لوس» لم تكن مغلوطة فحسب، بل هي تضحي، وإن كانت مقبولة بالنسبة إلى سيّد كبير، مضحكة إمّا طبّقتْ حرفيّاً من جانب «موريل». أمّا الحقل الذي كان «موريل» يضحي فيه ساذجاً ومطيعاً إلى هذا الحدّ لسيّده فحقل المجتمع الراقي. وكان عازف الكمان، الذي ماكان يملك قبل تعرّفه إلى السيّد «دوشار لوس» أيّة فكرة عن دنيا المجتمع الراقي، قد أخذ حرفيّاً بالخطيطة المستكبرة المختصرة التي خطّها له البارون. كان السيّد «دوشار لوس» قد قال له: «ثمّة عدد من الأسر المتقدّمة على سواها، وعلى رأسها آل «غير مانت» الذين بلغوا أربع عشرة مصاهرة مع «بيت فرنسه»، والأمر موضع زهو لـ«بيت فرنسه» على وجه الخصوص لأن عرش فرنسه كان ينبغي أن يعود إلى «آلدونس دو غير مانت» لا إلى «لويس السمين» شقيقه لأبيه ولكنّه الأصغر سنّاً. وفي عهد لويس الرابع عشر لبسنا السواد عند موت «السيّد»(١) بما أننا نملك ذات جدّة الملك. ويمكن أن نذكر، وإنّما على درجة أدنى كثيراً من آل «غير مانت»، آل «لاتريمواي» المتحدّرين من ملوك نابولي وكونتات «پواتييه»، وآل «دوزيس» وهم قليلو العراقة على صعيد الأسرة ولكنهم أكثر أنداد فرنسه عراقة، وآل«لوين» وهم حديثون جداً ولكنهما يزدهون بألق المصاهرات العظيمة وآل «شوازول» وآل «هاركور» وآل «لاروشفوكو» أضف أيضاً آل «نواي» على الرغم من الكونت «دو تولوز»، وآل «مونتسكيو» وآل «كاستيلاّن» وهذا كلّ شيء، إن لم يكن فاتني شيء. فأمّا سائر السادة الصغار الذين يدعون المركيز «دو كامبرمير» أو «دوفاتفيرفيش» فلا فارق البتّة بينهم وبين أصغر جنديّ في كتيبتك. وسيّان إن بادرت للتبوّل لدى الكونتيسّة خ.. أو التغوّط لدى البارونة ش.. فسوف تكون لوّثت سمعتك واتخذت ممسحة تغوّط بمثابة ورق صحّي. وذلك شيء قذر.» وقد تلقّى «موريل» درس التاريخ هذا، وربّما كان على شيء من الاقتضاب، بكل التقى. وكان يحكم على الأشياء كما لو كان هو نفسه واحداً من بني «غير مانت» ويتمنّى مناسبة يجتمع فيها بآل «لاتور دوفيريني» المزيّفين كي يُشعرهم بمصافحة ملؤها الازدراء انّه لايأخذهم على محمل الجدّ. أمّا بالنسبة إلى آل «كامبرمير»، فها إنّه يستطيع بالضبط أن يعرب لهم أنهم لا يساوون «أكثر من آخر جنديّ في كتيبته» فإنّه لم يستجب لدعوتهم واعتذر في مساء حفل العشاء ببرقيّة أرسلت في آخر ساعة، وهو جذلان كما لو تصرّف تصرفّ أمير من الأسرة المالكة. وينبغي أن نضيف على أيّة حال أنّه لايمكن أن نتصوّر كم كان السيّد «دوشار لوس»، بصورة عامّة أكثر، لايُطاق، مدنّقاً بل غبيّاً، هو المرهف

(١) لقب الشيخ لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسه في النصف الثاني من السابع عشر وبداية الثامن عشر.

الحسّ إلى أبعد حدّ، في كلّ المناسبات التي تكون فيها عيوب طبعه طرفاً، إذ يمكن القول بالفعل إن هذه العيوب تشبه مرضاً متقطّعاً ينتاب العقل. فمن ذا لم يلاحظ الأمر لدى نساء وحتىّ رجال أوتوا ذكاء ملفتاً ولكنّهم يعانون من حالة عصبيّة؟ فانّهم يوم يكونون سعداء هادئين راضين بمحيطهم يثيرون الاعجاب بمواهبهم الثمينة، وإنّما الحقيقة هي التي تنطق حرفيّاً بأفواههم. ويكفي صداع واستثارة يسيرة لكبريائهم لقلب كلّ شيء. فالعقل النيّر لايعكس من بعد، وقد أضحى نزقاً متشنجاً متضيّقاً، سوى أنا مُغضَبة متريّبة مغتاجة تفعل كلّ ما ينبغي فعله لتسوء في العين. وكان غضب آل «كامبر مير» عنيفاً. وجلبت حوادث أخرى في هذه الأثناء شيئاً من التوتّر في علاقاتهم بالعشيرة الصغيرة. وفيما كنّا نعود أنا وأسرة «كوتار» و«شارلوس»، و«بريشو» و «موريل» من عشاء في «لاراسپليير»، وكان الزوجان «كامبرمير» اللذان تناولا غداءهما لدى أصدقاء في «أرامبوڤيل» قد قطعا في الذهاب قسماً من الطريق وإيّاناً، قلت للسيّد «دوشار لوس»: «أنت يا من يحب «بلزاك» أعظم الحب ويعلم كيف يتعرّفه في المجتمع المعاصر لابدّ أن ترى أن عائلة «كامبرمير» هذه أفلتت من مجموعة «مشاهد من حياة الريف» (١). لكنّ السيّد «دوشار لوس» قاطعني فجأة تماماً كما لو كان صديقاً لها وكما لو أغضبته ملاحظتي وقال لي بلهجة جافية: «تقول ذلك لأنّ المرأة تفوق زوجها.»- «آه! ماكان بودّي أن أقول إنّها ربّة شعر المقاطعة (٢) ولا السيّدة «بارجتون» (٣)، مع أنّ..» وقاطعني السيّد «دوشار لوس» مرّة أخرى :«قل بالأحرى السيّدة «دو مورسوف».(٤) وتوقّف القطار وغادره «»بريشو».- «عبثاً كنّا نشير إليك بأيدينا، إنّك غريب.»- «كيف ذلك؟»- «عجباً، أفلم تلاحظ أنّ «بريشو» عاشق حتىّ الجنون للسيّدة «دو كامبرمير»؟ وبدا لي من موقف الزوجين «كوتار» و«شارلي» أنْ لم يكن داخل النواة الصغيرة أيّ مجال للشكّ في الأمر، واعتقدت أن ثمّة سوء نيّة من جانبهم. وعاد السيّد «دوشار لوس» يقول : «عجباً، أنت لم تلاحظ درجة اضطرابه حين تكلّمت عنها»، وكان يحلو له أن يبرز أنّه خبير بالنساء ويتحدّث عن الشعور الذي يوحين به بصورة طبيعيّة وكما لو كان ذاك الشعور هو الذي يحسّه عادة. بيد أنّ بعضَ لهجة أبويّة مشبوهة مع الفتيان كافة- على الرغم من حبّه الحصريّ لـ«موريل»- كذّبت باللهجة آراء زير النساء التي كان يجهر بها، فقال بصوت حادّ متكلّف في لطفه موزون: «آه! هؤلاء الأطفال، لابدّ أن تعلّمهم كلّ شيء، فانّهم بريئون كالطفل الذي ولد توّاً ولا يستطيعون أن يعرفوا متى يكون الرجل عاشقاً لامرأة. لقد كنت في مثل سنّكم «مُنَشّطاً» أكثر ممّا تبدون»، يضيف قوله لأنه كان يحبّ استخدام عبارات دنيا المتشرّدين، ربّما عن ميل، وربّما كي لايبدو، وهو يتجنّبها، وكأنّه يقرّ بأنّه يخالط أولئك الذين تؤلّف لغتهم الدارجة. وقد اضطررت بعد بضعة أيّام أن أقرّ بالواقع واعترف أن «بريشو» كان مغرماً بالمركيزة. إلاّ أنّه قبل لسوء الحظّ بعدّة حفلات غداء في منزلها. وحكمت السيّدة «ڤيردوران» أن الوقت حان لوضع حدّ لذلك. فانّها إلى جانب الفائدة التي تراها في التداخل لصالح سياسة النواة الصغيرة أخذت تصادف ميلاً متزايد الشدّة إلى هذا النوع من المشادّات

(١) مجموعة روائيّة لـ«بلزاك».

(٢) إشارة إلى رواية لـ «بلزاك» من مجموعة «مشاهد من حياة الريف لـ«بلزاك»

(٣) واحدة من شخوص «الأوهام الضائعة» لـ«بلزاك».

(٤) بطلة رواية «زنبقة الوادي» من مجموعة «مشاهد من حياة الريف».

والمآسي التي تنجم عنها، والميل تولّده البطالة في صفوف البورجوازيّة ودنيا الارستقراطيين على حدّ سواء. وكان اليوم يوم اضطراب كبير في «لاراسپليير» حينما شاهدوا السيّدة «ڤيردوران» تتوارى عن الأنظار على مدى ساعة مع «بريشو» الذي بلغهم أنّها قالت له إن السيّدة «دو كامبرمير» كانت تسخر منه وأنّه أضحوكة منتداها وسوف يلطّخ شرف شيخوخته ويعرّض للخطر مكانته في التعليم. وبلغ بها أن تكلّمه بعبارات مؤثرة عن الغسّالة التي كان يعيش وإيّاها في باريس وعن ابنتهما الصغيرة. وكان أن فازت وكفّ «بريشو» عن الذهاب إلى «فيتيرن»، ولكنّ غمّه بلغ حدّاً ظنّوا معه على مدى يومين أنّه مقبل على ضياع بصره بالكامل، وقد قفز مرضه في جميع الأحوال قفزة إلى الأمام لبثت على حالها بيد أنّ آل «كامبرمير» الذين كان حنقهم على «موريل» عظيماً دعوا ذات مرّة عن قصد السيّد «دوشار لوس»، ولكن بدونه. وإذ لم يصلهم جواب من البارون خافوا أن يكونوا ارتكبوا هفوة ورأوا أنّ الضغينة تسدي أسوأ النصح فقد كتبوا إلى «موريل» متأخّرين قليلاً، وهي دناءة حملت الابتسامة إلى شفتي السيّد «دوشار لوس» اذ كشفت له عن سلطانه. وقال البارون لـ«موريل»: «تجيب عن كلينا بأنّي قابل». وإذ حلّ يوم العشاء كانوا ينتظرون في صالة «فيتيرن» الكبيرة. كانت عائلة «دو كامبرمير» قد أقامت حفل العشاء في الواقع من أجل صفوة الأناقة التي يمثّلها السيّد والسيّدة «فيريه». لكنّهم كانوا يخشون من تكدير السيّد «دوشار لوس» إلى حدّ أن السيّدة «دو كامبرمير»، على الرغم من معرفتها عائلة «فيريه» عن طريق السيّد «دو شيڤرني»، أحسّت بالحمىّ تغلي في عروقها حينما رأت هذا الأخير يوم العشاء يقبل لزيارتهم في «فيتيرن». وابتدعت كلّ الحجج لاعادته باقصى سرعة إلى «بوسوليي»، والسرعة لم تكن مع ذلك كافية كي تحول دون التقائه عائلة «فيريه» في الباحة وقد صدمهما أن يبصراه مطروداً بقدر ما كان خجلاً بذلك. ولكن الزوجين «كامبرمير» كانا يريدان تجنيب السيّد «دوشار لوس» رؤية السيّد «دو شيڤرني» أيّا كان الثمن، إذ يريان هذا الأخير ريفياً بسبب دقائق يهملها المرء داخل الأسرة ولكنّما لاتؤخذ في الحسبان إلاّ تجاه الغرباء، وهم الوحيدون بالضبط الذين قد لاينتبهون لها. ولكنّنا لانحبّ أن نريهم الأقرباء الذين لبثوا ماجهدنا نحن في أن نكفّ عن كونه. أمّا بالنسبة إلى السيّد والسيّدة «فيريه» فقد كانا في أعلى مرتبة ممّن يدعونهم «أفضل الناس». وليس من شكّ أن آل «غير مانت» وآل «روهان» وكثيرون غيرهم كانوا، في نظر من يصفونهم بذلك، من «أفضل الناس» ولكنّما اسمهم كان يعفي عن قوله. ولمّا لم يكن الكلّ يعلم كرم محتد والدة السيّد «فيريه» ووالدة السيّدة «فيريه» والمحيط المغلق إلى حدّ عجيب الذي كانا يرتادانه هي وزوجها فقد كانوا يضيفون على الدوام، بعدما يقدمون على ذكرهما، وذلك بقصد التوضيح، أنّهما «من أفضل الأفضلين». فهل كان يملي عليهما اسمهما المغمور نوعاً من التحفّظ المتعالي؟ ومهما يكن من أمر فإن آل «فيريه» ماكانوا يلتقون أناساً خالطهم آل «لاتريمواي». وكان لابدّ من مركز ملكة شاطئ البحر الذي تحتلّه المركيزة العجوز «دو كامبرمير» في منطقة «المانش» كي يجيء آل «فيريه» إلى واحدة من عصريّاتها في كلّ عام. وقد وجهت إليهم الدعوة إلى حفل العشاء وكانوا يعتمدون كثيراً على الأثر الذي سيخلّفه السيّد «دوشار لوس» في نفوسهم. وأعلن بصورة غير مفضوحة أنّه في عداد المدعوّين. وقد صادف أن السيّدة «فيريه» ماكانت تعرفه. وأحست السيّدة «دو كامبرمير» لذلك بسرور عظيم وهامت على وجهها ابتسامة الكيميائي الذي سيقيم الصلة للمرّة الأولى بين عنصرين لها أهميّة خاصّة.وانفتح الباب وأوشكت السيّدة «دو كامبرمير» أن يغمى

عليها وهي ترى «موريل» يدخل بمفرده. وكمثل كاتب الأوامر المكلّف بالاعتذار عن وزيره، وكزوجة في زواج غير متكافئ تعرب عن أسف الأمير لتوعّك صحّته (هكذا كانت تفعل السيّدة «دو كلانشان» حيال الدوق «دومال»)، قال «موريل» باللهجة الأكثر خفّة وطيشاً: «لن يتمكّن البارون من المجيء فهو منحرف الصحّة قليلاً، وهو اعتقادي على الأقل بأن ذاك هو السبب، فإني لم ألتق به هذا الأسبوع» يضيف قوله وهو يخيّب حتىّ بهذه الأقوال الأخيرة أمل السيّدة «دو كامبرمير» التي سبق أن قالت للسيّد والسيّدة «فيريه» أن «موريل» يلتقي السيّد «دوشار لوس» على مدى ساعات النهار. وتظاهر الزوجان «كامبرمير» بأن غياب البارون كان متعة تضاف إلى الاجتماع، وكانا يقولان لمدعوّيهما دون أن يدعا لـ«موريل» أن يسمعهما: «سوف نكون في غنى عنه، أليس كذلك؟ وسوف يزداد الأمر بالتأكيد متعة.» ولكنّهما كان ساخطين وشكّا بدسيسة حاكتها السيّدة «ڤيردوران»، وحينما دعتهما هذه الأخيرة ثانية إلى «لاراسپليير» لم يستطع السيّد «دو كامبرمير»، فواحدة بواحدة، أن يقاوم متعة العودة لمشاهدة بيته والتقاء المجموعة الصغيرة مرّة أخرى، فجاء ولكنّما بمفرده قائلاً إن المركيزة مغتمّة لذلك ولكنّ طبيبها أمرها بملازمة غرفة نومها. وظنّ الزوجان «كامبرمير» أنّهما بنصف الحضور هذا إنّما يلقّنان السيّد «دوشار لوس» درساً ويظهر ان لآل «ڤيردوران» في الآن نفسه أنّهما ملتزمان تجاههما بمجاملة محدودة فحسب، كما كانت أميرات الأسرة المالكة يشيّعن الدوقات الزائرات فيما مضى ولكن حتىّ منتصف الغرفة الثانية فحسب. وبعد بضعة أسابيع كانوا قد اختصموا تقريباً. وقد قدّم لي السيّد «دو كامبرمير» هذه الإيضاحات بذلك الخصوص :«سأقول لك إن الأمر كان صعباً مع السيّد «دوشار لوس». فإنّه من أشدّ أنصار «دريفوس»...– «لا، ويحك!» – بلى...، وفي جميع الأحوال فإن ابن عمّه الأمير «دو غير مانت» من هذا القبيل، وكثيراً ما يقرّعونهم على ذلك. إن لديّ أقرباء شديدو السهر على الأمر. لست أطيق مخالطة هؤلاء الناس فربّما اختلفتُ وأسرتي كلّها. «وقالت السيّدة «دو كامبرمير» :«بما أن الأمير «دو غير مانت» من مناصري «دريفوس» فإن الأمر سيستقيم بمقدار مايقال إن «سان لو» الذي سيتزوّج ابنة أخيه من المناصرين بدوره، بل ربّما كان ذلك سبب الزواج.» فقال السيّد «دو كامبرمير» : «هيّا ياعزيزتي، لاتقولي أن «سان لو» الذي نحبّه كثيراً من أنصار «دريفوس». يجدر بنا أن لاننشر هذه المزاعم بدون تروّ. فما أكثر ماستَحسن النظرة إليه في الجيش» وقلت للسيّد «دو كامبرمير» :«كان ذلك شأنه، ولكنّه لم يعد كذلك. أما بخصوص زواجه من الآنسة «دو غير مانت»– براسّاك» فهل الأمر صحيح؟– «لايتحدّثون إلاّ عن ذلك، ولكنّك في موقع ممتاز لتكون على بيّنة منه.» وقالت السيّدة «دو كامبرميز»: «ولكنّي أكرّر أنّه قال لي شخصيّاً إنّه من أنصار «دريفوس». وهو على أيّ حال معذور تماماً، فآل «غير مانت» نصفهم من دم ألماني.» وقال «كانكان»: «بالنسبة إلى «غير مانتيّي» شارع «ڤارين» بوسعك أن تقولي بالكامل. أمّا «سان لو» فأمر مختلف تماماً فعبثاً نرى له هذا الحجم الكبير من الأقرباء الألمان، لقد كان والده يطالب قبل أيّ شيء آخر بلقبه بوصفه من كبار الأسياد الفرنسيّين، فقد عاد إلى الخدمة عام ١٨٧١ ولقي في أثناء الحرب أشرف ميتة. ومهما يكن التزا مي المبادئ بهذا الشأن فينبغي أن لا نغلو في هذه الاتجاه أو ذاك..In medio.... virtus (١).

(١) In medio stat virtus (الفضيلة في الوسط، أي بين الطرفين أو التطرّفين) وهو ما عبّر العرب عنه خير تعبير بقولهم: شرّ التناهي الشطط وخير الأمور الوسط. أمّا التذكير بمعجم «اللاروس» فلأن هذا المعجم دأب على تضمين صفحاته قسماً خاصاً بالأمثال والأقوال السائرة وكثير منها باللاتينيّة.

ليست تسعفني الذاكرة. ذلك شيء يقوله الدكتور «كوتار»، وهذا رجل حاضر الكلمة دوماً. يجدر بكم هنا اقتناء معجم «اللاروس الصغير». وارتدّت السيّدة «دو كامبرمير»، بغية تجنّب البتّ بالقول اللاتيني وترك موضوع «سان لو» جانباً حيث بدا لزوجها أنها تفتقر للياقة، ارتدّت إلى «المعلّمة» التي بدا أن اختصامها وإيّاهم أكثر حاجة بعد للتفسير. وقالت المركيزة: «لقد أجرّنا «لاراسپليير» بكامل الرضى للسيّدة «ڤيردوران» ولكنّما بدا أنّها تظنّ لها الحقّ، إلى جانب البيت وكلّ ما وجدت السبيل إلى ادّعائه لنفسها، كاستخدام المرج والسجف القديمة، وكلّها لا وجود لها في عقد الايجار، في صداقتنا. وتلك أمور مختلفة تمام الاختلاف.ذنبنا أنّنا لم نجر الأمور على يد مدير أو وكالة فحسب.لا أهميّة للأمر في «فريتيرن»، ولكنّي أرى من هنا استغراب عمتّي في «شنوڤيل» لو رأت الخالة «ڤيردوران» تقبل في يوم استقبالي بشعرها المنفوش. أمّا فيما يخصّ السيّد «دوشار لوس»، فهو يعرف بالطبع أناساً من أفضلهم»، كما يعرف من «أسوإ هم أيضاً.» وسألت من يكون هؤلاء. وقالت السيّدة «دو كامبرمير» في نهاية المطاف وقد ضيّقوا بالسؤال عليها: «يزعمون أنْ هو من كان يوفّر سبل العيش للسيّد «مورو»، «موريي»، «موريه»، لم أعد أدري. ليس بالطبع من صلة البتّة بـ«موريل» عازف الكمان» ، تضيف قولها وقد اكتسى وجهها حمرة. «وحينما أحسست أن السيّدة «ڤيردوران» ستتخيّل من حقّها القيام بزيارتي في باريس لأنّها من مؤجر ينا في منطقة «المانش» أدركت أنّه لابدّ من قطع دابر هذا الأمر.»

لم يكن آل «كامبرمير» على الرغم من هذا الخلاف مع المعلّمة، على غلاقة سيّئة بالخلّص وكان يسرّهم أن يصعدوا إلى عربتنا حينما يكونون على خطّ سيرنا. وكانت «ألبيرتين»، حين نوشك الوصول إلى «دوڤيل»، تخرج مرآتها للمرّة الأخيرة فترى من المفيد أحياناً أن تغيرّ قفّازيها أو تنزع قبعّتها لحظة وبالمشط المصدّف الذي كنت أعطيتها إيّاه والذي تضعه في شعرها كانت تملّس دوائره وترفع المنفخ منه وتعلّي عقصته إن اقتضى الأمر فوق التموّجات التي تهبط كالوديان المنتظمة حتىّ قذالها. وما إن نجلس في العربات التي كانت بانتظارنا حتىّ لا نعلم أين نحن من بعد، فالطرق لم تكن مضاءة؛ وكنا نعرف من ضجيج العجلات المتعاظم أنّنا نجتاز إحدى القرى ونظنّ أننا وصلنا فنجد أنفسنا في قلب الحقول ونسمع أجراساً في البعيد وننسى أننا نرتدي «السموكن» وكنا أغفينا تقريباً حينما كانت الأضواء الساطعة، في آخر هذا الشريط الطويل من الظلمة التي بدا أنّها، من جرّاء المسافة المقطوعة والحوادث التي تتميزّ بها أيّة رحلة في السكّة الحديديّة، حملتنا حتّى ساعة متقدّمة من الليل وإلى نصف الطريق تقريباً من رحلة العودة إلى باريس، كانت تلك الأضواء الساطعة، بعدما كشف لنا انزلاق العربة فوق رمال أكثر نعومة أنّنا دخلنا توّاً في الروضة، تتفجّر فجأة فتعيدنا إلى حياة المجتمعات، أضواء الصالة ثم قاعة الطعام حيث كنا نحسّ حركة تراجع قوية ونحن نسمع دقات الثامنة التي كنا نظنّها انقضت منذ زمن طويل فيما ستتوالى أطباق المآكل الكثيرة والخمور الفاخرة حول رجال باللباس الرسميّ ونساء نصف كاشفات عن الصدور في عشاء يتلألأ ضياء مثل عشاء حقيقي في المدينة كان يحيط به فقط، فيبدّل بذلك طابعه، الوشاح المزدوج العاتم الفريد الذي نسجته الساعات الليليّة والريفيّة والبحريّة في الذهاب والإياب وقد حُوّلت جرّاء هذا الاستعمال المجتمعيّ عن طابعها الاحتفاليّ الأصليّ. والرجوع ذاك كان يضطّرنا فعلاً إلى هجر روعة الصالة المضيئة المشرقة، وسرعان ماتنتسى، إلى العربات حيث كنت أتدبّر أمري

لأكون برفقة «ألبيرتين» كي لايمكن صديقتي أن تكون مع آخرين بدوني، وفي الغالب أيضاً لسبب آخر قوامه أننا كنا نستطيع كلانا أن نقوم بأشياء كثيرة في عربة مظلمة كانت رجّات الطريق النازلة تجد لنا العذر من جانب آخر، إمّا انسابت ومضة ضوء مفاجئة، لتشبّثنا الواحد بالآخر. وكان السيّد «دو كامبرمير» يسألني حين لم يكن بعد على خلاف مع آل «ڤيردوران»: «ألا تظنّ أنّك ستصاب باختناقاتك مع هذا الضباب ؟ لقد أصيبت شقيقتي باختناقات مريعة هذا الصباح. آه! لقد أصبت ببعض منها بدورك، يقول بادي الرضى؛ سأنقل لها الأمر المساء. وأعلم أنّها سوف تستعلم لدى عودتها في الحال إن كان مضى زمن طويل لم تصب بها في أثنائه.» وما كان على أيّ حال يحدّثني عن اختناقاتي ألاّ ليصل إلى اختناقات شقيقته ولايحملني على وصف خصائص الأولى إلاّ ليشير بصورة أفضل إلى الفروق الكائنة بين الاثنين. ولكنّ على الرغم من هذه الفروق، ولمّا كان يبدو له أن اختناقات شقيقته لابدّ أن تكون الحجّة، ماكان يستطيع الاعتقاد بأن ما «يصيب» في اختناقاتها ليس مناسباً في اختناقاتي وكان يغضبه أن لا أجرّبه، فإن ثمّة ماكان أصعب من التزام الحمية وهو أن لاتفرضها على الآخرين. «وماعساي أقول على أيّ حال أنا الغريب عن الموضوع حينما أنت هنا أمام مجمع العلماء، أمام النبع. فماذا يرى الأستاذ «كوتار» ؟»

وعدت من ناحية أخرى فالتقيت زوجته مرّة ثانية لأنّها كانت قالت إن «لابنة عمّي» تصرّفاً غريباً وأردت أن أعلم ماالذي ترمي إليه من وراء ذلك. وأنكرت أن تكون قالت، ولكنّها أقرّت في النهاية أنّها تحدّثت عن امرأة اعتقدت أنّها التقتها مع ابنة عمّي. لم تكن تعرف اسمها وقالت في نهاية المطاف إنّها، إن لم تخطئ القول، زوجة رجل مصارف تدعى «لينا»، «لينيت»، «ليزيت»، «ليا»، أو ما كان من هذا القبيل. وفكرّت أن «زوجة رجل المصارف» لم ترِدْ إلاّ لتزيد من ابعاد الشبهة. وأردت سؤال «ألبيرتين» أن كان ذلك صحيحاً. ولكنّي كنت أفضّل الظهور بمظهر من يعلم أكثر منّي بمظهر من يسأل. ولعلّ ألبيرتين» ماكانت في كلّ الأحوال أجابت بشيء، أو بـ«لا» تجيء «لامها» متردّدة و«ألفها» داوية. فما كانت «ألبيرتين» تروي في يوم عن أمور يمكن أن تسيء إليها، بل عن أخرى لايمكن أن تُفسَّر إلاّ بالأولى، إذ الحقيقة بالأحرى تيّار ينطلق ممّا يقال لنا ويُلْتَقَط مهما يكن خفياً ، أكثر منه الشيء نفسه الذي قيل لنا، من ذلك أني حينما أكدّت لها أن امرأة عرَفَتْها في «ڤيشي» كانت ذات سلوك سيئ أقسمت لي أن تلك المرأة لم تكن مطلقاً ما كانت أظنّ ولم تحاول في يوم أن تسيء إليها. ولكن أضافت في يوم آخر كنت أتحدث فيه عن فضولي إزاء هذا النمط من النساء أنّ لسيّدة «ڤيشي» تلك صديقة من ذاك النوع ماكانت «ألبرتين» تعرفها ولكن السيدة «وعدتها أن تعرّفها بها». وكيما تكون وعدتها بذلك لابدّ أن «ألبيرتين» كانت راغبة فيه أو أن السيّدة عرفت، اذ وفّرت لها الأمر، أنّها تدخل السرور إلى قلبها. لكنّي أوقفتها في الحال وماعرفت شيئاً من بعد وكففت عن بثّ الخوف من حولي. وكنّا على أيّة حال في «بالبيك» وسيّدة «فيشي» وصديقتها تقطنان «مانتون»، وسرعان ماقضى البعد واستحالة الخطر على شبهاتي.

حينما كان السيّد «دو كامبرمير» ينادي عليّ من المحطّة كثيراً ماكنت أفدت توّاً و«ألبيرتين» من العتمة وبمشقّة تعاظمت بقدر ما تلجلجت هذه قليلاً في خوفها أن لاتكون كاملة الإظلام. «تعلم أنّي متيقّنة من أن «كوتار» قد رآنا؛ وهو على أيّة حال سمع بالتأكيد صوتك المخنوق، حتىّ دون أن يبصر، وذلك بالضبط لحظة

كنّا نتحدّث عن اختناقاتك التي من نوع آخر»، تقول «ألبيرتين» لدى وصولنا إلى محطّة «دوڤيل» حيث كنّا نستقلّ ثانية القطار الصغير للعودة. ولئن كان ذلك الإياب،مثله مثل الذهاب يوقظ في صدري، إذ يوليني بعض إحساس بالشعر، الرغبة في القيام بأسفار وأن أعيش حياة جديدة، ويجعلني بذلك أتمنّى أن أدع جانباً أيّ مشروع زواج من «ألبيرتين»، بل أن أقطع علاقاتنا قطيعة نهائيّة، فقد كان كذلك، بسبب طبيعة تلك العلاقات المتناقضة، يجعل هذه القطيعة أكثر سهولة. ففي الإياب كما في الذهاب، كان يصعد في كلّ محطّة إلى جانبنا أو يسلّم علينا من الرصيف أناس من معارفنا. وعلى صفحة متع الخيال المختلسة كانت تطفو متع مستمرّة، متع حسن المخالطة وهي ما أكثر ماتهدّئ وتخدّر ! فإن أسماء المحطّات (التي ماأكثر ما أيقظت في صدري من أحلام منذ اليوم الذي تردّدت في مسامعي في أول مساء سافرت فيه بصحبة جدّتي)، حتىّ قبل المحطّات نفسها، قد اتخذت سمة انسانيّة وفقدت غرابتها منذ المساء الذي فسّر لنا «بريشو» فيه، نزولاً عند رغبة «ألبيرتين»، أصولها تفسيراً كاملاً وافياً. وكنت ألفيت سحراً في الزهرة (Fleur) التي تزيّن أواخر بعض الأسماء من مثل «فيكفلور» (Fiquefleur) و «هونفلور» و «فلير»و «بارفلور» و «هارفلور»، وفكاهة في الثور الذي يختم «بريكبوف» (Bricqueboeuf). ولكنّما اختفت الزهرة والثور اختفى حين أعلمنا «بريشو» (وكان قال لي ذلك أوّل يوم في القطار) أن «فلور» (fleur) أنما تعني «مرفأ» (كما هي «فيور» (Fiord)) وأن ثور (boeuf) وهي (budh) في النورمانديّة أنما تعني «كوخ». ولما كان يذكر عدّة أمثلة فإن ماسبق أن بدا لي خاصّاً أخذ يتّسم بالعموميّة : وراحت «بريكبوف» تنضمّ إلى «ايلبوف»، بل إنيّ داخلني الأسى أن أعود فألقى في اسم هو لأوّل وهلة بمثل تفردّ المكان الذي يعنيه، كاسم «بيندّوبي» (Pennedepie) حيث كانت تبدو لي أكثر الغرابات استحالة على الكشف من جانب العقل وقد تجمّعت منذ زمن سحيق في لفظة قبيحة لذيذة تقسّت كبعض الجبن النورمانديّ، أن أعود فألقى لفظة «بين» (Pen) الغاليّة التي تعني «جبل» وهي حاضرة كذلك في »بينمارش» وجبال الـ«آبينّان» على حدّ سواء. وكنت أقول لـ«ألبيرتين» إذ أحسّ أن أيدي صديقة سوف يقع علينا أن نشدّ عليها في كلّ موقف، إن لم تكن زيارات تجيئنا فيه: «هيّا اسرعي في سؤال «بريشو» عن الأسماء التي تودّين معرفتها. فقد كلّمتني عن «ماركوڤيل المستكبرة». فقالت «ألبيرتين» :«أجل، أحبّ كثيراً هذا الاستكبار؛ إنّها قرية أبيّة.» فردّ «بريشو» قائلاً : «ربّما وجدتها بعد أكثر إباءً لو أخذت، بديلاً لصيغتها الفرنسيّة أو حتىّ اللاتينيّة المتأخرة على نحو ما نجدها في سجلّ مطران «بايّو» الكنسّي «ماركوڤيلا سوپيربا» (Marcovilla superba)، الصيغة الأقدم والأقرب إلى النورمانديّة: «ماركولفي فيلاّ سوپيربا»— (Marculphi Villa Superba) أي قرية، أملاك ماركولف. يمكنك أن تبصر في كلّ هذه الأسماء تقريباً المنتهية بلفظة «ڤيل» طيف الغزاة النورمانديّين الأشدّاء منتصباً بعد على هذا الشاطئ. في «هيرمونڤيل» لم يتّفق لكم سوى دكتورنا العظيم يقف على باب عربة القطار وليس فيه بالطبع مايذكّر بقائد نروجي. ولكنّكم تستطيعون إما أغمضتم عيونكم أن تبصروا «هيريموند» الشهير (Herimundivilla) ومع أنّ الناس يمضون، ولا أدري لماذا، على هذه الطرقات الواقعة بين «لوانيي» و«بالبيك الشاطئ» أكثر منهم على تلك الرائعة التي تقودك من «لوانيي» إلى «بالبيك» القديمة فإن السيّدة «ڤيردوران» ربّما ذهبت بكم في عربتها من هذا الجانب. وقد شاهدتم إذاً «أنكرڤيل» أو قرية «ويسكار»، و«تورڤيل» هذه قبل أن تصلوا إلى منزل السيّدة «ڤيردوران»، هي قرية

«تورولد». ومن جانب آخر لم يكن ثمة نورمانديّون فحسب، ويبدو أنّ الألمان وصلوا إلى هنا («أو منا نكور» أي «Alemanicurtis») ؛ ولا نبوحنّ بذلك لهذا الضابط الشابّ الذي أحبه فقد لايروق له الذهاب من بعد لدى أبناء عمومته. كان ثمّة ساكسونيّون أيضاً كما يدلّ على ذلك نبع «سيسّون» (وهو أحد أهداف النزهة المفضّلة لدى السيّدة «فيردوران» وبحقّ كان) ، كما هو في انكلترة أمر «ميدلسيكس» و«ويسّيكس» . ويبدو، والأمر لا تفسير له، أن قوطيّين، أن متشرّدين كما كان يقال (١) جاؤوا حتّى هنا، وحتى المغاربة لأن «مورتانيي» مشتقّة من موريتانيا. وقد بقي أثر لهم في «غورفيل» (Gothorumvilla= أي قرية القوط) . ولايزال ثمّة أثر للأتينيّين أيضاً في «لاتيي» (Latimiacum= اللاتينيّة) .» وقال السيّد «دوشار لوس» :«إنني أطلب أنا شرحاً لـ«تورب أوم» (٢) . إني أفهم «أوم»، يضيف قوله بينما يتبادل النحّات و «كوتار» نظرة تواطؤ؛ «أمّا «تورب» ؟ وأجاب «بريشو» هو ينظر نظرة ماكرة إلى «كوتار» والنحّات : «أوم (رجل) لاتعني مطلقاً ماتميل ميلاً طبيعيّاً إلى اعتقاده أيّها البارون. فـ«أوم»لاعلاقة لها هنا بالجنس الذي لا أدين له بأمّي. «أوم» هي «هولم» (holm) وتعني جزيرة صغيرة، الخ. أمّا «تورب» (Thorp) «أو قرية» فاننا نلقاها في مئة من الكلمات التي بعثت بها الملل في صدر صديقي الشاب. وهكذا ليس في «تورب أوم» اسم لقائد نورماندي بل كلمات من اللغة النورمانديّة. ترون إلى أيّ حدّ أضفي الطابع الألماني على هذه المنطقة.» وقال السيّد «دوشار لوس» : «في اعتقادي أنّه يبالغ. فقد ذهبت البارحة إلى «أورجفيل» .. - «هذه المرّة أردّ لك الرجل الذي سبق أن نزعته منك في «تورب أوم» أيهّا البارون إن أحد صكوك «روبير» الأوّل، وأقولها دون حذلقة، يعطينا في مقابل «اورجفيل» «أو تجير يفيلاً» (Otgerivilla)، أي أملاك «أو تجير» . إن هذه الأسماء جميعها لأسياد قدامى. فإنّ «أوكتفيل لافنيل» هي لـ «آفنيل» . وآل «آفنيل» كانوا أسرة مشهورة في العصر الوسيط. و«بورغنول» التي أخذتنا السيّدة «فيردوران» إليها في ذاك اليوم كانوا يكتبونها «بورغ دومول» لأنّ هذه القرية كانت في القرن الحادي عشر ملكاً لـ«بودوان دو مول»، وكذلك «لاشيز بودوان» . ولكن ها قد وصلنا إلى «دونسيير» ، وقال السيّد «دوشار لوس» : «ياإلهي! كم ملازم سيحاول الصعود! قال متظاهر بالفزع، «إني أقول ذلك من أجلكم، فانّي أنا لايزعجني ذلك بما أني مغادر.» وقال «بريشو» : «سمعت يادكتور؟ يخشى البارون أن يمرّ ضبّاط على جسده. وهم مع ذلك يضطلعون بدورهم إذ يتجمّعون هنا لأنّ «دونسيير» هي بالضبط «سان سير» ، «دومينوس سير ياكوس» (Dominus Cyriacus) هناك الكثير من أسماء المدن يحلّ فيها (Dominus) «سيدّ» و (Domina) «سيدة» محل «Sanctus» «قديّس» و «Sancta» «قديّسة» . وهذه المدينة الهادئة العسكريّة ترتدي أحياناً مظاهر كاذبة لـ «سان سير» و«فير ساي» وحتّى لـ «فونتينبلو» .

وفي رحلات العودة تلك (كما في الذهاب) كنت أقول لـ«ألبيرتين» أن ترتدي ثيابها إذ أعلم تماماً أنّ زوّاراً سيفدون إلينا في «أمنانكور» و«دونسيير» و «ايبرفيل» و«سان فاست» في زيارات قصيرة. وما كانت بأيّة حال تزعجني، سواء في ذلك، في «هيرمونفيل» (قرية «هيريموند») ، زيارة السيّد «دو شيفرنيي» الذي يستغلّ مجيئه لاصطحاب مدعوّين له كيما يسألني المجيء في الغد لتناول الغداء في «مونسورفان» ، أو في «دونسيير»

---

(١) لأن لفظة قوطيّ (goth) قريبة من لفظة (gueux) التي تعني المتشرّد المتسوّل.

(٢) Thorpehomme

الدخول المفاجئ لأحد أصدقاء «سان لو» الظرفاء وقد أرسله، (إن كان لديه التزام) لينقل إليّ دعوة من النقيب «بورودينو»، من نادي الضبّاط إلى مطعم «الديك الجسور»، أو من نادي صف الضبّاط إلى مطعم «التدرج الذهبيّ». وكثيراً ماكان «سان لو» يجيء بنفسه، فكنت في كلّ الوقت الذي كان حاضراً فيه، ودون أن يتمكّنوا من ملاحظة ذلك، احتفظ بـ«ألبيرتين» سجينة أرقبها بعين لاتجدي يقظتها بأيّة حال. وقد قطعت مع ذلك حراستي ذات مرّة. فإنّ «بلوك»، إذ كان ثمّة وقفة طويلة، انطلق في الحال، بعدما سلّم علينا، للحاق بوالده الذي ورث منذ فترة قصيره عمّه وكان يرى، بعد أن استأجر قصراً يدعى «الآمريّة»، من قبيل تصرّف السيّد الكبير أن لا يتنقّل إلاّ بعربة يقودها حوذيّون بلباس موحدّ. ورجاني «بلوك» أن أرافقه حتىّ العربة. «ولكن أسرع فإن ذوات الأربعة تلك نفد صبرها. تعال أيها الرجل العزيز على قلوب الآلهة فسوف تُسعد بذلك والدي.» ولكنّي كنت أعاني بشكل مفرط من ترك «ألبيرتين» في القطار برفقة «سان لو» فربّما استطاعا التحادث فيما أدير ظهري، والذهاب إلى عربة أخرى والتلامس. ولمّا كانت عيني لاصقة بـ«ألبيرتين» فما كان بوسعها الانفصال عنها مادام «سان لو» حاضراً على أنّي لاحظت تماماً أن «بلوك»، الذي سألني الذهاب لتحيّة والده بمثابة خدمة أؤديها له، وجد بادئ الأمر قلّة لطافة في امتناعي عنها حين لاشيء يحول دون ذلك إذ كان المستخدمون قد أعلمونا بأن القطار سوف يمكث في المحطّة ربع ساعة على الأقلّ، وأنّ المسافرين جميعهم تقريباً كانوا قد غادروا القطار الذي لن يعاود سيره بدونهم؛ ثمّ إنّه لم يشكّ أن مردّ الأمر بالتأكيد أنّني كنت سنوبيّاً– وكان تصرّفي بهذه المناسبة جواباً قاطعاً له–. ذلك لأنّه ما كان يجهل اسم الأشخاص الذين كنت برفقتهم. فقد كان السيّد «دوشار لوس» قال لي بعض الوقت قبل ذلك، ودون أن يتذكّر أو يهتمّ بأن ذلك ربّما تمّ فيما مضى، بغية التقرّب منه: «ولكن هيّا قدّمني إلى صديقك، فإن ماتفعله يعني قلّة احترام لي»، ثم تحدّث إلى «بلوك» الذي بدا أنّه يروقه إلى أبعد حدّ حتىّ إنّه أنعم عليه بعبارة «آمل لقاءك ثانية». وقال لي «بلوك»: «لارجعة في الأمر إذن، ولا تريد أن تقطع هذه الأمتار المئة لتحيّي والدي الذي سيسرّه الأمر أيّما سرور.» كنت تعيساً أن يبدو أني أقصّر في واجب الرفقة الطيّبة، وأكثر من ذلك للسبب الذي من أجله كان يظنّ «بلوك» أنّي مقصّر فيه وأن أحسّ أنّه يتصوّر أني لم أكن الرجل نفسه مع أصدقائي البورجوازيين حين يكون ثمّة أناس «كريمو المحتد». منذ هذا اليوم كفّ عن الاعراب لي عن الصداقة نفسها ولم يعد يبدي إزاء طبعي التقدير نفسه، وهو ماشقّ عليّ أكثر. ولعلّه كان انبغى أن أقول له، كي أردّه عن ضلاله حول السبب الذي اضطرّني للمكوث في عربة القطار، أمراً– مؤدّاه أني كنت غيوراً على «ألبيرتين»– ربّما كان بعد أكثر إيلاماً من أن أدعه يعتقد أنني كنت بغباء إلى جانب المجتمع الراقي. وهكذا نجد نظريّاً أنّه إنّما يجدر بنا على الدوام أن نتفاهم بصراحة ونتجنّب صنوف سوء التفاهم. ولكنّ الحياة كثيراً ما تُمازج بينها إلى حدّ ينبغي معه، بغية تبديدها، في الظروف النادرة التي يبدو فيها ذلك ممكناً، أن نكشف إمّا عن أمر ربّما كان بعد أكثر تكديراً لصديقنا من الخطأ الوهميّ الذي يعزوه إلينا– وليس ذلك واقع الحال هنا– ، أو سرّاً يبدو لنا الكشف عنه– وهو ما وقع لي منذ قليل– أسوأ بعد من سوء التفاهم. وحتّى لو لم أوضح لـ «بلوك» من جانب آخر، بما انّني لا أستطيع ذلك، السبب الذي لم أرافقه من أجله، فلو أني رجوته أن لايتكدّر لذلك لما كنت إلاّ ضاعفت ذلك الاغتمام إذ أبدي أني كنت على بيّنة منه. ولم يبقَ ثمّة ما أفعله سوى أن أمتثل لهذ القدر الذي شاء أن

يحول وجود «ألبيرتين» دون أن أصحبه مودّعاً، وأن يمكنه الاعتقاد على العكس بأن وجود قوم لامعين هو الذي فعل، وربّما ماكان لذاك الوجود من أثر، ولو كانوا مئة مرّة فوق ذلك، سوى أن يصرفني إلى الاهتمام حصراًبـ«بلوك» وأن احتفظ له بكلّ ما أملك من أدب. وهكذا يكفي أن تتدخّل حادثة (هي هنا تقابل «ألبيرتين» و«سان لو») على نحو عارض وعبثيّ بين مصيرين كانت خطوطهما تتّجه بعضها صوب بعض كيما ينحرف الواحد عن الآخر ويتباعدا أكثر فأكثر فلا يتقاربان في يوم. وهنالك صداقات أجمل من الصداقة التي كان يكنّها لي «بلوك» داهمها الخراب دون أن يكون المسبّب غير المتعمدّ للخصام استطاع في يوم أن يوضح للمتخاصم معه ما لعلّه كان شفى دونما شكّ اعتزازه بنفسه وأعاد وداده الهارب.

وليس قولنا بصداقات أجمل من صداقة «بلوك» مغالاة في القول بأيّة حال. فقد كان يملك سائر العيوب التي كانت تسؤني أكثر ماتسوء. وقد اتّفق عرضاً أن جعلتها رقّتي تجاه «ألبيرتين» لاتحتمل البتّة. من ذلك أنّ «بلوك» قال لي، في هذه اللحظة البسيطة التي كلّمته فيها وأنا أرقب «روبير» بالعين، إنّه قد تناول طعام الغداء في منزل السيّدة «بونتان» وان كل واحد منهم تكلّم عنّي بأعظم المديح حتّى «مغيب ذكاء». وفكرت قائلاً: «حسن، بما أنّ السيّدة «بونتان» تظنّ «بلوك» عبقريّاً فإن التأييد الحماسيّ الذي لابدّ منحني إيّاه سوف يفعل أكثر من كلّ ما أمكن أن يقوله الآخرون، وسيعود ذلك إلى «ألبيرتين». ولن يفوتها بين يوم وآخر أن تعلم، ويدهشني أن لم تعد عمّتها بعد على مسامعها، أنّني رجل «متفوّق». وأضاف «بلوك» قائلاً: «أجل، الكلّ أثنى عليك. وحدي أنا التزمت صمتاً في مثل عمقه لو اني ابتلعت بدلاً من الوجبة الهينّة على كلّ حال التي كانت تقدّم لنا نبات الخشخاش العزيز على قلب الشقيق المغبوط لـ «ثانتوس» (الموت) و«ليثيه» (النسيان)، «هيبنوس» الإلهي (النوم) الذي يلفّ باربطة ناعمة الجسم واللسان. وليس يعني ذلك أنّي أقلّ اعجاباً بك من زمرة الكلاب النهمة التي دعيت وإيّاها. ولكني أنا معجب بك لأنّي أفهمك، وهم معجبون دون أن يفهموك. وأني، لأحسنَ القول، أكثر إعجاباً بك من أن أتحدّث هكذا عنك على الملأ، فلعلّ امتداحي جهاراً ما أحمل في أعمق أعماق فؤادي كان بدا لي من قبيل التدنيس. وعبثاً ساءلوني بشأنك فإن نوعاً من الخفر المقدّس ابن «كرونيون» (Kronion)(١) حبس الكلام في فمي.» ولم تكن بي قلّة ذوق لأبدي استياء، ولكنّ ذاك الخفر بدا لي يشبه– أكثر منه الـ «كرونيون»– الخفر الذي يمنع ناقداً معجباً بك أن يتحدّث عنك لأنّ المعبد الخفيّ الذي تتربّع فيه سوف تجتاحه لمّة من القراء الجهّال والصحفيّين؛ خفر رجل الدولة الذي لايمنحك وساماً كي لاتختلط ضمن جماعة من الناس لاتساويك؛ خفر عضو المجمع الذي لايصّوت إلى جانبك كي يجنّبك الخجل من أن تكون زميل س الذي لايتمتّع بأيّة موهبة؛ الخفر أخيراً الذي يكون أكثر مدعاة للاحترام وأكثر إجراماً مع ذلك، خفر الأبناء الذين يرجونك أن لاتكتب عن والدهم المتوفّى الذي كان كثير المزايا وذلك لضمان الصمت والراحة والحؤول دون الحفاظ على حياة الميت المسكين وخلق هالة من المجد حوله وهو الذي ربّما فضّل أن تتلفّظ باسمه أفواه رجال الأكاليل التي تحمل بورع كبير على أيّ حال إلى قبره.

لئن كان «بلوك»، فيما يبعث في نفسي الأسى إذ لايستطيع أن يدرك السبب الذي يحول دون ذهابي

(١) هي «إينوس» ابنة «جوبيتير» كبير آلهة الرومان بالأحرى.

بتحيّة والده، لئن كان أثار حنقي وهو يقرّ لي أنّه قلّل من اعتباري لدى السيّدة «بونتان» (كنت أدرك الآن لماذا لم تلمح «ألبيرتين» إلى ذاك الغداء في يوم وتظلّ ساكتة حينما أحدّثها عن المودّة التي يكنّها لي «بلوك»)، فقد خلّف اليهوديّ الشابّ في نفس السيّد «دوشار لوس» انطباعاً يختلف عن الضيق كلّ الاختلاف. أجل، كان «بلوك» يظنّ الآن أني لا أستطيع البقاء ثانية واحدة بعيداً عن الناس الأنيقين، وليس ذلك فحسب بل كنت أحاول، وقد تملكتني الغيرة من محاولات التقرّب التي أمكن أن يبدوها له (كالسيّد «دوشار لوس» مثلاً)، أن أضع العصيّ في العجلات وأمنعه من مصادقتهم. ولكن البارون كان يأسف من جهته أن لم يلقَ رفيقي أكثر ممّا فعل. وحرص كعادته على أن لايبدي شيئاً من ذلك. وبدأ يطرح عليّ، دون أن يبدي أنّه يفعل، بعض الأسئلة حول «بلوك»، ولكنّما بلهجة متراخية واهتمام يبدو شديد التصنّع إلى حدّ لاتظنّ معه أنّه يسمع الأجوبة؛ وبمظهر من اللامبالاة ولحن رتيب كان يعرب عمّا كان أكثر من اللامبالاة والشرود وكأنّما لمحض تأدّب يبديه لي: «يبدو ذكيّاً، وقال إنّه يكتب، فهل هو على موهبة ؟» وقلت للسيّد «دوشار لوس» أنّه كان غاية في اللطف بقوله إنّه يأمل لقاءه ثانية. ولم تكشف أيّة حركة لدى البارون أن يكون سمع جملتي ولمّا كرّرتهاأربع مرّات دون أن يصلني جواب فقد بلغ بي في النهاية أن أرتاب بأن أكون وقعت ضحيّة سراب سمعيّ حينما ظننتني اسمع ما قاله السيّد «دوشار لوس» . «هل يقطن في «بالبيك» ؟» يقول البارون مدندناً بلحن قليل المساءلة إلى حدّ أنّه من المغيظ أن لاتتّسع اللغة الفرنسيةلعلامة غير نقطة الاستفهام لختام هذه الجمل التي يقلّ طابع الاستفهام في ظاهرها إلى الحدّ. وصحيح أن هذه العلامة تكاد لاتخدم سوى السيّد «دوشار لوس» .– «لا، فقد استأجروا الآمريّة على مقربة من هنا.» وتظاهر السيّد «دوشار لوس»، بعدما عرف ماكان يبتغي، باحتقار «بلوك»، وصاح وهو يردّ إلى صوته كامل زخمه ودويّه :«يالها فظاعة! إن سائر الأماكن أو الممتلكات المدعوّة بـ«الآمريّة» قد بنيت أو هي مملوكة من جانب فرسان جمعيّة مالطا (التي انتمي إليها)، مثلما الأمكنة المسمّاة «المعبد» أو «الفرسان» من جانب الداويّة. إن أقطن أنا الآمريّة فليس ماكان طبيعيّاً أكثر. أمّا أن يفعل يهوديّ ! وليس يدهشني ذلك على أيّة حال، ومردّ ذلك ميل غريب إلى تدنيس المقدّسات خاصّ بهذا الجنس. فما أن يجتمع ليهوديّ ما يكفي من المال لشراء قصر حتّى يختار دوماً قصراً يدعى «كنيسة الدير» أو «الدير» أو «الرهبانية» أو «بيت الله»، لقد كنت على صلةمع أحد اليهود، فاحزروا أين كان يقيم؟ في منطقة «جسر المطران» (١) ولمّا فقد الحظوة عمل على أن يرسلوه إلى «بريتانيه»، إلى منطقة «جسر رئيس الكهنة» . وحينما يمثّلون في أسبوع الآلام تلك المشاهد غير المحتشمة التي يدعونها «الآلام» فإن نصف القاعة يملؤه اليهود الذين يتهلّلون فرحاً لدى التفكير بأنّهم سيضعون المسيح مرّة ثانية على الصليب، بالصورة على الأقلّ. وفي حفلة «لامورو» الموسيقيّة كان أحد المصرفيّين اليهود جاراً لي. وعزفوا «طفولة المسيح» لـ«بيرليوز» فأذهله الأمر وغمّه، وكلنّه عاد فلقي بعد قليل تعابير الغبطة المعتادة لديه حين سمع مقطوعة «روعة الجمعة الحزينة» (٢) . إن صديقك يسكن في «الآمرية»، فياله من شقيّ! وأيّة سادية تلك! ستدلّني على الطريق، يضيف قوله وقد استعاد هيئته اللامبالية، لأمضي ذات يوم وأرى كيف تطيق ممتلكاتنا القديمة مثل هذا

(١) ترجمنا الاسم العلم لابراز المقصد.
(٢) ذكرى صلب السيّد المسيح.

الأنتهاك. ذلك مؤسف، لأنّه مهذّب ويبدو رفيقاً. وقد لاينقصه سوى أن يقطن في باريس، في شارع «المعبد»! كان السيّد فحسب يدعم به نظريتّه. ولكنّه كان في الواقع يطرح عليّ سؤالاً لغايتين ترمي الرئيسيّة منهما إلى معرفة عنوان «بلوك». ولفت «بريشو» إلى الملاحظة التالية : «كان شارع «المعبد» بالفعل يدعى شارع «فرسان المعبد». وقال الجامعي: « واذ نحن بهذا الصدد، هل تسمح لي بملاحظة أيّها البارون؟» وقال السيّد «دوشار لوس» بلهجة جافّة : «ماذا؟ هات ماوراءك»، لأن تلك الملاحظة كانت تحول دون حصوله على معلوماته. فأجاب «بريشو»متهيّباً : «لا، لا شيء. كان ذلك بشأن اشتقاق سبق أن طلب منّي لكلمة «بالبيك». فشارع «المعبد» كان يدعى فيما مضى شارع «مركز قضاء بيك» لأن دير «بيك» في النوماندي كان يقيم هنا في باريس مركز قضائه.» ولم يحر السيّد «دوشار لوس» جواباً وتظاهر بأنّه لم يسمع، وكان ذلك عنده أحد أشكال الوقاحة. «أين يسكن صديقك في باريس؟ وبما أن ثلاثة أرباع الشوارع تستمدّ اسمها من كنيسة أو دير فثمّة احتمال أن يستمرّ تدنيس المقدّسات. ولست تستطيع منع يهود من السكنى في شارع «المادلين» (1) أو حيّ «القدّيس هونوريه» أو ساحة «القديس اغسطينوس». ومادامو لايبالغون في المكر باختيار مقرّ سكناهم في ساحة «نوتردام» أو ضفّة «المطرانيّة» أو شارع «رئيسة الدير» أو شارع «السلام عليك يامريم» فلابدّ أن نأخذ مصاعبهم في الحسبان.» ولم نتمكّن من تزويد السيّد «دوشار لوس» بالمعلومات إذ كان عنوان «بلوك» الحالي مجهولاً لدينا. ولكنّي كنت أعلم أن مكاتب والده تقع في شارع «المعاطف البيضاء». وصاح السيّد «دوشار لوس» قائلاً : آه! يافساداً مابعده فساد!» وهو يبدو كأنّما يجد في ذات صيحة ثورته الساخرة ارتياحاً عميقاً.» وأضاف قوله وهو يشدّد على كل مقطع ويضحك شارع المعاطف البيضاء، ياله امتهان للقدسيّات! تصوّر أن هذه «المعاطف البيضاء» التي يلوّنها السيّد «بلوك» كانت معاطف الأخوة الشحّاذين المدعوّين خدّام القدّيسة العذراء والذين أقامهم القدّيس لويس هناك. ولقد كان الشارع على الدوام لجمعيّات دينيّة. والتدنيس يزداد شيطانيّة بقدر مايقوم ثمّة على خطوتين من شارع المعاطف البيضاء شارع يغيب عنّي اسمه وهو مخصّص بالكامل لليهود. ثمّة حروف عبرانية فوق الدكاكين ومصانع للخبز الفطير وملاحم يهوديّة؛ إنّه بالتمام الـ Judengasse (جادّة اليهود) الباريسيّة. إن السيّد «دو رو شغود» يسمّي هذا الشارع «الغيتو الباريسيّ». وكان خليقاً بالسيّد «بلوك» أن يسكن هنا. وعاد يقول «بالطبع»، بلهجة يلوّنها شيء من التفخيم والاعتزاز وهو يولي وجهه المرتدّ إلى خلف، في سبيل الإدلاء بأقوال جماليّة، وجرّاء جواب توجهّه إليه على الرغم منه خصائصه الوراثيّة، هيئة فارس ملكيّ من عهد لويس الثالث عشر، «لست أهتمّ بكلّ ذلك إلاّ من منطلق الفنّ. فالسياسة ليست من اختصاصي ولايسعني أن أحكم دون تمييز، والأمر أمر «بلوك»، على أمّة تجد في عداد مشاهير أبنائها «سبينوزا». وإن إعجابي بـ«رامبرانت» أكبر من أن لا أعرف مايمكن أن استمدّه من جمال من التردّد على الكنيس (٢). ومهما يكن من أمر فان «الغيتو» أنما يزداد جمالاً بقدر مايزداد تجانساً وتكاملاً. وكن في جميع الأحوال على يقين من أن قرب الشارع العبريّ الذي اكلّمك عنه والسهولة التي يوفرّها وجود الملاحم اليهوديّة في متناول اليد قد حكما اختيار صديقك لشارع المعاطف البيضاء لشدّة مايختلط لدى هذا الشعب غريزة

(١) كنيسة مشهورة في باريس.

(٢) عاش «رامبرانت» الذي لم يكن يهودياً في الحيّ اليهودي في امستردام (هولاندا) وكثيراً ما اقتبس شخوصه من الوسط الذي عاش فيه إلى جانب الكنس التي رسمها.

النفعيّة والجشع بالساديّة. ما أغرب ذلك! وفي هذه النواحي على أيّ حال كان يسكن يهوديّ عجيب قام بسلق القربان المقدّس وأعتقد أنه سلق بدوره بعد ذلك، والأمر أعجب بعد اذ يبدو وكأنّه يعني أن جسد يهوديّ يمكن أن يساوي مايساويه جسد الله سبحانه (١) وربّما أمكننا أن ندبّر أمراً مامع صديقك كي يصحبنا لزيارة كنيسة المعاطف البيضاء. تصوّر أن جثمان «لويس آل أورليان» أودع هناك بعد مقتله على يد «جان صان بور» الذي لم ينقذنا لسوء الحظّ من آل «أورليان». بيد أني من جانب آخر على علاقة ممتازة بابن عميّ الدوق «دو شارتر»، ولكنّهم في النهاية من جنس مغتصبين عملوا على قتل «لويس السادس عشر» وتجريد «شارل العاشر» و«هنري الخامس». لديهم على أيّ حال من يشبهونهم إذ يعدّون بين أجدادهم «السيّد» الذي كان يدعى على هذا النحو لأنّه كان دونما شكّ أغرب السيّدات المسنّات، والوصيّ على العرش والبقيّة الباقية. يالها أسرة!» وقد قوطع هذا الخطاب المناهض لليهود أو المناصر لهم– حسبما نتمسّك بظاهر الجمل أو بالمقاصد التي تنطوي عليها–، قوطع بطريقة مضحكة فيما يخصّني جرّاء جملة همس لي بها «موريل»ولعلّها كانت أدخلت اليأس إلى صدر السيد «دوشارلوس» فقد كان «موريل» الذي لم تفته ملاحظة الانطباع الذي خلّفه «بلوك» يشكرني همساً لأني «صرفته» ويضيف بصفاقة: «كان بودّه أن يبقى، وكلّ ذلك من الغيرة، فإنّه يودّ أن يأخذ منّي مكاني. ذلك تماماً من صنيع اليهود!» وسألني السيّد «دوشار لوس» وبه القلق الذي يولدّه الشكّ «كان يمكن الإفادة من هذا التوقّف الذي يتطاول لسؤال صديقك بعض الايضاحات الشعائريّة. أفلست تستطيع اللحاق به؟» –«لا، ذلك مستحيل، فقد مضى في عربة وهو غاضب منّي على أيّ حال.» وهمس «موريل» في أذني قائلاً: «شكراً ،شكراً». «السبب غير معقول، ويمكن دوماً اللحاق بعربة فليس مايحول دون أن تستقلّ سيارة»، يجيب السيّد «دوشار لوس» جواب رجل تعوّد أن ينحني كلّ شيء أمامه. ولكنّه لاحظ صمتي فقال لي بوقاحة ولهجة الأمل الأخير: «وما عسى تكون هذه العربة الوهميّة إلى حدّ ؟» –«إنّها عربة مكشوفة ولابدّ أن تكون وصلت إلى الآمريّة.» وسلّم السيّد «دوشار لوس» على مضض في النفس بالمستحيل وتكلّف المزاح «أفهم أنّهم تراجعوا إزاء العربة غير الضروريّة، إذ كان زاد ذلك في اللاضروريّ» وأخيراً أنبئنا بأن القطار يزمع الرحيل ففارقنا «سان لو». ولكنّ ذاك اليوم كان الوحيد الذي عذّبني فيه على غير علم منه وهو يصعد إلى عربتنا جرّاء ماخطر لي لحظة واحدة بأن أدعه مع «ألبيرتين» بمرافقة «بلوك» ولم يعذّبني وجوده في المرات الأخر ذلك لأن «ألبرتين» كانت ، بغية تجنيبي أي قلق، تتّخذ مكانها تلقائياً، لحجّة أيّة حجّة، على نحو لعلّها ما لامست به «روبير»، وإن غير قاصدة، وأبعد تقريباً من أن تمدّ حتيّ يدها إليه؛ وكانت تأخذ، ما أن يحضر، في الحديث بصورة معلنة وبما يقارب التصنّع مع أيّ من المسافرين الآخرين وهي تشيح بعينيها عنه وتوالي هذه اللعبة إلى أن يكون «سان لو» قد ارتحل. وهكذا لم تكن الزيارات التي يقوم بها لنا في «دونسيير» لم تكن إذ لاتسبب لي أي عذاب بل أي ازعاج، لتشكلّ استثناء بين الأخريات التي كانت كلّها ممتعة إذ تحمل إليّ نوعاً ما إجلال هذه الأرض ودعوتها. وكنت منذ أواخر الصيف حين أبصر من البعيد أثناء رحلتنا من «بالبيك» إلى «دوڤيل» محطّة «سان پيير ديزيف» حيث تتلألأ برهة في المساء رؤوس الجروف مورّدة كلّها مثلما ثلج الجبل في الشمس الغاربة، فإنّها ماكانت تذكرّني (لا أقول حتّى بالحزن الذي بعثة في نفسي أول مساء ارتفاعها

(١) إشارة إلى المعتقد المسيحيّ الذي يمثل فيه القربان المقدّس جسد المسيح.

الغريب المفاجئ فداخلتني رغبة عظيمة في العودة بالقطار إلى باريس بدلاً من متابعة الطريق إلى «بالبيك») بالمنظر الذي كنت تستطيع مشاهدته من هنا في الصباح، كما سبق أن قال لي «ايلستير»، في الساعة التي تسبق شروق الشمس حيث تتكسّر ألوان قوس قزح جميعها فوق الصخور والتي أيقظ فيها مرّات كثيرة الصبي الصغير الذي اتخذه ذات سنة بمثابة جليس ليرسمه عارياً فوق الرمال. كان اسم «سان پيير ديزيف» ينبئني فحسب بأنْ سوف يطلع عليّ خمسيني غريب فكه متبرّج يمكنني التحدّث وإيّاه عن «شاتوبريان»و «بلزاك». أما ماكنت أراه الآن في ضباب المساء. خلف جرف «انكرڤيل» هذا الذي ماأكثر ماأيقظ أحلامي فيما مضى، وكأنّما أصبحت أحجارها الرمليّة العتيقة شفّافة، فالبيت الجميل الذي لأحد أعمام السيّد «دو كامبرمير» والذي أعلم أنّهم سيسعدون دوماً باستقبالي فيه إن لم أشأ تناول العشاء في «لاراسپلپيير» أو العودة إلى «بالبيك». وهكذا لم تكن أسماء نواحي هذه المنطقة هي التي فقدت وحدها سرّها الأولي، بل تلك النواحي نفسها. فالأسماء التي فُرِغَتْ إلى النصف من سرّها الذي أحلّ الاشتقاق الحاكمة العقليّة محلّه قد هبطت درجة إضافيّة، وكنّا نبصر في أثناء رجعاتنا إلى «هيرمونڤيل» و«سان ڤاست»و «أرامبوڤيل» لحظة توقّف القطار أشباحاً ماكنّا نتعرّفها في البداية وربّما أمكن أن يأخذها «بريشو» في الليل، وهو لايبصر شيئاً البتّة، مأخذ أطياف «هيريموند» و«ڤيسكار» و «هيريمبالد». ولكنّها كانت تقترب من العربة، فإذا هي مجردّ السيّد «دو كامبرمير» الذي كان على اختصام تامّ مع ال «ڤيردوران» وكان يصحب مدعوّين له وجاء من جانب والدته وزوجته يسألني إن كنت لا أودّ أن «يختطفني» ليحتفظ بي بضعة أيّام في «فيتيرن» حيث ستتعاقب موسيقيّة ممتازة قد تسمعني إنشاداً كلّ «غلوك» ولاعب شطرنج مشهور أقوم معه بلعبات رائعة لن تضرّ بطلعات الصيد ورياضة اليخوت في الخليج، ولاحتّى بحفلات عشاء آل«ڤيردوران» التي كان المركيز يتعهّد مقسماً بشرفه أنّه «يعيرني» إليها ويأمر باصطحابي وإعادتي سعياً إلى مزيد من السهولة، والضمان أيضاً. «لكنّما لايسعني الاعتقاد أنّه من المفيد لك الذهاب إلى مكان بمثل هذا الارتفاع. فإني أعلم أن شقيقتي لاتقوى ربّما على تحمّله، وبأيّة حالة مزرية قد تعود! وهي ليست من جانب آخر على مايرام في هذه الفترة.. لقد أصبت حقّاً بنوبة قويّة إلى هذا الحدّ! ولن تقوى في الغد على الوقوف!» وكان يتلوّى ضحكاً، لا عن خبث بل للسبب نفسه الذي ماكان من أجله يستطيع رؤية أعرج يسقط في الشارع أرضاً دون أن يضحك، أو التحدّث إلى أصمّ. «وقبل ذلك؟ كيف، لم تصب بواحدة منذ خمسة عشر يوماً؟ تدري أن ذلك عظيم جدّاً! حقّاً يجدر بك أن تأتي للاقامة في «فيتيرن» فيمكن أن تحدّث شقيقتي عن اختناقاتك.» أمّا في «أنكرڤيل» فقد كان المركيز «دومونپير و» هو الذي، إذ لم يستطع الذهاب إلى «فيتيرن» لغيابه بقصد الصيد، جاء إلى القطار بجزمته وقبعّة تزينّها ريشة تدرج لمصافحة أقرباء له ومصافحتي في الوقت نفسه وهو يعلن لي عن زيارة لابنه يقوم بها في يوم من الأسبوع لايزعجني وأنّه يشكرني لاستقبالي له ويسعده أشدّ السعادة أن أحمله قليلاً على القراءة. أو هو السيّد «دو كريسي» جاء، يقول، لانجاز عمليّة هضمه، ويدخّن غليونه ويقبل سيجاراً أو حتّى عدّة منها، وكان يقول لي: «ويحك! لست تقول لي عن يوم للقائنا المقبل على طريقة «لوكولوس»؟ ليس عندنا مانقوله؟ فاسمح لي أن أذكرّك بأنّنا خلّفنا على السكّة مسألة عائلتي «مونتغومري». ولابّد من إنهاء ذلك. اعتمد عليك.» وآخرون جاؤوا يبتاعون صحفهم فحسب. كذلك كان كثيرون يسترسلون في الحديث وإيّانا، من الذين شككت دوماً

أنّه لايتّفق أن تجدهم فوق الرصيف في أقرب محطّة إلى قصرهم الصغير إلاّ لأنّه لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى أن يلتقوا فترة من الزمن جماعة من معارفهم. وقصارى القول إنّ مواقف القطار الصغير هذه إنْ هي إلاّ إطار لحياة مجتمعيّة كأيّ إطار آخر. وهو نفسه كان يبدو وكأنّه يعي ذاك الدور الذي أفرد له واكتسب شيئاً من لطف إنساني: فقد كان صبوراً لينّ السريكة ينتظر المتخلّفين ماشاؤوا له أن ينتظر، بل كان يتوقف بعدما انطلق ليلملم من يشوّرون له، فكانوا يجرون إذ ذاك على إثره يلهثون فيشبهونه في هذا ولكنّهم يختلفون عنه في أنّهم كانوا يلحقون به بأقصى السرعة فيما لايلجأ هو إلاّ إلى بطء متعقلّ. وهكذا لم تعد «هيرمونڤيل»و «أرامبوڤيل» و«انكرڤيل» ، لم تعد حتىّ تذكرّني بأمجاد الغزو النوماندي وقسوته، وهي غير قانعة بأن تكون نزعت عنها تماماً الحزن الذي لاتفسير له والذي رأيتها بالأمس غارقة فيه في برودة المساء. و«دونسيير»! كم بقي طويلاً في هذا الأسم، بالنسبة إليّ، حتىّ بعدما عرفته وأفقت من حلمي، كم بقي فيه شوارع ممتعة في برودتها وواجهات مضاءة وطيور لذيذة! «دونسيير» لم تعد الآن سوى المحطّة التي يصعد فيها «موريل» ؛ و «ايغلڤيل» تلك التي كانت تنتظرنا فيها عموماً الأميرة «شيرباتوف» ؛ و«مينفيل» المحطّة التي كانت تنزل فيها «ألبيرتين» في عشيّات الصحو حينما تدفعها الرغبة،وليس بها فرط تعب، إلى أن تطيل فترةً بعدُ رفقتنا إذ كاد لايبقى، بفضل طريق مختصره، مسيرة أطول تقطعها ممّا لو كانت نزلت في «پارڤيل». وكنت لاأشعر من بعد بالخوف والقلق من العزلة اللذين اعترياني في المساء الأول، وليس ذلك فحسب بل ماعد أخشى أن يستفيقا ولا أن أحسّ بالغربة أو أجد نفسي وحيداً على هذه الأرض التي لاتنتج أشجار الكستناء والطرفاء فحسب، بل صداقات تشكّل على طول المسيرة سلسلة طويلة متقطعة كسلسلة التلال الضاربة إلى الزرقة، تختفي أحياناً داخل تجاويف الصخر أو خلف زيزفون الشارع ولكنّها توفد في كلّ موقف أحد النبلاء اللطاف الذي كان يُقبل بمصافحة وديّة ليقطع طريقي ويحول دون إحساسي بطوله ويعرض عليّ متابعته وإيّاي إن دعت الحاجة. وسيكون آخر في المحطّة التالية إلى حدّ أن صافرة القطار الصغير ماكانت تدعونا لفراق صديق إلا لتفسح لنا في لقاء آخرين. فبين القصور الأقلّ قرباً والسكّة الحديديّة التي تسير بمحاذاتها بما يقارب خطو شخص يسير مسرعاً كانت المسافة قليلة إلى حدّ كنّا استطعنا معه تقريباً، لحظة كان أصحابها ينادون علينا من فوق الرصيف أمام غرفة الانتظار، أن نظنّ أنّهم يفعلون من عتبة بابهم ومن نافذة غرفة نومهم وكأنّما سكّة المحافظة لاتعدو كونها شارعاً في مقاطعة ريفيّة وقصر النبيل الريفيّ المنعزل سوى فندق في المدينة.حتىّ في المحطّات القليلة التي ماكنت اسمع فيها تحيّة المساء من أحد كان للصمت اكتمال مغذّ ومهدّئ لأنّني أعلم أنّه يتشكّل من رقاد أصدقاء بكّروا في النوم في القصر الريفيّ القريب الذي لعلّ مجيئي كان صادف فيه ترحيباً وسروراً لو اضطررت أن أوقظهم لأسألهم بعض خدمات الضيافة. فعلاوة على أن العادة تملأ وقتنا إلى حدّ لايبقى لنا معه في ختام بضعة شهور لحظة واحدة خالية من المشاغل في مدينةكان النهار يوفّر لنا لدى الوصول إليهاجاهزيّة ساعاته الاثنتي عشرة، ماكان ليخطر لي من بعد، إن شغرت واحدة منها مصادفة، أن استخدمها لزيارة كنيسة سبق أن جئت فيما مضى من أجلها إلى «بالبيك» ، ولاحتىّ أن أقابل موقعاً رسمه «ايلستير» بالخطيطة التي شاهدتها له في منزله،بل للمبادرة إلى القيام بلعبة شطرنج إضافية في منزل السيّد «فيريه». فقد كان للتأثير الهدّام، كما للسحر كذلك، الذي اكتسبته منطقة «بالبيك» أن تصبح في نظرى منطقة معارف حقيقيّة. ولئن كان توزّعها الجغرافي وزراعتها

التوسّعية على طول الساحل زروعاً متنوّعة يكسبان الزيارات التي أقوم بها لهؤلاء الأصدقاء المختلفين شكل الرحلة المحتوم فقد كانا إلى ذلك يقصران الرحلة على أن لاتتضمّن سوى المتعة الاجتماعية التي يوليها تعاقب الزيارات. وإنّ أسماء الأماكن ذاتها، وهي فيما مضى مثيرة بالنسبة إليّ إلى حدّ أن مجرّد «دليل القصور»، إمّا قلّبتُ صفحاته في الباب المخصّص لمقاطعة المانش،كان يبعث في نفسي مقدار ما يبعث دليل السكك الحديدية من انفعال أضحت مألوفة لديّ إلى حدّ أني كنت استطعت أن أتصفّح ذاك الدليل نفسه في الصحيفة المخصّصة لـ«بالبيك» – دوفيل» عن طريق «دونسيير» بذات السعادة المطمئنة التي أتصفحّ بها قاموساً للعناوين. وفي هذا الوادي الذي يطفح حسّاً اجتماعياً والذي أحسّ أنّ تعلقّ في جنباته طائفة من أصدقاء كثر بارزة للعيان أو خفيّة لم تعد صرخة المساء الشعريّة هي صرخة البومة أو الضفدعة، بل «كيف حالك؟» يطلقها السيّد «دو كريكتو» أو «خيريّه» (١) يقولها «بريشو». ولم يعد الجوّ فيه يوقظ صنوف القلق وكان، وقد حملّ انبعاثات بشريّة محضة، سهل المتنفّس مهدّئاً بما يجاوز الحدّ. والمكسب الذي جنيته منه أني ماعدت أرى الأشياء على الأقلّ إلاّ من وجهة نظر عمليّة. وأخذ الزواج من «ألبيرتين» يبدو لي ضرباً من الجنون.

(١) «السلام عليك» في اليونانيّة كما يتصنّعها الجامعيّ «بريشو».

الفصل الرابع

[تحوّل مفاجئ باتجاه «ألبيرتين»- أسى في الشروق- انطلاقي في الحال إلى باريس بصحبة «ألبيرتين».]

كنت أنتظر محض مناسبة للقطيعة النهائيّة. وذات مساء، وإذ كانت والدتي تزمع الذهاب في الغد إلى «كومبريه» حيث تمضي إلى إحدى شقيقات أمّها تعضدها في مرضها الأخير وتتركني كيما أفيد، مثلما لعلّ جدّتي كانت تريد، من هواء البحر، أخبرتها أنّي صممت تصميماً لا رجعة فيه أن لا أتزوج «ألبيرتين» وسأكفّ قريباً عن زيارتها. وقد سرّني أنْ وسعني بتلك الكلمات إشاعة السرور في صدر والدتي عشيّة ذهابها. وهي لم تخْفني أن الأمر سرّها بالفعل سروراً بالغاً. كان لا بدّ لي أيضاً من الإفصاح عن ذلك لـ «ألبيرتين». وإذ كنت عائداً وإيّاها من قصر «لاراسپليير» وبعدما نزل الخلّص، هؤلاء في «سان مارس لوڤيتو»، وأولئك في «سان پيير ديزيف» وآخرون في «دونسيير»، وأحسستني سعيداً بصورة خاصّة ومتجرّداً عنها عقدت العزم، ولم يبق في عربة القطار الآن سوانا نحن الاثنين، على مباشرة هذا الحديث أخيراً فيما بيننا. والحقيقة على أيّة حال أن تلك التي كنت أحبّها من بين فتيات «بالبيك»، وإن تكن غائبة في هذه الفترة هي وصديقاتها، ولكنّها تزمع العودة (كنت آنس بجميعهنّ لأن كلّ واحدة منهنّ كانت تحمل بالنسبة إليّ، شأني في الهوم الأول، شيئاً من جوهر الأخريات وكانت كأنّما من جنس فريد من نوعه)، إنما كانت «أندريه»، وبما أنّها تزمع المجيء ثانية إلى «بالبيك» بعد بضعة أيام فالأكيد أنّها ستأتي في الحال للقائي، وحينئذ بغية أن أظلّ حراً وأن لا أتزوجها إن كنت لا أبغي ذلك ليمكنني الذهاب إلى البندقية، ولاستبقائها لي كليّاً حتىّ ذاك فإن الوسيلةالتي سألجأ إليها هي أن لايبدو عليّ كثيراً أني آتي إليها، وسأقول لها فور وصولها حينما يجري بيننا الحديث: «من أسف أن لا أكون التقيتك قبل هذا ببضعة أسابيع! فإنّي كنت أحببتك. أمّا الآن فقلبي مشغول. ولكن لا أهميّة للأمر، سوف نلتقي كثيراً، فإنّي حزين من جراء حبيّ الآخر وسوف تساعدينني على توفير العزاء لي.» كنت ابتسم في نفسي وأنا أفكر بهذا الحديث، فربّما أوهمت «أندريه» بهذه الطريقة أنّني لا أحبّها حقّاً، وهكذا فانّها لن تملّني وأفيد من حنانها بغبطة وهدوء.ولكن كلّ هذا ماكان يفضي في النهاية إلاّ إلى زيادة ضرورة التحدّث إلى «ألبيرتين» حديثاً جدياً كي لا أتصرّف تصرّفاً غير لبق؛ وبما أنني كنت مصمماً على الانصراف إلى صديقتها فقد كان لابدّ أن تعلم تمام العلم، هي «ألبيرتين»، أنّني لا أحبّها. وكان لابدّ أن أقوله لها في الحال إذ يمكن أن تحضر «أندريه» بين يوم وآخر. ولكنّي شعرت، إذ كنّا نقترب من «پارفيل» أنّه لن يتّسع لنا الوقت في ذاك المساء وأنّ الأفضل أن نؤجل إلى الغد ماكان الآن مقرّراً تقريراً لارجعة فيه. فاكتفيت والحالة هذه بالتحدّث إليها عن العشاء الذي تناولناه في منزل آل «ڤيردوران». وقالت لي لحظة كانت تعود إلى ارتداء معطفها وقد غادر القطار «أنكرڤيل» منذ قليل، وهي آخر محطّة قبل «پارڤيل» : «إذاً في الغد آل «ڤيردوران» مرّة أخرى، ولايغب عنك أن من سيأتي لاصطحابي هو أنت.» ولم أملك نفسي عن الإجابة ببعض الجفاء: «أجل، إلاّ إذ «أخلفت»، فانّي أخذت أجد هذه الحياة سخيفة حقّاً. وفي كلّ الأحوال لابدّ لي، إن ذهبنا إلى هناك، وبغية أن لايكون الوقت الذي أقضيه في «لاراسپليير» وقتاً ضائعاً تماماً، من التفكير بسؤال السيّدة «ڤيردوران» أمراً يمكن أن يثير اهتمامي إلى حدّ كبير ويكون موضع دراسة لي ويمتعني فقد اتفق لي بالحقيقة

القليل جداً من المتعة في «بالبيك» هذا العام.»– «ليس ذلك بلطيف تجاهي، ولكنّي غير حاقدة عليك أذ أحسّك مضطرب الأعصاب. فما هي هذه المتعة؟»– «أن تأمر السيّدة «ڤيردوران» من يعزف لي أشياء لموسيقي تعرف مؤلفاته تمام المعرفة. وأنا أيضاً أعرف إحداها، ولكنّما يبدو أن ثمّة غيرها وإني بحاجة أن أعلم إن كانت منشورة وإن كانت تختلف عن الأعمال الأولى.»– «أي موسيقيّ ؟»– «ياصغيرتي العزيزة، بعدما أكون قلت لك أنّه يدعى «ڤانتوي»، هل تكونين كسبت الكثير؟» يمكن أن نكون قلّبنا كلّ الأفكار الممكنة ولا تكون الحقيقة داخلتها في يوم، فإذا هي توجّه من الخارج لسعتها الشنيعة وتجرحنا إلى الأبد. وأجابتني «ألبيرتين» وهي تنهض واقفة لأن القطار يوشك أن يتوقّف: «لستَ تدري كم تضحكني، فليس يهمّني ذلك أكثر ممّا تظنّ فحسب، بل يمكنني حتّى بدون السيّدة «ڤيردوران» أن أحصل لك على كلّ ماتشاء من معلومات. تتذكّر أني كلّمتك عن صديقة أكبر منّي سنّاً كانت لي أمّاً وأختاً وقد قضيت معها في «تريسته» أجمل سني حياتي وسوف ألتقيها على أيّة حال بعد بضعة أسابيع في «شيربورغ» ومنها نسافر سويّة (والأمر ينطوي على غرابة، ولكنّك تعلم كم أحبّ البحر)، حسن، هذه الصديقة (آه! ليست على الإطلاق من صنف النساء الذي يمكن أن يخطر لك!)، فانظركم الأمر غريب، هي بالضبط أفضل صديقة لابنة «ڤانتوي» هذا، وإني أعرف بالمقدار نفسه ابنة «ڤانتوي». وانّي مادعوتهما في يوم إلا شقيقتيّ الكبريين. ليس يسوءني أن أريك أنّ صغيرتك «ألبيرتين» يمكن أن تفيدك في أمور الموسيقى هذه التي تقول من جانب آخر، وبحقّ، إنّي لا أفقه فيها شيئاً. ولدى سماعي هذه الكلمات التي قيلت فيما كنّا ندخل محطّة «پارڤيل»، بعيداً جداً عن «كومبريه»، و«مونجوڤان»، وبعد موت «ڤانتوي» بفترة طويلة، كان ثمّة صورة تضطرب في فؤادي، صورة ظلّت محفوظة لسنوات طويلة احتياطاً، لعلّني حتّى لو أمكنني أن أحزر فيما كنت اختزنها بالأمس أنّها تتمتّع بتأثير سيّئ، ولعلّني ظننت أنّها فقدته كلياً على مرّ الزمن؛ وهي ظلّت حيّة في أعماقي– على غرار «أوريست» الذي حالت الآلهة دون موته كيما يعود في اليوم المحدّد إلى بلده ليثأر لمقتل «أغاممنون»– في سبيل تعذيبي وعقابي ربّما (من ذا يدري؟) أن تركت جدّتي تموت؛ وطلعت فجأة من أعماق الليل، الذى بدا أنّها دُفنت فيه إلى الأبد، تضرب على غرار منتقم كي تدشّن لي حياة رهيبة مُسْتَحَقّة جديدة، وربّما كذلك كي تبرز في عينيّ النتائج المشؤومة التي تولدّها الأفعال السيّئة إلى مالانهاية، لا بالنسبة لمن اقترفوها فحسب، بل لمن لم يفعلوا– أو ظنّوا أن لم يفعلوا– سوى متابعة مشهد غريب ومسلٍ، كحالي أنا للأسف في ختام ذلك النهار البعيد في «مونجوڤان»، وقد اختبأت خلف دغل حيث فسحت فى المجال خطيراً لتتّسع في داخلي الطريق المشؤومة المعدّة لصنوف العذاب، طريق «المعرفة» (مثلما سبق أن أصغيت مُجاملاً إلى قصّة غراميّات «سوان»). وفي هذا الوقت نفسه داخلني من أعظم ألم يصيبني شعور يكاد يكون مستكبراً، يكاد يكون متهللاً، شعور إنسان لعلّ الصدمة التي حلّت به دفعته دفعة بلغ بها جداً ماكان لأي جهد أن يرفعه إليه. فإنمّا «ألبيرتين» في صداقتها للآنسة «ڤانتوي» ولصديقتها، «ألبيرتين» مُمارسةً ممتهنة للسحاق، أنما كانت، إزاء ماسبق أن تصوّرت عبر أعظم شكوكي، ماكان يساوي المِسْماع الصغير في معرض عام ١٨٨٩، والذي كادوا لا يأملون منه أن يصل بين ركن بيت وبيت آخر في مواجهة الهاتف الذي يرفّ فوق الشوارع والمدن والحقول والبحار يصل بين البلدان. كانت أرضاً مجهولة ومخيفة تلك التي حططت فيها منذ قليل ومرحلة جديدة تنفتح أمامي لعذابات لا

أتوقّعها. ولئن كان طوفان الواقع هذا الذي يغمرنا، لئن كان هائلاً في مقابل افتراضاتنا الخجولة الزهيدة فقد كان مستشعراً فيها. إنّه دون شكّ من قبيل ما اطلّعت عليه منذ قليل، كان من قبيل صداقة «ألبيرتين» والآنسة «ڤانتوي» وشيئاً ماكان وسع فكري أن يبتدعه ولكنّي كنت أوجس منه خيفة على نحو غامض حينما كنت أضطرب اضطراباً ماأشدّه وأنا أرى «ألبيرتين» بالقرب من «أندريه». فكثيراً مالانذهب في العذاب مسافة كافية لقصور في فكرنا المبدع فحسب. وإن الواقع الأكثر رهبة إنّما يولينا إلى جانب العذاب بهجة اكتشاف هام لأنّه يقتصر على إعطاء شكل جديد واضح لما كنّا نجترّه منذ فترة طويلة دون أن نرتاب به. كان القطار قد توقّف في «پارفيل» ولما كنّا المسافرين الوحيدين فيه فقد صرخ العامل بصوت أوهاه شعوره بلا جدوى المهمّة وذات العادة التي تدفعه مع ذلك إلى القيام بها وتوحي إليه بالدقّة والتراخي في آن معاً، بل وأكثر من ذلك رغبته في النوم، صرخ يقول: «پارفيل». وقامت «ألبيرتين»، وهي تجلس قبالتي وإذ رأت أنّها وصلت إلى مكان إقامتها، ببضع خطوات من ركن العربة التي كنّا فيها وفتحت الباب. لكنّ تلك الحركة التي كانت تنجزها على هذا النحو بغية النزول كانت تمزّق فؤادي على نحو لايحتمل كما لو انّه، خلافاً للموقع المستقلّ عن جسمي الذي كان يبدو أن جسم «ألبيرتين» يشغله على بعد خطوتين منه، كما لو لم يكن ذاك الفاصل المكاني الذي ربّما اضطرّ رسّام يبغي مطابقة الواقع أن يخطّه بيننا سوى مظهر ليس إلاّ وكما لو انبغى لمن يشاء أن يعيد رسم الأشياء وفق الواقع الحقيقي أن يُقيم «ألبيرتين» الآن على مسافة منّي بل في داخلي. لقد بلغ من إيلامها لي في ابتعادها عنّي أن جذبتها من ذراعها إذ لحقتُ بها جذبة يائس. وسألتها قائلاً: «هل يستحيل مادياً أن تأتي هذا المساء للنوم في «بالبيك»؟ - «مادياً لا؛ ولكن النعاس يثقل عليّ.»- «ربّما أدّيت لي خدمة لاتقدّر بثمن..» - «وليكن إذاً،مع أنّي لاأفهم؛ لمَ لم تفصح عن ذلك من قبل؟ ولكنّي باقية.» كانت أمّي نائمة حينما عدت إلى غرفتي بعدما أوصيت أن تعطى «ألبيرتين» غرفة في دور آخر. وجلست قرب النافذة وأنا أغالب زفراتي كي لاتسمعني والدتي التي لا يفصلها عنّي سوى حاجز رقيق. لم يخطر لي حتّى أن أغلق المصاريع، إذ رأيت في لحظة معيّنة وأنا أرفع عينيّ، رأيت قبالتي في السماء ذات الضوء المبهم الزهيد الذي من حمرة خامدة والذي كنّا نشاهده في مطعم «ريڤبيل» في دراسة كان «ايلستير» وضعها عن مغيب شمس. وتذكّرت الحماسة التي أولتني إيّاها تلك الصورة نفسها حينما رأيتها من القطار في أوّل يوم من وصولي إلى «بالبيك» صورة مساء ما كان يسبق الليل بل نهاراً جديداً. أمّا الآن فلن يكون أيّ نهار من بعد جديداً بالنسبة إليّ ولن يوقظ لديّ من بعد الرغبة في سعادة مجهولة وسيطيل فحسب صنوف عذابي إلى أن لا أقوى من بعد على احتمالها. إن حقيقة ماسبق أن قاله لي «كوتار» في كازينو «پارفيل» لم يعد موضع شكّ في نظري. وإن ما سبق أن خشيته وراودني منه شك غامض عن «ألبيرتين» منذ فترة طويلة وما كنت استخلصه بالفطرة من كامل كيانها ومادفعتني محاكماتي العقليّة التي يوجّهها شوقي شيئاً فشيئاً إلى انكاره إنّما كان حقيقيّاً! فما عدت أبصر خلف «ألبيرتين» جبال البحر الزرقاء، بل حجرة «مونجوڤان» التي كانت ترتمي فيها بين ذراعي الآنسة «ڤانتوي» بتلك الضحكة التي تُسمعك فيها كأنّما النبرة المجهولة لاستمتاعها. إذ كيف كان للآنسة «ڤانتوي»، و«ألبيرتين» بمثل جمالها، أن لاتطلب إليها، وبها ما بها من ميول، إشباعها؟ والبرهان على أنّ «ألبيرتين» لم يصدمها الأمر ووافقت أنّهما لم تختصما وأن الألفة بينهما لم تن تتعاظم. وحركة «ألبيرتين» اللطيفة وهي

تضع ذقنها على كتف «روزموند» وتنظر إليها مبتسمة وتطبع قبلة على عنقها، تلك الحركة التي ذكّرتني بالآنسة «ڤانتوي» والتي تردّدت مع ذلك في معرض تفسيرها في أن أسلّم بأن ذات الخطّ الذي ترسمه إشارة معيّنة ينجم حتماً عن الميل نفسه،من ذا يعلم إن لم تكن «ألبيرتين» تعلّمتها بكلّ بساطة من الآنسة «ڤانتوي»: وشيئاً فشيئاً أخذت السماء الخامدة تشتعل. وأنا الذي لم يستيقظ في يوم إلى الآن دون أن يبتسم لأكثر الأشياء اتّضاعاً، لكوب القهوة بالحليب وصوت المطر وهزيم الرياح، أحسست أن النهار الذي سيطلع في لحظات وجميع الأيّام التي ستعقبه لن تحمل إليّ من بعد أملاً بسعادة مجهولة بل تطاولاً لعذابي. كنت لاأزال أتشبّث بالحياة، وأعلم أن ليس ماانتظره منها سوى القسوة عليّ. وجريت إلى المصعد على الرغم من الساعة غير المناسبة لاستدعاء عامل المصعد الذي كان يقوم بوظيفة حارس ليليّ وسألته الذهاب إلى غرفة «ألبيرتين» ليقول لها إن ثمّة أمراً هامّاً أودّ نقله إليها وإن كان بوسعها استقبالي. وعاد يقول لي: «تفضّل الآنسة المجيء بنفسها وستكون هنا بعد قليل.» ودخلت «ألبيرتين» بالفعل بعد قليل ترتدي مبذلاً. فقلت لها بصوت خافت جدّاً وأنا أوصيها بأن تتحاشى رفع صوتها كي لاتوقظ والدتي التي ماكان يفصلنا عنها سوى هذا القاطع الذي كانت رقته تشبه فيما مضى، حين كانت ترتسم فيها على أحسن وجه مقاصد جدّتي، نوعاً من الشفافية الموسيقيّة، وهي اليوم مزعجة وتضطرّنا للتهامس: «ألبيرتين» إني خجل لمضايقتي لك، هيّا، لابدّ لي، بغية أن تفهمي، من أن أقول لك شيئاً لاتعرفينه. حينما جئت إلى هنا هجرت امرأة اضطررت أن أتزوّجها وكانت مستعدّة أن تتخلّى عن كل شيء من أجلي. كان مقرّراً أن تسافر في هذا الصباح، وإني منذ أسبوع أتساءل في كلّ يوم إن كانت ستتوافر لي الشجاعة بأن لا أبرق لها أنّني عائد. وقد توافرت لي تلك الشجاعة، ولكنّما رأيتني تعيساً حتّى ظننت أني سأقتل نفسي. ولذلك سألتك مساء البارحة إن كان يمكن المجيء للنوم في «بالبيك». فاني وددت، لو انبغى أن أموت، أن أودّعك.» وأطلقت العنان لدموعي التي جعلتها قصّتي الخياليّة تبدو طبيعيّة. وصاحت «ألبيرتين» قائلة: «ياصغيري العزيز، لو اني علمت لكنت قضيت الليل إلى جانبك»، حتىّ دون أن يخطر ببالها أنّني ربّما تزوّجت تلك المرأة وأن فرصتها في «زواج ثريّ» تتلاشى لشدّة وصدق تأثرها بغمّ أستطيع أن أخفي عنها سببه. لاحقيقته وقوّته. قالت لي: «لقد شعرت البارحة على أيّة حال شعوراً واضحاً على مدى الطريق من قصر «لاراسپلييير» أنّك كنت ثائر الأعصاب حزيناً، وكنت أخشى أمراً ما.» والحقيقة أنّ حزني لم يبدأ إلاّ في «پارڤيل» وثورة الأعصاب المختلفة كليّاً والتي كانت «ألبيرتين» لحسن الحظّ تخلط بينه وبينها كانت ناجمة عن الضيق الذي بي من العيش وإياها بضعة أيّام بعد. وأضافت قولها: «لا أفارقك من بعد وسأمكث طوال الوقت هنا.» كانت تقدّم لي— ووحدها تستطيع أن تفعل— الدواء الوحيد المضادّ للسمّ الذي يحرقني، والمجانس له من جانب آخر، فهذا رفيق بي والآخر قاس عليّ، وكلاهما مُسْتَمَدّ ان من «ألبيرتين». وفي هذه اللحظة كانت «ألبيرتين»— الداء الذي بي—، وقد تراخت في التسبّب بعذابي، تدعني— هي «ألبيرتين» الدواء— رقيق الحاشية كما هو شأن الناقه. ولكنّي كنت أفكّر بأنّها تزمع الرحيل عما قليل من «بالبيك» إلى «شيربور» ومن هناك إلى «تريسته». وسوف تعود عاداتها بالأمس إلى الظهور. وما كنت أبغيه قبل كلّ شيء إنّما الحؤول دون أن تستقلّ «ألبيرتين» المركب ومحاولة اصطحابها إلى باريس. صحيح أنّها ربّما استطاعت أكبر ممّا تفعل من «بالبيك»، ولكنّنا قد ننظر في الأمر في باريس، فربّما أمكنني أن أسأل السيّدة «دو غير مانت» التأثير بصورة غير

مباشرة على صديقة الآنسة «ڤانتوي» كي لاتمكث في «تريسته» وكي تحملها على القبول بمركز في مكان آخر، ربّما لدى الأمير «دو... » الذي كنت التقيته في منزل السيّدة «دو ڤيلپا ريزيس» ولدى السيّدة «دو غير مانت» نفسها. وربّما استطاع هذا الأخير، حتىّ لو أرادت «ألبيرتين» الذهاب إلى منزله لالتقاء صديقتها،ربّما استطاع، وقد أخطرته السيّدة «دو غير مانت»، أن يحول دون لقائهما. أجل، كان بوسعي أن أقول في نفسي إن «ألبيرتين» واجدة في باريس، إن كانت بها تلك الميول، أشخاصاً كثيرين تشبعها وإيّاهم.ولكنّ لكلّ بادرة غيرة خصوصيتّها وهي تحمل سمة الشخص الذي أثارها– والشخص هذه المرّة صديقة الآنسة «ڤانتوي»–. لقد كانت صديقة الآنسة «ڤانتوي» هي التي ظلّت شغلي الشاغل الأكبر. إن الهوى الغامض الذي سبق أن فكّرت عبره بالنمسا لأنها البلد الذي جاءت منه «ألبيرتين» (إذ سبق أن كان عمّها مستشاراً للسفارة فيها) ولأنّ تفرّدها الجغرافي والعرق الذي يسكنها وأوابدها ومناظرها كان بوسعي أن أتأملّها، وكأنّما في أطلس جغرافي كأنّما في مجموعة مناظر، في ابتسامة «ألبيرتين» وسلوكها، هذا الهوى الغامض كنت أحسّ به أيضاً، ولكن عبر انقلاب في العلامات، في نطاق الفظاعة. أجل،من هنا جاءت «ألبيرتين». وهنا كانت على يقين من أنّها واجدة في كلّ بيت إمّا صديقة الآنسة «ڤانتوي» أو أخريات غيرها. وعادات الطفولة تزمع العودة من جديد، وسيجرى الاجتماع بعد ثلاثة شهور بداعي الميلاد ثم رأس السنة، والتاريخان حزينان بحدّ ذاتهما في نظري جرّاء الذكرى اللاواعية للغمّ الذي بعثاه في نفسي حينما يفصلاني بالأمس عن «جيلبيرت» على مدى عطلة رأس السنة. فسوف يتّفق لـ «ألبيرتين» مع صديقاتها هناك، في أعقاب حفلات العشاء الطويلة ومآدب سهرات الميلاد حينما يكون الكلّ جذلانين يزخرون نشاطاً، تلك الوقفات نفسها التي رأيتها تتّخذها مع «أندريه»، في حين كان وداد «ألبيرتين» تجاهها بريئاً، بل، من ذا يدري؟ ربّما تلك التي قرّبت أمامي الآنسة «ڤانتوي» تلاحقها صديقتها في «مونجوڤان». وكنت الآن أعطي الآنسة «ڤانتوي»، فيما تدغدغها صديقتها قبل أن تهوي عليها، وجه «ألبيرتين» الملتهب، «ألبيرتين» التي سمعتها تطلق في هروبها ثمّ استسلامها ضحكتها الغريبة العميقة. فما عساها كانت، إمّا قورنت بالعذاب الذي أكابده، الغيرة التي أمكن أن أحسّ بها يوم التقى «سان لو» «ألبيرتين» بصحبتي في «دونسيير» وقامت هي بمضايقات وجّهتها إليه؟ وتلك التي انتابتني إذ عدت أفكّر بالمدربّ الأولّ المجهول الذي أمكن أن أدين له بالقبلات الأولى التي منحتني إيّاها في باريس يوم كنت أنتظر رسالة الآنسة «دوستير ماريا» ؟ تلك الغيرة التي سببّها «سان لو»، أو شاب آخر، أيّ شابّ ماكانت شيئاً يذكر. فلعلّه كان أمكن أن أخشى في هذه الحالة خصماً كنت حاولت التغلّب عليه. ولكنّ الخصم هنا لم يكن شبيهاً بي، وكان سلاحه مختلفاً ولا أستطيع قتاله على ذات الأرض وإعطاء «ألبيرتين» اللذّات نفسها ولاحتىّ تصوّرها تصوّراً دقيقاً. ولعلّنا في كثير من فترات حياتنا نبادل كامل المستقبل بسلطان عديم الشأن في حدّ ذاته. لقد كنت تخلّيت فيما مضى عن مكاسب الحياة جميعاً للتعرّف على السيّدة «بلاتان» لأنّها كانت من صديقات السيّدة «سوان». وكنت اليوم تحمّلت كلّ صنوف العذاب في سبيل أن لا تذهب «ألبيرتين» إلى «تريسته»، وسمتّها، إن بدا ذلك غير كاف، أخرى غيرها وعزلتها وسجنتها وأخذت منها القليل ممّا تملك من مال كي يحول العوز ماديّاً دون إتمامها الرحلة. وإنّ ما كان كحالي بالأمس حين أبغي الذهاب إلى «بالبيك»، يدفعني إلى الرحيل إنّما هي الرغبة في كنيسة فارسيّة وعاصفة في الفجر، كذلك ماكان يمزّق فؤادي وأنا أفكّر

بأن «ألبيرتين» ربّما ذهبت إلى «تريسته» فأنّها ربّما قضت فيها ليلة الميلاد برفقة صديقة الآنسة «ڤانتوي» : ذلك أنّ الخيال حينما يبدّل طبيعته وينقلب حساسيّة لايتوافر له من جرّاء ذلك عدد أكبر من الصور المتواقتة. فلو قيل لي إنّها غير موجودة فى هذه الفترة في «شيربور» أو «تريسته» وانّها لن تتمكّن من لقاء «ألبيرتين» ، كم كنت بكيت عذوبة وسروراً! وكم كانت حياتي ومستقبلها تبدّلا! مع أنّي كنت أعلم تمام العلم أنّ تحديد موضع غيرتي كان جزافيّاً وإنّ بامكان «ألبيرتين» إن كانت بها تلك الميول أن تشبعها مع آخريات. ولعلّ هاتيك الفتيات على أيّ حال، لو استطعن لقاءها في مكان آخر، لعلّهن ماعذّبن فؤادي إلى هذا الحدّ فإنّه من «يتريسته» ، من هذا العالم المجهول الذي كنت أحسّ أنّ الحياة فيه تروق «ألبيرتين» وفيه ذكرياتها وصداقاتها وعشق طفولتها كان ينبعث ذاك الجوّ العدائيّ الغامض كالجّو الذي كان يتصاعد حتىّ غرفتي في «كومبريه» من قاعة الطعام حيث اسمع أمّي تتحدّث وتضحك مع الغرباء في ضجيج شوكات الطعام، أمّي التي لن تأتي لتتمنّى لي ليلة سعيدة؛ وكالجوّ الذي سبق أن ملأ في نظر «سوان» البيوت التي كانت تروح «أوديت» تبحث فيها ليلاً عن ملذّات يصعب تصوّرها. ولم أعد أفكّر الآن في «تريسته» وكأنّما التفكير ببلد رائع حيث الجنس البشريّ غارق في فكره وساعات الغروب مذهبة وأجراس الكنائس حزينة،بل كأنّما التفكير بمدينة ملعونة وددت لو أحرقها في الحال وأمحوها من عالم الواقع. كانت تلك المدينة مغروسة في قلبي كأسلة دائمة. لقد كان يروّعني أن أدع «ألبيرتين» ترحل عمّا قليل إلى «شيربور» و«تريسته» ، بل حتّى أن تلبث في «بالبيك». فقد كان يبدو لي الآن وقد أولاني الكشف عن علاقة صديقتي الحميمة بالآنسة «ڤانتوي» مايشبه اليقين أن «ألبيرتين» كانت في سائر الأوقات التي لا تكون فيها بصحبتي (وكان ثمّة أيّام بطولها لا أستطيع فيها لقاءها بسبب عمّتها) واقعة بين يدي بنات عمّ «بلوك» وربّما غير هنّ. كانت فكرة إمكان لقائها بنات عمّ «بلوك» في هذاالمساء عينه تثير جنوني. لذلك أجبتها بعدما قالت لي إنّها لن تفارقني على مدى بضعة أيّام: «ولكنّما وددت الذهاب إلى باريس. أفلا تذهبين معي ؟ أفلست تودّين المجيء للسكنى قليلاً وإيّانا في باريس؟» كان لابدّ أن أحول دون بقائها وحدها مهما كلّف الثمن، بضعة أيّام على الأقلّ، وأن أحتفظ بها بالقرب منّي لأتيقّن من أنّها لن تستطيع لقاء صديقة الآنسة «ڤانتوي». وربّما عنى ذلك في الحقيقة سكناها بمفردها إلى جانبي لأنّ والدتي استغلّت جولة تفتيشيّة يعتزم والدي القيام بها فاختطّت لنفسها بمثابة واجب عليها أن تنصاع لمشيئة جدّتي التي كانت ترغب إليها أن تمضي عدّة أيّام إلى «كومبريه» لقضائها بالقرب من إحدى شقيقاتها. وما كانت والدتي تحبّ خالتها لأنّها لم تكن بالنسبة إلى جدّتي، وما أرقّها تجاهها، الشقيقةالتي كان ينبغي أن تكون. وهكذا يتذكّر الأولاد، وقد أصبحوا كباراً، يتذكرون بحقد من كانوا سيئين إزاءهم. لكنّ والدتي إذ أصبحت مثل جدتي، هذه التي لا تقوي على الحقد، فإن حياة والدتها كانت بالنسبة إليها بمثابة طفولة طاهرة بريئة تمضي لتستقي منها تلك الذكريات التي كانت عذوبتها أو مرارتها تضبط أفعالها مع هؤلاء وأولئك. ولعلّ خالتي كانت تستطيع تزويد أمّي ببعض تفاصيل لاتقدّر بثمن، ولكنّها ربّما حصلت عليها الآن بصعوبة إذ إن خالتها مرضت مرضاً شديداً (مرض السرطان يقولون)، وكانت تلوم نفسها أن لم تذهب قبل ذلك لتؤانس والدي في سفره ولاتجد في ذلك سوى حجّة إضافيّة لتفعل ماكانت فعلت والدتها؛ ولما كانت تذهب في ذكرى وفاة والد جدّتي، والذي كان والداً في غاية السوء، تحمل إلى قبره أزهاراً تعوّدت جدّتي أن

تحملها إليه، هكذا كانت والدتي تودّ بالقرب من القبر الذي يوشك أن ينفتح أن تحمل المحادثات الرقيقة التي لم تبادر خالتي إلى تقديمها لجدّتي. وفي أثناء إقامتها في «كومبريه» سوف تهتمّ والدتي ببعض الأعمال التي رغبت جدّتي على الدوام فيها، ولكن إن نفّذت بإشراف ابنتها فقط. لذلك لم تكن بعد قد بوشر بها إذ لاتودّ أمّي بمغادرتها باريس قبل والدي إن تشعره أكثر من اللازم بعبء حداد كان يشارك فيه ولكنّما لايمكن أن يغمّه بقدر مايغمّها. وأجابتني «ألبيرتين» قائلة: «آه! ذلك غير ممكن في هذا الوقت. وعلى أيّ حال ماحاجتك إلى العودة إلى باريس بهذه السرعة بما أن هذه السيّدة قد رحلت؟» -«لأنني سأكون أكثر هدوءاً في مكان عرفتها فيه منّي في «بالبيك» التي لم ترها في يوم والتي أخذت أمقتها.» أترى «إلبيرتين» أدركت فيما بعد أن هذه المرأة الأخرى لم تكن موجودة وأنّي لو وددت حقّاً أن أموت في تلك الليلة فلأنها كشفت لي على نحو طائش أنّها كانت على علاقة بصديقة الآنسة «ڤانتوي» ؟ ذلك محتمل، وثمّة فترات يبدو لي الأمر فيها مرجّحاً. على أنّي في جميع الأحوال اعتقدت في ذلك الصباح بوجود تلك المرأة. فقالت لي: «ولكنّما يجدر بك أن تتزوّج هذه السيّدة ياصغيرى، فسوف تسعد بذلك، وهي بدورها ستسعد بالتأكيد.» فأجبتها بأن فكرة إمكان إسعاد تلك المرأة أوشكت بالفعل أن تقنعني. وفي الفترة الأخيرة عندما ورثت ميراثاً كبيراً يسمح لي بتوفير الكثير من الترف والمتع لزوجتي أوشكت أن أقبل بالتضحية بمن كنت أحبّ. وقلت، وقد أسكرتني الامتنان الذي يبعثه في نفسي لطف «ألبيرتين» على هذا القرب الشديد من الألم الفظيع الذي سبق أن كانت سبباً فيه، ومثلما ربّما وعدت تلقائياً نادل المقهى الذي يسكب لك كأساً سادسه من مشروب ماء الحياة بمال وفير قلت لها إن زوجتي سوف تحوز سيّارة ويختاً، وإنّه لمن المؤسف من وجهة النظر هذه، وبما أنّ «ألبيرتين» تحبّ إلى هذا الحدّ ركوب السيّارات واليخوت، أن لاتكون هي من أحبّ، وإنّي ربّما كنت الزوج المثاليّ لها، ولكن سوف نرى وربّما أمكن أن نلتقي لقاءات ممتعة. ولكنّي على الرغم من كلّ شيء، ومثلما يمسك المرء حتىّ حالة السكر عن أن يصيح بالمارة مخافة الضربات أمسكت عما لعلّني كنت اقترفت من حماقة في زمن «جيلبيرت» بأن أقول لها إنّها هي، «ألبيرتين»، من أحبّ. «ترين، لقد أوشكت أن أتزوجها. ولكنّي مع ذلك لم تحالفني الجرأة في أن أفعل فما وددت أن أحمل امرأة على العيش إلى جانب شخص مريض إلى هذا الحدّ ومصدر ازعاج إلى هذا الحدّ.»- «ولكنّك مجنون أنت ، فالكلّ يودّ العيش بالقرب منك، وهيّا انظر كيف يسعى الجميع إليك. إنّهم لايتحدّثون إلاّ عنك في منزل السيّدة «ڤيردوران» وفي أرفع طبقات المجتمع، ذلك مانقلوه إليّ. فهي إذاً لم تكن لطيفة معك، تلك السيّدة، كيما توليك هذا الانطباع بالتشكيك في نفسك؟ ها أنا أرى ماهي، إنّها شرّيرة، وإني أمقتها. آه! لو كنت مكانها...»-«لا، لا، إنّها لطيفة جداً، بل أكثر من لطيفة، أمّا بخصوص آل «ڤيردوران» والبقيّة الباقية فلست أبالي بهم. وأنّي باستثناء التي أحبّها، والتي تخلّيت عنها على أيّة حال، لاأحرص إلاّ على صغيرتي «ألبيرتين»، وليس سواها، على أن تلتقيني كثيراً- على الأقلّ في الأيّام الأولى»، أضفت قولي كي لا أخيفها ويمكنني أن أطالبها بالكثير في هذه الأيّام -، «يستطيع أن يوفّر لي شيئاً من العزاء.» ولم أشر إلا إشارة غامضة إلى امكان الزواج فيما أقول إنّ الأمر لايمكن تحقيقه لأنّ طباعنا قد لاتتوافق. وعلى الرغم منّي كنت أميل بافراط، وأنا تلاحقني دوماً في غيرتي ذكرى علاقات «سان لو» بـ «راحيل حينما الربّ» و«سوان» بـ «أوديت»، إلى الاعتقاد بأني لما كنت أحبّ فما كان يمكن أن أُحبّ وأن

المصلحة وحدها كان يمكن أن تشدّ امرأة إليّ. كان من الجنون دونما شكّ أن أحكم على «ألبيرتين» تأسيساً على «أوديت» و«راحيل» على أنّها لم تكن هي، بل أنا، فإنّ ماكان يمكن أن أوحي به من عواطف هو ماكانت غيرتي تحملني على التقليل من شأنه. ومن هذا الحكم المغلوط ربّما نجمت دون شكّ مصائب كثيرة سوف تنزل بنا. «إذاً ترفضين دعوتي إلى باريس؟»– «قد لاتودّ عمّتي أن أذهب في هذه الفترة. ومن جانب آخر حتّى لو أمكنني فيما بعد أفلن يبدو الأمر مستغرباً أن أحلّ هكذا في بيتكم؟ فسوف يعلمون تماماً في باريس أنّي لست ابنة عمّك.»– «حسن،نقول إنّنا مخطوبان بعض الشيء، فأيّ همّ لذلك مادمت تعلمين أن الأمر غير صحيح؟»كان جيد «ألبيرتين» الخارج بأكمله من قميصها قويّاً مذهباً واضح المسامّ. وقبلتها قبلة بمثل طهارتها لو انني قبّلت أمّي لأهدّئ من غمّ طفولي كنت أظنّ حينذاك أنني لن يسعني اقتلاعه من فؤادي في يوم. وتركتني «ألبيرتين» لترتدي ثيابها. وكان تفانيها على أيّ حال قد أخذ من ذاك يضعف، فمنذ قليل قالت إنّها لن تفارقني مقدار ثانية. (وكنت أحسّ تماماً أنّ تصميمها لن يدوم بما أنّي كنت أخشى، إن نحن مكثنا في «بالبيك»، أن تلتقي في هذا المساء نفسه، بنات عمّ «بلوك» بدوني.) ولكنّها الآن قالت لي منذ قليل،إنّها تبغي أن تقصد «مينفيل» وإنّها ستعود للقائي في العصر. فإنّها لم تنثن عائدة مساء البارحة ويمكن أن تكون ثمّة رسائل لها؛ ثمّ إن عمّتها يمكن أن تقلق. وأجبت قائلاً: «إن لم يكن الأمر إلاّ لذاك فيمكننا أن نرسل خادم المصعد ليقول لعمّتك إنّك هنا ويجيئك برسائلك.» وإذ كانت راغبة في أن تبدو لطيفة. ومغيظة لإلزامها رغماً عنها،فقد تغضن جبينها ثم قالت في الحال بلطف شديد: «وليكن»، وأرسلت عامل المصعد. وما كانت «ألبيرتين» فارقتني إلاّ لحظة حتّى جاء عامل المصعد يقرع قرعاً خفيفاً.ولم أكن أتوقّع أن يكون اتسّع له الوقت، أثناء ماكنت أتحدّث و«ألبيرتين»، للذهاب إلى «مينفيل» والعودة منها. لقد جاء يقول لي إن «ألبيرتين» سطّرت كلمة لعمّتها وإنّها تستطيع المجيء إلى باريس في اليوم نفسه إن أردت. وقد أخطأتْ على أيّة حال بتكليفه المهمّة جهاراً إذ كان المدير من ذاك، على الرغم من الساعة المبكّرة، على بيّنة من الأمر وأقبل يسألني مذعوراً إن كنت مستاء من أيّ شيء وإن كنت أرحل حقّاً وإن لم يكن بوسعي الانتظار بضعة أيام على الأقلّ، فإن الريح «خوّافة» اليوم بعض الشيء (يقصد مخيفة). وماكان بودّي أن أوضح له أنّي أريد أيّاً كان الثمن أن لاتكون «ألبيرتين» بعد في «بالبيك» ساعة تقوم بنات عمومة «بلوك» بنزهتهنّ ولاسيّما في غياب «أندريه» التي كانت وحدها استطاعت أن تحميها وأن «بالبيك» كانت كتلك الأماكن التي يصمّم مريض لايتنفّس من بعد فيها أن لايقضي الليلة التالية في ربوعها ولو تجرّع الموت على الطريق. وكان عليّ من ناحية أخرى أن أقاوم توسّلات من ذات القبيل في الفندق أوّلاً حيث أصبحت عينا «ماري جينيست» و «سيليست ألباريه» بلون الدم. (كانت ماري تسمعك الزفرة المعجلة التي للسيل، فيما توصيها «سيليست»، وهي أبطأ حركة، بالهدوء. ولكن بعد ماهمست «ماري» بالأبيات الوحيدة التي كانت تعرفها: «في هذه الحياة الدنيا كلّ أزهار الليلك تموت» (١) لم تستطع «سيليست» أن تملك نفسها فسفحت دموعاً سخيّة على وجهها الذي بلون الليلك. على أنّي أظنّ أنّهما نسيتاني فور حلول المساء نفسه.) ثمّ إنّي في القطار الصغير المحلي، وعلى الرغم من كلّ مااتخذت من احتياطات كي لايروني، صادفت السيّد «دو كامبرمير» الذي شحب

(١) من قصيدة للشاعر «سولي برودوم» (Sully Prudhomme) من القرن التاسع عشر.

لونه لدى رؤيته حقائبي إذ كان يعتمد عليّ لما بعد الغد. وأثار حنقي إذ أراد أن يقنعني بأن نوبات الاختناق التي تصيبني ناجمة عن تغيّر الطقس وأن تشرين الأوّل (اكتوبر) سوف يكون ممتازاً بالنسبة إليها وسألني إن كنت لا أستطيع في جميع الأحوال تأجيل سفري ثمانية أيام، والعبارة ربّما لم يثر غباؤها حنقي إلاّ لأن مايقترحه عليّ كان يؤلمني.. وفيما كان يكلّمني في عربة القطار، كنت أخشى في كلّ محطّة أن يبرز أمامي، أشدّ هولاً من «هيريمبالد» أو «غيسكار»، السيّد «دو كريسي» وهو يتوسّل أن توجّه إليه الدعوة، أو السيّدة «فيردوران»، وهي بعد أبعث للرعب، في حرصها على دعوتي. ولكنّ الأمر لن يحدث إلاّ بعد بضع ساعات. ولم أكن بعد بلغت هذا الحدّ. كان عليّ أن أواجه فحسب شكاوى المدير اليائسة. وصرفته إذ كنت أخشى أن ينتهي به الأمر إلى إيقاظ أمّي وإن كان يتكلّم همساً. وبقيت وحدي في الغرفة، هذه الغرفة ذاتها المفرطة في ارتفاع سقفها والتي سبق أن كنت شديد التعاسة فيهاحينما وصلت أوّل مرّة، حيث فكرت بحنان شديد بالآنسة «دوستيرماريا»، وترقّبت مرور «ألبيرتين» وصديقاتها وكأنما لطيور مهاجرة توقّفت على الشاطئ، حيث امتلكتها بذاك القدر من اللامبالاة حينما بعثت عامل المصعد ليجيئني بها، حيث عرفت طيبة جدّتي ثم علمت أنّها ماتت. وهذه المصاريع التي كان ضوء الصباح يتساقط على حضيضها قد فتحتها أوّل مرّة لأشاهد سفوح مرتفعات البحر الأولى (هذه المصاريع التي كانت «ألبيرتين» تدعوني إلى إغلاقها كي لايبصرونا في عناق) . لقد كنت أعي وعياً أفضل تحوّلاتي الذاتيّة وذلك بمواجهتها بتماثل الأشياء. على أنّنا نتعوّدها كما نتعوّد الأشخاص، وحينما نتذكّر فجأة الدلالة المختلفة التي كانت لها ثم، بعدما فقدت أيّة دلالة، الأحداث المختلفة تمام الاختلاف عن أحداث اليوم التى كانت إطاراً لها، وتنوّع الأفعال التي جرت تحت ذات السقف ومابين ذات المكتبات المزجّجة فإن التغيرّ داخل القلب والحياة الذي يقتضيه ذلك التنوّع إنمّا يبدو وكأنّه بعدُ يتزايد جرّاء استمرار الاطار الذي لايتغيرّ فيما تعزّزه وحدة المكان.وقد خطر لي مرّتين أو ثلاثاً على مدى لحظة أن العالم الذي كانت فيه تلك الغرفة وتلك المكتبات والذي كانت فيه «ألبيرتين» شيئاً زهيداً جداً ربّما كان عالماً فكرياً هو الواقع الوحيد، وأنّ غمّي شيء من قبيل الذي توليه قراءة رواية والذي يستطيع مجنون فقط أن يجعل منه غمّاً مستمراً دائماً يمدّ جذوراً له في حياته، وأنّه ربّما كفت حركة بسيطة تقوم بها إرادتي لبلوغ هذا العالم الحقيقي والدخول إليه يتجاوز عذابي كدولاب ورق تثقبه والاقلاع عن الاهتمام بما سبق أن فعلته «ألبيرتين» أكثر ممّا نهتمّ بالأعمال التي قامت بها البطلة الخياليّة لإحدى الروايات بعدما نكون أنهينا قراءتها. وإنّ العشيقات اللواتي أحببتهنّ أكثر ماأحببت لم يطابقن في يوم على أيّ حال حبّي لهنّ. وكان ذاك الحبّ حقيقيّاً بما أنّي كنت أُنيط كلّ شيء بلقائهنّ والاحتفاظ بهنّ لي وحدي، وبما أني كنت أجهش في البكاء إن كنت انتظرتهنّ ذات مساء. ولكنهنّ كن يمتلكن خاصيّة إيقاظ ذاك الحبّ والمضيّ به إلى الذروة أكثر ممّا كنّ صورته. فحينما كنت أبصرهن، حينما كنت أسمعهنّ لم أكن أجدّ فيهنّ شيئاً يشبه حبّي ويمكن أن يفسّره. ومع ذلك كانت مسرّتي الوحيدة في لقائهنّ وقلقي الوحيد في انتظارهنّ. لكأنّما أضافت الطبيعة إليهنّ منزة ثانويّة لاصلة لها بهنّ إطلاقاً وأن لهذه الميزة، لهذه القدرة شبه الكهربائيّة تأثيراً عليّ في إثارة حبّي، يعني في توجيه أعمالي جميعها وفي التسببّ بآلامي كلّها. ولكنّ جمال هاتيك النساء أو ذكاءهن أو طيبتهنّ كانت كلّها مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك. لقد هزّتني صنوف عشقي كأنّما جرّاء تيّار كهربائي يحرّكك، وقد عشتها

وأحسست بها: ولم أستطع قطّ أن أفلح في رؤيتها أو تصورّرها في فكري. بل تراني أميل إلى الاعتقاد بأنّنا في صنوف العشق هذه، (وأدع جانباً اللذة الجسديّة التي ترافقها عادة من جانب آخر ولكنّها لاتكفي لتشكيلها)، أنّما نتّجه خلف مظهر المرأة إلى تلك القوى اللامرئيّة التي تنضاف إليها وترافقها وكأنما إلى آلهة خفيّة. فهي التي يبدو عطفها ضرورياً لنا، وانّما نبحث عن الاتّصال بها دون أن نجد فيه متعة إيجابيّة. فالمرأة إنّما تصلنا في أثناء الموعد المضروب بتلك الآلهات وتكاد لاتفعل أكثر من ذلك. لقد وعدنا، وكأنّما تلك تقَادم، بمجوهرات ورحلات، وتلفّظنا بعبارات تعني أنّنا نعشق حتىّ العبادة، وبعبارات تناقضها وتعني أنّنا لانبالي. لقد استخدمنا كامل سلطاننا للحصول على موعد جديد على أن يُمنح دونما ضيق. أفلعلنا نتحمّل هذا القدر من المشقّة من أجل المرأة ذاتها لو لم تكن مُستكمَلَة بتلك القوى الخفيّة، في حين لايسعنا أن نقول بعدما تكون ذهبت أيّة ثياب كانت ترتدي ونتبيّن أننا لم ننظر حتىّ إليها؟

لكم الرؤية حاسّة مضلّلة! فإن جسداً إنسانياً، وإن يكُ معشوقاً شأن جسد «ألبيرتين»، إنّما يبدو لنا، على بضعة أمتار، على بضعة سانتيمترات، بعيداً عنّا. وكذلك حال النفس التي له. ولكن إن يتّفق أن يغيّر أمر ما على نحو عنيف موقع هذه النفس بالنسبة إلينا ويبدي لنا أنّها تحبّ أشخاصاً آخرين غيرنا، فإننّا نشعر آنذاك من خفقات فؤادنا المخلّع أن المخلوق الحبيب كان لاعلى بضع خطوات منّا بل في داخلنا. في داخلنا، في مناطق سطحيّة بعض الشيء. ولكنّ هذه الكلمات: «تلك الصديقة إنّما هي الآنسة «ڤانتوي» كانت عبارة «افتح ياسمسم» التي لعلّني كنت عاجزاً عن أن أجدها بنفسي والتي أدخلت «ألبيرتين» في أعماق فؤادي الممّزق. أمّا الباب الذي أغلق دونها فلعلنّي كنت بحثت مئة عام دون أن أعرف كيف يمكن فتحه.

وكنت كففت عن سماع تلك الكلمات حيناً في أثناء ماكانت «ألبيرتين» بالقرب منّي منذ قليل. كدت اعتقد، وأنا أقبلّها مثلما كنت أقبّل أمّي في «كومبريه» لتهدئة قلق نفسي، ببراءة «ألبيرتين» أو أني ماكنت أفكّر تفكيراً متّصلاً بالاكتشاف الذي سبق أن قمت به لفجورها. أمّا الآن وقد أصبحت وحدي فقد كانت الكلمات تدوّي مجدّداً كمثل تلك الأصوات الداخليّة في الأذن التي تسمعها ما إن يكفّ أحدهم عن التحدّث إليك. ولم يكن فجورها الآن موضع شكّ بالنسبة إليّ. وجعلني نور الشمس الذي قارب أن يطلع، جعلني أعي مجدّداً، بتغيير الأشياء من حولي، وكأنّما يغيّر مقدار لحظة مكاني بالنسبة إليها، وعياً أكثر قسوة بعد لعذابي، ولم أكن رأيت في يوم بداية صباح بهذا الجمال ولا بهذا القدر من العذاب. ولم استطع، وأنا أفكّر بسائر المناظر التي لاتثير الاهتمام والتي يوشك أن يغمرها الضياء، ولعلّها ماكانت ملأتني البارحة بعدُ إلاّ رغبة في زيارتها، لم أستطع أن أحبس زفرة حينما أقبلت بيضة الشمس الذهبيّة، في حركة تقدمة أُنجزت آليّاً وبدت لي كأنّها ترمز إلى الذبيحة الدامية التي أزمع أن أضحّي فيها بكل مسرّة، وذلك كلّ صباح وحتىّ آخر أيّامي، في احتفال متجدّد يقام في كلّ فجر لحزني اليوميّ وجرحي النازف، وكأنّما قذفها تحطّم التوازن الذي قد يسببّه آنَ التخثر يبدّل في الكثافة، تحوّطها أسلاك شائكة من اللهب على نحو ما في اللوحات، فشقّت بوثبة واحدة الستارة التي كنت تحسّها منذ حين خلفها راعشة متأهّبة لو لوج المسرح والانطلاق، وطمست تحت أفياض من النور أرجوانها الغامض المتحجّر. وسمعتني أبكي. إلاّ أن الباب انفتح في تلك اللحظة خلافاً لأيّ توقّع وبد لي، والقلب منّي خافق، أنّي أبصر جدّتي أما مي وكأنّما في واحد من تلك الظهورات التي سبق أن

وقعت لي، إنّما في أثناء النوم فقط، أفما كان كلّ ذلك إذاً إلاّ محض حلم؟ لكنّي، وأسفي!، مستيقظ تماماً. وقالت أميّ – فإنّها كانت هي– : «ترى أنّي أشبه جدّتك المسكينة»، قالت بلهجة وادعة كما لو تهدّئ من روعي، وهي تقرّ بذاك الشبه على أيّة حال بابتسامة جميلة تنمّ عن اعتزاز متواضع لم يعرف الغنج طريقاً إليه البتة. وإن شعرها المشعّث الذي لم تخفي فيه الخصل المتشيّبة تنساب حول عينيها القلقتين ووجنتيها الذاويتين، ومبذل جدّتي نفسه الذي كانت ترتديه، إنّ ذلك كلّه حال على مدى ثانية دون أن أتعرّفها وجعلني أحار إن كنت نائماً أو كانت جدّتي قد بعثت حيّة. كانت والدتي منذ فترة طويلة أكثر شبهاً بجدّتي منها بالأمّ الفتيّة الضحوك التي آنست طفولتي. ولكنّي مافكّرت من بعد بالأمر. وإنّها لحالنا حينما ظللنا نقرأ فترة طويلة وما تبيّنّا في سهونا أن الوقت يمضي، وفجأة نرى الشمس من حولنا، وهي مدفوعة حتماً إلى المرور بالأطوار نفسها، تذكّر حتّى ليختلط عليك الأمر، بالشمس التي كانت البارحة في الساعة نفسها وتوقظ من حولها التناغمات نفسها وذات التوافقات التي تُعدّ للمغيب. وقد بيّنت لي والدتي توهّمي وهي تبتسم إذ كان يلذّ لها أن تكون على مثل هذا الشبه بأمّها. وقالت لي والدتي: «لقد جئت لأنّه خيلّ لي في نومي أني أسمع أحدهم يبكي» وقد أيقظني ذلك. ولكن كيف يتّفق أنّك لم تنم؟ وعيناك تملؤهما الدموع، فما الخبر؟» وأخذت رأسها بين ذراعيّ: «دونك ياأميّ، أخشى أن تظنّي أنّي شديد التقلّب. فاني بادئ الأمر لم يكن حديثي البارحة إليك عن «ألبيرتين» لطيفاً جداً، فما قلته لك كان ظالماً.» وقالت لي أمي:» ولكن أيّة أهميّة لذلك؟» وإذ رأت الشمس طالعة ابتسمت ابتسامة حزينة وهي تفكّر بأمّها، وكي لاتفوتني ثمرة مشهد كانت جدّتي تأسف أن لا أتأمّله قطّ دلتني على النافذة. ولكنّي كنت أبصر خلف شاطئ «بالبيك» والبحر وطلوع الشمس التي تدلنّي عليها أمّي، وبحركات يائسة ماكانت تفوتها، غرفة «مونجوڤان» حيث اتّخذت «ألبيرتين»، مورّدة متكوّرة كقطّة سمينة ثائرة الأنف، مكان صديقة الآنسة «ڤانتوي» وهي تقول بقهقهات ضحكتها الشهوانيّة: «ويحك! إن رأونا فسوف يطيب الأمر أكثر. لاتخالفني الجرأة، أنا! في أبصق على هذا القرد العجوز؟ »ذلك هو المشهد الذي كنت أراه خلف ذاك الذي يمتدّ في النافذة وماكان سوى حجاب حزين فوق الآخر يعلوه كأنّما انعكاس له. فقد كان يبدو هو الآخر بالفعل غير حقيقيّ تقريباً وكأنّما منظر مرسوم. لقد كان الحرج الصغير قبالتنا في نتوء جرف «پارڤيل» وكنّا لعبنا فيه لعبة «التمرير» (١)، كان يحني في خطّ مائل حتىّ البحر تحت بريق الماء الذي كلّه مُذهب بعدُ لوحةَ خضرة أغصانه كما في الساعة التي كثيراً مانهضنا فيها في آخر النهار، بعدما أكون مضيت إلى هناك لقيلولة مع «ألبيرتين»، ونحن نشهد الشمس تميل على الأفق. وفي فوضى ضباب الليل الذي لايزال يتسحبّ مزقاً ورديّة وزرقاء على المياه التي تزدحم فيها بقايا من الفجر اللؤلئيّ كانت تمرّ مراكب تبتسم للنور المائل الذي يُذْهب شراها وطرف الصاري الأماميّ كحالها حينما تعود في المساء: والمشهد خياليّ راجف مقفر ومحض استذكار للغروب لايرتكز، شأنه في المساء، على تعاقب ساعات النهار التي تعوّدتُ أن أراها تسبقه، وهو سائب مدسوس وأقلّ تماسكاً من صورة «مونجوڤان» المريعة التي ماكان يقوى على إلغائها أو تغطيتها أو اخفائها– والصورة الشاعرية العقيمة للذكرى والحلم. وقالت لي أميّ : «ولكنّك لم تتناولها،

(١) لعبة يجلس فيها اللاعبون في دائرة يمرّرون حاجة من يد إلى يد وعلى من يجلس في وسط الدائرة أن يحزر إلى من صارت.

ويحك، بسوء، فقد قلت لي إنّها تبعث لديك بعض الضيق وانّك مسرور لتخليّك عن فكرة تزوّجها.وما ذلك سبب للبكاء على نحو ماتفعل. فكّر أن أمّك ذاهبة اليوم وسوف يغمّها أن تفارق «ذئبها» الكبير وحاله هذه، ولاسيّما أنّه لايتّسع لي الوقت، ياصغيري المسكين، لأواسيك. صحيح أن حاجاتي جُهِّزت كلّها لكنّما لا يكثر عليك الوقت في يوم سفر.»- ليس الأمر هذا.» حينئذ قلت لأمّي، وأنا أفكّر مليّاً في المستقبل وأزن تماماً مرامي وأدرك أنّه ماكان لمثل وداد «ألبيرتين» هذا لصديقة الآنسة «ڤانتوي» وعلى مدى كلّ هذه الفترة أن يكون بريئاً وأن «ألبيرتين» سبق أن دُرِّبت وأنّها بمقدار ماتكشف عنه حركاتها جميعاً قد ولدت وبها استعداد للشذوذ الذي ماأكثر ما استشعرته عبر صنوف قلقي، ولابدّ أنّها لم تكفّ عن الانصراف إليه في يوم (بل ربّما كانت تنصرف إليه في هذا الوقت مستغلّة فترة قصيرة ما كنت معها في أثنائها)، قلت لها وأنا أعلم الغمّ الذي أخلّفه في نفسها والذي لم تكشف لي عنه ولكنّما يفضحه لديها مظهر الاهتمام الجديّ الذي تبديه حينما تقارن خطورة أن تغمّني أو تلحق بي الأذى، ذاك المظهر الذي اتخذته أوّل مرّة في «كومبريه» حينما سلّمتْ بقضاء الليلة بالقرب منّي، المظهرالذي كان يشبه في هذه اللحظة إلى حدّ مذهل مظهر جدّتي إذ تسمح لي بتناول الكونياك، قلت لأمّي: «أعلم ماسأسبّبه لك من غمّ. بادئ الأمر، وبدلاً من البقاء هنا كما كنتِ تبغين، سوف أرحل في ذات الوقت الذي ترحلين فيه. ولكن ليس في الأمر شيء بعد. ليست أحوالي على مايرام هنا وأفضل العودة. ولكن هيّا أصغي إليّ ولاتغتمّي كثيراً. هاك: لقد خدعت وخدعتك البارحة عن حسن نيّة، لقد فكّرت طوال الليل. لابدّ لي حتماً، ولنقرّر ذلك في الحالِ، لأنّني أتبينّ الأمر تماماً الآن ولأنّني لن أبدّل من بعد ولن أطيق العيش دون ذلك، لابدّ لي حتماً في أن أتزوّج «ألبيرتين». »

المحتويات

الجزء الأول ٧

الجزء الثاني

الفصل الأول ٢٧

الفصل الثاني ١٢٣

الفصل الثالث ٢٥١

الفصل الرابع ٣٣٧

❖

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

- **عبدة الصفر**

الان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

- **مدام بوفاري**

جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد مندور

- **الكلمات**

چان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

- **الأحمر والأسود**

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

- **المكان**

أني إرنو

ترجمة : امينة رشيد
وسيد البحراوي

- **الآثار الشعرية الكاملة**

إديث سودرجران

ترجمة : محمد عفيفى مطر
ومحمد عيد إبراهيم

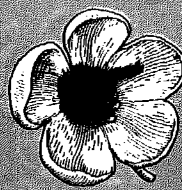
- **چاز**

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

دار شرقيات للنشر و التوزيع

عيون الأدب الأجنبي



2

ترجمة : إلياس بديوي

مارسيل بروست
البحث عن الزمن المفقود



في ظلال ربيع الفتيات

« البحث عن الزمن المفقود »
مغامرة كائن رائع الذكاء ،
مريض الإحساس ، ينطلق
من طفولته في البحث عن
السعادة المطلقة ، فلا يلقاها
في الأسرة ولا في الحب ولا في
العالم . ويرى نفسه منساقاً
إلى البحث عن مطلق خارج
الزمان ، شأن المتصوفين من
الرهبان ، فيلقاه في الفن ، مما
يؤدي إلى اختلاط الرواية
بحياة الروائي ، وإلى انتهاء
الكتاب لحظة يستطيع
الراوي ، بعدما استعاد
الزمان ، أن يبدأ كتابه ؛
فتنقلب بذلك الحيّة الطويلة
على نفسها لتغلق الحلقة
العملاقة .
رواية تقارب المليون كلمة ،
بأشخاص تبلغ المائتين ،
أشبه ما تكون بالتمثال
الروحّي الذي يصُمدُ
كالصخر في وجه العاديات .
إنها مرثاةٌ للدمار الذي
يصنعه الزمن بالأشياء
والناس إن غَفِلَت .

دار شرقيات للنشر والتوزيع

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل پروست

ترجمة: الياس بديوي

A la recherche du temps temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

الجزء الثاني:

في ظلال ربيع الفتيات

A l'ombre des jeunes filles en fleurs

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق - القاهرة.

ت: ٣٩٠٢٩١٣ س . ت: ٢٦٩١٩٨

الغلاف الأخير: الصفحة الأخيرة من مخطوطة هذا

العمل بقلم مارسيل بروست

تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة

رقم الايداع ٣٩٩٨/١٩٩٥

الترقيم الدولي ISBN 977 - 5406 - 59 - 5

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

2

في ظلال ربيع الفتيات

دار شرقيات للنشر والتوزيع

القسم الأول

السيدة سوان

(انعطاف وتغيير في اتجاه الطباع – المركيز "دو

نوربوا" – "بيرغوت" – كيف أكف مؤقتاً عن لقاء "جيلبيرت"

– خطوط الغم الأولية الضئيلة التي يسببها

الانفصال والتطور اللا منتظم للنسيان).

***

لمّا عبرتْ والدتي عن أسفها، حينما دار الحديث حول دعوة السيّد "دو نوربوا" للمرة الأولى إلى العشاء، أن يكون الأستاذ "كوتار" على سفر وأنّها كفّت تماماً بدورها عن التردد على "سوان" إذ ربما استأثر هذا وذاك دونما شك في رأيها باهتمام السفير السابق، أجاب والدي أن مدعوّاً وعالماً طائر الشهرة من أمثال "كوتار" لا يمكن أن يقع موقعاً سيئاً في مأدبة عشاء، ولكنّ "سوان" بعجرفته وطريقته في إعلان أقلّ علاقاته شأناً على رؤوس الأشهاد مهرج مبتذل سوف يجده المركيز "دو نوربوا" دونما شكّ "نتناً" حسب تعبيره. على أنّ جواب والدي يقتضي بضع كلمات إيضاح، فربّما تذكرّ بعض الناس في "كوتار" شخصاً بالغ الضحالة وفي "سوان" شخصاً يبلغ بالتواضع والرصانة أقصى حدود الرقة في دنيا اللياقة. بيد أنّه اتّفق فيما يخص هذا الأخير أن أضاف صديق أهلي القديم إلى شخصيّة "سوان الابن" و"سوان" نادي السبق شخصيّة جديدة (ولا يقدّر أن تكون الأخيرة) هي شخصيّة زوج "أوديت".. فقد جهد في سعيه إلى مواءمة الفطرة والرغبة والمهارة التي امتاز بها على الدوام مع مطامح هذه المرأة المتواضعة أن يبني لنفسه مكانة جديدة أدنى من السابقة بكثير وتناسب رفيقة العمر التي ستشغلها معه، فكان يبدو فيها رجلاً آخر. وبما أنّه (فيما يوالي التردّد بمفرده على أصدقائه الشخصيّين الذين لا يودّ أن يفرض "أوديت" عليهم حينما لا يطلبون تلقائيا التعرّف بها) شرع يعيش حياة جديدة إلى جانب امرأته وسط جماعة جديدة فقد كان لا يزال من الممكن إدراك أن يكون استخدم، في سبيل قياس مرتبة هذه الجماعة وبالتالي متعة الاعتزاز بالذات الذي يمكن أن يحسّ به لدى استقبالها، لا ألمع القوم الذين شكّلوا مجتمعه قبل زواجه بل من سلف من معارف "أوديت" وذلك بمثابة مقارنة على أنه كان من المدهش أن تسمعه، وإن علمتَ أنّه كان يرغب مصادقة موظفين بعيدين عن الأناقة ونساء فاسدات ممن يزينّ حفلات الوزارات الراقصة، أن تسمعه يردّد عالياً أن امرأة نائب رئيس مكتب قد جاءت لزيارة السّيدة "سوان"، وهو من كان فيما مضى وحتّى اليوم يكتم دعوة من "تويكنهام" أو من قصر "بكنغهام" بتلطّف بالغ. و ربّ قائل يقول إن الأمر مردّه أن بساطة "سوان" الأنيق لم تكن سوى صيغة من الغرور أوفر رهافة وإن صديق والدي الأسبق ربّما استطاع، على غرار بعض الإسرائيليين [1] ، أن يعرض على التوالي الحالات المتعاقبة التي مرّ بها بنو جنسه، من أكثر السنوبية سذاجة وأشدّ أنواع النذالة فظاظة إلى أكثر صنوف التأدّب رقّة. ولكنّ السبب الرئيسي، وهو الذي ينطبق على البشرية بعامّة، أنّ فضائلنا نفسها ليست أمراً حراً سائباً نحتفظ منه بجاهزية دائمة، فهي تقترن في نهاية المطاف اقتراناً وثيقاً داخل فكرنا بالأعمال التي رأينا من واجبنا حينما عرَضَتْ أن نمارسها فيها إلى حدّ أنّه إن برز أمامنا فجأة نشاط من صنف آخر فإنّه يأخذنا على حين غرّة ولا تخالجنا حتى فكرة أنّه ربّما تضمّن تحريك تلك الفضائل عينها. وكان "سوان" في عنايته

(١) فضلنا الإبقاء على "إسرائيلي" ،بمعنى يهودي، حسبما وردت في الكتب القديمة.

الشديدة بمعارفه الجدد وفي ذكره لهم باعتزاز كمثل هؤلاء الفنّانين العظام المتواضعين أو الكرماء الذين يبدون ارتياحاً ساذجاً، إن هم انصرفوا فى آخر سني حياتهم إلى شؤون الطبخ أو البستنة، إزاء الثناء الذي يكال لأطباقهم أو لأحواضهم التي لا يقبلون فيها النقد الذي يرتضونه بسهولة إن تناول روائع أعمالهم، أو الذين يعطون إحدى لوحاتهم مقابل لا شيء ولا يسعهم بالمقابل أن يخسروا أربعين فلساً في لعبة "الدومينو" دون أن يتعكّر مزاجهم.

أمّا بشأن الأستاذ: "كوتار" فسوف نعود فنراه لاحقاً لفترة طويلة في منزل سيّدة البيت في قصر "لاراسبلير". يكفينا الآن فيما يخصّه أن نلاحظ ما يلي: يمكن في أسوأ الأحوال أن يدهشنا التغّير بالنسبة إلى "سوان" لأنّه سبق أن وقع ولم أرْتَبْ بأمره حينما كنت أبصر والد "جيلبيرت" في "الشانزيليزيه" حيث لم يكن باستطاعته على أية حال، وهو لا يخاطبني إذ ذاك، أن يباهي أمامي بعلاقاته السياسية (وصحيح أنّي ربّما ما كنت أدركت في الحال، لو فعل، غروره؛ لأنّ الفكرة التي كونّاها لفترة طويلة عن أحد الناس إنّما تغشي العينين وتسدّ الأذنين ؛ ولم تنتبه والدتي للحمرة التي كانت تضعها إحدى بنات أخيها على شفتيها أكثر ممّا تفعل لو كانت مذابة على نحو خفيّ في أحد السوائل إلى اليوم الذي أبرز فيه جزء إضافي أو أي سبب آخر الظاهرة المدعوّة فرط الإشباع، فتبلورت كل الحمرة التي لم تشاهد بعد وأعلنت والدتي إزاء هذا الإفراط المفاجئ في اللون، كما لعلّهم كانوا يفعلون في "كومبريه" أن الأمر مخز؛ وقطعت كل علاقة تقريباً مع ابنة أخيها) أمّا بالنسبة إلى "كوتار" فإن الفترة التي رأيناه يشهد فيها بدايات "سوان" في منزل عائلة "الفيردوران" كانت على العكس بعيدة بعض الشيء، فيما يجيء التكريم وتجيء الألقاب الرسمية مع السنين ثانياً، يمكنك أن تكون جاهلاً وأن تقوم بتلاعب سخيف بالألفاظ وتمتلك موهبة خاصّة لا يمكن لأيّة ثقافة عامّة أن تحلّ محلّها، كموهبة القائد العظيم أو الطبيب السريريّ الكبير. فما كان زملاء "كوتار" يعتبرونه طبيباً ممارساً مغموراً أصبح على مرّ السنين من مشاهير أوروبا فحسب، فقد أعلن أكثر الأطباء الشباب ذكاءً – على مدى بضع سنوات على الأقل، لأنّ العادات تتغّير إذ هي نفسها وليدة الحاجة إلى التغيير – إنهم إن داهمهم المرض ذات يوم فسيكون "كوتار" الأستاذ الوحيد الذي يؤمنّونه على أنفسهم. لقد كانوا يفضّلون دونما شك مخالطة بعض الرؤساء الذين يفوقونه ثقافة وفناً والذين يمكن التحدّث معهم عن "نيتشه" و"فاغنر" فحينما كانت تُقَدّمُ معزوفات موسيقية في منزل السيدة "كوتار" في الأمسيات التي تستقبل فيها زملاء زوجها وتلاميذه وكلّها أمل أن يصبح ذات يوم عميد الكلّية، كان يفضّل أن يلعب الورق في الصالة المجاورة بدل الاستماع. ولكنّهم كانوا يشيدون بنظرته السريعة العميقة السديدة، وكذلك بتشخيصه. وعلينا أن نلاحظ ثالثاً، فيما يخصّ مجمل السلوك الذي يبديه الأستاذ "كوتار" لرجل مثل والدي، أن الطبيعة التي نبرزها في الجزء الثاني من حياتنا ليست على الدوام طبيعتنا الأولى وقد نمت أو ذبلت، تعاظمت أو تقلّصت، وإن كانت في الغالب، فهي أحياناً طبيعة معكوسة ورداء مقلوب بالتمام لقد كان مظهر "كوتار" المتردّد وخجله ولطفه البالغان سبباً لتعليقات ساخرة مستمرة في فترة شبابه، إلا لدى آل "الفيردوران" الذين شغفوا به. فأي صديق محبّ أشار عليه بالمظهر البارد؟ لقد يسّر له خطر مكانته اتخّاذه، فاتخّذ في كل

مكان، باستثناء منزل "الفيردوران" حيث كان يعود فيضحي ذاته بالغريزة، مظهراً بارداً يتعمّد الصمت واللهجة القاطعة حينما ينبغي الكلام ولا يفوته أن يقول أشياء غير مستحبّة. واستطاع تجريب هذا الموقف الجديد أمام زبائن لم يروه بعد ولم يكن بمقدورهم إذن اللجوء إلى المقارنات ولعلهم كانوا سيدهشون لو علموا أنّه ما كان رجلاً من طبعه الخشونة. لقد كان يجهد خصوصاً في بلوغ هدوء الأعصاب وحينما كان يتفوه، حتى في أثناء خدمته في المستشفى، ببعض تلاعباته بالألفاظ التي كانت تضحك الجميع، من رئيس المستشفى إلى أحدث طبيب خارجي، كان يفعل على الدوام دون أن تضطرب عضلة واحدة في وجهه الذي أضحى يصعب التعرّف إليه منذ أن حلق لحيته وشاربيه.

ولنقل في الختام من كان المركيز "دو نوربوا". لقد سبق أن كان وزيراً مطلق الصلاحيات قبل الحرب وسفيراً في الـ ١٦ من أيار وقد كُلّف على الرغم من ذلك عدّة مرّات مذ ذاك، مما أدهش الكثيرين، بتمثيل فرنسه في مهمات فوق العادة – وحتى بمثابة مراقب للدَّيْن في مصر حيث أدّى خدمات جلّى بفضل قدراته المالية الكبيرة – على يد وزارات راديكالية كان يحجم عن خدمتها بورجوازي رجعيّ بسيط وكان لابدّ لماضي السيّد "دو نوربوا" وارتباطاته وآرائه أن تجعله مشبوهاً في نظرها إلا أنّه يبدو أن هؤلاء الوزراء التقدميين كانوا يدركون أنهّم يُبدون بهذا التعيين إلى أيّ اتساع في الفكر يبلغون حالما يدور الأمر حول مصالح فرنسه العليا ويرتفعون فوق أمثالهم من رجال السياسة إذ يستحقّون أن تنعتهم جريدة "الجدال" نفسها بلقب رجل الدولة، ويفيدون أخيراً من المهابة التي تحيط بالاسم الأرستقراطي والاهتمام الذي يثيره اختيار غير متوقع على غرار انقلاب مسرحيّ مفاجئ وكانوا يعلمون كذلك أنهّم يستطيعون بلجوئهم إلى السيّد "دونوربوا" الحصول على هذه المكاسبْ دون أن يخشوا انعدام الولاء السياسي لديه الذي كان ينبغي لطيب محتد المركيز أن يكون ضمانته لديهم لا أن يثير مخاوفهم. وما كانت حكومة الجمهورية مخطئة في الأمر. ذلك لأن بعض الأرستقراطيين بادئ الأمر نُشّئوا منذ الطفولة على احتساب اسمهم بمثابة مكسب داخليّ لا يستطيع أيّ شيء أن ينزعه منهم (ويعرف نظراؤهم أو الذين يمتازون عنهم بطيب المحتد قيمته تمام المعرفة) وهم يعلمون أنهّم يستطيعون أن يُجنبوا أنفسهم الجهود التي يبذلها العديد من البورجوازيين دونما نتيجة لاحقة ذات بال كي لا يجهروا إلا بآراء سديدة ولا يتردّدوا إلا على أناس سليمي التفكير، لأن تلك الجهود لن تكسبهم شيئاً. ولكن هؤلاء الأرستقراطيين يعلمون بالمقابل، في سعيهم الي إعلاء قدرهم في أعين أسر الأمراء أو الدوقة التي يحلّون بعدهل مباشرة، أنهم لا يستطيعون ذلك إلاّ بأن يضيفوا إلى اسمهم ما لم يكن يتضّمنه وما يوفّر لهم الغلبة لدى تساوي الأسماء كالنفوذ السياسيّ والشهرة الأدبية أو الفنّية والثروة العريضة. وما يدّخرون من عناء إزاء من لا خير فيهم من نبلاء الريف الذين يرغب فيهم البورجوازيّون ولا يقرّ الأمير لهم بأية منّة إزاء صداقتهم العقيمة، إنّما يغدقونه على رجال السياسة ولو كانوا ماسونّيين إذ يستطيعون إيصالك إلى السفارات أو رعايتك في الانتخابات، وعلى الفنّانين أو العلماء الذين يسعفك دعمهم على أن "تبرز" في الفرع الذي يسودون فيه، وعلى جميع من يسعهم منح شهرة جديدة أو إنجاح زواج ثريّ.

ولكنّما اتّفق، فيما يخص السيّد "دو نوربوا"، أنّه تشرب على وجه الخصوص، عبر طويل ممارسة للدبلوماسية – تلك الروح السلبيّة الروتينيّة المحافظة المسمّاة "روح الحكم" وهي بالتأكيد

روح جميع الحكومات وبخاصّة روح السفارات في جميع أشكال الحكم. فقد تمّ له أن استقى في الوظيفة كراهية تلك الأساليب الثورية إلى حدّ ما وغير اللائقة على أيّ حال والخشية منها وازدراءها، عنينا أساليب المعارضة ذلك أن ما يقرب، فيما عدا واقع الحال لدى بعض الأمّيين في صفوف الشعب وفي العالم الذين لا يقيمون وزناً للفارق بين الأنواع، إنّما هو قرابة الفكر لا وحدة الآراء. ولعل عضو أكاديميّة من نوع "لوغوفيه" ومن أنصار الكلاسيكيّين كان صفّق بطيبة خاطر لتكريم "فيكتور هوغو" على لسان "ماكسيم دوكان" أو "ميزيير" أكثر مما صفق لتكريم "بوالو" على لسان "كلوديل". كما أن نزعة وطنية واحدة تكفي لتقريب "باريّس" (Barres) من ناخبيه الذين لا يقيمون بالتأكيد فارقاً كبيراً بينه وبين "جورج بيري"، لا من بعض زملائه في الأكاديميّة الذين يحملون آراءه السياسيّة ولكنّهم يتميّزون عنه بنوع من التفكير مغاير فيفضّلون عليه حتى الخصوم من أمثال "ريبو" و"ديشانيل" اللذين يحسّ ملكيّون مخلصون أنّهم بدورهم أقرب بكثير إليهما من "موررّاس" و"ليون دوديه" اللذين يتمنّيان بدورهما مع ذلك عودة الملك. كان السيّد "دو نوربوا" ضنيناً بكلماته لامن جرّاء عادة مهنيّة في الحيطة والتحفّظ فحسب، بل لأنّها إلى ذلك أرفع قيمة ولأنّها تبرز طفيف الفوارق في نظر رجال تجد جهودهم في مدى عشر سنوات لتقريب بلدين خلاصتها وترجمتها – عبر خطاب أو وثيقة – في مجرّد صفة تافهة في ظاهرها ولكنّهم يجدون فيها عالماً قائماً بذاته، ولذلك كانوا يعدّونه شديد الجفاء في اللجنة حيث كان يجلس بالقرب من والدي وحيث كان كلّ منهم يهنئ هذا الأخير للمودّة التي يبديها له السفير السابق. وكانت تدهش والدي أوّل من تدهش، إذ تعود، وهو بعامّة قليل الأنس، أن لا يسعى الناس إليه خارج دائرة المقرّبين إليه وكان يقرّ بذلك ببساطة. وكان يحسّ أنّ في محاولات تقرّب الديبلوماسيّ منه أثراً من وجهة النظر الفردية البحتة تلك التي يتّخذها كل فرد ليقرّر موقع ميوله والتي لن تشفع معها جميع صفات أحد الناس العقليّة أو رقّة مشاعره في نظر واحد منّا يزعجه هذا الرجل أو يضايقه بمثل ما تشفع به الصراحة الفظّة والمرح لدى رجل آخر مع أنه يبدو في نظر العديدين فارغاً مستهتراً خلواً من الكفاءة. لقد دعاني "دو نوربوا" للعشاء ثانية. ذلك غريب والجميع مندهشون لذلك في اللجنة حيث لا تربطه بأيّ منهم علاقات خاصّة. إني واثق أنّه سوف يروي لي أيضاً عن أمور شيقّة حول حرب الـ "٧٠". كان والدي يعلم أنه ربّما سبق للسيّد "دونوربوا" وحده أن حذّر الامبراطور من قوّة "بروسيا" المتعاظمة ومن نواياها الحربيّة وأن "بيسمارك" كان يقدّر ذكاءه تقديراً خاصاً. وقد لاحظت الصحف في الآونة الأخيرة في الأوبرا، وفي أثناء الحفلة التي أقيمت للملك "ثيودوز"، الحديث المطوّل الذي خصّ به العاهل السيّد "دونوربوا" وقال لنا والدي الذي كان شديد الاهتمام بالسياسة الأجنبيّة: "ينبغي أن أعلم إن كانت لزيارة الملك هذه أهميّة حقّة. إني أعرف حق المعرفة أن العمّ "نوربوا" شديد التكتّم، ولكنّه يبوح معي بمكنونات صدره بلطف كبير".

ربمّا لم يتمتّع السفير، فيما يخصّ والدتي، بنوع الذكاء الذي كانت تحسّ أنّه أكثر ما يجتذبها. وأرى لزاماً علي أن أقول إن حديث السيّد "دو نوربوا" كان مجموعة كاملة من أشكال اللغة المتقادمة الخاصّة بمهنة وبطبقة وبحقبة زمنية – حقبة يمكن أن لا تكون انقضت بعد تماماً بالنسبة إلى تلك المهنة وتلك الطبقة – إلى حدّ أنّي آسف أحياناً لأنّي لم أحفظ بالحرف الواحد الأقوال التي

سمعته يتفوّه بها، فلعلّي كنت أحصل على ما يوحي بالتقادم بزهيد الكلفة وبالطريقة ذاتها التي كان يجيب بها ذلك الممثّل في مسرح "القصر الملكي" حينما يسألونه عن المكان الذي يستطيع أن يعثر فيه على قبّعاته المدهشة: "إني لا أعثر على قبّعاتي، بل أحتفظ بها. "وإني أعتقد بوجيز القول أن والدتي كانت تحكم أنّ السيّد "دو نوربوا" من طراز قديم بعض الشيء، الأمر الذي ما كان ليبدو مزعجاً على صعيد السلوك ولكنّه أقلّ إمتاعاً لها في مجال التعابير، إن لم يكن في مجال الأفكار – لأن أفكار السيّد "دو نوربوا" كانت عصريّة جدّاً – على أنها كانت تحسّ أنّه من الإطراء اللطيف لزوجها أن تحدّثه بإعجاب عن الديبلوماسي الذي كان يخصّه باهتمام نادر إلى هذا الحدّ. لقد كانت تدرك، وهي تقوّي في ذهن والدي الفكرة الطيّبة التي يحملها عن السيّد "دو نوربوا" وإذ تقوده بذلك إلى اتخاذ أخرى تماثلها في الطيبة عن نفسه، كانت تدرك أنّها تؤدّي أحد واجباتها الذي قوامه أن تجعل حياة زوجها ممتعة مثلما كانت تفعل حينما تسهر أن يكون الطعام متقناً والخدمة صامتة. ولمّا كانت عاجزة عن الكذب على والدي فقد كانت تدرّب نفسها لتستطيع امتداحه بصدق. كانت على أيّة حال تستسيغ تلقائياً مظهر الطيبة لديه وتأدّبه المتقادم عهْداً إلى حدّ (والمتكلّف حتىّ أنّه حينما كان يبصر والدتي تمرّ في عربتها، وهو يمشي ويرفع قامته العالية، كان يرمي في البعيد سيجاراً لم يكد يبدؤه بعد وذلك قبل أن يسلّم بحركة من قبعّته) وحديثه الشديد الاتّزان حيث كان يتحدّث عن نفسه أقلّ الحديث وينتبه دوماً لما يمكن أن يسرّ محدثّه، ودقته المذهلة في الإجابة على الرسائل إلى حدّ أن أول ما يخطر لوالدي، حينما كان يتعرّف على خطّ السيّد "دو نوربوا" على مغلّف، وقد جاء منذ قليل على تسطير رسالة لهذا الأخير، الاعتقاد بأن رسالتيهما تقاطعتا لسوء الطالع: لكأنمّا كان يتوافر له في البريد دورات إضافية وكمالية لجمع الرسائل. وتدهش والدتي أن يكون دقيقاً إلى هذا الحد مع أنّه كثير المشاغل، ولطيفاً إلى هذا الحدّ مع أنّه مبعثر الاهتمامات إلى حدّ كبير دون أن تفطن إلى أنّ الأداة "مع أنّ" إنمّا هي على الدوام "لأنّ" مجهولة، وأنّها العادات نفسها التي كانت تسمح للسيّد "دو نوربوا" أن ينجز الكثير من المشاغل ويكون منظماً إلى هذا الحدّ في إجاباته. أن يروق الناس في المجتمع ويكون لطيفاً معنا (مثلما يبدو الشيوخ مذهلين بالقياس إلى سنّهم، والملوك يفيضون بساطة، والريفيون على بيّنة من كل شيء). وخطأ والدتي، إلى ذلك، كما هي حال جميع الذين يتّصفون باتّضاع كبير، مردّه أنّها كانت تضع الأمور المتعلّقة بها في مرتبة أدنى من غيرها وبالتالي خارج إطار تلك الأمور الأخرى.
فالجواب الذي حكمت أن صديق والدي كان له فضل كبير في إرساله إلينا على جناح السرعة لأنّه كان يسطّر العديد من الرسائل في اليوم إنمّا كانت تستثنيه من هذا العدد الكبير من الرسائل التي ما كان إلاّ واحداً منها. وهي كذلك لا تحسب أن عشاء في بيتنا إنمّا يؤلّف بالنسبة إلى السيّد "دو نوربوا" واحداً من أفعال في حياته الاجتماعية لا تحصى: فما كان يخطر لها أن السفير تعوّد في الديبلوماسية فيما مضى أن يعتبر تناول طعام العشاء في المدينة جزءً من وظائفه وأن يبدي ظرفاً متأصّلاً لعلّه من المبالغة مطالبته بتركه جانباً لأمر خارق حينما كان يحلّ في بيتنا.

إن العشاء الأوّل الذي تناوله السيّد "دو نوربوا" في بيتنا في سنة كنت لا أزال ألعب فيها في "الشانزيليزيه" لم يبرح ذاكرتي؛ لأن عصر ذلك اليوم كان الفترة التي كنت سأمضي فيها أخيراً

لسماع "لابيرما" في رواية "فيدر" (Phedre) في حفلة العشيّة، ولأنني تبيّنت كذلك فجأة في حديث مع السيّد "دو نوربوا" وعلى نحو جديد إلى أي مدى كانت المشاعر التي يوقظها فيّ كل ما يتعلّق بـ "جيلبيرت سوان" وذويها مختلفة عن تلك التي كانت تثيرها تلك الأسرة نفسها في صدر أيّ شخص آخر.

فليس من شكّ أنّ والدتي قالت لي ذات يوم، لتروحّ عنّي، وقد لاحظت اليأس الذي يبعثه فيّ قرب حلول عطلة رأس السنة وكان ينبغي لي أن لا أرى "جيلبيرت" في أثنائها مثلما أعلمتني بذلك بنفسها: "إن كانت لا تزال بك الرغبة الكبيرة نفسها في سماع "لابيرما" فإني أعتقد أن والدك ربمّاسمح بأن تذهب إلى هناك، وبوسع جدتّك أن تصحبك.".

وإنمّا لم يعد يستبعد والدي، وهو الذي كان يعارض حتى ذاك أن أمضي لتضييع وقتي وربمّا لتحمّل المشقّة من أجل ما كان يدعوه أشياء لا طائل تحتها ويثير بذلك استنكار جدّتي، لم يعد يستبعد احتساب هذه الأمسية التي أوْصى بها السفير وكأنّها جزء تقريباً من مجموعة وصفات ثمينة من أجل النجاح في مهنة لامعة لأنّ السيّد "دو نوربوا" سبق أن قال له إنّه يجدر به السماح لي بسماع "لابيرما" وإن ذلك ذكرى يحسن بشاب أن يحتفظ بها. وكانت جدّتي قد أقدمت على تضحية كبيرة لصالح صحّتي في تخلّيها من أجلي عن الفائدة التي كنت سأجنيها، حسب رأيها، من سماع "لابيرما" فأدهشها أن يضحي هذا الصالح غير ذي بال لكلمة واحدة من السيّد "دو نوربوا". وإذ كانت تعلّق آمالها العقلانية التي لا تقهر على نظام الهواء الطلق والنوم الباكر الذي أوْصيتُ به فقد أخذت تأسف لتلك المخالفة التي كنت أزمع الإقدام عليها وكأنها كارثة وتقول لوالدي بلهجة حزينة: "كم أنت قليل الاهتمام" فيجيب حانقاً: "كيف ذلك، أفأنت الآن من لا يريد أن يذهب! تلك مبالغة، فأنت من كانت تردّد لنا طوال الوقت أنّ الذهاب يمكن أن يأتيه بالفائدة.".

على أن السيّد "دو نوربوا" كان قد بدّل مقاصد والدي في نقطة تفوق تلك أهميّة بالنسبة إليّ. فقد رغب دوماً أن أكون ديبلوماسيّاً وما كنت أطيق فكرة احتمال إيفادي في يوم سفيراً في عواصم لن تسكنها "جيلبيرت" حتى ولو قدّر لي أن ألازم الوزارة بعض الوقت. كنت أفضّل العودة إلى المشروعات الأدبيّة التي سبق أن قرّرتها وعدلت عنها في أثناء نزهاتي في جانب "غير مانت". ولكن والدي عارض باستمرار أن أتّجه إلى مهنة الأدب التي كان يعدّها أدنى من العمل الديبلوماسي بكثير ويرفض لها حتى اسم المهنة إلى اليوم الذي أكّد له فيه السيّد "دو نوربوا" الذي لم يكن يروقه كثيراً ديبلوماسيّو الطبقات الجديدة أنّه يمكن للمرء كاتباً أن يكسب من الاعتبار ويمارس من التأثير بمقدار ما يتم له في السفارات ويحتفظ بقدر من الاستقلال أوفر.

لقد قال لي والدي: "غريب! ما كنت لأصدّق الأمر، "نوربوا" لا يقاوم على الإطلاق فكرة أن تهتم بالأدب". ولما كان يظنّ، وهو نفسه على قدر كاف من النفوذ، أن لا شيء إلا ويمكن تدبيره، إلا ويجد حلاً مناسباً في محادثة ذوي الجاه: "سوف آتي به للعشاء في إحدى الأمسيات لدى خروجنا من اللجنة. وتتحدّث قليلاً إليه كي يستطيع تقديرك. فاكتب شيئاً مناسباً كي يمكنك عرضه

عليه. إنه وثيق الصلات بمدير "مجلة العالَمَين" وسوف يدخلك فيها ويتولى الأمر فهو كبير الحيلة. يميناً، إنّه يحد الديبلوماسية اليوم، فيما يبدو ا..".

كانت السعادة التي كنت أتوقّعها من أن لا أنفصل عن "جيلبيرت" تشيع فيّ الرغبة لا القدرة على كتابة شيء حلو يمكن عرضه على السيّد "دو نوربوا". فبعد بضع جمل تمهيدية، ولمّا أسقط الضجر القلم من يديّ، أخذت أبكي حنقاً وأنا أفكّر أنّه لن تكتب لي الموهبة في يوم وأنني لم أكن موهوباً ولن يسعني حتى الإفادة من الفرصة التي كان يوفّرها لي مجيء السيّد "دونوربوا" القريب في أن أظلّ دوماً في باريس. وما كان يفرّج عنّي غمّي سوى أنّهم سيسمحون لي بالذهاب لسماع "لابيرما". ولكن مثلما لم أكن أتمنّى رؤية العواصف إلاّ على الشواطئ التي هي فيها أكثر ما تكون عنفاً، كذلك ما كنت أريد سماع الممثلة الكبيرة إلاّ في واحد من تلك الأدوار الكلاسيكيّة التي قال لي "سوان" إنّها تبلغ فيها حدّ الروعة. ذلك أننا حينما نرغب في الحصول على بعض انطباعات عن الطبيعة أو الفنّ مؤمّلين بذلك كشفاً ثميناً فإنمّا تساورنا بعض الخشية أن ندع لنفسنا أن تستقبل عوضاً عنها انطباعات أقلّ شأناً يمكن أن تخدعنا فيما يخصّ قيمة "الجمال" الحقيقيّة. فأدوار "لابيرما" في مسرحيات "أندروماك" و"نزوات ماريان" و"فيدر"(١) إنمّا هي من تلك الأمور المرموقة التي طالما اشتهاها خيالي. ولسوف أبلغ النشوة نفسها التي أبلغها يوم تحملني "الغندول" أمام أعمال "تيتسيانو" في "فراري" أو أعمال "كارباتشيو" في "سان جورجيو" في مدينة "شافوني" إن سمعت في يوم "لابيرما" تنشد هذه الأبيات:

"يقولون إن رحيلاً مباغتاً يذهب بك بعيداً عنّا

يا سيّدي .."

كنت أعرفها عن طريق مجرّد النسخ باللونين الأسود والأبيض الذي تزوّدنا بها النشرات المطبوعة، ولكن فؤادي كان يخفق حينما أفكر، وكأنّما في رحلة تحقّقت، أنني سأراها أخيراً يغمرها جوّ الصوت المذهب ودفئه إنّ عملاً لـ "كارباتشيو" في البندقيّة و"لابيرما" في مسرحيّة "فيدر" يمثّلان روائع في فنّ الرسم أو المسرح تجعلها الشهرة التي تلازمها حيّة في صدري، أي لا ينفصل بعضها عن الآخر، إلى حدّ أنّي لو ذهبت لمشاهدة أعمال لِـ "كارباتشيو" في إحدى قاعات متحف "اللوفر" أو "لابيرما" في مسرحية لم أسمع عنها ألبتّة لما أحسست من بعد بالدهشة اللذيذة نفسها لأن تنفتح عيناي أخيراً على الموضوع الفريد الذي لا يمكن تصوّره، موضوع الآلاف العديدة من أحلامي. ولما كنت أنتظر من تمثيل "لابيرما" أن يكشف لي عن بعض مظاهر النبل والعذاب فقد كان يبدو لي أنّه لابد لما في ذلك التمثيل من عظمة وواقعيّة أن يزداد إن قرنته الممثّلة بعمل فني ذي قيمة حقيقية بدلاً من أن تنسج خيوط الحقيقة والجمال على لحمة ضحلة تافهة.

---

(١) Phedre, Les Caprices de Marianne, Andromaque

وأخيراً لو ذهبت لسماع "لابيرما" في مسرحية جديدة فلن يسهل عليّ الحكم على فنّها وإلقائها؛ لأنني لن أستطيع التمييز بين نصّ لا أعرفه سلفاً وما تضفيه إليه نبرات وحركات ربّما بدت لي وكأنّها ملتصقة به، في حين تبدو لي المؤلفات القديمة التي كنت أحفظها عن ظهر قلب وكأنها مساحات واسعة محفوظة وجاهزة أستطيع أن أقدّر فيها بملء الحرّية الابتكارات التي تمدّها "لابيرما" فوقها كمثل لوحة جداريّة تزدهي بلقيات إلهامها المستمرّة. إلاّ أنّها لم تعد تمثّل لسوء الحظّ مسرحيات كلاسيكيّة منذ سنوات عدّة تركت خلالها المسارح الكبرى وأصبحت مصدر ثراء لأحد مسارح الأحياء الذي أصبحت نجمته، وعبثاً كنت أبحث في الإعلانات فلا تنبئني إلاّ عن مسرحيات حديثة تماماً وضعها لها خصيّصاً مؤلّفون ذاع صيتهم، حينما أبصرت ذات صباح للمرّة الأولى، وأنا أبحث في عمود إعلانات المسارح عن حفلات ما بعد الظهر في أسبوع رأس السنة – في نهاية الحفلة وبعد افتتاحية غير ذات بال على الأرجح بدا لي عنوانها عاتماً لأنه كان يتضمّن كلّ خصائص الوقائع التي كنت أجهلها – فصلين من مسرحيّة "فيدر" مع السيّدة "لابيرما"، وفي حفلات بعد الظهر التالية "دنيا الرخيصات" و"نزوات ماريان"، وهما اسمان شفّافان بالنسبة إلي، كما هي حال "فيدر"، لا يملؤهما سوى الضياء لشدة ما كانت المؤلّفات معروفة لديّ وتشرق فيهما حتى الأعماق ابتسامة فنّية. وبدت لي جميعها وكأنّها تضفي نبلاً على السيّدة "لابيرما" نفسها حينما قرأتُ في الصحف بعد برنامج هذه المشاهدة أنّها هي التي قرّرت أن تظهر مرّة أخرى أمام الجمهور في بعض أدوارها القديمة. لقد كانت الفنّانة تعلم إذن أن لبعض الأدوار أهميّة تظلّ باقية بعد ميزة الجدّة في ظهورها أو بعد إعادة الكرّة فيها بنجاح. لقد كانت تعتبرها، وقد قامت هي بتمثيلها، بمثابة روائع متحفّية يبدو من المفيد عرضها مجدّداً أمام الجيل الذي أعجب بها أو الجيل الذي لم يتسنّ له أن يراها فيها. وحينما كانت تضع على هذا النحو. وسط مسرحيات معدّة لتمضية وقت السهرة فحسب، إعلاناً عن مسرحيّة "فيدر" التي لم يكن عنوانها أطول من العناوين الأخرى ولاخُطّ بحروف مختلفة فإنمّا كانت تضيف إليه ما يشبه المقصد الخفّي لربّة بيت تقول لك، وهي تقدّمك لمدعوّيها ساعة التوجّه إلى المائدة، تقول لك وسط أسماء مدعوّين هم مجرد مدعوّين وباللهجة نفسها التي ذكرت بها الآخرين: السيّد "أناتول فرانس".

وأشار الطبيب الذي كان يعالجني – ذاك الذي حظر عليّ القيام بأيّة رحلة – أشار على والدي بمنعي من الذهاب إلى المسرح، فسوف أعود منه مريضاً، وربمّا لفترة طويلة، وأجني في نهاية المطاف من العذاب أكثر ممّا أجني من المتعة. ولعل تلك المخاوف كانت تستطيع ردعي لو أن ما كنت أنتظره من مثل ذلك العرض كان محض متعة يمكن لأيّ ألم لاحق أن يبطلها بطريق التعويض. غير أن ما كنت أبغيه من حفلة العشيّة تلك – كمثل الرحلة إلى "بالبيك" والرحلة إلى "البندقّية" اللتين كثيراً ما اشتهيتهما – إنمّا كان غير المتعة تماماً: حقائق تعود لعالم أكثر حقيقة من ذلك الذي كنت أعيش فيه ولا يمكن لحوادث عارضة في حياتي التافهة أن تنزعها منّي بعد أن يتمّ لي إحرازها ولو كانت تلك الحوادث أليمة في جسدي. وأكثر ما هنالك أن المتعة التي سأجنيها في أثناء العرض كانت تبدو لي بمثابة الشكل الضروري ربمّا لإدراك تلك الحقائق، وكان ذلك كافياً لأتمنى أن لا

تبدأ الانحرافات الصحيّة المتوقعّة إلاّ بعد انتهاء العرض كي لا تعرضه للخطر ولا تزيّفه. وكنت أتوسل إلى والديّ اللذين أصبحا لا يريدان السماح لي من بعد بالذهاب إلى مسرحيّة "فيدر" منذ زيارة الطبيب. كنت أنشد لنفسي دون توقّف المقطع التالي:

"يقولون إن رحيلاً مباغتاً يذهب بك بعيداً عنّا .."

وأنا أبحث عن جميع الألوان الصوتية التي يمكن أن تُزَجَّ فيه كي أفلح أكثر في العثور على اللا متوقّع في اللون الذي ستلقاه "لابيرما". وكان الجمال الإلهي الذي يختفي كقدس الأقداس تحت الستار الذي يحجبه عنّي والذي كنت أضفي عليه في كلّ لحظة وجهاً جديداً حسبما يرد إلى فكري من كلمات "بيرغوت" – في الكرّاس الذي عثرت عليه "جيلبيرت" – : "فالسموّ في التشكيل، والمسْح المسيحي، وشحوب النسّاك، وأميرة "تريزين" و"كليف"، والدراما الميسينية (*) "، ورمز "ذلفي"، والأسطورة الشمسيّة"، كان الجمال الإلهي الذي سيكشف لي عنه تمثيل "لابيرما" يتربّع ليل نهار على مذبح مضاء باستمرار في أقصى زاوية من فكري، فكري الذي كان يزمع والداي القاسيان والسطحيان أن يقرّرا إن كان سيحتبس إلى الأبد، أو لا يحتبس، مزايا الإلهة التي تجلّت في هذا المكان بالذات الذي كانت تنتصب فيه صورتها اللامرئيّة. وكنت أناضل من الصباح إلى المساء ضد الحواجز التي ترفعها أسرتي في وجهي، وعيناي مشدودتان إلى الصورة التي لا يمكن تصوّرها. ولكن حينما تهاوت تلك الحواجز وحينما قالت لي أمّي – مع أن تلك الحفلة كانت واقعة بالضبط عشيّة يوم جلسة اللجنة التي كان يزمع والدي بعدها اصطحاب السيّد "دونوربوا" للعشاء – : أرأيت؟ إنّنا لا نريد لك أن تغتم، فإن ظننت أنك ستجني من ذلك هذا القدر من المتعة كان عليك أن تذهب، وحينما أنيط بي وحدي أمر يوم المسرح ذلك، وكان حتى ذاك محظوراً، حينئذ سألت نفسي للمرّة الأولى إن كان ذلك محبّذاً. إذ لم يعد عليّ أن أهتمّ بألا يظلّ الأمر مستحيلاً، وإن لم يكن لأسباب أخرى غير منع والدي أن تضطرّني إلى العدول عنه. فبعدما كرهت بادئ الأمر قسوتهما جَعَلْتهما موافقتهما عزيزين لديّ إلى حدّ أنّ فكرة بعث الغمّ في صدريهما أخذت تسبّب لي بدوري غمّاً لم تعد تبدو لي الحياة من خلاله وكأن هدفها الحقيقة بل الحنان، ولم تعد تبدو لي خيّرة أو مشؤومة إلاّ حسبما يكون أهلي سعداء أو تعساء. وقلت لأمي: "أفضّل ألاّ أذهب إن انبغى أن تغتمّي لذلك، فكانت تجهد على العكس أن تنزع منّي ما يخطر لي من أنّه يمكن أن تغتمّ لذلك، والخاطر، فيما تقول، إنّما سيخرّب ما أصيب من متعة في مسرحيّة "فيدر"، الأمر الذي حدا بها وبأبي أن يتراجعا عن حظرهما. ولكن هذا النوع من الالتزام بالاستمتاع بدا لي عبئاً ثقيلاً. ثم إني إن عدت مريضاً فهل أتعافى سريعاً بما يتيح لي الذهاب إلى "الشانزيليزيه" بعد انتهاء العطلة وحالما تعود "جيلبيرت" إلى هناك؟ كنت أضع مقابل جميع تلك الأسباب فكرة كمال "لابيرما" المستترة خلف حجابها كيما أقرّر لأيّها تكون الغلبة، فأجعل في إحدى كفّتي الميزان "الشعور بأن والدتي حزينة واحتمال أن لا أستطيع الذهاب إلى "الشانزيليزيه"، وفي الثانية "شحوب النسّاك والأسطورة الشمسيّة" ؛ على أن هذه الكلمات نفسها كانت تظلم في النهاية داخل

(*)نسبة إلى الفن الذي نشأ في الألف الثاني قبل الميلاد والذي كانت مدينة "ميسين" (Mycenes) من أهم مراكره.

فكري فلا تعني لي شيئاً من بعد وتفقد كلّ وزن لها.

وأضحت حيرتي تؤلمني شيئاً فشيئاً إلى حدّ أنني إن كنت أختار المسرح الآن فما ذلك إلاّ لأضع حدّاً لها ولأنجو منها دفعة واحدة ؛ وكنت أسمح، لا بأمل الحصول من بعد على مكسب فكريّ ولا انقياداً لجاذب الكمال، بل لأقصّر من عذابي، بأن أساق، لا أمام الإلهة الحكيمة، بل أمام الإلهة القاسية التي لا وجه لها ولا اسم والتي أُحِلّتْ خفية محلّها خلف حجابها. إلاّ أن كلّ شيء تبدّل فجأة وأضاف إلى رغبتي في الذهاب لسماع "لابيرما" حافزاً جديداً مكّنني من انتظار حفلة تلك العشية في جوّ من نفاد الصبر والسرور: فقد أبصرت، بعدما ذهبت لأقوم بوقفتي "العمودية"(١) اليومية، وقد أضحت منذ قليل مؤلمة جدّاً، أبصرت الإعلان المفصّل عن مسرحيّة "فيدر" وقد ألصق للمرة الأولى منذ وقت يسير، ولا يزال رطباً بعد، (على أنّ باقي التفصيل لم يجتني، والحق يقال، بأي إغراء جديد يستطيع أن يقنعني). ولكنه كان يضفي على أحد الأهداف التي كان يترجّح تردّدي بينها شكلاً أكثر حقيقة وتقرب أن تكون فوريّة وفي طور التحقيق – بما أن الإعلان كان يحمل لا تاريخ اليوم الذي كنت فيه، بل تاريخ اليوم الذي سيتمّ فيه رفع الستار – إلى حدّ أني طفقت أقفز فرحاً أمام العمود وأنا أفكر أنّني في ذلك اليوم وفي تلك الساعة بالضبط سأكون جاهزاً لسماع "لابيرما" وأنا جالس في مكاني. ومخافة أن لا يتّسع الوقت من بعد لوالديّ للعثور على مقعدين مناسبين لجدّتي ولي اجتزت المسافة حتى البيت بقفزة واحدة وقد لسعتني الكلمات السحرية التي حلّت في خاطري محلّ "شحوب النسّاك" و"الأسطورة الشمسيّة": "يمنع دخول السيّدات إلى الصالة بالقبعّات ؛ تغلق الأبواب في الساعة الثانية.".

ولكن حفلة بعد الظهر الأولى تلك كانت خيبة أمل كبيرة. فقد عرض والدي أن يوصلني وجدّتي إلى المسرح وهو في طريقه إلى "لجنته". وقال لوالدتي قبلما يغادر البيت: حاولي إعداد عشاء طيّب ؛ أتذكرين أنّني أصطحب "دونوربوا"؟ وما نسيت والدتي. وظلت "فرنسواز" منذ عشية ذلك اليوم سعيدة أن تنصرف إلى فنّ الطهو الذي كانت تتمتع فيه بموهبة أكيدة، يحفزها على أيّة حال الإعلان عن موعوّ جديد فيما تعلم أنه يقع عليها أن تركب لحماً بالمرق المجمّد وفق طرائق تُلم بها وحدها، فكانت تعيش في حمّى الإبداع. ولما كانت تولي الجودة الذاتية للموادّ المزمع إدخالها في صناعة عملها الفنّي أهمية عظيمة كانت تذهب بنفسها إلى سوق الهال لتوافي بأجود أنواع "الرومستيك" وقطع عرقوب الثور ومقادم العجل، كمثل "ميكيل أنجلو" يقضي ثمانية شهور في جبال "كارارية" في انتقاء أجود كتل المرمر لضريح البابا "يوليوس الثاني". وكانت "فرانسواز" تنفق في جيئتها ورواحها قدرا من النشاط خشيت معه أمّي، وهي تبصر وجهها الملتهب، أن يداهم المرض خادمتنا العجوز من شدة الإرهاق مثل صانع ضريح آل "ميديتشي" في مقالع "بيتراسانتا". ومنذ عشية ذلك اليوم بعثت "فرانسواز" تشوي في فرن الخباز ما كانت تسمّيه فخذ خنزير "نيفيورك" وقد غلّفته بلبّ الخبز كأنه

(١) تذكرة الصفة بسمعان العمودي الذي أمضى جزءً من حياته متعبداً على عمود، وله كنيسة أقيمت على اسمه بالقرب من مدينة حلب وتعرف سمعان. (المترجم)

المرمر الورديّ. ولمّا كانت تظن اللغة أقلّ غنى مما هي وأذنيها على قدر قليل من الأمانة فلا شك أنها اعتقدت أوّل ما سمعت عن لحم خنزير "يورك" – وقد وجدت من الإسراف غير المعقول في الألفاظ أن يكون ثمة كلا اللفظتين "يورك" و"نيويورك" – إنها سمعت خطأً وأنّ المقصود بالقول هو الاسم الذي سبقت لها معرفته. ولذلك كانت لفظته "يورك" مذ ذاك مسبوقة داخل أذنيها، أو أمام عينيها إن هي قرأت إعلاناً، بلفظة "نيو" التي تقولها "نيف". وكانت تقول لخادمة المطبخ بحسن نيّة لا يفوقها أيّ شيء في العالم: "جيئيني بفخذ خنزير من مخزن "أليدا" ؛ وقد أوصتني سيّدتي وشدّدت أن يكون من صنف "نيفورك". ولئن اتفق لِ "فرانسواز" في ذلك اليوم يقين المبدعين العظام اللاهب فقد كان نصيبي اضطراب الباحث المرّ. وليس من شك أنّني أحسست بالمتعة مادمت لم أسمع "لابيرما". لقد أحسست بشيء منها في الحديقة الصغيرة التي قبل المسرح والتي ستلتمع أشجار الكستناء العارية فيها التماعات معدنية بعد ساعتين ما إن تنير مصابيح الغاز المضاءة تفاصيل أغصانها. وتمّ لي ذلك أمام مستخدمي المراقبة، وكان اختيارهم وترفيعهم ومصيرهم رهن إشارة الفنّانة الكبيرة – وكانت تنفرد وحدها بالسلطة في هذه الدائرة التي يتعاقب على رأسها مدراء عابرون، محض أسماء مجهولة – وقد أخذوا بطاقتينا دون أن ينظروا إلينا فقد أقلقهم أن يعلموا إن كانت جميع أوامر السيّدة "لابيرما" قد أحسن نقلها إلى المستخدمين الجدد وإن كان واضحاً أنّ المصفّقين المأجورين ينبغي ألا يصفقوا ألبتّة لها وأنه يجب أن تظل النوافذ مفتوحة ما دامت لم تعتلِ بعدُ خشبة المسرح وأن يغلق أقلّ باب بعد ذلك وأن يوازَى إناء من الماء الساخن بالقرب منها ليتساقط فيه غبار خشبة المسرح. ذلك أن عربتها التي يجرها حصانان كثيفا العرفين سوف تتوقف بعد لحظة أمام المسرح فتنزل منها تلتفّ بفرائها ثم ترد التحيّات بإشارة متجهّمة وتبعث إحدى وصيفاتها تستعلم عن الحجرة الأمامية التي حجزت لأصدقائها، وعن حرارة القاعة، وعن تركيب المقصورات، وعن لباس العاملات، فالمسرح والجمهور بالنسبة إليها ثوب ثان فحسب يحيط بالأوّل والوسط الناقل الجيّد أو الأقلّ جودة الذي ينبغي أن تجتازه موهبتها. وكنت سعيداً كذلك في القاعة نفسها ؛ فمنذ أن عرفت أن ليست ثمّة – بعكس ما صوّرته لي تخيّلات الطفولة لفترة طويلة – سوى خشبة مسرح واحدة لجميع الناس كنت أظنّ أنّه لا بدّ أن يحول المشاهدون الآخرون دون أن يرى المرء رؤية جيّدة، كما هو الأمر وسط جمهور ما. إلا أنه تبيّن لي على العكس أنّ كل واحد يظنّ نفسه مركز المسرح بفضل ترتيب هو بمثابة رمز لكلّ إدراك حسّي، الأمر الذي أوضح لي كيف أنّ "فرانسواز" أكدت ذات مرة لدى عودتها، وكانوا قد أرسلوها لحضور ميلو دراما في الأروقة الثالثة، أنّ مقعدها كان أفضل المقاعد التي يمكن الحصول عليها، وعوضاً عن أن تجد نفسها بعيدة جداً، شعرت أنها خائفة من جرّاء قرب الستارة الخفيّ الذي ينبض بالحياة. وقد تعاظمت متعتي أيضاً حينما بدأت أميز خلف هذه الستارة المرخاة ضجّة مبهمة، كالتي تسمعها تحت قشرة البيضة حينما يزمع اللصوص الخروج، والتي كبرت بعد قليل وفجأة وجهت إلينا، بما لا يقبل الشك، من ذلك العالم الذي لا تنفذ إليه ألحاظنا والذي كان يبصرنا بلحظه، وذلك على شكل ثلاث ضربات آمرة مؤثّرة كمثل إشارات جاءت من كوكب المريخ سواء بسواء. وبعدما تمّ رفع الستار، وحينما دلّت طاولة للكتابة وموقد، وهما عاديّان تماماً على أيّة حال، أن الأشخاص الذين

يزمعون الدخول لن يكونوا ممثّلين جاؤوا لينشدوا مثلما رأيت ذات مرة في إحدى الأمسيات، بل أناس يعيشون في منازلهم يوماً في حياتهم التي كنت ألج فيها عنوة دون أن يتمكنوا من رؤيتي، ظلّت متعتي آخذة في الاستمرار. ولكنها انقطعت من جراء اضطراب قصير: فقد دخل إلى المسرح رجلان. لحظة كنت بالضبط أصيخ السمع قبل أن تبدأ المسرحية، وكانا في غضب شديد إذ كانا يتحدثان بصوت عالٍ إلى حدّ يتمّ تمييز جميع أقوالهما في تلك القاعة التي احتشد فيها أكثر من ألف شخص في حين تضطر في مقهى صغير أن تسأل النادل عمّا يقوله شخصان يتشاجران. ولكنني أدركت في اللحظة نفسها، وقد أدهشني أن أرى الجمهور يصغي إليهما دونما احتجاج يغمره صمت شامل جاءت تخفق بعد قليل على صفحته ضحكة ههنا وأخرى هناك، أدركت أنّ هذين الوقحين من الممثّلين وأنّ المسرحية الصغيرة المدعوّة بتمثيلية الافتتاح قد بدأت منذ قليل. وتلتها استراحة طويلة إلى حدّ أن المشاهدين الذين عادوا إلى مقاعدهم أخذوا يفقدون الصبر ويضربون بأقدامهم. وتملكّني الرعب لذلك ؛ فمثلما كنت أخشى دوماً، حينما كنت أقرأ في محضر إحدى الدعاوى أنّ رجلاً نبيل القلب يزمع الحضور، غير آبه بمصالحه، للشهادة في صالح أحد الأبرياء، أن لا يحاط بقدر كاف من اللطف وأن لا يُقَرَّ بفضله إلى حدّ كافٍ ولا يُكافأ بجزيل العطاء فيقف إلى جانب الظلم بعد ما اشتد به القرف، كذلك كنت أخاف، وأماثل في ذلك بين النبوغ والفضيلة، أن تقدم "لابيرما"، وقد أغضبها سوء التصرف لدى جمهور قليل التهذيب إلى هذا الحدّ – وددت على العكس لو تستطيع أن تتبين فيه مشروحة الصدر بعض المشاهير الذين ربمّا أولت رأيهم أهمية على الإعراب عن استيائها وازدرائها بإساءة التمثيل. فكنت أنظر بتوسل إلى تلك البهائم الصاخبة التي توشك أن تحطم في جنونها الانطباع الهش والثمين الذي جئت أبحث عنه. وأخيراً كانت آخر لحظات متعتي في أثناء المشاهد الأولى لمسرحية "فيدر". إنّ شخص "فيدر" لا يظهر في بداية الفصل الثاني، ومع ذلك ما إن رفع الستار وانزاح ستار ثان من مخمل أحمر كان يضاعف من عمق خشبة المسرح في سائر المسرحيات التي تمثل فيها النجمةُ حتى دخلت ممثلة من الخلف تتمتع بالوجه والصوت اللذين قالوا هما لـ "لابيرما". لابدّ أنّهم بدّلوا في التوزيع وأصبح كلّ الاهتمام الذي بذلته لدراسة دور امرأة "ثيسيوس" غير ذي جدوى. ولكن ممثّلة ثانية ردّت على الأولى. لابدّ أنني أخطأت إذ ظننت تلك "لابيرما" لأن الثانية كانت أكثر شبهاً بها واستقام لها أكثر من الأخرى إلقاؤها. وكانت الاثنتان على أية حال تضيفان إلى الدور حركات ملؤها النبل – وكنت أميزها بوضوح وأدرك علاقتها بالنّص، فيما هما ترفعان رداءهما الجميل – ونبرات بارعة تهزّها الحماسة تارة والسخرية طوراً وتفهمني مدلول بيت من الشعر سبق أن قرأته في المنزل دون أن أولي ما يرمي إليه اهتماماً كافياً. بيد أن امرأة ظهرت فجأة في تباعد ستار المعبد الأحمر وكأنمّا داخل إطار، وأدركت في الحال، للخشية التي تملّكتني، وهي أشدّ قلقاً مما كان يمكن أن تكون عليه خشية "لابيرما"، من أن يتمّ إزعاجها بفتح نافذة وأن تفسد نبرة إحدى كلماتها من جراء العبث بورقة برنامج وأن تتكدّر من جرّاء التصفيق لزملائها وعدم التصفيق كافياً ؛ ولطريقتي، وهي أشدّ إطلاقاً من طريقة "لابيرما" نفسها، في احتساب القاعة والجمهور والممثلين والمسرحية منذ تلك اللحظة محض وسطٍ صوتي لا أهميّة له إلا بمقدار ما يلائم نبرات ذلك الصوت، أدركت أن الممثلتين اللتين

أعجبت بهما منذ بضع دقائق لا تملكان أي وجه شبه مع التي جئت لسماعها. إلاّ أن متعتي توقّفت بكلّيتها في الوقت نفسه، فعبثاً كنت أشدّ نحو "لابيرما" عينيّ وأذنيّ وعقلي كي لا تفلت ذرّة ممّا قد توفّر لي من أسباب الإعجاب بها فلا أتمكّن من جمع سبب واحد منها. ولا أستطيع حتىّ أن أميّز في إلقائها وتمثيلها، كما هو الأمر بالنسبة إلى زملائها، نبرات ذكيّة وحركات جميلة. فقد كنت أصغي إليها كما لعلّني كنت أقرأ "فيدر" أو كأنمّا تقول "فيدر" بنفسها في تلك اللحظة الأشياء التي أسمعها دون أن يبدو أنّ موهبة "لابيرما" قد أضافت إليها شيئاً. وددت لو أوقف، لو أجمّد لفترة طويلة أمامي كل نبرة صوت للفنّانة وكلّ تعبير على محيّاها - لأتمكّن من تعميقهما وأحاول أن ألقي فيهما ما كان بهما من أمر جميل - كنت أحاول على الأقلّ، بفرط رشاقة الذهن وبالإمساك بانتباهي جاهزاً بالتمام واضح الصورة، أن لا أصرف في شؤون الاستعداد ذرّة من فترة دوام كلّ كلمة وكلّ حركة وأن أتمكّن بفضل شدّة انتباهي من الغوص فيهما بمقدار ما كان يتيسر لي من عمق لو تسنّى لي في ذلك ساعات طويلة. ولكن ما أقصر ما كانت المدّة!

فما إن يصل صوت إلى أذني حتىّ يحلّ آخر محلّه. وفي مشهد تظلُّ فيه "لابيرما" ثابتة مقدار لحظة وذراعها مرفوعة إلى مستوى وجهها، يغمرها نور ضارب إلى الخضرة بفضل خدعة ضوئية، أمام منظر يمثّل البحر دوّت القاعة بالتصفيق، ولكن سرعان ما غيرّت الممثّلة مكانها وزالت اللوحة التي كنت أبغي دراستها. وقلت لجدّتي إنّي لا أرى بوضوح فمدّت لي منظارها. إلا أنّك حينما تؤمن بحقيقة الأشياء فإن اللجوء إلى وسيلة اصطناعية تستطيع بها أن تراها لا يعادل بالتمام شعورك بأنّك بالقرب منها. كنت أظنّ أنّ ما أراه لم يعد "لابيرما" بل صورتها في الزجاج المكبر. ووضعت المنظار جانباً، ولكن ربمّا لم تكن الصورة التي تستقبلها عيني، وقد قلّصها البعد، أكثر صحّة فأيّة من شخصيتي "لابيرما" كانت الحقّة؟ أمّا فيما يخصّ البوح بحبّ "هيبوليت" فقد علّقت أهميّة كبيرة على تلك المقطوعة التي سيتفّق لها فيها بالتأكيد نبرات أكثر إدهاشاً من تلك التي حاولت تخيّلها في المنزل أثناء القراءة، وذلك قياساً على المعاني البارّعة التي كان يكشف لي زملاؤها عنها في كلّ لحظة في أجزاء أقلّ جمالاً. ولكنها لم تبلغ حتى النبرات التي ربما وجدتها "أونون" أو "أريسي"، فقد أمرّت في مملسة الإنشاد الترتيب كامل المقطع الذي اختلطت فيه صنوف تعارض متمايزة إلى حدّ أن، ممثلة هيّنة الذكاء وحتى تلامذة تجهيز ما كانوا ليغفلوا أثرها. وقد ألقتها على أية حال إلقاء سريعاً إلى حدّ أنّ فكري لم يع الرتابة المقصودة التي فرضها على الأبيات الأولى إلاّ حينما بلغت البيت الأخير.

وأخيراً تفجر أوّل شعور لي بالإعجاب: لقد بعثه تصفيق المشاهدين الحادّ الذي ضممت إليه تصفيقي وأنا أحاول الإطالة فيه حتى تتفوق "لابيرما" على ذاتها إقراراً بالجميل فأتأكّد أنّني سمعتها في أحد أفضل أيّامها. على أن الغريب في الأمر هو أن اللحظة التي ثارت فيها حماسة الجمهور كانت تلك، وهو ما علمته بعد ذاك، التي حظيت فيها "لابيرما" بأفضل لُقية لها. فبعض الحقائق المتعالية فيما يبدو تبعث من حولها أشعة يحسّ بها الجمهور من ذلك مثلاً أنه حينما يقع حدث ما، حينما يحدث الخطر بجيش على الحدود أو تحل به الهزيمة أو ينتصر فإن الأخبار الغامضة التي تردنا

والتي لا يستطيع الرجل المثقف استخلاص الكثير منها إنما تبعث في نفس الجمهور انفعالاً يذهله ويتعرف فيه، بعدما يحيطه الخبراء علماً بحقيقة الوضع العسكري، إدراك الشعب لهذه "الهالة" التي تحيط بالأحداث الكبرى والتي تمكن مشاهدتها على بعد مئات الكيلو مترات. ويأتينا نبأ النصر إمّا بعد الأوان حينما تنتهي الحرب وإما في الحال بفضل ابتهاج البواب. ونكتشف لمحة عبقرية في تمثيل "لابيرما" بعد سماعها بثمانية أيام عن طريق النقاد، أو في الحال بفضل الهتافات في القاعة، ولما كانت معرفة الجمهور المباشرة تلك إنّما تختلط بمئة غيرها مضلّلة جميعها فقد كان يتعالى آلياً يدفعه التصفيق الذي سبقه كما هو الأمر في العاصفة إذ يوالي البحر هياجه، بعدما اضطرب موجه اضطراباً كافياً، وإن لم تشتدّ الريح من بعد. ومهما يكن من أمر فقد كان يبدو لي كلما زدت تصفيقاً أن "لابيرما" أفضل تمثيلاً. "هذه تعطي من نفسها على الأقل"، وتقول إلى جانبي امرأة أقرب إلى العامة، "وتقسو على ذاتها حتي الألم وتعدو، أرأيت؟ ذلك هو التمثيل". وسعدت باكتشاف أسباب تفوق "لابيرما" تلك، مع أنّني لا أظن أنها تفسره أكثر ممّا تفعل صيحة معجبة لفلاح إزاء تفّوق "الجوكندة" أو لوحة "بيرسيه" للرسّام "بنفنوتو" (Benvenunto): "إنّها محكمة الصنع على أية حال! وكلها من ذهب ومن نوع فاخر! وأي إتقان فيها!"، وشاركت بنشوة في احتساء الرديء من خمرة تلك الحماسة الشعبية بيد أني أحسست مع ذلك، وبعد إسدال الستار، بخيبة أمل إن لم تكن المتعة التي طالما اشتهيتها أعظم، وفي الوقت نفسه بالحاجة إلى إطالتها وأن لا أهجر إلى الأبد لدى مغادرتي القاعة حياة المسرح تلك التي عشتها على مدى بضع ساعات والتي لعلني كنت سأبتعد عنها كأنما في رحيل إلى المنفى وأنا أعود مباشرة إلى المنزل لو لم آمل أن أسمع فيه الكثير عن "لابيرما" على لسان أحد المعجبين الذي كنت أدين له بسماحهم لي بالذهاب إلى مسرحيّة "فيدر"، عنيت السيّد "دو نوربوا".

وقد قدّمني له قبل العشاء والدي الذي دعاني لهذا الغرض إلى حجرته. ولدى دخولي نهض السفير ومدّ لي يده وحنى قامته الفارعة وصوّب إليّ بإمعان عينيه الزرقاوين. ولما كان الأجانب العابرون الذين يقدّمون إليه حينما كان يمثّل فرنسه – وحتى المغنون المعروفون منهم – من الشخصيّات المرموقة التي يعلم حينذاك أنه يستطيع أن يقول فيما بعد ساعة يُذْكَرُ اسمهم في باريس أو "بيترزبورغ"، إنّه يذكر تماماً الأمسية التي قضاها معهم في "ميونيخ" أو "صوفيا"، فقد تعوّد أن يعرب لهم بلطفه عن الارتياح الذي يلاقيه في تعرّفه بهم. ولما كان إلى ذلك قانعاً أن المرء يكتسب في العيش في العواصم، بالاحتكاك بالشخصيّات المرموقة التي تجتازها وبعادات الشعب الذي يقطن فيها، معرفة معمقة لا تزوّد بها الكتب بالتاريخ والجغرافية وأعراف الأمم المختلفة والحركة الفكريّة في أوروبا، فقد كان يمارس على كل وافد جديد قدرات الملاحظة الحادّة لديه كيما يعرف في الحال مع أي نوع من الرجال يتعامل. لم تعهد إليه الحكومة منذ زمن طويل بوظيفة في البلاد الأجنبيّة، إلاّ أن عينيه كانتا تشرعان، ما إن يتمّ تقديم أحدهم له، وكأنّما لم تتبلّغا إحالته على الاستيداع، في ملاحظته ملاحظة مثمرة فيما يحاول أن يظهر من خلال كامل سلوكه أن اسم الغريب ليس مجهولاً لديه. ولذلك لم يكفّ، وهو يحدّثني بطيبة وبتعاظم الرجل الذي يعرف مدى

خبرته الواسعة، عن النظر إليّ بإمعان وبفضول ذكيّ ولفائدته الشخصيّة كما لو كنت من بعض الأعراف الغربية أو الآثار الجليلة الفوائد أو نجمة تقوم بجولة. وقد برهن على هذا النحو فيما يخصّني عن جليل تودّد الحكيم "منتور" [1] والسعي الفضوليّ لدى الشاب "أنكارسيس"(٢).

لم يرّني بشيء ألبتة لصالح "محلّة العالَمَيْن"، ولكنّه طرح عليّ عدداً من الأسئلة حول حياتي ودراستي وحول ميولي التي ذُكِرَتْ للمرّة الأولى في حضرتي وكأنما كان من المعقول اتّباعها فيما ظننت من واجبي حتى ذاك مقاومتها. وبما أنها كانت تدفعني باتجاه الأدب فإنّه لم يصرفني عنه بل حدّثني فيه على العكس باحترام وكأنما عن إنسان جليل وظريف تحفظ عن حلقته المختارة في "رومه" أو "دريسدن" أفضل ذكرى وتأسف لندرة لقائه من جرّاء ضرورات الحياة. كان يبدو وهو يبتسم ابتسامة تقرب أن تكون ماجنة، وكأنّه يحسدني الفترات الحلوة التي يوفرّها لي أنا الأوفر منه حظاً وحريّة. على أن الألفاظ التي كان يستخدمها كانت تظهر لي الأدب شديد الاختلاف عن الصورة التي سبق أن رسمتها عنه لنفسي في "كومبريه" وأدركت أنني كنت مرّتين على حق في التخلي عنه. لقد تبينّت حتى ذاك أنّي لا أملك موهبة الكتابة فحسب ؛ أمّا الآن فقد نزع السيّد "دو نوربوا" من نفسي حتى الرغبة فيها. وأردت أن أشرح له ما سبق أن حلمت به. ولعلّني كنت أؤاخذ نفسي. وأنا أرتجف لشدة انفعالي، إن لم تجئ أقوالي المرادف الصادق أبعد الصدق لما أحسست ولم أحاول أن أصوغه لنفسي في يوم ؛ وذلك يعني أن أقوالي لم تتّصف إطلاقاً بالوضوح. كان يحافظ السيّد "دو نوربوا"، حينما يُبْسط له أمر ما، بجمود في قسمات الوجه تامّ كما لو أنّك تحدّثت أمام تمثال نصفي قديم – وأصّم داخل متحف للمنقوشات الحجريّة، ربمّا من جرّاء عادة مهنيّة، وربمّا بفضل الهدوء الذي يكتسبه كلّ رجل ذي خطر تُلتمس مشورته فيدع محدّثه، وهو يعلم أنّه سيحتفظ هو بزمام الحديث، يتلجلج ويحاول ويجهد ما شاء ذلك، وربّما أيضاً ليُبْرز ميزة رأسه (وهو يوناني فيما يظنّ على الرغم من السالفين الكبيرين)، وفجأة يسقط صوت السفير الذي يرد عليك كمطرقة الموظّف المكلّف بالتخمين أو كنبوءة في معبد "ذلفي"، فيؤثّر فيك إلى حدّ كبير بقدر ما لم يسمح لك شيء في وجهه أن تخمن نوع الانطباع الذي خلفته فيه ولا الرأي الذي يزمع أن يبديه.

قال لي فجأة كما لو تم الفصل في القضية وبعد ما تركني أتلعثم قبالة عينين ثابتتين لا تتحولان لحظة عني: "لدي بالضبط ابن أحد أصدقائي الذي يشبهك بعد تبديل ما يجب تبديله" (واتخذ ليحدثني عن ميولنا المشتركة اللهجة المطمئنة نفسها التي يتخذها لو كانت استعدادات لا للأدب بل للرثية وشاء أن يبرهن لي أنها لا تقتل صاحبها) "ولذلك فضل ترك دوائر وزارة الخارجية مع أنه سبق لوالده أن مهد له الدرب وشرع ينتج غير عابئ بالقيل والقال. وليس بالتأكيد ما يدعوه للندم. فقد أصدر منذ سنتين – وهو على أية حال أكبر سناً منك بكثير بالطبع – مؤلفاً يدور حول الشعور باللانهاية على الضفة الغربية من بحيرة "فيكتوريا نيانزا" وكتيباً أقل شأناً في هذا العام، ولكنه خطّ

(١) Mentor: اسم المستشار الحكيم الذي تولي شئون "تيليما خوس" ابن "اوليسيو" أحد أبطال الألياذة. وأصبحت الكلمة تعني الهادي والمستشار المجرب الحكيم.

(٢) Anacharsis: فيلسوف من القرن السادس قبل الميلاد عده قدماء الإغريق من بين الحكماء السبعة وهو رمز لرجل الطبيعة الذي لم تفسده الحضارة.

بريشة رشيقة ولاذعة أحياناً، حول البندقية السريعة الطلقات في الجيش البلغاري وقد ضمنا له نجاحاً منقطع النظير. لقد قطع حتى الآن شوطاً ملحوظاً وليس من الرجال الذين يتوقفون في سيرهم، وإني أعلم أن اسمه قد ورد مرتين أو ثلاث مرات في سياق الحديث، وعلى نحو ليس فيه ما هو في غير صالحه، في أكاديمية العلوم الأخلاقية، دون أن تؤخذ فكرة الترشيح في الاعتبار. وقصارى القول إنه احتل بالقوة مكانة مرموقة دون أن نستطيع القول إنه أصبح في الأوج ؛ وإن النجاح الذي لا يقتصر دوماً على المضطربين والفوضويين وصانعي المشاكل، الذين هم على الدوام تقريباً هينو الوجدان، قد كلل جهده.

وأبدى والدي، وهو يراني منذ ذاك عضواً في الأكاديمية بعد بضع سنوات، أبدى ارتياحاً بلغ به السيد "دو نوربوا" الذروة حينما قال لي بعد لحظة تردد بدا فيها وكأنه يزين نتائج فعلته، قال وهو يمدّ إليّ بطاقته: "هيّا إلى زيارته من قبلي فإنه يستطيع تقديم نصائح مفيدة لك"، فسبب لي من جراء هذه الكلمات اضطراباً مؤلماً كما لو أخبرني بأنهم يرسلونني في الغد بحارا على متن مركب شراعي.

كانت عمتيّ "ليوني" قد جعلتني وريثاً لكامل ثروتها النقدية تقريباً إلى جانب الكثير من الأغراض وقطع الأثاث المربكة – مظهرة بذلك بعد وفاتها حباً لي ما خالجتني فكرته إطلاقاً في أثناء حياتها – واستشار والدي، وكان عليه أن يدير هذه الثروة حتى بلوغي سن الرشد، السيد "دو نوربوا" حول عدد من التوظيفات، فأشار بسندات قليلة الريع كان يحكم أنها من متانة خاصة كالقروض الإنكليزية المدعمة وقرض الـ٤٪ الروسي. قال السيد "دو نوربوا":

"إن لم يكن الدخل عالياً جداً بالنسبة إلى هذه الأسهم التي هي من الطراز الأول فإنك متيقن على الأقل أنك لن تشهد في يوم هبوطاً في رأس المال."

وروى له والدي بالإجمال عما سبق أن اشتراه فيما يخص الباقي. وعلت شفتي السيد "دو نوربوا" ابتسامة تهنئة خفيّة حتى لا تدرك: فقد كان شأن جميع الرأسماليين يقدر أنّ الثروة أمر مرغوب فيه ولكنّه يرى من حسن الذوق ألا يهنئ فيما يخص الثروة المملوكة إلا بإشارة تواطؤ تكاد لا تراها. وكان يرى من حسن الذوق، من جهة أخرى، وهو ذو ثروة ضخمة، أن يبدو وكأنه يحكم أن دخول الغير الأدنى باهظة، ولكن له مع ذلك عودة مغتبطة مرتاحة على رجحان دخوله. على أنّه لم يتردد بالمقابل في تهنئة والدي على "تركيبة" سنداته المالية" وهي من ذوق سليم جدّاً ومرهف جدّاً ورفيع جدّاً". لكأنما كان يخص العلاقات بين أسهم البورصة وحتى أسهم البورصة في حدّ ذاتها بما يشبه المزية الجماليّة. قال السيّد "دو نوربوا" عن بعض منها جديد إلى حدّ ما ومجهول مما حدثه والدي عنه، قال شأنه شأن أناس قرؤوا كتباً كنت تظنّ أنّك تعرفها وحدك "بلى، لقد لهوت بعض الوقت بمتابعته في جدول السعار وكان مغرياً، قالها بابتسامة المشترك المأخوذ بعد فوات الأوان والذي قرأ آخر رواية في مجلة قراءة مجزّأة وعلى شكل مسلسل. "لن أشير عليك بالامتناع عن الاكتتاب بالإصدار الذي سيُطرح عما قريب إنه مغرٍ لأن الأسهم تُعرض عليك بأثمان

مغرية. "أما بالنسبة إلى بعض الأسهم القديمة فإن والدي الذي لم يعد يذكر أسماءها بدقة، وهي سهلة الاختلاط بأسماء أسهم مشابهة، فتح على العكس درجاً وأبرز الأسهم نفسها للسفير. وقد سحرني منظرها إذ كانت مزينة بسهام كاتدرائيات وبأشكال رمزيَّة شأن بعض المنشورات الرومانطيقية القديمة التي سبق أن تصفحتها فيما مضى. إن كلّ ما كان من زمن واحد يتشابه، فالفنانون الذين يضعون الرسوم الإيضاحية لقصائد حقبة معيّنة هم الذين تستخدمهم الشركات المالية لأغراضها. وليس ما يعيدك بالفكر إلى بعض ملازم من كتاب "سيّدة باريس" وبعض مؤلفات "جيرار دو نيرفال"، على نحو ما كانت معلّقة على واجهة دكان السمانة في "كومبريه" مثل سهم اسميّ لشركة المياه في إطاره المثلث المزدان بالزهور الذي كانت تحمله آلهات نهرية.

وكان والدي يبدي إلى نوع الذكاء الذي أتمتع به ازدراء يخفّف منه الحنان إلى حد كاف ليجيء حكمة عامة على كلّ ما أفعل من قبيل التسامح الأعمى. ولذلك لم يتردّد في إرسالي للبحث عن قصيدة صغيرة منثورة صغتها فيما مضى في "كومبريه" لدى عودتي من إحدى النزهات. وكنت قد كتبتها بحماسة بدا لي أنها ستشبعها حتماً في نفوس من سيقرؤها. ولا بدّ أنها لم تلق حظوة لدى السيّد "دو نوربوا" لأنّه أعادها إليّ دون أن ينبس بكلمة.

وجاءت والدتي، وكانت شديدة الاحترام لمشاغل والدي، تسأل بوجل إن كانت تستطيع أن تأمر بتقديم الطعام. لقد كانت تخشى أن تقطع حديثاً لعلّه لاحقّ لها في التدخل فيه. فقد كان والدي يذكّر المركيز في كلّ لحظة بإجراء ضروري قرّرا دعمه في جلسة اللجنة المقبلة، ويفعل ذلك باللهجة الخاصة التي يتخذها في وسط مختلف - مثلما يفعل تلميذا مدرسة - زميلان فيما بينهما تنشئ لهما عادتهما المهنية ذكريات مشتركة لا ينفذ الآخرون إليها فيعتذران لهم أن يتذكراها في حضرتهم.

على أن الاستقلال التام الذي بلغه السيّد "دو نوربوا" في عضلات وجهه كان يمكّنه من الإصغاء دون أن يبدو عليه أنّه يسمع ويبلغ الأمر بوالدي حد الاضراب فيقول للسيد "دو نوربوا" بعد مقدمات طويلة: "لقد خطر لي أن أطلب رأي اللجنة. "حينئذ كانت تنطلق من وجه الأرستقراطيّ البارع الذي ظلّ يحتفظ بجمود عازف لم يحن دوره ليعزف القسم الخاص به الجملة التي بوشر بها، تنطلق على وتيرة واحدة بصوت حادّ وكأنّها تسير إلى نهايتها فحسب ولكنّما عُهد بها هذه المرة لجرس آخر: "التي لن تتردد بالطبع في عودتها، ولاسيما أن أعضاءها معروفون شخصياً لديك ويستطيعون التحرك بسهولة." ولم يكن ختام الجملة هذا في حدّ ذاته أمراً خارقاً بالطبع، ولكن الجمود الذي سبقه جعله يبرز بصفاء الكريستال، بما يشبه المكر المفاجئ لتلك الجمل التي يرد بها البيانو، بعدما ظلّ صامتاً حتى ذاك، يردّ في الوقت المناسب في كونشرتو لموزار على "التشيلو" الذي تم لك سماعه منذ قليل.

وقال لي والدي، فيما كنا ننتقل إلى المائدة، كيما أتألق وظناً منه أن حماستي ستجعلني أفضل موقعاً في عيني السيّد "دو نوربوا": "أتراك سررت بحفلة ما بعد الظهر؟" وقال وهو يتلفت صوب

الديبلوماسي وبلهجة التلميح إلى الماضي، تلك التقنية الزاجرة بالأسرار التي كان يتخذها كما لو كان الأمر أمر إحدى جلسات اللجنة: "لقد ذهب منذ هنيهة لسماع "لابيرما". وتذكر أننا تحدثنا عن ذلك فيما بيننا."

- "لا بدّ أنّك فُتنتَ، ولا سيما إن كنت تسمعها للمرة الأولى لقد خشي والدك من العاقبة التي كان يمكن أن تجرها تلك "الطلعة" الصغيرة على حالتك الصحية لأنك ضعيف البنية ونحيل بعض الشيء فيما أظن. ولكني طمأنته، فلم تعد مسارح اليوم ما كانت عليه منذ عشرين سنة فقط. فلديك مقاعد مريحة تقريباً وجوّ متجدّد مع أننا لا بد أن نفعل الكثير للحاق بألمانيه وانكلتره اللتين سبقتانا إلى حدّ بعيد في هذا المجال وفي مجالات أخرى كذلك لم أشاهد السيّدة "لابيرما" في مسرحية "فيدر" ولكني سمعت من يقول إنها رائعة فيها. لقد فُتِنْتَ بالطبع؟"

كان لابد أن يمتلك السيّد "دو نوربوا"، وهو أشد ذكاء مني ألف مرة، تلك الحقيقة التي لم أستطع استخلاصها من تمثيل "لابيرما"، وسوف يكشفها لي. وسأرجوه في ردّي على سؤاله أن يقول لي ما هو قوام تلك الحقيقة، ويبرر، بذلك، الرغبة التي داخلتني لمشاهدة الممثلة. لم يكن لدي سوى لحظة وكان لابدّ من الإفادة منها وتوجيه أسئلتي نحو النقاط الأساسية ولكن ما عساها كانت؟ وصرفت كامل انتباهي إلى انطباعاتي المشوشة جداً ولم يخالجني البتة أن أحمل السيّد "دو نوربوا" على الإعجاب بي، بل على الحصول منه على الحقيقة المتمناة فلم أحاول أن أُحِلّ محلّ اللفظات التي خانتني عبارات قائمة وتلعثمت وأخيراً اعترفت أمامه أنني أصبت بخيبة وذلك لمحاولة حثه على الإعلان عن مواطن الروعة لدى "لابيرما".

وصاح والدي وقد أزعجه الانطباع المؤسف الذي كان يمكن أن تخلفه في صدر السيد " دو نوربوا" الإقرار بتقصيري عن فهمها: "كيف دلك؟ كيف تستطيع أن تقول إنّك لم تستمتع؟ لقد روت لنا جدّتك أنّك ما كنت تضيع كلمة مما تقوله "لابيرما"، وعيناك شاخصتان إليها، وأنك كنت الوحيد في القاعة على ذلك النحو".

- "أجل كنت أصغي خير إصغاء لأعلم ما الذي لديها من أمر مرموق. لاشك أنها جيدة جداً.."

- "إن كانت جيدّة جداً فماذا تبغي أكثر من ذلك؟"

وقال السيّد "دو نوربوا" وهو يلتفت باجتهاد صوب والدتي كي لا يدعها خارج نطاق الحديث ولكي يؤدي بصدق واجب التهذيب إزاء ربة البيت:

"إن من بعض ما يسهم بالتأكيد في نجاح السيّدة "لابيرما" الذوق الرفيع الذي تضعه في انتقاء أدوارها والذي يعود عليها بنجاح لالبس فيه وجدير بالتقدير. إنها نادراً ما تمثل أدواراً ضحلة. أرأيت؟ لقد تصدت لدور "فيدر". إنها تبدي هذا الذوق كذلك في لباسها وفي تمثيلها. ومع أنها قامت بجولات عديدة ومثمرة في انكلتره وأميركا فلن أقول عن سوقية "جول بول" (John Bull).

قامت بجولات عديدة ومثمرة في انكلترة وأميركا فلن أقول عن سوقية "جول بول" (John Bull). فلعل في ذلك ظلماً أقله لانكلتره في عصر الملكة "فيكتوريا"، بل أقول عن سوقية العم سام إنها لم تؤثر فيها، فلا ألوان على الإطلاق ولا صيحات مبالغ فيها. أضف إلى ذلك الصوت الرائع الذي يخدمها أحسن الخدمة والذي يتلاعب به بما يخلب الألباب كأنما هي، ويغريني القول إلى حد ما، موسيقية!."

لم يكف اهتمامي بتمثيل "لابيرما" عن التعاظم منذ انتهاء العرض لأنه لم يعد يعاني من ضغط الواقع وحدوده، ولكني كنت أشعر بحاجة العثور على ما يفسره. ثم إنه انصب إلى ذلك بالقوة نفسها أثناء تمثيل "لابيرما" على كل ما كانت تقدمه لناظري وأذني في وحدة الحياة التي لا تنقسم. فلم يفصل شيئاً ولا ميز ؛ ولذلك فقد أسعده أن يكتشف سبباً معقولاً في هذا المديح الموجه إلى بساطة الفنانة وذوقها السليم، فكان يجتذبها إليه بقدرته على الامتصاص ويستولي عليها كما يفعل تفاؤل رجل ثمل بأعمال جاره التي يرى فيها مدعاة للتأثر. وكنت أقول في نفسي: "حقاً ما أجمل صوتها وما أبعدها عن الصراخ وأية أثواب بسيطة وأي ذكاء في اختيارها لمسرحية "فيدر"! لا، لم يخب ظني"

وكان أن ظهر لحم البقر بالجزر وقد مدته يدا "ميكيل انجلو" على بلورات ضخمة من المرق الهُلامي شبيهة بكتل من المرو الشفاف. وقال السيّد "دو نوربوا": "لديك رئيس طهاة من الطراز الأول يا سيدتي، وليس هذا بالأمر القليل، وإني أعرف أنا الذي كان عليه في الغربة أن يحافظ على مستوى معاشي معين إلى أي مدى يبدو من الصعب العثور على رئيس طهاة كامل الصفات. إنها لوليمة حقيقية تلك التي دعوتنا إليها."

والحقيقة أن "فرنسواز" أنفقت جهداً لم تعد تنفقه حينما نكون وحدنا، وعادت فلقيت طريقتها التي لا تدانيها أخرى في "كومبريه" وقد أثارها أشد الإثارة طموحها أن توفق في إعداد عشاء ملأته أخيراً صعوبات جديرة بها لمدعوّ ذائع الصيت.

– "ذلك ما لا يمكن الحصول عليه في الملاهي الليلية، وأقصد أفضلها: لحم بقري لا يشبه المرقُ الهلامي فيه الصمغ وتشرّب اللحم فيه عطرَ الجزر، ياللروعة!" وأضاف يشير أنه يرغب أيضاً في المرق:" اسمحوا أن أعود إليه. والآن تداخلني الرغبة في الحكم على رئيس طهاتك في طبق مختلف تماماً. وددت مثلا أن أراها في ميدان صنف "ستروغانوف" بلحم البقر."

وأتحفنا السيد "دو نوربوا"، ليسهم هو الآخر في بهجة الطعام، بروايات مختلفة كثيراً ما كان يمتع بها زملاءه في السلك فيذكر تارة جملة طويلة مضحكة قالها سياسي تعود هذا النمط وكان يطيل فيها ويحشوها بالصور غير المترابطة، وطوراً عبارة مقتضبة لدبلوماسي يفيض دقة واتزانا. على أن المعيار الذي كان يميز بالنسبة إليه، والحق يقال، هذين الصنفين من الجمل ما كان يشبه في شيء المعيار الذي كنت أطبقه على الأدب، فقد كان يفوتني الكثير من الفروق الدقيقة، وما كانت

صنف الرجال الذي ربما قال في الأعمال الفنية التي كنت أحبها: "هل تفهم، أنت؟ أما أنا فإني أقر بأني لا أفهم، فلست مطلعاً"، ولعلني كنت أستطيع أن أرد له بضاعته، فما كنت أدرك النكتة أو الحماقة ولا البلاغة أو اللغو الفارغ مما كان يجده في رد أو قول، وكان غياب أي سبب ظاهر يبدو هذا الأمير من جرائه رديئاً وذاك حسناً، يجعل من هذا النوع من الأدب شيئاً أكثر خفاء وأكثر إبهاما من أي شيء آخر في نظري ولكني تبينت أن ترداد ما يراه جميع الناس لم يكن في دنيا السياسة علامة المستوى الأدنى بل علامة التفوق. فحينما كان السيد "دو نوربوا" يستخدم بعض العبارات التي تملأ صفحات الجرائد وينطق بها بقوة كنت تحس أنها أصبحت فعلا من جراء أنه استخدمها فحسب، فعلا ربما استثار الشروح.

كانت والدتي تعلق أهمية كبيرة على "سلطة" الأناناس والكمأة. ولكن السفير بعدما أعمل للحظة نفاذ عينيه في الصحن أكله وظل يحيط نفسه بأسرار الدبلوماسيين ولم يفصح لنا عن فكره، والحت والدتي كيما يسكب منه ثانية، فامتثل السيد "دو نوربوا" ولكنه اكتفى أن يقول عوضا عن المديح المأمول: "ها إني أخضع للأمر يا سيدتي، بما أني أرى أنه قرار قيصري حقيقي تتخذينه."

وقال له والدي :

- "قرأنا في الصحف أنك تحدثت طويلا مع الملك "تيودوز."

- "لقد تلطف الملك بالحقيقة، وهو على قدر نادر من ذاكرة الوجوه، فتذكر إذ رآني في القاعة أنني تشرفت بمشاهدته لعدة أيام في بلاط "بافاريه" حين لم يكن يفكر بعد بعرشه الشرقي (وتعلم أن مؤتمراً أوروبياً دعاه إلى ذلك وقد تردد كثيراً مي قبوله، إذ حكم أن هذا السلطان لا يوازي إلا في القليل العرق الذي ينتمي إليه وهو أكرم عرق في أوروبا بأسرها على صعيد الشعار). وقد أقبل أحد معاونيه يقول لي أن أذهب لتحية جلالته وقد سارعت بالطبع إلى امتثال أمره."

- "وهل كنت راضياً عن نتائج إقامته"؟.

- "تمام الرضى فلقد كان من الممكن التخوف إزاء الطريقة التي يستطيع بها ملك لا يزال في ريعان الشباب أن يتخلص من هذا المأرق الصعب ولاسيما في أوضاع بمثل هذه الدقة. ولقد كنت أولي حس الملك السياسي فيما يخصني، ثقة تامة ؛ ولكني أقر بأن آمالي تمّ تجاوزها، فإن الكلمة التي ألقاها في الإليزيه لدى شرب الأنخاب والتي ألفها بنفسه من الكلمة الأولى وحتى الكلمة الختامية حسب معلومات وردتني من مصدر موثوق تماماً كانت على مستوى الاهتمام الذي أثاره في كل مكان. إنها بكل بساطة ضربة معلم ؛ ضربة جريئة، إني مقر بذلك، ولكنها جرأة بررها ذلك الحديث تمام التبرير. إن للتقاليد الدبلوماسية حسناتها ولكنها أفضت في تلك الحالة إلى أن يعيش بلده وبلدنا في جو من الهواء الحبيس الذي أصبح خانقاً.

ومن بين طرق تحديد الهواء، ومن بين تلك التي لا يمكن أن يوصى بها والتي كان يستطيع الملك "تيودوز" مع ذلك أن يسمح لنفسه بها، كسر زجاج النوافذ وقد فعل ذلك باغتباط فتن جميع الناس، وبصحة في التعبير عرف فيها الناس في الحال سلالة الأمراء المثقفين التي ينتمي إليها بوالدته. فالأكيد أنه حينما تحدث عن "القرابات الفكرية" التي تربط بلده بفرنسه فقد جاء التعبير موفقاً إلى أبعد حد مهما بدا قليل الاستعمال في مفردات أرباب السفارات وأضاف وهو يوجه الحديث إليّ. "وأنت ترى أن الأدب لا يلحق بك الأذى حتى في دنيا الدبلوماسيين وحتى على سدة العرش، والأمر تمت ملاحظته منذ زمن طويل، إني مقر بذلك، فلقد أضحت العلاقات بين الدولتين ممتازة. إلا أنه كان لابد أن يقال ذلك. كان الجميع في انتظار تلك الكلمة وقد اختيرت أروع ما يكون الاختيار ورأيت مدى تأثيرها، إني أصفق لها، فيما يخصني، من صميم الفؤاد."

– "لابد أن صديقك السيد "دو فوغوبير" الذي كان يهيىء للتقارب منذ سنوات قد ابتهج لذلك."

– "ولاسيما أن جلالته الذي تعود مثل هذه الأمور قد حرص على مفاجأته، وكانت المفاجأة كاملة على أية حال بالنسبة إلى الجميع بدءً بوزير الخارجية الذي لم ترقه فيما قيل لي وقد أجاب أحدهم، وكان يحدثه في الأمر، أجاب بأشد الوضوح وبصوت عالٍ يسمح بأن يسمعه الذين كانوا بالقرب منه: "لم يستشرني أحد ولا تم إخطاري"، يشير بذلك إشارةً واضحة إلى أنه يرفض أية مسؤولية في هذا الحدث. وينبغي الإقرار بأن هذا الأخير أثار ضجة كبيرة"، وأضاف بابتسامة ساخرة على شفتيه: "ولن أجرؤ على التأكيد بأن نفراً من زملائي ممن يؤلف مبدأ بذل أدنى جهد بالنسبة إليهم، فيما يبدو، قمة القوانين لم تتبدّد طمأنينتهم. أما فيما يخص "فوغوبير" فإنك تعلم أنه تعرض لهجوم جديد من جراء سياسته في التقارب مع فرنسه ولابد أنه عانى الكثير لذلك وبمقدار ما كان حساساً رائع الفؤاد. وبوسعي أن أشهد بذلك أفضل شهادة، مع أنه يصغرني بكثير، لأنني ترددت عليه كثيراً وإننا صديقان منذ فترة طويلة وأعرفه أتم المعرفة. ومن ذا لا يعرفه؟ لقد كان صافي الروح، في صفاء الكريستال ؛ وهو العيب الوحيد على أية حال الذي يمكن أن يؤخذ عليه، فليس ضروريا أن يكون فؤاد الدبلوماسي في مثل شفافية فؤاده. ولكن ذلك لا يحول دون أن يتحدثوا عن إرساله إلى روما، وتلك ترقية كبيرة ولكنها حمل ثقيل على أنيْ أعتقد أن "فوغوبير" وأقولها بيننا، ربما سعد جداً بذلك وما طالب على الإطلاق بإقصاء تلك الكأس عنه مهما كان بعيدا عن الطموح. وربما اجترح العجائب هناك ؛ إنه مرشح مجلس الدولة في الفاتيكان، وإني أرى، فيما يخصني أنه يلائم تماماً، هو الطويل الباع في الفن، قصر "فارنيزيه" ومعرض "كاراش"، ويفترض فيما يبدو على الأقل أنه لا يمكن أن يكن أحد له البغضاء، بيد أن حول الملك "تيودوز" حاشية كاملة ترتبط في كثير أو قليل بشارع "غليوم" وتسلس القياد لإيحاءاته، وقد حاولت في جميع الطرق أن تثير في وجهه المصاعب. ولم يقع على "فوغوبير" أن يواجه دسائس الكواليس فحسب بل كذلك شتائم صحفيين مأجورين كانوا الأوائل فيما بعد، وهم في جبن كل صحفي مأجور، في طلب الأمان[1]

(١) وردت بالعربية في متن النص

ولكنهم لم يتورعوا حتى ذاك الحين من اعتماد التهم السخيفة التي جادت بها جماعة من عديمي الأخلاق ضد ممثلنا. وقد رقص أعداء "فوغوبير" طوال شهر من حوله رقصة سلخ جلد الرأس. "قال السيد "دو نوربوا" ذلك وهو يبرز بقوة الكلمة الأخيرة. ثم أضاف بلهجة أشد حزماً وبنظرة قاسية إلى حد أننا أمسكنا لحظة عن الطعام: "ولكن الرجل المطلع يساوي اثنين، وقد دفع تلك الشتائم بقدمه. "الكلاب تنبح والقافلة تسير" حسبما يقوم مثل عربي جميل. "وتوقف السيد "دو نوربوا"، بعدما جاء بهذا الشاهد، لينظر إلينا ويحكم على الأثر الذي خلفه فينا، وكان عظيما، فلقد كان المثل معروفاً لدينا وقد حل في تلك السنة لدى الرفيعي الشأن من الناس محل هذا المثل الآخر": "من يزرع الريح يحصد العاصفة"، وكان بحاجة إلى الراحة فليس من طينة لا تعرف الكلل وهو طويل العمر كهذا الآخر "الشغل لدى ملك بروسيا"[1]. ذلك أن ثقافة هؤلاء القوم البارزين كانت متناوبة ومقسمة بعامة على ثلاث سنوات، والأكيد أن الشواهد التي من هذا القبيل والتي كان يجيد السيد "دو نوربوا" في تزويق مقالات "المجلة" بها لم تكن ضرورية لتبدو هذه المقالات متينة وحسنة الاطلاع فقد كان كافيا، ولو خلت من الزينة التي تضفيها عليها، أن يكتب السيد "دو نوربوا" في الوقت المناسب – وما كان يفوت عليه الأمر: – "ما كانت حكومة "سان جيمس" آخر من أحس بالخطر، أو "كان الاضراب كبيراً في "بونتوشانتر" حيث كانوا يتابعون بنظرات قلقة سياسة الملكية ذات الرأسين الأنانية والحاذقة معاً، "أو" وانطلقت من "مونتيشيوريو" صيحة إنذار" أو" هذا اللعب المستمر على الحبلين يطابق تماماً طريقة "ساحة بال".

وسرعان ما كان يتعرف القارئ غير المطلع خلف هذه العبارات الديبلوماسي العريق ويشيد به. إلا أن ما حمل على القول: إنه كان فوق ذلك وإنه حاز ثقافة عالية فقد كان اللجوء المعلل إلى شواهد ظل نموذجها الأمثل آنذاك من طراز: "قدم لي سياسة حكيمة أقم لك اقتصاداً متيناً كما تعود أن يقوم البارون لويس". (ولم يكن قد تم استيراد هذا الآخر من المشرق: "إن النصر حليف من استطاع من الخصمين أن يتحمل العذاب ربع ساعة أكثر من الآخر، مثلما يقول اليابانيون.") وقد استطاع صيت المثقف الكبير ذلك بعدما اقترن بموهبة في الدس حقيقية تتخفى خلف قناع اللامبالاة أن يضمن مقعداً للسيد "دو نوربوا" في أكاديمية العلوم الأخلاقية. وهناك من ظن من الناس أنه لن يكون في غير محله على مقاعد الأكاديمية الفرنسية يوم لم يتردد، بغية الإشارة إلى أننا إنما نستطيع التوصل إلى وفاق مع انكلتره بتوثيق العلاقة الروسية، لم يتردد أن يكتب: "فليكن معلوماً في مقر الخارجية الفرنسية وليدرج منذ الآن في جميع كتب الجغرافية التي تبدو ناقصة بهذا الخصوص، وليتم بدون شفقة رفض أي مرشح للبكالوريا لا يعرف أن يقول ما يلي: لئن كانت جميع الدروب تقود إلى رومه فإن الطريق التي تربط باريس بلندن تمر في مقابل ذلك بالضرورة بـ "بيترزبورغ".
وأردف السيد "دو نوربوا" يخاطب والدي "وقصارى القول إن "فوغوبير" ضمن لنفسه بذلك نجاحاً عظيماً يجاوز حتى ما توقعه، فقد كان يتوقع خطاب أنخاب لائقاً (وهو أمر عظيم جداً في أعقاب السحب التي سادت السنوات الأخيرة) ولا شيء سواه. وقد أكد لي العديد ممن كانوا في عداد الحاضرين أنه لا يمكن لدى قراءة هذا الخطاب تبين الأثر الذي خلفه إذ تم إلقاؤه وتفصيله على نحو

(١) العمل مقابل لا شيء

رائع على لسان الملك الذي يجيد فن القول والذي كان يستلفت النظر، ساعة يقول، إلى جميع المقاصد وجميع الدقائق، وقد جاء من روى لي بهذا الصدد واقعة مثيرة إلى حد ما تبرز مرة أخرى لدى الملك "تيودوز" ظرافة الشباب التي يستميل بها القلوب. لقد أكدوا لي أن جلالته، لدى تلفظه بالضبط بكلمة "القرابة الروحية" التي كانت بمختصر القول الابتكار الضخم في الخطاب والتي ستظل لفترة طويلة، كما سترى، موضوع تعليقات السفارات، لما توقع ابتهاج سفيرنا الذي كان سيلقى فيها التتويج الصحيح لجهوده، وربما أمكن القول لحلمه، وما يظنه بوجيز العبارة عصا ماريشاليته، استدار قليلاً نحو "فوغوبير" وصوب إليه نظرة آل "أوتينغن" الأخاذة وأبرز لفظة "القرابة الروحية" تلك التي أحسن اختيارها وكانت اكتشافاً حقيقياً بلهجة تبين للجميع أنها استخدمت عن دراية تامة ومعرفة أكيدة. ويبدو أن "فوغوبير" صادف مشقة في السيطرة على انفعاله وإني أقر بأني أفهمه إلى حد ما. وقد أسر لي شخص خليق بأن يصدق بأن الملك اقترب من "فوغوبير" بعد العشاء، حينما تحلق الناس من حوله، وقال له بصوت خافت: "هل أنت راض عن تلميذك أيها المركيز العزيز؟" والأكيد، يقول السيد "دو نوربوا" إن خطاباً من هذا القبيل قد فعل أكثر من عشرين سنة من المفاوضات لتوثيق عرى "القرابة الروحية" بين البلدين، حسب تعبير "تيودوز" الثاني الجميل. إنها لا تعدو كونها لفظة، إن شئت، ولكن هيا انظر أي نجاح أصابت وكيف ترددها الصحافة الأوروبية بأسرها وأي اهتمام تثير وأية رنة جديدة تنبعث منها. وإنها على أية حال من صميم أسلوب السلطان، أنا لن أذهب إلى حد القول بأنه يجد في كل يوم درراً خالصة شبيهة بهذه بيد أنه يندر أن لا يدع في خطاباته المدروسة، بل وحتى في نزق الحديث. ما يشير إلى أوصافه – كدت أن أقول إنه يذيلها بتوقيعه – بكلمة تنطلق مقتضبة جارحة. وإن عدائي لكل تحديد في هذا الاتجاه ليقلل من فرص اتهامي بالتحيز في هذا الموضوع، فصنوف التجديد هذه خطيرة تسع عشرة مرة من عشرين."

وقال والدي: "أجل، لقد اعتقدت أن برقيّة امبراطور ألمانيه الأخيرة لم توافق ذوقك."

ورفع السيد "دو نوربوا" عينيه إلى السماء كمن يقول: آه ! ياله! "إنها فعلة نكران للجميل تلك أكثر من جريمة، إنها خطيئة غباؤها سوف أصفه بضخامة الأهرام! وإن لم ينبه أحد إلى ذلك فإن الرجل الذي طرد "بيسمارك" قادر أن يستبعد شيئاً فشيئاً كامل سياسة بيسمارك وتكون إذ ذاك القفزة في المجهول."

– "وقد قال لي زوجي، يا سيّدي، إنك ربمّا ذهبت به ذات صيف إلى إسبانيا، إنني شديدة الغبطة لأجله."

– "أجل، إنّه مشروع رائع تماماً وإني مغتبط به. بودّي كثيراً أن أقوم بهذه الرحلة معك أيها العزيز. وأنت ياسيدتي، هل فكّرت منذ الآن كيف تستخدمين العطلة؟"

– "ربمّا ذهبت برفقة ابني إلى "بالبيك"، لست أدري".

– "آه ! "بالبيك" محبّبة، ولقد مررت من هناك منذ عدّة سنوات. لقد شرعوا يبنون فيها دارات أنيقة جدّاً، وأظن أنّ المكان سينال إعجابك. ولكن هل يسعني أن أسألك عمّا جعلك تختارين "بالبيك"؟

– "لدى ولدي رغبة في مشاهدة بعض كنائس المنطقة ولاسيّما كنيسة "بالبيك". لقد كنت أخشى قليلاً على صحّته من تعب السفر ولاسيّما الإقامة. ولكنّي علمت أنهم بنوا منذ قليل فندقاً ممتازاً سوف يمكّنه من العيش ضمن شروط الراحة التي تقتضيها حاله."

– "آه ! ينبغي لي أن أزوّد بهذه المعلومات إحداهن وليست من نساء لا يبالين بها."

وسألت وأنا أغالب الحزن الذي بي لسماعي بأن أحد محاسن "بالبيك" إنما يكمن في داراتها الأنيقة: "إن كنيسة "بالبيك" رائعة. أليس كذلك يا سيدي؟"

– لا، إنها لا بأس بها، ولكنّها لا تحتمل المقارنة مع هذه الجواهر الحقيقية المزوّقة التي تمثل كاتدرائيات "رانس" و"شارتر" واللؤلؤة "التي تبزّهن جميعاً فيما أرى، عنيت "الكنيسة الصغيرة"في باريس".

– "ولكنّ كنيسة "بالبيك" من الطراز الروماني في قسم منها؟"

– "أجل إنها من الطراز الروماني، وهو في حدّ ذاته جامد جدّاً وليس فيه ما ينبئ بأناقة المهندسين القوطيين وطرافتهم. هم الذين يبالغون في تزويق الحجر وكأنه دانتيلاً. إن كنيسة "بالبيك" جديرة بأن تزار مرّة إن كنت في المنطقة، فهي غريبة إلى حدّ ما: فإن كنت لا تدري أي شيء تفعل في يوم ماطر استطعت أن تدخل إليها فتشاهد ضريح "تورفيي".

وقال والدي: "هل حضرت البارحة مأدبة وزارة الخارجية؟ فإنني لم أتمكّن من حضورها".

"وأجاب السيّد "دو نوربوا" وعلى شفتيه ابتسامة: "لا، وأقرّ أنني تخلّيت عنها في سبيل أمسية تختلف بعض الاختلاف عنها. ولقد تناولت العشاء في منزل امرأة ربما سمعت عن أخبارها، إنها السيّدة "سوان" الجميلة."

وكتمت والدتي رعشة أصابتها فقد كانت تقلق، وهي أسرع إحساساً من والدي، كانت تقلق من أجله بشأن ما لن يزعجه إلا بعد ذلك بقليل. كانت تتبين هي أوّلاً الإزعاجات التي تحلّ به كمث هذه الأخبار المشؤومة عن فرنسه التي تُعْرَف في البلاد الأجنبية قبلما تعرف لدينا. بيد أنها في فضولها كي تعلم أيّ صنف من الناس تستقبلهم أسرة "سوان" سألت السيد "دو نوربوا" عن الأشخاص الذين التقى بهم هنالك. وأجاب السفير بدقة تغلفها الطيبة وهو يلقي من حوله نظرات بدت عذوبتها واحتشامها وكأنهما يخفقان من خبث الملاحظة فيما هما يبالغان فيها بحذاقة: "يا إلهي .. إنّه بيت يرتاده بخاصّة فيما يبدو لي الرجال. كان هنالك بعض المتزوجين، ولكنّ زوجاتهم كنّ مريضات في ذلك المساء فلم يجئن".

ثم أضاف قوله : "ينبغي لي أن أقول، كيما أكون منصفاً تماماً، إن ثمة نساء يقصدن منزلهم مع ذلك، ولكنّهنّ .. ينتمين بالأحرى..ماذا عساي أقول، إلى جماعة الجمهوريّين أكثر منهنّ إلى مجتمع

"سوان" (وكان يقول "سفان"). من يدري؟ ربمّا أصبح ذات يوم منتدى سياسيّاً أو أدبيّاً. ويبدو على أية حال أنّهم راضون بذلك، ولديّ أن "سوان" يبرز الأمر أكثر مما ينبغي. فقد كان يسمّي الناس الذين دعي وزوجته إلى منازلهم في الأسبوع التالي، ومع أنّه لا سبيل إلى الاعتزاز بألفتهم، على نحو خلا من الرصانة والذوق وحتّى اللياقة، الأمر الذي أدهشني في رجل بمثل رقّة حسّه. كان يردّد قوله: "ليس عندنا أمسية واحدة خلت من ارتباط" كما لو أن في الأمر مفخرة وبلهجة الوصولي الحقيقي، وما هو بذلك. ذلك أنّه كان لِـ "سوان" العديد من الأصدقاء، وحتى الصديقات وأظّنني قادراً على القول، دون أن أتورّط كثيراً أو أن أذيع سرّاً، أن واحدة منهنّ على الأقلّ، لا جميعهنّ ولا حتىّ أكثرهنّ، وهي سيّدة رفيعة الشأن، ما كانت لتعرض إعراضاً تاماً عن فكرة إنشاء صلات مع السيّدة "سوان" ومن المحتمل آنذاك أن يحذو حذوها الكثير من الخراف، غير أنّ "سوان" فيما يبدو لم يقم بأي مسعى من هذا القبيل. ماذا أرى؟ أهنالك أيضاً حلوى "البودينغ"! لن يكثر عليّ الاستشفاء في مدينة "كارلسباد" لأستعيد العافية بعد وليمة فاخرة كهذه. وربما شعر "سوان" أن ثمة الكثير من ضروب المقاومة التي ينبغي التغلّب عليها.

فالزواج لم يَرُقْ، والأمر أكيد. لقد تحدّثوا عن ثروة المرأة، وتلك هفوة جسيمة. ولكن كل ذلك في النهاية لم يبدُ محبباً. ثمّ إنّ لِـ "سوان" عمّة فاحشة الثراء بالغة الرصانة وهي زوجة لرجل يُعتبر من أرباب النفوذ على صعيد المال. وهي لم ترفض استقبال السيدة "سوان" فحسب بل قامت بحملة منظمة كي تفعل صديقاتها ومعارفها مثلما فعلت. ولست أعني بذلك أن يكون أي باريسي قد أخلّ بقواعد اللياقة إزاء السيدة "سوان". لا، لا مئة مرّة ! وكان الزوج فضلاً عن ذلك رجلاً يردّ على التحدّي. وثمة على أية حال أمر غريب وهو أن ترى إلى أيّ حدّ يُبْدي "سوان"، هو الذي يعرف الكثير من الناس ومن أرفعهم مستوى، اهتماماً بمجتمع أقل ما يقال فيه إنه خليط إلى حدّ بعيد. وإني أقرّ، أنا الذي عرفه بالأمس، أنني كنت أحس بقدر مماثل من الدهشة والسخرية لدى رؤيتي رجلاً في مثل تهذيبه الرفيع وفي مثل الزواج الذي يلاقيه في أكثر الدوائر اصطفاء يشكر بحرارة مدير مكتب وزير البريد لأنه جاء إلى منزلهم ويسأله إن كانت تستطيع السيّدة "سوان" أن تسمح لنفسها بالذهاب لزيارة زوجته. على أنه لابدّ أن يلقى نفسه في غربة، إذ المجتمع بالطبع لم يعد ما كان عليه. بيد أني لا أعتقد مع ذلك أن يكون "سوان" تعيساً. صحيح أنه حدث في السنوات التي سبقت الزواج مناوراتُ ابتزاز دنيئة بعض الشيء تمت على يد المرأة، فقد كانت تحرم "سوان" ابنته في كل مرّة يرفض لها أمراً. وكان "سوان" المسكين، وهو ساذج بقدر ما هو رفيع التهذيب، كان يظنّ كلّ مرّة أن اختطاف ابنته مصادفة ويرفض رؤية الحقيقة. وكانت تفتعل له فضلاً عن ذلك مشاجرات متواصلة إلى حدّ الظنّ بأنها يوم تبلغ مآربها وتصبح زوجته لن يقف شيء في دربها وأن حياتها ستكون جحيماً. ولكن ما حصل كان العكس. إنهم كثيراً ما يسخرون من الطريقة التي يتحدّث بها "سوان" عن زوجته، بل ويقهقهون بأعلى أصواتهم. وما كانوا يطلبون بالتأكيد، وقد وعى في كثير أو قليل أنه . (تعرفون كلمة "موليير")، أن يعلن الأمر على الملأ. وليس يحول ذلك دون أن يجدوه مغاليا حينما يقول بأن امرأته زوجة ممتازة. وليس ذلك في مثل ما يظنون من زور ؛ فعلى طريقتها التي تغاير تلك التي قد يفضلها جميع الأزواج - إلا أنه من الصعب فيما يبدو لي أن لا يعلم "سوان"

خفايا الأمور هو الذي كان يعرفها منذ فترة طويلة وليس بالسيّد الغبيّ - يبدو بما لا يقبل الجدال أنها تكنّ له المودّة. ولست أقول إنها غير متقلبة، و"سوان" نفسه لا يحجم عن مثل ذلك السلوك إن صدقنا الألسنة الخيرّة التي تمرح على هواها كما يسعكم الظنّ. ولكنها مقرّة بفضله لما فعل من أجلها ويبدو أنها أضحت في عذوبة الملائكة بعكس المخاوف التي ساورت الجميع."

ولعلّ ذلك التبدلّ لم يكن خارقاً بمقدار ما كان يرى السيد "دو نوربوا". ذلك أن "أوديت" ما اعتقدت أنّ "سوان" سوف يتزوّجها في النهاية. وفي كل مرّة كانت تنقل إليه على نحو مغرض أن رجلاً محترماً أقدم على الزواج من عشيقته كانت تراه يلوذ بصمت القبور، وأكثر ما يفعل، إن هي وجهت إليه نداء مباشراً تسأله: "قل، ألست ترى أن ذلك حسن جداً"، أن يجيبها ببرود: "ولكني لا أقول إن ذلك سيء، فكلّ يفعل ما يحلو له." ولم يعد هنالك ما يمنعها من الاعتقاد بأنه ربما هجرها تماماً مثلما كان يصرّح لها في لحظات من الغضب، لأنها سمعت منذ قليل امرأة نحاتة تقول: "بوسعنا أن نتوقع كلّ شيء من الرجال فإنهم في منتهى الفظاظة"، وقد وضعت يدها على تلك الحكمة المتشائمة التي أذهلها عمق معانيها فكانت تردّدها كيفما تيسر بهيئة من خارت عزائمه وكأنما يقول: "ليس هنالك مستحيل، وإنه نصيبي على كلّ حال". وفقدت الحكمة المتفائلة التي قادت حتى ذاك خطى "أوديت"، فقدت تبعاً لذلك كلّ مزية فيها: "يمكن أن تفعلي كلّ شيء بالرجال الذين يحبونك فإنهم على قدر كبير من الغباء"، وكانت ترتسم على وجهها غمزة العين نفسها التي يمكن أن ترافق كلمات من مثل: "لا بأس عليك، فلن يحطم شيئاً." كانت "أوديت" تتألم في أثناء ذلك مما يمكن أن تفكر به حول سلوك "سوان" واحدة من صديقاتها تزوّجها رجل مكثت معه أقل مما تيسر لها مع "سوان" وليس لها ولد، هي وقد أضحت تنال الآن بعض التقدير وتتم دعوتها إلى حفلات "الإيليزيه" الراقصة. ولعلّ مستشاراً أكثر عمقاً من السيد "دو نوربوا" كان يستطيع أن يستشف أن ما أغاظ "أوديت" إنما هو ذلك الشعور بالإذلال والخزي وأن ما كانت تبدي من طباع جهنمية لم يكن من جوهر طبيعتها ولم يكن داء بدون دواء، لعله كان تنبأ بسهولة بما حصل، يعني أن نظاماً جديداً، أنّ نظام الزواج سوف يوقف بسرعة تقارب السحر هذه العوارض، وهي مؤلمة يومية ولكنّها غير عضوية. وقد دهش الجميع تقريباً من هذا الزواج، وإنما الدهشة نفسها مدهشة. فليس من شكّ أن القليل من الناس يدركون الميزة الذاتية المحضة للظاهرة المسماة بالحبّ وما يمثله من ابتداع شخصية إضافية متميزة عن الشخصيّة التي تحمل الاسم نفسه في المجتمع والتي أُخِذَتْ غالبيّة عناصرها من ذواتنا. ولذلك كان ثمة القليل من الناس الذين يمكنهم أن يجدوا الحجم الهائل الذي يتخذه بالنسبة إلينا في النهاية إنسان ليس هو الإنسان نفسه الذي يرونه، أن يجدوا هذا الحجم طبيعيّاً. إلا أنه يبدو، فيما يخص "أوديت"، أنه كان من الممكن تبينّ أنها إن لم تفهم في يوم بالتأكيد ذهنيّة "سوان" تمام الفهم فقد كانت على الأقلّ تعرف عناوين أعماله وتفاصيلها إلى حدّ أن اسم "فيرمير" كان مألوفاً لديها كاسم خيّاطها. كانت تعرف عن "سوان" تلك الميزات التي يجهلها باقي الناس والتي لا تحمل إلاّ عشيقة أو شقيقة صورة عنها محبوبة تطابق الأصل. وإننا لنتعلق بها، وحتّى بتلك التي نودّ أكثر ما نودّ إصلاحها، إلى حدّ أنّ العلاقات القديمة تحتفظ بشيء من عذوبة مودّة الأهل ومتانتها لأنّ امرأة تألفها في النهاية ألفة

المتسامح والساخر الودود، ألفة تشبه تلك التي لدينا ولدى ذوينا عنها. إن الروابط التي تشدنا إلى كائن ما إنمّا تتقدس حينما يقف في الزاوية نفسها التي نقف فيها لنحكم على أحد عيوبنا. وكان من تلك السمات الخاصّة كذلك ما ينتمي إلى ذكاء "سوان" وطباعه سواء بسواء، ولكن "أوديت" استطاعت بسهولة أكبر تمييزها بسبب جذورها التي تمتد مع ذلك في طباعه. وكانت تشتكي من أنهّم لا يتعرّفون تلك السمات، حينما كان يمتهن الكتابة، حينما كان ينشر دراسات، بمقدار ما يفعلون في رسائله أو حديثه حيث تكثر. وكانت تنصحه أن يفسح لها أوسع مجال. ولعلّها كانت تريد ذلك لأنها كانت تلك التي تفضلّها لديه، بيد أنّها لما كانت تفضلها لأنها كانت أكثر التصاقا به، فربما لما تكن على غير حق في ما تتمنّى من أن يلقاها الناس في ما يكتب. وربمّا ظنت كذلك أن مؤلفات أوفر حيويّة سوف تمكّنها هي، فيما تحمل له، هو، النجاح، أن تصنع لنفسها ما تعلّمت في منزل أسرة "الفيردوران" أن تضعه فوق كلّ شيء عنينا منتدىً.

ومن بين الناس الذين كانوا يجدون هذا الصنف من الزواج مضحكاً، من قوم يتساءلون فيما يخصّهم: "ما عسى يفكر السيّد "دو غير مانت" ويقول "بريوتيه" حينما أتزوّج الآنسة "دومو نمو رانسي"؟ "، من بين الناس الذين يحملون هذا النوع من المثل الاجتماعي الأعلى لعلّك كنت تجد "سوان" نفسه قبل عشرين عاماً، "سوان" الذي تحمّل المشقّة ليُقبل في نادي الفروسية وحَسِبَ في ذلك الوقت أنّه سيتزوّج زواجاً مرموقاً سيجعل منه في النهاية، بعدما يثبت وضعه، أحد أكثر الرجال شهرة في باريس. بيد أن الصور التي يمثّلها مثل هذا الزواج للمعنيّ به تحتاج، شأنها شأن الصور كافّة، إلى أن تُغذّى من الخارج كي لا تضعف وتضمحلّ تماماً. إنّ أعنف ما تحلم به إذلال الرجل الذي أهانك. ولكنّك إن لم تسمع من بعد من يتحدث عنه فلن يظلّ لعَدوّكَ، وقد بدّل بلده، لن يظلّ له في نظرك أيّة أهمية. ولئن توارى عن أنظارك على مدى عشرين عاماً جميع الأشخاص الذين كنت تحبّ أن تدخل نادي الفروسية أو المعهد بسببهم فلن يغريك ألبتة احتمال أن تكون عضواً في هذا التجمّع أو ذاك. أمّا العلاقة الطويلة فتُحِلُّ صوراً غير الصور القديمة بمقدار ما يفعل التقاعد أو المرض أو الارتداد الدينيّ. ولم يتخلَّ "سوان" عن المطامح الدنيوّية حينما تزوّج "أوديت"، لأنّ هذه الأخيرة كانت قد جرّدته، بمعنى اللفظة الروحيّ، من تلك الطموحات منذ زمن بعيد. ولو لم يجرّد منها على أية حال لازداد فضلاً بذلك، لأن الزيجات الشائنة بعامّة من أكثرها جميعاً أهلاً للتقدير لأنها تقتضي التضحية بمنزلة رفيعة إلى حدّ ما في سبيل حلاوة عيش خفية محضة (إذ لا يمكن أن نضع موضع الزواج الشائن زواج المال لأنه ليس من مثال على زيجة باعت فيها المرأة أو الرجل ذاتهما إلا وارتضِيَ بها في النهاية على الأقل بداعي التقليد وتصديقاً للكثير من النماذج وكي لا يُكَالَ بمكيالين). وربما أحسّ "سوان" على كلّ حال من جهة أخرى، بروح الفنان، إن لم يكن بروح من أُفْسِدَت نفوسهم، ربما أحسّ ببعض النشوة في أن يقترن، في واحد من تصالبات الأنواع من مثل ما يُقْدِمُ عليه أتباع "مندل" أو ما ترويه الأساطير، بفرد من جنس مختلف، أكان "أرشيدوقة" أم من بنات الهوى، وأن يُتِمَّ زواجاً ملكيّاً أو زواجاً غير متكافئ الأطراف. وما كان ثمة في العالم سوى شخص واحد يمكن أن يشغل باله في كلّ مرّة فكرّ فيها بزواجه الممكن من "أوديت". عنينا دوقة "غير مانت"، وما كان ذلك بداعي الحذلقة. وقليلاً ما كانت "أوديت" على العكس تبدي اهتماماً

بهذه الأخيرة بل تقصر تفكيرها على الأشخاص الذي يقعون فوقها مباشرة بدلاً من صرفه إلى سموات بعيدة مبهمة إلى هذا الحدّ. ولكن حينما كان "سوان" يبصر "أوديت" في ساعات أحلامه وقد أصبحت زوجته فقد كان يتمثّل باستمرار اللحظة التي سيصطحبها فيها. هي وابنته على وجه الخصوص، إلى منزل أميرة "لوم" التي ما لبثت أن أضحت دوقة "غير مانت" بوفاة والد زوجها. لم يكن يرغب أن يقدمها في مكان آخر، ولكنّه كان يفيض حناناً لدى ابتداعه كل ما قد تقوله الدوقة عنه لِ "أوديت" و"أوديت" للسيّدة "دو غير مانت"، وهو يتلفّظ بالكلمات نفسها، ثمّ الحنان الذي ستبديه هذه الأخيرة لِ "جيلبيرت" فتدللّها وتجعله فخوراً بابنته. كان يمثل لنفسه مشهد التعريف بهما بالدقّة نفسها في التفاصيل المتخيّلة التي تتوافر للذين ينظرون في أمر استخدام جائزة "يانصيب" يحدّدون قيمتها اعتباطاً، إن هم ربحوها. وبالمقدار الذي تبرز فيه الصورة التي ترافق أحد قراراتنا ذلك القرار فإنه يمكن القول بأن "سوان" إنْ تزوّج "أوديت"، فليقدّمها هي و"جيلبيرت" لدوقة "غير مانت" دون أن يكون ثمّة أحد وحتى دون أن يعلم أحد قطّ. وسوف نرى كيف أن هذا المطمح الدنيوي الذي تمناه لامرأته وابنته كان بالضبط ذاك الذي أصبح تحقيقه محظوراً عليه وبمعارضة مطلقة إلى حدّ أنّ "سوان" مات دون أن يفترض أنه يمكن للدوقة أن تعرفهما في يوم. وسنرى كذلك على العكس أن دوقة "غير مانت" ارتبطت بصداقة مع "أوديت" و"جيلبيرت" بعد موت "سوان". ولعلّه كان يبدي حكمة – بمقدار ما يستطيع أن يعلق أهميّة على أمر يسير إلى هذا الحدّ – لو لم يكوّن فكرة مظلمة جدّاً عن المستقبل بهذا الشأن ولو استبقى إمكانية قيام الاجتماع المرجوّ إلى يوم لن يكون هناك للاستمتاع به. إن عمل السببيّة الذي ينتج في النهاية جميع الآثار الممكنة على وجه التقريب، وإلى ذلك بالتالي تلك التي خلناها أقلّ نصيباً من سواها، إن ذاك العمل بطيء أحياناً وتزيد رغبتنا كذلك في إبطائه – فهي تعيقه فيما هي تسعى إلى تسريعه – وتزيد حياتنا نفسها، فلا يبلغ غايته إلا بعدما نكفّ عن الرغبة وأحياناً عن الحياة. أفما كان "سوان" يعلم ذلك بتجربته الخاصّة؟ أو ما كان زواجه بـ "أوديت" التي أحبّها بشغف – وإن لم ترقه لأوّل وهلة – والتي تزوّجها ساعة لم يعد يحبها وساعة مات في صدره ذلك الكائن الذي تمنى أكثر التمنيّ ويئس أشدّ اليأس أن يقضي كامل حياته مع "أوديت"، أو ما كان زواجه مذ ذاك، في أثناء حياته، من قبيل السعادة بعد الوفاة – وكأنّما تلك صورة مسبقة عمّا كان يزمع أن يحدث بعد مماته – ؟

وأخذت أتحدّث عن الكونت "دو باريس" وأسأل إن لم يكن صديق "سوان"، فقد خشيت أن يتحوّل الحديث عن هذا الأخير. وأجاب السيّد "دو نوربوا" وهو يثبت على شخصي المتواضع عينيه الزرقاوين اللذين تسبح فيهما، وكأنما في وسطها الحيوي، قدرات العمل العظيمة لديه وموهبة الاستيعاب: "أجل، بالتأكيد". وأضاف وهو يخاطب والدي ثانية "ولست أظنّ على أيّة حال أنني أتجاوز حدود الاحترام الذي أكنّه للأمير (دون أن أرتبط به، مع ذلك، بعلاقات شخصيّة يجعلها مركزي عسيرة مهما تناقصت صفته الرسيمية) إن ذكرت لك هذه الواقعة المثيرة إلى حدّ ما وقوامها أنّه تسنى للأمير منذ فترة لا تزيد عن أربع سنوات أن يلمح السيّدة "سوان" في محطّة صغيرة للسكك الحديديّة في أحد بلدان أوروبا الوسطى. ولم يسمح بالطبع أحد من المقرّبين إليه لنفسه أن يسأل سيادته كيف لقيها، فلعلّ ذلك كان من غير اللائق. ولكن حينما كان الحديث يسوق اسمها

بالصدفة كان الأمير يبدو، بفضل بعض علامات خفيّة إن شئت ولكنّها لا تخطئ، كان يبدو وكأنه يريد أن يوحي بطيبة خاطر بأن انطباعه لم يكن بأيّ حال في غير صالحها."

وسأل والدي قائلاً: "ولكن أما كان ثمة وسيلة لتقديمها للكونت "دو باريس"؟

وأجاب السيّد "دو نوربوا" : "لستَ تدري ؛ مع الأمراء لستَ تدري. إن أكثرهم كبراً ممن يجيدون حمل الناس على تأدية ما هو واجب لهم هم كذلك أقلّ من يهتمون أحياناً بأحكام الرأي العام وحتى بأكثرها صحّة لأقلّ ما يدور الأمر حول مكافأة بعض مظاهر الولاء. ومن الأكيد أن الكونت "دو باريس" قد تقبّل دوماً بكثير من العطف إخلاص "سوان"، وهو على أيّة حال رجل نابه من الطراز الأوّل."

وسألت والدتي بداعي التأدّب والفضول: "وانطباعك أنت، يا سيّدي السفير، ما عساه كان؟"

فأجاب السيّد "دو نوربوا" بحزم خبير عتيق يخالف الاعتدال المألوف في أقواله: "ممتاز تماماً!"

وإذ كان يعلم أن الإقرار بانطباع شديد تخلفه امرأة فيك إنمّا يُرَدّ، بشرط أن يتمّ في قالب مرح، إلى صيغة من ظرافة الحديث محبّبة بصورة خاصّة فقد أطلق ضحكة صغيرة امتدّت على بعض لحظات ونَدِيَتْ بها عينا الدبلوماسيّ القديم الزرقاوان واهتزّت فتحات أنفه التي تغطّيها عصيبات حمراء.

- "إنها رائعة تماماً."

وسألت بوجل لأحاول إبقاء الحديث حول موضوع أسرة "سوان" : "هل حضر ذلك العشاء كاتب يُدْعَى "بيرغوت" يا سيدي؟"

وأجاب السيّد "دو نوربوا" وهو يحني الرأس باتجّاهي بتأدّب كما لو أنه يعلق أهمية حقيقيّة، في رغبته أن يكون لطيفاً مع والدي، على كلّ ما يخصه وحتى على أسئلة صبيّ في سنيّ لم يألف أن يبدي له أشخاص في سنه هو هذا القدر من التهذيب: "أجل، كان "بيرغوت" حاضراً". وأضاف وهو يحدّق إليّ بتلك النظرة الصافية التي كان "بيسمارك" يُعْجَبُ بنفاذها: "وهل تعرفه؟"

وقالت أميّ: "إن ابني لا يعرفه ولكنّه معجب به أيمّا إعجاب".

وقال السيّد "دو نوربوا" (الذي بعث فيّ حول ذكائي شكوكاً أدهى من تلك التي كانت تمزّقني بالعادة حينما رأيت بأن ما كنت أضعه فوق نفسي ألف مرّة، وما كنت أراه أسمى ما في العالم إنمّا كان في نظره في أدنى درجات مواطن إعجابه) : "لست أشاطرك نظرتك هذه إلى الأمور. إنّ "بيرغوت" هو ما أدعوه بعازف ناي ؛ وينبغي الاعتراف على أيّة حال بأنّ عزفه ممتع على الرغم من الكثير من التصنّع والتكلّف. ولكنّه في النهاية لا يعدو ذلك وما هو بأمر ذي بال. فإنك لا تجد قطّ

في مؤلّفاته التي لا عصب فيما ما يمكن أن ندعوه بالعمود الفقري. فليس من وقائع - أو أقلّ القليل - وليس على وجه الخصوص من مدى. إنّ كتبه ضعيفة الأساس، بل هي تفتقر إلى الأساس كلّياً. سوف توافقني أن للمرء الحقّ، في زمان مثل زماننا يكاد تعقيد الحياة المتزايد لا يدع فيه وقتاً للقراءة، وقد طرأت فيه على خريطة أوروبا تعديلات جذرية وربمّا كانت على وشك أن تطرأ عليها تعديلات أضخم، وفيما العديد من المشكلات الخطيرة والجديدة يبرز في كل مكان، أن يُطَالِبَ الكاتبَ بأن يكون أكثر من هاوي أدب ينسينا في غمرة نقاشات بيزنطيّة لا طائل تحتها حول ميزات شكلية بحتة أنه يمكن أن تجتاحنا بين لحظة وأخرى موجة مزدوجة من البرابرة، الذين يجيئون من الخارج وأولئك الذين في الداخل. إني أعلم أن ذلك تجديف على المدرسة المقدّسة التي يدعوها هؤلاء السادة مدرسة الفنّ للفنّ، بيد أن ثمة في عصرنا مهمّات أشدّ إلحاحاً من ترتيب مفردات ترتيباً متناسقاً. إن طريقة "بيرغوت" تفتنك إلى حدّ ما أحياناً، ولست أعارض القول، إلاّ أن كل ذلك في مجموعه متكلّف جدّاً هزيل جدّاً قليل الرجولة إلى حدّ بعيد. وإنيّ أدرك الآن أفضل من ذي قبل، إذ أعود بالذاكرة إلى إعجابك المبالغ فيه كثيراً بـ"بيرغوت"، السطور القليلة التى أريتني إيّاها منذ قليل والتي لعلّني أعدم الذوق إن لم أقصها عن ذاكرتي بما أنّك قلت بنفسك ببساطة كليّة إنّها محض "خربشة" أطفال (وقد سبق أن قلته غير أني لم أكن أومن بأيّة كلمة وردت فيه.) إن لكلّ ذنب مغفرة، ولاسيمّا ذنوب الشباب. وكثيرون سواك على أية حال يثقلون ضمائرهم بمثلها ولست الوحيد الذي ظنّ نفسه شاعراً ساعة التجلي. إلا أنه يبرز في ما أريتني تأثير "بيرغوت" المشؤوم. ولن أبعث فيك الدهشة بالطبع إن قلت لك إنّه خلا من أية ميزة من ميزاته بما أنّه يعتبر معلّماً في فنّ أسلوب معيّن لا يمكن أن تمتلك في سنّك حتى مبادئه، وهو أسلوب سطحيّ في جميع الأحوال. ولكنّه العيب نفسه منذ الآن، وأعني مخالفة المعقول تلك التي قوامها رصف مفردات رنانة دونما اهتمام بالمضمون إلا فيما بعد. وإنما ذلك وضع المحراث أمام الفدّان. إن جميع هذه التعقيدات السخيفة في الشكل وسائر حذاقات الإكليريكيّ المتميّع إنمّا تبدو لي حتى في كتب "بيرغوت" شديدة العقم. وسرعان ما ينادي الناس بالرائعة إزاء بعض الأسهم الناريّة التي يطلقها كاتب على نحو ممتع. وليست الروائع كثيرة إلى هذا الحدّ! وليس يشفع لِـ "بيرغوت"، ليس في متاعه، إن جاز القول، رواية حلّق فيها بعض التحليق، واحد من تلك الكتب التي تضعها في أحسن زاوية من مكتبتك. لست أرى كتاباً واحداً في كلّ أعماله. ولا يحول ذلك لديه دون أن تكون المؤلّفات أفضل من المؤلّف بكثير. آه! إليك واحداً يعطي الحقّ لرجل الفكر الذي كان يزعم أنّه يجدر بنا أن لا نعرف الكتّاب إلاّ بوساطة كتبهم. إنّه يستحيل عليك رؤية رجل يوافق كتبه أقلّ منه وأكثر ادّعاءً وأوفر أبهةً وأقلّ إيناساً. وهو تافه أطواراً وأطواراً يحدّثك وكأنّه كتاب، لا ككتاب من كتبه بل ككتاب مملّ، وهو ما ليست عليه كتبه على الأقلّ، ذلكم هو "بيرغوت". إنّه فكر من أكثرها إبهاماً وتعقيداً، إنه ما كان آباؤنا يسمّونه بمحترفي الجعجعة والذي يجعل الأمور التي يأتي بها أكثر إزعاجاً من جراء الطريقة التي يبسطها بها. ولست أدري إن كان "لوميني" (Lomenie) أو "سانت بوف" (Sainte - Beuve) من يروي أنّ "فيني" (Vigny) كان ينفّرك من جرّاء العيب نفسه. على أنّ "بيرغوت" لم يكتب في يوم "الخامس من آذار" ولا "الخاتم الأحمر" (١) حيث بعض الصفحات من

(١) Le Cachet Rouge , Cinq - Mars روايتان للكاتب الشاعر "ألفريد دوفيني".

مختارات الشعر الحقيقيّة."

وشعرت مرّة أخرى، وقد صُعقت لما قاله السيّد "دو نوربوا" منذ قليل عن القطعة التي عرضتها عليه، وأنا أفكّر من جهة أخرى بالصعوبات التي كانت تعترضني عندما أبغي كتابة مقالة أو الانصراف فحسب إلى صنوف من الأفكار الجديّة، شعرت بضحالتي الفكريّة وبأنّني لم أولد للأدب. صحيح أن بعض الانطباعات المتواضعة جدّاً، أو أنّ قراءة في كتب "بيرغوت" جعلتني بالأمس في "كومبريه" في حالة من الأحلام بدت لي ذات قيمة عظيمة. بيد أن تلك الحالة إنمّا كانت تعكسها قصيدتي المنثورة، وليس من شكّ أن يكون السيّد "دو نوربوا" قد أدرك وكشف في الحال ما كنت أراه جميلاً فيها من جرّاء محض سراب خدّاع بما أن السفير لم يقع ضحية له. لقد أطلعني بالعكس على المكان الضئيل الذي كنت أشغله (حينما يُحكَمُ عليّ من الخارج حكماً موضوعيّاً بلسان أكثر الخبراء استعداداً وأوفرهم ذكاء.) كنت أحسّني مذهولاً مقلّصاً، وكان عقلي، شأن سائل لا أبعاد له غير أبعاد الإناء الذي يوفّر له، ينحصر كله، وقد تقلّص الآن، في الحيّز الضحل الذي سحنه فيه السيّد "دو نوربوا" وحدّ من حجمه، مثلما سبق له أن تمدّد بالأمس ليملأ اتساع العبقرية المترامية.

وأضاف وهو يلتفت إلى والدي: "إن مواجهتنا، أنا و"بيرغوت"، لم تخلُ من شائك الأمور فحسب (وتلك على أية حال طريقة أخرى في اكتساب الإثارة). لقد قام "بيرغوت" منذ بضع سنوات خلت برحلة إلى "فيينّا" يوم كنت سفيراً فيها. وقامت بتقديمه لي الأميرة "دو ميتيرنيخ" وجاء فسجّل نفسه وأبدى رغبته أن تُوَجَّه الدعوة إليه. وبما أنني كنت في البلاد الأجنبيّة ممثلاً لفرنسه التي يوليها، باختصار القول، شرفاً بكتاباته إلى حدّ ما، ولنقل، ابتغاءً للدقّة، إلى حدّ هيّن جدّاً، فلعلّني كنت أتجاوز ظنوني السوداء بشأن حياته الخاصّة. ولكنّه لم يكن يسافر وحده ويطلب إلى ذلك أن لا يُدعى بمعزل عن رفيقته. لست أظن أنّني أشدّ تزمّتاً من آخر غيري وربمّا استطعت، بوصفي عازباً، فتح أبواب السفارة أكثر ممّا لو كنت متزوجاً وربّ عائلة على أني أقرّ أن ثمة درجة من الخزي لا يسعني القبول بها، تزيد من القرف الذي تثيره اللهجةُ التي تجاوزت حدّ الأخلاقية، ولنقل الكلمة الفصل، اللهجة الواعظة التي يتّخذها "بيرغوت" في كتبه حيث لا تبصر سوى تحليلات مستمرّة، وطويلة بعض الشيء بالحقيقة، لوساوس أليمة وتبكيت مرضي للضمائر ومواعظ حقيقيّة (معروفة أثمانها) لهفوات بسيطة في حين يُبدي هذا القدر من اللا مبالاة والوقاحة في حياته الخاصّة. وقد تجنبت الإجابة، باختصار القول، وعاودت الأميرة الكرّة ولكن دون أن تفلح أكثر من ذي قبل، ممّا يحملني على افتراض أني لا بدَّ غير محمود السيرة لدى ذلك الشخص ولست أعلم إلى أيّ مدى قدّر لطف "سوان" في دعوته وإيّاي في الآن نفسه، إن لم يكن هو من طلب ذلك، ولا يمكن معرفة الأمر فهو مريض في الأساس. وإنمّا ذلك عذره الوحيد."

وسألت السيّد "دو نوربوا"، وقد استغللت لطرح هذا السؤال لحظة كنت أستطيع فيها، ونحن ننتقل إلى الصالة، إخفاء انفعالي على نحو أيسر ممّا كنت أفعل على المائدة وأنا لا حراك بي وتغمرني الأضواء: "هل كانت ابنة السيّدة "سوان" حاضرة في ذلك العشاء؟"

وبدا السيّد "دو نوربوا" وكأنه يحاول لحظة أن يتذكر.

- "أجل، شابة صغيرة ما بين أربعة عشر إلى خمسة عشر عاماً. أذكر بالحقيقة أنها قُدّمت لي قبل العشاء على أنها ابنة مضيفنا. سأقول لك إني رأيتها لفترة وجيزة، فقد بادرت إلى النوم في ساعة مبكرة، أو هي ذهبت لدى صديقات لها، لست أذكر تماماً. ولكني أرى أنك على تمام الاطلاع بشؤون بيت "سوان".

- "إنّي ألعب مع الآنسة "سوان" في حديقة "الشانزيليزيه"، وهي رائعة."

- "آه! ها إني أفهم! ولكنّها بدت لي أنا الآخر فاتنة. على أني أعترف لك إنني لا أظنها ستضاهي والدتها في يوم، إن وسعني أن أقول ذلك دون أن أجرح لديك عاطفة قوية."

- "إنّي أفضّل وجه الآنسة "سوان"، ولكنّني معجب جدّاً إلى ذلك بوالدتها، وأذهب للتنزّه في الغابة وبي أمل أن أراها تمرّ من هناك فحسب."

- "آه ! سأقول لهما ذلك فلسوف يروقهما الأمر جدّاً."

كان السيّد "دو نوربوا"، وهو يجود بتلك الكلمات، كان لا يزال لبضع ثوان في وضع جميع الناس الذين يظّنون، وهم يسمعونني أتحدّث عن "سوان" بوصفه رجلاً ذكيا، وعن ذويه بوصفهم صرّافين شرفاء، وعن بيته بوصفه بيتاً جميلاً، أنّني سأتحدّث كذلك راضياً عن رجل آخر في مثل ذكائه، وعن صرّافين آخرين في مثل شرفهم، وعن بيت آخر في مثل جماله ؛ إنّها اللحظة التي لم يتبّين بعد فيها رجل سليم العقل يتحدّث إلى مجنون أنّه مجنون. كان السيّد "دو نوربوا" يعلم أن ليس في متعة النظر إلى النسوة الجميلات أمر يخالف الطبيعة وأنّه من اللياقة، إمّا حدّثنا أحدهم بحرارة عن إحداهنّ، أن نتظاهر بالاعتقاد بأنّه مولع بها وأن نمازحه بذلك ونعده بمساعدة مقاصده. ولكن ذلك الرجل الخطير إذ قال إنّه سيتحدّث عنّي إلى "جيلبيرت" ووالدتها (الأمر الذي سيمكّنني، شأن إله في جبل "الأولمبوس" اتّخذ سيوبة الأنسام أو بالأحرى مظهر الشيخ الذي اتّخذت "مينيرفا" ملامحه، أن أدخل بنفسي خفيّاً إلى صالة السيّدة "سوان" وأن أسترعي انتباهها وأشغل فكرها وأستثير شكرها لإعجابي بها، وأن أظهر أمامها بمثابة صديق لرجل ذي شأن، وأن أبدو لها في المستقبل جديراً بدعوتها والدخول في خصوصيّات أسرتها) ، ذلك الرجل العظيم الشأن الذي يزمع أن يستخدم لصالحي المهابة العظيمة التي يتمتع بها في نظر السيّدة "سوان" بعث فيّ فجأة حناناً عظيماً إلى حدّ أني لقيت مشقّة في حجب نفسي عن تقبيل يديه الناعمتين البيضاوين المتغضّنتين اللتين تبدوان وكأنهما ظلّتا لفترة طويلة في الماء. وهممت بالحركة تقريباً وظننتني وحيداً في ملاحظتها. ذلك أنّه من العسير على كلّ منّا أن يحْسبَ بالضبط إلى أيّ مدى تظهر أقواله أو حركاته للغير ؛ فإنّنا نتحيّل، مخافة أن نغالي في عظمة شأننا وإذ نضخّم إلى حدود بالغة الرقعة التي يجب أن تمتدّ فوقها ذكريات الآخرين في بحر حياتهم، إنّ الأجزاء الثانوية في مقالتنا ومواقفنا تكاد لا تداخل وعي الذين نحدّثهم وهي من باب أولى لا تعلق في ذاكرتهم. وإنما ينساق المجرمون لافتراض من هذا القبيل حينما يُدخلون بعد الأوان لمسات على قول قالوه ويحسبون أنّه لا يمكن مقارنة هذه الصيغة

البديلة بأية رواية أخرى. بيد أنّه من الممكن تماماً، حتىّ فيما يخصّ حياة الإنسانية السحيقة، أن تكون فلسفة كاتب المسلسلات التي قوامها أنّ كل شيء آيل إلى النسيان أقلّ حقيقة من فلسفة مضادّة تتنبّأ ببقاء جميع الأشياء. وفي الصحيفة نفسها التي يقول لنا فيها الكاتب الأخلاقي في "باريس الأولى" عن حدث أو رائعة ومن باب أولى عن مغنية عرفت فترة من الشهرة: "من سيتذكّر ذلك بعد انقضاء عشر سنوات؟" ألا يتحدّث بيان أكاديمية النقوش في الصفحة الثالثة عن واقعة أقلّ إثارة في حدّ ذاتها، وعن قصيدة زهيدة القيمة يعود تاريخها إلى عصر الفراعنة ولا تزال معروفة بكاملها؟ وربّما لم يكن الأمر كذلك تماماً بالنسبة إلى الحياة الإنسانية القصيرة. بيد أنني بعد بضع سنوات، وفي بيت بدا لي فيه السيّد "دو نوربوا"، وكان في زيارة هناك، أقوى سند يمكن لي أن أصادفه لأنه كان صديق والدي ومتسامحاً وميّالاً إلى تمنّي الخير لنا جميعنا، وقد تعوّد فوق ذلك التكتم من جرّاء مهنته وعراقة أصله، بيد أنني، حينما نقلوا إليّ بعد ذهاب السفير أنّه أشار من طرف خفيّ إلى أمسية غابرة رأى في أثنائها "اللحظة التي أوشكت فيها أن أقبّل يديه"، لم أحمرّ خجلاً حتىّ أطراف أذنيّ فحسب بل ذهلت إذ علمت إلى أيّ حدّ كانت تختلف عمّا لعلّني كنت أعتقد لا الطريقة التي كان يتحدّث بها السيّد "دو نوربوا" عني فحسب، بل كذلك تركيبة ذكرياته. ولقد كشفت لي تلك الثرثرة عن النسب غير المتوقّعة التي تؤلّف الفكر الإنساني من سهو وحضور بديهة. من تذكّر ونسيان. لقد دهشت دهشة في مثل روعة ما أصابني يوم قرأت لأوّل مرّة في كتاب لِـ "ماسبيرو" أنّهم يعرفون بالدقّة لائحة الصيّادين الذين كان يدعوهم "أشّور بانيبال" إلى حفلات صيده منذ عشرة قرون سبقت المسيح.

وقلت للسيّد "دو نوربوا" حينما أعلن أنّه سينقل إلى "جيلبيرت" وأمّها إعجابي بهما: "آه! يا سيّدي، إن فعلتَ ذلك، إن تحدّثت عنّي للسيّدة "سوان" فلن يكفيني العمر كلّه كي أعرب لك عن امتناني ولسوف تكون حياتي ملك يديك! إلا أنّه لا بدّ لي من الإشارة إلى أنّني لا أعرف السيّدة "سوان" وأنّني لم أُقَدَّم لها في يوم."

لقد أضفت هذه الكلمات الأخيرة بداعي نزاهة الضمير وكي لا أبدو وكأنني فاخرت بعلاقة لم أحصل عليها. إلا أنني شعرت وأنا أنطق بها أنها أصبحت مذ ذاك غير مجدية لأنني رأيت، منذ أن بدأت أشكره بحرارة باردة، ملامح التردد والاستياء تمر على وجه السفير وفي عينيه تلك النظرة العمودية الضيقة المائلة، (مثلما في الرسم المنظوري لجسم صلب الخطّ المتهرّب لأحد سطوحه)، تلك النظرة الموجهة للمحدث الخفي المختبيء في صدورنا ساعة نقول له أمراً ينبغي ألا يسمعه محدثنا الآخر، السيد الذي كنا نحدثه حتى ذاك - يعني أنا بالمناسبة. وتبينت في الحال أن تلك الجمل والتي بدا لي، وهي التي نطقت بها وهي لا تزال ضعيفة في مقابل دفقات عرفان الجميل التي انتابتني، أنها لا بد ستؤثر في السيد "دو نوربوا" وتحمله في النهاية على التدخل بما يكلفه القليل من المشقة ويوليني الكثير من السرور، تبينت أنها ربما كانت (من بين سائر الجمل التي يمكن أن يبحث عنها بأسلوب شيطاني أناس يريدون بي شراً) الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى حمله على الإقلاع عن التدخل. فكمثل اللحظة التي يبدي لنا فيها فجأة مجهول تبادلنا معه بسرور انطباعات،

ربما ظنناها متشابهة، حول مارّين اتفقنا أنهم تافهون، الهوة المرضية التي تفصله عنا، إذ يضيف بلهجة لا مبالية وهو يتلمس جيبه: "من أسف أنني لا أحمل مسدسي، إذن لما بقي واحد منهم"، حسب السيد "دو نوربوا" لدى سماعها، وهو من كان يعلم أن ليس من أمر أقل ثمناً وأكثر سهولة من أن يوصى بامرئ لدى السيّدة "سوان" ويُدْخَلَ إلى بيتها، ومن رأى أن الأمر كان في نظري بالعكس عظيم الثمن وبالتالي بالغ الصعوبة ولا شك، حسب أن الرغبة التي سبق أن عبّرت عنها ؛ وهي طبيعية في ظاهرها، لابد تخفي فكرة مخالفة ومقصداً مشبوهاً وذنباً سابقاً لم يشأ أحد بسببه، وهو على يقين من تكدير السيدة "سوان"، أن يأخذ على عاتقه تبليغها رسالة عن لساني. وأدركت أنه لن ينقل تلك الرسالة في يوم، وأنه قد يستطيع مشاهدة السيّدة "سوان" يومياً وعلى مدى سنوات دون أن يحدثها لذلك مرة واحدة عني. بيد أنه سألها بعد بضعة أيام عن معلومات كنت أرغب فيها وكلف والدي أن ينقلها إليّ، ولكنّه ماظن من واجبه الإفصاح عمن كان يطلبها من أجله. فلن تعلم إذن أنني أعرف السيد "دو نوربوا" وأني أتمنى الذهاب إلى منزلها أكثر ما يكون التمني. وربما كانت تلك مصيبة أقلّ حجماً مما كنت أعتقد. فلعلّ ثاني ذينك الخبرين ما كان ليضيف على الأرجح الكثير إلى فعالّية الأوّل، والفعالية إلى ذلك غير أكيدة ؛ ذلك أن فكرة حياة "أوديت" الخاصّة ومنزلها الخاصّ إذ لا تثير لديها أيّ اضطراب خفيّ، فإن امرأً يعرفها ويتردّد إلى منزلها ما كان ليبدو في نظرها كائناً خرافيّاً مثلما كان يبدو لي أنا الذي ربمّا قذف حجراً على نوافذ عائلة "سوان" لو تسنى لي أن أخطّ عليه أنّني أعرف السيّد "دو نوربوا": فقد كنت متيقّناً أن مثل تلك الرسالة، وإن نقلت بأسلوب فظّ إلى هذا الحدّ، سوف تضفي عليّ مهابة في عيني سيّدة المنزل أكثر مما توغر صدرها عليّ. ولكنّني، حتى لو استطعت أن أتبيّن بأن المهمّة التي لم ينفّذها السيّد "دو نوربوا" إنمّا كانت ستظل فاقدة الجدوى بل هي قادرة فوق ذلك أن تلحق بي الأذى لدى عائلة "سوان"، ما كنت لأجرؤ على إعفاء السفير من أدائها، لو بدا أنّه موافق عليها، وعلى التخلي عن ملذة وجود اسمي وشخصي لفترة بالقرب من "جيلبيرت" وفي منزلها وحياتها المجهولين لديّ، مهما جاءت نتائج فعلتي مشؤومة.

وبعدما ذهب السيّد "دو نوربوا" ألقى والدي نظرة على الصحيفة المسائية ؛ وأخذت أفكرّ من جديد في "لابيرما". ذلك أنّ المتعة التي أصبتها من جرّاء الاستماع إليها كان يزيد من ضرورة استكمالها بعدها عن أن تساوي تلك التي منّيت النفس بها، فكانت لذلك تتمثل في الحال كلّ ما من شأنه أن يغذّيها كتلك الميزات مثلاً التي أقّر بها السيّد "دو نوربوا" لِ "لابيرما" والتي شربها فكري دفعة واحدة مثل مرج شديد الجفاف تصب عليه ماءً. وإذ ذاك مدّ لي والدي الصحيفة وهو يشير إلى مقال صغير حُرر على النحو التالي : "لقد كان عرض مسرحية "فيدر" الذي تمّ أمام قاعة متحمسة لوحظ فيها كبار الوجوه في عالمي الفنون والنقد، كان بالنسبة إلى السيّدة "لابيرما" التي مثّلت دور "فيدر" فرصة لنجاح باهر نَدُرَ أن عرفت أروع منه طوال حياتها الفنية اللامعة. وسوف نعيد الكرّة ونطيل حول هذا العرض الذي يؤلّف حدثاً مسرحياً حقيقياً. ويكفي أن نقول إن أفضل الحكّام الثقاة كانوا على اتّفاق للتصريح بأن مثل ذلك التمثيل إنّما يُلْبس حلّة جديدة لدور "فيدر"، وهو من أجمل ما كتب "راسين" ومن أعمقه دراسة، ويشكل أصفى وأرفع تظاهرة للفنّ تسنّى للناس

أن يشاهدوها في عصرنا. "وما إن داخلتني صورة تلك الفكرة الجديدة القائلة "بأصفى وأرفع تظاهرة للفن" حتى اقتربت هذه الفكرة من المتعة غير الكاملة التي أحسست بها في المسرح فأضافت إليها قليلاً مما كانت تفتقر إليه وألّف اقترانهما شيئاً مثيراً جدّاً إلى حدّ أنّني صرخت قائلاً: "ما أعظمها فنّانة !" ويمكن دون شك الجزم بأني لم أكن صريحاً مطلق الصراحة. ولكن دعونا نفكر بالأحرى بالعديد من الكتّاب الذين نراهم يستاؤون من المقطوعة التي فرغوا من كتابتها، فإن هم قرؤوا تقريظاً لعبقرية "شاتوبريان" أو استذكروا فنّاناً كبيراً تمنّوا أن يكونوا مساوين له، كأن "يدندنون" في داخلهم على سبيل المثال جملة لِ "بيتهوفن" يقارنون بين كآبتها وبين تلك إلى حدّ أنّهم يضيفونها إلى نتاجهم الخاصّ وهم يعودون إلى التفكير فيه فلا يرونه من بعد على نحو ما بدا لهم أوّل الأمر. ويقولون وهم يجازفون بفعل إيمان بقيمة أعمالهم الفنيّة: "لا بأس على أيّة حال !" دون أن يتبيّنوا أنهّم إنّما يقحمون في المجموع الذي يحدّد ارتياحهم الأخير ذكرى صفحات رائعة لِ "شاتوبريان" يمثّلونها بصفحات لهم ولكنّهم لم يكتبوها في نهاية المطاف. ولنذكر العديد من الرجال الذين يؤمنون بحبّ عشيقة لم يعهدوا منها سوى خياناتها، وكذلك جميع النّاس يضعون أملهم بالتناوب إمّا في استمرار للحياة لا مدرك حالما يفكرون، أزواجاً فقدوا العزاء، بامرأة فقدوها وما زالوا على حبّها، وفنّانين، بالمجد الآتي الذي يمكن أن ينعموا به، وإمّا في عدم مُطَمئِن حينما يرجع فكرهم بالعكس إلى الذنوب التي ينبغي لهم بدونه أن يكفروا عنها بعد مماتهم. ولنستذكر أيضاً السيّاح الذين يهزّهم جمال رحلة في مجملها لم يشعروا يوماً على يوم بغير الملل فيها، ولنقل إن كان في الحياة المشتركة التي تعيشها الأفكار داخل فكرنا فكرة واحدة من بين تلك التي تولينا أكبر قسط من السعادة لم تتوجّه بادئ الأمر كطفيلي حقيقي إلى فكرة غريبة ومجاورة تطلب منها أفضل ما كانت تفتقر إليه من قوّة.

ولم تبدُ والدتي راضية عن إقلاع والدي عن التفكير "بالسلك" فيما يخصّني. وأظن أن ما كانت تأسف عليه، وهمّها قبل كل شيء أن تنظّم قاعدةٌ حياتية نزوات أعصابي، إنما كان انصرافي إلى الأدب أكثر من أنّي تخلّيت عن الديبلوماسية. وصاح والدي قائلاً: "دعيك من هذا، فلا بد قبل كل شيء من أن يستمتع المرء بما يفعل. وترين أنّه لم يعد طفلاً. فهو يعلم الآن أتمّ العلم ما يحبّ ومن غير المرجّح أنّ يتغيّر، وإنّه قادر أن يتبيّن ما يجعله سعيداً في الحياة. "وبانتظار أن أصبح سعيداً أو غير سعيد في الحياة بفضل الحريّة التي تهبني إياها أقوال والدي، فقد حملت تلك الأقوال إليّ في ذلك المساء قسطاً وافراً من الغمّ. لقد بعثت فيّ على الدوام البوادر اللطيفة واللا متوقّعة لديه شوقاً بالغاً، إمّا حدثت، إلى تقبيل وجنتيه الريانتين فوق لحيته إلى حدّ أنني إن لم أَنْسَقْ وراءه فمخافة أن يستاء منّي فحسب. أمّا اليوم، فمثلما يجزع مؤلّف إذ يرى أحلامه الخاصّة التي لا ترتدي قيمة كبيرة في نظره لأنّه لا يفصلها عن ذاته تضطّر ناشراً أن يختار ورقاً ويستخدم حروفاً ربمّا كانت تفيض جمالاً عنها، كنت أتساءل إن كانت رغبتي في الكتابة أمراً مهماً إلى الحدّ الذي ينفق معه والدي هذا القدر من اللطف من جرّاء ذلك. على أنّه كان يدسّ في نفسي على وجه الخصوص ارتيابين يؤلمانني أشدّ الألم إذ يروي عن ميولي التي لن تتغيّر من بعد وعمّا كان من شأنه أن يجعل حياتي سعيدة. أمّا الأول فإن حياتي قد بدأت (في حين كنت أحسبني كلّ يوم على عتبة حياتي التي لم تمسّ بعد والتي

لن تبدأ إلا في صبيحة الغد)، بل وأكثر من ذلك أن الفترة اللاحقة فيها لن تكون كثيرة الاختلاف عمّا سبقها. وأمّا الارتياب الثاني الذي لم يكن والحق يقال سوى صيغة أخرى للأوّل فإني لم أكن قائماً خارج الزمان بل خاضع لقوانينه تماماً كمثل شخوص الروايات الذين كانوا يبعثون فيّ، من جرّاء ذلك، حزناً مماثلاً حينما كنت أقرأ سيرهم في "كومبريه" وأنا قابع في زاوية مظلّة الخيزران. إننّا نعلم نظرياً أن الأرض تدور ولكنّنا لا نتبيّن الأمر في الواقع فالأرض التي نسير عليها تبدو وكأنّها لا تتحرّك فنعيش مطمئنّي البال. ذلك هو شأن الزمان في الحياة ويضطرّ الروائيون كيما يجعلوا هروبه محسوساً أن يحملوا القارئ على اجتياز عشرة، بل عشرين، بل ثلاثين عاماً بدقيقتين وذلك بتسريع اختلاجات الإبرة على نحو جنوني. ففي أعلى إحدى الصفحات تفارق عاشقاً يعمر الأمل قلبه، وفي أسفل الصفحة التالية تلقاه في الثمانين يقوم بنزهته اليومية في باحة أحد المآوي بمشقّة بالغة، يكاد لا يجيب على الكلام الموجّه إليه وقد نسي الماضي. لقد قام والدي فجأة بإظهاري لذاتي في الزمان حينما قال عني: "لم يعد طفلاً ولن تتغير ميوله من بعد، إلخ"، وقد بعث في نفسي نوع الكآبة عينه كما لو كنت، لا ساكن المأوى الخائر القوى، بل أولئك الأبطال الذين يقول لنا عنهم المؤلف في ختام كتابه بلهجة لا مبالية تتّسم بالقسوة : "أصبح لا يفارق الريف إلا في القليل القليل وقد أقام فيه آخر الأمر بصورة نهائيّة، الخ"

بيد أن والدي قال لوالدتي، بغية استباق النقد الذي يمكن أن نوجّهه لضيفنا:

– "إني أعترف أن العم "نوربوا" كان "تقليديّاً" بعض الشيء حسبما تقولين. فقد خشيت، حينما قال إنّه ربما كان "من غير اللائق" طرح سؤال على الكونت "دو باريس" ؛ أن تأخذوا في الضحك."

وأجابت والدتي: "لا، على الإطلاق، فإني أحبّ كثيراً أنْ احتْفَظَ رجل بهذا القدر وفي هذه السنّ بهذا الضرب من البساطة الذي يبرهن فحسب عن خلفيّة من النزاهة وحسن التهذيب."

وصاح والدي، وقد أسعده أن يرى والدتي تقدّر السيّد "دو نوربوا" وشاء أن يقنعها بأنّه بعدّ فوق ما تعتقد، لأنّ المودّة تبالغ بمقدار ما تجد المضايقة متعةً في التقليل من قدر الناس: "ذلك ما أرى! على أن الأمر لا يحول دون أن يكون ناعماً وذكيّاً، إني أدرى بذلك أنا الذي يراه في اللجنة غير ما هو ههنا تماماً. كيف قال .." مع الأمراء لستَ تدري .."

– "أجل، إنّه لكذلك. لقد سبق أن لاحظت الأمر، إنّه ناعم جدّاً. وجليّ أن تجربته في الحياة عميقة."

– "غريب أنّه تناول طعام العشاء في منزل عائلة "سوان" وأنّه التقى ثمة بمختصر القول أناساً عاديّين وموظّفين. فمن أين لملمت السيّدة "سوان" هؤلاء القوم جميعاً؟"

– "تراك لاحظت الخبث الذي أبدى به الملاحظة التالية: "إنّه بيت يغشاه الرجال على وجه الخصوص"؟

وأخذ الاثنان يحاولان استعادة الطريقة التي قال بها السيّد "دو نوربوا" تلك الجملة كما لعلّهما كانا يفعلان بشأن نبرة صوت "بريسّان" أو "تيرون" في صاحبة المغامرات" أو في "صِهْر السيّد بواربيه." على أن أكثر ما استُسيغ من كلماته جميعها إنما استساغته "فرانسواز" التي ما كانت لتستطيع، بعد بضع سنوات، "أن تظل حادّة" إن ذكّروها بأن السفير احتسبها "رئيس طهاة من الطراز الأوّل"،وهو ما انطلقت والدتي تنقله إليها مثلما ينقل وزير الحربية تهاني ملك زائر بعد العرض. وكنت على أية حال قد سبقتها إلى المطبخ ؛ ذلك أنني أخذت وعداً من "فرانسواز"، وهي مسالمة ولكنها قاسية القلب، أنها لن تزيد من عذاب الأرنب الذي ستقتله ولم تبلغني أخبار عن تلك الميتة. وأكدت لي "فرانسواز" أنها انقضت على أحسن ما يرام وبسرعة كبيرة: "ما رأيت قطّ حيواناً على هذه الشاكلة، لقد مات دون أن يقول كلمة واحدة ربما خيّل إليك أنّه أبكم." ولما كنت قليل الإحاطة بلغة الحيوانات فقد تذرّعت بأن الأرنب ربما لا يصيح بقدر ما تفعل الفراريج. وقالت لي "فرانسواز" وقد أغضبها جهلي: "هيا انتظر قليلاً لترى إن كانت الأرانب لا تصيح بقدر ما تفعل الفراريج. إن صوتها أقوى بكثير. "وتقبلت "فرانسواز" ثناءات السيّد "دو نوربوا" بالاعتزاز الساذج والنظرة الجذلانة الذكية – وإن كانت مؤقتة – التي لفنان يحدثّونه عن فنّه. وكان سبق لوالدتي أن أرسلتها فيما مضى إلى بعض المطاعم الكبيرة لترى كيف يتم تحضير الطعام فيها. وشعرتُ في ذلك المساء، وأنا أسمعها تتحدّث عن أشهر المطاعم، بالمتعة نفسها التي كانت لي فيما مضى لدى اطّلاعي، فيما يخصّ الفنّانين المسرحيين، على أن تراتب مزاياهم لم يكن تراتب شهراتهم. وقالت لها والدتي: "يؤكد السفير أنّه ما من أحد يأكل في أيّ مكان لحم بقر بارداً وفطائر منفّخة شبيهة بما تقدّمين." ووافقتها "فرانسواز" القول بمظهر متواضع وبهيئة من يُكرِمُ الحقيقة، ولكن دون أن يؤثّر فيها لقب السفير. وكانت تقول عن السيّد "دو نوربوا" باللطف الذي تدين به لشخص وضعها موضع رئيس طهاة: "إنّه عجوز طيّب مثلي." صحيح أنّها حاولت أن تلمحه حينما وصل، ولكنها لما كانت تعلم أن أمي تكره أن يقف الناس خلف الأبواب أو إلى النوافذ وحسبت أنها ستعلم من الخدم الآخرين أو البوّابين أنّها ترصّدته (ذلك أنّ "فرانسواز" لم تكن تشهد في كلّ مكان سوى ضروب الحسد " و "الأقاويل" التي كانت تؤدي في مخيلتها الدور الدائم المشؤوم نفسه الذي تؤديه بالنسبة إلى بعض الآخرين دسائس اليسوعيين أو اليهود)، فقد اكتفت بالتطلّع من نافذة المطبخ "كي لا تخلق لنفسها سبباً مع سيّدتها" وظنت، لدى مرأى السيّد "دو نوربوا" السريع، أنه السيّد "لوغراندان" بسبب رشاقته ومع أنه ليس من ملامح مشتركة أية كانت بينهما وسألتها والدتي: "ولكن كيف تفسرّين أن لا يعدّ أحد الهلام بمثل جودة ما تعدّين (عندما تقصدين ذلك)؟" وأجابت "فرانسواز" : "لست أدري مما "يصبح" ذلك" (ولم تكن تقيم حدوداً واضحة تمام الوضوح بين "أتى"، في بعض معانيه على الأقلّ، و "أصبح"). وكانت تقول على أية حال، صحيح القول جزئياً، فلم تكن قادرة – أو راغبة في كشف السرّ الذي يتفوّق بها مرقها الهلاميّ أو "كريماتها" أكثر مما يتسنى لسيّدة الأناقة فيما يخصّ أثوابها أو لمغنية كبيرة فيما يخصّ غناءها. إن إيضاحاتهما لا تعلّمنا الكثير، وذلك كان شأن طاهيتنا. ثم أجابت وهي تتكلّم عن أصحاب المطاعم الكبرى: "إنّهم يلجؤون كثيراً إلى الإنضاج السريع، ثم لا يفعلون الأشياء سوّية. فلا بدّ أن يصبح لحم البقر كإسفنجة، وحينئذ يغبّ

كامل المرق حتى النهاية. بيد أنه كان ثمة واحد من تلك المقاهي يعرفون فيه إلى حدّ ما، فيما يبدو لي، إعداد الطعام. ولست أقول إنه مرقي الهلاميّ بالتمام، ولكنّه كان يعدّ على مهل." - "أهو هنري؟" يقول والدي الذي لحق بنا وكان يقدر كثيراً مطعم ساحة "غايون" حيث كان يتناول ولائم رفاقية في تواريخ محدّدة. وأجابت "فرانسواز" بعذوبة تخفي ازدراء عميقاً: "لا ، لا ! كنت أتحدّث عن مطعم صغير. الطعام طيب جداً بالتأكيد لدى "هنري" هذا، ولكنه ليس مطعماً، إنّه بالأحرى مكان شعبيّ". - "فيبير"؟ - آه ! لا يا سيدي كنت أقصد مطعماً بمعنى الكلمة. أما "فيبير" ففي شارع "رويال"، وليس مطعماً بل مشرب جعة. ولست أدري إن كان ما يقدّمونه يتمّ على موائد مجهزة وأعتقد أن ليس لديهم أغطية، فهم يقدّمون ذلك كما هو على الطاولة وكيفما تسير." - "سيرّو؟" وابتسمت "فرانسواز": "أوه ! أعتقد أن ثمة على وجه الخصوص، فيما يتصّل بالمأكولات، نساء ينتمين إلى المجتمع الراقي (والمجتمع الراقي يعني بالنسبة إلى "فرانسواز" دنيا الفجور). ولا بدّ من ذلك للشباب. "كنّا نلاحظ أنّ "فرانسواز"، بمظهر البساطة الذي تبدو فيه، "رفيقة" أكثر تصعباً فيما يخصّ مشاهير الطهاة مما يمكن أن تكون الممثّلة الأكثر حسداً وغطرسة. بيد أنّنا أحسسنا أن لديها شعوراً صحيحاً بفنّها واحتراماً للتقاليد، فقد أضافت تقول: "لا، اردت أن أقول عن مطعم يقدّم مأكولات بورجوازية طيّبة. إنّها مؤسّسة لا تزال منطقّية نوعاً ما، وكانت أعمالها رائجة ويجنون فيها الكثير من الفلوس (و"فرانسواز" المقترة تحسب بالفلوس لا بالدنانير شأن المُعْدَمين). إن سيدتي تعرفه تماماً، هناك، إلى اليمين، في الشوارع الكبرى وإلى الخلف قليلاً.." كان المطعم الذي تحدثت عنه بذلك الإنصاف الممزوج بالكبرياء وطيبة القلب يدعى.. "المقهى الإنكليزي".

حينما حلّ الأوّل من كانون الثاني قمت بادئ الأمر بزيارات عائلّية بصحبة والدتي التي سبق أن صنّفتها (مستعينة بدليل سير من وضع والدي) بالأحياء أكثر منها وفق درجة القرابة الدقيقة، وذلك كي لا ترهقني. بيد أنّنا ما كدنا ندخل صالة ابنة عم لنا بعيدة القرابة، وكان سبب ورودها أوّلاً أن منزلها ما كان بعيداً عن منزلنا، حتّى ذعرت والدتي إذ أبصرت، وفي يدها الكستنا المغلّفة بالسكّر أو المخفّاة، أفضل صديق لأكثر أعمامي حساسية. ولسوف ينقل إليه أنّنا لم نبدأ جولتنا به. سوف يجرح التصرّف بالتأكيد شعور عميّ، فلعلّه كان يجد من الطبيعي أن ننطلق من "المادلين" إلى حديقة النباتات حيث كان يسكن، قبل أن نتوقّف في محلة "سانت أوغوستان" لننطلق منها إلى شارع "المدرسة الطبية".

ولما انتهت الزيارات (وكانت جدّتي تعفينا من القيام بزيارة إلى منزلها بما أننا كنّا نتناول طعام العشاء هناك في ذلك اليوم) جريت إلى "الشانزيليزيه" أحمل لبائعتنا الرسالة التي كنت قد قررّت، منذ اليوم الذي سبّبت لي فيه صديقتي الكثير من الغمّ، أن أبعتها إليها في رأس السنة، كي تسلّمها البائعة إلى الشخص الذي كان يجيء عدّة مرّات في الأسبوع من منزل عائلة "سوان" لشراء كعك الزنجبيل، وكنت أقول لها فيها إن صداقتنا القديمة زالت مع السنة المنصرمة وإنني أنسى مآخذي وخيبات أملي وإنّنا سنبني منذ الأول من كانون الثاني صداقة جديدة متينة حتى لا يهدّمها شيء ورائعة إلى الحد الذي كنت آمل فيه أن تبدي "جيلبيرت" بعض الدلال في الحفاظ على جدّتها وأن

تحذّرني في الوقت المناسب، مثلما وعدتُ أن أفعل بدوري، حالما يداهم أقلّ خطر يمكن أن يلحق بها الأذى. ولدى العودة استوقفتني "فرانسواز" في زاوية شارع "روّيال" أمام بضائع معروضة في الهواء الطلق اختارت منها لهداياها الخاصّة في رأس السنة صوراً للبابا "بيوس" التاسع و"راسباي" واشتريت فيما يخصّني صورة لِ"لابيرما" وكانت صنوف الإعجاب التي لا حصر لها التي تثيرها الفنّانة تضفي ما يسم بالقلة ذاك المحيّا الواحد الذي تردّ به على ذلك الإعجاب، المحيّا الثابت والعابر شأن تلك الأثواب التي لأشخاص لا يملكون بديلاً لها، الذي لا تستطيع أن تبرز فيه على الدوام سوى الثنية الصغيرة الكائنة فوق الشفة العليا وارتفاع الحاجبين وبعض الخصوصيات الجسمية الأخرى التي لا تتبدّل وهي في النهاية تحت رحمة حرق أو صدمة. ولعل ذلك المحيا ما كان ليبدو لي من جهة ثانية جميلاً بذاته، إلا أنّه كان يبعث فيّ الفكرة والرغبة في تقبيله بسبب جميع القبل التي اضطرّ أن يتحمّلها والتي كان يبدو وكأنّه لا يزال يدعوها من أعماق البطاقة بتلك النظرة المغناجة الحنون وتلك الابتسامة البريئة المصطنعة. فلا بدّ أنّ "لابيرما" كانت تحسّ فعلاً إزاء الكثير من الشبّان بتلك الشهوات التي كانت تُقِر بها تحت ستار شخصيّة "فيدر" والتي كان ينبغي أن يسهم كل شيء، حتّى روعة اسمها التي كانت تزيد في جمالها وتمدّ في شبابها في جعل إشباعها سهلاً إلى ذلك الحدّ. كان المساء آخذاً في الحلول. فوقفت أمام عمود مسرح أُلصق عليه إعلان العرض المسرحي الذي تقدّمه "لابيرما" في الأوّل من كانون الثاني. كانت تهبّ ريح نديّة وخفيفة وهو طقس كنت أعرفه فانتابني إحساس وشعور مسبق بأن رأس السنة ليس يوماً يختلف عن الأيّام الأخرى وأنّه ما كان الأوّل في عالم جديد يمكنني فيه، وحظّي لا يزال كاملاً غير منقوص، أن أعود فأتعرّف بِ"جيلبيرت" كما في أوّل عهد الخليقة وكما لو لم يكن هنالك ماض بعد، وكما لو اضمحلّت خيبات الأمل التي سبّبتها لي بعض الأحيان، مع ما يمكن أن يُستَخلَص منها من علامات للمستقبل: عالم جديد لا يظلّ فيه من لقديم شيء.. فيما عدا شيئاً واحداً: رغبتي في أن تحبّني "جيلبيرت". وأدركت أنه إذا كان فؤادي يتمنىهذا التحديد من حوله في عالم لم يستجب لرغباته فإنما يعني ذلك أنّه أي فؤادي، لم يتغيّر فقلت في نفسي أن ليس ثمة من سبب يقضي بأن يتغيرّ فؤاد "جيلبيرت" بدوره. وأحسست بأن هذه الصداقة الجديدة لم تتبدل، كما لا تفصل هوة عن السنوات الأخرى تلك الجديدة التي يلقي عليها شوقي على غير علم منها اسماً مختلفاً دون أن يستطيع اللحاق بها وتبديلها. وعبثاً كنت أهدي هذه السنة لِ "جيلبيرت" وأحاول، مثلما يضعون ديانة يغطّون بها قوانين الطبيعة العمياء، طبع رأس السنة بالفكرة الخاصّة التي كوّنتها عنه، ولكن دون جدوى. كنت أحسّ أنّه لا يعلم أنّهم يدعونه رأس السنة وأنّه ينقضي في الشفق على نحو لم يكن جديداً عليّ ؛ فقد تعرّفت في الريح الخفيفة التي كانت تهبّ من حول عمود الإعلانات، لقد أحسست فيها مادّة الأيّام السالفة الأزلية المألوفة ورطوبتها المعهودة وجريانها المجهول تعود كلّها إلى الظهور.

وعدت إلى المنزل. لقد أمضيت الأوّل من كانون الثاني كالناس المسنّين الذين يختلفون عن الشباب في ذلك اليوم، لا لأنهم لا يحظون من بعد بهدايا العام الجديد، بل لأنّهم لا يؤمنون من بعد بالعام الجديد. أمّا هدايا العام الجديد فقد وصلتني، فيما عدا تلك التي من شأنها وحدها أن تفرحني والتي تؤلّفها كلمة من "جيلبيرت". بيد أنني كنت ما أزال شابّاً مع ذلك بما أنني استطعت أن أسطر

لها كلمة آمل بها، وأنا أنقل إليها أحلام وحدتي ومودّتي، أن أوقظ فيها ما يشبهها. وإنّما كآبة الذين أدركتهم الشيخوخة أنّهم حتّى لا يفكّرون بتسطير مثل تلك الرسائل التي عهدوا لا جدواها.

وحينما آويت إلى فراشي أمسك بي عن النوم ضجيج الشارع الذي يتطاول في عشية العيد تلك إلى وقت متأخّر. وأخذت أفكّر في جميع الناس الذين سيختتمون ليلهم بالملذات، بالعاشق، بفرقة الخلعاء الذين ربّما ذهبوا لاصطحاب "لابيرما" في آخر هذا العرض الذي أبصرت الإعلان عنه للمساء. وما كنت حتى أستطيع، كيما أهدئ الاضطراب الذي تبعثه تلك الفكرة فيّ في ليل الأرق ذاك، أن أقول في نفسي إن "لابيرما" ربّما لم تكن تفكّر في الحبّ بما أن الأبيات التي تقولها والتي درستها طويلاً كانت تذكرّها في كلّ لحظة أنّه لذيذ، وهو ما كانت تعلم على أيّة حال، حتى أنّها كانت تُبْرِز اضطراباته المعهودة – والتي أُكْسِبَتْ زخماً جديداً وعذوبة لا تخطر ببال – لمشاهدين مفتونين مع أنّه سبق أن خبرها كلّ منهم بنفسه وأشعلت شمعتي المطفأة لأنظر مرّة أخرى إلى وجهها. وإذ راودني أن رجالاً كانوا ولا شك يداعبونه في تلك اللحظة، رجالاً ما كنت أستطيع الحيلولة دون أن يمنحوا "لابيرما" وتمنحهم ملذّات خارقة ومبهمة، أحسست باضطراب أقرب إلى المرارة منه إلى اللذّة وبحنين جاء يزيد فيه صوت البوق مثلما يبلغ الأسماع في ليلة منتصف الصوم وفي ليلة الأعياد الأخرى في الغالب. ويبدو أكثر كآبة في انطلاقه من خمارة، لأنه لا شاعريّة فيه إذ ذاك منه "في المساء وفي أعماق الغابات". ولعلّ كلمة من "جيلبيرت" هي تلك اللحظة لم تكن ما كان ينبغي لي. فإن رغباتنا تتداخل باطّراد ويندر في فوضى العيش أن تحطّ سعادة بالضبط فوق الرغبة التي التمستها.

. ظللت أتردّد على "الشانزيليزيه" في أيام الصحو ماراً بشوارع تغمر بيوتها الأنيقة الورديّة متموّجة رقيقة، إذ الوقت فترة الرواج الكبير الذي صادفته معارض الرسّامين المائيين. ولعلّني أكذب لو قلت: إن قصور "غبرييل" إنمّا بدت لي في تلك الفترة أكثر جمالاً من الفنادق المجاورة أو هي حتى من عصر آخر غير عصرها ؛ وكنت أجد الطراز أكثر غنى وربمّا ظننت قصر "التروكاديرو" على الأقلّ، إن لم يكن قصر الصناعة، أكثر إغراقاً في القدم. كانت فترة يفاعتي، وقد غاصت في نوم مضطرب، تغمر بالحلم نفسه كامل الحيّ الذي تنقله فيه ولم يخطر لي في يوم أنّه يمكن أن يكون هناك بناء من القرن الثامن عشر في شارع "رويّال" مثلما لعلّني كنت أدهش لو علمت بأنّ بوّابة "سان مارتان" وبوّابة "سان دوني"، وهما رائعتان من عصر لويس الرابع عشر، لا تعاصران أكثر الأبنية حداثة في تلك المناطق القذرة. ولمرّة واحدة استوقفني أحد قصور "غابرابيل" طويلاً ؛ ذلك أن أعمدته، بعدما حلّ الليل، بدت وقد جردّها ضياء القمر من مضمونها المادي وكأنما اقتطعت من "الكرتون" فخلّفت في نفسي للمرة الأولى، وقد ذكرّتني بمناظر الغنائيّة الخفيفة التي عنوانها "أورفيوس في الجحيم" انطباعاً جمالياً.

ولكن "جيلبيرت" ظلّت لا تعود إلى "الشانزيليزيه"، مع أنّني كنت بحاجة إلى ملاقاتها إذ لم أعد أتذكّر حتى وجهها. إن الطريقة المتقصيّة القلقة المتطلّبة التي لنا في النظر إلى الشخص الذي نحبّه،

وانتظارنا القول الذي سيهبنا الأمل في لقاء للغد وتخيلنا المتناوب، إن لم يكن الآني، للفرح واليأس إلى حين النطق بذلك القول، إن كل ذلك يجعل انتباهنا قبالة المحبوب شديد الارتعاش حتى لا يستطيع أن يحمل منه صورة شديدة الوضوح. وربّما كان كذلك نشاط جميع الحواس في الآن نفسه الذي يحاول أن يعرف عن طريق النظرات وحدها ما هو كائن خلف حدودها، ربّما كان بالغ التساهل مع أشكال الشخصية الحيّة الألف وجميع صنوف طعمها وحركاتها، تلك الشخصية التي نجمّدها بالعادة حينما لا نحبّ. أمّا النموذج المحبوب فإنّه يهتزّ بالعكس ولا يتسنى لنا منه ألبتة سوى صور غير ناجحة. لم أعد أعرف بالحقيقة كيف خُطّت ملامح "جيلبيرت"، فيما عدا اللحظات السماويّة التي تنشرها فيها من أجلي: فما كنت أذكر سوى ابتسامتها. وكان يغضبني، فيما لا أستطيع أن أعود فأرى ذلك الوجه الحبيب، أن ألقى وجهي بائع الأحصنة الخشبية وبائعة السكّر النباتي، وجهين مذهلين لا حاجة لي بهما رسمًا في ذاكرتي بدقّة تامّة: كذلك يداخل الحنق أولئك الذين فقدوا حبيباً لا يعودون يرونه ألبتّة في نومهم أن يلاقوا دون انقطاع في أحلامهم العديد من الناس الذين لا يطيقونهم وكثير عليهم أنّهم عرفوهم في اليقظة. ويكادون يتهمون أنفسهم، في عجزهم أن يمتثلوا علّة عذابهم، بأنّهم لا يشعرون بعذاب. وما كنت أستبعد بدوري، إذ لا أستطيع تذكّر ملامح "جيلبيرت"، أنّني نسيتها وما عدت أحبّها.

وأخيراً عادت إلى اللعب في كلّ الأيّام تقريباً وهي تمنّيني بأشياء جديدة أرغب فيها وأطالبها بها في الغد، فتصنع كل يوم بهذا المعنى من مودّتي مودّة جديدة. إلا أن أمراً غيرّ مرّة أخرى وعلى نحو مفاجئ الطريقة التي يتّم بها طرح مشكلة حبيّ في حوالي الساعة الثانية من بعد ظهر كل يوم. فهل ضبط السيّد "سوان" الرسالة التي سطّرتها لابنته أم هي "جيلبيرت" تقوم بعد فترة طويلة بالإقرار أمامي بحالة أصبحت قديمة كيما أكون أوفر حذراً؟ فبينما كنت أقول لها كم كنت معجباً بأبيها وأمها اتّخذتْ ذلك المظهر الغامض الزاخر بالتحفّظات والأسرار الذي تتخذه حينما يحدّثونها عما كان عليها أن تفعله، عن جولاتها وزياراتها، وخلصت فجأة إلى القول: "تدري، إنهّما لا يطيقانك!" وانفجرت بالضحك وهي تنزلق كجنية الماء – وكذلك كانت – وغالباً ما كانت تبدو ضحكتها التي لا تتوافق وأقوالها وكأنها تصف على صعيد آخر مساحة غير مرئية على نحو ما تفعل الموسيقى. لم يكن السيّد "سوان" والسيّدة "سوان" يطالبان "جيلبيرت" بالكفّ عن اللعب معي ولكنّهما ربمّا فضّلا، فيما تظنّ، أن لم تكن ثمّة بداية. فما كانا ينظران بعين الرضى إلى علاقاتي معها ولا يحسبان أني رفيع الأخلاق ويتخيّلان أنني لا أستطيع أن أخلّف فيها سوى أثر سيئ. كنت أتصوّر هذا الصنف من الشبّان الضعيفي الذمّة الذين يظنّ "سوان" أنني أشبههم، كنت أتصوّرهم يمقتون ذوي الفتاة التي يحبّونها فيتملّقونهم في حضرتهم ولكنهم يسخرون منهم معها ويدفعونها إلى الخروج عن طاعتهم ثمّ يحرمونهم حتى رؤيتها بعدما تتمّ لهم السيطرة عليها. ولكن بأي عنف كان فؤادي يضع قبالة هذه الملامح (التي لم تكن في يوم الملامح التي يبصر فيها أعظم شقي نفسه) تلك المشاعر التي يزخر بها إزاء "سوان" وفيها على العكس من الحرارة ما لم أكن أشكّ معه أنّه لابد نادم لو ارتاب بأمرها على الحكم الذي أصدره بحقّي وكأنما على غلطة قضائية! وتجرأت أن أسطّر له كل ما كنت أحسّ به تجاهه في رسالة طويلة عهدت بها إلى "جيلبيرت" ورجوتها أن

تسلّمه إيّاها. وقبلت، فرأى فيّ، واأسفي، محتالاً أعظم ممّا كنت أحسب. لقد شكّ إذن بتلك المشاعر التي ظننت أني أرسمها على مدى ست عشرة صفحة بهذا القدر العظيم من الصدق. فلم تصادف الرسالة التي سطرتها لها، وهي في مثل حرارة الأقوال التي بحت بها للسيّد "دو نوربوا" وصدقها، نجاحاً أكبر. ورَوتْ لي "جيلبيرت" غداة ذلك اليوم، بعدما انتحت بي جانباً وراء كتلة من شجر الغار، وفي ممر صغير جلسنا فيه كلّ على كرسيّ، أنّ والدها لدى قراءة الرسالة التي أعادتها إليّ رفع منكبيه قائلاً: "كلّ ذلك لا يعني شيئاً وليس سوى البرهان على مدى الحقّ الذي أنا عليه." وقد أثار سخطي، أنا الذي كان يعلم صفاء مقاصده وطيبة نفسه، إن لم تلامس أقوالي صفحة غلطة "سوان" غير المعقولة. كنت أحسّ أنني حثت على وصف بعض المميّزات التي لا يمكن ردّها في مشاعري الكريمة إلى حدّ أنّه كان لا بد أن يكون "سوان" قد أحسّ بتلك المشاعر النبيلة في يوم بما أنّه لم يستطع أن يستعيدها في الحال انطلاقاً من تلك المميزات ولم يُقبل عليّ طالباً الصفح ومقرّاً بأنّه كان على ضلال الأمر الذي لا بدّ جعله عاجزاً عن إدراكها لدى الآخرين.

ولكن ربمّا كان "سوان" يعلم ببساطة أن كرم النفس ليس في الغالب سوى المظهر الباطن الذي تتخذه مشاعرنا الأنانية حينما لا نكون بعد قد سميناها وصنّفناها. وربمّا عرف في الميل الذي عبرّت له عنه محض نتيجة – وتوكيداً حماسياً – للحبّ الذي بي لِـ "جيلبيرت" والذي سيتمّ به حتماً – لا بالاحترام الثانوي الذي أبديه له – توجيه أفعالي فيما بعد. ما كنت أستطيع أن أشاطره تخميناته لأنّني لم أفلح في تجريد حبّي عن ذاتي وفي إدخاله في عمومية الآخرين وفي تقدير نتائجه بالتجريب. لقد حلّ بي اليأس. واضطررت أن أفارق "جيلبيرت" لفترة وجيزة، فقد استدعتني "فرانسواز". وانبغى لي أن أرافقها إلى جناح صغير مشبك بشبك أخضر يشبه إلى حدّ بعيد مكاتب "الميرة" المهجورة في باريس القديمة وقد أقيم فيه منذ قليل ما يسمونه في انكلترة "مغسلة" وفي فرنسه مراحيض من جرّاء هوس بالانكليزية هزيل المعلومات. كانت جدران المدخل الذي مكثت فيه أنتظر "فرانسواز"، وهي رطبة وقديمة، تبعث رائحة من الهواء الحبيس الرطب خففت عنّي في الحال الهموم التي بعثتها في نفسي منذ قليل أقوال "سوان" التي نقلتها إليّ "جيلبيرت" وداخلتني منها لذّة لم تكن من نمط الأخريات التي تخلّفنا أقلّ استقراراً وعاجزين عن الاحتفاظ بها وامتلاكها، بل لذة متماسكة أستطيع أن أستند إليها، لذة عذبة هادئة تزخر بحقيقة ثابتة أكيدة لا تفسير لها وددت لو أحاول، مثلما كنت أفعل بالأمس في نزهاتي من جهة "غيرمانت"، النفاذ إلى سحر ذلك الانطباع الذي تملّكني والمكوث دونما حراك أسائل ذلك الانبعاث القديم الذي كان يدعوني لا إلى الاستمتاع باللذة التي لا يقدّمها لي إلا زيادة، بل إلى النزول إلى باطن الحقيقة التي لم تكشف لي عنها. غير أن المشرفة على المحلّ، وهي سيّدة عجوز مطلّية الخدّين بشعر مستعار أصهب، أخذت في التحدّث إليّ. كانت "فرانسواز" تظنّ أنّها بالتأكيد من بلدها. لقد تزّوجت آنستها ما كانت تدعوه "فرانسواز" "شاباً من أسرة محترمة" وبالتالي رجلاً يختلف عن العامل أكثر ممّا يختلف "دوق" عن إنسان "خرج من حثالة الشعب" في نظر "سان سيمون".

لقد حلّ بالمشرفة دونما شك قبل الزواج العديد من النكسات. إلاّ أنّ "فرانسواز" كانت تؤكّد أنها مركيزة وتنتمي إلى أسرة "سان فيرّ يثول". وأشارت تلك المركيزة عليّ أن لا أظلّ في البرد. بل

هي فتحت لي أحد المراحيض وهي تقول لي: "ألا تريد الدخول؟ إليك واحداً نظيفاً جدّاً وهو مجانّي فيما يخصّك." ربمّا كانت تفعل ذلك مثلما كانت الآنسات في محلّ "غُواش"، حينما نجيء لنوصي على طلب. يقدّمن لي إحدى قطع السكاكر الموضوعة على طاولة البيع تحت أجراس زجاجية وكانت والدتي للأسف تنهاني عن قبولها. وربما فعلت أيضاً على نحو أقلّ براءة كمثل بائعة الزهور العجوز التي كانت توصيها والدتي بملء "أحواضها" والتي كانت تقدّم لي وردة وهي ترنو إليّ بلحظ مستهام. ولئن كانت "المركيزة" في جميع الأحوال تبدي ميلاً للشباب إذ تفتح لهم الباب السفليّ لتلك المكعبات الحجريّة التي يجلس فيها الرجال القرفصاء كتماثيل أبي الهول فلا بدّ أنها كانت أكثر بحثاً، عبر مظاهر كرمها، عن المتعة التي يلاقيها المرء في الظهور بمظهر المسرف الذي لا جدوى من إسرافه حيال من يحبّ أكثر منها عن أمل إفسادهم، لأنّي لم أرَ ألبتة بالقرب منها زائراً غير حارس حراجي مسنّ يشرف على الحديقة.

وبعد فترة استأذنتُ "المركيزة" تصحبني "فرانسواز". ثم تركت هذه الأخيرة لأعود بالقرب من "جيلبيرت". ولمحتها في الحال على كرسي وراء كتلة شجيرات الغار، والأمر كي لا تراها صديقاتها، فقد كنا نلعب "الغمّيضة". وبادرت إلى الجلوس إلى جانبها. كانت تعتمر قلنسوة عريضة تخفضها فوق عينيها فتزوّدهما بتلك النظرة الخفيّة الحالمة الماكرة التي شهدتها لها أوّل مرّة في "كومبريه". وسألتها إن لم تكن هنالك وسيلة يتمّ لي فيها حديث استيضاحي مع والدها. وقالت لي "جيلبيرت" إنها عرضت الأمر عليه ولكنّه حكم بلا جدواه. وأضافت تقول: "هيّا خذ، لا تدع لي رسالتك، وينبغي أن ألحق بالآخرين بما أنهّم لم يجدوني."

ولو وصل "سوان" حينذاك قبل أن أستردّها، تلك الرسالة التي كنت أرى من الجنون أن لم يدع لنفسه أن تقتنع بها، فربمّا أبصر أنّه هو من كان على حق. ذلك أني حينما اقتربت من "جيلبيرت" التي كانت تقول لي وهي مستلقية على كرسيّها أن آخذ الرسالة ولا تمدّها إليّ أحسست بجسدها يجذبني إليه بشدّة جعلتني أقول لها:

– "هيا، امنعيني عن التقاطها ونرى أينا أقوى."

فوضعتها خلف ظهرها، ومددت يديّ خلف عنقها وأنا أرفع جدائل الشعر التي ترسلها على كتفيها، إما لأن ذلك يلائم سنّها وإمّا لأن والدتها كانت تبغي إظهارها بمظهر الطفولة لفترة أطول كي ما تبدو بدورها أصغر سناً. ورحنا في عراك ينحني أحدنا على الآخر ؛ كنت أجهد في اجتذابها وهي تقاوم. كانت وجنتاها اللتان ألهبهما الجهد حمراوين مستديرتين كحبتي كرز، وكانت تضحك كما لو أني دغدغتها. كنت أشدّ عليها بين ساقيّ كشجيرة أحاول تسلّقها. وفي أثناء الرياضة التي كنت أقوم بها ودون أن يزداد، أو يكاد، اللهاث الذي يخلّفه لديّ التمرين العضلي والاندفاع في اللعب بدّدت، كمثل بضع قطرات من العرق يعتصرها الجهد، لذّتي التي لم أستطع حتىّ التوقّف فيها الزمن الكافي لأتعرّف مذاقها ؛ وفي الحال أخذت الرسالة. حينئذٍ قالت لي "جيلبيرت" برفق:

– "تدري، نستطيع، لو تشاء أن نوالي العراك قليلاً بعد."

لعلّه وافاها شعور مبهم بأنّ لعبي كان يرمي إلى غرض غير ذلك الذي أقررت به ولكنّها لم تفلح في ملاحظة أنّي بلغته. أمّا أنا الذي ساورته خشية أنها لاحظت ذلك (وقد حملتني حركة انكماش وتحفظ صدرت عن جزع وخفر لديها بعد ذلك بلحظة على الظنّ بأني لم أكن على غير حقّ في خشيتي من ذلك الأمر) فقد قبلت مولاة العراك مخافة أن يسعها الاعتقاد بأني لم أضع لنفسي هدفاً غير ذاك الذي لم تعد لديّ رغبة بعده سوى المكوث بهدوء إلى جانبها.

ولدى العودة لمحت بل تذكرت فجأة الصورة التي ظلّت مخبأة حتى ذاك والتي قربتني منها دون أن تدع لي أن أراها أو أتعرّفها رطوبة الجناح المشبك الذي تنبعث منه رائحة السخام تقريباً. كانت الصورة صورة حجرة عميّ "أدولف" الصغيرة في "كومبريه" التي كانت تنبعث منها رائحة الرطوبة نفسها. على أني لم أستطع أن أفهم وأجّلت إلى ما بعد البحث عن السبب الذي وهبتني من جرّائه استعادةُ صورة تافهة إلى هذا الحدّ مثل تلك السعادة. وبانتظار ذلك بدا لي أني كنت أستحقّ بالحقيقة ازدراء السيّد "دو نوربوا": فقد فضّلت حتى الآن على جميع الكتّاب ذاك الذي كان يدعوه محض "عازف ناي" وداخلتني حماسة حقّة لا من جرّاء فكرة هامّة، بل من جرّاء رائحة عفونة.

كانت الأمّهات منذ وقت قليل وفي بعض الأسر يصغين إلى اسم "الشانزيليزيه"، إن نطق به أحد الزائرين، بمظهر الاستياء الذي يخصصن بها طبيباً ذائع الصيت يدّعين أنّه قام بالعديد من التشخيصات الخاطئة حتى يستطعن الوثوق بعد به. فهنالك من كان يؤكّد أن تلك الحديقة لا تلائم الأطفال وأنّه يمكن التنويه بأكثر من مرض حنجرة وأكثر من مرض حصبة وبالعديد من صنوف الحمى التي تقع على مسؤوليته.

كانت بعض صديقات والدتي يأسفن، دون التشكيك تشكيكاً صريحاً بحنانها إذ توالي إرسالي إلى هناك، يأسفن لتعاميها على الأقلّ.

ربمّا كان مرضى الأعصاب على الرغم من العبارة المكرسة، أقلّ من "يصغون إلى ذواتهم": فإنهم يسمعون في داخلهم الكثير من الأشياء التي يتبيّنون فيما بعد أنهم أخطأوا في التخوّف منها إلى حدّ أنهم لا يعيرون في النهاية أيا منها انتباههم. فكثيراً ما صاحت بهم جملتهم العصبيّة تقول: "النجدة!" وكأنما لمرض خطير في حين يقتصر الأمر فحسب على سقوط الثلج أو الإقبال على تغيير الشقّة السكنيّة حتى إنهم يتعوّدون أن لا يأخذوا بالحسبان تلك التحذيرات أكثر مما يفعل جنديّ لا يتبيّنها في حمّى القتال إلا قليلاً جداً حتى إنّه يستطيع وهو في طور الموت أن يظلّ بضعة أيّام يعيش حياة رجل بتمام عافيته. وذات صباح أسرعت فيه جذلان إلى غرفة الطعام حيث كان يجلس والداي إلى المائدة، وأنا أجمع في صدري صنوف انحراف صحّتي المألوفة التي كنت أُعرض على الدوام بفكري عن مسيرتها المستمرّة الخفيّة، - وإذ قلت في نفسي كالمعتاد إنّ التعرّض للبرد يمكن أن يعني لا وجوب التماس الدفء بل على سبيل المثال التأنيب على أمر ما، وإنّ قلّة الإحساس بالجوع إنمّا تعني المطر الوشيك لا وجوب الامتناع عن الطعام - وجلست إلى المائدة حين استوقفني، لدى ابتلاعي أول لقمة من ضلع شهيّ، غثيان ودوار كانا الردَّ المحموم لبدايات مرض حجبت مرآه لا

مبالاتي وأخرت أعراضه ولكنّه كان يرفض بعناد الغذاء الذي لم يكن بوسعي ابتلاعه. إلا أن فكرة منعي من الذهاب إن تبيّن أحدهم أنني كنت مريضاً زوّدتني إذ ذاك وفي الثانية نفسها، مثلما غريزة البقاء تزود الجريح، بالقوّة للزحف حتى غرفتي حيث رأيت أن حرارتي بلغت ٤٠° ثمّ للاستعداد من أجل الذهاب إلى "الشانزيليزيه". كان فكري الجذل يبادر، من خلال الجسد الواهن المهلهل الذي يحيط به، إلى اللحاق بالمتعة الحلوة التي أجنيها من لعبة الزوايا مع "جيلبيرت" ويطالب به، وبعد ساعة كانت لا تزال لديّ القوّة لتذوّقها، وأنا أكاد لا أقف على رجليّ ولكنّي سعيد إلى جانبها.

وصرّحت "فرانسواز" لدى عودتنا أنيّ أصبت بوعكة وأني لا بدّ ألم بي "شوب وبرد"، وصرّح الطبيب، وقد استُدعي للحال، أنه يفضّل قسوة هجمة الحمّي التي كانت ترافق الاحتقان الرئويّ وعنفها، ولن تكون سوى "نار في الهشيم"، على أشكال أكثر خداعاً وخفاءً. كنت أعاني منذ زمن طويل اختناقات وقد أشار عليّ طبيبنا، على الرغم من استنكار جدّتي التي كانت تراني مذ ذاك أموت من جرّاء الإدمان، أن أتناول، بالإضافة إلى القهوين التي سبق أن وُصفَت لي لتساعدني على التنفّس، البيرة أو الشامبانيا أو الكونياك حينما أشعر باقتراب النوبة. وسوف تحبط هذه الأخيرة، على حدّ قوله، في النشوة الناجمة عن الكحول. وغالباً ما اضطررت، كيما تسمح جدّتي بأن أعطي شيئاً منه، ألاّ أخفي حالة الاختناق التي تصيبني بل أن أتباهى تقريباً في إظهارها. وما إن كنت أحسّ على أيّة حال باقترابها، وأنا غير أكيد على الدوام من الحجم الذي قد تتخذه، حتى كان يساورني القلق من جرّاء حزن جدّتي الذي كنت أخشى منه أكثر من عذابي. بيد أن جسمي كان يحيجني، إمّا لأنّه أضعف من أن يحفظ وحده سرّها، وإمّا لخشيته من أن يطالبوني، وهم يجهلون المرض الوشيك، بجهد يستحيل عليه أو يشكّل خطراً عليه، إلى إعلام جدّتي بمتاعبي بدقة كنت أنتهي إلى تضمينها نوعاً من الوسواس الفيزيولوجي. فما إن أحسّ بأحد الأعراض المزعجة الذي لم يتمّ لي بعد تبيّنه حتى يحيق الضيق بجسمي طالما لم أفضِ به إلى جدّتي. فإن تظاهرتْ بأنها لا تعيره أيّ انتباه طلب مني الإلحاح، فذهبت أحياناً إلى أبعد مما ينبغي، ويبدو على الوجه الحبيب الذي لم يعد على الدوام سيّد انفعالاته مثل ما كان بالأمس لمحات إشفاق وانقباض مؤلم. حينئذ كان فؤادي يتعذّب من جرّاء الأسى الذي بها: وكما لو انبغى أن تزيل قبلاتي ذاك الأسى، وكما لو استطاع حناني أن يهبها من المسرّة بمقدار ما تفعل سعادتي ارتميت بين ذراعيها. ولما هدأت وساوسي من جهة أخرى من جرّاء يقيني بأنها كانت تعرف الانحراف الذي أعاني منه، لم يعد جسمي يقاوم مسعاي إلى طمأنتها.
وكنت أعترض بأن هذا الانحراف لم يكن على شيء من الألم وأن ليس ما يدعو إلى الرثاء بحالي وأنها تستطيع أن تكون على يقين من أنّي سعيد. لقد شاء جسمي أن ينال بالضبط ما يستحقّ من أن أعلن بأن ذلك الألم لم يكن داءً ولا يؤلّف بالنسبة إليّ عائقاً للسعادة لأنّ جسمي لا يدّعي الفلسفة فليست من اختصاصه. وتعرّضت كلّ يوم تقريباً لنوبات الاختناق تلك في أثناء نقاهتي. وذات مساء تركتني فيه جدّتي حسن الحال إلى حد ما عادت إلى غرفتي في وقت متأخر جداً من السهرة وإذ لاحظت أن أنفاسي ضاقت صاحت وقد انقلبت ملامح وجهها: "آه! يا إلهي، كم تتعذّب". وفارقتني في الحال، وسمعتُ صرير البّوابة، وعادت بعد ذلك بقليل تحمل الكونياك الذي بادرت إلى شرائه لأنّه كان مفقوداً في بيتنا. وأخذت بعد قليل أشعر بالسعادة. كانت تبدو جدّتي

وقد كستها الحمرة، في ضيق، وفي عينيها ما يوحي بالتعب والفتور. وقالت لي وهي تفارقني على نحو مفاجئ: "أفضّل أن أدعك وأن تفيد قليلاً من هذا التحسّن". إلاّ أنّي عانقتها وأحسست على وجنتيها النضرتين ما يشبه البلل ولم أعلم إن كان ذلك رطوبة هواء الليل الذي مرّت عبره. وفي الغد لم تجئ إلى غرفتي إلا مساءً إذ كان عليها أن تخرج فيما قيل لي. ورأيت أنّها تبرهن بذلك عن الكثير من اللامبالاة نحوي وتمالكت كي لا ألومها على ذلك.

ولما توالت اختناقاتي في حين لم يعد يفسّرها الاحتقان الرئوي الذي زال منذ مدّة طويلة أرسل أهلي في طلب الأستاذ "كوتار". وليس يكفي طبيباً يُستَدْعَى في حالات من هذا القبيل أن يكون متعلّماً. فإذ يقف قبالة أعراض يمكن أن تعود لثلاثة أو أربعة من الأمراض المختلفة فإن بصيرته ونظرته الثاقبة هما اللتان تقرّران في نهاية المطاف مع أيٍّ منها يمكن أن يسعفه الحظّ باللقاء على الرغم من المظاهر المتشابهة تقريباً. هذا ولا تقتضي هذه الموهبة الخفيّة أيّ تفوق في أقسام العقل الأخرى إذ يستطيع شخص عاميّ جداً يحبّ أسوأ أنواع الرسم وأردأ الموسيقى ولا يتمتع بأي فضول فكري أن يمتلكها تماماً. فما كانت ملاحظته ممكنة على الصعيد المادي في حالتي كان يمكن أن تسبّبه على حدّ سواء تشنّجات عصبيّة أو بدايات سلّ أو الربو أو اختناق ناجم عن تسمّم غذائي يرافقه قصور في الكليتين أو التهاب القصبات المزمن أو حالة معقّدة قد تدخل فيها عدّة من تلك العوامل. ففي حين تقتضي التشنّجات العصبيّة أن تؤخذ بالازدراء يقتضي السلّ عناية كبيرة ونوعاً من زيادة التغذية ربّما أضرّ بحالة من نوع التهاب كالربو وأمكن أن يكون خطراً في حالة الاختناق الناجمة عن تسمّم غذائي والتي تتطلّب حمية هي على العكس وخيمة العاقبة بالنسبة إلى مسلول. ولكن تردّد "كوتار" كان قصيراً وجاءت تعليماته ملحّة: "مسهلات عيفة وسريعة، ثم الحليب على مدى بضعة أيّام، الحليب فقط. لا لحم ولا كحول". وتمتمت والدتي: إنني كنت على العكس بحاجة تجديد قواي وإنني كنت عصبيّاً بما فيه الكفاية وأن هذا المسهل الجدير بحصان وهذه الحمية سوف يذهبان بقواي. ورأيت في عيني "كوتار"، وهما في مثل القلق الذي قد يصيبه لو أنّه خشي أن يفوته القطار، أنّه كان يتساءل إن هو لم ينسق وراء طيبته الطبيعية. كان يحاول أن يتذكر إن هو فكر في اتّخاذ قناع الجفاء، مثلما يبحث المرء عن مرآة لينظر إن لم ينسَ عقد ربطة عنقه. وإذ كان في شك أجاب بفظاظة: "لم أتعوّد أن أكرّر أوامري مرّتين. إليّ بريشة. وألح على الحليب. وبعدما توقف النوبات والأرق، بعد ذلك أوافق على أن تتناول بعض الحساء ثم مسحوق البطاطا مع الالتزام على الدوام بالحليب، بالحليب. وسوف يروقك ذلك بما أن "الحليب خير طبيب". (وكان تلاميذه يعرفون تمام المعرفة هذا المثل الذي ينادي به في المستشفى في كل مرة يوصي فيها مريضاً بالقلب أو الكبد بالتزام حمية الحليب.) وبعدها تعود بالتدريج إلى الحياة المعتادة. ولكن، في كل مرّة يعاودك فيها السعال والاختناق عليك بالمسهلات وغسل الأمعاء والفراش والحليب. " وأصغى ببرود شديد إلى اعتراضات أمي الأخيرة، ولما فارقنا دون أن يتنازل بشرح أسباب تلك الحمية حكم والداي أن لا علاقة لها بحالتي وأنّها تضعفني دون جدوى فلم يدعا لي أن أجربّها. وحاولا بالطبع أن يخفيا على الأستاذ خروجهما على طاعته وتجنّبا، كيما يفلحا في الأمر على نحو أكيد، جميع البيوت التي قد يلاقيانه فيها. ثم قرّر القوم، وقد تفاقمت حالتي، أن أتبع أوامر

الدكتور "كوتار" بالحرف، ولم يطلّ بي بعد انقضاء ثلاثة أيّام حشرجة أو سعال وأخذت أتنفس على ما يرام. حينئذ أدركنا أنّ "كوتار" قد ميّز أن ما كان يغلب عليّ آنذاك إنمّا هو التسمّم وأنّه بإسالة الكبد وغسل الكليتين سوف يزيل احتقان القصبات ويرد لي النّفس والنوم والقوى، مع أنّه وجدني، مثلما قال فيما بعد، مصاباً بالربو و "واقعاً في الغرام" على وجه الخصوص. وأدركنا أن هذا المخبول كان طبيب سريريات عظيم. واستطعت أخيراً أن أنهض على قدميّ. إلاّ أنهم أخذوا يتحدّثون عن التوقف عن إرسالي إلى "الشانزيليزيه"، وكنت أحسب أنّهم يستغلّون الحجّة كي لا أستطيع من بعد ملاقاة الآنسة "سوان" فكنت أرغم نفسي على ترداد اسم "جيلبيرت" شأن اللغة الأمّ التي يجهد المغلوبون في المحافظة عليها كي لا ينسوا الوطن الذي لن يروه ثانية. وكانت أمي تمرّر يدها أحياناً على جبيني وهي تقول لي:

- "ألا يروي الصبية الصغار لأمّهم من بعد عن الغم الذي بهم؟"

وكانت "فرانسواز" تقترب مني كلّ يوم وهي تقول لي:

"أيّة سحنة أرى لسيّدي! ها إنّك لم تنظر إلى نفسك.، لكأني بك من الأموات!" صحيح أني لو اصبت بمحض زكام لاتّخذت "فرانسواز" الهيئة الجنائزية نفسها. وكان إشفاقها يعود إلى" "طبقتها" أكثر منه إلى حالتي الصحيّة. ولم أميز حينئذ إن كان ذلك التشاؤم يرتدي لدى "فرانسواز" طابع لألم أو الرضى، وخلصت مؤقتاً إلى أنّه اجتماعي ومهني.

وذات يوم وضعت أمّي على سريري، ساعة ورود البريد، رسالة. وفضضتها وأنا ساهٍ عنها بما نّها لا يمكن أن تحمل التوقيع الذي يستطيع وحده أن يجلب لي السعادة، توقيع "جيلبيرت" التي لم عد تربطني بها علاقة خارج "الشانزيليزيه". بيد أنّني إنّما أبصرت، في أسفل الورقة التي طُبِعَتْ خاتم فضّيّ يمثل فارساً بخوذة يستدير تحته هذا الشعار: "Per vaim rectam"(*)، تحت رسالة خطّت حروف كبيرة وبدت فيها جميع الجمل على وجه التقريب وكأنما وضع تحتها خطّ لمجرّد أنّ خطّ حرف "t" كان وارداً فوقه عوضاً عن أن يقطعه فيضع بذلك خطاً تحت الكلمة المقابلة في السطر لأعلى، أبصرت بالضبط توقيع "جيلبيرت". على أن تلك الرؤية التي لا يرافقها اليقين لم تسبّب لي يّة مسرّة لأنني كنت أعلم أنّها مستحيلة في رسالة موجّهة إليّ. ولم يكن منها على مدى لحظات سوى أنّها طبعت باللاواقع كلّ ما كان من حولي. لقد أخذ هذا التوقيع الذي لا يمكن تصديقه يلعب عبة الزوايا الأربع مع سريري وموقدي وجداري بسرعة مدوّخة. أخذت أرى كلّ شيء يترنّح شأن ن يسقط عن ظهر جواد وأسائل نفسي إن لم يكن ثمة حياة مختلفة تماماً عن تلك التي أعرفها مناقضة لها وتكون هي الحقيقة وقد أبرزت لي فجأة فملأتني بتلك الحيرة التي أضفاها النحّاتون لذين وصفوا يوم الحساب على الأموات وهم يستفيقون على عتبة العالم الآخر. وقد جاء في الرسالة ا يلي: "صديقي العزيز، لقد أخبرت أنّك مرضت مرضاً شديداً وأنك لم تعد تأتي إلى

(*) باللاتينية ويعني : "من الطريق القويمة".

"الشانزيليزيه". وأنا بدوري لم أعد أذهب إلى هنالك تقريباً لأنّ ثمة عدداً ضخماً من المرضى. ولكنّ صديقاتي يأتين لتناول "العصرونية" كلّ اثنين وكل جمعة في منزلنا. وقد كلفتني والدتي أن أقول لك إنّك تولينا سروراً عظيماً بمجيئك أنت أيضاً حالما تستردّ العافية وبوسعنا أن نعود في البيت إلى أحاديثنا الطيبة في "الشانزيليزيه". إلى اللقاء أيها الصديق العزيز، وآمل أن يسمح لك والداك بالمجيء كثيراً لتناول العصرونية، وأبعث إليك بكل عواطف الصداقة."جيلبيرت".

وفيما كنت أقرأ تلك الكلمات كانت جملتي العصبية تأخذ بسرعة مذهلة الخبر الذي مفاده أن سعادة عظيمة تحلّ بي. ولكنّ روحي، يعني أنا بذاتي والمعنيّ الرئيسي بالأمر بوجيز العبارة، كانت لا تزال جاهلة بها فالسعادة، السعادة على يد "جيلبيرت"، إنما كانت أمراً فكرت فيه تفكيراً مستمراً، أمراً كلّه من دنيا الأفكار، كانت "شيئاً ذهنياً"(*)، حسبما يقول "ليوناردو" عن الرسم. إن أمر ورقة تغطيها الحروف أمر لا يتمثّله الفكر في الحال ولكن ما إن أتيت على آخر الرسالة حتى فكّرت فيها وأصبحت موضع أحلام، أصبحت هي الأخرى "شيئاً ذهنياً" وأخذت مذ ذاك أحبّها حتى أضحى من الضروري أن أعيد قراءتها وأقبّلها. حينئذ عرفت سعادتي.

والحياة مزروعة بتلك العجائب التي يستطيع أولئك الذين يحبّون أن يأملوها على الدوام. من الممكن أن تكون هذه الأخيرة قد سبّبتها على نحو مصطنع والدتي التي أرسلت تطلب من "جيلبيرت"، بعد ما رأت أنّني فقدت منذ حين كلّ رغبة في الحياة، أن تكتب لي، مثلما كانت، في زمن أوّل عهدي بالسباحة، تسلّم مرشدي السبّاح خفية، كيما أستمتع بالغطس الذي كنت أكرهه لأنه يقطع عليّ أنفاسي، علباً رائعة صنعت من الأصداف وأغصاناً من المرجان كنت أظنّ أنّي أجدها بنفسي في قاّع المياه. على أنّ الأفضل بالنسبة إلى جميع الأحداث التي تتعلق بالحب، في الحياة وأوضاعها المتناقضة، أن لا نحاول الفهم لأنّها تبدو بطابعها الذي لا يرحم وغير المؤمّل على حد سواء وكأنّما تحكمها قوانين سحرّية أكثر منها عقلانية. فحينما يتّفق لصاحب الملايين الكثيرة، وهو على ذلك رجل ظريف، أن تصرف المرأة الفقيرة العديمة الظرف التي يعيش وإياها، ويستعين في خضمّ يأسه بجميع قوى الذهب ويلجأ إلى جميع مؤثرات الأرض دون أن يفلح في أن يُستعاد فخير له أن يفترض، حيال عناد عشيقته الذي لا يلين، أن القدر يبغي إنهاك قواه وأن يورده الموت بآفة قلبية من أن يبحث عن تفسير منطقيّ. وإن تلك العقبات التي ينبغي للعاشقين أن يكافحوها والتي يحاول خيالهم الذي ألهبه العذاب استشفافها دون جدوى إنّما تكمن أحياناً في بعض وجوه غرابة طباع المرأة التي لا يستطيعون استردادها، في غبائها، في النفوذ الذي يسطه عليها أشخاص لا يعرفهم العشيق وفي المخاوف التي يوحون بها إليها، في صنف المتع التي تطالب بها الحياة في ذلك الحين، تلك المتع التي لا يستطيع عشيقها، ولا ثروة عشيقها تستطيع أن تقدمها لها. والعشيق في جميع الأحوال في موقع سيئ كيما يعرف طبيعة العقبات التي تخفيها عنه حيلة المرأة والتي يحول تقديره الذي أفسده الحب دون قدرها قدراً دقيقاً. إنّها تشبه تلك الأورام التي يتوصّل الطبيب إلى قهرها

(*) Cosa mentale

ولكن دون أن تتم له معرفة منشئها وكمثلها تظلّ تلك العقبات خفيّة ولكنّها مؤقّتة. بيد أنّها تدوم بعامّة أكثر من الحبّ. ولما لم يكن هذا الأخير هوى يتسم بالتجرّد، فإن المحّب الذي لا يحبّ من بعد لا يحاول أن يعلم لماذا رفضت المرأة الفقيرة اللعوب التي أحبّها، لماذا رفضت بعناد على مدى سنوات أن يمضي في الإنفاق عليها.

والسرّ ذاته الذي غالباً ما يحجب عن الأبصار سبب الكوارث إنّما يلفّ، في قضايا الحبّ، فجائيّة بعض الحلول السعيدة بنسبة التكرار ذاتها (من مثل الحلّ الذي جاءتني به رسالة "جيلبيرت"). تلك حلول سعيدة، أو هي على الأقلّ كذلك تبدو، لأنّه ليس منها على وجه التقريب ما كان بالحقيقة على ذلك النحو حينما يكون الأمر أمر شعور من نوعيّة لا تفضي بتلبيته بعامّة إلا إلى تبديل مطرح العذاب. بيد أنّه يتّفق أحياناً أن يحظى المرء بهدنة ويتوهم بعض الوقت أنّه قد شفي.

أمّا فيما يخصّ هذه الرسالة التي أبت "فرانسواز" أن تتعرّف في أسفلها إلى اسم "جيلبيرت" (Gilberte) لأن حرف "G" المنمّق المتكئ على "I" غير منقوط كان يبدو وكأنه "A" فيما مُدَّ المقطع الأخير إلى مالا حدود من جرّاء توقيع متكسّر الخطوط، فإن اهتم المرء بالبحث عن تفسير عقلاني للتحول الذي كانت تترجمه وكان يبعث فيّ هذا القدر من السرور فربمّا استطاع الظنّ بأنّي مدين في قسم منه لحادثة كنت ظننت بالعكس أن من شأنها أن تقضي عليّ إلى الأبد في ذهن أسرة "سوان". ذلك أن "بلوك" جاء ليعودني قبل ذلك بقليل في حين كان الأستاذ "كوتار" الذي دَعَوْتُ للعودة منذ أن أخذت في اتباع الحمية التي فرضها عليّ لا يزال في حجرتي. ولمّا انتهت الاستشارة وظلّ "كوتار" بمثابة زائر فحسب لأنّ والديّ احتفظا به للغداء فقد سُمِحَ لِ "بلوك" بالدخول. وفيما كنّا جميعنا نتبادل الحديث وإذ روى "بلوك" أنّه سمع أنّ السيّدة "سوان" تحبّني كثيراً وذلك على لسان شخص تناول معه البارحة طعام العشاء وهو وثيق الصلة بالسيّدة "سوان" وددت لو أجيبه بأنّه مخطئ بالتأكيد وأن أثبت، بداعي الدقّة نفسها التي حملتني على التصريح بالأمر للسيّد "دو نوربوا" ومخافة أن تحسبني السيّدة "سوان" كاذباً، أني ما كنت أعرفها ولم أتحدّث إليها في يوم. ولكنّي لم أملك الجرأة لتصويب خطأ "بلوك" لأنني أدركت تماماً أنه مقصود وأنه إن اختلق أمراً لا يمكن بالتأكيد أن تكون السيّدة "سوان" قالته فكيما تُعْلن أنه تناول طعام العشاء إلى جانب إحدى صديقات تلك السيّدة، الأمر الذي كان يحتسبه مدعاة للزهو ولم يكن صحيحاً. وقد اتّفق أنه فيما احترس السيّد "دو نوربوا"، وقد علم أني لا أعرف السيّدة "سوان" ووددت لو أعرفها، أن يحدّثها عني، حسب "كوتار"، وقد اتخذته طبيباً لها، حسب، بعدما استخلص مما سمع على لسان "بلوك" أنها تعرفني تمام المعرفة وتقدرني، أنه إن قال حينما سيراها إنني شاب ظريف يرتبط معه بصداقة فلا يمكن أن يفيدني ذلك في شيء ويكون مدعاة لزهوه، وهما سببان حملاه على أن يروي عني لِ "أوديت" حالما سنحت له الفرصة.

حينذاك عرفت تلك الشقة التي كان يفيض منها حتى الدرج العطر الذي كانت تستخدمه السيّدة "سوان"، وإنما كان يعطرها أكثر من ذلك السحر الخاص المؤلم الذي ينبعث من حياة "جيلبيرت".

فقد تعود البواب المتصلب، بعدما استحال ربة انتقام عطوفاً، حينما كنت أسأله إن كان بوسعي أن أصعد، تعود أن يشير إليّ، وهو يرفع قبعته بيد رفيقة، أنه يستجيب لرجائي. والنوافذ التي كانت تضع من الخارج بيني وبين الكنوز التي لم تكن معدة لي نظرة براقة متعالية سطحية تبدو لي وكأنها نظرة آل "سوان" ذاتها، تلك النوافذ اتفق لي، بعدما أكون قضيت في فصل الصيف كامل بعد الظهر بصحبة "جيلبيرت" في حجرتها، أن أفتحها بنفسي لأفسح لبعض الهواء أن يدخل، وأن أطلّ منها إلى جانبها، إن كان يوم استقبال والدتها، لأشاهد وصول الزائرين الذين غالباً ما كانوا يرفعون رؤوسهم لدى نزولهم من العربة فيحيونني بأيديهم إذ يحسبونني من أبناء أشقاء سيدة البيت. كانت تبدو جدائل "جيلبيرت" تلامس خدي في تلك اللحظات. لقد كانت تبدو لي في نعومة نجيلها، وهو طبيعي في آن واحد، وفي زخم تكوراتها الفنية قطعة فريدة استخدم فيها نجيل الفردوس نفسه. فأي معشب سماوي كنت أعطيه مِذْخَرَةً لقسم زهيد منها؟ ولكن لو أمكنني على الأقل امتلاك صورة لها أثمن لديّ بكثير من صورة زهيرات رسمتها يد "دافنشي"! وقد أقدمت، بغية الحصول على واحدة لدى أصدقاء لعائلة "سوان" وحتى لدى مصورين، على دناءات لم تزودني بما كنت أريد ولكنها ربطتني بصداقات دائمة مع أناس مزعجين إلى حد كبير.

أما والدا "جيلبيرت" اللذان منعاني فترة طويلة جداً أن أراها فقد كانا الآن – حينما أدخل إلى الردهة التي ترفرف على الدوام في جنباتها إمكانية لقائهما وهو أشد رهبة وأوفر اشتهاء من ظهور الملك في "فيرساي" بالأمس وحيث كنت أبالغ عادة، بعدما أصطدم بمشجب له سبعة فروع كشمعدان الكتاب المقدس، بتكرار التحيات أما خادم يجلس بتنورته الرمادية الطويلة فوق الصندوق الخشبي، خادم حسبته في العتمة السيّدة "سوان"، – كان والدا "جيلبيرت"، إن اتفق أن مر أحدهما لحظة وصولي، يشدان على يدي وهما يبتسمان ويقولان لي، وما أبعد أن يبدوا بمظهر الغاضب: "كيف حالك" (ويلفظانها دونما حركة على "الكاف" (كيف حَالْكْ) تلك الحركة التي كان من المنطقي لدى عودتي إلى المنزل أن أقوم بتدريب مستمر وممتع كيما أزيلها).

أضف إلى ذلك "العصرونيات" نفسها التي كانت "جيلبيرت" تقدمها لأصدقائها والتي بدت لي فترة طويلة على أنها أعسر الحواجز التي تفصل بينها وبيني، وقد أصبحت الآن مناسبة تجمع بيننا وتعلمني بها بكلمة تكتبها (إذ كنت لا أزال صديقاً حديث العهد) على ورق مراسلات يختلف كل مرة. فمرة يزينه كلب صغير أزرق يبرز فوق تعليق ساخر كتب بالإنكليزية وذُيِّلَ بعلامة تعجب، وأخرى تطبعه مرساة بحرية أو الحرفان G.S وقد امتدا امتداداً عظيماً داخل مستطيل يشغل كامل طول الورقة، أو اسم "جيلبيرت" وقد خط تارة بالمقلوب بإمضاء مختصر تحت ممطرة مفتوحة طبعت باللون الأسود وطوراً احتجز داخل مُشَبّكة على شكل قبعة صينية تحوي سائر حروفه وقد كتبت بحرف كبير دون أن يتسنى لك تمييز حرف واحد منها. ولما لم تكن مجموعة أوراق الرسائل التي في حوزة "جيلبيرت" غير محدودة فقد كنت أشاهد من جديد بعد مضي عدد من الأسابيع الورقة التي كانت كالمرة الأولى التي كتبت إليّ فيها تحمل الشعار التالي: "Per viam rectam" تحت الفارس الذي يعتمر خوذة داخل ميدالية من الفضة الكامدة اللون. وكان يتم اختيار

كل ورقة في هذا اليوم دون الآخر بمقتضى بعض الطقوس فيما كنت أحسب آنذاك، ولكنه فيما أعتقد الآن كان يتم بالأحرى لأنها كانت تحاول تذكر الأوراق التي استخدمتها في المرات الأخرى حتى لا تبعث في يوم بالورقة نفسها لأحد مراسليها إلا في فترات متباعدة أكثر ما يمكن التباعد، أقله بالنسبة إلى الذين كانت تكلف نفسها بعض العناء من أجلهم. ولما كانت بعض الصديقات اللواتي تدعوهن "جيلبيرت" إلى تلك "العصرونيات" يضطررن بسبب اختلاف ساعات الدروس إلى الذهاب حال وصول الأخريات، فقد كنت أسمع ما إن أبلغ الدرج همس أصوات ينبعث من الردهة ويقطع فجأة، وسط الانفعال الذي يسببه لي الاحتفال المهيب الذي أزمع أن أحضره وقبلما أبلغ صحن الدرج، الروابط التي كانت تربطني بعد بالحياة السابقة ويسلبني حتى التذكر بأنه ينبغي لي أن أنزع لفاع عنقي بعدما أحس بالدفء وأن أنظر إلى ساعتي كي لا أعود متأخراً. كان يبدو لي ذلك الدرج، على أي حال، وكله من خشب على نحو ما كان يتم حينذاك في بعض البيوت المعدة للاستثمار من طراز "هنري الثاني" الذي ظل فترة طويلة مثل "أوديت" الأعلى فأصبحت قريبة الرجوع عنه، ويحمل لافتة لا مقابل لها في بيتنا تقرأ عليها هذه الكلمات: "يمنع استعمال المصعد للنزول"، كان يبدو لي شيئاً بلغ حداً من المهابة جعلني أقول لذويّ إنه درج عتيق جاء به السيّد "سوان" من بعيد جداً. لقد كان ولعي بالحقيقة عظيماً إلى الحدّ الذي ما كنت لأتردّد معه في تزويدهم بتلك المعلومات حتى لو علمت أنها خاطئة لأنها وحدها التي تمكنهم من إبداء الاحترام نفسه الذي أبديه حيال مهابة درج عائلة "سوان". كذلك يخيل إليك أنك تحسن فعلاً، إزاء جاهل لا يستطيع أن يدرك قوام عبقرية طبيب كبير، بامتناعك عن الإقرار بأنه لا يعلم كيف يشفي الزكام. ولما كنت لا أتمتع بروح الملاحظة أية كانت وكنت بعامة لا أعرف اسم الأشياء الواقعة تحت ناظري ولا نوعها وأدرك فقط أنها لابد خارقة حينما تقرب من عائلة "سوان" فلم يبدُ لي أكيداً أنني أرتكب كذباً بتنبيهي والديّ إلى قيمة ذلك الدرج الفنية ومورده البعيد، لم يبد لي ذلك أكيداً، بيد أنه لابد بدا محتملاً، فقد أحسست أنني أصبحت شديد الاحمرار حينما قاطعني والدي بقوله: "إني أعرف هذه البيوت ؛ وقد شاهدت واحدا منها، إنها متشابهة كلها. وإنما يشغل "سوان" عدة طوابق فيها وقد شادها "بيرلييه". وأضاف أنه أراد الاستئجار في واحد منها ولكنه عدل إذ لم يجدها مريحة ولم يكن مدخلها كافي النور. قال ذلك، ولكني أحسست بالغريزة أن فكري كان لابد أن يتحمل التضحيات اللازمة في سبيل هيبة عائلة "سوان" وسعادتي، وأزحت إلى الأبد عني، بنوع من السلطة الباطنة على الرغم مما سمعت منذ لحظة، الفكرة الهدامة التي قوامها أن شقتهم شقة عادية كان من الممكن أن نسكنها، مثلما يستبعد متدين "حياة يسوع" للكاتب "رونان" (Renan).

كنت في أثناء ذلك أرتقي السلم درجة فدرجة، ايام "العصرونيات" تلك، وقد تجردت من تفكيري وذاكرتي وأضحيت محض دمية تتقاذفني أشد المنعكسات دناءة فأصل إلى المنطقة التي يتضوع فيها عطر السيّدة "سوان". كان يخيل إليّ أني أبصر عظمة قالب الحلوى الشوكولا وقد أحيط بدائرة من صحون المعجنات المحمصة وبفوط صغيرة مشجرة رمادية تعلوها رسمات، تقتضيها اللياقة وينفرد بها آل "سوان". بيد أن هذه المجموعة اللامتغيرة المحددة كانت تبدو، شأن

عالم الضرورة لدى "كانت"، منوطة بفعل أخير للحرية. فقد كانت "جيلبيرت" تقول، وقد اجتمعنا كلنا في صالتها الصغيرة، تقول فجأة وهي تنظر إلى ساعتها:

- "اسمعوا، إن غدائي أصبح الآن بعيداً، ولن أتناول العشاء إلا في الثامنة ؛ وإني راغبة في تناول شيء ما. فماذا ترون؟"

وكانت تدخلنا إلى غرفة الطعام، وهي مظلمة كما هو الأمر داخل جدران معبد آسيوي رسمته يد "رامبرانت" وفيها قالب حلوى هندسي البناء وديع أليف بمقدار ما هو مهيب يبدو وكأنه يتربّع هناك على سبيل الاحتياط، كيوم عاديّ جدّاً، فيما لو خطر لِ "جيلبيرت" أن تنزع إكليل شرفاته المصنوعة من الشوكولا وأن تدكّ أسواره بسفوحها الصهباء الشديدة الانحدار والتي شويت في الأفران كحصون قصر "داريوس". بل وأكثر من ذلك، لم تكن "جيلبيرت" تستشير جوعها فحسب كيما تباشر في تهديم الحلوى "النينوّية"(*)، فقد كانت تستعلم عمّا بي من جوع فيما كانت تستخرج لي من البناء المنهار جانباً بأكمله مصقولاً ومقطّعاً بثمار قرمزية اللون على الطريقة الشرقية. كانت تسألني حتى عن الساعة التي يتناول فيها والداي طعام العشاء وكأنّني لازلت أعرفها وكأنّما سمح الاضطراب الذي كان يسيطر عليّ للإحساس بانعدام الشهية أو بالجوع ولفكرة العشاء أو صورة العائلة أن تظلّ جميعها قائمة في ذاكرتي الخالية ومعدتي المشلولة. بيد أن ذلك الشلل كان لسوء الحظّ مؤقّتاً. فقطع الحلوى التي كنت أتناولها دونما انتباه للأمر سوف تأتي لحظة ينبغي لي فيها هضمها. على أنها كانت لا تزال بعيدة وبانتظار ذلك، كانت "جيلبيرت" تعدّ لي الشاي "على طريقتي"، فأشرب منه دون توقف في حين يحول فنجان واحد دون أن أنام على مدى أربع وعشرين ساعة. وقد تعوّدت لذلك والدتي أن تقول: "إنه لأمر مزعج، فلا يمكن أن يذهب هذا الولد إلى منزل "سوان" دون أن يعود منه مريضاً." ولكن هل كنت أعلم فقط، وأنا في منزل أسرة "سوان" أن ما كنت أحتسيه هو الشاي بعينه؟ ولعلّني لو علمت لاحتسيت منه مع ذلك لأنه لو تسنّى لي فرضاً أن أستردّ للحظة تمييز الحاضر فما كان ذلك ليزودني بتذكر الماضي واستشفاف المستقبل. ولم تكن مخيلتي بقادرة أن تمضي حتى الزمن القصيّ الذي يمكن أن تخطر لي فيه فكرة النوم أو الحاجة إلى النوم.

أما صديقات "جيلبيرت" فلم يكنّ جميعهنّ غارقات في حالة النشوة تلك التي يستحيل معها اتخاذ قرار. فبعضهنّ كنّ يرفضن الشاي! حينئذ كانت "جيلبيرت" تقول ، والجملة شائعة جدّاً في تلك الحقبة: "ويحي، إن النجاح لا يحالفني في ما أقدّم من شاي! وكيما تبالغ في إزالة فكرة الطابع الرسمي كانت تقول وهي تفسر ترتيب المقاعد حول الطاولة: "كأنما نحن في عرس ؛ يا إلهي، ما أشدّ غباء الخدم."

كانت تقرض الحلوى وهي تجلس جلسة جانبية على مقعد متصالب الأرجل وُضِعَ بالعرض.

(*) بالنسبة إلى نينوي.

وكما لو كان بمقدورها أن تحوز هذا المقدار الكبير من المعجنات المحمصة دون أن يسبق لها استئذان والدتها، حينما كانت السيّدة "سوان" - التي كان يصادف "يومُها" عادة "عصرونيات" جيلبيرت - تدخل بعض لحظة من مرافقتها إحدى زائراتها راكضة ترتدي المخمل الأزرق أحياناً، وفي الغالب فسطاناً من الساتين الأسود مغطّى بالدانتيلا البيضاء، وتقول بهيئة المتعجب:

- "عجباً، يبدو ما تأكلون طيّباً، وإني أشعر بالجوع إذ أراكم تأكلون "الكيك". وتجيب "جيلبيرت" قائلة: "إننا ندعوك إذن يا ماما".

- "لا، يا كنزي الثمين، إذ ما عسى أن تقول زائراتي، فلا يزال لديّ السيّدة "ترونبير" والسيدة "كوتار" والسيّدة "بونتان"، وتعلمين أن السيدة العزيزة "بونتان" لا تقوم بزيارات قصيرة جداً وقد وصلت منذ قليل فقط. ما عسى أن يقول جميع هؤلاء الناس الطّيبين إذ لا يرونني أعود؟ إن لم يوافقني أحد بعد فسأعود للتحدّث معهم (الأمر الذي يسليني أكثر بكثير) بعدما يذهبون. وأحسب أني أستحقّ بعض الهدوء، فقد وافتني خمس وأربعون زائرة، وقد حدثتني اثنتان وأربعون من خمس وأربعين عن لوحة "جيروم"! ثم تقول لي: "هلمّ في أحد الأيام لتناول الشاي على طريقتك مع "جيلبيرت" فسوف تعده لك وفق ما تشتهي، ومثلما تتناوله في مقرّك الصغير"، تضيف قولها وهي تسرع إلى زائراتها وكأنما كان ذلك معلوماً لديّ بقدر ما كانت عاداتي، (ومن بينها حتى تلك التي اتخذتها في تناول الشاي، إن تناولته في يوم ؛ أمّا بشأن المقرّ فكنت غير متيقّن إن كان لديّ واحد أم لا) عاداتي التي جئت أبحث عنها في هذا العالم الزاخر بالأسرار. ثم تقول: "متى تجيء؟ في الغد؟ سوف نعدّ لك خبزاً محمصاً في مثل جودة ما يتوافر لدى "كولومبان". لا؟ إنك لخبيث"، تقول ذلك لأنها منذ أن أصبح لها هي الأخرى منتدى اتخذت أسلوب السيّدة "فيردوران" ولهجتها المستبدّة المتصنّعة. ولما كان الخبز المحمص مجهولاً لديّ مثلما كان "كولومبان" بالتمام، فلم يكن بوسع هذا الوعد الأخير أن يضيف شيئاً إلى إعرائي. وسوف يبدو أكثر غرابة أنني لم أفهم منذ الدقيقة الأولى عمّن تريد السيّدة "سوان" أن تتحدث حينما سمعتها تثني على "مربيتنا"(*) العجوز، بما أن الجميع يتحدثون بهذه اللغة وحتى في "كومبريه". وما كنت أعرف الإنكليزية ولكني فهمت بعد قليل أن اللفظة تشير إلى "فرنسواز". لقد علمت، أنا الذي خشي كثيراً في "الشانزيليزيه" من الانطباع المؤسف الذي لابدّ أنها ستخلّفه، علمت على لسان السيّدة "سوان" أنّ ما ولّد لديها ولدى زوجها شعوراً بالمودة نحوي إنما كان كلّ ما روت لها "جيلبيرت" عن مربيتي. "تحسّ أنّها مخلصة لكم إلى حدّ كبير وأنّها طيّبة جدّاً." (وفي الحال تبدل رأيي بـ "فرانسواز" تبدّلاً كلّياً. ولم يعد يبدو لي، تبعاً لذلك، أنّ المعلمة التي لها حذاء كاوتشوك وريشة في قبعتها أمر ضروري إلى هذا الحدّ.)
وأدركت أخيراً من جرّاء بضع كلمات أفلتت من السيّدة "سوان بحق السيّدة "بلاتان"، وكانت تقر بطيبتها ولكنّها تخشى زياراتها، إن العلاقات الشخصية مع تلك السيدة لم تكن عزيزة عليّ بمقدار ما ظننت وما كانت لتحسّن وضعي لدى آل "سوان" في شيء.

(*) أوردت اللفظة بالانكليزية "nurse" ولذلك لم يفهمها.

ولئن شرعت أكتشف بتلك الرعشات من الاحترام والفرح المملكة الخيالية التي فتحت في وجهي، خلافاً لكل التوقعات، شوارعها المغلقة حتى ذاك فإنما كان ذلك فقط بوصفي صديقاً لِ "جيلبيرت". والمملكة التي يجري استقبالي فيها كانت تحتويها بدورها أخرى أكثر أسراراً يقضي فيها "سوان" وزوجته حياتهما الخارقة ويتوجهان إليها بعد ما يشدان على يدي حينما كانا يجتازان الردهة في الوقت نفسه الذي أجتازها فيه في الاتجاه المعاكس. ولكنني دخلت بعد قليل أيضاً إلى صميم ذلك المعبد. لم تكن "جيلبيرت" مثلاً حاضرة وفي البيت السيد "سوان" أو السيّدة "سوان. لقد سألا من ذا قرع الجرس ولما أُخبرا أنّ القارع أنا أرسلا يرجوانني أن أدخل لفترة بالقرب منهما وهما راغبان أن أستخدم نفوذي على ابنتهما في هذا الاتجاه أو ذاك ومن أجل هذا الأمر أو ذاك. وأخذت أذكر تلك الرسالة الكاملة المقنعة إلى حدّ بعيد التي سطرتها فيما سلف لـ "سوان" والتي لم يكلف نفسه حتى عناء الإجابة عليها. وكنت أعجب لعجز الفكر والعقل والقلب عن إجراء أقلّ انقلاب وعن حلّ واحدة من تلك المصاعب التي تحلها الحياة فيما بعد بيسر كبير دون أن ندري ألبتّة كيف تصرفت في ذلك. كانت مكانتي الجديدة صديقاً لِ "جيلبيرت" عظيم التأثير عليها تسمح بأن أفيد من الحظوة عينها التي لو اتفق أن كان ابن أحد الملوك زميلي في مدرسة أُصَنّفُ فيها الأول أبداً لدِنْتُ ربما لتلك الصدفة بمداخلي الخاصة إلى القصر وبمقابلات في قاعة العرش. لقد كان "سوان" يدخلني مكتبه بمنتهى اللطف وكما لو لم يكن مثقلاً بالمشاكل العظيمة ويدعني فيه ساعة كاملة أجيب بتمتمات وفترات صامتة وليدة الخجل تقطعها طفرات من الجرأة قصيرة لا ترابط فيها عن أقوال يحول اضطرابي دون أن أفهم منها كلمة واحدة. وكان يريني حاجات فنّية وكتباً يحكم أن من شأنها أن تستهويني وما كنت أشك سلفاً أنها تبز كل ما يملكه متحف اللوفر والمكتبة الوطنية جمالاً، إلا أنه يستحيل عليّ مشاهدتها. ولعل رئيس خدمه كان يدخل السرور إلى نفسي في تلك اللحظات لو طلب منّي أن أعطيه ساعتي ودبوس ربطة عنقي وحذائي وأن أوقع له صكاً يجعله وريثاً لي: وحسبما تقول العبارة الشعبية الجميلة التي لا نعرف واضعها كما هي حال أكثر الملحمات شهرة والتي قُدّر لها مثلها مؤلف، خلافاً لنظرية "فولف" - wolf - (واحد من تلك العقول المبدعة المتواضعة من مثل ما يتفق في كل عام والتي تقع لها لقيات تضاهي "حمل الاسم على الوجه"، ولكنها هي لا تعرب عن اسمها): ما عدت أعرف ما كنت أفعل. وأكثر ما في الأمر أنني كنت أعجب حينما تطول الزيارة مما تقودني إليه تلك الساعات التي أقضيها في المنزل المسحور من انعدام التحقيق وغياب الخاتمة السعيدة على أنّ خيبة أملي لم يكن مردها لا قصور الروائع المعروضة ولا استحالة تثبيت نظرة شاردة عليها. فلم يكن الجمال الذاتي الكامن في الأشياء ما يجعل وجودي في مكتب "سوان" عجائبياً، بل أن يلتصق بتلك الأشياء - وربما أمكن أن تكون من أقبحها في العالم - الشعور الخاص الحزين الزاخر بالشهوة الذي أحدد موقعه فيها منذ العديد من السنين والذي لا يزال يطبعها ؛ مثلما كثرة المرايا وفراشي الفضة والمذابح المنحوتة المرسومة بريشة أعظم الفنانين من أصدقاء للقديس أنطونيوس البادواني لم تكن في شيء في الشعور بلا جدارتي وبعطفها الملكي الذي كان يداخلني حينما تستقبلني السيّدة "سوان" فترة في غرفتها حيث تعد ثلاث مخلوقات جميلات ومهيبات هنّ وصيفاتها الأولى والثانية والثالثة أثواباً رائعة وهن يبتسمن، والتي

كنت أتوجه إليها، بناء على الأمر الذي تفوه به خادم ببنطال قصير بأن السيّدة راغبة في أن تقول لي كلمة، من طريق ممر ملتو تعطره عن بعد أطياب ثمينة تنشر دون انقطاع من حجرة زينتها نفثات محملة بالعطر.

وبعدما تعود السيّدة "سوان" بالقرب من زائراتها كنا نسمعها توالي الكلام والضحك، فقد كانت ترفع صوتها حتى في حضرة شخصين، كما لو انبغى لها أن تحابه جميع الرفاق، وتطلق الكلمات مثلما تسنى لها مرات عديدة أن تسمع "ربة البيت" تفعل في الفترات التي كانت فيه هذه الأخيرة "تدير الحديث". ولما كانت العبارات التي اقتبسناها حديثاً عن الآخرين هي تلك التي نحب استعمالها أكثر ما نحب لفترة من الزمن على الأقل، فقد كانت السيّدة "سوان" تختار تارة العبارات التي تعلمتها من أناس بارزين لم يستطع زوجها أن يتحاشى تعرفها بهم (فمنهم أخذت التكلف الذي قوامه حذف "ال" التعريف أو اسم الإشارة أمام صفة تنعت بها شخصاً)، وطوراً عبارات أكثر قرباً من العامية (كأن تقول مثلاً: "إنه شيء لا يذكر!" وهو القول المفضل لدى إحدى صديقاتها)، وتحاول إقحامها في جميع الحكايات التي كانت تحب أن ترويها، وفقاً لعادة شاعت في "الجماعة الصغيرة". وكان يسرها أن تقول بعد ذلك: "إني أحب هذه الحكاية حُباً جماً" ، "هيا اعترفي، إنها حكاية جميلة جداً"، الأمر الذي ورثته، عن طريق زوجها، عن آل "غيرمانت" الذين لم تكن تعرفهم.

كانت السيدة "سوان" قد غادرت غرفة الطعام، ولكن زوجها الذي عاد منذ قليل كان يمر بنا بدوره. "جيلبيرت، هل تعلمين إن كانت أمك وحدها؟" - "لا يا بابا، لا يزال لديها بعض الناس."

- "كيف ذلك؟ وفي الساعة السابعة ذلك أمر مخيف. لابد أن قوى المرأة المسكينة قد تحطمت. وإنها لسماحة". (لقد سمعتهم في البيت على الدوام يلفظون "الألف" ممدودة جداً، فأما السيد "سوان" والسيدة "سوان" فكانا يقولانها قصيرة.) وكان يعاود الحديث وهو يتوجه إليّ قائلاً: "فكّر، منذ الساعة الثانية بعد الظهر! وقد قال لي "كميل" إن اثني عشر شخصاً على الأقل جاؤوا بين الرابعة والخامسة. ما بي أقول "اثني عشر"، فإني أظنه قال لي أربعة عشر. لا، بل اثنا عشر، آه! لم أعد أدري. حينما عدت لم أكن أفكر أنه يومها وحينما رأيت كل تلك العربات أمام الباب ظننت ثمة عرساً في البيت. إنني منذ فترة في مكتبتي ولم تتوقف رنات الجرس. لقد أصبت منه بصداع، وشرفي. ولا يزال ثمة كثيرات بالقرب منها؟

- "لا، زائرتان فحسب."

- "أتعلمين من هما؟"

- "السيدة كوتار والسيدة بونتان."

- "آه! زوجة رئيس مكتب وزير الأشغال العامة."

- "أعرف أن زوجها موظف في وزارة، ولكني لا أعرف بالضبط بأية صفة"، تقول "جيلبيرت" وهي تتصنع الطفولة.

- "كيف ذلك، أيتها الصغيرة، إنك تتكلمين كما لو كنت في العام الثاني من عمرك. ما بلك تقولين: موظف في وزارة؟ إنه بمنتهى البساطة رئيس مكتب، إنه رئيس الدكّان بأسرها. ثم، أين عساي وضعت رأسي، إني وشرفي في مثل شرودك، فليس رئيس المكتب بل مدير المكتب."

- "لست أدري، أنا. أهو شيء عظيم أن يكون المرء مدير المكتب؟ "تجيب "جيلبيرت" التي لم تكن تضيع ألبتّة فرصة تظهر فيها اللامبالاة بالنسبة إلى كلّ ما يوحي بالزهو لوالديها (وربما أمكنها الاعتقاد من جهة أخرى أنها إنما تضيف ألقاً إلى علاقة ذائعة إلى ذلك الحدّ إذ تظهر وكأنها لا تعيرها كبير أهمية).

ويصيح "سوان" الذي يفضل على ذلك التواضع الذي قد يورثني شكاً لغة أكثر وضوحاً: "كيف ذلك، إن كان شيئاً عظيماً! إنه ببساطة الأول بعد الوزير ! بل هو أكثر من الوزير، فهو الذي يقوم بكل شيء. ويبدو على كل حال أنه قدير ؛ إنه رجل من الطراز الأول وشخص متميز تماماً. وهو يحمل لقب ضابط في جوقة الشرف. إنه رجل ممتع ووسيم جداً إلى ذلك."

لقد تزوجته امرأته على أية حال على الرغم من أنف الجميع لأنه كان "رجل ظرف". كان له لحية شقراء ناعمة نعومة الحرير وقسمات حلوة وصوت يصدر من الأنف ونفس قوي الرائحة، وعين من زجاج، الأمر الذي كان كافياً لتأليف وحدة نادرة رقيقة ويضيف موجهاً الحديث إلي: "سأقول لك إنّي أهزأ كثيراً لرؤيتي هؤلاء الناس في الحكومة الحاضرة لأنهم من آل "بونتان" ومن بيت "بونتان - شونو"، وهم عنوان البورجوازية الرجعية الإكليريكية ذات الأفكار الضيقة. لقد عرف جدك المسكين تمام المعرفة، بالسمعة والوجه على الأقل، الجد "شونو" الذي لا يعطي سائقي العربات سوى فلس واحد بمثابة "إكرامية"، مع أنه كان غنياً في تلك الفترة، والبارون" بريو - شونو". وقد تلاشت الثروة بكاملها في انهيار شركة "الاتحاد العام"، وتمّ إصلاح الأحوال بجميع ما أتيح لهم ؛ أمّا أنت فإنك أصغر من أن تكون عرفت ذلك".

- "إنه عمّ فتاة كانت تجيء إلى مدرستي في صف أدنى مني بكثير، "ألبرتين" الشهيرة. سوف تصبح بالتأكيد شديدة الإغراء ولكنّها الآن غريبة الأطوار."

- "إن ابنتي المدهشة فهي تعرف جميع الناس."

- "لست أعرفها، فقد كنت أراها تمرّ فحسب، فيهتفون بها يا "ألبرتين" من هنا ويا "ألبيرتين" من هناك. ولكنّي أعرف السيّدة "بونتان" وهي لا تعجبني بدورها."

- "إنّك على خطأ كبير جدّاً، فهي فاتنة وجميلة وذكيّة، وهي حتى ظريفة. وها إني ذاهب لتحيّتها ولأسألها إن كان زوجها يعتقد أنّنا مقبلون على الحرب وإن كان يمكن الاعتماد على الملك "تيودوز". فلا بدّ أنّه يعلم ما في الأمر، أليس كذلك، هو المطّلع على أسرار العظماء؟"

لم يكن "سوان" يتحدّث على هذا النحو فيما مضى. ولكن من تراه لم يشاهد أميرات من عائلات ملكّية في منتهى البساطة يتّخذن تلقائياً، إن هنّ اختطفهنّ بعد عشر سنوات أحد الخدم وحاولن أن يعدن للاجتماع بالجماعات الراقية وأحسسن أن ليس من يجيء إلى منازلهم راضياً، لغة العجائز المملاّت ولم يسمعهنّ يقلن حينما يجيء ذكر دوقة تساير ذوق العصر: "كانت البارحة في بيتي" و "إني أعيش في عزلة شديدة" ؟ فمن اللا مجدي إذن ملاحظة العادات إذ يمكن استخلاصها من القوانين السيكولوجية.

كان آل "سوان" يشاركون في هذا العيب الذي يطبع أولئك الذين يرتاد منازلهم القليل من الناس. فزيارة أشخاص بارزين إلى حدّ ما ودعوتهم ومجرّد كلمة لطيفة منهم إنمّا كانت تؤلّف في نظرهم حدثاً يتمنون أن يوفّروا له الدعاية. فإن شاء سوء الطالع أن تكون عائلة "الفيردوران" في لندن حينما دعت "أوديت" إلى عشاء راق بعض الشيء تدبّروا الأمر كيما يتمّ إبراق الخبر إليهم إلى ما وراء بحر المانش على يد صديق مشترك. حتّى الرسائل وبرقيات الإطراء التي تصل "أوديت" كان آل "سوان" عاجزين عن الاحتفاظ بها لذاتهم. فكانوا يتحدثون عنها إلى الأصدقاء ويعملون على أن تتناقلها الأيدي. وكانت صالة عائلة "سوان" تشبه بذلك فنادق مدن المياه التي تعلّق فيها إعلان البرقيات.

إن الأشخاص الذين عرفوا "سوان" القديم لا خارج المجتمعات فحسب، كما كان أمري، بل داخل المجتمعات الراقية وفي وسط آل "غيرمانت" ذاك الذي كانوا فيه متشدّدين إلى ما حدود فيما يخصّ الظرف والجاذب، باستثناء صاحبات السموّ والدوقات، ويحكمون باستبعاد رجال بارزين يجدونهم مملّين أو عاديين، إنّ أولئك الأشخاص ربمّا دهشوا إذ يلاحظون أنّ "سوان" القديم لم يعدل عن تكتمّه فحسب حينما يتحدّث عن معارفه بل كذلك عن تشدّده حينما يقتضي الأمر اصطفاءهم. فكيف لا تثير السيّدة "بونتان" العاديّة جدّاً والسيّئة جدّاً حنقه؟ وكيف يمكنه القول بأنّها جذّابة؟ كان لابدّ أن تمنعه عن ذلك ذكريات وسط آل "غيرمانت" فيما يبدو، ولكنها كانت في الواقع عوناً له في ذلك. صحيح أن آل "غيرمانت" كانوا يتمتعّون بخلاف ثلاثة أرباع الأوساط المجتمعيّة الراقية، بالذوق، وحتّى بذوق مرهف، ولكنّهم يشكون كذلك من التحذلق، الأمر الذي ينجم عنه إمكان انقطاع مؤقت في ممارسة الذوق. فإن كان أمر واحد ممن كانت الجماعة في غنى عنه، كأمر وزير خارجية جمهوري ورسميّ بعض الشيء، أو عضو مجمع علمي ثرثار، تمّت ممارسة الذوق إلى الحدّ الأقصى ضدّه ورثى "سوان" لحال السيّدة "دو غيرمانت" لأنها تناولت عشاءها إلى جانب مثل هؤلاء المدعوين في إحدى السفارات، فكانوا يفضّلون عليه ألف مرّة رجلاً أنيقاً، يعني رجلاً من وسط آل "غيرمانت"، رجلاً لا خير فيه ولكنّه يتحلّى بروح آل "غيرمانت"، رجلاً من العقليّة الضيّقة نفسها. أما إذا تناولت كبيرة دوقات أو أميرة من السلالة المالكة عشاءها مرّات عديدة لدى السيّدة "دو غيرمانت" فقد كانت تلفي نفسها هي الأخرى إذ ذاك من تلك الجماعة الضيقة دون أن يكون لها أيّ حق في ذلك ودون أن تتحلّى بذرّة من روحها. ولكنّهم بسذاجة جماعة المجتمعات الراقية، كانوا يبذلون قصارى جهدهم، بما أنهم يستقبلونها في بيوتهم،

كيما يحدوها محبّبة لتعذّر إمكان القول بأنهم إنمّا يستقبلونها لأنهّم ألْفوْهَا محببّة. وكان "سوان" إذ يجيء إلى ندوة السيّدة "دو غيرمانت"، يقول لها بعدما تذهب صاحبة السموّ: "إنها في الأساس امرأة طيّبة وهي تتمتّع حتى بشيء من ملكة الهزل. أنا لا أحسب أنها تعّمقت في كتاب "نقد العقل المحض"، ولكنها ليست مزعجة."

وتجيب الدوقة قائلة: "رأيي من رأيك تماماً. أضف أنها كانت وجلة، ولكنّها يمكن أن تكون جذّابة كما سترى" - "إنها أقلّ إزعاجاً من السيّدة س.ج (وهي زوجة عضو المجمع اللغوي الثرثار، وكانت مدهشة) التي تذكر لك عشرين مجلداً."

- "لا مجال ثمة لأيّة مقارنة ممكنة". أمّا القدرة على الإدلاء بمثل تلك الأشياء وبصدق فقد اكتسبها "سوان" لدى الدوقة وحافظ عليها، وقد أخذ الآن يستخدمها حيال الناس الذين يستقبلهم. فقد كان يجهد في أن يميّز، في أن يحبّ فيهم الميزات التي يبديها كل كائن بشري إن نظرنا فيه باستعداد طيّب لا بتقزّز المرهفي الذوق. كان يُبرز فضائل السيّدة "بونتان" مثلما كان يفعل بالأمس بالنسبة إلى الأميرة "دو بارما" التي كان ينبغي استبعادها من وسط آل "غيرمانت" لو لم يكن ثمة امتياز لدخول بعض أصحاب السموّ ولو لم يأخذوا حقاً في حسابهم، حتى حينما يتعلّق الأمر بهم، سوى النباهة وشيء من الظرف. وقد رأينا "سوان" فيما مضى على أيّة حال يميل إلى أن يستبدل بوضعه الاجتماعي وضعاً آخر يلائمه أفضل من الأول في بعض المناسبات (وإنمّا كان يطبّقه الآن على نحو أكثر استمراراً فحسب). وليس سوى الذين يعجزون عن تفكيك ما يبدو لهم لأوّل وهلة في إدراكهم للأمور غير قابل للانقسام من يظنون أن الوضع يؤلّف جزءً لا يتجزّأ من الشخصيّة. فالكائن نفسه، إمّا أخذناه في فترات متعاقبة من حياته، إنمّا ينغمس وهو على درجات مختلفة من السلّم الاجتماعي في أوساط ليست اضطراراً أكثر فأكثر سموّاً ؛ وفي كلّ مرّة نرتبط أو نعود إلى الارتباط، في فترة أخرى من الحياة، بعلاقات مع وسط خاص ونحس أننا نلقى فيه رعاية خاصّة، نشرع على نحو طبيعيّ بالتعلّق فيه فنمدّ فيه جذوراً بشريّة.

وأظنّ كذلك، فيما يخصّ السيّدة "بونتان"، أن "سوان" لم يكن يغضبه التفكير، إذ يتحدّث عنها بذلك الإلحاح، بأنّ والديّ سوف يعلمان أنها تأتي لزيارة زوجته. والحقيقة أن اسم الأشخاص الذين كانت هذه الأخيرة تتوصّل شيئاً فشيئاً إلى التعرّف بهم إنمّا كان يثير الفضول في بيتنا أكثر ممّا يبعث الإعجاب. فكانت والدتي تقول لدى سماع اسم السيّدة "ترومبير":

- "آه ! تلك متطوّعة جديدة وسوف تأتيها بأخريات."

وتضيف والدتي كما لم تشبّه الطريقة المستعجلة بعض الشيء والسريعة والعنيفة التي تستولي بها السيّدة "سوان" على معارفها بحرب استعمارية :

- "أما وقد تمّ إخضاع آل "ترومبير" فلن تلبث القبائل المجاورة أن تستسلم." وحينما تقابل السيّدة "سوان" في الشارع كانت تقول لنا لدى عودتها:

- "أبصرت السيّدة "سوان" على أهبة الحرب، تزمع الانطلاق في هجوم مثمر على قبائل "ماسيشوتس" أو "السيلانيين" أو آل "ترومبير".

وجميع الأشخاص الجدد الذين كنت أقول إني رأيتهم في ذلك الوسط الخليط والمصطنع الذي غالباً ماجيء بهم إليه ببعض الصعوبة من عوالم مختلفة إلى حدّ ما، كانت تكشف في الحال منشأهم وتتحدّث عنهم كما قد تفعل عن غنائم كلّفت ثمناً غالياً. فكانت تقول:

- "جيء به من حملة على القبائل الفلانية."

أمّا بشأن السيّدة "كوتار"، فقد كان والدي يدهش أن تستطيع السيّدة "سوان" العثور على مكسب، أي مكسب، في اجتذاب هذه البورجوازية اليسيرة الأناقة ويقول "على الرغم من مكانة الأستاذ فإنني أقرّ بأني لا أفهم." أمّا أمي، فقد كانت بخلاف ذلك تفهم تمام الفهم. كانت تعلم أن جزءً كبيراً من المتع التي تلقاها امرأة في الدخول في وسط مختلف عن ذاك الذي كانت تعيش فيه فيما مضى سوف يفوتها إن هي لم تستطع إطلاع من سلف من معارفها على المعارف الجدد الذين استبدلتهم بهم وهم نسبياً أكثر تألقاً. ولا بدّ لذلك من شاهد ندع له أن يدخل إلى هذا العالم الجديد واللذيذ، مثلما حشرة بطنينها وسرعة تنقّلها إلى قلب زهرة، ثم هو ينشر الخبر، وتلك أمنيتهم، كيفما اتّفق عبر زياراته، ينشر البذرة التي اختلسها من حسد وإعجاب. وكانت السيّدة "كوتار" المهيّأة تماماً للقيام بهذا الدور من ضمن تلك الفئة الخاصّة من المدعوّين الذين تناديهم والدتي، وكانت تتمتّع ببعض جوانب من طريقة تفكير والدها، بـ "أيها الغريب، اذهب وقل في سبارطة!" وباستثناء سبب آخر لم يعرف إلا بعد سنوات عدّة، لم تكن السيّدة "سوان" تخشى، في دعوتها تلك الصديقة الودودة المتحفظّة المتواضعة، من أن تدخل إلى بيتها خائناً أو منافسة. فقد كانت تعلم العدد الضخم من البيوت البورجوازيّة التي تستطيع تلك العاملة النشيطة أن تزوره على مدى عصر يوم واحد حينما تتسلّح بريشة قبّعتها وبحافظة بطاقاتها. كانت تعرف قدرتها على نشر الأخبار وكانت مخوّلة أن تعتقد، بالاستناد إلى حساب الاحتمالات، أن واحداً من رواد بيت "الفيردوران" سوف يعلم على الأرجح منذ اليوم الذي يلي الغد أنّ حاكم باريس قد أودع بطاقات لديها، أو أنّ السيّد "فيردوران" نفسه سوف يسمع من يروي بأن السيّد "لوهو دو بريسّانيي" رئيس ميدان سباق الخيل قد اصطحبها هي و "سوان" إلى حفلة الملك "تيودوز". ولم تكن تفترض أسرةً "فيردوران" عالمة بغير هذين الحدثين اللذين يضيفان إلى قدرها لأنّ الأشكال الماديّة الخاصّة التي نمتثل فيها العزّة ونلاحقها فيها قليلة من جرّاء قصور فكرنا الذي يعجز عن أن يتخيّل في الآن نفسه جميع الأشكال التي نأمل من جهة أخرى أنها لن تقصّر - على نحو مجمل - عن اتخاذها في الوقت نفسه لصالحنا.

والسيّدة "سوان" على أيّة حال لم تفز بنتائج إلا فيما كان يدعى "بدنيا الرسميّين". فالنساء الأنيقات ما كنّ يذهبن إلى منزلها. ولم يحملهنّ على الابتعاد حضور أعيان من الجمهوريّين. ففي زمان طفولتي الأولى كان كلّ ما يخصّ المجتمع المحافظ ينتمي إلى عالم المجتمعات الراقية وما كان يمكن استقبال أحد الجمهوريّين في منتدى يتّسم بالرصانة. وكان أولئك الذين يعيشون في مثل

ذلك الوسط يتخيّلون أن استحالة دعوة "انتهازي"، ومن باب أولى "راديكالي" شنيع، أمر دائم، فيما يرون، على مرّ الأيّام، شأن مصابيح الزيت وعربات الخيول. غير أن المجتمع، شأنه في ذلك المشكال الذي يدور بين الحين والحين، إنّما يضع على التوالي وعلى نحو مختلف عناصر كنت تظنّها ثابتة المواقع ويؤلف منها شكلا آخر. فلم يكن قد انقضى بعد وقت على إتمامي مناولتي الأولى حتى كانت الدهشة تأخذ نسوة من ذوات الرأي المستقيم لالتقائهن بيهوديّة أنيقة في زيارة. وهذه الترتيبات الجديدة في المشكال إنّما يصنعها ما قد يسمّيه أحد الفلاسفة تبدّلاً في المعايير. ثمّ جاءت قضيّة "دريفوس" بمعيار جديد في حقبة تلي بقليل تلك التي شرعت أتردّد فيها على منزل السيّدة "سوان" وقلب المشكال مرّة أخرى معيناته الصغيرة الملوّنة. وانقلب كلّ ما كان يهوديّاً إلى الأسفل، حتى السيّدة الأنيقة، وصعد وطنيون مغمورون فاحتلوا مكانها. وأصبح أكثر منتديات باريس تألقاً منتدى أمير نمسوي متطرّف في كاثوليكيّته. فلو حلّت حرب مع ألمانيه محلّ قضيّة "دريفوس" لتمّت دورة المشكال في اتجاه مغاير، ويحتفظ اليهود إذ ذاك، بعد ما برهنوا، فأثاروا دهشة الجميع، أنهم وطنيون بمكانتهم ولا يبغي أحد من بعد الذهاب إلى منزل الأمير النمسويّ ولا حتى الإقرار بأنّه تردّد عليه في يوم.

ولا يحول ذلك في كل مرّة يبدو فيها المجتمع جامداً لفترة من الزمن دون أن يتصوّر الذين يعيشون فيه أنه لن يحدث أي تغيّر من بعد، مثلما لا يريدون بعدما رأوا بدايات الهاتف أن يؤمنوا بالطائرة. ويستنكر فلاسفة الصحافة آنذاك الحقبة السالفة ولا يكتفون بنوع المتع التي انصرف إليها الناس والتي تبدو لهم أحطّ درجات الفساد، بل يتجاوزونها إلى أعمال الفنّانين والفلاسفة التي لا يظلّ لها في نظرهم أية قيمة كما لو ارتبطت ارتباطاً لا انفصام فيه بالطرق المتوالية التي يتحلى بها طيش المجتمعات الراقية. والأمر الوحيد الذي لا يتغير أنّه يبدو في كلّ مرّة أنّ "شيئاً ماقد تغيّر في فرنسه" لم تكن قضيّة "دريفوس" قد أثيرت بعد في الفترة التي ذهبت فيها إلى منزل السيّدة "سوان" وكان بعض كبار اليهود بالغي النفوذ، وليس منهم من كان أوفر نفوذاً من "السير روفوس إسرائيلز" الذي كانت زوجته "الليدي إسرائيلز" خالة "سوان". ولم يكن لدى هذه الأخيرة شخصيّاً معارف مقرّبون في مثل أناقة ابن شقيقتها الذي لم يُبْدِ في يوم كبير اهتمام بها لأنّه لا يحبّها مع أنّه كان لابدّ سيصبح وريثها. ولكنّها كانت الوحيدة من بين قريبات "سوان" التي تعي مكانته في المجتمعات الراقية، بينما ظلّت الأخريات بذلك الخصوص في موقع الجهل نفسه الذي ظللنا فيه لفترة طويلة. وحينما ينتقل أحد أعضاء أسرة ما إلى صفوف المجتمع الراقي – الأمر الذي يبدو له ظاهرة فريدة، ولكنّه يشهد بعد مضيّ عشر سنوات أنّه تمّ بطريقة أخرى ولأسباب مختلفة على يد أكثر من شاب واحد سبق له أن رُبّي معه – فإنه يجعل من حوله منطقة ظلال، أرضاً مجهولة، واضحة في أقلّ أجزائها بالنسبة إلى الذين لا يلجونها ويحاذونها دون أن يرتابوا بوجودها بالقرب منهم. ولما لم تُطلع أيّة وكالة إعلان بنات عمّ "سوان" على الأشخاص الذين يتردّد عليهم "سوان" فقد كانوا يروون بابتسامات التنازل في حفلات عشاء عائلية (قبل زواجه الفظيع بالطبع) أنهم أنفقوا يوم الأحد على "دروب الفضيلة" في زيارة "ابن العم شارل" الذي يظنّونه على شيء من الحسد ويعدّونه القريب

الفقير فيسمّونه تفكّها وبالتلاعب على عنوان رواية "بلزاك" : "ابن العمْ الغبي"(•). أمّا "الليدي روفوس إسرائيلز" فقد كانت تعلم هي تمام العلم من كان هؤلاء الناس الذين يغمرون "سوان" بصداقة تملؤها غيرة. وكانت أسرة زوجها، وهي تعادل على وجه التقريب آل "روتشليد"، تدير أعمال أمراء أسرة "أورليان" منذ عدة أجيال. كانت "ليدي إسرائيلز" الفاحشة الثراء تتمتّع بنفوذ عظيم وقد استخدمته كي تمنع أي شخص تعرفه من استقبال "أوديت". شخص واحد خرج على طاعتها في الخفاء: إنّها الكونتيسة "مرسانت". وقد شاء سوء الطالع أن دخلت الليدي "إسرائيلز"، فيما كانت "أوديت" ذاهبة لزيارة السيّدة "دو مرسانت" فقد أضحى دونها خرط القتاد. وبتخاذل الجماعات الذين ربّما استطاعوا مع ذلك أن يبيحوا لأنفسهم كلّ شيء لم توجّه الكلام مرّة واحدة لِ "أوديت" التي لم يشجعّها الأمر مذ ذاك أن تمضي قدماً في غزوتها لعالم لم يكن على أيّة حال ذلك الذي كانت تحبّ أن يُرَحّبَ بها فيه. واستمرّت "أوديت"، وسط لامبالاة حيّ "سان جيرمان"(•) التامّة، في كونها المرأة اللعوب الجاهلة التي تختلف أشدّ الاختلاف عن البورجوازيّين الضليعين في أقلّ مسائل الأنساب والذين يشاغلون تعطّشهم إلى العلاقات الأرستقراطية التي لا توفّرها لهم الحياة الحقيقية بقراءة المذكّرات القديمة. واستمر "سوان" من جهة أخرى في كونه دونما شك العاشق الذي تبدو تلك الخاصيّات جميعها لدى عشيقة الأمس محبّبة في عينيه أو لا أذيّة فيها، إذ غالباً ما سمعتُ زوجته تتفوّه ببدع حقيقيّة على صعيد المجتمع دون أن يحاول تصويبها (من جرّاء بقيّة باقية من الحنان أو فقدان التقدير أو التكاسل في أمر تحسين معارفها). وربما كانت تلك صيغة من تلك البساطة التي طالما خدعتنا في "كومبريه" والتي تجعله الآن، فيما هو يوالي التعرّف بأناس مرموقين لحسابه الخاص على الأقلّ، لا يهتمّ بأن يبدو الناس أثناء حديثهم في منتدى زوجته وكأنهم يعيرونهم بعض الأهميّة. وقد تناقضت هذه الأهميّة بالنسبة إلى "سوان" أكثر من أي وقت مضى إذ تبدّل مركز ثقل حياته. وقد بلغ جهل "أوديت"، من جهة أخرى، بأمور المجتمع مبلغاً لو ورد معه في الحديث اسم الأميرة "دو غيرمانت" بعد اسم الدوقة ابنة عمّها لقالت "أوديت" : "عجباً! إنّهما من الأمراء، لقد ارتقينا إذن في سلّم المراتب". وإن قال أحدهم في حديثه عن دوق "شارتر" : "الأمير"، صحّحت في الحال "الدوق، إنّه دوق "شارتر" وليس أميراً. أمّا فيما يخص دوق "أورليان" ابن الكونت "دو باري" فتقول: "غريب أمره. إن الابن أعلى مرتبة من الأب". فيما تضيف، إذ هي مغرمة بالإنكليز: "تختلط الأمور عليك في هذه "الملكّيات"(•). وقد أجابت شخصاً كان يسألها من أيّ مقاطعة جاء آل "غيرمانت": "من الإين" (Aisne).

كان "سوان" على أيّ حال أعمى فيما يخصّ "أوديت"، لا حيال تلك الثغرات في تربيتها، بل حيال ضحالة عقلها أيضاً. بل وأكثر من ذلك: ففي كلّ مرّة تروي فيها "أوديت" قصّة تتّسم بالغباء، كان لابد أن تخالطه بقيّات من اللذّة، فيما تعوّدت "أوديت" أن تصغي في الحديث نفسه إلى كلّ ما

(•) عنوان رواية بلزاك هو "La cousine Berthe" أي ابنة العم بيرت، فيما تدعو بنات عمه "Le cousin Bete"
(•) حي Saint - Germain الذي كان فيما مضى ولفترة قريبة وقفاً على علية القوم والأرستقراطيين.
(•) جاء في النص "Royalties" وتعني عائدات ضريبية وقد ترجمتها بما تقصده "أوديت" وأغفلت التلاعب اللفظي.

يمكن أن يقوله من أمور رقيقة وحتى عميقة بدون اهتمام وعلى نحو سريع وبنفاذ صبر وأحياناً تعارضه بقسوة. ونخلص إلى القول بأنّ استبعاد الضحالة هذا للنخبة إنمّا يشكل القاعدة في الكثير من الأسر إن فكّرنا على العكس بالكثيرات من النساء المتفوقات اللواتي يخضعن لسحر رجل غليظ الفؤاد يراقب دون شفقة أرقّ أقوالهنّ فيما ينتشين إزاء أكثر نكاته تفاهة بتسامح الحنان الذي لاحدّ له. ولابدّ لنا أن نقول، كيما نعود إلى الأسباب التي حالت في تلك الفترة دون دخول "أوديت" في حيّ "سان جيرمان"، إن آخر دورة لمشكال المجتمع الراقي قد سبّبتها سلسلة من الفضائح. فقد ثبت أنّ ثمة نساء من اللواتي كانت ترُتاد منازلهنّ بثقة تامّة كنّ من بنات الهوى وجاسوسات إنكليزيّات. لقد أصبح الناس مطالبين على مدى فترة معيّنة، أو هكذا ظنّوا على الأقلّ، أن يكونوا قبل أي شيء آخر حسني السيرة والمجلس. وكانت "أوديت" تمثّل بالضبط كلّ ما أقدم الناس على مقاطعته، ثم العودة إليه في الحال من جهة أخرى (لأنّ البشر إنمّا يبحثون في العهد الجديد عن استمرار القديم، إذ هم لا يتغيّرون بين ليلة وضحاها) ولكنّهم يبحثون عنه في صيغة مختلفة تسمح بأن يكونوا ضحيّة الخديعة وأن يعتقدوا أنّه ما عاد مجتمع ما قبل الأزمة. وكانت "أوديت" شديدة الشبه بالسيّدات "المحترقات" في ذلك المجتمع. والناس في المجتمع الراقي يشكون من قصر نظر شديد، ففي حين يقطعون كامل علاقاتهم بسيّدات يهوديّات يعرفونهنّ، وفيما يتساءلون عن كيفيّة ملء ذاك الفراغ. يبصرون سيّدة جديدة يهوديّة هي الأخرى وقد دُفعتْ إلى هناك كأنما بفضل ليلة عاصفة. ولكنّها لا تُقْرَنُ في ذهنهم، من جرّاء أنّها جديدة، بما يظنّون من واجبهم أن يمقتوه، أسوة بالنسوة السابقات. فهي لا تطالب باحترام إلهها. ويتمّ تبّنيها. ولم يكن الأمر أمر معاداة السامية في الفترة التي شرعت فيها بالذهاب إلى منزل "أوديت". ولكنها كانت شبيهة بما كانوا يبغون الابتعاد عنه فترة من الزمن.

وكان "سوان" فيما يخصّه يقوم في الغالب بزيارة بعض معارفه بالأمس من اللواتي ينتمين بمجموعهن إذن إلى أعلى طبقات المجتمع بيد أني لاحظت، حينما كان يروي لنا عن الجماعة التي قام بزيارتها، أن الاصطفاء من بين اللواتي عرفهنّ بالأمس كان يوّجهه ذلك الضرب من الذوق الذي نصفه فنّي والنصف تاريخي والذي كان يلهم هواية المجموعات لديه. ولما لاحظتُ أن ما يثير اهتمامه إنما كان هذه السيّدة الكبيرة المقصاة عن المسرح أو تلك لأنها سبق أن كانت عشيقة "ليست" أو أن إحدى روايات "بلزاك" تمّ إهداؤها لجدّتها (مثلما كان يبتاع رسماً إن سبق لِ "شاتوبريان" أن وصفه). داخلني الشكّ بأنّنا استبدلنا في "كومبريه" بخطأ احتساب "سوان" بورجوازيّاً لا يرتاد المجتمعات الراقية آخر قوامه أن نحسبه أحد أكثر رجال باريس أناقة. فأن تكون صديق الكونت "دو باري" لا يعني شيئاً. فكم من بين "أصدقاء الأمراء" أولئك من لعلّهم لا يستقْبَلونَ في منتدى مغلق إلى حدّ ما؟ إن الأمراء يعلمون أنّهم أمراء وليسوا متحذلقين ويحسبون أنّهم يَسْمُون إلى ذلك على كل ما ليس من دمهم إلى حدّ يبدو لهم فيه الأسياد الكبار والبورجوازيون من تحتهم على السوّية نفسها تقريباً.

ولم يكن يكتفي "سوان" على كل حال بالبحث في المجتمع على نحو ماهو عليه وبالتمسّك بالأسماء التي دوّنها الماضي فيه والتي لاتزال قراءتها فيه ممكنة، عن محض متعة مثقّف وفنّان، بل

كان يتذوّق تسلية من نوع رخيص في صنع ما يشبه الباقات الاجتماعية بتجميع عناصر غير متجانسة وجمع أشخاص أخذوا من هنا وهناك. ولم يكن لتجارب السوسيولوجية المسلّية هذه (أو التي يراها "سوان" على هذا النحو) الوقع نفسه على جميع صديقات زوجته - أقلّه بصورة ثابتة. "نويت أن ادعو عائلة "كوتار" ودوقة "فاندوم" سويّة"، يقول للسيّدة "بونتان" ضاحكاً وَبَنَهم الذوّاقة الذي ينوي ويبغي القيام بتجربة استبدال فلفل "كايين" بأزرار القرنفل في مرق معين بيد أن هذا المشروع الذي كان سيبدو مسلّياً بمعنى اللفظة القديم، لعائلة "كوتار"، كان من شأنه أن يثير حنق السيّدة "بونتان". فلقد سبق لعائلة "سوان" أن قدّمتها منذ فترة قريبة لدوقة "فاندوم" ووجدت الأمر ممتعاً وطبيعياً على حدّ سواء. ولم يكن الاعتزاز بالأمر في روايته لعائلة "كوتار" الجزء الأقل استملاحاً في متعتها. ولكن السيّدة "بونتان" تمّنت. شأنها في ذلك شأن حاملي الأوسمة الجدد الذين يودّون، ما إن ينالوا الوسام، أن ينغلق في الحال صنبور الأوسمة، أن لا يتم تقديم أحد من عالمها بعدها للأميرة. كانت تعلن في داخلها فساد ذوق "سوان" الذي كان يبدّد دفعة واحدة، في سبيل تحقيق غرابة جمالية حقيرة، كامل الرماد الذي ذرته في عيون عائلة "كوتار" يوم حدّثتهم عن دوقة "فاندوم" وكيف ستحالفها حتّى الجرأة في نقل الخبر إلى زوجها بأن الأستاذ وزوجته سوف يأخذان هما أيضاً قسطهما من تلك المتعة التي سبق أن فاخرت أمامه بأنّها فريدة؟ وليت عائلة "كوتار" تستطيع أن تعلم أنها لم تُدْعَ دعوة جدّية. بل على سبيل التسلية! صحيح أن عائلة "بونتان" إنما دُعيت بالأسلوب نفسه، ولكنّ "سوان" الذي أخذ عن الأرستقراطية تلك "الدونجوانية" الأزلية التي إن وقعت بين امرأتين زهيدتي القدر حملت كلاً منهما على الاعتقاد بأنها وحدها المحبوبة حبّاً جدّيّاً، حدّث السيّدة "بونتان" عن دوقة "فاندوم" وكأنما عن امرأة يبدو من المناسب تماماً أن تتناول طعام العشاء معها. وتقول السيّدة "سوان" بعد بضعة أسابيع: "أجل، لقد قرّرنا دعوة الأمير مع عائلة "كوتار"، ويعتقد زوجي أن هذا الالتقاء يمكن أن يولّد شيئاً مسليّاً". ذلك أنّها إن احتفظت من "النواة الصغيرة" ببعض العادات العزيزة على قلب السيّدة "فيردوران"، كأن تصرخ بصوت عال كيما يسمعها جميع الخلّص، فقد كانت تستخدم، في مقابل ذلك، بعض العبارات - من مثل "الالْتقاء" - العزيزة على نفوس آل "غيرمانت" الذين كانت تخضع لجاذبيّتهم من البعيد وعلى غير علم منها، مثلما يفعل البحر بالنسبة إلى القمر، ولكن دون أن تقترب منهم اقتراباً ملموساً. وسأل "سوان" قائلاً: "أجل، عائلة "كوتار" ودوقة "فاندوم"، ألا ترون أن الأمر سيكون مضحكاً؟" وأجابت السيّدة "بونتان" بحنق: "أظنّ أن الأمور ستسير أسوأ ما يكون السير ولن ينالكم سوى الإزعاج، وينبغي ألا تلعبوا بالنار." وقد تمّت دعوتها وزوجها على كل حال إلى جانب أمير "أغريجنت" إلى ذلك العشاء الذي اتخذت السيّدة "بونتان" و"كوتار" طريقتين في روايته حسب الأشخاص الذين يوجّه الحديث إليهم. فقد كانت السيدة "بونتان" تقول للبعض فيما يخصّها، وكذلك يفعل "كوتار" فيما يخصّه، قول اللامبالي حينما يُسْأَلان من ذا حضر العشاء فيما عداهم: "لم يحضر سوى أمير "أغريجنت". فقد كان العشاء خاصّاً جداً." بيد أنّه يحتمل أن يكون غيرهم أوفر اطّلاعاً (فقد اتّفق أن قال أحدهم ذات مرّة لِ"كوتار": "ولكن ألم تحضر عائلة "بونتان" كذلك؟" ويجيب "كوتار"، وقد كست الحمرة وجهه، يجيب الطائش الذي صنفه مذ ذاك في فئة ألسنة السوء: "لقد نسيتها". وقد تّنت عائلتا "بونتان"

و"كوتار" كلّ فيما يخصّها بالنسبة إلى هؤلاء، دونما تشاور بينهما، رواية متماثلة الإطار لا تستبدل فيها سوى السماء الخاصّة بكلّ عائلة. كان "كوتار" يقول: "لم يحضر سوى أرباب البيت ودوق "فاندوم" والدوقة زوجته – (ويبتسم ابتسامة مزهوّة) والأستاذ "كوتار" والسيّدة زوجته، ثمّ، وأقسم أنّه لم يعلم أحد سبب ذلك، السيّد "بونتان" وزوجته، فقد كانا هناك كمثل شعرة في قصعة من الحساء". وتتلو السيّدة "بونتان" المقطوعة نفسها بالضبط، فيما عدا ذكر اسمي السيّد "بونتان" والسيّدة زوجته، بتفخيم الراضي عن نفسه، بين اسمي دوقة "فاندوم" أغريجنت" ؛ فأمّا الجَربان اللذان تتهمهما في آخر المطاف بأنّهما وجّها الدعوة لذاتها وكانا أشبه ببقعة الوسخ فهما "كَوتار" وزوجته.

كان "سوان" غالباً ما يعود من زياراته قبل العشاء بوقت يسير. وما كان يتساءل في فترة السادسة من المساء تلك، وكان يحسّ فيها فيما مضى أنّه تعيس جدّاً، عمّا كان يمكن أن تفعله "أوديت" وقليلا ما يثير اهتمامه أن تستقبل جماعة في بيتها أو أن تكون خرجت. وكان يذكر أحياناً أنه حاول ذات يوم، لسنوات كثيرة خلت، أن يقرأ من خلال الظرف رسالة سطّرتها "أوديت" لِـ "فورشفيل". ولكن هذه الذكرى ما كانت لتشرح صدره وبدلاً من أن يعمّق الخزي الذي يحسّ يفضّل الانصراف إلى تكشيرة يسيرة في زاوية فمه يضيف إليها. إن قضت الحاجة، هزّة برأسه كانت تعني: "وماذا يهمّني من ذلك؟" صحيح أنّه يحسب الآن أن الفرضيّة التي غالباً ما استوقفته فيما مضى والتي كانت تخيّلات غيرته بموجبها تسوّد وحدها حياة "أوديت"، وهي بالحقيقة بريئة، أنّ تلك الفرضيّة (وقد كانت بمحملها خيّرة بما أنها قللت من عذابه إذ أظهرته من نتاج الخيال ما دام مرض العشق قائماً في نفسه) لم تكن الصحيحة، وأن غيرته هي التي أصابت فيما رأت وأن "أوديت" إن كانت قد أحبته فوق ما تصور فقد خدعته فوق ذلك. لقد أقسم فيما مضى، أثناء ما كان يتعذب أشدّ العذاب أنّه سوف يوفّر لنفسه، حالما يكف عن حبّ "أوديت" ولا يخشى من بعد أن يغيظها أو أن يحملها على الاعتقاد بأنّه يحبّها أشدّ الحبّ، فرصة كشف النقاب معها، لمجرّد ولع بالحقيقة وكأنّما عن نقطة تاريخية، عمّا إذا كان "فورشفيل" في السرير معها أم لا، يوم قرع الجرس ونقر على الزجاج دون أن يُفْتحَ له، ويوم كتبت تقول لِـ "فورشفيل" إنّ من جاء كان أحد أعمامها. بيد أن المشكلة المثيرة التي كان لا ينتظر سوى نهاية غيرته كي يكشف النقاب عنها إنما فقدت بالضبط كل أهميّة في عيني "سوان" حينما كفّ عن الشعور بالغيرة. ولم يتمّ الأمر مع ذلك في الحال. ذلك أنه لم يعد يشعر بالغيرة حيال "أوديت" فيما ظلّ يوم النقرات اللامجدية التي نقرها بعد الظهر على باب المنزل الصغير في شارع "لابيرو" يثير في نفسه شيئاً منها. لكأنّما لم تتخذ الغيرةُ، وهي شبيهة في ذلك بتلك الأمراض التي يبدو أنّها اتّخذت مقرّها ومركز عدواها في بعض الأمكنة وفي بعض البيوت أكثر منها في بعض الأشخاص، لكأنّما لم تتخذ من "أوديت" نفسها موضوعاً لها أكثر منها من ذلك اليوم وتلك الساعة في الماضي البعيد الذي نقر فيه "سوان" على جميع مداخل نزل "أوديت". وكأنّما ثبت في ذلك اليوم وتلك الساعة وحدهما بعض شذرات أخيرة من الشخصية العاشقة التي حملها "سوان" فيما مضى فلا يلقاهما إلا هناك. إنّه منذ زمن طويل لا يهتم أن تكون "أوديت" قد خدعته ولا تزال تخدعه. ولكنه والى مع ذلك البحث على مدى بضع سنوات عن خدم قدماء لدى "أوديت" لشدّة ما

استمر لديه فضوله المؤلم في أن يعلم إن كانت "أوديت" في ذلك اليوم البعيد جدّاً تضاجع "فورشفيل". ثم إن ذلك الفضول نفسه تلاشى دون أن تتوقّف تحرّياته، فقد استمرّ يحاول أن يعرف ما لم يعد يهمّه لأنّ "أناه" القديمة بعدما بلغت أقصى الهرم ظلّت تعمل آليّاً وفق اهتمامات زالت إلى حدّ أن "سوان" لم يعد يفلح حتّى في تصوّر ذلك القلق، وهو قويّ فيما مضى حتّى لا يستطيع أن يتخيّل آنذاك أنّه سيتخلّص منه في يوم وأن موت تلك التي يحبّها وحده (الموت الذي لا يقلّل في شيء عذابات الغيرة مثلما سوف تبرزه فيما بعد في هذا الكتاب تجربة مضادّة قاسية) يبدو قادراً أن يمهّد له درب حياته المسدود كليّاً.

على أن حَلْوَ وقائع حياة "أوديت" ذات يوم، تلك التي كانت سبباً في عذابه، لم يكن منية "سوان" الوحيدة، فقد أضاف إليها احتياطاً منية الثأر من عذابه ذاك حينما يكفّ عن حبّ "أوديت" فلا يخشاها من بعد. وقد سنحت له بالضبط فرصة الاستجابة إلى هذه الأمنية الثانية لأنّ "سوان" كان يحبّ امرأة أخرى، امرأة لا توفر له أسباب الغيرة، ولكنها تثير الغيرة في نفسه مع ذلك لأنه لم يعد قادراً أن يجدّد الطريقة التي يحبّ بها وأنّ تلك التي لجأ إليها مع "أوديت" كان لا يزال" يفيد منها مع أخرى ثانية. ولم يكن ضرورياً أن تخونه تلك المرأة كيما تَبْعَثَ غيرة "سوان" من جديد، بل يكفي لسبب أو لآخر أن تكون بعيدة عنه، أن تكون في سهرة على سبيل المثال وبدا أنّها تلهو فيها. كان ذلك كافياً كي يوقظ فيه القلق القديم، وهو زائدة مؤسفة ومناقضة نمت على حبّه، وكان يقصي "سوان" عمّا يمثّله من حاجة ينبغي بلوغها (هي العاطفة الحقيقيّة التي تكنّها له تلك المرأة الشابّة، وشوق ساعات نهارها الخفيّ وخفايا فؤادها)، لأنّ ذلك القلق كان يضع بين "سوان" وتلك التي يحبّها ركاماً مستعصياً من شكوك سابقة وجدت علّتها في "أوديت" أو ربمّا في واحدة أخرى سبقت "أوديت" ولا تفسح من بعد مجالاً للعاشق الهرم في معرفة عشيقة اليوم إلا من خلال الطيف القديم المشترك "للمرأة التي تثير غيرته"، ذلك الطيف الذي جَسَّدَ فيه حبّه الجديد تجسيداً اعتباطيّا. وغالباً ما كان يتّهم "سوان" تلك الغيرة مع ذلك بأنّها تحمله على الاعتقاد بخيانات وهميّة ؛ ولكنّه يذكر آنذاك أنّه جعل "أوديت" تفيد من الحجّة نفسها وأخطأ فيما فعل. ولذلك لم يعد يبدو بريئاً في عينيه كلّ ما كانت تفعله المرأة التي يحبّها في الساعات التي لم يكن فيها إلى جانبها. بيد أنّه في حين أقسم فيما مضى، إن هو كفّ يوماً عن حبّ تلك التي لم يستشفّ أنّها ستصبح يوماً زوجته، أن يُبدي لها لا مبالاته الصريحة دونما شفقه ليثأر لكبريائه الذي طالما أُذِلّ، لم يعد يهتمّ من بعد بتلك العمليّات الانتقاميّة التي كان بوسعه القيام بها الآن دون مجازفة (إذ ما عساه ينال إنْ يُؤْخَذْ بكلامه ويُحْرَمْ من تلك الجلسات المنفردة مع "أوديت" والتي كانت بالأمس ضروريّة له إلى حدّ بعيد؟) ؛ فقد تلاشت إلى جانب الحبّ الرغبة في إبداء أنّه لم يعد به حبّ. لقد أصبح يتخذ الآن إذ يستطيع ذلك احتياطات لاتُحصى كي لا ترتاب زوجته بأمر هذا الحبّ الجديد.

لم أشارك مذ ذاك في تلك "العصرونيات" فحسب، تلك التي سبق أن اكتأبت من جرّائها بالأمس لرؤيتي "جيلبيرت" تفارقني وتعود قبل الأوان. بل أضحى السيّد والسيّدة عقيلته يقبلانني الآن

في الغدوات التي تقوم بها بصحبة والدتها، إمّا للذهاب في نزهة أو إلى حفلة في العصر، والتي كانت تحرمني إيّاها إذ تحول دون مجيئها إلى "الشانزيليزيه" في الأيام التي كنت أظلّ فيها وحيداً على امتداد المرج أو أمام الأحصنة الخشبية ؛ لقد أضحى لي مكان في عربتهما، وإليّ يُوجّه السؤال إن كنت أفضّل الذهاب إلى المسرح أو إلى درس في الرقص لدى رفيقة لِـ "جيلبيرت" أو إلى الاجتماع الصغير للسيّدة "سوان" (وتدعوه هذه الأخيرة بالاجتماع الصغير ("un petit meeting") أو لزيارة قبور "سان دوني").

وفي تلك الأيّام التي كان ينبغي لي فيها الخروج مع عائلة "سوان" كنت أجيء إلى منزلهم لتناول طعام الغداء الذي تسميه السيّدة "سوان" le lunch : ؛ ولما كانت الدعوة محدّدة بالثانية عشرة والنصف ظهراً وكان أهلي يتناولون طعام الغداء في الحادية عشرة والربع فقد كنت أتخذ طريقي، بعدما يغادرون المائدة، إلى ذلك الحيّ الفخم المنعزل تقريباً في جميع الأوقات وبخاصّة في ذلك الوقت الذي عاد فيه كلّ الناس إلى بيوتهم. وكنت أذرع الشوارع جيئة وذهاباً بانتظار الساعة الثانية عشرة وسبع وعشرين دقيقة حتى في الشتاء وفي الصقيع إن كان الطقس صحواً، وأنا أشدّ بين الحين والحين عقدة رابطة عنق رائعة من عند "شافير" وأنظر إن لم يتّسخ حذائي الملمّع. وأبصر من البعيد الشمس التي تلتمع بها كما الصقيع الأشجار العارية في حديقة عائلة "سوان" الصغيرة. والصحيح أن تلك الحديقة الصغيرة لم تكن تحوي سوى شجرتين ؛ ولكن الساعة غير المعتادة كانت تضفي على المشهد جدّة. وتختلط بمتع الطبيعة تلك (التي يزيد منها انتقاء العادة وحتى الجوع) فكرةُ الغداء المرتقب المؤثّرة لدى السيّدة "سوان" فلا تقلل منها بل تهيمن عليها وتستبعدها فتجعل منها متممات اجتماعيّة، إلى حد أني إن بدا لي أني أكتشف الصحو والبرد والضياء الشتائي في تلك الساعة التي لم أكن أبصرها فيها بالعادة فإنّما بمثابة تمهيد للبيض بالكريما وبمثابة طبقة وألوان وردّية نديّة تنضاف إلى كساء ذلك المعبد الزاخر بالأسرار المتمثّل في منزل السيّدة "سوان" والذي يفيض على العكس دفئاً وطيوباً وأزهاراً.

وفي الثانية عشرة والنصف ظهراً كنت أقرّر الدخول أخيراً إلى ذلك البيت الذي يبدو لي، شأن حذاء عيد الميلاد، وكأنّه يحمل إليّ متعاً خارقة. (وكان اسم الميلاد مجهولا على كلّ حال لدى السيّدة "سوان" و"جيلبيرت" اللتين استبدلتا به كلمة "كريسماس"(*) فلا تتحدّثان إلا عن كعكة الكريسماس وما قُدمّ لهما في الكريسماس. وعن غيابهما - وأجنّ ألماً من جراء ذلك - بمناسبة الكريسماس. ولعلّني كنت أظنّ أنّ العار يلحق بي حتى في بيتنا إن أنا تحدّثت عن الميلاد فلم أعد أقول إلا كريسماس، الأمر الدي يراه والدي متيراً للسخرية إلى أقصى حد).

ولم ألتق بادئ الأمر إلاّ بخادم أدخلني، بعدما حملني على اجتياز عدّة صالات كبيرة، في صالة صغيرة جداً وخيالية وقد أخذت تغمرها بالأحلام زرقة العصر في نوافذها. وأظلّ وحدي برفقة أزهار

(*) Christmas أي عيد الميلاد بالإنكليزية.

الأوركيدا والورود والبنفسج التي تصمت، شأن أشخاص ينتظرون بالقرب منك ولكنّهم لا يعرفونك - صمتاً يزيد من تأثيره فيّ تفردها كأشياء حيّة، وتستقبل بارتعاش المقرور دفء نار فحم متوهجة وضِعَتْ بتأنٍّ شديد خلف إطار من الكريستال في حوض من الرخام الأبيض تنهار فيه بين الحين والحين أحجار ياقوتها الخطرة.

وكنت قد جلست، ولكني نهضت على عجل إذ سمعت الباب ينفتح، وما كان ذلك سوى خادم آخر، ثم ثالث وكانت النتيجة الزهيدة التي تنتهي إليها جيئاتهم ورواحهم التي تهزّني دون جدوى أن يضيفوا قليلاً من الفحم فوق النار، ومن الماء في الآنية. ثم يمضون، وأعود فألقى نفسي وحيداً بعدما ينغلق الباب الذي لابدّ ستفتحه السيّدة "سوان" في نهاية المطاف. ولعلّني كنت أصاب في مغادرة سحرية باضطراب أقلّ بالتأكيد ممّا يلحق بي في صالة الانتظار الصغيرة هذه التي تبدو النار فيها وكأنها تقوم بضروب من التحول كما هي الحال في مخبر "كلنغسور". ويدويّ وقع خطى جديد فلا أنهض إذ هو لابدّ خادم آخر، فإذا هو السيّد "سوان". ما هذا؟ تجلس وحدك؟ لا حول لنا في ذلك، فزوجتي المسكينة لم تستطع يوماً أن تعرف أي شيء هي الساعة. إنها الواحدة إلا عشر دقائق، وفي كلّ يوم تزداد تأخراً. وسترى بنفسك أنه ستصل دون استعجال ظنّاً منها أنّها جاءت قبل الأوان". ولما كان "سوان" لا يزال عرضة لالتهابات الأعصاب وأصبح يثير السخرية بعض الشيء فأن تكون له زوجة غير دقيقة إلى هذا الحدّ تعود متأخّرة جدّاً من الغابة وتنسى نفسها لدى خيّاطتها ولا تحضر ألبتّة إلى الغداء في الساعة المحدّدة إنمّا كان يقلقه بشأن معدته ولكنّه يدغدغ كبرياءه.

كان يريني مشتريات جديدة أقدم عليها ويشرح لي فائدتها، ولكن الانفعال المقرون بأني لم أتعود المكوث دون طعامٍ حتى تلك الساعة كان ينشر الفراغ في فكري فيما يبعث فيه الاضطراب حتى أنّني وإن كنت قادراً على الكلام لم أكن قادراً على الاستماع. كان يكفي على كلّ حال بالنسبة إلى الأعمال الفنيّة التي بحوزة "سوان" أن تكون موجودة في منزله وأن تشارك في الساعة الحلوة التي تسبق طعام الغداء ولعلّ لوحة "الجوكونده" لو كانت هناك لما بعثت في نفسي سروراً أعظم من الذي يبعثه معطف منزلي للسيّدة "سوان" أو مملحاتها.

وكنت أوالي الانتظار وحيداً أو بصحبة "سوان" وفي كثير من الأحيان "جيلبيرت" التي جاءت تؤانسنا. لقد بدا لي أنّ قدوم السيّدة "سوان" الذي أُعِدّ له بهذا العدد الكبير من الجيئات الفخمة كان ينبغي أن يكون أمراً هائلاً. فكنت أترصد كل صرير. على أنّك لا تجد ألبتّة كاتدرائية وموجة في العاصفة وقفزة راقص في مثل الارتفاع الذي أمّلت، فبعد هؤلاء الخدم بلباسهم الرسمي، وهم أشبه ما يكونون بالممثّلين الصامتين الذي يُعِدُّ موكبهم في المسرح لقدوم الملكة الأخير ويقلّل بذلك من أهميّته، لم تكن تفي السيّدة "سوان"، إذ تدخل خلسة بمعطف صغير من فرو ثعلب الماء وخمارها الصغير مرخيٌّ فوق أنف كساه البرد حمرة، بالوعود المبذولة لمخيلتي في أثناء الانتظار.

أمّا إذا مَكَثَتْ طوال فترة الصباح في المنزل فقد كانت ترتدي حينما تقبل إلى الصالة مبذلاً من الحرير الصيني الرقيق فاتح الألوان يبدو لي أوفر أناقة من جميع فساطينها.

وكانت أسرة "سوان" تقرّر أحيانا المكوث في البيت طوال فترة ما بعد الظهر ؛ وسرعان ما كنت أبصر آنذاك، وقد تناولنا طعام الغداء في وقت متأخر جدًّا، شمس ذلك النهار الذي بدا لي أنّه ينبغي أن يختلف عن سواه تميل على جدار الحديقة الصغيرة، وعبثاً يجيء الخدم بمصابيح من جميع الأحجام وجميع الأشكال وكلّ منها يشتعل فوق مذبح مائدة جداريّة أو طاولة مستديرة أو زاوية أو طاولة صغيرة وكأنما للاحتفال بأحد الطقوس المجهولة، فلم يكن ينبثق عن الحديث أيّ شيء خارق وكنت أغادر خائب الآمال مثلما يحدث ذلك في الغالب منذ الطفولة بعد قدّاس منتصف الليل.

على أنّ تلك الخيبة لم تكن إلا روحيّة، فقد كنت أتهلّل فَرَحاً في ذلك البيت الذي تزمع "جيلبيرت"، حينما لم تكن بعد برفقتنا أن تدخله وسوف تهبني بعد لحظة وعلى مدى ساعات كلامها ونظرتها المهتمّة المشرقة على غرار ما سبق أن رأيتها للمرّة الأولى في "كومبريه". وأكثر ما في الأمر أنني كنت أحسّ بشيء من الغيرة إذ أراها تختفي مرّات كثيرة في حجرات كبيرة يبلغ المرء إليها بدرج داخليّ. ولما كنت مضطراً أن أمكث في الصالة. شأن عاشق ممثّلة لا يملك سوى مقعده في القاعة ويحلم مضطرب الفكر بما يجري وراء الكواليس وفي مقرّ الممثّلين، طرحت على "سوان" بشأن هذا القسم الآخر من البيت أسئلة يكتنفها غموض مدروس ولكن بلهجة لم أفلح في إقصاء بعض القلق عنها. فشرح لي أن الحجرة التي تؤمّها "جيلبيرت" هي حجرة البياضات وعرض أن يريني إيّاها ووعد أنّه سيرغم "جيلبيرت" أن تصطحبني إليها في كل مرّة يقع عليها الذهاب إلى هناك. وقد حذف "سوان" فجأة بالنسبة إليّ، بفضل هذه الكلمات الأخيرة والراحة التي زوّدتني بها، إحدى تلك المسافات الداخليّة الرهيبة التي تبدو لنا في نهايتها المرأة التي نحبّها شديدة البعد عنا. وأحسست نحوه في تلك اللحظة بمودّة حسبتها أوفر عمقاً من مودّتي لِ "جيلبيرت"، فقد كان يهبني ابنته، وهو سيّدها، أمّا هي فترفض أحياناً، ولا يتوافر لي مباشرة عليها ذلك السلطان نفسه الذي لي على نحو غير مباشر عن طريق "سوان" ولكنيّ في النهاية أحبها هي، ولا يسعني بالتالي أن أراها بمعزل عن ذلك الاضطراب، عن ذلك الشوق إلى أمر إضافي، الشوق الذي ينزع منّا بالقرب من الشخص الذي نحبّه الإحساس بالحبّ.

على أننا ما كنّا في أكثر الأحيان نلازم البيت بل نبادر إلى النزهات. وتجلس السيّدة "سوان" أحياناً إلى البيانو قبل أن تمضي لارتداء ثيابها. كانت يداها الجميلتان تمدّان من فتحات أكمام معطفها البيتي الذي من حرير صيني رقيق، من فتحات أكمامها الورديّة أو البيضاء، وهي في الغالب زاهية الألوان، سلامياتهما فوق البيانو بالكآبة نفسها التي في عينيها وليست في فؤادها. واتفق لها في أحد تلك الأيّام أن عزفت لي القسم الذي يتضمّن الجملة الصغيرة التي أحبّها "سوان" حبّاً جماً في سوناتا "فنتوي". ولكن المرء لا يدرك في الغالب شيئاً إن كانت هناك موسيقى على شيء من التعقيد يصغي إليها للمرّة الأولى. إلا أنّني رأيتني أعرف تلك السوناتا أتمّ المعرفة حينما عُزِفَتْ لي فيما بعد مرّتين أو ثلاث مرّات. وليس يخطئ لذلك من يقول عن "الاستماع للمرّة الأولى". فإن لم يتفق للمرء حقّاً، حسبما ظنّوا، أن يميّز شيئاً في الحفلة الموسيقية الأولى، فسوف تظلّ الثانية والثالثة حفلات أولى وليس هنالك ما يدعو إلى إدراك شيء أكثر في العاشرة. والأرجح أن موقع القصور في

المرّة الأولى ليس الإدراك بل الذاكرة. ذلك أن ذاكرتنا بالنسبة إلى تعقيد الانطباعات التي يقع عليها أن تواجهها في أثناء إصغائنا طفيفة جدّاً وفي مثل قِصرَ ذاكرة رجل يفكر أثناء نومه بألف أمر ينساها في الحال أو رجل عاد إلى عهد الطفولة ولا يذكر في الدقيقة التالية ما قيل له منذ لحظة. تلك الانطباعات العديدة لا تستطيع الذاكرة أن تزوّدنا على الفور بذكراها. بيد أن هذه إنمّا تتشكل شيئاً فشيئاً في الذاكرة وإننّا فيما يخصّ الأعمال الفنيّة التي سمعناها مرّتين أو ثلاث مرّات في موقع التلميذ الذيْ أعاد قبل النوم مرّات عديدة قراءة الدرس الذي ظنّ أنّه لا يعرفه والذي يقوله عن ظهر اللب في صباح الغد. ولكنيّ لم أكن بعد قد سمعت حتى ذلك اليوم شيئاً عن تلك السوناتا، وحيثما كان يبصر "سوان" وزوجته جملة متميّزة كانت هذه الأخيرة بعيدة عن إدراكي الواضح بُعد اسم نحاول أن نتذكّره ولا نجد مكانه سوى العدم، سوى عدم تندفع منه بعد ساعة، بوثبة واحدة ومن تلقاء ذاتها ودون أن نفكّر فيها، المقاطع التي التمسناها بادئ الأمر دون جدوى. ولا يقتصر الأمر على أننا لا نحفظ في الحال الأعمال الفنيّة النادرة حقاً ولكننا حتى في صميم كلّ من تلك الأعمال إنمّا نتبيّن بادئ الأمر أقلّ الأجزاء قيمة، وقد وقع لي ذلك بالنسبة إلى سوناتا "فنتوي". ولذلك لم يقتصر خطئي على التفكير بأن ذلك العمل الفني لم يعد يخبّئ لي شيئاً (الأمر الذي جعلني أظلّ طويلاً دون أن أحاول سماعه) بما أنّ السيّدة "سوان" قد عزفت لي الجملة الأكثر ذيوعاً فيها (وكنت في ذلك بمثل غباء الذين لا يتوقّعون أن يحسّوا من بعد بأيّة دهشة أمام كنيسة القديس مرقص في البندقية لأنّ الصورة الشمسيّة أطلعتهم على شكل قبابها). ولكنيّ حتى حينما استمعت للسوناتا من أوّلها إلى آخرها فقد ظلّت إلى ذلك غامضة بأكملها بالنسبة إليّ كمثل بناء أثري لا تدع لك المسافة أو الضباب أن تتبين منه سوى أقسام طفيفة. من هنا تنجم الكآبة التي تلازم معرفة مثل هذه الأعمال، على غرار كلّ ما يتحقّق في الزمان. وعندما تكشّف لي ما كان أكثر خفاءً في سوناتا "فنتوي"، أخذ يغيب عنيّ، أخذ يهرب منيّ مذ ذاك ما سبق أن تبيّنته وفضّلته بادئ الأمر وقد جرفته العادة بعيداً عن مواقع إحساسي. ولأني لم أستطع أن أحبّ كلّ ما كانت تحمله إليّ تلك السوناتا إلاّ في أوقات متعاقبة فلم أمتلكها في يوم بكلّيتها: وكانت بذلك شبيهة بالحياة. إلا أنّ تلك الروائع العظيمة مخيبة للآمال أقلّ من الحياة، فهي لا تبدأ بتزويدنا بأفضل ما لديها. فأمّا المحاسن التي نكتشفها قبل كلّ شيء في سوناتا "فنتوي" فتلك التي نملّها سريعاً وللسبب نفسه الذي قوامه أنها قليلة الاختلاف عمّا سبقت لنا معرفته، لا شكّ في ذلك. ولكن حينما تبتعد عنّا تلك المحاسن يبقى لنا أن نحبّ تلك الجملة التي جعلها ترتيبها، وهو جديد إلى حدّ أنّه لا يوفّر لفكرنا سوى الغموض. جعلها تمتنع على الإدراك وحفظها سالمة لا مساس فيها. حينئذٍ تأتي إلينا، هي التي كنّا نمرّ أمامها كل يوم دون علم منّا وظلّت تنتظر وأصبحت بفضل سلطان جمالها وحده بعيدة عن الأنظار وظلّت مجهولة، تأتي إلينا آخر ما تأتي. ولكنّنا نفارقها كذلك آخر ما نفارق، ولسوف نحبّها زمناً أطول من الأخريات لأننا أنفقنا وقتاً أطول كيما نحبّها، وليس ذلك الوقت الذي يعوز امرأً – مثلما أعوزني بشأن تلك السوناتا – كيما ينفذ إلى عمل فني على شيء من العمق، سوى تكثيف، سوى ما يشبه الرمز، للسنوات وأحياناً للقرون التي تنقضي قبل أن يتمكّن الجمهور من التعلّق برائعة فنية جديدة حقاً. ولذلك ربمّا قال الرجل العبقري في نفسه، كيما يوفّر على ذاته تجاهل الجمهور: إنّ الأعمال التي كتبت للأجيال

القادمة ينبغي أن تتمّ لها وحدها قراءتها. على غرار بعض اللوحات التي نسيء تقديرها إن نظرنا إليها من مسافة قريبة جدّاً، لأنّ معاصريه يعوزهم البعد الكافي. إلاّ أنّه لا جدوى بالحقيقة من كل إجراء وقائي جبان لتفادي الأحكام المغلوطة لأنه لا يمكن تفاديها. وإن سبب صعوبة الإعجاب الفوريّ بعمل عبقري قوامه أنّ الذي كتبه إنسان خارق وأنّ من الناس قليلاً يشبهونه. وإنمّا عمله نفسه الذي سيعمل على إخصاب العقول النادرة القادرة أن تفهمه فينميها ويكثّرها. إن رباعيات بيتهوفن (الرباعيات ١٢ و١٣ و١٤ و١٥) هي التي استغرقت خمسين عاماً كي تلد جمهور رباعيات بيتهوفن وتكثّره فحقّقت على هذا النحو، شأن جميع الروائع الفنيّة تقدّماً على الأقل في مجتمع أصحاب الفكر الذي يؤلّفه اليوم أوسع التأليف ماكان متعذّر الوجود يوم صدور تلك الرائعة، ونقصد الجماعة القادرة على تعشّقه. إن لم يكن في محال قيمة الفنّانين. وإنّ ما يسمّى بالأجيال القادمة إنمّا هو أجيال العمل الفني. فلا بدّ للعمل الفنيّ (بصرف النظر. ابتغاءً للتبسيط. عن النوابغ الذين يستطيعون في الفترة نفسها وعلى نحو متواز إعداد جمهور أفضل للمستقبل يستفيد منه نوابغ آخرون سواهم) أن يخلق أجياله القادمة فلن تكونَ هذه بالنسبة إلى ذلك العمل الفني أجيالاً قادمة بل جماعة من المعاصرين عاشت فقط بعد خمسين عاماً. لذلك انبغى للفنان إن أراد لعمله الفنيّ أن يستطيع متابعة طريقه أن يقذف به حيث الأعماق الكافية في قلب المستقبل البعيد. بيد أن هذا الزمن الآتي، وهو أفق الروائع الفنيّة المرتقب، إن كان ضلال الحكام الجهال أنهم لا يأخذونه بالحسبان فإنّ أخذه بالحسبان إنمّا يؤلّف أحياناً الوسواس الخطير لدى القديرين منهم. فمن السهل أن نتخيّل دون شكّ، عبر توهّم شبيه بذاك الذي يوحّد بين جميع الأشياء في الأفق، أنّ جميع الثورات التي قامت حتى الآن في الرسم أو الموسيقى إنمّا كانت تحترم مع ذلك بعض القواعد وأن ما يقوم أمامنا مباشرة من انطباعيّة وبحث عن النشاز واستخدام حصري للسلّم الصينيّ وتكعيبيّة ومستقبليّة إنمّا يختلف أشدّ الاختلاف عمّا سبقه. ذلك أنّنا ننظر إلى ما سبقه دون أن نأخذ بالحسبان أن عملية توحيد طويلة قد قلبته بالنسبة إلينا مادّة منوّعة دون شكّ ولكنها بمجملها متجانسة يجاور فيها "هوغو" "موليير". فلنفكّر فقط في وجوه التنافر الفاضحة التي ربمّا يجيئنا به، إن نحن لم نضع في حسابنا الزمن الآتي والتغيرّات التي يحملها معه، هذا البرج أو ذاك من كهولتنا يُستَطْلَعُ أمامنا في أثناء فترة المراهقة. ولكنّ الأبراج ليست صحيحة كلّها، وإن اضطرارنا فيما يخصّ أيّ عمل فنيّ إلى إدخال عامل الزمن في مجموع جماله إنمّا يمزج بالحكم الذي نصدره شيئاً فيه من التهوّر وبالتالي من فقدان الأهميّة الحقيقية بقدر ما للتنبؤ أيّاً كان الذي لا يفترض لا تحقّقه مطلقاً ضحالة فكر النبيّ لأنّ ما يدعو الممكنات إلى الوجود أو يستبعدها منه لا يدخل بالضرورة ضمن صلاحيّة العبقريّة، إذ يمكن أن تتوافر لك دون أن تكون آمنت بمستقبل الخطوط الحديديّة أو الطائرات، أو اعتقدتَ بنفاق عشيقة أو صديق، مع أنّك عالم نفس كبير، فيما لعلّ أكثرهم ضحالة كان يتوقّع خياناتهما.

ومع أنيّ لم أفهم السوناتا فقد فتنني سماع عزف السيّدة "سوان". ذلك أنّ لمستها كانت تبدو لي، شأن مبذلها، شأن عطر دَرَجها، شأن معاطفها، شأن أقاحيها، وكأنّها جزء من كلّ متميّز وزاخر بالأسرار في عالم أسمى بما لا يُقاس من العالم الذي يستطيع العقل فيه أن يحلّل الموهبة. وقال لي "سوان": "أليس أنها جميلة سوناتا "فنتوي" هذه؟ لحظة يحلّ الليل تحت الأشجار وتحمل رشقات

الكمان برودة المساء. هيا اعترف بجمالها. هنالك جانب كامل السكون الذي يضفيه ضياء القمر وهو الجانب الأساسيّ. وليس عجيباً أن يؤثّر استشفاء بالضياء كالذي تخضع له زوجتي على العضلات بما أن ضياء القمر يحول دون أن تتحرّك الأوراق. ذلك ما أُحْسِنَ تصويره في هذه الجملة الصغيرة، إنها غابة بولونيا التي أصابها التصلّب. والأمر بعدُ أشدّ تأثيراً على شاطئ البحر لأنّ ثمة الردود الضعيفة التي تصدر عن الأمواج والتي نسمعها بالطبع تماماً بما أنّ كلّ ما تبقى لا يستطيع الحركة. أمّا في باريس فبخلاف ذلك. إذ تكاد لا تلاحظ تلك الأضواء الغريبة على المباني، وتلك السماء التي تشتعل بما يشبه حرائق لا لون لها ولا خطر منها، وهذا الضرب من الحدث العاديّ المستشفّ المترامي الحدود. ولكن الأمر لا يدور حول ذلك في جملة "فنتوي" الصغيرة ولا في كامل السوناتا على أيّة حال فالأمور تجري في الغابة، وفي الزخارف النغمية تسمع بوضوح صوت أحدهم يقول: "ربمّا استطاع المرء حتىّ أن يقرأ جريدته." كان يمكن أن تشوّه أقوال "سوان" تلك فيما بعد فهمي للسوناتا إذ قليلاً ما تكون الموسيقى مقصورة على معنى كيما نقصي تماماً عنها ما يُوْحيَ به إلينا فيها. إلا أنني أدركت بفضل أقوال أخرى له بأن تلك الأشجار الليلّية إنمّا كانت فقط تلك التي استَمَعَ تحت كثافة أغصانها في أمسيات عديدة وفي الكثير من مطاعم أطراف باريس إلى الجملة الصغيرة. وكان ما تحمله لِ "سوان"، بدلاً من المعنى العميق الذي طالما طالبها به، تلك الأغصان المرتّبة الملفوفة الملتمعة من حولها (وتبعث في نفسه الشوق إلى رؤيتها ثانية لأنها تبدو له وكأنها نفس تداخلها). كان ربيعاً بأسره لم يسعه التمتّع به فيما مضى. إذ لم يتّفق له، وهو إذ ذاك مصاب بالحمىّ وكئيب المزاج، ما يكفي من الهناءة لذلك وظلّت تحتفظ له به (مثلما نفعل، بالنسبة إلى أحد المرضى، بالأشياء الطيّبة التي لم يتمكّن من تناولها). أمّا ضروب السحر التي جعلته في بعضْ الليالي يحسّ بها داخل الغابة. والتي كان يمكن لسوناتا "فنتوي" أن تزوّده بمعلومات عنها، فلم يكن بوسعه أن يسأل "أوديت" بشأنها مع أنها كانت ترافقه كالجملة الصغيرة. ولكن "أوديت" كانت حينئذ إلى جانبه فحسب (لا في داخله شأن موضوع "فنتوي") ولا ترى إذاً - ولو كانت ألف مرّة أوسع فهماً - ما لا يمكن بالنسبة لأيّ منّا أن يتمّ الإعراب عنه (وقد ظننت لفترة طويلة على الأقلّ أنّ هذه القاعدة لا تحتمل شواذاً). "أليس في الأساس جميلاً، يقول "سوان". أن يستطيع النغم عكس الأشياء كالماء. كمثل مرآة. وانتبهْ إلى أن جملة "فنتوي" لا تبرز لي إلا كلّ ما لم أكن أعيره انتباهي في تلك الفترة. أمّا من صنوف غمّي وحبي في ذلك الوقت فإنها لم تعد تذكرّني بشيء، لقد قامت بعمليّة مبادلة."

- "شارل، يبدو أنّ كلّ ما تقوله لي ليس لطيفاً جدّاً بالنسبة إليّ." - "ليس لطيفا! إن النساء رائعات! كان مرادي فقط أن أقول لهذا الشاب إنّ ما تكشفه الموسيقى - على الأقلّ لي - ليس على الإطلاق "الإرادة في ذاتها" ولا "خلاصة اللانهائي". بل العمّ "فيردوران" بحلّة رسمية بين تخيلّيات حديقة الحيوان. ألف مرّة اصطحبتني تلك الجملة الصغيرة، دون أن أخرج من هذه الصالة، إلى العشاء معها في "أرمنو نفيل". صدّقيني، المسألة أبداً أقلّ إزعاجاً من الذهاب إلى هناك برفقة السيّدة "دو كامبرمير". وأخذت السيّدة "سوان" بالضحك: "إنها سيّدة يقولون تولّهت أشدّ الوله بِ "شارل"، تقول موضحة لي باللهجة نفسها التي أجابتني بها قبل قليل في حديثها عن "فير مير دو

ديلفت" الذي عجبتُ أشدّ العجب لملاحظتي إنهّا تعرفه: "أردت أن أقول: إنّ السيّد كان يهتمّ كثيراً بذلك الرسّام في الآونة التي كان يتودّد إليّ في أثنائها، أليس كذلك يا شارل العزيز؟" - "لا تتحدّثي دونما روية عن السيدة "دو كامبر مير"، يقول "سوان". وهو مزهوّ جدّاً في أعماقه - "ولكنيّ إنمّا أردّد فحسب ما قيل لي. ويبدو على أيّة حال أنهّا ذكيّة جدّاً، ولكنيّ لا أعرفها. إنيّ أظنهّا جريئة في مسعاها إلى الغرام، والأمر يدهشني أشدّ الدهشة حينما يصدر عن امرأة ذكيّة. على أن الجميع يقولون إنها جُنّتْ بك. وليس في الأمر ما يحرج. وصمت "سوان" صمتاً عميقاً كان نوعاً من التصديق ودليلاً على الزهو الفارغ. وعادت السيّدة "سوان" تقول، وهي تُبْدِي بداعي المزاح وكأنها أخِذَتْ بالأمر: "بما أنّ ما أعزفه يذكّرك بحديقة الحيوانات، فيمكن أن تتخذها عمّا قليل هدفاً لنزهتنا، إن كان الأمر يسليّ هذا الصغير. إن الطقس جميل جدّاً وربما عدت فلقيت انطباعاتك العزيزة عليك. أمّا بخصوص حديقة الحيوانات فَتَعْلَمُ أن هذا الشابّ كان يظنّ أنّنا نودّ كثيراً امرأة أقاطعها على العكس قدر ما أستطيع، عنيت السيّدة "بلاتان"! إني أجد إذلالاً عظيماً لنا في أن تُحتسب صديقتنا. تصوّر أنّ الدكتور "كوتار" الطيبّ القلب والذي لا يتناول أحداً بسوء يصرّح بنفسه أنّها عفنة."

- "ياللفظاعة! ليس لها مزّية سوى أنها تشبه إلى حدّ بعيد "سافونارول". إنها بالضبط صورة "سافو نارول" بريشة "فرا برتولو مييو" (Fra Bartolomeo). "كان للهوس الذي بِـ "سوان" أن يلقي على هذا النحو وجوه شبه في عالم الرسم ما يبرّره، فحتيّ ما ندعوه بالمـلامح الفرديّة. - مثلما نتبيّن ذلك بكثير كم الكآبة حينما نحبّ ونودّ الاعتقاد بحقيقة الفرد الوحيدة - شيء عام ويمكن أن نصادفها في حقب مختلفة. بيد أنّه لو تمّ الإصغاء لِـ "سوان" لكشفت مواكب ملوك المجوس، وهي تنمّ عن مفارقة تاريخية حينما أدخل فيها "بينوتزو غوزّولي" (Benozzo Gozzoli) آل "ميديتشي"، عن مفارقة أكبر لأنها إنمّا ستتضمّن رسوم جمهرة من الناس ممن عاصروا لا "غوزّولي" بل "سوان"، أي أنهّم جاؤوا لا خمسة عشر قرناً بعد الميلاد فحسب، بل أربعة قرون بعد الرسّام نفسه. فلم يظلّ خارج تلك المواكب. حسبما يرى "سوان". باريسيّ واحد مرموق، كما هو أمر مسرحيّة لِـ "ساردو" جاء فيها، بداعي المودّة للمؤلّف ولصاحبه الدور الرئيسي، جميع أعيان باريس من أطبّاء مشهورين ورجال سياسة ومحامين، جاؤوا كلّ بدوره في إحدى الأمسيات يشاركون في العرض على خشبة المسرح بغية التسلية. "ولكن أيّة صلة لها مع حديقة الحيوانات؟" - "كلّ الصلات." - "ماذا، أتظنّين لها مؤخّرة زرقاء سماويّة كالقردة؟" - "شارل، أيّة بذاءة تلك! لا، فقد كنت أفكرّ بالكلمة التي قالها لها السيلاني. اروها، فهي بالحقيقة "كلمة حلوة" - "ياللأمر السخيف. من المعلوم أنّ السيّدة "بلاتان" تحبّ مناداة جميع الناس بطريقة تحسبها لطيفة ولكنها على وجه الخصوص متعالية."

- "ذلك ما يدعوه جيراننا الطيبون على ضفاف "التاميز" "patronizing" (•)، تقول "أوديت"

(•) اتخاذ لهجة أو مظهر أبويين.

مقاطعة. - "لقد راحت منذ عهد قريب إلى حديقة الحيوانات حيث جماعة من السود أظنّهم من السيلانيين كما قالت زوجتي، وهي أطول باعاً مني في وصف الأجناس." - "هيّا، يا شارل، لا تمض في التهكّم" - "ولكنيّ لا أتهكّم ألبتّة. وأخيراً توجّهت إلى أحد هؤلاء السود قائلة: "مرحباً يا عبدا".

- "لا قيمة لذلك!" - على أيّة حال لم ترق تلك الصفة للأسود وقال بحنق للسيّدة "بلاتان": "أنا عبد، أمّا أنت فقرد!" - "أجد ذلك في أشدّ الغرابة! وأعشق هذه الحكاية. أليس أنها "حلوة"؟ تلك بالضبط العمّة "بلاتان": "أنا عبد، أمّا أنتِ فقرد!"

وأعربت عن رغبة بالغة في المبادرة إلى رؤية هؤلاء السيلانيين الذين دعا أحدهم السيّدة "بلاتان" قرداً. وما كانوا يبعثون فيّ أيّ اهتمام، ولكنيّ فكرّت أنّنا ربمّا اجتزنا للذهاب إلى حديقة الحيوانات والعودة منها ممرّ شجيرات الأكاسيا حيث سبق لي أن أعجبت بالسيّدة "سوان" وربمّا رآني صديق "كوكلان" الخلاسيّ الذي لم أستطع أن أظهر قطّ في حضرته وأنا أحيّي السيّدة "سوان". ربمّا رآني أجلس بالقرب منها في زاوية عربة مكشوفة.

كان يطيب للسيّد "سوان" وزوجته في أثناء تلك الدقائق التي لا تجالسنا فيها "جيلبيرت" في الصالة، بعدما ذهبت تستعدّ، أن يكشفا لي عن مزايا ابنتهما النادرة. وكان يبدو كلّ ما أرقبه وكأنّه البرهان على صحّة ما يقولان! فقد لاحظت أنها تبدي، مثلما روت لي والدتها، اهتماماً رقيقاً لا بصديقاتها فحسب، بل بالخدم الفقراء، اهتماماً خطّطت له طويلاً ورغبة في إشاعة السرور وخشية من الإغضاب تترجمها أمور صغيرة غالباً ما تحمّلها الكثير من المشقّة. فقد أنجزت شغلاً بالإبرة لبائعتنا في "الشانزيليزيه" وخرجت تحت الثلج لتسلّمها إيّاه دون تأخير يوم واحد. "لايمكن أن تخطر لك حقيقة قلبها، فإنّها تخفيه"، يقول والدها. لقد كانت تبدو بشبابها الغضّ أكثر تعقّلاً من والديها، فحينما كان يتحدّث "سوان" عن معارف زوجته المرموقين كانت "جيلبيرت" تدير رأسها وتصمت ولكن دون أن تبدي اللوم إذ لم تكن هنالك إمكانية فيما يبدو لها بأن يكون والدها موضع نقد مهما يكن طفيفاً. وفي يوم كنت حدّثتها فيه عن الآنسة "فنتوي" قالت لي:

- "لن أعرفها في يوم ولسبب واحد قوامه أنها لم تكن لطيفة بحقّ والدها، فيما يقولون، وكانت سبباً في غمّه. لست تستطيع إدراك الأمر، كما هو شأني، أليس كذلك، أنت الذي لا يستطيع البقاء دون شك بعد والده أكثر مما أستطيع بعد والدي، والأمر على كلّ حال طبيعيّ تماماً. فكيف ننسى في يوم إنساناً أحببناه على الدوام؟"

وذات مرّة بدت فيها أكثر "دلاعة" مع "سوان" وإذ نقلت إليها ملاحظتي تلك بعدما ابتعد أجابت:

- "أجل، مسكين بابا، ففي هذه الأيام ذكرى وفاة والده. تستطيع أن تدرك ما لا بدّ أنّه يعاني، إنك تدرك ذلك أنت، فإن مشاعرنا واحدة إزاء هذه الأمور. إني أحاول والحالة هذه أن أكون أقلّ

سوءً من المعتاد." - "ولكنّه لا يرى أنّك سيّئة، بل يرى أنّك ممتازة." - "مسكين بابا. ذلك لأنّه طيّب جدّاً."

ولم يقتصر والدا "جيلبيرت" على الإشادة بفضائلها - "جيلبيرت" نفسها التي كانت تظهر لي حتى قبل أن أكون رأيتها في يوم، أمام كنيسة وفي أحد مناظر "إيل دو فرانس" والتي كانت تبدو فيما بعد على الدوام، إذ تذكّرني لا بأحلامي من بعد بل بذكرياتي، أمام سياج الزعرور الوردي، في الدرب الوعر الذي كنت أسلكه للذهاب من جهة "ميزيكليز". وإذ سألت السيّدة "سوان"، وأنا أجهد في اتخاذ اللهجة اللامبالية التي لصديق للأسرة راغب في معرفة ميول طفلة. من كانت "جيلبيرت" تحبّ أكثر ما تحبّ من بين رفاقها، أجابتني السيّدة "سوان" قائلة:

- "ولكن لابدّ أنّك أكثر إيغالاً مني في أسرارها، أنت المحظيّ الكبير وصفوة الصفوة، حسبما يقول الإنكليز."

وفي هذه التطابقات الشديدة الكمال. حينما ينكفئ الواقع وينطبق على ما حلمنا به لفترة طويلة فلا شك أنّه يحجبه عنّا كليّاً ويختلط معه كشكلين متساويين ومتراكبين لا يؤلفان من بعد سوى شكل واحد في حين نود على العكس، كيما نزوّد بهجتنا بكامل مدلولها، أن نحتفظ لجميع نقاط رغبتنا هذه في الآونة نفسها التي نقاربها فيها - وكيما نزيد من يقيننا بأنّها هي هي لم تتبّدل - بمزيّة ما يتعذر المساس به. ولا يستطيع الفكر حتّى إعادة تشكيل الحالة الأولى بغية مقارنتها بالجديدة لأن الساحة لم تعد خالية: فالتعرف الذي تم لنا وذكرى الدقائق الأولى غير المؤمّلة والأقوال التي سمعناها كلّها هناك تسدّ مدخل وعينا وتتحكم بمخارج ذاكرتنا أكثر منها بمخارج مخيلتنا بكثير وتكتسب مفعولاً رجعيّاً على ماضينا الذي لا نملك من بعد أن نراه دون أن نأخذها في حسابنا أكثر منها على شكل مستقبلنا الذي ظل حراً. لقد أمكنني الظنّ على مدى سنوات أنّ الذهاب إلى منزل السيّدة "سوان" وهم مبهم لن أبلغ إليه في يوم. وبعدما أمضيت ربع ساعة لديها أصبح الزمن الذي لم أكن أعرفها فيه هو الخياليّ المبهم كمِثْلِ ممكنٍ تلاشى من جرّاء تحقيق ممكن آخر. إذ كيف كان يمكنني بعدُ أن أحلم بحجرة الطعام وكأنّما بمكان لا يمكن تصوره في حين ما كنت أستطيع القيام بحركة في فكري دون أن أصادف فيه الأشعّة التي لا تدحض والتي يصدرها إلى مالا نهاية وراءه وحتى في أقصى نقطة من ماضي السرطان البحري المعدّ على الطريقة الأمريكية الذي أكلته قبل فترة وجيزة؟ ولا بدّ أنّ "سوان" قد رأى فيما يخصّه شيئاً من هذا القبيل يجري معه؛ ذلك أن هذه الشقّة التي يستقبلني فيها كان يمكن احتسابها بمثابة المكان الذي راحت تختلط فيه وتتطابق لا الشقّة المثالية التي ولدتها مخيّلتي فحسب، بل شقة أخرى كذلك، تلك التي كثيراً ما وصفها لِـ "سوان" حبّه الغيران الذي يساوي أحلامي ابتداعاً، تلك الشقّة المشتركة بين "أوديت" وبينه والتي سبق أن بدت له عزيزة المنال ذات مساء صحبته فيه "أوديت" إلى جانب "فورشفيل" لتناول شراب البرتقال في منزلها؛ وإنمّا جاء يذوب في نظره في مخطط حجرة الطعام التي كنّا نتناول طعام الغداء فيها هو ذلك الفردوس اللا مؤمّل الذي ما كان يستطيع بالأمس أن يتخيّل دونما

اضطراب أنّه سيقول لرئيس الخدم هذه الكلمات نفسها: "هل جهزت السيّدة؟" التي كنت أسمعه ينطق بها الآن بشيء من نفاد الصبر المقرون بشيء من زهو الراضي عن نفسه. وما كنت أستطيع تعرّف سعادتي، أكثر مما يستطيع "سوان" نفسه دون شكّ، وحينما كانت "جيلبيرت" نفسها تصرخ قائلة: "من لعلّه كان يقول لك إنّ البنيّة التي كنت تنظر إليها، دون أن تكلمها، تلعب لعبة الزوايا ستكون صديقتك الحميمة التي تمضي إليها في كلّ يوم يروقك الأمر؟". فإنما كانت تتحدث عن تبدل كان لابدّ لي أن أقرّ به من الخارج ولكنيّ لا أملكه في داخلي إذ كان يتألف من حالتين لا يمكنني أن أفلح في تفكيرهما معاً دون أن يكفّا عن كونهما تتميزان الواحدة عن الأخرى.

بيد أنّه كان لابدّ أن تحتفظ تلك الشقّة بشيء من العذوبة بالنسبة إلى "سوان" لأنّ إرادته قد رغبت فيها أعنف الرغبة. وذلك إن حكمت على الأمر من خلال ذاتي أنا الذي لم تفقد كلّ غموض بالنسبة إليه. إن تلك الروعة الفريدة التي افترضت لفترة طويلة أن حياة أسرة "سوان" تنغمس فيها، تلك الروعة لم أقصها كليّاً من منزلها يوم دخلته، لقد جعلتها ترتد إلى الوراء وقد تمّ ترويضها على يد ذلك الغريب الذي كنته. ذلك المنبوذ الذي كنته والذي كانت الآنسة "سوان" تدفع إليه الآن بلطف مقعداً لذيذاً يبدي العداء والاستنكار كيما يجلس فوقه. بيد أني لا أزال أتبّين تلك الروعة في ذاكرتي من حولي، أفلأني في تلك الأيام التي يدعونني فيها السيّد "سوان" وزوجته للغداء لأخرج بعد ذلك للنزهة معهم ومع "جيلبيرت" كنت أطبع بناظري - فيما أنتظر وحدي - على السجّادة والمتكآت، على موائد الحائط والساترات واللوحات الفكرة المنقوشة في صدري، فكرة أنّ السيّدة "سوان" أو زوجها أو "جيلبيرت" يزمعون الدخول؟ ألأنّ تلك الأشياء عاشت مذ ذاك في ذاكرتي إلى جانب عائلة "سوان" واكتسبت في النهاية شيئاً منهم؟ وهل كنت أجعل منها جميعها، إذ أعلم أنهم يقضون حياتهم فيما بينها. كأنها رموز لحياتهم الخاصّة وعاداتهم التي أُقصيتُ عنها لفترة أطول من أن لا تستمر غريبة عليّ في نظري حتى حينما مُنّ عليّ بالانضمام إليها؟ ومهما يكن من أمر فإنّني كلما فكرت في تلك الصالة التي كان يرى "سوان" أنّها متنافرة إلى حدّ بعيد (دون أن يتضمّن ذلك النقد من قبله تصميماً في معاكسة ميول زوجته في شيء) - لأنّها كانت لاتزال من وحي الدفيئة في جزء منها ووحي المشغل في الجزء الآخر والكل من طراز الشقّة التي سبق أن عرف "أوديت" فيها، ومع ذلك فقد شرعت تستبدل بعدد من الأشياء الصينيّة التي تجدها الآن على شيء من التزييف وبعيدة عن "الغرض" كثيراً من قطع الأثاث الصغيرة المغطاة بحرائر عتيقة من طراز لويس السادس عشر (فيما عدا الروائع التي جاء بها "سوان" من فندق رصيف "أورليان") - تظلّ تلك الصالة غير المتجانسة تحتفظ في ذاكرتي على العكس بتماسك ووحدة وسحر خاص لا تحتفظ بها ألبتّة حتى أكثر ما ظلّ من المجموعات التي أورثنا إياها الماضي على حاله، وحتى أكثر ما يفيض منها بالحياة واحتفظ بطابع أحد الناس ؛ ذلك أنّنا وحدنا نستطيع إيلاء بعض الأشياء التي نراها، من جرّاء الاعتقاد بأن لها حياة خاصّة بها، روحاً تحتفظ بها فيما بعد وتنمّيها فينا. فجميع الأفكار التي كوّنتها عن الساعات التي كانت تقضيها عائلة "سوان" في تلك الشقّة التي كانت بالنسبة إلى أوقات حياتهما اليوميّة كالجسد بالنسبة إلى الروح والتي كان لابدّ أن تعبّر عن طابعها المميّز، كلّ تلك الأفكار كانت موزعة، كانت تختلط في مكان الأثاث وفي كثافة السجّاد وفي اتّجاه النوافذ وفي دائرة

الخدم - وهي في كل مكان سواء في إثارتها وغموضها - وحينما كنّا نمضي لاحتساء القهوة في الشمس في شرفة الصالة الكبيرة وفيما كانت السيّدة "سوان" تسألني كم قطعة سكر أبغي في قهوتي لم يكن المقعد الحريري الذي كانت السيّدة "سوان" تدفعه صوبي وحده الذي يبعث. إلى جانب الروعة المؤلمة التي تبيّنتها فيما مضى - تحت شجيرة الزعرور الأبيض أو بالقرب من دغل شجر الغار - في اسم "جيلبيرت" - ذلك العداء الذي أعرب لي عنه والدها والذي يبدو أن هذا المقعد الصغير قد حفظه وشاطرهم إيّاه إلى حدّ أنني ما كنت أشعر أنّني أهل لأن أفرض قدميّ على قماشة المنجّد الأعزل وألفيتني لذلك على شيء من جبن الفؤاد. كانت هناك روح شخصيّة تربطه سرّاً بضياء الساعة الثانية من بعد الظهر. وهو مختلف عمّا هو عليه في أيّ مكان آخر من الخليج حيث يبسط على أقدامنا أمواجه الذهبيّة اللاهية التي تطفو فوقها المقاعد الزرقاء والستائر الرقيقة وكأنّها جزر مسحورة ؛ حتى لوحة "روبنس" (Rubens) المعلقة فوق الموقد كانت تملك هي الأخرى نوع السحر نفسه وحتى قوة السحر نفسها التي يملكها حذاء "سوان" ذو الشرائط وهذا المعطف الذي بلا أكمام والذي ما أكثر ما تمنّيت أن ألبس مثله. فيما كانت "أوديت" تطلب الآن من زوجها أن يستبدل به آخر ليكون أكثر أناقة حينما كنت أشرّفهم بالخروج إلى النزهة معهم. وكانت تمضي هي الأخرى لارتداء ثيابها مع أنّني احتججت أن ليس من فسطان "للطلعة" يساوي تقريباً المبذل الرائع الذي من نسيج صيني مموّج أو حرير ورديّ فاتر كرزي أو ورديّ شديد الصفاء أو أبيض أو بنفسجيّ أو أخضر أو أحمر أو أصفر واحد اللون أو برسمات والذي تناولت فيه السيّدة "سوان" طعام الغداء وتزمع أن تخلعه. وحينما أقول إنّه يجدر بها أن تخرج على هذا النحو كانت تضحك إمّا بداعي التهكم على جهلي وإمّا استمتاعا بتقريظي لها. كانت تعتذر أن يتجمع لديها هذا العدد من مباذل البيت إذ تدّعي أنّها لا تحسّ بالراحة إلا بارتدائها، ثم تفارقنا لتبادر إلى ارتداء أحد تلك الأثواب الرائعة التي تفرض نفسها على الجميع والتي كنت أُدعى أحياناً مع ذلك إلى أن أختار من بينها الثوب الذي أفضّل أن ترتديه.

وكم كنت مزهواً في حديقة الحيوانات أن أسير إلى جانب السيّدة "سوان" بعدما ننزل من العربة! وفيما كانت تدع لمعطفها أن يتهدّل في مشيتها المتراخية، كنت أرميها بنظرات الإعجاب التي تردّ عليها بابتسامة عريضة مغناجة. وإن اتّفق أن نصادف الآن هذا الرفيق أو ذاك، فتاة كان أم صبيّاً، فقد كانوا ينظرون إلي بدوري كواحد من تلك الكائنات التي طالما حسدتها، كواحد من أصدقاء "جيلبيرت" الذين يعرفون أسرتها ويختلطون بالقسم الآخر من حياتها، ذاك الذي ما كان ينقضي في "الشانزيليزيه".

وغالباً ما كنّا نلتقي في ممرّات الغابة أو حديقة الحيوانات فتسلم علينا هذه السيّدة الكبيرة أو تلك من صديقات "سوان" ويتّفق له أن لا يراها فتنبّهه زوجته إلى ذلك. "شارل، ألست ترى السيّدة "دو مونمورانسي؟". فيرفع "سوان" قبّعته بحركة واسعة وبأناقة يتميّز بها وحده وبابتسامة الودّ وليدة الألفة الطويلة. وتتوقّف السيدة أحياناً وقد أسعدها أن تخص السيّدة "سوان" بلفتة مهذبة لا ترمي إلى نتيجة ولن تحاول السيّدة، كما هو معلوم. استغلالها فيما بعد لكثرة ما عوّدها "سوان" أن تظلّ

متحفّظة. إلا أنّها لم تنثن مع ذلك عن التصنّع بجميع أشكاله، ومهما كانت السيّدة أنيقة ونبيلة المظهر فقد كانت السيّدة "سوان" تساويها في ذلك. وكانت إذ تتوقّف لحظة بالقرب من الصديقة التي التقى بها زوجها منذ قليل تُقدمُنا أنا و "جيلبيرت" بهذا القدر من الطلاقة وتحتفظ في تودّدها بهذا القدر من الحرية والهدوء حتى ليصعب القول من كانت من بين الاثنتين: السيّدة الكبيرة، زوجة "سوان" أم عابرة السبيل الأرستقراطية. وفي اليوم الذي ذهبنا فيه لرؤية السيلانيين شاهدنا في أثناء عودتنا سيّدة مسنّة، ولكنّها بعد على جمال، تدثّر معطفاً عاتماً وتعتمر قبّعة صغيرة مثّبتة بسيرين تحت العنق. وتُقبِلُ علينا تتبعها سيّدتان أخريان كأنّما تقومان بحراستها. وقال لي "سوان": "آه! هوذا من سيثير اهتمامك." كانت السيّدة العجوز. وهي الآن على ثلاث خطوات منّا، تبتسم لنا بعذوبة ورقّة. وكشف "سوان" عن رأسه وانحنت السيّدة "سوان" محيّية وهمّت تبغي تقبيل يد السيّدة التي تشبه أحد رسوم "فنترهالتر" فأنهضتها وقبلتها. ثم قالت لِـ "سوان" بصوت خشن وشيء من الحنق، بلهجة الصديقة الأليفة: "هلا وضعت قبعتك أنت". وقالت لي السيّدة "سوان": "سأقدّمك لسمّوها الملكيّ". وانتحى بي "سوان" جانباً للحظة فيما كانت السيّدة "سوان" تتحدث عن جمال الطقس وعن الحيوانات التي وصلت حديثاً إلى حديقة الحيوان مع صاحبة السمو. "إنّها الأميرة ماتيلد"، يقول، "تدري، صديقة "فلوبير" و"سانت بوف" و"دوما". تصوّر، إنّها ابنة أخ نابوليون الأول! لقد طلب يدها كلّ من نابوليون الثالث وامبراطور روسيا. أليس ذلك مثيراً؟ تحدّث إليها قليلاً. ولكنّي وددت ألا تدعنا ساعة نقف على أرجلنا." وأردف "سوان" قائلاً: "لقد التقيت بِـ "تين" (Taine) الذي نقل إليّ أن الأميرة قد اختصمت معه." – "لقد سلك سلوك الخنزير"، تقول بصوت خشن وتلفظ الكلمة كما لو كانت اسم المطران الذي عاصر "جان دارك" (*). "فبعد المقال الذي سطّره عن الامبراطور تركت له بطاقة دوّنت عليها P. P. C". وأحسست بالدهشة التي تنتابك لدى فضّ رسائل دوقة "أورليان"، وهي سليلة الأسرة البالاتينيّة. والحقيقة أن الأميرة "ماتيلد" التي تعتمل في صدرها مشاعر فرنسيّة إلى حدّ بعيد كانت تحسّ بها بخشونة واستقامة على نحو ما تميّزت به ألمانيه الأمس وورثته دونما شكّ عن أمّها التي من مقاطعة "فورتنبرغ". أمّا صراحتها الفظّة بعض الشيء والتي تقارب أن تكون رجولية فقد كانت تخفّف منها، ما إن تبتسم، بلهجة إيطالية حنون. والكلّ تغلّفه ثياب من طراز الامبراطورية الثانية إلى حدّ تبدو معه

الأميرة، مع أنّها ترتديها دونما شكّ بداعي التعلّق بالأزياء التي أحبتّها فحسب، وكأنّما قصدت أن لا ترتكب خطأ في اللون التاريخي وأن تستجيب لتوقع الذين ينتظرون منها أن توحي بعصر آخر. وهمستُ في أذن "سوان" كي يسألها إن سبق أن عرفت "موسيّه" (Musset). فأجابت بلهجة تتظاهر بالغضب، وقد كانت بالحقيقة تقول "يا سيّدي" لِـ"سوان" من قبيل المزاح إذ كانت على علاقة وطيدة معه: "أقلّ المعرفة، يا سيّدي. فقد حضر مرّة للعشاء، وكنت دعوته للسابعة، وفي السابعة والنصف جلسنا إلى الطاولة بما أنّه لم يحضر. ويصل في الثامنة ويحيّي ويجلس ولا ينبس ببنت شفة ويمضي بعد العشاء دون أن يتمّ لي سماع رنّة صوته. لقد كان ثملاً كأكثر ما يكون. ولم يشجّعني

(*) يعني أنها لفظت كلمة cochon(خنزير) بمد المقطع الأول فيها كما هي الحال بالنسبة إلى اسم المطران Cauchon.

الأمر كثيراً أن أعيد الكرّة." وكنت و"سوان" على حدة، فقال لي: "آمل أن لا تتطاول هذه الجلسة الصغيرة فإن أخامص قدمي تؤلمني. ولست أدري لماذا تغذّي زوجتي الحديث. فبعد ذلك سوف تشكو هي أنّها متعبة، أمّا أنا فلست أطيق من بعد هذه الوقفات." والحقيقة أن السيّدة "سوان" كانت تنقل إلى الأميرة، وقد أخذت المعلومات من السيّدة "بونتان"، أنّ الدولة أدركت أخيراً نذالتها فقرّرت أن ترسل إليها دعوة لتشهد من الشرفات الزيارة التي يزمع القيصر "نقولا" القيام بها إلى مقام "الأنفاليد" غداة اليوم الثاني. بيد أنّ الأميرة التي ظلّت في أساسها، وفي كلّ مرّة يقع عليها أن تعمل، ابنة أخ نابليون على الرغم من المظاهر على الرغم من نوعيّة محيطها المؤلّف من الفنانين ورجال الأدب بخاصّة: "أجل، يا سيّدتي، لقد أخذتها هذا الصباح ورددتها إلى الوزير الذي لابدّ تسلمها في هذه الساعة. قلت له إني لا حاجة لي إلى دعوة للذهاب إلى "الأنفاليد". فإن رغبت الحكومة في ذهابي إلى هناك فلن يكون ذلك إلى إحدى الشرفات بل إلى مدفننا حيث قبر الامبراطور ولست أحتاج بطاقات لذلك، فلديّ مفاتيحي وأدخل على هواي، وليس على الحكومة إلا أن تعلمني إن كانت راغبة في أن أجيء أم لا. ولكنّي إن أذهب فإلى هناك أو لا يكون ذلك ألبتة. " وحيّانا في تلك اللحظة، أنا والسيّدة "سوان"، شاب أقرأها السلام دون أن يتوقّف وما كنت أعلم أنّها تعرفه، عنيت "بلوك". ولدى سؤال طرحته قالت لي السيّدة "سوان" إنّه سبق أن قدمته لها السيّدة "بونتان" وأنّه ملحق بمكتب الوزير، الأمر الذي كنت أجهله. ولابدّ على أيّة حال أنّها لم تشاهده كثيراً – أو هي لم تشأ ذكر اسم "بلوك" الذي ربمّا وجدته على قدر قليل من الأناقة – فقد قالت إنّه يُدعى السيّد "مورول". وأكدت لها أنّها تخلط بين الأمور وأنّه يدعى "بلوك". وعدّلت الأميرة رفلاً كان ينتشر وراءها وكانت السيّدة "سوان" تنظر إليه بإعجاب. وقالت الأميرة: "إنّه بالحقيقة فرو أرسله إليّ امبراطور روسيا وبما أنّني بادرت إلى زيارته منذ قليل فقد ارتديته لأريه أنّه أمكن تدبيره على شكل معطف. وقالت السيّدة "سوان" التي لم تكن تبصر إرشادات زوجها الذي عيل صبره: "يبدو أن الأمير لويس انخرط في الجيش الروسي وستغتم الأميرة أن لا يكون من بعد بالقرب منها." – لقد كان كبير الحاجة إلى مثل ذلك! وكما قلت له: ليس يكفي أن كان لك عسكري من أسرتك"، تجيب الأميرة وهي تشير بتلك البساطة المفاجئة إلى نابوليون الأول. ولم يعد "سوان" يطيق أكثر من ذلك. "سيدتي، سأقوم بدور صاحبة السموّ وأستأذنك بالانصراف، فإن زوجتي أصيبت بأوجاع شديدة ولست أريد أن تظلّ بلا حراك لفترة أطول. "وانحنت السيّدة "سوان" للتحيّة وابتسمت الأميرة لنا جميعاً ابتسامة رائعة بدا أنّها تجيء بها من الماضي، من رونق شبابها، من أمسيات "كومبيانيي"، ابتسامة انسابت كاملة عذبة على الوجه المتجهم منذ قليل، ثم ابتعدت تتبعها وصيفتا الشرف اللتان اقتصرتا، شأن المترجمين أو مربيات الأطفال أو الممرّضات، على ترصيع حديثنا بجمل لا معنى لها وشروح لا جدوى منها. وقالت لي السيّدة "سوان": "يجدر بك أن تذهب وتدوّن اسمك لديها في يوم من هذا الأسبوع فهم لا يوزّعون بطاقات في هذه الحفلات "الملكيّة" حسبما يقول الإنكليز، ولكنّها سوف تدعوك إن قمت بتسجيل نفسك"

وكنا ندخل أحيانا في آخر أيّام الشتاء، قبل أن ننطلق في نزهاتنا، إلى واحد من المعارض الصغيرة التي كانت تقام آنذاك والتي كان يبادر فيها إلى تحيّة "سوان"، وهو هاوي مجموعات

مرموق، تحيّة تتّسم باحترام خاصّ تجار اللوحات الذين كانت تقام المعارض عندهم. وكانت أمنياتي القديمة في الذهاب إلى الجنوب والبندقية تستفيق في تلك الأوقات التي لا تزال باردة وفي تلك الحجرات التي يلقي فيها ربيع مبكّر وشمس حارقة انعكاسات بنفسجيّة على هضاب "الألبيي" الوردية ويضيفان شفافية الزمرّد العاتمة على القناة الكبرى. فإن كان الطقس رديئاً ذهبنا إلى قاعة الموسيقى أو إلى المسرح ثم تناولنا العصرونية فيما بعد في صالة للشاي. وحينما كانت السيّدة "سوان" تبغي أن تقول لي شيئاً ترغب ألا يفهمه الجالسون إلى الطاولات المجاورة أو حتى الخدم الذين يقومون بالخدمة كانت تقوله لي بالإنكليزية كما لو أنّها لغة لا يعرفها سوانا. ولكنّ جميع الناس كانوا يعرفون الإنكليزية وكنت الوحيد الذي لم يتعلمها بعد وأراني مضطراً أن أقول ذلك للسيّدة "سوان" كي تكفّ عن إبداء الملاحظات حول الأشخاص الذين يتناولون الشاي أو أولئك الذين يقدّمونه، ملاحظات أستشفّ أنّها محمّلة بالإساءة دون أن أفهم منها كلمة واحدة أو تفوت الرجل المعنيّ بها كلمة.

وذات مرّة بعثت لديّ "جيلبيرت" دهشة عميقة بشأن حفلة بعد الظهر في أحد المسارح. كان ذلك اليوم بالضبط اليوم الذي حدثتني عنه سلفاً والذي يصادف ذكرى وفاة جدّها. كنّا نزمع الذهاب أنا وهي لسماع فقرات من أحد الأعمال الأوبرالية برفقة معلّمتها، وكانت "جيلبيرت" قد ارتدت ملابسها بقصد الذهاب إلى هذا العمل الموسيقيّ وهي تحتفظ بمظهر اللامبالاة الذي تعوّدت أن تبديه بالنسبة إلى الأمر الذي نزمع القيام به قائلة إنّه يمكن أن يكون أيّ شيء بشرط أن يروقني ويحسن في عيني والديّ. وانتحت بنا أمها جانباً قبل الغداء لتقول لها: إنّه لمما يزعج والدها أن يرانا نذهب لحضور حفلة موسيقية في ذلك اليوم. ورأيت أن الأمر طبيعي تماماً، وظلت "جيلبيرت" هادئة الأعصاب ولكنّها أصبحت شاحبة اللون من جراء غيظ لم تستطع إخفاءه ولم تتفوّه بعدها بكلمة. وحينما عاد "سوان" اصطحبته امرأته إلى الزاوية الثانية في الصالة وهمست في أذنه. فدعا "جيلبيرت" وانتحى بها ناحية في الحجرة المجاورة، وسُمِعَتْ صيحات. على أنّه لم يكن بوسعي أن أصدّق أنّ "جيلبيرت" المطيعة الرقيقة العاقلة إلى هذا الحدّ سوف تقاوم رغبة والدها في يوم كهذا ولسبب تافه كهذا. وأخيراً خرج "سوان" وهو يقول لها:

- "ها إنّك تعلمين ما قلته لك، فافعلي الآن ما تشائين."

وظلّ وجه "جيلبيرت" منقبضاً طوال فترة الغداء، وبعدها ذهبنا إلى غرفتها. وفجأة صاحت دون أيّ تردّد، وكما لو لم يداخلها شيء منه في أيّة لحظة: "الثانية! ولكنك تعلم أن الحفلة الموسيقية تبدأ في الثانية والنصف." ثم قالت لمعلّمتها أن تسرع وقلت لها:

"ولكن، أليس يزعج ذلك والدك؟"

- "ليس يزعجه ألبتّة."

- "ولكنّه كان يخشى أن يبدو الأمر مستهجناً بسبب تلك الذكرى."

– "وأيّة أهميّة لديّ لما يفكّر به الآخرون؟ إنّي أرى من السخف أن يهتّم المرء بالآخرين في شؤون العاطفة. فالمرءُ يشعر لذاته لا للجمهور. إن الآنسة التي تملك القليل من صنوف التسلية يسعدها الذهاب إلى تلك الحفلة الموسيقيّة، فلن أحرمها إيّاها لإبهاج الجمهور.".

وأخذت قبّعتها. فقلت لها وأنا أمسك بذراعها:

– "ولكن ليست المسألة في إبهاج الجمهور يا "جيلبيرت"، بل في إدخال السرور على قلب والدك."

فصاحت تقول بنبرة قاسية وهي تتملّص بنزق:

– آمل أن لا تمضي في توجيه الملاحظات لي."

لم تعد أسرة "سوان" تستبعدني من صداقتها مع "بيرغوت"، وهي منّة أثمن بعد اصطحابي معهم إلى حديقة الحيوانات أو إلى الحفلة الموسيقية، تلك الصداقة التي كانت في أساس السحر الذي ألفتيه فيهم حينما كنت أحسب، حتى قبلما أعرف "جيلبيرت"، إنّ ألفتها مع الشيخ الإلهيّ ربمّا جعلت منها في نظري أكثر الصديقات إثارة لولعي لو لم يحجب عني الازدراء الذي لابدّ كنت أوحي به إليها أمل أن تصطحبني معها في يوم لزيارة المدن التي كان يحبّها. ولكن السيّدة "سوان" دعتني ذات يوم إلى مأدبة غداء كبرى. ما كنت أدري من عسى يكون المدعوّون. ولدى وصولي داخلني الاضطراب في الردهة من جرّاء حادث أفزعني. فنادراً ما كان يفوت السيّدة "سوان" تبني العادات التي تحتسب أنيقة طوال أحد الفصول ثم هي تُهْجَر بعد حين إذ لا تفلح في البقاء (مثلما اتخذت قبل سنوات عديدة son hansom cab [1] أو كانت توعز بطباعة عبارة to meet (لقاء) شخصيةٍ على قدر من الأهمية على بطاقة دعوة للغداء). من ذلك أنّ "أوديت" دفعت زوجها إلى طباعة بطاقات جاء فيها اسم "شارل سوان" مسبوقاً بكلمة "السيّد" وهو تجديد طفيف تمّ في تلك السنوات وجيء به من انكلترة.

وقد أرسلت السيّدة "سوان"، بعد الزيارة الأولى التي قمتُ بها، إحدى تلك البطاقات إلى منزلي. وما كان أحد ألبتّة قد بعث إليّ ببطاقات، فأحسست بقدر من الاعتزاز والانفعال والامتنان جمعت معه كلّ ما كنت أملك من مال وأوصيت على سلّة رائعة من أزهار الكاميليا وبعثت بها إلى السيّدة "سوان". وتوسّلت إلى والدي أن يبادر إلى إرسال بطاقة إليها على أن يعمل سريعاً قبل ذلك على طباعة بطاقات يكون اسمه مسبوقاً فيها بكلمة "السيّد". ولم يستجب لأيّ من ذينك الرجاءين وتملّكني اليأس على مدى بضعة أيّام وتساءلت بعدها إن لم يكن علي حقّ. ولئن كان استعمال كلمة "السيّد" غير ذي جدوى فقد كان واضحاً. وما كانت تلك حال عادة أخرى تمّ كشفها لي يوم ذاك الغداء ولمن دون أن تُشْفَعَ بدلالتها. فقد سلمني رئيس الخدم، لحظة كنت أزمع الانتقال من الردهة

---

(١) عربة مكشوفة بمقعدين مخترعها انكليزي (Hansom)

إلى الصالة، مغلّفاً دقيقاً وطويلاً دوّن اسمي عليه. وشكرته في دهشتي فيما كنت أنظر إلى المغلّف. ولم أكن أدري ما ينبغي أن أفعل به أكثر مما يدري غريب بخصوص إحدى تلك الآلات الصغيرة التي يُزَوّد بها المدعوون في مآدب العشاء الصينيّة. ورأيت أنّه غير مفضوض وخشيت أن أنعت بالفضول إن فضضته في الحال فوضعته في جيبي بهيئة العارف. لقد سبق أن كتبت لي السيّدة "سوان" قبل بضعة أيّام أن آتي للغداء "في شلّة صغيرة". وكان ثمة مع ذلك ستّة عشر شخصاً أجهل تماماً أنّ "بيرغوت" حاضر ما بينهم. وفجأة لفظت السيّدة "سوان" التي جاءت على "ذكر اسمي"، حسبما كانت تقول، أمام العديد منهم، لفظت على إثر اسمي وبالطريقة نفسها التي قالته فيها (وكما لو كنّا مدعوّين اثنين فحسب إلى الغداء وهما لابدّ يبديان الغبطة نفسها في أن يعرف كل منهما الآخر) اسم المُنْشِد العذب ذي الشعر الأبيض. وجعلني اسم "بيرغوت" هذا أنتفض كمثل دويّ مسدّس تمّ إطلاقه عليّ ولكنّي حيّيت بالغريزة وكيما أظهر رابط الجأش. وكمثل هؤلاء المشعوذين الذين تراهم يبرزون سالمين وباللباس الرسميّ من خلف غبار طلقة نارّية تنطلق منها حمامة، كان يردّ لي التحيّة أمامي رجل فتي خشن قصير القامة قويّ البنية قصير النظر له أنف أحمر على شكل صدفة حلزون ولحية صغيرة سوداء. وانتابني حزن قاتل لأنّ ما استحال منذ هنيهة رماداً ليس الشيخ المضنى فحسب الذي لم يظلّ منه شيء بل كذلك جمال إنتاج ضخم استطعت أن أوسِع له مكاناً في الجسم الخائر القوي والمقدّس الذي بنيته، كمثل معبد، خصيصاً من أجله ولكنه لم يُخصَ بأيّ مكان في الجسم المُكَتّل المليء بالأوعية الدموية والعظام والعقد الذي للرجل القصير ذي الأنف الأفطس واللحية الصغيرة السوداء الماثل أمامي. إن كامل "بيرغوت" الذي سبق أن صنعته بنفسي بتمهّل ورقّة وقطرة فقطرة، شأن الصواعد، من جمال كتبه الشفاف، إن "بيرغوت" هذا بدا فجأة لا يصلح لأيّ شيء بما أنّه كان ينبغي الحفاظ على الأنف الذي على شكل الحلزون واستخدام اللحية الصغيرة السوداء – كما لا يفيدنا من بعد في شيء الحلّ الذي وجدناه لمسألة لم نقرأ كامل نصّها ولم نأخذ بالحسبان أن المجموع ينبغي أن يساوي عدداً معّيناً. كان الأنف واللحية الصغيرة يشكّلان عنصرين محتّمين يزيد في إعجازهما أنهما يبدوان، فيما أجهد في إعادة بناء شخصيّة "بيرغوت" إعادة كليّة، وكأنهما لا يزالان يتضمّنان بالضرورة وينتجان ويفرزان دونما انقطاع نوعاً من الفكر الناشط الراضي عن نفسه، الأمر الذي لم يكن وارداً لأن ذلك الفكر لم يكن يمتّ بصلة إلى نوع الذكاء المبثوث في تلك الكتب المعروفة تماماً لديّ والتي تداخلها حكمة عذبة ورائعة. وما كنت بانطلاقي منها لأصل ألبتة إلى هذا الأنف الذي على شكل الحلزون ما كان يبدو أنّه يهتمّ للأمر وكان يمضي وحيداً وعلى هواه، كنت أنطلق في اتّجاه مغاير تماماً لأعمال "بيرغوت" الأدبّية وربمّا خلصتُ فيما يبدو إلى شيء من ذهنّية مهندس مُعْجَل من صنف الذين يظّنون من حسن اللياقة أن يقولوا حينما يحيّون: "شكراً وأنت" قبلما يُسْألون عن أخبارهم وإن صرّح أحدهم عن اغتباطه بالتعرّف إليهم أجابوا باختصار يتصّورونه في أحسن موقع وأنّه ذكيّ وعصري لما يجنّب ضياع وقت ثمين بعبارات فارغة: "وأنا كذلك". والأسماء دونما شكّ تَرْسُمُ على هواها فتزوّدنا برسوم عن الناس والبلدان قليلة الشبه بأصولها حتى ليصيبنا في الغالب نوع من الذهول حينما يمثل أمامنا، عوضاً عن العالم المرئيّ (وهو ليس العالم الحقيقي على أيّة حال إذ لا تملك حواسنّا موهبة المماثلة أكثر مما يتّفق للخيال إلى حدّ

أن الرسوم التقريبيّة التي يمكن بعد لأي أن نحصل عليها من الواقع تختلف عن العالم المرئي على الأقلّ بقدر اختلاف هذا الأخير عن العالم المتخيّل). بيد أن الإزعاج الناجم عن الاسم السابق فيما يخصّ بيرغوت كان يسيراً جدّاً في مقابل الإزعاج الذي كانت تسبّبه لي أعماله المعروفة التي كان لزاماً عليّ أشدّ إليها، وكأنّما إلى منطاد، الرجل صاحب اللحية الصغيرة دون أن أعلم إن كانت ستظلّ لها القدرة على الارتفاع. إلا أنّه كان يبدو مع ذلك أنّه هو الذي سطّر كتباً أحببتها إلى حدّ بعيد، ذلك أنّه، إذ ظنّت السيّدة "سوان" من واجبها أن تقول له عن الميل الذي بي إلى أحدها، لم يُبْدِ أيّة دهشة أن نقلت الأمر إليه عوضاً عن أن تنقله إلى مدعوّ آخر ولم يظهر وكأنّه يرى في الأمر أثراً لخطأ، بل ملأ السترة الرسمية التي ارتداها على شرف جميع هؤلاء المدعوّين بجسد طامع في الغذاء القريب واهتمامه منصرف إلى وجوه أخرى مهمّة من الواقع ولم يبتسم وهو يعود إلى فكرة كتبه إلا كما لحادثة انقضت من حياته السالفة وكما لو تمّ التلميح إلى بدلة للدوق "دوغيز" كان قد ارتداها في حفلة تنكّرية في إحدى السنوات، كتبه التي هبطت في الحال في نظري (وجرّت في سقوطها كامل قيمة الجمال والكون والحياة) إلى حدّ أن لم تكن سوى تسلية ضحلة قام بها رجل ذو لحية صغيرة. كنت أقول في نفسي إنّه لابدّ جدّ فيها، ولكنّه ربمّا انصرف عوضاً عن ذلك، لو عاش في جزيرة تحيط بها أرصفة من محار اللؤلؤ، ربمّا انصرف بنجاح إلى تجارة اللؤلؤ. ولم تعد آثاره تبدو لي محتّمة إلى هذا الحدّ. وأخذت أتساءل آنذاك إن كانت الأصالة تقيم البرهان حقّاً على أنّ الكتّاب العظام آلهة يتربّع كل منهم على مملكة هي وقف عليه أو إن لم يكن في كل ذلك شيء من الخدعة وإن لم تكن الفوارق بين الأعمال الفنّية نتيجة العمل أكثر منها التعبير عن فارق جذريّ في الجوهر بين مختلف الشخصيّات.

وجلسنا في أثناء ذلك إلى المائدة، فوجدت إلى جانب قصعتي قرنفلة غلّفت ساقها بورق فضيّ. وكانت حيرتي بها أقلّ من تلك التي خلّفها فيّ المغلّف الذي سُلِمّ إليّ في الردهة والذي نسيته تماماً. وقد بدت لي العادة، مع أنها في مثل جدّة المغلّف عليّ، أقرب إلى الإدراك حينما شاهدت سائر المدعوّين الذكور يأخذون قرنفلة مشابهة وضعت إلى جانب قصعاتهم ويدخلونها في عروة سترتهم. وفعلت مثلهم بالمظهر الطبيعيّ الذي يبديه أحد الملحدين في كنيسة وهو لا يعرف القدّاس ولكنّه ينهض حينما ينهض الجميع ويجثو على ركبتيه بعد ما يجثو الجميع بقليل. وكان هنالك عادة مجهولة لديّ وأقلّ زوالاً ساءتني أكثر من تلك، فقد كان في الجانب الآخر من قصعتي قصعة أصغر منها ملأتها مادّة لونها إلى سواد وما كنت أعلم أنها الكافيار. وكنت جاهلاً لما ينبغي أن أفعله بها ولكنني مصمّم أن لا آكل منها:

ولم يكن "بيرغوت" بعيداً عنّي، وكنت أسمع أقواله بوضوح تامّ. وأدركت إذ ذاك انطباع السيّد "دو نوربوا". لقد كان بالحقيقة يملك عضواً غريباً، فليس ما يفسد صفات الصوت المادّية بقدر ما يتفق لها حينما يتضمّن فكراً، إذ تتأثر بذلك رنّة المُصَوّتات الموزدوجة وزخم الحروف الشفويّة، كما يتأثّر الإلقاء أيضاً. وكان إلقاؤه يبدو لي مختلفاً عن طريقته في الكتابة اختلافاً كليّاً، وحتى الأمور التي كان يقولها عن تلك التي تملأ كتبه. بيد أن الصوت ينطلق من تحت قناع لا يكفي

ليسهّل لنا التعرّف لأوّل وهلة إلى وجه رأيناه على المكشوف في الأسلوب. ففي بعض مقاطع الحديث التي تعوّد فيها "بيرغوت" أن يأخذ بالتحدث بطريقة لم تكن تبدو متكلفة ومزعجة للسيّد "دو نوربوا" وحده طال بي الوقت حتى اكتشفت توافقاً يطابق تماماً الأجزاء التي تضحي فيها الصياغة في كتبه شاعريّة وموسيقيّة إلى حدّ بعيد. حينئذ كان يبصر فيما يقوله جمالاً تشكيليّاً مستقلاً عن مدلول الجمل، وبما أن القول البشريّ متّصل بالروح ولكن دون أن يعبّر عنها على نحو ما يفعل الأسلوب الكتابيّ، فقد كان "بيرغوت" يبدو وكأنّه يتكلّم بعكس المعنى فيرتّل بعض الكلمات، ثم هو ينسجها دونما فاصل وكأنّها صوت واحد وبرتابة متعبة إمّا تابع تحتها صورة واحدة. وهكذا كان الإلقاء المتكلّف المفخّم الرتيب علامة الميزة الجمالية في أقواله والأثر في حديثه لتلك القدرة نفسها التي كانت تنتج في كتبه تتابع الصور وانسجام الأصوات. وقد صادفت بادئ الأمر مشقّة في تبين ذلك تتعاظم بمقدار ما يبدو ما يقوله في تلك اللحظات وكأنّه ليس في طريقة "بيرغوت" لأنّه بالضبط كان حقاً من "بيرغوت". كان فيضاً من الفِكَرِ الواضحة لا تدخل ضمن "طراز بيرغوت" ذاك الذي اتخّذه الكثير من محرّري الأخبار لأنفسهم، والمرجّح أن ذلك التباين – حينما تتم رؤيته على نحو غامض من خلال الحديث على غرار صورة خلف زجاج نظّارة سوداء – إنما يشكّل مظهراً آخر من هذا الأمر الذي مفاده أنّك حين كنت تقرأ صفحة من "بيرغوت" لم تكن الصفحة قطّ ما قد يكتبه أيّ من أولئك المقلدين التافهين الذين يزيّنون نثرهم مع ذلك في الجريدة وفي الكتاب بقدر كبير من الصور والفِكَر التي من "طراز بيرغوت". كان ذلك الفارق في الأسلوب ناجماً عن أنّ "طراز بيرغوت" إنما هو قبل كلّ شيء عنصر ما ثمين وحقيقي مدفون في أعماق الأشياء جميعها ثم هو يُستَخرَجُ منها على يد هذا الكاتب الكبير بفضل نبوغه، وإنّما الاستخراج ما يهدف إليه "المُنْشِدُ العذب" لا أن يكتب على طريقة "بيرغوت". وحقيقة القول أنّه كان يفعل رغماً عنه بما أنّه "بيرغوت" وأن كل رائع جديد في مؤلّفاته إنما كان بهذا المعنى الكمّية اليسيرة من "طراز بيرغوت" التي دفنت في أمر ما ثم استخرجها منه. ولئن كان كل من تلك الرائعات من جرّاء ذلك على وجه شبه بالأخريات وسهل التعرّف فإنمّا يظلّ مع ذلك متميزاً شأن الاكتشاف الذي أبرزه للنور، وجديداً وبالتالي مختلفاً عمّا كان يدعى بطريقة "بيرغوت" التي هي تأليف غامض بين جميع ماتمّ له العثور عليه وتسطيره من أمور من "طراز بيرغوت"، وهي أمور ما كانت لتسمح لرجال بلا نبوغ بالتكهّن بما قد يكتشفه في مكان آخر. والأمر واحد بالنسبة إلى جميع الكتاب العظام، فإن روعة جُمَلِهم لا يمكن توقّعها، كما هي روعة امرأة لا نعرفها بعد. وهي ابتداع بما أنها تنطبق على غرض خارجي يفكرون فيه – لا في أنفسهم – ولم يعبّروا عنه بعد. فلو شاء كاتب مذكرات في يومنا أن يكتب بطريقة "سان سيمون" دون أن يبدي من ذلك شيئاً لاستطاع كتابة السطر الأول من وصف "فيلار" إن حالفه: الحظّ" كان رجلاً فارع الطول أسمر.. له وجه زاخر بالحياة والصراحة بارز الخطوط"، ولكن أيّة قدريّة يمكنها حمله على اكتشاف السطر الثاني الذي يبدأ بالكلمات: "وعلى شيء من الجنون بالحقيقة"؟ إن التنوع الحقيقيّ كامن في جميع هذه العناصر الحقيقية غير المتوقعة، في الغصن المثقل بالأزاهير الزرقاء والذي يندفع، بخلاف ما نتوقع، من السياج الربيعي الذي بدا ملآن مزدحماً، فيما التقليد الشكلي البحت للتنوع (ويمكن انتهاج التفكير نفسه بشأن جميع ميزات

الأسلوب الأخرى) فراغ ورتابة يعني أكثر ما كان مضاداً للتنوع ولا يفلح لدى المقلدين في الإيهام به والتذكير به إلا بالنسبة لمن لم يفهمه لدى أرباب الأدب.

ولذلك - فمثلما ربما كان إلقاء "بيرغوت" ساحراً دون شكّ لو لم يكن هو نفسه سوى واحد من الهواة ينشد نصوصاً يزعمون أنها من طريقة "بيرغوت"، في حين كان مرتبطاً بفكر "بيرغوت"، وهو في طور العمل الناشط، بصلات حيويّة لم تكن الأذن تميّزها في الحال - كذلك كانت تتسم لغته بشيء من الإيجابية وبما يزخر بالغذاء مما يخيب أمل الذين يتوقعون أن يحدثهم فقط عن "سيل المظاهر الأبدي" وعن "رعشات الجمال الخفية" لأن "بيرغوت" كان يطبق ذلك الفكر بدقة على الواقع الذي يروقه. أضف أن ميزة الندرة والجدة الدائمتين في كل ما يكتب كانت تتم ترجمتهما في حديثه بطريقة دقيقة في تناول مسألة ما بإهمال جميع وجوهها المعروفة من قبل إلى حد أنه كان يبدو وكأنه يطرقها من جانب صغير وأنه ضل سواء السبيل وأنه يقدم المفارقات فتبدو أفكاره بذلك مبهمة في الغالب، إذ يضع كل واحد موضع الأفكار الواضحة تلك التي بلغت حد الإبهام نفسه الذي بلغته أفكاره هو. ولما كان من شروط الجدة، أية كانت، الإزالة المسبقة للمطروق المكرور الذي سبق أن تعودناه والذي كان يبدو لنا الواقع بعينه، فسوف يبدو كل حديث جديد، ومثله كل رسم وكل موسيقى مبتكرين، معقّداً ومرهقاً على الدوام. ذلك أنه يستند إلى أشكال لم نألفها ويبدو لنا المحدّث وكأنه لا يتكلم إلا بصنوف المجاز، الأمر الذي يورث تعباً ويخلف انطباعاً بمجانية الحقيقة. (ولقد كانت أشكال الكلام القديمة فيما مضى صوراً تصعب متابعتها هي الأخرى حينما لم يكن السامع عارفاً بعد بالعالم الذي تصوره إلا أن المرء يتصور منذ زمن بعيد أن هذا هو العالم ويستند إليه.) ولذلك فحينما كان يقول "بيرغوت" عن "كوتار"، مع أن الأمر يبدو اليوم بسيطاً جداً، إنه رقاص يبحث عن توازنه، وعن "بريشو" "إن هم تسريحته يحمّله من المشقة أكثر مما تتحمل السيّدة "سوان" إذ كان ينبغي، وهو مزدوج الاهتمام بصورته الجانبية وبسمعته، كان ينبغي أن يعطيه تصفيف شعره، في كل لحظة، هيئة الأسد والفيلسوف في آن واحد"، كنت تحس سريعاً بالتعب وتود لو تضع القدم على ما كان أكثر تشخيصاً، على حد ما يقال لنعني به ما كان أكثر قرباً مما ألفناه. والأقوال الغامضة التي خرجت من القناع الذي كان أمام ناظري إنمّا كان ينبغي ردها إلى الكاتب الذي كنت أنظر إليه بإعجاب، وما كان يمكن إدخالها في كتبه بالطريقة التي توضع بها لعبة معقدة في إطار مثيلات لها، فقد كانت في مستوى آخر وتقتضي تبديلا في مواضع الكلام استطعت بوساطته ذات يوم كنت أردد فيه لنفسي جملا سمعت "بيرغوت" ينطق بها أن ألقى فيها كامل هيكلية أسلوبه الكتابيّ الذي استطعت أن أتعرف إلى أجزائه المختلفة وأن أسميها في تلك المقالة المحكية التي بدت لي من قبل مختلفة إلى حد بعيد.

ومن وجهة نظر ثانوية أكثر فإن الطريقة الخاصة المبالغ إلى حد في دقتها وشدتها التي كان يتبعها في لفظ بعض المفردات، وبعض الصفات التي كانت تتردد في حديثه والتي لا ينطق بها بدون شيء من التفخيم فيبرز كافة مقاطعها ويرتل المقطع الأخير (كما هي الحال بالنسبة إلى المفردة "محيا" التي يحلها دوماً محل المفردة "وجه" ويضيف إليها عدداً كبيراً من حروف الميم والحاء

والياء تبدو وكأنها تنفجر جميعها من راحة يده المفتوحة في تلك اللحظات)، إنما كانت توافق الموضع الجميل الذي يبرز في نثره تلك المفردات المحبوبة، يسبقها ما يشبه الهامش وقد أُلّفتْ في العدد الإجمالي للجملة بطريقة يُضْطرُّ المرء معها أن يحتسب فيها كامل "كميتها" وإلا حار على الإيقاع. على أنك ما كنت تجد في كلام "بيرغوت" هذا الضرب من الإثارة الذي غالباً ما يبدل في كتبه، كما هي الحال في كتب بعض مؤلفين آخرين، مظهر الكلمات في الجملة المكتوبة ذلك دونما شك لأنها تنطلق من الأعماق السحيقة ولا ترسل أشعتها حتى أقوالنا في الساعات التي ننفتح فيها على الآخرين في الحديث فننغلق إلى حد ما دون ذواتنا. كان في كتبه من هذا القبيل نغمات أكثر ولهجة أوضح مما في أقواله، وهي لهجة مستقلة عن جمال الأسلوب لم يتبينها الكاتب نفسه دونما شك لأنها لا تنفصل عن شخصيته الأكثر خفاء. وإنما تلك اللهجة التي كانت تحدّد، في الآونة التي يضحي فيها "بيرغوت" طبيعياً تماماً في كتبه، إيقاع الكلمات التافهة جداً في الغالب التي كان يسطرها وليس في النص ما يشير إلى تلك اللهجة ولا ما يدل عليها وهي مع ذلك تنضاف من تلقاء ذاتها إلى الجمل ولا يمكن أن نقولها على نحو آخر. إنها ما كان أكثر زوالاً لدى الكاتب وأكثر عمقاً مع ذلك وهي التي ستشهد لنا على طبيعته وتعلمنا إن كان على الرغم من جميع وجوه الخشونة التي عبر عنها ناعماً، على الرغم من جميع ألوان الشهوة عاطفياً.

على أن بعض خصائص الأداء الكائنة على هيئة آثار طفيفة في حديث "بيرغوت" لم يكن ينفرد بها وحده فقد عدت فلقيتها، حينما عرفت إخوته وأخواته فيما بعد، على نحو أكثر بروزاً لديهم. كان هنالك شيء مفاجئ أجشّ في الكلمات الأخيرة من جملة مرحة، وشيء واهن يحتضر في نهاية جملة كئيبة. وقد قال لي "سوان" الذي سبق أن عرف "الأستاذ" حينما كان طفلاً أنه كان يسمع لديه آنذاك، ولدى إخوته وأخواته على حد سواء، تلك التبدلات الأسروية إلى حد ما في نبرة الصوت، وهي صيحات مرح عنيف تارة وطوراً همسات كآبة بطيئة، وأنه كان يؤدي دوره خيراً من أي منهم حينما كانوا يلعبون سوية في الصالة في حفلاتهم الغنائية التي تصم الآذان تارة ويصيبها الوهن تارة أخرى. بيد أن كل هذه الأصوات التي تنبعث من الكائنات زائلة ولا تبقى من بعدهم مهما بدت مميزة لهم. ولكن الأمور لم تجر على هذا النحو فيما يخص التلفظ في أسرة "بيرغوت". فلئن كان من الصعب أن ندرك في يوم كيف يستطيع فنان، حتى في "سادة الإنشاد"(*)، أن يبتدع الموسيقى بالإصغاء إلى زقزقة العصافير، فإن "بيرغوت" قد نقل إلى نثره وثبت فيه تلك الطريقة في التباطؤ على كلمات تتردد صيحات فرح أو تتقطر آهات حزينة. فهنالك في كتبه نهايات جمل يتطاول فيها تراكم رنات، كما هو الأمر في النغمات المتآلفة الأخيرة في افتتاحية أوبرا لا تستطيع التوقف وتردد مرات عديدة إيقاعها الأخير قلما يحط قائد الأوركسترا عصاه، رنات لقيت فيها فيما بعد المقابل الموسيقي لتلك الآلات النحاسية الصوتية في أسرة "بيرغوت". ولكنه توقف فيما يخصه توقفاً لا واعياً عن استخدامها في كلامه منذ اللحظة التي نقلها فيها إلى صفحات كتبه. ومنذ اليوم الذي باشر فيه الكتابة، ومن باب أولى حينما عرفته فيما بعد، فقد صوته من جراء ذلك صفاته الأوركسترالية إلى الأبد.

(*) أوبرا غنائية.

وما كان هؤلاء الشباب من عائلة "بيرغوت" - كاتب الغد وإخوته وأخواته - ما كانوا بالتأكيد يفوقون - بل العكس صحيح - شباباً أكثر رقة وأوفر نباهة يرون أن عائلة "بيرغوت" شديدة الصخب وحتى على شيء من السوقية ومزعجة في مزحاتها التي تتسم بها طريقة البيت ونصفها ادعاء والنصف بلاهة. بيد أن النبوغ، وحتى الموهبة الكبيرة، إنما يصدر عن عناصر ذكائية ورهافة اجتماعية تفوق ما يتجمع للآخرين أقل ما يصدر عن قدرة تحويلها وتبديل مواقعها. فليس يهم لتسخين سائل بوساطة مصباح كهربائي أن يكون لدينا أقوى مصباح ممكن، بل مصباح يمكن أن يتوقف التيار فيه عن الإضاءة وأن يتحوّل وينتج عوضاً عن النور حرارة. ولا ضرورة للتنزه في الأجواء أن تكون لدينا أقوى سيارة تستطيع، إذ لا توالي الجري على الأرض وتقطع بخط عامودي المسار الذي كانت تتبعه، أن تحيل سرعتها الأفقية إلى قوة تدفعها إلى الأعلى. وليس الذين ينتجون أعمالاً عبقرية كذلك أولئك الذين يعيشون في الوسط الأوفر رقة والذين يتألقون في حديثهم لهم القدرة، وقد توقفوا فجأة عن العيش لذواتهم، أن يصنعوا من شخصهم ما يشبه المرآة حتى لتنعكس حياتهم على صفحتها مهما أمكن أن تكون ضحلة على الصعيد الاجتماعي وحتى الثقافي إلى حد ما، إذ قوام النبوغ في القدرة العاكسة لا في الميزة الضمنية للمشهد المعكوس. ففي اليوم الذي استطاع فيه "بيرغوت" الشاب أن يضع أمام عالم قرّائه الصالة الرديئة الذوق التي أمضى فيها طفولته والأحاديث غير المسلية التي تدور بينه وبين إخوته، في ذلك اليوم ارتقى مكاناً أسمى من أصدقاء أسرته، وهم أوفر ذكاء وأناقة: يستطيعون العودة إلى بيوتهم في سيارات الرولزرويس الجميلة وهم يبدون بعض الاحتقار لسوقية آل "بيرغوت"، أما هو فقد كان يحلق فوقهم بجهازه المتواضع الذي استطاع أخيراً "أن يُقْلِع".

وهنالك لمحات أخرى في أدائه كان يشاركه فيها لا أعضاء أسرته بل بعض كتاب عصره. كان ثمة من هم أصغر سناً منه ممن بدؤوا ينكرونه ويدعون أن ليس من قرابة فكرية تربطهم به ثم هم يبرزونها غير قاصدين باستعمالهم للظروف نفسها ولحروف الجر نفسها التي كان يرددها بدون انقطاع وبتأليف الجمل بالطريقة نفسها وبالتحدث باللهجة المخففة المبطّأة نفسها كردّة فعل على اللغة البليغة السهلة التي لجأ إليها الجيل السابق. ربما لم يسبق لهؤلاء الشبان أن عرفوا "بيرغوت" - وسوف نرى من بينهم من كانت تلك حاله. ولكن طريقته في التفكير، وقد سرت في عروقهم، نمت فيهم تلك التبدلات في النحو واللهجة التي تتصل بالضرورة بالأصالة الفكرية. والصلة تلك تقتضي التفسير على أية حال. فلئن كان "بيرغوت" لا يدين بشيء لأحد في أسلوبه الكتابي فقد أخذ أسلوبه في الحديث عن أحد رفاقه القدماء، وهو متحدث رائع بسط عليه نفوذه فكان يقلده في الحديث عن غير ما قصد، على أنه لم يكتب في يوم، وهو على مواهب أقل، كتباً رفيعة المستوى حقاً. فلو أننا وقفنا عند حد أصالة الإلقاء لَصُنِّف "بيرغوت" تلميذا وكاتباً من الدرجة الثانية، في حين تأثر بصديقه في مجال الحديث وكان مبتكراً ومبدعاً في مجال الكتابة. وليس من شك أن ما كان "بيرغوت" يبرزه ويستشهد به على الدوام حينما يبغي تقريظ كتاب إنما كان أحد المشاهد المثيرة للخيال ولوحة لا دلالة معقولة فيها، وذلك في سعيه للانفصال عن الجيل السابق النزّاع إلى التجريد والموضوعات العامة المطروقة. فكان يقول: "آه! بلى!. ذلك حسن! ثمة بنية بشالٍ برتقالي، آه!

ذلك حسن"، أو يقول: "آه! أجل! ثمة كتيبة مدينة، آه! أجل، ذلك حسن!" أما فيما يخص الأسلوب، فلم يكن في تيار عصره تماماً (وقد ظل على أية حال أميناً لبلده حصراً فكان يمقت تولستوي وجورج إيليوت وإبسن ودوستوييفسكي)، لأن الكلمة التي كانت تتردد دوماً حينما يبغي امتداح أسلوب ما كانت كلمة "العذوبة". "بلى، إني أفضل مع ذلك "شاتوبريان" الذي كتب "أتالا" على "شاتوبريان" الذي كتب "رانسيه" إذ يبدو لي أنه أكثر عذوبة. "وكان يقول تلك الكلمة على غرار طبيب يؤكد له أحد المرضى أن الحليب يؤذي معدته فيجيب: "مع أنه شديد العذوبة." والصحيح أنه كان في أسلوب "بيرغوت" ضرب من التناغم شبيه بذلك الذي كان القدماء يطلقون على بعض خطبائهم من جرّائه مديحاً ندرك طبيعته بصعوبة إذ تَعَوَّدْنا لغاتِنا الحديثة التي لا يبحث فيها عن هذا النوع من التأثير.

كان يقول كذلك بابتسامة خجولة عن صفحات يعلنون عن إعجابهم بها: "أظن ذلك صحيحاً إلى حد ما ويمكن أن يكون مفيداً"، ولكن بداعي التواضع فقط وكمثل امرأة يقولون لها عن فسطانها أو ابنتها إنهما رائعان، فتجيب بالنسبة إلى الأول: "إنه مريح"، وبالنسبة إلى الثانية: "إنها سلسة القياد." بيد أن غريزة الباني لدى "بيرغوت" كانت شديدة العمق حتى يجهل أن البرهان الوحيد على أنه بنى بناء مفيداً وموافقاً للحقيقة كان يكمن في الفرح الذي أورثه إياه عمله الفني، هو أولاً ثم الآخرين. ولكنه بعد ذلك بسنوات عديدة، حينما لم تظل لديه موهبة، وفي كل مرة سطر فيها شيئاً لم يكن راضياً عنه. ردد لذاته هذه المرّة، كي لا يمحوه كما كان جديراً به أن يفعل وكيما ينشره: "على الرغم من كل شيء ذلك على شيء من الصحة، وليس ذلك غير ذي جدوى لبلدي." حتى إن الجملة المهموس بها فيما مضى أمام المعجبين به من جراء حيلة يقدم عليها تواضعه أضحت يُهْمَسُ بها في النهاية في خفايا فؤاده من جراء مخاوف كبريائه. والكلمات نفسها التي أفاد منها "بيرغوت" بمثابة اعتذار لا ضرورة له عن القيِّم في آثاره الأولى أضحت له بمثابة عزاء غير فعال إزاء ضحالة آثاره الأخيرة.

إن ضرباً من التشدد في الذوق لديه ومن التصميم على أن لا يكتب ألبتة سوى أشياء يمكنه أن يقول عنها: "ذلك شيء عذب"، احتُسِبَ من جرائه على مدى سنوات عديدة فناناً عقيماً ومتحذلقاً ومنمقاً لأمور لا طائل تحتها، إنما كان يؤلف على العكس سر قوّته، لأن العادة تصنع أسلوب الكاتب بقدر ما تصنع طباع الإنسان، والمؤلف الذي ارتضى مرات عديدة أن يبلغ في التعبير عن فكره إلى متعة معينة إنما يضع على هذا النحو وإلى الأبد حدود نبوغه مثلما يرسم المرء بنفسه، إذ ينساق كثيراً وراء اللذة والكسل والخشية من العذاب، مثلما يرسم على طباع لم يعد التصحيح في نهاية المطاف ممكناً فيها صورة رذائله وحدود فضيلته.

ولئن لم أحسب في اللحظة الأولى في منزل السيّدة "سوان"، على الرغم من العديد من التقابلات التي تبينتها فيما بعد بين الكاتب وبين الرجل، أن من يقف أمامي إنما هو "بيرغوت"، إنما هو مؤلف العديد من الكتب الرائعة فربما لم أكن تماماً على خطأ لأنه لم يكن هو نفسه (بمعنى الكلمة

الحقيقي) "يصدّق" ذلك. لم يكن يصدّق ذلك لأنه كان يبدي تلطفاً كبيراً إزاء رجال المجتمع (دون أن يكون متحذلقاً) وأرباب القلم والصحفيين ممن هم دونه بكثير. أجل، لقد علم الآن من أصوات الآخرين أنّه يملك العبقرية التي لا تساوي المكانة في المجتمع والمواقع الرسمية شيئاً في مقابلها. لقد علم أنّه يملك العبقرية ولكنّه لا يصدّق ذلك بما أنّه يوالي التظاهر بالاحترام إزاء كتاب ضحلين بغية أن يصبح عضواً في الأكاديمية في وقت قريب في حين لا دخل للأكاديمية أو لحي "سان جيرمان" في هذا الجزء من "الفكر الأزلي" الذي هو واضع كتب "بيرغوت" أكثر مما لهما في مبدأ السببيّة أو فكرة الإله. كان يعلم ذلك أيضاً، مثلما عبثاً يعلم مهووس بالسرقة أن السرقة شر. وكان للرجل ذي اللحية الصغيرة والأنف الحلزوني خدعات سيّد مهذّب من سارقي الشوك بغية الاقتراب من المقعد الأكاديمي المؤمّل ومن هذه الدوقة - أو تلك - التي تملك عدّة أصوات في الانتخابات، ولكنه اقتراب يجهد فيه أن لا يتمكن أي شخص يقدّر أن ملاحقة مثل هذا الهدف من باب النقيصة من كشف حيلته. ولا يفلح إلا جزئياً، فقد كنت تسمع إلى جانب أقوال "بيرغوت" الحقيقي أقوال "بيرغوت" الأناني الطموح الذي لا يفكر إلا في الحديث عن بعض ذوي النفوذ أو الأغنياء أو النبلاء كيما يبرز نفسه هو الذي أفلح في كتبه، حينما كان حقّاً ذاته، في إبراز سحر الفقراء نقياً كمياه الينابيع.

أما بالنسبة إلى تلك العيوب الأخرى التي ألمح إليها السيّد "دو نوربوا"، ذلك الحب النزّاع إلى المحرّمات في جزء منه والذي قالوا إنه تداخله قلّة الذوق على صعيد المال، فلئن كانت تناقض على نحو فاضح الاتجاه في رواياته الأخيرة وهي ملأى بنزعة إلى الخير دقيقة جدا ومؤلمة جدّاً إلى حدّ أنّ أقلّ مسرّات أبطالها كانت منكّدة من جرّائها وأنه كان ينبثق منها بالنسبة إلى القارئ نفسه شعور بالضيق تبدو من خلاله الحياة الأكثر حلاوة عسيرة الاحتمال، فلم تكن - ونقصد تلك العيوب - لتقيم البرهان، بافتراض أنها تُعزى حقاً إلى "بيرغوت"، على أن أدبه كاذب وأنّ هذا القدر من الإحساس من قبيل المهزلة. ومثلما هي الحال بالنسبة إلى بعض حالات في علم الأمراض تتشابه في ظاهرها فينشأ بعضها عن فرط توتّر أو إفراز، والبعض الآخر عن نقص فيهما، الخ. ، كذلك يمكن أن يكون ثمة عيب ناتج عن فرط الإحساس مثلما ثمة عيب ناتج عن نقص في الإحساس. وربمّا لم نستطع طرح المشلكة الأخلاقية بكامل شدة القلق الذي تبعثه إلا في أنواع من الحياة تملؤها الرذائل بالحقيقة. ويوفر الفنان لتلك المشكلة حلاً لا على صعيد حياته الفردية بل ما كان بالنسبة إلى حياته الحقيقية، حلاً عاماً، حلاً أدبياً. ومثلما بدأ علماء الكنيسة الكبار، مع أنهم طيبون، بالتعرّف إلى خطايا جميع الناس واستخلصوا منها قداستهم الشخصية، كذلك يستخدم الفنانون الكبار في الغالب، مع أنهم شريرون، رذائلهم للوصول إلى تصوّر القاعدة الأخلاقية للجميع. وإنما رذائل الوسط الذي كانوا يعيشون فيه (أو مواطن الضعف والهزأة فيه) أو الأقوال الطائشة أو حياة ابنتهم العابثة الفاضحة أو خيانات زوجتهم أو أخطاءهم الخاصة ما كانوا في الغالب يندّدون به في حملاتهم دون أن يبدّلوا بذلك مسيرة حياتهم الزوجية أو السلوك السيىء الذي يسود مسكنهم. بيد أن هذا التناقض كان فيما مضى أقل إدهاشاً مما في زمان "بيرغوت" لأنّ مفاهيم الأخلاق أخذت من جهة تزداد نقاء كلما ازداد المجتمع فساداً وإن الجمهور من جهة أخرى اطّلع أكثر مما فعل حتى ذاك على حياة الكتاب

الخاصّة ؛ فقد كانوا يشيرون في بعض الأمسيات في المسرح إلى المؤلف الذي أعجبت به كثيراً في "كومبريه" وهو يجلس في زاوية مقصورة يبدو محض تركيبها تعليقاً غريباً مضحكاً أو مؤثراً وتكذيباً وقحاً للفكرة التي دافع عنها منذ قليل في آخر مؤلف له. وليس ما استطاع أن ينقله إليّ هؤلاء أو أولئك ما أطلعني على الكثير من طيبة "بيرغوت" أو خبثه، فأحد أقربائه كان يأتي ببراهين على قسوته، وآخر مجهول يذكر لمحة من حساسيّته العميقة (وهي مؤثرة إذ كان مقرراً بالطبع أن تظلّ خفيّة). لقد تصرف مع زوجته تصرفاً قاسياً، إلا أنه ظلّ ينتظر في نزل قرية جاء يمضي الليلة فيه كي يسهر على مسكينة حاولت أن تلقي بنفسها في الماء وحينما اضطر إلى مغادرة المكان ترك كثيراً من النقود لصاحب المنزل كي لا يطرد تلك التعيسة وكيما يحيطها بعنايته. وربما كلّما تنامى الكاتب الكبير في "بيرغوت" على حساب الرجل ذي اللحية الصغيرة كلّما غرقت حياته الخاصة في لجة سائر الحيوات التي كان يتخيلها ولم يعد يبدو له أنها تضطره إلى أداء واجبات فعلية حلّ محلّها بالنسبة إليه واجب تخيل هذه الحيوات الأخرى. بيد أنه كان في الوقت نفسه، حينما تدعوه المناسبة إلى التحدث إلى أحد المساكين، على الأقل بطريقة عابرة، كان يفعل ذلك، لأنه يتخيّل مشاعر الآخرين كما لو أنهّا مشاعره الخاصة، بأن يتخذ لا وجهة نظره الشخصية بل وجهة نظر الشخص الذي يتعذب، تلك الوجهة التي يكره من جرائها كلام الذين يوالون التفكير بمصالحهم الصغيرة حيال عذاب الغير. وقد أثار بذلك من حوله ضغائن لها ما يبّررها ومشاعر امتنان لا تزول.

لقد كان على وجه الخصوص إنساناً لا يحب حقاً في قرارة نفسه سوى بعض الصور وأن يؤلّفها ويرسمها تحت غطاء الكلمات (كمثل منمنمة في أسفل صندوقة). فقد كان يبدي إسرافاً في التعبير عن شكره من أجل شيء يسير أرسل إليه إن وفّر له هذا الشيء اليسير فرصة تشبيك عدد منها، في حين لا يبدي أيّ شكر إزاء هديّة ثمينة ولو وقع عليه أن يدافع عن نفسه أمام المحكمة لاختار أقواله مرغماً لا بحسب التأثير الذي يمكن أن تخلّفه في القاضي بل سعياً وراء صور لعلّ القاضي بالتأكيد لم يتبينها

وقد رويت لِ "بيرغوت" في ذلك اليوم الأوّل الذي رأيته فيه لدى ذوي "جيلبيرت" أنني استمعت حديثاً للممثّلة "لابيرما" في مسرحيّة "فيدر" ؛ فقال لي إنّها استطاعت في المشهد الذي تظل فيه مرفوعة الذراع إلى مستوى الكتفين – وهو بالضبط أحد المشاهد الذي أثار الكثير من التصفيق – ، استطاعت أن تستعيد بفنّ شديد السموّ روائع لم تشهدها ربمّا في يوم كمثل واحدة من "الهيسبيريد"(١) تقوم بهذه الحركة على إفريز منحوت من "أولمبيا"، وكذلك العذارى الجميلات في "الإيريكثيون"(٢) القديم – "يمكن أن يكون الأمر من باب الرجم بالغيب، على أنّي أتصوّر أنّها ترتاد المتاحف. وربما بدا مثيراً أن نتقصّى حقيقة "ذلك" (وتقصّي الحقيقة واحدة من تلك العبارات المألوفة لدى "بيرغوت" والتي غنمها منه بعض الشبان ممن لم يلتقوا به في يوم فيتحدثون مثله

---

(١) Hesperides : جنيات ثلاث في الأساطير اليونانية كن يقمن بحراسة التفاح الذهبي الذي وهبته "هيرا" للأرض.
(٢) Erechtheion. : معبد بالقرب من مبنى الأكروبول للإلهين "أثنيا" و "بوزيدون" ويعد من آيات الفن.

وكأنما بضرب من الاستيحاء البعيد). وسأله "سوان" قائلاً: "أتفكّر في فتيات "الكارياتيد" [1]؟ وأجاب "بيرغوت": "لا، لا، إنّه فنّ أقدم بكثير ذاك الذي تردّ إليه الحياة، فيما عدا المشهد الذي تقرّ فيه لِـ "أونون" بغرامها والذي ترسم فيه بيدها حركة "هيجيزو"[2] التي على شاهدة مقبرة أثينا. كنت أتحدث عن عذارى "الإيريكثيون" القديم، وأعترف أنّه مامن شيء أبعد عن فنّ "راسين"، إلا أن ثمة أموراً كثيرة في مسرحية "فيدر" .. ينضاف إليها آخر .. آه! ثم إنها، بلى، إنّها جميلة جدّاً "فيدر" الصغيرة، تلك التي من القرن السادس، بعمودية الذراع وعقصة الشعر التي توحي بالمرمر، بلى، إنّه مع ذلك لأمر عظيم أن تكون لقيت كلّ ذلك. إن ثمة قسطاً من القديم أوفر بكثير مما هي الحال في كثير من الكتب التي ينعتونها بِـ "القديم في هذا العام".

ولما كان "بيرغوت" قد وجه في أحد كتبه دعاءً شهيراً إلى هذه التماثيل العتيقة فقد كانت الأقوال التي يدلي بها في تلك اللحظة واضحة جدّاً بالنسبة إلي وكانت تزودني بسبب جديد للاهتمام بتمثيل "لابيرما" فأخذت أحاول رؤيتها ثانية داخل ذكرياتي مثلما كانت في ذلك المشهد الذي كنت أتذكر فيه أنها رفعت ذراعها إلى مستوى كتفها. وكنت أقول في نفسي: "تلك جنيّة "أولمبيا"، تلك شقيقة إحدى هؤلاء المصليات الرائعات في "الأكروبول". ذلك هو الفن السامي بعينه. "بيد أنه كان لابد كيما تستطيع تلك الأفكار أن تزيد في نظري من جمال حركة "لابيرما" أن يكون "بيرغوت" قد زودني بها قبل العرض، فلعلي كنت أستطيع حينذاك، ساعة تكون وقفة الممثلة تلك قائمة بالفعل أمامي في تلك اللحظة التي لا يزال يملك فيها الأمر الذي يجري تمام الواقع، أن أستخلص منها فكرة المنحوتة القديمة. غير أن ما كنت أحفظه من "لابيرما" في ذلك المشهد إنما كان ذكرى لم يعد بالإمكان تبديلها، دقيقة كمثل صورة خلت من خلفيات الحاضر العميقة التي يمكن حفرها والتي مكن أن نستخرج منها شيئاً جديداً يطابق الحقيقة وصورة لا يمكن أن نفرض عليها تفسيراً لاحقاً لا يمكن التحقّق منه من بعد ولا التصديق عليه موضوعيّاً. وسألتني السيدة "سوان"، بغية المشاركة في الحديث، إن كانت "جيلبيرت" قد فطنت إلى إعطائي ما كتب "بيرغوت" حول "فيدر". وأضافت تقول: "لي ابنة بالغة الطيش". وعلت شفتي "بيرغوت" ابتسامة متواضعة واحتج بقوله إنها صفحات غير ذات بال. "بلى، إنّه رائع ذلك الكتيب الصغير، ذلك المنشور الصغير"، تقول السيدة "سوان" كيما تظهر مظهر ربّة البيت الناجحة وكيما توهم أنّها قرأت النشرة ولأنها إلى ذلك لم تكن تحب تقريظ "بيرغوت" فحسب، بل أن تختار بين ما يكتب وأن توجهه. وقد ألهمته والحق يقال على نحو يختلف عمّا ظنّت بيد أن ثمة على كلّ حال بين ما كانت عليه أناقة صالون السيدة "سوان" وبين جانب بأكمله من آثار "بيرغوت" صلات وثيقة إلى حد أن كلاّ من الاثنين يمكن أن يكون بالتناوب، في نظر شيوخ اليوم، تفسيراً للآخر.

وكنت أسترسل في التحدّث عن انطباعاتي. وكثيراً مالا يجدها "بيرغوت" صحيحة، ولكنه

---

(١) Cariatides : أعمدة على هيئة نساء وأشهرها في المعبد السابق.
(٢) ربمّا كان "هيجزياس" الفيلسوف اليوناني الذي نادى بالانتحار إزاء عجز الإنسان عن بلوغ السعادة.

يدعني أتحدث. قلت له إني أحببت ذلك الضوء الأخضر ساعة ترفع "فيدر" ذراعها. "آه! قد يدخل ذلك سروراً بالغاً على قلب مهندس المناظر، وهو فنان كبير، وسوف أروي له عن ذلك لأنه فخور جدّاً بهذا الضوء. أما أنا فأرى من واجبي أن أقول إني لا أحبه كثيراً لأنه يغمر كلّ شيء في ما يشبه الجوّ المصطنع ذا الزرقة المخضوضرة وتبدو "فيدر" الصغيرة في ذلك الوسط أكثر ما تبدو وكأنها غصن مرجان في أسفل حوض أسماك. وربما قلت إن ذلك يبرز الجانب الكوني في المأساة، وهذا صحيح والأمر على كل حال أفضل بالنسبة إلى مسرحية تجري في مملكة "نبتون"(*). إنني أعلم تمام العلم أنّ ثمة ما يمتّ إلى ثأر "نبتون". ولست، وربك، أطالب أن ينحصر التفكير في "بور روّيال"، ولكن ليس ما روى عنه "راسين" على كلّ حال حبّ قنافذ البحر. على أنّ ذلك ما ابتغاه صديقي وفيه فن كثير على أي حال وهو جميل بما فيه الكفاية. أجل، لقد أحببتَ ذلك وأدركت ؛ وفكرتنا واحدة بهذا الشأن، أليس كذلك، إن ما فعله غير معقول إلى حدّ ما، أليس كذلك، ولكنه في غاية الذكاء." وحينما كان رأي "بيرغوت" مناقضاً لرأيي لم يكن يضطرني على الإطلاق أن ألتزم الصمت ويحجب عني إمكانيّة الإجابة كما ربمّا كان يفعل بي رأي السيد "دو نوربوا". وليس يعني ذلك أن آراء "بيرغوت" كانت أقل صحة من آراء السفير، بل العكس صحيح. ذلك أن فكرة قوية إنما تعطي شيئاً من قوّتها للمعارض. وإنها إذ تشارك في القيمة العامة للعقول إنما تداخل العقل الذي تدحضه وتنزرع فيه وسط أفكار مجاورة يستبعد بوساطتها بعض المكاسب ويكمّلها ويصحّحها، حتى إن الحكم النهائي إنما يأتي نوعاً ما من عمل الشخصين اللذين كانا يتناقشان. وإنما الأفكار التي ليست بحصر القول أفكاراً، الأفكار التي لا ترتبط بشيء ولا تجد في ذهن الخصم أية نقطة ارتكاز وأي فرع شقيق، إنما الأفكار تلك التي لا يجد الخصم ما يجيب به عليها إذ تدعه في صراع مع الفراغ المطلق. لقد كانت حجج السيّد "دو نوربوا" (في مجال الفنّ) لا تقبل النقاش لأنها لا تملك أرضية واقعيّة.

ولما لم يرفض "بيرغوت" اعتراضاتي فقد اعترفت له أنها قوبلت بازدراء السيد "دو نوربوا". فأجاب قائلا: "ولكنه عجوز أبله. لقد أوسعك انتقاداً لأنه يحسب أمامه على الدوام رجلا مخدوعاً أو مغفّلا. وقال لي "سوان": – "عجباً! أو تعرف "نوربوا"؟ وقاطعته زوجته التي كانت كبيرة الثقة بحكم "بيرغوت" وكانت تخشى دونما شك أن يكون اغتابها السيد "دو نوربوا" أمامنا: "أوه! إنّه مملّ كالمطر.

لقد أردت أن أتحدث إليه بعد العشاء، ولست أدري أهو العمر أم عامل الهضم، ولكني وجدته مبدد الفكر إلى حدّ بعيد، وربما بدت به حاجة إلى منشط! " وقال "بيرغوت": "أجل، أليس كذلك، إنه مضطر أن يصمت مراراً كي لا يستنفد قبل نهاية الأمسية مؤونة الحماقات التي "تنشّي" ياقة القميص وتحافظ على بياض الصدرية." وقال "سوان" الذي اتخذ في بيته "مهنة" الرجل ذي التفكير السليم: "إني أجد "بيرغوت" و زوجتي قاسيين جداً. إني أقرّ بأن "نوربوا" لا يمكن أن يثير اهتمامك

(*) Neptune إله البحر والملاحة لدى الرومان.

كثيراً، ولكنه من وجهة نظر أخرى (إذ كان "سوان" يحب أن يجمع مواقع الجمال في "الحياة") شخص غريب إلى حد ما، غريب إلى حدّ ما في "باب العاشقين". ثم أضاف قوله بعدما تأكد أن "جيلبيرت" لا تستطيع سماعه: "حينما كان سكرتيراً في رومه، كان له في باريس عشيقة يهيم في حبّها فيجد وسيلة للسفر مرتين في الأسبوع ليراها مدة ساعتين. وكانت على أي حال امرأة شديدة الذكاء وفتانة في ذلك الوقت، وهي الآن من الوريثات. وكان له كثيرات أخرى في تلك الأثناء. أمّا أنا، فلعلي كنت أجنّ لو انبغى أن تقطن المرأة التي أحبها باريس فيما تمسك بي أشغالي في رومه. ولعله ينبغي على الدوام، فيما يخص عصبيي المزاج، أن يحبوا "في طبقة أدنى منهم"، كما تقول العامة، كي تمسك المصلحة بالمرأة التي يحبّونها تحت رحمتهم." وفي تلك اللحظة انتبه "سوان" إلى إمكانية لجوئي إلى تطبيق تلك القاعدة المأثورة عليه وعلي "أوديت". وبما أنّ حبّ الذات يظل دنيئاً حتى لدى المتفوقين من الناس وساعة يبدون وكأنهم يحلّقون معك فوق الحياة، فقد تملكه استياء شديد حيالي، ولكن ذلك لم يبرز إلا في اضطراب نظرته. ولم يقل لي شيئاً في تلك اللحظة نفسها، وينبغي أن لا نعجب من ذلك. فحينما أشار "راسين"، حسب رواية ملفقة على كل حال ولكن مضمونها يتكرر كلّ يوم في حياة باريس، حينما أشار إلى "سكارون" في حضرة لويس الرابع عشر لم يقل أقوى ملوك العالم للشاعر شيئاً في ذلك المساء، وفي الغد فقد هذا الأخير الحظوة في عينيه.

وبما أن أية نّظرية تنزع إلى أن تُعبّر عنها كلياً فقد أتم "سوان" فكرته بعد دقيقة الغضب تلك وبعدما مسح زجاج نظارته، أتمها بهذه الكلمات التي كانت ستتخذ بعدها في خاطري أهمية نبوءة تحذيرية لم أفطن إلى أخذها في حسابي: "بيد أن خطر هذا النوع من الحب يكمن في أن خضوع المرأة إنما يهدّئ لفترة من غيرة الرجل ولكنه يجعلها كذلك أكثر تشدداً. فهو ينجح في جعل عشيقته تعيش على غرار هؤلاء السجناء الذين تضاء غرفهم ليل نهار كيما تُحْسَنَ حراستهم. وينتهي الأمر عامة بمآس". وعدت إلى السيد "دو نوربوا"، فقالت السيدة "سوان" بلهجة زاد من أنها بدت تدل على أن السيد "دو نوربوا" تناولها بسوء أن "سوان" نظر إلى زوجته نظرة تأنيب وكما لو يبغي منعها من الاسترسال في القول: "لا تثق به، فهو على العكس نمّام."

أما "جيلبيرت" التي سبق أن رجوها مرتين أن تذهب وتستعد للنزهة فقد ظلت تستمع إلينا بين والدتها ووالدها الذي كانت تتكئ بغنج على كتفه. ولم يكن هنالك ما يتعارض والسيدة "سوان" وهي سمراء، أكثر من هذه الفتاة ذات الشعر الذهبي والبشرة الصهباء. بيد أنك كنت تتعرف بعد برهة لدى "جيلبيرت" إلى الكثير من القسمات - كمثل الأنف الذي توقف بقرار مفاجئ لا يخطيء على يد النحات الخفي الذي يعمل بإزميله على مدى أجيال كثيرة - وملامح والدتها وحركاتها. لقد كانت تبدو، كيما نتخذ تشبيهاً في فنّ آخر، وكأنها رسم لا يزال قليل الشبه بالسيّدة "سوان" التي جعلها الرسام، من جرّاء نزوة ألوان لديه، تقف نصف متنكرة، وهي على أهبة الذهاب إلى حفلة عشاء تنكرية بلباس امرأة من البندقية. وبما أنها لم تقتصر على شعر أشقر مستعار بل أقصت أيّة ذرّة قاتمة عن لحمها الذي بدا، وقد نزعت عنه براقعه السمراء، أكثر عرياً إذ لا تغطيه سوى أشعة تنبعث

من شمس باطنة، فلم يجئ التخضيب سطحياً بل بداخل اللحم ؛ وتبدو "جيلبيرت" وكأنها تمثل حيواناً أسطورياً أو ترتدي ملابس تنكرية ميثولوجية. كانت تلك البشرة الصهباء بشرة والدها إلى حد أن الطبيعة بدت، يوم تكونت "جيلبيرت" وكأنّ عليها أن تحلّ مشكلة إعادة صنع السيّدة "سوان" شيئاً فشيئاً ولا تملك سوى بشرة السيّد "سوان" مادّةً لذلك. وقد استعملتها الطبيعة بمنتهى الإتقان كصانع صناديق يهمّه أن تظل عروق الخشب وعقده ظاهرة للعيان. ففي وجه "جيلبيرت"، وفي زاوية أنف "أوديت"، الذي أعيد رسمه على أتم وجه، ينتفخ الجلد ليحافظ على سلامة شامتي السيد "سوان" فلا تُمّسان. كان شكلا جديداً للسيدة "سوان" تم الحصول عليه ههنا، بالقرب منها، كمثل ليلك أبيض بالقرب من ليلك بنفسجي – على أنه لا ينبغي تمثل الخط الفاصل بين الشبهين وكأنه واضح تمام الوضوح. فقد كنت تميز بين الحين والحين، حينما تضحك "جيلبيرت"، بيضوية خد والدها في وجه أمها وكأنما وُضعا سوية لتبيين ما سيسفر عنه المزيج. كانت تلك البيضوية تتوضح مثلما يتشكل جنين: فتتطاول على خط مائل وتنتفخ ثم تراها بعد لحظة وقد زالت. وكان في عيني "جيلبيرت" نظرة والدها الطيبة الصريحة، وهي التي رنت إليّ بها حينما أعطتني كلّة العقيق وقالت لي:

"احتفظ بها تذكاراً لصداقتنا."

ولكن ما إن تطرح سؤالاً على "جيلبيرت" حول ما قد فعلت حتى تتبين في تينك العينين الحرج والتردّد والمخادعة والحزن الذي كان يلم بِـ "أوديت" بالأمس يوم يسألها "سوان" إلى أين ذهبت وتردّ عليه بإحدى تلك الإجابات الكاذبة التي كانت تدخل اليأس إلى قلب العاشق وتحمله الآن على تغيير الحديث بصورة مفاجئة وقد أضحى الزوج اللامبالي والحذر. وغالباً ما ألم بي الاضطراب في "الشانزيليزيه" وأنا أبصر تلك النظرة لدى "جيلبيرت". وكنت في الغالب على غير حق، ذلك أن تلك النظرة – وأقصد هذه الأخيرة على الأقل – لم تعد تقابل شيئاً، وهي لديها أثر مادي بحت ورثته عن والدتها. فقد كانت حدقتا "جيلبيرت" بعدما تذهب إلى درسها أو حينما ينبغي لها أن تعود من أجل درس ما، تقومان بتلك الحركة التي كانت تسببها بالأمس في عيني "أوديت" خشية أن تكشف أنها استقبلت في بحر النهار أحد عشاقها أو أنها على عجلة من أمرها للذهاب إلى موعد. وهكذا كنت ترى طبيعتي السيد "سوان" وزوجته تموجان وتتراجعان وتتجاوز كل منهما بدورها حدودها في جسد تلك الحنية الصغيرة.

إننا نعلم ولا ريب أن الولد يكتسب صفات من أبيه ومن أمه. بيد أن توزع الصفات والعيوب التي يرثها يتم على نحو غريب إلى حد أن المرء لا يجد من بعد لدى الطفل إلا واحدة من صفتين كانتا تبدوان وكأنما لا يمكن فصلهما لدى أحد الوالدين وقد اتحدت بأحد عيوب القريب الآخر وكانت تبدو أكثر ما تكون بعداً عنه. بل قد يشكل في الغالب تجسد صفة أخلاقية في عيب جسماني يناقضها أحد قوانين الشبه البنوي. فقد تمتلك إحدى شقيقتين، إلى جانب قدّ والدها الفارع، روح والدتها الخسيسة، أما الثانية التي امتلأت بذكاء والدها فإنها تبرزه للناس بالمظهر الذي

يميز والدها. ويضحي الأنف الكبير لدى والدتها والبطن المجعد وحتى الصوت الأثواب التي تلف مواهب عهدناها في مظهر رائع، حتى ليمكن القول عن كل من الشقيقتين وبقدر من الحق متساوٍ إنها هي التي ورثت أكثر ما ورثت من أحد والديها دون الآخر. صحيح أن "جيلبيرت" كانت ابنة وحيدة بيد أنه كان ثمة اثنتان باسم "جيلبيرت" على الأقل. فما كانت طبيعة والدها ووالدتها تمتزجان فيها فحسب، لقد كانتا تتنازعانها. بل ربما كان ذلك من باب القول غير الدقيق ويحمل على افتراض أنّ "جيلبيرت" ثالثة كانت تتعذب في تلك الأثناء من أنها فريسة الآخرين ولكن "جيلبيزت" كانت هذه ثم تلك بالتناوب، وكانت في كل لحظة إحداهن لا أكثر، يعني أنها عاجزة. حينما تكون أقل طيبة عن التألم من جراء غيابها. ولذلك كانت أقل الاثنتين طيبة حرة أن تتمتع بملذات قليلة السمو. وحينما كانت الأخرى تتحدث بلسان فؤاد والدها كانت تملك رؤى واسعة ويود المرء لو ينجز معها مشروعاً جميلاً وخيرّاً ويطلعها عليه، لكن قلب والدتها، لحظة يوشك الاتفاق، يكون استعاد دوره، فإذا هو الذي يجيبك. ويخيب أملك وتغتاظ - وتداخلك الحيرة تقريباً وكأنما حيال استبدال أشخاص - من جراء فكرة خسيسة أو قهقهة ماكرة تستمتع بهما "جيلبيرت" لأنهما تصدران عما كانته في تلك اللحظة. ويبلغ التباعد بين شخصيتي "جيلبيرت"، أحياناً حداً من الاتساع يتساءل المرء معه، وعبثاً يفعل على كل حال، عما أمكن أن يلحقه بها كيما يجدها مختلفة إلى هذا الحد. فالموعد الذي دعتك إليه لم تأت إليه ولا تعتذر بعده، وليس ذلك فحسب، بل كانت تبدو، أيّا كان التأثير الذي ربما حملها على تغيير عزمها، مختلفة جدّاً بعد ذلك حتى لتظن أنك ضحية تشابه كالذي يؤلف أساس مسرحية "التوائم" وأنك لست أمام الشخص الذي طلب منك أن يراك، إن لم يبدِ من الحنق ما يبرر أنه يشعر بالذنب ويود تجنب المكاشفة.

وقالت لها أمها :

"هيا اذهبي فسوف نتأخر بسببك".

وتجيب "جيلبيرت" وهي تخفي رأسها تحت ذراع والدها الذي أمرّ أصابعه بحنان في شعرها الأشقر:

"إني على أحسن حال بالقرب من والدي العزيز وأريد أن أظل فترة بعد".

كان "سوان" من أولئك الرجال الذين "أبصروا، بعدما عاشوا فترة طويلة في أوهام الحب، الرفاه الذي قدموه لنساء كثيرات يزيد من سعادتهم دون أن يخلق أي عرفان بالجميل لديهم وأي حنان نحوهم ولكنهم يظنون أنهم يحسون لدى ولدهم مودة تتجسد في اسمهم نفسه وتسمح باستمرارهم بعد الممات. فحينما لن يبقى ثمة "شارل سوان" ستظل هناك الآنسة "سوان" أو السيدة "س" ("سوان" قبل الزواج) التي ستظل على حب الوالد المتوفى، على حب ربما جاوز الحدود فيما يظن "سوان" دون شك، إذ أجاب "جيلبيرت" بقوله: "أنت ابنة طيبة" بتلك اللهجة التي تزداد رقة من جراء الاضطراب الذي توحي لنا به بشأن المستقبل المودة البالغة العنف لكائن سوف يظل من بعدنا،

وشاركنا حديثنا حول "لابيرما" كيما يخفي انفعاله. وطلب مني، ولكن بلهجة لا مبالية ضجرة كما لو يبغي البقاء إن جاز القول خارج ما يقول، أن ألاحظ بأي ذكاء وأية دقة غير متوقعة كانت الممثلة تقول لِ "أونون": "كنتِ عالمة بذلك"! وكان على حق: فإن لتلك اللهجة قيمة سهلة الإدراك حقاً وكان ينبغي أن تشبع رغبتي في العثور على أسباب لا تدحض تدعو إلى الإعجاب بِ "لابيرما". ولكنها ما كانت ترضيها بسبب وضوحها بالذات. فقد كانت اللهجة بارعة بارزة القصد محددة المعنى لدرجة أنها تبدو وكأنها كائنة في ذاتها وأن أية ممثلة ذكية يمكنها اكتسابها. لقد كانت فكرة جميلة، ولكن إن يتفق لأحد أيا كان أن يتصورها أتم التصور فإنما يمتلكها بالقدر نفسه. يبقى لصالح "لابيرما" أنها وجدتها، ولكن هل يمكن استخدام لفظة "وجد" حينما يَتعلق الأمر بشيء لا يختلف إن جاءنا عن طريق الغير، شيء لا يتعلق بكيانك على نحو جوهري بما أن آخر يستطيع إنتاجه مجدداً فيما بعد؟

وقال لي "سوان" كأنما ليعتذر من "بيرغوت"، قال لي وقد اتخذ في وسط آل "غيرمانت" عادة استقبال الفنانين الكبار بمثابة أصدقاء مقربين يحاول المرء فقط إطعامهم الأصناف التي يحبونها واللهو بما يروقهم من ألعاب أو الانصراف في الريف إلى ما يروقهم من رياضة: "يا إلهي، كم يرفع وجودك من سوية الحديث!" وأضاف يقول: "يبدو لي أننا نتحدث بالتأكيد عن الفن". وقالت لي السيدة "سوان" وهي ترنو إليّ بنظرة الامتنان من جراء طيبة نفسها ولأنها احتفظت إلى ذلك بتطلعاتها القديمة إلى حديث أوفر ثقافة: "حسن جداً، إني أحب ذلك كثيراً": ثم تحدث "بيرغوت" إلى أشخاص آخرين وبخاصة إلى "جيلبيرت". وكنت قد نقلت إليه كل ما أحس به بحرية أدهشتني ومردها أنني سلكت معه منذ سنوات (وفي أثناء العديد من ساعات العزلة والقراءة حيث لم يكن بالنسبة إليّ سوى أفضل جزء من ذاتي) عادة الصدق والصراحة والثقة فكان يبعث في صدري الرهبة أقل من شخص أتحدث إليه للمرة الأولى. وكنت مع ذلك شديد القلق للسبب ذاته حيال الانطباع الذي لابد خلفته في نفسه، فالازدراء الذي افترضت أنه يبديه لأفكاري لم يؤرخ بتاريخ اليوم بل يعود إلى الأزمنة السالفة التي باشرت فيها قراءة كتبه في حديقتنا في "كومبريه". وربما جدر بي مع ذلك أن أقول، بما أنني تعاطفت إلى حد بعيد وبصدق، وأنا أستسلم لفكري، مع مؤلفات "بيرغوت" وأنني من جهة أخرى شعرت في المسرح بخيبة أمل لم أعرف أسبابها، بأن تينك الحركتين الغريزيتين يجب ألا تختلف الواحدة عن الأخرى إلى حد بعيد وأن تخضع كلتاهما للقوانين نفسها، وأن ميزة "بيرغوت" تلك التي أحببتها في كتبه كان ينبغي ألا تكون غريبة تماماً عن خيبة أملي وعجزي عن التعبير عنها ومعاكسة لهما. ذلك لأن عقلي كان ينبغي أن يكون واحداً، وربما لم يكن هنالك سوى عقل واحد يستأجره جميع الناس، عقل يرفع إليه كل منهم من أعماق جسده الخاص أنظاره كما هي الحال في المسرح حيث ليس سوى خشبة واحدة وإن كان لكل واحد بالمقابل مكانه الخاص. ولا ريب أن الأفكار التي كنت أميل إلى محاولة استجلائها لم تكن تلك التي يعمّقها "بيرغوت" عادة في كتبه. ولكن إن كنت أملك وإياه العقل نفسه فينبغي له حينما يسمعني أعبر عنها أن يتذكرها ويحبها ويبتسم لها وهو يحتفظ على الأرجح، على الرغم مما كنت أفترضه، أمام عينه الداخلية، بجزء من العقل مغاير تماماً لذلك الذي مر مقطع منه في كتبه تخيلت انطلاقاً منه كامل

دنياه العقلية. ومثلما يستطيع الكهنة الذين خبروا القلب أوسع خبرة أن يصفحوا أفضل ما يكون الصفح عن الخطايا التي لا يرتكبونها، كذلك يستطيع العبقريّ الذي خبر العقل أوسع خبرة أن يدرك أفضل ما يكون الإدراك الأفكار الأكثر معارضة لتلك التي تؤلف أرضية أعماله الفنية نفسها. كان ينبغي أن أحدث نفسي بكل ذلك. وليس فيه على أي حال ما يروق إلى حد كبير، لأن عطف العقول الرفيعة إنما تلازمه قلة الإدراك والعداء لدى العقول الضحلة. وإنك لتغتبط بلطف كاتب كبير، واللطف تلقاه عند اللزوم في كتبه، أقل بكثير مما تتألم من عداء امرأة لم تخترها بسبب ذكائها ولكنك لا تملك إلا أن تحبها. كان ينبغي أن أحدث نفسي بكل ذلك ولكني ما فعلت وأيقنت أنني بدوت غبياً في نظر "بيرغوت"، حينما همست "جيلبيرت" في أذني:

– إن موجة الفرح تغمرني لأنك كسبت ود صديقي الكبير "بيرغوت". لقد قال لماما إنه وجدك في غاية الذكاء."

وسألت "جيلبيرت" : "إلى أين نذهب؟"

– "حيثما تشاؤون، فأنت تدري، بالنسبة إلي، ان نذهب إلى هنا أو هناك ."

بيد أنني منذ الحادث الذي وقع في يوم ذكرى وفاة جدّ "جيلبيرت" أخذت أسائل نفسي إن لم يكن طباعها على غير ما ظننت وإن لم تكن تلك اللامبالاة بما سنفعل وذلك التعقل وذلك الهدوء وذلك الخضوع الوادع المستمر، إن لم تكن جميعها تخفي على العكس رغبات متقدة لا تود إبرازها للعيان من جراء اعتزازها بنفسها وما كانت تكشف عنها إلا بما تبدي من مقاومة مفاجئة حينما تتم معارضتها بالمصادفة.

ولما كان "بيرغوت" يقطن في حيّ ذويّ نفسه فقد ذهبنا سوية. وحدثني في الطريق عن صحتي: "قال لي أصدقائي إنك تعاني من الآلام، وإني أرثي كثيراً لحالك. بيد أنني على الرغم من ذلك لن أبالغ في الرثاء لأنني أدرك تماماً أنك لابد متذوق متع العقل وهي على الأرجح ما تأخذه في حسابك قبل كل شيء كما هي الحال جميع الذين عهدوها."

ولكن كنت أحس، واأسفي، أن ما كان يقوله غير صحيح تماماً بالنسبة إلي أنا الذي لا تثير حماسته أية محاكمة عقلية مهما سمت، والذي لا يشعر بالسعادة إلا في فترات التجوال البحت حينما يوافيني شعور بالراحة. كنت أحسّ إلى أي حد كان ما أرغب في الحياة مادياً صرفاً وبأية سهولة ربما كنت في غني عن العقل. ولما لم أكن أميز من بين المتع تلك التي تأتيني من مصادر مختلفة تزيد أو تقل عمقاً واستمراراً فقد فكرت وأنا أزمع الإجابة أنني ربما أحببت حياة يتسنى لي فيها الارتباط بصداقة بدوقة "غيرمانت" وأحس كثيراً فيها بجو ندي يذكرني بـ "كومبريه" كما كان شأني في مكتب الميرة القديم في "الشانزيليزيه" وما كانت متع العقل تحتل أي مكان في مثل الحياة الأعلى هذا الذي تخونني الجرأة في طرحه أمامه.

- "لا، يا سيدي، إن متع العقل شيء زهيد جداً في نظري وليست ما أبحث عنه ولست حتى أدري إن كنت تذوقتها في يوم."

وأجابني يقول: "أحقاً تظن ذلك؟ هيا اسمع، بلى، لابد مع هذا أن يكون ذلك ما تفضل، هو ذا ما أعتقده أنا، حسبما أتصور."

لم يقنعني بالتأكيد ولكنني أخذت أحس أني أكثر سعادة وأقل ضيقاً. فقد سبق أن احتسبت اللحظات الحالمة، لحظات الحماسة والثقة بالنفس وكأنها، من جراء ما قاله السيد "دو نوربوا"، ذاتية محضة ولا حقيقة لها. غير أنه كان يبدو، حسبما يرى "بيرغوت" الذي يظهر أنه يعرف وضعي، أن الظاهرة التي ينبغي إهمالها إنما هي على العكس شكوكي وقرفي من نفسي، ولا سيما أن ما قاله عن السيد "دو نوربوا" كان يُفْقِدُ الإدانة التي حسبتها لا تقبل الاستئناف الكثير من قوتها.

وسألني "بيرغوت" : "هل تلقى العناية اللازمة؟ ومن ذا يهتم بصحتك؟" وقلت له: "إنني رأيت "كوتار" وسوف أراه ثانية دون شك". فأجاب قائلاً: "ليس ذلك ما يلزمك. إنني لا أعرفه طبيباً، ولكني رأيته في منزل السيدة "سوان" إنه معتوه ؛ وبافتراض أن الأمر لا يحول دون أن يكون المرء طبيباً ناجحاً للفنانين والناس الأذكياء. فمن هم مثلك بحاجة إلى أطباء مناسبين لهم، كدت أقول إلى أنواع من الحمية وأدوية خاصة. أما "كوتار" فسوف يبعث فيك الملل، والملل كافٍ كي يحول دون أن يكون علاجه فعّالا. ثم إن هذا العلاج لا يمكن أن يجيء واحداً بالنسبة إليك وإلى أي فرد عادي آخر. فثلاثة أرباع الداء الذي ينتاب الأذكياء ينجم عن ذكائهم. ولا بد لهم على الأقل من طبيب خبر هذا الداء. فكيف يمكن لِ "كوتار" أن يعالجك؟ لقد توقع صعوبة هضم بعض المرق والإرباكات المعدية ولكنه لم يتوقع قراءة شكسبير. ولذلك كانت حساباته غير صحيحة معك ؛ لقد فقد التوازن ؛ إنه الرقاص الصغير يعود دوماً إلى الصعود. لسوف يعثر لديك على انتفاخ في المعدة وليست به حاجة لفحصك بما أنه اختزن ذلك سلفاً في عينه، وبإمكانك مشاهدته فهو ينعكس على زجاج نظارته. "كانت تلك الطريقة في الحديث تتعبني كثيراً وكنت أقول في نفسي ببلاهة الحس السليم: "ليس ثمة انتفاخ معدة ينعكس على زجاج نظارة "كوتار" أكثر مما هنالك حماقات تختفي خلف صدرية السيد "دو نوربوا" البيضاء. "وأردف "بيرغوت" يقول: "أنصحك بالأحرى بالدكتور "دو بولبون" الذي يتمتع بأشد الذكاء." فأجبت قائلاً: "إنه من كبار المعجبين بآثارك. " ورأيت أن "بيرغوت" على علم بذلك واستخلصت أن الأرواح الشقيقة تلتقي سريعاً وأن للمرء القليل من "الأصدقاء المجهولين" الحقيقيين. لقد أدهشني ما قاله لي "بيرغوت" بشأن "كوتار"، مع أنه كان مناقضاً لكل ما أعتقده. فما كنت أهتم إطلاقاً أن أجد طبيبي مملاً، بل كنت أنتظر منه أن يجيئني بشأن صحتي بنبوءة لا لبس فيها بعد معاينة أحشائي، وذلك بفضل فن قوانين خافية عليّ. وما كان يهمني أن يحاول، بوساطة ذكاء لعلي أستطيع أن أحل فيه محله، إدراك ذكائي الذي ما كانت أمتثله إلا بمثابة وسيلة لا أهمية لها في حد ذاتها لمحاولة بلوغ حقائق خارجية. وكنت أشك كثيراً أن يكون الأذكياء بحاجة إلى عناية صحية تختلف عما يحتاج إليه البلهاء، وأنا على أتم الاستعداد

للخضوع لقواعد البلهاء الصحية. وقال "بيرغوت": "هنالك من هو بحاجة إلى طبيب ناجح، إنه صديقنا "سوان". ولما سألت إن كان مريضاً: "آه! إنه الرجل الذي تزوج واحدة من بنات الهوى، والذي يبتلع في كل يوم خمسين أفعى من النساء اللواتي يرفضن استقبال امرأته، أو من الرجال الذين ضاجعوها. إنك تراها، فهي تلوي شفتيه. انظر مرة إلى إقفال حاجبيه حينما يعود إلى منزله، ليرى من في بيته. كان سوء النية الذي يتحدث به "بيرغوت" إلى غريب عن أصدقاء يستقبلونه في منزلهم منذ فترة طويلة جديداً على حدة اللهجة الحنون تقريباً التي يلجأ إليها مع أسرة "سوان" في كل لحظة في منزلهم، ولعل شخصاً مثل شقيقة جدي مثلا، لعلها كانت تعجز بالتأكيد مع أي منا عن تلك الكلمات الحلوة التي سمعت "بيرغوت" يجود بها على "سوان". فلقد كان يروقها أن تقول أموراً مكدرة حتى لمن تحبهم من الناس. ولكنها ما كانت لتفوه في غير حضرتهم بكلمة لا يستطيعون سماعها. فما كان شيء يشبه العالم أقل من مجتمعنا في "كومبريه". كان مجتمع آل "سوان" بداية طريق إليه، إلى لجتّه المتقلبة. لم يكن بعد أعالي البحار، ولكنه كان مذ ذاك بحيرة شاطئية. وقال لي "بيرغوت" وهو يفارقني أمام بابي: "ذلك سر بيننا." ولعلني كنت أجيبه بعد ذلك بسنوات: "لست أفشي سراً ألبتة." إنها الجملة الطقسية التي يقولها الناس في المجتمعات والتي يوفرون بها للنمّام في كلّ مرة طمأنينة كاذبة ؛ وهي الجملة التي كنت سأقولها في ذلك اليوم لِـ"بيرغوت". لأن المرء لا يبتدع كل ما يقوله ولاسيما في الفترات التي يتصرف فيها بمثابة شخصية اجتماعية. ولكني ما كنت أعرفها بعد. وربما كانت جملة شقيقة جدّي في مناسبة كهذه كالتالي: إن كنت لا تود أن يُفشى السر فلماذا تقول؟" إنه جواب الذين لا يتّصفون بالاجتماعية، جواب "الرؤوس اليابسة". وما كنت كذلك، فانحنيت بصمت.

كان من بين أهل القلم ممن هم في نظري شخصيات مرموقة من كانوا يقومون بمحاولات ملتوية على مدى سنوات قبل التوصل إلى إقامة علاقات مع "بيرغوت" تظل على الدوام أدبية غامضة ولا تتجاوز عتبة حجرة عمله، في حين أخذت مكاني في عداد أصدقاء الكاتب الكبير دونما جهد وعلى نحو هادئ كمثل من يصل إلى أفضل المقاعد بعدما يجتاز ممراً أُغلق في وجه الآخرين عوضاً عن أن يقف في دوره مع جميع الناس ليفوز بمقعد غير مناسب. ولئن كان "سوان" قد فتح لي ذلك الممر فلأن والدي "جيلبيرت"، شأن الملك يقوم بصورة طبيعية بدعوة أصدقاء أولاده إلى المقصورة الملكية وعلى متن اليخت الملكي، كانا يستقبلان أصدقاء ابنتهما وسط الأشياء الثمينة التي يملكانها ومظاهر الألفة التي تفوقها ثمناً وتتوسطها. ولكنني ظننت في تلك الحقبة، وربما كنت على حق، أن لطف "سوان" ذاك كان موجهاً على نحو غير مباشر إلى ذويّ، فلقد خيل إليّ فيما مضى في "كومبريه" أنه عرض عليهم، إذ لاحظ إعجابي بِـ "بيرغوت"، أن يصطحبني للعشاء في منزله وأن والديّ رفضا العرض بقولهما إنني حديث السن ومتوتر الأعصاب إلى حد بعيد كيما يسمح لي بالخروج. ولا ريب أن والديّ كانا يمثلان في نظر بعض الأشخاص، وبالضبط أولئك الذين يبدون في نظري من أكثرهم روعة، شيئاً يغاير تماماً ما يمثلان في نظري، حتى أنني كنت أتمنى، شأني في الزمن الذي امتدحتْ فيه السيّدة ذات الرداء الوردي والدي ولم يُبدِ أنه أهل للمديح، أن يدرك والدي

أية هدية لا تقدر بثمن حصلت عليها منذ قليل وأن يعربا عن امتنانهما لِـ "سوان" الكريم المهذب الذي قدمها لي أو قدمها لهما دون أن يبدو عليه أنه يولي قيمتها اهتماماً أكثر مما يفعله في لوحة "لويني" الجدارية ملك المجوس البديع صاحب الأنف المعقوف والشعر الأشقر والذي سبق أن وجدوا بالأمس له، فيما يبدو، شبهاً كبيراً به. بيد أن تلك المنة التي أسداها إلي "سوان" والتي أعلنت عنها لوالديّ لدى عودتي وحتى قبل أن أخلع معطفي يحدوني الأمل بأنها ستوقظ في فؤادهما شعوراً في مثل انفعال شعوري وأنهما ستحملهما على القيام "بلفتة مهذبة" ضخمة وحاسمة تجاه أسرة "سوان"، إن تلك المنة للأسف لم يبدُ أنها تلاقي تقديراً لديهما. فقد صاح والدي ساخراً: "لقد قدمك "سوان" لِـ "بيرغوت"؟ ما أروعها معرفة وأبدعها علاقة! ما كان ينقصنا سوى ذلك!" وما إن أضفتُ، واأسفي، إنّه لا يستسيغ السيّد "دو نوربوا" على الإطلاق حتى عاد يقول: "بالطبع! ذلك يسوق البرهان على أنه عقل زائف س المقاصد. لم تكن من قبل يا ولدي المسكين على كثير من التفكير السليم، وإني مغتم أن أراك وقعت في بيئة سوف تؤدي بك في النهاية إلى الجنون."

كان محض تردّدي على منزل عائلة "سوان" أبعد ما يكون عن أيسر ذويّ. وبرز تعريفي بِـ"بيرغوت" بمثابة نتيجة مشؤومة ولكنها طبيعيّة لخطيئة أولى، للضعف الذي ألمّ بهم والذي ربما دعاه جدّي "فقدان الحذر". وأحسست أنه لم يظلّ لي كيما أبلغ بحنقهم حدّه سوى أن أقول إن هذا الرجل الفاسق الذي لا يكن التقدير للسيد "دو نوربوا" لقيني غاية في الذكاء. ذلك أن والدي، حينما كان يجد أن فرداً ما، كأحد رفاقي على سبيل المثال، يسلك طريق السوء - كما هي حالي في هذه الفترة -، وإن اتفق أن يحظى حينئذ بتأييد أحدهم ممن لا يكن لهم والدي التقدير، كان يرى إذ ذاك في هذا التأييد تصديقاً لتشخيصه المشؤوم، ولا يبدو له الداء إلا أكثر اشتداداً، فأسمعه مذ ذاك وقد أوشك يصرخ قائلا: "إنها بالضرورة مجموعة متكاملة!"، واللفظة ترهبني لغموض الإصلاحات التي تبدو وكأنّها تعلن عن قرب إدخالها في حياتي الهانئة إلى حد بعيد واتساع تلك الإصلاحات. بيد أنه لما لم يكن ثمة من أمر قادر على طمس الأثر الذي انغرس في نفس والدي، حتى ولو لم أروِ عما قال "بيرغوت" عني، فليس من كبير أهمية إنْ يزْدَدْ ذاك الأثر سوءً. ولكنهما كانا يبدوان غير منصفين ومغرقين في الضلال إلى حد أني لم يكن بي أمل، بل لم تكن لدي الرغبة تقريباً في ردهما إلى نظرة أكثر إنصافاً. ولكنّما شعرت، ساعة تخرج الكلمات من فمي، إلى أي حد سوف يرعبهما التفكير بأنني حسُنْتُ في عيني رجل كان يجد الناس الأذكياء بلهاء وكان موضع ازدراء الناس الشرفاء وسوف يدفعني إلى الشر تقريظه لي حين يبدو لي مشتهى، فقد أنهيت روايتي بصوت خفيض وبمظهر يشوبه بعض الخجل وألقيت بالدرة الأخيرة: "لقد قال لعائلة "سوان" إنه لقيني في غاية الذكاء." وكمثل كلب مسموم يرتمي في أحد الحقول، دون أن يدري، على العشبة التي هي بالضبط المضاد للسم الذي ابتلعه، فقد أقدمت، دون أن يخامرني شك بذلك، على الجهر بالقول الوحيد الذي كان يمكن في العالم أن يقهر ذلك الحكم المغرض لدى والديّ بشأن "بيرغوت"، الحكم الذي ربما ظلت باطلة معه جميع ما أستطيع القيام به من أفضل المحاكمات العقلية وجميع صنوف المديح التي ربما كلتها له. وفي اللحظة ذاتها تغير وجه الموقف. فقالت والدتي:

- "آه! . أقال إنّه يجدك ذكياً؟ ذلك يسرني لأنه رجل صاحب موهبة."

وأردف والدي يقول: "عجباً! أقال ذلك؟. لست أنكر في شيء قيمته الأدبية التي ينحني أمامها الجميع". "ولكنما يزعجك أنه يعيش تلك الحياة التي لا تتسم كثيراً بالكرامة والتي تحدث عنها العم "نوربوا" بكلام مبطّن يضيف والدي دون أن ينتبه إلى أن أخلاق "بيرغوت" الفاسدة ما كانت تستطيع، حيال المزية العظيمة التي اكتسبتها الكلمات السحرية التي قلتها قبل قليل، أن تقاوم فترة أطول مما يستطيع بطلان اتهامه.

وقاطعته والدتي بقولها: "أوه! ليس ما يثبت يا صديقي أن الأمر صحيح. فما أكثر ما يقال. إن السيد "دو نوربوا"، على أية حال، غاية في اللطف، ولكنه ليس في منتهى الطيبة على الدوام ولاسيما بالنسبة إلى من ليسوا من جماعته."

وأجاب والدي: "صحيح، لقد لاحظت ذلك بدوري." وعادت والدتي تقول وهي تداعب شعري بأصابعها وترنو إليّ بنظرة طويلة حالمة: "سوف يُغْفَرُ كثيراً لِـ "بيرغوت" في النهاية إذ وجد ولدي الصغير ذكياً."

ولم تنتظر والدتي على أية حال قرار "بيرغوت" هذا كيما تقول لي إنه يمكنني أن أدعو "جيلبيرت" إلى العصرونية حينما يصبح لي أصدقاء. ولكني لم أكن أجرؤ على القيام بذلك لسببين. أولهما أنهم ما كانوا يقدمون إطلاقاً سوى الشاي لدى عائلة "جيلبيرت"، أما أمي فيهمها على العكس أن يكون إلى جانب الشاي في البيت الشوكولاتة. وكنت أخشى أن تلقى "جيلبيرت" ذلك عامياً وأن يداخلها من جراء ذلك ازدراء عظيم لنا. وكان الثاني صعوبة في أمور المراسم لم أفلح يوماً في حلها. فحينما كنت أصل إلى منزل السيد "سوان" كانت تسأل قائلة :

- "كيف حال السيدة أمل؟"

وكنت قد فاتحت والدتي بالأمر مراراً لأعلم إن هي ستحذو حذوها حينما تجيء "جيلبيرت"، والنقطة تبدو لي أكثر خطراً من لفظة "سيدي" في بلاط لويس الرابع عشر. ولكن والدتي أبت أن تسمع.

- "لا، بما أني لا أعرف السيدة "سوان"."

- "ولكنها بدورها لا تعرفك".

- "لست أقول العكس، ولكننا لسنا مضطرتين أن نتصرف التصرف نفسه بالضبط. أما أنا فسوف أحيط "جيلبيرت" بلفتات لطيفة لن تحيطك بها السيدة "سوان".

ولكني لم أقتنع وفضلت ألا أدعو "جيلبيرت".

وبعدما فارقت والديّ ذهبت لخلع ملابسي، وفيما كنت أفرغ جيوبي وجدت فجأة المغلف الذي سلّمني إياه رئيس خدم أسرة "سوان" قبل أن يدخلني إلى الصالة. وكنت وحدي آنذاك ففتحته وكان في داخله بطاقة يعيّنون لي فيها السيدة التي ينبغي لي أن أمد إليها ذراعي لتصحبني إلى المائدة.

وكان في تلك الفترة بالذات أن قلب "بلوك" نظرتي إلى العالم رأساً على عقب، فتح في وجهي إمكانات سعادة جديدة (كانت ستنقلب على أية حال إلى إمكانات عذاب) إذ أكد لي أن النساء، خلافاً لما كنت أحسب في أيام نزهاتي في جانب "ميزيكليز"، غاية مطلبهن ممارسة الحب. وأتم معروفه ذلك بأن أسدى لي معروفاً ثانياً ما كنت سأقدره حق قدره إلا بعد ذلك بكثير: فهو الذي اقتادني للمرة الأولى إلى أحد بيوت الدعارة. صحيح أنه سبق أن قال لي إن ثمة العديد من النساء الجميلات اللواتي يمكن امتلاكهن. ولكني كنت أخصهن بوجه مبهم سمحت لي بيوت الدعارة بأن أستبدل به وجوهاً خاصة. حتى أنني إن كنت أدين لِـ "بلوك" – من أجلِ "بشارته الحسنة" بأن السعادة وامتلاك الجمال ليسا من الأمور العزيزة المنال وأننا صنعنا صنيعاً لا جدوى فيه بتخلينا عنهما إلى الأبد – مثلما أدين لهذا الطبيب وهذا الفيلسوف الذي يبعث فينا الأمل بطول الحياة في ذي الدنيا وأننا ننفصل عنها تماماً بعد ما نمر إلى عالم آخر، فقد استحقت بيوت الدعارة التي تردّدت إليها بضع سنوات – إذ زودتني بنماذج من السعادة وأفسحت لي المجال لأضيف إلى جمال النساء هذا العنصر الذي لا نستطيع ابتداعه والذي ليس محض اختصار للجمالات القديمة، هذه الهدية الإلهية حقاً، الهدية الوحيدة التي لا يمكن أن تجيئنا من ذواتنا، التي تزول قبالتها جميع اختلاقات عقلنا المنطقية والتي لا يمكن أن نطالب بها سوى الواقع: عنيت الفتنة الفردية – استحقت أن يتم تصنيفها على يدي إلى جانب هؤلاء المحسنين الآخرين، وهم من منشأ أكثر حداثة ولكن فائدتهم تضاهيها (المحسنين الذين كنا نتخيل، دونما اندفاع من قبلهم، سحر "مانتينيا" و"فاغنر" و"سيينا" بالمقارنة برسامين آخرين وموسيقيين آخرين ومدن أخرى) : عنيت بهم طبعات تاريخ الرسم المصورة وحفلات الموسيقى السمفونية والدراسات حول "مدن الفن". إلا أن بيت الدعارة الذي قادني إليه "بلوك" والذي لم يعد يرتاده منذ فترة طويلة، على أية حال، كان من مرتبة دنّية جدّاً، "والمستخدمون" فيه من نوعية ضحلة نادرة التجدّد حتى يمكنني أن أشبع بها نزعات فضول قديمة وأن أكتسب من جرائها أخرى جديدة. فقد كانت ربّة ذلك البيت لا تعرف أيّا من النسوة اللواتي يُطلبن منها وتعرض على الدوام من لا يُقبل بهنّ. كانت تثني بخاصة على إحداهن، على واحدة تقول عنها بابتسامة مثقلة بالوعود (كما لو كانت أمراً نادراً وكانت اللذة عينها): "إنّها يهوديّة! أليس يهمّك ذلك؟" (ولا شكّ أنّها كانت تدعوها "راحيل" لهذا السبب.) ثم تقول بحماسة بلهاء مصطنعة تأمل أنّها سهلة العدوى وتنتهي بما يشبه زفرة الاستمتاع تقريباً: "تصوّر يا صغيري، إنّها يهوديّة، والأمر لابدّ يذهب بالعقل، فيما يبدو لي، آخ!" و "راحيل" تلك التي أبصرتها دون أن تراني كانت سمراء على غير جمال ولكنّها تبدو ذكيّة وكانت تبتسم، ولا يفوتها أن تمدّ طرف لسانها بين شفتيها، ابتسامة شديدة الوقاحة للعاشقين الذين يُقدّمون لها والذين كنت أسمعهم يشرعون بالحديث معها. كان وجهها النحيل الضيّق يكتنفه شعر أسود جعد غير منتظم وكأنما مثّل بتظليلات بالحبر

الصيني في رسم نُفّذَ بهذا الحبر. وكنت في كلّ مرّة أعد ربّة البيت، التي كانت تعرضها عليّ بإلحاح خاصّ وهي تثني على ذكائها الشديد وعلمها، أنّه لن يفوتني أن أحضر ذات يوم خصيصاً لأتعرّف بـِ "راحيل" التي كنت ألقبها بـِ "رحيل حينما الربّ" .. بيد أنّي سمعت هذه الأخيرة في أوّل مساء تقوله لرّبة البيت لحظة كانت ذاهبة:

– "اتّفقنا إذن، في الغد أكون خالية الارتباطات، فإن اتّفق للكِ أحدهم فلا تنسي أن ترسلي في طلبي".

وقد حالت تلك الأقوال دون أن أرى فيها شخصاً لأنّها حملتني على تصنيفها في الحال ضمن فئة عامّة من النساء عادتها المشتركة فيما بينها أنّها تجيء إلى هناك في المساء لترى إن لم يكن ثمّة ليرة وليرتان ذهبيّتان تكسبهما. كانت تنوّع فحسب في شكل جملتها فتقول: "إن كنت بحاجة إليّ" أو "إن كنت بحاجة لأحدهم".

وربّة البيت التي لم تكن تعرف أوبرا "هاليفي" كانت تجهل السبب الذي تعوّدت من أجله أن أقول "راحيل حينما الربّ". ولكنّ قلّة إدراك المزاح لم تجعل المزاح في يوم أقلّ إضحاكاً، فكانت تقول لي في كلّ مرة وهي تضحك من صميم قلبها: "ألم يئن بعد في هذا المساء أن أقرنك بـِ "راحيل حينما الرب"؟ كيف تقولها أنت: "راحيل حينما الربّ!" آه! يالها من لقية حلوة. سوف أعلن خطوبتكما، وسترى أنّك لن تأسف لذلك."

وأوشكت ذات مرّة أن أحزم أمري، ولكنّها كانت "قيد الطباعة"، وفي مرّة أخرى كانت بين يدي "الحلاّق"، وهو رجل عجوز يقتصر نشاطه مع النساء على سكب الزيت على شعورهنّ المحلولة وبعد ذلك على تمشيطهنّ. وأرهقني الانتظار، مع أنّ بعض النسوة الوضيعات جدّاً ممن يرتدن المكان من العاملات المزعومات، وهنّ أبداً بلا عمل، أقبلن يحضرن لي المغلي ويبدآن حديثاً طويلاً يضفي عليه عري محدّثاتي الجزئي والتامّ – على الرغم من جدّية الموضوعات المطروقة – بساطة لذيذة. وقد توقّفت على أي حال عن ارتياد ذلك البيت إذ سبق لي أن رغبت في الإعراب عن مشاعري الطيّبة للمرأة التي كانت تشرف عليه وكانت بحاجة إلى أثاث فأعطيتها بعضاً منه – ولاسيمّا أريكة كبيرة – ممّا ورثته عن عمّتي "ليوني". وما كنت أشاهده ألبتّة لأنّ ضيق المكان حال دون أن يسمح والداي بإدخاله إلى بيتنا فكان مكدّساً في مستودع. ولكن ما إن عدت فعثرت عليه في البيت الذي كانت تستعمله فيه تلك النسوة حتّى بدت لي جميع الفضائل التي كانت تفوح من غرفة عمّتي في "كومبريه" وكأنّها تتعذّب من جرّاء التماسّ القاسي الذي دفعتها عزلاء إليه! ولعلّني ما ذقت عذاباً أكبر وسهّلت الاعتداء على امرأة ميتة. ولم أعد من بعد إلى منزل القوّادة إذ كان يبدو لي الأثاث وكأنّما تدبّ فيه الحياة ويتوسّل إليّ شأن تلك الحاجات الجامدة في ظاهرها في حكاية فارسيّة والتي سُجنت فيها نفوس تسام مرّ العذاب وتلتمس خلاصها. وبما أن ذاكرتنا من جهة أخرى لا تقدّم لنا ذكرياتنا بالعادة حسب تتابعها في الزمان بل على هيئة انعكاس قُلِبَ فيه ترتيب الأجزاء، فلم أتذكر إلا بعد ذلك بكثير أنّني ذقت للمرّة الأولى على تلك الأريكة نفسها ومنذ سنوات خلت

لذّة الحبّ مع إحدى بنات أعمامي التي لم أكن أعلم أين أجالسها فأشارت عليّ بأمر خطير قوامه أن أستغلّ ساعة تكون عمّتي قد نهضت في أثنائها.

وقمت ببيع جزء آخر من الأثاث ولاسيّما أواني فضيّة قديمة كانت لعمّتي "ليوني"، وذلك على الرغم من معارضة والديّ، كيما يتوافر لي مال أكثر وأبعث بكميّة أكبر من الزهور إلى السيّدة "سوان" التي كانت تقول لي وهي تتسلم سلالاً ضخمة من زهور الأوركيد: "لو كنت السيّد والدك لأمرت لك بمجلس قضائي." وكيف كان لي أن أفترض أنّني سوف آسف ذات يوم على تلك الأواني الفضية بوجه الخصوص وسوف أضع بعض المتع في مرتبة أعلى من متعة مجاملة ذوي "جيلبيرت"، هذه المتعة التي ربّما أضحت معدومة تماماً. وكنت قرّرت كذلك بسبب "جيلبيرت" وكي لا أفارقها أن أتحاشى دخول سلك السفارات. وليس يتّخذ المرء قرارات نهائية في يوم إلا بسبب حالة فكريّة لا يُقدَّرُ لها أن تدوم. وكنت لا أكاد أتصوّر أن تلك المادّة الغريبة التي استقرّت في "جيلبيرت" وكانت تشعّ في ذويها وفي بيتها فتجعلني لا مبالياً بكلّ ما عداها ربّما تحرّرت وانتقلت إلى كائن آخر. وإنها لتلك المادّة نفسها حقّاً، مع أنّها ستخلّف فيّ آثاراً مغايرة تماماً. ذلك لأن المرض نفسه يتطوّر، والسمّ اللذيذ لا يُحتمل من بعد حينما تتناقص مقاومة القلب بفعل السنين.

على أنّ والديّ ربمّا تمنّيا أن يتحلى الذكاء الذي أقرّه لي "بيرغوت" عن طريق عمل مرموق. وحينما كنت لا أعرف آل "سوان" كنت أحب أنّ ما يحول دون أن أعمل إنّما هي حالة الاضطراب التي تزجّني فيها استحالة أن أرى "جيلبيرت" بملء الحرية. ولكني حينما فُتحت أبوابهم في وجهي كنت لا أكاد أجلس إلى مكتبي حتّى أنهض وأجري إلى منزلهم. فإن فارقتهم وعدت إلى البيت لم تكن عزلتي إلاّ ظاهرة، ولا يستطيع فكري من بعد مقاومة تيّار الأقوال الذي تركته يجرفني آليّاً على مدى ساعات. فقد كنت أوالي في عزلتي ابتداع الأقوال التي ربّما استطاعت أن تروق أسرة "سوان"، وكنت أشغل مكان هؤلاء الرفاق الغائبين كيما أضفي على اللعبة أهميّة أكبر فأطرح على نفسي أسئلة وهميّة اختيرت على نحو تبدو فيه ميزاتي اللامعة وكأنّها محض إجابة موفّقة عنها. كان ذلك التمرين، وإن بدا صامتاً، محادثة لا تأملاً، وعزلتي حياة منتديات ذهنية بحكم أقوالي فيها لا شخصي أنا بل محاورون من نسيج الخيال، وأحسّ فيها، عبر صياغة الأفكار التي توافيني دون مشقّة ودون تراجع من الخارج باتّجاه الداخل بدلاً من تلك التي كنت أظنها حقيقيّة، ذلك النوع من اللذّة السلبيّة تماماً التي يلاقيها من يثقله سوء الهضم في المكوث دون حركة.

ولو كنت أقلّ تصميماً على مباشرة العمل على نحو لا رجعة فيه لبذلت ربّما جهداً لأبدأ في الحال. ولكنّه كان من الخير لي، بما أن قراري نهائيّ وأن استعداداتي الطيّبة سوف تتحقّق بسهولة قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة في إطار نهار الغد الخالي حيث يجد كلّ شيء مكانه على أحسن وجه بما أني لم أبلغه بعد، كان من الخير ألا أختار مساء كنت فيه غير مهيأ لبداية ما كانت الأيّام التالية لتبدو، للأسف، مواتية لها أكثر منه. بيد أنّني كنت منطقيّاً. فمن انتظر سنوات يبدو صبيانياً ألا يحتمل تأخير ثلاثة أيّام. ولما أيقنت أنّني سأفرغ ما بعد الغد لا محالة من تسطير بضع صفحات

فإني لم أعد أقول لذويّ كلمة واحدة عمّا عزمن عليه. كنت أفضل الانتظار بضع ساعات أحمل بعدها إلى جدّتي عملاً في طور الإنجاز تصيب منه عزاءً وقناعة. ولكن للأسف لم يكن ذلك النهار الخارجيّ الفسيح الذي انتظرته على أحرّ من الجمر. ذلك لأن كسلي ونضالي الشاق ضدّ بعض العقبات الداخلية إنّما استمرّ فحسب أربعاً وعشرين ساعة أخرى بانقضاء ذلك النهار. وبما أن خططي لم تتحقق بعد مضيّ بضعة أيّام فلم يعد لديّ الأمل نفسه أنّها ستتحقق في الحال ولا مقدار الشجاعة نفسه بالتالي كيما أخضع كل شيء لذلك التحقّق. وعدت إلى السهر ثانية إذ لم يظلّ لي لإرغامي على النوم المبكّر ذات مساء الرؤية الأكيدة أنّي سأبصر عملي الفنّي وقد بوشر به في صباح الغد. كان لابدّ لي قبل استعادة اندفاعي من بضعة أيّام راحة، والمرّة الوحيدة التي تجرّأت جدّتي فيها وأعربت عن عتابها لي بلهجة وادعة تملؤها الخيبة قائلة: "وذلك العمل، ألا تعود حتى إلى الحديث عنه؟" أوغرت صدري عليها لاقتناعي بأنّها إذ لم تتبيّن أنّني مصمّم تصميماً لا رجعة فيه فقد أقدمَتْ على تأجيله مرّة أخرى وربّما لفترة طويلة من جرّاء التوتّر الذي يسبّبه لي امتناعها عن إنصافي والذي لا أودّ معه مباشرة عملي وأنا تحت وطأته. وأحسّت أن تشكّكها إنّما يصدم عزماً صادقاً لدي، فاعتذرت وقالت وهي تعانقني: "عفوك، فلن أقول شيئاً بعد الآن". وأكّدت لي كي لا يحلّ بي القنوط أن العمل سيتمّ من تلقاء ذاته منذ اليوم الذي تتحسّن فيه صحّتي.

وكنت أقول في نفسي: ألست أفعل على أيّ حال ما يفعل "بيرغوت" إذ أعيش لدى أسرة "سوان"؟ فيما يبدو لذويّ أنني أقضي على وجه التقريب، مع ما أبدي من كسل، الحياة التي تناسب الموهبة إلى أبعد حدّ، بما أنّي أنفقتها في المنتدى نفسه الذي ينفقها فيه كاتب كبير. ومع ذلك فأن يستطيع أحد أن يكون في غنى عن إنشاء هذه الموهبة بنفسه من الداخل وأن يتقبّلها من الغير في مثل استحالة توفير العافية لنفسه (على الرغم من خروجه على جميع قواعد الصحّة وارتكابه أسوأ صنوف الإسراف) بمحض الإكثار من تناول طعام العشاء في مطاعم المدينة بصحبة طبيب. فأمّا الشخص الذي كان على أتمّ وجه ضحيّة الوهم الذي كان يخدعني ويخدع والديّ سواء بسواء فالسيّدة "سوان". فقد كان يبدو، حينما أقول لها إنّني لا أستطيع المجيء أن أمكث لأعمل، أنّها ترى أنّني أعقّد الأمور كثيراً وأنّ في أقوالي شيئاً من الغباء والادّعاء.

– "أمّا "بيرغوت" فإنّه يأتي، هو. فهل ترى أنّ ما يكتبه غير صالح،" وتضيف قولها: "بل سوف يتحسّن ذلك عمّا قليل، فهو أشدّ مضاءً وأكثر تركيزاً في الجريدة منه في الكتاب حيث ينتهج بعض التطويل. لقد حصلت على وعد بأن يكتب من الآن فصاعداً المقالة الرئيسيّة (Le leader article) في جريدة "الفيغارو". وسيكون ذلك بالضبط "الرجل المناسب في المكان المناسب" (the right man in the righrt place).

ثم تضيف قائلة:

– "تعال، فسوف يقول لك، خير من يقول، ما ينبغي أن تفعل". ومثلما تتمّ دعوة جنديّ متطوّع مع قائده العميد، كانت تقول أن لا يفوتني المجيء في الغد لتناول طعام العشاء في منزلها بصحبة

"بيرغوت"، كانت تقول ذلك لصالح مستقبلي وكما لو يتمّ وضع الروائع الأدبيّة "عن طريق العلاقات".

وهكذا لم تظلّ هنالك معارضة لتلك الحياة الحلوة، لا من جانب أسرة "سوان" ولا من جانب والديّ، أي من جانب أولئك الذين بدا، في فترات مختلفة، أنهم لابدّ سيضعون العراقيل في دربها، تلك الحياة التي أستطيع فيها زيارة "جيلبيرت" كيفما شئت، تهزّني النشوة إن لم يلفّني الهدوء. فليس من هدوء في الحبّ بما أن ما نحصل عليه لا يعدو كونه نقطة انطلاق جديدة للرغبة في الاستزادة. وما كنت حتى أستطيع، طالما لم أفلح في الذهاب إلى بيتها، والعين ترنو إلى تلك السعادة العزيزة المنال، تخيّل أسباب القلق الجديدة التي تنتظرني هناك. فما إن زالت مقاومة ذويها وحُلّت المشكلة حتى عادت تطرح نفسها من جديد، بعبارات جديدة في كلّ مرّة. وإنّما كانت تبدأ في كلّ يوم، بهذا المعنى، صداقة جديدة. فقد كنت أتبيّن كلّ مساء، لدى عودتي، أنّه يقع عليّ أن أقول لِـ "جيلبيرت" أموراً رئيسيّة يتوقّف عليها مصير صداقتنا، وما كانت تلك الأمور واحدة في يوم. بيد أني كنت سعيداً ولم يعد ثمة خطر يتهدّد سعادتي. ولكنّه يزمع أن يجيء واأسفي، من جانب لم أبصر فيه ألبتّة أي خطر، من جانب "جيلبيرت" ومن جانبي على السواء. كان لابّد أن يقلقني ما كان على العكس يطمئنني، ما كنت أظنه سعادة إنها في الحبّ حالة غير طبيعيّة يمكن أن تضفي في الحال على الحادثة البسيطة جدّاً في ظاهرها، والتي يمكن دوماً أن تقع، خطورة لا تتضمّنها تلك الحادثة بحدّ ذاتها. وإن ما يولي المرء سعادة إلى هذا الحدّ وجود شيء غير مستقرّ في القلب يتدبّر أمره على الدوام للحفاظ عليه ولا ينتبه له من بعد ما دام يلازم مكانه. والحقيقة أنّ في الحبّ عذاباً مستمرّاً يبطله الفرح ويجعله ممكناً ويؤجّله ولكنّه يمكن أن يصبح في كل لحظة مبرحاً، وهو ما لعلّه كان منذ زمن طويل لو لم يَفُز المرءُ بما كان يتمنّى.

لقد أحسست مراراً عديدة أنّ "جيلبيرت" ترغب في المباعدة بين زياراتي. صحيح أنّه حينما يلحّ عليّ الشوق إلى رؤيتها ما كان عليّ سوى دفع والديها إلى دعوتي وقد أصبحا أكثر فأكثر وثوقاً بتأثيري الخيّر عليها. كنت أحسب أن حبّي بفضلهما لا يتعرضّ لأيّ مخاطرة، فما دمت أضعهما إلى جانبي فإنّما يسعني الاطمئنان بما أنّ لهما كامل السلطة على "جيلبيرت". بيد أنّني كنت أتساءل، للأسف، إزاء بعض علامات نفاد الصبر التي تصدر عن هذه الأخيرة حينما يستقدمني والدها كأنما غصباً عنها، أتساءل إن لم يكن ما احتسبته بمثابة درع لسعادتي العلّة الخفيّة التي لا يمكنها على العكس أن تدوم من جرّائها.

وفي آخر مرّة جئت فيها لزيارة "جيلبيرت" كان المطر يهطل، وكانت مدعوّة إلى درس في الرقص لدى أناس معرفتها بهم أقلّ من أن تسمح لها باصطحابي معها. وكنت قد تناولت كمية من القهوين تزيد عن المعتاد بسبب الرطوبة. وقد بادرت السيّدة "سوان"، لحظة كانت ابنتها تزمع الخروج، ربّما بسبب رداءة الطقس، وربّما لظنون تراودها بحق المنزل الذي ستجري فيه هذه الأمسية، إلى تنبيهها بحدّة بالغة صائحة بها: "جيلبيرت!" وهي تشير إليّ لتدلّل على أنّني جئت

لزيارتها ويجدر بها أن تمكث معي. وكلمة "جيلبيرت" هذه تمّ النطق بها، بل الصراخ، بحسن نيّة تجاهي، ولكنّي أدركت برفعة منكبي "جيلبيرت" وهي تطرح أغراضها جانباً أن والدتها عملت من غير ما قصد على تسريع التطوّر الذي كان يبعد صديقتي شيئاً فشيئاً عنّي، وربّما كان لا يزال يمكن حتى ذاك إيقافه. "ليس لزاماً علينا أن نبادر إلى الرقص كلّ يوم"، تقول "أوديت" لابنتها بلهجة حكيمة لاشكّ تعلّمتها فيما مضى من "سوان". ثم عادت فأصبحت "أوديت" من جديد وشرعت تتكلّم الإنكليزية مع ابنتها. فإذا في الحال كأنّما جدار يحجب عنّي قسماً من حياة "جيلبيرت"، وكأنّما جنّيّ شرير يحمل صديقتي بعيداً عنّي. ذلك أنّنا في لغة نعرفها استبدلنا بلا شفافية الأصوات شفافية الأفكار. ولكنّ اللغة التي نعرفها قصر مغلق يمكن لمن نحبّها أن تخدعنا فيه دون أن نفلح، وقد ظللنا في الخارج منقبضي الصدر إلى حد اليأس داخل عجزنا، في رؤية شيء أو الحؤول دون أيّ شيء. كذلك كان هذا الحديث بالإنكليزية الذي ربما ابتسمت ساخراً منه قبل شهر والذي كانت بعض أسماء الأعلام الفرنسية عبره لا تكفّ عن مضاعفة مخاوفي وتوجيهها، كان يرتدي القسوة نفسها ويخلّفني مهملاً وحيداً كما قد يفعل اختطاف. وأخيراً تركتنا السيّدة "سوان" وقد بدا وجه "جيلبيرت" في ذلك اليوم، ربمّا من جرّاء حقدها عليّ أنا المسبّب المرغَم لمنعها من أن تبادر إلى اللهو، وربمّا كذلك لأنني استشففت أنّها غاضبة فكنت أشدّ بروداً من المعتاد بداعي الاحتراز، بدا وجهها، وقد سُلِب البهجة، عاريا مخرّباً وكأنمّا يخصّ، طوال بعد الظهر، بالأسف والكآبة الرقصةَ التي يحول وجودي دون أن تبادر إلى أدائها، وكأنما يتحدّى جميع المخلوقات، بدءً بي أنا، أن تدرك الأسباب الخفيّة التي أوجدت لديها ميلاً عاطفيّاً إلى رقصة "البوسطن". وقد اقتصرتْ على أن تبادلني بين الحين والحين، حول الطقس آنذاك واشتداد المطر وتسبيق ساعة الحائط، حديثاً تقطعّه لحظات صامتة ولفظات مفردة وأصرّ فيه بعناد وبنوع من الحنق اليائس على تهديم اللحظات التي كان يمكن أن نهبها للصداقة والسعادة. كانت جميع أقوالنا تكتسب نوعاً من القسوة البالغة من جرّاء شدّة تفاهتها المفارقة، تلك الشدة التي كانت عزاء لي مع ذلك لأنها تحول دون أن تُخْدَعَ "جيلبيرت" بتفاهة أفكاري ولا مبالاة لهجتي فعبثاً كنت أقول: "يبدو لي أنّ ساعة الحائط كانت متأخّرة بالأحرى في ذلك اليوم"، فالجملة كانت تعني بالبداهة "كم أنت قاسية!" وعبثاً أبدي عناداً في المضيّ قدماً في تلك الأقوال التي لا انفراج فيها. على مدى هذا النهار الماطر. فقد كنت أعلم أن برودي ليس أمراً في مثل ما أتظاهر به من جمود وأنّه لابدّ أن تحسّ "جيلبيرت" أنني لو جازفت مرّة رابعة في أن أردّد على مسامعها أن النهار آخذ في التناقص بعدما سبق أن قلته لها ثلاث مرّات لصادفت مشقّة في التمالك عن البكاء. وحينما كانت على ذلك النحو، حينما لا تملأ البسمة عينيها وتشرق على صفحة وجهها فلستَ تستطيع أن تقول أيّة رتابة مفجعة كانت تطبع عينيها الحزينتين وقسماتها المتجهمة. كان وجهها الذي أضحى قبيحاً تقريباً يشبه حينذاك تلك الشواطئ المملّة التي يرهقك فيها البحر الذي تراجع إلى بعيد بعيد بضياء متشابه أبداً يلفّه أفق ثابت ضيق الحدود. ولما لم أرَ في آخر الأمر التبدّل الخيّر الذي كنت أنتظره منذ عدّة ساعات يتمّ على يد "جيلبيرت" قلت لها إنّها ليست لطيفة. فأجابت تقول: "بل أنت من ليس لطيفاً. بلى". وساءلت نفسي عمّا فعلت ولما لم أوفّق إليه سألتها هي ؛ فقالت في ضحكة طويلة: "إنّك بالطبع ترى نفسك لطيفاً!" حينئذ أحسست

ما كان من ألم بالنسبة إليّ في استحالة بلوغي ذاك المستوى الآخر اللامدرك من فكرها والذي كانت ترسمه ضحكتها. لكأنّي بتلك الضحكة تعني قولها: "لا، لا! لن تخدعني بكلّ ما تقوله لي، فإني أعلم أنّك مجنون بي، ولكنّ ذلك غير ذي بال بالنسبة إليّ لأنّي لا أعيرك أيّ اهتمام." بيد أني كنت أقول في نفسي: إن الضحك ليس في نهاية المطاف لغة واضحة التحديد حتى يمكنني التأكّد من فهم تلك الضحكة، كما كانت أقوال "جيلبيرت" وديّة فسألتها قائلاً: " ولكن ما الذي لا أبدو فيه لطيفاً؟ أفصحي عن فكرك فسوف أفعل كلّ ما تبغين". - "لا، إنّه لا جدوى من الأمر، ولست أستطيع أن أشرح لك ذلك." وخشيت لحظةً أن تكون ظنّت أنّي لا أحبها فكان الأمر بالنسبة إليّ عذاباً آخر لا يقلّ حدّة ولكنّه يقتضي جدليّة مختلفة. "لو كنت تعلمين الغمّ الذي تبعثينه في نفسي لَقُلْتِهِ لي." ولكنّ ذلك الغمّ الذي كان ينبغي أن تغتبط به لو أنّها ارتابت بأمر حبّي، إنّما أثار بالعكس حنقها. حينئذ تجمعت لديّ الجرأة، وقد أدركت خطئي وعزمت ألاّ آخذ أقوالها من بعد في اعتباري وتركتها تقول لي، دون أن أصدّقها: "كنت أحبّك حقاً وسنرى ذلك ذات يوم" (ذلك اليوم الذي يؤكدّ المتّهمون أنّه سيتمّ فيه الاعتراف ببراءتهم والذي ما كان قطّ، لأسباب خفيّة، ذاك الذي يجري فيه استجوابهم)، جرأة العزم على ألا أراها من بعد، ودون أن أفصح لها عن ذلك لأنّها ما كانت لتصدقني.

إنّ غمّاً يسبّبه شخص تحبّه يمكن أن يكون مؤلماً حتى حينما يندرج ضمن اهتمامات ومشاغل وأفراح لا تدور حول هذا الشخص ولا ينصرف انتباهنا عنها إلاّ بين آونة وأخرى ليرتدّ إليه. فأمّا حينما ينبثق مثل هذا الغمّ - كما هي الحال بالنسبة إلى هذا الأخير - لحظة تغمر نفوسنا السعادة الناجمة عن رؤية ذلك الشخص، فإن الانهيار المفاجئ الذي يقع حينذاك في نفسنا التي نعمت حتى ذاك بالدفء والعون والهدوء إنمّا يبعث فينا عاصفة هوجاء لا ندري إن كنّا نستطيع مقاومتها حتىّ النهاية. كانت العاصفة التي تهبّ على قلبي عنيفة إلى حدّ أنّني عدت باتجاه المنزل مهزوزاً دامي الفؤاد أحسّ أنّي لن أقوى على التنفّس من بعد إلا إذا عدت أدراجي، إلاّ إذا رجعت بالقرب من "جيلبيرت" لحجّة، أيّ حجّة. ولكن ربّما قالت في نفسها: "يعود أيضاً! إنّي أستطيع بالتأكيد أن أصرّح لنفسي بكلّ شيء، فسوف يرجع في كلّ مرّة أشدّ خضوعاً كلّما فارقني أوفر تعاسة." ثم أرتدّ إليها بالفكر على نحو لا يقاوم وتستمر هذه الاتجاهات المتناوبة، هذا الذعر في بوصلتي الداخليّة بعدما أعود، تترجمها مسوّدات الرسائل المتناقضة التي أسطّرها لِـ "جيلبيرت".

كنت مقبلاً على إحدى تلك الحالات الصعبة التي يتفّق لنا بعامّة أن نواجهها عدّة مرّات في الحياة والتي لا نواجهها بالطريقة نفسها في كلّ مرّة، أي في كلّ سنّ، مع أنّنا لم نبدلّ من طباعنا ومن طبيعتنا - طبيعتنا التي تبدع بنفسها مواطن حبّنا، وحتى النساء اللواتي نحبهّن وحتى ذنوبهنّ - في مثل تلك اللحظات تنقسم حياتنا، وكأنّما تتوزع في ميزان، بين كفتّين متقابلتين تحتويانها كلّها. ففي كفّة رغبتنا ألا نسوء في عيني من نحبّ، ألاّ نبدو بالغي الوضاعة تجاه من نحبّ دون أن نفلح في إدراكه، ولكننا نرى من الحذاقة أن نهمله بعض الشيء كي لا يداخله الشعور بأنّه لا غنى عنه، ذلك الشعور الذي قد يصرفه عنّا. وفي الثانية عذاب - لا عذاب مميز وجزئي - لا يمكن أن يهدأ

إلا إذا تخلّينا عن أن نحسن في عيني تلك المرأة وأن نحملها على الاعتقاد أنّه بوسعنا أن نكون في غنى عنها فبادرنا إلى لقائها من جديد. فإمّا نزعنا من الكفّة التي تحتوي الاعتزاز بالنفس كميّة من الإرادة طفيفة ضَعُفَنا فتركناها تبلى كلّما تقدّمت بنا السنّ وأضفنا إلى الكفّة التي تحتوي الغمّ ألماً جسدياً مكتسباً أذاناً له بالتفاقم رأينا، بدلاً من القرار الشجاع الذي كان مدعواً للفوز في سنّ العشرين، القرار الآخر الذي يذلّنا في سنّ الخمسين وقد أضحى ثقيلاً جداً دون أن توازيه أثقال أخرى. أضف إلى ذلك أنّ الأوضاع تتبدل فيما هي تتكرر وأنّه ربما اتّفق لنا في متوسّط العمر أو في آخر أيامنا أن نلاقي لذّة مشؤومة في تعقيد الحبّ بشيء من التعودّ الذي لا تعرفه سنّ اليفاعة التي تشغلها واجبات أخرى كثيرة وهي أقلّ حريّة في التصرّف بذاتها.

وكنت سطّرت منذ قليل رسالة لِ "جيلبيرت" أطلقت فيها العنان لحنقي، على أنّي لم أفعل دون أن ألقي ببضع كلمات نثرتها كأنما على غير هدى بمثابة عوّامة إنقاذ يمكن لصديقتي أن تعلّق بها مصالحة. فإذا هي بعد لحظة، وقد تبدّل اتجاه الرياح، جُمَل رقيقة أرسلها إليها لعذوبة بعض عبارات حزينة، وعبارات من مثل "لن أعود بعد اليوم" مؤثرة جداً بالنسبة إلى الذين يستعملونها ومملّة جداً بالنسبة إلى التي ستقرؤها إمّا لأنها تحسبها كاذبة وتترجم "لن أعود بعد اليوم" "بعبارة" "في هذا المساء إن كنت راغبة بي" وإمّا لأنّها تحسبها صحيحة وتنبئها إذ ذاك بإحدى حالات الهجران النهائية التي لا تهمّنا على الإطلاق في الحياة حينما يدور الأمر حول أناس لا نعشقهم. وبما أنّنا عاجزون في أثناء ما نحبّ، أن نتصرّف تصرف السّلف الجدير بإنسان المستقبل الذي سنكونه والذي لن يحبّ من بعد، فكيف يسعنا أن نتخيّل تماماً ذهنية امرأة جعلناها، على علمنا أننا قليلو الأهمية في نظرها، تقول على الدوام في أحلامنا الأقوال نفسها التي تقولها لو أنّها تحبّنا كيما نهدهد أنفسنا بأحلام جميلة أو نحمل العزاء إلى ذواتنا من غمّ جسيم؟ وإننا إزاء أفكار امرأة نحبّها وإزاء أعمالها في مثل الحيرة التي كان يمكن أن تصيب الفيزيائيين الأوّلين أمام ظاهرات الطبيعة (قبل أن يُنْشَأَ العلمُ ويلقي ببعض النور في المجهول)، أو في مثل ما هو وأسوأ، في حالة شخص يكاد مبدأ السببيّة لا يوجد بالنسبة إلى عقله، شخص لا يستطيع أن يربط بين ظاهرة وأخرى ويبدو مشهد العالم في عينيه غير مؤكد كما الحلم كنت أجهد بالتأكيد في الخروج من تلك الفوضى، في العثور على أسباب. كنت أحاول حتى أنْ أكون "موضوعيّاً" وأن آخذ لذلك في اعتباري اللاتناسب الكائن بين الأهميّة التي لِ "جيلبيرت" في نظري وتلك التي لي في نظرها، بل تلك التي لها في نظر آخرين غيري، ذلك اللاتناسب الذي لو اتّفق لي أن أنساه لكان من المحتمل أن أحتسب بمثابة بوح ملتهب مجرّد مجاملة تقوم بها صديقتي والمسعى المضحك والمنحط الذي أقوم به بمثابة الحركة البسيطة الناعمة التي تقودك إلى عينين حلوتين. على أنّي كنت أخشى كذلك أن أقع في التطرّف المعاكس الذي ربما وجدت من جرائه في وصول "جيلبيرت" غير الدقيق إلى أحد المواعيد وفي ردّة فعل مزاجيّة عداءً مستحكماً. كنت أحاول العثور بين تينك النظرتين المشوّهتين بالمقدار نفسه تلك التي تزوّدني برؤية صحيحة للأشياء. وكانت الحسابات التي ينبغي لي القيام بها في سبيل ذلك تلهيني قليلاً عن عذابي. وفي الغد قرّرت، إمّا بداعي الانصياع للغة الأرقام وإمّا لأنّني جعلتها تنطق بما كنت في شوق إليه، قررت الذهاب إلى منزل عائلة "سوان" تهزّني السعادة ولكن على نحو ما يفعل أولئك

الذين قلقوا فترة طويلة من جرّاء رحلة لا يبغون القيام بها فلا يذهبون إلى أبعد من المحطّة ويعودون إلى منزلهم يفكّون متاعهم. ولما كانت محض فكرة قرار ممكن إنما تنشئ، في أثناء ما يتردّد المرء، (إلا إذا جعلنا تلك الفكرة جامدة بالتصميم على رفض اتّخاذ القرار)، شأن بذرة حيّة لخطوطها الأولية، كامل تفاصيل الانفعالات التي قد تنجم عن الفعل المنفّذ، فقد قلت في نفسي إنّني كنت شديد البعد عن المنطق في أن تسبّبت لنفسي، إذ نويت ألا أرى "جيلبيرت" من بعد، بمقدار من الألم مساوٍ لما يصيبني لو كان عليّ أن أحقّق ذلك المشروع وأنّه كان يسعني بما أنّي سأعود على العكس إلى بيتها في نهاية المطاف، أن أوفّر على نفسي الكثير من صنوف وهن الإرادة والرضوخ المؤلمة. ولكنّ إعادة علاقات الصداقة تلك لم تدم أكثر من الزمن اللازم للذهاب حتى منزل عائلة "سوان"، لا لأنّ رئيس خدمهم الذي كان يحبّني كثيراً قال لي إن "جيلبيرت" خرجت (فقد علمت منذ المساء نفسه على لسان جماعة صادفوها أن الأمر صحيح) بل بسبب الطريقة التي قال لي بها: "لقد خرجت الآنسة يا سيّدي، وبوسعي أن أؤكّد لسيّدي أنّني لا أكذب. وإن شاء سيّدي أن يستعلم فإني أستطيع استقدام الوصيفة. إن سيّدي يعتقد تمام الاعتقاد أنّني أفعل كلّ ما بوسعي لإدخال السرور على قلبه وإنني أقود في الحال سيّدي بالقرب من الآنسة لو كانت حاضرة. "كانت تلك الأقوال، وهي من الصنف الذي يتسم وحده بالأهمية، تلك الأقوال غير المقصودة التي تزوّدنا بصورة شعاعيّة مختصرة على الأقلّ للواقع غير المنتظر الذي قد يخفيه خطاب مدروس، كانت البرهان على أن هنالك في محيط "جيلبيرت" انطباعاً بأنّي كنت مزعجاً في نظرها. ولذلك ولّدت لديّ ما إن نطق بها رئيس الخدم، ضغينة فضّلتُ أن يكون موضعها رئيس الخدم بدلاً من "جيلبيرت"؛ فقد ركّز من حوله جميع مشاعر الغضب التي سبق أن انتابتني ضدّ صديقتي. وظلّ حبّي، بعد ما تخلّص من تلك المشاعر بفضل تلك الأقوال، ظلّ وحيداً على أنّها برهنت لي في الوقت نفسه أنّه يجدر بي على مدى بعض الوقت ألاّ أحاول زيارة "جيلبيرت". كان لابدّ أن تكتب إليّ لتعتذر. ولكنّني على الرغم من ذلك لن أعود في الحال إلى زيارتها كيما أبرهن لها أنّني أستطيع العيش بدونها. على أن التردّد على "جيلبيرت" بعدما تصلني رسالتها سوف يضحي أمراً أستطيع الامتناع عنه على نحو أيسر بعض الوقت لأنّني سوف أكون متيقّناً من أنّي سأعود فألقاها حالما اشاء أمّا ما كان ينبغي لي لأحتمل الغياب الطوعيّ على نحو يقلّل من حزني فأن أحسّ فؤادي طليقاً من الارتياب الرهيب بأننا قد تخالفنا إلى الأبد وبأنها خطبت، بل ذهبت، بل اختطفت، وجاءت الأيام التالية شبيهة بأيام أسبوع رأس السنة السالف الذي اضطررت أن أقضيه بدون "جيلبيرت". على أن ذلك الأسبوع ما إن ينقضي آنذاك، حتى تعود صديقتي إلى "الشانزيليزيه" وأعود فأراها كالسابق دونما شك من جهة، كما كنت أعلم من جهة أخرى بما لا يقل عن ذلك اليقين أنه لا داعي للذهاب إلي "الشانزيليزيه" ما دامت عطلة رأس السنة قادمة. وهكذا تم لي، طوال ذلك الأسبوع الحزين البعيد، أن أتحمل حزني بهدوء لأنه لم تكن تخالطه خشية ولا أمل، أما الآن فقد كان هذا الشعور الأخير على العكس هو الذي يجعل عذابي لا يطاق بقدر ما تفعل الخشية تقريباً.

ولما لم تصلني رسالة من "جيلبيرت" في المساء نفسه فقد عزوت الأمر إلى إهمالها ومشاغلها ولم أشك أني واجد رسالة منها في بريد الصباح. وانتظرته كل يوم والقلب خافق خفقاناً تليه حالة

من الانحطاط حين لا أجد فيه سوى رسائل لأشخاص غير "جيلبيرت" أو لا أجد شيئاً، وليس الأمر أسوأ حالا لأن ما تبرهن به أخرى عن حبها يجعل ما تبرهن به هي عن لامبالاتها أشد قسوة. وأعود أصب الآمال على بريد بعد الظهر. فما كنت أجرؤ على مغادرة البيت حتى بين ساعات جمع الرسائل إذ ربما استطاعت إيصال رسالتها باليد. ثم تحل في النهاية اللحظة التي لا يستطيع فيها ساعٍ أو خادم لأسرة "سوان" أن يأتي من بعد، ولا بد من تأجيل أمل الاطمئنان إلى صبيحة الغد وأراني مضطراً على هذا النحو، لأنني كنت أظن أن عذابي لن يدوم، أن أجدده دون توقف إن جاز القول. لقد كان الغم ربما واحداً، ولكنه بدلا من أن يعمل شأنه فيما مضى، على تمديد انفعال أوّلي من نمط متماثل فحسب، كان يعيد الكرة عدة مرات في اليوم بادئاً بانفعال يتكرر بكثرة تفضي به في النهاية - وهو حالة جسدية كلية ومؤقتة - إلى الاستقرار إلى حد أنه لم يظل ثمة دقيقة واحدة في النهار لم أكن فيها سجين ذلك القلق الذي يصعب مع ذلك احتماله ساعة واحدة، إذ لا يتسع للاضطرابات التي يسببها الانتظار أن تهدأ حتى يحل سبب انتظار جديد. وهكذا كان عذابي أقسى بما لا يقاس مما كان عليه في زمن الأول من كانون الثاني البعيد إذ كان يغمرني هذه المرة عوضاً عن المقبول البحت بذلك العذاب الأمل في أن أراه في كل لحظة يتوقّف.

بيد أن الأمر انتهى بي إلى بلوغ هذا القبول، وأدركت إذ ذاك أنّه يجدر أن يكون قطعياً وتخليت نهائياً عن "جيلبيرت" وذلك لصالح حبي بالذات ولأنني كنت أتمنى فوق كل شيء أن لا تحتفظ مني بذكرى يبطنها الاحتقار. حتى أني كنت منذ ذلك الوقت، وبغية أن لا يسعها افتراض نوع من حنق المحبين لدي، كنت كلما حددت لي مواعيد فيما بعد أقبل بها في الغالب ثم أكتب لها في اللحظة الأخيرة أنني لا أستطيع المجيء ولكني أؤكد أنني شديد الأسف لذلك كما لعلني كنت أفعل مع من لا أرغب في رؤيته، ولسوف تقنع عبارات الأسف هذه التي تخص بها عادة أولئك الذين لا نهتم بأمرهم، لسوف تقنع "جيلبيرت" فيما يبدو لي، بلا مبالاتي أكثر ما تفعل اللهجة اللامبالية التي تتكلفها مع تلك التي نحبها فحسب. وحينما يتم لي أن أبرهن لها بأعمال تتكرر إلى مالا نهاية أكثر مني بالأقوال أني لا تداخلني رغبة في رؤيتها فربما عادت فوجدت رغبة بشأني. ولكن ذلك عبث. وا أسفي! فالسعي عبر الامتناع عن رؤيتها إلى أن أوقظ فيها تلك الرغبة في رؤيتي إنما يعني فقدها إلى الأبد، لأنها حينما تعود إلى الانبثاق من جديد فإنما ينبغي لي بادئ الأمر، إن شئت لها أن تدوم، ألا أستسلم لها في الحال، وسوف تكون أكثر الساعات قسوة قد انقضت على أية حال، وإنما لا غنى لي عنها في هذه اللحظة ووددت لو أستطيع إخطارها بأنها لن تهدّئ عما قليل إذ تعود فتراني، سوى ألم تناقص إلى الحد الذي لن يظل معه، كما لعله لا يزال في هذه اللحظة نفسها وفي سبيل وضع حد له، سبباً للاستسلام والمصالحة والالتقاء من جديد، وحينما يمكنني فيما بعد أن أقرّ أخيراً لِ "جيلبيرتُ" دونما خطر أتعرض له لشدّة ما استعاد شغفها بي من قوة، بشغفي بها، فلن يكون قد توافر لهذا الأخير، ما يمكنه من مقاومة غياب طويل إلى هذا الحد ويكون زال، فيما أصبحت "جيلبيرت" غير ذات بال في نظري، كنت أعلم ذلك، ولكني لا أستطيع أن أقوله لها، فربما حسبت أنني إن زعمت أني سوف أتوقف عن حبها إن مكثت مدة طويلة لا ألقاها فإنما لمجرد أن تقول لي بأن أعود سريعاً إليها. أما ما كان ييسر لي في تلك الأثناء فرض ذلك الهجران على نفسي فإنني

كنت أبادر (كيما تتبين تماماً على الرغم من توكيداتي المخالفة، أن ما يحرمني لقاءها إنما هي إرادتي لا أي حائل آخر ولا حالتي الصحية)، كنت أبادر، في كل مرة أعرف فيها سلفاً أن "جيلبيرت" لن تكون لدى والديها وتزمع الخروج مع صديقة لها ولن تعود للعشاء، إلى لقاء السيدة "سوان" (التي عادت فأصبحت بالنسبة إلى ما كانت يوم كنت أرى ابنتها بكثير من الصعوبة ويوم كنت أذهب للتنزه في شارع شجيرات الأكاسيا في الأيام التي لا تجيء فيها هذه الأخيرة إلى "الشانزيليزيه". كنت سأسمع هكذا من يحدثني عن "جيلبيرت" كما كنت أكيدا أنها ستسمع بعد ذلك من يحدثها عني وعلى نحو يبرز لها أني ما كنت متعلقاً بها. وكنت أرى، شأن جميع الذين يتعذبون، أن وضعي المحزن كان يمكن أن يكون أسوأ حالا. ذلك أني كنت أقول لنفسي إني أستطيع، إذ أملك حرية الدخول إلى المنزل الذي تقطنه "جيلبيرت" مع أنني مصمم ألا أستخدم ذلك الحق، إن أصبح عذابي بالغ الشدة، أن أعمل على إيقافه. فلم أكن تعيساً إلا يوماً فيوماً، ولعل ذلك مبالغ فيه. فكم مرة في بحر ساعة (ولكني الآن بعيد عن الانتظار المقلق الذي ضيق عليّ الخناق في الأسابيع الأولى التي تلت خلافنا وقبلما أعود إلى منزل أسرة "سوان") تلوت فيها لنفسي الرسالة التي سوف تبعث بها "جيلبيرت" ذات يوم، وربما حملتها بنفسها! كان التخيل المستمر لتلك السعادة الخيالية يعينني على احتمال تهديم السعادة الحقيقية. فأن نعلم أنه لم يبق لنا ما نأمله بالنسبة إلى النساء اللواتي لا يحببننا وأولئك الذين "فُقِدوا" على السواء لا يحول دون أن نوالي الانتظار. ويعيش المرء مترصداً متنصتاً، فتتخيل أمهات ذهب ابنهن في استكشاف تحفهُّ المُخاطر في عرض البحر أنه يزمع الدخول في كل دقيقة وقد نجا بأعجوبة ويتمتع بصحة جيدة فيما توافر لهن منذ زمن بعيد أنه هلك بالتأكيد. فإما أن يمكّنهن ذلك الانتظار، حسب شدة الذكرى ومقاومة الأعضاء، من اجتياز السنين شيئاً فشيئاً ثم العيش من بعده، وإما أن يجلب منيّتهن. ثم إن غمي يجد العزاء من جهة أخرى في أنه يفيد حبي فلقد كانت كل زيارة أقوم بها للسيدة "سوان" دون لقاء "جيلبيرت" قاسية عليّ ولكني أحس أنها تحسّن بالمقدار نفسه الفكرة التي تحملها "جيلبيرت" عني.

ولئن كنت على أية حال أتدبر أمري على الدوام قبلما أذهب إلى منزل السيدة "سوان" لأتأكد من غياب ابنتها فربما كان مرد ذلك على السواء تصميمي أن أكون على خلاف معها وأمل المصالحة الذي كان ينضاف إلى عزمي في التخلي عنها (وقليل ما كان منها مطلقاً، أقله على نحو مستمر، في هذه النفس البشرية التي من بين قوانينها التقطع الذي تعززه دفقات غير متوقعة من مختلف الذكريات) ويحجب عني ما كان شديد القسوة فيه، كنت أعلم ما في ذلك الأمل من أمر خيالي، وكنت مثل فقير يمزج خبزه الحاف بدموع أقلّ إن أسرّ لذاته أن غريباً ربما ترك له بعد قليل كامل ثروته. وكلنا مضطر كي يجعل الواقع محتملا أن يغذي في صدره بعض الحماقات الصغيرة، كان أملي يظهر على حاله - فيما يتم الانفصال على نحو أفضل في الوقت نفسه - إن لم ألتق بـ "جيلبيرت". ولو وجدتُني معها وجها إلى وجه لدى والدتها فربما تبادلنا أقوالا لا تغتفر يصبح خلافنا من جرائها نهائياً ويقتل آمالي، ويوقظ من جهة ثانية حبي إذ يجيئني بقلق جديد ويجعل تسليمي بالأمر أوفر مشقة.

لقد سبق أن قالت لي لسيّدة "سوان" من زمن بعيد وقبل خلافي مع ابنتها بكثير: "جميل جدّاً أن تأتي للقاء "جيلبيرت"، ولكنّي وددت كذلك لو تجيء أحياناً من أجلي، لا إلى "شوفلوري" فربما صادفت مللاً لكثرة ما يتجمّع لديّ من الناس، بل في الأيام الأخرى التي تجدني فيها على الدوام في وقت متأخّر بعض الشيء." كان يبدو إذن يوم أوافيها أني إنّما أنصاع بعد فترة طويلة لرغبة عبّرت عنها سابقاً. فكنت أمضي في وقت متأخّر جدّاً، في الليل وساعة يجلس أهلي إلى مائدة الطعام تقريباً، أمضي لزيارة السيّدة "سوان" زيارة أعلم أنيّ لن أرى "جيلبيرت" في أثنائها ولكنيّ لن أفكر مع ذلك إلاّ فيها. وفي ذلك الحيّ الذي كانوا يعدّونه آنذاك بعيداً جدّاً، وفي باريس أكثر عتمة من يومنا هذا وليس فيها حتىّ في المركز كهرباء في الشارع العام والقليل جدّاً في المنازل، كانت تكفي مصابيح صالة واقعة في الطابق الأرضيّ أو في طابق وسيط داني السقوف (شأن ما كانت علية الشقّة التي تستقبل فيها السيّدة "سوان" ضيوفها بالعادة) لإنارة الشارع ولتحمل عابر السبيل على رفع عينيه ليردّ إلى ضيائها وجود بعض العربات المكشوفة المجهّزة على أحسن ما يرام وكأنمّا إلى علّتها الظاهرة والمخفاة. ويعتقد عابر السبيل، وبه بعض اضطراب، أن تبدّلاً حلّ في تلك العلّة الخفيّة حينما يشاهد إحدى تلك العربات وقد أخذت في التحرّك. وما كان ذلك سوى حوذيّ خشي على جياده من البرد فجعلها تروح بين حين وآخر وتجيء يزيد من إثارتها أن العجلات المغلفة بالكاوتشوك كانت تضفي على وقع أقدام الجياد خلفيّة من السكون يبرز عليها ذلك الواقع على نحو أكثر تميّزاً ووضوحاً.

إنّ "الحديقة الشتويّة" التي كان عابر السبيل يبصرها عادة أيّاً كان الشارع إن لم تكن الشقّة على مستوى يجاوز كثيراً ارتفاع الرصيف لا تشاهد من بعد إلا في المحفورات الضوئية التي في كتب هدايا رأس السنة لِـ "ستال" حيث تبدو، على نقيض ما ندر من زينات الزهور في الصالات التي من طراز لويس السادس عشر في يومنا - كمثل وردة أو سوسنة من اليابان في إناء من الكريستال طويل العنق لا يمكن أن يحوي زهرة أخرى - وبسبب وفرة النباتات البيتيّة حينذاك والنقص المطلق في أسلوب يحكم تربيتها، وكأنها لابدّ تستجيب لدى ربّات البيوت لهوى نباتي يزخر بالحياة والبهجة أكثر منها لاهتمام لا حياة فيه بيزخرفة جافّة. كانت تذكّرك، وهي أكبر حجماً في فنادق تلك الحقبة، بتلك الدفيئات الصغيرة النقّالة التي كانت توضع في صبيحة الأوّل - من كانون الثاني تحت المصباح المُضاء - لأن الأطفال لم يتوافر لهم الصبر لانتظار طلوع النهار - بين هدايا رأس السنة الأخرى، ولكنّها أجمل هديّة من بينها إذ تحمل لك العزاء عن عري الشتاء بالنباتات التي يمكن أن نبادر إلى زرعها. كانت تلك الحدائق الشتويّة تشبه أكثر من تلك الدفيئات نفسها الدفيئة التي نراها بالقرب منها تماماً صورةً في كتاب جميل، وهو هدية أخرى من هدايا رأس السنة كانت تفتن الأطفال مع أنها لم تُقَدَّم لهم بل للآنسة "ليلى" بطلة الكتاب إلى حدّ أنهم يتساءلون، وقد أضحوا الآن شيوخاً، إن لم يكن الشتاء في تلك السنوات السعيدة أجمل الفصول. وفي آخر هذه الحديقة الشتوية، وعبر تشجر الأصناف المختلفة التي كانت النافذة المضاءة تشبه بها زجاج دفيئات الأطفال تلك المرسومة أو الحقيقة، كان عابر السبيل يبصر بعامة، إذ يقف على أطراف أصابعه، رجلاً بسترة رسمية، وفي عروته زهرة غاردينيا أو قرنفلة، يقف أمام امرأة جالسة وكلاهما غير واضحي المعالم كأنهّما نقشان غائران في حجر ياقوت أصفر في آخر أجواء الصالة التي ينشر فيها "السماور" - وهو

يوم ذاك حديث الاستيراد - أبخرة صفراء لعلّها لا تزال تنبعث منه في يومنا هذا ولكنّما لا يبصرها أحد من بعد بسبب العادة. كانت السيّدة "سوان" شديدة التعلّق بذلك "الشاي"، وتحسب أنها تبدي طرافة وتشيع سحراً إذ تقول لرجل: "تحدني كلّ يوم في وقت متأخر فهلمّ لتناول الشاي"، حتى تقرن بابتسامة رقيقة عذبة تلك الكلمات التي تنطقها بنبرة إنكليزية مؤقّتة والتي يأخذ محدّثها علماً بها وهو يحيّي بوقار وكأنها شيء مهمّ وغريب يفرض الاحترام ويقتضي الانتباه. كان ثمّة سبب آخر غير التي ذكرناها أعلاه كان من جرّائه أن لم تقتصر الأزهار في صالة السيّدة "سوان" على الطابع التزييني. ولم يكن السبب ذاك ناجماً عن العصر بل عن الحياة التي قضتها "أوديت" فيما مضى في قسم منه. فإن غانية مرموقة، كما كان شأنها، إنمّا تعيش كثيراً من أجل عشّاقها، أي في منزلها، الأمر الذي يمكن أن يقودها إلى أن تعيش من أجل ذاتها. فالأشياء التي نبصرها لدى امرأة شريفة والتي يمكن أن تبدو لها هي الأخرى بالتأكيد مهمّة هي التي تكتسب في جميع الأحوال أكبر الأهميّة في نظر الغانية. وليست قمّة يومها ساعة ترتدي ملابسها من أجل الناس، بل ساعة تخلعها من أجل رجل فلا بدّ لها أن تكون أنيقة في مبذلها وقميص نومها أناقتها في ثياب المدينة. وفيما تبرز النساء الأخريات حليهنّ تعيش هي بين خفايا دررها. ويفرض هذا النمط من الحياة الالتزام بنوع من البذخ غير المفضوح وينتهي بزرع عشق هذا البذخ الذي يقارب أن يكون متجرّداً في نفسك.

وكانت السيّدة "سوان" تشمل الزهور بعشقها ذاك فقد كان ثمّة على الدوام بالقرب من مقعدها كأس ضخمة من الكريستال ملئت تماماً بتويجيات من بنفسج "بارما" أو من الأقحوان وتبدو وكأنها تعلن للوافد عن العمل المفضّل الذي أوقف، كما لعلها كانت حال كوب الشاي الذي ربمّا شربته السيّدة "سوان" وحيدة ولمحض متعتها؛ عن عمل أكثر خفاءً وأوفر أسراراً حتى لترغب في الاعتذار لدى مشاهدة الزهور المنثورة هناك كما لعلّك تفعل إن نظرت إلى عنوان الكتاب الذي لا يزال مفتوحاً والذي ربمّا كشف عن سرّ القراءة الأخيرة وربما بالتالي عن تفكير "أوديت" الراهن. وكانت الأزهار تنبض بالحياة أكثر ممّا يتيسرّ للكتاب وكان المرء يوافيه الضيق إن دخل لزيارة السيدة "سوان" لتبينه أنها لم تكن وحدها، أو إن هو عاد معها ألاّ يلقى الصالة خالية لما تشغل من مكان غامض يتعلّق بأوقات لا يعرفها من حياة سيّدة البيت تلك الأزهار التي لم تُعدّ لزائري "أوديت" بل هي نعمت وستنعم كذلك، وكأنمّا نسيتها هناك، بأحاديث خاصّة معها يخشى المرء أن يقطعها وعبثاً يحاول أن يقرأ سرّها إذ يحدّق بعينيه إلى ألوان بنفسج "بارما" الباهتة الذائبة الخبّازيّة المنحلّة.

كانت "أوديت" تعود منذ آخر تشرين الأول على نحو منتظم أكثر مما يسعها الانتظام بسبب "الشاي" الذي ما يزال يدعي في ذلك الزمان "شاي الساعة الخامسة" (وتحبّ أن تردّد) أنه إن أقامت السيّدة "فيردوران" منتدى فلأنك كنت واثقاً على الدوام أنّك تستطيع لقاءها في منزلها في ساعة لا تتبدّل. وكانت تتخيّل أنها تملك واحداً من النمط نفسه ولكنّه أوفر حريّة وبعيد عن التشدّد (senza rigore)، حسبما تحبُّ أن تقول. وترى أنها على هذا النحو ما يشبه السيدة "ليسبيناس[١]" وتظنّ أنها أسّست منتدى منافساً إذ انتزعت من السيّدة "دي ديفّان [٢]" أمتع رجال جماعتها

---

(١) - (٢) - الآنسة Lespinasse مرافقة مدام du Deffand صاحبة منتدى شهير في القرن الثامن عشر بدأ باستقبال رجال المجتمع ثم أخذ يستقبل رجال الفكر والأدب. وقد طردت هذه الأخيرة مرافقتها إذ اتهمتها بسرقة الذين كانوا يترددون على منتداها.

الصغيرة ولاسيّما "سوان" الذي تبعها في انفصالها وعزلتها، حسب رواية يدرك المرء أنها أفلحت في حمل الوافدين الجدد الجاهلين بالماضي على تصديقها ولكنها لم تفلح مع ذاتها. على أنّنا إنمّا نمثّل بعض الأدوار المفضّلة لدينا العديد من المرآت أمام الناس ونعيدها داخل ذواتنا إلى حدّ أنّنا نرى سهولة أكبر في الرجوع إلى الدليل الوهمي الذي تقدّمه لنا منّا إلى الواقع منسيّ تماماً تقريباً. أمّا الأيام التي لم تخرج فيها السيّدة "سوان" ألبتّة فقد كنت تجدها فيها ترتدي مبذلا من الحرير الصيني الرقيق في بياض أول الثلج، كما ترتدي أحياناً إحدى تلك المواسير الطويلة التي من الموسلين الحريري والتي تبدو وكأنها محض نثارة من تويجيات ورديّة أو بيضاء قد نراها اليوم لا تناسب الشتاء كثيراً على غير وجه حقّ. ذلك أن تلك الأقمشة الرقيقة وتلك الألوان الرفيقة كانت تضفي على المرأة – في دفء الصالات الوفير آنذاك وقد كستها الستائر ورأى روائيو المجتمعات الراقية في تلك الحقبة أن أكثر ما يقال فيها أناقة أنها "وثيرة البطائن" – المظهر المقرور نفسه الذي تضفيه على الورود التي يمكن أن تمكث هناك بالقرب منها، على الرغم من الشتاء، في لون عريها الورديّ كما في الربيع. كانت سيّدة البيت، بسبب إخماد الأصوات هذا من جرّاء السجاد واعتزالها في زوايا غائرة، توالي القراءة إذ لم يُنبئها أمر بدخولك كما هو شأن اليوم، فيما أصبحتَ تقريباً أمامها، الأمر الذي كان يزيد من ذلك الانطباع الخياليّ ومن روعة السرّ الذي أخذ على حين غرّة، وهو ما نلقاه اليوم من جديد في تذكر تلك الفساطين المتقادم زيها حينذاك والتي ربما كانت السيّدة "سوان" الوحيدة التي لم تهجرها والتي تذكرنا بأنّ المرأة التي ترتديها ينبغي أن تكون بطلة رواية لأنّ أغلبنا لم ير تلك الفساطين إلا في بعض روايات "هنري دو غريفيل". كان لدى "أوديت" الآن في صالتها في أوّل الشتاء أزهار أقحوان ضخمة وفي تنوّع ألوان لم ير "سوان" فيما مضى ما يشبهها في منزلها. كان إعجابي بها – حينما أقوم بإحدى تلك الزيارات الكئيبة للسيّدة "سوان" فألقي لها فيها كامل الشاعريّة التي تنبعث من أنها أمّ "جيلبيرت" هذه التي سوف تقول لها في الغد: "لقد قدم صديقك لزيارتي." – كان إعجابي بها ناجماً دون شكّ عن أنها تصيف، بلونها الورديّ الشاحب شحوب الحرير الذي من طراز لويس الخامس عشر الذي يغطّي مقاعدها، أو الأبيض بياض الثلج كمبذلها الذي من حرير صينيّ رقيق، أو الأحمر الباهت كسماورها، إلى زينة صالتها زينةً إضافيّة بألوان في مثل غناها ودقّتها، ولكنّها زينة حيّة لن تدوم إلاّ بضعة أيّام. بيد أنّه كان يؤثر فيّ ما كان في ذلك الأقحوان أقلّ زوالاً منه ديمومة نسبيّة بالنسبة إلى تلك الألوان الورديّة أو النحاسية التي تلهبها الشمس بجلال عظيم في ضباب أواخر ما بعد الظهيرة من شهر تشرين الثاني والتي كنت أعود فألقاها، بعدما شاهدتها قبل دخولي إلى منزل السيّدة "سوان" وهي تبهت في السماء، تردّدها وتنقلها ممزجة الأزهار الملتهبة لقد كان يدعوني، ذلك الأقحوان، كمثل أضواء انتزعها رسّام عظيم من تقلبّات الجو والشمس كيما تبادر إلى تزيين منزل بشريّ، كان يدعوني، على الرغم مما يملوني كآبة، إلى أن أتذوّق بنهم في أثناء ساعة الشاي هذه متع تشرين الثاني القصيرة جدّاً التي كان يرسل بالقرب مني لهب روعتها الحميمة الزاخرة بالأسرار. وما كنت أستطيع بلوغها، من أسف، في الأحاديث التي كنت أسمعها. فقد كانت السيدة "سوان" تتّخذ صوتاً حنوناً حتىّ مع السيّدة "كوتار" لتقول لها، مع أن الوقت تقدّم بها كثيراً: "لا، ليس الوقت متأخّراً، لا تنظري إلى ساعة الحائط فليست

الساعة ما تشير إليه، إنّها واقفة، وماذا يمكن أن ينتظرك مما يستدعي الاستعجال إلى هذا الحدّ؟" وتقدّم قطعة حلوى أخرى لزوجة الأستاذ التي تحمل حافظة بطاقاتها بيدها.

وكانت السيّدة "بونتان" تقول للسيّدة "سوان": "إنّه لا يمكن مغادرة هذا البيت"، تقول فيما تصرخ السيدة "كوتار" في دهشتها لدى سماعها من يعبّر عن انطباعها الخاصّ: "ذلك ما أقوله على الدوام بيني وبين نفسي داخل عقلي وفي أعماق ذاتي!" يؤيّدها في ذلك جماعة من نادي السبق أغرقت في التحيّات وكأنّما غمرها شرف عظيم حينما قدّمتها السيّدة "سوان" إلى تلك البورجوازيّة الصغيرة غير اللطيفة التي تظلّ محتفّظة إزاء أصدقاء "أوديت" اللامعين إن لم تلجأ إلى ما كانت تسميّه حالة الدفاع، لأنّها كانت تستخدم على الدوام لغة سامية للتعبير عن أبسط الأمور. "كأنمّا ذلك غير صحيح، فقد انقضت ثلاثة أيّام أربعاء وأنت تخلفين وعدك"، تقول السيّدة "سوان" للسيّدة "كوتار". فتضيف هذه الأخيرة بلهجة بادية الاحتشام غامضة (لأنها ما كانت لتجرؤ، مع أنها امرأة طبيب، أن تتحدّث دونما كنايات عن الرشح أو المغص الكلوي): "صحيح، يا أوديت، لقد انقضت قرون بل أبديّات لم أرك فيها. أنت ترين أنني أقرّ بذنبي، ولكن ينبغي أن أقول لك إنّني عانيت الكثير من "المصيبات" الصغيرة، ولكلّ مصيباته. ثم إن أزمة حلّت في جهاز خَدَمي المذكّر. فقد اضطررت، دون أن أكون مشبعة بفكرة السيطرة أكثر من أخرى غيري وكيما يكون الأمر بمثابة عبرة، إلى طرد رئيس خَدَمي الذي كان يسعى من جهة أخرى، فيما أعتقد، إلى مكان أوفر ربحاً. لكنّ ذهابه أوشك أن يؤدّي إلى استقالة الوزارة بكاملها. وقد رفضت وصيفتي كذلك البقاء ووقعت مشاجرة جديرة بـ "هوميروس". وقد قبضتُ بحزم علي دفّة المركب على الرغم من كلّ شيء، وكان درس أشياء حقيقي لعلّه لم يذهب هدراً بالنسبة إليّ. إنّني أزعجك بحكايات الخدم هذه، ولكّنك تعلمين مثلي أيّة متاعب هي أن يضطرّ المرء إلى اللجوء لتعديلات في صفوف مستخدميه." ثم تسأل: "ألن نرى ابنتك اللذيذة؟" وتجيب السيّدة "سوان": "لا، فابنتي الذيذة تتعشى لدى صديقة لها"، وتضيف وهي تلتفت صوبي: "أظّن أنها كتبت إليك كي تجيء لزيارتها في الغد." ثم تسأل زوجة الأستاذ: "وماذا عن أطفالك؟" وتنفّستُ بعمق ذلك أن كلمات السيّدة "سوان" تلك التي كانت تبرهن لي أنني أستطيع زيارة "جيلبيرت" حينما أشاء إنمّا كانت توفّر لي بالضبط الفائدة التي جئت أبحث عنها والتي كانت تجعل زياراتي للسيّدة "سوان" في تلك الفترة ضرورية جدّاً. ثم أضفت بمظهر من يعزو انفصالنا لسبب غامض، الأمر الذي لايزال يبعث فيّ توهّماً بالحبّ تغذّيه كذلك الطريقة الرقيقة التي كنت أتحدّث بها عن "جيلبيرت" وتتحدّث عنيّ: "لا، سأسطّر لها كلمة هذا المساء. وعلى أيّة حال لا نستطيع أن نتلاقى من بعد أنا و"جيلبيرت". وتقول السيّدة "سوان": "تعلم أنّها تحبّك إلى مالا حدود. أحقّاً لست تريد غداً؟" وفجأة يأخذني الابتهاج إذ أقول في نفسي: "ولكن لم لا أفعل ذلك بما أن والدتها نفسها تعرضه عليّ؟" غير أني أعود في الحال لأغرق في كآبتي. لقد خشيت أن تحسب "جيلبيرت"، إذ تراني، أن لا مبالاتي في هذه الفترة الأخيرة كانت من قبيل التظاهر وفضّلت مدّ فترة الانفصال. وكانت السيّدة "بونتان" في أثناء تلك الأحاديث الذاتية تشتكي من الإزعاج الذي تسببّه لها نساء السياسيّين، فقد كانت تتظاهر بأنها تجد جميع الناس

مملّين ومضحكين وأنها مغتمّة لموقف زوجها. كانت تقول للسيّدة "كوتار" التي كانت على العكس فيما يخصّها تفيض عطفاً على كلّ واحد واحتراماً حيال جميع الالتزامات:

– "تستطيعين هكذا إذن استقبال خمسين امرأة على التوالي ؛ آه، إنك لعلى القدر من قوّة الشكيمة. أمّا أنا، في الوزارة، فإني بالطبع مضطرّة. ولكنّ الأمر يفوق قواي، لوتدرين، مع نساء الموظفّين أولئك فلا أستطيع حجب النفس عن الهزء بهنّ. و"أليبرتين" ابنة أخي على ما أنا. ولست تعلمين أيّ حد تبلغ في وقاحتها تلك الصغيرة. فقد كان في يوم استقبالي في الأسبوع الماضي زوجة معاون الأمين العام لشؤون الاقتصاد التي كانت تقول إنها لا تفقه شيئاً في أمور الطبخ فأجابتها ابنة أخي بأكثر ابتساماتها سحراً قائلة: "ولكن يجدر بك يا سيّدتي أن تكوني ملمّة بالأمر بما أن والدك كان طاهياً."

وتقول السيّدة "سوان": "أوه، إني أحبّ كثيراً هذه القصّة وأجدها لذيذة." ثم تشير على السيّدة "كوتار" بقولها: "ينبغي لك على الأقلّ في أيّام استشارات الدكتور أن توفّري لنفسك عشاً صغيراً إلى جانب أزهارك وكتبك والأشياء التي تحبّينها."

– "هكذا، كصفعة على وجهها، ولم تستشرها في الأمر. لم يسبق لها أن أنبأتني بشيء من ذلك، تلك المراوغة الصغيرة، فهي ماكرة كالقردة. إنّك محظوظة إذ تستطيعين تمالك نفسك وإني أحسد الناس الذين يعلمون كيف يخفون تفكيرهم"

وتجيب السيّدة "كوتار" بلطف: "ولكن لا حاجة بي لذلك، فلست متصعّة إلى هذا الحدّ." ثم تضيف بصوت أكثر ارتفاعاً كانت تلجأ إليه كيما تشير، في كلّ مرّة تدسّ في الحديث واحدة من تلك المجاملات الرقيقة والتقريظ الحاذق مما يثير إعجاب زوجها ويعينه في أعماله: "فليس لي بادئ الأمر مالك من حقوق، ثم إني أفعل بسرور كلّ ما من شأنه أن يفيد الأستاذ."

– "ولكن، ينبغي أن نتمكّن من ذلك يا سيّدتي. لستِ على الأرجح عصبيّة. أمّا أنا فحينما أرى امرأة وزير الدفاع تتصنّع في حركاتها فإني أشرع في الحال في تقليدها. ما أقسى أن يكون المرء بمثل هذا المزاج!"

وقالت السيّدة "كوتار": "أجل، لقد سمعت من يقول إن لها عادات مستهجنة إن زوجي يعرف كذلك واحداً عالي المكانة، ومن الطبيعي حينما يتحدّث هؤلاء السادة فيما بينهم.."

– "ولكن خذي مثالاً على ذلك رئيس التشريفات الأحدب، يا سيدتي، فالأمر مفروغ منه: ما إن تنقضي خمس دقائق على وصوله إلى بيتي حتى أبادر إلى وضع اليد على حدبته. يقول زوجي إنّني سأحملهم على عزله من الوظيفة. ألا بئست الوزارة، أجل بئست الوزارة! كنت أبغي وضع تلك بمثابة شعار على ورق رسائلي. إني متأكّدة من أني أثير استنكارك لأنك طيّبة، أما أنا فأقرّ أن لا شيء يسلّيني كما تفعل الإساءات الصغيرة، فبدونها تبدو الحياة شديدة الرتابة."

كانت توالي الحديث كل وقت عن الوزارة كما لو أنها مقر "الأولمبوس". والتفتت السيّدة "سوان" إلى السيّدة "كوتار" بغية تبديل الحديث وقالت:

- "ولكنك تبدين لي شديدة الجمال؟ فهل صنع ذلك "ريد فيرن[1]"؟

- "لا، تعلمين أنني من المتحمّسات لِ "رود ينتز". إنها على أيّة حال "تصليحة".

- "ولكنّها على جانب من الأناقة!"

- "كم تظنّين تساوي؟ . لا، بد لي الرقم الأوّل."

- "كيف ذلك، هذا ثمن زهيد جدًّا، إنهّا عطيّة لقد قيل لي ثلاثة أمثال هذه القيمة."

- "كذلك يُكتب التاريخ"، تقول زوجة الدكتور مستخلصة. ثم تُري السيّدة "سوان" قلادة سبق أن أهدتها إيّاها هذه الأخيرة:

- "انظري يا أوديت. هل عرفتها؟"

ويطلع من شقّ ستارة رأس يتصنّع الاحترام ويتظاهر عن مزاح بخشية الإزعاج: وكان "سوان". أوديت، إن أمير "أغر يجانت" معي في حجرتي وهو يسأل إن كان يستطيع المجيء لتقديم احترامه. فبمَ ينبغي أن أجيبه؟" وتقول "أوديت" راضية ودون أن تتخلّى عن هدوء كان سهلاً عليها بمقدار ما سبق لها على الدوام، حتى بوصفها من بنات الهوى أن استقبلت رجالاً أنيقين: "بأنني سأكون في أشد الغبطة". ويمضي "سوان" لنقل الإذن ثم يعود بالقرب من زوجته يصحبه الأمير، إلا إذا دخلت في تلك الأثناء السيّدة "فير دوران".

كان قد طلب إلى "أوديت" حينما يزوّجها ألاّ تتردّد من بعد على العشيرة الصغيرة (وقد تجمع لديه لذلك الكثير من الأسباب، ولعله مع ذلك يفعل، إن يتيسّر له شيء منها، امتثالاً لقانون في العقول لا يحتمل شذوذاً، قانون يُبرز لا تبصّر القوّادين جميعهم أو تجردهم) لقد سمح أن تتبادل "أوديت" والسيدة "فيردوران" زيارتين في العام فحسب، الأمر الذي كان لا يزال يبدو مغالى فيه في نظر الخلّص الذين أثارت سخطهم الإهانة الموجّهة "لربّة البيت" التي عاملت "أوديت" وحتى "سوان" على مدى سنوات كثيرة بمثابة الولدين المفضلين في البيت. فلئن ضمّت الجماعة الصغيرة إخوة مدالسين يهجرونها في بعض العشيّات لتلبية دعوة لِ "أوديت" دون التصريح بذلك وهم على استعداد إمّا كشفوا أن يجدوا العذر في فضولهم للقاء "بيرغوت" (مع أنّ ربّة البيت تدّعي أنّه لا يتردّد على منزل عائلة "سوان" وأنّه خلو من الموهبة وأنها على الرغم من ذلك تحاول، حسب عبارة عزيزة على قلبها، أن تجتذبه)، فقد

(١)وردت العبارة باللاتينية للإشارة إلى تصنع الثقافة (Redfem fecit).

كان لها كذلك "متطرّفوها". ولعلّهم كانوا يأملون، وهم على جهل بالميول الخاصّة التي غالباً ماتثني الناس عن الموقف المتطرّف الذي يُراد لهم أن يتّخذوه لإزعاج أحدهم، فلم يفلحوا في حمل السيّدة "فيردوران" على قطع جميع علاقاتها بِـ "أوديت" فتحرمها بذلك غبطة أن تقول ضاحكة: "نادراً ما نذهب إلى منزل "ربّة البيت" منذ الانشقاق. كان ذلك ممكناً بعد حينما كان زوجي عازباً، ولكنّ الأمر ليس يسيراً جداً على الدوام بالنسبة إلى زوجين. والسيّد "سوان"، إن كان لابدّ من الحقيقة، لا يهضم العمّة "فيردوران" ولا يقدر كثيراً أن أجعل منها عشيرتي المعتادة وأنا الزوجة الأمينة."

كان "سوان" يرافق زوجته إلى هناك ولكنّه في السهرة يتجنّب الحضور حينما تأتي السيدة "فيردوران" في زيارة لِـ "أوديت". ولذلك كان أمير "أغربجانت" يدخل وحده إن كانت "ربّة البيت" في الصالة. وهو الوحيد على أيّة حال الذي تُعَرِّفُ به "أوديت" التي كانت تفضّل ألاّ تَسْمَعَ السيّدة "فيردوران" أسماء مغمورة وأن يمكنها الظنّ، إذ ترى أكثر من وجه لا تعرفه، أنها وسط أعيان من الأرستقراطيّين، وكانت الخطّة ناجحة إلى حدّ أن السيّدة "فيردوران" كانت تقول باشمئزاز لزوجها في المساء: "ما أروعه وسطاً! كان هنالك كامل صفوة الرجعيّة!" كانت "أوديت" تعيش في وهم معاكس فيما يخصّ السيّدة "فيردوران"، لا لأنّ ذلك المنتدى أخذ آنذاك فقط في التحوّل إلى ما سوف نراه يضحي ذات يوم، فلم تكن السيّدة "فيردوران" قد بلغت بعد فترة الحضانة التي توقف فيها الاحتفالات الكبرى حيث تُغرِقُ في جمهرة الرعاع العناصر القليلة اللامعة ممن تمّ اكتسابهم منذ قليل، الفترة التي تفضّلون فيها انتظار أن تكون القدرة المولّدة التي يتمتّع بها العشرة الصالحون الذين أفلحوا في اجتذابهم قد أنتجت سبعين مرّة عشر مرّات. كانت السيّدة "فيردوران" قد وضعت "المجتمع الراقي" بالتأكيد هدفاً لها، مثلما لن تتوانى "أوديت" عن القيام به، ولكنّ مناطق هجومها لا تزال محدودة جدّاً وبعيدة جداً على أي حال عن تلك التي ربمّا تيسّر لِـ "أوديت" بعض الحظّ في بلوغ نتيجة مماثلة والتماع نجمها عن طريقها إلى حدّ أنّ هذه الأخيرة كانت تعيش في أتمّ الجهل بالخطط الاستراتيجية التي كانت تضعها "ربّة البيت" كانت "أوديت" تأخذ بالضحك بأسلم ما تكون النيّة حينما يحدّثونها عن السيّدة "فيردوران" وكأنمّا عن إحدى المتحذلقات وتقول: "الأمر بخلاف ذلك تماماً فإنها باديئ الأمر لا تملك مقومّات ذلك إذ هي لا تعرف أحداً. ثم لابدّ أن ننصفها بقولنا إن الأمر يروقها على هذا النحو.لا، إنمّا أيّام أربعائها ما تحبّ والمحدّثون الممتعون". وكانت تحسد السيّدة "فيردوران" في السرّ على تلك الفنون (مع أنهّا لا تفقد الأمل أن تكون تعلّمتها في النهاية بتتلمذها في مدرسة مرموقة إلى هذا الحدّ)، تلك الفنون التي تعلّق عليها "ربّة البيت" أهميّة عظيمة مع أنهّا تعمل فحسب على تلوين اللا موجود وصقل فراغ وهي بحصر المعنى فنون العدم: كالفنّ (الذي لدى ربّة المنزل) القائم على إجادة "الجمع" والإحاطة "بالتكتل" و"الإبراز" و"الاحتجاب" والقيام بدور "صلة الوصل".

ومهما يكن من أمر فقد كان يؤثّر في صديقات السيّدة "سوان" أن يبصرن في منزلها امرأة لا يتمثّلنها عادة إلا في صالتها الخاصّة يحيط بها في إطار من المدعّوين لا ينفصل عنها، ومن حولها فرقة صغيرة كاملة يُدْهشُكَ أن تراها على هذا النحو يُذكّرُ بها وتُختَصَرُ وتَتَراصّ في كنبة واحدة

تحت أعراض "ربّة البيت" التي أضحت زائرة في دفء معطفها المبطّن بزغب الطير وهو في مثل نعومة الفراء البيضاء التي تغطّي هذه الصالة حيث تبدو السيّدة "فيردوران" نفسها صالة أخرى. كانت أكثر النسوة وجلاً يبغين الانسحاب بداعي التحفّظ ويقلن وهنّ يلجأن إلى صيغة الجمع شأن من يبغي إفهام الآخرين أنّه من الحكمة أن لا نبالغ في إرهاق امرأة في طور النقاهة تغادر فراشها للمرّة الأولى: "سوف نترككم يا "أوديت". كنّ يحسدن السيّدة "كوتار" التي تدعوها "ربّة البيت" باسمها وكانت السيّدة "فيردوران" تقول لها، إذ هي لا تستطيع احتمال أن تظلّ واحدة من الخلّص هنا بدلاً من أن تتبعها: "هل لي أن أخطفك؟" – "ولكنّ سيّدتي سوف تتلطّف بإعادتي"، تقول السيدة "كوتار" إذ لا تريد أن يبدو عليها أنّها تنسى، لصالح شخصيّة أوفر شهرة، إنها قبلت العرض الذي تقدّمت به السيّدة "بونتان" لإعادتها في عربتها الرسميّة." وأقرّ أنّي مدينة بوجه خاصّ للصديقات اللواتي يتفضّلن باصطحابي في عربتهنّ. إنّه لحظّ حقيقي بالنسبة إلى من لا تملك عربة مثلي." وتجيب "ربّة البيت" قائلة (ولا تجرؤ أن تقول شيئاً لأنّها على معرفة يسيرة بالسيّدة "بونتان" وقد دعتها منذ قليل إلى أيّام أربعائها): "ولاسيّما أنّك لست قريبة من منزلك لدى السيّدة "دو كريسّي". آه! يا إلهي، لن أفلح قطّ في أن أقول السيّدة "سوان". كان ذلك مزاحاً في العشيرة الصغيرة بالنسبة إلى جماعة لا تتمتّع بذكاء كبير أن يتظاهر المرء بأنّه لا يستطيع تعوّد أن يقول السيدة "سوان": "لقد طالما تعوّدت أن أقول السيّدة "دو كريسّي" حتى كدت أخطئ مرّة أخرى." وحدها السيّدة "فيردوران" لم تكن في حديثها مع "أوديت" توشك أن تخطيء بل هي تخطئ عن قصد "أليس يخيفك يا "أوديت" أن تقطني هذا الحيّ المنعزل؟ يبدو لي أنني لن أكون على اطمئنان تام للعودة في المساء ثمّ إن الطقس بالغ الرطوبة ولا بدّ أن ذلك لا يلائم الإكزيما التي يعاني منها زوجك ليس عندكم جرذان على الأقل؟" – "لا! ياللهول!" – "لحسن حظّكم، فقد سبق أن قيل لي ذلك. يسعدني أن أعلم أنّ الأمر غير صحيح لأنّها تبعث فيّ خوفاً رهيباً وأنني ما كنت لأعود إلى بيتكم إلى اللقاء يا عزيزتي الطّيبة، إلى لقاء قريب. تعلمين كم أسعد بمشاهدتك."

ثمّ تقول وهي ذاهبة وفيما تنهض السيّدة "سوان" لتشيّعها: "لا تعرفين أن ترتّبي الأقاحي. تلك أزهار يابانية وينبغي ترتيبها مثلما يفعل اليابانيون." وتعلن السيّدة "كوتار" بعدما ما أغلقت "ربّة البيت" الباب: "لست أرى ما ترى السيّدة "فيردوران" مع أنّها الوصايا والأنبياء في جميع الأمور بالنسبة إليّ. ليس من يستطيع غيرك يا "أوديت" أن يلقى أقحواناً جميلاً إلى هذا الحدّ، أو بالأحرى جميلة، إذ يبدو أن ذلك ما يقولون الآن." وتجيب السيّدة "سوان" بهدوء قائلة: "إن السيّدة "فيردوران" العزيزة ليست على الدوام شديدة الرفق بأزهار الآخرين." وتسأل السيدة "كوتار" كي لا تدع للانتقادات الموجهة إلى "ربة البيت" أن تطول: "أزهار من تزرعين يا "أوديت"؟. "لوميتر"؟ إني أعترف أنّه كان ثمة أمام دكّان "لوميتر" في ذلك اليوم شجيرة ورديّة كبيرة حملتني على إتيان عمل جنوني." ولكنّها امتنعت واكتفت بالقول إنّ الأستاذ "الذي ليس سريع الغضب" قد بادر ينتضي سيفه وقال إنّها لا تدرك قيمة المال. "لا، لا، ليس لديّ بائع زهور معتاد سوى "دوباك". وتقول السيّدة "كوتار": وأنا كذلك، ولكني أقرّ بأنّي أخونه مع "لاشوم". وتجيب "أوديت": "آه! تخونينه مع "لاشوم"؟ سوف أقول له ذلك"، وهي تجهد أن تبرز روح النكتة لديها وأن تدير الحديث في منزلها

حيث تشعر أنّها أكثر ارتياحاً منها في العشيرة الصغيرة، "لقد أضحى "لاشوم" على أيّة حال غالي الثمن بالحقيقة. إن أثمانه، لو تدرين، باهظة. وتضيف ضاحكة "إني أجد أثمانه غير محتشمة".

وفي تلك الأثناء كانت السيّدة "بونتان" تدرس، بعدما قالت مئة مرة إنها لا تودّ الذهاب إلى منزل "الفيردوران"، تدرس وقد خلب لبّها أنها دعيت إلى أيّام الأربعاء كيف تستطيع الذهاب إلى هنالك أكبر عدد ممكن من المرّات. وكانت تجهل ما تتمنّى السيّدة "فيردوران" من أن لا يتمّ تفويت أيّ منها. ثم إنها كانت من جهة أخرى في عداد أولئك الأشخاص غير المرغوب فيهم كثيراً الذين إن تدعهم ربّة المنزل إلى "مجموعات مسلسلة" من الدعوات لا يمضون إلى منزلها على غرار .ين يحسنون مكارمة الغير على الدوام حينما يتّسع لهم الوقت وتتّفق لهم الرغبة في ذلك، بل هم العكس يحرمون أنفسهك على سبيل المثال الأمسيتين الأولى والثالثة، وفي ظنّهم أن غيابهم ، تتمّ ملاحظته، ويحتفظون لأنفسهم بالثانية والرابعة، إلاّ إذا اتّبعوا ترتيباً معاكساً، بعد ما هم معلوماتهم على أن الثالثة سوف تطون راقية على نحو خاصّ، متذرّعين "بأنهم كانوا لسوء يرتبطون بمواعيد في المرّة الأخيرة". كذلك كانت السيّدة "بونتان" تخمّن كم لا يزال لديها ام أربعاء ممكنة قبل الفصح وبأيّة طريقة ستفلح في كسب يوم إضافي دون أن يبدو مع ذلك تفرض نفسها. كانت تتكّل على السيدة "كوتار" التي كانت تزمع العودة معها كيما تزوّدها ، الإرشادات. "أوه! أرى أنّك تنهضين يا سيّدة "بونتان"، وإنّه من السوء بمكان أن تعطي هكذا ة الهرب. أنت مدينة لي بتعويض لأنك لم تجيئي نهار الخميس الماضي . هيّا اجلسي بعدُ لة، فلن تقومي بزيارة أخرى قبل الغذاء" وتضيف السيّدة "سوان": "ألن تدعي حقاً لنفسك أن ,ن ضحيّة الإغراء؟" وتتابع وهي تمدّ قصعة من الحلوى: "ليست هذه الأقذار الصغيرة سيّئة على طلاق كما تعلمين إن شكلها لا يوحي بذلك، ولكن تذوّقيها ثم تحدّثينني عن أخبارها." وكانت سيّدة "كوتار" تجيب قائلة: "إنهّا تبدو على العكس لذيذة، وفي منزلك لا تعوزنا المأكولات ألبتّة ست بحاجة إلي أن أسألك عن علامة المصنع فإني أعلم أنّك تجلبين كلّ شيء من عند "روباتيه". ,لابدّ أن أقول إنّني أكثر ميلاً إلى الاصطفاء، فإني أتّجه في الغالب إلى "بوربونو" فيما يخصّ لمعجنات الحاقّة وجميع أنواع الحلوى. ولكنّي أعترف أنهّم لا يعرفون أيّ شيء هي "البوظة" أمّا 'روباتيه" فهو قمّة الصنعة في كلّ ما يخص "البوظة" والمثلّجات ومرق السمك. إنه "غاية الفن" سبما يقول زوجي" – "ولكنّ كلّ ذلك قد صُنع هنا. أحقّاً لا تريدين؟" وكانت السيّدة "بونتان" يب قائلة: "لن أستطيع تناول طعام الغداء، ولكنّي أعود إلى الجلوس لحظة. تدرين، أنا أعشق لدّث إلى امرأة ذكية مثلك."

- "سوف تجدينني فضوليّة يا "أوديت"، ولكنّي وددت أن أعلم رأيك في القبّعة التي كانت السيّدة "ترومبير". أعلم تماماً أن الأزياء تتّجه الآن إلى القبّعات الكبيرة. ولكن أليس ثمّة ليلة؟ إن التي كانت تعتمرها منذ قليل متناهية الصّغر في مقابل تلك التي جاءت بها إلى منزلي ، اليوم." وتقول "أوديت": "لا، لست ذكيّة"، وتحسب أنها بذلك تحسن صنعاً. "إني في ، ساذجة تصدّق كلّ ما يقال لها وتغتمّ لأتفه أمر." وكانت تلمّح إلى أنهّا عانت كثيراً في

البداية من أنهّا تزوّجت رجلاً من أمثال "سوان" كان له حياته الخاصّة وكان يخدعها. وإذ سمع أمير "أغريجانت" عبارة "لست ذكيّة" فقد رأى من واجبه أن يحتجّ ولكنه لم يكن يتميّز بحضور البديهة." وكانت السيّدة "بونتان" تصرخ قائلة: "تارا تاتا، لستِ ذكيّة أنت!" ويقول الأمير وهو يمسك بهذه الخشبة الممدودة: "كنت بالحقيقة أقول في نفسي: "ماذا أسمع؟ لا بدّ أنّ أذني خدعتني." وتقول "أوديت": "لا، بالتأكيد، إني في الأساس بورجوازيّة صغيرة شديدة التأذّي كثيرة التحيّز في مواقفها تعيش داخل جحرها وهي على وجه الخصوص شديدة الجهل." ثم تقول له لتسأله أخبار البارون "دو شارلوس": "هل رأيت البارون الصغير العزيز"؟ وتصيح السيّدة "بونتان" قائلة: "جاهلة أنت! إذن ماذا عساك تقولين عن دنيا الرسميين، عن زوجات أصحاب المعالي كافّة اللواتي لا يُحْسِنَّ التحدّث إلاّ عن الخرق! . خذي مثلاً، يا سيّدتي، منذ مالا يزيد عن ثمانية أيّام أفتح أمام وزيرة التعليم العامّ سيرة "لوهنغرين"، فتجيبني: "لوهنغرين؟. آه! أجل، الاستعراض الأخير في ملهى "الفولي بيرجير"، يبدو أنّه مضحك إلى أبعد حدّ." حسن، ماذا عساك تفعلين يا سيّدتي، حينما تسمعين أموراً من هذا القبيل فإن دمك يغلي لقد داخلتني الرغبة في أن أصفعها ؛ لأن لي طباعي الخاصّة كما تعلمين." ثمّ تقول وهي تلتفت إليّ: "قل، يا سيّدي، ألستُ على حقّ؟" وتقول السيّدة "كوتار": اسمعي، للمرء عذره أن يجيب بعكس المطلوب إلى حدّ ما حينما يوجّه إليه السؤال على حين غرّة ودون إنذار مسبق. لقد خبرت ذلك إذ أنّ السيّدة "فيردوران" تعوّدت هكذا أن تضع السكّين على عنقنا." وتسأل السيّدة "بونتان" السيّدة "كوتار" قائلة "هل تعلمين، إذ نحن بصدد السيّدة "فيردوران"، من سيكون في منزلها نهار الأربعاء؟. آه! أتذكّر الآن أنّنا قبلنا دعوة لنهار الأربعاء القادم. ألا تتفضّلين بتناول طعام الغداء معنا نهار الأربعاء الذي يليه؟ ثمّ نذهب سويّة إلى منزل السيّدة "فيردوران". يرهبني أن أدخل وحدي، ولست أعلم لماذا تبعث فيّ هذه المرأة الراقية الخشية على الدوام." وتجيب السيّدة "كوتار": "سأقول لك، إن ما يثير فيك الرعب لدى السيّدة "فيردوران" إنمّا هو صوتها. ما عساك تبغين؟ ليس يملك جميع الناس صوتاً في مثل حلاوة صوت السيّدة "سوان". ولكن ما إن يتعوّد اللسان، كما تقول "ربّة البيت"، حتىّ يذوب الجليد في الحال. فإنهّا في الأساس جيّدة الوفادة إلى حدّ بعيد. ولكنيّ أفهم تماماً إحساسك، فليس يروقُكَ ألبتّة أن تجد نفسك للمرّة الأولى في بلاد قصيّة." وكانت السيّدة "بونتان" تقول للسيّدة "سوان": "بوسعك كذلك تناول طعام الغداء معنا. ثم نذهب بعد الغداء سويّة لارتياد منازل "الفيردوران" بوصفنا من "الفيردوران". وحتىّ لو ترتب على ذلك أن تنظر إليّ "ربّة البيت" شزراً ولا تدعوني من بعد، فما إن نصل إلى بيتها حتىّ نظلّ ثلاثتنا في حديث فيما بيننا، وأحسّ أنّ ذلك ما سيسلّيني أكثر ما يسليّ.". على أنّ هذا التوكيد كان ينبغي ألاّ يكون حقيقيّاً جدّاً، إذ كانت السيّدة "بونتان" تسأل قائلة: "من تحسبين سيكون هنالك نهار الأربعاء الذي يلي الأربعاء القادم؟ وما الذي سيحدث؟ لن يكون هنالك عدد كبير من الناس على الأقلّ؟" وتقول "أوديت": "أمّا أنا فلن أذهب بالتأكيد. ولن نحضر إلاّ لوقت قصير في الأربعاء الأخير. فإن كان سيّان لديك الانتظار حتىّ ذاك." إلاّ أنّه لم يبدُ أن عرض التأجيل هذا قد فتن فؤاد السيّدة "بونتان".

ومع أنّ المزايا الروحيّة لأحد المنتديات وأناقته إنمّا تأتي بعامّة بنسب معكوسة أكثر منها نسباً مباشرة، فلا بدّ من الاعتقاد، بما أن "سوان" كان يجد السيّدة "بونتان" محببّة إليه، بأنّ كلّ انحطاط يُسلَّم به إنمّا يستتبع جعل الناس أقلّ تشدّداً مع أولئك الذين ارتضوا أن يأنسوا بهم، أقلّ تشدّداً فيما يخصّ ذكاءهم وكل ما تبقّى على السواء. ولا بدّ إن صحّ ذلك أن يشهد الناس، ومثلهم الشعوب، زوال ثقافتهم وحتى لغتهم بزوال استقلالهم. وإنّ من بين آثار ذلك التسامح تفاقم النزعة التي توافينا بعد سنّ معيّنة في أن تجد متعة في الأقوال التي تؤلّف ثناء على اتّجاهنا الفكريّ الخاصّ وعلى ميولنا وتشجّعنا على الانسياق خلفها. تلك السنّ هي السنّ التي يفضّل فيها فنّان كبير على عشرة النوابغ الأصليين عشرة تلاميذ لا يجمعه بهم سوى حرف تعاليمه وهم يبخّرونه ويصغون إليه، وتلك التي يجد فيها رجل وامرأة مرموقان يعيشان لحبّ ما أن أذكى شخص في اجتماع ربمّا كان الشخص الأدنى إلا أنّ جملة قالها قد أبرزت أنّه يستطيع إدراك معنى الحياة المكرسة للحبّ وإقرار ذلك فيدغدغ على هذا النحو النزعة الشهوانيّة لدى العاشق أو العاشقة. ولقد كانت كذلك السنّ التي كان يروق فيها لِـ "سوان"، بعدما أضحى زوجاً لِـ"أوديت"، أن يسمع السيّدة "بونتان" تقول إنّه من المضحك ألاّ يستقبل المرء سوى دوقات (ويستخلص من ذلك، بخلاف ما ربمّا فعله فيما مضى لدى آل "الفيردوران"، أنها امرأة طيّبة شديدة الذكاء وغير متحذلقة) وأن يروي لها حكايات تُضْحِكها إضحاكاً شديداً لأنهّا لا تعرفها، ولكنّها تدركها بسرعة إذ تحبّ التملّق والتسلية.

وكانت السيّدة "سوان" تسأل السيّدة "كوتار" قائلة: "الدكتور إذن لا يهيم مثلك بالزهور؟"

– "أوه! تعلمين أن زوجي حكيم، فهو معتدل في كل شيء بلى، إنّ له مع ذلك هوى واحداً".وتسأل السيّدة "بونتان"، والعين تلتمع سوء نيّة وفرحاً وفضولاً: "وأيّ هوى يا سيّدتي؟" وتجيب السيّدة "كوتار" ببساطة: "القراءة" فتصرخ "السيّدة "بونتان" وهي تكتم ضحكة شيطانية: "أوه! إنّه هوى لدى الأزواج لا يورث المتاعب!" – "حينما يغوص الدكتور في كتاب، أنت أدرى!" – "حسن، ينبغي أن لا يخيفك الأمر كثيراً يا سيّدتي."

– "بلى! . فيما يتعلّق ببصره ها إني ذاهبة لملاقاته يا "أوديت" وسأعود في أوّل يوم لأقرع بابك وهل قيل لك، إذ نحن بصدد البصر، أنّ الفندق الخاصّ الذي اشترته السيّدة "فيردوران" منذ وقت قصير سوف ينار الكهرباء؟ والأمر لم يردني من شرطتي الخاصّة، بل من مصدر آخر: إنّه الكهربائي "ميدليه" بذاته الذي نقل إليّ ذلك ترين أنني أستشهد بمُخْبِريّ! حتى حجرات النوم سوف توفّر لها مصابيحها الكهربائية بعاكس ضوئيّ يلطف النور. ذلك بالطَبع ترف رائع. ونساؤنا المعاصرات على أية حال يطلبن الجديد بإصرار حتى لو لم يظل جديد في العالم. ثمة شقيقة زوج إحدى صديقاتي تملك الهاتف في منزلها! وبوسعها أن توصي على حاجاتها لدى لدى أحد الباعة دون أن تغادر شقتها! وأعترف أني لجأت إلى أتفه الأساليب كي يؤذن لي أنني لا أود امتلاك هاتف في بيتي، فلا بد أن يضحي، بعد انقضاء الفرحة الأولى، مصدر إزعاج أكيد. ها إني أنجو بنفسي يا "أوديت"، فلا تحتجزي السيدة "بونتان" من بعد ما أنها تتكفل بي، إذ لابد لي حتماً من مغادرة المكان، إنك تحملينني على إتيان رائع الأعمال، فسوف تتم عودتي بعد وصول زوجي!"

كان لابد لي أنا الآخر أن أعود قبلما أتذوق متع الشتاء تلك التي بدت لي أزهار الأقحوان وكأنها غلافها المتألق. لم تكن تلك المتع قد حلتْ بعد ولم يبد مع ذلك أن السيدة "سوان" أمراً ما. فقد تركت الخدم يرفعون الشاي كما لو أنها تعلن قائلة: "حان الإغلاق" ! إلى أن تقول لي في النهاية: "أأنت ذاهب حقاً؟ إذن إلى اللقاء"! كنت أحسن أنه كان بإمكاني البقاء دون ملاقاة هذه المتع المجهولة وأن كآبتي لم تقم وحدها بحرماني منها. أفما كانت واقعة على تلك الطريق التي ترتادها الساعات المؤدية دوماً على جناح السرعة إلى لحظة المغادرة، بل على درب مختصر أجهله وكان عليّ أن أنعطف فيه؟ بيد أن هدف زيارتي قد تم بلوغه على الأقل، فسوف تعلم "جيلبيرت" أنني جئت إلى منزل ذويها عندما لم تكن هناك. (وكانت زوجة الدكتور تضيف قولها، ولم يسبق لها أن رأتها تبذل هذا المقدار من الجهد: "لابد أن تمتلكا سوية ذرات معقوفة.") سوف تعلم أنني تحدثت عنها كما كان يجدر بي أن أفعل، بحنان، لكنّما لم يكن بي ذلك العجز عن العيش دون أن يرى أحدنا الآخر والذي كنت أظنه في أساس الملل الذي أحسّت به في هذه الفترة الأخيرة بالقرب مني. لقد قلت للسيدة "سوان" إنني لن أستطيع لقاء "جيلبيرت" من بعد. وقلت ذلك كما لو قررت ألا أراها من بعد إلى الأبد. والرسالة التي كنت أزمع إرسالها لِ "جيلبيرت" سوف تصاغ بالمعنى نفسه. ولكني ما كنت أضع نصب عيني، كيما أزود نفسي بالحشاعة، سوى جهد أخير ويسير يمتد أياماً قليلة. وكنت أقول في نفسي: "إنه آخر موعد لها أرفضه وسأقبل بالتالي." وكيما يبدو لي الانفصال أقل عسراً في التحقيق لم أكن أتصوره نهائياً ؛ ولكني أحس تمام الإحساس أنه كذلك.

وقد جاء الأوّل من كانون الثاني مؤلماً بوجه خاص بالنسبة إلى في ذلك العام. كل شيء لاشك مؤلم، عندما يكون المرء تعيساً، إن برز بمثابة حدث تاريخيّ وذكرى. فلئن كان على سبيل المثال من جراء فقدان شخص عزيز فإنما يقوم العذاب حصراً في مقارنة بالماضي أوفر حيوية. وكان ينضاف إلى ذلك في حالتي الخاصة الأمل الخفيّ بأن "جيلبيرت"، بعدما أرادت أن تدع لي المبادرة في اتخاذ الخطوات الأولى ولاحظت أني لم أقم بها، لم تنتظر سوى ذريعة الأول من كانون الثاني كي تكتب إليّ: "ولكن ما الخبر؟ إنني أهيم بك، فتعال كي نتفاهم بصراحة فلست أطيق العيش دون أن أراك."

وبدت لي تلك الرسالة مرجحة منذ أواخر أسام السنة. ولعلها لم تكن كذلك ولكن الرغبة والحاجة التي بنا إليها كافيتان كيما نعتقد أنها ذلك فالجندي على يقين بأن مهلة قابلة للتمديد إلى مالا نهاية سوف يُمنحها قبل أن يُقتل، والسارق قبل أن يقبض عليه، والبشر بعامة قبل أن يكتب لهم الموت. تلك هي التميمة التي تحمي الأفراد – والشعوب أحياناً –، لا من الخطر، بل من خشية الخطر، وفي الواقع من الاعتقاد بالخطر، الأمر الذي يمكّن في بعض الحالات من تحدي المخاطر دونما حاجة إلى شجاعة. إن ثقة من هذا القبيل معدومة الأساس إلى هذا الحد إنما تقوي العاشق الذي يتكل على مصالحة، على رسالة. ولعله كان يكفيني كي لا أنتظرها أن أكون كففت عن تمنيها. ومهما على المرء أنه غير مبال بتلك التي لا يزال يحبها فإنه يحمّلها مجموعة من الأفكار – وإن جاءت من قبيل اللامبالاة – ونية في إبرازها وتعقيداً في حياتها الداخلية هو فيها ربما موضوع

نفور وكذلك موضوع اهتمام دائم. ولعله ينبغي لي، كيما أتخيل على العكس ما كان يدور في خلد "جيلبيرت"، أن أستطيع منذ الأول من كانون الثاني هذا أن استبق فحسب مالعلّين كنت أحس به في الأول من كانون الثاني من السنوات التالية التي ربما لم ألاحظ فيها اهتمام "جيلبيرت" أو صمتها أو حنانها أو جفاءها والتي ما كنت لأفطن فيها، وحتى لم يسعني أن أفطن فيها إلى البحث عن حل المشكلات التي يكون قد توقف طرحها بالنسبة إليّ . ذلك أننا حينما نحب يبدو الحب أوسع من أن نحتويه كله فينا، فيشع باتجاه الشخص المحبوب ويلاقي فيه مساحة تستوقفه وتضطره إلى العودة باتجاه نقطة انطلاقه، وإنما ارتداد مودتنا هذا هو الذي ندعوه مشاعر الآخر وما يفتننا أكثر من انطلاقه لأننا لا نتعرّف أنه ينبع منا.

ودقت ساعات الأول من كانون الثاني جميعها دون أن تصل رسالة "جيلبيرت" تلك. ولما تلقيت في ٣و٤ كانون الثاني بعض رسائل التمنيات المتأخرة أو التي أخرها ازدحام البرد في ذلك التاريخ فقد ظل يداعبني الأمل ولكن على نحو أقل فأقل. وبكيت كثيراً في الأيام التي تلت. وكان مرد ذلك بالتأكيد أنني لما كنت أقل صراحة مما ظننت حينما تخليت عن "جيلبيرت" فقد ظللت أحتفظ بأمل رسالة منه بمناسبة العام الجديد. وإذ رأيت ذلك الأمل يُستَنفد قبل أن يتسع لي الوقت لأحتاط لنفسي بآخر، فقد أخذت أتعذب كمريض أفرغ قارورة المورفين دون أن يكون في حوزته قارورة ثانية. ولكن ربما قرّب فيّ الأمل الذي بي في أن آخذ في النهاية رسالة – ولا يتنافى هذان التفسيران لأن عاطفة واحدة تتألف أحياناً من متناقضات – ربما قرب مني صورة "جيلبيرت" وأعاد تشكيل الانفعالات التي كان يبعثها فيّ بالأمس أمل أن أكون بالقرب منها ورؤيتها وأسلوبها معي. وقد مضى إمكان قيام مصالحة فورية على هذا الأمر الذي لا ننتبه لجسامته، عينا التسليم. إن مرضى الأعصاب لا يستطيعون تصديق الناس الذين يؤكدون لهم أنهم سينعمون بالهدوء شيئاً فشيئاً إن ظلوا في سريرهم دون تسلم رسائل ودون قراءة صحف، ويتصورون أن هذا النظام لن يفضي إلا إلى زيادة حدة عصبيتهم. كذلك لا يستطيع العاشقون الاعتقاد بالقوة الخيرة الكامنة في الزهد بالأمور لأنهم ينظرون إليه من صميم حالة مضادة إذا لم يبدؤوا باختباره.

وبسبب عنف دقات قلبي حملوني على تقليل الكافيئين فتوقفت. حينئذ تساءلت إن لم يكن القلق الذي عانيت منه حينما اختصمت تقريباً مع "جيلبيرت" والذي كنت أرده في كل مرة يتجدد فيه إلى العذاب الناجم عن أني لن أرى صديقتي من بعد أو عن خطر ألا أراها إلا وهي فريسة المزاج المعكر نفسه، تساءلت إن لم يكن ذلك القلق ناجماً عنها. ولكن إن اتفق لهذا الدواء أن يكون سبباً للآلام التي ربما فسرها خيالي آنذاك تفسيراً كاذباً (الأمر الذي لا تداخله أية غرابة، إذ غالباً ما يكون سبب أكثر الآلام الأدبية قسوة لدى العشاق التعود الجسدي على المرأة التي يعيشون معها) فإنما على عرار شراب الحب الذي يستمر يربط بين "تريستان" و"إيزولت" بعد ابتلاعه بزمن طويل ذلك أن التحسن الجسدي الذي حملته إليّ الكافيئين في الحال تقريباً لم يوقف تطور الغم الذي إن لم يبعثه ابتلاع المادة السامة فقد أفلح على الأقل في زيادة حدته. ولكن حينما اقترب منتصف شهر كانون الثاني وبعدما خابت آمالي فير رسالة بمناسبة رأس السنة وهدأ العذاب الإضافي الذي رافق

خيبتها، كان ما عاودني ثانية غمٌّ "ما قبل الأعياد". وربما كان أقسى مافيه أنني كنت بنفسي صانعه الواعي المصمم القاسي الصور. فالشيء الوحيد الذي كان يهمني، أي علاقتي بـ"جيلبيرت"، إنما كنت أعمل بنفسي على جعلها مستحيلة إذ أخلق شيئاً فشيئاً من جراء الفراق المطوّل لصديقتي، لا قلة اكترائها، بل قلة اكتراثي، والأمر واحد في نهاية المطاف. وإنما كنت أوالي الجهد في سبيل انتحار الأنا التي تحب "جيلبيرت" في داخلي، انتحار بطيء وقاسٍ، وذلك باستمرار وبوضوح في الرؤية لا يشمل ما كنت أفعله في الوقت الراهن فحسب، بل ما سوف ينتج عنه في المستقبل: فقد كنت أعلم أنني لن أحب "جيلبيرت" بعد مضيّ بعض الوقت، بل إنها سوف تتحسر على ذلك وإن المحاولات التي ستقوم بها آنذاك كيما تراني سوف تكون في عقم محاولات اليوم لا لأنني سأزداد بها حباً، بل لأنني سأحب بالتأكيد امرأة أخرى سوف أقعد في اشتهائها وانتظارها ساعات لا أجرؤ أن اقتطع منها جزء صغيراً في سبيل "جيلبيرت" التي لن تؤلف شيئاً من بعد في نظري. وفي هذه اللحظة نفسها التي فقدت فيها "جيلبيرت" (بما أنني كنت عازماً ألا أراها من بعد إلا في حال التماس صريح للمصارحة وبوح شامل بحبها، وهما أمران لم يظل لهما أي نصيب من الحدوث) وازددت حباً بها (فقد أخذت أحس بكل ما تمثله بالنسبة إلي أفضل من السنة السابقة حينما كنت أظن، إذ أقضي كامل ساعات ما بعد الظهر معها حسبما كنت أريد، أن لا شيء يهدد صداقتنا)، لا شك أن الفكرة القائلة بأنني سوف أحس ذات يوم بالمشاعر نفسها حيال امرأة أخرى إنما كانت في تلك اللحظة بغيضة عندي لأن تلك الفكرة كانت تسلبني، بالإضافة إلى "جيلبيرت"، حبي وعذابي: حبي وعذابي اللذين كان لابد أن أعترف بصددهما أنهما ليسا أمراً خاصاً بها وسوف يضحيان، عاجلاً أم آجلا، من نصيب هذه المرأة أو تلك حتى ليبدو المرء دوماً - وكانت تلك على الأقل طريقتي في التفكير آنذاك - متجرداً عن الكائنات: فحينما يحب يحس بأن هذا الحب لا يحمل اسمها ويمكن أن يتجدد في المستقبل، وربما أمكن أن يرى النور في الماضي، من أجل امرأة أخرى لا من أجل تلك ؛ وإن هو سلم فلسفياً، في الوقت الذي لا يحب فيه، بما هنالك من تناقض في الحب، فإنما يعني ذلك أن الحب الذي يتحدث عنه مطمئن البال لا يحس به آنذاك ولا يعرفه إذن إذ المعرفة في هذه الشؤون متقطعة ولا تبقى عقب الوجود الفعلي للعاطفة. ولعل الوقت كان لا يزال يتسع بالتأكيد لتحذير "جيلبيرت" من أن ذلك المستقبل الذي لن أحبها فيه من بعد، والذي كان عذابي يعينني على استشفافه دون أن يتمكن خيالي بعد من تمثله تمثلا واضحاً، سوف يتكون شيئاً فشيئاً وأن حلوله أضحى محتماً على الأقل، إن لم يكن وشيكاً، إن لم تهبّ بنفسها، هي "جيلبيرت" إلى مساعدتي ولم تقضِ على لا مبالاتي الآتية في مهدها. وكم من مرة كنت على وشك أن أكتب إلى "جيلبيرت" أو أن أبادر لأقول لها: "احترسي فقد حزمت أمري، إن المسعى الذي أقوم به مسعى نهائي وإني أراك للمرة الأخيرة. عما قليل لن أحبك من بعد" وما نفع ذلك؟ فبأي حق ألوم "جيلبيرت" على لا مبالاة كنت أبديها إزاء كل ما عداها دون أن أخالني مذنباً من جراء ذلك؟ المرة الأخيرة! كان يبدو لي، فيما يخصني أمراً هائلاً لأنني كنت أحب "جيلبيرت" أما فيما يخصها فربما أثّر فيها الأمر بلا ريب بقدر تلك الرسائل التي يطلب فيها أصدقاء المجيء لزيارتنا قبل أن يهجروا الوطن، تلك الزيارة التي نرفضها كما نفعل مع النساء المملات اللواتي يحببننا لأن ثمّة متعاً تنتظرنا.

إن الوقت الذي بحوزتنا في كل يوم مطاط، فالأهواء التي نحس بها تمدده وتلك التي نثيرها في الغير تقلصه، والعادة تملؤه.

ولعلني عبثاً كنت سأتحدث إلى "جيلبيرت" فما كانت لتسمعني فإننا نتخيل على الدوام حينما نتكلم أن آذاننا وعقلنا هي التي تصغي. وما كانت أقوالي لتصل إلى "جيلبيرت" إلا محرفة وكأنما وقع عليها أن تجتاز الستار المتحرك لأحد الشلالات قبلما تصل إلى صديقتي مشوهة المعالم تصدر رنة مضحكة ولم تعد تحمل أيّ معنى. إن الحقيقة التي نضعها في الكلمات لا تشق طريقها مباشرة ولا تتمتع ببداهة لا تُقاوم فلا بد من انقضاء زمن كاف كيما تستطيع حقيقة من الطراز نفسه أن تتكون في صدورهم. حينئذ يشاطر الخصم السياسي الذي كان يعد معتنق العقيدة المضادة خائناً على الرغم من جميع الحجج وجميع البراهين، يشاطر المعتقد المقيت الذي لم يعد يهتم به ذاك الذي كان عبثاً يحاول نشره. حينئذ سيتم الإعلان عن الرائعة التي كانت تبدو في نظر المعجبين الذين يقرؤونها بصوت عالٍ وكأنها تُبرز في ذاتها براهين جودتها ولا تحمل للذين يصغون إليها سوى صورة سخيفة أو ضحلة، سيتم الإعلان عنها أنها رائعة في وقت متأخر جداً حتى يستطيع المؤلف الاطلاع على الأمر. كذلك الحواجز في الحب لا يمكن، مهما فعل المرء، تحطيمها من الخارج على يد ذاك الذي تبعث اليأس في نفسه، فاذا بتلك الحواجز تسقط فجأة، حين لم يعد يهتم بها، من جراء جهد جاء من جهة ثانية وتم في داخل تلك التي لم تكن تحب، إذا بها تسقط دون فائدة وقد هوجمت بالأمس دون جدوى. فلو أنني جئت أعلن لِ "جيلبيرت" عن لامبالاتي الآتية وعن وسيلة تلافيها لاستخلصت من ذلك المسعى أن حبي لها والحاجة التي بي إليها كانا أكثر قوة مما ظنت ولازداد بذلك ضيقها من أنها تراني. وصحيح على أية حال أن ذلك الحب هو الذي كان يعينني، بفضل الحالات الذهنية المختلفة التي يجعلها تتوالى في داخلي، على توقع نهاية ذلك الحب أفضل منها. ولعلي ربما وجهت مع ذلك مثل هذا التحذير بالمراسلة أو شفوياً لِ "جيلبيرت" بعدما يمر زمن كاف يجعلها بالحقيقة في نظري أقل لزوماً ولكنه استطاع أن يبرهن كذلك أنها لم تكن على تلك الصورة بالنسبة إلي بيد أن بعض الأشخاص لسوء الحظ حدثوها عني، بقصد الإحسان أو الإساءة، بطريقة لابد حملتها على الاعتقاد بأنهم إنما يفعلون نزولا عند رغبتي. وفي كل مرة كان يبلغني هكذا أن "كوتار" وأمي نفسها وحتى السيد "دو نوربوا" قد جعلوا، من جراء أقوال غير حاذقة، كل التضحية التي أقدمت عليها غير ذات جدوى وأفسدوا كامل نتيجة تحفظي إذ أظهرتني زواراً بمظهر من تُخلِّيَ عنه، كنت أعاني إزعاجاً مزدوجاً. فلم يعد بوسعي بادئ الأمر أن أؤرخ امتناعي الشاق والمثمر الذي قطعه المزعجون على غير علم مني وقضوا عليه بنتيجة ذلك إلا بتاريخ ذاك اليوم. ولعلي كنت إلى ذلك سأصيب متعة أقل في رؤية "جيلبيرت" التي كانت تحسبني الآن لا مسلِّماً تسليماً كريماً من بعد، بل أناور في الظلام في سبيل مقابلة أنفت أن تمنحني إيّاها. وكنت ألعن تلك الثرثرة الفارغة لأناس يسببون لنا في الغالب، دون أن يقصدوا الإساءة أو إسداء الخدمة وفي سبيل لا شيء لمجرد الكلام، وأحياناً لأننا لم نستطع حجب النفس عن التحدث في حضرتهم وأنهم لا يكتمون سراً (مثلنا)، الكثير من الأذى في الوقت المناسب. صحيح أنهم في العملية المشؤومة التي تتم لتهديم حبنا بعيدون عن أن ينهضوا بدور مساو لشخصين تعودا أن يخربا كل

شيء لحظة توشك الأمور أن تتدابر، الأول لفرط في الطيبة والآخر لفرط في الأذية. ولكننا لا نحقد على هذين الشخصين مثل حقدنا على الزوجين المزعجين من آل "موتار" لأن الآخر هو الشخص الذي نحبه والأول نحن.

وبما أن السيدة "سوان" كانت تدعوني، في كل مرة تقريباً أذهب فيها لزيارتها، أن اجيء لتناول العصرونية مع ابنتها وتقول لي أن أرد عليها مباشرة، فقد كنت أكتب كثيراً لِ "جيلبيرت" وما كنت أختار في مراسلاتي هذه الجمل التي ربما وسعها فيما يبدو لي أن تقنعها، بل أحاول فحسب أن أمهد أعذب المجاري لانسياب دموعي. فالأسف، شأن الشوق، لا يحاول تحليل ذاته بل إشباعها. فحينما يأخذ المرء في الحب يقضي الوقت لا في معرفة ماهية حبه بل في إعداد إمكانات اللقاء في الغد. وحينما يتخلى، فإنه يحاول لا معرفة غمه بل أن يقدم عنه لتلك التي هي علته التعبير الذي يبدو من أكثرها رقة. ويقول المرء الأشياء التي يشعر بالحاجة إلى قولها والتي لن يفهمها الآخر فلا يتحدث إلا لنفسه. كنت أكتب مثلا : ظننت الأمر غير ممكن، وأرى، واأسفي، أنه ليس عسيراً إلى هذا الحد." وكنت أقول أيضاً: "يُحتمل ألا أراك من بعد." أقول ذلك وأنا أوالي الاحتراس من برود ربما استطاعت أن تظنه متكلفاً، وكانت تلك الكلمات تبكيني ساعة أسطرها لأنني كنت أحس أنها تعبر لا عما كنت أود أن أصدقه بل عما سوف يحدث في الواقع إذ سوف تتوافر لي الشجاعة أيضاً، لدى رغبتها المقبلة في اللقاء التي ستبعث بها إلي، كي لا أستسلم، شأني في هذه المرة، ولسوف أصل شيئاً فشيئاً إلى اللحظة التي لن أرغب فيها مشاهدتها من بعد لكثرة مالا أراها. وكنت أبكي ولكنني أجد الشجاعة وأعرف حلاوة التضحية بسعادة الوجود بالقرب منها في سبيل إمكان أن أحسن في عينيها ذات يوم، ذات يوم يكون سواء فيه عندي، واأسفي، أن أحسن في عينيها. والافتراض نفسه، وهو بعيد الاحتمال، بأنها تحبني في هذه اللحظة مثلما سبق أن ادعت في الزيارة الأخيرة التي قمت بها، وأن ما كنت أحسبه مللا يحس به المرء بالقرب من فرد سئم منه لم يكن ناجماً إلا عن حساسية غَيْرى وتظاهر باللامبالاة شبيه بما أبدي، كان ذلك الافتراض يقتصر على التقليل من قسوة مقصدي. كان يبدو لي آنذاك أنها سوف تجيبني، بعد انقضاء بضع سنوات وبعدما يتم لنا أن ينسى واحدنا الآخر وحينما يسعني أن أقول لها بعد الأوان إن هذه الرسالة التي كنت أسطرها لها في هذه اللحظة لم تكن صريحة ألبتة، سوف تجيبني قائلة: "ويحك! أكنت تحبني، أنت؟ فلو علمت كم كنت أنتظرها، تلك الرسالة، وكم كنت آمل لقاءك، وكم أبكتني!" وفيما كنت أكتب لها حال عودتي من لدن والدتها كانت الفكرة التي مفادها أنني كنت ربما آخذاً في ابتلاع سوء التفاهم هذا بالضبط، كانت تلك الفكرة من جراء كآبتها ذاتها ومن جراء متعة تخيلي أن "جيلبيرت" تحبني تدفعني إلى متابعة رسالتي.

ولئن كنت أفكر لحظة مفارقة السيدة "سوان" ساعة تنتهي حفلة الشاي لديها بما كنت أزمع أن أسطره لابنتها فقد خطر للسيدة "كوتار" فيما يخصها أفكار ذات طابع مغاير تماماً وهي تغادر المكان. فلم يفتها وهي تقوم "بجولة تفتيشية بسيطة" أن تهنئ السيدة "سوان" على الأثاث الجديد وعلى "المقتنيات" الأخيرة التي لاحظتها في الصالة. كان بوسعها أن تلقي بينها على أي حال بعض

الحاجات التي كانت تملكها "أوديت" فيما مضى في نزل شارع "لابيرو"، وإن كانت ضئيلة العدد، ولاسيما حيواناتها التي من مواد ثمينة ودماها.

ولما تعلّمت السيدة "سوان" من صديق كانت تجلّه لفظة "السواقي" - التي فتحت أمامها آفاقاً جديدة لأنها كانت تشير بالضبط إلى الأشياء التي سبق أن وجدها بالأمس "أنيقة" - فقد اتخذت كل هذه الأشياء على التوالي في اعتزالها الدرب الذي سلكه العريش المذهب الذي كانت تتكئ عليه أزهار الأقحوان والعديد من علب السكاكر من وارد "جيرو" وورق المراسلات ذو التاج (ونُمْسِكُ عن ذكر قطع العملة الكرتونيّة الصفراء المنثورة على صفحات المواقد والتي أشار عليها رجل رفيع الذوق، قبلما عرفت "سوان" بكثير، أن تضحّي بها). كان الشرق الأقصى في جميع الأحوال آخذاً أكثر فأكثر في التراجع أمام غزوة القرن الثامن عشر وذلك في الفوضى الفنية وفي تراكم المشاغل الذي يسود الحجرات ذات الجدران المطلية بألوان قاتمة تجعلها مختلفة أكثر ما يكون الاختلاف عن الصالات البيضاء التي اتّخذتها السيّدة "سوان" بعد ذلك بقليل ؛ ثم إن الوسادات التي كانت السيدة "سوان" تراكمها وتدعكها خلف ظهري كيما توفر لي راحة أكبر كانت تنتشر فوقها باقات من طراز لويس الخامس عشر لا تنانين صينية شأنها بالأمس. وفي الغرفة التي كنت تجدها أغلب الأحيان فيها والتي كانت تقول عنها: أجل، إني أحبها حباً كافياً وأقيم فيها كثيراً ولست أستطيع العيش وسط حاجات عدائية غليظة، فههنا أعمل" (دون أن توضح من ناحية أخرى إن كانت تعمل في لوحة أو ربما في كتاب، إذ أخذ الميل إلى كتابة الكتب يراود النساء اللواتي يحببن القيام بعمل ما وألا يكن غير نافعات)، كانت تحيط بها أواني "الساكس" (وهي تحب هذا النوع الأخير من البورسلين الذي تنطق اسمه بنبرة إنكليزية حتى لتقول بشأن كل شيء هذا جميل، إنه قريب الشبه بأزهار من "الساكس"). وكانت تخشى عليها، حتى أكثر مما تخشى بالأمس على قردتها وآنيتها الصينية، من لمسات الخدم الجاهلة، وكانت تجعلهم يكفّرون عن المخاوف التي سببوها لها بفورات غاضبة يشهدها "سوان"، ذاك المولى المهذب واللطيف، دون أن يثور لذلك فإن الرؤية الصافية لبعض مواطن النقص لا تنزع من الحنان شيئاً، وإنما يبرز هذا الحنان على العكس ظرفها.

وكان يندر الآن أن تستقبل "أوديت" معارفها الحميمين بمباذل يابانية، بل تفعل بالأحرى بمباذل من حرير فاتح الألوان ناعم من طراز "واتو"، كانت تحرك يدها كأنما لتداعب فوق نهديها زركشته الناعمة وتسبح في داخله وترتاح وتمرح بمظهر من الهناء وابتراد الجسم وبأنفاس عميقة حتى ليبدو أنها لم تكن تعده تزيينيّاً على غرار إطار، بل ضرورياً ضرورة الـ "Tub" والـ "Footing"(١) لإرضاء متطلبات وجهها وتأنقها في أمور الصحة. وكانت قد تعودت أن تقول إنها تتخلى بيسر أكبر عن الخبز منها عن الفن والنظافة وإنها ربما أصابها إن ترَ "الجو كونده" تحترق، غم أعمق مما يصيبها باحتراق جموع كثيرة من بعض من كانت تعرفهم. وهي نظريات تبدو مفارقة لصديقاتها ولكنها

(١) الحمام والسير على الأقدام، وقد أثبتنا اللفظتين كما وردتا في متن النص للتدليل على حذلقة السيدة "سوان" وشيوع بعض اللفظات الانكليزية لدى علية القوم ومن كان في حكمهم.

تظهرها لديهن بمظهر المرأة المتفوقة وتعود عليها مرة في الأسبوع بزيارة وزير بلجيكا حتى ليدهش الكل بحق في المجتمع الصغير الذي كانت كوكبه الساطع إن علموا أنها تعد بلهاء في محيط آخر، لدى آل "الفيردوران" على سبيل المثال. وبسبب سرعة الخاطر هذه، كانت السيّدة "سوان" تفضل مجتمع الرجال على مجتمع النساء. على أنها حينما كانت تنتقدهنّ فقد كانت تفعل دوماً بلسان المرأة اللعوب فتشير لديهنّ إلى العيوب التي يمكن أن تسيء إليهن لدى الرجال كالعلاقات الظاهرة والسحنة القبيحة والجهل بالإملاء والشعر الذي يغطّي الساقين والرائحة الكريمة والحاجبين الكاذبين. ولكنّها تبدي رقّة أكثر على العكس لتلك التي أبدت لها بالأمس تسامحاً ولطفاً ولاسيمّا إذا كانت هذه الأخيرة تعيسة. وتدافع عنها بمهارة وتقول: "الناس يظلمونها، فهي امرأة لطيفة بالتأكيد."

ولعلّ السيّدة "كوتار" وسائر الذين تردّدوا على السيّدة "دو كريسي"، لعلهم كانوا سيجدون مشقّة لا في تعرّف أثاث صالة "أوديت" فحسب، بل في تعرّف "أوديت" نفسها إن لم يشاهدوها منذ فترة طويلة. فما أكثر ما تبدو أصغر صناً ممّا مضى بسنوات عديدة! ويعود ذلك جزئياً ولا شكّ إلى أنها سمنت وبدا مظهرها، وقد أضحت أوفر عافية، أكثر هدوءً وطراوة وارتياحاً وإلى أن التسريحات الجديدة بفضل الشعور المالسة كانت تضفي من جهة ثانية مزيداً من الاتّساع على وجهها الذي تبعث الحيويّة فيه بودرة ورديّة اللون وحيث تبدو وعيناها وملامحها الجانبيّة، وهي شديدة البروز فيما مضى، تبدو الآن وكأنما امتص بروزها بيد أنّ ثمة سبباً آخر لهذا التغير قوامه أن "أوديت"، إذ بلغت منتصف العمر، وجدت أخيراً أو هي ابتدعت لنفسها محيّاً شخصيّاً و"طابعاً" لا يتبدّل و"صنفاً من الجمال" ووضعت هذا النموذج الثابت، وكأنّه شباب أزلي، فوق ملامحها المفكّكة التي ظلّت زمناً طويلاً تحت رحمة نزوات الجسد المنطوية على المخاطرة والعجز والتي يزيدها أقلُّ تعب يمتدّ للحظة سنوات ونوعاً من الشيخوخة العابرة، فألّفت لها كيفما اتّفق وجهاً مشتّتاً يوميّاً عديم الشكل فتّاناً يوافق مزاجها وهيئتها.

كان "سوان" يحفظ في غرفته، بدلاً من الصور الجميلة التي يأخذونها الآن لزوجته حيث يسمح التعبير الغامض الظافر نفسه بالتعرّف، أيّاً كان الفسطان وكانت القبّعة، إلى قوامها ومحيّاها المظفّرين، رسماً شمسيّاً صغيراً وقديماً وبسيطاً جدّاً، رسماً سابقاً لشخصيّتها هذه يبدو فيها شباب "أوديت" وجمالها غائبين إذ هي لم تحدهما بعد. وليس من شكّ أن "سوان"، وقد ظلّ أميناً لمفهوم مختلف أو هو عاد إليه، كان يتذوّق في المرأة الشابّة النحلية ذات العينين الحالمتين والملامح المتعبة والوقفة المتأرجحة بين المسير والجمود حسناً أقرب إلى نماذج "بوتيتشيللي"، فقد كان لا يزال يحبّ أن يبصر في زوجته نموذجاً من رسم "بوتيتشيللي". أمّا "أوديت" التي كانت تحاول، على العكس أن تجهد لا في إبراز ما لم يكن يروقها في شخصها وما ربمّا كان "طابعها" في نظر أحد الفنّانين، ولكنّها تراه عيباً من وجهة نظرها كامرأة بل في التعويض عنه وفي تخفيته، فلم تكن تودّ سماع من يتحدّث عن هذا الرسّام. وكان "سوان" يملك منديلاً شرقيّاً بديعاً أزرق ووردياً لأنّه كان بالضبط منديل عذراء "عظّمي يا نفسي"[1]. ولكنّ السيّدة "سوان" كانت لا تبغي ارتداءه. وقد

(١) الكلمات الأولى من ترنيمة دينية "magnificat"، والعذراء من لوحات "بوتيتشيللي".

سمحت مرّة واحدة لزوجها أن يوصي لها على ثياب تغطّيها أزهار البلّيس والترنشاه وعين الهدهد والجُرَيْسات من وحي لوحة الربيع الكائنة في مخزن "الربيع". وكان يطلب إلي أحياناً في المساء، وحين تكون متعبة، يطلب إليّ بصوت خفيض أن ألاحظ كيف كانت تكسب يديها الحالمتين، دون أن تنتبه لذلك، الحركة الدقيقة المضطربة بعض الشيء التي للعذراء وهي تغمس ريشتها في المحبرة التي يمدّها لها الملاك قبل أن تكتب على الكتاب المقدّس الذي سبق أن خُطّتْ فيه عبارة "عظّمي يا نفسي". ولكنّه يضيف قائلاً: "احرص أن لا تقول لها ذلك، إذ يكفي أن تعرف الأمر حتى تفعل عكسه."

كان جسم "أوديت" الآن، فيما عدا لحظات التراخي غير المقصود هذه التي يحاول "سوان" أن يلقي فيها خطوط "بوتيتشيللي" الكئيبة، يرتسم ضمن منظور قوام واحد يحيط به كلّه "خطّ" هَجَرَ، بغية الالتصاق بتقاطيع المرأة، والدروب المتموّجة وما نتأ وغار على نحو مصطنع وتداخل الشرائط وتشتّت أطرزة الماضي غير المتجانسة، ولكّنه عرف كذلك، حيثما تخطئ تقاطيع الجسم فترسم انعطافات غير ذات جدوى قبل الخطّ نواقص الجسم والقماش سواء بسواء لقد اختفت الوسائد والمقعد المطويّ الذي من الطراز القبيح واندثرت معها تلك الصدارات ذات الأذيال التي أضافت طويلاً لِـ"أوديت"، بتجاوزها التنورة وتصلّبها بوساطة قضبان دقيقة، بطناً مستعاراً وأظهرتها بمظهر من رُكِبّتْ من قطع متنافرة لا يربط بينها أي طابع مميّز. لقد تخلّت عاموديّة الخطوط الحادّة وانحناءة الأعشاش من مكانها لثنية جسم يولي الحرير خفقات مثلما تضرب الماءَ جنّيةُ البحر ويضفي على نسيج القطن الناعم تعبيراً إنسانياً الآن وقد تخلّص من طويل فوضى الأزياء البائدة ومن غلافها الغائم على هيئة شكل منظّم حيّ على أنّ السيّدة "سوان" أرادت، بل عرفت كيف تحتفظ بأثر لبعض منها في صميم تلك التي حلّت محلّها. فحينما كنت لا أستطيع في المساء أن أعمل وكنت على يقين من أن جيلبيرت" في المسرح بصحبة صديقات لها كنت أذهب على نحو مفاجئ إلى منزل والديها فأجد السيّدة "سوان" في الغالب ترتدي ثوباً بيتياً أنيقاً تعترض تنّورته - وهي بتلك الألوان الجميلة العاتمة، من أحمر غامق أو برتقالي، التي تبدو وكأنها تتّسم بدلالة خاصّة لأنهّا لم تعد دراجة - تعترضها بخطّ مائل حاشية محزّمة عريضة من الدانتيلا السوداء تذكر بكشاكش الأمس. وحينما اصطحبتني في يوم ربيعي ما يزال بارداً إلى حديقة الحيونات قبل خلافي مع ابنتها كان "فائض" صدريّتها المفرض يبدو، تحت سترتها التي تفتحها بهذا القدر أو ذاك حسبما تعاني من الحرّ أثناء سيرها، وكأنّه قفا صدار يتراءى لك، ولا وجود له، شبيه ببعض ما كانت ترتدي قبل بضع سنوات وكانت ترغب أن تكتسب حواشيها هذا التفريض الخفيف. وربطة عنقها - وهي من ذلك القماش السكوتلاندي الذي ظلّت مخلصة له ولكّنها خفّفت ألوانه إلى حدّ بعيد (فأضحى الأحمر وردياً والأزرق ليلكيّاً) حتى ليخيّل إليك تقريباً أنّه من قماش التافتا المدعو عنق الحمام، وهو إذ ذاك أحدث الحديث - كانت ربطة عنقها معقودة تحت ذقنها دون أن تتسنّى رؤية المكان الذي ربطت به وعلى نحو يذكّرك مرغماً "بسيور" تلك القبّعات التي لم تعد دارجة. وربمّا كان كافياً أن تستطيع المثابرة على هذا النحو بعض الوقت حتىّ يقول الشبّان وهم يحاولون فهم ملابسها: "أليس أن السيّدة "سوان" تمثّل عصراً بكاملة؟" ومثلما هي الحال في أسلوب جميل يراكم أشكالاً مختلفة

ويعزّز تقليداً خفيّاً كانت تلك الذكريات غير الواضحة في أثواب السيّدة "سوان" لصداري أو تجعيدات وأحياناً لنزعة تُكتّمُ في الحال إلى "هيّا إلى البحر" وحتى لتلميح بعيد وغامض إلى "إليّ أيها الشابّ"، كانت تبعث خلف الشكلِ المحسوس الشبه غير المكتمل بأشكال أخرى أكثر قدماً ما كان بالإمكان العثور عليها فيه وقد تحققت على يد الخيّاطة أو مصمّمة الأزياء، ولكنّ المرء يفكّر فيها دونما انقطاع، وتلفّ السيّدة "سوان" بشيء من النبل - وربمّا أدّت لا جدوى هذه الحلي إلى أن تبدو وكأنها تستجيب لهدف يتجاوز النفعيّة ربمّا بسبب الأثر الذي تحتفظ به من السنوات الماضية أو بسبب نوع من التفرّد في اللباس خاصّ بهذه المرأة كان يضفي على أكثر أثوابها اختلافاً هيئة العائلة الواحدة. كنت تحسّ أنها لا تلبس لراحة الجسم أو زينته فحسب، فقد كانت أثوابها تحيط بها وكأنهّا لبوس حضارة رقيقة اتخذت صفات روحيّة.

وحينما كان يقع على "جيلبيرت" التي كانت تقيم عصرونياتها عادة يوم استقبال أمّها أن تتغيّب بخلاف عادتها وأستطيع من جرّاء ذلك الذهاب إلى استقبال السيّدة "سوان"، كنت أجدها ترتدي أحد الفساطين الجميلة، وبعضها من التافتا، والبعض الآخر من الفاي أو المخمل أو حرير الصين أو الساتين أو الحرير، ولم تكن رخوة النسيج كالأثواب التي ترتديها في البيت على عادتها ولكنّما أُلِفَتْ أجزاؤها وكأنمّا للخروج خارجاً فكانت تضفي على بطالتها في المنزل ما بعد الظهر ذاك شيئاً من الرشاقة والنشاط. ولا شكّ أن قَصّتها البسيطة الجريئة كانت تلائم قوامها وحركاتها التي تبدو الأكمام وكأنهّا تولّف لونها الذي يتبدّل بتبدّل الأيّام لكأنمّا يخيّل إليك أنّ في المخمل الأزرق عزيمة مفاجئة وفي التافتا الأبيض ليونة في العريكة وأن ضرباً من الاحتشام العظيم المملوء أناقة في طريقة مدّ الذراع قد اتخذ كيما يصبح مرئيّاً مظهر الحرير الصينيّ الأسود، مظهراً تتألّق فيه بسمة التضحيات العظيمة. ولكنّ تعقيد الحلي التي لا فائدة منها عمليّاً ولا علّة وجود ظاهرة لها كانت تضيف إلى تلك الفساطين الزاهية في الوقت نفسه شيئاً من التجرّد والحلم والسرّ يتّفق والكآبة التي كانت السيّدة "سوان" تحتفظ بها على الدوام في الزرقة على الأقل التي تحيط بعينيها وفي سلاميات يديها. وتحت وابل محالب الحظ التي من الياقوت الأزرق والسرخس الرباعي الأوراق الذي من المينا وأيقونات الفضية والقلائد الذهبية والتمائم التي من فيروز وسلاسل الياقوت الأحمر وكرات الياقوت الأصفر كان في الفسطان نفسه هذا الرسم الملون الذي يوالي حياته السالفة فوق "ردة" من القماش، وصف الأزرار الصغيرة هذه التي من الساتين والتي ما كانت تزرر شيئاً ولا يمكن فكها وشرائط تحاول الإبهاج بدقة التركيز الرقيق واحتشامه، وكلها تبدو، بقدر ما تبدو الحلي تماماً - وليس لها فيما عدا ذلك ما يمكن أن يبررها، وكلاُنهّا تكشف عن مقصد، كأنها عربون مودة، كأنها تحتبس سراً وتستجيب لخرافة وتحفظ ذكرى شفاء أو أمنية أو حب أو لعبة حبات اللوز. وأحياناً يضفي ما يوحي بفتحة من طراز هنري الثاني في مخمل الصدار الأزرق وانتفاخ طفيف في فسطان الساتين الأسود إما أن يذكر في الأكمام قرب الكتفين بالثنيات المنفّخة لعام ١٨٣٠ وإما أن يذكر على العكس تحت التنورة "بأقفاص" من طراز لويس الخامس عشر، يضفي كلاهما على الفسطان مسحة خفية توحي بأنه حلي رسمية ويمزجان بشخص السيدة "سوان"، إذ يدسان تحت صفحة الحياة الحاضرة كأنما ذكريات مبهمة من الماضي، فتنة بعض بطلات التاريخ أو الروايات.

فإن حملتها على ملاحظة الأمر قالت: "لست ألعب "الغولف" كالكثيرات من صديقاتي، ولن أعذر على الإطلاق إن لبست كنزة من الصوف مثلهن."

وفي الفوضى التي تسود الصالة، كانت السيدة "سوان"، إذ تمر بالقرب مني وهي تعود من اصطحاب زائرة لوداعها أو تحمل صحناً من الحلوى لتقدمه لأخرى، كانت تنتحي بي جانباً مقدار ثانية: "لقد كلفتني "جيلبيرت" تكليفاً خاصاً بدعوتك للغداء بعد غد. ولما لم أكن متيقنة من مشاهدتك فقد كنت أزمع الكتابة إليك لو لم تجئ". وظللت أقاوم. وكانت تلك المقاومة تشق عليّ أقل فأقل، إذ عبثاً يحب المرء السم الذي يؤذيه فهو لا يستطيع، بعدما تحرمه إياه ضرورة، أية ضرورة، منذ وقت بدأ يطول، إلا أن يولي بعض الأهمية للراحة التي بات من قبل لا يعرفها ولغياب الانفعالات وصنوف العذاب. ولئن لم يكن المرء صادقاً أيضاً إن قال إنه يود رؤيتها ثانية. فما من شك أنه لن يطيق غيابها إلا إذا منّى النفس بقصره، إذ فكر باليوم الذي سيتم فيه اللقاء، على أن المرء يحس كم تصبح هذه الأحلام اليومية بلقاء قريب لا ينفك يؤجل أقل إيلاماً من لقاء يمكن أن تتبعه الغيرة إلى حد أن خبر العودة للقاء التي نحبها ربما خلف فينا انفعالا شديداً غير محبب. وليس ما يؤجله المرء الآن من يوم إلى يوم نهاية الضيق الذي لا يطاق الناجم عن الانفصال بل تجدّدٌ نَهَابُهُ لانفعالات لا تؤدي إلى نتيجة. وكم نفضل على مثل هذا اللقاء الذكرى الطيعة التي نكملها على هوانا بأحلام تبوح فيها تلك التي لا تحبنا في الواقع، تبوح على العكس بهواها حينما نكون وحدنا تماماً! لكم نفضل تلك الذكرى التي قد نفلح في جعلها عذبة بمقدار ما نبتغي إذا ما مزجنا فيها شيئاً فشيئاً الكثير مما نشتهي على اللقاء المؤجل الذي نواجه فيه شخصاً لم نعد نملي عليه وفق مرادنا الأقوال التي نشتهيها بل لعلنا سنعاني من صنوف جفائه الجديد وسوء معاملته اللامتوقعة! إننا نعلم جميعاً، يوم لا نحب من بعد، أن النسيان وحتى الذكرى الغائمة لا يسببان مقداراً كبيراً من الآلام بقدر ما يسبب الحب التعيس وإنما كنت أفضل، دون أن أقر لنفسي بالأمر، العذوبة المريحة لمثل هذا النسيان المستبق.

إن ما يمكن أن يكون شاقاً في مثل هذه المعالجة باللامبالاة النفسية والعزلة إنما يتناقص أكثر فأكثر لسبب آخر قوامه أنها تضعف تلك الفكرة الثابتة التي هي الحب بانتظار أن تشفيها. وكان حبي لايزال قوياً إلى حد كاف حتى أهتمّ باسترداد كامل هيبتي في عيني "جيلبيرت"، حتى إن كل يوم من تلك الأيام الهادئة الحزينة التي لا أراها فيها والتي تتوالى الواحد تلو الآخر دونما انقطاع ودونما تقادم (حينما لا يدس مزعج أنفه في شؤوني) ما كان يوماً ضائعاً بل يوم أكسبه، ولا جدوى ربما من كسبه إذ يمكن أن يعلن عما قليل أني شفيت. إن التسليم، وهو من نوع العادة، يسمح لبعض القوى بالتنامي إلى مالا حدود، والقوى اليسيرة التي توافرت لدي لاحتمال غمي في المساء الأول من خلافي مع "جيلبيرت" بلغت مذ ذاك قدرةً لا تحد. على أن نزوع كل ما هو كائن إلى الامتداد إنما تعترضه أحياناً إغراءات مفاجئة ننساق وراءها ويزيد من أننا لا نتورع من الانسياق أننا نعلم كم من الأيام بل الشهور استطعنا، ولعلنا لا نزال نستطيع حرمان النفس. فغالباً ما نفرغ دفعة واحدة كيس النقود الذي نوفر فيه لحظة يوشك أن يمتلي، ونوقف العلاج دون أن ننتظر النتيجة

وبعدما تم لنا تعوده ففي يوم كانت السيدة "سوان" تردد لي فيه أقوالها المألوفة حول الغبطة التي ستحل بِ "جيلبيرت" لو تراني، وتضع بهذا النحو السعادة التي كنت أحرم نفسي منها منذ زمن طويل وكأنما في متناول يدي اضطربت أيما اضطراب إذ أدركت أنه لا يزال بالإمكان تذوقها ؛ وشق عليّ انتظار الغد، فقد عزمت على المبادرة لمفاجأة "جيلبيرت" قبل عشائها. أما ما أعانني على الصبر على مدى نهار كامل فخطة رسمتها. فبما أن كل شيء ذهب طي النسيان وأنني تصالحت مع "جيلبيرت" لم أشأ أن أزورها من بعد إلا بثوب العاشقين. سوف تصلها مني في كل يوم أجمل الأزهار. فإن لم تسمح السيدة "سوان" مع أنه لا يحقّ لها أن تكون أماً بالغة الصرامة، بإرسال يومي للزهور فسوف ألقى هدايا أغلى ثمنا، ففكرت في إناء صيني من الخزف القديم وهبتني إياه عمتي "ليوني" وكانت أمي تتنبأ عنه في كل يوم بأن "فرانسواز" سوف تجيئ إليها قائلة: "لقد انفرط" ولن يظل منه شيء أفلم يكن من الحكمة في هذه الظروف أن أبيعه، أن أبيعه كي يمكنني توفير كامل ما أريد من متعة لِ "جيلبيرت"؟ كان يبدو لي أنني أستطيع أن أكسب به ألف فرنك وأمرت بلفّه. كانت العادة قد حالت دون أن أراه فكان لفراقه الفضل على الأقل في أني تعرفت بع. وحملته معي قبل أن أذهب إلى منزل "عائلة سوان" وحينما زودت الحوذي بالعنوان قلت له أن يجعل طريقه من "الشانزيليزيه" وفي زاويته مخزن تاجر أوان صينية كبير كان يعرفه والدي وقد نقدني في الحال، وأنا في ذهول شديد، لا ألف فرنك مقابل الإنّاء الصيني، بل عشرة آلاف. وأخذت تلك الأوراق النقدية مغتبطاً. فسوف أستطيع على مدى سنة كاملة أن أغمر "جيلبيرت" كل يوم بالورود، وأزهار الليلك. وعندما صعدت إلى العربة بعد فراق البائع، ألفى الحوذي نفسه، على نح وطبيعي جداً، ينحدر في شارع "الشانزيليزيه"، بدلا من الطريق المعتادة، بما أن عائلة "سوان" كانت تقطن بالقرب من "الغابة". وكان قد جاوز زاوية شارع "بيري" حينما خلتني في الشفق أتعرف "جيلبيرت" قريباً جداً من منزل عائلة "سوان" ولكنها تمضي في الاتجاه المعاكس، مبتعدة عنه وتسير بخطى وئيدة ولكنها ثابتة إلى جانب شاب كانت تتحدث إليه ولم أتمكن من تمييز وجهه، وارتفعت في العربة ومرادي أن أوقفها ثم ترددت. فقد أضحى المتنزهات بعيدين بعض الشيء وراح الخطان الناعمان المتوازيان اللذان يخطهما مشوارهما البطيء يغيبان في ظلام "الإيليزيه". ووصلت بعد قليل أمام منزل "جيلبيرت" فاستقبلتني السيدة "سوان" وقالت لي: "سوف تغتم لذلك، ولست أدري كيف أنها غير حاضرة، لقد أحست بحر شديد منذ قليل في أحد الدروس فقالت لي إنها تبغي التفسح قليلا مع واحدة من صديقاتها." - "أظن أني لمحتها في شارع الـ "الشانزيليزيه". - "لا أظنها كانت هي. وعلى أي حال لا تقل ذلك لوالدها فإنه لا يحب أن تخرج في مثل هذه الساعات Good Evening."(١) وذهبت وقلت للحوذي أن يسلك الدرب نفسه ولكني لم أعثر على المتنزهين الاثنين. فأين ذهبا؟ وماذا كان يقول أحدهما للآخر في المساء بمظهر التسارّ ذاك.

وعدت وأنا أمسك يائساً بالعشرة آلاف فرنك غير المؤمّلة التي كان لابد لها أن تمكّنني من توفير العديد من المتع الصغيرة لِ "جيلبيرت" تلك التي صممت الآن أن لا أراها من بعد. وما من

---

(١)وردت بالإنكليزية في متن النص.

شك أن ذلك التوقف لدى بائع التحف الصينية قد ملأني غبطة إذ جعلني آمل أنني لن أرى صديقتي من بعد ألبتة إلا راضية عني وشاكرة على أنّي لو لم أقم بذلك التوقف ولو لم تسلك العربة شارع "الشانزيليزيه" لما كانت التقيت بـ "جيلبيرت" وبذاك الشاب. وهكذا تحمل الواقعة الواحدة أغصاناً متعاكسة والمصيبة التي تورثها تبطل السعادة التي سبق أن سببتها. لقد وقع لي عكس ما يتم في الكثير الغالب، فأنت تشتهي متعة وتنقصك الوسيلة المادية لبلوغها لقد قال "لابروبير": "من تعس الحال أن يحب المرء دون ثروة كبيرة. ولا يظل لك سوى أن تحاول القضاء شيئاً فشيئاً على الرغبة في تلك المتعة. أما فيما يخصني فقد تم لي على العكس الحصول على الوسيلة المادية ولكنما اختلست مني في اللحظة نفسها تلك الغبطة على الأقل من جراء نتيجة مباغتة لذلك النجاح الأولي، إن لم يكن من جراء أثر منطقي له ويبدو على أية حال أنه لابد أن تختلس منا على الدوام. بيد أن ذلك لا يتم عادة، والحق يقال، في الأمسية نفسها التي اكتسبنا فيها ما يجعلها ممكنة. وفي أغلب الأحيان نوالي بذل الجهود والتأمل بعض الوقت. ولكن السعادة لا يمكن ألبتة أن تحصل. فإن أمكن التغلب على الظروف نقلت الطبيعة الصراع من الخارج إلى الداخل وحملت فؤادى على التبدل شيئاً فشيئاً بما يكفي ليرغب في غير ما سوف يمتلكه. وإن جاء التبدل سريعاً إلى حد أن فؤادنا على التبدل شيئاً فشيئاً بما يكفي ليرغب في غير ما سوف يمتلكه. وإن جاء التبدل سريعاً إلى حد أن فؤادنا لم يتسع له الوقت للتبدل فإن الطبيعة لا تفقد الأمل لذلك في التغلب علينا على نحو متأخر بالحقيقة وأكثر حذقاً ولكنه فعال إلى ذلك. حينذاك يُنتزع منا امتلاك السعادة في الثانية الأخيرة أو هو بالأحرى ذلك الامتلاك نفسه الذي توكل إليه الطبيعة بحلية شيطانية أن يهدم السعادة. فإنما تخلق الطبيعة، بعدما فشلت في كل ما كان في نطاق الوقائع والحياة، استحالة أخيرة، الاستحالة النفسية للسعادة. فظاهرة السعادة لا تتم أو تتسبب في أكثر ردود الفعل مرارة.

وشددت على العشرة الآف فرنك ولكنها لم تعد تفيدني في شيء. وقد أنفقتها على أية حال على نحو أسرع مما لو بعثت كل يوم بزهور إلى "جيلبيرت"، فقد كنت أجدني حينما يحل المساء تعيساً إلى حد لا أستطيع معه البقاء في المنزل فأبادر إلى البكاء في أحضان نسوة ما كنت أحبهن. فأما أن أحاول إدخال السرور على قلب "جيلبيرت"، فإني ما عدت أتمنى ذلك، إذ العودة إلى منزل "جيلبيرت" ماكانت إلا لتعذبني حتى لقاء "جيلبيرت"، ولعله كان البارحة شديد العذوبة بالنسبة إلي، ما كان ليكفيني من بعد، ذلك أنني كنت سأظل قلقاً طوال الوقت الذي لا أكون فيه بالقرب منها. وإنما ذلك ما يقضي إلى أن تزيد امرأة من سلطانها علينا وكذلك من متطلباتنا إزاءها من جراء أي عذاب جديد تسببه لنا دون أن تدري في الغالب. وبفضل الأذى الذي ألحقته المرأة بنا تضّيق علينا أكثر فأكثر وتضاعف من قيودنا وكذلك من تلك التي ربما بدا لنا كافياً حتى ذاك أن نكبلها بها حتى نحس أننا مطمئنو البال. ولعلني كنت أكتفي أمس فقط، لو لم أحسب أنني أزعج "جيلبيرت"، بالمطالبة بلقاءات قليلة، تلك اللقاءات التي ما عادت لترضيني الآن والتي لعلني كنت أستبدل بها شروطاً أخرى. ذلك لأن المرء في الحب يجعلها أكثر قسوة، بخلاف ما يجري بعد المعارك، ولابيي يتشدد فيها كلما ألحقت به الهزيمة إن كان بالطبع في وضع يمكنه من فرضها. ولم تكن تلك حالي فيما يخص "جيلبيرت" ولذلك فضلت بادئ الأمر ألا أعود إلى منزل والدتها. لقد ظللت

أقول لنفسي إن "جيلبيرت" لا تحبني وإني أعلم ذلك منذ وقت طويل وإني أستطيع لقاءها من جديد إن شئت وأستطيع، إن لم أشأ، أن أنساها مع الأيام. ولكن تلك الأفكار، شأن دواء لا أثر له ضد بعض الإصابات، كانت مجردة من أية قدرة فعالة ضد ذينك الخطين المتوازيين اللذين أعود فأراهما بين الحين والحين، خطي "جيلبيرت" والشاب وهما يغيبان بخطى وئيدة في شارع "الشانزيليزيه". كان ذاك داء جديداً سوف يلحق به الوهن في النهاية، كان صورة سوف تراود خاطري ذات يوم وقد تخلصت من كل ما كانت تحوي من ضرر، كمثل تلك السموم القاتلة التي يتداولها المرء دون خطر، وكمثل قليل من الديناميت يستطيع المرء أن يشعل منه سيكارته دون أن يخشى الانفجار. وفي غضون ذلك كان في داخلي قوة أخرى تناضل بكامل قدرتها ضد تلك القوة الضارة التي كانت تمثل لي دون تغيير مشوار "جيلبيرت" في المساء: فقد كان خيالي يعمل باتجاه معاكس وعلى نحو مفيد كي يحطم هجوم ذاكرتي المتجدد. كانت أولى تلك القوتين توالي بالتأكيد إبراز ذينك المتنزهين في شارع "الشانزيليزيه" أمام ناظريّ وتقدم لي صوراً أخرى مزعجة مقتبسة من الماضي، كـ "جيلبيرت" على سبيل المثال وهي ترتفع بمنكبيها حينما كانت والدتها تطلب منها المكوث معي. ولكن القوة الثانية كانت تعمل على مصوّر آمالي فترسم مستقبلا أكثر اتساعاً وتساهلا من ذلك الماضي الضئيل والمحدود جداً. ففي مقابل دقيقة أرى فيها "جيلبيرت" متجهمة - كم كان ثمة من دقائق أدبر فيها مسعى يمكن أن تقوم به في سبيل مصالحتنا وربما خطوبتنا! صحيح أن هذه القوة التي كان الخيال يوجهها نحو المستقبل إنما كان يستقيها مع ذلك الماضي. فبقدر ما سيزول انزعاجي من أن "جيلبيرت" ارتفعت بمنكبيها، بذلك القدر سوف تتناقص كذلك ذكرى فتنتها، الذكرى التي كانت تجعلني أتمنى أن تعود إلي. على أني كنت لا أزال بعيداً جداً عن موت الماضي هذا. فقد كنت لا أزال أُحبّ تلك التي كنت أحسب بالحقيقة أني أكرهها. كنت أود أن تكون حاضرة في كل مرة يحدونني فيها حسن التسريحة وبأحسن عافية. وكنت أغضب من الرغبة التي أبداها العديد من الناس في ذلك الوقت في استقبالي لديهم ورفضت الذهاب. ووقع شجار في المنزل لأنني لم أصحب والدي إلى عشاء رسمي كانت تعتزم حضوره عائلة "بونتان" برفقة ابنة أخ لها تدعى "ألبيرتين" وهي صبية صغيرة لا تزال طفلة تقريباً. إن فترات حياتنا المختلفة تتداخل على هذا النحو الواحدة في الأخرى. فأنت ترفض بازدراء، من جراء ما تحب وما سوف يبدو لك في يوم غير ذي بال إلى حد بعيد، أن ترى ما لا تكترث له اليوم وما ستحبه في الغد وما ربما أمكن أن تحبه قبل ذلك، لو قبلت أن تراه، وكان قصّر بذلك عذابك الراهن ليحل محله بالحقيقة عذاباً آخر. أما عذابي فكان آخذاً في التحول، فقد كنت أدهش أن ألمح في أعماق ذاتي هذا الشعور في يوم، وشعوراً آخر في اليوم التالي يوحي بهما بعامة هذا الأمل أو تلك الخشية المتعلقان بـ "جيلبيرت"، "جيلبيرت" التي كنت أحملها في صدري. كان يجدر بي أن أقول لنفسي إن الثانية، إن "جيلبيرت" الحقيقية ربما كانت مختلفة تمام الاختلاف عن تلك وتجهل جميع صنوف الأسف التي أعزوها إليها وتفكر فيّ على الأرجح لا أقل مما أفكر فيها فحسب بل مما أجعلها تفكر فيّ حينما أكون وحيداً مع "جيلبيرت" الوهمية وأبحث عما يمكن أن تكون نواياها الحقيقية تجاهي وأتخيلها على هذا النحو تصرف انتباهها على الدوام إليّ.

وفي أثناء هذه الفترات التي يستمر فيها الغم فيما هو آخذ في التناقص لابد من التمييز بين الغم الذي يسببه لنا التفكير المستمر بالشخص نفسه وذاك الذي توقظه بعض الذكريات، كمثل جملة لاذعة قيلت أو فعل استخدم في رسالة وصلتنا، ولنقل، ونحن نستبقي أشكال الغم المختلفة لوصفها بمناسبة حب لاحق، إن أول هذين الشكلين أقل قسوة من الثاني بما لا يقاس. ومرد ذلك أن الفكرة التي نحملها عن الشخص إنما تزّينها، إذ هو يعيش باستمرار فينا، الهالة التي لا نلبث أن نعيدها إليه وتنطبع على الأقل بهدوء حزن مقيم إن لم تطبعها عذوبة الأمل المتكرر.(ولابد لنا، على أية حال، أن نلاحظ بأن صورة الشخص الذي يعذبنا إنما تشغل حيزاً ضيقاً في تلك التعقيدات التي تزيد من خطورة غم ناجم عن الحب وتطيل فيه وتحول دون شفائه، مثلما أساس بعض العلل بعيد عن أن يقاس بالحمى التي تنجم عنه والبطء في بلوغ النقاهة.). ولئن ينعكس على فكرة الشخص الذي نحبه وهج فكر متفائل بعامة، فما ذلك شأن تلك الذكريات الخاصة، تلك الأقوال اللاذعة، تلك الرسالة العدائية (إذ لم أتسلم سوى رسالة واحدة من هذا القبيل من "جيلبيرت")، ولكأنما يقيم ذلك الشخص نفسه في هذه الأجزاء الضيقة إلى حد بعيد وقد بلغ من القوة ما يصعب أن يبلغه في الفكرة المألوفة التي نكوّنها عنه بكليته. ذلك أننا لم نتأمل الرسالة، كما هو شأن المحبوب، في هدوء الأسف الحزين ؛ لقد قرأناها والتهمناها يلفنا القلق الفظيع الذي يعترينا من جراء مصيبة غير متوقعة. أما تكوّن هذا الضرب من الغموم فمختلف. إنها تأتينا من الخارج وقد اتخذت إلى فؤادنا درب العذاب الأكثر قسوة إن صورة صديقتنا التي نظنها قديمة وأصيلة إنما أعيد في الواقع رسمها مرات عديدة على يدنا. أما الذكرى القاسية فلا تزامن تلك الصورة التي تم إصلاحها، فهي من عصر آخر وأحد الشهود القلائل على ماضٍ رهيب. وبما أن ذلك الماضي مستمر الوجود ماعدا فينا، نحن الذين راقهم أن يُحِلّوا محله عصراً ذهبياً رائعاً وفردوساً سوف يتصالح فيه الجميع، فإن تلك الذكريات وتلك الرسائل تذكير بالواقع ويجدر بها أن تجعلنا نحس من جراء الألم المفاجئ الذي تخلفه فينا إلى أي حد نحن بعيدون عنه داخل جنون آمال انتظارنا اليومي، وليس يعني ذلك أن هذا الواقع ينبغي أن يظل على الدوام واحداً، مع أن الأمر يتفق أحياناً. ثمة نساء كثيرات في حياتنا لم نحاول أن نعود للقائهن في يوم وقد رددن بالطبع على صمتنا غير المقصود على الإطلاق بصمت مماثل، ولكننا لما كنا لا نحبهن فلن نعد السنوات التي قضيناها بعيداً عنهن، غير أننا لا نبالي بذلك المثال الذي ربما أبطله حينما نتفكر في فعالية العزلة كما لا يبالي أولئك الذين يعتقدون بالحدس بجميع الحالات التي لم يصدق فيها حدسهم.

على أن البعد يمكن أن يكون فعّالا، فالرغبة والتوق إلى لقاء جديد يعودان فيولدان في النهاية في القلب الذي يتجاهلنا حالياً. ولكن لابد لذلك من وقت، وليست متطلباتنا فيما يخص الزمان أقل حجماً من تلك التي يطالب بها القلب ليتبدل ولكن الزمن بالضبط أقل ما يسهل علينا إعطاؤه لأن عذابنا قاس ونحن نستعجل حلول نهايته. ثم إن هذا الزمن الذي يحتاج إليه القلب الآخر ليتبدل سوف يستخدمه قلبنا ليتبدل بدوره وما إن يصبح الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا قريب المنال حتى يكف عن كونه هدفاً بالنسبة إلينا. وفضلاً عن ذلك فإن الفكرة التي مفادها أنه سيضحي قريب المنال وأن ليس من سعادة إلا ونبلغها في النهاية حينما لا تبدو من بعد في نظرنا على أنها سعادة، إن

تلك الفكرة تتضمن جزءاً من الصحة، ولكنه جزء فحسب. إنه يضحي من نصيبنا بعدما أصبحنا لا نبالي به. ولكن هذه اللامبالاة جعلتنا بالضبط أقلّ تشدداً، وهي تمكننا من الاعتقاد بعد الأوان أنه ربما أبهجنا في فترة لعله كان يبدو لنا فيها ناقصاً إلى حد بعيد. فليس المرء متشدداً جداً ولا حكماً صالحاً جداً في مالا يهتم به. وإن لطافة شخص لم نعد نحبه، ولا تزال تبدو مفرطة بالنسبة إلى لامبالاتنا، ربما قصّرت كثيراً في إرضاء حبنا. إننا نفكر في المتعة التي ربما حملتها لنا تلك الأقوال الرقيقة وذلك الوعد باللقاء. لا بجميع الأقوال والوعود التي وددنا لو تتبعها في الحال والتي ربما حلنا دون أن تُنجَز من جراء طمعنا، حتى لا يبدو أكيداً أن السعادة التي جاءت في وقت متأخر جداً حينما لا نستطيع من بعد التمتع بها وحينما لم نعد نحب، هي السعادة نفسها تماماً التي جعلنا فقدانها فيما مضى في تعاسة شديدة. ثمة شخص وحيد يستطيع أن يفصل في الأمر، إنه أنانا في ذلك الحين، ولم تعد ههنا ؛ ولعله لاشك يكفي أن تعود حتى تضمحل السعادة، سواء أكانت مماثلة أم لا.

وبانتظار أن تتم بعد فوات الآوان هذه التحققات لحلم ربما ما اهتممت به من بعد، أخذتْ سلسلة من الصور العذبة المتجددة باستمرار، لشدة ما أبْتَدِعُ، شأني يوم كنت لا أكاد أعرف "جيلبيرت"، أقوالا ورسائل تلتمس فيها العفو مني وتقر أنها لم تحب في يوم سواي وتطلب الزواج مني، أخذت في النهاية تحتل في ذهني مكاناً أوسع من صورة "جيلبيرت" والشاب التي لم يعد شيء يغذيها. ولعلني ربما عدت مذ ذاك إلى منزل السيدة "سوان" لولا حلم وافاني وكان أحد أصدقائي، مع أنه ليس في عداد من كنت أعرفهم أصدقاء لي، كان يتصرف إزائي بأعظم قدر من الزيف، ويعتقد أني أقابله بالمثل. وإذ استيقظت على نحو مفاجئ من جراء الألم الذي سببه لي هذا الحلم ورأيت أنه مستمر، عدت أفكر فيه من جديد وحاولت أن أتذكر من كان الصديق الذي رأيته في نومي والذي لم يعد اسمه الأسباني واضحاً. وشرعت أفسر حلمي وأنا يوسف وفرعون في الآن نفسه. كنت أعلم أنه ينبغي في الكثير منها الا نأخذ في الحسبان حتى مظهر الأشخاص الذين ربما كانوا متنكرين أو هم تبادلوا وجوههم شأن هؤلاء القديسين المشوّهين في الكاتدرائيات والذين أعاد صنعهم علماء آثار جاهلون فوضعوا فوق جسم هذا الرأس ذاك وخلطوا بين صفاتهم وأسمائهم. فأمّا ما يحمل الأشخاص منها في حلم فيمكن أن يخدعنا، وينبغي أن نتعرّف إلى الشخص الذي نحبّه من جرّاء شدّة الألم الذي عانيناه. وقد أنبأني ألمي أنّ الشخص الذي ما زال يؤلمني زيفه القريب كان "جيلبيرت" التي انقلبت شاباً في أثناء نومي. وقد تذكرت آنذاك أنّها رفضت، وهي تضحك ضحكة غريبة، أن تصدّق نواياي الطيّبة فيما يخصهّا إمّا صادقة وإمّا متظاهرة بذلك، في آخر مرّة رأيتها فيها يوم منعتها أمّها من الذهاب إلى حفلة راقصة بعد الظهر. وقد جرّت تلك الذكرى أخرى ثانية في ذاكرتي بطريق التداعي. كان "سوان" منْ رفض قبل ذلك بكثير أن يؤمن بصدق ما أقول وبأنّني كنت صديقاً مخلصاً لِ "جيلبيرت". وعبثاً كتبت له فقد حملتْ "جيلبيرت" رسالتي وأعادتها لي بالضحكة الغامضة نفسها. على أنّها لم تُعدْهَا لي في الحال وقد تذكّرت كامل المشهد خلف دغل شجيرات الغار. والمرء يصبح أخلاقيّاً حالما يضحي تعيساً. وقد بدا لي نفور "جيلبيرت" الحالي مني بمثابة عقاب تُنزله الحياة بي بسبب المسلك الذي سلكته في ذلك اليوم. فالمرء يظنّ أنّه يتجنّب

صنوف العقاب لأنّه ينتبه للسيّارات لدى اجتياز الشارع وأنّه يتجنّب المخاطر. ولكنّ منها ما كان باطنيّاً. فالحادث يجيء من الجهة التي ما فطنت لها، من الداخل، من القلب. لقد أثارت كلمات "جيلبيرت": "فلنوال العراك، إن شئت" الاشمئزاز في نفسي. وتخيّلتها على تلك الصورة، ربّما في منزلها، في حجرة الثياب، مع الشاب الذي أبصرته برفقتها في شارع "الشانزيليزيه". وهكذا كنت مجنوناً، الآن وقد عدلت عن أن أكون سعيداً، أن أضع موضع اليقين أنّني أصبحت، أنّه يمكن أن أصبح على الأقل هادىء النفس، بقدر ما ظننت (منذ وقت قليل مضى) أنني أقيم ناعم البال في السعادة. فما دام قلبنا يحتبس على نحو مستديم صورة كائن آخر، فإن ما يمكن أن يتهدم في كل لحظة لا يقتصر على سعادتنا فحسب، فإنّ ما يبدو، بعدما تتلاشى تلك السعادة، بعدما تعذّبنا ثمّ أفلحنا في تخدير عذابنا، خدّاعاً وزائلاً بقدر ما كانت السعادة نفسها إنّما هي راحة البال. وقد عادت إليّ راحة البال في نهاية المطاف، لأنّ ماداخل عقلنا بفضل أحد الأحلام فبدّل حالتنا النفسية ورغباتنا إنمّا يتلاشى بدوره شيئاً فشيئاً: فليس الاستمرار والديمومة وقفاً على أيّ أمر، ولا حتى على العذاب. وإن الذين يتعذّبون من جرّاء الحبّ هم، على أيّ حال، أطّباء أنفسهم، مثلما يروى عن بعض المرضى. فإذ لا يمكن أن يجيئهم عزاء إلا من الكائن الذي يسّبب عذابهم وأن ذلك العذاب صادر عنهم فإنما يجدون في هذا العذاب في النهاية دواءً لهم، فهو الذي يكشف لهم عنه في لحظة معينة، إذ أن ذلك العذاب يُبرز لهم، كلمّا حرّكوه في داخلهم، مظهراً آخر للشخص المأسوف عليه، وهو مقيت تارة حتى ليفقد المرء الرغبة في لقائه لأنّه يجدر به أن يعذّبه قبل أن يستمتع معه، وطوراً عذب حتى لتوليه فضل العذوبة التي تسبغها عليه وتتخذّ منها مدعاة للأمل. ولكن عبثاً هدأ العذاب الذي تجدّد في داخلي في نهاية المطاف. فلم أشأ من بعد العودة إلى منزل السيّدة "سوان" إلاّ نادراً. ذلك بادئ الأمر لأنّ شعور الانتظار لدى الذين يحبون ثم هُجِرُوا حتى الانتظار الذي لا يقرون به والذي يعيشون فيه إنمّا يتحوّل من تلقاء ذاته وإنه، وإن يكن فِي الظاهر مماثلاً لذاته، لَتُتْبِعُ حالة أولى بأخرى ثانية تناقضها تماماً. أما الأولى فكانت نتيجة الأحداث المؤلمة التي سبق أن أثارت قلقنا وانعكاساً لها، فإن انتظار ما يمكن أن يجري يمتزج بالرهبة، رهبة تزداد بمقدار ما نرغب في ذلك الحين أن ننشط بأنفسنا، إن لم يجئنا جديد من جهة تلك التي نحبّها، ولسنا ندري أيّ نجاح سيكلّل مسعى ربمّا لم يعد من الممكن بعده مباشرة مسعى آخر. على أن انتظارنا الذي يتوالى إنمّا يحكمه بعد فترة، حسبما رأينا، ودون أن ننتبه للأمر، الأمل في مستقبل وهميّ لا ذكرى الماضي الذي عانينا وطأته. ويكاد يصبح مذ ذاك ممتعاً. ثم إن الأوّل عوّدنا، إذ يدوم بعض الشيء أن نعيش في ترقّب. فالعذاب الذي كابدناه أثناء لقاءاتنا الأخيرة لا يزال حيّاً في صدورنا ولكنّه في غفوة. وليس ما يستعجلنا إلى تجديده، يضاف إلى ذلك أنّنا لا نرى تماماً ما يمكن أن نطلبه الآن. فإن امتلاك شيء يسير إضافي في المرأة التي نحبّها لن يفضي إلا إلى جعل مالا نملكه أكثر ضرورة ويظلّ هذا الأخير مع ذلك أمراً متعذّر الإنقاص لأنّ حاجاتنا إنمّا تنبثق من إشباع رغباتنا.

وبعد ذلك انضاف سبب أخير للسبب ذاك كي يحملني على قطع زياراتي للسيّدة "سوان" قطعاً تاماً. وما قوام هذا السبب المتأخّر أنني نسيت "جيلبيرت" بل محاولة لنسيانها على نحو أسرع. وما من شكّ أنّ زياراتي لدى السيّدة "سوان"، منذ انتهى عذابي الكبير، عادت فأصبحت، بالنسبة إلى ما

ظلّ لديّ من حزن، المهدئ والسلوى اللذين كانا عظيمي الفائدة لي في البداية. ولكن السبب في فعالّية الأوّل كان يفضي إلى ضرر الثانية، عنينا أن ذكرى "جيلبيرت" كانت تختلط بتلك الزيارات اختلاطاً حميماً. وما كانت السلوى لتفيدني إلاّ إذا جعلت أفكاراً ومصالح وأهواء لا دخل لِـ "جيلبيرت" بها في صراع مع عاطفة لم يعد وجود "جيلبيرت" يغذّيها. وتشغل تلك الحالات النفسيّة التي يظلّ فيها الشخص المحبوب خارج دائرتها، تشغل إذ ذاك حيّزاً يُقتَطَع، مهما كان هيّناً في البداية، من الحبّ الذي كان يشغل النفس بكلّيتها. ولابدّ أن نجهد في تغذية هذه الأفكار وتنميتها، فيما تتضاءل العاطفة التي لم تعد سوى ذكرى، حتى تنافسها العناصر الجديدة التي أُدخلت في الذهن وتنتزع منها قسماً من النفس يتنامى حجماً وتختلسها في النهاية كاملة منها. لقد اتّضح لي أنها الطريقة الوحيدة في القضاء على الحبّ، وكنت لا أزال على قسط من الشباب والشجاعة كافٍ لأقدم على ذلك العمل ولأتحمّل أقسى أنواع العذاب الذي يولد من اليقين بأنّنا سوف نفلح مهما انبغى أن ننفق من وقت في ذلك. إن السبب الذي كنت أطرحه الآن في رسائلي إلى "جيلبيرت" بصدد إعراضي عن لقائها كان تلميحاً إلى سوء تفاهم غامض ووهميّ تماماً وقع بينها وبيني وكنت عقدت باديء الأمر آمالاً بأنّ "جيلبيرت" سوف تطلب منّي إيضاحات حوله بيد أنّه لا يقع بالحقيقة حتى في أكثر العلاقات تفاهة في الحياة أن يلتمس مراسل إيضاحاً وهو يعلم أن جملة غامضة كاذبة مُتّهمة قد وُضِعَتْ عن قصد كيما يحتجّ، ويسعده جدّاً أن يشعر أنّه يقبض بذلك على زمام المبادرة في العمليّات – كما وأن يحتفظ به – والأمر من باب أولى كذلك في علاقات أكثر رقّة يتمتّع فيها الحبّ بالكثير من البلاغة واللامبالاة بالقليل من الفضول. ولمّا لم تشكّك "جيلبيرت" في سوء التفاهم ذاك لم تحاول معرفته فقد أضحى في نظري أمراً واقعاً أرجع إليه في كلّ رسالة. وهنالك في تلك المواقف المتّخذة زوراً في تصنّع الجفاء تأثير سحريّ يحملك على المثابرة عليها فقد بلغ بي الأمر، لكثرة ما أكتب: "منذ أن تباعد قلبانا" بغية أن تجيبني "جيلبيرت": "ولكنّهما لم يتباعدا، فلنتصارح"، أن أيقنت أنهّما على تلك الحال. وإذ كنت أردّد دوماً: "ربمّا تبدّلت الحياة بالنسبة إلينا ولكنها لن تمحو العاطفة التي خالجتنا" رغبة منّي في أن أسمعها تقول لي: "ولكن لم يتبدّل شيء ألبتّة وتلك العاطفة أقوى مما كانت في يوم"، فقد أخذت أعيش مع فكرة أنّ الحياة قد تبدّلت بالفعل وأنّنا سوف نحتفظ بذكرى العاطفة التي لم تعد موجودة، مثلما يبلغ الأمر ببعض عصبييّ المزاج أن يظلوا مرضى على الدوام لأنهمّ تظاهروا بالمرض. لقد أخذت أرجع الآن في كل مرّة يقع عليّ فيها أن أكتب إلى "جيلبيرت" إلى ذلك التبدّل المُتَخيّل والذي سيظلّ وجودة قائماً بيننا منذ أن أقرّت به ضمنياً بالصمت الذي تلتزمه بهذا الشأن في إجاباتها. ثمّ كفّت "جيلبيرت" عن الاكتفاء بالتورية، وأقرّت بنفسها وجهة نظري. ومثلما هو الأمر في الأنخاب الرسميّة التي يُعيد فيها رئيس الدولة الذي يرحّبُ به، لم يكن يفوت "جيلبيرت"، في كلّ مرّة أكتب إليها: "لقد استطاعت الحياة أن تفرّق بيننا ولكنّ ذكر الزمن الذي تعارفنا فيه سيدوم"، أن تجيب: "لقد استطاعت الحياة أن تفرّق بيننا ولكنّها لن تستطيع أن تنسينا الساعات الحلوة التي ستظلّ دوماً عزيزة علينا" (ولعلّنا كنّا سنرتبك كثيراً في أن نقول لماذا فرّقت "الحياة" ما بيننا وأيّ تبدّل حدث). ولم أعد أتعذّب عذاباً مفرطاً. إلاّ أنني لم أستطع، في يوم كنت أقول لها في رسالة إنّني علمت بوفاة بائعة السكّر النباتيّ العجوز في

"الشانزيليزيه"، لم أستطع، بعدما فرغت من كتابة هذه الكلمات: "ظننت أن ذلك قد آلمك، أمّا أنا فقد حرّك الكثير من الذكريات في صدري"، أن أملك نفسي عن الإجهاش بالبكاء إذ رأيتني أتحدّث بصيغة الماضي عن ذلك الحبّ، وكأنما الأمر أمر ميت أصبح منسيّاً تقريباً، ذلك الحبّ الذي لم أنفكّ غصباً عنيّ عن التفكير به في يوم على أنّه حيّ، على أنّه يستطيع على الأقلّ أن ينبعث من جديد. وليس أرقّ من تلك المراسلة بين أصدقاء لا يبغون من بعد لقاءً. كانت رسائل "جيلبيرت" في رقّة تلك التي كنت أكتبها لمن لا أبالي بهم، وكانت تزوّدني بعلامات الحنان الظاهرة نفسها التي أستعذب كثيراً ورودها منها.

على أنّ كلّ إحجام عن لقائها أخذ يهوّن شيئاً فشيئاً من اغتمامي. ولما أصبحت أقلّ معزّة لديّ لم يعد لذكرياتي المؤلمة من القوّة ما يكفي لتهدم في ارتدادها غير المنقطع تكوّن المتعة الناجمة لديّ عن التفكير في "فلورانسه" والبندقية. وأخذت آسف في تلك الفترات أنّني أعرضت عن الدخول في السلك الديبلوماسيّ وأن صنعت لنفسي حياة اللاترحال كي لا أبتعد عن شابة ربمّا لن أراها من بعد وقد نسيتها تقريباً. إنّنا نبني حياتنا من أجل شخص معينّ، فإن آن لنا أخيراً أن نستقبله فيها لم يأت ذلك الشخص، ثم هو يموت بالنسبة إلينا ونعيش سجناء داخل ما لم يكن معدّاً إلاّ له. ولئن بدت البندقيّة بعيدة جدّاً بالنسبة إلي والديّ وكثيرة الحمى بالنسبة إليّ فقد كان من السهل على الأقلّ أن أذهب دونما تعب للإقامة في "بالبيك". بيد أنّه كان لابدّ لذلك من مغادرة باريس والتخلّي عن تلك الزيارات التي كنت أسمع بفضلها، مهما كانت قليلة، السيّدة "سوان" تحدّثني أحياناً عن ابنتها. وقد شرعت أجد فيها على أيّة حال هذه المتعة أو تلك مما لا دخل لِ "جيلبيرت" فيه.

وحينما اقترب الربيع يعيد البرد ثانية في زمن القدّيسين الذين من جليد وصقيع أسبوع الآلام اتّفق لي كثيراً، إذ ترى السيّدة "سوان" أنّ البرد قارس لديها، أن أشهدها تستقبل وهي في فرائها وقد اختفت يداها تحت غطاء أبيض متألّق لكمّ ضخم مستو وياقة – وكلاهما من فرو القاقوم – لم تخلعهما السيّدة "سوان" وكانا يبدوان وكأنهما آخر مربّعات من ثلوج الشتاء أكثر ثباتاً من غيرها ولم تفلح حرارة النار ولا تدرّج الفصل في إذابتها. وكانت توحي إلي بالحقيقة الكاملة لتلك الأسابيع الصقيعيّة التي بدأت مع ذلك بالازهرار صنوف أخرى من البياض في هذه الصالة التي لن أرتادها من بعد، صنوف أبْعَثُ للنشوة كبياض "الكرات الثلجية" مثلاً التي تجمع فوق قمّة سوقها الطويلة العارية، كمثل الشجيرات التي على شكل خطّ دقيق في أعمال الذين سبقوا "رفائيل"، كراتها المجزّأة والمتّحدة مع ذلك، كراتها البيضاء بياض ملائكة البشارة والتي تلّفها رائحة الليمون. ذلك أنّ سيّدة قصر "تانسونفيل" كانت تعلم أن نسيان لا يخلو من الزهور وإن جاء شديد البرودة، وأن الشتاء والربيع والصيف لا تفصل بينها حواجز في إحكام ما يذهب إليه رجل الشارع الذي يتصوّر العالم حتى فترات الحرّ الأولى وكأنه لا يحوي سوى بيوت عارية تحت المطر. وما كنت لأدّعي ولا اكترث بأن السيّدة "سوان" تكتفي بما يبعث إليها بستانيّها من "كومبريه" وأنها لا تسدّ الثغرات الناجمة عن إيحاء غير كافٍ بفضل اقتباسات من بواكير متوسّطيّة على يد بائعة زهورها المفضّلة. فقد كان يكفيني كيما يهزّني الحنين إلى الريف أن تذكّرني "الكرات الثلجية" (التي ما كان لها ربمّا

من هدف في ذهن سيدة البيت سوى أن تؤلّف مع أثاثها وأثوابها، بناء على مشورة "بيرغوت"، "سمفونية يزهو فيها اللون الأبيض")، إلى جانب ثلج الكمّ الذي تحمله السيّدة "سوان"، بأنّ سحر "الجمعة العظيمة" يمثّل أعجوبة طبيعيّة يمكن مشاهدتها في كلّ عام لو كنّا أكثر تعقّلاً، وأن تجعل صالة السيّدة "سوان"، بعينها في ذلك عطر لاذع مدوّخ لتويجات أنواع أخرى كنت أجهل أسماءها وكثيراً ما استوقفتني في نزهاتي في "كومبريه"، أن تجعلها في مثل نقاء منحدر "تانسونفيل" الصغير، في مثل بياض زهره الذي بلا أوراق، وتزخر مثله بروائح حقيقيّة.

بيد أن استذكار ذاك المنحدر كان لا يزال من قبيل الإفراط، إذ كان يحتمل أن تغذّي ذكراه القليل الذي بقي من حبيّ لِ "جيلبيرت". ولذلك باعدت أكثر ما بين زياراتي للسيّدة "سوان"، مع أني لم أعد أتعذّب ألبتّة في أثنائها، وحاولت أن أراها أقلّ ما يمكن. كنت أسمح لنفسي على الأكثر ببعض النزهات برفقتها بما أنّني مستمرّ في الامتناع عن مغادرة باريس. وأخيراً عاد الصحو، وعاد الدفء. ولما كنت أعلم أن السيّدة "سوان" تخرج خلال ساعة قبل الغداء وتمضي لتقوم ببضع خطوات في شارع "الغابة" بالقرب من ساحة "النجمة" ومن المكان الذي كانوا يدعونه إذ ذاك، بسبب من كانوا يجيئون لمشاهدة الأغنياء الذين لا يعرفونهم إلاّ باسم، نادي "المُعْدَمِين"، حصلت من والديّ أن أستطيع تناول طعام الغداء نهار الأحد - لأنّه لم يكن لديّ فراغ في تلك الساعة أثناء الأسبوع - بعدهم بكثير في الساعة الواحدة والربع وأن أقوم بجولة قبل ذلك. ولم يفتني ذلك في يوم على مدى شهر أيّار ذاك لأنّ "جيلبيرت" قد ذهبت إلى الريف لدى صديقات لها. كنت أصل إلى "قوس النصر" قرابة الظهر، وأقوم بالمراقبة على مدخل الشارع ولا أحوّل عينيّ عن زاوية الشارع الصغير التي تجيء منه السيّدة "سوان" من بيتها، إذ لا يقع عليها سوى اجتياز بضعة أمتار. ولما كانت تحين إذ ذاك الساعة التي يعود فيها كثير من المتنزّهين لتناول طعام الغداء فإن عدد المتبقين كان قليلاً ومن أرباب الأناقة في قسمة الأكبر. وفجأة كانت تظهر السيّدة "سوان" على رمال الممر متأخّرة مبطئة زاهية كأجمل زهرة لن تتفتّح إلا ظهراً، وتنشر من حولها أثواباً مختلفة على الدوام ولكنيّ أذكرها خبّازية على وجه الخصوص. ثم هي ترفع وتنشر فوق معلاق طويل، في لحظة أوسع فترة من إشعاعها الصّوان الحريري لشمسيّة واسعة من ذات لون تناثر بتلات فسطانها. وكانت تحيط بها حاشية كاملة يؤلّفها "سوان" وأربعة أو خمسة من رجال المنتديات جاؤوا في الصباح لزيارتها في منزلها أو هي التقت بهم ؛ وكانت جمهرتهم السوداء أو الرماديّة المطواعة تؤدّي حركات آليّة تقريباً لإطار جامد يحيط بِ "أوديت" فتضفي على هذه المرأة التي كانت تتمتّع وحدها بحدّة في العينين هيئة من تنظر أمامها، من بين جميع أولئك الرجال، وكأنما من نافذة اقتربت منها، وتجعلها تنبثق نحيلة غير هيّابة في عري ألوانها الرقيقة وكأنّها تجلي كائن من نوع آخر ومن جنس مجهول وعزم يقارب عزم المحاربين توازي به وحدها حاشيتها العديدة. وكانت، إذ تبتسم سعيدة بالطقس الجميل وبالشمس التي لم تكن مزعجة بعد ولها مظهر الثقة والهدوء الذي للمبدع بعدما يُنجز صنيعه ولا يأبه للباقي، وهي على يقين بأن أثوابها - وإن لم يستسغها المارّة العاميّون - هي من أكثرها جميعها أناقة، كانت ترتديها لذاتها ولأصدقائها ببساطة دون انتباه مفرط، ولكن دون تجرّد تامّ

كذلك، فلا تحول دون أن تخفق عُقَدُ صدارها وتنورتها خفقاً لطيفاً أمامها شأن مخلوقات لا تجهل وجودها وتدع لها متسامحةً أن تنصرف إلى صنوف لهوها وفق سرعتها الخاصّة بشرط أن تخضع لحركة سيرها، وكانت ترسل بين الحين والحين على شمسيّتها الخبّازيّة التي كثيراً ما كانت تحملها مطويّة بَعْدُ ساعة وصولها نظراتها، وكأنّما على طاقة من بنفسج "بارما"، نظراتها السعيدة والشديدة العذوبة إلى حدّ تبدو معه، حينما لا تحدّق من بعد بأصدقائها بل بحاجة جامدة، وكأنّها لا تزال تبتسم. وهكذا كانت تحتفظ لأثوابها بتلك المسافة الفاصلة من الأناقة، بل تجعلها فيها، تلك المسافة التي يحترم محالّها وضرورتها الرجالُ الذين تتحدّث إليهم السيّدة "سوان" أكثر من سواهم حديث الأصحاب، ولا يخلو احترامهم من بعض إجلال غير المطلعين ومن إقرار بجهلهم يعترفون أنّ لصديقتهم عليه صلاحيّة وسلطة مثلما المريض على ما ينبغي أن يتّخذ من علاجات خاصّة ولوالدة على تربية أولادها. وكانت السيدة "سوان"، من جرّاء الحاشية التي تحيط بها وتبدو كأنها لا تبصر المارّة وبسبب تأخّرها في الخروج سواء بسواء، توحي بتلك الشقّة التي قضت فيها صبيحة طويلة جدّاً وينبغي أن تعود إليها عمّا قليل لتناول طعام الغداء. كانت تبدو وكأنّها تشير إلى قربها بمشيتها المطمئنة المتوانية الشبيهة بتلك التي نقوم بها بخطى وئيدة داخل حديقتنا. لكأنّما يخيّل إليك أنها لا تزال تسوق من حولها أفياء تلك الشقّة، أفياءها الداخليّة الرطبة. على أنّ رؤيتها ما كانت، بسبب ذلك كلّه، إلا لتزيدني إحساساً بالهواء الطلق وبالدفء. ينضاف إلى ذلك أنّ أزهار قبّعتها التي من قشّ طيّع وشرائط فسطانها الصغيرة كانت تبدو، بما سلف لديّ من قناعة بأن أثواب السيّدة "سوان" كان يربطها بالفصول والأوقات رباط لازم وحيد بفضل الطقوس التي كان لها باع طويل فيها، وكأنها تنبثق من شهر أيّار انبثاقاً طبيعياً أكثر ممّا يتّفق لأزهار الحدائق والأحراج. وكيما أتعرّف الرعشة الجديدة التي تهزّ الفصل ما كنت أرفع الطرف إلى أبعد من شمسيّتها المفتوحة الممدودة كسماء أخرى أكثر قرباً، سماء مستديرة رفيقة متحرّكة زرقاء. فلئن كانت تلك الطقوس مطلقة فقد كانت تفاخر، وتفاخر السيّدة "سوان" بالتالي، بأن تتفضّل بالانصياع للصباح والربيع والشمس، وما كانت هذه تبدو راضية كلّ الرضى أن تفضّلت امرأة أنيقة إلى هذا الحدّ فلم تتجاهلها وأن اختارت بسببها فسطاناً من قماش أكثر ألقاً وخفّة يذكّر باتّساع فتحته في القبّة والأكمام برطوبة العنق والمعصمين، وأن تحمّلت من أجلها جميع ما تتكبّده سيّدة كبيرة شاءت راضية أن تتناول وتزور في الريف أناساً عاديين يعرفهم الجميع وحتىّ عامة الشعب وأصرّت مع ذلك على أن ترتدي في ذلك النهار أثواباً ريفية. كنت أحيّ السيدة "سوان" حال وصولها، فتستوقفني وتقول لي مبتسمة: "Good Morning" (صباح الخير). ونسير بضع خطوات. كنت أدرك أنّ تلك القوانين التي تحكم لباسها إنمّا كانت تخضع لها من أجل ذاتها وكأنمّا لحكمة سامية هي كبيرة كاهناتها: ذلك أنيّ، إن اتّفق لها، وقد أحسّت بحرّ مفرط، أن تفتح سترتها أو حتى تنزعها تماماً وتحمّلني إيّاها بعدما ظنّت بإمكانها الاحتفاظ بها مزرّرة، كنت أكتشف في القميص ألفاً من التفاصيل المنفذّة التي أسعدها الحظّ. في أن تظلّ بعيدة عن الأبصار على غرار بعض أقسام الأوركسترا التي أولاها المؤلّف كامل اهتمامه مع أنها لن تبلغ أسماع الجمهور في يوم ؛ أو كنت أبصر في كمّي السترة المطويّة فوق ذراعي، كنت أنظر طويلاً، بداعي المتعة أو التلطّف، جزءً طفيفاً رائعاً كشريط ذي لون بديع وقطعة ساتين خبّازيّة

تحجب عادة من أعين الجميع وكلاهما شغِلَ بدقّة الأجزاء الخارجيّة شأن تلك المنحوتات القوطيّة في إحدى الكاتدرائيات وقد أخفيت خلف حاجز على ارتفاع ثمانين قدماً وهي في كمال النقوش الغائرة على البوّابة الكبيرة، إلاّ أنّه لم يشاهدها أحد قطّ قبلما أُذِنَ لفنّان في إحدى رحلاته العارضة أن يصعد للتنزّه في كبد السماء بين البرجين ليشرف على المدينة بأسرها.

أمّا ما كان يضاعف الانطباع بأنّ السيّدة "سوان" كانت تتنزّه في شارع الغابة كأنّما في ممرّ حديقة تخصّها فإنها - بالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين كانوا يجهلون عاداتها في السير على الأقدام - جاءت سيراً على قدميها من غير ما عربة تلحق بها، هي التي تعوّد الناس أن يبصروها منذ أشهر أيّار تمر بأفضل الجياد وأجمل حلل للخدم في باريس وقد جلست باسترخاء وجلال، وكأنها إحدى الإلهات، يداعبها النسيم الدافيء في عربة مكشوفة ضخمة بثمانية نوابض. كانت السيدة "سوان" تبدو، إذ تسير على قدميها، ولا سيّما بمشيتها التي يُبَطِّئُهَا الحرّ، وكأنها انساقت خلف فضولها، كأنها ترتكب مخالفة أنيقة لقواعد التشريفات شأن هؤلاء الملوك الذين يخرجون من مقصورتهم أثناء إحدى الحفلات ويزورون استراحة الجمهور فيختلطون على مدى بضع لحظات بالمشاهدين الآخرين وذلك دونما استشارة أحد، يرافقهم إعجاب يلوّنه بعض الاستنكار لحاشية لا تجرؤ أن توجّه أي انتقاد لهم. وهكذا كان يحسّ الجمهور، بين السيّدة "سوان" وبينه، بتلك الحواجز التي تنشأ عن بعض أنواع الغنى والتي تبدو له من أكثرها امتناعاً. إن حيّ "سان جيرمان" يملك حواجزه هو الآخر ولكنّها أقلّ استثارة لأنظار "المُعدمين" وخيالهم. فلن ينتابهم، بالقرب من سيّدة كبيرة أوفر بساطة وأقلّ بعداً عن الشعب ومن السهل الخلط بينها وبين بورجوازية صغيرة، ذلك الإحساس باللاتساوي واللاكرامة الذي يداخلهم في حضرة السيدة "سوان". وما من شك أن هذه الأنواع من النساء لا يدهشها مثلهم الجهاز اللامع الذي يحيط بها. فهي لا تصرف إليه انتباهها من بعد ولكنّما ذلك لشدّة ما تعودنه، يعني أن الأمر بلغ بهنّ أن يَرَيْنَهُ طبيعياً جدّاً وضرورياً جدّاً وأن يحكمن على غيرهم من الناس حسبما يبدون أكثر أو أقل اطّلاعاً على عادات البذخ تلك: إلى حدّ أنّ أولئك النساء، إن وضعن أحد المارّة في أدنى مرتبة (بما أن العظمة التي تتجلى لديهنّ ويكتشفنها لدى الآخرين مادّية محضة يسيرة المشاهدة طويلة الاكتساب صعبة التعويض) إنما يظهرن له بالطريقة نفسها في أعلى مرتبة، ونقصد في الحال وللوهلة الأولى وبصورة نهائية. ولعل تلك الطبقة الاجتماعية الخاصّة التي كانت تعدّ بين صفوفها إذ ذاك نساء يخالطن نساء الطبقة الأرستقراطية مثل "الليدي إيسرائيلز" أو يزمعن التردّد عليهن ذات يوم مثل السيّدة "سوان"، تلك الطبقة الوسيطة التي تقع في مرتبة أدنى من حيّ "سان جيرمان" بما أنّها كانت تتودّد إليه ولكنّها تسمو على ماليس من حيّ "سان جيرمان" وتتّسم بهذا الأمر الخاصّ الذي قوامه أنّها، بعد ما أفلحت في التخلص من عالم الأغنياء، لا تزال الثروة بعد ولكنّها الثروة وقد أصبحت قابلة للتمدّد خاضعة لغاية وفكر أرستقراطيّين، أصبحت المال المطواع الشاعري النقوش الذي يعرف كيف يبتسم، لعل تلك الطبقة لم تعد موجودة على الأقل بالميزة نفسها والسحر نفسه. ثم إن النساء اللواتي كنّ في عدادها ما كان ليتوافر لهنّ اليوم ما ألف الشرط الأوّل لسلطانهن إذ أنهن فقدن جميعهن تقريباً جمالهنّ بتقدمهنّ في السنّ. على أن السيدة "سوان" إنمّا كانت تبصر، وهي تتقدم في شارع الغابة مهيبة باسمة طيبة، من أعالي أمجاد

صيفها الناضج الذي لا يزال شهيّاً جداً بقدر ما تفعل من قمّة جميل ثرائها، تبصر مثل "هوباتيا"(*) جريان العوالم تحت مسيرة قدميها المتباطئتين. وكان شبّان يمرّون فينظرون إليها بقلق وهم يحارون إن كانت علاقاتهم الهيّنة بها كافية كيما يسمحوا لأنفسهم بتحيّتها (أضف إلى ذلك أنهم يخشون، إذ لم يتمّ تقديمهم لِ "سوان" سوى مرة وتكاد، أن لا يتعرّف إليهم). وما كانوا يقدمون على ذلك إلا وهم يرتجفون حيال النتائج ويتساءلون إن كانت مبادرتهم المتهوّرة في تحدّيها وانتهاكها الحرمات واعتدائها على سيادة طبقة مصونة الحقوق لن تقضي إلى إطلاق الكوارث من عقالها أو إلى إنزال عقاب إلهيّ بهم. وكانت تطلق فحسب، كأنما هي حركة مسنّنات، إيماءات شخصيّات هيّنة من أرباب التحيّات إن هم إلا الذين يحيطون بِـ "أوديت" بدءً بِـ "سوان" الذي كان يرفع قبّعته العالية المبطّنة بالجلد الأخضر بابتسامة أنيقة تعلّمها في حيّ "سان جيرمان"، ولكنّما لا تقترن بها بعد اللامبالاة التي ربمّا داخلته فيما مضى. لقد حلّ محلها (إذ تشبّع إلى حدّ ما بأفكار "أوديت" المسبقة) في الآن نفسه التبرّم من أن يقع عليه الرّد على رجل رديء الملبس نوعاً ما والارتياح لأنّ زوجته تعرف الكثير من الناس، ذلك الشعور المختلط الذي كان يعبّر عنه بقوله للأصدقاء الأنيقين الذين يرافقونه: "آخر أيضاً! إنّي، وشرفي، أتساءل أين تعثر "أوديت" على كلّ هؤلاء الناس!" على أنّ السيّدة "سوان" كانت تلتفت إليَّ بعدما تردُّ بإشارة من رأسها على عابر السبيل المتهيّب الذي أصبح بعيداً عن الأبصار ولكن قلبه يوالي الخفقان، وتقول: "انتهي الأمر إذن؟ ولن تجيء من بعد لزيارة "جيلبيرت"؟ يغطبني أني مستثناة وأنك لا تتهرّب مني تماماً إنّي أحب أن أراك. ولكنّي كنت أحبُّ كذلك التأثير الذي كنت تمارسه على ابنتي، وأحسب أنها تأسف للأمر كثيراً بدورها. على أني لا أريد أن أستبدّ بك فقد لا يظلّ لك سوى أن لا تبغي لقائي أنا الأخرى!" - "أوديت، هذا "ساغان" يقرئك السلام"، يقول "سوان" ليلفت انتباه امرأته. وفعلاً كان الأمير يقوم، كما هي الحال في خاتمة مسرحية أو عرض في السيرك أو لوحة قديمة، بتوجيه حصانه وجهة "أوديت" ويرفع إليها تحيّة واسعة مسرحية وكأنمّا رمزية يتعاظم داخلها كل ما تجمّع من كياسة الفارس والسيد العظيم الذي ينحني بإجلال أمام "المرأة"، ولو تجسدت في امرأة لا تطيق أمّه أو شقيقته التردّد عليها. كانت السيدة "سوان" على أيّة حال، وقد تمَّ التعرّف إليها داخل شفافية الظلال الرجراجة والطلاء المشرق الذي تسكبه فوقها شمسيتها، كانت في كل لحظة موضع تحيات آخر الفرسان المختلّفين وكأنما تجري صورهم عدواً فوق ضياء الشارع الأبيض، وهم رجال نوادٍ كانت أسماؤهم الشهيرة في نظر عامّة الشعب - كـ "أنطون دو كاستيلان" و "أدالبير دو مونمو رانسي" وآخرين كثيرين - أسماء أصدقاء ألفتها السيّدة "سوان". ولما كان متوسطّ العمر - أو التعمير النسبيُّ - أطول بكثير إلى ذكريات الإحساسات الشاعرّية منه بالنسبة إلى آلام القلب فقد أعقبتها، بعد ما تلاشت منذ فترة طويلة صنوف الغم التي كانت بي آنذاك بسبب "جيلبيرت"، الغبطة التي تداخلني، في كلّ مرَّة أريد أن أقرأ، في ما يشبه الساعة الشمسيّة، الدقائق الواقعة بين الثانية عشرة والربع والواحدة من بعد ظهر شهر أيّار، إذ أعود فأراني أتحدّث على هذا النحو إلى السيّدة "سوان" تحت شمسيّتها وكأنمّا في انعكاسات عريشة من زهر الغليسين.

(*) Hypatie عالمة يونانية في الرياضيات والفلسفة عرفت بعملها بقدر ما اشتهرت بجمالها.

القسم الثاني

أسماء البلدان

رسوم أولية سريعة للسيد

"دو شارلوس" و "روبير دو سان لو".

– عشاء في منزل "بلوك". – الأعشية

في "ريفبيل". – ظهور "البرتين"

* * *

كنت قد توصلت إلى مايقارب اللامبالاة التامة حيال "جيلبيرت" حينما ذهبت بعد سنتين إلى "بالبيك" برفقة جدّتي. وحينما كان يتملّكني سحر وجه جديد، حينما كنت آمل بوساطة فتاة أخرى معرفة الكاتدرائيات القوطيّة والقصور والحدائق في إيطاليا، كنت أقول في نفسي بحزن: إن حبّنا بما هو حب يتناول مخلوقاً معيّناً، ربمّا لم يكن أمراً واقعاً تماماً فلئن استطاعت تداعيات أحلام ممتعة أو مؤلمة أن تقرنه بعض الوقت بامرأة حتى لتحملنا على الظنّ بأنها أوحت به على نحو لازم، فإن ذلك الحبّ يُبعث بالمقابل من جديد لينصبّ على امرأة أخرى إن نحن تحرّرنا من تلك التداعيات بملء إرادتنا أو دون علم منّا، كما لو كان على العكس عفويّاً وانطلق من ذواتنا فحسب. بيد أن لامبالاتي كانت بعد متقطعة حين غادرت إلى "بالبيك" وأثناء فترات إقامتي الأولى، فغالباً ما كنت أعيش (إذ يندر جداً أن تكون حياتنا متسلسلة زمنياً فهي تُداخل الكثير من الأخطاء التاريخية في توالي الأيام) في فترات تسبق البارحة وما قبل البارحة، تلك الفترات التي كنت أحبّ فيها "جيلبيرت". حينئذ كان يؤلمني ألاّ أراها وكأنماً الأمر واقع في تلك الفترة. فقد كانت الأنا التي أحبّتها، وقد حلّت أخرى محلّها تماماً على وجه التقريب، تعود إلى البروز من جديد وكان يردها لي أمر تافه أكثر بكثير مما يفعل أمر هامّ. فقد سمعت على سبيل المثال، كيما أستبق الأمور حول إقامتي في "النور ماندي"، سمعت مجهولاً في "بالبيك" التقيت به على السدّ البحريّ يقول ": " عائلة مدير وزارة البريد ". كان ينبغي أن يبدو لي ذلك القول تافهاً، (بما أنني لم أكن أعلم آنذاك التأثير الذي ستمارسه تلك العائلة على حياتي)، ولكنّه سبّب لي عذاباً شديداً، ذاك الذي كانت تعانيه " أنا " زالت في أعظم قسم منها منذ زمن طويل في افتراقها عن "جيلبيرت". ذلك لأني ماعدت فكّرت قطّ في حديث جرى بين "جيلبيرت" ووالدها في حضرتي بخصوص عائلة "مدير وزارة البريد". وذكريات الحبّ لاتشذّ عن القوانين العامّة التي تحكم الذاكرة والتي تحكمها بدورها قوانين العادة الأكثر شيوعا. وبما أن هذه الأخيرة تضعف كلّ شيء فإن مايذكرنا كائناً أفضل التذكير إنما هو بالضبط ماسبق أن نسيناه (لأنّه كان غير ذي شأن وأننّا تركنا له هكذا كامل قوّته). ولذلك كان أفضل جزء من ذاكرتنا في خارجنا، في هبّة ماطرة، في رائحة الهواء الحبيس في غرفة أورائحة أوّل لهب، وحيثما نعود فنلقى من ذواتنا ما كان ازدراه عقلنا، إذ لم يستخدمه، آخر مؤونة للماضي وأفضلها، تلك التي تعرف كيف تبكينا حين تبدو دموعنا وقد جفّت جميعها. في خارجنا؟ بل الأفضل أن نقول في داخلنا، ولكنه قد حُجبَ عن أنظارنا في نسيان يطول أو يقصر. وإننّا بفضل هذا النسيان وحده نستطيع بين الحين والحين أن نعود فنلقى الكائن الذي كنّاه وأن نتّخذ مكاننا قبالة الأشياء كما كان يفعل ذلك الكائن وأن نتألم من جديد لأننا لم نعد نحن بل هو وقد كان يحب مالا نبالي به الآن. إن صور الماضي تشحب شيئاً فشيئاً في وضح الذاكرة المعتادة وتمّحي ولا يظلّ شيء ولن نعود فنلقاه بعد. أو أننا بالأحرى ما كنا لنلقاه من بعد لو لم يَجْرِ بعناية احتباس بعض كلمات في النسيان (من مثل "مدير وزارة البريد") مثلما تُودَعُ في المكتبة الوطنية نسخة كتاب يحتمل بدونه أن يستحيل العثور عليه.

على أن العذاب وعودة حبّ "جيلبيرت" ذاك لم يدوما أكثر من ذينك اللذين يتفقّان لنا في الحلم، لأنّ العادة " القديمة لم تكن، على العكس في هذه المرّة، موجودة هناك، في "بالبيك"، كيما تسهم في دوامهما . ولئن بدت آثار "العادة" متناقضة فإنّما يعني ذلك أنّها تخضع لقوانين عديدة. لقد أصبحت في باريس أكثر فأكثر لامبالاة بـ "جيلبيرت" بفضل "العادة" وقد أتمّ تغيير العادة، أي توقّف "العادة" المؤقّت، عمل "العادة" حينما ذهبت إلى "بالبيك". إنّها تُضعف ولكنّها تولي استقراراً، وتأتي بالتفكّك ولكنها تجعله يدوم إلى مالا حدود. لقد كنت في كلّ يوم منذ سنوات أنسخ حالتي النفسية كيفما تيسر لي ذلك عن حالة البارحة. أمّا في "بالبيك" فإن سريراً جديداً يأتونني في الصباح إلى جانبه بفطور مختلف عن فطور باريس ماكان ليعين من بعد الأفكار التي غذت حبّي لِـ"جيلبيرت" : فهنالك حالات (شديدة الندرة بالحقيقة) يبدو فيها تغيير المكان خير وسيلة لكسب الوقت بما أن الإقامة الدائمة تشلّ حركة الايّام. وجاءت رحلتي إلى "بالبيك" بمثابة أوّل طلعة يقوم بها متماثل للشفاء لم يكن ينتظر سواها ليتبين أنّه شفي.

ولعلّ مثل هذه الرحلة تتمّ اليوم دون شكّ بالسيّارة ظناً منّا أنّنا نضفي عليها هكذا متعة أعظم. وسوف نرى أنه، إن تمّ بهذه الطريقة، فربّما جاء بهذا المعنى أو ذاك أقرب إلى الصحّة بما أنّنا نتابع عن كثب وفي جوّ من الألفة أشدّ وثوقاً التدرّجات المختلفة التي يتغيرّ وفقها وجه الأرض. على أنّ متعة السفر النوعيّة لاتكمن في إمكان النزول في الطريق والتوقّف حينما يصيبنا التعب، وإنّما في جعل الاختلاف بين الذهاب والوصول لاغير ملموس قدر المستطاع بل عميقاً جهد المستطاع، وأن نحسّ به في كليّته كاملاً غير منقوص على نحو ما كان في صدرنا حينما كان يحملنا خيالنا من المكان الذي كنّا نعيش فيه إلى قلب المكان المشتهى بقفزة تبدو أقل إعجازاً لأنها تقطع مسافة منها لأنها تربط بين شخصيتين متميزتين من الأرض وأنّها تنقلنا من اسم إلى اسم آخر، قفزة تلخصها (أفضل مما يفعل المشوار حيث لانقطة وصول تقريباً بما أننا نحلّ حيثما نريد) العملية الغامضة التي تتمّ في هذه الأمكنة الخاصّة، عنينا المحطّات التي تكاد لاتؤلّف جزءًا من المدينة ولكنّها تتضمن جوهر شخصيتها مثلما تحمل اسمها مكتوباً على لافتة.

ولكنّ عصرنا به هوس النزوع، في كل لون، إلى الإحجام عن إبراز الأشياء إلا ضمن مايحيط بها في الواقع فيفضي بذلك إلى القضاء على الجوهري، على العمليّة التي سلختها عنه. فيعرضون لوحة وسط أثاث وتحف وستائر من العصر نفسه والكل إطار باهت تجيد تأليفه في فنادق اليوم أجهل ربّة بيت بالأمس من اللواتي يمضين نهارهنّ الآن في دوائر المحفوظات والمكتبات، إطار لاتخلّف فينا الرائعة التي ننظر إليها من خلاله في أثناء الفرح المسكر نفسه الذي يجدر بنا ألا نطالبها بها إلا في إحدى قاعات المتاحف التي ترمز أفضل بكثير، من جرّاء عريها وخلوها من جميع المميزّات، إلى الأجواء الباطنة التي اعتزل فيها الفنان ليبدع.

على أن تلك الأمكنة الرائعة التي هي المحطّات والتي نرحل منها إلى جهة بعيدة إنّما هي كذلك للأسف أماكن فاجعة، فلئن تحقّقت فيها المعجزة التي بفضلها تصبح البلدان التي ماكان لها وجود

إلا في فكرنا تلك التي سنعيش فيها، فلا بدّ للسبب نفسه أن نتخلى لدى خروجنا من قاعة الانتظار عن أن نعود فنلقى بعد قليل الغرفة الأليفة التي كنّا فيها منذ لحظة فقط. ولابدّ من هجر كل أمل في العودة للنوم في المنزل حالما قرّرنا الدخول إلى المغارة النتنة التي نلج منها إلى عالم الأسرار، إلى واحد من تلك المشاغل الكبيرة المزجّجة، من مثل مشغل "سان لازار" حيث كنت أمضي للبحث عن قطار "بالبيك" والذي كان ينشر فوق المدينة المخترقة واحداً من تلك الأجواء القاسية المترامية التى تنذر بمخاطر المآسي والتي تشبه بعض أجواء من حداثة تكاد تكون باريسية لـ "مانتينيا" أو "فيرونيز"، والذي ما كان يمكن أن يتم تحت سقفه سوى ما كان من قبيل الفعلة الرهيبة المهيبة كرحيل بالقطار أو رفع الصليب.

لم يُبْدِ جسمي أيّ اعتراض حيال تلك الرحلة طوال ما اكتفيت بأن أبصر من زاوية سريري في باريس كنيسة "بالبيك" الفارسيّة وسط رقع ثلج العاصفة. ولم تبدأ الاعتراضات إلا حينما أدرك أنّه سوف يشارك في اللعبة وأنّهم سوف يقتادونني عشية وصولي إلى غرفتي التي ستكون مجهولة لديه. وقد زاد من عمق تمرده أنني علمت عشيّة الرحيل نفسه أن أميّ لن ترافقنا إذ فضل والدي، وقد استبقي في الوزارة إلى حين ذهابه مع السيّد "دو نوربوا" إلى أسبانيا، أن يستأجر داراً في ضواحي باريس. ولم تكن مشاهدة "بالبيك" لتبدو، على أية حال، أقل ابتغاء في نفسي لأنّه ينبغي لي أن أشتريها مقابل داء كان يبدو أنّه يصور ويضمن لي، على العكس، حقيقة الانطباع الذي كنت ماضياً أبحث عنه، الانطباع الذي ما كان ليحل " محله أيّ مشهد مساو له على حدّ زعمهم، ولا أيّ منظر كان يمكن أن أبادر إلى رؤيته دون أن يحول ذلك نفسه دون أنّ أعود فأنام في سريري. وما كانت تلك أوّل مرّة أحس فيها أنّ الذين يحبون والذين ينالون المتعة ليسوا واحداً. كنت أحسبني أتوق إلى "بالبيك" توقاً يساوي في عمقه توق الدكتور الذي كان يهتم بي وقد قال لي فى صبيحة السفر وهو يعجب لمظهري التعيس: "جوابي لك أنّني لو استطعت العثور فقط على ثمانية أيّام لأمضي وأستنشق الهواء الطلق على شاطئ البحر فلن أنتظر من يرجوني في ذلك. سوف تنعم بسباقات الخيول واليخوت، وسيكون ذلك رائعاً. " أمّا أنا فقد سبق أن علمت، قبلما أذهب لسماع "لابيرما"، أنه مهما كان الأمر الذي أحبّه فلن يلقى مكانه إلا في نهاية ملاحقة مؤلمة ينبغي لي في أثنائها أن أضحي بادئ الأمر بمتعي مقابل هذا الخير الأسمى عوضاً عن أن أبحث عنه فيها.

وكانت جدّتي بالطبع تتصور رحلتنا تصورًا مختلفاً بعض الشيء وقد شاءت، وهي على الدوام راغبة رغبتها بالأمس في أن تضفي على الهدايا التي تقُدَّم لي طابعاً فنياً، وبغية أن تجعل من هذه الرحلة "امتحاناً" قديماً في قسم منه. أن نكرر المسار الذي اتبعته "مدام دو سيفينييه" حينما انطلقت من باريس إلى "لوريان" مروراً بـ "شون" و "بونت أو دومير" بالقطار في جزء منه وبالعربة في الجزء التالي. بيد أنّ جدتي اضطرت أن تتخلى عن هذا المشروع بناء على حظر من والدي الذي كان يعلم كم يمكن، حينما تنظم رحلة بغية أن تأخذ منها كامل المكسب الفكري الذي يمكن أن تتضمنه، كم يمكن التنبؤ بقطارات تفوتك وبأمتعة تفقدها وآلام في الحلق ومخالفات. على أنها كانت تغتبط على الأقلّ لدى التفكير بأنّنا لن نكون ألبتّة، آن الذهاب إلى الشاطئ، عرضة لأن يمنعنا عن ذلك

الوصول المفاجئ لما كانت تدعوه العزيزة "سفينييه" بحمولة ملعونة لإحدى العربات بما أنّنا لن نعرف أحداً في "بالبيك" اذ لم يزودّنا "لو غراندان" برسالة توصية لشقيقته. (والإحجام لم يلق التقييم نفسه لدى عمّتيّ "سيلين" و"فيكتوار" اللتين سبق أن عرفتا فتاةً تلك التي لم تدعواها حتى ذاك سوى "رونيه دو كامبرمير" للتدليل على ألفة الأمس، ولاتزالان تحتفظان منها بتلك الهدايا التى تزدان بها الغرف ويزدان الحديث ولكنّ الواقع لايتفق وإيّاها، فحسبتا أنهّما تثأران لإهانتنا بالإقلاع عن التفوه في حضرة السيّدة "لو غراندان" باسم ابنتها وتكتفيان بتبادل التهاني بعد خروجهما بجمل من هذا القبيل: "لم أشر ألبتّة إلى من تدرين وأحسب أنّه تمّ إدراك ذلك.")

سوف نسافر إذن من باريس بقطار الواحدة والدقيقة الثانية والعشرين، هذا القطار الذي ما أكثر ماطاب لي البحث عنه في دليل السكك الحديدية، حيث كان يخلّف فيّ كلّ مرة رعشة الرحيل بل مايقارب وهم سعادته، حتىّ لا أتخيل أنّي أعرفه. وبما أنّ تحديد ملامح سعادة ما في مخيلتنا إنمّا ينجم عن تماثل الرغبات التي تبثها في صدرنا أكثر منه عن دقّة المعلومات التي توافرت لنا عنه فقد كنت أحسب أنّي أعرفها في تفاصيلها ولا أشكّ أنني سأحسّ بمتعة خاصّة في عربة القطار حينما يأخذ النهار بالبرودة وأتأمّل هذا الأثر أو ذاك لدى اقترابي من هذه المحطّة أو تلك، حتى أن هذا القطار الذى كان يوقظ في نفسي على الدوام صور المدن نفسها التي ألفّها بضياء ساعات مابعد الظهر تلك التي يجتازها إنمّا كان يبدو لي مختلفاً عن القطارات الأخرى جميعها، وقد بلغ بي الأمر في النهاية، مثلما نفعل في الغالب بشأن شخص لم نره في يوم ولكنّما يطيب لنا أن نتخيّل أنّنا فزنا بصداقته، أن أضفي هيئة خاصّة لا تتحول على هذا المسافر الفنّان والأشقر الذي اصطحبني على دربه وأستودعه على حضيض كاتدرائية "سان لو" قبل أن يبتعد صوب مغرب الشمس.

ولمّا لم يكن باستطاعة جدّتي عقد النيّة على الذهاب إلى "بالبيك" على هذا النحو الغبيّ فلسوف تتوقّف أربعاً وعشرين ساعة لدى إحدى صديقاتها، ومن هناك أنطلق ثانية في المساء نفسه لتفادي الإزعاج وكذلك ليتسنى لي أن أشاهد في نهار الغد كنيسة "بالبيك" التي كانت على بعد كاف من "بالبيك الشاطئ"، فيما نقِلَ إلينا، وحيث قد لايتسنىّ لي الذهاب فيما بعد في بدء علاجي عن طريق الحمامات. ولعلّه كان يشقّ أقلّ عليّ أن أحسّ أن موضوع رحلتي الرائع قد رتب قبل الليلة الأليمة الأولى التي سأدخل فيها إلى منزل جديد وأقبل العيش فيه. إلا أنّه انبغى بادئ الأمر هجر القديم، وكانت والدتي قد تدبّرت أمرها كي تستقرّ في ذلك اليوم نفسه في "سان كلو" واتخذت أو تظاهرت باتخاذ جميع الترتيبات لتذهب إلى هناك مباشرة بعدما تصطحبنا إلى المحطّة دون أن يتوجّب عليها الرجوع إلى البيت حيث تخشى أن أبتغي العودة معها بدلاً من الذهاب إلى "بالبيك". بل هي قرّرت، بحجّة كثرة ماينبغي لها أن تقوم به في البيت الذي استأجرته منذ قليل وأن الوقت سيعوزها لذلك، وفي الواقع بغية أن تجنّبني قسوة هذا النوع من الوداع، ألاّ تظلّ معنا حتىّ انطلاق القطار حيث يبدو الفراق فجأة، بعدما أُخفيَ من قبل تحت ستار من المجيء والرواح واستعدادات لاتُلزم بصورة نهائية، مستحيل الاحتمال في حين لم يعد بالإمكان تجنّبه وقد تركز بكليته في لحظة لاحد لوضوحها العاجز والأخير.

وأخذت أحسّ للمرّة الأولى أنّه يمكن أن تعيش والدتي بدوني، لأمر آخر سواي، أن تعيش عيشة أخرى. سوف تسكن بمفردها مع والدي الذي ربمّا وجدت أن رداءة صحّتي وعصبيتي يضفيان على عيشته بعض التعقيد والغمّ. كان ذلك الفراق يزيد من غمي لأنني كنت أقولُ في نفسي إنه ربما ألف بالنسبة إلى والدتي نهاية خيبات الأمل المتلاحقة التي سببتها لها والتي كتمتها عنيّ وأدركت بعدها صعوبة العطلة المشتركة. وربما كان أيضاً المحاولة الأولى لحياة شرعت تسلمّ بها للمستقبل كلّما تقدمّت السنون بها وبوالدي، حياة أراها فيها أقلّ من ذي قبل وتصبح فيها بالنسبة إليّ، والأمر لم يوافني ألبتّة حتى في أحلامي المزعجة، غريبة بعض الشيء، تصبح سيّدة تراها تعود وحيدة إلى دار لن أكون فيها وتسأل البواب إن لم يكن ثمة رسائل منّي.

وكدت لا أستطيع إجابة المستخدم الذي أراد أن يأخذ حقيبتي. وكانت أمي تجرّب، كيما تعزيني، وسائل تبدو لها من أكثرها نجوعاً، وتحسب أن لا طائل من الظهور بمظهر من لاتبصر اغتمامي، فكانت تسخر منه بهدوء قائلة :

- " ما عساها تقول كنيسة "بالبيك" لو علمت أنّك تستعدّ للمبادرة إلى زيارتها بهذا المظهر التعيس؟ أهذا هو المسافر المفتون الذي يتحدّث عنه "راسكين"؟ وعلى أيّة حال سوف أعلم إن كنت على مستوى الظروف فإنّني سأظلّ ولو بعيدة إلى جانب كتكوتي الصغير. وغداً تصلك رسالة من أمّك."

وقالت جدّتي : " يابنتي، إني أراك على غرار السيّدة "دو سيفينييه" تضعين خريطة نصب عينيك ولا تفارقيننا لحظة واحدة ."

ثم تحاول والدتي أن تسلّيني فتسألني ما عساني سأطلب للعشاء وتنظر بإعجاب إلى "فرانسواز" وتمتدحها لقبّعة ومعطف لم تعد تعرفهما مع أنّهما أثارا فيما مضى اشمئزازها حينما رأتهما جديدين على شقيقة جدتي، الأولى بالعصفور الضخم الذي كان يجثم فوقها، والثاني الذي تثقله الرسوم السمجة والسبّج. إلا أن "فرانسواز" كانت قلبت المعطف بعد ما بلي فأظهرت قفا قماش واحد اللون جميله. أمّا العصفور فقد جرى نبذه منذ زمن طويل بعد ما انكسر. ومثلما يحيرك أحياناً أن تلقى دقيق الفنّ الذي يجهد في السعي إليه أكثر الفنانين وعياً في أغنية شعبيّة وعلى واجهة بيت فلاّح جعل وردة بيضاء أو صفراء تتفتح فوق بابه في المكان الذي ينبغي بالضبط أن تتفتّح فيه - كذلك وضعت "فرانسواز" بذوق ساذج لايخطئ على القبّعة التي أضحت رائعة عقدة المخمل وعقد الشريط الحريري التي تفتنك في رسم لِـ " شاردان " أو لِـ "وستلر " .

ولما امتدّ الاحتشام والنزاهة اللذان كانا في الغالب يضفيان نبلاً على وجه خادمتنا العجوز إلى الملابس التي ارتدتها، كامرأة متحفظة ولكن بدون دناءة، امرأة تعرف كيف " تحافظ على مكانتها وتظلّ في مكانها "، بداعي الرحلة بغية أن تكون جديرة بالظهور معنا دون أن يبدو أنها تجهد في إبراز نفسها، فقد كانت " فرانسواز " تذكر، كيما نعود إلى عصر أوفر قدماً، بقماش معطفها

الكرزي المتقادم عهداً ووبر ياقتها التي من فرو ناعم، كانت تذكر بواحدة، أيّ واحدة، من صور "آن دو بروتانيي " التي رسمها في كتب " الساعات " أحد أرباب الفنّ القدماء والتي يبدو فيها كلّ شيء في محلّه فيما انتشر الإحساس بالانسجام في جميع الأقسام بالتساوي حتى لتعبر غرابة الأثواب بغناها وتقادم عهدها عن الرصانة الورعة نفسها التي تعبر عنها العينان والشفتان واليدان .

وربمّا لم يكن بالإمكان التحدّث عن الفكر بشأن " فرانسواز ". فما كانت تعرف شيئاً، بهذا المعنى الشامل الذي يساوي فيه من لايعرف شيئاً من لا يدرك شيئاً، فيما عدا الحقائق النادرة التي يستطيع القلب بلوغها مباشرة . إن عالم الأفكار الشاسع لم يكن موجوداً بالنسة إليها . على أنّك كنت تحار إزاء صفاء نظرتها والخطوط الناعمة التي لذاك الأنف وتينك الشفتين، إزاء جميع هذه الأدلة التي يفتقر إليها العديد من المثقفين والتي ربماً عنت لديهم أقصى درجات الأناقة ونبل الترفّع الذي يميزّ صفوة العقول، كنت تحار كأنماً إزاء النظرة الذكية الطينّة التي لكلب تعلم مع ذلك أن سائر مفاهيم البشر غريبة عليه، وبمقدورك التساؤل إن لم يكن بين هؤلاء الإخوة المتواضعين الآخرين، عيننا الفلاّحين، أشخاص هم بمثابة الرجال المتفوقين في دنيا بسطاء العقول أو هم بالأحرى، فيما حكم عليهم قدر ظالم أن يعيشوا بين صفوف بسطاء العقول وقد حرموا نور المعرفة ولكنّهم ينتمون إلى الطبائع المختارة انتماء طبيعيّاً وأساسيّاً أكثر مما يتفّق لغالبية الناس المتعلمين، بمثابة أعضاء من الأسرة المقدّسة مشتّتين ضائعين فاقدي العقل، بمثابة أقارب، لم يبرحوا الطفولة، لا رفع العقول، ولم ينقصهم، - على نحو مايبدو في بريق عيونهم الذي لا يمكن أن نخطىء فيه والذي لا ينطبق فيها مع ذلك على شيء - كيما تتيسرّ لهم الموهبة، سوى المعرفة.

كانت والدتي تقول لي، وقد رأت أنّني أجد مشقّة في احتباس دموعي : "كان من عادة ريغولوس " في الظروف العصيبة.. وبعد، فليس ذلك لطيفاً بالنسبة إلى أمّك . ولنستشهد، شأن جدّتك، بالسيّدة " دو سفينييه" : " سوف أضطرّ أن أستخدم كامل الشجاعة التي لا تتوافر لك ." وكانت تحاول، وقد تذكّرت أن مودّة الغير تصرف عن الآلام الأنانيّة، أن تشيع السرور في نفسي بقولها إنها تظنّ أنّ رحلتها إلى " سان كلو " ستتمّ على أحسن حال وإنها راضية عن العربة التي احتفظت بها وإن الحوذيّ مهذب والعربة مريحة . وكنت أجهد في التبسم إزاء هذه التفاصيل وأحني الرأس إحناءة القبول والرضى . بيد أنها ما كانت تعينني إلاّ في تمثل رحيل والدتي تمثّلاً أقرب إلى الحقيقة فكنت أنظر اليها، منكمش الفؤاد كما لو تمّ الفراق بيننا، في ظل قبّعة القش المستديرة تلك التي ابتاعتها من أجل الريف وفي فسطان خفيف ارتدته بسبب ذلك المشوار الطويل في الهاجرة، وكلاهما يجعلان منها امرأة أخرى تدور مذ ذاك في فلك دارة "مونترتو" حيث لن يتسنىّ لي أن أراها.

كان الطبيب قد أشار عليّ، بغية تجنيبي نوبات الاختناق التي قد يسببّها لي السفر، أن أبالغ بعض الشيء في تناول البيرة أو الكونياك آن الانطلاق كيما أكون في تلك الحالة التي يدعوها "النشوة" والتي يضحي الجهاز العصبيّ فيها مؤقتاً أقلّ وهناً. كنت لا أزال غير متيقنّ إن كنت سأفعل ذلك

ولكنيّ أودّ أن تعترف جدّتي، إن اتّفق لي التصميم على الأمر، أن الحقّ والحكمة إلى جانبي ولذلك ذكرت عن الأمر كأنما لا يتناول ترددي سوى المكان الذي سأشرب فيه الكحول، أهو المطعم أم مقصف القطار. إلا أني، حيال مظهر الملامة الذي اتخذه وجه جدّتي و أنها لاتبغي حتى التوقف إزاء هذه الفكرة، صرخت في الحال قائلاً، وقرّ رأيي على فكرة المبادرة إلى الشرب التي أصبح تنفيذها ضروريا لإقامة البرهان على حريتي بما أن الإعلان الشفوي عنه لم يقدَّر له المرور دونما احتجاج:" كيف ذلك، تعلمين مدى مرضي وتعلمين ما قال لي الطبيب، وذلك هو النصح الذي تسدينه لي ! ".

وبعد ما شرحت لجدّتي عن توعّك صحتي، اتخذتْ، وهي تجيبني : "ولكن هيّا أسرع واجلب البيرة أو شراباً آخر إن انبغى أن يفيدك ذلك " مظهراً فيه من الاغتمام والطيبة ما جعلني أرتمي عليها وأغطي وجهها بالقبلات . ولئن بادرت مع ذلك إلى احتساء الكثير من الشراب في مقصف القطار فلأنني كنت أشعر أني بدون ذلك سأصاب بنوبة بالغة العنف وأن ذلك ما سوف يورثها أكثر الغمّ . وحينما صعدت إلى عربتنا في أوّل محطة لجدّتي كم كنت سعيداً في الذهاب إلى "بالبيك" وإنني أحسّ أن كل شيء سيتمّ على أحسن مايرام وإنني بالحقيقة سوف أتعودّ بسرعة أن أكون بعيداً عن أمي وإن هذا القطار كان ممتعاً وإن رجل المقصف والمستخدمين الآخرين رائعون إلى حدّ أنني وددت لو أكرر كثيراً هذه الرحلة لتتوافر لي إمكانية لقائهم مجدداً . ولم يكن يبدو مع ذلك أن جدّتي تحسّ بالغبطة نفسها التي أحسّ بها من جرّاء كلّ هذه الأخبار السارّة . وقد أجابتني وهي تتجنب النظر إليّ : " ربمّا انبغى لك أن تنام قليلاً "، وحولت عينيها إلى النافذة، وقد سبق أن أرخينا ستارها الذي لم يكن يغطيّ كامل إطار الزجاج مما كان يدع للشمس أن ترسل فوق خشب الباب الذي من سنديان مدهون والقماش الذي يغطي المقعد (كأنما إعلاناً عن حياة تمتزج بالطبيعة يخلّف لديك قناعة أكبر من تلك المعلقة في أمكنة عالية جداً في العربة بجهود الشركة وتمثل مناظر ما كان يمكنني قراءة أسمائها) الضياء الدافئ الناعس نفسه الذي يغفو بعد الظهر في فرجات الغابة .

بيد أني كنت أبصر جدّتي، حين تظنّ أنني أطبقت عيني، تلقي عليّ نظرة من تحت حجابها المنقطّ، ثم تستعيدها، ثم تعيد الكرة كمن يحاول تمرينا شاقاً كيما يتعوّده.

حينئذ كنت أحدثها فلا يبدو أنّ الأمر يسرها، مع أنّ صوتي كان يخلف متعة في نفسي، وكذلك تفعل أدق الحركات في جسمي وأكثرها باطنية، فكنت لذلك أحاول أن تدوم وأدع لكل واحدة من نبرات صوتي أن تتثاقل طويلاً على الكلمات وأحسّ أن كل نظرة من نظراتي تستعذب المكان الذي حطت فيه وتمكث فيه أكثر من الزمن المعتاد . وقالت لي جدتي : "هيا، خذ قسطك من الراحة . فإن لم تستطع النوم فاقرأ شيئاً ." وناولتني كتاباً لـ " مدام دو سفينييه " فتحته فيما استغرقتْ بدورها في "مذكّرات السيدة دو بوسيرجان" . ولم تكن تسافر ألبتة بدون كتاب لهذه أو تلك، فقد كانتا من تفضل من المؤلفين . ولما كنت لا أحرك رأسي في ذلك الحين عن طيب خاطر وأحسّ بمتعة عظيمة في المحافظة على وضع اتخذه جسمي فقد ظللت أمسك بكتاب " مدام

دوسفينييه " دون أن أفتحه ولم أخفض صوبه عينيّ اللتين لم يكن أمامهما سوى ستارة النافذة الزرقاء. بيد أن تأمل تلك الستارة كان يبدو لي رائعاً وما كنت لأتكلف عناء إجابة من ودّ أن يصرفني عن تأمّلي . كان لون الستارة الأزرق يبدو لي، لا من جراء جماله فيما أعتقد، بل من جراء تألقه الشديد، وكأنّه يزيل جميع الألوان التي سبق أن برزت لعينيّ منذ اليوم الذي ولدت فيه وحتى اللحظة التي انتهيت فيها من احتساء شرابي وأخذ يفعل مفعوله إلى حدّ أنها كانت تبدو في نظري، إلى جانب زرقة الستارة هذه، باهتة معدومة بقدر ما يمكن أن يبدو الظلام إذ يستذكره الذين ولدوا مكفوفين وأجريت لهم عمليّات متأخرة أبصروا بها الألوان أخيراً . وأقبل مستخدم عجوز يسألنا تذاكرنا، فما انفكّ اللمعان الفضيّ المنبعث من أزرار بزته المعدنية يخلب لبيّ . وهممت أطلب إليه أن يجلس إلى جانبنا، ولكنّه انتقل إلى عربة أخرى. وفكرت، يهزّني الحنين، بحياة عمال السكك الحديدية الذين ينبغي ألا تفوتهم رؤية هذا المستخدم العجوز يوماً واحداً بما أنهم يقضون كامل وقتهم في السكك الحديدية . وأخيراً أخذت تتناقص المتعة التي كنت أحسّ بها في النظر إلى الستارة الزرقاء والإحساس بأنّ فمي نصف مفتوح. وأصبحت أكثر حركة، وتحركّت قليلاً، وفتحت الكتاب الذي كانت جدّتي دفعته إليّ واستطعت أن أركز انتباهي على الصفحات التي اخترتها من هنا وهناك . وأخذت أشعر، فيما كنت أقرأ، بتعاظم إعجابي بالسيّدة "دوسيفينييه" .

وينبغي ألا نسمح بأن تضللنا خصائص شكليّة بحتة ناجمة عن العصر وحياة الصالونات وتبلغ ببعض الناس أن يحسبوا أنهم ختموا مؤلفات " دوسفينييه " حينما يتم لهم أن يقولوا :" "ابعثي بأخبارك أيتها العزيزة " أو " بدا لي أنّ الكونت على قسط وافر من الذكاء " أو " تقليب الحشائش أجمل ما في الدنيا " . وقد سبق أن تصورّت السيدّة: "دوسيميان" أنها تشبه جدتها لأنها كتبت : " إن صحة السيد " دو لابولي " على ما يرام ياسيدي وإنه في حالة تمكنه من سماع أخبار حول وفاته "، أو " آه ! أيها المر كيز العزيز، كم ذا يسرني كتابك! فكيف تريدني ألا أجيب عليه"، أو " يبدو لي، ياسيدي، أنك مدين لي بجواب، أمّا أنا فبحقاق من عطر البرغموت، وإنيّ لمود ثمانية مقابل، ذلك، يأتيني غيرها؛.. فالأرض لم تحمل في يوم إلى هذا الحدّ؛ وإنما ذلك في الظاهر كيما تحسن في عينيك . " وكتبت على هذا النمط نفسه رسالتها حول الفِصّاد وحول الليمون، الخ، وتتصور أنها رسائل للسيدة " دو سيفينييه " . ولكّن جدتي التي أتت إلى هذه الأخيرة من الداخل، من حبّها لذويها وللطبيعة، علمتني أن أحب مواطن الجمال الحقيقي لديها، وهو مختلف تمام الاختلاف . وكان لابد أن يزداد عمّا قريب تأثيره في نفسي بقدر ما السيدة " دو سيفينييه " فنانة كبيرة تنتمي إلى الأسرة نفسها التي ينتمي إليها رسام كنت سألتقي به في "بالبيك" وقد كان له أعظم الأثر في رؤيتي للأشياء، عنيت " ألستير " وقد تبينت في " بالبيك " أنهّا تقدم لنا الأشياء بالطريقة نفسها التي يقدمها بها مرتبة ترتيب إحساساتنا بدلاً من أن تشرحها بادئ الأمر عن طريق علتها . بيد أنّني منذ ذاك العصر، وإذ كنت أعيد في تلك العربة قراءة الرسالة التي يظهر فيها ضياء القمر : " لم أستطع مقاومة الإغراء، وها أنا أضع كامل قبعاتي وقمصاني، وما كانت ضرورية، وأمضي في ذلك الممرّ ذي الهواء العليل كهواء غرفتي، فأجد ألفاً من الطيور الخرافية وجعلاناً بيضاء وسوداء وعدداً من السرعوفات

الرمادية والبيضاء وألبسة ألقيت ههنا وهناك ورجالاً دفنوا وقوفاً وظهورهم إلى الأشجار، الخ " فتَنْتُ من جرّاء ما لعلني كنت سميته بعد ذاك الجانب " الدوستوييفسكي "" في "رسائل مدام دو سيفينييه" (أفليست ترسم المناظر بطريقته نفسها، وكذلك الطباع ؟) .

وعندما عدت أستقل القطار وحدي في المساء بعد ما صحبت جدتي ومكثتُ بضع ساعات في منزل صديقتها، فاني على الأقل لم أجد الليلة التي حلت شاقة . ذلك لأنه ما كان عليّ أن أمضيها في سجن غرفة يمسك بي فيها نعاسها في حال اليقظة . لقد كان يحيط بي النشاط المهدئ لحركات القطار هذه جميعها التي كانت تلازمني وتعرض نفسها للتحدث معي إن لم يوافني النوم وتهدهدني بأصواتها التي كنت أزاوج بينها، شأن أصوات الأجراس في " كومبريه "، على هذا الإيقاع تارة وطوراً على ذاك (فأسمع حسبما يحلو لي أربعاً من ثنائيّات الأسنان متساوية بادئ الأمر، ثم ثنائية أسنان تنقض بعنف على سوداء) . كانت تعمل على تحييد القوة النابذة في أرقي إذ تمارس عليه ضغوطا معاكسة تمسك بي في حالة توازن، ضغوطاً أحَسُّ جمودي ثم نعاسي بعد قليل أنهما يطفوان على صفحته وبهما الانطباع المنعش نفسه الذي ربماً زودتني به الراحة الناجمة عن سهر قُوَى جبارة داخل الطبيعة والحياة لو تسنيّ لي لحظة أن أتجسد في سمكة تنام في البحر تنقلُها في غفوتها التياراتُ والأمواج، أو في نسر يمدّ جناحيه على كتف العاصفة وحدها .

يعتبر شروق الشمس ملازماً للرحلات الطويلة في السكك الحديدية كالبيض المسلوق والصحف المصورة وورق اللعب والأنهار التي تجدّ فيها قوارب لاتفلح في التقدم . وفي لحظة كنت أحصي فيها الأفكار التي ملأت ذهني في أثناء الدقائق السابقة كيما أتبين إن كنت أغفيت منذ قليل أم لا (لحظة كان التشكّك نفسه الذي يحملني على التساؤل يزوّدني بالرد الإيجابي) رأيت في زجاج النافذة فوق حرج صغير أسود غيوماً مثلمة زغبها الناعم من لون وردي فاقد الحياة لن يتبدل من بعد كالذي يمتد على ريش الجناح الذي تمثله أو على الرسم الذي حطته فوقه نزوة الرسام . على أني كنت أحس خلافاً لذلك أن ذاك اللون لم يكن جموداً ولا هوى، بل ضرورة وحياة . فقد تراكمت بعد قليل خلفه كميات من الضياء . وازدهى وأضحت السماء من حمرة فاتحة أخذت أجهد في استجلائها بصورة أفضل، وذلك بإلصاق عيني بزجاج النافذة، لأنني كنت أحسها على صلة بأعماق حياة الطبيعة، ولكنّ الخطّ الحديديّ بدّل اتجّاهه فجأة فانعطف القطار وحلت محل المشهد الصباحيّ في النافذة قرية ليلية سطوحها زرقاء من جراء ضياء القمر ولها مغسل يلطّخه التماع لبني ليليّ تحت سماء لاتزال تنتشر جميع نجومها في أرجائها، وأخذني الغم " لفقدان شريطي الوردي في المساء حينما لمحته من جديد، ولكنه كان أحمر هذه المرّة، في النافذة المقابلة التي هجرها في منعطف ثان للخطّ الحديديّ، حتى أنني قضيت وقتي أجري من نافذة إلى أخرى كيما أقرب، كيما أجمّع الأجزاء المتقطعة المتعاكسة، أجزاء صباحي الجميل القرمزي المتقلب، وأكوّن عنه منظراً كلياً ولوحة متصلة.

وأصبح المشهد وعراً شديد الانحدار وتوقف القطار في محطة صغيرة بين جبلين . ولم يكن يبدو في أعماق الوادي على حافة السيل سوى بيت حارس يغوص في الماء الذي يجري حتى حافة

نوافذه. ولئن أمكن أن يكون مخلوق نتاج أرض تتذوق فيه سحرها الخاص فلابد أن يكون الفتاة المديدة القامة التي رأيتها تخرج من ذلك البيت وتأتي إلى المحطة على الدرب الذي كانت تغمره الشمس الشارقة بأشعتها المائلة تحمل جرة من الحليب، حتى أكثر من الفلاحة التي شدّ ماتقت أن أراها تبرز أمامي حينما كنت أضرب على وجهي وحيداً من جهة " ميزيكليز" في إحراج " روسانفيل " . ولابدّ أنها، في الوادي الذي كانت تلك المرتفعات تحجب عنه سائر العالم، لابد أنها لم تر في يوم أحداً إلا في هذه القطارات التي لاتتوقف إلا مقدار لحظة . ومرت بجانب العربات تقدم القهوة بالحليب لبعض المسافرين المستيقظين . كان محياها الذي كسته أشعة الصباح حمرة قانية أشد توردا من السماء وأحسست في حضرتها بتلك الرغبة في الحياة التي تنبعث فينا من جديد في كل مرة نعي فيها مجدداً الجمال والسعادة. إننا ننسى على الدوام أنهما فرديان، ونحل محلهما في ذهننا نموذجاً اصطلاحياً نؤلفه من استخلاص نوع من الحد الوسط بين مختلف الوجوه التي نالت إعجابنا وبين المتع التي خبرناها فلا يظل لنا سوى صور مجردة تبدو واهنة تفهة لأنه إنما تنقصها بالضبط سمة الشيء الجديد التي تختلف عما عرفنا، تلك السمة الخاصة بالجمال والسعادة . ونحن نحكم على الحياة حكماً متشائماً نفترض أنه صحيح لأنّنا ظننا أننا ندخل في حسابنا السعادة والجمال حينما أغفلناهما واستبدلنا بهما تأليفات لم يظل منهما فيها ذرة واحدة . وهكذا يتثاءب سلفاً من ضجر مثقف يحدثونه عن كتاب جديد لأنه يتخيل ضرباً من مركب نقتبسه من جميع الكتب التي قرأناها، فيما "الكتاب الجميل " شيء خاص وغير متوقع ولم يُصَغْ من مجموع الروائع التي سبقته، بل من أمر لايكفي تمثلنا السابق لهذا المجموع في مساعدتنا على العثور عليه لأنه بالضبط خارج هذا المجموع . وما أن يحيط المثقف علماً بهذا الكتاب الجديد حتى يشعر، وكان – لحين – ميت الإحساس، أنّ لديه اهتماماً بالواقع الذي يصوره . كذلك خلفت الفتاة الجميلة فيّ على الفور، وكانت لاتمت بصلة إلى نماذج الجمال التي يرسم خطوطها فكري حينما أكون وحدي، مذاق سعادة معينة (وهي الشكل الوحيد والخاص على الدوام الذي يمكن أن نعرف فيه طعم السعادة)، سعادة ربما تحققت في العيش بالقرب منها . على أن انقطاع " العادة " المؤقت قد فعل فعله ههنا أيضاً إلى حد كبير . فقد جعلتُ بائعة الحليب تفيد من أن كياني كان بكامله في مواجهتها وهو قادر على تذوق أعنف المتع . ذلك أننا نعيش بالعادة بكياننا المقلص إلى أدنى حد، وتظل معظم حواسنا غافية لأنها تتكل علىالعادة التي تعرف ما ينبغي لها أن تفعل ولاحاجة بها إليها . ولكن توقف رتابة العيش لديّ في صبيحة يوم السفر هذه، وتبدل المكان والساعة جعلا من وجودها أمراً ضرورياً . لقد أخلت الساحَ عادتي التي كانت مقيمة ولم تكن صباحية فأسرعت جميع حواسي تتبارى فيما بينها كيما تحل محلها – وتتعالى جميعها كالأمواج إلى المستوى غير المعتاد نفسه – من أدناها إلى أكثرها نبلا، من التنفس والشهية والدورة الدموية إلى الإحساس والخيال . ولست أعلم إن كان سحر هذه الأمكنة الموحشة أوهمني بأن هذه الفتاة لاتشبه النساء الأخريات فزاد من سحرها ولكنها كانت تفعل بها بالمثل . ولعل الحياة كانت تبدو لي لذيذة لو استطعت فقط أن أقضيها معها ساعة فساعة وأن أرافقها حتى السيل، حتى البقرة، حتى القطار وأن أكون دوماً إلى جانبها وأحس أني معروف لديها وأن لي مكاني في فكرها . لعلها كانت تكشف لي مفاتن الحياة

الريفية وساعات النهار الأولى . وأشرت إليها أن تأتي لتعطيني قهوة بالحليب، فقد كانت بي حاجة إلى أن تلاحظني . ولم تبصرني فناديتها. كان لون وجهها من فوق قامتها المديدة ذهبيا موردا إلى حد تبدو معه وكأنها تشاهد عبر زجاج ملون مضاء . وعادت أدراجها وأنا لا أستطيع أن أصرف ناظري عن وجهها الذي يزداد اتساعاً كمثل شمس يمكن التحديق فيها وتقترب منك حتى لتجيء بالقرب منك تماماً وتدع لك أن تشاهدها عن كثب فتبهرك بذهبها وحمرتها ورمقتني بنظرتها الحادة ولكن القطار تحرك فيما كان المستخدمون يغلقون الأبواب . ورأيتها تغادر المحطة وتسلك الدرب ثانية . لقد أشرق النهار الآن تماماً وأخذت أبتعد عن الفجر . وسواء أكانت تلك الفتاة الباعث لحماستي أم أن حماستي سببت أعظم قسم من المتعة التي أصبتها من وجودي بالقرب منها فقد امتزجت بها على أية حال إلى حد أن رغبتي في لقاء بها جديد كانت قبل كل شيء الرغبة الأدبية في ألا أدع حالة الهيجان هذه إلى زوال تام وألا أنفصل إلى الأبد عن الكائن الذي شارك فيها وإن يك على غير علم منه. وما ذلك لأن تلك الحالة جاءت ممتعة، بل لأنها كانت تضفي على وجه الخصوص (مثلما ينتج عن زيادة شد الوتر أو زيادة سرعة اهتزاز عصب صوت مختلف أو لون مختلف) لوناً آخر على ماكنت أرى وكانت تدفع بي ممثلاً في عالم مجهول وأكثر إمتاعا بمالايقاس . كانت تلك الفتاة الجميلة التي ما أزال ألمحها والقطار يضاعف من سرعة سيره وكأنها جزء من حياة غير تلك التي كنت أعرفها، تفصلها عنها حاشية دقيقة . ولم تعد الأحساسيس التي توقظها الأشياء واحدة فيها، ولعل الخروج منها الآن كان بمثابة أن أموت لذاتي . وربما بدا كافياً، كيما أنعم بعذوبة الإحساس بأني أرتبط على الأقل بهذه الحياة، أن أقطن على مقربة كافية من المحطة الصغيرة كي أستطيع المجئ في كل صباح لأطلب من هذه الفلاحة قهوة بالحليب . ولكنها سوف تكون، واأسفي غائبة دوماً عن الحياة الأخرى التي كنت أمضي نحوها بسرعة متزايدة والتي لم أسلم بالقبول بها إلا بتدبير خطط تمكنني ذات يوم أن أستقل هذا القطار نفسه وأتوقف في هذه المحطة نفسها، هذا المشروع الذي كان من حسناته أيضاً أنه يقدم الزاد لميل مصلحي ناشط عملي آلي خامل متهرب هو من خصائص عقلنا فهو يُعْرض تلقائياً عن الجهد اللازم لنعمق في ذواتنا بشكل عام ومتجرد انطباعا ممتعا نعمنا به . وبما أننا نبغي من جهة ثانية أن نوالي التفكير به، فهو يفضل تخيلّه في المستقبل وإعداد الظروف التي يمكن أن تبعثه من جديد إعداداً حاذقا، الأمر الذي لايجيئنا بشيء عن ماهيته ولكنه يجنبنا تعب إعادة خلقه في ذواتنا ويسمح لنا بأمل الحصول عليه ثانية من الخارج .

تفيد بعض أسماء المدن من مثل " فيزليه " أو " شارتر " أو " بورج " أو " بوفيه " في الدلالة باختصار على كنيستها الرئيسية . ويفضي هذا المعنى الجزئي الذي نأخذه في الغالب فيه - إن تعلق الأمر بأمكنة لانعرفها بعد - إلى نقش الاسم بكامله، فإذا ما أردنا أن نقحم فيه فكرة المدينة - المدينة التي لم نرها قط - فإنه يفرض عليها - شأن القالب - صنوف النقش نفسها ويجعل منها نوعا من الكاتدرائية الكبيرة من الطراز نفسه . على أني إنما قرأت في إحدى محطات السكك الحديدية اسم "بالبيك"، وهو من طراز كاد يكون فارسياً، فوق مقصف وبحروف بيضاء على لافتة زرقاء . واجتزت مسرعاً المحطة والشارع الذي يفضي إليها وسألت عن الشاطئ كي لا أبصر سوى

الكنيسة والبحر . ولم يبد أنهم أدركوا ما كنت أبغي قوله، فلم تكن " بالبيك القديمة "، "بالبيك التي في الأرض "، والتي كنت فيها، لاشاطئاً ولامرفأ . صحيح أن الصيادين وجدوا في البحر، بحسب الأسطورة، المسيح العجائبي الذي كان يروي اكتشافه زجاج ملوَّن في هذه الكنيسة التي كانت على أمتار مني، وصحيح أن حجر صحن الكنيسة والأبراج قد استخرج من الجروف التي تضربها الأمواج. ولكن هذا البحر الذي تصورته من جراء ذلك يلفظ أنفاسه على حضيض الزجاج الملون كان على بعد خمسة فراسخ وتزيد، في " بالبيك الشاطئ"، وكان برج الجرس، بالقرب من قبتها، وقد تمثلته على الدوام، لأنني قرأت بالأمس أنّه جرف نورماندي وعر هو الآخر تتراكم فيه الحبوب وتدور في بطنه الطيور، وكأنما يبلغ أساساته آخر زبد في الأمواج المتعالية، كان يرتفع فوق ساحة يتفرع فيها خطا

حافلة كهربائية قبالة مقهى يحمل فوق جداره كلمة " بليارد " وقد كتبت بحروف من ذهب . كان يبرز على خلفية من بيوت لايمتزج بسطوحها أي صار . والكنيسة التي ولجت ساحة اهتمامي مع المقهى وعابر السبيل الذي انبغى أن أسأله طريقي والمحطة التي أزمع العودة إليها، إنما كانت تؤلف كلا واحداً مع ماتبقى وتبدو بمثابة صدفة، بمثابة أمر أنتجته أواخر مابعد الظهر هذا الذي تبدو فيه القبة الناعمة المنتفخة على صفحة السماء وكأنها ثمرة تنضج قشرتها الموردة المذهبة الذائبة الأشعة نفسها التي تغمر مداخن البيوت. ولكنيّ لم أشأ التفكير من بعد إلا بمعنى المنحوتات الأزلي حينما تعرفت الرّسل [1] الذين سبق أن رأيت تماثيلهم مقولبة في متحف " الترو كاديرو " والذين كانوا ينتظرونني على جانبي العذراء أمام فتحة البوابة العميقة وكأنما ليكّرموني . كانوا يبدون بوجوههم الطيبة المفطّحة العذبة وظهورهم المحنيّة وكأنهم يتقدمون مرحبين وينشدون نشيد" هلليلويا " في يوم سعيد . ولكنّك كنت تلاحظ أن ملامحهم ثابتة لاتتحول كملامح الأموات ولا تتبدل إلا إذا درت من حولها . وكنت أقول في نفسي : إنها هنا، هذه كنيسة " بالبيك " وهذه الساحة التي تبدو عارفة بأمجادها هي المكان الوحيد في العالم الذي يضم كنيسة " بالبيك " . كان مارأيته حتى الآن صورا لهذه الكنيسة، لهؤلاء الرسل، لعذراء البوابة هذه وكلّهم ذائع الصيت، كانت تماثيل مصبوبة فحسب. أمّا الآن فإنها الكنيسة ذاتها، إنّه التمثال ذاته، والكل فريد : إنّها أكثر من ذاتها .

وربما كانت أقل منها أيضاً . فمثلما يرى شاب، يوم الامتحان أو المبارزة، أن الأمر الذي سئل عنه، أنّ الرصاصة التي أطلقها شيء هين حينما يفكر في احتياطي العلم والشجاعة الذي كان يودّ إبرازه، كذلك كان فكري قد نصب عذراء البوابة خارج النسخ التي تسنى لي أن أراها، لاتطالها التقلبات التي يمكن أن تهدد هذه الأخيرة، وتظل هي هي إن تم إتلاف تلك، وهي مثالية وتتمتع بقيمة مطلقة، فكان يدهشه أن يبصر التمثال الذي أقدم على نحته ألف مرة وقد رُدّ الآن إلى مظهره الحجري الخاص وهو يشغل بالنسبة إلى مدى ذراعي مكاناً تنافسه فيه لصيقة انتخابية وطرف عصاي، وقد قيد بالساحة ولا يستطيع الانفصال عن منفذ الشارع الكبير ولايمكنه تجنب نظرات

(١) الحواريون

المقهى ومكتب سيّارت النقل وعلى صفحة وجهه يمتد نصف شعاع الشمس الغاربة – وعما قليل، وبعد انقضاء بضع ساعات، نور المصباح الليلي – الذي يمتد نصفه الآخر على مكتب مصرف الخصم، وتبلغه في الآن نفسه، كما هي حال هذا الفرع لإحدى مؤسسات التسليف روائح عفنة تنبعث من مطابخ بائع الحلوى، ويخضع لاستبداد الفرد إلى حد أني لو وددت أن أُسطر توقيعي على هذا الحجر فهي، عنيت العذراء الشهيرة التي حبوتها حتى ذاك بوجود عام وبجمال لاتمسة يد، عذراء " بالبيك" الفريدة (الأمر الذى يعنى الوحيدة، واأسفي)، هي التي سوف ترى جميع المعجبين الذين جاؤوا إلى هذا المكان ليتأملوها فوق جسمها الملوث بالسخام نفسه الذي يعلو الدور المجاورة، أثر قطعة الحكك

والحروف التي تؤلف اسمي دون أن يمكنها التخلص منها، وهي أخيراً ذلك العمل الفني الخالد الذي طال شوقي إليه، هي التي كنت أجدها وقد استحالت، شأن الكنيسة نفسها، عجوزاً صغيرة من حجر أستطيع أن أقيس ارتفاعها وأعد تجاعيدها . كان الوقت يمضي ولابد لي من العودة إلى المحطة حيث يقع عليّ أن أنتظر جدتي و "فرانسواز" لنذهب سوية إلى " بالبيك الشاطيء" وأخذت أذكر ماقرأته حول " بالبيك " وأقوال " سوان ": إنها رائعة وفي مثل جمال سييّنا " وإذ القيت تبعة ما أصابني من خيبة على أمور عارضة فحسب، على الحالة السيئة التي كنت فيها وتعبي وأني لا أحسن النظر إلى الأشياء، فقد كنت أحاول جلب العزاء لنفسي وأنا أفكر بأنه لايزال ثمة مدن أخرى بعد على حالها بالنسبة إليّ وأني سأستطيع ربما عما قريب الدخول، وكأنما وسط زخة من اللآلي، في التغريد الندي الذي ينطلق من تقطرات حروف " كامبرليه " واجتياز الضياء المخضوضر والوردي الذي يغمر "بونتافن". أما فيما يخص "بالبيك" فما أن دخلت إليها حتى بدا وكأني فتحت اسماً كان ينبغي أن أحتفظ به محكم الإغلاق، اسماً اندفعت داخل مقاطعه، وقد استغلت المنفذ الذي قدمته غير محاذر وطردت جميع الصور التي عاشت فيها حتى ذاك، حافلة كهربائية ومقهى والناس الذين كانوا يعبرون الساحة وفرع مكتب مصرف الخصم، اندفعت يسوقها على نحو لايقاوم ضغط خارجيّ وقوة هوائية داخل المقاطع التي انغلقت عليها وتركتها الآن تؤطر بوابة الكنيسة الفارسيّة ولن تنفك تحتويها بعد الآن.

في الخطّ الحديدي الصغير ذي الأهمية المحلية الذي سيقلّنا إلى "بالبيك الشاطئ" التقيت بجدتي ولكنّي التقيت بها وحدها – فقد خطر لها أن تبعث "فرانسواز" قبلها كي يتم إعداد كل شيء سلفاً (ولكنّها لم تفلح، وقد زوّدتها بمعلومات خاطئة، إلا في إرسالها في اتجاه خاطئ)، وكانت "فرانسواز" في تلك اللحظة تمضي، ولايخامرها الشك، بأقصى السرعة باتجاه "نانت" وربّما أفاقت في "بوردو" . وما إن جلست في العربة التي ملأها نور الغروب العابر وحرّ ما بعد الظهيرة الدائم (فيسمح لي الأول، للأسف، أن أبصر بوضوح على وجه جدتي إلى أي حدّ أرهقها الثاني) حتى سألتني : "و"بالبيك" ؟ هات نَرَ" بابتسامة يشرق فيها أمل المتعة الكبيرة التي تحسب أني نلتها إشراقاً شديداً إلى حدّ أني لم أجرؤ أن أقرّ لها بخيبة أملي دفعة واحدة. وقد أخذ الانطباع الذي سعى إليه فكري يشغلني على أيّة حال أقل فأقل كلما اقترب المكان الذي كان ينبغي لجسمي أن يتعوّده .

كنت أحاول في نهاية هذه الرحلة، ولاتزال على بعد يتجاوز الساعة، أن أتخيّل مدير فندق "بالبيك" الذي كنت غير موجود بالنسبة إليه في هذه اللحظة وودت لو أمثل أمامه في صحبة أكثر مهابة من صحبة جدّتي التي تزمع بالتأكيد المطالبة بتخفيضات. كان يبدو لي متسماً بغطرسة أكيدة ولكنّه غير واضح الخطوط.

كان الخط الحديدي الصغير يتوقف بنا في كل لحظةٍ في واحدة من المحطات التي تسبق "بالبيك الشاطئ"، وتبدو لي أسماؤها ذاتها ("انكارفيل" و "ماركوفيل" و "دوفيل" و"بونتاكولوفر" و"أرامبوفيل" و " سان مارس لوفيو" و "هيرمونفيل" و "مينفيل") غريبة في حين أنّني لو قرأتها في كتاب لأصبحتْ على بعض الصلة بعدد من الأمكنة المجاورة لـ " كومبريه". بيد أنّه يمكن لنغمين يؤلفهما على الصعيد المادي العديد من النوطات نفسها ألا يحملا أي تشابه إلى أذن الموسيقي إن هما اختلفا باللون النغمي والتأليف الأوركسترالي. كذلك ما كان من أمر يذكرّني، أقلّ مما تفعل تلك الأسماء الحزينة المصنوعة من رمل وأجواء مكشوفة تماماً ومقفرة ومن ملح، وفوقها تنطلق كلمة "فيل" (مدينة) كلفظة "طار" في لعبة "طار الحمام"، باسمي "روسّانفيل" أو "مارتانفيل" اللذين كانا من جراء أني كثيراً ماسمعت شقيقة جدي تنطق بهما على المائدة وفي غرفة الجلوس قد اكتسبا روعة حزينة ربّما امتزجت فيها خلاصات من طعم المربات ورائحة نار الحطب وورق أحد كتب "بيرغوت" ولون الفخار على صفحة البيت المقابل، واللذين لايزالان يحتفظان اليوم، حينما يصعدان من أعماق ذاكرتي على هيئة فقاعة هوائية، بزخمهما الخاص عبر تكدس مسافات الأوساط المختلفة التي يقع عليهما اجتيازها قبل الوصول إلى السطح.

كانت تلك محطات صغيرة تشرف على البحر البعيد من عالي هضابها الرملية أو تعدّ النفس لليل على حضيض هضاب زاهية الخضرة مزعجة الشكل كما هي حال الكنبة في غرفة فندق وصلت إليه منذ قليل، وتتألف من بضع دارات يمتد خلفها ملعب لكرة المضرب وأحياناً كازينو تخفق في الهواء البارد رايته وهو مقفر كئيب، محطّات صغيرة تريني للمرّة الأولى نزلاءها ولكنها تريني إيّاهم في مظهرهم المعتاد – فلاعبو كرة مضرب بقبّعات بيضاء، ومدير المحطة الذي يعيش هناك بالقرب من أثلاته وورده، وسيّدة تعتمر قبعّة بحّار كانت إذ تستدعي سلوقيّها المتخلف وتعود إلى دارتها التّي أضيء مصباحها إنما ترسم المسار المعتاد لحياة لن أعرفها في يوم – وتؤذي أشد الأذى بهذه الصور المألوفة إلى حدّ الغرابة الأليفة، إلى حدّ الازدراء، نظراتي المجهولة وفؤادي الذي في غربة. ولكن كم تفاقم عذابي بعد ما حللنا في بهو فندق "بالبيك" الكبير، قبالة الدرج الأثري الذي يقلد الرخام، وفيما كانت جدتي تناقش، غير عابئة أن تزيد من عداء الغرباء الذين تزمع العيش فيما بينهم ومن ازدرائهم أيضاً، تناقش "الشروط" مع المدير، وهو من صنف "المكرشين" ذو وجه وصوت مليئين بالندوب (التي خلفها في الأول استئصال بثور عديدة منه وفي الثاني استئصال اللهجات المختلفة الناجمة عن أصول بعيدة وطفولة تقلبت في بلدان كثيرة)، ولباس رجل مجتمعات ونظرة عالم نفسي يضع، لدى وصول عربة المسافرين، كبار القوم موضع المعدمين ونشالي الفنادق موضع كبار القوم! كان يبدي ازدراء عميقا إزاء الناس الذين تشكّل خمس مئة فرنك، أو بالأحرى خمسة وعشرون ليرة

ذهبيّة، حسبما يقول مبلغاً في نظرهم ويعدّهم من فئة جماعة منبوذة لم يكن الفندق الكبير مخصصاً لهم، وينسى دونما شكّ أنّه لايقبض، هو نفسه، خمس مئة فرنك كمرتب شهري. كان ثمة بالحقيقة في هذا الفندق نفسه جماعة لايدفعون أثماناً مرتفعة جداً ويحظون مع ذلك بتقدير المدير بشرط أن يتأكد هذا الأخير أنهم يقترون في الإنفاق لا عن فقر بل عن بخل. فالبخل لايمكن أن يُفقدَ المهابة شيئاً إذ هو نقيصة ويمكن بالتالي وجوده في جميع الحالات الاجتماعية . والحالة الاجتماعية كانت الأمر الوحيد الذي يعيره المدير اهتمامه، الحالة الاجتماعية أو بالأحرى العلامات التي تتضمن في نظره أنها مرتفعة كأن لايكشف المرء عن رأسه في دخوله إلى البهو وأن يرتدي بنطالاً فضفاضاً ومعطفاً على قدّ الجسم وأن يخرج "سيكاراً" بحزام من أرجوان وذهب من علبة مصنوعة من جلد مصقول (وكنت أفتقر، واأسفي، إلى جميع هذه الحسنات)، وكان يرصّع أقواله التجارية بعبارات منتقاة ولكنها بخلاف المعنى.

وفيما كنت أسمع جدتي تسأله بلهجة مصطنعة، دون أن يسوءها أنه يصغي إليها وقبعته على رأسه فيما يصفر بين أسنانه: "وماهي... أسعاركم؟. . . أوه ! إنها باهظة بالنسبة إلى ميزانيتّي الصغيرة"، كنت أهرب، وأنا في انتظار على بنك صغير، إلى أعمق أعماق ذاتي وأجهد في الانصراف إلى أفكار أزليّة وفي أن لا أدع شيئاً، أي شيء حي، من ذاتي يطفو على صفحة جسمي - وقد أصابها الخدر، كما هي حال الحيوانات التي تتصنع الموت بفعل عملية تثبيط حينما تصاب بجرح - كي لا أتعذّب كثيرا في هذا المكان الذي تزيد فيه من إحساسي بالافتقار التام إلى تعوده رؤية العادة التي يبدو أنها تيسرت في الوقت نفسه لسيّدة أنيقة كان المدير يبدي لها احترامه باللجوء إلى بعض صنوف التمادي مع الكلب الصغير الذي يتبعها، وللشاب الأنيق الذي يعود تخفق ريشة في قبّعته ليسأل " إن كان ثمة رسائل له"، ولجميع هؤلاء القوم الذين يساوي تسلق الدرجات التي من رخام كاذب العودة إلى بيوتهم.

وقد رماني في الوقت نفسه بنظرة "مينوس"و " أياكوس" و "رادامانتوس" (1) الصارمة (نظرة غمرت بها نفسي العارية وكأنما في مجهول لم يعد يحميها شيء فيه) سادة يحملون لقب "مدير استقبال" وربما كانوا قليلي الاطلاع على فن "الاستقبال" . وعلى بعد قليل منهم، وخلف زجاج مغلق، كانت تجلس جماعة في صالة مطالعة لعله كان ينبغي لي لوصفها أن أنتقي في كتاب "دانته" على التوالي الألوان التي يضفيها على الجنّة وعلى جهنّم حسبما كنت أفكر في سعادة المختارين الذين كان يحق لهم أن يقرؤوا فيها بطمأنينة تامّة أو في الذعر الذي ربما بعثته فيّ جدتي لو أمرتني بالدخول إليها وهي لاتكترث بهذا النوع من الانطباعات.

وبعد ذلك بفترة تضاعف شعوري بالعزلة. فإذ سبق لي أن أفضيت لجدتي بأنني لم أكن على ما يرام وباعتقادي أننا سوف نضطر للعودة إلى باريس قالت دونما اعتراض إنها خارجة ابتغاء لبعض

(1) Minos ,Eaque,Rhadamante : من الشخصيات الأسطورية البارزة في تاريخ اليونان القديم، واشتهروا بالحكمة والتقوى ولذلك يقال إنهم القضاة المشرفون على ديمونة الأموات في الحياة الأخرى.

المشتريات، وهي مفيدة سواء أذهبنا أم بقينا (وقد علمت فيما بعد أنها جميعها مخصصة لي إذ كانت "فرانسواز" تحمل معها حاجات ربما كنت بحاجة إليها) . وذهبت بانتظار عودتها أذرع الشوارع التي يزدحم فيها جمهور يحافظ فيها على مايشبه دفء المنازل والتي كانت لاتزال تفتح أبوابها فيها دكان الحلاق وصالة حلواني يتناول فيها بعض الرواد مثلجات أمام تمثال "دوغيه – تروان" . وقد أشاع في صدري من السرور بقدر ما يمكن أن تشيع صورته على صفحات مجلة مصورة من سرور في صدر مريض يقلّبها في قاعة انتظار أحد الجراحين. وكنت أدهش أن يكون ثمة أناس يختلفون عني إلى حدّ أن يشير عليّ المدير بهذه النزهة في المدينة على أنها من قبيل التسلية وأن يبدو مكان العذاب الذي قوامه المنزل الجديد أن يبدو لبعضهم بمثابة "مرتع ملذّات" على حدّ ما تعلن نشرة الفندق الدعائية التي يمكن أن تبالغ ولكنها موجهة إلى مجموعة كاملة من الزبائن الذين تساير ميولهم . صحيح أنها كانت تلجأ، كيما تجتذبهم إلى الفندق الكبير، لا إلى "العزيزة الطيبة" و "المنظر الرائع في حدائق الكازينو" فحسب، بل كذلك إلى "قرارات صاحبة الجلالة الموضة التي لايمكن مخالفتها على نحو فاضح دون أن يوضح المرء موضع الأحلاف، الأمر الذي لا يودّ التعرض له أي رجل في قسط وافر من التهذيب".

وقد زاد من حاجتي إلى جدتي خوفي من أن أكون تسببت لها بخيبة أمل. فلا بدّ أن عزيمتها ثبّطت وأنها تحسّ أنني إن كنت لاأحتمل هذا التعب فالحالة تدعو إلى اليأس من أن يمكن لأية رحلة أن تنفعني وقررت العودة لانتظارها. وجاء المدير يضغط بنفسه على زرّ ؛ وإذا بشخص يدعونه "مصعداً"، ولايزال مجهولاً لديّ، (وكان يقبع في أعلى نقطة في الفندق، حيثما المنوَّر في كنيسة نورمانديّة، وكأنه مصور خلف نافذته الزجاجية أو عازف أرغن في غرفته) إذا به يشرع بالانحدار نحوي بخفة سنجاب أهليّ مجدّ سجين، ثم حملني خلفه وهو ينزلق على طول عمود باتجاه قبة الجناح التجاري. وكانت تنتشر في كل طابق على جانبي أدراج توزيع صغيرة وعلى هيئة مراوح ممرات مظلمة تنتقل عبرها وصيفة تحمل وسادة . كنت ألصق فوق وجهها الذي أضفى عليه الشفق غموضاً قناعَ أشدّ أحلامي جوىً ولكنّي أقرأ في نظرتها التي ترنو بها إليّ فظاعة عدمي. وكيما أبدّد، في أثناء عملية الصعود التي لاتنتهي، القلق القاتل الذي أعاني منه من جراء اجتيازي صامتاً خفايا تلك الأضواء الخافتة التي لاشاعريّة فيها، وليس من نور سوى صفّ عمودي واحد من الزجاج يشكله المرحاض الوحيد في كل طابق، خاطبت عامل الأرغن الصغير صانع رحلتي ورفيق أسري الذي كان يوالي شد زرار آلته والضغط على أنابيبها. واعتذرت أنني أشغل حيزاً كبيراً وأن أحمّله قدراً عظيماً من المشقة وسألته، إن كنت لاأضايقه في ممارسته لفنّ لجأت بشأنه، كيما أمتدح العازف الماهر، إلى أكثر من إبداء الفضول إذ اعترفت بإيثاري له. ولكنه لم يجبني إمّا لدهشته من أقوالي أو لانصرافه لعمله أو لاهتمامه باللياقة أو لوقر في الأذنين أو احتراماً للمكان أو مخافة الخطر أو لخمول العقل أو بتوجيه من المدير.

قد لايكون ثمة مايورثنا إحساساً بحقيقة ما كان خارجاً عنّا أكثر من تبدل موقع شخص، وإن يك تافهاً، بالنسبة إلينا قبلما تمّ لنا التعرّف به وبعد. لقد كنت الرجل نفسه الذي استقلّ الخطّ

الحديدي الصغير من "بالبيك" في أواخر بعد الظهر وكنت أحمل في داخلي الروح نفسها. إلاّ أنّه كان في تلك الروح وفي المكان الذي كان يعمره في الساعة السادسة، إلى جانب استحالة تخيل المدير والفندق والخدم، انتظار مبهم متوجّس للحظة التي سأصل فيها، كان هنالك الآن البثور المقتلعة في وجه المدير المتعدّد الجنسيّات (وقد اكتسب بالحقيقة جنسيّة إمارة "موناكو" مع أنّه – حسبما يقول لأنّه كان يلجأ دوماً إلى عبارات يحسبها أنيقة دون أن ينتبه أنها خاطئة – من "أصليّة رومانيّة" [١] (والحركة التي يقرع بها جرس المصعد والمصعد نفسه وحاشية كاملة من الشخصيّات الكراكوزيّة التي خرجت من "صندوق الدنيا" هذا الذي هو الفندق الكبير وكلها لاتقبل الدحض ولاالتبدل وهي محمّلة بالعقم شأن كلّ ماتحقّق. على أن هذا التبدل الذي لم أتدخل فيه إنما كان يُثْبتُ لي على الأقلّ أن أمراً خارجاً عني قد حدث – مهما خلا هذا الأمر من الأهمية – وكنت كالمسافر الذي كانت الشمس من أمامه في بدء السباق فيلاحظ أن الساعات قد انقضت حينما يبصر الشمس وراءه. كان التعب قد أنهكني والحمّى تهدّني ووددت لو أنام ولكني ما كنت أملك ماينبغي لهذا الغرض. وددت لو أستلقي لحظة على الأقل على السرير، ولكن ما فائدة ذلك بما أنّه ما كان ليتيسّر لي أن أوفر الراحة لمجموعة الأحاسيس هذه التي هي بالنسبة إلى كل منّا جسده الواعي إن لم يكن جسده المادي، وبما أن الأشياء المجهولة التي تطوقه كانت، لإرغامها إياه على وضع أحاسيسه على أهبة الدفاع الدائم اليقظة، سوف تحتفظ بنظراتي وسمعي وجميع حواسي في وضع مقلّص ومزعج (حتى لو مددت ساقي) شبيه بوضع الكاردينال "لابالو" [٢] في القفص الذي لم يكن يسعه فيه الوقوف أو الجلوس. وإنما انتباهنا الذي يضع حاجات في الغرفة والعادة التي تخرجها منها وتوسع لنا مكاناً فيها. فأما المكان فلم يتيسّر لي شيء منه في غرفتي في "بالبيك" (غرفتي بالاسم فقط)، فقد كانت تعجّ بأشياء لاتعرفني ردّت لي نظرة الارتياب التي رميتها بها وأعربت لي، دون أن تحسب أيّ حساب لوجودي، أنّني أخرّب رتابة عيشها. واستمرّت ساعة الحائط – في حين لم أكن أسمع في البيت ساعتي إلاّ مقدار بضع ثوان فحسب في الأسبوع حينما أخرج من تأمل عميق – تدلي دون أن تتوقف لحظة واحدة، وبلغة مجهولة، بأقوال لابد أنها كانت تسيء إلي إذ كانت الستائر البنفسجية الكبيرة تصغي إليها ولاتجيب، ولكنها تفعل بمظهر شبيه بمظهر الناس الذين يرفعون أكتافهم ليظهروا أنّ رؤية رجل ثالث تغيظهم. وكانت تضفي على هذه الغرفة العالية جداً طابعاً يكاد يكون تاريخياً كان يمكن أن يجعلها مناسبة لمقتل الدوق "دوغيز" وفيما بعد لزيارة سيّاح يقودهم دليل من وكالة "كوك" ولكنها لاتناسب نومي على الإطلاق. وكان يقلقني وجود مكتبات صغيرة مزجّجة تجري على امتداد الجدران، وعلى وجه الخصوص مرآة كبيرة بقاعدة أوقفت في عرض الحجرة وكنت أحسّ أن ليس من فرج ممكن بالنسبة إليّ قبل رحيلها. وكنت أرفع ناظري في كل لحظة – وما كانت تضايقهما الحاجات التي في غرفتي في باريس أكثر مما تفعل حدقتاي إذ لم تكن من بعد

---

(١) ورد في النص Orignalité بدلا من Origine فحاولنا ردها بـ "أصلية" بدلا من "أصل".

(٢) La Balue من رجال الكنيسة في فرنسة في زمن لويس الحادي عشر، بلغ القمة ثروة ومنزلة ثم أودع السجن بعد اكتشاف اتصالاته السرية بمنافس الملك، وقيل إنه وضع في قفص من حديد.

سوى أشياء ملحقة بأعضائي، سوى تكبير لذاتي - إلى السقف الشديد الارتفاع لهذه المقصورة الواقعة في أعلى الفندق والتي اختارتها جدتي من أجلي ؛ وكانت رائحة "طيب العرب" تُقْبِلُ حتى المنطقة التي تفوق تلك التي نرى فيها ونسمع خفاءً، تلك المنطقة التي نختبر فيها نوعيّة الروائح، كانت تقبل حتى إلى داخل أناي لتشن عليّ في آخر معاقلي هجومها الذي كنت أضع قبالته، ولا أخلو من تعب، الردّ اللامجدي اللامنقطع المتمثل في استنشاق يشوبه الحذر. ولما لم يعد لي دنيا خاصة ولاغرفة ولاجسم إلا ويتهدّده الأعداء الذين يحيطون بي، إلا وتجتاحه الحمى حتى لتبلغ العظم، رأيتني وحيداً وداخلتني رغبة الموت. حينئذ دخلت جدتي، وانفتحت في الحال مساحات لا حدّ لها أمام تفتّح قلبي المكبوت.

كانت ترتدي مبذلاً من القطن الرقيق وتعوّدت أن ترتديه في البيت كلّ مرة كان فيها أحدنا مريضاً (لأنها تحسّ أيضاً أنها أكثر راحة فيه، تقول وهي تخصّ على الدوام ما تفعله بدوافع أنانيّة) وهو يمثل من أجل العناية بنا والسهر علينا مريلة الخادمة والممرّضة وثوب الراهبة. على أن عناية هؤلاء والعطف الذي بهنّ والفضل الذي لهنّ والجميل الذي ندين به لهنّ إنما تضاعف من الانطباع الذي يخلفنه لديك بأنّك بالنسبة إليهن رجل آخر وبإحساسك بالعزلة إذ تدع لذاتك عبء أفكارك ورغبتك الذاتية في العيش، فيما كنت أعلم حينما كنت مع جدتي أن الغم مهما تعاظم في صدري فسوف يحتويه عطف أكثر اتساعاً منه، وأن كل مايخصني، أن همومي ومشيئتي سوف تستند لدى جدتي إلى رغبة استبقاء لحياتي وإنماء لها أقوى بكثير من الرغبة التي بي. وكانت أفكاري تجد امتدادها لديها دون أن تعاني انحرافاً لأنها تنتقل من فكري إلى فكرها دونما تبدّل في الوسط والشخصية. وكمثل من يبغي عقد ربطة عنقه أمام مرآة دون أن يدرك أن الطرف الذي يراه غير واقع بالنسبة إليه في الجهة التي يمد فيها يده، أو مثل كلب يلاحق على صفحة الأرض ظل حشرة يتراقص أمامه - ارتميت بين ذراعي جدتي، وقد غرّني مظهر الجسم كما هي حالنا في هذه الدنيا التي لاندرك فيها النفوس إدراكاً مباشراً، وطبعت شفتي على محيّاها وكأنما أصل على هذا النحو إلى قلبها الواسع الذي تفتحه لي. كنت حينما ألصق شفتي على هذا النحو بوجنتيها وجبينها أغرف فيها من النفع والغذاء ما أحتفظ معهما بجمود الطفل الذي يرضع من ثدي أمه وبجديته ونهمه المطمئنّ.

وكنت أنظر بعد ذلك دونما كلل إلى وجهها الواسع الذي يبرز على هيئة سحابة جميلة ملتهبة هادئة تحسّ بالحنان يشعّ من خلفها. وكلّ ما كان يداخله قليل من أحاسيسها، مهما هزل، وكل ما يمكن على هذا النحو أن يقال لها يكتسب روحانية في الحال ويتقدّس إلى حدّ أني كنت أملّس بين راحتي شعرها الجميل الذي لم يكد يتشيب بقدر من الاحترام والحيطة واللطف يوازي ما كنت أفعل لو داعبت فيه طيبتها. كانت تجد متعة عظيمة في كل مشقة تجنّبني مثيلتها، وتجد في لحظة من الجمود والهدوء بالنسبة إلى أعضائي المتعبة أمراً بالغ الروعة إلى حد أنها، حينما رأيت أنها تبغي مساعدتي في الاستلقاء وفي خلع حذائي وقمت بحركة أمنعها بها عن ذلك وأباشر بخلع ملابسي بنفسي، أوقفت بنظرة متوسّلة يدي اللتين لامستا الأزرار الأولى في سترتي وحذائي. وقالت لي:

- "رجوتك. إنه لفرح عظيم بالنسبة إلى جدتك. ولايفوتنك على وجه الخصوص أن تنقر على الجدار إن كنت بحاجة لأمر ما هذه الليلة. فإن سريري يظاهر سريرك والحاجز رقيق جداً، هيّا افعل ذلك بعد لحظة حينما تصعد إلى سريرك لأرى إن كنّا متفاهمين تماماً."

وقد نقرت بالفعل ثلاث مرات في ذلك المساء - وأعدت الكرّة بعد أسبوع حينما ألم بي المرض وذلك على مدى بضعة أيام في كلّ صباح لأن جدتي كانت تريد إعطائي حليباً في ساعة مبكرة. فحينما كنت أحسب إذ ذاك أني سمعتها تستيقظ - وكي لاتنتظر وتستطيع معاودة النوم في الحال بعد ذلك - كنت أجازف بثلاث ضربات صغيرة خجولة ضعيفة إلا أنها واضحة مع ذلك، لأنني إن كنت أخشى أن أقطع عليها نومها إن اتفق أني أخطأت وأنها بعد نائمة فما كنت لأبغي كذلك أن تستمر في رصد نداء لم تميزه بادئ الأمر ولن أجرؤ على إعادة الكرّة. وما أن كنت أنتهي من نقراتي حتى كنت أسمع ثلاثاً غيرها مختلفة النغمة تتسم بسلطة هادئة وتُكرّر مرّتين لمزيد من الوضوح وتعني: "لاتضطرب، فقد سمعت وسأحضر بعد لحظات" ؛ وكانت جدتي تصل بعد ذلك بقليل. وأقول لها إني خشيت ألا تكون سمعتني أو حسبت أن أحد الجيران قد نقر، فتضحك قائلة:

- "أخلط بين نقرات "كتكوتي المسكين" [1] وبين أخرى غيرها، ولكن جدته تتعرفها بين ألف ! أفتظنّ أن ثمة في العالم ما كان في مثل غبائها واضطرابها وما يتنازعها من خشية أن توقظني وألا يتم فهمها؟ ولكن حتى لو اكتفى فأري الصغير بقرع خفيف لتم في الحال تعرّفه ولاسيما حينما يكون فريداً ومدعاة للرثاء مثلما هو فأري . لقد كنت أسمعه يتردّد منذ فترة ويضطرب في سريره ويقوم بجميع مناوراته."

وتفتح مصراعي النافذة. كانت الشمس مذ ذاك في الملحق البارز من الفندق تقيم على السطوح كسقّاف يغدو إلى عمله في ساعة مبكرة وينجزه بصمت كي لايوقظ المدينة التي لاتزال تنام والتي يزيد حراكها من خفّته. كانت تقول لي الساعة والطقس المتوقع وأن لاداعي أن أذهب حتى النافذة وأن البحر يغمره الضباب وإن كان المخبز قد فتح أبوابه وأية عربة تلك التي نسمعها: أي كلّ ما يحيط برفعة الستار هذه القليلة الشأن وصلاة أول النهار هذه وهي غير ذات بال فلا يشهدها أحد، تلك القطعة الصغيرة من الحياة التي لم تكن لسوانا نحن الاثنين والتي سيطيب لي أن أذكرها أثناء النهار أمام "فرانسواز" أو أمام بعض الغرباء وأنا أتحدث عن الضباب الذي كالقطن المندوف، والذي ساد في الساعة السادسة صباحاً، للتظاهر بالمعرفة المكتسبة بل للتباهي بدليل مودّة خُصصت بها وحدي ؛ هذه اللحظة الصباحية العذبة التي كانت تبدأ مثل سيمفونية بالحوار الإيقاعي لضرباتي الثلاث الذي كان الحاجز يرد عليه، وقد داخله الحنان والفرح وأضحى رخيماً لامادياً ينشد كالملائكة، بثلاث ضربات أخرى أنتظرها بلهفة وتكرر مرتين ويعلم كيف ينقل فيها روح جدتي بكليتها بفرح البشارة وأمانة الموسيقى. ولكني في ليلة وصولي تلك عدت أتألم حينما تركتني جدتي

(١) ورد في النص الفرنسي Mon loup أي ذئبي.

مثلما سبق أن تألمت في باريس لحظة مغادرة البيت. ربما لم يكن ذلك الذعر الذي ألم بي - ويلم بالكثيرين غيري - من جراء النوم في غرفة مجهولة، ربما لم يكن سوى الصيغة الأكثر اتضاعاً الغامضة العضوية اللاواعية تقريباً، صيغة هذا الرفض الكبير اليائس الذي تمانع به الأشياء التي تؤلف أفضل ما في حياتنا الحاضرة أن نرتدي ذهنياً صيغة تسليمنا بمستقبل لا تظهر فيه، الرفض الذي كان في أساس الهلع الذي غالباً ما جعلتني أحس به فكرة موت والديّ ذات يوم وأن ضرورات الحياة قد تضطرني إلى العيش بعيداً عن "جيلبيرت" أو إلى الإقامة فقط إقامة نهائية في بلاد لن أرى فيها أصدقائي من بعد. هذا الرفض الذي كان كذلك في أساس العنت الذي ألاقيه في التفكير بموتي أنا أو ببقاء كالذي كان "بيرغوت" يعد به البشر في كتبه والذي لن يمكنني أن أحمل معي إليه ذكرياتي وعيوبي وطباعي التي ما كانت تسلّم بفكرة أن لا تكون من بعد ولا تقبل فيما يخصني لا بالعدم ولا بأبدية لن يتسنى لها أن تكون فيها.

حينما قال لي "سوان" في باريس، ذات يوم كنت فيه متوعك الصحة على نحو ملموس: "يجدر بك أن ترحل إلى جزر أوقيانيا الرائعة تلك وسترى أنك لن تعود منها ثانية"، وددت لو أجيبه: "ولكني والحالة هذه لن أرى ابنتك من بعد وسأعيش بين أشياء وأناس لم ترهم قط." بيد أن عقلي كان يقول لي: "وما هم بما أنك لن تغتمّ لذلك؟ فحينما يقول لك السيد "سوان" إنك لن تعود فإنما يعني بذلك أنك لن تود العودة، وبما أنك لن تود العودة فإنما لأنك سوف تكون سعيداً هناك." لأن عقلي كان يعلم أن العادة - العادة التي ستتولى الآن مهمة أن تحبب إليّ هذا المسكن المجهول، وأن تغير مكان المرآة ولون الستائر وتوقف ساعة الجدار - تأخذ على عاتقها أيضاً أن تجعل الرفاق الذين ساؤوا بادئ الأمر في عيننا أعزاء على قلبنا وأن تهب الوجوه شكلا آخر وأن تجعل نبرة صوت محببة وأن تبدل في ميل القلوب. صحيح أن لحمة هذه المحبة الجديدة للأمكنة والناس قوامها نسيان القديمة ؛ ولكن عقلي كان يحسب بالضبط أنني أستطيع دون جزع توقع حياة أنفصل فيها نهائياً عن كائنات سوف أفقد حتى ذكراها، فكان يقدم لفؤادي بمثابة عزاء وعداً بالنسيان كان على العكس يزيد من يأسه. وليس يعني ذلك أنه ينبغي أن لا يحسّ فؤادنا، بعد ما يتم الفراق، آثار العادة المسكّنة، ولكنه سوف يستمر حتى ذاك في العذاب. وإن الخشية من مستقبل نحرم فيه رؤية من نحب وحديثهم، ومنهما نستخلص اليوم أثمن أفراحنا، إن تلك الخشية تتعاظم بدلا من أن تتبدد إن ظننا أنه سينضاف إلى عذاب مثل هذا الحرمان مايبدو لنا في الوقت الراهن أكثر قسوة منه، عنينا أن لا نحس به بمثابة عذاب وأن لا نبالي به، لأن أنانا تكون قد تبدلت والحالة هذه: فليس سحر ذوينا وعشيقتنا وأصدقائنا ما سيتبدد من حولنا فحسب، بل سوف يتم انتزاع مودتنا لهم من فؤادنا الذي تؤلف اليوم قسماً كبيراً منه انتزاعاً تاماً إلى حد نستطيع معه أن نصادف متعة في هذه الحياة المنفصلة عنهم التي تملؤنا فكرتها اليوم هلعاً. سوف يكون الأمر إذن بمثابة موت حقيقي لذاتنا، موت تليه بالحقيقة قيامة ولكن في أنا مختلفة لا يمكن لأجزاء الأنا القديمة التي كُتِبَ عليها الموت أن ترتفع إلى مستوى حبها وإنما تلك الأجزاء- حتى ما كان منها هزيلا كأكثر ما يكون شأن التعلق الغامض بحجم غرفة وبجوها - التي تجزع وترفض ضمن أشكال من التمرد ينبغي أن نبصر فيها شكلا خفياً

جزئياً ملموساً حقيقياً من مقاومة الموت، من المقاومة الطويلة اليائسة اليومية للموت المجزأ المتتالي على النحو الذي يداخل فيه كامل مدة حياتنا فينزع منا في كل لحظة مزقاً من ذواتنا تتكاثر على جيفتها خلايا جديدة. ولم يكن القلق المذعور الذي أحس به تحت هذا السقف المجهول والشديد الارتفاع، بالنسبة إلى مزاج عصبي كمزاجي (يعني مزاجاً يؤدي فيه الوسطاء، أي الأعصاب، وظائفهم أسوأ الأداء فلا يوقفون شكوى أكثر عناصر الأنا التي تزمع أن تزول اتضاعاً وهي في طريقها إلى الوعي، بل يدعون لها على العكس أن تبلغه واضحة مرهقة مؤلمة لا تحصى)، لم يكن سوى احتجاج صداقة لاتزال باقية في نفسي وأكنها لسقف مألوف غير مرتفع. وما من شك أن هذه الصداقة سوف تزول إذا احتلت أخرى مكانها (ويكون الموت آنذاك ثم حياة أخرى جديدة قد أتما عملهما المزدوج تحت عنوان العادة) بيد أنها سوف تتألم كل مساء إلى أن تضمحل، وقد ثارت في ذلك المساء على وجه الخصوص، إذ وضعت بمواجهة مستقبل قد تحقق ولا مكان لها فيه من بعد، وأخذت تعذبني بصوت نواحها في كل مرة تحاول فيها نظراتي، وهي لاتستطيع الانصراف عما يجرحها، أن تحط على هذا السقف الذي لا تدركه العين.

ولكن في صباح الغد ! - وبعدما جاء خادم يوقظني ويأتيني بماء ساخن وبينما كنت أغسل وجهي وأحاول دون جدوى العثور على الأشياء التي كنت بحاجة إليها في حقيبتي التي كنت لا أستخرج منها في غير انتظام سوى تلك التي لا يمكن أن تفيدني في شيء، أيّة فرحة، وأنا أفكر مذ ذاك في متعة الغداء والنزهة، أن أبصر في النافذة وفي سائر واجهات المكتبات، وكأنما في كوى حجرة على متن سفينة، البحر عارياً لا ظلال عليه مع أنه كان في الظل على نصف امتداده الذي كان يحدده خط دقيق متحرك وأن أتابع بالعين الأمواج التي كانت تندفع الواحدة تلو الأخرى كجماعة من القفازين فوق خشبة للقفز ! وكنت أعود في كلّ لحظة، وأنا أمسك بين يدي بالمنشفة المتصلبة المنشّاة التي كتب عليها اسم الفندق والتي كنت أنفق بها جهوداً لا تجدي في تنشيفي، كنت أعود قرب النافذة لألقي نظرة أخرى على هذا الميدان الخلاب الكثير الجبال وعلى القمم الثلجية لأمواجها التي من حجر الزمرد المصقول الشفاف في هذه النقطة أو تلك، أمواجها التي تقبل بعنف هادئ وبعبسة الأسود تؤلف سفوحها وتهدم تلك السفوح التي تضيف إليها الشمس ابتسامة لا ترف على وجه. تلك النافذة التي كنت سأقف أمامها كلّ صباح بعد ذلك وكأنما أمام زجاج عربة نمتَ فيها لترى إن كانت سلسلة جبال مشتهاة قد اقتربت في أثناء الليل أو ابتعدت - وهي بالمناسبة تلال البحر تلك التي تستطيع قبل أن تعود إلينا متراقصة أن تتراجع بعيداً جداً إلى درجة أني ما كنت أبصر، على مسافة بعيدة تموجاتها الأولى في أفق شفاف ضبابي مائل إلى الزرقة كتلك الجليديات التي نراها في أقصى لوحات رسامي"توسكانا" الأوائل، إلا بعد سهل رملي واسع. وفي مرات أخرى كانت الشمس تضحك قريباً مني على تلك المياه التي من خضرة في مثل الطراوة التي تحفظها لمروج جبال"الألب" حركة الضوء الرجراج أكثر مما تفعل رطوبة الأرض (في الجبال التي تمتد فيها الشمس ههنا وهناك كعملاق ينحدر فرحاً وبقفزات غير متساوية على سفوحه). وإنما الضوء، في هذه الثغرة التي يفتحها الشاطئ والمياه وسط باقي العالم لتسهل مرور الضوء وتراكمه فيها، إنما هو

الذي يغير ويحدد على وجه الخصوص مواقع الوهاد في البحر بحسب الاتجاه الذي يجيء منه والذي تتابعه أعيننا. وليس يبدل اختلاف الضوء اتجاه مكان ولا يضع نصب أعيننا أهدافاً جديدة يبعث فينا رغبة الوصول إليها أقل مما يفعل مشوار طويل قطعناه بالفعل في أثناء رحلة. حينما كانت تجيء الشمس في الصباح من خلف الفندق وتكشف أمام ناظري الرمال المنورة حتى معاقل البحر الأولى، كانت تبدو وكأنها تكشف لي عن سفح آخر وتحثني أن أتابع على طريق أشعتها المتحولة رحلة ثابتة ومنوعة عبر أجمل مواقع لمنظر الساعات المتموج. كانت الشمس منذ ذلك الصباح الأول تريني في البعيد، بإشراقة ترفّ حول يدها، قمم البحر الزرقاء التي لا تحمل اسماً على أية خريطة جغرافية حتى يأخذها الدوار من جراء رحلتها الرائعة على صفحة قممها ووهادها المدوية التي تعمها الفوضى فتبادر إلى غرفتي تحتمي فيها من الريح وترتاح فوق السرير المخروب وتنثر ثرواتها فوق المغسلة المبلولة وفي الحقيبة المفتوحة حيث تزيد من جراء روعتها ذاتها وبذخها الذي في غير محله من الشعور بالفوضى. أما هواء البحر فقد بدا بعد ساعة في قاعة الطعام الكبيرة – وفيما كنا نتناول طعام الغداء ونعتصر من "زمزمية" ليمونة بضع قطرات ذهبية على سمكتي موسى خلفتا بعد قليل في قصعاتنا خصلات حسكهما، الجعد كريش الطير، الرنان كمثل قيثارة – بدا من أسف مؤلماً لجدتي أن لا تحس بأنفاسه العليلة بسبب الإطار الشفاف والمغلق الذي كان يفصلنا، على غرار واجهة زجاجية، عن الشاطئ ويسمح لنا في الوقت نفسه بمشاهدته كلياً، وكانت السماء تنتشر فيه انتشاراً تاماً حتى لتبدو زرقتها وكأنها لون النوافذ، وغيماتها البيضاء وكأنها عيب في الزجاج. وكنت أتساءل، وقد أقنعت ذاتي بأني أجلس على الرصيف البحري أو في أقصى البهو الذي يتحدث عنه "بودلير"، إن لم تكن "شمسه المشرقة على البحر" – وهي شديدة الاختلاف عن شعاع المساء البسيط والسطحي كخط مذهب ومرتعش – تلك التي كانت في هذه اللحظة تتوهج في البحر كحجر الياقوت وتخمّره وتجعله أشقر لبنيّ اللون كشراب "البيرة"، مزبداً كالحليب فيما تتنقّل بين الحين والحين ههنا وهناك ظلال زرقاء واسعة تبدو وكأنما يتلهى إله في تنقيلها بتحريك مرآة في السماء. والمؤسف أن قاعة الطعام التي في "بالبيك" لم تكن تختلف بمظهرها فحسب عن "قاعة" كومبريه المطلة على البيوت المقابلة، قاعة "بالبيك" هذه العارية المليئة بأشعة خضراء كالمياه في حوض سباحة والتي يرفع المد الصاعد وضياء الشمس على بضعة أمتار منها سوراً من زمرد وذهب لا يمكن دكه ولا يثبت في مكان، وكأنما أمام المدينة السماوية ما كنت أهتم لأحد في "كومبريه" بما أن الكل كان يعرفنا. أما في حياة الحمامات البحرية فإنك لا تعرف جيرانك. ولم أكن قد بلغت بعد من السن ما يكفي للتخلي عن رغبتي في أن أروق الناس وأمتلكهم وظل لديّ من الحساسية ما حال دون ذلك. ولم تتجمع لديّ اللامبالاة الأكثر نبلا التي ربما خالجت رجل المجتمعات حيال الأشخاص الذين كانوا يتناولون طعام الغداء في قاعة الطعام أو الشبان والشابات الذين يمرون فوق جدار السد والذين كان يعذبني التفكير بأنه لن يتسنى لي القيام برحلات معهم، والعذاب أقل على أية حال مما لو أقدمت جدتي التي لا تأبه باللياقات الاجتماعية ولا تهتم إلا بصحّتي على أن تطلب إليهم، والطلب مذل بالنسبة إلي، أن يقبلوا بي رفيقاً في رحلاتهم. كنت أنظر إليهم بفضول محموم في نور الشاطئ المبهر الذي تتغير فيه الأبعاد الاجتماعية وأتابع حركاتهم جميعها عبر هذه الفتحة

المزججة الواسعة التي تسمح بدخول هذا القدر الوافر من النور سواء أعادوا باتجاه دارة مجهولة أم خرجوا منها يحملون مضاربهم للذهاب إلى ملعب لكرة المضرب أم امتطوا جياداً تدوس حوافرها فؤادي. على أن تلك الفتحة كانت تحجب الهواء، وهو عيب فيما ترى جدتي، التي لم تكن تستطيع احتمال فكرة أن أفقد فائدة ساعة من الهواء الطلق ففتحت خلسة أحد ألواح الزجاج مما تناثرت به في الوقت نفسه، بالإضافة إلى لوائح الطعام، الصحف وأغطية الرأس والقبعات العائدة لجميع الذين كانوا يتناولون طعام الغداء. أما هي التي ساندتها الأنفاس السماوية فقد ظلت هادئة تبتسم، كالقديسة "بلاندين"، وسط الشتائم التي ضاعفت من إحساسي بالعزلة والغم إذ جمعت ضدّنا السائحين باحتقارهم وشعرهم المنكوش وحنقهم.

وكانوا يتألفون في قسم منهم من شخصيات بارزة من أهم مقاطعات هذا الجزء من فرنسه، كرئيس أول من مدينة "كان" ونقيب محامين من مدينة "شيربور" وكاتب عدل مرموق من مدينة "المانس" وجميعهم ينطلقون من النقاط التي كانوا مشتتين فيها طوال العام كمثل قناصة أو أحجار في لعبة "الداما" ويبادرون إلى التجمع في هذا الفندق، الأمر الذي كان يضفي على رواد مثل هذه الفنادق الممتازة في "بالبيك"، وهم بالعادة أغنياء تافهون ومن بلدان مختلفة، طابعاً محلياً بارزاً إلى حد ما. كانوا يحتفظون على الدوام بغرفهم ويشكلون مع زوجاتهم اللواتي تداخلهن طموحات إلى الأرستقراطية جماعة صغيرة انضم إليها محام كبير وطبيب كبير من باريس، وكانا يقولان لهم يوم الرحيل:

- "آه! صحيح، أنتم لا تستقلون القطار الذي نستقله، وهذا امتياز فسوف تصلون ساعة تناول الغداء".

- "ومن أين هذا الامتياز؟ أنتم الذين يقطنون العاصمة باريس، المدينة الكبيرة، فيما أقطن في مركز مقاطعة بسيط عدد سكانه مائة الف، أو بالأصح مائة وألفان حسب التعداد السكاني الأخير. ولكن ما قيمة ذلك إلى جانب عددكم الذي يبلغ مليونين ونصف المليون، أنتم الذين سيلقون من جديد الأسفلت وكامل روعة العالم الباريسي..".

كانوا يقولون ذلك ويشددون على حرف "الراء" على طريقة الفلاحين، دون أن يضمنوا القول أية مرارة إذ كان يمكن لمشاهير من مقاطعتهم أن يجيئوا كسواهم إلى باريس - فقد سبق أن عرضوا مرات عديدة على رئيس محكمة "كان" مقعداً في محكمة النقض - ولكنهم فضّلوا البقاء حيث هم حباً بمدينتهم أو بالعيش الخفي أو بالشهرة أو لأنهم رجعيون أو للمتعة الناجمة عن علاقات الجوار بالقصور وكثيرون على أي حال ما كانوا يلتحقون في الحال بمركز محافظتهم.

وبما أن خليج "بالبيك" كان يؤلف عالماً صغيراً فريداً داخل العالم الكبير وسلة فصول تجمعت فيها، على شكل دائرة، الأيام بأنواعها والشهور المتوالية إلى حد أنك كنت تبصر نور الشمس يغمر بيوت "ريفبيل"، فيما السماء داكنة فوق "بالبيك"، لافي الأيام التي تتسنى لك فيها رؤية هذه المدينة

فحسب، الأمر الذي كان يؤذن بالعاصفة، بل إلى حد أنك كنت أكيداً، بعدما يلف البرد "بالبيك"، أنك واجد على ذلك الشاطئ الآخر شهرين أو ثلاثة من الحر الإضافي، – فقد كان أولئك الذين تبدأ عطلتهم الصيفية، من بين رواد الفندق الكبير، متأخرة أو تدوم فترة طويلة يقومون، حينما تحل الأمطار ويسود الضباب لدى اقتراب الخريف، بتحميل حقيبتهم على زورق يجتازون به الخليج للحاق بالصيف في "ريفبيل" أو "كوستدور". كانت تلك الجماعة الصغيرة في فندق "بالبيك" تنظر بارتياب إلى كل قادم جديد، وكان الجميع، فيما يبدون أنهم لا يهتمون به، يسائلون بشأنه صديقهم رئيس خدم الفندق. فقد كان هو نفسه – "إيميه" – الذي يعود في كل عام لإحياء فصل الصيف ويحجز لهم طاولاتهم، والسيدات عقيلاتهم اللواتي يعلمن أن زوجته تنتظر مولوداً كن يشتغلن بعد وجبات الطعام كل واحدة قطعة من جهاز الطفل فيما يحدجننا بمنظارهن أنا وجدتي لأننا كنا نأكل البيض المسلوق مع السلطة وهو أمر معروف بعامّيته ولا يقدم عليه أحد في مجتمع مدينة "آلانسون" الراقي. وكانوا يصطنعون موقفاً من السخرية المتعالية حيال أحد الفرنسيين الذي يطلقون عليه لقب "صاحب الجلالة" والذي سبق بالفعل أن نصّب نفسه ملكاً على جزيرة صغيرة من أوقيانيا يقطنها بعض المتوحشين فحسب. كان قد حل في الفندق مع عشيقته الحلوة التي كان الصغار يهتفون لدى مرورها بهم في طريقها إلى المسبح: "عاشت الملكة!" لأنها كانت تنثر فوقهم قطعاً من ذوات الخمسين فلساً. أما رئيس المحكمة ونقيب المحامين فقد كانا يرفضان حتى أن يبدو أنهما يبصرانها، وإن نظر إليها أحد أصدقائهما ظناً من واجبهما إعلامه أنها عاملة صغيرة .

– "لكن ثمة من أكد لي أنهما يستخدمان الحجرة الملكية في "أوستاند" .

– "بالطبع! فهم يؤجرونها مقابل عشرين فرنكاً، وبوسعك أن تأخذها إن راقك ذلك ثم. إني أعلم علم اليقين أنه أرسل يطلب مقابلة الملك الذي أبلغه أنه لا يجدر به أن يعرف هذا السلطان المهرج".

– "ذلك بالحقيقة مثير. إن ثمة نفراً من الناس!.." .

وما من شك أن كل ذلك كان صحيحاً، بيد أن الكاتب العدل ورئيس المحكمة ونقيب المحامين إنما كان يهزهم الغضب أيضاً إلى هذا الحد وكانوا يعبرّون عن سخطهم على نحو ملحوظ لدى مرور ما كانوا يسمونه بالمساخر من جراء الشعور المزعج لديهم بأنهم في نظر قسم وافر من الجمهور محض بورجوازيين طيبين لا يعرفون هذا الملك وهذه الملكة المبذرين لمالهما، والسخط يعلم به صديقهم رئيس الخدم الذي كان مضطراً أن يحسن وفادة العاهلين، وهما أوفر كرماً منهما أصالة، فكان إذ يدون طلبهما يغمز من بعيد لزبائنه القدامى نظرة ذات مغزى وربما كان ثمة أيضاً قليل من هذا الإزعاج نفسه الذي مرده أن يحسبهم الناس خطأ أقل أناقة وألا يمكنهم أن يوضحوا أنهم أكثر أناقة، وذلك في قرارة "السيد الظريف" الذي ينعتون به أحد الشبان المتأنقين وهو ابن مصدور متهتك لأحد الصناعيين الكبار كان كل يوم يتناول طعام الغداء مع الشمبانيا وهو يرتدي سترة جديدة ويضع زهرة أوركيدا في عروته ثم يمضي شاحباً هادئاً وعلى شفتيه ترفّ ابتسامة لا

مبالية فيرمي على طاولة البكارا في الكازينو مبالغ باهظة "لا يملك الوسائل اللازمة لخسارتها" حسبما يقول الكاتب العدل ويتخذ هيئة العالم بالأمور، لرئيس المحكمة الأول الذي كانت زوجته "تعلم من مصادر موثوق بها" أن هذا الشاب المطبوع بطابع أواخر القرن كان يُميت والديه غماً.

وما كان نقيب المحامين من جهة أخرى يكف وأصدقاؤه عن الهزء بسيدة عجوز غنية وذات لقب لأنها لم تكن تتنقل إلا ويصحبها خدم البيت بأسرهم. وكانت زوجة الكاتب العدل وزوجة رئيس المحكمة الأول كلما أبصرتاها في قاعة الطعام أثناء الوجبات تتفحصانها بوقاحة بمنظارهما بالمظهر الدقيق المحاذر نفسه الذي تبديانه لو أنها كانت طبقاً يحمل اسماً فخماً ولكن مظهره مريب فيتم استبعاده بحركة متعالية وتكشيرة اشمئزاز بعد حكم في غير صالحه تمّ بناءً على ملاحظة منظّمة .

وما من شك أنهما كانتا تتوخيان بذلك أن تبرزا فحسب أنه إن كانت ثمة أمور تعوزهما – كبعض امتيازات السيدة العجوز في هذا الظرف وأن تكونا على علاقة بها – فما ذلك لأنهما لا تستطيعان بلوغها بل لأنهما لا تريدانه. ولكنهما انتهتا إلى إقناع ذاتهما بالأمر، وإن إلغاء كل رغبة، إن إلغاء حب الاطلاع على أشكال الحياة التي لا نعرفها وأملٍ أن نحسن في أعين أشخاص جدد، وقد حل محلها لدى أولئك النساء تظاهر بالازدراء وغبطة مصطنعة، إن ذلك الإلغاء هو الذي كان من مساوئه حملهن على وضع الكدر تحت عنوان الانشراح وعلى الكذب المستمر على أنفسهن، وهما شرطان يضمنان تعاستهن. بيد أن الجميع في هذا الفندق كانوا يعلمون دون شك بالطريقة نفسها، وإن بصيغ مختلفة، وإن لم يضحّوا بكبريائهم فقد كانوا يضحون على الأقل لبعض مبادئ تربوية أو لعادات فكرية بالاضطراب اللذيذ الناجم عن التدخل في حياة مجهولة. ولا ريب أن العالم الصغير الذي كانت تعتزل السيدة العجوز في داخله لم تكن تفسده المرارة اللاذعة شأن الجماعة التي تقهقه من حنق فيها زوجتا الكاتب العدل ورئيس المحكمة الأول. لقد كان يفوح منه على العكس عطر رقيق متقادم العهد ولكنه لا يقل اصطناعاً. ذلك أن السيدة العجوز ربما لاقت روعة في الإغراء وفي اجتذاب ما خفي من ودّ جماعة جديدة (الأمر الذي تتجدد به بدورها)، تلك الروعة التي تخلو منها المتعة الناجمة عن قصر علاقات المرء على جماعة من عالمه الخاص وعن التذكر بأن الازدراء غير المطلع الذي يحيطه به الغير لا يستحق اهتمامه بما أن ذلك العالم أفضل الموجود. وربما أحست أنها لو وصلت مجهولة إلى الفندق الكبير في "بالبيك" فربما بعثت بفسطانها الذي من صوف أسود وقبعتها المتقادمة ابتسامة على شفتي أحد الماجنين الذي ربما همس من "كرسيه الهزاز" : "بئس العجوز" أو استثارت على وجه الخصوص سخرية واحد من ذوي القدر قد احتفظ بين سالفيه الأشيبين، كما هي حال رئيس المحكمة الأول، بوجه ريان وعينين ذكيتين على نحو ما تحب وبادر في الحال ينّبه العدسة المقربة للمنظار الزوجي إلى ظهور هذه الظاهرة الغريبة، وربما كان بداعي الخشية اللاواعية من تلك الدقيقة الأولى التي يعلم المرء أنها قصيرة ولكنها ليست لذلك أقل رهبة – كمثل الغطسة الأولى في الماء – أن ترسل هذه السيدة سلفاً واحداً من خدمها يطلع الفندق على شخصيتها وعاداتها وتقطع على المدير تحياته وتمضي باستعجال فيه من الحياء أكثر مما

فيه كبرياء إلى غرفتها حيث ترفع ستائر شخصية حلت محل تلك التي كانت تتدلى من النوافذ وسواتر وصور شمسية بينها وبين العالم الخارجي الذي كان لابد من التكيف معه، حاجز عاداتها إلى حد أن منزلها الذي ظلت في أحضانه هو الذي كان يسافر أكثر مما تفعل هي.

ولما وضعت بينها من جهة وبين العاملين في الفندق ومموّنيه من جهة ثانية خدمها الذين كانوا ينوبون عنها في الاحتكاك بهذه الإنسانية الجديدة ويحافظون على الأجواء المعتادة حول سيدتهم، وأقامت أحكامها المسبقة بينها وبين السباحين لا تبالي بأن تزعج جماعة ما كانت صديقاتها ليستقبلنهم، فقد ظلت مذ ذاك تعيش في عالمها بمراسلة أصدقائها وبالذكرى التي تحفظها عن منزلهتا والشعور العميق به وبجودة عاداتها وعمق تهذيبها. وحينما تنزل كل يوم لتقوم بنزهة في عربتها المكشوفة كانت وصيفتها التي تحمل حاجاتها وراءها وخادمها الذي يتقدمها يبدوان كأولئك الحراس الذين يقفون على أبواب سفارة تزدان بعلم البلد الذي تنتمي إليه فيضمنون لها، على أرض أجنبية، حقها أن تكون خارج أراضي الدولة. ولم تغادر غرفتها قبل منتصف ما بعد الظهر يوم وصولنا، ولم نشاهدها في غرفة الطعام التي صحبنا المدير ساعة الغداء إليها بحمايته لأننا وصلنا حديثاً، كرقيب يسوق أغراراً إلى العريف الخياط ليوصي لهم على ملابس ولكننا شاهدنا بالمقابل بعد لحظة أحد نبلاء الريف وابنته، وهما من أسرة مغمورة في مقاطعة بريتانيا ولكنها عريقة جداً، ويدعيان السيد "ستير ماريا" والآنسة "ستيرماريا"، وكانا قد خصانا بمائدتهما ظناً منهما أنهما لن يعودا إلا في المساء. ولما جاءا إلى "بالبيك" لمجرد لقاء بعض أصحاب القصور الذين يعرفانهم في الجوار فما كانا يقضيان في قاعة الطعام في الفندق، بين الدعوات المقبولة في الخارج والزيارات التي يقومان بها، سوى الوقت الضروري فحسب. وكانت عجرفتهما تقيهما من أيّ توادّ إنساني ومن أي اهتمام بالمجهولين الذين يجلسون من حولهم والذين يحافظ السيد "ستيرماريا" فيما بينهم على المظهر المجافي المعجل المتعالي القاسي المتصعب السيئ النية الذي يتخذه المرء في مطعم للسكك الحديدية بين مسافرين لم يرهم قط ولن يراهم ثانية وليس من علاقة يتصورها معهم فيما عدا أن يحمي من أذاهم فرّوجه البارد ومقعده في عربة القطار. وما إن باشرنا طعام الغداء حتى جاء من يطلب إلينا بناء على أمر السيد "دوستيرماريا" الذي وصل منذ لحظة ورجا رئيس الخدم بصوت عال، ودون أية لفتة يعتذر بها إلينا، أن يسهر على ألا تتكرر مثل هذه الهفوة إذ يسوؤه أن احتلّ طاولته "أناس لا يعرفهم".

وما كان بالتأكيد يداخل الشعور الذي يدفع إحدى الممثلات (وهي على كل حال أكثر شهرة بسبب أناقتها وظرفها ومجموعات الخزف الألماني الجميل الذي بحوزتها منها من جراء بعض الأدوار التي أدتها على مسرح "الأوديون") وعشيقها، وهوشاب طائل الثراء انصرفت إلى الثقافة من أجله، ورجلين مرموقين من فئة الأرستقراطيين إلى الاعتزال في الحياة والسفر سوية فحسب وتناول طعام الغداء في "بالبيك" في ساعة متأخرة جداً بعد ما ينتهي الجميع منه وقضاء النهار في صالتهم في لعب الورق، ما كان يداخله أيّ مقصد سوء وإنما قوامه متطلبات الميل الذي بهم إلى بعض أشكال الحديث الظريف وبعض ما رهف ذوقاً من طيّب المآكل والذي يلاقون من جرائه متعة في العيش

سوية وتناول طعامهم معاً فحسب، ولعله يجعلهم لا يطيقون العيش المشترك مع أناس لم يتسنّ لهم التدرب على ذلك. لقد كان كل منهم في حاجة لأن يعلم، حتى أمام مائدة طعام جاهزة أو أمام مائدة لعب، أن لدى المدعو أو الشريك الذي يجلس قبالته وجهاً من وجوه المعرفة يسمح له بتعرّف سقط المتاع الذي يباهي به الكثير من المنازل الباريسية على أنه أثاث أصيل من "العصر الوسيط" أو "عصر النهضة"، ومعايير مشتركة في كل الأمور للتمييز بين الصالح والطالح والكل كامن في نفسه معلّقاً غير مستعمل وليس من شك أن هذه الحياة الخاصة التي كان يرغب هؤلاء الأصدقاء أن يظلوا مغموسين فيها أنّى كانوا لم تعد تبرز في تلك اللحظات إلا عبر استحسان أو تعجب نادر وغريب ينطلق وسط الصمت الذي يسود الطعام أو اللعب، أو بسبب الفسطان الرائع الجديد الذي ارتدته الممثلة الشابة لتناول طعام الغداء أو لتلعب البوكر. ولكنها كانت كافية، إذ تلفهم على ذلك النحو بعادات يعرفونها أدق المعرفة، لتحميهم من أسرار الحياة المحيطة بهم. وفي أثناء فترات ما بعد الظهر الطويلة لم يكن البحر معلقاً قبالتهم إلا على نحو لوحة ممتعة الألوان عُلّقت في بهو عازب ثري ولم يكن أحد اللاعبين يرفع عينيه إليها إلا في أثناء فواصل اللعب، وليس لديه إذ ذاك أمر أفضل يفعله، ليستخلص منها دليلا على الطقس الجميل أو الساعة ويذكّر الآخرين بأن العصرونية تنتظرهم. ولما كانوا في المساء يتعشون في الفندق حيث تدفق الينابيع الكهربائية الضوء دفقاً في قاعة الطعام الكبرى فتضحي بها وكأنها حوض مائي فسيح وغريب يتطاحن أمام واجهته الزجاجية سكان "بالبيك" من عمال وصيادي أسماك إلى جانب أسر بعض صغار البورجوازيين ولا تبصرهم العين في الظلام، يتطاحنون كيما يشاهدوا الحياة المترفة التي تترجح بلطف في تموجات من الذهب وهي خارقة في نظر الفقراء بمقدار ما هي حياة أسماك ورخويات غريبة (وإنها لمسألة اجتماعية كبيرة أن نعلم إن كان السور الزجاجي سوف يحمي على الدوام مأدبة الحيوانات العجيبة وإن كان القوم المغمورون الذين ينظرون بنهم في الظلام لن يبادروا إلى التقاطها في الحوض وافتراسها). وبانتظار ذلك ربما كان في صفوف الجمهور الواقف الذي يختلط في الظلمة كاتب، هاوي سمكيات بشرية كان ينظر إلى فكوك وحوش نسائية مسنة تنطبق على قطعة طعام مزدرد ويستمتع بتصنيفها بحسب الجنس والخصائص الفطرية وبحسب الخصائص المكتسبة كذلك التي تجعل سيدة مسنة من بلاد الصرب، تذكر استطالة فمها بسمكة بحرية كبيرة لأنها تعيش منذ طفولتها في مياه حي"سان جيرمان" العذبة، تأكل السلطة كواحدة من أسرة "لاروشفوكو" .

وفي تلك الساعة كان يشاهد الرجال الثلاثة ينتظرون بلباس السهرة المرأة التي كانت تخرج بعد قليل من المصعد، بعدما استدعته من غرفتها، وكأنما من صندوق لُعَب، وهي ترتدي فسطاناً جديداً في كل مرة تقريباً ومناديل تختارها وفق ذوق خاص بعشيقها ثم يذهب أربعتهم، وكانوا يرون أن الظاهرة الدولية المتمثلة في الفندق الفخم الذي استوطن "بالبيك" قد جعلت البذخ يزدهر فيها لا المآكل الطيبة، فيسرعون داخل سيارة لتناول طعام العشاء على بعد نصف فرسخ من هناك في مطعم صغير ذائع الصيت كانوا ينصرفون مع الطاهي فيه إلى محاضرات لا تنتهي حول محتويات لائحة الطعام وإعداد الأطباق. ولم تكن الطريق المحفوفة بأشجار التفاح والتي تنطلق من "بالبيك"، لم تكن

في نظرهم سوى المسافة التي ينبغي اجتيازها - وتكاد لا تتميز في حلك الليل عن تلك التي تفصل بين مساكنهم الباريزية و "المقهى الإنكليزي" أو البرج الفضي - قبل الوصول إلى المطعم الصغير الأنيق حيث تنشر مناديل العشيقة، فيما أصدقاء الشاب الغني يحسدونه لأن لديه عشيقة أنيقة الملبس إلى هذا الحد، تنشر أمام الجماعة الصغيرة ما يشبه حجاباً عطراً مطواعاً ولكنه يفصل بينها وبين العالم .

أما أنا فقد كنت، لسوء حظّ هدأة بالي، بعيداً عن أن أشبه سائر هؤلاء الناس. فقد كنت أهتم بالكثيرين منهم ووددت أن لا يجهلني رجل متعب الجبين متهرب النظرة بين غمائم أحكامه المسبقة وتربيته، عنيت سيد المنطقة الكبير الذي لم يكن سوى صهر "لوغراندان" : فقد كان يجيء بين الحين والحين في زيارة إلى "بالبيك" ويخلي الفندق في يوم الأحد، من جراء الحفلة الراقصة التي يقيمها مع زوجته في الحديقة، من جزء من نزلائه لأن واحدا أو اثنين من بينهم كانا يدعيان إلى هذه الحفلات ولأن الآخرين كانوا يختاورن ذلك اليوم للقيام بنزهة بعيدة كي لا يبدو أنهم لم يدعوا. وكان قد أسيء استقباله على أية حال في اليوم الأول في الفندق حينما لم يكن يعرف الخدم بعد هويته، وقد وصلوا حديثاً من الشاطئ الأزرق. فلم يكن يرتدي الفانيلا البيضاء، بل هو سارع، من جراء عادة فرنسية قديمة وجهل بحياة الفنادق الكبيرة، إلى نزع قبعته حالما دخل إلى بهو تجلس فيه نساء، الأمر الذي حدا بالمدير ألا يلمس حتى طرف قبعته ليرد على تحيته وقد حسب أنه بالتأكيد من أكثر الطبقات اتضاعاً وما كان يدعوه الرجل الذي "يخرج من صفوف العوام". وحدها امرأة الكاتب العدل أحست بجاذب يشدها إلى الوافد الجديد الذي ينضح بكل الخشونة المصطنعة التي يمتاز بها الأنيقون من الناس وأعلنت، بنفاذ البصيرة الذي لا يخطئ والسلطة التي لا اعتراض عليها التي يتمتع بها شخص لا يملك مجتمع مدينة "مانس" الراقي أسراراً بالنسبة إليه، أن المرء يحس أمامه أنه في حضرة رجل رفيع الذوق رفيع التهذيب يختلف عن كل ما يصادفه المرء في "بالبيك" وما تحكم أنه لا تحسن مخالطته ما دامت لم تخالطه. ربما كان مرد هذا الحكم المشجع الذي أطلقته على صهر "لوغراندان" المظهر الباهت الذي لامرئ لا يوحي بشيء من الرهبة وربما لأنها عرفت في هذا النبيل المزارع الذي له هيئة القندلفت العلامات الماسونية لا كليروسيتها الخاصة.

وعبثاً علمتُ أن الشبان الذين كانوا يمتطون الجياد كل يوم أمام الفندق هم أبناء صاحب مخزن أزياء حديثة غير نزيه ما كان والدي ليرضى بالتعرف إليه في يوم فقد كانت "حياة حمامات البحر" تجعل منهم في نظري تماثيل أنصاف آلهة على صهوات الجياد وأفضل ما كان يمكن أن أعقد الآمال عليه أن لا يدعوا لنظراتهم أن تقع على الصبي المسكين الذي أمثّله والذي ما كان يغادر غرفة الطعام في الفندق إلا ليبادر إلى الجلوس على الرمل. وددت لو أوحى ببعض العطف حتى للمغامر الذي كان ملكاً على جزيرة مقفرة في أوقيانيا وحتى للمصدور الشاب الذي كنت أحب أن أفترضه يخفي خلف مظاهرة الوقحة روحاً وجلة رقيقة ربما أغدقت عليّ وحدي كنوزاً من الحنان، وبما أن مشاهدة المرء مع بعض الأشخاص (خلافا لما يروى عادة عن علاقات تنشأ أثناء السفر) تستطيع فضلا عن ذلك أن تضيف إليه على شاطئ يعود إليه أحياناً معاملا لا يوازيه شيء في حياة المجتمع

الحقيقية، فليس من أمر لا يستبعد في حياة أهل باريس، بل هم يعنون به أشد العناية، كما هو أمر الصداقات التي تنشأ في الحمامات البحرية. وكنت أهتم بالرأي الذي يمكن أن يكوّنه عني جميع هؤلاء الأعيان المؤقتين أو المحليين الذين كانت نزعتي إلى وضع نفسي موضع الناس وإعادة صياغة حالتهم الفكرية تجعلني أضعهم لافي مرتبتهم الحقيقية، تلك التي ربما شغلوها في باريس مثلا وقد تكون وضيعة جداً بل في المرتبة التي يظنون أنها لابد مرتبتهم، وإنها لكذلك،"بالبيك"، والحق يقال، حيث غياب المقياس العام يعطيهم نوعاً من التفوّق والأهمية الخاصة، وما كان ازدراء أي من هؤلاء الأشخاص يشق عليّ، وأأسفي، بقدر ما يشق ازدراء السيد "دوستيرماريا" .

ذلك أنني لاحظت ابنته حال دخولها ووجهها الجميل الشاحب الذي يكاد يميل إلى الزرقة وما كان فريداً في شكل قامتها المديدة ومشيتها ويذكر بحق بسلالتها وتربيتها الأرستقراطية، يزيد من وضوح الأمر أنني كنت أعرف اسمها -شأن تلك الفكر المعبرة التي ابتدعها موسيقيون عباقرة والتي تصور توهج اللهب وخرير النهر وهدوء الحقول بالنسبة إلى المستمعين الذين وجّهوا خيالهم الاتجّاه الصحيح إذ قرؤوا مسبقاً الكتيب. كانت "السلالة" تضيف إلى مفاتن الآنسة "دوستيرماريا" علّتها فتجعلها أقرب إدراكاً وأوفر كمالا. كانت تجعلها كذلك أكثر اشتهاء إذ تعلن أنها نادرة المنال مثلما يزيد الثمن المرتفع من قيمة حاجة حسُنت لدينا وكان الفرع الوراثي يعطي لون وجهها المؤلّف من عصارات مختارة طعم فاكهة البلدان الغريبة أو الخمرة الشهيرة .

غير أنّ صدفة وضعت فجأة بين أيدينا، أنا وجدّتي، وسيلة أضفت علينا في نظر جميع نزلاء الفندق مهابة فوريّة. ذلك أنّ مدير الفندق، منذ هذا اليوم الأوّل ولحظة كانت السيدة العجوز تنزل من شقتّها وتمارس، بفضل الخادم الذي كان يتقدمها والوصيفة التي كانت تعدو خلفها تحمل كتاباً وغطاءً منسيين، تأثيرها على النفوس وتستثير لدى الجميع فضولا واحتراماً بدا واضحاً أنّ السيد "دوستيرماريا" كان أقلّ من يستثني منه، انحنى على جدّتي وهمس في أذنها متلطفاً (مثلما يُرون الشاهَ الفارسيّ أو ملكةَ "رانافالو" لمتفرّج مغمور لا يمكن بالتأكيد أن تكون له أيّة علاقة بالعاهل الجبّار ولكنّه يمكن أن يجد من المتع أن رآه على بضع خطوات منه) :"المركيزة دو فيلباريزيس "، فيما لم تستطع تلك السيّدة وهي تبصر جدّتي في اللحظة نفسها أن تملك نظرة أطلت منها الدهشة والغبطة.

يمكن الظن بأن الظهور المفاجئ لأكثر الجنيات اقتداراً خلف ملامح عجوز صغيرة ما كان ليبعث فيّ مقداراً أكبر من السرور وأنا على ما أنا عليه من افتقار لأية وسيلة للاقتراب من الآنسة "دوستير ماريا" في بلد لم أكن أعرف فيه أحداً، وأقصد من وجهة النظر العملية، ذلك لأن عدد النماذج البشرية على الصعيد الجمالي محدود حداً حتى لا تتسنى للمرء في الغالب وأينما ذهب غبطة لقاء جماعة من معارفه ودون أن يبحث عنهم في لوحات أرباب الفن القدامى مثلما كان يفعل "سوان". فقد اتفق لي هكذا منذ الأيام الأولى لإقامتنا في "بالبيك" أن ألتقي بـ"لوغراندان" وبواب "سوان" وحتى بالسيدة "سوان" نفسها وقد أضحوا الأول خادم مقهى والثاني غريباً عابر سبيل لم أره

ثانية والأخيرة مدرب سباحة. وإن ضرباً من المغنطة يجتذب بعض السمات في المظهر والعقلية ويضمها الواحدة إلى الأخرى على نحو لا ينفصم حتى إن الطبيعة حينما تُدخل أحد الناس في جسم جديد فإنها لا تشوهه إلى حد بعيد. فقد كان "لوغراندان" الذي استحال خادم مقهى يحتفظ بقامته وصورة أنفه الجانبية وجزء من ذقنه على حالها. أما السيدة "سوان" فقد تبعها في الذكورة ووظيفة مدرب السباحة لامظهرها المعتاد فحسب بل طريقة مافي التحدث، ولكنها لم تكن تستطيع أن تأتيني بنفع، وهي تتمنطق بزنارها الأحمر، وترفع لأقل ارتفاع في الأمواج الراية التي تحظر السباحة "لأن المدربين حذرون فهم نادراً ما يحسنون السباحة" ،أكثر مما لعلها كانت تستطيع ذلك في اللوحة الجدارية التي عنوانها "حياة موسى" والتي تعرّفها "سوان" فيها بملامح ابنة "جيترو" أما السيدة "دوفيلباريزيس" هذه فقد كانت هي الحقيقية ولم تقع ضحية سحر سلبها قوتها بل كانت قادرة على العكس أن تضع في خدمة قوتي سحراً يضاعفها مئة مرة، سحراً أزمع أن أحتاز بفضله، وكأنما يحملني جناحا طائر خرافي، المسافات الاجتماعية اللامحدودة التي كانت تفصلني عن الآنسة "دوستيرماريا"على الأقل في "بالبيك" في بضع لحظات.

ولئن كان ثمة لسوء الحظ من يعيش أكثر من آخر سواه سجين عالمه الخاص فإنما جدتي ولعلها ما كانت حتى تحتقرني ولا فهمتني لو علمت أنني أعلّق أهمية على رأي جماعة لم تلاحظ حتى وجودهم وسوف تغادر"بالبيك" دون أن تكون حفظت أسماءهم وأنني أبدي اهتماماً بأشخاصهم، ولم أجرؤ على الإقرار أمامها بأنه، لو رآها هؤلاء الناس أنفسهم تتحدث مع السيدة "دوفيلباريزيس" لأصابني من جراء ذلك سرور عظيم لأنني كنت أحس أن المركيزة تتمتع بمهابة في الفندق وأن صداقتها ربما رفعت من قدرنا في نظر السيد "دوستيرماريا" وليس يعني ذلك على كل حال أن صديقة جدتي كانت تمثل في نظري بأقل قدر ممكن شخصية من طبقة الأرستقراطيين، فقد كنت شديد التعود على اسمها الذي أضحى مألوفاً في أذني قبل أن يتوقف عقلي لديه عندما كنت أسمع من ينطق به في المنزل وأنا لا أزال طفلا. ولم يكن يضيف لقبها إليه سوى خاصّية غريبة مثلما قد يفعل اسم قليل الاستعمال، على نحو ما يتفق في أسماء الشوارع التي لا نبصر فيها شيئاً أكثر نبلاً في شارع "اللورد بايرون" أو في شارع "روش شوار" الشعبي جداً والمبتذل أو في شارع "دوغرامون" منه في شارع "ليونس رينو" أوفي شارع "هيبوليت لوبا". وما كانت السيدة "دوفيلباريزيس" لتوحي لي بشخصية من عالم خاص أكثر من ابن عمها "ماك ماهون" الذي لم أكن أميّزه عن السيد "كارنو" وهو رئيس للجمهورية مثله، "وعن راسباي"الذي سبق أن اشترت "فرانسواز" صورته مع صورة "بيوس التاسع". كانت جدتي تدين بمبدأ قوامه أنه يجدر بالمرء في أثناء السفر ألا يقيم من بعد علاقات مع أحد وأنه لا يذهب إلى شاطىء البحر ليشاهد الناس وأن الوقت يتسع له كاملا في باريس لتلك الغاية، وأنهم يضيّعون عليك الوقت الثمين الذي ينبغي قضاؤه بكامله في الهواء الطلق وأمام الأمواج بالمجاملات والتفاهات ولما رأت من الأيسر لها افتراض أن الجميع يشاطرونها هذا الرأي الذي يسمح بتوهم التخفي المتبادل بين أصدقاء قدامى تجمعهم الصدفة في الفندق نفسه، فقد اكتفت لدى سماع الاسم الذي ذكره لها المدير أن تشيح بعينيها

وبدت كأنها لاتبصر السيدة "دوفيلباريزيس" التي أدركت أن جدتي لا ترغب في تعرف جديد بالناس فنظرت بدورها في اتجاه مبهم، وابتعدت وظللت في عزلتي كغريق بدا أن مركباً يقترب منه ثم غاب فيما بعد دون أن يتوقف .

كانت تتناول كذلك وجبات طعامها في قاعة الطعام ،ولكن في الطرف الآخر. ولم تكن تعرف أحداً من الأشخاص الذين يقطنون الفندق أو يجيئون إليه في زيارة، ولاحتى السيد"دو كامبرمير. "وقد رأيت بالفعل أنه لم يسلـّم عليها ذات يوم قبل فيه مع زوجته دعوة نقيب المحامين إلى طعام الغداء، وقد أخذ هذا الأخير،إذ أسكره شرف جلوس هذا النبيل إلى مائدته ،أخذ يتجنب أصدقاءه في الأيام الأخرى ويكتفي بأن يوجه إليهم من البعيد بعينه كي يشير إلى هذا الحدث التاريخي ولكن على نحو حذر كي لا يمكن تفسير الإشارة على أنها دعوة للاقتراب .

وقالت له زوجة الرئيس الأول في المحكمة :"حسن، إني آمل أنك ترتدي أحسن الثياب، وأنك رجل أنيق".

وسأل نقيب المحامين وهو يخفي فرحه خلف دهشة مبالغ :"أنيق؟ولماذا؟" ثم قال وقد أحسّ أنّه عاجز عن التظاهر مدّة أطول :"بسبب المدعوّين لديّ ؟ولكن ما مجال الأناقة في أن يكون لديك أصدقاء على مائدة غدائك؟ لابدّ أن يتناولوا طعام الغداء في مكان ما!".

-"بلى، ذلك أنيق! أما كانت أسرة"دو كامبرمير" ،قل لي؟لقد تعرّفتهم تماماً. إنّها مركيزة، وأصيلة، ولكن لاعن طريق النساء."

-"أوه! إنها امرأة في غاية البساطة، إنها فاتنة وليس من كان أقلّ تصنّعاً. حسبت أنك تزمع المجيء، فقد كنت أومئ إليك ...ولعلّني كنت أقدّمك"، يقول وهو يصلح بتهكّم طفيف من ضخامة هذا العرض، شأن "أحشورش" حينما يقول لـ"أستير":"أينبغي أن أعطيك نصف ممالكي؟".

-"لا،لا، لا، لا،نظلّ مختبئين كالبنفسجة المتواضعة"وأجاب نقيب المحامين وقد ازداد جرأة الآن وقد زال الخطر:"ولكنّي أكرّر لك أنّك أخطأت، فما كانوا ليلتهموك ألن نقوم بلعبتنا الصغيرة في الورق؟".

-"بطيبة خاطر، فما كنّا نجرؤ أن نعرض الأمر عليك وأنت الآن تتعامل مع المركيزات!"

-"ولكن ليس فيهنّ ما كان خارقاً إلى هذا الحدّ فإني أتعشى معهن في مساء الغد مثلا. أتود الذهاب عوضاً عنّي ؟ إني أفعل بملء الخاطر فإنّي بصراحة أفضل المكوث ههنا".

-"لا، لا، ا...فقد يعزلونني بتهمة الرجعية"يقول رئيس المحكمة صائحاً وهو يضحك حتى لتدمع عيناه لمزحته تلك. ثم يضيف وهو يلتفت إلى الكاتب العدل :"ولكنك تتردد بدورك على "فيتيرن"؟.

-"أوه! إني أذهب هناك أيام الآحاد ،والمرء يدخل من باب ويخرج من آخر ولكنهم لا يتناولون طعام الغداء في بيتي مثلما يفعلون في بيت نقيب المحامين ".

لم يكن السيد"دوستير ماريا"في "بالبيك"في ذلك اليوم لأسف نقيب المحامين الكبير ولكنه قال لرئيس الخدم بلهجة ماكرة:

-"إيميه،بوسعك أن تقول للسيد دوستيرماريا: إنه ليس النبيل الوحيد في قاعة الطعام هذه أما رأيت هذا السيد الذي تناول طعام الغداء برفقتي هذا الصباح ؟ هذان الشاربان الدقيقان والمظهر العسكري؟ حسن، إنه المركيز "دو كامبرمير".

-"حقاً؟ إن ذلك لا يدهشني!"

-"سوف يعلـّمه ذلك أنه ليس الوحيد الذي يحمل لقباً وخذها مني! فلا بأس أن تُخرِسَ هؤلاء النبلاء تدري يا"إيميه"، لا تقل له شيئاً إن شئت ،لأن ما أقوله أنا لا أقوله من أجلي، وهو على أية حال يعرف ذلك تماماً"

وفي الغد أقبل السيد"دوستيرماريا" الذي كان يعلم أن نقيب المحامين دافع عن أحد أصدقائه، أقبل يقدم ذاته بنفسه.

-"لقد أراد أصدقاؤنا المشتركون، آل "دوكامبرمير"، أرادوا بحق أن يجمعونا ولكن أيامنا لم تتطابق، لست أدري أنا"،يقول نقيب المحامين الذي يتصور شأن العديد من الكذابين أن لن تكون ثمة محاولة للكشف عن جزئيات قليلة الشأن مع أنها تكفي (إن وضعت الصدفة بين يديك الحقيقة المتواضعة التي تناقضها) لتميط اللثام عن طباع معينة ولتوحي بالريبة أبداً.

وأخذت أنظر إلى الآنسة "دوستيرماريا "كما أفعل دوماً، ولكن على نحو أيسر أثناء ما ابتعد والدها للتحدث مع نقيب المحامين وبقدر غرابة وقفاتها التي تتسم بالجرأة وتتصف على الدوام بالجمال ،كما هي حالها حينما ترفع كأسها فوق ساعديها ومرفقاها على الطاولة، كان جفاء النظرة السريعة الإنهاك لديها والقسوة المتأصلة العائلية التي تحس بها في قرارة صوتها ولا تحجبها تماماً نبراتها الشخصية، وقد أثارت استياء جدتي ،وضرب من مسمار الأمان الوراثي كانت تعود إليه حالما تنتهي من إفراغ فكرتها الخاصة في نظرة عين أو نبرة صوت ،كان كل ذلك يردّ فكر من كان ينظر إليها إلى السلالة التي أورثتها هذا النقص في التوادّ الإنساني وثغرات في الإحساس وقلة في اتساع المواهب يبرز نقصها في كل حين. وظننتني أحس مع ذلك ،إزاء بعض نظرات كانت تمر مقدار لحظة في أعماق حدقتها التي سرعان ما تجف وتحس فيها تلك العذوبة التي تبلغ حد الاتضاع والتي يخلـّفها الميل السائد إلى الملذات الجسدية لدى أكثرهن اعتزازاً،تلك التي لا تعترف عما قليل إلا بمهابة واحدة،المهابة التي يتمتع بها في نظرها كل شخص يستطيع أن يذيقها إياها ولو

كان مهرجاً أو مشعوذاً ربما هجرت زوجها ذات يوم من أجله، وإزاء مسحة من لون وردي شهواني زاه كان يتألق على وجنتيها الشاحبتين شبيه باللون الذي تزدهي به أعماق النيلوفر الأبيض في نهر "فيفون". ظننتني أحس أنها ربما سمحت بيسر أن أبادر وأبحث لديها عن طعم تلك الحياة الشاعرية جداً التي كانت تقضيها في مقاطعة "بريتانيه"، تلك الحياة التي ما كان يبدو أنها تعيرها اهتماماً كبيراً إما لفرط تعودها وإما لتأنق فطري وإما لاشمئزازها من فقر أهليها أو بخلهم ، ولكنها تحتويها مع ذلك حبيسة داخل جسدها. ولعلّها ما كانت تجد إمكانات مقاومة في احتياطي الإرادة الهزيل الذي أوْرِثَتْهُ والذي كان يضفي على ملامحها شيئاً من الارتخاء وكانت قبعة اللباد الرمادية التي تعلوها ريشة مستكبرة تقادم زيها بعض الشيء تزيدها نعومة في نظري لا لأنها تنسجم مع لونها ببياض الفضة ولون الورود ، بل لأنها تجعلني أفترضها فقيرة فتقرّ بها بذلك مني. ولما كانت ملزمة بموقف اصطلاحي من جراء وجود والدها ولكنها تعتمد في ملاحظة الذين يقفون أمامها وفي تصنيفهم مبادئ تغاير مبادئه، فربما أبصرت فيّ لا المرتبة القليلة الشأن بل الجنس والعمر. ولو اتفق أن يخرج السيد "دوستيرماريا" ذات يوم بدونها ، وإن أقبلت السيدة"دوفيلباريزيس" على وجه الخصوص تجلس إلى طاولتنا فأولتها بذلك فكرة عنّا تشجّعني على الاقتراب منها ، فربما استطعنا تبادل بعض الأحاديث وضرب موعد وتوثيق علاقتنا ربما استطعنا في شهر ظلّت فيه وحيدة بدون ذويها في قصرها الخيالي أن نتنزّه نحن الاثنين وحيدين في المساء في ضوء الشفق الذي تلتمع فيه خافتة أزهـار الخلنـج الورديّة فوق الماء الذي أضحى قاتماً وتحت السنديان الذي تضربه الأمواج الخافقة. ربما طفنا سوية أرجاء هذه الجزيرة التي يطبعها الكثير من الروعة بالنسبة إليّ لأنها احتبست حياة الآنسة "دوستيرماريا" المعتادة ولا تزال ترقد في ذاكرة عينيها. فقد كان يبدو لي أنني ما كنت لأمتلكها حقاً إلا هناك وبعدما يقدّر لي اجتياز تلك الأمكنة التي تلفّها بالكثير من الذكريات - ذلك الحجاب الذي تود رغبتي انتزاعه وهو من تلك التي تضعها الطبيعة بين المرأة وبعض الأشخاص (وبالمقصد نفسه الذي يحملها بالنسبة إلى الجميع على وضع عملية الإنجاب بينهم وبين أكثر الملذات شدة. وبالنسبة إلى الحشرات على جعل الطلع الذي ينبغي أن تحمله قبل رحيق الأزهار)حتى يضطروا وقد خدعهم وهم امتلاكها على هذا النحو امتلاكاً أكثر تماماً، أن يحتلوا بادئ الأمر المناظر التي تعيش ضمن إطارها والتي تبدو أكثر فائدة لخيالهم من لذة الحواس ، بيد أنها ما كانت كافية بدون هذه اللذة لاجتذابهم.

ولكنيّ اضطررت أن أحول نظراتي عن الآنسة "دوستيرماريا" لأن والدها ، وقد رأى دون شك أن التعرف بشخصية مهمة عملية طريفة ووجيزة تكفي نفسها بنفسها ولا تتطلب كيما تجيء بكامل الأهمية التي تتضمنها سوى مصافحة ونظرة ثاقبة دونما حديث فوري أو علاقات لاحقة، كان قد استأذن نقيب المحامين وعاد يجلس قبالتها وهو يفرك يديه شأن رجل حصل منذ قليل على مكسب ثمين. أما نقيب المحامين فقد كنت تسمعه ، بعد انقضاء الهزة الأولى التي ولدتها تلك المقابلة. شأنه في الأيام التي سلفت ، يتحدث بين حين وآخر إلى رئيس الخدم قائلاً:

-"ولكنني لست ملكاً أنا يا "إيميه"،فبادر واقترب من الملك...قل لي أيها الرئيس،يبدو أنها طيبة جداً سمكات التروتة الصغيرة هذه وسنطلب إلى "إيميه"بعضاً منها. "إيميه"،السمكة الصغيرة هذه التي هناك تبدو لي جديرة بثقتنا تماماً،فاحمل إلينا من هذا السمك وبقدر ما نشتهي يا "إيميه"

كان يردد في كل حين اسم "إيميه"،الأمر الذي كان من نتائجه حينما يتفق له أحد على مائدة عشائه أن كان المدعو يقول له:"أرى أنك على أحسن حال في هذا المحل "ويظن من واجبه كذلك أن يلفظ باستمرار اسم "إيميه"من جراء هذه النزعة التي يمتزج فيها في الآن نفسه الخجل والتفاهة والغباء والتي تدفع بعض الناس إلى الاعتقاد أنّ مِنْ الظرف والأناقة تقليد الجماعة الذين يجالسونهم تقليداً حرفياً. كان يردده دون انقطاع ولكنما يقوله بابتسامة إذ كان يهمه أن يعلن على الملإ علاقاته الطيبة برئيس الخدم وتفوقه عليه في الآن نفسه، وكان رئيس الخدم يبتسم هو الآخر ابتسامة تداخلها الرقة والاعتزاز كلما تردد اسمه على شفتيه مظهراً بذلك أنه يشعر بهذا التكريم ويدرك ذلك المزاح.

ومهما بدت وجبات الطعام رهيبة دوماً بالنسبة إليّ في مطعم "الفندق الكبير" الفسيح الذي يغص عادة بالزبائن فقد كانت تضحي أكثر رهبة كلما وصل لقضاء بضعة أيام صاحب لا هذا الفندق الكبير فحسب (أو مديره العام الذي انتخبته شركة ممولين ،لست أدري)، بل صاحب سبعة أخرى أو ثمانية، تنتشر في أرجاء فرنسه الأربعة وكان يطوف فيما بينها ليمضي من حين إلى آخر أسبوعاً في أحدها حينئذ كان يطلع في كل مساء وفي أول العشاء تقريباً على مدخل قاعة الطعام هذا الرجل القصير القامة ذو الشعر الأبيض والأنف الأحمر وهو من برودة أعصاب ولياقة خارقتين وكان يُعَدُّ فيما يبدو، في لندن ومونت كارلو على حد سواء،أحد خيرة أصحاب الفنادق في أوروبا وذات مرة خرجت فيها لحظة في أول العشاء حيّاني إذ مررت أمامه لدى عودتي كي يعلن دونما شك أنني كنت في حماه، ولكنه فعل ببرودة لم أستطع أن أتبين إن كان سببها تحفظ مَنْ لا يغفل أيّ شخص هو أو الاحتقار الذي يبديه لنزيل لاشأن له. فأما الذين كان لهم على العكس شأن عظيم جداً فقد كان المدير العام ينحني أمامهم بقدر مساوٍ من البرودة ولكنّ الانحناءة أشد والأجفان يخفضها بنوع من الاحترام والاحتشام كما لو كان أمامه في جنازة والد المتوفاة أو القربان المقدس. ولم يكن يقوم ،فيما عدا تلك التحيات الجافة النادرة ،بأية حركة كأنما ليبرز أن عينيه الملتمعتين اللتين تبدوان وكأنما تطفران من وجهه كانتا تبصران كل شيء وتنظمان كل شيء وتضمنان في "عشاء الفندق الكبير"الكمال في التفاصيل والانسجام في المجموع سواء بسواء .كان يحس بالطبع أنه أكثر من مخرج وأكثر من قائد أوركسترا ،إنه قائد أعلى حقيقي ولما كان يحكم أن نظرة متأملة بلغت أقصى شدتها تكفيه ليتيقن أن كل شيء جاهز وأن ليس من خطيئة مرتكبة يمكن أن تؤدي إلى الهزيمة ،وكيما يتحمل في النهاية مسئولياته ،فقد كان يمتنع لاعن كل إشارة فحسب بل حتى عن تحريك عينيه اللتين تحيطان بكامل العمليات وتديرانها وقد جمدهما الانتباه. كنت أحس أن حركات ملعقتي ذاتها لا تفوته وكان الاستعراض الذي قام به يقطع عليّ شهيتي على مدى العشاء بكامله حتى لو توارى بعد الحساء. أما شهيته فكانت حسنة جداً كما كان بوسعك أن ترى ذلك

أثناء طعام الغداء الذي كان يتناوله شأن فرد بسيط في قاعة الطعام وفي الساعة نفسها التي يتناوله فيها الجميع. لم يكن يميز طاولته سوى أن المدير الآخر ،المدير المعتاد كان يظل ،فيما هو يأكل ،واقفاً إلى جانبه يحدثه طوال الوقت. فقد كان مرؤوساً للمدير العام فيحاول لذلك تملقه ويخاف منه خوفاً عظيماً. كان خوفي أقل في أثناء تلك الأغدية إذ كان يضيع حينئذ بين الزبائن فيبدي احتشام لواء يجلس في مطعم يؤمه جنود في ألا يبدو وكأنه يهتم بهم. بيد أني كنت أتنفس بحرية أوسع حينما كان البواب يعلن عليّ وقد أحاطت به حاشية من خدمه: "إنه ذاهب في صباح الغد إلى "دينار"ومن هناك يذهب إلى "بياريتز"وبعدها إلى "كان".

كانت حياتي في الفندق قد أضحت لا حزينة فحسب لأنني لا أملك علاقات فيه،بل مزعجة لأن "فرانسواز" كانت قد أقامت العديد منها. ويمكن أن يبدو أنه كان لا بد لها أن تسهل أمامنا أموراً كثيرة وكان الأمر بخلاف ذلك تماماً. ولئن لاقى الكادحون بعض المشقة في أن تعاملهم "فرانسواز"بمثابة جماعة من معارفها ولا يستطيعون ذلك إلا لقاء بعض شروط التأدب العظيم إزاءها فلقد كانوا بالمقابل الجماعة الوحيدة التي لها شأن لديها ما إن تفلح في ذلك. كانت مدوّنتها القديمة تعلمها أنها غير ملزمة بأي شيء تجاه أصدقاء معلميها وأنها تستطيع إن كانت في عجلة من أمرها أن تطرد سيدة جاءت لزيارة جدتي. ولكن أكثر قواعد السلوك دقة وإطلاقاً كانت تنظم أفعالها فيما يخص معارفها هي، أي إزاء جماعة العامّة الذين تقبل أن يتخطوا باب صداقتها الصعبة فبعدما. تعرفت"فرانسواز" إلى صاحب المقهى وإلى وصيفة قصيرة القامة كانت تخيط فساتين لسيدة بلجيكية لم تعد تصعد بعد لإعداد حاجات جدتي حالا بعد الغداء، بل تفعل بعد ساعة لأن صاحب المقهى يود أن يعد لها قهوة أو مغليّ أعشاب في القهوة، وأن الوصيفة تسألها المجيء إليها لتشاهدها وهي تخيط، وأن الرفض كان مستحيلا وفي عداد الأمور التي لا يقدم عليها المرء. ثم إنّه كان من واجبها مراعاة الوصيفة الصغيرة القدّ مراعاة خاصة فقد كانت يتيمة وتمت تربيتها لدى غرباء كانت تمضي لقضاء بضعة أيام عندهم بين الحين والحين. كان ذلك الوضع يثير شفقة "فرانسواز"وكذلك ازدراءها الذي يلونه العطف فما كانت تستطيع أن تعدّ مَنْ لا جذورلها مساوية لها هي التي تملك أسرة وبيتاً صغيراً ورثته عن والديها ويقوم شقيقها فيه بتربية بعض الأبقار. ولما كانت تلك الصغيرة تأمل في الذهاب لزيارة أولياء نعمتها في الخامس عشر من شهر آب، لم تكن تملك "فرانسواز" نفسها أن تردد قولها :"إنها تثير ضحكي فهي تقول :آمل أن أذهب إلى منزلي في الخامس عشر من شهر آب. تقول إلى منزلي !والبلدة ليست حتى بلدتها، فقد التقطها بعض القوم، وتقول إلى منزلي كما لو كان بالحقيقة منزلها. ياللصغيرة المسكينة ! ما أشد ما بها من تعاسة أن لا تعلم ما معنى أن يكون للمرء منزل ".

ولو لم ترتبط "فرانسواز" بعلاقة إلا مع وصيفات يصطحبهنّ بعض النزلاء ،وكنّ يتناولن طعام العشاء معها في أمكنة البريد ويحسبنها، أمام قبعتها التي من الدانتيلاّ وملامحها الحانية الدقيقة، سيّدة ربّما كانت نبيلة، اضطرّتها الظروف إلى القيام بمهمة مرافقة لجدتي أو دفعها تعلّقها بها ذلك ،لو أن "فرانسواز"لم تعرف باختصار القول سوى جماعة لم يكونوا من الفندق لما كان الأذى كبيراً

لأنها ما كانت لتستطيع الحؤول دون أن يفيدونا بشيء من جرّاء أنّهم لا يستطيعون ،أيّة كانت الأحوال. وحتى لو كانوا مجهولين لديها ،أن يفيدونا في شيء. ولكنّها ارتبطت بعلاقات صداقة كذلك مع مشرف على التموين وعامل في المطبخ ومشرفة على أحد الطوابق. وقد نجم عن ذلك فيما يخصّ حياتنا اليوميّة أن أخذت "فرانسواز". التي كانت تدقّ الجرس يوم وصولنا، حين لم تكن تعرف أحداً بعد ،كيفما اتّفق ,لأقلّ الأمور وفي ساعات ما كنّا لنجرؤ ،جدّتي وأنا ،أن نقدم فيها عليها وتجيبنا إن نحن وجّهنا إليها أقلّ ملاحظة بهذا الشأن :"ولكنّنا ندفع ما فيه الكفاية من أجل ذلك "،كما لو دفعت بنفسها، أخذت الآن ،منذ أن أضحت صديقة إحدى شخصيات المطبخ،الأمر الذي بدا لنا فأل خير فيما يخصّ راحتنا، إن ألم بي وبجدّتي برد في أقدامنا، أخذت "فرانسواز" لا تجرؤ أن تدقّ الجرس ولو كانت الساعة عاديّة تماماً ،وتؤكد أن الأمر لن يُستساغ لأن ذلك سوف يضطّرهم إلى إشعال الأفران ثانية أو يبلبل عشاء الخدم فيستاؤون. ثم تنتهي بعبارة لم تكن على الرغم من الطريقة غير الواثقة التي تلفظها بها أقلّ وضوحاً وتخطّئنا على نحو قاطع: "واقع الأمر أنّ ..." وما كنّا نلحّ مخافة أن توجّه لنا أخرى أكثر جسامة :"ذلك أمر ذو بال!..." وقصارى القول أنّنا أصبحنا بذلك لا نستطيع الحصول من بعد على الماء الساخن لأن "فرانسواز" أضحت صديقة من كان يهتمّ بتسخينه .

وارتبطنا في نهاية الأمر بدورنا بعلاقة صداقة رغماً عن جدّتي ولكن بطريقها ،فقد التقت مصادفة ذات صباح هي والسيّدة "دوفيلباريزيس" الواحدة بالأخرى على عتبة باب واضطرّتا أن تقترب الواحدة من الأخرى ولكنهما لم تفعلا دون أن تتبادلا مسّبقاً إشارات تنمّ عن دهشة وتردّد وتقوما بحركات تراجع وارتياب وأخيراً باحتجاجات تأدّب واغتباط كما هي الحال في بعض مشاهد لدى "موليير"يقوم فيها ممثّلان ،كل بدوره ،بمناجاة داخليّة منذ فترة طويلة وهما على بضع خطوات الواحد عن الآخر والمفروض أن أحدهما لم ير الآخر بعد، وفجأة يلمح أحدهما الآخر فلا يستطيعان تصديق ما يريان وتتقاطع أقوالهما ويأخذان أخيراً في التحدّث معاً وقد جارى القلب الحوار ويرتمي كلّ منهما بين ذراعي الآخر وأرادت السيّدة "دوفيلباريزيس"بداعي التحفّظ مفارقة جدّتي بعد فترة ،ولكن هذه الأخيرة فضّلت على العكس أن تستوقفها حتى الغداء إذ كانت ترغب أن تعلم منها كيف تفعل لتأخذ بريدها قبلنا وتحصل على شواء جيّد (فقليلاً ما كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" وهي شديدة النهم، تستسيغ طعام الفندق حيث تُقَدّم لنا وجبات ترى جدّتي التي تستشهد دوماً بالسيّدة "دو سيفينييه" أنها "سخيّة حتى لتُميتك جوعاً".وتعوّدت المركيزة أن تأتي في كل يوم ،بانتظار أن يقدّم لها طعامها، فتجلس حيناً بالقرب منّا في قاعة الطعام دون أن تسمح بأن ننهض وأن نكلّف أنفسنا أي عناء. كنّا على الأكثر غالباً ما نتأخر في حديثنا معها بعد انقضاء العشاء في تلك الآونة القذرة التي تتبعثر فيها الأمواس على الخوان قرب الفوط المحلولة. أمّا فيما يخصني فقد كنت أجهد، كيما أحتفظ بفكرة أنّني في أقصى نقطة من الأرض وذلك كي أستطيع التولّع بـ "بالبيك"، أن أنظر إلى أبعد من ذلك وألاّ أبصر سوى البحر وأن أبحث فيه عن انفعالات وصفها "بودلير" وألا أدع نظراتي تحطّ على مائدتنا إلا في الأيّام التي كانت تُقدم لنا فيها سمكة ضخمة هي ضرب من وحوش

البحر عاصرت ،بخلاف الأمواس والشّوك ،الحقب الأولى التي شرعت فيها الحياة تتدفّق في المحيط في زمن السيمريّين ،وحوش صُمّم جسمها ذو الفقرات التي لا تحصى والأعصاب الزرقاء الورديّة على يد الطبيعة، ولكن وفق مخطّط معماريّ، على هيئة كاتدرائيّة بحريّة متعدّدة الألوان.

وكمثل حلّاق يغتبط لدى رؤيته أن ضابطاً يخدمه باحترام خاصّ قد تعرف إلى زبون دخل منذ قليل وباشر معه حديثاً قصيراً إذ هو يدرك أنهما من الطبقة نفسها ولا يسعه إلا أن يبتسم وهو يبادر إلى جلب طاس الصابون لأنّه يعلم أن متعاً اجتماعية ،بل أرستقراطيّة تنضاف في دكّانه إلى الأشغال العاديّة التي يضطلع بها محض محلّ حلاقة ،كذلك كان يذهب "إيميه" وقد رأى أن السيّدة "دوفيلياريزيس" أَلِفَتْ فينا معارف قدامى ،ليجيئنا بأوعية المضمضة بالابتسامة المستكبرة في اتّضاعها المدروسة في احتشامها التي لسيّدة منزل تعلم كيف تنسحب في الوقت المناسب وربمّا بدا كذلك كوالد تهزّه السعادة والحنان ويسهر على الخطوبة السعيدة التي عُقدت على مائدته دون أن يعكّر صفوها. كان يكفي على أيّة حال أن يتمّ التلفّظ باسم شخص يحمل لقباً حتى تهزّ السعادة "إيميه"، بخلاف "فرانسواز" التي ما كان يمكن أن يُقال في حضرتها "الكونت فلان" دون أن يتجهّم وجهها ويضحي كلامها جافاً مقتضباً ،الأمر الذي كان يعني أنها تهوى النبلاء لا أقلّ ممّا يفعل "إيميه"بل أكثر. ثم إن "فرانسواز"كانت تتّسم بالمزيّة التي تجد أنها لدى الغير أكبر المعايب :لقد كانت متغطرسة لم تكن من السلالة المحبّبة الفيّاضة بالطيبة التي ينتمي إليها "إيميه". فهؤلاء يحسّون بغبطة شديدة ويجهرون بها حينما تروى لهم واقعة مثيرة في كثير أو قليل ولكنّها جديدة ولم ترد في الجريدة. أمّا "فرانسواز" فما كانت تودّ أن تبدو في دهشة. ولئن قيل في حضرتها إن الأرشيدوق "رودولف"،الذي ما ارتابت يوماً بوجوده، حي يرزق ،لا ميت كما كان يبدو مؤكّداً ،لأجابت "أجل" كما لو تعرف الأمر منذ زمن بعيد. لكأنمّا كان ينبغي ،كي لا يسعها أن تسمع حتى من فمنا نحن الذين كانت تدعوهم بتواضع كبير مواليها والذين روّضوها ترويضاً كلّياً تقريباً اسم أحد النبلاء دون أن تضطرّ إلى كبح حركة غاضبة، لكأنمّا كان ينبغي أن تشغل الأسرة التي انحدرت منها مكانة في قريتها تتّسم باليسر والاستقلال ولا يعكّر صفوها في التقدير الذي كانت تنعم به سوى هؤلاء النبلاء أنفسهم الذين عمل لديهم "إيميه"على العكس بمثابة خادم منذ الطفولة، إن لم تتمّ تربيته على أيديهم بداعي الصّدقة. كان إذن على السيّدة "دوفيلباريزيس" ،في نظر "فرانسواز" أن تستغفر لكونها نبيلة. ولكن هذا الأمر يؤلف ،بالضبط ،أقلّه في فرنسه،الموهبة التي يتمتّع بها السادة العظام والسيّدات الراقيات وشغلهم الوحيد على السواء. وإذ كانت "فرانسواز" تنساق خلف نزعة الخدم الذين لا يكفّون عن جمع ملاحظات جزئية حول صلات مواليهم بالأشخاص الآخرين يخلصون منها إلى تعميمات خاطئة -كما يفعل البشر فيما يخصّ حياة الحيوانات - فقد كانت تجد في كلّ لحظة أنهم لم يفونا حقنا والاستنتاج يدفعها إليه بيسر حبّها المفرط لنا واللذة التي تصيبها من إزعاجنا على حدّ سواء. ولكن، حينما لاحظت "فرانسواز" ،دون أن يكون ثمة خطأ ممكن ،صنوف المداراة العديدة التي تحيطنا بها وتحيطها هي الأخرى السيّدة "دو فيلباريزيس" فقد عذرتها أن تكون "مركيزة". وبما أنها لم تنفكّ يوماً عن امتنانها لها لكونها مركيزة فقد فضّلتها على جميع الأشخاص

الذين كنّا نعرفهم. أضف إلى ذلك أنّه لم يجهد أحد في أن يكون ودوداً بهذا القدر من الاستمرار. ففي كلّ مرّة تلاحظ فيها جدتي كتاباً تقرؤه السيدة "دوفيلباريزيس" أو تقول إنها استملحت فاكهة حملتها صديقة إلى هذه الأخيرة،كان أحد الخدم يصعد بعد ساعة يحمل إلينا الكتاب أو الفاكهة. وحينما كنّا نراها فيما بعد كانت تكتفي بالقول ردّاً على شكرنا ،وكأنها تبحث عن عذر لهديّتها في بعض وجوه جدواها : "ليس رائعة فنية ولكنّ الصحف تصل متأخرة جدّاً ولابدّ للمرء من حاجة يقرؤها "أو "من الفطنة دوماً أن يحصل المرء على فاكهة هو أمين منها على شاطئ البحر".

-"ولكن يبدو لي أنّكم لا تأكلون المحار ألبتّة"،تقول السيّدة "دو فيلباريزيس" (وتزيد بذلك من شعور القرف الذي كان بي ساعتها، لأنّ لحم المحار النيء كان يثير اشمئزازي أكثر ممّا تشوّه شاطئ "بالبيك" في نظري لزوجةُ المدوسات) ،إنّه فاخر على هذا الشاطئ! آه! سوف أقول لوصيفتي أن تبادر لأخذ رسائلكم ورسائلي في الوقت نفسه. كيف ذلك؟أو تكتب لك ابنتك كلّ يوم ؟ ولكن ما عساكم تلاقون مما ينقله أحدكم للآخر !"

وصمتت جدّتي، بيد أنّه يمكن الظنّ أنها فعلت ازدراء هي التي كانت تردّد لوالدتي كلمات السيدة"دوسيفينييه" :"ما إن تردني رسالة حتى أودّ في الحال أخرى ،فإنّي لا أحيا إلاّ بورودها. وقليلون من الناس جديرون بإدراك ما أحسّ به " وأخذت أخشى أن تطبّق عليّ السيّدة "دوفيلباريزيس" خلاصتها :"إنّي أبحث عمّن كانوا ضمن هذا العدد الصغير وأتحاشى الآخرين " وانتقلت إلى امتداح الفاكهة التي بعثت بها السيّدة "دوفيلباريزيس " إلينا ليلة البارحة، وكانت بالفعل جميلة إلى حدّ أن قال لي المديرعلى الرغم من غيرة أطباق فواكهه المطبوخة المزدراة : "إنني مثلك أكثر شغفاً بالفاكهة من أي حلوى أخرى" وقالت جدّتي لصديقتها إن استحسانها لها تزايد بقدر ما كانت الفاكهة التي تقدّم في الفندق رديئة بعامّة. وأضافت قولها :"لا أستطيع أن أقول كالسيّدة "دوسيفينييه"إنّنا لو رغبنا لنزوة في النفس أن نجد فاكهة رديئة لانبغى لنا إحضارها من باريس" -"آه ! أجل ،فأنت تقرئين السيّدة "دو سيفينييه". إني أراك منذ اليوم الأوّل تحملين "رسائلها"(ويفوتها أنها لم تلمح جدّتي ألبتة في الفندق قبل أن تلتقي بها على عتبة هذا الباب). ألا ترين أن هذا الاهتمام المستمرّ بابنتها مبالغ فيه بعض الشيء، فإنها تفرط في الحديث عنه كيما يكون صادقاً تماما. وإنما تعوزها التلقائيّة. "ورأت جدّتي أن النقاش عقيم فأخفت "مذكّرات السيّدة دو بوسيرجان "إذ جعلت حقيبتها فوقها كي تتجنّب الحديث عن أمور تحبّها في حضرة من لايسعه إدراكها.

حينما كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تلتقي "فرانسواز" في الآونة التي (تسميها هذه الأخيرة "الظهر") وتنزل فيها وهي تعتمر قبعة جميلة ويسربلها التقدير العام، "لتناول طعامها في غرفة الخدم"، كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تستوقفها لتسألها عن أخبارنا. وتنقل إلينا "فرانسواز" رغبات المركيزة: "لقد قالت: أقرئيهم سلامي" ،تقول وهي تقلّد صوت السيّدة "دوفيلباريزيس" وتظنّ أنها تستشهد حرفيّا بأقوالها فيما لا تشوهها أقلّ ممّا فعل أفلاطون بأقوال سقراط والقدّيس يوحنّا بأقوال يسوع. كانت "فرانسواز " بالطبع شديدة التأثّر بهذه الالتفاتات. فأكثر ما تمضي إليه أنها لم تكن

تصدّق جدّتي وتحسب أن هذه الأخيرة تكذب لصالح طبقتها. إذ يدعم الأغنياء بعضهم بعضاً ،ساعة تؤكّد أن السيّدة "دوفيلباريزيس" كانت فتّانة فيما مضى. صحيح أنّه لم يظلّ من تلك الفتنة سوى بقايا هيّنة جدّاً ما كان بالإمكان أن يستعاد منها جمالها المتهدّم ما لم يكن المرء أوسع حيلة فنيّة من "فرانسواز". فإنّه لا ينبغي أن تنظر فحسب ،بل أن تترجم كلاً من القسمات كي تدرك أي مدى من الجمال بلغته امرأة عجوز .

قالت لي جدّتي :"ينبغي أن أفكر مرّة في سؤالها إن كنت مخطئة وإن لم تكن على بعض القربى بآل غير مانت "،فأثارت بذلك حنقي، إذ كيف كان يمكنني الاعتقاد بأصل مشترك بين اسمين ولجا نفسي الأوّل من باب التجربة الدنيء المخجل والآخر من باب المخيّلة الذهبيّ؟

كثيراً ما كنت ترى منذ بضعة أيّام أميرة "لوكسمبور" التي جاءت تصطاف بضعة أسابيع في المنطقة تمر في عربة فخمة. تمرّ فارعة الطول صهباء اللون جميلة يعتور أنفها بعض الطول. لقد توقّفت عربتها أمام الفندق وجاء خادم يتحدّث مع المدير ثم عاد إلى العربة وحمل معه فاكهة رائعة (كانت تجمع في سلّة واحدة فصولاً مختلفة كالخليج نفسه)ومعها بطاقة كتب عليها: "أميرة لوكسمبور"وسطّرت فيها بعض كلمات بقلم الرصاص. فلأي أمير مسافر يقطن ههنا متخفّياً كان يمكن أن تُهدى هذه الفواكه، هذا الخوخ الأزرق المخضوضر المنوّر المستدير استدارة البحر في تلك الآونة وهذا العنب الشّفاف المعلّق بالقضبان اليابسة كأحد أيام الخريف الصافية وهذا الإجّاص الذي بزرقة سماء ما وراء البحار؟فليس يُحتمل أن تكون الأميرة ابتغت زيارة صديقة جدّتي. بيد أن السيّدة "دوفيلباريزيس" بعثت إلينا عشيّة اليوم الثاني عنقود العنب النضر الذهبيّ وخوخاً وإجّاصا عرفناهما أيضا مع أن الخوخ انتقل شأن البحر ساعة عشائنا إلى اللون الخبّازي وأن بعض أشكال من سحب ورديّة كانت ترفّ فوق زرقة الإجّاص التي بلون ما وراء البحار. وبعد بضعة أيّام التقينا بالسيّدة "دوفيلباريزيس" لدى خروجنا من الحفلة السمفونية التي كانت تقام على الشاطئ في الصباح. ولما كنت موقناً بأنّ الأعمال التي أسمعها فيها (كمقدّمة "لوها نغرين" وافتتاحيّة "تانهويزر" الخ..) إنمّا تعبرّ عن أسمى الحقائق فقد كنت أجهد في الارتفاع قدر المستطاع كي أبلغ إلى حيث هي، وكنت أستخلص من ذاتي كيما أفهمها. أفضل وأعمق ما كانت تنطوي عليه نفسي آنذاك واستودعها كلّ ذلك .

بيد أني رأيت ونحن نغادر الحفلة الموسيقيّة وإذ توقّفنا في طريقنا إلى الفندق ،أنا وجدّتي ،لحظة على السدّ لنتبادل بضع كلمات مع السيّدة "دوفيلباريزيس" التي كانت تنقل إلينا أنها أوصت لنا في الفندق على فطائر محمّصة وبيض بالكريما، رأيت أميرة "لوكسمبور" من البعيد آتية باتّجاهنا وهي تستند جزئيا إلى شمسية بطريقة تطبع بها جسمها المديد الرائع بتلك الانحناءة الخفيفة وتجعله يتّخذ هذا الخطّ الزخرفيّ العزيز جدّاً على قلب النساء اللائي كنّ جميلات في عهد الامبراطورية ويعرفن كيف يدعن لجسمهنّ. والكتفان مرخيتّان والظهر مدفوع إلى أعلى والخصر أجوف. أن يخفق بليونة

كمثل منديل حول هيكل جذع خفيّ وقاس ومائل احترقه. كانت تخرج كلّ صباح لتقوم بجولتها على الشاطئ في الساعة التي يعود فيها الجميع تقريباً بعد السباحة لتناول الغداء ،وبما أن غداءها ما كان يتم إلا في الواحدة والنصف فلم تكن تعود إلى دارتها إلا بعدما يهجر السبّاحون السدّ المقفر الحارق بفترة طويلة. وقدّمت السيّدة "دوفيلباريزيس" جدّتي وشاءت أن تقدّمني ولكنها اضطرّت أن تسألني اسمي لأنها لم تكن تتذكّره. ربمّا لم تعرفه في يوم أو هي نسيت في جميع الأحوال منذ سنوات عديدة لمن زوّجت جدّتي ابنتها ،وبدا أن هذا الاسم قد خلّف في نفس السيّدة "دوفيلباريزيس" انطباعاً شديداً. وفي تلك الأثناء مدّت لنا أميرة "لوكسمبور" يدها وأخذت تلتفت بين الحين والحين وهي في حديثها مع المركيزة لتخصّنا أنا وجدّتي بنظرات عطف تمتزج بها بدايات القبلة التي نضيفها إلى ابتسامتنا حينما نخصّ بها طفلاً رضيعاً مع مربّيته. ثم إنها لا شكّ أخطأت ،وهي راغبة ألا تبدو وكأنها تتربّع في أجواء تسمو على أجوائنا، في حساب المسافة لأنّ نظراتها تشربت ،من جرّاء خطيئة في "العيارات"، بمقدار من الطيبة توقّعت معها اقتراب اللحظة التي ستداعبنا فيها بيدها كحيوانين ودودين أمرّا رأسيهما إليها عبر شبك الحاجز في حديقة الحيوانات. واتخذت في الحال فكرة الحيوانات هذه وغابة بولونيا كثافة أشدّ في نظري. فقد كانت الساعة التي يطوف فيها على السدّ باعة جوالون يصيحون ويبيعون حلوى وسكاكر وخبزاً محلى. وأوقفت الأميرة أوّل بائع مرّبها وهي لا تدري ما تفعل بغية الإعراب عن عطفها. فلم يكن بعد لديه سوى رغيف من الشيلم من صنف ما يرمى للبطّ. فأخذته الأميرة وقالت لي: "هذا لجدّتك ". ولكنّها قدّمته لي مع ذلك وهي تقول لي بابتسامة رقيقة :"سوف تعطيها إيّاه بنفسك "وتحسب أن متعتي سوف تكون أتمّ إن لم يقم وسطاء بيني وبين الحيوانات. واقترب باعة آخرون فملأت جيوبي من كل ما يحملون، من علب محزومة تماماً ،وما لذ من الرقائق وحلوى "البابا"والسكرّ النباتي. وقالت لي:"تأكل منها وتُطعم جدّتك أيضاً "، وأمرت أن يدفع للباعة الزنجيّ القصير الذي يرتدي الساتين الأحمر والذي كان يتبعها في كلّ مكان ويثير دهشة روّاد الشاطئ ثم ودّعت السيّدة "دوفيلباريزيس" ومدّت لنا يدها وقد عقدت النيّة أن تعاملنا بطريقة صديقتها نفسها كأصدقاء حميمين وأن تضع نفسها في مستوانا. إلا أنها حدّدت مستوانا دون شكّ في موقع أقلّ تدنّياً على سلّم الكائنات فقد أعربت الأميرة لجدتي عن مساواتها لنا بوساطة هذه الابتسامة الأموميّة الرقيقة التي نخصّ بها طفلاً حينما نودّعه مثلما نفعل مع شخص كبير. لم تعد جدّتي ،بفضل تقدّم غريب على طريق التطوّر ،بطّة أو ظبية بل ما لعلّ السيّدة "سوان" كانت تدعوه "بيبي"(baby). وأخيراً عادت الأميرة، بعدما تركتنا نحن الثلاثة، تتابع مشوارها على السدّ المشمس وهي تلوي قامتها الرائعة التي كانت تعانق الشمسيّة البيضاء المبقّعة بالأزرق التي تمسك بها السيّدة "دولوكسمبور"مطويّة في يدها ،تلوي قامتها كمثل حيّة حول عصا. كانت أوّل صاحبة سمو بالنسبة إلي ،وأقول الأولى لأن الأميرة "ماتيلد" لم تكن ألبتّة صاحبة سمو بالنسبة إليّ في تصرّفاتها. أمّا الثانية فلن تكون دهشتي بها أقلّ، كما سوف نرى فيما بعد، من جرّاء ظرافتها. وقد تعلّمت في اليوم التالي إحدى صيغ تلطّف كبار القوم، وهم الوسطاء المجانيون بين الملوك والبورجوازيّين، حينما قالت لنا السيّدة "دوفيلباريزيس" "لقد ألفتكما

رائعين. إنها امرأة تتمتّع بحصافة كبيرة وبفؤاد واسع وليست كالكثيرات من الملكات أو صاحبات السموّ. إنها تتمتّع بقيمة حقيقيّة." وأضافت السيّدة "دوفيلباريزيس" بهيئة المتيقّن وقد فتنها أن يسعها القول :"أظنّ أنها ستغتبط جداً بلقائكما ثانية".

بيد أن السيّدة "دوفيلباريزيس" قالت لي في هذا الصباح نفسه ،وهي تفارق أميرة "لوكسمبور"،أمراً زاد من دهشتي ولم يكن من قبيل التلطّف – فقد سألتني قائلة : "هل – أنت ابن المدير في الوزارة ؟آه! يبدو أن والدك رجل رائع ،وهو يقوم برحلة جميلة جداً في هذه الآونة ".

وكنّا قد علمنا قبل بضعة أيّام بوساطة رسالة من أميّ أن والدي ورفيقه السيد"دونوربوا"فقدا أمتعتهما.

-"لقد عادا فلقياها أو هما لم يفقداها في يوم بالأحرى ،فإليكما ما جرى "، تقول السيّدة "دو فيلباريزيس"التي كانت تبدو أكثر اطّلاعاً منا على تفاصيل الرحلة دون أن نعلم كيفيّة ذلك "أظنّ أن والدك سوف يقدّم موعد عودته إلى الأسبوع القادم إذ من المرجّح أنّه سيعدل عن الذهاب إلى منطقة الجزيرة. ولكنّه يرغب في تخصيص يوم إضافي لطليطلة لأنّه معجب بواحد من تلامذة "تيتسيانو" لا أذكر اسمه ولا يشاهد كما ينبغي إلاّ هناك."

وكنت أتساءل أيّة صدفة وضعت في منظار اللامبالاة الذي كانت السيّدة "دوفيلباريزيس"تنظر من بعيد عبر زجاجه إلى اضطراب جمهور الناس الذين تعرفهم، اضطراب مجمل زهيد مبهم ،وفي المكان الذي تنظر منه إلى والدي قطعةً من زجاج مكبر إلى أقصى حدّ كانت تريها على نحو شديد البروز وبأدقّ التفاصيل كل ما يروق لديه والضرورات التي تضطّره أن يعود ومتاعبه الجمركية وشغفه بالرسّام "إلغريكو"وتبرز لها ،إذا تغيرّ المقادير في سلّم رؤيتها، هذا الرجل وحده بالغ الطول وسط آخرين في غاية القصر كمثل "جوبيتير"الذي جعل له "غوستاف مورو"قامة تفوق قامات البشر حينما رسمه بالقرب من إحدى الغانيات الهزيلات.

واستأذنت جدّتي السيّدة "دوفيلباريزيس" كي نتمكّن من المكوث فترة أطول أمام الفندق نستنشق الهواء بانتظار أن يُشار إلينا عبر الزجاج بأن غداءنا قد جهز. وبلغ الأسماع ضوضاء، فإذا هي عشيقة ملك المتوحّشين الشابة تعود للغداء بعدما فرغت من حمّامها.

وصاح نقيب المحامين بحنق وكان يمرّ ساعتها : "إنها بالحقيقة كارثة حتى لتحملك على هجر فرنسه!"

وكانت زوجة الكاتب العدل في تلك الأثناء تحملق في وجه الملكة المزيّفة فقال نقيب المحامين للرئيس:"لا أستطيع أن أقول لك كم تزعجني السيّدة "بلانديه" وهي تنظر على هذا النحو إلى هؤلاء الناس. وددت لو أستطيع أن أصفعها. إنهم بذلك إنمّا يولون أهميّة لهذه الحثالة التي لا

تبغي بالطبع سوى أن يُهتمّ بها. ألاقل لزوجها أن ينّبهها إلى أنّ الأمر مثير للسخرية. وأمّا أنا فلن أخرج من بعد معهما إن بدا أنهما يعيران المتنكرين اهتمامهما."

أمّا مجيء أميرة "لوكسمبور" التي وقفت عربتها أمام الفندق يوم حملت معها الفاكهة فلم تخف على جماعة زوجة الكاتب العدل ونقيب المحامين ورئيس المحكمة الأول، وقد ساورهنّ أشدّ القلق منذ بعض الوقت ليعلمن أهي مركيزة حقيقية أم مغامرة هذه المدعوّة بالسيّدة "دو فيلباريزيس"التي تتمّ معاملتها بالكثير من مظاهر التكريم الذي تتحرّق هؤلاء السيّدات جميعهنّ إلى أن يُبَلّغْنَ أنها غير جديرة به. وحينما كانت السيّدة "دو فيلباريزيس" تجتاز الردهة كانت زوجة الرئيس الأول ،التي تستشفّ العاهرات أنّى كان، ترفع أنفها عن كتابها وتنظر إليها نظرة تنفجر بها صديقاتها في ضحك شديد.

كانت تقول بكبر: "تدرين ،أنا أشرع دوماً بسيّئ الظنون ،ولست أسلّم بأنّ المرأة متزوّجة بالحقيقة إلا بعدما تُبرز أمامي إخراجات القيد والشهادات الموثّقة. لا بأس عليكنّ على أيّة حال فسوف أبادر إلى إجراء تحقيقي الصغير."

وفي كلّ يوم تهرع هاتيك السيّدات جميعهن ضاحكات :"إنّنا نتسقّط الأخبار". بيد أنّ زوجة رئيس المحكمة وضعت إصبعها على فمها عشيّة زيارة أميرة "لوكسمبور".

-ثمّة جديد".

-"السيّدة "بونسان"هذه خارقة ! ما رأيت قط ...ولكن ما وراءك؟قولي"

-"ما ورائي أن امرأة ذات شعور صفراء تضع قدماً من الحمرة على وجهها وتملك عربة تفوح منها رائحة التفاهة على بعد فرسخ، من تلك التي لا تملك مثلها سوى أولئك الآنسات المحترمات، جاءت منذ قليل لزيارة المركيزة المزعومة".

-"آه! ياربي! أرأيت ! إنها تلك السيّدة التي رأيناها ،ألا تذكر أيها النقيب ،ووجدنا أنها تورث انطباعاً سيّئاً ،ولكنّنا ما علمنا أنها جاءت من أجل المركيزة. امرأة يتبعها زنجيّ، أليس كذلك ؟"

-"ذلك بالتمام."

-"آه ما عدت أستغرب بعد الذي قلت. ألست تعرف اسمها؟"

-"بلى ؟ لقد تظاهرت بالخطأ فأخذت البطاقة ،إن الاسم الحركي الذي تحمله هو أميرة "لوكسمبور"! كم كنت محقاً في حذري! إنها لمتعة أن تخالط ههنا هذا الصنف المسمّى بـ"بارونة آنج."

واستشهد نقيب المحامين بـ"ما توران رينييه"و" ما سيت" أمام رئيس المحكمة الأوّل.

ينبغي لنا على أية حال ألاّ نعتقد بأن سوء التفاهم هذا كان مؤقتاً على غرار تلك التي تتشكّل في الفصل الثاني من مسرحيّة هزلية كيما تزول في الفصل الأخير. فقد بدت السيّدة "دولوكسمبور" ابنة شقيق ملك انكلترا وامبراطور النمسا والسيّدة "دوفيلباريزيس" ،لقد بدتا على الدوام حينما تجيء الأولى لاصطحاب الثانية في نزهة بعربتها امرأتين غريبتي الأطوار من النوع الذي يصعب تحاشيه في مدن المياه. إن ثلاثة أرباع رجال حيّ "سان جيرمان"ينظر إليهم قسم كبير من البورجوازيّين على أنهم معدمون خليعون (وإنهم لكذلك أحياناً كلّ بمفرده) ولا يستقبلهم أحد بالتالي. والبورجوازية نزيهة جدّاً بهذا الصدد ،ذلك أن مفاسدهم لن تحول على الإطلاق دون أن يتمّ استقبالهم بأعظم تقدير حيث لن يتم لها ذلك على الإطلاق ،وإنهم يتصوّرون بدورهم إلى أبعد حدّ أنّ البورجوازية تعلم ذلك حتى أنّهم يتصنّعون البساطة فيما يخصّهم والقدح بحق أصدقائهم ولا سيما "الذين يرتفع نجمهم" ،الأمر الذي يُتِمُّ سوء التفاهم. وإن اتّفق أن يكون رجل من المجتمع الراقي على صلة بالبورجوازية الصغيرة لأنّ واقع الحال أنّه يحتلّ، نظراً لثرائه الباهظ، رئاسة أكثر الشركات الماليّة خطراً ،فإنّ البورجواية التي أبصرت أخيراً رجلاً من النبلاء جديراً بأن يكون من كبار البورجوازيّين، ربمّا أقسمت أنّه لا يخالط المركيز لاعب الميسر المنكوب في مالهو الذي تحسبه عديم المعارف بقدر ما يبدو أكثر لطفاً. ثم هي يطيش صوابها حينما يزوّج الدوق رئيس مجلس إدارة الشركة الضخمة ابنه ابنة المركيز لاعب الميسر ولكنّ اسمه من أعرق الأسماء في فرنسه، مثلما يفضّل ملك تزويج ابنه ابنة ملك مخلوع على ابنة رئيس جمهورية قائم على رأس عمله. وإنمّا يعني ذلك أن كلاّ من هذين العالمين يحمل عن الآخر فكرة في مثل وهميّة تلك التي يحملها سكّان شاطئ يقع على أحد أطراف خليج "بالبيك" عن الشاطئ الواقع في الطرف الآخر : فمن "ريفبيل"يشاهد بعض من "مركوفيل" المستكبرة، ولكنّ الأمر يخدع بحدّ ذاته لأن المرء يحسب أنّه يُشاهد من "مركوفيل"فيما تظلّ روعة "ريفبيل"علىالعكس غير مرئيّة في أعظم جزء منها.

لما رأى طبيب "بالبيك" الذي استدعي لنوبة حميّ ألمت بي أنّه ينبغي أن لا أمكث طول النهار على شاطئ البحر في هاجرة النهار وفي الحرّ الشديد وسطّر لي بعض الوصفات الصيدلانية ،أخذت جدّتي الوصفات باحترام ظاهر تبيّنت فيه في الحال عزمها الأكيد ألاّ تنفّذ واحدة منها ولكنّها أخذت في حسابها النصح على الصعيد الصحيّ وقبلت عرض السيّدة "دوفيلباريزيس" أن تحملنا على القيام ببعض المشاوير في عربتها وطفقت أذهب وأجيء حتى ساعة الغداء من غرفتي إلى غرفة جدّتي. لم تكن تطلّ مباشرة على البحر شأن غرفتي ولكنما يسرح النظر منها في ثلاث جهات مختلفة:في إحدى زوايا السدّ وفي إحدى الباحات وفي الحقول ،وكان أثاثها مختلفاً بمقاعده التي طرزت بخيوط معدنية دقيقة وبزهور ورديّة اللون كأنما تنبعث منها الرائحة اللذيذة النديّة التي تلقاها وأنت داخل. وفي تلك الساعة التي تجيء فيها أشعّة من أماكن عرض وكأنما من ساعات مختلفة. أشعّة تنكسر بها زوايا الجدار وتضع على الصّوانة بالقرب من شعاع يعكسه الشاطئ مذبحاً مزركشا

كأزهار الطريق، وتعلق على الحائط الجناحين المطويين المرتعشين الدافئين لضياء يتأهّب لاستعادة طيرانه ،وتدفئ على غرار حمام قطعة من سجّادة ريفيّة أمام نافذة الفناء الصغير الذي تطرّزه الشمس بحاشية مفرّضة كورق الكرمة، وتزيد من سحر زخرف الأثاث إذ تبدو وكأنها تعرّي حرير المقاعد المزهر وتنزع تخاريمه ،في تلك الساعة كانت تبدو تلك الغرفة التي أطوف بها حيناً قبل أن أرتدي ثيابي للنزهة وكأنها موشور تتفكّك فيه ألوان الضياء الخارجي، وخليّة تنفرط فيها عصارات النهار التي أزمع تذوّقها مشتّتة مسكرة بارزة للعيان، وحديقة آمال تذوب في خفقان أشعّة فضيّة وتويجات ورود ولكنّي أقدمت قبل كل شيء على إزاحة ستائري في لهفتي لأعلم أيّ بحر كان يلهو على ضفاف الشاطئ في ذلك الصباح كمثل جنيّة البحر. ذلك أن كلاً من تلك البحار ما كان يمكث أكثر من يوم واحد. كان ثمة في الغد آخر يشبهه أحياناً، ولكنّي لم أبصر ألبّتة البحر نفسه مرّتين متواليتين.

كان من بينها ما كان نادر الجمال إلى حدّ أن متعتي، إذ أبصره كانت تزداد من جرّاء المفاجأة. فبداعي أي امتياز كشفت النافذة في هذا الصباح دون سواه إذ انفتحت أمام ناظريّ المفتونين الجنيّة "غلوكونوميه"[1] التي كان لجمالها الكسول بأنفاسه المتراخية شفافيّة زمرّدة ضبابية. كنت أرى عبرها تدفّق العناصر الوزونة التي تلوّنها ؟كانت تدع للشمس أن تلهو بابتسامة يوهنها ضباب خفيّ إن هو إلا مساحة خالية مقطعّة حول صفحته الشفّافة التي أضحت بذلك أكثر اختصاراً وأشد إثارة كمثل تلك الإلهات اللواتي يبرزهنّ النحّات فوق باقي الكتلة الصخرية التي لا يحمّل نفسه عناء تهذيبها. كذلك كان بلونه الفريد يدعونا إلى النزهة على تلك الدروب الوعرة الأرضيّة التي سوف نلمح منها ،ونحن نجلس في عربة السيّدة "دوفيلباريزيس" على مدى النهار ،خفق أمواجه اللينة النديّة ولا نبلغها في يوم.

كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تأمر بإعداد عربتها في ساعة مبكّرة كي يتّسع لنا الوقت للذهاب إمّا إلى "سان مارس لوفيتو" وإمّا إلى صخرات"كيتهولم"وإمّا إلى أي مكان نزهة آخر هو بالنسبة إلى عربة بطيئة إلى حدّ ما بعيد جدّاً ويقتضي النهار بكامله. وكنت في غمرة الفرح الناجم لديّ عن الرحلة الطويلة التي نزمع القيام بها أدندن لحناً سمعته حديثاً وأمضي في جيئة ورواح بانتظار أن تكون السيّدة "دوفيلباريزيس" قد تأهّبت. فإن كان اليوم يوم أحد لم تكن عربتها وحيدة أمام الفندق فقد كانت عدّة عربات مؤجرة تنتظر لا الأشخاص المدعوّين إلى قصر "فيتيرن"لدى السيّدة "دوكامبرمير" فحسب بل أولئك الذين كانوا يصرّحون، بدلاً من المكوث حيث هم كأطفال معاقبين، أن يوم الأحد يوم مملّ في "بالبيك" فيذهبون فور الغداء ويختبئون في شاطئ مجاور أو يزورون موقعاً أثرياً. وغالبا ما كانت السيدة "بلانديه" تجيب بلهجة قاطعة حينما يسألونها إن هي ذهبت إلى منزل آل "كامبرمير" : "لا، كنّا في شلّالات "بيك"، كما لو كان السبب الوحيد الذي لم تقض من أجله النهار في "فيتيرن". فيقول نقيب المحامين بلهجة العطف:

---

(١)Glauconome هو اسم جنية البحر والجزء الأول يعني باليونانية اللون الأخضر ويذكر بلون البحر على الشاطئ وترمز جنيات البحر إلى حركة الأمواج وتراقص الضوء على صفحاتها

-"إنّي أحسدك، وكنت بادلتك المكان فهو أكثر إمتاعاً."

كان قد انغرس بالقرب من العربات أمام المدخل حيث كنت أنتظر ،كمثل شجيرة من صنف نادر خادما شاباً ما كان يسترعي الانتباه من جرّاء التناسق الفريد في شعره الملوّن أقلّ مما تفعل بشرته النباتيّة. أمّا في الداخل ،وفي البهو الذي يوافق "النارتكس" أو كنسية الموعوظين في الكنائس الشرقية حيث يحقّ للذين لا يقطنون الفندق أن يمروا. فما كان رفاق الوصيف"الخارجيّ" يعملون أكثر منه بكثير ولكنّهم يقومون على الأقل ببعض الحركات. والمرجّح أنهم كانوا في الصباح يساعدون في التنظيف ،ولكنّهم كان يمثلون هناك بعد الظهر كمجرّد مغنّين في جوقة يظلّون على المسرح ليزيدوا في عدد الممثّلين الصامتين حتى حينما لا يفيدون في شيء. وكان المدير العام ،ذاك الذي كان يبعث فيّ أشدّ الخوف ،يعتزم زيادة عددهم زيادة بالغة في السنة القادمة إذ كان لديه مشاريع كبيرة. وكان قراره يملأ صدر مدير الفندق بغمّ عظيم وهو يرى أن جميع هؤلاء الأولاد إنّما هم محض مسببّي مشكلات ويعني بذلك أنّهم يعرقلون المرور ولا يفيدون في شيء. كانوا على الأقلّ يملؤون فراغ الحركة مابين الغداء والعشاء ،مابين ذهاب النزلاء وعودتهم ،شأن تلاميذ السيّدة "دومانتنون" الذين يقومون بوصلة مسرحيّة بلباس فتيان يهود في كل مرّة تذهب فيها "أستير" أو "جواد". ولكنّ الخادم في الخارج بألوانه الثمينة وقامته الفارعة النحيلة،وكنت أنتظر في مكان ليس ببعيد عنه أن تنزل المركيزة،ظلّ يحافظ على جمود ينضاف إليه شيء من الكآبة لأنّ أشقاءه الكبار هجروا الفندق سعياً وراء مصائر لامعة وكان يحسّ أنّه وحيد على هذه الأرض الغريبة وتصل أخيراً السيّدة "دوفيلباريزيس". ربّما انبغى أن يدخل في صلب وظائف الخادم ذي الحلّة الرسميّة أن يهتمّ بعربتها ويُصعدها إليها، ولكنّه كان يعلم أن شخصاً يصطحب خدمه إنمّا يعمل على أن يخدموه ويهب عادة القليل من الإكراميات في الفنادق،وأن نبلاء حيّ"سان جيرمان" القديم يسلكون السبيل نفسه. كانت السيّدة "دوفيلباريزيس"تنتمي إلى تينك الفئتين. ويستخلص الخادم الشجريّ من ذلك أن ليس له أن ينتظر شيئاً من المركيزة فيدع لرئيس خدمها ولوصيفتها أن يُجلساها مع متاعها ويحلم حزيناً بمصير أشقّائه المشتهى ويحتفظ بحموده النباتيّ.

وكنّا نمضي ،فندخل بعدما ندور حول محطّة السكّة الحديدية بوقت وجيز في طريق ريفيّة أصبحت بعد قليل في نظري مألوفة كطرق "كوميريه"من العطفة التي كانت تبدأ فيها بين البساتين المسيّجة الساحرة حتى الزاوية التي نغادرها فيها والتي تمتدّ على جانبيها أراض محروثة. وكنت ترى داخلها ههنا وهناك شجرة تفّاح حُرِمَتْ بالحقيقة أزهارها ولم تعد تحمل سوى باقة من المدقّات. ولكنّها كانت كافية لتفتنني لأنني كُنت أتعرّف هذه الأوراق التي لا تُضاهى والتي مرّت على مساحتها الواسعة منذ وقت يسير أذيال الساتين الأبيض لأزهارها المحمرّة كما هو أمر سجّادة المنصّة في حفلة زواج انقضت الآن.

وكم مرّة وقع لي في باريس في شهر آيّار من السنة التالية أن أشتري غصن شجرة تفّاح لدى بائع الزهور وأمضي الليل بعد ذلك أمام أزهارها التي كان يتفتّح فيها العطر الكثيف نفسه الذي لا يزال

يعفّر بزبده براعم الأوراق والتي يبدو أن البائع إنّما أضاف بين تويجاتها البيض يحدوه كرم يديه لي وميل إبداعيّ كذلك وتباين ألوان بارع ،أضاف من كل جانب زراً ورديّاً ملائما. كنت أنظر إليها وأجعلها تحت ضوء مصباحي- فترة طويلة إلى حدّ أنّي كثيرا ما كنت لا أزال في مكاني حينما كان الفجر يكسوها بالحمرة نفسها التي لابد كان يكسو بها "بالبيك" في الآن نفسه -وأحاول أن أحملها بالخيال إلى تلك الطريق وأن أضاعف من أعدادها وأنشرها في الإطار المُعَدّ، على اللوحة المهيّأة تماماً التي تؤلفها تلك البساتين المسيّجة التي كنت أعرف خطوطها عن ظهر القلب والتي وددت لو أعود فأراها -وسوف أراها ذات يوم -في الفترة التي يغطّي الربيع بألوانه خطوط رسومها بألوانه بدفق النبوغ الفنّان.

كنت قد ألّفت، قبل أن أستقلّ العربة ،لوحة البحر التي أمضي للبحث عنها وآمل أن أبصرها تحت الشمس الساطعة ولم أكن أشاهدها في "بالبيك" إلا مجزأة بين الكثير من البقع المحصورة التافهة التي لا يقبل بها حلمي، بقع السبّاحين والمقصورات ويخوت النزهة. ولكن حينما كنت ألمح ،وقد وصلت عربة السيّدة "دوفيلباريزيس"إلى أعلى المنحدر. حينما كنت ألمح البحر بين أغصان الأشجار ،حينئذ كانت تزول دونما شكّ من هذه المسافة البعيدة تلك التفاصيل المعاصرة التي جعلته كأنمّا خارج الطبيعة والتاريخ فيسعني إذ أنظر إلى الأمواج أن أجهد في التفكير بأنّها هي نفسها التي يصفها الشاعر"لو كونت دوليل" في مقطوعة "أورستي "حينما كان مقاتلو اليونان الأبطال ذوو الشعور الطويلة "كمثل انطلاقة طيور لاحمة في ضياء الفجر يضربون اللجّة الداوية بمئة ألف مجذاف". ولكني لم أعد بالمقابل على قرب كافٍ من البحر الذي ما كان يبدو لي نابضاً بالحياة بل جامداً ،ولم أعد أشعر بالقوّة تحت ألوانه المنشورة كألوان لوحة بين الأوراق حيث كان يبدو في قلّة تماسك السماء ولكنّه أكثر قتامة منها.

ولما تبينت السيّدة "دوفيلباريزيس" أنني أحب الكنائس أخذت تعدني بأنّنا سوف نبادر إلى زيارة هذه الكنيسة مرّة وتلك مرّة أخرى ولا سيّما كنيسة "كراكفيل" التي تختفي تماماً تحت أوراق لبلابها العتيق"، تقول بحركة من يدها تبدو وكأنها تغمر بذوق رفيع الواجهة غير الموجودة بأوراق أغصان ناعمة غير مرئية كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تملك في الغالب، إلى جانب هذه الإشارة التصويريّة الصغيرة،كلمة صحيحة تحدّد بها روعة بناء أثريّ وميزته الفريدة وتتجنّب على الدوام المصطلحات التقنية ولكنّها لا تستطيع أن تخفي أنّها تلمّ إلماماً بالأمور التي تتحدّث عنها. وكان يبدو أنها تحاول أن تلقي عذراً لذلك في أنّ أحد قصور والدها الذي نشأت فيه كان واقعا في منطقة فيها كنائس من نمط ما كان حول"بالبيك" ولعلّه كان من الخزي ألاّ تكون اكتسبت ميلاً إلى فنّ العمارة، والقصر على أيّ حال أجمل نموذج للعمارة في عصر النهضة. ولما كان إلى ذلك متحفاً حقيقياً وقد عزف فيه من جهة ثانية "شوبان" و"ليست"وقرأ فيه "لامارتين"أشعاره وسطّر فيه جميع الفنّانين المعروفين على مدى قرن خواطر وأنغاماً ووضعوا رسوماً على كتاب العائلة فلم تكن السيّدة "دوفيلباريزيس" تقدّم سوى هذا المنشأ الماديّ البحت لإحاطتها بجميع الفنون إمّا تظرّفاً وإمّا عن حسن تهذيب أو عن تواضع حقيقيّ أو افتقار إلى الروح الفلسفيّة وتبدو في النهاية وكأنها تنظر إلى

الرسم والموسيقى والآداب والفلسفة على أنّها وقف على فتاة نشأت نشأة أرستقراطيّة إلى أبعد الحدود في بناء أثريّ مصنّف وشهير. لكأنّما لم يكن في نظرها لوحات غير تلك التي يرثها المرء. وقد سرها أن أحبّت جدّتي عقداً كانت تلبسه ولا يخفيه فسطانها. لقد كان في رسم بريشة "تيتسيانو" الثاني جدّة لها ولم يبرح العائلة في يوم فكان يتأكد على هذا النحو أنّه حقيقي. كانت لا تودّ سماع من يتحدّث عن لوحات لا يدري أحد كيف تمّ شراؤها على يد أحد الأثرياء إذ كانت متيقنة سلفاً أنها مزيفة ولا يهزّها أيّ شوق لرؤيتها. وكنّا نعلم أنّها ترسم بدورها زهوراً بألوان مائيّة وقد حدّثتها عنها جدّتي وقد سبق أن سمعت من يمتدحها. فبدلت السيدة "دوفيلباريزيس" موضوع الحديث عن تواضع ولكن دون أن تبدي دهشة أو سروراً أكثر ممّا تفعل فنّانة معروفة إلى حد كافٍ ولا يجيئها المديح بجديد. واكتفت بأن قالت إن ذلك تسلية رائعة لأنّه إن لم تكن الزهور التي تبدعها الريشة بديعة فإنّما يحملك رسمها على الأقلّ على العيش في صحبة الزهور الطبيعية التي لا يملّ المرء جمالها ولا سيّما إن اضطرّ أن ينظر إليها عن كثب ليقلدها. ولكن السيّدة "دوفيلباريزيس" كانت تهب نفسها عطلة لتريح عينيها.

وقد أدهشنا ،أنا وجدّتي ،أن نبصر إلى أيّ حدّ كانت أكثر "ليبرالية " حتى من أكبر قسم من البورجوازيين. فكانت تعجب أن يثور الناس لطرد"اليسوعيّين "قائلة إن الأمر وقع على الدوام حتى في عهود الملكية حتى في أسبانية. وكانت تدافع عن الجمهورية ولا تنعي عليها محاربتها رجال الدين ،إلا بهذا المقدار: "لعلّني أرى أنّ الحؤول دون ذهابي إلى القدّاس إن رغبت في ذلك في مثل سوء إلزامي بالذهاب إليه إن لم تكن لي فيه رغبة "،وتطلق حتى بعض كلمات من مثل:"النبلاء اليوم، ما عساهم يكونون! "،"الرجل الذي لا يعمل لا يساوي شيئاً في نظري"ربّما لمحض ما تشعر بالإثارة والحلاوة والبيان الذي تكتسبه بين شفتيها .

كثيراً ما اتّفق لنا سماع آراء متقدّمة – ولكنّها لا تبلغ حدّ الاشتراكيّة "بعبع"السيّدة "دوفيلباريزيس" – يجري التعبير عنها بصراحة وبالضبط على لسان أحد هؤلاء الأشخاص الذين ترفض نزاهتنا في دقتها ووجلها إزاء ما تكنّه من تقدير لذكائهم شجب أفكار المحافظين حتى قاربنا الظنّ، أنا وجدّتي، بأن قد اجتمع لرفيقتنا الطيّبة المعشر مقياس الحقيقة وأنموذجها في كلّ أمر. كنّا نصدقها دون جدال فيما تصدر أحكامها على ماتملك من لوحات "تيتسيانو" وعلى أعمدة قصرها وروح النكتة لدى "لوي فيليب". بيد أن السيّدة "دو فيلباريزيس" – شأن هؤلاء البحّاثة الذين يثيرون الذهول إن وُجّهوا إلى الرسم لدى قدماء المصريين وإلى نقوش "الأتروسكيّين" ويتحدثون عن الأعمال الفنيّة الحديثة على نحو تافه حتى لنتساءل إن لم نكن بالغنا من خطر العلوم التي ضلعوا فيها لأنّه لاتبرز فيها تلك الضحالة نفسها التي لابدّ ضمّنوها إيّاها على نحو مافعلوا في دراساتهم الغبيّة حول "بودلير" – إن أنا سالتها عن "شاتوبريان" و "بلزاك" و "فيكتور هوغو"، والكلّ جرى استقبالهم بالأمس لدى ذويها ولمحتهم بأمّ العين، كانت تضحك من إعجابي وتروي عنهم نكاتٍ مثيرة مثلما فعلت منذ قليل عن كبار القوم أو رجال السياسة، وتصدر أحكاماً قاسية على هؤلاء الكتّاب لأنّهم

افتقروا بالضبط إلى ذاك التواضع، إلى ذاك الاحتجاب وذاك الفنّ البسيط الذي يكتفي بجرّة قلم واحدة ولا يتثاقل، الذي يتجنب قبل كلّ شيء سخرية التفخيم، إلى تلك البديهة الحاضرة وتلك الميزات التي قوامها الاعتدال في الرأي والبساطة والتي علّموها أنّ القيمة الحقيقيّة تتسامى إليها. كان واضحاً أنّها لاتتردّد في أن تفضّل عليهم رجالاً ربّما تفوّقوا بالحقيقة من جرّائها على أمثال "بلزاك" و "هوغو" و "فونتان" أو "فيترول" أو "بيرسو" أو "باسكييه" أو "لوبران" أو "سالفاندي" أو "داري".

– "ومثل ذلك روايات "ستندال" الذي بدا لي أنكم معجبون به. ولعلكم كنتم تدهشونه أشدّ الدهشة وأنتم تحدّثونه بهذه اللهجة. وكثيراً ما قال لي والدي الذي كان يلقاه في منزل السيّد "ميريميه" – وهذا على الأقلّ صاحب موهبة – :إنّ "بيل" – وهو اسمه – كان من سوقيّة مريعة ولكنّه صاحب فكاهة على مائدة عشاء ولايدع لأحد أن يخدعه فيما يتعلّق بكتبه. وقد وسعكم على أيّة حال أن تروا بأنفسكم بأيّة رفعة مَنْكِبين ردّ على مديح السيّد "دو بلزاك" المبالغ فيه. لقد كان في ذلك على الأقلّ رجلاً طيّب المعشر."

كان في حوزتها مجموعة تواقيع لجميع هؤلاء الرجال العظام وتحسب فيما يبدو، وهي تتذرّع بالعلاقات الخاصّة التي أقامتها أسرتها أن رأيها فيما يخصّهم أكثر صواباً من رأي شبّان مثلي لم يستطيعوا التردّد عليهم.

– "أظنّ أنّي أستطيع التحدّث عنهم، فقد كانوا يتردّدون على منزل والدي ؛ وينبغي أن نصدّق فيما يخصّهم، كما يقول "سانت بوف" الذي كان واسع الذكاء، الذين رأوهم عن كثب واستطاعوا أن يحكموا حكماً أكثر دقّة على ماكانوا يساوون."

وفيما كانت العربة تتسلّق طريقاً صاعدة بين أراض مفلوحة كانت بعض أزاهير الترنشاه المتردّدة الشبيهة بأزاهير "كومبريه" تتبع عربتنا فتزيد من حقيقة الحقول وتضيف إليها دمغة الأصالة كالزهيرة الثمينة التي كان بعض أساطين الفنّ القدامى يوقّعون بها لوحاتهم. وتسبقها جيادنا بعد قليل ولكنّنا نلمح بعد خطىً قليلة واحدة غرست بانتظارنا نجمتها الزرقاء في العشب أمامنا. وتتجرّأ كثيرات فتُقبِلُ وتقف على حافة الطريق فإذا مايشبه السديم يتشكل من ذكرياتي البعيدة والأزهار المؤالفة.

ثمّ نأخذ في الانحدار عن المرتفع. حينئذ كنا نلتقي بواحدة من تلك المخلوقات تتسلّقه سعياً على الأقدام أو على درّاجة أو في عربة خفيفة أو في عربة فاخرة – وهن أزاهير النهار الصاحي ولكنّهن لسن كأزاهير الحقول لأنّ كلّ واحدة تتضمنّ شيئاً ليس في الأخرى ويحول دون أن نستطيع إشباع الرغبة التي ولّدتها فينا مع مثيلاتها – كفتاة مزرعة تسوق بقرتها أو هي نصف مستلقية فوق عربة نقل، أو ابنة دكانيّ في نزهة، أو آنسة أنيقة تجلس على مقعد عربة مكشوفة قبالة والديها. كان "بلوك" بالتأكيد قد فتح لي عصراً جديداً وغيّر قيمة الحياة في نظري يوم أطلعني أنّ الأحلام التي نقّلتها في عزلتي من جهة "ميزيلِلكيز" حينما أمنّي النفس بفلاحة تمرّ بي وآخذها بين

ذراعي لم تكن وهماً لايوافق شيئاً خارج ذاتي، بل إن جميع الفتيات اللواتي كنّا نلتقي بهن كنّ على أتمّ الاستعداد للاستجابة لمثل تلك الأمنيات سواء أكنّ قرويّات أم آنسات. وحتّى إن انبغى الآن وقد كنت مريضاً ولا أخرج وحدي ألا أستطيع في يوم ممارسة الحبّ معهنّ فقد كنت مع ذلك سعيداً سعادة طفل ولد في سجن أو مستشفى وظنّ طويلاً أنّ الجسم البشري لايستطيع أن يهضم إلا الخبز الجافّ والأدوية ثم علم فجأة أنّ الدراق والمشمش والعنب ليست مجرد زينة للحقول بل هي أطعمة لذيذة يمكن تمثلها. إن العالم ليبدو له أفضل والحياة أرحم حتى لولم يسمح له سجّانه أو ممرّضه بقطف هذه الفاكهة الجميلة. ذلك لأنّ الشوق يبدو لنا أوفر جمالاً وأنّنا نستند إليه بثقة أكبر حينما نعلم أنّ الواقع يطابقه خارج ذواتنا حتى لولم يكن ممكن التحقيق بالنسبة إلينا. وإنّنا نفكر باغتباط أكبر بحياة يمكننا فيها أن نتخيل أنّنا نشبعه – بشرط أن نستبعد لحين من فكرنا العقبة الصغيرة العارضة الخاصة التي تحول دون أن نحقّق الأمر شخصياً. وقد أصبحتُ، فيما يخص الفتيات الجميلات اللواتي يمررن بي، منذ اليوم الذي علمت فيه أنّه يمكن تقبيل وجناتهنّ، أتطلع إلى معرفة نفوسهنّ. وقد بدا لي العالم أجدر بالاهتمام.

كانت عربة السيّدة "دوفيلباريزيس" تمضي سريعة، فلايكاد يتّسع لي الوقت لأبصر البنيّة التي تجيء في اتجاهنا. ولكن – بما أنّ جمال الكائنات ليس كجمال الأشياء وأنّنا نحس أنّه جمال مخلوق فريد واعٍ ذي إرادة – حالما كانت سمته الفرديّة، تلك النفس المبهمة والإرادة المجهولة لديّ، ترتسم في أعماق نظرته الشاردة على شكل صورة صغيرة مقلّصة إلى حدّ بعيد ولكنّها كاملة، كنتُ أحسّ في الحال ببوادر الرغبة في مثل إبهامها وصغر حجمها، وهي الردّ الخفي لغبار الطلع المهيّأ تماماً للمدقّات، الرغبة في ألا أدع لتلك الفتاة أن تمرّ دون أن يتنبّه فكرها لشخصي، دون أن أمنع رغباتها من التوجّه إلى آخر غيري، دون أن أبادر للانغراس في أحلامها والاستيلاء على قلبها. ولكنّ عربتنا تبتعد والفتاة الحلوة أصبحت وراءنا وبما أنّها لاتملك عني أيّاً من التصورات التي تؤلف الشخصيّة فإن عينيها، ومارأتاني إلا لماماً، قد نسيتاني. أتراني ألفيتها جميلة إلى هذا الحد لأنني لمحتها فحسب؟ ربّما. ذلك أنّ استحالة التوقّف بالقرب من امرأة وخطر ألا نعود فنلقاها في يوم آخر إنّما يكسبانها بادئ الأمر على نحو مفاجئ السحر نفسه الذي يضفيه على بلد ما المرض أو الفقر اللذان يحولان دون أن نزوره، أو على الأيّام الباهتة التي تبقت لنا في الحياة القتال الذي سنلقى فيه دون شكّ حتفنا. فلولم تكن العادة لانبغى أن تبدو الحياة، والحالة هذه، رائعة في عيني قوم تتهدّدهم المنيّة في كلّ ساعة – يعني في عيني البشر كافّة. ثم إن الخيال إن انساق خلف تمنّي مالا نستطيع امتلاكه فإن انطلاقته لايقيّدها واقع تمت مشاهدته مشاهدة ضافية في تلك اللقاءات التي ترتبط مفاتن عابرة السبيل فيها ارتباطاً مباشراً بسرعة العبور. ويكفي أن يحلّ الليل وتسرع العربة في سيرها بين الحقول أو في المدينة حتى لايظلّ جذع أنثى تشوّهه شأن تمثال من مرمر عتيق السرعة التي تجرفنا والشفق الذي يغمره إلا ويطلق على فؤادنا من كل زاوية طريق ومن أعماق كلّ دكان سهام "الجمال"، الجمال الذي ربّما يغرينا أن نتساءل أحياناً إن كان في هذه الدنيا غيرَ ذاك الجزء المتمّم الذي يضيفه إلى عابرة سبيل مجزأة سريعة التلاشي خيالنا الذي يستثيره الأسف.

ولو استطعت النزول والتحدث إلى الفتاة التي كنّا نلقاها فربّما بدّد أوهامي عيب في بشرتها لم أميزه من العربة. (ولكان بدا لي فجأة حينئذٍ كلّ جهد في ولوج حياتها مستحيلا. ذلك لأنّ الجمال سلسلة من الفرضيّات التي تقلّصها القباحة إذ تسد الطريق التي سبق أن رأيناها تنفتح على المجهول.) ربّما زودتني كلمة واحدة تقولها وزودتني ابتسامة بمفتاح ورموز غير متوقّعة كيما أقرأ تعابير وجهها ومشيتها اللذين ربّما أصبحا في الحال لاشأن لهما. ذلك ممكن، لأنّني ما التقيت في الحياة بفتيات مشتهيات إلى هذا الحدّ إلا في الأيّام التي كنت فيها بصحبة شخص رزين مااستطعت فراقه على الرغم من آلاف الأعذار التي كنت أبتدعها. فبعد بضع سنوات أعقبت السنة التي ذهبت فيها للمرّة الأولى إلى "بالبيك" وإذ كنت في عربة لأقوم بنزهة في باريس مع صديق لوالدي ولمحت امرأة تمشي مسرعة في الليل رأيت من الجنون أن أفقد بداعي اللياقات حصّتي من السعادة في الحياة الوحيدة القائمة دون شكّ فقفزت أرضاً دون اعتذار وأخذت أبحث عن المجهولة وأضعت أثرها في تقاطع شارعين وعدت فلقيتها في ثالث ووجدتني أخيراً فاقد الأنفاس تحت أحد المصابيح قبالة السيّدة "فيردوران" العجوز التي كنت أتجنبها في كلّ مكان والتي صرخت فرحة ذاهلة: "أوه! لطيف منك أنّك جريت لتسلّم عليّ!"

كنت أؤكد لجدتي وللسيّدة "دوفيلبا ريزيس" في ذلك العام في "بالبيك"، وساعة تتمّ تلك اللقاءات، أنّه من الأفضل أن أعود وحدي سيراً على الأقدام بسبب ألم شديد في رأسي. وكانتا ترفضان السماح لي بالنزول فأضيف الفتاة الجميلة (والتقاؤها من جديد أعسر بكثير من العثور على بناء أثري إذ كانت مغفلة الاسم ومتنقلة) إلى مجموعة سائر اللواتي كنت أمنّي النفس برؤيتهنّ عن كثب. على أنّه اتفق لإحداهنّ أن عادت فمرّت أمامي وضمن شروط حسبت معها أنّني سوف أستطيع التعرّف إليها حسبما أشاء. كانت تلك بائعة حليب جاءت من مزرعة تحمل كميّة إضافيّة من القشدة للفندق. وظننت أنّها تعرفت علي بدورها فقد كانت تنظر إليّ باهتمام ربما كان سببه الدهشة التي سببها لها اهتمامي. وفي الغد، وهو يوم استرحت فيه على مدى الصباح بكامله، وحين جاءت "فرانسواز" نحو الظهر تفتح ستائري سلمتني رسالة وضعت في الفندق من أجلي. وما كنت أعرف أحداً في بالبيك. فلم أشكّ أنّ الرسالة كانت من بائعة الحليب. وكانت من "بيرغوت"، واأسفي، الذي حاول أن يلقاني وهو في طريقه، فلمّا علم أنّني نائم ترك لي هذه الكلمة الرائعة التي جعل لها عامل المصعد مظروفاً ظننته سُطِرّ بيد بائعة الحليب. لقد خاب أملي خيبة شنيعة، ولم تحمل لي فكرة أنّ استلام رسالة من "بيرغوت" أكثر صعوبة وأكثر إثارة للزهو أيّ عزاء عن أنها لم تكن من بائعة الحليب. وهذه الفتاة نفسها لم ألقها ثانية أكثر مما تم لي ذلك مع اللواتي كنت ألمحهنّ فقط من عربة السيّدة "دوفيلباريزيس". كانت مشاهدتهن ثم فقدانهن جميعاً يزيدان من حالة الاضطراب التي أعيش فيها فأجد بعض الحكمة لدى الفلاسفة الذين يوصوننا بوضع حدّ لرغباتنا (إن هم قصدوا التحدّث عن التوق إلى الأشخاص فإنّه وحده الذي يمكنه أن يخلّف الضيق في النفس إذ ينطبق على ماكان من المجهول الواعي. أمّا افتراض أن الفلسفة إنما تقصد التحدث عن الرغبة في الثروات فمن أشد العبث). ولكنّي كنت مع ذلك على استعداد لأحكم أنّ تلك ناقصة لأنّني كنت

أقول في نفسي إن تلك اللقاءات تزيد في نظري من جمال عالم ينبت هكذا على سائر الطرقات الريفيّة أزاهير غريبة وشائعة في الوقت نفسه وهي من كنوز النهار العابرة ومكاسب النزهات غير المتوقّعة وقد حالت ظروف طارئة، لعلها لن تتكرر على الدوام، حالت وحدها دون أن أفيد منها وهي التي تزوّد الحياة بطعم جديد.

ولكنّي ربّما شرعت، في أملي أنني قد أستطيع يوماً، وقد أصبحت أكثر حرية أن ألقى على طرقات أخرى فتيات مشابهات، ربّما شرعت مذ ذاك أفسد السمة الفرديّة البحتة التي تطبع الرغبة في العيش بالقرب من امرأة وجدناها جميلة وأخذت أعترف اعترافاً ضمنياً بوهم تلك الرغبة لمجرّد أني كنت أسلّم باحتمال بعثها بوسيلة مصطنعة.

في اليوم الذي اصطحبنا فيه السيّدة "دوفيلباريزيس" إلى "كاركفيل" حيث تقوم تلك الكنيسة المغطاة باللبلاب التي سبق أن حدّثتنا عنها، والتي شيدت فوق رابية وتشرف لذلك على القرية وعلى النهر الذي يجتازها والذي احتفظ بجسره الصغير من العصر الوسيط، حسبت جدتي أنه ربّما سرّني أن أكون وحيداً لمشاهدة هذا البناء فعرضت على صديقتها أن تبادرا لتناول العصرونية في دكان الحلواني الكائنة في الساحة التي كانت تشاهد بوضوح وتبدو بقشرتها المذهبة وكأنها جزء آخر من تحفة كلها قديمة. وتم الاتفاق أن أبادر إلى لقائهما هناك. كان لابدّ لي في هذه الكتلة الخضراء التي تركتُ أمامها، في سبيل أن أعرف أنّ ثمة كنيسة، أن أبذل جهداً يسمح لي أن أحصر أكثر فأكثر فكرة الكنيسة. ذلك أنّه كما يتفق للتلاميذ الذين يدركون أتم الإدراك معنى إحدى الجمل حينما يلزمون في عملية الترجمة من اللغة وإليها بتعريتها من الصيغ التي تعوّدوها، كنت أراني مضطراً، فيما يخص فكرة الكنيسة هذه التي لم تكن بي حاجة إليها عادة أمام قباب أجراس تعرفها من تلقاء ذاتها، أن أعود باستمرار إليها كي لا أغفل أن قوس هذه الخصلة من اللبلاب كان هنا قوس عقد زجاجي وأن بروز الأوراق هناك ناجم عن بروز تاج عمود. ولكنّ ريحاً خفيفة كانت تهب حينئذ فيرتعش لها المدخل المتحرّك الذي تجري على صفحته اضطرابات تتدافع وترتعش مثلما النور. كانت الأوراق تتدفق موجات تدفع موجات وتجذب الواجهة النباتية المرتعشة خلفها الأعمدة المتموجة المُداعَبَة المتهرّبة.

وإذ كنت أغادر الكنيسة رأيت أمام الجسر القديم فتيات من القرية يقفن بكامل زينتهنّ لأنّ اليوم ولاريب كان يوم أحد وينادين على الصبية الذين يمرون بهنّ. كان ثمة واحدة طويلة القامة دون الأخريات في لباسها ولكنها تبدو وكأنّها تطغي عليهن بضرب من النفوذ – إذ تكاد لاتجيب على مايقلنه لها – وتظهر أكثر رزانة وأوفر تصميماً، وكانت نصف جالسة على حافة الجسر تدلّي ساقيها وأمامها وعاء مليء بأسماك اصطادتها على الأرجح منذ وقت قليل. كان لونها مسمراً وعيناها عذبتين ولكنّ لها نظرة استخفاف بما حولها وأنفاً صغيراً ناعم الشكل ساحره. كانت نظراتي تحطّ على بشرتها وكان يمكن لشفتيّ أن تظنّا لدى الاقتضاء أنّهما تبعتا نظراتي. ولكنّني ماكنت أودّ الوصول إلى جسدها فحسب بل إلى الشخص الذي كان يعيش داخله أيضاً والذي لانلامسه إلا على نحو واحد قوامه أن نسترعي انتباهه ولا نلجه إلا على نحو واحد قوامه بعث فكرة فيه.

وكان وجود الصيّادة الحسناء الداخلي لايزال يبدو لي مقفلاً وبي شك إن كنت ولجته حتى بعدما لمحت صورتي تنعكس خلسة في مرآة لحظها وفق مؤشر انعكاس كان مجهولاً لدي كما لو أقمت في ساحة بصر ظبية. وكما لعلّه ما كان يكفيني أن تلاقي شفتاي متعة على شفتيها بل أن تمنحاها إياها. كذلك وددت لو أنّ الفكرة المكوّنة عني التي ستلج ذلك الوجود وتتشبث به لن تقود إليّ انتباهها فحسب بل إعجابها ورغبتها وتضطرها أن تحفظ ذكراي حتى اليوم الذي يمكنني فيه أن ألقاها ثانية. وأبصرت آنذاك على بضع خطوات المكان الذي تزمع أن تنتظرني فيه عربة السيّدة "دوفيلباريزيس". لم تمرّ بي سوى لحظة وقد أحسست مع ذلك أن الفتيات شرعن في الضحك إذ رأينني أتوقّف على هذا النحو. وكنت أحمل خمسة فرنكات في جيبي فأخرجتها منه وأمسكت بقطعة النقود للحظة أمام عيني الفتاة الجميلة قبل أن أشرح لها المهمّة التي أكلفها إيّاها وكيما أزيد من احتمال أن تصغي إليّ، ثم قلت للصيّادة:

– "بما أنه يبدو أنّك من هذه المنطقة فهل تتكرمين بمشوار صغير من أجلي؟ ينبغي الذهاب أمام دكان حلواني تقع، فيما يبدو، على ساحة، ولكني لاأدري أين هي، وهناك تنتظرني عربة. مهلاً!...تسألين كي لايختلط الأمر عليك إن كانت تلك عربة المركيزة "دوفيلباريزيس". ستتبينينها تماماً على أية حال فإنّ لها حصانين."

كان ذلك ما أبغي أن تعرفه كي تحمل عنّي فكرة عظيمة. إلا أنّي ما إن نطقت بكلمتي "مركيزة" و"حصانين" حتى انتابني فجأة هدوء عظيم. أحسست بأنّ الصيّادة سوف تتذكرني وبجزء من رغبتي في لقائها ثانية يتلاشى مع هلعي بألا يمكنني لقاؤها ثانية. لقد بدا لي أنّني أقدمت على مسّ شخصها بشفتين خفيتين وأنّني حسُنْتُ في عينيها. وقد قلص هذا الاستيلاء بالقوة على فكرها، هذا الامتلاك اللامادي قلص من سرّها الخفيّ بقدر مايفعل الامتلاك الجسديّ...

وانحدرنا إلى "هوديمنيل"، وغمرتني فجأة تلك السعادة العميقة التي لم أحس بها كثيراً منذ إقامتي في "كومبريه"، سعادة شبيهة بتلك التي أولتاني إيّاها، في ما أولتا، قبّتا أجراس "مارتنفيل". ولكنّها ظلّت ناقصة هذه المرّة. فقد اتّفق أن رأيت ثلاث شجرات ترتفع على جانب الطريق المحدودبة التي كنّا نسير عليها ولابدّ أنّها كانت بمثابة مدخل إلى ممرّ مشجّر وكانت تؤلف خطوطاً لاأراها للمرّة الأولى ولا أفلح في التعرّف على المكان الذي تبدو وكأنّها انتزعت منه ولكنّما بي إحساس بأنّه كان مألوفاً لديّ فيما مضى. وإذ تعثر فكري بين سنة بعيدة واللحظة الحاضرة ترنحت ضواحي "بالبيك" وأخذت أتساءل إن لم يكن كلّ هذا المشوار وهماً، و "بالبيك" مكاناً لم أذهب إليه في يوم إلا في الخيال، والسيّدة "دوفيلباريزيس" شخصيّة روائيّة، والشجرات الثلاث الواقع الذي تلقاه حينما ترفع عينيك عن الكتاب الذي كنت تقرؤه والذي كان يصوّر لك وسطاً بلغ بك الأمر أن تظنّ أنّك نُقِلْتَ بالفعل إليه.

كنت أنظر إلى الشجرات الثلاث وأبصرها تماماً ولكن فكري يحسّ أنها تخفي شيئاً لاأتمكن منه كتلك الحاجات الواقعة بعيداً جداً عنا التي تلامس أصابعنا الممدودة في نهاية ذراعنا المبسوطة

غلافها فحسب بين الحين والحين دون أن تفلح في الإمساك بها. حينئذ نرتاح هنيهة كي نقذف بذراعنا إلى الأمام بقوّة أعظم ونحاول بلوغ نقطة أبعد. على أنّه كان لابدّ لي أن أكون وحدي كي يتسنى لفكري أن يجمع شتاته ويتحفز للاندفاع. لكم وددت لو أستطيع الانزواء مثلما كنت أفعل في نزهاتي في جانب "غيرمانت" حينما كنت أعتزل بعيداً عن ذويّ ! بل بدا لي أنّه لابدّ من الإقدام على الأمر. وكنت أعرف هذا الصنف من المتعة الذي يقتضي والحقّ يقال نشاطاً يمارسه الفكر على ذاته ولكنّ متع الاستهتار الذي يحملك على التخلي عنها تبدو إزاءها شديدة التفاهة. ما كنت أشعر بتلك المتعة التي كان موضوعها مُسْتشفا فحسب، وكان علي أن أصنعها بنفسي، سوى مرّات قليلة، ولكنما يبدو لي في كلّ منها أن الأمور التي جرت في الفترة الفاصلة كانت غير ذات بال تقريباً وأنني أستطيع إن انصرفت إلى حقيقتها وحدها أن أبدأ أخيراً حياة حقيقيّة. ووضعت حيناً من الوقت يدي أمام ناظري ليمكنني إطباقهما دون أن تتنبّه السيّدة "دوفيلباريزيس" للأمر. وظللت لاأفكر في شيء ثم وثبت من موقع فكري المكدّس الذي تملّكته تملكاً أشدّ وثبة أطول باتّجاه الشجرات أو بالأحرى في اتّجاه داخلي كنت أبصرها في آخر نقطة منه في داخلي. وأحسست ثانية خلفها بالغرض نفسه المعروف لدي ولكنّه مبهم ولم أستطع إرجاعه إليّ. ولكنّي كنت أبصرها تقترب ثلاثتها كلما تقدّمت العربة. فأين نظرت إليها قبل ذاك؟ لم يكن ثمة مكان حوالي "كومبريه" له ممرّ مشجّر بمدخل من هذا القبيل، كما لم يكن للموقع الذي تذكّرني به مكان في الريف الألماني حيث ذهبت مع جدّتي في إحدى السنين للاستشفاء في مدن المياه. أفينبغي الظنّ أنّها أقبلت من سنوات أصبحت مغرقة البعد في حياتي حتى زال من ذاكرتي المنظر الذي كان يحيط بها زوالاً تامّاً وأنّها، شأن تلك الصفحات التي يهز مشاعرك فجأة أن تعود فتلقاها في مؤلّف كنت تظنّ أنّك ماقرأته في يوم، ظلّت وحدها تطفو على صفحات سِفْر طفولتي الأولى المنسي؟ أم تراها كانت على العكس من قبيل مناظر الأحلام تلك التي لاتتبدّل على الأقل بالنسبة إلي أنا الذي لم يكن مظهرها الغريب داخلي سوى تجسيد في أثناء النوم للجهد الذي كنت أصرفه في أثناء اليقظة إمّا لأبلغ به السرّ في مكان كنت أستشفّه خلف مظهره، مثلما وقع لي ذلك مرات عدّة في جانب "غيرمانت"، وإمّا لأحاول إعادته إلى مكان سبق أن تقت إلى التعرّف به فبدا لي منذ اليوم الذي عرفته فيه سطحيّاً تماماً شأن "بالبيك"؟ أكانت محض صورة جديدة تماماً انفصلت من أحد أحلام الليلة السابقة ولكنّها أضحت باهتة حتى لتبدو لي وكأنّها تأتي من موقع أبعد بكثير؟ أم أني مارأيتها في يوم وكانت تخفي خلفها كمثل شجرات غيرها وخصلة عشب رأيتها جميعها في جانب "غيرمانت"، معنى في مثل غموض ماضٍ سحيق وصعوبة إدراكه حتى أني كنت أظنّ، إذ تستدعيني إلى تعميق فكرة، أنّ عليّ التعرّف إلى ذكرى ؟ أم هي لم تكن حتى تخفي فكرة وهو تعب في حاسّة الرؤية لديّ يريني إيّاها مزدوجة في الزمان مثلما يتم لنا أن نرى الأشياء مزدوجة في المكان ؟ لست أدري. ولكنّها كانت تتقدم نحوي ؛ ربّما كانت أشباحاً خرافية دائرية لساحرات أو لربّات الأقدار تعرض عليّ نبوءاتها. وحسبتها بالأحرى أطيافاً من الماضي ورفاقاً أعزّاء من طفولتي وأصدقاء راحلين يستعيدون ذكرياتنا المشتركة، وكمثل أشباح تبدو كأنما تسألني أن أصطحبها وأردها إلى الحياة. كنت أتعرّف في حركاتها الساذجة المليئة بالحماسة الأسف العاجز الذي لحبيب فقد القدرة على الكلام ويحسّ أنه

لن يستطيع أن يقول لنا مايريد ومالانفلح في تخمينه. وبعد قليل تخلّت عنها الطريق على مفرق طرق. كانت تذهب بي بعيداً عما أظنّ أنّه حقيقيّ وحده ومالعلّه كان أسعدني بالحقيقة، فتشبه بذلك حياتي.

ورأيت الشجرات تبتعد وهي تلوّح بأيديها اليائسة كأنما تقول لي: مالاتعلمه منّا اليوم لن تعرفه في يوم. فإن تركتنا نتهاوى في أقصى هذا الدرب الذي كنّا نحاول أن نرتفع منه إليك فإن جزءًا من ذاتك كنا نجيئك به سوف يهوي كلّه في العدم وإلى الأبد. ولئن لقيت فيما بعد نوع المتعة والاضطراب الذي خبرته مرّة أخرى منذ قليل وتعلّقت به ذات مساء - بعد فوات الأوان ولكن على مدى الأيّام - فإني لم أعلم في يوم من تلك الشجرات نفسها ما كانت تبغي أن تنقله إليّ ولا في أي مكان سبق لي أن شاهدتها. وحينما انعطفت السيّارة فأوليتها ظهري ولم أعد أراها، وفيما كانت السيّدة "دوفيلباريزيس" تسألني لماذا أبدو حالم المظهر، كنت حزيناً كما لو اتفّق لي أن أفقد صديقاً أو أن أموت لذاتي أو أن أنتشل ميتاً أو أنكر إلهاً.

كان لابد من التفكير في العودة. وكانت السيّدة "دوفيلباريزيس" التي تملك شيئاً من حسّ الطبيعة أبعد عن التأثر مما تملك جدّتي ولكنّها تجيد التعرّف حتّى خارج المتاحف والمنازل الأرستقراطيّة إلى الجمال البسيط والعظمة الكامنين في بعض الأشياء القديمة، كانت تقول للحوذيّ أن يسلك طريق "بالبيك" القديمة وهي قليلة الرّواد ولكنّما تكتنف جانبيها أشجار درداز معمرة كانت تبدو رائعة لناظرينا. وبعد ما عرفنا هاتيك الطريق القديمة عدنا، بغية التغيير، في طريق أخرى، مالم نكن سلكناها في الذهاب، طريق تخترق غابتي "شانترين" و "كانتلو". كانت العصافير المحتجبة التي لاتحصى والتي تتجاوب بالقرب منّا في الشجر تخلّف ذات الإحساس بالهدوء الذي يغمرنا ساعة نطبق عينينا. كنت أصغي وأنا مقيّد على مقعدي الجانبيّ مثل "بروميثيوس" على صخرته إلى حوريّات البحار. وحينما كنت ألمح بالصدفة أحد تلك العصافير يمرّ من ورقة تحت أخرى فقد كان بينه وبين ذلك الغناء النزر اليسير من الرباط الظاهر حتّى ما كنت أحسبني أرى سبب هذا الغناء في هذا الجسم الصغير المتنقّل المستعجب الذي لابصر له.

كانت تلك الطريق شبيهة بالكثير غيرها ممّا يُشَاهَدُ في فرنسه تصعد وفق ميل على شيء من القسوة ثم تذهب في انحدار طويل. ولم ألق فيها في ذلك الحين نفسه فتنة كبيرة إذ كنت مسروراً بأن أعود فحسب. بيد أنها أصبحت بعد ذاك في نظري علّة مسرّات إذ ظلّت في ذاكرتي بمثابة بداية اتّصلت بها في الحال، دون أن يحدث انقطاع، جميع الطرقات المشابهة التي قد أمُرُّ عليها فيما بعد أثناء نزهة أو رحلة ويمكن بفضلها أن تتواصل مباشرة مع فؤادي. فما إن تسلك العربة أو السيّارة واحدة من تلك الطرقات التي تبدو وكأنها مواصلة لتلك التي سبق أن احتزتها مع السيّدة "دوفيلباريزيس" فإنَّ ما سوف يستند إليه في الحال شعوري الراهن وكأنمّا إلى ماضيٍّ الأقرب منّي إنمّا هي (بعد ماتتلاشى السنوات التي تفصل بينها) الانطباعات التي تمّت لي في أوقات ما بعد الظهر تلك وأنا في نزهة بالقرب من "بالبيك" حينما كانت الأوراق ترسل شذاها الطيّب ويرتفع الضباب

ويبدو غروب الشمس للعين، ماوراء القرية التالية، وكأنّه بين الأشجار قرية أخرى حراجية بعيدة لن نصل إليها في المساء نفسه. وسوف تتعزّز تلك الانطباعات وقد رُبطَتْ بتلك التي كنت أحسّ بها الآن في منطقة أخرى وعلى طريق مشابهة إذ تحيط نفسها بجميع الأحاسيس الثانوية التي تجمع بينها من هواء نقيّ وفضول وكسلٍ وشهيّة ومرحٍ وتستبعد كلّ ماعداها، وتتّخذ بذلك قوام نمط خاصّ من المتعة وما يقارب إطاراً حياتيّاً لايتسنّى لي لقاؤه ثانية إلا فيما ندر على أيّة حال، ولكنّ استفاقة الذكريات فيه كانت تضع وسط الواقع المدرك على الصعيد الماديّ قسطاً لابأس به من الواقع المستذكر المختلط بالأحلام المتهرّب كي يوقظ فيّ وسط هذه المناطق التي أمرّ فيها أكثر من شعور جمالي، كي يوقظ فيّ رغبة عابرة، ولكنّها ثائرة، في العيش فيها مذ ذاك إلى الأبد. فكم مرّة بدا لي الجلوس على مقعد جانبيّ قبالة السيّدة "دوفيلباريزيس" والالتقاء بأميرة "لوكسمبور" التي كانت تبعث إليها بتحيّاتها من عربتها والعودة للعشاء في الفندق الكبير، لمحض أنّي شممت رائحة أوراق الشجر، بمثابة سعادة من تلك التي تمتنع على الوصف لايستطيع لاالحاضر ولا المستقبل أن يردّاها ولايتذوّقها المرء إلا مرّة واحدة في الحياة.

وكثيراً ما كانت تغرب الشمس قبل أن نعود، فأذكر بوجل للسيّدة "دوفيلباريزيس"، وأنا أدلّها على القمر في السماء، هذه العبارة الجميلة أو تلك لِ "شاتوبريان" او "فينيي" أو "فيكتور هوغو": "كان يسكب سرّ الكآبة القديم ذاك" أو "يبكي مثل "ديانا" على حافّة ينابيعها" أو "كان الظلام زفافيّاً جليلاً مهيباً". وكانت تسألني قائلة:

- "وترى أن ذلك جميل و "عبقريّ" حسبما تقول؟ سأقول لك إني أعجب دوماً إذ أرى أنّ الناس يأخذون الآن على محمل الجدّ أشياء كان أصدقاء هؤلاء السادة أوّل من يسخر منها فيما هم يقرّون تماماً بمزاياهم. فلم يكن الناس يجودون بلقب عبقري كمثل يومنا هذا الذي إن تقل لكاتب فيه إنّه لا يملك سوى الموهبة حسب ذلك شتيمة. إنّك تذكر لي جملة كبيرة للسيّد "دوشاتوبريان" حول ضوء القمر. وسترى أنّ لديّ مايدفعني إلى معارضة ذلك. فكثيراً ما كان يجيء السيّد "دوشاتوبريان" إلى منزل والدي. وكان على أيّ حال محبّباً حينما نكون وحدنا، فقد كان حينذاك بسيطاً مسلّياً، بيد أنّه ما إن تتيسّر له جماعة حتّى يأخذ في التصنّع فيضحي مثيراً للسخرية. كان يدّعي في حضرة والدي أنّه ألقى باستقالته في وجه الملك وأنّه أدار أعمال مجمع انتخاب البابا، ويفوته أنّه كلّف والدي بنفسه كي يرجو الملك استعادته وأنّ والدي سمعه يجود بأكثر التخمينات بعداً عن المعقول حول انتخاب البابا. كان ينبغي أن تسمع حول هذا المجمع الانتخابيّ الشهير السيّد "دوبلاكاس" وهو من غير طينة السيّد "دوشاتوبريان". أمّا فيما يخصّ جمل هذا الأخير حول ضوء القمر فقد أضحت بكل بساطة عبئاً على المنزل. فكلّما اتفق أن تكون الليلة قمراء حول القصر وكان ثمة مدعوّ جديد كان يُشار عليه أن يصطحب السيّد "دوشاتوبريان" لاستنشاق الهواء بعد العشاء. ولم يكن يفوت والدي حينما يعودان أن ينفرد بالضيف: "كان السيّد "دوشاتوبريان" شديد البلاغة؟ - أجل. - وقد حدّثك عن ضياء القمر. - نعم، وكيف عرفت ذلك؟ - "مهلاً، أما قال لك؟" ويذكر له الجملة. - "أجل، ولكن أيّ سرّ في الأمر؟" - "وقد حدثك حتّى عن ضياء القمر

فوق ريف روما." - "ولكنك ساحر." ولم يكن والدي ساحراً ولكنّ السيّد "دوشاتوبريان" كان يكتفي دوماً بتقديم المقطوعة الجاهزة نفسها.

ولدى سماع اسم "دوفينيي" أخذت في الضحك.

- "ذاك الذي كان يقول: "أنا الكونت ألفريد دوفينيي." قد يكون المرء "كونت" أولا يكون، فليس للأمر أيّة أهميّة".

وربمّا وجدت أن في الأمر مع ذلك بعض الأهميّة إذ كانت تضيف قولها:

- "لست متيقّنة بادئ الأمر أنّه حمل اللقب، وكان على أيّة حال من سلالة هيّنة جدّاً ذلك السيّد الذي روى في قصائده عن "شعار أسرته النبيلة". فما أرفع الذوق وما أكثر ما يثير القارئ ! ذلك من قبيل ما كان يقول "موسّيه"، وهو محض بورجوازيّ من باريس، بلهجة فخمة: "الباشق الذهبيّ الذي تزدان به خوذتي." إن سيّداً عظيماً حقّاً لايتفوّه ألبتّة بمثل هذه الأمور. كان "موسّيه" يتمتّع ببعض الموهبة على الأقل بوصفه شاعراً. ولكنّي لم أستطع قطّ، فيما عدا كتاب "سان مارس"، أن أقرأ شيئاً للسيّد "دوفينيي"، فالسأم يُسقط الكتاب من بين يديّ. أمّا السيّد "موليه" الذي كان يتمتّع بذكاء وكياسة يساويان المقدار الذي ينقص السيّد "دوفينيي"، فقد تدبّر أمره على مايرام وهو يستقبله في المجمع اللغوي. مابك، ألا تعرف خطابه ؟ إنّه رائعة من خبث ووقاحة.

وكانت تأخذ على "بلزاك"، وتدهش أن ينظر إليه أبناء أشقّائه بإعجاب، أنّه ابتغى وصف مجتمع "لم يكن يرحّب به" وروى عنه ألفاً من الأمور اللامعقولة، أمّا فيما يخصّ "فيكتور هوغو"، فقد كانت تقول لنا إنّ والدها السيّد "دوبويّون" الذي كان له رفاق بين الشباب الرومانتيكي قد دخل بفضلهم إلى العرض الأوّل لمسرحيّة "هيرناني" ولكنّه لم يستطع المكوث حتّى النهاية لشدة ماوجد أشعار هذا الكاتب، وهو موهوب ولكنّه على شيء من الغلواء، مضحكة، ولم يسبغ عليه لقب الشاعر الكبير إلا بفضل مقايضة وبمثابة مكافأة لقاء التسامح المغرض الذي نادى به إزاء هذيان الاشتراكيّين الخطير.

وأخذنا نلمح الفندق وأضواءه الشديدة العداء في المساء الأوّل لدى وصولنا، وقد أضحت الآن حانية عذبة تنبئ بدفء المنزل. وحينما كانت تصل العربة على مقربة من الباب كان البوّاب والخدم وعامل المصعد، بفيض من المجاملة والسذاجة والقلق اليسير من جرّاء تخلّفنا، يتجمهرون على الأدراج بانتظارنا وأضحوا، بعد ما ألفناهم، من تلك الكائنات التي ما أكثر ما تتبدّل أثناء حياتنا مثلما نتبدّل بدورنا ولكنّنا نجد فيها، لحظة تصبح إلى حين مرآة عاداتنا، عذوبة في أن نحسّ أنّ صورتنا تنعكس فيهم بأمانة وصداقة. وإنّنا نفضّلها على أصدقاء لم نرهم منذ فترة طويلة لأنها تتضمن قسطاً أوفر ممّا نحن عليه في الحالة الراهنة. وحده الخادم ذو الحلّة جيء به إلى الداخل، وقد تعرّض لأشعّة الشمس في النهار، كي لايعاني من قسوة العشيّة وقد لُفّ بأقمشة صوفيّة كانت تذكّر، إذا ما قرنت

بكآبة شعره البرتقالي وتورّد وجنتيه الغريب، كانت تذكّر وسط الردهة المزجّجة بنبتة يحفظونها من البرد داخل. دفيئة. كنّا ننزل من العربة ويساعدنا في ذلك عدد من الخدم يفوق مايلزم، ولكنّهم كانوا يحسّون بأهميّة المشهد ويظنون أنّهم ملزمون بأداء دور فيه. وكنت أشعر بجوع شديد، فكنت لذلك لاأصعد في الغالب، كي لاأؤخر ساعة العشاء، إلى الغرفة التي أصبحت في نهاية المطاف غرفتي على نحو حقيقي إلى حدّ أنّ رؤية الستائر الكبيرة البنفسجيّة والمكتبات الواطئة إنما أصبحت تساوي أن ألقى نفسي وحيداً مع هذه الأنا نفسها التي كانت الأشياء، كما الناس، تقدّم لي صورتها، وكنّا ننتظر جميعنا في البهو أن يُقبل رئيس الخدم ويقول لنا إن الطعام جاهز. كانت تلك أيضاً فرصة لنستمع إلى السّيدة "دوفيلباريزيس".

- "إننا نتمادى في استغلالك" تقول جدّتي.

- "كيف ذلك، إني في غاية السرور وأجد ذلك رائعاً"، تجيب صديقتها بابتسامة مغناجة وهي تسرع في أدائها بلهجة رخيمة تتعارض وبساطتها المعتادة.

ذلك أنهّا لم تكن بالفعل طبيعيّة في تلك اللحظات، فقد كانت تذكر تربيتها والأساليب الأرستقراطية التي يجدر بسيّدة كبيرة أن تُظهر بها للبورجوازيّين أنها سعيدة لوجودها معهم وأنْ لا عجرفة لديها. والتقصير الوحيد على صعيد التهذيب الحقيقي لديها كان يكمن في فرط مجاملاتها، فقد كنت تُدرك فيها تلك العادة المهنيّة لدى سيّدة من حيّ "سان جيرمان" ترى على الدوام في بعض البورجوازيّين جماعة قُدّرَ عليها أن تثير استياءهم في هذا اليوم أو ذاك فتستغلّ أشدّ الاستغلال جميع الفرص التي يتسنّى لها فيها في سجل حسابات لطافتها معهم أن تسجل تقدّماً برصيد دائن يسمح لها بعد قليل أن تسجل في حقل الديون العشاء أو اللقاء الذي لن تدعوهم إليه. وهكذا فإن حسّها الطبقيّ، بعد ما أثّر فيها بالأمس تأثيراً نهائيّاً ولا يعلم أنّ الظروف أصبحت غيرها الآن وأنها ستتمنّى في باريس أن تلقانا كثيراً في بيتها، إن حسّ السّيدة "دوفيلباريزيس" الطبقي كان يدفعها بحماس محموم، وكأنمّا الوقت المهيأ كيما تبدو لطيفة أضحى قصيراً، إلى أن تضاعف معنا، إذ نحن في "بالبيك"، من إرسال الورود والشمّام وإعارة الكتب والمشاوير في عربتها وصنوف العبارات العاطفيّة. وبذلك ظلّت ملاطفات السّيدة "دوفيلباريزيس" اليومية وكذلك السهولة المؤقّتة الصيفيّة التي كانت جدّتي تتقبّلها بها - شأنهما في ذلك شأن تألّق الشاطئ المبهر وتأجّج الحجرات المتعدّدة الألوان وأنوارها تحت مياه المحيط، وحتى شأن دروس الفروسية التي كان يتمّ فيها تأليه بعض أبناء التجّار على غرار الاسكندر المقدوني - ظلّتا في ذاكرتي بمثابة علامات مميّزة لحياة حمّامات البحر.

- "هيّا سلّموا معاطفكم كي يحملوها إلى فوق."

وكانت جدّتي تسلّمها للمدير ويأخذني الأسف بسبب لطائفه معي لقلّة المراعاة هذه التي يبدو أنّه يعاني منها.

– "أظنّ أن هذا السيّد جُرح في كبريائه" تقول المركيزة. "إنه يحسب نفسه على الأرجح سيّداً أكبر من أن يأخذ شالاتكم. إنّي أذكر الدوق "دونمور"، وكنت صغيرة جدّاً بعد، وهو يدخل على والدي الذي كان يقطن الطابق الأخير في فندق "بويّون" يحمل حزمة كبيرة تحت ذراعه ورسائل وصحفاً. واحسبني أرى الأمير بلباسه الأزرق في إطار بابنا الذي صنع من خشب جميل، وكان يقوم بذلك "باغار" فيما أعتقد، تلك القضبان الدقيقة، كما تعلمون، والمرنة إلى حدّ أنّ نجّار الأبنوس كان يجعلها تؤلّف أحياناً من العقد الصغيرة والأزهار كأنمّا شرائط تنعقد حول باقة. وقال لوالدي : "خذ يا "سيروس"، هذا ما أعطاني بوابك من أجلك. لقد قال لي :

"بما أنّك ذاهب لدى السيّد الكونت فلا داعي لصعود الطوابق ولكن احرص ألاّ تتلف الحبل." ثمّ تقول لحدّتي وهي تأخذ بيدها : "الآن وقد سلّمت أغراضك اجلسي، هيّا اقعدي ههنا."

– "إن كان الأمر سواء لديك فلن أجلس في هذا المقعد فهو أصغر من أن يتّسع لاثنين وكبير عليّ وحدي فلن أرتاح فيه."

– "إنك تذكّرينني بمقعد ظلّ عندي لفترة طويلة، لقد كان بالتمام كهذا المقعد نفسه، ولكنّي لم أستطع الاحتفاظ به في النهاية لأنّ دوقة "دوبرالان" التعيسة هي التي أعطته لوالدتي. ولم تشأ والدتي بادئ الأمر، مع أنها كانت أكثر الناس بساطة، ولكنّها لاتزال تحتفظ بأفكار جاءت من عصر آخر ولم أكن منذ ذلك الحين أدركها تمام الإدراك، لم تشأ أن يقدّموها للسيّدة "دوبرالان" وكانت بَعدُ آنذاك الآنسة "سيبستياني"، فيما ترى هذه الأخيرة أنّه لايقع عليها بما أنها دوقة أن تقدّم نفسها." وتضيف السيّدة "دوفيلباريزيس" وقد فاتها أنها لاتدرك هذا النوع من الفوارق الطفيفة : "وحتى لو لم تكن سوى السيّدة "دو شوازول" لكان ادّعاؤها وارداً بالحقيقة. فآل "شوازول" هم خيرة كبار القوم ويتحدّرون من شقيقة للملك لويس الثخين وكانوا ملوكاً حقيقيّين في منطقة "باسّينيي". صحيح أنّنا نبزّهم بالمصاهرات وذيوع الصيت ولكنّ القدم واحد تقريباً. وقد نجم عن مسألة الأفضليّة هذه حوادث مضحكة كمثل غداء قُدّم بعد ساعة ويزيد استغرقتها إحدى السيّدات لتوافق على أن يُعَرَّف بها. وقد أصبحتا على الرغم من ذلك صديقتين حميمتين وقد أعطت والدتي مقعداً من نمط هذا المقعد كان كلّ واحد يرفض الجلوس فيه مثلما فعلت قبل حين. وذات يوم سمعت والدتي عربة تدخل إلى باحة فندقها وسألت خادماً صغيراً من عساه يكون. "إنها السيّدة دوقة لاروشفوكو، ياسيّدتي الكونتيسة." – "حسن، سأستقبلها." وانقضى ربع ساعة ولا أحد : "عجباً ! أين عساها تكون السيّدة دوقة لاروشفوكو؟" – "إنها على الأدراج تفقد أنفاسها ياسيّدتي الكونتيسة" يقول الخادم الصغير الذي وصل منذ قليل من الريف حيث تعوّدت والدتي لحسن حظّها أن تأخذهم، وكثيراً ما حضرت ولادتهم. فهكذا تجد في بيتك خدماً طيّبين، وذلك أوّل أنواع الترف. كانت دوقة "لاروشفوكو" بالفعل تصعد بمشقّة إذ كانت ضخمة شديدة الضخامة حتى إنّ والدتي، لدى دخولها، ساورها القلق مقدار لحظة وهي تتساءل أين يمكن أن تجلسها. واسترعى انتباهها في تلك اللحظة المقعد الذي أعطتها إيّاه السيّدة "دوبرالان" فقالت وهي تدفعه نحوها: "هلاّ تفضّلت

بالجلوس". وملأته الدوقة حتى حوافيه. على أنها ظلّت على الرغم من هذه...الضخامة على شيء من الظرف. وكان أحد أصدقائنا يقول: "لاتزال تشيع حولها بعض الأثر حينما تدخل". "إنها تفعل على الخصوص حينما تخرج"، تجيب أمّي التي كانت تحيئها الكلمة أقلّ لياقة ممّا يمكن القبول به اليوم. وما كانوا يلاقون حرجاً حتى في منزل السيّدة "دولاروشفوكو" أن يسخروا في حضرتها من تقاطيعها الفضفاضة فتضحك أوّل من يضحك. وسألت والدتي السيّد "دولاروشفوكو" ذات يوم جاءت فيه لزيارة الدوقة ولم تلمح، وقد استقبلها الزوج في المدخل، الزوجة التي كانت في شرفة في الزاوية القصوى : "أوحدك ههنا ؟ أو ليست السيّدة "دولاروشفوكو" موجودة ؟ فإنّي لا أراها". فأجاب الدوق الذي اشتهر بآراء من أقلّ ما عرفت سداداً ولكنّه لايخلو من شيء من الظرافة : "كم أنت لطيفة !".

وبعد ما أصعد مع جدّتي بعد العشاء كنت أقول لها إنّ الميزات التي كانت تفتننا لدى السيّدة "دوفيلباريزيس" كاللباقة والنعومة والبساطة والاتّضاع ربمّا لم تكن قيّمة جداً بما أنّ الذين ملكوا أعلى درجاتها لم يبلغوا إلاّ مبلغ "موليه" و "لوميني" ولئن أمكن أن يجعل غيابها العلاقات اليوميّة غير مستحبّة فإنه لم يحل دون أن يضحي مزهوّون تنقصهم سلامة البصيرة ويسهل الضحك منهم مثل "بلوك"، لم يحل دون أن يضحوا "شاتوبريان" و "فينيي" و "هوغو" و "بلزاك"...

إلاّ أنّ جدتي كانت تصرخ لدى سماع اسم "بلوك". ثم كانت تمتدح السيّدة "دوفيلباريزيس". وكما يقال إن مصلحة الجنس هي التي توجّه ميول كل واحد على صعيد الحبّ وهي التي تجعل النساء النحيفات يبحثن عن الرجال السمان والسمينات عن النحاف كي يتكوّن الطفل كأقرب ما يكون إلى الوضع السويّ، كذلك كانت متطلّبات سعادتي التي تتهدّدها العصبيّة وميلي المرضيّ إلى الكآبة والعزلة هي التي تجعلها على نحو غامض تولي المقام الأوّل لميزتي الاعتدال وسداد الرأي الخاصتّين لابالسيّدة "دوفيلباريزيس" فحسب بل بمجتمع أستطيع أن ألاقي فيه تسلية وهدوءاً - مجتمع شبيه بالذي تفتّح فيه ذكاء أمثال "دودان" و "ريموزا"، ناهيك عن "بوسيرجان" و "جوبير" و "سيفينييه"، ذلك الذكاء الذي يضع في الحياة مقداراً من السعادة والكرامة أكبر ممّا تفعل صنوف الإفراط المناقضة التي قادت أمثال "بودلير" و "بو" و "فيرلين" و "رامبو" إلى عذابات وفقدان اعتبار لا تبتغيها جدّتي لحفيدها. وكنت أقاطعها لأعانقها وأسألها إن هي لاحظت جملة قالتها السيّدة "دو فيلباريزيس" وفيها تَبْرُزُ المرأة التي تتمسّك بمحتدها أكثر ممّا تُقِرُّ بالأمر.

وهكذا كنت أضع بين يدي جدتي انطباعاتي لأنّني ما عرفت قطّ مقدار الاعتبار الواجب لأحد الناس إلا بعد ما تدلّني على ذلك. وفي كلّ مساء كنت أبادر وأحمل إليها الرسوم السريعة التي استوحيتها في النهار من جميع تلك الكائنات اللا موجودة التي لم تكن هي.

وذات مرة قلت لها : "لن أستطيع العيش بدونك." فأجابتني بصوت مضطرب : "ذلك ما لايجدر بنا. يجب أن نصنع لنا قلباً أكثر قسوة من ذلك، وإلا فما الذي يحلّ بك إن ذهبتُ في رحلة ؟ أملي على العكس أنك ستكون كثير التعقل شديد السعادة." - "يمكنني أن أكون متعقلاً إن ذهبتِ

لبضعة أيام ولكن سوف أعد الساعات." – فلو ذهبت لشهور ....، (ولمجرد هذه الفكرة أخذ قلبي ينقبض) بل لسنوات ...، بل لِـ ... "

ونصمت كلانا، ولايجرؤ أحدنا على النظر إلى الآخرْ. بيد أني كنت أعاني من قلقها أكثر مما أعاني من قلقي، فاقتربت لذلك من النافذة وقلت لها بصوت واضح وأنا أشيح بعيني عنها :

– "تعلمين إلى أي حد أنا رجل عادات. فإني تعيس في الأيام الأولى التي تم فيها انفصالي عن الناس الذين أحبهم أكثر ما أحب. إلا أني أتعود فيما أظل على مقدار الحب نفسه لهم، وتضحي حياتي هادئة عذبة. وقد أتحمل فراقهم شهوراً وسنين ... ".

واضطررت أن أصمت وأن أنظر كلياً من النافذة. وخرجت جدتي لحظة من الغرفة. ولكني أخذت أتحدث في الغد عن الفلسفة بلهجة من أكثرها لامبالاة، بيد أني تدبرت أمري كي تنتبه جدتي لأقوالي وقلت إن الأمر الغريب وإن المادية تبدو وكأنها باطلة بعد مكتشفات العلم الأخيرة وإن المرجح لايزال خلود الأنفس واجتماعها الآتي.

أبلغتنا السيدة "دوفيلبا ريزيس" أنها لن تستطيع عما قليل لقاءنا كثيراً كذي قبل، ذلك أن ابناً شاباً لابنة شقيق لها يعدّ لمدرسة "سومير" وهو الآن في ثكنة في الجوار في قرية "دولسيير"، يزمع المجيء ليقضي بالقرب منها عطلة تمتد بضعة أسابيع وسوف تصرف له الكثير من وقتها. وكانت قد امتدحت لنا في أثناء نزهاتنا ذكاءه الكبير وعلى وجه الخصوص طيبة قلبه. وكنت أتصور مذ ذاك أنه سيشعر بالود نحوي وأنني سوف أكون صديقه المفضّل، وحينما المحت عمتّه لجدتي قبل مجيئه أنه وقع لسوء الحظ بين مخالب امرأة سيئة السيرة جُنَّ بحبّها ولن تدع له أن يفلت، ولما كنت متيقناً أن هذا النوع من الحب إنما يفضي حتماً إلى الجنون والجريمة والانتحار وفكرت في الوقت القصير جداً المخصص لصداقتنا، وقد تعاظمت في فؤادي دون أن أكون رأيته بعد، أخذت أبكيها وأبكي المصائب التي تنتظره وكأنما أبكي شخصاً عزيزاً نُقِلَ إلينا منذ قليل أنه مصاب بمرض خطير وأن أيامه معدودة.

وفي إحدى فترات مابعد الظهر القائظة كنت في غرفة طعام الفندق التي تركت نصف مظلمة ليقوها حر الشمس، وذلك بإسدال ستائر كانت تصفّرها فيما تدع هذه لزرقة البحر أن ترفّ بين شقوقها، حينما أبصرت في الممر الأوسط الذي ينطلق من الشاطئ على الطريق شاباً يمر طويل القامة نحيفاً مديد العنق يرفع الرأس عالياً باعتزاز، شاباً حادّ العينين له بشرة شقراء وشعر ذهبي يبدو وكأنه امتص أشعة الشمس كلها. كان يسير مسرعاً وقد ارتدى قماشاً طيّعاً يميل إلى البياض ماكنت أحسب قط أن رجلاً يجرؤ أن يرتديه. وكانت عيناه بلون البحر وعن إحداهما يهوي في كل لحظة زجاج نظارة. ونظر كل باستغراب إليه وهو يمر، وكانوا يعلمون أن هذا المركيز الشاب الذي من أسرة "دوسان لوآن بريه" معروف بأناقته. فقد سبق لجميع الصحف أن وصفت البزة التي قام فيها منذ وقت قريب بدور الشاهد لدوق "أوزيس" الشاب في مبارزة. كان يبدو أن الميزة الخاصّة في

شعره وعينيه وبشرته وهيئته، ولعلها كلها كانت تميّزه وسط الجمهور على غرار عرق ثمين من حجر عين الهرّ أزرق منوّر تغلّفه مادة خام، إنما ينبغي أن تقابلها حياة تغاير حياة الناس الآخرين ونتيجة لذلك وحينما تنافست عليه أجمل نساء المجتمع الراقي قبل العلاقة التي اشتكت منها السيدة "دوفيلباريزيس" كان وجوده على شاطئ مثلاً بالقرب من الجميلة الذائعة الصيت التي كان يخطب ودّها لايبرزها أتم الإبراز فحسب بل يجذب الأنظار إليه وإليها على حد سواء. وإنما ذلك بسبب أناقته ووقاحة الأسد الغضنفر لديه وبسبب جماله الخارق على وجه الخصوص، والبعض يرى أنه يبدو حتى مخنثاً، ولكنهم لايأخذون عليه ذلك لأنهم يعلمون مقدار رجولته وأنه كان شغوفاً بحب النساء. وكان ابن قريبة السيدة "دوفيلباريزيس" ذاك الذي حدثتنا عنه. وابتهجت لفكرة أنني سوف أعرفه على مدى بضعة أسابيع وتأكدت أنه سوف يمنحني كامل مودته. واجتاز بخطى سريعة كامل عرض الفندق وكأنه يلاحق نظارته ذات الزجاجة الواحدة التي كانت ترفرف كفراشة أمامه. كان آتياً من الشاطئ وكان البحر الذي يملأ زجاج الردهة إلى نصفه يصنع له خلفيّة يبرز عليها بكامل قامته كما هي الحال في بعض رسوم شخصية يبغي فيها بعض الرسامين، دونما احتيال من أي نوع على أدق أنواع الملاحظة للحياة الحالية ولكن بانتقاء إطار مناسب لنموذجهم كمرج للعب البولو أو الغولف وميدان سبق وسطح يخت، تقديم مقابل حديث لتلك اللوحات التي كان يبرز فيها المعلمون الأوائل الصورة البشرية في الموقع الأول من المنظر الطبيعي. كانت تنتظره أمام الباب عربة بجوادين. وفيما كانت نظارة ابن قريبة السيدة "دوفيلباريزيس" تستأنف قفزاتها المرحة على الطريق المشمسة أقدم هذا الأخير، بالأناقة والسلطان اللذين يفلح عازف بيانو كبير في إبرازهما في أكثر اللمحات بساطة حيث لم يكن يبدو ممكناً أن يفلح في إظهار تفوقه على عازف من الدرجة الثانية، فأخذ الزمام الذي سلمه إياه الحوذي وجلس بالقرب منه وأطلق العنان للجياد فيما كان يفضّ رسالة سلّمه إياها مدير الفندق.

ولكن بأية خيبة أصبت في الأيام التالية حينما تبينت، في كل مرة لقيته فيها في الخارج أو في الفندق – بياقته العالية وهو يوازن باستمرار حركات أعضائه حول نظارته المتهربة المتراقصة التي تبدو وكأنها مركز ثقلها –، أنه لايحاول التقرب منا ورأيت أنه لايحيينا مع أنه ما كان يمكن أن يجهل أننا أصدقاء عمته ! وإذ تذكرت اللطافة التي سبق أن أبدتها لي السيدة "دوفيلباريزيس" والسيد "دو نوربوا" من قبلها أخذت أحسب أنهما ربما كانا نبيلين من الصنف الممازح وأن ثمة لابدّ بنداً خفياً في القوانين التي تحكم الطبقة الأرستقراطية ربما سمح للنساء ولبعض الدبلوماسيين أن يتخلوا في علاقاتهم مع الطبقة الدنيا ولسبب كنت أجهله عن الغطرسة التي كان ينبغي لمركيز شاب أن يمارسها على العكس ممارسة لا رحمة فيها. كان يمكن لعقلي أن يقول لي خلاف ذلك. ولكن خاصية السن المضحكة التي كنت أجتازها – وليست جدباء على الإطلاق بل هي شديدة الخصب – قوامها أننا لانستشير العقل فيها وأن أقل صفات الأشخاص تبدو وكأنها جزء لايتجزأ من شخصيتهم. فالمرء لايعرف الهدوء إذ تحيط به من كل جانب الوحوش والآلهة. وليس من حركة على وجه التقريب بدرت منا آنذاك إلا ونود فيما بعد لو نستطيع شطبها. على أن ما ينبغي أن نأسف

له على العكس فإننا لانملك من بعد العفوية التي كانت تدفعنا إلى القيام بها. وإنما يرى المرء الأمور فيما بعد رؤية عملية وفي توافق تام مع باقي المجتمع، ولكن سن المراهقة هو الزمن الوحيد الذي تعلمنا فيه شيئاً.

وقد لاقت تلك الوقاحة التي كنت أستشفها لدى السيد "دوسان لو"، مع كل ماتتضمنه من قسوة طبيعية، مايؤكدها في موقفه منا كل مرة كان يمر فيها بالقرب منا بجسمه الفارع المنتصب دوماً ورأسه المرفوع ونظرته الثابتة، بل القاسية إذ الكلمة لاتفي بالغرض تماماً، الخالية من ذاك الاحترام الغامض الذي نكنّه لحقوق المخلوقات الأخرى وإن لم تكن تعرف عمتك والذي كان من شأنه أني لم أكن واحداً أمام سيدة عجوز وأمام مصباح غاز. كانت تلك التصرفات الشديدة الجفاء بعيدة عن الرسائل الساحرة التي كنت لبضعة أيام خلت أتخيّل أنّه يسطّرها لي ليبثني ودّه بقدر ما تبعد عن حماسة المجلس والشعب الذي تَصَوَّرَ مريضُ الخيال أنّه يستثيره بخطاب باقٍ على الأيام حالته الباهتة المغمورة إذ يلفي نفسه، بعدما حلم وحده لحسابه الخاص وفي العلن، وبعدما هدأت الهتافات الخياليّة، يعود بخفّي حنين. وحينما عادت السيّدة "دوفيلباريزيس" فحدّثتنا، تحاول دون شكّ أن تمحو الانطباع السيئ الذي خلفته فينا تلك المظاهر التي تنمّ عن طبيعة متعجرفة وشريرة، حينما حدّثتنا عن طيبة حفيدها التي لاتنضب (وكان ابن إحدى بنات أشقائها ويكبرني بقليل) عجبت كيف يضفون في المجتمع، خلافاً لكل حقيقة، صفات الطيبة على من قلبهم حجر حتى ولو كانوا لطافاً من ناحية أخرى مع أشخاص لامعين ينتمون إلى وسطهم. وأضافت السيدة "دوفيلباريزيس" نفسها، وإن على نحو غير مباشر، توكيداً للملامح الأساسيّة، وهي أكيدة بالنسبة إلي، التي تسم طبيعة ابن قريبتها في يوم التقيت فيه بكليهما في طريق ضيّقة إلى حدّ أنه لم يسعها إلا أن تعرّفه بي. وبدا وكأنّه لم يسمع أن اسماً يُذكر أمامه فلم تهتزّ عضلة في وجهه. وأبرزت عيناه اللتان لم يلتمع فيهما أي نور ضعيف ينمّ عن توادّ إنساني، إفراطاً في جمود اللحظ ولا جدواه ولعلّه ما من أمر لولاه كان يميزهما عن مرآتين لاحياة فيهما. ثم حدّق إليّ بتينك العينين القاسيتين كما لو يودّ الاستعلام عنّي قبل أن يردّ لي تحيتي ومدّ بحركة مفاجئة بدت وكأنها تنجم عن منعكس عضليّ أكثر منها عن فعل إرادي مدّ ذراعه بكامل طولها وفتح لي يده عن بعد وقد جعل بيني وبينه أكبر مسافة فاصلة ممكنة. وحينما بعث إليّ في الغد ببطاقته حسبت أن الأمر أمر مبارزة على الأقل. ولكنّه لم يحدّثني إلا عن الأدب وأعلن بعد حديث طويل أنه راغب أشدّ الرغبة أن يلقاني عدّة ساعات كل يوم. ولم يبرهن في أثناء هذه الزيارة عن ميل شديد جداً إلى أمور الفكر فحسب، بل أعرب لي عن ودّ لايماشي كثيراً تحيّة البارحة. وحينما رأيته يكرر تلك التحية كلما يعرّفونه بأحدهم أدركت أنها مُجرّد عادة اجتماعية ينفرد بها قسم من أسرته وقد أكسبت أمُّه جسمه تلك العادة، وكانت شديدة الاهتمام أن يُحْسَنَ تهذيبه على نحو رائع. كان يقوم بتلك التحيات دون أن يفكر فيها أكثر مما يفكر بأثوابه الجميلة وبشعره الجميل. وكان الأمر خلواً من الدلالة الأخلاقية التي أوليته إياها بادئ ذي بدء، وشيئاً تعلمه محض التعلم كمثل تلك العادة الأخرى التي تعوّدها في أن يطلب تقديم نفسه في الحال إلى ذوي من كان يعرفه والتي أضحت لديه غريزيّة إلى حدّ أنّه انقضّ عليّ إذ رآني غداة

لقائنا وسألني دون أن يحييني أن أذكر اسمه لحدتي التي كانت بالقرب مني بالسرعة المحمومة نفسها التي تعصف به لو أن هذا الطلب ناجم عن غريزة دفاعيّة كالحركة التي يتّقي بها ضربة أو يطبق بها عينيه أمام رشقة ماء يغلي والتي لعله كان من الخطر بدونها أن يمكث ثانية أخرى.

ورأيت بعد انقضاء طقوس التعاويذ الأولى هذا الكاهن المستخف يضحي ألطف شاب التقيته في يوم ومن أكثرهم تودداً كمثل جنيّة شكسة تخلع مظهرها الأول وتزدان بصنوف الجمال والسحر . وقلت في نفسي : "حسن، لقد اغتررت بخصوصه ووقعت ضحيه سراب ولكني لم أفز على الأول إلا لأقع في آخر، فهو سيد كبير شغوف بطبقة النبلاء ويحاول تخفية الأمر ." بيد أنّ كل روعة تهذيب "سان لو" وسائر لطفه كانا سيكشفان لي بعد انقضاء وقت قليل عن كائن آخر ولكنّه يختلف عن ذاك الذى كنت أشتبه به.

ذلك أن هذا الشاب الذى يبدو أرستقراطياً ورياضياً متعالياً لم يكن يكنّ احتراماً أو يبدي فضولاً إلا لأمور الفكر ولاسيما لهذه التظاهرات التحديثية في الآداب والفنّ التي كانت تبدو مدعاة لهزء عمته الشديد . وكان مشبعاً من جهة ثانية بما كانت تدعوه بالتشدّقات الاشتراكية ويفيض بأشدّ الاحتقار لطبقته ويقضي ساعات في دراسة "نيتشه" و "برودون" . كان واحداً من أولئك المثقفين الذين يهزهم الإعجاب بسرعة ويسجنون أنفسهم بين دفتي كتاب، وهمهم سموّ الفكر فحسب . ثم إن التعبير عن هذه النزعه المجردة إلى أبعد حدّ والتي كانت تبعد "سان لو" كثيراً عن مشاغلي المعتادة كان يزعجني بعض الشيء مع أنّه يبدو لي مؤثراً . وبوسعي أن أقول إني حينما علمت تمام العلم من كان والده ويوم فرغت من قراءة مذكرات زاخرة بالطرائف حول هذا الكونت المشهور المدعو "دومارسانت" الذي يختصر الأناقة التي تمتاز بها إلى حدّ بعيد حقبة أصبحت الآن بعيدة أصابني الحنق، وقد عمرت ذهني الأحلام ورغبت في الحصول على إيضاحات حول الحياة التي قضاها السيد "دومارسانت"، أن تسامي "روبير دوسان لو" إلى حب "نيتشه" و "برودون" عوضا عن أن يكتفي بأن يكون ابن أبيه وأن يكون قادرا على توجيه خطاي عبر الرواية المتقادمة الطراز التي ألّفتها حياة هذا الأخير . وما كان والده ليشاطرني أسفي، فقد كان هو الآخر رجلاً ذكياً يتجاوز حدود حياته كرجل مجتمعات راقية . وإن لم يتسع له الوقت لمعرفة ابنه فقد تمنى أن يساوي هذا الأخير أكثر منه . ويقيني أنه كان سيعجب به، خلافاً لبقية الأسرة، ويغتبط أن يهجر ما ألف صنوف لهوه الهزيلة إلى تأملات جافة، وربما قرأ خفية، دون أن يبوح بالأمر بالتواضع الذي يميّز السيد الكبير الذكيّ، الكتّاب المفضلين لدى ابنه كي يقيس مدى تفوق "روبير" عليه .

كان ثمة على أي حال هذا الأمر الذي ينطوي على بعض الأسى وقوامه أنه إن قدر السيد "دومارسانت" ذو العقل المنفتح إلى حد بعيد ابناً شديد الاختلاف عنه حق قدره فإن "روبير دوسان لو" بوصفه من جماعة تحسب أن الجدارة وقف على بعض صيغ الفنّ والحياة كان يحفظ ذكرى يملؤها الحنان ولكنما يخالطها شيء من الازدراء لوالد اهتم طوال حياته بالصيد وسباق الخيل وتثاءب في عروض "فاغنر " وشغف بنتاج "أوفنباخ" . لم يكن "سان لو" على قدر من الذكاء كافٍ

ليدرك أن القيمة الفكرية لا تمت بصلة إلى الالتزام بصيغة جمالية معينة وكان يخص "فكريّة" السيد "دومارسانت" إلى حد ما بنوع الازدراء نفسه الذي كان يمكن أن يبديه لـ "بوالديو" أو لـ "لابيش" ابن لـ "بوالديو" أو ابن لـ "لابيش" كانا من أنصار أكثر الأدب رمزية أو أكثر الموسيقى تعقيداً . كان "روبير" يقول: "كانت معرفتي بوالدي يسيرة جداً، ويبدو أنه كان رجلا ظريفا . مصيبته كانت العصر المؤسي الذي عاش فيه فأن يولد المرء في حي "سان جيرمان " ويعيش في عصر "هيلين الجميلة" أمر يؤدي إلى كارثة في حياة ما . ولو كان بورجوازياً صغيراً شغوفاً بالحلبة لتغير ربما عطاؤه، فمنهم حتى من يقول إنه كان يهوى الأدب. ولكن كيف لنا أن نعلم، وما كان يعنيه بالأدب إنما يتألف من أعمال فنية بالية فحسب. " أمّا فيما يخصني فلئن كنت أجد "سان لو" على شيء من الحدية فإنه ما كان يفهم الا أن أكون أكثر حدية . فإذ كان لا يقدر أمراً إلا بقدر ما يحتوي عليه من ذكاء ولا يدرك افتتان الخيال الذي تولِيني إياه بعض المؤلفات التي يحكم أنها سطحية، كان يعجب أن يمكنني الاهتمام بها أنا الذي كان يتصور، هو، أنه أدنى مني بكثير .

ومنذ الأيام الأولى كسب "سان لو" ود جدتي لا باللطف المستمر الذي كان يبذل قصارى جهده في الإعراب عنه لكلينا فحسب بل بالعفوية التي كان يطبعه بها كما يطبع كل شيء . والعفوية - لأنها دونما شك تسمح بتحسس الطبيعة خلف تفنن الإنسان - إنما كانت الصفة التي تفضلها جدتي على كل الصفات سواء أتجلت في الحدائق حيث لا تحب أن يكون ثمة أحواض شديدة الانتظام كما هي حال حديقة "كومبريه"، أم في المطبخ حيث تكره تلك "التركيبات" التي تكاد لا تتعرف فيها الأطعمة التي استخدمت في إعدادها، أم في الأداء على البيانو الذي لا تريده بالغ التأنق مفرط الإتقان وقد بلغ بها الأمر أن تبدي إعجاباً خاصاً بالنوطة المتعثرة وبالنوطة الناشزة لدى "روبنشتاين" تلك العفوية كانت تستسيغها حتى في ثياب "سان لو" وهي طيّعة لأناقة لاتزويق فيها ولا تصنع، لا تيبّس فيها ولا نشاء . ويزيد من قدر هذا الشاب الغني لديها الطريقة اللامبالية الطليقة التي يبديها في العيش وسط البذخ دون أن تفوح منه رائحة المال ودون عجرفة، بل هي تلقي سحر تلك العفوية في العجز الذي لازمه - وهو يزول بعامةً مع الطفولة آن تزول بعض الخصائص الفيزيولوجية التي تسم تلك السن - في أن يحول دون أن يعكس وجهه انفعالاً ما . فإن أمراً كان يتوق إليه مثلاً ولا يتوقعه كان يبعث فيه، وإن اقتصر على كلمة تهنئة، غبطة مفاجئة لاهبة سريعة التصعد والانتشار إلى حد لا يقوى معه على احتباسها وإخفائها، فتحتل وجهه على نحو لا يقاوم التواءة السرور وتغشى بشرة خديه التي رقت بإفراط حمرة شديدة وتعكس عيناه الخجل والفرح - وكانت جدتي تتأثر أعمق التأثر بمظهر الصراحة والأناقة الرقيق هذا الذي ما كان على أية حال خدّاعاً لدى "سان لو"، على الأقل في الفترة التي ربطتني به الصداقة . على أني عرفت شخصاً آخر، ومثله كثيرين، لم تكن الصراحة الفيزيولوجية الكامنة في تلك الحمرة العابرة لتتنافى البتة لديه والمخادعة الأخلاقية، فكثيراً ما تقيم البرهان فحسب على الحدة التي تشعر بالمتعة حتى لتصاب بالعجز إزاءها وتضطر إلى الإعراب عنها للآخرين طبائع قادرة على أحط صنوف المكر . على أن ما كانت جدتي تعشقه على وجه الخصوص في عفوية

"سان لو" فالطريقة التي يقر بها دون مواربة بوداده لي والذي توافيه للتعبير عنه كلمات لعلها لا تستطيع أن تجد هي، فيما تقول، ما كان أكثر صحة ويتّسم بحب حقيقي، كلمات كانت تصدقها "سيفينييه" و"بوسيرحان" . ولم يكن يجد حرجاً في الهزء بمعايبي – التي اكتشفتها بدقة أشاعت المسرة في نفسها – ولكن بحنان، كما لعلها فعلت هي، فيما يشيد على العكس بفضائلي بحرارة واسترسال لا يعرف تحفظات الجفوة التي يظن بعامة شبان فى سنه أنهم يولون بفضلها أهمية لأنفسهم . وكان يبدي في تفادي أقل إزعاج يلم بي وفي وضع أغطية فوق ساقي إن أخذ الطقس في البرودة دون أن أتنبه للأمر وفي تدبر أمرة دونما إعلان عن ذلك للمكوث معي في المساء إلى ساعة متأخرة إن أحسّ أني حزين أو متعب الصحة، كان يبدي حذراً ترى جدتي أنه مبالغ فيه من وجهة نظر صحتي التي ربما كان مزيد من القسوة خيراً لها ولكنه كان يترك فيها أعمق الأثر بوصفه برهاناً على مودته لي .

وسرعان ما تم الاتفاق بيني وبينه أننا أصبحنا صديقين حميمين وإلى الأبد وكان يقول "صداقتنا" كما لو تحدث عن أمر هام ولذيذ كائن خارج ذواتنا وقد دعاه بعد قليل أفضل مسرة في حياته – إن وضعنا جانباً حبه لعشيقته . كانت تلك الأقوال تسبب لي ضرباً من الغم وكنت مربكاً في الاستجابة لها لأنني ما كنت أشعر في وجودي معه وفي التحدث إليه – ولعل تلك كانت حالي مع أي سواه – بشيء من تلك السعادة التي كان يمكن على العكس أن أحس بها حينما كنت بدون رفيق . فكنت أحس أحياناً وأنا وحدي إحدى تلك الانطباعات التي توليني هناء لذيذاً تتدفق من أعماق نفسي . ولكن ما إن يتفق لي أن أكون مع أحدهم، وما إن أتحدث إلى صديق حتى يعكس فكري مساره ويوجه أفكاره باتجاه محادثي هذا لا باتجاهي أنا، وحينما كانت تسير في هذا الاتجاه المعاكس كانت لا تكسبني أية متعة . فبعدما يتم لي فراق "سان لو" كنت أضع بوساطة كلمات نوعاً من الترتيب في الدقائق المشوشة التي قضيتها معه، فأقول في نفسي إن لديّ صديقا طيبا، وإن الصديق الطيب أمر نادر. وكنت أتذوق في أن أحس أني محاط بخبرات عسيرة الاكتساب ما كان بالضبط عكس المتعة الطبيعية لدي، عكس المتعة الناجمة عن أنني استخرجت من ذاتي وحملت إلى النور أمراً كان دفيناً في عتمتي الداخلية. فإن قضيت ساعتين أو ثلاثاً في التحدث مع "روبير دوسان لو" وكان أن أعجب بما قلت له، كنت أحس بنوع من تبكيت الضمير والأسف والتعب لأنني لم أظل وحدي وقد جهزت أخيرا للعمل . ولكني كنت أقول في نفسي: إن ذكاء المرء ليس وقفاً على نفسه وإن أعظم الناس قد رغبوا في التقدير وإنه لا يسعني احتساب ساعات كوّنت فيها عن نفسي فكرة رائعة في ذهن صديقي بمثابة الضائعة وأقنع نفسي بيسر أنه ينبغي لي أن أسعد بذلك وكنت أتمنى ألا تنزع مني هذه السعادة في يوم تمنّياً يزداد شدة بقدر ما لم يتم لي الشعور به . فالمرء يخشى أكثر ما يخشى زوال خبرات ظلت خارج ذواتنا لأن فؤادنا لم يستول عليها . كنت أحسني قادراً على ممارسة فضائل الصداقة خيراً من كثيرين غيري (لأنني أقدم دوماً خير أصدقائي على تلك المصالح الشخصية التي يتعلق بها الآخرون ولا تساوي شيئا في نظري) لا على بلوغ الفرح من جراء شعور يزيل الفوارق الكائنة بين نفسي ونفوس الآخرين – مثلما هنالك فوارق بين نفوس كل واحد منا –

عوضاً عن أن يزيدها . وفي مقابل ذلك كان فكري بين حين وآخر يتبين في "سان لو" كائناً أعمّ منه هو "النبيل" كان يحرك أعضاءه ويرتب حركاته وأعماله وكأنه روح داخلية . حينئذ كنت وحيداً في تلك اللحظات، مع أني بالقرب منه، كما لعلني كنته أمام منظر طبيعي أدركت التناسق فيه . ذلك أنه لم يكن من بعد سوى موضوع يسعى حلمي إلى تعميقه . كنت أحس فرحاً شديداً أن ألقى فيه على الدوام هذا الكائن السابق القديم العهد، هذا الأرستقراطي الذي يطمح "روبير" بالضبط إلى أن لا يكونه، ولكنه فرح عقل لافرح صداقة . وما كنت أحس في الخفة الخلقية والجسدية التي تطبع تودده بهذا القدر من الظرافة، وفي الطلاقة التي يقدم بها عربته لجدتي ويصعدها إليها، وفي الحذاقة التي يقفز بها من مقعده حينما يخشى عليّ من البرد ليلقي بمعطفه على كتفي، ما كنت أحس فيها فحسب المرونة الوراثية التي تميز الصيادين الكبار الذين ألفوا منذ أجيال أجداد هذا الشاب الذي ما كان ينزع إلا إلى أمور الفكر . وازدراؤهم للثروة الذي، إذ بقي لديه إلى جانب الميل الذي به إليها كي يتمكن من الاحتفال بأصدقائه على نحو أفضل. كان يجعله يضع وسائل بذخه على أقدامهم بهذا القدر من اللامبالاة . كنت أحس فيها على وجه الخصوص اليقين أو الأوهام التي توهم بها السادة العظام أنهم "أكثر من الآخرين" والتي لم يستطيعوا من جرائها أن يورثوا "سان لو" تلك الرغبة في أن يبدي أنه "مساو للآخرين"، ذلك الخوف أن يبدو مفرطاً في مجاملاته والذي كان بالحقيقة مجهولا لديه وهو الذي يلطخ أصدق مظاهر الود الشعبي بهذا القدر من الجفاء والتصنع . وكنت آخذ على نفسي أحيانا أني أستمتع على هذا النحو باحتساب صديقي عملا فنيا أي بالنظر إلى حركة جميع أجزاء كيانه وكأنما نظمتها ووفقت بينها فكرة عامة ارتبطت بها جميعها ولكنه لم يكن يعرفها ولا تضيف بالتالي شيئا إلى صفاته الخاصة، إلى هذه القيمة الشخصية التي يؤلفها الذكاء والأخلاق والتي كان يعلق عليها هذا القدر من الأهمية .

بيد أنها كانت إلى حد ما شرط وجودها . فإنما كان يتسم ذلك النشاط العقلي وتلك التطلعات الاشتراكية التي تدفعه إلى التماس صداقة طلاب شبان مدّعين لا أناقة في ملبسهم بشيء من النقاء الحقيقي والتجرد لا يتفق لهم لأنه كان نبيلا . كان يلتمس بصدق، إذ يحسب أنه وريث طبقة جاهلة وأنانية، أن يغفروا له ذلك المنبت الأرستقراطي الذى كان يفتنهم على العكس فيسعون بسببه إليه فيما يتظاهرون إزاءه بالجفاء وحتى بالوقاحة . وكان يسوقه ذلك إلى القيام بمحاولات تقرب من أناس لعلّ ذويّ كانوا يدهشون، وهم مخلصون للأصول الاجتماعيه في "كومبريه"، ألاّ يتحول عنهم . وفي يوم كنت أجلس فيه و"سان لو" على الرمل سمعنا شتائم تنطلق من خيمة كنا نوليها ظهرنا ضد أعداد اليهود الكبيرة التى تعج بها "بالبيك" . كان الصوت يقول: "لا تستطيع أن تخطو خطوتين دون أن تلقى أحدهم . لست مبدئياً ضد جنس اليهود على نحو قاطع ولكنهم ههنا فيض ولا يطرق أسماعك إلا ما كان من هذا القبيل: " قل لي يا أبراهام، لقد رأيت جاكوب"، لكأنك في شارع أبو قير ." وأخيرا خرج الرجل الذي كان يحمل على هذا النحو على إسرائيل من الخيمة ورفعنا ناظرينا إلى عدو السامية هذا، فإذا هو رفيقي "بلوك" . وسألني "سان لو" في الحال أن أذكّره أنهما التقيا في المسابقة العامة التي أحرز "بلوك" فيها جائزة الشرف، ثم في جامعة شعبية .

وأكثر ما هنالك أنني كنت أبتسم أحياناً أن أعثر لدى "روبير" على تعاليم اليسوعيين في الضيق الذي تولده فيه خشية جرح شعور الآخرين كلما وقع أحد أصدقائه المثقفين في زلة اجتماعية أو جاء أمراً مضحكا ما كان يعلق عليه، هو "سان لو" أية أهمية ولكنه يحس أن الآخر ربما أصابه الخجل إن لاحظ أحد الأمر . وإنما "روبير" من كان يحمرّ خجلا كما لو أنه كان المذنب، كذلك اليوم مثلا الذى أضاف فيه "بلوك" وهو يعده أن يبادر إلى لقائه في الفندق:

- "بما أنني لا أستطيع احتمال الانتظار وسط الأناقة الزائفة التي تطبع هذه الخانات الكبيرة وأنه قد يغشى على من جراء الغجر هناك، قل لعامل المصعد أن يخرسهم وأن يعلمك في الحال."

وما كنت شخصياً شديد التمسك بمجيء "بلوك" إلى الفندق فلم يكن في "بالبيك" وحده لسوء الحظ، بل برفقة شقيقاته اللواتي كان لهن فيها الكثير من الأقارب والأصدقاء . على أن هذه الجماعة اليهودية كانت ملفتة للأنظار أكثر منها ممتعة . وكان شأن "بالبيك" كشأن بعض البلدان، شأن روسيه أو رومانيه، حيث تعلمنا دروس الجغرافيا أن السكان اليهود لا يتمتعون فيها بالامتياز نفسه الذى اكتسبوه في باريس مثلا ولم يبلغوا فيها درجة الاندماج نفسها فحينما كانت بنات أعمام "بلوك" وكان أعمامه أوبنو دينهم، ذكوراً أو إناثاً، يؤمّون الكازينو، وقد اجتمعوا على الدوام لايخالطهم أي عنصر آخر، البعض إلى الحفلة الراقصة والآخرون ينعطفون باتجاه لعبة "البكارا"، كانوا يؤلفون موكبا متجانسا في حد ذاته ويختلف تمام الاختلاف عن الناس الذين كانوا ينظرون إليهم أثناء مرورهم ويلقونهم ههنا في كل عام دون أن يبادلوهم قط التحية، سواء في مجتمع آل "كامبرمير" أو جماعة رئيس المحكمة أو بورجوازيون كباراً أو صغاراً أو حتى بعض تجار حبوب من باريس ما كانت بناتهم الجميلات المعتزات الساحرات الفرنسيات كتماثيل مدينة "رانس" ليقبلن الاختلاط بهذا القطيع من البنات القليلات التهذيب اللواتي يبلغ بهن اهتمامهن بأزياء مراكز الاصطياف البحرية حد الظهور على الدوام وكأنهن يعدن من صيد القريدس أو هن في طور رقص "التانغو" . أما فيما يخص الرجال فقد كان البروز الشديد في قسماتهم يذكّر، على الرغم من تألق بدلات "السموكن" والأحذية الملمعة، بتلك البحوث التي ينعتونها بالذكاء لرسامين كان عليهم وضع رسوم إيضاحية للأناجيل أو لكتاب ألف ليلة وليلة ففكروا بالبلاد التي يجري فيها المشهد وجعلوا للقديس بطرس أو لعلي بابا بالضبط الوجه الذي لأضخم شخصية في "بالبيك". وعرفني "بلوك" بشقيقاته اللواتي كان يخرسهن بأقصى الجفاء وكن يضحكن بأعلى أصواتهن لأقل نكات شقيقهن وهو موضع إعجابهن ومعبودهن . وقد كان من المرجح لذلك أن يتضمن هذا الوسط كأيّ وسط آخر، وربما أكثر من أي وسط آخر، الكثير من المباهج والميزات والفضائل . على أنه كان ينبغي الدخول إليه لاختبار ذلك . ولكنه ما كان يروق أحداً ويحس بذلك ويرى فيه البرهان على عداء للسامية يقف في وجهه صفاً متراصاً مغلقاً لا يفكر أحد على أية حال في شق درب إليه .أما فيما يخص عامل المصعد (١)، فقد قلل من فرص دهشتي أن سبق لـ "بلوك" أن سألني قبل بضعة أيام

(١) Lift وردت بالإنكليزية وجاءت على لسان "بلوك" Laift لتوهمه أن حرف i يلفظ دوماً ai بالانكليزية

لماذا جئت إلى "بالبيك" (ويبدو له على العكس طبيعيا جداً أن يكون هو هناك) وإن كان ذلك "بأمل التعرف إلى الجميلات "، ولما قلت له إن هذه الرحلة توافق إحدى أقدم أمنياتي، إلا أنها أقل عمقا لدي مع ذلك من أمنيتي في الذهاب إلى "البندقية " أجاب: " أجل، بالطبع، لتتناول المثلجات مع السيدات الجميلات فيما تتظاهر بقراءة "حجارة فينايس" (١) للورد "جون راسكين "، هذا الكاتب الممل الحزين وأحد أكثر من يميتك ضجراً ." كان "بلوك" يحسب إذن بالتأكيد أن جميع الأفراد الذين ينتمون إلى الجنس المذكر في انكلترا لوردات، وليس ذلك فحسب بل إن حرف i يلفظ على الدوام ai أما "سان لو" فقد كان يجد أن هذه الخطيئة التلفظية إنما تتناقص خطورتها بمقدار ما كان يرى فيها نقصاً في مجال تلك المبادئ الاجتماعية تقريباً التي كان صديقي الجديد يزدريها بقدر ما يملك ناصيتها . ولكن خشيته من أن يحسب "بلوك" بعد فوات الوقت، وقد علم ذات يوم أنهم يقولون "فينس" وأن "راسكين" لم يكن لورداً، أن "روبير" ألفاه مضحكاً، إن خشيته تلك حملت هذا الأخير على الشعور بأنه مذنب كما لو أنه خلا من ذلك التسامح الذي يفيض منه وكما لو أحس بالحمرة التي ستكسو ذات يوم دون شك محيا "بلوك" تكسو محياه مسبقاً وبحركة معكوسة . فقد كان يعتقد تماماً أن "بلوك" يعلق على تلك الخطيئة أهمية أكثر منه، الأمرالذي أقام "بلوك" عليه البرهان بعد ذلك بقليل في يوم سمعني أقول فيه "ليفت" فقاطعني بقوله:

آه ! يقولونها "ليفت" وأضاف بلهجة جافة متعالية ؛ "وليس للأمر في جميع الأحوال أهمية أية كانت." والجملة تماثل رد الفعل، وهي واحدة لدى جميع الناس الذين يداخلهم الاعتزاز بالنفس، في أشد الظروف خطورة وفي أقلها على حد سواء، فيكشفون آنذاك، كما هي الحال في هذه الأخيرة سواء بسواء، إلى أي مدى يبدو الأمر المعني مهماً في نظر ذاك الذي يعلن أنْ لا أهمية له والجملة مأسوية أحيانا، تلك التي تنطلق قبل سواها، وما أشد أساها إذ ذاك، من شفتي أي رجل على شيء من الاعتزاز بالنفس وقد سلبوه منذ قليل آخر أمل كان يتشبث به برفض خدمة يؤدونها له: "حسن لا أهمية لذلك على الإطلاق. سأتدبر أمري بطريقة أخرى ". والطريقة الأخرى التي لا أهمية على الإطلاق أن يتحول إليها قد تكون الانتحار أحيانا .

ثم قال لي "بلوك" أشياء في غاية اللطف، وكان راغباً بالتأكيد أن يكون لطيفاً معي . ولكنه سألني مع ذلك: " أمن جراء ميل بك إلى الارتفاع إلى مصاف النبلاء – وهم نبلاء جانبيون جداً على أية حال، ولكنك لا تزال ساذجا – تعاشر "دوسان لوآن بريه" ؟ لا بد أنك تجتاز أزمة سنوبية حادة . قل لي هل أنت سنوبي ؟ بلى، أليس كذلك ؟" وليس يعني ذلك أن رغبته في التودد إلي قد تبدلت، ولكن ما يدعى في فرنسية غير صحيحة إلى حدما "بسوء التربية" كان عيبه، وبالتالي العيب الذي لم يكن يلاحظه وبالأولى ذاك الذي ما كان يظن أنه يمكن للآخرين الامتعاض منه .

ليس تواتر الفضائل المتماثلة لدى الجميع، في أوساط البشر، أكثر غرابة من تعدد العيوب

(١)حجارة البندقية ويلفظها "بلوك" فينايس لتوهمه المبدأ السابق نفسه

الخاصة بكل فرد . وليس الحس السليم دونما شك " الأمر الأكثر انتشاراً في العالم" بل الطيبة . فالمرء يدهش أن يراها من تلقاء ذاتها في البقع البعيدة أبعد ما يكون، القصية أكثر ما يكون، كما تزهر في بطن وادٍ شقيقة بغيرها من شقائق سائر العلم ولم ترها في يوم ولا عرفت ألبتة سوى الريح التي تهز أحياناً قبعتها الحمراء المتوحدة . وأن هذه الطيبة القائمة وإن لم تمارس، وقد شلتها المصالح، وفي كل مرة لا يحول دافع أناني دون أن تفعل، كما هي الحال في أثناء قراءة رواية أو صحيفة، تتفتح وتتجه حتى داخل فؤاد ذاك الذي يظل رقيقا كهاوي مسلسلات، وهو قاتل في الحياة، إلى الضعيف والبار والمضطهد. على أن تنوع العيوب ليس أقل روعة من تماثل الفضائل . فإن لدى أكثر الناس كمالاً عيباً معيناً يثير الاستنكار أو الحنق . فهذا يتمتع بذكاء عظيم ويرى كل شيء من وجهة نظر سامية ولا يقول ألبتة سوءًا في أحد، ولكنه ينسى في جيبه أكثر الرسائل أهمية وقد طلب إليك بنفسه أن تسلمه إياها، ثم يفوت عليك موعدا أساسياً دون أن يعتذر إليك، والبسمة على شفتيه، لأنه يفخر بأنه لا يعرف الساعة في يوم . وذاك يتمتع بالكثير من الرقة واللين والأساليب الناعمة إلى حد أنه لا ينقل لك ألبتة عن نفسك إلا الأمور التي يمكن أن تسعدك ولكنك تحس أنه يصمت عن بعضها ويدفنه في فؤاده حيث يفسد وهو مختلف عن كل ما عداه، وإن المتعة التي يلقاها في أن يراك عزيزة عليه حتى ليفضل أن يميتك تعباً على أن يفارقك . وثالث يتصف بصراحة أكثر ولكنه يبلغ بها حد التمسك بأن تعلم، بعدما قدمت أعذاراً حول حالتك الصحية لأنك لم تبادر بزيارته، أنك شوهدت متجهاً إلى المسرح وأن وجهك ينضح بالعافية، أو أنه لم يستطع الإفادة كلياً من المسعى الذي قمت به من أجله والذي عرض عليه على أية حال ثلاثة آخرون القيام به وليس يدين لك به والحالة هذه إلا على نحو طفيف . ولعل الصديق السابق كان سيتظاهر في كلا الظرفين بأنه يجهل أنك ذهبت إلى المسرح وأن أشخاصاً آخرين كان يمكن أن يؤدوا له الخدمة نفسها . فأما هذا الصديق الأخير فإنه يشعر بحاجة أن يردد أو يكشف لأحدهم ما يمكن أن يزعجك أكثر ما يكون الإزعاج وتفتنه صراحته ويقول لك بحزم: "إني على هذه الشاكلة"

وآخرون يزعجونك بفضولهم المفرط أو بلا مبالاتهم المطلقة حتى لتستطيع التحدث إليهم عن أكثر الأحداث إثارة دون أن يدروا ما الخبر، فيما يظل آخرون شهوداً ليجيبوك إن كانت رسالتك تتعلق بأمر يخصك أنت لاهم . أو هم إن قالوا لك إنهم سيجيئون ليطلبوا منك أمراً ولا تجرؤ على الخروج مخافة أن تفوتك فرصة لقائهم لا يجيئون ويدعونك تنتظر أسابيع لأنهم ظنوا، إذ لم يتسلموا منك الجواب الذي لا تطالب به رسالتهم على الإطلاق، أنهم أغضبوك. وبعضهم يحدثونك، مسترشدين برغبتهم لا برغبتك فلا يدعون لك أن تنبس بكلمة إن كانوا فرحين ويرغبون في لقائك؛ أياً كان العمل الملح الذي يقع عليك إتمامه؛ فأما إذا شعروا أنهم متعبون من جراء الطقس أو أنهم معكرو المزاج فلست تستطيع استخراج كلمة من أفواههم ويواجهون جهودك بفتور وخمول ولا يكلّفون أنفسهم عناء الإجابة على ما تقول حتى بكلمات يتيمة أكثر ممّا يفعلون لو لم يسمعوك . إن كلاً من أصدقائنا قد لصقت به معايبه إلى حدّ نضطر معه كيما تظلّ على محبته أن نسلاها – بالتفكير بنبوغه وبطيبة قلبه وحنانه – أو أن لا نحسب لها بالأحرى حساباً فنبدي في سبيل ذلك

كامل حسن نيّتنا . بيد أنّ إصرارنا فى تغاضينا عن رؤية معيبة صديقنا إنّما يفوقه إصراره على الانصراف إليها من جرّاء عمى قلبه أو ذاك الذي يتّهم به الآخرين . ذلك أنه لا يراه أو يحسب أن ليس من يراه. وبما أنّ خطر أن لا نروق الغير ناجم بوجه خاصّ عن صعوبة تقدير مالا يلاحظ عليه وما يلاحظ فإنّما يجدر على الأقلّ ألا يتحدّث المرء عن نفسه بداعي الحذر لأن ذلك موضوع يمكن التأكّد فيه من أن رؤية الآخرين ورؤيتنا الخاصّة لا تتوافقان ألبتّة . ولئن اتّفق لنا من المفاجآت حينما نكتشف حياة الآخرين الحقيقية والعالم الحقيقي خلف العالم الظاهر بقدر ما يتّفق لدى زيارة بيت عاديّ المظهر ولكنّ داخله مليء بالكنوز أو بعَتَلات اللصوص أو بالجثث، فلن يصيبنا أقلّ منها إن نحن علمنا من الكلام الذي يتناولوننا في غيابنا أيّة صورة مختلفة كلّ الاختلاف كانوا يحملونها فى أذهانهم عنّا وعن حياتنا بدلاً من تلك التي كوّناها عن أنفسنا بفضل ما كان كلّ منهم يقوله عنها . ويمكننا إذن في كل مرّة تحدّثنا فيها أن نتيقّن أن أقوالنا الحذرة التي لا سوء فيها والتي تمّ الإصغاء إليها بتأدّب ظاهر وموافقة كاذبة إنّما ادّت إلى أكثر التعليقات حنقاً أو مرحاً وأقلها مي جميع الأحوال عطفاً علينا . وإن أقلّ ما نتعرّض له أنْ نزعِجَ من جرأء التفاوت الكائن بين الفكرة التي نحملها عن ذواتنا وأقوالنا، ذلك التفاوت الذي يجعل أقوال الناس عن أنفسهم مثيرة للسخرية إثارة تلك الدمدمات التي يجود بها هواة موسيقى مزيّفون يحسّون بحاجة دمدمة لحن يحبونه فيعوّضون عن قصور همساتهم غير الواضحة بحركات حازمة وهيئة مُعْجَبَة لا يبرّرها ما ينقلونه إلى أسماعنا. ولا بدّ أن نضيف إلى العادة السيّئة في التحدّث عن النفس وعن معايبنا تلك العادة الأخرى التي تبدو كأنها تؤلّف وإيّاها كتلة واحدة قوامها أن نشجب لدى الآخرين عيوبا شبيهة بالضبط بالعيوب التي فينا . وإنّما يتحدّث المرء على الدوام عن هاتيك العيوب وكأنما تلك طريقة في التحدّث المشدود دوماً إلى ما يطبعنا إنّما يلاحظه أكثر من أيّ أمر آخر لدى الغير . فيقول قصير النظر عن آخر سواه: " ولكنّه يكاد لا يستطيع فتح عينيه" ؛ وتساور الشكوك مصدوراً حول السلامة الرئويّة لدى أصلبهم عوداً؛ ولا يتحدث قذر إلا عن الحمامات التي يحجم عنها الآخرون ؛ ويزعم كريه الرائحة أنّ ثمة من تنبعث منه روائح كريهه ؛ ويبصر الزوج المخدوع في كلّ مكان أزواجاً مخدوعين، والمرأة الطائشة نسوة طائشات، والمتحذلق المتحذلقين . ثم إن كلّ نقيصة، شأن كل مهنة، تتطلّب معارف خاصة وتطوّرها وليس يغضبنا أن نبرز تلك المعارف . فالشاذ جنسيّاً يكتشف الشاذّين، والخياط الذي دعي إلى المجتمع الراقي ما كاد يحدّثك بعد حتى أعجب بقماش ردائك وتتحرّق أصابعه شوقاً إلى تحسّس ميزاتها، وإن سألت بعد حديث دام بضع لحظات مصاباً بأسنانه عن رأية الصريح حولك لنقل إليك عدد أسنانك غير الصالحة وليس ما يبدو له أكثر أهمية ولك، بعدما لاحظت أسنانه، أكثر إضحاكاً . ولسنا نحسب الآخرين عمياناً حينما نتحدّث عن أنفسنا فحسب بل نتصرّف كما لو كانوا كذلك . فثمّة إله خاصّ بالنسبة إلى كلّ منا يخفي عيبه أو يعده بحجبه عن الأنظار مثلما يطبق عيون الذين لا يغتسلون ويسدّ أنوفهم دون خطّ الوسخ الذي يحملونه في آذانهم ورائحة التعرّق التي تعشّش في ثنيات الذراعين ويقنعهم أنّهم يستطيعون نقل هذه وذاك دونما حرج في المجتمع الذي لن يلاحظ شيئاً. ويتصوّر الذين يلبسون أو يهدون اللآلئ المزيّفة أنّها ستعد حقيقيّة .

كان "بلوك" سيئ التهذيب مريض الأعصاب متحذلقاً، وكان لانتمائه لأسرة لايحترمونها تماماً يحتمل وكأنّما في قاع البحار الضغوط التي لا تحصى التي يمارسها عليه المسيحيّون على السطح، وليس هم فحسب، بل كذلك المسافات المتنضّدة للطبقات اليهوديّة التي تفضل طبقته وكل واحدة منها توسع التي هي أدنى منها مباشرة احتقاراً. ولعلّ شقّ الطريق إلى الهواء الطلق بالارتفاع من أسرة يهودية إلى أسرة يهودية كان سيقتضي "بلوك" عدّة آلاف من السنين. فخير له محاولة فتح منفذ من جهه أخرى.

حينما حدّثني "بلوك" عن أزمة السنوبّية التي لابد أنّي كنت أجتازها وطلب إليّ الإقرار أمامه بأنني كنت سنوبياً كان بوسعي أن أجيبه: "لو كنت كذلك لما تردّدت عليك ." ولكنّي قلت له فقط إنه كان قليل الودّ . حينئذ أراد أن يعتذر ولكن حسب الطريقة التي هي بالضبط طريقة الرجل غير المهذّب الذي يزداد سعادة في العودة عن أقواله أن يلقى فرصة يزيدها بها سوءًا، فقد أخذ يقول لي الآن في كلّ مّرة يلتقيني فيها: " سامحني، لقد جلبت لك الغمّ والعذاب وأسأت إليك دونما سبب . على أنّك لا تستطيع أن تتصوّر – والإنسان بعامّة وصديقك بخاصّة حيوان شديد الغرابة – الحنان الذي أحمله لك أنا الذي يضايقك إلى هذا الحدّ من القسوة . وكثيراً ما بلغ بي الأمر حدّ ذرف الدموع." وسمعته يطلق شهقة .

أمّا ما كان يدهشني لدى "بلوك" أكثر من عادته السيئة فإلى أيّ مدى كانت نوعيّة حديثه غير متساوية . فقد كان هذا الفتى المتصعّب جدّاً الذي يقول عن أكثر الكتّاب شهرة: "إنه غبيّ فظيع وهو معتوه تماما"، كان يروي بين حين وآخر نوادر ليس فيها ما يضحك بمرح كبير ويذكر هذا الرجل الضحل تماما على " أنّه رجل طريف حقا" . ولم تزل تلك الازدواجية في الحكم على ذكاء الناس وقيمتهم والاهتمام الذي يثيرونه تدهشني إلى اليوم الذي عرفت فيه "بلوك" الوالد.

ولم أحسب أننّا سوف نفلح يوماً في التعرّف إليه لأنّ "بلوك" الابن كان قد تحدّث بالسوء عني إلى "سان لو" وعن "سان لو" إليّ . وقد قال لِ "روبير" على وجه الخصوص إنّني كنت (على الدوام) سنوبياً شنيعاً . "بلى، بلى" يقول، " إنه يفتنه التعرف بالسيد لللوغراندان " كانت طريقة "بلوك" تلك في إبراز كلمة علامة السخرية والأدب في آن واحد . ودهش "سان لو" الذي لم يسبق أن سمع في يوم اسم "لوغراندان": "ولكن من عساه يكون؟" – "آه ! إنّه شخص عظيم جداً"، يجيب "بلوك" ضاحكاً وهو يضع يديه في جيبي سترته برعشة المقرور ويقينه أنّه يتأمل في تلك اللحظة الهيئة الطريفة التي لأحد نبلاء الأقاليم الخارقين الذين لا تساوي جماعة "باربيه دوريفييي" شيئاً إذا ما قيست بهم . كان يعزّي النفس عن أنه لا يفلح في تصوير السيّد "لوغراندان" بإعطائه عدداً من "اللامات" وبتذّوقه ذلك الاسم كما يفعل بخمرة معتّقة . على أنّ تلك المتع الذاتية كانت تظل مجهولة لدى الآخرين . ولئن تحدّث بالسوء عنّي إلى "سان لو" فلم ينقل إليّ أقل من ذاك عن "سان لو" . وقد عرف كلّ منّا تفاصيل ضروب النميمة تلك منذ اليوم التالي، وما ذلك لأننّا ردّدناها الواحد للآخر، الأمر الذي كان بدا لنا مستنكراً جداً ولكنّه يبدو طبيعياً جداً ولا مفرّ منه تقريبا في

نظر "بلوك" حتى أنه فضّل، في خشيته، وإذ حسب بحكم المؤكّد أنّه لن يقدم إلا على اطلاع هذا أو ذاك على ما يزمعان أن يعرفاه، أن يتّخذ الخطوة الأولى فانتحى بـ"سان لو" ناحية وأقرّ له أنّه تحدّث بالسوء عنه عمداً كي يُرددَ الأمر على مسامعه وأقسم له بـ "زوس بن خرونوس"[١] حارس الأيمان أنّه يحبّه وأنّه يبذل النفس في سبيله ومسح دمعة من عينه . وتدبّر أمره في اليوم نفسه كي يلقاني وحدي واعترف أمامي وصرّح أنه عمل لمصلحتي لأنه يعتقد أن ثمة نوعاً من العلاقات الاجتماعية وخيم العاقبة بالنسبة إليّ وأنّني "أساوي أكثر من ذلك" . ثم أخذ يدي بتأثّر السكارى، مع أن سكره كان عصبياً محضاً، وقال لي "صدّقني، ولتضع "كير" [٢] السوداء يدها عليّ في الحال وتحتز بي أبواب "هاديس"[٣] تلاحقني كراهية الناس إن لم أنتحب البارحة طوال الليل وأنا أفكر فيك وفي "كومبريه" وفي مودّتي اللامحدودة لك وفي بعد ظهيرات في الصفّ أنت حتى لا تذكرها . أجل، طوال الليل، أقسمت بذلك، ولكني أعلم للأسف، بما أني عارف بالنفوس، أنّك لن تصدقني ." وما كنت أصدّقه بالفعل وما كان قسمه بـ "كير" يضيف وزناً كبيراً إلى تلك الأقوال التي أحسّها تُستنبط في اللحظة نفسها وفيما هو آخذ في حديثه، لأن العبارة الهيلّينيّة كانت لدى "بلوك " أدبيّة بحتة . وأيا كانت الحال فما إن يأخذ في الحنان ويرغب أن يفيض حناناً على واقعة مختلقة حتى كان يقول:"أقسم لك" للذة هستيرية في الكذب أكثر منه لغاية حملك على الاعتقاد بأنّه يقول الحقيقة .

وما كنت أصدّق ما يقوله لي ولكنني لا أحمل له ضغينة لأنّني ورثت عن أمّي وجدّتي عجزي عن الحقد حتى على من كانوا أكبر ذنباً وألاّ أدين ألبتّة أحداً .

وما كان "بلوك" على ذلك فتى شريراً على نحو مطلق، فقد كان قادرا على إتيان الكثير من البوادر اللطيفة. ولما لم يعد لي بعد خيار، منذ زالت تقريبا سلالة "كومبريه"، السلالة التي تحدّر منها أفراد ظلّوا على حالهم تماماً مثل جدّتي وأمّي، إلاّ بين بهائم شرفاء ميتي الإحساس صادقين سرعان ما تبرز لك محض رنّة صوتهم لا يهتمّون ألبتّة بأمور حياتك - وبين جنس آخر من الناس يفهمونك ما داموا بالقرب منك ويعزّونك ويرقّون حتى لتدمع عيونهم ويثأرون لأنفسهم بعد ساعات فيسخرون منك بقسوة ولكنهم يعودون إليك وهم دوماً على مثل تفهّمهم وظرفهم واندماجهم المؤقّت بك، ففي اعتقادي أنني أفضّل على الأقل معاشرة هذه النوعية من الناس إن لم أفضل قدرهم الخلقي . وعاد "بلوك" يقول: "لا تستطيع أن تتصور ألمي حينما أفكر فيك ؛ وهذا في الأساس جانب يهوديّ إلى حدّ ما" يضيف قوله بلهجة ساخرة وهو يقلّص حدقة عينه كما لو كان الأمر أن يحدّد بالمجهر كميّة ضئيلة جدا من "الدم اليهودي" وكما ربّما استطاع أن يقول (ولكنه ما كان ليقول) سيّد فرنسي كبير جاء في عداد جدوده . وكلّهم مسيحيّون "صاموئيل بيرنار" أو في زمن

(١) le Kronion Zeus زوس كبير الآلهة وسيد الأولمبوس (جبل في اليونان).
(٢) Ker لعلها من آلهات الموت.
(٣) Hades إله جهنم.

أكثر تقادماً مريم العذراء التي يدّعي اللاويّون (١)، فيما يقال أنهم ينحدرون منها، "يعاود الظهور لديّ". ثم يضيف: " إني أحبّ أن أفرد على هذا النحو في عواطفي الجزء الضئيل على أيّة حال الذي يمكن رده إلى أصولي اليهودية ." لقد تفوّه بهذه الحملة لأنه بدا له من الظرف والجرأة على حدّ سواء أن يقول الحقيقة حول جنسه، تلك الحقيقة التي كان يتدبّر نفسه في المناسبة ذاتها كي يلطّفها إلى حد غريب، كالبخلاء الذين يقررون تسديد ديونهم ولا تحالفهم الجرأة إلا على دفع نصفها. وإن نوع الغشّ الذى قوامه أن يجرؤ المرء على إعلان الحقيقة ولكن بأن يمزج بها قسما لابأس به من الأكاذيب التي تفسدها لأكثر شيوعاً ممّا نعتقد وحتى لدى الذين لا يمارسون ذلك بالعادة إذ تيسّر لهم بعض الأزمات في الحياة، وبخاصّة تلك التي تكون فيها علاقة حبّ في خط فرصة تعاطيه.

وانتهت كل صنوف الطعن التي يجود بها "بلوك" سراً لـ "سان لو" ضدّي ولي ضدّ "سان لو" بدعوة إلى العشاء . ولست على تمام اليقين بأنه لم يقم بادئ الأمر بمحاولة ليظفر بـ"سان لو" وحده. .والمعقولية تجعل تلك المحاولة مرجّحة ولكنّها لم تتكلّل بالنجاح لأنّ "بلوك" إنما قال لي ولِـ "سان لو" ذات يوم: " أيها المعلّم العزيز وأنت أيّها الفارس الذي يحبّك "آريس" (٢)، "دوسان لو آن بريه" يامروّض الجياد، بما أنّي التقيت بكما على شاطئ "آمفيتريت" (٣) الذي يدوّي بالأمواج المزبدة قرب خيام الـ "مينيير" ذوي المراكب السريعة، فهل تودان المجيء كلاكما في أحد أيام الأسبوع لتناول العشاء لدى والدي الشهير الذي لا عيب فيه ؟" كان يوجه لنا تلك الدعوة لأنّه يرغب الارتباط بعلاقة أوثق مع "سان لو" الذي سيدخله الأوساط الأرستقراطية، حسبما يأمل . ولعل تلك المنية لو جاءت على لساني ومن أجلي، لعلّها كانت بدت لـ "بلوك" علامة أبشع أنواع السنوبيّة وتطابق تماماً الرأي الذي يحمله عن جانب كامل من طبيعتي لم يكن يعتبره على الأقل حتى ذاك الجانب الرئيسيّ . ولكن المنية نفسها تبدو له إن صدرت عنه البرهان على حب حميد للاستطلاع من جانب عقله الذي يتوق إلى بعض التغربات الاجتماعية التي يمكن أن يلقى فيها بعض الفائدة الأدبيّة . أما السيّد "بلوك" الوالد فقد أحس بصدمة عنيفة حينما قال له أبنه إنّه سوف يصطحب للعشاء أحد أصدقائه وقد سرد بلهجة المرضا والتهكّم لقبه واسمه: " المركيز دوسان لو آن بريه"، وصاح قائلاً: "المركيز دوسان لو آن بريه! ياويحك!" ولجأ إلى الشتيمة التي تمثل لديه أقوى دليل على التبجيل الاجتماعي . وألقى على ابنه القادر على الارتباط بمثل هذه العلاقات نظرة معْجَبة كانت تعني: "إنّه مدهش حقاً . فهل هذه الآية النادرة ولدي ؟" وسبّبت لرفيقي من السرور بقدر ما يتمّ له لو أضيف إلى راتبه الشهري خمسون فرنكاً . ذلك أنّ "بلوك" لم يكن مرتاحا في بيته وكان يحسّ أنّ والده يعدّه ضالاً لأنّه كان يعيش في جوّ من الإعجاب بـ"لو كونت دوليل" و "هيريديا" وغيرهم من "النوَر" فأما العلاقات مع "سان لو آن بريه" الذي سبق أن كان والده رئيس قناة السويس! (ياويحك) فتلك نتيجة "لاجدال فيها" .

---

(١) LesLevy: لاوي ابن يعقوب وقد أطلق اسمه على سبط من أسباط إسرائيل خرج منهم الكهنة أو اللاويون..

(٢) Ares إله الحرب لدى اليونان ويقابله مارس لدى الرومان.

(٣) ملكة البحر تمثل في عربة تجرها الدلافين فوق الماء.

وازداد بنفس المقدار أسفهم أنْ تركوا في باريس المنظار المجسّم مخافة إتلافه . وكان "بلوك" الوالد يتقن وحده فن استخدامه أو يملك على الأقل حقّ استخدامه . وما كان يقوم بذلك على أية حال إلا نادرا وبرويّة تامّة في الأيام التي تقام فيها حفلات ويحضر خدم من الرجال احتفاءً بذلك . فكان ينبثق من حفلات المنظار المجسّم هذه كأنما امتياز ومنّة ينالها المحظيون بالنسبة إلى من يحضرونها . وبالنسبة إلى ربّ البيت يقيمها جاه شبيه الذي تضفيه الموهبة وما كان يمكن أن يجيء أوفر اتّساعاً له لو تمّ أخذ المنظار على يد السيّد "بلوك" نفسه وكان الجهاز من اختراعه . كانوا يقولون في الأسرة: "أما كنت مدعوّاً البارحة إلى منزل "سلومون"؟ - "كلا، لم أكن من المختارين ! وما الذي قدّم هناك ؟" - "احتفال عظيم، المنظار المجسّم وكل ما يدور حوله. " - " آه! إن قدّم المنظار المجسم، فإنّي آسف إذ يبدو أنّ "سلومون" رائع حينما يعرضه."

وقال السيد "بلوك" لابنه: "ما عساك تريد، ينبغي ألا نعطيه كلّ شيء دفعة واحدة فيظل لديه على هذا النحو ما يشتهيه ."

لقد راودته بالتأكيد في حنانه الأبوي وكيما يثير مشاعر ابنه فكرة استحضار الآلة . ولكن الزمن المادي كان يعوزهم أو هم ظنوا بالأحرى أنه سيعوزهم . بيد أننا اضطررنا أن نطلب إرجاء العشاء لأن "سان لو" لم يستطع أن يبرح المكان إذ كان ينتظر عمّاً يزمع المجيء لقضاء ثمانٍ وأربعين ساعة بالقرب من السيدة "دوفيلباريزيس" وبما أن هذا العم كان شديد الولع بالتمرينات الرياضية ولا سيما رياضة السير الطويل على الأقدام وسوف يقطع الطريق من القصر الذي يقضي فيه الصيف سيراً على الأقدام في قسمٍ كبير منه ويمضي الليل في المزارع فقد كان الوقت الذي سيصل فيه إلى "بالبيك" غير محدد تماماً . ولقد كلفني "سان لو"، وهو لا يجرؤ على مغادرة المكان، أن أحملَ الى "أنكارفيل" حيث مكتب الاتصالات اللاسلكية البرقية التي كان صديقي يبعث بها يومياً إلى عشيقته . كان العم الذي ينتظرونه يدعى "بالاميد" وقد أخذه عن اسم ورثه عن جدوده أمراء صقلية . وحينما كنت أعثر فيما بعد في قراءاتي التاريخية على ذلك الاسم نفسه وقد حمله كبير القضاة هذا أو أمير الكنيسة ذاك، كميدالية جميلة من عصر النهضة - والبعض يقولون كتحفة قديمة حقيقية - لازمت الأسرة على الدوام تنتقل من سلف إلى خلف بدءًا من ديوان الفاتيكان وحتى عم صديقي، كنت أحس بالمتعة المقصورة على أولئك الذين لا يستطيعون تشكيل مجموعة ميداليات أو متحف للرسم فيبحثون عن الأسماء القديمة (كأسماء مناطق وثائقية وطريفة كخريطة قديمة أومنظر فروسية أو لافتة أو مجموعة أعراف، وأسماء معمودية يدوي فيها ويوافي الأسماع في النهايات الفرنسية الجميلة القصور اللساني والنبرة التي تتسم بسوقية عرقية واللفظ الخاطئ الذي كان أجدادنا يلحقون بموجبه بالكلمات اللاتينية والساكسونية تشويهات دائمة أضحت فيما بعد المشرّعات الرفيعات الشأن في كتب القواعد) ويقدمون لأنفسهم، بإجمال القول، بفضل مجموعات الأصوات القديمة هذه حفلات موسيقية شأن الذين يحوزون آلات "فيولا" كبيرة وصغيرة كي يعزفوا موسيقى الأمس على آلات قديمة. وقد نقل إليّ "سان لو" أن عمه "بالاميد" كان يتميز حتى في المجتمع الأرستقراطي الأكثر انغلاقاً على ذاته بأنه عسير الملتقى بنوع خاص ومتعالٍ ومتشبث بأرستقراطيته

ويؤلف مع زوجة أخيه وبعض الشخصيات المختارة الأخرى ما كان يدعى بنادي العنقاء . وكان مرهوب الجانب وحتّى هناك من جراء ما يبدي من صنوف الوقاحة إلى حد أنه اتفق فيما مضى لأناس في المجتمع الراقي كانوا يودون التعرف به وطلبوا ذلك من أخيه نفسه أن ووجهوا بالرفض ."لا"، لا تطلبوا مني أن أقدمكم لأخي "بالاميد" فقد نقرن جهودنا جميعا بجهود زوجتي ولا نستطيع ذلك، أو قد تتعرضون إلى ألا يكون لطيفا ولست أريد ذلك." وكان في نادي الفروسية قد سمّي مع بعض الأصحاب مئتي عضو لا يسمحون أن يقدموا لهم ألبتّة . وكان يعرف لدى كونت باريس بلقب " الأمير " نظراً لأناقته واعتزازه بنفسه .

وحدثني "سان لو" عن شباب عمه، وقد انقضى منذ زمن بعيد. فقد كان يجيء كل يوم بنسوة إلى شقة كان يملكها مع اثنين من أصدقائه في مثل جماله، الأمر الذي كانوا يدْعَوْنَ من جرائه بـ"ربات الفتنة الثلاث".

- "ذات يوم طلب رجل هو اليوم الرجل الأكثر بروزاً في حي "سان جيرمان"، كما قد يقول "بلزاك"، ولكنه كان يبدي ميولا غريبة في فترة أولى مؤسفة إلى حد ما . طلب إلى عمي أن يجيء إلى تلك الشقة . ولكنه ما إن وصل حتى أخذ يبوح بعواطفه لا للنسوة بل لعمي "بالاميد" وتظاهر عمي بأنه لا يفهم وخرج بصديقيه بحجة ما، ثم عادوا فأمسكوا بالمتهم وجردوه من ثيابه وضربوه حتى سال دمه وألقوا به خارجاً في برد بلغ عشر درجات تحت الصفر وهناك تمّ العثور عليه وقد أشرف على الموت، وقد قام القضاء بتحقيق تحمل المنكود الحظ أقصى المشقة ليحمله على العدول عنه . ولعل عمي لا يقوم اليوم بتنفيذ عمل في مثل هذه القسوة . ولست تتخيل عدد أبناء الشعب الذين يحيطهم بحبه، هو الكثير الاستعلاء مع ذوي المجتمعات الراقية، ويحميهم على أنهم يقابلونه بنكران الجميل فخادم خدمه في فندق يلقى له خدمة في باريس، وفلاح يأمر بتعليمه مهنة . وإنما ذلك الجانب اللطيف نوعاً ما الذي يتوافر له بعكس الجانب المجتمعي ." ذلك أن "سان لو" كان ينتمي إلى هذا الصنف من شبان المجتمع الراقي الذين اتخذوا مواقعهم على ارتفاع أمكن معه أن تنمى هذه العبارات: "وإنما اللطيف إلى حد ما لديه، أن الجانب اللطيف إلى حد ما لديه "، وهي بذرات ثمينة سرعان ما تنتج طريقة في تصور الأشياء يحسب المرء نفسه فيها لا شيء والشعب كل شيء، وما هو، باختصار القول، عكس الكبرياء الشعبي ." يبدو أنه لا يمكن أن نتصور إلى أي مدى كان المثل الذي يحتذى به وإلى أي حد كان يسيّر مجتمع شبابه بأسره . كان يفعل فيما يخصه ما يروقه أكثر ما يروق وما يرتاح إليه أكثر ما يرتاح، ولكن الأمر يتم تقليده في الحال على يد المتحذلقين . فإن عطش في المسرح وأمر أن يجيئوا بشراب إلى زاوية مقصورته القصبيّة امتلأت الصالات الصغيرة الواقعة خلف كل مقصورة بالمرطبات في الأسبوع التالي . وفي صيف كثير الأمطار شكا فيه من بعض الآلام الرثوية أوصى على معطف من قماش من وبر اللاما طيّع، ولكنه دافئ، ويكاد لا يستخدم إلا في صنع أغطية السفر، وحافظ على أقلامه الزرقاء والبرتقالية . ورأى كبار الخياطين زبائنهم يوصونهم في الحال على معاطف زرقاء ذات حواشٍ ولها وبر طويل . ولئن رغب لسبب، أي سبب، أن ينزع كل سمة احتفالية عن عشاء في قصر كانَ يمضي فيه النهار ولم

يحمل معه، بغية الإشارة إلى هذا الفارق، لباساً رسميا وجلس إلى المائدة بسترة ما بعد الظهيرة أصبح الزي السائد تناول العشاء بالسترة العادية . وإن استخدم بدلا من ملعقته شوكة أو أدوات طعام من اختراعه أوصى صائغاً عليها أو أصابعه لتناول قطعة من الحلوى، لم يعد يسمح بالتصرف على نحو آخر . وقد داخلته رغبة في أن يسمع ثانية بعض رباعيات موسيقية لـ "بتهوفن" (إذ هو على الرغم من جميع أفكاره السخيفة بعيد عن الغباء ويتمتع بمواهب كثيرة) واستقدم فنانين ليقوموا بعزفها له ولبعض الأصدقاء في كل أسبوع. فكان غاية الأناقة في ذلك العام الدعوة إلى اجتماعات قليلة الروّاد يتم فيها سماع موسيقى الحجرة . وأظن على أية حال أنه لم يصبه الملل في حياته فلا بد وهو بمثل جماله أن توافر له العديد من النساء ولعلني من جهة ثانية لا أستطيع أن أقول لك بالضبط أيهن إذ هو شديد التكتم . ولكنني أعلم أنه كثيرا ما خدع خالتي المسكينة، الأمر الذي لم يحل دون أن يكون رائعاً معها وأنها كانت تعبده وأنه بكاها على مدى سنوات . ولا يزال يذهب كل يوم تقريباً إلى المقبرة حينما يكون في باريس."

وفي صبيحة غداة اليوم الذي حدثني فيه "روبير" على هذا النحو عن عمه فيما كان ينتظره، وعبثاً فعل على أية حال، وفيما كنت أمر وحدي أمام الكازينو في عودتي إلى الفندق أحسست أن أحداً كان ينظر إليّ وما كان ببعيد عني . فأدرت رأسي فأبصرت رجلا في حوالى الأربعين من عمره، وكان شديد طول القامة وعلى شيء من السمنة وله شاربان شديدا السواد، يحدق إليّ بعينين وسّعهما الانتباه، فيما يضرب بنطاله بخيزرانة، بعصبيه ظاهرة . وكانت تخترق عينيه بين حين وآخر وفي كل اتجاه نظرات بالغة النشاط كمثل تلك التي ينفرد بها أمام شخص مجهول أناس يوحى إليهم، لسبب أو لآخر، بأفكار لا تراود آخر سواهم – من مثل المجانين أو الجواسيس على سبيل المثال . ثم رماني بنظرة جانبية أخيرة تجمعت فيها الجرأة والحذر والسرعة والعمق، كطلقة أخيرة يطلقها المرء لحظة الهرب، واتخذ فجأة، بعدما أجال النظر من حواليه . هيئة شاردة متعالية، وتحول بانقلاب مفاجئ في كامل شخصه إلى إعلان انغمس في قراءته وهو يدمدم لحن أغنية ويرتّب الوردة الريانة التي تتدلىّ من عروته وأخرج من جيبه دفتراً صغيراً بدا وكأنه يسجل عليه عنوان العرض المسرحي المعلن عنه، وأخرج مرتين أو ثلاثاً ساعته وشد فوق عينيه قبعة من القش الأسود أطال حاشيتها بيده الموضوعة على صورة واقية كأنما ليبصر إن لم يجئ أحد وأبدى حركة الاستياء التي يبرز المرء فيها حسبما يعتقد أنه عيل صبره من الانتظار ولكنه لا يقوم بها ألبتة حينما ينتظر حقاً، ثم ردّ قبعته إلى خلف فكشف عن قصة شعر قصيرة جداً استبقت مع ذلك في كل جانب جناحي حمامة مموجين على شيء من الطول وأطلق الزفرة القوية التي يطلقها الأشخاص الذين لا يشعرون لا بالحر الشديد بل بالرغبة في إبداء الإحساس بالحر الشديد . وراودتني فكرة نصاّب فنادق ربما سبق أن استرعينا انتباهه أنا وجدتي في الأيام السابقة، وكان يعد لفعلة شريرة، وأخذ يتبين منذ قليل أنني فاجأته وهو يرقبني . وربما كان يحاول فحسب، بغية تضليلي عن طريق مظهره الجديد، أن يعبرّعن الشرود والتجرد ولكنه يفعل بمبالغة عنيفة حتى ليبدو وكأنما يهدف إلى تبديد الشكوك التي لا بد ساورتني بمقدار يساوي على الأقل ثأره لإذلال سمته إياه على غير علم مني . وليبعث في نفسي لا

فكرة أنه لم يبصرني بل أني موضوع أقل بكثير من أن يسترعي انتباهه . كان يقوس قامته كمن يتحدى ويزم شفتيه ويرفع شاربه ويركز في نظراته شيئاً من اللامبالاة والقسوة وما يقارب الإهانة، حتى إن غرابة ملامحه كانت تجعلني أحسبه لصاً وطوراً فاقد العقل . بيد أن هندامه الشديد الأناقة كان أكثر رصانة وأكثر بساطة من جميع المستحمّين الذين كنت أشاهدهم في "بالبيك"، وكان مطمئناً بالنسبة إلى سترتي التي كثيراً ما أذلّها بياض ملابسهم البحرية الناصع والمبتذل . ولكن جدتي كانت آتية نحوي.

وقد قمنا بجولة معاً ؛ وكنت في انتظارها بعد ذلك بساعة أمام الفندق الذي دخلت إليه لحظة عندما شاهدت السيدة "دوفيلباريزيس" تخرج بصحبة "سان لو" والمجهول الذي حدق إلي بشدة أمام الكازينو. واخترقتني نظرته بسرعة البرق على نحو ما فعلت لحظة لمحته، ثم ارتدّت، وكأنه لم يبصرني، تقف أدنى بقليل كليلة أمام عينيه كالنظرة المحايدة التي تتظاهر بأنها لا تبصر شيئا في الخارج وهي عاجزة أن تقرأ شيئاً في الداخل، النظرة التي تعبر فحسب عن السرور لإحساسها من حولها بالأهداب التي تباعدها باستدارتها الهانئة، النظرة التقية الجامدة التي لبعض المنافقين والنظرة المغرورة التي لبعض الأغبياء . ورأيت أنه غيّر بدلته . كانت البدلة التي يرتديها أكثر قتامة ؛ ذلك ولا شك لأن الأناقة الحقيقية أقل بعداً عن البساطة من الزائفة .بيد أنه كان ثمة أمر آخر: فقد كنت تشعر من مسافة أقرب أنه إن كاد اللون يكون مفقوداً تماماً في ملابسه فما ذلك لأن أقصاه عنها لا يبالي به بل لأنه يحرمه بالأحرى عن نفسه لسبب أو آخر . وكان الاعتدال الذي تبرزه يبدو وكأنه من ذلك الناجم عن الخضوع لحمية أكثر منه عن فقدان الشهية . وكان خيط من لون أخضر عاتم ينسجم في قماش البنطال وخط الجوارب بدقة تكشف عن رهافة ذوق تمّ ترويضه في كل مكان وقد تمّ له هذا التغاضي الوحيد بداعي التسامح فيما تبدو بقعة حمراء على ربطة العنق تكاد لا تراها وكأنها تمادٍ لا تجرؤ الأقدام عليه .

وقالت السيدة "دوفيلباريزيس": "كيف حالك ؟ إني أقدم لك ابن شقيقي البارون "دوغيرمانت"، فيما يغمغم الرجل المجهول . دون أن ينظر إليّ، في غير وضوح: "سرّني ذلك" ويتبعها بقوله "إيه، إيه، إيه" ليضفي على تلطيفه شيئا من التحامل على النفس ثم يثني خنصره وسبابته وإبهامه ويمد إلى إصبعه الثالثة وبنصره ولاخاتم فيهما فأشد عليهما من فوق قفازه السويدي، ثم هو يتحول عني إلى السيدة "دوفيلباريزيس" دون أن يرفع نظره إليّ . وقالت هذه الأخيرة ضاحكة:

-"يا إلهي، أتراني فقدت عقلي ؟ ها إني أدعوك البارون "دوغيرمانت" . إني أقدم لك البارون "دوشارلوس" . وتضيف قولها: " وليس الخطأ على أي حال كبيراً إلى هذا الحد فإنك مع ذلك من آل "غيرمانت" ".

وخرجت جدتي في تلك الأثناء فسرنا سوية . ولم يشرّفني عم "سان لو" بكلمة واحدة ولا حتى بنظرة واحدة . ولئن كان يتفرّس في وجوه المجهولين (وقد أطلق في أثناء هذا المشوار القصير مرتين أو ثلاثاً نظرته المخيفة العميقة على هيئة مسبر على جماعة يعبرون السبيل عديمي الشأن ومن

أكثر الأسر وضاعة) فإنه في مقابل ذلك لم ينظر في أية لحظة، إن حكمت في الأمر انطلاقاً من ذاتي، إلى من كان يعرفهم - كشرطي في مهمة سرية ولكنه يدع أصدقاءه خارج دائرة الرقابة التي تقتضيها مهنته . وتركته هو وجدتي والسيدة "دوفيلباريزيس" يتبادلون الحديث واستوقفت "سان لو" خلفهم:

-" قل لي، أتراني سمعت تماماً ؟ لقد قالت السيدة "دوفيلباريزيس" لعمك إنه من آل "غير مانت".

-" أجل بالطبع، فإنه "بالاميد دو غيرمانت" .

-"ولكن أهو من آل "غير مانت" أنفسهم الذين يملكون قصراً بالقرب من كومبريه" ويزعمون أنهم ينحدرون من "جنفييف دو برابان" ؟

- "حتما، وربما أجابك عمي، وهو من أشد من تعلق بالشعارات، إن "صيحتنا"، صيحتنا الحربية التي أضحت فيما بعد "باسافان"، كانت بادئ الأمر "كومبريزيس"، يقول ضاحكاً كي لا يبدو وكأنه يزهو بامتياز الصيحة هذا الذي كانت تتمتع به البيوتات الملكية وحدها تقريباً ورؤساء العصابات العظام . "إنه شقيق مالك القصر الحالي ."

وهكذا كانت أشد أواصر القربى تربط بآل "غيرمانت" السيدة "دوفيلباريزيس" هذه التي ظلت فترة طويلة جداً في نظري السيدة التي أعطتني شوكولاته تمسك بها بطة حينما كنت صغيراً، وكانت آنذاك أكثر بعداً عن جانب "غير مانت" منها لو كانت سجينة في جانب "ميزيكليز"، وأقل تألقاً وقد جعلتها أدنى مكانة من تاجر البصريات في "كومبريه"، والتي أخذت الآن في ارتفاع خيالي مفاجئ يوازي الهبوط الذي لا يقل مفاجأة عنه والذي تتعرض له أشياء أخرى في حوزتنا، وهذا وذاك كلاهما إنما يدخلان في طور مراهقتنا وفي أجزاء حياتنا التي يستمر فيها شيء من هذه المراهقة تغيرات في مثل تعدد استحالات "أوفيديوس".

-"ألا توجد في هذا القصر جميع التماثيل النصفيّة العائدة لأسياد "غيرمانت" القدامى؟"

وأجاب "سان لو" بلهجة ساخرة: "بلى . وإنّه لمشهد رائع . على أنّي أجد، وأقولها بيني وبينك، كلُّ هذه الأمور تافهة إلى حدّ ما . إلاّ أنّ في "غيرمانت"، والأمر أكثر إثارة، رسماً مؤثّراً تماماً لعمّتي بريشة "كاريير" . إنّه جميل كمثل لوحات "ويستلر" أو "فيلاسكيز"، يضيف "سان لو" الذي لم يكن يحافظ دوماً بدقةّ على سلّم المراتب في اندفاع العقائديّ المستجدّ . "هنالك أيضاً لوحات مؤثّرة لـ"غوستاف" مورو" . إن عمتّي ابنة شقيقة صديقتك السيّدة "دوفيلباريزيس" وقد نُشئت على يدها وتزوجت ابن عمها الذي كان كذلك ابن أحد أشقاء عمتي "دوفيلباريزيس"، وهو دوق "غيرمانت " الحالي " .

- " وما عسى يكون عمك إذن ؟"

- " إنّه يحمل لقب البارون "دو شارلوس" . فحينما توفي أخو جدي كان ينبغي أن يحمل عمّي "بالاميد" على نحو نظاميّ لقب أمير "لوم" الذي كان لقب شقيقه قبل أن يصبح دوق "غير مانت"، لأنّهم يبدلون في أسمائهم في هذه الأسرة مثلما يبدلون في قمصانهم . ولكنّ لعمّتي أفكاراً خاصّة حول هذا كلّه ولما كان يرى أنهم يفرطون بعض الشيء فى استخدام الإمارات الإيطاليه وألقاب عظماء أسبانيه الخ . ومع أنّه كان يملك حق الخيار بين أربعة أو خمسة من ألقاب الأمراء فقد احتفظ بلقب البارون "دوشارلوس" احتجاجاً وببساطة يداخلها الكثير من الكبرياء . "كلّ الناس أمراء، يقول، في يومنا هذا، فلا بدّ لك إذن أن تملك ما يميزك ؛ لسوف أحمل لقب أمير حينما أود السفر متخفياً." وليس في اعتقاده من لقب أعرق من لقب البارون "دو شارلوس" . وسوف يزودك عمّي، كيما يبرهن لك أنّه سابق للقب آل "مونمورانسي" الذين كانوا يقولون زوراً إنّهم أول بارونات في فرنسه فيما هم الأولون في منطقة "إيل دو فرانس" فحسب حيث كانت معاقل إقطاعهم، سوف يزوّدك بشروح على مدى ساعات، وبسرور يفعل لأنّه على الرغم من رهافة حسّه وعمق موهبته يرى أنّ ذلك موضوع حديث مثير تماماً "، يقول "سان لو" مبتسماً . "وإذ لست على شاكلته فلن تحملني على التحدّث عن الأنساب، فلست أعرف ما كان قاتلاً وبالياً أكثر منها، والحياة قصيرة جداً "

لقد أخذت أتعرّف الآن في النظرة القاسية التي جعلتني منذ قليل أدير رأسي بالقرب من الكازينو تلك التي رأيتها مثبتة عليّ في "تانسو نفيل" آن نادت السيّدة "سوان" على "جيلبيرت" .

- " ولكن ألم تكن السيّدة "سوان" في عداد العشيقات الكثيرات اللواتي قلت إنهن توافرن لعمّك السيّد "دوشارلوس" ؟

-"لا، على الإطلاق ! وأعني أنّه صديق كبير لِ "سوان" وقد دعمه على الدوام دعماً كبيراً . ولكن لم يقل أحد قطّ إنّه كان عشيق امرأته، ولعلك تثير في المجتمع الكثير من الدهشة إن بدا أنك تصدّق ذلك."

ولم أجرؤ على الإجابة بأنهم ربمّا داخلتهم دهشة أكبر في "كومبريه" لو بدا أنّي لا أصدّق ذلك.

اغتبطت جدّتي كثيرا بالسيّد "دوشارلوس" . كان يولي دونما شكّ جميع قضايا المنشأ والوضع الاجتماعي أهميّة قصوى، وقد لاحظت جدّتي ذلك ولكن دون أن تبدي شيئاً من تلك القسوة التي يداخلها بالعادة حسد خفيّ واغتياظ لرؤية آخر يستمتع بمكاسب نرغب فيها ولا نستطيع حيازتها . ولما كانت جدّتي على العكس راضية عن حالها ولا يؤسفها ألبتّة أنها لا تعيش في مجتمع أكثر رونقاً ولا تستعين إلا بعقلها لمراقبة عيوب السّيد "دوشارلوس" فقد كانت تتحدّث عن عمّ "سان لو" بهذا العطف المتجرّد المشرق الذي يقارب الودّ والذي نكافئ به موضوع ملاحظتنا المتجرّدة مقابل

المتعة التي تزوّدنا بها ويزيد منه أنّ الموضوع كان يستشفان هذه المرّة شخصيّة تبرزه مطامحه . وهي طريفة على الأقلّ إن لم تكن مشروعة. إبرازاً واضحاً فوق الأشخاص الذين كان يتسنىّ لها بعامّة لقاؤهم . على أنّ جدّتي كانت قد اغتفرت بهذا اليسر للسيد "دوشارلوس" تحيّزه الأرستقراطي بالنظر إلى الذكاء ورقّة المشاعر اللذين يتحلى بهما على وجه الخصوص وكانا شديدين لديه إلى حدّ بعيد خلافاً للعديد من أهل المجتمع الذى كان "سان لو" يسخر منهم . بيد أنّ هذا التحيز لم يضحّ به العمّ ولا ابن أخيه سواء بسواء لميزات أسمى . فقد وفّق السيّد "دو شارلوس" بالأحرى بينه وبينها . فإن كان يملك بوصفه سليل دوقات . "نمور" وأمراء "لامبال" وثائق وأثاثاً وسجّاداً ورسوماً أنجزها لأجداده "رافائيل" و"فيلاسكيز" و"بوشيه" ويستطيع أن يقول إنه بالضبط "يزور" متحفاً ومكتبة بمجرّد الطواف بذكريات أسرته كان يضع على العكس كامل تراث الأرستقراطية في المقام الذي انزله منه أبن أخيه . وربمّا لم يشأ كذلك، وهو أقل عقائديّة من "سان لو" وأقلّ تشدّقاً بالكلمات وأكثر واقعية في ملاحظة الناس . أن يهمل عنصر جاه أساسيّاً في نظرهم ويمكن إن هو وفّر لخياله متعاً خالية الغرض أن يكون في الغالب عوناً شديد الفعالية في نشاطه النفعيّ. وأنّ باب الجدال لا يزال مفتوحاً بين من كانوا من هذه النوعية وبين الذين يخضعون للمثل الأعلى الداخليّ الذي يدفعهم إلى التخلّص من تلك المكاسب للسعي إلى تحقيقه فحسب . فيشبهون بذلك الرسّامين والكتّاب الذى يتخلّون عن براعتهم والشعوب الفنّانة التي "تتحدّث" والشعوب المحاربة التي تتّخذ مبادرة نزع السلاح الشامل والحكومات المطلقة التي تنقلب ديمقراطية وتلغي قوانين قاسية دون أن يكافئ الواقع في الغالب سعيهم النبيل، إذ يفقد هؤلاء مهارتهم وأولئك تفوقهم، وتضاعف النزعة السلمية الحروب بعض الأحيان، والتسامح الجرائم . ولئن كان لا يمكن النظر إلى جهود الصدق والتحرّر لدى "سان لو" إلاّ على أنّها بالغة النبل، إن حكمنا عليها من زاوية عواقبها الخارجية، فقد كان من الجائز الاغتباط بفقدانها لدى السيّد "دوشارلوس" الذي أمر بنقل قسم كبير من خشبيّة فندق "غيرمانت" الرائعة إلى منزله عوضاً عن أن يستبدل بها . شأن ابن أخيه، أثاثاً من الطراز الحديث وقطعاً من صنف "لوبور" و "غيومان". وليس أقلّ صحّة من ذلك أنّ مثل السيّد "دوشارلوس" الأعلى كان شديد التصنّع وأنّه كان، إن أمكن مقاربة هذه الصفة من كلمة المثل الأعلى، اجتماعياً بقدر ما كان فنيّاً فقد كان يرى في بعض النساء ذوات الجمال العظيم والثقافة النادرة واللواتي امتزجت أسماء جدّاتهن قبل قرنين بجميع أمجاد النظام القديم وكامل أناقته كياسة تجعله لا يستطيع الاستمتاع إلا بصحبتهنّ. وليس من شكّ أن الإعجاب الذى يخصهنّ به كان صادقاً إلا أن الإعجاب تداخله إلى حدّ كبير ذكريات تاريخيّة عديدة توقظها أسماؤهن مثلما تؤلّف ذكريات العصور القديمة أحد أسباب المتعة التي يلقاها مثقّف في قراءة قصيدة للشاعر "هوراسيوس" ربمّا كانت أدنى من قصائد من أيّامنا قد يظلّ هذا المثقّف نفسه عديم الاهتمام بها . كانت كل واحدة من تلك النساء في مقابل بورجوازيّة جميلة، كانت في نظره مثلما هي في مقابل لوحة معاصرة تمثّل طريقاً أو عرساً تلك اللوحات القديمة التي يعرف المرء تاريخها بدءًا بالبابا أو الملك اللذين أوصيا عليها ومروراً بهذه الشخصيات أو تلك التي يذكرّنا وجودها بالقرب منهم عن طريق الهبة أو الشراء أو الاستيلاء أو الميراث بحدث أو على الأقلّ بمصاهرة ذات أهمية تاريخية وبالتالي

بمعارف اكتسبناها، ويضفي عليها فائدة جديدة ويزيد من الإحساس بغنى ما تحيط به ذاكرتنا أو سعة اطّلاعنا. كان السيّد "دوشارلوس" يغتبط أن يفضي تحيز مماثل لتحيّزه بحؤوله دون أن يخالط هذا النفر من كبريات السيّدات نساءً أقلَّ صفاءَ عرق. إلـــى تقديمهنّ على مذبح ولعه خالصات في نبلهنّ الذي لم تشبهُ شائبة كمثل واجهة مـــن القرن الثامن عشر تجثم فوق أعمدتها المسطّحة التي من رخام ورديّ ولـم تبدّل الأزمـــنة الحـديثة شيئاً فيها .

كان السيّد "دوشارلوس" يكرّم لدى هاتيك النساء "نبل" العقل والقلب الحقيقي، ويتلاعب على هذا النحو باللفظة بالتباس يخدعه هو نفسه وفيه يقيم زيف هذا التصورّ الهجين، هذا اللبس المؤلّف من أرستقراطيّة وأريحيّة وفن، ولكنما يقيم كذلك فيه سحره وهو محفوف بالمخاطر بالنسبة إلى جماعة مثل جدّتي ربمّا بدا لها التحيّز الأكثر فظاظة والأكثر براءة مع ذلك لدى نبيل لا تهمّه سوى الأحياء ولا يقيم وزناً للباقي، ربمّا بدا لها مدعاة للسخرية، ولكنّها تنهار مقاوتها ما إن يبرز شيء أمامها تحت مظاهر التفوّق العقليّ حتى إنها كانت تجد الأمراء كأكثر ما يحسد بين جميع الرجال لأنهم استطاعوا أن يتّخذوا أمثال "لابروبير" و"فينلون" بمثابة مربيّن .

وفارقنا أمام الفندق الكبير أبناء آل"غيرمانت" الثلاثة، فقد كانوا يزمعون الذهاب لتناول طعام الغداء في منزل أميرة "لوكسمبور" . وحينما كانت جدّتي تودّع السيّدة "دوفيلباريزيس " و"سان لو" عاد السيد "دو شارلوس" بضع خطوات إلى الوراء . ولم يكن بعد كلّمني حتّى ذاك، وقال لي بعد أن وصل بالقرب منّي: " سوف أتناول الشاي هذا المساء بعد تناول العشاء في شقّة عمتي، "فيلباريزيس" وآمل أنّك ستتكرّم بالمجيء مع السيّدة جدّتك ." ثمّ لحق بالمركيزة.

ومع أن اليوم كان يوم أحد فلم يكن أمام الفندق عربات أكثر ممّا في بداية الموسم . كانت زوجة الكاتب العدل على وجه الخصوص ترى أنّه من باهظ التكاليف استئجار عربة في كلّ مرّة لتجنّب الذهاب لدى أسرة "كامبرمير" فكانت تكتفي بالبقاء في غرفتها .

وكانوا يسألون الكاتب العدل قائلين: "هل السيّدة "بلانديه" متوعكة الصحة ؟ فإنّنا لم نشاهدها اليوم."

– " إنّها تشكو من ألم طفيف في الرأس . فالحر . وهذه العاصفة ؛ يكفيها أقلّ القليل . ولكنّي أعتقد أنكم ستشاهدونها هذا المساء، فقد أشرت عليها بالنزول، ولا يمكن إلا أن يعود عليها ذلك بالخير ."

لقد حسبت أن السيّد "دوشارلوس" شاء أن يكفّر عن قلّة التهذيب التي صدرت عنه بحقّي في أثناء مشوار الصباح بدعوته إيّانا على هذا النحو إلى شقّة عمته التي لم أشكّ أنّه أنبأها بالأمر . إلاّ أني حينما وصلت إلى صالة السيّدة "دوفيلباريزيس" وأردت أن أحيّي ابن أخيها، عبثاً أخذت في الدوران حوله وهو يروي بصوت حادّ قصّة فيها بعض التجريح بواحد من أقاربه فلم أستطع الظفر

بنظراته . وقررت أن أحيّيه وبصوت قوي لأنبئه بحضوري، ولكنّي أدركت أنه لاحظ الأمر، فقبل أن تنطلق كلمة واحدة من بين شفتيّ ولحظة كنت أنحني رأيت إصبعيه ممدوتين كي أشدّ عليهما دون أن يلتفت إليّ أو يقطع حديثه . كان بالتأكيد قد رآني دون أن يظهر ذلك ولاحظت حينئذ أن عينيه اللتين لا تثبتان ألبتّة على محدّثه كانتا تتنقّلان باستمرار في كل اتّجاه كعيون بعض الحيوانات المذعورة أو عيون هؤلاء الباعة العاملين في الهواء الطلق الذين يتفحصون، فيما يجودون بكلامهم المعسول ويعرضون بضاعتهم غير القانونية، ودون أن يديروا رءوسهم . نقاط الأفق المختلفة التي يمكن أن تجيء الشرطة منها . وقد أدهشني بعض الشيء في تلك الأثناء أن أرى أن السيّدة "دو فيلبا ريزيس" التي سعدت بمجيئنا كانت تبدو وكأنها لا تتوقّعه . وزاد من دهشتي أن أسمع السيّد "دوشارلوس" يقول لجدّتي: "آه ! إنهّا لفكرة طيبة تلك التي خطرت لكم بالمجيء. ذلك رائع، أليس كذلك يا عمّتي ؟" وليس من شكّ أنّه لاحظ دهشة هذه الأخيرة لدى دخولنا وحسب بوصفه رجلاً تعود أن يعطي النغمة الأساسية، نوطة الـ"لا"، أنّه يكفيه ليحيل هذه الدهشة فرحاً أن يشير إلى أنّه يشعر به بنفسه وأنّ ذلك هو الشعور الذي ينبغي أن يثيره مجيئنا . وقد صدقت حساباته في ذلك لأنّ السيّدة "دوفيلباريزيس" التي كانت تقدر ابن أخيها بالغ التقدير وتعلم إلى أيّ مدى كان يصعب أن يحسن المرء في عينه بدت فجأة وكأنها وجدت لجدتي صفات جديدة ولم تنفكّ عن الاحتفاء بها . ولكنّي لم أستطع إدراك أن يكون السيّد "دوشارلوس" قد نسي في بضع ساعات الدعوة المقتضبة جدّاً ولكنّها مقصودة في الظاهر إلى حدّ بعيد ومتعمّدة تماماً تلك التي وجّهها إليّ في الصباح نفسه، وأن دعا فكرة انطلقت كلّها منه "فكرة طيّبة" راودت جدّتي . وقلت له بهوس في الدقّة احتفظت به حتّى السنّ التي أدركت فيها أنّك لا تعلم الحقيقة حول المقصد الذي داخل رجلاً بسؤاله عنه وأن الخطر الناجم عن سوء تفاهم من المرجح أنّه لن يفطن أحد له أقلّ من ذاك الناجم عن إلحاح ساذج: " ولكن، تذكر تماماً يا سيّدي، أليس كذلك، أنّك أنت من طلب إليّ في هذا الصباح أن نجيء هذا المساء ؟" ولم تكشف أيّة حركة وأيّ صوت أن يكون السيّد "دوشارلوس" قد سمع سؤالي. وإذ رأيت ذلك أعدت الكرة كالدبلوماسيّين أو كهؤلاء الشبان المتخاصمين الذين ينفقون عزيمة صادقة لا كلل فيها ولكنّها لا طائل تحتها في الحصول على إيضاحات صمّم الخصم على أن لا يقدّمها . ولم يجبني السيّد "دوشارلوس" أكثر ممّا فعل من قبل. وخيّل إليّ أنّي أبصر ابتسامة ترفّ على شفتيه، ابتسامة الذين يحكمون من علٍ على الطبائع وصنوف التربية .

وبما أنّه كان يرفض أيّ إيضاح فقد حاولت أن أقدم لنفسي إيضاحاً ولم أفلح إلا في التردّد بين العديد منها وربمّا لم يكن أي منها هو الصحيح . فربمّا لم يتذكّر وربمّا كنت أنا من أساء فهم ما قاله لي صباحاً . . . والأكثر احتمالاً أنّه لم يشأ عن عجرفة أن يبدو وكأنه حاول اجتذاب أناس كان يحتقرهم وفضّل أن يلقي عليهم تبعة مبادرتهم إلى المجيء . ولكن لماذا أصرّ، إن كان يحتقرنا، على أن نجيء، أو على أن تجيء جدّتي بالأحرى، ذلك أنه وجّه الحديث إليها وحدها من بيننا في أثناء تلك الأمسية ولم يوجهه مرة واحدة إليّ . كان يكتفي، وهو يتحدّث إليها وإلى االسيدة "دوفيلباريزيس" على السواء حديثاً بالغ الحرارة وقد اختبأ إلى حد ما خلفهما كما لو كان في زاوية

مقصورة قصبيّة، إذ يحوّل بين حين وآخر النظرة الباحثة التي يرسلها من عينيه الثاقبتين، كان يكتفي بتثبيتها على وجهي بالجدّية نفسها ومظهر الاهتمام نفسه الذى يبديه لو كان مخطوطاً من العسير حلّ رموزه .

ولا ريب أن وجه السيد "دوشارلوس" كان شبيهاً بوجه العديد من الرجال الجميلين لو لم تكن ثمّة هاتان العينان . وحينما قال لي "سان لو" بعد ذلك، وهو يروي لي عن آخرين من آل "غير مانت": "إنّهم بالطبع لايبدون بهذا المظهر الأصيل، مظهر السيّد الكبير حتى أطراف أنامله الذي يبدو به عمي بالاميد"، مؤكداً أنّ المظهر الأصيل والأناقة الأرستقراطية لم يكن فيهما على الإطلاق ما خفي أو كان جديداً بل قوامهما عناصر تعرّفت إليها دون صعوبة ودون أن أحسّ بانطباع خاص، كان ينبغي أن أشعر أنّ واحداً من أوهامي يتلاشى . بيد أنّ هذا الوجه الذي كانت تضفي عليه طبقة خفيفة من المساحيق هيئة وجه مسرحيّ إلى حدّ ما عبثاً كان السيّد "دوشارلوس" يغلق ملامحه إغلاقاً تاماً، فقد كانت العينان بمثابة صدع، بمثابة كوّة لم يستطع وحدها إغلاقها، وكنت تحسّ فجأة، حسب النقطة التي اتخذت مكانك فيها بالنسبة إليه، أنّ شعاعاً يمرّ بك منها وقد انطلق من جهاز داخلي لا يبدو أن فيه ما يطمئن حتّى بالنسبة إلى من كان يحمله في داخله، دون أن يتحكم به تماماً، في حالة من التوازن اللامستقر الذي يوشك دوماً أن ينفرط . وكان ما تعبر عنه تلك العينان من حذر وقلق مستمرّ، إلى جانب كامل الإرهاق الذي من جرّائهما يطبع الوجه، مهما بولغ في رسمه وترتيبه، فيبرز حول العينين وحتىّ حدود زرقة تعاظمت دائرتها، كان يذكّر بعمليّة تخفّ، بعمليّة تنكرّ قام بها رجل ذو سلطان أضحى في خطر أو محض رجل خطر ولكنّه واقع في مأساة . وددت لو أستشفّ ما كان ذلك السرّ الذي لم يكن يحمله الرجال الآخرون في صدورهم والذي سبق أن أظهر لي نظرة السيّد "دوشارلوس" غامضة إلى هذا الحدّ عندما رأيته في الصباح قرب الكازينو . ولكني لم أعد أستطيع الظنّ، مع ما أعرفه الآن عن أهليه، بأنّها نظرة لصّ أو هي، بعد ما سمعت ما سمعت من حديثه، نظرة مجنون . فلئن كان جافاً إلى هذا الحد معي فيما كان بالغ اللطف مع جدتي فربمّا لم يكن مردّ ذلك نفور شخصيّ ؛ ذلك أنّه بقدر ما كان بعامّة رقيقاً بحق النساء اللواتي كان يروي عن عيوبهنّ دون أن يتخلّى عادة عن تسامح كبير . بذلك القدر كان يحسّ تجاه الرجال، والشبّان منهم بخاصّة. بكراهية يذكّر عنفها بتلك التي يحسّ بها بعض أعداء المرأة تجاه النساء . فقد قال السيّد "دوشارلوس" عن اثنين أو ثلاثة من الشبّان المخنثين من أسرة "سان لو" أو من أصدقائه المقربين وقد ذكر هذا الأخير أسماءهم مصادفة، قال بلهجة تكاد تكون ضارية وتخالف تماماً بروده المعتاد: "إنّهم سفلة تافهون ." وفهمت أن ما كان يأخذه فوق كلّ شيء على شباب اليوم أنّهم يجاوزون الحدّ في التخنّث . كان يقول بازدراء: "إنّهم نساء حقيقيات" . ولكن أية عيشة ما كانت لتبدو مخنّثة إزاء تلك التي يودّ أن يعيشها الرجال والتي لم يجدها في يوم وافية العزيمة والرجولة ؟ (فقد كان هو نفسه، في رحلات يقطعها سيراً على الأقدام وبعد ساعات من الجري، يلقي بجسده اللاهب في الأنهار الجليدية .) وما كان يرتضي حتّى أن يضع رجل خاتماً واحداً في إصبعه.

يبد أنّ هذا التعنت في الرجولة لم يحل دون أن يتحلى بأرقّ أنواع الإحساس . فقد أجاب السيّدة "دوفيلباريزيس " التي كانت ترجوه أن يصف لجدّتي قصراً أقامت فيه السيّدة " دوسيفينييه " ثم أضافت إنها ترى شيئا من المغالاة الكلامية في هذا الغمّ الناجم عن مفارقة هذه السيدة المملّة المدعوّة "دوغرينيان":

-"ليس ما يبدو لي، على العكس، أكثر صحّة . ولقد كان ذلك على أيّة حال عصراً كانت تلك المشاعر مفهومة فيه أحسن الفهم . وإنّ ساكن "مونوموتابا" لدى "لافونتين" إذ يجري إلى منزل صديقه الذى ظهر له في نومه على شيء من الكآبة . والحمامة التي ترى أن أعظم الشرور هو غياب الحمامة الأخرى، ربمّا تبدّيا لك يا عمتي فى مثل غلواء السيّدة "دوسيفينييه" إذ لا تستطيع انتظار اللحظة التي ستنفرد فيها بابنتها . وما أجمل ما تقول لها حينما تفارقها: "إن هذا الفراق يولّد ألماً في نفسي أحسه على غرار ألم في الجسم والمرء في الغياب سخيّ بالساعات، فهو يتقدّم عبر زمن يصبو إليه ."

كانت جدّتي شديدة الغبطة لسماعها من يتحدّث عن هذه "الرسائل" بالضبط كما لعلها كانت فعلت، وتدهش أن يستطيع رجل إدراكها على أحسن وجه . وكانت ترى للسيّد "دوشارلوس" صنوفاً من النعومة والحساسيّة أنثويّة . وقلنا بعد ذلك فيما بيننا، عندما أضحينا وحدنا وتحدّثنا عنه كلانا، إنّه لابد خضع لتأثير عميق فرضته عليه امرأة هي أمّه، أو هي فيما بعد ابنته إن كان له أولاد. أمّا أنا ففكّرت في نفسي :"هي عشيقة"، إذ عدت إلى التأثير الذي بدا لي أن عشيقة "سان لو" مارسته عليه والذي يسمح لي أن أتبيّن إلى أيّ حدّ ترهف النساء مشاعر الرجال الذين يعيشون معهنّ.

وأجابت السيّدة "دوفيلباريزيس" قائلة: "من المرجّح أنّه لم يكن لديها، ما إن تصبح بالقرب من ابنتها، ما تقوله لها ."

-"بلى بالتأكيد . وإن اقتصر الأمر على ما كانت تدعوه "بالأمور الطفيفة جدّاً حتى يلاحظها غيري وغيرك" . وكانت على أية حال بالقرب منها . وهذا "لابروير" يقول لنا إن ذلك كل شيء: "أن تكون بالقرب ممن تحبّ ويستوي لديك أن تحدّثهم أو لا تحدّثهم ." وأضاف السيّد "دوشارلوس" بصوت حزين: "وإنّه لعلى حقّ، فتلك السعادة الوحيدة ؛ وإنّما الحياة . واأسفي، قد أسيء في تدبيرها إلى حدّ أنّك نادراً ما تتذوق تلك السعادة، وكانت السيّدة "دوسيفينييه" أقلّ من سواها مدعاة للرثاء، فقد سلخت قسماً كبيراً من حياتها بالقرب ممن كانت تحبّه."

- "لقد فاتك أنّ الأمر لا يتعلّق بالحبّ، بل بابنتها."

فعاد يقول بلهجة المطّلع، لهجة حازمة وتقارب أن تكون حاسمة: "ولكن ليس المهم في الحياة ما نحبّ بل أن نحبّ . وأن ما كانت تحسّ به السيّدة "دوسيفينييه" إزاء ابنتها يمكن أن يشبه

بالضبط الحبّ الجارف الذي وصفه "راسين" في مسرحيّة "أندروماك" أو مسرحية "فيدر" أكثر بكثير ممّا تشبهه العلاقات التي أقامها الفتى "سيفينييه" مع عشيقاته . وهو كذلك شأن حبّ هذا المتصوف أو ذاك لإلهه. وإنما تنجم الحدود الضيّقة جداً التي نرسمها حول الحبّ من جهلنا الكبير بالحياة فحسب."

وسأل "سان لو" عمّه بلهجة يشوبها ازدراء طفيف: " أتحبّ أندروماك وفيدر كثيراً ؟ "

فأجاب السيّد "دوشارلوس": "إن أيّة مأساة لـ "راسين" تطبعها الحقيقة أكثر من مسرحيّات السيّد "فيكتور هوغو" جميعها."

وهمس "سان لو" في أذني قائلاً: " الناس بالحقيقة شيء مروّع. يفضّلون "راسين" على "فيكتور هوغو" ، ذلك بالحقيقة أمر فظيع ! لقد اغتم بصدق لأقوال عمّه . ولكنّه يجد عزاء في أن يقول "بالحقيقة" وخصوصاً في قوله "فظيع" .

لم يكن السيّد "دوشارلوس" يكشف عن شعور رقيق يندر بالفعل أن يبدي مثله الرجال في تلك الأفكار حول الكآبة الناجمة عن العيش بعيداً عمّا يحبّه المرء (والتي لا بدّ حملت جدتي على أن تقول لي إن ابن شقيق السيّدة "دوفيلباريزيس" كان يدرك بعض الأعمال الفنيّة أفضل بكثير من عمّته وإنّ لديه على وجه الخصوص شيئاً يضعه فوق معظم جماعة النادي) . كان صوته نفسه، شأن بعض أصوات الكونترالتو التي لم تراعَ فيها إلى حدّ كافٍ الطبقة الوسيطة والتي يبدو غناؤها وكأنّه إنشاد ثنائيّ يتناوبه رجل شاب وامرأة شابّة، يتوقّف لحظة يعبر عن تلك الأفكار البالغة الرقّة على نوطات عالية ويتّخذ عذوبة غير متوقعة ويبدو كأنه يحوي فرق غناء من خطيبات وأخوات يسكبن حنانهن . على أنّ عشّ الفتيات الذي كان السيّد "دوشارلوس" سيتألم أشدّ الألم، أن يبدو، على الرغم من كرهه للتخنّث أيّاً كان، وكأنه يأويه في صوته فلم يكن يقتصر فيه على أداء المقطوعات العاطفيّة وتنغيمها . فغالباً ما كان يطرق الأسماع، فيما يتحدّث السيّد "دوشارلوس" . ضحكتهن الحادّة النديّة، ضحكة تلميذات داخليّات أو نساء مدلّلات يتدبّرن أمر قريبهنّ بصنوف من خبث النمّامات الداهيات .

فقد روى أنّ منزلاً سبق أن كان لأسرته ونامت فيه "ماري انطوانيت" وكانت حديقته من تصميم "لونوتر" أصبح الآن ملكاً لرجال المال الأثرياء من عائلة "إسرائيل" الذين اشتروه . "وإسرائيل، وهو الاسم الذي يتكنّى به هؤلاء الناس، إنما يبدو لي اسم جنس وعرق أكثر منه اسماً علماً . ولست تدري، فربمّا لم يتكنّ هذا الصنف من الناس بأسماء وأشير إليهم باسم الجماعة التي ينتمون إليها فحسب". وصرخ قائلاً: ليس في الأمر ما يضير ! أن يكون منزل آل "غير مانت" ويضحي ملكاً لعائلة "إسرائيل" !!! ويذكّرني ذلك بالغرفة التي في قصر "بلوا" والتي قال لي فيها الحارس الذي يقود الزوار: "ههنا كانت "ماري ستيورات" تقيم صلاتها وههنا أضع الآن مكانسي ." ولست أبغي بالطبع أن أعلم شيئاً عن هذا المنزل الذي لطّخ شرفه، وكذلك عن ابنة عمي "كلارا دو شيميه" التي

هجرت زوجها . ولكنّي أحتفظ بصوزة الأوّل ولا يزال على حاله، كما أحتفظ بصورة الأميرة حين لم يكن في عينيها الواسعتين من نظرات إلاّ لابن عمّي . وإنما تكتسب الصورة شيئاً من الكرامة التي تنقصها حينما تكفّ عن كونها نسخة عن الواقع وترينا أشياء لم تعد موجودة ." ثم قال لجدّتي: "بوسعي أن أزوّدك بواحدة منها بما أن هذا النوع من هندسة البناء يعجبك "، ولما رأى في تلك اللحظة أن منديله المطرّز الذي في جيبه تبرز منه حواشٍ ملونة واراه بحركة سريعة وعلى وجهه ملامح الذعر التي تعلو محيّا امرأة بالغة الاحتشام على غير براءة وهي تخفي مفاتن تحكم بفرط من التحفظ أنّها قليلة الاحتشام.

وعاد يقول: " تصوري أنّ هؤلاء الناس بدؤوا بتخريب حديقة "لونوتر"، وهو أمر مستنكر كتمزيق إحدى لوحات "بوسان" سواء بسواء . وكان ينبغي أن تودع عائلة "إسرائيل" السجن لذلك." ثم أضاف بعد لحظة صمت وهو يبتسم :" صحيح أنّ ثمة دونما شكّ أموراً أخرى كثيرة كان ينبغي من جرّائها أن يقيموا فيه ! إنك تتصورين على أيّة حال الأثر الذي تخلقه حديقة إنكليزية أمام هذا الطراز المعماريّ ."

وقالت السيّدة "دوفيلباريزيس": " ولكنّ البيت من طراز "تريانون" الصغير نفسه، وقد أمرت "ماري أنطوانيت" مع ذلك بإقامة حديقة إنكليزية فيه."

فأجاب السيّد "دوشارلوس": "حديقة تشوّه بالحقيقة واجهة "غابرييل" . ولعلّه الآن من الوحشيّة بالتأكيد هدم "المزرعة"، ولكني أشكّ مع ذلك أن تكون بهذا الصدد لإحدى نزوات السيّدة "إسرائيل" الروعة نفسها التي تلازم ذكرى الملكة."

وفي أثناء ذلك كانت جدّتي قد أشارت لي بأن أصعد للنوم على الرغم من إلحاح "سان لو" الذي كان قد ألمح في حضرة السيّد "دوشارلوس"، واعظيم خجلتي، إلى الكآبة التي كثيراً ما تنتابني في المساء قبل النوم والتي كان لابدّ أن يجدها عمّه أمراً يفتقر إلى الكثير من الرجولة . وتأخّرت بضع لحظات ثم ذهبت ودهشت أشدّ الدهشة حينما سمعت قليلاً بعد ذلك من يطرق باب غرفتي وإذ سألت من الطارق تناهى إليّ صوت السيد "دوشارلوس" وهو يقول بلهجة جافّة :

-"أنا شارلوس . هل يمكنني الدخول ياسيّد ؟" وعاد يقول باللهجة نفسها بعد ما أغلق الباب: "كان ابن أخي يروي منذ قليل، يا سيد، أنّك تشكو بعض الإزعاج قبل النوم وأنّك معجب من جهة أخرى بكتب "بيرغوت" . وبما أني أحمل في حقيبتي كتاباً له لا تعرفه على الأرجح فإنّي أجيئك به كي أساعدك على قضاء هذه الآونة التي تحسّ أنّك غير سعيد فيها ."

وشكرت السيّد "دوشارلوس" بانفعال وقلت له إنني خشيت على العكس أن يكون ما قاله "سان لو" عن انزعاجي لدى اقتراب الليل قد أظهرني أمام عينيه أكثر غباء ممّا كنت ."

فأجاب بنبرة أكثر عذوبة: "لا بالتأكيد . قد لا تملك مزايا شخصيّته، لست أدري، وما أقلّ من يملكون ! ولكنّك تملك الشباب إلى حين على الأقلّ وذلك إغراء على الدوام . وأفدح الحماقات

على أيّة حال، يا سيد، أن يجد المرء المشاعر التي لا يحسّ بها مضحكة أو معيبة . وإنّي أحبّ الليل وتقول إنّك تخشاه ؛ كما أحبّ الورود ولي صديق تصيبه الحمى من جرّاء رائحتها . أفتظنّ لذلك أني أحسبه أقل شأنا منّي ؟ إنّي أجهد في فهم كلّ شيء وأحترس من شجب أيّ شيء. لا تبالغ على أية حال في الشكوى، ولكنّي لن أقول إن صنوف الكآبة هذه ليست شاقّة فإنّي أعرف ما يمكن أن ينتابك من عذاب لأمور قد لا يفهمها الآخرون. ولكنّك قد أجدت على الأقل بصرف مودّتك إلى جدّتك. إنّك تراها كثيراً. ثمّ إنّه حنان مصرّح به وأعني حناناً يُرَدُّ لك، وما أكثر ما لايمكن أن نقول عنه ذلك!"

كان يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ينظر إلى هذه الحاجة ويرفع تلك. وكان يخيّل أنّ لديه أمراً ينبغي التصريح لي به ولكنّه لا يرى بأيّة عبارات يفعل. فأضاف قوله:

– " لديّ هنا كتاب آخر لِـ "بيرغوت" وسآتيك به " ؛ وقرع الجرس، فجاء خادم بعد حين، وقال السيّد " دوشارلوس" بلهجة متعالية: " هيّا ابحث لي عن رئيس الخدم، فليس ههنا سواه من يستطيع القيام بمهمّة على نحو ذكيّ." وسأل الخادم: " أهو السيّد "إيميه"، ياسيّدي؟" – " لست أعرف اسمه ؛ بلى . أتذكرّ أنّي سمعت من يدعوه " إيميه" . هيّا أسرع فإنّي مُعجل." وأجاب الخادم وهو يود أن يبدو على اطلاع بالأمر: "سيكون في الحال ههنا، فقد رأيته بالضبط في الأسفل." وانقضى بعض الوقت،وعاد الخادم . "إن السيّد " إيميه" نائم، ياسيّدي ؛ ولكنّي أستطيع القيام بهذه المهمّة." – " لا، عليك أن توقظه فحسب." – لا أستطيع يا سيّدي، فإنّه لاينام ههنا." – "دعنا وشأننا إذن." وقلت، بعدما ذهب الخادم: ولكنّك شديد الطيبة ياسيّدي، يكفيني كتاب واحد لِـ "بيرغوت" – " وهو ما يبدو لي على أيّة حال." كان السيّد "دوشارلوس" يمشي. وانقضت بضع دقائق على هذا النحو، ثم دار على نفسه بعد لحظات من التردّد واستدراكات عديدة وألقى إليّ بصوته الذي عاد فأضحى لاذعاً: "طابت ليلتك ياسّيد"، ومضى.

وبعد هذه العواطف السامية كلها التي سمعته يردّدها في ذلك المساء دهشت أشد في الغد الذي كان يوم رحيله أن سمعت السيّد " دوشارلوس" يقول لي، على الشاطئ بعد الظهر ولحظة كنت أزمع أن أستحمّ، وفيما كان يقترب منّي لينبئني بأنّ جدّتي في انتظاري حال خروجي من الماء، يقول، وهو يقرص رقبتي، بألفة وضحكة سوقيّتين:

– " ولكنّنا لا نبالي ألبتّة بجدّتنا، أليس كذلك، أيّها الوغد السافل؟"

– " كيف ذلك، إني أعشقها ياسيّدي!.."

فقال وهو يتراجع خطوة وبهيئة بالغة الجفاء: "مازلت شاباً ياسيّد ويجدر بك أن تفيد من ذلك لتتعلّم أمرين: أولهما أن تمتنع عن الإعراب عن مشاعر أكثر تلقائيةً من أن لا يُضْمِرهَا المرء، وثانيهما

ألاّ تنقضّ للإجابة على الأمور التي تقال قبل اكتناه مدلولها. فلو احتطت لنفسك منذ قليل لجنّبت النفس أن تبدو وكأنّك ترسل الكلام جزافاً كالطُّرش وأن تضيف بذلك إلى المراسي المطرزة على ثوب السباحة لديك أضحوكة ثانية. لقد أعرتك كتاباً لِ "بيرغوت" أنا بحاجة إليه، فاعمل على أن تبعث به إليّ في غضون ساعة على يد رئيس الخدم هذا الذي يحمل اسماً مضحكاً يفيض عنه [1] والذي أفترض أنّه ليس نائماً في هذه الساعة. لقد جعلتني أتنبّه إلى أنّي حدثتك مساء البارحة عن إغراءات الشباب قبل الأوان بكثير. ولعلّي كنت أدّيت لك خدمة أفضل بتنبيهك إلى طيشه وتناقضاته وقلّة إدراكه. آمل ياسيّدي ألا يكون هذا الحمّام البارد أقلّ فائدة لك من سباحتك. ولكن لاتظلّ هكذا دون حراك فقد تصاب بالبرد. إلى اللقاء ياسيّدي."

وليس من شكّ أنّه أسف لهذه الأقوال. فقد وصلني بعد وقت قليل الكتاب الذي أعارني إياه والذي بعثت به إليه لا عن طريق "إيميه" الذي كان في "عطلة" . بل عن طريق عامل المصعد – وقد جُلّدَ بسختيان أنزل في صفحته في قطعة من الجلد المحزّز تمثّل في بروز خفيف غصناً من زهر آذان الفأر.

بعد ما ذهب السيّد "دوشارلوس" تسنّى لنا أخيراً، أنا و "روبير" أن نذهب لتناول طعام العشاء في منزل " بلوك" . وأدركت أثناء ذلك الاحتفال الصغير أنّ الحكايات التي كان يجدها رفيقنا مضحكة بأيسر السبل إنّما كانت حكايات للسيّد "بلوك" الوالد وأن الرجل "الغريب تماماً" كان أبداً واحداً من أصدقائه يراه على هذا النحو. هنالك عدد من الناس ننظر إليهم بإعجاب في طفولتنا، فوالد أشدّ ظرفاً من باقي الأسرة، وأستاذ يفيد في نظرنا من الميتافيزيقا التي يكشفها لنا، ورفيق أطول باعاً منّا (مثلما سبق أن كان "بلوك" بالنسبة إليّ) يحتقر "موسّيه" كاتب "الرجاء باللّه" في حين لا نزال نحبّه، وحينما نكون قد بلغنا مرحلة العم "لوكونت" أو "كلوديل" لا يثير حماسه من بعد سوى:

"في" سان بليز" وفي "زويكا"
كنت، كنت مطمئنّ النفس"...

ويضيف إليها:

"بادوفا" مكان شديد الجمال
فيه دكاترة في الحقوق عظام...
ولكنيّ أفضّل الـ "بولنتا"...
وتمرّ "التوباتيلا"
في معطفها الأسود الطويل

ولا يحفظ من "الليالي" جميعها سوى هذا المقطع:

(١) اسم رئيس الخدم Aime` أي المحبوب أو الحبيب.

"في الهافر أمام الأطلسيّ
وفي البندقيّة، في الليدو القبيح
حيث يُقبل البحر الأدرياتي الشاحب
ليموت فوق عشب أحد القبور" .

ذلك أنّنا، بالنسبة إلى من نبدي به إعجاباً وثقة، نجمع له ونورد بإعجاب أشياء أدنى بكثير من تلك التي لو انصرفنا إلى عبقريتنا الخاصّة لرفضناها بقسوة، مثلما يستخدم كاتب في رواية كلمات وشخصيّات بحجّة أنها حقيقية وهي تشكّل في المجموعة الحيّة على العكس وزناً زائداً جزءًا لاشأن له. إن رسوم "سان سيمون" التي خطّها دون أن يعجب بنفسه، لا ريب في ذلك، رائعة، أمّا اللمحات التي يوردها على أنها جذّابة على لسان ظرفاء عرفهم فقد ظلّت قليلة الشأن أو أصبحت متعذّرة الفهم. ولعلّه كان يترفّع عن استنباط ما يورده على أنّه بالغ الرقة أو زاهي الألوان على لسان السيّدة "كورنويل" أو لويس الرابع عشر، والأمر تجدر ملاحظته على أيّة حال لدى كثيرين غيره ويحتمل تفسيرات مختلفة يكفي أن نستبقي منها الآن هذا التفسير وقوامه أننا، في الذهنيّة التي "نُرَاقِبُ" بها، في مستوى أدنى بكثير من ذاك الذي نكون فيه حينما نبتكر.

كان هنالك إذن داخل رفيقي "بلوك" قطعة من "بلوك" الوالد يتخلّف بها هذا الأخير عن ابنه مقدار أربعين عاماً فيروي طرائف سخيفة ويضحك منها داخل صديقي بقدر ما كان يفعل "بلوك" الوالد الخارجيّ الحقيقي، إذ كانت تنضاف إلى الضحكة التي يطلقها هذا الأخير، ولا ينسى أن يردّد الكلمة الأخيرة مرتين أو ثلاثاً كي يحسن الجمهور تذوّق حكايته. الضحكة الصاخبة التي لم يكن يفوت الابن أن يحيّي بها حكايات والده. وهكذا كان "بلوك" الشاب، بعدما يتمّ له قول الأمور الأكثر ذكاء، يبرز المكتسبات التي أخذها عن أسرته فيروي لنا للمرّة الثلاثين بعض النكات التي كان "بلوك" الوالد يستخرجها (في الوقت الذي يستخرج فيه سترته الرسمية) في الأيام الاحتفاليّة فحسب التي كان "بلوك" الشاب يصطحب فيها أحداً يجدر به أن يفتنه: كأحد أساتذته أو زميل له يحوز سائر الجوائز أو أنا و"سان لو" في ذلك المساء. يقول مثلاً: "ناقد حربيّ طويل الباع استنتج بطريقة علميّة، مدعماً استنتاجه بالبراهين. لأيّة أسباب محتّمة سوف يُهْزَمُ اليابانيون وينتصر الروس في الحرب الروسيّة اليابانية" أو "إنّه رجل بارز يعدّونه ماليّاً كبيراً في الأوساط السياسيّة وسياسيّاً كبيراً في الأوساط الماليّة." كانت هذه الحكايات قابلة التبديل مع واحدة عن البارون "دوروتشيلد" وثانية عن السيّد "روفوس إسرائيل"، وهما شخصيّتان يجري وضعهما على المسرح بأسلوب ملتبس يمكن أن يحملك على الاعتقاد بأنّ السيّد "بلوك" قد عرفهما معرفة شخصيّة.

وقد وقعت بنفسي في الفخّ وحسبت بدوري، من جرّاء الطريقة التي تحدّث بها "بلوك" الوالد عن "بيرغوت". أنّه كان في عداد أصدقائه القدامى. ولكنّ السيّد "بلوك" لم يكن يعرف مشاهير الناس إلا "بدون أن يعرفهم" لأنّه شاهدهم من بعيد في المسرح أو الشوارع. وكان يتصوّر علاوة

على ذلك أن هيئته واسمه وشخصيّته لم تكن مجهولة لديهم وأنهم كثيراً ما يضطرّون إذ يلمحونه أن يقاوموا رغبة خفية في المبادرة إلى تحيته. إن رجال المجتمعات الراقية لا يفهمون أهل المواهب والفن الأصيل على نحو أفضل لأنهم يعرفونهم ويستقبلونهم على موائد العشاء. ولكنك حين تسنى لك أن تعيش قليلا في المجتمعات الراقية فإن غباء أهلها يحملك على أن تتمنى بشدة لو تعيش في الأوساط المتواضعة التي لايعرف المرء فيها إلا "دون أن يعرف" وعلى أن تفترض فيها الكثير من الذكاء. وكنت أزمع أن أتبين ذلك وأنا أتحدث عن "بيرغوت".

لم يكن "بلوك" الوحيد الذي يلقى نجاحاً لدى شقيقاته اللواتي لا يكفّ عن الصياح بهن مغمغماً وهو يغوص برأسه في قصعته فكان يضحكهن بذلك حتى لتدمع عيونهن وكن على أية حال قد تبنّين لغة شقيقهن التي كن يتكلمنها بطلاقة كما لو أنها كانت إلزامية والوحيدة التي يمكن أن يستخدمها أناس أذكياء. فحينما وصلنا قالت الكبرى لواحدة ممن يصغرنها :"امضي وأبلغي والدك الحكيم وأمك الموقرة" فقال لهن "بلوك" :"أيتها الكلبات، أقدم لكن الفارس "سان لو" ذا الرماح السريعة الذي جاء لبضعة أيام من "دونسيير" ذات المنازل التي من حجر صقيل والغنية بالجياد "ولما كان سوقياً بقدر ما كان مثقفاً فقد كان الخطاب يُختتم عادة بمزاج أقل هوميروسية:" هيا أقللن من فتحة أرديتكن ذات المشابك الجميلة، فما هذا التصنع الذي أرى؟ إنه ليس والدي على كل حال"
وتتهاوى الآنسات "بلوك" في عاصفة من الضحك، وقلت لشقيقهن مدى ما أولاني من مسرات إذ أوصاني بقراءة "بيرغوت" الذي تعشقت كتبه.

كان لـ "بلوك" الأب الذي لا يعرف "بيرغوت" إلا من بعيد وحياة "بيرغوت" إلا من أقاويل عامة الناس. كان له طريقة غير مباشرة كذلك في الاطلاع على مؤلفاته بالاستعانة بأحكام ظاهرها أدبي.
كان يعيش في عالم الأمور التقريبية الذي نشيد فيه الفراغ ونطلق الأحكام في الضلال ولا يقلل انعدام الصحة والكفاءة فيه من الثقة بالنفس ،بل العكس صحيح. وإنها لمعجزة الاعتزاز بالذات الخيّرة، فإذ يتيسر للقليل من الناس علاقات لامعة ومعارف عميقة يحسب أولئك الذين تعوزهم أنهم الأوفر نصيباً لأن نظرة المدرجات الاجتماعية تجعل كل صف يبدو هو الأفضل بالنسبة إلى من يشغله ويرى أن أعيان القوم الذين يسميهم ويذمهم دون أن يعرفهم ويبدي رأيه فيهم ويحتقرهم دون أن يفهمهم هم أقل حظوة منه وأسوأ قسمة ومدعاة للرثاء وحتى في الحالات التي لا يكفي فيها تكثير الحسنات الشخصية الزهيدة عن طريق الاعتزاز بالذات لتضمن لكل واحد كمية السعادة التي تلزمه والتي تفوق الكمية الممنوحة للآخرين. فإن الحسد ههنا ليسد هذا الفارق. صحيح أن الحسد إن تمّ التعبير عنه بجمل زاخرة بالازدراء فلا بد من ترجمة"لا أريد التعرف به" بـ"لا أستطيع التعرف به" وهو المعنى العقلي:أما المعنى الذي يداخله الهوى فهو بالتأكيد "لا أريد التعرف به". وإننا لنعلم أن ذلك غير صحيح ولكننا لا نقوله مع ذلك بداعي الخدعة المحضة، بل نقول لأننا هكذا نشعر ويكفي ذلك لإزالة المسافة الفاصلة أي لبلوغ السعادة.

وإذ تُفسح المركزية الذاتية على هذا النحو لكل إنسان أن يبصر العالم المتنضد تحته وهو ملك عليه، فقد كان السيد"بلوك" يسمح لنفسه أن يكون ملكاً لا يرحم حينما يبصر وهو يتناول الشكولاته

في الصباح توقيع "بيرغوت" في أسفل مقالة في الصحيفة التي لم يكد يفتحها بعد، فيجود عليه متعالياً بمقابلة يختصرها ويصدر حكمه ويخص نفسه بالمتعة المريحة التي قوامها أن يردد بعد كل بلعة من الشراب الغالي:"بيرغوت" هذا أصبح متعذّر القراءة. كم يمكن أن يكون هذا الحيوان مزعجاً حتى ليبلغ بك أن تلغي اشتراكك، ما أشدّ تعقيده! وأي حشو فارغ!" ويتناول من جديد "عروساً" بالزبدة.

كانت أهميّة "بلوك" الوالد قد امتدت قليلا خارج دائرة رؤيته الخاصة. فقد كان أولاده بادئ الأمر يعدّونه رجلاً متفوقاً. والأولاد ينزعون دوماً إمّا إلى انتقاص والديهم وإمّا إلى إعلاء شأنهم، والوالد أبداً أفضل الآباء بالنسبة إلى الابن الصالح حتى بمعزل عن جميع الأسباب الموضوعية الداعية إلى الإعجاب به. على أن هذه الأخيرة لم تكن غائبة تمام الغياب لدى السيّد "بلوك" الذي كان متعلماً رقيقاً ودوداً بالنسبة إلى ذويه. كانوا في أقرب الأسر يزدادون أنساً به بقدر ما تدور حفلات العشاء والسهرات العائلية، في تفتّت الحياة البورجوازية، حول أشخاص يقال عنهم إنّهم محبّبون ومسلّون ولعلّهم في المجتمع لا يصادفون نجاحا أكثر من عشيّتين، فيما نحكم على الناس في المجتمع الراقي" وفق معيار غير معقول على أيّة حال وحسب قواعد خاطئة ولكنّها ثابتة بالمقارنة مع مجموع الأنيقين الآخرين. وفي هذا الوسط الذي لا وجود فيه أخيراً لأمجاد الأرستقراطيّين الزائفة فإنمّا يستبدلون بها امتيازات أكثر لا معقوليّة. من ذلك أن تشابهاً مزعوماً في شكل الشاربين والأنف المرتفع كان. فيما يخصّ أسرته وحتى درجة بعيدة جدّاً من القرابة. يجعلهم يدعون السيّد "بلوك".بـ دوق أومال المزيّف "(أوليس الذي يعتمر

في دنيا"خدم المنتديات" قبّعته بالورب ويرتدي سترته مشدودة عليه ليظهر بـ "فيما يعتقد بمظهر الضابط الأجنبي. أو ليس نوعاً من الشخصيّة بالنسبة إلى رفاقه؟)

كان التشابه من أكثرها غموضاً. على أنّه يخيّل إليك أنّه بمثابة لقب. كانوا يردّدون قولهم: "بلوك؟ أيّ بلوك؟ دوق أومال؟" مثلما يقال: "الأميرة مورا؟ أيّة أميرة؟ ملكة نابولي؟" وهنالك عدد من العلامات الطفيفة الأخرى كان يضفي عليه في النهاية في نظر أبناء العم أناقة مزعومة. كان السيّد "بلوك" الذي لم يبلغ به الحال حدّ اقتناء عربة يستأجر من الشركة بعض الأيّام عربة مكشوفة بجوادين ويجتاز بها غابة بولونيا وقد استلقى بالعرض مسترخيّاً يضع إصبعين على صدغه وأخريين تحت ذقنه، ولئن كان الذين لا يعرفونه يرون بسبب ذلك أنّه"صاحب مشكلات" فقد كانوا يوقنون في الأسرة أن العم "سالمون" ربّما استطاع، فيما يخصّ الأناقة، أن ينافس"غرامون"- كادروس" كان من أولئك الأشخاص الذين تنعتهم زاوية أخبار المجتمع في صحيفة"الراديكالي" حينما توافيهم المنيّة وبسبب مائدة مشتركة مع رئيس تلك الصحيفة في أحد مطاعم الشوارع بـ"الوجه الذي يعرفه الباريسيون تمام المعرفة ". وقد قال "بلوك" لي ولـ"سان لو" إن "بيرغوت" يعلم تمام العلم لماذا كان. هو السيّد "بلوك" لا يحيّيه وإنّه كان يتجنب نظراته حالما يلمحه في المسرح أو الندوة. وكست الحمرة وجه "سان لو"، لأنه فكر أن هذه الندوة لا يمكن أن تكون نادي السباق الذي سبق

أن كان والده رئيساً له. وكان لابدّ أن تكون من جهة أخرى ندوة مغلقة نسبيّاً إذ قال السيّد "بلوك" إنّ "بيرغوت" ما عاد يُستقبل اليوم فيها على حدّ زعمه. ولذلك سأل "سان لو" وهو يرتجف خوفاً من "أن يقلّل من شأن الخصم" ،إن كانت تلك الندوة ندوة الشارع الملكيّ" التي كانت أسرة "سان لو" تعدّها "دون المستوى" وحيث يعلم أنهم يستقبلون بعض اليهود فأجاب السيّد "بلوك"بلهجة لامبالية فيها اعتزاز وخجل:"لا" إنها ندوة صغيرة ولكنّها أوفر إمتاعاً وتدعى"ندوة الحمقى" ويطلقون فيها أحكاماً قاسية على الرأي العام. وسأل "بلوك"الابن والده كيما تتوافر له فرصة لكذبة مشرّفة: أليس السيّد "روفوس إسرائيل" رئيساً لها؟" دون أن يرتاب أنّ رجل المال هذا لم يكن يتمتع في نظر "سان لو" بما يتمتع به من مهابة في نظر ذويه. ولم يكن السيّد "روفوس"إسرائيل" بالحقيقة في "ندوة الحمقى" بل واحد من موظّفيه، بيد أنّه كان على علاقة طيّبة بربّ عمله وكان في حوزته لذلك بطاقات تعود لرجل المال الكبير فيقدّم واحدة منها للسيّد "بلوك" حينما يسافر هذا الأخير على خطّ كان السيدّ "روفوس" مديره، الأمر الذي كان يحمل "بلوك" الوالد على أن يقول:"سأمرّ على الندوة لأطلب توصية من السيّد "روفوس". وكانت البطاقة تمكّنه من أن يبهر رؤساء القطارات. وأبدت الآنسات "بلوك" اهتماماً أكبر بـ" بيرغوت" فعدن إليه بدلاً من موالاة الحديث حول "الحمقى"، وسألت الصغرى أخاها بلهجة من أكثرها جدّيّة إذ كانت تظنّ أن ليس في العالم للدلالة على أرباب المواهب من تعابير غير تلك التي يستخدمها :"أتراه" كدعاً " مدهشاً حقاً "بيرغوت" هذا؟ أهو من فئة "الدراويش " العظام، من"الكدعان" أمثال "فيلييه"أو "كاتول"؟ وقال السيّد "نسيم بيرنار": "لقد التقيت به في عدّة اجتماعات عامّة إنّه أخرق وضرب من شخصيّة شليميل[1]." لم يكن في هذا التلميح إلى أقصوصة "شاميّسو" ما يضير إلى حدّ بعيد، ولكنّ هذا النعت "شليميل" كان من ضمن تلك اللغة المحليّة التي نصفها ألماني والنصف يهوديّ كانت تفتن السيّد "بلوك" في استعمالها بين الأقربين ولكنّما يجدها سوقيّة وفي غير محلّها في حضرة الغرباء ورمى لذلك عمّه بنظرة قاسية وقال "بلوك": "إنّه رجل موهبة " وقالت شقيقته بلهجة رصينة كأنمّا لتقول إنّ لي عذري في هذه الشروط: "آه!" وقال"بلوك" الوالد بازدراء: "جميع الكتّاب أصحاب موهبة." وقال ابنه وهو يرفع شوكته ويغضّن عينيه بلهجة مستهزئة شيطانيّة: "بل يبدو أنّه يزمع ترشيح نفسه للأكاديمية "فأجاب"بلوك" الوالد الذي لم يكن يبدو أنّه يحتقر الأكاديمية احتقار ابنه وبناته :" دعك من هذا، فليس يملك الحجم اللازم " - "والأكاديمية منتدى على كلّ حال، و"بيرغوت" لا يتمتع بأيّة ضمانة" يقول عمّ السيّدة "بلوك" الغنيّ". وهو شخص وديع لايعرف الأذيّة. ولعل نسبة "بيرنار" كانت كافية لتوقظ وحدها مواهب التشخيص لدى جدّي. إلا أنها ربمّا بدت لا تنسجم إلى حدّ كاف مع وجه كان يبدو وكأنما جيء به من قصر "داريوس" وأعيد تركيبه على يد السيّدة "ديولافوا" لولم يسهم اسم "نسيم"، وقد اختاره هاوٍ رغب في أن يكلّل هذا المحيّا الذي من مدينة "سوس" بإكليل شرقي. في أن يرفرف من فوقه جناحا ثور برأس إنسان من خورساباد. ولكن السيّد "بلوك" لم يكن يكفّ عن شتم عمّه إمّا لأن البساطة المستسلمة لمن كان هدف مضايقاته كانت تستثيره وإمّا لأنّ الدارة يدفع أجرتها السيّد "نسيم بيرنار" فيبغي المستفيد أن يُظهر أنّه يحتفظ باستقلاله وأنّه على وجه

---

(١) schelemihl بطل رواية للكاتب "شاميسو" (Chamisso)باع ظله للشيطان في مقابل المال ثم عاد فاسترده بعد عذاب طويل.

الخصوص لا يحاول عن طريق المصانعات أن يضمن لنفسه ميراث الغنيّ المقبل*. صاح السيّد "بلوك" قائلا، فيما يحني السيّد "نسيم بيرنار" حزيناً موق صحته لحية جعدة كالتي للملك "سارغون": بالطبع حينما تتوافر ثمة حماقة سخيفة تقولها أمكننا التأكد أنك لن تدعها تفلت. ولعلك كنت أوّل من يلحس قدميه لو كان حاضراً هنا."وكان رفيقي يشبه كثيراً شقيق جدّه منذ أن أضحت لحيته في مثل تجعيد تلك وزرقتها.

وقال السيّد "نسيم بيرنار" لِ" سان لو" :"ويحك، أأنت ابن المركيز"دومارسانت" ؟ لقد عرفته تمام المعرفة " وظننت أنّه يبغي أن يقول "عرفته" بالمعني الذي كان "بلوك" يعرف فيه "بيرغوت"، أي بمجرّد الرؤية. ولكنّه أضاف قائلا :"كان والدك أحد أصدقائي الحميمين " وفي أثناء ذلك كست وجه "بلوك" حمرة شديدة. وبدا والده شديد الانزعاج فيما تضحك الآنسات "بلوك" وهنّ يكتمن ضحكتهنّ. ذلك أنّ الميل إلى التباهي، وقد كتمه "بلوك" الوالد وأبناؤه، قد ولد لدى السيّد "نسيم بيرنار" عادة الكذب المتواصل. فقد كان السيد "نسيم بيرنار" على سبيل المثال يأمر أثناء سفره أن يجيئه خادمه في الفندق على نحو ما ربمّا يفعل بلوك" الوالد، بجميع صحفه إلى قاعة الطعام وفي منتصف الغداء حينما يجتمع الكلّ هناك ليتبيّنوا تماماً أنّه يسافر وبصحبته خادم. إلا أن العم كان يقول للناس الذين يرتبط معهم بصداقة إنّه عضو في مجلس الشيوخ،الأمر الذي ما كان ابن الشقيق ليُقدم عليه ألبتّة وعبثاً يوقن أنهم سيعلمون ذات يوم أنّ اللقب منتحل إلا أنّه لا يستطيع في تلك اللحظة نفسها أن يقاوم رغبته في اتخاذه. كان السيّد "بلوك" يتألم كثيراً من جرّاء أكاذيب عمّه وجميع ما تسبّب له من إزعاجات. فقال بصوت خافت لِ"سان لو" :"لا تعره انتباهك فإنّه كثير الكذب" الأمر الذي زاد من اهتمامه إذ كان شديد الاهتمام بنفسيّة الكذّابين وأكمل القول رفيقنا"بلوك" :"بل وأكذب من "أوذيسيوس" الذي من "إيتاكا" مع أنّ "أثينيه" دعته أكذب الناس." وصاح السيّد "نسيم بيرنار" قائلا:"ويحي! ماكنت أتوقع لوالدك تناول طعام العشاء مع ابن صديق! ولكن لديّ في باريس صورة لوالدك ورسائل منه ما أكثرها كان يدعوني على الدوام "عمّي" ولم يدر أحد سبب ذلك. كان رجلاً فاتناً متألّقاً. وإني أذكر عشاء في منزلي في "نيس"حضر فيه "ساردو"و"لا بيش"و""أوجييه" وتابع السيّد "بلوك"الوالد بلهجة ساخرة: و"موليير" و"راسين"و"كورنيي" وأتمّ ابنه التعداد إذ أضاف قائلا :"و" بلوتوس"و"ميناندروس" "وكاليذاسا" وقطع السيد"نسيم بيرنار" روايته فجأة وقد جرح شعوره وظلّ صامتاً حتىّ نهاية العشاء فحرم نفسه عن زهد متعة عظيمة.

(*) كان هذا الأخير مجروح الشعور أن تتم معاملته بهذه الفظاظة في حضرة رئيس الخدم، فهمس بجملة متعذرة الفهم كنت تميز فيها فقط: "حيما يحضر"الميسخوريس" وميسخوريس تعني في الكتاب المقدس خادم الله وكان آل"بلوك" يستخدمون اللفظة فيما بينهم للدلالة على الخدام ويبدون على الدوام اغتباطا بذلك لأن اليقين بأنه لن يفهمهم لا المسيحيون ولا الخدام أنفسهم إنما كان يبعث في نفس السيد"نسيم بيرنار" والسيد "بلوك" حماسة لميزتهم الخاصة المضاعفة في كونهم "أسياداً"و "يهوداً" ولكن سبب هذا الارتياح الأخير كان ينقلب سبب استياء عندما يكون ثمة أناس وكان يرى "بلوك"، حيما سمع عمه يقول"ميسخوريس" أنه يبالغ في إبراز جانبه الشرقي، مثلما تغتاظ امرأة لعوب دعت بعض صديقاتها مع جماعة راقية إن هن ألمحن إلى مهنهن كنساء لعوبات أو استخدمن كلمات غير لائقة ولذلك فبدلا من أن يخلف رجاء عم "بلوك" في صدره بعض الأثر لم يستطع هذا الأخير، وقد خرج عن طوره، أن يملك نفسه من بعد، فلم يضع بعدها فرصة واحدة يسب فيها عمه التعيس

وقال "بلوك": "سان لو" ياذا الخوذة البرونزيّة عد فخذ قليلاً من هذه البطّة ذات الفخذين المكتنزين شحماً، اللذين سكب عليهما مضحّي الطيور الداجنة الشهير العديد من أكواب النبيذ الأحمر".

كان من عادة السيّد "بلوك"، بعدما طلع بالمعتّق من الحكايات عن السيّد "روفوس إسرائيل" وآخرين إكراماً لصديق مرموق أن يبتعد، وقد أحس أنّه هزّ مشاعر ابنه إلى درجة الحنان كي لا يهون في عيني الفتى الصغير بيد أن السيّد "بلوك"كان يضيف إن توفر سبب رئيسي تماماً، كحاله مثلاً حينما نجح ابنه في امتحان "الأكريكاسيون"، كان يضيف إلى مجموعة الطرائف المعتادة هذه النكتة الساخرة التي يخصّ بها بالأحرى أصدقاءه الشخصييّن والتي أحس"بلوك" الأصغر باعتزاز شديد إذ رآه يرويها لأصدقائه هو:" ذنب الحكومة لايغتفر، فإنّها لم تستشر السيّد"كوكلان"! وقد أعلن السيّد "كوكلان" أنّه مستاء" (كان السيّد "بلوك"يفخر بأنّه رجعيّ ويحتقر جماعة المسرح.)

إلا أن الحمرة كست وجوه الآنسات "بلوك" وشقيقهنّ حتى بلغت أطراف الآذان لشدّة ما أصابهم من تأثر حينما أمر "بلوك" الوالد كيما يبدو ملكي التصرّف حتى النهاية إزاء زميلي ابنه أن يحضروا الشامبانيا وأعلن بلهجة لا مبالية أنّه عمل كيما يزيد من بهجتنا على حجز ثلاثة مقاعد للعرض الذي كانت تقدّمه في العشيّة نفسها في الكازنيو فرقة أوبرا هزليّة، كان يأسف أن لم يستطع الحصول على مقصورة، فقد شغلت جميعها. كثيراً ما جربها على أيّة حال، والمرء أفضل حالاً في الصالة. ولئن كان عيب الابن، يعني ما كان يحسبه الابن خافياً على أعين الآخرين، لئن كان الفظاظة، فعيب الوالد كان البخل. ولذلك تمّ تقديم نبيذ عاديّ فوّار في قنّينة بمثابة شامبانيا كما تمّ استئجار مقاعد في الأمكنة المخصّصة للعامّة التي تساوي نصف القيمة وذلك بمثابة مقاعد في الصالة، وقد أدخل في روعه بأعجوبة بفضل تدخّل عيبه السماوي أن لن يلاحظ الفارق أحد لا على المائدة ولا في المسرح (حيث كانت جميع المقصورات خالية) وحينما سمح لنا السيّد "بلوك" أن نغمس شفتينا في أقداح عريضة يزيّنها ابنه باسم"أكواب عميقة الجنبات" دعانا لمشاهدة لوحة كان يعشقها إلى حدّ أنه كان يحملها معه إلى "بالبيك" وقال لنا إنّها من أعمال "روبنس". وسأله "سان لو" بسذاجة إن كانت تحمل توقيعاً فأجاب السيّد"بلوك" وقد كسا الاحمرار وجهه أنّه اقتطع التوقيع بسبب الإطار، الأمر الذي لا يرتدي أيّة أهميّة بما أنّه لا يبغي بيعه. ثم صرفنا بسرعة ليغوص في "الجريدة الرسمية" التي كانت أعدادها تزحم المنزل والتي أضحت قراءتها ضرورية له، فيما قال لنا، "من جرّاء وضعه البرلماني"الذي لم يزّودنا بأيّة إيضاحات حول طبيعته.الحقّة وقال لنا "بلوك":"آخذ منديلاً لأن ريح الجنوب وريح الشمال تتنافسان فوق البحر الكثير الأسماك وإن تأخرنا بعد العرض فلن نعود إلا في تباشير الفجر ذي الأنامل الأرجوانية". ثم سأل "سان لو"قائلا، حينما أصبحنا في الخارج (وارتجفت خوفاً إذ سرعان ما أدركت أن "بلوك" إنّما كان يتحدث عن السيّد"دوشارلوس"بهذه اللهجة الساخرة): "بالمناسبة، من كان ذاك الكراكوز العظيم الذي كان

يرتدي بدلة عاتمة والذي شاهدتك تأخذه في نزهة على الشاطئ صبيحة قبل البارحة؟" "فأجاب "سان لو"مغضباً :"إنّه عمّي " وكانت "الزلّة"للأسف بعيدة عن أن تبدو في نظر "بلوك"أمراً ينبغي تجنّبه فأخذ يتلوّى من الضحك :"تهانّي، كان ينبغي أن أحزر إنّه رائع الأناقة وله سحنة مضحكة جدّاً لِخرَف من أفضل طراز" وردّ "سان لو" بحنق: "إنّك مخطئ أتم الخطأ، فهو شديد الذكاء." - "يؤسفني ذلك إذ هو إذ ذاك أقلّ كمالاً وددت كثيراً على أيّة حال لو أتعرف إليه فإني متأكد أنّني قد أسطّر روايات مناسبة على دراويش من هذه الطينة، وهذا إن مرّ أمامك يقتلك ضحكاً. ولكني قد أهمل الجانب الكاريكاتوري في السحنة التي أضحكتني، عذري إليك، فترة طويلة. والجانب في أساسه مبتذل في نظر فنان مولع بجمال الجُمل الشكليّ، وقد أبرز الجانب الأرستقراطيّ لدى عمّك الذي يخلف فيك باختصار القول أثراً ضخماً ويدهشك حالما تنقضي الضحكة الأولى من جراء أسلوب رفيع جدّاً" ثم قال وهو يوجّه حديثه إليّ في هذه المرّة :"لكن ثمة أمراً في مجال مختلف تماماً أريد أن أسالك عنه وفي كل مرّة نجتمع فيها ينسيني إله من ساكني" الأولمبوس" السعداء، ينسيني تماماً أن أسالك هذه المعلومات التي كان يمكن أن تفيدني من قبل أعظم الفائدة وسوف تفيدني بالتأكيد. فمن هي تلك المرأة الجميلة التي التقيتك بصحبتها في حديقة الحيوانات يرافقها سيّد أحسب أنّي أعرفه بالشكل وفتاة طويلة الشعر؟" وكنت قد لاحظت تماماً أنّ السيّدة "سوان"لم تكن تتذكّر اسم"بلوك" بما أنّها ذكرت لي اسماً آخر ووصفت صديقي بأنّه تابع لوزارة لم أفطن ألبتّة مذ ذاك أن أستعلم إن كان دخلها. ولكن كيف كان يمكن لِـ"بلوك" الذي طلب، حسبما قالت لي حينذاك، التعرف إليها أن يجهل اسمها؟ لقد أصابني من الدهشة ما ظللت معه فترة دون إجابة فقال لي:"تهانيّ في جميع الأحوال، فلا بدّ أنّك لم تحسّ بالملل معها، لقد سبق أن التقيت بها بضعة أيّام قبل ذلك في قطار "الحزام"، وقد تكرّمت بفكّ حزامها لصالح خادمك وإنّي ما قضيت ألبتّة فترات في مثل روعتها، وكنّا نزمع اتّخاذ جميع التدابير لنلتقي ثانية حينما دفعت قلة الذوق شخصاً كانت تعرفه إلى الصعود ما قبل المحطة الأخيرة" ولم يبدُ أن الصمت الذي لزمته قد راق"بلوك"، فقال لي"كنت آمل أن أعرف بفضلك عنوانها وأن أبادر فأتذوّق في منزلها عدّة مرّات في الأسبوع متع"إيروس[1]" العزيزة على قلوب الآلهة، ولكنّي لا ألح بما أنّك اخترت التكتم بشأن محترفة وهبتني ذاتها ثلاث مرّات على التوالي وبأكثر الطرق تفنناً بين باريس و"مطلع النهار". سوف أعود فألقاها بالتأكيد في هذه العشيّة أو تلك."

وذهبت لزيارة"بلوك" بعد ذلك العشاء. ورد لي زيارتي ولكنّي كنت قد خرجت، وشاهدته "فرانسواز" يسأل عنّي ولم تكن بعد بالمصادفة قد رأته حتّى ذاك مع أنّه جاء إلى "كومبريه". ولم تعلم لذلك سوى أن أحد السادة الذين كنت أعرفهم قد مر ليراني وتجهل لأيّ سبب، وكان لباسه عاديّا ولم يخلّف لديها انطباعاً كبيراً. ولكن عبثاً كنت أعلم أن بعض أفكار"فرانسواز" الاجتماعية

(١) إله الحب لدى قدماء اليونان

سوف تظلّ دوماً مستغلقة عليّ، وكانت ربّما تقوم في جزء منها على خلط بين الكلمات وأسماء أخذ بعضها مرّة وإلى الأبد محلّ بعضها الآخر. إلا أني لم أستطع أن أمنع نفسي، أنا الذي منذ زمن بعيد عن طرح أسئلة على نفسه في تلك الحالات، عن البحث عمّا يمكن أن يمثله اسم"بلوك" من أمر عظيم في نظر"فرانسواز". ذلك أني ما إن قلت لها إن ذلك الشابّ الذي أبْصَرتْهُ كان السيّد "بلوك" حتى ارتدّت بضع خطوات إلى الوراء لشدّة ما كان ذهولها وخيبتها عظيمين، وصاحت بهيئة المصعوق: "كيف ذلك، أهذا هو السيّد "بلوك"؟ كما لوانبغى أن تملك شخصيّة بمثل تلك المهابة هيئة "تكشف لك" في الحال أنّك في حضرة أحد عظماء الأرض، وبطريقة من يجد أن شخصيّة تاريخيّة ليست على مستوى شهرتها كانت تردّد بلهجة منفعلة تحسّ فيها بالنسبة إلى المستقبل بذور ارتيابيّة شاملة :"كيف ذلك، أهذا هو السيّد"بلوك" ! حقاً لا يخيّل إليك ذلك حينما تراه" كانت تبدو وكأنّها تحقد عليّ لذلك كأنما ضخّمت لها في يوم شخص "بلوك". ولكنّها تكرّمت وأضافت: "حسن، مع كلّ ما يمكن أن يكون عليه السيّد "بلوك" فإن باستطاعة سيّدي أن يقول إنّه يضاهيه تماماً"

ووقعت لها بعد قليل بشأن"سان لو" الذي كانت تعبده خيبة من نوع آخر ومدّة أقلّ:فقد عرفت أنّه جمهوري. لقد كانت "فرانسواز" ملكية على الرغم من أنّها تقول، وهي تتحدّث مثلاً عن ملكة البرتغال بقلّة الاحترام تلك التي تمثّل لدى الشعب أقصى الاحترام: "أميليا، أخت فيليب". فأما أن يقف مركيز، وقد بهرها في صفّ الجمهوريّة فأمر لا يبدو حقيقيّاً في نظرها من بعد. وكانت تبدي التبرّم نفسه كما لو أني أعطيتُها علبة حَسِبتَهْا من ذهب فشكرتني عليها بفيض من العاطفة ثمّ كشف لها جواهري أنّها من طلاء. وسحبت في الحال تقديرها لِ" سان لو" ولكنّها أعادته إليه بعد قليل إذ فكّرت أنّه لا يستطيع، وهو المركيز "دوسان لو"، أن يكون جمهوريّاً وأنّه كان يتظاهرفحسب بداعي المصلحة لأن الأمر يمكن أنْ يعود عليه، مع الحكومة القائمة، بالنفع الكبير. ومنذ ذلك اليوم توقّف جفاؤها إزاءه وحنقها عليّ. كانت تقول حينما تتحدّث عن "سان لو" "إنّه مراء"، تقولها بابتسامة عريضة طيّبة يدرك منها المرء تمام الإدراك أنّها أخذت تقدره من جديد بقدرٍ ما فعلت في اليوم الأوّل وأنّها غفرت له.

ولكنّ صدق"سان لو" وتجرده كانا على العكس مطلقين، وإنّما ذلك النقاء الأخلاقي الكبير الذي إذ لا يستطيع أن يشبع ذاته كليّاً داخل شعور أناني كالحبّ ولا يلاقي من جهة أخرى في نفسه الاستحالة التي لديّ على سبيل المثال، استحالة العثور على غذاء روحيّ في غير ذاته، إنّما هو الذي كان يجعله قادراً حقاً على الصداقة بقدر ما كنت عاجزاً عنها.

ولم تكن "فرانسواز" في ضلال أقلّ حول"سان لو" حينما تقول إنّه يبدو هكذا وكأنّه لا يزدري الشعب ولكنّ ذلك غير صحيح، فما كان عليك إلا أن تراه حينما كان يغتاظ من حوذيّه. لقد اتّفق بالفعل لـ ِ"روبير" بعض الأحيان أن يؤنّب ببعض الخشونة ولكنّها لديه أقلّ برهاناً على الشعور

بالفارق بين الطبقات منها على المساواة بينها. فقد قال لي بمثابة ردّ على اللوم الذي كنت أوجّهه إليه لأنه عامل ذاك الحوذي بخشونة:" ولكن لماذا أتصنّع التحدّث إليه بأدب؟أو ليس مساوياً لي؟ أو ليس منّي في مثل قرب أعمامي وأولاد أعمامي منّي؟ تبدو وكأنّك ترى أنّه يجدر بي معاملته باحترام معاملة الأدنى!" وأضاف باشمئزاز:"إنّك تتكلم كالأرستقراطيين".

ولئن كان ثمّة بالفعل طبقة يحسّ إزاءها بالكراهية والتحيّز فإنّما كانت الأرستقراطيّة وإلى حدّ الاعتقاد بصعوبة بتفوّق شخص من المجتمع الراقي بقدر ما يعتقد بسهولة بتفوّق رجل الشعب. وإذ كنت أحدّثه عن أميرة"لوكسمبور" التي التقيتها مع عمّته قال لي" :

- "إنّها بلهاء كمثيلاتها جميعهن، وهي على أيّة حال قريبتي إلى حدّ ما."

ولما كان متحيّزاً ضدّ الجماعة التي تتردّد عليه فنادراً ما كان يرتاد المجتمع الراقي وكان الموقف المستخفّ أو العدائي الذي يتخذه فيه يزيد لدى جميع الأقربين من أهله الغمّ الناجم عن علاقته بامرأة من"دنيا المسرح"، علاقة ينعون عليها أنّها مشؤومة بالنسبة إليه وأنّها نمت لديه على وجه الخصوص روح الانتقاد تلك وروح التمرّد، وأنها "أفقدته سواء السبيل" بانتظار أن يفقد مكانته تماماً. ولذلك كان الكثير من الرجال السطحيّين في حيّ"سان جيرمان" لا يرحمون حينما يتحدّثون عن عشيقة "روبير" كانوا يقولون: "المومسات يؤدّين وظيفتهنّ وهنّ كغيرهن في ذلك سواء بسواء. أمّا هذه فلا ! لن نغفر لها! فقد أساءت كثيراً إلى شخص نحبّه" لم يكن بالتأكيد أوّل من شُدّت قدمه إلى قيد. ولكن الآخرين كانوا يلهون لهو رجال المجتمع وظلّوا يفكرون في السياسة وفي كلّ شيء تفكير أهل المجتمع. أما هو فقد كانت أسرته تجده "ناقماً". ولم تكن تتبيّن أنّه فيما يخصّ العديد من شباب المجتمع الراقي إنّما تكون عشيقتهم في الغالب معلّمهم الحقيقي، والعلاقات التي من هذا القبيل مدرسة الأخلاق الوحيدة التي يطّلعون فيها على ثقافة رفيعة ويتعلّمون فيها المعارف غير المغرضة، ولولا ذاك لظلّوا غير مثقّفي العقول قساة في صداقاتهم يفتقرون إلى اللين والذوق. والمرأة حتى في طبقات الشعب الدنيا(التي كثيراً ما تشبه الطبقات العليا فيما يخصّ البذاءة) تميل، إذ هي أرقّ شعوراً وأشدّ إرهافاً وأوفر فراغاً، إلى بعض اللباقات وتحترم بعض مواقع الجمال في الشعور والفنّ وتضعها، وإن هي لم تدركها، فوق ما كان يبدو مشتهى كأكثر ما يكون لدى الإنسان من مال ومكانة .وسواء أتعلّق الأمر بعشيقة أحد روّاد النوادي الشباب كـ"سان لو" أم بعشيقة عامل شاب(فالكهربائيون مثلاً يعدّون اليوم في صفوف الفروسيّة الحقّة) فإن عشيقها ينظر إليها بالكثير من الإعجاب والاحترام حتى لا يعمّمها على ما تحترمه هي ذاتها وتعجب به، وبذلك ينقلب سلّم القيم بالنسبة إليه، فإنّها بسبب جنسها نفسه ضعيفة وتعتريها اضطرابات عصبيّة لا تفسّر. ولعلّها كانت تثير سخرية هذا الشابّ القويّ لدى رجل، وحتى لدى امرأة غيرها، لدى امرأة هو ابن أخيها أو ابن عمّها ولكنه لا يستطيع رؤية من يحبّها تتعذّب. فالنبيل الشابّ الذي له عشيقة شأن "سان لو" إنّما يتعوّد حينما يمضي لتناول العشاء معها في الملهى أن يحمل في جيبه مسحوق الناردين الذي قد تحتاجه وأن يأمر الخادم بحزم ودون سخرية أن يهتمّ بإغلاق الأبواب دونما ضجّة وألا يضع طحالب رطبة

على المائدة كي يجنّب صديقته ذلك الضيق الذي لم يشعر به في يوم فيما يخصّه والذي يؤلّف في نظره عالماً خفياً علّمته أن يؤمن بحقيقته، الضيق الذي يرثي له الآن دون أن يحسّ لذلك بحاجة إلى معرفته والذي سيرثي له حتى عندما ستحسّ به أخريات غيرها. إن عشيقة "سان لو"(شأن الرهبان الأوائل في العصر الوسيط فيما يخصّ المسيحيّة) قد علمته الإشفاق على الحيوانات لأنها كانت تتعشقها، فلا تتنقّل ألبتّة دون كلبها وترنجاتها وببغاواتها، وكان "سان لو" يسهر عليها بعناية الأم ويعدّ الذين لا يحسنون إلى الحيوانات من صنف البهائم. وإنّ ممثّلة، أو ما كان على حدّ زعمها من هذا القبيل، كتلك التي كانت تعيش معه – سواء أكانت ذكيّة أم لا، وهو أمر كنت أجهله– إنّما جنّبته مخاطر السنوبيّة وشفته من الطيش إذ جعلته يجد مخالطة نساء المجتمع مملّة ويرى من باب المشقّة وجوب الذهاب إلى أمسية. ولئن شغلت العلاقات الدنيويّة بفضلها حيّزاً أقلّ في حياة عشيقها الشاب، فقد علّمته عشيقته أن يسبغ على صداقاته نبلاً ورقّة مشاعر في حين كان الغرور أو المصلحة سيوجّهانها مثلما ستطبعها الخشونة لو كان مجرد رجل منتديات. فسرعان ما كانت تميّز، بغريزة المرأة لديها وإذ كانت تقدّر أكثر من سواها لدى الرجال بعض صفات الرقّة التي ربمّا أنكرها بدونها أو استخفّ بها، ذاك الذي من بين أصدقاء"سان لو" يحمل له مودّة حقّة وتفضله. وكانت تفلح في حمله عنوة على الإحساس بجميل هذا الأخير، وعلى أن يعرب له عن ذلك، وعلى ملاحظة الأشياء التي تشيع السرور في نفسه وتلك التي تبعث فيها الغمّ. وأخذ"سان لو" بعد قليل، دون أن تكون به حاجة من بعد إلى أن تنبّهه، يهتمّ بكلّ ذلك، وفي "بالبيك" التي لم تكن حاضرة فيها وبالنسبة إليّ أنا الذي لم تره قطّ والذي ربّما لم يحدّثها بعد عنه حتى في رسائله، كان يغلق من تلقاء ذاته نافذة عربة استقلّها ويبعد الأزهار التي تؤذيني، وحينما اضطرّ لدى رحيله أن يودّع عدّة أشخاص في الآن نفسه تدبّر أمره لمفارقتهم قبل الأوان بقليل كي يظلّ وحده معي وآخر الكلّ ويقيم هذا الفارق بينهم وبيني ويعاملني معاملة تختلف عن الآخرين. كانت عشيقته قد فتحت عقله على اللامرئي وأدخلت شيئاً من الجدّية في حياته وضروباً من الرقّة في فؤاده، إلاّ أن كلّ ذلك قد خفي على الأسرة الباكية التي كانت تردّد قولها: "سوف تقتله تلك العاهرة وإنها بانتظار ذلك تلطّخه بالعار". والصحيح أنّه كان قد فرغ من جني كامل الفائدة التي يمكن أن تمنحه إيّاها، وما كانت الآن إلا سبباً في عذاب لا ينقطع، ذلك أنّها أخذت تكرهه وتعذبه. فقد شرعت ذات يوم تجده غبياً ومضحكاً لأن الأصدقاء الذين اتّخذتهم في صفوف كتّاب وممثّلين شباب قد أكّدوا لها أنّه كذلك فكانت تردّد بدورها ما قالوا بهذه الحماسة وانعدام الحذر اللذين يبديهما المرء في كلّ مرّة يستقي فيها من الخارج ويتبنى آراء وعادات كان يجهلها كليّاً. كانت تعلن بملء الخاطر، شأن أولئك الممثّلين، أنّ الهوّة بينهما يتعذّر احتيازها لأنّهما من جنس مختلف وأنّها من أهل الفكر وهو عدوّ الفكر بالمولد ومهما زعم في ذلك. كان ذاك الرأي عميقاً في نظرها فتحاول إثباته في أكثر أقوال عشيقها تفاهة وفي أقلّ حركاته. ولكن حينما أقنعها الأصدقاء أنفسهم علاوة على ذلك أنّها إنّما تهدم، فيما يقولون، الآمال الكبرى التي بشرت بها، وذلك في صحبة لا تلائمها، وأن عشيقها سوف يؤثر عليها في نهاية المطاف، وأنّها تخرّب مستقبلها الفني في العيش معه، فقد انضافت إلى احتقارها لـ "سان لو" الكراهية نفسها التي تعمرها لو أنّه أصرّ على أن ينقل إليها مرضاً قاتلاً. كانت تلتقي به

أقلّ ما يمكن فيما توالي تأجيل لحظة القطيعة النهائية والتي كانت تبدو لي قليلة الاحتمال إلى حدّ بعيد. كان"سان لو" يقدم في سبيلها على تضحيات يبدو من العسير معها أن تلقى رجلاً آخر يقبل الإقدام على مثلها، ما لم تكن فاتنة الجمال (ولكنه لم يشأ في يوم أن يريني صورتها قائلاً لي:"إنّها ليست بادئ الأمر على جمال كبير، ثم إنّها لا تنجح في الصور إذ هي صور آنيّة أخذتها بنفسي بآلة "الكوداك"وربمّا زوّدتك بفكرة خاطئة عنها"). ولم يخطر لي أن ميلاً جارفاً إلى الشهرة، حتى عندما لا تتوافر لنا الموهبة، وأن التقدير، مجرّد التقدير الخاصّ، الذي يغدقه أشخاص يتمتعون بالمهابة بالنسبة إلينا، يمكن أن يؤلفا (وربّما لم تكن تلك حال عشيقة"سان لو") حتى في نظر امرأة لعوب، دوافع أكثر حسماً من متعة كسب المال. أمّا "سان لو" الذي لم يكن يحسب عشيقته، دون أن يدرك تمام الإدراك كلّ ما كان يجول في خاطرها، صادقة تماماً في مآخذها الظالمة عليه ولا في عهود الحبّ الأبديّ التي تقطعها، فقد كان يوافيه بعض الأحيان شعور بأنها سوف تهجره حينما تستطيع ذلك وقد رفض لهذا السبب، تدفعه دونما شك غريزة البقاء في حبّه الذي ربمّا فاق"سان لو" نفسه بُعْدَ نظر، وإذ يبدي من جهة أخرى دهاء عمليا كان يتّفق لديه وأكثر اندفاعات القلب زخماً وأقلّها تبصّراً، رفض أن يشكلّ لها رأس مال واقترض مبلغاً ضخماً كي لا يعوزها شيء ولكنّه لا يسلّمها إيّاه إلا يوماً بعد يوم. وليس من شكّ أنّها كانت تنتظر، إن هي فكّرت حقاً بهجرانه، تنتظر بأعصاب باردة أن تكون "جمعت أرباحها "، الأمر الذي ربمّا اقتضى ولا شكّ المبالغ التي يجود بها"سان لو" وقتاً قصيراً جدّاً ولكنّه على أيّة حال وقت يُمنح علاوة ليمدّ في سعادة صديقي الجديد أو في شقائه.

لقد بدأت هذه الفترة المأساوية في علاقتهما- التي بلغت الآن النقطة الأكثر حرجاً والأشدّ قسوة بالنسبة إلى "سان لو"، فقد حظرت عليه البقاء في باريس حيث يغيظها وجوده وأرغمته على قضاء عطلته في "بالبيك" بالقرب من ثكنته- بدأت ذات مساء في منزل عمّة "سان لو" الذي حصل منها على إذن بأن تجيء صديقته لتلقي أمام العديد من المدعوين مقاطع من مسرحيّة رمزية سبق أن مثّلتها مرّة على مسرح طليعي وجعلته يقاسمها الإعجاب الذي تحسّ به هي نفسها.

ولكنّها حينما ظهرت، تحمل زنبقة في يدها وترتدي لباساً تم نقله عن "أمة الرّب"[١] وسبق أن أقنعت "روبير" أنّه "نظرة فنّ" حقيقيّة، استقبلتها لدى دخولها إلى ذلك الحفل المؤلّف من أرباب منتديات ودوقات ابتسامات أحالها أسلوب الإنشاد الرتيب وغرابة بعض الكلمات وترددها الكثير ضحكاً متّصلا جرى كتمه بادئ الأمر ثم أضحى لا يقاوم إلى حدّ أنّ المنشدة المسكينة لم تستطع الاستمرار وفي الغد اتجهوا بالإجماع باللائمة على عمّة"سان لو" لأنّها سمحت لفنّانة مضحكة إلى هذا الحدّ أن تظهر في منزلها ولم يكتمها أحد الدوقة المشهورين أنّ عليها إلقاء التبعة على نفسها إن هي جرّت عليها الانتقاد:

(١) Ancilla Domini هي قول العذراء للملاك إذ بشرها بأنها ستصبح والدة المسيح واللوحة للرسام "فرانجيليكو"

-" عجباً اهم لا يقدّمون لنا مشاهد بهذه القوة! ولو توافرت لهذه المرأة الموهبة، ولكنّها ليست على شيء منها ولن تكون على شيء في يوم. يا اللّه ! ليست باريس بمثل الغباء الذي يقولون وليس المجتمع مؤلفاً من بلهاء فحسب. لقد ظنّت هذه الآنسة الصغيرة بالطبع أنّها تذهل باريس، ولكنّ باريس أعسر من أن يدهشها ذلك، وثمّة على أيّة حال أمور لن يحملونا على ازدرادها".

أمّا الفنّانة فقد خرجت وهي تقول لـ"سان لو":

- "لدى أيّة بلهاوات، لدى أيّة فاجرات فاقدات التهذيب لدى أيّ أوغاد رميت بي؟ ثم إني أفضل أن أقول لك إنّه ما من رجل من الحاضرين إلا وغمز لي بعينه وداعبني بقدمه ولأنّني رفضت محاولاتهم حاولوا الثأر لأنفسهم".

وقد أحالت تلك الأقوال نفور"روبير" من أرباب المجتمعات الراقية كراهية أكثر عمقاً وأشدّ مرارة يبعثها في نفسه على نحو خاص أقل من يستحقونها من أقارب متفانين أوفدتهم الأسرة وجهدوا في إقناع صديقة"سان لو" بأن تقطع علاقتها به، وهو المسعى الذي كانت تعرضه وكأنّه من وحي حبّهم لها. ومع أن"روبير" كفّ في الحال عن التردد عليهم فقد كان يظنّ حينما يكون بعيداً عن صديقته كما هي حاله الآن، أنّهم يفيدون من ذلك، هم أو غيرهم ليعيدوا الكرّة وربمّا نالوا حظوة لديها وحينما كان يتحدث عن الماجنين الذين يخدعون أصدقاءهم ويحاولون إفساد النساء ويجهدون في الإتيان بهن إلى بيوت الدعارة كان وجهه ينضح ألماً وكراهية.

- "لعلّني أقتلهم ويبكّتني ضميري أقلّ ممّا يفعل لكلب هو على الأقلّ حيوان لطيف وصادق ومخلص إليك من هم أهل للمقصلة أكثر من الأشقياء الذين قادهم إلى الجريمة الفقر وقسوة الأغنياء

"كان يقضي الجزء الأكبر من وقته في إرسال كتب وبرقيات إلى عشيقته وفي كلّ مرة كانت تجد فيها عن بعد، فيما تمنعه عن المجيء إلى باريس، وسيلة للخصام معه كنت أعلم ذلك من ملامح وجهه المهلهلة.ولما كانت عشيقته لا تقول له ألبتّة ما تأخذه عليه، ويرتاب هوأنها إن لم تكن تقوله فلأنّها ربمّا لا تعرفه وأنّها ضاقت به ذرعاً فحسب، ودّ مع ذلك لو يحصل على إيضاحات، فكان يكتب إليها:" قولي لي أيّ سوء فعلت، فإني على استعداد للاعتراف بأخطائي"، إذ كان من نتائج الحزن الذي يحسّ به اقتناعه بأنّه أساء التصرّف.

إلاّ أنّها كانت تجعله ينتظر انتظاراً لا حدود له جوابات خالية إلى ذلك من المعنى، ولذلك كنت أرى"سان لو" يعود من البريد مقطب الجبين على الدوام تقريباً وفي الغالب صفر اليدين، وكان الوحيد مع "فرانسواز" الذي يذهب من بين نزلاء الفندق جميعهم ليجلب رسائله أو ليحملها بنفسه لنفاد صبر العاشق فيما يخصّه ولحذر الخدام فيما يخصّها، (وكانت البرقيّات تضطرّه إلى السير مسافات أطول.)

حينما قالت جدّتي بهيئة تفيض غبطة، بضعة أيّام بعد العشاء في منزل أسرة "بلوك"، إن"سان لو" سألها منذ قليل إن كانت لا تودّ أن يصورها قبل أن يغادر"بالبيك"، وحينما رأيت أنّها ارتدت لذلك أجمل ملابسها ولا تزال مترددة بين عدّة تسريحات أحسست بشيء من الحنق لهذه الفعلة الصبيانية التي أدهشتني كثيراً فيما يخصها. وقد بلغ بي الأمر أن أتساءل إن لم أكن أخطأت بشأن جدّتي وإن كنت لا أضعها في مكانة عالية جداً وإن كانت بمثل ما ظننت على الدوام من تجرد فيما يخص شخصها وإن كانت لا تتصف بما كنت أحسبه غريباً عليها أكثر الغرابة، عنيت الدلل.

ولكنّي تركت لهذا الاستياء الذي يسبّبه لي مشروع الجلسة الفوتوغرافية، ولاسيّما الارتياح الذي تبدو جدّتي وكأنّها تحسّ به من جرائها، أن يستبين على نحو كاف كيما تلاحظه"فرانسواز" وتبادر عن غير قصد إلى مضاعفته وهي تسمعني مقالة عاطفية مشفقة لم أشأ أن أبدو وكأنّي أوافقها عليه .

-"آه! يا سيدي، سيدتي المسكينة هذه التي ستغتبط أيّما غبطة أن يؤخذ رسمها، كما أنّها ستضع القبّعة التي دبرّتها لها صديقتها العتيقة "فرانسواز"، دعها تفعل يا سيّدي."

وأقنعت نفسي أنّني لم أكن قاسياً في هزئي من رقة مشاعر "فرانسواز" إذ أتذكّر أن أمّي وجدّتي، وهما المثالان اللذان أحتذيهما في كل شيء، غالباً ما فعلا كذلك إلاّ أن جدّتي قالت لي وقد لاحظت أنّني أبدو متكدراً، إنّها تتخلّى عن جلسة الرسم هذه إن أمكن أن تزعجني. ولم أشأ ذلك وأكّدت لها أني لا أرى في الأمر ما يضير. وتركتها تتزين ولكنّي حسبت أنّني أبدي نفاذ بصيرة وقوة بإسماعها بعض أقوال ساخرة جارحة تهدف إلى إبطال أثر المتعة التي يبدو أنّها تجدها في أخذ رسمها حتى أنّي إن أجبرت على مشاهدة قبّعة جدّتي الرائعة فقد أفلحت على الأقل في أن أزيل عن وجهها ملامح الغبطة تلك التي كان ينبغي أن تسعدني والتي تبدو لنا، مثلما يتّفق ذلك في الأغلب ما دام الذين نحبّهم أفضل ما يكون الحبّ لا يزالون على قيد الحياة، بمثابة المظهر المغيظ الذي يتجلى به عيب وضيع أكثر منها بمثابة صيغة السعادة الثمينة التي نودّ لو تتوافر لهم على يدنا، كان مزاجي المعكر ناجمًا على وجه الخصوص عن أن جدتي بدت في ذلك الأسبوع وكأنّها تتهرب منّي وأنني ما استطعت أن أختصّ بها نفسي لحظة واحدة لا في النهار ولا في العشيّة. فحينما كنت أعود بعد الظهر لأنفرد بها قليلاً يقولون لي ليست هناك أو هي أغلقت على نفسها مع "فرانسواز" لمشاورات طويلة لا يؤذن لي بتعكيرها. وحينما كنت أفكر، بعدما قضيت السهرة خارجاً مع "سان لو"، في طريق عودتي باللحظة التي سأستطيع فيها لقاء جدّتي ومعانقتها، عبثاً كنت أنتظر أن تنقر على الحائط تلك النقرات الطفيفة التي تقول لي أن أدخل لأتمنى لها ليلة سعيدة فلا أسمع شيئاً. وكنت أستلقي في النهاية على سريري وفي نفسي بعض الحقد من أنّها تحرمني بما تبدي من لامبالاة جديدة تماماً عّولت عليها كثيراً وأظلّ أصغي، خافق الفؤاد شأني في أيّام طفولتي، إلى الجدار الذي لا ينطق بكلمة، ثم أنام بين دموعي.

اضطرّ "سان لو" في هذا اليوم، شأنه في الأيام السابقة، أن يذهب إلى"دونسيير" حيث ستدعو الحاجة إليه الآن على الدوام حتى نهاية ما بعد الظهيرة بانتظار أن يعود إليها نهائياً. وأسفت ألاّ

يكون في "بالبيك"، فقد رأيت نساء شابات بدا لي من بعيد أنّهن فاتنات ينزلن من العربات وتدخل بعضهنّ إلى قاعة الرقص في الكازنيو والأخريات إلى دكان بائع المثلجات وكنت في واحدة من فترات الشباب تلك الخالية من حبّ معيّن، الشاغرة، التي يتوق المرء فيها إلى "الجمال" ويبحث عنه ويراه في كل مكان- كما العاشق المرأة التي شغف بها- فإن مكّنتنا علامة حقيقية واحدة -القليل الذي نتبيّنه من امرأة نراها من بعيد أومن الخلف -من إسقاط"الجمال"أمامنا فإننا نتخيّل أننا عرفناها ويخفق فؤادنا ونحث الخطى ونظل دوماً على نصف اليقين بأنّها كانت هي بشرط أن تكون المرأة قد توارت، ولسنا ندرك خطأنا إلا إذا استطعنا اللحاق بها

كان يستهويني بأيّة حال، بتزايد أوجاعي، أن أبالغ في قيمة أبسط صنوف المتعة بسبب المصاعب نفسها التي تعترضني لبلوغها. فالنساء الأنيقات، كنت أحسب أنّي ألمحهن في كل مكان لأنّني ما كنت أقربهنّ في أي مكان، لمزيد من التعب إن كنت على الشاطئ ومزيد من الخجل إن كنت في الكازنيو أو في دكان حلوانيّ. مع أنّي كنت أود أن أعلم، إن أنبغي أن أموت عمّا قريب، كيف كانت عن كثب وفي الواقع أجمل فتيات يمكن أن تجود بهنّ الحياة، وإن كان من سيفيد من هذا الجواد آخر غيري أو حتى لا أحد(فلم أكن أتبيّن أن رغبة في الامتلاك تكمن في أساس فضولي) ولعلني كنت أجرؤ على الدخول إلى قاعة الرقص لو كان"سان لو" معي. وإذ كنت وحيداً مكثت أمام الفندق الكبير فحسب أنتظر لحظة الذهاب للقاء جدّتي حينما أبصرت خمس بنيّات أوستاً، ولا يزلن بعد في آخر السدّ تقريباً يضطربن كبقعة غريبة، يتقدّمن مختلفات بالمظهر والمسلك عن سائر الأشخاص الذين تعودنا رؤيتهم في "بالبيك" بقدر ما يمكن أن تبدو زمرة من طيور النورس جاءت من حيث لا ندري وتقوم بخطى معدودة على الشاطئ - تلحق المتخلفات بالأخريات مرفرفة بأجنحتها- بنزهة يبدو هدفها غامضاً بالنسبة إلى المستحمين الذين تبدو وكأنّها لا تراهم بقدر ما هو محدد تحديدا واضحا بالنسبة إلى عقلها كطيور.

كانت إحدى هاتيك المجهولات تدفع بيدها دراجتها أمامها، وتمسك اثنتان أخريان بعصيّ للعبة الغولف، وكان لباسهن يختلف عن لباس فتيات"بالبيك" الأخريات اللواتي كانت من بينهن من يمارسن الألعاب الرياضية دون أن يتخذن لذلك لباساً خاصاً.

كانت الساعة تلك التي تجئ فيها السيّدات والرجال في كل يوم للقيام بجولتهم على السد فيتعرضون لنيران المنظار الذي لا رحمة فيه والذي كانت تثبته عليهم، وكأنّهم ينقلون عيباً تصر على معاينة أدق تفاصيله، زوجة رئيس المحكمة الأول، وهي تجلس باعتزاز أمام كشك الموسيقى وسط صف المقاعد الرهيب هذا الذي سيبادرون بأنفسهم عمّا قليل إلى الجلوس فيه بعدما تحولوا من ممثلين إلى نقّاد ليحكموا بدورهم على الذين سيمرون أمامهم. كان جميع هؤلاء الناس الذين يسيرون بمحاذاة السد وهم يترجحون بشدة كما لو كان سطح سفينة (إذ لا يفلحون في رفع ساق دون أن يحركوا في الوقت نفسه ذراعهم ويحولوا عيونهم ويعيدوا توازن أكتافهم ويعوضوا بحركة ترجح في الجانب المقابل الحركة التي قاموا بها في الجانب الآخر، ودون أن تحتقن وجوههم)

ويتظاهرون بأنّهم لا يرون الأشخاص الذين يسيرون إلى جانبهم أو يجيئون في الاتجاه المعاكس ليوهموا أنّهم لا يهتمون بهم ولكنّهم يختلسون النظر إليهم كي لا يقع لهم أن يصدموهم، كانوا على العكس يتعثرون بهم ويصطدمون بهم لأنهم كانوا بالمقابل موضع الاهتمام الخفيّ نفسه من جانبهم، الاهتمام الذي يخفونه تحت ستار التعالي الظاهر نفسه، لأنّ حبّ الجمهور -والخشية منه بالتالي- هو أحد أقوى الدوافع لدى الناس جميعهم إمّا لأنّهم يحاولون إعجاب غيرهم أو إدهاشهم وإمّا ليعربوا لهم عن احتقارهم: فالاعتزال لدى المتوحّد، حتى الكلي منه الذي يدوم إلى آخر الحياة إنّما ينطلق في الغالب من حب غير متزن للجمهور يتغلب على أي شعور آخر إلى حدّ أنّه يفضّل، إذ لا يستطيع أن يفوز لدى خروجه بإعجاب البوابة والمارة والحوذي المتوقف، أن لا يروه ألبتة وأن يتخلى لذلك عن كل نشاط يستوجب الخروج خارجاً.

أمّا البنيّات اللواتي شاهدتهن فقد كن يمضين قدماً، وسط جميع هؤلاء الناس الذين كان بعضهم يلاحقون فكرة ولكنّهم يفضحون حركتها إذ ذاك بتقطع في الحركات وشرود في النظرات يقل الانسجام فيهما كما في ترنح جيرانهم المشبوه، يمضين دون تردد ولا توتّر إذ ينفذن بالضبط الحركات التي يبغينها وقد اكتسب كلّ من أعضائهنّ استقلالاً تاماً بالنسبة إلى سواه واحتفظ الجزء الأكبر من أجسامهن بهذا الجمود الذي يبهرنا إلى حد بعيد لدى راقصات الفالس المجيدات ولم يعدن بعيدات عنّي، وكنّ كلهنّ على جمال مع أنّ لكلّ واحدة قسمات تختلف تمام الاختلاف عن الأخريات ولكنّي كنت أبصرهنّ، والحق يقال، منذ لحظات قليلة ودون أن أجرؤ على التحديق إليهنّ، الأمر الذي لم يتسنّ لي بعد معه إضفاء شخصية خاصة على أيّة منهنّ. وفيما عدا واحدة كان أنفها المستقيم وبشرتها السمراء يجعلانها مختلفة وسط الأخريات كمثل ملك مجوس عربيّ القسمات في لوحة من لوحات عصر النهضة، كنت لا أعرفهن إلا بزوج من العيون القاسية العنيدة الضاحكة لهذه، وبوجنتين اتخذ فيهما اللون الوردي تلك الصبغة النحاسيّة التي تحمل إليك صورة زهر الجيرانيوم حتى تلك الملامح لم أكن بعد قد ألصقت أياً منها على نحو لا ينفصم على واحدة من الفتيات دون أخرى. وحينما كنت أرى (حسب الترتيب الذي تنتشر فيه هذه المجموعة الفتية وهي رائعة لأنها تتجاور فيها أكثر المظاهر اختلافاً وأن جميع الألوان فيها تتقارب ولكنّها غامضة على غرار موسيقى لا أفلح في فصل جملها والتعرف إليها لحظة تمرّ أمامي، وكنت ميّزتها ثم نسيتها في الحال) شكلاً بيضوياً أبيض وعينين سوداوين وعينين خضراوين تبرز أمامي لم أكن أدري أهي نفسها التي سبق أن فتنتني منذ قليل ولا أستطيع ردّها إلى هذه الفتاة التي تسنى لي أن أفضلها عن الأخريات وأتعرّفها. كان ذلك الغياب داخل عيني للحدود التي سأقيمها عمّا قليل بينها ينشر عبر جماعتهن تموجاً متناسقاً وانبعاثاً مستمراً لجمال مبهم جماعي متنقل.

ربّما لم تكن المصادفة وحدها في الحياة هي التي اختارت جميع هاتيك الصديقات على هذا القدر من الجمال كيما تجمع بينهنّ.فربّما كانت تلك الفتيات (اللواتي كان مظهرهن كافياً للكشف عن طبيعتهن الجريئة الطائشة القاسية) بالغات الحساسية إزاء كل ما يثير السخرية وإزاء كلّ قباحة، وعاجزات عن التأثر بما كان من قبيل الفكر أو الأخلاق، فألفين أنفسهن بين أترابهن يحسسن

إحساساً طبيعياً بالنفور إزاء جميع اللواتي كان الخجل والارتباك وغياب اللباقة وما سوف يسمّينه"بالنمط الثقيل"يفضح لديهن ميولاً فكريّة أو عاطفية فاستبعدنهنّ، فيما ارتبطن على العكس بعلاقة صداقة مع أخريات يدفعهن إليهن مزيج من الجمال والرشاقة والأناقة الجسمية،وهي الصيغة الوحيدة التي يستطعن فيها تمثّل الصراحة التي تتّسم بها طبيعة فاتنة والوعد بساعات طيّبة يقضينها سويّة.وربّما كانت الطبقة التي ينتمين إليها والتي ما كنت لأستطيع تحديدها قد بلغت في تطورها ذلك الحدّ الذي ينتج فيه وسط اجتماعي شبيه بمدارس النحت المتناسقة الخصبة التي لاتبحث بعد عن الملامح المعذبّة، على نحو طبيعي وبغزارة،أجساماً جميلة بسيقان جميلة وخصور جميلة ووجوه تنضح عافية وراحة بمظهر رشيق ماكر،وذلك إمّا بفضل الإثراء وتوافر أوقات الفراغ، وإما بفضل العادات الرياضيّة الجديدة التي انتشرت حتى في بعض الأوساط الشعبيّة ورياضة بدنية لم تنضف بعد إليها رياضة الفكر.أفلم تكن نماذج من الجمال البشري تتسم بالنبل والهدوء تلك التي كنت أراها أمام البحر وكأنّها تماثيل تقف في وجه الشمس على أحد شواطئ اليونان؟

كنّ يبدين،وكأنّما حكمن من داخل سربهن الذي كان يتقدّم بمحاذاة السد كمذنب مضيء أن الجمهورالمحيط بهنّ تؤلفه كائنات من جنس آخر وما كان حتى عذابه ليوقظ في نفوسهن شعوراً بالتضامن،كأنهن لايرينه ويجبرن الأشخاص المتوقفين على الابتعاد على نحوما يفعلون لدى مرور آلة أفلتت ولا ينتظر منها أن تتجنب المشاة ويكتفين على الأكثر،إن وليّ رجل عجوز لايرتضين وجوده ويرفضن ملامسته، إن وليّ بحركات مرتعدة أو خانقة ولكنّها متسرعة ومضحكة،بأن يتبادلن النظرات ويضحكن.وما كنّ يبدين إزاء مالم يكن من جماعتهن أي تظاهر بازدرائه إذ كان ازدراؤهن الصادق كافياً.على أنّهنّ ما كنّ يستطعن رؤية حاجز دون التلهي باجتيازه بالاستعداد للوثوب من فوقه أو بالقفز والقدمان مضمومتان،فقد كنّ يزخرن بل يفضن من ذلك الشباب الذي يحس المرء بكبير الحاجة إلى إنفاقه إلى حد أنّه لايدع ألبتة، حتى حينما يكون نهب الحزن أو الأوجاع، وينساق في ذلك خلف ضرورات السن أكثر منه خلف مزاجه اليوميّ،لايدع فرصة للقفز أو التزحلق تمرّ به دون أن ينصرف إليها بملء وعيه فيقطع سيره البطيء ويملؤه-كما يفعل "شوبان" بالجملة الأكثر كآبة- بانعطافات رشيقة تمتزج فيها النزوة العابرة بالبراعة.كانت امرأة صاحب مصرف عجوز قد أجلست زوجها، بعدما ترددت بين اتجاهات مختلفة،على مقعد قبالة السدّ يقيه كشك الموسيقيين الريح والشمس.وكانت قد غادرته منذ قليل،إذ رأته مرتاحاً في جلسته،لتذهب وتشتري له صحيفة تقرؤها له فيما بعد وتروّح عنه،وهي فترات غياب قصيرة كانت تتركه وحيداً في أثنائها ولاتتجاوز بها ألبتة حد الدقائق الخمس،الأمر الذي يبدو له طويلا جداً، ولكنها كانت تكرره مرات كافية ليخيّل إلى الزوج العجوز الذي تحيطه بعنايتها وتحجبها عنه في آن واحد أنّه لايزال قادراً على العيش كسائر الناس ولاحاجة له ألبتة بالرعاية. وكانت منصة الموسيقيّين تؤلف فوقه مقفزاً طبيعياً ومغرياً أخذت الكبرى في المجموعة الصغيرة تعدو عليه دون تردد وقفزت من فوق العجوز المذعور الذي لامست القدمان الرشيقتان قبعته البحريّة مما أثار ضحك الفتيات الأخريات ولاسيمّا عينين خضراوين في

وجه دمية أبدتا بشأن هذه الفعلة إعجاباً ومرحاً خيل إليّ أنني أميّز فيهما قليلاً من الحياء، حياء خجول ومتباه لايتوافر لدى الأخريات.وقالت إحدى أولئك الفتيات بصوت سكير مخنوق وبلهجة نصف ساخرة: "ياللعجوز المسكين،إنّه يشقّ عليّ فهو يبدو نصف ميت".وواصلن السير بضع خطوات ثم توقفن لحظة في منتصف الطريق،دون أن يبالين بإيقاف حركة المارة،كومة غير منتظمة متراصة غريبة مزقزقة كأنّها اجتماع استشاري لطيور اجتمعت لحظة تزمع الطيران، ثم واصلن نزهتهن البطيئة على امتداد السد فوق البحر.

لم تعد ملامحهن الساحرة الآن مختلطة غير مميزة.فقد قسمتهن وجمعتهن (إذ كنت أجهل اسم كلّ منهن) حول الطويلة القامة التي قفزت من فوق المصرفي العجوز، والقصيرة التي تبرز على الأفق البحري وجنتاها الممتلئتان الموردّتان وعيناها الخضراوان، وذات اللون المسمرّ والأنف المستقيم التي تبدو مختلفة وسط الأخريات، وأخرى ذات وجه في بياض البيضة يرسم فيه أنف صغير قوساً دائرياً كمنقار كتكوت، وجه من مثل ما يتوافر لبعض صغار الشباب، وأخرى غيرها فارعة الطول ترتدي معطفاً بدون أكمام (كان يضفي عليها مظهراً فقيراً جداً ويكذّب إلى حد بعيد تصرفها الأنيق حتى إن التفسير الذي كان يتبادر إلى الذهن قوامه أن لهذه الفتاة أبوين رفيعي المكانة يضعان اعتزازهما فوق مستوى المستحمين في"بالبيك"وأعلى من أناقة الملبس حتى لدى أبنائهما كيما يستوي في نظرهما تماماً أن يدعاها تتنزه فوق حاجز السد في لباس ربّما حكم صغار القوم أنّه بالغ التواضع)، وفتاة ذات عينين برّاقتين ضاحكتين ووجنتين سمينتين كامدتين تحت قبعة سوداء يغور فيها رأسها وكانت تدفع دراجة وتمايل أردافها بشدة مستخدمة، إذ مررت بالقرب منها،ألفاظا عاميّة شديدة البذاءة (ميزت بينها مع ذلك جملة "عاش حياته" المشؤومة) تقولها صائحة بأعلى صوتها إلى حد أني تخليت عن الافتراض الذي أقمت أساسه فوق معطف رفيقتها وخلصت بالأحرى إلى أن جميع هؤلاء الفتيات كن ينتمين إلى الجماعات التي تتردد على ملاعب سباق الدراجات ولابد أنهن العشيقات الفتيات جداً لمتسابقي الدراجات. ولم يدخل على أية حال في أي من افتراضاتي إمكان أن يكنّ فاضلات.فقد أدركت للوهلة الأولى-في الطريقة التي يتبادلن بها النظرات وهن يضحكن،وفي النظرة الملحاحة لذات الوجنتين الكامدتين-أنهن ما كن كذلك. وكانت جدتي على كل حال قد سهرت دوماً عليّ بنزاهة بالغة الرقة حتى لاأعتقد أن مجموع الأشياء التي يجب ألا نقدم عليها لايتجزأ وأن فتيات أبدين قصوراً في احترام الشيخوخة إنّما تستوقفهن فجأة رقة الضمير حينما يدور الأمر حول متع أكثر إغراء من القفز فوق ابن ثمانين.

على أن الرد الذي تتبادله نظراتهن،الآن وقد انفردت كل منهن بخصائصها،نظراتهن التي تتوقد بالزهو والروح الرفاقية والتي يشرق فيها بين الحين والحين الاهتمام تارة وطوراً اللامبالاة الوقحة التي تتألق بها كل واحدة حسبما يدور الأمر حول صديقاتها أو المارة، إلى جانب ذلك الشعور بمعرفة بعضهن بعضاً معرفة حميمة كافية كي يتنزهن على الدوام سوية، إنّما كان يقيم بين أجسامهن المستقلة المنفصلة،فيما يتقدمن على مهل، روابط خفية ولكنّها متسقة كظلال واحدة دافئة وجو

واحد يجعل منهن كلا متجانساً في أجزائه بقدر ما كان مختلفاً عن الجمهور الذي ينتشر موكبهن على مهل في وسطه.

وفيما كنت أمر بالقرب من السمراء ذات الوجنتين الضخمتين التي كانت تدفع دراجة،التقت نظراتي مقدار لحظة بنظراتها الجانبية الساحرة المنبعثة من أعماق ذلك العالم اللاإنساني الذي كان يحتبس حياة هذه العشيرة الصغيرة، هذا المجهول العسير المنال الذي لايمكن بالتأكيد أن تبلغ إليه فكرة ماكنت عليه أو أن تجد لها فيه مكاناً.

فهل أبصرتني تلك الفتاة التي تعتمر قبعة لاحواشي لها تغمرها حتى أقصى جبينها،وهي تنصرف تماماً إلى ما تقوله رفيقاتها،هل أبصرتني لحظة التقاني البريق الأسود المنبعث من عينيها؟ وإن هي أبصرتني فماذا أمكن أن أمثّل في عينيها؟ ومن أعماق أي عالم كانت تميزني؟ لعله كان من الصعب عليّ أن أقوله بقدر ما يعسر علينا،حينما تبدو لنا عبر المنظار الفلكي بعض الخصائص في كوكب مجاور، أن نخلص منها إلى أن بشراً يقطنونه وأنهم يروننا وأية أفكار أمكن أن توقظ فيهم هذه الرؤية.

ولو ظننّا أنْ ليست عينا مثل تلك الفتاة سوى قرص ملتمع من الميكا لما تقنا إلى معرفة حياتها وشدها إلينا.ولكننا نحسّ أن ما يلتمع داخل هذا القرص العاكس ليس ناجماً عن تركيبه المادي وحده،وأنها الأطياف العاتمة المجهولة لدينا لتلك الأفكار التي يكوّنها هذا الشخص فيما يخص الناس والأماكن التي يعرفها-كمروج ميادين سباق الخيول ورمل الدروب التي ربما قادتني إليها على متن دراجة عبر الحقول والأحراج، تلك الحورية الصغيرة التي هي أشد فتنة في نظري من حورية الجنة الفارسية-وأنّها كذلك أطياف البيت الذي تزمع الدخول إليه والمشروعات التي تضعها أو التي توضع من أجلها،وأنها على وجه الخصوص هي،برغباتها وصنوف ودّها ونفورها وإرادتها الغامضة المستمرة.كنت أعلم أنني لن أمتلك راكبة الدراجة الفتيّة هذه إن لم أمتلك كذلك ما كان دفيناً في عينيها.وإنما حياتها كلها بالتالي ما كان يبعث الرغبة في نفسي،رغبة مؤلمة لأنني كنت أحسها متعذرة التحقق.ولكنها مسكرة لأن ما سبق أن كان حتى ذاك حياتي وكفّ فجأة عن أن يكون كل حياتي، إذ لم يعد سوى جزء صغير من المجال الممتد أمامي الذي كنت أتحرق إلى اجتيازه والذي تؤلفه حياة تلك الفتيات،كان يعدني بهذا الامتداد للذات،بهذه المضاعفة الممكنة للذات التي هي السعادة.وليس من شك أن فقدان أية عادة مشتركة بيننا-وأية فكرة مشتركة أيضاً-كان لابد أن يزيد من صعوبة أن أصادقهن وأن أحسن في عيونهنّ. بيد أنه ربما كان بفضل تلك الفوارق والشعور بأنه لايدخل في تركيب طبيعة تلك الفتيات وأعمالهن عنصر واحد أعرفه أو أمتلكه إن أخذ يعقب الشبع فيّ التعطشُ-الشبيه بما يحترق به جوف أرض عطشى-إلى حياة سوف تمتصها نفسي بقدر متزايد النهم وجرعات كبيرة وتشرّب تام لانقصان فيه لأنها لم تبلغها منها حتى ذاك قطرة واحدة.

كنت قد أطلت النظر إلى راكبة الدراجة ذات العينين البراقتين إلى حد بدت معه وكأنها لاحظت الأمر فقالت للكبرى كلمة لم أسمعها ولكنها أضحكت هذه الأخيرة. ولم تكن تلك السمراء،

والحق يقال،من كانت تروقني أكثر ما تروق لأنها كانت بالضبط سمراء وأنه منذ اليوم الذي أبصرت فيه "جيلبيرت" في منحدر "تانسونفيل" الصغير ظلت فتاة صهباء مذهبة البشرة تمثّل في نظري المثل الأعلى المتعذر المنال. ولكن أما أحببت "جيلبيرت"نفسها لأنها على وجه الخصوص تبدت لي محاطة بتلك الهالة التي قوامها أنها صديقة "بيرغوت" وأنها تمضي لزيارة الكاتدرائيات معه؟ أفما كنت أستطيع على النحو نفسه أن أغتبط لأني رأيت تلك السمراء تنظر إلي (الأمر الذي كان يبعث فيّ أمل أن تتزايد سهولة إقامة علاقات معها بادئ الأمر)، ذلك أنها سوف تقدمني لفاقدة الشفقة التي قفزت من فوق العجوز،ولقاسية الفؤاد التي قالت:"يشقّ عليّ هذا الشيخ المسكين"، ولجميعهن على التوالي،وكانت تتمتع على أية حال بالجاه الناجم عن أنها الرفيقة التي تلازمهنّ؟ على أن الافتراض بأنني أستطيع أن أضحي ذات يوم صديق هذه أو تلك من أولئك الفتيات،وأن تلك العيون التي كانت نظراتها تدهشني أحياناً وهي تلهو عليّ دونما علم منها كشعاع شمس على صفحة جدار يمكنها في يوم بسيمياء عجائبيّة أن تدع فكرة وجودي وبعض المحبة لشخصي تنسابان عبر جزيئاتها التي تدق عن الوصف وأنني سأستطيع بدوري اتخاذ مكاني بينهن وفي الموكب الذي ينشرنه بمحاذاة البحر،- كان ذلك الافتراض يبدو لي وكأنه يحتبس تناقضاً لاحلّ له كما لو ظننت من الممكن، وأنا أقف متفرجاً أمام إفريز "أتيكي"أو لوحة جدارية تمثّل موكباً أن أتخذ مكاناً بين المطوّفات الإلهيات وقد ملكهنّ حبي.

فهل كانت سعادة التعرف بتلك الفتيات إذن ضرباً من المُحال؟

لعلها بالتأكيد ما كانت أول ما أتخلّى عنه من هذا القبيل.فما كان عليّ إلا أن أتذكر العديد من المجهولات اللواتي حملتني العربة التي تبتعد بأقصى سرعة إلى هجرهنّ إلى الأبد حتىّ في "بالبيك"حتى السرور الذي تشيعه المجموعة الصغيرة في نفسي، وهي رفيعة المظهر كأنما تؤلفها عذراوات هيلّينيات.إنما كان ينجم عن أنّها تتّسم بشيء من هروب عابرات السبيل.وإن سرعة زوال الأشخاص الذين لانعرفهم،والذين يضطرّوننا إلى الإقلاع من الحياة المعتادة حيث تكشف النساء اللواتي نتردّد عليهن عن عيوبهنّ في نهاية المطاف، إنما تضعنا في حالة المطاردة تلك التي لاشيء يكبح فيها من بعد جماح الخيال.فإمّا جرّدناها من متعنا فإنما يعني ذلك ردّ تلك المتع إلى محض ذاتها أي إلى لاشيء.وربما فتنتني هؤلاء الفتيات أقل لو تم عرضهنّ لدى إحدى أولئك القوّادات اللواتي بدا جلياً على كل حال أني لا أحتقرهنّ وعُزِلْنَ عن العنصر الذي كان يوليهنّ الكثير من الألوان والغموض.فلابدّ للخيال،وقد أيقظه الشك في إمكان بلوغ غرضه،أن يبدع هدفاً يحجب الآخر عنّا ويحول،إذ يحلّ محلّ لذّة الحواسّ فكرة الولوج في حياة معيّنة،دون أن نتعرّف إلى تلك اللذّة وأن نحسّ مذاقها الحقيقي ونقلصها إلى مداها.لابدّ أن يحلّ بيننا وبين السمكة التي رأيناها مرّة تُقدَّم على مائدة لبدا أنّها لاتساوي آلاف الحيل وصنوف المواربة اللازمة لنأخذها،لابدّ أن يحلّ،في عشيّات الصيد،اضطراب الماء الذي يبرز على صفحته،دون أن نعلم تمام العلم ما نحن فاعلون به،ماملس من اللحم وغام من الشكل في انسياب زرقة شفّافة رجراجة.

لقد أفادت تلك الفتيات كذلك من هذا التبدّل في النسب الاجتماعية الذي يميز حياة حمّامات البحر.ذلك أن جميع الامتيازات التي نستطيل بها ونعظم في وسطنا المعتاد تضحي لامرئيّة هناك، بل هي زالت في الواقع،وفي مقابل ذلك لايتقدّم الأشخاص الذين تُفترض لديهم متل تلك الامتيازات على غير وجه حقّ إلا ويضخّمهم امتداد مستعار،امتداد كان يزيد من سهولة أن تتّخذ مجهولات،وفي ذلك النهار أولئك الفتيات، أهمية عظيمة في عيني ويجعل من المستحيل عليّ أن أطلعهم على ما يمكن أن أكون عليه من أهميّة.

ولئن جاء لصالح نزهة المجموعة الصغيرة أن لم تكن سوى فقرة من هروب عابرات سبيل لاينقطع،هروب أقلقني على الدوام، فقد رُدَّ ذاك الهروب هنا إلى حركة بطيئة حتى لتقارب الجمود.فأن تَبْدُوَ الوجوه بالضبط في طور قليل السرعة إلى هذا الحدّ،الوجوه التي لايحملها إعصار بل هي هادئة واضحة،أن تبدو جميلة بعد في عيني فإنما كان ذلك يحول دون أن أعتقد،مثلما فعلت كثيراً حين كانت تحملني عربة السيدة "دوفيلباريزيس"، أنّ بعض التفاصيل،من مثل بشرة مبقّعة وعيب في فتحات الأنف ونظرة تافهة وابتسامة كشرة وقوام قبيح، ربما حلّت عن قرب أكثر،وإن اتفق لي أن أتوقّف لحظة، ربما حلّت في وجه المرأة وجسمها محلّ تلك التي كنت دونما شك تخيّلتها،فقد كانت تكفيني رشاقة في القوام ولون نديّ ألمحه كيما أضيف إليهما في الحال عن حسن قصد كتفاً رائعة ونظرة ساحرة كنت أحمل على الدوام في خاطري ذكراها أو فكرتها السابقة،إذ أن تلك التحليلات السريعة لشخص نبصره لماماً إنمّا تعرّضنا على هذا النحو للأخطاء نفسها التي توقعنا فيها تلك القراءات المفرطة السرعة التي نُحِلُّ فيها، انطلاقاً من مقطع واحد ودون أن نفسح لأنفسنا مجال تعرّف المقاطع الأخرى،محلّ اللفظة المكتوبة أخرى تختلف عنها أشدّ الاختلاف وتزوّدنا بها ذاكرتنا.ولم يكن بالإمكان أن تسير الأمور الآن على هذا النحو.فقد نظرت مليّاً إلى وجوههنّ،ورأيت كلاً من تلك الوجوه، لا في جميع صوره الجانبيّة، وفيما ندر مواجهة، ولكن وفق مظهرين أو ثلاثة فيها من الاختلاف ما يكفي كي أستطيع القيام إما بالتصحيح وإمّا بالتثبّت وإقامة البرهان على مختلف افتراضات الخطوط والألوان التي تقدّمها النظرة الأولى جزافاً،وكي أتبيّن أنّه لايزال فيها،من خلال التعابير المتعاقبة،شيء مادي لايتحول.وكان يمكنني لذلك أن أقول في نفسي قول اليقين إنّه لم يتّفق لي قطّ لافي باريس ولافي "بالبيك" وفي أفضل افتراضات ما كان يمكن أن تكون عليه عابرات السبيل اللواتي استوقفن نظراتي، حتى إن تيسّر لي البقاء للتحدّث معهن،من خلّف في نفسي ظهورهنّ ثم اختفاؤهنّ دون أن أعرفهنّ أسفاً أكبر مما قد تخلّف هؤلاء ومن الهمي أن مودّتهنّ يمكن أن تجيئني بهذا القدر من النشوة.فلم يقع لي أن رأيت لا بين الممتّلات ولابين الفلاحات أو الآنسات نزيلات المدارس الدينيّة الداخلية ما كان بمثل ذلك الجمال وقد طُبع بهذا القدر من المجهول وكان ثميناً على نحو لايقدر ويحتمل أنّه متعذّر المنال إلى هذا الحّد.لقد كنّ أنموذجاً رائعاً وفي أحسن حالة للسعادة المجهولة والممكنة في الحياة إلى حدّ أني كنت يائساً، وكاد يك ون ذلك لأسباب فكرية،أنْ لا أستطيع القيام ضمن شروط فريدة لاتدع أي مكان لخطأ محتمل بتجربة ما يقدّمه لنا الجمال المشتهى مما كان زاخراً بالأسرار وما نتعزّى

عن أنّنا لن نمتلكه في يوم في البداية اللذّة-مثلما رفض أن يفعل "سوان" في السابق قبل "أوديت"-لدى نساء لم نشتهيهنّ، إننا نموت دون أن نكون عرفنا في يوم ما كانت عليه تلك اللذّة الأخرى. وما من شكّ أنّه يمكن أن لا تكون في الواقع لذّة مجهولة وأن يضمحلّ سرّها عن كثب وألا تكون سوى إسقاط لرغبة محض سراب. ولكنني لاأستطيع في هذه الحالة إلا أن ألقي التبعة على حتميّة قانون في الطبيعة -قانون إن ينطبق على هذه الفتيات ينطبق على سائر الفتيات - لاعلى رداءة الموضوع. فقد كان الذي كنت أصطفيه من بينها جميعا متبيّناً بارتياح عالم النبات أنه لا يمكن أن تجتمع لنا أنواع أكثر ندرة من أنواع هذه الأزهار الفتيّة التي كانت تقطّع في هذه اللحظة أمامي خطّ المياه بسياجها الخفيف، كمثل أيكة من ورود "بنسلفانيا" تزدان بها حديقة فوق الجرف وتنحصر بينها كلّ المسافة التي يقطعها مركب بخاري في المحيط وهو بطيء في انسيابه على الخطّ الأفقي الأزرق الذي يمتد من ساق إلى أخرى حتى لتستطيع فراشة كسلى تخلّفت في أعماق التويج الذي جاوزه جسم السفينة منذ فترة طويلة، تستطيع، كيما تطير وهي واثقة أنها ستصل قبل السفينة، انتظار ألاّ يفصل بين مقدّمة هذه الأخيرة والبتلة الأولى في الزهرة التي تمخر صوبها سوى جزء صغير لازورديّ واحد.

وعدت لأنّه كان عليّ أن أذهب لتناول طعام العشاء في "ريفبيل" بصحبة "روبير" وأن جدتي كانت تضطرني قبل الذهاب إلى الاستلقاء في تلك العشيّات مدة ساعة على سريري، وهي قيلولة أمر طبيب "بالبيك" بعد حين أن تعمّ على سائر العشيّات الأخرى.

ولم تكن على أيه حال بحاجة بي سبيل أن تعود، إلى مغادرة حاجز السدّ والدخول إلى الفندق عن طريق البهو، يعني من الخلف. فلقد أصبحت الأيام الآن في تمام الصيف، بفضل تسبيق شبيه بما يتم نهار السبت في "كومبريه" حيث كنا نتغدى قبل الموعد بساعة طويلة إلى حدّ أنّ الشمس كانت لاتزال عالية في كبد السماء - حينما نعدّ مائدة العشاء في الفندق الكبير في "بالبيك" وكأنما تلك ساعة عصرونية. ولذلك كانت النوافذ الواسعة المزجّجة ذات المزالق تظلّ مفتوحة على سويّة السدّ، ولايقع عليّ إلا تخطّي إطار خشب فأجدني في قاعة الطعام التي كنت أغادرها في الحال لأستقلّ المصعد.

ولدى مروري أمام المكتب حيّيت المدير بابتسامة وغنمت، لايخالجني أي اشمئزاز، أخرى علت محيّاه، وكانت عنايتي المتواصلة منذ وجودي في "بالبيك" حقنها فيه وتحويلها شيئاً فشيئاً على غرار أحد مستحضرات التاريخ الطبيعي. فقد أضحت قسماته مألوفة لدي ومحمّلة بمعنى تافه ولكنّه بيّن كخطّ مقروء، ولم تعد تشبه في شيء تلك الحروف الغريبة التي لاتطاق والتي حملها إليّ وجهه في ذلك اليوم الأول الذي أبصرت فيه أمامي شخصاً أصبح الآن منسياً أو إن أنا أفلحت في استذكاره يصعب التعرّف إليه من العسير مماثلته بالشخصية التافهة المهذبة التي لم يكن سوى صورتها الكاريكاتورية القبيحة المختصرة. ورنت، بعيداً عمّا انتابني من خجل وكآبة عشيّة وصولي، أنادى عامل المصعد الذي لم يعد يظلّ صامتا فيما كنت أرتفع إلى جانبه في المصعد وكأنما في

قفص صدري متحرّك ينزلق على طول العمود الصاعد،بل كان يردّد قائلاً:"ما عاد ثمة من الناس بمقدار ما كان منذ شهر.سيبدؤون بالرحيل ففترات النهار تتناقص." كان يقول ما يقول لا لأنه صحيح، بل لأن لديه التزاماً في قسم آخر من الشاطئ أوفر دفئًا وودّ لو نرحل جميعنا بأسرع ما يمكن كيما يغلق الفندق أبوابه وينعم ببضعة أيام قبل أن يعود إلى عمله الجديد.ولم تكن عبارتا "يعود" و"الجديد" متناقضتين بأيّة حال،ذلك أنّ لفظة "يعود" كانت فيما يخص عامل المصعد الصيغة المعتادة للفظة "يباشر". الأمر الوحيد الذي أدهشني أنه ارتضى أن يقول "عمل" لأنه كان ينتمي إلى هذه البروليتارية الحديثة التي ترغب في أن تمحو آثار نظام الخَدَم في اللغة. وقد أعلمني بعد لحظة على أيّ حال أنه سوف يحوز في "الوضع"الذي "يعود" إليه "رداء" أجمل و"مرتباً" أفضل.أما لفظتا "بزة الخدمة" و"الأجور"فتبدوان له باليتين وغير لائقتين.ولما كانت المفردات، بتناقض لايصدق،قد استمرت لدى "أرباب العمل" على الرغم من كل شيء بعد زوال مفهوم اللامساواة فقد كنت أسيء دوماً فهم ما يقوله لي عامل المصعد. فمن ذلك أن الأمر الوحيد الذي كنت أهتمّ به أن أعلم إن كانت جدتي في الفندق.ولكن عامل المصعد كان يقول لي مستبقاً أسئلتي: "لقد خرجت هذه السيدة من شقتكم منذ قليل."وكنت أنخدع على الدوام فأظنّ أنها جدتي."لا،هذه السيدة التي هي مستخدمة لديكم فيما أعتقد." ولما كانت الطاهية لا تدعى مستخدمة في لغة البورجوازيين القديمة التي لابد زالت فقد كنت أفكر مدى لحظة:"ولكنه على ضلال،فلسنا نملك معملاً ولامستخدمين." ثم أتذكر فجأة أن اسم المستخدم، شأن إطلاق الشاربين بالنسبة إلى نُدُل المقاهي،يطلق على الخدام لإرضاء كبريائهم وأن تلك السيدة التي خرجت منذ قليل هي "فرانسواز" (ربما في زيارة إلى المقهى أم هي مضت تراقب خياطة وصيفة السيدة البلجيكية) ولكن ذاك الإرضاء لم يكن بعد كافياً لعامل المصعد فقد كان يطيب له أن يقول وهو يرثي لحال طبقته "لدى العامل"أو "لدى صغير القوم" مستخدماً المفرد نفسه الذي يلجأ إليه "راسين" حينما يقول: "الفقير...".إلا أني لم أعد أتحدث عادة إلى عامل المصعد لأن حماس اليوم الأول والخجل لديّ كانا قد وليا بعيداً. فهو من كان يظل الآن دون أن توافيه أجوبة في أثناء الرحلة القصيرة التي كان يقطع مسافتها عبر الفندق المجوف على هيئة دمية والذي يتخذ النور في أعماقها نعومة المخمل لايتناقص شيئاً فشيئاً وترق به أبواب الموزعات أو درجات السلالم الداخلية التي تحيلها إلى تلك الصفرة المذهبة الواهية المفعمة بالأسرار كغروب يقطع فيه "رامبرانت"تارة دعامة نافذة أو ذراع بئر.وفي كل طابق كان ثمة نور ذهبيّ ينعكس على السجادة فيؤذن بغياب الشمس وينبئ عن نافذة المراحيض.

كنت أتساءل إن كانت الفتيات اللواتي رأيتهن منذ قليل يقطنّ "بالبيك" ومن عساهنّ كنّ. وعندما تتوجه الرغبة على هذا النحو وجهة جماعة بشرية صغيرة تصطفيها فكل ما يمكن أن يتعلق بها يضحي باعثاً للانفعال ثم للأحلام.فقد اتفق أن سمعت سيّدة تقول على حاجز السدّ: "إنها صديقة الصغيرة سيمونيه"بمظهر تدقيق المستكبر الذي يوضح قائلاً: "إنّه الرفيق الذي لايفارق الصغير لاروشفوكو." وكنت تحسّ في الحال في وجه الشخص الذي ينقل إليه الأمر ميلاً إلى إمعان النظر

في صاحبة الحظّ التي كانت "صديقة الصغيرة سيمونيه".وهو بالتأكيد امتياز لايبدو موفوراً لجميع الناس.ذلك أن الأرستقراطية أمر نسبي.فهنالك قرى صغيرة نائية قليلة الغلاء ترى فيها ابن تاجر أثاث بمثابة أمير الأناقة ويبسط سلطانه على بلاط له وكأنه أحد أمراء "غال"الصغار.غالباً ما حاولت مذ ذاك أن أتذكر كيف تردد في داخلي على الشاطئ اسم "سيمونيه"هذا،ولايزال حينذاك غير واضح في شكله الذي لم أحسن تمييزه وكذلك فيما يخص مدلوله وإشارته إلى هذا الشخص أو ربما ذاك، ويتسم باختصار القول بذلك الغموض وتلك الحدة اللذين يؤثران فينا إلى حد بعيد فيما بعد حينما يكون ذلك الاسم الذي تنحفر حروفه في كل ثانية أكثر فأكثر في نفوسنا من جراء اهتمامنا الذي لاينقطع قد أضحى(وهو مالن يتفق لي بشأن الصغيرة"سيمونيه"إلا بضع سنوات بعد ذاك)اللفظ الأول الذي نلقاه(إما لحظة استيقاظنا وإما بعد إغماء)حتى قبل فكرة الساعة والمكان الذي نحن فيه، بل ربما قبل كلمة"أنا" كما لو أضحى الشخص الذي يُطْلَقُ عليه ذاتَنا أكثر من ذاتنا وكما لو كانت فترة الراحة التي تنتهي قبل أية فترة أخرى،كما لو كانت، بعد لحظات من اللاوعي، تلك التي لم نفكر في أثنائها به...ولست أعلم لماذا قلت في نفسي منذ اليوم الأول إن اسم"سيمونيه"كان ينبغي أن يكون اسم واحدة من الفتيات.ولم أعد أكف عن التساؤل عن كيفية إمكان التعرف بأسرة "سيمونيه"،وذلك على يد أناس تحكم أنهم يفوقونها-الأمر الذي لن يكون عسيراً إن كن مجرد عاهرات بسيطات من صفوف الشعب-حتى لايمكنها أن تحمل عني فكرة زرية.ذلك أنه لايمكنك أن تحيط تمام الإحاطة وأن تقوم بامتصاص كامل لمن يزدريك مادمت لم تقهر ذلك الازدراء.وإننا في كل مرة تحتل نفوسنا فيها صورة نساء مختلفات إلى هذا الحد وما لم يقض عليها النسيان أو منافسة صور أخرى، لاننعم بالراحة إلا إذا حولنا تلك الغريبات إلى ما يشبهنا، إذ تتمتع نفسنا بهذا الصدد بنوع رد الفعل والنشاط نفسه الذي يميز جسمنا المادي الذي لايمكن أن يتغاضى عن دخول جسم غريب إلى باطنه دون أن يعمل في الحال على هضم الدخيل وتمثله.كان لابد أن تكون الصغيرة "سيمونيه"أجملهن جميعاً-ومن ربما أمكن أن تصبح، فيما بدا لي، عشيقتي لأنها الوحيدة التي بدت مرتين أو ثلاثاً على التوالي،وهي تلتفت نصف التفاتة،وكأنها شعرت بنظرتي المثبتة عليها.وسألت عامل المصعد إن لم يكن يعرف في "بالبيك" جماعة من آل "سيمونيه"فأجاب إذ لايود أن يقول إنه يجهل شيئاً بأنه يبدو له أنه سمع من يتحدث بهذا الاسم.ولما وصلت إلى الطابق الأخير،رجوته أن يأمر من يأتيني بآخر لوائح الغرباء.

وخرجت من المصعد ولكني عوضاً عن أن أمضي إلى غرفتي سرت قدماً في الممر لأن الخادم المشرف على الطابق، مع أنه يخشى التيارات الهوائية،كان قد فتح في الزاوية القصوى النافذة التي تطل لاعلى البحر بل على الرابية والوادي ولكنها لاتفسح المجال ألبتة لرؤيتهما لأن زجاجها وهو من النوع العاتم كان مغلقاً في أكثر الاحيان.ووقفت أمامها وقفة قصيرة وما ينبغي لأقدّم صنوف التكريم للمنظر الذي كانت تكشف عنه في هذه المرة ما بعد الرابية التي يستند إليها الفندق والتي لاتضم سوى بيت أقيم على مسافة صغيرة منه،إلا أن خط المنظور وضياء المساء كانا يضفيان عليه،فيما يحافظان على حجمه،نقوشاً بديعة وبريقاً مخملياً وكأنما على واحد من تلك الأبنية

الهندسية المنمنمة،من مثل معبد صغير أو كنيسة صغيرة من المصوغات والمينا يستخدمان بمثابة مذاخر ولا يعرضان إلا في ما ندر لتكريم المؤمنين.على أن لحظة التعبد تلك جاوزت حدها لأن الخادم الذي كان يمسك مجموعة مفاتيح بيد ويحييني بالأخرى،وهو يلمس قلنسوة القندلفت التي يعتمرها ولكن دون أن يرفعها من جراء هواء المساء النقي والبارد أقبل يغلق مصراعي النافذة كما يفعل بمصراعي مذخر فحجب عن عيني المتعبتين البناء المصغّر والذخيرة الذهبية.

ودخلت غرفتي،كانت اللوحة التي أجدها في نافذتها تتبدل كلما تقدم بنا الفصل.كان الجو بادئ الأمر مشرقا ولا يضحي قاتماً إلا حينما يتردّى الطقس.وكان البحر حينئذ،داخل الزجاج الأخضر الضارب إلى الزرقة الذي ينفخه بأمواجه المستديرة،كان البحر الذي رصّ بين مضلعات نافذتي الحديدية كأنما داخل رصاص زجاج ملون يبعثر على طول حافة الشاطئ الصخرية العميقة خطوط مثلثات مريّشة بزبد جامد مخطط بنعومة ريشة أو زغب خطهما قلم "بيتزا نيللو" وتم تثبيتهما بواسطة هذه المينا البيضاء القشدية المظهر التي لا تتحول وتمثل طبقة من الثلج في زجاجات "غاليه".

وبعد قليل تقلصت ساعات النهار، وحينما كنت أدخل غرفتي كانت السماء البنفسجية،وكأنما وسمها شكل الشمس القاسي الهندسي العابر الساطع(الشبيه بصورة تمثل علامة عجائبية أو ظهوراً روحياً)، تنحني صوب البحر على محور الأفق كمثل لوحة دينية فوق المذبح الرئيسي فيما تبدو أقسام الغروب المختلفة، في واجهات مكتبات الأكاجو الواطية التي تغطي الجدران على امتدادها، وكنت أردها بالفكر إلى اللوحة الرائعة التي اقتطعت منها،تبدو كتلك المشاهد المختلفة التي نفّذها فيما مضى أحد أرباب الفن القدامى لجمعية دينية على مذخر تُعرض مصاريعه في قاعة متحف الواحد إلى جانب الآخر وقد فصل بعضها عن بعض فيردها خيال الزائر وحده إلى مكانها في أسفل صدر المذبح.

وحينما كنت أصعد إلى غرفتي بعد بضعة أسابيع كانت الشمس قد غابت..وكان شريط من سماء حمراء فوق البحر متراص حاد المقطع كمرق اللحم الهلامي المجمّد،وشبيه بذاك الذي كنت أشاهده في "كومبريه" فوق "الجلجلة" لدى عودتي من النزهة واستعدادي للنزول إلى المطبخ قبل العشاء،ثم كانت السماء بعد قليل،فوق البحر الذي أضحى بارداً أزرق كالسمك المدعو بالبوري،وقد اكتسبت اللون الوردي نفسه الذي لواحدة من سمك السلمون الذي ربمّا قُدّم لنا عما قليل في "ريفبيل"،كانت هذه السماء وذاك الشريط يذكيان المتعة التي سأصيبها من جراء ارتداء حلتي الرسمية بغية الخروج للعشاء.وفوق البحر على مقربة من الشاطئ تحاول أدخنة أن يرتفع بعضها فوق بعضها الآخر طبقات تتزايد اتساعاً،أدخنة بسواد السخام ولكنها صقيلة متماسكة كالعقيق بادية الثقل حتى لتبدو أعلاها،وهي تميل فوق الجذع المشوه وحتى خارج مركز ثقل تلك التي حملتها حتى الآن،وكأنها توشك أن تجتذب هذا البناء الذي بلغ الآن منتصف السماء وتدفع به في البحر. إن رؤية سفينة تبتعد كمسافر في الليل كانت تخلف في هذا الانطباع نفسه الذي تمّ لي

في عربة القطار بأني أتحرر من ضرورات النوم ومن الاحتجاز داخل غرفة.ولم أكن أحس على أية حال أني في الغرفة التي كنت فيها بما أنني أزمع مغادرتها بعد ساعة لأستقل العربة.وارتميت على سريري.كانت صور البحر تحيط بي من كل جانب كما لو كنت على سرير أحد المراكب التي كنت أبصرها بالقرب مني والتي ربما دهش المرء أن يراها تتحرّك ببطء في الظلام كطيور تمّ عاتمة ساكنة ولكنها لاتنام.

ولم تكن في الغالب إلا مجرد صور.فقد كنت أنسى أن إقفار الشاطئ الكئيب يتعاظم خلف ألوانها،الشاطئ الذي تجول فيه ريح المساء الحائرة التي أحسست بها لدى وصولي إلى "بالبيك"بقلق عظيم.ولم أعد على أية حال، حتى في غرفتي، وأنا أنصرف تماماً إلى الفتيات اللواتي رأيتهن يخطرن أمامي،في حالة نفسية تتسم بما يكفي من الهدوء والتجرد كيما أخرج بانطباعات جمالية عميقة حقاً.كان انتظار العشاء في "ريفبيل" يزيد مزاجي طيشاً فيما يعجز فكري عن أن يضيف عمقاً خلف لون الأشياء إذ كان يسكن في ذلك الحين سطح جسمي الذي سأبادر إلى كسائه كيما أحاول الظهور بأبهج مظهر ممكن أمام عيون النساء اللواتي سيحدّقن إليّ في المطعم المشع بالأنوار.ولو لم تنطلق من تحت نافذتي طيور الخطّف والسنونو في طيران عذب لايعرف الكلل انطلاقة نافورة مائية،انطلاقة ألعاب نارية حية تجمع الفسحات التي تفصل بين سهامها العالية بالانطلاقة البيضاء الثابتة على هيئة أثلام أفقية طويلة،لولا هذه المعجزة الساحرة المتمثلة في هذه الظاهرة الطبيعية المحلية التي كانت تربط المناظر الممتدة أمام عيني بالواقع لأمكنني الظن بأنها محض انتقاء يتجدد كل يوم بين لوحات تعرض جزافاً في المكان الذي أقيم فيه ودون أن تربطها به علاقة لزوم.فمرّة عرض لرواسم يابانية ترى فيها،إلى جانب قصاصة رقيقة لشمس حمراء مستديرة استدارة القمر،سحابة صفراء تبدو وكأنها بحيرة ترتسم عليها سيوف سوداء على غرار أشجار ضفتها،وخطاً بلون وردي رقيق لم يتفق لي أن رأيته ثانية منذ أول علبة تلوين ينتفخ على هيئة نهر تبدو المراكب على ضفتيه وكأنها تنتظر على اليابسة أن يبادروا إلى جرّها لوضعها في الماء.وكنت أقول في نفسي بالنظرة المتعالية السئمة الطائشة التي ينظر بها هاوٍ أو تنظر امرأة أثناء طواف يتم بين زيارتين اجتماعيتين في أرجاء معرض فني: "عجيب،غروب الشمس هذا أمر مختلف،بيد أنه سبق لي أن رأيت بمثل عذوبة هذا الأخير وبمقدار ما يبعث فيك من دهشة."وكنت أصيب متعة أوفر في الأمسيات التي تبدو فيها سفينة امتصها الأفق وميّعها فتبدو من لونه ذاته،كما هي الحال في إحدى اللوحات الانطباعية،إلى حد أنها تبدو من المادة نفسها كذلك وكأنما اقتطع جسمها وحبالها،التي دقّت فيها وشفّت،في زرقة السماء الضبابية. وأحياناً يملأ المحيط كامل نافذتي تقريباً وقد زاد في ارتفاعها شريط من السماء يحيط به من الأعلى فقط خط لونه من زرقة البحر نفسها فأظنه لايزال هو البحر بسبب ذلك ولايدين بلونه المختلف إلا لفعل الضوء.وفي يوم آخر كان البحر يرتسم في القسم السفلي فحسب من النافذة فيما يمتلئ كامل القسم المتبقي بالكثير من الغيوم التي يتراص بعضها فوق بعض شرائط أفقية حتى لتبدو ألواح الزجاج من جراء تعمّد الفنان أو اختصاص لديه وكأنها تقدم "دراسة سحب" بينما تعرض الواجهات المختلفة في المكتبة سحباً مشابهة ولكنها في جزء آخر من

الأفق وقد اختلفت لوناً من جراء الضياء فتبدو وكأنما تقدم ما يشبه التكرار العزيز على قلوب بعض أساتذة الفن المعاصرين لمظهر واحد لايتبدل يباشرونه دوماً في ساعات مختلفة ولكنما يمكن أن تشاهد جميعها في الآن نفسه وفي الحجرة نفسها بفضل ثبات الفنّ وقد نفذت بالباستيل ووضعت تحت الزجاج.وأحياناً ينضاف بتأنق بديع إلى صفحة السمع والبحر المتماثلين في لونهما الرمادي شيء من اللون الوردي فيما تبدو فراشة أغفت في أسفل النافذة وكأنها تخط بجناحيها في أسفل هذا "التزاوج الرمادي الوردي" القريب من نهج أعمال "وستلر"التوقيع المفضل لدى الأستاذ "شيلسيا"، ثم يزول حتى اللون الوردي ولايظل شيء أنظر إليه.فكنت أنهض لحظة وقبل أن أستلقي ثانية كنت أسدل الستائر الكبيرة وكنت أبصر من سريري خط الضوء الذي يمكث فوقها فتأخذه العتمة ويدق شيئاً فشيئاً.ولكني كنت أفسح للساعة التي تعودت فيها الجلوس إلى المائدة أن تموت هكذا في أعلى الستائر دون أن أغتمّ ودون أن أبدي لها أسفاً لأنني أعلم أن هذا النهار من نوع يغاير الأنهر الأخرى وهو أكثر امتدادا كمثل النهار القطبي الذي يقطعه الليل دقائق معدودات فقط.كنت أعلم أن أنوار مطعم "ريفبيل" الساطعة تتهيأ للخروج من خادرة هذا الغسق بتحول بديع. فأقول في نفسي:"حان الوقت"،وأتمطّى فوق السرير وأنهض وأفرغ من أمور نظافتي.كنت ألاقي لذة في هذه اللحظات اللامجدية التي خفّت من كل عبء مادي والتي كنت ألجأ فيها،فيما الآخرون يتناولون طعام العشاء في الأسفل.إلى استخدام القوى المتراكمة لديّ في سكون هذا النهار لمجرد تنشيف جسمي وارتداء لباسي الرسمي وعقد ربطة عنقي والقيام بجميع هذه الحركات التي كانت توجهها مذذاك المتعة المرتقبة في لقاء ثان لهذه المرأة التي سبق أن استرعت انتباهي آخر مرة في "ريفبيل"والتي بدا أنها تنظر إليّ ولعلها ما غادرت المائدة حيناً إلا بأمل أن ألحق بها.وإنما كنت أغتبط بأن أضيف إلى نفسي كل هذه المغريات لأنصرف بكامل شخصي ونشاطي لحياة جديدة حرة لاهم فيها،أدعم فيها صنوف حيرتي بهدوء "سان لو"وأنتقي من بين أصناف التاريخ الطبيعي وواردات البلدان جميعها تلك التي ربما أغرت نهمي أو خيالي بما تؤلف الأطباق غير المألوفة التي أوصى عليها صديقي في الحال.

وحلت في نهاية المطاف الأيام التي لم أعد أستطيع فيها العودة من السد عبر قاعة الطعام،فلم يعد زجاج نوافذها مفتوحاً إذ الليل قد حل في الخارج وأسراب الفقراء والفضوليين الذين اجتذبهم وهج الأنوار التي لايستطيعون بلوغها تتدلى على جوانب الخلية الزجاجية المتلألئة المالسة عناقيد سوداء تقسو عليها الريح الشمالية.

ودق الباب.فإذا هو "إيميه" الذي أصرّ أن يحمل إليّ بنفسه لوائح الغرباء الأخيرة.

واهتم "إيميه" قبل ذهابه بأن يقول لي إن "دريفوس" مذنب وألف مذنب.وقال لي: "سوف تتوافر معرفة كل شيء لا في هذا العام،بل في العام المقبل،ومن قال لي ذلك سيد على علاقة وثيقة جدا بالأركان العامة."وسألته إن هم لن يقرروا كشف كل شيء في الحال قبل نهاية العام.فأردف "إيميه" يقول: "لقد وضع سيكارته"،وهو يمثل المشهد بالإيماء ويهز رأسه وسبابته مثلما فعل عميله يريد

بذلك أن يقول: ينبغي ألاّ نكون متطلبين."لن يتم ذلك في هذا العام يا "إيميه"،يقول وهو يربت على كتفي.فالأمر غير ممكن.أما في الفصح فبلى! وضرب "إيميه"بلطف على كتفي وهو يقول لي :"ترى،إني أريك بالضبط كيف فعل".إما لأن ألفة أحد كبار القوم أرضت غروره وإما لأستطيع على نحو أفضل تقدير قيمة الحجة والأسباب التي تدعونا للأمل بصورة صحيحة تماماً.

وأصبت برعشة طفيفة في القلب حينما شاهدت في الصفحة الأولى من لائحة الغرباء الكلمات التالية: "سيمونيه وعائلته."فقد كنت أحمل في صدري أحلاماً قديمة يعود تاريخها إلى طفولتي وكان يزودني فيها بكامل الحنان الذي يعمر قلبي ولكنه، فيما يحس به، لا يتميز عن تلك الأحلام، كائن يختلف عني ما أمكن الاختلاف . أما هذا الكائن فقد قمت بصنعه مرة أخرى مستخدماً في سبيل ذلك اسم "سيمونيه" وذكرى التناسق الذي كان سائداً بين الأجسام الفتيه التي رأيتها تنتشر فوق الشاطئ في موكب رياضيّ خليق بالفن القديم وبـ"جوتو" . لم أكن أدري من كانت من بين تلك الفتيات الآنسة "سيمونيه"، إن اتفق أن تدعى واحدة منهن بهذا الاسم، ولكني أعلم أن الآنسة "سيمونيه" تحبني وأني سوف أحاول التعرف بها بفضل "سان لو" . إلا أنه لسوء الطالع لم يحصل على تمديد لإجازته إلا بناء على هذا الشرط وكان ملزماً بالعودة كل يوم إلى "دونسيير" . على أني ظننت أنه يمكنني الاعتماد من أجل حمله على الإخلال بواجباته العسكرية، حتى على ما كان أكثر من محبته لي، على الفضول نفسه الذي يميّز عالم الطبيعة البشرية والذي كثيراً ما داخلني – حتى دون أن أكون رأيت الشخص الذي يجري فيه الحديث ولمجرد سماعي من يقول إنّ ثمّة أمينة صندوق حلوة لدى بائع فواكه – في التعرّف بصنف جديد من الجمال النسائي . ولكني ما كنت على حقّ، بشأن ذلك الفضول . حينما أملت أن أثيره في صدر "سان لو" بالتحدّث إليه عن فتياتي، فقد شلّه لفترة طويلة

لديه الحبّ الذي به لتلك الممثلة التي كان عشيقها . ولعلّه كان يقمعه لوأحسّ أقلّ ما يحسّ به بسبب ضرب من الاعتقاد الخرافي بأنّ إخلاص عشيقته يمكن أن يرتبط بإخلاصه هو. وإنّما انطلقنا للعشاء في "ريفبيل" دون أن يعدني بالاهتمام بفتياتي اهتماما جاداً. كانت الشمس، حينما كنّا نصل إلى هناك في الفترات الأولى، قد غابت منذ قليل، ولكنّما لا يزال ثمة نور . وفي حديقة المطعم التي لم تُشعل أنوارها بعد كان الحرّ يتلاشى ويترسّب وكأنّما في قعر وعاء تبدوهلاميّة الهواء الشافّة العاتمة على امتداد جوانبه شديدة التماسك إلى درجة تبدوبها شجيرة ورد كبيرة ملتصقة بالجدار المظلم الذي تمدّ على صفحته عروقاً ورديّة وكأنّما هي من نوع التشجرّ الذي يشاهد في صميم حجر عقيق يمان . وبعد قليل لم نعد نغادر العربة إلا والليل قد حلّ ويغلب حتى ألا ننطلق من "بالبيك" إلا ساعتها إن كان الطقس رديئاً وأجّلنا وقت الإسراج بأمل هدأة جويّة . إلا أنّي كنت في تلك الأيّام أسمع هبوب الريح دون اكتئاب إذ أعلم أنّه لا يعني الرجوع عن مقاصدي والاحتباس داخل غرفة، وأعلم أن المصابيح التي لا تحصى في قاعة الطعام الواسعة في المطعم الذي سندخله على صوت موسيقى الغجر سوف تقهر بيسر الظلمة والبرد إذ تلصق بهما مكاويها الذهبيّة الواسعة، فكنت أصعد متهلّلاً إلى جانب "سان لو" في العربة التي تنتظرنا تحت وابل المطر .

كانت أقوال "بيرغوت" التي يقول فيها إنّه مقتنع، على الرغم من مزاعمي، بأنّي مهيّأ لأتذوّق على وجه الخصوص متع العقل قد أعادت لي بشأن ما يمكن أن أفعله فيما بعد أملاً يحيّيه كل يوم السأم الذي أعانيه من الجلوس إلى طاولة لمباشرة دراسة نقديّة أورواية . فكنت أقول في نفسي: "ربّما لم تكن المتعة التي أصبناها في تسطير صفحة جميلة المقياس الصادق لقيمتها، ربّما لم تكن سوى حالة ثانوية تنضاف إليها في الغالب ولكنّ غيابها لا يمكن أن يقيم حجّة مسبقة ضدّها . وربّما تمّ تأليف بعض الروائع فيما يتثاءب كاتبها . " وكانت جدّتي تهدّئ شكوكي بقولها إنّني سوف أعمل بجدّ وفرح إن كنت في صحّة جيّدة . ولمّا رأى طبيبي من الحكمة أن ينبهّني إلى المخاطر الكبيرة التي يمكن أن تعرّضني لها حالتي الصحيّة ورسم لي جميع صنوف الحيطة الواجب اتّباعها لأتجنّب وقوع حادث فقد أخذت أخضع جميع المتع للهدف الذي حكمت أنّه أشدّ خطراً منها بمالا يقاس وقوامه أن أكتسب قوى كافية لأتمكّن من تحقيق العمل الفنيّ الذي ربّما حملته في داخلي وأخضعت نفسي مذ أضحيت في "بالبيك" لرقابة دقيقة ومستمرة ؛ فما من أحد يستطيع حملي على لمس فنجان القهوة الذي ربّما حرمني من نوم الليل الضروريّ كي لا يصيبني التعب في الغد . ولكن حينما كنّا نصل إلى "ريفبيل" كانت تتلاشى في الحال – بسبب الإثارة الناجمة عن متعة جديدة وإذ أجدني في هذا القطاع المختلف الذي يزجّنا فيه الظرف الاستثنائي بعدما قطع الخيط الذي نسجناه بطول أناة منذ العديد من الأيّام والذي كان يقودنا باتّجاه التعقّل –، وكأنما لن يكون غد ألبتّة من بعد ولاغايات سامية يجب تحقيقها، تلك الآليّة الدقيقة لقواعد صحيّة حكيمة التي كانت تعمل للحفاظ عليها . وفيما كان أحد الخدم يطلب مني معطفي كان "سان لو" يقول لي:

– "ألن تصاب ببرد ؟ لعلّه من الأفضل لك أن تحتفظ به فليس الطقس حارّاً جدّاً" .

فأجيب: "لا، لا"، ولعلّي ماكنت أحسّ بالبرد، ولكنّي لم أعد أعرف في جميع الأحوال خشية أن يصيبني المرض وضرورة ألاّ أموت وأهميّة أن أعمل . فكنت أسلّم معطفي ؛ وندخل قاعة المطعم على أنغام موسيقى حربية يعزفها الغجريّون، ونتقدّم بين صفوف الموائد المثقلة بالطعام وكأنّما في درب ممهد إلى المجد، وإذ نحسّ بالحماسة المتهلّلة التي يبعثها في جسمنا إيقاع الأوركسترا التي كانت تغدق علينا تكريمها العسكري واستقبال المنتصرين هذا الذي لم نكن أهلاً له كنّا نخفيها خلف هيئة رزينة جافية ومشية يثقلها الإعياء كي لا نحاكي تلك المتأنّقات في المقاهي الغنائية اللواتي يجئن لأداء مقطوعة خلاعية على أنغام لحن حربي فيدخلن المسرح جاريات بالمظهر الحربّي الذي لقائد منتصر .

كنت منذ تلك اللحظة رجلاً جديداً لم يعد حفيد جدّتي ولن يذكرها إلا لدى الخروج، ولكنّه الشقيق المؤقّت للخدم الذين يزمعون أن يقدّموا لنا الطعام .

أمّا كمّية البيرة . والشمبانيا من باب أولى، التي ماوددت في "بالبيك" بلوغها في مدى أسبوع في حين كان يمثّل طعم هذه المشروبات في هدوء وعيي ووضوح رؤيته لذة واضحة القيمة ولكنما يضحّي بها بيسر. أمّا كمّية البيرة فقد كنت أبتلعها في مدى ساعة واحدة وأضيف إليها شيئاً من

"البورتو" وأنا أكثر شروداً من أن أستطيع تذوّقه . وكنت أعطي عازف الكمان الذي فرغ من عزفه الليرتين الذهبيّتين اللتين وفّرتهما منذ شهر من أجل القيام بشراء مالم أكن أتذكّره . وكان بعض الخدم الذين يقومون بتقديم الطعام يهربون، وقد أفلتوا بين الطاولات، بأقصى السرعة وعلى راحتهم المبسوطة قصعة يبدو منها أنّ هدف هذا النوع من السباق هو ألاّ يدعوها تهوي . وكانت منفّخات الشوكولاته تصل بالفعل إلى المكان المقرّر دون أن تنقلب وتظلّ حبّات البطاطا المحضّرة بالطريقة الإنكليزية على الرغم من العَدْوالذي لابدّ زعزعها مرتّبة شأنها في البداية حول حَمَلٍ "بويّاك" .
واسترعى انتباهي أحد هؤلاء الخدم، وكان بالغ الطول قد اكتسى رأسه بشعر أسود رائع وخضّب وجهه بلون يذكّر ببعض أصناف الطيور النادرة أكثر منه بصنف البشر. وكان إذ يجري دون انقطاع، وربّ قائل دون هدف، من أقصى القاعة إلى أقصاها إنّما يذكّر بواحدة من تلك الببّغاوات التي تملأ الأقفاص الكبيرة في حدائق الحيوان بألوانها المتوهّجة واضطرابها اللامدرك وبعد قليل انتظم المشهد، في ناظري على الأقلّ، على نحوأكثر نبلاً وسكينة. فقد أخذ كل ذلك النشاط المدوّح يستقرّ بانسجام هادئ. كنت أنظر إلى الطاولات المستديرة التي تملأ المطعم لجمهرتها التي لا تحصى كأنّما هي كواكب على نحو ما تُمَثّلُ هذه الأخيرة في لوحات الأمس المرمّزة . لقد كان ثمّة على كلّ حال قوّة جذب لا تقاوم بين مختلف الكواكب، فقد كان المتعشّون على كل طاولة لا ينظرون إلاّ إلى الطاولات التي لا يجلسون إليها، باستثناء صاحب دعوة غنيّ ههنا أفلح في اصطحاب كاتب مشهور فكان يجهد في أن يستخلص منه بعض مزايا الطاولة الدوارة أقوالاً تافهة تدهش بها السيّدات. ولم يكن الاتساق بين هذه الطاولات الكواكبيّة ليحول دون الدوران المستمرّ لجماعة الخدم العديدة وكانوا، لأنّهم وقوف بدل أن يكونوا جلوساً شأن المتعشين، يتحرّكون في فلك علويّ . لا ريب أن أحدهم كان يسرع لحمل مقبّلات وتبديل خمرة وإضافة أقداح . ولكنّ طوافهم المستمر ما بين الطاولات المستديرة كان يستخلص في النهاية على الرغم من تلك الأسباب قانون سيره المدوّخ والمنظّم. وخلف كتلة من الأزهار تجلس أمينتا صندوق بشعتان انصرفتا إلى حسابات لا تنتهي وتبدوان كساحرتين تهتمان بطريق الحسابات الفلكية بتوقّع التقلّبات التي يمكن أن تحدث هذه القبّة السماوية المصمّمة وفق علوم العصر الوسيط. وكنت أرثي قليلاً لحال جميع المتعشّين لأنّني أحس أن الطاولات المستديرة لم تكن كواكب في نظرهم لأنّهم لم يجروا في الأشياء تقطيعاً يريحنا من مظهرها المعتاد ويسمح لنا بإدراك وجوه التشابه. كانوا يظنّون أنّهم يتناولون عشاءهم مع هذا الشخص أوذاك وأن الطعام سيكلّف هذا المقدار تقريباً وأنّهم سيعيدون الكرّة في الغد. وكانوا يبدون وكأنّهم لا يحسّون البتّة بانتشار موكب خدم صغار يحملون على شكل تطواف خبزاً في سلال إذ لم يكن لديهم في تلك اللحظة على الأرجح شغل ملحّ. كان بعضهم، ولا يزالون في مقتبل العمر وقد أرهقتهم الصفعات التي يكيلها لهم رؤساء الخدم لدى مرورهم يحدّقون بنظرات كئيبة إلى حلم بعيد ولا يعزّيهم عن ذلك إلا تعرّف أحد زبائن فندق "بالبيك" بهم. وكانوا فيما مضى مستخدمين فيه، فيتوجه بالحديث إليهم ويقول لهم شخصيّاً أن يرفعوا الشمبانيا التي لم تكن صالحة للشرب، الأمر الذي كان يملؤهم زهواً.

كنت أسمع هدير أعصابي التي نعمت بارتياح مستقلّ عن الأمور الخارجيّة التي يمكن أن توليها إيّاه والتي كان أقلّ تحرّك أسبّبه لجسمي وانتباهي كافياً ليولّد فيّ الإحساس به مثلما يولّد ضغط طفيف الشعور باللون في عين مطبقة. كنت احتسيت حتى ذاك الكثير من شراب الـ "بورتو"، ولئن كنت أطلب المزيد فذلك من جرّاء تأثير الارتياح الذي حملته الأقداح الجديدة . وكنت أدع للموسيقى أن تقود بنفسها متعتي على كل نوطة موسيقية فكانت تقبل حينئذ لتحط عليها طائعة. ولئن كان مطعم "ريفبيل"، شأن تلك الصناعات الكيمائية التي تُنتجُ فيها بكمّيات كبيرة عناصر لا نلقاها في الطبيعة إلا عرضاً ونادراً جدّاً، لئن كان يجمع في آن واحد نساء تناديني في أعماقهن احتمالات السعادة أكثر ممّا قد يتوافر لي مصادفة في النزهات أوالرحلات على مدى عام، فإن هذه الموسيقى التي كنّا نسمعها – وهي من صنوف التوليف الموسيقي لرقصات فالس ومسرحيّات غنائية ألمانية وأغنيات من المقاهي الموسيقيّة وكلّها جديد عليّ – كانت تشكلّ بدورها كأنّما مكان ملذّات مجنحاً ينضاف فوق الآخر وهو أبعث على النشوة منه. ذلك أن كلّ فكرة موسيقيّة، وهي فريدة على نحوما تكون امرأة، لم تكن تخصّ محظيّا معيّناً، كما لعلّ هذه الأخيرة كانت تفعل، بسرّ اللذّة التي تحتويها. فقد كانت تعرضه عليّ وتنظر إليّ من طرف العين وتقبل عليّ في مشية تتّسم بالغنج أوالنذالة وتدنو منّي وتداعبني كما لو أضحيت فجأة أشدّ فتنة أوأكثر اقتداراً أو أوفر غنى. وكنت أجد في تلك الألحان شيئاً من القسوة ؛ ذلك لأن كل إحساس مجرّد بالجمال وكلّ بريق للعقل كانا مجهولين لديها، فاللّذة الجسديّة وحدها قائمة بالنسبة اليها. وإنّها الجحيم الأشدّ قسوة والأكثر افتقاراً إلى المنافذ بالنسبة إلى الغير، إن التعيس الذي تُقَدَّمُ له هذه اللذّة – هذه اللذّة التي تتذوّقها المرأة المحبوبة مع آخر – وكأنها الشيء الوحيد الكائن في العالم بالنسبة إلى التي تملؤه بكليته. ولكنّي فيما كانت أردّد بصوت خافت نوطات هذا اللحن وأبادله قبلته، كانت اللذّة الخاصّة به التي يذيقني إيّاها تضحي عزيزة عليّ إلى حدّ أنّني ربّما هجرت ذويّ للّحاق بالفكرة الموسيقيّة في الدنيا الفريدة التي تنشئها في عالم اللامرئي خطوطاً تفيض بالنعومة الحالمة تارة وطوراً بالحيويّة. ومع أنّ لذّة كتلك ليست من النوع الذي يضفي قيمة أكبر على الشخص الذي تنضاف إليه لأنّه وحده من يحسّ بها، ومع أنّه، في كلّ مرّة سؤنا أثناء حياتنا في عيني امرأة لمحتنا، كانت تجهل إن كنّا نملك في تلك اللحظة أولا نملك ذلك الهناء الداخلي والذاتي الذي ما كان بالتالي ليبدّل شيئاً في الحكم الذي أصدرته بحقّنا، فقد كنت أحسّني أوفر قوّة وأكاد لا أُقاوم كان يبدولي أنّ حبّي لم يعد أمراً مزعجاً يمكن الهزء منه بل هويتمتّع بالضبط بالجمال المؤثر والإغراء اللذين لتلك الموسيقى التي تشبه بدورها وسطاً مؤنساً التقينا فيه أنا ومن كنت أحبّها وقد أضحينا فجأة حميمين.

لم تكن ترتاد ذلك المطعم نساء فاسقات فحسب بل كذلك جماعة من دنيا الأناقة الرفيعة كانوا يجيئون لتناول العصرونية في نحوالساعة الخامسة أويقيمون فيه ولائم عشاء. كانت العصرونيات تتمّ في رواق طويل مزجّج ضيّق على شكل ممّر يمتدّ انطلاقاً من الردهة إلى قاعة الطعام على أحد جوانب الحديقة التي لا يفصله عنها (باستثناء بعض أعمدة من الحجر) سوى الزجاج الذي يتمّ فتحه ههنا أوهناك. الأمر الذي كان ينجم عنه، علاوة على التيّارات الهوائية الكثيرة، التماعات للشمس

مفاجئة متقطّعة وضوء مبهر غير ثابت يكاد يحول دون تمييز "المتعصرنات"، فيخيّل لذلك إليك، حينما يكنّ هناك وقد تكوّمن طاولتين فطاولتين على امتداد القطّارة الضيّقة، وإذ كنّ يتلألأن في كلّ حركة يقمن بها لاحتساء الشاي أوتبادل التحيّة ما بينهنّ، أن ثمّة خزّاناً أوقفّة كدّس فيها الصّياد الأسماك المتألقة التي اصطادها والتي تتلألأ أمامك في بريقها المتبدّل. ونصفها خارج الماء تغمره أشعّة الشمس.

وبعد بضع ساعات وفي أثناء العشاء الذي كان يُقدَّم بالطبع في قاعة الطعام كانت تُضاء الأنوار مع أنّه لا يزال ثمّة ضوء في الخارج، الأمر الذي كنت معه تبصر أمامك في الحديقة بالقرب من أكشاك تستمدّ نورها من ضوء الشفق وتبدوكأنّها أطياف المساء الشاحبة، ممرات معرّشة تخترق خضرتها القاتمة آخر أشعّة الشمس وتبدو من القاعة المضاءة بالمصابيح والتي يقدّم فيها العشاء، تبدو من خلف الزجاج - لا كما لعلّه كان يقال عن السيّدات اللواتي كنّ يتناولن العصرونية في أواخر بعد الظهر على امتداد الممرّ الضارب إلى الزرقة والذهبيّ في شبكة متلألئة نديانة - بل كأنّها نباتات حوض مائي عملاق شاحب الخضرة أنواره خارقة الطبيعة. وتتمّ مغادرة الموائد. ولئن ظلّ المدعوون أثناء الطعام، فيما ينفقون الوقت في النظر إلى مدعوّي الطاولة المجاورة والتعرّف بهم واستسمائهم، يشدّهم إلى مائدتهم الخاصّة ترابط تام، فإن قوّة الجذب التي تحملهم على الدوران في فلك مضيفهم ذاك المساء كانت تفقد من قوّتها حينما كانوا يتّجهون بغية احتساء القهوة إلى ذاك الممرّ نفسه الذي استخدم لتناول العصرونية. وغالباً ما كان يتّفق أن تتخلّى هذه المائدة أوتلك أثناء السير عن جسيم أوأكثر من جسيماتها كانت تنفصل، بعدما تعرّضت بشدّة لجاذبية المائدة التي تنافسها، كانت تنفصل عنها إلى حين ويحلّ محلّها فيها رجال أوسيّدات جاؤوا يحيّون أصدقاء لهم قبل أن يلحقوا بالركب وهم يقولون: "ينبغي أن أسرع للّحاق بالسيد . .الذي أنا ضيفه هذا المساء." لكأنّما كان ثمّة على مدى لحظات باقتان منفصلتان تبادلتا بعض أزهارهما. ثم كان يخلوالممرّ نفسه. وكثيراً ما لا يضاء هذا الممشى الطويل، إذ كان لا يزال هنالك نور حتى بعد العشاء، فيبدو إذ تكتنفه الأشجار التي تتدلّى في الخارج من الجانب الآخر للزجاج وكأنّه ممرّ في حديقة مشجرة حالكة السواد. وأحياناً تتأخّر فيه مدعوّة في الظلام. وقد لاحظت فيه ذات مساء كنت أجتازه للخروج أميرة "لوكسمبور" الجميلة تجلس وسط جماعة لا أعرفها. وكشفت عن رأسي دون أن أتوقّف. فعرفتني وأحنت رأسها وهي تبتسم. وانبعثت من تلك الحركة نفسها وارتفعت رخيمةً فوق تلك التحيّة بكثير بعض الكلمات الموجّهة إليّ ولابدّ أنّها كانت تمنّيات لليلة سعيدة طويلة بعض الشيء لا لكي أتوقّف بل لتتمّ بها التحيّة فحسب ولتجعل منها تحيّة منطوقة. ولكنّ الكلمات ظلّت غير مميّزة وتواتر الصوت الذي سمعته وحده عذباً وبدا لي مُوسيقياً حتى لكأنّ عندليباً أخذ يغنّي بين أغصان الأشجار المحلولكة.

وإن اتّفق أن قرّر "سان لو"، لاختتام الأمسية مع زمرة أصدقاء له سبق أن التقيناها، أن يتوجّه إلى كازينو أحد الشواطئ المجاورة وإن وضعني وحدي، وهوذاهب معهم، في عربة فقد كنت أوصي الحوذيّ أن يذهب بأقصى سرعة كي يتناقص طول اللحظات التي سأقضيها دون أن يتوافر لي عون

من يعفيني من أن أقدّم بنفسي لحساسيتي - بالرجوع إلى الوراء وبالخروج من السلبية التي وقعت فيها وكأنمّا داخل مسننات - تلك التبدّلات التي كنت أتلقّاها من الآخرين منذ وصولي إلى "ريفبيل" . وما كان الاصطدام المحتمل بعربة تجيء في الاتجاه المعاكس على تلك الدروب التي لا تتسع إلا لواحدة والتي يخيم عليها ليل دامس، ولا قلّة ثبات أرض الجرف التي غالباً ما تنزلق، ولا قرب سفحه الذي يطلّ عامودياً على البحر، ماكان شيء من ذلك كلّه يلقي في الجهد الصغير اللازم ليحمل إلى عقلي تمثّل الخطر والخشية منه. فكما أنّه ليست الرغبة في أن يصبح المرء مشهوراً، بل تعوّده أن يكون مجدّاً هوالذي يمكنّه من إنتاج عمل فنيّ، كذلك ليس تهلّل اللحظة الحاضرة بل أفكار الماضي الحكيمة هي التي تساعدنا على الحفاظ على المستقبل. ولئن سبق لي أن ألقيت بعيداً عنيّ لدى وصولي إلى "ريفبيل" عكّازات التفكير ومراقبة الذات التي تعين ضعفنا على السير في الطريق القويمة فأجدني فريسة ضرب من اللاتوافق النفسي فقد كان الكحول الذي توتّرت به أعصابي توتّراً خارقاً قد أضفى على الدقائق الراهنة ميزة وسحراً لم ينتج عنهما أن أصبحت أهلاً أكثر من ذي قبل للدفاع عنها ولا حتى أكثر تصميماً على ذلك، فاذ تدفعني حماستي إلى تفضيلها ألف مرّة على باقي حياتي فقد كانت تعزلها عنها فإذا أنا سجين الحاضر شأن الأبطال، شأن السكيرين. ولم يعد ماضيّ، وقد احتجب مؤقتاً، يُسقط أمامي ظلّ ذاته هذا الذي ندعوه مستقبلنا. ولمّا وضعت هدف حياتي لا في تحقيق أحلام ذاك الماضي بل في سعادة الدقيقة الحاضرة فإنني لم أعد أبصر أبعد منها، إلى حدّ أنّي كنت، وبتناقض ماكان إلا ظاهراً، في اللحظة التي أشعر فيها بمتعة خارقة، وأحسّ فيها أنّ حياتي يمكن أن تكون سعيدة وينبغي أن تكتسب في نظري قيمة أكبر، كنت في تلك اللحظة أدعها دون تردّد، بعدما تخلصت من الهموم التي استطاعت أن توحي بها إليّ حتى ذاك، رهينة حادث طارىء. وإنّما كنت باختصار القول أركز بين دفّتي أمسية واحدة اللامبالاة التي عمّت فيما يخص باقي الناس كامل حياتهم حيث يواجهون يوميّاً ودونما ضرورة مخاطر رحلة في البحر أونزهة بالطائرة أوالسيّارة في حين ينتظرهم في المنزل الشخص الذي سيحطّمه موتهم أو في حين لايزال يرتبط بهشاشة دماغهم الكتاب الذي يؤلّف ظهوره القريب العلّة الوحيدة لوجودهم. والأمر واحد لوجاء أحدهم إلى مطعم "ريفبيل"، في الأمسيات التي نمكث فيها هناك، وقد عقد العزم على قتلي، فإذ كنت لا أبصر من بعد إلا في مكان بعيد لا حقيقة لوجوده جدّتي وحياتي الآتية والكتب التي ينبغي لي تأليفها، وإذ كنت ألتصق كثيراً برائحة المرأة التي تجلس إلى المائدة المجاورة وبتأدّب رؤساء الخدم وشكل الفالس التي تعزف، والتصق بالإحساس الراهن لا امتداد لي أبعد من حدوده ولا هدف سوى ألا أنْفصل عنه، فإني كنت أموت مشدوداً إليه وأسمح بأن أُذْبَحَ دون أن أبدي مقاومة أوحركة كنحلة خدّرتها رائحة الدخان ولا تهتمّ من بعد بالحفاظ على مؤونةِ جهودها المتراكمة وعلى نحل خليّتها.

وينبغي أن أقول علاوة على ذلك إن قلّة الشأن التي كانت تهوي فيها أكثر الأمور خطراً في مقابل ثورة حواسّي العنيفة كانت تحتوي في النهاية حتىّ الآنسة "سيمونيه" وصديقاتها. فقد أخذت عمليّة التعرّف بهنّ تبدو لي الآن سهلة ولكنّها لا تثير اهتمامي لأنّ إحساسي الراهن وحده، بفضل

قوّته الخارقة والغبطة التي تبعثها أقلّ تبدّلاته وحتى محض استمراره، هوالذي كان يرتدي أهميّة في نظري. وما كان كامل ما تبقّى، الأهل والعمل والمتع وفتيات "بالبيك"، يساوي أكثر من فقاعة رغوة وسط ريح قويّة لا تدع لها أن تستقرّ، وما كان له وجود إلا بالنسبة إلى هذه القوّة الباطنة: فالسكر يحقّق على مدى ساعات قليلة المثاليّة الذاتيّة والظواهريّة المحضة، فلا شيء من بعد إلا ظواهر ولا وجود له إلا تبعاً لذاتنا السامية. وليس يعني ذلك على أيّ حال ألاّ يستطيع حبّ حقيقي، إن اتّفق لنا شيء منه، الاستمرار في حالة كتلك. و لكنّنا نحسّ تماماً، شأننا في وسط جديد، أن ضغوطاً مجهولة قد غيرّت أبعاد هذا الشعور إلى حدّ أننا لا نستطيع احتسابه مشابهاً. إنّنا نلقي هذا الحبّ نفسه ولكنّه في موقع آخر ولا يضغط من بعد علينا و قد ارتضى الإحساس الذي يوليه إيّاه الحاضر والذي يكفينا لأنّنا لانهتمّ بما لم يكن راهناً. و لكنّ المُعامل الذي يغيرّ القيم على هذا النحو لا يغيرّها للأسف إلا في ساعة السكر هذه. فالأشخاص الذين فقدوا أهميّتهم والذين كنّا ننفخ عليهم مثلما نفعل على فقاعات صابون سوف يستعيدون في الغد كثافتهم، و ينبغي أن نحاول من جديد العودة إلى مباشرة الأعمال التي لم تكن تعني شيئاً بل الأدهى من ذلك أن حساب الغد هذا، و هو حساب الأمس ذاته، الذي سنواجه حتماً مشكلاته، هو الحساب الذي يحكمنا حتى في أثناء تلك الساعات إلا في نظرنا نحن. فإن كانت بالقرب منّا امرأة فاضلة أو تناصبنا العداء فإنمّا يبدو لنا هذا الأمر العسير جدّاً نهار البارحة – وقوامه أن نفلح في إعجابها – إنما يبدو لنا الآن مليون مرّة أكثر يسراً دون أن يكون به شيء من ذلك لأنّنا لم نتغيرّ إلا في أعيننا نحن، إلاّ في أعيننا الباطنة. و تبدو بدورها مستاءة في اللحظة نفسها أنْ سمحنا لأنفسنا ببعض التمادي بقدر استيائنا في الغد لأنّنا نقدنا الخادم مئة فرنك وللسبب نفسه الذي أُجّلَ فقط بالنسبة إلينا، يعني غياب السكر.

ما كنت أعرف أيّة من النساء اللواتي كنّ في "ريفبيل" واللواتي كنّ يبدين لي، إذ يؤلّفن جزءاً من سكري مثلما تؤلّف الانعكاسات جزء من المرآة، ألف مرّة أكثر اشتهاء من الآنسة "سيمونيه" التي يتناقص وجودها شيئاً فشيئاً. و نظرت إليّ شقراء فتيّة وحيدة كئيبة المظهر من تحت قبّعة القشّ التي شُكّت بزهر الحقول، نظرت إليّ لحظة بهيئة حالمة و بدت لي محبّبة. ثمّ جاء بدور أخرى، فثالثة، وأخيراً سمراء متألّقة المحيّا، وكلهن معروفات تقريباً، إن لم يكن لديّ فلدى "سان لو" .

ذلك أنّه قبل أن يتعرّف بعشيقته الحاليّة كان قد سلخ فترة طويلة في دنيا المجون المغلقة إلى حدّ أنّه ما من امرأة تقريباً من بين جميع النساء اللواتي كنّ يتعشّين في تلك الأمسيات في "ريفبيل"، واللواتي كان العديد منهنّ هناك بالتصادف إذ جئن إلى شاطئ البحر، بعضهنّ للقاء عشيقهن والأخريات لمحاولة العثور على عشيق، إلا ويعرفها لأنّه قضى معها – هو أو واحد من أصدقائه – ليلة على الأقلّ. وما كان يلقي التحيّة عليهنّ إن كنّ بصحبة رجل ويتظاهرن بدورهن بأنهنّ لا يعرفنه فيما ينظرن إليه أكثر من سواه لأنّ اللامبالاة التي اشتهر بها إزاء أيّة امرأة لم تكن على خشبة مسرحه كانت توليه في نظر هؤلاء النسوة مهابة خاصّة. وتهمس إحداهنّ قائلة: "إنّه العزيز "سان لو"، ويبدو أنّه لا يزال على حبّ هذه الغبيّة. إنها حبّه الكبير. ما أجمل الفتى! إني ألقاه ساحراً! وأيّة أناقة! هنالك من النساء من يتوافر لهنّ حظّ رائع. إنّه لا غبار عليه في كلّ مجال. لقد عرفته تمام المعرفة

حينما كنت مع "دورليان". لقد كانا متلازمين كالظلّ. وأيّة حياة ماجنة في ذلك الحين! ولكنّ الأمور تبدّلت ولا يدع لها أن تستمرّ. آه! يمكنها أن تقول إنهّا كبيرة الحظّ. وإني أتساءل ما عساه يجد فيها. لا بدّ أنّه مع ذلك شديد الغباء. إنّ لها قدميْن شبيهين بالمراكب وشاربيْن من النمط الأميريكي وثياباً داخليّة وسخة! وأظنّ أن عاملة صغيرة لا ترتضي سراويلها. هيّا انظري قليلاً أيّة عينين له فقد يلقي المرء نفسه في النار في سبيل رجل كهذا. اخرسي، ويحك، لقد عرفني، إنه يضحك. آه! لقد كان يعرفني تمام المعرفة. ما عليك إلاّ أن تحدّثيه عنيّ. " كنت أفاجيء بينهنّ وبينه نظرة، ووددت لو يقدّمني لهاتيك النساء و أن يمكّنني أن أطلب منهنّ موعداً و أن يمننّ به عليّ حتى لو لم أستطع القبول. فبدون ذاك ربمّا ظلّ وجههنّ في ذاكرتي خلواً من هذا الجزء من ذاته – وكأنمّا احتجب خلف حجاب – هذا الجزء الذي يختلف باختلاف النساء كلهن ولا يسعنا تخيّله لدى إحداهن إن لم نبصره فيها ولا يظهر إلا في النظرة الموجّهة إلينا والتي توافق على رغبتنا وتعدنا بأنهّا سوف تُلبي. على أن وجههنّ، وإن بدا مقلّصاً إلى هذا الحدّ، كان بالنسبة إليّ أكثر بكثير من وجه النساء اللواتي أعلم أنهن فاضلات ولا يبدو لي كوجههنّ في ذاكرتي .خلواً من هذ الجزء من ذاته – وكأنمّا احتجب خلف حجاب –، هذا الجزء الذي يختلف باختلاف النساء كلهن ولا يسعنا تخيّله لدى إحداهن إن لم نبصره فيها ولا يظهر إلا في النظرة الموجّهة إلينا والتي توافق على رغبتنا وتعدنا بأنها سوف تُلبي. على أن وجههنّ، وإن بدا مقلّصاً إلى هذا الحدّ، كان بالنسبة إليّ أكثر بكثير من وجه النساء اللواتي أعلم أنهّن فاضلات ولا يبدو لي كوجههنّ عاديّاً دون خلفيّة تؤلّفه قطعة واحدة لا كثافة لها. وما من شكّ أنّه لم يكن بالنسبة إليّ ما لا بدّ أنّه كان بالنسبة إلى "سان لو" الذي كان يتذكّر ويرى، خلف لا مبالاة القسمات الجامدة، وهي شفّافة فيما يخصه، إذ تتظاهر بأنهّا لا تعرفه وخلف سخافة التحيّة نفسها التي ربمّا وُجّهت كذلك لأيّ سواه، كان يتذكّر ويرى ما بين شعور محلولة وشفتين متهالكتين وعينين نصف مطبقتين لوحة كاملة صامتة كتلك التي يغطّيها الرسّامون بلوحة محتشمة ليخدعوا بها غالبيّة الزوّار. أمّا فيما يخصّني، أنا الذي كان يشعر أن لم ينفذ شيء من كيانه إلى هذه أو تلك من هاتيك النساء ولن يُحْمَلَ فيها على الدروب المجهولة التي ستسير عليها في أثناء حياتها، فقد ظلّت تلك الوجوه بالتأكيد مغلقة. بيد أنّه كان يكفيني مذ ذاك أن أعلم أنها كانت تتفتح حتى تبدو لي ذات قيمة ما كنت لأراها لها لو لم تكن سوى ميداليات جميلة عوضاً عن أن تكون قلائد تختفي خلفها ذكريات حبّ. وأمّا فيما يخصّ "روبير" الذي يكاد لا يطيق المكوث في مكانه حينما يكون جالساً ويخفي خلف ابتسامة رجل البلاط النهم الذي به للتصرّف تصرّف رجل الحرب فقد كنت أتبين، إمّا أحسنتُ النظر إليه، كم كان لابدّ لقوّة عظم وجهه المثلّث الشكل أن تكون نفسها من شدّة بأس أسلافه و هي أقرب أن تكون لنبّال فوّار النشاط منها لمثقّف ناعم. ذلك أنّ البناء الجريء وهندسة عصر الإقطاع كانا يبرزان خلف البشرة الناعمة. وكانت رأسه تذكّر بتلك الأبراج في قلعة عتيقة ظلّت شرفاتها غير المستخدمة بارزة للعيان ولكنّما تمّ إعدادها من الداخل بمثابة مكتبة.

وكنت أقول في نفسي في عودتي إلى "بالبيك" عن واحدة من هاتيك المجهولات قدّمني لها دون أن أتوقّف لحظة وأكاد مع ذلك لا أنتبه للأمر: "ما أطيبها امرأة! " مثلما يتمّ غناء لازمة. كانت

تملي عليّ تلك الأقوال بالتأكيد حالة عصبيّة أكثر منها رأي يتّسم بالدوام. بيد أنّه لا يقلّ عن ذلك صحّةً أنّني لو كنت أحمل ألف فرنك معي ولا يزال هنالك جواهريّون في حوانيتهم في تلك الساعة لاشتريت للمجهولة خاتماً. وحينما تنقضي ساعات حياتنا وكأنّما على مستويات شديدة الاختلاف فإنّه يتفق للمرء أن يغدق من نفسه أكثر مما ينبغي في سبيل أشخاص مختلفين يبدون لك في الغد عديمي الشأن. ولكنّك تحسّ أنّك مسؤول عمّا قلته لهم البارحة وتبغي الوفاء بوعدك.

ولما كنت أعود في تلك الأمسيات في ساعة متأخّرة كنت أسرّ بأن ألقى في غرفتي التي لم تعد تناصبني العداء السرير الذي ظننت في يوم وصولي أنّه سوف يستحيل دوماً عليّ أن أرتاح فيه وحيث كانت تبحث أعضائي المرهقة الآن عن السند المعين، فكان الفخذان منيّ والوركان والكتفان، كانت تجهد جميعها على التوالي أن تلتصق كلّ نقطة فيها بالشراشف التي تغطّي الفراش كما لو ابتغى تعبي، شأن نحّات، أن يسبك قالباً كاملاً لجسم إنساني. ولكنيّ ماكنت أستطيع النوم اذ كنت أحسّ باقتراب الصباح، وقد هجرني الهدوء وهجرتني العافية. كان يبدو لي في ضيقي أني لن أجدهما بعد في يوم . كان لابدّ لي أن أنام نوماً طويلاً لألتقيهما. ولكنّما ستوقظني على أيّة حال، وإن أغفيت، الفرقة السمفونية بعد ساعتين. و فجأة يأخذني النوم وأهوي في هذا السبات العميق الذي ينكشف لنا فيه الرجوع إلى الشباب واستعادة السنين الماضية والمشاعر الضائعة والتحرّر من حاجات الجسد وهجرة الأرواح واستذكار الأموات وأوهام الجنون والعودة إلى ممالك الطبيعة الأكثر أوّليّة (إذ يقولون إنّنا غالباً ما نبصر حيوانات في الحلم ولكنّما يفوتهم أنّنا فيه على الدوام تقريباً حيوان حرم من هذا العقل الذي يلقي على الأشياء شعاعاً من يقين، ولا نقدّم فيه على العكس لمسرح الحياة سوى رؤية مهزوزة يلاشيها النسيان في كلّ دقيقة إذ تزول الحقيقة السابقة أمام الثانية التي تليها كما يزول عرض بالفانوس السحري أمام آخر يليه حينما يتمّ تبديل الصفيحة الزجاجية) وجميع تلك الأسرار التي نحسب أنّنا لا نعرفها فيما يتمّ بالحقيقة اطلاعنا عليها كلّ ليلة تقريباً بالإضافة إلى السرّ الآخر العظيم، سرّ الفناء والقيامة. لقد جعلت منّي الإنارة المتعاقبة التائهة لمناطق أظلمت في ماضيّ، لقد جعلت مني، إذ أضحت أكثر شروداً من جرّاء عمليّة الهضم العسيرة لعشاء "ريفبيل"، كائناً لعلّ أقصى سعادته أن يلتقي بـ"لوغراندان" الذي اتّفق أن تحدّثت إليه في الحلم.

ثمّ إن حياتي نفسها قد حجبتها عنيّ حجباً كلياً مناظر جديدة كتلك التي تقام على حافّة خشبة المسرح والتي يقدّم ممثّلون أمامها فاصلاً ترفيهيّاً فيما تتمّ خلفها عمليّات تبديل اللوحات. أمّا المناظر التي كنت أقوم فيها آنذاك بدوري فكانت من نمط الحكايات الشرقيّة وما كنت أعلم فيها شيئاً عن ماضيّ ولا عن نفسي بسبب هذا القرب الشديد لمناظر تفصلني عنهما. وكنت محض شخص يُضرب بالعصيّ وتُنزل به عقوبات مختلفة من جرّاء خطيئة لم أكن أتبيّنها ولكنّ قوامها أنّني أكثرت من شرب البورتو. وفجأة أستفيق وألاحظ أنني لم أسمع الفرقة السمفونية بفضل نوم طويل. كان بعد الظهر قد حلّ، وقد تأكّدت من ذلك في ساعتي بعد عدّة محاولات لأستوي في فراشي، محاولات غير مجدية بادئ الأمر تقطّعها لحظات يهوي رأسي بها على الوسادة، ولكن من النوع القصير الذي يلي النوم وصنوف الانتشاء الأخرى سواء أكانت الخمرة مصدرها أو نقاهة معيّنة.

وكنت متيقّناً على أيّة حال أن الظهر قد انقضى حتىّ قبلما أنظر إلى الساعة. لم أكن مساء البارحة سوى كائن مُفْرَّغ فاقد الوزن ولا أستطيع (إذ ينبغي أن يكون المرء قد استلقى ليتمكّن أن يجلس، وأن يكون قد أغفى ليتمكّن أن يصمت) التوقّف عن الحركة أو الكلام وكنت لاقوام لي ولا مركز ثقل وقد اندفعت ويبدو لي أنّني ربمّا استطعت موالاة رحلتي الكئيبة حتّى القمر. ولئن لم تبصر عيناي الساعة في أثناء نومي فقد أفلح جسمي في حسابها وقاس الوقت لا على ميناء ساعة مثّلت تمثيلاً سطحيّاً بل بوزن متدرّج لجميع قواي المستعادة التي جعلها، شأن ساعة جداريّة ضخمة، تنحدر درجة فدرجة من دماغي إلى باقي جسمي حيث أخذت تراكم الآن حتى أعلى ركبتيّ كامل مؤوناتها الوفيرة. وإن صحّ أنّ البحر كان فيما مضى وسطنا الحيويّ الذي لابدّ أن نغمس فيه دمنا كيما نستعيد قوانا، فتلك حال النسيان والعدم الذهنيّ، إذ يبدو المرء حينذاك وكأنّه يغيب عن الزمان بضع ساعات. ولكنّ القوى التي تنضّدت في أثناء ذلك الوقت دون أن يتمّ إنفاقها إنمّا تقيسه بوساطة كميتها بمثل دقّة أثقال الساعة الجداريّة أو الكومات المتداعية في الساعة الرمليّة. ولست تستطيع من جهة أخرى الإفلات من نوم كهذا على نحو أيسر ممّا يتمّ لك في السهر الطويل لشدّة ما تنزع الأشياء جميعها إلى الدوام، وإن صحّ أنّ بعض المخدّرات تحمل على النوم فإنّ النوم الطويل مخدّر يفوقها قوّة ويعسر بعده على المرء أن يفيق. وكمثل بحّار يبصر تماماً الرصيف الذي سيربط به قاربه، ولا يزال مع ذلك تهزّه الأمواج، فقد كان يخيّل إليّ تماماً أني أنظر إلى الساعة وأنهض ولكنّ جسمي يعود فيأخذه النوم في كل لحظة. كان الهبوط عسيراً وقد أهويت مرّتين أو ثلاثاً على وسادتي قبل أن أنهض وأبلغ ساعتي وأقارن الوقت الذي تشير إليه مع ذاك الذي تشير إليه وفرة الموادّ التي لدى ساقيّ المنهكتين.

وأخيراً كنت أبصر بوضوح: "الساعة الثانية بعد الظهر! "، وأقرع الجرس، ولكني أغوص في الحال في نوم كان ينبغي أن يكون هذه المرّة أطول بما لا يقاس إن حكمت في الأمر بما لقيت لدى الاستيقاظ من راحة ورؤية لليل لا محدود تجاوزته. وبما أن استيقاظي إنمّا سبّبه دخول "فرانسواز" وكان قرعي للجرس سبباً لهذا الدخول، فإن هذه الإغفاءة الجديدة، التي كان يبدو أنها لابدّ جاءت أطول من تلك وقد جلبت لي الراحة والنسيان، لم تدم أكثر من نصف دقيقة.

وتفتح جدّتي باب غرفتي فأطرح عليها ألف سؤال حول أسرة "لوغراندان".

ليس يكفي القول إني عدت إلى الهدوء والعافية، ذلك أن ما فصلني عنهما البارحة كان أكثر من مجرّد مسافة فقد وقع عليّ طوال الليل أن أكافح ضدّ تيّار معاكس، ثم إني لم أجد نفسي بالقرب منهما فحسب فقد عادا إلى داخلي. وفي نقاط محدّدة، ولا تزال تؤلمني بعض الشيء داخِلَ رأسي الفارغ الذي سيتحطّم ذات يوم فيدع لأفكاري أن تفلت إلى الأبد، كانت هذه الأخيرة قد استعادت مكانها مرّة أخرى ولقيت من جديد تلك الحياة التي لم تفلح حتى الآن، وأأسفي، في الاستفادة منها.

لقد نجوت مرّة أخرى من استحالة النوم وسيل النوبات العصبيّة والغرق فيها. ولم أعد أخشى كل ما كان يتهدّدني عشيّة البارحة حينما كنت أفتقر إلى الراحة. لقد انفتحت أمامي حياة جديدة.

ودون أن آتي بحركة واحدة، إذ لا أزال منهدّ القوى وإن دبّت فيّ العافية، كنت أتذوّق تعبي متهلّلاً، فقد سبق له أن عزل وحطّم عظام ساقيّ وذراعيّ وأحِسُّ أنها جُمّعت أمامي وتتأهّب للتلاحم وأنني سوف أُنهضُها إمّا غنّيت فقط شأن مهندس الأمثال.

وذكرت فجأة الشقراء الفتيّة ذات المظهر الكئيب التي شاهدتها في "ريفبيل" والتي نظرت إليّ مقدار لحظة. كثيرات غيرها على مدى الأمسية بكاملها بدين لي ممتعات وقد انتصبت الآن وحدها في أعماق ذكرياتي. كان يخيّل إليّ أنّها لاحظتني وكنت أتوقّع أن يجيئني أحد الخدم في "ريفبيل" لينقل إليّ كلمة منها. لم يكن "سان لو" يعرفها ويعتقد أنّها فتاة لائقة. ولعلّه من العسير على المرء أن يراها، أن يراها دون انقطاع. ولكنّي كنت مستعدّاً لكلّ شيء في سبيل ذلك ولم أعد أفكرّ إلا بها. والفلسفة غالباً ماتروي عن أفعال حرّة وأفعال مسيرّة. وربّما لم يكن ثمة ما كان مفروضاً علينا كلياً أكثر من ذاك الذي يعمل، بفضل قوّة صاعدة ثمّ ضغطها أثناء العمل، وبعدما يخلد فكرنا إلى الراحة، على إعادة ذكرى على هذا النحو، وكانت حتّى ذاك قد مُهّدت على سويّة الأخريات من جرّاء قوّة الشرود الضاغطة، ويجعلها تندفع لأنّها كانت تحوي على غير علم منّا وأكثر من الأخريات سحراً لا ننتبه له إلا بعد انقضاء أربع وعشرين ساعة. وربّما لم يكن كذلك من فعل في مثل حريّته لأنّه لايزال خلواً من العادة، من هذا النوع من الهوس الذهني الذي ييسّر في الحبّ الانبعاث الحصريّ لصورة شخص معيّن.

كان ذلك اليوم بالضبط غد اليوم الذي شهدت فيه مرور موكب الفتيات الجميل أمام البحر. وسألت بشأنهن العديد من روّاد الفندق الذين كانوا يفدون في كلّ عام تقريباً إلى "بالبيك"، فلم يستطيعوا تزويدي بالمعلومات. وقد أوضحت لي صورة فوتوغرافية السبب فيما بعد. فمن ذا كان يستطيع الآن أن يتعرّف فيهنّ، وما كدن يهجرن، ولكنّهن هجرن، سنّاً يتبدّل فيها المرء تماماً، هذه الكتلة غير المتبلورة الرائعة، ولاتزال طفولية بعد، لبنيّات كان يمكن أن يراهنّ المرء، لبضع سنوات خلت، جالسات على الرمل على شكل دائرة حول خيمة وكأنهنّ مجموعة نجوم بيضاء مبهمة لا يميّز المرء فيها عينين أكثر التماعاً من سواهما ووجهاً ماكراً وشعراً أشقر إلا ليضيّعها وسرعان ما تختلط داخل لا وضوح السديم وبياضه.

وما من شكّ أن ما كان يفتقر إلى الوضوح في تلك السنوات التي لا تزال غير بعيدة إنما الجماعة نفسها لا رؤية تلك الجماعة كما كانت حالهن البارحة في أوّل ظهور لهن أمامي. كان هؤلاء الأطفال الحديثو السنّ لا يزالون حينذاك في هذه الدرجة الأولية في التكوّن، تلك التي لم تضع الشخصيّة فيها خاتمها على كلّ وجه. وكمثل تلك الأجسام البدائيّة التي قلّ أن يوجد فيها الفرد بحدّ ذاته وإنّما تؤلّفه الكتلة المرجانية أكثر ممّا يؤلّفه كلّ من الفروع المكوّنة للكتلة، كنّ يمكثن محتشدات على الدوام. وأحياناً توقع إحداهن جارتها أرضا فتنطلق إذ ذاك ضحكة صاخبة تبدو وكأنّها التجلّي الوحيد لحياتهنّ الشخصيّة فتهزّهنّ جميعهنّ معاً وتمّحي بها وتختلط تلك الوجوه الحائرة القسمات المتلوية في تجمّد عنقود واحد متلألىء راعش. وفي صورة قديمة زوّدتني بها ذات

يوم واحتفظت بها كانت جماعتهنّ الطفوليّة تتألّف مذ ذاك من عدد المشاركات نفسه الذي ألّف فيما بعد موكبهنّ النسائيّ. وإنّك لتحسّ فيها أنّهن لا بدّ ألّفن مذ ذاك بقعة فريدة ترغم على النظر إليهنّ ولكنّما لا يستطيع المرء تعرّفهنّ فيها إفراديّاً إلا بالمحاكمة العقليّة وبترك المجال مفتوحاً لجميع التحوّلات الممكنة في أثناء الشباب إلى الحدّ الذي تجور فيه تلك الأشكال التي أُعِيدَ تأليفها على شخصيّة متميّزة أخرى ينبغي كشف هويّتها بدورها وربمّا اتّفق لوجهها الجميل، بسبب ترافقه وقامة مديدة وشعر أجعد، أن يكون فيما مضى هذه القسمات المتلوّية المتغضّنة الجعدة التي تزوّدنا بها الصورة الفوتوغرافية. وغالباً ما كان يقع لأفضل صديقاتهنّ، من جرّاء أن المسافة التي قطعتها السمات الجسمانية لكلّ من تلك الفتيات في وقت قليل كانت تجعل من تلك السمات معياراً شديد الإبهام وأنّ ماكان مشتركاً بينهنّ وجماعياً كان مذ ذاك شديد البروز، أن يخلطن بين واحدة وأخرى في تلك الصورة إلى حدّ أنّه ما كان يمكن أن يحسم الشكّ في النهاية سوى هذا الأمر أو ذاك في ملبسهنّ ممّا كانت إحداهنّ على يقين بأنها ارتدته باستثناء الأخريات. وكنّ منذ الأيّام الشديدة الاختلاف والشديدة القرب مع ذلك. كنّ لا يزلن ينسقن وراء الضحك مثلما تبيّنت ذلك البارحة، ولكنّه ضحك لم يعد ضحك الطفولة المتقطّع والآليّ تقريباً، وهو استرخاء تشنّجي كان فيما مضى يغوص في كلّ لحظة بتلك الرؤوس. مثلما كانت كتل الأسماك في نهر الـ "فيفون" تتبدّد وتختفي لتتشكلّ من جديد بعد لحظة. لقد أضحى لملامحهنّ الآن سلطان على ذواتهنّ وأصبحت أعينهنّ مثبّتة على الهدف الذي تلاحقه. كان لابدّ البارحة من قلّة وضوح نظرتي الأولى وارتعاشها كيما أخلط على نحو غير مميّز، مثلما فعل الفرح الصاخب الماضي والصورة القديمة. بين الفروع المرجانية التي تفرّدت اليوم وانفصلت عن الكتلة المرجانية الشاحبة.

وما من شكّ أنّي كثيراً ما منّيت النفس لدى مرور فتيات جميلات بلقائهنّ ثانية. وما كنّ يعاودن الظهور عادة، ولعلّ الذاكرة التي سرعان ما تنسى وجودهن تسترجع ملامحهنّ بصعوبة. وربّما لم تعرفهنّ عيوننا، فيما يتفق لنا أن تخطر أمامنا فتيات أخريات لن نلقاهنّ كذلك ثانية. ولكنّما المصادفة تردّهنّ أحياناً بإلحاح أمامنا، وهو ما وقع للجماعة الصغيرة الوقحة. وتبدو المصادفة إذ ذاك جميلة لأنّنا نميّز داخلها كأنّما بداية تنظيم وجهد لتأليف حياتنا، وإنّها لتولي الإخلاص سهولة وحتميّةً وفي بعض الأحيان – وبعد انقطاعات أمكن أن تحمل لنا أمل أن نكفّ عن التذكّر – قسوةً، الإخلاص لصور سوف نظنّ فيما بعد أنّه كتب علينا امتلاكها ولعلّنا بدونها كنّا نسيناها بادئ الأمر بيسر كبير شأن صور غيرها كثيرة.

وسرعان ما أدركت إقامة "سان لو" نهايتها، ولما يتمّ لي لقاء تلك الفتيات ثانية على الشاطئ. كان يمكث في "بالبيك" بعد الظهر وقتاً أقصر من أن يستطيع الاهتمام بهنّ ومحاولة التعرّف بهنّ من أجلي. وكان يتوافر له في المساء متّسع أكبر من الوقت ويوالي اصطحابي كثيراً إلى "ريفبيل" . وإنّك لتجد في تلك المطاعم، كما هي الحال في الحدائق العامّة والقطارات، أناساً احتجبوا خلف مظهر عاديّ ويذهلنا اسمهم إن اتّفق أن اكتشفنا بعد استفسار عارض أنّهم ليسوا الوافد العاديّ المسالم الذي افترضناه بل هم لا يقلّون عن كونهم الوزير أو الدوق الذي كثيراً ما سمعنا من

يتحدّث عنه. وقد سبق لنا أن شاهدنا أنا و"سان لو" مرّتين أو ثلاثاً في مطعم "ريفبيل"، وحين يشرع الجميع في مغادرة المكان، رجلاً طويل القامة مفتول العضلات منتظم القسمات متشيّب اللحية، ولكن نظرته الحالمة تظلّ تحدّق بجد في الفراغ، يقبل ويجلس إلى إحدى الطاولات. وفيما كنّا نسأل صاحب المطعم ذات مساء من عسى يكون هذا المتعشّي المنعزل المتخلّف، قال لنا: "كيف ذلك، أما كنتما تعرفان الرسّام الشهير "إيلستير" ؟ كان "سوان" قد ذكر اسمه مرّة أمامي وقد نسيت تماماً بأيّ شأن. ولكنّ إغفال إحدى الذكريات، شأن إغفال أحد أطراف الجملة في قراءة ما، لا يسهّل الشكّ بل انبثاق يقين مبكر. فقلت لِـ"سان لو". إنّه أحد أصدقاء "سوان" وفنّان ذائع الصيت عظيم القدر. وفي الحال مرّت بي وبه، كما الرعشة، فكرة أنّ "إيلستير" فنّان عظيم ورجل مشهور ثم إنّه ما كان يرتاب، وقد اختلطنا بالنسبة إليه مع المتعشّين الآخرين، بالحماسة التي تخلّفها فينا فكرة نبوغه. ولاريب أن جهله بإعجابنا به ومعرفتنا لـ"سوان" ما كان ليظلّ عيبا لو لم نكن في الحمّامات البحرية. بيد أنّنا إذ ظللنا في سنّ لا تستطيع الحماسة فيها أن تظلّ صامتة وانتقلنا إلى حياة يبدو فيها أخطاء حقّاً سطّرنا كتاباً مذيّلاً باسمينا كشفنا فيه النقاب لِـ"إيلستير" عن قرويين يتعشّقان فنّه وصديقين لصديقه الكبير "سوان" يتمثّلان في الشخصين الجالسين على خطوات منه وطلبنا فيه إليه أن نعرب به عن احترامنا. وأخذ خادم على عاتقه حمل تلك الرسالة المستعجلة إلى الرجل الشهير.

ربما لم يكن "إيلستير" مشهوراً بعد في ذلك الحين بالقدر الذي داعبه صاحب المؤسّسة وما أصبح عليه بعد ذلك بسنوات قليلة على أنّه حذر ولكنّه كان أحد الأوّلين في ارتياد هذا المطعم حين لم يكن بعد سوى ما يشبه المزرعة وفي اصطحاب عشيرة من الفنّانين إليه وقد هجروه جميعاً إلى مكان آخر حالما أصبحت المزرعة التي كان يجري تناول الطعام فيها في ظلّ كُنّة بسيطة مركزاً أنيقاً، وما كان "إيلستير" نفسه يعود إلى هذا المكان إلا من جرّاء غياب زوجته التي يسكن معها في مكان ليس ببعيد عن هناك). ولكنّ الموهبة الفذّة، حتىّ إنْ لم يُعْتَرف بَعْدُ بها، إنما ينجم عنها بالضرورة بعض ظاهرات الإعجاب من تلك التي استطاع صاحب المزرعة أن يميّزها في أسئلة أكثر من إنكليزية واحدة مرّت هناك وهي متعطّشة إلى المعلومات حول الحياة التي كان يقضيها "إيلستير" أو في عدد الرسائل التي ترد هذا الأخير من البلاد الأجنبيّة. وقد لاحظ صاحب المطعم أكثر من ذلك أنّ "إيلستير" كان يكره الإزعاج في أثناء الشغل وأنّه كان ينهض ليلاً ليصحب جليساً يقف أمامه عارياً على شاطئ البحر حينما تكون الليلة قمراء وقد أسر في نفسه أن هذا القدر من الجهود لم يذهب هدراً ولا جاء إعجاب السيّاح بغير وجه حقّ حينما تمّ له أن يتعرّف في إحدى لوحات "إيلستير" إلى صليب من الخشب كان مغروساً في مدخل "ريفبيل"، فكان يردّد بذهول: "إنّه هو بالتمام، فثمّة أجزاؤه الأربعة! آه، وأيّ جهد ينفق كذلك في هذا السبيل!"

وما كان يدري إن كانت لوحة صغيرة لِـ"شروق الشمس على البحر" وهبه إيّاها "إيلستير" لا تساوي ثروة.

ورأيناه يقرأ رسالتنا ويضعها في جيبه ويتابع عشاءه ويشرع في طلب حوائجه وينهض يبغي الذهاب وكنّا على كبير يقين أنّنا صدمناه بمسعانا إلى حدّ أنّنا نتمنى الآن (بمقدار ما خشينا) أن يمضي دون أن يكون لاحظنا ولم نفكّر لحظة واحدة بأمر كان ينبغي أن يبدو لنا من أكثرها أهميّة وقوامه أنّ تحمّسنا لِـ "إيلستير"، الذي ما كنّا لنسمح بأن يُشكّ بصدقه والذي كان بوسعنا إقامة البرهان عليه في أنفاسنا التي يقطّعها الانتظار ورغبتنا في أن نقدم على أي عمل صعب أو بطولي في سبيل الرجل العظيم، لم يكن إعجاباً مثلما تصوّرناه لأننا لم نشاهد قطّ أي شيء لِـ "إيلستير" . كان يمكن لشعورنا أن يتّخذ بمثابة موضوع له فكرة "الفنّان العظيم" لاعملاً فنيّاً كان مجهولاً لدينا. كان ذلك بالأكثر إعجاباً في الفراغ والإطار العصبيّ والهيكل العاطفي لإعجاب فارغ المضمون، يعني شيئاً يرتبط بالطفولة ارتباطاً لا انفصام له بمقدار غياب بعض الأعضاء لدى الإنسان البالغ. لقد كنا بعد طفلين. كان "إيلستير" في تلك الأثناء يوشك أن يبلغ الباب حينما انعطف فجأة وأقبل علينا. وجرفني ذعر لذيذ من مثل مالم يكن بوسعي أن أعانيه بعد بضع سنوات لأنّه في الوقت الذي تقلّل فيه السنّ القدرة على ذلك فإنّ تعوّد المجتمع يقصي أيّة فكرة في بعث فرص بمثل هذه الغرابة والإحساس بهذا النوع من الانفعالات.

وفي الكلمات القليلة التي أقبل "إيلستير" يقولها لنا وهو يجلس إلى مائدتنا لم يجبني ألبتّة في مختلف المرّات التي حدثّته فيها عن "سوان" . وأخذت أعتقد أنّه لا يعرفه. ولكنّ ذلك لم يحل دون أن يطلب مني الذهاب لألقاه في مشغله في "بالبيك"، تلك الدعوة التي لم يوجّهها لِـ "سان لو" والتي أكسبتني إيّاها بضع كلمات جعلته يحسب أنّي أحبّ الفنون، وما كانت توصية "سوان" لتكسبني إيّاها لو كان "إيلستير" على علاقة صداقة به (لأنّ نصيب المشاعر المتجرّدة أكبر ممّا يعتقد في حياة الناس) . وغمرني بلطف يفوق لطف "سان لو" بقدر ما يفوق هذا الأخير أنس بورجوازي صغير. ذلك لأن لطف السيّد الكبير إذا ماقورن بلطف فنّان كبير بدا وكأنّه تمثيل وتصنّع. كان "سان لو" يحاول أن ينال الإعجاب أمّا "إيلستير" فكان يحبّ أن يعطي وأن يهب من ذاته. ولعلّه كان يهب كلّ ما يملك من أفكار وأعمال فنيّة وما تبقّى، وهو في عينه أقلّ بكثير، لمن استطاع أن يفهمه. ولكنّه لقلّة توافر المجتمع الذي يمكن احتماله كان يعيش في عزلة وفي توحّش كان رجال المجتمع الراقي يدعونه تصنّعاً وسوء تهذيب والسلطات العامّة روحاً شرّيرة وجيرانه جنوناً وأسرته أنانيةً واستعلاءً.

ولا ريب أنّه فكّر أوّل الأمر بسرور، داخل العزلة نفسها، أنّه يخاطب عن بعد، بوساطة أعماله، أولئك الذين لم يقدروه حقّ قدره أو جرحوا شعوره ويزوّدهم بفكرة أرفع عن نفسه. وربّما عاش إذ ذاك وحيداً لا بداعي اللامبالاة بل بداعي حبّ الآخرين، ومثلما تخليّت عن "جيلبيرت" لأعود فأبرز أمامها ذات يوم بمظهر محبّب أكثر كان هو يخصّ بعضهم بعمله الفنّي بمثابة عودة إليهم يحبّونه من خلالها دون أن يلقوه ويعجبون به ويتحدّثون عنه. فليس الزهد كليّاً على الدوام في بدايته حينما نعقد العزم عليه بروحنا القديمة وقبل أن يتمّ له التأثير فينا عن طريق ردّ الفعل، سواء في ذلك زهد المريض والراهب والفنّان والبطل. على أنّه إن ودّ الإنتاج لبعض الناس فقد عاش لذاته وهو ينتج بعيداً عن

المجتمع الذي أضحى لايبالي به. فقد ولّدت معاناه العزلة حبّ هذه الأخيرة في نفسه على نحو ما يتّفق بالنسبة إلى كلّ أمر عظيم خشيناه بادئ الأمر لأننا نعلم أنّه لا يتلاءم وأموراً صغيرة تهمّنا ويحرمنا إيّاها أقلّ مما يفصلنا عنها. وإنّما قوام كامل اهتمامنا قبل معرفته أن نعلم إلى أيّ مدى يمكننا أن نوفّق بينه وبين بعض المتع التي تكفّ عن كونها متعاً حالما يتيسّر لنا أن نعرفه.

ولم يمكث "إيلستير" وقتاً طويلاً في التحدث إلينا. وقد منّيت النفس بالذهاب إلى مشغله في غضون اليومين أو الأيام الثلاثة القادمة، إلا أنّنا غداة تلك الأمسية، وإذ كنت قد صحبت جدّتي إلى غاية السدّ باتجاه جروف "كانا بفيل"، التقينا لدى العودة، في زاوية أحد الشوارع الصغيرة المؤدّية إلى الشاطئ على نحو عامودي، بفتاة كانت تسير، منكّسة الرأس كحيوان يُعاد به غصباً إلى الاسطبل وتمسك بعصيّ للغولف، أمام امرأة حازمة هي على الأرجح مربيّتها الإنكليزية أو مربيّة إحدى صديقاتها وتبدو شبيهة برسم "جيفريز" من أعمال "هوغارت"، حمراء الوجه كما لو كان شرابها المفضّل "الجين" بدلاً من الشاي وتمدّ بعقفة سوداء لبقايا مضغة شارباً لها متشيّباً ولكنّه غزير. كانت البنيّة التي تسير أمامها شبيهة بفتاة المجموعة الصغيرة التي كان لها عينان ضاحكتان في وجه جامد ممتلئ الخدّين تظلّله قبّعة سوداء. كانت تلك التي تعود في هذه اللحظة تعتمر هي الأخرى قبعة سوداء ولكنّها تبدو أكثر جمالاً من تلك وخطّ أنفها أكثر استقامة وفتحته في الأسفل أكثر اتّساعاً وأشدّ اكتنازاً. ثم إن تلك بدت لي فتاة متعجرفة شاحبة اللون وهذه طفلة مروّضة مورّدة اللون. بيد أنّي خلصت، بما أنّها كانت تدفع أمامها درّاجة مماثلة وترتدي قفّازين مماثلين من جلد الأيّل، إلى أن الفروق ربّما نجمت عن الطريقة التي كنت أجلس بها وعن الظروف لأنّه من غير المرجّح أن يكون ثمة في "بالبيك" فتاة ثانية وجهها على ذلك مماثل إلى هذا الحد وقد جمعت في ملبسها الخصائص نفسها. وأرسلت في اتّجاهي نظرة سريعة. وحينما التقيت في الأيّام التالية بالمجموعة الصغيرة على الشاطئ، وحتى حينما عرفت فيما بعد جميع الفتيات اللواتي كنّ يؤلفنها، لم يتوافر لي اليقين المطلق في يوم بأنّ أيّة منهنّ – حتى تلك التي كانت تشبهها أكثر ما تشبهها من بينهنّ، وأعني فتاة الدرّاجة – كانت بالتمام تلك التي رأيتها ذلك المساء في آخر الشاطئ وفي زاوية الشارع. تلك الفتاة التي كادت لا تختلف، مع أنّها تختلف بعض الشيء، عن التي كنت لاحظتها في الموكب.

ومنذ فترة مابعد الظهيرة تلك أصبحت فتاة عصيّ الغولف، ويفترض أنّها الآنسة "سيمونيه"، هي التي أخذت تشغل بالي أنا الذي فكّر على وجه الخصوص في الطويلة في الأيّام السابقة. كانت تتوقّف كثيراً وسط الأخريات فتضطّر صديقاتها اللواتي يبدون وكأنّهن يحترمنها كثيراً إلي التوقّف كذلك. وإنّي أعود فأراها الآن على هذا النحو تتوقّف ملتمعة العينين في ظلّ قبّعتها، أراها ترتسم خطوطاً على الشاشة التي يمدّها البحر خلفها وتفصلها عنّي فسحة شفّافة لازورديّة هي الزمن الذي انقضى مذذاك، وإنّها الصورة الأولى التي دقّت في ذاكرتي، الصورة المشتهاة والملاحقة ثم المنسيّة ثمّ المستعادة لمحيّا كثيراً ما أسقطته مذذاك في الماضي ليمكنني أن أقول في نفسي عن فتاة كانت في غرفتي: "إنّها هي!" .

وربّما كانت صاحبة اللون الغرنوقي والعينين الخضراوين من لعلّني اشتهيت أكثر ما اشتهيت التعرّف إليها أيضاً. وأيّة كانت في جميع الأحوال تلك التي كنت أفضّل رؤيتها، في هذا اليوم أو ذاك، فقد كانت الأخريات بدونها كافيات لهزّ مشاعري، إذ كان شوقي، وإن انصب مرّة على واحدة دون سواها ومرّة على أخرى، يوالي - شأن غموض نظرتي في اليوم الأوّل - في الجمع بينهنّ وفي أن يجعل منهنّ العالم الصغير المنفصل الذي تداخله حياة مشتركة والذي لا ريب أنهنّ كنّ يبغين على أيّة حال تأليفه. ولعلّني كنت، إذ أضحي صديق إحداهن، سأدخل - شأن وثني مرهف الذوق أو مسيحي رقيق الحاشية لدى البرابرة - مجتمعاً يجدّد الشباب وتسوده العافية واللامبالاة واللذة والقسوة وانتفاء الطابع الفكريّ والفرح.

كانت جدّتي التي رويت لها عن التقائي بـ "إيلستير"، والتي كان يبهجها كلّ ما يمكن أن أكسبه على الصعيد الفكريّ من صداقته، ترى من غير المنطق واللطف ألاّ أكون بادرت بعد لزيارته. لكنّني ما كنت أفكّر إلا في المجموعة الصغيرة ولا أجرؤ على الابتعاد وقد أعوزني التأكّد من الساعة التي ستمرّ فيها تلك الفتيات فوق السدّ. كانت جدّتي تعجب كذلك لأناقتي، فقد تذكّرت فجأة البزّات التي أهملتها حتى الآن في زاوية صندوقي. فكنت أرتدي كلّ يوم بزّة مختلفة، وقد بلغ بي الأمر أن كتبت إلى باريس كي يبعثوا إليّ بقبعات جديدة وربطات عنق جديدة.

وإنه لسحر عظيم ينضاف إلى الحياة في مركز حمامات بحريّة كما هي حال "بالبيك" إن أصبح وجه فتاة جميلة، وجه بائعة محاريّات أو حلوى أو زهور، وقد ارتسم بألوان زاهية داخل فكرنا، إن أصبح يوميّاً ومنذ الصباح بالنسبة إلينا هدف كلّ من تلك الأيّام المشرقة التي لاعمل فيها والتي نقضيها على الشاطئ، فإذا هي حينئذ من جرّاء ذلك، وإن تكن خالية من الأعمال، رشيقة كأيّام العمل موجّهة ممغنطة تندفع بلطف وجهة لحظة قريبة، تلك التي سنتلذّذ فيها، فيما نبتاع فطائر وأزهاراً ومحارات برؤية الألوان مبثوثة على وجه امرأة في مثل نقاء الألوان على صفحة زهرة. إلا أنّك، فيما يخصّ هؤلاء البائعات الصغيرات، تستطيع بادئ الأمر التحدّث إليهن، الأمر الذي يجنّبك أن تشيد بالخيال الجوانب الأخرى التي لا تزوّدك بها الملاحظة البصريّة البسيطة. وأن تعيد ابتكار حياتهنّ وتغالي في سحرها وكأنمّا أمام صورة مرسومة. ويمكنك أن تعلم على وجه الخصوص، لأنّك بالضبط تتحدّث إليهنّ، أين يمكن لقاؤهنّ وفي أيّة ساعات. بيد أنّ الأمر لم يكن ألبتّة على هذا النحو بالنسبة إليّ فيما يخص فتيات المجموعة الصغيرة. فلما كنت جاهلاً بعاداتهنّ كنت أبحث، حينما لا أشاهدهنّ في بعض الأيام ولا أدري سبب غيابهنّ، إن كان هذا الغياب أمراً ثابتاً وإن كُنَّ لا يُشَاهَدْنَ إلا مرّة كلّ يومين أو حينما يكون الطقس كذا أو إن كان ثمة أيّام لا يُشَاهَدْنَ فيها ألبتّة. وكنت أتصوّر نفسي سلفاً صديقاً عليهنّ وأقول لهنّ: "ولكنّكنّ ما كنتنّ هناك في يوم كذا؟ - آه، أجل، ذلك لأنّ اليوم كان يوم سبت ولانجيء ألبتّة السبت لأن..." ولو أنّ الأمر في مثل بساطة أن نعلم أنّه من غير المفيد أن نلحّ في نهار السبت المشؤوم وأنّنا نستطيع التجوال في الشاطئ في كلّ اتّجاه، والجلوس أمام واجهة الحلواني والتظاهر بأكل فطيرة خفيفة والدخول لدى تاجر الغرائب

وانتظار ساعة الاستحمام والحفلة الموسيقيّة ووصول مياه المدّ وغروب الشمس وحلول الليل دون أن نشاهد المجموعة الصغيرة المشتهاة ؛ ولكنّ اليوم المشؤوم ربّما لم يعاود الكرة مرّة في الأسبوع، ولعلّه لايقع بالضرورة في يوم سبت. وربّما كان لبعض الظروف الجويّة تأثير عليه أو كانت بعيدة كلّ البعد عنه. وكم من الملاحظات المتأنّية. لا الهادئة بأيّة حال، ينبغي لنا جمعها حول الحركات غير المنتظمة في ظاهرها لتلك العوالم المجهولة قبل أن يمكننا التيقّن أنّنا لم تخدعنا المصادفات وأن توقعاتنا لن تُضَلّل قبل أن نستخلص القوانين الثابتة التي اكتسبناها بفضل تجارب قاسية والتي تحكم علم الفلك المولّه هذا! وإذ أذكر أنّني لم ألقهنّ في مثل هذا اليوم نفسه كنت أُسرّ لذاتي بأنهن لن يأتين وأنّه لا جدوى من مكوثي على الشاطئ، فيتّفق أن ألمحهنّ. وكنّ في مقابل ذلك لايجئن في يوم حسبت، بقدر ماتمّ لي افتراض أنّ ثمة قوانين كانت تنظّم عودة تلك المجموعات النجميّة، أنّه ينبغي أن يكون يوم يمن. بيد أنّه كان ينضاف إلى شكّي الأوّل هذا بأنّي سألقاهنّ أو لا ألقاهنّ في اليوم نفسه آخر أدهى بكثير وقوامه إن كنت سألقاهن في يوم لأنّني أجهل إجمالاً إن كنّ لن يرحلن إلى أميركا أو يعدن إلى باريس. وكان ذلك كافياً لأشرع في حبّهنّ. وقد يتملّكك ميل إلى شخص ما، إلا أنه لابدّ لتفجير هذه الكآبة وهذا الشعور بما لا يمكن تداركه وصنوف الضيق هذه التي تهيئ مناخ الحب - ولعله هو بالأحرى، لاشخص معين، الهدف نفسه الذي يحاول الهوى أن يشدّه بلهفة إليه - لابدّ من احتمال استحالة ما. هكذا كانت تنشط مذ ذاك تلك التأثيرات التي تتكرر في غضون ظروف غراميّة متلاحقة (يمكن أن تقع على أيّة حال ولكنّها تتمّ بالأحرى في حياة المدن الكبرى بشأن عاملات نجهل أيّام عطلتهنّ ويرعبنا أنّنا لم نشاهدهنّ ساعة خروج عاملات المشغل)، أو التي تجدّدت على الأقلّ في غضون مناسباتي الغراميّة. وربّما كانت لاصقة بالحب، وربّما أقبل كلُّ ما كان ميزة خاصّة بالأوّل ينضاف إلى ما يليه بالذكرى، بالإيحاء، بالعادة ويضفي، من خلال الفترات المتعاقبة في حياتنا، طابعاً عاماً على مظاهره المختلفة.

كنت أتّخذ جميع الحجج ذريعة لأبادر إلى الشاطئ في الساعات التي يحدوني فيها أمل إمكان لقائهن. وإذ لمحتهنّ ذات مرّة في أثناء غدائنا لم أعد آتي إليه إلاّ متأخّراً وأنا في انتظار لا ينتهي على السدّ للحظة مرورهنّ هناك، وأظلّ طوال الوقت اليسير الذي أقضيه جالساً في قاعة الطعام أسائل بعينيّ زرقة الزجاج، وأنهض قبل المحلّيات كي لا يفوتني لقاؤهن إن اتّفق أن تنزّهن في غير الساعة المحدّدة وأغتاظ من جدّتي في قسوتها اللامتعمدة حينما تحملني على المكوث معها إلى مابعد الساعة التي تبدو لي مواتية. وكنت أحاول أن أمدّ في طول الأفق بأن أضع كرسيّي بالورب، فإن وقع لي أن ألمح أيّاً من الفتيات فكأنّما رأيت، إذ يشاركن جميعهنّ في الجوهر الخاصّ نفسه، في هلوسة متنقّلة شيطانيّة قبالتي شيئاً من الحلم المعادي، والمشتهي بتلهّف مع ذلك، الذي كان لا وجود له قبل ذاك بلحظة إلا في دماغي، وهو راكد فيه على أيّة حال على نحو مستمرّ.

ما كنت أحبّ أيّة منهنّ، إذ أحبهن كلّهن، بيد أن لقاءهنّ المحتمل كان العنصر اللذيذ الوحيد في أيّامي وكان يبعث وحده في صدري آمالاً كالتي نحطّم بها كل العقبات، امالاً يعقبها الحنق في

الغالب إن لم تتّفق لي رؤيتهنّ. كانت تلك الفتيات في ذلك الحين يحجبن جدّتي بالنسبة إليّ. ولعلّ رحلة كانت تروقني في الحال إن عَنَتِ الذهاب إلى مكان لابدّ هنّ فيه. وإنّما كان فكري مشدوداً بلطف إليهنّ حينما أظنّ أنّي أفكّر في أمر آخر أو في لا شيء. ولكن حينما كنت أفكّر فيهن، وإن لم أدرِ عن ذلك، فإنّما كنّ في نظري، على نحو أكثر بعداً عن الشعور، تموّجات البحر الوعرة الزرقاء وارتسام موكب أمام البحر. وإنما البحر ما كنت آمل لقاءه إن ذهبت إلى مدينة هنّ فيها. فالحبّ الذي ينصبّ حصراً على شخص ما إنّما هو أبداً حبّ شيء آخر.

أخذت جدّتي تعرب لي عن ازدراء يبدو لي ناجماً عن نظرة ضيقة بعض الشيء، لأنّني كنت آنها شديد الاهتمام بالغولف وكرة المضرب وسمحتُ أن تفوتني فرصة مشاهدة فنّان تعلم أنّه من أكبرهم في أثناء عمله والاستماع إلى حديثه. وكنت قد تبيّنت في "الشانزيليزيه" فيما مضى وأدركت مذ ذاك أفضل من ذي قبل أنّنا إذ نعشق امرأة فإنّما نسقط فيها محض حالة من حالات نفسنا، وأن المهمّ بالتالي ليس قدر المرأة بل عمق الحالة، وأن الانفعالات التي تبعثها فينا فتاة عاديّة يمكن أن تعيننا على أن نجذب إلى وعينا أجزاء من ذاتنا أشدّ صميميّة وألصق بشخصيّتنا وأكثر بعداً وأوفر جوهراً مما تفعل المتعة التي يولينا إيّاها حديث رجل متفوّق أو حتّى التأمّل المعجب بأعماله الفنيّة.

واضطررت في النهاية أن أنصاع لجدّتي بانزعاج يزيد فيه أنّ "إيلستير" كان يسكن بعيداً إلى حد ما عن السدّ في أحد أحدث شوارع "بالبيك". واضطرّني حرّ النهار أن أستقلّ الحافلة الكهربائية التي تمرّ في شارع "الشاطئ" فكنت أجهد، كيما أحسب أنّي في مملكة "السيمريّين" القديمة، وربّما في موطن الملك "مارك" أو في موقع غابة "بروسيلياند"، في أن لا أنظر إلى البذخ الزهيد القيمة في الأبنية التي تنتشر أمامي والتي ربّما كانت دارة "إيلستير" من أوفرها قباحة في فخامتها ولكنّه استأجرها مع ذلك لأنّها الوحيدة من بين سائر الدارات المتوافرة في "بالبيك" التي يمكن أن تيسّر له مرسماً فسيحاً.

وقد اجتزت، وأنا أشيح أيضاً بوجهي. الحديقة التي ازدهت بمرجة - بمساحة مصغيرة كما هي الحال لدى أيّ من بورجوازيّي ضاحية باريس - وتمثال صغير لبستاني متظرّف وكرات زجاجية تنظر إلى صورتك فيها وحواشٍ من أزهار البيغونيا وعريش صغير تستريح في ظلّه كراسٍ هزّازة حول طاولة حديديّة. بيد أني، بعد جميع هذه الجوانب التي تطبعها البشاعة الحضريّة، لم أعدْ أعير انتباهي زخارف الأفاريز البنيّة حينما أصبحت داخل المرسم! والفيتني في أتمّ السعادة، ذلك أنّي فيما يخصّ جميع الدراسات التي من حولي كنت أحسّ بإمكان ارتقائي إلى معرفة شاعريّة خصبة بالمسرّات لأشكال كثيرة لم أكن فصلتها حتّى ذاك عن المنظر الكليّ للواقع. وبدا لي مرسم "إيلستير" بمثابة مختبر لإعادة خلق العالم أستخلص فيه، من الركام الذي يمثّل جميع مانرى من أشياء، إذ رسمها على مستطيلات مختلفة من القماش وُضعت في كلّ اتّجاه، موجة هنا تسفح بحنق فوق الرمال زبدها الليلكيّ، وشابّاً هناك في قماش سميك أبيض يستند إلى ذراعه فوق سطح أحد المراكب. وقد اكتسبت سترة الشاب والموجة المتناثرة مكانة جديدة بما أنهما يستمرّان في الوجود وإن فقدا ماكان يعتبرانه يؤلّف قوامهما إذ لا تستطيع الموجة أن تبلّلك من بعد ولا السترة أن تكسو أحداً.

كان المبدع لحظة دخلت في طور إنجاز شكل الشمس لدى المغيب بالريشة التي يمسكها بيده.

كانت الستائر مسدلة في جميع الجوانب تقريباً والمرسم بارداً إلى حدّ ما ومعتماً إلا في مكان يلقي فيه الضياء الشديد على الجدار زخرفته الساطعة العابرة. وحدها نافذة صغيرة مستطيلة يحيط بجنباتها زهر العسل ظلّت مفتوحة وكانت تطلّ من خلف حديقة مستطيلة على شارع عريض. فكان الجو في الجزء الأكبر من المرسم عاتماً شفّافاً كثيف الكتلة ولكنّه نديّ متألّق في الزوايا حيث يرصّعه الضياء كمتل كتلة من الكريستال الصخري يلتمع ههنا وهناك أحد سطوحه المنحوت الصقيل كأنّه مرآة ويتقزّح. وفيما كان "إيلستير" يوالي الرسم نزولاً عند رغبتي كنت أجول في نصف العتمة ذاك أتوقّف أمام لوحة ثمّ أمام أخرى.

وما كان العدد الأكبر من تلك التي تحيط بي ماكنت أفضّل أن أشاهده له من تلك الرسوم التي تعود إلى طريقتيه الأولى والثانية، كما تنوّه بذلك مجلّة فنيّة إنكليزية كانت مرميّة على طاولة صالة الاستقبال في الفندق الكبير، الطريقة الأساطيريّة وتلك التي خضع فيها لتأثير اليابان وكلاهما ممثّلتان أروع تمثيل، فيما يقال، في مجموعة السيّدة "دو غيرمانت" . كان ما لديه في مرسمه يكاد يقتصر بالطبع على مناظر بحريّة أخذت هنا في "بالبيك" . بيد أنّه كان بوسعي أن أميّز فيها أنّ سحر كلّ منها قائم على ضرب من تحوّل الأشياء الممثّلة شبيه بالتحوّل الذي ندعوه في الشعر مجازاً وأنّه إن كان الله الآب قد خلق الأشياء بإطلاق أسماء عليها، فإن "إيليستير" كان يعيد خلقها بنزع تلك الأسماء عنها أو بإطلاق أسماء أخرى عليها. وإنّما تستجيب الأسماء التي تدل على الأشياء، إنّما تستجيب على الدوام لمفهوم عقليّ غريب عن انطباعاتنا الحقيقية يضطرّنا إلى أن نزيل منها كل مالا يتعلّق بذاك المفهوم.

لقد سبق أن وقع لي أحياناً أمام نافذتي في فندق "بالبيك"، في الصباح حينما كانت "فرانسواز" تنزع الأغطية التي تحجب النور، وفي المساء حينما كنت أنتظر لحظة الذهاب مع "سان لو"، أن أتّخذ من جرّاء تأثير ناجم عن أشعّة الشمس قسماً في البحر أكثر عتمة بمثابة شاطئ بعيد أو أن أنظر بغبطة إلى منطقة زرقاء غير واضحة المعالم دون أن أدري إن كانت من البحر أو السماء. وسرعان ماكان عقلي يعيد بين العناصر الخطّ الفاصل الذي كان انطباعي قد أزاله. وكان يتّفق لي من هذا القبيل في غرفتي في باريس أن أسمع شجاراً وما يقرب أن يكون فتنة إلى أن أردّ إلى علّتها، إلى عربة تقترب جلبة سيرها على سبيل المثال، تلك الضجّة التي كنت أزيل منها حينذاك تلك الزعقات الحادّة والناشزة التي سمعتها أذني بالحقيقة ولكن عقلي يعلم أن ليس من عجلات تحدثها. وإنّما صُنِعَتْ أعمال "إيلستير" من تلك اللحظات النادرة التي يبصر فيها المرء الطبيعة على نحو ماهي عليه، على نحو شاعري. وكانت إحدى صوره المجازيّة الأكثر تردّداً في المناظر البحريّة التي كانت إلى جانبه في هذه اللحظة، كانت بالضبط تلك التي تشبّه الأرض بالبحر فتحذفُ كلّ خطّ فاصل بينهما. كان ذلك التشبيه الذي يتكرّر في لوحة واحدة بصورة ضمنيّة وعلى نحو لا يعرف الكلل هو الذي

يدخل فيها تلك الوحدة القويّة المتعدّدة الأشكال التي كانت سبب الحماسة التي يثيرها رسم "إيلستير" في صدر بعض الهواة، ولا يتبينون أحياناً ذلك السبب بوضوح.

كان "إيلستير" على سبيل المثال قد هيّأ ذهن المتفرّجين لمجاز من هذا القبيل - في لوحة تمثّل مرفأ "كاركتوي"، لوحة أنجزها منذ أيّام قليلة وأطلت في النظر إليها - وذلك بأن استخدم تعابير بحريّة حصراً للمدينة الصغيرة وحضريّة حصراً للبحر. فإمّا أن تحجب المنازل جزءاً من المرفأ إذ يمتدّ حوض لإصلاح السفن أو حتى البحر نفسه على شكل خليج داخل اليابسة، كما يتّفق ذلك باستمرار في منطقة "بالبيك" هذه، فإذا السطوح في الجانب الآخر من الطرف المتقدّم الذي شيدت عليه المدينة تبرز فوقها (على غرار ماقد تفعل المداخن أو قبب الأجراس) الصواري التي تبدو وكأنها تجعل من السفن التي تعود إليها شيئاً حضريّاً شيد على اليابسة وتزيد في هذا الانطباع مراكب أخرى ظلّت على امتداد المكسر ولكنّها متراصّة الصفوف حتّى ليتحدّث الناس فوقها من مركب إلى آخر دون أن يمكن تمييز الخطّ الفاصل بينها وبين فرجة الماء، وهكذا كان يبدو أسطول الصيد الصغير هذا أقلّ التصاقاً بعالم البحر من كنائس "كريكبيك" مثلاً، تلك الكنائس التي تبدو في البعيد، والماء يحيط بها من كلّ جانب لأنّك كنت تشاهدها بمعزل عن المدينة في ابيضاض الشمس والأمواج، وكأنها تنبثق من المياه التي تنفّخت مرمراً أو زبداً، وتؤلّف، وقد لفّها نطاق قوس قزح متعدّد الألوان، لوحة خياليّة روحانية. وقد أفلح الرسّام في أماميّة الشاطئ في تعويد العين أن لا تبصر حدّاً ثابتاً وخطاً فاصلاً مطلقاً بين اليابسة والمحيط. كان الرجال الذين يدفعون مراكب إلى البحر يجرون في الماء وعلى الرمل سواء بسواء، فقد كان يعكس في بلله هياكل كما لو كان ماءً. والبحر نفسه ما كان يتقدّم على نحو منتظم بل يتبع تعرّجات الشاطئ الرملي الذي كان المنظور يزيد من تعرّجه حتى لتبدو سفينة في عرض البحر، وتكاد تحجبها منشآت الصناعة البحرية التي تمتدّ داخل البحر، وكأنها تمخر داخل المدينة. وتبدو نسوة يجمعن القريدس بين الصخور، لأنّ الماء يحيط بهنّ وبسبب المنخفض الذي يهبط بالشاطئ، بعد حاجز الصخور الدائري (من الجانبين الأكثر اقتراباً من اليابسة)، إلى مستوى البحر. وكأنهنّ داخل مغارة بحريّة، تكتنف جوانبها القوارب والأمواج وقد انفتحت مابين المياه التي تباعدت تحميها على نحو عجائبيّ. ولئن كانت اللوحة بكاملها تخلّف هذا الانطباع عن المرافئ التي يمتدّ فيها البحر داخل اليابسة وتبدو اليابسة فيها من البحر والناس برمائيّين، فإن قوّة العنصر البحريّ كانت تتفجّر في كلّ مكان. فقد كنت تحسّ، بالقرب من الصخور وعلى مدخل الرصيف حيث كان البحر مضطرباً، كنت تحسّ، من جرّاء جهود البحّارة وميَلان القوارب المضطجعة بزاوية حادّة إزاء العموديّة الهادئة التي تبرز بها المخازن والكنسية ومنازل المدينة التي يعود بعضهم إليها وينطلق الآخرون منها إلى الصيد، أنهم يسرعون بخشونة على متن الماء كأنّما على ظهر حيوان جموح سريع العدو كانت قفزاته المفاجئة ستلقي بهم أرضاً لولا مهارتهم. وكانت زمرة من المتنزّهين تخرج على متن قارب يهتزّ كعربة خفيفة، وبحّار متهلّل ولكنّه متيقّظ أيضاً يقوده كأنّما بأعنّة ويمضي بالشراع المتوثّب وكلّ يقف في مكانه تماماً كي لا يزيد من الثقل في أحد الجوانب ولا ينقلب، ويسرعون هكذا عبر الحقول المشمسة والأمكنة الظليلة مندفعين فوق السفوح.

وكان صباحاً جميلاً على الرغم من العاصفة التي هبّت. وتكاد حتى تحس كذلك بالتأثيرات القوية التي كان على التوازن البديع الذي تبدو به القوارب الساكنة أن يطلها وهي تنعم بالشمس والبرودة في الأجزاء التي يبدو فيها البحر ساكناً حتى لتكاد الانعكاسات تبدو أوفر صلابة وحقيقة من هياكل المراكب التي تبخرت بفعل ضياء الشمس وجعلها المنظور يتراكب بعضها فوق بعضها الآخر. أو لعلك كنت بالأحرى لاتقول بأجزاء أخرى من البحر. فقد كان بين تلك الأجزاء قدر من الفروق يماثل ما كان بين واحد منها والكنيسة المنبثقة من المياه والمراكب التي وراء المدينة. وكان العقل بعدها يجعل مادّة واحدة مما كان هنا أسود بفعل العاصفة وفي البعيد موحّد اللون تماماً مع السماء وصقيلاً مثلها وهناك شديد البياض من شمس وضباب وزبد، شديد الكثافة بعيد الشبه بالأرض تكتنفه المنازل إلى حدّ تفكر معه بطريق رُصفت بالحجارة أو بحقل ثلجيّ يصيبك الذعر أن تبصر عليهما سفينة ترتفع عموديّاً وعلى اليبس كمثل عربة تمرح وهي خارجة من مخاضة، إلا أنك تدرك بعد فترة وأنت تبصر فوق الهضبة الصلبة العالية اللامتساوية مراكب مترنحّة، أنّه لايزال هو البحر يتماثل في جميع مظاهره المختلفة.

ومع أنهم يقولون بحقّ إنّه لا تقدّم في الفنّ ولا اكتشافات، بل هي تنحصر في العلوم، وإنّه إذ يعاود كلّ فنّان لحسابه الخاصّ جهداً فرديّاً فلا يمكن أن يلقى عوناً أو إعاقة في جهود آخر سواه، إلا أنّه لابد من الاعتراف بأن الفنّ السابق يفقد شيئاً من أصالته على نحو رجعيّ بمقدار ما يبرز الفنّ بعض القوانين وبعدما تقوم صناعة ما بتعميمها. لقد عرفنا منذ بدايات "إيلستير" ما يدعونه صوراً فوتوغرافية "رائعة" لمناظر أو لمدن. فإن حاولنا إيضاح ما يعنيه الهواة في هذه الحالة بتلك الصفة لوجدنا أنها تنطبق عادة على صورة غريبة لشيء معروف، صورة تختلف عن تلك التي تعوّدنا رؤيتها، غريبة ولكنّها حقيقية وهي لهذا السبب تضاعف من ذهولنا لأنها تدهشنا وتخرجنا من عاداتنا فيما تردّنا في الآن نفسه إلى داخل ذواتنا إذ تذكّرنا بانطباع معيّن. فواحدة من تلك الصور "الرائعة" ستوضح لنا على سبيل المثال قانون المنظور. وترينا هذه الكاتدرائية التي تعوّدنا أن نراها في أوسط المدينة وقد صوّرت على العكس من نقطة مصطفاة تبدو منها ثلاثين مرّة أعلى من المنازل وقد امتدّت على ضفّة النهر التي هي في الواقع بعيدة عنها. وقد سبق لجهد "إيلستير" في ألاّ يعرض الأشياء على مثل ما يعلمها، بل وفق تلك الأوهام البصريّة التي تؤلّف نظرتنا الأولى، أن قاده بالضبط إلى توضيح بعض من قوانين المنظور وهي إذ ذاك أشدّ إذهالاً لأنّ الفنّ كان الأوّل في إماطة اللثام عنها. فيبدو نهر بسبب انعطاف مجراه وخليج بسبب تقارب الجروف الظاهر وكأنهما يحفران وسط السهل أو الجبال بحيرة مغلقة تماماً من كلّ جانب. وفي لوحة أخذت من "بالبيك" في يوم صيف قائظ كان يبدو فيها انحسار للبحر داخل أسوار من الغرانيت الورديّ اللون وكأنّه ليس من البحر الذي يبدأ في نقطة أبعد. ولم يكن يوحي بتواصل المحيط سوى طيور النورس التي تحوم حول ما يبدو للناظر أنّه من الحجر فتتنسّم على العكس نداوة الماء. وثمة قوانين أخرى كانت تُستخلص من تلك اللوحة نفسها كمثل رشاقة الأشرعة البيضاء القزمية على حضيض الجروف الضخمة، وكانت تبدو فوق المرآة الزرقاء كأنهّا فراشات غافية، وبعض صنوف التعارض بين شدّة

سواد الظلال وشحوب الضوء. فقد حظي تلاعب الظلال هذا الذي جعلته الصورة الفوتوغرافية مبتذلاً بدوره باهتمام "إيلستير" إلى حدّ أن طاب له فيما مضى أن يرسم لوحات سراب حقيقي يبدو فيه حصن يُتَوِّجه برج على هيئة حصن دائريّ تماماً يعلوه برج في قمّته وفي أسفله برج مقلوب إمّا لأن النقاء الخارق في طقس صحو قد أضفى على الظلال التي تنعكس في الماء صلابة الحجر وبريقه، وإمّا لأنّ الضباب الصباحيّ جعل الحجر في مثل ضبابيّة الظلال. كذلك كان يبدأ ما وراء البحر خلف صفّ من الحراج، بحر جديد يلوّنه غروب الشمس بلون الورد وإن هو إلا السماء. كان النور الذي يبتدع، كأنّما أجساما صلبة جديدة، يدفع بهيكل المركب الذي يرسل عليه ضياءه إلى خلف الهيكل الذي بقي في الظلّ فيقيم كأنّما درجات سلّم من الكريستال على الصفحة المستوية على الصعيد الماديّ ولكنما تكسّرها الإنارة، صفحةِ البحر في الصباح. وكان النهر الذي يجري تحت جسور المدينة قد تمّ رسمه من نقطة يبدو منها مقطّع الأوصال كليّاً ينبسط ههنا على شكل بحيرة، ويدقّ هناك فإذا هو خيط ماء، ويقطعه في مكان آخر قيام هضبة دونه تتوّجها الأشجار وإليها يبادر إنسان المدينة في المساء إلى تنسّم هواء المساء العليل، وما كان يؤمّن انتظام خطوط هذه المدينة المزعزعة سوى خطّ قباب الأجراس العموديّ الذي لا ينثني، تلك القباب التي لا تذهب صعداً بل هي تبدو بالأحرى، حسب شاقول الثقالة الذي يرسم الإيقاع كأنمّا في لحن سير ظافر، وكأنها تمسك الكتلة التي تفوقها إبهاماً، كتلة المنازل المتناضدة في الضباب، معلّقة من تحتها، على امتداد النهر المحطّم المفكّك. (وبما أنّ أعمال "إيلستير" الأولى تعود إلى الفترة التي كان يجري فيها تزويق مناظر الطبيعة بحضور إنساني) فقد كان الدرب، هذا الجزء نصف المؤنسن في الطبيعة، فوق الجرف وفي الجبل ضحيّة انكسافات المنظور شأن النهر أو المحيط. وسواء أحال حرف جبل أم ضباب شلاّل أم البحر دون أن نتابع خطّ الطريق المتّصل الحليّ بالنسبة إلى المتنزّه لا بالنسبة إلينا، فقد كان الإنسان الصغير التائه بثيابه المتقادمة الزيّ في هذه الأمكنة المنعزلة يبدو في الغالب كأنمّا استوقف أمام هاوية، إذ الدرب الذي يسير عليه ينتهي هناك، فيما نرى، على ارتفاع يجاوزه بثلاث مئة متر في أحراج الصنوبر تلك، بعين داخلها الحنان وبقلب مطمئنّ، بياض رمله الدقيق الرفيق بقدم المسافر يعود إلى الظهور ولكنّ سفح الجبل كان قد حجب عنا شرائطه الوسيطة التي تدور حول الشّلال أو الخليج.

وكان يزيد من الإعجاب بالجهد الذي يبذله "إيلستير" لينزع عنه في إزاء الواقع جميع مفاهيم عقله أنّ هذا الرجل الذي كان يصطنع الجهل قبل أن يرسم وينسى كلّ شيء عن نزاهة (لأنّ ما نعرفه ليس ملكاً لنا) كان يتمتّع بالضبط بعقل مثقّف ثقافة استثنائية. فلمّا كنت أعترف له بالخيبة التي أصابتني أمام كنيسة "بالبيك" قال لي:

– "كيف تصيبك الخيبة من جرّاء هذه البوابة، فإنها أجمل كتاب مقدس قصصيّ أمكن أن يراه الشعب قطّ. إنّ هذه العذراء وسائر النقوش النافرة التي تروي حياتها إنمّا تمثّل التعبير الأوفر رقّة والأكثر إلهاماً في قصيدة العبادة والمدائح الطويلة هذه التي سينشئها العصر الوسيط تمجيداً للعذراء. فلو تعلم ما تمّ للنحّات الشيخ من اكتشافات رقيقة وأفكار عميقة وشعر رائع، إلى جانب الدقّة الأكثر

تأنّياً في ترجمة النصّ المقدّس! ففكرة هذا القماش الرقيق الكبير الذي يحمل فيه الملائكة جسد العذراء وهو أكثر قدسيّة من أن يجرؤوا مسّه مباشرة (وقلت له إن الموضوع نفسه عولج في كنيسة "سانت أندريه دي سان"، وكان قد شاهد صوراً فوتوغرافية لبوّابة هذه الكنيسة الأخيرة، ولكنّه لفت انتباهي إلى أن الحماسة التي يبديها هؤلاء الفلاحون الصغار الذين يسارعون جميعاً حول العذراء أمر مختلف عن وقار الملاكين العظيمين الإيطاليي المظهر تقريباً الممشوقين الرقيقين) ؛ والملاك الذي يحمل نفس العذراء ليجمعها إلى جسدها ؛ وفي لقاء العذراء وأليصابات حركة هذه الأخيرة التي تلامس نهد مريم وتعجب أن تحسّه منتفخاً ؛ والذراع المربوطة للقابلة التي لم تشأ تصديق الحبل بلادنس دون أن تلمس بيدها ؛ والنطاق الذي ترمي به العذراء إلى القدّيس توما لتقدّم له البرهان على قيامتها ؛ وذلك الحجاب أيضاً الذي تنتزعه العذراء عن صدرها لتحجب به عري ابنها الذي تجمع الكنيسة من أحد جنبيه الدم الذي هو شراب سرّ القربان المقدّس، فيما يقف الكنيس اليهودي الذي حلّت نهاية عهده في الجانب الآخر معصوب العينين يحمل صولجاناً نصف محطّم ويفلت منه إلى جانب التاج الذي يسقط عن رأسه لوحيْ الشريعة القديمة ؛ والزوج الذي إذ يساعد زوجته الشابّة، ساعة الدينونة الأخيرة، على مغادرة القبر يضغط بيدها على قلبه ليطمئنها ويبرهن لها أنّه يخفق حقاً، أفما تلك كذلك فكرة لطيفة ولقية بديعة؟ والملاك الذي يذهب بالشمس والقمر وقد أصبحا لا جدوى منهما بما أنّه قيل إن نور الصليب سيكون سبع مرّات أكثر قوّةً من نور الكواكب ؛ وذاك الذي يغمس يده في الماء المعدّ لحمّام يسوع ليرى إن كانت سخونته كافية ؛ وذاك الذي يخرج من السحاب ليضع الإكليل على جبين العذراء ؛ وجميع أولئك الذين ينحنون من أعالي السماء بين أعمدة شرفات أورشليم السماوية ويرفعون أيديهم من ذعر أو ابتهاج لدى رؤية عذابات الأشرار وسعادة المختارين! فإن أمامك ههنا جميع دوائر السماء وإنها لمقطوعة شعريّة لاهوتية ورمزية عملاقة. ذلك من دنيا الجنون، ذلك من دنيا الآلهة وإنّه ليفوق ألف مرّة كلّ ما ستشاهده في إيطاليه حيث تمّ على أيّة حال نقل هذا الإفريز نقلاً حرفيّاً على يد نحّاتين أقلّ نبوغاً بكثير. فأنت تدرك أن كلّ ذلك مسألة نبوغ. ليس ثمّة فترة يتمتّع فيها كل الناس بالنبوغ، فكلّ ذلك مجرّد مزاح ربّما فاق رواية العصر الذهبيّ. صدّقني، إن الذي قام بنحت هذه الواجهة كان في مثل اقتدار جماعة اليوم الذين تعجب بهم أشدّ الإعجاب وكان صاحب أفكار في مثل عمق أفكارهم. ولو ذهبنا سويّة لأريتك ذلك. إن ثمة بعض أقوال من رتبة صلاة "انتقال العذراء" تُرجمت بحذاقة لم يبلغ مثلها "رودون" .

لم تكن تلك الرؤيا السماوية التي كان يحدّثني عنها ولا تلك القصيدة اللاهوتية العملاقة التي كنت أدرك أنّها سُطّرت هناك، لم تكونا مع ذلك، حينما انفتحت عيناي اللتان تعجّان بالأشواق أمام الواجهة، ما رأيت. فقد حدّثته عن تماثيل ضخمة لقدّيسين وضعت فوق طوالات وتؤلّف نوعاً من الممرّ العريض. فقال لي: "إنّه ينطلق من أقصى العصور ليقضي في النهاية إلى يسوع المسيح. فمن جهةٍ أجداده بالروح ومن جهة أخرى ملوك يهوذا أجداده بحسب الجسد. إن جميع القرون ماثلة هنا. ولو أمعنت النظر في ما بدا لك أنه طوالات لاستطعت أن تسمّي الجاثمين فوقها، فتحت قدمي

موسى كنت عرفت العجل الذهبيّ، وتحت قدمي إبراهيم الكبش، وتحت قدمي يوسف الشيطان الذي يقدّم المشورة لامرأة "بوتيفار" .

وقلت له كذلك إنّني كنت أتوقّع رؤية بناء فارسيّ تقريباً وإن ذلك دونما ريب من أسباب تقديري الخاطئ. فأجاب قائلاً: "لا، في قولك الكثير من الصحّة. فإن بعض الأقسام شرقيّة تماماً. وهناك تاج عمود ينقل موضوعاً فارسياً بدقّة بلغت حدّاً لا يكفي معه استمرار التقاليد الشرقية لشرحها. ولابدّ أنّ النحّات نقل عن صندوق صغير حمله بحرارة معهم." وسوف يريني بالفعل فيما بعد صورة تاج عمود أبصرت عليه تنانين صينيّة إلى حدّ ما يفترس بعضها بعضاً، ولكنّ هذه المنحوتة الصغيرة لم تسترع انتباهي داخل مجمل البناء الذي لم يكن يشبه ما أرتني إيّاه تلك الكلمات: "كنيسة فارسية تقريباً" .

لم تكن المسرّات الفكريّة التي كنت أتذوقها داخل ذاك البناء، لم تكن لتحول دون أن أحسّ بالألوان الدافئة ونصف عتمة الحجرة المتلألئة، وفي أقصى النافذة الصغيرة التي يكتنف جنباتها زهر العسل، في الشارع الريفيّ تماماً، بصلابة جفاف الأرض التي تحرقها الشمس ولا يحجبها سوى شفافية البعد وظلال الأشجار، مع أنها جميعها تحيط بنا كأنما رغم إرادتنا. وربما جاء الهناء اللاواعي الذي يبعثه في نفسي ذلك النهار الصيفيّ يزيد، على نحو ما يفعل الرافد، الفرح الذي تبعثه في نفسي رؤية "مرفأ كاركتوي" .

كنت أحسب "إيلستير" متواضعاً ولكني أدركت أنّني كنت على ضلال إذ رأيت وجهه تلوّنه الكآبة حينما جئت على ذكر كلمة المجد في معرض شكري له. فالذين يعتقدون أنّ أعمالهم خالدة – وكانت تلك حال "إيلستير" – يتّخذون عادةً وضعها في حقبة ليسوا من بعد فيها سوى تراب. وإنّما تثير فكرة المجد أشجانهم إذ تضطرهم إلى التفكير بالزوال لأنها لا تنفصل عن فكرة الموت. وغيّرت الحديث لأبدّد سحابة الكآبة المستكبرة تلك التي حمّلتُ بها جبين "إيلستير" غير متعمد. فقلت له وأنا أفكر في الحديث الذي تبادلناه مع "لوغراندان" في "كومبريه" والذي كان يسرّني أن أسمع رأيه فيه: لقد أشاروا عليّ أنْ لا أذهب إلى مقاطعة "بريتانيه" لأنّ ذلك ضارّ بالنسبة إلى ذهن ميّال إلى الأحلام." فأجابني قائلا: "لا، لا، حينما يكون الذهن ميالا إلى الأحلام فلا ينبغي أن نقصيه عنها وأن نخصّه منها بمقادير. فإن ذهنك لن يعرف أحلامه مادمت تصرفه عنها. وسوف تصبح ألعوبة ألف من الظواهر لأنّه لم يتسنّ لك إدراك طبيعتها. ولئن كان قليل من الحلم أمراً خطيراً، فليس مايشفيك منه قدراً من الحلم أقلّ بل قدراً أكبر، بل كامل الحلم. جدير بالمرء أن يعرف أحلامه معرفة كلية كي يعاني منها فيما بعد. وثمّة نوع من الفصل بين الحلم والحياة غالباً مايجدي أن نقوم به حتى لأتساءل إن لم يجدر بنا ممارسته على سبيل الاحتياط وعلى نحو وقائي مثلما يزعم بعض الجرّاحين أنّه ينبغي إزالة الزائدة الدودية لدى جميع الأطفال لتفادي إمكان حدوث التهاب الزائدة مستقبلا" .

كنّا قد ذهبنا أنا و"إيلستير" إلى أقصى المرسم أمام النافذة التي تشرف من خلف الحديقة على شارع عرضاني ضيّق يكاد أن يكون درباً صغيراً في قرية. وقد جئنا إلى هناك لنستنشق هواء أواخر

مابعد الظهر وقد أصبح بارداً. وكنت أحسبني بعيداً عن فتيات المجموعة الصغيرة فقد انصعت في النهاية لرجاء جدّتي أن أبادر للقاء "إيلستير" وذلك إذ ضحّيت لمرّة واحدة بأمل لقائهن. ذلك أنّ المرء لا يدري أين يوجد ما يبحث عنه وغالباً ما يبتعد فترة طويلة عن المكان الذي يدعونا إليه الجميع لأسباب أخرى. ولكنّنا لانشكّ بأنّنا ربمّا رأينا فيه بالضبط الشخص الذي نفكّر فيه. كنت أنظر على نحو غير محدّد إلى هذا الدرب الريفيّ الذي كان خارج المرسم ويمرّ قريباً جدّاً منه ولكنّه ليس ملكاً لِـ "إيلستير" . وفجأة ظهرت تسير فيه بخطى سريعة راكبة الدراجة الفتيّة التي من المجموعة الصغيرة، وعلى شعرها الأسود قبّعتها التي تخفضها على وجنيتها السمينتين وعينيها المرحتين الملحاحتين بعض الشيء. وفوق ذلك الدرب السعيد الحظّ الذي امتلأ على نحو عجيب بعذب الوعود رأيتها تحت الشجر تحيّي "إيلستير" تحيّة صداقة مشرقة كأنّها قوس قزح يجمع في نظري بين عالمنا الأرضيّ ومناطق حسبتها حتى ذاك متعذّرة الإدراك. وزادت فاقتربت لتمدّ يدها للرسام دون أن تتوقّف ورأيت أنّ لها شامة على ذقنها. وقلت لِـ"ايلستير": "أتعرف هذه الفتاة يا سيدّ؟" وأنا أدرك أنّه ربّما استطاع أن يعرّفني بها وأن يدعوها إلى منزله. وامتلأ ذاك المرسم الهادئ بأفقه الريفيّ بأمر إضافي لذيذ، كما هو شأن منزل كانت تطيب الإقامة فيه لأحد الأطفال ثم هو يعلم أنّه يعَدُّ له إلى ذلك، بفضل السخاء الذي تتمتّع به الأشياء الجميلة والناس الكرام في مضاعفة عطاياهم إلى مالا حدود، عصرونية بديعة. وقال لي "إيلستير" إنّها تدعى "ألبيرتين سيمونيه"وسمّى لي صديقاتها الأخريات اللواتي وصفتهن له بدقّة كافية لاتدع له مجالاً للشكّ تقريباً. وقد ارتكبت خطأً بشأن وضعهنّ الاجتماعي ولكن بعكس الاتّجاه المعهود في "بالبيك". فقد كنت أنظر بسهولة إلى أبناء أصحاب حوانيت يمتطون الجياد على أنّهم أمراء. أمّا هذه المرّة فقد وضعت في وسط مشبوه بنات من البورجوازيّة الصغيرة الشديدة الثراء من دنيا الصناعة والأعمال. وكان ذاك الوسط لأوّل وهلة أقلّ ما يثير اهتمامي إذ لا يملك في نظري الأسرار التي تحيط بالطبقة الشعبية أو بمجتمع شبيه بمجتمع آل "غير مانت" . ولا ريب أنّني ما كنت ربّما أفلحت في مقاومة الفكرة التي قوامها أنّهنّ بنات تجّار كبار لو لم يضفِ عليهن إزاء عيني المفتونتين الفراغ الباهر الذي يسم حياة الشواطئ مهابة مسبقة لن يفقدنها من بعد. ولم يسعني سوى أن أعجب إلى أيّ مدى كانت البورجوازيّة الفرنسيّة مُحْتَرَفاً رائعاً لأكثر صنوف النحت تنوّعاً. فكم من نموذج غير متوقّع، وأيّ ابتكار في طابع الوجوه، وأيّ حزم في القسمات وأيّة نضارة وأيّة سذاجة! كان يخيّل إليّ أن هؤلاء البورجوازيّين العتاق الذين انحدرتْ منهم ربّاتُ الصيد وهاتيك الحوريّات هم أعظم المثّالين. وقبل أن يتّسع لي الوقت لأتبيّن تحوّل هؤلاء الفتيات على الصعيد الاجتماعي، ولشدّة ما تتّخذ اكتشافات الخطأ تلك والتبدّلات في الفكرة التي نحملها عن شخص ما آنية تفاعل كيميائي، كانت قد أقامت خلف مظهر النمط السوقيّ لتلك الفتيات اللواتي حسبتهنّ عشيقات متسابقي درّاجات وأبطال ملاكمة فكرة أنّهن يستطعن تماماً أن يكن على علاقة صداقة مع أسرة هذا أو ذاك من الكتّاب العُدُل الذين كنّا نعرفهم. لم أكن أدري تماماً من عسى تكون "ألبيرتين سيمونيه"، وكانت تجهل بالتأكيد ما سوف تصبح ذات يوم بالنسبة إليّ. حتى اسم "سيمونيه" هذا الذي سبق أن سمعته على الشاطئ لو طلب إليّ أن أكتبه لكتبته بنون مشدّدة ولا يداخلني شكّ بالأهميّة التي تعلّقها تلك الأسرة على ألاّ تملك سوى

نون غير مشدّدة. فكلما انحدرت في السلّم الاجتماعي تعلّقت السنوبّية بتوافه ربّما لم تكن عديمة القيمة أكثر من امتيازات الأرستقراطية ولكنّها تدهشك أكثر لأنها أشدّ إبهاماً وأكثر التصاقاً بكلّ فرد. فربّما كان هنالك جماعة من آل "سيمونيه" قاموا بأعمال فاشلة أو ربما كان أسوأ. ومهما يكن من أمر فإن آل "سيمونيه" قد غضبوا على الدوام حينما يتمّ تشديد النون في اسمهم وكأنّما ذلك افتراء عليهم وكانوا يفخرون بأنّهم قوم "سيمونيه" الوحيدون بنون غير مشدّدة ربّما فخار آل "مونمورانسي" بأنّهم أوّل بارونات فرنسه. وسألتُ "إيلستير" إن كانت تلك الفتيات يقطنّ "بالبيك" فأجاب بنعم بالنسبة إلى بعض منهن. كانت دارة إحداهنّ تقع بالضبط في أقصى الشاطئ حيث تبدأ جروف "كانا بفيل" . ولما كانت تلك الفتاة صديقة كبيرة لِ "ألبيرتين سيمونيه" فقد أصبح ذلك لي سبباً إضافياً للاعتقاد بأنّ هذه الأخيرة هي التي التقيت بها حينما كنت مع جدّتي. صحيح أنّ ثمّة الكثير من تلك الشوارع التي تعامد الشاطئ وتخطّ الزاوية نفسها إلى حدّ لا أستطيع معه أن أحدّد بالضبط أيّها كان. وإنّك لتودّ أن تتذكّر على نحو دقيق ولكنّ الرؤية كانت غير واضحة في تلك اللحظة نفسها. بيد أنه كان من الثابت عملياً أن "ألبيرتين" وتلك الفتاة التي دخلت إلى منزل صديقتها كانتا تؤلّفان شخصاً واحداً مفرداً. ولكني لو أردت على الرغم من ذلك، وفيما تتنضّد الصور التي لا تحصى والتي خلّفتها لديّ فيما بعد لاعبة الغولف السمراء، مهما اختلف بعضها عن بعضها الآخر، (لأني أعلم أنّها تعود كلّها لها) وأنّي لو أستعيد حبل الذكريات فبمقدوري استعراض جميع تلك الصور دون أن أبرح الشخص نفسه، وذلك تحت ستار هذا التماثل وكأنّما في درب تواصل داخليّ، لو أردت في مقابل ذلك أن أعود القهقرى حتى تلك الفتاة التي التقيت بها يوم كنت مع جدّتي فلابدّ لي من العودة إلى الهواء الطلق. وإنّي متيقّن أنّ من أعود فألقاها هي "ألبيرتين" وهي نفسها التي كانت كثيراً ما تقف وسط صديقاتها أثناء النزهة تتجاوز بقامتها أفق البحر ؛ ولكنّ هذه الصور جميعها تظلّ منفصلة عن تلك لأنني لا أستطيع أن أضفي عليها على نحو لاحق هويّة لم تكن تملكها في نظري آن لفتت انتباهي ؛ ومهما أمكن أن يؤكّده لي حساب الاحتمالات فإن تلك الفتاة ذات الوجنتين السمينتين التي رمتني بنظرة شديدة الجرأة في زاوية الشارع الصغير والشاطئ والتي أظنّ أنّه كان يمكن أن أظفر بحبّها، لم أرها ألبتّة ثانية بالمعنى الحصريّ لكلمة رأى ثانية.

فهل انضافت حيرتي بين مختلف فتيات المجموعة الصغيرة اللواتي ظللن يحتفظن كافّة بشيء من السحر الجماعيّ الذي سبق أن بعث الاضطراب بادئ الأمر في نفسي، هل انضافت هي الأخرى إلى تلك الأسباب كي تدع لي فيما بعد، حتّى في زمن حبّي الأكبر - حبّي الثاني - لِ "ألبيرتين"، ضرباً من الحريّة المتقطّعة والوجيزة جدّاً في ألاّ أحبّها؟ لقد احتفظ حبّي أحياناً ببعض "حريّة الحركة" بينه وبين صورة "ألبيرتين" ممّا كان يتيح له، شأن إضاءة غير مركّزة، أن ينتقل على الأخريات قبل أن يعود فيحطّ عليها وذلك لأنّه هام بين جميع صديقاتها قبل أن يتّجه نهائيّاً إليها. ولم يكن يبدو لي أن الصلة بين الألم الذي أحسّه في قلبي وذكرى "ألبيرتين" لازمة إذ ربّما استطعت أن أربطها بصورة فتاة أخرى، الأمر الذي كان يسمح مقدار لحظة بملاشاة الواقع، لا الواقع الخارجي فحسب شأن الحال في حبّي لِ"جيلبيرت" (الذي تبيّنت أنه حالة باطنة كنت أستخلص فيها من ذاتي وحدها الميزة

الفريدة والطابع الخاصّ لدى من كنت أحبّ وكلّ ما كان يجعله لازماً لسعادتي)، بل حتّى الواقع الباطن والذاتيّ المحض.

- "ليس يمرّ يوم إلا وتخطر هذه أو تلك من بينهنّ أمام المرسم وتدخل لتقوم بزيارة قصيرة لي"، يقول "إيلستير" ويبعث اليأس هكذا في نفسي من جرّاء فكرة أنني لو بادرت إلى زيارته حالما طلبتْ إليّ جدّتي ذلك لكنت على الأرجح قد تعرّفت منذ زمن طويل بـِ "ألبيرتين".

وابتعدتْ ولم تعد تُشاهد من المرسم. وخطر لي أنّها بادرت إلى اللحاق بصديقاتها على السدّ. ولو أتيح لي أن أكون هناك مع "إيلستير " لتعرّفت بهنّ. واستنبطت ألف حجّة كي يرضى بالمجيء للقيام بجولة معي على الشاطئ. لم أعد أنعم بالهدوء نفسه الذي سبق ظهور الفتاة داخل إطار النافذة الصغيرة الشديدة السحر حتّى ذاك في ظلّ زهر العسل وهي الآن خالية تماماً. وبعث "إيلستير"في نفسي غبطة يخالطها العذاب إذ قال لي إنّه سيخطو بصحبتي بضع خطوات ولكنّه مضطرّ أن ينهي بادئ الأمر القطعة التي كان يرسمها. وكانت أزهاراً ولكنّها من غير تلك التي لعلّني كنت أفضّل أن أوصيه برسمها أكثر ممّا برسم لأحد الأشخاص كيما أطّلع ممّا يكشفه لي نبوغه على ما بحثت عنه كثيراً إزاءها دون جدوى -كأزاهير الزعرور البيضاء والورديّة وأزهار الترنشاه وأزاهير التفّاح. وكان "إيلستير" يحدّثني فيما يرسم عن علم النبات وأنا لا أصغي إليه تقريباً، فلم يعد يكفي نفسه بنفسه وقد أصبح من بعد محض الوسيط اللازم بين تلك الفتيات وبيني. والمهابة التي كان يضفيها عليه، بضع لحظات قبل ذلك. نبوغه في نظري لم تعد ذات قيمة إلاّ بوصفها تضفي بعض المهابة عليّ في نظر المجموعة الصغيرة التي سيتمّ تقديمي إليها على يده .

كنت في جيئة ورواح وأنا أنتظر بفارغ الصبر أن يكون فرغ من عمله وكنت آخذ دراسات لأنظر إليها وكثير منها قد تكدّس بعضه فوق بعض وصفحته إلى الجدار. وألفيتني على هذا النحو أبرز لوحة بالألوان المائية لابدّ أنها كانت تعود إلى زمن في حياة "إيلستير" أقدم بكثير وقد بعثت في نفسي تلك النشوة الخاصة التي تجود بها أعمال فنيّة لا تتّسم بصنع رائع فحسب بل تحوي كذلك موضوعاً فريداً وساحراً إلى حدّ أنّنا نخصّه هو بقسم من سحرها كما لو لم يقع على الفنّان إلاّ اكتشاف ذلك السحر وإلاّ ملاحظته، وقد سبق أن تحقّق ماديّاً في الطبيعة، ونقله. فأمّا أن يكون وجود مثل تلك الموضوعات الجميلة حتى بمعزل عن ترجمة الرسّام لها ممكناً فأمر يرضي فينا نزعة ماديّة فطريّة يكافحها العقل وهي بمثابة ثقل يوازن صنوف التجريد الجماليّ. وكانت -تلك اللوحة المائيّة -رسماً لامرأة شابّة غير حلوة بيد أنها نموذج غريب، ويغطّي رأسها منديل قريب الشبه بقبّعة مستديرة عليها حاشية شريط حريريّ كرزيّ اللون، وكانت تمسك بإحدى يديها اللتين بقفّازين من النوع النصفي لفافة مشعلة فيما ترفع الثانية على سويّة ركبتها نوعاً من قبّعة الحدائق الكبيرة وهي محض ستارة من قشّ لاتّقاء الشمس، وعلى مقربة منها مزهريّة مليئة بالورود فوق طاولة كثيراً ما ينجم تميّز تلك الأعمال على وجه الخصوص، وهي الحال هنا، عن أنها نُفّذت في شروط خاصّة لا نتبيّنها بادئ الأمر تبيّناً واضحاً، كأن تكون الملابس الغريبة لجليس نسائي، على سبيل المثال، زيّاً

تنكّريّاً لحفلة تنكريّة راقصة، أو على العكس أن يكون المعطف الأحمر الذي لشيخ يبدو وكأنّه ارتداه إرضاء لنزوة من نزوات الرسّام ثوب الأستاذ أو المستشار أوشال الكاردينال. كان طابع الالتباس لدى الشخص الذي يقع رسمه أمامي ناجماً، دون أن أدرك ذلك، عن أنّه كان لممثّلة شابّة من الزمن الماضي بثياب نصف تنكرية بيد أن قبعتها المستديرة التي كان شعرها منفوشاً تحتها ولكنّه قصير، وسترتها المخمليّة التي لا بطانة لها والتي تنشق عن صدريّة بيضاء جعلتاني أتردّد حول زيّ الجليس وجنسه حتى أني ما كنت أعلم بالضبط على ما تقع عيناي فيما عدا أنها أرقّ اللوحات المرسومة وما كان يعكّر المتعة التي توليني إيّاها سوى خشية أن يفوّت عليّ"إيلستير"الفتيات إن تأخّر لأن الشمس مالت وانحدرت في النافذة الصغيرة. لم يكن شيء في تلك اللوحة المائية قد تمّت ملاحظته محض ملاحظة في الواقع وتمّ رسمه بسبب فائدته في المشهد، فالثياب لأنه ينبغي أن تكون المرأة بثيابها والمزهريّة بداعي الأزهار. أمّا زجاج المزهريّة الذي يُعشق لذاته فقد كان يبدو وكأنّه يحتوي الماء الذي تغوص فيه سوق أزهار القرنفل في ما كان بمثل صفائه وبمثل ميوعته تقريباً.
وكانت ملابس المرأة تلفّها بمادّة تتّسم بسحر مستقلّ وأخويّ، وإنها لو استطاعت الأعمال الصنعيّة أن تنافس روائع الطبيعة في سحرها لفناعمة ولذيذة لملمس العين ونضرة الألوان كفراء قطّة وتويجيات قرنفلة وريش حمامة. وكان بياض الصدريّة، وهي في نعومة الإرزيز وعلى ثنياتها الخفيفة جريسات كجريسات زنابق الوادي،يتلألأ بأضواء الحجرة المنعكسة وهي حادّة بدورها ورقيقة في تنوع ألوانها كباقات زهور تزيّن القماش. وكان يعلو مخمل السترة الملتمع المصدّف، كان يعلوه ههنا وهناك شيء منفّش مفرّض أزغب يذكّرك بتشعّث أزهار القرنفل في الإناء. ولكنّك كنت تحسّ على وجه الخصوص أنّ "إيلستير"، الذي لم يكن يبالي بما يمكن أن يبدو لا أخلاقيّاً في تنكّر ممثّلة شابّة كان الفن الذي ستؤدّي به دورها أقلّ أهميّة دونما شكّ في نظرها من الجاذب المثير الذي سوف تبديه لحواس بعض المشاهدين المتبلّدة أو المتهتّكة، قد اهتّم على العكس بهذه الملامح الملتبسة وكأنمّا بعنصر جماليّ أهْل لأن يبرز وقد عمل ما بوسعه ليلفت الأنظار إليه. فعلى امتداد خطوط الوجه كان الجنس يبدو وكأنّه على شفا الإقرار بأنّه جنس فتاة على شيء من الاسترجال. ثم يتلاشى، وتلقاه من جديد في نقطة بعدها يوحي أكثر ما يوحي بفكرة مخنّث فتي فاسق حالم، ثم يعادو الهرب ويظلّ متعذّر الإدراك. ولم يكن طابع الكآبة الحالمة في النظرة، بتعارضه والأمور الثانوية التي من دنيا المجون والمسرح، ما كان أقلّها إثارة. وكنت تظنّ على أيّة حال أنّه لابدّ مصطنع وأنّ الشخص الشابّ الذي يبدو كأنّه يعرض نفسه للمداعبات في هذه البزّة المغرية قد رأى على الأرجح من المثير أن يضيف إليها التعبير الخياليّ عن عاطفة دفينة وعن غمّ لم يجر البوح به.
وكان قد خطّ في أسفل الرسم:"السيّدة ساكريبان، تشرين الأوّل ١٨٧٢" ولم أستطع أن أملك إعجابي -"أوه، لاقيمة لذلك، إنها عجالة شبابٌ، وكانت بزّة لصالح مجلّة منّوعات. كل ذلك بعيد جدّاً الآن " -"وما الذي حلّ بالجليس؟" وحاءت دهشة أثارتها أقوالي تسبق على وجه "إيلستير"الهيئة اللامبالية الساهية التي طرحها عليه بعد مضي ثانية. وقال لي:"هات أعطني سريعاً هذه اللوحة، فإني أسمع السيّدة "إيلستير" آتية. ومع أنّ المرأة الشابة ذات القبّعة المستديرة لم تمثّل، بالتأكيد، أيّ دور في حياتي، فليس يجدي أن تقع عينا امرأتي على هذه اللوحة المائيّة. وإنّي لم أحتفظ بها إلاّ بمثابة

وثيقة مسلّية حول المسرح في تلك الحقبة. وقبل أن يخفي "إيلستير" اللوحة خلفه حدّق إليها بانتباه، ولعله لم يرها منذ فترة طويلة وهمس قائلاً:"ينبغي أن لا أحتفظ بغير الرأس فأسفل اللوحة رديء الرسم حقاً إلى حدّ بعيد وتبدو اليدان من عمل مبتدئ". واغتممت لوصول السيّدة "إيلستير" التي ستزيد في تأخيرنا. وبعد قليل اكتست حافّة النافذة بلون ورديّ، ولعلّ خروجنا سيكون خسارة محضة فلم يعد ثمة أيّ نصيب لنا في لقاء الفتيات ولا أهميّة من بعد بالتالي أن تفارقنا السيّدة "إيلستير" بسرعة تزيد أو تقلّ ولم تمكث على أيّة حال فترة طويلة جدّاً. وقد ألفيتها مملّة إلى حدّ كبير. كان بوسعها أن تكون جميلة لو كانت في العشرين من سنيها تقود ثوراً في الريف الروماني ولكنّ شعرها الأسود كان آخذاً في البياض وكانت عاديّة دون أن تكون بسيطة لأنها تحسب أنّ فخامة الحركة وجلال الوقفة أمران يتطلّبهما جمالها المرموق الذي أفقدته السنون على أيّة حال جميع مواطن إغرائه. وكان يؤثّر فيك ولكنّما يدهشك أن تسمع "إيلستير" يقول كلّما سنح القول وبعذوبة تفيض احتراماً كما لو يبعث في نفسه محض النطق بهذه الكلمات الحنان والإجلال :"يا جميلتي غابرييل!" وحينما اطّلعت فيما بعد على رسم "إيلستير" الأساطيري اكتسبت السيّدة "إيلستير" في نظري أنا الآخر جمالاً. وأدركت أنّه خصّ في الواقع بطابع يكاد يكون إلهيّاً نموذجاً معيناً مثاليّاً يختصره ببضعة خطوط، ببضعة رقوش عربيّة تتردّد دون انقطاع في أعماله الفنيّة، ومعياراً معيّناً، بما أنّه كرّس كامل وقته وكامل الجهد الفكري الذي يسعه القيام به وكامل حياته باختصار القول لمهمّة إبراز هذه الخطوط على نحو أفضل ونقلها نقلاً أوفر أمانة. كان ما يوحي به هذا المثل الأعلى لِـ"إيلستير"، كان بالحقيقة طقوساً جليلة وصارمة إلى حدّ لا يتيح له ألبتّة أن يكون راضياً. كان ذلك المثل الأعلى الجزء الأكثر حفاء من ذاته: ولم يستطع من جرّاء ذلك أن ينظر إليه بتجرّد ويستخلص منه انفعالات إلى اليوم الذي لقيه فيه وقد تحقّق في الخارج، في جسم امرأة، جسم تلك التي أضحت فيما بعد السيّدة "إيلستير"والتي استطاع أن يلقاه لديها -مثلما لا يتّفق لنا ذلك إلاّ بالنسبة إلى ماليس ذاتنا - جديراً بالثناء مؤثّراً إلهيّاً. وأية راحة من جهة أخرى أن يضع شفتيه على هذا "الجمال" الذي كان ينبغي له حتى ذاك أن يستخلصه من ذاته والذي يُقدَّم له الآن، وقد تجسّد على نحو خفيّ، لسلسلة من صنوف المشاركة الروحيّة الفعّالة! لم يكن "إيلستير" في تلك الحقبة في فجر الشباب الذي لا ينتظر فيه تحقّق مثله الأعلى إلاّ من قوة الفكر فقد كان يقترب من السنّ التي يعتمد المرء فيها على قضاء حاجات الجسد لحفز قوى الروح والتي يشرع فيها تعب الروح، بالميل الذي يبعثه فينا إلى الماديّة، وتناقص النشاط بإمكان تقبّل مؤثّرات دون مقاومة، يحملنا على الإقرار بأنّ ثمّة بعض الأجسام وبعض المهن وبعض الإيقاعات المتميزّة التي تحقّق مثلنا الأعلى على نحو تلقائيّ حتى لنأتي برائعة فنيّة حتى دونما نبوغ وبمحض نقل حركة كتف وتوتّر عنق. إنها السنّ التي نعشق فيها مداعبة الجمال بالعين خارج ذواتنا، وبالقرب منّا، وفي طنفسة، وفي رسم أوّلي جميل لِـ"تيتسيانو" يُعثر عليها لدى تاجر سلع عتيقة، ولدى عشيقة في مثل جمال لوحة "تيتسيانو". وحينما أدركت ذلك لم أعد أستطيع رؤية السيّدة "إيلستير" دون أن تداخلني الغبطة وفقد جسمها من ثقله لأنّني ملأته بفكرة، فكرة أنها مخلوقة لا ماديّة ورسم من أعمال "إيلستير". ولقد كانت رسماً في نظري وفي نظره هو الآخر دون شكّ. إن معطيات الحياة لا تدخل في حساب الفنّان وليست في

نظره سوى فرصة للكشف عن عبقريّته وإنك لتحسّ تماماً إمّا رأيت عشرة رسوم متراصفة لأشخاص مختلفين قام "إيلستير" بتنفيذها أنها قبل كلّ شيء من أعمال "إيلستير". بيد أنّه بعد مدّ العبقريّة الصاعد هذا الذي يغمر الحياة حينما يتعب الدماغ فإن التوازن يتحطّم شيئاً فشيئاً وتعود الحياة إلى التغلّب كمثل نهر يستعيد مجراه بعد التيّار المعاكس الناجم عن مدّ عظيم. فقد استخلص الفنّان شيئاً فشيئاً في أثناء امتداد الفترة الأولى قانون عطائه اللاواعي وصيغته. إنه يعرف أيّة مواقف إن كان روائيا وأية مناظر إن كان رساما، تزوده بالمادة التي لا أهميّة لها في حدّ ذاتها ولكنّها ضروريّة لبحوثه كما هي حال المخبر أو المرسم، وهو يعلم أنّه صنع روائعه بتلاعب أضواء مخفّفة ووخزات ضمير تبدّل من فكرة الذنب، وبوساطة نسوة يقفن تحت الأشجار أو يغمرهنّ الماء إلى النصف على هيئة تماثيل. ثم يأتي يوم لن تتوافر له فيه من بعد، من جرّاء وهن دماغه، القدرة على القيام، إزاء تلك المواد التي كانت تستخدمها عبقريّته، بالجهد الفكري الذي يستطيع وحده إنتاج عمله الفنيّ، ولكنّه سوف يوالي السعي خلفها ويسعد بوجوده بالقرب منها بسبب المتعة الروحيّة التي توقظها في نفسه، وإن هي إلا بداية العمل وهو، إذ يحيطها بنوع من المعتقد الخرافّي كما لو كانت تسمو على الأمور الأخرى وكما لو يكمن فيها مذ ذاك جزء وافر من العمل الفنيّ الذي تحتويه جاهزاً إلى حدّ ما، لن يمضي إلى أبعد من التردّد على النماذج والشغف بها. فسوف يتحدّث بلا نهاية إلى مجرمين أدركتهم التوبة وألّف تبكيت ضمائرهم واصطلاحهم بالأمس موضوع رواياته، ويبتاع منزلاً في الريف في منطقة يخفّف فيها الضباب النور، ويقضي ساعات طوالاً ينظر إلى نسوة يستحممن، ويجمع الأقمشة الجميلة وهكذا كان جمال الحياة، وهو قول خلو إلى حدّ ما من المدلول ومرحلة واقعة قبل حدود الفنّ، وقد رأيت "سوان" فيما مضى يتوقّف فيها، المرحلة التي سيتراجع شيئاً فشيئاً إليها ذات يوم أمثال "إيلستير" من جرّاء تباطؤ العبقريّة الخلاقة والولع بالأشكال التي كانت عوناً لها والرغبة في إنفاق أقلّ جهد ممكن.

وكان قد أتى أخيراً على وضع آخر جرّة ريشة في أزهاره. وأضعت لحظة في النظر إليها، وما كان لي فضل في الإقدام على ذلك لأني أعلم أن الفتيات لن يكنّ على الشاطئ. على أنّي كنت سأنظر إليها حتى لو حسبت أنّهن لا يزلن هناك وأن هذه الدقائق الضائعة تفوّتهن ّ علي، إذ كنت ربمّا أقول في نفسي إن "إيلستير" يهتمّ بأزهاره أكثر منه بلقائي مع الفتيات. كانت طبيعة جدّتي، وهي بالضبط نقيض أنانيتي الكليّة، تنعكس مع ذلك في طبيعتي. فقد كنت، في ظرف لا يتعرّض فيه فرد لا أبالي به، وقد أظهرت دوماً له المودّة أو الاحترام، إلاّ للإزعاج فيما أنا فيه عرضة للخطر، كنت لا أستطيع إلاّ أن أرثي لحاله ممّا ألمّ به من إزعاج وكأنمّا من أمر جلل. وأن أحتسب الخطر المحيق بي كلاشيء. إذ كان يبدو لي أن الأمور لابدّ ظاهرة له بهذه المقاييس. وكنت أذهب، كيما أقول الأمور على حقيقتها، حتى إلى أبعد من ذلك فلا أكتفي بأن لا آسف للخطر الذي أتعرّض له بل أسعى إلى مجابهة ذلك الخطر وأحاول على العكس فيما يخصّ الخطر المحيق بالآخرين أن أجنبّهم إيّاه حتي ولو أصبحت أكثر عرضة لأن أصاب أنا. ومرّد ذلك أسباب عدّة ليست في صالحي. منها أنّني إن كنت أعتقد على وجه الخصوص، ما دمت أتفكّر في الأمور فحسب، أنّ

الحياة غالية علي، ففي كل مرّة ألفيتني في غضون حياتي تحاصرني هموم أخلاقيّة أو اضطرابات عصبيّة فحسب، وهي صبيانيّة أحياناً حتى لتخونني الجرأة في روايتها، إن اتّفق أن يحلّ آنذاك ظرف غير متوقّع يحمل لي في طيّاته احتمال أن ألقى حتفي، كان هذا الاهتمام الجديد طفيفاً بالنسبة إلى غيره إلى حدّ أنّي كنت أستقبله بشعور من الارتياح يبلغ حدّ الابتهاج. وقد اتّفق هكذا أن عرفت هذا الأمر الذي كان يبدو لي، حينما أعمل الفكر، غريباً عن طبيعتي ويصعب إلى حدّ بعيد تصوّره، عنيت نشوة الخطر، مع أنّي أقلّ الناس شجاعة بيد أنّي حتى لو كنت، حينما يداهم خطر مميت، في فترة كلّيّة الهدوء والسعادة، لا يسعني إن كنت برفقة شخص آخر إلاّ أن أضعه في مأمن وأن أختار لنفسي المكان الخطير. وعندما علّمني عدد كبير كاف من التجارب أنّي كنت أتصرّف دوماً على هذا المنوال وبسرور، اكتشفت، واعظيم خجلتي، أن سبب ذلك أنّي كنت شديد التأثّر برأي الآخرين بعكس ما اعتقدت دوماً به وأكّدته. وليس لهذا النوع من الاعتزاز الخفيّ بالنفس أيّة علاقة بالزهو أو الكبرياء. ذلك أن ما قد يرضي هذه أو ذاك لا يبعث في نفسي أيّة مسرّة وقد أحجمت دوماً عنه ولكنّ الجماعة الذين أفلحت أمامهم في إخفاء المكاسب الصغيرة التي كان يمكن أن تزودهم عنّي بفكرة أقلّ رداءة لم أستطع في يوم أن أحجب عن نفسي متعة أن أظهر لهم أنّي أهتمّ باستبعاد الموت عن دربهم أكثر مني عن دربي. وبما أنّ الدافع لديّ آنذاك هو الاعتزاز بالنفس لا الفضيلة، فإني من الطبيعيّ جدّاً أن يتصرّفوا في كل مناسبة على نحو مغاير. وما أبعدني عن أن ألومهم في ذلك، ولعلّني كنت ربمّا أقدم علي الأمر لو كان الدافع لديّ فكرة واجب سيبدو لي في هذه الحالة ملزماً لهم ولي على حدّ سواء. وإنّي على العكس أجدهم حكماء إلى حدّ بعيد في المحافظة على حياتهم في حين لا أستطيع أن أحول دون أن أضع حياتي في الموقع الثاني، الأمر الذي يبدو محالاً ومستنكراً على نحو خاصّ منذ أن خلتني أتبيّن أن حياة العديد من الناس الذين أقف أمامهم حينما تنفجر قنبلة أقلّ قيمة بكثير. بيد أنّ الفترة التي كنت سأعي فيها فارق القيمة هذا كانت لا تزال بعيدة يوم تلك الزيارة لـِ"إيلستير" ولم يكن ثمّة من خطر وإنمّا مجرّد ألاّ يبدو عليّ أنّي أعلّق على المتعة التي كنت أتحرّق شوقاً إليها، وذلك نذير للاعتزاز الخبيث بالذات، أهميّة أكبر ممّا على عمل الرسّام المائيّ الذي لم يفرغ منه. وأخيراً تمّ ذلك وما إن أضحيت خارجاً حتى تبيّنت أن الوقت أبكر ممّا كنت أعتقد، لشدّة امتداد النهار في ذلك. الفصل، وذهبنا إلى السدّ، وكم حيلة لجأت إليها كي أحمل "إيلستير" على المكوث في المكان الذي كنت أحسب أنّه لا يزال يمكن أن تمرّ الفتيات منه! وما كنت أكفّ، وأنا أريه الجروف التي تتعالى بالقرب منّا، عن سؤاله التحدّث عنها كيما أنسيه الساعة وأحمله على المكوث وبدا لي أنّنا سنكون أوفر حظّاً في تطويق الجماعة الصغيرة بالذهاب إلى أقصى الشاطئوقلت لـِ"إيلستير" وقد لاحظت أن إحدى تلك الفتيات كانت كثيرا ما تذهب إلى تلك الجهة :"وددت أن أشاهد معك هذه الجروف من مكان أقرب بقليل "وأضفت دون أن أفكر بأن طابع الحدّة الذي كان يتحلّى بهذا القدر من القوّة في "مرفأ كاركتوي" من أعمال"إيلستير"، إنمّا يعود ربمّا إلى رؤية الرسّام أكثر منه إلى مزيّة خاصة بهذا الشاطئ"حدّثني عن "كاركتوي" في هذه الأثناء آه! كم أودّ الذهاب إلى "كاركتوي"اربمّا كان، منذ أن رأيت هذه اللوحة، أكثر ما أتوق إلى معرفته بالإضافة إلى "رأس راز"الذي ربمّا اقتضى من هنا رحلة كاملة على

آيّة حال" فأجابني"إيلستير":"وحتى لو لم يكن أكثر قرباً فسوف أشير عليك مع ذلك بـ"كاركتوي". إنّ "رأس راز"رائع ولكنّه في نهاية المطاف لا يزال الجرف النورماندي أو البريتاني العظيم الذي تعرفه. أمّا "كاركتوي"فأمر مختلف تماماً بصخوره التي تمتدّ على شاطئخفيض ولست أعرف في فرنسه ما يضاهيه ويذكـرّني ذلك بالأحرى ببعض مناظر فلوريدا. إنّه غريب جدّاً وهو على آيّة حال موحش إلى حدّ بعيد كذلك. وهو واقع بين "كليتور"و"ينهوم"وتعلم مدى إقفار هذه النواحي، إن خطّ الشواطئ لساحر إنّ الشاطئ عاديّ هنا، أمّا هناك فلست أستطيع أن أقول لك بأيّ سحر يتّسم وأيّة عذوبة. "

وحلّ الليل وانبغى أن نعود، وكنت أعيد "إيلستير" باتجّاه دارته حينما برزت فجأة في أقصى الشارع، كـ"مفيستو فيليس" يطلع فجأة أمام "فاوست "،وكأنمّا ذاك محض تجسيد خياليّ شيطاني للمزاج المناقض لمزاجي والحيويّة الهمجيّة القاسية التي خلا منها ضعفي وفرط حساسيّتي المؤلمة ونزعتي الفكريّة -بعض بقع من الجوهر الذي يستحيل الخلط بينه وبين أيّ شيء آخر، بعض أعداد متفرّقة من مجموعة الفتيات المرجانية، وكنَّ يبدين وكأنهنّ لا يرينني، ولا يستبعد مع ذلك أنهن كنَّ ولا شكَّ يطلقن عليّ آنذاك حكماً ساخراً. ولمّا أحسست أن اللقاء بينهنَّ وبيننا واقع حتماً وأنَّ "إيلستير" يزمع أن يناديني أدرت ظهري كسبّاح يوشك أن يتلقّى الموجة، وتوقّفت تماماً وتركت رفيقي الذائع الصّيت يوالي طريقه وظللت في الخلف أنحني صوب واجهة بائع عاديّات كنّا نمرّ أمامه في تلك اللحظة وكأنمّا أخذني اهتمام مفاجئ بتلك الواجهة. وما كان يغضبني أن أبدو قادرا ً على التفكير بغير تلك الفتيات وأعلم مذذاك على نحو غامض أنّني سوف أتخذ، حينما يدعوني "إيلستير" كي يقدّمني، نوع النظرة المستفسرة التي تكشف لا عن الدهشة، بل عن رغبة المرء في أن يبدو في دهشة -على قدر ما يبدو كلّ منا ممثّلاً رديئاً أو القريب طويل باع في الفراسة -وأنّني ربمّا بلغ بي الأمر أن أشير إلى صدري بالبنان كي أسأل :"أهو أنا الذي تناديه؟" وأسرع والرأس مخفوضة طاعةً وخضوعاً والوجه يخفي ببرودة الإزعاج من جرّاء أنّني أقصى عن تأمل خزفيّات عتيقة ليتمّ تقديمي إلى أشخاص لا أرغب في معرفتهم. كنت في تلك الأثناء أنظر إلى الواجهة بانتظار اللحظة التي سينطلق فيها اسمي من فم "إيلستير"ليصيبني مثل رصاصة مرتقبة وغير مؤذية. وكان من نتيجة يقيني بتقديمي إلى الفتيات لا أن أمثّل إزاءهن دور اللامبالاة فحسب بل أن أحسّ بها. وتمّ كتم متعة التعرّف بهنَّ، وقد أضحت مذ ذاك محتّمة، وتمَّ تقليصها فبدت لي أقلّ من متعة التحدّث إلى "سان لو"وتناول العشاء مع جدّتي والقيام برحلات في الضواحي سوف آسف أن أضطرّ على الأرجح إلى إهمالها من جرّاء علاقاتي بأشخاص قليلي الاهتمام بالآثار التاريخية. ولم يكن ما يخفّف من المتعة التي سأصيبها وُشُوكُ تحقيقها فحسب بل فوضى تحقيقها إن قوانين في مثل دقّة تلك التي تحكم توازن السوائل تحافظ على تنضّد الصور التي نؤلفها في ترتيب ثابت يقلبه قرب حلول الحدث رأساً على عقب. كان "إيلستير" يزمع أن ينادي علي، وما كنت تصورت على الإطلاق لافي غرفتي ولا على الشاطئ أنّني سأتعرف على هذا النحو بتلك الفتيات. أما ما كان يوشك الوقوع فحدث مختلف لم أكن معداً له، وما كنت أتعرف فيه لا شوقي ولا موضوعه، وكدت آسف أن أكون خرجت مع

"إيلسيتر". وهناك على وجه الخصوص تقليص المتعة التي ظننتني بادئ الأمر سأصيبها ومردها اليقين بأن ليس ثمة ما يستطيع من بعد انتزاعها مني. فاستعادت وكأنما بفضل قوة مطاطة كامل ارتفاعها حينما كفّت عن معاناة كابوس ذلك اليقين في اللحظة التي قررت فيها أن أدير رأسي فرأيت "إيلستير" الذي وقف على بضع خطوات مع الفتيات يستودعهن. وكان وجه من كانت أقربهن إليه، وهو سمين تشرق فيه نظراتها، كان يبدو وكأنّه قطعة حلوى اقتطع فيها حيّز لرقعة من السماء. كانت عيناها، وإن شخصت نظراتها، تخلف انطباعا بالحركة مثلما يقع في بعض أيام الرياح القوية حيث يسمح الهواء، مع أنّه غير منظور، تبين السرعة التي يمر بها على زرقة السماء. والتقت نظراتها بنظراتي مقدار لحظة كصفحات السماء المرتحلة أيام العاصفة والتي تقترب من سحابة أقل سرعة فتحاذيها وتلامسها وتجاوزها ولكنّما يجهل بعضها بعضاً وتمضي بعيداً عن بعضها. كذلك تقابلت نظراتنا مقدار لحظة وكل منها يجهل ما تتضمنه القارة السماوية الماثلة أمامه من وعود وصنوف وعيد بالنسبة إلى المستقبل. بيد أن نظراتها غامت قليلا في اللحظة التي مرت فيها بالضبط تحت خط نظراتي دون أن تخفف سيرها. كذلك القمر، في ليلة صافية تدفعه فيها الرياح، يمر تحت سحابة ويحجب إشراقته لحظة ثم سرعان ما يعود إلى الظهور. ولكن "إيلستير" كان قد فارق الفتيات دون أن يناديني وسلكن طريقاً مختصرة، أما هو فأقبل نحوي. لقد انهار كل شيء.

قلت إن "ألبيرتين" لم تبدُ لي في ذلك اليوم مثلها في الأيام السابقة ولسوف تبدو لي في كل مرة مختلفة. ولكنّي شعرت في تلك اللحظة أن بعض التبدلات في مظهر شخص وأهميته وحجمه يمكن أن تنجم كذلك عن قابلية التحول في بعض الحالات التي تقف بين هذا الشخص وبيننا. وأنّ إحدى الحالات التي تلعب أهم دور بهذا الصدد إنّما هي الظن (فظنّي في ذلك المساء بأني سأتعرف إلى "ألبيرتين"ثم زواله جعلاها بفاصل بضع ثوان غير ذات شأن تقريباً في عينيّ ثم عظيمة الأهمية إلى ما لا حدود، وبعد بضع سنوات حمل إلي ظنّي ثم زوال الظن بأن "ألبيرتين" كانت تخلص لي تغيرات مماثلة).

صحيح أنّه سبق لي في "كومبريه"أن رأيت غمّي أنْ لا أكون بالقرب من أمّي يتناقص أو يتعاظم وفق الساعات وحسبما ألح هذه أو تلك من الصيغتين الكبيرتين اللتين تتوزعان إحساسي، غمّي ذاك وهو طوال بعد الظهر خفيّ خفاء ضياء القمر ما دامت الشمس ساطعة ثم هو إذ يحل الليل يسود وحده نفسي القلقة بدلا من ذكريات واهنة قريبة. بيد أني علمت في ذاك اليوم، إذ رأيت "إيلستير" يفارق هؤلاء الفتيات دون أن يناديني، أن تبدلات الأهمية التي ترتديها في نظرنا هذه المتعة أو ذاك الغم يمكن أن لا تنجم عن تناوب هاتين الحالتين فحسب بل عن تبدل في مكان اعتقادات خفيّة تبرز لنا الموت على سبيل المثال غير ذي شأن لأنها تسكب عليه ضياء من دنيا الأوهام وتتيح لنا هكذا أن نعلّق أهمية على ارتياد أمسية موسيقية قد تفقد من سحرها إن زال فجأة لدى نبأ مفاده أنّنا سوف نرد الموت على المقصلة، الاعتقاد الذي يغمر هذه الأمسية. صحيح أن شيئاً في داخلي كان يعلم دور الاعتقادات هذا، عنيت الإرادة،ولكنّها عبثا تعلمه إن استمرّ العقل والإحساس في تجاهله. وهذان الأخيران صادقان حينما يظنان أننا نرغب في هجر عشيقة تعلم إرادتنا وحدها أننا متعلقون

بها. ذلك أنّه يغشّي عليهما الاعتقاد بأنّنا سوف نلقاها ثانية بعد لحظة. فإن زال ذلك الاعتقاد وعرفا فجأة أن هذه العشيقة ذهبت إلى غير رجعة فإن العقل والإحساس يضحيان آنذاك، وقد فقدا تركيزهما، كمن فقد عقله وتتعاظم المتعة الهينة إلى مالا حدود.

تبدل في الاعتقاد وعدمية الحب كذلك، الحب السابق الوجود والمنتقل الذي يتوقف أمام صورة امرأة لمحض أن تلك المرأة تكاد تكون متعذرة المنال. والمرء مذ ذاك يفكر في المرأة التي يتمثلها بصعوبة، أقل مما في وسائل التعرف إليها وتتنامى فينا حالة كاملة من صنوف الضيق النفسي وتكفي لتثبيت حبنا فيها، هي موضوعه الذي نكاد لا نعرفه ويصبح الحب مترامي الحدود، ولسنا نفكر إلى أي مدى تشغل المرأة الحقيقية فيه حيزا ضيّقاً. فإن خلونا فجأة من القلق وضيق النفس، شأني في اللحظة التي رأيت فيها "إيلستير" يتوقف مع الفتيات فإنه ليبدو فجأة، بما أنّها هي التي تؤلف كامل حبنا، أن هذا الأخير قد تلاشى آن نمسك أخيراً بالطريدة التي لم نفكر تفكيراً كافيا بما تساوي. فما عساني كنت أعرف عن "البيرتين" ؟صورة جانبية أو اثنتان على البحر أقل جمالا بالتأكيد من صورة نسوة "فيرونيز" اللواتي كان يحدر بي أن أفضلهن عليها لو انقدتُ لأسباب جمالية بحتة. ولكن هل كان يمكن أن أنقاد لأسباب أخرى بما أنني لا أستطيع، بعد زوال قلقي، أن ألقى سوى تلك الصور الجانبية الصامتة ولا أملك شيئاً غيرها ؟فمنذ أن أبصرت "ألبيرتين" انتابتني كل يوم بشأنها آلاف الأفكار وتابعتُ مع ما كنت أسميه أنا وهي حواراً داخليا كاملا كنت أسائلها فيه وأجعلها تجيب وتفكر وتعمل. وما كانت "ألبيرتين" الحقيقية التي لمحتها على الشاطئ، ما كانت تبرز، ضمن سلسلة لا محدودة من أصناف لِ"ألبيرتين"متخيلة تتتالى في صدري ساعة إثر ساعة، إلا في المقدمة، مثلما لا تظهر النجمة، "مبتكرة"الدور، في سلسلة طويلة من العروض، إلا في العروض الأولى فحسب و"ألبيرتين" تلك كانت محض طيف تقريباً، وكل ما انضاف إليها كان من ابتكاري لشدة ما تطغى الإسهامات التي تأتي عن طريفنا في مجال الحب -حتى إذا لم ننظر إلاّ من وجهة نظر الكمّ- على تلك التي تجيئنا عن طريق المحبوب. وإن ذلك ليصحّ في صنوف الحب الفعلية كأكثر ما تكون. فمنها ما يمكن لا أن يتكون فحسب بل أن يبقى حول الزهيد من الأمور -حتى من بين تلك التي نعمت باستجابة جنسية فقد رزق أستاذ سابق لجدتي في مادة الرسم ابنة من عشيقة مغمورة. وماتت الوالدة بعد مولد الطفلة بوقت وجيز فاغتمّ مدرس الرسم من جراء ذلك غماً عظيماً لم يمهله بعدها فترة طويلة. وفي الأشهر الأخيرة من حياته فكرت جدتي وبعض سيدات من "كومبريه" لم يشأن في يوم حتى التلميح إلى تلك المرأة في حضرة أستاذهن، ولم يكن عاش معها على أية حال علنياً وكانت علاقته بها قليلة، أن يضمنّ مصير الابنة الصغيرة بالتشارك ما بينهن لتأمين إيراد لها مدى الحياة. وكان أن قدمت جدتي بعرض الأمر، واضطرت إلى زجر بعض الصديقات: فهل كانت تلك البنيّة جديرة حقاً بالاهتمام، وهل كانت حتى ابنة ذلك الذي يظن أنّه والدها؟فلا يمكن ألبتة أن تكون على ثقة مع نساء على شاكلة الأم. وأخيراً قرّ رأيهن. وجاءت البنت الصغيرة تقدم الشكر، وكانت قبيحة وشبيهة بمدرس الرسم العجوز شبهاً قطع جميع الشكوك. ولما كان شعرها كل ما تملك من أمر حسن فقد قالت سيدة للأب الذي جاء بها:"ما أجمل شعرها!"

وأضافت جدتي وفي اعتقادها أن التلميح إلى ذاك الماضي الذي تظاهروا دوماً بتجاهلة لم يعد ذا مغزى إذ ماتت المرأة المذنبة وأصبح الأستاذ شبه ميت :"ذلك لابدّ في الأسرة، فهل كان لوالدتها مثل هذا الشعر الجميل؟" وأجاب الوالد بسذاجة :"لست أدري، فما رأيتها قط إلا بقبعة".

كان لابد من اللحاق بـ"إيلستير" ولمحت نفسي في مرآة، فلاحظت، علاوة على الكارثة التي حلّت بي من جراء أني لم أتعرف بهن، أن ربطة عنقي بالورب وأن قبعتي تكشف عن شعري الطويل، وما كان يلائمني بيد أنّه كان من حسن الحظ مع ذلك أن التقين بي حتى على هذا النحو مع "إيلستير" ولايستطعن أن ينسينني وكان من حسن حظّي أيضاً أن ارتديت في ذلك اليوم، بناء على مشورة جدتي، صدريتي الحلوة التي كنت على وشك تبديلها بأخرى قبيحة وأن حملت أجمل عصا لدي، ذلك أنه لا يتم ألبتة حدث نرغب فيه على غرار ما فكرنا فإن حسنات أخرى ما كنا نأمل فيها تبرز لنا بدلا من الحسنات التي ظننا أننا نستطيع الاعتماد عليها، والكل يتعادل. وكنا نخشى ما كان أسوأ إلى حد أننا نميل في النهاية إلى أن نرى أن المصادفة في المجموع ككل كانت بالأحرى إلى جانبنا وقلت لـ"إيلستير" إذ وصلت بالقرب منه:"قد كنت سررت كثيراً لوتعرفت إليهن"- فلماذا تظلّ إذن على بعد أميال ؟"كانت تلك الأقوال التي تفوّه بها، لا لأنها تعرب عن فكرته، فلو أنه كان راغباً في الاستجابة لرغبتي لكان من السهل تماماً عليه أن يناديني، بل ربّما لأنّه سمع جملا من هذا النوع المألوف لدى أناس عاديين أخذوا بجرم، ولأن الرجال العظام أنفسهم شبيهون بالأناس العاديين في بعض الأمور ويتناولون الأعذار اليوميّة من الجعبة نفسها مثلما يتناولون الخبز اليومي لدى الخباز نفسه،وإنّما لأن مثل تلك الأقوال التي ينبغي أن تُقْرأ بالمقلوب إلى حد ما لأن حرفها يعني عكس الحقيقة إنّما هي النتيجة اللازمة لرد فعل ما وخطه البياني السلبي"لقد كنّ على عجلة من أمرهن" وفكرت أنهن منعنه على وجه الخصوص من استدعاء شخص لا يشعرن بكثير من الود نحوه، ولولا ذاك لما قصّر في الأمر بعد جميع الأسئلة التي طرحتها عليه حولهن والاهتمام الذي رأى تماماً أنّني أبديه إزاءهن.

وقال لي قبل أن أفارقه على عتبة بابه:"كنت أحدثك عن "كاركتوي" لقد رسمت لوحة أولية صغيرة يشاهد فيها ما يحيط بالشاطئ على نحو أفضل واللوحة لا بأس بها ولكنها شيء مختلف "ثم أضاف:"سوف أعطيك لوحتي هذه، إن سمحت، عربوناً لصداقتنا "ذلك لأن من يحرمونك الأشياء التي ترغب فيها إنّما يعطونك غيرها .

-"لعلني كنت أحب كثيراً أن أحوز صورة فوتوغرافية عن رسم "السيدة ساكريبان"الصغير إن كان لديك منها ولكن ما عسى يكون هذا الاسم ؟" -"إنّه اسم شخصية أدّى دورها جليسي في مسرحية غنائية صغيرة سخفية"-"ولكنك تعلم أني لا أعرفها على الإطلاق ياسيدي ويبدو أنّك تظن العكس". وصمت "إيلستير". وقلت :"ليست مع ذلك السيدة "سوان" قبل زواجها "،قلت بفضل واحد من تلك التلاقيات الطارئة المفاجئة بالحقيقة، وهي إجمالا نادرة إلى حدّ ما ولكنها كافية بعد وقوعها لتزوّد بشيء من الأساس نظرية الحدس إن وجّهنا عنايتنا إلى إغفال جميع الأخطاء التي قد

تبطلها، ولم يحر"إيلستير"جواباً، كان بالفعل رسماً لـ"أدويت دو كريسي"ولم تشأ الاحتفاظ به لأسباب عديدة بعضها بيّن إلى حد بعيد. وكان ثمة أسباب أخرى، فالرسم سابق للفترة التي نظّمت فيها "أدويت"ملامحها فجعلت من وجهها وقامتها ذلك الابتكار الذي ينبغي أن يحترم خطوطه العريضة عبر السنين حلاقوها وخياطوها، وهي نفسها -في طريقة جلوسها وحديثها وابتسامها ووضع يديها وإرسال نظراتها وتفكيرها -وكان لابد من فساد عاشق أدركه الشبع كيما يفضل "سوان"، على العديد من صور"أوديت"التي لا تقبل التبدل والتي تمثلها زوحته الفاتنة، الصورة الصغيرة التي في غرفته والتي ترى فيها تحت قبعة من القش تزيّنها أزهار بنفسج الثالوث امرأة شابة نحيلة بشعة إلى حد ما منفوشة الشعر متعبة القسمات.

وحتى لو لم يكن الرسم سابقاً لانتظام ملامح"أوديت" وفق طراز جديد، شأن الصورة الفوتوغرافية المفضلة لدى"سوان"بل لاحقاً لها لكانت رؤية"إيلستير" كافية لزرع الفوضى في هذا الطراز فالعبقرية الفنية تعمل على غرار درجات الحرارة الشديدة الارتفاع التي تتمتع بقدرة تفكيك مركبات الذرات وجمع هذه الأخيرة وفق ترتيب معاكس تماماً يوافق نمطاً آخر وإنما تهدم نظرة الرسام الكبير، كل هذا التناسق المصطنع الذي فرضته المرأة على ملامحها والذي تراقب كل يوم قبل خروجها استمراره في المرآة وتكلّف القبعة المائلة والشعر الأملس والنظرة اللعوب ضمان استمراريتها، إنّما تهدمها في ثانية واحدة وتقوم محلها بتجميع ملامح المرأة على نحو يرضى به مثلا أعلى أنثوياً وتصويرياً يحمله في نفسه وغالباً ما يقع كذلك أن ترى عين باحث كبير أنّى كان، ابتداء من سن معينة، العناصر الضرورية لإقامة العلائق التي تهمه وحدها ولعلهم يستطيعون، شأن هؤلاء العمال وهؤلاء المقامرين الذين لا يتشددون في أمرهم ويرتضون ما يقع تحت يدهم، أن يقولوا بصدد أي شيء إنّما يفي ذلك بالغرض فقد اتّفق من هذا القبيل أن أغرقت ابنة عم لأميرة "لوكسمبور"فيما مضى، وهي من أروع الجميلات، بفن كان جديداً في ذلك العصر فطلبت من أعظم الرسامين الطبيعيين أن ينجز رسمها وفي الحال وجدت عين الفنان ما تبحث عنه في كل مكان، فكان على اللوحة بدلا من السيدة الكبيرة مستخدمة صغيرة ومن ورائها منظر فسيح مائل بنفسجي اللون يذكرك بساحة "بيغال"ولكن حتى لو لم يبلغ الأمر هذا الحد، فلن يجهد رسم امرأة على يد فنان كبير، لن يجهد على الإطلاق في إرضاء متطلبات المرأة -شأن تلك التي تدفعها مثلا، عندما يدب المشيب، إلى أن تؤخذ لها صور فوتوغرافية بلباس بُنيّة تقريباً يبرز قامتها التي ظلت فتية وتبدو به وكأنّها شقيقة ابنتها أو حتى ابنة ابنتها على أن "تحزّمَ" هذه الأخيرة بثيابها بالقرب منها إن قضت الحاجة ودعت المناسبة - وليس ذلك فحسب بل هو يبرز على العكس المساوئ التي تحاول إخفاءها والتي تزيد من إغرائه لأنّها تحمل "طابعاً" معيناً كمثل وجه شاحب أو حتى ضارب إلى الخضرة، ولكنها كافية لتخيب أمل المشاهد العادي وتحطم في نظره المثل الأعلى الذي كانت المرأة ترفع باعتزاز دعائمه وكان يضعها في شكلها الواحد المتفرد خارج حدود باقي البشر وأعلى منهم إلى أبعد الحدود وليست من بعد، وقد هوت من عليائها وأقامت خارج نموذجها الخاص الذي كانت تتربع فيه لا تشوبها شائبة،سوى امرأة، أيّة امرأة، فقدنا كل ثقتنا في تفوّقها وذلك النموذج

إنّما جعلنا منه قوام جمال أمثال "أوديت"، بل شخصيتها وهويتها إلى حد أنّه يُسَوِّلُ لنا أمام المرسم الذي جرّدها منه لا أن نصيح قائلين:"كم لحق به من بشاعة!"بل"ماأقلّ ما يشبهها!"ونكاد لا نصدّق أن تكون هي، ولا نتعرفها بيد أن ثمة كائناً نحسّ تماماً أنّه سبق لنا أن رأيناه ولكن ذلك الكائن ليس"أوديت"إن وجه ذلك الكائن وجسمه وهيئته معروفة تماماً لدينا وإنّها لتذكرنا، لا بتلك المرأة التي ما كانت تقف ألبتة على هذا النحو ولا ترسم جلستها المألوفة خطوطاً غريبة ومثيرة إلى هذا الحد، بل بنساء أخريات،بجميع أولئك اللواتي رسمهم "إيلستير" واللواتي أحب على الدوام، مهما أمكن أن يكنّ مختلفات، أن يجعلهن ينتصبن على هذا النحو مواجهة، والرجل مقوّسة تجاوز التنورة والقبعة المستديرة الواسعة التي يمسكنها باليد تقابل على نحو متناظر،على سوية الركبة التي تغطيها، تلك الاسطوانة الأخرى التي أُخِذَت مواجهة، عنينا الوجه والرسم العبقري أخيراً لا يفكك نموذج امرأة بحسب ما حده غنجها وتصورها الأناني للجمال فحسب، بل هو لا يكتفي، إن كان قديماً، أن يزيد في عمر الأصل على نحو ما تفعل الصورة الفوتوغرافية بإظهاره في ثياب ذهب زيها فليس يبطل في الصورة المرسومة طريقة لباس المرأة فحسب، بل كذلك الطريقة التي كان يرسم بها الفنان وكانت تلك الطريقة، طريقة "إيلستير"الأولى، قيد النفوس الأكثر فداحة بالنسبة إلى "أوديت"، لالأنّه يجعل منها، شأن صورها الفرتوغرافية آنذاك، صغْرَة ماجنات معروفات، بل لأنّه يجعل رسمها معاصراً لواحد من الرسوم الكثيرة التي وضعها "مانيه"أو "ويستلر" نقلا عن نماذج كثيرة مرتحلةأصبحت ضحية النسيان أو ملكاً للتاريخ .

كان الاكتشاف الذي قمت به فيما يخص هوية نموذجه يدفعني إلى هذه الأفكار التي كنت أجترّها بصمت إلى جانب "إيلستير"فيما أعود به إلى منزله حينما ساقني هذا الاكتشاف إلى آخر ثان أكثر إثارة بالنسبة إليّ ويتعلّق بهويّة الفنان. لقد سبق أن أنجز رسماً لـ"أوديت دو كريسي" فهل يمكن أن يكون هذا الرجل العبقري، هذا الحكيم، هذا المتوحد، هذا الفيلسوف ذو الحديث الرائع والذي يحيط بكل أمر، هل يمكن أن يكون الرسام المضحك الفاسق الذي احتضنه آل"فيردوران"فيما مضى؟وسألته إن كان عرفهم وإن لم يتّفق أن كانوا يلقبونه حينذاك بالسيد "بيش"فأجابني أن نعم دونما ربكة وكما لو تناول الأمر قسماً من حياته أضحى قديماً بعض الشيء وكما لولا يرتاب بأمر الخيبة الغريبة التي يبعثها فيّ، ولكنه قرأها، وهو يرفع عينيه، على صفحة وجهي وعلت وجهه دلائل الاستياء ولعل رجلا أقل سمواً بعقله وقلبه، لعله اكتفى، فيما كنّا قد وصلنا تقريباً إلى منزله بأن يستودعني بجفاء وتجنب بعد ذلك أن يلقاني من جديد ولكن "إيلستير" لم يسلك هذا المسلك معي، فقد كان يحاول، بوصفه معلماً حقيقياً_ وربّما كانت سيّئته الوحيدة على صعيد الإبداع البحت أن يكون معلماً حقيقياً بمعنى كلمة المعلم، هذا لأنّه ينبغي للفنان كيما يكون تماماً ضمن حقيقة الحياة الروحية أن يظل وحيداً وألا يبذر شيئاً من أناه حتى لصالح تلاميذه-، أن يستخلص من كل مناسبة، سواء أتعلقت به أم بالآخرين، ماتحتويه من حقيقة في سبيل إرشاد أفضل للشبان. وقد فضل والحالة هذه على الأقوال التي ربّما ثأرت لاعتزازه بذاته تلك التي يمكن أن تعلّمني. فقال لي:"ليس من رجل مهما يكون حكيماً لم يتفوّه، في هذه الفترة أو تلك من شبابه،

بأقوال أو لم يقض حياة تزعجه ذكراها ومنيته لو يلغيها. على أنّه ينبغي ألا يأسف لذلك على نحو مطلق لأنّه لا يمكن له التثبت بأنّه أصبح حكيماً، بقدر ما يبدو ذلك ممكناً، إلا إذا مر بجميع ضروب التجسيد المضحكة أوالبشعة التي ينبغي أن تسبق هذا التجسيد الأخير. إنّي أعلم أن ثمة شباناً، أبناء وأحفاداً لرجال مرموقين، عملهم مربوهم نبالة الفكر والأناقة الأخلاقية منذ المدرسة. وربما لم يقع علمهم أن يحذفوا شيئاً من حياتهم وبوسعهم أن ينشروا كل ما قالوه وأن يذيّلوه بتوقيعهم، ولكنهم فقراء النفوس وذريّة ضعيفة لعقائديّين وحكمتهم سلبيّة وعقيمة. فالحكمة لا توهب ولابدّ من اكتشافها بعد مشوار لا يستطيع أحد أن يقطعه نيابة عنّا ولا يستطيع أن يجنّبنا إيّاه، إذ هي نظرة إلى الأشياء. إن الحيوات التي تُعجب بها والمواقف التي تجدها نبيلة لم يرتّبها والد الأسرة أو المربي بل سبقتها بدايات شديدة الاختلاف وأثر فيها كل ما كان سائدا حولنا من شر أو تفاهة وإنها لتمثل كفاحاً وانتصاراً وإنني أدرك أنْ لا تكون صورة ما كنّا عليه في فترة أولى واضحة المعالم وأنْ لا تحظى في جميع الأحوال بإعجابنا. على أنّه يجدر بنا أن لا ننكرها لأنها شهادة عشناها حقاً وأننا إنما استخلصنا، وفق قوانين الحياة والفكر التي لدينا، من العناصر المشتركة في الحياة ومن حياة المحتَرفَات والجماعات الفنيّة إن تعلق الأمر برسّام، مايجاوزها "وكنا قد وصلنا أمام بابه، وقد خاب أملي أن لم يتم لي التعرف بتلك الفتيات. بيد أنّه قد تتوافر الآن إمكانيّة لقائهنّ في الحياة، فقد كففن عن مجرد المرور في أفق خلت أنّني لن أبصرهن في يوم يطلعن فيه. ولم يعد يضطرب من حولهنّ ما يشبه هذا الجيشان الكبير الذي كان يفصل بيننا وإن هو إلا ترجمة الرغبة الدائبة النشاط المتحركة الملحّة التي يغذوها القلق ويبعثها في نفسي تعذّر الوصول إليهن وهروبهن ربما إلى غير رجعة. كنت أستطيع الآن أن أريح شوقي إليهنّ وأن أدخره إلى جانب الكثير غيره مما كنت أؤجل تحقيقه حالما أعلم أنه أضحى ممكناً. واستودعت "إيلستير" ووجدتني وحيداً. حينئذ رأيت دفعة واحدة في خاطري، على الرغم من خيبة أملي، جميع تلك المصادفات التي ما كنت لأرتاب بإمكان حدوثها، كأن يكون"إيلستير"بالضبط على علاقة بتلك الفتيات وأن تكون أولئك اللواتي كنّ لا يزلن بالنسبة إليّ في الصباح محض وجوه في لوحة، خلفيّتها البحر قد رأينني، قد رأينني أرتبط بصداقة رسّام عظيم أصبح يعرف الآن شوقي إلى التعرّف بهنّ وسوف يسدي له العون دونما شكّ. كل ذلك سبّب لي متعة،ولكن تلك المتعة ظلّت خفيّة عليّ، فقد كانت من أولئك الزوّار الذين ينتظرون كيما ينبئونا بحضورهم أن يكون الآخرون قد فارقونا وأن نكون وحدنا، حينئذ نبصرهم ونستطيع أن نقول لهم :أنا ملك أيديكم، ونصغي إليهم ويتفق أحياناً أن يكون انقضى العديد من الساعات ورأينا الكثير من الناس ما بين اللحظة التي دخلت فيها تلك المتع إلى نفوسنا واللحظة التي نستطيع فيها أن نعود إليها حتى لنخشى أنْ لا يكونوا انتظرونا. ولكنهم طويلو الأناة لا يكلّون وما إن يذهب الجميع حتى نجدهم قبالتنا. وأحياناً نكون نحن المتعبين إلى حدّ يبدو لنا معه أنّه لن يتوافر في فكرنا الموهن ما يكفي من قوة كي نحتجز تلك الذكريات وتلك الانطباعات التي تؤلّف أنانا الهشّة بالنسبة إليها المكان الوحيد الذي يمكن أن تأوي إليه وصيغة التحقّق الوحيدة، وربمّا أصابنا الأسف لذلك لأن الحياة تكاد لا تثير اهتمامنا إلاّ في الأيام التي يختلط فيها تراب الوقائع برمل سحري ويضحي فيها حادث عادي حافزاً للخيال، حينئذ يطلع فجأة من أضواء الحلم شامخ

من العالم المتعذر الإدراك ويدخل في حياتنا، في حياتنا التي نبصر فيها كالنائم اليقظان الأشخاص الذين حلمنا بهم بشوق الملهوف حتى ظننا أننا لن نشاهدهم في يوم خارج الحلم.

وزاد من قيمة الهدوء الذي حمله إليّ احتمال تعرّفي الآن بتلك الفتيات حينما أشاء أنني ما كنت أستطيع موالاة ترقّبهنّ في الأيام التالية التي شُغلت بالإعداد لرحيل"سان لو". كانت جدتي راغبة أن تعرب لصديقي عن شكرها إزاء صنوف اللطف العديدة التي أبداها لها ولي. وقلت لها إنّه كبير الإعجاب بـ" برودون" وأوحيت إليها بفكرة استقدام رسائل عديدة بخط يد هذا الفيلسوف كانت قد اشترتها. وجاء "سان لو"لمشاهدتها في الفندق في اليوم الذي وصلت فيه وهو عشيّة رحيله. وقرأها بنهم وهو يقلّب كل ورقة باحترام ويحاول استظهار الجمل، ثم نهض وأخذ يعتذر لجدتي أن يكون مكث وقتاً طويلاً جداً حينما سمعها تجيبه قائلة:

-"لا، خذها معك، إنها لك فإنما أحضرتها لأعطيك إياها"

وتملّكه فرح لم يستطع السيطرة عليه أكثر مما يتاح له بحالة جسدية تجري دون تدخّل الإرادة وأضحى لونه قرمزياً مثل طفل أقدمنا على معاقبته وتأثرت جدتي لرؤية جميع الجهود التي قام بها (دون أن يفلح) ليتمالك الفرح الذي كان يهزه أكثر منها بجميع آيات الشكر التي كان يمكن أن يتفوه بها أما هو فظل يرجوني، وقد خشي أن يكون أساء الإعراب عن شكره، أن أقبل عذره وهو ينحني في الغد من نافذة القطار المحلّي الصغير الذي استقله للالتحاق بثكنته، وكانت بالفعل قريبة البعد وقد فكر في أن يذهب إليها بالعربة كما كان يفعل في الغالب حينما كان عليه أن يعود في المساء وليس الأمر أمر رحيل نهائي. بيد أنه كان ينبغي له في هذه المرة أن يضع أمتعته الكثيرة في القطار. فرأى من الأسلم أن يستقله بدوره آخذاً في ذلك برأي المدير الذي أجاب بعدما استشير "أن الأمر يتوازن تقريباً"في العربة أو القطار الصغير، يريد بذلك أن يقول إنّه "يتساوى"(كما لعلّ "فرانسواز"كانت تعبّر عنه بقولها "الأمر يعني ذاته ونفسه". واستنتج "سان لو"من ذلك قوله:"فليكن، سأستقل القطار الصغير". ولعلني كنت أستقله بدوري، لو لم أكن متعباً وأرافق صديقي إلى "دونسيير". على أني وعدته، طوال كامل الوقت الذي ظللنا فيه في محطّة "بالبيك" -أي الوقت الذي قضاه سائق القطار الصغير في انتظار أصدقاء متخلّفين ما كان يودّ الذهاب بدونهم وكذلك في تناول بعض المرطبات -أن أبادر لزيارته عدة مرات في الأسبوع. ولما كان بلوك قد جاء بدوره إلى المحطة - الأمر الذي سبب لـ" سان لو" إزعاجاً كبيراً - وإذ رأى هذا الأخير أن صاحبنا كان يسمعه يرجوني المجيء إلى "دونسيير" للغداء والعشاء والسكنى هناك فقد قال له في النهاية بلهجة بالغة الجفاء، لهجة كان عليها أن تصلح من لطف الدعوة المفتعل وأن تحول دون أن يأخذها "بلوك"على محمل الجدّ :"إن مررت ذات يوم في "دونسيير" في عشية لا أرتبط فيها بموعد كان بوسعك أن تسأل عني في الثكنة، ولكني مرتبط على الدوام تقريباً. "وربمّا خشي "روبير"كذلك ألا أجيء وحيداً فمكنّني على هذا النحو من الحصول على رفيق طريق وعلى مشجع وفي ظنّه أنني أكثر ارتباطاً بـ"بلوك"مما كنت أصرح به.

وخشيت أن تكون تلك اللهجة وتلك الطريقة في دعوة امرئ فيما يُشار عليه بالامتناع عن المجيء قد جرحتا شعور "بلوك" ورأيت أنه كان من الأفضل لـ"سان لو" أن لا يقول شيئاً ولكني أخطأت، فبعد انطلاق القطار وطوال الوقت الذي سرنا فيه سويّة حتى تقاطع الشارعين حيث كان ينبغي أن نفترق إذ يتجه شارع إلى الفندق والآخر إلى دارة "بلوك"، لم يكفّ هذا الأخير عن سؤالي عن اليوم الذي سنذهب فيه إلى "دونسيير"، ذلك أنه "من السماجة بمكان فيما يخصه أنْ لا يلبي دعوة "سان لو"بعد "جميع ضروب اللطافة التي خصةّ بها". وسرّني أنه لم يلاحظ، أو أنه كان قليل الاستياء إلى حد يرغب معه في التظاهر بأنه لم يلاحظ بأية لهجة قليلة الاستعجال، وتكاد لا تكون متأدّبة، تمت الدعوة ووددت مع ذلك لو جنب"بلوك" نفسه سخرية الذهاب في الحال إلى "دونسيير".ولكنّي ما كنت أجرؤ أن أسدي إليه نصحاً لا يمكن إلا أن يسوءه إذ يُبرز له أن "سان لو" كان أقل استعجالاً مما يبدو هو متحمساً. وكان أكثر حماسة مما ينبغي، ومع أن جميع العيوب التي به من هذا القبيل إنما تعادلها مناقب بارزة لاتتفق لآخرين أكثر تحفظاً، فقد كان يبلغ بقلة التحفظ حداً يورث الإزعاج.فالأسبوع لايمكن، لمن يسمعه، أن ينقضي دون أن نذهب إلى "دونسيير" (ويقول "نذهب" إذ أحسب أنّه كان يعتمد بعض الشيء على حضوري كيما يلقى العذر لحضوره).وقد استوقفني على طول الطريق، أمام القاعة الرياضية الغارقة في أشجارها وأمام ملعب كرة المضرب وأمام دار المختار وأمام بائع المحاريّات، وهو يتوسل إليّ أن أحددَ يوماً، ولما لم أفعل فارقني غاضباً وهو يقول لي: "افعل ما يطيب لك يا سيدي، أما أنا فإني مضطر في جميع الأحوال أن أذهب إلى هناك بما أنه دعاني."

لقد خشي "سان لو"كثيراً أنْ لا يكون أحسن في شكر جدتي إلى حد أنه كلفني بعد الغد أن أنقل إليها شكره في رسالة وصلتني منه من المدينة التي كان يقيم في موقعها والتي بدت على المغلف الذي طبع البريد اسمها عليه وكأنها تبادر إليّ بسرعة وتقول لي إنه كان يفكر فيّ بين أسوارها وفي مقر لويس السادس عشر للفرسان.كان الورق يحمل شعار "دومارسانت" وقد ميّزت فيه أسداً يعلوه تاج ينتهي بقبّعة أعيان فرنسه.

"بعد رحلة، يقول لي، تمّت على ما يرام وفيما أقرأ كتاباً ابتعته في المحطة وهو بقلم "أرفيدبارين" (إنه كاتب روسي فيما أعتقد، وقد بدا لي أنه كُتِبَ كتابة رائعة بالنسبة إلى أجنبي، ولكن زوّدني برأيك فلا بدّ أنك تعرف ذلك أنت لجة العلم الذي قرأ كل شيء) أراني عدت وسط هذه الحياة السمجة التي أحسّني منفياً فيها واأسفي إذ لايتوافر لي فيها ما خلّفته في "بالبيك"، هذه الحياة التي لا ألقى فيها أية ذكرى وداد وأي سحر فكري، الحياة التي قد تحتقر جوّها دونما شك مع أنه لايخلو من سحر.كل شيء يبدو لي قد تغير منذ أن غادرتها، إذ بدأت في هذه الفترة الفاصلة إحدى أكثر الفترات أهمية في حياتي، تلك التي يعود إليها تاريخ صداقتنا.وأملي أنها لن تنقضي في يوم.ولم أتحدّث عنها وعنك إلا إلى شخص واحد، إلى صديقتي التي فاجأتني بمجيئها لقضاء ساعة بالقرب مني.إنها تودّ كثيراً التعرف بك وأظن أنكما سوف تتفقان إذ هي بدورِها طويلة باع في الأدب.وكيما أفكر من جديد، في مقابل ذلك، في أحاديثنا وأعيش من جديد تلك الساعات التي لن

أنساها ألبتة فقد اعتزلت أصحابي، وهم فتيان ممتازون ولكنهم عاجزون تماماً عن إدراك ذلك.ولعلّي كدت أفضّل فيما يخص ذكرى اللحظات التي أمضيتها معك أن أستذكرها لذاتي فقط في اليوم الأول ودون أن أكتب إليك.ولكني خشيت عليك، أنت الفكر المرهف والفؤاد الشديد الحساسية، أن تقلق إن لم تصلك رسالة.إن أنت بالطبع تكرّمت وانحدرت بفكرك إلى الفارس الخشن الذي يقع عليك الكثير في سبيل تشذيبه وجعله على شيء من الإرهاق وأكثر أهليّة بك."

كانت تلك الرسالة تشبه إلى حد بعيد في رقتها تلك التي تخيلت.حينماكنت لا أعرف بعد "سان لو"، أنه سوف يسطرها لي في تلك الأحلام التي أقصاني عنها جفاء استقباله الأول إذ وضعني إزاء واقع شديد البرودة لم يكتب له البقاء.وبعدما وصلتني، وفي كل مرة كانوا يجيئون فيها بالبريد ساعة الغداء.كنت أعلم في الحال حينما تجيء رسالة منه، إذ كانت تحمل دوماً ذاك الوجه الثاني الذي يبرزه كائن في أثناء غيابه والذي ليس من سبب، بدون قسماته (بدون حروف الكتابة) كي لا نظن أننا ندرك نفساً فرديّة شأن ما هي الحال في خطّ الأنف أو نبرات الصوت.

كان يطيب لي الآن المكوث أمام طاولة الطعام فيما يتم رفع الفضلات ولم أعد أقصر النظر على جانب البحر إن لم تكن الفترة تلك التي يمكن أن تمر في أثنائها فتيات المجموعة الصغيرة.فقد أخذت أحاول أن ألقى في الواقع، وأعشق بمثابة أمر شاعري حركة السكاكين التي توقفت ولاتزال موضوعة بالورب، والاستدارة المكوّرة لفوطة محلولة تدخل الشمس في ثنياتها قطعة من المخمل الأصفر، والقدح الذي أفرغ إلى نصفه والذي يبرز هكذا على نحو أفضل اتساع أشكاله الكريمة، وفي قعر زجاجه الشفاف الذي يضاهي تكثّف ضوء النهار بقية خمرة عاتمة ولكنها تتلألأ بالأنوار، وتنقّل الأحجام، وتحوّل السوائل بفعل الأضواء، وتبدل لون الخوخ الذي ينقلب من خضرة إلى زرقة ومن زرقة إلى لون الذهب في قصعة الفواكه التي خلت إلى نصفها، ورحلة الكراسي القديمة التي تبادر مرتين في كل يوم إلى الإقامة من حول غطاء المائدة الممدود فوق الطاولة وكأنما فوق مذبح تقام عليه أعياد الشراهة وعليه ظلت في زوايا المحارات بعض قطرات ماء لمّاعة وكأنما في أجران ماء مقدسة صغيرة من حجر.كنت أحاول أن ألقى الجمال حيث لم يخطر لي ألبتة أن يكون، في أكثر الأشياء استعمالاً وفي أعماق حياة "الطبيعات الميتة".

حينما أفلحتُ بعد بضعة أيام من رحيل "سان لو"، في حمل "إيلستير"على إقامة حفلة مسائية صغيرة ألتقي فيها بـ"ألبيرتين" أسفت ألا أستطيع الاحتفاظ بالفتنة والأناقة المؤقتتين تماماً اللتين وجدوهما لديّ لحظة كنت أغادر الفندق الكبير (وقد نجمتا عن استراحة طويلة وعن عناية خاصّة بشؤون الملبس)، وكذلك بنفوذ "إيلستير" من أجل الظفر بشخص آخر أشد ظرفاً، لقد أسفت أن أنفق كل ذلك لمجرد متعة التعرّف بـ"ألبيرتين".كان عقلي يحكم أن تلك المتعة قليلة القيمة إلى حد بعيد منذ أن أصبح واثقاً بذاته. ولكن الإرادة في داخلي لم تشارك لحظة واحدة في ذلك الوهم، الإرادة التي تمثّل الخادم الدؤوب الذي لايتبدل لشخصياتنا المتعاقبة، إنها تختفي في الظلام مزدراة لا تكلّ في إخلاصها وتعمل دون انقطاع، ودون أن تهتمّ بتغيرات أنانا، على أنْ لا يعوزها الضروري

في يوم.ففي أثناء ما يشرع العقل والإحساس، لحظة توشك رحلة مشتهاة أن تتحقق، في التساؤل إن كانت حقاً جديرة بالتحقق تدعمها الإرادة التي تعلم أن هذين السيدين البطالين سوف يعاودان اعتبار تلك الرحلة رائعة إن اتفق لها أن لاتتم، تدعهما يتحدثان أمام المحطة ويضاعفان من صنوف حيرتهما، ولكنها تهتم بقطع التذاكر وبوضعنا في العربة بانتظار ساعة الرحيل.وإنها لاتتبدل بقدر ما العقل والإحساس متقلبان ولكنها تبدو وكأنما لا وجود لها تقريباً بما أنها صامتة ولا تدلي بدوافعها. وإنما تخضع الأجزاء الأخرى في أنانا لعزمها الثابت ولكن دون أن تراها فيما تميز بوضوح صنوف تشكلها هي.لقد باشر إحساسي وعقلي إذن نقاشاً حول قيمة المتعة التي قد تورثها معرفة "ألبيرتين" فيما كنت أنظر في المرآة إلى صنوف الزينة الباطلة الهشة التي يودّان الاحتفاظ بها على حالها لمناسبة أخرى ولكن إرادتي لم تسمح بمرور الساعة التي ينبغي الذهاب فيها وكان أن زوّدت الحوذي بعنوان "إيلستير".أما عقلي وإحساسي فقد تيسر لهما، إذ حُمَّ القضاء، أن يحتسبا الأمر مؤسفاً، ولو اتفق لإرادتي أن تقدّم عنواناً آخر لوقعا في الفخّ.

حينما وصلت إلى منزل "إيلستير"بعد ذلك بقليل حسبت بادئ الأمر أن الآنسة "سيمونيه" لم تكن في المرسم. كان هنالك بالتأكيد فتاة جالسة بفسطان من الحرير حاسرة الرأس ولكنّي ما كنت أعرف منها هذا الشعر الرائع ولا هذا الأنف ولا هذا اللون وما كنت ألقى فيها تلك الشخصية التي استخلصتها من راكبة دراجة شابة تتنزه بمحاذاة البحر وهي تعتمر قبعة عريضة.وكانت على الرغم من ذلك "البيرتين".ولكني لم أهتم بها حتى حينما علمت ذلك.فحينما يكون المرء شاباً يموت لذاته ساعة يدخل إلى أي اجتماع راقٍ ويصبح رجلاً مختلفاً، إذ أن كل صالة عالم جديد نخضع فيه لمنطلق أخلاقي آخر فنركّز انتباهنا على أشخاص ورقصات ولعبات ورق، سرعان ما ننساها في الغد، كما لو انبغى أن تحوز اهتمامنا على الدوام.ورأيتني وأنا مضطر للتقدم باتجاه حديث مع "ألبيرتين" إلى اتباع درب لم أرسمه، درب كان يتوقف في بادئ الأمر أمام "إيلستير" ويمرّ بمجموعات أخرى من المدعوين كان يذكر اسمي أمامهم ثم يحاذي طاولة المأكولات حيث تقدم لي حلوى بتوت الأرض فآكلها فيما أصغي لاحراك بي إلى موسيقى يشرعون في عزفها، رأيتني أولي هذه الوقائع المختلفة الأهمية نفسها التي أوليها لتعريفي بالآنسة "سيمونيه"، هذا التعريف الذي لم يعد سوى إحدى تلك الوقائع والذي نسيت أنه كان لبضع دقائق خلت الهدف الوحيد لمجيئي. أو ليس ذلك على أية حال أمر صنوف سعادتنا الحقة ومصائبنا الكبيرة في حياتنا الفعلية؟ فإنه ليردنا، ونحن وسط أشخاص آخرين، من تلك التي نحبها الرد الإيجابي أو القاتل الذي كنا ننتظره منذ عام.بيد أنه لابد من متابعة الحديث وتنضاف الأفكار بعضها إلى بعضها الآخر فتؤلف صفحة قلّما تطفو على وجهها بين الحين والحين الذكرى التي تفوقها عمقاً ولكنّها ضيقة الرقعة وقوامها أن المصيبة حلّت بنا.فان كانت السعادة بدلاً من المصيبة فربمّا اتفق أنْ لا نتذكر إلا بعد مرور عدة أعوام أن أعظم حدث في حياتنا العاطفية قد وقع، دون أن يتّسع لنا الوقت لنخصّه بفترة اهتمام طويلة وحتى لنعيه، ضمن اجتماع راقٍ على سبيل المثال وما ذهبنا إليه إلا لانتظار ذاك الحدث.

وحينما طلب "إيلستير" مني المجيء ليقدمني لِ "ألبيرتين"التي جلست في مكان أبعد بقليل فرغت بادئ الأمر من تناول حلوى بالقهوة وسألت باهتمام سيداً عجوزاً تعرفت إليه منذ قليل،

وحسبت أنه يسعني أن أقدم له الوردة التي أعجب بها في عروة سترتي، أن يزودني بمعلومات مفصّلة عن بعض أسواق البيع النورماندية.وليس يعني ذلك أن التقديم الذي تلاه لم يبعث فيّ أية متعة ولم يرتدِ في نظري بعض الخطورة. فأما المتعة فلم أعرفها بالطبع إلا بعد ذلك بقليل حينما ظللت وحيداً بعدما عدت إلى الفندق فأضحيت ذاتي من جديد. فأمر المتع كأمر الصور الفوتوغرافية، ما أخذتّه بحضور المحبوب لايعدو كونه صورة سلبية يتم تظهيرها فيما بعد، وبعدما يعود المرء إلى منزله ويجد في متناوله هذه الحجرة السوداء الداخلية التي يظل مدخلها مسدوداً مادمنا في حضرة الناس.

ولئن تم على هذا النحو تأجيل تعرفي بالمتعة بضع ساعات فقد أحسست في الحال، في مقابل ذلك، بخطورة ذلك التقديم.فعبثاً نحس ساعة التقديم أننا مُنِحْنَا وأصبحنا نحمل "بطاقة" صالحة لمتع مقبلة، وكنا نجري وراءها منذ أسابيع، فإننا ندرك تماماً أن إحرازها إنما يضع حداً بالنسبة إلينا، لالتحريات شاقة فحسب-الأمر الذي لايمكن إلا أن يملأنا حبوراً-، بل لوجود كائن ما، ذاك الذي شوّهه خيالنا وضاعفت من حجمه خشيتنا وقلقنا ألاّ يمكننا التعرف إليه في يوم.ففي اللحظة التي يدوّي فيها اسمنا بين شفتي المقدّم ولاسيما إنْ أحاطه هذا الأخير، كما فعل "إيلستير"، بتعليقات تقريظية-تلكْ اللحظة المقدسة الشبيهة باللحظة التي يأمر فيها الجني، في أثناء مشهد سحري، أن يضحي شخص على نحو فجائي شخصاً آخر-يتلاشى ذاك الذي تقنا إلى التقرب منه، إذ كيف يظل بادئ الأمر شبيهاً بذاته بما أن النظرة الواعية والفكرة اللا مدركة اللتين كنّا نبحث عنهما قد حلّت محلهما في العينين اللتين كانتا بالأمس تتمركزان في اللانهاية(واللتين ظننا عينينا التائهتين غير المركزتين اليائستين المتباينتين لن تفلحا ألبتة في لقائهما) صورتنا التي ارتسمت كأنمّا في أعماق مرآة تبتسم؟ وإن كان تجسد ذاتنا في ما كان يبدو لنا مختلفاً أكثر الاختلاف عنا هو ما يبدل أكثر ما يبدل الشخص الذي تمّ تقديمنا له فإن شكل هذا الشخص لايزال مبهماً بعض الشيء، ويمكننا أن نتساءل هل سيكون إلهاً أم طاولة أم طشتاً.ولكن الكلمات القليلة التي ستقولها لنا هذه المجهولة سوف توضح ذاك الشكل بمثل سرعة مثّالي الشمع أولئك الذين يصنعون أمامنا تمثالاً نصفياً في مدى خمس دقائق.وتضفي عليه صيغة نهائية تستبعد جميع الفرضيات التي كانت تنصرف إليها بالأمس رغبتنا وخيالنا. وليس من شك أن "ألبيرتين" لم تظل بالنسبة إلي، حتى قبل أن تحضر إلى حفلة بعد الظهر تلك، ذاك الشبح الوحيد الجدير بملازمة حياتنا والذي تمثله عابرة سبيل لا نعرف عنها شيئاً وما كدنا نميز ملامحها.

كانت قرابتها بالسيدة "بونتان" قد سبق أن قلّصت تلك الفرضيات المثيرة إذ سدّت أحد السبل التي يمكن أن تنتشر فوقها.فبقدر ما كنت أقترب من الفتاة وتزداد معرفتي بها كانت تلك المعرفة تتم عن طريق عملية الطرح إذ تحلّ محل كلّ جزء من الخيال والرغبة فكرة تساوي أقل منهما بكثير، فكرة كان ينضاف إليها بالحقيقة ما يوازي، في مجال الحياة، ما تمنحه بعض الشركات المالية بعد تسديد السهم الأصلي وتدعوه سهم الانتفاع.لقد كان اسمها وصلات القربى لديها حدّاً أوّلياً يحد افتراضاتي، وكان لطفها، فيما كنت ألقى بالقرب منها شامتها الصغيرة على الخد تحت العين، حداً

آخر.وأخيراً أدهشني أن أسمعها تستعمل العبارة الظريفة "على أكمل وجه" بدلا من "تماماً" وهي تتحدث عن شخصين فتقول عن الواحد "إنه مجنون على أكمل وجه ولكنه لطيف جداً مع ذلك"، وعن الآخر "إنه سيد عادي على أكمل وجه وممل على أكمل وجه". ومهما يكن من أن استعمال "على أكمل وجه" هذا قليل الاستحسان فإنه يشير إلى درجة من الحضارة والثقافة ما كنت أستطيع أن أتصور أن راقصة الدراجة وربة الغولف الماجنة تبلغها. ولم يحل ذلك على أية حال دون أن تتغير "ألبيرتين"مرات عديدة أيضاً بالنسبة إلي بعد هذا التحول الأول. فالصفات والعيوب التي يبرزها كائن مرتبة في أماميّة وجهه إنما تتراصف وفق تشكيل مختلف تماماً إن نظرنا إليه من جانب مختلف، مثلما الأبنية التي تنتشر في نظام مبعثر على خط واحد في إحدى المدن تتدرج في العمق من وجهة نظر ثانية وتتبادل أحجامها النسبية. فقد ألفيت "ألبيرتين" في البداية وجلة بعض الشيء بدلاً من صلابة المظهر، وبدت لي لائقة أكثر منها سيئة التهذيب إن انطلقنا في حكمنا من العبارات التي وسمتْ بها جميع الفتيات اللواتي حدثُتها عنهن: "إنها سيئّة التصرف"، إنها غريبة الأطوار".وكان ما يجلب النظر في وجهها صدغ على شيء من الاحمرار ولا تروقك رؤيته، لاتلك النظرة الفريدة التي كنت أعاود التفكير فيها على الدوام حتى ذاك.بيد أن تلك محض رؤية ثانية وكان ثمة غيرها دون شك مما سوف أنتقل إليها على التوالي.وهكذا لايمكننا الوصول إلى معرفة كائن معرفة دقيقة، إن كانت تلك المعرفة ممكنة، إلا بعد ما نتعرّف الأخطاء البصرية الأولى، ولا يتم ذلك دون تلمس وتردد.على أن تلك المعرفة غير ممكنة، ذلك أنه فيما يتم تصويب النظرة التي أخذناها عنه يتبدل هو لحسابه الخاص بما أنه ليس هدفاً جامداً، ونحسب أننا نلحق به فيبدل مكانه، وإذ نظن في النهاية أننا نراه على نحو أوضح فإنما أفلحنا في توضيح محض الصور القديمة التي سبق أن أخذناها عنه ولكنها لم تعد تمثله.

بيد أن ذلك المسعى إلى ما لمحناه فحسب، وما صرفنا وقتاً كافياً في تخيله، إن ذلك المسعى، أية كانت الخيبات المحتمة التي لابد يحملها معه، هوالوحيد الذي يتسم بالصواب بالنسبة إلى الحواس ويغذّي فيها الشوق إليه.فأي سأم حزين يطبع حياة الناس الذين يمضون مباشرة في عربة، بداعي الكسل أو الخجل، لدى أصدقاء عرفوهم دون أن يكونوا حلموا بهم من قبل ودون أن يجرؤوا ألبتة أن يتوقفوا على الطريق بالقرب مما يشتهون!.

وعدت إلى المنزل وأنا أفكر في حفلة بعد الظهر تلك وأعود فأرى قطعة الحلوى بالقهوة التي فرغت من تناولها قبل أن أدع لِـ"إيلستير"أن يصحبني بالقرب من "ألبيرتين" والوردة التي أعطيتها للسيد العجوز، وجميع تلك الجزئيات التي تنتقيها الظروف على غير علم منا والتي تؤلف بالنسبة إلينا ضمن ترتيب خاص وعرضي لوحة اللقاء الأول بيد أنه خيل إليّ أنّي أبصر تلك اللوحة من زاوية أخرى ومن نقطة بعيدة جداً عني فأدركت أنه لم يكن موجوداً بالنسبة إلّي فحسب حينما كنت أروي لِـ"ألبيرتين" بعد بضعة شهور عن أول يوم عرفتها فيه فذكرتني، وأثارت دهشتي الشديدة، بقطعة الحلوى والزهرة التي أعطيتها وكل ما كنت أحسب أنه لايهم أحداً سواي، إذ لايمكن أن أقول ذلك، بل إنه لم يشاهده أحد سواي ووجدته على هذا النحو منقولاً على نسخة ثانية ما كنت

أرتاب بوجودها في فكر "ألبيرتين". لقد أدركت منذ ذلك اليوم الأول، حينما استطعت أن أبصر لدى العودة الذكرى التي كنت أحملها، أية خدعة تم تنفيذها ببراعة وكيف تحدثت فترة إلى شخص حل محلها بفضل مهارة المشعوذ ودون أن يحمل شيئاً من ذاك الذي لاحقته زمناً طويلاً على شاطئ البحر. كان بوسعي على أي حال أن أستشفّ ذلك بما أن فتاة الشاطئ قد صنعتها يداي. بيد أني كنت أحس على الرغم من ذلك، بما أني ماثلت في حديثي مع "إيلستير" بينها وبين "ألبيرتين"، كنت أحس إزاء هذه الأخيرة بالتزامي الأدبي بالبر بوعود الحب التي قطعتها لِـ"ألبيرتين" الوهمية. تتم خطوبة بالوكالة ويحسب المرء نفسه ملزماً بالزواج فيما بعد من الشخص الوسيط. ولئن زال من حياتي على نحو مؤقت على الأقل قلق كانت ذكرى التصرّفات اللائقة وعبارة "عادي على أكمل وجه" والصدغ الذي تكسوه الحمرة كافية لتهدئته، فقد كانت تلك الذكرى توقظ فيّ نوعاً آخر من الرغبة كان يمكن، مع أنها عذبة لا ألم فيها على الإطلاق وأشبه بعاطفة أخوية، أن تصبح على مر الأيام في مثل خطورة تلك إذ تبعث في نفسي في كل لحظة الحاجة إلى تقبيل هذه الشخصية الجديدة التي كانت تصرفاتها اللائقة وخجلها وجاهزيتها اللا متوقعة تضع حداً لانطلاقة خيالي اللامجدية ولكنها تبعث فيّ امتناناً يلونه الحنان. وبما أن الذاكرة تشرع في الحال في أخذ صور يستقلّ بعضها عن بعضها الآخر وتزيل أية رابطة وأي تطوربين المشاهد الممثلة فيها، فإن آخر صورة في المجموعة التي تعرضها لاتقضي حتماً على ما سبقها منها. فقد كنت أرى قبالة "ألبيرتين" العادية المؤثرة التي تحدثت إليها "ألبيرتين" الغامضة قبالة البحر. لقد أضحتا الآن ذكريات. أي لوحات لاتبدو لي إحداها أكثر حقيقة من غيرها. وكيما أجيء على نهاية أمسية التعارف الأولى تلك فقد ذكرت، وأنا أحاول أن أرى ثانية الشامة الصغيرة فوق الخد تحت العين، أنني رأيت الشامة من منزل "إيلستير"، حينما ذهبت "ألبيرتين"، فوق الذقن. كنت ألاحظ باختصار القول، حينما أراها، أن لها شامة ولكن ذاكرتي التائهة كانت تنقّلها بعد ذلك على وجه "البيرتين" وتضعها ههنا تارة وطوراً هناك.

وعبثاً يخيب أملي بعض الشيء من أنني ألفيت الآنسة "سيمونيه" فتاة قليلة الاختلاف عن كل ما كنت أعرفه. فمثلما لم تحل خيبة ظني أمام كنيسة "بالبيك" دون رغبتي في الذهاب إلى "كامبيرليه" و"بونتافن" و"البندقية"، كذلك كنت أقول في نفسي إنه سوف يسعني بطريق "ألبيرتين" على الأقل أن أعرف صديقاتها في المجموعة الصغيرة، إن كانت هي نفسها غير ما أمّلت أن تكون.

وظننت بادئ الأمر أني سأخفق. فقد رأيت من الخير لي أنْ لا أحاول كثيراً رؤيتها وأن أنتظر فرصة يتوافر لي بها لقاؤها بما أنها ستمكث فترة طويلة في "بالبيك" وسأمكث كذلك. بيد أني خشيت أشد الخشية، حتى إن اتفق لي الأمر كل يوم، أن تكتفي بالرد على تحيتي من بعيد، تلك التحية التي لن تفيدني في شيء إن تكررت يومياً على تلك الحال طوال الفصل.

وبعد ذلك بوقت قليل اقتربت مني على السد، ذات صباح سبق أن تساقط فيه المطر وكان الطقس بارداً تقريباً، فتاة ترتدي قبعة صغيرة وفروة لليدين وكانت شديدة الاختلاف عن تلك التي

رأيتها في اجتماع "إيلستير" حتى ليبدو تعرّف الشخص نفسه فيها عملية مستحيلة بالنسبة إلى الفكر. بيد أن فكري أفلح في ذلك، ولكن بعد ثانية من الذهول لم تخفَ عليّ "ألبيرتين" فيما أعتقد. ثم إنها جعلتني أحس من جهة ثانية، وأنا أذكر في تلك اللحظة "التصرفات اللائقة" التي سبق أن أدهشتني، بالدهشة المعاكسة من جراء لهجتها القاسية وأسلوبها الذي يتسم بطابع "المجموعة الصغيرة". وكان الصدغ على أية حال قد كفّ عن كونه المركز البصري المطمئن في الوجه إما لأني كنت أقف في الجهة الأخرى واما لأن القبعة غطته، وإما لأن الالتهاب لم يكن دائماً. وقالت لي: "أي طقس هذا ! الحقيقة أن صيف "بالبيك" الذي لاينتهي مزحة كبيرة. ألا تفعل شيئاً ههنا؟ فما نراك ألبتة في الغولف ولا في حفلات الكازينو الراقصة، وأنت لاتمارس كذلك ركوب الخيل. كم ينبغي أن تحس بالملل ! ألست ترى أن المرء "يتبلّد"في البقاء طوال الوقت على الشاطئ؟ آه ! إنك تحب الشمس طويلا ؟ لديك متسع من الوقت على أية حال. وأرى أنك لست مثلي، فإني أعشق جميع أنواع الرياضة ! ألم تحضر مسابقات نهر الـ"سونيي"؟

لقد ذهبنا إلى هناك بالترام وإني أدرك أنك لاتجد سلوى في استقلال "طمبر" من هذا القبيل ! لقد استغرق المشوار ساعتين ! ولعلي كنت أقطع المسافة ثلاث مرات ذهاباً وإياباً على دراجتي النارية. "لقد أحسست بالرهبة من جراء السهولة التي كانت تقول بها "ألبيرتين" الترام و "الطمبر"، أنا الذي سبق أن أعجب بـ"سان لو" حينما دعا على نحو طبيعي جداً بـ"ذي اللفّات" القطار الصغير المحلي بسبب العطفات التي لاحصر لها في طريقه. كنت أحس بتفوقها في صيغة من التسميات خشيتُ أن تلاحظ تدني مستواي فيها وتزدريه. أضف أن فيض المترادفات التي تملكها المجموعة الصغيرة للدلالة على هذا القطار لم يتكشف لي بعد. كانت "ألبرتين"في حديثها تظل ثابتة الرأس مُضَيّقَةَ المنخرين لا تحرك إلا طرفي شفتيها، فكان ينجم عن ذلك لهجة متباطئة فيها خنّة ربما تضافرت في تأليفها صفات ريفية وراثية ونزعة الشباب إلى تصنع رباطة الجأش البريطانية ودروس معلمة أجنبية وتضخم احتقاني في غشاء الأنف. كان يمكن أن يبدو ذلك الصوت مقيتاً، وسرعان ما كان يتراجع حينما تزداد معرفتها بالناس ويعود طفولياً بطبيعته. إلا أنه كان فريداً وكان يفتنني. وفي كل مرة تمر بي بضعة أيام دون أن ألقاها كنت أستثير ذاتي وأنا أردد لنفسي: "ما نراك ألبتة في الغولف" بالصوت الأخنّ الذي قالتها به منتصبة القامة لاتحرك رأسها. وكنت أحسب حينذاك أن ليس من كان أكثر اشتهاء.

كنا نؤلف في ذلك الصباح واحداً من تلك الأزواج التي تزيّن السد ههنا وهناك باجتماعها وتوقفها لمجرّد تبادل بعض عبارات قبل الافتراق ليعاود كل على حدة نزهته المختلفة. وقد أفدت من ذلك الجمود لأبصر وأعلم نهائياً موقع الشامة. ومثلما تم لي بشأن جملة لِـ"فانتوي" كانت قد فتنتني في السوناتا وظلّت ذاكرتي تنقّلها من البداية إلى الختام إلى اليوم الذي استطعت فيه، والتوزيع في يدي، أن أجدها وأثبّتها داخل ذاكرتي في مكانها في حركة السكيرتزو، كذلك الشامة التي تذكرتها على الخد تارة وعلى الذقن أخرى توقفت نهائياً على الشفة العليا تحت الأنف. كذلك يتّفق لنا أن نلقي بدهشة أبياتاً نعرفها عن ظهر قلب في مقطوعة ما كنا نرتاب بوجودها فيها.

وفي تلك اللحظة، وكأنما لتتكاثر بملء الحرية أمام البحر المجموعة التزيينية الغنية التي يؤلفها في تنوع أشكالها مرور موكب العذارى الجميل. العذارى المقمّرات والموردات في آن معاً وقد أحرقتهنّ الشمس والريح، وقامت صديقات "ألبيرتين" ذوات السيقان الجميلة والقامة الطيّعة، بيد أنهن شديدات الاختلاف بعضهن عن بعض، بإبراز زمرتهن التي انتشرت وتقدمت في اتجاهنا أكثر قرباً من البحر وعلى خط يوازيه.واستأذنت "ألبيرتين" في أن أرافقها بضع لحظات. ولكنها للأسف اكتفت بأن حيتهنّ بيدها.فقلت لها: "ولكن صديقاتك سوف يتذمرن إن تركتهنّ" آملاً أن نقوم بنزهة معاً.

واقترب منا شاب منتظم القسمات يمسك بيده مضربين.وكان لاعب "البكارا"الذي كانت حماقاته تثير سخط زوجة رئيس المحكمة الأول.وحيَّا "ألبيرتين" بهيئة جافة لامبالية كان يتصور بالطبع أن أقصى التأنق قائم عليها.فسألته قائلة :"هل أنت آت من الغولف يا "أوكتاف" ؟وهل سارت الأمور على ما يرام؟ وهل كنت في أحسن أحوالك؟ " فأجاب: أوه ! ذلك يقرفني، فإنني في مأزق."

-"وهل كانت "أندريه" هناك؟ "-"أجل. وقد سجلت سبعاً وسبعين."

-"أوه ! هذا رقم قياسي." -"سبق أن سجلتُ البارحة اثنتين وثمانين."

لقد كان ابن صناعي شديد الثراء لا بد يضطلع بدور على شيء من الأهمية في تنظيم المعرض العالمي المقبل. وقد أذهلني إلي أي مدى تنامت لدى هذا الشاب والأصدقاء الذكور الآخرين القليلين جداً لتلك الفتيات معرفة كل ما كان من قبيل الملابس وطريقة ارتدائها وأصناف السيكار والمشروبات الإنكليزية والجياد-والتي كان يملكها حتى أدق تفاصيلها بمعصومية متعالية تبلغ حد تواضع العالم وصمته-تنامت بمعزل عن غيرها ودون أن يرافقها أقل ثقافة فكرية.فما كان يتردد ألبتة بشأن ملاءمة "السموكن" أو البيجامه ولكنه لايرتاب بالحالة التي يمكن فيها استخدام هذه الكلمة أو تلك أولا يمكن، وحتى بأبسط قواعد الفرنسيّة.كان لابد أن يكون هذا التفاوت بين الثقافتين واحداً لدى والده رئيس نقابة الملاكين في "بالبيك"، فقد كان يقول في رسالة مفتوحة إلى الناخبين أمَرَ منذ حين بلصقها على جميع الجدران :"لقد أردت أن أرى المختار "لأكلمه" فيها فلم يشأ الإصغاء لشكواي العادلة." كان "أوكتاف" يحوز في المقصف جوائز في جميع مسابقات "البوسطن"و"التانغو"، الخ، الأمر الذي يساعده، لو شاء ذلك، على إتمام زواج مغرٍ في وسط "حمامات البحر" هذا حيث تتبنى الفتيات "مراقصهن" بالمعنى الحقيقي لا المجازي. وأشعل سيكاراً وهو يقول لِ"ألبيرتين" :"تسمحين" مثلما يستأذن امرؤ في إنهاء عملٍ مستعجل فيما هو يتحدث.ذلك أنه لايستطيع ألبتة "أن يظل دون أن يفعل شيئاً" مع أنه لم يفعل شيئاً في يوم. وبما أن البطالة التامة تملك في النهاية آثار العمل الزائد عن الحد نفسها في المجال النفسي وفي حياة الجسم والعضلات سواء بسواء فقد بلغ الأمر بالعدم الفكري الذي كان يسكن خلف جبين "أوكتاف" الحالم أن أورثه، على الرغم من مظهره الهادئ، رغبة شديدة وغير مجدية في التفكير كانت تحول دون أن ينام الليل مثلما قد يتفق ذلك لميتافزيقي مجهد.

وإذ فكرّت أني إن عرفت أصدقاء تلك الفتيات فسوف تزداد فرص لقائي بهنّ أوشكت أن أطلب إليها أن تعرّفني به.وقلت ذلك لِـ"ألبيرتين" حالما ذهب وأنا أردّد قائلاً: "إنّني واقع في مأزق". وكنت أفكرّ أن أغرس في ذهنها فكرة القيام بذلك في المرة القادمة.فصاحت قائلة :"ويحك الا أستطيع أن أقدّمك لعاشق ثريّات.فههنا يعجّ المكان بأمثالهم ! ولكنهم ربمّا لم يستطيعوا التحدّث إليك.إنّ هذا الأخير يجيد اللعب بالغولف لا أكثر.إنيّ خبيرة بهذا الأمر، لن يوافق ذوقك على الإطلاق."وقلت لها: "سوف تتذمّر صديقاتك إن تركتهن على هذا النحو"، آملاً أنها ستقترح عليّ المضيّ معها للحاق بهنّ."-"دعك من هذا، فلسن بحاجة إليّ."والتقينا بِـ"بلوك"الذي وجّه إليّ ابتسامة رقيقة ذات مغزى وإذ ارتبك بشأن "ألبيرتين"التي لم يكن يعرفها، أو هو على الأقل كان يعرفها "دون أن يعرفها"، فقد خفض رأسه صوب ياقته بحركة قاسية غليظة.وسألتني "ألبيرتين":"هذا البربريّ ما اسمه؟ لست أدري لماذا يحييني وهو لا يعرفني.ولذلك لم أردّ له تحيّته."ولم يتسع لي الوقت لأجيب "ألبيرتين"إذ قال وهو يتجه مباشرة إلينا :"أستميحك عذراً لمقاطعتك ولكنيّ أردت أن أنبّهك إلى أنيّ ذاهب غداً إلى "دونسيير".لست أستطيع الانتظار من بعد دون إخلال بالأدب، وأتساءل ما عسى "سان لو آن بريه"يظنّ بي.وإني أنبّهك إلى أنّي سأستقل قطار الساعة الثانية، وأنا رهن إشارتك." ولكنيّ لم أعد أفكّر إلاّ في لقاء "ألبيرتين" ومحاولة التعرّف بصديقاتها، "ودونسيير" كانت تبدو لي في أقاصي العالم بما أنهّن لايذهبن إليها وربمّا جعلتني أعود بعد الساعة التي يذهبن فيها إلى الشاطئ.وقلت لِـ"بلوك"إنّ الأمر يستحيل عليّ."حسن، سأذهب وحدي.وسأقول لِـ"سان لو"، حسبما ورد في البيتين المضحكين الذين كتبهما السيّد "آروييه" (*)، وذلك بغية إبهاج نزعته الإكليروسية:

"اعلم أنّ واجبي لا يرتبط بواجبه

فليخلف به إن شاء، أمّا أنا فينبغي أن أؤدّيه"

وقالت لي "ألبيرتين" :

-"أعترفُ أنّه شابّ جميل نوعاً ما، ولكن كم يثير قرفي !"

لم أفكرّ في يوم أنه يمكن لِـ"بلوك"أن يكون شاباً وسيماً، وقد كانه بالحقيقة.فقد كان له وجه محبّب، إلى جانب رأس على شيء من البروز وأنف شديد العقفة ومظهر بالغ اللطافة واقتناع بلطافته.ولكنّه ما كان يستطيع أن يروق "ألبيرتين".وربمّا كان ذلك على أيّة حال بسبب الجوانب السيئّة لدى هذه الأخيرة، بسبب قسوة المجموعة الصغيرة وقلّة إحساسها وفظاظتها مع كلّ ما كان سواها.وحينما قمت فيما بعد بالتعارف بينهما لم يتناقص نفور "ألبيرتين".كان "بلوك" ينتمي إلى وسط جعلوا فيه بين الهزء من العالم الراقي والاحترام الكافي الذي لابدّ مع ذلك أن يبديه رجل

(*) Arouet اسم "فولتير" الحقيقي.

"نظيف اليدين" تجاه السلوك اللائق نوعاً من الحلّ الوسط الخاصّ يختلف عن سلوك المجتمع الراقي وهو مع ذلك نوع من السلوك الاجتماعي ينفرد ببشاعته فحينما كانوا يقدّمونه كان ينحني بابتسامة يداخلها الارتياب والاحترام المفرط في الآن نفسه ويقول إن تعلق الأمر برجل:"أنا في غاية الغبطة يا سيّدي" بصوت يهزأ من الكلمات التي يتفوّه بها ولكنّه يعي أنّه لرجل لا يتّسم بالفظاظة.وما إن تنقضي هذه الثانية الأولى التي يكرّسها لعرف كان يتّبعه ويهزأ منه في الآن نفسه (على نحو ما كان يقول في الأول من كانون الثاني: "أتمنىّ لك فيها الخير والسعادة") حتىّ يتّخذ هيئة رقيقة ماكرة و"يتفوّه بأشياء حاذقة" كانت في الغالب تفيض حقيقة ولكنّها "تستثير أعصاب" ألبيرتين.وحينما قلت لها في ذلك اليوم الأوّل إنّه يدعى "بلوك" صاحت قائلة :"كنت أراهن أنه يهوديّ، فتلك طريقتهم في الملازمة والترامي."كان "بلوك" على أيّة حال سوف يثير سخط "ألبيرتين"فيما بعد بطريقة أخرى، فقد كان شأن العديد من المثقفين لايستطيع أن يقول الأمور البسيطة ببساطة، وإذ يجد لكل منها نعتاً يتّسم بالحذلقة ثم يبادر إلى التعميم.وكان ذلك يزعج "ألبيرتين"التي لا تحبّ كثيراً أن يهتمّ الناس بما تفعل، وأن يقول "بلوك"بعد ما لوت قدمها ولزمت الهدوء: "إنهّا على مقعدها الطويل ولكنّها لا تكفّ، بداعي تعدّد الحضور، عن أن ترتاد في الآن نفسه ملاعب غولف غامضة وملاعب كرة مضرب عاديّة." كان ذلك محض "كلام مرصوف"ولكنّه ربمّا كان كافياً، بسبب الصعوبات التي تحسّ "ألبيرتين"أنّ الأمر يمكن أن يجلبها لها مع أناس سبق لها أن رفضت دعوتهم بقولها إنهّا لا تستطيع الحركة، كيما تنفر فجأة من سحنة الشاب الذي كان يقول تلك الأمور ومن رنّة صوته.

وافترقنا أنا و "ألبيرتين" وقد تواعدنا على الخروج مرّة معاً لقد تحدّثت إليها دون أن أدري أين تسقط أقوالي وما تنقلب إليه أكثر مما يتفق لي ذلك لو ألقيت حصى في هاوية لا قرارة لها.فأمّا أن يتمّ ملؤها بعامّة على يد الشخص الذي نوجّهها إليه بمعنى يستخلصه من جوهره الخاصّ وهو شديد الاختلاف عن ذاك الذي ضمّنّاه تلك الأقوال نفسها فأمر تكشفه لنا الحياة اليومية باستمرار.فإن اتّفق إلى ذلك أن نكون بجانب شخص تربيته مستعصية علينا(كتربية "ألبيرتين" بالنسبة إليّ) ومجهولة ميوله وقراءاته ومبادئه، فلسنا ندري إن كانت أقوالنا توقظ في نفسه ما يشبهها أكثر ممّا تفعل لدى حيوان قد يقع علينا مع ذلك أن نفهمه بعض الأمور، حتى لتبدو لي محاولة ارتباطي بصداقة "ألبيرتين"كمثل اتّصال بالمجهول إن لم نقل بالمستحيل، وكمثل تمرين صعب صعوبة ترويض حصان، ممتع إمتاع تربية النحل أو زراعة شجيرات الورد.

لقد سبق أن ظننت لساعات خلت أنّ "ألبيرتين"لن تردّ على تحيّتي إلاّ من بعيد، فإذا بنا نفترق منذ قليل وقد عزمنا على رحلة نقوم بها معاً.وقرّرت أن أكون أكثر جرأة مع "ألبيرتين" حينما ألتقي بها ورسمت لنفسي سلفاً خطة كلّ ما سوف أقوله لها وحتىّ كلّ المتع التي سوف أطلبها منها (الآن وقد تولد لديّ الانطباع التامّ بأنهّا لا بدّ من النمط اللعوب).ولكنّ الفكر يتأثّر كالنبات، كالخليّة كالعناصر الكيميائيّة، وأمّا الوسط الذي يبدّله إن غُمس فيه فظروف وإطار جديد.فحينما وجدتني ثانية بصحبة "ألبيرتين"قلت لها، وقد أضحيت مختلفاً من جرّاء حضورها ذاته، غير ما سبق أن رسمت.ثم تساءلت وقد تذكرت الصدغ الملتهب، إن كانت "ألبيرتين"لن تقدّر أكثر من ذلك

تلطّفاً تعلم أنه خالي الغرض. وكنت أخيراً أحسّ بالحيرة إزاء بعض نظراتها وابتساماتها.فقد كان يمكن أن تدلّ على خفة في الأخلاق وكذلك على مرح يشوبه شيء من البلاهة لدى فتاة تستهويك حيويّتها ولكنّها تملك أساساً من الاستقامة.ولما كان التعبير نفسه يمكن أن يحتمل معاني مختلفة في الوجه كما في اللغة فقد كنت حائراً كتلميذ إزاء صعوبات ترجمة عن اليونانية.

والتقينا في الحال تقريباً في تلك المرّة "آندريه"الطويلة القامة، تلك التي سبق أن قفزت من فوق رئيس المحكمة الأول.واضطرّت "ألبيرتين" أن تعرّفني بها.وكان لصديقتها عينان فاتحتان إلى حدّ مدهش مثلما هو المدخل في شقّة ظليلة من الباب المفتوح إلى غرفة يتخللها ضياء الشمس وانعكاس خضرة البحر الذي يغمره النور.

ومرّ خمسة رجال كنت أعرفهم أتمّ المعرفة بالوجه منذ إقامتي في "بالبيك".وكثيراً ما تساءلت من يكونون.وقالت لي "ألبيرتين"في قهقهة يلوّنها الازدراء:

"ليسوا جماعة على قسط كبير من اللطف.أما العجوز القصير القامة المخضّب الشعر الذي يضع قفّازين أصفرين فإنّ عليه مسحة خاصة وهو حسن الهيئة، ألا ترى:إنه طبيب الأسنان في "بالبيك".وأمّا السمين فهو المختار، لا ذاك السمين الشديد القصر فلا بدّ أنّك رأيت هذا الأخير، إنّه أستاذ الرقص وهو كذلك على شيء من القبح ولا يطيق احتمالنا لأننّا نثير الكثير من الضجيج في المقصف ونقضي على مقاعده ونبغي الرقص دون سجّادة ولم يمنحنا لذلك الجائزة ألبتّة مع أنّه ليس من يحسن الرقص سوانا. إنّ طبيب الأسنان رجل طيّب القلب ولعلّني كنت حييته لأثير سخط أستاذ الرقص، ولكنّني ما كنت أستطيع لأنّ معهم السيد "دوسانت كروا" المستشار العام وهو رجل من عائلة كريمة جداً انحاز إلى جانب الجمهوريّين لقاء مال.ولم يعد يلقي عليه التحيّة أيّ شخص نظيف اليد.إنه يعرف عمّي بسبب الحكومة ولكنّ بقية الأسرة أولته ظهرها.أمّا الهزيل الذي يرتدي مشمعا فقائد الفرقة الموسيقية. ويحك، كيف لاتعرفه ! إنّه يعزف أروع العزف.ألم تذهب لسماع "خيّالة الريف"؟ آه! إنّي أجد ذلك رائعاً ! إنّه يقدّم حفلة عزف هذا المساء ولكننّا لانستطيع الذهاب إليها لأنها تقام في قاعة دار البلديّة.لا بأس علينا في المقصف، أمّا في دار البلديّة التي نزعوا منها المسيح فسوف تصاب والدة "أندريه" بالسكتة إن ذهبنا إليها.ستقول لي إنّ زوج خالتي في الحكومة.ولكن ما عساك تريد؟ إن خالتي تظلّ خالتي.ولكنيّ ما من أجل ذلك أحبها! فلم تراودها ألبتّة سوى رغبة واحدة :أن تتخلّص منيّ.أمّا المرأة التي كانت حقّا بمثابة والدتي والتي كانت مزدوجة الفضل بما أنها لا تمثّل شيئاً بالنسبة إليّ فصديقة أحبّها على أيّة حال بمثابة أمّ، وسوف أريك صورتها." واستحوذ على انتباهنا لحظة "أوكتاف" بطل الغولف ولاعب البكارا.وظننت أنيّ اكتشفت رابطة قربى بيننا لأننيّ علمت في أثناء الحديث أنّه على قرابة بآل "فيردوران"وأنهم إلى ذلك يكنّون له بعض الحبّ.ولكنّه روى بازدراء عن أيّام الأربعاء المشهورة وأضاف أنّ السيّد "فيردوران" يجهل استعمال السموكن الأمر الذي يجعل لقاءه مزعجاً في بعض المسارح الغنائيّة حيث تفضّل إلى حدّ بعيد ألاّ يسمع صيحة: "مرحباً يا فتى" يطلقها سيّد يرتدي سترة وربطة عنق

يرتديهما كانت عدل في قرية.ثمّ فارقنا "أوكتاف"، وبعد قليل جاء دور "آندريه" التي وصلت أمام دارتها حيث دخلت دون أن تكون قالت لي كلمة واحدة طوال المشوار بكامله.وزاد من أسفي لذهابها أن مرّت، فيما كنت ألفت انتباه "ألبيرتين" إلى أيّ حدّ بدت صديقتها جافّة معي وأقارب بين الصعوبة في حدّ ذاتها التي يبدو أنّ "ألبيرتين" تعاني منها في إفساح المجال لي لمصادقة رفيقاتها والعداء الذي بدا أن "إيلستير"اصطدم به في اليوم الأوّل، وذلك كيما تستجاب أمنيتي، مرّت فتيات حيّيتهنّ وهنّ الآنسات "دامبر وساك"، وقد حيّتهنّ "ألبيرتين" بدورها.

وظننت أنّ وضعي إزاء "ألبيرتين"سوف يتحسّن بذلك.لقد كنّ بنات إحدى قريبات السيّدة "دوفيلباريزيس" وكانت تعرف بدورها السيّدة "دولوكسمبور".كان السيّد "دامبروساك" وعقيلته يملكان دارة صغيرة في "بالبيك"وكانا يعيشان حياة من أكثرها بساطة.وهما فاحشا الثراء، ويرتديان على الدوام السترة نفسها بالنسبة إلى الزوج وفسطاناً عاتماً بالنسبة إلى الزوجة.وكان كلاهما يؤدّيان لجدّتي تحيّات واسعة لاتفضي إلى شيء.أمّا البنات، وهنّ في غاية الجمال، فكانت ملابسهن أكثر أناقة، ولكنّها أناقة المدينة لا الشاطىء.كان يبدو عليهنّ، بفساطينهنّ الطويلة وقبّعاتهنّ الواسعة، وكأنهنّ ينتمين إلى صنف بشري يغاير صنف "ألبيرتين".وكانت هذه الأخيرة تعلم تمام العلم من هنّ."آه ! إنك تعرف بنات "دامبروساك" الصغيرات؟ فأنت تعرف جماعة في غاية الأناقة." وأضافت كما لو كان في الأمر تناقض: "وهم على أيّة حال في غاية البساطة.إنهنّ لطيفات جدّاً ولكنّما أُحسن تهذيبهنّ إلى حدّ أنّه لا يُسمح لهنّ بالذهاب إلى المقصف ولاسيّما بسببنا، لأنّ تصرّفنا لا يروق ألبتّة في المجتمع.هل يعجبنك؟ بالطبع، المسألة مسألة ذوق.إنهن بالضبط صنف الفتيات البريئات، وربمّا كان للأمر سحره الخاص، فإن كنت تحبّ الفتيات الصغيرات البريئات فإنّ لك ما تشتهي. والظاهر أنّ بوسعهنّ إثارة الإعجاب بما أن إحداهن مخطوبة للمركيز "دوسان لو". وقد أورث الأمر الصغرى غمّاً كثيراً إذ كانت مولعة بذلك الشابّ. أمّا أنا فإنمّا يثير أعصابي محض طريقتهم في التحدّث من طرف الشفتين.ثمّ إنهن يتزيّنّ بأزياء مضحكة، فيذهبن إلى الغولف بفساطين من حرير.إنّهن يتأنّقن في ملبسهنّ بتصنع يفوق ما يتّفق لنسوة مسنّات أتقنّ فنّ اللباس.هاك السيّدة "إيلستير"، فتلك امرأة أنيقة."فأجبت أنّها بدت لي شديدة البساطة في ملبسها.فأخذت "ألبيرتين" في الضحك."إنّها ترتدي ملابس في غاية البساطة بالفعل ولكنّها تلبس بطريقة رائعة وهي تنفق إنفاقاً عظيماً كي تصل إلى ما ترى أنّه من البساطة."كانت أثواب السيّدة "إيلستير" لاتسترعي انتباه من لا يملك الذوق السليم والمعتدل في أمور الملبس، وكان يعوزني. أمّا "إيلستير" فكان يملكه إلى أقصى درجاته حسبما قالت لي "ألبيرتين". ولم أكن ارتبت بالأمر ولا بأن الأشياء الأنيقة والبسيطة التي تملأ مرسمه كانت روائع طالما اشتهاها ولاحقها من صفقة إلى أخرى فأحاط بكامل تاريخها إلى اليوم الذي كسب فيه ما يكفي من المال ليتمكّن من امتلاكها.ولكنّ "ألبيرتين"، وهي في مثل جهلي بهذا الشأن، لم تكن تستطيع أن تعلّمني شيئاً.أمّا بشأن الملابس، وقد بصّرتها بذلك غريزة الفتاة المغناجة وربمّا أسف

(*) Cavalleria Rusticana أوبرا غنائية من أعمال المؤلف "ماسكانيي (Mascagni)

الفتاة الفقيرة التي تتذوّق بمزيد من التجرد والرقّة لدى الأغنياء مالا يسعها أن تتزيّن به، فقد عرفتْ كيف تحدّثني أحسن الحديث عن تأنّق "إيلستير"، وهو متشدّد إلى حدّ أنّه كان يجد أيّة امرأة رديئة الملبس وكان إذ يضع دنيا بأسرها في علاقة تَنَاسُبٍ وفي فوارق طفيفة يوصي لامرأته بأثمان باهظة على شمسيّات وقبّعات ومعاطف علّم "ألبيرتين" كيف تجدها ساحرة وما كان لشخص يعوزه الذوق أن ينتبه لها أكثر ممّا فعلت أنا.وكانت "ألبيرتين"التي انصرفت قليلاً إلى الرسم دون أن يتجمّع لديها على أيّة حال، حسبما تقر به، أي "استعداد"، كانت تحس بإعجاب كبير تجاه "إيلستير" وقد أصبحت بفضل ما قاله لها وأراها إيّاه خبيرة باللوحات على نحو يناقض إلى حدّ بعيد تحمّسها لِـ"خيّالة الريف".ذلك أنّها كانت بالحقيقة شديدة الذكاء، مع أنّ الأمر يكاد لا يُلاحظ بعد، وأنّ الغباء في الأمور التي تقولها لم يكن غباءها، بل غباء وسطها وسنّها.لقد أثّر "إيلستير"فيها تأثيراً خيّراً ولكنّه جزئي.ولم تكن جميع صيغ العقل قد بلغت لدى "ألبيرتين" درجة النمو نفسها، فقد كان ذوقها في الرسم قد لحق تقريباً بذوقها في أمور الملبس والزينة وجميع أشكال الأناقة ولكنّما لم يلحق به ذوقها في الموسيقى الذي ظلّ بعيداً إلى الوراء.

وعبثاً كانت "ألبيرتين" تعرف من كانت الآنسات "أمبروساك"، ولما كان من يستطيع الكثير لايستطيع بالضرورة القليل، فإني لم أجدها بعدما حيّيت تلك الفتيات أكثر استعداداً لأن تعرّفني بصديقاتها."أنت شديد الطيبة في إيلائهن هذه الأهميّة.لا تعرهنّ انتباهك، فَلَسْنَ على شيء.وماذا يمكن أن تمثّل تلك الصبّيات الصغيرات في نظر رجل بمثل قدرك؟ إنّ "آندريه" على الأقلّ مرموقة الذكاء.إنّها بنيّة طيبّة مع أنّها غريبة الأطوار على أكمل وجه، أما الأخريات فهنّ حقاً حمقاوات." وبعدما فارقت "ألبيرتين" انتابني فجأة غمّ كبير أن أخفى "سان لو" عليّ خطوبته وأن اقترف أمراً سيئاً سوء أن يتزوّج دون أن يكون قطع صلاته بعشيقته.بيد أنّه تمّ تقديمي لِـ"آندريه" بعد بضعة أيّام ولمّا تحدّثتْ فترة طويلة إلى حدّ ما فقد اغتنمت الفرصة لأقول لها إنّني أودّ لقاءها في الغد، ولكنها أجابتني أن الأمر مستحيل لأنّها لقيت والدتها في حالة سيّئة بعض الشيء ولا تودّ أن تدعها وحدها.ولمّا ذهبت بعد يومين لزيارة "إيلستير" حدّثني عن المودّة الكبيرة التي تكنّها لي "آندريه".وإذ أجبته قائلاً :"ولكنّي أنا الذي يكنّ لها الكثير من المودة منذ اليوم الأوّل وقد طلبت إليها أن ألقاها مجدداً في الغد ولكنّها ما كانت تستطيع. "فقال لي "إيلستير" :"أجل، إنّي أعرف ذلك فقد روت لي عنه، وقد أسفتْ للأمر، إلاّ أنّها سبق أن قبلت دعوة إلى غداء في الهواء الطلق على عشرة فراسخ من هنا وكان ينبغي أن تذهب إلى المكان في عربة عامّة ولم يسعها من بعد أن تعتذر." ومع أنّ الكذبة كانت غير ذات بال، بما أنّ "آندريه"على معرفة قليلة بي، فما كان يجدر بي أن أستمرّ في التردّد على شخص قادر على مثلها.فإنّما يكرّر الناس إلى مالا نهاية ما قد فعلوه.فإن ذهبتَ في كلّ عام لزيارة صديق لم يستطع المرّات الأولى أن يجيء إلى الموعد الذي حدّدته أو هو أصيب بالزكام فسوف تعود فتلقاه مصاباً بزكام آخر ولن تجده في موعد آخر لم يجئ إليه لسبب واحد دائم يظنّ أنّه يرى مكانه أسباباً مختلفة يستخلصها من الظروف.

وفي صباح أحد الأيّام التي تلت الصباح الذي قالت لي فيه "آندريه" إنّها مضطرّة أن تبقى إلى جانب والدتها كنت أسير بضع خطوات مع "ألبيرتين" التي رأيتها ترفع في طرف حبل صغير شعاراً

غريباً كان يجعلها شبيهة بلوحة "عبادة الأصنام" من أعمال "جوتّو". وإنّما يدعونه على أيّة حال "ديابولو"[1]، وقد أدركه العناء إلى حدّ أنّ المعلّقين في المستقبل سوف يمكنهم التحدّث، أمام رسم فتاة تمسك بواحد منها، وكأنّما أمام هذه الصورة الرمزيّة في "الأرينا"[2]، حول ما تمسك به بيدها. وبعد لحظة جاءت صديقتهنّ ذات المظهر الفقير التي قهقهت في اليوم الأول تقول بلهجة شديدة القسوة: "إنّه يثير شفقتي هذا العجوز المسكين" وهي تتحدث عن السيّد العجوز الذي لامسته قدما "آندريه" الخفيفتان، جاءت تقول لِـ"ألبيرتين": "مرحبا، تراني أزعجكما؟ " وكانت قد خلعت قبّعتها التي كانت تزعجها فإذا شعرها ينسدل على جبينها كمثل نوع نباتي رائع ومجهول في دقّة أوراقه ونعومتها. ولم تجب "ألبيرتين" بشيء وربّما أثار سخطها أن تراها حاسرة الرأس، وصمتت صمتاً شديد البرودة لم تبرح الأخرى مكانها على الرغم منه وقد ظلت على مسافة منّي من جرّاء "ألبيرتين" التي كانت تتدبّر أمرها أحياناً لتبقى وحدها ومعها وأحياناً لتسير معي فيما تتركها وراءنا. واضطررت كيما تقدّمني أن أسألها ذلك في حضرة الأخرى. حينئذ رأيت في اللحظة التي ذكرتْ فيها اسمي على وجه تلك الفتاة وفي عينيها الزرقاوين، وكنت قد وجدت لها هيئة شديدة القسوة حينما قالت "هذا العجوز المسكين، إنّه يثير شفقتي"، رأيت ابتسامة تمرّ وتشرق قلبيّة محبّة، ومدّت لي يدها. كان شعرها مذهباً ولم يكن وحده كذلك، فلئن كانت وجنتاها مورّدتين وعيناها زرقاوين فإنّما كالسماء التي لاتزال تغمرها حمرة الصباح الأرجوانية ويلوح العسجد فيها في كل مكان ويشرق.

وتحمّست في الحال وقلت في نفسي إنّها طفلة خجول آن تحبّ، وإنّها ظلّت معنا من أجلي ومن جراء حبّها لي على الرغم من صنوف جفاء "ألبيرتين" وإنّها لابدّ أسعدها أن تستطيع البوح أخيراً بتلك النظرة المشرقة الطيّبة أنّها سوف تكون رقيقة معي بقدر قسوتها إزاء الآخرين. وليس من شكّ أنّها لاحظتني على الشاطئ حتى حينما كنت لا أعرفها بعد وفكّرت فيّ مذ ذاك، وربّما سخرت من الرجل العجوز كيما تثير إعجابي بها وكانت متجهمة الوجه في الأيّام التالية لأنّها لم تفلح في التعرّف بي. لقد سبق أن لمحتها من الفندق تتنزّه في المساء على الشاطئ، والأرجح أنّها كانت تفعل بأمل أن تلتقي بي. ولم تكن الآن تلازم خطانا، وقد ضايقها وجود "ألبيرتين" وحده بقدر ما يتمّ لها من جرّاء وجود كامل المجموعة الصغيرة على الرغم من موقف صديقتها المتعاظم جفاء، إلاّ بأمل أن تظلّ الأخيرة وأن تضرب لي موعداً في حينٍ تتوافر لها فيه وسيلة الهرب دون أن تعلم أسرتها وصديقاتها بالأمر وتحديد موعد في مكان أمين قبل القدّاس أو بعد الغولف. وكان يزيد من صعوبة لقائها أنّ "آندريه" كانت على علاقة سيّئة بها وكانت تكرهها. وقالت لي: "لقد احتملت طويلاً زيفها الفظيع وسفالتها والوساخات التي لاتحصى التي اقترفتها بحقّي. لقد احتملت كلّ شيء بسبب

---

(١) نوع من الألعاب مؤلف من بكرة على هيئة مخروطين متصلي القمة تقذف إلى أعلى بوساطة حبل مشدود إلى خشبتين . وتستعاد بعد قذفها.

(٢) L'Arena كنيسة صغيرة شهيرة في مدينة بادوفا تزينها رسوم جدارية من أعمال الرسام الإيطالي (جوتو" (Giotto).

الأخريات.ولكنّ السهم الأخير طفح به الكيل." وروت لي عن ثرثرة قامت بها تلك الفتاة وكان يمكن بالفعل أن تسيء إلى "آندريه".

بيد أنّ الأقوال التي وعدتني بها نظرة "جيزيل" للّحظة التي تتركنا فيها "ألبيرتين" معاً لم يتم لها أن تُقال، لأنّ "ألبيرتين" التي اتخذت مكانها بإصرار فيما بيننا تابعت الإجابة باقتضاب متزايد عن أقوال صديقتها ثم توقّفت نهائياً ممّا حمل هذه الأخيرة في النهاية على هجر المكان.وأنحيت باللائمة على "ألبيرتين" لأنّها كانت مزعجة إلى هذا الحدّ. "سوف يعلّمها ذلك أن تكون أكثر تحفظاً.ليست فتاة سيّئة ولكنّها مبرمة.وإنّه لا حاجة بها أن تدسّ أنفها أينما كان.فلماذا تلازمنا دون أن يُطلب منها ذلك؟ لقد كنت على وشك أن أطردها.وإنّي أكره على أيّه حال أن تصفّف شعرها على هذا النحو فذلك يجعلها من الصنف المبتذل." كنت أنظر إلى وجنتي "ألبيرتين" فيما كانت تحدّثني وأسائل نفسي أي عطر وأي مذاق يمكن أن يتوافر لهما: لم تكن في ذلك اليوم نضرة البشرة بل كانت ناعمتها ومن لون ورديّ موحد ضارب إلى البنفسجي قشديّ المظهر شأن بعض الورود التي يكسوها طلاء شمعيّ.لقد كنت شغوفاً بهما شغف المرء أحياناً بنوع من الزهور.وأجبتها قائلاً: "لم ألاحظ ذلك من قبل."-"ولكنّك نظرت إليها بما فيه الكفاية، وكان يخيّل للمرء أنّك تنوي القيام برسمها"، تقول دون أن يهدّئ من فورتها أنّها هي التي كنت أنظر إليها ساعتها بإمعان. "ولست أحسب مع ذلك أنّها تروقك، فليست ألبتّة غرض مداعبة، ولا بدّ أنّك تحبّ فيما يخصك نوع الفتيات هذا.لن يتّسع لها من بعد على أيّة حال أن تلازم الناس وأن تُطرد لأنّها عائدة عمّا قليل إلى باريس."-"وهل تعود صديقاتك الأخريات معها؟ "-"لا، وحدها تعود فقط، هي ومربّيتها لأنّ عليها أن تعيد امتحاناتها.إنها ذاهبة للدراسة تلك الصبيّة المسكينة.وليس الأمر مفرحاً بالتأكيد فيمكن أن يتّفق أن تقع على موضوع سهل، إذ الصدفة واسعة جدّاً.من ذلك أن إحدى صديقاتنا طرح عليها الموضوع التالي:"اروي عن حادث شهدته". ذلك حظّ كبير.ولكنّي أعرف فتاة كان عليها أن تعالج (كتابياً علاوة على ذلك):"من تفضّلين أن تتّخذيه صديقاً، "السيست"أم "فيلانت"؟لكم كانت تربكني الإجابة عنه ! ما ذلك بادئ الأمر، وبصرف النظر عن كلّ شيء، سؤال يطرح على فتيات.فالفتيات يصادقن فتيات أخريات ولايعقل أن يتّخذن رجالاً بمثابة أصدقاء.(وبعثت تلك الجملة الرعدة في نفسي إذ برهنت لي أن حظّي كان قليلاً بالقبول في صفوف المجموعة الصغيرة.) ولكن ما عساك تستطيع أن تقول في هذا الموضوع حتى لو طرح السؤال على الشبّان؟ لقد كتبت عدّة أسر لصحيفة "الغالي" شاكية صعوبة مثل هذه الأسئلة. والأنكى أنّ الموضوع عولج مرتين على نحو مناقض تماماً وذلك في مجموعة من خيرة وظائف الطلاّب الفائزين.الكلّ رهن بالفاحص.فقد كان أحدهم يودّ أن يُقال إنّ "فيلانت" رجل مجتمع مداهن ومنافق، وآخر إنّه لايمكن إلا أن تعجب بـ"السيست" إلاّ أنّه مشاكس إلى حدّ بعيد ولا بدّ من تفضيل "فيلانت" عليه على صعيد الصداقة.فكيف تريد ألاّ يتيه الطلاّب إن كان الأساتذة على خلاف فيما بينهم؟ والأمر لا يزال هيّناً.ففي كلّ عام تتزايد الصعوبة.وقد لاتستطيع "جيزيل" تجاوز الورطة إلاّ بدعم قويّ.".

وعدت إلى الفندق ولم تكن جدّتي هناك، فانتظرتها طويلاً.وحينما عادت أخيراً توسّلت إليها أن تسمح لي بالقيام ضمن شروط تفوق كلّ توقع برحلة ربمّا دامت ثماني وأربعين ساعة، وتناولت طعام الغداء معها وأوصيت على عربة وأمرت بنقلي إلى المحطّة.لن تدهش "جيزيل" أن تراني هناك.وبعدما نبدّل القطار في "دو نسيير" فإن في قطار باريس "عربة ممرّاً" أستطيع أن أصطحب "جيزيل"فيها، فيما تغفي مربّيتها، إلى زوايا مظلمة وأن أضرب لها موعداً بشأن عودتي إلى باريس أحاول أن أقرّبه ما أمكن التقريب.ثم أرافقها، حسبما تعرب لي عن رغبتها، حتىّ "كان" أو حتى "إيفرو" وأستقلّ القطار التالي. ومع ذلك ما عساها كانت تظنّ لو علمت أنني تردّدت طويلاً بينها وبين صديقاتها وأنني وددت أن أظفر بحبّها وحبّ "ألبيرتين" والفتاة ذات العينين الفاتحتين و "روز موند"سواء بسواء ! بتبكيت الضمير، لذلك وقد أوشك أن يجمعني الآن بـ"جيزيل" حبّ متبادل.كنت أستطيع أن أؤكّد لها على أية حال بمنتهى الصدق أن "ألبيرتين" لم تعد تروقني.فقد رأيتها تبتعد في هذا الصباح لتتحدّث إلى "جيزيل"وهي توليني ظهرها تقريباً.كان شعرها الذي يبدو مختلفاً من الخلف وأشدّ سواداً يلتمع، كما لو غادرت الماء منذ قليل، فوق رأسها الذي تحنيه في حرد.وذهب بي التفكير إلى شخص رعديد، وجعلني ذلك الشعر أجسّد في "ألبيرتين" روحاً أخرى تغاير ما فعل حتى ذاك وجهها البنفسجي ونظرتها المفعمة بالأسرار.كان شعرها الملتمع خلف رأسها كلّ ما استطعت أن ألمحه منها في لحظة واحدة وهو وحده الذي ما زلت أراه.وإنّما تشبه ذاكرتنا تلك المخازن التي تعرض في واجهتها لشخص معيّن هذه الصورة مرة وتلك مرة أخرى.وتظلّ أحدثها بالعادة وحدها في مكان بارز بعض الوقت.كنت أصغي فيما يستحثّ الحوذيّ حصانه إلى كلمات الامتنان والحنان التي تقولها لي "جيزيل" وقد انبثقت جميعها من ابتسامتها الحلوة ويدها الممدودة، : ذلك أنني في فترات حياتي التي لم أكن فيها عاشقاً وأرغب في أن أكونه لم أحمل في نفسي فقط مثلاً أعلى في الجمال الجسماني رأينا أني كنت أتعرّفه من بعيد في كلّ عابرة سبيل كافية البعد حتى لا تتعارض ملامحها الغائمة مع تلك المماثلة، بل أحمل أيضاً الطيف النفسي-وهو دائم الأهبة للتجسّد-للمرأة التي ستقع في غرامي والتي ستكون النسخة المطابقة في التمثيليّة الغرامية التي سطّرتها كلّها في ذهني منذ طفولتي والتي تبدو كل فتاة محبّبة راغبة الرغبة نفسها في تمثيلها بشرط أن تتمتّع إلى ذلك بالمواصفات الجسمانية لتلك الوظيفة.وكان سيناريو تلك التمثيلية وحوادثها ونصّها نفسه، كانت كلها تحتفظ بصيغة لاتتبدّل أيّة كانت النجمة الجديدة التي أرشّحها للاضطلاع بالدور لأوّل مرّة أو لإعادته.

وبعد بضعة أيّام على الرغم من الحماسة الزهيدة التي أبدتها "ألبيرتين" في تقديمنا كنت أعرف مجموعة اليوم الأوّل الصغيرة بأسرها، وقد بقيت بكامل أعضائها في "بالبيك" (فيما عدا "جيزيل" التي لم أستطع، من جرّاء وقفة مطوّلة أمام سور المحطّة وتبدّل في مواعيد القطارات، أن ألحق بها في القطار، وقد انطلق خمس دقائق قبل وصولي، والتي لم أعد أفكرّ فيها على أيّ حال)بالاضافة إلى اثنتين أو ثلاث من صديقاتهنّ عرّفنني بهنّ بناء على طلبي.ولمّا كان أمل المتعة التي قد ألقاها لدى فتاة جديدة إنّما يأتيني من فتاة أخرى عرفتها بطريقها، فقد كانت أقربهنّ عهداً تبدو إذ ذاك كواحد

من أنواع الورود تلك التي نحصل عليها بفضل وردة من نوع آخر.وإذ كنت أنتقل من تويج إلى آخر في سلسلة الأزهار هذه، فقد كانت متعة التعرّف إلى أخرى مختلفة تردّني إلى تلك التي كنت مديناً بها لها بامتنان يداخله قدر من الشوق يماثل أملي الجديد.وبعد قليل أخذت أقضي كامل ساعات النهار برفقة تلك الفتيات.

بيد أنّنا نستطيع، وا أسفي، أن نميّز في الزهرة الغضّة كأكثر ما تكون النقاط الخفيّة التي ترسم مذ ذاك في نظر الشخص المطلّع ما سوف يكون، من جرّاء جفاف أو إثمار اللبّ المزهر اليوم، الشكل الثابت والمقدر مذ ذاك للبذرة.وإنّك لتتابع بابتهاج أنفاً شبيهاً بموجة صغيرة ينتفخ بها ماء الصباح الباكر انتفاخاً لذيذاً وتبدو جامدة يمكن رسمها لأنّ البحر ساكن إلى حدّ لا تبصر معه تيّار الموج.والوجوه البشريّة تبدو وكأنها لاتتغيّر آن تنظر إليها لأن الدورة التي تقوم بها أشدّ بطئاً من أن نلاحظها.بيد أنّه كان كافياً أن تبصر إلى جانب تلك الفتيات أمّهنّ أو عمّتهنّ لتقيس المسافات التي تكون تلك القسمات، بتأثير جاذبيّة داخلية يمارسها أنموذج شنيع بوجه عام، قد اجتازتها في أقل من ثلاثين عاماً حتّى ساعة تضاؤل الأنظار وتلك التي لا يوافي فيها الوجه نور من بعد وقد غاص بكامله تحت خطّ الأفق.كنت أعلم أنّه إنّما يقيم، في مثل عمق وحتميّة الوطنيّة اليهوديّة أو الطبائع الوراثية المسيحيّة لدى أولئك الذين يظنّون أنّهم الأكثر تحرّراً من عرقهم، خلف ازهرار بشرة "ألبيرتين" و"روزموند" وأندريه" الموردة أنف ضخم يجهلنه، وقد ادُّخِر للظروف، وفم بارز وكرش ربّما أثار الدهشة ولكنّه ينتظر في الواقع خلف الستار وهو على استعداد للدخول إلى المسرح حتمياً غير متوقّع، تماماً مثل النزعة الدريفوسيّة(*) الإكليروسيّة أو هذه البطولة الوطنيّة والإقطاعيّة التي تنبثق فجأة، حينما تقضي الظروف، من طبيعة سابقة للفرد نفسه يفكّر فيها ويحيا ويتطوّر ويتقوّى أو يموت دون أن يمكنه تمييزها عن الدوافع الخاصّة التي يضعها موضعها.وإنّما نرتبط حتّى ذهنيّاً بالقوانين الطبيعيّة أكثر ممّا نظنّ بكثير ويمتلك فكرنا سلفاً، كمثل تلك الخفيّات الإلقاح وكمثل تلك النجيليات، الخصائص التي نحسب أنّنا ننتقيها.ولكنّنا لا ندرك سوى الأفكار الثانويّة دون أن نبصر العلّة الأولى(كالجنس اليهودي والأسرة الفرنسيّة، الخ) التي أنتجتها بالضرورة والتي نبرزها في اللحظة المناسبة.وفيما تبدو لنا بعضها على أنّها نتيجة تفكير مدروس والأخرى على أنها ناجمة عن إهمال في شؤون نظافتنا، ربّما أخذنا عن أسرتنا، مثلما تأخذ الفراشيّات شكل بذرتها، الأفكار التي نحيا بها والمرض الذي نموت به سواء بسواء.

لقد رأيتهنّ، وكأنّما في أغراس تنضج فيها الأزهار على فترات مختلفة، في صورة سيّدات مسنّات

على شاطئ "بالبيك"، رأيت تلك البذرات القاسية والعساقيل الرخوة التي سوف تنقلب إليها

(*) نسبة إلى Dreyfus وهوضابط يهودي فرنسي اتهم بتهريب معلومات إلى المخابرات الألمانية وظلت قضيته فترة طويلة الشغل الشاغل للرأي العام الفرنسي بين حامل عليه ومدافع عنه.

صديقاتي ذات يوم.ولكن ما همّ، وفي هذه الفترة فصل الأزهار؟لذلك كنت أبحث عن عذر كي لا أكون حراً حينما تدعوني السيّدة "دو فيلبا ريزيس" إلى نزهة.ولم أقم بزيارات لِ"إيلستير"فيما عدا تلك التي رافقتني فيها صديقاتي الجديدات.ولم يسعني حتّى أن أجد عصراً واحداً للذهاب إلى "دو نسيير" للقاء "سان لو" حسبما سبق أن وعدته به.ولعلّ اجتماعات الطبقة الراقية والمحادثات الجدية وحتّى الحديث الودّي، لعلّها إن هي حلّت محل نزهاتي مع هؤلاء الفتيات كانت تخلّف فيّ الأثر نفسه الذي يصيبنا لو صحبونا ساعة الغداء لا لتناول الطعام بل لإلقاء نظرة على مجموعة صور.فالرجال والشبّان والنساء المسنّات أو الناضجات ممّن نحسب أنّنا نأنس بصحبتهم إنّما يقيمون بالنسبة إلينا على محض مساحة مستوية لا كثافة لها لأنّنا لا نعيهم إلاّ بالإدراك البصريّ المقصور على نفسه.وإنّما يتّجه هذا الإدراك إلى الفتيات على أنّه مفوّض عن الحواسّ الأخرى، فتمضي هذه في البحث عن مختلف خصائص الشمّ واللمس والمذاق الواحدة تلو الأخرى وتتذوقها هكذا حتّى دونما لجوء إلى اليدين والشفتين، وتستطيع بفضل فنون تبديل المواقع موهبة التأليف بين الأمور التي تبرع فيها الرغبة أن تردّ إلينا خلف لون الوجنتين أو الصدر الملمس والمذاق والملامسات الممنوعة فتضفي على هؤلاء الفتيات الكثافة المعسولة نفسها التي تصنعها حينما تتنقّل بين أغراس الورود أو في كرم تلتهم عناقيده بعينيها.

وإن كان الطقس ماطراً، ومع أنّ الطقس الرديء ما كان يخيف "ألبيرتين" التي كنّا نراها أحياناً بمشمّعها تمرّ سريعة على درّاجتها تحت زخّات المطر، كنّا نمضي النهار في المقصف حيث كان يبدو لي من المستحيل ألاّ أذهب إليه في تلك الأيّام.وكنت أحسّ بأشدّ الازدراء تجاه الآنسات "دامبر وساك" اللواتي لم يدخلنه ألبتّة.ولم أكن أتردّد في مساعدة صديقاتي في تدبير الخدع لأستاذ الرقص.وكنا نتعرّض بوجه عام لبعض تعنيفات المدير أو المستخدمين الذين يغتصبون سلطة المدير لأنّ صديقاتي، وحتّى "آندريه" التي ظننتها لذلك في اليوم الأول مخلوقة شيطانية والتي كانت على العكس هشّة العود ومثقّفة وكثيرة الأوجاع في ذلك العام ولكنّها كانت على الرغم من ذلك أقلّ خضوعاً لحالتها الصحيّة منها لما فُطرت عليه هذه السنّ التي تجرف كلّ شيء وتخلط في جوّ من المرح بين المرضى والمعافين، لأنّهنّ ماكنّ يستطعن الذهاب من الردهة إلى قاعة الاحتفالات دون أن يجمعن قواهن ويقفزن فوق المقاعد ويعدن أدراجهنّ متزحلقات يحافظن على توازنهنّ بحركة رشيقة لليدين ويغنّين مازجات جميع الفنون في أوّل الشباب هذا، شأن شعراء العصور الأولى الذين لم تنفصل الفنون الأدبيّة بعد بالنسبة إليهم والذين يمزجون في قصيدة ملحمية الإرشادات الزراعية بالتعاليم اللاهوتيّة.

و"آندريه"هذه التي بدت لي أكثرهن جفاءً في اليوم الأوّل كانت أكثر رقّة بما لا يقاس وأكثر ودّاً وأوفر نعومة من "ألبيرتين" التي كانت تبدي لها الحنان الرقيق العذب الذي تبديه الشقيقة الكبرى.كانت تجيء إلى المقصف فتجلس إلى جانبي وتعرف-بعكس "ألبيرتين" كيف ترفض رقصة فالس، أو حتّى كيف تتخلّى، إن كنت متعباً، عن الذهاب إلى المقصف لتأتي إلى الفندق.كانت تعرب عن مودّتها لي ولِ"ألبيرتين" بلطائف عاطفيّة تبرهن عن أروع إدراك لأمور القلب لعلّه كان

ناجماً في جزء منه عن حالتها المرضيّة.وكانت تملك على الدوام ابتسامة مشرقة لتعذر ولدنة "ألبيرتين" التي كانت تعبرّ تعبيراً عنيفاً ساذجاً عن الإغراء الشديد الذي تحمله لها حفلات اللهو التي لا تعرف، شأن "أندريه"، أن تفضّل عليها دونما تردّد الحديث معي.

فحينما كانت تقترب ساعة الذهاب إلى عصرونية تُقدَّم في ملعب الغولف كانت تتأهّب إن كنّا كلنّا مجتمعين في ذلك الحين، ثم تُقبل على "آندريه":هيّا يا "آندريه" ما عساك تنتظرين للمجيء؟ تعلمين أنّنا ذاهبات لتناول العصرونية في ملعب الغولف." فتجيب "آندريه"وهي تشير إليّ:"لا، أظلّ للتحدث معه."-"ولكنّك تعلمين أنّ السيّدة "دوريو" قد دعتك"، تقول "ألبيرتين" صائحة كما لو لايمكن تفسير نيّة "آندريه"في البقاء معي إلاّ بالجهل الذي لا بدَّ هي فيه أنها مدعوّة." وتجيب "آندريه" قائلة:"هيّا لا تكوني بلهاء إلى هذا الحد يا صغيرتي".ولاتلحّ "ألبيرتين" مخافة أن يُعرض عليها البقاء بدورها.وتهزّ رأسها وتجيب قائلة: "افعلي ما يحلو لك"، مثلما نقول لمريض يتلذّذ بقتل نفسه شيئاً فشيئاً، "أمّا أنا فسأسرع إذ أظنّ أنّ ساعتك متأخّرة"، ثم تطلق ساقيها للريح."إنّها رائعة، ولكنّها غريبة الأطوار"، تقول "آندريه"وهي تغمر صديقتها بابتسامة تداعبها وتحكم بها عليها في الآن نفسه.ولئن تُبْدِ "ألبيرتين"في ميلها هذا إلى اللهو بعض ما أبدت "جيلبيرت" في الفترات الأولى فلأنّ بعض الشبه قائم، فيما هو يتطوّر، بين النساء اللواتي نحبهن على التوالي، ذلك الشبه الذي مردّه ثبات مزاجنا لأنّه هو الذي يختارهنّ، مستبعداً جميع اللواتي لا يكنّ مناقضات لنا ومكملات في الوقت نفسه، أي من شأنهنّ أن يشبعن حواسّنا ويعذّبن فؤادنا.وإنّ تلك النسوة لمن إنتاج مزاجنا، وصورة وارتسام بالمقلوب والنسخة السلبيّة عن إحساسنا.وهكذا قد يستطيع روائي أن يرسم في غضون حياة بطله ما تتالى من صنوف عشقه في صور متشابهة تقريباً وأن يولينا من جراء ذلك انطباعاً، لابأنّه يقلد نفسه، بل بأنّه يبتكر لأن ثمّة زخماً أقلّ في تجديد مصطنع ممّا في تكرار مُعَدّ للإيحاء بحقيقة جديدة.على أنّه يجدر به أن يسجّل في طبع المحبّ مؤشّر تحوّل يتّضح تدريجيّاً كلّما بلغ مناطق جديدة ومناخات أخرى في الحياة.وربّما عبّر كذلك عن حقيقة إضافية إن امتنع، فيما هو يرسم طبائع مميّزة لشخصيّاته الأخرى، عن خصّ المرأة المحبوبة بأيّ طابع.إنّنا نعرف طبائع من لانبالي بهم، ولكن كيف يمكننا إدراك طبع كائن يختلط بحياتنا ولا نميّزه عمّا قليل عن ذواتنا ولا نكفّ عن القيام بافتراضات تزخر بالقلق ونعدّل فيها باستمرار حول دوافعه؟ إن توقنا إلى المرأة التي نحبّ يتجاوز في مسعاه الطابع المميّز لهذه المرأة، إذ ينطلق من خلف حدود العقل.ولعلّنا لو استطعنا التوقّف أمامه لما شئنا ذلك دونما شكّ . ذلك لأنّ غرض بحثنا القلق أكثر أهميّة من خصائص الطباع تلك الشبيهة بهذه المعيّنات الدقيقة في بشرتنا التي تؤلّف تشكيلاتها المختلفة تفرّد "التعريق" في جسمنا.وإنّ أشعّتنا الحدسيّة لتخترقها وليست الصور التي تأتينا بها صورَ وجه معيّن، بل تمثّل شموليّة الهيكل العظمي الكئيبة المؤلمة.

ولمّا كانت "آندريه" بالغة الثراء و"ألبيرتين" فقيرة ويتيمة، فقد كانت "آندريه" تمكّنها من الإفادة من بذخها بأريحيّة كبيرة.أما فيما يخصّ مشاعرها نحو "جيزيل" فلم تكن بالضبط ما سبق أن ظننت.فقد وردت بعد قليل أخبار من الطالبة، وحينما أبرزت "ألبيرتين" الرسالة التي وردتها منها،

تلك الرسالة التي قصدت بها "جيزيل" تزويد المجموعة الصغيرة بأخبار رحلتها ووصولها فيما تعتذر عن تقاعسها عن الكتابة للأخريات دهشت أن أسمع "آندريه" التي حسبتها على أشدّ الخلاف معها تقول:"سوف أكتب لها غداً لأنّي إن انتظرت رسالتها أوّلاً فيمكن أن أنتظر طويلاً فهي مهملة إلى أبعد حدّ."ثمّ أضافت وهي تلتفت إليّ:"قد لا تجدها بالطبع رائعة، ولكنها طيّبة إلى حدّ بعيد، ثمّ إنّي أشعر حقاً بمودّة عظيمة نحوها." واستخلصت من ذلك أنّ خلافات "آن.ريه" لم تكن تدوم فترة طويلة.

وإذ كنا نزمع الذهاب على الدرّاجات إلى الجرف أو الريف، فيما عدا تلك الأيّام الماطرة، كنت أحاول قبل ذاك بساعة أن أتأنّق في مظهري وآخذ في التفجّع إن لم تحسن"فرانسواز" إعداد حوائجي. ولكنّها كانت حتّى في باريس ترفع باعتزاز وحنق قامتها التي أخذت السنون تحنيها لأقلّ ما تؤخذ بخطأ هي المتواضعة الرقيقة اللطيفة حينما يدغدغ اعتزازها بذاتها.ولمّا كان هذا الاعتزاز يؤلّف المحرك الأكبر في حياتها فقد كان ارتياحها وصفو مزاجها في تناسب مباشر مع صعوبة الأمور التي تطلب منها.أمّا تلك التي تقع على عاتقها في "بالبيك" فقد كانت سهلة إلى حدّ تبدي معه على الدوام تقريباً امتعاضاً يتضاعف فجأة مئة مرّة وتقترن به ملامح ساخرة مستكبرة حينما كنت أتذمّر، ساعة الذهاب لملاقاة صديقاتي، من أنّ قبعتي لم تنظّف بالفرشاة أو أنّ ربطات عنقي غير مرتبّة.وكانت، لمحض ملاحظة أن سترة لم تكن في مكانها، لاتباهي بأي اهتمام "أغلقت عليها بدلاً من أن تدعها للغبار" فحسب، بل تأسف، وهي تثني على أعمالها ثناء يماشي الأصول، أن لا يكون من العطلة في شيء تقريباً ما تقضي من أيّام في "بالبيك" وأنّه قد لايوجد شخص ثان مثلها ليعيش مثل هذه الحياة، تأسف هي التي كان يمكن أن تتحمّل الكثير من المشاقّ دون أن تحكم لذلك أنها فعلت شيئاً."لاأفهم كيف يمكن أن يترك المرء حاجاته على هذا النحو، وهات نَرَ إن كانت تستطيع أخرى أن تهتدي في هذه الفوضى. إبليس نفسه قد يضلّ طريقه." أو هي تكتفي بأن تتّخذ سيماء ملكة وهي ترميني بنظرات ملتهبة وتلتزم صمتاً تقطعه حالما تكون أغلقت الباب وسارت في الممرّ:وكان يدوّي حينئذ بأقوال أحسّها مليئة بالشتائم ولكنّها تظلّ مبهمة كأقوال شخوص المسرحية التي تسرد أقوالها الأولى خلف الحاجز قبل دخولها على خشبة المسرح.على أنّ "فرانسواز" كانت تبدو، حينما كنت أستعدّ هكذا للذهاب مع صديقاتي، وإن لم ينقص شيء وكانت صافية المزاج، كانت تبدو مع ذلك صعبة لاتطاق. ذلك أنّها كانت تستخدم مزحات كنت أطلقتها على تلك الفتيات تدفعني حاجتي إلى التحدّث عنهنّ فتتخذ هيئة من يكشف لي عمّا لعلّني كنت أعرفه خيراً منها لو كان الأمر صحيحاً، بيد أنّه لم يكن كذلك لأنّ "فرانسواز" أساءت الفهم.كان لها شأن سائر الناس طبعها الخاصّ الذي لايشبه لدى أحدهم ألبتّة طريقا مستقيمة ولكنّه يذهلنا بعطفاته الغريبة المحتّمة التي لاينتبه لها الآخرون والتي يشقّ علينا وجوب المرور فيها.ففي كلّ مرّة كنت أصل فيها إلى نقطة "القبعّة ليست في موضعها"و"اسم آندريه أو ألبيرتين" كانت تضطرّني "فرانسواز" إلى سلوك دروب ملتوية وغير معقولة كانت تؤخرّني كثيراً.والأمر كذلك حينما كنت أطلب إعداد "سندويتشات" بالجبنة والسلطة وشراء قطع حلوى سوف آكلها ساعة العصرونية

فوق الجرف بصحبة تلك الفتيات، وكان يمكن أن تدفعها كلّ واحدة بدورها لو لم يكنّ مغرضات إلى هذا الحدّ، تقول "فرانسواز" التي كانت تهبّ حينئذ لمساعدتها ردّة وراثيّة كاملة من الجشع والسوقيّة القروية والتي يُخيّل إليك أنّ نفس المتوفّاة "أولالي" المقسّمة قد تجسّدت في نظرها، على نحو أشدّ أناقة ممّا في القدّيس "ايلوا" في الأجسام الفاتنة لصديقاتي في المجموعة الصغيرة. كنت أسمع تلك التّهم وأنا حانق إذ أحسّني أصطدم بأحد تلك الأمكنة التي كان يضحي الدرب الريفيّ المألوف الذي يؤلفه طبع "فرانسواز" غير سالك بعدها، ولا يدوم طويلاً لحسن الحظّ.وبعدما يُعثر على السترة وتُعَدُّ "السندويشات" كنت أمضي وأبحث عن "ألبيرتين" و"آندريه" و"روزموند" وغيرهن أحياناً ثمّ كنّا ننطلق سيراً على الأقدام أو على الدرّاجات.

لعلّني كنت فضّلت فيما مضى أن تتمّ هذه النزهة في طقس ماطر.كنت أحاول آنذاك أن ألقى في "بالبيك" "بلد السيمريّين" وكانت الأيّام الحلوة أمراً يحدر ألاّ يوجد هناك وتدخّلاً لصيف المستحمين التافه في هذه المنطقة القديمة التي يحجبها الضباب.ولكني الآن ربما بحثت بتلهّف عن كلّ ما سبق أن ازدريته واستبعدته عن عيني، لاعن تلاعب أشعّة الشمس فحسب بل عن سباقات اليخوت كذلك وسباقات الخيل، للسبب نفسه الذي ما كنت أبغي معه سوى بحور كثيرة العواصف والذي قوامه أنّ هذه ترتبط شأن تلك فيما مضى بفكرة جماليّة، ذلك أنّه سبق أن ذهبنا أحياناً برفقة صديقاتي لزيارة "إيلستير" فكان ما فضّل أن يعرضه في الأيّام التي تحضر فيها الفتيات بعض الرسوم التخطيطية لصاحبات يخوت جميلات أو رسم أوّلي أنجز في ميدان سباق خيل بجوار "بالبيك".وأفضيت بادئ الأمر إلى "إيلستير"وأنا خجلان أنّني لم أرتض الذهاب إلى الحفلات التي سبق أن أقيمت فيه.فقال لي: "لقد كنت مخطئاً، فما أحلاه وما أغربه كذلك.فهناك أولا هذا الكائن الخاصّ، الفارس، الذي يحدّق إليه الجم من الأنظار والذي يقف أمام الممرّ كئيباً أشهب في سترته المتألقة لا يؤلّف وحصانه المتوثّب الذي يشدّه إليه سوى كتلة واحدة، فما أحبّ أن تبرز حركاته التي تمليها المهنة وأن تظهر البقعة الملتمعة التي يؤلفها وتؤلّفها كذلك كسوة الأحصنة على أرض ميدان السباق ! وأيّ تحوّل لجميع الأشياء في هذا الامتداد الشاسع المضيء في ميدان سباق تذهلك فيه كثرة الظلال والانعكاسات الضوئيّة التي لا تبصرها إلاّ هناك ! وما أكثر ما تكون النساء جميلات فيه ! لقد كانت الحفلة الأولى رائعة بوجه خاصّ، وكان ثمة نساء في غاية الأناقة وسط نور نَدٍ هولانديّ يحسّ المرء فيه ببرودة الماء المتغلغلة تداخل الشمس نفسها.لم أرَ النساء في يوم يصلن في عرباتهنّ أو المناظير على عيونهنّ في مثل هذا النور الناجم دونما شكّ عن الندوة البحرية.آه! كم كنت أحبّ أن أعبرّ عنها! لقد عدت من تلك السباقات فاقد العقل تعتمل في صدري رغبة، وأيّة رغبة، في العمل! " ثمّ إنّه أبدى افتتاناً بحفلات سباق اليخوت أكثر منه بسباقات الخيول وأدركت أنّ سباقات يخوت ولقاءات رياضيّة تسبح فيها نسوة أنيقات الملبس في ضياء أزرق مخضوضر على أرض ملعب بحريّ لسباق الخيول كان يمكن أن تكون في نظر فنّان حديث موضوعاً ممتعاً بقدر الاحتفالات التي ما أكثر ما كان يحبّ وصفها أمثال "فيرونيز" و"كارباتشيو".وقال لي "إيلستير":"إنّما يزيد من صحّة تشبيهك أنّ تلك الاحتفالات كانت في قسم منها مائيّة بسبب المدينة

التي كانا يرسمان فيها. بيد أنّ جمال القوارب في ذلك الزمان كان قائماً في الغالب على ثقلها وعلى تعقيدها. وكان ثمة، كما هي الحال هنا، مباريات فوق الماء تُقام بعامّة على شرف سفارة ما شبيهة بالتي صوّرها "كارباتشيو" في "أسطورة القديسة أورسولا". لقد كانت السفن ضخمة وقد بُنيت مثل العمارات وتبدو وكأنها برمائية، كمثل مدن بندقيّة مقلّصة داخل تلك، حينما كانت تُربط بوساطة جسور متحركة وقد جُلّلت بالساتين القرمزيّ والسجّاد الفارسي وتقلّ نسوة بأثواب من البروكار الكرزيّ أو الدمقس الأخضر على مقربة من الشرفات المرصّعة بالرخام المتعدّد الألوان التي تطلّ منها بغية الفرجة نساء أخريات بأثوابهنّ ذات الأكمام السوداء والفتحات البيضاء المطرّزة باللآلئ أو المزينّة بالتخاريم، فلا تدري من بعد أين تنتهي الأرض وأين يبدأ الماء ومالا يزال القصر أو هو أصبح السفينة أو المركب الشراعي أو السفينة الضخمة أو مركب الدوج. "كانت "ألبيرتين" تصغي بانتباه المتلهّف إلى تفاصيل الملبس تلك وصور البذخ التي يصفها لنا "إيلستير". فصاحت قائلة: "آه! وددت لو أرى التخاريم التي تحدّثنا عنها، فإن غرزة البندقيّة جميلة إلى حدّ بعيد. وما أكثر ما أحبّ الذهاب إلى البندقيّة على أيّة حال!" وقال لها "إيلستير": "ربما أمكنك عمّا قريب مشاهدة الأقمشة الرائعة التي كانوا يرتدونها هناك. فلم تكن تتسنى رؤيتها إلاّ في لوحات رسّامي البندقيّة أو في كنوز الكنائس، والأمر نادر جداً، وربمّا اتفق لواحد منها أن يمرّ ضمن بيعة علنيّة. بيد أنّه يقال إنّ فنّاناً من البندقيّة يدعى "فورتوني" قد عثر على سرّ صنعها وإن النساء سوف يستطعن، قبل انقضاء بضع سنوات، التنزّه ولاسيما المكوث في منازلهن في أثواب من البروكار الرائع روعة البروكار الذي كانت البندقيّة تزينّه برسوم من المشرق من أجل سيّداتها الأرستقراطيات. ولكنيّ لا أدري إن كنت سأحبّ ذلك كثيراً وأنْ لن يبلغ ذلك مبلغ الأثواب التي تناقض زمانها بالنسبة إلى نساء اليوم وإن تبخترن في سباقات اليخوت، ذلك أنّه فيما يخصّ مراكبنا الترفيهية الحديثة إنما الأمر يناقض تماماً عصر البندقيّة "سيّدة بحر الأدرياتيك". إن أعظم سحر اليخوت وأثاث اليخوت وأزياء مسابقات اليخوت إنّما يقوم على بساطة أشياء البحر فيها، وما أكثر ما أحبّ البحر! إنيّ أعترف لك أنيّ أفضّل أزياء اليوم على أزياء عصر "فيرونيز" وحتى "كارباتشيو". إن الجميل في يخوتنا – ولاسيما اليخوت المتوسّطة، فلست أحبّ الضّخمة منها إذ هي أقرب إلى السفينة، فأمرها كأمر القبّعات: هنالك قدر معين ينبغي الحفاظ عليه–هو هذا الشيء المتساوي البسيط المضيء الرماديّ الذي يتخذ في الطقس الغائم الضارب إلى الزرقة مظهراً ضبابياً قشدياً. وينبغي أن تبدو الغرفة التي نقف فيها وكأنها مقهى صغير. وإنّما أزياء النساء على ظهر أحد اليخوت من القبيل نفسه، فالظريف هو تلك الأزياء الرشيقة البيضاء الموحّدة اللون التي من قماش أولينون أو قطن لمّاع أو كتّان والتي تشكّل في ضياء الشمس وزرقة البحر بياضاً في مثل تألّق شراع أبيض. ثمة على أيّة حال عدد قليل جدّاً من النساء أنيقات الملبس، ولكنّ بعضهنّ رائعات. كانت الآنسة "ليا" في ميدان السباق تعتمر قبعة صغيرة بيضاء وتحمل شمسية صغيرة بيضاء، وكان ذلك أخّاذاً. ولست أدري ما لعلنيّ أعطي لأحوز تلك الشمسية الصغيرة". لشدّ ماوددت أن أعلم بما تختلف تلك الشمسية الصغيرة عن سواها ولعلّ "ألبيرتين" كانت تودّ ذلك أكثر منيّ لأسباب ثانية مردّها الغنج الأنثوي. ولكنّ الاختلاف كان قائماً في القصة، شأن ما كانت "فرانسواز" تقول فيما يخصّ المعجنات المنفّخة: "إنه سرّ الصنعة". "وكانت بالغة الصغر، بالغة

الاستدارة كشمسية صينيّة، يقول "إيلستير". وذكرتُ شمسيات بعض النساء، فلم تكن ألبتّة وافية بالغرض. كان "إيلستر" يجد جميع تلك الشمسيات قبيحة. فقد كان يجعل، هو صاحب الذوق الصعب الرفيع، في أمر زهيد هو كلّ شيء، قوام الفارق بين ما ترتديه ثلاثة أرباع النساء وحاجة حلوة تفتنه وتثير رغبته في الرسم "ليحاول تقديم أشياء في مثل جمالها"، على نقيض ما يقع لي أنا الذي يورثه البذخ، أيّ بذخ، العقم.

وقال لي "إيلستير"، وهو يشير إلى "البيرتين" التي كانت تلتمع بالشهوة عيناها: "انظر، هاك بُنيّة أدركت كيف تكون القبّعة والشمسيّة." وقالت للرسّام: "كم أحبّ أن أكون غنيّة لأملك يختاً! وسوف أسألك النصح لترتيبه. وأيّة رحلات جميلة سوف أقوم بها! وما أجمل أن أذهب إلى سباق اليخوت في "كوف" ! ثم سيارة! هل ترى أن أزياء النساء فيما يخصّ السيّارات حلوة؟" وأجاب "إيلستير": "لا، ولكنّها ستضحي كذلك. وثمّة على أيّة حال القليل من الخيّاطين، هنالك واحد أو اثنان، "كالو" مع أنّه يبالغ في ميله إلى الدانتيلا، و "دوسيه" و "شيروي" وأحياناً "باكان". أمّا البقيّة فتثير الاشمئزاز." وسألتُ "البيرتين" قائلاً: "هنالك إذن فرق شاسع بين أثواب لِ "كالو" وغيرها لأيّ خيّاط آخر؟" فأجابت: "ضخم بالطبع يا صغيري. آه! عفوك! بيد أنّ ما يكلّف ثلاث مئة فرنك في مكان آخر إنّما يكلّف لديهم، واأسفي، ألفي فرنك. ولكنّما ليس من وجه شبه بين الاثنين، والأمر واحد في نظر الذين لايفقهون في ذلك شيئاً." وأجاب "إيلستير": "بالضبط، ولكن دون أن يبلغ بنا أن نقول إنّ الفرق عميق عمق ما هو كائن بين تمثال في كاتدرائية "رانس" وكنيسة القديس أوغسطينوس." ثمّ قال وهو يوجّه الحديث إليّ على نحو خاصّ، لأن الأمر يرجع إلى حديث لم يشارك فيه تلك الفتيات وما كان على أيّة حال ليثير اهتمامهنّ: "هاك مثلاً، إذ نحن بصدد الكاتدرائيّات، كنت أحدّثك في ذاك اليوم عن كنيسة "بالبيك" وكأنّما عن جرف كبير، عن تكدّس عظيم من حجارة المنطقة، ولكن انظر بالمقابل"، يقول وهو يريني لوحة بالألوان المائيّة، "إلى هذه الجروف (إنها خطوط أوّلية أخذت بالقرب من هنا في محلّة "كرونييه")، انظر إلى أيّ مدى تذكّر هذه الصخور الضخمة القطوع الناعمة الخطوط بالكاتدرائيّات." لكأنمّا كانت بالفعل أقواساً ضخمة ورديّة اللون، ولكنّها تبدو، وقد رسمت في يوم قائظ، وكأنّها تحوّلت إلى غبار وبخّرها الحرّ الذي كاد يمتصّ البحر وقد انقلب على امتداد اللوحة إلى حالة غازيّة تقريباً. وفي ذلك اليوم الذي قضى فيه الضياء تقريباً على الواقع كان هذا الأخير قد تركز في مخلوقات عاتمة شفافة توحي بطريق التضادّ بحياة أشدّ روعة وأوفر قرباً، عنيت الظلال. فقد هجرت غالبيّتها عرض البحر الملتهب والتجأت ظمأى إلى البرودة على أقدام الصخور لتأمن حرّ الشمس، فيما تطفو أخرى ببطء على سطح الماء كالدلافين وتتشبّث بجنبات قوارب متهادية فتزيد فوق الماء الشاحب من اتّساع أجسامها بجسمها المصقول الأزرق. وربّما كان الظمأ إلى الرطوبة التي تشيعها هو الذي يورث أكثر ما يورث الإحساس بقيظ ذاك اليوم والذي جعلني أقول صارخاً كم كنت آسف أنّي لا أعرف محلّة "كرونييه". وأكّدت "البيرتين" و "آندريه" أنّي لابدّ ذهبت إلى هناك مئة مرّة. لقد وقع الأمر في تلك الحال دون علم منّي ودون أن أرتاب بأن مشهدها يمكن أن يوحي إليّ ذات يوم بمثل ذاك الظمأ إلى الجمال، لا الجمال الطبيعي بالضبط كهذا الذي بحثت عنه حتىّ الآن في جروف "بالبيك"، بل

المعماري بالأحرى. ولعلني ما كنت أستطيع أنا على وجه الخصوص الذي لم يلقَ البتّة، وقد جاء ليرى مملكة العواصف، لم يلقَ، في نزهاته برفقة السيّدة "دو فيلبا ريزيس" المحيط حقيقياً إلى حدّ كاف وسائلاً إلى حدّ كاف وزاخراً بالحياة إلى حدّ كاف ويخلّف إلى حدّ كاف الانطباع بأنّه يقذف جبال مياهه، وما كنّا نشاهده في الغالب إلاّ من البعيد وقد ارتسم في فجوة الأشجار، لعلني ما كنت أستطيع، أنا الذي ما أَحَبَّ أن يراه هادئاً إلاّ تحت كفن من ضباب الشتاء، الاعتقاد بأني سوف أحلم الآن ببحر استحال محض بخار ضارب إلى البياض وقد فقد الكثافة واللون. ولكنّ "إيلستير"، شأن هؤلاء الذين يحملون في تلك القوارب التي خدّرها الحرّ، فقد تذوّق سحر ذلك البحر إلى حدّ من العمق أفلح معه في أن يردّ ويثبت على لوحته حركة الماء الخفيّة وخفقةً دقيقةٍ سعيدة. وما كنت تفكّر من بعد إذ ترى هذه الصورة السحريّة إلا بالطواف في العالم لاستعادة النهار الهارب في روعته الآنيّة الغافية.

فكما أنّني، قبل هذه الزيارات لمنزل "إيلستير" وقبل ما اتّفق لي أن أشاهد له لوحة بحريّة وَضَعَتْ فيها امرأةٌ شابّة، ترتدي فسطاناً من القطن الأزغب أو الليبون في يخت يرفع العلم الأميركي، "الصنو الروحيّ لفسطان من اللينون الأبيض وَلِعَلَمٍ في مخيّلتي التي داخلتها في الحال رغبة لا ترتوي في أن أرى في الحال فساطين من اللينون الأبيض وأعلاماً قرب البحر كما لو لم يتفق لي ذلك في يوم حتىّ ذاك، كما أنّني جهدت على الدوام أمام البحر أن أقصي على السواء من ساحة نصري المستحمّين في الخطّ الأوّل واليخوت ذات الأشرعة الشديدة البياض كملابس الشاطئ وكلّ ما كان يحول دون أن أقنع نفسي بأنني إنمّا أتأمّل المياه التي من الأزمان السحيقة والتي كانت تنشر حياتها المبهمة نفسها قبل ظهور النوع البشريّ، وحتىّ تلك الأيّام المشرقة التي تبدو لي وكأنها تخلع على الشاطئ الضباب والعواصف هذا المظهر التافه الذي لصيف عامّة الناس وتضع فيه محض علامة توّقف وما يقابل ما يسمّى في الموسيقى بالفاصل الإيقاعي الزائد – كذلك أصبح الطقس الرديء الآن هو الذي أخذ يبدو في نظري وكأنّما أصبح حدثاً عارضاً مشؤوماً لا يمكن من بعد أن يوسع لنفسه مكاناً في دنيا الجمال: لقد أصبحت أرغب بحرارة أن أمضي لألاقي في الواقع ما كان يثير حماستي إلى حدّ بعيد وآمل أن يكون الطقس مؤاتياً بما يكفي لأبصر من أعلى الجروف الظلال الزرقاء نفسها التي في لوحة "إيلستير".

ولم أعد على امتداد الطريق أتخذ من يديّ ستاراً شأني في تلك الأيّام التي كنت أتصوّر الطبيعة فيها وكأنمّا تداخلها حياة سبقت ظهور الإنسان وتناقض جميع تلك التحسينات المملّة التي أدخلتها الصناعة والتي جعلتني حتىّ ذاك أتثاءب ضجراً في المعارض العامّة أو لدى بائعات القبّعات، وكنت أحاول ألاّ أبصر من البحر سوى ذلك المقطع الذي لا مراكب بخارية فيه كيما أتمثّله وكأنّه من العصور السحيقة ولا يزال يعاصر الحقب التي انفصل فيها عن الأرض، أو هو يعاصر على الأقلّ القرون الأولى في اليونان، الأمر الذي يمكّنني أن أردّد في نفسي بصدق تامّ أبيات "العمّ لوكونت" (*)

(*) الشاعر "لو كونت دوليل" (Leconte de Lisle).

العزيزة على فؤاد "بلوك":

"لقد ذهبوا، ذهب ملوك السفن السريعة
يحملون فوق البحر العاصف، وأأسفي،
رجال اليونان البطلة ذوي الشعور الكثيفة".

ولم يعد بمقدوري احتقار بائعات القبّعات إذ قال لي "إيلستير" إنّ الحركة الرقيقة التي يصنعن بها التجعيدة الأخيرة واللمسة القصوى للعقد أو الريش الذي يعلو قبعّة منجزة ربمّا استهواه ردّها بقدر ما تفعل حركة فرسان السباق (الأمر الذي فتن "ألبيرتين").

بيد أنّه كان ينبغي انتظار عودتي، بالنسبة إلى بائعات القبّعات إلى باريس، وبالنسبة إلى سباقات الخيول واليخوت إلى "بالبيك" حيث لن تقام من بعد قبل العام المقبل.ولا يمكن حتىّ أن تلقى يختاً يحمل نساء بأثواب من اللينون الأبيض.

وكنّا كثيراً ما نلتقي بشقيقات "بلوك" اللواتي كنت أراني مضطرّاً لتحيتهّن منذ أن تناولت طعام العشاء في منزل والدهنّ.أمّا صديقاتي فكنّ لا يعرفنهنّ.وكانت "ألبيرتين" تقول: "لا يسمحون لي باللعب مع إسرائيليات".ولعلّ الطريقة التي تقول بها "إسرائيلي" بدلاً من "إزرائيلي" (*) كانت كافية لتشير، حتى إن لم يتّم سماع أوّل الجملة، إلى أن تلك الشابات البورجوازيات بنات الأسر المتديّنة لم تكن تحرّكهنّ مشاعر الودّ نحو الشعب المختار وهنّ لابدّ يعتقدن بسهولة أن اليهود يذبحون الأطفال المسيحييّن. "وصديقاتك على أيّة حال سيّئات المسلك"، تقول "آندريه" بابتسامة تشير إلى أنها تعلم تماماً أنهنّ لسن صديقاتي.وتجيب "ألبيرتين" بلهجة الحزم التي يتّسم بها شخص مجرّب: "شأن كلّ ما يمتّ بصلة إلى العشيرة".والصحيح أن شقيقات "بلوك"، وهنّ فائضات الملبس ونصف عاريات في الوقت نفسه، ماكن يخلّفن بمظهرهنّ المضني الجريء الباذخ القذر انطباعاً
عظيما.وكانت إحدى بنات أعمامهنّ التي لم تتجاوز الخامسة عشرة تثير استنكار المقصف من جرّاء ما تبدي من إعجاب بالآنسة "ليا" التي كان السيّد "بلوك" الوالد يقدر موهبتها أعظم القدر، ولكن ذوقها لم يكن مقبولاً ولاسيمّا فيما يخصّ الرجال.

كنّا نتناول العصرونيّة بعض الأيّام في إحدى المزارع المطاعم في الجوار، وهي المزارع المسمّاة "ديزيكور" و "ماري تيريز" و "دولاكرواديرلاند" و "دو باغاتيل" و"دو كاليفورني" و "ماري أنطوانيت".وكانت المجموعة الصغيرة قد اختارت هذه الأخيرة.

إلاّ أنّنا كنّا نصعد أحياناً، بدلاً من الذهاب إلى إحدى المزارع، حتىّ أعلى الجرف وبعدما نصل

(*) طريقة درج عليها معظم الفرنسيين في قلب حرف Sإلى Z إن وقع قبل حرفي M وR تأثراً باللفظ اليوناني للحرف في المواقع نفسها.

ونجلس على العشب كنّا نحلّ حزمة السندويشات والحلوى. كانت صديقاتي يفضّلن السندويشات ويعجبن أن يرينني آكل قطعة واحدة من الحلوى بالشوكولاته التي تزيّنها خطوط قوطيّة من السكّر أو قطعة من الحلوى بالمشمش. ذلك أنّه لم يكن لديّ ما أقوله للسندويشات بالجبنة والسلطة، وهو غذاء جديد جاهل. أمّا الحلوى فكانت مثقفة، وأمّا الحلوى بالمشمش فثرثارة. وكان في الأولى تفاهات كريما وفي الثانية ندوّة فاكهة تعرف الكثير عن "كومبريه" وعن "جيلبيرت"، "جيلبيرت" التي من "كومبريه" فحسب، بل تلك التي من باريس والتي سبق أن لقيتها في عصرونيّاتها. كانت تذكرني بقصعات أقراص الحلوى الصغيرة، قصعات ألف ليلة وليلة التي كانت تسلّي عمّتي "ليوني" عظيم التسلية بموضوعاتها حينما كانت "فرانسواز" تجيئها يوماً بعلاء الدّين أو المصباح السحّري وآخر بعلي بابا أو النائم اليقظان أو السندباد البحري الذي يبحر من البصرة حاملاً كلّ أمواله. وددت كثيراً لو أعود فأراها، ولكنّ جدّتي لاتعلم ما حلّ بها وتظن على أيّة حال أنها قصعات عاديّة تمّ شراؤها في المنطقة. وما همّ، فقد كانت نقوشها الصغيرة بألوانها العديدة ترصّع "كومبريه" القاتمة في مقاطعة "شامبانيا"، مثلما الزجاج الملوّن ذو الأحجار الكريمة المرتعشة في الكنيسة العاتمة، ومثلما عروض المصباح المسحور في أوّل عتمة غرفتي. ومثلما أزرار الهند الذهبيّة وليلك فارس أمام مرأى المحطّة وسكّة حديد المحافظة، ومثلما مجموعة الأواني الصينيّة العتيقة التي تملكها شقيقة جدّتي في منزل السيّدة الريفية العجوز العاتم.

كنت لا أبصر أمامي، وأنا مستلق فوق الجرف، سوى مروج ومن فوقها لا السموات السبع التي في علم الطبيعة المسيحي بل تناضد سماءين فحسب، أولاهما أكثر دكنة – هي البحر – ومن فوقها أخرى أكثر شحوباً. وكنّا نتناول العصرونيّة وإن اتّفق أن حملت معي أيضاً تذكاراً صغيراً أمكن أن يروق هذه أوتلك من صديقاتي عمر الفرح بسدّة مفاجئة وجههنّ الشفاف الذي أضحى أحمر في مدى لحظة إلى حدّ أنّ شفاههنّ لم تكن تقوى على احتباسه فينفجرن بالضحك ليدعن له أن ينطلق. كنّ متجمّعات من حولي، وبين الوجوه القليلة التباعد كان الهواء الذي يفصل بينها يرسم دروباً لازورديّة كأنّما شقّها بستانيّ شاء أن يجعل بعض المتّسع ليستطيع التجوال بنفسه وسط خميلة من الورود.

وكنّا بعد نفاذ مؤونتنا نلعب ألعاباً ربمّا بدت لي حتّى ذاك مملّة، وهي أحياناً في مثل الصبيانيّة التي تطبع لعبة "أيهّا البرج احترس" أو "من يضحك أوّل الضاحكين"، ولكنّي ما عدت أتخلّى عنها مقابل امبراطوريّة. فقد كان فجر الشباب الذي لا تزال تصطبغ بحمرته وجوه تلك الفتيات والذي كنت مذ ذاك خارج حدوده، وفي سنّي أنا، كان ينير كلّ شيء أمامهنّ ويبرز، شأن الألوان الهوائيّة في لوحات بعض المعلمّين الأوائل، التفاصيل الأكثر تفاهة في حياتهنّ على خلفيّة مذهبة. كانت وجوه تلك الفتيات نفسها تختلط لدى غالبيّتهنّ بحمرة الفجر المبهمة تلك التي لم تنبثق منها بعد قسماتهنّ الحقيقية. فما كنت تبصر سوى لون رائع لا تستطيع أن تميّز خلفه ما ينبغي أن يصبح بعد بضع سنوات خطوط ملامحهنّ. أمّا ملامح اليوم فلم تكتسب أيّة سمة نهائيّة ولا يمكن أن تكون سوى شبه مؤقت بواحد من أعضاء الأسرة المتوفّين خصته الطبيعة بهذه المجاملة التذكاريّة. وما

أسرع ما تحلّ اللحظة التي لا يظل للمرء ما يتوقّعة فيها، تلك التي يحمد فيها الحسم ضمن تقاطيع ثابتة لاتخبئ مفاجآت من بعد، والتي يفقد المرء فيها كلّ أمل، إذ يبصر شعوراً تتساقط أو تشيب حول وجوه لا تزال فتيّة، مثلما يبصر على الشجر في قلب الصيف أوراقاً يابسة، وما أشدّ قصر هذا الصباح المشرق حتى ليبلغ الأمر بالمرء ألاّ يحبّ سوى الفتيات الفتيّات جدّاً اللواتي لا يزال الجسد يعمل لديهنّ على غرار عجينة ثمينة.فما هنّ سوى دفق من مادّة قابلة للتمدّد يكيّفها في كل لحظة الانطباع العابر الذي يسودهنّ.لكأن كلّ واحدة بالتناوب تمثال صغير للمرح وجدّية الشباب والغنج والدهشة تقولبه ملامح صريحة وكاملة ولكنّها زائلة.وإنّما تضفي هذه المرونة الكثير من التنوّع والسحر على اللفتات اللطيفة التي تبديها الفتاة لنا.وهي لا غنى عنها كذلك بالتأكيد لدى المرأة، وتلك التي لا نحسن في عينيها أو التي لا تسمح لنا أن نرى أنّنا حسنّا لديها إنّما تتّخذ في عينيها شيئاً من التماثل المملّ.على أن تلك اللطائف نفسها لا تحمل من بعد معها، ابتداء من سنّ معينة، تحوّلات طفيفة فوق وجه صلّبته نضالات الحياة وجعلته إلى الأبد مكافحاً أو متهلّلاً.فهذا يبدو – من جرّاء استمرار فعل الطاعة التي تخضع الزوجة للزوج – وجه جندي أكثر منه وجه امرأة.وذاك يبدو، وقد حفرته التضحيات التي قبلت بها الأمّ كل يوم في سبيل أولادها، وجه رسول.وآخر يبدو، بعد سنوات من المحن والعواصف، وجه بحّار عتيق متمرس، لدى امرأة تنبئك ثيابها وحدها عن جنسها.صحيح أن الألطاف التي تحيطنا بها امرأة لا تزال تستطيع، حينما نحبّها، أن تزرع الساعات التي نقضيها بالقرب منها بمباهج جديدة.بيد أنهّا ليست على التوالي بالنسبة إلينا امرأة مختلفة.فمرحها يظلّ خارج حدود وجه لم يتبدلّ.أمّا اليفاعة فسابقة لمرحلة التصلّب الكامل ومن ذلك ينتج أنّنا نحسّ بالقرب من الفتيات بهذا التجدّد الذي يخلّفه منظر الأشكال وهي في طور تغيرّ لايقطع وتحرّك ضمن تعارض لا مستقر يذكرّ بإعادة الخلق المستمرّة لعناصر الطبيعة الأوّلية التي نتأمّل فيها أمام البحر.

لعلّني ما كنت أضحّي فقط بحفلة راقية بعد الظهر وبنزهة برفقة السيّدة "دو فيلباريزيس" في سبيل لعبة ورق صديقاتي أو حزّوراتهن، فقد نقل إليّ "روبير دو سان لو" عدّة مرّات أنّه طلب إذناً لمدّة أربع وعشرين ساعة وسوف يقضيها في "بالبيك" بما أنّني لا أذهب لزيارته في "دو نسيير".وقد كتبت إليه في كلّ مرة ألاّ يفعل متذرّعاً بأنيّ مضطرّ إلى التغيّب في ذلك اليوم بالضبط لأبادر للقيام في الجوار بواجب عائليّ بصحبة جدّتي.ولا ريب أنّه أصدر حكماً شيئاً بحقّي علم على لسان عمتّه ما قوام الواجب العائلي وأيّ أشخاص كانوا يقومون بالمناسبة بدور الجدة وربما لم أكن على خطأ مع ذلك في التضحية لا بمتع المجتمعات الراقية، بل بمتع الصداقة في سبيل قضاء كامل النهار في تلك الحديقة والذين يقوون على ذلك – وهم الفنانون بالحقيقة وكنت منذ فترة طويلة على يقين بأني لن أضحي فناناً في يوم – يقع عليهم أيضاً أن يعيشوا لذواتهم، فيما الصداقة بمثابة إعفاء لهم من ذلك الواجب وتنازل عن الذات حتى المحادثة، وهي صيغة الإعراب عن الصداقة، هذيان سطحي لا يقدّم لنا أي مكتسب. فبوسعنا التحدث على مدى حياة كاملة دون أن نقول شيئاً فيما عدا الترداد الذي لا ينتهي لفراغ دقيقة ما، فيما يتم الاتجاه الوحيد الذي لا يوصد أمامنا والذي

نستطيع التقدم فيه، بقدر من المشقة أكبر بالحقيقة، من أجل نتيجة قوامها الحقيقة وليست الصداقة مجردة من الفضيلة فحسب، شأن المحادثة، بل هي إلى ذلك مشؤومة، ذلك أن الشعور بالملل الذي لا يمكن إلا أن يحس به بالقرب من صديق لهم، يعني بالمكوث على سطح ذاتهم بدلاً من متابعة رحلة اكتشافاتهم في الأعماق، أولئك الذين من بيننا قانون نموهم داخلي محض، ذلك الشعور بالملل إنّما تقنعنا الصداقة بتصويبه حينما نلغي نفسنا وحيدين، وبأن نتذكر بانفعال الأقوال التي أسمعنا صديقنا وأن ننظر إليها على أنّها إسهام ثمين في حين لسنا بمثابة أبنية يمكن أن تضاف إليها حجارة من الخارج، بل أشجار تستمد من نسغها الخاص العقدة التالية في جذعها والقسم الأعلى في أوراقها كنت أُكْذِبُ نفسي وأوقف النماء الذي كنت بالفعل أستطيع وقفه، أن أكبر حقاً وأكون سعيداً حينما كنت أغبط نفسي أن أكون موضع حب وإعجاب لدى كائن في مثل طيبة "سان لو"وفي مثل ذكائه ومثل محبذيه، وحينما كنت أكيّف عقلي لا مع انطباعاتي المبهمة الخاصة التي كان من واجبي أن أستجليها بل مع أقوال صاحبي الذي كنت أحاول جاهداً، فيما أرددها لنفسي - فيما أحمل على تردادها لي هذا الآخر غيرنا الذي يعيش فينا والذي يسرنا على الدوام أعظم السرور أن نلقي بعبء تفكيرنا عليه - أن ألقى له جمالا مختلفاً تماماً عن الجمال الذي كنت ألاحقه بصمت حينما كنت وحيداً حقاً ولكنه قد يولي "روبير" ويوليني ويولي حياتي قيمة أكبر، أمّا في الجمال الذي كان يجعله لي هذا الصديق أو ذاك فقد كنت أبدو لنفسي فيه وقد وُقِيْتُ الوحدة داخل جو دافئ مريح وأرغب كريم النفس أن أضحّي بذاتي في سبيله وأنا عاجز باختصار القول عن تحقيق ذاتي، ولئن كانت المتعة التي كنت أتذوقها بالقرب من تلك الفتيات أنانية على العكس، فلم تكن على الأقل قائمة على الكذب الذي يحاول حملنا على الاعتقاد بأننا لسنا في عزلة محتمة ويحول دون أن نقر لأنفسنا حينما نتحدث بأننا لم نعد نحن من يتكلم وأننا نتقولب حينئذ على شبه الآخرين لاعلى شبه أناس نختلف عنهم، كانت الأقوال المتبادلة بين فتيات المجموعة الصغيرة وبيني قليلة الأهمية ونادرة على أيّة حال تقطّعها فيما يخصني فترات صمت طويلة ولم يكن ذلك ليحول دون أن أصيب في الاصغاء إليهن حينما يكلمنني من المتعة ما أصيب في النظر إليهن واكتشاف لوحة زاهية الألوان في صمت كل واحدة منهن فقد كنت أصغي بلذة لزقزقتهن، إن الحب يعين على التمييز والتفريق فهاوي الطيور يميز في الحال في الغابة تلك الزقزقات الخاصة بكل طير والتي يخلط العاميّ ما بينها وهاوي الفتيات يعلم أن الأصوات البشرية أكثر تنوعاً بكثير فكل صوت يضم قدراً من النوطات أكثر من أوفر الآلات إمكانات، وإن صنوف التأليف التي تجمعها وفقها وفيرة لا تنضب وفرة تنوع الشخصيات الذي لا حد له وحينما كنت أتحدث مع إحدى صديقاتي كنت أتبين أن لوحة شخصيتها المبتكرة الفريدة قد رسمتها لي بمهارة وفرضتها عليّ فرض المُستبِدّ تبدلات نبرات صوتها وخطوط وجهها على حد سواء وأن ذينك مشهدان يترجمان كل على صعيده الواقع الفريد نفسه وليس من شك أن خطوط الصوت، شأن خطوط الوجه، لم تُثبت بعد على نحو نهائي، فالأول قد يتبدل مثلما قد يتغير الثاني ومثلما يملك الأطفال غدة يعينهم عصيرها على هضم الحليب ولا وجود لها من بعد لدى الكبار، كذلك كان في زقزقة هؤلاء الفيتات ألوان لا تملكها النساء من بعد، وكن يعزفن على هذه الآلة الأكثر تنوعاً بشفاههن، بهذا الاجتهاد، بهذه الحميّة التي يبديها ملائكة

"بيلليني" الصغار، وكلاهما كذلك ينفرد به الشباب حصراً. سوف تفقد الفتيات فيما بعد هذه النبرة المقنعة الحماسية التي تضفي سحراً على أكثر الأمور بساطة، كأن تسرد "ألبيرتين" بلهجة تتسم بالسلطة صنوفاً من التلاعب بالألفاظ تصغي إليها الصغريات بإعجاب إلى أن تتملكهن الضحكة المجنونة بعنف عطسة لا تقاوم، أو تتخذ "آندريه" في الحديث عن أعمالهن المدرسية، وهي أشد صبيانية من ألعابهن، وقاراً طفولياً في أساسه: وكانت أقوالهن ناشزة، كمثل تلك المقاطع الشعرية في الأزمان الغابرة حيث كان ينشد الشعر، ولا يزال قليل التمييز عن الموسيقى، على نوطات مختلفة على الرغم من كل ذلك فقد كان صوت تلك الفتيات ينمّ مذ ذاك بوضوح عن الموقف الذي اتخذته كل واحدة من أولئك الصغيرات إزاء الحياة، وهو موقف فردي حتى ليبدو من فرط التعميم أن نقول عن إحداهن: "إنّها تأخذ كل شيء على محمل المزاح" وعن الأخرى: "إنّها تمضي من توكيد إلى توكيد"، وعن ثالثة:"إنّها تتوقف في حيرة المُنْتَظِر "إن قسمات وجهنا لا تعدو كونها حركات أضحت بفعل العادة نهائية، فالطبيعة، شأن كارثة "بومبيي" وشأن استحالة حوريات الماء، قد جمدتنا في الحركة المعهودة كذلك تحتوي نبرات صوتنا فلسفتنا في الحياة ومايُسرّه المرء لذاته في كل لحظة حول الأشياء ولكن تلك القسمات لم تكن دونما شك ملك تلك الفتيات وحدهن، فقد كانت ملك ذويهن، إذ الفرد يسبح في ماهو أعمّ منه ولا يقتصر ما يقدمه الأهل بهذا المعرض على تلك الحركة المعتادة التي تؤلفها ملامح الوجه والصوت بل تتعداها إلى بعض طرق القول وبعض الجمل المقرزة التي تشير، شأن نغمة الصوت، وفي مثل لاوعيها وعمقها تقريباً إلى وجهة نظر في الحياة، صحيح أن ثمة بالنسبة إلى الفتيات بعضاً من تلك العبارات لا يورثهن الأهل إياه قبل سن معيّنة ولا يتم ذلك بعامة قبل أن يصبحن نساء، إذ يحتفظ بها بمثابة احتياطي، من ذلك على سبيل المثال أن "آندريه" التي لا تزال ترسل شعرها فوق ظهرها كانت لا تستطيع بعد إن جرى التحدث عن لوحات أحد أصدقاء "إيلستير" أن تستخدم شخصياً العبارة التي تلجأ إليها والدتها وشقيقتها المتزوجة: "يبدو أن الرجل ظريف" ولكن ذلك آت مع الإذن بالذهاب إلى "القصر الملكي"أما "ألبيرتين"فقد كانت تقول منذ مناولتها الأولى على غرار صديقة لعمتها: "ربّما وجدت الأمر مريعاً بعض الشيء "وكانوا قد أورثوها بمثابة هدية عادة حمل الناس على ترداد ما يقال لها كي تظهر مظهر من يهتم ويحاول أن يكوّن لذاته رأياً، شخصياً فإن قيل إن رسم أحد الرسامين جيد أو أن بيته جميل:"آه! أهو جيد رسمه؟ أهو جميل بيته؟" وهناك أخيراً ما كان أعم من التركة العائلية وهي المادة اللذيذة التي تفرضها المقاطعة الأصلية التي استقين منها أصواتهن والتي تنغرس فيها مباشرة نبراتهن، فحينما كانت "آندريه" تهز وتر صوت جاف لم يكن باستطاعتها أن تمنع وتر مقاطعة "بيريغور" في آلتها الصوتية من إحداث غنّة تتناسب على أية حال وصفاء الجنوب في قسماتها، أما صبيانيات "روزموند" المستمرة فكانت ترد عليها مادّة وجهها وصوتها الشماليين بلهجة مقاطعتها، على كرهها لذلك فقد كنت أستشف حواراً جميلا بين تلك المقاطعة ومزاج الفتاة الذي يملي النبرات، كان حواراً وليس شقاقاً، فليس من شقاق يمكن أن يفصل الفتاة عن مسقط رأسها، فإنّما هي هو أيضاً وإن رد فعل المواد المحلية على العبقرية التي تستخدمها والتي تزيدها حيوية على أية حال لا تقلل من فردية العمل الفنّي، وسواء أكان عمل مهندس معماري أم نجار أم موسيقّي فإنّه لا

يقل دقة في عكس أكثر ملامح شخصية الفنان لطفاً، لأنّه اضطر أن يعمل على أحجار "صانليس" الكلسية أو على أحجار "سترازبور" الرملية الحمراء، وأنّه راعى العقد الخاصة بالدردار، وأخذ في حسبانه وهو يكتب إمكانات الترجيع الصوتي وحدوده،وإمكانات الناي أو الألتو.

كنت أتبين ذلك مع أننا كنا نتحدث قليلا جداً ففيما كنت برفقة السيدة "دوفيلباريزيس" أو "سان لو" قد أبدي بأقوالي سروراً يفوق بكثير ما قد أحسّ به، كان تمام ما ينتابني من شعور، وأنا مستلق بين تلك الفتيات، يفوق على العكس بما لا يقاس جدب أحاديثنا وندرتها ويفيض من جمودي وصمتي موجات من السعادة يبادر همسها فيحتضر على أقدام تلك الورود الفتية .

إن عطر زهور أو فاكهة، بالنسبة إلى تافه يرتاح طوال يومه في حديقة مزهرة أو بستان، لا يداخل على نحو أكثر عمقاً ما لايحصى من الأمور التافهة التي تؤلف خمولة أكثر مما يفعل بالنسبة إليّ هذا اللون وهذا الشذا اللذان كانت نظراتي تبادر للبحث عنهما على تلك الفتيات واللذان كانت عذوبتهما تمتزج بي في النهاية كذلك الأعناب تزداد في الشمس حلاوة، لقد حملتْ إليّ تلك الألعاب البسيطة جداً، بفعل استمرارها البطيء، حملت إليّ إلى ذلك، كما هو أمر الذين لا يفعلون شيئاً فيما عدا أن يستقلوا على شاطئ البحر يستنشقون الملح ويتعرضون لأشعة الشمس، استرخاء وابتسامة راضية وانبهاراً غامضاً امتدّ حتى عينيّ.

وأحياناً تبعث في صدري التفاتة لطيفة لهذه أو تلك اختلاجات واسعة تبعد عنّي برهة توْقي إلى الأخريات، من ذلك أن "ألبيرتين"قالت ذات يوم:"من معه قلم ؟" وزودتها به "آندريه" و "روزموند" بالورق وقالت لهن "ألبيرتين": "أيتها النساء الصغيرات العزيزات إني أمنعكن من النظر إلى ما أكتب". وبعد ما جدّت في رسم كل حرف أحسن الرسم وقد أسندت الورقة إلى ركبتيها مدتها إلي وهي تقول: "احذر ألا يراها أحد" وقد فتحتها إذ ذاك وقرأت الكلمات التي كتبتها لي: "إنّك تروقني"

ثم صاحت وهي تلتفت بنزق ووقار إلى "آندريه" و"روزموند": "ولكنه ينبغي لي بدلا من كتابة الحماقات أن أريكم الرسالة التي سطرتها لي "جيزيل" هذا الصباح، إني معتوهة، فهي في جيبي، وكم يمكن أن يكون ذلك مفيداً لنا!" لقد ظنّت "جيزيل" من واجبها أن تبعث إلى صديقتها بالبحث الذي كتبته في فحص شهادتها كيما تطلع الأخريات عليها وكانت مخاوف "ألبيرتين" من صعوبة الموضوعات المطروحة قد تجاوزت حدودها السابقة من جراء الموضوعين اللذين كان على "جيزيل" أن تختار بينهما فقد نصّ الأول على ما يلي: "يكتب سوفوكليس" من الجحيم إلى "راسين"ليواسيه بفشل(آتالي) " أمّا الثاني فعلى ما يلي: "افترض أن السيدة "دوسيفينييه" تبعث برسالة إلى السيدة "دولا فاييت"، بعد العرض الأول لمسرحية "إيستير"، لتقول لها كم أسفت لغيابها" وكانت "جيزيل" بفرط حماسة لابد أثرت في نفوس الفاحصين قد اختارت أول هذين الموضوعين وأكثرهما صعوبة وعالجته معالجة بالغة الروعة حازت بها أربع عشرة درجة وتهاني اللجنة الفاحصة ولو لم يُرتج عليها في امتحان اللغة الأسبانية لنالت التقدير "جيد جداً" وقد قرأت علينا"ألبيرتين" في الحال الموضوع الذي بعثت إليها "جيزيل" بنسخة عنه إذ كانت شديدة الرغبة، بما أنّه ينبغي لها أن

تقدم الامتحان نفسه، في استطلاع رأي "آندريه" وهي أقدر منهن جميعاً وتستطيع التزويد بوسائل ناجحة وقالت "ألبيرتين": "لقد حالفها الحظ، فذلك بالضبط موضوع حملتها معلمة الفرنسيّة ههنا على التعمّق فيه" كانت الرسالة التي سطرتها "جيزيل" على لسان "سوفوكليس" إلى "راسين" تبدأ كما يلي: "صديقي العزيز، اعذرني أن أكتب إليك دون أن أكون حزت شرف معرفتك لي شخصياً، ولكن أليست مأساتك الجديدة"آتالي" البرهان على أنّك درست على أتم وجه مؤلفاتي المتواضعة؟ فلم تضع أشعاراً على لسان الأبطال أو الشخوص الرئيسيّة في المسرحيّة فحسب، بل سطّرت ما كان منها رائعاً، واسمح أن أقولها دون تملق، لأدوار الكورس التي كانت محبّذة فيما يقال في المأساة اليونانية ولكنها في فرنسه تجديدحقيقي، ثم إن فنّك الطليق المنمّق الساحر الدقيق الرقيق إلى أبعد حد قد بلغ من القوة ما أهنئك به، أمّا "آتالي" و"جواد" فتلكما شخصيتان ما كان منافسك "كورنيي" ليفلح في تصميم أفضلٍ منهما. إنّ الطباع رجوليّة والحبكة بسيطة ومتينة؛ وتلك مأساة ليس المحرّك فيها الحب وإني أهنئك بذلك أصدق التهنئة، إن أكثر التعاليم شهرة ليست على الدوام أكثرها صحة، وسوف أذكر لك مثالاً على ذلك:

"إن الوصف الرقيق لذاك الغرام
هو أكثر الطرق سلامة لبلوغ القلب"

وقد برهنت أن العاطفة الدينيّة التي تفيض بها أدوار كورسك ليست أقل اقتداراً على هز المشاعر وربّما حار الجمهور في أمره ولكن الخبراء الحقيقيّين يعترفون بحقك لقد حرصت على أن أبعث إليك بكامل تهاني التي أقرنها، أيّها الزميل العزيز، بأسمى مشاعري"

ولم تكفّ عينا "ألبيرتين" عن التألق في أثناء القراءة التي قدمتها، وصاحت حينما أتت على آخرها قائلة: "إنّه ليخيّل إليك أنها نقلت ذلك فما ظننت "جيزيل" في يوم قادرة علي تسطير موضوع كهذا وهذه الأبيات التي تستشهد بهاامن أين استطاعت أن تختلس ذلك؟" ولم يتوقّف إعجاب "ألبيرتين"، وقد تغير بالحقيقة موضوعه ولكنّه تزايد عن ذي قبل، لم يتوقّف، على غرار أكثر صنوف الاجتهاد اطّراداً عن إدهاشها أعظم الدهشة طوال الوقت الذي تحدّثت فيه "آندريه" بادئ الأمر، بعد ما استشيرت بوصفها أكبر سنّاً وأطول باعاً، عن وظيفة "جيزيل" بشيء من السخرية ثمّ باستخفاف لا يفلح في إخفاء جدّية حقيقيّة، وأعادت صياغة الكتاب نفسه بطريقتها الخاصّة وقالت لـ "ألبيرتين": "لا بأس به، ولكنّي لو كنت مكانك وأعطيتُ الموضوع نفسه، وهو أمر ممكن الحدوث لأنّه كثيراً ما يُطرح، فقد لا أفعل كذلك وإليك كيف أتدبّر أمري فيه أولاً لو كنت "جيزيل" لما سمحت لنفسي بالتسرّع ولكنت سطّرت على ورقة منفردة مخطّط بحثي ففي السطر الأوّل طرح السؤال وعرض الموضوع، ثم الأفكار العامّة التي ينبغي إدخالها في جسم الموضوع، وأخيراً التقييم والأسلوب والختام وإذ استلهمنا على هذا النحو خطوطاً عامّة فإنّنا نعلم أين نتوجّه لقد أخطأت "جيزيل" منذ عرض الموضوع أو إن فضّلت، منذ الدخول في الموضوع بما أن الأمر أمر رسالة وما كان يجدر بـ "سوفوكليس" أن يكتب: صديقي العزيز،وهو يكتب إلى امرئ من القرن السابع عشر"

- "كان حريّاً بها أن تجعله يقول:عزيزي راسين"، تقول "ألبيرتين" وهي تصرخ بانفعال، "فلعلّ ذلك كان أفضل بكثير" وتجيب "آندريه" بلهجة ساخرة بعض الشيء:"لا، كان الأجدر بها أن تكتب: "سيّدي " كذلك كان ينبغي لها في الختام أن تعثر على ما كان من قبيل: "اسمح يا سيّدي، (وعلى الأكثر يا سيّدي العزيز)، أن أعرب لك ههنا عن مشاعر التقدير التي يشرّفني أن أكون بها خادمك" وتقول "جيزيل"من جهة أخرى إنّ أدوار الكورس في "آتالي" أمر جديد إنها تغفل "إيستير" ومأساتين قليلتي الشهرة ولكنّما تمّ تحليلهما بالضبط هذا العام على يد الأستاذ حتى إنّك ما إن تذكريهما حتى تتأكّدي من النجاح بما أنّ ذلك موضوعه المفضّل وهما "اليهوديّات " لمؤلّفها "روبيرغارنييه" و "أمان"لمؤلّفها "مونكريتيان"وذكرت "آندريه" هذين العنوانين دون أن تفلح في إخفاء شعور بالتفوّق المتسامح برز في ابتسامة، ابتسامة لطيفة إلى حد ما على أيّة حال ولم تتمالك "ألبيرتين" نفسها من بعد وصاحت: "آندريه، إنّك مذهلة ستكتبين لي هذين العنوانين هل تصدقين؟ أيّ نصيب لو امتُحنْتُ فيهما، وحتى في الشفويّ، أذكرهما في الحال فأثير أعظم الدهشة" بيد أنّه في كلّ مرّة طلبت "ألبيرتين"من "آندريه" فيما بعد أن تردّد على مسامعها عنواني المسرحيّتين كي تسجّلهما ادّعت الصديقة الوافرة العلم أنها نسيتهما ولم تذكّرها بهما على الإطلاق وعادت "آندريه" تقول بلهجة الازدراء الخفيّ إزداء رفيقات أكثر صبيانيّة، بيد أنها سعيدة مع ذلك أن تنال الإعجاب وتعلّق على الطريقة التي لعلّها كتبت بها امتحانها أهميّة أكبر ممّا تريد أن تُبدي: " ثم لابدّ أن يكون "سوفوكليس" في الجحيم حسن الاطلاّع ولابدّ أن يعلم إذن أنّ "آتالي" لم تُمثّل أمام الجمهور العريض، بل أمام الملك - الشمس وبعض رجال البلاط من ذوي الخطوة، أمّا ما تقول "جيزيل" بهذا الصدد عن تقدير العارفين فليس سيئاً على الإطلاق بيد أنّه يمكن إتمامه، إذ يستطيع "سوفوكليس" وقد أضحى خالداً، أن يتمتّع بموهبة التنبّؤ يعلن أن "آتالي"حسبما يرى "فولتير"لن تكون "رائعة راسين فحسب، بل رائعة الفكر الإنساني" وكانت "ألبيرتين"تتقّف كلّ تلك الأقوال، وحدقتاها تشتعلان حماسة وقد رفضت بأشدّ الحنق عرضاً تقدّمت به "روزموند" لمباشبرة اللعب ثم قالت "آندريه" باللهجة اللامبالية الوقحة الساخرة بعض الشيء التي تتّسم بحرارة الاقتناع: "وأخيراً، لو أن "جيزيل" سجّلت بهدوء بادئ الأمر الأفكار العامّة التي ينبغي أن تتوسّع فيها فربمّا فكّرتْ فيما لعلّني فعلتُ أنا، أي في إبراز الفارق الكائن في الموحيات الدينيّة في أدوار الكورس لدى "سوفوكليس" والك الأدوار لدى "راسين" وكنت حملت "سوفوكليس"على ملاحظة أنّه إن كان يطبع الكورسَ لدى "راسين" مشاعرُ دينيّة كالتي في المأساة اليونانية، فليست الآلهة نفسها مع ذلك، إنّ إله "جُواد" لا يمتُّ بأيّة صلة إلى إله "سوفوكليس"وهذا يجيئنا على نحو طبيعيّ تماماً بالخاتمة بعد نهاية الشرح: "ماهمّ أن تكون المعتقدات مختلفة؟" ويهتمُّ "سوفوكليس" بالإلحاح على ذلك، فهو يخشى أن يجرح "راسين" في معتقده ويهمس بهذه المناسبة ببضع كلمات حول أساتذته في "بورويّال" ويفضّل أن يهنئ صديقه على سموّ عبقريته الشعريّة "

كان الإعجاب والاهتمام قد بعثا في صدر "ألبيرتين" من الحماسة ما أخذت تعرق به عرقاً شديداً أمّا "آندريه" فكانت تحافظ على برودة الأعصاب المشرقة التي تميّز المرأة المتأنقة، وقالت قبل

العودة مجدّداً إلى اللعب: "وليس يسوء كذلك أن يذكر المرء بعض آراء النقّاد المشهورين" فأجابت "ألبيرتين": "أجل، لقد قيل لي ذلك وإنّ أفضلها بعامّة آراء "سانت بوف"و"ميرليه"، أليس كذلك؟" - لستِ على ضلال مطلق، إنّ "ميرليه"و"سانت بوف" لا يعطيان انطباعاً سيئاً ولكنّما ينبغي أن تذكر على وجه الخصوص "ديلتور"و"غاسك ديفوسيّه"، تقول"آندريه" التي امتنعت على أيّة حال عن أن نكتب الاسمين الآخرين على الرغم من توسّلات "ألبيرتين" .

وكنت في تلك الأثناء أفكّر في ورقة الدفتر الصغيرة التي ناولتني إيّاها "ألبيرتين": "إنّك تروقني"وكنت أقول في نفسي بعد ذاك بساعة، إني أنحدر في الدروب التي تقود إلى "بالبيك" بانحدار شديد في نظري، إنّ قصّة حبّي واقعة معها لا محالة.

وإن الحالة التي تتميّز بمجمل علامات نتعرّف بها عادة أنّنا عاشقون كمثل الأوامر التي كنت أصدرها في الفندق بأن لا أُوقظَ بداعي أيّة زيارة، إلاّ إذا كانت زيارة هذه أو تلك من الفتيات، وخفقات القلب تلك وأنا أنتظرهن (أيّة كانت من تزمع المجيء)، وحنقي في تلك الأيّام إن لم أستطع العثور على حلاّق ليحلق لي ذقني ولابدّ أن أبدو قبيحاً أمام "ألبيرتين" أو "رزوموند" أو "آندريه"، كانت تلك الحالة دونما شكّ، إذ تتجدّد على التوالي بالنسبة إلى هذه أو تلك، مختلفة عمّا ندعوه حبّاً اختلاف الحياة البشريّة عن حياة المرجانيّات حيث يتم تقسيم الوجود والفرديّة إن جاز القول بين أجسام مختلفة بيد أن التاريخ الطبيعي يعلّمنا أنّه يمكن مراقبة مثل هذا التنظيم الحيواني، وليست حياتنا الخاصّة، بشرط أن تكون قد تطورّت بعض الشيء، بأقل توكيداً لحقيقة حالات لم نَرْتَبْ بوجودها فيما مضى وينبغي أن نمرّ بها على أن نهجرها فيما بعد، كمثل تلك الحالة الغراميّة المقسّمة في الآن نفسه، فيما يخصّني، بين عدّة فتيات. المقسّمة أو هي بالأحرى غير مقسّمة لأن ما كان أغلب الأحيان لذيذاً في نظري ومختلفاً عن باقي الناس وما أخذ يصبح عزيزاً إلى حدّ أنّ أملي في لقائه في الغد كان يمثّل أفضل مباهج حياتي إنمّا كان بالأحرى كامل زمرة تلك الفتيات إذا ما أخِذَت في مجمل فترات العصر تلك فوق الجرف في أثناء تلك الساعات الكثيرة الهواء وفوق شريط العشب الذي حطّت عليه تلك الوجوه المثيرة جدّاً لخيالي، وجوه "ألبيرتين"و" روزموند" و"آندريه"، وذلك دون أن يمكنني القول أية منهن كانت تجعل تلك الأمكنة عزيزة جداً عليّ وأيّة منهنّ كنت أكثر رغبة في عشقها فلسنا في بداية حبّ وفي نهايته على حدّسواء نتعلّق حصراً بموضوع ذاك الحبّ، وإنمّا التوق إلى الحبّ الذي سوف ينبثق عنه (والذكرى التي يخلّفها فيما بعد) ينتقلّ مغرياً في منطقة من المفاتن تقبل التبادل فيما بينها - مفاتن مبعثها أحياناً محض الطبيعة أو المآكل أو المسكن - - وهي منسجمة فيما بينها بما يكفي كي لا يحسّ بالاستغراب بالقرب من أيّ منها. ولمّا لم أكن بعد قد أصبت باللامبالاة في حضرتهّن فقد كان بإمكاني أن أراهنّ، والأحرى أن أقول أن أحسّ بدهشة عميقة في كلّ مرّة أجدني في حضرتهنّ.

وليس من شكّ أنّ مردّ تلك الدهشة في قسم منها أنّ الكائن يقدّم لنا آنذاك صفحة جديدة من ذاته ولكن، بما أنّ الذاكرة، لكثرة ما يتعدّد كلّ كائن ولوفرة خطوط وجهه وجسمه، تلك الخطوط

التي نلقى القليل القليل منها، حالما نبتعد عن شخصه، في تذكّرنا المبّسط الاعتباطّي، بما أنّ الذاكرة قد اختارت خاصيّة أثّرت فينا وعزلتها وضخّمتها فجعلت من امرأة بدت لنا مديدة القامة دراسة بلغ فيها طول قامتها مبلغاً تجاوز الحدّ، أو من امرأة بدت لنا موّردة شقراء محض "ائتلاف ورديّ وذهبيّ"، فإن جميع الميزات الأخرى، حينما نلقى تلك المرأة ثانية بالقرب منّا، تلك الميزات التي نسيناها والتي توازن تلك الميزة الأولى إنمّا تجتاحنا في تعقيدها المبهم فتقلّص القامة وتُغرقُ اللون الورديّ وتُحِلُّ محلّ ما جئنا نبحث عنه حصراً خصائص نتذكّر أنّنا لا حظناها في المرّة الأولى ولا نفهم أنّنا استطعنا ألاّ نتوقعّ رؤيتها ثانية كنّا نتذكّر طاووساً ونبادر إلى لقائه فنجد زهرة عود الصليب وليست هذه الدهشة المحتمة وحيدة، فهنالك أخرى تقوم بالقرب منها أنبثقت لا عن الفارق بين تزويقات الذكرى والواقع بل بين الكائن الذي رأيناه آخر مرّة وهذا الذي يظهر لنا اليوم من زاوية مختلفة ويبرز لنا في دهيئة جديدة إن الوجه البشري بالحقيقة، كما هو أمر وجه الإله في تصوّر شرقي للألوهة،شبيه بعنقود كامل من الوجوه التي تتوالى في مستويات مختلفة ولا نراها دفعة واحدة.

بيد أن دهشتنا تتأتّى في قسم كبير منها من أنّ الكائن يقدّم لنا كذلك صفحة الوجه نفسها وإنّنا لفي حاجة إلى جهد عظيم لنخلق من جديد كلّ ما توافر لنا بفضل ما ليس ذاتنا – وإن اقتصر على طعم ثمرة – إلى حد أنّنا ما إن يوافينا الانطباع حتى ننحدر على نحو لا شعوري على سفح الذكرى فنجدنا، دون أن نتبيّن الأمر وفي مدى وقت قصير جدّاً، بعيدين جدّاً عمّا أحسسنا به وبذلك يصبح كلّ لقاء جديد ضرباً من التصحيح يردّنا إلى ما سبق أن رأيناه تمام الرؤية وكنّا لا نتذكّره مذ ذاك، لأن ما يُدعى بتذكّر الفرد إنمّا هو بالحقيقة نسيانه، بيد أنّنا ما دمنا نحسن النظر فإنّنا نتعرّف الملمح المنسيّ لحظة يبرز لناظرينا ونرى لزاماً علينا أن نصحّح الخطّ المنحرف، وهكذا كانت الدهشة المستمّرة الخصبة التي جعلت تلك اللقاءات اليوميّة مع فتيات شاطي البحر الجميلات نافعة وملينّة إلى حدّ بعيد بالنسبة إليّ، إنمّا تنسجها الذكرى بقدر ما تفعل الاكتشافات وإن أضفنا إلى ذلك الاضطراب الناجم عمّا كنّ بالنسبة إليّ، ولم يكن في يوم تمام ما سبق أن ظننت وكان من جرّائه أن لم يعد أمل اللقاء شبيهاً بالأمل السابق بل بذكرى الحديث الأخيرالذي لا يزال يخفق في صدري، أدركنا أن كل مشوار كان يدخل تصحيحاً عنيفاً على أفكاري، ولم يكن على الإطلاق في الاتجّاه الذي أمكن أن أخطّه بتروٍّ في عزلة غرفتي فذلك الاتجاه كان يطويه النسيان ويمّحي حينما أعود تدوّي في رأسي كمثل خليّة النحل الأقوال التي بعثت الاضطراب في نفسي والتي يظلّ وقعها في نفسي فترة طويلة. إن كلّ كائن يبيد حينما نكفّ عن رؤيته، ثم يجيء ظهوره التالي بمثابة عمليّة خلق جديدة مختلفة عن التي سبقتها مباشرة، إن لم تختلف عنها جميعها. ذلك أن الحدّ الأدنى للتنوّع الذي يمكن أن يسود عمليّات الخلق هذه أحد اثنين فإذ نتذكّر نظرة حازمة وهيئة جريئة فسوف تدهشنا حتماً، أي سوف تؤثّر فينا وحدها فقط في المرّة التالية، في اللقاء المقبل، صورة تقارب الوهن وضرب من النعومة الحالمة، وهما أمران أهملناهما في الذكرى السابقة وإنمّا ذلك، في مقارنة ذكرانا بالواقع الجديد، ما سوف يُبرز خيبتنا أو دهشتنا ويبدو لنا بمثابة تصحيح الواقع فيما ينبّهنا إلى أنّنا أسأنا التذكّر ويصبح مظهر الوجه الذي أهملناه آخر مرّة، وقد أضحى لهذا السبب

نفسه الأكثر تأثيراً في هذه المرة والأوفر حقيقة والأكثر تصويباً يصبح مادّة حلم وذكريات وإنمّا الصورة الواهنة المستديرة والملامح الناعمة الحالمة ما سوف نرغب في رؤيته ثانية. ويبادر إذ ذاك من جديد في المرّة التالية ما كان حازماً في العينين الثاقبتين والأنف المستدقّ ليصحّح الفرق الكائن بين رغبتنا والموضوع الذي حسبتُ أنها تقابله. ولم يكن ذلك الإخلاص للانطباعات الأولية الماديّة الصرفة التي أعود فألقاها كلّ مرّة بالقرب من صديقاتي، لم يكن يتعلّق بالطبع بمحض ملامح وجههنّ فقد رأينا أنني كنت أتأثّر أيضاً بصوتهن، وربمّا كان أوقع أثراً (لأنّه لا يزودّنا بالمساحات الفريدة الشهوانية نفسها فحسب، بل يؤلّف جزءً من الهاوية التي لا يدرك قرارها والتي تولي دوار القبلات التي لا أمل فيها)، صوتهن الشبيه بالرنّة الفريدة لآلة صغيرة كانت كلّ منهنّ تضع كامل ذاتها فيها وكانت تنفرد بها وكان هذا الخطُّ العميق أو ذاك في واحد من تلك الأصوات،خطّ رسمته نبرة خاصّة، كان يدهشني حينما أتعرّفه بعدما نسيته حتّى إنّ التصويبات التي كنت أضطرّ إلى القيام بها في كل لقاء جديد للعودة إلى الدقّة التامّة إنمّا كانت على حد سواء تصويبات ضابط أوتار أو أستاذ نشيد ورسّام.

فأما التلاحم والانسجام اللذان كانت تنعدم فيهما منذ بعض الوقت، من جراء المقاومة التي تبديها كل واحدة في وجه توسّع الأخريات، الموجات العاطفية المختلفة التي تشيعها في نفسي تلك الفتيات فقد اختلا لصالح "ألبيرتين" في عشيّة كنّا نلعب فيها لعبة الخاتم، وكان ذلك في حرج صغير فوق الجرف، وإذ كنت بين فتاتين غريبتين عن المجموعة الصغيرة وقد جرى اصطحابهما لأنه كان ينبغي أن نكون كثيري العدد في ذلك اليوم أخذت أنظر نظرة حسد إلى جار"ألبيرتين"، وكان شاباً، وأقول بيني وبين نفسي إنه لو اتفق لي مكانه لاستطعت ملامسة يدي صديقتي في أثناء هذه الدقائق غير المرتجاة التي ربما لن تعود، ولعلها استطاعت أن تذهب بي بعيداً جداً. وملامسة يدي "ألبيرتين" وحدها ربما بعثت النشوة في نفسي حتى بمعزل عن النتائج التي قد تستجرّها ولاريب، لا لأنني لم أشاهد في يوم أجمل من يديها، فقد كانت يدا "آندريه"، حتى ضمن زمرة صديقاتها، وهما هزيلتان وأكثر نعومة، تزخران كأنما بحياة خاصة تسلس القياد لأوامر الفتاة ولكنها مستقلة، وكانتا تمتدان في الغالب أمامها كسلوقييّن جميلين بصنوف من التراخي والأحلام الطويلة وتمطيات مفاجئة لإحدى السلاميات والتي قام "إيلستير" من جرائه بدراسات عديدة حول هاتين اليدين. وكانتا في واحدة منها تشاهد فيها "آندريه" وهي تدفئهما قرب النار تكتسبان تحت الأضواء الشفافية المذهبة التي لورقتين خريفيّتين. ولكن يدي "ألبيرتين"، وهما أوفر سمنة، كانتا تستسلمان لحظة ثم تقاومان ضغط اليد التي تشد عليهما مخلفة إحساساً خاصاً تماماً - لقد كان للشد على يد "ألبيرتين" عذوبة تشيع في الحواس وكأنما تنسجم مع لون بشرتها الوردي الضارب قليلاً إلى البنفسجي كان ذلك الشد يبدو وكأنه يدخلك في الفتاة، في أعماق حواسها، كمثل رنين صوتها اللا محتشم على غرار الهديل أو بعض الأصوات. لقد كانت في عداد تلك النساء اللواتي يولينك متعة كبيرة في الشد على يدهن حتى لتمتنّ للحضارة التي جعلت المصافحة عملاً مصرّحاً به بين الشبّان والشابات في تلاقيهم. ولو أن عادات التأدّب المرتجلة أحلّت محلّ الشد على الأيدي حركة أخرى لكنت نظرت كل يوم إلى

يدي"ألبيرتين" المحرّمتين وبي شوق إلى معرفة ملمسهما يماثل في حرارته شوقي إلى معرفة طعم وجنتيها. ولكني لم أكن أتطلع في متعة الاحتفاظ بيديها بين يدي فترة طويلة إلى تلك المتعة وحدها لو كنت بجوارها في لعبة الخاتم. فكم من صنوف البوح والتصريحات التي كتمها الحياء حتى ذاك كنت أستطيع أن أحمّل بها بعض الضغط على يديها، وكم كان يهون عليها، إذ تستجيب بضغط آخر، أن تعرب لي عن قبولها، وأي تواطؤ وأية بدايات تلذذ! كان يمكن أن يحرز حبي في مدى بضع دقائق أقضيها على هذا النحو بالقرب منها تقدماً أوفر مما تم له مذ عرفتها. وإذ أحسست أنها لن تدوم طويلاً وأنها صائرة إلى نهايتها عما قريب، إذ لن نستمر وقتاً طويلاً دونما شك في هذه اللعبة الصغيرة، وأنه ما إن تنتهي حتى يفوت الأوان، لم أعد أطيق اصطباراً. وتركتني عمداً آخذ الخاتم، وحينما أصبحت في الوسط تظاهرت لدى مروره بأني لم أنتبه له ولاحقته بنظراتي بانتظار اللحظة التي سيقع فيها بين يدي جار "ألبيرتين" التي كانت وهي تضحك بكل قواها مورّدة الوجنتين تماماً وسط الحماسة والمسرّة اللتين يشيعهما اللعب. وقالت لي "آندريه": "إننا بالضبط في الغابة الجميلة"، وهي تشير إلى الأشجار التي تحيط بنا بابتسامة في العين خُصِصتُ بها وحدي وتبدو وكأنها تمر من فوق رؤوس اللاعبين كما لو كنّا وحدنا على قدر من الذكاء يمكننا من بلوغ ازدواج الشخصية والإدلاء بشأن اللعبة بملاحظة ذات طابع شاعري. وبلغت بها رقة روحها أن أخذت تغني دون أن تكون بها رغبة في ذلك: "لقد مر من هنا ابن مقرض الغابة يا سيداتي، لقد مر من هنا ابن مقرض الغابة الجميلة " شأنها شأن الذين لا يستطيعون الذهاب إلى "تريانون" دون أن يقيموا فيه احتفالاً من طراز لويس السادس عشر، أو الذين يجدون إثارة في أن يُنْشَدَ لحن في الإطار الذي كتب من أجله. ولعلني على العكس كنت اغتممت دونما شك ألا أرى روعة ذلك الإنجاز لو اتسع لي الوقت للتفكير فيه. ولكن فكري كان في مكان آخر. وقد شرع اللاعبون واللاعبات يدهشون لغبائي وأنني لا آخذ الخاتم. وكنت أنظر إلى "ألبيرتين"الجميلة اللامبالية المرحة التي تزمع أن تصبح بجواري، دون أن تتوقع ذلك، حينما أوقف الخاتم أخيراً في اليدين اللازمتين بفضل حيلة لم تكن ترتاب بها ولولا ذاك لأغضبتها. وفي حرارة اللعب انحلّ شعر "ألبيرتين" الطويل وتهاوى خصلاً جعدة على وجنتيها اللتين كان يُبرز لونَ بشرتهما الوردية أفضل من ذي قبل بفضل سواده الجاف. وقلت لها وأنا أميل على أذنها كيما أتقرّب منها: "إن لك جدائل "لوراديانتي"و "إيليونوردوغويين" وسليلتها التي أحبها "شاتوبريان" حباً جمّاً. ويجدر بك أن يظل شعرك على الدوام مسترسلاً بعض الشيء" وفجأة مرّ الخاتم في يد جار "ألبيرتين"، فوثبت في الحال، وفتحت يديه بشراسة وأمسكت بالخاتم. واضطر أن يبادر إلى مكاني في وسط الدائرة واحتللت مكانه إلى جانب "ألبيرتين". كنت لبضع دقائق خلت أحسد ذلك الشاب حينما كنت أبصر يديه تلتقيان في كل لحظة، بانزلاقهما على الحبلة، بيدي "ألبيرتين". أمّا الآن وقد جاء دوري فلم أعد أحسّ، وأنا شديد الحياء لأبحث عن تلك الملامسة، شديد الانفعال كيما أتذوّقها، بغير خفق قلبي السريع المؤلم. وفي إحدى اللحظات أحنت "ألبيرتين" صوبي محيّاها المكتنز المورّد بهيئة المتواطئ متظاهرة بذلك أن الخاتم معها كيما تخدع "ابن مقرض" وتحول دون أن ينظر إلى الجانب الذي يمر فيه الخاتم. وأدركت في الحال أن ما كانت تضمره نظرة "ألبيرتين" إنما يتعلق بتلك الخدعة،

ولكني اضطربت إذ رأيت صورة سرّ واتفاق لا وجود لهما بيني وبينها تمر على هذا النحو في عينيها، والصورة محض تظاهر لضرورات اللعبة، إلا أنه بدا مذ ذاك أن السرّ والاتفاق ممكنان ولعلهما يجلبان لي عذوبة سماوية. وفيما كانت الفكرة تلهب مخيلتي أحسست بيد "ألبيرتين" تضغط ضغطاً خفيفاً على يدي وأصبعها اللطيف ينزلق تحت إصبعي ورأيت أنها توجّه إليّ في الوقت نفسه غمزة من عينيها كانت تحاول أن تجعلها خفيّة، وتركّزت في الحال، دفعة واحدة، جمهرة من الآمال ظلت حتى ذاك خفيّة عليّ، وفكرت في نفسي قائلاً وأنا في قمة الفرح: "إنها تغتنم فرصة اللعبة كي تشعرني بأني أحسن في عينها"، قمة هويت منها في الحال حينما سمعت "ألبيرتين" تقول بحنق: "خذه، ويحك، فقد انقضت ساعة وأنا أعطيك إياه". وأفلتُّ الحبلة وقد دوخني الغم فأبصر "ابن مقرض" الخاتم وأنقض عليه واضطررت أن أعود إلى الوسط يائساً وأنا أنظر إلى الحلقة المجنونة التي توالي رقصها من حولي وتلاحقني صيحات جميع اللاعبات الساخرة فأضطر للرد عليها أن أضحك في حين لارغبة لي في ذلك، فيما لا تكف "ألبيرتين" عن قولها: "لا يلعب الناس حينما لا يريدون الانتباه وكيما يخسر غيرهم. لن ندعوه من بعد في الأيام التي نلعب فيها "آندريه" أو لا أجيء أنا ". وشاءت "آندريه"، وهي متفوقة في اللعب وكانت تغني أغنية الغابة الجميلة "التي ترددها"روزموند" بداعي روح التقليد ودونما قناعة، شاءت أن تشغلني عن مآخذ "ألبيرتين" عليّ بقولها: "نحن على خطوتين من محلة "كرونييه" التي كنت راغباً جداً في زيارتها. هيا، فإني سأقودك إلى هناك في درب صغير جميل بينما تتصرّف تلك المجنونات كأطفال في الثامنة "ولما كانت "آندريه" شديدة اللطف معي فقد قلت لها في الطريق كل ما يبدو لي من شأنه أنه يحبّبني إلى هذه الأخيرة. وأجابتني إنها بدورها تحبها كثيراً وتجدها ظريفة، بيد أن امتداحي لصديقتها لم يبدُ وكأنه يسرها. وفجأة توقفت في الدرب الصغير الخالي وقد أصابتني في الصميم ذكرى حلوة من أيام الطفولة: فقد تعرّفت، بفضل الأوراق المقطّعة الملتمعة التي تمتد ناحية العتبة، دغلاً من شجيرات الزعرور البيض تعرّت من أزهارها، للأسف، منذ أواخر الربيع. وتدافع من حولي عبق من أشهر مريمية قديمة وأمسيات آحاد واعتقادات وغوايات منسيّة ووددت لو ألتقطها. وتوقفت مقدار ثانية وأفسحت لي "آندريه" المجال بتبصّر رائع للتحدث لحظة مع أوراق الشجيرة وساءلتها عن أخبار الأزهار، أزهار الزعرور البيضاء تلك الشبيهة بفتيات مرحات طائشات ذوات غنج وتقى. كانت الأوراق تقول لي: " لقد ارتحلت تلك الأوانس منذ فترة طويلة " وربما ظننت أنني ما كنت أبدو، بالنظر إلى الصداقة العظيمة التي أدّعي أني أكنها لها، على اطلاع تام بعاداتها، صداقة عظيمة ولكن صاحبها لم ير أزاهيره ثانية منذ سنوات كثيرة على الرغم من وعوده مع أنها سبق أن كانت حبي الأول لاحدى الأزاهير كما سبق أن كانت "جيلبيرت" حبي الأول لإحدى الفتيات. وأجبت قائلاً: "أجل، أعلم، إنّها ترتحل في حوالي النصف من حزيران، ولكنما يسرني أن أرى المكان الذي سكنت فيه ههنا. فقد جاءت تزورني في "كومبريه" داخل غرفتي وقد جاءت بها أمي عندما كنت مريضاً؛ وكنا نعود فنلتقي مساء السبت في الشهر المريمي. وهل يمكنها الذهاب إليه هنا؟" – "بالطبع ! ثمة اهتمام كبير على أية حال بدعوة تلك الأوانس إلى كنيسة "سان دوني دي ديزير"، وهي أقرب رعيّة في الجوار. " – "والآن كيف أراها إذن؟" – "لن يكون ذلك قبل شهر أيار من

السنة القادمة" - "وهل يمكنني التأكد أنها ستكون هناك؟ " - "كل سنة بانتظام . "- "ولكنني لا أدري إن كنت سألقى المكان بالضبط. " - "بلى! فتلك الأوانس بالغات المرح لا يتوقفن عن الضحك إلا لإنشاد الترانيم حتى إنه لا مجال ثمة للخطأ وستتعرّف عطرها من أول الدرب. "

ولحقت بـ"آندريه" وعدت أثني على "ألبيرتين"أمامها. كان يبدو مستحيلا في نظري أن لا تردّد الثناء على مسمعها بسبب الإلحاح الكبير الذي أبديته. ولكني لم أُبلّغ في يوم أنّ "ألبيرتين" عرفتها. مع أن "آندريه"كانت أكثر إدراكاً منها لأمور القلب وتبدي رقة في تلطّفها، فالعثور على النظرة والكلمة والفعلة التي يمكن أن تشيع السروربراعة ما بعدها براعة، وكتم ملاحظة ربما أولت غماً، والتضحية (فيما تبدو وكأنما لا تضحية هناك) بساعة من اللعب، بل بالصباح بطوله، وبحفلة راقصة في الهواء الطلق لتظل إلى جانب صديق أو صديقة كئيبة ولتعرب له على هذا النحو أنها تفضل مجرد الاجتماع به على تلك المتع الطائشة، تلكم كانت صنوف لطفها المعتادة. إلا أنك حينما كنت تزداد بها معرفة فإنما كان يخيل إليك أن أمرها أمر هؤلاء الرعاديد الأبطال الذين يرفضون أن يخافوا والذين تبدو شجاعتهم جديرة بالثناء على وجه الخصوص. لكأنّما لم يكن في أساس طبيعتها شيء من تلك الطيبة التي تعرب عنها في كل حين يدفعها التأنق الأخلاقي والإحساس والمقصد الكريم في أن تظهر مظهر الصديقة المحبة. وكان يبدو، إمّا أصغيتَ إلى الأشياء الحلوة التي تنقلها إليّ عن مودّة ممكنة بيني وبين "ألبيرتين"، أنّه ربما انبغى أن تعمل بكل قواها على تحقيقها ولكنها، وربما كان الأمر تصادفاً، لم تلجأ ألبتة إلى أقلّ ما تملك ممّا يمكن أن يجمعني بـ"ألبيرتين"، ولست أقسم أنْ لم يبعث سعيي لخطب ودّ "ألبيرتين" سخطاً في نفسها، تحسن كتمه على أية حال وربما حاربته عن رهافة شعور، إن هو لم يلد لدى صديقتها حيلاً خفية من شأنها مقاومته. ولعل "ألبيرتين" كانت عاجزة عن آلاف صنوف اللطف المتأنق الذي تملكه "آندريه"، بيد أني لم أكن متيقناً من عمق الطيبة لدى هذه مثلما تمّ لي ذلك فيما بعد بشأن الأولى. كانت "آندريه"، إذ تبدو على الدوام رقيقة متسامحة إزاء طيش "ألبيرتين" المتفجر حيوية، تجود لها بأقوال وبسمات تطبعها الصداقة، بل وأكثر، فقد كانت تتصرف تصرف صديقة. لقد رأيتها يوماً إثر يوم تنفق، كيما تفيد تلك الصديقة الفقيرة من ترفها وكيما تسعدها، تنفق من الجهد، دون أن تكون لها أية مصلحة، أكثر من رجل بلاط يريد كسب حظوة لدى الملك. كانت رائعة عذوبةً وكلماتٍ حزينةً ولذيذة حينما يُرثَى في حضرتها لفقر "ألبيرتين" وتتكلف في سبيلها جهوداً تفوق ألف مرّة ما لعلها تنفق في سبيل صديقة غنية. ولكن سحابة تكاد لا ترى كانت تغشي جبين "آندريه" وعينيها إن قال أحد أمامها إنّ "ألبيرتين" ليست فقيرة بالقدر الذي يقولون؛ وكانت تبدو معكّرة المزاج. فإن بلغ بهم أن يقولوا إنّ تزويج "ألبيرتين" أقلّ صعوبة، أية كانت الأحوال، ممّا يظنّون كانت تعارضك بقوّة وتردّد بما يقارب الحنق: :بلى، واأسفي، سوف لا يمكن تزويجها! إني أعلم ذلك تمام العلم، والأمر يبعث الغم في نفسي!" وكانت حتى الوحيدة من بين تلك الفتيات التي لعلها لم تردّد أمامي ألبتّة، فيما يخصني، أمراً مزعجاً إلى حدّ ما أمكن أن يُقال عني. بل وأكثر من ذلك كانت تتظاهر، إن رويت عنه بنفسي، بأنها لا تصدقه أو هي تفسره بما يجعل القول عديم الأذى وإنما مجمل هذه الصفات ما يسمى

باللباقة. وهي وقف على الناس الذين يهنئوننا إن ذهبنا إلى الميدان، ويضيفون أنه لم يكن ما يدعو للإقدام على ذلك كي يزيد في أعيننا من الشجاعة التي أبديناها دون أن نكون اضطررنا إليها. وهم نقيض الذين يقولون في المناسبة نفسها: "لابد أنك شعرت بازعاج كبير في أن تقاتل، ولكنك لم تستطع من جهة أخرى أن تقبل بمثل تلك الإهانة وما كان يمكنك أن تفعل غير ما فعلت." ولكن، بما ان لكل أمر ماله وما عليه، لئن دلت المتعة أو اللامبالاة لدى أصدقائنا بأن يرددوا على مسامعنا أمراً مهيناً قيل بحقنا على أنهم لا يتعاطفون معنا لحظة يحدثوننا ويغرسون الدبوس والسكين في جلدنا وكأنما في كرة منفوخة، فإن فن كتمنا على الدوام ما يمكن أن يكدرنا فيما بلغهم عن أعمالنا أو في الرأي الذي أوحت به إليهم تلك الأعمال إنما يمكن أن يدل لدى الفئة الأخرى من الأصدقاء، لدى الأصدقاء ذوي اللباقة الجمة، على قدر كبير من النفاق. وإنه لا ضير منه إن هم بالفعل لا يستطيعون التفكير بالسوء وإن كان ما يقال من سوء يعذبهم بقدر ما قد يعذبنا بدورنا، كنت أظن أن تلك حال "آندريه"، دون أن أتأكد تماماً مع ذلك من الأمر .

وكنا قد خرجنا من الغابة الصغيرة وسرنا في مجموعة من الدروب التي قلّما تطرقها الأقدام، وتبدو"آندريه" عارفة بها تماماً. وقالت لي فجأة: "هيا، إليك محلة "كرونييبه" الشهيرة، وقد حالفك الحظ إلى ذلك، إليكها في الوقت الذي رسمها فيه"إيلستير" وفي الضياء نفسه." على أني كنت لا أزال شديد الغم لأنني هويت في أثناء لعبة الخاتم من قمة الآمال تلك. ولذلك لم يتيسر لي، بالمتعة التي لابد كنت أحسست بها لولا ذاك، أن أميز تحت قدمي"الإلهات "البحرية المختبئة بين الصخور حيث تتّقي الحر، تلك التي ترصّدها "إيلستير" وفاجأها تحت طبقة لونية عاتمة في مثل جمال ما قد تصنعه يد أمثال "ليوناردو"، "الظلال" الرائعة المحتمية الخفية، الرشيقة الصامتة، المتأهبة لدى أول خفقة نور للهرب تحت الصخور والاختباء في حفرة، وسرعان ما تعود، ما إن يزول خطر الشعاع الضوئي، بالقرب من الصخرة أو الأشنية وتبدو،في أشعة الشمس مفتّتة الحروف والمحيط الشاحب، وكأنها تسهر على إغفاءتهما حارسات رشيقات لاحراك بهن يُبرزن على صفحة الماء جسمهن اللزج والنظرة المتيقظة في عيونهن الداكنة وعدنا للقاء الفتيات الأخريات بغية العودة، كنت أعلم الآن أني أحب "ألبيرتين"، ولكني ما كنت أهتم واأسفي بأن أطلعها عليه ذلك أنه منذ زمن اللعب في "الشانز يليزيه"، إن ظل من تعلق بهم قلبي على التوالي متماثلين تقريباً، فقد أضحى تصوري للحب مختلفاً. فالبوح بمودتي، وإعلانها لمن كنت أحبها، لم يعد يبدو لي، من جهة، أحد المشاهد الرئيسية والضرورية في الحب،ولا هذا الحب حقيقة خارجية، بل متعة ذاتية فحسب. أما تلك المتعة، فقد كنت أحس أن "ألبيرتين"سوف تفعل ما ينبغي لتصونها بطيبة خاطر تتزايد بقدر ما ستجهل أني أشعربها .

لم تكن صورة "ألبيرتين" الغارقة في الضياء المنبعث من الفتيات الأخريات وحيدة في العيش داخلي أثناء تلك العودة ولكن، كما أن القمر الذي لا يعدو كونه غيمة بيضاء صغيرة ذات شكل أكثر تميزاً وثباتاً في أثناء النهار يكتسب كامل قوته بعدما يزول هذا الأخير، كذلك كانت صورة "ألبيرتين" وحدها هي التي ارتفعت من فؤادي، بعدما عدت إلى الفندق، وأخذت تتلألأ، وأخذت

غرفتي تبدو لي جديدة على نحو مفاجئ، لقد انقضى بالتأكيد زمن طويل منذ لم تعد غرفة العشية الأولى العدائية، فإننا نغيّر دون كلل في سكنانا من حولنا، وكلما جعلتنا العادة في حلّ من الإحساس ألغينا العناصر الضارّة التي كانت تجسد قلقنا من لون وحجم ورائحة. ولم تعد كذلك الغرفة التي لا تزال واسعة السلطان على إحساسي، لا لتعذبني بالتأكيد، بل لتزودني بالمسرة، لم تعد حوض الأيام الحلوة الشبيه بمسبح كانت تلك الأيام تبعث فيه إلى نصفه التماعات زرقة بللها النور يغطيها مقدار لحظة شراع هارب ينعكس فيها هوائياً أبيض كدفقة من دفء، ولا غرفة عشيات الرسم الجمالية البحتة. لقد أضحت الغرفة التي مكثت فيها العديد من الأيام حتى لم أعد أبصرها من بعد وها إني أخذت من جديد أفتح عيني عليها ولكن من وجهة النظر الأنانية هذه التي هي وجهة نظر الحب في هذه المرة كنت أفكر أن المرآة الجميلة المائلة والمكتبات الأنيقة المزجّجة سوف تخلف في نفس "ألبيرتين" فكرة طيبة عني إن هي جاءت لزيارتي وعوضاً عن مكان عبور أقضي فيه لحظة قبل الهرب باتجاه الشاطئ أو باتجاه "ريفبيل" أخذت غرفتي تصبح من جديد حقيقية وغالية علي وأخذت تتجدد إذ كنت أنظر إلى كل قطعة أثاث فيها وأقدرها بعيني "ألبيرتين" .

وبعد لعبة الخاتم ببضعة أيام أسعدنا أعظم سعادة، وقد حملتنا أقدامنا إلى مكان بعيد جداً في إحدى نزهاتنا، أن تلقي في "مينفيل" عربتين صغيرتين بعجلتين يمكّناننا من العودة ساعة العشاء، وقد كان من جراء حدة حبي المتنامي لـ " ألبيرتين" أن عرضت على التوالي على "روزموند" و "آندريه" أن يصعدا إلى جانبي، ولم أفعل مرة واحدة بالنسبة إلى "ألبيرتين"، وإن حملت الجميع بعد ذلك،بفضل اعتبارات ثانوية تتعلق بالساعة والطريق والمعاطف، على أن يقرروا، وكأنما غصباً عني، أن أفضل أمر عملي هو أن أنقل معي "ألبيرتين" التي تظاهرت بأنني أسلّم برفقتها مكرهاً. ولكن الحب إذ يسعى للأسف إلى التمثل التام لأحد الكائنات، وليس فيهم من كان صالحاً للأكل بمجرد المحادثة، فعبثاً كانت "ألبيرتين" لطيفة ما استطاعت في أثناء تلك العودة فقد تركتني، بعد ما أوصلتها إلى منزلها، سعيداً ولكني أشد جوعاً إليها مما كنت ساعة البداية ولا أحتسب اللحظات التي قضيناها سوية سوى تمهيد، لا أهمية له في حد ذاته، لتلك التي سوف تتلوها. ولكنما كان يتّسم بذلك السحر الأول الذي لا تلقاه ثانية. لم أكن بعد قد طلبت شيئاً من "ألبيرتين"، وكان بوسعها أن تتخيل ما كنت أرغب فيه، وإذ هي غير متيقنة منه، أن تفترض أني لا أرمي إلا إلى علاقات لا هدف واضحاً لها ولا بد أن صديقتي تلقى فيها هذا الغموض اللذيذ الزاخر بالمفاجآت المرتقبة الذي هو الحب الخيالي.

ولم أحاول لقاء "ألبيرتين" على الإطلاق في الأسبوع التالي. كنت أتظاهر بتفضيل "آندريه" فالحب ينشأ، وتود أن تظل في نظر التي تحبها المجهول الذي يمكن أن تحبه، ولكنك بحاجة إليها، وأنت أقل حاجة إلى ملامسة جسدها منك إلى انتباهها وفؤادها. تدس في رسالة قولاً مسيئاً يضطر اللامبالية أن تطلب منك لفتة لطيفة، فيضيق الحب بالنسبة إلينا بحركة متناوبة التشابكات التي لا نستطيع فيها من بعد لا أن لا نحب ولا أن نحب. كنت أكرّس لِ"آندريه" الساعات التي تذهب فيها الأخريات إلى حفلة بعد الظهر أعلم أن "آندريه" تضحّي بها من أجلي بسرور، ولعلها كانت

تضحي بها من أجلي حتى بانزعاج بداعي التأنق الأخلاقي وكي لا تخلّف لدى الآخرين ولدى نفسها فكرة أنها تعلق أهمية على متعة دنيوية نسبياً وهكذا كنت أتدبر أمري لتكون معي وحدي في كل مساء، ولا أفكر في إثارة غيرة "ألبيرتين"، بل في زيادة مهابتي في عينيها أو ألا أفقدها على الأقل إذ أنقل إلى "البيرتين" أنها هي من أحب لا "آندريه" وما كنت أقول الأمر كذلك لـ "آندريه" مخافة أن تردده لها وحينما كنت أتحدث عن "ألبيرتين "مع "آندريه" كنت أتظاهر بفتور وربما كانت "آندريه" أقل اغتراراً به مني وبسرعة تصديقها الظاهرة كانت تتظاهر بتصديق قلة اكتراثي بـ "ألبيرتين " وبالرغبة في أتمّ وفاق ممكن بيني وبين "ألبيرتين"، والأرجح أنها على العكس لم تكن تصدق الأولى ولا تتمنى الثاني، وفيما كنت أقول لها إني قليلا ما أهتم بصديقتها لم أكن أفكر إلا في أمر، أن أحاول إقامة صلة بالسيدة "بونتان" التي جاءت لتقيم بضعة أيام على مقربة من "بالبيك" والتي تزمع "البيرتين" أن تمضي لديها ثلاثة أيام. ولم أدع بالطبع لـ " أندريه" أن تستشفّ الرغبة وحينما كنت أحدثها عن أسرة "ألبيرتين" فبالمظهر الشارد أكثر ما يكون الشرود أفعل. وما كانت تبدي "آندريه" بإجاباتها الواضحة أنها ترتاب بصدقي. فلماذا زلقت إذن وقالت لي ذات يوم: "لقد رأيت بالضبط عمة "البيرتين" ؟صحيح أنها لم تقل لي :"لقد تبينت تماماً في أقوالك التي تلقيها كأنما جزافاً أنك لا تفكر إلا في إقامة صلات بعمة "ألبيرتين" ولكنما كانت كلمة "بالضبط" تبدو وكأنها إنما تتعلق بوجود تلك الفكرة في ذهن "آندريه"، تلك الفكرة التي ترى أكثر تأدباً أن تخفيها عني كانت من فصيلة بعض النظرات وبعض الحركات التي، وإن لم تكتسب صيغة منطقية عقلانية أعِدَّت إعداداً مباشراً في سبيل إفهام من يسمع، إنما تبلغ إليه مع ذلك بمدلولها الحقيقي، مثلما الكلام البشري يعود، بعد ما استحال كهرباء في خط الهاتف، فينقلب كلاماً من جديد بغية أن يتم فهمه، وكيما أزيل من ذهن "آندريه" فكرة اهتمامي بالسيدة "بونتان" لم أعد أتحدث عنها بشرود فحسب، بل بنية الإضرار بها، وقلت إني التقيت فيما مضى بتلك المجنونة وأملي ألاّ يتفق لي ذلك من بعد.

وحاولت أن أحصل على وعد من "إيلستير" بأن يحدثها عني ويجمعني بها، ولكن دون أن أقول لأحد إنني رجوته بذلك ووعدني بأن يعرّفني بها وهو مع ذلك في دهشة أن أتمنى الأمر فقد كان يعتبرها امرأة محتقرة دساسة نفعية بقدر قلة ما تثير من اهتمام، وإذ فكرت أن "آندريه"، إن أنا لقيت السيدة "بونتان" سوف تعلم الأمر عاجلا أم آجلا فقد ظننت من الخير لي أن أنبئها بذلك فقلت لها:"إن الأمور التي يحاول المرء أكثر ما تكون المحاولة الهرب منها هي التي يبلغ بنا الأمر أن لا نستطيع تجنبها فليس في الدنيا ما يمكن أن يزعجني بقدر لقاء السيدة "بونتان" ولن أفلت منه مع ذلك إذ يزمع "إيلستير" أن يدعوني وإياها" وصاحت "آندريه" بمرارة: "لم أشك في ذلك لحظة واحدة "، فيما راحت نظرتها التي وسعها الاستياء وعكّرها تلاحق ما لست أدري من أمر خفي لم تكن كلمات "آندريه" تؤلف العرض الأوفر ترتيباً لفكرة يمكن تلخيصها كما يلي: "أعلم تمام العلم أنّك تحب "البيرتين "وأنك تفعل ما بوسعك للتقرب من أسرتها" ولكنها كانت البقايا التي لا شكل لها والتي يمكن إعادة تأليفها، بقايا تلك الفكرة التي إذ صدمتها على الرغم من "آندريه" لم يكن لتلك الأقوال، شأن كلمة "بالضبط" من دلالة إلا بالدرجة الثانية، الأمر الذي يعني أنها من تلك التي

توحي إلينا (وليست من التوكيدات المباشرة) بالتقدير أو الارتياب إزاء أحد الناس وتوقعنا في خلاف معه.

وبما أن "آندريه" لم تصدّقني حينما كنت أقول لها إن أسرة "البيرتين" لا تثير اهتمامي فلأنها كانت تظن أني أحب "البيرتين "والأرجح أنها ما كانت سعيدة بذلك.

كانت دوماً ثالثتنا في لقاءاتي بصديقتها. بيد أن ثمة أياماً كان علي أن ألقى فيها "البيرتين" وحدها، أياما كنت أنتظرها انتظار المحموم وتنقضي دون أن تجيئني بأي أمر حاسم ودون أن تكون ذلك اليوم الهام الذي كنت أعهد بدوره في الحال إلى اليوم التالي الذي لن يؤديه على نحو أفضل. وهكذا كانت تنهار، مثلما الأمواج، تلك القمم الواحدة تلو الأخرى، وتحل غيرها محلها في الحال.

وبعد حوالي شهر من اليوم الذي لعبنا فيه لعبة الخاتم قيل إن "البيرتين" تزمع الذهاب في صباح الغد لقضاء ثمان وأربعين ساعة لدى السيدة "بونتان" وسوف تأتي، إذ هي مضطرة أن تستقل القطار في ساعة مبكرة، لتنام عشية ذلك اليوم في الفندق الكبير الذي تستطيع منه بوساطة سيارة النقل العامة أن تستقل أول قطار دون إزعاج الصديقات اللواتي تقطن عندهن، ورويت لـ" آندريه" عن ذلك، فأجابت بلهجة المستاء:"لست أصدق لأني متيقنة أن "البيرتين" لن تقبل أن تلقاك إن جاءت وحدها إلى الفندق، فلن يكون ذلك "أصوليّاً " تضيف وهي تستخدم صفة أخذت تحبها كثيراً، ومنذ وقت قليل، بمعنى "ما يفعله الناس" وأقول ذلك لأني أعرف آراء "البيرتين" أما أنا، فما عسى يهمني أن تراها أو لا تراها ؟ الأمر سواء عندي" .

ولحق بنا "أوكتاف" الذي لم يتردد في أن يقول لـ"آندرية" عدد النقاط التي سجلها بالأمس في لعبة الغولف، ثم "البيرتين"التي كانت تتنزه وهي تحرك لعبة "الديابولو" مثلما تحرك راهبة مسبحتها. كانت بفضل تلك اللعبة تستطيع البقاء ساعات وحدها دون أن يصيبها الضجر. وما إن لحقت بنا حتىّ بدا لي رأس أنفها الثائر الذي كنت أغفلته وأنا أفكر فيها في هذه الأيام الأخيرة وتحت شعرها الأسود تعارضت استقامة جبينها، وما كانت تلك أول مرة، مع الصورة الحائرة التي احتفظت بها، فيما يعلق بياضه بشدة في الحاظي، وأخذت "البيرتين" تتشكل ثانية أمامي وهي تنفض عنها غبار الذكرى .

إن لعبة الغولف تورث عادة المتع الانفرادية، والمتعة التي توليها لعبة "الديابولو" من ذلك القبيل بالتأكيد، ولكن "البيرتين" استمرت تلعب بها، بعد ما لحقت بنا، فيما هي تحادثنا، كمثل سيدة بادرت صديقات لزيارتها فلا تتوقف لذلك عن شغل صنارتها .

وقالت لِـ"أوكتاف": "يبدو أن السيدة "دوفيلباريزيس" اعترضت لدى والدك (وسمعت خلف كلمة "يبدو"هذه شيئاً من ذلك الجرس الخاص بـ"البيرتين"، وفي كل مرة كنت ألاحظ أنني نسيته أتذكر في الوقت نفسه أنيّ لمحت قبل ذلك خلفه هيئة "البيرتين" الحازمة والفرنسية. كان يمكن أن

أكون كفيفاً وأن أتعرف بعض صفاتها الرشيقة والقروية في ذلك الجرس وفي رأس أنفها المدبب سواء بسواء. فقد كان هذا وذاك يتساويان ويمكن أن يحل أحدهما محل الآخر وكان صوتها كالذي سوف يحققه، فيما يقال، جهاز الهاتف الصورة في المستقبل:لقد كانت الصورة البصرية تبرز بوضوح في رنة الصوت) ولم تكتب على أية حال إلى والدك فحسب، بل إلى مختار "بالبيك" في الوقت نفسه كي لا يلعبوا من بعد بالديابولو فوق السد، فقد قذفوا طابة في وجهه" .

- "أجل، لقد سمعت من يروي عن هذا الاحتجاج، والأمر مضحك، فليس ههنا الكثير من صنوف التسلية".

ولم تشارك "آندريه" في الحديث، فهي لا تعرف، ولا تعرف "ألبيرتين"ولا "أو كتاف"كذلك، السيدة "دوفيلباريزيس" وقالت "آندريه" مع ذلك: "لست أدري لماذا أقامت تلك السيّدة الدنيا وأقعدتها، فقد أصابت طابة أيضاً السيّدة "دوكامبرمير"العجوز ولم تتقدّم بشكوى" وأجاب"أو كتاف" بلهجة جديّة وهو يشعل عود ثقاب: "سأشرح لك الفارق، فالسيّدة "دوكامبرمير" فيما أرى، امرأة من دنيا المجتمع الراقي والسيّدة "دوفيلباريزيس" وصوليّة ها أنت ذاهبة إلى ميدان الغولف بعد الظهر؟" وفارقنا ومثله فعلت "آندريه". وظللت وحيداً مع "ألبيرتين" وقالت لي: "ترى، إني أصفّف شعري الآن على نحو ما تحبّ، فانظر إلى خصلة شعري. جميع الناس يسخرون من ذلك ولا يعلم أحد من أجل من أفعله. سوف تسخر مني عمتي أيضاً، ولن أقول لها السبب كذلك".كنت أبصر وجنتي "ألبيرتين" جانبياً وغالباً ما كانتا تبدوان شاحبتين، ولكنّما كان يرويهما على ذلك النحو دم ضاف ينورّهما ويضفي عليهما تلك اللمعة التي تتّصف بها بعض صبيحات الشتاء التي تبدو فيها الحجارة المغمورة جزئياً بنور الشمس وكأنّها من الغرانيت الوردي وينبعث الفرح منها، فأما ذاك الذي كانت توليني إيّاه في ذلك الحين مشاهدة وجنتي "ألبيرتين" فقد كان في مثل حدتّه، ولكنّه يقود إلى رغبة أخرى لم تكن الرغبة في نزهة بل في قبلة. وسألتها إن كانت المقاصد التي ينقلونها عنها صحيحة فقالت:"أجل، سأقضي هذه الليلة في فندقك وسوف آوي إلى فراشي حتى قبل العشاء، إذ إنّني مصابة برشح طفيف.ويمكنك المجيء لحضور عشائي بالقرب من سريري وبعد ذلك نلعب بما تشاء.كان يسرّني أن تحضر إلى المحطّة في صباح الغد ولكنّي أخشى أن يبدو غريباً، لا في نظر "آندريه" التي تمتاز بالذكاء، بل في نظر الأخريات اللواتي سيكنّ هناك، وربمّا أثار الأمر مشكلات إن جرى ترداده على مسامع عمتي.ولكننا نستطيع قضاء هذه الأمسية معاً، ولن تعلم عمّتي شيئاً عن ذلك.إني ذاهبة لأستودع "آندريه"، فإلى لقاء قريب إذن.تعال في وقت مبكّر، تضيف مبتسمة، كي تتوافر لنا ساعات حلوة نقضيها." وعدت بالذاكرة، لدى سماع تلك الكلمات، إلى أبعد من الزمن الذي كنت أحبّ فيه "جيلبيرت"، إلى الزمن الذي كان الحبّ يبدو فيه بمثابة كيان قابل للتحقّق، لا كيان خارجيّ فحسب.ففيما كانت "جيلبيرت" التي كنت ألتقي بها في "الشانزيليزيه" غير التي أعود فألقاها في داخلي حالما أكون وحدي، فقد كانت تتجسّد "ألبيرتين" الخياليّة فجأة، تلك التي خلت، حينما كنت لا أعرفها بعد، أنّها تنظر إليّ خلسة فوق السدّ والتي بدا أنّها تعود رغماً عنها وهي تراني

أبتعد، كانت تتجسّد داخل "ألبيرتين" الحقيقيّة، تلك التي كنت أراها كل يوم والتي أظنّها مليئة بالآراء المسبقة البورجوازية وبالغة الصراحة مع عمتها.

وذهبت للعشاء مع جدّتي وكنت أحسّ في داخلي سراً لا تعرفه. كذلك كان أمر "ألبيرتين"، فغداً تكون صديقاتها معها دون أن يعلمن أن ثمة جديداً بيننا وسوف تجهل السيّدة "بونتان" حينما تقبّل ابنة شقيقها على جبينها أنّني أقف بينهما في تصفيفة الشعر تلك التي كانت تهدف، وقد خفيف على الجميع، إلى أن تحلو في عيني أنا، أنا الذي كان حتى ذاك يحسد السيّدة "بونتان" أشدّ الحسد لأنّها، وهي على صلة قربى بالأشخاص الذين تجمعهم الصلة نفسها بابنة شقيقها، كان عليها أن تلبس الحداد نفسه وتقوم بالزيارات العائليّة نفسها، فإذا أنا بالنسبة إلى "ألبيرتين" أكثر مما كانت عمتّها نفسها. فلسوف تفكّر فيّ بالقرب من عمتّها. ما الذي سوف يجري عمّا قليل، لم أكن أعرف ذلك بالتمام. ولكن الفندق الكبير والأمسية لا يبدوان لي في جميع الأحوال فارغين من بعد، فقد كانا يحتويان سعادتي. وقرعت الجرس لعامل المصعد لأصعد إلى الغرفة المطلّة على الوادي والتي استأجرتها "ألبيرتين". لقد أضحت جميع الحركات، من مثل الجلوس على مقعد المصعد، عذبة في عيني لأنّها على علاقة مباشرة بفؤادي، فكنت لا أرى في الحبال التي يرتفع بها الجهاز والدراجات القليلة التي تنتظر أن أرتقيها سوى تجسيد لآليّات فرحي ودراجاته. لم يظلّ لي سوى خطوتين أو ثلاث أقوم بها في الممّر قبل الوصول إلى تلك الغرفة التي كانت تحتوي المادّة الثمينة التي تؤلّف ذلك الجسد الموردّ – تلك الغرفة التي سوف تحتفظ، حتى وإن أزمع أن يجري فيها أعمال رائعة، بذلك الاستمرار وبذاك المظهر – الذي تبدو به بالنسبة إلى عابر السبيل غير المطّلع شبيهة بجميع الأخريات التي تجعل من الأشياء شهود المتعة الذين يصمتون بإصرار والأنجية المتزمّتين والأمينين المصونين عليها. وقطعت تلك الخطوات القليلة من فسحة الدرج إلى غرفة "ألبيرتين"، تلك الخطوات التي لم يعد باستطاعة أحد أن يوقفها، قطعتها بابتهاج وحذر، كأنّما يغمرني وسط جديد، كأنّما أنقل على مهل شيئاً من السعادة في تقدّمي، وفي الوقت نفسه بشعور غامض بالاقتدار الكليّ وأنّني أضع يدي أخيراً على ميراث كان على الأزمان ملكاً لي. ثم فكّرت فجأة أنّني مخطئ إذ تساورني الشكوك، فقد قالت لي أن أجيء بعدما تأوي إلى سريرها. كان الأمر واضحاً، وأخذت أضرب الأرض بقدميّ فرحاً وألقيت "فرانسواز" التي كانت على طريقي أرضاً وطفقت أعدو ملتمع العينين إلى غرفة صديقتي. ولقيت "ألبيرتين" في سريرها. كان قميصها الأبيض، إذ يبرز عنقها، يغيّر من نسب وجهها الذي كان يبدو أكثر تورّداً بفعل السرير أو الرشح أو العشاء. وفكّرت في الألوان التي رأيتها بالقرب منّي فوق السدّ قبل بضع ساعات والتي أزمع أخيراً أن أعرف طعمها، كانت تمتدّ على خدّها من الأعلى إلى الأسفل واحدة من جدائلها الطويلة السوداء الجعدة التي حلّتها تماماً لتشبع السرور في نفسي. وكانت تنظر إليّ مبتسمة، والوادي في النافذة بالقرب منها ينشر القمر فوقه ضياءه. وبعث في منظر عنق "ألبيرتين" العاري وتينك الوجنتين الموردّتين نشوة عظيمة (يعني أنها جعلت حقيقة العالم بالنسبة إليّ لا في الطبيعة من بعد بل في سيل الإحساسات التي لا أقوى على إيقاف اندفاعها) إلى حدّ حطّم معه ذلك التوازن القائم بين الحياة الشاسعة الدائمة التي تجري داخل كياني وحياة الكون

الهزيلة جدّاً إذا ما قورنت بها.فالبحر الذي أشاهده في النافذة إلى جانب الوادي وتكوّر نهود جروف "مينفيل" الأولى والسماء التي لم يبلغ القمر السمت فيها بعد، كلّ ذلك كان يبدو أيسر حملاً من الريش بالنسبة إلى مقلتيّ اللتين أحسّهما موسعتين صلبتين تتحفّزان لحمل العديد من الأثقال الأخرى وجميع جبال الدنيا فوق صفحتهما الرقيقة.ولم تعد دائرتهما تملؤها إلى حدّ كاف استدارة الأفق نفسها.ولعلّ كلّ ما قد يمكن أن تجيئني به الطبيعة من حياة، لعلّه كان يبدو زهيداً جدّاً ولعلّ أنفاس البحر كانت تبدو لي قصيرة جدّاً في مقابل النشقة الواسعة التي تملأ صدري.وانحنيت فوق "ألبيرتين" أريد تقبيلها.ولو انبغى أن تبادرني المنيّة في تلك اللحظة لبدا الأمر غير ذي شأن في نظري، أو بدا بالأحرى مستحيلاً لأنّ الحياة لم تكن خارج ذاتي بل كانت في ذاتي.وكنت ابتسمت إشفاقاً لو أن فيلسوفاً طلع بفكرة أنّه يقع عليّ أن أموت ذات يوم، وإن يكن بعيداً، وأن قوى الطبيعة الأزلية سوف تبقى بعدي، قوى هذه الطبيعة التي أنا مجرّد ذرّة غبار تحت قدميها الإلهيّين، وسوف تظلّ كذلك بعدي تلك الجروف المستديرة المتكوّرة وذلك البحر وضياء القمر والسماء تلك! فكيف يمكن أن يتمّ ذلك، وكيف يمكن أن يدوم العالم أكثر منّي بما أنني لم أكن ضائعاً فيه وهو الذي كان محتسباً بين ضلوعي، بين ضلوعي التي يملؤها، وما أبعد أن يفعل،ضلوعي التي ألقيت في زاوية منها إلقاء المتعالي، وأنا أحسّ بتوافر المكان لأراكم فيها الكثير من الكنوز الأخرى، السماء والبحر والجروف؟ وصاحت "ألبيرتين" قائلة: "توقّف أو قرعت الجرس"، وقد رأت أنّي أرتمي عليها لتقبيلها.ولكنّي كنت أقول في نفسي إن فتاة لا تستقدم شابّاً في الخفاء في سبيل ألا تفعل شيئاً، وهي تتدبّر أمرها كي لا تعلم عمّتها بذلك، وإنّ الجرأة تثمر على أيّة حال لدى الذين يعرفون كيف يفيدون من الفرص.كان وجه "ألبيرتين" المستدير يتخذ في نظري، في حالة الهيجان الذي ينتابني، وقد أشرق بفعل لهيب داخليّ كأنّما بفعل نور خافت، يتّخذ بروزاً يبدو فيه، وهو يحاكي دوران كرة ملتهبة، وكأنه يدور كمثل وجوه لدى "ميكيلانجلو" يذهب بها إعصار ثابت ومدوّخ.كنت على وشك أن أعرف رائحة هذه الثمرة الورديّة المجهولة وطعمها.وسمعت رنّة حثيثة متطاولة حادّة.كانت "ألبيرتين" قد قرعت الجرس بكل قوّتها.

لقد سبق أن حسبت حبّي لِـ "ألبيرتين" لا يقوم على أمل الامتلاك الجسديّ.بيد أنّه، بعدما ظهر لي بنتيجة تجربة ذاك المساء أن هذا الامتلاك مستحيل وبعد ما لم أشكّ أوّل يوم على الشاطئ أنّ "ألبيرتين" لا بدّ متهتّكة ثمّ انتقلت إلى افتراضات وسطى، بدا لي ثابتاً على نحو نهائي أنّها فاضلة حتماً.وحينما قالت لي ببرود بعد ثمانية أيّام لدى عودتها من منزل عمّتها: "إنّي أصفح عنك وبي حتّى أسف أن بعثت الغمّ في صدرك، ولكن لا تعد ألبتّة إلى مثلها"، اتّفق لي، على عكس ماتمّ حينما قال لي "بلوك" إنّه يمكن امتلاك جميع النساء،وكما لو عرفت دمية من شمع بدلاً من فتاة حقيقيّة، أن انفصلت عنها شيئاً فشيئاً رغبتي في ولوج حياتها وفي اللحاق بها في البلاد التي قضت فيها طفولتها وأن أطّلع على يدها على حياة الرياضة، ولم يعش فضولي الذهني للاطّلاع على تفكيرها حول هذا الموضوع أو ذاك بعد زوال اعتقادي بإمكان تقبيلها.وهجرتها أحلامي حالما كفّ عن تغذيتها أمل امتلاك حسبتها مستقلّة عنه، فألفت نفسها مذ ذاك حرّة أن تنصبّ على هذه أو تلك من

صديقات "ألبيرتين"، وعلى "آندريه" قبل غيرها - بحسب ما ألقى لديها من فتنة ذات يوم وحسب الإمكان والاحتمالات التي أتوقّعها في أن تحبني. بيد أنّه لو لم تكن "ألبيرتين" موجودة فربّما لم أحسّ بالمتعة التي أخذت أصيبها أكثر فأكثر في الأيّام التالية من اللطافة التي تعرب لي عنها "آندريه". ولم ترو "ألبيرتين" لأحد عن الإخفاق الذي لحق بي لديها. لقد كانت واحدة من تلك الفتيات الجميلات اللواتي يَحْسُنَّ في العين - في أسرتهن ووسط صديقاتهنّ وفي المجتمع - أكثر ممّن كنّ أوفر جمالاً وأوسع ثراء وذلك منذ أوّل شبابهنّ بسبب جمالهنّ، وعلى وجه الخصوص بسبب جاذبية وسحر يظلان غامضين إلى حدّ ما وربّما نشأ في احتياطيّ من الحيويّة يُقبل من حبتهم الطبيعة بهبات أقلّ للارتواء منها، ويفعلون على الدوام. كانت من نفر يُطلب منهم، قبل عمر الهوى وأكثر منه حينما يحلّ، أكثر ممّا يطلبون وحتّى مما يمكن أن يعطوا. لقد حازت "ألبيرتين" على الدوام منذ طفولتها إعجاب أربع أو خمس من رفيقاتها الصغيرات، ومن بينهنّ "آندريه" التي تفوقها بكثير وتعلم ذلك (وربّما كان ذلك الجاذب الذي تمارسه "ألبيرتين" غير متعمدّة على الإطلاق، ربّما كان في أصل المجموعة الصغيرة وأسهم في تكوينها). كان ذلك الجاذب يعمل حتّى في مواقع بعيدة بعض الشيء وفي أوساط ألمع نسبياً حيث يطلبون "ألبيرتين" أكثر ممّا يطلبون فتاة أكرم محتداً إن كان ثمّة رقصة بطيئة حالمة يجب أن تؤدّى. وقد نجم عن ذلك عيش هزيل في كنف السيّد "بونتان" الذي كان بخيلاً فيما يقولون ويتمنىّ الخلاص منها، كانت تدعى مع ذلك لا إلى حفلة عشاء فحسب، بل إلى المنازل لدى جماعات لعلّها لا تمتاز في نظر "سان لو" بأيّة أناقة ولكنّها تمثّل شيئاً ضخماً في نظر والدة "روز موند" أو والدة "آندريه"، وهما امرأتان بالغتا الثراء ولكنّهما لا تعرفان تلك الجماعات. وهكذا كانت "ألبيرتين" تقضي في كلّ عام بضعة أسابيع لدى أسرة أحد محافظي بنك فرنسة، وهو رئيس مجلس إدارة شركة كبرى للخطوط الحديدية. وكانت زوجة رجل المال هذا تستقبل في بيتها شخصيّات هامّة ولم تقل ألبتة عن "يومها" لوالدة "آندريه" التي كانت ترى أن تلك السيّدة غير مهذّبة ولكن الأمر لا يقلّل من اهتمامها البالغ بكلّ ما كان يجري عندها. وكانت لذلك تحثّ "آندريه" في كلّ عام على دعوة "ألبيرتين" إلى دارتهم فذلك من أعمال البرّ، تقول، أن تفسح مجال الإقامة على شاطئ البحر لفتاة لا تملك بنفسها وسيلة السفر وتكاد عمتها لا تهتمّ بها. ووالدة "آندريه" لم يكن يدفعها على الأرجح أمل أن يكوّن محافظ البنك وزوجته، إذ يبلغهما أنّها وابنتها يغمران "ألبيرتين" بحبّهما، رأياً حسنا فيهما، وهي بالأحرى لا تأمل أن تفلح "ألبيرتين"، مع أنّها شديدة الطيبة وحاذقة، في دعوتها أو دعوة "آندريه" على الأقلّ إلى حفلات الحدائق لدى رجل المال. ولكنّما يبهجها كل مساء في أثناء العشاء، فيما تتّخذ هيئة متعالية لا مبالية، أن تسمع "ألبيرتين" تروي لها عمّا جرى في القصر حينما كانت هنالك وعن الناس الذين استُقْبِلُوا فيه والذين تعرفهم جميعاً على وجه التقريب بالمشاهدة أو بالاسم. ثم إن الفكرة التي قوامها أنّها لا تعرفهم إلاّ على هذا النحو، يعني أنها لا تعرفهم، (وتدعو ذلك معرفة الناس منذ "أقدم الأزمان") كانت تضفي على صوت والدة "آندريه" أسئلة حولهم بهيئة متعالية ساهية ومن أطراف شفتيها، ولعلّها كان يمكن أن تدعها غير واثقة وقلقة بشأن أهميّة منزلتها الخاصّة لو لم تُطَمْئِنْ نفسها وتتّخذ مكانها في "واقع الحياة" بقولها لرئيس الخدم: "قل لرئيس الطهاة أن البازلاء لم تكن "ذائبة" إلى حدّ كاف." وإذ ذاك كان

يعود إليها هدوؤها. وكانت مصمّمة تماماً على ألاّ تتزوّج "آندريه" سوى رجل من أسرة رفيعة بالطبع بيد أنّه على ثراء يمكّنها هي الأخرى من اقتناء طاهٍ وحوذيّين. هو الجانب الإيجابي والواقع الفعليّ لوضع ما.فأمّا أنّ "ألبيرتين" تناولت عشاءها في قصر محافظ البنك مع هذه السيّدة أو تلك، وأنّ هذه السيّدة بلغ بها الأمر أن دعتها في الشتاء المقبل فأمر يضفي على الفتاة في نظر والدة "آندريه" نوعاً من التقدير الخاصّ الذي يقترن خير اقتران بالشفقة وحتّى بالازدراء اللذين يثيرهما سوء طالعها، والازدراء يضاعف منه أنّ السيّد "بونتان" خان، فيما يقولون، عَلَمه وانضمّ إلى الحكومة – مع أنّه ضالع إلى حدّ ما في فضيحة فتاة "بَنَمَا" على حدّ زعمهم – ولم يكن ذلك يحول دون أن تصبّ والدة "آندريه" نار ازدرائها، حبّاً بالحقيقة، على رؤوس أولئك الذين يبدو أنّهن يحسبون "ألبيرتين" من أصل وضيع. "ويحكم، إنّهم من خيرة الناس، فهم من آل "سيمونيه" بنون غير مشدّدة." صحيح أنّه بسبب الوسط الذي تتّم فيه الأمور والذي يمثّل فيه المال مثل هذا الدور وتضمن لك الأناقة فيه الدعوات لا الزواج ما كان يبدو ثمّة أنّ أيّ زواج "مقبول" يمكن أن يجيء بالنسبة إلى "ألبيرتين" كنتيجة مفيدة للتقدير المرموق الذي تتمتعّ به والذي لعلّهم لا يرون أنّه يعوّض فقرها.بيد أنّ هذا "النجاح" بمفرده، وإن لم يحمل معه أمل نتيجة في حقل الزواج، كان يثير حسد بعض الأمّهات الشرّيرات، وقد أثار حنقهنّ أن يرين "ألبيرتين" تستقبلها استقبال "بنت البيت" زوجة محافظ البنك وحتّى والدة "آندريه"، ويكدن لا يعرفنهما.وكنّ يقلن لذلك لأصدقاء مشتركين بينهنّ وبين تينك السيّدتين إن هاتين الأخيرتين سوف تثوران إن هما عرفتا الحقيقة، يعني أن "ألبيرتين" كانت تروي في منزل الأولى (والعكس بالعكس) وكلّ جوّ الألفة الذي تمّ قبولها فيه على نحو متهوّر بالكشف عنه في منزل الثانية من تلك الأسرار الصغيرة التي لاحصر لها والتي ربّما أزعج المعنيّة ازعاجاً لا محدوداً أن يُكتشف سرّها.كانت تلك النساء الحاسدات يقلن ما يقلن بغية أن يتمّ ترداد الأمر وكيما يقع الخلاف بين "ألبيرتين" ومن أخذنها في كنفهنّ.بيد أنّ تلك المهمّات لم تكن تحظى بأيّ نجاح، كما يتّفق ذلك في الغالب. فقد كانت تفوح منها رائحة المقصد الشرّير الذي يمليها وما كان من جرّاء ذلك سوى تزايد في احتقار اللواتي اتّخذن تلك البادرة.أمّا والدة "آندريه" فقد كان موقفها من "ألبيرتين" أثبت من أن تغيّر رأيها فيما يخصّها.كانت تنظر إليها بمثابة فتاة "منكودة الحظّ" ولكنّها ذات طبيعة ممتازة ولا تعرف في سبيل إشاعة السرور إلاّ الاختلافات.

ولئن بدا أن هذا الضرب من الشهرة الذي حازته "ألبيرتين" لا يتضمّن بالضرورة أيّة نتيجة عمليّة فقد طبع صديقة "آندريه" بالطابع المميّز لأشخاص لا حاجة بهم ألبتّة، وهم ممّن يُسْعَى إليهم على الدوام، أن يعرضوا أنفسهم (وهو الطابع الذي نلقاه كذلك لأسباب مشابهة في طرف آخر من المجتمع لدى نساء بأناقة عظيمة) وقوامه ألاّ يبرزوا النجاحات التي يصيبونها بل أن يخفوها بالأحرى.فما كانت ألبتة تقول عن أحدهم: "إنّه راغب في لقائي"، وكانت تتحدّث عن الجميع بعطف كبير وكما لو جرت هي خلف الآخرين وسعت إليهم.وإن دار الحديث عن شاب قام قبل بضع دقائق بتوجيه أقسى أنواع اللوم إليها في مقابلة خاصّة بينهما لأنّها رفضت أن تضرب له موعداً، كانت تثني عليه عوضاً عن أن تفخر بالأمر علناً أو أن تضمر له الحقد، وتقول: "ما ألطفه فتىًا" بل

كان يزعجها أن تروق إلى هذا الحدّ لأن ذلك يضطرّها أن تغمّ الناس فيما تودّ بطبيعتها أن تشيع السرور في نفوسهم. لقد كانت تحبّ إبهاج الناس حتىّ لقد بلغ بها الأمر أن تمارس كذباً خاصاً ببعض الأشخاص النفعيّين أو بعض من نجحوا في الحياة.وقوام هذا النوع من قلّة الصراحة المتوافر في حالة بدائيّة لدى عدد ضخم من الناس أن لا يستطيع الاكتفاء، في مجال عمل واحد، بأن يشيع السرور بفضله في نفس شخص واحد.فإن رغبت عمّة "ألبيرتين"، على سبيل المثال، ترافقها ابنة شقيقها إلى حفلة بعد الظهر لا تشرح الصدر كثيراً فقد كان يمكن أن تكتفي "ألبيرتين" بحضورها إليها بأن تستخلص منها الفائدة الأدبيّة بأنّها أرضت عمّتها. ولكنّها كانت تفضّل، وقد أحسن أرباب المنزل استقبالها، أن تقول لهم إنّها راغبة منذ فترة طويلة جدّاً في لقائهم حتّى إنّها اختارت هذه الفرصة والتمست الإذن من عمّتها.بل لم يكن ذلك كافياً، ففي تلك الحفلة واحدة من صديقات "ألبيرتين" تعاني من غمّ كبير.وتقول لها "ألبيرتين": "لم أشأ أن أدعك وحدك وفكرّت أنّ وجودي بالقرب منكِ قد يكون مفيداً لك.فإن شئتِ أن نترك الحفلة وأن نمضي إلى مكان آخر فسوف أفعل ما تريدين فإني أرغب قبل كلّ شيء أن ألقاك أقلّ اغتماماً" (والأمر صحيح أيضاً على أيّة حال). بيد أنه كان يتّفق أحياناً أن تفسد الغاية الوهميّة الغاية الحقيقيّة.من ذلك أن "ألبيرتين" كانت تذهب، في سبيل خدمة تطالب بها لإحدى صديقاتها، للقاء إحدى السيّدات. ولكن الفتاة كانت ترى، بعدما وصلت إلى منزل تلك السيّدة الطيّبة الودود، أنّها تبدي وداداً أكثر في أن تظهر وكأنها جاءت لمحض المتعة التي أحست أنّها ستشعر بها في لقاء تلك السيّدة، وهي تنقاد على غير علم لمبدأ الاستخدام المضاعف لفعلة واحدة.ويؤثّر في السيّدة أعمق التأثير أن تكون "ألبيرتين" قطعت مسافة طويلة بفعل الصداقة المحضة.وكانت "ألبيرتين" إذ ترى السيّدة متأثّرة النفس إلى حدّ ما تزداد حبّاً بها.ولكنّما كان يتّفق الأمر التالي: لقد كانت تحسّ بمتعة الصداقة التي ادّعت كذباً أنها جاءت من أجلها إحساساً حادّاً إلى درجة تخشى معها أن تحمل السيّدة على الشكّ بمشاعر صادقة بالحقيقة إن هي طلبت تلك الخدمة لصديقتها.فقد تحسب السيدة أن "ألبيرتين" جاءت لذلك، والأمر الصحيح، ولكنها قد تخلص إلى أن "ألبيرتين" لا تحسّ بمتعة متجرّدة في رؤيتها، والأمر باطل.وهكذا كانت "ألبيرتين" تعود أدراجها دون أن تكون طلبت الخدمة، كالرجال الذين أبدوا لامرأة بأمل أن ينالوا حظوة لديها قدراً من اللطف كبيراً حتّى أنّهم لا يقدمون على البوح بعواطفهم كيما يدعوا لذلك اللطف طابعاً من النبل.وفي حالات أخرى لا يمكن القول إنّه قد تمّت التضحية بالغاية الحقيقيّة في سبيل الغاية الثانويّة والمتخيلة بعد الأوان، ولكنّ الأولى تعارض الثانية إلى الحدّ الذي لو علم معه الشخص الذي هزّت "ألبيرتين" مشاعره بالإعراب له عن الأولى بالغاية الثانية لانقلبت غبطته في الحال إلى أعمق صنوف الغمّ، وسوف تسهّل تتمّة القصّة فيما بعد فهم هذا النوع من التناقضات.ولننقل باللجوء إلى مثال نستقيه من نوع من الوقائع المختلفة تماماً أنّها كثيرة جدّاً في أكثر أوضاع الحياة اختلافاً.فهذا زوج أسكن عشيقته في المدينة التي يعسكر فيها.أمّا زوجته التي ظلّت في باريس، وهي نصف مطّلعة على الحقيقة، فتغتمّ وتسطّر لزوجها رسائل زاخرة بالغيرة.وتضطرّ العشيقة أن تجيء لقضاء يوم في باريس ولا يستطيع الزوج أن يقاوم توسّلاتها إليه بمرافقتها ويحصل على أذن لأربع وعشرين ساعة. وبما أنّه يمتاز بالطيبة ويتألم لأنّه يغمّ زوجته فإنّه

يصل إلى منزلها ويقول لها وهو يسكب بضع دمعات صادقة إنّه طار صوابه من جرّاء رسائلها فلقي وسيلة للهرب كيما يجيء ليعزّيها ويعانقها. وهكذا وجد وسيلة يقدّم بها بسفرة واحدة دليل حبّ لعشيقته وزوجته في آن واحد. ولكن إن اتّفق أن تطّلع هذه الأخيرة لأيّ سبب حضر إلى باريس فسوف تنقلب غبطتها ألماً دونما شكّ، إلاّ إذا أولتها رؤية ناكر الجميل على الرغم من كلّ شيء سعادة أعظم من العذاب الذي يحمله إليها بأكاذيبه. ومن بين الرجال الذين بدا لي أنّهم يمارسون طريقة الغايات المتعدّدة بأكبر قدر من المثابرة نجد السيّد "دونوربوا". فقد كان يقبل التدخّل أحياناً بين صديقين متخالفين وكان يدعى لذلك أكثر الناس لطفاً. ولكنّه ما كان يكفيه أن يبدو وكأنّه يؤدّي خدمة لذاك الذي جاء يلتمسه، بل كان يقدّم للآخر المسعى الذي يقوم به لديه وكأنّه تمّ لابناء على طلب الأول بل في صالح الثاني، الأمر الذي كان يُقنع به بيسر مخاطباً أوحى إليه سلفاً بأنّ "أكثر الرجال مروءة" ماثل أمامه. وكان على هذا النحو لا يجازف ألبتّة بنفوذه إذ يعمل على الجانبين ويقوم بما يسمى في لغة العمل من وراء الكواليس "العَوضَ المقابل" وما كانت الخدمات التي يؤدّيها تشكّل استلاباً لنفوذه بل استثماراً لجزء منه. وكانت كلّ خدمة من جهة ثانية، إذ تبدو وكأنّها أدّيت على نحو مضاعف، إنما تضاعف بالمقدار نفسه صيته على أنّه صديق خدوم، بل صديق يخدم بفعاليّة ولا يضرب ضربات في الهواء وتثمر جميع مساعيه، الأمر الذي يقيم البرهان عليه امتنان المعنيّين بالأمر. كان ذلك النفاق في المعروف المُسْدى، ترافقه صنوف من التكذيب كما هو أمر أيّ مخلوق بشريّ، يؤلّف جزءً هاماً من طباع السيّد "دو نوربوا". غالباً ما استخدم والدي في الوزارة، وكان على شيء من السذاجة، إذ يحمله على الاعتقاد بأنّه يؤدّي خدمة له.

ولما كانت "ألبيرتين" تروق الناس فوق ما تبغي ولا حاجة بها للمناداة بما يحالفها من نجاح، فقد لزمت الصمت حول ما جرى لها معي بالقرب من سريرها وما ودّت امرأة قبيحة لو تعلنه على الملأ. ولم أفلح على أيّة حال أن أفسر لنفسي موقفها في ما جرى لها. ففي ما يتعلّق بفرضيّة الفضيلة المطلقة (تلك الفرضيّة التي رددت إليها بادىء الأمر العنف الذي رفضت به "ألبيرتين" أن تدعني أعانقها وآخذها بين ذراعيّ ولم تكن إلى ذلك لازمة على الإطلاق للتصوّر الذي أحمله عن طيبة صديقتي واستقامتها الفطريّة)، لم أتوان عن تعديلها مرّات ومرّات. فما أكثر ما كانت تلك الفرضيّة تناقض تلك التي ابتنيتها في اليوم الأوّل الذي أبصرت فيه "ألبيرتين"! ثم إن الكثير من الأفعال المختلفة، وكلّها تزخر باللطف حيالي (لطف رقيق قلق خائف غيور من تفضيلي لِـ "آندريه")، كانت تغمر من كلّ جانب الخشونة التي شدّت بها حبل الجرس كي تفلت منيّ. فلمَ طلبت إليّ إذن أن أبادر لتمضية الأمسية بالقرب من سريرها؟ ولمَ كانت تتحدّث طوال الوقت حديث الحنان؟ وعلى أيّ أساس تقوم الرغبة في لقاء صديق وخشية أن يفضّل عليك صديقتك ومحاولة إشاعة الغبطة في نفسه وقولك له بطريقة خياليّة إنّ الآخرين لن يعلموا بأنّه قضى الأمسية بالقرب منك إن كنت تحجب عنه متعة بسيطة إلى هذا الحدّ وإن لم تكن متعة بالنسبة إليك؟ وما كان يمكن أن أبلغ حدّ الاعتقاد بأن فضيلة "ألبيرتين" قد وصلت إلى هذا المدى، وقد بلغ بي الأمر أن أتساءل إن لم يكن لعنفها سبب أملاه الغنج من مثل رائحة مزعجة حسبت أنها تحملها وخشيت بها أن تسوء لديّ، أو

أملاه الجبن إن هي ظنّت مثلاً، في جهلها لواقع الحبّ، إن حالة الوهن العصبيّ لديّ يمكن أن تحمل بعض العدوى عن طريق القبلة.

لقد اغتمت بالتأكيد إن لم تستطع إرضائي وأعطتني قلماً صغيراً من ذهب بفعل هذا الانحراف في مجرى الفضيلة لدى الناس الذين يهزّ لطفك مشاعرهم ولا يوافقون على منحك ما يطالب به ولكنّهم يودّون أن يفعلوا شيئاً آخر في صالحك: فالناقد الذي قد تدغدغ مقالته مشاعر الروائي يدعوه عوضاً عنها إلى العشاء، والدوقة لا تصطحب المتحذلق إلى المسرح ولكنّها تقدّم له مقصورتها في أمسية لا تشغلها فيها. فما أكثر ما تدفع رهافة الإحساس أولئك الذين يفعلون أقلّ الممكن، وقد يستطيعون ألاّ يفعلوا شيئاً إلى أن يفعلوا شيئاً ما. وقلت لِـ "ألبيرتين" إنّها تولّيني إذ تعطيني هذا القلم غبطة عظيمة ولكنّها مع ذلك دون تلك التي كنت أصبتها لو أنّها سمحت لي بتقبيلها مساء اليوم الذي جاءت فيه للنوم في الفندق. "كنت سوف أسعد بالأمر إلى أبعد حدّ! وما الذي كان يمكن أن يجرّه عليك؟ إني أدهش أن تكوني حجبته عنيّ." وأجابتني بقولها: "إنّ ما يدهشني أن ترى ذلك مدهشاً. إني أتساءل أيّة فتيات تسنى لك أن تعرف حتى أذهلك سلوكي." – "إنيّ مغتمّ لأنيّ أغضبتك، بيد أنيّ حتى الآن لا يمكنني أن أقول لك إنيّ أرى أنني أخطأت. ولديّ أنّ تلك أمور لا شأن لها البتّة، ولست أفهم كيف لا ترتضيها فتاة تستطيع إشاعة السرور بهذه السهولة." وأضفت لأرضي إلى حدّ ما أفكارها الأخلاقيّة، وقد تذكرت كيف سبق أن ندّدت هي وصديقاتها بسلوك صديقة الممثّلة "ليا": "دعينا نتّفق، فلست أعني أن الفتاة تستطيع أن تفعل ما تشاء وأن لا شيء ينافي الأخلاق. خذي مثلاً تلك العلاقات التي كنتنّ تتحدّثن ذاك اليوم عنها بشأن فتاة صغيرة تقطن "بالبيك" والتي يقال إنها قائمة بينها وبين إحدى الممثلات، فإنيّ أجد ذلك شائناً إلى حدّ أنيّ أحسب أنّه ربّما اختلق ذلك أعداء للفتاة وأنّ الأمر غير صحيح. فذلك يبدو لي بعيد الاحتمال ومستحيلاً. فأمّا أن يسمح المرء بقبلة، بل بأكثر لصديق، بما أنّك تقولين إني صديقك..." – "وإنّك لكذلك، ولكنما كان لي أصدقاء آخرون قبلك، وقد عرفت شبّاناً أؤكّد لك أنهّم كانوا يكنّون لي مقدار ما تكن لي من صداقة. ولكن ليس من بينهم من كان يجرؤ على إتيان أمر مماثل، إذ هم يعلمون أيّة لطمتين توافيانهم. وما كانوا يفكّرون في ذلك على أيّة حال، فقد كنّا نشدّ على أيدينا بمشاعر الصراحة والصداقة وعلى أنّنا محض رفاق. وما كان ليخطر أن نتبادل القبل ولم نكن لذلك أقلّ صداقة. هيّا، إن كنت تهتمّ بصداقتي فيمكنك أن تبتهج إذ ينبغي أن أحبّك كثيراً كي أصفح عنك. ولكنيّ متيقّنة أنّك لا تبالي بي ألبتة. هيّا اعترف أن "آندريه" هي التي تعجبك. وإنّك في الأساس على حقّ فهي أكثر لطفاً منيّ، وإنهّا لفاتنة! آه! يا للرجال!" كانت تلك الكلمات الصريحة إلى هذا الحدّ تخلف فيّ على الرغم من خيبة أملي القريبة انطباعاً لذيذاً جدّاً إذ تبعث في نفسي تقديراً كبيراً لِـ "ألبيرتين". وربّما جرّ عليّ هذا الانطباع فيما بعد نتائج كبيرة ومؤسفة، فقد شرع يتكوّن في نفسي بسببه ذلك الشعور العائلي تقريباً، تلك النواة الأخلاقيّة التي سوف تقوم على الدوام داخل حبيّ لِـ "ألبيرتين". ومثل هذا الشعور يمكن أن يكون سبب أشدّ صنوف الغمّ. فكيما يتعذّب المرء حقاً بسبب امرأة لا بدّ أن يكون وثق تماماً بها. أمّا الآن فقد ظلّت نواة التقدير الأخلاقي والصداقة تلك كمثل

حجر انتظار داخل نفسي.ولعلّها ما كانت تستطيع بمفردها شيئاً ضدّ سعادتي لو بقيت على حالها، دون أن تتنامى، في خمول كانت ستظلّ عليه في العام التالي وبحجّة أولى في هذه الأسابيع الأخيرة من إقامتي الأولى في "بالبيك".لقد كانت في داخلي كواحد من أولئك الضيوف الذين ربّما كنّا على الرغم من كلّ شيء أكثر تبصّراً لو نطردهم، ولكنّنا ندعهم في مكانهم دون أن نزعجهم لشدّة ما يجعلهم ضعفهم وعزلتهم داخل نفس غريبة عديمي الأذى.

لقد لقيت أحلامي أنها أضحت الآن حرّة أن تنصبّ على هذه أو تلك من صاحبات "ألبيرتين" وعلى "أندريه" قبلهنّ جميعاً، "أندريه" التي ربمّا كان تأثير ألطافها أقلّ في نفسي لو لم أتأكّد أنّ "ألبيرتين" سوف تعلم بها.صحيح أنّ الميل الذي تظاهرت به منذ فترة طويلة حيال "أندريه" قد زوّدني – على صعيد عادات المحادثة وصنوف الإعراب عن المودّة – بما يشبه مادّة حبّ جاهز لينصبّ عليها ولم ينقصه حتى الآن سوى أن تنضاف إليه عاطفة كان يمكن أن يقدّمها الآن فؤادي وقد عاد حرّاً طليقاً.بيد أنّ "آندريه" كانت شديدة الميل إلى أمور الفكر مفرطة العصبيّة كثيرة العلل شديدة الشبه بي كيما أحبّها حقاً.ولئن كانت "ألبيرتين" تبدو لي الآن فارغة فقد كانت "آندريه" ملأى بأمر أعرفه حقّ المعرفة.فقد خلت في اليوم الأوّل أنّني أبصر على الشاطئ عشيقة عدّاء يسكرها حبّ الرياضة، وقالت لي "آندريه" إنها شرعت تمارسها فقد كان ذلك بناء على أمر طبيبها لمعالجة ضعف أعصابها واضطراباتها الغذائيّة، ولكنّ أفضل ساعاتها تلك التي تترجم فيها رواية لِـ "جورج إيليوت".ولم ترتدِ خيبتي، وهي نتيجة خطأ أوّلي حول ما كانت عليه "آندريه"، لم ترتدِ في الواقع أيّة خطورة بالنسبة إليّ.ولكنّ الخطأ كان من صنف تلك التي، إن هي سمحت للحبّ أن يتفتح ولم يتمّ تعرّفها بمثابة أخطاء إلا بعد ما يتعذّر التبديل فيه من بعد، أضحت علّة آلام.وتلك الأخطاء – التي يمكن أن تكون مختلفة عن الأخطاء التي وقعت فيما يخصّ "آندريه" وحتى على عكسها – إنمّا تعود في الغالب، وفي حالة "أندريه" بوجه خاصّ، إلى أنّنا نتخذ إلى حدّ ما مظهر وأساليب ما لسنا عليه، ولكنّنا نود أن نكونه، كيما نخدع للوهلة الأولى.فالتصنع والتقليد والرغبة في إثارة إعجاب الأخيار أو الأشرار إنمّا تضيف إلى المظهر الخارجيّ خدع الكلام والحركات.هناك صنوف من الوقاحة والقسوة لا تصمد أمام الامتحان أكثر مما يتمّ لبعض مظاهر الطيبة والأريحية.وكما أنّنا كثيراً ما نكتشف بخيلاً متباهياً في رجل اشتهر بصدقاته كذلك يحملنا التبجّح بالرذيلة على افتراض مومس في فتاة شريفة تعجّ نفسها بالآراء المتحجّرة.لقد ظننت أنني واجد في "آندريه" مخلوقة معافاه فطريّة في حين لم تكن سوى كائن يبحث عن العافية كما ربمّا كان أمر كثيرين من الذين خالت أنها تلقاها لديهم وما كانت تملك من حقيقتها أكثر مما يبدو بدين مصاب بالتهاب المفاصل أحمر الوجه ذو سترة من الفانيلا البيضاء "هرقلاً" محتّماً.ولكنّ ثمّة ظروفاً ليس سواء فيها بالنسبة إلى السعادة أن يكون الشخص الذي أحببناه بما كان يبدو أنّه معافى لديه، أن يكون بالحقيقة واحداً من أولئك المرضى الذين لا تأتيهم العافية إلا من غيرهم مثلما تستمدّ الكواكب نورها ومثلما لا تقوم بعض الأجسام إلا بتمرير الكهرباء.

وما همّ، لقد كانت "آندريه"، شأن "روزموند" و "جيزيل"، بل كانت أكثر منهما صديقة لِـ"ألبيرتين" تشاطرها حياتها وتقلّد سلوكها حتى إني في اليوم الأوّل لم أميز بادئ الأمر بين هذه

وتلك.فبين تلك الفتيات، بين سوق الورود التي قوام سحرها أن تبرز على صفحة البحر، كان يسود اللاانقسام نفسه كما في العهد الذي لم أكن أعرفهنّ فيه بعد والذي كان يبعث فيّ ظهور أيّة منهنّ أشدّ الانفعال إذ ينبئني بأن المجموعة الصغيرة لم تكن بعيدة.ولا تزال الآن مشاهدة إحداهنّ توليني متعة تداخلها ضمن نسبة لعلّني لا أستطيع تحديدها متعة أن أرى الأخريات يتبعنها على الأثر أو يأتين للقائها بعد ذلك بقليل، فإن لم يجئن في ذلك اليوم فأن نتحدّث عنهنّ و'ن أعلم أنّه سوف ينقل إليهن أنني ذهبت إلى الشاطئ.

فلم يعد الأمر مقصوراً على جاذب الأيّام الأولى بل كان ثمّة نزوع حقيقيّ إلى الحبّ يتردّد بينهنّ جميعاً لشدّة ما تبدو كلّ واحدة منهن بديلاً للأخرى على نحو طبيعي.ولعل أعظم حزن لديّ ما كان أن تهجرني من فضلت من بين تلك الفتيات، ولكني كنت فضّلت في الحال تلك التي هجرتني لأنني أكون قد ثبّتّ عليها مجمل الكآبة والأحلام التي كانت تتنقّل على نحو غير محدّد بينهنّ.ولعلّني كنت في هذه الحالة سوف أتأسّف من خلالها على نحو غير واعٍ على جميع صديقاتها اللواتي ربمّا فقدت في أعينهنّ عمّا قليل كلّ مهابة، إذ خصصتهنّ بهذا النوع من الحبّ الجماعي الذي يحمله رجل السياسة والممثّل للجمهور الذي لا يجدان عزاء ينسيهما أنّه أهملهما بعدما غمرهما بجميع الامتيازات.فحتى تلك التي لم أستطع الحصول عليها لدى "البيرتين" كنت آمل الحصول عليها فجأة لدى هذه أو تلك ممن فارقنني في المساء وقلن لي كلمة ورمينني بنظرة يكتنفهما اللبس فكان شوقي إنمّا يتجه بفضلهما إلى هذه الأخيرة نهاراً كاملاً.

لقد كان يتنقّل بينهنّ بنشوة تتزايد بقدر ما أخذ يبدو على تلك الوجوه الرجراجة ثبات نسبيّ في القسمات كاف كيما يمكن تمييز الصورة الطيّعة غير الثابتة وإن انبغى أن تتغيّر بعد.وفي مقابل الفروق القائمة بين تلك الوجوه كان من العسير دونما شكّ أن تقوم فروق مساوية في طول القسمات وعرضها.تلك القسمات التي ربمّا أمكن أن تتطابق تقريباً مهما بدت مختلفة بين واحدة من تلك الفتيات وأخرى. بيد أنّ معرفتنا للوجوه ليست رياضيّة.فهي لا تبدأ أوّل الأمر بقياس الأجزاء وإنمّا نقطة انطلاقها تعبير ونظرة مجملة.فقد كان يبدو لدى "آندريه" مثلاً أن رقّة العينين العذبتين تَلْحَقُ بالأنف الضيّقِ الدقيق دِقّةَ محضٍ خطّ منحنٍ تمّ رسمه كيما يمكن أن يتوالى على الخطّ نفسه مقصد النعومة التي قُسّمت قبلاً في ازدواجٍ بسمة النظرتين التوأمين.وكان خطّ بمثل تلك الدقّة ينحفر في شعرها، خطّ طيّع وعميق كالذي تخطه الريح في الرمال.وهو بالتأكيد وراثيّ هنا، لأن شعر والدة "أندريه" الأبيض تماماً قد خطّ بالطريقة نفسها فألّف بروزاً هنا وانحساراً هناك مثلما الثلج يرتفع أو يغور تبعاً لتضاريس الأرض.أمّا أنف "روزموند" فكان يبدو بالتأكيد، إمّا قورن برقّة خطوط أنف "أندريه"، أنّه يبسط مساحات واسعة كمثل برج عالٍ يقوم فوق أساس قويّ.وإن كان التعبير كافياً ليحمل على الاعتقاد بفروق ضخمة بين ما يفصل بينه ما كان متناهي الصغر – وإن استطاع ما كان متناهي الصغر أن يوجدَ بمفرده تعبيراً خاصّاً تماماً ومسحة فرديّة – ، فليس المتناهي الصغر في الخطّ وحده ولا أصالة التعبير ما كان يظهر تلك الوجوه وكأنما يستحيل ردّ بعضها إلى بعضها الآخر.لقد كان اللون يضع بين وجوه صديقاتي فاصلاً أكثر عمقاً، لا بفعل الجمال المتنوّع في تدرّج الألوان

التي تضفيها عليها، وهي متعارضة إلى حدّ أنّني كنت أصيب أمام "روزموند" - التي يغمرها لون ورديّ تخالطه صفرة ضئيلة ويؤثّر فيه ضوء العيون الضارب إلى الخضرة - وأمام "آندريه" - التي يضفي سواد شعرها على بياض وجنتيها الكثير من الأناقة البعيدة عن البهرجة - ما أصيب من متعة لو أنني تأمّلت بالتناوب زهرة جيرانيوم على شاطئ البحر المشمس وزهرة كاميليا في الليل، بل على وجه الخصوص لأنّ الفروق المتناهية الصغر في الخطوط قد كبرت إلى حدّ عظيم وتغيرّت نسب المساحات تغيرّاً كلياً بفعل عنصر اللون الجديد هذا الذي هو، بالإضافة إلى أنّه مُوزِّعُ الدرجات اللونيّة، مولّد كبير للمساحات أو هو يعدّل فيها على الأقلّ، حتى إن وجوهاً ربمّا أنشئت على نحو قليل التباين كانت تتطاول أو تعرض وتضحي شيئاً مختلفاً حسبما يشرق فيها لون ورديّ بفعل أضواء شعر أصهب أو شحوب كامد بفعل النور الأبيض، شأن تلك اللوازم الملحقة في مسرحيّات البالية الروسيّة التي قوامها أحياناً، إن أُبصِرَت في وضح النهار، مجرّد قرص من الورق تجعله عبقريّة أمثال "باكست"، حسب الأضواء المورّدة أو الرماديّة الشاحبة التي تغمر بها مناظر المسرح، تجعله ينغرس فيها كمثل فيروزة ترصّع واجهة أحد القصور، أو يتفتّح فيها بطراوة كمثل وردة من "البنغال" في وسط حديقة.وإذ نتعرّف الوجوه على هذا النحو فإنّنا نقيسها أحسن قياس ولكن بعين الفنان لا بعين المسّاح.

وأمر "ألبيرتين" كأمر صديقاتها.فقد كانت في بعض الأيّام نحيلة رماديّة اللون متجهّمة الوجه فيما ينحدر لون بنفسجي شافّ على خطّ مائل في أعماق عينيها فتبدو وكأنها تعاني من كآبة المنفيّة.وكان وجهها في أيّام أخرى، وقد ازداد مُلوسة، يجمّد الأشواق على صفحته الملمّعة ويحول دون أن تمضي أبعد من ذلك، إلا إذا أبصرته فجأة جانبيّاً، لأنّ وجنتيها الكامدتين كمثل شمع أبيض على صفحتهما كانتا مورّدتين شفوفاً، الأمر الذي كان يبعث أشدّ الرغبة في تقبيلهما وفي بلوغ هذا اللون المختلف المتهرّب.ومرّات أخرى كانت السعادة تغمر تينك الوجنتين بضياء متموّج إلى حدّ أنّ البشرة، وقد أضحت مائعة مبهمة، كانت تطلق كأنمّا نظرات كامنة تحتها تُظهرها في غير لون العينين، لافي غير نمطهما.وحينما يتمّ النظر أحياناً، دونما تفكير في الأمر، إلى وجهها الذي انتثرت فوقه نقاط سمراء صغيرة وطفت على صفحته بقعتان مفردتان أشدّ زرقة، فكأنمّا الأمر ماقد يتمّ بشأن بيضة حسّون، وما قد يتمّ غالباً بشأن عقيقة لبنيّة اللون منحوتة، وقد صُقِلَتْ في موضعين فقط تلتمع فيهما وسط الحجر الأسمر، كمثل جناحين شفّافين لفراشة لازورديّة، العينان اللتان يصبح اللحم فيهما مرآة ويبعث فينا وهماً بأنّه يدعنا نقترب من الروح أكثر مما في بقيّة أجزاء الجسم.ولكنّها كانت في أكثر الأحيان كذلك أوفر لوناً وأكثر حيويّة آنذاك، وأحياناً يبدو وحده مورداً في وجهها الأبيض طرف أنفها، وهو دقيق كمثل أنف قطّة صغيرة ماكرة غالبك الشوق إلى اللعب معها.وكانت وجنتاها في بعض الأحيان مالستين حتى لتنزلق العين، وكأنمّا على ميناء منمنمة، فوق مينائهما الورديّ الذي كان يظهره غطاء شعرها الأسود المفتوح الذي يعلوه أكثر نعومة وأكثر خفاء.وكان يتّفق أن يبلغ لون وجنتيها لون زهرة "السيكلامن" الورديّ الضارب إلى البنفسجي، فيما قد يبلغ أحياناً، حينما تكون محتقنة الوجه أو محمومة وتخلّف فيّ إذ ذاك فكرة بنية مرضيّة تنحدر برغبتي

إلى ما كان أكثر ارتباطاً بالحواس وتحمّل نظرتها بما كان أكثر فسقاً وأشدّ إفساداً، اللون الأرجواني العاتم الذي لبعض ورود من حمرة تكاد تكون سوداء.وكانت كلّ واحدة من شخصيّات "ألبيرتين" تلك مختلفة مثلما تختلف كلّ طلعة من طلعات الراقصة التي تتبدّل ألوانها وشكلها وطابعها حسب تنقّلات الكاشف الضوئي المختلفة التي لا تحصى عدّاً.وكان ربمّا بسبب التنوّع الكبير في الشخصيّات التي كنت أتأملها فيها في تلك الحقبة أن اتخذتُ عادة أن أضحي بدوري شخصاً آخر حسب شخصيّة "ألبيرتين" التي كنت أفكّر فيها: فغيور ولامبالٍ وشهواني وسوداوي المزاج وحانق، وكلّها تنشأ من جديد لا بحسب ما يتفّق من ذكرى عائدة بل حسب قوّة الظنّ القائم بيني وبينها بالنسبة إلى الذكرى نفسها وبالطريقة المختلفة التي كنت أقدرها بها فيها.ذلك أنّه كان لابدّ على الدوام من العودة إلى هذا الأمر، إلى تلك الظنون التي تعمر معظم الأحيان نفوسنا على غير علم منّا ولكنّها مع ذلك أكثر أهميّة بالنسبة إلى سعادتنا من هذا الكائن الذي نراه لأنّنا إنمّا نراه من خلالها وهي التي تحدّد للكائن المشاهد حجمه العابر.وربمّا جدر بي كيما أكون دقيقاً أن أطلق اسماً مختلفاً على كلّ من أنواع "الأنا" التي فكّرت في "ألبيرتين" فيما بعد، بل ربمّا جدر بي أكثر من ذلك أن أطلق اسماً مختلفاً على تعدّد وجوه "ألبيرتين"، تلك التي كانت تظهر أمامي، مختلفة في كل مرة، كتلك البحار – التي أدعوها بكل بساطةٍ البحرَ ابتغاء للتسهيل – التي كانت تتعاقب والتي كانت تبرز أمامها حوريّةً تختلف كلّ مرّة.بيد أنّه ربمّا انبغى لي على وجه الخصوص – بالطريقة نفسها التي يعلنون بها في سياق قصّة عن الطقس السائد هذا اليوم أو ذاك ولكن على نحو أكثر جدوى بكثير – أن أطلق على الدوام اسماً على الظنّ الذي كان يسود نفسي في اليوم الذي أبصرت فيه "ألبيرتين" والذي كان يشكّل مناخها، فمظهر الأشخاص كمظهر البحار خاضع لتلك السحب التي تكاد لا تبصرها العين والتي تغيّر لون كلّ شيء بفعل تركّزها وتنقّلها وتفرّقها ورحيلها، – كتلك التي مزّقها "إيلستير" ذات مساء حين لم يقدّمني للفتيات اللواتي توقّف معهنّ واللواتي بدت صورهن فجأة أكثر جمالاً في نظري حينما كنّ يبتعدن – تلك السحابة التي عادت فتشكّلت بعد بضعة أيّام، وقد تمّت لي معرفتهنّ، تحجب بريقهنّ وتقوم في الغالب بينهن وبين عينيّ كثيفة ناعمة شبيهة بـ "ليفكونيا" (*) لدى فيرجيليوس.

ولا ريب أن وجوههنّ جميعاً قد بدّلت بالنسبة إلي من معناها منذ أن دلّتني أقوالهن إلى حدّ ما على الطريقة التي ينبغي أن أقرأها بها، تلك الأقوال التي كنت أستطيع خصّها بقيمة تتزايد بقدر ما كنت أستثيرها بأسئلتي حسب مشيئتي وأبدّل فيها كممثل قائم بالتجارب يسعى بتجارب مضادّة إلى التثبّت مما افترض.وذلك بمجمل القول أسلوب كأي أسلوب آخر لحلّ مشكلة الوجود أن نقرب قرباً كافياً من الأشياء والأشخاص الذين بدوا لنا من بعيد جميلين غامضين كي نتبيّن أنهم لاسرّ لديهم ولا جمال.

وإنها لواحدة من قواعد الصحّة التي يمكن أن نختار فيما بينها.قاعدة ربمّا بدا أنها غير جديرة بأن

(*) إلهة الزبد الأبيض في الأساطير اليونانية التي نقل عنها شاعر الرومان الأكبر.

يوصى بها ولكنّها تولينا بعض الهدوء لقضاء الحياة وللتسليم كذلك بالموت - بما أنها تسمح بألا نأسف لأمر إذ تقنعنا بأننا بلغنا الأفضل وأنّ الأفضل لم يكن شيئاً يذكر.

لقد أحللت في أعماق أدمغة تلك الفتيات محلّ ازدراء العفاف وذكر المغامرات اليوميّة مبادئ شريفة ربمّا أمكن أن تلين ولكنّها حفظت حتّى الآن من أيّ انحراف أولئك اللواتي أخذنها من وسطهنّ البورجوازي.ولكنّ المرء حينما يخطئ منذ البداية حتى بالنسبة إلى الأمور الصغيرة، وحينما يحملك خطأ في الافتراض أو التذكر على البحث عن صاحب قيل وقال مسيء أو عن المكان الذي أضعت فيه غرضاً ما في اتجّاه خاطيء فقد يتفق ألا يكتشف المرء خطأه إلا ليستبدل به خطأ آخر وليس الحقيقة.فقد استخلصت، فيما يخصّ طريقة عيشهنّ والسلوك الذي ينبغي أن أسلكه معهنّ، كلّ النتائج من كلمة براءة التي قرأتها على وجههنّ وأنا أتحدّث إليهن حديث الألفة. بيد أني ربمّا قرأتها بطيش وفي زلّة قراءة أولى سريعة جدّاً ولم تكن مسطّرة عليه أكثر من اسم "جول فيرّي" على برنامج أمسية سمعت فيها للمرّة الأولى "لابيرما"، الأمر الذي لم يحُل دون أن أؤكّد للسيّد "دونوربوا" أنّ "جول فيرّي" كان يكتب، دون أيّ شكّ ممكن، افتتاحيّات موسيقيّة.

كيف كان يمكن، فيما يخصّ أيّة من صديقاتي في المجموعة الصغيرة، ألا يكون آخر وجه رأيته لها هو الوحيد الذي أتذكّره بما أن العقل يقصي من ذكرياتنا المتعلّقة بشخص ما كلّ مالا يخدم المنفعة الفوريّة في علاقاتنا اليوميّة (حتى، بل ولاسيما، إن داخل تلك العلاقات قليل من الحبّ الذي، إذ يظلّ متعطّشاً على الدوام، إنمّا يعيش في اللحظة الآتية) ؟ فهو يدع لسلسلة الأيّام الماضية أن تكر ولا يحتفظ بقوّة إلا بالطرف الأخير، وهو في الغالب من معدن يغاير تماماً الحلقات التي لفّها الظلام، ولا يعدّ من الواقع في الرحلة التي نقوم بها عبر الحياة سوى البلد الذي نحن الآن فيه.وما كانت انطباعاتي الأولى، وما أبعدها، لتستطيع أن تلقى عوناً في ذاكرتي على تشويهها اليوميّ، ففي أثناء الساعات الطويلة التي كنت أقضيها في التحدّث وتناول العصرونيّة واللعب مع تلك الفتيات لم أكن حتّى أتذكّر أنهنّ هنّ العذارى القاسيات الشهوانيات اللواتي أبصرتهن كأنمّا في لوحة جداريّة يخطرن أمام البحر.

صحيح أن الجغرافييّن وعلماء الآثار يقودوننا إلى جزيرة "كاليبسو" ويكشفون عن قصر "مينوس". ولكنّ "كاليبسو" لم تعد سوى امرأة "و مينوس" سوى ملك خلو من أيّ عنصر إلهيّ. حتى الصفات والعيوب التي يعلّمنا التاريخ أنها كانت إذ ذاك وقفاً على هؤلاء الأشخاص الحقيقيّين تماماً فتختلف في الغالب كثيراً عن تلك التي سبق أن عزوناها إلى الكائنات الخرافيّة التي تحمل الاسم نفسه. وهكذا تبدّت كلّ الأساطيريّة البحريّة الظريفة التي ألفتّها في الأيّام الأولى. بيد أنّه ليس ممّا لاشأن له تماماً أن يقع لنا أحياناً على الأقلّ أن نقضي وقتنا في ألفة ما ظنّناه عزيز المنال وتقنا إليه. وإنّه ليظل دوماً في عشرة الأشخاص الذين ألفيناهم بادئ الأمر غير محببين. حتى داخل المتعة المصطنعة التي نتذوّقها في نهاية المطاف معهم، الطعم الفاسد للمعايب التي أفلحوا في إخفائها. أمّا في علاقات كالتي كانت تربطني بـ "ألبيرتين" وصديقاتها فإن المتعة الحقّة التي تقوم في أساسها إنمّا

تخلّف هذا العطر الذي لا تفلح أيّة خدعة في إضفائها على الفاكهة التي استبقت أوانها والأعناب التي لم تنضج في الشمس. والمخلوقات الخارقة التي سبق أن كنّها لحظةً بالنسبة إليّ كانت لا تزال تضع حتى دون علمي بعض الروعة في أكثر صلاتي بهنّ تفاهة أو كانت بالأحرى تصونها من أن يصيبها شيء من التفاهة في يوم. لقد بحث شوقي بنهم شديد عن دلالة العيون التي كانت الآن تعرفني وتبتسم لي ولكنّها التقت أوّل يوم بنظراتي كمثل أشعة من عالم آخر، ووزع بسخاء ودقّة عظيمين اللون والعطر على المساحات اللحميّة لتلك الفتيات اللواتي كنّ يقدّمن لي ببساطة وهن مستلقيات فوق الجرف السندويش أو يلهين بالحزازير إلى حدّ أني غالباً ما كنت أنظر بعد الظهر وأنا مستلق – شأن أولئك الرسّامين الذين إذ يبحثون عن عظمة القديم في الحياة الحديثة يضفون على امرأة تقصّ ظفر قدمها نبل "نازع الشوكة" ، أوهم على غرار "روبنس" يصنعون آلهات من نسوة من معارفهم كيما يؤلّفوا مشهداً أساطيريّاً – إلى تلك الأجسام الجميلة السمراء أو الشقراء المتعارضة في نماذجها إلى حدّ بعيد والتي تنتشر من حولي فوق العشب، أنظر إليها دون أن أفرغها ربّما من كامل المحتوى الضحل الذي ملأتها به التجربة اليوميّة وكما لو أنّني مع ذلك (دون أن أتذكّر بوضوح منشأها السماويّ) ألهو وسط حوريّات الماء على غرار "هرقل" أو "تيليماخوس".

ثمّ انتهت الحفلات الموسيقية وحلّ الطقس الرديء وغادرت صديقاتي "بالبيك" لاكلهنّ سويّة، كمثل طيور السنونو، ولكن في الأسبوع نفسه. ورحلت "ألبيرتين" أوّل الراحلات على نحو مفاجئ دون أن تستطيع أيّ من صديقاتها أن تفهم لا آنذاك ولا فيما بعد لماذا عادت فجأة إلى باريس حيث لا تدعوها أعمال ولا تسليات. "لم تقل ماذا ولا لماذا، ثمّ ذهبت" ، تغمغم فرانسواز التي ربمّا ودّت على أيّة حال أن نفعل ما فعلت. لقد أخذت تحدنا ثقلاء إزاء المستخدمين، مع أنهم تناقصوا عدداً إلى حدّ بعيد ولكنما يستبقيهم النزلاء القلّة الباقون، وإزاء المدير الذي كان يبدّد ماله. والحقّ أن الفندق الذي قارب أن يغلق أبوابه قد شهد منذ فترة طويلة رحيل جميع الناس، فلم يكن في يوم ممتعاً إلى هذا الحدّ. وما كان ذلك رأي المدير، فعلى امتداد الصالات التي تجمد الجسم والتي لم يعد يسهر على بابها أيّ خادم كان يذرع الممرّات وهو يرتدي سترة رسمية جديدة، وقد عُني به الحلاّق حتى ليبدو وجهه الباهت وكأنّما قوامه مزيج يقابل فيه جزءٌ من اللحم ثلاثة أجزاء من المساحيق، ولا يكف عن تبديل ربطات عنقه (فهذه الأناقات أقلّ كلفة من تأمين التدفئة والاحتفاظ بالمستخدمين، ورب امرئ لا يستطيع من بعد أن يبعث بعشرة آلاف فرنك إلى إحدى المبرّات ولكنّه لا يزال من اليسير عليه أن يتظاهر بالكرم فيعطي مئة فلس إكرامية لعامل البرق الذي يجيئه ببرقيّة). كان يخيّل إليك أنّه يتفقّد العدم وأنّه يبغي بفضل جودة ملبسه الشخصي أن يعطي طابعاً مؤقتاً لمظهر الفاقة الذي تحسّه في هذا الفندق الذي لم يكن جيّد الموسم. وكان يبدو وكأنّه شبح سلطان يعود ليسكن الخرائب التي كانت بالأمس قصره. ولقد استاء على وجه الخصوص حينما توقّف الخط الحديدي المحلي عن الخدمة حتى الربيع الآتي إذ لم يعد يتوافر له العدد الكافي من المسافرين. كان المدير يقول: "ما ينقصنا ههنا إنمّا هو وسائل النقل." وكان يخطّط لمشروعات ضخمة في السنوات التالية على الرغم من العجز المالي الذي يسجّله. ولما كان مع ذلك قادراً على

أن يحفظ تعابير جميلة حفظاً دقيقاً حينما كانت تنطبق على الصناعة الفندقيّة وتفضي إلى تعظيمها، فقد كان يقول: "لم يتوافر لي العون الكافي مع أنّه كان لديّ في قاعة الطعام فريق جيد، ولكنّ الخدم لم يكونوا على مثل ما أتمنى تماماً. وسوف ترى أيّة كتيبة سأوفّق إلى جمعها في العام القادم." وبانتظار ذلك كان يضطرّه توقّف خدمات "مكتب بالبيك المركزي" أن يرسل من يجيء بالرسائل، وأحياناً من يصطحب المسافرين في عربة صغيرة. وكنت كثيراً ما أطالب بالصعود إلى جانب الحوذيّ، الأمر الذي سمح لي أن أقوم بنزهات في جميع حالات الطقس. شأني في الشتاء الذي قضيته في "كومبريه".

على أن المطر الشديد كان يحتجزنا أحياناً، أنا وجدّتي، بما أن المقصف مغلق، في حجرات خالية تماماً تقريباً، وكأنما في أسفل سفينة حينما تهبّ الريح، حيث يجيء إلينا كلّ يوم وكأنما في أثناء رحلة بحرية شخصيّة جديدة من بين أولئك الذين قضينا ثلاثة أشهر بالقرب منهم دون أن نتعرف بهم، رئيس قضاة "رين" ونقيب المحامين في "كان" وسيّدة أميركية وبناتها، فيأخذون بالتحدّث إلينا ويبتدعون طريقة، أيّ طريقة، يحدون الساعات بها أقلّ تطاولاً فيكشفون عن موهبة ما ويعلّموننا لعبة ويدعوننا إلى احتساء الشاي أو عزف الموسيقى والاجتماع بنا في ساعة معيّنة وإلى المزج بين هذه الصنوف من الترفيه التي تملك السرّ الحقيقي في إمتاعنا الذي قوامه ألا نطمح إليه بل أن نستعين به على قضاء ساعات سأمنا، ويرتبطون أخيراً بنا في أواخر إقامتنا بصداقات كان رحيلهم المتعاقب في الغداة يوقف مجراها. وبلغ بي الأمر أن تعرّفت بالشابّ الثريّ وبأحد صديقيه النبيلين وبالممثّلة التي عادت لقضاء بضعة أيام، ولكنّ الجماعة الصغيرة لم يؤلّفها سوى ثلاثة أشخاص، فقد عاد الصديق الآخر إلى باريس. وطلبوا إليّ موافاتهم لتناول طعام العشاء في مطعمهم، وفي ظنيّ أنّهم سُرّوا إلى حدّ ما أنني لم أقبل. على أنّهم قاموا بالدعوة على ألطف نحو ممكن، ومع أنّها وردت بالحقيقة من جانب الشاب الثريّ بما أنّ الآخرين كانوا ضيوفاً عليه، فقد قالت لي الممثلة كيما تدغدغ مشاعري، بما أن الصديق الذي كان يرافقها، وهو المركيز "موريس دو فوديمون" ، كان من بيت رفيع جدّاً، قالت وهي تسألني إن كنت لا أودّ المجيء:

- "سوف يسرّ "موريس" لذلك أشدّ السرور".

وحينما التقيت بثلاثتهم في الردهة بادر السيّد "دو فوديمون" ، بعدما تراجع الشابّ الثري إلى الوراء، إلى القول:

- "ألن تتكرّم بتناول العشاء معنا؟"

لقد أفدت قليلاً جدّاً من "بالبيك" على وجه الإجمال، الأمر الذي ما كان إلا ليزيدني رغبة في العودة إليها. فقد كان يبدو لي أنّني مكثت فيها وقتاً قصيراً جدّاً. وما كان ذلك رأي أصدقائي الذين كانوا يكتبون إليّ ليسألوني إن كنت أعتزم العيش فيها نهائياً. وإذ أرى أن اسم "بالبيك" هو الذي يضطرّون إلى كتابته على المغلّف، ولما كانت نافذتي، بدلاً من الإطلال على سهل أو على شارع،

تشرف على حقول البحر، وكنت أسمع في الليل ضجيجه الذي كنت عهدت إليه قبل النوم برقادي كمثل قارب بين يديه، فقد كنت أتوهّم أن هذا الاختلاط بالأمواج لابدّ على الصعيد الجسدي أن يدخل فيّ، دون أن أدري، فكرة روعتها على غرار تلك الدروس التي يتمّ تعلّمها في أثناء النوم.

كان المدير يعدني بغرف أفضل بالنسبة إلى العام الآتي ولكنّ قلبي تعلّق الآن بغرفتي حيث كنت أدخل دون أن أحسّ من بعد برائحة زهر طيب العرب والتي توصّل فكري في النهاية، وكان عسيراً عليه فيما مضى أن يرتفع فيها، إلى اتّخاذ أبعادها بدقّة بلغت حدّاً اضطررت معه أن أخضعه لعلاج معاكس حينما انبغى لي أن أنام في باريس في غرفتي القديمة التي كان سقفها منخفضاً.

كان لابدّ بالفعل أن أغادر "بالبيك" إذ أصبح البرد والرطوبة أشدّ نفاذاً من أن أمكث فترة أطول في هذا الفندق الخلو من المواقد والمدافئ. وقد نسيت على أيّة حال تلك الأسابيع الأخيرة في الحال تقريباً. أمّا ماعدت أراه على نحو يكاد لا يتبدّل حينما أفكّر في "بالبيك" فتلك الفترات التي أرغمتني فيها جدّتي كلّ صباح في فترة الصحو، إذ كنت أزمع الخروج بعد الظهر مع "ألبيرتين" وصديقاتها، على المكوث في سريري في الظلام بناءً على أمر الطبيب. كان المدير يصدر أوامر كي لا يحدث ضجيجٌ في الطابق الذي أنا فيه وكان يسهر بنفسه على تطبيقها. وكنت أحتفظ بالستائر البنفسجية الكبيرة التي أبدت لي الكثير من العداء في أوّل مساء مغلقة أطول فترة ممكنة بسبب النور الشديد. ولما لم تكن "فرانسواز" تفلح، على الرغم من الدبابيس التي كانت تربطها بها كل مساء كي لا ينفذ النور منها والتي تعرف وحدها كيف تنزعها، على الرغم من الأغطية، على الرغم من غطاء الطاولة الذي من قماش "الكارتون" الأحمر والأقمشة التي تأخذها من هنا وهناك وتحكم وضعها فوقها، لما لم تكن تفلح في ضمّ طرفيها بإحكام كان الظلام غير مطبق وكانت تسمح بأن ينتشر فوق السجّادة كأنّما تناثر أوراق شقائق قانية ما كنت أملك النفس عن المجيء لحظة لأحطّ قدميّ العاريتين فيما بينها. وعلى الجدار الذي يقابل النافذة والذي كان النور يمتدّ على قسم منه كان ثمّة اسطوانة ذهبيّة لا ترتكز على شيء تقف على نحو عمودي وتتنقّل بطيئة كالعمود المضيء الذي يتقدّم العبرانيّين في الصحراء. ثم كنت أعود فأستلقي. وإذ كنت مضطراً إلى أن أتذوّق، دونما حراك، وبالخيال فحسب وفي الآن نفسه جميع متع الألعاب والاستحمام والسير التي يشير بها وقت الضحى، فقد كان فؤادي يخفق بالفرح خفقاً عنيفاً كمثل آلة في أوج حركتها ولكنّها ثابتة ولا تستطيع إفراغ سرعتها إلا بالمراوحة مكانها وهي تدور على نفسها.

كنت أعلم أنّ صديقاتي فوق السدّ ولكنّي لا أبصرهنّ فيما كنّ يخطرن أمام سلاسل البحر غير المتساوية، وفي أقصاه تتّضح أحياناً عبر فرجة مدينةُ "ريفبيل" الصغيرة وهي تجثم وسط قممه الزرقاء كمثل ضيعة إيطاليّة وقد أبرزت الشمس تفاصيلها إبرازاً دقيقاً. لم أكن أبصر صديقاتي ولكني (فيما يبلغ شرفتي نداء بائعي الصحف أو "الصحفيّين" مثلما تدعوهم "فرانسواز" ، ونداءات المستحمّين والأطفال الذين يلعبون فتحدّد كمثل أصوات طيور البحر ضجيج الموج الذي يتكسر بهدوء) كنت أستشفّ حضورهن وأسمع ضحكتهن التي يلفّها كمثل ضحك حوريّات الماء، تكسّر الأمواج الناعم

الذي يتعالى ليبلغ مسمعي. وكانت "ألبيرتين" تقول لي في المساء: "لقد تطلّعنا لنرى إن كنت ستنزل. ولكن نافذتك ظلّت مغلقة حتى ساعة الحفلة الموسيقيّة." وكانت تتعالى بالفعل تحت نافذتي في الساعة العاشرة. وبين فواصل الآلات كان يترجع، إن كان المدّ في أقصاه، سلساً مستمراً، انسياب ماء موجة يبدو وكأنّه يلفّ ضربات الكمان في تلافيفه الصافية وينثر زبده المتطاير فوق أصداء موسيقى أعماقيّة متقطعة. وكان ينفذ صبري أن لم يحضروا بعد ليعطوني حوائجي كي أتمكّن من ارتداء ملابسي. وتدقّ الثانية عشرة ظهراً وتصل "فرانسواز" أخيراً. لقد ظلّ الصحو على مدى شهور متتالية، وفي "بالبيك" هذه التي شدّ ما تقت إليها لأنّني ما كنت أتخيّلها إلا فريسة العاصفة ضائعة وسط الضباب، ظلّ رائعاً وثابتاً حتى أنني استطعت على الدوام، ساعة تقبل لتفتح النافذة، ودون خديعة ممكنة، أن أتوقّع وجود رقعة الشمس نفسها مثنيّة في زاوية الجدار الخارجي ومن لون لا يتبدّل كان أقلّ هزّاً لمشاعري بوصفه من علامات الصيف ممّا كان كئيباً كلون ميناء جامد مصطنع. وفيما كانت "فرانسواز" تنزع الدبابيس عن جباه الأبواب وتفكّ قطع القماش وتفتح الستائر كان يوم الصيف الذي تكشف عنه يبدو فاقد الحياة متقادم العهد قدم مومياء فخمة مؤلفة لعلّ خادمتنا اكتفت بأن تنزع عنها بعناية بالغة جميع لفائفها قبل أن تبرزها محنطة في ثوبها الذهبيّ.

* * *

المحتويات

القسم الأول ٧
القسم الثاني ١٥٣

❖

مطابع انترناشيونال برس ت ٣٤٧٤٢٥٩

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

◆ عبدة الصفر

الان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

◆ مدام بوفاري

جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد مندور

◆ الكلمات

جان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

◆ الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

◆ المكان

آني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد
وسيد البحراوي

◆ الآثار الشعرية الكاملة

إديث سودرجران

ترجمة : محمد عفيفى مطر
ومحمد عيد إبراهيم

◆ جاز

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

دار شرقيات للنشر و التوزيع

ex

simple image de risque ~~le grand il~~

multiplie en un instant par vingt deux

hommes apporte ~~les~~ ces changements

~~le résultat d'un [illegible]~~

autres dont le ~~rencontres si on veut~~ [illegible]

cours de ce récit), dans la [illegible]

trompeuse d'un milieu qui

redonner ~~tout~~ en entier de

~~[illegible]~~ [illegible] avait [illegible]

décrire les hommes) ~~et cela doit~~

~~donner la forme d'un être mons~~

~~indéfini et~~ prolongé comme

~~[illegible] place~~ [illegible]

~~tout plus [illegible] que celle~~

~~qui leur est réservée dans l'espace~~

~~place dans le Temps.~~

il faudra ~~donner~~ faire les [illegible]

~~[illegible]~~

avec occupant

~~[illegible]~~, une place prolongée

~~dans le Temps~~ si considé

celle si restreinte qui leur est réservée

une place au contraire prolongée sans mesure

~~dans le Temps~~ puisqu'ils sont touchant

~~comme des géants plongés dans les années~~ [illegible] à des époques si distantes

[illegible] tant de jours sont venus se placer — dans

[illegible] égal

~~[illegible]~~

années [illegible]

[illegible]

risque pour nous

temps que nous avons

[illegible]

عيون الأدب الأجنبي

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروست

ترجمة : إلياس بديوي

3

جانب منازل غرمانت



« البحث عن الزمن المفقود »
مغامرة كائن رائع الذكاء ،
مريض الإحساس ، ينطلق
من طفولته في البحث عن
السعادة المطلقة ، فلا يلقاها
في الأسرة ولا في الحب ولا في
العالم . ويرى نفسه منساقاً
إلى البحث عن مطلق خارج
الزمان ، شأن المتصوفين من
الرهبان ، فيلقاه في الفن ، مما
يؤدي إلى اختلاط الرواية
بحياة الروائي ، وإلى انتهاء
الكتاب لحظة يستطيع
الراوي ، بعدما استعاد
الزمان ، أن يبدأ كتابه ؛
فتنقلب بذلك الحيّة الطويلة
على نفسها لتغلق الحلقة
العملاقة .
رواية تقارب المليون كلمة ،
بأشخاص تبلغ المائتين ،
أشبه ما تكون بالتمثال
الروحي الذي يصمُدُ
كالصخر في وجه العاديات .
إنها مرثاةٌ للدمار الذي
يصنعه الزمن بالأشياء
والناس إن غَفِلَت .

دار شرقيات للنشر والتوزيع

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

البحث عن الزمن المفقود

مارسيل پروست

ترجمة: الياس بديوي

A la recherche du temps temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

الجزء الثالث:

جانب منازل غرمانت

Le côté de Guermants

© الطبعة العربية الثانية لهذه الترجمة

دار شرقيات ١٩٩٨

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق - القاهرة.

ت: ٣٩٠٢٩١٣ س . ت: ٢٦٩١٩٨

الغلاف الأخير: الصفحة الأخيرة من مخطوطة هذا

العمل بقلم مارسيل بروست

تصميم الغلاف: محيي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة

رقم الايداع ١٩٩٥/١٠٧٣٠

الترقيم الدولي ISBN 977 - 5406 - 89 - 7

مارسيل بروست

البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

3

جانب منازل غرمانت

دار شرقيات للنشر و التوزيع

إلى «ليون دوديه»،
إلى مؤلف «رحلة شكسبير» و«اقتسام الطفل»
و«الكوكب الأسود» و«أشباح وأحياء» و«عالم الصور»،
وروائع ما أكثرها.
إلى الصديق الذي لامثيل له،
عربون إقرار بالفضل وإعجاب.

م. پ

القسم الأول

بدت زقزقة العصافير الصباحية تافهة في نظر «فرانسواز».

كانت تنتفض لكل كلمة يقولها «الخدّام»، وتسائل النفس حولهم إذ تزعجم جميع خطاهم، فقد كنّا أخلينا بيتنا. وما كان الخدم بالتأكيد أقل حركة في «السادس» من مسكننا السابق، ولكنها كانت تعرفهم وقد جعلت من غدوهم ورواحهم أموراً يطبعها الودّ.

والآن تولي الصمت نفسه انتباها أليما. ولما كان يبدو حيّنا الجديد هادئاً بقدر صخب الشارع الذي كنّا حتى ذاك نطلّ عليه فإن أغنية رجل يعبر الطريق (وتميزها حتى من بعيد، آن هي ضعيفة كفكرة موسيقية ترددها أوركسترا) كانت تملأ بالدمع عيني «فرانسواز» في منفاها. ولئن سبق لي أن سخرت منها هي التي، إذ حزّ في نفسها أن وقع عليها هجر مبنى يسعى إليك فيه أحسن التقدير من كل صوب، حزمت أمتعتها باكية، حسب طقوس «كومبريه»، ومعلنة أن ما كان بيتنا يفوق جميع البيوت الممكنة، فقد تقرّبت في مقابل ذلك، أنا الذي كان يتمثل الأشياء الجديدة بصعوبة تساوي اليسر الذي أهجر به القديمة، تقرّبت من خادمتنا العجوز حينما رأيت أن الاقامة في بيت لم يحطها فيه البواب الذي لم يكن بعد يعرفنا بعلامات الاعتبار الضروري لحسن غذائها الروحي قد أغرقتها في حالة قريبة من السقم. وحدها كانت تستطيع أن تفهمني، وما كان خادمها بالتأكيد من يفعل ذلك، فالانتقال إلى بيت جديد والسكنى في حي آخر كانت بالنسبة إليه، هو الذي يبدو أقل ما يمكن من «كومبريه»، كمثل أن تنعم بعطلة توليك جدّة الاشياء فيها ما يوليك السفر من راحة.

كان يحسب نفسه في الريف ؛ لقد أولاه زكام ألمّ به، كمثل «لفحة هواء» تصيبك في عربة قطار لايطبق زجاجها بإحكام، انطباعاً لذيذاً بأنه طوّف في البلاد، فلقد كان يغتبط لمدى كل عطسة أن لقي محلاً أنيقاً إلى هذا الحد إذ رغب على الدوام موالي كثيري الأسفار، لذلك اتجهت رأساً إلى «فرانسواز» دون أن أفكر فيه. ولما كنت قد ضحكت من دموعها في رحيل خلّف في نفسي اللامبالاة فقد أبدت فتوراً شديداً إزاء حزني لأنها كانت تشاطرني إياه. فإن أنانية العصبيين تكبر مع حساسيتهم المزعومة، ذلك أنهم لايطيقون لدى الآخرين إبراز ضيق يعيرونه هم انتباها متزايداً.

و«فرانسواز» التي ما كانت تغفل أقل ما ينتابها من ضيق كانت تدير رأسها إن أنا تألمت كي لايغبطني أن أرى ألمي موضع رثاء وحتى مثار اهتمام. كذلك فعلت حالما أردت أن أحدثها عن بيتنا الجديد. ولما اضطرّت «فرانسواز» على أي حال أن تذهب بعد انقضاء يومين لتجلب ملابس منسية في البيت الذي غادرناه منذ قليل فقد عادت، فيما كنت لا أزال عقب انتقالنا إلى البيت الجديد «محموماً» وأحس بي تحدّبا في النفس مجهداً من جراء صندوق طويل كانت عيناي تحاولان «ابتلاعه» كمثل ثعبان ضخم أقدم على ابتلاع ثور، عادت تقول، تطبعها خيانة النساء، إنها أوشكت تختنق في شارعنا السابق وإنها رأت نفسها وقد ضلت طريقها تماماً في سعيها للذهاب إلى هناك وانها لم تبصر قط أدراجاً صعبة إلى هذا الحدّ وإنها لن تعود للسكنى هناك «مقابل امبراطورية» ولو وهبوها الملايين – وهي افتراضات مجانية– وان كل شيء (وتعني ما يخص المطبخ والممرات) أفضل ترتيباً في بيتنا الجديد. ولقد آن لنا أن نقول أن بيتنا هذا – وقد جئنا للسكنى فيه لأن جدتي كانت على غير ما يرام من الصحة، وهو سبب حرصنا ألا نذكره لها فكانت بحاجة إلى هواء أكثر نقاء– كان شقة تابعة لفندق آل «غير مانت».

وفي العصر الذي تضطرنا فيه الأسماء، إذ تقدم لنا صور المجهول الذي سكبناه فيها في اللحظة نفسها التي تشير فيها كذلك في نظرنا إلى مكان حقيقي، إلى المماثلة بين هذا وذاك إلى حد أننا نمضي في البحث في مدينة ما عن روح لايمكن أن تضمها ولكنه لم يعد بمقدورنا أن نقصيها عن اسمها، فإن هذه الأسماء لاتضفي شخصية على المدن والأنهار فحسب مثلما تفعل الرسوم الرمزية، وهي لاتلون العالم المادي فحسب بمواطن الاختلاف وتعمره بالخوارق، بل العالم الاجتماعي كذلك: وإذ ذاك يضحي لكل حصن ولكل فندق أو قصر مشهور سيدته أو جنيته مثلما للغابات جنياتها وللمياه آلهاتها. وتتحول الجنية أحياناً، وقد اختبأت في أعماق اسمها، حسبما تقضي حياة مخيلتنا التي تمدها بالغذاء، وعلى هذا النحو شرع الجو الذي كانت السيدة «دو غيرمانت» تعيش فيه في داخلي، بعدما ظل على مدى سنوات محض ومضة زجاج فانوس سحري أو زجاج كنيسة ملون، شرع يخمد ألوانه حينما ملأته أحلام مغايرة تماماً بزبد السيول الندي.

بيد أن الجنية تتلاشى إن اقتربنا من الشخص الحقيقي الذي يقابله اسمها، فذلك الشخص إنما يأخذ الاسم حينذاك يعكس صورته ولا يتضمن من الجنية شيئاً ؛ ويمكن أن تولد الجنية ثانية إن ابتعدنا عن الشخص، أما اذا ظللنا بالقرب منه فإن الجنية تموت موتاً نهائياً ويموت الاسم معها، كمثل أسرة «لوزينيان» التي كانت ستنطفىء يوم تختفي الجنية «ميلوزين» وإذ ذاك يضحي الاسم الذي ربما أمكن في النهاية أن نلقى تحت طبقاته اللونية المتعاقبة، أن نلقى في الأصل الرسم الجميل لغريبة لم نعرفها في يوم، يضحي ذلك الاسم محض بطاقة هوية فوتوغرافية نعود إليها لنعلم إن كنا نعرف شخصاً يعبر طريقه وإن كان علينا أن نحييه أم لا. فإن سمح شعور يعود إلى سنة سابقة – شأن آلات الموسيقى المسجلة التي تحتفظ برنة الفنانين المختلفين الذين عزفوا عليها وبأسلوبهم – إن سمح لذاكرتنا أن تسمعنا ذاك الاسم بالنغمة الخاصة التي كان يحملها آنذاك بالنسبة إلى أذننا فإننا نحس، والاسم لم يتبدل في الظاهر، بالمسافة التي تفصل الواحد عن الآخر الأحلام التي عنتها على التوالي في نظرنا مقاطعه المتماثلة ونستطيع للحظة أن نستخلص من النغمة العائدة التي كانت نغمته في ذاك الربيع الغابر، شأننا من الأنابيب الصغيرة التي تستخدم في الرسم، اللون الصحيح المنسي الخفي الندي للأيام التي خلنا فيما مضى أننا نتذكرها حينما كنا نضفي على كامل ماضينا المنشور على اللوحة الواحدة، كمثل الرديئين من الرسامين، ألوان الذاكرة الإرادية المبتذلة المتشابهة جميعها. ولكن كل واحدة من اللحظات التي شكلته كانت تستخدم على العكس، في سبيل إبداع أصيل وفي تناغم فريد، ألوان ذاك الحين، تلك التي، لا نعرفها من بعد والتي لاتزال، على سبيل المثال، تخلب لبي فجأة أن عاد اسم «غيرمانت»، بفضل صدفة ما، يتخذ لحظة بعد هذه السنوات الطويلة، الرنة الشديدة الاختلاف عن رنة اليوم والتي كانت رنته بالنسبة إليّ يوم زواج الآنسة «بيرسبييه»، فيعيد إليّ هذا اللون الخبّازي الشديد النعومة البالغ اللمعان المفرط في جدّته الذي ترِقُّ به ربطة عنق الدوقة الشابة المنفخة وعيناها اللتان تشرق فيهما ابتسامة زرقاء مثل عناقية يستحيل قطافها وقد أزهرت من جديد. وان اسم «غيرمانت» الأمس لهو أيضاً كأحد تلك النفّاحات الصغيرة التي احتبس فيها الاوكسجين أو أي غاز آخر فاني حينما أفلح في شقه وإخراج ما يحتويه أتنشق هواء «كومبريه» لذلك العام، لذلك اليوم، تمتزج فيه رائحة زعرور أبيض حرّكتها ريح الزاوية في الساحة، الريح التي تنذر بالمطر والتي كانت تطرد الشمس تاره وطوراً تفسح لها أن تستلقي على سجادة الصوف الحمراء في السكرستيا وتكسوها بلون الجيرانيوم الزهري اللماع الذي يقرب أن يكون وردياً وبهذه العذوبة في الابتهاج، وتخالها «فاغنيرية»، التي

تغمر الاحتفال بهذا القدر من النبل. ولئن كانت الأسماء، حتى خارج الدقائق القليلة الشبيهة بتلك والتي نحس فيها فجأة بالكيان الأصلي يختلج ويستعيد شكله وخط نقوشه داخل المقاطع الميتة في يومنا هذا، لئن كانت قد فقدت كل لون في زوبعة الحياة اليومية المدوخة التي لم يظل لها سوى استخدام عملي تماماً، كمثل خذروف موشوري يدور بسرعة مفرطة فيبدو رمادياً، فإننا في مقابل ذلك حينما نفكر في طور أحلامنا، حينما نحاول كيما نعود إلى الماضي أن نبطئ الحركة الدائمة التي تذهب بنا وان نوقفها فإننا نعود فنرى الألوان التي توالى بها الاسم الواحد لناظرينا تبرز شيئاً فشيئاً متجاورة ولكنما يتميز بعضها عن بعض تميزاً كلياً.

وإني دون شك لا أدري أي شكل كان يبرز لعيني في اسم «غيرمانت» هذا حينما كانت مربيتي تهدهدني بهذه الأغنية القديمة– وهي تجهل دونما شك، شأني اليوم، على شرف من تم تأليفها: «العزّة لمركيزة غيرمانت»، أو حينما كان الماريشال «دو غيرمانت» العجوز، بعد بضع سنوات، يتوقف في «الشانز يليزيه» ليقول، وتمتلئ خادمتي بذلك اعتزازا: «ياللطفل الجميل!» ويخرج من علبة «سكاكر» من جيبه قرصاً من الشوكولاته. إن سني طفولتي الأولى تلك لم تعد في داخلي، إنها في خارجي ولست استطيع أن أعلم شيئاً منها إلاّ بفضل حكايات الآخرين، كما هو أمر ما جرى قبل مولدنا. بيد أني ألقى فيما بعد على التوالي، في دوام هذا الاسم نفسه في داخلي، سبعة أو ثمانية وجوه مختلفة. كانت الأولى منها هي الأجمل: ثم يأخذ حلمي شيئاً فشيئا، وقد اضطره الواقع أن يهجر موقعاً لا يمكن الدفاع عنه، بالتحصن ثانية دونه بقليل حتى يضطر إلى التراجع مرة أخرى. وفي الحين نفسه الذي تتبدل فيه السيدة «غيرمانت» كان يتبدل منزلها المستخلص هو الآخر من ذاك الاسم الذي يخصبه سنة بعد سنة هذا القول أو ذاك أسمعه فيبدل أحلامي: كان ذلك المنزل يعكسها في حجارته ذاتها وقد أضحت عاكسة كسطح سحابة أو بحيرة. فهذا برج لاسماكة له، وهو محض شريط من الضوء البرتقالي كان السيد وعقيلته يبتان من عليائه أمر حياة أتباعهما وموتهم، قد أفسح المكان– في أقصى «جانب غيرمانت» هذا الذي كنت أحاذي فيه مجرى نهر الـ«فيفون» بصحبة والديّ في الكثير من فترات العصر الجميلة– لهذه الأرض الكثيرة السيول التي كانت الدوقة تعلمني فيها صيد سمك «التروتة» واسم الزهور ذات العناقيد البنفسجية والضاربة إلى الحمرة التي تزين الجدران الواطية للاسياج المحيطة؛ ثم كانت تلك الأرض المتوارثة والأملاك الشاعرية التي أخذت سلالة «دو غيرمانت» الأبية مذ ذاك تشمخ فيها، مثل برج مصفر ومزخرف بنقش الزهر يخترق العصور، فوق فرنسه في حين كانت السماء لاتزال خالية حيث ستنبثق فيما بعد كنيسة «نوتردام» في باريس وكنيسة «نوتردام» في «شارتر»، وفي حين لم يقم على قمة رابية «لان» صحن الكاتدرائية مثل سفينة الطوفان على قمة جبل أرارات وقد غصت بالآباء [1] والصالحين يطلون قلقين من نوافذها ليبصروا إن كان غضب الله قد هدأ وحملت معها اصناف النباتات التي ستكاثر على الأرض وفاضت بالحيوانات التي تنطلق حتى من الأبراج حيث تجول ثيران بهدوء على السطح وتنظر من علٍ إلى سهول «شامبانيه»؛ وفي حين لايرى المسافر بعد، وهو يغادر مدينة «بوفيه» في آخر النهار، أجنحة الكاتدرائية السوداء المتفرعة المبسوطة على شاشة الغروب الذهبية تتبعه محوّمة. كانت «غيرمانت» تلك، شأن إطار روائي، منظراً خيالياً كنت أجد مشقة في تمثله ورغبة تتزايد بذلك في اكتشافه، تكتنفه أراض وطرق

(١) آباء الكنيسة هم رؤساؤها وكبار معلميها.

حقيقية تتشرب فجأة خصائص شعارية، على بعد فرسخين من إحدى المحطات ؛ كنت أتذكر أسماء الأماكن المجاورة كما لو وقعت على حضيض جبل الـ«بارناس» أو «الهيليكون» (١) وكانت تبدو لي ثمينة شأن الشروط المادية–في علم الطوبوغرافية– في انتاج ظاهرة خفية. لقد عدت أرى الشعارات المرسومة على قواعد زجاج «كومبريه» الملون الذي امتلأت أقسامه قرناً بعد قرن بجميع البيوتات العريقة التي اجتذبها إليه ذلك البيت الشهير من سائر أركان ألمانية وإيطالية وفرنسة بالزواج أو الشراء: فأراض شاسعة في الشمال ومدن قوية في الجنوب جاءت تلتقي وتتألف حول اسم «غيرمانت» وترسم بالرمز، بعدما فقدت ماديتها، برجها الذي من لون أخضر أو قصرها الذي من فضة في نطاقه اللازوردي. لقد سبق أن سمعت عن سجاد «غيرمانت» وأراها وسيطية زرقاء على شيء من السماكة تبرز كسحابة على الاسم الأرجواني المخملي الأسطوري على حضيض الغابة العتيقة التي كثيراً ما اصطاد فيها «شيلديبر» وكان يبدو لي أنني ربما ولجت أسرار هذه الأراضي القصية الخفية وهذه القرون السحيقة، مثلما يتفق لي في رحلة، بمحض اقترابي لحظة في باريس من السيدة «غيرمانت» والية المكان وسيدة البحيرة كما لو أنبغي أن يمتلك محياها وأقوالها سحر الغابات والضفاف المحلي والخصائص البالغة القدم نفسها التي تملكها مجموعة الأعراف القديمة في محفوظاتها. ولكني كنت إذ ذاك قد عرفت «سان لو» وقد أخبرني أن القصر لم يدع «غير مانت» إلاّ منذ القرن السابع عشر يوم اشترته أسرته. لقد أقامت حتى ذاك في الجوار ولم يأتها لقبها من تلك المنطقة. فلقد أخذت قرية «غيرمانت» اسمها من القصر الذي بنيت بعده وقد نظمت تدابير قاسية ظلت سارية المفعول مخطط الشوارع وحددت ارتفاع المنازل كي لاتقضي على مناظره. أما الطنافس فكانت من أعمال «بوشيه» وقد اشتراها هاوٍ من آل «غيرمانت» في القرن التاسع عشر ووضعت في صالة شديدة القبح مغطاة بقماش قطني أحمر وآخر طويل الخملة إلى جانب لوحات صيد ضحلة المستوى رسمها بنفسه. لقد أدخل «سان لو» على القصر بهذه التصريحات عناصر غريبة عن اسم «غيرمانت» لم تسمح لي من بعد بموالاة استخلاص حجارة المباني من رنّة المقاطع فحسب. حينئذ امحى في أعماق ذلك الاسم القصر الذي يتعكس في بحيرته ؛ أما مد بدا لي من حول السيدة «دو غيرمانت» على أنّه مسكنها فقد كان فندقها في باريس، فندق «غيرمانت»، وهو صاف صفاء اسمها إذ لم يقم ثمة أي عنصر مادي عاتم يوقف شفافيته ويقضي عليها. وكما أن الكنيسة لاتعني المعبد فحسب بل جمهور المؤمنين كذلك، كان فندق «غيرمانت» هذا يضم جميع الذين يشاطرون الدوقة حياتها، بيد أن هؤلاء الأُلاّف الذين ما رأيتهم قط إنما كانوا في نظري محض أسماء مشهورة وشاعرية وهم إذ لا يعرفون سوى أشخاص هم بدورهم محض أسماء إنما كانوا يزيدون من سر الدوقة الخفي ويحمونه إذ يمدّون من حولها هالة واسعة أقصى ما يصيبها أن تتبهت ألوانها شيئاً فشيئا.

ولما كنت لا أتخيل، في الاحتفالات التي كانت تقيمها، أي جسد للمدعوّين وأي شارب وأي حذاء وأية جملة منطوقة تبدو تافهة أو حتى مبتكرة على نحو إنساني ومطابق للعقل، فقد كانت زوبعة الأسماء تلك التي تحمل من الملموس أقل مما يتوافر لوليمة أشباح أو لحفلة أطياف راقصة حول هذا التمثال الذي من بورسلين «ساكس» والذي تمثله السيدة «دو غيرمانت»، كانت تحتفظ لفندقها الزجاجي بشفافية الواجهات

(١) Le Parnasse et l'Hélicon من جبال اليونان واشتهرا بتكريم ربات الشعر، والتكريم ربما أفضى إلى مسابقات شعرية.

الزجاجية. ثم اضحى فندق «غيرمانت» ، بعدما قص عليّ «سان لو» نوادر عن كاهن الكنيسة وبستانيي ابنة عمه، أضحى – شأن ما أمكن أن يكون عليه بالأمس مبنى «اللوفر» – ضرباً من القصور تحيط به، في وسط باريس نفسها، أراضيه التي تمت ملكيتها بالوراثة بموجب حق قديم مستمر على نحو غريب والتي لاتزال تمارس عليها امتيازات إقطاعية. على أن هذا المنزل الأخير قد تلاشى بدوره حينما جئنا للسكنى بالقرب من السيدة «دو فيلباريزيس» في إحدى الشقق المجاورة لشقة السيدة «دو غيرمانت» في أحد أجنحة فندقها. لقد كان واحدا من تلك المساكن القديمة على غرار تلك التي لعلها لاتزال قائمة والتي غالباً ما تملك فيها باحة الشرف على جوانبها مستودعات دكاكين ومشاغل وحتى دكان حذّاء أو خياط– وهي إما طمي حملته مياه الديمقراطية الصاعدة وإما تراث من أزمنة أكثر اغراقاً في الماضي كانت مختلف المهن تجتمع فيها حول السيد – كتلك التي تراها تستند إلى جنبات الكاتدرائيات التي لم تبرزها يد المهندسين المجمّلة، وبواب حذّاء يربي الدجاج ويزرع الزهور– وفي أقصاها، في المسكن «الذي له هيئة الفندق»، هناك «كونتيسه» كانت توزّع دونما تمييز لدى خروجها في عربتها القديمة التي يجرها حصانان وتبرز فوق قبعتها بعض من أزاهير الجرجير تبدو وكأنها هربت من حديقة المقصورة (وإلى جانب حوذيها خادم ينزل ليوزع بطاقات في كل فندق ارستقراطي في الحي)، توزع دون تمييز بينهم بسمات وتلويحات تحية باليد لأولاد البواب والمستأجرين البورجوازيين في المبنى الذين يعبرون في تلك اللحظة والذين تخلط بينهم في أنسها المستعلي ونزعة المساواة المستكبرة لديها.

وفي المنزل الذي جئنا للسكنى فيه كانت السيدة الكبيرة التي في أقصى الباحة «دوقة»، وهي أنيقة ولا تزال شابة بعد وكانت السيدة «دوغيرمانت»، وقد توافرت لدي معلومات حول الفندق في مدة قصيرة بفضل «فرانسواز». ذلك أن عائلة «غيرمانت» (وغالبا ما تشير إليهم «فرانسواز» بكلمتي «في الأسفل» و«تحت») كانت تؤلف شغلها الشاغل منذ الصباح الذي ألقت فيه، فيما كانت تسرّح والدتي، نظرة محظورة خفية لا تقاوم إلى الباحة، وكانت تقول: «عجباً، تلكم راهبتان ؛ أنهما ذاهبتان بالتأكيد إلى أسفل أو: «آه! ما أجملها تدارج في نافذة المطبخ، ولا حاجة أن نسأل من أين جاءت، فالدوق لابد ذهب إلى الصيد»، وحتى المساء حيث تستخلص، إن هي سمعت، فيما تعطيني حوائجي الليلية، ضجة «بيانو» أو أصداء أغنية: «لديهم جماعة « في الاسفل» والجو يميل إلى المرح» ؛ حينئذ كانت بسمة من شبابها زاخرة بالحيوية والحشمة تضع لحظة واحدة كلا من ملامحها في مكانه وتطابق بينها في نظام معدّ ودقيق كما هي الحال قبل رقصة جماعية.

بيد أن اللحظة التي كانت تثير اهتمام «فرانسواز» أشد ما تثير في حياة آل «غيرمانت» وتخلف لديها أشد الرضى وتشق عليها كذلك كثيراً إنما كانت بالضبط تلك التي تنفتح فيها البوابة الرئيسية على مصراعيها وتصعد الدوقة إلى عربتها. كان ذلك يجري عادة بعدما ينتهي خدّامنا بوقت قصير من الاحتفال بهذا الفصح المهيب الذي ينبغي ألا يقطعه أحد والمدعو غداءهم والذي كان من «المحرمات» إلى حد لا يأذن فيه حتى والذي لنفسه أن يستدعيهم في أثنائه وهو يعلم على أية حال أن لن يكلف أحد نفسه المجيء في دقة الجرس الخامسة أكثر مما يفعل في الأولى وأنه إنما يأتي على هذا النحو عملاً غير لائق لا يجديه نفعاً فيما لن يتم دونما اضرار به. ذلك أنه ما كان ليفوت «فرانسواز» (التي كانت تتخذ لنفسها في كل لحظة، منذ أصبحت امرأة عجوزا، ما يسمى بالسحنة المناسبة) أن تبرز إليه طوال النهار بوجه تغطيه علامات صغيرة مسمارية وحمراء

تنتشر بها في الخارج، ولكن على نحو قلما يمكن فك رموزه، مذكرة شكاواها الطويلة وأسباب استيائها العميقة. كانت تجود بها على أية حال على حدة ولكن دون أن يمكننا تمييز الكلمات بوضوح. وكانت تسمي ذلك- وتظنه مكدراً بالنسبة إلينا ومؤلماً ومزعجاً- التحدث إلينا طوال النهار القدسي بصوت خفيض.

وبعد إنجاز الطقوس الأخيرة كانت «فرانسواز»، وهي في آن واحد، كما هي الحال في الكنيسة الأولى، الكاهن الذي يقيم القداس وواحد من المؤمنين، كانت تسكب لنفسها كأساً أخيراً من النبيذ وتنزع فوطتها عن رقبتها وتطويها وهي تمسح عن شفتيها بقية ماء تخالطه حمرة وقهوة وتضعها في حلقة وتشكر بنظرة شاكية خادمها الذي يقول لها مبالغة في الحماس: «هيا ياسيدتي. دونك أيضاً قليلاً من العنب، إنه لذيذ»، ويمضي في الحال لـفتح النافذة بحجة أن الحر شديد جداً «في هذا المطبخ التعيس». وكانت إذ تلقي نظرة سريعة متجردة إلى أقصى الباحة، فيما تدير في الآن نفسه قبضة النافذة وتستنشق الهواء، كانت تختلس منها اليقين بأن الدوقة لم تكن جاهزة بعد وتغمر مدى لحظة بنظرات ازدراء وشغف العربة المسرجة خيولها وبعدما تصرف عيناها لحظة الانتباه هذه الأمور الدنيا كانت ترفعها إلى السماء التي سبق أن استشفّت صفاءها إذ أحست بلطافة الهواء ودفء الشمس. كان تنظر في زاوية السطح إلى المكان الذي كانت تقبل إليه كل ربيع حمامات تبني عشها فوق موقد غرفتي بالتمام شبيهة بتلك التي كانت تهدل في مطبخها في «كومبريه».

وكانت تصرخ قائلة: «آه، كومبريه، ياكومبريه». (ولعل اللهجة المرتلة تقريباً التي كانت تلقي بها ذاك الدعاء كان يمكن أن تثير، فيما يخص «فرانسواز»، شكوكاً بمنشأ جنوبي، بقدر ما يفعل نقاء ملامح وجهها «الأرليزي»[1]، وبأن الوطن المفقود الذي تبكيه لايعدو كونه وطناً بالتبني. ولكن ربما كان المرءعلى ضلال إذ يبدو أن ليس من مقاطعة إلا ولها «جنوبها»، فكم من «سافواردي» و«بريتانيي»[2] تلقى ممن تعثر لديهم على جميع صنوف التنقيل العذب ما بين مقاطع طويلة وقصيرة تطبع سكان الجنوب!) «آه! ياكومبريه، متى أعود فألقاك أيتها الأرض المسكينة! متى أستطيع قضاء النهار القدسي بطوله تحت أزاهير زعرورك وليلكنا المسكين وأنا أصغي إلى الحساسين وإلى نهر «فيفون» الذي يصدر كأنما همس من يسرّ إليك بسر عوضاً عن أن أسمع جرس معلمنا الشاب التعيس الذي لايبقى نصف ساعة البتة دون أن يحملني على الجري على طول هذا الممر الشيطاني. والأنكى أنه يرى أني لا أمضي بسرعة كافية كأنما ينبغي أن تسمع قبلما يدق وإن تأخرت دقيقة انتابته صنوف من الغضب مريعة. أواه يا «كومبريه»؛ قد لا أعود أراك إلا ميتة حينما يرمونني رمية الحجر في حفر القبر. وإذ ذاك لن أشمها من بعد أزاهير زعرورك الناصعة البياض. ولكني أظن أني سأظل أسمع في رقدة الموت دقات الجرس الثلاث التي سبق أن قادتني إلى التهلكة في حياتي».

ولكنما نداءات صانع الصداري في الباحة كانت تقاطعها، ذاك الذي راق جدتي فيما مضى إلى حد بعيد يوم ذهبت للقاء السيدة «دوفيلباريزيس» ولم يكن يشغل منزلة أدنى في مودّة «فرانسواز». وكان قد رفع رأسه إذ سمع من يفتح نافذتنا وقدكان يحاول منذ فترة أن يسترعي انتباه جارته كي يقرئها التحية. وإذ ذاك

(١) نسبة إلى مدينة Arles في جنوب فرنسة.

(٢) نسبة إلى مقاطعتي Bretagne, Savoie في فرنسة

كان غنج الفتاة التي سبق أن كانتها «فرانسواز» يضفي في نظر السيد «جوبيان»رقة على الوجه المتأفف الذي لطاهيتنا العجوز التي ثقلت من جراء السنين والمزاج المتكدر وحرارة الموقد وكانت ترسل لصانع الصداري بمزيج رائع من الحيطة والألفة والاحتشام تحية رقيقة ولكن دون أن تجيبه بصوتها لأنها إن كانت تخالف توصيات والدتي إذ تنظر إلى الباحة فما كانت لتجرؤ على تحديها إلى حد التحدث من النافذة، الأمر الذي كان من مزاياه، حسبما ترى «فرانسواز»، أن يسمعها «فصلاً كاملاً» على لسان السيدة. كانت تدله على العربة المسرجة وكأنما تقول: «جياد عظيمة، هيه!» ولكنما تهمس في الوقت نفسه: «ياللعجوز الشمطاء»، ولاسيما أنها تعلم أنه سيجيبها وهو يضع يده أمام فمه كيما يمكن سماعه فيما يتكلم بصوت منخفض: «وأنتم أيضاً تستطيعون اقتناء مثلها لو شئتم وربما أكثر منهم ولكنكم لاتحبون كل هذا».

وكانت «فرانسواز»، بعد أشارة متواضعة متهربة مفتونة تعني على وجه التقريب: «لكل طريقته، والاتجاه هنا إلى البساطة»، كانت تغلق النافذة مخافة أن تصل أمي. أما الـ «أنتم» الذين كان بامكانهم اقتناء خيول أكثر من آل «غيرمانت» فنحن، ولكن «جوبيان»كان محقاً بقوله «أنتم» لأن «فرانسواز»، فيما عدا بعض متع الاعتزاز بالنفس الشخصية المحضة (كأن تزعم، حينما كانت تسعل دونما توقف حتى ليخشى البيت بكامله أن يصاب بزكامها، تزعم بتهاتف يغيظك أنها غير مصابة بالزكام)، مثلها مثل تلك النباتات التي يغذيها حيوان اتحدت به اتحاداً كلياً بالأغذية التي يلتقطها ويأكلها ويهضمها من أجلها ويقدمها لها عبر فضلاته الأخيرة القابلة للتمثل تماماً، كانت تعيش في اتحاد كلي معنا. فنحن من كان عليهم واجب أن يضعوا بفضائلهم وثروتهم ونمط معيشتهم المسرات الصغيرات الصغيرة التي ترضي اعتزازها بنفسها والتي يتألف منها هذا القسم من الارتياح النفسي الذي لاغنى عنه لحياتها– مضافاً إليه الحق المعترف به في ممارسة طقوس الغداء ممارسة حرة وفق العرف القديم الذي يتضمن نشقة الهواء أمام النافذة بعدما ينتهي وتسكع في الشارع وهي تمضي لشراء حاجاتها ونزهة يوم الأحد لتذهب لزيارة ابنة أخيها.

واننا ندرك لذلك أن استطاعت «فرانسواز» أن تهزل في الأيام الأولى وقد وقعت– في بيت لم تكن جميع ألقاب والدي الفخرية معروفة فيه بعد– فريسه داء كانت تدعوه هي نفسها السأم، السأم بالمعنى القوي الذي يكتسبه لدى «كورنيي» أو بريشة الجنود الذين ينتحرون في نهاية المطاف لانهم «يسأمون» أشد السأم حنيناً إلى خطيبتهم وقريتهم. أما سأم «فرانسواز» فسرعان ماتم شفاؤه وعلى يد «جوبيان» بالضبط لأنه أمدها في الحال بمتعة في مثل شدة تلك التي كانت توافرت لها، لو صممنا على اقتناء عربة، واكثر رهافة. عائلة «جوليان» (إذ يطيب لـ «فرانسواز» أن تماثل بين المفردات الجديدة وتلك التي تعرفها من قبل)– يانعم الناس، إنهم جماعة طيبون، ذلك باد على وجوههم.» وقد عرف «جوبيان» بالفعل كيف يدرك ويعلِّم الجميع أننا أن لم نقتن فريق خدم فلأننا لانبغي ذلك.

وصديق «فرانسواز» هذا قليلاً ما كان يعيش في منزله إذ حصل على وظيفة مستخدم في إحدى الوزارات. كان بادئ الأمر يضع الصداري مع «البنيّة» التي حسبتها جدتي ابنته فلم تعد لديه أية فائدة في ممارسة الصنعة حينما اتجهت الصغيرة التي كانت تجيد مذ ذاك، ولاتزال بعد طفلة تقريباً، خياطة التنانير حينما ذهبت جدتي فيما مضى في زيارة للسيدة «دوفيلباريزيس»، وجهة الخياطة للسيدات وأصبحت خياطة تنانير.

كانت بادئ الأمر صانعة صغيرة لدى خياطة يعهد إليها بدرزة وخياطة كشكش و«تركيب» زر أو كباس وإحكام خصر بوساطة بكل، وسرعان ما انتقلت إلى مركز المساعدة الثانية ثم الأولى، وإذ اتخذت زبائن من سيدات أرقى المجتمعات أخذت تعمل في منزلها، يعني في ساحة دارنا، وفي الغالب مع واحدة أو اثنتين من رفيقاتها الصغيرات في المشغل تستخدمهما بمثابة متدربّتين. ومنذ ذاك أصبح وجود «چوبيان» أقل فائدة. ما من شك أن الصغيرة، وقد أضحت كبيرة، كانت لاتزال تضطر أن تصنع الصداري. ولكنها بمساعدة صديقتيها لم تكن تحتاج أحداً. ولذلك التمس عمها «چوبيان» عملاً. كان بادئ الأمر حراً في العودة ظهراً وبعدما حلّ نهائياً محل من كان يساعده فحسب لم يعد يفعل قبل ساعة العشاء. ولم يتم تثبيته لحسن الحظ إلاّ بضعة أسابيع بعد سكنانا، الأمر الذي أمكن معه أن يعمل لطف «چوبيان» فترة تكفي لمساعدة «فرانسواز» على اجتياز الأوقات الأولى البالغة الصعوبة دونما فرط عذاب. بيد أنه يجدر بي الإقرار بأن «چوبيان لم يرقني كثيراً لاول وهلة دون أن أتجاهل الفائدة التي نالتها «فرانسواز» منه بوصفه «داوء انتقاليا». كانت عيناه على مسافة خطوات تنقضان تماماً الأثر الذي ربما خلفته لولاهما وجنتاه السمينتان ولونه المورّد، عيناها اللتان تفيض منهما نظرة مشفقة حزينة حالمة وتحملان على الظن بأنه شديد المرض أو أنه ألمّ به حزن كبير. ولم يكن من ذلك شيء بل كان يبدو بالأحرى، ساعة يتحدث، أحسن الحديث على أية حال، مجافياً ساخراً. وكان ينتج عن هذا التعارض بين نظرته وحديثه شيء من الزيف لم يكن مستحباً وكان يبدو هو نفسه من جرائه وكأنما يحس بمثل ضيق مدعو باللباس العادي في سهرة يرتدي فيها الجميع اللباس الرسمي أو واحد يقع عليه أن يجيب أحد أصحاب السمو فلا يعلم بالضبط كيف يحدثه ويتخطى الصعوبة بخفض حجم جمله إلى لاشيء تقريباً. أما جمل «چوبيان»– والأمر مقارنة بحتة– فقد كانت على العكس رائعة. فسرعان ما تبينت لديه بالفعل، بما وافق اغراق العينين للوجه (وهو أمر لم يعد يسترعي الانتباه بعدما تعرفه)، ذكاء نادراً ومن أكثر ما تيسرت لي معرفته اتساماً بالطابع الأدبي العفوي بمعنى أنه اكتسب أو تمثل، دونما ثقافة على الأرجح، وبمحض قراءة عجلى لبعض الكتب، أكثر قوالب اللغة براعة. ولما كان أكثر الناس مواهب ممن سبقت لي معرفتهم قد قضوا نحبهم في مقتبل العمر فقد كنت على يقين بأن حياته سوف تنقضي بسرعة. كان قلبه عامراً بالطيبة والشفقة وأكثر المشاعر رقة وكرماً.

وسرعان ما كف دوره في حياة «فرانسواز» عن كونه ضرورياً. فقد تعلمت كيف تتخطاه. كانت «فرانسواز»، حتى حينما يجيء بائع أو خادم يحمل إلينا رزمة، أي رزمة، كانت تستغل، فيما تبدو وكأنها لاتهتم به وتشير فحسب بمظهر اللامبالي إلى كرسي وهي توالي عملها، اللحظات القليلة التي يقضيها في المطبخ في انتظار جواب أمي، على نحو حاذق حتى لينذر أن يعود دون أن يكون قد انغرس في نفسه على نحو لا يمّحي اليقين بأنه «إن لم يتوافر لدينا فلأننا لانريد». ولئن كانت شديدة التمسك من جهة أخرى بأن يعلم الناس أننا نملك «من المال»، (إذ كانت تجهل ما يدعوه «سان لو» غير المعرّف وتقول «اقتنى من المال» و«جلب من الماء») فليس يعني ذاك أن الغنى فحسب، الغنى المجرد عن الفضيلة، هو الخير الأسمى في نظر «فرانسواز»، ولكن الفضيلة دون الثروة لم تكن هي الأخرى مثلها الأعلى. لقدكان الغنى بالنسبة إليها بمثابة شرط لازم تبدو الفضيلة بدونه مجردة من القيمة والفتنة. كانت تفصل بينهما قليلاً جداً إلى حد أنها كانت تضفي في النهاية على كل منهما مزايا الآخر وتطالب ببعض الرفاه في الفضيلة وتتعرف شيئاً من الصلاح في

الغنى.

وما أن يتم إغلاق النافذة، وذلك بالسرعة الكافية (والا حكت لها أمي»، فيما يبدو، «جميع ما يمكن تصوره من شتائم»)، حتى تشرع «فرانسواز» متنهدة في ترتيب طاولة المطبخ.

ويقول الخادم: «ثمة جماعة من آل «غيرمانت» لازالت في شارع «دو لاشيز» وكان لي صديق عمل هناك واستخدم بمثابة حوذي معاون. واني أعرف أحدهم، لا رفيقي إذ ذاك، بل صهره وكان قد أمضى خدمته في الجيش برفقة ذوّاق خمرة لدى البارون «غيرمانت». ويضيف الخادم: «عليك به على كل حال، فليس والدي!» وقد تعود أن يزرع أقواله بالمزحات الجديدة مثلما يدمدم أغنيات العام.

وتبينت «فرانسواز» بعينيها المتعبتين، عيني المرأة التي تقدم بها السن، وكانتا تبصران على أية حال كل شيء في «كومبريه»، تبينت في البعيد المبهم لا المزاح الذي تضمنته هذه الكلمات بل إنها لابد تتضمن مزاحاً لأنها لاتمت بصلة إلى تتمة الحديث وقد انطلقت قوية على لسان واحد تعلم أنه ممزاح. ولذلك ابتسمت ابتسامة العطف والاعجاب الشديد وكأنها تقول: «فيكتور هذا لايتغير!» على أنها كانت سعيدة لأنها تعلم أن سماع نكات من هذا القبيل إنما يرتبط من بعيد بتلك المتع الاجتماعية النظيفة التي يسارع المرء في طبقات المجتمع كافة إلى التبرج لها ويعرض نفسه للبرد. ثم انها تعتقد أن الخادم الخاص صديق لها فهو لا ينفك يندد أمامها حانقاً بالإجراءات الرهيبة التي تزمع «الجمهورية» اتخاذها بحق الاكليروس(١). و«فرانسواز» لم تكن بعد أدركت أن أشد خصومنا قسوة ليسوا أولئك الذين يخالفوننا القول ويحاولون اقناعنا بل الذين يضخمون أو يبتدعون الأخبار التي يمكن أن تغمّنا فيما يحترسون تماماً من أن يضفوا عليها صبغة تبريرية قد تقلل من غمنا وربما خلفت لدينا تقديرا طفيفاً لفريق يهمهم أن يبرزوه لنا فظيعاً ومظفراً في آن معاً في سبيل عذاب نُسامه كاملاً.

وقالت «فرانسواز» وهي تستعيد الحديث من جماعة آل «غيرمانت» الذين في شارع «لاشيز» مثلما تستعاد مقطوعة موسيقية بدءا من «الاندانتيه»(٢): «لابد للدوقة علاقات مصاهرة مع هذا النفر كله. ولست أعلم من قال لي أن أحدهم زوّج الدوق واحدة من بنات عمه. والكل من «الطينة» نفسها على أية حال.» وتضيف باحترام: «إنها لأسرة عظيمة أسرة آل «غيرمانت»! وهي تبني عظمة تلك الأسرة على عدد أعضائها وبريق شهرتها مثلما يبني «باسكال» حقيقة الدين على العقل وسلطان الكتب المقدسة. فقد كان يبدو لها، وهي لاتملك سوى كلمة «عظيم» للتعبير عن الأمرين، أنهما إنما يؤلفان أمراً واحداً إذ يعتور مفرداتها على هذا النحو، شأن بعض الحجارة الكريمة، عيب في ناحية منها يلقي غموضاً حتى في فكر «فرانسواز».

— «اتساءل إن لم يكونوا هم الذين يقوم قصرهم في «غيرمانت» على عشرة فراسخ من «كومبريه»، ولا

(١) رجال الدين.

(٢)Andante تعني ببطء معتدل، وهي من العلامات التي تسهل قراءة النص الموسيقي او عزفه.

بد إذ ذاك من قرابة أيضاً بينهم وبين ابنة عمهم في «ألجيه»[1]. (وتساءلنا طويلاً أنا وأمي من يمكن أن تكون ابنة العم في «ألجيه» ولكننا أدركنا أخيراً أن «فرانسواز» كانت تعني باسم «ألجيه» مدينة «أنجيه». فما كان بعيداً يمكن أن يكون معروفاً لدينا أكثر مما هو قريب. و«فرانسواز» التي كانت تعرف اسم «ألجيه» بسبب تمور شنيعة تصلنا في رأس السنة كان تجهل اسم «أنجيه». كانت لغتها ترصعها الأخطاء على غرار اللغة الفرنسية نفسها ولا سيما أسماء البلدان فيها.) «كنت أود أن أحدث رئيس خدمهم في ذلك». وتوقفت كمن يطرح على نفسه سؤالاً في أصول التشريفات: «كيف يدعونه ياترى؟» وأجابت نفسها قائلة: «أجل، يدعونه أنطوان»: كما لو كان «أنطوان» لقباً. «كان باستطاعته هو أن يروي لي عن ذلك، ولكنه سيد حقيقي ومتحذلق كبير، لكأنما قص لسانه أو هو نسي أن يتعلم الكلام.» وتضيف «فرانسواز»: «أنه حتى لا يجود بجواب حينما تكلمه»، وتقول «جاد بالجواب» مثل السيدة «دو سيفينييه». وأضافت دونما صدق: «ولكن، ما دمت أعلم ما ينضج في قدري فلا أهتم بقدور الآخرين. وكل ذلك ليس من الاستقامة في شيء على أي حال. ثم إنه ليس بالرجل الشجاع (وربما أمكن أن يحمل هذا التقدير على الظن بأن «فرانسواز» غيرت رأيها في البسالة التي تحط الرجال، حسبما كانت ترى في «كومبريه»، في مراتب الوحوش المفترسة، وما كان شيء من ذلك، فلفظة شجاع إنما كانت تعني المجدّ فحسب). ويقول كذلك إنه لص كطائر العقعق، ولكن ينبغي ألا نصدق الشائعات دوماً فجميع المستخدمين يمضون هنا، فيما يخص المحفل، والبوابون حساد يثيرون حفيظة الدوقة. إلاّ أنه يمكن القول إن «أنطوان» هذا عنوان الكسل وليست «انطوانيته» أفضل منه»، تضيف «فرانسواز» التي لابد كانت تحفظ، بغية العثور لاسم «انطوان» على مؤنث يدل على امرأة رئيس الخدام، ذكرى لاواعية لخوري وخورية في ابتداعها القواعدي. وما كانت مخطئة في ما تقول فلا يزال ثمة بالقرب من كنيسة «نوتردام» شارع يسمى شارع الخورية، وهو اسم أطلقه عليه (إذ لم يكن يسكنه سوى الخوارنة) فرنسيو الأمس، وكانت «فرانسواز» تعاصرهم في الواقع. ثم يأتيك في الحال فضلاً عن ذلك مثال جديد على هذه الطريقة في صياغة أشكال المؤنث إذ تضيف «فرانسواز» قولها: «الأكيد الأكيد أن قصر «غيرمانت» للدوقة. فهي التي تشغل في المنطقة مركز السيدة «المختارية»، وهو أمر ذو بال».

ويقول الخادم قول المتيقن إذ لم يكشف السخرية: «بالطبع الأمر ذو بال».

–«أتظن يابني أن الأمر ذو بال؟ ولكن المختار و«المختارية» في نظر جماعة مثلهم لايساويان فلساً واحداً. ولو كان قصر «غيرمانت» ملك يدي لما أبصرني الناس كثيراً في باريس. أفينبغي مع ذلك أن يجتمع لأسياد، لأشخاص يملكون كفايتهم مثل السيد والسيدة، أفكار غريبة كي يظلوا في هذه المدينة الحقيرة بدلا من أن يذهبوا إلى «كومبريه» بما أنهم أحرار أن يفعلوا ولا يمنعهم أحد. ما عساهم ينتظرون الاحالة على التقاعد بما انه لاينقصهم شيء؛ أن يطويهم الموت؟ آه! لو توافر لدي خبز جاف آكله وحطب أستدفئ به في الشتاء لكنت من زمان بعيد في منطقتي في بيت أخي البائس في «كومبريه». هناك يحس المرء على الأقل أنه يعيش، فليس أمامك كل هذه الدور والضجيج قليل إلى حد أنك تسمع الضفادع ليلاً وهي تغني من مسافة تزيد على الفرسخين».

(١) Alger أي الجزائر.

«ويصرخ الخادم الشاب بحماسة كما لو كانت هذه الميزة الأخيرة لاصقة بـ «كومبريه» بقدر ما تميز الحياة في مراكب الغندول البندقية: «لابد أن ذلك جميل حقاً ياسيدتي».

ولما كان فضلاً عن ذلك أقرب عهداً في المنزل من الخادم الخاص فقد كان يكلم «فرانسواز» في موضوعات يمكن أن تثير اهتمامها هي وليس اهتمامه. و«فرانسواز» التي كانت تبدي اشمئزازاً حينما يضعونها موضع الطاهية كانت تحيط الخادم بالعطف الخاص الذي يبديه بعض أمراء الدرجة الثانية إزاء الشبان السليمي الطوّية الذين يكيلون لهم لقب المعالي.

-« أنت تعرف على الأقل ما تفعل وفي أي فصل تعيش، فليس الأمر مثله ههنا حيث لاينبت زر ذهبي بائس واحد في الفصح المقدس أكثر مما ينبت في البلاد ولا أميز حتى ناقوس صلاة خفيف حينما أرفع هيكلي العظمي الهرم. أما هناك فتسمع دقات كل ساعة ؛ إنه جرس بائس فحسب ولكنما تقول في نفسك: «هو ذا أخي يعود من الحقل» ، وترى نور النهار يتناقص ويقرع الناقوس من أجل خيرات الأرض وتجد متسعاً من الوقت لتلتفت وراءك قبلما تضيء مصباحك. أما هنا فيطلع النهار ويحل الليل وتذهب إلى فراشك ولاتستطيع حتى أن تقول، أكثر مما تفعل الحيوانات، ما الذي فعلت.»

ويقاطعها الخادم الشاب الذي اتخذ الحديث حسب رأيه مجرى على شيء من الغموض والذي كان يذكر اتفاقاً أنه سمعنا نتحدث على المائدة عن «ميز يكليز» «يبدو ياسيدتي أن ميزيكليز أيضا جميلة جداً.

وتقول «فرانسواز»: «آه! ميزيكليز»، بالابتسامة العريضة التي ترتسم أبداً على شفتيها حينما ينطقون بأسماء «ميزيكليز» و «كومبريه» و«تانسونفيل» . فقد كانت تؤلف جزءا من حياتها الخاصة إلى حد انها كانت تحس إذ تصادفها في الخارج وتسمعها في حديث بجذل يكاد يقارب ذاك الذي يبعثه أستاذ في صفه إذ يلمح إلى شخصية معاصرة لم يحسب تلاميذة أن اسمها يمكن أن ينطلق في يوم من أعالي المنبر. وتأتيها متعتها كذلك من الإحساس بأن هذه المناطق بالنسبة إليها غير ما هي بالنسبة إلى الآخرين وأنها من أصحاب قدامى أقمنا معهم الكثير من الحفلات، فكانت تبتسم لها كما لو تلفي لديها روحا لأنها تلقى فيها الكثير من ذاتها.

وتعود تقول وهي تضحك ضحكة ناعمة: «أجل، تستطيع أن تقول ذلك يابني، إن «ميزيكليز» على قسط من الجمال، ولكن كيف اتفق لك أنت أن تسمع من يتحدث عن «ميزيكليز» ؟.

ويجيب بانعدام إجرامي في الدقة يتصف به ناقلو الأخبار الذين لايدعون لنا في كل مرة نحاول فيها أن نتبين بموضوعية الأهمية التي يمكن أن يكتسبها في نظر الآخرين أمر يتعلق بنا، امكانية الإفلاح في ذلك: «كيف سمعت من يتحدث عن «ميزيكليز» ؟ ولكن الأمر معروف تماماً لقد حدثوني عنها، بل حدثوني مراراً عديدة».

- «آه! أقول لك إن الحياة أفضل ههنا تحت أشجار الكرز منها بالقرب من موقد المطبخ».

كانت تروي لهم حتى عن «أولالي» وكأنما عن شخصية طيبة. ذلك لأن «فرانسواز» نسيت تماماً منذ أن توفيت «أولالي» أنها قليلاً ما أحبتها في حياتها مثلما لاتحب أي شخص لا يملك ما يأكله في بيته

ويموت جوعاً ثم هو يجيء بعدها، شأن من لا يصلح لأمر، يتصنع في سلوكه بفضل طيبة الأغنياء. ولم يعد يؤلمها أن عرفت «أولالي» حق المعرفة كيف تأخذ في كل أسبوع قطعة نقودها من عمتي.

أما فيما يخص هذه الأخيرة فلم تكن تكف «فرانسواز» عن انشاد فضائلها.

ويسأل الخادم الشاب قائلاً: «أفي كومبريه» نفسها كنت حينذاك لدى إحدى بنات عم السيدة» ؟.

– «أجل لدى السيدة «أوكتاف». آه! يالها من امرأة قديسة يا أولادي المساكين، وكان لديها على الدوام ما يكفي وما لذ وطاب، امرأة طيبة، ذلك ما يمكن أن تقولوه، ولم تكن تشتكي الحجال، ولا التدراج ولا أي شيء وكان يمكن الحضور إلى العشاء بصحبة خمسة أو ستة ولم يكن اللحم ما يفتقد ومن النوع الأول، والنبيذ الأبيض والنبيذ الأحمر وكل ما تحتاج إليه. (كانت «فرانسواز» تستخدم الفعل «اشتكي» بالمعنى الذي يستخدمه فيه «لابروييرِ».) كان كل شيء على نفقتها دوماً وإن مكثت الأسرة شهوراً وسنوات. (ولم يكن في تلك الفكرة ما يسيء إلينا لأن «فرانسواز» كانت تنتمي إلى زمن لم تكن «النفقة» فيه مقصورة على اللغة القضائية وكانت تعني الانفاق فحسب.) آه! أؤكد لك أنك ما كنت تمضي من هناك وبك جوع. ومثلما أبرز لنا السيد الكاهن مرات عديدة، إن كان ثمة امرأة يمكن أن تأمل في السكنى بجوار ربها فانما هي بالتأكيد. مسكينة سيدتي، لا أزال أسمعها تقول لي بصوتها الضعيف: «تدرين يا «فرانسواز»، أنا لا آكل، ولكني أريد أن يجيء الطعام في مثل جودته بالنسبة إلى الجميع كما لو كنت آكل.) بالتأكيد لم يكن الطعام من أجلها. لو رأيتها، لم تكن تزن أكثر من صندوق كرز، كأنما لا وجود لها. ولا تريد أن تصدقني ولاشاءت في يوم أن تذهب إلى الطبيب، آه! ما كان المرء هناك ليأكل شيئاً على جناح السرعة. وتريد أن يكون خدمها حسني التغذية. أما ههنا فلم يتوافر لنا في هذا الصباح كذلك مجرد الوقت للافطار، وكل شيء يتم على عجل.»

كان يثير حنقها على وجه الخصوص قطع الخبز المحمص الذي يأكله والدي، وكانت على يقين أنه يستخدمها بغية التصنع وكيما يشغلها. ويصادق الخادم الشاب قائلاً: «يمكنني القول أني لم أر ذلك في يوم!» كان يقول وكأنما رأى كل شيء وامتدت في داخله جذور تجربة سحيقة إلى جميع البلدان وإلى عاداتها ولا تبرز ضمنها البتة عادة الخبز المحمص.» ويغمغم رئيس الخدم قائلاً: «أجل، أجل ولكن كل ذلك يمكن أن يتبدل فالعمال يزمعون القيام باضراب في كندا وقد قال الوزير في ذلك المساء لسيدي انه قبض في هذا السبيل مائتي ألف فرنك.» وما أبعد أن يذمه رئيس الخدم لذلك، لا لأن هذا الأخير لم يكن شريفاً تماماً، ولكنما يحسب جميع رجال السياسة غير شرفاء فتبدو له جريمة الرشوة أقل وزناً من أدنى جرم سرقة. ما كان حتى يتساءل إن هو أحسن سماع هذه العبارة التاريخية ولاتدهشه استحالة أن يكون المذنب نفسه قد قالها لوالدي دون أن يطرده. ولكن فلسفة «كومبريه» كانت تحول دون أن تستطيع «فرانسواز» توقع أثر لاضرابات كندا على استعمال الخبز المحمص. كانت تقول: «ترى، ما دام العالم عالما فسيكون ثمة أسياد يحملوننا على الجري وخدم لتنفيذ نزواتهم.» وعلى الرغم من نظرية الجري المستمر هذا فقد أخذت أمي تقول منذ ربع ساعة، وما كانت على الأرجح تستخدم ما تستخدمه «فرانسواز» من وحدات قياس لتخمين طول غداء هذه الأخيرة:

«ولكن ماذا يمكنهم أن يفعلوا، لقد انقضى أكثر من ساعتين وهم على مائدة الطعام». وتقرع الجرس قرع المتهيّب ثلاث مرات أو أربعا. كانت «فرانسواز» تسمع وخادمها ورئيس الخدم ضربات الجرس الصغير لابمثابة دعوة ودون التفكير بالمجيء ولكن بمثابة النغمات الأولى للآلات التي تتوافق حينما تزمع حفلة موسيقية على معاودة البدء وتحس أن لن يكون من بعد أكثر من بضع دقائق للاستراحة. ولذلك كان خدمنا، حينما تشرع الضربات في التواتر وتضحي أكثر ألحاحاً، كانوا يأخذون في التنبه لها وإذ يقدرون أنه لم يعد أمامهم الكثير من الوقت وأن معاودة العمل أضحت قريبة كانوا يطلقون زفرة لدى قرع الجرس الصغير قرعاً أشد رنيناً من سواه ويحزمون أمرهم وينزل الخادم الخاص لتدخين سيكارة أمام الباب، وتصعد «فرانسواز»، بعد بضع ملاحظات حولنا من مثل «لم يعودوا بالتأكيد يستطيعون المكوث في مكانهم» لترتب حوائجها في طابقها السادس ويبادر رئيس الخدم بعدما مضى لجلب ورق للمراسلات في غرفتي إلى الإسراع في إرسال مكاتباته الخاصة.

وقد استطاعت «فرنسواز» أن تطلعني، منذ الأيام الأولى، أن آل «غير مانت» على الرغم من هيبة رئيس خدمهم المتغطرسة ما كانوا يسكنون فندقهم بموجب حق يعود إلى أقدم العهود، بل بموجب إيجار قريب العهد وأن الحديقة التي يطل عليها من الجانب الذي لم أكن أعرفه، على قدر من الضيق وتشبه جميع الحدائق الملاصقة. وعلمت أخيراً أنك لاتبصر فيها لامشنقة سيدية ولاطاحونة محصنّة، ولا ترساً بشعار ولابرج حمام على أعمدة ولافرناً اقطاعياً ولاهريا يتوسطه صحن ولاحصنا صغيراً ولاجسوراً ثابتة أو متحركة ولاحتى معابر ولا ممرات مأجورة ولا مسلات ولاصكوكاً جدارية أو رجوماً تذكارية. ولكن مثلما أعاد «أيلستير» دفعة واحدة إلى خليج «بالبيك»، حينما فقد سره الدفين فأضحى في نظري جزءاً، أي جزء يمكن أن يستبدل به آخر سواه، من كميات المياه المالحة الكائنة على سطح الكرة، شخصية متفردة إذ قال لي إنه خليج «ويستلر» ذو اللون اللبني في تناسق ألوانه التي من زرقة الفضة. كذلك شهد اسم «غير مانت» آخر منزل تحدرّ منه يلفظ أنفاسه تحت ضربات «فرانسواز» حينما قال لنا ذات يوم صديق قديم لوالدي وهو يتحدث عن الدوقة: «إنها تتمتع بأعظم منزلة في حي «سان جيرمان» وتملك أول بيت في حي «سان جيرمان». شيء يسير جداً في مقابل المنازل الأخرى التي حلمت بها على التوالي. ولكن هذا البيت أيضاً، ولابد أنه الأخير، كان يملك أمراً يؤلف، مهما بلغ من الاتضاع، سمة متميزة تتجاوز مادته الخاصة.

وكانت ضرورة إمكان البحث في منتدى السيدة «دو غيرمانت» وبين أصدقائها عن سر اسمها تتزايد بقدر ما كنت لا أجده في شخصها حينما كنت أبصرها تخرج سيراً على الأقدام في الصباح وبعد الظهر في عربتها. صحيح أنه سبق في كنيسة «كومبريه» أن بدت لي، في ومضة استحالة، بوجنتين لايمكن ردّهما، لا يمكن نفاذهما إلى ألوان اسم «غيرمانت» والعشيات على ضفاف نهر «فيفون»، بدت بدلاً من حلمي المحطم، بمثابة تمّ أو صفصافة تحوّل بهما إله أو حورية وسوف ينساب مذ ذاك، وقد أخضعته قوانين الطبيعة، على الماء أو تهزها الريح. بيد أني ما كدت أهجرها حتى عادت تلك الومضات المتلاشية تتشكل مثلما التماعات الشمس الغاربة الوردية والخضراء خلف المجذاف الذي بددها وسرعان ما تم للاسم في وحشة فكري أن يتملك ذكرى الوجه. ولكني غالباً ما كنت أراها الآن إلى نافذتها وفي الباحة وفي الشارع ؛ ولئن كنت لا أفلح أنا في

دمج اسم «غيرمانت» في شخصها وفي التفكير بأنها السيدة «دو غيرمانت» فقد كنت أتهم بذلك عجز فكري عن المضي حتى نهاية الفعل الذي كنت أطلبه منه. أما هي، وأقصد جارتنا، فقد كان يبدو أنها ترتكب الخطأ نفسه، وأنها أكثر من ذلك ترتكبه دونما ارتباك وبدون أي من مخاوفي وحتى دون أن يخامرها شك بأن ثمة خطأ. من ذلك أن السيدة «دو غيرمانت» كانت تبدي في فساطينها الاهتمام نفسه في مجاراة الزي السائد كما لو حسبت أنها أضحت امرأة كالاخريات فَصَبَتْ إلى هذه الاناقة في اللباس التي تستطيع نساء، أي نساء، أن يساوينها فيها وربما أن يتفوقن عليها. فقد رأيتها في الشارع تنظر باعجاب إلى ممثلة حسنة اللباس، وفي الصباح كنت أستطيع أن أراها، لحظة تزمع الخروج سيراً على الأقدام، تقف أمام المرآة، كما لو أمكن أن يكون رأي المارة الذين كانت تبرز سوقيتهم إذ تنقل ببساطة بينهم حياتها المغلقة دونهم مجلس قضاء بالنسبة إليها فتؤدي دور المرأة الأنيقة هذا الذي يقع دون مستواها بكثير باقتناع خلو من ازدواج الشخصية والسخرية، بشغف ونزق واعتزاز كملكة قبلت تمثيل دور الوصيفة في ملهاة كتبت للبلاط ؛ وفي إغفال أساطيري لعظمتها الفطرية كانت تنظر إن كان برقعها مالساً تماماً وتبسط كميها وتسوي معطفها مثلما يصنع التمّ السماوي سائر حركات بني جنسه الحيواني ويحتفظ بعينيه المرسومتين على جانبي منقاره دون أن يحملها نظرات ويرتمي فجأة على زر أو شمسية ارتماء تم دون أن يذكر أنه إله. ولكن مثلما يقول المسافر في نفسه، وقد خيب أمله أول مشهد للمدينة، أنه ربما نفذ إلى سحرها بزيارة متاحفها وبالتعرف إلى شعبها وبالعمل في المكتبات، كنت أقول في نفسي أنه إن تم استقبالي في منزل السيدة «دو غيرمانت» وكنت من أصدقائها ونفذت إلى حياتها فسأعلم ما الذي يتضمنه اسمها حقيقة وموضوعياً في نظر الآخرين تحت غلافه البرتقالي اللماع إذ سبق أن قال صديق والدي إن وسط آل «غيرمانت» نسيج وحده في حي «سان جيرمان».

كانت الحياة التي افترض أنهم يعيشونها فيه مستمدة من مصدر شديد الاختلاف عن التجربة ويبدو لي أنها لابد خاصة إلى الحد الذي ما كنت لأتصور معه وجود أشخاص سبق أن ترددت عليهم فيما مضى. أشخاص حقيقيين في أمسيات الدوقة. فلعلهم إذ لا يستطيعون أن يبدلوا في طبيعتهم تبديلاً فجائياً كانوا سيتفوهون هناك بأقوال شبيهة بتلك التي كنت أعرفها، وربما تواضع رفقاؤهم فأجابوهم باللغة البشرية نفسها، وكان ثمة في أثناء أمسية في أول منتدى من حي «سان جيرمان» لحظات مماثلة للحظات سبق أن عشتها، ولأمر مستحيل. صحيح أن فكري كان مربكاً من جراء بعض الصعوبات وما كان حضور جسد يسوع المسيح في القربان المقدس ليبدو لي سراً أكثر غموضاً من المنتدى الأول في الحي الواقع على الضفة اليمنى والذي كان يمكنني سماع نفض أثاثه في الصباح من غرفتي، ولكن الخط الفاصل الذي كان يفصل بيني وبين حي «سان جيرمان» ما كان ليبدو لي، مع أنه خياليّ فحسب، إلاّ أكثر حقيقة. كنت أحس أن ممسحة آل «غيرمانت» الممدودة في الجانب الآخر من خط الاستواء ذاك والتي تجرأت والدتي، بعدما لمحتها مثلي، أن تقول في يوم كان بابهم فيه مفتوحاً إنها في حالة سيئة جداً، كنت أحس تماماً أنها طلائع الحيّ. وكيف لايبدو لي على أية حال أن قاعة طعامهم وصالتهم المظلمة بأثاثها الذي من قماش أحمر طويل الخملة والذي كنت أستطيع مشاهدته أحياناً من نافذة مطبخنا، كيف لايبدو لي أنهما يملكان السحر الخفي الكامن في حي «سان جيرمان» وأنهما يؤلفان جزءا أساسياً فيه ويتخذان موقعهما الجغرافي فيه بما أن استقبال المرء في قاعة الطعام هذه إنما يساوي الذهاب إلى حي «سان جيرمان» واستنشاق هوائه إذ إن الذين كانوا يجلسون إلى جانب

السيدة «دو غير مانت» على الأريكة الجلدية في الصالة قبل الذهاب إلى مائدة الطعام إنما كانوا جميعاً من حي «سان چيرمان» ؟ وما من شك أنه كان يمكن أن ترى أحياناً في غير هذا الحي وفي بعض الأمسيات أحد هؤلاء الرجال يتربع وسط دهماء من عامة الأنيقين، هؤلاءِ الرجال الذين هم محض أسماء ويتخذون، حينما يحاول المرء تمثلهم، شكل مباراة تارة وطوراً شكل غابة مُقطعَة. أما هنا وفي المنتدى الأول في حي «سان چيرمان» ، في الصالة المظلمة، فليس ثمة سواهم. لقد كانوا الأعمدة التي تحمل المعبد ومن مادة ثمينة. وما كانت السيدة «دو غيرمانت» تستطيع اختيار مدعويها حتى في اجتماعات الألاف إلا من بينهم، وكانوا يشبهون في حفلات العشاء التي تضم اثني عشر شخصاً، وقد تحلقوا حول المائدة الممدودة، تماثيل الرسل الذهبية في «الكنيسة الصغرى» ، وهم أعمدة رمزية وقدسية، أمام المائدة المقدسة. وكيف لا أحسب، فيما يخص الحديقة الصغيرة التي كانت تمتد بين أسوار عالية خلف الفندق وحيث كانت السيدة «دو غيرمانت» صيفاً تأمر بعد العشاء بتقديم المشروبات الروحية وشراب البرتقال، أن الجلوس ما بين التاسعة والحادية عشرة مساء على كراسيها الحديدية– التي تتمتع بسلطان في مثل قوة الأريكة الجلدية– دون استنشاق الأنسام الخاصة بحي «سان چيرمان» في الوقت نفسه في مثل استحالة القيلولة في واحة «فيقيق» [1] دون أن تكون لذلك في أفريقية؟ ليس سوى الخيال والظن بمقدورهما أن يميزا عن الأمور الأخرى بعض الأشياء وبعض الكائنات وينشئا جواً. وربما لم يتأتَّ لي في يوم، وا أسفي، أن أضع قدمي بين هذه المواقع البديعة والعوارض الطبيعية والغرائب المحلية والقطع الفنية في حي «سان چيرمان» . فكنت أكتفي بالرعشة وأنا ألمح من عرض البحر (دونما أمل في بلوغ الشاطئ يوماً) ممسحة الشاطئ البالية وكأني بها مئذنة متقدمة، وكأنما نخلة أولى، وبداية الصناعة أو النباتات الغريبة.

ولئن كانت حدود فندق «غيرمانت» تبدأ، فيما يخصني، عند باب ردهته، فلا بد أن ملحقاته كانت تمتد إلى أبعد بكثير حسبما يرى الدوق الذي كان يعد جميع المستأجرين مزارعين وقرويين ومتملكين على أراضٍ للدولة ممن لا يحسب لرأيهم حساب فكان يحلق ذقنه في الصباح أمام نافذته وهو في قميص النوم وينزل إلى الباحة حسبما ينال منه الحر كثيراً أو قليلاً بالقميص أو البيجاما أو سترة سكوتلندية نادرة الألوان طويلة الزغب أو بمعاطف صغيرة فاتحة أقصر من سترته فيما يُركض أحد سوّاسه أمامه حصاناً جديداً سبق أن ابتاعه وهو يقبض على مقوده. وبلغ بالحصان أكثر من مرة أن أَتلف واجهة «چوبيان» الذي أثار حفيظة الدوق إذ طالب بالتعويض. كان السيد «دو غيرمانت» يقول: «لئن لم نأخذ في حسابنا غير ما تفعل السيدة الدوقة من خير في الدار وفي الرعية فإنه من الخزي أن يطالبنا هذا المجهول بشيء.» ولكن «چوبيان» صمد وبدا كمن لايعرف إطلاقاً أي «خير» صنعته الدوقة في يوم. بيد أنها كانت تفعل الخير، ولكن بما أنه لايتسنى للمرء أن يشمل به كل الناس فإن ذكر إغداقه على هذا سبب في حجبه عن ذاك الأمر الذي يثير لديه قدراً متزايداً من الاستياء. وما كان الحي يبدو للدوق على أية حال، من وجهات نظر غير وجهة عمل الخير، سوى امتداد لباحته وحلبة أكثر اتساعاً لجياده– وذلك إلى مسافات كبيرة– فبعدما كان يشهد كيف يجري جواد جديد وحده كان يأمر بشدّه إلى عربة وبأن يجتاز جميع الشوارع المجاورة فيما السائس يجري بجوار العربة وهو يمسك

(١) Figuig من مدن المغرب.

بالعنان ويمر به، ويعيد الكرة، أمام الدوق الذي توقف على الرصيف منتصب القامة عملاقاً ضخماً بثياب فاتحة وفي فمه سيكار، شارد الرأس فضولي النظرة حتى اللحظة التي كان يقفز فيها إلى المقعد ويقود الجواد بنفسه ليجربه ويذهب في العربة الجديدة لملاقاة عشيقته في مجلة «الشانزيليزيه». كان السيد «دو غيرمانت» يحيي في الباحة أسرتين اثنتين لاصقتين إلى حد ما بعالمه: فأسرة من أبناء عمّ له لا تمكث قط في المنزل، شأن أسر العمال، للاهتمام بالاطفال لأن الزوجة كانت تمضي منذ الصباح إلى «المدرسة» لتتعلم الطباق الموسيقي وتقنية التتابع ويمضي الزوج إلى مشغله ليقوم بالحفر على الخشب وبضع الجلود النافرة. ثم البارون «دو نوربوا» والبارونة اللذان كانا يخرجان عدة مرات في اليوم للذهاب إلى الكنيسة، وهما أبدا في ثياب سوداء، الزوجة بأثواب مؤجرة الكراسي والزوج بأثواب دافني الموتى. كانا من أبناء أشقاء السفير السابق الذي كنا نعرفه والذي سبق أن التقى به والدي تحت قنطرة الدرج ولكن دون أن يفهم من أين جاء. ذلك أن والدي كان يحسب شخصاً في مثل رفعة شأنه كان على علاقة مع أكثر رجال أوروبة شهرة ولا يبالي على الأرجح بالامتيازات الارستقراطية الفارغة ما كان ربما يتردد على هؤلاء النبلاء المغمورين المناصرين للاكليروس المحدودين. كانا يسكنان البيت منذ وقت قليل. وكان «چوبيان» قد جاء ليقول كلمة في الباحة للزوج وهو يحيي السيد «دو غيرمانت»، فدعاه «السيد نوربوا» لأنه لايعلم بالضبط اسمه.

وصاح السيد «دو غيرمانت» وهو يلتفت صوب البارون: «آه! السيد «نوربوا»! تلك لقية بالحقيقة! صبرك! عما قليل يدعوك هذا الفرد المواطن «نوربوا»! «كان بمقدوره أخيراً أن يصب جام غضبه على «چوبيان» الذي كان يقول له «ياسيد»، لا «ياسيدي الدوق».

وفي يوم كان السيد «دو غيرمانت» فيه بحاجة إلى معلومات تتعلق بمهنة والدي قدم نفسه بنفسه بكثير من الظرف. وكثيراً ما أتفق له منذ ذاك أن تكون لديه خدمة حسن جوار يطلبها منه، وما أن يبصره الدوق نازلاً على الدرج، وهو يفكر بعمل ما ويرغب في تجنب أي لقاء حتى يترك القائمين على اسطبلاته ويقبل على والدي في الباحة ويرتب ياقة معطفه وبه هذا الاندفاع إلى خدمة الآخرين الذي يتسم به خدام الملك السالفون، ويأخذ يده فيحتفظ بها في يده، بل يداعبها كي يبرهن له بقلة حياء الخلائل أنه لا يبخل عليه بملامسة لحمه الثمين ويصحبه مخفورا، وهو مرتبك إلى حد بعيد ولا يفكر إلاّ في النجاة، إلى ما بعد الباب الكبير. وكان قد حيانا تحيات واسعة في يوم التقى بنا فيه لحظة كان خارجاً في العربة بصحبة زوجته. لا بد أنه قال لها اسمي، ولكن أي احتمال كان ثمة أن تكون تذكرته أو تذكرت وجهي؟ ثم ما أبخسها توصية أن يشار إليّ فقط على أني واحد من مستأجريه! ولعل ما كان يفوقه أهمية أن التقي بالدوقة في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» التي اتفق أن طلبت إليّ بلسان جدتي أن أذهب للقائها وقد أضافت، إذ علمت أنني كنت قد اعتزمت ممارسة الأدب، أنني سوف التقي في منزلها بكتاب. إلا أن والدي كان يرى أني لاأزال حديث، السنّ لارتياد المجتمع، ولما كانت حالتي الصحية لاتزال تقلقه فلم يك مهتما في توفير فرص غير ذات جدوى لنزهات جديدة.

ولما كان أحد خدم السيدة «دو غيرمانت» يتحدث كثيراً إلى «فرانسواز» فقد سمعت أسماء بعض المنتديات التي كانت تذهب إليها ولكنني كنت لا أتمثلها: أفلم تكن تستعصي على التصور بما أنها تؤلف جزءا من حياتها، حياتها التي ما كنت أراها إلامن خلال اسمها؟.

كان الخادم يقول: «تقام هذا المساء أمسية كبيرة لاخيلة الظل في منزل أميرة «بارما»، ولكننا لن نذهب لأن سيدتي تستقل في الساعة الخامسة قطار «شانتيي» لتذهب لقضاء يومين لدى دوق «أومال»، بل تذهب الوصيفة والوصيف. أما أنا فأبقى هنا. لن يسر ذلك أميرة «بارما»، فقد كتبت أكثرمن أربع مرات إلى سيدتي الدوقة.»

- «لن تذهبوا من بعد إذن إلى قصر «غيرمانت» في هذا العام؟»

- «إنها المرة الأولى التي لن تكون فيها هناك: فقد منع الدكتور أن نعود إلى هناك قبل أن تتوافر تدفئة بسبب مايعاني سيدي الدوق من آلام رئوية، ولكننا قبل ذلك كنّا نقيم هناك في كل عام حتى كانون الثاني. وإن لم تجهز التدفئة فربما ذهبت سيدتي بضعة أيام إلى «كان» إلى منزل الدوقة «دوغيز»، ولكن الأمر ليس مؤكداً بعد».

- «والمسرح هل تذهبون إليه؟».

- «نذهب مرات إلى الأوبرا، ومرات إلى أمسيات اشتراك أميرة «بارما»، وتقع كل ثمانية أيام. ويبدو أن ما يشاهد غاية في الأناقة: فهناك مسرحيات وأوبرا وما شئت. لم تشأ سيدتي الدوقة أن تشترك، ولكننا نذهب إلى هناك مع ذلك، مرة في مقصورة صديقة لسيدتي، وثانية في مقصورة أخرى وغالباً في مقصورة أميرة «غيرمانت» الخاصة، وهي زوجة ابن عم سيدي الدوق. إنها شقيقة دوق «بافيير».. ثم يقول الخادم الذي كان يحمل عن «الموالي» بعامة مفهوماً سياسياً يسمح له بمعاملة «فرانسواز»، على الرغم من أنه صار مثيل آل «غيرمانت»، بمثل الاحترام الذي يعاملها به لو أنها في خدمة دوقة،: «وتصعدين على هذا النحو إلى البيت، إنك تتمتعين بصحة جيدة ياسيدتي».

- «آه! لولا هاتان الساقان اللعينتان! وفي السهل لايزال الأمر على ما يرام (والسهل كان يعني الباحة، الشوارع التي لاتكره «فرانسواز» التنزه فيها، الأرض المنبسطة باختصار القول) ولكنها تلك الأدراج الشيطانية. إلى اللقاء ياسيد، ربما أمكن أن نراك أيضاً هذا المساء.»

كان يزيد من رغبتها في التحدث أيضاً إلى الخادم أنه أعلمها أن أبناء الدوقة غالباً ما يحملون لقب أمير يحتفظون به إلى حين وفاة والدهم. وما من شك أن التعلق بطبقة النبلاء الذي يمتزج بشيء من روح الثورة ضدها وينسجم معها لابد، وهو مستمد بالوراثة من أراضي فرنسه، أن يكون قوياً في نفس شعبها. ذلك أن «فرانسواز» التي كان يمكن أن تحدثها عن نبوغ نابليون أو اللاسلكي دون أن تفلح في لفت انتباهها ودون أن تبطئ لحظة واحدة الحركات التي تستخرج بها الرماد من الموقد أو تعد المائدة، كانت تصرخ قائلة، إن أحيطت علماً فحسب بهذه الخصائص وبأن ابن دوق «غيرمانت» الأصغر كان يدعى بعامة أمير «أوليرون»: «ذلك جميل!» وتظل مفتونة وكأنما أمام زجاج ملون.

وقد عرفت «فرانسواز» أيضاً على لسان وصيف أمير «أغريجانت» الذي ربطته بها أواصر الصداقة من جراء مجيئه المتكرر ليحمل رسائل إلى منزل الدوقة أنه كثيراً ما سمعهم بالفعل يتحدثون في المجتمعات عن

زواج المركيز «سان لو» من الآنسة «داميروساك» وأن الأمر يكاد يكون مقرراً.

ما كانت تبدو لي تلك الدارة وتلك المقصورة اللتان تنقل السيدة «دو غيرمانت» حياتها إلى داخلهما أماكن أقل روعة من جناحها. كانت أسماء «بارما» و«غيرمانت بافيير» و«غيز» تميز عن كل ما عداها أماكن الاصطياف التي تقصدها الدوقة والاحتفالات اليومية التي تربط فندقها بخط سير عربتها. ولئن كانت تنقل إليّ أن حياة السيدة «دو غرمانت» إنما تتكون على التوالي من أماكن الاصطياف تلك، وتلك الاحتفالات فلم تكن تحمل إليّ أي أيضاح حولها. كان كل واحد يضفي على حياة الدوقة تحديداً مختلفاً ولكنه يقتصر على تبديل سرّها دون أن يسمح بتسريب شيء منه فيبدل من مكانه فحسب وقد احتمى خلف حاجز واحتبس داخل إناء وسط أمواج حياة سائر الناس. كان بمقدور الدوقة أن تتناول طعام الغداء أمام البحر المتوسط في فترة الكرنفال، ولكن في دارة السيدة «دو غيز» حيث تستحيل ملكة المجتمع الباريسي بفسطانها الذي من قماش مدرّج أبيض، وسط العديد من الأميرات، محض مدعوة شبيهة بالأخريات، وهي بذلك أشد تأثيراً في نفسي وألصق بذاتها لما تتجدد كنجمة رقص تقبل، في طرافة خطوة، لتحتل على التوالي مكان كل من الراقصات أخواتها. كان بمقدورها أن تشاهد أخيلة الظل ولكن في أمسية لأميرة «بارما»، وأن تشهد المأساة أو الأوبرا، ولكن في مقصورة أميرة «غيرمانت».

ومثلما نحدد في جسم شخص ما موقع جميع احتمالات حياته وذكر الأشخاص الذين يعرفهم والذين فارقهم منذ قليل أو يزمع اللحاق بهم، كنت، إن بلغني على لسان «فرانسواز» أن السيدة «دو غيرمانت» ستذهب سيراً على الأقدام للغداء في منزل أميرة «بارما» ورأيتها قرابة الظهر تنحدر من منزلها بفسطانها الذي من الساتين الزهري الفاتح ووجهها الذي من فوقه يماثل لونه، كسحابة في الشمس الغاربة، كنت أبصر جميع مباهج حي «سان جيرمان» تجتمع أمامي داخل هذا الحجم الصغير، وكأنما داخل محارة، بين هذين المصراعين اللامعين اللذين بلون الصدف الوردي.

كان لوالدي صديق في الوزارة يدعى «أ. ج. مورو» حرص أبداً، بغية التميز عن سواه من آل «مورو»، أن يسبق اسمه هذان الحرفان البدئيان حتى كان يدعى اختصارا «أ.ج» ولست أدري كيف اتفق لـ «أ. ج» هذا أن يحوز مقعداً لأمسية احتفالية في الأوبرا ؛ وقد بعث به إلى والدي، ولما كانت «لابيرما» التي لم أرها تمثل منذ خيبة أملي الأولى تزمع تمثيل فصل من رواية «فيدر»، فقد أفلحت جدتي في أن يعطيني والدي ذاك المقعد.

كنت والحق يقال لا أولي أي اهتمام امكانية سماع «لابيرما»، هذه التي أثارت في نفسي منذ بضع سنوات خلت الكثير من الاضطراب. ولم ألاحظ لامبالاتي بما سبق أن فضلته بالأمس على الصحة والراحة دونما اكتئاب. وليس يعني ذلك أن رغبتي في استطاعة تأمل عن كثب لأجزاء صغيرة ثمينة من الواقع الذي كان يستشفه خيالي كانت أقل حماسة منها بالأمس. ولكن خيالي لم يعد يضعها الآن في إلقاء ممثلة كبيرة. فلقد صببت، منذ زياراتي إلى منزل «ايلستير»، على بعض صنوف السجاد، على بعض اللوحات الحديثة، الثقة الداخلية التي محضتها بالأمس هذا التمثيل وهذا الفن لدى «لابيرما». وإذ أضحى إيماني، إذ أضحى اشتياقي لايحيط إلقاء «لابيرما» ووقفاتها من بعد بالإجلال المتصل فقد أخذ «الصنو» الذي كنت أحمله عنها داخل

فؤادي يهزل شيئا فشيئا كتلك «الأصناء» الأخرى لأموات مصر القديمة التي كان ينبغي أن تغذى باستمرار للحفاظ على حياتها. لقد أصبح ذلك الفن زهيداً وهزيلاً وما من روح باتت تسكن أعماقه من بعد.

في اللحظة التي كنت أصعد فيها درج الأوبرا الكبير مفيداً من البطاقة التي تسلمها والدي، لمحت أمامي رجلاً حسبته بادئ الأمر السيد «دو شارلوس»، وكان له مظهره. وحينما أدار رأسه ليستوضح أحد المستخدمين أدركت أنني أخطأت ولكني لم أتردد مع ذلك في وضع المجهول في الطبقة الاجتماعية نفسها لا استناداً إلى الطريقة التي يكتسي بها فحسب، بل كذلك إلى الطريقة التي كان يكلم بها المراقب والعاملات اللواتي يطلبن إليه الانتظار. ذلك لأنه كان لايزال ثمة في ذلك الزمن فارق واضح تماماً، على الرغم من الخصائص الفردية، بين أي رجل أنيق وغني من هذا القسم من الارستقراطيين وبين أي رجل أنيق وغني من دنيا المال أو الصناعة الكبرى. فحيثما ظن أحد هؤلاء أنه يؤكد أناقته بلهجة قاطعة مستكبرة إزاء من كان أدنى منه بدا السيد الكبير الدمث البشوش وكأنما يعتبر، كأنما يتعاطى اصطناع التواضح وطول الأناة والتظاهر بأنه واحد، أي واحد، من النظارة على أنها امتياز لجودة تربيته. ومن المرجح أن الكثير من أبناء أصحاب المصارف الموسيرين لو دخلوا المسرح في تلك اللحظة لعدوا هذا السيد الكبير، إذ يرونه يخفي على هذا النحو خلف ابتسامة تنضح بالبساطة العتبة المحرمة للعالم الخاص الصغير الذي يحمله في داخله، رجلاً هيناً لو لم يلفوا لديه شبهاً مدهشاً بالرسم الذي نشرته الصحف المصورة منذ فترة قريبة لابن شقيق الامبراطور النمسا هو أمير «ساكس»، وكان في باريس في ذلك الوقت بالضبط. كنت أعلم أنه صديق كبير لآل «غيرمانت». ولما وصلت بنفسي بالقرب من المراقب سمعت أمير «ساكس». أو من يفترض أنه كذلك، سمعته يقول مبتسما: «لست أعرف رقم المقصورة وإنها ابنة عمي التي قالت لي إنه لايقع عليّ سوى السؤال عن مقصورتها.»

ربما كان أمير «ساكس» ؛ وربما كانت دوقة «غيرمانت» (وقد أستطيع في هذه الحالة مشاهدتها وهي تعيش إحدى لحظات حياتها التي تمتنع على الخيال في مقصورة ابنة عمها) من كانت عيناه تبصران بالفكر حينما يقول: «ابنة عمي التي قالت لي إنه لايقع عليّ سوى السؤال عن مقصورتها»، حتى أن هذه النظرة الباشة الخاصة وتلك الكلمات البسيطة أشد البساطة كانت تدغدغ فؤادي (أكثر بكثير مما قد يفعل احتلام مجرد) بهوائيات تتناول مابين سعادة ممكنة وجاه غير مؤكد. ولكنما كان على الأقل، إذ يقول تلك الجملة للمراقب، يصل بين أمسية عادية في حياتي اليومية وعبور ممكن إلى عالم جديد. كان الممر الذي دلوه عليه، بعدما لفظ كلمة «مقصورة»، والذي مضى فيه، كان رطباً مصدعاً يبدو وكأنما يقود إلى مغائر بحرية، إلى مملكة جنيات المياه الأساطيرية. لم يكن أمامي سوى سيد بلباس رسمي آخذ في الابتعاد، ولكنني كنت أنقل بالقرب منه، وكأنما بكاشف ضوئي غير حاذق ودون أن أفلح في تركيزه عليه بدقة، الفكرة القائلة بأنه أمير «ساكس» وهو في طريقة للقاء دوقة «غيرمانت». ومع أنه كان وحده فقد كانت تلك الفكرة الخارجة عنه اللاملموسة الشاسعة المتقطعة كرشق أضواء تبدو وكأنما تتقدمه وتقوده كتلك الآلهة اللامرئية بالنسبة إلى بقية البشر والتي تقف بالقرب من المحارب اليوناني.

اتجهت إلى مقعدي وأنا أحاول العثور على بيت من مسرحية «فيدر» لم أكن أتذكره بدقة. ما كان يحوي، على نحو ما أنشده لنفسي، عدد المقاطع المطلوب، بيد أنه كان يبدو لي، وأنا لا أحاول عدها، أن ليس

بين اختلال وزنه والبيت الكلاسيكي من سبيل إلى المقارنة. وما كان ليدهشني أن ينبغي طرح أكثر من ستة مقاطع من هذه الجملة الشوهاء كيما نؤلف منها بيتاً باثني عشر مقطعاً. ولكني ذكرته فجأة فزالت كفعل السحر جميع مواطن الوعورة اللامتآلفة من عالم غير إنساني، وملأت مقاطع البيت في الحال مقاس البحر الاسكندري(١) وانقشع ما كان زائداً منه بمثل السهولة والمرونة اللتين تنقشع بهما فقاعة هواء تقبل لتضمحل على صفحة الماء. وبالفعل لم تكن الفظاعة التي كافحت ضدها سوى مقطع واحد فحسب.

كان عدد من مقاعد الصالة قد بيع في المكتب فابتاعه متحذلقون أو فضوليون يبغون مشاهدة أناس ربما ما توافرت لهم فرصة أخرى لرؤيتهم عن كثب. والحقيقة أن ما كان يمكن مشاهدته على رؤوس الأشهاد إنما كان بعضاً من حياتهم الاجتماعية الحقة، ذلك لأن أميرة «بارم» وضعت بنفسها ما بين أصدقائها المقصورات والشرفات والمقصورات الخاصة فأضحت القاعة وكأنها صالة يغير كل فيها مقعده ويمضي للجلوس هنها أو هناك بالقرب من إحدى الصديقات.

وكان إلى جانبي أناس من العامة شاؤوا، وهم لايعرفون المشتركين، أن يظهروا أنهم قادرون على التعرف إليهم فأخذوا يجهرون باسمائهم. ويضيفون أن هؤلاء المشتركين إنما يجيئون هنا وكأنما إلى صالتهم ومرادهم أن يقولوا بذلك أنهم لايعيرون المسرحيات المعروضة انتباها. وإنما العكس ما كان يجري. فالطالب العبقري الذي شغل مقعداً ليسمع «لابيرما» لايفكر إلا في ألاّ يوسخ قفازيه وألا يزعج وأن يخطب ود الجار الذي وهبته إياه المصادفة وأن يلاحق بابتسامة متقطعة النظرة العابرة، أن يتجنب بمظهر وقح النظرة الملتقاة لشخص من معارفه اكتشفه في الصالة وقرر بعد فيض من الحيرة أن يذهب لتحيته آن تضطره الضربات الثلاث، إذ تدوي قبل أن يصل إليه، أن يولي الأدبار كالعبرانيين في البحر الأحمر بين أمواج النظارة الهائجة من رجال وسيدات دفعهم إلى القيام وهو يمزق الفساطين ويطحن الأحذية. ولأن رجال المجتمعات الراقية كانوا على العكس في مقصوراتهم (خلف الشرفة المدّرجة) وكأنما في صالات صغيرة معلقة أزيل أحد حواجزها، أو في مقاه صغيرة ترتادها لتناول حليب ساخن بالشوكولاته دون أن تتهيب المرايا المؤطرة بالذهب ومقاعد الدار الحمراء التي من طراز نابولي – ولأنهم كانوا يضعون يداً لامبالية على قواعد الأعمدة المذهبة التي تحمل الفن الغنائي هذا،– ولانهم ماكانوا يتأثرون بصنوف التكريم المفرط التي تبدو وكأنما تحيطهم بها صورتان منقوشتان تمدان صوب المقصورات سعف النخل وأوراق الغار فقد كانوا وحدهم من يتوافر لهم فكر خالٍ لسماع الرواية لو اتفق لهم فكر.

لم يسد بادئ الأمر سوى عتمة مبهمة تلقى فيها فجأة بريق عينين شهيرتين وكأنما التماعة حجر كريم لاتراه أو كأنما ميدالية لـ «هنري الرابع» تبرز على خلفية سوداء صورة دوق «أومال» الجانبية وهو ينحني وتصيح به سيدة محتجبة: «ليأذن لي سيدي أن أنزع معطفه»، فيما يجيب الأمير قائلاً: «يالك، ما هذا ياسيدة «دامبرساك»». وكانت تفعل على الرغم من ذلك التمنع غير الصريح فيحسدها الجميع من جراء مثل ذلك الشرف.

(١) يتألف هذا البحر من ١٢ مقطعاً ويقابل البحر الطويل في الشعر العربي.

أما في المقصورات الخاصة الأخرى فقد كانت الآلهات البيضاء التي حلت في تلك المنازل المظلمة قابعة في كل مكان تقريباً بمحاذاة الجدران العاتمة وظلت محتجبة. إلا أن أشكالها البشرية الغامضة أخذت، كلما تقدم العرض، تبرز بلطف، الواحد تلو الآخر، من أعماق الليل الذي كانت تغطي جنباته، وتدع بارتفاعها وجهة الضوء لأجسامها نصف العارية أن تطفو وتقبل لتتوقف على الحد العامودي والمساحة المبهمة حيث تظهر وجوهها الملتمعة خلف تدفق ريش مراوحها الضاحك الراغي الرقيق وتحت شعورها الأرجوانية المشبكة باللآلئ التي تبدو وكأنما لواها تموج سيل الشعور. وبعدها تبدأ مقاعد الصالة، مقام الفانين المفصول إلى الأبد عن المملكة العاتمة الشفيفة التي تقيم لها عيون آلهات المياه الصافية العاكسة حدوداً على سطوحها المائعة المستوية. ذلك أن مقاعد الشاطئ الجانبية وأشكال الكائنات الخرافية في الصالة كانت ترتسم في تلك العيون تبعاً لقوانين الضوء وحدها ووفقاً لزاوية سقوطه كما هي الحال بالنسبة إلى هذين القسمين من الواقع الخارجي اللذين قد نحكم على أنفسنا بالجنون إن خصصناهما بابتسامة أو نظرة إذ نعلم أنهما لايملكان نفساً شبيهة بنفسنا، مهما كانت بدائية، عنيت المعادن والأشخاص الذين لاتربطنا بهم علاقات. ولكن بنات البحر المشرقات كن، في الجانب الواقع قبل حدود موطنهن، يلتفتن على العكسِ فِي كل لحظة باسمات صوب سمادل ملتحية قابعة في تجاويف الغمر أو صوب نصف إله مائي جمجمته حصبة مصقولة رد عليها الماء أشنة ملساء، وعينه أسطوانة من الكريستال الصخري. كن ينحنين صوبهم ويقدمن لهم السكاكر ؛ وتنشق اللجة أحياناً أمام جنية مائية جديدة جاءت متخلفة باسمة خجلى تتفتح من أعماق العتمة. ثم تغوص الشقيقات المختلفات دفعة واحدة ويتوارين في الظلام بعد انتهاء المشهد إذ لا أمل لهن من بعد في سماع ضوضاء الأرض الرخيم الذي قد اجتذبهن إلى السطح. بيد أن أكثر جميع تلك المعتزلات التي كان الاهتمام الطفيف بمشاهدة أعمال البشر يقود إلى الالهات الفضوليات اللواتي لا يسمحن بالاقتراب منهن، إن أكثرها شهرة كان كتلة نصف العتمة المعروفة باسم مقصورة أميرة «غيرمانت» الخاصة.

وكمثل إلهة عظيمة تشرف من بعيد على ألعاب الآلهة الدنيا ظلت الأميرة عمداً في ركن قصي بعض الشيء على أريكة جانبية حمراء كصخرة مرجانية بالقرب من توهج زجاجي واسع هو مرآة على الأرجح وكان يذكر بمقطع اقتطعه شعاع في بلور المياه المفتون عامودياً غامضاً رجراجاً. وكان ثمة زهرة بيضاء كبيرة هي ريشة وتويج في آن معا، كما هي حال بعض الأزهار البحرية، تنحدر، ناعمة الزغب مثلما الجناح من جبين الأميرة على امتداد إحدى وجنتيها وترافق انحناءتها بمرونة مغناجة عاشقة زاخرة بالحياة وتبدو وكأنما تحتبس نصفها شأن بيضة وردية في دفء عش طائر الألسيون. وعلى شعر الأميرة تمتد شبكة صغيرة تنحدر حتى الحاجبين ثم تعود من جديد لتتشكل على مستوى الصدر، شبكة صُنعت من تلك الأصداف البيضاء التي تلتقط في بعض البحار الجنوبية والتي تمازجها بعض اللآلئ في فسيفساء بحيرة تكاد لاتخرج من الأمواج حتى تعود لتغوص بين الحين والحين في الظلام وفي أعماقه يتكشف حتى حينذاك حضور بشري تبرزه حركة عيني الأميرة الملتمعتين. ولم يكن الجمال الذي يضع هذه الأخيرة في مرتبة تفوق بها كثيراً بنات العتمة الخرافيات الأخريات منقوشاً بكليته في قفا عنقها وفي المنكبين والذراعين والقامة. بيد أن خطها العذب غير المكتمل كان نقطة الانطلاق الأكيدة والبداية المحتمة لخطوط خفية لاتقوى العين إلا أن تمتد بها رائعة تتشكل حول المرأة كطيف صورة خيالية ترتسم على صفحة الظلام.

وقالت جارتي للسيد الذي كان برفقتها: «إنها أميرة «غيرمانت»، وقد حرصت أن تضيف عدة ياءات إلى كلمة أميرة مشيرة بذلك إلى أن هذه التسمية مضحكة، «ولم توفر لآلئها. يبدو لي أنه لو تيسر لي مقدارها لما عرضتها على الملأ على هذا النحو، فلست أرى في ذلك وجه لياقة.»

غير أن جميع الذين كانوا يحاولون أن يعلموا من كان في القاعة كانوا يحسون، إذ يتعرفون الأميرة، بعرش الجمال الشرعي يرتفع في فؤادهم. ذلك أن ما كان يسمح، فيما يخص دوقة «لوكسمبور» والسيدة «دو مورينفال» والسيدة «دو سانت أوفيرت» وغيرهن كثيرات، بتعرف وجههن إنما كان الترابط بين أنف أحمر كبير وشفة مشرومة أو بين خدين جعدين وشارب دقيق. كانت تلك الملامح كافية على أي حال لتفتن بما أنها تسمح، إذ لا تملك سوى القيمة الاصطلاحية التي للكتابة، بقراءة اسم مشهور يفرض الاحترام، ولكنها تخلف إلى ذلك في نهاية الأمر الفكرة التي مفادها أن للقبح مسحة ارستقراطية وأن ليس مهماً أن يكون وجه السيدة الراقية جميلاً إن كان متميزاً. ولكن مثلما يضع بعض الفنانين في أسفل لوحتهم، عوضاً عن حروف اسمهم، شكلاً جميلاً في حد ذاته، كفراشة أو حرذون أو زهرة، كذلك كانت الأميرة إنما تضع في زاوية مقصورتها شكل جسم ومحيا بديعين فتبرز بذلك أن الجمال يمكن أن يكون أسمى أنواع التوقيع. ذلك لأن حضور السيدة «دو غيرمانت» التي كانت لا تصطحب إلى المسرح سوى أشخاص يؤلفون في الأوقات الأخرى جزءا من جماعة المقربين إليها كان في نظر هواة الارستقراطية أفضل شهادة على أصالة اللوحة التي تقدمها مقصورتها الخاصة وهي ضرب من تمثيل مشهد من حياة الأميرة المألوفة الخاصة في قصورها في ميونيخ وباريس.

ولما كان خيالنا شبيهاً بأرغن شعبي مختلّ يؤدي أبداً غير اللحن المعلن فقد شرع ذكر بعض أعمال القرن السادس عشر الفنية يتعاسى أناشيد في صدري في كل مرة سمعت فيها من يتحدث عن أميرة «غيرمانت– بافيير» كان لابد أن أجردها منه وأنا أراها الآن تقدم سكاكر ملبسة لسيد بدين بلباس رسمي. ما كان أبعدني بالتأكيد عن أن استخلص من ذلك أنها ومدعويها أناس يماثلون الآخرين. كنت أدرك تماماً أن ما يقولون به لايعدو كونه تمثيلاً وأنهم بغية التمهيد لأعمال حياتهم الحقيقية (التي ما كانوا يقضون هنا دونما شك الجزء المهم منها) كانوا يتفقون، بموجب طقوس مجهولة لدي، بل يتظاهرون بتقديم سكاكر وبرفضها، وهي حركة مجردة من دلالتها وقد نظمت سلفاً على غرار خطوات راقصة ترتفع تارة على أطراف قدميها وتدور أخرى حول منديل. ومن ذا يعلم؟ فربما كانت الآلهة لحظة تقدم سكاكرها تقول بلهجة السخرية تلك (إذ كنت أراها تبتسم): «هل لك في بعض السكاكر؟» وما همني؟ فلعلني وجدت من قبيل التأنق الرائع الجفاء المقصود على طريقة «ميريميه» أو طريقة «ميلاك» في تلك الكلمات التي توجهها إلهة إلى نصف إله كان يعلم، فيما يخصه، ما كانت الأفكار السامية التي يختصرها كلاهما لحظة يعاودان ولا شك حياتهما الحقيقية، ويجيب، وقد أخذ بتلك اللعبة، يجيب بالمكر الغامض نفسه: «أجل، إني أرغب في كرزة». وربما أصغيت إلى ذاك الحوار بالنهم نفسه الذي أسمع به هذا المشهد أو ذاك من «زوج المبتدئة» حيث يبدو لي غياب الشعر والأفكار العظيمة، وهي أمور جدّ مألوفة لديّ وأفترض أن «ميلاك» كان ألف مرة قادراً على زجها فيها، يبدو بمفرده أناقة، أناقة مصطنعة وتزداد من جراء ذلك أسراراً ومعلومات.

وقال جاري بلهجة العارف وكان قد أساء سماع الاسم المهموس به خلفه: «البدين هذا هو مركيز «غاننسيه» .

كان المركيز «دو بالانسي» ينتقل الهوينى، ممدود العنق مائل الوجه وعينه الكبيرة المستديرة تلتصق بزجاج نظارته، كان ينتقل في العتمة الشفافة ويبدو وكأنه لايبصر جهور الصالة أكثر مما تفعل سمكة تمر غير عابئة بجمهور الزوار الفضوليين، خلف حاجز الحوض الزجاجي. ويتوقف بين الحين والحين وقوراً لاهثاً مرغياً وما كان بمقدور النظارة أن يقولوا إن كان يتألم أو ينام أو يسبح أو يبيض أو يتنفس فحسب. ولم يكن أحد يثير في نفسي مقدار الحسد الذي يفعل من جراء تعوّد هذه المقصورة، التعوّد الذي يبدو أنه اكتسبه واللامبالاة التي يدع للأميرة بها أن تمد السكاكر إليه. كانت تلقي عليه إذ ذاك نظرة من عينيها الجميلتين اللتين قدّتا في ماسة يبدو الذكاء والوداد في تلك اللحظات وكأنما يميّعانها ولكنهما حينما تهدآن وتقتصران على جمالهما المادي المحض والتماعهما المعدني وحده كانتا إن حرّكها أقل منعكس حركة خفيفة تلهبان أعماق القاعة بأضوائهما القاسية الأفقية البديعة. وبما أن فصل مسرحية «فيدر» الذي تمثله «لابيرما» كان يزمع أن يبدأ فقد جاءت الأميرة إلى مقدمة المقصورة. وإذ ذاك رأيت لون حليها بل مادتها تتغير في المنطقة المختلفة الأضواء التي اجتازتها كأنما هي نفسها شبح يتراءى في المسرح. وفي المقصورة المجففة التي برزت على الصفحة ولم تعد من عالم المياه ظهرت الأميرة، وقد كفت عن كونها جنية بحار، تعتمر عمامة بيضاء وزرقاء وكأنما ممثلة رائعة لبست أثواب «زائير» أو ربما «أوروسمان». وبعدما جلست في الصف الأول، رأيت أن عش الالسيون الدافئ الذي يحمي برفق لؤلؤ وجنتيها الورديتين كان طائراً شاسعاً من الجنة، ناعماً لماعاً مخملياً.

بيد أن نظراتي تحولت عن مقصورة أميرة «غيرمانت» بفعل امرأة قصيرة رديئة الملبس قبيحة العينين جاءت يتبعها شابان لتجلس على بضعة مقاعد مني. ثم رفع الستار. ولم يكن بمقدوري أن ألاحظ دونما اكتئاب أنه لم يظل في النفس شيء من الميل الذي كان لي بالأمس إزاء الفن الدرامي و«لابيرما» آن كنت، بغية ألا يفوتني شيء من الظاهرة الخارقة التي لعلني كنت أذهب إلى أقاصي العالم لاكحل العين بها، احتفظ بفكري جاهزا كتلك الصفائح الحساسة التي يمضي الفلكيون فيقيمونها في افريقية وجزر الانتيل في سبيل ملاحظة دقيقة لمذنب أو لكسوف ؛ آن كنت أرتعد أن تحول سحابة (سوء حالة الفنان النفسية أو حادث في الجمهور) دون أن يجري العرض بأقصى درجات الزخم، آن اعتقد أنني لا أحضره بأفضل الشروط إن كنت لم أقصد المسرح ذاته المكرس لها على غرار مذبح وحيث يبدو لي أن المراقبين ذوي الفلة البيضاء الذين تسميهم بنفسها وقاعدة صحن المسرح فوق قاعة الجمهور الزاخرة بأناس رديئي الملبس والعاملات اللواتي يبعن برنامجاً يحمل صورتها وأشجار الكستناء في الحديقة وجميع رفاق انطباعاتي آنذاك وأنجيتي الذين يبدون لي وكأنهم لا ينفصلون عنها، يبدو أنهم لايزالون يؤلفون إذ ذاك جزءا من ظهورها تحت الستارة الحمراء الصغيرة وإن يكن ثانوياً. فقد كانت مسرحية «فيدر» و«مشهد البوح» و«لابيرما» تحمل في نظري ضرباً من الوجود المطلق. كان وجودها ينبعث من ذاتها إذ هي واقعة خارج حدود عالم التجربة المألوفة وكان عليّ أن أذهب إليها فقد أدرك منها ما أستطيع وقد ارتشف منها كذلك القليل القليل إن أنا فتحت عيني ونفسي قدر وسعها. ولكن ما أمتع ما كانت تبدو لي الحياة! وما كان لتفاهة تلك التي أقضيها أية أهمية، شأنها في ذلك شأن الأوقات التي ترتدي فيها ملابسك وتستعد فيها للخروج بما أنه يقوم خلف حدودها على نحو مطلق تلك الحقائق الأكثر صلابة، عنينا «فيدر» وطريقة إلقاء «لابيرما» وهي أمور يصعب الاقتراب منها ويستحيل تملكها بكليتها. ولما

كنت مشبعاً بتلك الأوهام حول الكمال في الفن المسرحي والتي كان من الممكن أن تستخلص منها كمية هامة لو تم في تلك الأوقات تحليل فكري في أية دقيقة من النهار وربما من الليل، فكنت على غرار بطارية تنتج كهرباءها. وقد بلغ بي أن كان ينبغي لي المبادرة لسماع «لابيرما» وأنا عليل حتى لو حسبتني أموت من جراء ذلك. أما الآن فكرابية تبدو في البعيد مجبولة من زرقة السماء وتعود عن قرب فتدخل في إطار رؤيتنا العادية للأشياء كان كل ذلك قد هجر عالم المطلق ولم يعد من بعد سوى أمر شبيه بالأمور الأخرى التي كنت أطلع عليها لأنني كنت في المكان، والفنانون كانوا أناسا من جوهر من كنت أعرفهم يحاولون أن ينشدوا بأفضل طريقة ممكنة أبيات مسرحية «فيدر» تلك التي لم تعد تؤلف جوهراً سامياً فردياً مفصولاً عن كل شيء، بل أبيات يحالفها النجاح في كثير أو قليل وهي جاهزة للانخراط في مادة الأبيات الفرنسية الشاسعة التي تختلط بها. وكنت أحس من جراء ذلك بفتور في العزيمة يزداد عمقاً بقدر ما تستمر، إن تلاشي موضوع شوقي العنيد الناشط، الميول ذاتها إلى وهم ثابت يتبدل من عام إلى عام ولكنه يقودني إلى نزوة مفاجئة لاتعبأ بالمخاطر فعشية أنطلق فيها، مريضاً، للذهاب إلى أحد القصور أبغي مشاهدة لوحة لـ «ايسلتير» وسجادة قوطية كانت تشبه إلى حد بعيد اليوم الذي اضطرزت فيه أن أذهب إلى البندقية وذاك الذي ذهبت فيه لسماع «لابيرما» أو انطلقت فيه إلى «بالبيك» حتى لاحس سلفاً أن موضوع تضحيتي الحاضر سوف يخلف فيّ اللامبالاة بعد وقت قليل وقد أستطيع إذ ذاك المرور قريباً جداً منه دون أن أذهب لمشاهدة تلك اللوحة وذلك السجاد الذي لعلني كنت واجهت في سبيله في هذه اللحظة الكثير من ليالي الأرق والعديد من النوبات المؤلمة. كنت أحس من جراء تقلب موضوع جهودي بلا جدوى تلك الجهود وفي الوقت نفسه بضخامتها التي لم أصدّقها شأن المصابين بالوهن العصبي الذين نضاعف تعبهم إذ نلفت انتباههم إلى أنهم متعبون. وبانتظار ذلك كان وهمي يضفي مهابة على كل ما يمكن أن يرتبط به. وربما أمكنني حتى في أشد رغباتي الجنسية الموجهة أبدا وجهة معينة، المركزة حول حلم واحد، أن أتعرف بمثابة محرك أول فكرة، فكرة لعلني كنت أضحي بحياتي في سبيلها، وتقوم في النقطة الأكثر مركزية فيها، كما هي الحال في أحلامي في أثناء قراءات ما بعد الظهر في حديقة «كومبريه»، فكرة الكمال.

لم يعد لدي التسامح نفسه الذي كنت أحس به بالأمس إزاء مقاصد الحنان أو الغضب الحقه التي لاحظتها آنذاك في إلقاء «آريسي» و«إيسمين» و«هيبوليت» وتمثيلهم. وليس يعنى ذلك أن هؤلاء الممثلين– ولم يتبدلوا– لا يحاولون على الدوام بالذكاء نفسه أن يضفوا في هذا المكان على صوتهم لهجة رقيقة أو لبساً مدبراً وفي ذاك على حركاتهم اتساعا مأسويا أو وتوسلاً يقطر ألما. كانت نبراتهم تأمر هذا الصوت قائلة: «كن عذباً وأنشد كالعندليب ودغدغ» أو على العكس «كن حانقاً»، وتنقض إذ ذاك عليه تحاول أن تجرفه في جنونها. أما هو، المتمرد الغريب عن إلقائهم، فكان يظل صوتهم الطبيعي لايتحول، بعيوبه أو مواطن سحره المادي، بعاميته أو تصنعه اليوميين، وينشر على هذا النحو مجموعة من الظاهرات الصوتية أو الاجتماعية التي لم يفسدها الشعور بالأبيات التي أنشدوها.

وكذلك كانت تقول حركة هؤلاء الفنانين لسواعدهم ولردائهم أن «كوني مهيبة» ولكن الأعضاء العاصية كانت تدع عضلة الساعد التي لاتعلم شيئاً عن الدور تتبختر بين الكتف والمرفق. كانت تستمر في التعبير عن تفاهة الحياة اليومية وإبراز ترابطات عضلية بدلاً من ألوان شعر «راسين» وكان الجوخ الذي ترفعه

يعود فيهوي وفق خط شاقولي لاتنازع فيه قوانين سقوط الأجسام سوى مرونة تافهة نسيجية. وفي تلك اللحظة صاحت السيدة الصغيرة التي كانت بالقرب مني:

– «لاتصفيق البتة! ويا لاثواب ترتديها! ولكنها طاعنة في السن ولاحول لها من بعد، وفي هذه الأحوال يتخلى المرء.»

وحاول الشابان اللذان كانا برفقتها أن يحملاها على التزام الهدوء إزاء مطالبة من كانوا بجوارها بالصمت ولم يعد غضبها يتفجر إلا في عينيها. ولم يكن بوسع ذلك الغضب أن ينصب بأية حال إلا على النجاح والمجد لأن «لابيرما» التي سبق أن كسبت الكثير من المال لم يظل لها سوى الديون. كانت تضرب على الدوام مواعيد ترتبط بالاعمال أو الصداقة ولا تستطيع الذهاب إليها فكان لها في كل الشوارع خدم يسارعون لالغاء مواعيدها، وفي كل الفنادق شقق يتم حجزها سلفاً ولاتجيء قط لتشغلها، وبحور من العطور لغسل كلباتها وغرامات نكول تدفعها لسائر المديرين. ولئن كانت أقل تبذيرا لئن كانت أقل انصرافا إلى اللذة من «كليوباترة»، فلعلها لقيت وسيلة في تبديد أقاليم وممالك في عجالات وفي سيارات عائدة لشركة نقل المدينة. ولكن السيدة الصغيرة كانت ممثلة لم يحالفها الحظ فأضمرت لـ«لابيرما» بغضاً قاتلاً. كانت هذه الأخيرة قد اعتلت خشبة المسرح. ويا للمعجزة حينذاك، فأنه على غرار تلك الدروس التي استنفدنا قوانا دونما جدوى في تعلمها مساء والتي نلقاها في صدورنا وقد عرفناها عن ظهر القلب بعد أن قد نمنا، وعلى غرار وجوه الأموات تلك التي تلاحقها جهود ذاكرتنا الحثيثة دون أن نلقاها والتي نراها أمام أعيننا، حين لانفكر فيها من بعد، وبها شبه الحياة، أخذت موهبة «لابيرما» التي هربت مني حينما كنت أحاول باندفاع كبير أن أدرك كنهها، أخذت الآن بعد سنوات النسيان وفي ساعة اللامبالاة هذه تفرض نفسها على اعجابي بقوة البداهة. كنت فيما مضى، في محاولة لفرز تلك الموهبة، أسقط إلى حد ما مما أسمع الدور نفسه، الدور، هذا القسم المشترك بينها وبين جميع الممثلات اللواتي يؤدين دور «فيدر» والذي سبق أن درسته سلفاً لأتمكن من طرحه جانباً وألا أجمع بمثابة بقية باقية سوى موهبة السيدة «لابيرما». بيد أن تلك الموهبة التي كنت أحاول تبينها خارج الدور انما كانت تؤلف كلاً واحداً معه. ذلك هو شأن الموسيقي العظيم (وهي حال «فانتوي» فيما يبدو حين كان يعزف على البيانو) فأن عزفه عزف ضارب على البيانو عظيم حتى لاتعلم من بعد البتة إن كان هذا الفنان عازف بيانو، لان هذا العزف (إذ لايضع بينك وبينه كل هذا الحشد من جهد الأصابع الذي تتوّجه ههنا وهناك لمحات رائعة، وكل هذا التناثر في النوطات الذي يظن السامع، ذاك الذي لايعلم كيف تساس الامور على الأقل، انه واجد فيه الموهبة في حقيقتها المادية الملموسة) قد أضحى شفافاً يفيض مما يترجمه إلى حد أنك لاتحس به من بعد وقد أصبح محض نافذة تطل على رائعة فنية واذا كانت المقاصد تحيط كمثل حاشية فخمة أو ناعمة لصوت «آريسي» و«ايسمين» و«هيبوليت» وايماءاتهم فقد استطعت تمييزها، أما «فيدر» فكانت قد استبطنتها ولم يفلح فكري في أن ينتزع من الإلقاء والوقفات. وأن يضع يده في شح بساطة مساحاتها المستوية على تلك اللقيات، على تلك اللمحات التي لاتبرز عنها لشدة ما انغرست فيها بعمق وما كان صوت «لابيرما» الذي لم يظل به نفاية واحدة من مادة جامدة تستعصي على الفكر، ما كان يدع لك أن تميز من حوله هذا الفائض من الدمع الذي تراه يسيل فوق مرمر صوت «آريسي» أو «ايسمين» لأنه لم يستطع التغلغل فيه، بل كان قد تم تليينه بلطف في أصغر خلاياه على غرار آلة عازف كمان كبير مراد المرء، حينما يقول إن له رنة جميلة، لا أن يمتدح صفة مادية مميزة فيه بل تفوقاً في الروح. ومثلما هي الحال في المناظر الطبيعية

القديمة حيث يحل ينبوع لاحياة فيه محل حورية توارت فقد استحال فيه مقصد واضح ومحسوس صفة في النبرة ذات صفاء غريب مناسب لاحرارة فيه. وذراعا «لابيرما» اللذان تبدو الأبيات نفسها وكأنها ترفعهما فوق صدرها بالنفثة نفسها التي تطلق بها صوتها من بين شفتيها كتلك الأغصان التي يزيحها الماء في انطلاقه ؛ ووقفتها على خشبة المسرح التي شكلتها شيئاً فشيئا وربما بدلت فيها أيضا والتي تتألف من محاكمات عقلية تختلف عمقاً عن تلك التي كنت تلمح أثرها في حركات رفاقها، ولكنها محاكمات فقدت منشأها الارادي وقد انصهرت في ضرب من الإشعاع فتحيط شخصية «فيدر» بعناصر غنية ومعقدة تخفق من حولها ولكن المشاهد المفتون كان يعدها لابمثابة نجاح يحققه الفنان بل بمثابة أحد معطيات الحياة ؛ وتلك الاستار البيضاء نفسها التي كانت تبدو، مضناة أمينة، وكأنها مادة حية قد غزلها العذاب الذي نصفه وثنية والنصف «يانسينية»[1]، العذاب الذي تتقلص من حوله كشرنقة هشة مقرورة ؛ فالصوت والمواقف والحركات والأستار، لم يكن كل ذلك من حول جسد الفكرة هذا الذي هو بيت الشعر (وليس هذا الجسد بخلاف الأجساد البشرية حاجزاً لاينفذ النور بل كساء مطهر روحاني) سوى غلف إضافية كانت تعبر تعبيراً أوفر روعة عن النفس التي سبق أن تمثلتها وانتشرت فيها بدلاً من أن تحجبها، سوى حمم من مواد مختلفة اصبحت شفافة ولايفضي تراكمها إلا إلى أن يعكس على نحو أوفر بهاء الشعاع المركزي الحبيس الذي يخترقها وأن يزيد في اتساع المادة المشبعة باللهب التي تحيط به كالغمد وفي كرم معدنها وجمالها. كذلك كان تمثيل «لابيرما» إنما يؤلف من حول العمل الفني عملاً فنياً ثانياً تبعث العبقرية فيه الحياة أيضاً.

ولم يكن انطباعي، وهو والحق يقال أكثر امتاعاً منه بالأمس، مختلفاً عنه. بيد أني لم أعد أضع قبالته فكرة مسبقة مجردة زائفة عن النبوغ المسرحي وأخذت أدرك أن النبوغ المسرحي إنما هو ذاك بالضبط. كنت أفكرمنذ قليل أني لم أستمتع أول مرة سمعت فيها «لابيرما» فلأني، شأني بالأمس حينما كنت ألتقي بـ «جيلبيرت» في «الشانزيليزيه»، كنت أجيء إليها وبي شوق مفرط. ربما لم يكن الخيبتين وجه الشبه هذا فحسب بل آخر كذلك أكثر عمقاً. إن الانطباع الذي يخلفه فينا شخص وعمل فني (أو تمثيل دور) متميزان إلى حدّ بعيد إنما يتسم بطابع خاص. لقد جلبنا معنا أفكار «الجمال» و«رحابة الأسلوب» و«المأساوية» التي ربما توهمنا أننا نتعرفها في تفاهة موهبة ووجه مقبولين، ولكن فكرنا المتنبّه يرى أمامه إلحاح شكل لا يملك له مقابلاً فكرياً وينبغي له استخلاص المجهول منه. إنه يسمع صوتاً حاداً ونبرة استفهامية غريبة ويسائل النفس قائلاً: «أجميل هذا؟ أمن الإعجاب ما أحسّ به؟ وهل ذاك غني الألوان والسمو والقوة؟» أما ما يجيبه من جديد فصوت حاد ولهجة تسائل مساءلة غريبة، إنه الانطباع المستبد الذي يثيره فيك كائن لاتعرفه، وهو مادي كله ولم تترك فيه أية مساحة فارغة لـ «رحابة التمثيل». وإنما الأعمال الجميلة حقاً هي التي لابد لها بسبب ذلك، ان تم سماعها بصدق، أن تخيب آمالنا أكثر ما تخيب لأنه ليس في مجموعة أفكارنا فكرة واحدة توافق انطباعاً فردياً.

ذلك بالضبط ما كان يكشفه لي تمثيل «لابيرما» ؛ والنبل والذكاء في الالقاء كانا ذلك بالتمام. لقد أخذت أتبين الآن مزايا التمثيل الذي يمتاز بالرحابة والشاعرية والقوة، أو ذلك بالأحرى ما اتفق أن يمنح تلك

(١) حركة دينية مسيحية متزمتة ظهرت في فرنسةفي القرن السابع عشر على يد اللاهوني الهولندي «يانسن» (١٥٨٥ - ١٦٣٨).

الألقاب ولكن على نحوما يطلق اسم المريخ والزهرة وزحل على نجوم لاتملك شيئاً من دنيا الميثولوجيا. إننا نشعر في عالم ونفكر ونسمي في عالم آخر، ويمكننا إقامة توافق ما بين الاثنين لاردم المسافة الفاصلة. تلك كانت إلى حد ما المسافة، الثغرة التي وقع عليّ اجتيازها حينما لقيت في أول يوم ذهبت فيه لمشاهدة تمثيل «لابيرما»، وبعدما صرفت إليها كامل انتباهي، بعض المشقة في اللحاق بأفكاري عن «سمو التمثيل» و«الأصالة» ولم أنبر أصفق بحرارة إلابعد لحظة فراغ وكما لو ينطلق التصفيق لامن انطباعي نفسه، بل كما لو كنت أربطه بأفكاري المسبقة، بالمتعة التي أحس بها في أن أقول في نفسي: «ها إني أخيراً أسمع لابيرما». وان الفارق الكائن بين شخص وعمل فني بارز الفردية وفكرة الجمال إنما هو كائن بالمقدار ذاته بين ما تولينا هذه من مشاعر وأفكار الحب والإعجاب. ونحن لذلك لانتعرفها. فانني لم أصب متعة في سماع «لابيرما» (كما لم أصب متعة في رؤية «جيلبيرت» حينما كنت أحبها). وقلت في نفسي: «إني غير معجب بها إذن». ولكني ما كنت أفكر آنذاك الا في تعميق تمثيل الممثلة، ولايشغلني إلا ذاك الأمر فأجهد في فتح فكري على أرحب نحو ممكن لأتزود بكل ما يتضمنه: وإني لأدرك الآن أن الإعجاب إنما كان ذلك.

وتلك العبقرية التي لم يكن تمثيل «لابيرما» سوى كشف لها فحسب، أكانت عبقرية «راسين» وحدة؟.

لقد ظننت ذلك أول المطاف، وكان لابد أن أعود عن ضلالي بعدما انتهى فصل مسرحية «فيدر» وبعد إلحاح الجمهور طلباً لعودة الممثلين التي انتصبت جارتي القديمة الحانقة في أثنائها بقامتها الصغيرة جداً ووضعت جسمها بالورب وجمدت عضلات وجهها وصالبت ذراعيها على صدرها لتبدي أنها لاتشارك الآخرين تصفيقهم ولتبرز على نحو أوضح احتجاجاً حكمت أنه شديد الوقع ولكنما لم يشعر به أحد. كانت المسرحية التالية واحداً من الأعمال الجديدة التي كان يبدو لي بالأمس أنها لابد ستبدو هزيلة وخاصة بما أنها لا وجود لها خارج الدور الذي تؤدى به. ولكني إلى ذلك لم تتملكني الخيبة أن أبصر خلود العمل الفني لايمتد إلاّ امتداد خشبة المسرح والإ مدة دوام العرض الذي يؤديه على نحو ما يؤدي مسرحية مناسبات. ثم إني كنت أضيف إلى كل مقطع أحس أن الجمهور أحبه وقد يضحي ذات يوم شهيراً، كنت أضيف، بدلاً من الشهرة التي لم يتسن لها أن تحوزها فيما مضى، تلك التي ستحوزها في المستقبل بجهد فكري معاكس للجهد الذي قوامه تمثل روائع فنية في زمن صدورها الهزيل حين لم يكن يبدو أن عنوانها الذي لم يطرق الأسماع بعد سوف يتم وضعه فيما بعد بجانب عناوين مؤلفات الكاتب الأخرى وسوف تختلط في الضياء نفسه. وربما أدرج هذا الدور ذات يوم في لائحة أجمل أدوارها إلى جانب دور «فيدر». وليس يعني ذلك أنه لم يكن في حدّ ذاته خلوا من أية قيمة أدبية ولكن «لابيرما» سمت فيه سموها في «فيدر». وأدركت حينذاك أن مؤلف الكاتب لم يكن بالنسبة إلى الممثلة سوى مادة غير ذات بال تقريبا في حد ذاتها من أجل ابداع رائعتها في التتمثيل، مثلما سبق لـ «ايلستير» الفنان الكبير الذي عرفته في «بالبيك» أن وجد موضوع لوحتين تتساويان قيمة في بناء مدرسي لاطابع له وكاتدرائية هي في حد ذاتها رائعة فنية. ومثلما يذيب الرسام البيت وعربة النقل والشخوص في دفقة ضياء كبيرة تجعلها متجانسة كذلك كانت «لابيرما» تمد طبقات واسعة من الرعب، من الرقة على الكلمات التي انصهرت بالتساوي فاستوت كلها أو سمت، ولعل الفنانة الضحلة كانت تبرزها الواحدة تلو الاخرى. وليس من شك أنه كان لكل منها نبرة خاصة وما كان إلقاء «لابيرما» يحول دون

أن يتبين المرء بيت الشعر. أفليس ثمة عنصر أول من التعقيد المنظم والجمال حينما يحس المرء، إذ يسمع قافية، يعني أمراً هو في الآن نفسه مثيل ومغاير للقافية السابقة التي تجد علتها فيها ولكنها تدخل فيها تغير فكرة جديدة، بمنظومتين تتناضدان، إحداهما على صعيد الفكر والأخرى على صعيد الوزن الشعري؟ بيد أن «لابيرما» كانت تدخل حتى الأبيات، وحتى المقاطع في مجموعات أرحب منها يفتنك أن تراها مضطرة للتوقف والانقطاع على حدودها ؛ كذلك يستمتع شاعر في أن تتردد لحظة في القافية الكلمة التي توشك الانطلاق، وموسيقي في خلط كلمات الكتيب المختلفة في ايقاع واحد يعاكسها ويجتذبها. وهكذا كانت تعرف «لابيرما» كيف تدخل في جمل كاتب الدراما الحديث وأشعار «راسين» على حد سواء هذه الصور الرحبة من الألم والنبل والهوى التي تؤلف روائعها هي وحيث كان يتم تعرّفها مثلما يتعرف الرسام في رسوم شخصية نقلها عن نماذج مختلفة.

ما كنت لأتمنى من بعد، شأني بالأمس، أن استطيع تجميد وقفات «لابيرما» ومسحة اللون الجميلة التي كانت تخلفها مقدار لحظة فحسب في ضوء سرعان ما يتلاشى ولا يتشكل من جديد، ولا أن أحملها على أن تكرّر مئة مرة بيتا من الشعر. فقد أخذت أدرك أن رغبتي القديمة كانت أكثر تطلباً من مشيئة الشاعر والممثلة والفنان الكبير مهندس المناظر، وهو مخرجها، وأن هذا السحر المسفوح خطفاً على بيت من الشعر، وهذه الحركات غير الثابتة التي تبدل باستمرار وهذه اللوحات المتعاقبة إنما كانت النتيجة السريعة الزوال والهدف الوقتي والرائعة الفنية المتموجة التي يهدف إليها الفن المسرحي والتي قد يقضي عليها انتباه مستمع شديد الافتتان في سعيه إلى تثبيتها. بل إني لم أعد أهتم بالمجيء يوما آخر لأسمع «لابيرما» ثانية، فقد كنت مكفيّ النفس منها. ذلك أني حينما كنت معجباً أشد الاعجاب إلى الحد الذي لايخيب ظني موضوع إعجابي، سواء أكان ذلك الموضوع «جيليبرت» أو «لابيرما» إنما كنت إذ ذاك أطلب سلفاً من انطباع الغد المتعة التي حجبها عني انطباع البارحة. ودون أن أحاول تعميق البهجة التي داخلتني من قليل والتي لعلني كنت استطيع استخدامها استخداماً أوفر خصباً كنت أقول في نفسي شأن واحد من رفاق المدرسة فيما مضى: «إنما «لابيرما» بالحقيقة من أضع في المقدمة»، فيما ينتابني شعور غامض بأن عبقرية «لابيرما» ربما لم يترجمها أدق الترجمة هذا التوكيد لإيثاري لها وللمكان «الأول» الذي امنحها إياه أيا كان الهدوء الذي يجلبانه لي.

آن بدأت تلك المسرحية الثانية نظرت إلى جانب السيدة «دو غيرمانت» وكانت هذه الأميرة قد أدارت رأسها. بحركة ولدّت خطاً عذباً كان فكري يتابعه في الفراغ، باتجاه الركن القصي في مقصورتها. كان المدعوون وقوفاً يلتفتون بدورهم نحو الباب وبين الصفين اللذين يؤلفونهما دخلت، تلفها تماماً أثواب الموسلين البيضاء، دوقة «غيرمانت» ،دخلت وسط ثقتها الظافرة وعظمة الآلهة لديها، ولكنما بها عذوبة مجهولة ناجمة عن الخجل الذي يمتزج التصنّع فيه بالبسمات من جراء وصولها متأخرة إلى هذا الحد وحملها الجميع على القيام في أثناء العرض. وذهبت رأساً إلى ابنة عمها وحيّت بانحناءة واسعة شاباً أشقر كان يجلس في الصف الأول واستدارت صوب الكائنات الخرافية البحرية المقدسة التي تموج في ركن المغارة القصي وحيّت أنصاف آلهة نادي الفروسية – الذين ألفوا في ذلك الوقت منّ لعلني فضلت أكثر ما أفضل أن أحل محلهم، ولاسيما منهم السيد«دو بالانسي» – تحية ألفة من صديقة قديمة تشير إلى اليومي من علاقاتها بهم منذ خمسة عشر

عاما. كنت أحس ولكن لا أستطيع أن أستجلي سرّ هذه النظرة المشرقة التي تخص بها أصدقاءها في البريق الأزرق الذي تلتمع به فيما تدع يدها لهؤلاء وأولئك، هذه النظرة التي لعلها كانت تكشف لي، لو تيسر لي أن أحلل ألوان موشورها وتبلوراته، ماهية الحياة المجهولة التي كانت تبرز فيها في ذلك الحين. وكان دوق «غيرمانت» يتبع زوجته، فيما تنفرج بانعكاسات نظارته الجذلى وضحكة أسنانه وبياض قرنفلته أو صداره المتثنّي حاجباه وشفتاه وسترته الرسمية لتوسع مكاناً لضيائها. وأشار بحركة من يده الممدودة التي انحدر بها، منتصب القامة لايحرك الرأس، إلى أكتافهم، أشار إلى السمادل الأدنى مرتبة الذين كانوا يوسعون له المكان بالجلوس وانحنى انحناء كبيراً أمام الشاب الأشقر. وربّما خيّل لك أن الدوقة حزرت أن ابنة عمّها، وكانت تسخر، فيما يقال، ممّا تدعوه غلواء هذه الأخيرة (والغلواء هي الاسم الذي سرعان ما يتخذه الشعر والحماسة الجرمانيان من وجهة نظرها الفرنسية الذكية المعتدلة) ستكون هذا المساء في واحد من تلك الأثواب التي ترى الدوقة أنها متنكرة فيها وأنها أرادت أن تلقنها درساً في الذوق. فبدلاً من الريش الناعم الذي كان يتحدّر من رأس الأميرة حتى عنقها، وبدلاً من خمارها الذي من أصداف ولآلئ لم تكن الدوقة تضع في شعرها سوى خصلة ريش بسيطة تبدو فيما تعلو أنفها المعقوف وعينيها غير البارزتين وكأنها خصلة ريش على رأس طير. كان عنقها ومنكباها تطلع جميعا من سيل ثلجي من الموسلين تخفق فوقه مروحة من ريش التم، ولكن الفسطان الذي لا يزين صداره سوى شذرات لاتحصى إما من معدن على شكل عصيات وحبات وإما من ماسات كان يقولب جسمها بدقة بريطانية تامّة ولكن مهما اختلفت ملابس الاثنتين بعضها عن بعضها الآخر فقد شوهدتا، بعدما قدمت الأميرة لابنة عمها الكرسي الذي كانت تشغله حتى ذاك، تستديران الواحدة نحو الأخرى لتتبادلا نظرات الإعجاب.

ربما علت ابتسامة ثغر السيدة «دو غيرمانت» في الغد حينما تتحدث عن تسريحة الأميرة الشديدة التعقيد إلى حدّما، ولكنها سوف تعلن بالتأكيد أن تلك التسريحة لم تكن لذلك أقل روعة وترتيباً بديعاً. أما الأميرة التي كانت تجد بعض الفتور وبعض الجفاف وبعض الصنعة في الطريقة التي تكتسي بها ابنة عمها فسوف تكتشف في هذه البساطة الصارمة تأنقاً مستعذباً. أضف أن الانسجام بينهما والجاذبية الشاملة المسبقة لتربيتهما كانا يبطلان وجوه التعارض لافي ترتيب الملبس فحسب بل في المواقف. فعلى أقدام هذه الخطوط اللامرئية الممغنطة التي كانت أناقة السلوك تمدها ما بينهما كان طبع الأميرة الصريح يلفظ أنفاسه فيما تنجذب باتجاهها استقامة الدوقة وتلتوي وتصبح عذوبة وسحراً. ومثلما لم يكن علينا، في المسرحية التي يتم تمثيلها، كيما ندرك مدى ما تبعث «لابيرما» من شاعرية شخصية، سوى أن نكلف بالدور الذي كانت تمثله، والذي تستطيع وحدها تمثيله، أية ممثلة أخرى، فإن المشاهد الذي لو رفع عينيه إلى شرفة المسرح لرأى في مقصورتين طريقة في اللباس تضفي على بارونة «مورينفال»، وكانت تحسب أنها تذكر بطريقة أميرة «غيرمانت»، محض هيئة شاذة متكلفة سيئة التهذيب، وجهداً متأنيا باهظ التكاليف في سبيل محاكاة أثواب دوقة «غيرمانت» وأناقتها ييسر للسيدة «دو كامبرمير» محض شبه بتلميذة داخلية ريفية سُدّتْ على سلك من الحديد منتصبة القامة جافة حادة الهيئة وفي شعرها تنتصب عمودياً ريشة عربة موتى. ربما لم يكن مكان هذه الأخيرة في قاعة كانت تشكّل فيها المقصورات (وحتى مقصورات أعلى الطوابق التي تبدو من الأسفل وكأنها سلال ضخمة زرعت بالزهور البشرية وعلقت بقوس القاعة بالسيور الحمراء التي لحواجزاها المخملية) من ألمع

نساء العام فحسب منظراً عابراً سوف يبدل فيه عما قليل الأموات والفضائح والأدواء والخلافات ولكنما يثبّته في هذه اللحظة الاهتمام والحر والدوار والغبار والأناقة والسأم في ما يشبه اللحظة الخالدة المأساوية لحظة الانتظار اللاواعي والخَدَر الهادئ التي تبدو بعد فوات الأوان وكأنها سبقت انفجار قنبلة أو اللهب الأول في حريق.

فأما السبب الذي من أجله كانت السيدة «دو كامبر مير» هناك فقوامه أن أميرة «بارم»، وهي بعيدة عن السنوبية كأكثر صاحبات السمو الحقيقيات، ولكنما تتأكلها في المقابل الكبرياء والتوق إلى التصدق الذي يساوي لديها الميل إلى ما تحسبه الفنون، كانت قد تخلت ههنا وهناك عن بعض المقصورات لنساء من طراز السيدة «دو كامبر مير» لا ينتمين إلى المجتمع الارستقراطي الراقي ولكنها كانت على علاقة بهن لغرض أعمالها الخيرية. لم تكن السيدة «دو كامبرمير» ترفع نظرها عن الدوقة وعن أميرة «دو غيرمانت»، الأمر الذي يزيد من يسره لديها أنه لايمكن أن تبدو وكأنها تلتمس تحية منهما لأنها لم تكن على علاقات حقيقية بهما. مع أن الهدف الذي كانت تلاحقه منذ عشرة أعوام بصبر لايعرف الكلل إنما كان أن يتم استقبالها لدى هاتين السيدتين الكبيرتين. لقد قدرت أنها لاشك ستفلح في ذلك في مدى خمسة أعوام. ولكنها تخشى، وقد أصابها داء لايرحم تحسب أنها، إذ تباهي بمعلومات طبية تعرف طبيعته الحتمية، كانت تخشى ألا تستطيع العيش حتى ذاك. بيد أنها كانت سعيدة في ذلك المساء أن تفكر بأن جميع أولئك النساء اللواتي لا تعرفهن سوف يشاهدن بالقرب منها رجلاً من أصدقائهن وهو المركيز الشاب «دو بوسيرجان» شقيق السيدة «دارجنكور» الذي كان يتردد بالتساوي على المجتمعين والذي كانت نساء المجتمع الثاني يملن كثيراً إلى التباهي بحضوره إلى جانبهن أمام أنظار نساء الأول. وكان قد جلس خلف السيدة «دو كامبرمير» على كرسي وضع بالعرض ليستطيع استراق النظر إلى المقصورات الأخرى. كان يعرف الجميع فيها وكان بغية التحية يرفع، إلى جانب الأناقة الساحرة التي لشكله الجميل المقوس ولرأسه الناعم ذي الشعر الأشقر، كان يرفع نصف رفعة جسمه المنتصب وفي عينيه الزرقاوين تشرف ابتسامة وبه مزيج من الأجلال والوقاحة فينقش على هذا النحو نقشاً دقيقاً في مستطيل المستوى المائل الذي يجلس فيه كأنما واحدة من تلك الصور المطبوعة القديمة التي تمثل سيداً كبيراً متعالياً متزلفاً. كان غالباً ما يرتضي الذهاب على هذا النحو إلى المسرح برفقة السيدة «دو كامبرمير». وكان يظل ببساطة بالقرب منها في القاعة وفي الردهة لدى الخروج، وسط جمهور الصديقات الأكثر شهرة اللواتي كن هناك واللواتي كان يتجنب التحدث إليهن إذ لا يبغي إزعاجهن وكأنما هو بصحبة سوء. فإن مرّت آنذاك أميرة «غيرمانت» في جمال «ديانا» ورشاقتها، تجر وراءها معطفاً لامثيل له وتستلفت سائر الرؤوس وتتبعها جميع العيون (وعينا السيدة «دو كامبرمير» أكثر من كلّ ماعداهما)، كان السيد «دو بوسيرجان» يستغرق في حديث مع جارته ولا يستجيب لابتسامة الأميرة الودود الفاتنة إلا مرغماً مضطراً وبالتحفظ المهذب والجفاء المتسامح الذي يبديه امرؤ يمكن أن يكون لطفه قد أضحى إلى حين مصدر إزعاج.

ولو لم تعلم السيدة «دو كامبرمير» أن المقصورة الخاصة إنما تعود للأميرة لعرفت مع ذلك أن السيدة «دو غيرمانت» كانت المدعوة وذلك لما تظهر من اهتمام أكبر بمنظر المسرح والقاعة كي تبدو لطيفة إزاء مضيفتها. بيد أن قوة معاكسة تزامن هذه القوة النابذة وتنميها رغبة التودد نفسها كانت تردّ انتباه الدوقة باتجاه ملابسها الخاصة إلى ريش قبعتها وعقدها وصدارها وباتجاه ملابس الأميرة نفسها كذلك، الأميرة التي تبدو ابنة عمها وكأنما تعلن أنها من أتباعها وعبدة لها جاءت إلى هنا لمحض لقائها. وهي مستعدة أن تتبعها إلى مكان

آخر لو خطر لصاحبة المقصورة أن تذهب، ولا تنظر إلى باقي القاعة إلا على أنها مؤلفة من غرباء يدهشك منظرهم مع أنها تضم العديد من الأصدقاء الذين كانت في مقصورتهم في أسابيع أخرى والذين ما كان يفوتها أن تبدي إزاءهم الولاء الحصري والنسبي والأسبوعي نفسه. كان يدهش السيدة «دو كامبرمير» أن ترى الدوقة هذا المساء. فقد كانت تعلم أن هذه الأخيرة تظل في «غيرمانت» إلى وقت متأخر جداً وتفترض أنها لاتزال هناك. ولكنما نُمِيَ إليها أن السيدة «دو غيرمانت» كانت تأمر، بعدما تتناول الشاي مباشرة مع الخدم، بتجهيز احدى عرباتها حينما يتوافر في باريس عرض تحكم أنه شيق وتنطلق مسرعة لدى غروب الشمس عبر الغابة التي يلونها الشفق ثم على الطريق لتستقل القطار في«كومبريه» فتكون مساء في باريس. وتفكر السيدة «دو كامبرمير» يهزها الاعجاب: «ربما جاءت من «غيرمانت» عمدا لتسمع «لابيرما». وكانت تذكر أنها سمعت «سوان» يقول بهذه اللغة الخاصة الملتبسة التي يشاركه فيها السيد «دو شارلوس»: «إن الدوقة من أكثر الناس سموّ خلق في باريس ومن الصفوة الأكثر رهافة ذوق والأوفر رقيا.» أما بالنسبة إليّ، أنا الذي كان يشتق من اسم «غيرمانت» واسم «بافيير» واسم «كونديه» حياة ابنتي العم وفكرهما (ولا يسعني ذلك من بعد فيما يخص وجهيهما بما أنه أتفق لي أن رأيتهما) فلعلي كنت أفضل معرفة رأيهما في «فيدر» على رأي أعظم ناقد في العالم. لانني ما كنت لأجد في رأيه سوى الذكاء، ذكاء يفوق ما اجتمع لي، ولكنه من الطينة ذاتها. فأما ما كانت تفكر فيه دوقة «غيرمانت» وأميرة «غيرمانت» والذي زوّدني بوثيقة لاتقدر بثمن حول طبيعة هاتين المخلوقتين الشاعريتين فقد كنت أتصوره بوساطة اسميهما وافترض فيهما سحراً غير معقول، وإنما سحر عشيات الصيف التي تنزّهت أثناءها إلى جانب «غيرمانت» ما كنت أطلب، بظمأ المحموم وحنينه، أن يردّه إليّ رأيهما في «فيدر».

كانت السيدة «دو كامبرمير» تحاول تمييز نوع الملابس التي ترتديها ابنتا العم. أما فيما يخصني فما كنت أشك أن تلك الملابس خاصة بهما، لابمعنى أن الحلة ذات الياقة الحمراء أو الثنية الزرقاء كانت تخص حصراً فيما مضى آل «غيرمانت» وآل«كونديه» فحسب، بل كما هو بالأحرى بالنسبة إلى الطير أمر الريش الذي لايقتصر على أنه حلة جماله ولكنه امتداد لجسمه. كانت ملابس هاتين المرأتين تبدو لي بمثابة تجسيد ثلجي أو مزركش لنشاطهما الداخلي، وكما هو شأن الحركات التي سبق أن رأيت أميرة «غيرمانت» تقوم بها والتي ما شككت أنها توافق فكرة خفية، فقد كان يبدو الريش الذي يتحدّر من جبين الأميرة وصدار ابنة عمها الباهر البراق وكأنما لهما دلالتهما، وكأنما يؤلفان بالنسبة إلى كل من المرأتين ميزة تنطبق عليها وحدها وكنت أرغب معرفة دلالتها: فقد كان طائر الجنة يبدو وكأنما لايمكن فصله عن الواحدة مثلما الطاووس عن «يونون»،[1] وما كنت أحسب بمقدور أية امرأة أن تغتصب صدار الأخرى البراق أكثر مما تفعل بترس «مينيرفا»،[2] اللامع ذي الحواشي. وحينما كنت أوجه ناظريّ صوب تلك المقصورة فكأنما تيسر لي أن أبصر، أكثر ما يتفق لي في سقف المسرح حيث رسمت صور رموز جافة، بفضل تمزق السحب المألوفة العجائبي، مجلس الآلهة وهو يتأمل منظر الناس تحت ستارة حمراء في فرجة مضيئة بين اثنين من أعمدة السماء. كنت أتأمل هذا الظهور الإلهي المؤقت باضطراب يمزج به الشعور بأني مجهول لدى جماعة الخالدين

(١) Junon إلهة رومانية ترمز إلى الحب الشرعي.

(٢) Minerve إلهة الحرب عند الرومان وينسبون إليها حماية الفنون والعلوم.

طمأنينةً. لقد سبق للدوقة أن رأتني مرة مع زوجها بيد أنها لابد لا تذكر ذلك بالتأكيد، وما كان يؤلمني أن يتفق لها من جرّاء المكان الذيّ تشغله في المقصورة الخاصة أن تنظر إلى تشابك المرجانيات المفلة المشتركة في جمهور الصالة لأنني كنت أشعر شعور السعادة بكياني يذوب فيما بينهم حينما أبصرت، لحظة أقبل يرتسم ولاشك، بفضل قوانين الانكسار الضوئي، في مجرى العينين الزرقاوين الهادئ الشكل المبهم لوحيد الخلية المجرد من الوجود الفردي الذي كنته، أبصرت ضياء يشرق فيهما: فقد رفعت الدوقة، وقد انقلبت من إلهة امرأة وبدت لي فجأة بذلك ألف مرة أكثر جمالاً، رفعت نحوي يدها التي لفها قفاز أبيض، وكانت تستند بها على حافة المقصورة، وحرّكتها عربونا للصداقة، وأحسّت نظراتي بالتوهج غير المقصود والبرق المنبعثين من عيني الأميرة يلتقيان بها، وقد ألهبتهما الأميرة دونما علم منها بمحض تحريكهما لمحاولة أن ترى من حيث ابنة عمها، وقد أمطرتني هذه الأخيرة، بعدما تعرفتني، بوابل من بروق ابتسامتها السماوية.

كنت أمضي الآن كل صباح، قبل ساعة خروجها بكثير، لأقف بعد عطفة في زاوية الشارع الذي تنحدر فيه عادة وحينما كان يبدو لي أن لحظة مرورها أضحت قريبة كنت أعود بهيئة شاردة أنظر في اتجاه معاكس وأرفع عينّي إليها حالما أصل بمحاذاتها ولكن كما لو لم أتوقع البتة رؤيتها. وقد بلغ بي في الأيام الأولى أن انتظر أمام بيتها كي أكون أكثر يقينا من أني لن أخطئها. وفي كل مرة ينفتح فيها الباب الرئيسي (ليسمح بمرور العديد من الاشخاص على التوالي ممن ليسوا من انتظر) كانت حركته تتوالى في فؤادي اهتزازات تستمر فترة طويلة لتهدأ. ذلك أنه ليس من متحمس لممثلة كبيرة لايعرفها ويمضي في انتظار طويل أمام مخرج الفنانين، ليس من جمهور ساخط أو متعشق اجتمع ليشتم أو يحمل على الأكتاف المحكوم أو الرجل العظيم الذي يخيل إليهم أنه وشيك المرور كلما تناهت إلى الاسماع ضجة من داخل السجن أو القصر، ليس منهم البتة من كان بمثل اضطرابي وأنا أنتظر رحيل هذه السيدة الكبيرة التي كانت بأثوابها البسيطة تدرك، بفضل رشاقة مسيرتها (التي تختلف كلياً عن المشية التي تتخذها حينما تدخل إلى صالة أو إلى مقصورة)، كيف تصنع من نزهتها الصباحية- وليس في نظري من يتنزه في العالم سواها- قصيدة كاملة من الأناقة وأرق أنواع الزينة وأطرف أزاهير السماء الصاحية. ولكنني مضيت بعد ثلاثة أيام إلى أبعد من ذلك بكثير وحتى نقطة ما من خط سير الدوقة المعهود كي لايستطيع البواب أن ينتبه لحيلتي. غالباً ما كنت أقوم على هذا النحو، قبل هذه الأمسية في المسرح، بنزهات قصيرة قبل الغداء حينما يكون الطقس صحواً. فإن سبق أن هطل المطر كنت أنحدر للسير بضع خطوات فألمح فجأة طالبة داخلية تتبعها معلمتها أو بائعة حليب بأكمامها البيضاء تتقدم على الرصيف الذي لايزال مبتلاً وقد استحال بفعل الضياء لكاً ذهبياً في اشراقة مفترق طرق يعصف به ضباب تدبغه الشمس وتشقره، فأظلّ لاحراك بيْ أضع يداً على قلبي الذي انطلق مذ ذاك نحو حياة غريبة، وكنت أجهد في تذكر الشارع والساعة والباب الذي اختفت خلفه البنيّة (التي كنت أتبعها أحيانا) دون أن تعاود الخروج. كانت سرعة زوال تلك الصور التي أداعبها والتي أمني النفس بمحاولة رؤيتها من جديد، كانت تحول لحسن الحظ دون أن تنغرس بشدة في ذاكرتي. وماهمّ، لقد كنت أقل حزنا أن أكون مريضا وأنني لم تخالفني الشجاعة بعد في يوم للشروع في العمل ومباشرة كتاب، وتبدو الأرض في عيني أمتع للسكنى وقضاء الحياة أبعث على الاهتمام منذ أخذت أرى أن شوارع باريس، شأن طرقات «بالبيك» تزدان بتلك الحسان المجهولات اللواتي ما أكثر ما حاولت أن يطلعن من أحراج «ميزيكليز» واللواتي كانت كل منهن

تثير رغبة واشتهاء تبدو وحدها قادرة على اشباعهما.

كنت قد أضفت للغد، لدى عودتي من دار الأوبرا، إلى الصور التي كنت اتمنى لقياها ثانية منذ بضعة أيام، صورة السيدة «دو غيرمانت» بقامتها المديدة وتسريحة شعرها الاشقر اللطيف العالية ووعود الحنان هي الابتسامة التي وجهتها إليّ من مقصورة ابنة عمها. سوف أتبع الدرب الذي روت لي «فرانسواز» أن الدوقة تسلكه وسوف أجهد مع ذلك أن لا تفوتني ساعة الانصراف من درس ومن تعليم مسيحي بغية أن أعود فألتقي بفتاتين كنت رأيتهما قبل البارحة. إلا أن ابتسامة السيدة «دو غيرمانت» المتلألئة والاحساس بالعذوبة الذي خلفته فيّ كانا يعودان إليّ في تلك الأثناء بين حين وآخر. ودون أن أعلم بالتمام ما كنت أفعله، كنت أحاول وضعهما (مثلما تنظر امرأة إلى الاثر الذي قد يخلفه على أحد الفساطين نوع معين من أزرار أحجار كريمة جيئت بهامنذ قليل) إلى جانب الافكار الخيالية التي كنت أحملها منذ فترة طويلة والتي أطلقها من عقالها فتور «ألبيرتين» ورحيل «چيزيل» المبكر ومن قبلهما الانفصال المتعمد والمطوّل جدا عن «چيلبيرت» (كأن تحبني امرأة على سبيل المثال وأن تكون لي حياة مشتركة معها). ثم كنت أقرّب من تلك الافكار صور هذه أو تلك من الفتاتين وأجهد بعدها في الحال في مواءمة ذكرى الدوقة معها. كانت ذكرى السيدة «دو غيرمانت» في الأوبرا أمراً هيناً جداً بالمقارنة مع تلك الأفكار، وما يشبه النجمة الصغيرة بالقرب من الذيل الطويل الذي لمذنبها الملتهب. ثم إني إلى ذلك كنت أعرف هذه الأفكار تمام المعرفة قبل تعرّفي بالسيدة «دو غيرمانت» بفترة طويلة، أما الذكرى فقد كنت على العكس أملكها على نحو غير تام، وكانت تغيب عني بين الحين والحين. كان عليّ في أثناء الساعات التي انتقلت فيها شيئاً فشيئا من شكل غير ثابت في نفسي على غرار نساء أخريات جميلات إلى ترابط وحيد ونهائي – يستبعد أية صورة انثوية أخرى– مع أفكاري الخيالية التي سبقتها بكثير، كان عليّ في أثناء بضع الساعات هذه التي كنت اتذكرها فيها أفضل الذكرى أن انتبه لأعرف بدقة أية ذكرى كانت ؛ على أني ما كنت أعلم آنذاك الأهمية التي كانت تزمع أن تتخذها بالنسبة إليّ ؛ ولكنها عذبةً كانت كموعد أول للسيدة «دو غيرمانت» في داخلي، لقد كانت الصورة الأولى، الحقيقية وحدها والتي صنِعت وحدها نقلاً عن الحياة والوحيدة التي كانت حقا السيدة «دو غيرمانت» وطوال الساعات القليلة التي أسعدني أن تكون فيها ملك يدي دون أن أعرف كيف أصرف انتباهي اليها كان لابد أن تكون، وأقصد تلك الذكرى، شديدة الروعة مع ذلك بما أن أفكاري في الحب كانت تعود أبداً إليها، ولاتزال تفعل بملء الحرية في ذلك الحين دونما عجلة ولاكلل ودون أن يداخلها شيء من الضرورة أو الضيق. ثم هي اكتسبت من تلك الأفكار، كلما رسختها هذه الأخيرة ترسيخاً نهائياً متزايداً، قوة أعظم ولكنها أضحت أشد إبهاما، ولم يعد قليل أن أعود فألقاها، وما من شك أنني كنت أشوهها تماما في أحلام يقظتي فقد كنت في كل مرة أبصر فيها السيدة «دو غيرمانت» ألاحظ فارقاً، دائم الاختلاف على أية حال، بين ما سبق أن تخيلت وما كنت أشاهد. كنت لا أزال أبصر الآن في كل يوم بالتأكيد، لحظة تطلع السيدة «دو غيرمانت» في أعلى الشارع، قامتها المديدة وذاك المحيا ذا النظرة الصافية تحت شعر خفيف، هذه الأشياء كلها التي من أجلها كنت هناك. ولكنني بالمقابل، وبعد مرور بضع ثوان حينما كنت أرفع ناظري، بعدما أشحت بهما في اتجاه آخر كي أبدو وكأني لا أتوقع ذلك اللقاء الذي جئت أبحث عنه، إلى الدوقة في الوقت الذي كنت أبلغ فيه ما بلغت من سوية الشارع فإن ما كنت أراه آنذاك إنما كان علامات حمراء، لا أعلم إن كان مردها الهواء الطلق أو

تبقع الجلد، تكسو وجها متجهماً يرد باشارة شديدة الجفاء وبعيدة جداً عن لطافة آمسية مسرحية «فيدر» على تلك التحية التي كنت أتوجه بها إليها في كل يوم بمظهر الدهشة الذي ما كان يبدو أنه يسرّها بيد أنه بعد انقضاء بضعة أيام كافحت في أثنائها ذكرى الفتاتين على نحو غير متكافئ في سبيل السيطرة على أفكار العشق لديّ ضد ذكرى السيدة «دو غيرمانت» كان أن عادت هذه الأخيرة في لنهاية أكثر المرّات وكأنما من تلقاء ذاتها فيما أخذت منافستاها في الزوال. وكان أن نقلت في النهاية كامل خواطري في الحب إليها ولا أزال أفعل باختصارالقول بملء إرادتي وكأنما باختياري ولمسرّتي. لم أعد أفكر ببنيّات التعليم المسيحي ولا ببائعة حليب معينة، مع أنه لم يعد بي أمل أن ألقى ثانية في الشارع ما كنت جئت أبحث عنه ولا الحنان الموعود في المسرح عبر ابتسامة ولا القوام وصفاء المحيا تحت الشعر الأشقر وما كانا كذلك إلا من بعيد. فما كنت حتى أستطيع الآن أن أقول كيف كانت السيدة «دو غيرمانت» ولابما أتعرّفها لأن الوجه في كل يوم وفي مجمل شخصيتها كان مختلفاً شأن الفسطان والقبعة.

فلماذا كنت أعلم ذات يوم، إذ أرى وجهاً عذباً أملس يتقدم مواجهة تحت معطف خبّازيّ وقد وُزِّعَتْ مواطن الفتنة فيه بالتناظر حول عينين زرقاوين وبدا فيه خط الأنف غائراً، لماذا كنت أعلم من جراء انفعال جذلان أنني لن أعود دون أن تتم لي رؤية السيدة «دو غيرمانت»؟ لماذا كنت أحس بالاضطراب نفسه، وأصطنع اللامبالاة نفسها وأشيح بعينيّ بطريقة شرود البارحة نفسها لدى الظهور الجانبي في طريق مختصرة وتحت قلنسوة نيلية لأنف على شكل منقار الطير على صفحة جنة حمراء تعترضها عين ثاقبة وكأنما إلهة من آلهة مصر؟ وذات مرة لم أبصر امرأة بأنف كمنقار الطير فحسب بل أبصرت كأنما طائرا: كان فسطان السيدة «دو غيرمانت» وحتى قلنسوتها من الفراء فتبدو بهما إذ لا يسمحان برؤية أي قماش وكأنها مغطاة بفرو طبيعي كبعض النسور التي يبدو ريشها الكثيف الأملس الأصهب الناعم وكأنه ضرب من الفرو. وفي وسط هذا الفرو الطبيعي كان الرأس الصغير يعقف أنفه الذي كمنقار الطائر وكانت العينان البارزتان ثاقبتين زرقاوين.

وفي بعض الأيام كنت أفرغ من ذرع الشارع جيئة ورواحاً على مدى ساعات دون أن ألمح السيدة «دو غيرمانت» حينما يبرز فجأة في أقصى دكان لبان تختبئ بين فندقين في هذا الحي الارستقراطي والشعبي الوجه المبهم والجديد لامرأة أنيقة تستعرض «جبنة بيضاء» عليها، وقبل أن يتسع لي الوقت لتمييزها كانت نظرة الدوقة تنطلق فتصيبني وكأنما برق استغرق للوصول إلي زمناً أقل من بقية الصورة. وكنت أدرك في مرة أخرى، إذ لم التق بها وسمعت الساعة تدق الثانية عشرة ظهراً، أن لاداعي من بعد لأن أظل انتظر فكنت أعود أدراجي حزينا إلي لبيت ؛ ثم أدرك فجأة، وأنا مستغرق في خيبة أملي أنظر إلى عربة تبتعد دون أن أراها، أن حركة الرأس التي قامت بها سيدة من الباب كانت موجهة إليّ وأن تلك السيدة التي تؤلف ملامحها المفككة الشاحبة أو المشدودة الزاهية على العكس في ظل قبعة مستديرة أو في أسفل خصلة ريش عالية وجه غريبة خلتني لا أعرفها إنما كانت السيدة «دو غيرمانت» التي لم لم لي أن تحييني دون أن أرد حتى تحيتها. وأحيانا كنت ألقاها، وأنا عائد، في زاوية المقصورة حيث كان البواب المقيت الذي كنت أكره نظراته المتحرية يحييها تحيات واسعة ويقدم لها دون شك أيضا «تقاريره». ذلك أن مستخدمي آل «غيرمانت» كافة، كانوا يترصدون وهم يختفون خلف ستائر النوافذ، يترصدون بخوف الحوار الذي لا يسمعونه والذي لم يكن يفوت الدوقة على إثره أن تحرم هذا الخادم أو ذاك، وقد وشى به البواب، نزهاته.

ولم يكُ حبي، بسبب جميع الأشكال المتعاقبة للوجوه المختلفة التي كانت تبرزها السيدة «دو غيرمانت»، وهي وجوه كانت تشغل مساحة نسبية ومختلفة تضيق تارة وتتسع طوراً في مجمل زينتها، لم يك متعلقاً بهذا الجزء أو ذاك من أجزاء الجسم والقماش، هذه المتغيرة التي كانت تحل حسب الأيام محل الأخرى والتي كان بوسعها أن تبدل فيها وتجددها ما يقارب التجديد التام دون أن تنال من اضطرابي لأنني كنت أحس عبرها، عبر الياقة الجديدة والوجنة المجهولة بأنها أبداً السيدة «دو غيرمانت». فإن ما كنت أحبه إنما الشخصية الخفية التي تبعث الحركة في كل ذلك والتي يغمني عداؤها ويهزني قربها والتي أردت لو أشد إليّ حياتها وأطرد أصدقاءها. كان بوسعها أن تضع ريشة زرقاء أو تبرز لوناً نارياً دون أن تفقد أعمالها من أهميتها بالنسبة إلي.

ولو لم أشعر بنفسي أن السيدة «دو غيرمانت» قد عيل صبرها من جراء التقائي بها كل يوم لعلمت ذلك على نحو غير مباشر من الوجه الذي يفيض جفاء واستنكاراً واشفاقاً والذي تتخذه «فرانسواز» حينما تعينني في الاستعداد لهذه النزهة الصباحية. فما أن أطلب منها حوائجي حتى أحس بريح مضادة تهب في ملامح وجهها المنقبضة المتعبة. وما كنت أحاول حتى كسب ثقة «فرانسواز» لشعوري بأنني لن أفلح في ذلك. فقد كانت تملك سلطة ظلت طبيعتها غامضة أبدا عليّ تعلم بها في الحال كل ما يمكن أن يقع لوالدي ولي من أمر مكدّر. ربما لم تكن خارقة لطبيعة وأمكن تفسيرها بوسائل اعلام كانت خاصة بها. من ذلك أن أقواماً متوحشة تستقي بعض الأخبار عدة أيام قبل أن ينقلها البريد إلى المستوطنين الأوروبيين وقد نقلتْ إليهم في الواقع لا بالتخاطر بل من تلة إلى أخرى بوساطة نيران مُشعلَة. وهكذا ربما سبق لخدم السيدة «دو غيرمانت»، في الحالة الخاصة المتعلقة بنزهاتي، أن سمعوا مولاتهم تعبر عن سأمها من أنها تلقاني دون مناص على دربها ورددوا هذه الأقوال لـ «فرانسواز». كان بمقدور والديّ بالحقيقة أن يلحقا بخدمتي آخر غير «فرانسواز» وما كنت لأكسب في ذلك، فقد كانت «فرانسواز» في بعض الوجوه أقل «خادمية» من الآخرين. فقد كانت في طريقة إحساسها وظهورها طيبة ومشفقة، وقاسية ومستكبرة، ومرهفة ومحدودة وفي امتلاكها بشرة بيضاء ويدين حمراوين، كانت آنسة القرية النبيلة التي كان أهلها «من أصل مؤكد» ولكنهم اضطروا، وقد ضاعت أموالهم، أن يزجوها في دنيا التخديم. وإنما كان وجودها في بيتنا جوّ الريف والحياة الاجتماعية في المزارع منذ خمسين عاماً وقد نُقلا إلى بيتنا بفضل ضرب من الرحلة المقلوبة يسعى فيها مركز الاصطياف إلى المسافر. ومثلما تزدان الواجهةَ الزجاجية في متحف إقليمي بهذه القطع الغريبة التي لاتزال الفلاحات ينفذّنها ويزينها بالشرائط في بعض المقاطعات كانت شقتنا تزدان بأقوال لـ «فرانسواز» مستلهمة من وجهة نظر موروثة ومحلية وتخضع لقواعد مغرقة في القدم. وكانت تعلم كيف تعيد فيها، كأنما بخيوط ملونة، رسم أشجار الكرز والطيور في طفولتها والسرير الذي ماتت فيه والدتها والذي لاتزال تراه. بيد أنها على الرغم من كل ذلك أخذت، حالما بدأت تعمل لدينا في باريس، تشاطر الخدم في الطوابق الأخرى أفكارهم وأحكام تفسيرهم – ولعل أية واحدة أخرى كانت من باب أولى تفعل ذلك محلها – وتعوض الإجلال الذي تضطر أن تبديه لنا بأن تردد على مسامعنا ما كانت تقوله طاهية الطابق الرابع من بذيء القول عن مولاتها وتفعل بارتياح الخادم الذي بلغ حداً أخذنا نقول معه، وقد أحسسنا للمرة الأولى في حياتنا بضرب من التضامن مع مستأجرة الطابقْ الرابع المقيتة، أننا ربما كنا بالحقيقة أسياداً. وربما كان هذا الفساد في طباع «فرانسواز» محتما. فبعض ضروب الحياة شاذة إلى الحد الذي لابد أن تورث معه حتماً بعض العيوب، كالحياة التي كان يقضيها الملك في قصر فرساي بين

رجال بلاطه، وهي في مثل غرابة حياة فرعون أو دوج، وأكثر من حياة الملك حياة رجال البلاط. على أن حياة الخدم هي دونما شك من غرابة أكثر فظاعة وإنما تحجبها عنا العادة وحدها. على أني حتى لو صرفت «فرانسواز» لكان محتوما عليّ أن أحتفظ بالخادم نفسه حتى ضمن حدود تفاصيل أكثر خصوصية. ذلك أن آخرين عدة استطاعوا فيما بعد أن يعملوا في خدمتي، ومع أنهم كانوا يحملون من قبل العيوب العامة التي تطبع الخدم فما كان ذلك يحول دون أن يلمّ بهم لديّ تحول سريع. وبما أن قوانين الهجوم تحكم قوانين الرد فقد كان الجميع، لكي لاتنال منهم مواطن النتوءات في طباعي، يجعلون في طباعهم مواضع غائرة متماثلة وفي المكان نفسه، وكانوا في مقابل ذلك يفيدون من الثغرات لديّ ليقيموا فيها مراكز متقدمة. تلك الثغرات ما كنت أعرفها. ولا النتوءات التي تسببها فرجاتها، لأنها بالضبط ثغرات. إلا أن خدمي أطلعوني عليها من جراء فسادهم التدريجي. فلقد عرفت عيوبي الطبيعية اللا متغيرة من جراء عيوبهم المكتسبة على نحو لايتبدل، وزودتني طباعهم بضرب من الصورة السالبة عن طباعي. لقد سبق أن سخرنا كثيراً فيما مضى، أنا وأمي، من السيدة «سازرا» التي كانت تقول في حديثها عن الخدم: «هذه الطائفة وهذا الصنف». إلا أنه لابد لي أن أقول إن السبب الذي من أجله لم يكن من داع لأتمنى استبدال أي شخص آخر بـ «فرانسواز» أن هذا الآخر إنما سيكون بالمقدار نفسه وعلى نحو محتم من طائفة الخدم العامة ومن صنف خدمي الخاص.

ثم إني فيما يخص «فرانسواز»، لم أعان في حياتي قط ذلا إلا لقيت له سلفاً على وجه «فرانسواز» تعازي جاهزة تماماً. وحينما كنت أحاول، عبر سخطي من أنها ترثي لحالي، الزعم بأنني حققت بالعكس نجاحاً كانت أكاذيبي تتحطم دون جدوى على جدار تشككها الذي يفيض احتراماً ولكنه ظاهر للعيان وعلى الشعور الذي بها بمعصوميتها. ذلك أنها كانت تعرف الحقيقة، وكانت تكتمها وتقوم بمحض حركة صغيرة بشفتيها كأنما لايزال فمها ملآن وتأتي على آخر قطعة طيبة. أو كانت تكتمها؟ لقد اعتقدت ذلك طويلاً على الاقل لأنني كنت لا أزال أتصور في تلك الفترة أن الحقيقة يتم نقلها إلى الآخرين بوساطة الكلمات. فحتى الكلمات التي يقولونها لي كانت تلقي في فكري الحساس مدلولها الذي لايتغير لدرجة أني ما كنت أعتقد بامكان أن لايحبني واحد سبق أن قال لي إنه يحبني أكثر مما تستطيع «فرانسواز» نفسها أن تشك بأن يتمكن كاهن، أو أي رجل آخر، بعدما تم لها أن تقرأ ذلك على صفحة جريدة، أن يبعث إلينا بالمجان، في مقابل طلب تم إرساله بالبريد، بدواء ناجع ضد جميع الأمراض أو بوسيلة لمضاعفة دخولنا مئة مرة. (أما إذا أعطاها طبيبنا، بالمقابل، أبسط المراهم ضد الزكام فقد كانت تئن، هي الصلبة في وجه أقسى العذابات، مما انبغى لها أن تتنشقه مؤكدة أن ذلك كان «ينتف أنفها» وأن المرء لايعلم من بعد أين يعيش.) ولكن «فرانسواز» أعطتني، أول من أعطى، المثال (الذي لن يقدّر لي إدراكه إلا فيما بعد حينما زودني به ثانية وعلى نحو أشد إيلاما، مثلما سنرى في المجلدات الأخيرة من هذا الكتاب، شخص أغلى عليّ) بأن الحقيقة لاحاجة بها أن تقال لتبرز للعيان أننا ربما استطعنا التقاطها على نحو أوثق، دون أن ننتظر الكلمات وحتى دون أن نأخذها في حسابنا، في ألف من العلامات الخارجية وحتى في بعض الظاهرات غير المرئية الشبيهة في عالم الطباع بما هي عليه التقلبات الجوية في الطبيعة المادية. ولعله كان بمقدوري الشك في الامر إذ كثيرا ما كان يتفق لي حينئذ أن أقول أمورا لاتداخلها أية حقيقة في حين كنت أبرزها في الكثير من النجاوى اللامقصودة الصادرة عن جسمي وأفعالي (التي كانت تفسر أحسن التفسير على يد «فرانسواز» ؛ لعله كان بمقدوري الشك في الأمر،

إلا أنه كان ينبغي لذلك أن أعلم أنني كنت آنذاك كذاباً ومخادعاً في بعض الأحيان. ولكن الكذب والمخادعة كانت تحكمها لدي، كما هي الحال لدى جميع الناس، تحكمها على نحو مباشر وعارض، وفي سبيل أن يدافع فكري عن نفسه، مصلحة خاصة إلى حد أن فكري المنصبّ على مثل أعلى نبيل كان يدع لطباعي أن تنفّذ في الظلام تلك الأعمال الملحة والهزيلة ولا يلتفت إليها ليراها.

وحينما كانت «فرانسواز» لطيفة معي في المساء وكانت تستأذنني في الجلوس في غرفتي كان يخيل إليّ أن وجهها أضحى شفافاً وأنني ألمح فيها الطيبة والصراحة. ولكن «جوبيان» الذي كانت له أدوار في إفشاء الأسرار لم أعرفها إلا فيما بعد كشف مذ ذاك أنها كانت تقول إني لا أساوي الحبل الذي أشنق به وانني حاولت أن الحق بها كل ما أمكن من أذى وأخرجت أقوال «جوبيان» هذه أمامي في الحال وفي لون مجهول لديّ صورة عن صلاتي بـ «فرانسواز» مختلفة عن تلك التي كان كثيرا ما يطيب لي أن أحط بنظراتي عليها والتي كانت «فرانسواز» دون أدنى تردّد تعبدني فيها ولا تضيع فرصة في الاشادة بي إلى حدّ أني أدركت أن العالم المادي لا يختلف وحده عن المظهر الذي نشاهده فيه، وأن كل حقيقة ربما كانت في مثل اختلافه عن تلك التي نحسب أننا ندركها مباشرة والتي نكوّنها بوساطة أفكار لاتبرز للعيان ولكنها ناشطة، مثلما لن تبدو الأشجار والشمس والسماء على مثلما تبصرها لو عرفتها كائنات لها عيون كونت تكوينا مغايراً لعيوننا أو هي تملك من أجل هذا العمل أعضاء غير العيون تزودنا عن الأشجار والسماء والشمس بمقابلات لها ولكنها غير بصرية. وقد روعتني هذه الفرجة المفاجئة، على النحو الذي تمت به هذه الفرجة التي فتحها ذات مرة «جوبيان» أمامي على العالم الحقيقي، مع أن الأمر لم يكن يتعلق إلا بـ «فرانسواز» التي قلما كنت أهتم بها. فهل كان الأمر كذلك في سائر العلاقات الاجتماعية؟ وإلى أي يأس يمكن أن يقودني ذلك ذات يوم إن كان الأمر واحداً في الحب؟ كان ذلك سرّ المستقبل. أما آنذاك فكان الأمر يدور حول «فرانسواز» وحدها. فهل كانت تعتقد اعتقاداً صادقاً بما قالت لـ «جوبيان»؟ وهل قالته لمحض أن تخلف بين «جوبيان» وبيني، وربما كي لايتم استخدام ابنة «جوبيان» لتحلَ محلها؟ ومهما يكن من أمر فقد أدركت استحالة أن أعلم على نحو مباشر وأكيد إن كانت «فرانسواز» تحبني أو تمقتني. وهكذا كانت أول من زودني بالفكرة التي مفادها أن الشخص، أي شخص، ليس واضحاً وثابتاً أمامنا بصفاته وعيوبه ومشروعاته ومقاصده إزاءنا، كما سبق أن ظننت، (شأن حديقة تنظر إليها بجميع أحواضها عبر سياج) بل هو ظلّ لا نستطيع البتة النفاذ إليه وليس من معرفة مباشرة به وننشيء من حوله فيما يخصه ظنوناً عديدة بوساطة أقوال وحتى أفعال، ولا تزودنا هذه وتلك إلا بمعلومات غير كافية ومتناقضة على أي حال، ظلّ يمكن أن نتصور على التوالي وبمقدار الاحتمال نفسه أن الكراهية والحب يلتمعان فيه.

كنت أحب السيدة «دو غيرمانت» حقا. ولعل أعظم سعادة كان يمكن أن أطلبها من الله كانت أن يصب عليها الفواجع كافة وأن تُقبل عليّ بعدما تفقد كل مالها واعتبارها وتنزع منها جميع الامتيازات التي تفصلني عنها، ولا بيت لها من بعد تسكنه ولا جماعة يقبلون أن يحيوها، أن تقبل عليّ لتسألني المأوى. كنت اتخيلها تفعل ذلك. وحتى في العشيات التي كان يجلب فيها تبدل ما في الجو أو في صحتي لفيفة منسية إلى ساحة وعيي، وقد سجلت عليها انطباعاتي بالأمس، كنت أفضل بدلاً من الإفادة من قوى التجديد

التي ولدت منذ قليل في داخلي، وبدلاً من استخدامها لأستجلي في صدري أفكاراً كانت تخفى عليّ عادة، وبدلاً من مباشرة العمل، أن أتكلم بصوت مرتفع وأفكر بطريقة مضطربة خارجيةٍ ما كانت سوى قول وحركة يدين لاجدوى منهما ورواية كاملة من مغامرات محضة عقيمة لا حقيقة لها تقبل فيها الدوقة وقد حل بها البؤس لتتوسل إليّ أنا الذي أصبح بفعل ظروف معكوسة غنياً ومقتدراً. وبعدما أقضي ساعات على هذا النحو أتخيل ظروفاً وانطق بجمل سوف أقولها للدوقة وأنا استقبلها تحت سقفي كان الوضع يظل على حاله. فقد اخترت في الواقع، واأسفي، اخترت بالضبط من أجل أن أحبها المرأة التي ربما جمعت أكبر قسط من الحسنات المختلفة والتي ما كان لي من جراء ذلك أن أتوقع حيازة أية مكانة في عينيها، فقد كانت بمثل ثراء من كان أوفر الناس ثروة دون أن يكون من النبلاء ؛ ولا يدخل في الحساب ذلك السحر الشخصي الذي يفرض زيها الخاص ويجعل منها من بينهن جميعاً ما يشبه الملكة.

كنت أحس أنني لا أروقها أذ أمضي كل صباح للقائها. ولكن حتى لو توافرت لي الشجاعة لأظل يومين أو ثلاثة دون أن آتي ذلك، فربما لم تلاحظ السيدة «دو غيرمانت» هذا الامتناع الذي يمثل في نظري تضحية ذات بال، أو ربما ردّته إلى حائل لادخل لإرادتي فيه. وما كان بالفعل باستطاعتي أن أفلح في التوقف عن الذهاب على طريقها إلا إذا تدبرت أمري ليستحيل عليّ إتيانِ ذلك، لأن الحاجة المتجددة دوماً إلى لقائها وإلى أن أكون مقدار لحظة موضع اهتمامها والشخص الذي يوجه إليه سلامها، تلك الحاجة التي كانت أقوى من همي من أن أسوء في عينيها. كان ينبغي أن أبتعد إلى حين، وما كنت أجرؤ على ذلك. كنت أفكر في الأمر بين الحين والحين، وأقول لـ «فرانسواز» إذ ذاك أن ترتب حقائبي، ثم أن تفرغها بعد ذلك في الحال[1]. وما كانت تحب ذلك وتقول إنّي «أترجّح» أبداً، إذ كانت تستخدم حين لاتبغي منافسة المحدثين لغة «سان سيمون» ذاتها. وصحيح أنه كان يروقها أقل من ذلك أيضاً حينما كنت أتحدث بلهجة الأسياد. كانت تعلم أن الأمر غير طبيعي لديّ ولا يلائمني، وهو ما كانت تعبّر عنه بقولها «إن الارادي لايماشي شخصيتي». وما كانت لتتوافر لي الجرأة في الذهاب إلا في اتجاه يقربني من السيدة «دو غيرمانت». ولم يكن ذلك بمستحيل. أفليس يعني بالفعل أنني أكثر قرباً منها مما كنت صباحاً في الشارع وأنا وحيد مُذلّ أشعر أن ليس تصلها في يوم فكرة واحدة من الأفكار التي أردت لو أبعث بها إليها، وفي هذه المراوحة في المكان نفسه التي تتم بها تزهاتي التي قد تدوم إلى مالا حدود دون أن تجديني نفعاً، — إن أنا ذهبت على بعد فراسخ عديدة من السيدة «دو غيرمانت»، ولكن إلى منزل شخص تعرفه وتعلم أنه متصعب في انتقاء معارفه وهو يقدرني حق قدري ويستطيع أن يحدثها عني وإن لم يحصل منها على ما أريد فأن يعلمها على الأقل بذلك، شخص أضفي بفضله على أحلام يقظتي المتوحدّة البكماء شكلاً جديداً منطوقاً ناشطاً يبدو لي تقدماً ومايقرب أن يكون انجازاً بمحض أن أنظر معه إن كان يستطيع أو لايستطيع أن يأخذ على عاتقه إبلاغها هذه الرسالة أو تلك؟ وما كانت تفعله في أثناء الحياة الغامضة التي تقضيها سليلة آل «غيرمانت»، ذاك الذي كان يؤلف موضوع تفكيري الحالم المستمر، أليس التدخل فيه، وإن على نحو غير مباشر وكأنما بعتلة، وذلك بتحريك شخص لايحظر عليه دخول فندق الدوقة وأمسياتها والحديث المستفيض معها، أليس ذلك اتصالاً أكثر بعداً ولكنه أوفر حقيقة من

(١) وبما أن شيطان التقليد والامتناع عن الظهور بمظهر من ولت أيامه يفسد الشكل الأقرب إلى الطبيعة والأوفر ثقة بذاته فقد كانت «فرانسواز» تقول إني «هبول» وتقتبس هذا التعبير من مفردات ابنتها(وردت الحاشية في متن النص).

تأملي لها كل صباح في الشارع؟

كان يبدو لي أنني لم أكن أهلاً للصداقة والاعجاب اللذين يكنهما لي «سان لو» وظلا لايثيران اهتمامي.

وفجأة أوليتهما أهمية ووددت لو يكشف عنهما للسيدة «دو غيرمانت» ولعلني كنت قادراً أن أطلب إليه القيام بالأمر. ذلك أن المرء يبغي حالما يعشق أن يكون بمقدورة إذاعة سر جميع الامتيازات الصغيرة المجهولة التي يملكها على المرأة التي يحبها مثلما يفعل في الحياة المحرومون والثقلاء. ويعذبنا أنها تجهلها ونحاول أن نعزي النفس بقولنا إنها ربما تضيف إلى الفكرة التيّ تحملها عنك، بما أن هذه الامتيازات لاتظهر قط للعيان، هذا الاحتمال لميزات لايعلمها المرء.

كان «سان لو» لايستطيع منذ فترة طويلة المجيء إلى باريس إما بسبب متطلبات مهنته، حسبما كان يقول، وإما بالأحرى بسبب صنوف غم كانت تسببها له عشيقته التي أوشك مرتين أن يقطع علاقاته بها. لقد سبق أن قال لي مراراً عن المتعة التي أوفرها له إن ذهبتُ لرؤيته في تلك الحامية التي بعث اسمها في نفسي، بعد غد اليوم الذي غادر فيه «بالبيك»، الكثير من السرور حينما قرأته على مغلف أول رسالة وصلتني من صديقي. كانت، وهي أقل بعداً عن «بالبيك» مما قد يوهمك المشهد الأرضي كلياً، كانت واحدة من تلك المدن الصغيرة الارستقراطية العسكرية المحاطة بحقول واسعة كثيراً ما يخفق فوقها أيام الصحو في البعيد ضرب من البخار الرنان المتقطع الذي يكشف – مثلما يرسم حاجز من شجر الحور بتعرجاته مجرى نهر لاتبصره – تبدلات مطارح كتيبة في مناورة حتى ليبلغ الأمر بجوّ الجادات والشوارع والساحات أن يكتسب نوعا من الاهتزاز الموسيقي والحربي وأن تتردد فيه الضجة الأكثر فظاظة المنبعثة من عربة نقل أو من حافلة نداءات بوق غامضة يرددها السكون إلى مالا نهاية في الاسماع الواهمة. لم تكن بعيدة عن باريس إلى الحد الذي لا استطيع معه إذ انزل من القطار أن أعود وألقى أمي وجدتي وأنام في سريري. وحالما أدركت ذلك هزتني رغبة مؤلمة وتجمع لديّ القليل جداً من الارادة كيما أقرر الامتناع عن الرجوع إلى باريس والبقاء في المدينة. ولكننا القليل جداً كذلك لامنع مستخدماً أن يحمل حقيبتي إلى عربة وكي لا أتخذ وأنا أسير وراءه النفس الخالية التي لمسافر يراقب حوائجه ولاتنتظره أية جدة، ولا أصعد إلى العربة بطلاقة من يبدو، بعدما كف عن التفكير بما يريد، وكأنه يعلم ما يريد، ولا لأزوّد الحوذي بعنوان حي الفرسان. كنت أحسب أن «سان لو» سوف يجيء لينام تلك الليلة في الفندق الذي سأحل فيه كي أجعل أول اتصال بهذه المدينة المجهولة أقل إقلاقا لي. ومضى رجل من الحرس في طلبه وانتظرته على باب المحلة أمام هذه السفينة التي تدوّي بريح تشرين والتي كان يخرج منها في كل لحظة، إذ كانت الساعة تبلغ السادسة مساء، يخرج رجال إلى الشارع أزواجا يترنحون كما لو ينزلون إلى اليابسة في مرفأ غريب توقفوا فيه مؤقتاً.

ووصل «سان لو» وهو يتحرك في كل جهة ونظارته تطير أمامه. ولم أكن أعربت عن اسمي وكنت أتلهف إلى الاستمتاع بدهشته وغبطته.

وصاح إذ أبصرني فجأة فأحمر حتى أذنيه: «آه ياللمشكلة، لقد حصلت على إجازتي الأسبوعية منذ

قليل ولن يمكنني الخروج قبل ثمانية أيام!»

وإذ شغلته فكرة أن يراني أقضي هذه الليلة الأولى وحدي، لأنه يعرف أفضل من أي إنسان ما يعتريني من صنوف ضيق في المساء وكثيراً ما لاحظها وهوّن منها في «بالبيك»، فقد كان يقطع شكاواه ليلتفت إليّ ويوجه إليّ بسمات صغيرة ونظرات رقيقة غير متساوية يأتي بعضها من عينه مباشرة وبعضها الآخر عبر نظارته، وكلها تشير إلى الانفعال الذي يهزه من جراء لقياي كما تشير إلى هذا الأمر الهام الذي ما كنت بعد ادركه ولكنه أضحى يهمني الآن، عنيت صداقتنا.

– «ياإلهي! وأين تزمع أن تنام؟ حقا إني لا أشير عليك بالفندق الذي تنزل فيه فهو إلى جانب المعرض حيث تزمع أن تبدأ الاحتفالات وسيكون ثمة جمهور ضخم. لا، الأفضل لك فندق «فلاندر» فهو قصر صغير قديم من القرن الثامن عشر بمفروشات قديمة، و «يلبس» إلى حدّ ما «لبوس النزل التاريخي القديم».

كان «سان لو» يستخدم في كل مناسبة عبارة «يلبس لبوس كذا» بدلاً من «يبدو» لان اللغة المحكية، شأن اللغة المكتوبة، تحس بين الحين والحين بحاجة هذه التغييرات في معاني الالفاظ وصنوف التأنق في التعبير. ومثلما يجهل الصحفيون في الغالب إلى أية مدرسة أدبية تعود «وجوه الأناقة» التي يلجؤون اليها، كذلك كانت مفردات «سان لو» وإلقاؤه نفسه مصنوعة من محاكاة ثلاث نزعات جمالية مختلفة لامعرفة له بأي منها ولكنه تشرّب صيغها الكلامية على نحو غير مباشر. واختتم كلامه قائلاً: «إن هذا الفندق على أية حال يوافق إلى حدّ ما فرط حساسيتك السمعية، فلن يكون لك جيران. إني أعترف أن تلك مزية ضئيلة، فبما أنه يمكن أن يصل مسافر آخر في الغد فليس من داع لاختيار هذا الفندق في سبيل نتائج غير ثابتة. لا، إنما أوصيك به بسبب المظهر. فالغرف قريبة إلى القلب إلى حدّ ما والأثاث كله قديم ومريح مما يوحي بالاطمئنان.» أما بالنسبة إليّ أنا الأقل ولعاً بالفن من «سان لو» فقد كانت المتعة التي يمكن أن يوليها منزل جميل سطحية وتكاد تكون معدومة ولا يمكن أن تهدئ تباشير قلقي، وهو شاق كالذي كان بي بالأمس في «كومبريه» حينما لاتجيء والدتي لتقول لي ليلة سعيدة أو ذاك الذي ألم بي يوم وصولي إلى «بالبيك» في الغرفة المفرطة الارتفاع التي تنبعث منها رائحة «طيب العرب». وأدرك «سان لو» ذلك من نظرتي الثابتة.

– «ولكنك لاتبالي البتة ياصغيري المسكين بهذا القصر الجميل، وأنك شديد الشحوب. وأحدثك أنا حديث البهيم عن أثاث لن يطاوعك الفؤاد حتى في النظر إليه. إني أعرف الغرفة التي قد يخصونك بها، وإني شخصياً أجدها بهيجة ولكني أتبين تماماً أن الأمر بالنسبة إليك وبالنظر إلى حساسيتك مختلف. لا تحسب أني لا أفهمك، أنا لا أحس الأحساس نفسه ولكني أضع نفسي مكانك.».

وابتسم ضابط صف كان يجرب حصاناً في الباحة وهو شديد الاهتمام بحمله على الوثب ولا يستجيب لتحيات الجنود بل يصب وابلاً من الشتائم على رأس الذين كانوا يقفون في دربه، ابتسم في تلك اللحظة لـ«سان لو» وحيّى إذ لاحظ آنذاك أن ثمة صديقا معه. ولكن حصانه انتصب بكامل قامته وهو يزبد. وارتمى «سان لو» على رأسه وأخذه بمقوده وأفلح في تهدئته وعاد إليّ وقال لي:

«أجل، أؤكد لك أنني أتبين ماتعانيه وأتألم من جرائه». وأضاف يقول، وهو يضع يده بحنان على

كتفي: «يتعسني أن أفكر أنني لو استطعت البقاء بالقرب منك فربما أمكنني بالتحدث إليك حتى الصباح أن أزيل عنك قليلاً من حزنك. وكنت أعرتك كتباً ولكنك لن تستطيع القراءة إن كنت على هذا النحو. ولن يتسنى من يحل محلي هنا، فقد أقدمت على الأمر مرتين على التوالي لان صغيرتي كانت قد جاءت.»

وكان يقطب حاجبيه بسبب انزعاجه وبسبب جهده في البحث، شأن الطبيب، في أي دواء يمكن أن يستعمل في دائي. وقال لجندي يعبر طريقه:

«أسرع وأشعل نارا في غرفتي. هيا أسرعَ من ذلك، استعجل».

ثم يلتفت إليّ من جديد وكانت النظارة والنظرة القصيرة تشيران إلى صداقتنا العظيمة.

«لا، فأنت ههنا في الحي الذي كثيراً ما فكرت فيه بك: لا أستطيع أن أصدق عيني وأحسبني أحلم. والصحة، في نهاية المطاف، هل هي بالأحرى في تحسن؟ سوف تروي لي عن كل ذلك بعد قليل. سوف نصعد إلى غرفتي ويحسن ألا نمكث كثيراً في الباحة فالهواء يهب قوياً هناك، أما أنا فكدت لا أحس به من بعد، ولكنما أخاف بالنسبة إليك، أنت الذي لم يتعوده، أن يصيبك البرد. والشغل هل باشرته؟ لا؟ ياما أغربك! لو اتفقت لي مواهبك ظننتني أكتب من الصباح إلى المساء. إنك تجد تسلية أكبر في ألا تفعل شيئا. وأية مصيبة أن يكون الضحال أمثالي من هم أبدا على استعداد لعمل ولا يريد من يستطيعون! ولكني لم أسالك حتى عن أخبار السيدة جدتك. إن كتابها عن «برودون» لايفارقني.»

وطلع من أحد الأدراج ضابط مديد القامة جميل مهيب يمشي بخطى وئيدة جليلة، وحياه «سان لو» وجمّد تقلقل جسمه المستمر ما يكفي ليرفع يده إلى جانب قبعته بحركة بالغة السرعة وتركها تسقط حال انتهاء التحية بحركة مفاجئة وهويبدل جميع مواقع الكتف والساق والنظارة حتى بدت تلك اللحظة أقل جمودا منها توترا عنيفا تتعادل فيه الحركات المبالغ فيها التي جرت منذ قليل وتلك تزمع أن تبدأ. أما الضابط فقد رفع هو الآخر يده إلى قبعته العسكرية ولكن دونما استعجال ودون أن يقترب فبدا هادئا لطيفا رزينا امبراطوري المظهر يمثل باختصار القول نقيض «سان لو» تماما. وهمس «سان لو» في أذني قائلا:

– «يجب أن أقول كلمة للنقيب، فكن لطيفاً وامضِ فانتظرني في غرفتي، إنها الثانية إلى اليمين في الطابق الثالث وسألحق بك بعد لحظة.»

وانطلق مهرولاً تسبقه نظارته التي كانت تطير في كل اتجاه ومشى رأسا إلى النقيب الرزين الوئيد الحركة الذي كان يُقاد إليه حصانه في تلك اللحظة والذي كان يصدر قبل استعداده لامتطاء صهوته بعض الأوامر بنبل في الحركات مدروس كأنما في بعض اللوحات التاريخية وكأنما هو ذاهب ينشد معركة زمن الامبراطورية الأولى في حين كان عائداً إلى منزله فحسب في البيت الذي استأجره للفترة التي سيمكث فيها في «دونسيير» والذي كان يقع على ساحة سميت، وكأنما بفعل سخرية سابقة لأوانها إزاء هذا النابليوني النزعة، ساحة الجمهور. وتقدمت في الدرج وأنا أكاد أتزحلق لدى كل خطوة على تلك الدرجات المزروعة بالمسامير وأبصر

غرفاً عارية الجدران بصف أسرتها المزدوج وأمتعتها. ودلوني على غرفة «سان لو» فظللت فترة أمام الباب المغلق إذ كنت أسمع من يتحرك، كانوا يحركون شيئاً ويدعون آخر يسقط. كنت أحس أن الغرفة غير خالية وأن ثمة أحداً. ولم يكن ثمة سوى النار المشتعلة تحترق. لم تكن تستطيع الهدوء وكانت تبدل مواضع الحطبات تبديلاً أبعد ما يكون عن البراعة. فدخلت وتركت واحدة منها تتهاوى وجعلت أخرى يتعالى دخانها. وحتى حينما لاتبدي حراكاً، فقد كانت تُسمعك في كل حين، شأن السوقة من الناس، أصواتاً كانت تظهر أمامي، بما انني أشاهد اللهب يرتفع، على أنها أصوات تطلقها النار، إلا أني لو كنت في الجانب الآخر من الجدار لخلتها تنطلق من شخص ينفّ ويمشي. وأخيرا جلست في الغرفة. كانت هنالك ستائر من قماش «الليبرتي» وأقمشة ألمانية من القرن الثامن عشر تحميها من الرائحة التي تنبعث من باقي البناء غليظة تفهة متفسخة كرائحة الخبز الأسمر. ولعلّني كنت هنا، في هذه الغرفة، تناولت عشائي ونمت بسعادة وهدوء. كان «سان لو» يبدو وكأنه حاضر تقريباً فيها بفضل كتب العمل التي كانت على طاولته إلى جانب صور شمسية عرفت من بينها صورتي وصورة السيدة «دوغيرمانت» وذلك بفضل النار التي تعودت، في نهاية المطاف، الموقد فأخذت، شأن حيوان يرقد في انتظار حار وصامت ووفيّ، تدع بين الحين والحين فحسب لجمرة أن تسقط فتنفرط أو تلعق جانب الموقد بلهبها. كنت أسمع تكتكة ساعة «سان لو»، ولابد أنها لم تكن بعيدة عني. كانت تلك التكتكة تبدِّل في كل لحظة موقعها لأنني لم أكن أبصر الساعة. كان يبدو لي أنها تجيء من خلفي، عن يميني، عن يساري وتتلاشى أحياناً كأنما هي بعيدة جداً. وفجأة اكتشفت الساعة على الطاولة. حينئذ سمعت التكتكة في مكان ثابت لم تتزحزح عنه بعد ذاك. كنت أحسب أني أسمعها في ذلك المكان، وما كنت أسمعها هناك بل آراها إذ ليس للأصوات مكان. بيد أننا نقرنها على الأقل بحركات وهي بذلك تفيدنا في اتقائها وفي أنها تبدو وكأنها تجعلها ضرورية وطبيعية. ويتفق أحياناً بالطبع ألا يسمع من بعد مريض سدت أذناه سداً محكماً صوت نار شبيهة بالتي كانت تردد أصواتها في هذه اللحظة في موقد «سان لو» فيما تعمل على صنع جمرات ورماد تسمح لها فيما بعد بالسقوط في سلتها، وأن لا يسمع كذلك مرور الحافلات التي كانت تنطلق موسيقاها، على فترات منتظمة، في ساحة «دونسيير» الكبرى. وليَقرأ المريض حينذاك فإذا الصفحات تقلب دونما ضجة وكأنما يقلبها إله. وتخف الضجة المتناقلة المنبعثة من حمّام يتم اعداده وتلطف وتبتعد كزقزقة سماوية. إن تراجع الضجة وخفتها تجردها من كل قدرة عدائية إزاءنا. بعدما جئنا منذ قليل من جراء ضربات مطرقة كانت تبدو وكأنها تزلزل السقف على رأسنا يروقنا الآن أن نجمعها خفيفة رقيقة بعيدة كهمس الأوراق تلهو مع الأنسام على الطريق. إنّنا نحرز نجاحات بورق لعب لا نسمعه إلى حد أننا نظن أننا لم نحركه وأنه يتحرك من تلقاء نفسه واستبق رغبتنا في اللعب معه فشرع يلعب معنا. ويمكن بهذا الصدد أن نتساءل إن كان لايجدر بنا بشأن «الحب» (نضيف إلى «الحب» أيضا حب الحياة وحب المجد بما أن ثمة فيما يبدو أناسا يعرفون هاتين العاطفتين الأخيرتين) أن نفعل ما يفعله هؤلاء الذين يسدون آذانهم دون الضجة عوضاً عن أن يلتمسوا توقفها، وأن نصرف انتباهنا وحالتنا الدفاعية، شأنهم، إلى داخل ذاتنا وأن نعطيهما لا الكائن الخارجي الذي نحبه بل قدرتنا على التألم من جرائه وذلك بمثابة حاجة يخضعانها.

وإما عدنا إلى الصوت، فلنزد من سماكة الكرات التي تسد القناة السمعية فاذا هي تضطر الفتاة التي كانت تعزف فوق رأسنا لحناً صاخباً للتخفيف التام. ولنطْلِ واحدة من تلك الكرات بمادة دهنية وفي الحال يخضع البيت كله لاستبدادها وتمتد قوانينها نفسها إلى الخارج، فالتخفيف التام ليس كافياً من بعد بل تقوم

الكرة على الفور بإغلاق المضارب ويختتم درس الموسيقى على نحو مفاجئ، والسيد الذي كان يسير فوق رأسنا يوقف طوافه دفعة واحدة، وينقطع سير العربات والحافلات كما لو يتم انتظار رئيس دولة. وإن تقليص الأصوات ليبعث أحياناً في النوم الاضطراب عوضاً عن أن يحميه. فالضجيج المتواصل كان لايزال البارحة يحمل إلينا النوم في النهاية، شأن كتاب ممل، إذ يصف لنا على نحو لا ينقطع التحركات في الشارع وفي البيت. أما اليوم فتفلح صدمة أشد من الأخريات في أن تبلغ الأسماع، خفيفة كما الزفرة، لايربطها رباط بأي صوت آخر، زاخرة بالأسرار، على صفحة الصمت الممتد فوق نومنا، ويبدو الاستفسار الذي تبعثه كافياً لإيقاظنا. ولننزع على العكس، مدى لحظة، قطع القطن المراكمة فوق غشاء طبلة المريض. يطلع فجأة ضياء الصوت، بل شمسه الساطعة، تعمي الابصار وتنبعث من جديد في الكون. ويعود جمهور الضجيج المنفي بأقصى السرعة، ونشهد انبعاث الأصوات من الموت كما لو رتلها ملائكة موسيقيون. وتمتلئ الشوارع الخالية مدى لحظة بأجنحة الحافلات المنشدة، أجنحتها السريعة المتعاقبة. وها أن المريض قد أبدع في الغرفة نفسها لا النار، شأن «بروميثيوس»، بل صوت النار. وإن نحن زدنا من قطع القطن، إن نحن أطلقناها فكأنما نحرك بالتناوب هذه وتلك من الدوّاستين اللتين تمت إضافتهما إلى دوي العالم الخارجي.

بيد أن ثمة أيضاً إزالات للضجة ليست مؤقتة. فالذي أضحى كليّ الصمم لايستطيع حتى تسخين زجاجة حليب على مقربة منه دون أن يضطر أن يرقب بعينيه على الغطاء المفتوح الوهج الأبيض الذي من أقاصي الشمال والشبيه بوهج عاصفة ثلجية وهو العلامة المنبئة التي يبدو من التعقل الانصياع لها بسحب المآخذ الكهربائية مثلما الرب يوقف الأمواج. ذلك أن الشكل البيضوي الصاعد المنقبض للحليب الذي يغلي إنما يتم مذ ذاك فيضانه في بضعة من التموجات المائلة وينفخ بضعة أشرعة نصف منقلبة سبق أن غضنتها القشدة، ويدوّرها ويقذف منها في العاصفة شراعاً صدفيّاً، وإن تمّ تفادي العاصفة الكهربائية في الوقت المناسب، فإنما يجعلها انقطاع التيارات تدور جميعها على نفسها ثم يقذف بها إلى التهلكة وقد انقلبت تويجات «مانيوليا». ولو لم يتخذ المريض الاحتياطات اللازمة بالسرعة الكافية لاضطر، إذ تكاد كتبه وساعته الغارقة لاتبرز بعد قليل على صفحة بحر أبيض، بعد هذا التيار المعاكس من الحليب، أن يستغيث بخادمته العجوز التي سوف تقول له، وإن كان رجلا سياسياً شهيراً أو كاتباً كبيراً، إنه ليس أكثر تعقلاً من ابن خمس سنوات. وأحيانا أخرى يطلع شخص لم يكن هنا منذ قليل في الغرفة المسحورة أمام الباب الموصد، إنّه زائر لم يتم سماع دخوله ويقوم بإشارات فحسب كما هي الحال في واحد من مسارح العرائس الصغيرة المريحة إلى حد بعيد بالنسبة إلى أولئك الذين كرهوا لغة الكلام. وبما أن فقدان أحد الحواس، بالنسبة إلى هذا الأصم الكلي، إنما يضيف إلى العالم مقداراً من الجمال يساوي ما يفعله اكتسابه، فهو يتنزه الآن مستمتعاً على أرض قاربت أن تكون من جنات عدن ولم يتم بعد فيها خلق الصوت. إن أكثر الشلالات ارتفاعاً تبسط لعينيه وحدهما صفحتها البلورية وهي أشد هدوءا من البحر الساكن وفي صفاء شلالات الجنة. وبما أن الضجة حركة كانت تؤلف بالنسبة إليه قبل صممه الشكل المحسوس الذي يرتديه سبب حركة ما فإن الحاجات التي يتم تحريكها دون ضجة تبدو وكأنما تم لها ذلك دون سبب، وهي تظهر بعدما خلت من أية ميزة صوتية نشاطاً تلقائياً وتبدو وكأنما تدب الحياة فيها ؛ إنها تتحرك وتسكن وتشتعل من تلقاء ذاتها. ومن تلقاء ذاتها تطير شأن وحوش ما قبل التاريخ الخرافية المجنحة. والخدمة التي كانت تبدي، قبل أن تكتمل العاهة، في منزل الأصم المنعزل الذي لاجيران له، حذراً أكبر منذ ذلك الحين وتتم في صمت، إنما تتم الآن بشيء من الخلسة على

يد بُكم مثلما يتفق ذلك لملك من عالم الغرائب. وكما هي الحال على خشبة المسرح أيضاً لايعدو البناء الذي يبصره الأصم من نافذته – أثكنة كان أم كنيسة أم دار مختار – كونه محض زينة. فإن اتفق أن ينهار ذات يوم فيمكن أن يبعث سحابة من الغبار ويخلف أنقاضاً مرئية، ولكنه يتهاوى، وهو أقل كثافة حتى من قصر مسرحي لايملك مع ذلك رقته، يتهاوى في العالم المسحور دون أن يلوث تهاوي حجارته المنحوتة الثقيلة نقاء السكون بتفاهة أية ضجة.

فأما السكون الذي يفوقه نسبية بكثير والذي كان يسود الغرفة العسكرية الصغيرة التي كنت فيها منذ حين فقد تحطم. لقد انفتح الباب ودخل «سان لو» مسرعاً وقد ترك نظارته تهوي. وقلت له:

– «آه! يا «روبير» كم يشعر المرء بالراحة لديك، وما أجمل أن يُسمح بالعشاء والنوم ههنا!»

وأية راحة لايشوبها غم كنت تذوقتها بالفعل، لو لم يكن الأمر ممنوعاً، يحميني هذا الجو الذي قوامه الاطمئنان واليقظة والمرح تغذيها جميعها ألف مشيئة منظمة لاقلق فيها وألف فكر غير مبال في هذه الجماعة الكبيرة التي هي الثكنة حيث اتخذ الزمان شكل العمل فحلت محل ناقوس الساعات الحزين الجوقة المفرحة نفسها المؤلفة من تلك النداءات التي كانت ذكراها الداوية معلقة باستمرار فوق رصيف المدينة، مفتتة مطحونة – هذا الصوت المتيقن من بلوغ الأسماع والموسيقى لأنه لم يكن أمر السلطة للطاعة فحسب، بل أمر الحكمة للسعادة!

وقال لي «سان لو» وهو يضحك: «آه! لعلك تفضل النوم ههنا بالقرب مني على الذهاب وحدك إلى الفندق».

فقلت له: «ويحك يا «روبير»، إنك قاسي القلب في حملك الأمر محمل السخرية بما أنك تعلم أنه مستحيل وأنني سوف أقاسي الكثير هناك.»

فقال: «يالك! إنك ترضي كبريائي فقد خطرت لي هذه الفكرة تلقائياً، فكرة أنك ربما فضلت البقاء ههنا هذا المساء، وذلك بالضبط ما ذهبت أطلبه من النقيب.»

وصحت قائلاً: «وهل أذن» ؟

– «دون أية صعوبة»

– «آه! إني أعبده» !

– «لا، تلك مغالاة». وأضاف قوله، فيما كنت أستدير لأخفي دموعي: «والآن دعني أنادي حاجبي كي يهتم بأمر عشائنا».

ودخل عدة مرات هذا أو ذاك من رفاق «سان لو» فكان يلقي بهم خارجاً.

– هيا، ارحل من هنا».

وكنت أطلب إليه أن يسمح لهم بالبقاء.

– لا، لا! فقد يرهقونك: فإنهم قوم غير مثقفين على الاطلاق ولا يستطيعون التحدث إلاّ عن سباقات الخيول، إن لم يتحدثوا عن حسِّ الدواب. ثم انهم حتى فيما يخصني قد يفسدون عليّ هذه اللحظات الثمينة جدا التي شد ما تقت إليها. ولاحظ أني إن أتحدث عن ضحالة رفاقي فليس يعني أن كل عسكرياً يفتقر إلى الفكر، وما أبعد أن يكون ذلك. إن لدينا رائداً هو رجل رائع. فقد ألقى دروساً عولج فيها التاريخ العسكري بمثابة برهان، بمثابة نوع من الجبر، وإن ذلك ليبلغ حتى على الصعيد الجمالي روعة استقرائية تارة وطوراً استنتاجية ولن تظل بارد الشعور إزاءها.

– «أفليس النقيب الذي سمح لي بالبقاء هنا؟»

– «لا، والحمد لله، لان الرجل الذي «تعبده» لامر زهيد إنما هو أكبر معتوه حملته الأرض في يوم. إنه لاعيب فيه للاهتمام بالاطعام وبلباس رجاله، إذ يقضي ساعات برفقة الرقيب الأول ورئيس الخياطين، تلك عقليته. وهو شديد الازدراء على أية حال، شأن جميع الناس، للرائد الرائع الذي أحدثك عنه. وليس من يتردد على ذاك الأخير لأنه ماسوني ولا يبادر إلى كرسي الاعتراف. ولعل أمير «بورودينو» لا يستقبل البتة لديه هذا البورجوازي الصغير. بيد أنها وقاحة لاتدانيها وقاحة من رجل كان أبو جده مزارعاً صغيراً ولعله ظل على الأرجح مزارعاً لولا حروب نابليون. وإنه ليتبين قليلاً على أية حال الوضع الذي «لاهو خل ولاخردل»، وضعه في المجتمع. ويكاد هذا الأمير المزعوم لايذهب إلى نادي سباق الخيل لشدة ما يشعر فيه بالضيق»، يضيف «روبير» الذي كان يجمع، وقد قادته روح المحاكاة إلى تبني نظريات أسياده الاجتماعية ومزاعم والديه المجتمعية، يجمع دون أن ينتبه للأمر إلى حب الديمقراطية ازدراء نبلاء الامبراطورية.

كنت انظر إلى صورة عمته وزادت الفكرة التي قوامها أن «سان لو» ربما استطاع، إذ يملك هذه الصورة، أن يعطيني إياها، من محبتي له وتمنياتي أن أردّ له ألفا من الخدمات التي كانت تبدو لي من زهيد الأمور في مقابلها. ذلك أن تلك الصورة الضوئية إنما كانت بمثابة لقاء آخر يضاف إلى اللقاءات التي سبق أن تمت لي بالسيدة «دو غيرمانت»، بل وأفضل من ذلك لقاء مطول كما لو توقفت بالقرب مني، بفعل تقدم مفاجئ في علاقاتنا، وعلى رأسها قبعة حدائق، وأتاحت لي لأول مرة أن أنظر غير معجل إلى سمين وجنتها وعطفة عنقها وزاوية حاجبيها (هذه التي حجبتها عني حتى ذاك سرعة مرورها ودوار انطباعاتي ولا تماسك الذكرى لدي) ؛ وكان تأملها بمثابة اكتشاف لذيذ ومنة بالنسبة إليّ بقدر ما هو تأمل الصدر والذراعين لدى امرأة ما رأيتها قط إلا في فسطان عالي القبة. وهذه الخطوط التي كان يبدو لي النظر إليها محظوراً تقريباً سوف يمكنني دراستها هنا وكأنما في بحث للهندسة الوحيدة التي تحمل قيمة في نظري. وتبينت فيما بعد وأنا أنظر إلى «روبير» أنه يبدو هو الآخر إلى حد ما وكأنه صورة لعمته، وفي جو من الاسرار يقارب أن يحمل إليّ الانفعال نفسه بما أن وجهيهما يشتركان في أصل واحد وإن لم ينتج وجهها هي وجهه على نحو مباشر. إن ملامح دوقة «غيرمانت» التي كانت مثبتة في الصورة التي أحملها عن «كومبريه»، الأنف الذي كمنقار الصقر والعينين الثاقبتين. كانت تبدو وكأنها أفادت كذلك– في نسخة أخرى مماثلة ودقيقة من بشرة مفرطة الرقة – في تحديد صورة «روبير» التي تطابق تقريباً صورة عمته. كنت أنظر نظرة حاسدة إلى هذه الملامح المميزة لآل «غير مانت»، لهذه السلالة التي ظلت متميزة إلى حد بعيد وسط العالم الذي لا تضيع فيه والذي

تظل منفردة فيه في أمجادها الرائعة التي من عالم الطير إذ تبدو وكأنها انحدرت إبان عصور الميثولوجيه من اقتران الهة بطائر.

لقد اهتزت مشاعر «روبير» من جراء تأثري دون أن يعرف أسبابه. وكان ينضاف إلى هذا التأثر من جهة أخرى الارتياح الذي يسببه دفء النار وخمرة «شامبانيا» التي كانت ترصع في آن معا جبيني بقطرات العرق وعيني بالدموع. كانت تسقي فراخ حجال وكنت آكلها بدهشة غير المطلع أيا كان حينما يلقى في عيشة لم يكن يعرفها ما ظن أنه يتنافي وإياها (كدهشة الملحد يصيب عشاء لذيذاً في بيت كاهن رعية). وفي صباح الغد بادرت حينما استيقظت إلى القاء نظرة من نافذة «سان لو» التي كانت بموقعها الشديد الارتفاع تشرف على كامل المنطقة، نظرة فضول للتعرف بالسهل جاري الذي لم أتمكن من مشاهدته بالأمس لانني وصلت في ساعة متأخرة جدا آن كان يغفي في الظلام. ولكني لم أره، مهما بكر في استيقاظه، لم أره وأنا أفتح النافذة إلا مثلما يرى من نافذة قصر الغدير، إلا وهو يدثر بعد ثوبه الصباحي الناعم الأبيض الذي من ضباب ويكاد لايتيح لي أن أميز شيئا. ولكني كنت أعلم أنه سيكون قد خلعه قبل أن ينهي الجنود الذين يهتمون بالخيل في الباحة عملية حسها. وما كنت أستطيع أن أبصر بانتظار ذلك سوى تلة قليلة الخصب ترفع بجانب الحي تماما ظهرها الهزيل الخشن الذي خلع الظلام عنه ؛ ولا كنت أرفع ناظري من خلال الستائر التي يخرّمها الصقيع عن هذه الغريبة التي كانت تنظر إليّ لأول مرة. ولكن حينما تعودت المجيء إلى الحي فقد أفضى الشعور بأن التلة كانت هناك وأكثر حقيقة بالتالي، حتى حين لا أراها، من فندق «بالبيك» ومن بيتنا في باريس اللذين كنت أفكر فيهما وكأنما في غياب، كأنما في موتى، أي دون أن أعتقد بوجودهما من بعد، أفضى إلى أن ارتسم شكلها المنعكس باستمرار، حتى دون أن أنتبه للأمر، على أدنى الانطباعات التي وقعت لي في «دونسيير»، ولئن بدأت بهذا الصباح فعلى الانطباع الطيب بالدفء خلفته في الشوكولاته التي أعدها حاجب «سان لو» في هذه الغرفة المريحة التي وكأنها مركز بصري لمشاهدة التلة (إذ أن فكرة القيام بغير النظر إليها كفكرة التنزه عليها مستحيلة من جراء هذا الضباب نفسه الذي يغطيها). وأقبل هذا الضباب الذي يبلل شكل التلة ويقترن بطعم الشوكولاته وبكامل أرضية أفكاري آنذاك. أقبل دون أن أمحضه أقل فكرة يبلل كل أفكاري في ذلك الحين كما سبق أن ظل ذاك الذهب الخالص الذي لايفسد يقترن بانطباعاتي عن «بالبيك» أوكما كان يضفي وجود صخور رملية سوداء بجوار الأدراج الخارجية بعض الرمدة على انطباعاتي عن «كومبريه». على أنه لم يستمر حتى وقت متأخر في الصباح فقد بدأت الشمس فاستخدمت ضده دون جدوى بعض سهام زينته بشرائط ماسشية ثم أحرزت الغلبة عليه. واستطاعت التلة أن تعرض أردافها الشهباء لاشعة الشمس التي كانت تضفي على حمرة أوراق الاشجار وعلى حمرة اللصائق الانتخابية الموضوعة على الجدران وزرقتها حماسة تهزني بدوري وتجعلني أذرع وأنا أغني الطريق الذي أتمالك نفسي فيه كي لا أقفز من الفرح.

بيد أنه انبغى لي منذ اليوم الثاني أن أمضي لأنام في الفندق. وكنت أعلم سلفاً أنني أزمع حتماً أن ألقى فيه الكآبة. كانت بمثابة أريج خانق تنشة بالنسبة إليّ منذ مولدي كل غرفة جديدة وأعني كل غرفة: ففي تلك التي أسكنها عادة لم أكن حاضراً إذ كان فكري يمكث في مكان آخر ويبعث مكانه بالعادة فحسب. غير أنه لم يكن بمقدوري تكليف هذه الخادمة الهينة الإحساس الاهتمام بأموري في بلد جديد كنت أسبقها فيه وأصل إليه وحدي وينبغي لي فيه أن أقيم الاتصال بين الأشياء وهذه «الأنا» التي ما كنت ألقاها إلا قبل

سنوات خلت ولكنها واحدة لاتتبدل على الدوام ولم تكبر منذ «كومبريه»، من قدومي الأول إلى «بالبيك» أبكي، دون أن يمكن مواساتي، على زاوية حقيبة مفتوحة.

بيد أني كنت مخطئاً، فلم يتسع لي الوقت للكآبة إذ لم أظل وحدي لحظة واحدة. ذلك أنه بقي من القصر القديم فائض من البذخ لا يستفاد منه في فندق حديث وقد دب فيه في بطالته بعدما جرّد من أي تخصيص عملي نوع من الحياة: فممرات تعود أدراجها ونلتقي في كل لحظة بغدوها ورواحها اللذين لاهدف لهما، وردهات طويلة كمماش ومزخرفة على غرار صالات وتبدو وكأنها تسكن هناك أكثر من أنها تؤلف جزءا من المسكن، ولم يسع أحدا أن يُدخلها إلى أية شقة ولكنها كانت تطوف حول شقتي وأقبلت في الحال تعرض عليّ صحبتها – وهي من هؤلاء الجيران البطالين ولكنهم غير صاخبين، ومن أطياف الماضي الثانوية التي أذنَ لها بالبقاء دون صخب على باب الحجرات المؤجرة والتي كانت تبدي لي في كل مرة ألقاها فيها على دربي تودّدا صامتا. وقصارى القول أن فكرة المسكن، أي ما يحتوي فحسب حياتنا الراهنة ويقينا البرد فقط وعيون الغير، لم تكن تنطبق البته على هذا المسكن وهو مجموعة من الحجرات حقيقية حقيقة جمهرة من الأشخاص تحيا بالحقيقة حياة صمت ولكنما يضطر المرء أن يلاقيها ويتجنبها ويرحب بها ساعة يعود. ويحاول الامتناع عن الازعاج ولا يستطيع أن ينظر بغيرما إجلال إلى الصالة الكبيرة التي تعودت منذ القرن الثامن عشر أن تمتد ما بين دعائمها التي من ذهب عتيق وتحت سحب سقفها المرسوم. وكان يأخذك فضول أكثر الفة إزاء الحجرات الصغيرة التي تجري من حولها دونما اهتمام البتة بالتناظر، عديدة لاتحصى ذاهلة تهرب في فوضى حتى الحديقة حيث تنحدر بيسر كبير بثلاث درجات مثلمة.

وان شئت الخروج أو الدخول دون أن أسفل المصعد ودون أن يشاهدني أحد على الدرج الكبير كان ثمة درج أصغر خاص لم يعد يصلح للاستخدام، كان يقدم لي درجاته التي رصفتَ بمهارة كبيرة الواحدة بملاصقة الأخرى حتى ليبدو أن في تدرجها تناسباً تاماً من نوع ذاك الذي في الألوان والعطور والطعوم والتي غالباً ما تحرك فينا شهوات خاصة. على أن الشهوة الكامنة في الصعود والنزول كان لابد لي أن أجيء إلى هنا لاعرفها، كحالي بالأمس في محطة جبلية لأعلم أن فعل التنفس الذي لا نلاحظه عادة يمكن أن يكون لذة مستمرة. وتم منحي هذا الإعفاء من الجهود الذي تهبنا إياه وحدها الأشياء التي يطول استخدامنا لها وذلك حينما وضعت قدمي أول مرة على تلك الدرجات المألوفة قبل أن تُعرف كما لو امتلكت العذوبة لعادات لم أكتسبها بعد ولايمكن حتى إلا أن تضعف عندما تضحي عاداتي أنا، تلك العذوبة التي ربما وضعها بل دمجها فيها أساتذة الماضي الذين كانت تستقبلهم كل يوم. وفتحت غرفة فانغلق الباب المزدوج من ورائي وأدخلت ثنيات الستائر سكوناً أحسست لنفسي عليه ضرباً من الملكية المسكرة. وكان موقد من المرمر مزين بقطع من النحاس المنقوش يوقد لي ناراً إذ من الخطأ الظن بأنه لا يفلح إلاّ في تمثيل فن «حقبة المديرين»، وساعدني مقعد صغير قصير الأرجل على الاستدفاء استدفاء مريحاً كما لو كنت جالساً على السجادة. كانت الجدران تحتضن الغرفة فتفصلها عن بقية العالم، ثم تتباعد، كيما تدخل فيها، كيما تحتبس فيها ما يضفي عليها التمام، تباعد أمام المكتبة وتخلي جانبا تغور السرير، وعلى جانبيه أعمِدة تحمل برشاقة سقف المخدع المعلّى. وكانت الغرفة تستطيل في اتجاه العمق بفعل حجرتين بمثل عرضها تعلّق الأخيرة على جدارها لتعطر الخشوع

الذي نبحث عنه فيها مسبحة شهية من حبات قزحية. والأبواب إما تركتُها مفتوحة بينما كنت اختلي في هذا المعتزل الأخير، ما كانت الأبواب تكتفي بتثليثه دون أن يكف عن كونه متناسقاً ولاتسمح لنظراتي بتذوق متعة الاتساع بعد لذة التركيز فحسب بل تضيف كذلك إلى متعة عزلتي، التي تظل لاتشوبها شائبة وتكف عن كونها محتجزة، الشعور بالحرية. كانت هذه الخلوة تطل على باحة، على متوحدة جميلة سعدت بأن تكون جارتي حينما اكتشفتها صباح الغد سجينة بين أسوارها العالية التي لاتمدها بالنور أية نافذة ولا تملك سوى شجرتين مصفرتين كانتا تكفيان لإضفاء عذوبة بنفسجية على السماء الصافية.

وأردت قبل النوم أن أخرج من غرفتي لاستكشاف كامل مملكتي الساحرة وسرت وأنا أتبع رواقاً طويلاً كرّمني على التوالي بكل ما يسعه أن يقدمه لي إن لم أشعر بالنعاس، فمقعد يقبع في زاوية ومعزف قيثاري، وفوق طاولة جدارية وعاء من الخزف الأزرق مليء بالنباتات التزيينية، وفي إطار قديم طيف سيدة من الماضي ذات شعور معفرة بالمساحيق تخالطها أزاهير زرق وتمسك بيدها طاقة من زهر القرنفل. ولما وصلت آخر الرواق قال لي جداره المُصمَت الذي خلا من أي باب، قال بسذاجة: «الآن ينبغي أن تعود أدراجك ولكن أنت في بيتك، كما ترى»، فيما تضيف السجادة الوثيرة كي لاتؤخذ بالقصور أنني أستطيع إن لم أنم هذه الليلة أن أجيء حافي القدمين، وتؤكد لي النوافذ التي لامصاريع لها والتي كانت تتأمل السهول أنَها سوف تقضي ليلة بيضاء وأنني إن جئت في الساعة التي أريدها فليس لي أن أخشى إيقاظ أحد. على أني فاجأت ستارة حجرة صغيرة استوقفها الجدار ولم تستطع الهرب فاختبأت هنا خجلى تنظر إليّ بهلع من كوّتها التي انقلبت إلى زرقة من جراء ضياء القمر. وآويت إلى فراشي ولكن وجود اللحاف والاعمدة الصغيرة والموقد الصغير حال، إذ وضع اهتمامي في درجة لم يكن فيها في باريس، دون أن أصرف نفسي إلى رتابة أحلامي المعتادة. ولما كانت حالة الاهتمام الخاصة هذه هي التي تغلف النوم وتؤثر فيه وتبدله وتضعه على سوية واحدة مع هذه السلسلة أو تلك من ذكرياتنا فإن الصور التي ملأت أحلامي في هذه الليلة الأولى قد استمدت من ذاكرة مختلفة اختلافاً كلياً عن تلك التي كان يستعين نومي بها. ولو أغراني أثناء النوم أن أسمح لنفسي بالانجذاب باتجاه ذاكرتي المألوفة فان السرير الذي لم أتعوده والاهتمام الرقيق الذي اضطرٌ أن أصرفه إلى أوضاع جسمي حين كنت أتقلب كانا كافيين لتقويم مجرى أحلامي الجديد أو للحفاظ عليه. فالنوم أمره كأمر إدراك العالم الخارجي ؛ يكفيك تبدّل في عاداتنا كي ينقلب شاعرياً، يكفي أن نكون أثناء خلع ملابسنا قد أغفينا على سريرنا دون أن نبغي ذلك حتى تتغير أبعاد النوم ويتم الإحساس بجماله. ونستفيق ونرى أنها الساعة الرابعة في ساعتنا ؛ إنها محض الرابعة صباحاً ولكننا نظن أن النهار كله انقضى لشدة ما بدت لنا هذه الاغفاءة التي امتدت بضع دقائق والتي لم نسع إليها وكأنها انحدرت من السماء بموجب حق إلهي ضخمة ملآنة مثل كرة امبراطور ذهبية. وإذ أزعجني في الصباح أن أحسب أن جدي كان جاهزاً وأنهم ينتظرونني للذهاب من جهة «ميزيكليز» فقد أيقظتني موسيقى كتيبة ظلت تمر كل يوم تحت نافذتي. ولكن النوم الواقع بيني وبينها أبدى مرتين أو ثلاث مرات – وأقول ذلك لأن المرء لايستطيع وصف حياة الناس وصفاً صحيحاً إن لم يغمسها في النوم الذي يغوص فيه والذي يلتف من حولها ليلة إثر ليلة مثلما الجزيرة يحيط بها البحر – من المقاومة ما يكفي ليحتمل صدمة الموسيقى ولم أسمع شيئاً. وفي الأيام الأخرى تراجع لحظة ولكن وعيي، ولا يزال يغطيه مخمل النوم كتلك

الأعضاء التي سبق تخديرها والتي لاتحس بكيّ، ظلّ بادئ الأمر خارج الإحساس، إلا في أقصى نهايته وبمثابة حرق طفيف، لكن وعيي لم تمسه إلا مساً رقيقاً نغمات الناي الحادة التي كانت تداعبه بزقزقة صباحية مبهمة وندية. وبعد هذا الانقطاع الطفيف الذي استحال السكون فيه موسيقى كان يعود فيغشاني مع النوم حتى قبل أن يكون الخيالة قد أنهوا عبورهم فيختلس مني الحزم الأخيرة المتفتحة للباقة المتدفقة الرنانة. وكانت منطقة وعيي التي لامستها تلك السوق المتدفقة لمساً رقيقاً ضيقة ويلفها النوم إلى الحد الذي لم أكن متيقناً معه فيما بعد، حينما سألني «سان لو» إن كمنت سمعت موسيقى، إن لم يكن صوت الموسيقى وهمياً قدر ذاك الذي كنت اسمعه يرتفع في النهار على إثر أقل ضجة فوق بلاط المدينة. فلعلني ما سمعته إلا في حلم وخشية أن أستيقظ أو لا أستيقظ على العكس فلا أشاهد العرض. ذلك أني حينما كنت أظل نائماً في الفترة التي ظننت فيها على العكس أن الضجة لابد أيقظتني، كثيراً ما كنت أعتقد ذلك على مدى ساعة فيما أوالي النوم وأمثل لنفسي بظلال رقيقة على شاشة نومي المشاهد المختلفة التي كانت تحول دون مشاهدتي لها ولكني أتوهم أني أشهدها.

فما لعلنا كنا فعلنا في النهار إنما يتفق بالفعل إذ يحل النوم أن لا نقوم به في الحلم، يعني بعد عطفة النعاس، بسلوك درب غير الذي قد نسلكه في اليقظة. فالقصة نفسها تدور ولها نهاية مختلفة. وعلى الرغم من كل شيء فإن العالم الذي نعيش فيه في أثناء النوم مختلف إلى حد أن الذين يصادفون مشقة في الإغفاء إنما يحاولون قبل كل شيء الخروج من عالمنا. فبعدما يقلبّون على نحو يائس وعلى مدى ساعات، والعيون مغمضة، أفكاراً شبيهة بتلك التي ربما ساورتهم وعيونهم مفتوحة إذا بهم يستعيدون عزيمتهم إن تبينوا أن الدقيقة السابقة قد أثقلتها تماماً محاكمة تتناقض تناقضاً صريحاً مع قوانين المنطق وبداهة الحاضر إذ يعني هذا «الغياب» القصير أن الباب مفتوح ذاك الذي ربما كان بمقدورهم أن يفلتوا منه في الحال من إدراك الواقع وأن يبادروا إلى استراحة بعيداً عنه في كثير أو قليل، الأمر الذي سيمنحهم نوماً عميقاً إلى حد ما. ولكنما يتم انجاز خطوة كبيرة حينما نولي الواقع ظهرنا وحينما نبلغ الكهوف الأولى التي تعد «الايحاءات الذاتية» فيها، شأن الساحرات، «الطبخة» الجهنمية للأمراض الوهمية أو لتفاقم الأمراض العصبية، وترصد الساعة التي تنطلق فيها النوبات المُراكمةُ في أثناء النوم اللاواعي بما يكفي من القوة لإيقافه.

وعلى مسافة غير بعيدة تقع الحديقة المخصصة التي تنمو فيها كزهور مجهولة أصناف النوم الشديدة الاختلاف بعضها عن بعضها الآخر، فنوم الداتوره الشائكة والقنب الهندي وخلاصات الأثير العديدة، ونوم حشيشة «ست الحسن» والأفيون والناردين، تلك الزهور التي تظل مطبقة حتى اليوم الذي يجيء فيه المجهول المصطفى منذ الأزل ليلمسها ويفتّح أكمامها ويبعث على مدى ساعات طويلة شذا أحلامها الخاصة في كائن ذاهل مفتون. وفي أقصى الحديقة الدير ذو النوافذ المفتوحة حيث يوافي الأسماع ترداد الدروس المتعلمة قبل النوم والتي لن نعرفها إلا لدى الاستيقاظ، فيما يردد صوت تكتكته ذاك المنبه الداخلي، وهو نذير الاستيقاظ، المنبّه الذي احسن اهتمامنا ضبطه إلى حد أن خادمة المنزل سوف تلقانا على أتم استعداد عندما تجيء لتقول لنا: إنها السابعة. وعلى الجوانب المظلمة لهذه الغرفة التي تنفتح على الأحلام والتي يعمل فيها دون انقطاع نسيان غموم الحب ذاك الذي ينقطع فيه أحياناً ويفككك بفعل حلم مزعج مليء بالذكريات عمله الذي سرعان ما تتم معاودته، على جوانبها تتدلى حتى بعدما نستفيق ذكريات الأحلام ولكنها مظلمة إلى حد أننا غالباً مالا

نلمحها للمرة الأولى إلا في تمام فترة ما بعد الظهر حينما يقبل شعاع فكرة مشابهة إلى إضاءتها على نحو مفاجئ، وبعضها متناسق الوضوح في أثناء نومنا ولكنما يضحي مجهول المعالم إلى حد أنه لايسمعنا بعد أن لم نتعرفه إلا أن نسارع ونرده إلى الأرض كما هو شأن أموات تفسخوا بسرعة كبيرة أو تحف دبّ فيها التلف إلى حدّ خطير وقاربت أن تنقلب ترابا حتى لا يستطيع أمهر المرممين أن يعيد إليها الشكل أو يستخرج منها شيئا.

وبالقرب من السياج يقع المقلع الذي تبادر صنوف النوم العميق إلى البحث فيه عن المواد التي تغطي الرأس بطلاءات قاسية إلى حد أن إرادة النائم نفسها تضطرّ في سعيها لايقاظه، حتى في صباح ذهبيّ، أن تضرب بالفأس ضربات قوية على غرار «سيغفريد» شاب. وثمّة فيما وراءها الأحلام المزعجة كذلك التي يزعم الأطباء بغباء أنها متعبة أكثر من الأرق فيما تسمح للنائم على العكس أن يهرب من الانتباه، الأحلام المزعجة بمجموعات صورها الطريقة التي يقع لوالدينا الميتين فيها حادث خطير لايتنافى وشفاء قريباً. وإننا بانتظاره نبقيهم في قفص صغير للفئران هم فيه أصغر من الفئران البيضاء ويوجهون إلينا، وقد غطتهم بثور حمراء كبيرة وانتصبت ريشة فوق كل منهم، خطابات شيشرونية. وعلى مقربة من كتاب الصور هذا تقوم اسطوانة المنبّة الدوراة التي نعاني لحين بفضلها متعبّة التزام الدخول عما قليل إلى بيت هدم منذ خمسين عاماً وتمّحي صورته، كلما ابتعد النوم، بفعل أخرى كثيرة قبل أن نصل إلى البيت الذي لايبرز إلا بعدما توقف الأسطوانة ويطابق ذاك الذي سنراه بعينينا المفتوحتين.

ولم أكن قد سمعت شيئاً في بعض الأحيان وقد غرقت في واحد من صنوف النوم هذه التي يهوي فيها المرء وكأنما في حفرة يسعده أشد السعادة أن يرفع منها بعد قليل ثقيلاً متخماً يهضم كل ما جاءتنا به، على غرار الحوريات اللائي كن يغذين «هيركوليس»، هذه القوى المبهمة الرشيقة التي يتضاعف نشاطها في أثناء نومنا.

ذلك يدعى نوماً ثقيلاً كالرصاص، ويبدو أن المرء ينقلب حتى على مدى بضع لحظات بعد توقف مثل هذه الاغفاءة محض دمية من الرصاص. وليس المرء من بعد أحدا. فكيف يعود في النهاية فليقى «أناه» الخاصة أكثر من أيٍ سواها وهو يبحث عن فكره وشخصيته مثلما يجري البحث عن غرض مفقود؟ وحينما نعاود التفكير، لمَ لا يكون ثمة شخصية أخرى غير السابقة تتجسد فينا؟ فليس يبصر المرء ما يملي عليه الخيار ولماذا يضع يده بالضبط، من بين ملايين الكائنات الإنسانية التي يمكن أن يكونها، على ذاك الذي كانه البارحة. وما الذي يقودنا حينما كان ثمة انقطاع حقاً (إما لأن النوم كان تاماً أو الأحلام مختلفة أتم الاختلاف عنا)؟ لقد وقع ثمة موت بالحقيقة كما هي الحال حينما يكف القلب عن الخفقان وترد إلينا الحياة عمليات شد منتظمة للسان. ليس من شك أن الغرفة إنما توقظ، وإن لم نرها سوى مرة واحدة، ذكريات علقت بها أخرى أكثر تقادماً، أو أن بعضاً منها كان ينام في داخلنا فوعيناه. والقيامة لدى الاستيقاظ- بعد نوبة الاستلاب العقلي المفيدة هذه التي هي النوم- ينبغي أن تشبه في الأساس ما يجري حينما نعود فنعثر على اسم وبيت شعر ولازمة منسية. وربما أمكن أدراك قيامة النفس بعد الموت بمثابة ظاهرة تذكر.

وبعدما انتهي من النوم كنت أرفع رأسي وأمد عنقي فيما أبقي جسمي نصف مخبأ داخل الأغطية، وقد

اجتذبتني السماء المشمسة ولكنما تمسك بي برودة تلك الصبيحات الأخيرة الشديدة الإشراق الشديدة البرودة التي يبدأ فيها الشتاء، كيما أنظر إلى الأشجار التي لم يعد يشير إلى الأوراق فيها سوى لمسة أو لمستين ذهبيتين أو ورديتين تبدوان وكأنهما ظلتا في الهواء في لمحة خفية. وكمثل خادرة في طور التحول كنت مخلوقاً مزدوجاً لا يوافق مختلف أجزائه الوسط نفسه. فلعيني يكفي اللون دون الحرارة. أما صدري فكان يهتم على العكس بالحرارة لا باللون. وما كنت أنهض إلا حينما يتم إشعال ناري وكنت أنظر إلى اللوحة الشفافة الشديدة العذوبة التي تؤلفها الصبيحة الخبّازية المذهبة التي أضفت إليها اصطناعاً منذ قليل أجزاء الدفء التي كانت تفتقر إليها وأنا أحرك ناري التي تشتعل وتنفث الدخان على غرار غليون لذيذ وتوليني، كما لعله فعل، متعة تجمع الغلاظة لأنها تقوم على ارتياح مادي إلى الرقة إذ يحتجب خلفها محض خيال. كانت جدران حجرة ملابسي مكسوة بورق من حمرة فاقعة تنتثر فوقه أزهار سود وبيض كان ينبغي لي فيما يبدو أن أعاني بعض المشقة لتعودها. على أنها اقتصرت على أن تبدو لي جديدة وعلى أن تضطرني إلى الدخول لا في نزاع معها بل في صلات بها، وعلى تبديل مرحي وأناشيدي لدى استيقاظي، واقتصرت على وضعي عنوة في صميم نوع من الخشخاش الأحمر كيما أنظر إلى العالم الذي كنت أراه يختلف أشد الاختلاف عنه في باريس من هذا الساتر البهيج هو هذا البيت الجديد الذي يختلف اتجاها عن بيت والديّ والذي يتدفق فيه هواء نقي. وكان يهزني في بعض الأيام الشوق للقاء جدتي أو الخوف من أن تكون متوعكة الصحة، أو هو استذكار مسألة ظلت في طور التنفيذ في باريس وتتعثر، وإلى ذلك أحياناً بعض صعاب لقيت السبيل إليها حتى ههنا. لقد حال هذا الهم أو ذاك دون أن أنام وكنت لاحول لي في مواجهة حزني الذي كان يملأ في نظري كامل الوجود في مدى لحظة. حينئذ كنت أرسل أحدهم من الفندق إلى الثكنة أحمله كلمة لـ «سان لو»: كنت أقول له أن يتكرم بالمرور حينا إن كان ذلك ممكناً من الناحية العملية– وأنا أعلم أن الأمر بالغ الصعوبة. ويصل بعد انقضاء ساعة فأحس أنني أُنقذت من شواغلي أن أسمع صوت الجرس. كنت أعلم أنها إن كانت أقوى مني فقد كان هو أقوى منها فكان اهتمامي ينفصل عنها ويتجه إليه هو الذي كان عليه أن يقرر. وما أن دخل حتى أشاع من حولي الجو الطلق الذي كان يبذل فيه الكثير من النشاط منذ الصباح، هذا الوسط الحيوي الشديد الاختلاف عن غرفتي والذي كنت اتكيف معه في الحال بردود فعل مناسبة.

– «آمل أنك غير حاقد عليّ لازعاجك، فإن لدي شيئاً يعذبني ولابد أنك حزرته.»

– «لا، لا، حسبت فقط أنك راغب في لقياي ورأيت أن ذلك لطيف جداً. لقد أبهجني أنك أرسلت في طلبي. ولكن ماذا؟ أليست الأمور إذن على مايرام؟ وما عساي أن أفعل في خدمتك؟»

وكان يصغي لشروحي ويجيبني بدقة. بيد أنه كان قد جعلني شبيهاً به حتى قبل أن يحدثني، فإلى جانب المشاغل الهامة التي كانت تظهره شديد العجلة كثير النشاط بالغ السرور أخذت الغموم التي كانت تحول منذ قليل دون بقائي لحظة واحدة دون عذاب تبدو لي، كما تبدو له، غير ذات بال. وكنت كرجل لايستطيع أن يفتح عينيه منذ عدة أيام فيستدعي طبيباً يباعد جفنه بمهارة ولطف وينزع له حبة رمل ويريه إياها، فإذا بالمريض يشفى ويطمئن. كانت جميع متاعبي تلاقي حلها في برقية يأخذ «سان لو» على نفسه أن يبعث بها. وتبدو لي الحياة شديدة الاختلاف شديدة الجمال ويغمرني فيض من القوة عظيم إلى حد أن أبغي التحرك.

فكنت أقول لـ «سان لو»:

- «ماذا تفعل الآن؟»

- «سأتركك، لانهم يذهبون سيراً على الأقدام بعد ثلاثة أرباع الساعة وهم بحاجة إليّ.»

- «أفأزعجك المجيء إذن إزعاجاً كبيراً؟»

- «لا، لم يزعجني ذلك، لقد كان النقيب لطيفاً جداً وقال إنه ينبغي لي أن آتي بما أن الأمر يتعلق بك، ولكن لست أريد أن أبدو وكأني استغل الموقف.»

- «ولكني لو نهضت بسرعة وذهبت بدوري إلى المكان الذي ستناورون فيه فسوف يستهويني الأمر كثيراً وربما استطعت التحدث إليك في أثناء فترات الاستراحة.»

- «ليست أشور عليك بذلك، فقد ظللتَ مستيقظاً وامتلأت هماً من أجل أمر بالتأكيد غير ذي شأن البتّة فأما وأنه لا يشغلكِ من بعد فانقلب على وسادتك ونم، الأمر الذي سيكون رائعاً لمحاربة نقص المعادن في خلاياك العصبية. ولا تغفِ سريعاً لأن موسيقانا اللعينة ستمر تحت نوافذك. بيد أني أظن أنك ستنعم بالسكينة بعدها في لحال ونعود فنلتقي هذا المساء على العشاء.»

ولكنني كثيراً ماذهبت بعد ذلك بفترة وجيزة لأرى الكتيبة تؤدي خدمتها في السهل حينما شرعت أهتم بالنظريات العسكرية التي كان أصدقاء «سان لو» يشرحونها على مائدة العشاء وأصبح يؤلف الأمر شوق نهاري في أن أرى رؤساءهم المختلفين عن كثب، شأن من يجعل من الموسيقى دراسته الرئيسية ويعيش في جو الحفلات الموسيقية فيسره أن يختلف إلى المقاهي حيث يهتم المرء بحياة عازفي الاوركسترا. وكان لابد لي كيما أبلغ أرض المناورات من القيام بمسيرات طويلة. وفي المساء كانت الرغبة في النوم تهوي برأسي بين الحين والحين بعد العشاء وكأنها دوار. وكنت أفطن في الغد إلى أني لم أسمع الجوقة الموسيقية أكثر مما سمعت الحفلة الموسيقية على الشاطئ في «بالبيك» غداة العشيات التي اصطحبني فيها «سان لو» للعشاء في «ريفبيل». ولحظة أبغي النهوض كنت أحس إحساساً لذيذاً بعجزي عن ذلك. كنت أحسني موثقاً إلى أرض خفيّة وعميقة بمفاصل يجعلها التعب محسوسة لدي، مفاصل من جذيرات قوية العضلات مغذية. كنت أحسني ملآن بالقوة وكانت الحياة تمتد أمامي وهي أوفر طولاً. ذلك أنني تراجعت حتى متاعب طفولتي الكبيرة في «كومبريه» في اليوم التالي للأيام التي كنا قد تنزهنا فيها في جانب «غيرمانت» والشعراء يزعمون أننا نعود فنلقى حينا ما سبق أن كنّاه بالأمس ونحن ندخل إلى هذا البيت أو ذاك، إلى هذه الحديقة أو تلك حيث عشنا أحداثا. وتلك صنوف من الحج تنطوي على مخاطر كثيرة نعدّ على إثرها من خيبات الأمل ما يوازي وجوه النجاح. إن الأماكن الثابتة التي تعاصر سنوات مختلفة نما يجدر بنا أن نلقاها بالأحرى داخل ذواتنا. وذلك ما يمكن أن يجلبه لنا من فائدة إلى حد ما تعب عظيم تليه ليلة مريحة. وكيما ينحدر بنا هذان الأخيران إلى دهاليز النوم الأكثر عمقاً حيث لاينير أي شعاع من البارحة وأية ومضة ذاكرة من بعد المناجاة الداخلية، إن اتفق لهذه المناجاة نفسها أن لا تتوقف فيها، فانهما يقلبان أرض جسدنا وأعماقها إلى حد أنهما

يعيناننا على العثور، حيث تنغمس عضلاتنا وتجدل تفرعاتها وتمتص الحياة الجديدة، على الحديقة لتي ذهبنا إليها أطفالاً. ولاحاجة بنا إلى السفر لنراها ثانية وانما ينبغي الانحدار للعثور عليها من جديد. إن ماغطى الأرض لم يعد فوقها بل تحت صفحتها فالرحلة لاتكفي لزيارة المدينة الدارسة، والحفريات ضرورية لذلك. ولكننا سوف نرى إلى أي مدى تردنا بعض الانطباعات السريعة الزوال والمفاجئة على نحو أفضل إلى الماضي وبدقة أشد وجناح أكثر خفة وأوفر شفافية وأكثر سرعة وأبعد عن الخطأ وأقرب إلى الخلود من تلك التفككات العضوية.

ويتجاوز تعبي أحياناً ذاك الحد: فلقد تابعت المناورات على مدى بضعة أيام دون أن يمكنني النوم. ما أكثر ما كانت العودة إلى الفندق مباركة آنئذ! كان يبدو لي وأنا أندس في فراشي أنني أفلتّ أخيراً من أيدي سحار من أولئك الذين يعمرون روايات قرننا السابع عشر المحبوبة. وتضحي اغفاءتي ونومي حتى ضحى اليوم الثاني محض رواية جنيات فاتنة، فاتنة وربما مفيدة أيضاً. كنت أقول في نفسي إن لأسوأ العذاب مكانا يأوي إليه واننا نستطيع على الدوام إن نلقى الراحة ان لم نلق خيراً منها، وكانت تلك الأفكار تقودني إلى مكان بعيد جداً.

وكنت أمضي كثيراً في الأيام التي خصصت للراحة، ولايستطيع «سان لو» مع ذلك الخروج فيها، لمشاهدته في الثكنة. كان المكان بعيداً وكان لابد من مغادرة المدينة واجتياز الجسر فوق الوادي وعلى جانبيه يمتد أمامي منظر شاسع. كان ثمة نسيم قوي يهب على الدوام تقريباً فوق تلك الأماكن العالية ويملأ العمارات المبنية على جوانب ثلاثة من الباحة، عمارات تهدر دون انقطاع وكأنها عرين رياح. وفيما كنت أنتظر «روبير» في حين تشغله خدمة ما، أمام باب غرفته أو في قاعة الطعام وأنا أتحدث إلى بعض من أصدقاء له سبق أن عرفني بهم (وقد جئت أحيانا فيما بعد لمشاهدتهم حتى حين لم يكن بالتأكيد هناك) وأشاهد من النافذة على مئة متر تحتي السهل الأجرد، ولكنما ههنا وهناك مزروعات جديدة، ولايزال المطر في الغالب يبللها والشمس تمنحها النور، تضع فيه شرائط خضراء لها التماع المينا وصفاؤها الشفاف، كان يتفق لي أن أسمع من يتحدث عنه. وسرعان ما أمكنني أن أتبين إلى أي حد كان محبوباً وشعبياً، وكان التعاطف الذي يثيره لدى الكثير من المجندين التابعين لكتائب ثانية من بورجوازيين شباب أغنياء لايشاهدون الطبقة الارستقراطية الراقية إلا من الخارج ودون أن ينفذوا إليها، التعاطف الذي يثيره لديهم ما يعلمون من طباع «سان لو» إنما تبطنه المهابة التي يمتلكها في نظرهم الشاب الذي كثيراً ما رأوه مساء السبت، حينما يجيئون في إذن إلى باريس، يتناول طعام العشاء في قهوة «السلام» مع دوق «أوزيس» وأمير «أورليان» وقد أدخلوا لذلك في محياة الجميل وفي طريقته المفككة في السير والتحية وفي قذفة نظرته الدائمة وفى غرابة قبعاته المفرطة في علوها وسراويله التي من قماش بالغ النعومة مفرط في لونه الوردي مفهوماً للأناقة يؤكدون افتقار أكثر الضباط تأنقا في الكتيبة إليه وحتى النقيب المهيب الذي سبق أن دنت له بنومي في الثكنة، وكان يبدو، إذا ما قورن به، مفرط الأبهة ويكاد أن يكون عامياً.

كان أحدهم يقول إن النقيب ابتاع جواداً جديداً، فيجيب الآخر قائلا: «يستطيع ابتياع جميع ما يشاء من جياد. لقد التقيت «سان لو» صبيحة الأحد في ممر الأكاسيا وانه يمتطي الجياد بأناقة مختلفة!» ويقول قول العارف لان هؤلاء الشباب كان ينتسبون إلى طبقة لاتختلف بفضل المال وأوقات الفراغ عن الارستقراطية في

خبرة جميع صنوف الأناقة التي يمكن شراؤها. وإن لم تتردد على جماعة الطبقة الراقية نفسها. وأكثر ما هنالك أن أناقتهم كانت تتسم، فيما يخص الملابس على سبيل المثال، بما كان أكثر اجتهاداً وأكثر خلواً من العيوب من أناقة «سان لو» الطليقة اللامبالية تلك التي كانت تروق جدتي أكثر ما تروق. كان يداخل أبناء أصحاب المصارف الكبيرة أو الصيارفة، فيما يتناولون أصناف المحار بعد المسرح، اضطراب طفيف لمَا يبصرون ضابط الصف «سان لو» إلى طاولة بجوار طاولتهم. وما أكثر القصص التي تقص في الثكنة نهار الاثنين لدى العودة من المأذونية على لسان واحد منهم كان من كتيبة «سان لو» وقد حياه هذا الأخير «بلطف شديد» وعلى لسان آخر لم يكن من الكتيبة نفسها ولكنه يعتقد تماما أن «سان لو» قد عرفه على الرغم من ذلك فقد سدد نظارته باتجاهه مرتين أو ثلاث مرات!

– «أجل، لقد لمحه شقيقي في قهوة «السلام»»، يقول آخر أمضى نهاره لدى عشيقته، «ويبدو أنه كان يرتدي بزة فضفاضة ولاتناسبه تماما.»

– «وكيف كانت صدريته»؟

– «لم يكن يرتدي صدرية بيضاء، بل خبازية وبها أنواع من السعف، مذهل!»

أما بالنسبة إلى القدامى (وهم من عامة الشعب يجهلون نادي السبق ويضعون «سان لو» في فئة ضباط الصف الأغنياء جداً فحسب، وفيها يدخلون جميع الذين يعيشون حياة من مستوى معين، سواء أفقدوا أموالهم أم لا، ويملكون رقماً عالياً إلى حد ما من العائدات أو الديون وهم كرماء بحق جنودهم) فإن نظارة «سان لو» وسراويله وقبعاته ما كانت لتبدو، وان لم يبصروا فيها أية سمة ارستقراطية، أقل إثارة ودلالة مع ذلك. لقد كانوا يتعرفون في هذه الصفات المميزة السمة والنمط اللذين خصوا بهما نهائياً هذا الأكثر شعبية بين أصحاب الرتب في الكتيبة، من تصرفات لاتشبه تصرف أحد وإزدراء لما يمكن أن يدور في خلد الرؤساء وما يبدو لهم بمثابة النتيجة الطبيعية لعطفه على الجنود. وكانت تبدو قهوة الصباح في حجرة النوم أو الاستراحة على الأسرة أثناء فترة ما بعد الظهر فضل منها حينما يطلع أحد القدامى على الجماعة النهمة الكسلى بأحد التفاصيل الطريفة قبّعة كانت لـ «سان لو».

– «في مثل ارتفاع رزمتي».

ويقاطعه مجاز شاب في الآداب قائلاً: «ويحك ياعم، تريد أن «تقطعها» في رقابنا، لا يمكن أن تكون بمثل ارتفاع رزمتك»، يحاول باستخدام هذه اللهجة ألا يظهر بمظهر الغِرّ وليحمله بتجرئه على هذه المعارضة على أن يثبت له أمراً كان يمتعه.

– «ليست بمثل ارتفاع رزمتي؟ لعلك قستها. أقول لك إن المقدم كان يحدق إليه كما لو أراد أن يودعه السجن. وينبغي ألا نحسب أن «سان لو» المحترم كان يتباهى، فقد كان يروح ويجيء ويخفض رأسه ويرفعه إلى جانب قذفة النظارة تلك على الدوام. لابد أن نرى ما سيقوله النقيب. آه! من الممكن أن لايقول شيئاً ولكن الأمر لن يسره بالتأكيد. والقبعة هذه ليس فيها ما يدهش. ويبدو أنه يملك في منزله في المدينة أكثر

من ثلاثين».

ويسأل الشاب متحذلقاً: «كيف تعلم ذلك أنت ياعم، على لسان عريفنا اللعين؟»، وهو يعرض الأشكال القواعدية الجديدة التي لم يتعلمها إلا منذ عهد قريب والتي كان يفخر أن يزين حديثه بها.

– «كيف أعلم ذلك؟ على لسان مرافقه، ويحك!»

– عندي أنه ينبغي ألا يكون أمثاله تعساء!»

– «معلوم! والأكيد أنه أوفر مالاً مني! وهو يعطيه إلى ذلك كل حوائجه، كل شيء. لم يكن ينال كفايته في الندوة، فاذا «سان لو» يقبل وقد سمع «العشي» منه: «أريد أن تحسنوا تغذيته، وليبلغ الثمن ما بلغ».

وكان المتقدم يستعيض عن تفاهة الأقوال باللهجة الحازمة في تقليد ضعيف كان يصيب أكبر قسط من النجاح.

كنت أقوم بجولة لدى خروجي من الثكنة ثم أتوجه بانتظار الوقت الذي أذهب فيه يومياً لتناول طعام العشاء مع «سان لو» في الفندق الذي اتخذه واصدقاءه لنومهم وطعامهم، أتوجه إلى فندقي فور غياب الشمس كي تتوافر لي ساعتان للراحة والقراءة. وفي الساحة كان المساء يضع على سطوح القصر التي على هيئة مخزن بارود سحباً صغيرة وردية تنسجم مع لون القرميد ويكمل التوافق بتلطيف هذا الأخير بنور منعكس وكان يتدفق في أعصابي تيار من الحياة قوي حتى لتعجز أي من حركاتي عن استنفاده؛ كل خطوة من خطاي كانت تعود فتثب بعدما تلامس واحدة من بلاط الساحة فيبدو في عقبيَّ جناحا رسول الآلهة. كان أحد الينبوعين مليئا بوهج أحمر وفي الثاني يحيل ضوء القمر الماء إلى لون اللبن. وبين الاثنين يلعب صبية صغار ويطلقون صيحات ويرسمون دوائر يخضعون في ذلك لضرورة الساعة على غرار الخطف أو طيور الوطواط. وإلى جانب الفندق كانت القصور الوطنية القديمة ومبنى «الاورانجري» للويس السادس عشر الذي حل فيه الآن صندوق التوفير وكتيبة الجيش، كانت تضيئها من الداخل مصابيح الغاز الشاحبة المذهبة التي أضيئت منذ ذاك والتيّ كانت تنسجم والنهار لم يولِّ بعد وتلك النوافذ العالية الواسعة التي من طراز القرن الثامن عشر والتي لم يمّحِ فيها آخر انعكاس للشمس الغاربة، كما لعله كان شأن زينة من قشرة شقراء على رأس تلهبها الحمرة، ويقنعني بالذهاب للقاء ناري ومصباحي الذي كان يكافح وحده في واجهة الفندق الذي أسكن فيه أنوار الشفق، مصباحي الذي كنت أعود من أجله، قبلما يكتمل الليل، بداعي السرور مثلما يفعل المرء بالنسبة إلى العصرونية. وكنت أحتفظ في مسكني بتمام الإحساس نفسه الذي تملكني في الخارج فقد كان يقوّس مساحات ظاهرة تبدو لنا في الأغلب مسطحة خاوية: فلهب النار الأصفر وصحيفة السماء الشديدة الزرقة التي سوّد عليها المساء. شأن تلميذ مدرسة، لوالب خطوطه الوردية وغطاء الطاولة المستديرة ذو الرسوم الفريدة والذي كان ينتظرني فوقه ماعون من ورق التلامذة ومحبرة بالإضافة إلى رواية لـ «بيرغوت»، يقوّسها على نحو استمرت معه هذه الأشياء مذ ذاك تبدو غنية بنوع خاص من الوجود يخيل إليَّ أنني أستطيع استخلاصه منها لو قدر لي أن ألقاها ثانية. كنت أفكر بابتهاج بهذه الثكنة التي غادرتها منذ قليل والتي تنطلق دوّارة الريح فيها مع جميع الرياح. وكمثل غطاس يتنفس في أنبوب يرتفع فوق سطح الماء كان احساسي بهذه الثكنة بمثابة نقطة

ارتباط لي، هذا المرقب العالي المطل على السهل الذي تخترقه أقنية من المينا الخضراء، الذي كنت أعدّ إمكان الذهاب ساعة أشاء تحت عنابره وداخل أبنيته، وأنا متيقن أبداً من حسن الاستقبال، بمثابة امتياز ثمين أتمنّى ديمومته، كان ذلك بالنسبة إليّ بمثابة ارتباط بالحياة الصحية وبالهواء الطلق.

كنت أرتدي ثيابي في السابعة وأخرج ثانية من أجل أن أذهب للعشاء مع «سان لو» في الفندق الذي اتخذه للسكن والطعام. كنت أحب أن أمضي إلى هناك سيراً على الأقدام ؛ كان الظلام حالكاً ومن اليوم الثالث شرعت تهب فور حلول الليل ريح باردة جداً تبدو وكأنها تبشر بالثلج. ولعله كان عليّ فيما كنت أسير ألا أكف عن التفكير في السيدة «دو غيرمانت»، وانما جئت إلى ثكنة «روبير» لأجهد في الاقتراب منها. ولكن الذكرى، والغم، أي غم، متحركان. فثمة أيام يمضيان فيها بعيداً حتى نكاد لانبصرهما ونظنهما وليّا، وإذ ذاك نصرف انتباهنا إلى أمور أخرى. وشوارع هذه المدينة لم تكن بعد في نظري، شأن المكان الذي تعودنا العيش فيه، محض وسائل للذهاب من مكان إلى آخر فقد كان يبدو لي أن الحياة التي يقضيها سكان هذا العالم المجهول لابد أن تكون رائعة وغالباً ما كان الزجاج المضاء في منزل. أي منزل، يسمّرني طويلاً في الظلام إذ يضع نصب عينيّ المشاهد الحقيقية الزاخرة بالأسرار لحيوات لا أنفذ إليها. فههنا يريني جني النار في لوحة بلون الأرجوان مقهى بائع كستنا يلعب فيه ضابطا صف بالورق، وقد وضعا نطاقيهما على كراسي، دون أن يرتابا بأن ساحراً كان يبرزهما من الليل، كما هو أمر ظهور في المسرح، ويحدد خطوطهما كما كانا بالفعل في تلك الدقيقة نفسها لعينَي عابر سبيل متوقف لا يستطيعان أن يبصراه. وفي مخزن صغير لسقط المتاع كانت ترسل شمعة نصف ذائبة نورها الأحمر على صورة مطبوعة فتحيلها بلون المغرة فيما يكافح ضوء المصباح الكبير الظلام فيلون بالسمرة قطعة من الجلد ويرصع خنجراً بشذرات سوداء لامعة ويخلف فوق لوحات إن هي الا نسخ رديئة طلاء ذهبياً ثميناً كالقشرة التي يخلفها الزمان أو كلمعة أساتذة الفن فتجعل من هذا الكوخ في النهاية حيث لاشيء سوى «التنك» والقشور لوحة لـ«رامبرانت» لاتقدر بثمن. وكنت أرفع عيني أحياناً إلى شقة قديمة لم تغلق مصاريعها يعود فيها رجال ونسوة برمائيون إلى التكيف من جديد في كل مساء مع العيش في وسط غير وسط النهار، ويسبحون ببطء في السائل اللزج الذي ينبع دونما انقطاع لدى حلول الليل من مستودع المصابيح ليملأ الحجرات حتى حافة جدارنها التي من حجر وزجاج، وينشرون فيه بتنقيل أجسامهم تموجات ناعمة مذهبة. وكنت أعاود السير وكثيراً ما يستوقفني عنف شهوتي في الجادة المظلمة التي تمر أمام الكاتدرائية، كما كانت حالي بالأمس في طريق «ميزيكليز» ؛ كان يخيل إليّ أن امرأة سوف تطلع فجأة لتشبعها ؛ وان أحسست فجأة في الظلام فسطاناً يمر فإن عنف اللذة التي أحس بها كان يحول دون اعتقادي بأن هذه الملامسة الخفيفة كانت عارضة فأحاول أن أحتبس بين ذراعي عابرة سبيل مذعورة. كانت تلك الجادة القوطية تبدو في نظري حقيقية إلى حد أني لو لحقت بامرأة فيها وامتلكتها لاستحال عليّ ألا أخال أنها اللذة العتيقة التي تزمع أن تجمع بيننا، وان كانت المرأة محض مومس تقف هناك كل مساء ولكنما أضفى عليها الشتاء وأضفت الغربة والظلمة والعصر الوسيط جو أسرارها. وأخذت أفكر في المستقبل: كانت تبدو لي محاولة نسيان السيدة «دو غيرمانت» أمراً فظيعاً ولكنه معقول وللمرة الأولى ممكن بل ربما سهل. وكنت أسمع من أمامي في هدوء هذا الحي المطلق أقوالاً وضحكات لابد تردني من متنزهين نصف مخمورين يعودون إلى منازلهم. فكنت أتوقف لأراهم وأنظر إلى الجانب الذي سمعت الضجة منه. بيد أنه كان لزاماً عليّ أن أنتظر

طويلاً لأن السكون المحيط كان عميقاً إلى حد أن سمح بانتقال ضجيج لايزال بعيداً بأقصى الوضوح والقوة. ويصل المتنزهون في نهاية المطاف لامن أمامي كما سبق أن ظننت بل بعيداً جداً من الخلف. لقد أخطأت الظن في المسافة والاتجاه على حد سواء، إما لأن تقاطع الشوارع وتواسط المنازل قد أحدثا هذا الخطأ السمعي بسبب ظاهرة الانكسار، وإما لأنه من العسير جداً تحديد موقع صوت مجهول المطرح لدينا.

وتأخذ الريح تتعاظم. لقد كانت تتقبض وتقشعرّ من إثلاج قريب، فكنت أعود إلى الشارع الكبير وأقفز إلى الحافلة الكهربائية الصغيرة حيث يرد ضابط من أرضية الوقوف تحيات جنود يبدو وكأنه لايراهم، جنود ثقال يمرون على الرصيف وقد ألقى البرد لطخ ألوان على وجوههم ؛ وانها لتذكرك، في هذه المدينة التي تبدو وكأنما دفعتها وثبة الخريف المفاجئة داخلِ بداية الشتاء هذه قدما إلى الشمال، بالوجوه الحمراء التي يعطيها «بروغيل» لفلاحيه المتهللين المولمين المصقعِين.

وكان ثمة بالضبط في الفندق الذي كنت فيه على موعد مع «سان لو» وأصدقائه وحيث تجتذب الاحتفالات، وهي في بداياتها، كثيراً من الناس من الجوار ومن الأجانب، كان ثمة، فيما كنت أجتاز مباشرة الباحة التي تطل على مطابخ بلون الجمر تدور فيها فراريج على أسياخ وتشوى خنازير وتلقى صنوف من سرطان البحر في ما كان يدعوه الفندقي «بالنار الأبدية»، كان ازدحام خليق بما كان من قبيل لوحة «التعداد أمام بيت لحم» من مثل ما كان يرسم أرباب الفن الفلامنديون القدامى) لوافدين يجتمعون زمراً في الباحة يسائلون صاحب الفندق أو أحد أعوانه (فيفضلان أن يشيرا عليهم بمسكن في المدينة حينما لايجدان أن لهم مظهراً حسنا) إن كان يمكن أن يقدَّم لهم الطعام والمسكن بينما يمر خادم وهو يمسك بيده عنق طير يتخبط. وفي قاعة الطعام الكبيرة التي اجتزتها في اليوم الأول، وقبل أن أبلغ الحجرة الصغيرة التي كان ينتظرني فيها صديقي، إنما كان يذكرني عدد الأسماك والفراخ المسمنة وديوك الغابات ودجاج الأرض والحمائم التي جاء بها مزينة يتصاعد بخارها ندل فقدوا أنفاسهم يتزلقون على الأرضية الخشبية كيما يزيدوا من سرعتهم ويضعونها على الطاولة الجدارية الفسيحة حيث يتم في الحال تقطيعها وحيث تتكدس مع ذلك غير مستخدمة– إذكان الكثير من وجبات الطعام يشارف على الانتهاء حينما وصلت –إنما كان يذكرني كذلك بمأدبة في الانجيل مثلت بسذاجة الزمن الغابر ومغالاة بلاد الـ «فلاندر»، فكما لو أن الكثرة المسرفة فيها وتعجل الذين يحملونها إنما يستجيبان لاحترام النصوص المقدسة التي تتم مجاراة حرفها بدقة كبيرة، ولكنما يتم توضيحها توضيحاً ساذجاً بتفاصيل حقيقية مستقاة من الحياة المحلية، وللاهتمام الجمالي والديني الرامي إلى ابراز رونق الاحتفال للعيان بفيض الأطعمة وعجلة الخدم أكثر مما يستجيبان لطلبات المتعشين. وكان واحد بينهم يحلم في أقصى القاعة وقد وقف لايبدي حراكاً قرب خزانة آنية ؛ وكيما استعلم هذا الأخير، وكان يبدو وحده على شيء من الهدوء كي يجيبني، في أية حجرة أعدت مائدتنا مضيت رأساً، وأنا أتقدم بين السخّانات الصغيرة الموقدة ههنا وهناك لتحول دون أن تبرد قصعات المتخلفين (الأمر الذي ما كان يحول دون أن تمسك الحلوى في وسط القاعة يدا دمية ضخمة يحملها أحياناً جناحا بطة من البلور فيما يبدو ولكنهما في الواقع من مثلجات ينمقها كل يوم بالحديد المحميّ طاه نحات وفق ذوق «فلامندي» تماما). مضيت، وأنا عرضة لأن يطرحني الآخرون أرضاً، إلى هذا الخادم الذي حسبتني أتعرف فيه شخصية تماشي التقليد في هذه الموضوعات المقدسة، شخصية كان يعيد بدقة رسم وجهها المطفح الساذج الرديء الخطوط وملامحها الحالمة التي ربما

أدركت مذ ذاك سلفا معجزة حضور إلهي لم يرتب الآخرون بأمره بعد. ونضيف إلى أنه أضيف، بداعي الأعياد المقبلة دونما شك، إلى هؤلاء الممثلين ملحق سماوي جرى انتقاؤه بأسره في فئة من «الشيروبيم» و«السيرافيم»[1] وكان ثمة ملاك موسيقي شاب له شعر أشقر يظلل وجه ابن أربعة عشر ربيعاً، وما كان يعزف بالحقيقة على أية آلة بل يحلم أمام صنج أو كومة صحون فيما يسرع ملائكة أقل طفولة عبر مسافات القاعة المترامية وهم يحركون هواءها بارتعاش لا يتوقف للفوط التي تنحدر على طول أجسامهم على أشكال أجنحة لرسامين قدامى حادة الأطراف. وشققت لنفسي درباً، وأنا أتجنب هذه المناطق غير المحددة تماماً والتي يحجبها ستار من ورق النخيل يبدو فيها الخدّام السماويون من البعيد وكأنهم يجيئون من الجنة، حتى القاعة الصغيرة التي كانت مائدة «سان لو» معدة فيها. ولقيت فيها بعضاً من أصدقائه الذين كانوا يتناولون طعام العشاء باستمرار معه، وهم نبلاء فيما عدا واحداً أو اثنين من طبقة العامة اشتم فيهما النبلاء منذ المدرسة الاعدادية رائحة الأصدقاء وصادقوهما راضين فبرهنوا بذلك أنهم لايعادون البورجوازيين مبدئياً ولو كانوا جمهوريين بشرط أن يكونوا نظيفي اليد وأن يترددوا إلى القداس. ومنذ المرة الأولى وقبل أن نجلس إلى المائدة انتحيت بـ «سان لو» في زاوية من قاعة الطعام وقلت له أمام الآخرين جميعهم، وما كانوا يسمعوننا:

– «روبير، لم أحسن اختيار الزمان والمكان لأقول لك ذلك، ولكن الأمر لن يدوم سوى ثانية. يفوتني دوماً أن أسالك ذلك في الثكنة: أليست السيدة «دو غيرمانت» هذه التي تملك صورتها على طاولتك؟».

– «بلى إنها عمتي الطيبة».

–«ذلك صحيح، ويحي، وأني لمجنون، لقد عرفت ذلك فيما مضى ولم أفكر فيه في يوم. يا الهي، لابد أن اصدقاءك عيلوا صبراً، فلنتحدث بسرعة فهم ينظرون إلينا، أو فليكن ذلك في مرة ثانية فليس للأمر أي أهمية».

–«بلى، بلى، امض في حديثك، فإنهم هنا لينتظروا».

– «لا، يهمني أن أكون مهذباً فإنهم لطاف جداً، وتعلم على أية حال أن الأمر لايهمني أكثر من ذلك.»

– «وتعرفها، هذه الطيبّة «أوريان» ؟

وما كانت عبارة «هذه الطيبة أوريان»، كما لعله كان قال «هذه المسكينة «أوريان». لتعني بأن «سان لو» كان يعد السيدة «دو غير مانت» طيبة على نحو خاص. فالصفات «طيبة» و«رائعة» و«لطيفة» إن هي إلا محض عناصر تعزيز «لهذه» وتشير إلى شخص يعرفه كلانا، ولكنك لا تعلم تماما ما الذي تقوله لمن ليس من الأفك. إن «طيبة» تستخدم بمثابة مقبلات وتتيح لنا التريث لحظة ريثما يتسنّى لنا أن نجد عبارة: «هل تراها كثيرا؟» أو «لقد انقضت شهور دون أن أراها» أو «سألقاها يوم الثلاثاء» أو «لابد أنها لم تعد في أول شبابها».

---

(١) من فئات الملائكة في السماء.

– «لا أستطيع أن أقول لك إلى أي مدى يسرني أن تكون هذه صورتها لأننا نسكن الآن في بيتها وقد بلغني عنها أمور لاتصدق (وربما أصابني الكثير من الحرج في أن أقول أية أمور كانت) تجعلني أهتم بها كثيراً. من وجهة نظر أدبية بالطبع، ما عساني أقول. من وجهة نظر «بلزاكية» إنك تدرك ذلك بالتلميح أنت الذكي جداً. ولكن هيا ننته بسرعة فما عسى يقول أصدقاؤك بتربيتي!»

– ولكنهم لا يفكرون بشيء على الإطلاق، لقد قلت لهم إنك رائع وهم أكثر توجساً منك» .

– «إنك بالغ اللطف، ولكن هاك بالضبط: إن السيدة «غيرمانت» لاترتاب في أنّي أعرفك، أليس الأمر كذلك ؟»

– «دعني أقول لك، لقد أكدوا لي أنها تحسبني معتوها تماماً.»

– «هذا مالا أعتقده: فليست «اوريان» عبقرية ولكنها ليست غبية مع ذلك.» .

– «تدري أني لا أهتم على الاطلاق بعامة أن تذيع المشاعر الطيبة التي تكنها لي لأني لست على شيء من الاعتزاز بالذات. ويؤسفني لذلك أنك نقلت عني أشياء لطيفة إلى أصدقاءك (الذين سنلحق بهم بعد ثانيتين). بيد أنه لو وسعك، فيما يخص السيدة «دو غيرمانت»، أن تنقل إليها، ولو بشيء من المغالاة، ما تعتقدة بشأني فسوف تسرني أعظم السرور.»

– بكل طيبة خاطر، وإن لم يكن لديك ما تسألني إياه سوى هذا فليس الأمر بالغ الصعوبة ولكن أية أهمية يمكن أن يرتديها ما تستطيع أن تحمله عنك؟ لديّ أنك لاتبالي بالأمر إطلاقاً. ومهما تكن الحال فباستطاعتنا، إن اقتصر الأمر على ذلك، أن نتحدث فيه أمام الجميع أو حينما نكون بمفردنا لانني أخشى أن يصيبك التعب في التحدث واقفاً وعلى نحو غير مريح إلى هذا الحد في حين نملك فرصاً عديدة للقاءات منفردة.»

وإنما كان ذاك الوضع غير المريح بالضبط مازودني بالجرأة للتحدث إلى «روبير» فقد ألف حضور الآخرين بالنسبة إليّ حجة خولتني أن أضفي على أقوالي طابعاً مقتضباً غير مترابط أستطيع بفضله أن أخفي على نحو أيسر الكذبة التي افتعلها إذ أقول لصديقي إني نسيت قرابته من الدوقة وكي لا أتيح له الوقت ليطرح عليّ، حول دواعي رغبتي في أن تعلم السيدة «دو غيرمانت» أنني صديق له، وأني ذكي... الخ، اسئلة ربما بعثت لدي مزيدا من الاضطراب بساوي عجزي عن الإجابة عنها.

– «روبير»، يدهشني، بالنسبة إلى من كان بوافر ذكائك، ألاّ تدرك أنه ينبغي ألا نناقش ما يسر الأصدقاء بل أن نفعله. أما أنا، فإن سألتني أمراً أيا كان، وإني لاهتم كثيراً أن تسألني أمراً ما، فاني أوكد لك أنني لن أسالك إيضاحات. إنّي أتجاوز ما أرغب فيه فليس يهمني أن أعرف السيدة «دو غيرمانت» لكنما كان يجدر بي أن أقول لك. بغية امتحانك، إنني أرغب في تناول العشاء مع السيدة «دو غيرمانت» وأعلم أنك ما كنت لتفعل.»

– «لعلني كنت فعلت ؛ وليس ذلك فحسب، بل سوف أفعل».

– «ومتى» ؟

– حالما أجيء إلى باريس، بعد ثلاثة أسابيع دونما شك.»

– «سوف نرى، ، ولكنها لن تقبل على أي حال. لا أستطيع أن أقول لك إلى أيّ مدى أشكرك.»

– «لا، لا، ليس ما يستحق الشكر.»

– «لا تقل ذلك، فالأمر هائل لأنني أرى الآن أي صديق أنت. فسواء أكان ما أسالك هاماً أم لا، مزعجاً أم لا، وسواء أهمني في الواقع أم كان لمحض تجربتك، فالأمر قليل الأهمية ؛ تقول إنك ستفعل ذلك، وتبرهن به على رهافة ذكائك ورقة قلبك. أمّا الصديق الغبي فربما ناقش.»

كان ذلك ما أقدم على فعله بالضبط. ولكني ربما أردت أن أوقعه في شرك الاعتزاز بالذات، وربما كنت إلى ذلك صادقاً إذ يبدو أن محكّ الفضل الوحيد انما هو الفائدة التي يمكن أن تقدم لي فيما يخص الأمر الوحيد الذي كان يبدو لي هاماً، عنيت حبي، ثم أضفت، إما رياء وإما لفرط حنان حقيقي بعثه الامتنان والمصلحة وكلما سبق أن وضعته الطبيعة من ملامح السيدة «دو غيرمانت» نفسها في ابن أخيها «روبير»:

– «ولكن، ها انه ينبغي أن نلحق بالآخرين ولم أسالك سوى واحد من الأمرين، وهو أقلهما. أما الآخر فأكثر أهمية في نظري، ولكني أخشى أن ترفضه، فهل يزعجك أن نرفع الكلفة بيننا ؟»

– «كيف يزعجني، ويحك! «أيها الفرح! يادموع الفرح! أيتها السعادة المجهولة!»

– «كم أنا شاكر لك. حينما تكون قد بدأت! إن ذلك ليفرحني إلى حد أنك تستطيع ألا تفعل شيئاً فيما يخص السيدة «دو غيرمانت» إن شئت، فرفع الكلفة يكفيني.»

– «سنقوم بالأمرين معاً.»

وقلت لـ «سان لو» كذلك في أثناء العشاء: «آه! اسمع يا «روبير»! آه! إنها لمضحكة هذه المحادثة المتقطعة، ولستَ أعلم لماذا، على أي حال– تعلم، السيدة التي حدثتك عنها منذ قليل ؟»

– «أجل» !

– «تعلم تماماً من أقصد ؟»

– «ويحك، تعدّني غبياً من منطقة الـ«فاليه». ومتخلفاً.»

– «ألا تتكرم باعطائي صورتها ؟»

كنت أنوي أن أسأله إعارتي إياها فحسب. ولكني أحسست لحظة الكلام ببعض الوجل ورأيت أن

مطلبي بعيد عن التحفظ فصغته، كي لا أبدي من ذلك شيئاً، صياغة أكثر فظاظة وزدت فضخمته كما لو كان طبيعياً تماماً.

وأجابني قائلاً: «لا، فلابد أن أستأذنها أولاً».

وكست الحمرة وجهه في الحال ؛ وأدركت أن لديه مقصداً خفياً وأنه يعزو إليّ آخر وأنه لن يمد يد العون لحبي إلا إلى حد مع مراعاة بعض مبادئ أخلاقية وكرهته.

ولكنما كان يوثر في معذلك أن أرى إلى أيّ حد كان «سان لو» يبدو مختلفا إزائي منذ أن لم أعد وحدي معه وأن أصبح أصدقاؤه طرفاً ثالثاً. ولعل لطفه المتزايد كان سيخلف اللامبالاة في نفسي لو ظننت أنه مقصود، ولكني كنت أحسه غير مقصود لا يؤلفه سوى ما كان لابد قائله بشأني حينما أكون غائباً ويكتمه حينما أكون وحيداً معه. كنت بالتأكيد أخمن المتعة التي كان يصيبها في التحدث إليّ في جلساتنا المنفردة، ولكن تلك المتعة كانت تظل حبيسة الصدر على الدوام تقريباً. والأقوال نفسها التي كان يتذوقها بالعادة دون أن يظهر ذلك، كان الآن يرقب من طرف عينه إن كانت تثير لدى اصدقائه الأثر الذي توقعه والذي كان ينبغي أن يوافق ما سبق أن أخبرهم به. وليست تركز أمّ إحدى المبتدئات انتباهها على ردود ابنتها وعلى موقف الجمهور أكثر مما يفعل. وكان يخشى، إن قلت كلمة ما كان ليمحضها أمامي وحدي سوى ابتسامة، أن لا يكون تم إدراكها على أحسن وجه فيقول لي: «كيف، كيف؟» كي يحملني على التكرار وكي يحمل على الانتباه. ويلتفت في الحال إلى الآخرين ويجعل من نفسه، غير قاصد، فيما ينظر إليهم بضحكة عريضة، الدافع إلى ضحكهم فيقدم لي للمرة الأولى الفكرة التي يحملها عني والتي لابد أنه كثيراً ما أفصح لهم عنها. إلى حد أني كنت أبصر نفسي فجأة من الخارج كمثل من يقرأ اسمه في الجريدة أو يرى نفسه في مرآة.

واتفق لي في إحدى تلك العشيات أن رغبت في رواية قصة مضحكة إلى حد ما عن السيدة «بلانديه»، ولكني توقفت في الحال إذ ذكرت أن «سان لو» يعرفها وأنه قاطعني يوم ابتغيت أن أقولها له في اليوم التالي لوصولي، قاطعني بقوله: «لقد سبق أن رويتها لي في بالبيك.» لقد أدهشني إذن أن أراه يحثني على المتابعة وهو يؤكد لي أنه لايعرف هذه القصة وأنها سوف تسره كثيراً. وقلت له: «إنك تعاني من لحظة نسيان، ولكنك سوف تتعرفها عما قليل.» «لا، لا، أقسم لك أنك تخلط، فما قلتها لي في يوم، هيا.» وظل طوال القصة كلها يحدق بنظرات محمومة مفتونة إليّ طوراً وإلى رفاقي تارة أخرى. وأدركت بعدما انتهيت فقط وسط ضحكات الجميع أنه فكر أنها ستزوّد رفاقي بفكرة رفيعة عن ذكائي وأنه تظاهر لذلك بأنه لايعرفها، تلكم هي الصداقة.

وفي العشية الثالثة تحدث إليه أحد أصدقائه طويلاً جداً ولم يسبق أن سنحت لي الفرصة للتحدث إليه في المرتين الأوليين. وكنت أسمعه يروي لـ «سان لو» بصوت منخفض عن المتعة التي يلقاها في الحديث. وتحدثنا بالفعل معاً طوال الأمسية تقريبا أمام أقداح نبيذ «سوتيرن» التي لانفرغها وقد عزلنا عن الآخرين وحمانا منهم واحد من ضروب التعاطف تلك التي تتسم وحدها بالإبهام التام حينما لاتقوم على أساس الجاذب الجسدي. هكذا سبق أن بدت لي في«بالبيك» تلك العاطفة الغامضة في طبيعتها التي كان «سان لو» يكنها

لي والتي ما كانت تختلط بمتعة أحاديثنا وقد انفصلت عن أي رباط مادي، خفية غير ملموسة، ولكنما كان يحس بوجودها في داخله كضرب من اللهب الكامن، من الغاز وعلى قدر كاف ليتحدث عنها وهو يبتسم. وربما اتفق ما كان أكثر إدهاشاً بعد في هذا التعاطف الذي ولد ههنا في عشية واحدة كمثل زهرة تفتحت في مدى بضع دقائق في دفء هذه الحجرة الصغيرة. ولم أتمالك نفسي أن أسأل «روبير»، فيما يحدثني عن «بالبيك»، إن كان قد تقرر حقاً أن يتزوج الآنسة «دامبرساك». فأقر لي بأن الأمر لم يتقرر، وليس ذلك فحسب بل هو لم يكن البتة موضوع بحث وانه لم يرها قط ولا يعلم من عساها تكون. ولو اتفق أن رأيت في تلك اللحظة بعض أفراد المجتمع الراقي الذين أعلنوا عن هذا الزواج لأعلموني عن زواج الآنسة «دامبرساك» بواحد لم يكن «سان لو» وزواج «سان لو» بواحدة لم تكن الآنسة «دامبرساك». ولعلّني كنت ادهشهم كثيراً بتذكيرهم بتكهناتهم المغايرة والتي لاتزال قريبة جداً. وكيما يمكن أن تستمر هذه اللعبة الصغيرة وأن تكثر الأخبار الكاذبة بأن تراكم على التوالي أكبر عدد ممكن منها على كل اسم، فقد زودت الطبيعة هذا الصنف من اللاعبين بذاكرة يتزايد قصرها بقدر ما تتعاظم سرعة تصديقهم.

وكان «سان لو» قد حدثني عن آخر من رفاقه كان هنالك أيضاً وكان يتفق وإياه على أحسن وجه إذ كانا وحدهما في هذا الوسط يناصران إعادة النظر في دعوى «دريفوس».

وقال لي صديقي الجديد: «إنه ليس على غرار «سان لو»، فهو متهوّس وليس حتى سليم النية. كان بادئ الأمر يقول: «ماعلينا الا أن ننتظر، فثمة رجل أعرفه تمام المعرفة يفيض رقة وطيبة، إنه اللواء «بواديفر»، ويمكن أن نقبل برأيه دونما تردد.» ولكن حينما علم أن «بواديفر» كان ينادي بتجريم «دريفوس» أصبح «بواديفر» لايساوي شيئا من بعد. كانت النزعة الاكليروسية وآراء قيادة الأركان المتحيزة تحول دون أن يحكم بصدق مع أنه ليس من كان يبدي اتجاهاً اكليروسياً مثل صديقنا قبل قضية«دريفوس» وقد قال لنا حينذاك إن الحقيقة سوف تعرف لأن القضية سوف يتم وضعها بين يدي «دو سوسيّيه» وأن هذا الأخير، وهو جندي جمهوري(وصديقنا من أسرة تغالي في مناصرة الملكية)، رجل فولاذي ووجدان لايلين. ولكنه حينما أعلن «دو سوسييه» براءة «ديسترهازي» وجد لهذا الحكم تفسيرات جديدة لافي غير صالح دريفوس، بل في غير صالح اللواء «سوسيّيه»، فالروح العسكرية إنما تعمي «سوسييه» (ولاحظ أنه هو الآخر عسكري النزعة بقدر ما هو اكليروسيّها أو بقدر ما كانه على الاقل لاني لم أعد أعلم ما أعتقد بشأنه) وان أسرته شديدة الاغتمام إذ تراه بهذه الأفكار.

وقلت وأنا ألتفت نصف التفاتة صوب «سان لو»كي لا يبدو أنني انتحي جانبا وصوب رفيقه كذلك كي أحمله على المشاركة في الحديث «ترى، ذلك أن التأثير الذي يعزونه إلى البيئة إنّما يصدق على وجه الخصوص فيما يخص الوسط الفكري. فانما الرجل نتاج فكرته، وثمة أفكار أقل بكثير من عدد الرجال. وهكذا يتماثل جميع رجال الفكرة الواحدة. وبما أن الفكرة لاتتسم بأي سمة مادية فان الرجال الذين لايحيطون برجل الفكرة الا ماديا لايبدّلون فيها شيئا».

وفي هذه اللحظة قاطعني «سان لو» لان أحد الجنود الشبان دله عليّ وهو يقول مبتسما: «ديروك، إنه

بالتمام ديروك.» وما كنت أدري ما يعني ذلك ولكني كنت أحس أن تعابير الوجه الذي تملكته الخشية كانت تنم عما هو أكثر من العطف (*) فحينما كنت أتحدث كانت موافقة الآخرين لاتزال تبدو نافلة في نشر «سان لو» وكان يطالب بالسكوت. ومثلما يستوقف قائد أوركسترا موسيقية وهو يضرب بقوسه لأن أحدهم أثار ضجة، فقد أنب المشوش وقال: «چيبيرغ، ينبغي أن تصمت حينما يتحدث الناس، وتقول ذلك فيما بعد». وقال لي: «هيا، تابع!».

وتنفست الصعداء إذ خشيت أن يحملني على إعادة كل شيء. وأضفت قائلاً: «ولما كانت الفكرة أمراً لايستطيع المشاركة في المصالح البشرية ولا يمكن أن يحظى بمكاسبها فإن رجال فكرة ما لا يتأثرون بالمصلحة.»

وبعدما أتيت على آخر كلامي استعجب «سان لو» الذي كان لاحقني بنظراته بالعطف القلق نفسه كما لو أنني سرت على الحبال، استعجب قائلاً: «هيا قولوا يا أولادي، إن ذلك يزيد من معلوماتكم. ما الذي كنت تبغي قوله يا «چيبيرغ» ؟

– «كنت أقول إن السيد يذكرني كثيراً بالرائد «ديروك». حسبتني أسمعه.»

وأجاب «سان لو»: «لقد فكرت في ذلك كثيراً، فثمة الكثير من أوجه الشبه، ولكنك سترى أنه يتحلى بألف من الأمور لايتحلى بها «ديروك».

ومثلما كان لايفكر شقيق لصديق «سان لو» هذا طالب في «المعهد الموسيقي» بصدد أي عمل موسيقي جديد على نحو ما يفكر أبوه وأمه وأبناء أعمامه ورفاقه في النادي، بل يفعل بالضبط مثل جميع طلاب المعهد الآخرين، كذلك كان لصف الضابط هذا (الذي كوّن «بلوك» عنه فكرة خارقة حينما حدثته عنه إذ أثر في نفسه أن يعلم أنه من حزبه نفسه ولكنه أخذ يتصوره مع ذلك بسبب منشئه الارستقراطي وتربيته الدينية والعسكرية يختلف عنه أشد الاختلاف ويزدان بالسحر نفسه الذي يحيط بأحد مواليد منطقة قصية) «ذهنية». حسبما أخذ الناس يقولون، مماثلة لذهنية جميع مناصري «دريفوس» بعامة و«بلوك» بخاصة ولا يمكن لتقاليد

(*) لم يكتف «سان لو» بهذه المقارنة، فقد أخذ في سورة من الفرح كان يضاعف منها دونما شك الفرح الذي يحسه من جراء إتاحة الفرصة لي للتألق أمام أصدقائه، أخذ يردد لي بذلاقة عظيمة وهو يداعبني على غرار حصان كان أول الواصلين إلى خشبة الحاجز: «تدري، أنت أذكى من أعرف من الرجال». واستدرك وأضاف: «إلى جانب «ايلستير»، ليس يغضبك الأمر، أليس كذلك؟ مسألة دقة كما تعلم. هذه مقارنة: أقول ذلك كما ربما قيل لـ «بلزاك»: إنك أعظم روائي في هذا القرن، إلى جانب «ستاندال». فرط دقة كما تعلم، وفي الأساس إعجاب لامحدود. «لا؟ لا توافق فيما يخص «ستاندال»/ يضيف قوله وبه ثقة ساذجة بما أحكم به تترجمها ابتسامة متسائلة ساحرة وتكاد تكون طفولية في عينيه الخضراوين. «حسن! أرى أنك من رأيي. أن «بلوك» يكره «ستاندال»، وفي رأيي أن الأمر غبي فيما يخصه. مع أن رواية «الشارتروز» شيء ضخم. ويسرني أن ترى ما أرى.» ثم يملي علي باندفاع الشباب: «ما الذي تفضله في رواية «الشارتروز» ؟ أجب»، وتضفي قوته البدنية ما يقرب أن يكون مرعباً على سؤاله. «أهو موسكا» ؟ أهو فابريس؟» وكنت أجيب باستحياء بأن لدى «موسكا» بعض ما في السيد «دونوربوا»، فاذا عاصفة من الضحك يطلقها «زيغفريد سان لو» الشاب. وما أن انتهي من إضافة قولي: «ولكن «موسكا» أشد ذكاء بكثير وأقل حذلقة حتى أسمع «روبير» يصيح قائلاً: مرحى، وهو يصفق بالفعل ويضحك حتى ليختنق ويصرخ قائلاً: «بالصحة! التعبير ممتاز، إنك لامثيل لك».

أسرته ومصالح عمله أن يكون لها أي تأثير عليها. من ذلك أن إبن عم لـ «سان لو» تزوج أميرة شابة من الشرق كانت تنظم فيما يقولون أشعاراً في مثل جمال شعر «فيكتور هوغو» أو «ألفريد دو فينيي» ويفرضون لها على الرغم من ذلك روحاً غير ما يمكن أن يتصور المرء، روح أميرة من الشرق حبيسة في أحد قصور ألف ليلة وليلة وقد خص الكتاب الذين حظوا بالاقتراب منها بخيبة الامل أو بالأحرى بالمسرة لسماع حديث يخلف لديهم لافكرة عن «شهرزاد» بل فكرة عن إنسان عبقري من نوع «ألفريد دو فينيي» أو «فيكتور هوغو».

كان يسرني على وجه الخصوص أن أتحدث إلى هذا الشاب وإلى أصدقاء «روبير» الآخرين أيضاً وإلى «روبير» نفسه عن الثكنة وضباط الثكنة والجيش بعامة. وكنت قد باشرت، بفضل هذا المقياس المضخم إلى ما لاحدود والذي نرى به الأشياء التي نأكل وسطها ونتحدث ونعيش حياتنا، مهما صغرت تلك الأشياء، وبفضل هذه الزيادة الضخمة التي تقع لها والتي تؤدي إلى أن البقية لايمكنها، وقد غابت عن العالم، أن تنافسها وهي تتخذ إزاءها لاتماسك الحلم، باشرت أهتم بمختلف شخصيات الثكنة والضباط الذين كنت ألمحهم في الباحة حينما أذهب للقاء «سان لو» أو حينما كانت الكتيبة تمر تحت نوافذي إن كنت مستيقظاً. ووددت لو تتيسر لي تفاصيل حول الرائد الذي كان «سان لو» ينظر إليه باعجاب، وحول مقرر التاريخ العسكري الذي كان سيفتنني – حتى على الصعيد الجمالي». كنت أعلم أن لدى «روبير» نزعة لفظية هي في الأغلب فارغة بعض الشيء ولكنما كانت تعني في مرات أخرى تمثل أفكار عميقة كان قادراً تماماً على إدراكها. بيد أن «روبير» لسوء الحظ كان، فيما يخص الجيش، مهتماً كل اهتمام في هذه الفترة بقضية «دريفوس». كان قليل الحديث عنها لأنه الوحيد بين جلسائه من مناصري «دريغوس» فالآخرون يناهضون بعنف اعادة النظر، فيما عدا جاري على المائدة، وهو صديقي الجديد الذي كانت تبدو آراؤه على شيء من التردد. فقد سبق أن بلغ جاري، وهو معجب أكيد بالعقيد الذي كانوا يعدونه ضابطاً مرموقاً وقد ندد بالفتنة التي وقعت ضد الجيش في أوامر يومية مختلفة عدّوه بها بمثابة مناهض لـ «دريفوس»، بلغه أن آمره أطلق بعض التأكيدات التي حملت على الظن بأنه كان يشك في تجريم «دريفوس» ويحتفظ بتقديره لـ «بيكار». على أن شائعة وقوف العقيد النسبي إلى جانب «دريفوس» كانت فيما يخص هذه النقطة الأخيرة دون أساس متين في جميع الأحوال شأن جميع الشائعات التي تنطلق من حيث لا نعلم والتي تتشكل من حول أية مسألة كبرى. ذلك أن هذا العقيد كان قد كلّفَ بعد ذلك بقليل التحقيق مع رئيس مكتب الاستخبارات الأسبق فعامله بوحشية وزراية لم يبلغهما بعد أحد في يوم. ومهما يكن من أمر ومع أن جاري ما كان ليسمح لنفسه بالاستعلام مباشرة لدى العقيد فقد تلطف وقال لـ «سان لو»– باللهجة التي تصرح بها سيدة كاثوليكية لسيدة يهودية أن خوري رعيتها يندّد بمذابح اليهود في روسيا وينظر باعجاب إلى أريحية بعض الاسرائيليين [1]– إن العقيد لم يكن بالنسبة إلى متاصري «دريفوس» «–بالنسبة إلى اتجاه معين على الأقل بين مناصري «دريفوس» –الخصم المتعصب الضيق الأفق الذي صوّروه.

وقال «سان لو»: «لست أعجب لذلك، فإنه رجل ذكي. ولكنما تعميه مع ذلك المواقف المنشئية المتحيزة ولاسيما النزعة الاكليروسية.» ثم أردف يقول لي: آه االرائد «ديروك»، أستاذ التاريخ العسكري الذي حدثتك

(١) بالمعنى الديني واللفظة ترجمة لـــ israélites

عنه، هاك واحدا يماشي أفكارنا إلى أقصى حد فيما يبدو. ولعل العكس كان يدهشني على أية حال لأنه ليس رائع الذكاء فحسب، بلهو اشتراكي راديكالي وماسوني.»

وسألت جاري، بداعي التأدب إزاء أصدقاء «سان لو» الذين كانت تشق عليهم تصريحاته العلنية في مناصرة «دريفوس» ولأن الأمور الباقية كانت أكثر أثارة لاهتمامي، إن كان صحيحاً أن هذا الرائد يحيل التاريخ العسكري براهين ذات مسحة جمالية حقيقية.»

– «صحيح بوجه الاطلاق.»

– «ولكن ما عساك تعني بذلك؟»

– «خذ، على سبيل المثال، إن كل ما تقرؤه، افتراضاً، في رواية أحد الرواة العسكريين، أصغر الوقائع وأصغر الأحداث إن هي إلا علامات فكرة ينبغي استخلاصها وهي في الغالب تغطي غيرها كما هي الحال في الطروس، وبذلت تتكون لديك مجموعة فكرية بقدر أي علم أو أي فن وتبدو مرضية للعقل.»

– «هات أمثلة، إن لم أثقل عليك.»

وقاطعني «سان لو» قائلاً: «من الصعب أن أقول لك هكذا. أنت تقرأ على سبيل المثال أن هذه القطعة العسكرية حاولت.... وقبل المضي إلى أبعد من ذلك فليس اسم القطعة وتأليفها خاليين من الدلالة. فإن لم تكن المرة الأولى التي تتم فيها محاولة العملية وإن رأينا قطعة أخرى تبرز على الساحة من أجل العملية نفسها فربما أشار ذلك إلى أن القطعات السابقة قد أبيدت أو ألحقت بها العملية المذكورة أضراراً بالغة وانها لم تعد قادرة على انجاحها. ولابد أن نتقصى من كانت تلك القطعة التي أبيدت اليوم، فإن كانت فرق صدام احتفظوا بها بمثابة احتياط لعمليات اقتحام ضخمة فإن قطعة أدنى تملك حظاً أقل في الإفلاح حيث أخفقت تلك. وإن لم يتم الأمر، إلى ذلك، في بدء حملة عسكرية فان هذه القطعة الجديدة نفسها يمكن أن تتألف من عناصر مشتتة، الامر الذي يمكن أن يزودنا بشأن القوات التي لاتزال في حوزة المتحاربين وبشأن قرب اللحظة التي ستضحي فيها أدنى سوية من قوات الخصم، بمعلومات تضفي على العملية نفسها التي ستقدم عليها تلك القطعة مدلولاً مختلفاً لأنها إن لم تعد قادرة أن تعوض عن خسائرها فإن انتصاراتها نفسها لن تقودها حسابياً إلا إلى الإبادة النهائية. وليس بأقل دلالة من ناحية أخرى الرقم الذي يتضمن خصائص القطعة التي تتصدى لها. فإن كانت على سبيل المثال وحدة أضعف بكثير وسبق أن قضت على وحدات هامة للخصم فإن العملية نفسها تتبدل في طبيعتها، ذلك أنها وأن أنتهت بخسارةالموقع الذي كان المدافع يسيطر عليه فأن سيطر عليه إلى حين يمكن أن يشكّل انتصاراً كبيراً إن كَفَتَ الاستعانة بقوات ضئيلة جداً للقضاء على قوات كبيرة جداً لدى الخصم. ويمكنك أن تدرك أننا إن لقينا هكذا أموراً هامة في تحليل القطعات المزجوجة في المعركة فإن دراسة الموقع نفسه والطرق والسكك الحديدية التي تتحكم بها وصنوف التموين التي يحميها أوفر أهميّة» وأضاف ضاحكاً: «ولابد من دراسة ما أدعوه بكامل الظروف الجغرافية المحيطة.» (وقد سر بالفعل لهذه العبارة إلى حدّ أنّ الضحكة نفسها وافته على الدوام في كل مرة استخدمها فيها حتى عقب شهور من ذلك.) فان أنت قرأت، أثناء ما يتم الإعداد للعملية على يد أحد الأطراف المتحاربة، أن احدى دورياته قد أبيدت في جوار

موقع على يد الطرف الآخر فإن أحد الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها هو أن الأول كان يحاول تبين الأعمال الدفاعية التي ينوي الثاني بها تفشيل هجومه، ويمكن لعملية عنيفة على نحو خاص في نقطة معينة أن تشير إلى الرغبة في الاستيلاء عليها، وكذلك إلى الرغبة في إيقاف الخصم هناك والامتناع عن الرد عليه حيث هاجم، أو حتى أن لا تكون سوى خدعة وأن تخفي خلف مضاعفة العنف هذه عمليات سحب قوات من ذلك المكان. (وإنها لخدعة تقليدية في حروب نابليون.) وليس غير ذي بال، من أجل إدراك دلالة مناورة معينة وهدفها المحتمل وأية مناورات بالتالي سوف ترافقها أو تليها، أن تستطلع ما تصرح بها القيادة عنها، مما يمكن أن يكون معداً لتضليل الخصم واخفاء فشل ممكن، أقل بكثير مما نستطلع أنظمة البلاد العسكرية. إذ ينبغي الافتراض أبداً بأن المناورة التي ابتغى أحد الجيوش تنفيذها إنما هي تلك التي ينص عليها النظام المطبق في الظروف المشابهة. فإن نص النظام على سبيل المثال على مرافقة هجوم تصادمي بهجوم جانبي وإن فشل هذا الهجوم الثاني فزعمت القيادة أن لا علاقة تربطه بالأول وأنه محض عملية إلهاء فالمحتمل أنه يجدر البحث عن الحقيقة في النظام لا في تقوّلات القيادة. وليس ثمة الأنظمة الخاصة بكل جيش فحسب، بل ثمة تقاليدهم وعاداتهم مذاهبهم. ويجدر كذلك ألا نهمل دراسة العمل الدبيلوماسي وهو على الدوام في حالة مستمرة من الفعل أو رد الفعل العسكري. فسوف توضح لك حوادث غير ذات شأن في ظاهرها ولم يتم فهمها في زمانها أن العدو الذي اتكل على معونة كشفت هذه الحوادث أنه حرِمَها لم ينفذ في الواقع سوى جزء من عمله الاستراتيجي. وهكذا فإن ما كان رواية مبهمة في نظر عامة القرّاء أضحى بالنسبة إليك، إن عرفت كيف تقرأ التاريخ. ترابطاً في مثل معقولية لوحة بالنسبة إلى الهاوي الذي يعرف كيف ينظر إلى ما يرتدي الشخص من ملابس وما يمسك بين يديه فيما زائر المتاحف الذاهل الدوار والصداع من جراء ألوان غامضة. ولكن هذه العمليات العسكرية، كما هو شأن بعض اللوحات التي لايكفي معها أن نلاحظ أن الشخص يمسك فيها بكأس بل ينبغي أن نعلم لماذا وضع المصور بين يديه كأساً وما الذي يرمز إليه بذلك. منسوخة بالعادة، حتى خارج هدفها المباشر، في ذهن اللواء الي يقود الحملة عن معارك أكثر قدماً هي، إن شئت، بمثابة ماضي المعارك الجديدة، بمثابة مكتبتها وعلمها الواسع وأصولها وارستقراطيتها. ولاحظ أني لا أتكلم في هذه اللحظة عن الهوية المحلية للمعارك، ما عساي أقول، الهوية المكانية. وإنها لقائمة أيضاً. إن ميدان معركة ما لم يكن ولن يكون عبر القرون ميدان معركة واحدة. ولئن كان ميدان معركة فلأنه كان يجمع بعض شروط في الموقع الجغرافي والطبيعة الجيولوجية وحتى العيوب التي من شأنها إعاقة الخصم (كنهر على سبيل المثال يقطعه قسمين) جعلت منه ميدان معركة يفي بالغرض. لقد كان كذلك إذن وسوف يظل. لست تقيم مشغل رسم باللجوء إلى أية غرفة، ولست تصنع ميدان معركة باللجوء إلى أي مكان. فهناك أمكنة مصطفاة سلفاً. ولكني، وأقولها ثانية، ما كنت أتحدث عن ذلك، بل عن طراز المعركة التي تتم محاكاتها، عن نوع من النسيج الإستراتيجي، من المحاكاة التكتيكية إن شئت: كمعركة «أولم» و«لودي» و«لابيزيغ» و«كان». لست أدري إن كانت ستقع حروب أيضاً ولا بين أية شعوب ؛ أما اذا وقعت فتأكد أن ستكون ثمة (وعلى نحو مقصود فيما يخص القائد) معركة «كان» ومعركة «أوسترليتز» و«روزباخ» و«واترلو»، ناهيك عن الأخريات. ولايشعر بعضهم بالحرج في قول ذلك، فقد أعد المشير «فون شليفن» واللواء «دو فالكنهاوزن» سلفاً ضد فرنسة ما يشبه معركة «كان» من طراز هنيبعل يرافقها تثبيت الخصم على سائر الجبهة والتقدم بطريق الجناحين ولاسيما الميمنة في بلچيكا، في حين يفضل «برنهاردي» نظام «فريدريك» الأول المائل، بفضل «لوتين» على «كان» ويعرض

آخرون آراءهم عرضاً أقل فجاجة، ولكني أؤكد لك تماماً ياصاح أن «بوكونيسي» قائد السرايا الذي قدمتك إليه ذاك اليوم، وهو ضابط ينتظره مستقبل باهر، قد درس بجد هجومه الصغير على «براتزن» ويعرف خبايا زواياه ويضعها في جعبة احتياطه، فإن سنحت له في اليوم فرصة تنفيذه لم يتوان وقدمه إلينا في أوفى خطوطه. لسوف يعاد اختراق الوسط إن ظل ثمة حروب، فليس ذلك أقدم عهداً من الإلياذة. وأضيف أنه مقضي علينا تقريباً باللجوء إلى الهجوم التصادمي لأننا لا نود أن نرتكب ثانية خطيئة عام السبعين بل نود القيام بالهجوم ولاشيء سوى الهجوم. والأمر الوحيد الذي يقلقني أني كنت لا أبصر سوى عقول متخلفة تقاوم هذا المذهب الرائع فإن أحد أحدث أساتذتي سنا، وهو رجل عبقري يدعى «مانجان»، يود أن يحتفظ للدفاع بمكانه، مكان مؤقت بالطبع. وتلفي نفسك محرجاً بالرد عليه حينما يستشهد بـ «أوسترليتز» حيث لايعدو الدفاع أن يكون فاتحة الهجوم والنصر.»

كانت نظريات «سان لو» هذه تبعث فيّ السعادة ؛ فقد كانت تحمل إليّ الأمل بأنني ربما لم أكن، في حياتي في «دونسيير»، إزاء أولئك الضباط الذين كان يوافيني الحديث عنهم وأنا أحتسي خمور «سوتيرن» التي تعكس عليهم أثرها الساحر، لم أكن ضحية ذاك التضخيم نفسه الذي ضخم في عيني طوال إقامتي في «بالبيك» ملك أوقيانا وملكتها وجماعة الذواقة الأربعة الصغيرة واللاعب الشاب وشقيق زوجة «لوغراندان» وقد تقلصوا الآن في ناظري حتى ليخيل إليّ أنهم غير موجودين فربما لم يصبح ما كان يروقني اليوم غير دي بال في نظري غدا مثلما وقع لي على الدوام حتى الآن. وربما لم يكن محكوماً على الكائن الذي لا أزال أؤلفه في تلك الفترة بافناء قريب لأن «سان لو» كان يضيف إلى الغرام الملتهب والسريع الزوال الذي كنت أبديه في تلك الأماسي القليلة لكل ما يتعلق بالحياة العسكرية من جراء ما قاله مما يخص فن الحرب، كان يضيف أساساً فكرياً يتصف بالاستمرار ويستطيع أن يشدني إليه بما يكفي من القوة ليمكنني الاعتقاد، دون محاولة مني لخداع نفسي، بأنني سأوالي بعدما أرحل الاهتمام بأشغال أصدقائي في «دونسيير» ولن يطول بي االأمر حتى أعود فيما بينهم. وكيما أزداد مع ذلك ثقة بأن فن الحرب هذا فن أكيد يمعنى اللفظة الفكري قلت لـ «سان لو» :

– «تثيرون» اهتمامي، عفوك، تثير اهتمامي إلى حد بعيد، ولكن قل لي، ثمة نقطة تقلقني. أحس أنه يمكنني التوله بالفن العسكري، بيد أنه ينبغي لذلك أن لا أحسبه مختلفا إلى هذا الحد عن الفنون الأخرى وأن لاتمثل القاعدة المتعلمة كل شيء فيه. تقول لي إنه يتّم نسخ معارك، وانني أرى الأمر بالفعل جميلاً، حسبما كنت تقول أن يبصر المرء خلف معركة حديثة معركة أكثر قدماً، ولا يسعني أن أقول لك إلى أي حد تروقني هذه الفكرة. ولكن أتراه لايساوي شيئاً نبوغ القائد حينذاك؛؟ أو لايقوم بالحقيقة الا بتطبيق القواعد؟ أم أن هنالك، بتساوي العلم، قواداً عظاماً مثلما هنالك جراحون عظام يحسون، فيما العناصر التي تزودهم بها حالتان مرضيتان واحدة على الصعيد الجسمي، يحسون انطلاقاً من أمر زهيد ربما صنعته تجربتهم ولكنما تم تفسيره أنه يقع عليهم في هذه الحالة أن يفعلوا بالأحرى هذا الأمر وفي تلك أن يفعلوا بالأحرى ذاك، وأنه حريّ بهم أن يجروا العملية في هذه الحالة وأن يمتنعوا في تلك؟»

– ذلك بالتمام ما اعتقد! سوف ترى نابليون لايهاجم حينما كانت القواعد جميعها تفرض أن يهاجم،

ولكن تكهنًا غامضاً كان ينهيه عن ذلك. هاك «أوسترليتز» مثلاً أو تعليماته عام ١٨٠٦ إلى «لانّ» ولكنك سترى قادة يقلدون تقليداً مدرسياً هذه المناورة أو تلك لنابليون ويصلون إلى نقيض نتيجته تماماً. ثمة عشرة أمثلة من هذا القبيل في عام ١٨٧٠. ولكن، حتى على صعيد تفسير ما يمكن أن يفعله الخصم، ليس مايفعله سوى ظاهرة يمكن أن تعني الكثير من الأمور المختلفة. ولكل من هذه الأمور مقدار الحظ نفسه في أن يكون هو الصحيح إن اقتصرنا على المحاكمة العقلية وعلى العلم، مثلما لاتكفي علوم العالم الطبية بكاملها في بعض الحالات المعقدة لتقرير ما إذا كان الورم الخفي ليفياً أم لا وإن كان ينبغي إجراء العملية أم لا. إنها حاسة الشم، إنه التكهن على طريقة السيدة «دو تيب» (أنت تفهمني) الذي يحكم بالأمر لدى القائد الكبير والطبيب الكبير على حد سواء. من ذلك أني قلت لك، لأضرب لك مثلاً، ما يمكن أن يعنيه الاستطلاع في بدء إحدى المعارك. بيد أنه يمكن أن يعني عشرة أمور أخرى، كأن تحمل العدو مثلاً على الاعتقاد بأنك تزمع المهاجمة في نقطة معينة في حين تبغي الهجوم في نقطة أخرى، أو ترخي ستاراً يحجب عنه رؤية الاستعدادات للعملية الحقيقية، أو تضطره إلى جلب القطعات وتثبيتها وتجميدها في غير المكان الذي هي ضرورية فيه، أو تتبين القوات التي بحوزته وتتلمسه وتضطره إلى كشف أوراقه. وحتى أمر زج قطعات ضخمة لعدد في عملية ما ليس البرهان أحياناً على أن هذه العملية هي الحقيقية، إذ يمكن تنفيذها جدياً مع أنها محض خدعة كي يتجمع لهذه الخدعة فرص أكثر في التضليل. ولو اتسع لي الوقت لاروي لك حروب نابليون من وجهة النظر هذه فاني أؤكد أن هذه الحركات الكلاسيكية البسيطة التي ندرسها والتي ستراننا نقوم بها أثناء الخدمة في الحقول، لمحض متعة التنزهة أيها الخنزير اللعين (لا، أعلم أنك مريض، عفوك!)، حسن، حينما نحس خلفها في إحدى الحروب يقظة القيادة العليا ومحاكمتها وبحوثها العميقة فإنما تهتز مشاعرنا أمامها شأنها أمام مجرد أضواء منارة وهي نور مادي ولكنها صادرة عن الفكر وتجوب فسيح المكان لتنبه السفن إلى الخطر. وربما كنت حتى على ضلال في أن أحدثك بلغة أدب الحرب فحسب. فمثلما يشير تكوين الأرض واتجاه الريح والضوء إلى الجهة التي ستنمو الشجرة فيها تحكم الشروط التي تتم فيها حملة ما ومميزات المنطقة التي تم المناورة فيها، تحكم في الواقع نوعاً ما الخطط التي يستطيع القائد أن يختار من بينها وتحد منها. حتى ليمكنك التنبؤ بمسيرة الجيوش، بما يقارب صفة الضرورة والجمال الرائع في منهارات الثلوج، على سفوح الجبال وفي مجموعة من الوديان وفي هذه السهول أو تلك.»

– «انك تنكر عليَّ الآن الحرية لدى القائد والتكهن لدى الخصم الذي يود تبين خططه، وكنت وهبتني إياهما منذ قليل.»

– «لا، بوجه الإطلاق! تذكر كتاب الفلسفة ذاك الذي كنا نقرؤه سوية في «بالبيك»، والوفرة في عالم الممكنات بالنسبة إلى العالم الحقيقي. حسن! إن الأمر لكذلك في فن الحروب. ففي حالة معينة ثمة أربع خطط تفرض نفسها واستطاع القائد أن يختار من بينها، مثلما يمكن أن يتبع مرض خطوط سير مختلفة يجدر بالطبيب أن يتوقعها. وهنا أيضا يبدو ضعف الإنسان وعظمته بمثابة أسباب جديدة للحيرة. فلنفرض أن أسبابا طارئة (كأهداف ثانوية بلوغها أو الوقت الضيق أو العدد القليل في قواته وسوء تموينها) تحمل القائد على أن يفضل من بين هذه الخطط الأربع الخطة الأولى، وهي أقل كمالاً ولكن تنفيذها أقل كلفة وأوفر سرعة وتمتد ساحتها على منطقة أوفر غنى لإطعام جيشه. وقد يتفق له، بعدما يشرع بهذه الخطة الأولى التي سيتبينها العدو

عما قليل بعدما حار بادئ الأمر فيها، أن لا يستطيع النجاح فيها بسبب عقبات كبيرة جداً– الأمر الذي أدعوه بالاحتمال الصادر عن الضعف الإنساني – وان يهجرها ويحاول في الخطة الثانية أو الثالثة أو الرابعة. بيد أنه يمكن كذلك ألا يكون أجرى محاولة– وهذا أدعوه بالعظمة الإنسانية– إلاّ بداعي الخدعة ولتثبيت الخصم على نحو تفاجئه فيه حيث ما كان يحسب أنه سيهاجَم. من ذلك أن «ماك» الذي كان ينتظر العدو في «أولم» من الغرب قد تم تطويقه من الشمال حيث كان يحسب أنه في أتم الطمأنينة. وليس مثالي موفقاً جداً على أية حال. و«أولم» نمط أفضل في معارك الالتفاف سوف نراه يستعاد في المستقبل لأنه ليس مثالاً كلاسيكياً سوف يستلهمه القادة فحسب بل صيغة ضرورية إلى حد ما (ضرورية بين صيغ أخرى الأمر الذي يوفر الخيار والتنوع) كمثل نمط من التبلور. ولكن ذلك كله لاطائل تحته لأن هذه الأطر مصطنعة على الرغم من كل شيء. أعود إلى كتابنا الفلسفي، الأمر يشبه المبادئ العقلية أو القوانين العلمية والواقع ينطبق عليها تقريباً، ولكن عد بالذاكرة إلى الرياضي العظيم «بوانكاريه»، فليس أكيداً أن الرياضيات صحيحة كل الصحة. فأما الأنظمة نفسها التي حدثتك عنها فهي بإجمال القول ثانوية في أهميتها ويتم تبديلها على أية حال بين الحين والحين. من ذلك أننا نعيش، نحن الفرسان على نظام التدريب الحي لعام ١٨٩٥ الذي بوسعنا القول إنه تقادم عهده بما أنه يرتكز على المذهب القديم البالي القائل بأن قتال الفرسان لايملك سوى أثر معنوي تقريباً بالذعر الذي تبعثه غارة الخيالة في الخصم. ولكن أكثر رؤسائنا ذكاء، وهم أفضل من في الفرسان ولاسيما الرائد الذي كنت أحدثك عنه ؛ يرون على العكس أن الحسم يتم بلوغه في اشتباك حقيقي يتم فيه القتال بالسيف والرمح وينتصر فيه من كان أوفر صلابة لاعلى صعيد محض معنوي وبتأثير الذعر بل على صعيد مادي.»

وقال جاري: «إن «سان لو» على حق والأرجح أن نظام التدريب الحي المقبل سوف يحمل أثر هذا التطور.»

وقال«سان لو» ضاحكاً: «لست غاضباً من جراء موافقتك إذ يبدو أن آراءك أكثر تأثيراً في صديقي من آرائي»، إما لأن هذه المودة الوليدة بين رفيقه وبيني كانت تزعجه بعض الشيء وإما لأنه رأى من اللطف أن يكرسها باثباتها رسمياً. «ثم إني ربما قللت من أهمية الأنظمة. إنه يتم تغييرها، ذلك أمر أكيد، ولكنها حتى ذاك تحكم الوضع العسكري وخطط المعارك وحشد القوات. فإن عكست تصوراً استراتيجياً خاطئاً أمكن أن تكون المصدر الأولي للهزيمة.» ثم قال لي: «كل ذلك على شيء من التقنية بالنسبة إليك. فاعلم أن أكثر ما يسرّع تطور فن الحرب إنما هو في الأساس الحروب نفسها. فأنت ترى أحد المتحاربين في أثناء حملة ما، إن هي طالت قليلاً، يفيد من الدروس التي تلقنه إياها نجاحات الخصم وأخطاؤه ويحسّن طرائق هذا الأخير الذي يغالي فيها بدوره. على أن ذلك أضحى من الماضي. فسوف تصبح حروب المستقبل. إن ظل ثمة حروب، بفضل تقدم المدفعية المخيف، قصيرة جداً حتى ليتم السلام قبل أن يفكر المرء في الإفادة من الدرس الملقن.»

وقلت لـ «سان لو» : «لاتك شديد الحساسية، فقد أصغيت إليك بقدر من النهم كاف»، وأنا أرد بذلك على ما سبق أن قال قبل هذه االأقوال الأخيرة.

وأضاف صديق «سان لو» يقول: إن تفضلت فلم تغضب دونما سبب وسمحت بذلك فسوف أضيف

إلى ما قلته منذ قليل أن المعارك إن هي تمت محاكاتها وتطابقت فما الأمر بسبب نباهة القائد فحسب. فقد يتفق للقائد أن يسوقه أحد أخطائه (كتقدير غير كاف لقيمة الخصم على سبيل المثال) إلى مطالبة قواته بتضحيات مفرطة، تضحيات تنفذها بعض الوحدات بتجرد رفيع إلى حد أن دورها يضحى بذلك شبيهاً بدور هذه الوحدة أو تلك في أي معركة أخرى وسوف يذكرها التاريخ على أنها أمثلة قابلة للمبادلة فيما بينها: فإن اكتفينا بعام ١٨٧٠، فالحرس البروسي في «سان لو» و«التركو»[١] في «فروشفيلر» وفي «فيسنبورغ».

وقال «سان لو»: «قابلة للمبادلة فيما بينها! هذا صحيح تماما! ممتاز! ويانعمَ الذكاء

وما كنت لامبالياً بهذه الامثلة الأخيرة شأني في كل مرة يبرزون لي العام فيها خلف الخاص. على أن عبقرية القائد، ذلكم ما كان يثير اهتمامي، فقد كنت أود تبين ما تقوم عليه وكيف يتصرف في ظرف معين لايستطيع القائد غير العبقري الصمود فيه أمام الخصم، كيف يتصرف القائد العبقري ليعيد لصالحه المعركة التي مالت كفتها، وهو أمر ممكن تماماً، حسبما يقول «سان لو»، وقد تحقق مرات عدة على يد نابليون. وكيما أفهم أي شيء هي القيمة العسكرية، كنت أطالبهم بمقارنات بين القادة الذين كنت أعرف أسماءهم، من منهم يملك قدراً أكبر من طبيعة القائد، ومواهب المخطط الحربيّ وإن بلغ بي أن أزعج أصدقائي الجدد الذين ما كانوا يبدون من ذلك شيئا وكانوا يجيبونني بلطف لايعرف الكلل.

كنت أحسني مفصولاً لا عن الليل الكبير الجليدي الذي يمتد في البعيد فحسب، والذي كنا نسمع فيه بين الحين والحين صفارة قطار كانت تزيد فحسب من متعة أن تكون هنا، أو رنات ساعة لاتزال لحسن الحظ بعيدة عن تلك التي ينبغي لهؤلاء الشبان أن يستعيدوا سيوفهم فيها ويعودون– بل عن جميع الشواغل الخارجية كذلك، ولولا القليل، وعن ذكرى السيدة «دو غير مانت»، من جراء لطف «سان لو» الذي يضفي عليه كأنما كثافة أكثر لطف أصدقائه الذي ينضاف إليه، وكذلك من جراء الحر في قاعة الطعام الصغيرة هذه، ومن جراء الأطباق الفاخرة التي تقدم لنا فيها. لقد كانت تولي خيالي من المتعة ما تولي نهمي. فقد كانت رقعة الطبيعة الصغيرة التي استخرجت منها، جرن المحار الخشن الذي بقيت فيه بعض قطرات من الماء المالح، أو غصن كرمة أعقد وأوراق اصفرت حول عنقود عنب، كانت لاتزال تحيط بها أحيانا غير صالحة للأكل شاعرية بعيدة كمثل منظر طبيعي تتعاقب بها في أثناء العشاء إيحاءات بقيلولة في ظل كرمة وبنزهة في البحر. وكان يتم إبراز خاصية الأطباق الفريدة هذه في عشيات أخرى على يد الطاهي وحده، وكان يقدمها في إطارها الطبيعي على غرار عمل فني؛ فسمكة مطهوة بالمرق الأبيض تجلب في قصعة طويلة من الفخار وتبدو فيهاء إذ تبرز فوق نثارات من أعشاب ضاربة إلى الزرقة، متماسكة ولكنها لاتزال تلتوي من جراء أن ألقيت حية في الماء الغالي تحيط بها دائرة من الاصداف، من حيوانات تدور في فلكها كالسراطين والقرادس وبلح البحر، تبدو فيها وكأنها تظهر في قطعة خزفية من أعمال «بيرنار باليسي».

وقال لي «سان لو» نصف هازل ونصف هازل ونصف جاد وهو يشير إلى الاحاديث الجانبية التي لا تنتهي والتي كانت بيني وبين صديقه إنني أغار، وأنا حانق! فهل تراه أوفر ذكاء مني؟ وهل تحبه أكثر مني؟

(١) فرق من الجنود الجزائريين.

وليس والحالة هذه من أمر إلا وتخصه به؟ (إن الرجال الذين يحبون امرأة حباً جماً ويعيشون في مجتمع رجال ميالين إلى النساء يسمحون لانفسهم بمزحات لايجرؤ عليها آخرون ربما أبصروا فيها قدرا من البراءة أقل.)

كانوا يتجنبون، حالما يضحي الحديث عاماً، التحدث عن «دريفوس» مخافة أن يجرحوا شعور «سان لو» بيد أن اثنين من رفاقه أبديا بعد أسبوع كم يبدو غريباً أن يكون من مناصري «دريفوس» بهذا المقدار ويكاد يناهض الروح العسكرية وهو يعيش في بيئة عسكرية إلى هذا الحد، فقلت ومرادي ألا أدخل في التفاصيل: «ذلك لأن تأثير البيئة لايملك ما نظن من أهمية...» كنت أنوي بالتأكيد الوقوف عند هذا الحد وألا أعود إلى الأفكار التي سبق أن عرضتها لـ «سان لو» قبل بضعة أيام. وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أزمع، إذ سبق أن قلت له هذه الكلمات على الأقل بما يقرب أن يكون حرفياً، الاعتذار عن ذلك بأن أضيف: «وهو بالضبط ما كنت في ذلك اليوم...» ولكنني لم آخذ في حسابي الوجه الآخر الذي يملكه اعجاب «روبير» اللطيف بي وببعض الأشخاص الآخرين. فقد كان هذا الإعجاب يكتمل بتمثل تام لأفكارهم إلى حد ينسى معه بعد انقضاء ثمان وأربعين ساعة أن تلك الأفكار لاتصدر عنه. ولذلك حسب «سان لو» من واجبه، فيما يخص طرحي المتواضع وكأنما بالتمام أقام على الدوام في دماغه، وكأني إنما أطوف في مملكته، أن يهنئني بسلامة الوصول تهنئة حارة وأن يقرّني في ما قلت:

- «بالطبع! البيئة لا أهمية لها.»

وأضاف كما لو خشي أن أقاطعه أو ألا أفهمه وبالقوة نفسها:

- «التأثير الحقيقي هو تأثير الوسط الفكري، فالإنسان نتاج فكرته!» وتوقف لحظة وبه ابتسامة من هضم تمام الهضم وترك نظارته تهوي وثبت كالمثقب نظرته عليّ، وقال لي بلهجة متحدية:

- «جميع رجال الفكرة الواحدة متشابهون». ولم يكن يتذكر دونما شك أنني قلت له قبل أيام ما تذكره على العكس تماماً.

لم أكن أصل كل مساء إلى مطعم «سان لو» وأنا في الحالة النفسية ذاتها. فلئن أمكن لذكرى وأمكن لغم أن يهجرانا حتى لا نراهما من بعد فانهما يعودان كذلك ولا يتركاننا أحيانا على مدى فترة طويلة. فثمة عشيات كنت أتاسف فيها على السيدة «دوغيرمانت»، وأنا أجتاز المدينة لأمضي باتجاه المطعم إلى حد يشق عليّ معه التنفس لكأن جزءاً من صدري قد تم بتره على يد مشرّح ماهر ونزع واستبدل به جزء مساو له من العذاب اللامادي وما يقابله من حنين وحب. وعبثاً خيطت القطب على أحسن وجه فأنت يشق عليك العيش حينما يحل الأسف على شخص محل الأحشاء إذ يبدو وكأنه يحتل أكثر مما تحتل من مكان فتحس به أبداً، ثم أي لبس ذلك أن تضطر إلى «تفكير» جزء من جسمك! على أنه يبدو أنك تساوي أكثر من ذلك. فلأقل نسمة تزفر من ضيق، بل من تباريح الهوى. أيضاً كنت أنظر إلى السماء، فإن كانت صافية قلت في نفسي: «ربما كانت خارج المدينة تنظر إلى النجوم عينها، ومن يدري إن كان «روبير» لن يقول لي وهو يدخل إلى المطعم: «ثمة خبر سار، لقد كتبت إليّ عمتي لتوها، إنها تود لقاءك وستأتي عما قليل إلى هنا.» وما كنت أضع في القبة الزرقاء وحدها فكرة السيدة «دو غيرمانت»، فهبة هواء على شيء من العذوبة تمر تبدو وكأنها تحمل إليّ رسالة منها كما بالأمس من «جيلبيرت» في أقماح «ميزيكليز»: فالمرء لا يتبدل بل يقحم في الشعور

الذي يرده إلى كائن ما الكثير من العناصر الغافية التي يوقظها ولكنها غريبة عنه. ثمّ ان شيئا في داخلنا يجهد أبدا في إضفاء حقيقة أكبر على هذه المشاعر الخاصة، أعني في حملها على الاقتران بشعور أكثر عمومية تشارك فيه الإنسانية جمعاء ويبدو به الأفراد والغموم التي يسبّبونها لنا محض فرصة للاتحاد فيه: إنّ ما كان يمزج بعض المتعة بغمي أنني أعلم أنها جزء صغير من الحب الشامل. ما كنت أتخلص، دونما شك، مما كنت أحسب أني أتعرفه من الأحزان التي سبق أن أحسست بها بشأن «جيلبيرت»، أو حينما لاتمكث أمي مساء في«كومبريه» في غرفتي وكذلك تذكر بعض صفحات لدى «بيرغوت»، داخل العذاب الذي كنت أعانيه والذي لم تكن ترتبط به السيدة «دو غيرمانت» وجفاؤها وغيابها ارتباطاً واضحاً مثلما العلة بالأثر في ذهن العالم، ما كنت أخلص إلى أن السيدة «دو غيرمانت» لم تكن تلك العلة. أفليس ثمة ألم جسدي منتشر يمتد اشعاعاً إلى مناطق خارج القسم المريض ولكنه يهجرها ليتبدد كلياً إن لمس طبيب النقطة المحددة التي يصدر عنها؟ مع أن امتداده قبل ذلك كان يوليه بالنسبة إلينا طابعاً من الإبهام والحتمية إلى حد ظننا معه وقد عجزنا عن تفسيره وحتى عن تحديد مكانه أنه يستحيل شفاؤه. وكنت أقول في نفسي فيما أنا سائر إلى مطعم: «لقد انقضى أربعة عشر يوماً ولم أشاهد السيدة «دو غيرمانت» (أربعة عشر يوماً، الأمر الذي ما كان يبدو شيئاً هائلاً إلاّ في عيني أنا الذي كان يعد بالدقائق إن تعلق الأمر بالسيدة «دو غيرمانت»). وما كانت تتخذ النجوم وحدها والنسيم في نظري شيئاً من الألم والشاعرية بل تبلغ مبلغها حتى تقسيمات الزمن الحسابية. لكأنما أصبح كل يوم الآن الذروة المتحركة لتلة غير ثابتة المعالم: فأحس من جانب أنني استطيع الانحدار صوب النسيان، وتحملني من الآخر حاجة لقاء الدوقة. وكنت حينا أكثر قربا من هذا أو ذاك لا أملك توازناً مستقراً. وقلت ذات يوم في نفسي: «ربما كان ثمة رسالة هذا المساء». وتجرأت وأنا أقبل للعشاء فسألت«سان لو» قائلاً:

— «ترى، ألا أخبار لديك من باريس؟»

فأجابني متجهم الوجه: «بلى، وإنها لسيئة».

وتنفست الصعداء وقد أدركت أن به وحده غماً وأن الأخبار أخبار عشيقته. ولكني أبصرت بعد قليل أنّ من نتائجها أن تحول فترة طويلة دون أن يصطحبني «روبير» لدى عمته.

لقد علمت أن شجاراً وقع بينه وبين عشيقته إما بالرسائل أو هي جاءت ذات صباح لتلقاه بين موعد قطارين. كانت الشجارات التي وقعت بينهما حتى الآن، حتى تلك الأقل خطورة، كانت تبدو أبداً وكأنما ينبغي أن تظل دون حل. ذلك أنها كانت معكرة المزاج تخبط الأرض بقدميها وتبكي لأسباب متعذرة الفهم شأن الاطفال الذين يعتصمون داخل غرفة مظلمة ولا يحضرون للعشاء ويرفضون أي استفسار ويزدادون انتحاباً فحسب حينما يضربون بعد أن أعيت الحيلة.

وتألم «سان لو» ألما فظيعاً من جراء ذلك الخلاف، على أن هذه طريقة في رواية الأمر بسيطة جداً وهي تفسد بذلك الفكرة التي يجدر أن يكوّنها المرء عن ذاك الألم. فحينما ألفى نفسه وحيداً لايملك من بعد سوى التفكير بعشيقته التي مضت تحمل معها الاحترام الذي أحست به إذ رأته حازماً إلى هذا الحد انتهت صنوف القلق التي انتابته في الساعات الأولى إزاء مالا يمكن تداركه، وإن توقف قلق ما أمر عذب إلى حد أن الخلاف

اتخذ في نظره، بعدما تأكد، شيئاً من ذات نوع السحر الذي قد تكسبه المصالحة. فأما ما أخذ يعذبه بعد ذلك بقليل فألم وعارض ثانويات كان دفقهما باستمرار من ذاته لدى لتفكير بأنها ربما كانت تود التقارب وأن ليس يستحيل أنها تنتظر كلمة منه وأنها بانتظار ذلك ربما فعلت بغية الثأر لنفسها هذا الشيء أو ذاك في إحدى العشيات وفي مكان أي مكان، وأنه يقع عليه محض الإبراق إليها بأنه قادم حتى لايتم الأمر، وأن آخرين ربما كانوا يفيدون من الوقت الذي يسمح بضياعه وأنه قد يفوت الاوان بعد بضعة أيام كيما يلقاها ثانية إذ قد تكون ملك سواه. إنه لايعرف من كل تلك الاحتمالات شيئاً فعشيقته تلتزم صمتاً بلغ مبلغاً جن به ألمه حتى انتهى به إلى التساؤل إن لم تكن تختبئ في «دو نسيير» أو هي ذهبت إلى الهند.

لقد قيل إن الصمت قوّة، وإنه لقوّة رهيبة في يد المعشوقين، بمعنى يختلف تمام الاختلاف. فهي تزيد من قلق الذي ينتظر. ليس ما يدعو إلى الاقتراب من شخص كمثل ما يفصلك عنه، وأي حاجز أكثر امتناعاً من الصمت؟ لقد قيل أيضاً إن الصمت عذاب وهو قادر أن يذهب بعقل من كان يفترض عليه في السجون. ولكن أي عذاب ذاك– وهو أشد من التزام الصمت– أن تكابده على يد من تحبّ! كان «روبير» يقول في نفسه: «ماعساها تفعل حتى تصمت هذا الصمت؟ لاشك هي تخونني مع آخرين؟» وكان يقول في نفسه أيضاً: «ماعساني فعلت حتى تصمت هذا الصمت؟ لعلها تكرهني، وإلى الأبد.» فكان يتهم نفسه. وهكذا كان الصمت يفقده صوابه من جرّاء الغيرة ومن جرّاء تأنيب الضمير والصمت هذا على أية حال أشدّ قسوة من صمت السجون فهو سجن في حدّ ذاته. وإنها لسور لاماديّ دون شك، ولكنه منيع. شريحة الأجواء الفارغة تلك القائمة إزاء المرء، ولكن أشعة بصر الذي تمّ هجره لاتقوى على اجتيازها. هل ثمة إثارة أشدّ رهبة من الصمت الذي لايرينا غائبة بل ألفاً تنصرف كل واحدة منهنّ إلى خيانة أخرى؟ وأحيانا يظنّ «روبير» في انفراج مفاجئ أنّ هذا الصمت سوف يتوقف في الحال وأنّ الرسالة المترقبة سوف تصل. كان يبصرها، إنها قادمة، ويترصّد كلّ ضجة، لقد ارتوى، ويهمس قائلاً: «الرسالة! الرسالة!» وبعدما يلمح على هذا النحو واحة خياليّة من الحنان كان يلفي نفسه يراوح في صحراء الصمت الحقيقية التي لاحدّ لها.

كان يعاني سلفاً جميع آلام قطيعة يظنّ في فترات أخرى أنه يستطيع تجنبها، دون أن يفوته صنف من تلك الآلام، شأن الذين يرتبون أمورهم جميعها بقصد هجرة لن تتمّ فيما يضطرب فكرهم مؤقتاً وهو لايعلم من بعد على أيّ موقع سيقيم في الغد وينفصل عنهم شبيها بذلك القلب الذي ينتزع من صدر مريض ويستمرّ في الخفقان وقد انفصل عن باقي الجسم. وعلى أيّ حال كان ذاك الأمل بأن عشيقته سوف تعود يزوّده بالشجاعة في موالاة القطيعة مثلما الاعتقاد بامكان الرجوع حياً من القتال يساعد على مواجهة الموت. وبما أن العادة أقلّ النباتات البشرية جميعها حاجة إلى أرض مغذّية كيما تعيش وهي أوّل ما يبرز على الصخر الأكثر إقفاراً في الظاهر، فربّما انتهى به الأمر إن لجأ بادئ ذي بدء مخادعاً إلى القطيعة أن يتعوّدها تعوداً صادقاً. بيد أن الحيرة كانت تخلف لديه حالة اقترنت بذكرى تلك المرأة فشابهت الحب. ولكنه كان يرغم نفسه على الإحجام عن الكتابة إليها (ظناً منه بأن العذاب ربّما كان أقل قسوة في العيش بدون عشيقته منه إلى جانبها ضمن بعض الشروط أو أن انتظار اعذارها بعد الطريقة التي افترقا بها ضروري كيما تحفظ ما كان يحسب أنها تكنّه له إن لم يكن من حبّ فأقله من تقدير واحترام). كان يكتفي بالذهاب إلى الهاتف الذي أقيم منذ قليل في «دونسيير» وباستقاء أخبار من وصيفة أقامها بالقرب من صديقته أو باصدار تعلمياته إليها. كانت تلك الاتصالات معقدة على أية حال وتكلفه وقتاً أكثر لأن عشيقة «روبير» استأجرت لتوّها عقاراً صغيراً في ضواحي

«فيرساي» طبقاً لآراء أصدقائها من الأدباء فيما يخصّ قباحة العاصمة وعلى وجه الخصوص نظراً لحيوانتها، لكلابها وقردها ونغزانها وببغائها وقد كفّ مؤجّرها في باريس عن احتمال أصواتها المستمرة. ولكنه لم يعد ينام بدوره لحظة واحدة أثناء الليل في «دونسيير». وذات مرّة أغفى لديه قليلاً وقد غلبه التعب. ولكنه أخذ يتكلم فجأة، كان يبغي الجري والحؤول دون أمر ما ويقول: «إني أسمعها، ألست...» واستيقظ. قال لي إنه وافاه في الحلم أنه خارج المدينة لدى الرقيب الأول. لقد حاول هذا الأخير أن يقصيه عن قسم من المنزل. وأدرك «سان لو» أن في منزل الرقيب ملآزماً شديد الثراء كثير الفسق يعرف أنّه يشتهي صديقته إلى حدّ بعيد. وسمع فجأة في الحلم وعلى نحو واضح الصرخات المتقطعة المنتظمة التي تعوّدت عشيقته أن تطلقها في لحظات اللذّة. وأراد إرغام الرقيب على اصطحابه إلى الغرفة، وكان هذا يمسك به ليمنعه من الذهاب إليها فيما يبدي استياء لهذا القدر من التطفل، استياء قال «روبير» إنّه لن يقوى البتة على نسيانه.

وأضاف يقول، ولايزال متقطع الأنفاس: «إن حلمي لسخيف».

ولكنّي أبصرت تماماً أنه أوشك عدّة مرّات في أثناء الساعة التي تلت ذلك أن يتصل هاتفياً بعشيقته ليسألها المصالحة. كان والدي قد حصل على الهاتف منذ وقت قريب، ولكني لا أدري إن كان «سان لو» سيفيد كثيراً من ذلك. وما كان يبدو لي لائقاً جداً على أي حال أن أكلّف والدي بل حتى جهازاً موضوعاً في منزلهم فحسب النهوض بدور الوسيط هذا بين «سان لو» وعشيقته مهما استطاعت هذه الأخيرة أن تبلغ من التهذيب ونبل المشاعر. وزال الحلم المزعج الذي وافى «سان لو»، زال قليلاً من ذهنه. وجاء شارد النظرة ثابتها، ليلقاني طوال جميع هذه الأيام الفظيعة التي رسمت بالنسبة إليّ في تعاقبها كأنما المنحنى الرائع لحاجز شقّت صنعته ما انفك «روبير» يتساءل من وراء أي قرار ستتخذه صديقته.

وأخيراً سألته إن كان يرضى بأن يصفح. وما أن أدرك أن القطيعة تم تجنبها حتى رأى مساوئ التقارب كافة. لقد أخذ يتألم مذ ذاك أقل من ذي قبل على أيّة حال وكاد يقبل بألم ينبغي له، ربما بعد بضعة شهور، أن يلقى من جديد لسعته إن بدأت علاقته ثانية. ولم يتردّد طويلاً، ولعلّه لم يتردّد إلا لانه أيقن أخيراً أنّه يستطيع استعادة عشيقته، أنّه يستطيع، وأنه فاعل إذن. ولكنّها كانت تطالبه كيما تعود إلى هدوئها ألا يعود إلى باريس في الأول من كانون الثاني. بيد أنّه لم يكن يملك الشجاعة في الذهاب إلى باريس دون أن يراها. ثم إنها ارتضت أن تسافر معه، ولكنماكان ينبغي أن يتوافر له في سبيل ذلك عطلة حقيقية لايريد النقيب «دو بورودنيو» أن يمنحه إياها.

– «يزعجني ذلك بسبب الزيارة التي سنقوم بها لعمتي والتي ستؤجل. سوف أعود دونما شك في الفصح إلى باريس.»

– «لن نستطيع الذهاب إلى منزل السيدة «دو غيرمانت» في تلك الفترة لانني سأكون قبل ذاك في «بالبيك». ولكن لا أهمية لذلك على الأطلاق.»

– في «بالبيك»؟ ولكنك لم تذهب إلى هناك إلا في شهر آب»

– «أجل، ولكنهم سيرسلونني هذا العام قبل الأوان بسبب صحتي.»

كان كلّ خوفه أن أسيء الظنّ بعشيقته بعد ما سبق أن رواه لي. «إنها عنيفة لمجرّد أنّها بالغة الصراحة كثيرة الصلابة في عواطفها. ولكنها كائن رائع. لست تستطيع تخيّل الرقة الشاعرية التي بها، إنّها تمضي في كل عام لقضاء يوم الأموات في «بروج». اليس ذلك حسنا؟ إن قدرّ لك أن تعرفها في يوم فسوف ترى، إن لديها سمواً...» ولمّا كان مشبعاً بلغة معينة كان يتم التحدث بها من حول تلك المرأة في أوساط أدبية: «إن بها شيئاً عجيبا بل نبوّيا، أنت تدرك ما أبغي قوله، الشاعر الذي كاد يكون كاهنا.»

وبحثت طوال العشاء عن ذريعة تسمح لـ «سان لو» أن يطالب عمته باستقبالي دون أن تنتظر مجيئه إلى باريس. وقد وفرّت لي تلك الذريعة الرغبة التي بي في أن أرى ثانية لوحات لـ «ايلستير»، الفنان الكبير الذي عرفته أنا و«سان لو» في بالبيك. وفي الذريعة على كل حال شيء من الحقيقة لانني إن كنت طالبت فنّ ايلستير في الرسم أن يقودني، أثناء زياراتي له، إلى إدراك أمور أفضل منه وإلى حب ما كان أفضل منه، كذوبان ثلج حقيقي وساحة أصيلة في الريف ونسوة ينبضن بالحياة على الشاطئ (ولعلني كنت طلبت إليه على الأكثر رسم وجوه الواقع التي لم أفلح في تعميقها، كدرب أزاهير الزعرور، لا ليحتفظ لي بجمالها بل ليكشفه لي)، أما الآن فقد كان الابتكار والفتنة في تلك الرسوم، على العكس، ما يثير اشتياقي، وإنما ما كنت أودّ على وجه الخصوص مشاهدته لوحات أخرى لـ «ايلستير».

كان يبدو لي من ناحية أخرى أن أقلّ لوحاته شيء يغاير روائع رسامين حتى أعظم منه. لكأنما أعماله مملكة مغلقة منيعة الحدود ومن مادّة لاثاني لها. وإذ كنت أجمع بنهم المجلات النادرة التي نشرت فيها دراسات حوله، فقد علمت فيها أنه لم يشرع إلا منذ عهد قريب في رسم مناظر ولوحات طبيعة جامدة. ولكنه بدأ بلوحات ميثولوجية (وقد سبق أن رأيت صور اثنتين منها في مشغله) ثم تأثر فترة طويلة بالفن الياباني.

كان بعض أكثر ما يميز أساليبه المختلفة من أعماله في الريف. وهذا البيت أو ذاك في «أندليس» الذي يحوي أحد أجمل مناظره كان يبدو لي قيماً ويبعث فيّ توقاً إلى السفر شديداً بقدر ما تفعل قرية من منطقة «شارتر» نزلت في حجارتها الصوّانية لوحة زجاجية مجيدة. وكنت أحسني مدفوعاً نحو مالك هذه الرائعة الفنية، نحو هذا الرجل الذي يقبع في ركن قصيّ من منزله الوضيع المطل على الطريق وقد احتبس داخله شأن منجّم يسائل واحدة من مرايا هذا العالم التي تشكلها لوحة لـ«ايلستير» ربّما ابتاعها لقاء عدة آلاف من الفرنكات، أحسني مدفوعاً بذاك التواجد الذي يوحد حتى قلوب أولئك الذين يفكرون بالطريقة نفسها التي نفكر بها بصدد موضوع جوهري وحتى طباعهم. وكان قد أشير في إحدى تلك المجلات إلى ثلاثة أعمال فنية هامة لرسامي المفضل على أنها تخص السيدة «دو غيرمانت» فكان إذن أن استطعت باختصار القول، في المساء الذي أعلمني «سان لو» فيه بسفر صديقته من «بروج»، أن ألقي إليه بصدق في أثناء العشاء وفي حضرة أصدقائه وكأنما على نحو مفاجئ:

— «إسمع، تسمح؟ حديث أخير بشأن السيدة التي تحدثنا عنها. أتذكر «ايلستير»، الفنان الذي عرفته في «بالبيك»؟

— «ويحك، بالطبع».

– «أوتذكر إعجابي به؟»

– «تماماً، والرسالة التي قمنا بتسليمه إياها.»

– «حسن، إن واحداً من الأسباب، وليس من أهمها، بل سبب ثانوي أرغب من جرائه التعرف إلى السيدة المذكورة، لازلت تعلم تماماً من هي؟»

– «أجل، أجل! ما أكثر المعترضات!»

– «ذلك أنها تملك، لديها على الأقل لوحة جميلة جداً لـ«ايلستير».

– «عجباً، ماكنت أعرف.»

– «سوف يكون «ايلستير» في الفصح دون شك في «بالبيك»، وأنت تعلم أنه يقضي الآن السنة بكاملها تقريباً على هذا الشاطئ. كنت أودّ كثيراً أن أكون قد رأيت هذه اللوحة قبل رحيلي. لست أعلم إن كنت على صلة وثيقة إلى حد ما بعمتك: أفلا تستطيع أن تطلب إليها، إذ ترفع من قدري في عينيها بحذاقة تحول دون أن ترفض، أن تسمح لي بالذهاب لمشاهدة اللوحة بدونك بما أنك لن تكون هناك؟»

– «اتفقنا، إني أقوم مقامها وسآخذ الأمر على عاتقي.»

– «كم أحبك يا «روبير»!

– «لطيف منك أن تحبني، ولكنك ستبدي اللطف نفسه لو «رفعت التكليف» بيننا مثلما سبق أن وعدت وبدأت تفعل.»

وقال لي أحد أصدقاء «روبير»: آمل ألايكون رحيلك ما تدبران. تدري، إن رحل «سان لو» في إجازة فينبغي ألا يبدّل الامر شيئاً فنحن هنا. ربما تناقصت التسلية إليك ولكننا سنكلف أنفسنا الكثير من العناء لنحاول أن ننسيك غيابه!»

لقد وافاهم بالفعل منذ قليل، فيما كانوا يحسبون أن صديقة «روبير» سوف تذهب بمفردها إلى «بروج»، أن النقيب «دو بورودينو» قد أذن، وكان حتى ذاك؛ من رأي مخالف، بمنح ضابط الصف «سان لو» إجازة طويلة إلى «بروج». وهاك ما حصل. كان الأمير، وهو شديد الاعتزاز بشعره الغزير، زبوناً مواظباً لدى أعظم حلاق في المدينة كان فيما مضى صانع الحلاق الأسبق لنابليون الثالث. وكان النقيب «دو بورودينو» على أحسن علاقة بهذا الحلاق فقد كان بسيطاً مع صغار القوم على الرغم من مسلكه الذي يتصف بالأبّهة. ولكن الحلاق الذي كان للأمير لديه قائمة حساب مضى عليها مالا يقل عن خمس سنوات وتزيدها قوارير «البرتغال» و«ماء الملوك» ومكاوي الشعر والأمواس والجلود بقدرما تفعل مستحضرات غسل الشعر والقصّات، الخ، كان يضع «سان لو» في مكانة أرفع إذ هو يدفع في الحال ويملك عدّة عربات وجياد ركوب. ولما بلغه أسف «سان لو» ألا يستطيع الذهاب مع عشيقته روى عن ذلك بحرارة للأمير المقيد داخل قميص أبيض وفي

اللحظة التي كان الحلاق يمسك فيها برأسه مشدودة إلى الخلف ويهدد عنقه. وانتزعت رواية هذه المغامرات الغرامية لأحد الشبان من شفتي النقيب الأمير ابتسامة تسامح بونابرتية. ومن غير المرجح أنه فكر في قائمة حسابه غير المدفوعة، ولكن توصية الحلاق كانت تشيع السرور في نفسه بقدر ما تعكر مزاجه توصية دوق. كان الصابون لايزال يغطي ذقنه حينما وعد بالإجازة وقد تم توقيعها في المساء نفسه. أما الحلاق الذي من عادته أن يتباهى باستمرار وأن يخص نفسه كيما يستطيع ذلك بصنوف من الجاه مبتدعة كلياً وذلك بقدرة على الكذب خارقة فإنه في المرة التي أدى فيها خدمة مرموقة لـ «سان لو» لم يقم بنشر فضائلها، وليس ذلك فحسب بل هو لم يعد البتة إلى الحديث عن ذلك أمام «روبير» وكأنما الغرور بحاجة إلى الكذب فإن لم يكن مجال لافتعاله تخلى عن مكانه للتواضع.

قال لي جميع أصدقاء «روبير» أنه مهما طالت فترة مكوثي في «دونسيير» أو في أية فترة عدت إليها فإن عرباتهم وجيادهم وبيوتهم وساعات فراغهم ستخصص لي إن لم يكن هنالك فكنت أحس أن هؤلاء الشبان كانوا يضعون ترفهم وشبابهم وقوتهم في خدمة ضعفي.

وأضاف أصدقاء «سان لو» يقولون بعدما ألحوا عليّ بالبقاء: «ولمَ لاتعود في كل عام؟ فأنت ترى أن هذه الحياة البسيطة تروقك! وإنك حتى لتهتم بكل ما يجري في الكتيبة شأن المتقدمين.»

ذلك أني ظللت أسألهم بتلهف أن يصنفوا مختلف الضباط الذين كنت أعرف أسماءهم حسبما يبدو لهم أنهم يستحقون من اعجاب كثير أو قليل، مثلما كنت بالأمس أطالب رفاقي أن يفعلوا بشأن ممثلي المسرح الفرنسي. فإن قال أحد أصدقاء «سان لو» بدلا من أحد الألوية الذين كنت أسمع ذكر اسمهم أبداً على رأس جميع الآخرين، من أمثال «غاليفيه» أو نيغرييه»: «ولكن نيغرييه ضابط قائد من أكثرهم ضحالة» وألقى باسم «بو» أو «جيسلان دو بورغونيي» جديداً ناصعاً طريفاً كنت أشعر بالدهشة السعيدة نفسها التي كنت أحس بها فيما مضى حينما يفضي النجاح المفاجئ لاسم «آموري» غير المألوف أسماء «تيرون» أو «فيفر» المستنفدة. «يفوق حتى نيغرييه؟ ولكن بمَ يفوقه؟ هات مثلا.» كنت أريد أن تكون ثمة فوارق عميقة حتى بين ضباط الكتيبة الأعوان وآمل إدراك جوهر ما يؤلف التفوق العسكري في علة هذه الفوارق. ولعل من بين من كان يهمني أكثر ما يهمني سماع من يتحدث عنهم إنما كان الأمير «دو بورودينو» لأنه هو من سبق أن أبصرت أكثر ما أبصرت. ولئن كان «سان لو» وأصدقاؤه ينصفون فيه الضابط الجميل الذي يضمن لكتيبته مظهرا لايضاهى إلا أنهم ما كانوا يحبون الرجل لا هو ولا أصدقاؤه. لم يكن يبدو أنهم يضعون السيد سدو بورودينو»، دون أن يتحدثوا عنه بالطبع بذات اللهجة التي يستخدمونها بحق بعض ضباط ترفعوا بالقدَم وهم ماسونيون لايخالطون الآخرين ويحتفظون إلى جانبهم بمظهر مساعدين مخيف، لم يكن يبدو أنهم يضعونه في عداد باقي الضباط النبلاء الذين كان والحق يقال يختلف كثيراً عنهم في موقفه حتى إزاء «سان لو». أما هم فكانوا يستغلون كون «روبير» مجرد ضابط صف وأن أسرته المقتدرة تستطيع أن تسعد والحالة هذه أن تتم دعوته لدى رؤساء لعلها لولا ذاك احتقرتهم، فلا يضيعون فرصة يستقبلونه فيها على مائدتهم حينما يكون ثمة واحد من كبار القوم قادر أن يفيد رقيباً شاباً. وحده النقيب «دو بورودنيو» كانت له مع «روبير» علاقات ناجمة عن الوظيفة فحسب، وكانت ممتازة على أيّ حال. ذلك لأن الأمير الذي أصبح مشيراً ودوقاً أميراً على يد

«الامبراطور» والذي صاهر أسرة هذا الأخير بعد ذلك بزواجه ثم تزوج والده ابنة عم لنابليون الثالث وأصبح مرّتين وزيراً بعد الانقلاب، ذلك لأنه كان يحس أنّه على الرغم من ذلك ما كان يساوي الكثير في نظر«سان لو» ومجتمع آل «غير مانت» الذين كانوا لا يساوون شيئاً على وجه التقريب في نظره بما أنّه لم يكن ينظر من وجهة نظرهم. كان يشك أنه– هوْ قريب أسرة «هوهنزوليرن» بالمصاهرة– لم يكن في نظر «سان لو» نبيلاً حقيقياً بل حفيد مزارع. ولكنه كان يعدّ «سان لو» بالمقابل بمثابة ابن رجل تمّ تثبيت إقطاعه الكونتي على يد «الامبراطور»– كانوا يسمون ذلك في حي «سان جيرمان» بالكونتات المجدّدين– وقد التمس منه منصب محافظ ثم منصباً آخر هيناً جداً يأتمر بأمر معالي الأمير «دو بورودنيو» وهو وزير دولة كان يكتب إليه بلقب «صاحب السيادة» وكان ابن شقيق الملك.

وربّما كان أكثر من ابن شقيق. فأميرة «بورودنيو» الأولى اشتهرت بأنها أبدت صنوفاً من اللطف لنابليون الأول الذي لحقت به إلى جزيرة «ايلبا»، والثانية لنابليون الثالث. ولئن كنت تلقى في وجه النقيب الهادئ على الأقل جلال قناع نابليون الاول المدروس إن لم تلق ملامح الوجه الطبيعيّة، فقد كان لدى الضابط، ولاسيّما في النظرة الكئيبة الطيّبة وفي الشارب المتهدّل، ما يذكر بنابليون الثالث. وذلك على نحو ملفت إلى حدّ أنه إذ طلب بعد معركة «سودان» أن يؤذن له باللحاق بالامبراطور وإذ صرفه «بيسمارك» الذي جيء به إليه ورفع هذا الأخير عينيه مصادفة إلى وجه الشاب الذي كان يتأهّب للمغادرة تولته الدهشة فجأة إزاء هذا التشابه فاستدرك واستدعاه ومنحه الإذن الذي حجبه عنه منذ قليل شأنه مع الجميع.

وإن لم يشأ «بورودنيو» أن يحاول التقرّب من «سان لو» ومن أفراد حيّ «سان جيرمان» الآخرين الذين ضمتهم الكتيبة «في حين كان كثير الدعوة لملازمين أوّلين من طبقة العوام وكانا رجلين ممتعين» فلأنه كان يُقيم إذ ينظر إليهم جميعاً من عالي عظمته الامبراطورية، بين هؤلاء الأدنى مرتبة هذا الفارق الذي قوامه أن بعضهم كانوا من الأدنين الذين يعرفون أنهم كذلك والذين يفتنه أن يقيم صلات معهم إذ هو خلف مظاهر الجلال بسيط المزاج مرحه، والبعض لآخر من الأدنين الذين يحسبون أنهم أرقى مستوى، الأمر الذي لم يكن يقبل به. وفي حين كان جميع ضباط الكتيبة يرحبون بـ «سان لو» فقد اكتفى أمير «بورودنيو»، وكان المشير «س» قد أوصاه به، بأن يكون لطيفاً معه في أثناء الخدمة التي كان «سان لو» مثالياً فيها على أيّ حال، ولكنه لم يستقبله قطّ في بيته إلا في مناسبة خاصة اضطر فيها إلى حدّ ما أن يدعوه وقد طلب إليه، إذ وقعت في أثناء اقامتي، أن يصطحبني. وأمكنني في ذلك المساء وأنا أشاهد «سان لو» إلى مائدة النقيب، أن أميز بيسر حتّى في سلوك كلّ منهما وأناقته الفارق الكائن بين الارستقراطيتين: طبقة النبلاء القديمة ونبلاء عصر الامبراطورية. كان «سان لو» سليل طبقة سرت معايبها، وإن رفضها بكامل عقله، في دمه ولاترى، بعدما كفّت عن ممارسة سلطة حقيقية منذ مالا يقلّ عن قرن، لاترى من بعد في اللطف الحاني الذي يؤلف جزءا من التربية إلى تنشأ عليها سوى تمرين كركوب الخيل أو لعبة الشيش يمارس دونما هدف جدّيّ وبداعي التسلية خلافاً للبورجوازيين الذين تزدريهم طبقة النبلاء هذه بما يكفي لتحسب أنّ ألفتها ترضي غرورهم وأنّ تماديها قد يشرفهم، كان يأخذ على نحو ودّي يديّ بورجوازي تُمدّ إليه، ولعله لم يسبق له أن سمع باسمه، ويدعوه في حديثه إليه «ياعزيزي» (دون أن يكفّ عن مصالبة ساقية وفكهما وهو ينقلب إلى الوراء لاييالي ورجله في يده). وعلى العكس من ذلك كان الأمير «دو بورودنيو»، وهو من طبقة أشراف لاتزال ألقابها تحتفظ

بمدلولها إذ ظلت تزخر بإقطاعات غنية جاءت جزاء خدمات مجيدة وتعيد إلى الأذهان ذكرى وظائف رفيعة يبسط فيها سلطته على العديد من الناس ويجدر به فيها أن يعرف الناس، كان يعدّ مكانته– إن لم يكن على نحو واضح وفي صفاء وعيه الشخصي فعلى الأقلّ في جسمه الذي كان يكشف عن ذلك بمظهره ومسلكه– بمثابة امتياز فهلي. لقد كان يتحدّث إلى هؤلاء العوام أنفسهم، الذين ربما ربت «سان لو» على كتفهم وأخذ ذراعهم، بلطف يتسم بالمهابة ويلطّف من بشاشة الطيبة الطبيعية لديه تحفظ يفيض بالعظمة، وذاك بلهجة بطبعها العطف الصادق والترفّع المقصود في آن معا. كان مردّ ذلك دونما شك أنه كان أقلّ بعداً عن السفارات الكبرى وعن البلاط الذي سبق أن اضطلع فيه والده بأرفع المناصب وحيث قد لايقلى تصرّف «سان لو» ومرفقه على الطاولة ورجله في يده أيّ ترحيب ؛ على أن مردّ ذلك على وجه الخصوص أنّ تلك البورجوازية إنّما كان أقلّ ازدراء لها وأنها كانت الخزّان الكبير الذي استقى الامبراطور الأول منه مشيريه وأشرافه ووجد الثاني فيه أمثال «فولد» و«روهيه».

وليس من شكّ أن اهتمامات والد السيد «دو بورودينو» وجدّه ماكانت لتستطيع البقاء حقاً داخل فكره لغياب الأشياء التي تنصبّ عليها، فهو ابن امبراطور أو حفيد له لم يبق له من أمر غير بسط سلطته على سريّة، ولكن مثلما تظلّ روح الفنان تكيف التمثال الذي نحته على مدى سنوات كثيرة بعدما تنطفيء جذوته، كانت تلك الاهتمامات قد تكونت في داخله واتخذت شكلاً مادياً وتجسدت فهي ما كان يعكسه وجهه. فبحيويّة الامبراطور الأول في صوته كان ينحي باللائمة على أحد العرفاء، وبكآبة الثاني الحالمة كان ينفث دخان لفافة. وحينما كان يمرّ في شوارع «دونسيير» بثياب مدنية ينطلق بريق في عينيه من تحت القبّعة يتألق به من حول النقيب حضور ملكيّ متخفّ، وبرتجف القوم حينما يدخل مكتب الرقيب الأول يتبعه المساعد وضابط الإطعام وكأني بهما «بيرتييه» و«ماسّينا»[1]. وحينما كان يختار قماش بنطال لسريّته كان يثبت على العريف الخياط نظرة قادرة أن تفسد خطط «تاليران» وتخدع «الكسندر». ويتوقف أحياناً وهو يستعرض إقامة إنشاءات ويسلم للأحلام عينيه الزرقاوين الرائعتين ويفتل شاربه فكأني به يبني «بروسيا» و«ايطاليا» جديدتين. ولكنّه يلفت الانتباه في الحال، وقد انقلب نابليون الأول، إلى أنّ المتاع لم يكن ملمّعاً وأنّه يريد تذوّق طعام الجنود. وكان يأمر في بيته وفي حياته الخاصة بأن تقدّم لنساء ضباط بورجوازيين (شرط ألاّ يكونوا ماسونيين) لا آنية طعام من خزف «سيفر» الأزرق الملكي فحسب ممّا يليق بالسفراء (وهي هبة نابليون لوالده وكانت تبدو أوفر قيمة في المنزل الريفي الذي كان يسكنه في المنتزه العام، شأن ذلك الخزف الصيني ذي القطع النادرة التي يتأملها السيّاح بمتعة أكبر داخل الخزانة القروية لقصر ريفيّ قديم تمّ تحويله مزرعة كثيرة الزوّار مزدهرة) بل هدايا أخرى كذلك قدّمها الامبراطور: تلك التصرّفات الكريمة الرائعة التي ربما أتت بالعجب في هذه المهمّة أو تلك، لو لم يكن «كرم المحتد» في نظر البعض إنما يعني أن يحكم على المرء مدى حياته كلّها بأشدّ صنوف الإبعاد ظلماً، والحركات الأليفة والطيبة والظرف والذخيرة الزاخرة بالأسرار المشعة التي لاتزال حيّة. ذخيرة العين التي تحتبس خلف مينا زرقاء ملكية هي الأخرى صوراً مجيدة.

أمّا بصدد العلاقات البورجوازية التي كان يقيمها الأمير في «دونسيير» فيجدر أن نقول مايلي: كان

(١) من ضباط نابليون بونابرت الاول.

العقيد يعزف على البيانو عزفاً رائعاً وزوجة رئيس الأطباء تغني وكأنها نالت جائزة أولى في المعهد الموسيقي. كان هذان الزوجان الأخيران يتناولان طعام العشاء كلّ أسبوع في منزل السيد «دو بورودنيو» شأن العقيد وزوجته كان ذلك يرضي غرورهم بالتأكيد إذ يعلمون أنّ الأمير إنمّا يتناول طعام العشاء في منزل السيدة «دو بورتاليس» وفي منزل آل «مورا» الخ، حينما يذهب في إجازة إلى باريس. ولكنّهم كانوا يسرّون فيما بينهم: «إنّه مجرّد نقيب وهو شديد السعادة من أننا نجيء إلى منزله، وإنّه على أي حال صديق حقيقي لنا.» ولكن حينما عيّن السيد «دو بورودينو» في مدينة «بوفيه»، وكان يقوم منذ فترة طويلة بمساع للاقتراب من باريس، قام بنقل أثاث بيته ونسي الزوجين الموسيقيّين نسياناً تاماً مثلما نسي مسرح «دونسيير» والمطعم الصغير الذي كثيرا ما كان يطلب منه إحضار غدائه، ولم يبلغ العقيد ولارئيس الأطبّاء اللذين كثيراًما تناولا على مائدته طعام العشاء، لم يبلغهما طوال حياتهما شيء من أخباره، مما أثار حفيظتهما.

وذات صباح أقرّ لي «سان لو» أنه كتب إلى جدتي ليزوّدها بأخباري ويوحي إليها بفكرة التحدّث إليّ بما أنّ الخدمة الهاتفيّة أخذت تعمل بين «دونسيير» وباريس. وقصارى القول انها عزمت أن تطلبني على الهاتف في اليوم نفسه فأشار عليّ بالحضور إلى البريد في حوالي الرابعة إلاّ ربعاً.

ولم يكن استعمال الهاتف في تلك الحقبة قد شاع بعد شيوعه اليوم ومع ذلك فإنّ العادة تستغرق وقتاً قصيراً جداً لتجريد القوى المقدّسة التي يتم اتصالنا بها من أسرارها إلى حدّ أنّ الفكرة الوحيدة التي راودتني، حين لم أحصل على الاتصال في الحال. هي أنّ الأمر تطاول كثيراً وبلغ من الازعاج حدّاً وكاد يخطر لي أن أتقدّم بشكوى: فما كنت أجد، شأننا كلنا الآن، على ما أشتهي من سرعة في تغيراتها المفاجئة هذه الفتنة الرائعة التي تكفيها بضع لحظات حتىّ يظهر بالقرب منّا الشخص الذي كنّا نبغي التحدّث إليه، خفيّاً ولكنه هنا، الشخص الذي نراه فجأة ينقل مئات الفراسخ (هو وكامل الأجواء التي يظلّ مغموسا فيها) بالقرب من أذننا لحظة قضت نزواتنا بذلك، وهو باقٍ إلى طاولته في المدينة التي يسكنها (وهي باريس فيما يخصّ جدّتي) تحت سماء تختلف عن سمائنا وفي طقس ليس واحداً بالضرورة وسط ظروف واهتمامات نجهلها ويزمع هذا الشخص أن ينقلها إلينا. وإننا لنشبه رجل الحكاية الذي تبدي ساحرة لعينيه، بناءً على الأمنية التي صدرت عنه، وفي ضياء خارق. جدّته أو خطيبته وهي تقلبّ صفحات كتاب وتسكب دموعاً وتقطف زهوراً على مقربة من المشاهد مع أنها بعيدة جداً وفي المكان الذي تقيم فيه بالحقيقة. ولايقع علينا، كيما تتمّ هذه الأعجوبة، إلاّ أن ندني شفتينا من اللوحة السحرية الصغيرة ونناديـ ويطول الأمر كثيراً في بعض الأحيان، إنيّ مقرّ بذلك – «بالعذارى اليقظات» اللواتي نسمع صوتهنّ كل يوم ولا نرى وجههنّ في يوم وهنّ ملائكتنا الحرّاس في الظلمات المدوّخة التي يراقبن أبوابها مراقبة الغيارى، المقتدرات اللواتي يطلع بهنّ الغيّاب إلى جانبنا دون أن تتاح رؤيتهم، بنات الخفاء اللواتي لايفتأن يفرغن أجاجين الأصوات ويملأنها ويتناقلنها، إلهات الثأر الساخرات اللواتي يصحن بنا قاسيات، لحظة نهمس بسرّ في أذن صديقة آملين أن ليس من يسمعنا: «إنني مصغية»، خادمات «السرّ» الغاضبات أبداً، كاهنات اللامرئيّ المحاذرات، آنسات الهاتف!

وما أن يدوّي نداؤنا في الليل المليء بالأشباح الذي تنفتح آذاننا وحدها عليه حتى تبرز ضجّة طفيفة– ضجّة غامضة – وهي ضجّة المسافات المقهورة ويحدّثنا صوت الحبيب.

هذا هو، هذا صوته يحدّثنا، إنه ههنا. ولكن ما أبعده عنا! وكم مرّة لم استطع الاصغاء إليه دونما قلق كما لو كان بي، إزاء استحالة أن أرى قبل ساعات طويلة من السفر تلك التي كان صوتها قريباً جداً من أذني، إحساس أفضل بما في ظاهر التقارب الأكثر عذوبة من خيبة أمل وأيّة مسافة يمكن أن تفصلنا عن الأحباء لحظة يبدو أنه يكفينا أن نمدّ يدنا كيما نمسك بهم. وإنّه لحضور حقيقي ذلك الصوت القريب جداً– داخل الفراق الفعلي! ولكنه إلى ذلك استباق لفراق أبديّ! فكثيراً ما بدا لي وأنا أصغي على هذا النحو دون أن أشاهد من كانت تحدّثني من البعيد البعيد أن ذلك الصوت يهتف من الأعماق التي لايعود المرء منها، وعرفت القلق الذي سيعتريني ذات يوم حينما يعود صوت على هذا النحو (وحيداً لايرتبط من بعد بجسد لن يتأتى لي أن أراه ثانية في يوم) فيهمس في أذني كلمات وددت لو أقبلها لدى مرورها بين شفتين استحالتا تراباً إلى الأبد.

ولم تقع المعجزة للأسف في «دونسيير» في ذلك اليوم. فحينما بلغت مكتب البريد كانت جدّتي قد طلبتني ودخلت إلى غرفة الهاتف وكان الخط مشغولاً إذ كان ثمّة أحدهم يتكلم ولايدري دونما ريب أن ليس هناك من يجيبه، فقد أُخَذَتْ قطعةُ الخشب تلك حينما جذبت إليّ السمّاعة تتكلمّ كما يفعل كراكوز، وأسكتها مثلما يتّم الأمر في مسرح العرائس باعادتها إلى مكانها، ولكنّها كانت تعاود ثرثرتها ما أن أعيدها بالقرب منّي. وانتهى بي الأمر بعد استنفاد كل الوسائل إلى اعادة السمّاعة نهائياً فقضيت بذلك على اختلاجات هذا القسم الرنّان الذي ثرثر حتى الثانية الأخيرة. ومضيت فجئت بالمستخدم الذي قال لي أن انتظر لحظة ؛ ثم تكلّم، وبعد بضع لحظات صمت سمعت فجأة ذاك الصوت الذي حسبت خطأً أنّني أعرفه تمام المعرفة لأن ما كانت تقوله لي جدّتي حتى ذاك كلّ مرّة تحدّثت فيها إليّ تابعته على الدوام على أنغام وجهها المفتوحة حيث تشغل العينان مكاناً كبيراً. أما صوتها نفسه فقد كنت أسمعه اليوم للمرّة الأولى. واكتشفت إلى أيّ حدّ كان ذلك الصوت عذباً لأن ذلك الصوت كان يبدو لي وقد تغيّر في أحجامه منذ اللحظة التي أضحى فيها كلاً واحداً وأخذ يبلغ مسامعي وحده ودون مرافقة ملامح الوجه. ولعلّه لم يكن عذباً إلى هذا الحدّ في يوم لأن جدتي ظنّت، وقد أحست أنيّ بعيد وتعيس، أنّها تستطيع الاستسلام لتدفق حنان كانت تكتمه وتخفيه بالعادة بداعي مبادئ تربوية. كان عذباً، ولكن كم كان حزيناً كذلك بسبب عذوبته نفسها بادئ الأمر وقد تخلص أكثر مما أمكن أن يتم ذلك للقليل من الأصوات البشرية من كلّ خشونة ومن كل عنصر مقاومة للآخرين وكل أنانية! كان يبدو في كل لحظة، هو الهش لفرط رقته، أنه على شفا أن ينكسر ويفيض دفقة صافية من الدمع. ثم إنني. لاحظت فيه للمرّة الأولى، وقد أضحى وحيداً بالقرب منّي أراه دون قناع الوجه، الغموم التي صدّعته في بحر حياتها.

وعلى أي حال هل كان الصوت بمفرده ما كان يشيع فيّ هذا الانطباع الجديد الذي يمزقني، لأنه كان وحيداً؟ لا، بل بالأحرى لأن عزلة الصوت هذه كانت بمثابة رمز، بمثابة استذكار، وأثر مباشر لعزلة أخرى، عزلة جدّتي التي انفصلت عنّي للمرّة الأولى. إن ضروب الأمر أو النهي التي كانت توجهها إليّ في كل لحظة في الحياة العادية، وسأم الطاعة أو حمى التمرّد وكلاهما كان يشلّ الحنان الذي أحس به نحوها، قد زالت في هذه اللحظة بل ربّما أمكن أن تزول في المستقبل (بما أن جدّتي لم تعد تصرّ على الاحتفاظ بي إلى جانبها وتحت سيطرتها وكانت تنقل إليّ أملها في أن أبقى نهائياً في «دونسيير» أو أن أطيل إقامتي فيها في جميع الأحوال أطول فترة ممكنة إذ يمكن أن يحسُن ذلك من صحتي وعملي) ؛ ولذلك فإن ما كان تحت

هذا الجرس الصغير الذي أقرّبه من أذني إنما كان مودّتنا المتبادلة وقد زالت عنها ضغوط متعارضة كانت في كل يوم توازنها فاذا هي مذ ذاك لاتقاوم وتدفعني بكليّتي. لقد بعثت بي جدّتي إذ أشارت عليّ بالبقاء حاجة متلهفة مجنونة بأن أعود. لقد بدت لي تلك الحرية التي تدعها لي مذ ذاك والتي لم يراودني في يوم أنّها تستطيع القبول بها، بدت لي فجأة في مثل ما يمكن أن تكون عليه حريتي من أسى بعد موتها (يوم أظل على حبها وتكون قد تخلت عني إلى الأبد). وصرخت قائلاً: «جدّتي، ياجدتي» ووددت لو أقبلها، بيد أنه لم يكن بالقرب مني سوى ذاك الصوت، ذاك الطيف المتهرّب تهرب الطيف، الذي ربما عاد يزورني بعدما تكون جدّتي قد ماتت. «حدّثيني» ؛ ولكنّما حدث إذ ذاك أن كففت فجأة عن سماع ذاك الصوت وقد تركني أكثر وحدة من ذي قبل. لم تعد تسمعني جدّتي، لم تعد على اتصال بي، لقد توقف قيامنا الواحد قبالة الآخر، وأن يظل واحدنا يسمع الآخر، وواليت النداء وأنا أتلمس الليل وأحسّ أن نداءات لها كان ينبغي أن تضيع هي الأخرى. وكان يهزّني القلق نفسه الذي أحسست به بالأمس في يوم كنت فيه طفلاً وفقدتها داخل الجمهور، والقلق من ألاّ أجدها أقلّ من الأحساس بأنها تبحث عني، والإحساس بأنها كانت تقول لنفسها إنّي أبحث عنها. قلق يشبه إلى حدّ ما القلق الذي سينتابني يوم يتحدّث المرء إلى من لا يستطيعون الاجابة من بعد وعمّن يودّ على الأقلّ كثيراً أن يسمعهم كلّ مالم يقله لهم والتأكيد بأنه لايتعذّب. كان يخيل إليّ أنّه مذ ذاك طيف حبيب سمحت منذ قليل أن يضيع بين الأطياف وأني وحدي أمام الجهاز أو آليّ الترداد دونما جدوى: «جدّتي، ياجدتي» مثلما يردّد «أورفيوس»، وقد بقي وحده اسم الميتة. وقرّرت مغادرة البريد والذهاب لملاقاة «روبير» في مطعمه كي أقول له إني ربّما كنت على وشك تسلمّ برقية قد تضطرّني للعودة وأودّ لذلك معرفة مواعيد القطارات تحسباً لكلّ طارئ. ومع ذلك فقد وددت قبل اتخاذ ها القرار أن أضرع مرّة أخيرة إلى بنات الليل ورسولات الكلمة والآلهات اللواتي لا وجه لهنّ. ولكنّ الحارسات المتقلبّات الطباع لم يشأن يفتحن لي الأبواب المسحورة أو هنّ لم يستطعن ذلك دون شك؛ وعبثاً ضرعن دونما كلل حسب عادتهنّ إلى مخترع الطباعة الجليل والأمير الشاب هاوي الرسم االانطباعي والسائق معاً (وكان ابن أخ للنقيب «بورودينو») فقد ترك «غوتنبرغ» و«فاغرام» توسلاتهنّ دون جواب ومضيت وأنا أحس بأنّ اللامنظور المبتهل إليه سوف يظلّ أصمّ.

ولدى وصولي بالقرب من «روبير» وأصدقائه لم أقرّ لهم بأنّ فؤادي لم يعد معهم وأنّ رحيلي قد تقرّر قراراً لا رجعة فيه. وبدا أنّ «سان لو» يصدقني، ولكني علمت مذ ذاك أنه أدرك منذ الدقيقة الأولى أنّ حيرتي متصنعة وأنّه لن يلقاني في الغد. وفيما كان أصدقاؤه يبحثون معه في لوحة الدليل، ويدعون أصناف الطعام تبرد إلى جانبهم، عن القطار الذي يمكن أن استقله للعودة إلى باريس. وتتناهى إلى الاسماع في الليل المنجم البارد صفارات القاطرات، لم أعد بالتأكيد أحس بالطمأنينة نفسها التي سبق أن أولتني إيّاها ههنا على مدى العديد من الأمسيات صداقة هؤلاء ومرور تلك في البعيد. مع أنها لم تقل عددا هذا المساء وقد اتخذت شكلاً آخر في هذه الغرفة نفسها. لقد أضحى رحيلي أقل إرهاقاً لي حين لم أعد مضطراً إلى التفكير به وحدي وحين شعرت أنه يستخدم في تحقيق ما يجري النشاط الأوفر طبعيّة والأكثر سلامة، نشاط أصدقائي الحازمين رفاق «روبير» وتلك الكائنات القوية الأخرى، عنيت القطارات التي كان غدوها ورواحها صبح مساء من «دونسيير» إلى باريس يفتتان، باتجاه الماضي، ما كان في انفصالي الطويل عن جدّتي من كثافة شديدة لاتطاق، إمكاناتِ عودةٍ يومية.

وقال لي «سان لو»ضاحكا: «لست أشكّ في صحة كلامك وأنك لاتعتزم الرحيل بعد، ولكن تصرّف كما لو أنك ترحل وتعال فودّعني صباح غد في ساعة مبكرة، وإلاّ تعرّضت لخطر أنْ لا أراك. إني أتناول طعام الغداء في المدينة فقد صرّح لي النقيب بذلك، وينبغي أن أكون عدت إلى الثكنة في الساعة الثانية لأننا سنذهب في مسيرة طوال النهار. وليس من شك في أنّ السيد الذي أتغدّى في منزله على بعد ثلاثة كيلومترات عن هنا سوف يعيدني في الوقت المناسب لأكون الساعة الثانية في الثكنة.»

وما أن قال هذه الكلمات حتّى جاؤوا يطلبونني من فندقي. لقد أرسلوا في طلبي من البريد إلى الهاتف. وأسرعت إلى هناك إذ كان يزمع أغلاق أبوابه. كانت لفظة «الهاتف الخارجي» تتردّد دون انقطاع في الأجوبة التي تأتيني على لسان المستخدمين. كنت في قمّة الاضطراب لأن جدّتي هي التي أرسلت في طلبي. كان المكتب يزمع إغلاق أبوابه. وأخيراً تمّ لي الاتصال «أهذه أنت ياجدّتي؟» وأجابني صوت امرأة بلكنة انكليزية ظاهرة: «أجل، ولكنني لا أتعرف صوتك» ولم يتم لي أكثر منها تعرّف صوت من كان يحدثّني، ثم إن جدتي لم تكن تخاطبني بالجمع. وأخيراً أتضح كلّ شيء.ذلك أن الشاب الذي أرسلت جدّتة تطلبه إلى الهاتف كان يحمل اسما يكاد يماثل اسمي وكان يقطن في أحد ملاحق الفندق. وإذ نادت عليّ في اليوم نفسه الذي ابتغيت فيه الاتصال تلفونياً بجدّتي فإني لم أشكّ لحظة واحدة أنها هي التي طلبتني، وكان أن أرتكب البريد والفندق معاً خطأً مزدوجاً من جراء المصادفة المحضة.

وفي صبيحة الغد تأخرّت ولم ألق «سان لو» الذي كان قد ذهب لتناول طعام الغداء في هذا القصر المجاور. وفي نحو الساعة الواحدة والنصف كنت استعدّ للذهاب إلى الثكنة على سبيل الاحتياط لأكون هناك حال وصوله حينما رأيت وأنا أجتاز أحد الشوارع الكبيرة المؤدّية إليها وفي ذات الاتجاه الذي كنت ماضياً فيه عربة اضطرتني لدى مرورها بالقرب مني إلى التنحي عن الطريق. كان يقودها ضابط صف فوق عينه نظارة،فإذا هو «سان لو» كان إلى جانبه الصديق الذي تناول طعام الغداء فيبيته والذي سبق أن التقيته ذات مرّة في الفندق حيث كان «روبير» يتعشى. ولم أجرؤ على مناداة «روبير» إذ لم يكن وحيداً، إلا أني أردت أن يتوقف ليحملني معه فلفتُّ انتباهه بتحية واسعة يفترض أن الدافع إليها وجود مجهول. كنت أعرف «روبير» قصير النظر، على أني ظننت أنّه لو يراني فلن يفوته أن يتعرّفني. ولكنه أبصر التحية وبادلني إيّاها ولكن دون أن يتوقف . وابتعد بأقصى سرعة دون أن يبتسم ابتسامة واحدة ودون أن تهتزّ عضلة في وجهه، واكتفى بأن تظلّ يده مرفوعة على رفرف قبّعته مدّة دقيقتين كما لو أنّه يجيب جندياً لم يعرفه. وجريت حتى الثكنة، ولكنها كانت لاتزال بعيدة ؛ وحينما وصلت كانت الكتيبة تتشكل في الباحة فلم يسمح لي بالبقاء فيها، وقد غمني أن لم أتمكّن من وداع «سان لو». وصعدت إلى غرفته فلم يكن فيها، واستطعت أن استعلم عنه جماعة من الجنود المرضى ومجندّين تمّ إعفاؤهم من السير، حامل البكالوريا الشاب وأحد المتقدّمين وكانوا ينظرون إلى الكتيبة في تشكلها.

وسألت قائلاً:

– «ألم تروا الرقيب «سان لو» ؟

فقال المتقدّم: «لقد نزل ياسيدي»

وقال حامل البكالوريا: «لم أره».

وقال المتقدّم دون أن يعيرني من بعد انتباها: «لم تره. لم تر «سان لو» الشهير، ما آنقه ببزّته الجديدة! وحينما تقع عين النقيب على ذلك، إنّه قماش ضباط!»

– «آه! إنك حلو النكتة، قماش ضباط»، يقول حامل البكالوريا الشاب الذي لم يكن يشارك في تدريبات السير، وهو مريض يلازم غرفته، وكان يحاول، ولا تخلو المحاولة من بعض القلق، أن يبدي جرأة مع المتقدمين، «قماش الضباط هذا قماش عاديّ».

وسأل المتقدّم الذي تحدّث عن البزّة غاضباً: «ياسيد؟»

لقد أثار سخطه أن شكّ حامل البكارلويا أن تكون البزّة من قماش الضباط، ولكنه، وهو البريتانيّ المولود في قرية تدعى «بانغيرن ستيريدن» والذي تعلّم الفرنسية بصعوبة من كان انكليزياً أو ألمانيًا، حينما كان يحس أنّه تحت وطأة انفعال ما، كان يقول مرتين أو ثلاثاً «ياسيد» كي يدع لنفسه وقتاً يلقى به كلماته، ثم يستسلم بعد هذه التهيئة لبلاغته مكتفياً بترداد بضع كلمات يعرفها أكثر من سواها. ولكن دون عجلة وباتخاذ الاحتياطات إزاء قلة اعتياده في اللفظ.

عاد يقول بغضب كانت تتنامى به شيئاً فشيئا شدة إلقائه وبطئة معاً: «آه! إنه قماش عادي؟ آه! إنه قماش عاديٌ! حينما أقول لك إنه قماش ضباط، حينما أقو – ل ذ – لك، بما أني أقو – ل ذ – لك فمعناه أني عالم به، فيما أرى. ولسنا ممن يقال لهم كلام معسول بجوز الهند.»

وقال حامل البكالوريا وقد غلبته هذه الحجج: «آه! إن كان الأمر كذلك».

– «ويحك، هذا هو النقيب يمرّ. لا، انظر قليلاً إلى«سان لو»، وهذه الطريقة في قذف ساقه ؛ هاك رأسه. أتراه ضابط صف؟ والنظارة، إنها تنطلق في كل مكان تقريباً!»

وطلبت إلى هؤلاء الجنود الذين لم يكن حضوري ليثير اضطرابهم أن اتطلع بدوري من النافذة. فلم يمنعوني عن ذلك ولم يكلفوا أنفسهم عناء. ورأيت النقيب «بورودنيو» يمرّ بجلال وهو يحمل جواده على الخبب ويبدو وكأنه يتوهمّ أنّه يمعركة «أوستيرليتز». وكان بعض المارّة مجتمعين أمام حاجز الثكنة المشبك ليشاهدوا الكتيبة خارجة. كان لا بدّ أن يكون الأمير، وهو منتصب القامة على ظهر جواده والوجه على شيء من السمنة والوجنتان ممتلئتان على نحو امبراطوري والعين ثاقبة، كان لابدّ أن يكون ضحية هلوسة ما كما كانت حالي في كلّ مرّة كان يبدو لي، بعد مرور الحافلة الكهربائية، أن السكون الذي يلي جلجلته يسري فيه ويخدّده خفقان موسيقيّ مبهم. لقد غمني أن لم أودّع «سان لو» ولكنّي رحلت مع ذلك لأن همي الوحيد كان العودة بالقرب من جدّتي: فحينما كنت أفكر حتى ذاك النهار وفي تلك المدينة الصغيرة بما كانت تفعله جدتي وحدها، كنت أتمثلها مثلما كانت معي تماماً ولكنّي أحذف نفسي من الصورة دون أن أضع في الحسبان آثار هذا الحذف عليها. وكان عليّ الآن أن أتخلص بأسرع ما يمكن، وأنا بين ذراعيها، من الشبح الذي لم أرتب بوجوده حتى ذاك والذي يوحي به صوتها على نحو مفاجىء، شبح جدّة افترقت عنّي افتراقاً

حقيقياً وسلّمت بالأمر، وبدت معمّرة، الأمر الذي لم أكن بعد عرفته، وقد تسلمت رسالة منّي في الشقة الخالية التي سبق أن تخيلت أمي فيها حينما رحلت إلى «بالبيك».

كان ذلك الشبح، واأسفي، هو الذي أبصرته حينما دخلت إلى الصالة دون أن تكون جدّتي قد أخطرت بعودتي فوجدتها تقرأ. كنت هناك، أو لم أكن بعد هناك بالأحرى بما أنها ما كانت تعلم بالأمر، وكما هي حال امرأة نفاجئها وهي آخذة في انجاز شغل سوف تخفيه إن نحن دخلنا، كانت مستسلمة لأفكار لم يسبق أن كشفت عنها البتّة أمامي. ولم يكن منّي هناك – بفضل هذا الامتياز الذي لايدوم والذي نتوافر لنا فيه، في أثناء اللحظة القصيرة التي تتمّ فيها العودة، القدرة على أن نشهد فجأة غيابنا الخاص –سوى الشاهد، سوى المراقب بقبعته ومعطف السفر. الغريب الذي من غير أهل البيت، المصوّر الذي جاء يلتقط صورة للأماكن التي لن نراها من بعد، فما تمّ آلياً في تلك اللحظة في عينيّ حينما أبصرت جدّتي إنّما كان صورة فوتوغرافية. نحن لا نرى أحبّاءنا البتّة إلاّ داخل المنظومة الحية والحركة الدائمة التي تطبع حناننا المستمرّ الذي يحمل في زوبعته الصور التي يزوّدنا بها محيّاهم قبل أن يسمح لها بالدخول إلينا ويردّها إلى الفكرة التي نكوّنها عنهم على الدوام ويحملها على الالتصاق بها ومطابقتها. فكيف لاأغفل، بما أن جبين جدّتي ووجنتيها إنّما كنت أحمّلها ما كان الأكثر رقة والأوفر استمراراً في روحها، كيف لا أغفل بما أن كل نظرة معتادة استنباء أموات، وكل وجه نحبه مرآة الماضي. كيف لا أغفل فيها كلّ ما أمكن أن يتثاقل لديها ويتغير، في حين تهمل عيننا، إن يثقلها الفكر، حتى في أقلّ مشاهد الحياة إثارة لاهتمامنا، تهمل، مثلما قد تفعل مأساة كلاسيكية، جميع الصور التي لاتسهم في سير الحوادث ولا تحتفظ إلاّ بالتي تساعد على جعل هدفها في متناول الإدراك؟ فإن تكن نظرة عدسة محض ماديّة وصفيحة فوتوغرافية بدلاً من عيننا فإنّ ماسوف نرى آنذاك في باحة المعهد مثلاً بدلاً من خروج أحد أعضاء المجمع اللغويّ يريد استدعاء عربة إنّما هو ترنّحه وصنوف احترازه كي لايهوي إلى الخلف ومسار سقوطه كما لو كان ثملاً أو كانت الأرض مغطّاة بالجليد. والأمر واحد حينما تحول خدعة قاسية للصدفة دون أن تبادر مودّتنا الذكية البارّة في الوقت المناسب لتخفي عن أبصارنا ما ينبغي ألاّ تتأمل فيه البتّة حينما تسبقها عيوننا التي تعمل، بعدما تصل المكان على رأس القادمين وتنصرفّ على هواها، تعمل آلياً على نحو ما تعمل الأفلام وترينا، بدلاً من المحبوب الذي لم يعد موجوداً منذ فترة طويلة ولكنها لم تشأ في يوم أن يكشف لنا عن موته، الكائن الجديد الذي كانت تضفي عليه مئة مرّة في اليوم شبّهاً عزيزاً كاذباً. ومثلما المريض الذي لم ينظر إلى نفسه منذ فترة طويلة ويؤلف في كل لحظة الوجه الذي لايراه وفقاً للصورة المثالية التي يحملها عن ذاته في فكره، مثلما يتراجع إذ يبصر في مرآة وسط وجه جاف مقفر الارتفاع المائل الورديّ لأنف عملاق كأحد أهرام مصر – كذلك أبصرت أنا الذي كانت جدّته بالنسبة إليه لاتزال وكأنها ذاته، أنا الذي لم يرها قطّ إلاّ في نفسه وعلى الدوام في الموضع عينه من الماضي عبر شفافية الذكريات المتلاصقة المتراكبة، أبصرت في صالتنا التي أصبحت جزءاً من عالم جديد، عالم الزمن الذي يعيش فيه الغرباء الذي نقول عنهم «إنّه بادي الشيخوخة»، أبصرت، للمرّة الأولى وعلى مدى لحظة فحسب، إذ سرعان ما اختفت، على أريكة تحت مصباح الضوء امرأة عجوزاً متهالكة ما كنت أعرفها، محمرّة متثاقلة عاميّة المظهر مريضة حالمة تنقل فوق كتاب عينين يطلّ منهما بعض الجنون.

كان «سان لو» قد قال لي لدى طلبي الذهاب لرؤية لوحات «ايلستير» التي تملكها السيدة «دو

غيرمانت»: «إنّي أقوم مقامها.» وكان للأسف وحده بالنسبة إليها الذي استجاب. فإننا ننوب بيسر عن الآخرين حينما نرتب في خاطرنا الصورة الصغيرة التي تمثلهم فنحركّها على ما نشتهي. وليس من شكّ أننا نأخذ في حسباننا حتى في تلك اللحظة الصعوبات الناجمة عن طبيعة كل واحد، وهي مختلفة عن طبيعتنا، ولايفوتنا أن نلجأ إلي هذه الوسيلة أو تلك في التأثير القويّ عليها، من اهتمام أو اقناع أو انفعال يبطل مفعول الميول المعاكسة. ولكن تلك الاختلافات عن طبيعتنا إنّما تتخيلها طبيعتنا نفسها، وتلك الصعوبات إنّما نرفعها نحن، وتلك الدوافع الفعالة إنّما نعايرها نحن، وتلك الحركات التي حملنا الشخص الآخر في فكرنا على تردادها والتي تجعله يتصرّف على هوانا إن نحن ابتغينا حمله على تنفيذها في الحياة تبدّل كلّ شيء واصطدمنا بصنوف من المقاومة غير متوقعة ويمكن ألاّ نتغلبّ عليها. وإنّ من أكثرها قوةّ دونما شكّ تلك التي يمكن أن ينميّها لدى امرأة لاتحبّ القرف النتن الذي لايقاوم والذي يوحي به إليها الرجل الذي يحبّها: فلم تطلب إليّ عمّته، في أثناء الأسابيع الطويلة التي ظلّ فيها «سان لو» لايجيء إلى باريس، لم تطلب إليّ مرّة المجيء إلى منزلها لمشاهدة لوحات «ايلستير»، وما شككت أنّه كتب يتوسلّ إليها أن تفعل.

ولاقيت بعض مظاهر الجفاء على يد شخص آخر في الدار. كان ذلك على يد «چوبيان». فهل كان يرى أنّه يجدر بي الدخول لتحيتّه لدى عودتي من «دونسيير» حتّى قبلما أصعد إلى منزلي؟ لقد أجابت والدتي بالنفي وأنّه ينبغي ألاّ ندهش للأمر. فقد سبق أن قالت لها «فرانسواز» إنّه هكذا، تنتابه نوبات غضب مفاجئة ودونما سبب. ويزول ذلك على الدوام بعد وقت قليل.

كان الشتاء في تلك الأثناء يقترب من نهايته. وذات صباح سمعت في موقدي، بعد بضعة أسابيع من وابل المطر والعواصف، سمعت – بدلاً من الريح الفاقدة الشكل المطّاطة القاتمة التي تبعث فيّ الرغبة في الذهاب إلى شاطئ البحر – هديل الحمام الذي كان يعشش في الجدار: متقزحاً غير متوقّع كحدقيّة أولى تمزق بلطف قلبها المغذّي كي تنبثق منه زهرتها الرنّانة، خبّازية صقيلة، تدفع، شأن نافذة مفتوحة، إلى غرفتي، ولا تزال مغلقة سوداء، الدفء والذهول والتعب في أوّل يوم صاحٍ. ولقيتني فجأة في ذلك الصباح أدمدم لحن مقاه نسيته منذ السنة التي اضطررت فيها إلى الذهاب إلى «فلورنسه» والبندقية، إذ الجوّ حسب الأيّام يؤثر تأثيراً عميقاً في جسمنا ويستخرجِ الألحان المسجلة التي لم تكشفها ذاكرتنا من المستودعات المظلمة التي نسيناها فيها. وبعد قليل صاَحَبَ حالم أشدّ وعياً ذاك الموسيقيّ الذي كنت أصغي إليه في داخلي حتى دون أن أكون قد تعرفت في الحال ما كان يعزفه.

كنت أحس تماماً بأنّ الأسباب لم تكن خاصة بـ «بالبيك» تلك التي لم أعد من جرّائها ألقى لكنيستها بعدما وصلت إليها السحر الذي يطبعها في نظري قبلما أعرفها ؛ وأن خيالي لن يفلح في الحلول محلّ عيني في «فلورنسه» أو «بارما» أو البندقية لينظر إليها. كنت أحس بهذا وقد اكتشفت كذلك ذات مساء في الأولّ من كانون الثاني لدى حلول الليل، اكتشفت أمام عامود للإعلانات الوهم الكامن في الاعتقاد بأن بعض أيّام الأعياد تختلف اختلافاً جوهرياً عن الأيام الأخرى. بيد أنه لم يكن بمقدوري الحؤول دون أن يستمرّ ذكر الزمن الذي خيل إليّ في أثنائه أنّي أقضي أسبوع الآلام [1] في «فلورنسه» في أن يجعل منها ما يشبه

(١) الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح لدى المسيحيين

أجواء مدينة الزهور وأن يضفي على يوم الفصح شيئاً من الطابع الفلورنسي وعلى «فلورنسه» شيئاً من أجواء الفصح في الآن نفسه. كان أسبوع الفصح لايزال بعيداً، ولكن أسبوع الآلام كان يبرز في سلسلة الأيّام التي تمتدّ أمامي أكثر جلاءً في آخر الأيّام الفاصلة. كان يعلق بها شعاع، شأن بعض منازل قرية تشاهدها في البعيد في جوّ من الظلام والضياء، فتحتجز فوقها الشمس كلّها.

كان الطقس قد أضحى أكثر دفئاً وكان أهلي أنفسهم يوفرّون لي إذ يشيرون عليّ بالخروج إلى النزهة الحجة لمتابعة نزهاتي الصباحية. وقد سبق أن ابتغيت الكفّ عنها لأنني كنت ألتقي فيها بالسيدة «دو غيرمانت». والاّ أنّي لهذا السبب عينه كنت أفكر الوقت كله بتلك النزهات، الأمر الذي كان يوجد لي في كل لحظة سبباً للقيام بها لاصلة له إطلاقاً بالسيدة «دو غيرمانت» سبباً يقنعني بأنه ما كان ليفوتني الخروج في نزهة في تلك الساعة نفسها حتى ولو لم تكن موجودة.

ولئن كان سواء عندي لقاء أي شخص غيرها فقد كنت أحس وأأسفي أنّ لقاء أيّ شخص باستثنائي أنا متحمّل بالنسبة إليها. كان يتفق لها في نزهاتها الصباحية أن تتقبل تحية الكثير من البلهاء، وهي تحكم أنّهم كذلك. ولكنّها كانت تعدّ ظهورهم من قبيل المصادفة على الأقلّ إن لم يكن وعداً بالمتعة. كانت تستوقفهم أحياناً، فثمّة فترات يحتاج فيها المرء أن يخرج من ذاته وأن يقبل ضيافة نفس الآخرين شرط أن تكون تلك النفس، مهما بلغت من الاتضاع والقبح، نفساً غريبة، فيما تحس بحنق أنّ ما قد تلاقية في فؤادي إنّما هو شخصها. فكنت ارتجف شأن المذنب ساعة مرورها حتّى حينما يدعوني إلى اتخاذ الدرب نفسه غير سبب لقائها ؛ وكنت أحياناً، بغية إبطال ما قد تتسم به مبادراتي من مغالاة، أكاد لا أستجيب لتحيتّها، أو أحدّق إليها دون أن أحيّيها ودون أن أفلح إلاّ في زيادة غضبها وفي حملها فضلاً عن ذلك، على الشروع في اعتباري وقحاً وسيئ التهذيب.

كأن ترتدي الآن فساطين أكثر رقة أو أزهى لوناً على الاقلّ وتنحدر في الشارع حيث كانت ستائر قد أرخيت اتقاءً للشمس، وكأنما الوقت ربيع، أمام الدكاكين الضيقة المحشورة بين الواجهات الفسيحة التي للفنادق الارستقراطية القديمة وعلى إفزيز بائعة الزبدة والفواكه والخضار. كنت أقول في نفسي إن المرأة التي كنت أشاهدها من البعيد تسير وتفتح شمسيتها وتجتاز الشارع هي حسبما يرى العارفون بالأمور اعظم فنانة حاضرة في فنّ القيام بتلك الحركات وأن تجعل منها أمراً رائعاً. كانت تتقدّم إذ ذاك: وكان جسمها الجاهل بتلك الشهرة المتناثرة، كان جسمها الضيق المتمرّد الذي لم يتشرّب شيئاً منها ينحني على نحو مائل تحت شال من الحرير الهندي البنفسجي اللون. وكانت عيناها المغتمتّان الصافيتان تنظران ساهيتين أمامها وربّما لمحتاني. كانت تعضّ طرف شفتها، وأراها ترفع فروة يديها وتتصدقّ على فقير وتشتري باقة بنفسج من إحدى البائعات بالفضول نفسه الذي ربّما عصف بي في النظر إلى رسام كبير يرسم خطوطاً بريشته. وحينما كانت تصل بمحاذاتي فتخصنّي بتحيّة تنضاف إليها ابتسامة طفيفة فكأنما تنفذ من أجلي مائية هي رائعة فنية وتضيف إليها إهداء. كان يبدو لي كلّ فسطان من- فساطينها بمثابة جوّ طبيعيّ ولازم وبمثابة إسقاط لمظهر خاصّ من نفسها. وفي إحدى صبيحات الصيّام ، وكانت ذاهبة للغداء في المدينة، صادفتها ترتدي فساطاً من المخمل الأحمر الفاتح وكان هيّن التقويرة حول العنق. كان وجه السيدة «دو غيرمانت» يبدو حالماً تحت شعرها الأشقر؛

وكنت أقلّ اغتماماً من المعتاد لأنّ كآبة ملامحها وما يشبه العزلة التي يقيمها اللون الصارخ بينها وبين باقي البشر كانا يضفيان عليها شيئاً من التعاسة والعزلة يبعث فيّ الطمأنينة. لكأنما يجسدّ ذاك الفسطان من حولها أشعة قرمزية تنبعث من قلب ما كنت أعهده لديها وربما استطعت مؤاساته. كانت تذكرني،وقد هربت داخل النور الخفيّ المنبعث من القماش ذي الثنيات اللطيفة، بقدّيسة من العصور المسيحيّة الأولى. ويعتريني الخجل إذ ذاك من أن تبعث رؤيتي الأسى في قلب تلك الشهيدة. «ولكن الشارع على كلّ حال ملك لجميع الناس.»

وأعيد الكرّة فأقول: «الشارع ملك لجميع الناس، وأنا أضفي على هذه الكلمات معنى مختلفاً وأستعجب أن تمزج السيدة «دو غير مانت» بالفعل في الشارع المزدحم الذي غالباً ما يبلله المطر فيضحى رائعاً كما هي حال الشارع أحياناً في مدن إيطاليا القديمة. أن تمزج بالحياة العامّة فترات من حياتها الخفيّة فتبدو على هذا النحو في عين كلّ واحد محفوفة بالأسرار، يمرّ الجميع بجانبها، وبها المجانيّة الرائعة التي لكبريات الروائع الفنية. ولمّا كنت أخرج في الصباح بعدما أظلّ مستيقظاً الليل كلّه فقد كان يقول لي والداي بأن أستلقي قليلاً وأبحث عن النوم. ولا حاجة للكثير من التفكير لامكان العثور عليه ولكنّ العادة مفيدة جدّاً في ذلك وحتى غياب التفكير. بيد أني كنت أفتقر إلى كليهما في تلك الساعات. كنت قبلما أنام أفكر تفكيراً طويلاً إلى الحدّ الذي لا أستطيع معه التفكير ويظلّ لي معه قليل من الفكر حتى أثناء نومي. كان ذلك محض بصيص وسط ما يقارب الظلام التامّ ولكنّه كان كافياً كي تنعكس به في نومي أوّل الأمر الفكرة التي مفادها أنني لن أقوى على النوم، ثمّ أنّي، وهو انعكاس لذاك الانعكاس. إنما وافتني أثناء النوم فكرة أنني لم أكن نائماً، ثم استيقاظي، من جراء انعكاس جديد...، في نوم جديد كنت أبغي فيه أن أروي لأصدقاء دخلوا غرفتي أنني ظننت منذ لحظة في أثناء نومي أنني لم أكن نائماً. كانت تلك الأشباح صعبة التمييز، ولعلّه كان ينبغي لإدراكها رهافة في الإحساس كبيرة وعقيمة إلى حدّ بعيد. فقد رأيت على هذا النحو فيما بعد في البندقيّة، وبعد مغيب الشمس بفترة طويلة، حينما يخيّل إليك أن الليل قد حلّ تماماً، رأيت، بفضل الصدى، مع أنّه غير مرئيّ، المنبعث من رنّة نور أخيرة تتردّد إلى مالا نهاية فوق الأقنية وكأنما بفعل دوّاسة ضوئية ظلال القصور تنتشر وكأنمّا إلى الأبد مخملاً أشدّ سواداً على رمدة المياه الغسقية. كان أحد أحلامي ائتلاف ما سعت مخيّلتي كثيراً إلى تمثله في اليقظة بين منظر بحريّ معيّن وماضيه في العصر الوسيط. كنت أبصر في نومي مدينة قوطية وسط بحر جمدت مياهه كأنما على زجاج ملوّن، والمدينة يشطرها شطرين خليج ضيّق، والماء الأخضر يمتدّ تحت قدميّ، ويحيط بكنيسة شرقية على الضفة المقابلة، ثم بمنازل كانت لاتزال قائمة في القرن الرابع عشر حتى ليعني الذهاب إليها الصعود في مجرى العصور، كان يبدو لي أنّ هذا الحلم قد وافاني كثيراً، ذاك الذي تعلمّت الطبيعة فيه الفنّ والذي أضحى البحر فيه قوطياً، ذاك الحلم الذي كنت أتوق فيه إلى بلوغ شاطئ المستحيل ويخيّل إليّ ذلك. وبما أنّ من شأن ما يتخيله المرء في أثناء النوم أن يتضاعف في الماضي وأن يبدو مألوفا مع أنه جديد، فقد ظننت أنني أخطأت. وتبين على العكس أني غالباً ما كنت أحلم ذاك الحلم.

كانت الانتقاصات نفسها التي تطبع النوم تنعكس في نومي ولكن على نحو رمزيّ: فما كنت أقوى في الظلام على تمييز وجوه أصدقائي الحاضرين لأنّ المرء ينام مغمض العينين ؛ وكنت أحس، أنا الذي كان يردّد لنفسه في الحلم إلى مالا نهاية حججاً كلاميّة، أنّ الصوت يتوقف في حنجرتي ما أن أبغي التحدّث إلى هؤلاء

الأصدقاء لأن المرء لا يتحدّث بوضوح في نومه ؛وكنت أودّ الذهاب إليهم ولا أقوى على نقل ساقيّ إذ المرء لا يمشي فيه كذلك، وفجأة يعتريني الخجل من الظهور أمامهم لأنّ المرء ينام بدون ثيابه. هكذا كانت تبدو هيئة النوم التي يسقطها نومي نفسه فاقدة العينين، ملصقة الشفتين، مربوطة الساقين، عارية الجسم. تبدو وكأنّها من تلك الوجوه الرمزيّة الكبيرة التي مثل فيها «جونو» الحسد وفي فمه حيّة، وكان «سوان» قد أعطاني اياها.

جاء «سان لو» إلي باريس لبضع ساعات فقط. وقال لي، وهو يؤكد أنّ الفرصة لم تسنح له ليحدّث ابنة عمّه، ويفضح نفسه بسذاجة: «أوريان غير لطيفة على الاطلاق. لم تعد «أوريان» الأمس، لقد تبدّلت. أؤكد لك أنّها ليست جديرة باهتمامك. إنك تمحضها الكثير من التكرمة. ألست تريد أن أقدّمك لابنة عمي «بواكتييه»؟ يضيف قوله دون أن يتبين أنّ الأمر لا يمكن أن يوليني أيّة مسرّة. «فتلك امرأة شابة ذكية وقد تحسن في عينيك لقد تزوّجت ابن عمي دوق «بواكتييه» وهو رجل طيب ولكنه على شيء من البساطة بالنسبة إليها. لقد حدّثتها عنك وسألتني أن أصطحبك. إنها أجمل من «أوريان» وأصغر سناً. إنها لطيفة، لو تدري وتحسن في العين.» كانت تلك عبارات تبناها «روبير» حديثاً – مما يزيد في اندفاعه – وتعني أنّ الشخص يملك طبيعة مرهفة. «لا أقول لك إنّها من مناصري «دريفوس»، فلا بد كذلك من أخذ بيئتها في الحسبان، ولكنّها تقول: «إن كان بريئاً، فما أبشع أن يكون في جزيرة الشيطان!» هل تدرك ذلك؟ ثم إنّها أخيراً تفعل الكثير من أجل معلّماتها السابقات، فقد حظرت أن يشار إليهنّ بالصعود من درج الخدم. أؤكد لك إنها شيء يروق جداً. و«أوريان» لاتحبها في الاساس لأنها تحسها أشدّ ذكاءً.»

لقد حزّ في نفس «فرانسواز»، مع أنّها كانت تشغلها الشفقة التي يثيرها لديها أحد خدم آل «غيرمانت»–وما كان يستطيع المبادرة إلى لقاء خطيبته حتى بعدما تخرج الدوقة إذ يتمّ نقل الأمر في الحال على لسان المحفل – حزّ في نفسها أن لم تكن حاضرة حين قام «سان لو» بزيارته، وذلك لأنّها كانت تخرج الآن بدورها. كانت تخرج حتماً في الأيام التي أكون فيها بحاجة إليها. كان ذلك على الدوام كيما تذهب لرؤية أخيها وابنة أخيها ولاسيما ابنتها التي وصلت منذ قليل إلى باريس. كانت الطبيعة العائليّة لتلك الزيارات التي تقوم بها «فرانسواز» تزيد من تبرّمي لحرماني من خدماتها إذ كنت أتوقع أنّها سوف تحدّثني عن كلّ واحدة وكأنّما عن واحد من تلك الأشياء التي لا يمكن أن تكون في غنى عنها بحسب القوانين التي تمّ تعليمها في «سانت أندريه دي شان». لذلك لم أكن قطّ استمع إلى اعذارها دون تكدّر شديد الاجحاف يدفعه إلى أقصى درجاته الطريقة التي تقولها بها «فرانسواز» فلا تقول: «ذهبت لرؤية أخي، ذهبت لرؤية ابنة أخي»، بل تقول: «ذهبت لرؤية الأخ، دخلت «راكضة» اقرئ ابنة الأخ السلام (أو ابنة أخي اللحامة)». أمّابشأن ابنتها، فقد ودّت «فرانسواز» لو تراها تعود إلى «كومبريه». ولكنّها هي كانت تقول، وتستخدم، شأن الأنيقات، كلمات مختصرة بيد أنّها عامية، إن الأسبوع الذي يقع عليها فيه الذهاب لقضائه في «كومبريه» سوف يبدو لها طويلاً جداً دون أن يتوافر لها حتى جريدة «المتشدّد». وكانت تبدي رغبة أقلّ في الذهاب لدى شقيقة «فرانسواز» التي تقطن في محافظة جبليّة «لأنّ الجبال أمر غير مفيد تقريباً»، تقول ابنة «فرانسواز» وهي تحمّل لفظة «مفيد» معنى قبيحاً وجديداً. ما كانت تستطيع أن تحمل نفسها على العودة إلى «ميزيكليز» حيث الناس بلهاء إلى حدّ بعيد، وحيث قد تكتشف «الخالات» في السوق صلة قرابة بها ويقلن: «ويحك، أليست هذه ابنة المرحوم بازيرو؟» لعلّها تفضل الموت على العودة للسكنى هناك «الأن قد ذاقت طعم الحياة في باريس»،

و«فرانسواز» المتمسكة بالتقاليد كانت تبتسم بلطف مع ذلك إزاء روح التجديد الذي تجسّده «الباريسية» الجديدة حينما تقول: «حسن يا أمّي، إن لم تحصلي على يوم عطلتك فما عليك إلاّ أن تبعثي إليّ ببرقية».

كان الطقس قد عاد فأصبح بارداً. وكانت «فرانسواز» تقول، وهي تفضل المكوث في المنزل في أثناء الأسبوع الذي ذهبت فيه ابنتها والشقيق واللحّامة لقضائه في «كومبريه»: «أخرج؟ لماذا؟ ليدركني الموت». وكانت «فرانسواز» تضيف قولها في حديثها عن هذا الطقس الذي في غير أوانه، وهي على أيّ حال آخر نصيرة ظلّت تعيش في صدرها على نحو غامض عقيدة عمّتي «ليوني» فيما يخصّ الفيزياء: «إنه بقية غضب الله!» وما كنت أجيب على شكاواها إلاّ بابتسامة يملؤها الوهن ويزيد من لامبالاتي بتلك التنبؤات أن الطقس سوف يكون صاحياً بالنسبة إليّ في جميع الأحوال. فقد كنت أبصر مذ ذاك شمس الصباح تشرق فوق تلّة «فيزيول» واتدفأ بأشعتّها، وكانت قوّتها تصطرّني إلى فتح جفني واغماضهما نصف اغماضة فيما ابتسم فيمتلئان بضياء ورديّ شأن مصباحين من المرمر. ما كانت الأجراس وحدها تعود من إيطاليه فقد جاءت إيطاليه معها. وسوف لن تخلو يداي المخلصتان من الزهور لأكرّم ذكرى الرحلة التي وقع عليّ أن أقوم بها في الماضي، فمنذ أن عاد الطقس فأصبح بارداً في باريس، على نحو ما كانت الحال في عام آخر حين كنّا نعدّ للسفر في آخر الصيام، أخذت أشجار الدلب في الشوارع والشجرة التي في باحة منزلنا تفتح أوراقها في الهواء اللزج القارس الذي يغمر أشجار الكستناء، كما في كوب من الماء الصافي أزاهير النرجس والجنكيل والشقائق على «الجسر القديم».

كان والدي قد روى لنا أنه يعلم الآن على لسان أ. ج. أين كان يذهب السيد «دو نوربوا» حينما كان يصادفه في المنزل.

— «إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس»، إنّه يعرفها تماماً وما كنت أعلم شيئاً من ذلك. ويبدو أنّها شخصية جذّابة وامرأة متفوّقة.» وقال لي: «يجدر بك أن تبادر إلى لقائها. لقد دهشت أشدّ الدهشة على أيّ حال. لقد حدّثني عن السيد «دو غيرمانت» وكأنما عن رجل أنيق تماماً وكنت قد حسبته دوماً انساناً متوحشاً. ويبدو أنّه يعرف أموراً لاتحصى ويتمتّع بذوق رفيع، إلاّ أنه فخور جداً باسمه ويأنسابه. ولكن وضعه المالي من جهة ثانية، على حدّ قول «نوربوا»، متين جداً، لاههنا فحسب، بل إنّه كان في أوروبا. لقد قال لي العمّ «نوربوا» إن السيدة «دو فيلباريزس» تحبك كثيراً وإنك سوف تتعرّف في منتداها إلى شخصيات ذات بال. وقد أثنى عليك ثناء كبيراً في حضرتي وسوف تلتقي به في منزلها ويمكن أن يسدي إليك أحسن النصح حتى إن انبغى أن تتعاطى الكتابة، فإني أرى أنّك لن تفعل غير ذلك. يمكن عدّها مهنة جميلة، أمّا أنا فليس ذلك ما كنت أشتهي لك، ولكنّك ستضحي رجلاً عمّا قريب ولن نكون على الدوام إلى جانبك وينبغي ألاّ نحول بينك وبين اتباع ميولك.»

ليتني استطعت على الأقلّ أن أباشر الكتابة! ولكن، أيّة كانت الشروط التي أتناول فيها ذلك المشروع (كما هو للأسف أمر ألاّ أتناول الكحول من بعد وأن آوي إلى فراشي في ساعة مبكرة وأن أنام وأن أتمتع بصحة جيّدة)، أكان ذلك باندفاع، بمنهجيّة، بلذّة، بالامتناع عن نزهة، بإرجائها وادّخارها بمثابة مكافأة، بالإفادة من ساعة أتمتّع فيها العافية، باستخدام البطالة القسرية في يوم من أيّام المرض، فإنّ ما كان ينتج أبداً في

نهاية المطاف عن جهودي إنّما كان صفحة بيضاء لاتدنّسها أيّة كتابة، محتمة كتلك الورقة التي لا مفرّ من سحبها في النهاية في بعض أدوار اللعب أيّة كانت الطريقة التي تمّ بها سلفاً «خلط» الورق. فلم أكن سوى أداة لعادات في الامتناع عن الشغل والاستلقاء في سريري والنوم، عادات كان لابدّ أن تتحقق أيّا كان الثمن. فإن لم أقاومها، وإن رضيت بالعذر الذي كانت تتخذه من أوّل ظرف طارئ يوفرّة لها ذلك اليوم كيما أدعها تعمل على هواها كنت أنجو بنفسي دونما ضرر كبير وأستريح بضع ساعات مع ذلك في آخر الليل وأقرأ قليلاً ولا أسرف إلى حدّ بعيد. أمّا إذا شئت مقاومتها، وإن عزمت أن آوي إلى فراشي في ساعة مبكرّة وألاّ أشرب سوى الماء وأن أعمل فقد كانت تغتاظ وتلجأ إلى أعظم الوسائل وتحمل إليّ المرض الأكيد فأراني مضطراً إلى مضاعفة كميّة الكحول ولا آوي إلى الفراش طوال يومين ولا أقوى حتى على القراءة من بعد وأعد النفس في مرّة أخرى أن أكون أكثر تعقلاً، وأعني أقلّ حكمة كضحية تقبل بأن تسرق مخافة أن تذبح إن هيَ قاومت.

سبق لوالدي أن التقى مرّة أو مرتين بالسيد «دو غيرمانت» في هذه الأثناء، أمّا الآن وقد نقل إليه السيد «دو نوربوا» أنّ الدوق رجل مرموق فقد أخذ يعير أقواله انتباهاً أكبر. واتفق أن تحدّثا في الباحة عن السيدة «دوفيلباريزيس». «قال لي إنها عمّته، ويلفظها «فيباريزي». لقد قال لي إنّها خارقة الذكاء، وبلغ به أن أضاف أنّها تدير «مكتباً فكرياً»، يضيف والدي ،وقد أثر فيه غموض هذه العبارة التي قرأها بالحقيقة مرّة أو مرّتين في مذكرات إلاّ أنّه لم يكن يعيرها معنى دقيقاً. وكانت والدتي تكنّ له من الاحترام ما حكمت معه، وقد رأت أنّه لايجد غير ذي شأن أن تدير السيدة «دو فيلباريزيس» مكتباً فكرياً. أن الأمر على شيء من الأهمية. ومع أنّها عرفت على الدوام على لسان جدّتي ما تساوي المركيزة بالضبط، فقد كوّنت عنها في الحال فكرة مشرّفة. أما جدّتي التي كانت متوعكة بعض الشيء فلم تقف بادئ الأمر إلى جانب الزيارة ثمّ لم تعبأ بها بعد ذلك. فمنذ أن سكنّا في شقتنا الجديدة طلبت إليها السيدة «دوفيلباريزس» عدّة مرّات أن تأتي لزيارتها. وقد أجابت جدّتي على الدوام أنّها لم تكن تخرج في هذه الآونة في واحدة من تلك الرسائل التي لم تعد، من جراء عادة جديدة لم نكن نفهمها، تلصقها بنفسها وتدع لـ «فرانسواز» مهمّة إغلاقها. أمّا أنا فما كان ليدهشني كثيراً، وإن كنت لا أتصوّر تماماً هذا «المكتب الفكريَ»، أن أجد السيدة العجوز التي من «بالبيك» مستقرة أمام أحد «المكاتب»، الأمر الذي وقع على أيّة حال.

ودّ والدي، علاوة على ذلك، أن يعلم إن كان دعم السفير سوف يكسبه الكثير من الأصوات في المجمع الذي كان يعتزم التقدّم إليه بصفة عضو حرّ. ومع أنّه لم يكن يجرؤ على الشكّ بدعم السيد «دو نوربوا»، إلاّ أنّه، والحقّ يقال، لم يكن مع ذلك على يقين. وقد حسب أنّه يواجه بعض ألسنة السوء حينما قيل له في الوزارة إن السيد «دو نوربوا»، رغبة منه في أن يمثل وحده المجمع، سوف يقيم جميع العراقيل الممكنة في وجه ترشيح قد يزعجه من ناحية ثانية على نحو خاص في هذه الفترة التي كان يساند فيها ترشيحاً آخر. على أنّه تأثر، حينما أشار عليه «لوروا بوليو» بالتقدّم وقام بتخمين فرص نجاحه، أن يرى أنّ الاقتصاديّ اللامع لم يذكر السيد «دو نوربوا» في عداد الزملاء الذين يمكنه الاعتماد عليهم في هذا الظروف. ولم يكن والدي يجرؤ على طرح السؤال مباشرة على السفير السابق ولكنّه كان يأمل أنني سأعود من منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وقد تمّ انتخابه. كانت تلك الزيارة وشيكة الحدوث. وكانت دعاوة السيد «دو نوربوا» القادر فعلاً على ضمان ثلثي المجمع لوالدي، كانت تبدو له من ناحية أخرى محتملة يزيد من احتمالها أنّ لطف السفير كان مضرب

الأمثال، إذ يعترف الناس الذين يكنون له أقلّ الحبّ أن ليس من يحبّ اسداء الخدمات بقدر ما يفعل. وكان من جهة أخرى يبسط في الوزارة حمايته على والدي على نحو أكثر بروزاً منه على أيّ موظف آخر.

وقد تم لوالدي لقاء آخر ولكن هذا اللقاء أحدث لديه دهشة بالغة أعقبها سخط بالغ. لقد مرّفي الشارع قرب السيدة «سازرا» التي كان فقرها النسبي يَقْصر حياتها في باريس على إقامات قليلة لدى احدي الصديقات. وما من أحد كان يزعج والدي بقدر ما تفعل السيدة «سازرا» إلى حدّ أنّ والدتي كانت تضطرّ مرة في العام أن تقول له بصوت ناعم ومتوسل: «ياصديقي، لابدّ لي أن أدعو السيدة «سازرا» ذات مرّة، ولن تمكث حتى ساعة متأخرة»، بل وتقول: «اسمع ياصديقي، سوف أطلب منك تضحية كبيرة، هيّا قم بزيارة قصيرة للسيدة «سازرا». أنت تعلم أنّي لا أحبّ ازعاجك، ولكن كم سيكون الأمر لطيفاً فيما يخصّك فكان يضحك ويغضب قليلا ويبادر إلى القيام بتلك الزيارة. على الرغم إذن من أن السيدة «سازرا» لم تكن تسليه فقد أقبل عليها، إذ التقى بها، وهو يكشف عن رأسه، ولكن السيدة «سازرا» اكتفت، لدهشته العميقة، بتحيّة جافة يضطرّك إليها التأدّب إزاء شخص متهم بفعلة شائنة أو حكم عليه أن يعيش مذ ذاك في نصف آخر من الكرة. وعاد والدي غاضباً مذهولاً. وفي الغد التقت والدتي بالسيدة «سازرا» في أحد المنتديات فلم تمدّ هذه الأخيرة يدها وابتسمت لها بهيئة غامضة حزينة وكأنّما لامرأة لعبت معها في طفولتك ولكنك قطعت مذ ذاك جميع علاقاتك بها لأنها عاشت حياة خليعة وتزوّجت محكوما ًبالأشغال الشاقة أو رجلاً مطلقاً، وذلك أدهى. ولكنّ والديّ كانا على مدى الأيام يمحضان السيدة «سازرا»أعمق التقدير ويوحيان به إليها. بيد أنّ السيدة «سازرا» (وهو أمر كانت تجهله والدتي) كانت وحدها من بنات جنسها في «كومبريه» مناصرة لـ «دريفوس».

أما والدي، وهو صديق السيد «ملين»، فقد كان مقتنعاً بذنب «دريفوس» وقد سبق أن طرد بغضب زملاء طلبوا إليه التوقيع على لائحة تطالب بإعادة الدعوى. ولم يعد إلى التكلّم معي طوال ثمانية أيام حينما علم أني سلكت خط سير مختلفاً. كانت آراؤه معروفة وما كان يستعبد أن يؤخذ مأخذ الوطنيّ. أمّا فيما يخصّ جدّتي التي كان يبدو أن الشك المتسامح لابدّ أن يلهب عواطفها وحدها في الأسرة، فقد كانت تهزّ رأسها في كل مرّة يحدثونها فيها عن براءة «دريفوس» المحتملة هزّة لم نكن نفهم معناها آنذاك وتشبه مايقوم به شخص تأتي لإزعاجه في غمرة أفكار أكثر جدّية. أما والدتي التي كان يتنازعها حبّها لوالدي وأملها في أن أكون ذكياً فقد كانت تلوذ بحيرة تترجمها بالصمت. وما كان جدّي أخيراً، وهو يعبد الجيش (مع أنّ التزاماته كحرس وطنّي كانت هاجسه في سنّ النضج) ماكان يبصر قطّ في «كومبريه»كتيبة تمرّ أمام السياج دون أن يكشف عن رأسه لدى مرور العقيد والعلم. كان كل ذلك كافيا كيما تبادر السيدة «سازرا» التي كانت تعرف تمام المعرفة حياة التجرّد والشرف التي قضاها والدي وجدّي إلى اعتبارهما بمثابة محرّضين على «الظلم». والمرء يصفح عن الجرائم الفردية لا عن المشاركة في جريمة جماعيّة. فما أن عرفت أنّه من مناهضي «دريفوس» حتى جعلت بينها وبينه قارات وقروناً. والأمر يوضح أن تكون تحيّتها قد بدت لوالدي من مثل تلك المسافة في الزمان والمكان غير ملحوظة بالعين وأنّها لم تفكّر في مصافحة وأقوال لعلها لاتقوى على اجتياز العوالم التي تفصل بينهما.

لمّا كان «سان لو» يزمع المجيء إلى باريس فقد سبق أن وعدني باصطحابي إلى منزل السيدة «دو فيلباريزس» حيث كنت آمل، دون أن أكون صرحت له بذلك، إمكان التقاء السيدة «دو غيرمانت». وطلب

إليّ أن أتغدّى في المطعم برفقة عشيقته التي سنصحبها فيما بعد إلى تجربة مسرحية. كان علينا أن نذهب في طلبها صباحاً في ضواحي باريس حيث كانت تقطن.

وكنت قد سألت «سان لو» أن يكون المطعم الذي سنتناول طعام الغداء فيه (والمطعم في حياة النبلاء الشباب الذين ينفقون المال يقوم بدور في مثل أهميّة صناديق القماش في الحكايات العربية)أن يكون بالأحرى المطعم الذي أعلمني «إيميه» أنّه يزمع الدخول فيه بمثابة رئيس خدم بانتظار موسم «بالبيك». كانت بهجة كبيرة بالنسبة إليّ أنا الذي كان يحلم بالكثير من الرحلات ويقوم بالقليل القليل منها أن أعود فألقى شخصاً هو أكثر من جزء من ذكرياتي في «بالبيك»، إنه جزء من «بالبيك» نفسها، شخصاً يذهب إليها في كلّ عام ويظل ينظر، حينما يضطرّني التعب أو دروسي إلى البقاء في باريس، أثناء أواخر عشيات تموز الطويلة وبانتظار أن يفد الزبائن للعشاء، إلى الشمس تنحدر وتغيب في البحر، عبر ألواح زجاج قاعة الطعام الكبرى، ومن خلفها، ساعة تنطفيء، تبدو الأجنحة الساكنة للمراكب البعيدة الضاربة إلى الزرقة وكأنها فراشات غريبة ليليّة في واجهة زجاجية. وإذ تمغنط رئيس الخدم هذا نفسه من جرّاء تماسة مع مغناطيس «بالبيك» القوي فقد أضحى بدوره مغناطيساً بالنسبة إليّ. فكنت آمل في حديثي معه أن أكون مذ ذاك في تواصل مع «بالبيك» فأحقق دون أن أبرح مكاني بعضاً من روعة السفر.

غادرت البيت منذ الصباح وتركت «فرانسواز» تتأوّه فيه لأن الخادم الخطيب لم يستطع مرّة أخرى مساء البارحة أن يذهب لرؤية خطيبته. لقد وجدته «فرانسواز» باكيا ؛ وقد أوشك أن يبادر فيصفع البوّاب ولكنّه تمالك نفسه لأنّه كان متمسكاً بمركزه.

وقبلما أصل إلى منزل «سان لو» الذي سينتظرني على عتبة بابه صادفت «لوغراندان» الذي غاب عن أبصارنا منذ «كومبريه» والذي احتفظ رغم تشيبه بمظهره الفتيّ الساذج. فوقف وقال لي:

– «آه! هذا أنت، رجل أنيق وبالسترة الرسميّة أيضاً! ذلك لباس قد لا يناسب طبعي الاستقلاليّ. صحيح أنك لابدّ رجل مجتمع وأنك تقوم بزيارات! وليست ربطة عنقي وسترتي في غير محلهما كيما أمضي وأحلم مثلما أفعل حيال قبر نصف مهدّم. أنت تعلم أنّي أقدّر جودة نوعية قلبك، وإنما أعني بذلك إلى أيّ حدّ يؤسفني أن تذهب فتنكرها بين الوثنيين. وإنك لتصدر ضدّ مستقبلك حكم النبيّ، بل لعنته إذ تستطيع البقاء لحظة في جوّ الصالات النتن الذي لا يطاق في نظري. إني أبصر الأمور من هنا، أنت تتردّد على ذوي الأفئدة الخفيفة ومجتمع القصور ؛ ذلك هو عيب البورجوازية المعاصرة. ياللاستقراطيين! لقد كان ذنب «عصر الإرهاب» عظيماً إن لم يضرب رقابهم جميعاً. إنهّم جميعهم فسق مشؤومون، هذا إن لم يكونوا محض بلهاء مقيتين. فأما أن كان ذلك يسليك ياولدي المسكين!، وبينما تذهب أنت إلى حفلة شاي الخامسة يكون صديقك القديم أسعد منك لأنه سوف يشاهد وحيداً في حيّ شعبي طلوع القمر الوردي في السماء البنفسجية. والحقيقة أنّي لست البتة من هذه الأرض التي أحسني منفياً فيها، ولا بدّ من كامل قوّة قانون الجاذبية كي تمسك بي فيها ولا أفرّ إلى كرة أخرى. إنني من كوكب آخر، الوداع، ولا تأخذ على محمل السوء صراحة فلاح الـ«فيفون» العتيق الذي ظلّ إلى ذلك فلاّح «الدانوب». وكيما أبرهن أنّي أقدرك حقّ قدرك سوف أبعث إليك بروايتي الأخيرة. ولكنها لن تروقك فليست على قدر كاف من التميّع ومن روح

أواخر القرن بالنسبة إليك، إنّها مفرطة الصراحة، مفرطة الاستقامة ؛ أما أنت فإنك بحاجة إلى طراز «بيرغوت»، وقد أقررت بالأمر، إلى أشياء متخمرّة تصلح لحلوق متبلّدة لدى أرباب المتع المتأنقين. لابدّ أنّهم يعدّونني في جماعتك عسكرياً عتيقاً. ذنبي أنّني أغلف ما أكتب بالعاطفة ولم يعد ذلك محتملاً ؛ ثم إن حياة الشعب ليست على قدر من الأناقة كافٍ لتثير اهتمام متحذلقاتك. هيّا، حاول أن تتذكّر بين الحين والحين قول المسيح: «أصنعوا هذا فتحيوا.» إلى اللقاء أيها الصديق.»

لم أفارق السيد «لوغراندان» وأنا شديد التكدّر منه. فإن بعض الذكريات شبيه بالأصدقاء المشتركين ويعرف كيف يقوم بالمصالحات. فقد كان الجسر الخشبيّ الصغير المرميّ وسط الحقول المغطاة بالأزرار الذهبية والتي تتكدس فيها خرائب اقطاعيّة، كان يجمعنا أنا و«لوغراندان» كما يجمع ضفتي نهر الـ«فيفون».

بعدما غادرتُ بصحبة «سان لو» باريس حيث كادت أشجار الشوارع على الرغم من بدايات الربيع لاتغطيّها أوراقها الأولى، وحينما توقف بنا القطار المحيطيّ في قرية الضاحية التي تقطن فيها عشيقته أخذتنا الدهشة أن نرى كل حديقة صغيرة تزدان بالهياكل البيضاء الفسيحة التي تؤلفها أشجار الفاكهة المزهرة. لكأنما ذلك واحد من تلك الاحتفالات الفريدة الشاعرية العابرة المحليّة التي تجيء من البعيد لتشاهدها في فترات محدّدة، ولكن الاحتفال هذا تقيمه الطبيعة. فترى أزهار أشجار الكرز تلتصق بالأغصان التصاقاً وثيقاً على هيئة راب أبيض حتى ليمكنك الظنّ أنك تبصر من الأشجار التي تكاد تخلو من الأزهار والأوراق وفي هذا النهار المشمس الذي لايزال قارس البرد، ثلجاً ذاب هناك وظلّ هنا خلف الشجيرات. ولكن أشجار الإجاص الكبيرة تغمر كلّ بيت وكلّ باحة متواضعة ببياض أكثر اتساعاً وأكثر توحد لون وأشد التماعاً كأن المساكن جميعها وأسيجة القرية جميعها تقيم في التاريخ نفسه حفلة مناولتها الأولى.

ولاتزال قرى ضواحي باريس هذه تحتفظ على أبوابها برياض من القرنين السابع عشر والثامن عشر هام بها وكلاء البيوتات والمحظيات. وقد استخدم جنائنيّ واحداً منها كأتناً إلى سفح الطريق من أجل زراعة الأشجار المثمرة (أو ربّما احتفظ فقط بتصميم بستان فسيح يعود إلى ذلك العهد). كانت أشجار الإجّاص هذه التي زرعت على شكل مخمسّات أكثر تباعداً فيما بينها وأقل اقتراباً من تلك التي رأيتها، كانت تشكل رباعيات أضلاع من الزهر الأبيض، تفصل بينها جدران خفيضة، وعلى ضلع كلّ منها يقبل الضوء فيرتسم ألواناً مختلفة حتى لتبدو كلّ تلك الحجرات غير المسقوفة في الهواء الطلق وكأنها حجرات «قصر الشمس» على نحو ما قد يمكن العثور عليه في جزيرة «كريت». كانت تذكر كذلك بحجرات خزّان أو ببعض أجزاء من البحر يقسّمها الإنسان من أجل صيدٍ أو تربية محار حينما كنت ترى الضوء يقبل، حسب تعرّضها للشمس، فيتراقص على خطوط الأشجار، مثلما يفعل على صفحة المياه الربيعية، وتتدفق به ههنا وهناك الرغوة المبيضة لزهرة منوّرة راغية تلتمع بين شبك الأغصان المفرّغ الذي تملؤه زرقة السماء.

كانت قرية قديمة ببلديتها العتيقة المشويّة المحمرة التي ترتفع أمامها بمثابة صوارٍ للحفلات وبيارق ثلاث شجرات إجّاص ازدانت بالساتين الأبيض الأنيق وكأنما لاحتفال وطني محليّ.

لم يحدثني «روبير» في يوم عن صديقته بلهجة أكثر رقة مما فعل في أثناء ذلك المشوار. كنت أحس أنّ

لها وحدها جذوراً في فؤاده ؛ فمستقبله في الجيش ومركزه الدنيوي وأسرته، كلّ ذلك لم يكن بالتأكيد غير ذي شأن لديه ولكنّه لايساوي شيئاً إزاء أقلّ الأمور التي تتعلق بعشيقته. ذلك وحده يتمتع بمهابة في نظره، بمهابة أكبر بما لايقاس من آل «غير مانت» وملوك الأرض كافة. ولست أدري إن كان هو يعرب لنفسه عن أنها من جوهر يسمو على كلّ شيء، ولكنه لم يكن يبدي إجلالاً واهتماماً إلاّ لكلّ ما يتعلق بها. كان بها قادراً أن يتعذّب ويسعد وربما أن يقتل. وما كان أمر يثير اهتمامه بالحقيقة ويستهويه إلاّ ما تبغيه عشيقته وما قد تفعله، وإلاّ ما كان يجري في المساحة الضيقة التي تؤلف وجهها وخلف جبينها المحظوظ، وكان يستبين بالأكثر بأمارات عابرة وكان يتطلع إلى فكرة زواج رفيع، هو البالغ الرقة في كلّ ما عداه لمجرّد أن يستطيع متابعة الإنفاق عليها والاحتفاظ بها. ولئن تساءل المرء بأيّ ثمن كان يقدرها فاني أعتقد أنه لا يمكننا في يوم تصوّر ثمن مرتفع إلى حدّ كاف. وإن كان لايتزوّجها فلأن غريزة عمليّة كانت تشعره أنّها سوف تهجره أو تعيش على الأقلّ على هواها منذ اللحظة التي لن يظل لها فيها ما تنتظره منه، وأنّه لابدّ من شدّها إليه بعملية انتظار الغد هذه. فقد كان يفترض أنّها قد لا تكون على حبّه. وليس من شكّ أنّ المرض العام المسّمى بالحبّ كان لابد يضطرّه – مثلما يفعل بجميع الرجال– إلى الظنّ بين الحين والحين بأنها تحبّه. بيد أنّه كان يحس عملياً بأن ذاك الحبّ الذي تكنّه له ما كان يحول دون أن تظلّ معه بسبب ماله فحسب وأنّها سوف تسارع إلى هجرانه يوم لن يبقى لها ما تنتظره منه (وقد وقعت ضحية نظريات أصدقائه في عالم الآداب وفيما تظلّ على حبّه حسبما يعتقد)، وقال لي:

– «سوف أقدّم لها اليوم، إن كانت لطيفة، هدية تدخل السرور على نفسها. إنه عقد رأته لدى «بوشرون». ثلاثون ألف فرنك. ذلك باهظ الثمن إلى حدّ ما بالنسبة إليّ في هذه الفترة. ولكنّ المسكينة لاتلاقي الكثير من المسرّة في الحياة. سوف تفرح أشدّ الفرح، فقد سبق أن حدّثتني عنه وقالت لي إنها تعرف واحداً ربما وهبها إيّاه. لا أحسب الأمر صحيحاً ولكني تحسباً مني لكل طارئ اتفقت مع «بوشرون»، وهو مورّد أسرتي، كي يحتفظ لي به. أنا سعيد إذ أفكر أنك ستراها عمّا قليل. ليست خارقة على صعيد الوجه، تدري (ورأيت تماماً أنه يفكر عكس ذلك ولايقول ما يقول إلاّ ليزداد إعجابي)، فهي تمتاز على وجه الخصوص بفهم رائع ؛ ربّما لم تجرؤ أمامك على التحدّث كثيراً، ولكني أبتهج سلفاً مما ستقوله لي عنك فيما بعد. تدري. إنها تقول أشياء يمكن التعمق فيها إلى مالا حدود، إن لديها بالحقيقة شيئاً من العرافة!».

كنا نسير بمحاذاة حدائق صغيرة لنصل إلى البيت الذي تسكنه، وما كنت أقوى على الامتناع عن التوقف لأنّها كانت تخلب الأبصار بزهو أشجار الكرز والإجّاص المزهرة. كانت بالأمس لاشكّ خالية بعد وخاوية مثل عقار لم يتّم تأجيره فإذا بتلك الوافدات الجديدات اللواتي، وصلن البارحة واللواتي كنا نلمح من خلال الأسيجة فساطينها البيضاء الجميلة في زوايا الممرّات تعمرها فجأة وتزينها.

وقال لي «روبير»: «اسمع، بما أني أرى أنك تودّ النظر إلى كل هذا وأن تتصرف كالشعراء فلا تتحرك من هنا، إن صديقتي تقطن قريباً جداً وسأمضي لإحضارها.».

وقمت ببضع خطوات بانتظاره، وكنت أمرّ أمام حدائق متواضعة. كنت أبصر أحياناً، إن أنا رفعت رأسي، فتيات في النوافذ، بيد أنّه كان ههنا وهناك حتى في الهواء الطلق وعلى سوية طابق صغير طاقات من

الليلك الفتيّ طيعة رشيقة في أثوابها النديّة الخبازيّة معلقة بين الأوراق تدع للنسيم أن يرجحها دون أن تهتم بعابر السبيل الذي يرتفع بعينيه حتى سوية طابقها الأخضر. لقد تعرّفت فيها الفصائل البنفسجية المصفوفة على مدخل حديقة السيد «سوان» في عشيات الربيع الدافئة من أجل مطرّزة ريفية رائعة. وسلكت درباً يفضي إلى مرج. كان يهبّ فيه هواء بارد وقارس كما في «كومبريه» وفي وسط التربة الطينية الرطبة الريفية التي كان يمكن أن تكون على ضفة نهر «فيفون» انبثقت فجأة، لا تخلف بالموعد المضروب كسائر زمرة رفيقاتها، شجرة إجاص كبيرة بيضاء تحرّك باسمة وتعرّض للشمس أزهارها التي يقبضها النسيم ولكنما تصقلها أشعة الشمس وتلمعها بلون الفضة، وكأنها ستارة من نور أضحت محسوسة ملموسة.

وفجأة طلع «سان لو» تصحبه عشيقته، وإذ ذاك عرفت في الحال في تلك المرأة التي كانت كلّ الحب بالنسبة إليه وكلّ الحلاوات الممكنة في الحياة، والتي تمثل شخصيتها المخبأة على نحو خفيّ وكأنما داخل بيت قربان الموضوع الذي تنشط دون انقطاع من حوله مخيلة صديقي، والتي يحس أنه لن يعرفها في يوم ويتساءل عما تكون في حدّ ذاتها خلف حجاب النظرات والجسد، — عرفت فيها «راحيل حينما الربّ»، تلك التي كانت تقول للقوّادة منذ سنين خلت (والنساء سرعان ما يبدّلن من وضعهنّ في هذه الفترة، أن هنّ بدّلن) : «في الغد مساء اذن إن كنت بحاجة إليّ من أجل أحدهم فابعثي في طلبي.»

وبعدما «يأتون في طلبها» وتجد نفسها وحدها في الغرفة مع هذا «الأحد» كانت تعلم تمام العلم ماينبغي منها حتى أنّها كانت تشرع، بعدما أغلقت الباب بالمفتاح من جرّاء حيطة تتخذها المرأة الحذرة أو من جرّاءحركة طقسية، في خلع سريع لجميع ألبستها كما يفعل المرء أمام الطبيب الذي يزمع أن يفحصك، ولا تتوقف في تلك الأثناء إلاّ إذا قال لها ذلك «الأحد»، وهو لايحبّ العري، إنها تستطيع الاحتفاظ بقميصها، مثلما يفعل الأطباء الذين يتمتعون بأذن مرهفة إلى حدّ بعيد ويخشون أن يصيب البرد مريضهم فيكتفون بالاصغاء إلى التنفس وخفق القلب من خلال القماش. لقد انصبّ قلق «سان لو» وعذابه وحبه على تلك المرأة التي كانت حياتها كلّها وجميع أفكارها وكل ماضيها وسائر الرجال الذين أمكن أن يمتلكوها أمراً غير ذي بال بالنسبة إليّ إلى حدّ أنّي ما كنت أصغيت إليها، لو روت لي عن ذلك، إلاّ تأدباً وما كدت سمعتها، حتى جعلت، مما كان بالنسبة إليّ دمية آليّة، موضوع عذابات لاتنتهي يساوي ماتساوي الحياة. وإذ كنت أرى هذين العنصرين منفصلين (لانني كنت قد عرفت «راحيل حينما الربّ» في أحد بيوت الدعارة) فقد كنت أدرك أن العديد من النساء اللواتي يعيش الرجال من أجلهنّ ويتعذّبون ويقتلون أنفسهم يمكن أن يكنّ في ذاتهنّ أو بالنسبة إلى الآخرين ما كانت «راحيل» بالنسبة إليّ. كان يذهلني أن يعاني المرء من فضول مؤلم حيال حياتها. وكان بوسعي أن أعلم «روبير» بالكثير من خلواتها الغرامية التي تبدو لي أقلّ أمور الدنيا أهمية. وكم لعلّها كانت تغمه! وما أكثر ما أعطى ليعرفها دون أن يفلح!

كنت أتبين كلّ ما يمكن أن تضعه مخيلة بشريّة خلف قطعة وجه صغيرة على نحو ما كان عليه وجه هذه المرأة إن كانت المخيلة أول من عرفها، وإلى أي عناصر مادية بائسة خالية من أية قيمة كان يمكن على العكس أن يتفكك ما كان هدف الكثير الكثير من الأحلام لو تمّ إدراكه على نحو معاكس بأكثر أنواع المعرفة إسفافاً. كنت أدرك أن مابدا لي لايساوي عشرين فرنكاً حينما قدم لي مقابل عشرين فرنكاً في بيت الدعارة

ـحيث كان في نظري محض امرأة تتوق إلى كسب عشرين فرنكاً يمكن أن يساوي أكثر من مليون ومن جميع الاحوال المشتهاة وأكثر حتى من صنوف حنان الأسرة إن بدأنا بتخيل كائن خفيّ فيها تشوقنا معرفته ويصعب القبض عليه والاحتفاظ به. ليس من شكّ أننا كنا نبصر أنا و«روبير» الوجه النحيف الضيق ذاته، بيد أننا بلغناه بطريقين متعاكسين لن يتصلا في يوم ولن نبصر البتة منهما الصفحة نفسها. ذلك الوجه عرفته أنا بنظراته وبسماته وحركات فمه من الخارج على أنّه وجه امرأة، أيّ امرأة، قد تفعل كلّ ما أبغي مقابل عشرين فرنكاً. ولذلك بدت لي النظرات والبسمات وحركات الفم دالة على أفعال عامة فحسب دون أيّ شيء فرديّ، وما كان الفضول ليدفعني إلى البحث عن شخص خلفها. بيد أن ما قدّم لي، إن صحّ القول، في البداية، ذلك لوجه المرتضي، إنما كان في نظر «وبير» نقطة الوصول التي اتجّه وجهتها عبر آمال وشكوك وريبات وأحلام ما كثرها! أجل، لقد وهب أكثر من مليون كي يحصل على ماسبق أن قدم لي ولكلّ واحد على حدّ سواء، مقابل عشرين فرنكاً، وكي لايكون لآخرين سواه. فلأي سبب لم يحصل عليها بذاك الثمن، ذلك أمر يمكن ردّه إلى لحظة صدفة، لحظة تتهرّب من كانت تبدو على أهبة تسليم نفسها لأن لديها موعداً محتملاً، أوسبباً، يّ سبب، يجعلها أكثر عسراً في ذلك اليوم. فإن كان أمره مع أحد العاطفيين، حتى لو لم تتبين ذلك، بل على وجه الخصوص إن تبينته، بدأت لعبة رهيبة. وإذ يعجز عن التغلب على خيبة أمله وأن يكون في غنى عن تلك المرأة فإنه يلحق بها فتهرب منه فإذا الابتسامة التي لم يعد يجرؤ على توقعها تساوي ألف مرّة ما كان ينبغي أن تساوي المِنَن الأخيرة. وربما اتفق في هذه الحالة أحياناً، حينما يصيب الجنون المرء، من جرّاء سذاجة في الادراك تمتزج بتخاذل أمام العذاب، فيجعل من الفتاة صنماً عزيز المنال، أن لا ينال البتة تلك المِنَنَ لأخيرة، أو لاينال حتى القبلة الأولى ولايجرؤ حتى على المطالبة بها من بعد كي لايكذب تأكيدات تقول بحبّ أفلاطوني. وإنه لعذاب عظيم آنذاك أن تفارق الحياة دون أن تكون علمت في يوم ما يمكن أن تكون قبلة المرأة التي أحببتها أكثر ما أحببت. أما منن «راحيل» فقد سبق أن أفلح «سان لو» لحسن الحظ في نيلها جميعها. صحيح أنّه لو علم الآن أنّها عرضت على جميع الناس مقابل ليرة ذهبية لتألم دونما شكّ أشدّ الألم لكنّه ما كان ليحجم عن إعطاء هذا المليون للاحتفاظ بها، فما كان كلّ ما علمه قادراً على إخراجه -إذ لا يمكن أن يحدث ما كان مهماً لدى الإنسان إلاّ رغم أنفه وبفعل قانون طبيعي عام -- من الدرب الذي كان به والذي لايمكن أن يتبدّى له هذا الوجه منه إلاّ من خلال الأحلام التي سبق أن كوّنها. كان جمود ذاك الوجه النحيف يبدو لي، شأن جمود طلحية من الورق تتعرّض للضغوط الهائلة المنبثقة من جوّين اثنين، وكأنما يوازنه لانهايتان تفضيان إليه دون أن تتلاقيا إذ هو يفصل بينهما. كنا ننظر إليها كلانا، أنا و«روبير»، فلا نراها من جهة السرّ الخفيّ نفسها.

وليست «راحيل حينما الربّ» التي كانت تبدو لي قليلة الشأن، وإنما قوّة المخيلة البشرية والوهم الذي ترتكز عليه صنوف عذاب الحبّ ما كنت أجده عظيماً،. ورأى «روبير» أنني بادي التأثر ؛ فأشحت بوجهي إلى أشجار الإجاص والكرز في الحديقة المقابلة كي يحسب أن جمالها هو الذي يؤثر في نفسي. لقد كان يؤثر في حدّ ما بالطريقة نفسها. إذ كان يضع كذلك بالقرب مني أشياء لايبصرها المرء بعينيه فحسب وإنما يحس بها في قلبه. فتلك الشجيرات التي رأيتها في الحديقة أما أخطأت، إذ احتسبتها آلهة غريبة، شأن المجدلية حينما أبصرت في حديقة أخرى في يوم تزمع ذكراه أن تحلّ عما قريب شكلاً بشرياً «فظننت أنه البستاني»؟

والمخلوقات البيضاء الضخمة بانحناءتها الرائعة فوق الظلّ المؤاتي للقيلولة والصيد والقراءة، حارسة ذكريات العصر الذهبي، الضامنة للوعد بأن الواقع ليس ما نحسب وأن روعة الشعر وبريق البراءة العجيب يمكن أن يتألقا فيها وقد يؤلفان المكافأة التي سنجهد في استحقاقها، تلك المخلوقات أماكانت الملائكة بالأحرى؟ وتبادلت بضع كلمات مع عشيقة «سان لو». ومررنا في القرية. كانت بيوتها قذرة بيد أن مسافراً من عالم الأسرار، مسافراً توقف يوماً واحداً في البلدة الملعونة، ملاكاً متألقاً كان ينتصب بالقرب من أكثرها بؤساً، تلك التي تبدو وكأنما أحرقها مطر من ملح البارود، يبسط فوقها ألق جناحيه البريئين: إنّها شجرة إجاص مزهرة. وخطا «سان لو» بضع خطوات إلى الأمام برفقتي:

– «كان بودّي لو نستطيع الانتظار سوية أنا وأنت. ولعليّ كنت أكثر سروراً في تناول طعام الغداء وحيداً معك أن نظلّ وحدنا حتى لحظة الذهاب إلى منزل عمتي. بيد أن طفلتي المسكينة يسرّها الأمر كثيراً وهي شديدة اللطف بحقّي، تدري، فما استطعت أن أحرمها ذلك. على أنّها ستروقك بأيّ حال. فميولها أدبية وهي مرهفة الأحاسيس، ثمّ ما ألطف أن تتناول طعام الغداء معها في المطعم فهي ممتعة وبسيطة إلى حد بعيد ودائمة الرضى عن كلّ شيء»

وأظنّ مع ذلك أنّ «روبير» قد هرب في ذلك الصباح بالضبط. وللمرّة الوحيدة على الأرجح، خارج المرأة التي سبق أن ألفها على مهل حناناً تلو حنان ولمح فجأة على مسافة منه «راحيل» أخرى، لمح صنواً لها ولكنه يختلف عنها تمام الاختلاف ويمثل مجرّد بلهاء صغيرة. كنا، وقد غادرنا البستان الجميل، في طريقنا لنستقلّ القطار بغية العودة إلى باريس حينما تم التعرّف في المحطّة على «راحيل» التي كانت تسير على بعد خطوات منا وصاحب بها «ساقطات» مبتذلات، كما كانت حالها، وصرخن وقد ظننها وحدها بادئ الأمر: «ويحك، يا راحيل، هل تصعدين؟ إن «لوسيين» و«جيرمين» في العربة ولايزال ثمّة مكان ؛ تعالي، ونذهب سوية إلى التزلج.» كنّ يتأهبن لتعريفها بمستخدمين، هما عشيقاهما، وكانا يرافقانهما حينما رفعتا أعينهما باستغراب إلى أبعد بقليل إزاء ما بدا من ضيق طفيف على «راحيل» فأبصرتانا واعتذرتا واستودعتاها وجاءهما منها تحيّة وداع كذلك، تحيّة وديّة ولكنّما بها بعض الاضطراب. كانتا اثنتين مسكينتين من بنات الهوى بباقتين من فراء ثعالب الماء الزائفة تبدوان على وجه التقريب بالمظهر الذي بدت به «راحيل» حينما لقيها «سان لو» أوّل مرّ. وما كان يعرفهما ولايعرف اسمهما ولما رأى أنّهما تبدوان على أوثق الصلات بصديقته خطر له أن هذه الأخيرة ربّما كان لها مكانها، ولعلّها لاتزال، في حياة لم يرتّب بها شديدة الاختلاف عن تلك التي يقضيها معها، حياة تتوافر فيها النساء للمرء مقابل ليرة ذهبيّة. ولم تتراء له تلك الحياة فحسب، بل تراءت كذلك وسطها «راحيل» مختلفة تماماً عن تلك التي يعرفها، «راحيل» شبيهة بهاتين «الساقطتين» الصغيرتين، «راحيل» تساوي عشرين فرنكاً. قد أصبح لـ «راحيل» باختصار القول شبهها مقدار لحظة، وقد لمح على مسافة ضئيلة من «راحيله» «راحيل» التي من بنات الهوى، «راحيل» الحقيقيّة. إن أمكن القول أن تكون «راحيل» الساقطة أكثر حقيقة من الأخرى. وربما خطر لـ «روبير» آنذاك أن جهنم هذه التي كان يعيش فيها، إلى جانب التطلع إلى زواج ثريّ وضرورته وإلى بيع اسمه كي يستطيع الاستمرار في تقديم مئة ألف فرنك لـ «راحيل» في العام، ربّما تأتّى له أن يفلت منها بسهولة وأن ينال منن عشيقته، مثلما ينال هؤلاء المستخدمونّ منن بائعات الهوى، في مقابل النزر اليسير. ولكن كيف عساه يفعل؟ فهي لم تأت ما تستحقّ عليه اللوم. وقد

تضحي، إن أقلّ من نعمه عليها، أقلّ لطفاً ولن تقول له ولن تكتب إليه من بعد شيئاً من تلك الأمور التي كانت تهزّ مشاعره إلى حدّ بعيد والتي كان يذكرها لرفاقه بشيء من التباهي ويحرص أن يلفت الانتباه إلى أي حدّ كان ذلك لطيفاً من جانبها، ولكنه يغفل أنّه ينفق عليها ببذخ، وحتى أن يكون قدّم إليها أيّ شيء وأن تلك الاهداءات على صورة فوتوغرافية أو تلك الصيغة التي تختم بها عجالة إنما هي تحوّل الذهب إلى الشكل الأكثر اقتضاباً والأغلى ثمناً. ولئن كان يتحاشى أن يقول إن لطائف «راحيل» النادرة تلك كانت مدفوعة الثمن فمن الضلال أن نقول إن ذلك كان بداعي الاعتزاز بالنفس والغرور- مع أن هذا الاستدلال الساذج يتمّ استخدامه بسخف بحق جميع العشاق الذين «يدفعون» وبحقّ العديد من الأزواج – كان «سان لو» على قدر كاف من الذكاء كي يتبيّن أن جميع متع الغرور ربّما لقيها بيسر ودون مقابل في المجتمع بفضل اسمه الكبير ومحياه الجميل وأن علاقته بـ «راحيل» هي التي وضعته على العكس خارج المجتمع إلى حدّما وأسهمت في كونه أقلّ تقديراً فيه. لا، إن هذا الاعتزاز في ابتغاء الظهور مظهر من ينال بدون ثمن علامات الإيثار الظاهر لدى من يحب إنما هو محض أمر ناتج عن الحبّ والحاجة في أن يعطي المرء لذاته وللآخرين صورة عن ذاته بوصفه محبوباً لدى من يحبه هو حبّاً جمّاً واقتربت «راحيل» منا تاركة المرأتين تصعدان إلى مقصورتهما ؛ بيد أن اسمي «لوسيين» و«چيرمين» استبقيا «راحيل» الجديدة فترة لا تقلّ عمّاً فعلت فراء ثعالب الماء الزائفة ومظهر المستخدمين المتصنع فيه. لقد تخيل لحظة حياة في ساحة «بيغال» برفقة أصدقاء مجهولين وثروات ضخمة قذرة وعشيّات من المتع الساذجة في باريس هذه التي لم يبد له فيها ضياء الشمس في الشوارع الممتدّة من شارع «كليشي» على أنّه الضياء ذاته الذي كان يتنزّه فيه بصحبة عشيقته لأن الحب والعذاب الذي يؤلف وإيّاه شيئاً واحداً يتمتعان، شأن السكر، بالقدرة على التفريق بين الأشياء بالنسبة إلينا. كان ما ارتابه يقارب أن يكون باريس أخرى وسط باريس ذاتها ؛ وتبدّت له علاقته بمثابة استكشاف لحياة غريبة، فلئن كانت «راحيل» معه شبيهة إلى حدّ ما بذاته فإنّما كانت «راحيل» تعيش معه جزءاً من حياته الحقيقية، وحتى الجزء الأغلى ثمناً من جرّاء المبالغ الطائلة التي كان يغدقها عليها، الجزء الذي كانت تحسدها عليه الصديقات إلى حدّ بعيد وسوف يسمح لها ذات يوم بالاعتزال في الريف أو أن تسعى إلى الشهرة في المسارح الكبرى بعدما يتم لها جني المكاسب. كان بودّ «روبير» أن يسأل صديقته من كانت «لوسيين» و«چيرمين» وما لعلهّما قالتا لها لو انها صعدت إلى مقصورتهما وبما كنّ سيقضين النهار سوية هي ورفيقتاها، نهاراً ربما انتهى، بعد التزلج، في مقهى الأولمبيا بمثابة التسلية القصوى لو لم نكن حاضرين، هو، «روبير»، وأنا. وأثارت مشارف الأولمبيا التي سبق أن بدت له حتى ذاك مملة فضوله وعذابه وخلفت في نفسه شمس ذلك النهار الربيعيّ المطلّ على شارع «كومارتان»، حيث ربّما ذهبت «راحيل» بعد قليل وكسبت ليرة ذهبية لو لم تكن عرفت «روبير»، حنيناً مبهماً. ولكن أية جدوى أن يطرح أسئلة على «راحيل» «حين يعلم مسبقاً أن الجواب سوف يكون إما محض صمت وإمّا كذبة وإمّا أمراً محزناً بالنسبة إليه ولا يصف أي شيء؟ لقد دام ازدواج «راحيل»بما جاوز الحدّ.

كان المستخدمون يغلقون الأبواب، فصعدنا بسرعة إلى عربة من الدرجة الأولى ونقلت لآلىء «راحيل» الرائعة إلى «روبير» ثانية أنّها امرأة عظيمة القيمة فداعبها وأدخلها إلى قلبه حيث تأملها، بعدما استبطنها، مثلما فعل على الدوام حتى هذا الحين – فيما عدا هذه الفترة الوجيزة التي أبصرها فيها في ساحة «بيغال»من وحي رسام انطباعي – وانطلق القطار.

كان صحيحاً أنّ لها ميولاً أدبية. فلم تكفّ عن التحدّث إليّ عن الكتب والفنّ الجديد والنزعة التولستوئية إلا لتنحى باللائمة على «سان لو» لأنه يفرط في احتساء الخمر.

– «آه! لو استطعت العيش معي عاماً واحداً لرأيت، كنت حملتك على شرب الماء ولأضحيت أحسن حالاًبكثير.»

– «أنا موافق، فلنمضِ بعيداً جداً.»

– «ولكنك تعلم أن لديّ عملاً كثيراً (إذ كانت تأخذ الفنَّ المسرحيَّ على محمل الجدّ.) وما عسى تقول عائلتك على أي حال؟»

وشرعت توجّه أمامي لعائلة «روبير» صنوفاً من اللوم بدت لي مصيبة جدّاً وقد تبناها «سان لو» كلياً فيما خرج على طاعة «راحيل» فيما يخص الشامبانيه. أما أنا الذي كان يخشى عليه أشدّ الخشية من الخمر ويحسّ بتأثير عشيقته الخيرّ عليه فقد كنت على أهبة أن أشير عليه برذل أسرته، وتصاعد الدمع إلى عيني المرأة الشابة لأنني غفلت فتحدّثت عن «دريفوس». وقالت وهي تغالب زفرة:

– «أيها الشهيد المسكين، سوف يقضون عليه هناك.»

– «اطمئني يا «زيزيت»، فسوف يعود وتتمّ تبرئته ويعترفون بخطأهم.»

– «ولكنه يكون قد فارق الحياة قبل ذلك! على أنّ أبناءه سيحملون على الأقلّ اسماً لاغبار عليه. ولكن التفكير بها ينبغي أن يعانيه، ذلك ما يذبحني! وهل تصدّق أنّ والدة «روبير»، وهي امرأة تقيّة، تقول إنه ينبغي أن يظلّ في جزيرة الشيطان وإن كان بريئاً، أليست تلك فظاعة؟»

وأكد «روبير» قائلاً: «أجل ذلك صحيح تماماً، إنها تقول به. إنها والدتي ولا اعتراض لديّ، بيد أنّ الأكيد أنّها لا تملك حساسية «زيزيت».

ولكن وجبات الغداء، تلك «الأمور اللطيفة جدّاً»، كانت تتمّ أبداً في الواقع على أسوأ حال. فما أن كان «سان لو» يغشى مكاناً عاماً برفقة عشيقته حتى يخيل إليه أنها تنظر إلى جميع الرجال الحاضرين فيتجهّم، وتتبيّن سخطه الذي ربّما تلهث بتأجيجه، أو هي ما ابتغت على الأرجح، بداعي اعتزاز بالنفس أبله، وقد جرحتها لهجته أن تبدو وكأنها تحاول أن تهدئ منه. فكانت تتظاهر برفض تحويل عينيها عن هذا الرجل أو ذاك، ولم يكن ذلك على الدوام لمحض التسلية على أيّ حال.فإن اتفق للسيد الذي صادف أن يكون جاراً لهما في المسرح أو المقهى، أو اتفق بكلّ بساطة لحوذيّ العربة التي استقلاها أن يكون على شيء من الإمتاع لاحظ «روبير» ذلك قبل عشيقته وقد نبهته غريته في الحال. كان يبصر لتوه فيه واحداً من تلك الكائنات القذرة التي سبق أن حدّثني عنها في «بالبيك» والتي تفسد النساء وتلحق بهنّ العار بداعي التسلية، فيتوسل إلى عشيقته أن تصرف عنه نظراتها ويلفت بذلك نظرها إليه. فكانت ترى أحيانا أن «روبير» قد أعرب عن حسن ذوق بالغ في شكوكه إلى حدّ أنها كانت تكفّ في النهاية عن مضايقته كي يهدأ بالاً ويرضى بالذهاب في مشوار ليفسح

لها الوقت في مباشرة الحديث مع الرجل المجهول وفي ضرب موعد في الغالب، وحتى في اشباع نزوة عاجلة أحياناً.

وقد رأيت تماماً فور دخولنا إلى المطعم أنّ «روبير» كان يبدو مشغول البال. فقد لاحظ في الحال أنّ «إيميه» وسط رفاقه العاميين، وهو ماخفي علينا في «بالبيك»، كان يبعث من حوله على نحو غير مقصود، وبألق متواضع، الجوّ الخياليّ العاطفي الذي ينشأ على مدى عدد من السنين من جرّاء شعر خفيف وأنف يوناني، الأمر الذي كان يميزّه وسط جمهرة الخدم الآخرين. فقد كان هؤلاء، وكلهم تقريباً مسنّون إلى حدّ ما، يمثلون نماذج قبيحة أيّما قبح جليّة كل الجلاء لخوارنة مرائين ومرشدين روحيّين منافقين، بل في الغالب لممثلين هزليين سابقين لا وجود تقريباً لجباههم التي على شكل قوالب السكر إلاّ في مجموعات الرسوم المعروضة في الاستراحة التاريخية المتواضعة لمسارح صغيرة متقادمة العهد يمثلون فيها بأدوار الخدم أو كبار الكهّان، وكان يبدو هذا المطعم، بفضل انتقاء اصطفائي وربمّا بفضل طريقة تعيين وراثيّة، وكأنّه يحافظ على أنموذجها المهيب في ضرب من المجمع العرافيّ. ولما عرفَنا «إيميه» فقد أقبل بنفسه لسوء الحظّ ليسجّل طلبنا فيما ظل ينساب باتجاه موائد أخرى موكب كبار الكهّان المسرحيّ. وسأل «إيميه» عن صحة جدّتي وسألته عن أخبار زوجته وأولاده، فنقلها إليّ بحماسة إذ كان رجل أسرة. كان يبدو ذكياً وحازماً ولكنّه مجلّ لغيره. وأخذت عشيقة «روبير» تنظر إليه بانتباه غريب. ولكنّ عيني «إيميه» الغائرتين اللتين يضفي عليهما قصر نظر طفيف شيئا من العمق المخادع لم يفصحا عن أيّ انطباع على صفحة محيّاه الجامد. ولابدّ أن الخطوط الجميلة التي اصفرّت قليلاً وأرهقت الآن والتي تؤلف وجهه، تلك التي كانت تشاهد أبداً على مدى سنوات عديدة، شأن تلك الصورة التي تمثل الأمير «أوجين»، في المكان ذاته وفي أقصى قاعة الطعام الخالية على الدوام تقريباً، لابدّ أنّها لم تجتذب الكثير من النظرات الفضولية في الفندق الريفيّ الذي عمل فيه سنوات عديدة قبل مجيئه إلى«بالبيك». لقد سبق إذن أن ظلّ فترة طويلة، لقلة توافر العارفين بالأمور دونما شك. جاهلاً لقيمة محيّاه الفنية وقليل الاستعداد على أيّ حال للفت الأنظار إليها إذ كان يتسم بالجفاء. وأكثر مافي الأمر أن تكون باريسية عابرة سبيل قد توقفت مرّة في المدينة ورفعت ناظريها إليه وطلبت أن يجيء ليقدّم لها الطعام في غرفتها قبلما تستقلّ القطار ثانية ودفنت في الفراغ الشفاف الرتيب العميق لحياة الزوج الصالح والخادم الريفيّ سرّ نزوة مضت دون رجعة، ولن يجيء من يكتشفها هناك في يوم. بيد أنّ «إيميه» لابدّ لاحظ الإلحاح الذي بقيت فيه عينا الفنانة الشابّة تحدقان إليه. ولكن الإلحاح لم يفت «روبير» على أيّ حال، فقد أخذت أرى حمرة تتجمع تحت وجهه، ولم تكن شديدة كالتي تلهبه إن هزّه انفعال مفاجئ بل طفيفة مبعثرة. فسأل عشيقته بعدما صرف «إيميه» بشيء من الجفاء:

— «رئيس الخدم هذا ظريف جداً يا «زيزيت»؟ يخيل إليّ أنك تودّين اجراء دراسة تمهيدية عليه».

— «ها نحن قد بدأنا، كنت متيقنة من ذلك.»

— «ولكن ما الذي بدأناه ياصغيرتي؟ إن كنت مخطئاً فلست أنكر، ذلك لك. ولكن لي الحقّ مع ذلك أن أحذّرك من هذا الخادم الذي أعرفه من «بالبيك» (ولولا ذلك لما باليت)، فهو واحد من أعظم ماحملت الأرض من أوغاد في يوم.»

وبدا أنّها تودّ طاعة «روبير» وبدأت معي حديثا أدبيًا شارك فيه. لم أشعر بالسأم وأنا أتحدّث إليها فقد كانت تعرف تمام المعرفة الأعمال التي كنت معجباً بها وتكاد توافقني الرأي في أحكامها، ولكني ما كنت أولي تلك الثقافة أهمية كبيرة إذ كنت قد سمعت على لسان السيدة «دوفيلباريزس» أنّها عديمة الموهبة. كانت تمزح بظرافة حول ألف أمر، ولعّلها كانت ممتعة حقا لو لم تتصنّع على نحو مزعج اللغة الخاصة بالندوات الأدبيّة ومشاغل الرسم. وكانت تمدّها على أيّة حال لتشمل كل شيء، وإذ تعودّت على سبيل المثال أن تقول عن لوحة، إن كانت انطباعية، وعن أوبرا إن كانت من النهج الفاغنيري:«آه! ذلك حسن»، قالت في يوم قبلها فيه شاب في أذنها وأبدى اتضاعاً، وقد أثر فيه أنّها تظاهرت برعشة: «بلى،. على صعيد الإحساس، أجد أنّ ذلك حسن.» ولكنّ ما كان يثير دهشتي أنّ العبارات الخاصة بـ«روبير» (والتي ربّما جاءته من أدباء تعرفهم) كانت هي تستخدمها في حضرته، وهو في حضرتها كما لو كانت تلك لغة ضرورية ودون أن يتبينّا عدمية أصالة هي ملك للجميع.

كانت إذ تتناول الطعام غير حاذقة في استخدام يديها إلى حدّ يدعو إلى افتراض أنهّا لابدّ تظهر غير ماهرة إلى حدّ بعيد وهي تمثل على خشبة المسرح. وما كانت تستعيد شطارتها إلاّ في الحبّ بفضل هذا التكهّن المؤثر لدى النساء اللاتي يحببن الرجل إلى حدّ يحزرن معه من أوّل مرّة ما سيجلب أعظم المتعة لهذا الجسد المختلف إلى حدّ بعيد عن جسدهنّ.

وكففت عن المشاركة في الحديث حينما أخذا في الكلام عن المسرح لأن «راحيل» كانت مفرطة الإساءة في هذا الشأن. لقد دافعت، والحق يقال، عن «لابيرما» بلهجة المشفق – ضدّ «سان لو»، الأمر الذي يبرهن على أنّها كانت كثيراً ما تهاجماه في حضرته –قائلة: «لا، لا، إنّها امرأة مرموقة. إن ما تفعله لايؤثر من بعد فينا بالطبع، إذ لم يعد يوافق تماماً ما نبحث عنه، ولكن ينبغي لنا أن نضعها في مكانها في الفترة التي جاءت فيها ؛ إن لها الكثير بذمتنا. لقد قامت بأشياء حسنة، لو تدرى. ثم إنّها امرأة طيبّة إلى حدّ بعيد، وهي كبيرة القلب ؛ هي لاتحب بالطبع الأمور التي تثير اهتمامنا، بيد أنّها تمتعّت بميزة ذكاء حلوة إلى جانب وجه مؤثر بعض الشيء.» (والأصابع لاترافق جميع الأحكام الجمالية على نحو واحد. فإن تعلق الأمر بالرسم بالألوان اكتفى المرء، كيما يبدي أنّها قطعة جميلة ومن عجينة ممتازة، برفع الإبهام. ولكنّ «ميزة الذكاء الحلوة» أكثر تطلباً. فلا بدّ لها من اصبعين، أو ظفرين بالأحرى كما لو اقتضى الأمر أقصاء ذرّة غبار.) ولكن عشيقة «سان لو»– ان استثنينا ذلك – كانت تتحدّث عن أكثر الفنانين شهرة بلهجة من السخرية والاستعلاء كانت تثير حنقي إذ كنت أحسب – وأنا مخطئ في ذلك – أنّها هي من كانت أدنى منهم. ولاحظت تماماً أنّي لابدّ أعتبرها فنّانة ضحلة وأني أكنّ على العكس الكثير من التقدير لأولئك الذين تحتقرهم. ولكنها لم تستأ لذلك لأن في الموهبة العظيمة التي لم تحظ بعد بالاعتراف، كما كانت حالها، وأية كانت ثقتها بنفسها، ضرباً من التواضع وأننا نقيس علامات الاحترام التي نطالب بها لا بمواهبنا الخفية بل بوضعنا المكتسب. (كنت أزمع بعد ساعة رؤية عشيقة «سان لو» في المسرح تبدي الكثير من الاحترام حيال الفنانين ذاتهم الذين كانت تصدر بحقهم حكماً قاسياً إلى هذا الحدّ. ولذلك لم تقلّ إلحاحاً، مهما صغر الشكّ الذي كان لابدّ أن يخلقه سكوتي في نفسها، على أن نتعشى معاً في المساء مؤكدة أن لم يرقها حديث إنسان قطّ بقدر ما فعل حديثي. ولئن لم تكن بعد في المسرح حيث كنّا نزمع الذهاب بعد الغداء، فقد كان يبدو لنا أننا في استراحة

مسرح تزينه رسوم قديمة للفرقة لكثرة ماتوافر لرؤساء الخدم من وجوه تبدو وكأنها تختلط بجيل كامل من الفنانين المبرزّين. كانوا يبدون كذلك وكأنهّم أعضاء مجامع لغويّة: فهذا توقّف أمام طاولة معدّة يتفحص إجّاصات بالوجه والفضول المتجرّد الذي ربّما استطاع أن يبديه السيد «دو جوسيو». وآخرون إلى جانبه ينقلون في القاعة نظرات تتسّم بالفصول والفتور من تلك التي ينقلها في الجمهور أعضاء من المعهد سبق أن وصلوا فيما يتبادلون بضع كلمات لاتسمعها. كانت وجوهاً مشهورة بين الروّاد. بيد أنّهم كانوا يشيرون إلى وافد جديد مغضنّ الأنف معسول الشفة تبدو عليه، حسبما كانت تقول«راحيل» في لغتها، هيئة الكهّان، فينظر كلٌ باهتمام إلى المصطفى الجديد. وبعد قليل شرعت «راحيل» تغمز بعينها طالباً شاباً كان يتناول غداءه إلى طاولة مجاورة مع أحد الاصدقاء وربّما ابتغت بذلك حمل «روبير» على الرحيل كي تظلّ وحدها مع «إيميه».

وقال «سان لو» الذي تركزّت على وجهه الحمرةُ المتردّدة، التي كسته منذ قليل، سحابةً بلون لدم تمدّد ملامح صديقي المشدودة وتغمق لونها: «زيزيت، أرجوك ألاّ تنظري على هذا النحو إلى هذا الشاب. أفضل، إن انبغى أن تجعلي منا فرجة المتفرّجين، أن أتناول الغداء بمفردي وأمضي لانتظارك في المسرح.»

وفي هذه اللحظة جاء من يقول لـ «إيميه» إنّ سيداً يرجوه المجيء للتحدث إليه على باب عربته. ونظر «سان لو»، وما يزال قلقاً يخشى أن يكونَ ثمة مهمّة عشق يقع عليه أن ينقلها إلى عشيقته، نظر من الزجاج فأبصر السيد «دو شارلوس» في أقصى عربته مشود اليدين في قفازين أبيضين مخططين بالأسود وفي عروة سترته زهرة. وقال لي بصوت منخفض:

– «ترى َ، إن أسرتي تعمل على ملاحقتي حتى هنا. رجوتك، أنا لا أستطيع، ولكن بما أنّك تعرف رئيس الخدم حقّ المعرفة، وهو سيشي بنا بالتأكيد، فاطلب إليه ألاّ يذهب إلى العربة. وليكن على الأقلّ خادماً لايعرفني. فإذا ما قيل لعمي إنّهم لا يعرفونني فأنا أدرى بطبيعته، إنه لن يأتي للبحث في المقهى فهو يمقت هذه الأماكن. وإنه لمن المقرف على أيّ حال أن يعطيني زير نساءٍ عجوز مثله لم يرعو بعد دروساً على نحو مستمرّ وأن يجيءَ للتجسس عليّ!»

وبعدما أبلغ «إيميه» أوامري أرسل واحداً من خدمه كان عليه أن يقول إنّه لايستطيع أن يكلف نفسه وإن تمّ السؤال عن المركيز «دو سان لو» فهم لايعرفونه. وانطلقت العربة في الحال. ولكن عشيقة «سان لو» لم تسمع أقوالنا المهموس بها بصوت منخفض وحسبت أن الأمر يتعلق بالشاب الذي كان «روبير» يلومها أن تغمزه فانفجرت بالشتائم:

– «عجباً! جاء دور هذا الشاب الآن؟ حسناً تفعل أن تحذرني. ما أحلى تناول الغداء ضمن هذه الشروط! لاتهتمّ بما يقول فهو مهزوز العقل إلى حدّ ما وهو على وجه الخصوص»، تضيف قولها وهي تلتفت إليّ، «إنّما يقول ذلك لأنه يظنّ أن الظهور مظهر الغيران يضفي أناقة ويلبسك لبوس السيد الكبير.»

وأخذت تصدر بقدميها ويديها بوادر توتر عصبي.

– «ولكنّ الأمر محرج بالنسبة إليّ أنا يا «زيزيت». فانّك تضعيننا موضع سخرية هذا السيد الذي سيدخل في روعه أنّك تحاولين التقرّب منه والذي يبدو لي من أسوأ السوء.»

– «أمّا أنا فيروقني جدّاً بالعكس. إن له بادئ الأمر عينين أخاذتين لهما طريقة في النظر إلى النساء تحس معها أنه لابدّ يحبّهن.»

وصاح «روبير» قائلاً: «اصمتي على الأقلّ إلى ما بعد رحيلي إن كنت مجنونة. إليّ بحوائجي ياغلام.»

وما كنت أدري إن انبغى أن أتبعه ؛ فقال لي باللهجة نفسها التي حدّث بها عشيقته منذ هنيهة وكما لو كان غاضباً مني بالمقدار نيسه: «لا، إن بي حاجة إلى أن أكون وحدي». كان غضبه كجملة موسيقية واحدة تنشد وفقها في الأوبرا عدّة محاورات تختلف كلّ الاختلاف فيما بينها في نصّ الكلام من حيث معناها وطبيعتها ولكنّما تجمعها في شعور واحد. وبعدما ذهب «روبير» نادت عشيقته «إيميه» وسألته معلومات مختلفة. كانت تريد بعد ذلك أن تعلم كيف كنت أراه.

– «إنّ له نظرة مسلية، أليس كذلك؟ تفهم، ماقد يفرحني أن أعلم ما يمكن أن يفكر فيه وأن يقدّم لي الطعام غالباً أن اصطحبه في السفر ؛ ولكن لا أكثر من ذلك. فلو اضطررت أن تحب جميع الذين يروقونك لكان الأمر في الأساس ثقيلاً إلى حدّ ما. و«روبير» ليس على حقّ في ما يخطر له من ظنون. فكلّ ذلك يتشكل وينتهي في رأسي، وعلى «روبير» أن يطمئن بالاً. (وكانت توالي النظر إلى «أيميه».) هيّا انظر إلى عينيه السوداوين، إني أودّ معرفة ما وراءهما.»

وبعد قليل جاء من يقول لها إن «روبير» أرسل في طلبها إلى حجرة خاصة ذهب إليها، مروراً بمدخل آخر، لينهي غداءه دون أن يجتاز المطعم ثانية. وهكذا ظللت وحدي، ثم أرسل «روبير» يناديني بدوري. فوجدت عشيقته مستلقية على أريكة تضحك تحت وابل القبلات والمداعبات التي يغدقها عليها. كانا يحتسيان الشمبانيه، وكانت تقول له بين الحين والحين «مرحبى يا أنت!» إذ كانت قد تعلمت منذ وقت قريب هذه الصيغة التي تبدو لها آخر ما وصل إليه الحنان والذكاء. كنت قد أقللت في طعام الغداء وأحس أنّي غير مرتاح، وأخذت آسف، دون أن تسهم أقوال «لوغراندان» في شيء من ذلك للتفكير بأني أبدأ عشية الربيع الأولى هذه في حجرة مطعم وسوف إختتمها في كواليس مسرح. وبعدما نظرت «راحيل» إلى ساعتها لترى إن كانت لن تتأخر قدّمت لي الشمبانيه ومدّت لي واحدة من سكايرها الشرقية وانتزعت من أجلي وردة من صدارها، وإذ ذاك قلت في نفسي: «ليس لي أن آسف كثيراً على نهاري، فلم تذهب تلك الساعات التي قضيتها إلى جانب هذه المرأة الشابة هدراً إذ توافر لي بوساطتها وردة وسيكارة معطرة وكوب شمبانيه، وهو أمر لطيف ولا يمكن دفع مقابل كاف له». كنت أحدث نفسي بذلك إذ كان يبدو لي أنني أضفي طابعاً جمالياً على ساعات الضجر تلك وأني بذلك أبرّرها وأنقذها. ولعله كان ينبغي لي أن أفكر بأن ما كنت أحس به من حاجة إلى سبب يحمل إليّ العزاء لما لحق بي من ضجر كان كافياً ليبرهن أني ما كنت أحس بأيّ أمر جمالي. فأما «روبير» وعشيقته فقد بدا أنّهما لايحتفظان بأي ذكر للمشاجرة التي قامت بينهما قبل بضع لحظات ولابأني شهدتها. فلم يلمحا إليها البتة ولابحثا لها عن أيّ عذر ولا للتناقض الذي تورثها إيّاه تصرّفاتهما الآن. ولكثرة ما احتسيت من الشمبانيه معهما أخذت أشعر بشيء من النشوة التي كنت أحس بها في «ريفبيل»، ولعلها لم تكن واحدة على الأرجح. فليس يكشف فينا كلّ نوع من النشوة فحسب، من تلك التي توليها الشمس أو السفر إلى نشوة التعب أو الخمرة، بل كل درجة من النشوة، ولابدّ أن تحمل «رقماً»

مختلفا كما هي حال الأعماق في البحر، إنّما تكشف فينا عن إنسان خاص في العمق الذي تبلغه بالضبط. كانت الحجرة التي يجلس فيها «سان لو» صغيرة، ولكن المرآة التي تزينها قد وضعت بحيث تبدو وكأنها تعكس ثلاثين غيرها على مدى منظور لاينتهي. وكان لابد للمصباح الكهربائي الموضوع في أعلى الإطار حينما يضاء ويلحق به قرابة ثلاثين من الأضواء المنعكسة التي تشبهه أن يولي الشارب، وإن كان وحيداً، الفكرة التي قوامها أنّ المكان يتضاعف من حوله في الوقت الذي تتضاعف فيه أحاسيسه التي تثيرها النشوة وأنه إن سجن وحده داخل هذا المقر الصغير فإنما يمدّ سلطانه مع ذلك على شيء أكثر امتداداً في خطّه المنحني اللامحدود المضيء من ممر في «حديقة باريس». ولما كنت إذ ذاك في تلك اللحظة ذلك الشارب فقد بحثت عنه في المرآة فأبصرته فجأة ينظر إليّ، قبيحاً مجهولاً. وكانت بهجة النشوة أكثر قوة من القرف، فخصصته، يدفعني المرح أو التحدي، بابتسامة ردّ بمثلها. وكنت أحسني تحت السلطان العابر والقوي للدقيقة التي تبدو الأحاسيس فيها شديدة القوة إلى أني لم أعلم إن لم يكن حزني الوحيد يكمن في التفكير بأن الأنا القبيحة التي لمحتها منذ قليل ربما كانت في يومها الأخير وأنني لن ألتقي البتة من بعد بذاك الغريب في بحر حياتي.

أما «روبير» فقد أغضبه أنني«لم أشأ التألق أكثر ممّا فعلت في عيني عشيقته.

– «ويحك، هذا السيد الذي التقيت به هذا الصباح والذي يمزج الحذلقة بعلم الفلك، قُصّ عليها ذلك، فإني لا أذكر تماماً» – وكان ينظر إليها من طرف عينه.

– «ولكن ليس ثمة مايقال، يا صغيرتي، غير الذي قلت منذ قليل.»

–«كم أنت مزعج. إرو إذن عن أمور «فرانسواز» في محلة الـ«شانزيليزيه» فسوف يسرّها ذلك كثيراً.»

– «أجل، فما أكثر ما حدّثني «بوبيه» [1] عن«فرانسواز».» وأخذت بذقن «سان لو» وعادت تقول، لعجز في الابتكار، وهي تجذب ذاك الذقن وجهة الضوء: «مرحبى يا أنت!».

منذ لم يعد الممثلون حصرا ، في نظري، هم المؤتمنين في إلقائهم وتمثيلهم على حقيقة فنية أخذوا يحظون باهتمامي في حدّ ذاتهم. كنت أتلهى، ظناً مني أني أتامل شخصيات رواية هزلية قديمة، برؤية الفتاة الساذجة تتابع، ساهية، على الوجه الجديد العائد لسيد شاب دخل إلى القاعة منذ هنيهة، التصريح الغرامي الذي يسمعها إيّاه البطل الشاب في المسرحية، فيما لايتورّع هذا الأخير، وهو في قمة مقالته الغرامية، عن اختلاس نظرة لاهبة إلى سيدة عجوز تجلس في مقصورة مجاورة، وقد أدهشته لآلئها الرائعة ؛ وهكذا كنت أشهد، ولاسيما بفضل المعلومات التي كان يزودّني بها «سان لو» عن حياة الفنانين الخاصة، رواية أخرى صامتة معبرة يتمّ تمثيلها تحت صفحة المسرحية المحكيّة التي كانت تثير اهتمامي على أيّة حال على ضحالتها ؛ ذلك أني كنت أحس بتلك الشخصيات العابرة المعمّرة في آن التي تؤلفها شخوص المسرحية تنمو وتتفتح على مدى ساعة تحت أضواء المسرح وقد تشكلت من التصاق وجه آخر من أصبغة وكرتون فوق وجه الممثل ونص كلمات الدور فوق نفسه الخاصة به، وهي شخصيات فاتنة إلى ذلك، نحبّها ونعجب بها ونرثي لحالها ونودّ لو

(١) تصغير «روبير» للتحبب.

نلقاها مرّة أخرى بدما نغادر المسرح ولكنها تنفرط مذ ذاك ممثلا لم يعد في وضعه الذي كان عليه في المسرحية، ونصاً لايريك وجه الممثل من بعد، ومسحوقاً ملوّناً يزيله المنديل ؛ لقد عادت باختصار القول عناصر لم يظلّ فيها شيء منها بسبب انحلالها الذي اكتمل فور انتهاء العرض والذي يحملك، شأن زوال المحبوب، على الشكّ بحقيقة الأنا وعلى التأمل في الموت.

وقد حز في نفسي إلى حدّ بعيد مشهد من مواد البرنامج. فقد كان على امرأة شأبّة تمقتها «راحيل» وكثيرات من صديقاتها أن تتمّ في إطار اغنيات قديمة بدايات بنت عليها جميع آمالها المستقبلية وآمال ذويها. وكان لهذه الامرأة الشابّة مؤخرة شديدة البروز تكاد أن تكون مضحكة وصوت جميل ولكنّه نحيل إلى حدّ بعيد يضعفه إلى ذلك الانفعال ويتناقض وذلك الهيكل الجبار. وكانت «راحيل» قد وزّعت في القاعة عدداً من الأصدقاء والصديقات يتناول دورهم إرباك المبتدئة. ويعهدونها خجولة، بتهكّمهم الجارح وإفقادها أعصابها على نحو تفشل معه فشلاً ذريعاً لايبرم المدير بعده تعهداً معها. ومنذ النغمات الأولى التي فاهت المسكينة بها أخذ بعض النظارة ممّن. تمّ انتقاؤهم لهذا الغرض يتدالوّن ظهرها ضاحكين، وتضحك بعض النساء المشاركات في المؤامرة بصوت عال وتزيد كلّ نغمة ناحلة من الضحك المقصود الذي أخذ ينقلب فضيحة. وحاولت المسكينة التي تصبّب عرقها من ألم تحت مساحيقها أن تقاوم فترة، ثمّ ألقت من حولها على الجمهور نظرات يمتزج فيها الأسي والحنق فكان أن ضاعفت من صيحات الاستنكار. وجرّت غريزة التقليد والرغبة في الظهور بمظهر الذكاء والشجاعة ممثلات جميلات لم يسبق اعلامهن بالأمر ولكنهّن كنّ يرمين الآخرين بنظرات مختلسة يبطنّها التواطؤ والخبث ويتلوّين من الضحك بقهقهات عالية حتى إن مدير المسرح أمر باسدال الستار في نهاية الأغنية الثانية مع أن البرنامج كان يتضمن خمساً غيرها. وجهدت ألاّ أفكرّ في هذا الحادث أكثر مما كنت أفعل بعذاب جدّتي حينما كان عمّ والدتي يأمر، بغية تنكيدها. بإعطاء جدّي بعض الكونياك، لأن فكرة الخبث تتضمنّ في نظري شيئاً مؤلماً إلى أبعد الحدود. ولكن كما أن الإشفاق على الشقاء قد لا يكون صحيحاً كلّ الصحة لأننا نعيد بالمخيلة خلق ألم كامل لايفكر الشقيّ أن يرثي لحاله منه إذ هو مضطرّ لمحاربته، كذلك من المرجح أنّ ليس للخبث في نفس الشرّير تلك القسوة المحضة المتلذّذة التي يؤلمنا تخيلها أشدّ الألم. فالبغضاء تلهمه والغضب يضفي عليه حدّة ونشاطاً لايتسمان بما يبهج القلوب، ولابدّ من السادية كيما نستخلص منه المتعة، فالشرير يظنّ أنّه إنما يعذّب شرّيراً. كانت «راحيل» تتصوّر بالتأكيد أنّ الممثّلة التي أذاقتها المر لا أهمية لها البتة وأنها على أية حال إذ تدعو إلى استنكار فنها فانما تثأر للذوق السليم وتلقن الرفيقة الرديئة درساً. وقد فضلت مع ذلك ألاّ أروي عن تلك الحادثة بما أنّني لم أملك لا الشجاعة ولا القدرة للحؤول دونها. فقد كان شقّ عليّ كثيراً إن تناولت الضحية بالخير أن أشبه المشاعر التي تحرّك جلاّدي هذه المبتدئة بمباهج القسوة.

على أن بداية هذا العرض قد أثارت اهتمامي بطريقة أخرى. فقد أفهمتني جزئياً طبيعةَ الوهم الذي وقع «سان لو» ضحيته إزاء «راحيل» والذي جعل هوّة سحيقة بين الصور التي كنا نكونها، أنا و«روبير» عن عشيقته حينما كنّا نبصرها في هذا الصباح نفسه في ظلّ أشجار الإجّاض المزهرة. كانت «راحيل» تمثل دور محض ممثلة صامتة تقريبا في المسرحية الصغيرة. وكان لـ «راحيل» واحد من تلك الوجوه التي يرسم البعد خطوطها – وليس البعد بالضرورة بعد المسرح، إذ العالم لا يعدو كونه مسرحا أوسع رقعة – والتي تتهاوى هباء إن تمتّ رؤيتها عن كثب. فما كنت ترى إن اتخذت مكانك إلى جانبها سوى سديم، سوى مجرّة من بقع النمش

وبثور في غاية الصغر، ولاشيء سوى ذلك. وتتوقف امكانية رؤية كل ذلك على مسافة مناسبة ويطلع من الوجنتين المتراجعتين الغائرتين، كما الهلال، أنف دقيق نقيّ الخطوط إلى حدّ تودّ معه لو تكون موضع انتباه «راحيل» وتلقاها إلى مالا حدود وتمتلكها بالقرب منك إن لم يتفق لك البتة أن رأيتها على نحو آخر وعن كثب. ولم تكُ تلك حالي، بل كانت حال «سان لو» حينما رآها تمثل أوّل مرّة، وقد تساءل حينذاك كيف يقترب منها، كيف يتعرّف بها، وانكشف داخله مجال كامل رائع – ذاك الذي كانت تعيش فيه – تصدر عنه اشعاعات لذيذة ولكنه لن يستطيع ولوجه. وانطلق من مسرح المدينة الريفية الذي جرى ذلك فيه، لعدّة سنوات خلت، وهو يقول في نفسه إن الكتابة إليها قد تكون جنوناً وإنها لن تجيبه، وهو على أتمّ الاستعداد لمنح ثروته واسمه المخلوقة التي كانت تعيش في صدره في عالم يسمو كثيراً على هذه الحقائق المألوفة تماماً، عالم يزيده الشوق والحلم جمالاً حينما أبصر على مدخل الفنانين الفرقة المرحلة بقبعاتها اللطيفة، فرقة الفنانين الذين قاموا بالتمثيل خارجة من أحد الأبواب. وكان ثمة في انتظارهم شبّان ممن كانوا يعرفونهم. ولما كان عدد البيادق البشرية أقلّ من عدد التشكيلات التي يمكن أن تؤلفها، فإنّه يتفق في قاعة غاب عنها جميع الأشخاص الذين يمكن أن نعرفهم أن نلقى ثمة شخصاً ظننا أنّا لن نحظى بلقياه ثانية في يوم ويوافينا في الوقت المناسب حتى لتبدو المصادفة ربانية ولعلّ مصادفة أخرى كانت حلت دونما شكّ محلّها لو كنا لافي هذا المكان بل في آخر مختلف ربّما ولدت فيه رغبات أخرى واتفق أن نصادف فيه آخر من معارفنا القدماء ليرفدها. لقد انغلقت أبواب عالم الأحلام الذهبية على «راحيل» قبل أن يراها «سان لو» خارجة من المسرح مما جعل بقع النمش والبثور قليلة الشأن. ولكنها على ذلك كدّرته، يزيد من الأمر أنه لم يعد وحيداً فلم يتوافر له من القدرة على الحلم ما توافر له في المسرح. ولكنها هي ظلّت تحكم أفعاله. مع أنّه لم يتفق له من بعد أن يراها، شأن تلك الكواكب التي تحكمنا بجاذبيتها حتى في أثناء الساعات التي لا نراها فيها بأعيننا. ولذلك فقد نجم عن الشوق إلى الممثلة ذات الملامح الدقيقة التي لم تكن حتى حاضرة في ذاكرة «روبير» أن ارتمى على الرفيق القديم الذي كان هنالك مصادفة وحمله على تعريفه بالمرأة فاقدة الملامح وصاحبة بقع النمش، إذ هي المرأة نفسها، قائلاً في سرّه إنه سوف يفكر بعد ذلك في معرفة مَنْ من الاثنتين كانت في الواقع الممثلة. وكانت في عجلة من أمرها فلم تتجّه حتى بالكلام إلى «سان لو» في تلك المرّة ولم يتيسرّ له أخيراً إلاّ بعد بضعة أيام أن يعود معها وقد حصل منها على فراق رفاقها. كان مذ ذاك يحبها. فإنّه ينجم عن الحاجة إلى الحلم والرغبة في أن يسعد المرء على يد من حلم بها أنّ الكثير من الوقت غير لازم كي نعهد بجميع احتمالات سعادتنا لتلك التي كانت قبل بضعة أيّام محض ظهور على خشبة المسرح مفاجئ مجهول لانبالي

وحينما انتقلنا إلى خشبة المسرح بعدما أسدل الستار أردت، وقد تملكتني الرهبة من التنقل عليها، أن أتحدث إلى «سان لو» بحدة، فيجيء مظهري، وما كنت أدري أي مظهر ينبغي اتخاذه في هذه الأمكنة الجديدة عليّ، وقد استأثرت به محادثتنا كلياً ويظنون أني منغمس فيه وساه إلى الحدّ الذي يرون من الطبيعي معه أن لا أتخذ الملامح التي كان يجدر بي اتخاذها في مكان أكاد لا أعلم أنّي موجود فيه لاستغراقي في ما كنت أقول. واغتنمت، بغية الإسراع، أول موضوع حديث خطر لي فقلت لـ «روبير»:

– تعلم أنّي ذهبت لوداعك في يوم رحيلي، إذ لم يتسنّ لنا البتّة التحدّث في الأمر. لقد حيّيتك في الشارع.»

وأجابني قائلاً: «لاتكلمني عن ذاك فقد اغتممت من جرّائه. لقد تلاقينا قرب الثكنة تماماً ولكني لم أستطع التوقف لانني كنت متأخراً جداً. أؤكد لك أني كنت شديد الغمّ.».

لقد تعرّفني إذن! كنت لاأزال أستعيد التحية اللاشخصية تماماً التي وجهها إليّ وهو يرفع يده إلى قبعته العسكرية دون أية نظرة تكشف عن أنه عرفني ودون أية إشارة تبرز أنه يأسف لفقده القدرة على التوقف. ولابدّ أن الايهام الذي اعتمده في ذلك الحين بأنه لايتعرّفني قد بسّط بالطبع الكثير من الأمور. ولكني ذهلت أن عرف كيف يقرّ الرأي عليه بتلك السرعة وقبل أن يكشف ردّ فعل لديه عن انطباعه الأول. لقد سبق لي أن لاحظت في «بالبيك» أن جسمه، إلى جانب تلك الصراحة الساذجة لمحياه الذي كانت بشرته تسمح شفوفاً برؤية تدفق بعض الانفعالات المفاجيء، قد درّبته التربية تدريباً رائعاً على عدد من وجوه النفاق الذي تفرضه اللياقة وأنّه يستطيع، شأن فنّان مجلّ أن يمثل في حياته العسكرية وفي حياته الاجتماعية أدواراً مختلفة الواحد تلو الآخر. ففي أحد أدواره كان يحبني حباً عميقاً ويتصرف حيالي وكأنه أخ لي. لقد كان أخاً لي وعاد فأضحاه ثانية، بيد أنه أصبح مقدار لحظة شخصاً آخر لايعرفني وقد رفع يده، وهو يمسك بالأعنة ونظّارته على عينه ودونما نظرة أو ابتسامة، إلى واقية عمرته كي يردّ لي تحيتي العسكرية على نحو صحيح!

كانت مناظر المسرح التي أمرّ بينها لاتزال قائمة وقد بدت بائسة إذ تمت رؤيتها على هذا النحو عن كثب وفقدت كلّ ما يضفيه عليها البعد والإضاءة اللذين قدّرهما الرسّام الكبير الذي نفذها، ولم تتعرّض «راحيل» حينما اقتربت منها لقوّة تدميرية أقل شأناً. فقد بقيت فتحتا أنفها البديع عالقتين في المنظور بين القاعة والمسرح شأن بروز المناظر تماما. فلم تعد هي نفسها وما كنت أتعرّفها إلابفضل عينيها اللتين احتمت فيهما هويتها. لقد زال شكل هذا الكوكب الفتّي الشديد اللمعان منذ قليل وزال ألقه، ولم أعد أميّز في مقابل ذلك فوق هذا الوجه المتسق تماماً منذ قليل سوى نتوءات وبقع وأخاديد، كما لو نقرّب عيننا من القمر ويكف عن الظهور بلون ورديّ وذهبيّ بالنسبة إلينا.

وسرّني أن ألمح ما بين صحفيّين أو رجال مجتمع من أصحاب الممثلات كانوا يحيون ويتحدثون ويدخنون كما هوشأنهم في المدينة، شاباً بقلنسوة من المخمل الأسود وتنّورة بلون الأرطنسيه ووجنتين خططتا بالأحمر كصفحة من دفتر رسوم لـ «واتو»، وكان يبدو، والبسمة في فمه وعيناه عالقتان في السماء وهو يخطّ إشارات حلوة براحتي يديه ويقفز بخفة، كان يبدو وكأنه إلى حدّ بعيد من جنس غير جنس الناس المتعقلين الذين يرتدون السترة وحلة المراسم والذين كان يتابع فيما بينهم كالمجنون حلمه المشدوه، ويبدو بعيداً عن مشاغل حياتهم، سابقاً لعادات حضارتهم، محرّراً من قوانين الطبيعة حتى ليبدو الأمر مريحاً ندياً كأن ترى فراشة تاهت وسط جمهور، وأن تلاحق بعينيك ما بين الأفاريز الخطوط المتعرّجة الطبيعية التي تخطها صنوف لهوها الجنح المتقلب الملون. إلاّ أنّ «سان لو» تصور في اللحظة نفسها أنّ عشيقته تولي اهتمامها هذا الراقص الذي يعيد للمرّة الأخيرة شكلاً من الملهاة الراقصة التي يزمع الظهور فيها فتجهم وجهه وقال لها بهيئة عابسة:

– «بوسعك أن تتطلعي إلى جهة أخرى. فإنك تعلمين أن هؤلاء الراقصين لايساوون الحبل الذي لعلهم يحسنون فعلاً بالصعود عليه كي تقصم ظهورهم، وهم من قوم يمضون فيما بعد متبجحين بأنهم كانوا موضع اهتمامك. وتسمعين على أية حال أنهم يطلبون إليك الذهاب إلى مقصورتك لارتداء ملابسك.»

واقترب سادة ثلاثة – ثلاثة صحفيين – وقد رأوا هيئة «سان لو» الحانقة، اقتربوا، وقد انفرجت أساريرهم، ليسمعوا ما كان يقال. ولما كانت تقام مناظر مسرحية من الجهة الأخرى فقد تراصت صفوفنا إليهم.

وصاحت عشيقة «سان لو» وهي تنظر إلى الراقصين: «أوه! ولكني أتعرّفه، إنه صديقي. هاك عملاً متقنا، وتطلع لي إلى هاتين اليدين الصغيرتين اللتين تتراقصان كسائر بقية جسمه!»

وأدار الراقص رأسه نحوها وكان شخصه البشري يبرز خلف جنّي الهواء الذي كان يتدرب على الظهور بمظهره، وارتعش خط هلام عينيه الرمادي والتمع بين أهدابه المصلبة المطلية وطاولت ابتسامة جانبي فمه في وجهه الملوّن بالحمرة. ثم أخذ، شأنه شأن مغنية تدمدم لنا تلطفاً اللحن الذي قلنا لها إننا اعجبنا بها فيه، أخذ يعيد حركة راحتيه وهو يقلد نفسه بدقة المقلدين ومرح الأطفال.

وصاحت «راحيل» وهي تضرب ما بين يديها: «شيء في منتهى اللطف هذه الفعلة في تقليد المرء ذاته.»

فقال لها «سان لو» بصوت حزين : «رجوتك، ياصغيرتي، لا تجعلي من نفسك فرجة للناس، فإنك تقتلينني ؛ أقسمت لو فهت بكلمة أخرى فلن أرافقك إلى مقصورتك، وأمضي في سبيلي؛ هيّا، لا تقسي عليّ.» وأضاف، وهو يلتفتَ إليّ، بذاك العطف الذي كان يبديه لي منذ «بالبيك» : «لاتبق هكذا في دخان السيكار فسوف يضرّك ذلك.»

– «آه! أية سعادة لو تمضي في سبيلك!»

– «احذّرك من أنني لن أعود من بعد.»

– «تخونني الجرأة في توقع ذلك.»

– «اسمعي، تعلمين أنّي وعدتك بالعقد إن كنت لطيفة، ولكن بما أنك تعاملينني كما تفعلين...»

– «آه! إليك مالا يدهشني منك. لقد سبق أن وعدتني ولعله كان يجدر بي التفكير أنك لن تبرّ بوعدك. تريد أنَ تعلن على الملأ أنك تملك المال، ولكني لست نفعية مثلك. أنا لا أبالي بعقدك، ولديّ من سيهبني إيّاه.»

– «ليس من يستطيع سواي أن يهبك إياه، فقد احتجزته لدى «بوشرون» وقد وعد بألاّ يبيعه لغيري.»

– «عظيم ما فعلت، لقد أردت أن تتهدّدني واتخذت مسبقاً جميع احتياطاتك. هذا بالتمام مايُقال: «مارسانت» ، «ماتر سيميتا» Mater Semita من هنا تنبعث رائحة العرق»، تجيب راحيل قولها مردّدة تأثيلاً يرتكز على خطأ فادح لان Semita [1] إنما تعني «الدرب» وليس «السامية»، ولكن الوطنيّن كانوا ينعتون بها

(١) تظن راحيل أن «سان لو» من والدة يهودية، وهو ما تعنيه لفظة «سامي» في اللغة السياسية آنذاك ولا يزال المعنى واردا في لفظة antisémitisme (معاداة السامية).

«سان لو» بسبب آراء معادية لـ «دريفوس» كان يدين بها للممثلة. (وكان أقلّ من يحق له نعت السيدة «دو مارسانت» باليهودية، وما كانَ بمقدور علماء الأجناس في المجتمع أن يلقوا من يهوديتها سوى قرباها بآل «لاوي ميربوا»). «ولكن كن على ثقة من أن كلّ شيء لم ينته. فالوعد المقطوع في مثل هذه الشروط لاقيمة له البتة. لقد تصرّفت معي تصرّفاً غادرا. وسوف يعلم «بوشرون» بالأمر ويدفع له الضعف ثمنا لعقده. اطمئن، عما قليل يوافونك بأخباري.»

كان «روبير» مئة مرّة على حقّ. ولكنّ الظروف متشابكة أبداً إلى حدّ أنّ من كان مئة مرّة على حق يمكن أن يكون مرّة على ضلال [1]. ولم أفلح في الحؤول دون تذكر تلك الكلمة غير المستحبة والبريئة كلّ البراءة مع ذلك والتي أطلقها في «بالبيك»: بهذه الطريقة أضمن سيطرتي عليها.»

— «لقد أسأت فهم ما قلته لك بشأن العقد. فلم أعدك به وعداً قاطعاً. وبما أنك تفعلين كلّ ما ينبغي فعله كيما أهجرك فمن الطبيعي ويحك ألاّ أهبك إياه. ولست أفهم أين ترين الغدر في ذلك ولا كوني نفعياً. لايمكن أن يقال إنني أذيع على الملأ مالي فإني أقول لك على الدوام إني رجل مسكين لايملك فلساً واحداً. لستِ على حقّ في فهم الأمور على هذا النحو، ياصغيرتي. فبماذا تراني نفعياً؟ تعلمين حقّ العلم أن اهتمامي الوحيد إنّما هو أنتِ.»

وقالت له بلهجة ساخرة وهي ترسم حركة من يحلق لك ذقنك: «أجل، أجل، بوسعك أن تتابع». ثم التفتت إلى الراقص وقالت: «إنه رائع حقاً بيديه؛ ولعلي لا أستطيع، أنا المرأة، أن أفعل ما يفعله هنا.» والتفتت إليه وهي تريه ملامح «روبير» المتشنجة وقالت له بصوت خافت في الاندفاعة المؤقتة لقسوة سادية لا تتناسب مطلقاً على أي حال ومشاعر الودّ الحقيقي الذي تكنه لـ «سان لو»: «أنظر، إنه يتألم».

— «اسمعي، للمرّة الأخيرة أقسم إني عبثاً ستسعين ويمكنك أن تبدي بعد ثمانية أيام جميع صنوف الأسف في العالم فلن أعود، لقد طفح الكيل، احذري فالأمر لا رجعة فيه وسوف تندمين عليه ذات يوم ولات ساعة مندم.»

ربما كان صادقاً وبدا له عذاب هجر عشيقته أقلّ قسوة من عذاب البقاء إلى جانبها في شروط معينة.

ثم أضاف قوله وهو يلتفت إليّ: «ولكن لاتظلّ ههنا ياصغيري، قلت لك، عما قليل تأخذ في السعال.»

وأريته المناظر التي كانت تمنعني من التنقل ولمس قبعته لمسة خفيفة وقال للصحفي:

— «ياسيد، هلاّ تكرمت برمي سيكارك فالدخان يضرّ بصديقي.»

وكانت عشيقته ماضية، لا تنتظره، إلى مقصورتها، واستدارت وقالت للراقص في أقصى المسرح بصوت

(١) ان اللورد «ديربي» يعترف بنفسه ان انكلترا لاتبدو دوماً وكأنها على حق حيال ايرلندا. (وردت في متن النص)

بادى التصنع في رخامته وبراءة الفتاة الساذجة فيه:

- «تراهما تتصرّ فان هكذا أيضاً مع النساء هاتان اليدان الصغيرتان؟ إنك تبدو امرأة بدورك، وأظن من الممكن التفاهم معك وواحدة من صديقاتي.»

وقال الصحفيّ: «ليس التدخين ممنوعاً فيما أعلم، وعلى المرء ملازمة بيته إن كان مريضاً.»

وابتسم الراقص للمثلة ابتسامة زاخرة بالأسرار، وصاحت به: «اصمت، فإنك تجنني، وكا أكثر ماسنقيم من حفلات!»

وقال «سان لو» للصحفي: «لست لطيفاً جداً على أي حال ياسيد»، قالها لايبدّل من لهجته المهذبة اللطيفة وبمظهر من وقف على أمر وقام بالحكم على حادثة انتهت حكماً ينطبق على الماضي.

وفي تلك اللحظة رأيت «سان لو» يرفع ذراعة عامودياً فوق رأسه كما لو أنه أشار إلى شخص ما كنتّ أراه، أو مثل قائد أوركسترا - ودونما تمهيد أكثر ممّا تعقب إيقاعات عنيفة لحناً بطيئا حلواً بمجردّ حركة قوس - أهوى بيده، بعد الأقوال المهذّبة التي قالها قبل قليل، بصفعة مدوّية على خدّ الصحفي.

أما الآن وقد أعقب أحاديث الديبلوماسيين الموزونة وفنونً السلام الضاحكة الاندفاع المجنون إلى الحرب وبما أن الضربات تستدعي الضربات فلعلني ما كنت سأعجب كثيراً لرؤية الخصوم يسبحون في دمهم. ولكنّ ما كنت لا أستطيع فهمه (كما هي حال الأشخاص الذين يرون من غير المنطقي أن تقع حرب بين بلدين في حين لم يبحث بعد إلاّ في تعديل للحدود، أو أن توافي المنيّة مريضاً في حين لم يتحدّثوا إلاّ عن تضخم في الكبد) كيف استطاع «سان لو» أن يتبع تلك الأقوال التي تنّم عن بعض ألوان اللطف بحركة لاتنبع البتة منها ولاهي تؤذن بها، حركة تلك الذراع المرفوعة دون مراعاة لحق الناس، وليس ذلك فحسب بل دون أن تأبه بمبدأ السببيّة، بنوع من توالد الغضب التلقائي، تلك الحركة الناشئة من لاشيء. ولم يردّ الصحفي لحسن الحظّ وقد فقد توازنه من شدّة اللطمة وامتقع لونه وتردّد لحظة. أما اصدقاؤه، فقد أشاح أحدهم في الحال بوجهه وهو ينظر باهتمام في جهه الكواليس إلى شخص لم يكن بالطبع موجوداً فيها، وتظاهر الثاني بأنّ ذرّة غبار دخلت إلى عينه فأخذ يقرص جفنه ويتكشّر ألماً ؛ أما الثالث فقد اندفع صائحاً: «يا إلهي، أظنهم يزمعون رفع الستار ولن نحصل على مقاعدنا».

وددت لو أكلمّ «سان لو» ولكنما اغتياظه من الراقص كان قد عمر صدره حتى لقد التصق تمام الالتصاق على صفحة الأحداق، وكمثل هيكل داخلي كان يشدّ وجنتيه إلى حدّ لم يعد يملك معه، وقد انقلب اضطرابه الداخلي جموداً خارجياً كاملاً، حتى الارتخاء وامكان التحريك اللازم ليستقبل كلمة منّي ويجيب عنها. وإذ رأى أصدقاء الصحفي أن كل شيء قد انتهى فقد عادوا بالقرب منه ولا يزالون يرتجفون. ولكنهم كانوا يحرصون كل الحرص. وقد أخجلهم أنهم تخلوا عنه، أن يظن أنّهم لم يلاحظوا شيئاً. ولذلك كانوا يسترسلون في الحديث هذا عن الغَبرَة في عينه، وذاك عن التخوّف الكاذب الذي وقع له إذ تخيّل أنّ الستارة تُرفع، والثالث عن الشبه الخارق بشقيقه لشخص مرّ ساعتها. بل بلغ بهم الأمر أن أبدوا له شيئاً من

الاستياء أن لم يشاركهم انفعالاتهم.

— «كيف، ألم يدهشك ذلك؟ أفلا ترى الأمور على حقيقتها؟» وغمغم الصحفي المصفوع قائلاً: «أعني أنكم كلكم جبناء».

وبدا أنهم يناقضون الوهم الذي أُخذوا به والذي كان يجدر بهم بموجبه— ولكنهم لم يفكروا فيه —أن يظهروا مظهر من لايفهم ما يقصد إليه فتفوّهوا بجملة متعارف عليها في المناسبات: «هذا أنت تثور فلا تغضب بدون سبب، لكأنما تجمح بك نفسك!».

لقد أدركت في الصباح أمام أشجار الإجاص المزهرة الوهم الذي كان يستند إليه حبّ «روبير» لـ«راحيل حينما الربّ». وما كنت أقلّ ادراكاً بالعكس لحقيقة العذاب الناجم عن هذا الحبّ. وتقلصّ العذاب الذي كان يكابده منذ ساعة شيئاً فشيئاً دون أن يتوقف وغار في صدره، ولاحت في عينيه منطقة شاغرة مرنة. وغادرنا المسرح أنا و«سان لو» وسرنا بادئ الأمر قليلاً. واتفق أن تأخرّت لحظة في زاوية من شارع «غابرييل» غالباً ماكنت أبصر «جيلبيرت» تصل منها بالأمس. وحاولت قدر بضع ثوانٍ أن أتذكر تلك الانطباعات البعيدة، كنت أزمع اللحاق بـ «سان لو» بخطاً رياضية حينما أبصرت سيداً رديء الملبس إلى حدّما يبدو وكأنه يحدثه عن قرب. فجزمت أنه صديق شخصي لـ«روبير» ؛ وبدا إذ ذاك أنّهما يواليان الاقتراب الواحد من الآخر ؛ وفجأة، ومثلما تبرز في السماء ظاهرة نجمية، رأيت أجساماً بيضويّة الشكل تتخذ بسرعة مدوخة جميع المواقع التي تسمح لها بتأليف مجموعة غير ثابتة من النجوم أمام «سان لو» وبدا لي أنّها سبعة على الأقلّ قذفت كأنما بمقلاع. بيد أنها لم تكن سوى قبضتي «سان لو» وقد ضاعفت منهما سرعتهما في تبديل موقعهما في تلك المجموعة المثالية والتزيينية في ظاهرها. ولم تكن تلك اللعبة النارية سوى مجموعة لكمات يوجهها «سان لو» وقد كشف لي في الحال عن طابعها العدواني، بدلاً من الجماليّ، مظهر السيد الردئ الملبس وقد بدا أنه يفقد في الوقت نفسه كامل رباطة جاشه وفكاً وكثيراً من الدم. وقد أعطى ايضاحات كاذبة للاشخاص الذين اقتربوا لسؤاله وأدار رأسه ولما رأى «سان لو» يبتعد نهائياً للحاق بي ظلّ ينظر إليه بهيئة تمتزج فيها الضغينة بالارهاق، ولكنها غير غاضبة البتة. أما «سان لو» فكان غضاباً على العكس مع أنه لم ينل شيئاً وكانت عيناه لاتزالان تسطعان غضباً حينما لحق بي. ولم يكن للحادثة أية صلة بصفعات المسرح كماسبق أن ظننت. لقد كان متنزّها متقد الحب أبصر العسكري الجميل الذي يمثله «سان لو» فراوده عن نفسه. وكان صديقي لايزال مندهشاً من جرأة هذه «الطغمة» الي لم تعد تنتظر حتى ظلام الليل لتغامر بنفسها، وكان يتحدث عن العروض التي قدمت إليه بالحنق الذي تتحدث به الصحف عن سرقة بقوة السلاح جرى الإقدام عليها في وضح النهار في أحد أحياء باريس المركزية. بيد أن السيد الذي ضرب كان يكمن عذره في أن مستوياً ماثلاً يقرب بسرعة كافية الرغبة من المتعة كيما يبدو الجمال وحده وكأنه مذ ذاك قبول. ولم يكن موضع جدال أن «سان لو» كان جميلاً. أما اللكمات التي تشبه تلك التي كالها «سان لو» منذ قليل ففائدتها بالنسبة إلى رجال من نوعية الذي وقف بجانبه منذ قليل أن تحملهم على التفكير جدياً ولكن على مدى من الوقت أقلّ من أن يستطيعوا معه إصلاح أنفسهم وتجنب العقوبات القضائية. ومع أن «سان لو» كال لكماته دون تفكير كثير فإن جميع اللكمات التي من هذا القبيل لاتفلح، وإن هي جاءت عوناً للقوانين، في مجانسة الأخلاق.

وقد خلفت هذه الحوادث، ومن بينها دونما شك الحادثة التي كان «روبير» يصرف إليها أكثر تفكيره، لقد خلفت في نفسه الرغبة في شيء من الوحدة: ذلك أنه طلب إليّ بعد فترة أن نفترق وأن أذهب فيما يخصني إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وسوف يلقاني هناك ولكنه يفضل ألاّ ندخل معاً كي يظهر بمظهر من يصل لتوّه إلى باريس بدلا من أن يبعث على الظن بأنه قد سبق لنا أن أمضينا الواحد مع الآخر قسماً من بعد الظهيرة.

كان ثمة فارق كبير، مثلما سبق أن افترضت قبل التعرف إلى السيدة «دو فيلباريزيس» في «بالبيك»، بين الوسط الذي تعيش فيه ووسط السيدة «دوغيرمانت». فقد كانت السيدة «دو فيلباريزيس» واحدة من تلك النساء اللواتي ولدن في أسرة ذات أمجاد ودخلن بطريق زواجهن في أسرة أخرى لاتقل عن تلك أمجاداً، ولكنهنّ لا يتمتعن بمكانة اجتماعية رفيعة، فإنّه فيما عدا بعض دوقات هن بنات أشقائهنّ أو زوجات أسلافهنّ أو حتى واحداً أو اثنين من سلالات ملكية من معارف الأسرة القديمة، لايرتاد صالتهّن سوى جمهور من الدرجة الثالثة من بورجوازية وأشراف ريفييّن أو من أرباب مفاسد أقصى وجودهم منذ زمن بعيد جماعة الأنيقين والمتخذلقين الذين لاتضطرّهم إلى المجيء واجبات القربى أو الألفة البعيدة العهد. صحيح أنني لم أصادف بعد بضع لحظات أية مشقة في أدراك السبب الذي اتفق من أجله للسيدة «دو فيلباريزيس» في «بالبيك» أن تكون على أتمّ اطلاع، وأن تفضلنا في ذلك، على أدق تفاصيل الرحلة التي كان يقوم بها والدي آنذاك في اسبانية برفقة السيد «دونوربوا». بيد أنه لم يكن من الممكن على الرغم من ذلك أن تستوقفنا الفكرة التي مفادها أن علاقة السيدة «دوفيلباريزيس» منذ أكثر من عشرين عاما بالسفير ربما كانت السبب في هبوط مكانة المركيزة في عالم كانت النساء الأكثر شهرة فيه يجاهرن بعشاق أقلّ جدارة بالاحترام من هذا الأخير الذي لم يعد على الأرجح منذ زمن طويل بالنسبة إلى المركيزة سوى صديق قديم. فهل وقع للسيدة «دوفيلباريزيس» في الأمس البعيد مغامرات أخرى؟ أو لم تفلح، وهي آنذاك من طبيعة أكثر هوى منها الآن في شيخوخة هادئة ورعة ربّما دانت مع ذلك بشيء من طابعها المميز لتلك السنوات المضطرمة المستنفدة، ألم تفلح في الريف الذي سبق أن قضت فيه زمناً طويلاً في تجنب بعض فضائح مجهولة لدى الأجيال الجديدة التي كانت تشهد أثرها فحسب في التركيب المخلط الفاسد لصالة أهل لتكون، لو لاذلك، من أنقاها من كلّ خليط ضحل؟ «لسان السوء» ذاك الذي كان ابن أخيها يخصها به هل صنع لها في ذلك الزمان أعداء؟ وهل دفعها إلى الإفادة من بعض صنوف التوفيق لدى الرجال كي تمارس صنوف ثأر على النساء؟ كل ذلك ممكناً. وليست الطريقة العذبة الحنون التي كانت السيدة «دو فيلباريزيس» تتحدث بها عن الحياء والطيبة – والتي لاتضفي ألوانا رقيقة على العبارات فحسب، بل على النبرات كذلك – ما كان يمكن أن يضعف ذاك الافتراض ؛ ذلك لأن الذين يحسنون التحدث عن بعض الفضائل، بل حتى الذين يحسون روعتها ويفهمونها على أحسن وجه (والذين يفلحون في مذكراتهم في رسم صورة لائقة عنها) إنما ينحدرون في الغالب من الجيل الصامت الفظّ غير المخادع الذي مارسها، بيد أنّهم ليسوا أنفسهم في عداده. إن هذا الجيل ينعكس فيهم ولكنه لا استمرار له فيهم، وإنّك واجد بدلاً من الحزم الذي كان بها حساسية وذكاءً لاجدوى منهما في العمل. وسواء أكان أم لم يكن في حياة السيدة «دوفيلباريزيس» من تلك الفضائح التي قد تطمسها شهرة اسمها، فإنما ذلك الذكاء، ويكاد أن يكون ذكاء كاتب من الدرجة الثانية أكثر منه ذكاء امرأة مجتمع، الذي كان بالتأكيد سبب تدني مكانتها في المجتمع.

ليس من شكّ أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» إنّما كانت تشيد على وجه الخصوص بمزايا لاتثير الحماسة إلى حدّ بعيد كالرزانة والاعتدال. ولكنّ الاعتدال لايكفي كيما نتحدّث عن الاعتدال بما يطابقه كليا ولابدّ من بعض مزايا لدى الكاتب تفترض حماسة قليلة الاعتدال. كنت لاحظت في «بالبيك» أنّ عبقرية بعض كبار الفنانين كانت تظل بعيدة عن مدارك السيدة «دوفيلباريزيس» وأنها ما كانت تجيد سوى أن تسخر منهم سخرية رقيقة وتضفي على قصور فهمها شكلاً ذكياً وظريفاً. بيد أنّ ذاك الذكاء وتلك الظرافة يضحيان بدورهما، بالدرجة التي يبلغانها لديها، -على صعيد آخر وعلى الرغم من استخدامهما لانتقاص قدر أرفع الأعمال الفنية-مزايا فنية حقيقية. والأكيد أنّ مثل هذه المزايا إنّما تمارس على أي وضع اجتماعي تأثيراً مرضياً مختاراً، على نحو مايقول الاطباء. تأثيراً مُفكّكاً، إلى الحدّ الذي تعسر على أمتنها أساساً مقاومته بضعة أعوام. فما يدعوه الفنانون ذكاءً إنّما يبدو إدعاء محضاً في نظر المجتمع الأنيق الذي يعجز عن الانطلاق من وجهة النظر الوحيدة التي يحكمون منها على كلّ شيء ولايدرك البتة الجاذب الخاص الذي ينقادون له في اختيارهم لعبارة أو قيامهم بمقارنة ما فيحسّ بالقرب منهم باجهاد وإزعاج سرعان ما ينجم عنه النفور. مع أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» لم تكن تظهر في حديثها، كما هو الأمر في مذاكرتها التي نشرت منذئذ. سوى ضرب من الظرافة الاجتماعية إلى أبعد الحدود. فقد مرّت بجانب أمور عظيمة دون أن تتعمق فيها ،ودون أن تميزّها أحياناً فلم تستبق من السنوات التي عاشت فيها، والتي كانت تصفها على أيّة حال بالكثير من الدقة والروعة، سوى ما قدّمت من أكثر الأمور طيشاً. على أن المؤلف يظلّ عملاً من أعمال الفكر وإن لم يتناول سوى موضوعات ليست فكرية، ولا بدّ كيما نخلف في كتاب أو في حديث، وهو قليل الاختلاف عنه، الانطباع التامّ عن الطيش، لابدّ من قدر من الرزانة قد يعجز عنه محض الطائش. فهذه الجملة أو تلك التي يستشهدون بها على أنها نموذج الظرافة الرشيقة في بعض المذكرات التي سطّرتها امرأة ويعدّونها من الروائع قد حملتني أبداً على افتراض أن المؤلفة لابدّ امتلكت فيما مضى، كيما تبلغ هذا الحدّ من الرشاقة، علماً على شيء من التثاقل وثقافة منفرة وأنّها كانت على الأرجح تبدو لصديقاتها، ولا تزال فتاة، دعية أدب لاتطاق. وإن الترابط بين بعض المزايا الأدبية والفشل الاجتماعي ترابط لازم حتى لتكفي القارئ، إذ يقرأ اليوم مذكرات السيدة «دوفيلباريزيس»، هذه الصفة الصحيحة وهذه الصور المجازيّة التي تتلاحق كيما يستعيد بوساطتها التحية العميقة والجافة مع ذلك التي لابدّ كانت ترفعها إلى المركيزة العجوز على درج إحدى السفارات هذه المتحذلقة أو تلك من أمثال السيدة «لو روا» التي ربّما كانت تخصها ببطاقة دعوة، وهي في طريقها إلى منزل آل «غيرمانت»، ولكنها لاتطأ قدماها في يوم صالتها مخافة أن يحطّ من مكانتها هناك بين مجموعة نساء الأطباء والكتّاب العدُل ربّما كانت السيدة «دو فيلباريزيس» في أوّل شبابها دعيّة أدب وأنّها ربما لم تفلح، وقد انتشت إذ ذاك بعلمها، في الامتناع عن إرسال سهام حادّة لاينساها المجروح ضدّ جماعة من المجتمع أقلّ ذكاء منها وأقلّ علماً.

ثم إن الموهبة ليست ملحقاً زائداً يضاف على نحو مصطنع إلى تلك المزايا المختلفة التي تضمن النجاح في المجتمع كي تصنع من كلّ ذلك ما يدعوه رجال المجتمعات الراقية «بالمرأة الكاملة». فهي النتاج الحيّ لبنية خلقية تفتقر بعامة إلى كثير من المزايا وتسود فيها حساسية يمكن أن يبرز منها إلى حيز الإحساس على نحو ملحوظ خلال الحياة تجليات أخرى لانتبينها في صفحات كتاب، من مثل ضروب من الفضول والنزوات

والرغبة في الذهاب إلى هنا أو هناك سعياً وراء المتعة الخاصة لابغية إنما العلاقات الاجتماعية أو صيانتها أو مجرّد تسييرها. لقد سبق لي أن رأيت السيدة «دو فيلباريزيس» في «بالبيك» يحيط بها قومها ولا تلقي نظرة واحدة على الأشخاص الجالسين في بهو الفندق. بيد أني داخلني حدس بأن ذاك الامتناع لم يكن لامبالاة ويبدو أنّها لم تلازمه على الدوام. فقد كان يأخذها شغف بمعرفة هذا الفرد أو ذاك ممّن لايملكون ما يخوّلهم حقّ الاستقبال في منزلها لأنّها وجدته جميلاً أحياناً، أو لأنه نقل إليها فحسب أنّه كان طريفاً، أو لأنّه بدا لها مختلفاً عن الأشخاص الذين تعرفهم، وكلهم ينتمي، في تلك الفترة التي لم تكن بعد تقدرهم فيها حقّ قدرهم لأنها تحسب أنّهم لن يتخلوا عنها في يوم، إلى الصفوة في حي «سان جيرمان». فهذا البوهيمي، هذا البورجوازي الصغير الذي لفت نظرها أضحت مضطرّة أن توجّه إليه الدعوات التي لا يستطيع تقدير قيمتها، وذلك بالحاح كان يحطّ شيئاً فشيئاً من قدرها في أعين المتحذلقين الذين تعوّدوا تقدير المنتديات بعدد من تستبعدهم ربّة البيت أكثر منهم بعدد الذين تستقبلهم. ولئن تلهت السيدة «دوفيلباريزيس» بالتأكيد في فترة معينة من شبابها، وقد أورثها اللامبالاة اعتزازها بالانتماء إلى زهرة الاستقراطيين، لئن تلهت إلى حدّما بإثارة استنكار الجماعة التي كانت تعيش بين ظهرانيها وبتخريب مقصود لوضعها الاجتماعي فقد أخذت تولي ذاك الوضع أهمية بعدما أرادت أن تظهر للدوقات أنّها تفوقهم إذ تقول وتفعل كلّ مالا يجرؤن على القيام به. أمّا الآن وقد امتنعن، باستثناء من كنّ من قريباتها، عن المجيء إلى منزلها، فقد أخذت تحس بانتقاص مكانتها وتتمنى أن تستمرّ سيادتها ولكن عن غير سبيل العقل. ودّت لو تجتذب إليها جميع اللواتي اهتمت إلى حدّ بعيد باقصائهنّ. وكم من حياة امرأة، حياة قلّما تكشفت على أي حال (لأنّ لكلّ حسب سنه ما يشبه العالم المختلف، ويحول تكتّم الشيوخ دون أن يكوّن الشبان فكرة عن الماضي ويحيطوا بكامل دورته)، فسمت هكذا فترات متعاكسة صرفت الأخيرة منها كلها في استعادة ما قذفت به الثانية عن طيب خاطر في مهبّ الريح! وبأيّة طريقة قذفت به في مهبّ الريح؟ إن الشبان أقلّ قدرة على تخيل الأمر بقدر ما تخطر أمام أعينهم مركيزة عجوز جليلة هي المركيزة «دوفيلباريزيس» ولا يراودهم أن صاحبة المذكرات الرزينة في يومنا، وهي شديدة الوقار بجمتّها المستعارة البيضاء، استطاعت أن تكون بالأمس جليسة موائد مرحة ربّما أمتعت يومها قلوب رجال يرقدون مذ ذاك في القبر وربما التهمت ثروتهم. وليس يعني كونها سعت أيضاً بجدّ دؤوب وطبيعي إلى تخريب مكانتها التي آلت إليها من كرم محتدها، ليس يعني ذلك مطلقاً أن السيدة «دوفيلباريزيس» لم تعلق أهمية كبيرة على مكانتها حتى في تلك الفترة البعيدة. كذلك يمكن للعزلة والخمول اللذين يعيش فيهما أحد المصابين بالوهن العصبيّ أن يحاكا على يده من الصباح إلى المساء دون أن يبدو له محتملين من جرّاء ذلك ومن الممكن ألاّ يحلم إلاّ بالحفلات الراقصة والصيد والرحلات فيما يسارع إلى اضافة حلقة جديدة إلى الشبكة التي تحتبسه. إننا نعمل في كل لحظة على اعطاء حياتنا شكلها، بيد أننا نفعل بأن ننسخ رغما عنا كما ينسخ الرسم ملامح الشخص الذي نمثله لاذاك الذي ربّما سرّنا أن نكونه. كان يمكن أن تعبّر تحيات السيدة «لوروا» المتعالية بطريقة أو بأخرى عن طبيعة السيدة «دو فيلباريزيس» الحقيقة ولكنّها لم تكن تستجيب إطلاقاً لرغبتها.

وفي اللحظة التي كانت السيدة «لوروا» «تقاطع» فيها، حسب تعبير عزيز على قلب السيدة «سوان»، المركيزة، كان يمكن لهذه الأخيرة أن تحاول مؤاساة نفسها بتذكّرها أنّ الملكة «ماري أميلي» قالت لها ذات

يوم: «أحبك محبّة الابنة». ولكن مثل تلك الألطاف الملكيّة الخفية المجهولة لم تكن موجودة إلا بالنسبة إلى المركيزة، وقد كساها الغبار كشهادة فائز قديم بالجائزة الأولى في الكونسرفاتوار. فالامتيازات الاجتماعية الوحيدة هي تلك التي تبدع حياة، تلك التي تستطيع أن تزول دون أن يقع على من أفاد منها أن يسعى إلى الاحتفاظ بها أو فضح سرّها لأن مئة غيرها تعقبها في النهار نفسه. ولعل السيدة «دوفيلباريزيس» إذ تذكر أقوالاً للملكة من هذا القبيل، لعلها كانت تبادل بها مع ذلك راضية القدرةِ الدائمة في تقبل الدعوات التي تحظى بها السيدة «لوروا»، مثلما يودّ فنان كبير مغمور في أحد المطاعم، ولم يسطرْ نبوغة لافي ملامح وجهه الخجول ولافي قصّة سترته البالية التي بطل زيّها، أن يكون حتى السمسار الشاب الكائن في آخر مراتب المجتمع ولكنّه يتناول غداءه إلى مائدة مجاورة برفقة ممثلتين ويهرع نحوه في رحلة مجاملات لاتنقطع صاحب المطعم ورئيس الخدم والخدم والبوّابون وحتى الطهاة الذين يخرجون من المطبخ مواكبَ لتحيته كماهي الحال في قصص الجنّ فيما يتقدّم الساقي، وهو في مثل اغبرار زجاجاته، مقوّس الساقين مبهوراً كما لو التوت قدمه قبل أن يخرج إلى النور في طريقه من القبو.

على أنّه لابدّ أن نقول إن غياب السيدة «لوروا» عن صالة السيدة «دوفيلباريزيس» إن هو يغمّ سيدة البيت فقد كان خافياً عن أبصار عدد كبير من مدعوّيها. لقد كانوا يجهلون كلياً وضع السيدةَ «لوروا» الخاصّ الذي يعرفه جماعة المجتمع الراقي فحسب ولا يشكّون أن استقبالات السيدة «دوفيلباريزيس» إنّما تمثل أكثر الاستقبالات تألقاً في باريس على نحو ما اقتنع به اليوم قرّاء مذكراتها.

وفي هذه الزيارة الأولى التي قمت بها لدى فراقي «سان لو» للسيدة «دوفيلباريزيس» بناء على النصحية التي سبق أن زوّد بها السيد «دو نوربوا» والدي، لقيتها في صالتها الممدودة بالحرير الأصفر الذي تبرز عليه الأرائك والمقاعد الرائعة المكسوّة بقماش «بوفيه» بلون وردّي يكاد أن يكون بنفسجياً، لون توت العليق اليانع. كنت ترى إلى جانب رسوم آل «غير مانت» وآل «فيلباريزيس» رسوماً أخرى – قدّمها النموذج نفسه– للملكة« ماري آميلي» وملكة بلجيكا والأمير «دو جوانفيل» وامبراطورة النمسا. كانت السيدة «دو فيلباريزيس» تعتمر قلنسوة من الدانتيلا السوداء من الزمن الغابر (كانت تحتفظ بها بغريزة اللون المحلّي أو التاريخّي المتيقظ نفسه الذي يبديه صاحب فندق بريتاني يظنّ أنّ ثمة مهارة أكبر في حمل خادماته على الاحتفاظ بالعمرة والأكمام العريضة مهما أغرق زبائنه في انتمائهم الباريسي) وتجلس إلى مكتب صغير كان عليه، إلى جانب ريشاتها وممزجة ألوانها ولوحة أزهار مائية باشرتها، ورود راغبة وزينيات وشعور جنّ في أكواب وصحون وفناجين وقد توقفت عن رسمها بسبب ازدحام الزيارات في تلك الفترة فبدت وكأنها تغطي طاولة بائعة زهور في صورة مطبوعة من القرن الثامن عشر. كان في تلك الصالة المدفاة بعض الشيء عن قصد لأنّ المركيزة أصابها رشح لدى عودتها من قصرها، كان بين الحضور ساعة وصولي أمين محفوظات صنفت معه السيدة «دوفيلباريزيس» في الصباح الرسائل المسطرة بيد شخصيات تاريخية والتي وجهت إليها وكانت معدّة لابرازها صور طبق الأصل بمثابة وثائق ثبوتية في المذكرات التي كانت في طور تحريرها، ومؤرّخ رسميّ السلوك بادي الفزع علم أنّها تملك بطريق الإرث رسماً لدوقة «مونمورانسي» فجاء يستأذنها نسخ هذا الرسم في لوحة من كتابه حول «حركة التمرّد»، وقد انضمّ إلى هذين الزائرين رفيقي السابق «بلوك» الذي أصبح الآن مؤلفاً مسرحياً شاباً وكانت تتكل عليه ليزوّدها دون مقابل بفنانين يمثلون في عشياتها المقبلة. صحيح أن المشكال

الاجتماعي كان آخذاً في الدوران وأنّ قضية «دريفوس» تزمع أن تهوي باليهود إلى آخر مرتبة في السلم الاجتماعي. ولكن عبثاً يبلغ الإعصار الدريفورسي أوجه من جهة، فما تبلغ الأمواج أشدّ غضبها في أوّل العاصفة. ثمّ ان السيدة «دوفيلباريزيس» تركت قسماً كاملاً من عائلتها يحمل بعنف على اليهود وظلت هي حتى الآن غريبة كلياً عن المسألة ولاتبالي بها. وإن شاباً مثل «بلوك» لا يعرفه أحد كان يمكن ألاّ يفطن له أحد فيما أخذ الخطر يحيق مذ ذاك بكبار اليهود الذين يمثلون حزبهم. لقد أصبح له الآن ذقن «تيس» مرقط وأخذ يضع نظارة وسترة رسمية طويلة وقفازا كأنه لفة من ورق البرديّ في يده. يستطيع الرومانيون والمصريّون والأتراك أن يمقتوا اليهود. ولكن الاختلافات بين تلك الشعوب ليست محسوسة إلى هذا الحدّ في صالة فرنسية، وإنّ يهودياً يقوم بالدخول كما لو كان خارجاً من أعماق الصحراء متقوّس الجسم كالضبع، يميل بقفا عنقه جانباً وينتشر سيلاًمن «السلامات» العريضة ليرضي تمام الرضى نزعة استشراقية. على أنّه لابدّ لذلك ألاّ ينتمي اليهودي إلى عالم «المجتمع الراقي» وإلاّ اتخذ بسهولة منظر «لورد» وأضحت تصرّفاته مفرنسة إلى حدّ أن أنفاً متمرّداً لديه ينمو كالحدقيات في اتجاهات غير متوقعة إنما يذكر بأنف «ماسكاريي» أكثر منه بأنف سليمان. ولما لم يتم تليين «بلوك» برياضة «الحيّ» ولاشرّف نسبه اختلاط مع انكلتره أو اسبانيه فقد ظلّ هاوي الطابع الأجنبي غريباً يلذّك النظر إليه، على الرغم من بزّته الأوروبية، كيهودي من «دوكان» فما أروع قوّة العرق الذي يدفع إلى الأمام من أعماق القرون حتى قلب باريس العصرية، في ممرّات مسارحنا وخلف كوى مكاتبنا وفي جنازة وفي الشارع كتيبة خالصة تضفي أناقة على القبعة الحديثة وتمتص السترة الرسمية وتنسيها وتنظمها، وقد ظلت باختصار القول شبيهة تماماً بسترة الكتبة الأشوريين الذين تمّ رسمهم بلباس الاحتفالات على افريز بناء في «سوسة» أمام أبواب قصر «داريوس». (وكان «بلوك» يزمع بعد ساعة أن يتصوّر أنّ السيد «دوشارلوس»» إنّما يستعلم إن كان يحمل اسماً يهودياً بدافع من مقصد سيئ معاد لليهود في حين كان الأمر مجرّد فضول جمالي وتعشق للون المحلي.) ولكن التحدّث عن استمرار الأجناس إنّما يترجم على أي حال ترجمة غير دقيقة الانطباع الذي يخلفه فينا اليهود واليونانيون والفارسيون وسائر تلك الشعوب التي يجدر أن ندع لها تنوّعها. إننا نعرف وجه قدماء اليونان بفضل الرسوم القديمة وقد رأينا أشوريين في زخارف أحد قصور «سوسه». بيد أنّه يبدو لنا، حينما نلاقي في العالم شرقيين ينتمون إلى هذه الجماعة أوتلك، أننا في حضرة مخلوقات خارقة ربّما أظهرتها قوّة استحضار الأرواح. ما كنّا نعرف سوى صورة سطحية، فإذا هي قد اكتسبت عمقاً، وإذا هي تمتدّ في الأبعاد الثلاثة وتتحرّك. فالسيدة اليونانية الشابة، ابنة صاحب المصرف الثري التي شاعت في هذه الفترة، تبدو وكأنّها واحدة من تلك الممثلات الصامتات اللواتي يرمزن في«باليه» تاريخي وجمالي معاً إلى الفن الهليني بلحمه ودمه. على أنّ الاخراج في المسرح إنّما يطبع هذه الصور بالابتذال. أما المشهد الذي يعرضه لأعيننا دخول تركية أو يهوديّ إلى صالة فإنما يجعل الوجوه على العكس أكثر غرابة إذ يرفدها بالحياة وكأنّما الأمر أمر أشخاص تمّ استذكارهم بجهد وساطة روحيّة. وإنّما الروح (أو بالأحرى النزر اليسير الذي تؤول إليه الروح حتى الآن على الأقلّ في ضروب اتخاذ الشكل المادي هذه)، إنّما الروح التي لمحناها من قبل في المتاحف وحدها، روح اليونان القدماء وقدماء اليهود التي انتزعت من حياة تافهة وقبلية معاً تنفذ أمامنا هذه الايمائية المحيّرة. فما نودّ عبثاً أن نشدّه إلينا في السيدة اليونانية الشابة المتهرّبة إنّما هو شكل أعجبنا به بالأمس على جنبات أحد الآنية. وكان يخيل إليّ أنني لو أخذت صوراً لـ«بلوك» في ضياء صالة السيدة «دو فيلباريزيس» لنقلت عن اسرائيل تلك الصورة نفسها التي ترينا إيّاها صور استحضار الأرواح، صورة

مشوشة إلى حدّ بعيد إذ لايبدو أنها تصدر عن الإنسانية، مخيبّة إلى حدّ بعيد إذ انها تشبه الإنسانية مع ذلك إلى أبعد الحدود. حتى تفاهة الأقوال التي يتفوّه بها الأشخاص الذين نعيش بينهم إنما تخلف فينا، على نحو أعمّ، الاحساس بالأمر الخارق في عالمنا المسكين، عالم كلّ يوم، الذي يتفوّه فيه حتى الرجل العبقري الذي ننتظر منه، وقد انتظمنا من حوله كأنما حول الطاولة الدوّارة ،سرّ اللانهاية مجردّ هذه الكلمات – تلك نفسها التي خرجت منذ قليل من شفتي «بلوك» –: «انتبهوا لقبعتي الرسمية».

وكانت السيدة «و فيلباريزيس» تقول، وتوجه الحديث على نحو أخص إلى رفيقي القديم مستأنفة الحديث الذي قطعه دخولي: «يا إلهي، الوزراء يا سيدي العزيز، الوزراء، ما من أحد كان يودّ لقاءهم. ومهما كنت صغيرة آنذاك فإني لاأزال أذكر الملك وهو يرجو جدّي أن يدعو السيد «دوكاز» إلى حفلة راقصة سيراقص فيها والدي الدوقة «دوبيري». قال الملك: «سيسرّني ذلك يا«فلوريمون». وإذ سمع جدّي، وكان به شيء من الصمم،، اسم السيد «دوكاستري»، فقد وجد المطلب طبيعياً تماماً. وحينما أدرك أن الأمر يتعلق بالسيد «دوكاز» ثارت ثائرته لحظة، ثم أذعن وسطر في المساء ذاته كتاباً للسيد «دوكاز» يتوسل إليه فيه أن يتكرم ويشرّفه بحضور حفلته الراقصة التي ستجري في الأسبوع التالي. فالناس كانوا مهذّبين في ذلك الزمان ياسيدي، وما كانت ربّة بيت لتستطيع الاكتفاء بارسال بطاقتها مضيفة بخطّ يدها: «كوب شاي» أو «حفلة شاي راقصة» أو «شاي وموسيقي». ولئن عرفوا التهذيب إلاّ أنهم ما كانوا يجهلون الوقاحة. فقد قبل السيد «دوكاز» إلاّ أنه أذيع عشية الحفلة الراقصة أن جدّي ألغى الاحتفال إذ أحس بتوعّك صحته. لقد أطاع الملك ولكنه لم يستقبل السيد «دوكاز» في حفلته الراقصة...أجل ياسيدي إنّي اذكر تماماً السيد «موليه»، كان رجلاً ذكياً وقد أقام البرهان على ذلك حينما استقبل السيد «دو فينيي» في المجمع، ولكنه كان مغرماً بالرسميات ولازلت أراه ينحدر لتناول العشاء في منزله وقبعته الرسمية في يده.

– «آه! إن ذلك ليوحي تماماً بزمن شديد الأذى إلى حدّما في تفاهته، فقد كانت تلك عادة عامة ولاشك أن يحتفظ المرء بقبعته في يده وهو في منزله»، يقول «بلوك» وقد رغب في الإفادة من هذه الفرصة النادرة جدًا في استطلاع خصائص الحياة الارستقراطية الغابرة لدى شاهد عيان، فيما يرميها أمين المحفوظات، وهو مايشبه أمين سرّ متقطع للمركيزة، بنظرات رقيقة ويبدو وكأنه يقول: «هذه حالها، إنّما تحيط بكلّ شيء وتعرف كل الناس، ويمكنكم سؤالها حول ما تريدون، إنّها خارقة.»

وأجابت السيدة «دوفيلباريزيس» وهي تقرّب أكثر منها اناء الزجاج الذي تتدلى منه أزهار «شعور الجنّ» التي سوف تعاود عمّا قليل رسمها: «لا،لا،كانت تلك عادة للسيد «موليه» فحسب. فلم أرّ والدي يحتفظ بقبعته في منزله، إلاّ بالطبع حينما يجيء الملك إذ يغدو سيد البيت محض زائر في صالته الخاصة به إذ الملك في بيته أينما حلّ.»

وتجرّأ السيد «بيير» مؤرّخ «حركة التمرّد» فقال: «لقد قال لنا أرسطو في الفصل الثاني...»، ولكن بلهجة خجولة إلى حدّ أنّه لم يسترع انتباه أحد. لقد اصابه منذ بضعة أسابيع تأرّق عصبيّ لم تفلح معه جميع العلاجات فلم ينم من بعد ولا يخرج، وقد أنهكه التعب، إلاّ حينما تضطرّه أعماله إلى التنقل. ولما كان عاجزاً عن أن يعد مرّات عديدة هذه الرحلات البسيطة جداً في نظر غيره ولكنها تكلفه بقدر ما تكلفه لوينحدر من

القمر للقيام بها، فقد كان يذهل أن يجد في الغالب أن حياة كلّ واحد لم تكن منظمة تنظيماً دائماً كي توفر لاندفاعات حياته المفاجئة أقصى جدواها. فقد كان يجد أحياناً أنّ مكتبة لم يبادر إلى زيارتها إلاّ بتصنّع الوقوف على قدميه وبسترة رسمية، كأحد رجال «ويلز»، كانت مغلقة. وقد التقى لحسن الحظّ بالسيدة «دو فلبياريزيس» في منزلها وسوف يشاهد الرسم.

وقطع «بلوك» عليه كلامه وقال وهو يردّ على ماقالته السيدة «دو فيلباريزيس» بصدد التشريفات التي تحكم الزيارات الملكية: «حقاً، ما كنت أعرف ذلك البتة» (كما لو كان غريباً ألايعرف ذلك).

وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» أمين المحفوظات قائلة: «بمناسبة هذا النوع من الزيارات، هل تعرف المزحة الغبية التي جاءني بها ابن أخي «بازان» صباح البارحة؟ لقد أرسل يقول لي، بدلا من أن يعلن عن نفسه، إنّ ملكة السويد تطلب زيارتي».

وصاح «بلوك» مقهقهاً: «آه! لقد أرسل يقول ذلك ببرود على هذا النحو! ما أجمل المزاح!» فيما كان المؤرخ يبتسم بمهابة خجلى.

-«لقد دهشت بعض الشيء لأنني لم أعد من الريف إلاّمنذ بضعة أيام. وكنت قد طلبت كيما أنعم بالهدوء ألاينقلوا لأحد أنني في باريس وأتساءل كيف علمت ملكة السويد بالأمر»، وتضيف السيدة «دو فيلباريزيس» قولها: «ولاتدع لي في كلّ الأحوال يومين لأستريح قليلاً»، مخلفة الدهشة في نفوس زوّارها أن لاتكون زيارة ملكة السويد في حدّ ذاتها أمرا مستغرباً بالنسبة إلى مضيفتهم.

ولئن قلبت السيدة «دو فيلباريزيس» في الصباح وثائق مذكراتها مع أمين المحفوظات فقد كانت تجرّب في هذه اللحظة على غير علم منها آليتها وتأثيرها السحري على جمهور متوسط يمثل الجمهور الذي سيطلع منه ذات يوم قرّاؤها. كان يمكن أن تتميز صالة السيدة «دو فيلباريزيس» عن صالة تتسم بالأناقة الحقة وتغيب عنها الكثيرات من البورجوازيات اللواتي كانت تستقبلهنّ فيما تتسنى بالمقابل رؤية سيدات لامعات اجتذبتهن السيدة «لوروا» في نهاية المطاف، ولكن هذا الفارق الطفيف لايتمّ تبيّنه في مذكراتها حيث تزول بعض العلاقات الضحلة التي اتفقت للمؤلفة لأن الفرصة لا تتاح لها في إيراد ذكرها، في حين لاتغيب عنها زائرات لم يتوافرن لها لأن قليلاً من الأشخاص يمكن أن يمثلوا في المساحة الضيقة بالضرورة التي تقدّمها هذه المذكرات وأن الشعور الأقصى بالأناقة الذي يمكن أن تخلفه مذكرات لدى الجمهور إنّما يتمّ بلوغه إن كان هؤلاء الأشخاص شخصيات أمراء أو شخصيات تاريخية. كانت صالة السيدة «دو فيلباريزيس»، حسبما ترى السيدة «لوروا» صالة من الدرجة الثالثة، وكانت السيدة «دو فيلباريزيس»، ترى السيدة «لوروا». ولكنما لايعرف أحد اليوم من كانت السيدة «لوروا»، وقد زال ما حكمت به، و إنّما صالة السيدة «دو فيلباريزيس» التي تردّدت عليها ملكة السويد وتردّد عليها دوق «أومال» ودوق «دوبروي» و«تيير» و«مونت الامبير» وصاحب السيادة «دو بانلو» هي التي ستعدّها الأجيال القادمة إحدى ألمع صالات القرن التاسع عشر، تلك الأجيال التي لم تتغيرّ منذ زمان «هوميروس»، و«بنداريس» والتي يشكل المنبت الرفيع المرتبة المشتهاة بالنسبة إليها، المنبت الملكي أو شبه الملكي وصداقة الملوك ورؤساء الشعوب ومشاهير الرجال.

كانت السيدة «دو فيلباريزيس» تملك شيئا من كلّ ذلك في صالتها الحالية وفي الذكريات التي عدلَت أحيانا تعديلاً خفيفاً والتي كانت تمدُّ بوساطتها تلك الصالة في الماضي. ثم إنّ السيد «دو نوربوا» الذي لم يكن قادراً أن يعيد لصديقته مكانة حقيقيّة كان يجيئها عوضاً عن ذلك برجال الدولة الأجانب أو الفرنسيين الذين كانوا بحاجة إليه ويعلمون أن الطريقة الوحيدة الفعّالة التي يتودّدون بها إليه هي التردّد على منزل السيدة «دو فيلباريزيس». ربما كانت السيدة «لوروا» تعرف بدورها تلك الشخصيات الأوروبية البارزة، ولكنها كانت تتحاشى، بوصفها امرأة ظريفة تتجنّب لهجة دعيّات الأدب، التحدّث عن المسألة الشرقية إلى رؤساء الوزراء بقدرما تتحاشى التحدّث عن ماهية الحبّ إلى الروائيين والفلاسفة. لقد أجابت ذات مرّة سيدةً مدّعية سألتها: «مارأيك في الحبّ؟» أجابت قائلة: «الحبّ؟الحبّ، إنّي أتعاطاه كثيراً ولكني لا أتحدّث عنه البتّة». وحينما كانت تجمع في بيتها أساطين الأدب والسياسة كانت تكتفي، شأن دوقة «غير مانت»، بحملهم على لعب «البوكر». وغالباً ما كانوا يفضلون ذلك على الأحاديث العريضة حول الأفكار العامة التي تضطرّهم إليها السيدة «دو فيلباريزيس». بيد أنّ تلك الأحاديث التي ربّما بدت سخيفة في المجتمع قد زوّدت ذكريات السيدة «دو فيلباريزيس» بتلك المقطوعات الممتازة، بتلك الأبحاث السياسية التي تستساغ في المذكرات كما هي الحال في المسرحيات التي من طراز مسرحيات «كورنيي». وصالات مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» وحدها تنتقل إلى الخلف لأنّ مثيلات السيدة «لوروا» لايحسنّ الكتابة، وإن هنّ أحسنّها، لم يجدن متسعاً من الوقت. ولئن كانت ميول مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» الأدبية سبب ازدراء مثيلات السيدة «لوروا»، فإن ازدراء مثيلات السيدة «لوروا» يخدم بدوره على نحو عجيب ميول مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» الأدبية إذ يوفرّ لدعيّات الأدب من السيدات الوقت الذي تقتضيه مهنة الأدب. والله الذي يريد أن يكون ثمة بضعة كتب جيدة الصنعة إنّما ينفخ في سبيل ذلك في قلوب مثيلات السيدة «لوروا» أنواع الازدراء تلك، لأنّه يعلم أنّهن إن دعون مثيلات السيدة «دو فيلباريزيس» إلى العشاء فسوف تهجر هؤلاء محابرهنّ في الحال ويأمرن بأن تسرج الخيول للثامنة.

وبعد حين دخلت سيدة عجوز مديدة القامة بخطى وئيدة رزينة وكانت تبرز تحت قبعتها المرفوعة التي من قش شعراً أبيض هائلاً صفف على طريقة «ماري انطوانيت». وما كنت أعلم آنذاك أنّها واحدة من النسوة الثلاث اللواتي كان لايزال بالإمكان ملاحظتهنّ في المجتمع الباريسي وقد اضطررن، شأن السيدة «دو فيلباريزيس»، ومع أنهنّ كريمات المحتد، ألاّ يستقبلن، لأسباب تغوص في ظلمة الأزمان، ولعلّ عجوزا أنيقا من تلك الحقبة كان وحده يستطيع أن ينبئنا عنها، سوى حثالة من الناس لايرغبون فيها في مكان آخر. كان لكلّ من تلك السيدات دوقة «غيرمانت» تخصها، ابنة شقيق لها لامعة تجيء إليها للوفاء بواجباتها ولكنما لاتستطيع أن تجتذب إلى منزلها دوقة «غيرمانت» الخاصة بواحدة من الأخريين.كانت السيدة «دو فيلباريزيس» على علاقة وثيقة بأولئك السيدات الثلاث ولكنها لاتحبهن. وربّما كان وضعهنّ الشبيه إلى حدّ ما بوضعها يزوّدها بصورة عنهنّ لا تروقها. ثم إنهنّ كانت تقوم بينهنّ، هنّ الساخطات دعيّات الأدب اللواتي يحاولن أن يتوافر لهنّ وهم صالة من جرّاء عدد المشاهد الصغيرة التي يعملن على تمثيلها، كانت تقوم بينهنّ منتافسات تحوّلها ثروة مهلهلة بعض الشيء، في غضون حياة قليلة الهدوء تضطرّهن إلى الحساب وإلى الإفادة من معونة مجانية يقدّمها فنان، تحوّلها إلى ضرب من النضال في سبيل الحياة .أضف إلى ذلك أنّ السيدة ذات الشعور المصففة

على طريقة «ماري انطوانيت» لم تكن تستطيع في كل مرّة تبصرفيها السيدة «دو فيلباريزيس» الحؤول دون التفكير بأنّ دوقة «غيرمانت» لم تكن تذهب إلى استقبالاتها في أيام الجمعة. وكان عزاؤها أنّ الأميرة «دوبوا» لاتفوّت البتة أيام الجمعة تلك بوصفها قريبة مثالية، وكانت حصتها من آل «غيرمانت» ولا تذهب البتة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» مع أنّ السيدة «دوبوا» صديقة حميمة للدوقة.

بيد أنّ رباطاً قوياً ومقيتا معاً كان يوحد بين الالهات الثلاث المخلوعات من فندق رصيف «مالاكيه» إلى صالات شارع «تورنون» وشارع «لاشيز» وحي «سانتونوريه»، تلك الالهات اللواتي وددت لو أعلم، بتقليب أحد معاجم المجتمع الاساطيرية، أي مغامرة غرامية وأي انتهاك وقح للمقدسات قد آل بهنّ إلى العقاب. وربما ألف المنبت الرفيع نفسه والانهيار الحالي نفسه الكثير من الضرورة التي كانت تدفعهنّ إلى التزاور والتباغض في آن واحد. ثم إن كلّ واحد منهنّ كانت تجد في الأخريين وسيلة سهلة لمجاملة زائريها. إذ كيف لايحسب هؤلاء أنهم يدخلون إلى أكثر الأحياء انغلاقاً حينما يجري تعريفهم بسيدة رفيعة الألقاب تزوّجت شقيقتها أمثال دوق «ساغان» أو أمير «لينيي»؟ ولاسيمّا أنهم كانوا يتحدثون في الصحف عن هذه الصالات المزعومة أكثر مما يفعلون عن الحقيقية بكثير. حتى أبناء الأشقاء من النخبة (وعلى رأسهم «سان لو») كانوا يقولون لرفيق يسألهم أن يصحبوه إلى المجتمع:«أصحبك إلى منزل عمتّي «فيلباريزيس» أو إلى منزل عمتي س...،إنها صالة جديرة بالاهتمام.» كانوا يعلمون على وجه الخصوص أن ذلك سوف يكلفهم عناء أقلّ من إدخال الأصدقاء المذكورين إلى منازل بنات شقيقات تلك السيدات أو زوجات أشقاء أنيقات لهنّ. لقد قال لي الرجال الطاعنون في السن والنساء الشابات اللواتي علمن ذلك منهم إنه إن لم يتمّ استقبال تلك السيدات الطاعنات في السن فبسبب الانحراف غير المألوف في سلوكهن، ذاك الانحراف الذي تمّ تصويره لي، عندما احتججت بأنه لايشكل عائقاً أمام الأناقة، على أنّه قد تجاوز جميع الحدود المعروفة في يومنا. كان سوء سيرة تلك السيدات المهيبات اللواتي يجلسن منتصبات القامة يتخذ على لسان الذين يتحدّثون عنهّن شيئاً لا أستطيع تخيله يتناسب وضخامة حقب ما قبل التاريخ وعصر الماموث. كانت الهات الجحيم الثلاث تلك ذوات الشعور البيضاء أو الزرقاء أو الوردية قددفعن إلى التهلكة عدداً لايحصى من الرجال. وكنت أحسب أن الناس في يومنا يضخمون عيوب تلك الأزمنة الخيالية، شأن الاغريق الذين ألقوا «ايكاروس» و«ثيسيوس» و«هيركوليس» من رجال كانوا قليلي الاختلاف عن أولئك الذين أخذوا يؤلهونهم بعد ذلك بزمن طويل. على أنهم لايقومون بجمع عيوب امرئ إلاّ حينما لايستطيع ممارستها من بعد، وحينما يقيسون حجم الجرم الذي اقترف بحجم العقاب الاجتماعي الذي يأخذ طريقه إلى التنفيذ والذي يلاحظونه وحدهم، فيتخيلونه ويضخمونه. وفي مجموعة هذه الوجوه الرمزية التي يؤلفها المجتمع الراقي تظهر النساء الطائشات الحقيقيات، والمتحللات تماماً، يظهرن أبداً بالمظهر المهيب الذي لسيدة بلغت السبعين على الأقلّ، متعالية تستقبل قدرما تستطيع، ولكنها لا تستقبل من تريد، ولا ترضى بالذهاب إلى بيتها النساء اللواتي يؤخذ على سلوكهنّ بعض ما يعيب، ويمنحها البابا على الدوام «وردته الذهبية». وقد سطرت أحياناً حول شباب «لامارتين» كتاباً حاز جائزة المجمع الفرنسي وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسيدة ذات التسريحة البيضاء التي من طراز «ماري انطوانيت»: «صباح الخير يا «أليكس»»، وكانت السيدة المذكورة تلقي نظرة حادّة على الحفل كيما تكتشف إن لم يكن في هذه الصالة قطعة يمكن أن تكون ذات فائدة بالنسبة إلى صالتها وينبغي لها في هذه الحالة أن تكتشفها بنفسها لأنّ السيدة «دو فيلباريزيس»، لا شكّ لديها، سوف تكون على قدر كافٍ من الخبث كي تحاول إخفاء الأمر عنها. من

ذلك مثلاً أن السيدة «دو فيلباريزيس» اهتمت كثيراً بألاّ تقدم «بلوك» للسيدة العجوز مخافة أن يعمل على تمثيل المشهد نفسه الذي مثله لديها في فندق رصيف «مالاكيه». كان ذلك على أي حال محض ثأر. ذلك أن السيدة العجوز استضافت عشية البارحة السيدة «ريستوري» التي ألقت أشعاراً وحرصت أن تجهل السيدة «دو فيلباريزيس» التي سرقت الفنانة الايطالية منها الحدث قبل انجازه. وكي لاتعرفها هذه الأخيرة عن طريق الصحف فيجرح شعورها، جاءت ترويها لها وكأنما لاتحس أنها مذنبة. ولما حكمت السيدة «دو فيلباريزيس» أن التعريف بي لايحمل المحاذير نفسها التي يحملها التعريف بـ «بلوك» فقد ذكرت اسمي لـ «ماري انطوانيت» الرصيف. وإذ حاولت هذه الأخيرة. بالقيام بأقلّ حركة ممكنة، أن تحافظ في شيخوختها على قدّ الهة من أعمال «كوازيفوكس» سبق أن فتن منذ سنوات عديدة الشباب الأنيق وقد أشاد به الآن أدباء مزيفون في أبيات قليلة —وإذ اتخذت على أي حال عادة الجفاء المتعالية التعويضية التي يشارك فيها جميع الذين يضطرّهم فقدان حظوة خاصّ إلى محاولات تقرّب دائمة — أحنت رأسها قليلاً بجلال لا حياة فيه والتفتت إلى جانب آخر ولم تهتّم بي من بعد وكأنني لم أكن موجوداً. وكان يبدو أن تصرّفها المزدوج للغاية يقول للسيدة «دو فيلباريزيس»: «ترين أني لست بحاجة إلى معارف وأنّ الشبان —ولست أسيء إليهم على الاطلاق — لايثيرون اهتمامي.» ولكنها حين خرجت بعد ربع ساعة أفادت من الضوضاء وهمست في أذني بأن آتي نهار الجمعة التالي إلى مقصورتها بصحبة واحدة من الثلاث فأثر فيّ اسمها اللامع تأثيراً عظيماً — وكان اسمها «شوازول» قبل الزواج.

— «اعتقد ياسيد أنك تبغي تسطير شيء ماحول السيدة دوقة «مونمورانسي»، تقول السيدة «دو فيلباريزيس» لمؤرخ «حركة التمرّد»، بذاك المظهر المتجهم الذي يتغضن به على غير علم منها لطفها العظيم من جراء انكماش الشيخوخة العابس وامتعاضها الفيزيولوجي، ومن جراء تصنع محاكاة اللهجة الفلاحية تقريباً التي تتخذها الارستقراطية القديمة. «سأريك رسمها وهو أصل النسخة الموجودة في متحف اللوفر.»

ونهضت وهي تضع ريشتها قرب أزهارها فزاد الإزار الصغير الذي بدا آنذاك حول خصرها والذي كانت ترتديه كي لا تتسخ بألوانها، زاد من انطباع المرأة الريفية تقريباً الذي تخلفه قبعتها ونظارتاها السميكتان وجاء يناقض بذخ حاشيتها من الخدم،كرئيس الخدم الذي حمل الشاي والحلويات والخادم ذي اللباس الخاص الذي قرعت له الجرس ليضيء رسم دوقة «مونمورانسي»، وكانت رئيسة في أحد أكثر مجالس الشرق الدينية شهرة. كان الجميع قد نهضوا وقوفاً، فقالت: «المضحك إلى حدّ ما أن بنات ملك فرنسه ماكنّ ليقبلن في تلك المجالس التي كانت كثيرا ما تديرها شقيقات جدّاتنا. فقد كانت تلك المجالس مغلقة تماما.» وسأل «بلوك» ذاهلاً: «بنات الملك، ولايقبلن، ولأيّ سبب؟» —«ذلك لأنّ «آل فرنسه» لم يظلّ لهم مايكفي من أفخاذ شريفة منذ أن قبلوا بزيجات من مستويات دنيا.» وكانت دهشة «بلوك» آخذة في التعاظم: «زيجات من مستويات دنيا في آل فرنسه؟ كيف ذلك؟».

وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» بلهجة طبيعية كأكثر ما تكون: «بزواجهم من آل «ميديتشي» ويحك! إنّ الرسم جميل، ألاترى ذلك؟» وأضافت قولها: «وفي أحسن حالة».

وقالت السيدة التي صففت شعرها على طريقة «ماري انطوانيت»: «تذكرين ياصديقتي العزيزة أن «ليست». حينما صحبته إلى منزلك، قال لك إنّ هذا هو النسخة.»

-«إني أنحني أمام رأي يبديه «ليست» في الموسيقي لافي الرسم كان قد دبّ فيه الخرف على كل حال، ولست أذكر أنه قال ذلك في يوم. ولست أنت من صحِبته إليّ، فقد سبق أن تعشيت عشرين مرّة برفقته في منزل أميرة «سينفيتغنشتاين».

لقد طاشت رمية «آليكس» فصمتت وظلت واقفة لاتبدي حراكاً. وقد بدا وجهها، وتكسوه طبقات من البودرة، كأنه من حجر. وبما أن صورتها الجانبية كانت نبيلة الخطوط فقد بدت، فوق ركيزة مثلثية تكسوها الطحالب ويخفيها الإزار، كأنما إلهة يتفتت تمثالها في حديقة.

وقال المؤرّخ: «هوذا رسم آخر جميل أيضا».

وانفتح الباب ودخلت دوقة «غيرمانت» فقالت لها السيدة «دو فيلباريزيس» دون أيّة إيماءة برأسها، وهي تخرج من جيب إزارها يدا مدّتها إلى الوافدة الجديدة: «مرحبى، يالك». وتوقفت في الحال عن الاهتمام بها لتلفت إلى المؤرّخ قائلة: «إنّه رسم دوقة «لاروشفوكو»...

ودخل خادم شاب جريء المظهر فاتن المحيّا (ولكنما تمّ حكه إلى أبعد الحدود كيما يظلّ كاملا إلى حدّ أن الأنف كان به شيء من الاحمرار وبالجلد تخريش خفيف كما لو يحتفظان بأثر من الشقّ والنحت الحديثي العهد) يحمل بطاقة على صينية.

- «إنّه ذاك السيد الذي سبق أن جاء عدّة مرات للقاء سيدتي المركيزة.»

- «وهل قلت له إني استقبل؟»

-«لقد سمع الناس يتحدثون».

- «فليكن إذن! أدخله»، وأضافت السيدة «دو فيلباريزيس»: «إنّه شخص عرّفوه بي. لقد قال إنه يرغب كثيرا أن يتمّ استقباله ههنا، ولم أصرّح له قط بالمجيء. ولكن هذه خمس مرّات يكلف نفسه عناء المجيء وينبغي ألاّ نجرح شعور الناس.» ثم قالت لي: «ياسيد، وأنت ياسيد». تضيف قولها وهي تشير إلى مؤرخ حركة التمرّد. «أقدّم لكما ابنة أخي دوقة «غيرمانت».

وانحنى المؤرّخ انحناءة عميقة، وهكذا فعلت، وإذا خُيّل له أن لابدّ من ملاحظة وديّة تعقب هذه التحية فقد تألقت عيناه وكان يزمع أن يفتح فاه حينما برّد من عزيمته مظهر السيدة «دو غيرمانت» التي استغلت استقلال جذعها كي تقذف به إلى الأمام بتهذيب مبالغ فيه وتردّه بحركة صحيحة دون أن يبدو أن وجهها ونظرتها قد لاحظا أن ثمة شخصاً أمامهما. واكتفت بعدما زفرت زفرة خفيفة بابراز انتفاء الانطباع الذي تخلفه لديها رؤية المؤرّخ ورؤيتي وذلك إذ قامت ببعض حركات في فتحتي أنفها بدقة تشهد بالجمود المطلق في انتباهها المعطل.

ودخل الزائر الثقيل الظلّ يسير رأساً باتجاه السيدة «دو فيلباريزيس» بهيئة ساذجة متحمسة، فإذا هو «لو غراندان».

وقال: «أشكرك كثيرا لأنك تستقبلينني ياسيدتي»، قال وهو يلح على كلمة: كثيراً»، وإنها لمتعة نادرة تماماً ورقيقة توفرّينها لمتوحد عجوز، وإني أؤكدّ لك أنّ صداها...»

وتوقف تماماً إذ أبصرني.

-«كنت أُري السيد رسم دوقة «لاروشفوكو» الجميل، وهي زوجة مؤلف «الحكمِ»، لقد خلفته لي أسرتي.»

أما السيدة «دوغيرمانت» فقد حيت «آليكس» وهي تعتذر أن لم تستطع المبادرة إلى زيارتها في هذه السنة شأنها في السنوات الأخرى. وأضافت تقول: «لقد نقلت لي «مادلين» أخبارك».

وقالت مركيزة رصيف «مالاكيه»»: لقد تناولت طعام الغداء عندي هذا الصباح»، قالت باعتزاز من يفكر أن السيدة «دو فيلباريزيس» لن يسعها أن تقول البتة مثل هذا القول.

كنت في تلك الأثناء اتحدّث إلى «بلوك» فقلت له، وقد خشيت أن يحسدني حياتي بالاستناد إلى ما نقل إليّ عن تبدّل والده إزاءه، انّ حياته لابدّ أوفر سعادة. كانت تلك الكلمات الصادرة عنّي محض أثر من آثار التلطف. ولكنه يقنع بيسر أولئك الذين يحسون بالكثير من الاعتزاز بالذات أنّ حظهم سعيد ويتمّ بعث الرغبة لديهم في إقناع الآخرين بذلك. فقد قال لي «بلوك» بمظهر السعادة: «أجل، إني أعيش حياة حلوة. لديّ ثلاثة أصدقاء ولست أبغي الزيادة، وعشيقة رائعة ؛ إني سعيد إلى أبعد الحدود. وما أندر الفنانين الذين يمنحهم «زوس» الآب هذا المقدار من صنوف السعادة.» وأحسب أنه كان يحاول على وجه الخصوص أن يمتدح نفسه ويثير غيرتي. وربما كان في تفاؤله كذلك شيء من رغبة التفرّد. لقد بدا للعيان أنه ما كان يرغب أن يجيب بالتفاهات ذاتها التي يجيب بهاكلّ الناس: «أوه! شيء لايذكر، الخ..»حينما أجابني على سؤالي الذي طرحته بشأن حفلة راقصة أقيمت بعد الظهر في منزله ولم أستطع الذهاب إليها: «هل كانت حلوة؟»، أجابني بلهجة متساوية لا مبالية كما لو تعلق الأمر بسواه: بالطبع كانت حلوة جداً وبلغت أقصى درجات النجاح. كانت حقاً ساحرة.»

وقال «لوغراندان» للسيدة «دو فيلباريزيس»: «ماتطلعيننا» عليه ههنا يهمني إلى مالا حدود، فقد كنت بالضبط أقول في نفسي البارحة أنّك تدينين له بالكثير في صفاء العبارة وخفتها وفي ماسوف أدعوه بعبارتين متناقضتين السرعة المقتضبة واللحظة الخالدة. وددت في هذا المساء لو أدوّن جميع الأشياء التي قلتها.، ولكنّي سوف أحفظها، فإنها صديقة الذاكرة، حسب كلمة هي فيما أعتقد لـ «جوبير». ألم تقرئي قطّ «جوبير»؟ آه! كم كنت تروقينه! سوف أسمح لنفسي منذ هذا المساء بارسال مؤلفاته كاملة إليك وكليّ اعتزاز بأن أعرّفك بذكائه. لم يكن يتمتع بقوّتك، ولكنه كان يملك الظرف أيضا.»

لقد أردت أن أبادر في الحال لتحية «لوغراندان» ولكنه كان يقف باستمرار أبعد ما يمكنه الوقوف عني آملا دونما شكّ ألاّ أسمع صنوف الإطراء التي ما كان يكفّ عن إغداقها في كل لحظة على السيدة «دو فيلباريزيس» بالكثير من أنيق العبارة.

وارتفعت بمنكبيها مبتسمة كأنّما كان يبغي أن يسخر منها والتفتت إلى المؤرّخ.

– «أمّا هذه فهي «ماري روهان» الشهيرة، دوقة «شفروز» التي سبق أن عقدت زواجها الأوّل على السيد «دو لوين».

– «تذكرني السيدة «دو لوين»، ياعزيزتي، بـ«يولاند». لقد جاءت البارحة إلى منزلي، ولو علمت أن أمسيتك لم تكن موقوفة لأحد لأرسلت في طلبك. لقد أنشدت السيدة «ريستوري»، التي جاءت على غير انتظار، أبياتا للملكة «كارمن سيلفا» أمام المؤلف، وما أجمل ما كان ذلك!»

وفكرت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «يالها من خيانة! لقد كانت بالتأكيد تتحدّث عن ذلك بصوت منخفض إلى السيدة «دوبولانكور» والسيدة «دو شابونيه» في ذلك اليوم.»

ثمّ أجابت: «كنت غير مرتبطة، ولكني ما كنت لأجيء. لقد سمعت السيدة «ريستوري» في أيام العزّ. وهي الآن فريسة الهرم. ثم إنّي أمقت أشعار «كارمن سيلفا» لقد جاءت السيدة «ريستوري» إلى هنا ذات مرّة تصطحبها دوقة «أووست» لالقاء نشيد من جحيم «دانته». إنها ههنا لاتجارى.»

واحتملت «آليكس» الضربة دون أن تضعف، فقد ظلت في جمود المرمر. كانت نظرتها ثاقبة وخالية وأنفها مقوساً نبيل القوس. ولكن أحد خدّيها كان يتقشر، وكانت تجتاح ذقنها نباتات خفيفة غريبة خضراء ووردّية.وربّما أودى بها شتاء آخر.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس»لـ «لوغراندان» كيما تقطع دابر المديح الذي كان يعاود الكرة: «هاك إن كنت تحبّ الرسم الزيتي ياسيد، انظر إلى رسم السيدة «دو مونمورانسي»».

واستغلت السيدة «دو غيرمانت» أنّه ابتعد فدلت عمّتها عليه بنظرة ساخرة مستفهمة.

فقالت السيدة «دو فيلباريزيس» بصوت خافت: «إنّه السيد «لوغراندان» وإنّ له شقيقة تدعى السيدة «دو كامبرير»، الأمر الذي لايعني بالتأكيد بالنسبة إليك أكثر مما يعني لي.»

وصاحت السيدة «دو غيرمانت» وهي تضع يدها أمام فمها:«كيف ذلك، إني أعرفها تمام المعرفة. أو أنا لا أعرفها بالأحرى، ولكني لا أدري ما الذي حلّ بـ«بازان» الذي يلتقي الزوج حيث الله يعلم كي يقول لهذه المرأة الضخمة بأن تجيء لزيارتي. ولا استطيع أن أقول لك ما كانت عليه زيارتها. لقد روت لي أنّها ذهبت إلى لندن وعدّدت لي جميع لوحات المتحف الانكليزي. وسأبادر لدى خروجي من منزلك، وعلى نحو ماتريننى، إلى وضع بطاقة دعوة لدى هذا الوحش. ولا تظني أن الأمر من أوفرها سهولة، فهي على الدوام في منزلها بحجة أنّها على شفا أن تموت وسواء أذهب المرء إلى هناك في السابعة مساء أم في التاسعة فإنها على استعداد لتقدّم لك فطائر بتوت الأرض.عجبا لك، إنّها وحش بالتأكيد»، ،تقول السيدة «دو غيرمانت» إزاء نظرة متسائلة من عمتها. «فهي امرأة لاتطاق: إنها تقول «رياشيّ» أو ماكان على هذا النحو.» وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» ابنة شقيقها قائلة: «وما الذي تعنيه لفظة «رياشي»؟ فتصرخ الدوقة بحنق متصنع: «ولكني لا أدري

عن ذلك، ولا أريد أن أعرف، فأنّي لا أتحدّث هذه الفرنسية.» ولما رأت أن عمتّها لم تكن تعرف حقّ المعرفة ما تعنيه «رياشي»، وكي يداخلها الرضى في إبراز أنها عالمة بقدر ماهي أمينة على نقاء اللغة وكي تسخر من عمتها بعدما سخرت من السيدة «دو كامبرمير» قالت في نصف ضحكة تكتمها بقايا الغيظ المتكلف: «بلى، كل الناس يعرفون ذلك، «الرياشي» هو الكاتب، إنّه الشخص الذي يحمل ريشة. ولكنها لفظة بشعة من بشاعة توازي تقليع أضراس العقل. ليس من يستطيع البتة أن يحملني على قول ذلك... إنّه الأخ، ياعجبي! لم أدرك بعد. ولكن الأمر بالحقيقة لايتعذر إدراكه. فإن لها الاتضاع الخانع نفسه وتشعب المعارف نفسه. وهي في مثل تملقه وإزعاجه. لقد بدأت أتعودّ إلى حدّ ما فكرة تلك القرابة.»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسيدة «دو غيرمانت»»: «اجلسي، سنتناول قليلاً من الشاي، قومي بذلك بنفسك، أنتِ لاحاجة بك أن تشاهدي رسوم جدّات جدّاك، فانّك تعرفينهنّ بقدر ما أعرفهنّ.»

وعادت السيدة «دو فيلباريزيس» بعد قليل لتجلس وشرعت ترسم. واقترب الجميع فاغتنمتها فرصة للذهاب إلى «لوغراندان» ولما لم أجد ذنباً في وجوده في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» قلت له دون أن يخطر لي إلى أيّ حد كنت أزمع أن أجرح شعوره وأحمله على الاعتقاد بنيّة جرح شعوره: «قل لي ياسيدي، أكاد أكون معذوراً لوجودي في إحدى الصالات بما أني أجدك فيها.» واستخلص السيد «لوغراندان» من تلك الأقوال أنني كائن صغير شرّير في الأساس ولايروقه إلاّ الشرّ (كان ذلك على الأقل هو الحكم الذي أصدره عليّ بعد بضعة أيام).

فأجابني: «بإمكانك» أن تتلطف فتبدأ بالقاء التحية عليّ أوّلا»، دون أن يأخذ يدي وبصوت حانق مبتذل ما كان يخطر ببالي ولم يكن ذا صلة منطقية بما يقوله عادة وإنما يملك صلة أشدّ مباشرة واسترعاء للانتباه بما كان يحس به. ذلك أننا لما كنّا عازمين أن نخفي أبداً ما نحس به فإننا لم نفكر قطّ في الطريقة التي قد نعبر بها عنه. فإذا في داخلنا فجأة حيوان نجس مجهول يسمعنا صوته ويمكن لنبرته أحيانا أن تبلغ حدّ إشاعة خوف في نفس من يسمع ذلك الكشف اللا مقصود المضمر الذي يكاد لايقاوم عن قصورك أو عيبك يعادل ما يفعله الإقرار المفاجئ الذي ينطق به على نحو غير مباشر وغريب مجرم لايستطيع الحؤول دون اعترافه بقتلِ ما كنت تعلم أنّه اقترفه. كنت أعلم بالتأكيد أن المثالية، حتى الذاتية منها، لاتحول دون أن يظلّ فلاسفة كبار نهمين أو أن يتقدموا بإصرار لعضوية المجمع. ولكن «لوغراندان» لم تكن به بالحقيقة حاجة إلى التذكير إلى هذا الحدّ بأنّه من كوكب آخر في حين كانت الرغبة في بلوغ مركز جيد على هذا الكوكب تحكم جميع حركات الغضب أو اللطافة المتشنجة لديه.

ثم تابع بصوت خافت: «بالطبع، حينما تتم مضايقتي عشرين مرّة على التوالي لحملي على المجيء إلى مكان ما فليس يسعني، مع أن لي الحقّ في حريتي، أن أتصرّف تصرّف الأجلاف».

كانت السيدة «دو غيرمانت» قد جلست، ولما كان اسمها مرفقاً بلقبها فقد كان يضيف إلى شخصيتها المادية اقطاعتها الدوقية التي كانت ترتسم من حولها وتبسط الظلال الندية المذهبة لأحراج «غيرمانت» في وسط الصالة ومن حول المقعد الجلدي الذي تجلس عليه. كنت أحسني دهشاً فقط ألاّ يكون الشبه بينهما

أكثر وضوحاً على وجه الدوقة الذي لم يكن به شيء من النبات والذي كانت بقع حمرة الوجنتين فيه – وكان ينبغي فيما يبدو أن تحملا شعار اسم آل «غيرمانت» –نتيجة لجولات طويلة على ظهور الخيل في الهواء الطلق، وليس صورة لها. وقد عرفت بعد ذلك، حين أضحت الدوقة لاتثير اهتمامي ، الكثيرمن الميزات الخاصة ولاسيما عينيها (كيما أكتفي بما كنت واقعاً مذ ذاك أسير سحره دون أن يمكنني تمييزه) حيث تحتجز كأنما في لوحة زرقة سماء عشية فرنسية نادرة السحاب غارقة في الضياء حتى حينما لا تتألق ؛ وصوت لها يخيل إليك، في بحة النبرات الاولى، أنه يقارب السفالة ويتسحب فيه، كما على درجات كنيسة «كومبريه» أو دكان الحلو الذي في الباحة، ذهب شمس ريفية خاملة دسمة، ولكني لم أميِّز شيئاً في ذلك اليوم الأوَّل فقد كان انتباهي الملتهب يبخر في الحال القليل مما كنت أستطيع جمعه وحيث كان بمقدوري أن ألقى شيئاً من اسم «غيرمانت» بيد أنني كنت أقول في نفسي على أية حال إن اسم دوقة «غير مانت» إنما كان يشير إليها في نظر الجميع وان الحياة التي لايمكن تصورها والتي يعنيها ذاك الاسم إنما كان يحتويها فعلاً ذاك الجسد، وقد أدخلها منذ قليل وسط كائنات مختلفة، في هذه الصالة التي كانت تحيط بها من كل جانب والتي كانت تمارس عليها أثراً شديداً إلى حدّ كنت أحسب معه أني أبصر حيثما تتوقف تلك الحياة عن التدفق حاشية من الفوران ترسم حدودها: داخل الدائرة التي كانت تخطها على السجادة كرة التنورة التي من حرير صيني أرزق، وداخل حدقتي الدوقة الصافيتين وفي تقاطع المشاغل والذكريات والفكر اللامدرك المزدري الهازئ الفضولي الذي يملؤها والصور الغريبة التي تنعكس فيهما. ربما رأيتني أقلّ اضطرابا لو أنّي لقيتها في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» بمناسبة أمسية بدلاً من أن ألقاها على هذا النحو في واحد من «أيام» المركيزة وفي واحدة من حفلات الشاي تلك التي تؤلف بالنسبة إلى النساء مجرّد استراحة قصيرة وسط مشوارهن، والتي يحملن إليها، إذ يحتفظن بالقبعة التي قمن بها بجولاتهنّ، في توالي صالاتها ميزة الهواء في الخارج ويوفّرن إطلالة على باريس في أواخر ما بعد الظهر أكثر ممّا تفعل النوافذ العالية المفتوحة التي يتناهى منها ضجيج عجلات العربات. كانت السيدة «دو غيرمانت» تعتمر قبعة واسعة من القش تزينها زهيرات الترنشاه. وما كان ما تذكرني به شموس السنوات الغابرة على أتلام «كومبريه» حيث قطفت منها الكثير الكثير وعلى السفح المحاذي لسياج «تانسونفيل»، بل رائحة الشفق وغباره على نحو ما كانا عليه منذ قليل لحظة اجتازتهما السيدة «دو غيرمانت» في شارع «لابيه». وكانت ترسم، تغمر وجهها البسمات، متعالية غامضة فيما تزمّ شفتيها اشمئزازاً، كانت ترسم بطرف شمسيتها دوائر على السجادة. ثمّ تحدّق إلى كلّ منا على التوالي بذاك الانتباه اللامبالي الذي يبدأ باقصاء أية نقطة تماس بين ما ينظر إليه المرء وبين ذاته، ثم تتفحص الأرائك والمقاعد ولكن النظرة يلطفها حينئذ ذلك التوادّ الإنساني الذي يوقظه وجود حاجة تعرفها وإن تكن قليلة الشأن، حاجة تقارب أن تكون شخصاً ؛ فما كانت حال ذلك الأثاث كحالنا إذ كان يرتبط بحياة عمتها. ثمّ تنثني تلك النظرة من أثاث «بوفيه» إلى الشخص الذي يجلس عليه فتستعيد إذ ذاك نفاذ البصيرة نفسه والاستنكار نفسه الذي ربّما حال احترام السيدة «دو غيرمانت» لعمتها دون الافصاح عنه والذي لعلها كانت تحس به على أية حال لو أنها لاحظت على المقاعد بدلا منا وجود بقعة من الدهن أو طبقة من الغبار.

ودخل الكاتب المجلي ج...؛ لقد جاء يقوم بزيارة للسيدة «دو فيلباريزيس» كان يراها بمثابة سخرة. أما الدوقة التي اغتبطت بلقائه ثانية فلم تومئ مع ذلك إليه ولكنّه جاء بالطبع بالقرب منها فقد كان ما تملك من

فتنة ولباقة وبساطة يحمله بالطبع على اعتدادها من النساء الظريفات. وكان الأدب يملي عليه على أيّه حال واجب الذهاب بالقرب منها، فكثيراً ما كانت السيدة «دو غيرمانت» تدعوه، إذ كان محبباً ومشهوراً، إلى طعام الغداء حتى على انفراد معها ومع زوجها، أو تستغلّ إبّان الخريف في «غيرمانت» تلك الألفة لتدعوه في بعض الأمسيات للعشاء بصحبة بعض أصحاب المعالي الطامحين إلى لقائه. ذلك أنّ الدوقة كانت تستعذب استقبال بعض رجال النخبة شرط أن يكونوا عازبين، والشرط يحققونه أبداً بالنسبة إليها وان كانوا متزوّجين، فقد كانوا يدعون دوما دون زوجاتهم فلعلهنّ، وهنّ عاميات في كثير أوقليل، كنّ يشكلن لطخاً في صالة لاتجد فيها سوى أكثر نساء باريس جمالا وأناقة. وكان الدوق يوضح لهؤلاء الأرامل المرغمين، دفعا لأيّة حساسية، أن الدوقة لا تستقبل نساء ولا تطيق صحبة النساء كما لو كان الأمر تقريبا وصفة طبيب وكما لو أنه قال إنّها لا تستطيع المكوث في غرفة تملؤها الروائح أو تناول طعام شديد الملوحة أو السفر في المؤخرة أو لبس المشدّ. صحيح أنّ هؤلاء الرجال العظام كانوا يبصرون في منزل آل «غيرمانت» أميرة «بارما» والأميرة «دو ساغان» (وقد دعتها «فرانسواز» أخيراً، وهي تسمع أبداً من يتحدّث عنها، «الساغانة» ظناً منها أنّ هذا المؤنث ضرورة قواعدية) وغيرهما كثيرات، إلاّ أنهم كانوا يبررون حضورهنّ بقولهم إنّهن من الأسرة أو صديقات طفولة لايمكن اقصاؤهنّ. وكان الرجال العظام ينقلون إلى زوجاتهم الايضاحات التي زوّدهم بها الدوق «دو غيرمانت» حول مرض الدوقة الغريب الذي قوامه أنّها لا تستطيع مخالطة النساء، سواء اقتنعوا بها أم لا. كانت بعضهنّ يعتقدن أن المرض كان محض عذر لإخفاء غيرتها لأن الدوقة تبغي أن تمدّ سلطانها وحدها على حاشية من المعجبيين. وتعتقد أخريات أكثر سذاجة أنّ الدوقة ربّما كانت من نمط غريب، بل ربما كان لها ماض شائن وأنّ النساء لا يرغبن في ارتياد منزلها وأنّها تطلق على الضرورة اسم نزوة لديها. أما أفضلهنّ فكنّ يقدّرن، إذ يسمعن أزواجهنّ يروون العجائب والغرائب عن نباهة الدوقة، أن هذه الأخيرة تفوق باقي النساء إلى حدّ أنّها كانت تملّ صحبتهنّ لأنهنّ لايحسن التحدّث عن شيء والحقيقة أنّ الدوقة كانت تملّ صحبة النساء إن لم تضف عليهن ميزة الأمارة أهمية خاصة. ولكنّ الزوجات المستبعدات كن على خطأ لدى تصوّرهن أنّها لاترغب بغير استقبال الرجال لتستطيع التحدّث عن الآداب والعلم والفلسفة. ذلك أنّها ما كانت تتحدث البتة فيها على الأقلّ من كبار رجال الفكر. ولئن كانت بموجب التقليد الأسروي نفسه الذي يحمل بنات كبار العسكريين على الاحتفاظ وسط أكثر مشاغلهنّ بعثاً على الغرور باحترام أمور الجيش، لئن كانت تظنّ، وهي حفيدة نساء كنّ وثيقات الصلة بـ«تيير» و«ميريميه» و«أوجييه»، أنه ينبغي قبل كل شيء أن يرصد المرء في صالته مكاناً لجماعة الفكر، إلاّ أنّها أخذت من الطريقة المستكبرة والأليفة في آن معا التي يتم فيها استقبال مشاهير الرجال في «غيرمانت» عادة احتساب رجال المواهب بمثابة معارف مألوفين لا تبهرك موهبتهم ولا تتحدّث إليهم عن أعمالهم الفنية، الأمر الذي ربما لن يثير اهتمامهم. ثم إن نمط «ميريميه» و«ميلاك» و«هاليفي» الفكري، وكان نمطها، كان يدفعها، بما يناقض النزعة العاطفية اللفظية التي طبعت حقبة سابقة، إلى طراز من الحديث يستبعد كلّ ما كان من قبيل الجمل العريضة والتعبير عن العواطف السامية، ويجعلها تتخذ نوعا من التأنق في قصر حديثها، حينما تكون بصحبة شاعر أو موسيقي، على أصناف الطعام التي يتم تناولها أو لعبة الورق التي يزمعون أن يلعبوها كان لذلك الامتناع، في نظر ثالث هيّن الاطلاع، شيء محير يبلغ حدّ السرّ فان سألته السيدة «دو غيرمانت» إن كان يغبطه أن يدعى برفقة هذا الشاعر أو ذاك كان يصل في الساعة المحددة يتأكله الفضول. وكانت الدوقة تكلم الشاعر عن الطقس السائد. ويقومون إلى المائدة، فتسأل

الشاعر: «أحبّ هذه الطريقة في تحضير البيض»؟ وإزاء موافقته التي كانت تشاطره إياها، إذ كان يبدو لها كل مافي بيتها لذيذا، حتى شراب تفاح شنيع كانت تجيء به من «غيرمانت»، كانت تأمر رئيس الخدم قائلة: «قدّموا بيضاً للسيد مرّة أخرى»، فيما يوالي الشخص الثالث، تملؤه الحيرة، انتظار ماكان بالتأكيد في نية الشاعر والدوقة قوله فيما بينهما بما أنهما تدبّرا أمر لقاء بينهما قبل رحيل الشاعر على الرغم من ألوف المصاعب. ولكن الوليمة تستمرّ وألوان الطعام ترفع الواحد تلو الآخر، ولايتم الأمر دون أن تتاح للسيدة «دو غيرمانت» فرصة مزحات ذكية أو حكايات لطيفة. ويوالي الشاعر في تلك الأثناء تناول الطعام دون أن يبدو أن الدوق أو الدوقة يتذكران أنّه شاعر. وينتهي الغداء بعد قليل ويتم الوداع دون أن تقال كلمة واحدة عن الشعر الذي كان الجميع يعشقونه على الرغم من ذلك ولكنما لايتحدّث عنه أحد بداعي ضرب من التحفظ شبيه بذاك الذي زوّدني «سوان» بشعور سابق منه. كان ذاك التحفظ من جميل التهذيب فحسب. فأما بالنسبة إلى الآخر، فقد كان مبعثا لكآبة شديدة إن هو فكر في الأمر قليلاً، وكانت وجبات طعام محيط آل «غيرمانت» تذكر آنذاك بتلك الساعات التي غالبا ما يقضيها معا عشاق وجلون في التحدّث عن تفاهات إلى أن يحين فراقهم ودون أن يتأتى للسرّ الكبير الذي ربّما سعدوا أكثر في البوح به أن يمرّ من قلوبهم إلى شفاههم، إما وجلاً أو استحياء أو خرقاً على أنّه لابدّ أن نضيف من جهة أخرى أن ذاك الصمت حول الأمور الدفينة التي ينتظر المرء دوماً دون جدوى ساعة مباشرتها لم يكن مطلقاً لدى الدوقة وإن أمكن عدّه سمة مميزة لها. فقد سبق أن قضت السيدة «دو غيرمانت» شبابها في وسط مختلف بعض الشيء، وسط يساوي في ارستقراطيته الوسط الذي تعيش فيه اليوم ،ولكنه أقلّ تألقاً وأقلّ تفاهة على وجه الخصوص ومن ثقافة رحبة. ولقد خلف لطيشها الراهن نوعاً من التربة الأشد صلابة، تربة خفية الغذاء كان يبلغ بالدوقة أن تبحث فيها (ولأمر نادر جدًا لأنها كانت تكره الحذلقة) عن استشهاد من «فيكتور هوغو» أو «لامارتين» مناسب تماماً وتقوله بنظره صادقة التعبير في عينيها الجميلتين فلا يخلو من اندهاش وسحر ألباب بل ويبلغ بها أحياناً دونما حيطة وبسداد في الرأي وبساطة أن تسدي النصح الذكيّ لمؤلفّ مسرحي عضو في المجمع فتحمله على تلطيف موقف أو تغيير خاتمة.

ولئن كنت أصادف مشقة، في صالة السيدة «دو فيلباريزيس» وفي كنيسة «كومبريه» سواء بسواء، لدى زواج الآنسة «بيرسبييه»، في أن أعثر، على وجه السيدة «دو غيرمانت» الجميل الذي يفيض سمات بشريّة، على المجهول الذي يعمر اسمها فقد كنت أحسب على الأقلّ أن حديثها العميق الذي تكتنفه الأسرار سوف يرتدي، إذ تتحدّث، غرابة سجادة من القرون الوسيطة وزجاجيّة قوطيّة بيد أنّه ما كان كافياً، كي لا تخيب ظنّي الأقوال التي ستتفوّه بها امرأة يدعونها السيدة «دو غيرمانت»، حتى وان لم أحببها، ما كان كافياً أن تكون الأقوال ذكية وجميلة وعميقة، بل كان انبغى أن تعكس ذاك اللون الأرجواني الذي في المقطع الأخير من اسمها، ذاك اللون الذي دهشت منذ اليوم الأول ألاّ أجده في شخصها والذي هربت به إلى فكرها. لقد سبق دونما شك أن سمعت السيدة «دو فيلباريزيس» و«سان لو»، وهما من قوم لاخارق في ذكائهم، ينطقان دون أن يحتاطا للأمر باسم «دو غيرمانت»، وببساطة وكأنه اسم شخص يزمع القدوم في زيارة أو تزمع تناول العشاء معه، ولايبدو أنّهما يحسان في ذلك الاسم مناظر غابات آخذة في الاصفرار وركناً خفياً تماماً في الريف. كان لابد أن يكون الأمر تصنعاً من جهتهما، كما هي الحال حين لاينبهنا الشعراء الكلاسيكيون إلى المقاصد

العميقة التي راودتهم مع ذلك، تصنعاً كنت أجهد بدوري في محاكاته قائلاً بلهجة طبيعية كأكثر ما تكون : دوقة «غيرمانت»، وكأنه اسم يشبه أسماء أخرى. كان الجميع يؤكدون على أيّة حال أنّها امرأة شديدة الذكاء ظريفة الحديث تعيش في جماعة صغيرة من أكثرها إثارة، وكانت تلك الأقوال تشجع حلمي. ذلك أنّي حينما كانوا يقولون جماعة ذكية وحديث ظريف لم أكن أتخيل على الإطلاق الذكاء حسبما كنت أعرفه وإن كان ذكاء أعظم العقول وما كنت على الاطلاق أؤلف تلك الجماعة من قوم على غرار «بيرغوت».لا، لقد كنت أعني بالذكاء قدرة لايحيط بها وصف، مذهبة أشربت ندوّة الغابات. ولعلّ السيدة «دو غيرمانت» كانت، وإن هي تفوّهت بأكثر الأقوال ذكاء (بالمعنى الذي كنت آخذ فيه لفظة «ذكيّ» حينما يدورا لأمر حول فيلسوف أو ناقد) ستزيد من خيبة ما أنتظر من قدرة خاصة إلى هذا الحدّ كما لو أنّها اكتفت، عبر حديث لاشأن له بالتكلم عن مقادير الطبخ أو عن أثاث قصر وبذكر أسماء جارات أو أقارب لها ربما أوحوا لي بحياتها.

قالت السيدة «دو غيرمانت» لعمتّها: «ظننتني ألاقي «بازان» ههنا فقد كان يعتزم المجيء للقياك».

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» بلهجة بادية التأثر غاضبة: «لم أرَ زوجك، ومنذ عدّة أيام. لم أرَه أو ربما رأيته مرّة واحدة منذ تلك المزحة الطريفة في أن يبعث من يعلن لدى قدومه أنّه ملكة السويد».

وزمت السيدة «دو غيرمانت» زاوية شفتيها لتتبسم وكأنما عضت على برقعها الصغير.

– «لقدتغدّينا معها البارحة لدى «بلانش لوروا»، وقد لا تتعرّفينها فقد أصبحت ضخمة، إنّي متيقنّة أنها مريضة.»

–«كنت الضبط أقول لهؤلاء لسادة إنك ترين لها هيئة ضفدعة.» وصدر عن السيدة «دو غيرمانت» ضرب من الضجة الخشنة تعني بها أنّها تقهقه إبراء لذمتها.

– «ما كنت أعلم أنني قمت بهذا التشبيه الجميل، ولكنما الضفدعة في هذه الحالة هي التي أفلحت الآن في أن تضحي بضخامة الثور. أو لعل الأمر بالأحرى ليس على هذا النحو تماماً لأنّ كامل ضخامتها قد تجمع على البطن، فهي بالأحرى ضفدعة في وضع مثير.»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس»: «آه! إنّي أجد الصورة مضحكة»، وكانت في أعماقها على شيء من الاعتزاز بنباهة ابنة شقيقها أمام زوّارها.

– «إنّها على وجه الخصوص اعتباطية»، تجيب السيدة «دو غيرمانت» وهي تبرز بسخرية هذه الصفة المنتقاة كما لعلّ «سوان» كان فعل، «فانني أقرّ بأنني لم أرَ في يوم ضفدعة في طور الولادة وهذه الضفدعة التي لاتطلب ملكاً مع ذلك، لأنني ما رأيتها قطّ أكثر طيشاً منها منذ وفاة زوجها، سوف تأتي على كلّ حال لتتناول العشاء في المنزل في أحد أيام الأسبوع القادم وقلت إنيّ سوف أبلغك ذلك على سبيل الاحتياط».

وأصدرت السيدة «دو فيلباريزيس» نوعاً من الغمغمة المبهمة، وأضافت تقول: «أعرف أنّها تناولت العشاء

قبل البارحة في منزل السيدة «دو مكلمبور»، وكان ثمة «هنيبال دو بريوتيه»، وقد جاء فروى لي عن ذلك، وعليّ أن أقول إنّه فعل على نحو مضحك إلى حدّما.»

— «كان في ذلك العشاء آخر أكثر ظرفاً من «بابال»، تقول السيدة «دو غيرمانت» التي كانت تصرّ، على الرغم من ألفتها الشديدة في علاقتها بالسيدة «دو بريوتيه كونسالفي»، على ابراز ذلك بتسميته بصيغة التصغير تلك ؛ «إنّه السيد «بيرغوت».

لم يكن قد خطر لي أنّه يمكن عدّ «بيرغوت» من الظرفاء، ثمّ إنّه كان يبدو لي أنّه يخالط البشرية الذكية، وأعني أنّه كان بعيداً إلى ما لاحدود عن هذه المملكة الغامضة التي سبق أن رأيتها تحت أرجوان ستائر إحدى المقصورات حيث كان السيد «دو بريوتيه» يضحك الدوقة إذ يسوق معها بلغة الآلهة ذلك الأمر الذي لايمكن تخيله بين جماعة من حيّ «سان چيرمان». وحزّ في نفسي أن أشهد التوازن ينفرط و«بيرغوت» يمرّ من فوق السيد «دو بريوتيه» ولكنما بعث في نفسي اليأس على نحو خاصّ انني تجنبت «بيرغوت» في أمسية مسرحية «فيدر» وأنني لم أذهب إليه، وذلك حينما سمعت السيدة «دو غيرمانت» تقول للسيدة «دو فيلباريزيس» :

— «إنّه الشخص الوحيد الذي أتوق إلى التعرف إليه»، تضيف الدوقة التي كنت تستطيع أن تبصر فيها أبداً، وكأنّما لحظة تدفق روحي، مدّ فضول إزاء مشاهير المثقفين يلتقي في طريقه بجزر السنوبيّة الارستقراطية ؛ «فما أكثر ما سيمتعني هذا الأمر!»

فلعلّ وجود «بيرغوت» إلى جانبي، وما أكثر ما كان يسهل عليّ نواله ولكني ربما ظننت أنّ من شأنه أن ينقل عني فكرة سيئة للسيدة «دو غيرمانت»، لعله كان نجم عنه بالتأكيد، وعلى عكس ذلك، أن تومئ إليّ بالمجيء إلى مقصورتها وتطلب إليّ أن أصطحب الكاتب الكبير ذات يوم للغداء.

وأضافت السيدة «دو غيرمانت» قولها: «يبدو أنّه لم يكن لطيفاً، فقد قدّموه للسيد «دو كوبور» ولم يقل له كلمة»، وهي تشير إلى هذه الفعلة الغريبة كما لو تروي عن صينيّ تمخط بالورق. ثمّ أضافت: «لم يقل له مرّة واحدة ياصاحب السيادة» بادية السرور من جرّاء هذا الأمر الذي يساوي في أهميته بالنسبة إليها رفض بروتستنتيّ أثناء إحدى مقابلات البابا أن يركع أمام قداسته.

وقد أثارت خصائص «بيرغوت» هذه اهتمامها ولم يكن يبدو عليها على أيّة حال أنّها تجدها معيبة بل بدا بالأحرى أنّها تجعل له منها فضلا دون أن تعلم هي بالضبط من أي نوع. وعلى الرغم من هذه الطريقة العجيبة في فهم غرابة «بيرغوت»، فقد وقع لي فيما بعد ألاّ أجد غير ذي شأن تماماً أن تكون السيدة «دو غيرمانت» قد ألفت «بيرغوت» أشدّ ظرافة من السيد «دو بريوتيه» أمام دهشة الكثيرين الكبيرة. ومثل هذه الأحكام التخريبية المنفردة والصائبة مع ذلك إنّما تصدرها على هذا النحو في العالم ندرة من الناس المتفوقين على سواهم. وإنهم ليرسمون فيها الخطوط الأولى لمراتبية القيم على نحو ما سيختطها الجيل اللاحق عوض أن يتمسك أبدا بالقديمة.

ودخل الكونت «دار جنكور» القائم بأعمال بلجيكا وابن قريب بالنسب للسيدة «دو فيلباريزيس» وهو يعرج، وقد تبعه بعد قليل شابان هما البارون «دو غيرمانت» وسمو الدوق «دو شاتيلرو» الذي قالت له السيدة «دو غيرمانت» : «مرحبى ياصغيري «شاتيلرو»، قالت بهيئة ساهية ودون أن تتحرّك على مقعدها المنفوخ لأنها كانت صديقة كبيرة لوالدة الدوق الشاب الذي كان يجلّها من جراء ذلك ومنذ طفولته إجلالاً بالغاً. كان يبدو هذان الشابان، وهما مديدا القامة نحيفان مذهبا الجلد والشعر ومن طراز آل «غيرمانت» تماماً، كانا يبدوان وكأنهما تكثيف النور الربيعي والمسائي الذي كان يغمر الصالة الكبيرة. ووضعا قبعتيهما الرسميتين على الأرض بالقرب منهما وفق عادة كانت تحكم السلوك في ذلك الوقت. وظن مؤرّخ «حركة التمرد» أنهما مرتبكان مثل فلاح يدخل إلى دار العمدة ولا يعلم ما يفعل بقبعته. فقال لهما، وقد ظن من واجبه أن يهبّ بداعي الرأفة بهما لمساعدة الارتباك والاستحياء اللذين يفترضهما لديهما:

– «لا، لا، لا تضعاهما على الأرض فسوف تتلفانهما.»

وحانت نظرة من البارون «دو غيرمانت» أمالت ساحة حدقتيه وبعثت فيهما فجأة لونا أزرق فاقعاً حاداً جمّد المؤرخ.

وسألني البارون الذي قدّمته لي السيدة «دو فيلباريزيس» قبل قليل قائلاً: «كيف يدعى هذا السيد» ؟

فأجابت بصوت خافت: «السيد بيير» .

– «بيير آلِ مَنْ؟»

– «بيير، تلك كنيته، إنّه مؤرخ عظيم الشأن.»

– «آه!... ماعدت أستغرب ما تقول!»

وأوضحت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «لا، إنّها عادة جديدة اتخذها هؤلاء السادة بوضع قبعاتهم على الأرض، وإنّني لم أتعود الأمر مثلما هي حالك. ولكنني أفضل ذلك على ابن شقيقي «روبير» الذي يترك أبداً قبعته في الردهة. وأقول له حينما أراه داخلاً على هذا النحو إنّه يبدو وكأنه الساعاتي وأسأله إن كان آتياً لتدوير ساعات الجدران.»

وقال مؤرّخ حركة التمرّد، وقد اطمأنّ قليلا من جراء تدخل السيدة «دو فيلباريزيس» ، بيد أنّه فعل مع ذلك بصوت خافت إلى حدّ أن لم يسمعه أحد فيما عداي: «كنت تحدّثينني منذ قليل، ياسيدتي المركيزة، عن قبعة السيد «موليه» ، وسوف يقدّر لنا عما قليل أن نؤلف، مثلما فعل أرسطو، فصلاً عن القبعات.»

وقال السيد «دارجنكور» وهو يشير إلى السيدة «دو غيرمانت» التي كانت تتحدث مع ج.....: «إنّها مدهشة حقاً هذه الدوقة الصغيرة. فما أن يكون رجل بارز في صالة حتى تراه دوماً إلى جانبها، ولايمكن بالبداهة أن يكون غير الحبر الكبير الموجود هناك». لايمكن أن يكون في كلّ يوم السيد «دوبوريللي» أوشلومبرجر» أو «دافنيل» ، فإذا هو حينئذ السيد «بيير لوتي» أو السيد «ادمون روستان» . والبارحة في منزل عائلة

«دو فيل» حيث كانت، ونقولها بين قوسين، رائعة تحت تاجها الذي من أحجار الزمرّد وبفسطان وردي طويل بأذيال، كان يجلس إلى جانبيها السيد «ديشانيل» من جهة وسفير ألمانيه من الجهة الثانية وقد صمدت أمامهما فيما يخص الصين. وكان الجمهور العادي يتساءل، وهو على المسافة التي يفرضها الإجلال، وما كان يسمع ما يقولون، إن لم تكن الحرب وشيكة الوقوع. لكأنها بالحقيقة ملكة تدير النادي.»

وكان كلّ قد اقترب من السيدة «دو فيلباريزيس» ليشاهدها ترسم. ،قال «لوغراندان»: «هذه الأزهار من لون ورديّ سماويّ حقاً، وأعني بلون سماء ورديّة ؛ فثمة لون ورديّ سماويّ مثلما هنالك لون أزرق سماوي.» ثم همس قائلاً يحاول ألاّ تسمعه سوى المركيزة: «أظنني لازلت أميل إلى اللون الحريري، لون البشرة الزهري الحيّ في النسخة التي ترسمينها لها. آه! إنكّ تخلفين بعيدا وراءك «بيزانيللو» و«فان هويسوم» ومجموعتهما العشبيّة الدقيقة التي لاحياة فيها.»

والفنان يرتضي دوما، مهما يكن متواضعها، أن يفضل على منافسيه ويحاول أن ينصفهم فحسب.

— «إن ما يورثك هذا الأثر أنّهم كانوا يرسمون أزهاراً من ذلك العصر ما عدنا نعرفها ولكنهم كانوا على علم وفير.»

وصاح «لوغراندان» قائلا: «أزهار من ذلك العصر، ما أبرع القول!»

— «ترسمين بالفعل أزهار كرز جميلة أو أزهارا من أزهار أيار». يقول مؤرّخ حركة التمرّد، ولا يفعل دون تردّد فيما يخصّ الزهرة ولكن بلهجة الواثق بنفسه إذ أخذ ينسى حادثة القبعات.

وقالت دوقة «غيرمانت» وهي توجه الحديث إلى عمتها: «لا، إنّها أزاهير تفاح.»

— «أراك ريفية صادقة، فانك تحسنين مثلي تمييز الأزهار.»

وقال مؤرّخ حركة التمرّد يبغي عذراً: «أجل، هذا صحيح! ولكني ظننت فصل التفاح قد انقضى.»

فقال مدير المحفوظات الذي كان أكثر اطلاعاً على أمور الريف إذ كان يدير بعض الشيء أملاك السيدة «دو فيلباريزيس»: «لا، لا، بالعكس، إنّها لم تزهر ولن يتمّ ذلك لها قبل خمسة عشر يوما وربّما ثلاثة أسابيع».

— «أجل، وفي ضواحي باريس فقط حيث تسبق أوانها كثيراً. أما في النورماندي مثلا، ولدى والده»، تقول وهي تشير إلى دوق «دو شاتيللرو»، «الذي يملك أشجار تفاح بديعة على شاطئ البحر وكأنما على ساترة يابانية، فلا تصبح وردية حقاً إلاّ بعد العشرين من أيار.»

وقال الدوق الشاب: «إنّي لا أراها البتّة لأنّها تصيبني بزكام الحشائش، وذلك مدهش».

وقال المؤرّخ: «زكام الحشائش، ما سمعت قطّ من يتحدّث عن ذلك.»

وقال مدير المحفوظات: «إنّه المرض الشائع».

وقال السيد «دارچنكور» الذي لم يكن فرنسياً تماماً فكان يحاول الظهور بمظهر الباريسي: «الأمر رهن بسواه فربّما لم تصبك بشيء إن كان العام عاماً فيه تفاح. تعرفين كلمة جماعة النورماندي، ففي سنة كثر تفاحها...»

وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» ابنة شقيقها قائلة: «أنت على حقّ إنّها من تفّاح الجنوب. إنّها بائعة زهور بعثت إليّ بهذه الاغصان طالبة أن أتقبلها. يدهشك ذلك ياسيد «فالنير»، تقول موجهّة الحديث إلى مدير المحفوظات، «أن تبعث إليّ بائعة زهور بأغصان شجرة تفّاح؟ ولكني وإن تقدمت بي السن أعرف بعض الناس، إنّ لديّ بعض الأصدقاء»، تضيف وهي تبتسم بداعي البساطة، فيما ظنّوا بعامّة، أو بالأحرى لأنّها، فيما بدا لي، كانت تجد إثارة أن تزهو بصداقة بائعة زهور حينما يتوافر لك معارف عظام إلى هذا الحدّ.

ونهض «بلوك» ليجيء بدوره وينظر بإعجاب إلى الأزهار التي« كانت السيدة «دو فيلباريزيس» ترسمها.

وقال المؤرّخ وهو يعود إلى كرسيّه: «لا أهمية للأمر، أيتها المركيزة فحتى لو عادت واحدة من تلك الثورات التي كثيراً ما غمرت بالدماء تاريخ فرنسه، -- والمرء لايستطيع، والله، أن يعلم في هذه الأزمنة التي نعيش فيها»، يضيف قوله وهو يلقي نظرة دائرية محاذرة وكأنما ليرى إن لم يكن في الصالة أي من«ذوي التفكير السيىء»، مع أنّه لايشكّ في الأمر، -- فإنّك بمثل هذه الموهبة ولغاتك الخمس لعلى ثقة دائمة بحسن تدبّر أمورك».

كان مؤرّخ حركة التمرّد ينعم ببعض الراحة إذ كان قد نسي أرقه. ولكنّه ذكر فجأة أنّه لم ينم منذ ستة أيام: وإذ ذاك اجتاح ساقيه تعب قاس كان وليد عقله فأحنى كتفيه وأخذ وجهه المخزون يتدلى شبيهاً بوجه رجل عجوز.

وأرد «بلوك» أن يجيء بحركة ليعبر عن إعجابه ولكنه قلب بضربة من مرفقه الإناء الذي كان يحوي الغصن وسال الماء كله على السجادة.

وقال المؤرّخ للمركيزة، ولم يكن قد لاحظ تصرّف «بلوك» الأخرق إذ كان يوليني ظهره في تلك اللحظة: «إن لك حقاً أنامل جنيّة».

وظن هذا الأخير أن الكلمات تنطبق عليه فقال بغية أخفاء خجله من تصرّفه الأرعن خلف ستار من الوقاحة: «لا أهمية للأمر بتاتا فإنّي لم يصبني البلل.»

وقرعت السيدة «دو فيلباريزيس» الجرس فأقبل خادم ليمسح السجادة ويجمع قطع الزجاج. ودعت الشابين إلى استقبالها بعد الظهر وكذلك الدوقة «دو غيرمانت» التي أوصتها قائلة:

-- «افطني أن تقولي لـ«جيزيل» و«بيرت» (وهما دوقتا «أوبيرجون» و«بورتفان») أن تحضرا قبل الثانية ظهراً بقليل كي تعاوناني»، كما لعلها كانت تقول لرؤساء خدم إضافيين أن يصلوا سلفاً ليعدّوا أطباق الفواكه المطبوخة.

فلم تكن تبدي لذويها الأمراء ولا للسيد «دو نوربوا» أياً من تلك الألطاف التي تبديها للمؤرّخ و«كوتار» و«بلوك» ولي ولا يبدو أنّهم يكتسبون في نظرها غير أهمية تقديمهم بمثابة مادّة لفضولنا. ذلك لأنّها كانت تعلم أن ليس عليها أن تتحرّج مع جماعة لم تكن بالنسبة إليها امرأة لامعة إلى حدّما، بل الشقيقة الشديدة الحساسية التي يراعون شعورها شقيقة والدهم أو عمّهم. فما كانت لتفيد شيئاً من محاولة التألق أمامهم هم الذين لايمكن أن يخدعهم ذلك حول مكانتها الرفيعة أو الهزيلة والذين كانوا يعلمون أكثر من أي سواهم تاريخها ويجلوّن السلالة الشهيرة التي تنحدر منها. وهم ما عادوا على وجه الخصوص يمثلون في نظرهم سوى بقية ميتة لن تثمر من بعد، فلن يعرّفوها بأصدقائهم الجدد ولن يشاطروها متعهم. وهي لا تستطيع الحصول على غير حضورهم إلى استقبالها في الساعة الخامسة أو إمكان التحدّث عنهم فيه مثلما هي الحال فيما بعد في مذكراتها التي لم يكن الاستقبال سوى نسخة تجريبية لها ونوع من القراءة الجهريّة الأولى أمام ندوة صغيرة. فأما الجماعة التي كان هؤلاء الأقارب النبلاء يقيدونها في استثارتها وخلب ألبابها وتكبيلها، جماعة أمثال «كوتار» و«بلوك» والمؤلفين المسرحيين المرموقين ومؤرخي حركة التمرّد من كل صنف وجنس، فإنما تكمن في هذه الجماعة بالنسبة إلى السيدة «دو فيلباريزيس» –في غياب هذا القسم من المجتمع الذي لايرتاد منزلها– الحركة والجدّة والتسليات والحياة. فمن هؤلاء القوم كان بمقدوها أن تحصل على مكاسب اجتماعية (تساوي تماماً أن تفسح لهم أحياناً مجال التقاء الدوقة «دو غيرمانت» دون أن يعرفوها في يوم) : فولائم عشاء برفقة رجال مرمرقين استهوتها أعمالهم الفنية وغنائية هزليّة أو تمثيليّة إيمائيّة معدّة تمام الإعداد ويسمح المؤلف بتمثيلها، ومقصورات لعروض غريبة. ونهض «بلوك» يريد الذهاب. لقد سبق أن قال جهاراً أن حادثة إناء الزهر المقلوب كانت غير ذات بال، ولكن ما كان يقوله سرّاً كان مختلفاً «وأكثر اختلافاً منه ما كان يفكر فيه: فقد كان يغمغم بصوت خافت: «حينما لايملك المرء خدماً حسني التدريب إلى حدّ ما كي يحسنوا وضع إناء دون أن يعرّضوا الزوّار للبلل أو الجرح فلا يغامر في اتّخاذ صنوف الترف هذه». لقد كان في عداد هؤلاء الناس الحسّاسين «العصبيّين» الذين لا يستطيعون احتمال الوقوع في عمل أخرق لايقرّون به مع ذلك في سرّهم ويفسد عليهم نهارهم كلّه. كان حانقاً تعتمل في نفسه أفكار في سرّهم ويفسد عليهم نهارهم كلّه. كان حانقاً تعتمل في نفسه أفكار سوداء ولايريد العودة إلى صفوف المجتمع من بعد. وإنّه الوقت الذي لابدّ فيه من بعض الترفيه. ولحسن الحظّ كانت السيدة «دو فيلباريزيس» مقبلة بعدّ ثانية على استبقائه. فلم تكن قد عرّفت به الأشخاص الذين كانوا هناك إمّا لأنّها كانت تعرف آراء أصدقائها وموج معاداة السامية الذي كان آخذاً في الارتفاع، وإمّا أنّها سهت عن ذلك. أمّا هو الذي كان قليل العهد بالمجتمع فقد ظنّ من واجبه أن يحييّهم وهو ذاهب التزاماً بآداب السلوك ولكن دون تلطف، فأحنى الجبين عدّة مرات وغاص بذقنه اللحيّ في ياقة قميصه ينظر على التوالي إلى كلّ منهم من خلال زجاج نظارته نظرة فيها جفاء واستياء. ولكنّ السيدة «دو فيلباريزيس» أوقفته، فقد كان لايزال عليها أن تحدّثه عن الفصل الصغير الذي يزمعون تمثيله في منزلها وما كانت تودّ من جهة ثانية أن يمضي دون أن يكون قد نعم بالتعرّف إلى اليسد «دو نوربوا» (الذي كانت تعجب كيف لاتراه يدخل) مع أن هذا التعرّف غير ضروري لأن «بلوك» كان عازماً على اقناع الفنانين اللذين تحدّث عنهما بالمجيء للغناء دون مقابل في منزل المركيزة في واحد من تلك الاستقبالات التي تتردّد إليها صفوة أوروبا وذلك لصالح شهرتهما. وقد بلغ به أن اقترح إلى ذلك ممثلة مأساوية «فيروزية العينين وفي

جمال هيرا» [1] تنشد نثراً وجدانياً وتتمتع بحس الجمال التشكيليّ. ولكنّ السيدة «دو فيلباريزيس» رفضت لدى سماع اسمها، فقد كانت صديقة «سان لو» وهمست في أذني قائلة:

«لديّ أخبار أفضل منها، فإنّي أظنّ الأمور لاتخفق إلاّ بجناح واحد وأنّهما لن يتوانيا عن الانفصال». وتضيف قولها: «على الرغم من ضابط قام بدور بغيض في كلّ ذلك.» (ذلك أن أسرة «روبير» أخذت تحقد حقداً مميتاً على السيد «دو بورودينو» الذي سبق أن منح التصريح إلى مدينة «بروج» نزولاً عند إلحاح الحلاق، وتتهمه بتيسير علاقة شائنة.» وقالت لي السيدة «دو فيلباريزيس» باللهجة الفاضلة التي لآل «غيرمانت» وحتى من كان أكثرهم انحطاطاً: «إنّه شخص سيئ جداً». كنت تحس أنّها لاتشكّ أن يكون الشريك الثالث في سائر الحفلات الفاجرة. ولما كان اللطف يشكل العادة السائدة لدى المركيزة فقد انتهت ملامح القسوة المقطبة إزاء النقيب المقيت الذي تلت اسمه بفخامة ساخرة: الأمير «دو بورودنيو»، تلاوة امرأة لاتحسب للامبراطورية حساباً، انتهت في ابتسامة رقيقة موجّهة إليّ بغمزة عين آلية يبطنّها تواطؤ غامض معي.

وقال«بلوك»: «كنت أحبّ إلى حدّ «دو سان لو آن بريه» مع أنّه كلب رديء لأنّه مهذّب إلى أقصى الحدود. إني أحبّ الأشخاص المهذّبين إلى أقصى الحدود حباً جماً فما أندرهم». يقول ولايلاحظ إلى أيّ مدى تسوء أقواله إذ كان سيئ التهذيب إلى أبعد حدّ. «سوف أذكر لكم دليلاً أراه جلياً جداً على تهذيبة الرفيع. فقد التقيت به ذات مرّة بصحبة شاب وفيما كان يزمع الصعود إلى عربته ذات العجلات الجميلة وبعدما وضع بنفسه الأحزمة الرائعة على جوادين غذّيا بالشوفان والشعير ولا حاجة لحثهما بالسوط الملتمع. وقدّمنا الواحد للآخر ولكنني لم أسمع اسم الشاب لأنك لاتسمع قطّ اسم الأشخاص الذي يتمّ تقديمك إليهم»، يضيف ضاحكاً إذ كانت تلك مزحة لوالده، «وظلّ دوسان لو آن بريه بسيط السلوك ولم يغالِ في الاهتمام بالشاب ولم يبدِ البتة أيّ انزعاج. وقد علمت بالمصادفة بعدبضعة أيّام أنّ الشابّ ابن السيد «روفوس إسرائيلز!»

وبدت خاتمة هذه القصة أقلّ إزعاجاً من بدايتها إذ ظلت متعذرة الفهم بالنسبة إلى القوم الحاضرين. ذلك أنّ السيد «روفوس إسرائليز» الذي كان يبدو لـ «بلوك» ووالده بمثابة شخصية ملكية كان ينبغي أن يرتجف «سان لو» في حضرته إنّما كان على العكس في نظر محيط آل «غيرمانت» أجنبياً حديث النعمة يتغاضى عنه المجتمع وما كان ليخطر لأحد أن يفاخر بصداقته، بل على العكس تماماً!

وقال «بلوك»: «لقد عرفت ذلك على لسان وكيل السيد «روفوس اسرائيلز» المفوّض بالتوقيع وهو صديق لوالدي ورجل خارق تماماً. آه! إنّه شخص غريب كلّ الغرابة» يضيف قوله بهذا الحزم في التأكيد وبنبرة الحماسة التي لا يبديها المرء إلا في القناعات التي لم يشكلها بنفسه. وعاد «بلوك» يقول وهو يكلمني بصوت خافت جداً: «لكن قل لي، أيّة ثروة يمكن أن يملكها «سان لو»؟ تدرك تماماً أنني إن كنت أسالك ذلك فإني لا أحفل به في حدّ ذاته بقدر ما أفعل بالنسبة إلى عام الأربعين ؛ ولكنّ الأمر من وجهة نظر «بلزاكيّة» كما ترى، ولست حتى تعلم فيما تمّ توظيفها وإن كان يملك أسهماً فرنسية وأجنبية وأراضي؟»

---

(1) Héra الهة الزواج لدى قدماء اليونان وترمز إلى عظمة الأمّ وسلطانها.

لم أستطع تزويده بأية معلومات. وكفّ «بلوك» عن التحدّث بصوت خافت واستأذن بصوت عال بفتح النوافذ واتجه إليها دون أن ينتظر الجواب. وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» إنّه يستحيل فتحها وإنها مصابة بزكام فردّ «بلوك» يقول خائب الأمل: «آه! إن انبغى أن يؤذيك ذلك! على أنّه يمكن القول إن الجوّ حارّ.» وأخذ في الضحك وجعل في نظراته التي جالت حول الحضور استجداءً يطالب بدعم ضد السيدة «دو فيلباريزيس». فلم يوفق إليه في صفوف أولئك الناس الحسني التهذيب. واستعادت عيناه المتقدتان اللتان لم تفلحا في إفساد أحد رصانتهما مستسلمتين. وأعلن بلهجة الهزيمة: «الحرّ يبلغ اثنتين وعشرين درجة على الأقل. خمساً وعشرين؟ ذلك لايدهشني فإنّي أسبح تقريباً في عرقي. ولست أملك على غرار الحكيم «أنتينور» ابن النهر «آلفيوس» قدرة الغوص في المياه الأبوية كي أوقف عرقي قبل أن أدخل حماماً صقيلاً وأدهن نفسي بزيت معطر.» وأضاف بتلك الحاجة التي لدى المرء إلى وضع نظريات طبية تحت تصرّف الآخرين، نظريات قد يجيء تطبيقها في صالح راحتنا: «بما أنّك تظنين أن الأمر يعود عليك بالنفع ! أمّا أنا فأظنّ العكس تماماً. ذلك بالضبط ما يحمل لك الزكام.»

لقد أبدى «بلوك» أنّه مغتبط بفكرة التعرّف بالسيد «دو نوربوا»، ولعله كان يحبّ، فيما يقول، أن يحمله على التحدث عن مسألة «دريفوس».

– «ثمة ذهنية لا أعرفها حقّ المعرفة، وربّما كان مثيراً إلى حدّ ما أن أحظى بمقابلة هذا الدبلوماسي العظيم الشأن»، يقول بلهجة جارحة كي لا يبدو أنّه يعدّ ذاته أدنى من السفير.

وأسفت السيدة «دو فيلباريزيس» أن قال ذلك أيضاً بصوت عال ولكنها لم تعلق على الأمر كبير أهمية حينما أبصرت أن مدير المحفوظات الذي كانت تنقاد، إن جاز القول، لآرائه القومية كان في مكان أبعد من أن يمكنه من الاستماع. ولكنّما صدمها أكثر من ذلك أن تسمع «بلوك»، وقد دفعه شيطان سوء تهذيبه الذي سبق فأعماه، يسألها وهو يضحك للمزاح الأبوي:

– «ألم أقرأ له بحثاً علمياً يبيّن فيه لأية أسباب لاتدحض كان ينبغي أن تنتهي الحرب الروسية – اليابانية بانتصار الروس وهزيمة اليابانيّين! أفليس على شيء من الخرف؟ ويبدو لي أنّه هو من رأيت «يسّدد» إلى مقعدة قبل أن يبادر إلى الجلوس فيه منزلقاً وكأنما على عجلات.»

– «مستحيل!» وتضيف المركيزة قولها: «انتظر لحظة، فلا أدري ما يمكن أن يفعل.»

وقرعت الجرس، وبعدما دخل الخادم، وإذكانت لاتخفي على الإطلاق أن صديقها القديم كان يمضي أكبر قسط من وقته في منزلها، بل تحب أن تبرز ذلك:

– «هيّا امضِ وقل للسيد «دو نوربوا» أن يأتي، فهو يقوم بتصنيف أوراق في مكتبي، وقد قال إنّه آت بعد عشرين دقيقة، وها إني انتظره منذ ساعة وثلاثة أرباع الساعة.» وقالت تخاطب «بلوك» بلهجة الحردان: «سوف يحدّثك عن مشكلة «دريفوس» وعن كلّ ما تريد، إنّه لايقرّ كثيراً مايجري.»

ذلك أنّ السيد «دو نوربوا» لم يكن على علاقة طيبة بالوزارة الحالية وكانت السيدة «دو فيلباريزيس»

بوساطته على علم بما يجري، مع أنّه ماكان ليسمح لنفسه أن يأتيها بجماعة من الحكومة (إذكانت تحتفظ مع ذلك بكبرياء السيدة التي تنتمي لكبار الارستقراطيين وظلت خارج دائرة العلاقات التي كان يضطرّ أن يعنى بها، وفوق تلك العلاقات). وما كان سياسيّو العهد أولئك ليجرؤوا بدورهم أن يطلبوا إلى السيد «دو نوربوا» أن يعرّف بهم السيدة «دو فيلباريزيس» ولكنّما سبق للعديد منهم أن جاؤوا في طلبه في منزلها في الريف حينما يحسّون بحاجتهم إلى مساعدته في ظروف عصيبة. كانوا يعرفون العنوان، فيذهبون إلى القصر، ولايرون سيدته، ولكنّها كانت تقول في العشاء: «أعلم ياسيدي أنّهم جاؤوا يزعجونك. فهل الأمور أفضل مما كانت؟»

وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» «بلوك» قائلة: «لست على عجلة من أمرك؟»

– «لا، لا، كنت أبغي الرحيل لأنني لست على مايرام، بل أنا الآن بصدد القيام باستشفاء في «فيشي» لعلاج مرارتي»، يقول وهو يتلفظ هذه الكلمات بسخرية شيطانية.

– «عجباً، إن ابن ابن أخي «شاتيللرو» يزمع بالضبط الذهاب إلى هناك، وعليكما تدبّر ذلك سويّة، أمايزال هنا؟ إنّه لطيف، لو تدري»، تقول السيدة «دو فيلباريزيس» ربّما عن حسن نية وظناً منها أن شخصين تعرفهما كليهما لايملكان أيّة حجة تمنعهما من الارتباط بصداقة.

وقال «بلوك» وبه خجل وغبطة: «آه لست أدري إن كان ذلك سيروقه ؛ فانّي لا أعرفه.. إلاّ لماماً، إنّه هناك إلى أبعد بقليل».

ولا بدّ أنّ رئيس الخدم لم ينفذ على أتم وجه المهمّة التي كلف بها لدى السيد «دو نوربوا»، ذلك أنّ هذا الأخير، كيما يظنّ أنّه آت من الخارج ولم يرّ بعد ربّة البيت، أخذ كيفما تيسر في الردهة قبعة بدا لي أنّي أتعرّفها وجاء يقبل بتكلفٍ كبير يد السيدة «دو فيلباريزيس» وهو يسألها عن أخبارها بالاهتمام ذاته الذي يبديه المرء بعد غياب طويل. وكان يجهل أنّ المركيزة سبق أن نزعت عن تلك المهزلة أيّ مظهر للحقيقة، وقد أوقفتها على أيّة حال عند حدّها إذ اصطحبت السيد «دو نوربوا» و«بلوك» إلى صالة مجاورة. أما «بلوك» الذي شاهد جميع صنوف التودّد التي أحيط بها ذلك الذي لم يكن يعلم بعد أنّه السيد «دو نوربوا» والتحيّات المتكلفة الأنيقة الواسعة التي يردّ بها السفير، «بلوك» الذي أحسّ أنّه دون كلّ هذه الرسميات وأزعجه التفكير بأنّها لن توجه إليه في يوم، فقد قال لي ليظهر مظهر المرتاح: «أيّ صنف معتوه هو هذا؟» ربّما صدمت تحيّات السيد «دونوربوا» جميعها ما كان أفضل شيء في نفس «بلوك»، ونعني الصراحة الأكثر مباشرة لدى بيئة عصرية، فكان أن رأى جزئياً بصدق أنها مضحكة. ولكنّها كفت على أية حال عن الظهور بهذا المظهر، بل أغبطته منذ اللحظة التي أصبح فيها هو، «بلوك»، موضوعها.

قالت السيدة «دو فيلباريزيس»: «بودّي ياسيدي السفير أن أعرّفك بالسيد. السيد «بلوك»، السيد المركيز «دو نوربوا»». كانت تهتم، على الرغم من الطريقة التي تقسو بها على السيد «دو نوربوا»، بأن تقول له: سيدي السفير» تمسكاً بآداب السلوك ومبالغةً في تقديرها لرتبة السفير، ذاك التقدير الذي لقنها إيّاه السفير، وأخيراً كيما تطبق تلك التصرّفات الأقلّ ألفة والأكثر مجاملة إزاء رجل ما، وهي التي إذ تختلف اختلافاً قاطعاً في صالة امرأة لامعة عن الصراحة التي تستخدمها مع روّاد بيتها الآخرين، إنما تشير في الحال إلى عشيقها.

وأغرق السيد «دو نوربوا» زرقة عينيه في بياض لحيته وأحنى بعمق قامته المديدة وكأنّما يحنيها أمام كل ما يمثله اسم «بلوك» في نظره من شهرة ومهابة وهمس قائلا: «إنني مغتبط»، في حين صحح محدّثه الشاب بسرعة وقد اهتزت مشاعره ولكنه رأى أن الديبلوماسي الشهير يبالغ كثيراً فقال: «لا، بل على العكس تماماً، إنّي أنا المغتبط!» بيد أنّ هذه الحفاوة التي كان السيد «دو نوربوا» يكرّرها حبّاً بالسيدة «دو فيلباريزيس» مع كلّ مجهول تعرّفه به صديقته القديمة لم تبد لهذه الأخيرة تأدّباً كافياً إزاء «بلوك» الذي قالت له:

— «هيّا اسأله كل ما تريد معرفته، واصطحبه جانباً إن كان ذلك أكثر يسراً، وسوف يغبطه أن يتحدّث إليك. وأظنّك كنت تبغي محادثته في مسألة «دريفوس»، تضيف قولها دون أن تهتم إن كان الأمر يروق السيد «دو نوربوا» أكثر مما لعلها فكرت في سؤال رسم الدوقة «دو مونمورانسي» موافقته قبل أن تأمر بإنارته للمؤرّخ، والشاي موافقته قبل أن تقدّم كوباً منه.

وقالت لـ «بلوك»: «كلمّه بصوت عال، فبه شيء من الصمم، ولكنّه سيقول لك كلّ ما تريد، فقد عرف حقّ المعرفة بيسمارك وكافور. أليس أنّك عرفت بيسمارك حق المعرفة؟» تقول بصوت عالٍ.

وسألني السيد «دو نوربوا» بإيماءة يبطنّها التواطؤ وهو يشدّ على يدي بحرارة:«هل لديك عمل باشرته»؟ فاغتنمت الفرصة كي آخذ منه بلطف القبعة التي ظنّ من واجبه أن يجيء بها بمثابة طابع رسميّات إذ تبينت لتوّي أنّ ما أخذه كيفما تيسّر إنّما كان قبعتي. «لقد سبق أن أريتني مؤلفاً صغيراً على شيء من التصنع كنت تبالغ فيه في تعقيد الأمور. وقد أبديت لك رأيي بصراحة ؛ فلم يكن ما فعلته جديراً بأن تسطرّه على الورق. فهل تعدّ لنا أمراً ما؟ إنّك شغوف جداً بـ«بيرغوت»، إن كنت أذكر تماماً.»وصاحت الدوقة قائلة: «لاتتناول «بيرغوت» بالسوء». — «لست أشكّ في موهبة الرسام لديه، فليس من يتبادر الأمر إلى ذهنه أيتها الدوقة. إنّه يحسن النقش بالازميل أو يحمض الآزوت إن لم يقم برسم الخطوط العريضة لتأليف ضخم على غرار السيد «شيربولييه». ولكنّما يبدو لي أن عصرنا يخلط بين أنواع الفنون وأن من شأن الروائي أن يحيك الحبكة ويسمو بالقلوب أكثر منه أن يزوّق بالمنقاش واجهة أو نقشة تذييل.» وأضاف وهو يلتفت إليّ: «سوف أرى والدك نهار الأحد لدى هذا الطبيب المدعوّ أ. ج.».

ومنيت النفس لحظة إذ رأيته يتحدث إلى السيدة «دو غيرمانت» بأنّه ربّما مدّ لي للذهاب إلى منزلها يد العون التي سبق أن حجبها عنّي للذهاب إلى منزل السيدة «سوان» فقلت له: «هنالك مظهر آخر من مواطن إعجابي الكبير، إنّه «ايلستير» ويبدو أن الدوقة «دو غيرمانت» تملك لوحات رائعة له ولاسيما ضمّة الفجل البديعة التي لمحتها في المعرض والتي وددت كثيراً لو أراها ثانية، فأية رائعة فنية تمثلها تلك اللوحة!» ولو تسنى لي بالفعل أن أكون رجلاً مرموقاً وسئلت أي رسم أفضل لذكرت ضمّة الفجل تلك.

وصاح السيد «دونوربوا» بهيئة المستغرب اللائم: «رائعة فنيّة؟ إنّها لاتبلغ حتى مستوى اللوحة، بل هي مجرد رسم أوّلي (وكان على حق). فان دعوت بالرائعة الفنية هذه العجالة السريعة فما بالك بـ«عذراء» هيبير أو دانيان بوفريه؟»

وقالت السيدة «دو غيرمانت» لعمتها بعدما انتحى «بلوك» بالسفير ناحية: «سمعت أنّك ترفضين صديقة

«روبير»، وأحسب أنّ ليس ما تأسفين عليه، تدرين أنّها شيء شنيع، فليست تملك ذرّة موهبة وهي إلى ذلك مضحكة.»

قال السيد «دارجنكور»: «ولكن كيف تعرفينها أيتّها الدوقة؟»

– «كيف، ألا تعلم أنّها مثلت لديّ قبل كل الناس؟ ولست أكثر اعتزازاً لذلك»، تقول السيدة «دو غيرمانت» ضاحكة، ويسعدها مع ذاك، إذ يتّم الحديث عن تلك الممثلة أن تعلن أنّها قطفت باكورة مساخرها. وتضيف قولها: «هيّا، ما عليّ بعد سوى الرحيل»، دون أن تتحرّك.

لقد أبصرت منذ قليل زوجها داخلاً وكانت تلمح بالكلمات التي تنطق بها إلى سخرية أن يبدوا وكأنّهما يقومان سوية بزيارة عرس، لا إلى العلاقات الصعبة في الغالب التي كانت قائمة بينها وبين هذا الرجل الضخم القويّ البنية المتشيخ الذي كان يعيش دوماً مع ذلك حياة الشباب. كان الدوق يتقدّم وهو ينقّل على العدد الكبير من الأشخاص المحيطين بمائدة الشاي النظرات الأنيسة الخبيثة التي بهرتها بعض الشيء أشعة الشمس الغاربة، نظرات حدقتيه الصغيرتين المستديرتين المستقرّتين بدقة في العين شأن مراكز الدريئات التي كان يجيد التسديد إليها وإصابتها على أكمل وجه هذا الرامي الممتاز الذي يمثله، كان الدوق يتقدّم ببطء مفتون حذر كما لو خشي، وقد بعثت في نفسه الرهبةَ جماعة لامعة إلى هذا الحدّ، أن يسير على الفساطين ويخرّب الأحاديث. وكانت تسمح له ابتسامة دائمة تلوّنها الطيبة الساذجة والنشوة الخفيفة ويد نصف مفتوحة تخفق كما جناح سمك القرش إلى جانب صدره ويطلقها ليشدّ عليها دونما تمييز أصدقاؤه القدامى والمجهولون الذين يقدّمون له، أن يرضي حماسة الجميع دون أن يقع عليه القيام بحركة واحدة أو يقطع جولته البشوشة الكسلى الملكية، وهو يهمس فقط: «مساء الخير أيّها الطيبّ، مساء الخير ياصديقي العزيز، سرّني اللقاء ياسيد «بلوك»، مساء الخير يا «أرجنكور». وعلى مقربة منّي، أنا الذي نال أكبر حظوة، قال بعدما سمع اسمي: «مساء الخير ياجاري الصغير، كيف حال أبيك؟» وأضاف قوله كي يرضي كبريائي: «ياللرجل الطيبّ! تدري أنّنا رفيقان حميمان». ولم يقدم على تظاهرات عريضة إلاّ تجاه السيدة «دو فيلباريزيس» التي حيّته باشارة من رأسها وهي تسلّ يداً من صدريتّها الصغيرة.

كان ثرياً هائل الثراء في عالم ترى الناس فيه أقلّ فأقلّ ثراء، وقد ماثل باستمرار بين شخصه وفكرة هذه الثروة الضخمة فاقترن اعتداد السيد الكبير لديه باعتداد رجل المال وتكاد لاتفلح تربية الأوّل المرهفة في كبح غرور الثاني. وكنت تدرك على أي حال أن نجاحاته النسائية التي كانت مصدر شقاء لزوجته لم يكن مردّها محض اسمه وثروته، إذ كان لايزال على جمال كبير وفي خطوط وجهه نقاء إله يوناني وثبات تقاطيعه.

وسأل السيد «دار جنكور» الدوقة قائلاً: «أهي حقاً مثلت في منزلك»؟

– «ويحك، لقدجاءت للإنشاد وفي يدها باقة زنبق و«عا» فسطانها زنابق أخرى». (كانت السيدة «دو غيرمانت» تبدي، شأن السيدة «دو فيلباريزيس» تكلفاً في تلفظ بعض الكلمات على نحو فلاحي تماماً، مع أنها لا تنطق بعض الحروف بطريقة عمتّها.)

وقبل أن يصطحب السيد «دو نوربوا»، مكرهاً مرغماً، «بلوك» إلى الشرفة الصغيرة حيث يمكنهما التحدّث معاً، عدت لحظة إلى الديبلوماسي الشيخ وأسررت إليه بكلمة حول مقعد في المجمع لوالدي. وأراد بادئ الأمر إرجاء الحديث إلى ما بعد. ولكنّي اعترضت بأنّي أزمع الذهاب إلى «بالبيك». «عجباً! أتذهب من جديد إلى «بالبيك»؟ إنّك لجوّاب أفاق حقيقيّ!» ثم أصغى إليّ. ولدى سماع اسم «لوروا بوليو» نظر إليّ السيد «دو نوربوا» نظرة مرتاب. وخيّل إليّ أنه ربما تفوّه أمام السيد «لوروا بوليو» بأقوال مسيئة بحقّ والدي وأنّه يخشى أن يكون الاقتصادي قد ردّدها أمامه. وبدا في الحال يهزّه وداد حقيقيّ إزاء والدي. وبعد واحد من تلك الإبطاءات في الإلقاء التي تنفجر فيها عبارة مفاجئة وكأنما غصباً عن المتحدث الذي يجرف اليقين الذي لايقاوم لديه ما كان يبذل من جهود متعثرة ليصمت، قال لي بانفعال: «لا، لا، ينبغي ألاّ يتقدّم والدك. ولا ينبغي ذلك لصالحه هو، وإجلالاً لقدره، وهو عظيم، وربّما أساء إليه في مغامرة كهذه. إنّه يساوي أفضل من ذلك، وهو إن تم تعيينه سيخسر كل شيء ولايكسب شيئاً. وما هو بالخطيب لله الحمد. وذلك هو الشيء الوحيد المعتبر لدى زملائي الأعزّاء وإن كان ما يقال محض ترّهات. إن لوالدك هدفاً هاماً في الحياة ويجدر به أن يسير رأساً إليه دون أن يسمح بأن يثنيه عن ذلك الطواف في البراري، وإن كانت براري ربّ المجامع، وشوكها مهما تكن الحال أكثر من زهرها. وهو إلى ذلك لن يجمع إلاّ بضعة أصوات. والمجمع يحبّ أن يخضع المرشح للتدريب قبل أن يقبله في حظيرته. لاثمرة في الوقت الراهن، أمّا فيما بعد فلست أمانع. بيد أنّه لابدّ من أن يجيء المجمع نفسه ليبحث عنه، فهو يمارس سياسة «القرار المستقلّ» التي ينادي بها جيراننا خلف جبال الألب وذلك بما هو أقرب إلى الصنميّة منه إلى الفلاح. لقد حدّثني «لوروا بوليو» عن كل ذلك بطريقة لم ترقني. وقد بدا لي للوهلة الأولى أنّه على اتفاق مع والدك؟.... ربّما حملته بلهجة قاسية بعض الشيء إلى الإحساس بأنّه لايحسن، وقد تعوّد الاهتمام بالأقطان والمعادن، أن يدرك دور دقائق الأمور، على حدّ قول بيسمارك. ما ينبغي تجنبه قبل أي شيء أن يقدّم والدك ترشيحه: Principiis obsta [1] وقد يلفي اصدقاؤه أنفسهم في وضع حرج إن جابهم بالأمر الواقع». وقال فجأة بلهجة صريحة وهو يثبت عليّ عينيه الزرقاوين: «نخذ مثلاً، سأقول لك أمراً سوف يدهشك من جانبي أنا الذي يحب والدك إلى هذا الحدّ. أجل، بالضبط لأنّي أحبه (فنحن لايفارق أحدنا الآخر Arcades ambo) [2] ولأني أعرف بالضبط الخدمّات التي يمكن أن يؤدّيها لبلاده والمخاطر التي يمكن أن يجنبها إياها إن ظلّ يمسك بالدفّة فلن أصوّت له بداعي المودّة والتقدير الرفيع والوطنية ! و أحسب على أيّة حال انني ألمحت إلى ذلك. (وحسبتني أبصر في عينيه تقاطيع «لوروا بوليو» الآشورية القاسية.) وإنّما يعني منحه صوتي ضرباً من التراجع.» وعدّ السيد «دونوربوا» زملاءه بمثابة مستحاثات مرّات عديدة. وإنّما يحبّ كلّ عضو في ناد أو مجمع، بمعزل عن الأسباب الأخرى، أن يولي زملاءه نوع الطباع الأكثر تعارضاً مع طباعه وذلك للاعتزاز الذي يداخله أن يبرز اللقب الذي ناله على أنّه أكثر صعوبة وأبعث على الزهو أكثر منه لجدوى أن يمكنه القول: «آه! لو لم يكن من يدٍ في الأمر إلاّ لي!» وخلص إلى

(١) العبارة لاتينية، وتعني التمسك بالمبادئ، وبما أن المتحدث عضو في المجمع فإنه يرى حسناً أن يلجأ إلى اللاتينية، بين الحين و الحين.

(٢) العبارة لشاعر الرومان الأول (فيرجيليوس) وتعني الأركاديين الإثنين ويرمز بها إلى زوج من الأغبياء، ولعل «دونوربوا» لايتبين المعنى الأخير.

القول: «سأقول لك، وذلك لصالحكم جميعكم، إنّي أفضل لوالدك انتخاباً مظفراً بعد عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً.» وقد حكمت أن تلك الأقوال إن لم تملها الغيرة فقد أملاها على الأقلّ غياب كليّ لحب المعروف وقد اتّخذتْ فيما بعد من الحادثة نفسها معنى مختلفاً.[1] وقالت الدوقة لزوجها: «تعرف عمن نتحدّث يا «بازان» ؟

فقال الدوق: «حزرت بالطبع. آه! ليست ما نسميه بممثلة من سلالة العظماء.»

وعادت السيدة «دو غيرمانت» تقول وهي توجّه الكلام للسيد «دار جنكور»: «لم تتصورّ قطّ ما كان أكثر إثارة للسخرية».

وقاطع السيد «دو غيرمانت» قائلاً: «بل كان إلى ذلك مسلياً»، وكانت كلماته الغريبة تسمح في الآن نفسه لرجال المجتمع أن يقولوا إنّه لم يكن غبياً ولرجال الأدب أن يلفوه من أبشع المعتوهين.

وأردفت الدوقة: «لا أستطيع أن أفهم كيف استطاع «روبير» أن يحبها في يوم. أوه! أعرف تماماً أنّه لاينبغي البتّة مناقشة هذه الأمور»، تضيف قولها ولها عبسة حلوة لفيلسوف ولعاطفيّة مخيّبة الآمال. «وأعلم أن أيّاً كان يمكن أن يحبّ أيّ شيء كان.» ثم أضافت: «بل إن ذلك ماهو جميل في الحبّ، فهو بحقّ ما يجعله مكتنفاً بالأسرار»—، ذلك أنّها إن كانت لاتزال تسخر من الأدب الجديد، فقد تسرّب هذا الأخير قليلاً إلى نفسها ربّما بطريق التبسيط الصحافيّ أو من خلال بعض الأحاديث—.

وقال الكونت «دار جنكور»: «مكتنف بالأسرار! أقرّ أن الأمر يجاوزني قليلاً يا ابنة العمّ.»

فأردفت الدوقة تقول بابتسامة عذبة لامرأة مجتمعات لطيفة، بل كذلك بالقناعة المتشدّدة التي لواحدة من نصيرات «فاغنر» تؤكد لرجل منتدى أن ليس في مسرحية الـ«فالكيري» ضجيج فحسب: «بلى، الحبّ مكتنف بالكثير من الأسرار. وعلى أيه حال، لست تعرف في الأساس لماذا يحبّ شخص آخر غيره. وقد لا يكون الأمر البتة ما نحسب»، تضيف مبتسمة ومستبعدة بذلك دفعة واحدة بفعل تفسيرها الفكرة التي فاهت بها منذ قليل وخلصت إلى القول بلهجة مرتابة متعبة: «والمرء على أيّة حال لا يعرف قطّ شيئاً. وينبغي لذلك،

(١) وسأل مؤرخ حركة التمرد السيد «دونوربوا» بوجل قائلاً: «أليس في نيتك أن تحدث المعهد عن ثمن الخبز في أثناء حركة التمرد؟ فقد تلاقي في ذلك نجاحاً هائلاً» (الأمر الذي كان معناه تقوم بدعاية ضخمة لي)، يضيف قوله وهو يبتسم للسفير بجبانه، الا أنه يفعل ذلك بحنان جعله يرفع أجفانه ويكشف عن عينيه، وهما في اتساع السماء. كان يبدو لي أني رأيت تلك النظرة مع أني ما عرفت السفير الا اليوم. وتذكرت فجأة: هذه النظرة نفسها سبق لي أن رأيتها في عيني طبيب برازيلي كان يدعي شفاء الاختناقات التي من قبيل ما كان يصيبني وذلك بتنشقات لاتصدق لخلاصات نباتات، ولما كنت قد قلت له، كيما يهتم بي اهتماما أكبر، أنني أعرف الأستاذ «كوتار» أجابني وكأنما في صالح «كوتار»: «إليك علاجاً يزوده، إن أنت حدثته عنه، بالمادة اللازمة لبحث مدو يرفعه إلى المجمع الطبي!» ولم يجرؤ على الإلحاح، ولكنه نظر إليّ بالهيئة المستفسرة الوجلة نفسها المهتمة المتوسلة التي أعجبت بها منذ قليل لدى مؤرخ حركة التمرد. صحيح أن هذين الرجلين لم يكن يعرف أحدهما الآخر ويكاد لايشبه أحدهما الآخر، ولكن القوانين النفسية تتمتع، شأن القوانين الفيزيائية ببعض العمومية. وإن كانت الشروط اللازمة واحدة فإن النظرة نفسها يمكن أن تنير حيوانات إنسانية مختلفة مثلما تنير السماء الصباحية نفسها أماكن في الأرض بعيداً بعضها عن بعضها الآخر، ولم يشاهد أحدها الآخر قط. ولم أسمع جواب السفير لأن الجميع كانوا قد اقتربوا بشيء من الضجيج من السيدة «دوفيلياريزيس» ليشاهدوها ترسم.

تدري، ألأنناقش البتّة في اختيار العشاق، فذلك ينّم عن ذكاء أكبر.»

ولكنها بعدما طرحت هذا المبدأ خرقته في الحال بانتقادها اختيار «سان لو».

– «تدري مع ذلك، إنّي أرى عجباً أن يستطيع المرء أن يجد فتنة في شخص يثير السخرية.»

وإذ سمع «بلوك» أنّنا نتحدّث عن «سان لو» وأدرك أنّه في باريس أخذ يتناوله بسوء مريع إلى حد أثار الجميع. لقد أخذت تخالجه الأحقاد وكنت تحس أنّه لن يتراجع أمام شيء بغية إشباعها. ولما طرح بمثابة مبدأ أنّه يتمتع بقيمة أخلاقية عالية وأنّ صنف الناس الذين يرتادون «لابولي» (وهو ناد رياضيّ كان يحسبه أنيقاً) إنّما هم أهل للسجن فقد كانت تبدو له جميع الضربات التي يمكن أن يلحقها بهم جديرة بالثناء. وبلغ به ذات مرّة أن تحدّث عن دعوى كان يبغي إقامتها على أحد أصدقائه من نادي «لابولي». كان ينوي أثناء تلك الدعوى أن يشهد شهادة كاذبة لايستطيع المتهم مع ذلك إقامة الدليل على زيفها. كان «بلوك» الذي لم ينفّذ على أيّة حال مشروعه يظنّ أنّه يبعث بهذه الطريقة اليأس في نفسه ويزيد من ذعره. وأيّ سوء في ذلك بما أن الذي كان يبغي ضربه على هذا النحو رجل لايفكر إلاّ بالأناقة، رجل من نادي «لابولي»، وأن جميع الأسلحة مصرّح بها ضدّ مثل هؤلاء القوم ولاسيما لقدّيس مثله هو، «بلوك»؟

ويردّ السيد «دارجنكور» بقوله: «ولكن خذي «سوان» مثلا»، بعدما أدرك آخر الأمر معنى الأقوال التي تفوّهت بها ابنة عمّه ودهش لصحتّها وأخذ يبحث في ذاكرته عن مثال لجماعة أحبوا أشخاصاً ما كانوا ليروقوه.

واحتجت الدوقة قائلة: «سوان حالة مختلفة تماماً. كان الأمر مع ذلك مدهشاً جدّاً لأنّها بلهاء طيبّة القلب ولكنها لم تكن مضحكة وقد كانت جميلة.»

وغمغمت السيدة «دو فيلباريزيس»: «هيه، هيه».

– «آه! ما كنت ترين أنها جميلة؟ بلى، كانت لها مفاتنها، عينان جميلتان جدًا وشعر جميل وكانت ملابسها ولاتزال رائعة. إنّي أعترف أنّها مقرفة الآن، ولكنّها كانت فيما مضى امرأة فاتنة. ولم يكن غمّي بذلك أقلّ ان تزوّجها «شارل» لأنّ الأمر كان عديم الجدوى إلى حدّ بعيد.»

وما كانت الدوقة تحسب أنّها تقول شيئاً ملفتاً ولكنّما أخذ السيد «دارجنكور» في الضحك فكررّت الجملة إمّا لأنها وجدتها غريبة أو أنها ألفتْ الضحك لطيفاً فشرعت تنظر إليه نظرة مغناجة لتضيف إلى سحر الظرافة فتنة الحلاوة. وتابعت تقول:

«أجل، أليس كذلك، لم يكن من داع للأمر؛ على أنّها لم تكن عديمة الفتنة وأدرك تماما أن أحبثوها، في حين أن آنسة «روبير» بالتأكيد مضحكة إلى حدّ الموت. أعرف تماماً أنّهم سيردّون عليّ بهذه اللازمة القديمة لـ«أوجييه»: «لاشأن للقارورة شرط أن تبلغ النشوة!» حسن، ربّما حاز «روبير» النشوة ولكنه بالحقيقة لم يبرهنَ عن ذوق في اختيار القارورة! تصوّر بادئ الأمر أنها طالبتني باقامة درج في قلب صالتي. والأمر زهيد، ألست ترى، ثمّ هي أخبرتني أنها ستظّل منبطحة على بطنها فوق الدرجات. ولو أنّك سمعت من جهة ثانية ما كانت تقول، أنا لا أعرف سوى مشهد واحد، ولكنّي لا أحسب بالامكان تخيل ما كان من هذا

القبيل: إنهم يدعون ذلك بـ«الأميرات السبع». وصاح السيد «دارجنكور» قائلاً:

— «الأميرات السبع!، آه! أجل، أجل، باللسنوبيّة! ولكن صبرك، فإنّي أعرف الرواية كاملة. لقد بعث بها المؤلف إلى الملك الذي لم يفهم فيها شيئاً وسألني أن أشرح ذلك.»

وسأل مؤرخ حركة التمرّد بقصد إبداء الذكاء المرهف والراهنيّة، ولكن بصوت خافت إلى حدّ أنّ سؤاله لم يلفت الانتباه: «ألا يصادف أن يكون ذلك من أعمال «ساربيلادان»؟

وردّت الدوقة على السيد «دارجنكور» قائلة: «أو تعرف «الأميرات السبع»؟ تهاني لك كل التهاني! أمّا أنا فلا أعرف سوى واحدة ولكن ذلك أفقدني الشوق إلى التعرّف بالستّ الأخريات. فإن كنّ جميعاً شبيهات بتلك التي رأيتها!»

وفكرت في نفسي قائلاً: «ياللغبيّة!»، وقد أغضبني الاستقبال الجاف الذي قابلتني به.. ووجدت نوعاً من الارتياح العميق في ملاحظة لافهمها التامَ لـ«ميترلنك». «ألمثل هذه الامرأة أسير في كلّ صباح هذه الكيلومترات الكثيرة، إني طيبّ النفس حقاً! وإنما أنا الآن من لايرضى بها.» تلك كانت العبارات التي كنت أقولها بيني وبين نفسي، وكانت عكس تفكيري ؛ كانت محض أقوال في حديث شبيه بما نسرّ به لأنفسنا في هذه اللحظات التي يجاوز فيها اضطرابنا حدّ البقاء وحدنا مع ذواتنا فنحس بحاجة التحدّث إلى أنفسنا في غياب أي محاور آخر، وذلك دونما صدق وكأنما إلى غريب.

وتابعت الدوقة قولها: «لا أستطيع أن أزوّدك بفكرة عن ذلك فقد كان يثير أعنف الضحك. ولم نقصرّ فيه، بل جاوزنا الحدّ لأنّ المرأة الصغيرة لم تعجب به، وقد ظلّ «روبير» حاقداً عليّ من جراء ذلك، الأمر الذي لا آسف له على أيّة حال فقد كانت عادت الآنسة لو أنّها صادفت نجاحاً، وأتساءل إلى أي مدى كانت «ماري إينار» ستغتبط له.»

هكذا كانوا يسمّون في العائلة والدة «روبير» السيدة «دو مارسانت» أرملة «إينار دو سان لو» ليميّزوا بينها وبين ابنة عمّها الأميرة «دو غيرمانت بافيير»، وهي ماري أخرى، كان أبناء أشقائها وأعمامها وأصهارها يضيفون إلى اسمها بغية تلافي الاختلاط إمّا اسم زوجها وإمّا واحداً من أسمائها الأخرى، الأمر الذي كان يفضي إمّا إلى «ماري جيلبير» أو إلى «ماري هيدويج».

وتابعت السيدة «دو غيرمانت» بلهجة ساخرة: «تمّ بادئ الأمر في عشية ذلك اليوم نوع من التجربة، كان شيئاً رائعاً! تصوّر أنّها كانت تقول جملة، وهي حتى لا تبلغها، بل ربع جملة، ثم تتوقف، ولا تقول شيئاً من بعد، ولست أبالغ، على مدى خمس دقائق.»

وصاح السيد «دارجنكور»: «بلى، بلى، بلى!»

— «لقد سمحت لنفسي أن ألمح بأقصى التهذيب إلى أن الأمر ربّما يثير بعض الدهشة، فأجابتني بالحرف: «ينبغي أبداً أن نقول الشيء وكأنما نحن ماضون شخصياً في تأليفه.» والجواب ضخم إن أنت فكّرت فيه!»

وقال أحد الشابين: «ولكني كنت أحسبها تحسن إلى حدّ ما قول الأشعار».

فأجابت السيدة «دوغيرمانت»: «إنّها لاترتاب في ما يكون ذلك. ولم أحس على أيّة حال بالحاجة إلى سماعها. فقد اكتفيت برؤيتها تحمل زنابق! لقد أدركت في الحال أنّها لاتتمتّع بموهبة حينما رأيت الزنابق!»

وضحك الجميع.

– «ألم تغضبي منّي يا عمتّي لقاء مزاح ذاك اليوم بشأن ملكة السويد؟ لقد جئت أسالك الأمان.»

– «لا، لست غاضبة منك وإنّي أمنحك حتى حق تناول العصرونية إن كنت جائعاً.»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» لأمين المحفوظات وفق مزاح أصبح شائعاً: «هيّا ياسيد «فالنير»، قم بدور الفتاة.»

وانتصب السيد «دو غيرمانت» في مقعده الذي كان مسترخياً فيه وقبعته إلى جانبه فوق السجادة ونظر نظرة راضية إلى قصعات المعجنات المحمصة التي تقدم له.

–«بطيبة خاطر، الآن وقد بدأت آلف هؤلاء الحضور الكرام، أقبل بقطعة «بابا»، فإنها تبدو ممتازة.»

وقال السيد «دارجنكور» الذي ردّد مزاح السيدة «دو فيلباريزيس» يدفعه روح التقليد: «إنه يقوم على نحو رائع بدور الفتاة الموكل إليه».

وقدّم أمين المحفوظات قصعة المعجنات لمؤرّخ حركة التّمرد، فقال له هذا الأخيرْ وَجَلاً وفي محاولة كسب العطف العامّ: «إنّك تنهض بوظيفتك على نحو رائع».

ورمى الذين سبق أن فعلوا مثله، رماهم خفية بنظرة تواطؤ.

وسأل السيد «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» قائلا: «قولي لي يا عمتي الطيبة من ذاك السيد الحسن الشخصية الذي كان خارجاً حين دخلت؟ لابدّ أنّي في خصام مع الأسماء، والأمر مزعج جداً»، يقول قول الراضي عن نفسه.

– «السيد لوغراندان»

– «آه! ولكن لـ «أوريان» ابنة عمّ والدتّها، إن لم تخنّي الذاكرة، من عائلة «غراندان».

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس»: «لا،، ليس من صلة البتّة، فإنهّم من آل «غراندان» فحسب ولاشيء سوى ذلك. ولكنّهم إنّما يسعون إلى إضافة ما شئت إلى كنيتهم (ممّا يدلّ على النبلاء) [1]. إن شقيقة هذا

(١) ما ورد بين قوسين مضاف إلى النص الفرنسي في محاولة لايضاح الفكرة. ويعرّف ارستقراطيو فرنسه بإضافة اسم إلى كنيتهم يمثل بعامة أحد ممتلكاتهم من قصر أو أرض والسيدة تنفي أن يكونوا من النبلاء، فيما يسعون هم إلى كسب الصفة.

الأخير تدعى السيدة «دو كامبرمير».

وصاحت الدوقة غاضبة: «ويحك يا«بازان»، تعلم تماماً عمن تبغي عمتّي التحدّث، إنّه شقيقُ تلك العاشبة الضخمة التي خطرت لك فكرة غريبة في ارسالها للقائي ذلك اليوم. لقد مكثت ساعة وحسبت أنني سأجنّ. ولكنّي بدأت أعتقد أنها هي المجنونة إذ رأيت امرأة تدخل بيتي ولا أعرفها وتبدو كأنها بقرة.»

– «اسمعي يا «أوريان» لقد طلبت منّي يوم استقبالك فما كان بمقدوري أن أرتكب فظاظة إزاءها، ثم إنّك تبالغين، ويحك، فليس يبدو أنّها بقرة»، يضيف قوله بلهجة شاكية، ولايفعل دون أن يلقي خلسة على الحضور نظرة تشرق فيها ابتسامة.

كان يعلم أنّ قريحة أمرأته بحاجة أن تُستحثّ بالمعارضة، بمعارضة الحس السليم الذي يعترض على سبيل المثال بأنه لايمكن أن تعدّ امرأة بمثابة بقرة (فكثيراً ما أفلحت السيدة «دو غيرمانت» في أداء أفضل كلماتها بمجاوزة الصورة الأولى). وكان الدوق يبادر بسذاجة إلى مساعدتها لتنجح في طرفتها دون أن يبدي من ذلك شيئاً مثلما الشريك المستتر للاعب يانصيب في عربة قطار.

وصاحت السيدة «دو غيرمانت» قائلة: «أعترف بأنّها لاتشبه البقرة لأنّها تشبه عدّة بقرات. وأقسم لك أنني كنت شديدة الارتباك إذ رأيت هذا القطيع من الأبقار يدخل بالقبعة إلى صالتي ويسألني عن الحال. كنت أرغب من جهة في أن أجيب: «ولكنك تخلط يا قطيع الأبقار فلا يمكن أن تكون على علاقة بي بما أنك قطيع أبقار»، ولكني ظننت في النهاية، من جهة ثانية، وبعدما بحث في ذاكرتي، أنّ «كامبرمير» التي رويتّ عنها هي صاحبة الرفعة «دوروتيه» التي سبق أن قالت إنّها ستأتي مرّة، وهي «بقريّة» إلى حدّما، حتى أوشكت أقول ياصاحبة السموّ الملكي وأتحدّث بضمير الغائب إلى قطيع أبقار. وإن لها نوع المعدة الثالثة التي لملكة السويد. على أنّ هذا الهجوم الذي تمّ عنوة سبق الإعداد له بقصف بعيد وفق جميع قواعد الفنّ. فمنذ مالا أدري من وقت كانت تنهمر عليّ بطاقاتها فأجد منها في كلّ مكان وعلى سائر قطع الأثاث وكأنّها نشرات دعائية. كنت أجهل غاية تلك الدعاية. فما كنت ترى في منزلي سوى «المركيز والمركيزة دو كامبرمير» إلى جانب عنوان لا أتذكّره وأنا مصممّة على أية حال ألاّ استخدمه في يوم.»

وقال مؤرّخ حركة التمرد: «إنّما لمبعث اعتزاز أن تكون شبَهَ الملكات.»

– «ياإلهي، الملوك والملكات في عصرنا ليسوا بالأمر العظيم»، يقول السيد «دو غيرمانت» لأنّه كان يدّعي التحرّر الفكري والحداثة وكي لايبدو إلى ذلك أنّه يهتّم بالعلاقات الملكية التي كانت تهمه كثيراً.

وألفينا «بلوك» والسيد «دونوربوا» بعدما نهضا أكثر قربا منّا.

وقالت السيدة : «هل حدّثته ياسيدي عن قضية «دريفوس» ؟

فرفع السيد «دو نوربوا» عينيه إلى السماء ولكنه كان يتبسم كأنّما ليبرز ضخامة النزوات التي تفرض عليه ربّة أفكاره واجب الخضوع لها. بيد أنه كلّم «بلوك» بكثير من اللطف عن السنوات الرهيبة، بل ربّما

القاتلة التي تجتازها فرنسه. وبما أن ذلك كان يعني على الأرجح أن السيد «دو نوربوا» (الذي سبق أن نقل إليه «بلوك» مع ذلك اعتقاده ببراءة «دريفوس») يقف بعنف ضدّ «دريفوس»، فإن لطف السفير وما يبدي من إقرار بالحقّ لمحدّثه ومن أنّه لا يشكّ بأنّهما يريان الرأي نفسه ومن تواطؤ معه للتنديد بالحكومة، كان كلّ ذلك يدغدغ كبرياء «بلوك» ويثير فضوله. فما هي النقاط الهامة التي لم يكن السيد «دو نوربوا» يحدّدها ولكنّما يبدو وكأنه يقبل ضمناً بأنّه و«بلوك» متفقان عليها، وما الرأي الذي يراه في القضيّة الذي يمكن أن يجمع بينهما؟ وكان يزيد من دهشة «بلوك» إزاء الاتّفاق الغامض الذي يبدو قائماً بينه وبين السيد «دونوربوا» أن ذاك الاتّفاق لم يكن يتناول السياسة فحسب، إذ كانت السيدة «دو فيلباريزيس» قد حدّثت السيد «دو نوربوا» حديثاً طويلا إلى حدّما عن أعمال «بلوك» الأدبيّة.

وقال السفير السابق لهذا الأخير: «لستَ من عصرك، وإنّي اهنّئك على ذلك، لستَ من هذا العصر الذي لا وجود فيه من بعد للدراسات المجرّدة من المآرب والذي لايبيعون فيه للجمهور من بعد سوى صنوف الخلاعة أو السخافة. كان جديراً بجهود مثل جهودك أن تلقى التشجيع لو كانت لدينا حكومة.»

كان يثير اعتزاز «بلوك» أن يطفو وحده وسط هذا الغرق الشامل. ولكنّما ودّ ههنا أيضاً لو يحصل على إيضاحات ولو يعلم السخافات التي يبغي السيد «دو نوربوا» أن يتحدّث عنها. كان «بلوك» يحسّ بأنّه يعمل في الدرب الذي سلكه كثيرون ولم يحسب أنّه خارق إلى هذا الحدّ. وأعاد الكرّة على قضيّة «دريفوس» ولكنّه لم يفلح في كشف رأي السيد «دو نوربوا». وحاول أن يحمله على الكلام عن الضبّاط الذين كانت أسماؤهم تتكرّر كثيراً على صفحات الصحف في تلك الفترة، وكانوا يثيرون الاهتمام أكثر من السياسيين المشتركين في القضية نفسها لأنّهم لم يكونوا معروفين آنذاك شأن هؤلاء، وقد طلعوا منذ قليل وتكلموا في بزّة خاصة ومن أعماق حياة مختلفة وصمت التزم بدقة، شأن «لوهانغرين» ينحدر من قارب يقوده تمّ. وكان «بلوك» قد استطاع بفضل محام وطنّي يعرفه أن يدخل إلى عدّة جلسات من محاكمة «زولا». كان يصل هنالك في الصباح ولايخرج إلاّ في المساء يحمل مؤونة من الصاندويش وزجاجة قهوة كما هي الحال في المسابقة العامة أو امتحانات البكالوريا، وإذ كان تبديل العادات هذا يوقظ الهياج العصبي الذي تبلغ به القهوة والانفعالات الناجمة عن المحاكمة أقصى حدّله، فقد كان يخرج من هناك بالغ العشق لكلّ ما جرى إلى حدّ أنّه كان يبغي في المساء بعدما يعود إلى منزله أن ينغمس من جديد في الحلم الجميل فيجري ليلاقي في مطعم يرتاده الفريقان رفاقاً يعيد معهم حديثاً لاينتهي عمّا جرى في النهار ويصلح بفضل عشاء يوصي عليه بلهجة آمرة تخلف في نفسه وهم السلطة الصيام ومتاعب يوم بدأ باكرا جدّا ولم يتّم فيه تناول طعام الغداء. والإنسان الذي يتنقّل باستمرار بين مستويي التجربة والخيال راغب في تعميق الحياة المثلى للناس الذي يعرفهم وفي معرفة الأشخاص الذين تمّ له تخيل حياتهم. وأجاب السيد «دو نوربوا» على أسئلة «بلوك» قائلا:

«ثمة ضابطان اشتركا في القضية القائمة وقد سمعت عن أخبارهما فيما مضى على لسان رجل كنت أثق ثقة كبيرة برأيه وكان يقيم وزناً كبيراً لهما (هو السيد«دو ميريبيل»)، وهما المقدّم «هنري» والمقدّم «بيكار».

وصاح «بلوك» قائلاً: «ولكنّ «أثينا» الإلهيّة ابنة «زيوس» وضعت في عقل كل منهما عكس مافي

عقل الآخر وإنّهما ليتصارعان وكأنّهما أسدان. كان العقيد «بيكار» يتمتع بمركز كبير في الجيش ولكنّ البزّة قادته إلى الجانب الذي لم يكن جانبه. وسوف يقطع سيف الوطنيين جسده الرقيق ويضحي غذاء للوحوش اللاحمة والطيور التي تتغذّى بشحوم الأموات.»

ولم يحر السيد «دو نوربوا» جواباً.

وسأل السيد «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» وهو يشير إلى السيد «دو نوربوا» و«بلوك»: «عما يثرثران في زاوية هناك؟»

—«عن قضيّة دريفوس»

– «يا ويحمها! هل تعلمين بالمناسبة من يناصر «دريفوس» إلى حدّ الولع؟ لاسبيل البتّه لأن تحزري. إنّه ابن أخي «روبير»! بل سأقول لك إنّهم عندما بلغتهم تلك المآثر في نادي الفروسية ثاروا ثورة عارمة وأطلقوا صيحات الاستنكار. وبما أنّه سيتم تقديمه بعد ثمانية أيّام...»

وقاطعته الدوقة قائلة: «بالطبع، إن كانوا جميعهم على شاكلة «چيلبير» الذي أكد دوما أنّه ينبغي طرد جميع اليهود إلى القدس...».

وقاطع السيد «دارجنكور» بدوره: «إذن فالأمير «دو غيرمانت» يماشي أفكاري تماماً.»

كان الدوق يتباهى بامرأته ولكنّه لايحبّها. وإذ كان شديد الإعجاب بنفسه فقد كان يكره أن يُقاطع، ثم إنّه كان من عادته في منزله أن يعاملها بفظاظة. وهزّه غضب مزدوج، غضب الزوج السيئ الذي يجري التحدّث إليه والمحدّث المتحذلق الذي لايتم الإصغاء إليه فتوقف على الفور ورمى الدوقة بنظرة أربكت الجميع. وأخيراً قال:

«ما الذي دهاك لتحدّثينا عن «جيلبير» والقدس؟ فما هذا هو الأمر.» ولكنّه أضاف بلهجة مُطلقة: «ستقرّين أنّه إنْ رفُضَ واحد منا في نادي الفروسية، ولاسيما «روبير» الذي كان والده رئيساً على مدى عشرة أعوام، فسيكون ذلك قمة المصيبة. لاحول لنا في ذلك ياعزيزتي، لقد جنّ هؤلاء الناس وحملقوا بعيونهم. ولا أستطيع أن أحققهّم. تعلمين أنّي شخصياً خلو من أيّ تحيز عرقي فلست أرى أنّ ذلك يماشي عصرنا واني عازم على مسايرة الركب. ولكن، ويحك! حينما يحمل المرء اسم المركيز «دو سان لو» فليس له أن يكون من أنصار «دريفوس»، ماذا تبغينني أن أقول!».

وتلفظ السيد «دو غيرمانت» بهذه الكلمات: «حينما يحمل المرء اسم المركيز «دو سان لو» بلهجة مفخمة. كان يعلم مع ذلك تمام العلم أن حمل اسم «الدوق دو غيرمانت» أرفع شأناً بكثير. ولئن كان اعتزازه بنفسه ميالاً إلى أن يضخّم في عينيه بالأحرى تفوّق لقب الدوق «دو غيرمانت» فربما لم تكن تدفعه إلى التقليل منه قواعد الذوق السليم بقدر ما يراه لدى الآخرين. ذلك أن القوانين التي تحكم المنظور في المخيلة إنّما تنطبق على الناس الآخرين سواء بسواء. وليس الأمر أمر قوانين المخيلة فحسب بل أمر قوانين اللغة كذلك.

وكان يمكن هنا أن ينطبق هذا أو ذاك من قانوني اللغة. فالأوّل يقضي أن يتحدّث المرء مثل جماعة طبقته الذهنية لا طبقته الأصليّة. كان يمكن للسيد «دو غيرمانت» نتيجة لذلك أن يدين في تعابيره، حتى حينما يبغي التحدّث عن طبقة النبلاء، لصغار البورجوازيين الذين ربّما قالوا: «حينما يحمل المرء اسم الدوق «دو غيرمانت» فيما لعلّ رجلاً مثقفاً من أمثال «سوان» و«لوغراندان» ما كان ليقول ذلك. يستطيع دوق أن يكتب روايات سمّان حتى حول أخلاق المجتمع الراقي فهنا لا تفيد ألقاب النبلاء في شيء ويمكن لكتابات رجل من عامة الشعب أن تحوز صفة الارستقراطية. فمن تراه كان في هذه الحالة البورجوازي الذي سمعه السيد «دو غيرمانت» يقول: «حينما يعى المرء»، إنّه دونما شك لايعلم شيئاً من ذلك. ولكنّ ثمة قانوناً آخر في اللغة قوامه أنّه ينبثق بين الحين والحين، مثلما تظهر ثم تبتعد بعض الأمراض التي لاتسمع من بعد من يتحدّث عنها، ينبثق دون أن نعلم كيفية الأمر، إمّا تلقائياً بفضل مصادفة شبيهة بتلك التي أنبتت في فرنسه عشبة ضارّة من أميركا سبق أن سقطت بذرتها العالقة بوبر غطاء صوف سفريّ على سفح خطّ حديدٌ، طرائق تعبير تتناهى إلى الأسماع في العقد نفسه على لسان أناس لم يتوافقوا في الأمر. ومثلما سمعت «بلوك» في إحدى السنين يقول وهو يتحدّث عن نفسه: «لما لاحظ أكثر الناس ظرفاً وأشدّهم تالقاً وأفضلهم رزانة وأكثرهم تشدّدا أن ليس سوى رجل واحد يرونه ذكيا وممتعا وهو بلوك»، والجملة نفسها على لسان العديد غيره من الشبان الذين لايعرفونه والذين يحلوّن محلّ «بلوك» فحسب اسمهم الخاصّ، كذلك كان ينبغي أن أسمع كثيراً عبارة «حينما يدعى المرء».

وتابع الدوق قوله: «ما عساك تبغين، مع الروح السائدة هنا يصبح الأمر قريب الإدراك.»

فأجابت الدوقة: «الأمر مضحك على وجه الخصوص إذا نظرنا إلى أفكار والدته التي تزهقنا من الصباح إلى المساء بـ«الوطن الفرنسي»».

– «أجل، ولكنّ والدته ليست وحيدة هناك، وينبغي ألاّ تروي لنا الأكاذيب. هنالك امرأة لعوب، بهلوانة من أسوأ طينة وهي أشدّ تأثيراً عليه وهي بالضبط من موطن «السيد دريفوس». وقد نقلت إلى «روبير» عقليّتها.»

وقال أمين المحفوظات الذي كان أمين اللجان المعادية لإعادة النظر في الدعوى: «ما كنت ربّما تعلم ياسيدي الدوق أن ثمة كلمة جديدة للتعبير عن نمط التفكير هذا. إنّهم يقولون «الذهنية». وهي تعني الشيء ذاته تماماً ولكنّما لايعرف أحد على الأقل ما الذي ترمي إليه. إنّها الخلاصة و«آخر ما جادت به القرائح»، كما يقولون».

وإذ سمع في هذه الأثناء اسم «بلوك» رآه يطرح أسئلة على السيد «دو نوربوا» باضطراب بعث بدوره اضطراباً مختلفاً في نفس المركيزة ولكنه يساويه شدّة. كانت ترتجف أمام أمين المحفوظات وهي تصطنع مناهضة «دريفوس» معه وتخشى ملامته إن هو تبيّن أنّها استقبلت يهودياً ينتسب إلى حدّما إلى «النقابة».

وقال الدوق: «آه! ذهنيّة، سأسجّل ذلك وأعود فأستخدمه. (ولم تكن صورة بلاغية فقد كان الدوق يحمل دفتراً صغيراً مليئاً «بالشواهد» وكان يعيد قراءتها قبل مآدب العشاء الكبرى. تروقني «الذهنية». هناك من

هذا القبيل لفظات جديدة يطلقونها ولكنها لاتدوم. لقد قرأت مؤخراً من هذا القبيل أن الكاتب يكون «مواهبياً». هيّا افهم إن كنت تستطيع. وما عدت رأيت اللفظة ثانية.»

وقال مؤرّخ حركة التمرّد بغية المشاركة في الحديث: «ولكنّ «ذهنيّة» أكثر استعمالاً من«مواهبّي». فأنّي عضو إحدى اللجان في وزارة التعليم العام وقد سمعتهم يستخدمونها عدّة مرّات، وكذلك في ناديّ، نادي «فولنيه»، وحتى في مأدبة عشاء لدى السيد «أميل أوليفييه».

– «أمّا أنا الذي لم يحز شرف عضوية وزارة التعليم العام». يجيب الدوق قوله بتواضع متصنع، ولكنّما يفعل بغرور عميق إلى حدّ أن فمه لايستطيع الحؤول دون أن يبتسم وعينيه دون أن ترميا الحضور بنظرات تغتلي سرورا ويحمرّ من سخريتها المؤرّخ المسكين، «أنا الذي لم يحز شرف عضوية وزارة التعليم العام». يقول ثانية وهو يصغي إلى مايقول، «ولانادي فولنييه (فإني عضو في الاتحاد وفي نادي الفروسية فحسب...) وسأل المؤرخ الذي اشتّم في السؤال وقاحة فلّما لم يفهمها أخذ يرتعد كلّ عضو فيه: «ألست من نادي الفروسية ياسيد؟ أنا الذي لايتعشى حتى في منزل السيد «أميل أوليفييه» فإني أقرّ بأني ما كنت أعرف كلمة «ذهنيّة». ويقيني أنك في مثل حالي يا «آرجنكور».... تعرف لماذا لا يمكن إقامة الدليل على خيانة «دريفوس». ذلك لأنه فيما يبدو عشيق امرأة وزير الحرب، هذا ماتتنافله الأفواه في الظلام.».

وقال السيد «دار جنكور»: «آه! ظننته عشيق امرأة رئيس مجلس الوزراء.»

وقالت الدوقة «دو غيرمانت» التي كانت تصرّ أبداً، على صعيد المجتمع، أن تظهر للعيان أنّها لاتدع لأحد أن يقودها: «أراكم تتساوون جميعاً في ايلائي ضجراً قاتلاً في هذه القضية. إنّها لايمكن أن تحمل بالنسبة إليّ تبعة على صعيد اليهود للسبب البسيط الذي مفاده أن ليس منهم بين معارفي وأنا عازمة أن أظلّ دوماً داخل هذا الجهل السعيد. ولكنّي أراني لا أطيق أن تفرض علينا «ماري إيتار» أو «فيكتور نيين» طائفة من زوجات لزيد أو عبيد ما كنّا لنعرفهّن بحجة أنّهنّ مستقيمات الرأي أو أنّهن لا يبتعن شيئاً من الباعة اليهود وأنّه قد كُتب على شمسيتهنّ «الموت لليهود». لقد ذهبت إلى منزل «ماري إينار» قبل البارحة. كان بديعاً فيما مضى، أمّا الآن فتجدين فيه كلّ الأشخاص الذين قضيت حياتك في تجنبهم بحجّة أنهم معادون لـ «دريفوس»، وآخرين لايخطر لك من عساهم يكونون.»

وعاد الدوق يقول: «لا، إنّها زوجة وزير الحرب، تلك على الأقلّ شائعة تتناقلها الأفواه»، وكان يستخدم على هذا النحو في الحديث بعض العبارات التي يظنّها متقادمة العهد. «والناس يعلمون على أيّة حال أنّني شخصياً أفكرّ التفكير المعاكس تماماً فيما يخصّ ابن عمّي «جيلبير» لست إقطاعياً مثله، وقد أتنزّه مع زنجيّ إن كان من أصدقائي ولعلّني أهتّم برأي الثالث أو الرابع كما أهتم بسنة الأربعين. بيد أنه ينبغي مع ذلك الإقرار بأنك حينما تحمل اسم «سان لو» لاتتلهى باتخاذ نقيض أفكار عموم الناس الذين هم أشدّ ذكاء من «فولتير» وحتى من ابن أخي. ولاتنصرف على وجه الخصوص إلى ما اسميّه بهلوانيات رقة المشاعر قبل ثمانية أيّام من رفع اسمك إلى النادي! ذلك أمر صعب التصديق. لا، هي على الأرجح عاهرته الصغيرة التي جعلت الدم يغلي في رأسه، فربّما اقنعته بأنّه سيتّم تصنيفه في عداد «المثقفين» والمثقفون يشكّلون الجواب الجامع في نظر

هؤلاء السادة. وقد أفضى ذلك إلى تلاعب بالألفاظ جميل إلى حدّ ما ولكنّة لاذع جداً.»

وذكر الدوق والسيد «دارجنكور» بصوت خافت جداً: «Mater Semita» [1] وكانوا بالحقيقة يتناقلونها في نادي الفروسية، فمن بين جميع البذرات الجوّالة إنّما يشكل المزاح البذرة التي شدت إليها أصلب الأجنحة التي تمكنّها من التشتت إلى مسافة أكبر بعيداً عن مكان ظهورها.

وقال وهو يشير إلى المؤرّخ: «بوسعنا أن نستوضح السيد الذي يبدو لي واسع الاطّلاع. ولكنّما من الأفضل أن لا نتحدّث عن ذلك نظراً لأنّ الأمر خاطئ تماماً. لست في مثل طموح ابنة عمّي «ميربوا» التي تدّعي أنّها تستطيع متابعة أنساب أسرتها قبل يسوع المسيح وحتى عشيرة «لاوي» .وأظنّ بمقدوري إقامة الدليل على أنّه لم يكن ثمّة نقطة دم يهودي واحدة في عائلتنا. على أنّه ينبغي ألاّ يخدعونا، فمن المؤكّد أن آراء السيد ابن أخي الظريفة يمكن أن تثير ضجة في «لاندرنو» . أضف إلى ذلك أنّ«فرنساك» مريض وسوف يتولى «دوراس» كلّ شيء وتعلمين أنّه يعشق خلق الإرباكات» يقول الدوق الذي لم يفلح قطّ في معرفة المعنى الدقيق لبعض اللفظات وكان يحسب أن خلق الإرباكات إنّما يعني التعقيدات لاصنوف التهريج.

وقاطعته الدوقة قائلة: «وفي جميع الأحوال إن كان «دريفوس» هذا بريئاً فإنه لايقيم الدليل على ذلك. فأيّة رسائل غبيّة مفخّمة يسطرّ من جزيرته! لست أدري إن كان السيد «استرهازي» أفضل منه ولكنّ له غير تأنقه في طريقه سكب جمله وغير ألوانه. ولابدّ أن ذلك لايسرّ أنصار السيد «دريفوس» . فيالمصيبتهم أنّهم لا يستطيعون استبدال بريء ببريء.»

وأغرق الجميع في الضحك، وسأل الدوق «دو غيرمانت» السيدة «دو فيلباريزيس» بشغف قائلاً: «هل سمعت نكتة «أوريان» ؟ – «أجل، وأجدها مضحكة جداً.» وما كان ذلك كافياً في نظر الدوق. – «أمّا أنا فلا أجدها مضحكة ؛ أو بالأحرى لا يهمنّي على الإطلاق أن تكون مضحكة أو لا تكون، فلست أقيم أيّ وزن للظرافة.» ورفع السيد «دارجنكور» صوته بالاحتجاج، فهمست الدوقة قائلة: «إنّه لايصدّق كلمة ممّا يقول» . «ذلك دونما شكّ لأنّي كنت عضواً في المجالس النيابيّة حيث سمعت خطابات لامعة ماكانت تعني شيئاً. وقد تعلّمت أن أقدرّ فيها منطقها على وجه الخصوص. ولابدّ أنّ ذلك كان سبباً في أنّي لم أنتخب ثانية. إنّي لا أبالي بالأمور المضحكة.» – بازان، لا تتصنّع دور الدعيّ المتفاصح ياصغيري، فأنت تعلم تمام العلم أنّ ليس من يحبّ الظرف بقدر ما تفعل.» – «دعيني انتهي. فبالضبط لأنّي لا يهزّني نوع معين من التهريج الرخيص أراني كثيراً ما أقدر ظرافة امرأتي. لأنها تنطلق بعامة من ملاحظة صحيحة. فهي تعمل شأن الرجال وتصيغ صياغة الكتاب.» .

كان «بلوك» يحاول دفع السيد «دو نوربوا» إلى موضوع العقيد «بيكار» . فأجاب السيد «دو نوربوا» قائلاً: «لا اعتراض على أنّ شهادة العقيد أضحت ضروريّة ما أن تبادر إلى ذهن الحكومة إمكان أن يكون ثمة

(١) يظن الدوق أن Semita تعني يهودية فيما هي تعني الدرب وذلك تذكيراً بكنية والدة «سان لو» : مارسان(Semita Marsantes وبدم يهودي يجري في عروق «سان لو» مما يفسر مناصرته لـ«دريفوس» .

سرّ دفين. وأعلم أنني دفعت بمساندتي هذا الرأي أكثر من واحد من زملائي إلى إطلاق صيحات البوم، ولكن الحكومة فيما أرى كان من واجبها أن تفسح مجال الكلام للعقيد. والمرء لايخرج من مأزق كهذا بحركة بهلوانية فحسب أو هو يعرّض نفسه إذ ذاك للوقوع في ورطة. أمّا فيما يخص الضابط نفسه فقد أحدثت هذه الشهادة في الجلسة الأولى انطباعاً مشجعاً جداً فحينما رأوه يقبل مشدود الجسم في بزّة القناصة بشرفي العسكري » (وهنا هزّت صوت السيد «دو نوربوا» ارتعاشة وطنية طفيفة) (تلك هي قناعتي» فلا يمكن أن ننكر أنّ الانطباع كان عميقا.»

وفكّر «بلوك» في نفسه. قائلاً: «ها إنّه من انصار «دريفوس»، لم يعد ثمة أدنى شك».

— «لكنّ ما أفقده كلياً مشاعر العطف التي استطاع أن يحوزها بادئ الأمر فمواجهته بأمين المحفوظات «غربيلان»: فحين تم سماع هذا الخادم العجوز، هذا الرجل الذي لا يملك إلاّ قولاً واحداً (وشدّد السيد «دو نوربوا» بعزيمة القناعات الصادقة على الكلمات التي تلت ذلك)، وحين شوهد ينظر في عيني رئيسه ولايخشى أن يجابهه بحزم ويقول له بلهجة لاتقبل الردّ: «هيّا أيّها العقيد إنك تعلم تمام العلم أني لم أكذب في يوم وتعلم تماماً أنّي في هذه اللحظة أقول الحقيقة شأني على الدوام»، تغير اتجاه الريح وعبثا حرّك السيد «بيكار» السماء والأرض في الجلسات اللاحقة فقد أخفق اخفاقا تامّا.»

وقال «بلوك» في نفسه: «لا، إنه بالتأكيد مناهض لـ«دريفوس»، والأمر متوقع. ولكن إن هو ظنّ «بيكار» خائناً يكذب فكيف يمكن أنّ يأخذ في حسابه ما يذيع من أسرار ويذكرها كما لو يجد فيها روعة ويظنها صادقة؟ فأما إن رأى فيه على العكس رجلاً صالحاً ينقذ ضميره فكيف يمكن أن يفترضه كاذباً في مواجهته بـ«غربيلان»؟

وربّما نجم السبب الذي من أجله كان السيد «دو نوربوا» يحدّث «بلوك» على هذا النحو وكأنما هما على اتفاق عن أنّه كان يناهض «دريفوس» إلى الحدّ الذي أضحى معه، وقد وجد الدول لاتناهضه مناهضة كافية، عدوّا للدولة بقدر ما كان مناصرو «دريفوس». وربما لأنّ الموضوع الذي كان يتمسك به في السياسة أمر أكثر عمقاً بكثير ويقع في مستوى آخر تبدو مناصرة «دريفوس» منه بمثابة صيغة لا أهمية لها وليست أهلاً لأن تستوقف وطنيا همّه القضايا الخارجية الكبرى. وربّما بالأحرى لأنّ قواعد حكمته السياسية كانت عاجزة، وهي لاتنطبق إلاّ على مشكلات تتعلق بالشكل والأسلوب والمناسبة، عن حلّ القضايا الأساسية عجز المنطق المجرّد في الفلسفة عن البت في قضايا الوجود، أو أنّ هذه الحكمة نفسها جعلته يجد خطراً في خوض مثل هذه الموضوعات وأنه لايبغي التحدّث بداعي الحذر إلاّ عن ظروف ثانوية. ولكن موطن خطأ «بلوك» كان يكمن في اعتقاده أن السيد «د نوربوا» كان باستطاعته، حتى ولو كان أقلّ حذراً في طباعه وأقلّ شكلية مطلقة في عقله، أن يقول له الحقيقة، لو شاء ذلك، حول دور «هنري» و«بيكار» و«دو باتي دو كلام» وحول جميع النقاط في هذه القضية.، وما كان يستطيع «بلوك» بالفعل أن يشك بأن السيد «دو نوربوا» كان يعرف الحقيقة حول هذه الأمور جميعها. وكيف عساه يجهلها وهو يعرف الوزراء؟ أجل كان «بلوك» يحسب أنّ الحقيقة السياسية يمكن أن تعيد بناءها على نحو تقريبي أكثر الأدمغة صفاء، ولكنّه كان يتخيل، شأن السواد الأعظم، أنّها تقيم دوماً، ملموسة لا جدال فيها، في الإضبارة السرية العائدة لرئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء اللذين يطلعان الوزراء عليها. بيد أنّه يندر، حتى حينما تتضمن الحقيقة السياسية وثائق، أن تكتسب هذه

الأخيرة أكثر من قيمة صورة شعاعية تحسب العامّة أن مرض المصاب مسطّر فيها بكامل حروفه فيما تزوّد هذه الصورة في الواقع بمحض عنصر تقويم ينضم إلى عناصر أخرى كثيرة يحكّم فيها الطبيب عقله ويستقي منها تشخصيه. ولذلك فإن الحقيقة السياسية تتهرب حينما نقترب من ذوي الاطلاع ونحسب أنّا بالغوها. وحتى حينما وقعت فيما بعد، كيما نظل في نطاق قضية «دريفوس»، واقعة في مثل وضوح إقرار «هنري» الذي تلاه انتحاره فقد فُسِّرت في الحال تفسيراً متناقضاً على يد وزراء من أنصار «دريفوس» وعلى يد «كافينياك» و«كينييه» اللذين اكتشفا بنفسهما التزو ير وقادا التحقيق. أضف إليس ذلك أن دور «هنري» قد فُسِّر تفسيراً متناقضاً تماماً في صفوف الوزراء المناصرين لـ «دريفوس» أنفسهم ومن ذوي اللون السياسي نفسه الذين لم يحكموا على المستندات نفسها فحسب بل وفق الروح نفسها كذلك، فقد رأى فيه البعض شريكاً لـ «استرهازي» فيما عزا آخرون الدور على العكس إلى «دي باتي دوكلام» فانضموا على هذا النحو إلى طرح خصمهم «كينييه» وأصبحوا ونصيرهم «ريناك» على طرفي نقيض. كلّ ما استطاع «بلوك» استخلاصه من السيد «دو نوربوا» أنّه إن ثبت أن رئيس الأركان السيد «دو بواديفر» قد كلف السيد «روشفور» القيام بمكالمة سريّة فثمّة بالتأكيد أمر مؤسف إلى حدّ بعيد.

– «فليكن ثابتا لديك أن وزير الحرب لابدّ نذر رئيس أركانه على الأقل في قرارة نفسه، لآلهة جهنّم. وما كان الشجب الرسمي فيما أرى ليؤلف قولاً نافلاً. ولكن وزير الحرب يعبر عن ذلك أثناء الشراب بفجاجة. ثمّة على أيّة حال موضوعات يبدو من التهوّر أن نبعث من حولها اضطرابات لانستطيع فما بعد الاستمرار في السيطرة عليها.»

وقال «بلوك»: «ولكن هذه المستندات بادية الزيف».

ولم يحر السيد«دو نوربوا» جوابا ولكنّه أعلن أنّه لا يوافق على تظاهرات الأمير «هنري دورليان»:

«إنّه لايمكن على أيّة حال إلاّ أن تعبث بهدوء المحكمة وتشجع اضطرابات قد تدعو إلى الأسف في هذا الاتجاه أو غيره سواء بسواء. ينبغي بالتأكيد أن نضع حدّا للدسائس المعادية للعسكر، بيد أنّنا كذلك في غنى عن فوضى تشجعها جماعة من عناصر اليمين يفكّرون في استخدام الفكرة الوطنية عوضاً عن أن يخدموها. وفرنسه ليس، والحمد لله، من جمهوريات أميركا الجنوبية ولاتمس بها الحاجة إلى لواء يقوم بانقلاب.»

ولم يفلح «بلوك» في حمله على التحدّث عن قضية مسؤولية «دريفوس» الجرميّة ولا على التنبؤ بالحكم الذي قد يصدر في القضية المدنيّة الجارية حالياً. وبدا في مقابل ذلك أنّ السيد «دو نوربوا» يغتبط باعطاء تفاصيل حول عواقب ذاك الحكم، فقال:

«إن كان ثمّة إدانة فالأرجح أنّها ستنقض إذ يندر في دعوى تكثر فيها شهادات الشهود إلى هذا الحدّ ألاّ يكون هناك أخطاء اجرائيّة يمكن أن يحتجّ بها المحامون. وكيما أقول كلمتي الأخيرة حول تهجم الأمير «هنري دورليان» فاني أشكّ كثيراً أن يكون والده قد ارتضى ذلك.»

وسألت الدوقة وهي تبتسم مستديرة العينين، محمرة الوجنتين تغمس أنفها في قصعة الحلوى ويعلو وجهها الاستنكار: «أتظنّ «شارتر» إلى جانب «دريفوس»؟

– «لا على الإطلاق، لقد قصدت أن أقول فقط إنّ في العائلة كلها من هذه الناحية، حسّاً سياسياً أمكن أن نلاحظ أقصى درجاته لدى الأميرة الرائعة «كليمانتين» وقد احتفظ به ابنها الأمير «فردينان» بمثابة تركه ثمينة. وما كان أمير «بلغاريا» ليضم بين ذراعيه القائد «استراهازي».– «لعلّه كان يفضل جندياً بسيطاً» تقول السيدة «دو غيرمانت» هامسة، وكثيراً ما كانت تتناول طعام العشاء برفقة البلغاري في منزل الأمير«دو جوانفيل» وقد أجابته ذات مرة إذ سألها إن لم تكن غيرى: «بلى، ياصاحب السيادة، من أساورك».

وقال السيد «دو نوربوا» للسيدة «دو فيلباريزيس» كيما يضع حدّاً للحديث مع «بلوك»: «ألا تذهبين هذا المساء إلى حفلة السيدة «دو ساغان» الراقصة»؟

وما كان هذا الأخير ليسوء في عين السفير الذي قال لنا فيما بعد بشيء من السذاجة ودونما شك بسبب بعض الآثار التي ظلت في لغة «بلوك» من الطراز الهرميروسي الجديد، مع أنّه كان قد هجره: «إنّه مسلّ إلى حدّ ما بطريقته في التحدّث بكلام متقادم العهد بعض الشيء ورسمي إلى حدّ ما. وما هو إلاّ القليل ليقول: «العالمات الشقيقات» [1] على غرار «لامارتين» و«چان باتيست روسو». لقد أضحى الأمر نادراً إلى حدّ ما لدى الشباب الحالي وقد كان نادراً حتى لدى من سبقهم. لقد كنّا بدورنا رومانتيكيين بعض الشيء» ولكن مهما بدا المحدّث غريباً فقد وجد السيد «دو نوربوا» أنّ الحديث جاوز الحدود.

فأجابت بابتسامة حلوة على شفتي امرأة عجوز: «لا ياسيدي ماعدت أذهب إلى الحفلات الراقصة. فهل تذهبون أنتم؟» وتضيف قولها وهي تشمل بالنظرة نفسها السيد «دو شاتيللرو» وصديقه و«بلوك»: «ذلك يناسب عمركم. ولقد دعيت بدوري»، تقول وهي تتظاهر بالتفاخر في سبيل المزاح. «لقد جاء حتى من يدعوني» (و«من» تعني الأميرة «دو ساغان»).

– «ليس لديّ بطاقة دعوة»، يقول «بلوك» ظناً منه أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» سوف تقدّم له بطاقة وأن السيدة «دو ساغان» ستسعد باستقبال صديق امرأة جاءت تدعوها بشخصها.

ولم تحر المركيزة جواباً ولم يلح «بلوك»، إذ كان لديه مسألة أكثر جديّة يبغي معالجتها وإيّاها وقد طلب منها منذ قليل في هذا السبيل موعداً لما بعد الغد. كان يبغي سؤال السيدة «دو فيلباريزيس»، بعدما سمع الشابين يعلنان أنهما قدّما استقالتهما من نادي الشارع الملكي حيث يدخل المرء وكأنّما إلى طاحونة، أن توعز بقبوله فيه.

وقال بسخرية جارحة: «أليس آل «ساغان» على شيء من الأناقة الزائفة وبعض السنوبيّة على الحواشي»؟

وأجاب السيد «دار جنكور»، وكان قد تبنى كل صنوف المزاح الباريسي: «لا على الإطلاق، إنّه خير ما نصنع من هذا القبيل.»

وقال «بلوك» نصف هازئ: «ذلك إذن ما يدعى واحداً من احتفالات الموسم الرسمية و«المؤتمرات»

(١) نقصد تسبيق الصفة على الموصوف كما هي الحال في الشعر.

المجتمعيّة الكبرى!»

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» جذلانة للسيدة «دو غيرمانت»:

— هاتي نرَ، هل حفلة السيدة «دو ساغان» الراقصة احتفال مجتمعيّ كبير؟»

فأجابت الدوقة بلهجة ساخرة: «لاينبغي أن تسأليني عن ذلك لأنّي لم أفلح بعد في معرفة ما عسى يكون الاحتفال المجتمعي. وأمور المجتمع على أيّة حال ليست ما أمتاز به.»

وقال «بلوك» الذي تبادر إلى ذهنه أنّ السيدة «دو غيرمانت» قد قالت كلاماً صادقاً: «آه! كنت أحسب العكس.»

وتابع يطرح العديد من الأسئلة على السيد «دو نوربوا» حول مسألة «دريفوس» ممّا أثار اغتمامه. وقد أعلن هذا الأخير أن العقيد «دي باتي دو كلام» كان يبدو له لأوّل وهلة وكأنه عقل غامض وربّما سلم بحسن اختياره للقيام بهذا الأمر الدقيق الذي يقتضي الكثير من رباطة الجأش ونفاذ البصيرة، عنينا التحقيق.

— «أعرف أن الحزب الاشتراكي يطالب عالياً برأسه وكذلك بإخلاء سبيل سجين جزيرة ابليس فوراً. ولكني أظن أنّنا لم نرغم بعد على الانصياع لإرادة السيد «جيرو ريشار» وشركائه. وانّما هذه القضية حتى الآن هي المشكلة العويصة. لست أنكر أنه لابدّمن إخفاء فضائح بشعة إلى حدّما من هذا الجانب وذاك على حدّ سواء. بل أن يستطيع بعض نصراء عميلك غير المنحازين إلى حدّما أن يبدوا مقاصد طيبة، فلست أزعم عكس ذلك!» وأضاف بنظرة ذكية: «ولكنّك تعلم أن جهنّم مرصوفة بها. المهم أن تولي الحكومة انطباعاً بأنّها ليست في قبضة زمر اليسار أكثر ممّا يقع عليها أن تستسلم مكبلة لانذارات مالست أدري من جيش خاص بالمحاكم ليس هو الجيش، صدّقني. وغني عن القول إنّه إن وقع أمر جديد فسوف تتم مباشرة إعادة النظر في الدعوى. والنتيجة واضحة وضوح الشمس والمطالبة بذلك تعني اقتحام أبواب مفتوحة. وستعرف الحكومة يومها كيف تتكلم عالياً وبوضوح أو هي تسمح بهلهلة ما يشكل امتيازها الأساسي. ولن يكفي من بعد اللغو الذي لامعنى له ؛ ولابدّ من توفير قضاة لـ «دريفوس» وسيكون الأمر سهلاً لأنه، على الرغم من العادة المتخذة في فرنسه الحبيبة، حيث يتعشقون ذمّ أنفسهم، عادة الاعتقاد أو الحمل على الاعتقاد بأنه لابدّ كيما تبلغ الأسماع لفظتا الحقيقة والعدالة من اجتياز بحر المانش، وهو مالا يعدو في الغالب كونه وسيلة ملتوية لبلوغ نهر «سبريه». ليس القضاة وقفاً على برلين. ولكن هل ستفلح في الإصغاء لهذه الحكومة بعدما تتحرّك الدعوى الحكومية؟ وهل ستلتف من حولها حينما تدعوك إلى النهوض بواجبك الوطني؟ وهل تستطيع ألاّ تصمّ الآذان حيال ندائها الوطني وأن تجيب: «ها أنا!» ؟

كان السيد «دو نوربوا» يطرح تلك الأسئلة على «بلوك» بعنف يدغدغ مشاعر رفيقي فيما يبعث في نفسه. ذلك أن السفير كان يبدو وكأنّه يتوجّه من خلاله إلى حزب بأكمله، كأنّه يسائل «بلوك» وكأنّما تمّ تزويده بأسرار ذاك الحزب وكان بمقدوره الاضطلاع بمسؤولية ماقد يتخذ من قرارات. وأردف السيد «دو نوربوا» قوله دون أن ينتظر إجابة «بلوك» الجماعية: «فإن لم تهدأ نفسك وإن اتفق أن انقدت، حتى قبل أن

يجفّ حبر المرسوم الذي يحدّد إجراءات إعادة النظر في الدعوى، إلى ما لست أدري من شعار ماكر فلم تهدأ نفسك بل قبعت في معارضة عقيمة تبدو لبعضهم وكأنّها «l'ultimaratio» (الحجة الأخيرة) في السياسة وإن انسحبت إلى خيمتك وأحرقت سفنك فسوف يكون ذلك وبالاً عليك. فهل أنت سجين مسببي الفوضى؟ وهل قدّمت لهم ضمانات؟» وحار «بلوك» في الجواب، ولم يدع له السيد «دو نوربوا» متسعا لذلك. «فإن كان النفي هو الصحيح، كما عزمت على اعتقاده، وإن اتفق لك قليل مما يفتقر له لسوء الحظّ بعض قادتك وأصدقائك، شيء من الروح السياسية، وإن لم تسمح، في اليوم الذي تحال فيه الدعوى إلى غرفة الجنايات، بأن يجنّدك الصيّادون في المياه العكرة، فسوف تكسب الجولة. ولست آخذ على عاتقي أن تستطيع مجموعة الأركان بأسرها أن تتخلص من الورطة، وجميل جداً إن استطاع قسم على الأقلّ أن يحفظ ماء الوجه دون أن يشعل الحريق. وبديهي على أيّة حال أنّه إنّما يعود للحكومة أن تعلن الحقّ وتختتم اللائحة الطويلة للجرائم التي لم تلقَ عقابها، لا بانصياعها بالتأكيد للتحريضات الاشتراكية ولما لا أدري من صنف العسكر»، يضيف قوله وهو ينظر في عيني «بلوك» وربّما بالغريزة التي يمتاز بها حميع المحافظين في أن يهيئوا لأنفسهم أعواناً في معسكر الخصم. «والنشاط الحكومي ينبغي أن يتم دون الاهتمام بالمزاودات أيّاً كان مصدرها. والحكومة، للّه الحمد، لا تأمر لا بأوامر العقيد «دريان» ولا بأوامر السيد «كليمانصو» في القطب الآخر. لابدّ من قهر ممتهني الشغب والحؤول دون أن يرفعوا رؤوسهم. إن فرنسه في غالبيتّها العظمى ترغب أن تعمل داخل النظام! ولقد قرّ قراري بهذا الشأن. ولكنما ينبغي ألا نخشى تنوير الرأي العام، وإن ارتمى بعض الخراف، من الصنف الذي عرفه «رابليه» تمام المعرفة، مغمض العينين في الماء فانّما يجدر أن تبدي لهم أن هذا الماء عكر وقد تّم تعكيره عن قصد على يد أوغاد ليسوا من ديارنا بغية تخفية قاعها الخطير. ويجدر بها ألاّ تتظاهر بالخروج من سلبيتها مكرهة حينما تمارس الحق الذي هو في الأساس حقها، وأعني تحريك صاحبة السمو العدالة. سوف ترتضي الحكومة مقترحاتكم كافّة. فان كان ثابتا أن ثمة خطأ قضائياً فسوف تضمن له أغلبية ساحقة تسمح له بحرية الحركة.»

وقال «بلوك» وهو يلتفت إلى السيد «دار جنكور» وقد سبق أن ذكروا اسمه أمامه مع بقية الناس: «وأنت، ياسيد، إنّك من مناصري «دريفوس» بالتأكيد، فالجميع هذه حالهم خارج خارج البلاد.»

– «تلك قضيّة لاتخصّ سوى الفرنسيين فيما بينهم، أليس كذلك؟» يجيب السيد «دارجنكور» بهذه الوقاحة الخاصة التي قوامها أن تحمّل محدّثك رأيا تعلم بصراحة أنّه لا يشاطرك إيّاه بما أنّه أبدى منذ قليل رأيا معاكساً.

وكست الحمرة وجه «بلوك»؛ وابتسم السيد «دارجنكور» وهو ينظر من حوله، ولئن كانت الابتسامة أثناء ما وجهّها إلى الزوّار الآخرين محملة بالإساءة بحقّ «بلوك» فقد لطفّها ببعض المودّة إذ حطّ بها أخيراً على صديقي كي لايدع لهذا الأخير حجة الاغتياظ من الكلمات التي سمعها منذ قليل والتي ظلّت مع ذلك قاسية. وقالت السيدة «دو غيرمانت» شيئا في أذن «دارجنكور» لم أسمعه إلاّ أنّه كان لابدّ ذا علاقة بدين «بلوك» إذ مرّ على وجه الدوقة في تلك اللحظة ذاك التعبير الذي تضفي عليه الخشية من أن يلاحظك الشخص الذي تتحدّث عنه شيئاً من التردّد والزيف وتمتزج به الغبطة الفضولية المحملة سوءاً التي توحي بها

جماعة بشرية نحس أننّا غرباء عنها كلياً. والتفت «بلوك» ناحية الدوق «شاتيللر» يبغي التعويض على ذاته وقال: «أنت أيّها السيد ذو الجنسية الفرنسية، إنّك تعلم بالتأكيد أن الناس يناصرون «دريفوس» مع أنّهم يزعمون أنّهم في فرنسه لايدرون البتة ما يجري في البلدان الأجنبية. وأعلم من ناحية أخرى أنّه يمكن التحدّث إليك، فقد قال لي ذلك «سان لو» ولكن الدوق الشاب الذي كان يحسّ بأنّ الجميع أخذوا يقفون ضد «بلوك» والذي كان جباناً كما هم الناس في الغالب في العالم قال وهو يلجأ على أيّة حال إلى طريقة متحذلقة جارحة يبدو أنّها انحدرت إليه بالارتداد الوراثي من السيد «دو شارلوس»: اعذرني ياسيدي ألاّ أناقش وإياك حول «دريفوس»، فتلك قضية مبدئي فيها ألاّ أتحدّث عنها إلاّ فيما بين اليافثيّين» [1] وابتسم الجميع فيما عدا «بلوك»، لا لانّه لم يتعودّ التلفّظ بجمل ساخرة حول منابته اليهودية وعلى الجانب الذي يذكرفيه بعض الشيء بسيناء. ولكن بدلاً من واحدة من تلك الجمل التي لم تكن جاهزة دونما شكّ طلع مفتاح الآلة الداخلية بجملة أخرى على لسان «بلوك». ولم يكن بالامكان التقاط غير مايلي: «ولكن كيف استطعت أن تعرف؟ ومن عساه قال لك؟ كما لو كان ابنّ محكومٍ بالأشغال الشاقة. ولما كان اسمه من جهة ثانية لايوحي بالضبط بأنّه مسيحي وكلك وجهه فقد كانت دهشته تظهر شيئاً من السذاجة.

ولما لم يرضه ما قاله له السيد «دونوربوا» تمام الرضى فقد اقترب من أمين المحفوظات وسأله إن كانوا يشاهدون أحياناً في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» السيد «دي باتي دو كلام» أو السيد «جوزيف ريناك». ولم يجب أمين المحفوظات بشيء، فقد كان وطني النزعة ولايفتأ يتكهنّ للمركيزة أن حرباً اجتماعية ستقوم عمّا قليل وأنّه يجدر بها أن تكون أوفر حذراً في انتقاء أصدقائها. وتساءل إن لم يكن «بلوك» رسولاً خفيّاً للنقابة جاء لينقل إليه الأخبار، ومضى في الحال يردّد للسيدة «دو فيلباريزيس» تلك الأسئلة التي طرحها عليه «بلوك» منذ قليل. وحكمت أنّه على الاقلّ سيئ التهذيب وربّما كان خطراً على وضع السيد «دو نوربوا» وكانت تريد أخيراً أن ترضي أمين المحفوظات، وهو الشخص الوحيد الذي يوحي إليها ببعض المخافة والذي كان يلقنها المبادئ دون أن يلقي نجاحاً كبيراً (كان يقرأ عليها في كلّ صباح مقالة السيد «جوديه» في«الصحيفة الصغيرة»). لقد أرادت إذن أن تلفت نظر «بلوك» إلى أنّه يقع عليه ألاّ يعود وعثرت على نحو طبيعي جدّا في مجموعتها الاجتماعية على المشهد الذي تطرد فيه سيدة كبيرة أحدهم من منزلها، مشهد لايتضمن الاصبع المرفوع والعينين اللاهبتين اللتين نتخيّلهما. ففيما كان «بلوك» يقترب منها ليودّعها بدت، وقد غاصت في مقعدها الواسع، وكأنّما تستفيق من اغفاءة غامضة. ولم ترسل نظراتها سوى الوميض الواهن البديع الذي ترسله لؤلؤة. ولم ينتزع وداع «بلوك»، وكاد لاينشر على محيّا المركيزة ابتسامة واهنة، لم ينتزع منها كلمة واحدة ولم تمدّ إليه يدها. وقد بلغ هذا المشهد بـ«بلوك» أقصى درجات الدهشة، بيد أنّه لم يظنّ، بما أن حلقة من الاشخاص كانت شاهدة على ذلك من حوله، أنّه يمكن لها أن تطول دون أن تلحق الأذى به، وكيما يرغم المركيزة فقد مدّ من تلقاء نفسه اليد التي لم يقبل من يأخذها منه. واغتاظت السيدة «دو فيلباريزيس». ولكنّها شاءت دونما شكّ، فيما اهتّمت أن تحوز في الحال رضى أمين المحفوظات والجماعة المناوئة لـ «دريفوس»، أن تراعي المستقبل فاكتفت بخفض جفنيها وبأن أغمضت عينيها نصف إغماضة.

---

(١) ابناء يافث ويقصد اليهود.

وقال «بلوك» لأمين المحفوظات الذي اتخذ هيئة غاضبة إذ شعر أنّ المركيزة تسانده: «أظنّها نائمة». ثم صرخ قائلاً: «وداعاً ياسيدتي».

وقامت المركيزة بالحركة الخفيفة التي لشفتي محتضرة تودّ أن تفتح فمها ولكن نظرتها لم تعد تتعرّف شيئاً.. ثم التفتت، تفيض حياة مستعادة، نحو المركيز «دارجنكور» فيما كان «بلوك» يبتعد وقد أيقن أنّ الخرف نال منها. وعاد ليراها بعد بضعة أيّام وقد تملكه الفضول والعزم على ايضاح حادثة غريبة إلى هذا الحدّ. فاستقبلته أحسن استقبال لأنّها كانت امرأة طيبّة وأن أمين المحفوظات لم يكن هناك وأنّها تحرص على المشهد الصغير الذي يزمع «بلوك» أن يدعو إلى تمثيله في منزلها ، وأنها في نهاية المطاف قد قامت بدور السيدة الراقية التي كانت تتوق إليه والذي أثار اعجاباً شاملاً وتعليقات في العشية نفسها في صالات مختلفة ولكن وفق رواية لم يعد لها مذذاك أي صلة بالحقيقة.

– «كنت تتحدّثين عن «الأميرات السبع» أيتها الدوقة، تعلمين (ولست لذلك أكثر اعتزازا) أنّ مؤلف هذا... ماذا عساي أقول، هذه الأهجيّة هو أحد مواطني بلدي»، يقول السيد «دارجنكور» بسخرية يخالطها الاعتزاز بأن يعرف أفضل من الآخرين مؤّلف عمل فني جرى الحديث عنه منذ قليل. ويضيف قوله: «أجل، إنّه بلچيكي، وتلك مهنته».

– «حقا؟ لا. لسنا نتّهمكم أن تكونوا على شيء من «الأميرات السبع». وانكم، لحسن حظّك وحظّ مواطنيك، لاتشبهون مؤلف هذه السخافة. إني أعرف بلچيكيّين محبّبين جدّا، أنت وملككم، وهو خجول بعض الخجل ولكنه يفيض ذكاء، وأبناء أعمامي «لينيي» وكثيرون غيرهم، ولكنّكم لحسن الحظّ لا تتكلّمون اللغة نفسها التي يتكلّمها مؤلف «الأميرات السبع» وإن شئت، على أي حل، أن أقول لك فإن الحديث عنها مغالاة لأنّها لاشيء بوجه الخصوص. إنّهم جماعة يحاولون أن يظهروا بمظهر الغموض ويتدبّرون أمرهم ليبدوا مضحكين بغية اخفاء صحراء فكرهم.» وأضافت بلهجة الجدّ: «لعلّني كنت أقول لك، لو أن خلف القشور شيئاً، إني لا أخشى بعض صنوف الجرأة بما أنّ ثمة فكرا. لست أدري إن كنت شاهدت مسرحية «بورياللي». هناك من صدموا من جرّاء ذلك. أما أنا فأقرّ ولو بلغ بي الأمر أن أرجم»، تضيف قولها دون أن تتبيّن أنّها لا تتعرّض لأخطار كبيرة، أقرّ أني وجدت الأمر مثيراً إلى مالا حدود. فأما «اللأميرات السبع»! وعبثا تغدق إحداهنّ صنوف مودّتها على ابن أخي، فلست أستطيع أن أبلغ بمشاعري العائلية حدّ...»

وتوقفت الدوقة فجأة لأن سيدة دخلت وكانت الفيكونتيسه «دو مارسانت» والدة «روبير». كانوا يعدّون السيدة «دومارسانت» في حيّ «سان جيرمان» بمثابة كائن متفوّق يتمتع بلطف وتسليم ملائكيين. لقد سبق أن قيل لي ذلك وما كان لديّ أيّ داعٍ خاص لأدهش للأمر إذ لم أكن أعلم في ذلك الوقت أنّها شقيقة الدوق «دو غيرمانت» حقاً. ولقد أصابتني الدهشة فيما بعد كلّ مرّة بلغني فيها، في هذا المجتمع، أن نساء كئيبات نقيّات مضحيّ بهن مكرّمات شأن قدّيسات مثاليات على زجاج الكنائس قد نبتن من الأصل الإنسانيّ نفسه الذي أنبت أشقاء أفظاظاً ماجنين سفلة. كان يبدو لي أنّ الأشقاء والشقيقات، يوم يتماثلون تماماً في الوجه كما كان شأن الدوق «دو غيرمانت» والسيدة «دو مارسانت»، إنّما ينبغي أن يملكوا عقلاً واحداً وقلباً واحداً كما هي حال شخص يمكن أن تتفق له لحظات سعد أو نحس إلاّ انّه لايمكن مع ذلك توقع رؤى

واسعة له إن كان محدود العقل وسمواً في انكار الذات إن كان قاسي الفؤاد.

كانت السيدة «دو مارسانت» تتابع دروس «برونتيير»، وكانت تثير حماسة حيّ «سان جرمان» وتوفر له إلى ذلك، بفضل سيرتها الورعة، القدوة الصالحة. على أن رابطة الشكل في الأنف الجميل والنظرة الثاقبة كانت تدفعني إلى تصنيف السيدة «دو مارسانت» في أسرة شقيقها الدوق العقلية والأخلاقية نفسها. وما كنت أقوى على الاعتقاد بأن محض كونها امرأة وأنّها ربّما سبق أن كانت تعيسة وأن الجميع يقفون إلى جانبها يمكن أن يجعل منها كائناً يختلف إلى هذا الحدّ عن ذويه كما هي الحال في القصائد الملحميّة حيث تتجمّع كلّ الفضائل والمحاسن لشقيقة إخوة أفظاظ. كان يخيّل إليّ أنّ الطبيعة، وهي أقلّ حريّة من الشعراء الأقدمين، لابدّ أن تستخدم بما يقارب الحصر العناصر المشتركة في الأسرة وما كان بمقدوري أن أخصّها بسلطان معين في التجديد تصنع بموجبه عقلاً واسعاً لاتشوبه شائبة غباء وقديسة لاتلوّثها لطخة قسوة بموادّ مشابهة لتلك التي تؤلف غبيّاً غليظ القلب.كانت السيدة «دو مارسانت» ترتدي فسطاناً من الحرير الهندي الأبيض بسبلات عريضة تبرز فوقها زهرات من القماش، وكانت سوداء. ذلك لأنّها فقدت لثلاثة أسابيع خلت ابن عمها السيد «دو كونمورانسي»، الأمر الذي ما كان يحول دون أن تقوم بزيارات وأن تذهب إلى حفلات عشاء صغيرة ولكن بثياب الحداد. كانت سيدة راقية، وكانت نفسها يملؤها بالوراثة طيش ضروب العيش في البلاط بكلّ ما يعمرها من سطحية وصرامة. لم تتجمّع للسيدة «دو مارسانت» القوّة لتأسف فترة طويلة على أبيها وأمّه ولكنّها ما كنت لترتدي أثواباً ملوّنة في الشهر الذي يلي وفاة ابن عمّ لها أيّة كانت الظروف. لقد أبدت لي ما كان أكثر من اللطف لأنني كنت صديق «روبير» ولأنّني لم أكن من مجتمع «روبير» نفسه. كانت تلك الطيبة تقترن بخجل متكلف بما يشبه حركة التراجع المتقطع في الصوت والنظرة والفكر الذي يردّه المرء إليه كمثل تنّورة غير محتشمة، كي لا تحتلّ حيّزاً أكبر وكي تظل مستقيمة تماماً حتى في إطار المرونة كما يفرض ذلك حسن التهذيب. حسن التهذيب الذي ينبغي أن لا نبالغ في فهمه بمعناه الحرفيّ على أيّ حال، إذ سرعان ما كان يتّجه العديد من أولئك السيدات ناحية التهتّك الأخلاقي دون أن يفقدن في يوم لياقة في السلوك طفوليّة تقريباً. كانت السيدة «دو مارسانت» تزعجك بعض الشيء في الحديث لأنّها كانت تقول كلّما تعلق الأمر برجل من العامة، بـ«بيرغوت» و«ايلستير» مثلاً، كانت تقول وهي تبرز الكلمة، وهي تظهرها وترتلها بلحنين مختلفين في تنغيمة خاصة بآل «غيرمانت»: «لقد حزت «الشرف»، عظيم «الشرف» في لقاء السيد «بيرغوت»، في التعرّف بالسيد «ايلستير»، إمّا لتحمل على الإعجاب باتضاعها وإمّا عن ذات الميل الذي كان لدي السيد «دو غيرمانت» في العودة إلى الصيغ المهجورة ليعلن معارضته للعادات التي تتسم بسوء التهذيب الحالي الذي لايعلن المرء فيه أنّه «تشرّف» إلى حدّ كافٍ، أيّا كان السبب الحقيقي من بين هذين السببين فقد كنت تحس في جميع الأحوال أن السيدة «دو مارسانت» تحسب حينما تقول: «لقد حزت «الشرف»، عظيم الشرف» أنّها تنهض بدور عظيم وتبرز أنّها تحسن استقبال أسماء الرجال ذوي الشأن كما لعلّها كانت استقبلتهم بذاتهم في قصرها لو اتفق لهم أن يقيموا في الجوار. ولما كانت أسرتها من جهة ثانية كبيرة العدد وأنها كانت تحبّها حبّاً جمّاً وتبغي، وهي بطيئة الإلقاء مغرمة بالإيضاحات، أن توضح مواطن القربى، فقد كان يتفق لها (دون أيّة رغبة في الإدهاش وفيما لا تحبّ صادقة سوى التحدّث عن فلاحين يهزّون المشاعر وخفراء صيد شرفاء) أن تذكر في كلّ لحظة جميع الأسر المعتقة من سلطان الملوك في أوروبا، الأمر الذي ما كان يغتفره لها من كانوا أقلّ شهرة، ويهزؤون منه على أنّه من السخافة إن كانوا على قدر قليل من الثقافة.

كانت السيدة «دو مارسانت» موضع عشق في الريف من جرّاء الخير الذي تفعله، وعلى وجه الخصوص لأنّ صفاء النسل الذي لم تعد تلقى فيه منذ عدّة أجيال إلاّ أعظم ما في تاريخ فرنسه قد خلّص سلوكها من كلّ ما تسمّيه عامّة الشعب «تكلّفا» وأولاها البساطة التامّة. فما كانت تخشى أن تأخذ في أحضانها امرأة مسكينة حالفتها التعاسة وتطلب إليها أن تمضي لتأتي بعربة أحطاب من القصر. لقد كانت فيما يقال مثال المسيحيّة. وكانت حريصة على أن تزوّج «روبير» زواجاً طائل الثراء. وإنّما يعني أن تكون سيدة راقية تمثيل دور السيدة الراقية، يعني التظاهر بالبساطة. وإنّها للعبة تكلف ثمناً غالياً جداً، فضلاً عن أن البساطة لاتسحر الفؤاد إلاّ بشرط أن يعلم الآخرون أنّه يمكن ألاّ تكونوا بسطاء، يعن أنكم طائلو الثراء. لقد قيل لي فيما بعد حينما رويت أنني شاهدتها: «أنت لابدّ تبينت أنّها كانت رائعة.» ولكن الجمال الحقيقي خاص وجديد إلى حدّ أنّك لا تتعرّفه على أنّه الجمال. لقد قلت في نفسي على الأقل في ذلك اليوم إنّ لها أنفاً صغيراً جداً وعينين زرقاوين جداً وعنقاً طويلاً وهيئة حزينة.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للدوقة «دو غيرمانت»: «أسمعي أظنّ أني سأحظى عما قليل بزيارة امرأة لاتريدين التعرّف بها، وأفضلّ أن أخطرك كي لايزعجك الأمر. يمكن أن تطمئني على أيّة حال فلن استقبلها البتّة في منزلي فيما بعد، ولكنّها ستجيء اليوم لمرّة واحدة. إنّها زوجة «سوان».

كانت السيدة «سوان»، إذ رأت الأبعاد التي تتخذها قضيّة «دريفوس» وخشيت أن تنقلب منابت زوجها ضدّها، قد توسلت إليه ألاّ يتحدّث من بعد عن براءة المحكوم. وكانت تذهب إلى أبعد من ذلك حينما لايكون حاضراً فتجهر بأشدّ الوطنية عنفاً. وإنما كانت تتأثر في ذلك على أيّة حال خطى السيدة «فيردوران» التي استيقظ في نفسها عداء للساميّة بورجوازي كامن وقد بلغ درجة الهيجان الحقيقيّ. وقد كسبت الراقي معاديات للسامية كانت آخذه في التشكل وأقامت علاقات مع عديد من جماعة الارستقراطيين. وربّما بدا غريباً أن تكون دوقة «غيرمانت»، على صداقتها المتينة لـ«سوان»، قد صمدت دوماً، بدلاً من أن تقلدّهم، في وجه الرغبة التي لم يكتمها إيّاها في تقديم زوجته لها. على أنّنا سنرى فيما بعد أن الأمر كان نتيجة لطباع الدوقة الخاصة التي كانت تحكم أنّه «لايقع عليها» النيام بهذا الأمر أو ذاك وكانت تفرض فرض المستبد ما أقرّته «إرادتها الحرّة» الاجتماعية الاعتباطيّة إلى أبعد حدّ.

وأجابت الدوقة: «أشكر لك أنّك أخطرتني، فلعلّ الأمر يزعجني بالفعل أشدّ الإزعاج. ولكنّي سأنهض في الوقت المناسب بما أنّي أعرفها بالوجه».

وقالت السيدة «دو مارسانت»: «أؤكد لك يا «أوريان» أنّها ممتعة إلى حدّ بعيد، إنّها امرأة ممتازة».

– «لاشك في الأمر ولكنّي لا أشعر بأيّة حاجة إلى التأكد من ذلك بنفسي».

وسألت السيدة «دوفيلباريزيس» الدوقة بغية الحديث: «هل أنت مدعوّة لدى السيدة «اسرائيلز»؟

فأجابت السيدة «دو غيرمانت»: ولكنّي لله الحمد لا أعرفها. والأجدر أن نسألني «ماري إينار» عن ذلك، فأنّها تعرفها وقد تساءلت دوماً عن السبب».

وردت السيدة «دو مارسانت» قائلة: «لقد عرفتها بالفعل، وإنّي أقرّ بأخطائي. ولكنّي مصمّمة ألاّ أعرفها

من بعد. يبدو أنّها من أسوأهنّ وأنّها لاتخفي ذلك. لقد جاوزنا جميعنا على أية حال حدود الثقة والضيافة. ولن أتردّد من بعد على أيّ من هذه الأمّة. ففيما كان لنا ابناء عمّ قدامى في الريف نغلق الباب دونهم كنّا نفتحه لليهود. وإنّنا نشاهد اليوم امتنانهم. ليس لديّ ما أقوله، واأسفي! إن لي ابناً رائعاً يجود في جنونه الفتي بجميع السخافات الممكنة»، تضيف قولها لدى سماعها أنّ السيد «دارجنكور» قد عرض بـ«روبير». وسألت السيدة «دو فيلباريزيس» قائلة: «ولكن، أما رأيت «روبير»، إذ نحن بصدد الحديث عنه؟ لقد ظننت، بما أنّ اليوم سبت، أنّه ربّما كان باستطاعته قضاء أربع وعشرين ساعة في باريس، ولعله كان جاء بالتأكيد في هذه الحالة ليشاهدك.».

كانت السيدة «دو مارسانت» تظن في الواقع أن ابنها لن يمنح إذنا. ولما كانت تعلم في جميع الأحوال أنّه ما كان ليجيء إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» لو حصل على إذن فقد كانت تأمل، وهي تتظاهر بالاعتقاد بأنّها ربّما وجدته هنا أن تصفح له عمّته الشديدة الحساسية عن جميع الزيارات التي لم يقم بها إليها.

– «روبير في هذا المكان! ولكني لم أتسلمّ حتى كلمة واحدة منه، وأظنّ أني لم أره منذ «بالبيك»».

فقالت السيدة «دو مارسانت»: «إنّه كثير المشاغل وما أكثر ما لديه من أعمال.»

وهزّت ابتسامة خفيّة أهداب السيدة «دو غيرمانت» التي نظرت إلى الدائرة التي كانت تخطّها على السجادة بطرف شمسيتها. كانت السيّدة «دو مارسانت» قد لزمت صراحة، في كلّ مرّة هجر فيها الدوق امرأته على نحو مفضوح، جانب زوجة أخيها ضدّ أخيها نفسه. وظلت هذه الأخيرة تحتفظ من تلك الحماية بذكرى يمتزج فيها الامتنان بالحقد، وما كانت إلاّ نصف غاضبة من جهالات «روبير». وفي تلك اللحظة انفتح الباب من جديد، فدخل هذا الأخير.

وقالت السيدة «دو غيرمانت»: «عجباً، ما أن نتحدث عن الذئب...».

ولم تكن السيدة «دو مارسانت» التي كانت تولي الباب ظهرها قد أبصرت ابنها داخلاً. فلما رأته خفق الفرح بالحقيقة في صدر هذه الأم خفقة جناح وهمّت السيدة «دو سارمانت» بالنهوض واختلج وجهها وأخذت تحدّق إلى «روبير» بعينين ذاهلتين:

– «كيف، ها أنّك جئت! يا للسعادة! يا للمفاجأة!»

قال الديبلوماسي البلچيكي وهو يضحك بأعلى صوته: «آه ما أن تتحدّث عن الذئب.. لقد فهمت.»

وردّت السيدة «دو غيرمانت» بجفاء: «قول رائع»، وكانت تكره التلاعب بالألفاظ ولم تجازف بهذا الأخير إلاّ وهي تتظاهر بأنها تسخر من نفسها. وقالت: «مرحبى يا «روبير» ؛ أرأيت كيف ينسى الناس عمّتهم!».

وتحدّثا معاً فترة، وعنّي دونما شكّ إذ إن السيدة «دو غيرمانت» التفتت نحوي فيما كان «سان لو»

يقترب من والدته وقالت لي: «مرحبى، كيف حالك»؟

وسكبت فوقي نور لحظها الأزرق وتردّدت مدى لحظة ونشرت ثمّ مدّت جذع ذراعها وأحنت إلى الأمام جسدها الذي ارتدّ بسرعة إلى الخلف مثل شجيرة تميل بها إلى الأرض فتعود إلى وضعها الطبيعي إن تركتها لنفسها. هكذا كانت تفعل وقد سلطت عليها نار نظرات «سان لو» الذي كان يراقبها ويقوم من بعيد بجهود يائسة ليحصل من عمتّه على ما كان أكثر من ذلك بقليل. وإذ خشي أن يفتر الحديث أقبل يغذّيه وأجاب بدلاً مني قائلاً:

– «ليس على مايرام، إنّه متعب قليلاً، وربّما أصبح أفضل حالاً لو رآك مرّات أكثر فأنّي لا أخفي عليك أنّه يحبّ كثيراً أن يلقاك.»

وقالت السيدة «دو غيرمانت» بلهجة تعمدّتها عاديّة كما لو أني جئتها بمعطفها: «آه! هذا أمر لطيف. وأنّه ليرضيني إلى حدّ بعيد.»

– «إليك، إني ذاهب قليلاً بالقرب من أمي وأعطيك كرسيّي»، يقول «سان لو» وهو يضطرّني بذلك إلى الجلوس بالقرب من عمتّه.

وصمت كلانا.

وقالت لي: «إني ألمحك أحياناً في الصباح»، وكأنّما ذلك خبر تنقله إليّ وكأني لا أراها بدوري «ذلك مفيد جدًا للصحة».

وقالت السيّدة «دو مارسانت» بصوت خافت: «أوريان، كنت تقولين إنّك ذاهبة لزيارة السيدة «دو سان فرّيئول»، فهل تلطفت وقلت لها ألاّ تنتظرني على العشاء؟ سوف ألازم منزلي بما أن «روبير» عندي. ولئن توافرت لي الجرأة لسألتك أنْ تقولي في طريقك بأن يقوموا في الحال بشراء نوع السيكار الذي يحبّه «روبير» ويسمّونه «كورونا» ولم يعد موجوداً».

واقترب «روبير» ؛ لقد تمّ له فقط سماع اسم السيدة «دو سان فرّيئول» وسأل بلهجة تقترن فيها الدهشة بالتصميم، إذ كان يتظاهر بجهل كل ما يتعلق بالمجتمع: «ومن عساها تكون هذه السيدة «دو سان فرّيئول»؟

فقالت أمه: «عجباً لك ياعزيزي، أنت تعرف تماماً، إنها شقيقة «فيرماندوا»، وهي التي سبق أن أعطتك لعبة البيليارد الجميلة هذه التي كنت تحبّها أشدّ الحبّ.»

– «شقيقة «فيرماندوا»، ما هذا، لم يسبق أن خطرت لي أيّة فكره عن ذلك، يا ما أروع عائلتي»، يقول في نصف التفاتة ناحيتي فيما يتخذ دون أن ينتبه للأمر نبرات «بلوك» مثلما كان يقتبس أفكاره، «إنّها تعرف أناساً لايخطرون ببال، أناساً يدعون ما كان في كثير أو قليل من قبيل «سان فرّيئول» (ويلحّ على الحرف الأخير من كلّ كلمة)، وتذهب إلى الحفلات الراقصة، وتتنزّه في عربة واسعة وتعيش عيشة خيالية. هائل.»

وأطلقت السيدة «دو غيرمانت» من حنجرتها ذلك الصوت الخفيف المقتضب الشديد، وكأنّما لابتسامة

تكتبها، وتريد أن تعلن به أنّها تشارك بالقدر الذي تضطرّها إليه القرابة بنباهة ابن شقيقها. وأقبل من يعلن أن الأمير «دو فافنهايم مونستر بورغ فاينغن» ينقل للسيد «دو نوربوا» أنّه قد حضر.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس» للسفير السابق: «اذهب وأتِ به ياسيدي»، فأسرع لاستقبال رئيس الوزراء الألماني.

ولكن المركيزة استدعته: «على رسلك ياسيدي ؛ أوينبغي أن أريه منمنمة الامبراطورة «شارلوت»؟

وقال السفير بلهجة المقتنع وكما لو يحسد هذا الوزير المحظوظ على المنة التي تنتظره: «أظنه سيغتبط كثيراً».

وقالت السيدة «دو مارسانت»: «أعلم أنّه مستقيم الرأي، وما أندر ذلك بين الأجانب. ولكني على اطلاع، إنّه التجسيد الحي لعداء السامية».

كان اسم الأمير يحتفظ عبر الصراحة التي تتمّ بها مباشرةُ مقاطعه الأولى – حسبما يقولون بلغة الموسيقى– والفأفأة المتكرّرة التي تقطعّها، كان يحتفظ بالزخم والسذاجة المتكلفة وصنوف التلطف الألمانية الغليظة التي ترتسم وكأنّها أغصان ضاربة إلى الخضرة على اللوحة التي من مينا زرقاء قاتمة تنشر صوفيّة زجاج ملوّن خلف مذهبات القرن الثامن عشر الجرماني الشاحبة الدقيقة النقوش. كان هذا الاسم يضمّ بين الأسماء المختلفة التي يتألف منها اسم مدينة استشفاء ألمانية صغيرة ذهبت إليها وأنا طفل صغير برفقة جدّتي على حضيض جبل شرّفته نزهات «غوته» وكنا نحتسي في محطة الاستشفاء خمور كرومه الذائعة الصيت ذات الأسماء المركّبة الداوية كالنعوت التي يطلقها هرميروس على أبطاله. فما أن سمعتهم ينطقون باسم الأمير حتى بدا لي قبلما أتذكر مركز المياه الحارّة يتقلص ويمتلئ إنسانية ويلقى له مكاناً صغيراً كافياً في ذاكرتي. التي التصق بها أليفاً عادياً طريفاً لذيذا خفيفاً وبه شيء من المجوّز والمفروض. وزاد السيد «دو غيرمانت» على ذلك فذكر، وهو يوضح من كان الأمير، عدداً من ألقابه وتعرّفت اسم قرية يجتازها النهر الذي كنت أمضي فيه، في نهاية الاستشفاء، في القارب عبر البعوض، واسم غابة بعيدة بما يكفي كي لا يصرّح لي الطبيب بالذهاب إليها في نزهة. وكان معقولاً بالفعل أن تمتدّ إقطاعية السيد إلى الأماكن المحيطة المجاورة وتقرن من جديد في تعداد ألقابه الأسماء التي يمكن قراءة بعضها إلى جانب بعضها الآخر على الخريطة. وهكذا رأيت تحت واقية أمير الامبراطورية المقدّسة وفارس «فرنكونيه» وجه أرض حبيبة كثيراً ما توقفت فيها بالنسبة إليّ أشعة شمس الساعة السادسة أقلّه قبلما دخل الأمير الذي من أمراء «الراين» وأعيان «بالاتينا». ذلك لأني علمت في مدى بضع لحظات أن العائدات التي كان يجنيها من الغابة والنهر اللذين يسكنهما الجان وحوريات الماء ومن الجبل المسحور الذي شيدت فوقه القرية القديمة التي تحتفظ بذكرى «لوثر» و«لويس الجرماني» إنّما كان يستخدمها ليملك خمس سيارات «شارون» وفندقاً في باريس وآخر في لندن ومقصورة في الأوبرا نهار الاثنين وأخرى في أيام الثلاثاء في مسرح «الفرنسيون» وما كان يخيل إليّ – ولايبدو أنّه يصدّق بدوره – أنّه يختلف عن الرجال الذين يملكون الثروة نفسها والعمر نفسه وأصلاً أقلّ شاعرية. فقد كان يملك ثقافتهم ومثلهم الأعلى ويغتبط لمكانته ولكن بسبب المكاسب التي تقدّمها له فحسب ولم يظلّ له سوى مطمح في الحياة وهو أن يتمّ انتخابه عضواً مراسلاً لمجمع العلوم الأخلاقية والسياسية وهو السبب الذي جاء من أجله إلى منزل السيدة

«دوفيلباريزيس».

ولئن كان التمس، وهو من كانت زوجته على رأس الجماعة الأكثر انغلاقاً في برلين، أن يُعرَّفَ به لدى المركيزة، فما كان ذلك لأنّه أحس بادئ الأمر بالرغبة فيه. فلم يتسن له البتة لسوء الحظّ، وقد تأكلّه منذ سنوات ذاك المطمح في دخول اتحاد المجامع، أن يرى عدد أعضاء المجمع الذين يبدون على استعداد للتصويت إلى جانبه يتجاوز الخمسة. كان يعلم أنّ السيد «دو نوربوا» يتصرّف وحده بما لا يقل عن عشرة أصوات يستطيع أن يضيف إليها أخرى غيرها بفضل عمليّات بارعة. ولذلك فقد سبق للأمير الذي عرفه في روسيا حينما كان كلاهما سفيراً فيها أن ذهب لزيارته وفعل كلّ مافي وسعه ليكسب ودّه. ولكن عبثاً ضاعف مظاهر اللطف وحصل للمركيز على أوسمة روسيّة وذكر اسمه في مقالات تتناول السياسة الأجنبية فقد ألفى أمامه عاقّا وإنساناً بدت كلّ تلك المظاهر من التودّد وكأنّها لاحساب لها في نظره ولم يدفع ترشيحه خطوة إلى الأمام ولم يعده حتى بصوته! وليس من شك أنّ السيد «دو نوربوا» كان يستقبله بتأدّب بالغ ولايبغي حتى أن يكلف نفسه عناء «ويتحمل مشقة المجيء حتى بابه»، فيذهب بنفسه إلى فندق الأمير وحينما قال الفارس التوتوني: «بودّي أن أضحي زميلاً لك»، أجابه بلهجة المقتنع: «آه! سوف أغتبط لذلك!» ولا ريب أنّ أحد السذّج من أمثال الدكتور «كوتار» كان قال بينه وبين نفسه: «ويحي، إنّه ههنا في منزلي وهو الذي أصرّ على المجيء لأنّه يعدّني شخصاً أعظم خطراً منه وهو يقول لي إنّه سيغتبط لأن أكون في المجمع، وإنّما للكلمات مدلولها، يا ربي! ولاريب أنّه إن لم يعرض عليّ التصويت لصالحي فلأنه لايفكر في الأمر. إنه يبالغ في التحدث عن سلطاني العظيم ولابدّ أنّه يحسب أمانيّ تتحقق دون عناء وأني أملك من الأصوات بقدر ما أشاء ولذلك لايقدّم لي صوته، ولكنّما عليّ أن أحرجه وأن أقول له ههنا فيما بيننا: هيّا، صوّت في صالحي وسوف يضطرّ إلى القيام بذلك.» ولكنّ الأمير «دو فافنّهايم» لم يكن ساذجاً. لقد كان ما لعلّ الدكتور «كوتار» كان يدعوه «ديبلوماسياً داهية» وكان يعلم أن السيد «دو نوربوا» لايقلّ عنه دهاء وأنّه ما كان رجلاً لا يفطن من تلقاء ذاته أنّه قد يحسن في عيني مرشح إن هو صوّت لصالحه. لقد سبق للأمير في سفاراته وبوصفه وزيراً للخارجيّة أن تفوّه، في سبيل بلاده بدلاً من أن يفعل في سبيل نفسه كما هي حاله الآن، بأحاديث يعرف المرء سلفاً إلى أي حدّ يبغي الذهاب فيها ومالن يحملوك على قوله. وما كان يجهل أن الحديث في لغة الديبلوماسيين إنّما يعني التقدمة، ولذلك عمل على أن يحصل السيد «دو نوربوا» على وشاح «القدّيس اندراوس» ولو كان لابدّ له أن يقدّم لحكومته تقريراً عن الحديث الذي تمّ له بعد ذاك مع السيد «دو نوربوا» لاستطاع أن يذكر في برقيّته: «لقد أدركت أنّي ضللت السبيل.» ذلك لأنه ما أن عاد يتكلم عن المجمع حتى كرّر له السيد «دو نوربوا» قوله:

– «لعلّي أرغب في ذلك كثيراً، كثيراً جداً من أجل زملائي. فلا بدّ أنّهم، فيما أظنّ، يحسون أنّك تشرّفهم حقاً لأنّك فكّرت فيهم. إنّه ترشيح مثير تماماً وخارج حدود عاداتنا إلى حدّ. تدري، المجمع روتيني جدًا ويداخله الرعب من كلّ مايرتدي بعض الجدّة. وإنّي ألومه شخصيًا على ذلك. وكم مرّة أتفق لي أن أنقل ذلك إلى مسامع زملائي! ولست أدرى، عفوك يا رب، إن لم تنطلق من شفتيّ مرّة لفظة «متحجّرين»، يضيف قوله بابتسامة مستنكرة وبصوت خافت وكأنّما يحدّث نفسه، كما هي الحال في حركة مسرحية، وهو يلقي على الأمير نظرة خاطفة مائلة من عينه الزرقاء كممثل عتيق يريد أن يحكم على التأثير الذي يخلفه. «تدرك

أيّها الأمير أنّني لا أودّ أن أدع لشخصيّة بمثل شهرة شخصكم أن تنجرّ إلى جولة خاسرة سلفاً. فانّي أرى من الحكمة أن تمتنع مادامت أفكار زملائي متخلفة إلى هذا الحدّ. وصدّق على أيّة حال أنني إن رأيت في يوم روحاً أكثر جدّة بقليل، أكثر حيوية بقليل، ترتسم خطوطها في هذا المجمع الذي ينزع إلى أن يصبح مقبرة كبيرة، وإن توقعّت حظاً ممكنا لك فسوف أكون أوّل من يخطرك بالأمر.».

وفكر الأمير في نفسه قائلاً: «إن وشاح «القدّيس اندراوس» غلطة، والمفاوضات لم تحقق خطوة واحدة. ما هذا ما كان يريد، ولم أضع يدي على المفتاح الصحيح.»

كان ذلك ضرباً من المحاكمة ربّما توافرت القدرة عليه للسيد «دو نوربوا» الذي نُشّئ في مدرسة الأمير نفسها. ويمكن لنا أن نسخر من الغباء المتحذلق الذي يؤخذ به دبلوماسيون من أمثال «نوربوا» إزاء عبارة رسمية تكاد لاتعني شيئاً. ولكنّ لصبيانيتهم ما يقابلها: فالديبلوماسيون يعلمون أنّ المشاعر الطيّبة والخطب الجميلة والتوسلات هينّة الوزن في الميزان الذي يضمن هذا التوازن الأوروبي أو غير الأوروبي الذي يدعونه السلام، وأن الوزن الثقيل والحقيقي والحاسم قوامه أمر آخر، قوامه القدرة التي يملكها الخصم، إن كان على قدر كاف من القوّة، أو لا يملكها في إرضاء رغبة ما بوسيلة المبادلة. إن هذا النوع من الحقائق، الذي ربّما لم يدركه شخص خالي الغرض تماماً شأن جدّتي مثلاً، كثيراً ما واجهه السيد «دو نوربوا» والأمير «فون....». فقد كان السيد «دو نوربوا» يعلم تمام العلم، وهو قائم بالأعمال في بلدان كنّا قاب قوسين أو أدنى من إعلان الحرب عليها، ويساوره القلق من جرّاء الاتّجاه الذي توشك الأحداث أن تتخذه، كان يعلم أنّها لن تبلّغ إليه بلفظة «السلم» أو بلفظة «الحرب»، بل بكلمة أخرى تافهة في ظاهرها، مخيفة أو مباركة، يفلح الديبلوماسي في الحال في قراءتها بوساطة رموزه ويجيب عليها كيما يحافظ على كرامة فرنسه بكلمة أخرى في مثل تفاهتها ولكن وزير الامّة المعادية يبصر خلفها في الحال: «الحرب». بل إنّ الحوار الذي قد تملي فيه الأقدار كلمة «الحرب» أو كلمة «السلم» لم يجر بعامة، وفق عادة قديمة شبيهة بتلك التي كانت تضفي على أوّل تقارب بين شخصين نذر كلّ منهما نفسه للآخر شكل لقاء عارض في أثناء عرض مسرحي في مسرح القاعة الرياضية، لم يجرِ في مكتب الوزير بل على مقعد حديقة كان يمضي إليها الوزير والسيد «و نوربوا» إلى ينابيع مياه حارّة ليحتسيا من النبع أكواباً صغيرة من ماء استشفائي. كانا يلتقيان، بنوع من الاتفاق الضمني، ساعة الاستشفاء فيقومان معا بادئ الأمر ببضع خطوات في نزهة يعلم المتحاوران أنّها، خلف مظهرها الذي لايوحي بالخطر، مأساويّة كمثل أمر بالتعبئة العامة. وقد لجأ الأمير في قضية خاصة كهذا الترشيح إلى المجمع إلى طريقة الاستقراء نفسها التي صنعها في السلم وأسلوب القراءة نفسة من خلال رموز متناضدة.

وليس يمكن بالتأكيد الزعم بأن جدّتي وأمثالها النادرين وحيدون في جهلهم لهذا النوع من الحسابات. فوسطيّ البشرية ممّن يمارسون مهنا حدّدت خطوطها سلفاً يلتقون جزئياً من جراء انعدام الحدس لديهم بالجهل الذي كانت تدين به جدّتي لتجرّدها الرفيع. ولابدّ في الغالب من الانحدار إلى الأشخاص الذين يجري الانفاق عليهم، رجالاً أو نساء على السواء، كيما يقع علينا أن نبحث عن الدافع إلى العمل أو الأقوال الأكثر براءة في ظاهرها داخل المصلحة وضرورة العيش. فمن ذا لايعلم، حينما تقول له امرأة يزمع أن يدفع لها: «دعنا من حديث المال»، أن هذه العبارة ينبغي أن تعدّ، حسبما يقال في لغة الموسيقى، بمثابة «فاصل صامت»، وأنّها إن صرّحت له فيما بعد قائلة: «لقد بعثت في نفسي الكثير من الغمّ، وكثيراً ما أخفيت عنّي الحقيقة، لقد طفح

الكيل»، فينبغي أن يفسّر: «إن حامياً آخر يعرض عليها أكثر»؟ على أن الأمر ههنا لايعدو كونه لغة إمرأة لعوب قريبة إلى حدّ من نساء المجتمع الراقي. إن قطاع الطرق يزوّدوننا بأمثلة. أكثر إثارة. ولكن السيد «دو نوربوا» والوزير الألماني قد تعوّدا، إن كان قطاع الطرق غير معروفين لديهما، قد تعوّدا العيش على مستوى الشعوب نفسه، وهي على الرغم من عظمتها كائنات تداخلها الأنانية والمكر ولا تتمّ السيطرة عليها إلاّ بالقوة وبالنظر إلى مصلحتها التي يمكن أن تصل بها إلى القتل، وهو قتل رمزي في الغالب، إذ يمكن أن يعني محض التردّد في القتال أو رفض القتال بالنسبة إلى شعب ما «الهلاك». ولما كان كلّ ذلك غير وارد في مختلف «الكتب الصفراء» وغيرها فالشعب من دعاة السلام القانعين. وإن كان نزوعاً إلى الحرب فبالغريزة ومن جرّاء الحقد والحفيظة لا من جرّاء الأسباب التي دفعت رؤساء الدولة الذين تمّ إخطارهم عن طريق أمثال «نوربوا».

في الشتاء التالي مرض الأمير مرضاً شديداً وشفي، ولكن قلبه ظلّ مصاباً إصابة لا اشفاء لها. وقال في نفسه: «ويحي! ينبغي ألاّ أضيع الوقت بالنسبة إلى المجمع، لأني إن طال بي الزمن سأوشك أن أموت قبل تعييني، وسيكون الأمر مزعجاً حقاً».

فقام بدراسة حول السياسة في العشرين سنة الأخيرة لصالح «مجلة العالمين» وأعرب فيها مرّات عديدة عن أكثر العبارات إطراء للسيد «دو نوربوا». وذهب هذا الأخير لزيارته وشكره. وأضاف أنّه لايدري كيف يعرب عن امتنانه. وقال الأمير في نفسه، شأن من أقدم على تجربة مفتاح آخر من أجل أحد الأقفال: «ما هذا أيضاً هو المفتاح» وفكر إذ شعر بأنه فقد أنفاسه بعض الشيء وهو يشيع السيّد «دو نوربوا»: «تبا لهم، فسوف يوردني هؤلاء الماجنون حتفي قبل أن يأذنوا بدخولي. فهيا نسرع.»

وفي المساء نفسه التقى بالسيد «دو نوربوا» في الأوبرا، فقال له: «كنت تقول لي هذا الصباح، أيّها السفير العزيز، إنّك لاتدري كيف تبرهن لي عن اقرارك بالجميل. ذلك من المبالغة الكبيرة لانّك لاتدين لي بأي شيء من هذا القبيل، ولكني سأبدي قلة ذوق في قبول العرض في الحال.».

لم يكن السيد «دو نوربوا» أقلّ تقديراً للباقة الأمير من الأمير للباقته. وأدرك في الحال أن الأمير «دو فافنهايم» ما كان يزمع أن يتقدمّ إليه بطلب، بل بعرض وأعدّ نفسه ببشاشة للإصغاء إليه:

— «دونك، سوف تجدني قليل التحفظ إلى حدّ بعيد. ثمة شخصان أنا شديد التعلق بهما، وعلى نحو مختلف تماماً مثلما ستدرك ذلك، وقد أقاما منذ قليل في باريس حيث اعتزما العيش من الآن فصاعداً، وهما زوجتي والدوقة الكبيرة «جان». وسوف تقدّمان بعض الولائم ولاسيّما على شرف ملك انكلترا وملكتها. ولعلّ ما تحلمان به أن يمكنهما تقديم شخصية لمدعوّيهما تكنّ كلاهما لها، دون معرفة بها، إعجاباً عظيماً. وإنّي أقر أني لا أدري كيف أفعل لتلبية رغبتهما حينما علمت لتوّي بمحض المصادفة أنّك تعرف هذه الشخصيّة. إني أعرف أنهّا تعيش في عزلة شديدة ولاتبغي التقاء سوى القليل من الناس، وياسعد هذا القليل. ولكن، إن أنت ساندتني إلى جانب ما توليني من عطف، فأني متيقن أنّها سوف تأذن بأن تقدمّني في منزلها وأن أنقل إليها رغبة الدوقة الكبيرة والأميرة. وربما ارتضت المجيء لتناول طعام العشاء مع ملكة انكلترة، ومن يدري، لقضاء عطلة الفصح معنا، إن كنّا لا نزعجها كثيراً، لدى الدوقة الكبيرة «جان» في محلة «بوليو». إنّ هذه الشخصية تدعى المركيزة «دو فيلباريزيس». وإني أقرّ بأنّ أملي في أن أضحي واحداً من روّاد مثل هذا المنتدى

الفكري قد يحمل إليّ العزاء ويجعلني أفكر دون غمّ في التخلي عن ترشيح نفسي إلى المجمع. ففي منزلها كذلك يتداولون العقل والأحاديث الظريفة».

وأحس الأمير بغبطة لاتوصف بأنّ القفل لايقاوم وأن هذا المفتاح قد دخل فيه.

وأجاب السيد «دو نوربوا» قائلاً: «إن خياراً كهذا لاجدوى منه أيها الأمير العزيز، فليس ما يتوافق والمجمع أكثر من المنتدى الذي تتحدّث عنه وهو منبت حقيقي للمجمعيين. سوف أنقل طلبك إلى السيدة المركيزة «دو فيلباريزيس» وستغتبط لذلك بالتأكيد. فأما أن تذهب للعشاء في منزلك، فإنها قليلاً ما تغادر منزلها وربما كان الأمر أكثر صعوبة. ولكني سأعرّف بك وتتولى بنفسك الدفاع عن قضيتك. إلاّ أنّه ينبغي لك على وجه الخصوص ألاّ تتخلى عن المجمع ؛ وإنّي بالضبط أتناول طعام الغداء بعد خمسة عشر يوماً من الغد في منزل «لوروا بوليو» الذي لايمكن أن يتمّ انتخاب بمعزل عنه كيما أرافقه بعدها إلى جلسة هامّة. وقد سبق لي أن أوردت اسمك في حضرته وهو يعرفه بالطبع أتّم المعرفة. لقد أطلق بعض الاعتراضات، ولكنّما يتفق أنّه بحاجة إلى مساندة جماعتي في عملية الانتخاب المقبلة وإنّي عازم على إعادة الكرّة. سأقول له بمنتهى الصراحة عن الروابط الوديّة تماماً التي تجمع بيننا ولن أكتمه أنّني سأطلب إلى جميع أصدقائي التصويت إلى جانبك إن قدّمت ترشيحك (وزفر الأمير زفرة ارتياح عميقة) وهو يعلم أنّ لي أصدقاء. وأحسب، إن أفلحت في ضمان مساعدته، أنّ احتمالات نجاحك ستصبح جديّة. فتعال في ذلك المساء في الساعة السادسة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» فسأقدمك ويمكنني أن أطلعك على مضمون مداولتي في الصباح.»

وهكذا تمّ للأمير «دو فافنهايم» أن يجيء لزيارة السيدة «دو فيلباريزيس». وأصابتني خيبة أمل عميقة حينما تكلم. فلم يخطر لي، إن كان لعصر معين سمات خاصة وعامة أقوى مما يتفق لجنسيّة ما إلى حدّ أنّ «لايينتس» بشعره المستعار وياقته ذات الكشاكش قليلاً ما يختلف عن «ماريفو» أو صامويل بيرنار» في معجم مصوّر يزوّدونك فيه حتى برسم حقيقي لـ«مينيرڤا»، لم يخطر لي أن جنسية ما تحمل سمات أقوى من طبقة اجتماعية مغلقة. ولكنّها استبانت أمامي لابخطاب ظننت سلفاً أنّني سأسمع فيه حفيف جنيات الهواء ورقص جنيات الكهوف، بل بتبديل صوتي ما كان أقلّ توكيداً لهذا المنشأ الشاعري وقوامه أن أمير «الراين» قال وهو ينحني في حضرة السيدة «دو فيلباريزيس». محمراً مكرشاً: «صباح الخير، سيدتي المركيزة» باللهجة نفسها التي لبوّاب ألزاسيّ.

وقالت لي السيدة «دو غيرمانت» رغبة منها في أن تكون لطيفة ما أمكنها اللطف: «ألا تودّ أن أعطيك كوباً من الشاي وشيئاً من «التورته»، إنّها طيبة جداً. إني أرحب بضيوف البيت وكأنه بيتي»، تضيف قولها بلهجة ساخرة تضفي على صوتها شيئاً من التقعير كما لو أنّها كتمت ضحكة خشنة.

وقالت السيدة «دو فيلباريزيس». للسيد «دو نوربوا»: «هل ستفطن بعد قليل ياسيدي أنّ لديك شيئاً تقوله للأمير بشأن المجمع» ؟

وخفضت السيدة «دو غيرمانت» عينيها ورسمت ربع دائرة بمعصمها لتنظر إلى الساعة.

– «آه! يا الهي، لقد آن أن أستودع عمتّي إن انبغي لي أن أمرّ لدى السيدة «دو سان فريئول» وأتناول

طعام العشاء في منزل السيدة «لوروا».

ونهضت دون أن تودّعني. فقد لمحت لتوّها السيدة «سوان» التي بدا عليها بعض الارتباك من جراء ملاقاتي. فلا بدّ أنّها تذكرت أنّها قالت لي قبل أي شخص آخر إنهّا على يقين من براءة «دريفوس».

وقال لي «سان لو»: «لا أريد أن تقدّمني أمي للسيدة «سان»، فإنها مومس سابقة، وزوجها يهودي وهي تتظاهر بالوطنية. انظر، هوذا عمّي «بالاميد».

كان حضور السيدة «سوان» يرتدي بالنسبة إليّ أهمية خاصة ناجمة عن أمر جرى قبل بضعة أيام ومن الضروري أن أرويه بسبب النتائج التي ستنجم عنه فيما بعد والتي سنتابعها في تفاصيلها عندما يحين الوقت. فقد اتفق لي قبل هذه الزيارة ببضعة أيّام زيارة أخرى ما كنت أتوقعها، وزيارة «شارل موريل» ابن الخادم السابق لشقيق جدّي، وكان مجهولاً لديّ. وكان شقيق جدّي هذا (الذي سبق أن شاهدت لديه السيدة ذات الأثواب الوردية) قد توفي في السنة السابقة، وقد أعرب خادمه عدّة مرّات عن عزمه في أن يجيء لزيارتي. لم أكن أعلم هدف زيارته ولكنّي ربما رأيته بطيبة خاطر إذ علمت على لسان «فرانسواز» أنّه ظلّ يبدي تعلقاً حقيقياً بذكرى عمي ويقوم في كل مناسبة بزيارة المقبرة. ولكنه أوفد إليّ ابنه وقد اضطرّ أن يذهب للتداوي في بلده ويتوقع أن يمكث فترة طويلة هناك. ودهشت أن أبصرت فتى جميلاً في الثامنة عشرة يدخل، وملابسه توحي بالغنى أكثر منها بالذوق، على أنّه كان يظهر بمظهر أيّ شيء فيما عدا مظهر الخادم. وقد أصرّ منذ البداية على أيّة حال أن يقطع الاتصال بعالم الخدمة الذي كان ينحدر منه إذ أطلعني وعلى فمه بسمة الرضى أنّه يحمل جائزة المعهد الموسيقيّ الأولى. وكان هدف زيارته هو الآتي: كان والده قد وضع جانباً، من بين تذكارات عمّي «أدولف»، عدداً منها حكم أنّه لايليق إرسالها لذويّ ولكنّ من شأنها، فيما يظنّ، أن تثير اهتمام شاب في مثل سني. كانت تلك صور الممثلات الشهيرات والغانيات الكبيرات اللواتي عرفهنّ عمّي، الصور الأخيرة لحياة الماجن العجوز تلك التي كان يفضلها عن حياته العائلية بحاجز منيع. وفيما كان «موريل» الشاب يريني إياها تبينت أنّه يتكلف التحدّث إليّ حديث الندّ للندّ. كان يحس، في قوله «أنت» وأقل ما يمكن «يا سيد»، متعة من لم يستخدم والده قطّ في حديثه مع ذويّ سوى صيغة الغائب. كانت جميع الصور الفوتوغرافية تقريباً تحمل عبارة إهداء من مثل: «إلى أفضل صديق لي». ولكنّ ممثلة أكثر عقوقاً وأوفر فطنة كتبت: «إلى أفضل الأصدقاء»، الأمر الذي كان يسمح لها، فيما أكدوا لي، أن تقول: إن عمي لم يكن البتة، وإلى حدّ بعيد على وجه التقريب، أفضل صديق لها، بل الصديق الذي أدّى لها أكثر الخدمات الصغيرة، الصديق الذي كانت تستخدمه، رجل ممتاز وما يقارب الحيوان العجوز. وعبثاً كان «موريل» الشاب يحاول الهروب من نسبه فقد كنت نحس أنّ طيف عمي «أدولف» ظلّ يرفرف، جليلاً هائلاً في نظر الخادم العجوز، يرفرف بما يشبه القدسية فوق طفولة الابن وشبابه. وفيما كنت أشاهد الصور كان «شارل موريل» يتفحص غرفتي. ولما كنت أبحث أين يمكنني أن أجمعها، قال لي (بلهجة لم تكن الملامة بحاجة إلى الظهور فيها لكثرة ما تبدو في العبارات نفسها): ولكن كيف يتفق ألاّ أرى صورة لعمك في غرفتك؟» وشعرت بالحمرة تكسو وجهي وتمتمت قائلاً: «أظن أن ليس لديّ صورة.» -«كيف، لا تملك صورة واحدة لعّمك «أدولف» الذي كان يحبّك إلى هذا الحد! سوف أبعث إليك بواحدة آخذها من بين الكميات التي في حوزة الوالد وآمل أنّك ستضعها في مكان الصدارة فوق هذا الصوان الذي جاءك بالضبط من عمّك.» صحيح أنّه لم يكن ثمة ما يثير

في ألاّ يكون في غرفتي صورة لعمي «أدولف» بما أني لم أكن أملك فيها حتى صورة لوالدي أو لوالدتي بيد أنه لم يكن من العسير الاحساس بأن عمّي كان في نظر «موريل»، الذي علّم ابنه هذه النظرة إلى الأمور، الشخصية الهامة في العائلة ومنه يستقي والداي ألقاً مقلّصا. كنت أكثر حظوة لأن عمي كان يقول كلّ يوم لخادمه إنني سأضحي ما يشبه «راسين» و«فولابيل» وكان «موريل» يعدني تقريباً بمثابة ابن بالتبنّي لعمي ولده المختار. وسرعان ما تبيّنت أنّ ابن «موريل» كان وصوليا. من ذلك أنّه سألني في ذلك اليوم، بما أنّه كان ملحناً بعض الشيء وقادراً على تلحين بعض الأشعار، أن كنت لا أعرف شاعراً يتمتّع بمكانة هامة في دنيا الارستقراطيين. فذكرت له أحدهم. ولم يكن يعرف أعمال هذا الشاعر ولم يسمع باسمه قطّ فدوّنه. إلاّ أنني علمت أنّه كتب إلى هذا الشاعر بعد ذلك بقليل ليقول له إنّه معجب متحمس لاعماله وإنّه وضع موسيقى لإحدى مقطوعاته الشعرية وسوف يسعده أن يقدّم مؤلف الكلمات وصلة إلقاء في منزل الكونتيسة (...). كان ذلك من قبيل التسرّع وإماطة اللثام عن خطته. ولم يجب الشاعر وقد جرحت كبرياؤه.

وقد بدا على أيّة حال أنّ «شارل موريل» كان يملك إلى جانب طموحه ميلاً قوياً إلى صنوف من الواقع أكثر حسيّة. فقد لاحظ في الباحة ابنة شقيق «چوبيان» وهي تخيط صدرية، ومع أنّه اقتصر على القول بأنّه يحتاج بالضبط إلى صدرية من النوع الغريب فقد أحسست أنّ الفتاة خلفت في نفسه انطباعاً قوياً. ولم يتردّد بأن يسألني أن انزل وأعرّف به، «لا بالنسبة إلى موقعي في أسرتك، أنت تعي ذلك، فإني اعتمد على تكتّمك فيما يخصّ والدي، قل فقط إنّه فنان كبير من أصدقائك، فلا بدّ، كما تدرك، من أن تخلف انطباعاً طيباً في نفس التجار». ومع أنّه ألمح إليّ بأني استطيع، إذ لا أعرفه معرفة كافية كيما أدعوه «صديقي العزيز»- وهو يدرك ذلك-، أن أقول له في حضرة الفتاة شيئاً ما لا من نحو «معلّمي العزيز... مع أنّه، «بل. إن حسن ذلك في عينيك، عزيزي الفنان الكبير»، فقد تجنبت داخل المحل أن «أنعته»، كما لعلّ «سان سيمون» كان يقول، واكتفيت بأن أردّ على تأدّبه بتأدّب يقابله. ورأى بين قطع من المخمل قطعة من حمرة فاقعة صارخة إلى حدّ أنّه لم يستطع قطّ ارتداء تلك الصدرية فيما بعد على الرغم ممّا به من ذوق رديء. وعادت الفتاة إلى الشغل مع تلميذتيها، إلاّ أنّه بدا لي أنّ الانطباع كان متبادلاً وأنّ «شارل موريل» الذي حسبته «من عالمي» (ولكنه أكثر أناقة وأوفر ثراء) قد راقها إلى حد بعيد. ولما دهشت أشدّ الدهشة أن عثرت بين الصور التي بعث بها إليّ والده على صورة لرسم الآنسة «ساكريبان» (يعني «أوديب») بريشة «ايلستير»، قلت لـ «شارل موريل» وأنا أرافقه حتى المدخل الرئيسي: «أخشى أنّك لن تستطيع تزويدي بمعلومات. هل كان عمي يعرف هذه السيدة تمام المعرفة؟ لست أرى في أية فترة من حياة عمي يمكن أن أحدد موقعها، والأمر يهمني بسبب السيد «سوان»... - «لقد فاتني بالضبط أن أقول لك إنّ والدي أوصاني بلفت انتباهك إلى هذه السيدة. فقد كانت هذه المرأة اللعوب تتناول طعام الغداء في منزل عمّك في آخر يوم رأيتها فيه. وظلّ والدي لايدري إن هو يستطيع إدخالك. ويبدو أنك حسنت كثيراً في عيني تلك المرأة الطائشة وكانت تأمل أن تلقاك ثانية. بيد أن نفوراً وقع بالضبط في ذلك الوقت داخل الأسرة، حسبما قال لي والدي، وما عدت رأيت عمّك البتّة.» وابتسم في تلك اللحظة كي يودّع من بعيد ابنة شقيق «چوبيان». كانت تنظر إليه وتتأمل بإعجاب دونما شكّ محيّاه النحيل ذا الخطوط المنتظمة وشعره الخفيف وعينيه المرحتين. أما أنا فكنت أفكر في السيدة «سوان» فيما أشدّ على يده، وكنت أقول في نفسي مستعجباً إنه لابدّ لي منذ الآن أن أماثل بينها وبين «السيدة ذات الأثواب الوردية»، أقول مستعجباً لشدة ما تنفصلان وتختلفان في ذاكرتي.

وسرعان ماجلس السيد «دو شارلوس» إلى جانب السيدة «سوان». فقد كان يسارع في سائر الاجتماعات التي يحضرها. متعالياً مع الرجال محاطاً بالنساء، إلى الالتحام بأكثرهن أناقة فيحس أنها تكلله بزينتها. كانت سترة البارون الرسمية أو لباسه الرسمي يجعلانه شبيهاً بتلك الرسوم التي نجح في خطها فنان ألوان عظيم لرجل يرتدي السواد ولكنما بالقرب منه على كرسي معطف زاه يزمع ارتداءه إلى حفلة راقصة تنكرية. كانت هذه المقابلة الانفرادية، وهي بعامة مع صاحبة سموّ، توفر للسيد «دو شارلوس» صنوفاً من الامتياز يتعشقها. فقد كان من نتائجها مثلاً أن تسمح سيدات المنازل أن يكون للبارون وحده في حفلة ما كرسي أمامي في صف سيدات في حين يتدافع باقي الرجال في الركن القصي. وكان السيد «دو شارلوس» إلى ذلك في حلّ. وقد استغرق أشدّ الاستغراق، فيما يبدو، في رواية حكايات مسلية للسيدة المفتونة وبأعلى صوته، من المبادرة إلى تحية الأخريات، وبالتالي من الالتزام بواجبات يؤدّيها. وخلف الحاجز المطيب الذي ترفعه من حوله الجميلة المصطفاة كان معزولاً وسط صالة وكأنما وسط قاعة مسرح في مقصورة، وحينما يبادرون لتحيته، وكأنما من خلال جمال رفيقته. كان معذوراً أن يجيب باقتضاب شديد ودون أن يتوقف عن محادثة امرأة. لم تكن السيدة «سوان» بالتأكيد في مرتبة النساء اللواتي يحبّ أن يبرز على هذا النحو إلى جانبهنّ، ولكنما كان جاهز بإعجابه بها وبصداقته لـ«سوان» ويعلم أنّها ستغتبط لاهتمامه بها ويغبطه بدوره أن تعرّض سمعته للخطر أجمل امرأة هناك.

كانت السيدة «دو فيلباريزيس» نصف راضية فحسب عن زيارة السيد «دو شارلوس» لها. وكان هذا الأخير يحبّ عمّته كثيراً مع أنّه يجد لها عيوباً كبيرة. ولكنّه كان يوجه إليها بين الحين والحين في سورة الغضب ولمآخذ وهمية، ودون أن يصعد في وجه نزواته، رسائل في غاية العنف يكشف فيها عن أمور صغيرة ما كان يبدو حتى ذاك أنّه لاحظها. ويمكنني أن أذكر هذه الواقعة، من بين أمثلة أخرى غيرها، لأن اقامتي في «بالبيك» قد أطلعتني عليها: فقد قبلت السيدة «دو فيلباريزيس»، في خشيتها ألا تكون حملت مايكفي من مال لتمديد فترة اصطيافها في «بالبيك» وإذ لاتحبّ، بما أنّها كانت بخيلة وتخشى المصروفات الفائضة عن الحاجة، أن تستقدم مالاً من باريس، أن يقرضها السيد «دو شارلوس» ثلاثة آلاف فرنك. واتفق أن أستاء من عمته لسبب واه فطالبها بها بحوالة برقية بعد ذلك بشهر واحد. فوصله ألفان وتسع مئة وتسعون وبضع فرنكات. ولما رأى عمته بعد بضعة أيام في باريس وتحدّث إليها حديثاً ودياً حملها بكثير من اللطف على ملاحظة الخطأ الذي ارتكبه المصرف المكلف بالإرسال. وأجابت السيدة «دو فيلباريزيس». قائلة: «ولكن ليس ثمة من خطأ، فالحوالة البرقية تكلف ستة فرنكات وخمسة وسبعين.» فردّ السيد «دو شارلوس»: «آه! بما أنّ الأمر مقصود فهو على ما يرام. لقد قلت لك ذلك فقط فيما لو كنت تجهلينه لأنّ الأمر في هذه الحالة كان يمكن أن يغيظك لو فعل المصرف ما فعل مع أشخاص أقلّ ارتباطاً بك منّي.» «لا، لا، ليس من خطأ هناك.» وختم السيد «دو شارلوس» قوله مبتهجاً وهو يقبل برقة يد عمّته: «كنت تماماً على حقّ في حقيقة الأمر.» ولم يكن بالفعل حاقداً عليها وكان يبتسم فحسب إزاء هذه الدناءة الطفيفة. ولكنه سطر لها بعد ذلك بوقت قليل رسالة تفيض حنقاً ووقاحة إذ حسب أنّ عمّته كانت تريد أن تخدعه في أمر عائلي و«تحيك ضدّه مؤامرة كاملة» وفيما كانت هذه الأخيرة تختبئ بغباء خلف رجال أعمال اشتبه بالضبط أن تكون حالفتهم ضدّه. وأضاف في التعقيب قوله: «لن أكتفي بالانتقام، بل سأجعلك مضغة الأفواه. سوف أبادر منذ الغد إلى رواية قصة الحوالة البرقية والستّ فرنكات وخمسة وسبعين التي اقتطعتها من الثلاثة آلاف التي أقرضتك إيّاها، وذلك

على مسامع كلّ الناس، وسألحق بك العار.» وعوضاً عن ذلك بادر في الغد إلى طلب الصفح من عمّته «فيلباريزيس». آسفاً لرسالة ضمنها جملاً مقيتة بالحقيقة. ومن كان عساه يمكن أن يطلع على قصة الحوالة البرقية على أيّة حال؟ إن قصة الحوالة هذه إنما كان سيكتمها الآن إذ لا يبغي انتقاماً بل مصالحة صادقة. أمّا قبل ذلك، فقد رواها في كل مكان وهو على أحسن حال مع عمّته، لقد رواها دون خبث، للاضحاك ولأنّه كان التجسيد الحيّ للفضيحة. لقد رواها ولكن دون أن تعلم بذلك السيدة «دو فيلباريزيس».، حتى إنّها لما علمت من رسالته أنّه عازم على الحاق العار بها بفضح ظرف أعلن لها أنّها أحسنت صنعاً فيه ظنت أنّه خدعها آنذاك وأنّه يكذب وهو يتظاهر بحبه لها. لقد هدأ كلّ ذلك، ولكنما لم يكن يعلم كلّ منهما بالدقّة رأي الآخر فيه. والأمر هنا بالتأكيد أمر خلافات متقطعة خاص بعض الشيء. أمّا خلافات «بلوك» وأصدقائه فكانت من نوع مختلف، ومن نوع آخر كذلك خلافات السيد «دو شارلوس»، مثلما سوف نرى، مع أشخاص غير السيدة «دو فيلباريزيس». تماماً. ولابدّ أن نتذكر مع ذلك أن الرأي الذي نحمله بعضنا عن بعض وعلاقات الصداقة والأسرة ليس فيها من أمر ثابت إلاّ في الظاهر، فهي على العكس أبدية الحركة كالبحر. من هنا جاء الكثير من شائعات الطلاق بين أزواج كانوا يبدون في ترابط تامّ ثم هم بعد قليل يتحدثون بحنان بعضهم عن بعض ؛ والكثير من الأحاديث الشائنة يقولها صديق عن صديق حسبناه لاينفصل عنه ونعود فنلقاه وقد صالحه قبل أن تسعنا العودة عن دهشتنا ؛ والكثير من انقلابات الأحلاف بين الشعوب في وقت قصير جدًا.

وقال لي «سان لو»: «يا إلهي، الحرارة ترتفع بين عمّي والسيدة «سوان». وأمي التي جاءت، ببراءتها، تزعجهما. فكل شيء طاهر في نظر الطاهرات!»

كنت أنظر إلى السيد «دو شارلوس». كانت خصلة شعره الأشيب وعينه الضاحكة التي ترفع النظارة المفردة حاجبها وعروته بزهراتها الحمر تؤلف كأنما الرؤوس الثلاث المتحرّكة لمثلّث مضطرب ومدهش. ولم تخالفني الجرأة لتحيّته إذ لم تبدر منه أيّة إشارة نحوي. بيد أني كنت متيقنًا أنه رآني مع أنه لم يكن يلتفت صوبي. ففيما كان يروي قصّة للسيدة «سوان» التي يتهدّل معطفها الرائع الذي بلون زهر الثالوث حتى إحدى ركبتي البارون كانت عينا السيد «دو شارلوس» الشائحتان، وكأنّي بهما عينا بائع في الهواء الطلق يخشى من مجيء الشرطة، قد تحرّيتا بالتأكيد كلّ قسم في الصالة واكتشفتا كل الأشخاص الحاضرين فيه. وجاء السيد «دو شاتليرو» يقرئه السلام دون أن ينم شيء في وجه السيد «دو شارلوس» أنّه لمح الدوق الشاب قبل مثول هذا الأخير في حضرته. فهكذا كان السيد «دو شارلوس» في الاجتماعات الحاشدة إلى حدّما، شأن الاجتماع هذا، يحتفظ على نحو ثابت تقريباً بابتسامة لا اتجاه محدّدا لها ولا مقصد خاصاً فتجيء، وقد سبقت على هذا النحو تحيّات الوافدين، خلوا، حينما يدخل هؤلاء ساحتها، من أي دلالة تودّد لهم. وكان لابدّ لي مع ذلك من المبادرة إلى تحية السيدة «سوان». وبما أنّها لم تكن تعلم إن كنت أعرف السيدة «دو مارسانت» والسيد «دو شارلوس» فقد أبدت شيئاً من الجفاء وقد خشيت دون ريب أن أطلب إليها أن تعرف بي. فتقدّمت إذ ذاك صوب السيد «دو شارلوس» وأسفت في الحال لأنّه لابدّ كان يراني تماماً فلم يبد من ذلك شيئاً. وقد وجدت، ساعة انحنيت أمامه، إصبعاً بعيداً عن جسمه الذي كان يمنعني من الاقتراب منه بكامل طول ذراعه الممدودة، إصبعاً تخالها فقدت خاتماً اسقفياً تبدو وكأنما تقدّم لك مكانه المكرّس له لتقوم بتقبيله، ولا بدّ أني بدوت وكأني دخلت على غير علم من البارون وبطريق تحطيم للابواب يلقي عليّ مسؤوليته إلى ابتسامته الدائمة

وتبدّدها المخفل الخالي من الدلالة. وما كان من شأن هذا الفتور أن يشجع السيدة «سوان» كثيراً على الإقلاع عن فتورها.

وقالت السيدة «دو مارسانت» لابنها الذي أقبل لتحيّة السيد «دو شارلوس»: «كم تبدو متعباً ومضطرباً».

كانت نظرات «روبير» بالفعل تبدو بين الحين والحين وكأنّها تبلغ أعماقاً تغادرها في الحال شأن غوّاص بلغ القاع. وإنّما كان ذلك القاع الذي كان يؤلم «روبير» أشدّ الألم حينما يبلغه ويغادره في الحال ليعود إليه بعد لحظة، إنّما كان فكرة أنّه قطع علاقته بعشيقته.

وأضافت والدته وهي تداعب خدّه: «لا بأس عليك، لا بأس عليك، حسن أن أرى ابني الصغير.»

وإذ بدا أن هذا الحنان يزعج «روبير» جذبت السيدة «دو مارسانت» ابنها إلى أقصى الصالة حيث كانت بعض مقاعد من طراز «بوفيه» في فجوة مكسوّة بالحرير الأصفر تكتّل أغطيتها البنفسجية كأزهار سوسن تخضبّها الحمرة في حقل من الأزرار الذهبيّة. وإذ ألفت السيدة «سوان» نفسها وحيدة وأدركت أنّي أرتبط بعلاقة صداقة مع «سان لو» أشارت إليّ بالمجيء بالقرب منها. وما كنت أدري، إذ لم أرها منذ فترة طويلة، عمّا أحدّثها. ولم أغفل عن قبعتي بين جميع تلك التي كانت فوق السجادة، ولكنني كنت أتساءل بفضول لمن يمكن أن تكون قبعة لم تكن قبعة الدوق «دو غيرمانت» وفي بطانتها حرف «G» يعلوه التاج الدوقي. كنت أعرف من كان الزوّار جميعهم ولا أجد واحداً من بينهم يمكن أن تكون قبعته.

وقلت للسيدة «سوان» وأنا أشير إلى السيد «دو نوربوا»: «ما أقربه إلى القلب. صحيح أن « روبير سان لو» يقول لي إنّه ضرب من الوباء ولكن...».

فأجابت: «إنّه على حقّ».

ولما رأيت نظرتها ترتدّ إلى أمر كانت تكتمني إيّاه ضيقت عليها بالسؤال، فمضت بي إلى زواية إذ ربّما سرّها أن تبدو وكأنّما يشغلها إلى حدّ بعيد واحد في هذه الصالة التي تكاد لا تعرف فيها أحداً. وأجابتني قائلة:

— «إليك ما أراد السيد «دو سان لو» أن يقوله لك، ولكن لا تُعدْ له القول، فربما وجدني غير حافظة للسرّ وإنّي أحرص على تقديره، فأنا كما تعلم «مثالية السلوك» إلى أبعد حدّ. لقد تناول «شارلوس» مؤخراً طعام العشاء في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ولست أدري كيف تمّ الحديث عنك. وقد روى السيد «دو نوربوا»، على حدّ قولهم، — والأمر سخيف فلا تشغل بالك لذلك إذ لم يوله أحد أهمية، فالكلّ يعلم تماماً على أيّ لسان يجيء الخبر — أنّك متزلف نصف مهزوز.»

لقد سبق أن رويت قبلاً عن ذهولي أن استطاع صديق لوالدي على نحو ما كان السيد «دو نوربوا» أن يتكلّم هكذا في حديثه عني. وانتابني ذهول أكبر أن علمتُ أن أنفعالي في ذلك اليوم البعيد الذي تكلّمت فيه عن السيدة «سوان» وعن «جيلبيرت» وكان معروفاً لدى الأميرة «دو غيرمانت» التي كنت أحسبها تجهلني. إن كلا من أعمالنا وأقوالنا ومواقفنا إنّما يفصله عن «العالم»، عن الناس الذين لم يدركوه مباشرة، وسط تختلف

نفاذيته إلى مالا نهاية وتظلّ مجهولة لدينا. ولما علمنا بالتجربة أنّ قولاً مهما، أيّ قول، تمنينا بشدة أن ينتشر (كتلك الأقوال المتحمسة جدًا التي كنت أجود بها فيما مضى للجميع وفي كل مناسبة حول السيدة «سوان» ظنًا مني أنّه سوف يكون بين الكثير من البذرات الصالحة المبثوثة واحدة ستنبت) إنما وقع له وفي الغالب بسبب رغبتنا نفسها أن وضع في الحال تحت المكيال، فكم كنّا بالأحرى بعيدين عن أن نصدّق أنّ هذه العبارة الصغيرة جدًا التي نسيناها، بل لم نتلفظ بها في يوم وتكوّنت في طريقها من جراء انكسار غير صحيح لعبارة مختلفة سوف يتّم نقلها، دون أن تتوقف مسيرتها في يوم، إلى مسافات لا نهاية لها– وحتى منزل الأميرة «دو غيرمانت» فيما يخص موضوعنا – وتمضي لتنشر المرح على حسابنا في وليمة الآلهة! إنّ ما نتذكّره من سلوكنا يظل مجهولاً لدى أقرب جيراننا ؛ أمّا ما نسينا أنّا قلناه أو حتى مالم نقله في يوم فينتقل ليثير الضحك حتى إلى كوكب آخر والصورة التي يكوّنها الآخرون عن حركاتنا وسكناتنا لا تشبه تلك التي نرسمها لذواتنا أكثر مما يشبه رسماً ما نقل «فاشل» عنه يقابل فيه مجال فارغ خطاً أسود واستدارة غامضة آخر أبيض. وقد يتفق على أيّة حال أن يكون ما لم يتم نقله إما خطأً وهمياً لا نبصره إلاّ بداعي الإعجاب بالنفس وأن ما يبدو لنا مضافا إنّما يخصنّا على العكس على نحو جوهري إلى حدّ أنّه يفوتنا. حتى أنّ هذه المسوّدة الغريبة التي تبدو لنا قليلة الشبه بنا إلى حدّ بعيد إنّما تملك أحياناً نوع الحقيقة التي لصورة بالأشعة السينية، وهي قلّما ترضي بالتأكيد ولكنها عميقة ومفيدة. وليس ذلك سبباً كيما نتعرّف ذواتنا فيها. فمن تعوّد أن يتبسم في المرآة لمحيّاه الجميل وصدره الجميل سيتفق له، إن هم أروه صورتهما الشعاعية، حيال هذه السلسلة العظيمة المشار إليها على أنّها صورة له ذات الارتياب بالخطأ الذي يتفق لزائر معرض يقرأ في الدليل أمام رسم امرأة شابّة: «جمل نائم» . وكنت سأتبين فيما بعد هذا الفارق بين صورتنا حسبما يتم رسمها على يدنا أو على يد الغير، وذلك لدى آخرين غيري يعيشون عيشة راضية وسط مجموعة من الصور أخذوها لأنفسهم فيما تكشر من حولهم صور مخيفة تخفى عليهم بالعادة ولكنها تغرقهم في الذهول لو أرتهم إياها المصادفة قائلة لهم: «أولئك أنتم» .

لعلنّي كنت سعدت منذ بضع سنوات أن أقول للسيدة «سوان» «لأي داع» كنت رفيقا إلى هذا الحدّ بالسيد «دو نوربوا» بما أن ذاك «الداعي» كان الرغبة في التعرّف بها. ولكنّي لم أعد أحس بذلك ولم أعد أحب «چيلبيرت» . وما كنت أفلح من جهة ثانية في مماثلة السيدة «سوان» بالسيدة ذات الأثواب الوردية التي رأيتها في طفولتي. وقد تكلمت لذلك عن المرأة التي كانت تشغلني في ذلك الوقت. فسألت السيدة «سوان» قائلاً:

– «هل رأيت لتوّك الدوقة «دو غيرمانت» ؟

ولما كانت الدوقة لاتحيي السيدة «سوان» فقد شاءت هذه الأخيرة أن تبدو وكأنها تحتسبها امرأة لا شأن لها ولا ينتبه المرء لوجودها فأجابتني بلهجة متكدّرة وهي تستخدم لفظة مترجمة عن الانكليزية:

– «لست أدري، لم «أحقق» ذلك» .

على أني وددت لو أحصل على معلومات لا حول السيدة «دو غيرمانت» فحسب، بل حول جميع الذين كانوا يقربون منها، فسألت السيدة «دو فيلباريزيس» حمل السيدة «لوروا» ، في محاولة لتمثل حياة السيدة

«دو غيرمانت» تمثلاً دقيقاً، شأن مايفعل «بلوك» تماماً وبالافتقار إلى اللباقة الذي يبديه أناس يحاولون في حديثهم لا أن يحسنوا في عيون الآخرين بل أن يستوضحوا، كما يفعل الأنانيوّن، نقاطاً تهمّهم. فأجابت بازدراء متكلف:

– «أجل، أدري، ابنة تجّار الخشب الكبار. أدري أنّها تلتقي الآن أناساً، ولكني سأقول لك إنّي تقدّم بي السن كثيراً كيما أتخذ معارف جدداً. وقد عرفت أناساً ذوي خطر ولطف كبيرين إلى حدّ أحسب معه حقاً أن السيدة «لوروا» لن تضيف شيئاً إلى ما أملك.»

أمّا السيدة «دو مارسانت» التي كانت تقوم بدور وصيفة للمركيزة فقد قدّمتني للأمير ولم تكد تنتهي حتى كان السيد «دو نوربوا» يقدّمني بدوره وبأكثر العبارات حرارة. فربما وجد من اليسير أن يقوم بمجاملة إزائي لاتمس في شيء سمعته إذ تمّ التعريف بي بالفعل منذ قليل ؛ وربّما لأنّ الغريب، وإن يكون مشهوراً، أقلّ اطلاعا على الصالات الفرنسية ويمكن أن يحسب أنّهم يعرّفونه بشاب من علية القوم ؛ وربما لممارسة واحد من امتيازاته، وهو أن يضيف ثقل توصيته الخاصة بوصفه سفيراً، أو بداعي نزعة إلى الأسلوب القديم في القيام على شرف الأمير بأحياء عادة ترضي كبرياء صاحب السموّ وهي ضرورة أن يكون ثمة عرّابان إن شاء المرء أن يُقدم له.

وصاحت السيدة «دو فيلباريزيس» بالسيد «دو نوربوا» وقد أحست بحاجة أن تقول لي على لسانه إنّه ما كان لها أن تأسف لأنّها لا تعرف السيدة «لوروا».

– «أليس أنّ السيدة «لوروا»، يا سيدي السفير، امرأة لا شأن لها وأدنى بكثير من جميع اللواتي يتردّدن إلى هنا وأنّي على حقّ في أني لا أستميلها؟»

واكتفى السيد «دونوربوا»، إمّا بداعي الاستقلالية أو الإرهاق، بأن يجيب بتحيّة تفيض احتراماً ولكنّها خالية المدلول.

وقالت له السيدة «دو فيلباريزيس» ضاحكة: «ثمة أناس يثيرون السخرية إلى حدّ كبير. هل تصدّق يا سيدي أن رجلاً قد زارني اليوم وشاء أن يحملني على الاعتقاد بأنّه يحس متعة أكبر في تقبيل يدي منه في تقبيل يد امرأة شابة؟»

وفهمت في الحال أنّها تعني «لوغراندان». وابتسم السيد «دو نوربوا» بغمزة خفيفة من عينه كما لو كان الأمر ملذّة طبيعية إلى حد لا يمكن معه أن نحمل على من يشعر بها وما يقارب أن يكون بداية رواية نبدي استعداداً لأن نغفر لها، وحتى أن نشجعّها، بتسامح شيطاني على طريقة «فوازنون» و«كريبيون» الابن.

وقال الأمير وهو يشير إلى اللوحات المائية التي باشرتها السيدة «دو فيلباريزيس»: «قد تعجز أيدي الكثيرات من النساء الشابات عن صنع ما شاهدت هنا.»

ثمّ سألها إن كانت شاهدت أزهار «فانتان لاتور» التي عُرِضَتْ منذ قليل.

وصرّح السيد «دو نوربوا» قائلاً: «إنّها من الطراز الأول وهي، كما يقولون اليوم، من ريشة رسام مرموق، ريشة واحد من أساتذة الممزجة. غير أني أرى أنّها لاتستطيع احتمال المقارنة مع أزهار السيدة «دو فيلباريزيس» التي أتعرّف فيها أكثر من تلك ألوان الزهرة.»

وحتى لو افترضنا أنّ تحيز العشيق السابق وعادة التزلف والآراء المسلم بها في جماعة مغلقة قد أملت تلك الأقوال على السفير السابق فقد كانت تبرهن مع ذلك على أي انتقاء حقيقي في الذوق يرتكز حكم أهل المجتمعات الراقية الفنّي، وهو اعتباطي إلى حدّ أن النزر اليسير يمكن أن يبلغ به أسوأ صنوف السخافة التي لا يلاقي على دربها كيما يوقفه أيّ انطباع نابع من إحساس حقيقي.

فأجابت السيدة «دو فيلباريزيس» باتضاع: «ليس لي أيّ فضل في معرفة الأزهار، فقد عشت أبداً في الحقول.» وأضافت بلطف وهي توجّه القول للأمير: «ولئن تسنت لي في حداثة سني أفكار أكثر جدية بقليل من أطفال الريف الآخرين فإني أدين بذلك لرجل بارز جدّا من شعبكم هو السيد «دو شليغل». لقد التقيت به في «بروي» حيث اصطحبتني عمّتي «كورديليا» (عقيلة المشير «دو كاستيلان»). وإنّي أتذكر تماماً أنّ السيد «لوبرون» والسيد «دو سافندي» والسيد«دو دان» كانوا يحملونه على الحديث عن الازهار وكنت بنية صغيرة جداً ولا أحسن تماماً فهم ما يقول. ولكنّه كان يلهو بملاعبتي، وبعدما عاد إلى بلادكم بعث إليّ بمجموعة عشبية جميلة تذكاراً لنزهة كنّا قمنا بها في عربة مكشوفة إلى محلّة «فال ريشيه» وقد أغفيت فيها على ركبتيه. لقد حافظت دوماً على هذه المجموعة العشبية وقد علمّتني أن ألاحظ الكثير من خاصيات الأزهار التي ما كانت لتسترعي انتباهي لولا ذلك. وحينما نشرت السيدة «دو بارانت» بضع رسائل للسيدة «دو بروي» جميلة بادية الصنعة على نحو ما كانت هي نفسها أملت أن ألقي فيها بعض أحاديث السيد «دو شليغل» تلك. ولكنّها امرأة ما كانت تبحث في الطبيعة إلاّ عن حجج في سبيل الدين.»

ودعاني «روبير» إلى أقصى الصالة حيث كان مع والدته. فقلت له: «كم كنت لطيفاً وكيف أشكرك؟ هل يمكن أن نتناول غداً طعام العشاء معاً؟»

– «غداً، إن شئت، ولكن برفقة «بلوك». لقد التقيت به أمام الباب. وبعد لحظة من الفتور لأنّني كنت غصباً عنّي قد تركت جانباً رسالتين له دون جواب (لم يقل لي إن ذلك ما جرح شعوره ولكنّي أدركت الامر)، أبدى من المودّة مالا يمكنني معه أن أبدي العقوق نحو صديق كهذا. وأحس أن ذلك سيظّل بيننا، فيما يخصّه على الأقلّ، مدى الحياة وحتى الممات.»

ولا أحسب أنّ «روبير» كان على خطأ تامّ. فكثيراً ما كانت المذمّة لدى «بلوك» نتيجة مودّة قوية ظنّ أنّهم لايبادلونه إياها. ولما كان ضعيف التخيل لحياة الآخرين فلم يكن يخطر له أنّه يمكن للمرء أن يكون مريضاً أو على سفر، الخ، وسرعان ما يبدو له صمت دام ثمانية أيّام أنّه ناجم عن جفوة مقصودة. ولم أعتقد لذلك في يوم أن أسوأ صنوف عنف الصديق لديه، والكاتب فيما بعد، كانت على عمق كبير. لقد كانت تزداد حدّة إن قوبل فيها بجفاء وقور أو ببرودة تشجعه على مضاعفة ضرباته، ولكنّها تنهار في الغالب أمام حرارة المودّة. وتابع «سان لو» قوله: «فأما اللطف فإنك تزعم أنّني كنت لطيفاً معك، ولكني لم أكن لطيفاً

على الإطلاق، فعمتي تقول إنّك تتجنبها أنت وإنك لاتقول لها كلمة واحدة: وتتساءل إن كنت لا تضمر أمراً ضدّها.»

ولو وقعت ضحية هذه الأقوال لحال رحيلنا إلى «بالبيك» لحسن حظي، وكنت أحسبه وشيكاً، دون أن أحاول لقاء السيدة «دو غيرمانت» ثانية وأؤكّد لها أنّي لا أضمر شيئاً ضدّها وإن أضطرّها بذلك إلى أن تثبت أنّها هي التي تضمر شيئاً ضدّي. إلاّ أنّه لم يقع عليّ سوى أن أتذكر أنها لم تعرض عليّ حتى الذهاب لزيارة أسرة «ايلستير». وما كان ذلك على أيّة حال خيبة أمل، إذ ما توقعت على الإطلاق أن تكلّمني عن الأمر. كنت أعلم أنّي لا أروقها وأنّه لم يكن لي أمل في حملها على محبتي. واكثر ما أمكن أن أتمناه أن أحمل عنها، بفضل طيبتها، وبما أنّي لن أعود فأراها قبل مغادرتي باريس، انطباعاً كلّي الحلاوة آخذه إلى «بالبيك» ويتطاول إلى مالا نهاية ولاتمسة يد، بدلاً من ذكرى تمتزج بالقلق والكآبة.

كانت السيدة «دو مارسانت »تقطع في كل لحظة حديثها مع «روبير» لتقول لي كم كلمّها كثيراً عنّي وكم كان يحبني. لقد كانت تبدي لي من العناية ما كاد يورثني غمّا لأنني كنت أحس أنها إنّما تمليها الخشية التي بها أن تغضب بسببي من ذلك الابن الذي لم تكن بعد قد رأته اليوم والذي تستعجل أن تنفرد به والذي تحسب أن السلطان الذي تمارسه عليه لايوازي سلطاني ولابدّ أن يراعيه. واستعلمت السيدة «دو مارسانت» بعدما سمعتني قبلاً أسائل «بلوك» عن أخبار عمّه «نسيم بيرنار» إن كان ذاك الذي سبق أن سكن «نيس». وقالت: «لقد عرف فيها، في هذه الحالة، السيد «دو مارسانت» قبل أن يتزوّجني. وكثيراً ما حدّثني زوجي عنه على أنّه رجل ممتاز رقيق القلب كريم النفس.»

ولعلّه كان خطر لـ«بلوك» أن يقول: «عجباً أنّه لم يكذب هذه المرّة، ذلك أمر لا يصدّق».

كان بودّي دوماً أن أقول للسيدة «دو مارسانت» إنّ «روبير» يكنّ لها مودّة أعظم بما لايقاس ممّا يكنّ لي وأن ليس من طبعي محاولة استعدائه عليها وفصله عنها ولو أبدت لي العداء. ولكني أصبحت أكثر حرية في ملاحظة «روبير» منذ أن ذهبت السيدة «دو غيرمانت» وتبينت آنذاك فقط أن نوعاً من الغضب أخذ يبدو ثانية وكأنه يعتمل في صدره ويلوح على وجهه القاسي المتهجم. وكنت أخشى أن يشعر بالمذمة ازائي، لدى تذكّر شجار ما بعد الظهيرة، أن سمح بمعاملته معاملة قاسية إلى هذا الحدّ على يد عشيقته دون أن يردّ.

وتملص فجأة من والدته التي كانت قد لفت عنقه بذراعها وأقبل إليّ فقادني خلف منضدة السيدة «دو فيلباريزيس» المزهرة حيث كانت هذه الأخيرة قد جلست وأشار إليّ أن أتبعه إلى الصالة الصغيرة. وكنت ماضياً إليها بسرعة حينما فارق السيد «دو شارلوس» على نحو مفاجىء، ولعلّه حسبني ذاهباً باتجاه المخرج، السيد «دو فافنهايم» الذي كان يتحدث معه وقام بدورة سريعة قادته قبالتي. ورأيت بهلع أنّه أخذ القبعة التي خطٌ في أسفلها حرف (G) وتاج دوقي. وقال لي في فتحة باب الصالة الصغيرة دون أن ينظر إليّ:

– «بما أنّني أراك الآن ترتاد المجتمع فتكرّم عليّ بأن تأتي لزيارتي.» وأضاف بهيئة الشارد المتحسب وكما لو تعلّق الأمر بمتعة كان يخشى ألاّ يعود فيلقاها بعدما تفلت من يده فرصة تنظيم وسائل تحقيقها معي: «ولكنّ الامر على شيء من التعقيد، فقليلاً ما أكون في منزلي ولابدّ من أن تكتب إليّ. على أني أفضل أن

أوضح لك ذلك بهدوء أكبر. إني أزمع الذهاب بعد لحظة فهل تسير خطوتين برفقتي؟ لن أستوقفك سوى لحظة.»

فقلت له: «يحسن بك أن تنتبه ياسيدي، فقد أخذت خطأ قبعة أحد الزائرين.»

– «مرادك أن تمنعني من أخذ قبعتي؟»

لقد افترضت، إذ اتفقت لي المغامرة قبل ذلك بقليل، أنه بعدما أخذ أحدهم قبعته لمح إحداها اتفاقاً كي لايعود حاسر الرأس وأنني كنت أحرجه بكشف حيلته. ولذلك لم ألحّ، وقلت له إنّه ينبغي لي أوّلاً أن أقول بضع كلمات لـ «سان لو»، وأضفت قولي: «إنّه يحادث دوق «غيرمانت» الأبله هذا». – «ظريف ما تقوله، وسوف أنقله لشقيقي.» – «آه! أتظنّ أن الأمر يمكن أن يثير اهتمام السيد «دو شارلوس»؟ (وكنت أتصور أنه، إن كان له أخ، فلا بدّ أن يدعى هذا الأخ بدوره «شارلوس». لقد سبق أن زوّدني «سان لو» ببعض الايضاحات بهذا الشأن في «بالبيك» ولكني نسيتها.) فقال لي البارون بلهجة وقحة: «ومن يحدّثك عن السيد «دو شارلوس»؟ هيا امضِ بالقرب من «روبير». إني أعلم أنّك شاركت هذا الصباح في واحد من أغدية العربدة التي يقيمها بصحبة امرأة تلطّخ شرفه. وجدير بك أن تستخدم نفوذك عليه كي تحمله على إدراك الغمّ الذي يسببه لوالدته المسكينة ولنا جميعاً بتمريغ اسمنا في الوحل.»

وددت لو أجيب أنّنا لم نتحدث في أثناء الغداء الشائن إلاّ عن «إيمرسون» و«ايبسن» و«تولستوي» وأنّ المرأة الشابة قد حضتّ «روبير» على ألاّ يشرب غير الماء. وكيما أجهد في جلب بعض العزاء لـ «روبير» الذي ظننت كرامته قد جرحت حاولت أن أعذر عشيقته. ولم أكن أعلم أنه إنّما كان يوجه الملامة لنفسه في تلك اللحظة على الرغم من غضبه منها. ذلك أنّه يتفق دوماً حتى في المشاجرات بين صالح وشرّيرة وحينما يكون الحق بكليتّه من جانب أن يكون ثمة إحدى الترّهات التي يمكن أن تبدي للشرّيرة أنّها ليست مخطئة في نقطة معينة. وبما أنها تهمل جميع النقاط الأخرى، فإن أحتاج الصالح إليها أقلّ ما يحتاج وأضعف الهجر معنوياته فسيدخل ضعفه الوساوس إلى نفسه وسيتذكر صنوف اللوم اللامعقولة التي وجهت إليه ويتساءل إن لم يكن لها شيء من الأساس.

وقال لي «روبير»: «أظنني أخطأت في مسألة العقد هذه. أنا بالتأكيد لم أفعل ذلك بمقصد سيء ولكنّي أعرف تماماً أنّ الآخرين لايتخذون وجهة النظر نفسها التي نتخذها نحن. لقد عاشت طفولة قاسية جدّاً. وإنّما أنا في نظرها الغني الذي يعتقد أن المرء يبلغ كل شيء بماله والذي لايقوى الفقير على محاربته سواء في ذلك التأثير على «بوشرون» أو كسب دعوى أمام القضاء. ليس من شك أنّها كانت قاسية جدّاً، أنا الذي لم يبحث في يوم إلاّ عن خيرها. ولكنّي أتبيّن الأمر تماماً، إنّها تظنّ أني أردت أن أُشْعِرّها بامكان ربطها بالمال، وما ذلك بصحيح.

ما عساها تقول في نفسها هي التي تحبني أشدّ الحبّ! يا للعزيزة المسكينة، إن لديها، لو تدري، من صنوف الرقة، أنا لا أستطيع أن أقول لك، فكثيراً ما فعلت من أجلي أمور رائعة. كم ينبغي أن تكون تعيسة في هذه اللحظة! ومهما يكن من أمر، على أي حال، لا أريد أن تعدّني غليظ الفؤاد، وإنّي مسرع لدى «بوشرون»

لاحضار العقد: من يدري؟ ربما اعترفت بأخطائها ساعة تراني أفعل ما أفعل. ترى، هي فكرة أنّها تتعذّب في هذه اللحظة مالا أطيق احتماله! ما نحتمل من عذاب إنّما نعلمه وهو غير ذي بال. أما فيما يخصها، فأن نقول لأنفسنا إنّها تتعذّب ولا نستطيع تصوّر ذلك، أظنّني سأجنّ وأفضل ألاّ أعود فألقاها في يوم على أن أدعها تتعذّب. فلتكن سعيدة بمعزل عني إن وجب الأمر، فذلك كلّ ما أتمنّاه. اسمع، تدري، كلّ ما يمسها لاحدود له، في نظري، ويتخذ شيئاً من رحابة الكون. إني مسرع إلى الجواهري، وبعدها أسالها الصفح. وإلى أن أصل إلى هناك، ماعسى يمكن أن تفكر فيّ؟ لو أنه تعلم فحسب أنّي أزمع المجيء! يمكنك تحسباً لكلّ طارئ أن تجيء إلى بيتها، فمن يدري، ربما تمت تسوية كلّ شيء.» وقال مبتسماً وكأنما لايجرؤ على الاعتقاد بحلم كهذا: «ربما ذهبنا ثلاثتنا للعشاء في الأرياف. ولكنّما لانستطيع أن نعرف بعد، فاني لا أحسن معاملتها. يا للصغيرة المسكينة، ربما أزمعت أن أجرح شعورها أيضاً. وقد يكون قرارها قراراً لا رجعة فيه.»

ومضى بي «روبير» على نحو مفاجئ إلى والدته، وقال لها: «الوداع، إني مضطرّ إلى الرحيل، ولست أعلم متى أعود في اذن، ولن يكون ذلك قبل شهر دونما شك. سوف أكتب لك ما أن أعلم ذلك.»

لم يكن «روبير» بالتأكيد من أولئك الأبناء الذين يحسبون، إما وجدوا في المجتمع برفقة والدتهم، أنّه لابدّ أن يوازي موقف ساخط إزاءها البسمات والتحيات التي يوجهونها للأغراب. فليس ما كان أكثر شيوعاً من ذلك الانتقام البشع يمارسه أولئك الذين يظنون أنّ الفظاظة تجاه الأهل إنما تكمل بالطبع البزّة الرسميّة. ومهما تقل الوالدة المسكينة فإن ابنها يرفع في الحال في وجهه التوكيد الذي صيغ بوجل قولاً مناقضاً ساخراً قاسياً كما لو اصطُحبَ رغماً عنه وابتغى أن يكلفهم حضوره دفع ثمن مرتفع وتنضم الوالدة في الحال إلى رأي هذا الكائن المتفوق، دون أن تهدأ سورة غضبه لذلك. وتوالي الإشادة به في غيابه أمام الجميع على أنه ذو طباع عذبة، مع أنّه لايكفيها أيا من سهامه اللاذعة كأكثر ما تكون. كان «سان لو» من طينة مغايرة تماماً، بيد أنّ القلق الذي يبعثه غياب «راحيل» كان من نتيجته أنْ لم يكن أقلّ قسوة على والدته من هؤلاء الأبناء على أمهاتهم ولكن لأسباب مختلفة. ورأيت لدى الكلمات التي تفوّه بها الخفقة نفسها، وهي شبيهة بخفقة جناح، تلك التي لم تقو السيدة «دو مارسانت» على كتمها لدى وصول ابنها، تدفعها إلى الانتصاب بكامل قامتها. ولكنما كانت تثبت عليه الآن وجهاً قلقاً وعينين مغتمتّين.

- «عجباً، أنت ذاهب «يا روبير»؟ والأمر جديّ؟ ياولدي الصغير! وهو اليوم الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه لي!».

وأضافت بصوت خافت تقريبا وبلهجة طبيعيّة كأكثر ما تكون وبصوت تجهد أن تقصي منه أيه حزن كي لا توحي لابنها بأية شفقة قد تكون قاسية عليه أو غير مجدية ومن شأنها أن تغضبه فحسب، أضافت وكأنما تلك حجة صادرة عن سلامة التفكير:

- «تعلم أنّ ما تفعله ليس لطيفاً.»

ولكنها كانت تضيف إلى تلك البساطة قدراً كبيراً من الوجل كي تبدي له أنها لاتتجاوز حرّيته، وقدراً كبيراً من الحنان كي لا يأخذ عليها أنّها تقف حائلاً دون متعه إلى حدّ لم يستطع «سان لو» معه ألاّ يتبينّ في

داخله إشفاقاً ممكناً، يعني عائقاً دون قضاء الأمسية مع صديقته. ولذلك أخذه الغضب:

– «ذلك مؤسف، أما أن كون لطيفاً أو غير لطيف، فالأمر هكذا.»

ووجّه إلى والدته اللوم الذي أحس دونما شك أنه ربما يستحقه ؛ إذ هكذا يملك الأنانيون أبداً الكلمة الفصل ؛ فانّهم يفترضون بادئ الأمر أنّ عزمهم لايتزعزع، وبقدر ما يبدو الشعور الذي يستحثون به لثنيهم عن عزمهم مؤثراً بهذا القدر يشجبون، لا أنفسهم هم الذين يقاومون ذاك الشعور، بل أولئك الذين يفرضون عليهم ضرورة مقاومته، حتى إن قسوتهم يمكن أن تبلغ أقصى درجات الشراسة دون أن يفضي ذلك في نظرهم إلاّ إلى أن يزيد بالقدر نفسه من ذنب الشخص الذي يبدي من قله الذوق ما يكفي ليتألم ويكون على حقّ ويسبب لهم بذلك على نحو جبان ألم التحرّك ضدّ إشفاقهم ذاته. وقد كفت السيدة «دو مارسانت» على أيّة حال من تلقاء نفسها عن الإلحاح إذ أخذت تحس أنّها لن تستوقفه من بعد.

وقال لي: «إني أدعك، ولكن لاتستبقيه طويلاً يا أمي إذ ينبغي له أن يبادر بعد قليل إلى القيام بزيارة.»

كنت أحس تماماً أنّ وجودي لايمكن أن يجلب أيّة مسرّة للسيدة «دو مارسانت» ولكنّي كنت أفضل، إذ لا أرحل مع «روبير»، ألاّ تحسب أني أشارك في تلك المتع التي تحرمها إياه. وددت لو ألقى عذراً لسلوك ابنها، وذلك اشفاقاً عليها أكثر منّي مودّة له. ولكنها كانت أوّل من بادر إلى الكلام وقالت لي:

– «يا للصغير المسكين، إني على يقين من أنني بعثت الغم في نفسه. أرأيت ياسيدي، الأمهات أنانيات إلى أبعد حدّ. مع أنّه لايتوافر له الكثير من المتع، فما أقل ما يأتي إلى باريس. يا إلهي، وددت لو ألحق به إن لم يكن بعد قد ذهب، لا لأستبقيه بالتأكيد، بل لأقول له إني غير حاقدة عليه وإني أرى أنه كان على حقّ. ليس يزعجك أن أنظر على الدرج؟»

ومضينا حتى هناك. وصاحت: «روبير! روبير! لا، لقد ذهب وفات الأوان.»

لعلني كنت أخذت الآن على عاتقي مهمة أن أحمل «روبير» وعشيقته على قطع علاقتهما بمثل ما كنت أبديت من طيبة خاطر منذ بضع ساعات كيما يمضي للعيش معها كلياً. وربما حكم «سان لو» في هذه الحالة انني صديق خائن، ودعتني أسرته في الحالة الأخرى قرينها الشرير. مع أني كنت الرجل نفسه بفارق بضع ساعات.

وعدنا إلى الصالة، فبادلت السيدة «دو فيلباريزيس» ، إذ لم تبصر «سان لو» يعود، السيد «دو نوربوا» نظرة متشككة ساخرة دونما اشفاق كبير فيها، تلك التي نرسلها ساعة نشير إلى زوجة مفرطة الغيرة أو أم مفرطة الحنان (وكلتاهما توفرّ أن عرضاً هزلياً للآخرين) والتي تعني: «ويحك، لابدّ أنّ عاصفة هبّت هناك.»

ومضي «روبير» إلى منزل عشيقته يحمل إليها الجوهرة الرائعة التي ما كان يجدر به، بموجب اتفاقاتهما، أن يهبها إيّاها. على أنّ الأمر أفضى إلى النتيجة نفسها لأنها لم تقبل بها ولم يفلح البتة في حملها على القبول بها. كان بعض أصدقاء «روبير» يعتقدون أن أدلة التجرّد التي توفرّها كانت خطة ترمي إلى شدّة

إليها. بيد أنّها لم تكن متعلقة بالمال إلاّ بالقدر الذي يمكنها أن تصرف دون حساب فقد رأيتها تتصدّق كيفما تيسر لها وعلى نحو مجنون على أناس كانت تظنهم فقراء. وكان أصدقاء «روبير» يقولون له كيما يوازنوا بأقوالهم السيئة فعلة متجرّدة قامت به «راحيل»: «لابدّ أنّها الآن في ممرّ ملهى «الفولي بيرجير». إن «راحيل» هذه لغز ومستودع أسرار حقيقي». وكم من امرأة مغرضة، بما أنّه يتّم الانفاق عليها، نراها تقيم بنفسها ألف حاجز صغير دون كرم عشيقها تدفعها لباقة تورق وسط هذه الحياة!

كان «روبير» يجهل سائر خيانات عشيقته تقريباً ويعمل فكره في كلّ ما كان محض هنات تافهة في مقابل حياة «راحيل» الحقيقية، الحياة التي لم تكن تبدأ كلّ يوم إلاّ بعدما يفارقها بقليل. كان يجهل تقريباً كلّ خياناتها. وربما أمكن اطلاعه عليها دون أن يزعزع ذلك ثقته بـ «احيل» ؛ فذلك قانون للطبيعة رائع يبرز في صميم المجتمعات الأكثر تعقيداً وقوامه أن يعيش المرء في جهل كامل لما يحب. فالعاشق من جانب يقول في نفسه: «إنّها ملاك ولن تهبني نفسها في يوم، ولم يبق لي سوى الموت، على أنّها تحبني إلى حدّ أنها ربما... ولكن لا لن يكون الأمر ممكناً!» وفي ثورة اشتياقه وقلق انتظاره كم من المجوهرات يضع على قدمي هذه الامرأة وما أسرع ما يجري إلى اقتراض المال ليجنبها الهمّ! أما الجمهور فيقول من جانب الحاجز الزجاجيّ الآخر الذي لن تمرّ عبره الأحاديث أكثر ما تفعل تلك التي يتبادلها المتنزّهون أمام حوض أحياء مائية: «ألست تعرفها؟ إني اهنئك على ذلك، لقد سرقت وهدّمت مالست أدري من الناس. إنّها محض محتالة. خدّاعة إلى ذلك!» وربما لم تكن هذه الصفة الأخيرة باطلة تماماً، فحتى الرجل المتريب الذي لايعشق حقاً هذه المرأة بل تروقه فحسب يقول لأصدقائه: «لاياعزيزي، ليست غانية على الإطلاق. أنا لا أنكر أنّها عرفت في حياتها نزوتين أو ثلاثاً، ولكنها ليست امرأة تشترى، أو أن الثمن مرتفع جدّا حينذاك. معها تدفع خمسين ألف فرنك أو لاشيء على الإطلاق.» وقد دفع، هو، خمسين ألفّ فرنك في سبيلها وحصل عليها مرّة، أما هي فقد أفلحت في إقناعه أنّه من بين الذين حصلوا عليها مقابل لاشيء إذ لقيت من أجل ذلك على أيّة حال شريكاً في داخله وفي شخص كبريائه. وهكذا فإن الشخص الأكثر افتضاحاً والأسوأ سمعة لن يتمّ لأحد في المجتمع أن يعرفه في يوم إلاّ في أقاصي ندرة طبيعية حلوة مستعذبة وفي حماها. وكان في باريس رجلان لاثقان لم يعد «سان لو» يحييهما ولايتحدّث عنهما دون أن يرتجف صوته ودون أن يدعوهما مستغلي نساء: «ذلك أنّهما تبدّدت ثروتهما على يد «راحيل».

وقالت لي السيدة «دو مارسانت» بصوت خافت: «لست ألوم نفسي إلاّ في أمر واحد، وهو أني قلت له إنّه لم يكن لطيفاً. هو، ذاك الابن الرائع الفريد الذي لامثيل له، أن أكون قلت له في المرّة الوحيدة التي ألقاه فيها إنّه لم يكن لطيفا، إني أفضل لو ضربت بالعصا لأنني متيقنه أنّه مهما أصاب من متعة في هذا المساء، هو الذي لايصيب الكثير، فسوف تودي بها تلك العبارة الظالمة. على أني لن استبقيك ياسيدي بما أنك في عجلة من أمرك.»

كل ما جاءت السيدة «دو مارسانت» على قوله لي كان يتعلق بـ «روبير». كان صادقاً. ولكنها كفت عن كونها صادقة لتعود من جديد سيدة كبيرة:

— «لقد شاقني وأسعدني جدّا وراقني أن أتحدّث إليك قليلاً. شكراً! شكراً!»

وكانت تثبت عليّ، بادية الاتضاع، نظرات ممتنة منتشية كما لو كان حديثي احدى أعظم المتع التي عرفتها في حياتها. كانت تلك النظرات الرائعة تتناسب والزهرات السوداء على الفسطان الأبيض المعرّق، كانت نظرات سيدة كبيرة تتقن مهنتها.

– «لايمكنني الذهاب في الحال، فلابدّ أن انتظر السيد «دو شارلوس» الذي ينبغي لي أن أمضي معه.»

وسمعت السيدة «دو فيلباريزيس» هذه الكلمات الأخيرة، فبدا أنها تكدّرت. ولعله خيل إليّ أن ما بدا وكأنّه في ذعر لدى السيدة «دو فيلباريزيس» في تلك اللحظة إنّما كان الحياء، لو لم يدر الأمر حول مسألة لايمكن أن نردّها إلى شعور من هذا القبيل. ولكنّ تلك الفرضيّة لم تخطر حتى ببالي. فقد كنت مسروراً من السيدة «دو غيرمانت» و«سان لو» والسيدة «دو مارسانت» والسيد «دو شارلوس» والسيدة «دو فيلباريزيس» ، فما كنت أفكر وكنت أتحدّث بمرح وكيفما تيسر.»

وقالت لي: «أتزمع الذهاب مع ابن أخي «بالاميد» ؟

وإذ خطر لي أنّ ارتباطي بصداقة مع ابن اخ للسيدة «دو فيلباريزيس» كانت تقدّره إلى حدّ بعيد كان يمكن أن يورثها انطباعاً مشجعاً جدّا فقد أجبت مغتبطاً: «لقد طلب إليّ أن أعود معه، ويغبطني الطلب. وإننا على كلّ حال أعمق صداقة مما تظنّين ياسيدتي وأنا عازم على كلّ شيء كيما نزداد ارتباطاً.»

وخيل إليّ أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» أضحت، بعد تكدّر، في هم، فقالت لي بهيئة المهتّم: «لاتنتظره، إنّه يتحدث إلى السيد «دو فافنهايم». ولم يعد يفكر في ما قاله لك. هيا امضِ وانتهز الفرصة بسرعة فيما هو يدير ظهره.»

ولم أكن فيما يخصني معجلاً في الذهاب للحاق بـ «روبير» وعشيقته. ولكنما بدا أنّ السيدة «دو فيلباريزيس» كانت تصرّ إصراراً كبيراً على ذهابي إلى حدّ أني استودعتها وقد تبادر ربما إلى ذهني أنها ترغب التحدّث بمسائل هامة مع ابن شقيقها. كان السيد «دو غيرمانت» يجلس بتثاقل بالقرب منها، رائعاً إلهي المظهر. لكأنما كانت فكرة أمواله الكبيرة الماثلة في كلّ جزء من أعضائه، وكأن تلك الأموال قد أذيبت في البوتقة سبيكة بشريّة واحدة، كانت تضفي كثافة خارقة على هذا الرجل الذي يساوي الكثير الكثير. وساعة استودعته نهض بتأدب من مقعده وأحسست بكتلة الثلاثين مليوناً الجامدة المتراصة التي كانت التربية الفرنسية القديمة تحرّكها وترفعها تنتصب واقفة أمامي. كان يخيل إليّ أني أرى تمثال «جوبيتير» الأولبي الذي صنعه «فيدياس» فيما يقولون من ذهب خالص. ذلك كان سلطان التربية اليسوعية على السيد «دو غيرمانت» ، على جسد السيد «دو غيرمانت» على الأقلّ، لأنّها لم تكن إلى ذلك تسيطر على عقل الدوق سيطرة مطلقة. فقد كان السيد «دو غيرمانت» يضحك لنكاته ولكنما لاتنفرج أساريره لنكات الآخرين.

وسمعت من الخلف صوتاً يصرخ بي في الدرج:

– «أعلى هذا النحو تنتظرني ياسيد» !

وكان السيد «دو شارلوس».

وقال لي بجفاء حينما أضحينا في الباحة: «ألا يضيرك أن نقوم ببضع خطوات سيراً على الأقدام؟ سنمشي إلى أن أجد عربة توافقني.»

- «كنت تريد أن تتحدّث إليّ ياسيدي؟»

- «أجل، بالتأكيد، كان لديّ بعض أمور أقولها لك، ولكني لا أدري تماماً إن كنت سأفعل. إني اعتقد بالطبع أنها قد تكون بالنسبة إليك نقطة انطلاق إلى مكاسب لاتقدّر بثمن. ولكني أستشف كذلك أنها قد تجلب في حياتي وفي سني التي يشرع المرء يتمسك فيها براحة البال الكثير من ضياع الوقت والكثير من الازعاج من كل صنف ونوع. وإني أتساءل إن كنت تساوي ما أتكلف في سبيلك من عناء ولم يسعدني أن أعرفك معرفة كافية لأقرّر في الأمر. لقد ألقيتك على كثير من الضحالة في «بالبيك» حتى إذا أخذنا في اعتبارنا الغباء الذي لاينفصل عن شخصية «المستحم» وانتعال هذا الشيء المسمى «الخفّ القماشي». وربما لم يكن بك على أية حال ما يكفي من كبير رغبة في ما يمكن أن أفعله من أجلك حتى أولي نفسي هذا القدر من الازعاج لانني أكرر لك بأقصى الصراحة ياسيد»، يعيد قوله وهو يقطع كلماته بشدة، «لا يمكن أن يكون الأمر بالنسبة إليّ إلاّ سلسلة إزعاجات.»

وقلت محتجاً إنّه ينبغي حينذاك الامتناع عن التفكير في الأمر. ولم يبد أن قطع المحادثات هذا يوافق ذوقه. فقال لي بلهجة قاسية:

«هذا التأدب لايعني شيئاً، فليس أمتع من تكبد الإزعاج في سبيل شخص جدير بذلك. فدراسة الفنون وحب سقط المتاع والمجموعات والحدائق إن هي إلاّ أمور بديلة وحجج بالنسبة إلى أفضلنا. إننا في داخل برميلنا نبحث عن رجل، شأن «ديوجين». ونزرع أزهار «البيغونيا» ونقلم شجر السدر لافتقارنا إلى الافضل ولأن شجر السدر وأزهار البيغونيا تنقاد لمشيئتنا. ولكننا نفضل أن نكرّس وقتنا لشجيرة بشرية لو تيقنا أنها جديرة بذلك. والمسألة كلها تكمن هنا، ولابدّ أنك تعرف نفسك إلى حدّما. فهل أنت جدير بذلك أم لا؟»

فقلت له: «لا أودّ، ياسيدي، مقابل أي شيء في العالم أن أكون سبب هم لك، فأما من جهة سروري فصدّق أن كل ما يأتيني منك سوف يوليني سروراً عظيما. إنّي بالغ التأثر أن تتكرم هكذا وتصرف إليّ اهتمامك وتسعى إلى منفعتي.»

فكان أن شكرني على تلك الأقوال بما يقرب أن يكون فيض حنان مما أورثني أعظم الدهشة. وتأبط ذراعي بتلك الألفة المتقطعة التي سبق أن أثارت دهشتي في «بالبيك» والتي كانت تتناقض قسوة نبرة صوته.

وقال: «قد تتفوّه أحياناً، في طيش سنك، بأقوال من شأنها أن تحفر هوّة عميقة جداً بيننا. فأما ما تفوّهت به منذ قليل فهو على العكس من النوع الذي من شأنه أن يؤثر في ويدفعني إلى أن أفعل الكثير، وربما أكثر من الكثير في سبيلك.»

وفيما كان السيد «دو شارلوس» يسير معي يتأبط كلّ منّا ذراع الآخر، وإذ كان يسمعني تلك العبارات التي تفيض مودّة، على ما يخالطها من تعال، كان يثبت حيناً نظراته على وجهي بذلك الشخوص القوي، بتلك القسوة الثاقبة، وقد سبق أن أدهشاني أوّل صباح رأيته فيه أمام مقصف «بالبيك» وحتى قبل سنوات خلت قرب شجرة الزعرور الوردية إلى جانب السيدة «سوان» التي كنت أحسبها عشيقته آنذاك في حديقة «تانسونفيل»، وينقلها أحياناً من حوله ويتفحص العربات التي كانت تمرّ عديدة في ساعة التبديل تلك، وبإلحاح توقفت معه عدّة عربات وقد ظنّ الحوذي أنّنا ننوي اكتراءه. ولكن السيد «دو شارلوس» كان يصرفهم جميعهم.

وقال لي: «ليس منهم من يلائمني، وكل ذلك مسألة مصابيح والحيّ الذي يعودون إليه.» ثم قال: «وددت ألاّ يمكنك أن تخطئ حول سمة التجرّد المحض وحبّ الخير التي تطبع الاقتراح الذي سأقدّمه لك.»

وقد دهشت للعديد من الجوانب التي كان إلقاؤه فيها يشبه، أكثر من حاله في «بالبيك»، إلقاء «سوان».

– «إني إفترض أنّك على قد كاف من الذكاء كي لا تعتقد أنّه مستوحى من «غياب المعارف»، من خشية العزلة والضجر. ليس لي أن أحدّثك عن أسرتي لأنني أحسب أن صبياً في سنك ينتمي إلى البورجوازية الصغيرة (والحّ على الكلمة إلحاح الراضي) لابدّ أن يعرف تاريخ فرنسه. وإنما جماعة الطبقة التي انتمي إليها الذين لا يقرؤون شيئاً وهم في جهل الأجراء. كان خدّام الملك الخاصوّن فيما مضى يعينون في صفوف السادة الكبار، أما الآن فلم يعد السادة الكبار أكثر من خدّام. ولكنما الشبان البرجوازيون مثلك يقرؤون وإنك تعرف بالتأكيد صفحة «مشيليه» القيمة حول ذوي: «إني أجدهم عظاما جدًا آل «غيرمانت» الأشداء هؤلاء، وما عساه يكون، إمّا قويل بهم، ملك فرنسه الصغير المسكين السجين في قصرة في باريس؟» أمّا فيما يخصنّي شخصياً، فذلك موضوع لا أحب كثيراً التحدّث فيه ياسيد، ولكنك ربما اطلعت على الأمر فقد ألمح إليه مقال مدوّ إلى حدّما في «التايمز» وذلك أن امبراطور النمسا الذي شرّفني دوماً بعطفه ولايسوءه أن يحافظ على صلات قربى معي قد صرّح بالأمس القريب في حديث تم نشره على الملأ أنّه لو اتفق للسيد الكونت «دو شامبور» رجل بالقرب منه يعرف حقّ المعرفة مثلي خفايا السياسة الأوروبية لكان اليوم ملك فرنسة. كثيراً ما فكّرت ياسيد أنّ في أثوابي، لا من جراء مواهبي، بل من جراء ظروف ربما عرفتها في يوم، كنزاً من التجارب ونوعاً من الملف السريّ الذي لايقدر بثمن والذي لم يخطر لي أن استخدمه لنفسي، ولكنّه ربّما كان فوق كل ثمن بالنسبة إلى شاب أدفع إليه في بضعة شهور ما صرفت أكثر من ثلاثين عاما في اكتسابه وما ربما كنت وحدي أملكه. لست أتحدّث عن المتع الفكرية التي قد تصيبها في الاطلاع على أسرار قد يبذل واحد من أمثال «غيزو» في أيّامنا سنوات من حياته ليعرفها وربما اتخذت بعض الأحداث في نظره بفضلها مظهراً مغايراً تماماً. ولست أتحدّث عن الأحداث المنقضية فحسب، بل عن ترابط ظروف (كانت هذه إحدى عبارات السيد «دو شارلوس» المفضلة وكثيراً ما كان يضمّ يديه، حينما ينطق بها، مثلما نفعل إذ نصلي، ولكن مشدود الأصابع وكأنما ليسهل بهذا التشابك ادراك تلك الظروف التي لم يكن يحددها وترابطها). فلعلني أزوّدك بتفسير غير معروف لا للماضي فحسب، بل للمستقبل أيضاً.»

وتوقف السيد «دو شارلوس» ليطرح عليّ أسئلة حول «بلوك» الذي تم الحديث عنه في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» دون أن يبدو عليه أنّه يسمع. وسألني بتلك اللهجة التي كان يجيد فصلها عمّا يقول حتى ليبدو وكأنه يفكر في أمر مختلف تماماً وأنه يتكلم آليا ولمحض التهذيب، إن كان صاحبي شاباً، وإن كان جميلاً، الخ. ولو سمعه «بلوك» لعسر عليه حتى أكثر مما يعسر بالنسبة إلى السيد «دو نوربوا»، ولكن من جرّاء أسباب مختلفة أتم الاختلاف. أن يعلم إن كان السيد «دو شارلوس» إلى جانب «دريفوس» أو ضدّه. ثم قال لي السيد «دو شارلوس» بعدما طرح عليّ هذه الأسئلة حول «بلوك»: لستَ على خطأ، إن ابتغيت أن تتثقف، أن تتخذ في عداد أصدقائك بعض الأجانب.» فأجبت أنّ «بلوك» فرنسي. فقال السيد «دو شارلوس»: «آه! لقد تبادر إليّ أنّه يهودي». وقد حملني اعلان هذا التعارض على الاعتقاد بأن السيد «دو شارلوس» أكثر عداء لـ «دريفوس» من أي من الأشخاص الذين سبق أن التقيتهم. واحتج، بعكس ذلك، على تهمة الخيانة الموجهة إلى «دريفوس»، ولكنما فعل بالصيغة التالية: «في اعتقادي أنّ الصحف تقول إنّ «دريفوس» ارتكب جريمة بحقّ وطنه، في اعتقادي أنّ ذلك يقال، فلست أعير الصحف أي انتباه ؛ إني أقرؤها مثلما أغسل يديّ دون أن أرى أن ذلك جدير باثارة اهتمامي. والجريمة أية كانت الأحوال لا وجود لها، فقد كان مواطن صديقك هذا ارتكب جريمة بحق وطنه لو أنه خان منطقة «يهودا»، ولكن ما شأنه وفرنسه؟» وقلت معترضاً إنّ اليهود، لو قامت حرب في يوم، سوف تتم تعبئتهم كا لآخرين تماماً. «ربّما، وليس أكيداً ألاّ ينطوي ذلكَ على مخاطر. ولكن إن تمّ استدعاء سنغاليّين أو مالاغاشيّين فلا أحسب أنهم سيبدون حماسة كبيرة في الدفاع عن فرنسه، والأمر طبيعي تماماً. إن رجلك «دريفوس» هذا يمكن أن يحكم عليه بالأحرى لخروجه على قواعد الضيافة. ولكن لندع ذلك جانباً. ربما أمكنك أن تسأل صديقك دعوتي لحضور احتفال جميل في المعبد، لحضور ختان وترانيم يهودية. ربما استطاع أن يستأجر قاعة وأن يقدّم لي حفلة ترفيهية من وحي الكتاب المقدس، مثلما مثلت فتيات «سان سير» مشاهد اقتبسها «راسين» من المزامير للترفيه عن لويس الرابع عشر. ربّما استطعت أن تدبر ذلك، وحتى حفلات للاضحاك. فصراع، على سبيل المثال، بين صديقك ووالده يجرحه فيه مثلما «داود» «جوليات»، فربّما ألف ذلك مهزلة مسلية بعض الشيء. بل قد يمكنه، وهذه حاله، أن يكيل لوالدته «النتنة»، كما لعلّ خادمتي العجوز تقول، ضربات مبرّحة. هذا ما يمكن أن يتم على أحسن وجه ولن يكون من شأنه أن يكدّرنا، أليس كذلك ياصديقي الصغير، بما أنّنا نعشق المشاهد الغريبة وأنّ ضرب هذه المخلوقة التي من خارج أوروبا إنّما يعني إنزال قصاص مستحقّ ببغل عجوز» كان السيد «دو شارلوس»، ساعة يقول هذه الكلمات الفظيعة التي تقارب الجنون، يضغط على ذراعي حتى ليؤلمني. وأخذت أتذكّر عائلة السيد «دو شارلوس» وهي تذكر الكثير من ملامح الطيبة الرائعة يبديها البارون إزاء هذه الخادمة العجوز التي أعاد إلى الأذهان منذ قليل لهجتها المحلية التي من لون «موليير»، وأقول في نفسي إنّ العلاقات التي لم تحظَ إلاّ بالقليل من الدراسة، فيما يبدو، بين الطيبة والخبث في القلب الواحد، لقد يبدو من المفيد تحديدها مهما أمكن أن تكون مختلفة.

ونبّهته إلى أن السيدة «بلوك» لم تعد، على أية حال، على قيد الحياة وأنني أتساءل فيما يخص السيد «بلوك» إلى أي مدى ستروقه لعبة يمكن بالتأكيد أن تفقأ عينيه. وبدا الغضب على السيد «دو شارلوس» وقال: «إليك امرأة أخطأت خطأ عظيماً في موتها. فأما العيون المفقوءة، فالكنيس بالضبط أعمى، إنه لايبصر حقائق

الانجيل. فكر على أي حال، في هذه الفترة التي يرتجف فيها جميع هؤلاء اليهود التعساء أمام حنق المسيحيين الغبيّ، أيّ شرف لهم أن يبصروا رجلاً مثلي يتنازل للتلهّي بألعابهم!» ولمحت في تلك اللحظة السيد «بلوك» الأب لدى مروره، وهو لابدّ ذاهب لملاقاة ابنه. لم يكن يبصرنا ولكني عرضت على السيد «دو شارلوس» أن أقدّمه له. ولم أكن أرتاب بالغضب الذي أزمع أن أبعثه في صدر صاحبي: «تقدّمه لي! لابدّ أنّك على قدر هيّن من حسّ القيم! فليس يعرفني الناس بهذه السهولة. وربّما كان الأخلال باللياقة في الحالة الراهنة مزدوجاً بسبب حداثة سنّ المقدِّم ولا جدارة المقدَّم. وأكثر ما أستطيعه، إن قدّموا لي ذات يوم المشهد الأسيوي الذي ألمحت إليه، أن أوجّه إلى هذا العجوز القبيح بعض أقوال تتسم باللطف. ولكن شرط أن يكون قبل أن يضرب ضرباً وافراً على يد ابنه. وربما بلغ بي الأمر أن أعبر عن ارتياحي.»

ولم يكن السيد «بلوك» يعيرنا، على أي حال، أيّ انتباه، فقد كان يوجه للسيدة «سازرا» تحيات واسعة تحظى منها بأحسن استقبال. وقد أذهلني الأمر، إذ سبق أن ثارت ثائرتها بالأمس في كومبريه» أن استقبل والداي «بلوك» الشاب لشدّة عدائها للسامية. ولكنّ مسألة «دريفوس» حملت إليها منذ بضعة أيام، شأن تيار هوائي، السيد «بلوك» لقد ألفى والد صديقي السيدة «سازرا» رائعة وقد راقه على وجه الخصوص عداء تلك السيدة للسامية الذي كان يرى فيه برهاناً على صدق إيمانها وصدق آرائها المناصرة لـ «دريفوس» والذي كان يضفي قيمة على الزيارة التي أذنت أن يقوم بها لها. وهو حتّى لم تجْرَح مشاعره لأنها صرّحت في حضرته بلهجة طائشة: «ينزع السيد «درومون» إلى وضع المطالبين بالتعديل في زاوية البروتستانت واليهود. ما أبدعه اختلاط!» فكان أن قال مزهواً للسيد «نسيم بيرنار» لدى عودته: «تدري يا «بيرنار»، إنّها من الموالين!» ولكن السيد «نسيم بيرنار» لم ينبس ببنت شفة ورفع إلى السماء نظرة ملائكية. لقد اتخذ الآن، وهو يغتم لشقاء اليهود ويتذكر صداقاته المسيحية ويضحي متصنّعا متأنقاً كلما تقدّمت به السنّ ولأسباب سوف نراها فيما بعد، هيئة طيف من حركة «ما قبل رفائيل» الفنية نبتت له أوبار على نحو قذر كأنها شعور مغموسة في حجر من الأوبال.

وعاد البارون يقول، ولا يزال يمسك بذراعي: «قضية «دريفوس» برمتها لاتشكو إلاّ محذوراً واحداً، وهو أنها تهدّم المجتمع (ولا أقصد المجتمع الصالح، فالمجتمع لم يعد منذ زمن طويل أهلاً لصفة الثناء هذه) من جرّاء تدفق سادة وسيدات من الجمال والجمالة وحظائر الجمال، وأناس مجهولين بالتالي أجدهم حتى في منازل بنات عمي لأنهم ينتمون إلى رابطة الوطن الفرنسي المعادية لليهود وما لست أدري كما لو أن رأياً سياسياً يخوّلك حقّ اكتساب صفة اجتماعية.»

كان عبث السيد «دو شارلوس» هذا يقرّبه أكثر ما يقرّب من الدوقة «دو غيرمانت» وأشرت إلى هذه المقاربة. وإذ كان يبدو وكأنه يحسب أني لا أعرفها ذكرته بأمسية الأوبرا التي بدا أنه كان يودّ فيها التخفي خجلاً بي. فقال لي إنه لم يرني على الإطلاق وبقدر من الحزم لعلني بلغت معه في النهاية حدَّ تصديقه لو لم تحملني حادثة صغيرة بعد قليل على الاعتقاد بأن السيد «دو شارلوس» لم يكن ربما راغباً، لفرط كبريائه، أن يشاهد بصحبتي.

وقال لي: «هيّا نعد إليك وإلى خططي فيما يخصك. تقوم بين بعض الرجال، ياسيد، ماسونية لايمكنني

أن أحدّثك عنها ولكنها تضمّ في صفوفها الآن أربعة من ملوك أوروبا». ولكن حاشية واحد منهم، وهو امبراطور ألمانيه، تبغي أن تشفيه من ضلالته. وذلك أمر خطير جدًا ويمكن أن يجيئنا بالحرب. أجل، بالتأكيد ياسيد. تعرف حكاية ذاك الرجل الذي كان يظنّ أنّه يحتجز أميرة الصين في زجاجة. كان ذلك جنوناً، وقد تمّ شفاؤه منه. ولكن ما أن لم يعد مجنوناً من بعد حتى أضحى غبياً. ثمة أدواء ينبغي ألاّ نحاول الشفاء منها لأنها تقينا وحدها من أخرى أشدّ خطورة منها. كان أحد أبناء عمومتي يشكو مرضاً في معدته فلم يكن يقوى على هضم شيء. وعالجه أكثر أخصائيي المعدة علما دون جدوى. فأخذته إلى أحد الاطباء (شخص آخر شديد الغرابة بدوره، أقولها بين هلالين، لعله من الممكن أن نقول الكثير عنه). فحزر هذا الأخير في الحال أنّ الداء كان عصبياً وأقنع مريضه وأمره أن يأكل دونما خوف ما يشتهي وما كان دوماً ممكن الاحتمال. ولكنّ ابن عمّي كان يشكو كذلك من التهاب الكلية، وما هضمته المعدة على أحسن وجه لم تستطع الكلية في النهاية طرحه، وعوض أن يعيش ابن عمّي شيخاً بمرض في المعدة وهمي كان يزعمه على اتباع حمية معيّنة مات في الأربعين وقد تعافى في معدته وخسر كليته. ومن يدري، وقد أحرزت تقدماً عظيماً على حياتك نفسها، ربما أصبحت ما كان يمكن أن يكونه رجل لامع في الماضي لو كشفت له روح خيّرة قوانين البخار والكهرباء وسط بشرية كانت تجهلها. لا تكن غبياً ولا ترفض بداعي الاتضاع. وافهم أنني إن كنت أؤدّي لك خدمة كبرى فلست أرى أنْ تؤدّي لي خدمة أقلّ. منذ فترة طويلة لم يعد رجال المجتمع يثيرون اهتمامي وليس بي من بعد سوى ولع واحد قوامه محاولة التكفير عن أخطاء حياتي بتمكين نفس لاتزال عذراء وقادرة على التحمس للفضيلة من الإفادة مما أعلم. لقد أصابتني غموم عظيمة، أيّها السيد، وربما رويت لك عنها في يوم، لقد فقدت زوجتي التي كانت الامرأة الأكثر جمالاً والأوفر نبلاً والأكثر كمالاً مما يمكن أن يراود الأحلام. ولديّ شبّان من ذوي قرباي ليسوا، لن أقول جديرين، بل قادرين على تسلم الإرث الأدبيّ الذي أحدّثك عنه. ومن يدري إن لم تكن ذاك الذي يمكن أن يمرّ بين يديه، ذاك الذي يمكن أن أوجه حياته وأسمو بها عالياً جداً؟ أضف أنّ حياتي قد تفيد من ذلك. فربّما عدت فيما اطلعك على المسائل الدبلوماسية الكبرى فأحسست معها بميل إلى ذاتي وشرعت أخيراً أقوم بأمور مفيدة تقاسمني إياها. على أنه لابدّ لي قبل أن أعرف ذلك من أن أراك كثيراً، كثيراً جداً، كل يوم.»

كنت أودّ الإفادة من هذه الاستعدادات اللاهبة اللامؤملة التي يبديها السيد «دو شارلوس» لأسأله إن كان لايستطيع أن يوفرّ لي لقاء زوجة أخيه، ولكنما وقع لي أن دفعت ذراعي في تلك اللحظة دفعاً شديداً وكأنما من جرّاء صدمة كهربائية. وكان السيد «دو شارلوس» الذي أقدم، لسبب جاء يعاكس القوانين «الكونية» التي كان لايزال قبل ثانية «نبيها الملهم» على سحب ذراعه من تحت ذراعي على عجل. لقد شاهد منذ قليل فقط السيد «دار جنكور» يطلع من شارع عرضاني مع أنّه كان ينقّل عينيه، وهو يكلمني، في كل اتجاه. وبدا وزير بلجيكا متكدّرا إذ رآنا ورماني بنظرة ارتياب، بما يقارب تلك النظرة الموجهّة إلى شخص من عرق آخر تلك التي نظرت بها السيدة «دو غيرمانت» إلى «بلوك»، وحاول أن يتجنبنا. ولكنما خيّل إليّ أنّ السيد «دو شارلوس» كان حريصاً أن يبدي له أنّه لايحاول على الإطلاق أنْ لا يبصره هو، فقد نادى عليه وكيما يقول له أمراً تافهاً جداً. وربما خشي السيد «دو شارلوس» أن لم يعرفني السيد «دار جنكور» فقال له إنّي صديق كبير للسيدة «دو فيلباريزيس» والدوقة «دو غيرمانت» و«روبير دو سان لو»، وأنّه هو، «شارلوس»،

صديق قديم لجدّتي وأنّه سعيد أن ينقل إلى الحفيد قليلاً من المودّة التي يكنّها لها. ولكني لاحظت أن السيد «دارجنكور»، مع أن أسمي لم يكد يذكر له في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» وأنّ السيد «دو شارلوس» حدّثه منذ قليل حديثاً مطوّلاً عن أسرتي، بدأ أكثر جفاء حيالي ممّا كان منذ ساعة خلت، وقد سارت الأمور مذ ذاك فترة طويلة على هذا المنوال كلّ مرّة كان يلقاني فيها. وقد راقبني في ذلك المساء بفضول لاينطوي على شيء من المودّة، بل بدأ مضطرّ لقهر مقاومة شديدة حينما مدّ إليّ بعد تردّد وهو يفارقنا يداً استردّها في الحال.

وقال لي السيد «دو شارلوس»: إنّي آسف لهذا الحادث الطارئ. فالسيد «دار جنكور»، وهو كريم المحتد ولكنه سيء التهذيب، وديبلوماسي أكثر من ضحل، وزوج مقيت وزير نساء، وماكر كما المكر في مسرحيّة، هو واحد من هؤلاء الرجال العاجزين عن الفهم، ولكنّهم قادرون على تهديم الأشياء العظيمة حقاً. وإني آمل أن تكون صداقتنا كذلك إن ابنغى أن تنشأ في يوم وأنك ستوليني شرف الحفاظ عليها، بقدر ما أفعل، في مأمن من لبطات أحد هؤلاء الحمير الذين يستحقون جرّاء البطالة أو الرعونة أو الخبث ما كان يبدو أنه جعل ليدوم، وإنما غالبية جماعة المجتمعات قد جبلوا لسوء الحظّ في هذا القالب.»

– «إن الدوقة «دو غيرمانت» تبدو شديدة الذكاء. وكنّا منذ قليل نتحدث عن حرب محتملة، ويبدو أنها تملك بهذا الشأن معلومات خاصة.»

فأجابني السيد «دو شارلوس» بجفاء قائلاً: «إنّها لا تملك من ذلك شيئاً البتة. فالنساء، وكثير من الرجال على أيّ حال، لا يفقهون شيئاً في الأمور التي كنت أبغي التحدّث فيها. إن زوجة أخي امرأة ممتعة تتخيل أنّها لاتزال في زمن روايات «بلزاك» يوم كانت النساء يؤثرون في السياسة. وقد لا تجرّ عليك مخالطتها في الوقت الراهن سوى أثر مشؤوم، شأن كل مخالطة اجتماعية على أية حال. ذلك بالضبط واحد من الأشياء الأولى التي كنت أزمع أن أقولها لك حينما قاطعني هذا الأحمق. إن أوّل تضحية ينبغي لك أن تقدّمها لي – وسأطالبك بقدر ما أمنحك من هبات – ألاّ تتردّد على المجتمعات. لقد تألمت منذ قليل بشأنك أن رأيتك في هذا الاجتماع السخيف. سوف تقول إني كنت حاضراً فيه، ولكنّه ليس بالنسبة إليّ اجتماعاً دنيوياً بل هو زيارة عائلية. أما فيما بعد، وحينما تصبح رجلاً ناجحاً، فإن سرّك أن تنحدر فترة إلى دنيا المجتمع فربما لم ينطو ذلك على ضرر. ولاحاجة بي أن أقول لك أيّة فائدة يمكن أن أوفّرها لك حينذاك. فـ«سمسم» فندق «غيرمانت» وجميع تلك التي هي أهل لأن تنفتح أبوابها أمامك على مصراعيها إنّما أقبض عليه أنا. سأكون حكما ومرادي أن أظل سيد الساعة. إنك «موعوظ» [1] في الوقت الراهن، وقد كان لحضورك هنالك شيء من طابع الفضيحة، ولا بدّ قبل كلّ شيء من تجنب العمل الفاضح.»

وفيما كان السيد «دو شارلوس» يتحدّث عن تلك الزيارة إلى منزل السيدة «دو فيلباريزيس» أردت أن أسأله عن قرابته الصحيحة مع المركيزة وعن مولد هذه الأخيرة، ولكنّ السؤال جاء على شفتّي على نحو يختلف

(١) صفة من يجري إعداده لدخول الدين المسيحي لدى قدماء المسيحيين، ويعني أنه لايزال في مرحلة التدرب على الصعيد الاجتماعي.

عمّا كنت أريد وسألت ماعسى أن تكون أسرة «فيلباريزيس».

وأجابني السيد «دو شارلوس» بصوت يخيل إليك أنّه ينزلق على الألفاظ: «يا إلهي، ليس الجواب سهلاً؛ لكأنما تسألني أن أفيدك ما عسى يكون اللا شيء. لقد خطر لعمتّي التي تستطيع أن تسمح لنفسها بكلّ شيء أن تزجّ في العدم أعظم اسم في فرنسه بزواجها الثاني من مجهول صغير يدعى السيد «تيريون». وقد ظنّ تيريون» هذا أنّه يستطيع، دون أيّة محاذير، اتخاذ اسم ارستقراطي لم يظلّ من يطالب به، على نحو ما يفعلون في الروايات. ولا تذكر الحكاية إن كان أغراه «برج اوفيرنيي» وإن كان حار بين «تولوز» و«مونمورانسي». لقد أقدم على اختيار آخر بأية حال وأصبح السيد «دو فيلباريزيس». ولمّا لم يبق من كان بهذا الاسم منذ ١٧٠٢ فقد ظننته يبغي بذلك أن يشير بكلّ تواضع إلى أنّه رجل من «فيلباريزيس»، وهي قرية صغيرة على مقربة من باريس وأنّه يملك مكتب وكيل دعاو أو دكان حلاق في «فيلباريزيس». ولكنّ عمّتي لم تكن تعير هذا التفسير أذنا صاغية – وقد بلغت على أيّ حال السنّ التي لايظل فيها للمرء أذن يعيرها، فقد زعمت أن لقب المركيز هذا كان في الأسرة وكتبت إلينا جميعاً وأرادت أن تضفي على الأمور صبغة نظامية ولست أعلم لماذا. فخير للمرء، بما أنّه يتخذ اسماً لايحق له، ألاّ يثير هذه الكمّ من المتاعب، شأن صديقتنا الطيبة الكونتيسة المزعومة «دو/م/...» التي رفضت على الرغم من نصائح السيدة «ألفونس روتشيلد» أن تزيد من هباتها في سبيل لقب لن يصبح بذلك أكثر صحّة. والمضحك أنّ عمتي قد قامت منذ ذلك الحين باحتكار جميع الرسوم المتعلقة بآل «فيلباريزيس» الحقيقيّين الذين لم يكن للمرحوم «تيربون» أيّة صلة قربى بهم. وأضحى قصر عمتّي ما يشبه مكان احتكار لرسومهم الحقيقية أو الزائفة التي اضطّرت بعض رسوم آل «غيرمانت» وآل «كونديه»، مع أنهم ليسوا من ذوي الشأن اليسير، إلى الاختفاء أمام تدفق موجها المتعاظم. ويصنع لها تجار اللوحات منها في كل عام. بل هي تملك في قاعة الطعام لديها في الريف رسما لـ «سان سيمون» بسبب زواج ابنة شقيقه الأوّل من السيدة «دو فيلباريزيس» ومع أن مؤلف «المذكرات» ربما ملك مؤهلات أخرى تثير اهتمام الزائرين غير أنّه لم يكن جدّجدّ السيد «تيريون».

وإذ لم تكن «السيدة «دو فيلباريزيس» سوى السيدة «تيربون» فقد أتمّت السقطة التي كانت قد باشرتها في خاطري بعدما رأيت الخليط الذي يؤلف صالتها. كنت أرى من الظلم أن يتيسر لامرأة يكاد يكون حتى لقبها واسمها حديثين جدًا أن توهم المعاصرين وهي لابدّ ستوهم اللاحقين بفضل صداقات ملكيّة. ولما عادت فأضحت ما سبق أن بدت لي عليه في طفولتي، يعني امرأة مجرّدة من أية صفة أرستقراطية، فقد بدا لي أنّ ذوي القربى العظام الذين يحيطون بها غرباء عنها. ولم تكف فيما بعد عن كونها شديدة اللطف بالنسبة إلينا. وكنت أذهب أحيانا لزيارتها وتبعث إليّ بين الحين والحين بتذكار. بيد أنّه لم يكن يخطر لي البتّة أنّها من حي «سان جيرمان» وإن اتفق لي أيّ استفسار أطلبه حوله فربما كانت آخر من أتوجه إليه بالسؤال.

وتابع السيد «دو شارلوس» قائلاً: «لن تفعل بارتيادك المجتمعات في الوقت الراهن أكثر من إلحاق الأذى بمكانتك وتشويه عقلك وطباعك. ويجدر بك على كلّ حال أن تراقب حتى، بل على وجه الخصوص، أصحابك، ولتكن لك عشيقات إن لم تر أسرتك محذوراً في ذلك، والأمر لايخصنّي، بل لا يسعني إلاّ أن أشجعك أيها الماجن الصغير، أيها الماجن الصغير الذي سيكون عمّا قليل بحاجة إلى حلاقة ذقنه»، يقول لي

وهو يتلمّس ذقني. «ولكنّ انتقاء الأصدقاء الرجال يرتدي أهمية مختلفة. ذلك أنّ ثمانية من عشرة شبان هم أوغاد حقيقيون وأشقياء صغار قادرون أن يلحقوا بك أذى لن تمحوه في يوم. ولكن إليك ابن أخي «سان لو» فهو رفيق طيب لك لدى الضرورة. هو لن يفيدك في شيء فيما يخصّ مستقبلك، ولكني أكفيك بالنسبة إلى ذلك. فأما للخروج برفقتك في الأوقات التي تملّني فيها فإنه يبدو لي باختصار القول أنّه لايشكلّ محذورا جدّيا فيما أعتقد. هو رجل على الأقلّ، وليس من هؤلاء المخنثين مثلما نلقى الكثير منهم اليوم ممن هم أشبه «بالزغلّيين» الصغار الذين ربّما ساقوا في غد إلى المفصلة ضحاياهم البريئة». (لم أكن أعرف معنى هذه اللفظة العامية: «الزغلي»». ولعلّ كلّ من عرفها كان سيصاب بالدهشة نفسها، فالناس في المجتمعات الراقية يطيب لهم التحدث بالعامية وأن يبدي أولئك الذين يمكن أن تؤخذ عليهم بعض الأمور أنّهم لايخشون التحدّث فيها، فذلك في نظرهم برهان يقام على براءتهم ولكنّهم فقدوا مقياس الأمور ولا يتبينّون من بعد الدرجة التي يضحي مزاح من بعدها مغرقا في الخصوصية وفاضحاً إلى حدّ بعيد ويصبح برهاناً على فساد الأخلاق أكثر منه على السذاجة.) «ليس على شاكلة الآخرين. إنه لطيف جدّا ورصين جدّا.)

ولم أتمالك عن الابتسام إزاء صفة «رصين» هذه التي بدا أن النبرة التي يغلفها بها السيد «دو شارلوس» كانت تضفي عليها معنى «الفاضل» و«الحسن السلوك»، مثلما يقولون عن عاملة صغيرة إنها «رصينة». ومرّت في تلك اللحظة عربة كانت تسير بالورب تماماً ؛ وكان حوذي شاب يقودها، وقد هجر مقعده، من الركن القصيّ في المركبة حيث كان يجلس فوق المساند نصف سكران. وأوقفه السيد «دو شارلوس» بسرعة. وناقش الحوذي حينا.

– «إلى أيّ جهة تمضي؟»

– «حيث تمضي» (كان الأمر موضع دهشتي إذ سبق أن رفض السيد «دو شارلوس» عدّة عربات لها مصابيح من ذات اللون).

– «ولكني لا أريد الصعود إلى المقعد. أفيستوي لديك أن أبقى في المركبة؟»

– «أجل، ولكن أسدل الغطاء». وقال لي السيد «دو شارلوس» قبل أن يفارقني: «فكر على أيّة حال في اقتراحي، إنّي امنحك بضعة أيام لتعمل الفكر فيها، واكتب لي. إنّي أعيد الأمر عليك، ينبغي أن أراك كلّ يوم وأن تقدّم لي ضمانات في الإخلاص والتكتم يبدو لي على أيّة حال، ويجدر بي القول، أنّك تقدّمها. ولكني كثيراً ما خدعتني المظاهر خلال حياتي إلى حدّ أني لا أستطيع الوثوق بها من بعد. ويحك! إنّه لأقلّ الأمور أن أعلم، قبلما أتخلى عن كنز، بين أيّة أيد أضعه ومهما يكن من أمر، تذكر تماماً ما أعرضه عليك، فأنت، شأن «هرقل» الذي لايبدو لي، لسوء حظك، أنك تتمتّع بعضلاته القوية، على مفترق طريقين. فاجهد ألاّ يقع عليك أن تأسف طوال حياتك أنّك لم تختر الطريق التي كانت تقود إلى الفضيلة.» ثم قال للحوذي: «عجباً، أولم تنزل الغطاء بعد؟ سوف أطوي النوابض بنفسي. واعتقد على أي حال انه ينبغي لي كذلك أن أقود العربة بالنظر إلى الحالة التي تبدو فيها.»

وقفز إلى جانب الحوذي في الركن القصي من العربة التي انطلقت مسرعة.

وما أن عدت إلى البيت حتى وجدت فيه، فيما يخصني، نظير الحديث الذي سبق أن تبادله قبل قليل «بلوك» والسيد «دو نوربوا»، ولكن بشكل مقتضب ومعكوس وقاس: كان جدالاً بين رئيس خدمنا، وكان من أنصار «دريفوس»، ورئيس خدم آل «غيرمانت»، وكان معاديا لـ «دريفوس». كانت الحقائق والحقائق المضادة التي تتعارض في الحلقات العليا لدى المثقفين في «رابطة الوطن الفرنسي» و«رابطة حقوق الإنسان» تمتد بالفعل حتى أعماق الشعب. كان السيد «ريناك» يحرّك بالعاطفة أناساً لم يسبق أن رآوه في يوم فيما كانت قضية «دريفوس» تطرح أمام عقله فحسب بمثابة نظرية لا تدحض وقد برهن عليها بالفعل بأغرب نجاح في السياسة العقلانية شوهد في يوم (نجاح قال بعضهم إنّه ضدّ فرنسه». فقد أحلّ في غضون سنتين محلّ وزارة يرئسها «بيو» وزارة يرئسها «كليمانسو» وقلب الرأي العام رأساً على عقب وأخرج «بيكار» من سجنه ليضعه، ناكراً للجميل، في وزارة الدفاع. ربّما كان يحرّك محرّك الجماهير العقلاني هذا من سلف من ذوي قرباه. ولئن كانت المنظومات الفلسفية التي تتضمن أكبر قدر من الحقيقة إنّما يمليها على واضعيها في نهاية المطاف سبب عاطفي، فكيف نفترض ألاّ تستطيع أسباب من هذا القبيل في محض قضية سياسية كقضية «دريفوس» أن تحكم عقل المفكر دون علمه؟ كان «بلوك» يحسب أنّه اختار بالمنطق موقفه المناصر لـ«دريفوس»، وكان يعلم من ذلك أن أنفه وجلده وشعره قد فرضها عليه جنسه. ليس من شك أنّ العقل أوفر حرّية؟ ولكنه يخضع على الرغم من ذلك لبعض قوانين لم يضعها لذاته. أما حالة رئيس خدم آل «غيرمانت» ورئيس خدمنا فحالة خاصة، ذلك أن موج التيارين المتمثلين في مناصرة «دريفوس» ومناهضته اللذين كانا يشقان فرنسه من الأعلى إلى الأسفل كان خافتاً إلى حدّما، ولكنما الأصداء النادرة التي يصدرها صادقة. فقد كان يمكنك، إذ تسمع أحدهم يعلن على نحو خفيّ، وسط حديث يتجنب القضية متعمداً، خبراً سياسياً كاذباً بعامّة ولكنه متوخّي على الدوام، كان يمكنك أن تستخلص من موضوع تنبؤاته اتجاه رغباته: وهكذا كانت تتجابه حول بضع نقاط دعاية خجولة من جانب وغضب مقدس من جانب آخر. أما رئيسا الخدم اللذان سمعتهما لدى عودتي فقد شذّا عن القاعدة. فقد أعلن رئيس خدمنا أن «دريفوس» كان مذنباً، ورئيس خدم آل «غيرمانت» أنّه كان بريئاً. وما كان ذلك بغية إخفاء قناعاتهما، بل عن خبث وضراوة في اللعب. كان رئيس خدمنا، وهو غير متيقن إن كانت إعادة النظر ستتم، كان يبغي سلفاً في حال الفشل أن يسلب رئيس خدم آل «غيرمانت» غبطة الاعتقاد بأن قضية عادلة قد هزمت. كان رئيس خدم آل «غيرمانت» يظنّ أنّ رئيس خدمنا، في حال رفض إعادة النظر، سوف يصيبه ازعاج أكبر لرؤيته بريئاً يوالى احتجازه في «جزيرة الشيطان». وكان الحاجب ينظر إليهما، ووافاني شعور بأنه لم يكن يزرع الشقاق في صفوف خدم آل «غيرمانت».

وصعدت فوجدت جدّتي أشدّ مرضاً. لقد كانت تشتكي منذ بعض الوقت من صحتّها دون أن تدري ما بها. وانما نتبين في المرض أننا لانعيش وحدنا، ولكننا مقيدون بكائن من عالم مختلف تفصلنا عنه هوّة واسعة، وهو لايعرفنا ويستحيل علينا حمله على فهمنا، عنيت جسدنا. ربّما استطعنا، أيّا كان اللص الذي نصادفه على طريقنا، أن نفلح في حمله على الرفق بمصلحته الشخصية، إن لم يكن بشقائنا. فأمّا أن نسأل جسدنا رحمة بنا فانما يعني التحدث أمام أخطبوط لا يمكن أن تعني أقوالنا بالنسبة إليه أكثر من ضجة المياه وقد يبعث الحكم علينا بالعيش معه الذعر في نفوسنا. كثيراً ما كانت توعكات جدّتي تمرّ دون أن تلفت انتباهها الذي تصرفه دوما إلينا. وحينما كانت تعاني منها كثيراً كانت كيما تفلح في شفائها تجهد عبثا في فهمها. ولئن

كانت الظاهرات المرضية التي تتخذ من جسدها مسرحاً لها غامضة وخافية على فكرها، فقد كانت واضحة سهلة الإدراك بالنسبة إلى كائنات تنتمي إلى العالم الماديّ نفسه الذي تنتمي إليه، من تلك التي توجّه إليها العقل الإنسانيّ في النهاية كي يدرك ما يقوله له جسده مثلما تمضي، إزاءة أجوبة يجود بها أجنبيّ، لنأتي بواحد من البلد نفسه يقوم بمهمة الترجمة. هي تستطيع التحدث إلى جسدنا وأن تقول لنا إن كان غضبه خطيراً أو هو سيهدأ عما قليل. وحاول «كوتار» الذي استدعيناه إلى جانب جدّتي والذي بعث فينا الضيق إذ سألنا بابتسامة ماكرة منذ الدقيقة الأولى التي نقلنا إليه فيها أنّها مريضة: «مريضة؟ ليس ذلك على الأقل مرضاً ديبلوماسياً؟» حاول الحمية بالحليب بغية تهدئة اضطراب مريضته. ولكن الشوربات بالحليب لم تأت بأثر لأن جدّتي كانت تضع فيها الكثير من الملح، وكانوا يجهلون ضرره في ذلك الوقت (إذ لم يكن «فيدال» قد قام بعد باكتشافاته). فإنّه لما كان الطب موجزاً لأخطاء الأطباء المتعاقبة والمتناقضة كان ثمة احتمال كبير إن نحن استدعينا أفضلهم أن نلتمس حقيقة تحتسب مغلوطة بعد ذلك بسنوات. حتى ليبدو أن الاعتقاد بالطبّ أقصى الجنون لو لم يكن الامتناع عن الاعتقاد به جنوناً أعظم، إذ قد استخلصت على مر الأيّام بعض الحقائق من ركام الأخطاء ذاك. كان «كوتار» قد أوصى بأن تقاس حرارتها، فمضينا لإحضار ميزان حرارة. كان الأنبوب خالياً من الزئبق في كامل ارتفاعه تقريباً، وتكاد لاتبصر السمندل الفضي يقبع في أقصى حوضه الصغير. كان يبدو لا حراك به. وتم وضع الأنبوب الزجاجي في فم جدّتي. ولم تكن بنا حاجة لابقائه فترة طويلة، فلم يطل الأم بالساحرة الصغيرة التي كشفت طالعها. ووجدناها لاتبدي حراكاً وقد جثمت في منتصف ارتفاع برجها لاتغادره من بعد وترينا بدقة الرقم الذي طلبناه منها والذي ربما عجزت عن تزويد جدّتي به جميع التأملات التي كان يمكن أن تصبّها على ذاتها: ٣٨,٣. وأحسسنا للمرّة الأولى بشيء من القلق. وهززنا ميزان الحرارة بقوة لنمحو العلامة المشؤومة كما لو وسعنا بذلك خفض الحمّى والحرارة المسجلة في آن واحد. ولكنما بدا واضحاً للأسف أنّ العرّافة الصغيرة المجرّدة من العقل لم تزوّدنا اعتباطاً بذاك الجواب، فما أن أعيد في الغد ميزان الحرارة بين شفتي جدّتي حتى أقبلت النبية الصغيرة لتوّها تقريباً، وكأنما بقفزة واحدة، تزهو يقينا واستشفافاً لأمر خافٍ علينا، لتتوقف في النقطة نفسها في جمود لايرحم وترينا مرة أخرى بالتماع شفرتها الرقم ٣٨,٣ لم تكن تقول غير ذلك، وكنّا عبثا رغبنا وأردنا ورجونا فقد بدا في صممها أنّها كلمتها الأخيرة المحذّرة المتوعدة.

حينئذ توجهّنا، بغية إرغامها على تبديل جوابها، إلى مخلوقة أخرى من العالم نفسه لكنها أكثر اقتداراً ولا تكتفي بمساءلة الجسم بل تستطيع أن تأمره، إلى مزيل للحمّى من نوع الاسبيرين التي لم تكن بعد قد استخدمت آنذاك، ولم نعمل على تخفيض ميزان الحرارة إلى أكثر من ٣٧,٥ أملاً منا أنّه على هذا النحو لن يعود إلى الارتفاع، وأوعزنا أن تتناول جدّتي مخفض الحرارة هذا وأعدنا حينئذاك ميزان الحرارة. ولم تتحرّك حارسة البرج الساهرة هذه المرّة، شأن حارس متصلب يبرز له أمر سلطة عليا لعبت لديها الوساطة دورها فيجيب وقد وجد الأمر مطابقاً للقوانين: «حسن، ليس لديّ ما أقوله، تفضل ما دامت الأمور على هذه الشاكلة». ولكنما كان يبدو أنّها تقول متجهمّة: «ماذا يجديكم ذلك؟ بما أنكم تعرفون «الكينا»، فسوف تصدر إليّ أمراً بالامتناع عن التحرّك مرّة وعشر مرّات وعشرين مرّة. ثم يأخذ منها التعب، فإني أعرفها ويحكم! لن تظلّ الأمور كذلك أبداً، وحينذاك تكونون قد كسبتم الكثير.»

حينئذ أحسّت جدّتي في داخلها بوجود مخلوقة كانت تعرف الجسم الإنساني أفضل من جدّتي، وجود معاصرة للأجناس المندثرة، وجود واضع اليد الأوّل – الذي سبق بكثير خليقة الإنسان المفكر – ؛ لقد أحست بهذا الحليف المغرق في القدم يتحسسها بشيء من القسوة في رأسها، في قلبها، في مرفقها. كان يتعرف الأمكنة وينظّم كلّ شيء من أجل المعركة التي تعود إلى ما قبل التاريخ والتي وقعت فورا بعد ذلك. وتم قهر الحمى في مدى لحظة، بعد ما سحق التنين، بفعل العنصر الكيميائي القوي الذي ودّت جدّتي لو يسعها أن تشكره عبر الممالك ومن فوق جميع الحيوانات والنباتات. وظلت متأثرة من جرّاء هذا اللقاء الذي تمّ لها عبر الكثير الكثير من القرون بهذا العنصر الذي سبق حتى خليقة النبات. وكان ميزان الحرارة من جهته، وقد تم قهره إلى أمد على يد إله أقدم منه، يمسك بمغزله الفضيّ جامداً لايتحرّك. لكنّ مخلوقات دنيا، وأسفي، نشأها الإنسان على مطاردة هذه الطرائد الخفية التي لايستطيع ملاحقتها في أعماق ذاته كانت تحمل إلينا بقسوة في كلّ يوم رقم كمية ضئيلة من الزلال ولكنها ثابتة إلى حدّ ما كيما تبدو هي الأخرى ذات صلة بحالة مستديمة ما كنّا نبصرها. لقد سبق أن أثار لديّ «بيرغوت» الغريزة الدقيقة التي كنت أخضع بها عقلي حينما كلمني عن الدكتور «دو بولبون» على أنه طبيب لن يبعث فيّ الملل وسوف يجد صنوفاً من العلاج تلائم تفرّد عقلي وإن بدت غريبة في ظاهرها. ولكنّ الأفكار تتحوّل في داخلنا وتقهر المقاومة التي كنّا نرفعها في وجهها بادئ الأمر وتتغذى بذخائر فكرية غنية جاهزة ما كنا نعلم أنها تناسبها. وكما يتفّق في كلّ مرّة كان من شأن الأقوال التي سمعناها بصدد امرئ لا نعرفه أن توقظ فينا فكرة موهبة عظيمة ونوع من العبقرية، كنت أدع للدكتور «دو بولبون» أن يفيد من هذه الثقة اللامحدودة التي يوحي بها إلينا ذاك الذي يدرك الحقيقة بنظرة أوفر عمقاً من سواه. كنت أعلم بالتأكيد أنّه قبل كلّ شيء اختصاصي بالأمراض العصبية، وهو الذي تنبأ له «شاركو» قبل موته أنّه سيكون سيد علم الأعصاب والطبّ النفسيّ. «لست أدري، ذلك ممكن»، تقول «فرانسواز» التي كانت حاضرة وتسمع للمرّة الأولى اسم «شاركو» واسم «دو بولبون» على السواء. بيد أنّ الأمر لايحول دون أن تقول: «ذلك ممكن». وكان ما تقول من «ممكن» و«ربما» و«لا أدري» يثير السخط في حالة كهذه. وتعتمل فيك الرغبة في أن تجيبها: «ما كنت بالطبع تعلمين بما أنّك لا تعرفين شيئاً عن الأمر المعنّي ؛ بل كيف يسعك حتى القول إنّ الأمر ممكن أو غير ممكن وما كنت تعلمين شيئاً عنه؟ ولا يسعك أن تقولي الآن على أيّ حال إنّك لاتعلمين أن «شاركو» قال لـ«دو بولبون» الخ، فأنت تعلمين ذلك بما أننا قلناه لك، وما تقولين من «ربما» و«الأمر ممكن» غير وارد بما أنّ الأمر أكيد.»

وعلى الرغم من هذه الكفاءة الخاصة فيما يتصل بالدماغ والأعصاب، ولما كنت أعلم أنّ «دو بولبون» طبيب عظيم وإنسان متفوق ذو عقل مبدع عميق فقد توسلت إلى والدتي أن تأمر بإحضاره، وقد رجحت في آخر المطاف كفة الأمل في أنّه ربّما شفى الداء بفعل نظرة صائبة على الخشية التي بنا أن نزرع الرعب في قلب جدّتي إن نحن استدعينا طبيباً مشاوراً. فأما ما أقنع والدتي فأنّ جدّتي لم تعد تخرج وتكاد لاتنهض يشجعها في ذلك على نحو غير واعٍ «كوتار». وعبثا تردّ علينا برسالة السيدة «دو سيفينييه» إلى السيدة «دو لافاييت»: «كان يقال إنّها مجنونة أن ترفض الخروج، فأقول لاولئك الأشخاص المتعجلين في حكمهم: «ليست السيدة «لافاييت» مجنونة» وأظل عند رأيي. وقد انبغى أن توافيها المنية كي تبرهن أنّها كانت محقة في الامتناع عن الخروج.» ولئن لم يخطئ «دو بولبون»، بعدما تمّ استدعاؤه، السيدة «دو سيفينييه» التي لم

تذكر أمامه، فقد فعل على الأقلّ بالنسبة إلى جدّتي. وبدلا من أن يفحصها أخذ، فيما يرمقها بنظراته الرائعة التي ربّما داخلها وهم تفحص المريضة على نحو معمق، أو الرغبة في إيلائها ذلك الوهم الذي كان يبدو تلقائيا ولكنه لابدّ أصبح آليا. أو كي لايدع لها تبين أنه يفكر في أمر مختلف تماماً، أو كي تتمّ له السيطرة عليها، أخذ يتحدّث عن «بيرغوت».

– «آه! هذا ما اعتقده تماماً يا سيدتي، ذلك رائع ؛ وكم أنت محقة في ولعك به! ولكن أيّا من كتبه تفضلين؟ صحيح! يا إلهي، ربما كان بالتأكيد أفضلها. وهو في جميع الأحوال أفضل رواية له تأليفاً: إن «كلير» رائعة فيها. وعلى صعيد الرجال أيهم يبدو لك الأكثر إيناسا؟».

وظننت بادئ الأمر أنّه يحملها على هذا النحو على التحدّث عن الأدب لأنّ الطبّ كان يورثه الملل، وربّما كي يبدي كذلك اتساع فكره، بل حتى كي يعيد، وهدفه أقرب إلى العلاج، الثقة لمريضته، ويظهر لها أنه غير قلق ويسليها عن حالتها. ولكني فهمت مذ ذاك أنه أراد، وقد اشتهر خصوصاً بوصفه اختصاصياً بالمعتوهين وبسبب أبحاثه حول الدماغ، أن يتبين بأسئلته إن كانت ذاكرة جدتي سليمة تماما. وقد ساءلها قليلاً عن حياتها وكأنما مرغماً، قاتم النظرة ثابتها. ثم قال فجأة، وكأنما أبصر الحقيقة وصمم أن يبلغها مهما كلفه الأمر، وبحركة مسبقة يبدو بها وكأنه يجهد في أن ينفض عنه، باستبعادها، موجات التردّد الأخيرة التي كان يمكن أن تنتابه وجميع الاعتراضات التي ربما أمكن أن نرفعها في وجهه، قال وهو ينظر إلى جدّتي بعين صافية وبحرية وكأنما يضع أخيراً أقدامه على أرض صلبة، ويشدّد على الكلمات بلهجة وادعة أخاذة يلوّن الذكاء جميع نبراتها (وقد ظلّ صوته على أيّ حال طوال الزيارة على ما طبع عليه، ظلّ ناعماً وكانت عيناه الساخرتان تحت حاجبيه الأشعثين تفيضان طيبة):

«ستكونين على مايرام، يا سيدتي، في اليوم البعيد أو القريب– ويعود إليك أن يكون ذلك في هذا اليوم نفسه – الذي تدركين فيه أنّك لا تشكين شيئاً والذي تستعيدين فيه الحياة المعتادة. قلت لي إنك لا تأكلين وإنك لا تخرجين؟»

– «ولكنني أشكو قليلاً من الحمى ياسيدي.»

ولمس يدها:

– «ليس في هذا الحين على أية حال. ثم ما أروعه عذراً! أما تعلمين أنّنا ندع في الهواء الطلق مسلولين تبلغ حرارتهم ٣٩ وأننا نزيد من تغذيتهم.»

– «ولكنني أشكو كذلك قليلاً من الزلال».

– «يجدر بك أن لا تعرفي ذلك. أنّك تشكين ما أدرجته تحت اسم الزلال الذهني. لقد عانينا جميعاً أثناء توعك صحيّ من نوبة الزلال الطفيفة التي سارع طبيبنا إلى إضفاء الديمومة عليها بتنبيهنا إليها. وفي مقابل علّة يشفيها الأطباء بالأدوية (ثمة من يؤكد على الأقلّ أنّ الأمر وقع أحياناً) ينتجون عشرا لدى أناس معافين إذ ينقلون اليهم هذا العامل المرضيّ الذي يفوق ألف مرّة سائر الأحياء الدقيقة حدّة، عنينا فكرة أنّهم

مرضى. ومثل هذا الاعتقاد، وهو شديد الوقع على جميع الجبّلات، انّما يؤثر بفعالية خاصة على العصبين. قل لهم أنّ نافذة مغلقة قد فتحت خلف ظهورهم فيأخذون في العطاس. وادخل في روعهم أنّك وضعت شيئاً من المانيزيا في حسائهم فيأخذهم المغص، وأن قهوتهم أقوى من المعتاد فلا يغمض لهم طوال الليل جفن. أتظننين ياسيدتي أنه لم يكفني أن أرى عينيك وأن أسمع فحسب الطريقة التي تتحدّثين بها، ماذا أقول؟ أن أرى السيدة ابنتك وحفيدك اللذين يشبهانك إلى حد بعيد كيما أعرف مع من أتعامل؟»

— «ربما استطاعت جدّتك أن تبادر فتجلس، إن صرّح لها الدكتور بذلك، في ممرّ هادئ في «الشانزيليزيه»، على مقربة من كتلة شجيرات الغار تلك التي كنت تلعب فيما مضى أمامها»، تقول أمّي وهي تستشير مباشرة على هذا النحو الدكتور «دوبولبون» ويتخذ صوتها بسبب ذلك شيئاً من الاستحياء والإجلال ما كان ليتخذه لو أنها وجهت الحديث إليّ وحدي. والتفت الدكتور إلى جدّتي، ولما لم يكن أقلّ منه علماً قال:

— «إذهبي إلى «الشانزيليزيه» ياسيدتي، بالقرب من كتلة شجيرات الغار التي يحبها حفيدك. سوف تفيدك شجرة الغار، فإنّها تطهر. إنّ «أبولون» بعدما قضى على الثعبان إنّما دخل إلى «ذلفي» وهو يحمل في يده غصن غار. كان يبغي بذلك أن يقي نفسه من جراثيم الحيوان السامّ الميتة.

ها إنّك ترين أن شجرة الغار هي الأوفر قدماً والأجدر بالتقدير، وأضيف إلى ذلك أنها أحسن المطهرات — الأمر الذي يتخذ قيمة في العلاج والوقاية على حدّ سواء—».

ولما كان قسم كبير مما يعرفه الأطباء إنما يلقنّهم إياه مرضاهم فإنهم يميلون بسهولة إلى الاعتقاد بأن علم «المرضى» هذا واحد لدى الجميع ويتباهون بإدهاش من كانوا بالقرب منه بملاحظة تعلموها من أولئك الذين عالجوهم فيما مضى. ولذلك قال الدكتور «دو بولبون» لجدّتي بالابتسامة الماكرة التي لباريسي يأمل في حديثه مع فلاح أن يدهشه باستخدام كلمة من اللهجة الإقليمية: «ربما أفلح طقس الرياح في حملك على النوم حيث تخفق أقوى المنوّمات». — «بالعكس ياسيدي، فالريح تحول تماماً دون أن أنام.» ولكنّ الأطباء شديدو الحساسية. وهمس «دو بولبون» وهو يقطب حاجبيه: «أخ!» كما لو ديست قدمه وكان أرق جدتي في الليالي العاصفة إهانة شخصية بالنسبة إليه. ولكنّما لم يكن يشكو مع ذلك فرط اعتزاز بالنفس، وإذ ظنّ من واجبه بوصفه «عقلاً متفوقاً» ألاّ يؤمن بالطب فقد استعاد بسرعة هدوءه الفلسفي.

وأضافت أمي، تحدوها رغبة عارمة في أن تطمئنّ بالاً على يد صديق «بيرغوت»، أضافت تدعيماً لقوله بأنّ ابنة عمّ لها كانت ضحيّة علّة عصبية فظلّت سبعة أعوام حبيسة غرفة نومها في «كومبريه» لا تنهض إلاّ مرّة أو مرتين في الأسبوع.

— «ها أنت ترين ياسيدتي، ما كنت على علم بذلك وكان بوسعي أن أقوله لك.»

وقالت جدّتي، إما لأنّها ضاقت نفسها بعض الشيء من جرّاء نظريات الدكتور أو لأنها رغبت في عرض ما يمكن أن يثار من اعتراضات عليها آملة أن يدحضها وأنّه لن تظلّ لديها، بعدما يذهب، أيّ شكّ ترفعه حول تشخيصه الناجح: «ولكنّي لست البتّة على غرارها ياسيدي، بل العكس صحيح ؛ فليس يستطيع طبيبي أن

يأمرني بملازمة سريري.»

– «بالطبع يا سيدي، لا يمكن أن يصاب المرء، واستميحك العذر للكلمة، بجميع العاهات العقلية، فأنت تشكين غيرها ولا تشكين هذه بالذات. لقد قمت البارحة بزيارة مصحّ لمرضى الأعصاب، وفي الحديقة كان رجل يقف فوق مقعد لايبدي حراكاً كأحد الفقراء ويميل برقبته في وضع كان لابدّ شاقاً جدًا. ولما سألته ما كان يفعل أجابني دون أن يقوم بحركة أو يدير رأسه: «دكتور، إني كثير الإصابة بالرثية والرشوحات، وقد قمت بالكثير من التمرينات وفيما كنت على هذا النحو أزيد ببلاهة من حرارتي كانت رقبتي تلتصق بملابسي الداخلية. فان أبعدتها الآن عن تلك الملابس قبل أن أدع لحرارتي أن تهبط فإنّي موقن بأنّي سأصاب بتصلب في الرقبة وربّما بالتهاب قصبات.» ولعله كان سيصاب به بالفعل. فقلت له: أنت واهن الأعصاب إلى حدّ بعيد، ذلك ما أنت بالتمام.» فهل تعلمين الحجة التي قابلني بها ليبرهن لي على العكس؟ الحجة أنّهم كانوا يضطرّون، فيما جميع مرضى المؤسسة مصابون بهوس وزن أنفسهم إلى حدّ أنهم لم يجدوا بدًا من وضع قفل للميزان كي لا يقضوا كامل يومهم في وزن أنفسهم، إلى إرغامه على الصعود إلى الميزان لقلة ما يرغب في ذلك. كان يغتبط لأنّه غير مصاب بهوس الآخرين دون أن يخطر له أنّه مصاب بهوسه الخاصّ وهو الذي يقيه آخر غيره. لا تجرحك المقارنة ياسيدتي، فذاك الرجل الذي ما كان يجرؤ أن يدير عنقه مخافة أن يصيبه الزكام إنّما هو أعظم شاعر في عصرنا. وإنما ذلك المهووس المسكين أسمى عقل عرفته. فاحتملي أن تدعي عصبيّة. إنّك تنتمين إلى هذه الأسرة الرائعة التعيسة الحال التي تؤلف ملح الأرض. إن كلّ أمر عظيم نعرفه يوافينا من العصبيين. فهم، لاغيرهم، أنشؤوا الأديان وألفوا الروائع الفنية. ولن يعرف العالم في يوم كلّ ما يدين به لهم ولاسيما ما كابدوه كي يهبوه إيّاه. إننا نتذوّق الموسيقى الرقيقة واللوحات الجميلة وألفاً من اللطائف ولكننا لا نعلم ما تكلف في سبيلها، أولئك الذين ابتدعوها، من أرق ودموع وضحكات متقبضة وشرى وربو ونوبات صرع، ومن ضيق حتى الموت هو أسوأ من كلّ ذلك، وربّما كنت عارفة به ياسيدتي»، يضيف قوله وهو يبتسم لجدّتي، «لأنك حينما جئت، هيا أقرّي بذلك، لم تكوني كثيرة الاطمئنان. كنت تحسبين أنك مريضة، مريضة ربّما إلى حدّ خطير. ويعلم الله أيّة علّة كنت تظنين أنك تكتشفين أعراضها فيك. وما كنت مخطئة، فقد كانت لديك. إن توتر الأعصاب مقلّد عبقري، فليس من داء إلاّ ويحاكيه غاية المحاكاة. إنّه يقلد إلى حدّ الإيقاع بك نفخة المصابين بالتخمة وغثيان الحمل ولا انتظام مريض القلب وحمّية المسلول. وكيف لايخدع المريض هو القادر على تضليل الطبيب؟ لا تظنّي أنّي أسخر من أدوائك، فما كنت أبادر إلى علاجها إن كنت لا أستطيع ادراكها. ثم هاك، ليس من اعتراف صحيح إلاّ متبادلاً. قلت لك إنّه ليس من فنان كبير دون مرض عصبي، بل وأكثر من ذلك»، يضيف قوله وهو يرفع سبّابته بوقار، «ليس من عالم كبير. وأضيف أن ليس، لن أقول من طبيب جيّد بل من طبيب مقبول فحسب في الأمراض العصبيّة إن لم يكن مصاباً بدوره بمرض عصبي. إن طبيباً، في حقل علم الأمراض العصبيّة، لا يدلي بالكثير من الغباوات مريض نصف معافى، مثلما الناقد شاعر لاينظم الشعر من بعد، والشرطي لصّ لايمارس من بعد. أنا، ياسيدتي، لا أحسب مثلك أنّي مصاب بالزلال فليس بي خوف عصبي من الغذاء، من الهواء الطلق، ولكني لا أستطيع النوم قبلما أعود فأنهض عشرين مرّة لاتبيّن أن كان الباب موصدا. وذلك المصحّ الذي لقيت فيه البارحة شاعراً لايدير رقبته إنّما كنت ذاهباً إليه لأحجز غرفة لأنّي، وأقولها بيننا، أمضي

فيه عطلتي في علاج نفسي بعدما أزيد أدوائي إذ أرهق نفسي في شفاء أدواء الآخرين.»

– «ولكن، هل ينبغي لي يا سيدي.» تقول جدّتي مذعورة، «أن أقوم باستشفاء مماثل؟»

– «لا ضرورة لذلك يا سيدتي، فالظاهرات التي تبدو عليك سوف تستسلم أمام كلامي. ثمّ إن لك بالقرب منك من هو مقتدر جدًا وإنّي أجعل منه طبيبك منذ الآن. إنّه داؤك وفرط نشاطك العصبيّ. ولو عرفت السبيل إلى شفائك منه لتحاشيت القيام بذلك. يكفيني من مرض أعصابك فلن تحبّيه من بعد. وهل أحس أنّ لي الحقّ أن أبادل المتع التي يوفرها مقابل سلامة عصبيّة قد تعجز تماماً عن توفيرها لك؟على أنّ هذه المتع نفسها إنّما تشكلّ دواء قوياً وربّما كان أقواها جميعها. لا، لست أبغي شرّا بطاقتك العصبيّة. إنّي أطلب إليها فقط أن تصغي إليّ. وإنّي أكِلُكِ إليها. فلتعد القهقرى. والقوّة التي كانت تبذلها لتمنعك من التنزّه وتناول مايكفي من الغذاء فلتستخدمها في إطعامك وحملك على القراءة والخروج والترويح عنك بكل الطرق. لا تقولي لي إنك متعبة، فالتعب هو التحقيق العضويّ لفكرة سبق تصورّها. فابدئي بالاّ تفكري فيه. وإن ألمّ بك في يوم توعكّ طفيف، وهو ما يمكن أن يتفق للجميع، فسيخيّل إليك أنّه لم يصبك إذ يكون قد جعل منك معافي بالوهم، حسب كلمة بليغة للسيد «دو تاليران». وها إنها شرعت تشفيك، فإنّك تصغين إليّ منتصبة القامة تماماً دون أن استندت مرّة واحدة، حادّة النظرة مرتاحة الوجه وقد مضى على ذلك نصف ساعة كاملة ولم تنتهي للأمر. سيدتي، يشرّفني أعظم الشرف أن احيّيك مودّعاً.»

وحينما عدت، بعدما شيّعت الدكتور «دو بولبون»، إلى الغرفة حيث كانت أمي وحدها تبدّد الغمّ الذي كان يضيّق عليّ منذ عدّة أسابيع وأحسست أن والدتي توشك أن تطلق فرحتها وأنّها على وشك أن ترى فرحتي، وشعرت باستحالة احتمال انتظار اللحظة القريبة التي يزمع فيها شخص بالقرب منا أن يبدي انفعاله، استحالة احتمال تشبه إلى حدّما الخوف الذي ينتابنا حين نعلم أن أحدهم سيدخل لإثارة الرعب في صدورنا من باب لايزال مغلقاً. وهممت أبغي أن أقول كلمة لأمي ولكنّما خانني الصوت وانفجرت باكياً وظللت طويلا ورأسي إلى كتفها أبكي وأتذوق الألم وأتقبلّه وأهواه الآن وقد علمت أنّه خرج من حياتي مثلما يطيب لنا أن نتحمس لمشروعات صالحة لاتسمح لنا الظروف بتنفيذها.

وأثارت «فرانسواز» حنقي بأنّها لم تشاركنا فرحتنا. لقد كانت في أشد الانفعال لأنّ شجاراً عنيفاً هبّ بين خادم الغرفة والبوّاب الواشي. وقد انبغى أن تتدخلّ الدوقة بطيبة قلبها وتعيد ظاهراً من السلام وتصفح عن خادم الغرفة. ذلك لأنها كانت طيبّة، ولعلّه كان المكان الأمثل لو لم تصغ إلى «الأقاويل».

أخذ الناس منذ بضعة أيّام يعلمون أنّ جدّتي مريضة ويسألون عن أخبارها. لقد كتب إليّ «سان لو» يقول: «ا لا أريد استغلال هذه الساعات التي ليست جدّتك فيها على مايرام كي أوجّه إليك ما كان أكثر من الملائمة وليست في شيء مما جرى. ولكنّي قد أكذب إن قلت لك، ولو كان من باب التغاضي، إنني سأنسى في يوم مسلكك الغادر وأنّك تنال الصفح في يوم عن مكرك وخيانتك.» بيد أنّ أصدقاء سألوني، وهم يرون أن جدّتي يسيرة المرض أو حتى يجهلون تماما أنّها مريضة، أن أصحبهم في الغد إلى «الشانزيليزيه» ونذهب من هناك لاقوم بزيارة ونشهد في خارج المدينة عشاء كان يفرحني. ولم تعد لديّ أيّة حجة للتخلي عن هاتين

المتعتين. فقد رأينا أن جدّتي ذكرت في الحال «الشانزيليزيه» حينما قيل لها إنّه ينبغي لها الآن أن تتنزّه كثيراً نزولاً عند رغبة الدكتور «دو بولبون». سوف يكون من اليسير عليّ أن أصحبها إلى هناك، وأن أتفّق واصدقائي، فيما هي جالسة تقرأ، حول المكان الذي نلتقي فيه وسوف يتسع لي الوقت إن استعجلت نفسي لاستقل القطار معهم إلى «فيل دافريه». وفي الوقت المحدد لم تشأ جدّتي الخروج وقد ألفت نفسها متعبة. ولكن والدتي التي درّبها «دو بولبون» توافر لها العزم لتغضب وتفرض طاعتها. كادت تبكي لدى التفكير بأن جدّتي سوف يعاودها ضعفها العصبي ولن تبلّ منه. ولم يتفق أن آتى طقس بمثل هذا الجمال والدفء نزهتها إلى هذا الحدّ. كانت الشمس إذ تبدل من مكانها تدس ههنا وهناك في صلابة الشرفة المصدّعة حرائرها الرجراجة وتضفي على الحجر المنحوت قشرة دافئة وهالة من ذهب غير واضحة المعالم. ولما لم يتسع الوقت لـ «فرانسواز» لتبعث ببرقية لابنتها فقد غادرتنا بعد الغداء مباشرة. لقد كان جميلاً منها. أن دخلت قبل ذلك لدى «چوبيان» لتطلب إليه أن يرفأ المعطف الصغير الذي سترتديه جدّتي للخروج. وإذ عدت في ذلك الوقت من نزهتي الصباحية فقد ذهبت معها إلى دكان صانع الصداري. قال «چوبيان» لـ «فرانسواز» «أهو معلّمك الشاب الذي يجيء بك هنا، أم أنت من تجيء به أم أنّ ريحاً مؤاتية والأقدار تسوقكما معا؟» كان «چوبيان»، مع أنّه لم يتابع دراسته، يحترم القواعد بالسليقة بقدر ما ينتهكها السيد «دو غيرمانت» على ما يبذل من جهود كثيرة. وبعدما ذهبت «فرانسواز» وتم إصلاح المعطف الصغير انبغى لجدّتي أن ترتدي ملابسها. ولما رفضت بقاء أمي معها فقد أمضت وحيدة وقتاً لاينتهي في ارتداء ثيابها، وأخذت، وأنا أعلم الآن أنها في تمام العافية وبهذه اللامبالاة الغريبة التي نبذلها لذوينا ما داموا على قيد الحياة والتي تفضي بنا إلى إنزالهم بعد كل الناس، أخذت أجدها شديدة الأنانية أن تنفق كلّ هذا الوقت وتوشك أن تؤخرني فيما تعلم أني على موعد مع أصدقاء وأزمع تناول العشاء في «فيل دافريه». وبلغ بي الأمر، وقد ضقت ذرعاً، أن أنزل مسبقاً بعدما قيل لي مرّتين أنها توشك أن تجهز. ولحقت بي أخيراً، دون أن تعتذر لي عن تأخرها كما كانت تفعل عادة في تلك الحالات، محمرة ساهية شأن من كان في عجلة من أمره ونسي نصف حاجاته، فيما كنت أصل على مقربة من الباب المزجج المشقوق الذي كان ينفذ الهواء اللزج الموشوش الدافئ من الخارج، وكأنما تم فتح خزّان، بين جدران الفندق الشديدة البرودة دون أن يبعث فيها أقل الدفء.

– «يا إلهي، كان بوسعي أن أرتدي معطفاً آخر بما أنك تزمع لقاء أصدقاء لك، فإن مظهري به يوحي بعض البؤس.»

وأدهشني مدى احتقان وجهها وأدركت أنها اضطرّت، وقد تأخرّت، أن تتعجل أمرها. ولما غادرنا العربة في مدخل شارع «غا بريبل» في محلة «الشانزليزيه» رأيت جدّتي وقد تحوّلت دون أن تكلمني واخذت تتجه إلى الكشك الصغير القديم المسيج بسياج أخضر حيث سبق أن انتظرت «فرانسواز» ذات يوم. كان لا يزال ثمة بالقرب من «المركيزة» الحارس الحراجي نفسه الذي كان هناك آنئذ حينما صعدت درجات المسرح الريفي الصغير المقام وسط الحدائق وأنا أتبع جدّتي التي كانت تضع يدها أمام فمها لأنّها لاشكّ كانت تحس بغثيان. وكما هي الحال في مدن الملاهي المتنقلة حيث يتقاضى المهرّج نفسه في الباب، وهو على أهبة الصعود إلى خشبة المسرح وقد غطىّ وجهه بالطحين، ثمن المقاعد، كانت «المركيزة» لاتزال في المراقبة تستوفي رسوم الدخول بخطمها الهائل اللامنتظم المطلي بجص سميك وقبعتها الصغيرة التي من زهر أحمر ودانتيلا سوداء

تعلو شعرها المستعار الأصهب. على أنّي لا أظن أنها تعرفتني. وكان الحارس يتحدث وهو يجلس إلى جانبها وقد أهمل مراقبة مواضع الخضرة التي كانت بزّته تنسجم مع لونها.

كان يقول: «لازلت ههنا، أنت، ولاتفكّرين في التقاعد».

– «ولمَ أتقاعد يا سيد؟ هلاّ قلت لي أين أكون أفضل من هنا وأين توافر لي أكثر من هنا رفاهيتي وكلّ مايريحني؟ ثمّ هذه الجيئة والرواح لاينقطعان والتسلية، ذلك ما أدعوه باريسي الصغيرة: فزبائني يطلعونني على كل ما يجري. خذ مثلا ياسيد، هنالك أحدهم، وقد خرج منذ ما لايزيد عن خمس دقائق، إنّه قاض من أعلى المراتب. حسن، ياسيد»، تقول في صيحة حماس وكأنّها مستعدة لإثبات هذا التوكيد بالعنف إن أبدى رجل السلطة أنّه يشكك في صحتّها، «منذ ثماني سنوات، تفهمني تماماً، وفي سائر الأيام التي صنعها الله، تراه هنا حين تدقّ الثالثة، دائم التأدّب لا ترتفع له كلمة فوق أخرى ولا يوسخ قطّ شيئا ويظل أكثر من نصف ساعة ليقرأ صحفه وهو يقضي حاجته الصغيرة. يوم واحد لم يجيء فيه. ساعتها لم أنتبه للأمر، ولكني في المساء قلت فجأة في نفسي: «ويحي، هذا السيد لم يجيء وربما أدركته المنية.» لقد هزّني الأمر لأنني أتعلق حينما يكون الناس طيبّين. ولذلك أحسست بسر عظيم عندما عدت فرأيته في الغد، وقلت له: «لم يصبك أمر البارحة، ياسيدي؟» حينئذ قال لي هكذا إنّه لم يقع له شيء وإنّما امرأته التي ماتت وإنّه تأثر إلى حدّ أنّه لم يستطع المجيء. كان مظهره حزينا بالتأكيد، أنت تدرك ذلك، أناس زوجوا منذ خمسة وعشرين عاما، ولكنه كان يبدو مسروراً مع ذلك أن يعود. كنت تحس أنّه أزعج كلّ الازعاج في شؤون عاداته المألوفة. وقد حاولت أن أشدّد عزائمه فقلت له: سينبغي ألاّ تستسلم للأمر، تعال كما كنت من قبل، فسوف يأتيك ذلك بسلوى يسيرة في غمك.»

وإردفت «المركيزة تقول بلهجة أكثر لينا لأنّها لاحظت أنّ حامي كتل الزهر والخضائر يصغي إليها بسذاجه دون أن يخطر له أن يخالفها وقد أبقى في الغمد سيفاً مسالماً يبدو بالأحرى وكأنه أداة بستنة أو مما كان خاصاً بالحدائق.

– «ثم إني انتقي زبائني، تقول، ولا أستقبل جميع الناس في ما أدعوه صالاتي. أليست تبدو بمثابة صالة إلى جانب زهوري؟ وبما أنّ لديّ زبائن لطافاً جدّا، فإن هذا أو ذاك يتلطف دوماً فيحمل إليّ غصناً صغيراً من ليلك جميل أو ياسمين، أو وروداً، وهي زهرتي المفضلة.»

واكتسى وجهي بالحمرة لدى التفكير بأننا ربّما كنا موضع نظرة سيئة لدى هذى السيدة إذ لا نحمل إليها في يوم ليلكاً أو وروداً جميلة، وتقدمت باتجاه باب الخروج أجهد في أن أتجنب جسدياً حكماً في غير صالحي – أو لأ تصدر الحكم بحقي إلاّ غيابياً. ولكن الأشخاص الذين يأتون بالزهور ليسوا على الدوام في الحياة أولئك الذين يبدي المرء أكثر اللطف لهم، فقد خاطبتني «المركيزة»، وفي ظنها أن الضجر أصابني، قائلة:

– ألا تريد أن أفتح لك قمرة صغيرة؟»

ولما رفضت أضافت تقول بابتسامة: «لا لست تريد؟ كان ذلك بكامل رضاي، ولكنّي أعلم تماماً أنّها حاجات لايكفي ألاّ تنقد ثمنها لتحس بها».

ودخلت باستعجال في تلك اللحظة امرأة رثة الثياب كان يبدو بالضبط أنّها تحسّ بها. ولكنها لم تكن من عالم «المركيزة»، فقد قالت لها هذه الأخيرة بجفاء وبقسوة المتحذلقين:

– «ليس من شاغر ياسيدتي»..

وسألت السيدة المسكينة وقد كستها الحمرة تحت أزهارها الصفر: «وهل سيطول بي الأمر»؟

– «آه! أنصحك ياسيدتي بالذهاب إلى مكان آخر، فأنت ترين، لايزال هنالك هذان السيدان ينتظران»، تقول وهي تشير إليّ وإلى الحارس، «وليس لديّ سوى بيت خلاء واحد، فالآخر في طور الإصلاح...» وقالت المركيزة: «هذه هيئة من يماطل في دفع ما بذمتّه، ولايبدو أنّها من طرازنا هنا، فلا نظافة ولا احترام وإنما سينبغي لي أن أمضي ساعة في التنظيف للسيدة. لست نادمة على فلسيها.»

وأخيراً خرجت جدّتي بعد نصف ساعة ونيف، وإذ خطر لي أنّها لن تحاول أن تستر باكراميّة ما أبدت من عمل غير محتشم لبقائها وقتاً كهذا عدت القهقرى كي لا يصيبني جزء من الازدراء الذي ستبديه لها «المركيزة» دون شك وسلكت ممرّاً ولكن على مهل كي تستطيع جدّتي اللحاق بي بسهولة ومتابعة السير معي. وذلك ماتم بعد قليل. كنت أحسب أنّ جدّتي ستبادرني بقولها: «لقد جعلتك تنتظر طويلاً وآمل أنّ لن يفوتك على الرغم من ذلك لقاء أصدقائك»، ولكنّها لم تنطق بكلمة واحدة حتى إني لم أشأ، وقد خاب أملي إلى حدّ، أنّ أتحدّث الأوّل إليها. وحين رفعت العين إليها رأيت أنّها تحوّل رأسها في الجانب الآخر فيما تسير بالقرب مني. وخشيت أنّها تعاني من غثيان بعد. وأنعمت النظر إليها ودهشت لمشيتها المهتزّة. كانت قبعتها مائلة ومعطفها متسخاً وكانت تبدي اضطرابا واستياءً، محمرّة الوجه مهتمة كمن دفعته عربة أو أخرج من حفرة.

وقلت لها: خشيت أن أصابك غثيان ياجدّة، فهل أنت أحسن حالاً؟» وليس من شك أنّها حسبت أنّه يستحيل عليها ألاّ تجيبني دون أن تبعث القلق في نفسي، فقالت لي:

«لقد سمعت كامل الحديث بين «المركيزة» والحارس، وكان ألصق ما يكون بطراز آل «غيرمانت» وحلقة آل «فيردوران» الضيقة. يا الله! بأية كلمات رقيقة صيغ الحديث!» وأضافت إلى ذلك جاهدة، والاستشهاد لمركيزتها هي، السيدة «دو سيفينييه»: «ظننت إذ كنت أصغي إليها أنّها تعدّ لي متع الوداع.»

تلك كانت العبارات التي اسمعتني إيّاها والتي ضمنتها كامل رقتها وميلها إلى الشواهد وما تحفظ من روائع الأدباء، بل زادت قليلاً عمّا لعلها كانت تفعل عادة وكأنما لتبدي أنّ ذلك ملك يديها. ولكني خمنت تلك الجمل أكثر مما تمّ لي سماعها لفرط ما نطقت بها مدمدمة وهي تضغط على أسنانها أكثر مما يمكن أن يفسّره خوفها من الاقياء.

فقلت لها بشيء من الاستخفاف كي لايبدو أني آخذ وعكتها على محمل الجدّ: «هيا، بما أنك تحسين بغثيان طفيف، سوف نعود إن شئت، فلست أريد أن أحمل إلى النزهة في «الشانزيليزيه» جدّة تشكو عسر هضم.»

فأجابتني قائلة «وما كنت أجرؤ أن أعرض الأمر عليك بسبب أصدقائك. ياصغيري المسكين! ولكنما الأمر أكثر حكمة بما أنك راضٍ به».

وخشيت أن تلاحظ الطريقة التي كانت تنطق بها بتلك الكلمات، فقلت لها بجفاء: «هيا، لاتجهدي النفس في التحدّث، وبما أنك تحسّين بغثيان فانتظري على الأقلّ أن نكون عدنا فذلك غير منطقي.»

وابتسمت لي ابتسامة حزينة وشدّت علي يدي. لقد أدركت. ألاّ سبيل إلى أن تخفي عليّ ما قد خمّنته في الحال: لقد أصيبت منذ قليل بنوبة قلبية طفيفة.

❖

القسم الثاني

الفصل الأول

مرض جدتي – مرض «بيرغوت»

– الدوق والطبيب – انحطاط قوى جدتي – موتها

عدنا فاجتزنا شارع «غابرييل» وسط جمهور المتنزّهين. وأجلست جدّتي على مقعد وذهبت في طلب عربة. أمّا هي التي كنت أقف أبداً في قلبها لأقيّم أكثر الناس تفاهة فقد أضحت الآن مغلقة النفس دوني. لقد باتت جزءاً من العالم الخارجي وأراني مضطراً أن أكتمها مايراودني بشأن حالتها وأن أكتمها مخاوفي أكثر منّي مع مجردّ عابري سبيل. وما كان بوسعي أن أروي لها عن الأمر بثقة أكثر ممّا أفعل مع غريبة. لقد ردّت إليّ منذ قليل الأفكار والغموم التي سبق أن استودعتها إيّاها إلى الأبد منذ طفولتي. لم تكن بعد قد ماتت، وكنت مذ ذاك وحيداً. حتّى تلك التلميحات إلى آل «غير مانت» و«موليير» وأحاديثنا حول النواة الصغيرة كانت تتّخذ هيئة لا ركيزة لها ولاسبب، هيئة من عالم الخيال لأنّها تصدر عن هذا الكائن عينه الذي ربّما لن يظلّ موجوداً في غد والذي لن يظلّ لها في نظره أيُّ معنى، عن هذا العدم– العاجز عن تصورها – الذي ستصير إليه جدّتي عمّا قريب.

– «لست أنكر ياسيّد، ولكنّك لم تحصل على موعد منّي، ولا رقم لك. وليس اليوم على أيّة حال يوم استشارتي. لابدّ أنّ لك طبيبك، ولا أستطيع أن أحلّ محلّه إلاّ إذا أرسل يدعوني للمشاورة. إنّها مسألة تسلسل وأدب...».

وكنت في اللحظة التي أشير فيها إلى إحدى العربات التقيت بالأستاذ الشهير أ...، وهو صديق والدي وجدّي تقريباً وعلى علاقة بهما على أيّة حال، وكان يسكن في شارع «غابرييل» فأوقفته، وقد هبط عليّ وحي مفاجئ، لحظة كان يعود إلى بيته ظنّا منّي أنّه ربّما أشار أحسن المشورة بالنسبة إلى جدّتي. ولكنّه همّ، وهو معجل بعدما أخذ رسائله، يريد أن يصرفني ولم أستطع التحدّث إليه إلا باستقلالي وإيّاه المصعد الذي رجاني أن أدع له تحريك أزراره، إذ الأمر هوس لديه.

–«ولكنّي لا أسألك استقبال جدّتي، ياسيّد، وستدرك بعد الذي سأقوله، أنّها قلّما تستطيع، أسألك على العكس أن تمرّ في غضون نصف ساعة إلى بيتنا حيث تكون عادت».

– «أمرّ إلى بيتكم؟ إنّك لاتفكّر في ما تقول ياسيّد. سأتناول طعام العشاء لدى وزير التجارة وينبغي أن أقوم بزيارة قبل ذلك وسأبدّل ثيابي في الحال. يزيد في الطين بلّة أنّ ردائي تمزّق وأنّ الآخر لاعروة له لوضع الأوسمة. أرجوك، تكرّم عليّ بألاّ تلمس أزرار المصعد فأنت لاتحسن تحريكها. لابدّ من الحذر في كل شيء. هذه العروة سوف تزيد من تأخيري. على كلّ حال. وبداعي صداقتي لذويك، إن جاءت جدتك في الحال فسوف استقبلها. ولكنّي أحذّرك من أنّه يكاد لايتّسع لي سوى ربع ساعة أصرفها لها.»

كنت قد عدت في الحال، وكدت لم أخرج من المصعد الذي حرّكه الأستاذ أ... بنفسه كي يحملني على النزول، ولايغفل أن ينظر إليّ محاذراً.

نحن نقول أنّ ساعة الموت غير أكيدة، ولكنّنا حين نقول ذلك إنّما نتمثّل هذه الساعة وكأنّها واقعة في مكان مبهم بعيد ولا نظنّ أنّ لها علاقة. أيّة علاقة، بالنهار الذي بدأ ويمكن أن تعني أنّ الموت – أو امتلاكه الأوّل الجزئيّ لنا والذي لن يتركنا بعده– يمكن أن يحدث في هذا العصر نفسه، وما أقلّ إبهامه، هذا العصر الذي نظّم فيه سلفاً استخدام الساعات جميعها. أنت تحرص على نزهتك ليتوافر لك في الشهر مجموع الهواء النقّي اللازم، وقد تردّدت في اختيار معطف تحمله معك والحوذيّ الذي ينبغي استدعاؤه، وإنّك في العربة والنهار كلّه أمامك قصير المدى لأنّك تبغي أن تكون عدت في الوقت المناسب لاستقبال إحدى الصديقات ؛ وتودّ أن يكون الطقس في الغد في مثل صحوه، ولا يخطر لك أنّ الموت الذي كان يسري فيك على مستوى آخر وسط ظلمة لاتنفذ إليها الأبصار قد اختار بالضبط هذا النهار ليدخل مسرح الأحداث بعد بضع دقائق في اللحظة التي ستبلغ فيها العربة تقريباً منطقة الـ«شانز يليزيه». وربمّا وجد الذين يلاحقهم بالعادة هلع الغرابة الخاصّة بالموت شيئاً من الطمأنينة في هذا النوع من الموت – في هذا النوع من الاتّصال الأوّل بالموت– لأنّه يحمل فيه مظهراً معهوداً ومألوفاً ويومياً. لقد سبقه غداء طيبّ والنزهة نفسها التي يقوم بها الناس المعافون. إن عودة في عربة مكشوفة تنضاف إلى إصابته الأولى ؛ ومهما يبلغ المرض من جدّتي فقد كان بوسع عدّة أشخاص أن يقولوا إنّهم حيّوها، حينما عدنا من «الشانز يليزيه». وهي تمرّ في عربة مكشوفة وفي طقس رائع. وقد حيّانا «لوغراندان» الذي كان يتّجه إلى ساحة «الكونكورد» بحركة أدّاها بقبعته وهو يتوقفّ مستعجباً. وسألت جدّتي، أنا الذي لم يتجرّد بعد عن الحياة، إن هي ردّت عليه مذكّراً إيّاها بأنّه سريع التأثّر. أمّا جدّتي فقد ألفتني دونما شكّ شديد الطيش ورفعت يدها كأنّما لتقول: «وماذا في الأمر؟ لا أهميّة لذلك على الإطلاق».

أجل، كان يمكن القول منذ قليل، حينما كنت أبحث عن عربة، إن جدّتي كانت تجلس على مقعد في شارع «غابرييل» وإنّها مرّت بعد ذلك بقليل في عربة مكشوفة. ولكن، أكان ذلك صحيحاً تمام الصحّة؟ إنّ المقعد لا حاجة به، فيما يخصّه، كيما يقيم في أحد الشوارع– مع أنّه يخضع بدوره لبعض شروط التوازن– لقدرة معيّنة. ولكنّما ينبغي، كيما يكون الكائن الحيّ مستقراً وإن استند إلى مقعد أو داخل عربة، توتّر قوى لانحس بها عادة أكثر ممّا نحسّ بالضغط الجوي (لأنّه يتمّ في جميع الاتّجاهات). وربّما شعرنا، لو تحقق، الفراغ في داخلنا وتُركنا نتحمّل ضغط الهواء، ربّما شعرنا في أثناء اللحظة التي تسبق تدميرنا بالثقل الرهيب الذي لا يعطّله شيء من بعد. كذلك حينما تنفتح فينا هاويات المرض والموت ولا يظلّ لدينا من بعد ما نضعه قبالة الضوضاء الذي يكرّ به علينا العالم وجسدنا نفسه، اقتضانا حينذاك حتّى تحمّل فكرة عضلاتنا، حتّى الرعشة التي تزرع الدمار في مخاخنا، حتّى الوقوف بلا حراك في مانظنّه عادة محض الوضع السلبي للشيء اقتضانا حينذاك، إن شئنا أن يظلّ الرأس قائماً والنظرة هادئة، طاقةً حيويّة وأصبح موضع عراك مضن.

ولئن نظر إلينا «لوغراندان» بهذه الهيئة المستعجبة فلأنّ جدّتي ظهرت له ولجميع الذين كانوا يمرّون حينذاك على السواء، ظهرت، في العربة التي كانت تبدو جالسة فيها على المقعد، كأنّها تهوي، كأنّها تنزلق

إلى الهاوية وتتشبّث يائسه بالمساند التي تكاد لاتستطيع احتجاز جسدها المندفع، والشعر منكوش والعين شاردة لاتقوى من بعد على مجابهة كرّ الصور التي لم تعد حدقتها تفلح في حملها. لقد ظهرت، مع أنّها بالقرب منّي، غارقة في هذا العالم المجهول الذي سبق أن تلقّت في صميمه الضربات التي كانت تحمل آثارها حينما شاهدتها منذ قليل في «الشانزيليزيه» وقد عبثت بقّبعتها ووجهها ومعطفها يد الملاك الخفيّ الذي صارعته.

لقد خطر لي مذ ذاك أن تلك اللحظة من النوبة التي أصابت جدّتي لابدّ لم تفاجئها تمام المفاجأة، بل لعلّها توقّعتها قبل الأوان بفترة طويلة وعاشت في انتظارها. هي لم تعلم دونما ريب متى تحلّ تلك اللحظة المحتومة وبها حيرة، مثلها في ذلك مثل العشّاق الذين يدفعهم شكّ من ذات القبيل إلى أن يبنوا آمالا غير معقولة تارة وطوراً شكوكاً ليس لها مايبرّرها حول إخلاص عشيقتهم. على أنّه يندر لمثل تلك الأمراض الجسيمة الشبيهة بذاك الذي أصابها في نهاية المطاف إصابة صريحة ألاّ تتّخذ مسكناً لها فترة طويلة لدى المريض قبل أن تقتله وألاّ تحمله في أثناء تلك الفترة، شأن جار أو مستأجر سريع الصلة بالغير، إلى التعرّف بها. وإنّه لتعارف رهيب، وأقلّ رهبة من جراء الآلام التي يسبّبها منه من جرّاء الجدّة الغريبة للقيود النهائيّة التي يفرضها على الحياة. فانّك تبصر ذاتك تموت في هذه الحالة، لا في لحظة الموت نفسها، بل قبل ذلك بشهور وأحياناً بسنين منذ أن أقبل بقبحه ليسكن لدينا. إن المريضة لاتعرّف شكله ولكنّها تستخلص عاداته من الضجيج الذي تسمعه يحدثه بانتظام. فهل هو فاعل سوء؟ إنّها ذات صباح لاتسمعه من بعد. لقد مضى. آه! لو يدوم الأمر أبداً! فها هو ذا في المساء قد عاد. ماهي مقاصده؟ ويجيب الطبيب المستشار بعدما يطرح عليه السؤال، يجيب كعشيقة معبودة بأيمان تصدّق هذا اليوم ويرتاب بها في ذاك. والطبيب على أيّ حال يؤدّي دور الخدم المساءلين أكثر منه دور العشيقة. فليس الخدم إلاّ السوّى. أمّا تلك التي نشدّها إلينا، والتي نشكّ أنّها على شفا أن تخوننا، فهي الحياة بعينها، ومع أنّنا لا نشعر من بعد أنّها لاتزال ذاتها فإنّنا نظلّ نؤمن بها. نظلّ في جميع الأحوال سجناء الشكّ إلى اليوم الذي تكون فيه قد هجرتنا.

وضعت جدّتي في مصعد الأستاذ أ... وبعد لحظة أقبل إلينا وأدخلنا إلى مكتبه. ولكنّه وإن يكن معجلاً فقد تبدّلت هنا هيئته المتعجرفة لشدّة ما العادات قويّة، وكان من عادته أن يكون لطيفاً مع مرضاه، وحتّى ممزاحاً. ولمّا كان يعرف جدّتي طويلة الباع في الثقافة وكان هو على ذاك فقد أخذ يروي لها على مدى دقيقتين أو ثلاث أبياتاً جميلة حول الصيف المشرق الذي كان سائداً. وكان قد أجلسها فوق كنبة وظلّ بعكس الضوء كي يحسن رؤيتها. وجاء فحصه دقيقاً واقتضى حتّى أن أخرج برهة. وتابعه أيضاً ثمّ شرع، بعدما انتهى ومع أنّ ربع الساعة قارب النهاية، يعيد على جدّتي بعض الاستشهادات. ووجّه إليها حتّى بعض المزحات المرهفة إلى حدّما والتي لعلّني كنت فضّلت سماعها في يوم آخر وذكرت حينذاك أنّ السيّد «فالبير» رئيس مجلس الشيوخ أصيب منذ عدّة سنوات بنوبة كاذبة وأنّه أخذ بعد ثلاثة أيّام، واليأس يطبق على منافسيه، يمارس وظائفه من جديد وكان يعدّ، فيما يقولون، لترشيح بعيد أو قريب لرئاسة الجمهورية. وازدادت ثقتي بشفاء جدّتي السريع تماماً بقدر ما انتشلتني، لحظة كنت أتذكّر مثال السيّد «فالبير»، من فكرة هذه المقاربة قهقهة صريحة ختمت مزحة للأستاذ أ... وإذ ذاك أخرج ساعته وقطّب الحاجب باضطراب إذ رأى أنّه تأخّر خمس دقائق، وفيما كان يستودعنا رنّ الجرس كي يجيئوه في الحال بردائه. وتركت جدّتي تمرّ أمامي وأغلقت الباب وسألت العالم الحقيقة. فقال لي:

- «جدّتك ميؤوس منها. إنّها نوبة ناجمة عن تسمّم بولي. وليس التسمّم البوليّ في حدّ ذاته مرضاً قاتلاً بالضرورة ولكنه الحالة تبدو لي ميؤوساً منها. لاحاجة لي أن أقول لك إنّي آمل أن أكون مخطئاً. أنتم مع «كوتار» بين أيد أمينة». ثم قال لي وهو يبصر خادمة تدخل وتحمل على ذراعها رداء الأستاذ الأسود: «معذرة، أنت تعلم أنّي أتناول طعام العشاء في منزل وزير التجارة وعليّ أن أقوم بزيارة قبل ذلك. آه! ليست الحياة وروداً فحسب، كما يظنّون ذلك في سنّك».

ومدَّ إليّ يده بلطف. كنت قد أغلقت الباب فيما يقودنا خادم أنا وجدّتي عبر غرفة الانتظار حينما سمعنا صيحات غضب كبيرة. فقد كانت الوصيفة نسيت أن تثقب العروة للأوسمة، والأمر سيتطلّب عشر دقائق أخرى. كان الأستاذ يوالي صراخه فيما كنت أتأمل على صحن الدرج جدّتي الميؤوس منها. كلّ امرئ وحيد تماماً ومضينا ثانية إلى البيت.

كانت الشمس آخذة في الأفول، وكانت تلهب جداراً لاينتهي ينبغي لعربتنا أن تحاذيه قبل الوصول إلى الشارع الذي كنّا نقطن فيه، جداراً يبرز عليه أسود على خلفيّة ضاربة إلى الحمرة، كعربة موتى على فخّار من «بومبيي». ظل الحصان والعربة الذي يسقطه الغروب. وأخيراً وصلنا. وأجلست المريضة في أسفل الدرج في الردهة وصعدت أخطر والدتي. قلت لها إن جدّتي تعود وبها وعكة بسيطة إذ قد أصيبت بدوار. ومنذ كلماتي الأولى بلغ وجه أمي ذروة يأس بدت تسلّم به مع ذلك إلى حدّ بعيد أدركت معه أنّها كانت تحتفظ به منذ سنوات كثيرة جاهزاً في داخلها من أجل يوم غير معيّن وأخير. ولم تسألني شيئاً ؛ كان يبدو، مثلما يحلو للأذيّة أن تبالغ في آلام الآخرين، أنّها لم تشأ، بداعي الحنان، أن تسلّم بأنّ والدتها مصابة إصابة بالغة، ولاسيّما بمرض يمكن أن يمسّ العقل. كانت والدتي ترتعش ويبكي وجهها دونما دموع، وجرت تقول أن يذهبوا في طلب الطبيب، ولكنّها لم تستطع الإجابة إذ كانت «فرانسواز» تسأل من كان مريضاً، وتوقفّ صوتها في حنجرتها. وانحدرت تجري معي وهي تزيل عن محيّاها الزفرة التي تغضّنه. كانت جدّتي تنتظر في الأسفل على أريكة الردهة ولكنّها اعتدلت ما أن سمعتنا ونهضت واقفة ولوّحت لوالدتي باشارات مرحة من يدها. وكنت قد أحطت رأسها نصف إحاطة بخمار من الدانتيلا البيضاء قائلاً لها إن الغرض من ذلك أن لايصيبها البرد في الدرج. فما كنت أريد أن تلاحظ أمّي كثيراً امتقاع الوجه والتواء الفم ؛ وجاءت حيطتي عديمة الجدوى، فقد اقتربت أمّي من الجدّة وقبلّت يدها وكأنما يد إلهها وساندتها وحملتها إلى المصعد بصنوف من الحيطة لاحدّ لها تجد فيها إلى جانب خشية أن تكون هوجاء وتؤذيها تواضع من يحسّ أنّه غير أهل لملامسة مايعلم أنّه أثمن الثمين، ولكنّها لم ترفع عينيها مرّة ولانظرت لى وجه المريضة. ربّما كان ذلك كي لا تغتّم هذه وهي تظنّ أن رؤيتها أمكن أن تقلق ابنتها. وربّما مخافة ألم بالغ العنف لم تجرؤ على مواجهته. وربّما بداعي الإجلال لأنّها لا تعتقد أنّه يسعها دونما عقوق أن تلاحظ أثر أيّ وهن عقلي على الوجه المكرّم. وربّما كي تحفظ فيما بعد على حالها وعلى نحو أفضل صورة وجه أمّها الحقيقيّ يشعّ ذكاء وطيبة. وهكذا صعدنا الواحدة إلى جانب الأخرى، تختفي جدّتي خلف خمارها وتشيح والدتي بعينيها.

وفي أثناء ذلك كان ثمة شخص لايرفع عينيه عمّا يمكن أن يُستشفّ من ملامح جدّتي المتغيّرة التي لاتجرؤ ابنتها أن تراها، شخص يثبت عليهما نظرة دهشة وفضول وشؤم: إنها «فرانسواز». وليس يعني ذلك أنّها

لاتحبّ جدّتي حبّاً صادقاً (بل هي خاب ظنّها وأثار استنكارها برودة والدتي وكانت تودّ لو رأتها ترتمي باكية بين ذراعي والدتها)، ولكنّما كان بها ميل إلى توقّع الأسوأ أبداً واحتفظت من طفلتها بخاصيتين تبدوان وكأنّما ينبغي أن تتنافيا ولكنّهما حينما تجتمعان تقوي إحداهما الأخرى، عنينا قلّة تهذيب عامّة الناس الذين لايحاولون إخفاء الإنطباع،بل الرعب المؤلم الذي تبعثه فيهم رؤية تبدّل جسميّ ربّما كان أكثر لباقة أن لايبدو المرء وكأنّه يلاحظه، والخشونة البعيدة عن الإحساس لدى الفلاّحة التي تنتزع أجنحة اليعاسيب قبل أن تتوافر لها فرصة دقّ أعناق الفراريج وينقصها الاحتشام الذي قد يحملها على إخفاء الاهتمام الذي تحسّ به لرؤية الجسد الذي يتعذّب.

حينما تمّ وضع جدّتي في سريرها بفضل عناية «فرانسواز» التامّة. تبينتْ أنّها كانت تتكلّمّ بسهولة أكبر إذ لابدّ أنّ التمزّق الضئيل أو الاختناق الذي أحدثه التسمّم البوليّ في أحد الأوعية كان طفيفاً جدّاً حينئذ شاءت ألاّ تكون بعيدة عن أمّي وأن تعينها في أقسى ما لعلّ هذه الأخيرة اجتازت من لحظات.

وقالت لها، وهي تأخذ يدها وتمسك بالثانية أمام فمها كي توفرّ هذا السبب الظاهر للصعوبة الطفيفة التي لاتزال تعاني منها في لفظ بعض الكلمات: «ماذا، يا ابنتي! أهكذا ترثين لحال أمّك! أراك تظنّين أنّ ليس يزعج سوء الهضم!».

حينئذ حطّت عينا والدتي للمرّة الأولى بحرارة على عيني جدّتي إذ لاتبغي أن تبصر بقيّة وجهها وقالت وهي تبدأ لائحة تلك الأيمان الكاذبة التي لانستطيع البرّ بها:

- «سوف تشفين عمّا قريب يا أمّي، ذلك عهد على ابنتك».

واحتسبت أشدّ حبّها وكامل مبتغاها لأن تشفى والدتها في قبلة استودعتها إيّاهما ورافقتها بفكرها وبكلّ كيانها حتّى حافة شفتيها وأقبلت تطبعها بتواضع وورع على الجبين الحبيب.

كانت جدّتي تشكو من نوع من انجراف الأغطية وكان يتمّ على الدوام في الجهة نفسها على ساقها اليسرى وما كانت تفلح في رفع تلك الأغطية. على أنّها لم تكن تتبيّن أنّها كانت هي السبب (حتّى أنّها اتّهمت في كل يوم «فرانسواز» زوراً أنّها تسيء ترتيب سريرها). فقد كانت تلقي بحركة تشنّجية في ذلك الجانب كامل سيل تلك الأغطية المزبدة التي من صوف ناعم والتي كانت تتكدّس فيه كالرمال في خليج صغير سرعان ما يستحيل شاطئاً رملياً (إن لم نبنِ فيه سداً) من جرّاء أجلاب الموج المتعاقبة.

أمّا أنا (الذي كان كذبه يُكتشف سلفاً على يد «فرانسواز» الثاقبة النظرة والمسيئة) وأمّي فما كنّا حتّى نبغي أن نقول إنّ جدّتي مريضة جداً كما لو أمكن ذلك أن يسرّ الأعداء، ولا أعداء لها على أيّة حال، وكما لو بدا أكثر حناناً أن نجد أنّها ليست سيّئة الحال إلى هذا الحدّ. وذلك باختصار القول بالإحساس الغريزي نفسه الذي حملني على افتراض أن «آندريه» كانت تفرط من الرثاء لحال «ألبيرتين» كيما تحبّها كثيراً. وإنّ الظاهرات نفسها تتكرّر من خاصّة الناس إلى الجمهور في الأزمات الكبيرة. إنّ الذي لايحبّ بلاده لايتناولها بسوء في الحرب ولكنّما يعتقد أنّها هالكة ويرثي لحالها ويرى الأمور بلون السواد.

كانت «فرانسواز» تؤدّي لنا خدمة لاحدود لها بقدرتها على الاستغناء عن النوم وأداء أكثر الأشغال مشقّة. فإن اضطررتَ، بعدما ذهبتُ لتنام عدّة ليال أمضتها واقفة، أن تناديها ربع ساعة بعدما أخذها النوم، كانت سعيدة أن تستطيع أداء أمور شاقّة كما لو كانت أبسط مافي العالم إلى حدّ تبدي معه على وجهها الرضى والتواضع بدلاً من أن تمتعض. فأمّا حينما تحلّ ساعة القداس وساعة الإفطار فلعلّ «فرانسواز» كانت تتوارى في الوقت المناسب كي لا تتأخّر وإن كانت جدّتي في طور النزاع. وما كانت تستطيع ولاهي تريد أن يحلّ محلّها خادمها الشابّ. أجل، لقد حملت من «كومبريه» فكرة رفيعة جدّاً عن واجبات كلّ واحد تجاهنا، وما كانت لتسمح أن يقصّر أحد خدمنا في احترامنا. وقد جعل ذلك منها مربيّة كريمة متجبّرة فعّالة إلى حدّ أنّه لم يتفق أن كان لدينا خدّام مفْسدونْ إلى حدّ بعيد لم يبدّلوا وينقّوا بسرعة مفهومهم للحياة إلى حدّ أنّهم لايقبضون فلساً واحداً من بعد ويسارعون— مهما كانوا قليلي المروءة-حتى ذاك — كي يأخذوا من يديّ أيّة رزمة ولايدعوا لي أن أتعب في حملها. إلا أن «فرانسواز» كانت قد اتّخذت في «كومبريه» أيضاً— وحملت معها إلى باريس— عادة ألاّ تطيق احتمال أيّة مساعدة في عملها. فأن ترى من يمدّ لها يد العون كان في نظرها إهانة توجّه إليها وقد ظلّ بعض الخدم أسابيع دون أن يحصلوا منها على ردّ على تحيّتهم الصباحيّة، بل هم ذهبوا لقضاء العطلة دون أن تودّعهم ودون أن يحزروا لماذا، والأمر بالحقيقة لمحض أنّهم أرادوا أن يقوموا بشيء من عملها في يوم كانت فيه متوعكة. وفي هذه الفترة التي كانت فيها جدّتي في أسوأ حال كان عمل «فرانسواز» يبدو لها ملك يديها على نحو خاصّ. فما كانت تريد، هي صاحبة الحقّ، أن تسمح بسرقة دورها في هذه الأيّام الاحتفاليّة وما كان خادمها الشابّ الذي استبعدته يعلم ما يفعل وقد أخذ، إذ لم يكتف بأنّه أخذ أوراقي من مكتبي على غرار «فيكتور»، أخذ إلى ذلك يحمل معه مجلّدات شعريّة من مكتبيّ. وكان يقرؤها، على مدى نصف نهار ويزيد، داعي الإعجاب بالشعراء الذين ألّفوها وكيما يرصّع كذلك في الجزء الآخر من وقته بالشواهد الرسائل التي كان يسطّرها لأصدقائه في القرية. كان يأمل بالتأكيد أن يبهرهم بذلك. بيد أنّه لما كان قليل الترابط في أفكاره فقد شكّل في ذاته هذه الفكرة التي قوامها أن تلك القصائد التي وجدها في مكتبي كانت أمراً يعرفه سائر الناس ومن الشائع العودة إليه، فكان بذلك إذ يكتب إلى هؤلاء الفلاحين الذين يتوقّع إذهالهم يمزج أفكاره الخاصّة بأبيات لـ«لامارتين» كما لعلّه كان قال: من يعش يرَ، أو حتّى: صباح الخير.

سُمِحَ لجدّتي بالمورفين بسبب ما تعاني من آلام: ولئن كان هذا الأخير يسكّنها فقد كان لسوء الحظّ يزيد كذلك من كميّة الزلال. فالضربات التي كنّا نوجهّها للداء الذي سكن داخل جدّتي كانت تخطئ الهدف أبداً، فهي التي كانت تتقبّلها، وكذلك جسدها المسكين الذي حلّ بين الداء والدواء، دون أن تشتكي إلاّ بأنين ضعيف. وما كانت الآلام التي نسبّبها لها، ما كانت تستعاض بخير لانستطيع أن نوفّره لها. والداء الشرس الذي وددنا لو نقضي عليه لم نلامسه إلاّ قليلاً وكنّا نزيد فحسب من حدّته وربّما استعجلنا الساعة التي ستفترس فيها السجينة. كان «كوتار» يرفض المورفين، بعد تردّد، في الأيّام التي يتجاوز فيها الزلال الحدّ. فقد كان لدى هذا الرجل التافه إلى حدّ بعيد والعاديّ إلى حدّ بعيد، في هذه اللحظات القصيرة التي يتفكّر فيها والتي تتصارع فيها في صدره مخاطر علاج وآخر إلى أن يتوقّف عند أحدهما، كان لديه ما يشبه عظمة جنرال يثير مشاعرك، هو العاميّ في باقي الحياة، بقراره لحظة يحيق الخطر بمصير الوطن، حينما يخلص بعدما تردّد

لحظة إلى ما كان أكثر الأمور حكمة على الصعيد العسكريّ فيقول: «اصمدوا شرقاً». كان ينبغي على الصعيد الطبيّ، مهما قلّ الأمل في وضع حدّ لنوبة التسّمم البوليّ هذه، ألاّ تُرْهَقَ الكلية. بيد أنّ أوجاع جدّتي كانت لاتطاق من جهة أخرى حينما لايتوافر لها المورفين، وكانت تكرّر دونما انقطاع حركة يصعب عليها تحقيقها دون أنين: فالألم في جزء كبير منه ضرب من حاجة الجسم إلى أن يعي حالة جديدة تقلقه، وأن يجعل الإحساس مطابقاً لهذه الحالة. ويمكن تمييز منشأ الألم هذا في حال مزعجات ليست كذلك بالنسبة إلى سائر الناس. ففي غرفة ملأى بدخان ثاقب الرائحة يدخل رجلان فظّان ويقومان بأعمالهما، ويبدي ثالث أدقّ بنية اضطراباً لاينقطع. فلن يتوقف منخره عن أن يستنشق بقلق الرائحة التي ينبغي، فيما يبدو، أن يحاول إغفال شمّها والتي يجهد في كلّ مرّة أن يلصقها بفضل معرفة أكثر دقّة بحاسة شمّه المزعوجة. من ذاك ينشأ دونما شكّ أنّ اهتماماً شديداً يحول دون أن نشتكي من ألم أسنان عنيف. فحينما كانت جدّتي تتألّم على هذا النحو كان العرق ينساب على جبينها الواسع البنفسجي الشاحب ويلصق به الخصل البيضاء، فإن ظنّت أنّنا لسنا في الغرفة أطلقت صرخات: «آه! ما أفظع ذلك!» ولكنّها إن لمحت أمّي استخدمت في الحال كامل قوتها لتمحو عن وجهها آثار الألم أو ردّدت على العكس الأنّات نفسها وترافقها بايضاحات تضفي رجعياً معنى آخر على تلك التي أمكن أن تسمعها أمّي:

– «آه! ياابنتي، إنّه لأمر فظيع أن يظلّ المرء طريحاً في هذا الطقس المشمس الجميل حينما يودّ الذهاب في نزهة، إنّي أبكي حنقاً من إرشاداتكم».

ولكنّها لم تكن تستطيع الحيلولة دون أنين نظراتها وعرق جبينها والانتفاضة المتشنّجة في أعضائها والتي تكتمها في الحال.

– «ليس بي ألم، إني أشكو لأني راقدة على نحو غير مريح وأحسّ شعري مشعثاً ويوجعني بطني وقد ارتطمت بالجدار».

أمّا أمّي، وهي على حضيض السرير مشدودة إلى ذاك الألم كما لو انبغى لها في النهاية، لشدّة ما تخترق بنظرتها هذا الجبين الموجع، هذا الجسد الذي يحتوي الداء، أن تبلغه وتحمله، فكانت تقول:

– «لا، يا أميمتي، لن ندعك تتألّمين على هذا النحو، سوف نجد شيئاً، فتجمّلي بالصبر ثانية، وهل تسمحين أن أعانقك دون أن يقع عليك القيام بحركة؟».

وإذ تنحني فوق السرير مثنيّة الساقين نصف جاثية كما لو يتوافر لها، كلّما ازدادت اتّضاعاً، حظ أكبر في أن يقبْل جودها المحموم بذاتها، كانت تميل على جدّتي بكامل حياتها تحملها في وجهها وكأنّما في كأس قربان تمدها إليها، كأس ازدانت بنقوش بارزة من غمّازات وتجاعيد حارّة حزينة عذبة إلى حدّ لاتعلم معه إن كان قد حفرها فيه إزميل قبلة أم زفرة أم إبتسامة. كانت جدّتي بدورها تحاول أن تمدّ وجهها صوب أمّي، وكان قد تغيّر إلى حدّ أنّها ما كانت لتعرفَ دونما شكّ، لو توافرت لها القدرة على الخروج، إلاّ من ريشة قبّعتها. كانت ملامحها تبدو وكأنّما تجدّ، كما هي الحال في جلسات صنع النماذج، من خلال جهد يصرفها عن كل ماتبقّى، في مطابقة نموذج ما كنّا نعرفه. وكان عمل المثّال هذا يقارب نهايته ولئن تقلّص

وجه جدّتي فقد تصلّب كذلك. وكانت الأوردة التي تخترقه تبدو وكأنّها لاعروق المرمر بل عروق حجر أكثر خشونة. ولّما كانت تنحني أبداً إلى الأمام من جرّاء صعوبة التنفّس فيما تنطوي على ذاتها في الوقت نفسه من جرّاء التعب فقد كان وجهها الخشن المقلّص المعبّر إلى حدّ فظيع يبدو وكأنّه، في نحت قديم يقارب أن يرتقي إلى ما قبل التاريخ، الوجه الخشن الضارب إلى البنفسجي الأصهب اليائس لحارسة قبر متوحشة. ولكنّ العمل لم يكن قد أنجز بكامله، ولابدّ بعد ذلك من تحطيمه ثم إنزاله في هذا القبر – الذي تمّت حراسته بهذا القدر من المشقّة وهذا التشنّج القاسي–.

وفي واحدة من تلك اللحظات التي لايدري المرء من بعد فيها إلى أيّ شفيع يلجأ حسبما يقول سواد الناس، وبما أن جدّتي كانت تسعل وتعطس كثيراً، تبعنا مشورة قريب كان يؤكّد أنّ الأمر ينتهي في ثلاثة أيّام بوساطة الأخصائيّ س... إنّ رجال المجتمع يقولون ذلك عن طبيبهم ونصدّقهم مثلما كانت «فرانسواز» تصدّق دعايات الصحف. وجاء الأخصائي بحقيبته المثقلة بجميع رشوحات زبائنه، شأن قربة «أيولوس»[1]. ورفضت جدّتي رفضاً قاطعاً أن تسمح بفحصها.

أمّا نحن الذين أصابهم الإزعاج من أجل هذا الطبيب الذي كلّف نفسه عناء المجيء بلا جدوى، فقد انصعنا للرغبة التي عبّر عنها في فحص أنف كلّ منّا مع أنّه لم يكن به شيء. وكان يزعم أنْ بلى وأن الأمر أمر مرض في الأنف أسيئ فهمه سواء أكان شقيقة أم مغصاً، وداء في القلب أم داء السكريّ. وقد قال لكلّ واحد منّا: «هذا قرين يسرّني أن ألتقيه ثانية. فلا تنتظر أكثر من اللازم، وسوف نخلّصكم ببضع وخزات بالنار». كنّا نفكّر بالتأكيد في أمر مختلف أتمّ الاختلاف. ومع ذلك فقد تساءلنا قائلين: «ولكن نتخلّص من أيّ شيء؟» وخلاصة القول إنّ أنوفنا كلّها كانت مريضة، ولم يخطئ إلاّ وضعه الأمر في الزمن الحاضر. ذلك أن فحصه وضماده المؤقّت قد فعلا مفعولهما منذ الغد. فقد أصاب كلّ منّا زكامه. وفيما كان يلاقي في الشارع والدي تهزّه نوبات السعال ابتسم لخاطرة أن يستطيع جاهل الظنّ أنّ الداء ناشئ عن تدخّله، إذا أقدم على فحصنا ساعة كنّا مرضى.

لقد أفسح مرض جدّتي لعدّة أشخاص مجال إبداء إفراط في المودّة أو تقصير فيها فاجآنا بقدر ما فاجآنا نوع المصادفة التي كان هؤلاء أو أولئك يكشفون لنا بها حلقات مناسبات أو حتّى صنوف مودّة لعلّنا ما ارتبنا بوجودها. وكانت علامات الاهتمام التي يبديها الأشخاص الذين كانوا يقبلون بدون انقطاع للتزوّد بالأخبار تكشف لنا عن خطورة الداء الذي لم نكن حتّى ذاك قد عزلناه تماماً وفصلناه عن ألف من الانطباعات المؤلمة التي نحسّ بها بالقرب من جدّتي. فلم تغادر أخواتها «كومبريه»، وقد أخطرن برقياً، إذ سبق أن اكتشفن فناناً كان يقدّم لهن حفلات من موسيقى الحجرة الممتازة التي يخلن أنهّن واجدات في سماعها. أكثر ممّا يتوافر أمام سرير المريضة، خلوة نفسيّة وتسامياً مؤلماً بدا شكلهما غريباً على الدوام. وكتبت السيّدة «سازرا» إلى والدتي، ولكن على نحو ما يفعل شخص فصلتنا عنه إلى الأبد خطوبة فُسختْ فجأة (والفسخ كان الاتّجاه «الدريفوسيّ»). وفي مقابل ذلك جاء «بيرغوت» فقضى كلّ يوم عدّة ساعات معي.

(١) Eole إله الرياح ومحرك العواصف لدى قدماء الرومان.

لقد أحبّ دوماً أن يأتي ليقيم بعض الوقت في بيت واحد لايقع عليه فيه تحتمل المشقّات. بيد أن ذلك كان فيما مضى كيما يتحدّث فيه دون أن يقاطعه أحد، أمّا الآن فليصمت طويلاً دون أن يُطلب إليه الكلام. ذلك أنّه كان مريضاً جداً: فالبعض يقولون من زلال في البول، شأن جدّتي، وكان به ورم حسبما يرى آخرون. وكان آخذاً في الضعف، فقد كان يصعد درجنا بصعوبة، وبصعوبة أكبر يهبطه. وكثيراً ما كان يتعثّر مع أنّه يستند إلى الدرابزين وأظنّه كان ظلّ في بيته لو لم يخش أن يفقد كلياً عادة بل امكان الخروج، هو، الرجل «ذو اللحية القصيرة» الذي سبق أن عرفته رشيقاً منذ وقت ليس بطويل. ولم يعد يبصر البتّة وكثيراً ما كان يتلعثم في كلامه.

ولكنّما اتّخذ مجمل مؤلفّاته في الوقت نفسه، وعلى العكس تماماً، وكانت معروفة لدى المثقفين فحسب في الفترة التي كانت السيّدة «سوان» ترعى فيها جهودها الخجولة في الانتشار، وأمّا الآن فقد عظمت في عيون الجميع وقويت، لقد اتخذ مجمل مؤلفّاته قوّة انتشار خارقة لدى الجمهور العريض. وإنّه يتّفق دونما شكّ ألاّ يضحي الكاتب مشهوراً إلاّ بعد وفاته. إلاّ أنّه كان يشهد، ولايزال بعد حيّاً وفي أثناء تقدّمه البطيء نحو الموت الذي لم يبلغه بعد، تقدّم مؤلفاته نحو الشهرة. المؤلّف المتوفّي مشهور على الأقلّ دونما مشقّة، فإن إشعاع اسمه يتوقّف أمام شاهدة قبره. وفي صَمَم النوم الأبدي لايزعجه المجد ولكنّ النقيض لم يكن قد اكتمل كليّاً بالنسبة إلى «بيرغوت»، فهو بعد يحيا بما يكفي ليتعذّب من جرّاء الضجيج. وهو لايزال يتحرّك، وإن فعل بمشقّة، فيما تسوق مؤلفاته كلّ يوم، طافرات كفتيات تحبّهنّ ولكنّ شبابهنّ الجارف وضجيج ملذّاتهن يتعبانك، تسوق إلى حضيض سريره معجبين جدداً.

أمّا الزيارات التي كان يقوم لنا بها الآن فتجيء في نظري متأخّرة بضع سنوات إذ لم أعد معجباً به بالمقدار نفسه، الأمر الذي لا يناقض تعاظم شهرته ذاك. فنادراً ما يتمّ فهم عمل أدبيّ وانتصاره دون أن يكون عمل كاتب آخر، ولايزال مغموراً، قد شرع، لدى بعض أشخاص أكثر تشدّداً، في إحلال ولع جديد محلّ ذاك الذي بلغ تقريباً حدود التسيّد. ففي كتب «بيرغوت» التي كنت أعيد قراءتها كثيراً كانت جمله واضحة أمام عينيّ وضوح أفكاري ذاتها وأثاث غرفتي والعربات في الشارع. كلّ شيء كان يُرى بيسر فيها على الأقل مثلما تعوّد المرء أن يبصره الآن إن لم يكن على نحو مارآه أبداً. فإن كاتباً جديداً كان قد شرع ينشر مؤلّفات كانت العلاقات بين الأشياء مختلفة فيها في نظري عن تلك التي تربط بينها إلى حدّ أنّي ما كنت أفهم شيئاً تقريباً ممّا يكتبه. كان يقول مثلاً: «كانت أنابيب السقاية تنظر باعجاب إلى حسن صيانة الطرق» (وهذا سهل فقد كنت انزلق على امتداد هذه الطرق) «الطرق التي تنطلق كلّ خمس دقائق من «بريان» و«كلوديل»[(١)]. حينذاك كنت لا أفهم، لأنّني توقعّت اسم مدينة فيما يقدّم لي اسم شخص. بيد أنني كنت أحسّ أن ليست الجملة هي الرديئة الصياغة ولكنّما تنقصني أنا القوّة والرشاقة اللتان أبلغ بهما حدّ النهاية. فكنت أستعيد قواي وأستعين برجليّ ويديّ لأصل إلى المكان الذي أبصر منه العلاقات الجديدة بين الأشياء. وفي كلّ مرّة أعود، بعدما أصل إلى نصف الجملة تقريباً، فأسقط كما هي حالي فيما بعد في الكتيبة في

---

(١) Briand : رجل سياسة وخطيب مفوه (١٨٦٢ – ١٩٣٢). Claudel كاتب فرنسي شغل مناصب ديلوماسية، تتصف كتبه بالشاعرية والعمق وروح الإيمان. (١٨٦٨ – ١٩٥٥).

التمرين المسمّى «الرجّاحة». ولايحول ذلك دون أن أكنّ للكاتب الجديد إعجاب طفل أهوج يعطى درجة الصفر في الرياضة أمام طفل آخر أكثر براعة. ومذ ذاك تناقص اعجابي بـ«بيرغوت» الذي بدا لي صفاؤه قصوراً. وقد حلّت فترة كان الناس فيها يتعرّفون الأشياء تماماً حين كان «فرومنتان» هو الذي يرسمها ولا يتعرّفونها من بعد إن كان «رنوار».

إنّ أهل الذوق يقولون لنا اليوم إن «رنوار» رسّام كبير من القرن الثامن عشر. ولكنّهم إذ يقولون ذلك ينسون الزمن وأنّه انبغى الكثير منه حتّى في صميم القرن التاسع عشر كيما ينادى بـ«رنوار» فنّاناً كبيراً. وينحو الرسّام الأصيل والفنّان الأصيل ليفلحا في أن يعترف هكذا بهما نحو أطبّاء العيون. وليست المعالجة برسمهما ونثرهما ممتعة دوماً. فحينما تنتهي يقول لنا الطبيب الممارس: انظروا الآن. فإذا العالم (الذي لم يخلق مرّة واحدة بل بقدر ما اتّفق ثّمة فنّان أصيل) يبرز مختلفاً كلياً عن القديم ولكنّه واضح تماماً. وتمرّ نسوة في الشارع مختلفات عن نسوة الأمس بما أنهنّ من لوحات «رنوار»، هذه اللوحات التي كنّا نرفض بالأمس أن نبصر فيها نسوة. والعربات كذلك من لوحات «رنوار»، والماء والسماء: ويهزّنا الشوق إلى التنزّه في الغابة المشابهة لتلك التي كانت تبدو لنا في اليوم الأوّل كلّ شيء ماخلا الغابة، كسجّادة على سبيل المثال عديدة الألوان ولكنّما تنقصها بالضبط الألوان الخاصّة بالغابات. ذلك هو العالم الجديد الزائل الذي تمّ إبداعه منذ حين، وسوف يدوم حتّى الكارثة الجولوجية المقبلة التي يطلقها رسّام جديد أصيل أو كاتب جديد أصيل.

كان الذي حلّ في نظري محلّ «بيرغوت» يبعث فيّ السأم لامن جرّاء اللا ترابط، بل من جرّاء الجدّة وهي متماسكة تماماً في علاقات لم أتعود متابعتها. وكانت النقطة التي لا تتغيّر والتي أحسّني أعود إلى السقوط فيها تشير إلى هويّة كلّ حركة صعبة ينبغي القيام بها. وحينما كنت أستطيع، على أيّة حال، مرّة من ألف مرّة أن ألحق بالكاتب إلى آخر جملته فالذي كنت أرى كان أبداً من غرابة وصحّة وسحر شبيهة بتلك التي سبق أن وجدتها بالأمس في قراءة «بيرغوت» ولكنّها أكثر عذوبة. وفكّرت أنّه لم ينقض العديد من السنين على تجديد مماثل للعالم كان «بيرغوت» من جاءني به، تجديد شبيه بالذي انتظره من خلَفه. ويبلغ بي أن أتساءل إن كان ثّمة شيء من الحقيقة في هذا التمييز الذي نقرّه على الدوام بين الفنّ الذي لم يتقدّم أكثر ممّا كان عليه في زمن هوميروس والعلم الذي يتقدّم باستمرار. فربّما ماثل الفنّ على العكس العلم في ذلك ؛ فقد كان كلّ كاتب أصيل جديد يبدو لي في تقدّم على الذي سبقه ؛ ومن ذا يقول لي إنّه لن يطلع، بعد عشرين عاماً، وحينما أحسن مرافقة جديد اليوم دون تعب، لن يطلع آخر ينطلق الحاليّ هارباً أمامه للّحاق بـ«بيرغوت» ؟

وحدّثت هذا الأخير عن الكاتب الجديد، فبعث في نفسي القرف منه بروايته لي أنّه رآه يشبه «بلوك» إلى حدّ يختلط فيه الأمر عليك أكثر منه بتأكيده لي أنّ فنّه خشن وسهل وفارغ. وارتسمت هذه الصورة مذ ذاك على الصفحات المكتوبة ولم أعد أعتقد أنّي ملزم من بعد بعناء فهمه. ولئن حدّثني «بيرغوت» عنه فانّما كان ذلك أقلّ، فيما أعتقد، بداعي الغيرة من نجاحه منه من جرّاء الجهل بآثاره. فقد كاد لايقرأ شيئاً، وكان معظم فكره قد مرّمن دماغه إلى كتبه. وكان به هزال كأنّما تمّ اقتطاعها منه. ولم تعد غريزته المولّدة تحثّه على النشاط الآن وقد دفع إلى الخارج كلّ ما كان يفكّر فيه تقريباً. لقد كان يعيش الحياة الخاملة التي تعيشها ناقه

أو امرأة ولود. وكانت عيناه الجميلتان تلبثان جامدتين ومبهورتين إلى حدّ ما كعيني رجل مستلق على شاطىء البحر ينظر في تأمّل حالم إلى كلّ موجة صغيرة فحسب. ولئن كنت أقلّ اهماماً بالتحدّث إليه مما لعلّني كنت بالأمس فما كنت على أيّ حال أحسُّ بتأنيب الضمير لذلك، كان رجل عادات إلى حدّ أن أكثرها بساطة وأوفرها ترفاً على حدّ سوى كانت تضحي، إمّا اتّخذها، ضروريّة له إلى حين. لست أدري ما الذي حمله على المجيء أوّل مرّة ولكن الأمر بعد ذلك تمّ كلّ يوم للسبب أنّه جاء البارحة. كان يصل إلى البيت، كما لعلّه يذهب إلى القهوة، كي لايتحدّث أحد إليه، وكيما يستطيع التحدّث – والأمر نادر جداً –، إلى حدّ أنّه ما كان من الممكن في مجمل الأمر أن تجد إشارة إلى أنّه متأثر لغمّنا أو هو يستمتع في التحدّث معي لو شاء المرء أن يستخلص شيئاً من مثل تلك المواظبة، على أنّها لم تكن غير ذات بال في نظر والدتي، وهي حسّاسة بكلّ ما يمكن أن يؤخذ مأخذ التكريم لمريضتها. فكانت تقول لي كلّ يوم: «لا تنس بوجه الخصوص أن تشكره أحسن الشكر».

ونعمنا بزيارة السيّدة «كوتار»، كزيادة بالمجّان على الزيارات التي كان يجود بها علينا زوجها– والأمر لفتة رقيقة من امرأة، كالعصرونية التي تقدّمها لنا بين جلستي رسم رفيقة أحد الرسّامين–. لقد جاءت تعرض علينا «وصيفتها» ؛ وتهمّ، إن فضلّنا خدمات رجل، في المبادرة إلى البحث، ثمّ تقول، إن واجهناها بالرفض، إنّها تأمل على الأقل ألاّ يكون الأمر من جانبنا «هزيمة»، والكلمة تعني في عالمها حجّة زائفة كي لايقبل المرء بالدعوة. وأكّدت لنا أنّ الأستاذ الذي ما كان يتحدّث البتّة في بيته عن مرضاه كان حزيناً حزنه لو كان الأمر أمرها هي. وسنرى فيما بعد أنّ ذلك، حتّى لو كان صحيحاً، لجاء قليلاً جدّاً أو كثيراً في الآن نفسه من جانب أقلّ الأزواج إخلاصاً وأكثرهم امتناناً.

وجاءتني عروض في مثل جدواها، ولكنّها أكثر تأثيراً في النفس بمالا يقاس في طريقتها (التي كانت مزيجاً من أرفع الذكاء وأوسع القلب ونادرة التوفيق في عبارتها) على لسان الدوق الأكبر وريث «لوكسمبور». وكنت قد عرفته في «بالبيك» حيث جاء لزيارة إحدى عمّاته، أميرة «لوكسمبور»، حين لم يكن بعد سوى الكونت «دو ناسّاو». لقد تزوّج بعد بضعة شهور الإبنة الرائعة لأميرة أخرى من أميرات «لوكسمبور» فاحشة الثراء لأنّها كانت وحيدة أمير يملك تجارة ضخمة من الطحين. وعليه فإن دوق «لوكسمبور» الأكبر الذي لم يكن له بنون وكان يعبد ابن أخيه «ناسّاو» قد حمل المجلس على أن يوافق على إعلانه الدوق الأكبر وريثاً. وكما هي الحال في جميع الزيجات التي من هذا القبيل فإن منشأ الثروة هو العقبة وهو إلى ذلك أيضاً السبب الفعّال. كنت أتذكّر الكونت «دو ناسّاو» هذا على أنّه من ألمع الشبّان الذين صادفتهم، قد تأكله مذّ ذاك حبّ رهيب وداو لخطيبته. لقد تأثّرت أبلغ التأثّر من الرسائل التي لم ينفكّ يسطّرها لي في أثناء مرض جدّتي وأخذت والدتي بدورها، وقد اهتزّت مشاعرها، تعيد بأسى كلمة أمّها: ما كانت «سيفينييه» لتقول أفضل من ذلك.

وفي اليوم السادس اضطرّت أمّي، امتثالاً لتوسّلات جدّتي، أن تتركها حيناً وتتظاهر بالذهاب طلباً للراحة. ووددت أن تمكث «فرانسواز» دون حركة كي تنام جدّتي. ولكنّها خرجت من الغرفة على الرغم من توسّلاتي ؛ لقد كانت تحبّ جدّتي، وقد حكمت بنفاذ بصيرتها وتشاؤمها أنّها هالكة. لقد ودّت إذن لو

تمنحها جميع صنوف العناية. بيد أنّه جاء من قال إنّ هناك عامل كهرباء قديماً جداً في مؤسّسته وصهر ربّ عمله ويحظى بكامل التقدير في بنايتنا حيث كان يجيء للعمل منذ سنوات طويلة، ولاسيّما من جانب «جوبيان». كانوا قد أوصوا على ذاك العامل قبل أن تمرض جدّتي. وبدا لي أنّه كان بالإمكان ترحيله أو مطالبته بالانتظار. ولكنّ قواعد المجاملات لدى «فرانسواز» ما كانت تسمح بذلك فلعلّها كانت تخالف اللباقة، أمّا حالة جدّتي فلم تعد في الحسبان. وحينما ذهبت، بعد مرور ربع ساعة، أبحث عنها في المطبخ وقد أخذني أشدّ الحنق، لقيتها تتحدّث إليه على «تربيعة» درج الخدم الذي كان بابه مفتوحاً، والفضل في الطريقة أن تسمح، إن وصل أحدنا، بالتظاهر بافتراق وشيك، ولكن المزعج فيها التسبّب في تيّارات هوائيّة مريعة. وفارقت «فرانسواز» العامل إذن دون أن يكون فاتها أن تبعث بأعلى صوتها ببعض التحيّات التي نسيتها إلى زوجته وصهره. والاهتمام يميّز «كومبريه» في الابتعاد عن مخالفة اللباقة، وكانت «فرانسواز» تحمله حتّى في السياسة الخارجيّة. يتخيّل البلهاء أن الأحجام الضخمة للظاهرات الاجتماعية مناسبة ممتازة للنفاذ إلى مدى أبعد في النفس الإنسانية ؛ وينبغي لهم على العكس أن يعلموا أنّه ربّما حالفهم الحظّ في إدراك تلك الظاهرات في الانحدار إلى اعماق الفرد. كانت «فرانسواز» قد ردّدت ألف مرّة لبستانيّ «كومبريه» أن الحرب أشدّ الجرائم جنوناً وأنّه لايساويها شيء فيما عدا الحياة. ولكن حينما اندلعت الحرب الروسيّة اليابانية ضاقت نفسها ألاّ نكون، إزاء القيصر، قد دخلنا الحرب لمدّ يد العون «للروس المساكين»، «بما أنّنا متحلفّون»، فيما تقول. لم تكن ترى ذلك من اللباقة حيال «نقولا الثاني» الذي خصّنا على الدوام «بكلمات في غاية الطيبة بالنسبة إلينا» ؛ وإنّها لنتيجة القواعد نفسها التي كانت حالت دون أن ترفض لـ«جوبيان» كأسا صغيراً تعلم أنّه سوف «يعاكس هضمها»، والتي كانت تحملها، وهي قاب قوسين أو أدنى من وفاة جدّتي. على الاعتقاد بأن الخسّة نفسها التي تجرّم بها فرنسه إذ مكثت على الحياد حيال اليابان سوف تقع فيها إن لم تبادر وتعتذر بنفسها إلى عامل الكهرباء الطيّب هذا الذي تحمّل الكثير من الإزعاج.

وما أسرع ما تخلّصنا لحسن الحظّ من ابنة «فرانسواز» التي وقع عليها أن تتغيّب عدّة أسابيع. فقد أضافت إلى النصائح العاديّة التي كانت تسدى في «كومبريه» إلى أسرة المريض: «لم تجرّبوا الرحلة الصغيرة، فتغيير الهواء، واستعادة الشهيّة، الخ» الفكرة الفريدة تقريباً التي كوّنتها على نحو خاصّ في ذهنها وكانت إلى ذلك تردّدها كلّما يرونها دونما كلل وكأنّما لتغرسها في رأس الآخرين: «كان عليها أن تتعالج جذريّاً منذ البداية». ما كانت توصي بنوع من الاستشفاء دون آخر بشرط أن يكون ذاك الاستشفاء جذريّاً. أمّا «فرانسواز» فكانت ترى أن جدّتي تعطى القليل من الأدوية. وبما أنّها لا تنفع، في رأيها، إلاّ في تخريب المعدة فقد كانت سعيدة للأمر ولكنّها فوق ذلك مذلّة. لقد كان لها ابناء عم في الجنوب – أغنياء نسبيّاً– ماتت ابنتهم في الثالثة والعشرين بعدما أصابها المرض وهي في ريعان الشباب. وفي أثناء هذه السنوات القليلة بددّ الوالد والوالدة أموالهما في الدواء والأطبّاء المختلفين والحلّ والترحال من مركز مياه حارّة إلى آخر حتّى الوفاة. على أن ذلك كان يبدو لـ«فرانسواز» ، فيما يخصّ ذينك الوالدين، ضرباً من الترف كما لو امتلكا خيول سبق وقصراً. حتّى هما كانا يجدان، مهما بلغ بهما الحزن، شيئاً من الزهو لهذا القدر من الإنفاق. لم يظلّ لديهما شيء ولاسيّما أثمن مايملكان، ابنتهما، ولكنّما يحلو لهما أن يردّدا أنهما فعلا من أجلها على قدر مايفعل أوفر الناس ثراء وأكثر. كانت الأشعّة مافوق البنفسيجة التي أُخضعت الفتاة التعيسة لمفعولها عدّة مرّات في اليوم وعلى مدى

شهور، كانت تدغدغ كبرياءهما على نحو خاصّ. وقد بلغ بالوالد، وهو مزهو في آلامه بضرب من الفَخَار، أن يروي عن ابنته وكأنّما عن نجمة أوبرا بدّد في سبيلها أمواله. ولم تكن «فرانسواز» عديمة الإحساس بمثل هذه المبالغة في الإخراج. فأمّا الذي يحيط بمرض جدّتي فيبدو لها هزيلاً بعض الشيء وصالحاً لمرض على مسرح صغير في الريف.

وحلّت فترة انتقل فيها التسمم البولّي إلى عيني جدّتي. ولم تعد تبصر على الإطلاق على مدى بضعة أيّام. ولم تكن عيناها البتّة عيني عمياء وظلّتا لاتتبدّلان. وأدركت فقط أنّها لاتبصر من غرابة ابتسامة ترحيب تعلو شفتيها ما أن يُفتح الباب إلى أن تأخذ يدها لتقرئها التحيّة، ابتسامة تبدأ قبل أوانها بكثير وتظلّ جامدة على شفتيها وثابتة ولكنّها تواجهك أبداً وتجهد أن تُرى من كل مكان لأنّه لم يظلّ لها عون النظر كي ينظّمها ويعيّن لها اللحظة والاتّجاه ويضبطها ويبدّلها كلّما تبدّل مكان الشخص الذي دخل أو ملامح وجهه ؛ ولأنّها تلبث وحيدة دون بسمة في العينين ربما صرفت عنها قليلاً اهتمام الزائر فتّتخذ بذلك في إرباكها أهميّة مفرطة تولي انطباعاً بلطافة مبالغ فيها. ثم عاد البصر تماماً وانتقل الداء الرحّال من العينين إلى الأذنين. وعلى مدى بضعة أيّام أضحت جدّتي صمّاء. ولمّا كانت تخشى أن يفاجئها دخول أحدهم على حين غرّة دون أن تكون سمعته يقبل إليها فقد كانت تدير في كل لحظة رأسها نحو الباب على نحو مفاجئ (مع أنّها تنام إلى جانب الجدار). ولكنّ حركة رقبتها كانت مربكة لأنّ المرء لايألف في بضعة أيّام هذا التحول، وهو إن لم يكن إبصار صنوف الضجة فعلى الأقلّ الإصغاء بالعينين. وأخيراً تناقصت الأوجاع ولكنّما ازداد اضطراب الكلام. فكنّا نضطرّ إلى حمل جدّتي على تكرار كلّ ما تقوله تقريباً.

وأخذت جدّتي، وقد أحسّت أنّنا لانفهمها من بعد، ترفض أن تنطق بكلمة واحدة وتظلّ لاحراك بها. وحينما كانت تلمحني كانت تنتفض انتفاضة من يعوزهم الهواء فجأة وتودّ أن تكلّمني ولكنّها لا تتلفّظ إلاّ بأصوات لاتُفهم. حينئذ كانت تدع رأسها يهوي، وقد قهرها عجزها نفسه، وتتمدّد بطولها على السرير وفي الوجه وقار وجمود الرخام واليدان لاحراك بهما فوق الشرشف أو تهتم بحركة مادّية بحتة كتنشيف أصابعها بمنديلها. كانت لاتودّ أن تفكّر. ثم أخذت تنتابها حركة مستمرّة. فكانت ترغب دونما انقطاع في النهوض، ولكنّنا نمنعها قدر المستطاع من تحقيق ذلك مخافة أن تتبيّن شللها. وفي يوم تركت فيه حيناً وحدها، وجدتها واقفة في ثوب النوم تحاول فتح النافذة.

لقد سبق أن قالت لي في «بالبيك» ذات يوم تمّ فيه غصباً إنقاذ أرملة ألقت بنفسها في الماء (وربّما دفعها إلى القول واحد من صنوف الحدس التي نقرؤها أحياناً في خفايا حياتنا العضويّة، مع أنّها شديدة الإبهام، ولكنّما يبدو أن المستقبل ينعكس فيها) إنها لا تعرف وحشيّة مماثلة لانتزاع يائسة من الموت الذي أرادته وردّها إلى شديد عذابها.

ولم يتّسع لنا من الوقت أكثر من الأمساك بجدّتي وقامت بعراك قارب الشراسة مع والدتي، وبعدما غُلب على أمرها وأجلست عنوة في مقعد توقّفت عن المراد والأسف وعاد وجهها فأضحى جامداً وشرعت تنزع باهتمام أوبار الفرو التي خلفّها على ثوب نومها معطف سبق أن أُلقي عليها.

وتبدّلت نظرتها تماماً، وغلب عليها القلق والشكوى والضياع، لم تعد نظرتها بالأمس، لقد أضحت النظرة المتجهّمة لامرأة عجوز تهذي.

وبلغ الأمر بـ«فرانسواز»، لكثرة ما تسألها إن كانت لاترغب في تسريح شعرها، أن اقتنعت بأن الطلب صادر عن جدّتي. فجاءت بفراشٍ وأمشاط وماء «كولونيا» ومبذل. كانت تقول: «لايمكن أن يُتعب السيّدة «أميديه» أن أسرّحها، فالمرأة يمكن دوماً أن تُسرَّح مهما وهنت». والأمر يعني أن ليس المرء قطّ أضعف من أن يستطيع شخص آخر، فيما يخصّه، أن يسرّحه. ولكنّي حين دخلت الغرفة أبصرت بين يدي «فرانسواز» القاسيتين، وهي مفتونة وكأنّها آخذه في ردّ العافية لجدّتي، أبصرت، تحت كآبة شعر هرم لايقوى على احتمال ملامسة المشط، رأساً يعجز عن الحفاظ على الوضعة التي يعطاها فيهوي في دوّامة لا تتوقّف يتعاقب فيها انحطاط القوى والألم. وشعرت بأنّ اللحظة التي تزمع «فرانسواز» الانتهاء فيها تقترب ولم اجرؤ في استعجالها بقولي: «كفى» مخافة أن تعصى أمري. ولكنّي في مقابل ذلك انقضضت حينما قرّبت «فرانسواز» القاسية في براءتها مرآة كي ترى جدّتي إن كانت حسنة التسريحة. ورأيتني بادئ الأمر سعيداً أن استطعت انتزاعها في الوقت المناسب من بينَ يديها قبلما يتمّ لجدّتي التي أُبعدت عنها بعناية أيّة مرآة أن تلمح عن غير ماقصد صورة لها لاتستطيع أن تتمثّلها. ولكنّي حينما انكببت بعد لحظة عليها، وا أسفي، لأقبّل ذاك الجبين الجميل الذي بولغ في إرهاقه نظرتْ إليّ بهيئة مستعجبة محاذرة مستنكرة: إنّها لم تتعرّفني.

كان ذلك، فيما رأى طبيبنا، عَرَضَ يزيد منه احتقان الدماغ، وكان لابدّ من إزالته. ويتردّد «كوتار». وأملتْ «فرانسواز» لحظة أنّه سيتم وضع محاجم «منقّاة». وبحثت عن آثارها في قاموسي ولكنّها لم تستطع العثور عليها. ولو أنّها قالت تماماً «مشفّرة» (١) بدلاً من «منقّاة» لما زاد ذلك من حظّها في العثور على تلك الصفة لأنّها لم تكن تبحث عنها في حرف «الميم» أكثر منها في حرف «النون». وبالفعل كانت تقول «منقّاة» ولكنّها تكتبها (وتظنّ بالتالي أنّها تكتب) «امنقّاة». ومال «كوتار» دون كبير أمل إلى العلق، الأمر الذي خيبّ أملها. وحينما دخلت بعد بضع ساعات غرفة جدّتي، كانت الحيّات الصغيرة تتلّوى وكأنّما في شعر «المدوسة» في شعرها المدمى، وقد علقت في قفا رأسها وصدغيها وأذنيها. ولكنّي أبصرت في وجهها الشاحب المستكين الجامد كلّ الجمود عيني الأمس الجميلتين مستديرتين مشرفتين هادئتين (وربّما حمّلتا ذكاء أكثر ممّا كانت حالهما قبل مرضها لأنّها إنّما كانت تستودع عينيها وحدهما فكرها، إذ هي لاتستطيع الكلام وينبغي ألاّ تتحرّك، الفكر الذي يمكن أن ينبعث ثانية وكأنّما بفعل التوالد الذاتي بفضل بضع قطرات دم يتّم سحبها)، عينيها العذبتين المائعتين كما هو الزيت واللتين كانت النار المشبوبة التي تشتعل فوقهما تنير أمام المريضة الكون المستعاد. ولم يعد هدوؤها الحكمة التي يبعثها اليأس بل الأمل. أخذت تدرك أنّها تتحسّن ومرادها أن تكون حذرة وألاّ تتحرّك فاقتصرت على منحي ابتسامة جميلة كي أعلم أنّها تحسّ بالتحسّن وضغطت بلطف على يدي.

كنت أعلم أيّ قرف يداخل جدّتي أن ترى بعض الهوامّ، فما بالك إن هي لامستها. وكنت أعلم أنّها

---

(١) علقت بها شفرات

تتحمّل العلق آخذة في حسابها منفعة عليا. ولذلك كانت «فرانسواز» تثير أشدّ حنقي إذ تردّد لها بتلك الضحكات الصغيرة التي توافينا مع طفل نبغي حمله على اللعب: «آه! هذه الدويْبات التي تجري على سيّدتي». والأمر يعني إلى ذلك معاملة مريضتنا دون احترام كما لو عادت إلى الطفولة. ولكنّ جدّتي التي اتّخذ محيّاها الشجاعة الهادئة التي لأحد الرواقيّين لم تبدِ حتّى أنّها تسمع.

وما نُزِعَتْ العلقات حتّى عاد الاحتقان، واأسفي، متزايد الخطورة. وأدهشني أن تتوارى «فرانسواز» في كلّ لحظة آن كانت جدّتي في أسوأ حال. ذلك أنّها كانت قد أوصت على أثواب حداد ولا تودّ أن تحمل الخيّاطة على الانتظار فكل شيء يفضي في حياة معظم النساء إلى مسألة قياس، حتّى ما كان من أعظم الأحزان.

وبعد بضعة أيّام، وفيما كنت نائماً، أقبلت أمّي تناديني في وسط الليل. وقالت لي برقيق العناية التي يبديها في المناسبات الكبيرة، أولئك الذين يرزحون تحت نير حزن عميق، حتّى لمتاعب الآخرين الطفيفة:

— «اعذرني أن آتي فاعكر نومك».

فأجبت وأنا استيقظ: «ماكنت نائماً».

وكنت أقول ما أقول عن حسن نيّة. فإن التبدّل الكبير الذي تحمله إلينا اليقظة يكمن في إفقادنا ذكرى الضياء الملطّف إلى حدّ ما الذي كان عقلنا يرقد فيه، وكأنّما في أعماق المياه المتلألئة، أكثر منه في إدخالنا إلى حياة الوعي الواضحة. إن الأفكار نصف المحتجبة التي كنّا نطفو فوقها منذ لحظة كانت تسبّب فينا حركة كافية تماماً إلى حدّ استطعنا معه أن نطلق عليها اسم اليقظة. ولكن الاستيقاظ يلقى حينذاك تداخلاً للذاكرة. وبعد قليل نصفه بالنوم لانّنا لا نتذكّره من بعد. وعندما تشرق هذه النجمة الملتمعة التي تنير، لحظة الاستيقاظ، نوم النائم بكامله من خلفه، فانّها تحمله على الاعتقاد على مدى بضع ثوان أنّه لم يكن نوماً بل يقظة. وهي والحق يقال شهاب يغيّب مع ضيائه الوجود الكاذب للحلم، بل مظاهره أيضاً ويسمح لمن يستفيق فحسب أن يقول في نفسه: «لقد نمت».

وسألتني أمّي، بصوت رقيق إلى حدّ بدت معه وكأنها تخشى إيلامي، إن لم يكن سيتعبني كثيراً أن أنهض، وقالت وهي تلامس يديّ بلطف:

— «ياصغيري المسكين، لن تستطيع الاعتماد بعد الآن إلاّ على أبيك وعلى أمّك».

ودخلنا الغرفة. كان ثمّة كائن آخر غير جدّتي التوى فوق السرير على هيئة نصف دائرية، وما يشبه حيواناً وضع شعرها ونام في شراشفها وهو يلهث ويئنّ ويهزّ الأغطية بتشنّجاته. كان الجفنان مطبقين وكانا يسمحان، لسوء الإطباق أكثر منهما لأنّهما يتفتحان، برؤية زاوية من الحدقة غائمة لزجة تعكس ظلام رؤية عضويّة وعذاب داخليّ. ولم يكن كلّ هذا الاضطراب موجهاً إلينا نحن الذين لاتبصرنا ولا تعرفنا. ولكن إن لم يعد ما يتحرّك هناك إلاّ محض حيوان فأين كانت جدّتي؟ كنّا نتعرّف مع ذلك شكل أنفها، ولاتناسب الآن بينه وبين بقيّة وجهها، ولكنّما ظلّت شامة عالقة في زاويته، ويدها التي كانت تبعد الأغطية بحركة لعلّها عنت

فيما مضى أن هذه الأغطية تضايقها وهي لاتعني الآن شيئاً.

وسألتني أمّي أن أذهب وآتي بقليل من الماء والخلّ لتبليل جبين جدّتي. لقد كان الشيء الوحيد الذي يرطّبها فيما تظنّ أميّ التي كانت تراها تحاول إبعاد شعرها. إلاّ أنّه أشير إليّ من الباب بالمجيء. فالخبر الذي مفاده أن جدّتي في الرمق الأخير كان قد انتشر في الحال داخل المنزل. لقد قام أحد «الخدم فوق العادة» الذين يؤتى بهم في الفترات الاستثنائيّة للتخفيف من تعب الخدّام، الأمر الذي من شأنه أن يكسب فترات الاحتضار شيئاً من الأعياد، قام بفتح الباب لدوق «غيرمانت» الذي ظلّ في غرفة الانتظار فأرسل يطلبني ؛ ولم أستطع الإفلات منه.

— «لقد عرفت منذ قليل، ياسيّدي العزيز، هذه الأخبار المرعبة، وأودّ أن أشدّ على يد السيّد والدك رمزاً للتوادّ».

واعتذرت لصعوبة إزعاجه في هذه اللحظة. لقد حلّ السيّد «دو غيرمانت» مثلما هي الحال آن تزمع الذهاب في سفر. ولكنّه كان يحسّ بأهميّة المجاملة التي يقدمها لنا إلى حدّ أن الأمر كان يحجب عنه ماعداه وأنّه كان يريد الدخول إلى الصالة على الرغم من كل شيء. وكان من عادته بوجه العموم أن يصرّ على التأدية الكاملة لصنوف التأدّب التي قرّر أن يكرم بها أحدهم، وقلّما يهتم أن تكون الحقائب محزومة أو التابوت جاهزاً.

— «هل استقدمتم «ديولافوا» ؟ آه! ذلك خطأ فادح. ولو كنتم طلبتموه منّي لجاء من أجلي فهو لايرفض لي شيئاً، مع أنّه رفض لدوقة «شارتر». ترى، إنّي أضع نفسي دون مواربة فوق أميرة من الأسرة المالكة». ويضيف قوله: «جميعنا متساوون أمام الموت على أيّة حال»، لا ليقنعني بأنّ جدّتي أضحت مساوية له بل لأنّه ربّما شعر بأن حديثاً مطوّلاً فيما يخصّ سلطانه على «ديولافوا» وتقدّمه على دوقة «شارتر» لن يتّسم بحسن الذوق.

ولم تكن نصحيته تدهشني على أيّ حال. فقد كنت أعلم أنّهم كانوا لدى آل «غيرمانت» يذكرون على الدوام اسم «ديولافوا» (مع شيء من مزيد الاحترام فحسب) على أنّه اسم «مُورِّد» لا منافس له. وقد أوصت الدوقة العجوز «دو مورتمار»، المولودة لآل «غيرمانت» (ويستحيل أن ندرك لماذا يقول الناس دوماً على وجه التقريب، ما أن تعلّق الأمر بدوقة: «الدوقة العجوز» أو على العكس. إن كانت شابّة فبلهجة لطيفة عليها مسحة من «واتو»، «الدوقة الصغيرة») أوصت على نحو آلي تقريباً وهي تغمز بعينها، في الحالات الخطيرة «ديولافوا، ديولافوا»، كقولك «بواريه بلانش» إن كنت بحاجة إلى مثلّجة، أو «روباتيه، روباتيه» للمعجّنات المحمّصة، ولكنّي كنت أجهل أن والدي قام بالضبط منذ قليل بطلب «ديولافوا».

وفي تلك اللحظة دخلت والدتي التي كانت تنتظر بفارغ الصبر قارورات أوكسجين من شأنها أن تزيد من يسر تنفّس جدّتي، دخلت بنفسها إلى الردهة حيث ما كانت تعلم أنها واجدة السيّد «دو غيرمانت» ووددت لو اخبئه في أي مكان. ولكنّه أخذ ذراعي بعنف، وهو قانع أن ليس ما كان أكثر أهميّة وما يمكن على أيّة حال أن يرضي كبرياءها أكثر منه وكان أكثر ضرورة في الحفاظ على سمعة النبيل الذي لا عيب فيه، وعلى الرغم من ممانعتي وكأنّما حيال اغتصاب وأنا أردّد: «ياسيّد، ياسيّد، ياسيّد» فقد قادني إلى

والدتي وهو يقول لي: «هلاّ أوليتني عظيم الشرف في أن تقدّمني إلى والدتك؟» متهدّج الصوت بعض الشيء على كلمة والدة. وكان يرى أن الشرف من نصيبها هي إلى حدّ لايستطيع معه أن يملك نفسه عن الابتسام فيما يصنع لنفسه وجهاً مناسباً ولم أملك إلاّ أن أسمّيه، الأمر الذي تسبّب في الحال من جهته بانحناءات واختلاجات ساقين وأوشك الشروع في حفلة التحية كاملةً. وقد خطر له حتّى أن يباشر الحديث، ولكنّ أمّي التي كانت غارقة في حزنها قالت لي أن أجيء بسرعة ولم تجب حتّى عن جمل السيّد «دو غيرمانت» الذي كان يتوقّع أن يرحّب به في زيارة وألفى نفسه على العكس وقد ترك وحده في غرفة الانتظار ولعلّه كان خرج في النهاية لو لم يشاهد في اللحظة نفسها «سان لو» داخلاً وقد وصل في الصباح نفسه إلى باريس وسارع يستقصي الأخبار. وصاح مغتبطاً، وهو يمسك ابن أخيه بزرّ أوشك أن ينتزعه ودون أن يهتّم بوجود أمّي التي كانت تجتاز الردهة مرّة ثانية: «آه! ما أحسن المصادفة!» ولم يكن «سان لو»، فيما أعتقد، على الرغم من حزنه الصادق، أكثر استياءً من أنّه يتجنّب لقائي وذلك بسبب ما كان يكنّه لي. وذهب يجرّه عمّه الذي ما كان يستطيع أن يصدّق فرحته، إذ كان لديه أمر هام جداً يقوله له وأوشك لذلك أن يذهب إلى «دونسيير»، أن استطاع توفير مثل ذلك الإزعاج. «آه! لو قيل لي أنّه لايقع عليّ إلا اجتياز الباحة وألقاك هنا لظننتها مزحة ضخمة. إنّها من قبيل المهزلة، كما قد يقول رفيقك السيّد. «بلوك». ويردّد وهو يبتعد برفقة «روبير» ويمسك به من كتفه: «الأمر سواء، واضح تماماً أن أبواب السماء قد تفتّحت أمامي أوماكان من هذا القبيل ؛ حظّي يفلق الصخر». وليس يعني ذلك أن الدوق «دو غير مانت» كان سيء التهذيب، بل على العكس. ولكنّه كان من قوم يعجزون أن يحلّوا أنفسهم محلّ الآخرين، قوم يشبهون في ذلك غالبيّة الأطبّاء ودافني الموتى، وهم بعدما اتّخذوا وجهاً مناسباً وقالوا: «إنّها لحظات صعبة جداً»، وبعد ما عانقوك، إن قضت الضرورة، وأشاروا عليك بالراحة، لاينظرون إلى الاحتضار أو الدفن إلاّ بمثابة لقاء لأهل المجتمع أكثر أو أقلّ روّاداً يبحثون بالعين فيه، بمرح يكتمونه حيناً، عن الشخص الذي يستطيعون أن يحدّثوه عن أمورهم الصغيرة أو يسألوه أن يقدّمهم لشخص آخر أو «يعرضوا مكاناً» في عربتهم لتقلّهم في العودة، وفيما كان الدوق «دو غير مانت» يغبط نفسه على «الريح المؤاتية» التي دفعت به إلى ابن أخيه، ظلّ مندهشاً من استقبال والدتي، مع أنّه طبيعيّ جداً، إلى حدّ أنّه أعلن فيما بعد أنّها قليلة التهذيب على قدر ما يتحلّى به والدي من تهذيب، وأنّها تعاني من «فترات غياب» تبدو في أثنائها وكأنها لاتسمع الأشياء التي تقال لها وأنّها «غير راكزة» فيما يرى وربّما لم تملك كامل عقلها. على أنه شاء، فيما قيل لي، أن يضع ذلك جزئياً على عاتق «الظروف» ويعلن أنّ والدتي بدت له شديدة التأثر من جرّاء هذا الحادث. بيد أنّه كان لايزال في ساقيه كلّ بقيّة التحيّات والانحناءات المتراجعة التي حيل بينه وبين أن يبلغ بها غايتها ولايتبيّن من جهة أخرى إلى حدّ بعيد ما كان عليه حزن أمّي إلى حدّ أنّه سأل عشيّة الدفن إن لم أكن أحاول أن أسلّيها.

وأبرق أحد أسلاف جدّتي، وكان رجل دين، وكنت لا أعرفه، إلى النمسا حيث رئيس جمعيته، وجاء في ذلك اليوم بعد ما حصل على الإذن بانعام استثنائي. كان يقرأ بجانب السرير، وقد هدّه الحزن، نصوص صلوات وتأمّلات دون أن يرفع ناظريه الثاقبين عن المريضة. وقد آلمتني رؤية حزن هذا الكاهن في لحظة كانت فيها جدّتي فاقدة الوعي، ونظرت إليه. وبدا أنّه ذاهل من إشفاقي وجرى إذ ذاك أمر غريب. فقد ضمّ يديه أمام وجهه شأن رجل غارق في تأمّل مؤلم، ولكنّي أبصرت أنّه ترك فاصلاً صغيراً بين أصابعه وقد أدرك أنّني سوف

أشيح بعينيّ عنه. ولمحت، لحظة تغادره نظراتي، عينه الثاقبة التي استغلّت مخبأ يديه ذاك لترقب منه إن كان حزني صادقاً. كان يكمن هناك وكأنّما في عتمة كرسيّ اعتراف. ولاحظ أنّي أراه فأحكم في الحال إغلاق الشبك الذي سبق أن تركه نصف مفتوح. لقد عدت فرأيته فيما بعد ولم يجر قطّ بيننا البحث في تلك الدقيقة. وتمّ الاتّفاق ضمنياً أنّني لم ألاحظ أنّه كان يرصدني. فثمة على الدوام لدى الكاهن وطبيب الأمراض العقلّية على حدّ سواء شيء من قاضي التحقيق. وعلى أيّه حال أين الصديق، مهما غلا، الذي لايوجد في ماضيه المشترك مع ماضينا من تلك الدقائق التي نرى من الخير لنا أن نقتنع أنّه لابدّ قد نسيها؟

قام الطبيب بزرقة مورفين وطالب بقوارير أوكسجين كي يقلّل من مشقّة التنفّس. كانت أمّي والطبيب والأخت يمسكون بها بين أيديهم، فما أن تفرغ واحدة حتّى يعطوا غيرها. كنت قد خرجت حيناً من الغرفة. وحينما عدت وجدتني وكأنما أمام أعجوبة. فقد بدت جدّتي، يرافقها في خفوتٍ همس لاينقطع، وكأنّها توجّه إلينا نشيداً طويلاً سعيداً كان يملأ الغرفة سريعاً موسيقياً. وأدركت في الحال أنّه لم يكن أكثر وعياً وأنّه كان بمثل الآليّة التي تميّزت بها الحشرجة التي سبقته. وربّما عكس بمقدار ضعيف بعض تحسنّ جاءت به المورفين. ولكنّه كان ناجماً على وجه الخصوص عن تبدّل في سلّم التنّفس، إذ لم يعد الهواء يمّر على النحو نفسه في القصبات. فأنفاس جدتي لم تعد، وقد تحرّرت بفعل التأثير المزدوج للأوكسجين والمورفين، تعاني مشقة ولاتزفر. بل تنساب نشيطة رشيقة منزلقة نحو الجسم الغازيّ اللذيذ. وربما امتزج في هذا النشيد بالأنفاس، ولاتشعر بها كأنفاس الريح في ناي القصب، بعض من تلك الزفرات الأكثر إنسانية التي إذ تنطلق لدى اقتراب الموت إنّما تحملك على الاعتقاد بانطباعات عذاب أو سعادة لدى أولئك الذين أضحوا لايحسّون من بعد، وجاءت تضيف نغمة أكثر رخامة، ولكن دونما تغيير في الإيقاع، إلى هذه الجملة الطويلة التي كانت ترتفع وتوالي الصعود ثم تهوي لتنطلق ثانية في إثر الأوكسجين من الصدر المرتاح. ثم يبدو ذاك النشيد، وقد بلغ هذا الارتفاع وتطاول بهذا القدر من القوّة، يبدو، وقد امتزج بهمسة توسّل في اللّذة، وكأنّه يتوقّف بعض الأحيان تماماً مثلما ينضب النبع.

كانت «فرانسواز» إن حلّ بها غمّ كبير تشعر بالحاجة اللامجدية إلى حدّ بعيد، ولا تملك الفنّ البسيط إلى حدّ بعيد، للتعبير عنه. فهي إذ حكمت أن جدّتي هالكة لا محالة إنّما كانت ترغب في اطلاعنا على انطباعاتها هي، «فرانسواز». ولم تكن تعلم غير أن تردّد: «ما أكثر مايزعجني الأمر» باللهجة نفسها التي تقول بها بعد ما أكثرت من تناول حساء بالملفوف: «كأنّي أحمل أثقالاً في معدتي»، الأمر الذي كان في الحالين أقرب إلى الطبيعة ممّا يبدو أنّها تظنّ. ولم يكن غمّها، على هزالة ترجمته، أقلّ ضخامة لذلك، وقد زاد فيه من جهة أخرى الضيق من أن ابنتها التي احتجزت في «كومبريه» (وكانت الباريزيّة الشابّة تدعوها الآن «كامبروس» وتحسّ أنّها تضحي فيها «فلاحة») لن تستطيع على الأرجح العودة للاحتفال الجنائزي الذي تشعر «فرانسواز» أنّه لابدّ سيكون شيئاً رائعاً. وإذ كانت تعلم أنّنا قليلاً ما نفصح عن ذات النفس فقد استدعت «جوبيان» مسبّقاً وتحسباً لكلّ طارئ إلى جميع عشيّات الأسبوع. كانت تعلم أنّه لن يكون خالي الأشغال ساعة الدفن، ولكنّها كانت تريد على الأقل أن «تروي» له عنه.

أخذ والدي وجدّي وأحد أبناء عمومتنا يسهرون منذ عدّة ليال وما عادوا يغادرون البيت. وقد بلغ

بتفانيهم المستمّر أن يتّخذ قناع اللامبالاة، والبطالة المتطاولة حول هذا الاحتضار تضع على ألسنتهم تلك الأقوال نفسها التي لا تنفصل عن إقامة طويلة في عربة سكّة حديديّة. وكان ابن العمومة ذاك (ابن أخ والدة عمّتي) يثير لديّ من الكراهية بقدر ما يستحق من التقدير وما يصيب منه بعامّة.

كنت تلقاه أبداً في الظروف الخطيرة وكان شديد المواظبة بالقرب من المحتضرين إلى حدّ أنّ الأسر، لزعمها أنّه رقيق الصحّة، على الرغم من مظهره القويّ وصوته الغليظ ولحية جنديّ الأنقاذ التي يحملها، كانت تستحلفه دوماً بالعبارات المعهودة ألاّ يجيء إلى الدفن، وكنت أعلم سلفاً أن أمّي التي كانت تفكّر في الآخرين في غمرة أكثر الأحزان هولاً سوف تقول له بصيغة أخرى ماتعودّ سماعهم ممّن يقولون له:

– «عدني بأنّك لن تجيء «غداً». افعل ذلك «من أجلها». لا تذهب على الأقلّ إلى «هناك» لقد سبق أن سألتك الامتناع عن المجيء».

وما كان ينفع شيء في ذلك، فقد كان أبداً الأوّل في «البيت»، فاطلقوا عليه لذلك السبب في وسط آخر اللقب الذي كنّا نجهله: «لازهر ولا أكاليل». وكان دوماً قبلما يذهب إلى «كل مكان» قد فكّر «في كلّ شيء»، الأمر الذي كان يعود عليه بهذه الكلمات: «هل من ضرورة لشكرك، أنت؟»

وسأل جدّي بصوت قوي، وكان قد أصابه شيء من الصمم ولم يسمع أمراً قاله ابن عمّي لوالدي قبل قليل: «ماذا؟».

فأجاب ابن العمّ: «لاشيء، كنت أقول فقط إنني تسلّمت هذا الصباح رسالة من «كومبريه» حيث الطقس رهيب، وهنا شمس يكاد يكون حرّها مفرطاً».

وقال والدي: «مع أنّ ميزان الضغط الجوي منخفض جدّاً».

وسأل جدّي قائلاً: «وأين تقول إن الطقس رديء؟».

– «في كومبريه».

– «آه! لست أستغرب، ففي كلّ مرّة يسوء الطقس هنا يكون صحواً في «كومبريه» والعكس بالعكس. ياإلهي! تتحدّث عن «كومبريه»: فهل فكرتم في إخطار «لوغراندان»؟

فقال ابن عمّي الذي ابتسمت وجنتاه المسمرّتان من جرّاء لحية شديدة الكثافة ابتسامة خفيّة لسروره أن يكون فكّر في الأمر: «أجل، لاتقلق، فقد تمّ ذلك».

وهرع والدي في تلك اللحظة فظننت أن ثمة تحسّناً أو تردّياً فاذا هو الدكتور «ديولافوا» الذي وصل لتوّه. وذهب والدي لاستقباله في الصالة المجاورة كالممثّل الذي يزمع المجيء للتمثيل. وكانوا قد أرسلوا في طلبه لا للمعالجة بل لإثبات الواقعة بمثابة نوع من كاتب العدل. لقد أمكن أن يكون الدكتور «ديولافوا» بالفعل طبيباً عظيماً وأستاذاً رائعاً ؛ وكان يقرن هذه الأدوار المختلفة التي أبدع فيها بآخر مكث فيه أربعين عاماً دون

منافس، دور في مثل أصالة المُحَاجّ أو «سكاراموش» (١) أو الوالد النبيل وقوامه المجيء لاثبات واقعة النزاع أو الموت. كان اسمه يؤذن بالوقار الذي سيجري به بالوظيفة، وحينما تقول الخادمة: «السيّد ديولافوا» كنت تحسب أنّك لدى «موليير» كانت تسهم في وقار المظهر دون أن تتكشّف للعين مرونة قامة ساحرة. ووجه له مفرط الجمال في حدّ ذاته كانت تخفّف منه ملاءمته ظروفاً مؤلِمة. كان الأستاذ يدخل بسترته الرسميّة السوداء المهيبة، وهو حزين دون تصنّع ولايجود بتعزية واحدة يمكن أن تُظنّ متكلّفة ولايقع إلى ذلك في أقلّ خروج على اللياقة. كان هو لادوق «غيرمانت» من كان السيّد العظيم أمام سرير الميت. وبعدما تفحصّ جدّتي دون أن يتعبها وبفرط من التحفظّ كان مجاملة للطبيب المعالج قال بضع كلمات لوالدي بصوت منخفض وانحنى باحترام أمام والدتي التي أحسستُ أنّ والدي كان يتمالك نفسه كي لايقول لها: «الأستاذ ديولافوا». ولكنّ هذا الأخير كان قد أدار رأسه، إذ لايودّ الإزعاج، وخرج كأحسن ما يكون المَخرج وهو يأخذ فحسب الأجر الذي سلّموه إيّاه. ولم يبدُ منه أنّه رآه وقد تساءلنا بدورنا حيناً إن كنّا سلّمناه إيّاه لشدّة ما أبرز من مرونة لاعب الخفّة في إخفائه دون أن يفقد لذاك شيئاً من وقار، تزايد بالأحرى، وقار طبيب عظيم ذي سترة رسميّة طويلة بمقالب من حرير، ورأس جميل مليء بنبيل الإشفاق. كان بطؤه وحيويتّه يبرزان أنّه لايريد، وإن كان لايزال في انتظاره مئة زيارة، أن يبدو في عجلة من أمره. ذلك أنّه كان اللياقة والذكاء والطيبة مجسّدة. لقد ارتحل هذا الرجل البارز. ويمكن أن يكون أطبّاء آخرون وأساتذة آخرون قد ساووه وربّما فاقوه، ولكن «الوظيفة» التي كان علمه ومواهبه الجسديّة وتربيته العالية توفّر له الغلبة فيها لم تعد موجودة لانعدام الخلف الذي أفلح في القيام بها. لم تكن والدتي حتّى لمحت السيّد «ديولافوا» فكلّ مالم يكن جدّتي لم يكن موجوداً. وإنّي أذكر (واستبق الأمور هنا) أن والدي حين قال لها في المقبرة حيث شوهدت مثل ظهور عجائبي تقترب بوجل من القبر وتبدو وكأنّها تنظر إلى كائن طار وغدا الآن بعيداً عنها: «لقد جاء العمّ «نوربوا» إلى البيت والكنيسة والمقبرة وقد فوّت عليه لجنة هامّة جدّاً بالنسبة إليه ومن واجبك أن تقولي له كلمة فسوف يؤثّر فيه ذلك كثيراً»، لم تستطع أمّي حينما انحنى السفير باتّجاهها إلاّ أن تميل برفق وجهها الذي لم يبك، وقبل ذلك بيومين – ولنَستبق الأمور مرّة أخرى قبل أن نعود في الحال بالقرب من السرير الذي كانت المريضة تحتضر فيه – وفيما كانوا يسهرون على جدّتي المتوفّاة كانت «فرانسواز» التي ترتعد لأقلّ ضجّة إذ هي لاتنفي تماماً العائدين، كانت تقول: «يبدو لي أنّها هي». ولكن هذه الكلمات أيقظت بدلاً من الرعب عذوبة لاحدّ لها في صدر والدتي التي ما أكثر ما رغبت أن يعود الأموات كي تكون أمّها أحياناً بالقرب منها.

وكيما نعود الآن إلى ساعات الاحتضار تلك: سأل جدّي ابن عمّي: «أتدري بما أبرقت به لنا شقيقتاها؟».

– «أجل، «بيتهوفن»، قيل لي ذلك وينبغي وضعه داخل إطار، والأمر لايدهشني».

وقال جدّي وهو يمسح دمعة: «وزوجتي المسكينة التي كانت تحبّهما أشدّ الحبّ. يجب ألاّ نحقد عليهما. إنّهما مجنونتان حتّى لينبغي تكبيلهما، لقد قلت ذلك دوماً. ماذا هناك، ألم تعد تعطى أوكسجين؟».

(١) من مشاهير الممثلين في المهزأة الإيطالية النمط، ويعني المهرج بعامة.

وقالت أمّي: «ولكن ستعاود أمّي التنفّس بصعوبة، والحالة هذه. فردّ الطبيب قائلاً: «لا، سيدوم مفعول الأوكسجين فترة مقبولة بعد، وسنعاود الكرّة بعد قليل».

كان يخيّل إليّ أنّهم ما كانوا ليقولوا ذلك بصدد مائته وأنّه إن انبغى أن يستمرّ ذاك المفعول الخيّر فمفاده أنّهم يستطيعون شيئاً على حياتها. وتوقّف صفير الأوكسجين بضع لحظات. ولكنّ أنّةَ التنفّس السعيدة كانت تنبثق دوماً خفيفة قلقة غير تامّة ولاتني تستعاد. كان يبدو بين الحين والحين أنّ كلّ شيء قد انتهى فتوقّف الأنفاس إمّا بفعل تلك التغيّرات في نقطة القرار التي تقوم في تنفّس النائم، وإمّا من جرّاء تقطّع وأثر للتحذير وتزايد للاختناق وبعض قصور في القلب، وعاد الطبيب فأخذ نبض جدّتي، ولكنّ غناء جديد أخذ مذ ذاك يتّصل بالجملة المقطوعة، كما لو أنّ رافداً جاء يحمل ضريبته إلى المجرى الذي جفّ. وكانت الجملة تعود على مستوى آخر وبالزخم نفسه الذي لاينضب. ومن ذا يعلم إن لم يكن الكثير من الحالات السعيدة الرقيقة التي احتجزها الألم ينطلق منها الآن، حتّى دون أن يوافي جدّتي شعور بذلك، كتلك الغازات الأقلّ وزناً والتي كُتِمَتْ زمناً طويلاً؟ لكأنّ كلّ ما كانت تودّ أن تقوله لنا أخذ ينكشف وأنّها كانت تخاطبنا نحن بهذا التطويل وهذه الحماسة وهذه الاستفاضة. وكانت أمّي في أسفل السرير وقد تشنّجت بفعل سائر أنفاس هذا النزاع، لاتبكي ولكنّما تبلّلها الدموع بين الحين والحين وبها الغمّ الشديد الخالي من الفكر الذي لأوراق الشجر يضربها المطر وتقلبها الريح. وطلبوا إليّ مسح عينيّ قبل أن أبادر إلى تقبيل جدّتي.

وقال والدي: «ولكنّي ظننت أنّها لم تعد تبصر».

فأجاب الطبيب: «لايمكن البتّة معرفة ذلك».

حينما لامستها شفتاي اضطربت يدا جدّتي وهزّت كامل جسمها رعشة طويلة إما من قبيل المنعكس وإمّا لأنّ لبعض صنوف الحنان فرط حساسيتها الذي يتعرّف عبر حجاب اللاوعي ماليست بها حاجة تقريباً إلى الحواس لتودّه. وفجأة نهضت جدّتي نصف جالسة وقامت بجهد عنيف كمن يدافع عن حياته. ولم تستطع «فرانسواز» مقاومة ذلك المنظر فاجهشت في البكاء. وأردت أن أخرجها من الغرفة وقد تذكّرت ما قاله الطبيب. وفي تلك اللحظة فتحت جدّتي عينيها. فسارعت إلى «فرانسواز» لأخفي دموعها فيما يحدّث والداي المريضة. إلاّ أن الأوكسجين كان قد صمت وابتعد الطبيب عن السرير. كانت جدّتي قد فارقت الحياة.

وبعد مرور بضع ساعات استطاعت «فرانسواز» مرّة أخيرة أن تسرّح ذلك الشعر الجميل دون أن تعذّبه. وكان متشيّباً فحسب وبدا حتّى ذاك أصغر سنّاً منها. أمّا الآن فقد كان على العكس الوحيد الذي يفرض اكليل الشيخوخة على المحيّا الذي عاد فأضحى فتيّاً وقد زالت منه التجاعيد والتقلّصات والتهدّل والتوتر والارتخاء وقد أضافها إليه العذاب منذ العديد من السنين. وكما كان شأنها في الزمن البعيد الذي اختار لها أهلها فيه زوجاً، كانت النقاوة والطاعة تخطان ملامحها خطّاً ناعماً والوجنتان تلتمعان بعفيف الأمل وحلم بالسعادة وبهجة بريئة هدمتها السنون شيئاً فشيئاً. ولقد حملت الحياة معها في انسحابها خيبات الحياة. فتبدو ابتسامة وكأنّها حطّت على شفتي جدّتي. وفوق ذاك السرير الجنائزي كان الموت، شأن نحّات العصر الوسيط، قد مدّدها بهيئة فتاة شابّة.

الفصل الثاني

زيارة «البيرتين». توقع زواج ثري لبعض أصدقاء «سان لو». —

ذكاء آل «غير مانت» في حضرة أميرة «بارما».—

زيارة عجيبة للسيد «دو شارلوس». — أراني أقل فأقل فهماً لطباعه.—

حذاء الدوقة الأحمر.

مع أنَّ اليوم كان محض يوم أحد خريفيّ فقد أخذت أعود إلى الحياة من جديد، والوجود كان بكراً أمامي إذ حلّ في الصبيحة، بعد سلسلة من الأيّام الدافئة، ضباب بارد لم يتلاش إلاّ حوالي الظهر: وإن تحوّلاً في الطقس لكافٍ لإعادة خلق العالم وخلقنا. فقد كنت بالأمس حين تهبّ الريح في موقدي أصغي إلى الضربات التي تضربها على بابه بانفعال يوازي انفعالي لو أنّها كانت، على غرار ضربات القوس المشهورة التي تبدأ بها «سمفونية دو الصغرى»، نداءات قدر خفّي لاتقاوم. إن كلّ تغيّر ظاهر للعيان في الطبيعة يقدّم لنا تبدّلاً مشابهاً إذ يوافق بين الصيغة الجديدة للأشياء ورغباتنا المؤالفة. لقد جعل الضباب منّي، حالما استيقظت، عوضاً عن الكائن الهارب من نفسه الذي نضحيه في الأيّام الصاحية، رجلاً منطوياً راغباً في ركن النار والسرير المُقتَسَم، آدم برودا يبحث عن حوّاء مقيمة، في هذا العالم المختلف.

بين اللون الرماديّ الرقيق لسهول صباحيّة ومذاق كوب شوكولاته كنت أحصر كامل أصالة الحياة الجسمية والعقليّة والأخلاقية التي جئت بها قبل سنة تقريباً إلى «دونسيير» والتي كانت تكوّن فيّ، يميّزها شعار مستطيل الشكل لرابية جرداء — قائمة دوماً حتّى حينما كانت غير مرئية —، سلسلة من المتع متميّزة تماماً عن كلّ ماعداها ونعجز عن روايتها للأصدقاء، بمعنى أن الانطباعات الغنّية التي تداخلت خيوطها والتي كانت تنظّمها، إنّما كانت تطبعها بالنسبة إليّ ودون علم منّي بما يفوق الوقائع كثيراً التي كان يمكن أن أرويها. كان العالم الجديد الذي غمسني فيه ضباب هذا الصباح، كان من وجهة النظر هذه عالماً مألوفاً لديّ (الأمر الذي ما كان إلاّ ليزيده حقيقة) ومنسياً منذ بعض الزمن (الأمر الذي كان يعيد إليه كلّ نضارته). وقد استطعت أن أنظر إلى عدد من لوحات الضباب التي سبق أن اقتنتها ذاكرتي، ولاسيّما لوحات لـ«صباح في دونسيير»، إمّا أوّل يوم في الثكنة، وإمّا مرّة أخرى في قصر مجاور اصطحبني إليه «سان لو» لقضاء أربع وعشرين ساعة: فمن النافذة التي رفعتُ ستائرها في الفجر قبل أن أعود فأستلقي تبدّى لي في الأولى فارس، وفي الثانية (وعلى الحدّ الدقيق الفاصل بين غدير وغابة غاص كلّ مابقي منهما في لطافة الضباب المتساوية الرجراجة) حوذيّ ماض في تلميع سيور كمثل هؤلاء الأشخاص القليلين، وتكاد لا تميّزهم العين التي تضطر أن تتلاءم وإبهام الظلال الخفّي، الذين يبرزون من جدارية دارسة.

وإنّما كنت ألاحق اليوم تلك الذكريات من سريري، فقد عدت فأويت إليه لانتظار اللحظة التي عزمت فيها في هذا المساء، مستغلاً غياب والديّ اللذين ذهبا بضعة أيّام إلى «كومبريه»، أن أذهب لسماع مسرحيّة

صغيرة كانت تُمثّل في منزل السيّدة «دوفيلبا ريزيس». وما كنت ربّما تجرأت على القيام بذلك بعد ما يعودان، فقد كانت أمّي تريد، في وساوس إجلالها لذكرى جدّتي، أن تكون علامات الأسف التي تخص بها حرّة صادقة، وما كانت لتمنع عنّي تلك النزهة بل كانت استنكرتها. ولكنّها لو استشيرت لما أجابتني من «كومبريه» بهذه العبارة الحزينة: «إفعل ما تشاء فقد كبرتَ إلى الحدّ الذي تعلم معه ماينبغي أن تفعل»، ولكنّها كانت تمنّت. وهي تلوم نفسها أن تركتني وحدي في باريس وتحكم على غمي بالقياس على غمّها، كانت تمنّت له تسليات لعلّها كانت تحجبها عن نفسها وتعتقد أنّ جدّتي، وهمّها قبل كلّ شيء صحتي واتّزاني العصبّي، كانت تشير بها عليّ.

لقد تمّ منذ الصباح إشعال جهاز التدفئة المائيّ الجديد. ولم يكن لضجّته المزعجة التي تطلق بين الحين والحين ضرباً من الفواق أيّة صلة بذكرياتي في «دونسيير». ولكنّ لقاءها المستفيض معها في داخلي عصر هذا اليوم كان سيكسبها تقارباً معها شديداً إلى حدّ أنّها سوف تذكرني بها في كلّ مرّة أسمع فيها التدفئة المركزيّة من جديد (بعدما فقدت عادتها بعض الشيء).

لم يكن في البيت غير «فرانسواز». وكان الضباب قد تلاشى، والضياء الرماديّ ينهمر على هيئة مطر ناعم فينسج دون انقطاع شباكاً شفّافة يبدو المتنزهون يوم الأحد وكأنّهم يتفضّضون فيها. وكنت قد رميت على قدميّ صحيفة «لوفيغارو» التي كنت آمر بشرائها على نحو دقيق منذ أن أرسلتُ إليها مقالة لم تنشر فيها. كانت شدّة الضياء تشير على الرغم من غيبة الشمس إلى أنّنا مازلنا في منتصف العصر وكانت ستائر «التول» في النافذة تبدو ضبابيّة متفتّتة كما لعلّها لاتبدو في طقس صاح وبها ذاك المزيج نفسه، من نعومة وسرعة انكسار، الذي لأجنحة اليعاسيب وزجاج البندقيّة. كان يزيد من ضيقي بالوحدة في يوم الأحد ذاك أنّني بعثت في الصباح برسالة إلى الآنسة «دوستيرماريا». وكان «روبير دو سان لو» الذي أفلحت والدته في حمله، بعد محاولات مؤلمة باءت بالفشل، على قطع صلته بعشيقته والذي تمّ إرساله منذ ذلك الحين إلى المغرب لينسى تلك التي لم يعد يحبّها منذ بعض الوقت، كان قد سطّر لي كلمة وصلتني العشيّة يعلمني فيها بمجيئه القريب إلى فرنسه لقضاء عطلة قصيرة جداً. وإذ كان يمرّ محض مرور الكرام في باريس (حيث تخشى أسرته دونما شكّ أن تراه يعيد صلته بـ«راحيل»)، فقد أخطرني، ليظهر لي أنّه فكّر فيّ أنّه التقى في طنجه بالآنسه أو بالأحرى بالسيّدة «دوستير ماريا» لأنّها حصلت على الطلاق بعد ثلاثة شهور من الزواج. وإذ تذكّر «روبير» ما سبق أن قلته له في «بالبيك» فقد طلب باسمي موعداً من المرأة الشابّة. وقد أجابته بأنّها سوف تتناول طعام العشاء معي بكلّ طيبة خاطر في أحد الأيّام التي ستقضيها في باريس قبل العودة إلى «بريتانيه». كان يقول لي أن أسارع إلى الكتابة إلى السيّدة «دوستيرماريا» لأنّها قد وصلت بالتأكيد.

لم أُعْجَبْ لرسالة «سان لو» مع أنّني لم أتلقّ منه أخباراً منذ أن اتهمني في حين مرض جدّتي بالغدر والخيانة. وكنت قد أدركت أتمّ الإدراك آنذاك ما الذي جرى. فقد أقنعت «راحيل» عشيقها، وكانت تحبّ استثارة غيرته (ولديها كذلك أسباب إضافيّة لتحقد عليّ): أنّني قمت بمحاولات غادرة كي تتمّ لي علاقات معها في أثناء غيابه. ومن المرجّح أنّه كان يوالي الظنّ بأنّ الأمر صحيح، ولكنّه كفّ عن التوله بها حتّى أنّ الأمر أضحى، أصحيحاً كان أم غير صحيح، سواء لديه وأن صداقتنا وحدها ظلّت باقية. وحينما ابتغيت محاولة

التحدّث إليه عن مآخذه عليّ، بعدما التقيته ثانية، وافته فقط ابتسامة طيّبة ورقيقة بدا وكأنّه يعتذر بها ثمّ غيّر الحديث. وليس يعني ذلك أنّه لم يلتق أحياناً «راحيل» في باريس بعد ذلك بقليل، فان المخلوقات التي كان لها دور كبير في حياتنا إنّما يندر أن تخرج منها دفعة واحدة وعلى نحو نهائي، إنّها تعود لتحطّ فيها بين الحين والحين (إلى حدّ أنّ بعضهم يعتقدون بعودة للحبّ) قبل أن تغادرها إلى الإبد. وسرعان ما أضحت القطيعة بين «سان لو» و«راحيل» أقلّ إيلاماً بالنسبة إليه بفضل المتعة المهدّئة التي كانت تحملها إليه طلبات صديقته التي لاتنقطع للمال. إنّ الغيرة التي هي امتداد للحبّ لايمكن أن تحتوي أشياء أكثر بكثير من أشكال الخيال الأخرى. فإن حملنا معنا حينما نذهب في سفر ثلاث صور أو أربعاً سوف تضيع على أيّة حال في الطريق (كزنابق «الجسر القديم وشقائقه، والكنيسة الفارسيّة في الضباب، إلخ.) فالحقيبة مذ ذاك ملأى تماماً. وحينما نهجر عشيقة فانّنا نودّ، إلى أن ننساها قليلاً، ألاّ تضحي ملكاً لثلاثة أو أربعة من المموّلين المحتملين وتراودنا صورهم، يعني أنّنا نغار منهم. أمّا جميع الذين لاتراودنا صورهم فهباء. ولكن طلبات المال المتكرّرة لعشيقة مهجورة لاتزوّدك بفكرة كاملة عن حياتها أكثر ممّا قد تفعل أوراق حرارة مرتفعة عن مرضها. على أنّ الثانية قد تكون مع ذلك دليلاً على أنّها مريضة. وتقدّم الأولى افتراضاً، غامضاً بالحقيقة إلى حدّما، بأنّ المهجورة أو الهاجرة لابدّ لم تجد الشيء الكثير بمنزلة النصير الغَنِي. ولذلك يتّم الترحيب بكلّ طلب بالسرور الذي توليه الهدأة في عذاب الغيران، ويتّم اتباعه في الحال بمرسلات ماليّة لأنّنا نريد ألاّ ينقصها شيء فيما عدا العشّاق (أي واحداً من العشّاق الثلاثة الذين نتصوّرهم)، بانتظار أن نتعافى قليلاً وأن يسعنا معرفة اسم الخلف دون ضعف. لقد عادت «راحيل» أحياناً في وقت متأخّر من السهرة لتستأذن عشيقها السابق في النوم إلى جانبه حتّى الصباح. كان ذلك هناءة كبيرة في نظر «روبير»، فقد كان يتبيّن إلى أيّ مدى عاشا معاً عيشة حميمة على الرغم من كل شيء لمحض مايرى أنّه، وإن خصّ نفسه بجزء كبير من السرير، لايضايقها في شيء في نومها. كان يدرك أنّها أكثر راحة بالقرب من جسم الصديق القديم الذي كان، منها في أيّ مكان آخر، وأنّها تلقى نفسها بجانبه– وإن كان ذلك في الفندق– وكأنّما في غرفة هي قديمة العهد بها وللمرء فيها عاداته وينام فيها نوماً أفضل. كان يحسّ أنّ منكبيه وساقيه وكلّ ذاته كانت في نظرها، حتّى حينما يبالغ في الحركة من جرّاء الأرق أو عمل يقوم به، من تلك الأمور المعتادة جداً إلى حدّ أنّها لايمكن أن تولّد إزعاجاً وأنّ الإحساس بها يزيد من الشعور بالراحة.

وكيما أعود إلى الوراء، لقد تزايد اضطرابي من جرّاء الرسالة التي سطرّها لي «سان لو» من المغرب بقدر ما كنت أقرأ بين السطور مالم يجرؤ أن يكتب عنه كتابة أكثر صراحة. كان يقول لي «يمكنك تماماً دعوتها إلى حجرة خاصّة. إنّها امرأة شابة فاتنة عذبة الطباع وسوف تتفاهمان على أكمل وجه وإنّي متيقّن سلفاً أنك ستقضي أمسية طيّبة جدّاً». وبما أنّ والديّ سيعودان في آخر الأسبوع، يوم السبت أو الأحد، وأنّني قد أضطر بعدها إلى العشاء كلّ مساء في البيت فقد كتبت في الحال إلى السيّدة «دوستير ماريا» كي أعرض عليها اليوم الذي تشاء حتّى يوم الجمعة. وقد أُجبتُ أنّني سأتسلّم رسالة حوالي الساعة الثامنة في هذا المساء نفسه. وكنت بلغته بسرعة مقبولة لو تيسّر لي في أثناء العصر الذي يفصلني عنه عون يجيئني من زيارة. فحينما تلفّ الأحاديث الساعات فإنّك لاتستطيع قياسها من بعد، ولاحتى رؤيتها، إنّها تتلاشي، وإنّما يعود فيبرز فجأة في ساحة انتباهك الزمن الرشيق المُختَلَس بعيداً جداً عن النقطة التي غاب عنك فيها. أمّا إذا كنّا وحدنا فإنّ

الاهتمام إذ يعيد أمامنا اللحظة التي لاتزال بعيدة والتي ننتظرها دون انقطاع، يعيدها بتواتر تكتكة الساعة وانتظامها، إنّما يقسّم بل يضاعف الساعات بعدد جميع الدقائق التي لعلّنا ما كنّا نعدّها في مجلس أصدقاء. وكان ذلك العصر الذي أزمع أن أكمله وحدي، إمّا قوبل من جرّاء رجعة شوقي المستمرّة باللّذة اللاهبة التي سأتذوّقها مع السيّدة «دوستير ماريا»، ولكن بعد بضعة أيّام للأسف، كان يبدو لي شديد الفراغ وشديد الكآبة.

كنت أسمع بين حين وآخر ضجّة المصعد وهو يرتفع، ولكنّما كانت تليها ضجّة ثانية، لا تلك التي آملها، أي التوقف في طابقي، بل أخرى مختلفة جداً يطلقها المصعد لموالاة طريقه المندفعة صوب الطوابق العليا وقد ظلّت لكثرة ماعنت هجر طابقي حين كنت أنتظر زيارة، ظلّت بالنسبة إليّ فيما بعد، حتّى حين لا أرغب في أي زيارة، ضجّة مؤلمة في حدّ ذاتها ويدوّي فيها كأنّما حكم بالهجران كان النهار الأغبر ينسج تخاريمه اللؤلئية متعباً مستسلماً منصرفاً عدّة ساعات أيضاً إلى عمله المغرق في القدم، وكنت أغتّم للتفكير بأنّي سوف ألبث وحدي أجلس قبالته هو الذي ما كان يعرفني أكثر من عاملة اتّخذت مكانها قرب النافذة كي تبصر على نحو أوضح وهي تؤدّي عملها، ولا تهتّم بالشخص الحاضر في الغرفة. وفجأة، ودون أن أكون سمعت قرع الجرس، أقبلت «فرانسواز» تفتح الباب وتُدخل «ألبيرتين» التي دخلت مبتسمة صامتة سمينة حاوية في امتلاء جسمها الأيّام التي قضيتها في «بالبيك» حيث لم أعد قطّ، الأيّام التي أُعدّت كي أستمر في عيشها، والتي أقبلت إليّ. وليس من شكّ أنّنا كلّما عدنا فالتقينا شخصاً اتفق لعلاقاتنا به– مهما تكن هزيلة– أن تتغيّر فكأنّما تلك مقابلة بين عصرين. وليس من حاجة لذلك أن تجيء عشيقة سابقة لتلقانا لقاء صديقة، بل تكفي زيارة إلى باريس يقوم بها واحد عرفناه في السياق اليومي لنمط معيّن من الحياة، وأن تكون تلك الحياة قد توقّفت حتّى منذ أسبوع فحسب. كنت أستطيع تهجية هذه الأسئلة على كل خطّ ضاحك مستفسر منقبض من وجه «ألبيرتين»: «ماذا عن السيّدة «دو فيلباريزيس»؟ ومعلّم الرقص؟ والحلوانّي؟» وحينما جلست بدا ظهرها وكأنّه يقول: «ليس من جرف بالطبع ههنا، أتسمح مع ذلك أن أجلس بالقرب منك كما لعلّني كنت فعلت في «بالبيك»؟ كانت تبدو وكأنّها ساحرة تقدّم لي مرآة الأزمنة. وكانت في ذلك شبيهة بجميع الذين نادراً ما نلتقيهم ولكنّهم عاشوا معنا بالأمس عيشة أشدّ وثوقاً. لم يكن ذلك فحسب، فيما يخصّ «ألبيرتين». فالصحيح أنّي كنت أدهش دوماً، حتّى في «بالبيك»، حينما أبصرها في أثناء لقاءاتنا اليوميّة لكثرة ما كانت مستمّرة. ولكنّك الآن تكاد لا تتعرّفها. فقد برزت ملامحها شأن تمثال، بعدما تحرّرت من الضباب الورديّ الذي كانت غارقة فيه. لقد صار لها وجه آخر، أو هي بالأحرى أصبح لها أخيراً وجه، وقد كبر جسمها. ولم يظلّ شيء تقريباً من الغلاف الذي سبق أن لُفت به والذي كان ينخطّ على صفحته في «بالبيك» شكلها الآتي.

لقد عادت «البيرتين» هذه المرّة إلى باريس أبكر من المعتاد. فلم تكن تصل إليها عادة إلاّ في الربيع حتّى أني، وبي جزع منذ بضعة أسابيع من جرّاء العواصف على الأزاهير الأولى، ما كنت أفصل في المتعة التي أصيبها بين عودة «ألبيرتين» وعودة الربيع. كان يكفي أن يُقال لي إنّها في باريس وإنّها مرّت في بيتي حتّى أعود فأراها مثل وردة على شاطئ البحر. ولست أدري تماماً إن كان اشتياقي إلى «بالبيك» أو إليها هو الذي كان يستولي عليّ حينذاك، ولأن اشتياقي إليها ربّما كان صيغة كسلى متراخية غير تامّة لامتلاك «بالبيك» كما لو كان امتلاك الشيء ماديّاً، اختيار الإقامه في مدينة، يساوي امتلاكها روحيّاً. ولكنّما كانت تبدو لي

على أيّة حال، حتّى ماديّاً، حينما لايرجحّها خيالي أمام الأفق البحريّ بل هي ثابتة بالقرب منّي، كانت تبدو لي في الغالب وردة هزيلة جداً أردت لو أطبق الأجفان دونها كي لا أرى هذا العيب أو ذاك في التويجيات وليخيّل إليّ أني أتنفّس على الشاطئ.

بوسعي أن أقولها ههنا، مع أني ماكنت أعلم حينذاك ماكان لن يحدث إلاّ فيما بعد. إنّه أكثر صواباً بالتأكيد أن نضحّي بحياتنا في سبيل النساء منه في سبيل الطوابع البريديّة وعلب السكاير القديمة وحتّى اللوحات والتماثيل. على أنّ مثل المجموعات الأخرى ينبغي أن ينبّهنا إلى التغيير وألاّ يكون لنا امرأة واحدة بل كثيرات. فتلك الأخلاط الساحرة التي تؤلّفها فتاة مع أحد الشواطئ، مع الشعر المجدول لتمثال في كنيسة، مع صورة مطبوعة، مع كلّ ما من أجله نحبّ في إحداهنّ، كلّ مرّة تدخل فيها، لوحة ساحرة، تلك الأخلاط ليست مستقرة إلى حدّ كبير. عش كليّاً مع المرأة ولن ترى فيها من بعد شيئاً ممّا حملك على حبّها. إنّ الغيرة تستطيع بالتأكيد، إن انفصل العنصران، أن تجمعهما من جديد. فإن بلغ بي الأمر بعد زمن طويل من الحياة المشتركة ألاّ أرى في «ألبيرتين» من بعد سوى امرأة عادية فلعلّ أيّ مكيدة لها مع رجل أحبّته في «بالبيك» ربّما كانت كافية لتدخل إليها من جديد وتمزج بها الشاطئ وتدفّق الموج. بيد أنّ هذه الأخلاط الثانويّة لاتخلب أبصارنا من بعد وإنّما يحسّ بها فؤادنا وهي شؤم عليه. ولايمكن أن نجد رغبة في تجدّد المعجزة في صيغة خطرة إلى هذا الحدّ. ولكنّي استبق السنين. وعليّ أن آسف هنا فقط أنّي لم أظلّ على تعقّل كاف كي يكون لي محض مجموعة من النساء مثلما يملك المرء مجموعة مناظير قديمة، وليست في يوم كافية العدد خلف الواجهة حيث ينتظر دوماً مكان فارغ منظاراً جديداً وأشدّ ندرة

لقد جاءت هذه السنة، بعكس الترتيب المعهود لأمكنه اصطيافها، جاءت مباشرة من «بالبيك» وهي إلى ذلك قد مكثت فيها أقلّ من عادتها بكثير. ولم أكن قد رأيتها منذ زمن طويل. ولّما كنت لا أعرف حتّى أسماء الأشخاص الذين تتردّد عليهم في باريس فقد كنت لا أعلم شيئاً عنها في أثناء الفترات التي تلبث فيها دون أن تأتي للقائي. وكثيراً ما كانت تلك طويلة إلى حدّ ما. ثمّ إذا بـ«ألبيرتين» تطلع فجأة ذات يوم، «ألبيرتين» التي كانت تجليّاتها الموردة وزياراتها الصامتة تطلعني على النزر اليسير ممّا أمكن أن تفعل في الزمن الفاصل بينها، ويظلّ غارقاً في هذه الظلمة من حياتها التي تكاد لاتهتّم عيناي بالنفاذ إليها.

على أن بعض الدلائل كانت تبدو هذه المرّة وكأنّها تشير إلى أنّ أموراً جديدة لابدّ جرت في هذه الحياة. غير أنّه ربّما كان ينبغي أن نستخلص منها فحسب أنّ المرء يتغيّر بسرعة كبيرة في سنّ «ألبيرتين». من ذلك مثلاً أنّ ذكاءها كان يبرز على نحو أفضل، وحينما عدت فحدّثتها عن اليوم الذي أبدت فيه الكثير من الحماسة لفرض فكرتها في حمل «سوفوكليس» على أن يكتب: «عزيزي راسين»، كانت أوّل من ضحك مشروح الفؤاد. وقالت: «آندريه» هي التي كانت على حقّ، وكنت غبيّة. كان ينبغي لـ«سوفوكليس» أن يكتب: «سيّدي». فأجبتها أنّ كلمتيّ: «سيّدي» و«سيّدي العزيز» لـ «آندريه» لم تكونا أقلّ إضحاكاً من كلمتها هي: «عزيزي راسين»، وكلمة «جيزيل»: «صديقي العزيز» وأن ليس من كان غبيّاً في الأساس سوى أساتذة يطلبون أن يوجّه «سوفوكليس» رسالة لـ«راسين». وهنا لم تتبعني «ألبيرتين»، فلم تكن ترى ما في ذلك من غباء؛ لقد كان عقلها يتفتّح ولكنّه لم يكن قد نما. كان ثمّة وجود جدّة أكثر اجتذاباً فيها. كنت

أحسّ في الفتاة الجميلة نفسها التي جلست منذ قليل قرب سريري شيئاً مختلفاً، وفي تلك الخطوط التي تعبّر في النظرة وملامح الوجه عن الإرادة المعتادة تغيّراً واضحاً ونصف انقلاب وكأنّما قضي فيها على صنوف المقاومة التي تحطّمت على صخورها في «بالبيك» ذات مساء أضحى الآن بعيداً وكنّا نؤلّف فيه زوجاً يناظر زوج بعد الظهيرة الحاضرة ولكنّه عكسه بما أنّها هي التي كانت مستلقية في سريرها حينذاك وأنا بجانب السرير. ولما كنت أبغي التأكّد إن كانت تدع لأحد أن يقبّلها وتخونني الجرأة في ذلك، فقد كنت أسألها أن تمكث بعد في كلّ مرّة تنهض فيها للذهاب. ولم يكن من السهولة بمكان الحصول على ذلك فقد كانت، على الرغم من أنْ ليس ثمّة ما تفعله (ولولا ذاك لوثبتْ خارجاً)، امرأة دقيقة وقليلة اللطف معي على أيّ حال إذا بدا أو كاد أنّها لا تستمتع من بعد برفقتي. ولكنها كانت تعود في كل مرّة فتجلس نزولاً عند رجائي بعدما تنظر إلى ساعتها حتّى انّها قضت بضع ساعات معي ودون أن أكون طلبت إليها شيئاً. كانت الجمل التي أقولها لها ترتبط بتلك التي سبق أن قلتها لها في أثناء الساعات السابقة ولا تتّصل بشيء ممّا كنت أفكّر فيه، ممّا كنت أتوق إليه، وتظلّ موازية له إلى مالانهاية. فليس كالشوق يحول دون أن تكتسب الأشياء التي نقولها أيّ شبه بما يجول في خاطرنا. فالوقت يستعجلنا ويبدو مع ذلك أنّنا نبغي كسب الوقت بالتحدّث عن موضوعات غريبة تماماً عن الموضوع الذي يشغلنا. ويجري الحديث بينما الجملة التي نودّ لو ننطق بها قد ترافقها مذ ذاك حركة، على افتراض أنّنا (كيما نوفّر لذاتنا متعة الأمر الفوري ونشبع الفضول الذي ينتابنا حيال ردود الفعل التي سيحملها) لم نقم بتلك الحركة دونما كلمة قلناها ودون أن نلتمس إذناً بذلك. أجل ما كنت أحبّ «ألبيرتين»: فقد كان بوسعها، هي وليدة الضباب في الخارج، أن تشبع فحسب الرغبة المتخيّلة التي أيقظها في صدري الطقس الجديد والتي كانت نقطة وسيطة بين الرغبات التي يمكن لفنون الطبخ أن تسدّها وتلك العائدة إلى النحت الأثري، فقد كانت تملؤني بأحلام قوامها أن أمزج بجسمي مادّة مختلفة دافئة وأن أربط في الآن نفسه بنقطة ما من جسمي الممدود جسماً مختلفاً مثلما كان جسم حوّاء عالقاً بقدميه، أولايكاد، بورك آدم وهي تعامد جسمه تقريباً في تلك النقوش البارزة الرومانية في كاتدرائية «بالبيك» التي تصوّر على نحو نبيل وهادئ، وبما لايزال يقارب إفريزاً قديماً، خلق المرأة. والله يتبعه فيها في كلّ مكان، وكأنّما وزيران، ملاكان صغيران تتعرّف فيهما آلهة حبّ من «هرقولا نوم» لاتزال تعيش في قلب القرن الثالث عشر وتجرّر آخر رقّة لها، رقّة متعبة ولكنّما لا تنقصها الرشاقة التي يمكن أن نتوقّعها منها، على كامل واجهة البّوابة– مثلها مثل تلك المخلوقات الصيفيّة المجنّحة المحوّمة التي فاجأها الشتاء وأبقى عليها.

ولكنْ تلك المتعة التي ربّما أنقذتني، بتحقيق رغبتي، من هذه الأحلام والتي لعلّني كنت بحثت عنها بمثل الطيبة لدى أيّة امرأة حلوة أخرى، لو أنّني سئلت– في غضون هذه الثرثرة التي لاتنتهي والتي كنت أكتم «البيرتين» فيها الشيء الوحيد الذي أفكّر فيه– علَى أيّ أساس تقوم فرضيّتي المتفائلة بشأن التساهلات الممكنة فربّما أجبت أنّ هذه الفرضيّة ناجمة (فيما كانت الملامح المنسيّة في صوت «ألبيرتين» ترسم لي من جديد معالم شخصيّتها) عن ظهور بعض كلمات لم تكن في عداد مفرداتها، بالمعنى الذي كانت تخصّها به الآن على الأقلّ. ففيما كانت تقول لي إنّ «ايلستير» غبّي وأنا أصيح مندّداً، أجابتني تبتسم قائلة: «أردت أن أقول إنّه كان غبيّاً في تلك المناسبة، ولكنّي أعلم تمام العلم أنّه رجل مرموق إلى أبعد حدّ».

وقد أعلنت كذلك، بغية أن تقول عن «غولف فونتينبلو» إنّه أنيق:

- «إنّه بالتمام صفوة مختارة».

وقالت لي بصدد مبارزة سبق أن وقعت لي، قالت بشأن شهودي: «إنّهم شهود مصطفون»، وأقرّت إذ نظرت إلى وجهي أنّها تودّ لو تراني بشاربين. وبلغ بها حتّى أن تقول، وبدا لي إذ ذاك أن احتمالات نجاحي كبيرة جداً، إنّه انقضى منذ أن التقت «چيزيل» «ردح من الزمن»، واللفظة، وكنت أقسمت على ذلك، إنّما كانت تجهلها في السنة السابقة. وليس يعني أنّ «ألبيرتين» لم يسبق أن ملكتْ عندما كنتُ في «بالبيك» كميّة مناسبة جداً من تلك العبارات التي تكشف في الحال أنّك تنحدر من أسرة ميسورة والتي تتخلّى عنها الوالدة لابنتها سنة بعد سنة مثلما تهبها كلّما كبرت مجوهراتها الخاصة في المناسبات الهامّة. وقد سبق الإحساس بأنّ «ألبيرتين» كفّت عن كونها صبيّة صغيرة حينما أجابت ذات يوم للشكر على هديّة قدّمتها لها إحدى الغريمات: «إنّني خجلى». ولم تتمالك السيّدة «بونتان» عن النظر إلى زوجها الذي أجاب قائلاً:

- «بالطبع، فإنّها تناهز الرابعة عشرة».

وقد برزت علامات البلوغ على نحو أكثر وضوحاً حينما قالت «ألبيرتين» وهي تتحدّث عن فتاة سيئة المظهر: «أنت لا تستطيع حتّى أن تميّز إن كانت حلوة فإنّها تضع قدماً من الحمرة على وجهها».وكانت أخيراً تتصرفّ، مع أنّها فتاة بعد، تصرفّ امرأة من بيئتها ومكانتها إذ تقول إن كشّر أحدهم: «لا أقوى على رؤيته لأنّني أرغب أن أفعل مثله»، أو أن تلهوّا بتقليد بعضهنّ: «أغرب الأمر حينما تقلّدينها أنّك تشبهينها». وكلّ ذلك مقتبس من الذخيرة الاجتماعيّة. بيد أن بيئة «ألبيرتين» لم تكن تبدو لي قادرة أن توفّرلها «متميزّ» بالمعنى الذي كان والدي يقول فيه عن واحد من زملائه لم يكن يعرفه بعد وكانوا يشيدون أمامه بذكائه العظيم: «يبدو أنّه رجل متميّز تماماً». وبدا لي «اصطفاء»، حتّى فيما يخصّ لعبة الغولف، لاينسجم وعائلة «سيمونيه» بقدر قلّة انسجامه لو جاء مصحوباً بالصفة «طبيعيّ» في نصّ سابق عدّة قرون لأعمال «داروين». وبدا لي «ردح من الزمن» أفضل فألاً. وبرزت لي أخيراً بجلاء انقلابات ما كنت أعرفها ولكن من شأنها أن تصرّح لي بكل الآمال حينما قالت لي «ألبيرتين» بالرضى الذي يبديه امرؤ لايُستهان برأيه:

- «ذلك، فيما أرى، أفضل ما كان يمكن أن يحدث... وفي تقديري أنّه الحلّ الأفضل، الحلّ الأنيق».

كان ذلك بالغ الجدّة وجليبة شديدة الوضوح تدع لك أن تخمنّ عطفات غير منتظرة إلى حدّ بعيد عبر أراض مجهولة بالأمس لديها حتّى أنّي جذبت «ألبيرتين» حال سماعي كلمات «فيما أرى»، ولدى «في تقديري» أجلستها على سريري.

لاشكّ أنّه يتّفق أن تتسلّم نسوة هيّنات الثقافة يتزوجّن رجلاً كثير الثقافة مثل تلك العبارات في إسهامهن الصداقيّ. وبعد التحوّل الذي يلي ليلة العرس بقليل، وحينما يقمن بزياراتهنّ ويبدين تحفّظاً مع صديقاتهنّ السابقات، نلاحظ بدهشة أنّهن غدون نساء إن هنّ قمن، لدى تقريرهنّ أنّ أحد الناس ذكيّ، بوضع شدّتين للفظة ذكيّ، ولكنّ ذلك بالضبط دليل تغيّر، وكان يبدو لي أنّ ثمّة عالماً بين العبارات الجديدة ومفردات «ألبيرتين» التي سبق أن عرفتها، المفردات التي كان أكثر صنوف الجرأة فيها أن تقول عن شخص غريب الأطوار: «إنّه إنسان غريب»، أو إن هم عرضوا على «ألبيرتين» أن تلعب: «لامال عندي أضيّعه»، أو إن

وجهّت لها هذه أو تلك من صديقاتها لوماً لاترى أنّه مبّرر: «أجدك بالحقيقة رائعة!»، والجمل يمليها في تلك الحالات نوع من التقليد البورجوازي يكاد يكون في قدم «عظّمي يانفسي» ذاتها وتستخدمها الفتاة التي ينتابها شيء من الغضب وهي واثقة من حقّها، تستخدمها على النحو الذي يسمّونه «طبيعياً جدّاً»، وأعني لأنها تعلّمتها من والدتها كما تعلّمت أداء صلاتها أو التحيّة. كلّ تلك الجمل علّمتها إيّاها السيّدة «بونتان» إلى جانب كراهية اليهود والتقدير للون الأسود الذي يبدو فيه المرء لائقاً على الدوام وعلى أحسن وجه، حتّى دون أن تعلّمها إيّها تعليماً صريحاً، بل مثلما تتطابق وزقزقة الوالدين من الحساسين زقزقة الحساسين المولودة حديثاً حتّى إنّها تصبح هي الأخرى حساسين حقيقية. وعلى الرغم من كل شيء فقد بدا لي «اصطفاء» من تربة أخرى و«في تقديري» مشجعاً. لم تعد «ألبيرتين» كما كانت ولعلّها لن تتصرّف التصرف نفسه ولن تكون لها ردود الفعل نفسها.

لم أعد أحسّ بأيّ حبّ نحوها، وليس ذلك فحسب، بل لم يعد عليّ أن أخشى، كما لعلّني كنت أفعل في «بالبيك»، أن أحطّم فيها مودّة لي لم تعد موجودة. ولم يكن ثمّة أي شكّ في أنّني غدوت منذ زمن طويل لا أهميّة لي البتّة في عينيها. لقد أخذت أتبيّن أنّني لم أعد بالنسبة إليها من أفراد «الجماعة الصغيرة» التي جهدت كثيراً فيما مضى في الانضمام إليها وسعدت جدّاً فيما بعد أن أفلحت في ذلك. ثم إنّي لم أكن أشعر بمخاوف كبيرة بما أنّها لم تعد حتّى تظهر، شأنها في «بالبيك»، بمظهر الصراحة والطيبة. على أنّي أعتقد أنّ ماحلمني على التقرير كان اكتشافاً أخيراً لغويّاً. فلّما كنت أوالي إضافة حلقة جديدة إلى سلسلة الأقوال الخارجيّة التي كنت أخفي خلفها رغبتي العميقة وأتحدّث، فيما تجلس «ألبيرتين» الآن في زاوية سريري، عن واحدة من فتيات «الجماعة الصغيرة»، وكانت أكثر نحولاً من الأخريات، ولكنّي كنت أجدها مع ذلك على جمال كاف، أجابتني «ألبيرتين» قائلة: «أجل، إنّها تبدو وكأنّها مومس صغيرة». وجلي كلّ الجلاء أن كلمة «مومس» كانت مجهولة لدى «ألبيرتين» حينما عرفتها. ومن المحتمل أنّها ما تعلّمتها في يوم لو جرت الأمور مجراها الطبيعي وما كنت وجدت في ذلك فيما يخصنّي أيّ ضير إذ ليس ما كان أكثر إثارة للاشمئزاز. فانّك تحسّ إمّا سمعتها بمثل ما يصيبك من ألم الأسنان إن أنت وضعت قطعة كبيرة من المثلجات في فمك. أمّا لدى «ألبيرتين»، وبالجمال الذي كانت عليه، فما كانت حتّى «مومس» تستطيع أن تسوء في عيني. ولكنّما بدا لي بالمقابل أنّها إن لم تكشف عن تدرّب خارجيّ، فعن تطوّر داخليّ على الأقل. وكانت قد حانت للأسف الساعة التي ينبغي لي أن أودّعها فيها إن أردت أن تعود في الوقت المناسب من أجل عشائها وأن أنهض بدوري قبل أواني بعض الشيء من أجل عشائي. وكانت «فرانسواز» هي التي تعدّة ولاتحبّ أن ينتظر ولابدّ أنّها وجدت منافياً لأحدى موادّ مدّونتها أن تكون «ألبيرتين» قد قامت، في غياب والديّ، بزيارة لي طويلة إلى هذا الحدّ، وتوشك أن تؤخّر كلّ شيء، ولكنّ هذه الأسباب تهاوت أمام كلمة «مومس» وسارعت إلى القول:

— «تصوّري أنّني لا أتأثر بالدغدغة على الإطلاق، ويمكنك أن تدغدغيني على مدى ساعة فلا أشعر حتّى بذلك».

— «صحيح!».

- «أؤكّد لك».

وأدركتْ دونما شكّ أنّ ذلك كان التعبير غير الحاذق عن رغبة ما، فقد قالت لي بتواضع المرأة، شأن من يقدّم لك توصية ما كنت تجرؤ على التماسها لكنّ أقولك برهنت له أنّه يمكن أن تفيد منها:

- «أتريد أن أجرّب؟».

- «إن شئتِ، لكنّما يبدو من الأسهل آنذاك أن تتمدّدي تماماً فوق سريي».

- «هكذا؟»

- «لا، غوري».

- «ولكن ألستُ ثقيلة جداً؟».

وفيما كانت تنهي هذه الجملة انفتح الباب ودخلت «فرانسواز» تحمل مصباحاً. ولم يتسع لـ «ألبيرتين» أكثر من أن تعود فتجلس على الكرسيّ. ربّما اختارت «فرانسواز» هذه اللحظة لتخزينا وقد مضت تصغي من وراء الباب أو حتّى تنظر من ثقب المغلاق. بيد أنّه لم تكن بي حاجة إلى القيام بمثل هذا الافتراض فقد أمكن أن تزدري التأكد بالعين مما لابدّ استشفته بالغريزة استشفافاً كافياً لأنّ الخشية والحذر والانتباه والحيلة قد زوّدتها في النهاية عنّا، لطول معيشتها معي ومع والديّ، بهذا النوع من المعرفة الغريزيّة التي تقارب الكهانة والتي تتوافر للبحّار عن البحر وللطرائد عن الصيّاد وأمّا عن المرض فللمريض في الغالب على الأقلّ إن لم يكن للطبيب. كان يمكن لكلّ ما تفلح في معرفته أن يذهل بحقّ شأن الواقع المتطوّر لبعض المعارف لدى القدماء نظراً لوسائل الإعلام المعدومة تقريباً التي كانت بحوزتهم (ولم تكن وسائلها أوفر عدداً ؛ كانت بعض أقوال تكاد لاتشكّل واحداً من عشرين من حديثنا في العشاء التقطها رئيس الخدم بسرعة ونقلها نقلاً غير دقيق إلى غرفة الخدمة). ثم إن أخطاءها كانت تنجم بالأحرى، شأن أخطائهم، شأن الأساطير التي كان «أفلاطون» يعتقد بها، عن تصورّ خاطئ للعالم وعن أفكار مسبقة أكثر منها عن نقص الإمكانات المادّية. فمن ذلك أن أعظم اكتشافات في مضمار عادات الحشرات أمكن أن تتمّ، حتى في أيّامنا، على يد عالم ما كان يملك أيّ مخبر أو أيّ جهاز. ولئن لم تَحُل المضايقات الناجمة عن مركز الخادمة الذي تشغله دون اكتساب علم لاغنى عنه للفنّ الذي كان غايته -والذي قوامه أن تسومنا الخزي بنقل نتائجه إلينا - فقد فعل القسر أكثر، فالقيد لم يكتف هنا بألاّ يشلّ تقدّمه بل أدّى له عوناً كبيراً. وليس من شكّ أنّ «فرانسواز» ما كانت تهمل أيّة وسيلة معينة، كوسيلة الإلقاء والوقفة على سبيل المثال. ولمّا كانت توافق دون أدنى ارتياب «إن لم تكن تصدّق البتّة مانقوله لها ومانتمنّى أن تصدّقه» على كلّ مايرويه لها أيّ شخص من طبقتها ممّا كان منافياً للعقل أكثر ما يكون ويستطيع في الوقت نفسه أن يصدم أفكارنا، فبقدر ما كانت طريقتها في الإصغاء إلى توكيداتنا تنّم عن قلّة تصديقها، كانت اللهجة التي تنقل بها (لأن الكلام المنقول يسمح لها بأن توجّه لنا دونما عقاب أشنع الشتائم) رواية طاهية حكت لها أنّها هدّدت أسيادها ونالت منهم، فيما تنعتهم أمام الجميع «بالزبالة»، الجمّ من النعم، كانت تظهر بالمقدار نفسه أنّها كلام الإنجيل بالنسبة إليها. بل كانت «فرانسواز» تضيف قائلة: «أما

أنا، فلو كنت ربّة البيت لوجدتُني مغضبة». وعبثاً كنّا، على الرغم من قلّة مودّتنا الأصليّة للسيّدة التي تقطن الرابع، نهزّ المنكبين إزاء رواية مثل سيّئ إلى هذا الحدّ، وكأنّما إزاء خرافة لاتصدّق، فقد كانت لهجة الراوية تفلح في اتّخاذ النبرة القاطعة الباترة التي تطبع أكثر مالا يحتمل النقاش ويثير الحنق من توكيد.

زد على ذلك أنه، مثلما يبلغ الكتّاب في الغالب قوّة في التركيز لعلّ نظام الحرية السياسيّة أو الفوضى الأدبيّة كان أعفاهم منها، وذلك حينما يكبّلهم استبداد سلطان أو مذهب شعري وقسوة قواعد العروض أو دين الدولة، كذلك كانت «فرانسواز» تتحدّث مثل «تيريزياس» [1] ولعلّها كان كتبت مثل «تاكيتوس»[2]، إذلايسعها أن تردّ علينا ردّاً صريحاً. كانت تعلم كيف تضمّن كلّ مالا تستطيع التعبير عنه مباشرة في جملة ما كان باستطاعتنا أن نطعن فيها دون أن نتّهم أنفسنا، وحتّى في أقلّ من جملة، في لحظة صمت، في الطريقة التي تضع بها حاجة ما.

من ذلك أنّه حينما كان يتفق لي أن أدع سهواً على طاولتي بين رسائل أخرى رسالة ما كان ينبغي أن تراها لأنّه جرى فيها على سبيل المثال التحدّث عنها بنيّة سوء تفترض أخرى بحقها لدى المرسل إليه تعادل مقدارها لدى المرسل، فإن عدت مضطرب النفس في المساء وذهبت رأساً إلى غرفتي كانت الوثيقة المثيرة الشبهات فوق رسائلي التي نسقت على أحسن وجه في كومة متقنة تسترعي للوهلة الأولى أنظاري مثلما لم يكن ممكناً ألا تسترعي أنظار «فرانسواز» وقد وضعتها هي في الأعلى تماماً، وكأنّما على حدة، وفي جلاء كانت كلاماً في حدّ ذاته وله من الكلام بلاغته وكان يبعث فيّ ما أن أجتاز الباب رعشة مثلما تفعل صرخة. كان تجيد تنظيم صنوف الإخراج هذه المعدّة لإطلاع المشاهد، في غياب «فرانسواز»، إطلاعاً تاماً إلى حدّ يعلم معه مذ ذاك أنّها تعلم كلّ شيء حينما تدخل فيما بعد. وكيما تنطق على هذا النحو حاجة لاروح فيها كانت تملك الفنّ العبقريّ والمتأنّي في آن معاً الذي يمتاز به «إيرفنغ» و«فريدريك لوميتر» وفي هذه اللحظة كانت «فرانسواز» تبدو، وهي تمسك فوق «ألبيرتين» وفوقي بالمصباح المضاء الذي ما كان يدع في الظلام أيّامن الأخاديد التي لاتزال واضحة والتي سبق أن حفرها جسم الفتاة في اللحاق، كانت تبدو وكأنّها «العدالة تلقي الضوء على الجريمة». ولم يكن وجه «ألبيرتين» ليخسر من جراء هذه الإضاءة فقد كانت تكشف على الوجنتين الطلاء المنّور نفسه الذي سبق أن فتنني في «بالبيك». إن وجه «ألبيرتين» هذا الذي كان لجمله في الخارج أحياناً نوع من الإصفرار الشاحب كان يبرز على العكس مساحات برّاقة الألوان متساويتها إلى حدّ بعيد وشديدة الصلابة والملاسة كلّما نشر المصباح ضياءه عليها حتّى ليمكن تشبيهها بالألوان الورديّة الثابتة في بعض الأزهار. وقد فوجئت مع ذلك بدخول «فانسواز» اللامتوقّع فصرخت قائلاً:

– «كيف، أحان وقت المصباح؟ ياإلهي ما أشدّ هذا النور!»

كان غرضي دونما ريب من ثاني هاتين الجملتين أن اخفي اضطرابي، ومن الأولى أن أجد العذر لتأخيري. واجابت «فرانسواز» بلبس قاس:

---

(١) Tirésias من كهان «ثيبه»، عوقب بالعمى لأنه كشف أسرار مقر الآلهة للبشر.

(٢) Tacitus مؤرخ روماني، اشتهر بالخطابة وبكتاباته التاريخية الرصينة كما اشتهر بوصفه الدقيق للأخلاق والأهواء.

– «أفينبغي أن اطفي ؟».

وهمست «البيرتين» في أذني: «أن اطفىء ؟». فخلّفتني مفتوناً بسرعة الخاطر الأليفة التي دست بها، وقد اتّخذت منّي معلماً وشريكاً في الجريمة في آن واحد، هذا التأكيد النفسي عبر اللهجة المستفهمة التي أضفتْها على سؤال قواعديّ.

وبعدما خرجت «فرانسواز» من الغرفة وعادت «البيرتين» فجلست على سريري، قلت لها:

– «تعلمين ما الذي اخشاه، وهو انّني، إن تابعنا على هذا المنوال، لن استطيع الامتناع عن تقبيلك».

– «ما اجملها مصيبة تحلّ».

ولم امتثل في الحال لهذه الدعوة. ولعلّ آخر غيري كان يمكن حتّى أن يجدها نافلة، فقد كان لـ «البيرتين» نطق شهواني وعذب إلى حدّ تبدو معه وكأنها تقبّلك بمحض تحدّثها إليك. كان القول منها منّة وكان حديثها يغمرك بالقبل. بيد أن تلك الدعوة كانت مع ذلك محبّبة جدّاً إلى نفسي. ولعلّها كانت كذلك بالنسبة إليّ حتّى من فتاة جميلة أخرى في سنّها ؛ لكن، أن تغدو «البيرتين» الآن سهلة بالنسبة إليّ إلى هذا الحدّ كان يخلّف فيّ أكثر من المتعة، كان يخلّف تقابل صور يطبعها الجمال. كنت أتذكّر «البيرتين» أوّل الأمر أمام الشاطئ وكأنّما تمّ رسمها على خلفيّة البحر وهي لا تملك في نظري وجوداً حقيقياً أكثر من تلك الرؤى المسرحيّة حيث لاتدري إن كنت تواجه الممثلة التي يفترض أن تظهر، أو محض بديلة تحلّ محلّها في تلك اللحظة أو محض إسقاط. ثمّ إن المرأة الحقيقية انفصلت عن الحزمة المضيئة، لقد جاءت إليّ، ولكن لمحض أن أستطيع ملاحظة أنّها لم تكن، في العالم الحقيقيّ، على السهولة الغراميّة التي تفترض لها في اللوحة السحريّة. لقد علّمت أنّه لايمكن لمسها وتقبيلها وأنّه يمكن التحدّث إليها فحسب وأنّها لم تكن بالنسبة إليّ امرأة أكثر ممّا تكون أعناب من اليشم، وهي زينة غير صالحة للأكل على الموائد في الزمن الغابر، أعناباً. ثم إذا هي تبدو لي على مستوى ثالث حقيقية شأنها في المعرفة الثانية التي سبقت لي عنها، ولكنّها سهلة شأنها في الأولى ؛ سهلة سهولة تتزايد عذوبتها بقدر ماظننت مدّة طويلة أنّها لم تكن كذلك. كانت زيادة معرفتي بالحياة (بالحياة الأقلّ اتساقاً والأقلّ بساطة ممّا ظننت بادئ الأمر) تفضي مؤقتاً إلى اللا أدرية. فما الذي يمكن توكيده بما أنّنا ظنّنا محتملاً في البداية ماتبدّى كذباً فيما بعد وبدا أنّه حقيقة في مرحلة ثالثة؟ (ولم أكن للأسف في نهاية اكتشافاتي مع «البيرتين»)..

وحتّى لو لم يتوافر في جميع الأحوال الجاذب العاطفي لهذه المعرفة المقتبسة عن وفرة أكبر من المستويات التي كشفتها الحياة الواحد تلو الآخر (هذا الجاذب الذي هو عكس الجاذب الذي كان «سان لو» يتذوقه أثناء أعشية «ريفبيل» في أن يعود فيلقى بين الأقنعة التي راكمتها الحياة فوق وجه هادئ ملامح سبق أن علقت بالأمس تحت شفتيه)، فأن أعلم أنّ تقبيل وجنتي «البيرتين» أضحى أمراً ممكناً إنّما كان بالنسبة إليّ متعة ربّما فاقت أيضاً متعة تقبيلهما، فأي فارق بين امتلاك امرأة يلتصق بها جسدنا وحده لأنّها لاتعدو كونها قطعة لحم وامتلاك الفتاة التي كنّا نلمحها على الشاطئ مع صديقاتها في بعض الأيّام، حتّى دون أن نعلم لماذا في تلك الأيّام دون أخرى غيرها، الأمر الذي كان مآله ان نرتجف خوفاً من ألاّ نلقاها ثانية. لقد تلطّفت الحياة فكشفت لك بالتفصيل قصّة هذه الفتاة وزوّدتك لتراها آلة بصريّة، ثمّ أخرى، وأضافت إلى الرغبة الجنسيّة

الجوقة التي تزيدها اضعافاً مضاعفة وتنوّعها، جوقة تلك الرغبات الأكثر روحانية والأقل إشباعاً التي لاتنفض عنها خدرها وتدعها تمضي وحدها حينما لاتبغي سوى امتلاك قطعة لحم، بيد أنّها، من أجل امتلاك منطقة كاملة من الذكريات التي تشعر بحنين انّها مبعدة منها. ترتفع إرتفاع العاصفة إلى جانبها وتضخّمها ولاتستطيع اللحاق بها حتّى إتمام حقيقة لامادّية، حتّى تمثلها، وهو مستحيل بالشكل الذي تتمنّى به، ولكنّها تنتظر تلك الرغبة في منتصف الطريق وتعود فتواكبها لحظةَ العودة. فإن أقبّل بدلاً من وجنتيّ أوّل عابرة سبيل، مهما كانتا غضّتين إلا أنّهما غفلان لاسرّ بهما ولا روعة لهما، الوجنتين اللتين طالما حلمت بهما إنّما يعني معرفة مذاق وطعم لون كثيراً مانظرت إليه. لقد رأيت امرأة، وهي محض صورة في زخارف الحياة، شأن «البيرتين» المرتسمة على البحر، ثمّ تستطيع أن تنزعها وأن تضعها بالقرب منك وأن ترى شيئاً فشيئاً حجمها وألوانها كما لو أنّك نقلتها خلف زجاج منظار مجسّم. ولذلك فإن النساء المتمنّعات بعض الشيء اللواتي لايمتلكهنّ في الحال بل هو حتّى لايدري في الحال إن كان سيمتلكهنّ في يوم إنّما يثرن وحدهنّ الاهتمام. ذلك أنّ معرفتهنّ والاقتراب منهنّ وامتلاكهنّ إنّما تعني تنويع الصورة الإنسانية شكلاً وحجماً وبروزاً هي درس في النسبيّة في تقدير جسم امرأة، حياة امرأة يحلو لنا أن نبصرها من جديد بعدما تستعيد نحافة الأطياف في زخارف الحياة. إن النساء اللواتي نعرفهنّ بادئ الأمر لدى القوّادة لايحظين بالاهتمام لأنهنّ يبقين على ماهنّ عليه لايتبدّلن.

كانت «البيرتين» من جهة أخرى تجمع حولها سائر الانطباعات عن مجموعة بحريّة كانت عزيزة على فؤادي على نحو خاصّ. فقد كان يبدو لي انّني ربمّا قبّلت شاطئ «بالبيك» بكامله على وجنّتي الفتاة.

— «إن أذنت حقاً بأن أقبلك فإنني أفضل إرجاء الأمر إلى مابعد وأن أحسن اختيار اللحظة التي تناسبني. بيد أنّه ينبغي الاّ يغرب عن بالك آنذاك انّك أذنبت،. ولابد لي من «قسيمة صالحة لقبلة».

— «أينبغي أن اوقعّها» ؟

— «فإن غنمتُها في الحال فهل أحصل على ثانية مع ذلك فيما بعد؟»

— «تضحكني بقسائمك، سوف أحرّر لك بعضها بين الحين والحين».

— «قولي، لدى كلمة بعد، تدرين، في «بالبيك» حينما كنت بعدُ لا أعرفك، كثيراً ما كانت لك نظرة قاسية محتالة، أفلا يمكنك أن تقولي لي بأيّ أمر كنت تفكّرين في تلك اللحظات؟».

— «لست أذكر البتّة».

— «إليك مثلاً من أجل أن أساعدك، ذات يوم قفزت صديقتك «جيزيل» من فوق الكرسي الذي كان يجلس عليه سيّد عجوز. حاولي أن تتذكّري فيما فكّرت في تلك اللحظة».

— «كانت «جيزيل» أقلّ مَن نتردّد عليها، لقد كانت من المجموعة إن شئت، ولكنّها لم تكن منها تماماً. لابدّ أني حسبت أنّها سيئة التهذيب إلى حدّ بعيد وعاديّة».

— «آه! هذا كلّ شيء؟».

وددت، قبل تقبيلها، لو أستطيع ملأها من جديد بالأسرار التي كانت تكتنفها في نظري على الشاطئ قبل أن أعرفها، وأن أعود فألقى فيها المنطقة التي عاشت فيها سابقاً ؛ فإن لم أعرفها كان بوسعي على الأقلّ أن أدخل مكانها جميع ذكريات حياتنا في «بالبيك» وضجيج الموج المتكّسر تحت نافذتي وصيحات الأطفال. بيد أنّي لابدّ قلت وأنا أدع عيني تنزلق على كرة وجنتيها الورديّة الجميلة التي تقبل سطوحها المثنّية بلطف لتلفظ أنفاسها على حضيض أولى انثناءات شعرها الأسود الجميل الذي يجري سلاسل كثيرة التضاريس ويرفع ركائزه الوعرة ويبرز تموّجات وديانه: سوف أعرف أخيراً مذاق الوردة المجهولة التي تمثلها وجنتا «ألبيرتين» بعدما لم أفلح في ذلك في «بالبيك» وبما أن الدوائر التي يمكن أن نحمل الأشياء والكائنات على اجتيازها في بحر حياتنا ليست عديدة جداً فربّما استطعت أن أعدّ حياتي وكأنّها ناجزة إلى حدّ ما حينما أكون قد حملت إلى هذا المستوى الجديد الوجه النضير الذي سبق أن أخترته من بينها جميعاً بعدما أخرجته من إطاره النائي، الوجه الذي سيتسنّى لي أخيراً أن أعرفه بالشفتين» كنت أقول في نفسي لأنني كنت أعتقد أن ثمّة معرفة بالشفتين ؛ كنت أقول في نفسي إنّي أزمع أن أعرف مذاق هذه الوردة الجسديّة لأنّه لم يخطر لي أن الإنسان، وهو مخلوق أقلّ بدائيّة بالطبع من الأخينوس أو حتّى من الحوت، إنّما يفتقر بعد مع ذلك إلى عدد من الأعضاء الأساسيّة وهو لايملك على وجه الخصوص أيّ عضو يستخدم في القبلة. وإنّه ليعوّض هذا العضو المفقود بالشفتين وربّما بلغ بذلك نتيجة مرضية إلى حدّ ما أكثر ممّا لو اقتصر على مداعبة المحبوبة بناب قرنّي. ولكنّ الشفتين المصنوعتين لتحملا إلى سقف الفم طعماً ما يغريهما ينبغي لهما أن ترضيا بالهيمان على سطح الوجنة الممتنعة والمشتهاه وبالاصطدام بسياجها دون إدراك ضلالتهما ودون الاعتراف بخيبتهما. والشفتان على أيّة حال قد لاتستطيعان في تلك اللحظة لدى ملامسة الجسد نفسه، حتى بافتراض أنّهما قد تضحيان أكثر خبرة وأوفر مواهب، قد لاتستطيعان دون شكّ أن تتذوّقا أكثر من قبل الطعم الذي تحول الطبيعة حالياً دون بلوغه لأنهما وحيدتان في هذه المنطقة المقفرة التي لايمكنهما أن تلقيا فيها غذاءهما إذ النظر ثم الشّم قد هجراهما منذ فترة طويلة. فكلّما ازداد فمي بادئ الأمر اقتراباً من الوجنتين اللتين سبق أن دعته نظراتي إلى تقبيلهما، أبصرت هذه الأخيرة وجنات جديدة. وأبرز العنق، وقد شوهد من مسافة أقرب وكأنّما بالمكبرة، أبرز في مضلّعات نسيجه صلابة بدّلت طابع الوجه.

إنّ آخر تطبيقات التصوير الشمسيّ— التي ترمي على أقدام كاتدرائية جميع البيوت التي كثيراً مابدت لنا عن قرب بمثل ارتفاع الأبراج تقريباً، والتي تحرّك على التوالي، على غرار كتيبة، الأبنية نفسها، تحرّكها أرتالا وشتاتاً وكتلاً متراصة، وتقرّب عمودي «الساحة الصغرى» الواحد من الآخر، وما أبعدهما منذ قليل، وتبعد كنيسة «سالوتا» القريبة وتفلح على خلفيّة شاحبة متدرجة في احتواء أفق مترام تحت قنطرة جسر وفي فتحة نافذه ومابين أوراق شجرة واقعة في مقدّمة اللوحة، وبوساطة لون أكثر زخماً تجعل للكنيسة نفسها على التوالي إطاراً من جميع أقواس الكنائس الأخرى— ذلك مالست أرى سواه قادراً قدرة القبلة أن يبرز ممّا كنا نظنّه شيئاً محدد المظهر الأشياء المئة الأخرى التي تمثّله على السواء بما أنّ كلاً منها متّصل بمنظور لايقلّ شرعيّةعن غيره. وقصارى القول إنه مثلما سبق بدت لي «ألبيرتين» غالباً مختلفة في «بالبيك»، فإنّما رأيت الآن – وكأنّما أردت بزيادة سرعة تبدلات المنظور وتبدّلات الألوان التي يزوّدنا بها شخص في مختلف لقاءاتنا به زيادة هائلة أن أحتويها كلّها في مدى بضع ثوان كيما أوجد ثانية بالتجربة الظاهرة التي تنوع فردية كائن ما وأن

استخلص جميع الإمكانات التي تتضمنها بعضها من بعضها الآخر وكأنّما من قراب – رأيت عشر «ألبيرتينات» في هذا المشوار القصير لشفتي باتجاه خدها. وإذ كانت هذه الفتاة وحدها وكأنها إلهة بعدة رؤوس، فإن الذي كنت رأيته في آخر المطاف كان يخلي المكان لآخر غيره إن حاولت الاقتراب منه. ذلك الرأس كنت أراه على الأقلّ مادمت لم ألمسه، إذ يقْبُل إليّ منه عطر خفيف. ولكن عينّي، واأسفي! – لأنّ منخرينا وعينينا رديئة الموقع بقدر ما الشفتان رديئتا الصنع – كفتّا فجأة عن الرؤية ولم يشمّ أنفي بدوره، وقد تسطح، أيّة رائحة من بعد، وعلمت لدى هذه العلامات المقيتة، ودون أن أعرف لذلك أكثر من ذي قبل مذاق اللون الوردي المشتهى، أنني كنت آخذا بتقبيل «ألبيرتين».

أفلأنّنا كنّا نمثّل المشهد المعاكس لمشهد «بالبيك» (والذي يرمز إليه دوران جسم صلب)، وأنّني كنت مستلقياً وهي واقفة وقادرة على تفادي هجمة شرسة وعلى توجيه المتعة على هواها، ألذلك تركتني آخذ الآن بهذا القدر من السهولة ما كانت رفضت بالأمس بمظهر القسوة الشديدة؟ (وليس من شكّ أن الملامح الشهوانية التي يتّخذها اليوم وجهها لدى اقتراب شفتّي ما كانت تختلف عن هيئة الأمس تلك إلاّ بانحراف في الخطوط ضئيل جداً، إلا أنّه يمكن أن يحتوي بين حدّيه كامل المسافة التي تفصل بين حركة رجل يجهز على جريح وآخر يسعفه، بين رسم بديع أو قبيح). ودون أن أعلم إن كان عليّ أن أبدي التكريم والامتنان على تبدّل موقفها لمحسن غير قاصد عمل من أجلي في باريس أو «بالبيك» في واحد من هذه الشهور الأخيرة، فقد خطر لي أن الطريقة التي اتّخذنا بها مطارحنا كانت السبب الرئيسيّ في هذا التبدّل. على أنّ «ألبيرتين» قدّمت لي سبباً آخر لذلك، وهو بالضبط هذا: «آه! ذلك لأنّي في ذلك الحين في «بالبيك» ما كنت أعرفك وكان يمكنني الظنّ بأنّ لك مقاصد سوء». وخلّفني هذا السبب حائراً. لقد قدّمته لي «ألبيرتين» صادقةً دون شكّ. فإن المرأة لتصادف الكثير من المشقّة في أن تتعرّف في حركات أعضائها وفي الأحاسيس التي تنتاب جسمها أثناء لقاء منفرد مع أحد الأصحاب الزلة المجهولة التي كانت ترتعد أن يكون غريب قد صمّم إيقاعها فيها.

وأيّة كانت في جميع الأحوال التبدّلات الطارئة منذ بعض الوقت في حياتها والتي ربّما فسرت أن تمنح رغبتي المؤقتة والجسديّة البحتة بذلك اليسر ما سبق أن حجبته بهلع في «بالبيك» عن حبّي، فقد جرى تحوّل أكثر إدهاشاً في «ألبيرتين» في ذلك المساء ذاته حالما جاءتني مداعباتها في منزلي بالارتياح الذي لابدّ أنّها لاحظته تماماً والذي خشيت حتّى أن يسبب لديها الانتفاضة الهينّة من اشمئزاز وحياء مجروح والتي تمت لـ«جيلبيرت» في لحظة مشابهة خلف دغل أشجار الغار في محلّة «الشانزليزيه».

وقد كان العكس تماماً. فقد سبق أن اتخذت «ألبرتين» قبل ذلك، حين مدّدتها على سريري وشرعت أداعبها، هيئة ما كنت أعرفها لديها من مرونة في المراس وبساطة تكاد أن تكون طفوليّة. وقد أزالت اللحظة التي تسبق المتعة، وهي شبيهة في ذلك بتلك التي تلي الوفاة، أزالت عنها جميع الاهتمامات وجميع المزاعم المعتادة فأعادت إلى قسماتها التي استعادت نضارتها كأنما براءة السن الأولى. وليس من شكّ أن أيّ إنسان توضع موهبته فجأة موضع اختبار إنّما يصبح متواضعاً ومجداً ولطيفاً، ولاسيما إن عرف كيف يمنحنا بتلك الموهبة متعة عظيمة فإنه يسعد من جرّائها ويودّ أن يمنحنا إيّاها كاملة. بيد أنّه كان في ملامح وجه «ألبيرتين» الجديدة تلك أكثر من التجرّد والوجدان والسخاء المسلكيّين، كان ثّمة ضرب من التفاني المألوف والمفاجئ. فلقد عادت

إلى أبعد من طفولتها، بل إلى شباب سلالتها الأولى. لقد بدت «ألبيرتين»، وهي شديدة الاختلاف عنّي أنا الذي لم يتمنَّ أكثر من تسكين جسديّ بلغه في النهاية، بدت وكأنها ترى بعض الفظاظة فيما يخصّها أن تحسب أن هذه المتعة الجسدية تستقيم دون شعور نفسي وأنّها تنهي أمراً ما. كانت، هي المُعجلة منذ قليل، تقول الآن، ولأنّها ترى دونما شكّ أن القبل تتضمنّ الحبّ وأنّ الحبّ يعلو على أيّ واجب آخر، تقول حينما أذكرها بعشائها:

— «لابأس عليّ من ذلك مطلقاً، لدي كل الوقت، ويحك».

كانت تبدو وكأنما يحرجها أن تنهض في الحال بعد الذي أقدمت عليه، يحرجها بداعي التأدب، شأن «فرانسواز» حينما ظنّت أنّ من واجبها، دون أن تشكو العطش، أن تقبل باحتشام مرح كأس الخمرة التي كان «جوبيان» يقدّمها لها، وما كانت لتجرؤ على الذهاب حالما تشرب آخر جرعة أيّا كان الواجب الملح الذي استدعاها. كانت «ألبيرتين» واحداً من رموز الفلاّحة الصغيرة الفرنسية التي مثالها من حجر في كنيسة «سانت آندريه دي شان»— وربما كان ذلك، بالإضافة إلى سبب آخر سوف نراه فيما بعد، واحداً من الأسباب التي جعلتني دون علم مني أشتهيها— فقد تعرفت فيها تأدب «فرانسواز» التي كانت ستضحي على ذلك بعد قليل عدوتها اللدودة، إزاء الضيف والغريب، والحشمة واحترام الفراش.

ولعلّ «فرانسواز» التي ما كانت تحسب بعد وفاة عمتي أنّها تستطيع التحدّث إلاّ بلهجة مشفقة، لعلها كانت ترى أمراً فاضحاً، في بحر الأشهر التي سبقت زواج ابنتها، في ألاّ تأخذ هذه الأخيرة بذراع خطيبها حينما كانت تتنزّه معه.

كانت «ألبيرتين» تقول لي، وقد ظلّت لاحراك بها بالقرب منّي:

— «شعرك جميل وعيناك جميلتان وأنت لطيف».

ولمّا أضفت أقول، بعدما حملتها على ملاحظة أنّ الوقت قد تأخر: «ألا تصدّقيني؟» أجابتني قائلة «إنّي أصدّقك على الدوام»، الأمر الذي ربّما كان صحيحاً، ولكن منذ دقيقتين فحسب وعلى مدى بضع ساعات.

وحدثتني عن نفسي وعن أسرتي وعن بيئتي الاجتماعية. قالت لي:

«آه! أعلم أنّ ذويك يعرفون جماعات راقية. إنّك صديق لـ«روبير فوريستييه» و«سوزان دولاج» ولم تعن تلك الأسماء شيئاً لي على الإطلاق في الدقيقة الأولى. ولكنّي ذكرت فجأة أنّي لعبتُ بالفعل في «الشانزليزيه» و«روبير فوريستييه» الذي لم أره من بعد البتّة. أمّا «سوزان دولاج» فقد كانت ابنة شقيقة السيّدة «بلانديه» وقد وقع عليّ مرة أن أذهب إلى درس في الرقص وحتّى أن أمثل دوراً صغيراً في مهزلة بيتيّة في منزل ذويها. ولكنّ خشيتي أن أنفلت ضاحكاً ومن بعض الرعاف حالت دون ذلك حتّى أنّي لم أرها في يوم. وأكثر الأمر أنّه خيل إليّ فيما مضى أن معلّمة آل «سوان»ذات الريشة قد كانت لدى ذويها، ولكنّها ربّما كان مجردّ شقيقة لتلك المعلّمة أو صديقة. وأعلنت لـ«ألبيرتين» معارضاً بأن «روبير فوريستييه» و«سوزان دولاج» يشغلان حيزاً قليلاً في حياتي. «ذلك ممكن، إن والدتيكما ترتبطان بصداقة والأمر يسمح بتحديد مواقعكم. كثيراً ما ألتقي «سوزان

دولاج» في شارع «ميسينّا» وإنّها لأنيقة» وما كانت والدتانا تعرف إحداهما الأخرى إلاّ في مخيلة السيّدة «بونتان» التي استخلصت، إذ علمت أنّني لعبت فيما مضى مع «روبير فور يستييه»، وكنت فيما يبدو أنشده أشعاراً، أنّنا كنّا نرتبط بعلاقات عائليّة. وما كانت تدع البتّة. فيما قيل لي، اسم والدتي يمرّ دون أن تقول: «أجل، إنّه وسط آل «دولاج» و«فوريستييه» إلخ»وتمنح والديّ بذلك نقطة لصالحهما لايستحقانها.

كانت مفاهيم «ألبيرتين» الاجتماعية على أيّة حال تتصف بحماقة بالغة. فكانت تظنّ آل«سيمونّيه» بنون مشدّدة أقلّ قدراً لامن آل «سيمونيه» بنون غير مشدّدة فحسب، بل من جميع ما أمكن من أناس آخرين. فأن يحمل أحدهم الاسم الذي تحمله دون أن يكون من أسرتك سبب كبير لازدرائه. ثمة استثناءات بالتأكيد. فقد يتفق إن رأى اثنان من أسرة «سيمونّيه» (وقد تمّ تعريف أحدهما بالآخر في واحد من تلك الاجتماعات التي يشعر المرء فيها بالحاجة إلى التحدّث عن أيّ شيء والتي يحس فيها على أيّ حال أنّه يفيض استعدادات متفائلة كحاله مثلاً في موكب جنازة ينطلق إلى المقبرة) أنّهما يحملان الاسم نفسه، أن يبحثا بتلطف متبادل ودونما نتيجة إن كان لايربطهما أيّ رباط قربي. ولكنّ هذا محض استثناء. فكثير من الناس قلّما يجدر احترامهم، ولكنّنا نجهل ذلك أولا نهتّم به. فإن أوصل إلينا تطابق الأسماء رسائل موجهة إليهم، أو العكس بالعكس، بدأنا بالحذر، ويغلب أن يكون مبرّراً، حول ما يساوون. إنّنا نخشى الخلط ونتلافاه بتكشيرة اشمئزاز إن حدّثونا عنهم. وحينما نقرأ في الصحيفة اسمنا الذي يحملونه يبدو لنا أنّهم ينتحلونه. إن ذنوب غيرهم من أعضاء الهيئة الاجتماعية لانكترث بها. ولكننا نثقل بها كاهل سميينا. والحقد الذي نحمله لآل «سيمونيه» يزداد قوة بقدر ماهو غير فرديّ ولكنّما يتناقل بالوراثة. وبعد انقضاء جيلين نتذكر فحسب التكشيرة المهينة التي كانت تعلو شفاه الجدود إزاء الآخرين من آل «سيمونيه». إنّنا نجهل السبب، ولكنّما لن يدهشنا أن نعلم أن الأمر بدأ بجريمة قتل. إلى اليوم، وهو كثير، الذي ينتهي به الأمر إلى زواج بين واحدة من آل «سيمونيه»وآخر من آل «سيمونيه» لا تربطه بها البتة صلة قربى.

ولم تحدثني «ألبيرتين» عن «روبير فوريستييه» و«سوزان دولاج» فحسب بل روت لي تلقائياً، بدافع من واجب المسارة الذي ينشئه تقارب الأجساد في البداية على الأقل وعلى مدى مرحلة أولى قبل أن يولّد نفاقاً خاصاً والكتمان تجاه الكائن نفسه، روت «ألبيرتين» عن أسرتها وأحد أعمام «آندريه» قصة سبق أن رفضت في «بالبيك» أن تقول كلمة واحدة عنها، ولكنها كانت تظنّ أنّه لاينبغي لها أن تبدو وكأنها لاتزال تملك أسراراً إزائي. ولئن روت لها الآن أفضل صديقة لها أمراً ما ضدي لرأت من واجبها أن تنقله لي وألححت في أن تعود إلى منزلها فذهبتْ في النهاية ولكنما بها وجل بشأني من جراء فظاظتي حتى لتضحك أو تكاد لتعذرني، مثلها مثل ربّة بيت تذهب إلى منزلها بسترة عادية فتقبلك على هذا النحو ولكنّما ليس الأمر غير ذي أهمية في نظرها.

وقلت لها: «أتضحكين؟»

فأجابتي بحنان: «لست أضحك، إنّي ابتسم لك». وأضافت قولها: «متى أعود فألقاك؟» وكأنها لاتقرّ بأن ماقمنا به لم يكن على الأقل المقدمة لصداقة كبرى، لصداقة سابقة الوجود ومن واجبنا أن نكتشفها، أن نعترف بها وتستطيع وحدها أن تفسر ما انصرفنا إليه، بما أنه بالعادة تتويج لتلك الصداقة.

– «بما أنك تأذنين لي بذلك فسأرسل في طلبك حينما أستطيع».

ولم أجرؤ أن أقول لها إنّي أبغي إخضاع كل شيء لإمكان لقاء السيدة «دو ستير ماريا».

وقلت لها: «سيتم الأمر على نحو مفاجئ فلست أعلم البتة مسبقاً أفيمكن أن أرسل في طلبك في المساء حينما لا أرتبط بموعد»؟

– «سيكون ذلك عمّا قليل ممكناً جداً فسوف أنفرد بمدخل مستقل عن مدخل عمتي، ولكن الطريق غير سالكة الآن. سآتي على أيّ حال على سبيل الاحتياط في الغد بعد الظهر. لاتستقبلني إلا إذا استطعت ذلك».

وإذ بلغت الباب مدّت لي وجنتها، وقد أدهشها ألا أكون سبقتها إلى ذلك، إذ ترى أن لاحاجة البتة لرغبة جسديّة فظة كيما نتعانق الآن ولمّا كانت العلاقات القصيرة التي أقدمنا عليها منذ قليل معاً من تلك التي تقود إليها أحياناً ألفة مطلقة واصطفاء قلبي ظننت «ألبيرتين» من واجبها أن ترتجل وتضيف مؤقتاً إلى القبلات التي تبادلناها فوق سريري الشعور الذي ربما كانت عنواناً له في نظر فارس وسيّدته على نحو ما يمكن أن يتصوّرها بهلوان قوطيّ.

بعدما فارقتني البيكاريديّة الشابة التي كان يمكن أن ينحتها على بوابته مثّال «سانت آندريه دي شان» جاءتني «فرانسواز» برسالة ملأتني فرحاً إذ كان من السيدة «دو ستير ماريا» التي توافق على تناول طعام الغداء وإيّاي نهار الأربعاء. من السيّدة «دو ستير ماريا»، يعني بالنسبة إليّ أكثر من السيّدة «دوستير ماريا» الحقيقية، من تلك التي فكرت فيها طوال النهار قبل وصول «ألبيرتين». إنّها لخدعة الحبّ الرهيبة أنّه يشرع في حملنا على اللهو مع امرأة ليست من العالم الخارجي، بل مع دمية في داخل دماغنا، وهي الوحيدة على أيّة حال التي تظلّ دوماً في متناولنا، الوحيدة التي ستكون في حوزتنا والتي ربما جعلها اعتباط الذكرى، ويقارب أن يكون مطلقاً كاعتباط المخيلة، مختلفة عن المرأة الحقيقيّة اختلاف ما كان بالنسبة إليّ من أمر «بالبيك» المتخيلة عن «بالبيك» الحقيقية. وهي خليقة مصطنعة سوف نرغم المرأة الحقيقية شيئاً فشيئاً أن تشبهها، والأمر مدعاة لعذابنا.

كانت «ألبيرتين» قد أخرتني إلى حد أن التمثيلية كانت قد انتهت حينما وصلت إلى منزل السيّدة «دو فيلباريزيس». ولما كنت قليل الرغبة في أن آخذ من الخلف موج المدعوّين المتدفق وهو يعلق على الخبر العظيم، على الانفصال الذي يقولون إنّه تمّ مذ ذاك بين الدوق «دو غير مانت» والدوقة، جلست بانتظار أن أستطيع تحية ربّة البيت، على متكأ خال في الصالة الثانية حينما أبصرت الدوقة تطلع من الأولى، حيث كانت قد جلست دونما شك في الصف الأول تماماً، مهيبة واسعة مديدة القامة في فسطان طويل من الساتين الأصفر علقت به على نحو بارز أزهار خشخاش سوداء ضخمة. ولم تعد رؤيتها تثير في صدري أيّ اضطراب. وذات يوم وضعت فيه والدتي يديها على جبيني (كما كانت عادتها حين كانت تخشى أن تغمني) وهي تقول لي: «لا تتابع طلعاتك من أجل ملاقاة السيّدة «دو غيرمانت»، فقد أضحيت مضغة الأفواه في البيت. وانظر على أيّة حال كم هي مريضة جدّتك، إنّ لديك بالحقيقة أموراً أكثر جدية من وقوفك على درب امرأة تسخر منك»،

فأيقظتني فجأة من حلم تطاول فجاوز مداه كمنّوم مغناطيسي يعيدك من البلاد البعيدة التي تخيلت نفسك فيها ويفتح عينيك من جديد أو كالطبيب الذي يردّك إلى حس الواجب والواقع فيشفيك من داء وهميّ كنت تنعم بالا فيه. لقد تمّ تكريس النهار التالي لوداع أخير لذاك الداء الذي تخليت عنه. وقد أنشدت ساعات على التوالي وأنا أبكي «الوداع» لشوبرت:

«الوداع، إن أصواتاً غريبة تناديك بعيداً عني ياشقيقة الملائكة السماوية».

ثم انتهى الأمر. لقد قطعت طلعاتي في الصباح وبيسر بلغ بي أن استخلصت حينذاك التوقع الذي ستتبين خطأه فيما بعد والذي قوامه أنني سأتعود بسهولة خلال حياتي ألا أرى امرأة من بعد. وحينما روت لي «فرانسواز» بعدها أنّ «چوبيان»، رغبة منه في التوسّع، كان يبحث عن دكّان في الحيّ، ورغبة منّي في أن ألقى له دكّاناً (وبي سعادة كبيرة كذلك، فيما أتسكع في الشارع الذي كنت أسمعه من سريري يضج أنواراً وكأنه شاطئ أن أبصر تحت ستارة دكاكين الألبان الحديدية المرفوعة بائعات الحليب الصغيرات ذوات الأكمام البيضاء)، استطعت أن أباشر ثانية تلك الطلعات. وبحرية شديدة على أي حال، إذ كنت أشعر أنّي لا أقوم بها من بعد بهدف لقاء السيّدة «دو غير مانت» :كحال امرأة تتخذ احتياطات لاحد لها مادامت تتخذ عشيقاً فما أن تقطع صلتها به حتى تدع رسائله مبعثرة وهي عرضة لأن تكشف لزوجها سرّ زلة بلغ بها في النهاية أن تذعر منها في الوقت الذي تكفّ فيه عن اقترافها.

ما كان يبعث الغمّ في نفسي هو أن أعلم أن جميع البيوت على وجه التقريب كان يسكنها أناس تعساء فههنا لاتكفّ امرأة عن البكاء لأنّ زوجها يخدعها. وهناك يقع العكس. وفي مكان آخر تحاول والدة شغيلة تُضرب ضرباً مبرحاً على يد ابنٍ سكّير أن تخفي عذابها عن أعين الجيران. كان نصف البشرية يبكي بكامله. وحينما عرفتها وجدتّها مغيظة إلى حد أنني ساءلت نفسي إن لم يكن الزوج أو الزوجة الزانيان (وإنّهما لكذلك لمحض أنّهما حرما السعادة المشروعة، فيما يبديان ظرفاً ووفاء إزاء أيّ شخص آخر فيما عدا الزوجة أو الزوج) من كانا على حقّ. وبعد قليل لم تتوافر لي حتّى حجّة إفادة «چوبيان» لأوالي مشاويري الصباحيّة.فقد أعلمت أن نجار باحتنا الذي لم يكن يفصل بين مشغله ودكّان «چوبيان» سوى حاجز دقيق جداً كان يزمع أن يصرفه المدير لأنّه يضرب ضربات شديدة الصخب. لم يكن بوسع «چوبيان» أن يأمل أفضل من ذلك فقد كان للمشغل قبو توضع فيه الأخشاب ويتصل بأقبيتنا. سوف يضع «چوبيان فحمه فيه ويقوم بهدم الحاجز ويحصل على حانوت واحد فسيح. أضف أن «فرانسواز»، إذ كان «چوبيان» يرى أن الثمن الذي حدّده السيّد «دو غيرمانت» مرتفع جداً ويسمح بزيارة المكان كي يوافق الدوق، وقد فقد الأمل في أن يجد مستأجراً، على إجراء تخفيض له، إن «فرانسواز»، إذ لاحظت أنّ البواب كان يدع، حتى بعد الساعة التي لا تتم فيها الزيارة، لوحة «للايجار» خلف باب الدكان» استشعرت شركاً ينصبه البواب لاجتذاب خطيبة خادم آل «غيرمانت» (فسوف يجدان فيها خلوة غرامية) ومفاجأتهما بعد ذلك.

ومهما يكن من أمر، ومع أنّه لم يظلّ لي أن أبحث عن دكان لـ «چوبيان» فقد واليت الخروج قبل الغداء. وكثيراً ما كنت ألتقي في هذه الطلعات بالسيّد «دو نوربوا» وكان يَتفق أن يلقي عليَّ، وهو يتحدّث مع زميل له، نظرات تنصرف، بعدما تفحصتني ملياً، إلى محدثه دون أن يكون ابتسم لي أو حيّاني أكثر ممّا لو لم

يعرفني على الإطلاق. ذلك أن النظر بطريقة معينة لدى هؤلاء الديبلوماسيّين الهامين لايهدف إلى إعلامك بأنهم أبصروك، بل بأنهم لم يبصروك وأنّ عليهم أن يحدثوا زميلهم عن مسألة جديّة. وكان ثمة امرأة طويلة القامة كثيراً ما التقي بها قرب المنزل وهي أقل تحفظاً معي. فقد كانت تلتفت إليّ، مع أنّي لا أعرفها، وتنتظرني – وعبثاً تفعل– أمام واجهات البائعين وتبتسم لي كما لو تزمع أن تقبلني وتقوم بحركة من تسلّم نفسها. ثم تعود فتتخذ هيئة مجافية تجاهي إن إلتقت بمن تعرفه. كنت أنتقي منذ زمن بعيد في تلك المشاوير الصباحية، وحسبما يقع عليّ أن أفعله، وإن يكن ذلك شراء أكثر الصحف تفاهة، الدرب الأكثر مباشرة دونما أسف إن كان خارج الخطّ المعتاد الذي تتبعه نزهات الدوقة، فإن كان، على العكس، من ذاك الخطّ فدونما هاجس ودونما رياء لأنه لم يعد يبدو لي وكأنّه الدرب الممنوع الذي أنتزع فيه من ناكرة للجميل منّة أن أراها على الرغم منها. ولكنّما لم يخطر ببالي أن شفائي، فيما يوفر لي إزاء السيّدة «دو غير مانت» موقفاً طبيعياً، سوف ينجز بالتوازي العمل نفسه فيما يخصّها ويضع موضع الممكن تودداً وصداقة لم أعد أعيرهما اهتمامي. ولعلّ جهود العالم بأسره التي تضافرت حتّى ذاك لتقرّبني منها، لعلّها كانت تلفظ أنفاسها أمام السحر البغيض الناجم عن حبّ فاشل. لقد قرّرت جنيّات أكثر اقتداراً من الناس أن ليس من شيء يستطيع في هذه الحالات أن يجيء بفائدة إلى اليوم الذي نكون قلنا فيه بصدق داخل فؤادنا القول التالي: «لست أحبّ من بعد». وكنت قد حقدت على «سان لو» لأنّه لم يصحبني إلى منزل عمتّه. ولكنّه لم يكن قادراً أكثر من آخر سواه أن يكسر طوق السحر. فما دمت على حبّ السيدّة «دو غير مانت» كانت مظاهر اللطف التي تزدني من الآخرين تغمني، وتغمنّي كلمات المديح، لا لأنها لا تصدر عنها فحسب بل لأنّها لم تكن تدري بها. ولعلّ الأمر كان لايجدي على الإطلاق حتّى لو علمتْ بها. ولكنّ غياباً والامتناع عن عشاء وتشدّداً غير مقصود وغير واع إنّما تفيد حتّى في تفاصيل المودّة أكثر من جميع موادّ التجميل وأبهى الأثواب. وربّما كان ثمة من يبلغون غاياتهم لو تمّ تعليم فنّ بلوغ الغاية بهذا المعنى.

حينما كانت السيّدة «دو غيرمانت» تجتاز الصالة التي كنت أجلس فيها والفكر مليء بذكرى الأصدقاء الذين لا أعرفهم والذين ربّما التقتهم بعد قليل في أمسية أخرى، أبصرتني على متكئي(أنا اللامبالي الحقيقيّ الذي ما كان يبحث إلا عن أن يكون لطيفاً في حين حاولت كثيراً فيما كنت أحبّ أن أتّخذ هيئة اللامبالاة دون أن أفلح في ذلك ؛ وانعطفت وجاءت إليّ وقالت لي وهي تعود فتلقى ابتسامة أمسية الأوبرا التي لم يعد يمحوها الشعور المؤلم بأن يحبّها من لاتحبّ، قالت لي وهي ترفع بلطف تنّورتها الفسيحة التي كانت شغلت لولا ذاك المتكأ بكامله:

– «لا، لاتزعج نفسك، أتأذن بأن أجلس لحظة إلى جانبك؟»

ولمّا كانت أطول قامة منّي ويزيدها إلى ذلك كامل حجم فسطانها، فقد كانت تلامسني ملامسة خفيفة أو تكاد بذراعها العارية الرائعة التي يطلّق من حولها زغبٌ لاتبصره العين ولايحصى ضباباً دائماً كأنّه بخار مذهب، وبجدلة شعورها الشقراء التي كانت ترسل إليّ رائحتها، وما كانت تستطيع، إذ لا مكان لها، أن تلتفت إليّ بسهولة وتتخذ، وقدْ اضطرّت أن تنظر أمامها أكثر منها في اتجاهي، تتخذ هيئة حالمة رقيقة وكأنّما في رسم. وقالت لي:

– «هل لديك أخبار عن «روبير» ؟

ومرّت السيّدة «دو فيلباريزيس» في تلك اللحظة.

– «ماذا! لقد بكّرت في المجيء ياسيّد، وهي مرّة نراك فيها!»

وإذ لاحظت أنّني أتحدّث مع ابنة شقيقها وربّما افترضت أنّنا أوثق صلات ممّا تعلم أضافت قولها (لأن المساعي الحميدة لدى القوّادة هي جزء من واجبات ربّة المنزل):

– «ولكنّني لا أريد تعكير حديثك مع «أوريان». أفلا تريد المجيء لتناول الغداء معها نهار الأربعاء؟»

وكان اليوم ذاك الذي ينبغي أن أتغدّى فيه مع السيّدة «دو ستير ماريا»، فرفضت.

– «ونهار السبت؟».

ولمّا كانت والدتي ستعود السبت أو الأحد، فلعلّه كان من قلّة اللطف ألا أمكث كلّ مساء للعشاء معها، ورفضت إذن مرّة أخرى.

– «آه! لستَ رجلاً يسهل استقدامه إلى المنزل».

– «لماذا لاتجيء البتّة لزيارتي؟» تقول السيّدة «دو غيرمانت» بعدما ابتعدت السيّدة «دو فيلباريزيس» لتهنّئ الفنانين وتسلّم «الصوت الملائكيّ» طاقة من الورد كلّ ثمنها في اليد التي تقدّمها لأنّها لم تكلّف سوى عشرين فرنكاً (وكان الثمن على أيّة حال الحدّ الأقصى حين لايتّم الغناء إلاّ مرّة واحدة. أمّا اللواتي كنّ يتطوّعن في حفلات بعد الظهر والمساء جميعها فتردهنّ ورود رسمتها يد المركيزة). (من المزعج ألاّ نلتقي مرّة إلاّ في منزل الآخرين. وبما أنّك لاتريد تناول العشاء معي في منزل عمتي، فلماذا لاتجيء لتناول العشاء في منزلي ؟».

ولما مكث بعض الأشخاص أطول فترة ممكنة بداعي حجج، أيّ حجج، وأخذوا يخرجون في النهاية، وإذ أبصروا الدوقة جالسة للتحدّث مع شاب على قطعة أثاث ضيقّة حتّى لاتتّسع إلا لاثنين ظنّوا أنّه قد أُسيئ إعلامهم وأن الدوق، لا الدوقة، هو الذي كان يطلب الانفصال بسببي . ثم سارعوا إلى نشر هذا الخبر. وكنت أكثر قدرة من أي إنسان على معرفة زيفه. ولكنّما أذهلني أنّ الدوقة، في هذه الفترات الصعبة التي يقع فيها انفصال لم يتّم بعد، تدعو من تعرفه معرفة يسيرة إلى هذا الحدّ عوضاً عن أن تنعزل. وخامرني شكّ بأنّ الدوق كان وحده من لم يوّد أن تستقبلني وأنّها إذْ تهجره الآن لم تعد ترى مانعاً في أن تحيط نفسها بمن يروقونها.

ولعلني كنت دهشت قبل دقيقتين لو قيل لي إنّ السيّدة «دو غير مانت»تزمع أن تسألني المضيّ للقائها، وأكثر من ذلك أن أجيء للعشاء. وعبثاً كنت أعلم أن صالة آل «غيرمانت» لايمكن أن توفّر الخصائص التي سبق أن استخلصتها من ذاك الإسم فإن الأمر الذي قوامه أنّه حيل دون دخولي إليها جعلني أتخيلها، حتّى وأنا متيقّن من أنّها شبيهة بجميع الأخريات، مختلفة تماماً إذ يضطرني أن أضفي عليها نوع الوجود نفسه الذي

يميّز الصالات التي قرأنا أوصافها في رواية أو رأينا صورتها في حلم ؛ فقد كان بيني وبينها الحاجز الذي ينتهي الواقع عنده لقد كان تناول العشاء لدى آل«غيرمانت» كالقيام برحلة طال اشتهاؤها وتنقيل شوق من رأسي إلى مواجهة عيني والتعرّف بحلم. ولعلّه كان يمكنني الظنّ على الأقلّ بأنّ الأمر أمر واحدة من دعوات العشاء تلك التي يدعو إليها أرباب البيوت واحداً لايرغبون في إظهاره إذ يقولون له:«تعال، فلن يكون ثمة قطعاً سوانا»، ويتظاهرون بخضّ المنبوذ بالخشية التي تداخلهم من أن يروه يختلط بأصحابهم ويحاولون قلب حجر المُبعد، وقد أضحى على الرغم منه منعزل الطباع ومُحابىً، إلى امتياز مشتهى يُخص به الألأف. وشعرت على العكس أنّ لديّ السيّدة «دو غيرمانت» رغبة في أن تذيقني ما كان أمتع شيء لديها حينما قالت لي وهي تضع على أيّة حال أمام عينيّ ما يشبه الجمال البنفسجي لحلول في منزل عمّة «فابريس» وأعجوبة تعرّف إلى الكونت «موسكا»(١) :

— «والجمعة ألن تكون حرّاً، في مجلس صغير؟ فما ألطف ما يكون الأمر. ستحضر الأميرة «دو بارما»، وهي فاتنة. ثم إنّي لا أدعوك لو لم يكن ذلك للقاء أناس ممتعين».

إنّ الأسرة التي تُهجر في الأوساط المجتمعية المتوسطة، الأوساط التي تنتابها حركة صعود مستمرّة، إنّما تمثل على العكس دوراً هاماً في الأوساط الثابتة كالبورجوازيّة الصغيرة وكأرستقراطية الأمراء التي لاتستطيع البحث عن الارتقاء بما أنّه لاشيء فوقها من وجهة نظرها الخاصّة. وإن المودّة التي كانت تبديها لي «العمّة فيلباريزيس» و«روبير» ربّما جعلت منّي في نظر السيّدة «دو غير مانت» وأصدقائها، وهم يعيشون أبداً على أنفسهم وفي عصبة واحدة، موضوع اهتمام فضولي ماكنت أرتاب بأمره.

لقد كانت تعرف أولئك الأقارب معرفة عائلية يوميّة عادية شديدة الاختلاف عمّا نتخيّل، وإن نحن دخلنا دائرتها فما أبعد أن تلفُظَ أعمالنا منها كحبّة الرمل من العين أو قطرة الماء من القصبة الهوائية، بل يمكن أن تظلّ منقوشة وأن يُعلق عليها وتروى سنوات أيضاً، بعد أن نسيناها نحن، في القصر الذي ندهش أن نعود فنلقاها فيه كرسالة منّا في مجموعة ثمينة من الأقوال الموقعة.

إن محض أناس أنيقين يمكن أن يمنعوا بابهم المزدحم جدّاً. وماكان ذلك أمر باب آل «غيرمانت» فلم تكن تتوافر لغريب في يوم تقريباً فرصة المرور أمامه. وإذ يتفق مرّة وأحدة لدوقة أحد من يشيرون إليه بتلك الصفة فما كان يخطر لها أن تهتّم بالقيمة المجتمعيّة التي قد يحملها معه، إذ هي التي تسبغها ولايمكن أن تتلقاها. لم تكن تفكّر إلاّ في صفاته الحقيقية، وقد سبق للسيّدة «دو فيلباريزيس» و«سان لو» أن قالا لها إنني أتحلّى ببعضها. ولعلّها ما كانت لتصدّقهما دونما ريب لو لم تلاحظ أنّهما ما كانا يستطيعان البتّة الإفلاح في إحضاري حينما يشاءان وأن المجتمع إذن ما كان يهمّني، الأمر الذي يبدو للدوقة وكأنّه الدليل بأنّ أحد الغرباء يدخل في عداد «الناس الممتعين».

كان ينبغي أن ترى، وأنت تتحدّث عن نسوة لاتحبّهنّ على الإطلاق، كيف يتبدّل وجهها في الحال إن

(١) من أبطال رواية ستاندال الشهيرة La chartreuse de Parme

أنت ذكرت بصدد إحداهن اسم زوجة أخيها على سبيل المثال. كانت تقول بلهجة ناعمة متيقنّة: «آه! إنّها فاتنة». والسبب الوحيد الذي تدلي به في ذلك أن هذه السيّدة رفضت أن يتمّ تقديمها إلى المركيزة «دو شو سّغرو» والأميرة «دو سيليستري». ولكنها لاتضيف أن هذه السيّدة رفضت أن يتمّ تقديمها لها، هي دوقة «غيرمانت». لقد وقع الأمر مع ذلك، ومنذ ذلك اليوم يعمل فكر الدوقة حول ما كان يمكن أن يجري لدى السيّدة التي يصعب التعرّف بها. كانت تتحرّق شوقاً إلى أن تستقبل في منزلها. فإن أهل المجتمعات قد تعودّوا أن يسعى الناس إليهم إلى حدّ يبدو فيه من يتهرّب منهم وكأنّه طائر العنقاء ويستحوذ على اهتمامهم.

فهل كان الدافع الحقيقيّ لدعوتي في ذهن السيّدة «دو غير مانت» (منذ لم أعد أحبّها) أنّني لا أسعى إلى ذويها مع أنّهم يسعون إليّ؟ لست أدري. ومهما يكن من أمر، فقد كانت تودّ، بعدما قرّرت أن تدعوني، أن تكرمني بأفضل ما كان في منزلها، وأن تبعد من ربّما استطاعوا من بين أصحابها أن يحولوا دون عودتي،أولئك الذين تعلم أنّهم مزعجون. ولم أدري إلى ما أردُّ تغيير طريق الدوقة حينما رأيتها تنحرف عن مسيرتها الكوكبيّة وتقبل لتجلس بالقرب منّي وتدعوني إلى العشاء، والأمر نتيجة أسباب مجهولة: فأنّنا لغياب حسّ خاصّ يحيطنا علماً بهذا الشأن نتمثّل الأشخاص الذين نكاد لانعرفهم – كأمري من الدوقة– ،كأنّهم لايفكّرون فينا إلاّ في اللحظات القليلة التي يلقوننا فيها. ولكنّ هذا النسيان المثالي الذي نتصوّر أنّهم يضعوننا فيه اعتباطيّ على الإطلاق حتّى إننا فيما نتصوّر في سكون العزلة الذي يشبه سكون ليلة جميلة ملكات المجتمع المختلفات يوالين سيرهن في السماء على مسافة لا متناهية لا يمكننا أن نملك النفس عن انتفاضة تكدّر أو سرور إن هبطت علينا من فوق، وكأنّما نيزك يحمل اسمنا منقوشاً وكنّا ظنّناه مجهولاً في الزهَرة أو «كاسيوبيه»[(١)] ، دعوة للعشاء أو قيل وقال.

وربّما قالت السيدة «دو غير مانت» أحياناً حينما كانت تبحث، على غرار أمراء فارس الذين كانوا يأمرون، حسبما ورد في «كتاب إيستر»، أن تقرأ عليهم السجلاّت التي دوّنت فيها أسماء الذين أبدوا من بين أتباعهم غيرة عليهم، تبحث في لائحة من كانوا حسني النوايا، ربّما قالت عنّي: «واحد سوف نطلب إليهْ إن يجيء للعشاء». ولكنّ أفكاراً أخرى شردت بها.

(إن الأمير حينما يحاط باهتمامات صاخبة

إنّما ينجرف باستمرار إلى أغراض جديدة)

حتى اللحظة التي لمحتني فيها وحيداً شأن «مردخاي» على باب القصر ؛ وإذ أنعشت رؤيتي ذاكرتها فقد ابتغت، شأن «أحشورش»، أن تغمرني بعطاياها.

على أنّه ينبغي لي أن أقول أن مفاجأة من نوع معاكس كانت تزمع أن تلي تلك التي أصابتني حينما دعتني السيّدة «دو غير مانت». ذلك أنّي لمّا رأيت أكثر اتّضاعاً فيما يخصّني وأوفر امتناناً ألا أخفي هذه المفاجأة

(١) Cassiopée من الأساطير اليونانية، زوجة «سيفي» ووالدة «أندروميدة»، أثارت غضب الآلهة فانقلبت مجموعة نجمية تحمل هذا الاسم.

الأولى وأن أبالغ على العكس في التعبير عمّا كان بها من أمر مفرح، فقد قالت لي السيّدة «دو غير مانت»، وكانت تستعدّ للذهاب إلى أمسية أخيرة، قالت بما يقارب أن يكون تبريراً وخشية ألاّ أكون علمت تماماً من كانت كي أبدو بمثل تلك الدهشة أن تتم دعوتي إلى منزلها: «تعلم أنّي عمّة «روبير دوسان لو» وأنّه سبق على أيّ حال أن تلاقينا هنا» . وإذ أجبت أنّني أعلم ذلك، أضفتُ أنني أعرف كذلك السيّد «دو شارلوس» الذي سبق أن كان شديد اللطف معي في «بالبيك» وباريس». وبدت الدهشة على السيّدة «دو غير مانت» وبدت نظراتها وكأنّها تعود، فيما يشبه التحقّق، إلى صفحة أكثر قدماً في الكتاب الداخلي. «عجباً! أو تعرف «بالاميد؟» . ويكتسب هذا الاسم في فم السيّدة «دو غير مانت» حلاوة عظيمة من جرّاء البساطة غير المتعمّدة التي كانت تتحدّث بها عن رجل لامع إلى هذا الحدّ ولكنّه بالنسبة إليها لايعدو كونه صهرها وابن العم الذي نشأت معه. كان اسم «بالاميد» هذا يضفي على العتمة الغامضة التي تمثّلها في نظري حياة دوقة «غير مانت» ما يشبه ضياء أيّام الصيف الطويلة التي لعبت فيها فتاةً وإيّاه في الحديقة في «غير مانت» . أضف أنّ «أوريان دوغير مانت» وابن عمّها «بالاميد» كانا في هذا الجزء من حياتهما الذي انقضى منذ زمن بعيد شديدي الاختلاف عمّا أصبحا عليه مذ ذاك، ولاسيّما السيّد «دو شارلوس» وقد انصرف بكليته إلى ميول فنّية أفلح في كبحها فيمابعد إلى حدّ أنّي ذهلت أن أعلم أن المروحة الضخمة ذات السوسن الأصفر والأسود والتي تبسطها الدوقة في هذه اللحظة قد رسمتها يداه. ولعلّه كان يمكنها أيضاً أن تريني «سوناتا» صغيرة كان قد ألفّها فيما مضى من أجلها. كنت أجهل تماماً أنّ للبارون كلّ هذه المواهب التي لم يكن يتحدّث عنها البتّة. ولنقل إذ نحن بهذا الصدد أن السيّد «دو شارلوس» لم يكن مغتبطاً أن يدعى في أسرته «بالاميد» . ولعلّه كان من الممكن أن ندرك أنّ الأمر فيما يخصّ «ميميه» ما كان ليروقه. فهذه الاختصارات الغبيّة دليل على قلّة الإدراك الذي تبديه الأرستقراطيّة تجاه شاعريتّها الخاصة (ولليهوديّة قلّة الإدراك نفسها بما أن أحد أبناء شقيق عقيلة «روفوس ايسرائيلز»، وكان يدعى «موسى»، كانوا يسمّونه عادة «مومو») وعلى اهتمامها في الوقت نفسه الاّ تبدو وكأنّها تعلّق أهميّة على ماكان أرستقراطيّاً. غير أن السيّد «دو شارلوس» كان يملك إزاء هذه النقطة خيالاً شاعرياً أوسع ويبدي اعتزازاً أكبر. ولكنّ السبب الذي يجعله قليل التذوقّ لـ «ميميه» لم يكن ذلك بالضبط بما أنّه كان يشمل ايضاً اسم «بالاميد» الجميل. والحقيقة انّه كان يودّ، إذ يحكم ويعلم أنّه سليل أمراء، لو يقول عنه شقيقه وزوجة أخيه: «شارلوس» كما كان بوسع الملكة «ماري اميلي» أو دوق «أورليان» أن يقولا عن أبنائهما وأحفادهما وأبناء أشقائهما وأشقائهما: «جوانفيل ونومور وشارتر وباريس» .

وصاحت قائلة: «أيّ متكتّم هو «ميميه» هذا! لقد حدّثناه عنك حديثاً طويلاً فقال لنا إنّه سوف يسعده أشدّ السعادة أن يتعرّف بك، كما لو أنّه بالضبط لم يرك في يوم. هيا اعترف أنّه غريب الأطوار وأنّه بين الحين والحين على شيء من الجنون، وليس من التلطفّ في شيء فيما يخصنّي أن أقول ذلك عن شقيق لزوجي أعشقه وأنا معجبة بعظيم قدره» .

ودهشت أيّما دهشة لهذه الكلمة التي تلصق بالسيّد «دو شارلوس» وقلت في نفسي إنّ بعض الجنون هذا ربّما أوضح بعض الأمور، كأن يكون بدا على سبيل المثال شديد الاغتباط لعزمه أن يسأل «بلوك» ضرب والدته. وانتبهت إلى أن السيّد «دوشارلوس» كان على بعض الجنون لامن جرّاء الأشياء التي كان يقولها فحسب، بل من جرّاء الطريقة التي كان يقولها بها. فحينما تسمع للمرّة الأولى محامياً أو ممثّلاً، تدهشك

لهجتهما المختلفة عن الحديث. ولكنّك إذ تبيّن أنّ الجميع يجدون الأمر طبيعياً جدّاً لا تقول شيئاً للآخرين ولا تقول شيئاً لنفسك وتكتفي بتقدير درجة الموهبة. وأكثر ماهنالك أن تظنّ فيما يخص ممثّلاً من فرقة المسرح الفرنسيّ: «لماذا أنزل ذراعه المرفوعة بحركات صغيرة متقطّعة تتخلّلها فترات راحة على مدى عشر دقائق على الأقلّ عوضاً عن أن يدعها تهوي؟»أو فيما يخصّ أمثال «لابوري»: «لماذا أصدر، ما أن فتح فاه، هذه الأصوات المأساوية غير المنتظرة ليقول أبسط الأمور؟» ولكنّما لايصدمك الأمر بما أن الجميع يسلّمون به قبلياً. كذلك كنت تقول في نفسك، بعد تفكير، إنّ السيّد «دو شارلوس» يتحدّث عن نفسه بأسلوب مفخّم وبلهجة ليست البتّة لهجة الالقاء المعتاد. ويخيّل إليك أنّه كان ينبغي أن يقال له في كلّ دقيقة: «ولكن، لماذا تصرخ بهذه القوّة، ولِمَ أنت وقح إلى هذا الحدّ؟» ولكنّما كان يبدو أنّ الجميع قد سلّموا ضمناً بأنّ الأمر حسن هكذا. فكنت تدخل حلقة الذين كانوا يهلّلون له فيما هو يخطب. على أنّه من المؤكدّ أنّه كان سيخيل لغريب في بعض الأحيان أنّه يسمع معتوها آخذاً في الصراخ.

وعادت الدوقة تقول بالوقاحة الطفيفة التي تنضاف لديها إلى البساطة: «ولكن، هل أنت على تمام اليقين من أنّك لاتخلط وأنّك تتحدّث بالضبط عن صهري «بالاميد»؟ فمهما شغف بالأسرار فإن الأمر يبدو لي مبالغاً فيه!...»

فأجبت أنّي على أتمّ اليقين وأن السيّد «دو شارلوس» لابدّ أساء سماع اسمي.

وقالت لي السيّدة «دو غير مانت» بما يشبه الأسف: «حسن! إنّي أتركك. ينبغي أن أذهب مقدار ثانية إلى منزل الأميرة «دولينيي». ألا تذهب إلى هناك؟لا، لست تحبّ عالم المجتمعات؟ إنّك على أتمّ الحقّ، فذلك مملّ. لو لم أكن ملزمة!، ولكنّها ابنة عمّي، وما ذلك بلطيف: إنّي آسف بدافع الأنانيّة، من أجلي أنا، فقد كان يسعني أن آخذك في عربتي وحتّى أن أعيدك. إنّي استودعك إذن، واغتبط لنهار الجمعة».

لابأس أن يكون السيّد «دو شارلوس» خجل منّي في حضرة السيّد «دار چنكور» فأمّا أن ينكر على شقيقة زوجته، وهي تحمل أرفع فكرة عنه، أنّه يعرفني، والأمر طبيعي إلى حدّ بعيد بما أني كنت أعرف عمّته وابن أخيه معاً، فذلك مالم يكن يسعني إدراكه.

وسأختتم ذلك بقولي إن السيّدة «دو غير مانت» كانت تتحلّي من وجهة نظر معينّة بسمّو حقيقيّ قوامه أن تطمس طمساً كليّاً كلّ مالعلّ غيرها ما تناساه إلا جزئياً فحتّى لولم تلقني في يوم أطاردها وألاحقها واقتفي آثارها في نزهاتها الصباحية، حتى لو لم تردّ على تحيتي اليومية بنفاد صبر حانق ولم تزجر في يوم «سان لو» حينما توسلّ إليها أن تدعوني، ماكان وسعها أن تسلك معي سلوكاً أكثر نبلاً وأوفر لطفاً فطريّاً. فلم تكن لتستوقفها استفسارات تتناول الماضي وتلميحات وابتسامات غامضة وإضمارات فحسب، ولم تكن تملك في لطافتها الراهنة، ودونما عود إلى الوراء، دونما تحفظ، شيئاً بمثل اعتزاز واستقامة قامتها المهيبة فحسب، بل كانت المآخذ التي أمكن أن تأخذها على أحدهم في الماضي تستحيل بكليّتها رماداً والرماد نفسه يلقى به بعيداً جدّاً عن ذاكرتها أو على الأقلّ عن مسلكها إلى حدّ أنّك لو نظرت إلى وجهها في كل مرة وقع لها أن تعالج بأفضل طرق التبسيط مالعلّه كان لدى كثيرين غيرها حجّة لبقايا جفاء وصنوف ملامة لأحسست بما يشبه

عملية تطهير.

ولئن دهشت للتبدّل الذي تمّ في داخلها إزائي فكم كانت دهشتي أعظم أن أجد في داخلي تبدلاً إزاءها أعمق بكثير! أفلم تكن ثمة فترة لاتعود فيها إليّ الروح والقوة إلاّ إذا بحثت، وأنا أُعدّ على الدوام مشروعات جديدة، عمّن يجعلها تستقبلني ويوفّر بعد هذه السعادة الأولى صنوفاً أخرى كثيرة من السعادة لفؤادي الذي يزداد تطلّباً؟ أمّا ماحلمني على الذهاب إلى «دونسيير» للقاء «سان لو» فاستحالة أن أجد شيئاً. أما الآن فمن جرّاء النتائج الناجمة عن رسالة منه أراني مضطرب النفس، ولكن بسبب السيّدة «دو ستير ماريا» لابسبب السيّدة «دو غير مانت».

ولنضف، بغية أن نأتي إلى ختام هذه الأمسية، أنّه جرى فيها حادث كذب بعد بضعة أيام ولم تنقطع دهشتي حياله وقد أثار الخلاف بيني وبين «بلوك» بعض الوقت وهو يشكّل في حدّ ذاته واحداً من هذه التناقضات الغريبة التي سنجد تفسيرها في نهاية هذا المجلد[1]. لم يكفّ «بلوك» إذن في منزل السيّدة «دو فيلباريزيس» عن الإشادة أمامي بمظهر اللطف لدى السيّد «دو شارلوس» الذي كان حينما يلتقيه في الشارع ينظر في عينيه وكأنّه يعرفه، كأنّه يتوق إلى التعرّف به، ويعلم تمام العلم من هو. وابتسمت لذلك بادئ الأمر إذ سبق لـ «بلوك» أن تحدّث في«بالبيك» بكثير من العنف بحقّ السيّد «دو شارلوس» نفسه. وظننت فحسب أنّ «بلوك» كان يعرف البارون «دون أن يعرفه»، على غرار والده بالنسبة إلى «بيرغوت»، وأنّ ما كان يعدّة نظرة لطيفة كان نظرة ساهية. ولكنّ «بلوك» بلغ في النهاية حدّاً من الإيضاحات الدقيقة وبدا متيقناً أن السيّد «دوشارلوس» ودّ مرتّين أو ثلاثاً أن يبادره بالحديث إلى حدّ أنّي افترضت، وقد تذكّرت أنّني رويت عن رفيقي للبارون الذي طرح عليّ بالضبط في عودتنا من زيارة لدى السيّدة «دو فيلباريزيس» أسئلة مختلفة حوله، أن «بلوك» لم يكن كاذباً وأنّ السيّد «دوشارلوس» عرف اسمه وأنّه كان صديقي،إلخ. ولذلك فقد طلبت بعد وقت يسير من السيّد «دو شارلوس» في المسرح أن أقدم له «بلوك» وذهبت في طلبه بناءً على موافقته. ولكن ما أن أبصره السيد «دوشارلوس» حتّى ارتسمت على محيّاه دهشة كتمها في الحال وحلّ محلّها غضب متطاير الشرر. فلم يمدّ لـ «بلوك» يده، وليس ذلك فحسب بل أجابه في كلّ مرّة وجّه هذا الأخير الكلام إليه بلهجة يشوبها أشدّ الوقاحة وبصوت غاضب وجارح. حتى إن «بلوك»، ولم يكن البارون قد قابله حتّى ذاك، فيما يقول، إلاّ بالابتسامات، ظنّ أنّي لم أوص به بل أسأت إليه في أثناء الحديث القصير الذي كلّمت فيه السيّد «دو شارلوس»، وأنا عارف بميله إلى الرسميّات، عن رفيقي قبل أن أصحبه إليه. وغادرنا «بلوك» منهكاً كمن شاء أن يعتلي صهوة حصان يوشك دوماً يجمح، أو أن يسبح بعكس أمواج ترتدّ دون انقطاع إلى رمال الشاطئ، ولم يعد يكلّمني طوال ستة أشهر.

لم تلذّ لي الأيام التي سبقت عشائي مع السيّدة «دو ستير ماريا» بل كانت لاتطاق. ذلك أنّه كلّما كان الوقت الذي يفصلنا عمّا نقصد إليه قصيراً بعامّة كلّما بدا طويلاً لأنّنا نطبّق عليه مقاييس أكثر قصراً، أو لمحض

(١) القسم الأول من كتاب «سادوم وعامورة» لأن هذه المؤلف كان يحوي في الطبعة الأصلية «جانب غير مانت٢» و«سادوم وعامورة١».

أنّنا نفكّر في قياسه. إنّ البابويّة فيما يقال تحسب بالقرون بل هي ربّما لاتفكّر في الحساب لأنّ غايتها تمتّد إلى مالانهاية. ولّما كانت غايتي على مسافة ثلاثة أيّام فحسب فقدكنت أحسب بالثواني وأنصرف إلى تلك التخيّلات التي هي بدايات مداعبات، مداعبات يثير حنقك أن لا تستطيع حمل المرأة نفسها على انجازها (تلك المداعبات بالضبط دون الأخريات جميعها). وخلاصة القول إن من صحّ بعامّة أن صعوبة بلوغ موضوع رغبة ما إنّما تنمّيها (الصعوبة لا الاستحالة لأنّ هذه تفضي عليها)، فإن اليقين، فيما يتعلّق برغبة جسديّة محضة، بأنّها ستتحقّق في وقت قريب ومحدّد ليس أقلّ إثارة من الشك، فإنّ غياب الشكّ إنّما يجعل انتظار اللذّة الواقعة لا محالة أمراً لايطاق، بمقدار ما يفعل الشكّ القلق تقريباً، لأنّ الغياب إنّما يجعل من ذلك الانتظار تحققاً لايحصى ويقسم الوقت من جرّاء كثرة التصورّات المسبقة إلى شرائح دقيقة على نحو ما قد يفعل القلق.

إنّ ما كان يلزمني هو امتلاك السيّدة «دوستير ماريا» فمنذ عدّة أيام كانت رغباتي قد أعدّت، بنشاط لاينقطع، تلك المتعة في خيالي، تلك المتعة وحدها. وما كانت سواها (المتعة مع أخرى غيرها) لتكون جاهزة، إذ المتعة لاتعدو كونها تحقيق شهوة سابقة ليست على الدوام واحدة وهي تتغير وفق آلاف المزجات في الأحلام ومصادفات التذكّر وحالة المزاج وترتيب جاهزية الرغبات التي يستريح آخر ما تمت تلبيته منها إلى أن تتنسى إلى حدّ ما خيبة الإنجاز. وكنت قد هجرت طريق الرغبات العامة العريض وسرت على درب رغبة أكثر خصوصيّة ؛ وكان لابدّ لي، بغية تمنّي موعد آخر، أن أعود أدراجي من مكان قصيّ لأدرك الطريق الرئيسيّ واتخذ درباً آخر، فامتلاك السيّدة «دو ستير ماريا» في جزيرة غابة بولونيا التي دعوتها للعشاء فيها، تلكم كانت المتعة التي كنت أتخيلها في كلّ دقيقة. ولعلها كانت تلاشت بالطبع لو تناولت عشائي في تلك الجزيرة بدون السيّدة «دوستير ماريا» ؛ بل ربما تناقصت أيضاً إلى حدّ بعيد لو تناولت عشائي في مكان آخر حتّى برفقتها. وإنّ المواقف التي نتمثّل متعةً ما وفقاً لها لسابقة على أيّة حال للمرأة، لنوعية النساء التي توافق ذلك. إنّها تتحكم بها، وكذلك يفعل المكان. وهي لهذا السبب تعيد بالتناوب إلى فكرنا المتقلب هذه المرأة أو تلك، وهذا الموقع أو ذاك، وهذه الغرفة أو تلك، ولعلّنا كنّا ازدريناها في أسابيع أخرى. فهؤلاء نساء. وهنّ وليدات الموقف، لا يستقيم أمرهنّ بمعزل عن السرير الواسع الذي نجد فيه راحة النفس إلى جانبهنّ، وأخريات يتطلبّن،كيما تتم مداعبتهنّ بمقصد أكثر خفاءً ، الأوراق خافقات في الريح والمياه في صميم الليل، وهنّ خفيفات متهرّبات بقدر ماهي.

وليس من شكّ أنّ جزيرة الغابة قد سبق أن بدت لي، قبل أن اتسلّم رسالة «سان لو» بفترة طويلة وحين لم يكن الأمر بعد أمر السيّدة «دو ستير ماريا» ، وكأنّها صنعت للمتعة إذ سبق لي أن وجدتني أمضي لأتذوق فيها حزني ألاّ يتوافر لي أيّة متعة أحجبها فيها عن الأبصار. وإنّا لنهيم على وجهنا على ضفاف البحيرة التي تقودنا إلى تلك الجزيرة والتي تمضي الباريسيّات، اللواتي لم يرحلن بعد، للنزهة على امتدادها في أسابيع الصيف الأخيرة، نهيم آملين أن تمرّ بنا الفتاة التي وقعنا في حبّها في آخر حفلة راقصة من العام والتي لن يسعنا من بعد أن نلقاها ثانية في أيّة أمسية قبل الربيع القادم، إذ لا نعلم من بعد أين نلتقيها، بل إن لم تكن قد غادرت باريس. وإذ نحس أننا في عشية رحيل المحبوب ، وربّما في غداته، فاننّا نسير على حافّة الماء المرتعش في تلك المسالك الجميلة حيث تزهر ورقة أولى حمراء وكأنّها وردة أخيرة، ونتحرّى ذلك الأفق حيث لاتعلم عينانا، من جرّاء خدعة معاكسة لخدعة تلك المناظر التي تضفي الأشخاص الشمعية الأمامية تحت استدارتها،

تضفي على اللوحة الخلفية المرسومة مظهر العمق والحجم الخدّاع، لاتعلم عينانا، إذ تنتقلان دون تمهيد من الروضة المزروعة إلى المرتفعات الطبيعية العائدة لـ«مودون» وجبل «فاليريان»، أين تضعان حدوداً وتدخلان السهول الحقيقية ضمن أعمال البستنة فتنقلان إلى ماخلف حدودها ذاتها متعتها الصنعية، وهو شأن تلك الطيور النادرة التي تنشأ طليقة في حديقة نبات والتي تمضي كلّ يوم على هوى نزهاتها المجنحة فتضع حتى في قلب الأحراج المجاورة لوناً غريباً. وإنّنا لنطوف بقلق، بين آخر احتفالات الصيف وغربة الشتاء، في هذه المملكة الخيالية للقاءات غير المؤكدة وكآبات الغرام ولعلّه لن يدهشنا أن تقع خارج العالم الجغرافي أكثر مما لو تم لنا في «فيرساي» في أعلى الشرفة، هذا المرقب الذي تتراكم السحب من حوله وتبرز على السماء الزرقاء وفق أسلوب «فان دير مولن»، أن نعلم، بعدما ارتفعنا على هذا النحو خارج الطبيعة، أنّ القرى، في المكان الذي تعود تلك الطبيعة فتبدأ فيه من جديد في آخر القناة الكبرى، تلك القرى التي لا نقوى على تمييزها في الأفق الملتمع كالبحر، إنّما تدعى«فلوروس» أو «نيميغ».

وبعدما تمرّ آخر عربة، حينما نشعر شعوراً مؤلماً بأنّها لن تجيء من بعد، نمضي للعشاء في الجزيرة. وفوق أشجار الصفصاف المرتعشة التي تذكر إلى مالانهاية بأسرار المساء أكثر مما تشكل جواباً لها، تضفي سحابة وردية لوناً أخيراً من الحياة في السماء الساكنة. وتسقط بعض قطرات من المطر دونما ضجة فوق الماء العتيق الذي ظلّ أبداً، في طفولته الرائعة، على حاله بالأمس والذي ينسى في كل لحظة صور السحب والأزهار وبعد أن تكافح أزهار الجير انيوم دون جدوى ضدّ الغسق المحلولك وذلك بتكثيف ضياء ألوانها، يقبل ضباب فيغمر الجزيرة التي تغفو. وتتنزّه في العتمة الرطبة على امتداد الماء، وأكثر مافي الأمر أن تدهشك خطرة تمّ يمرّ هادئاً مثلما في سرير ليليّ عينا طفل تنفتحان لحظة وابتسامته وماكنت تحسبه مستيقظاً. حينئذ تود لو تصحبك حبيبة وعلى نحو يتزايد بمقدار ما تلفي نفسك وحيداً ويسعك الظنّ بأنّك بعيد.

ولكن، كم كنت أزداد سعادة، في هذه الجزيرة التي كثيراً ما يغمرها الضباب حتّى في الصيف، أن أصطحب السيّدة «دوستير ماريا» الآن وقد حلّ الفصل المشؤوم، وقد حلّ آخر الخريف! ولو لم يجعل الطقس السائد منذ نهار الأحد، لو لم يجعل بمفرده المناطق التي يعيش فيها خيالي غائمة بحرية– مثلما تجعلها فصول أخرى معطّرة منورة إيطالية– لكان أملي في امتلاك السيّدة «دو ستير ماريا» بعد بضعة أيّام كافياً ليمدّ عشرين مرّة في الساعة ستاراً من الضباب في خيالي الذي يعصف به حنين لايتبدّل. والضباب الذي كان قد امتدّ منذ البارحة حتّى فوق باريس لم يكن يذكرّني على أيّة حال دون انقطاع بمسقط رأس الإمرأة الشابّة التي أقدمت على دعوتها فحسب، بل لما كان من المرجّح أنّه سيغمر الغابة في المساء وهو أشدّ كثافة منه في المدينة، ولاسيّما على ضفّة البحيرة، فقد ظننت أنّه سوف يحيل من أجلي جزيرة طيور التّم إلى ما يقرب من جزيرة «بريتانيه» التي أحاط جوّها البحريّ والضبابي أبداً في نظري إحاطة الرداء بطيف السيّدة «دو ستير ماريا» الشاحب. صحيح أن رغبتنا واعتقادنا ونحن أحداث، وفي سنّي يوم كنت أقوم بنزهاتي في جانب «ميز يكليز» إنّما يضفيان على رداء المرأة خاصيّة فرديّة وجوهراً لايردّ إلى سواه. فانت تلاحق الحقيقة. ولكنّما يبلغ بك في النهاية، لكثرة ما تفلت منك، أن تلاحظ أنّه قد ظلّ لديك من خلال جميع تلك المحاولات اللامجدية التي أفضت بك إلى العدم شيء صلب، وهو ما كنت تبحث عنه. وتبدأ باستخلاص ما تحبّ وبتعرّفه وتحاول الحصول عليه ولو كان ذلك لقاء خدعة، حينئذ إنّما يعني الثوب، في غياب الاعتقاد المتلاشي، ما يقوم مقام

هذا الأخير بوساطة وهم متعمد. كنت أعلم تمام العلم أنّني لن ألقى «بريتانيه» على مسافة نصف ساعة من بيتي. ولكنّني سوف أفعل وأنا أعانق أثناء النزهة السيّدة «دوستير ماريا» في ظلمات الجزيرة على ضفاف الماء، سوف أفعل ما يفعله آخرون ممّن لايستطيعون الدخول إلى دير فيلبسون امرأة قبل امتلاكها ثوب الراهبات على الأقلّ.

كان بوسعي حتّى أن أمني النفس بسماع بعض ثرثرة الموج برفقة المرأة الشابّة لأن عاصفة هبّت عشيّة دعوة العشاء. وكنت آخذاً في حلاقة ذقني للذهاب إلى الجزيرة بغية حجز الحجرة (على الرغم من خلوّ الجزيرة في هذه الفترة من العام وإقفار المطعم) وتقرير أطباق الطعام لعشاء الغد عندما أنبأتني «فرانسواز» بقدوم «ألبيرتين» وأمرت بأن تدخل في الحال، غير عابئ بأن تراني يقبحني ذقن أسود، تلك التي ما كنت أجدني يوماً في «بالبيك» على جمال كاف بالنسبة إليها والتي كلفتني آنذاك ما تكلفني السيّدة «دو ستير ماريا» الآن من اضطراب ومشقة. كان يهمني أن تحمل هذه الأخيرة أفضل انطباع ممكن عن سهرة الغد. ولذلك سألت «ألبيرتين» أن ترافقني في الحال حتّى الجزيرة كي تساعدني على وضع لائحة الأطباق. إن التي نمنحها كل شيء سرعان ما تحلُّ أخرى محلها حتّى لنعجب أن نهب مالدينا من جديد وفي كلّ ساعة دون أمل في المستقبل وبدا وجه «ألبيرتين» المشرق المورّد تحت قبعّة عريضة تنخفض إلى حدّ كبير حتّى لتحجب العينين، بدا وكأنّه حائر. فلا بد أن مقاصدها كانت مختلفة، وقد ضحت بها بيسر على أيّة حال من أجلي فبعثت في نفسي ارتياحاً كبيراً لأنّني كنت أعلّق الكثير من الأهمية على أن أصطحب ربّة منزل شابّة تعرف أفضل منّي بكثير كيف توصي على طعام العشاء.

والأكيد أنّها كانت قد مثّلت بالنسبة إليّ أمراً مختلفاً تمام الاختلاف في «بالبيك». ولكنّ ألفتنا، حتّى حينما نحكم أنّها ليست حينئذ كافية الوثاقة، بامرأة نهيم بحبها إنّما تنشئ بينها وبيننا، على الرغم من النواقص التي تعذّبنا آنذاك، روابط اجتماعية تظلّ قائمة بعد حبنّا وحتّى بعد ذكر حبنّا. حينئذ يدهشنا ويسلينا، في التي لم تعد بالنسبة إلينا سوى وسيلة ودرب يقودنا إلى أخريات غيرها، أن نعلم من ذاكرتنا ما عناه اسمها من أمر غريب بالنسبة إلى الكائن الآخر الذي سبق أن كنّاه بالأمس، بمقدار ما يتّم لنا إن انتبهنا، بعدما نلقي إلى الحوذي بعنوان في جادّة «الكبوشيات» أو جادّة «المعبرة» فيما نفكّر فحسب بالمرأة التي نزمع أن نلقاها فيهما، أن هذين الأسمين كانا فيما مضى اسم الراهبات الكبوشيات اللواتي يقوم ديرهنّ هناك واسم الزورق الذي كان يعبر نهر «السين».

صحيح أن أشواقي في «بالبيك» كانت قد أنضجت إلى أبعد الحدود جسد «ألبيرتين» وراكمت فيه مذاقات نديّة وعذبة حتّى أنّي كنت أقول في نفسي، أثناء مشوارنا في الغابة، وفيما كانت الريح، شأن بستاني دقيق في عمله، تهزّ الأشجار وتسقط الثمار وتكنس الأوراق اليابسة، إنّي ربما حدّدت لـ«ألبيرتين» موعداً في المساء نفسه وفي ساعة متأخرة إن اتفق أن كان «سان لو» مخطئاً، أو كنت أسأت فهم رسالته فلا يفضي بي عشائي برفقة السيّدة «دو ستير ماريا» إلى شيء، وذلك كي أنسى على مدى ساعة غرامية بحتة، وأنا أمسك بين ذراعي الجسد الذي سبق أن خمّن فضولي بالأمس وراز جميع صنوف الفتنة التي يزخر بها الآن،إنفعالات بداية الحبّ هذه للسيّدة «دو ستير ماريا» وربّما صنوف كربتها. وصحيح أأنني لو أمكنني افتراض أن السيّدة

«دو ستير ماريا» لن تمنّ علي بأي شيء في هذه الأمسية الأولى كنت تمثلت سهرتي وإياها على نحو مخيبّ للآمال إلى حدّ ما. كنت أعلم بالتجربة أتمّ العلم كيف أن المرحلتين اللتين تتعاقبان داخلنا في بدايات الحب هذا لامراة اشتهيناها دون أن نعرفها إذ أحببنا فيها الحياة الخاصة التي تغمرها أكثر منها ذاتها وهي لاتزال مجهولة لدينا تقريباً – كيف أن هاتين المرحلتين تنعكسان انعكاساً غريباً في مجال الوقائع، واعني لا في داخلنا من بعد بل في مواعدنا معها. لقد تردّدنا، دون أن نكون تحدّثنا إليها في يوم، وقد وقعنا في إغراء الشعر الذي تمثله في نظرنا فهل تكون هي أو أخرى غيرها؟ فاذا بالأحلام تستقرّ من حولها ولا تؤلف من بعد إلا شيئاً واحداً معها.

ولابدّ أن يعكس أوّل موعد معها هذا الحب الوليد. ولايتّم شيء من ذلك، وكما لو كان من الضروري أن تكون للحياة الماديّة أيضاً مرحلتها الأولى فاننّا نتحدّث إليها، وقد أحببناها مذ ذاك، أتفه الحديث: «لقد طلبت إليك المجيء للعشاء في هذه الجزيرة لأنّني حسبت أن الموقع سيروقك. وليس لدي على أي حال أمر خاص أقوله لك. ولكنّي أخشى أن يكون الطقس رطباً جداًوأن يصيبك البرد».– «لا، لا.»– «تقولين ما تقولين تلطفاً. إنّي أسمح لك ياسيّدتي أن تكافحي البرد ربع ساعة أيضاً كي لا أشيع الضيق في نفسك، ولكنّي سوف أعيدك بالقوّة بعد ربع ساعة، فلست أريد أن تصابي بزكام». ونعيدها دون أن نكون قلنا لها شيئاً ولا نتذكّر شيئاً منها، أو على الأكثر طريقة معينّة تنظر بها، ولكننا لا نفكرّ إلا في لقائها ثانية. بيد أن المرحلة الأولى، في المرة الثانية (وما عدنا نلقى حتّى النظرة، وهي الذكرى الوحيدة، ولكنّنا لانفكر من بعد على الرغم من ذلك – بل وأكثر بكثير من ذي قبل– إلا بلقائها ثانية) قد تم تجاوزها. ولم يجر شيء في غضون ذلك. بيد أنّنا نقول، عوضاً عن أن نتكلّم عن أسباب الراحة في المطعم، نقول، دون أن يدهش الأمر المرأة الجديدة التي نراها قبيحة ولكننا نودّ لو يحدّثونها عنا على مدى كامل دقائق حياتها: «سوف يقع علينا أن نفعل الكثير كي نتغلب على سائر العقبات المراكمة بين قلبينا. أتظنيننا نفلح في ذلك؟ وهل تتصوّرين أننا سنستطيع أن نقهر اعداءنا وأن نأمل مستقبلاً سعيداً؟» على أن هذه الأحاديث المتعارضة التي لاطائل تحتها بادئ الأمر والتي تلمح بعد ذلك إلى الحب لن تجري وكان بوسعي أن أصدق في ذلك رسالة «سان لو» فالسيدة «دوستير ماريا» سوف تسلم نفسها منذ أول مساء ولن تلح بي الحاجة إذن إلى استدعاء «ألبيرتين» إلى منزلي بمثابة أسوأ حل لنهاية السهرة. كان ذلك غير ذي جدوى وما كان «روبير» يبالغ قطّ ورسالته واضحة.

كانت «ألبيرتين» قليلة الكلام إذتحسّني مشغول البال. وقمنا ببضع خطوات سيراً على الأقدام داخل المغارة المخضوضرة التي تقرب أن تكون بحرية لدوحة كثيفة كنّا نسمع الريح تعصف بقبتها وترشهّا بالمطر. وكنت أدوس الأوراق اليابسة التي تنغرس في الأرض مثلما الأصداف وأدفع بعصاي كستناء شائكة كرخويّات الأخينوس.

كانت الأوراق الأخيرة المتقبضة فوق الأغصان لاتتبع الريح إلا بقدر طول معلاقها، ولكنّها كانت تهوي أحياناً على الأرض إن انقطع فتلحق بها جرياً. وكنت أفكرّ بسرور إلى أي مدى ستضحى الجزيرة في غد، إن دام هذا الطقس، أكثر بعداً ومقفرة إقفاراً كلياً في جميع الأحوال. وعدنا فصعدنا إلى العربة، ولما كانت العصفة قد هدأت سألتني «ألبيرتين» أن أتابع السير حتّى «سان كلو». وكمثل الأوراق اليابسة على الأرض

كانت السحب في السماء تتبع الريح. كان ثمّة عثيات مهاجرة، يكشف ضرب من المقطع المخروطي في السماء عن تناضدها الوردي والأزرق والأخضر، قد جهزت تماماً للانطلاق إلى مناخات أكثر صحواً. وكيما تبصر «ألبيرتين» عن كثب إلهة من المرمر كانت تندفع من قاعدتها وتملأ، إذ هي وحيدة في حرج كبير يبدو وكأنما كرس لها، تملأ ذاك الحرج بالرعب الأساطيري الذي نصفه حيواني والنصف مقدس والمنبعث من وثباتها العنيفة، كيما تبصرها اعتلت أكمة فيما كنت انتظرها على الدرب. كانت تبدو بدورها، إمّا شوهدت هكذا من أسفل، وليست من بعد سمينة بدينة شأنها على سريري في ذاك اليوم الذي تظهر فيه تحببات عنقها تحت مكبرة عيني القريبتين، بل منمقة الخطوط ورشيقة، كانت تبدو وكأنها تمثال صغير خلّفت عليها لحظات «بالبيك» السعيدة قشرتها الرقيقة وحينما عدت فوجدتني وحيداً في منزلي قلت في نفسي، وأنا أذكر أني قمت بمشوار بعد الظهر برفقة «ألبيرتين» وأنّي أتغدي بعد الغد لدى السيّدة «دو غير مانت»، وأنّه ينبغي لي أن أجيب عن رسالة لـ «جيلبيرت»، وهن ثلاث نساء كنت أحببتهنّ، قلت إن حياتنا الاجتماعية تزخر، شأن مشغل فنان، بمحاولاتٍ مهجورة ظنناً أنّه يسعنا أن نثبت فيها حاجتنا إلى حب كبير، ولكنما لم يخطر لي أنّه قد يتفق لنا أحياناً، إن لم تكن المحاولة مغرقة في القدم، أن نستعيدها وأن نجعل منها عملاً مختلفاً أتم الاختلاف، بل ربما كان أكثر أهمية من ذاك الذي سبق أن عقدنا عليه العزم بادئ الأمر.

وفي الغد كان الطقس بارداً وصحواً: كنت نحس الشتاء (وكان في الواقع شديد التسبيق حتّى ليبدو من قبيل الأعجوبة إن كنّا استطعنا أن نلقى في الغابة المخربة بعض القباب التي من أخضر ذهبيّ)، وأبصرت. وأنا أستيقظ، وكأنما من نافذة ثكنة «دونسيير» الضباب الكامد المتساوي الأبيض يتدلّى بمرح في الشمس متماسكاً ناعماً كالسكّر المغزول. ثم اختفت الشمس فتكاثف أيضاً بعد الظهر. وحلّ الليل في ساعة مبكرة فقمت بارتداء ملابسي ولكنّ الوقت كان لايزال مبكراً جداً للذهاب. وقررت إرسال عربة للسيدة «دو ستير ماريا». ولم أجرؤ على الصعود إليها كيلا أرغمها على قطع الطريق برفقتي، ولكنّي سلّمت الحوذيّ «كلمة» لها أسألها فيها إن كانت تأذن بأن أجيء لاصطحابها وبانتظار ذلك استلقيت على سريري وأطبقت عينيّ لحظة ثم عدت ففتحتهما من جديد. لم يعد ثمة فوق الستائر سوى حاشية دقيقة من الضوء آخذة في الإظلام. كنت أستبين هذه الساعة اللا مجدية، دهليز المتعة العميق، التي تعلمت في «بالبيك» كيف أتعرف فراغها العاتم اللذيذ حينما أشاهد، وأنا وحيد في غرفتي شأني الآن، وفيما الآخرون جميعهم على مائدة العشاء، أشاهد دون اغتمام احتضار النهار فوق الستائر وأعلم أنّه يزمع عما قليل، وبعد ليلة قصيرة قصر ليالي القطب، أن ينبعث أشدّ سطوعاً في لألاء «ريفبيل» فأقفز من سريري وأعقد ربطة عنقي السوداء وأمرّر الفرشاة في شعري، وهي آخر حركات في ترتيب متأخر أقوم بها في «بالبيك» وأنا أفكر لا في بل فيّ النساء اللواتي سأشاهدهن في «ريفبيل» فيما كنت ابتسم لهنّ مسبقاً في المرآة المائلة في غرفتي، وقد ظلت تلك الحركات لذلك العلامات التي تبشر بلهو تمتزج فيه الأضواء والموسيقى. فكانت شأن علامات سحرية توحي به بل تحققه مذ ذاك، ويتجمع لديّ بفضلها فكرة مؤكدة عن حقيقته واستمتاع مسكر طائش في مثل تمام ويقين ما كان يتجمع لديّ في «كومبريه» في شهر تموز حينما أسمع ضربات مطرقة حازم المتاع واستمتع في برودة غرفتي السوداء بالدفء والشمس.

ولم تعد السيّدة «دو ستير ماريا» لذلك، لم تعد تماماً من لعلّني كنت أتوق إلى لقائها. ولعلّني كنت

أفضلّ وأنا مضطرّ الآن لقضاء سهرتي معها، وإذ كانت تلك آخر سهرة لي قبل رجوع والديّ، أن تظلّ حرّة وأن يمكنني محاولة لقاء نسوة من «ريفبيل» مجدّداً. وعدت فغسلت يديّ مرّة أخيرة ونشفتهما، أثناء الجولة التي كان السرور يحملني على القيام بها عبر الشقة، في قاعة الطعام المظلمة. وبدت لي مفتوحة على الردهة المضاءة، ولكنّ ما أخذته على أنّه الشق المضاء في الباب الذي كان على العكس مغلقاً لم يكن سوى انعكاس منشفتي الأبيض في مرآة وضعت بمحاذاة الجدار بانتظار أن توضع في مكانها من أجل عودة أمي. وعدت بالفكر ثانية إلى جميع ضروب السراب التي سبق أن اكتشفتها على هذا النحو في شقتنا والتي لم تكن خدعاً بصريّة فحسب، ذلك أنّه خيل إليّ في الأيام الأولى أن جارتنا تملك كلباً من جراء النباح المتطاول والبشريّ تقريباً الذي تعوّده أنبوب في المطبخ في كل مرة يفتح فيها صنبور الماء. وما كان الباب المطلّ على صحن الدرج ينغلق من تلقاء ذاته ببطء شديد على إثر تيارات الهواء في الأدراج إلاّ بأداء نتف الجمل التي تنضح شهوة وشكوى والتي تنضاف إلى نشيد جوقة الحجاج في نهاية افتتاحية «تانهويزر» [1]. وقد سنحت لي الفرصة على أية حال، بعدما قمت باعادة منشفتي إلى مكانها، أن استمع ثانية إلى هذه المقطوعة السمفونية الرائعة، إذ جريت بعدما دوّت رنّة جرس لأفتح باب الردهة للحوذيّ الذي يحمل إليّ الجواب. كنت أحسب أنّ الأمر من هذا القبيل ؛ «إن هذه السيّدة في الأسفل» ، أو «هذه السيّدة تنتظرك» ولكنّه كان يمسك رسالة بيده. وتردّدت لحظة في الإطلاع على ماسطّرته السيّدة «دو ستير ماريا» التي كان يمكن أن تكون على غير هذه الصورة مادامت الريشة في يدها ولكنّها الآن، وقد أفلتت منها، مصير يوالي طريقه وحده ولاتستطيع أن تبدّل شيئاً فيه من بعد. وطلبت من الحوذي النزول والانتظار لحظة على الرغم من تذمّرة من الضباب وما أن انصرف حتّى فضضت المغلف. وعلى البطاقة كانت مدعوتي الفيكونتيسة «أليكس دو ستير ماريا» قد خطت: «إنّي مغتمة. ثمة ظرف طارئ يحول دون عشائي هذا المساء برفقتك في جزيرة الغابة. كنت مغتبطة بذلك. سوف أكتب إليك مطوّلاً من «ستير ماريا» إليك أسفي ومودتّي». وظللت لاحراك بي وقد أذهلتني الصدمة التي أصبت بها. كانت البطاقة والمغلف قد سقطا على قدميّ كحشوة سلاح ناري بعدما تنطلق القذيفة. ولممتهما وحللّت تلك الجملة «تقول لي إنّها لاتستطيع تناول العشاء معي في جزيرة الغابة». فيمكن أن نستخلص من ذلك أنّها قد تستطيع العشاء معي في مكان آخر. لن أتطفل فأمضي لاصطحابها، ولكنّما يمكن في النهاية فهم الأمر على هذا النحو» .ولما كان فكري قد أقام سلفاً منذ أربعة أيام في جزيرة الغابة هذه مع السيّدة «دو ستير ماريا» فلم يكن بمقدوري أن أفلح في إعادته منها. كانت، رغبتي تتخذ غير متعمدة المنحدر الذي سارت عليه منذ العديد من الساعات، وعلى الرغم من تلك البرقية، وهي أقرب عهداًمن أن تقوى عليها، كنت أستعدّ تلقائياً للذهاب مثلما يودّ تلميذ راسب في امتحان أن يجيب عن سؤال آخر إضافيّ. وانتهى بي الأمر أن أقرّر الذهاب لأقول لـ «فرانسواز» ان تنزل وتدفع للحوذيّ. واجتزت الممرّ وإذ لم ألقها مررت في قاعة الطعام. وفجأة كفت خطاي عن الضجيج فوق الأرضية الخشبية مثلما سبق أن فعلت حتّى ذاك وخرست يلفّها صمت خلّف في نفسي حتّى قبل أن أتعرف سببه شعوراً بالاختناق والاحتجاز. كان ذلك السجاد الذي شرعوا يثبتونه بالمسامير من أجل عودة والديّ، هذا السجاد الشديد الجمال في الصبيحات السعيدة حينما تنتظرك الشمس عبر

(١) مسرحية غنائية شهيرة لـ«فاغنر».

تبعثره شأن صديق جاء ليصطحبك إلى غداء في الريف، ويحطّ فوقه نظرة الغابة، ولكنّه يمثل الآن على العكس أوّل تجهيز للسجن الشتائي الذي لن أستطيع من بعد مغادرته بملء الحرية فيما أزمع أن أعيش فيه وأتناول طعامي فيه مع أسرتي مرغماً. وصاحت بي «فرانسواز»:

– «فيلحترس سيدي من السقوط فانّه لم يسمر بعد. كان ينبغي أن أوقد النار، فاننا في آخر «أيلول»، وقد انقضت أيام الصحو».

عما قليل يحل الشتاء، وفي زاوية النافذة عرق من الثلج المتصلب وكأنما على زجاج من «غاليه». وحتى في محلة «الشانزيليزيه» ليس سوى عصافير الدوري عوضاً عن الفتيات اللواتي تنتظرهنّ.

ما كان يزيد من كآبتي ألا ألقى السيّدة «دو ستير ماريا» أن جوابها كان يحملني على الظنّ بأنّها لم تفكر دون شكّ مرة واحدة بذلك العشاء فيما لم أعش منذ يوم الأحد إلا من أجله ساعة فساعة. وقد علمت فيما بعد أنّها أقدمت على زواج حبّ لايصدق بشاب لابد أنّها كانت تلتقيه في تلك الفترة وقد أنساها دونما شكّ دعوتي. ذلك لأنّها لو تذكرتها لما انتظرت دون ريب العربة التي ما كنت أزمع أن أبعث بها إليها على أية حال، وفق ما اتفقنا عليه، كيما تخطرني بأنّها لم تكن غير مرتبطة بموعد. كانت أحلامي، أحلام عذراء إقطاع في جزيرة ضبابية، قد أفسحت الطريق لحبّ لم يكن بعد قائماً. وكان باستطاعة خيبة أملي الآن وحنقي ورغبتي اليائسة في استعادة تلك التي أقدمت على استبعادي، كان باستطاعتها، وقد أشركت بالأمر مشاعري، أن تثبت الحب الممكن الذي كان محض خيالي حتّى ذاك قد قدمه لي ولكن على نحو أقل تماسكاً.

كم من وجه فتاة وامرأة شابة يعمر ذكرياتنا، وأكثر منها في زوايا النسيان، وكلها مختلفة ولم نضف إليها سحراً وشوقاً محموماً إلى لقائهن إلا لأنهن تهربن في آخر لحظة! أما فيما يخص السيدة «دو ستير ماريا» فالأمر أكثر بكثير وكان يكفيني الآن كيما أحبها أن أعود فألقاها كي تتجددّ تلك المشاعر المتقدة والبالغة القصر والتي ما كانت الذاكرة لتقوى لولا ذاك على الاحتفاظ بها في الغياب. وقد قضت الظروف بغير ذلك فلم أرها ثانية. ما كانت هي من أحببت، بيد أنه كان بالأمكان أن تكون هي. وإن من بين ما جعل الحب الكبير الذي كنت وشيك الوقوع فيه أكثر ما يكون قسوة أن قلت في نفسي، وأنا أتذكر هذه الأمسية، إنّه كان يمكن، لو تبدّلت ظروف بسيطة جداً، أن ينصرف إلى اتجاه آخر، إلى السيدة «دو ستير ماريا». فلم يكن إذن، وقد انصب على تلك التي أوحت إلي به بعد ذلك بقليل، لازماً لزوماً مطلقاً ومقدر الوقوع كما لعلني كنت راغباً إلى حدّ بعيد وكانت بي حاجة إلى تصديقه.

كانت «فرانسواز» قد تركتني وحدي في قاعة الطعام وهي تقول لي إنّي مخطئ إن مكثت فيها قبل أن توقد النار. لقد ذهبت لإعداد العشاء، ولقد بدأت عزلتي حتّى قبل وصول والديّ ومنذ هذا المساء. ولحت رزمة ضخمة من السجاد لاتزال ملفوفة وقد وضعت في زاوية الصوان فأخفيت رأسي فيها أبتلع غبارها ودموعي، شأني شأن اليهود الذين كان يغطون رؤوسهم بالرماد أيام الحداد، وطفقت انتحب. كنت أرتعش لا من جرّاء أنّ الحجرة كانت باردة فحسب، بل لأنّ انخفاضاً حرارياً هاماً (ولا نحاول مقاومة خطره، بل ربما انبغى أن نقول اللذة الطفيفة الناجمة عنه) إنما تشبه بعض دموع تنهمر من عينينا قطرة فقطرة مثل مطر خفيف نفاذ شديد البرودة يبدو وكأنّه لايزمع أن يتوقف في يوم. وسمعت فجأة صوتاً يقول:

– «هل أستطيع الدخول؟ قالت لي «فرانسواز» إنك لابدّ في قاعة الطعام. لقد جئت استطلع إن كنت لاتود أن نذهب لتناول العشاء معاً في أي مكان، وإن كان ذلك لايؤذيك إذ الضباب كثيف حتى لتقطعه بالسكين».

وكان «روبير دو سان لو»، وهو وصل في الصباح في حين كنت أظنّه لايزال في المغرب أو في عرض البحر. لقد قلت رأيي في الصداقة (وكان «روبير دو سان لو» بالضبط هو الذي مدّ لي يد العون رغماً عنه لأعي ذلك): ومفاده أنّها أمر زهيد إلى حدّ أنّه يعسر عليّ إدراك أن يكون رجال على شيء من النبوغ من أمثال «نيتشه» قد بلغوا من السذاجة أن يخصوها بقيمة فكرية وأن يمتنعوا بالتالي عن صداقات لاصلة لها بالتقدير الفكري. أجل لقد أدهشني أبداً أن أرى أن رجلا كان يبلغ بالصراحة مع ذاته حدّ الانقطاع عن موسيقى «فاغنر» بداعٍ من رهافة الوجدان قد تصوّر أنّ الحقيقة يمكن أن تتحقق في صيغة تعبير هي غامضة بطبيعتها وغير ملائمة وقوامها أعمال على وجه العموم وصداقات على وجه الخصوص وأنّه يمكن أن تكون ثمة دلالة، أيّة دلالة، في أن يترك المرء عمله ليذهب للقاء صديق ويبكي معه إذ يحاط علماً بنبأ حريق «اللوفر» الكاذب لقد بلغ بي في «بالبيك» أن أرى متعة اللهو مع فتيات أقل شؤماً على الحياة الروحية، وإنها لتظل على الأقلّ غريبة عنها، من الصداقة التي ينصرف كامل جهدها إلى حملنا على التضحية بالجزء الوحيد الحقيقي الممتنع على التواصل (بغير وساطة الفنّ) من ذواتنا لصالح «أنا» سطحية لاتجد كتلك الأخرى مسرة في ذاتها بل تجد تأثراً غامضاً في الإحساس بأنها تستند إلى ركائز خارجية وتستريح في شخصية غريبة تبث منها، وقد أسعدتها الحماية التي توفّر لها هناءها استحساناً وتستعجب من صفات لعلّها تدعوها عيوباً لديها وتحاول إصلاحها. وإن مزدري الصداقة ليستطيعون على أيّة حال، يستطيعون دون توهّم لا دون وخز ضمير، أن يكونوا أفضل أصدقاء في العالم مثلما يهب فنان يحمل في ذاته رائعة فنية ويحس أن واجبه يقتضيه أن يعيش ليعمل، يهب على الرغم من ذلك، وكي لايبدو أنانياً أو يقع له أن يكونه، حياته في سبيل قضية لاطائل تحتها ويهبها بشجاعة تتزايد بمقدار ما كانت الأسباب التي ربما فضل ألا يهبها من أجلها أسباباً متجردة. ولكن أياً كان رأيي في الصداقة، حتّى إن لم أتحدث إلا عن المتعة التي كانت توفرها لي وهي من نوعية ضحلة حتّى لتشبه ما كان واقعاً بين التعب والملل، فليس من شراب، مهما يكن مشؤوماً، إلا ويستطيع أن يضحى في بعض الساعات ثميناً مشجعاً إذ يجيئنا بضربة السوط التي كانت تلزمنا وبالحرارة التي لا نستطيع أن نجدها في ذواتنا.

وما أبعد ما كنت بالحقيقة عن أن ابتغي سؤال «سان لو»، مثلما كنت راغباً في ذلك قبل ساعة، أن يهيئ لي لقاء جديداً مع نسوة «ريفبيل»، فالأخدود الذي خلفه في نفسي أسفي على السيّدة «دو ستير ماريا» كان يرفض أن يمحى بهذه السرعة، ولكنّما حين لم أعد أحس في نفسي أيّا من أسباب السعادة كان دخول «سان لو» بمثابة حلولٍ لطيبة ومرح وحياة كانت خارج ذاتي دونما شكّ ولكنها كانت تقدّم نفسها ولاتبغي إلا أن تكون لي. ولم يدرك هو نفسه صيحة امتناني ودموع تأثري. فهل هنالك ما كان أكثر مودّة على نحو مفارق على أيّ حال من واحد من هؤلاء الأصدقاء، ديبلوماسياً كان أو مكتشفاً أو طيّاراً أو جندياً شأن ما كان «سان لو»، الذين يبدون، وهم يعودون في الغد إلى الريف ومن هناك إلى حيث يعلم الله. وكأنّهم يضمنون لأنفسهم السهرة التي يكرسونها لنا انطباعاً يدهشنا أن يستطيع، لشدّة ندرته وقصره، أن يلذ لهم إلى هذا الحدّ، وأن نراهم لايطيلون فيه أكثر من ذلك أو لا يجدّدونه مرات أكثر بما أنّه يروقهم إلى هذا الحدّ؟ إن طعاماً

يتناولونه معنا، وهو أمر طبيعي جداً، إنما يولي هؤلاء المسافرين المتعة الغريبة واللذيذة نفسها التي توليها شوارعنا لأحد الأسيويين. وذهبنا سوية لتناول طعام العشاء، وفيما كنت انحدر على الأدراج تذكرت «دونسيير»، حيث كنت أمضي كلّ مساء للحاق بـ«روبير» في المطعم، وحجرات الطعام الصغيرة المنسيّة. وتذكّرت واحدة لم أكن قد عدت إلى التفكير بها قطّ ولم تكن في الفندق الذي كان «سان لو» يتعشى فيه بل في آخر أكثر اتضاعاً بكثير وهو وسط بين الفنادق والنزل العائلية وتقدّم الطعام لك فيه صاحبته وواحدة من خادماتها. وكان الثلج قد أوقفني هنالك؛ ولم يكن «روبير» يزمع في ذلك المساء أن يتناول العشاء في الفندق فلم أشأ أن أمضي إلى أبعد من ذلك. وحملوا إليّ الأطباق إلى فوق حجرة صغيرة كلّها من خشب. وانطفأ المصباح في أثناء العشاء فأشعلت لي الخادمة شمعتين. أما أنا فقد تظاهرت بأني لا أرى بوضوح تام وأنا أمد إليها قصعتي فيما كانت تضع فيها البطاطا فأخذت ساعدها العاري بيدي وكأنما لأرشدها. وإذ رأيت أنّها لاتسترده قمت بمداعبته ثمّ شددتها إليّ كلياً دون أن أنبس ببنت شفة وأطفأت الشمعة وقلت لها حينئذ أن تفتشني كي تحصل على بعض المال. وبدا لي في الأيام التي تلت أن المتعة الجسدية تقتضي، كيما يتم تذوقها، لاتلك الخادمة فحسب، بل حجرة الطعام الخشبية المعزولة تماماً. بيد أنّني إنّما عدت في كلّ مساء إلى حجرة الطعام التي كان «روبير» وأصدقاؤه يتعشون فيها، بداعي العادة، بداعي الصداقة وذلك حتّى رحيلي من «دونسيير» على أنّي لم أعد أفكر منذ فترة طويلة حتى بذلك الفندق الذي كان يحّل نزيلاً فيه مع أصدقائه. إننا لانفيد من حياتنا وندع الساعات التي بدا لنا أنه يمكن لقليل من الراحة أو المتعة أن يحتبس فيها، ندعها غير مكتملة في سويعات الشفق في الصيف وفي ليالي الشتاء المبكرة. ولكن هذه الساعات لاتذهب هدراً. فحينما تصدح لحظات جديدة من المتعة، وقد تنقضي على نحوها وفي مثل نحولها وخطيتها، تقبل لتحمل إليها قاعدة ارتكازها وتماسك جوقة غنية من الذكريات، وتمتد هكذا حتّى واحد من صنوف السعادة النموذجية التي لا نلقاها إلا بين حين وآخر ولكنّها تستمرّ في البقاء؛ وفي المثال الراهن كان قوام الأمر التخلّي عن الباقي كلّه لتناول العشاء في إطار مريح يتضمن بفضل الذكريات داخل لوحة طبيعية وعوداً بالسفر، برفقة صديق سوف يحرّك حياتنا الراكدة بكل طاقته وكلّ مودّته ويبعث في نفسنا متعة تهزّ مشاعرنا وهي شديدة الاختلاف عن تلك التي يمكن أن ندين بها لجهدنا الخاصّ أو لصنوف من اللهو الاجتماعي. وسوف ننصرف إليه وحده ونبثه عهود الصداقة التي ربما لم يير بها بما أنّها ولدت ضمن قضبان هذه الساعة وستظل حبيسة داخلها، ولكنّي كنت أستطيع أن أبثها دون توجس لـ «سان لو» بما أنّه سيكون قد رحل في الغد بشجاعة يداخلها الكثير من الحكمة واستشفاف أنّ الصداقة لايمكن أن تتعمق.

ولئن كنت أعيش ثانية عشيّات «دونسيير» فيما أنحدر على الأدراج فإن الليل المطبق، حينما بلغنا الجادة، الليل الذي بدا فيه الضباب وكأنّه أطفأ المصابيح التي ما كنت تميزها، وهي ضعيفة جدّاً، إلاّ عن قرب شديد قد ردّني إلى ما لست أدري من وصول في المساء إلى «كومبريه» حين لم تكن المدينة منارة بعد إلا على مسافات متباعدة ويتلمس المرء طريقه فيها عبر عتمة مذود رطبة دافئة مقدّسة ترصعها ههنا وهناك، ولاتكاد فتيلة مصابيح لا يسطع أكثر مما تفعل شمعة. ولكن أيّة فروق بين عام «كومبريه» هذا، وهو غير محدّد على أي حال، وعشيات «ريفبيل» التي عدت أراها منذ قليل فوق الستائر! كنت أحس في ترائيها لي حماسة كان يمكن أن تكون خصبة لو أنني بقيت وحدي وكانت جنبتي على هذا النحو عطفة العديد من السنوات اللا

مجدية التي أزمع المرور بها قبل أن تظهر بوادر هذه الموهبة الخفية التي يؤلف هذا الكتاب قصتّها، ولو اتفق هذا الأمر في ذاك المساء لحقّ أن تظلّ هذه العربة جديرة بالذكرى في نظري أكثر من عربة الدكتور «بير سبييه» التي سبق أن ألفت على مقعدها وصفاً صغيراً لقباب أجراس «مارتنفيل» – سبق بالضبط أن عثرت عليه منذ وقت قليل مضى ورتبتّه وبعثت به، وعبثاً فعلت، إلى صحيفة الـ«فيغارو»– أفلأننا لا نعيش ثانية سني عمرنا في تسلسلها المستمر ويوماً إثر يوم بل في الذكرى التي تسمرت في برودة أو إشماس صباح أو مساء وامتدّ عليها ظلّ موقع، أيّ موقع، منعزل سجين أسوار ثابت جامد قصيّ بعيد عن كلّ ماعداه، وأنّ التبدلات المتدرجة تفضي هكذا إلى زوال لافي الخارج فحسب، بل في أحلامنا وطباعنا المتطورة التي قادتنا على نحو لاشعوري عبر الحياة من زمن إلى آخر سواه شديد الاختلاف عنه؟ فإن عشنا ثانية ذكرى أخرى نقتطعها من سنة مختلفة وجدنا بينها من جرّاء ثغرات ومساحات شاسعة من النسيان ما يشبه الهوّة الناجمة عن فارق الارتفاع وما يشبه تنافر مزيتين لا مجال لتشابه بينهما من هواء مستنشق وألوان محيطة. ولكنّي كنت أحسّ بين الذكريات التي توالت منذ قليل في خاطري عن «كومبريه» و«دونسيير» و«ريفبيل» أكثر من فاصل الزمن، كنت أحس بالمسافة التي يمكن أن تقوم بين أكوان مختلفة ليست المادّة فيها واحدة. ولو شئت أن أحاكي في مؤلف المادة التي كانت أتفه ذكرياتي تبدو لي منقوشة فيها لانبغى لي أن أجعل عروقاً وردية في المادة التي كانت تشبه حتى ذاك صخر «كومبريه» الرمليّ القاتم القاسي وأن أحيلها فجأة مادّة شفافة متراصة باردة رنّانة.

ولكن «روبير» لحق بي في العربة بعدما انتهى من تزويد الحوذيّ بايضاحاته. وفرّت الأفكار التي تبدّت لي. فتلك آلهات يتنازلن أحياناً ويظهرن لأحد الفانين المتوحدّين في عطفة طريق وحتّى في غرفته أثناء نومه حين يقفن بالباب ويحملن إليه بشارتهن. ولكنّهن يختفين ما أن نضحى اثنين فالناس إن اجتمعوا لايشهدونهن البتة. وألفيتني أرتد إلى الصداقة.

كان «روبير» قد حذرني لدى وصوله أنّ الضباب كثيف، ولكنه لم يفتأ يزداد كثافة فيما كنّا نتحدّث. فلم يعد ذاك الضباب الخفيف الذي تمنيت أن أراه يتصاعد من الجزيرة ويلفنا أنا والسيّدة «دوستير ماريا» فالمصابيح كانت تنطفئ على خطوتين ويحلّ الليل إذ ذاك حالكاً حلكة وسط الحقول أو في غابة أو بالأحرى في جزيرة غير متماسكة من مقاطعة «بريتانيه». كنت وددت لو أذهب إليها، وأحسستني ضائعاً وكأنما على شاطئ بحر شمالي تواجه الموت فيه عشرين مرّة قبل أن تصل إلى نزل منفرد. وأخذ الضباب يضحى، وقد كفّ عن كونه سراباً نبحث عنه، واحداً من تلك المخاطر التي نكافحها حتّى أننا واجهنا لنجد طريقنا ونصل إلى دار الأمان والمصاعب والقلق ومن ثمّ الفرح الذي يوليه الأمان – وما أبعده عن إحساس من ليس مهدداً بفقدانه –للمسافر الحائر المبلبل الذهن شيء واحد أوشك أن يودي ببهجتي في أثناء رحلتنا الملأى بالأخطار بسبب الدهشة الخانقة التي رماني فيها لحظة، فقد قال لي «سان لو»: «تدري، لقد رويت لـ «بلوك» أنك لاتحبه إطلاقاً إلى هذا الحدّ وأنّك ترى له بعض جوانب سوقية». وخلص يقول قول الراضي عن نفسه بلهجة لاتقبل الجواب: «هذه حالي، إنّي أحبّ المواقف الواضحة». لقد أصابني الذهول، فلم تكن ثقتي مطلقة إلى أبعد حدّ بـ«سان لو» وبصدق صحبته فحسب. وقد خانها بما قاله لـ«بلوك»، ولكنّما بدا لي إلى ذلك أنّه كان لابد له أن يحول بينه وبين ما فعل معايبه وصفاته على حدّ سواء وهذا المكتسب الخارق على صعيد التربية والذي كان يمكن أن يبلغ بالتهذيب حدّ مجانبة الصراحة بعض الشيء فهل كان مظهره المظفر المظهر الذي نتخذه لنخفي

بعض الارتباك إذ نبوح بأمر نعلم أنه ما كان ينبغي لنا أن نفعله؟ وهل كان يعرب عن شيء من اللاتقدير؟ عن غباء يضع موضع الفضيلة عيباً ما كنت أعرفه لديه؟ عن نوبة غضب عابرة عليّ تدفعه إلى هجري أم تسجيل نوبة غضب عابرة إزاء «بلوك» وقد شاء أن يقول له أمراً مكدّراً وإن أدّى إلى الأساءة إليّ؟كان وجهه على أيّ حال، وهو يقول تلك الأقوال التافهة، يند به التواء رهيب لم أبصره لديه سوى مرّة أو مرتين في الحياة وكان يتبع بادئ الأمر منتصف الوجه تقريباً فاذا بلغ الشفتين لواهما فأضفى عليهما تعبيراً بشعاً من السفالة وما يقارب الحيوانية العابرة والموروثة دون شكّ عن الأجداد. كان لابدّ أن يتم في تلك اللحظات التي لاتعود دون شكّ سوى مرّة كل سنتين احتجاب جزئي لأناه الخاصة بمرور شخصية أحد الجدود عليه وانعكاسها فيه. وكلمات «روبير» :«إني أحبّ المواقف الواضحة» كانت تفضي إلى الريبة نفسها وربما استوجبت، لابد في ذلك، الملامة نفسها التي تستوجبها هيئة الرضى لديه. كنت أودّ أن أقول له إنّه ينبغي، إن أحببنا المواقف الواضحة، أن تنتابنا موجات من الصراحة فيما يتعلّق بنا وألاّ نبدي من سهل الفضيلة على حساب الآخرين. ولكن العربة كانت قد توقفت أمام المطعم الذي كانت واجهته العريضة المزججة المتوهجة تفلح وحدها في اختراق الظلمة. والضباب نفسه، من جرّاء الأضواء المريحة في الداخل، كان يبدو حتّى الرصيف وكأنما يدللك على المدخل بغبطة هؤلاء الخدم الذين يعكسون نفسيات سيّدهم ؛ كان يتقزح بأكثر الألوان لطافة ويشير إلى المدخل مثل العمود المضيء الذي قاد العبرانيين. وكان الكثير منهم على أي حال بين الزبائن، ذلك أنّ «بلوك» وأصدقاءه سبق أن جاؤوا على مدى فترة طويلة يلتقون في المساء وبهم نشوة صوم يجوعهم بقدر ما يفعل الصوم الطقسي الذي لايحل على الأقل إلا مرّة في العام، صوم عن المقهى، وحبّ استطلاع السياسة. ولما كانت كل إثارة ذهنية تخلف قيمة تفضل سواها وميزة فائقة للعادات التي تتعلق بها فليس من ميل على شيء من القوة إلا ويؤلف على هذا النحو من حوله مجتمعاً يوحده ويكون تقدير الأعضاء الآخرين فيه هو التقدير الذي يسعى إليه كلّ منهم أوّل ما يسعى في الحياة. وإنّك لتجد هنا، حتّى في مدينة ريفية صغيرة، عشاقاً يهيمون بالموسيقى ؛ فهم ينفقون أفضل الوقت لديهم وأكثر ما لهم في حفلات موسيقى الحجرة، وفي الاجتماعات التي يجري الحديث فيها عن الموسيقى، وفي المقهى الذي يلتقي فيه الهواة فيما بينهم ويجلسون جنباً إلى جنب مع الموسيقيين. أمّا غيرهم فعشاق طيران وهمهم أن يحسنوا في عين خادم البار المزجج وقد جثم في أعلى المطار. وسيستطيع هنا وهو بمأمن عن الريح، وكأنما في قفص منارة زجاجي، أن يتابع برفقة طيار لايطير في هذا الوقت تحركات قائد طائرة يقوم بدورات عمودية حول ذاته فيما قام آخر، وكان لايرى قبل لحظة، بالحط فجأة على الأرض والارتطام بها محدثاً الضجيج الضخم الذي لجناحي طائر الرخ. إن الجماعة الصغيرة التي كانت تلتقي لتجهد في استمرار الانفعالات الخاطفة الناجمة عن محاكمة «زولا» وتعميقها كانت تعلق كذلك أهمية كبرى على هذا المقهى. ولكنّ النبلاء الشباب الذين كانوا يؤلفون القسم الآخر من الزبائن لم يكونوا ينظرون إليها بعين الرضى وقد اتخذوا لأنفسهم قاعة ثانية في المقهى مفصولة عن الأخرى بمحض ساتر خفيف تزينه الخضرة. كانوا يعدون «دريفوس» وأنصاره خونة على الرغم من أن أبناء هؤلاء النبلاء الشباب أنفسهم، بعد خمسة وعشرين عاماً وبعدما اتسع الوقت لتحلّ الأفكار في مراتبها ولتتخذ «النزعة الدريفوسية» في التاريخ شيئاً من الأناقة، أبناءهم البارعين في الرقص ذوي النزعة البلشفيّة لابدّ سيعلنون «للمثقفين» الذين يسائلونهم أنّهم لو عاشوا في ذلك الزمان لكانوا بالتأكيد إلى جانب «دريفوس» دون أن يعلموا عن جوهر القضية ما يجاوز كثيراً ما يعرفونه عن الكونتيسة «أدمون دو بورتاليس» والمركيزة «دو غاليفيه»،

وهمامن أمجاد أخرى انطفأت يوم مولدها. ففي أمسية الضباب هذه كان نبلاء المقهى الذين سيصبحون فيما بعد آباء هؤلاء المثقفين الشباب الدريفوسييّ النزعة باتجاه الماضي لايزالون فتياناً. صحيح أن عائلات الجميع كانت تتطلع إلى زواج غنّي، ولكنه لم يكن بعد قد تحقق لأحد. كان ذاك الزواج الغنيَ الذي يشتهيه كثيرون في الآن نفسه ولايزال بعد في دنيا الاحتمال، (صحيح أن هنالك عدّة «زوجات ثريات» مرتقبات ولكنّ عدد البائنات الضخمة أقلّ بكثير من عدد المرشحين) كان يقف عند حدّ إثارة بعض التنافس بين هؤلاء الشبان.

وقد شاء سوء الطالع فيما يخصني أن اضطرت إلى الدخول بمفردي إذ ظلّ «سان لو» بضع دقائق يخاطب فيها الحوذي كيما يعود فيأخذنا بعد تناول العشاء. ففي البداية ظننت بعدما دخلت في الباب الدوار الذي لم أتعوّده أنّني لن أفلح في الخروج منه. (ولنقل، إذ نحن بهذا الصدد، بالنسبة إلى هواة مفردات أكثر دقة، إن هذا الباب المنفاخ إنّما يدعى على الرغم من مظهره السلمي الباب المسدس، من الإنكليزية « Revolving door (*)) وقد لبث صاحب المطعم في ذلك المساء، إذ لم يجرؤ على البلل بالذهاب خارجاً ولا على ترك زبائنه، لبث مع ذلك بالقرب من الباب كي يمتع النفس بسماع شكاوى الوافدين المبهجة وقد أشرقت أساريرهم أيما إشراق بارتياح من صادف مشقة في الوصول وخالجه الخوف من الضياع، بيد أنّ ودّ استقباله الضاحك تلاشى من جرّاء رؤية مجهول لايعرف كيف يتخلص من المصاريع الزجاجية. وقد حملته علامة الجهل الفاضح هذا على تقطيب حاجبيه تقطيب فاحص شديد الرغبة في الامتناع عن النطق بعبارة «Dignus estintrare» (إنّه أهل للدخول). وزيادة في سوء الطالع ذهبت وجلست في القاعة المخصصة لأرستقراطيين فجاء يسحبني منها يخشونه وهو يدلني بفظاظة حذا حذوه فيها فوراً جميع الخدم، على مكان في القاعة الأخرى، كان إعجابي به قليلاً بمقدار ما كان المقعد الذي يقع فيه مليئاً بالناس وأنّ قبالتي الباب المخصص للعبريين الذي لم يكن دواراً بن كان يحمل إليّ برداً مخيفاً إذ ينفتح وينغلق في كل لحظة ولكنّ صاحب المطعم رفض خصي بمكان آخر وهو يقول: «لاياسيد، لايمكنني إزعاج الجميع من أجلك». ونسي بعد قليل على أيّة حال المتعشي المتأخر والمزعج الذي كنته وقد أخذه وصول كلّ وافد جديد كان عليه، قبل أن يطلب كأس البيرة أو جناح الفروج البارد أو الشراب الساخن (إذ انقضت ساعة العشاء منذ وقت طويل)، كما هي الحال في الروايات القديمة، أن يشارك وذلك براوية مغامرته لحظة كان يدخل إلى ملجأ الدفء والأمان هذا حيث كان التناقض مع مانجا منه المرء يشيع المرح وروح الرفاقية اللذين يمزجان سوية أمام نار معسكر في العراء.

كان أحدهم يروي أن عربته قد دارت ثلاث مرّات حول مبنى «الأنفاليد» إذ تبادر لها أنّها وصلت إلى جسر «الكونكورد» وآخر أن عربته قد دخلت، وهي تحاول الإنحدار في شارع «الشانزيليزيه»، في كتلة شجراء من المستديرة قضت ثلاثة أرباع الساعة في الخروج منها. ثم تلي ذلك منادب حول الضباب والبرد وصمت القبور في الشوارع كانت تحكى ويصغى إليها بهيئة الابتهاج اللا متوقع الذي يفسره جوّ القاعة اللطيف حيث يعم الدفء باستثناء المكان الذي أشغله والنور الشديد الذي ترف له العيون وقد تعوّدت ألا تبصر وجلبة الأحاديث التي تعيد للآذان نشاطها.

(*) الباب الدوار.

كان الوافدون يجدون مشقة في التزام الصمت. ذلك أنّ غرابة الحوادث الطارئة، ويظنونها فريدة، كانت تكوي ألسنتهم فيبحثون بالعين عمّن يباشرون الحديث معه. حتّى صاحب المطعم أخذ يفقد حسّ المسافات ولم يخش أن يقول ضاحكاً: «لقد ضاع السيد الأمير «دوفوا» ثلاث مرات وهو آت من بوابة «سان مارتان»، ولا يغفل أن يدل، وكأنما في تعارف، على الأرستقراطي الشهير محامياً يهودياً لعلّه كان فصله عنه في أي يوم آخر حاجز تفوق صعوبة اجتيازه أكثر من النافذة المزدانة بالخضرة. وقال المحامي وهو يلمس قبعته: «ثلاث مرّات! أرأيت لذلك». ولم يستسغ المحامي جملة المقاربة هذه. فقد كان من جماعة أرستقراطية تبدو لها ممارسة الوقاحة، حتّى تجاه فئة النبلاء حين لاتنتمي إلى أرفع مرتبة، وكأنها الشاغل الوحيد. لايردون على تحية ؛ فان أعاد الرجل المهذب الكرة قهقهوا بهيئة ساخرة أو ردوا الرأس إلى الوراء بهيئة حانقة ؛ويتظاهرون بأنّهم لايتعرفون رجلاً مسناً سبق أن أدى لهم خدمات ؛ ويقفون المصافحة والتحية على الدوقة والأصدقاء الحميمين للدوقة ممّن يعرّفونهم بهم: ذلكم كان موقف هؤلاء الشبان ولاسيما الأمير «دوفوا». كان مثل هذا الموقف تيسّره فوضى سني الشباب الأولى (التي يظهر المرء فيها عقوقاً، حتّى في البورجوازية، ويبدي فظاظة لأنّه نسي على مدى شهور أن يكتب إلى محسنٍ فقد زوجته منذ فترة قليلة ثم هو لايحييه من بعد لاختصار الأمور)، ولكنما توحي به على وجه الخصوص سنوبيّة طبقية حادّة. صحيح أن تلك السنوبية، مثلها مثل بعض الأمراض العصبية التي تخف أعراضها في سن النضوج، كان لابد بعامة أن تكف عن الظهور ظهوراً عدائياً إلى هذا الحدّ لدى أولئك الذين سبق أن كانوا شباباً لايطاقون. فمن النادر أن يظل المرء حبيس الوقاحة بعدما ينقضي الشباب. لقد ظنّوا أنّها موجودة وحدها، ويكتشفون فجأة، مهما بلغوا من إمارة، أن ثمة الموسيقى أيضاً والآداب وحتّى التمثيل النيابي وبذلك يتغير ترتيب القيم الإنسانية ونباشر الحديث مع الناس الذين كنّا نرشقهم فيما مضى بنظرات غاضبة.فليحالف التوفيق أولئك الذين تحلّوا بالصبر للانتظار والذين حسنت طباعهم إلى حد ما – إن كان لابد أن نقول قولاً من هذا القبيل– كي يلقوا متعة في أن يتقبلوا حوالي الأربعين اللطف والاستقبال اللذين حجبا عنهم بجفاء في سن العشرين!

ويجدر أن نقول فيما يخص الأمير «دوفوا»، بما أنّ الفرصة قد سنحت، أنّه كان في عداد جماعة تتراوح بين اثني عشر إلى خمسة عشر شاباً وزمرة محدودة أكثر قوامها أربعة. أمّا جماعة الاثني عشر إلى خمسة عشر فقد كانت تتصف بهذه الميزة التي كان الأمير بمنأى عنها، فيما أعتقد، وقوامها أنّ هؤلاء الشبان كانوا يبدون، كلّ فيما يخصه، مظهراً مزدوجاً. فقد كانوا يبدون، وقد غرقوا في الديون، عديمي الشأن في نظر ممونيهم على الرغم من المتعة التي يصيبها هؤلاء في أن يقولوا لهم: «سيدي الكونت... سيدي المركيز»... سيدي الدوق...» وكانوا يأملون الخروج من المأزق بوساطة «الزواج الغني» المدعوّ أيضاً «بالجراب الكبير، ولما كانت البائنات الضخمة التي يطمعون بها لا تتجاوز الأربع أو الخمس فقد كان العديد ينصبون مدافعهم في الخفاء في سبيل الخطيبة نفسها. وكان السرّ يحسن كتمانه إلى حدّ أنّ العديد من الصيحات كانت تدوّي، حينما يقول أحدهم وهو آت إلى المقهى: «يا أحسن الأحبة إني أودكم أكثر من ألا أخبركم بخطوبتي للآنسة «دامبرساك»، إذ يظنّ العديد منهم أنّ الأمر معها تحصيل حاصل بالنسبة إليه ولا يملك برودة الأعصاب اللازمة ليكتم لأوّل وهلة صيحة الغيظ ودهشته ؛ ولا يستطيع أمير «دو شاتيلرّو» أن يملك نفسه عن الاستعجاب ويترك شوكته تهوي من استغراب ويأس إذ قد ظنّ أن خطوبة الآنسة «دامبر ساك» نفسها كانت ستعلن عما قريب

ولكن له هو، «شاتيلّرو»: «يروقك إذن أن تتزوج يا «بيبي»؟ ومع ذلك فالله يعلم كلّ ما سبق أن رواه والده بمهارة لآل «دامبر ساك» ضدّ والدة «بيبي» ولايتمالك عن أن يسأل «بيبي» مرّة ثانية: «إيسرّك إذن أن تتزوج؟» فيجيب مبتسماً، وهو افضل استعداداً أذ اتسع له كامل الوقت لاختيار مظهره منذ أن أضحى الأمر رسمياً تقريباً»: إنّي مسرور لا لأنّي أتزوجّ، فكدت لا أرغب في ذلك، ولكن لاقتراني بـ«ديزي دامبر ساك» التي أجدها رائعة». كان «شاتيلّرو» قد استعاد رباطة جأشه في المدى الذي استغرقه هذا الجواب ولكنّه كان يفكر أنّه ينبغي أن يتقلب بأسرع ما يمكن باتجاه الآنسة «دو لا كانورك» أو الآنسة «فوستر»، وهما الزوجتان الثريتان رقم ٢ و٣، وأن يسأل الدائنين الذين ينتظرون زواج «دامبر ساك» طول الأناة وأن يوضح أخيراً لمن سبق أن قال لهم أيضاً إن الآنسة «دامبر ساك» فاتنة أن هذا الزواج مناسب بالنسبة إلى «بيبي»، ولكنّه لو تزوجها هو لخالف أسرته كلّها. وقد بلغ الأمر بالسيّدة «دو سوليون»، فيما يزعم أن يدعيه، أن تقول إنّها لن تستقبلهما.

ولئن كانوا يبدون في نظر المموِلين وأصحاب المطاعم إلخ، أناساً قليلي الشأن فلم يكن ينظر إليهم، وهم شخصيات مزدوجة. ما أن يحلوا في المجتمع، بمنظار ثروتهم المتهدّمة والمشاغل التعسة التي كانوا ينصرفون إليها لمحاولة إصلاحها. لقد كانوا يضحون من جديد السيد الأمير والسيد الدوق فلاناً ولا يعدون إلا بحسب منازلهم. وهذا الدوق الذي يقارب أن يكون من أصحاب المليارات ويبدو وكأنما تجمع له كل شيء في ذاته إنما كان يجيء بعدهم لأنهم كانوا فيما مضى، بوصفهم رؤساء أسر، أمراء مطلقي السلطة في بلد صغير حقّ لهم فيه أن يسكّوا النقود، إلخ. وكثيراً ما كان أحدهم يغض الطرف في هذا المقهى حينما يدخل آخر حتّى لا يجبر الوافد على تحيته. ذلك أنّه قد دعا في مطاردته الخيالية للثراء صاحب مصرف إلى العشاء. وفي كل مرّة يقيم فيها أحد رجال المجتمع ضمن هذه الظروف صلات مع صاحب مصرف فإن هذا الأخير يخسره زهاء مئة ألف فرنك، الأمر الذي لايحول دون أن يعيد رجل المجتمعات الكرّة مع آخر. فإننا نستمر في إشعال الشموع واستشارة الأطباء.

بيد أنّ الأمير «دوفوا»، وهو نفسه ثري. لم يكن ينتمي فحسب إلى هذه الجماعة الأنيقة التي يؤلفها خمسة عشر شاباً، بل إلى جماعة من أربعة أكثر انغلاقاً ولاينفصل بعضهم عن بعض وكان «سان لو» في عدادهم. وما كانوا يدعون قطّ الواحد دون الآخر ويسمون بالعشاق الأربعة ويشاهدون على الدوام معاً في النزهة ويعطون في القصور غرفاً متصلة إلى حدّ سرت معه شائعات يزيد منها أنّهم كانوا جميعهم على جمال عظيم. حول علاقتهم الحميمة. واستطعت أن أكذبها تكذيباً قاطعاً فيما يخصّ «سان لو» ولكن الغريب في الأمر أنّه إن عرف الناس فيما بعد أن تلك الشائعات كانت صحيحة بالنسبة إلى الأربعة فإن كلاً منهم بالمقابل قد جهلها عن الثلاثة الآخرين جهلاً تاماً. مع أن كلا منهم قد جدّ في تقصي أخبار الآخرين إما لإشباع رغبة أو ضغينة بالأحرى أو الحؤول دون زيجة أو بزّ الصديق المكتشف. وقد انضم خامس إلى الأفلاطونيين الأربعة «فثمة على الدوام أكثر من أربعة في الزمر التي يؤلفها أربعة)، وكان أكثر أفلاطونية من الآخرين جميعهم، ولكن وساوس دينية استوقفته حتى بعد ما انفرط عقد الأربعة بكثير وتزوج وأصبح أباً لأسرة يتوسل في «لورد» أن يكون الطفل المقبل صبياً أو بنتاً ويرتمي في هذه الأثناء على العسكر.

وعلى الرغم من وضع الأمير فأن يكون الكلام جرى في حضرته دون أن يوجه إليه مباشرة قد جعل

غضبه أقل حدة مما لعلة كان لولا ذلك. أضف أنّ هذه الأمسية كانت تتسم بطابع استثنائي إلى حدّ ما. ثم إن المحامي لم يكن أوفر حظاً في إقامة علاقات مع الأمير «دوفوا» من الحوذي الذي صحب هذا السيد النبيل. وقد ظنّ هذا الأخير لذلك أنّه يستطيع أن يردّ. ولكن بلهجة متعجرفة وصوت خفيض، على هذا المخاطب الذي كان بفضل الضباب كأنما رفيق سفر صادفته على شاطئ واقع في أقاصي الدنيا تضربه الرياح أو يغرقه الضباب: «ليست المشكلة أن نضيع، ولكنما أن لا نهتدي إلى الطريق من بعد». وقد أذهلت صحة هذه الفكرة صاحب المقهى إذ سبق أن سمع من يعبر عنها مراراً هذا المساء.

فقد تعودّ بالفعل أن يقابل على الدوام ما يسمعه أو يقرؤه بنصّ معروف من قبل ويحسّ بإعجابه يستفيق إن لم يجد فروقاً. وليست هذه الحالة الذهنية غير ذات بال لأنها إما تمّ تطبيقها على المحادثات السياسية وعلى قراءة الصحيفة فإنها تشكل الرأي العام وتجعل أعظم الأحداث ممكنة بذلك. فكثيرون من أصحاب المقاهي الألمان الذين كانوا ينظرون بإعجاب إلى الزبون لديهم أو إلى صحيفتهم فحسب قد أدخلوا في حيز الممكن حينما كانوا يقولوت إن فرنسه وإنكلتره وروسيه «تستفز» ألمانيه. أدخلوا يوم «أغادير» حرباً لم تندلع على أية حال. ولئن لم يخطئ المؤرخون في الإحجام عن تفسير أفعال الشعوب بمشيئة ملوكهم فلا بد أن يحلوا محلها سيكولوچية الفرد، الفرد ذي السوية الضحلة.

لم يكن صاحب المقهى الذي وصلت إليه منذ قليل يطبق ذهنية مدرس المحفوظات التي يتسم بها، لم يكن يطبقها في حقل السياسة منذ بعض الوقت إلاّ على عدد معين من المقطوعات حول مسألة «دريفوس». فإن لم يلق اللفظات المعهودة في أقوال زبون أو على أعمدة صحيفة أعلن أنّ المقالة مملة أو أنّ الزبون غير صريح. أما الأمير «دوفوا» فقد فتنه على العكس حتّى كاد لايدع لمحدثه الوقت لإنهاء جملته. وصاح قائلاً: «أحسنت القول، يا أميري، أحسنت القول (الأمر الذي كان يعني، باختصار الكلام، تلوت دون خطيئة» وقد انشرح فؤاده، حسب تعبير كتاب «ألف ليلة وليلة»، و«هو في غاية الارتياح». ولكن الأمير كان قد اختفى في الحجرة الصغيرة. وبما أن الحياة تمضي من جديد حتّى بعد أكثر الأحداث غرابة فقد أخذ الذين كانوا يخرجون من بحر الضباب يوصي بعضهم بشرابه والآخرون بعشائهم، ومن بينهم شبان من نادي سباق الخيل لم يتردّدوا بسبب طابع اليوم غير العادي في الجلوس إلى طاولتين في القاعة الكبرى فإذا هم، وتلك حالهم، على قرب شديد منّي . وهكذا فقد أرست الكارثة، حتى من القاعة الصغرى إلى الكبرى، بين جميع هؤلاء الناس تستثيرهم في ذلك أسباب الراحة في المطعم، بعد ضلالاتهم الطويلة في خضم الضباب، ألفة أُقصيتُ عنها وحدي وكانت لابد تشبهها تلك التي سادت سفينة نوح.

وفجأة أبصرت صاحب المقهى تلويه الانحناءات ورؤساء الخدم يهرعون بكامل عددهم. الأمر الذي حمل جميع الزبائن على تحويل أنظارهم إليه. وكان صاحب المقهى يصرخ قائلاً: «بسرعة. نادوا لي على «سبيريان»، إليّ بطاولة للسيّد المركيز «دو سان لو». وما كان «روبير» في نظره محض سيدّ عظيم يتمتع بمهابة حقيقية حتّى في نظر الأمير «دوفوا»، بل زبون يقضي الحياة واسعة، وينفق في هذا المطعم كثيراً من المال. كان زبائن القاعة الكبرى ينظرون بفضول وزبائن القاعة الصغرى يتسابقون إلى دعوة صديقهم الذى كان ينتهي من مسح رجليه. ولكنّه لمحني في القاعة الكبرى لحظة كان يزمع الدخول إلى الصغرى وصاح قائلاً: «ياإلهي، ماذا

تفعل ههنا، وهذا الباب مفتوح أمامك»، ولا يغفل أن يرمي بنظرة حانقة صاحب المقهى الذي سارع إلى إغلاقه وهو يعتذر محملاً الخدم «إنّي أقول لهم دوماً أن يظل مغلقاً».

وكنت قد اضطررت إلى إزعاج مائدتي وموائد أخرى كانت أمامها من أجل المضيّ إليه. «لماذا تحركت من مكانك؟ أتفضّل العشاء ههنا على العشاء في القاعة الصغرى؟ ولكنّك ستتجمدّ، ياصديقي المسكين». وقال لصاحب المقهى: «ستتكرّم عليّ باغلاق هذا الباب نهائياً»

«في الحال ياسيدي المركيز. وعلى الزبائن الذين سيجيئون منذ الآن أن يمرّوا من القاعة الصغرى، هذا كل مافي الأمر». وكي يبدي اندفاعه على نحو أفضل امر أن يقوم بهذه العملية رئيس خدم وعدد من الخدم فيما يطلق بأعلى صوته تهديدات مخيفة إن لم تتّم على أحسن وجه. وكان يوجّه إليّ أمارات إجلال بالغ كي أنسى أنها لم تبدأ منذ وصولي. بل بعد وصول «سان لو» فقط، ويخصني خفية، كي لا أظنّ أنّها ناجمة عن الصداقة التي يبديها لي زبونه الثري الأرستقراطي، بابتسامات صغيرة كأنّما تستبين فيها مودّة شخصية تماماً.

وحملني قول زبون خلف ظهري على أن أدير رأسي مقدار ثانية. فقد سمعت عوضاً عن الكلمات التالية: «جناح فرّوج، حسن جداً، وقليل من الشمبانيا، ولكن لا تكن مزّة جداً». هذه الأخرى: «أفضل الغليسرين أجل دافئة، حسن جداً» ووددت لو أرى من كان الناسك الذي يقضي على نفسه بمثل هذه الوجبة. وأدرت رأسي بسرعة صوب «سان لو» كي لايتعرّفني الذواقة العجيب. كان محض دكتور كنت أعرفه وقد طلب إليه أحد الزبائن استشارة مستغلاً الضباب كي يسجنه في هذا المقهى.

وفي تلك الأثناء كنت أنظر إلى «سان لو» وأفكر في الأمر التالي. كان ثمة في هذا المقهى، وكذلك عرفت في الحياة، العديد من الغرباء من مثقفين ورسامين من كل نوع يسلّمون بالضحك الذي يثيره معطفهم المغرور وربطات عنقهم التي تعود إلى عام ١٨٣٠ بل وأكثر من ذلك حركاتهم الخرقاء، ويبلغ بهم أن يستثيروه ليعربوا عن أنّهم لا يأبهون له، وهم جماعة يتمتعون بقيمة عقلية وأدبية حقيقية وبعميق المشاعر. كانوا لايروقون – اليهود بخاصّة، اليهود غير المنصهرين بالطبع، إذ لايمكن أن يكون الآخرون موضوع بحث — الأشخاص الذين لايطيقون احتمال مظهر مستغرب عجيب (مثلما «بلوك» «ألبيرتين») بيد أنّهم كانوا يعترفون بعامة بعد ذلك أنّه من الصبياني، إن اتفق لهم لغير صالحهم شعور بالغة الطول وأنف وعينان زائدة الاتساع وحركات مسرحية متقطعة، أن نحكم عليهم بناء على ذلك، وأنّهم يتمتعون بكثير من الذكاء والعاطفة وأنّهم لدى التعامل معهم أناس يمكن أن نحبهّم حبّاً عميقاً. وفيما يتعلق باليهود على وجه الخصوص كان القليل منهم من لايتمتع ذووهم بنبل في النفس واتساع في الفكر وصراحة تبدو إزاءها والدة «سان لو» والدوق «دو غير مانت» في صورة خلقية هزيلة من جراء جفاف نفسيهما وتدينهما السطحي الذي لايندّد إلاّ بالفضائح ودفاعهما عن مسيحية تفضي حتماً (على دروب العقل اللا متوقعة، العقل الذي يحظى وحده بالتقدير) إلى زواج ثروات ضخم. أمّا لدى «سان لو»،فأية كانت الطريقة التي ائتلفت بها معايب الأهل في إبداع جديد للمزايا، فقد كان يسود الساح أروع انفتاح للعقل والقلب. وإذ ذاك، ولابدّ أن نقولها لمجد فرنسه الخالد، حينما تجتمع تلك المزايا لفرنسيّ أصيل، أكان من الأرستقراطية أم من الشعب، فانّها تزهر – «تتفتّح» قد تبدو مبالغاً فيها، لأن الاعتدال يظلّ قائماً في تلك المزايا والقيود – برشاقة لايتحفنا بها الغريب

مهما يكن جديراً بالتقدير. صحيح أنّ الآخرين يملكون بدورهم المزايا العقلية والخلقية وليست أقل ثمناً إن انبغى بادئ الأمر أن نجتاز ما لا يروق وما يصدم وما يبعث الابتسامة بيد أنّ ذلك أمر حلو وربّما كان فرنسياً حصراً وقوامه أن يجيء ما كان جميلاً في حكم الإنصاف وما كان ذا قيمة بحسب العقل والقلب. أن يجيء قبل كلّ شيء فاتناً للأنظار وملوناً برشاقة ومنقوشاً بدقة وأن يحقق كذلك في مادته وفي شكله الكمال الداخليّ كنت أنظر إلى «سان لو» وأقول في نفسي إنّه لأمر جميل حين لايكون ثمة قبح جسماني يجيء بمثابة ردهة تقود إلى الألطاف الدخلية، وتكون فتحات الأنف دقيقة بديعة الخطوط كأجنحة الفراشات الصغيرة التي تحطّ على أزاهير المروج حول «كومبريه». وإنّ «الصنع الفرنسي» الحقيقي الذي لم يفقد سره منذ القرن الثالث عشر. ولعلّه لن يزول مع كنائسنا، ليس ملائكة الحجر في كنيسة «سانت آندريه دي شان» بقدر ماهم صغار الفرنسيين، النبلاء منهم أو البورجوازيون أو الفلاحون ممّن نقش وجههم بهذه الرقة وهذه الصراحة اللتين ظلتا تقليديتين كما هي الحال في البوابة الشهيرة ولكنهما لا تزالان خلاقتين.

بعد ما مضى صاحب المقهى لحظة ليسهر بنفسه على إغلاق الباب والإيصاء بالعشاء (وقد ألحّ كثيراً كي نأخذ من «لحوم الذبائح». إذ الطيور غير فاخرة دون شكّ)، عاد يقول لنا إن السيّد الأمير «دوفوا» ودّ لو يأذن له السيّد المركيز بالمجيء لتناول العشاء إلى طاولة بالقرب منه. وأجاب «روبير» إذ رأى الطاولات التي تحاصر طاولتي: «ولكنها مشغولة كلها».— «لا أهمية للأمر، وإن أمكن أن يحسن ذلك في عين السيد المركيز فسيكون من اليسير عليّ أن أرجو هؤلاء الناس بتبديل مكانهم تلك أمور يمكن أن نقوم بها من أجل السيّد المركيز!» وقال لي «سان لو»: «ولكن الأمر يعود إليك. إن «فوا» فتى طيب ولا ادري إن كان سيزعجك إنه أقل غباء من الكثيرين». وأجبت «روبير» أنّه سوف يروقني بالتأكيد ولكنّي وددت كثيراً لو نظل وحدنا مادمت أتناول مرة طعام العشاء معه وأحسني شديد السعادة بذلك. وقال لصاحب المقهى في أثناء مداولتنا: «آه! إن للسيّد الأمير معطفاً حلواً جداً». فأجاب «سان لو»: «أجل، إني أعرفه». وكنت أبغي أن أروي لـ«روبير» أنّ السيّد «دو شارلوس» كتم عن شقيقة زوجته أنّه يعرفني، وأن أسأله ما يمكن أن يكون سبب ذلك ولكنّما حال دون ان افعل وصول السيّد «دوفوا». لقد شاهدناه يقف على خطوتين وقد أقبل ليرى إن كان التماسه قد صادف قبولاً. وقدمنّا «روبير» الواحد للآخر ولكنّه لم يكتم صديقه انه يفصل أن نترك وشأننا إذ هو يبغي التحدّث إليّ. وابتعد الأمير وهو يضيف إلى تحية الوداع التي أدّاها لي ابتسامة تشير إلى «سان لو» وتبدو وكأنها تجد العذر في مشيئة هذا الأخير عن قصر تعارف لعلّه تمناه أكثر طولاً. بيد أنّ «روبير» بدا وكأنما استولت عليه فكرة مفاجئة فابتعد مع رفيقه بعد أن قال لي: «اجلس أنت وباشر تناول العشاء، فانّي قادم». واختفى في القاعة الصغيرة. وشقّ عليّ أن أسمع الشبان الأنيقين الذين ما كنت أعرفهم يروون أكثر الحكايات سخفاً وإساءة حول كبير الدوقة الشاب وريث «لو كسمبور» (الكونت «دوناساو» سابقاً) الذي سبق أن عرفته في «بالبيك» وقدمّ لي براهين رقيقة جداً من المودة في أثناء مرض جدّتي. وكان أحدهم يزعم أنه قد قال للدوقة «دو غير مانت»: «إنّي أطالب بأن يقف الجميع عندما تمرّ امرأتي» وأن الدوقة أجابت (ما لعله كان خلواً لا من الظرف فحسب بل من الصحة فقد كانت جدّة الأميرة الشابة على الدوام أشرف امرأة في العالم): «لابدّ أن يقف الناس حينما تمرّ زوجتك فسيغير ذلك من شأن جدّتها لأن الرجال فيما يخصها كانوا يتمددون». ثم رووا أنه جاء في ذاك العام للقاء عمته أميرة «لوكسمبور» وحلّ في الفندق الكبير واشتكى إلى المدير (صديقي) أنّه لم يرفع علم اللاكسمبور فوق السدّ وإذ كان هذا العلم أقلّ ذيوعاً وأقلّ استعمالاً من أعلام انكلتره أو

ايطاليه فقد انبغى عدّة أيام للحصول عليه الأمر الذي أثار أشدّ استياء كبير الدوقة الشاب . لم أصدق كلمة واحدة من هذه الرواية ولكنّي عزمت أن أسائل مدير الفندق حالما اذهب إلى «بالبيك» لأتأكد من أنّها محض اختلاق. وبانتظار «سان لو» طلبت من صاحب المطعم أن يأمر من يعطيني خبزاً.- «في الحال. ياسيدي البارون» . فأجبت بلهجة كئيبة بقصد الضحك: «لست بارون» . -(آه! عفوك ياسيدي الكونت!» ولم يتسع لي الوقت لاسماعه احتجاجاً آخر كنت أضحيت بعده بالتأكيد «السيّد المركيز» وعاد «سان لو» بمثل ما سبق أن أعلن من سرعة فظهر من جديد في المدخل وهو يمسك بيده المعطف الصوفيّ الكبير العائد للأمير وقد أدركت أنّه قد طلبه منه كي يوفر لي الدفء وأشار إليّ من بعيد ألاّ أكلف نفسي عناء، وتقدم وكان لابدّ أيضاً من تحريك طاولتي أو من تبديل مكاني كيما يستطيع الجلوس وما أن دخل القاعة الكبرى حتى صعد بخفة على المقاعد ذات المحمل الأحمر التي صفت من حولها على طول الجدار والتي لم يكن يجلس عليها باستثنائي سوى ثلاثة فتيان أو أربعة من نادي السباق، وهم معارف له لم يستطيعوا أن يجدوا مكاناً لهم في القاعة الصغرى. وكانت أسلاك كهربائية قد مدّت بين الطاولات على ارتفاع معين ؛ وقفز «سان لو» من فوقها بمهاره ودون أن تربكه مثلما يفعل حصان سبق بحاجز. وقد أدهشتني تلك الثقة التي كان صديقي ينجز بها ذاك التمرين البهلواني، وأخجلني في الآن نفسه أن تتمّ من أجلي وحدي وبهدف تجنيبي حركة بسيطة جداً. ولم تكن تلك حالي فقط، فقد ظل صاحب المقهى والخدم مفتونين شأن خبراء في عملية وزن.على الرغم من أنّهم ما كانوا استساغوا الأمر كثيراً دونما شك من قبل زبون أدنى أرستقراطية وأقل أريحية. وقد لبث أحد الخدم لاحراك به، وكأنما أصابه الشلل، يحمل طبقاً كان متعشون بالقرب منه ينتظرونه ؛ وحينما صعد «سان لو» وقد اضطرّ أن يمرّ خلف أصدقائه، على حافة المسند وتقدّم عليها متوازن الخطو تعالى تصفيق خافت في أقصى القاعة. وإذ أصبح أخيراً بمحاذاتي أوقف على الفور اندفاعته بدقة قائد أمام منصة سلطان وانحنى ومدّ إليّ مدّة تأدب وخضوع المعطف الصوفيّ الناعم الذي رتبة في الحال، بعدما جلس بجانبي، على هيئة شال خفيف ودافئ على كتفيّ دون أن يقع عليّ القيام بأية حركة.

وقال لي «روبير»: «قل لي، ما دام الأمر في بالي، لدى عمي «شارلوس» مايقوله لك. لقد وعدته بأن أوفدك إلى منزله في مساء الغد» .

- «كنت عازماً بالضبط على التحدّث إليك عنه. ولكنّي سأتعشّى في مساء الغد في منزل عمتّك «غير مانت»» .

- «أجل، ستقام مأدبة كبرى غداً في منزل «أوريان»». لستُ مدعواً. ولكنّ عمّي «بالاميد» يودّ ألا تذهب إليها. ألا يمكنك أن تلغي الدعوة؟ اذهب في جميع الأحوال إلى منزل عمّي «بالاميد» بعد ذلك، فاني أظنّه يصرّ على لقائك. هيّا، يمكنك أن تكون هناك حوالي الحادية عشرة. الحادية عشرة، لاتنسّ، وآخذ على عاتقي أن أخطره بالأمر. إنّه شديد الحساسيّة، فإن لم تذهب أو غرت صدره عليك. والأمور تنتهي أبداً في ساعة مبكرة لدى «أوريان». فإن لم تقدم على غير العشاء هناك أمكنك تماماً أن تكون في الحادية عشرة في منزل عمي، وأنا على أيّ حال كان ينبغي لي أن ألقي «أوريان» من أجل منصبي في المغرب الذي أودّ تبديله. إنّها لطيفة جداً بالنسبة إلى هذه الأمور وتستطيع كلّ شيء لدى اللواء «دو سان جوزيف» الذي يرتبط الأمر به.

ولكن لانحدثها عن ذلك. لقد قلت كلمة للأميرة «دو بارما» وستسير الأمور وحدها. آه! المغرب، شيق جداً. ربما كان ثمة الكثير أحدثك به. إنّهم أناس مرهفو الذكاء هناك، وإنك لتشعر بالتماثل في الذكاء».

-«ألا تظنّ أن الألمان يستطيعون المضيّ حتّى الحرب بهذه المناسبة؟».

-«لا، الأمر يزعجهم، وهو صحيح تماماً في الأساس. ولكنّ الأمبراطور مسالم. إنّهم يحملوننا دوماً على الظن بأنهم يبدون الحرب ليرغمونا على التنازل. (عد إلى البوكر). يأتي أمير موناكو عميل غليوم الثاني ليقول لنا سرّاً إنّ ألمانية تنقضّ علينا إن لم نتنازل، فنتنازل حينئذاك، ولكننّا إن لم نتنازل لن يكون ثمة أي صنف من الحروب. عليك أن تفكر فقط أي شيء كوني قد تكونه الحب في يومنا. سوف يكون ذلك أكثر جلباً للكوارث من «الطوفان» و«غروب الآلهة»، على أن الأمر قد يدوم فترة أقل».

وحدثني عن الصداقة والإيثار والأسف مع أنّه كان يزمع، شأن جميع المسافرين من نوعه، الرحيل في الغد لمدّة عدّة شهور كان ينبغي أن يقضيها في الريف وسوف يعود ثماني وأربعين ساعة فقط إلى باريس قبل أن يعود إلى المغرب (أو أيّ مكان آخر) ؛ ولكنّ الكلمات التي ألقى بها على هذا النحو في حرارة القلب التي كانت بي في ذلك المساء كانت تشب فيه أحلاماً عذبة. إن مقابلاتنا الانفرادية النادرة، وهذه على وجه الخصوص، قد خلفت مذ ذاك في ذاكرتي أثراً عميقاً. لقد كانت تلك في نظره وفي نظري على السواء أمسية الصداقة. بيد أن الصداقة التي كنت أحس بها في هذه اللحظة لم تكن (ولا أخلو من بعض تبكيت الضمير بسبب ذلك)، وهو ما كنت أخشاه، تلك التي ربما راقه أن يوحى بها إليّ. كنت أحسّ، ولا أزال يملؤني السرور الذي أصبته إذ رأيته يتقدّم خبباً ويبلغ الهدف برشاقة، كنت أحسّ أنّ ذلك السرور ناجم عن أن كلاًّ من الحركات المنفذة على امتداد الجدار وعلى المقعد كان يملك دلالته وسببه ربمّا في طبيعة «سان لو» الفردية، بل وأكثر من ذلك في الطبيعة التي ورثها عن جنسه عن طريق المولد والتنشئة.

فسلامة ذوق في نطاق السلوك لا الجمال تمكن الرجل الأنيق أن يدرك في الحال بمواجهة ظرف جديد- شأن موسيقي يطلب إليه عزف مقطوعة مجهولة- الشعور والحركة اللذين يتطلبهما وأن يوائم بينهما وبين الآلية والتقنية اللتين تناسبان أفضل ما يكون، ثم تسمح لهذا الذوق أن يعمل بمعزل عن ضغط أيّ اعتبار آخر ربما شلّ العديد من البورجوازيين الشباب مخافة أن يغدوا أضحوكة في نظر الآخرين بخروجهم على اللياقة وأن يبدوا مسرفين في التهذيب في نظر صديقهم في الآن نفسه، اعتبار كان يحلّ محلّه لدى «روبير» ازدراء لم يداخل بالتأكيد قلبه في يوم ولكنّما حلّ بالوراثة في جسده وكان قد طبع سلوك أسلافه بألفة يعتقدون أنّها لاتستطيع إلاّ أن تدغدغ مشاعر من توجه إليه وتفتنه ؛ثمّ شهامة في سخاء لايضع في حسابه أيّ اعتبار لهذا العدد الكبير من الامتيازات المادية (فقد بلغ بفيض إنفاقه في هذا المطعم في النهاية أن جعل منه ههنا وفي أيّ مكان آخر على السواء الزبون الأكثر رواجاً والأكبر حظوة، وهي الحالة التي تبرزها العناية الفائقة التي تبديها له لا مجموعة الخدم فحسب بل سائر الشبيبة الأكثر شهرة) فيحمله على دوسها بالأقدام، شأن هذه المقاعد الأرجوانية التي تمّ دوسها فعلاً ورمزاً. وهي شبيهة بدرب فخم ما كان يروق صديقي إلاّ لتمكينه من المجيء إلي بقسط أوفر من الرشاقة والسرعة ؛ تلكم كانت الصفات، وكلّها من جوهر الأرستقراطية، التي كانت تبرز من وراء هذا الجسم، لا الجسم الأغبش العاتم كما لعلّ جسمي كان، بل المعبّر الصافي مثلما تبرز من خلال

العمل الفنّي القدرة الحاذقة الفاعلة التي ابتدعته وتجعل حركات هذا الجري الرشيق الذي قام به «روبير» على طول الجدار بمثل وضوح وروعة حركات فرسان تمّ نقشهم على إفريز ولعلّ «روبير» فكّر قائلاً: «أكان من داعٍ، واأسفي، أن أكون قضيب شبابي في ازدراء كرم المتحد وفي تكريم العدل والفكر فحسب، وأن انتقي من خارج نطاق الأصدقاء الذين فرضوا عليّ رفاقاً قليلي اللباقة سيئي الملبس إن توافرت لهم البلاغة، كيما يكون الكائن الذي يظهر فيّ والذي يحفظون منه ذكرى غالية لا ذاك الذي صورته إرادتي بالجدّ والاستحقاق على شبهي بل كائن ليس من صنعي ،ولا هو حتّى أنا وقد احتقرته دوماً وحاولت قهره ؛ أكان من داعٍ أن أكون أحببت صديقي المفضل على نحو ما فعلت كيما تكون أعظم متعة يجدها فيّ أن يكتشف أمراً أكثر عمومية من ذاتي، متعة ليست على الإطلاق، حسبما يقوله وحسبما لا يستطيع بصدق أن يعتقده، متعة ناجمة عن الصداقة، بل متعة فكرية مجدة وضرب من متعة الفنّ؟» هذا ما أخشى اليوم أم يكون خطر لـ «سان لو» أحياناً. وقد أخطأ في هذه الحالة. فلو لم يحبّ، على نحو ما فعل، أمراً أكثر سمواً من مرونة جسمه الفطريّة، ولو لم يتجرّد فترة طويلة إلى هذا الحدّ عن استعلاء النبلاء لكان ثمة قدر أكبر من الاجتهاد والتثاقل في رشاقته نفسها وسوقية وافرة في مسلكه. ومثلما انبغى للسيّدة «دو فيلباريزيس» كثير من الجدية كي تولي في حديثها ومذكراتها شعوراً بالطيش، وهو فكريّ، كذلك كان لابدّ كيما يعمر جسم «سان لو» هذا القدر من الأرستقراطية أن تكون هذه الأخيرة قد هجرت فكره النازع إلى أغراض أسمى وأن تكون استقرت في جسمه، بعد ما غارت فيه، خطوطاً لا واعية ونبيلة. وبذلك لم تكن أناقته الفكرية غائبة عن أناقة جسمية لعلها لم تكن تامة لو غابت الأولى. فليس يحتاج فنان إلى التعبير عن فكره تعبيراً مباشراً في إنتاجه كيما يعكس هذا الانتاج جودته، بل أمكن أن يقال إن أرفع تسبيح لله كامن في نفي الملحد الذي يرى الخليقة على قدر من الكمال كاف لتكون في غنى عن خالق لها. وكنت أعلم كذلك تمام العلم أنني ما كنت أنظر باعجاب إلى محض عمل فني في هذا الفارس الشاب الذي ينشر على امتداد الجدار إفريز جريه. أفلم يكن الأمير الشاب (سليل «كاترين دو فوا» ملكة «نافار» وحفيدة شارل السابع) الذي فارقه منذ قليل لصالحي، والمكانة الناجمة عن المولد والثروة التي كان يحنيها أمامي، والأسلاف المتعالون المرنون الذين لم يبرحوا الثقة والرشاقة والتهذيب التي رتب بها منذ قليل حول جسمي المقرور المعطف الصوفي الناعم. ألم يكن كلّ ذلك بمثابة أصدقاء أعرق منّي في حياته ظننت أنّه لابدّ أن نظل من جرائهم منفصلين أبداً وكان على العكس يضحي لي بهم بخيار لايمكن أن نقوم به إلا في مرتفعات العقل وبتلك الحرية المطلقة التي كانت حركات «روبير» صورة لها والتي تتحقق فيها الصداقة الكاملة؟

وما لعلّ ألفة أمثال آل «غير مانت» كانت تكشف من عجرفة تافهة (بدلاً من الأناقة التي تتميز بها لدى «روبير» لأنّ الاستعلاء الوراثي لم يكن فيها سوى غطاء، أضحى ظرفاً لا واعياً، لاتضاع خلقي حقيقي) إنما أمكنني أن أعيه، لا لدى السيد «دو شارلوس» الذي كانت عيوب طباعه، وقد اسأت فهمها حتّى ذاك، قد انضافت لديه إلى العادات الأرستقراطية، بل لدى الدوق «دو غير مانت». فقد كان يكشف بدوره، في المجمل العادي الذي سبق أن ساء إلى حدّ بعيد في عيني جدّتي حينما التقت به فيما مضى في منزل السيّدة «دو فيلباريزيس» ، عن أجزاء من سموّ قديم أحسست بها عندما ذهبت لتناول طعام العشاء في منزله في غد الأمسية التي قضيتها برفقة «سان لو».

ولم تكن قد برزت لناظري لا لديه ولا لدى الدوقة، حينما رأيتهما بادئ الأمر لدى عمتهما، مثلما لم أبصر في اليوم الأوّل الفروق التي كانت تفصل بين «لابيرما» ورفاقها مع أن الخصائص لدى هذه الأخيرة أوقع في النفس بما لا يقاس ممّا هي لدى أرباب المجتمع بما أنّها تضحي أكثر بروزاً كلّما كانت الأشياء أكثر حقيقة وأسهل تصوراً بالعقل. ولكن مهما تكن الفروق الاجتماعية طفيفة (إلى حدّ تبدو معه المنتديات جميعها، عندما يودّ رسام صادق من أمثال «سانت بوف» أن يحدّد على التوالي الفروق التي وجدت بين منتدى السيّدة «چوفران» والسيّدة «ريكامييه» والسيدة «بوانيي»، متشابهة إلى حدّ أنّ الحقيقة الرئيسية التي تستخلص من دراسات المؤلف، على غير علم منه، قوامها «عدم» حياة المنتديات) فقد أمكنني مع ذلك، وبموجب السبب نفسه فيما يخص «لابيرما»، بعد ما أضحى آل «غير مانت» قليلي الأهمية في نظري ولم يعد خيالي يبخر قطرة غرابتهم، أمكنني التقاطها مهما دقّ حجمها.

ولمّا لم تكلمني الدوقة عن زوجها في أمسية عمتها فقد تساءلت في نطاق ما يسري من إشاعات طلاق إن كان سيحضر مأدبة العشاء. ولكن سرعان ما استقر رأيي، فقد رأيت بين صفوف الخدم الذين وقفوا في الردهة ولابدّ أنّهم (بما أنّهم لابدّ نظروا إليّ حتّى الآن مثل أولاد التجار تقريباً. يعني على نحو أكثر مودّة من سيّدهم، ولكن كمن لايمكن أن يستقبل في منزله) كانوا يبحثون عن سبب هذا الانقلاب، رأيت السيّد «دو غير مانت» ينسل، وكان يترقب وصولي ليستقبلني على عتبة الباب ويخلع بنفسه معطفي عنّي.

وقال لي بلهجة حاذقة في إقناعها: «السيّدة «دو غير مانت» ستكون في غاية السعادة. اسمح لي أن أخلصك من أهدامك (وكان يرى سذاجة وهزلاً على السواء في التحدّث بلغة العامة). لقد خشيت زوجتي بعض الشيء إحجاماً منك مع أنك سبق أن أعلنت عن يومك. كنّا نقول منذ هذا الصباح الواحد للآخر: «سوف ترى أنه لن يجيء». ولابدّ لي أن أقول إنّ السيّدة «دو غير مانت» كانت أصدق رؤية منّي. لست رجلاً يسهل استقدامه وكنت على يقين أنّك ستخلف الوعد».

كان الدوق زوجاً ديئاً بل شرساً فيما يقولون إلى حدّ أنّك كنت ممتناً له، مثلما تمتن للأشرار بلطفهم، بهذه الكلمات: «السيّدة دو غير مانت» التي كان يبدو وكأنه ينشر بها على الدوقة جناح الرعاية كي تؤلف وإياه شيئاً واحداً. بيد أنّه أخذ على نفسه وهو يمسك بيدي مسكة الألاف أن يرشدني إلى الصالات ويدخلني إليها. إن هذه العبارة أو تلك يمكن أن تروقك في فم فلاح إن أعربت عن تواتر تقليد محلي وعن بقايا حدث تاريخي ربما جهلها من يلمح إليها، كذلك فتنني لدى السيّد «دو غير مانت» هذا التهذيب الذي كان سيعرب لي عنه أثناء الأمسية كلّها وكأنه بقية عادات مضت عليها قرون عدة. عادات من القرن السابع عشر على وجه الخصوص. إن أقوام الأزمنة الغابرة يبدون لنا بعيدين عنّا بعداً لا حدود له. ولانجرؤ أن نفترض لهم مقاصد عميقة تتجاوز شكل ما يعبرون عنه. وإننا لنعجب حينما نصادف شعوراً لدى أحد أبطال هرميروس يماثل تقريباً ما نحس به أو خطة مخادعة حاذقة لدى هنيعل في أثناء معركة «كان» سمح فيها أن يخترق جناحه كي يطوق خصمه على حين غرة. لكأني بنا نتخيل هذا الشاعر الملحمي وهذا القائد بعيدين عنا بعد حيوان نشاهده في حديقة حيوان، بل إننا حين نجد لدى شخصيات من بلاط لويس الرابع عشر دلائل تأدب في رسائل سطروها لرجل من مرتبة أدنى ولايمكن أن يفيدهم في شيء فإنّها تخلف فينا الدهشة لأنّها تظهر لنا فجأة لدى

هؤلاء السادة العظام عالماً كاملاً من المعتقدات التي لايعبرون قطّ عنها تعبيراً مباشراً ولكنّها تحكمهم ولاسيما الاعتقاد الذي مفاده أنّه ينبغي بداعي التهذيب التظاهر ببعض المشاعر وبممارسة بعض واجبات التودّد بأكبر قسط من الدقة.

وربما كان هذا البعد التخيلي في الماضي أحد الأسباب التي تسمح بأن ندرك أن يكون كتاب عظام قد وجدوا جمالاً عبقرياً في مؤلفات دجالين ضحلين من أمثال «أوسيان» وإننا لندهش أن يتأتى لشعراء قدامى أفكار عصرية دهشة تصل بنا حدّ الأفتتان إن نحن صادفنا، في ما نظنّه نشيداً «غائيلياً» قديماً، فكرة ما كنا لنراها لا بارعة لدى أحد المعاصرين. وما على مترجم موهوب إلا أن يضيف إلى مؤلف قديم بردّه بأمانة تقلّ أو تزيد مقطوعات قد تبدو لو ذيلت بتوقيع أحد المعاصرين أو نشرت على حدة ممتعة فحسب ؛ فاذا هو يضفي في الحال مهابة تهزّ المشاعر على شاعره الذي ينقل، وهذه حاله، أصابعه على مضارب قرون عدّة. وما كان هذا المترجم قادراً إلاّ على كتاب ضحل لو اتفق أن نشر هذا الكتاب بمثابة نتاج أصليّ له. فإن عُدَّ ترجمة بدا وكأنّه لرائعة فنية. ليس الماضي سريع الزوال، بل هو لايبرح مكانه. إن قوانين أقرّت دون استعجال يمكن أن تؤثّر في الحرب تأثيراً فعالاً لا على مدى شهور من بدايتها فحسب، وإنَّ قاضياً ليستطيع أن يجد، لا خمسة عشر عاماً فحسب بعد جريمة ظلت غامضة، العناصر التي ستفيد في كشفها. وسيظل بامكان العالم الذي يدرس في منطقة بعيدة أسماء البلدان وعادات السكان أن يدرك فيها أسطورة سبق عهدها المسيحية بكثير وقد كانت غير مفهومة، إنّ لم نقل حتّى منسية، في عهد «هيرو ذوتس» ولاتزال باقية في قلب الحاضر. من خلال التسمية المعطاة لإحدى الصخور، من خلال أحد الطقوس الدينية، وذلك بمثابة انبعاث أكثر كثافة ومغرق في القدم ومستقرّ. كان ثمة انبعاث آخر كذلك أقلّ قدماً بكثير، انبعثات من حياة البلاط إن لم يكن في تصرفات السيّد «دو غير مانت» العامية في كثير من الأحيان فعلى الأقلّ في الروح التي كانت توجهها. وكنت سأستمتع به مرة أخرى. وكأنما برائحة قديمة، حينما عدت فلقيته بعد قليل في الصالة. لأنني لم أذهب إليها في الحال.

وكنت قد قلت للسيّد «دو غير مانت» وأنا أغادر الردهة إنّي شديد الرغبة في مشاهدة ما يملك من لوحات «ايسلتير». «أنا رهن إشارتك، هل السيّد «إيلستير» من أصدقائك إذن؟ إنّي شديد الاغتمام أن لم أعلم أنّه يثير اهتمامك إلى هذا الحد، فإني أعرفه بعض الشيء، إنّه رجل لطيف وما كان يدعوه آباؤنا بالرجل النبيل، كان بامكاني أن أسأله التلطف بالمجيء وبدعوته للعشاء. ولعلّه كان بالتأكيد سيغتبط أشدّ الغبطة بقضاء الأمسية بصحبتك.» كان الدوق قليلاً مايبدو من طراز قديم حينما يجهد على هذا النحو في أن يكونه ثمّ يعود فيصبح من جديد كذلك دون أن يقصده. وبعدما سألني إن كنت أرغب في أن يريني تلك اللوحات اقتادني وهو يتنحى بلطف أمام كل باب ويعتذر حين يضطر أن يمر أمامي ليرشدني إلى الطريق. هذا المشهد الصغير الذي لابدّ أن آخرين عديدين من آل «غير مانت» (منذ الزمن الذي يروي فيه «سان سيمون» أنّ أحد جدود آل «غير مانت» قد رحبّ به في فندقه بصنوف الدقة نفسها في إتمام واجبات النبيل السطحية) قاموا به من أجل زائرين آخرين كثيرين قبل أن ينتقل إلينا. وبما أنني قلت لدوق إنّه سوف يسرني أن ألبث وحدي فترة أمام اللوحات فقد انسحب دون ضجة وهو يقول إنّه لم يبق عليّ سوى أن أمضي للحاق به في الصالة.

إلاّ أنني ما أن لبثت وحدي مع لوحات «إيلستير» حتّى نسيت تماماً ساعة العشاء. كان أمامي من جديد، شأن الحال في «بالبيك». نتف من هذا العالم ذي الألوان المجهولة الذي لايعدو أن يكون إسقاط الرؤية الخاصة بهذا الرسام الكبير والذي لا تترجمه أقواله على الإطلاق. كانت أجزاء الجدار المغطّاة بلوحات بريشته، وكلها متجانسة فيما بينها، كانت كأنما الصور المضيئة لفانوس سحري نفترض أنّه في الحالة الراهنة رأس الفنان وأنّه ما كان يمكن أن نخمن غرابتها مادمنا لم نقم بأكثر من معرفة الرجل، يعني مادمنا لم نقم بأكثر من رؤية الفانوس الذي يغطي المصابح قبل أن يتمّ وضع أيّة زجاجة ملوّنة. ومن بين تلك اللوحات عدد من تلك التي كانت تبدو من أكثرها سخفاً في نظر أرباب المجتمع وكان يثير اهتمامي أكثر من الأخريات من حيث أنّه يعيد صورة تلك الأوهام البصرية التي تثبت لنا أننا قد لا نتعرف الأشياء إن لم نلجأ إلى المحاكمة العقلية. فكم مرة اكتشفنا فيها ونحن في عربة جادة طويلة مضيئة تبدأ على بضعة أمتار منّا في حين ليس أمامنا سوى جانب من حائط شديد الإضاءة خلف فيناً وهم العمق! أفليس من المنطق إذ ذاك. لا من باب الخدعة الرمزيّة بل من باب الرجوع الصادق إلى جذر الانطباع نفسه، أن نمثل أمراً بالأمر الآخر الذي ظننّاه هو في بارق الوهم الأوّل؟ إن المساحات والأحجام مستقلة في الواقع عن أسماء الأشياء التي تفرضها ذاكرتنا عليها بعد ما تعرفناها. كان «إيلستير» يحاول أن ينتزع مما يحس به ما كان يعرفه وغالباً ما كان يقوم جهده في حل ركام المحاكمات العقلية هذه التي نسميها الرؤية.

كان أولئك الذين يمقتون هذه «القباحات» يدهشون أن يعجب «ايلستير» بـ«شاردان» و«بيرونو» وكثير من الرسامين الذين يحبونهم هم، أرباب المجتمع. وما كانوا يتبينون أن «إيلستير» قد عاد فبذل لحسابه الخاصّ أمام الواقع الجهد نفسه الذي بذله أمثال «شاردان» أو «بيرونو» (بالإضافة إلى العلامة الخاصّة الدالة على ميله إلى بعض التقصيات) وأنّه كان يعجب لديهم نتيجة لذلك. حينما يتوقف عن العمل لنفسه، بمحاولات من ذات القبيل، بما يشبه أجزاء مسبقة لأعمال له. ولكن أرباب المجتمع ما كانوا يضيفون بالفكر إلى أعمال «ايلستير» منظور الزمن هذا الذي كان يسمح لهم بأن يحبوا رسم «شاردان» أو «أن ينظروا إليه على الأقل دون حرج بيد أنّه كان يمكن أن يقول أكبرهم سناً في أنفسهم أنّهم شاهدوا في غضون حياتهم المسافة الشاسعة القائمة بين ما كانوا يحكمون أنّه رائعة فنية لـ«آنغر» وما يظنون أنّه لابدّ باقٍ «قباحةً» إلى الأبد (كلوحة الـ«أوليمبيا» لـ«مانيه» مثلاً) تتناقص كلما باعدت السنون بينهم وبينها، إلى حدّ تبدو معه اللوحتان وكأنهما توأمان، ولكنّ المرء لايفيد من أيّ درس لأنّه لايحسن الانحدار إلى العام وأنّه يتصوّر على الدوام أنّه أمام تجربة لاسابقة لها في الماضي.

وقد أثّر في نفسي أن ألقى في لوحتين (وهما أكثر واقعية ومن طريقة سابقة) الرجل نفسه، مرة باللباس الرسمي في صالته، وأخرى بالسترة والقبعة العالية المستديرة في احتفال شعبي على حافة الماء لايعنيه بالبداهه شيء فيه ويقيم البرهان على أنّه لم يكن في نظر «ايلستير» جليساً غادياً فحسب بل صديقاً وربما نصيراً كان يحب أن يكون موجوداً في لوحاته، شأن «كاربا تشيو» بالأمس وبعض الأسياد المشهورين في البندقية–والشبة تام بينهم–؛ كذلك «بيتهوفن» كان يجد متعة في تسجيل اسم الأرشيدوق «رودولف» المحبوب في مستهل عمل فنّي مفضل. كان ذلك الاحتفال على حافة الماء يتسم بشيء من السحر. فالنهر وفساطين النساء وأشرعة القوارب والإنعكاسات التي لاتحصى لهذه وتلك كانت تتجاور وسط مربع الرسم هذا الذي اقتطعه «ايلستير»

من ساعة عصر رائعة. وما كان يفتنك في فسطان امرأة كفت لحظة عن الرقص بسبب الحر وفقد الأنفاس كان يتلألأ كذلك وبالطريقة نفسها في قماش شراع ساكن وفي مياه المرفأ الصغير والجسر الخشبي الصغير وأوراق الشجر والسماء. ومثلما كان المشفى، وهو في مثل جمال الكاتدرائية نفسها تحت سمائه الزمرّدية، مثلما كان يبدو، وهو أكثر جرأة من «إيلستير» المنظر، من «إيلستير» الذواقة و عاشق العصر الوسيط، وكأنه ينشد: «ليس ثمة من طراز قوطي، ليس من رائعة فنية، إن المشفى الذي لا طراز له يساوي البوابة المجيدة»، كذلك كان يطرق أذني: «إن المرأة العادية إلى حدّ ما التي يتجنب هاوٍ في نزهة أن ينظر إليها، ويستثنيها من اللوحة الشاعرية التي تؤلفها الطبيعة أمامه، هذه المرأة جميلة بدورها وينعم فسطانها بالضياء نفسه الذي ينعم به شراع المركب، وليس ثمة أشياء أكثر ثمناً أو أقل فالفسطان العادي والشراع الجميل في حدّ ذاته مرآتان لانعكاسة الضياء نفسها. القيمة كلّها تكمن في نظرات الرسام». وإن هذا الأخير قد أفلح في أن يوقف ويخلد حركة الساعات في هذه اللحظة المنيرة التي اشتد فيها الحر بالسيدة فتوقفت عن الرقص، والتي كانت الشجرة محاطة فيها بهالة عاتمة والأشرعة تبدو وكأنّها تنزلق فيها على طلاء من ذهب. ولكن هذه اللوحة المثبتة إلى أبعد حدّ كانت تورثنا بالضبط، لأنّ اللحظة كانت تضغط علينا أعظم الضغط، الانطباع الأكثر زوالاً ويوافينا شعور بأن السيدة تزمع أن تعود عمّا قليل أدراجها، والمراكب أن تختفي والظلّ أن يبدّل مكانه والليل أن يحلّ وأن المتعة تنتهي والحياة تنقضي وأنّ اللحظات التي تبرزها في الآن نفسه كثرة من الأضواء تتجاور فيها لاتستعاد. كنت أتعرّف كذلك وجهاً مختلفاً تماماً بالحقيقة لما هي عليه «اللحظة» في بضع لوحات مائية ذات موضوعات ميثولوچية تعود إلى بدايات «إيلستير» وكانت هذه الصالة مزينة بها أيضاً. كان أرباب المجتمع «المتطورون» يذهبون«حتى» هذه الطريقة ولكن لا إلى أبعد من ذلك. وما كان ذلك بالتأكيد خير ما فعل «إيلستير»، ولكن الصدق الذي عولج به الموضوع كان يقلل مذ ذاك من جفافه. من ذلك مثلاً أن ربات الشعر كانت ممثلة مثلما قد يتم تمثيل كائنات تنتمي إلى نوع مستحاثي ولكنّما قد لا يندر أن تراها في العصور الميثولوچية تمرّ في المساء مثنى أو ثلاث على امتداد درب جبليّ. وأحياناً كان شاعر من سلالة تنفرد كذلك بشخصية خاصة في نظر عالم الحيوان (وتتسم بشيء من اللاجنس) يتنزه برفقة إحدى ربات الشعر مثلما في الطبيعة مخلوقات من أجناس مختلفة ولكنّها صديقة ويمضي بعضها برفقة بعض. وكنت ترى في إحدى هذه اللوحات المائية شاعراً خائر القوى من جرّاء نزهة طويلة في الجبل يحمله رجل ثور التقاه، فهزه تعبه، على ظهره ويرجعه، وفي أكثر من واحدة أخرى كان يتم رد المنظر المترامي الأطراف، (حيث يشغل المشهد الأساطيري والأبطال الخرافيون مطرحاً صغير جداً ويخيل إليك أنّهم ضائعون)، من القمم إلى البحر، بدقة تزوّدك بأكثر من الساعة، تزودك حتى بدقيقة الحدث بفضل الدرجة المحدّدة لانحدار الشمس وصدق الظلال العابر. وإنّما يزوّد الفنّان بذلك رمز الأسطورة، إذ يضفي الآنية عليه، بضرب من الواقع التاريخي المعاش ويصوره ويرويه في الماضي المحدد.

وفيما كنت أتأمل لوحات «إيلستير» كانت رنات جرس المدعوين الوافدين تطنّ غير منقطعة وتهدهدني برفق. ولكن الصمت الذي أعقبها والذي كان يخيم منذ فترة طويلة أيقظني في النهاية – بسرعة أقلّ بالحقيقة – من أحلامي، مثلما الصمت الذي يعقب موسيقي «ليندور» يوقظ «بارتولو» من نومه. وخشيت أن يكونوا قد نسوني وأنّهم يجلسون إلى المائدة ومضيت مسرعاً إلى الصالة. وألفيت على باب حجرة لوحات «إيلستير» خادماً

ينتظر، وهو عجوز أو «مُبَوْدورٌ» الشعر، لست أدري، وله مظهر وزير اسباني ولكنه يعرب لي عن الإجلال نفسه الذي ربما أبداه في حضرة أحد الملوك. وأحسست في هيئته أنّه ربما انتظرني ساعة بعد وفكرت بهلع في التأخير الذي ألحقته بالعشاء ولاسيما أنني وعدت بالحضور في الحادية عشرة إلى منزل السيّد «دو شارلوس» وقادني الوزير الإسباني (ناهيك أنّي التقيت في طريقي الخادم الخاص الذي يضايقه البواب والذي قال لي، وقد تألق من السعادة حينما سألته عن أخبار خطيبته، إن الغد كان بالضبط يوم خروجها وإياه وإنّه يمكنه قضاء النهار كله برفقتها وأشاد بفضل السيّدة الدوقة) إلى الصالة حيث كنت أخشى أن أجد السيّد «دو غير مانت» معكر المزاج. فاستقبلني على العكس بفرح مصطنع جزئياً بالطبع أملاه التهذيب، ولكنه صادق من ناحية أخرى، أوحت به على السواء معدته التي جوّعها مثل هذا التأخير والشعور بنفاد صبر مماثل لدى جميع المدعوين الذين كانوا يملؤون الصالة تماماً. وقد علمت بالفعل فيما بعد أنّهم انتظروني حوالي ثلاثة أرباع الساعة، وليس من شك بأن الدوق «دو غير مانت» قد ظنّ بأنّ تمديد العذاب العام دقيقتين لن يزيد منه وأن التهذيب، وقد دفعه إلى تأخير لحظة الجلوس إلى المائدة، قد يضحي أكثر اكتمالاً إن هو أفلح في إقناعي، إذ لا يأمر بتقديم العشاء في الحال، أنّني لم أكن متأخراً وأنّهم لم ينتظروا من أجلي. وقد سألني، وكأنما لاتزال لدينا ساعة قبل العشاء وأنّ بعض مدعويه لم يحضروا بعد، كيف كنت أرى لوحات «إيلستير». ولكنّه أخذ في الوقت نفسه يقوم بالتعريف تؤازره الدوقة في ذلك، كي لايضيع ثانية إضافية ودون أن يظهر اعتلاجات معدته. ولاحظت حينذاك فقط أنّه قد تمّ للتو منٍ حولي، من حولي أنا الذي حتّى هذا اليوم – باستثناء الدورة التدريبية في صالة السيّدة «سوان»– قد عوِّدَ في منزل والدته في «كومبريه» وباريس التصرفات الحانية أو المتمنعة لبورجوازيات متبرمات كنّ يعاملنني معاملة الطفل، تبدلاً في المظهر الخارجي شبيهاً بذاك الذي يجيء فجأة بـ«بارسيفال» وسط الفتيات الأزاهير. فاللواتي كن يحطن بي عاريات الكتفين تماماً (كانت بشرتهن الموردة تبرز من جانبي غصن ميموزا متعرج أو تحت بتلات وردة عريضة) لم يقرئنني السلام إلا وهن يرمقنني بنظرات طويلة متحببة كما لو حال الخفر وحده دون أن يعانقنني. وليس يقلل ذلك من أنّ الكثيرات كنّ فاضلات جداً على صعيد الأخلاق، الكثيرات لا كلّهن، إذ أن أكثرهن عفة ما كن يبدين إزاء من كنّ طائشات ذاك النفور الذي ربما أحست به والدتي. فقد كانت نزوات المسلك التي تنكرها صديقات فاضلات على الرغم من جلاء الأمر، كانت تبدو في دنيا آل «غيرمانت» وكأنها أقلّ أهمية بكثير من العلاقات التي أفلح المرء في الحفاظ عليها. كانوا يتظاهرون بأنّهم يجهلون أنّ جسد واحدة من سيدات البيوت كان نهب من يشاء بشرط أن تكون «الصالة» قد لبثت لامساس بها.

ولمّا كان الدوق قليل التحرج إلى حدّ بعيد مع مدعويه (الذين لم يظلّ له منذ زمن بعيد ما يطلعه عنهم ويطلعهم عليه)، ولكنّه كثير التحرج معي أنا الذي كان نوع تفوقه. وهو مجهول لديه، يبعث في صدره نوع الاحترام نفسه الذي يبعثه الوزراء البورجوازيون في صدور السادة الكبار في بلاط لويس الرابع عشر، فقد كان يرى بالطبع أن أمر الجهل بمدعويه لا أهمية له على الإطلاق، إن لم يكن في نظرهم فعلى الأقل في نظري. وفيما كنت أهتم بسببه بالأثر الذي سأخلفه في نفوسهم كان يهتم فحسب بالأثر الذي سيخلفونه في نفسي.

وقد وقع بادئ الأمر على أية حال اختلاط طفيف مزدوج، ففي اللحظة نفسها التي دخلت فيها إلى الصالة اصطحبني السيّد «دو غير مانت» دون أن يدع لي حتّى متسعاً من الوقت لتحية الدوقة، إلى سيّدة على

شيء من قصر القامة وكأنّما ليوفر مفاجأة سارة لتلك المرأة التي بدا وكأنّه يقول لها: «هوذا صديقك: ترين، إنّي أجيئك به بعظم رقبته» ذلك أنّ تلك السيّدة لم تكن قد كفت، قبل أن أصل أمامها، يدفعني الدوق، بوقت طويل، عن أن توجّه إليّ فيض البسمات المقتضى الذي نوجهه إلى أحد المعارف القدامى الذي ربما لايتعرفنا، وذلك بعينيها السوداوين الوديعتين الواسعتين. ولمّا كانت تلك حالي بالضبط وأنني ما كنت أفلح في تذكر من تكون فقد كنت أشيح بعيني فيما أتقدم كي لايقع عليّ أن أجيب إلى أن يكون التعارف قد خلصني من ورطتي.

وقد ظلت السيّدة في تلك الأثناء توالي الاحتفاظ في توازن غير مستقر بابتسامتها الموجهة إليّ. وكانت تبدو وكأنها في عجلة من أمرها للتخلص منها وأن أقول أخيراً: «آه! ياسيدتي، ذلك ما أعتقده بالتمام. وكم سيسعد والدتي أن عدنا فالتقينا!»وكنت أبدي من نفاد الصبر لمعرفة اسمها بقدر ماتبدي للاحظة أنّني أسلم عليها سلام العارف بالأمر تماماً وأن ابتسامتها، التي تطاولت تطاول «صول» مرفوعة ، يمكن أن تتوقف أخيراً. ولكنّ السيّد «دو غير مانت» لم يحسن التصرف، في نظري على الأقل، إلى حد بدا لي معه أنّه لم يسم غيري وأنني لا أزال غير عارف بالمجهولة الزائفة التي لم يتبادر إليها أن تذكر اسمها لفرط ما تبدو لها دواعي ألفتنا، وهي غامضة لديّ، واضحة فلم تمد إليّ يدها حالما أصبحت بالقرب منها بل أخذت يدي أخذ الألآف وكلمتني بمثل اللهجة التي تكلمني بها لو كنت على مثل احاطتها بالذكريات الطيبة التي كانت تعود بالفكر إليها. وقالت لي إلى أي حدّ سيأسف «ألبير»، الذي أدركت أنّه ابنها، أن لم يسعه المجيء. وبحثت بين رفاقي القدامى من عساه يدعى «ألبير» فلم أجد غير «بلوك»، بيد أنه ما كان يمكن أن تكون تلك الماثلة أمامي السيّدة «بلوك» الوالدة بما أن هذه الأخيرة قد توفيت منذ سنوات طويلة. وعبثاً كنت أجهد في استشفاف هذا الماضي المشترك بيني وبينها والذي كانت تعود بالفكر إليه. ولكني ما كنت أبصره عبر السبج الشفاف في الحدقتين الوادعتين الواسعتين اللتين لا تسمحان بغير مرور الابتسامة أفضل مما نميز منظراً واقعاً خلف زجاج أسود وإن ألهته الشمس. وسألتني إن كان والدي لايفرط في التعب وإن كنت لا أودّ الذهاب في يوم إلى المسرح برفقة «ألبير» وإن كنت أقل مرضاً، ولمّا لم تصبح إجاباتي، وهي تترنّح في عتمة الفكر التي كنت فيها، واضحة إلا لأقول إنّي لم أكن على مايرام في ذلك المساء، دفعت إليّ بنفسها كرسياً وهي تبذل جهوداً لاتحصى لم يعودني قطّ عليها أصدقاء والديّ الآخرون وأخيراً زودني الدوق بكلمة اللغز، فهمس في أذني التي قرعتها هذه الكلمات كما لو لم تكن مجهولة لديها، همس قائلاً: «إنّها تجدك ظريفاً» وكانت تلك التي سبق أن قالتها لنا السيّدة «دو فيلباليزيس» لي ولجدّتي عندما تعرفنا بأميرة «لوكسمبور» حينئذ أدركت كلّ شيء، فالسيّدة الحالية لايربطها بالسيّدة «دو لو كسمبور» رباط ولكنني ميزت صنف الطريدة لدى سماع من كان يقدمها لي. لقد كانت صاحبة سمّو. لم تكن تعرف أسرتي ولاتعرفني بدوري ولكنّها كانت ترغب، وهي تنحدر من أكرم سلالة وتملك أعظم ثروة في العالم (إذ هي ابنة الأمير «دوبارما» وقد تزوجت ابن عم هو الآخر من سلالة أمراء) ، كانت ترغب في امتنانها للخالق أن تعرب للقريب أنّها لاتحتقره مهما كان فقير المحتد أو متواضعه. وكان بوسع الابتسامات، والحق يقال، أن تكشف لي الأمر، فقد سبق أن رأيت أميرة «لوكسمبور» تبتاع شطائر خبز الشيلم على الشاطئ كي تقدم منها لجدتي وكأنما لأيلة في «حديقة الأقلمة». ولكنها لم تكن سوى ثاني أميرة من أسرة مالكة يتم تعريفها بي وكان يمكن التماس العذر لي لأنني لم

أستخلص الميزات العامة في تلطف الكبار. أفلم يكلفوا أنفسهم على أي حال عناء تنبيهي إلى الأ أبالغ في الاتكال على ذاك التلطف بما أن الدوقة «دو غير مانت» التي سبق أن حيتني كثيراً بيدها في مسرح الأوبرا الهازلة بدا أنّها حانقة من أن أحييها في الشارع شأن الذين يحسبون أنّهم، بعدما أعطوا أحدهم ليرة ذهبية، قد أدوّا ما عليهم إزاءه إلى الأبد. أمّا السيّد «دو شارلوس» فقد كانت محاسنه ومساوئه أبرز تناقضاً. وقد عرفت أخيراً، كما سترى، صاحبات سمو وصاحبات جلالة من نوع آخر، من ملكات يمثلن دور الملكة ويتكلمن لا وفق عادات أبناء سلالتهن بل كما تفعل الملكات في مسرح «ساردو».

ولئن لجأ السيّد «دو غير مانت» إلى هذا الاستعجال في التعريف بي فلأنه لايمكن احتمال أن يكون في اجتماع شخص مجهول لدى صاحبة سمّو ملكية ولايمكن أن يدوم الأمر ثانية واحدة.كان ذلك هو الاستعجال نفسه الذي أبداه «سان لو» في طلب تعريف جدّتي به. كان الدوق والدوقة «دو غير مانت» يعتبران على أية حال، من جرّاء بقية موروثة من حياة البلاط تدعي التهذيب الاجتماعي وليست سطحية ولكنّما السطح فيها هو الذي يضحي، من جرّاء انقلاب من الخارج إلى الداخل جوهرياً وعميقاً، كانا يعتبران بمثابة واجب جوهري أكثر من تلك المتعلقة بالإحسان والعفة والشفقة والعدل، وهي في الغالب لايكترث بها على الأقل في نظر أحدهما، ذلك الواجب الأكثر صرامة وقوامه ألا تتحدث إلى أميرة «بارما» إلا بضمير الغائب.

ولئن كنت لم أذهب البتة بعد في حياتي إلى «بارما» (الأمر الذي كنت أتوق إليه منذ عطلة فصح بعيدة) ، فإن معرفة أميرتها التي كانت تملك فيما أعلم أجمل قصر في تلك المدينة الفريدة حيث كان لابد أن يكون كل شيء متجانساً على أيّة حال إذ هي معزولة عن بقية العالم بين الجدران المصقولة وفي الجوّ الخانق كحاله في أمسية صيف لاهواء فيها على ساحة مدينة إيطالية صغيرة، جو اسمها الكثيف المفرط في عذوبته، إن تلك المعرفة كان ينبغي أن تحل فجأة محل ما كنت أحاول تمثله ما كان موجوداً بالحقيقة في «بارما»، وبضرب من الوصول الجزئي ودون أن أكون برحت مكاني. كان ذلك في جبر الرحلة إلى مدينة «چورجونه» بمثابة معادلة أولى بذاك المجهول. على أنّي إن كنت منذ سنوات قد أشبعت اسم أميرة «بارما» بعطر ألوف من زهر البنفسج– شأن ما يفعل عطار بكتلة متساوية من مادّة دسمة – فقد بدأت بالمقابل، ما أن رأيت الأميرة التي لعلني كنت متيقناً حتّى ذاك أنّها الـ«صانصفرينا» (*) على الأقل عملية ثانية لم تكتمل والحق يقال إلاّبعد انقضاء ببضعة شهور على ذلك وقامت بواسطة جبلات كيماوية جديدة على طرد كل الزيوت الأساسية من زهر البنفسج وكلّ فوح «ستاندالي» من اسم الأميرة وأدخلت مكانها صورة امرأة قصيرة سوداء تشغلها المبرات ذات لطف عظيم الاتضاع حتّى لتدرك في الحال في أيّ كبر واعتزاز اتخذ هذا اللطف منشأه. لقد كانت على أية حال، وهي شبيهة مع بعض الفوارق البسيطة بالأخريات من كبار السيّدات، قليلة الاتسام بـ«الستاندالية» قلة شارع «بارما» في حيّ أوروبا في باريس مثلاً الذي هو أقل شبهاً باسم «بارما» منه بجميع الشوارع المجاورة وأقل تذكيراً بدير الرهبان الذي يموت فيه «فابريس» منه بصالة «الخطى الضائعة» في محطة «سان لازار».

(*) من بطلات رواية ستاندال الشهيرة «محبس بارما»..

كان لطفها ناجماً عن سببين ؛ أحدهما، وهو عام، التربية التي توافرت لابنة الملوك هذه. فقد رسخت والدتها (ولم تكن ترتبط بعلاقة مصاهرة بجميع الأسر الملكية في أوروبا فحسب بل كانت، على نقيض الأسرة الدوقية في «بارما» أوفر ثراء من أيّة أميرة مالكة أخرى)، رسخت في نفسها، منذ نعومة أظفارها، تعاليم سنوبية انجيلية مستكبرة في اتضاعها. كان كل ملمح في وجه الفتاة، كانت استدارة كتفيها وحركات ذراعيها تبدو وكأنها تقول: «تذكري أنّه ينبغي لك، إن سمح الله بأن تولدي على سلالم العرش، ألا تستغلي ذلك لاحتقار أولئك الذين شاءت العناية الإلهية (سبحانها)! أن تفوقيهم مولداً وثروات. كوني على العكس رفيقة بالصغار لقد كان جدودك أمراء «كليف» و«جوليبه» منذ عام ٦٤٨ ؛ وقد شاء الله في طيبته أن تملكي جميع أسهم قناة السويس تقريباً وثلاثة أمثال «أدمون دوروتشليد» في الشركة الهولندية الملكية، وأثبت علماء الأنساب خطّ بنوتّك المباشر منذ عام ٦٣ من العهد المسيحي، ولديك امبراطورتان بين شقيقات زوجك. فلا يبدون عليك البتة إذن وأنت تتحدثين أنّك تذكرين مثل هذه الامتيازات العظيمة، لا لأنّها صائرة إلى زوال (إذ لايمكن أن تغير شيئاً في قدم الأصل وسنظل أبداً بحاجة إلى البترول) ولكنّما لايجدي أن تعلني أنّك أفضل مولد من أيّ إنسان وأن توظيفاتك من الطراز الأوّل بما أنّ الجميع يعرفون ذلك. هبي إلى مساعدة المساكين، وزودّي جميع الذين منت عليك الألطاف السماوية بوضعهم في مرتبة أدنى منك بما يمكن أن تعطيهم إيّاه دون أن تحطي من مقامك، وأعني مساعدات مالية وحتّى عناية تمريضية، ولكن دون دعوات إلى أمسياتك بالطبع، فالأمر قد لايعود عليهم بأي خير بل هو يقلص من فعالية أعمالك الخيرية فيما يقلل من مهابتك».

كانت الأميرة تحاول لذلك، حتّى في الفترات التي لاتستطيع فيها فعل الخير، أن تظهر أو بالأحرى أن توهم بجميع العلامات الخارجية التي تميز اللغة الصامتة أنّها لاتظنّ نفسها أرفع من الذين تعيش بينهم. كانت تبدي لكل منهم هذا التهذيب الرائع الذي يبديه أناس حسنو التربية لمن هم أدنى منهم مرتبة وتدفع في كل لحظة، كيما تؤدي خدمة ما، كرسيها من أجل أن توسع المكان وتحمل قفازيّ وتقدم لي كلّ هذه الخدمات الي لاتليق بالبورجوازيات المستكبرات والتي تؤديها بملء الخاطر الملكات أو يفعل بالغريزة ومن جراء عادة مهنية قدامى الخدم.

أما السبب الآخر لما أبدت لي الأميرة «دو بارما» من لطف فأكثر خصوصية ولكنّما لايمليه على الإطلاق ودّ خفيّ تكنه لي. ولكن الوقت لم يتسع لي لتعميق هذا السبب الثاني في تلك اللحظة. فقد دفعني الدوق مذ ذاك، وكان يبدو على عجلة من أمره لاتمام التعريف بي، إلى واحدة أخرى من الفتيات الأزاهير وإذ سمعت اسمها قلت لها إنّه سبق أن مررت أمام قصرها في مكان غير بعيد عن «بالبيك» فقالت: «آه! كم كان يسعدني أن أريك إيّاه»، قالت بصوت يكاد يكون خافتاً كأنما لتبدو أكثر اتضاعاً ولكنّما بلهجة صادقة التعبير مشبعة بالأسف لفرصة مفقودة في متعة فريدة وأضافت بنظرة موحية: «آمل أنّ كلّ شيء لم ينقض. ولابد أن أقول إن ما كان استهواك أكثر منه فقصر عمتي «برانكاس» فقد بناه «ما نصار» وهو درة الأقليم. ولعلّها ما كانت وحدها لتسعد بأن تريني قصرها، فتلك حال عمتها «برانكاس» التي ربما لم تكن لتهزّها نشوة أقل للترحيب بي في قصرها، فيما أكّدت لي هذه السيّدة التي كانت تحسب بالطبع أنّه لابدّ أن يحافظ الكبار، ولاسيما في زمن تميل فيه الأرض إلى الانتقال إلى أيدي رجال مال لايحسنون العيش، على التقاليد العريقة في ضيافة علية القوم بأقوال لاتلزم صاحبها في شيء أضف أنّها كانت تحاول، شأن جميع الناس في

وسطها، أن تقول من الأمور ما يمكن أن يدخل أعظم السرور في نفس من تحدثه وأن توليه أرفع فكرة عن ذاته وأن يعتقد أنه يروق من يكتب إليهم ويشرف مستضيفيه ويتحرق الناس إلى معرفته. وإنّ ابتغاء ايلاء الآخرين هذه الفكرة المفرحة عن ذواتهم موجودة أحياناً والحق يقال حتّى في صفوف البورجوازية. فانّك تصادف فيها هذه النزعة الخيرة، وذلك بمنزلة ميزة فردية تعرض عن عيب ما، لالدى أكثر من تثق بهم من الأصدقاء للأسف بل لدى أكثر من يروقك من الرفيقات على الأقل. وهي تزدهر على أية حال على نحو افرادي. أما لدى قسم هام من الأرستقراطية فقد كفت هذه الميزة في الطباع على العكس عن كونها فردية، وأضحت، وقد نمتها التربية وتعهدتها فكرة عظمة خاصة لايمكن أن تخشى التحقير ولا تعرف منافساً لها وتعلم أنها تستطيع بالوداعة أن تسعد البعض ويطيب لها أن تفعل، الطابع المميزّ لطبقة معينة، حتّى أولئك الذين تحول معايب شخصية مفرطة التناقض دون أن يحفظوها في قلوبهم يحملون أثرها اللاواعي في كلماتهم أو حركات أيديهم.

وقال لي السيّد «دو غير مانت» «عن الأميرة» «دو بارما»: «إنّها امرأة طيبة جداً وتعرف كيف تكون «سيّدة كبيرة» كما لايستطيع غيرها».

وفيما كان يتم تعريفي بالنساء كان ثمة رجل يطلق أمارات اضطراب كثيرة: وكان الكونت «هانيبال دو بريوتيه كونسالفي». فقد وصل متأخراً فلم يتسع له الوقت للاستعلام عن المدعوين وحينما دخلت إلى الصالة وإذ أبصر فيّ مدعواً لم يكن في عداد مجتمع الدوقة وكان لابد بالتالي أن يمتلك ألقاباً خارقة تماماً كي ينفذ إليه فقد وضع نظارته تحت قوس حاجبيه المستدير وفي اعتقاده أنّها ستعينه على تمييز نوع الرجل الذي كنته أكثر منه على رؤيتي كان يعلم أنّ السيّدة «دو غير مانت» تملك، والأمر امتياز ثمين للنساء المتفوقات حقاً، ما يدعى بـ«الصالة»، يعني أنّها تضيف أحياناً إلى جماعة محيطها رجلاً مرموقاً أبرزه منذ قليل اكتشاف دواء أو انتاج رائعة فنية. كان حي «سان جيرمان» لايزال تحت تأثير معرفته أنّ الدوقة لم تخش أن تدعو السيّد «دو تاي» إلى حفل الاستقبال على شرف ملك إنكلترا وملكتها. وكانت متظرفات «الحيّ» يسلين بصعوبة أنهن لم يدعين لشدّة ما لعلهّن كنّ استحلين الاقتراب من تلك العبقرية الغريبة. وكانت السيّدة «كورفوازييه» تدعي أنّ السيّد «ريبو» كان أيضاً حاضراً ولكنه كان اختلافاً معداً للحمل على الظنّ بأنّ «أوريان» كانت تحاول أن يتمّ تعيين زوجها سفيراً ثمّ إنّ السيّد «دو غير مانت»، زيادة في الفضيحة، كان قد ذهب إلى قاعة استراحة مسرح «الكوميدي فرانسيز» ورجا الآنسة «رايشنبرغ» بتأدب يليق بالمشير «دو ساكس» أن تجيء وتنشد الشعر أمام الملك، الأمر الذي تمّ وألف واقعة لا سابقة لها في حوليات اللقاءات المجتمعية. ولدى تذكر هذا القدر من اللامتوقع الذي كان يقره على أي حال تماماً. وعلى قدر ما كان السيّد «دو بريوتيه» نفسه زينة لأيّ صالة وتكريساً لها على نحوما كانت الدوقة «دو غير مانت» ولكن في فئة الذكور، أخذ يحسّ، وهو يسائل نفسه من كان يمكن أن أكون، بحقل فسيح جداً ينفتح أمام تحرياته. ومرّ اسم السيّد «ويدور» لحظة في خاطره ولكنّه حكم أنّي فتيّ جداً كيما أكون عازف أرغن وأن السيّد «ويدور» هيّن الشخصية إلى حدّ بعيد كيما يتّم استقباله. وبدا له أكثر احتمالاً أن يبصر فيّ فحسب الملحق الجديد في مفوضيّة السويد الذي سبق أن حدّثوه عنه، وأخذ يعدّ العدة ليسألني أخبار الملك «أوسكار» الذي استقبله أحسن استقبال مرّات عديدة. ولكن عندما قال الدوق اسمي للسيّد «دو بريوتيه» بغية التعريف بي وإذ رأى هذا الأخير أن الإسم مجهول لديه تماماً لم

يشك مذ ذاك بعد أنني لوجودي هناك من بعض المشاهير. ولم تكن «أوريان» بالتأكيد تفعل غير ذلك وهي تتقن فنّ اجتذاب الرجال المرموقين إلى صالتها بمعدّل واحد إلى مئة بالطبع وإلاّ لكانت سبقته. وشرع السيّد «دو بريوتيه» إذن يمرّر لسانه على شفتيه و«يشمشم» بأنفه النهم، وقد أهاج شهيّته لا العشاء الطبيب الذي هو على يقين من الحصول عليه، بل طابع الاجتماع الذي لايمكن إلاّ أن يضفي عليه وجودي إثارة وسوف يوفر له موضوع حديث مثير في الغد أثناء غداء دوق «شارتر» ولم يكن بعد قد قرّ رأية على النقطة التي مفادها أن يعلم إن كنت أنا ذاك الذي جاؤوا على تجريب مصله ضدّ السرطان أو على اعتماد نصة للتمثيلية الجديدة في المسرح الفرنسيّ، ولكنه لم يكن يتوقف، وهو مثقف كبير وهاوٍ كبير «لقصص الأسفار»، عن مضاعفة الإنحناءات أمامي وعلامات التفاهم والابتسامات التي تسربها نظارته، إما انطلاقاً من الفكرة الزائفة القائلة بأن أيّ إنسان ذي شأن سوف يزيد من تقديره له إن هو أفلح في أن يدخل في روعه الوهم بأن امتيازات الفكر ليست في نظره، هو الكونت «دو بريوتيه كونسالفي»، أقلّ جدارة بالاحترام من امتيازات المولد، وإمّا لمحض حاجة إلى التعبير عن رضاه وصعوبة في التعبير عنه في جهله للغة التي ينبغي أن يحدّثني بها، كما لو اتفق له، باختصار القول، أن يكون في حضرة واحد من السكان الأصليين في أرض مجهولة وصل إليها طوفه ويحاول، أملاً في الربح، وفيما يلاحظ باستغراب عاداتهم ودون أن يوقف تظاهرات الصداقة أو يغفل عن إطلاق صيحات عالية مثلهم، أن يبادل ببيض نعامة وتوابل مصنوعات زجاجية صغيرة. وبعد أن استجبت جهد المستطاع لابتهاجه، شددت على يد الدوق «دو شاتيلرو» الذي سبق أن لقيته لدى السيّدة «دو فيلباريزيس» التي قال لي عنها إنّها داهية. كان من آل «غير مانت» إلى حدّ بعيد بشقرة الشعر وعقفة الأنف في منظره الجانبي والنقاط التي يمتقع فيها جلد الخدّ وكلّ ما تبصره العين مذ ذاك في رسوم هذه الأسرة التي خلفها لنا القرنان السادس عشر والسابع عشر. ولمّا لم أعد أحب الدوقة فإن عودتها في جسد شاب كانت خالية من أيّ جاذب في نظري وكنت أقرأ العقفة التي يشكلها أنف الدوق «دو شاتيلرو» بمثابة توقيع رسام درسته فترة طويلة ولكنّه لم يعد يهمني على الإطلاق ثمّ حييت كذلك الأميرة «دوفوا». وتركت سلامياتي لتعس حظها تدخل في الملزمة، ولاتبرحها إلاّ مرضوضة، والملزمة التي تؤلفها مصافحة على الطريقة الألمانية ترافقها ابتسامة ساخرة أو ساذجة يجود بها الأمير «دو فافنهايم» صديق السيّد «دو نوربوا» والذي كان يدعى، من جرّاء هوس الألقاب الذي يميزّ هذا الوسط، الأمير «فون» وذلك على نطاق شامل إلى حدّ أنّه أخذ يوقع بدوره «الأمير فون» أو «فون» إن هو راسل الألآف والاختصار هذا تدركه عند اللزوم بسبب طول الإسم المركب ولكنّك أقل تبيناً للأسباب التي كانت تحمل على استبدال «اليزابيت» بـ«ليلي» طوراً وتراه بـ«بيبيت» مثلما تكثر في وسط آخر أسماء «كيكيم» وإنك لتدرك أنّ جماعة ربما اختاروا «كيو» كي لايضيعوا وقتهم بقولهم «مونتسكيو» مع أنّهم قليلو المشاغل ومستهترون بعامة. ولكنّك أقلّ تبيناً لما كانوا يكسبونه في تسمية أحد أبناء عمّهم «دينان» بدلاً من «فيردينان» وينبغي ألاّ نعتقد على أيّة حال أنّ آل«غير مانت» كانوا يلجؤون دوماً في إطلاق الأسماء إلى ترداد أحد المقاطع. فمن ذلك أنّ شقيقتين هما الكونتيسة «دو مونبيرو» والفيكونتيسة «دو فيلودء»، وكلتاهما على بدانة هائلة، لم تسمعا قطّ من يناديهما بغير «صغيرة» و«ظريفة» دون أن تغضبا لذلك أقلّ الغضب ودون أن يخطر لأحد أن يبتسم للأمر لفرط قدم العادة. ولعل السيّدة «دو غير مانت» التي كانت تعشق السيّدة «دو مونبيرو»، لعلّها لو أصيبت هذه الأخيرة إصابة خطيرة، سألت أختها دامعة العين: «يقولون إنّ «صغيرة» في أسوأ حال». أمّا السيّدة «دو ليكلان» التي كان تصفف شعرها شرائط تحجب أذنيها كلياً فما

كانوا يدعونها قط بغير «البطن الخاوي» ويكتفون أحياناً باضافة «ة» مربوطة إلى كنية الزوج أو اسمه للدلالة على الزوجة. ولما كان اسم الرجل الأشدّ بخلاً والأكثر خسة والأكثر قسوة في الحيّ «رافائيل» فإن فاتنته وزهرته التي نبتت كذلك في الصخر كانت توقع دوماً باسم «رافائيله» على أن تلك نماذج لقواعد لاتحصى يمكننا دوماً، إن سنحت الفرصة، أن نشرح بعضاً منها.

وسألت الدوق بعد ذلك أن يقدّمني للأمير «داغر بجانت»، فصاح السيّد «دو غير مانت» قائلاً: «عجباً، ألا تعرف هذا الصرار الرائع»، وذكر اسمي للسيّد «داغر بجانت». وقد سبق أن بدا لي اسم هذا الأخير على الدوام، وكثيراً ما ذكرته «فرانسواز» بمثابة زجاج شفاف كنت أبصر تحته المكعبات الوردية لمدينة قديمة تسقط فوقها على شاطئ البحر البنفسجي الأشعة المائلة لشمس ذهبية، وما كنت أشكّ أن الأمير -وقد مرّ في باريس بأعجوبة خاطفة- هو نفسة سلطانها الحقيقي الواضح إلى حدّ بعيد في طابعه الصقلي والذي اكتسى بالأمجاد. ولكنَّ الخنفس التافه الذي عرفوني إليه والذي دار على نفسه ليسلّم عليَّ بوقاحة متثاقلة يظنّها متأنقة كان بعيداً عن اسمه بعده عن عمل فني ربما حازه دون أن يحمل في نفسه أيَّ انعكاس منه ودون أن يكون ربما نظر إليه في يوم. كان الأمير «داغر يجانت» خلواً تماماً من أي طابع أميريّ ويمكن أن يذكر بـ«أغريجانت» إلى حدّ تفترض معه أن اسمه، وهو مختلف أتمَّ الاختلاف عنه ولايربطه بشخصه رباط، كان بمقدوره أن يجتذب إليه كلّ ما أمكن أن يكون ثمة من غامض الشعر لدى هذا الرجل، كما هي الحال لدى سواه، وأن يسجنه بعد هذه العملية داخل المقاطع المسحورة. ولئن تمت هذه العملية فقد أنجزت في جميع الأحوال على أحسن وجه إذ لم يظل ذرة واحدة من سحر يمكن استخلاصها من قريب آل «غيرمانت» هذا، حتى اتفق له أن يكون في الآن نفسه الرجل الوحيد في العالم الذي كان أمير «أغريجانت» وربّما أقل رجل في العالم يمكن أن يكونه. وقد أسعده جداً على أية حال أن يكونه، ولكن على نحو ما يسعد صاحب مصرف لأن يملك أسهماً كثيرة في منجم دون أن يهتّم من ناحية أخرى إن كان هذا المنجم يتفق وجمال أسماء منجم «إيفانهو» ومنجم «بريمروز» أو إن كان يدعى منجم «الأول» فحسب. وفي تلك الأثناء وفيما كانت تنجز أدوار التعريف الطويلة جداً إما رويتها ولكنّها لم تدم، وقد تمّ البدء بها منذ دخولي إلى الصالة، سوى بضع لحظات، وفيما كانت السيّدة «دو غير مانت» تقول بلهجة التوسل تقريباً: «إنّي متيقنة من أنَّ «بازان» يتعبك باصطحابك على هذا النحو من هذا إلى ذاك، نحن نريد أن تعرف أصدقاءنا ولكنّنا نريد على وجه الخصوص ألاّ نتعبك كيما تعود مرّات كثيرة»، أشار الدوق بحركة غير حاذقة إلى حدّ ما ومتهيبة إلى أنّهم يستطيعون تقديم الطعام (الأمر الذي ودّ لو قام به منذ ساعة عبثت فيما يخصني بتأمل لوحات «ايلستير»).

وينبغي أن نضيف بأن أحد المدعوّين لم يكن حاضراً، وهو السيّد «دو غروشي» التي جاءت زوجته، وقد ولدت لآل «غير مانت». وحدها من جانبها، إذ يصل الزوج مباشرة من الصيد حيث قضى النهار. وكان السيّد «دو غروشي» هذا، وهو سليل «غروشي» في زمن الأمبراطورية الأولى الذي قيل زوراً إنَّ غيابه في أوّل «واترلو» كان السبب الرئيسي لهزيمة نابليون، ينحدر من أسرة ممتازة ولكنّها غير كافية مع ذلك في نظر بعض المولعين بأمور النبلاء. من ذلك أنَّ الأمير «دو غير مانت» الذي كان يزمع أن يكون بعد ذلك بسنوات كثيرة أقل تشدّداً فيما يخصة قد تعود أن يقول لبنات أخيه: «يالمصيبة السيّدة «دو غيرمانت» المسكينة هذه «وهي الفيكونتيسة «دو غيرمانت» والدة السيّدة «دو غروشي») أنّها لم تستطع قطّ تزويج بناتها!».

– «ولكنّ البكر ياعمّي تزوجت السيّد «دو غروشي».– لا أسمّي هذا زوجاً! على أنّهم يزعمون أنّ العم «فرنسوا» قد طلب الصغرى، الأمر الذي من شأنه ألا يكن كلهن قد لبثن بنات».

وما أن صدر الأمر بتقديم الطعام حتّى انفتحت أبواب قاعة الطعام على مصراعيها في صرّة دائرية واسعة متعدّدة متواقتة. وانحنى رئيس خدم يبدو وكأنّه رئيس تشريفات أمام الأميرة «دو بارما» وأعلن الخبر: «طعام سيّدتي جاهز» «بلهجة شبيهة بتلك التي ربما قال بها: «سيّدتي تصارع الموت» ولكنّها لن تثر أي غمّ في الجماعة إذ تقدّم الأزواج بهيئة مرحة، وكما هو الصيف في «روبنسون، الواحد تلو الآخر إلى قاعة الطعام ينفصلون حينما يبلغون أماكنهم حيث يدفع خدم من الخلف مقعدهم. وتقدمت السيّدة «دو غير مانت» آخر المطاف صوبي كيما أصحبها إلى المائدة ودون أن يداخلني أي خجل كان يمكن أن أخشى منه، فقد دارت، فعلة الصيّادة التي أولت المهارة العضلية الكبيرة رشاقتها سهولة، وإذ أبصرتُ دون شكّ أنّني وقفت في الجانب الذي لاينبغي لي الوقوف فيه، دارت من حولي بقدر من الدقة ألقيت معه ذراعها على ذراعي ووجدتني أنغمس انغماساً طبيعياً في إيقاع حركات دقيقة ونبيلة. وانصعت لها بيسر تزايد بقدر ما كان آل «غير مانت» لا يولونها أهمية أكثر مما يولي المعرفة عالم حقيقي أنت في حضرته أقل تهيباً مما في حضرة جاهل. وانفتحت أبواب أخرى دخل منها الحساء الذي يتصاعد بخاره وكأنما أقيم العشاء في مسرح دمى أُعدّ بمهارة وحرّك فيه وصول المدعو الشاب المتأخرّ جميع الأجهزة باشارة من القائم عليها.

وإنما كانت وجلةً، لا عظيمة في جلالها. إشارةُ الدوق تلك التي استجاب لها انطلاق هذه المجموعة الآلية والبشرية الفسيحة المبتكرة الطيعّة الفخمة. ولم تضرّ حيرة الحركة في نظري بأثر المشهد الذي كان يرتبط بها. فقد كنت أحسّ بأنّ ماجعلها متردّدة مربكَة إنّما الخشية من أن أبصر أنّهم ما كانوا ينتظرون سواي للعشاء وأنّهم انتظروني فترة طويلة، مثلما كانت تخشي السيّدة «دو غير مانت» أن يرهقوني بعد ما شاهدت الكثير من اللوحات ويحولوا دون أن أرتاح بالتعريف بي على نحو مستمرّ. إلى حدّ أنّ غياب العظمة في الحركة هو الذي كان يبرز العظمة الحقيقيّة، لامبالاة الدوق تلك ببذخه الخاصّ ومراعاته على العكس لضيف غير ذي شأن في حدّ ذاته ولكنّه يودّ تكريمه.

وليس يعني ذلك أنّ السيّد «دو غير مانت» لم يكن عادياً جداً في بعض الجوانب ولم يبدُ حتّى مهازل رجل مفرط الثراء واستعلاء وصوليٌ لم يكنْه. مثلما يبصر الموظّف أو الكاهن موهبتهما الضحلة تتضاعف إلى ما لانهاية من جرّاء تلك القوى التي يستندان إليها. ونعني الإدارة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية، (كما الموجة من جرّاء كامل البحر الذي يتدافع خلفها) كذلك كان السيّد «دو غير مانت» تدفعه تلك القوّة الأخرى، أي التهذيب الأرستقراطيّ الأكثر صدقاً. ولكن هذا التهذيب يستبعد الكثير من الناس. فما كانت السيّدة «دو غير مانت» لتستقبل السيّدة «دو كامبرمير» أو السيّد «دو فورشفيل». فإن بدا أحدهم، وتلك كانت حالي، وكأنّما يمكن ضمّه إلى وسط آل «غير مانت» كشف ذاك التهذيب كنوزاً من بساطة الضيافة أكثر روعة بعد، إن أمكن ذلك، من تلك الصالات العتيقة وذلك الأثاث الرائع الذي لم يبرح مكانه.

وهكذا كان السيّد «دو غير مانت» يملك، إن شاء إشاعة السرور في صدر أحدهم، فنّاً يُحسن الإفادة من الظرف والمكان كي يجعل منه في ذلك اليوم الشخصية الأساسية. ولعلّ صنوف أناقته وظرفه كانت اتّخذت

في «غير مانت» دونما شكّ صيغة أخرى. فربّما أمر أن تسرج الخيول كي يصطحبني وأقوم وحدي بنزهة معه قبل العشاء.. كنت تحسّ أن سلوكه، بالشكل الذي هو عليه، كان يؤثّر فيك مثلما تؤثّر فيك، وأنت تقرأ ذكريات من العصر الغابر، ذكريات لويس الرابع عشر حينما يجيب بلطف وبلهجة ضاحكة وبنصف انحناءة واحداً جاء يلتمسه. على أنّه ينبغي أن ندرك في كلا الحالتين أن ذاك التهذيب ما كان يتجاوز حدود دلالة هذه اللفظة.

ولويس الرابع عشر (الذي ينعى عليه المولعون بطبقة النبلاء في عصره مع ذلك قليل اهتمامه باللياقة إلى حدّ أنّه لم يكن، فيما يقول «سان سيمون»، سوى ملك هيّن جداً من حيث المنزلة إذا ماقيس بـ«فيليب دو فالوا» و«شارل الخامس»، إلخ) يأمر بصياغة أكثر التعليمات دقّة كي يعلم أمراء الأسرة المالكة والسفراء أيّ ملوك ينبغي لهم أن يقدمّوهم عليهم. وإزاء استحالة الوصول إلى وفاق في بعض الحالات يفضل الاتفاق على أنّ مولاي ابن لويس الرابع عشر لن يستقبل هذا العاهل الأجنبيّ أو ذاك في منزله إلاّ خارجاً وفي الهواء الطلق كي لايقال إنّ أحدهما قد سبق الآخر وهو يدخل إلى القصر. أمّا والي مقاطعة البالاتينا فيتظاهر، في استقبال الدوق «دو شوفروز»، كي لايدع له أن يتقدّمه، بأنّه مريض ويتناول عشاءه معه ولكنّه يفعل في سريره، الأمر الذي يحسم الصعوبة. وإذ يتجنب الدوق فرص تأدية خدمة «لسيادته» فإنّ هذا الأخير يتّخذ، بناء على مشورة الملك أخيه الذي يحبّه حباً رقيقاً، ذريعة ليحمل ابن عمّه على الحضور ساعة استيقاظه وأن يلبسه قميصه. ولكن حالما يدور الأمر حول عاطفة عميقة، حول أمور القلب، فإن الواجب الذي لايلين مادام الأمر يتعلق بالتهذيب إنّما يتغيّر تغيراً كليّاً. فبعد بضع ساعات من وفاة الشقيق هذا، وهو أحد أكثر من أحبّ من الناس، وحين لايزال «سيادته»، حسب تعبير الدوق «دومونفور» «ساخناً بعد تماماً»، يغنّي لويس الرابع عشر ألحاناً أوبرالية ويدهش أن تبدو الدوقة «دو بورغونيي» التي تلاقي عنتاً في إخفاء ألمها حزينة إلى هذا الحدّ وإذ ينبغي أن يعود المرح ثانية في الحال وكيما يقرّر رجال البلاط العودة إلى اللعب فإنّه يأمر الدوق «دو بورغونيي» أن يباشر لعبة ورق سريعة. والحقيقة أنّك كنت تلقى التناقض نفسه، لا في أعمال السيّد «دو غير مانت» المجتمعيّة والمركّزة فحسب، بل في كلامه الأقلّ تعمداً وفي مشاغله وفي برنامج عمله: فما كان آل «غير مانت» يحسّون بغموم أكثر من باقي الفانين، ويمكن حتّى أن نقول إنّ حساسيتّهم الحقيقية كانت أقلّ. ولكنّك كنت تبصر بالمقابل اسمهم في كل يوم في باب أخبار المجتمع من صحيفة «الغالي» بسبب العدد الهائل من المآتم التي ربّما ألفوا أنفسهم مذنبين إن لم يسجلوا اسمهم فيها. ومثلما يلقى المسافر البيوت المغطّاة بالتراب والسطوح التي أمكن أن يعرفها «كزينوفون» أو القديس بولس، كذلك كنت ألقى في سلوك السيّد «دو غير مانت»، وهو رجل يهزّ باللطف مشاعرك ويثير بالقسوة اشمئزازك، وهو عبد لأصغر الالتزامات ومتحلّل من أقدس المواثيق، ذاك الانحراف الخاصّ بحياة البلاط في عهد لويس الرابع عشر، ولايزال على حاله بعد انقضاء أكثر من قرنين، الانحراف الذي ينقل وساوس الضمير من نطاق مشاعر الودّ والأخلاقية إلى مسائل شكلية بحتة.

أمّا السبب الآخر للطف الذي أبدته لي أميرة «بارما» فأكثر خصوصية. ذلك أنّها كانت توقن سلفاً أنّ كلّ ماتراه لدى الدوقة «دو غير مانت» من أشياء وأشخاص كان من نوعية أرفع من كلّ ما تملك لديها. كانت تتصرّف، والحقّ يقال، لدى جميع الناس الآخرين وكأن الأمر على هذه الشاكلة. فما كانت تكتفي، إزاء الطبق الأكثر بساطة والأزهار العاديّة كأكثر ما تكون، بالافتتان، بل كانت تستأذن في أن ترسل منذ الغد

في طلب الوصفة أو تأمر بتحرّي النوعية على يد طبّاخها أو بستانيّها الأول، وهما من ذوي الرواتب الضخمة وممن يملكون عربتهم الخاصة ولهم على وجه الخصوص ادّعاءاتهم المهنيّة، فكانا يجدان إذلالاً كبيراً في المجيء للاستعلام عن طبق مزدرى أو تقليد صنف من زهر القرنقل لم يكن على مثل نصف الجمال ونصف تعدد الألوان ونصف الحجم– قياساً على أحجام الأزهار– الذي بلغته الأزهار التي حصلوا عليها منذ فترة طويلة لدى الأميرة. ولئن كانت هذه الدهشة التي تعتري هذه الأخيرة لدى جميع الناس إزاء أقلّ الأمور، لئن كانت مصطنعة ترمي إلى إبراز أنّها لاتستمد من سمّو منزلتها ومن ثرواتها استعلاء يحظره مربّوها القدامى وتخفيه والدتها ولايطيق الله احتماله، فقد كانت في مقابل ذلك تنظر بكامل الصدق إلى صالة الدوقة «دو غير مانت» على أنّها مكان مفضل لاتستطيع أن تنتقل فيه إلاّ من مفاجأة إلى نشوة. لقد كان آل «غير مانت» على نحو عام على أيّة حال، ولكنّه قد لايكون البتّة كافياً لشرح هذه الحالة الذهنية، مختلفين إلى حدّ ما عن باقي المجتمع الأرستقراطي فقد كانوا أكثر تأنقاً وأكثر ندرة. لقد خلفوا لديّ للوهلة الأولى الانطباع المعاكس، فقد سبق أن وجدتهم عاميّين يشبهون جميع الرجال وجميع النساء، ولكنّما ذلك لأنني رأيت مسبقاً فيهم أسماء كما رأيت في «بالبيك» و«فلورانسه» و«بارما». وفي هذه الصالة بالطبع كانت جميع النساء، اللواتي سبق لي أن تخيلتهن بمثابة تماثيل صغيرة، أكثر شبهاً مع ذلك بالكثرة الكاثرة من النساء. بيد أن آل «غير مانت»، شأنهم شأن «بالبيك» أو «فلورانسه»، كانوا يستطيعون، بعد ما خيبوا الخيال لما يشبهون أمثالهم أكثر من اسمهم، كانوا يستطيعون فيما بعد أن يزودوا العقل وإن بدرجة أقلّ ببعض الخصائص التي كانت تميزهم، فتكوينهم الجسماني ولون بشرتهم وهو من وردّي خاصّ يبلغ أحياناً حدّ البنفسجيّ وشقرة تكاد تكون منوّرة لشعر ناعم، حتّى لدى الرجال، يتراكم خصلاً مذهبة حلوة نصفها من الأشنة الجدارية والنصف من فروسنّوري (والبريق المضيء كان يقابله تألق في الذكاء، فلئن قيل لون عائلة «غيرمانت» وشعرهم فقد كانوا يقولون كذلك ظرف آل«غيرمانت» مثلما يقولون ظرف آل «مورتمار»)، وسمة اجتماعية أكثر رقة –منذ ما قبل لويس الرابع عشر– يزيد من إقرار الجميع بها أنّهم كانوا يعلنون عنها بأنفسهم، كلّ ذلك كان يؤدّي إلى أن يظلّ آل «غير مانت» في مادة المجتمع الأرستقراطي ذاتها، مهما غلت ثمناً، والتي تجدهم ينغرسون فيها ههنا وهناك، أن يظلّوا يسيري التعرّف سهلي التمييز والمتابعة شأن العروق التي تخطط شقرتها حجارة اليشب والعقيق أو بالأحرى شأن التموّج المرن لشعور الضياء هذه التي تجري أعرافها المشعثّة كأشعة طيعة في زوايا العقيق الرغويّ.

ولم يكن آل «غير مانت» – على الأقل من كانوا أهلاً لهذا الاسم– يتميزّون بنوعية بديعة من بشرة وشعور ونظرة صافية فحسب بل كانت لهم طريقة في الوقفة والمشية والتحية والنظرة قبل المصافحة، وكانوا بذلك مختلفين في مجموع هذه الأمور عن أيّ رجل من أرباب المجتمع اختلاف هذا الأخير عن مزارع بصدرية. كان المرء يقول في قرارة نفسه، على الرغم من لطفهم: أليس لهم بالحقيقة أن يفكّروا، مع أنّهم يكتمون الأمر، حينما يبصروننا نمشي ونحيي ونخرج، كلّ هذه الأمور التي إمّا أنجزوها أصبحت بمثل رشاقة طيران السنونوة أو انحناءه الوردة: «إنّهم من سلالة غير سلالتنا وإنّنا، نحن، أمراء البسيطة»؟ لقد أدركت فيما بعد أنّ آل«غير مانت» كانوا يظنونني بالفعل من سلالة أخرى، ولكنّما من سلالة تثير حسدهم لأنّني أملك مزايا كنت أجهلها وكانوا يجاهرون بأنّهم يعدّونهم وحدها مهمة. وشعرت فيما بعد كذلك أنّ هذه المجاهرة لم

تكن إلاّ نصف صادقة وأنّ الاستخفاف أو الدهشة يتعايشان لديهم والإعجاب والحسد. لقد كانت المرونة الجسمية المميزة لآل«غير مانت» مزدوجة، فبفضل الأولى، وهي دائمة النشاط، كان أحد آل «غير مانت» الذكور يحصل في كل لحظة، إن ذهب مثلاً لتحية سيّدة، على صورة لذاته يؤلفها التوازن اللا مستقرّ لحركات غير متناظرة ومستعاضة على نحو عصبيّ، فساق تجرّر قليلاً إمّا عمداً وإمّا لأنّها سبق أن كسرت كثيراً في الصيد فأخذت تتخلف في الجذع، للحاق بالساق الأخرى، انحرافاً يوازنه ارتفاع أحد الكتفين. فيما النظّارة الوحيدة تتمركز في العين وترفع حاجباً في الوقت الذي تنحدر فيه خصلة الشعر للتحية ؛ أمّا المرونة الثانية فكانت، على غرار شكل الموجة أو الريح أو الأخدود البحريّ الذي تحتفظ أبداً به المحارة أو المركب، قد اختصرت، إن جاز القول، في ضرب من الحركية المثبتة تقوّس الأنف المعقوف الذي كان يذكّر، تحت العينين الزرقاوين البارزتين وفوق شفتين رقتا بافراط ومنهما ينطلق لدى النساء صوت أجشّ، كان يذكّر بالمنشأ الأسطوري الذي خصّ به كَرَم علماء أنساب طفيليين من دارسي اليونانية في القرن السادس عشر هذا العرق العتيق دونما شكّ ولكن ليس إلى الحدّ الذي كانوا يدّعونه حينما يردّون منشأة إلى الإخصاب الأسطوري الذي وقع بين طائر إلهيّ وحوريّة.

ولم يكن آل «غير مانت» أقلّ تفرّداً على الصعيد الفكريّ منهم على الصعيد الجسميّ. فباستثناء الأمير «جيلبير»، زوج «ماري جيلبير» ذي الأفكار البالية والذي كان يجلس زوجته، حينما يتنزّهان في عربتهم، عن يساره لأنّها أدنى منه مولداً، مع أنّ المولد ملكّي (ولكنّه كان يشذّ عن القاعدة ويؤلفّ في غيابه موضوع تهكم الأسرة ونوادر دائمة الجدّة)، كان آل «غير مانت» يتظاهرون بأنّهم لايقيمون أيّ وزن لطبقة النبلاء، مع أنّهم يعيشون في صلب النخبة المختارة من الأرستقراطية. وكانت نظريات الدوقة «دو غير مانت»، التي أضحت، والحق يقال، لفرط ماتبدي من مزايا آل «غير مانت»، أضحت إلى حدّ ما أمراً مغايراً وأشدّ إمتاعاً، تضع الذكاء فوق كلّ شيء وكانت في حقل السياسة اشتراكية إلى حدّ يتساءل المرء معه أين كان يختبئ في فندقها «العبقر» المكلف بالحفاظ على الحياة الأرستقراطية والذي كان، وهو متوارٍ أبداً عن الأبصار ولكنّه قابع بالطبع في الردهة تارة وفي الصالة أخرى وطوراً في حجرة الملابس، كان يذكّر خدّام هذه المرأة التي لاتؤمن بالألقاب بأن يقولوا لها «سيّدتي الدوقة»، وهذه الأمرأة التي لاتحبّ غير القراءة ولايهزّها الحياء البشري بأن تذهب للعشاء لدى شقيقة زوجها حينما تدقّ الثامنة وبأن تكشف لذلك عن عنقها وكتفيها.

وعبقرية الأسرة نفسها كانت تظهر للسيّدة «دو غير مانت» حالة الدوقات، الأوليات من بينهنّ على الأقلّ وصاحبات الملايين العديدة مثلها، والتضحية في سبيل حفلات شاي مملّة وأعشية في المدينة وحفلات راقصة بساعات ربّما أمكن أن تقرأ فيها أشياء مسليّة على أنّها ضرورات مزعجة شبيهة بالمطر تقبل بها السيّدة «دو غير مانت» وهي تعمل فيها قريحتها الساخرة ولكن دون أن يبلغ بها أن تبحث عن أسباب قبولها. وهذه الصدفة الغريبة التي قوامها أن يقول دوماً رئيس خدم السيّدة «دو غير مانت»: «سيّدتي الدوقة» لهذه المرأة التي لا تؤمن بغير العقل لم تكن تبدو وكأنّها تصدمها. فلم تفكّر في يوم أن ترجوه أن يقول لها «سيّدتي» فحسب. وربّما أمكن أن نظنّ، إن ذهبنا بسلامة الطويّة إلى أقصى حدودها، أنّها كانت تسمع، وهي شاردة، «سيّدتي» فحسب وأنّ الزائدة الكلامية الملحقة بها لم تكن تبلغ مسمعها. على أنّها لم تكن خرساء إن هي تظاهرت بالصمم. ففي كلّ مرّة تبغي أن تبلّغ زوجها رسالة كانت تقول لرئيس الخدم: «ذكّر السيّد الدوق...»

وكان لعبقرية الأسرة على أيّ حال مشاغل أخرى كأن تحمل على حديث الأخلاق. كان ثمة بالتأكيد «غرمانتيون» أذكياء على الأخص و«غرمانتيون» أخلاقيّون على الأخصّ، وما كانوا بالعادة الأفراد ذاتهم. ولكنّ أولئك– بمن فيهم من سبق من آل «غير مانت» أن زيف وكان يغشّ في اللعب وكان أروعهم جميعاً ومنفتحاً على جميع الأفكار الجديدة والصائبة – كانو يبحثون في الأخلاق أفضل من هؤلاء وبطريقة السيّدة «دو فيلباريزيس» ذاتها في الفترات التي كانت عبقرية الأسرة تتكلّم فيها بلسان السيّدة العجوز. لقد كنت ترى آل «غير مانت» يتخذون فجأة في لحظات متماثلة لهجة في مثل تقادم وسذاجة لهجة المركيزة تقريباً، بل وأكثر تأثيراً منها بسبب درجة من الفتنة أعظم لديهم، ليقولوا عن إحدى الخادمات: «تحسّ أنَّ لها أساساً طيّباً، أنّها فتاة غير عادية ولابدّ أنّها ابنة ملاح وقد ظلّتْ أبداً بالتأكيد في الصراط المستقيم». في تلك الفترات كانت عبقرية الأسرة تستحيل نبرة. ولكنّها كانت أحياناً كذلك طريقة وهيئة في الوجه هي واحدة لدى الدوقة ولدى جدّها المشير وهي ضرب من التقبض اللا مدرَك الشبيه بتقبضّ الحيّة، وهي العبقرية القرطاجية لاسرة «برقا»، والتي أصابني منها مرّات عديدة خفقان في القلب في نزهاتي الصباحية حينما كنت أحسنّي، قبل أن أكون تعرّفت السيّدة «دو غير مانت»، تنظر إليّ من أقصى محلّ ألبان صغير. وقد تدخلت هذه العبقرية في ظرف ما كان أبعده أن يجيء غير ذي بال لا في نظر آل «غير مانت» فحسب، بل في نظر آل «كورفوازييه» كذلك وهم القسم المناوئ من الأسرة ونقيضهم تماماً مع أنّهم يساوون آل «غير مانت» طيب محتد (فقد بلغ بآل «غير مانت» أن يفسّروا تقصّد الأمير «دو غير مانت» في التحدّث أبداً عن كرم المولد وطبقة الأشراف، وكأنما ذلك الشيء الوحيد ذو الأهمية، بجدتّه التي من آل «كورفوازييه»). فماكان آل «كورفوازييه» لايولون الذكاء المرتبة نفسها التي يوليه إيّاها آل «غير مانت» فحسب، بل كانوا لايحملون عنه الفكرة نفسها. فأن تكون ذكياً في نظر واحد من آل «غير مانت» (وإن يك غبياً) فانّما أن تكون هجّاءً قاسياً على التفوّه بأقوال مسيئة وأن تغنم الغنائم وأن تستطيع كذلك الصمود في موضوع الرسم والموسيقى وهندسة العمارة على حدّ سواء وأن تتكلّم الإنكليزية. أمّا آل «كورفوازييه» فكانوا يحملون عن الذكاء فكرة أقلّ إيجابية وما كان ببعيد، لأقلّ مالا تكون عن عالمهم. أن يعني الذكاء لهم «أن تكون على الأرجح قد قتلت أباك وأمّك». لقد كان الذكاء في نظرهم ضرباً من العتلة المسطحة التي يقتحم بها أناس لاتعرفهم من حوّاء أو آدم أبواب أكثر الصالات تقديراً وكانوا يعملون لدى آل «كورفوازييه» أنّك تكتوي دوماً في آخر الأمر لأنك استقبلت مثل هذه «الأصناف». كان آل «كورفوازييه» يقابلون أقل التوكيدات شأناً على لسان أناس أذكياء ليسوا من أرباب المجتمع بارتياب لايتبدلّ. فقد قال أحدهم ذات مرّة: «ولكنّ «سوان» أصغر سنّاً من «بالاميد». فأجابت السيّدة «دو غالاردون» قائلة: «إنه يقول لك ذلك على الأقلّ، وإن يقل ذلك فتيقّن أنّه إنّما يلقى مصلحته في ذلك». بل أكثر من ذلك، فقد سألت السيّدة «دو غالاردون»، فيما كانوا يقولون بشأن أجنبيتن بالغتيّ الأناقة كان آل «غير مانت» يستقبلونهما إنّهم جعلوا هذه تمرّ بادئ الأمر بما أنّها الكبرى، سألت قائلة: «ولكن أتراها حتّى هي الكبرى؟»، لا على نحو إيجابيّ كما لو لم يكن لهذا الصنف من الناس عمر، بل كما لو كانتا، وهما تفتقران على الأرجح إلى سجلّ مدنيّ وديّني وإلى تقاليد أكيدة. أكبر أو أصغر سناً شأن القطط الصغيرة الموجودة في السلّة نفسها والتي لايستطيع غير الطبيب البيطريّ أن يتعرّف سبيله بينها. كان آل «كورفوازييه» بمعنى أو بآخر يحافظون أفضل من آل «غير مانت» على أيّة حال على صفاء طبقة النبلاء بفضل ضيق عقلهم وخبث فؤادهم في آن معاً. ومثلما كان آل «غير مانت» (الذين كان كلّ شيء أدنى من الأسر الملكية وبعض

الأسر الأخرى كأسرة «لينيي» و«لاتريموواي»، إلخ، يختلط في نظرهم في غمامة من الناس القليلي الشأن) وقحين مع أناس من سلالة عريقة كانوا يقطنون حول «غير مانت» لأنهم بالضبط ما كانوا يصرفون انتباههم إلى مزايا النسق الثاني هذه التي كان يهتّم لها آل «كورفوازييه» أعظم الاهتمام، فإن غياب هذه المزايا كان قليل الأهمية في نظرهم. فقد كانت بعض النساء اللواتي لايشغلن منزلة رفيعة جداً في إقليمهن ولكنّهن زوجنّ ألمع الأزواج، وهن غنيات جميلات تحبهّن الدوقات، يشكلن في نظر باريس حيث الناس قليلو الإحاطة بأمر «الأب والأمّ» سلعة مستوردة ممتازة وأنيقة. كان يمكن أن يتفق. وإن ندر الأمر، أن يتم استقبال مثل تلك النسوة لدى بعض سيّدات «غير مانت» عن طريق أميرة «بارما» و بفضل موافقتهنّ الخاصة. ولكن سخط آل «كورفوازييه» بشأنهنّ ما كان يلين في يوم. فقد كان لقاؤهم بين الخامسة والسادسة في منزل ابنة عمّهم بأناس ما كان ذووهم يحبون أن يخالطوا ذويهم في محلّة «بيرش» يضحي في نظرهم سبب حنق متنام وموضوع خطب لاتنتهي فمنذ اللحظة التي كانت الكونتيسة الفاتنة ج... تدخل فيها مثلاً إلى منزل آل «غير مانت» كان وجه السيّدة «دو فيلبون» يتخّذ بالضبط الهيئة التي كان لابدّ أن يتخّذها لو وقع عليها أن تنشد البيت التالي:

«فان لم يبق سوى واحد كنت ذاك الرجل».

والبيت مجهول لديها على أي حال. لقد سبق أن ازدردت هذه «الكورفوازية» كل يوم اثنين تقريباً قطع حلوى مثقلة بالكريما على بضع خطوات من الكونتيسّة ج... ولكن دون جدوى. وكانت السيّدة «دو فيلبون» تعترف في الخفاء بأنّها لاتستطيع أن تتصورّ كيف تستقبل ابنة عمومتها «الغرمانتيّة» امرأة لم تكن حتّى من النسق الثاني في المجتمع في «شاتو دان». وكانت السيّدة «دو فيلبون» تخلص إلى القول: «لاداعي بالحقيقة لأن تكون ابنة عمّي متصعبة إلى هذا الحدّ في علاقاتها، فالأمر قد بلغ حدّ الهزء بالناس»، وتقولها بهيئة أخرى على وجهها، باسمة هذه وساخرة في يأسها، ولعلّ لعبة حزازير كانت وضعت فوقها بالأحرى بيتاً آخر ما كانت الكونتيسة بالطبع تعرفه أكثر من الأوّل:

«الشكر للآلهة! إن مصيبتي تجاوز مرتجاي».

ولنستبق الأحداث على أي حال بقولنا إن «مثابرة السيّدة» «دو فيلبون»، التي تماشي «المكابرة» على صعيد القافية في البيت التالي، مثابرتها على صبّ سنوبيتها على السيّدة ج...لم تكن غير ذات جدوى تماماً. فقد أولت السيّدة «دو فيلبون» في نظر السيّدة ج... مهابة عظيمة، وهي من فعل الخيال المحض على أيّة حال، إلى الحد الذي عجب معه الناس، حينما حان تزويج ابنة السيّدة ج... التي كانت أجمل وأغنى من شهد الحفلات الراقصة في تلك الحقبة، أن رأوها ترفض جميع الدوقة. ذلك أنّ والدتها ما كانت، إذ تذكر الإهانات الاسبوعية التي لحقت بها في شارع «غرونيل» استذكاراً لـ«شاتودان». ما كانت تتمنّى بالحقيقة سوى زوج واحد لابنتها: أحد أبناء أسرة «فيلبون».

نقطة واحدة كان يلتقي فيها آل غير مانت وآل «كورفوازييه»، وكانت تكمن في فنّ تحديد المسافات الفارقة، فنّ متنوّع إلى مالا حدود بأيّة حال. ولم تكن تصرّفات آل «غير مانت» متساوية كلياً لدى الجميع. ولكنّ سائر «الغرمانتيينّ» مثلاً، أولئك الذين كانوا حقاً من آل «غير مانت»، كانوا يلجؤون، حينما تُقدّم لهم،

إلى نوع من الاحتفال، تماماً كما لو أنّ مدّ يدهم كان جسيماً جسامته لو أن الأمر تعلّق بتكريسك فارساً. ففي اللحظة التي يسمع فيها أحد «الغرمانتيّين»، وإن يكن بعد في العشرين ولكنّه سائر مذ ذلك على خطى من يكبرونه سناً، اسمك ينطق به أحد المعرّفين كان يلقي عليك، كما لو لم يكن مصمماً البتّة أن يقرئك السلام، نظرة زرقاء بعامة وهي أبداً ببرودة شفرة فولاذيّة يبدو على استعداد لغرسها في أعماق شغاف فؤادك. ذلك على أية حال هو ما كان آل «غير مانت» يظنّون أنّهم فاعلوه فعلاً إذ يحكمون أنّهم جميعاً علماء نفس من الطراز الأوّل. وكانوا يحسبون علاوة على ذلك أنّهم يزيدون بهذا التفحصّ من لطف التحية التي تزمع أن تتبع ذلك والتي لن توجّه إليك إلاّ عن دراية تامة. كل ذلك كان يجري على مسافة منك صغيرة لو أن الأمر أمر تبادل ضربة سيف، لا أنّها تبدو ضخمة من أجل مصافحة وكانت تجمد الدم في عروقك في الحالة الثانية كما لعلّها كانت تفعل في الأولى بحيث أن يد «الغيرمانتي»، بعد ما يكون هذا الأخير قد حكم أنّك أهل مذ ذاك للتلاقي وإيّاه على إثر رجولة سريعة تمت في آخر مخابىء نفسك وكرامتك، يده الموجهّة إليك في آخر ذراع ممدودة على مدى طولها كانت تبدو وكأنّها تقدّم لك سيف مبارزة من أجل قتال غريب، وكانت تلك اليد باختصار القول بعيدة جداً عن «الغيرمانتي» في تلك اللحظة إلى حدّ يصعب معه، حينما كان يحني الرأس حينذاك، أن تميّز إن كنت أنت من يحييه أم يده. كان بعض آل «غير مانت»، ولا يملكون حسّ الاتزان أو هم عاجزون عن ألا يكرّروا أنفسهم دون انقطاع، يبالغون إذ يعيدون ذلك الحفل في كلّ مرّة يلتقونك فيها. ولمّا لم يعد ينبغي لهم أن يقوموا بالتحقيق السيكولوچي المسبق الذي من أجله فوّضتهم «عبقريّة الأسرة» بسلطاتها ولابدّ أنّهم كانوا يتذكّرون نتائجه، فلم يكن من الممكن تفسير النظرة الثاقبة التي تسبق المصافحة إلا بالآلية التي اكتسبتها نظرتهم أو بموهبة سحر يظنّون أنّهم يملكونها. أمّا آل «كورفوازييه» الذين كانوا يختلفون عنهم بنية فعبثاً حاولوا تمثل هذه التحية المتفحصّة فانقلبوا إلى الجفاء المتعالي أو الإهمال السريع. ولكنّما كان يبدو بالمقابل أن عدداً قليلاً جداً من «الغيرمانتيّات» أخذن عن آل «كورفوازييه» تحيّة السيّدات. فحينما كانوا يقدّمونك إلى واحدة من تلك «الغيرمانتيّات» كانت تحيّيك تحيّة واسعة تقرّب منك فيها وفق زاوية من خمس وأربعين درجة رأسها وجذعها فيما يظلّ أسفل الجسم (وهو مرتفع جداً لديها) إلى الزنار الذي يؤلف محور دوران ثابتاً لا حراك به. ولكنّها ما أن تقذف على هذا النحو باتّجاهك القسم العلوي من شخصها حتّى تردّه خلف الخطّ العمودي بانسحاب مفاجىء يبلغ طولاً مكافئاً على وجه التقريب. كان الانقلاب اللاحق يعطّل ما سبق أن بدا لك وكأنه مسلّم به، والأرض التي حسبت أنّك ربحتها لاتلبث حتّى في حيازتك كما هي الحال في ما يخصّ المبارزة فالمواقع الأوليّة كانت محفوظة. وكان هذا الإبطال نفسه للطف باستعادة المسافات (وكان من منشأ «كورفوازي» ويرمي إلى إبراز أن محاولات التقرّب التي تمت في الوهلة الأولى لم تكن سوى تظاهر دام لحظة واحدة) يتجلّي بمثل ذاك الوضوح، لدى آل «كورفوازييه» وآل «غيرمانت» سوا بسواء، في الرسائل التي كانت ترد منهنّ على الأقل في أثناء الفترات الأولى من التعرّف بهنّ. فقد كان يمكن أن يحوي «جسم» الرسالة جملاً قد لاتكتبها فيما يبدو إلا لصديق، ولكن عبثاً حسبت أنّك تستطيع المفاخرة بأنّك صديق السيّدة لأن الرسالة كانت تبدأ بعبارة: «سيدي» وتنتهي بعبارة: «وتفضّل» ياسيّدي بقبول أسمى المشاعر».

كان يمكن أن تتوالى مذ ذاك، بين هذه البداية الباردة وهذه النهاية القارسة، وكلاهما تبدّلان معنى كلّ ماتبقّى، (إن كان ذلك جواباً لرسالة تعزية منك) الصور الأشد تأثيراً للغمّ الذي ألمّ بـ«الغير مانتيّة» لفقدانها شقيقتها وللألفة التي كانت سائدة بينهما ولجمال المنطقة التي كانت تصطاف فيها ولصنوف العزاء التي

كانت تلقاها في روعة أحفادها، كل ذلك لم يعد سوى رسالة من مثل ما نجد في مجموعات مختارة ولايستتبع طابع الألفة فيها مع ذلك قدراً أكبر من الألفة بينك وبين كاتبة الرسالة مما لو كانت هذه الأخيرة «بلين» الأصغر أو السيّدة «دوسيميان».

صحيح أن بعض «الغيرمانتيّات» كنّ يكتبن إليك منذ المرّات الأولى «صديقي العزيز»، «صديقي»: وما كنّ على الدوام أكثرهنّ بساطة بل بالأحرى أولئك اللواتي لايعشن إلاّ في وسط الملوك وهنّ إلى ذلك «طائشات» فكنّ يوقنّ في كبريائهنّ أنّ كلّ ما يصدر عنهنّ يثير البهجة وتعودن في فسادهنّ ألاّ يساومن في أيّ من صنوف المسرّة التي يمكن أن يوفّرنها. ولمّا كان يكفي على أيّ حال أن يتوافر لك جدّة ثالثة مشتركة في عهد لويس الثالث عشر كيما يقول شابّ من آل «غيرمانت» في حديثه عن المركيزة «دو غيرمانت» «العمّة آدم»، فقد كان آل «غير مانت» عديدين إلى حدّ أنّه كان يوجد كثير من الأنواع حتّى بالنسبة إلى هذه الطقوس البسيطة كطقس تحية التعارف على سبيل المثال. فلكلّ جماعة فرعيّة على شيء من رهافة الذوق تحيتّها التي يورثها الأهل للأبناء كوصفة دواء خاص بالجروح وطريقة خاصّة بتحضير المربيات. وقد رأينا على هذا النحو يد «سان لو» تنطلق للمصافحة كأنّما غصباً عنه لحظة كان يسمع اسمك دون اشراك لنظر ودون إضافة لتحيّة. كان كلّ تعيس حظّ من العوام تمّ تعريفه لسبب خاص– وقلّما يتفق ذلك على أيّ حال– بواحد من مجموعة «سان لو» الفرعية يشحذ ذهنه، إزاء هذا الحدّ الأدنى الشديد الجفاء من التحيّة التي تتّخذ عمداً مظاهر اللامبالاة، كي يعلم ما يمكن أن يحمله «الغير مانتي» أو «الغير مانتيّة» من عداء له. وشدّ ما كان يدهشه أن يعلم أنّه رأى أو رأت من المناسب أن تكتب بوجه خاصّ إلى المعرّف لتقول له إلى أيّ حدّ رقتها أو رقته وأنّه أو أنّها تأمل تماماً في لقائك ثانية. وفي مثل تفردّ حركة «سان لو» الآلية كانت القفزات الراقصة المعقدة والسريعة (ويراها السيّد «دو شارلوس» مضحكة) التي يقوم بها المركيز «دو فيبريوا» وخطوات الأمير «دو غير مانت» الرصينة المنتظمة. ولكنما يستحيل ههنا أن نصف وفرة حركات آل «غير مانت» الراقصة هذه بسبب اتساع مجموعتهم الراقصة.

فإن عدنا إلى الكراهية التي كانت تعتمل في صدر آل «كورفوازييه» ضدّ الدوقة «دو غيرمانت» فقد كان يمكن أن يتعزّى هؤلاء بالرثاء لحالها طوال ما كانت فتاة إذ كانت هينّة الثروة آنذاك. بيد أنّ ضرباً من الانبعاثات السخاميّة الخاصّة كانت لسوء الحظّ تواري على الدوام وتحجب عن الأنظار ثراء آل «كورفوازييه» الذي كان يلبث مجهولاً مهما تعاظم. وعبثاً تتزوجّ «كورفوازييه» بلغة الثراء نصيباً دسماً فقد كان يتّفق دوماً ألا يكون للزوجين الشابيّن مسكن خاصّ في باريس فيحلاّن فيها في دار الحَمَويَن ويقضيان باقي العام في الريف بين ظهراني مجتمع لا اختلاط فيه ولكنّه خلو من الرونق. وفيما كان «سان لو» الذي كاد لايملك من بعد سوى الديون يفتن «دونسيير» بجياده وعرباته لم يكن يستقل أيّ «كورفوازي» واسع الثروة سوى الحافلة. وعلى عكس ذلك (قبل سنوات عديدة على أيّ حال) كانت الآنسة «دو غير مانت» (أوريان (التي لا تملك الكثير تشغل الناس بالحديث عن ملبسها أكثر مما يتأتي لجميع نساء آل «كورفوازييه» مجتمعات عن ملبسهنّ. حتى الفضيحة الناجمة عن أقوالها كان توفّر نوعاً من الدعاية لطريقتها في الملبس وتصفيف الشعر. فقد تجرأت على أن تقول لدوق روسيا الكبير: «ويحك ياسيّدي، يبدو أنّك تبغي تدبير مقتل «تولستوي»؟ وذلك في عشاء لم يدع إليه آل «كورفوازييه» وهم على أيّ حال قليلو الاطلاّع على أحوال «تولستوي». وما كانوا

أكثر اطلاّعاً بكثير على المؤلفين اليونانيين إن حكمنا في ذلك بناء على الدوقة الوريثة «دو غالاردون» (وهي حماة الأميرة «دوغالاردون» التي كانت بعد فتاة) التي إذ لم تظفر في غضون خمس سنوات بشرف زيارة واحدة من «أوريان» أجابت شخصاً كان يسألها عن سبب غيابها: «يبدو أنّها تلقي أشعاراً لأرسطو طاليس (وتقصد أن تقول لأرسطو فانيس) في المجتمع الراقي، ولست أسمح بذلك في منزلي!».

ويمكن أن نتصوّر إلى أي حدّ كانت «فلتة» الآنسة «دو غير مانت» تلك حول «تولستوي»، إن هي أثارت سخط آل «كورفوازييه»، تثير دهشة آل «غير مانت» ومن ورائهم كل ما يرتبط بهم لا من قريب فحسب، بل من بعيد. والكونتيسة الوريثة «دار چنكور»، وهي من عائلة «سينبور»، التي كانت تستقبل جميع الناس تقريباً لأنّها من دعيّات الأدب وعلى الرغم من أن ابنها كان سنوبياً شديداً، كانت تروي النكتة أمام بعض أرباب الأدب قائلة: «إن «أوريان دو غيرمانت» وهي في رقّة العنبر وخبث القرد وتتمتع بمواهب في كلّ شيء وترسم رسوماً مائية جديرة برسّام كبير وتقرظ شعراً من مثل ما تفعل قلّة من الشعراء العظام، وهي على صعيد الأسرة، كما تدرون، من أرفع ماوجد فقد كانت جدّتها الآنسة «دو مونبا نسييه»، وهي «أوريان دو غير مانت» الثامنة عشرة دونما أي زواج غير متكافئ، إنّها السلالة الأكثر صفاء والأكثر عراقة في فرنسه». ولذلك فإن أرباب الأدب المزيفين وأنصاف المثقفين الذين كانت تستقبلهم السيّدة «دار چنكور» كانوا يتمثلون «أوريان دو غيرمانت» التي قد لاتتاح هم الفرصة في يوم لمعرفتها شخصياً بمثابة شيء مدهش وخارق أكثر من الأميرة بدر البدور فلا يحسون أنّهم على استعداد للموت من أجلها فحسب إذ يعلمون أن امرأة رفيعة المولد إلى هذا الحدّ كانت تمجّد «تولستوي» فوق كل شيء، بل يحسّون كذلك أن حبّهم الخاصّ لـ«تولستوي» ورغبتهم في مناهضة القيصرية كانا يستعيدان في أذهانهم قوة جديدة. لقد أمكن أن تهزل فيهم هذه الأفكار الليبرالية وأمكن أن يشككوا بروعتها فلا يجرؤون من بعد على المجاهرة بها حينما وافاهم فجأة مثل هذا العون من الآنسة «دو غير مانت» نفسها أي من فتاة ذات شأن وسلطان عظيمين بما لايقبل النقاش وشعر ترسله أملس على جبينها (وهو ما لم تكن «كورفوازيّة» لتقبل به في يوم) إن عدداً من الوقائع الجيدة أو السيئة تفيد كثيراً على هذا النحو من أن يتبنّاها قوم لهم سلطان علينا. مثال ذلك أن طقوس الملاطفة في الشارع لدى آل «كورفوازييه» كان قوامها تحيّة معينة شديدة القبح وقليلة اللطف في حدّ ذاتها ولكنّما يعلم الناس أنّها الطريقة المتأنّقة في إلقاء التحية حتّى إن الجميع كانوا يجهدون في محاكاة هذه الرياضة الجافية فيزيلون عنهم الابتسامة وحسن الوفادة. أمّا آل «غير مانت» بعامّة، ولاسيّما «أوريان»، فما كانوا يتردّدون، مع أنّهم يعرفون تلك الطقوس أفضل من سواهم، أن يحيّوك، إن هم لمحوك من عربة، باشارة لطيفة من يدهم، ويقومون في صالة بانحناءات حلوة، تاركين لآل «كورفوازييه» أن يؤدّوا تحيّاتهم المتكلّفة الجامدة، ويمدّون يدهم إليك وكأنّما إلى رفيق فيما تبتسم عيونهم الزرقاء حتى ليدخل فجأة بفضل آل «غير مانت» في صلب الأناقة، وهي حتّى ذاك خاوية بعض الشيء وجافّة، كل مالعلك أحببت بالطبع وجهدت في أن تستبعده: حسن الوفادة ودفق اللطافة الحقة والعفويّة. وإنما يفلح بالطريقة نفسها، ولكن بردّ اعتبار قلّما نجد تبريراً له هذه المرّة، الأشخاص الذين يحملون أكثر ما يحملون في نفوسهم الميل الغريزي إلى الموسيقى الرديئة والألحان التي تتميّز بشيء من الرقة السهولة، مهما تكن تافهة، يفلحون بفضل الثقافة السمفونية في إماتة هذا الميل في صدورهم. ولكنّهم بعدما يبلغون هذه النقطة وحينما يرون، وقد فتنتهم بحق الألوان الأوركسترالية الرائعة لدى «ريشار شتراوس»، حينما

يرون هذا الموسيقي يحتضن أكثر الموضوعات عاميّة بتساهل يليق بـ «أوبير» فإن ما كان يحبّه هؤلاء الأشخاص يلقى فجأة لدى سلطة رفيعة إلى هذا الحدّ التبرير الذي يخلب ألبابهم فيفتتنون دونما وساوس وبامتنان مزدوج لدى سماع «صالومي»، بما كان محظوراً عليهم أن يحبّوه في «لآلئ التاج».

وسواء أكان انتهار الآنسة «دو غير مانت» للدوق الأكبر حقيقياً أم لا فقد كان، بانتقاله من بيت إلى أخر، مناسبة للرواية عن الأناقة المفرطة التي زوّقت بها «أوريان» نفسها في ذلك العشاء. ولئن كان البذخ لاينبع من الثراء (الأمر الذي كان يجعله بالضبط عزيز المنال على آل «كورفوازييه») بل من الإسراف فإن هذا الأخير يدوم فترة أطول إن اتفق له أخيراً أن يسانده الأوّل الذي يمكنّه آنذاك من التألق إلى أبعد حدوده. وحيث أن المبادئ التي تجاهر بها علناً لا «أوريان» فحسب بل السيّدة «دو فيلباريزيس» كذلك، ومفادها أن شرف النسب لايؤخذ في الحسبان وأنّه من المضحك أن تهتّم للمكانة وأن الثروة لاتعني السعادة وأنّ العقل والقلب والموهبة هي الهامّة وحدها فقد كان بامكان آل «كورفوازييه» أن يأملوا أن تتزوج «أوريان» بمقتضى هذه التربية التي قبستها عن المركيزة شخصاً لايكون من المجتمع الراقي، فنّاناً أو محكوماً سابقاً أو متسولاً أو ملحداً وأنّها ستضّم نهائياً إلى فئة من كان آل «كورفوازييه» يدعونهم «بالضالّين». كان يمكن أن يتزايد أملهم بمقدار ما كانت السيّدة «دو فيلباريزيس»، وهي تجتاز في هذه الفترة على الصعيد الاجتماعي أزمة صعبة (فلم يعد إليها بعد أيّ من الأشخاص اللامعين النادرين الذين لقيتهم في منزلها)، تجاهر بقرف عميق إزاء المجتمع الذي كان يضعها جانباً. حتى حينما كانت تتحدّث عن ابن أخيها الأمير «دو غيرمانت» لم تكن تملك مايكفي من عبارات الهزء تجاهه لأنّه كان شغوفاً بكرم مولده. ولكن حينما اقتضى الأمر أن يلقوا زوجاً لـ«أوريان» لم تعد المبادئ التي جاهرت بها العمّة وابنة الأخ هي التي تولت القضية، ولكنّما فعلت «عبقريّة الأسرة» الغامضة، وبمثل ما يتفق من حتمية لو أن السيّدة «دو فيلباريزيس» و«أوريان» ما تحدّثتا في يوم إلاّ في سندات الدخل والأنساب عوضاً عن القيمة الأدبية ومزايا القلب وكما لو أن المركيزة وافتها المنيّة ووضعت في تابوت بضعة أيّام – مثلما سوف يتّم لها ذلك فيما بعد – في كنيسة «كومبريه» حيث لم يعد أيّ فرد من الأسرة سوى واحد من آل «غيرمانت» وقد فقد فرديتّه وأسماءه الأمر الذي يبرزه على الستائر السوداء الكبيرة حرف «غ» الأرجواني وحده يعلوه التاج الدوقيّ، فان عبقريّة الأسرة وجهّت اختيار السيّدة «دو فيلباريزيس» المثقفة المتهكمّة الملائكية إلى الرجل الأوفر ثراء والأكرم مولداً، إلى أعظم نصيب في حيّ «سان جيرمان»، إلى ابن دوق «غير مانت» البكر أمير «لوم». وعلى مدى ساعتين في يوم زواجها جمعت السيّدة «دو فيلباريزيس» في منزلها جميع النبلاء الذين كانت تسخر منهم، بل الذين كانت سخرت منهم، بل الذين سخرت منهم مع بعض البورجوازيّن الحميمين الذين كانت قد دعتهم والذين وضع لهم أمير «لوم» بطاقات حينئذ قبل أن «يقطع بهم الحبل» منذ العام التالي. وكيما تزداد الأمور سوءاً بآل «كورفوازييه» فإن الحكَم التي تجعل من الذكاء والموهبة وجوه التفوّق الاجتماعي الوحيدة عادت تلقى من جديد في منزل أميرة «لوم» عقب الزواج مباشرة. ولنقل عرضاً، إذ نحن بهذا الصدد، إن وجهة النظر التي كان «سان لو» يدافع عنها حينما كان يعيش مع «راحيل» ويتّردد على أصدقاء «راحيل» ويودّ لو يقترن بـ«راحيل» كانت تتضمنّ – أيّا كان القرف الذي توحي به في الأسرة –قدراً من الكذب أقلّ ممّا تتضمنّه وجهة نظر آنسات «غيرمانت» عامّة وهنّ يشدن بالذكاء ويكدن لايقلبن بأن توضع المساواة بين الناس موضع شكّ فيما يؤول كلّ ذلك في الوقت المحدد إلى النتيجة نفسها التي يؤول إليها لو

أنّهن جاهرن بحكم مناقضة، أي إلى الاقتران بدوق عظيم الثراء. أمّا «سان لو» فكان يعمل على العكس وفق نظرياته الأمر الذي كان يجعلهم يقولون إنّه في الطريق الخاطئة. صحيح أنّ «راحيل» كانت بالفعل لاترضي إلاّ قليلاً وجهة النظر الأخلاقية. ولكنّه ليس أكيداً أنّ السيّدة «دو مارسانت» ما كانت لتؤيد الزواج لو أن ثمة امرأة ليست أفضل منها ولكنّها دوقة أو هي تملك الكثير من الملايين.

ولكن إن عدنا بالحديث إلى السيّدة «دي لو م» (التي أضحت بعد ذلك بقليل دوقة «غيرمانت» بوفاة والد زوجها)، فممّا زاد في المصيبة التي حلّت بآل «كورفوازييه» أنْ لم توجه نظريات الأميرة الشابّة، وقد لبثت على هذا النحو في حديثها، لم توجّه في شيء سلوكها، وهكذا لم تسيء تلك الفلسفة (إن جاز القول) إطلاقاً إلى الأناقة الأرستقراطية في صالة آل «غيرمانت». وليس من شكّ أن جميع الأشخاص الذين ما كانت السيدة «دو غيرمانت» تستقبلهم إنما كانوا يتخيلون أن الأمر مردّه أنّهم لم يكونوا على قسط كاف من الذكاء، فهذه الأميريكية التي لم تملك في يوم كتاباً غير نسخة صغيرة قديمة لم تفتحها البتة من قصائد «بارني» موضوعة على قطعة أثاث في حجرة استقبالها لأنّها تعود إلى تلك الفترة كانت تبرهن عن مقدار إجلالها لمزايا الفكر بالنظرات اللاهبة التي تثبتها على الدوقة «دو غيرمانت» حينما كانت هذه الأخيرة تدخل إلى الأوبرا. وليس من شك كذلك أنّ السيّدة «دو غيرمانت» كانت صادقة حينما تختار شخصاً بسبب ذكائه. وما كانت تظنّ، حينما تقول عن امرأة: يبدو أنّها «رائعة»، وعن رجل إنّه غاية في الذكاء، أنّها تملك أسباباً أخرى للموافقة على استقبالها غير هذا السحر أو هذا الذكاء، إذ إن عبقرية «آل غيرمانت» لم تكن تتدخل في هذه الدقيقة الأخيرة: فقد كانت هذه العبقرية اليقظة، وهي أكثر عمقاً وقد اتّخذت موقعها في المدخل المظلم من المنطقة التي كان آل «غيرمانت» يطلقون منها أحكامهم، كانت تحول دون أن يجد آل «غيرمانت» أن هذا الرجل ذكّي أو أن هذه المرأة ساحرة إن لم يمتلكا قيمة مجتمعية راهنة أو مقبلة. فكانوا يعلنون أنّ الرجل عالم ولكن على غرار معجم، أو أنّه على العكس عاميّ يتمتّع بفكر ممثل تجاري جوّال، وأنّ المرأة الجميلة تصرّف بطريقة مقيتة أو هي كثيرة الكلام. فأمّا الذين لا مركز لهم فقدكانوا متحذلقين، ويااللقرف. كان السيّد «دو بريوتيه»، وقصره مجاور تماماً لأرض «غيرمانت»، لايتردّد إلاّ على أصحاب سمّو. ولكنّه كان يسخر منهم ولايحلم إلاّ بالعيش في المتاحف. ولذلك كانت تثور ثائرة السيّدة «دو غيرمانت» حينما ينعتون السيّد «دو بريوتيه» بالسنوبيّة «بابال» سنوبي! إنّك مجنون ياصديقي المسكين، فهو عكس ذلك تماماً، إنّه يكره الناس اللامعين ولست تستطيع حمله على التعرّف بأحدهم. حتّى إلى منزلي! هو لايجيء إلاّ متذمّراً إن أنا دعوته مع شخص جديد».

وليس يعني ذلك أن آل «غيرمانت» ما كانوا يقيمون للذكاء حتّى على صعيد التطبيق وزناً يختلف اختلافاً تامّاً عمّا يفعل آل «كورفوازييه». كان ذاك الفارق بين آل «غيرمانت» وآل«كورفوازييه» يعطي مذ ذاك على صعيد الإيجاب ثماراً طيبة إلى حدّ ما. من ذلك أنّه سبق للدوقة «دو غيرمانت»، ويلفها على أيّ حال سرّ كان العديد من الشعراء يحلمون من بعيد أمامه، إن أقامت ذاك الاحتفال الذي قد تحدّثنا عنه والذي سرّ به ملك انكلتره أفضل من أيّ مكان آخر لأنّه خطر لها مالعلّه لايخطر يوماً ببال وتجرّأت على ما كان ردّ على أعقابها شجاعة آل «كورفوازييه» بأسرهم وهو أن تدعو إلى جانب الشخصيات التي جئنا على ذكرها الموسيقي «غاستون لومبر» والمؤلّف المسرحي «غرانموجان». ولكن الصبغة الفكريّة كانت تستبين بوجه الخصوص على

الصعيد السلبيّ. فان راح المعامل الضروري من الذكاء والفتنة في انخفاض كلّما ارتفعت مكانة الشخص الذي كان يتوق أن يدعى إلى منزل الدوقة «دو غيرمانت» إلى حدّ الاقتراب من الصفر إن تعلّق الأمر بالرؤوس المتوّجة البارزة، فكلّما كان يتّم الانحدار، في مقابل ذلك، دون هذا المستوى الملكي كان المعامل يرتفع. كان ثّمة على سبيل المثال لدى الأميرة «بارما» العديد من الأشخاص الذين كانت تستقبلهم لأنّها عرفتهم طفلة أو لأنّهم كانوا على علاقة نسب بهذه الدوقة أو تلك أو هم يرتبطون بشخص هذا العاهل أو ذاك وإن كان هؤلاء الأشخاص إلى ذلك قبيحي المنظر أو مملّين أو أغبياء. ولعلّ السبب التالي في نظر واحد من آل «كورفوازييه» «أنّ الأميرة دوبارما تحبّه» أو «هي شقيقة للدوقة «دارباجون» من أمّها» أو «هي تقضي ثلاثة شهور كلّ عام في منزل ملكة إسبانيه»، لعلّه كان كافياً ليحمله على دعوة مثل هؤلاء الناس، في حين لم تدع السيّدة «دو غيرمانت» التي كانت تقبّل بتأدب منذ عشر سنوات تحيّاتهم في منزل الأميرة «دو بارما»، لم تدع لهم في يوم أن يجتازوا عتبتها إذ ترى أن أمر الصالة على الصعيد الاجتماعي كأمرها على الصعيد الماديّ حيث تكفي قطع أثاث لاتجدها جميلة ولكنّنا نبقها بمثابة ملء للمكان وبرهان على الثراء كيما تجعلها قبيحة. فمثل تلك الصالة إنّما تشبه كتاباً لايحسن المرء فيه أن يمسك عن جمل تبرهن عن معرفة وبهرج وسهولة. أمر الكتاب كأمر البيت وجودة «الصالة»، فيما تظنّ السيّدة «دو غيرمانت»، وبحق تفعل، إنّما التضحية حجر الزاوية فيها.

كثيرات من صديقات الأميرة «دو بارما» من اللائي كانت الدوقة «دو غير مانت» تكتفي منهنّ منذ سنوات بالتحيّة المناسبة نفسها أو تقابل بطاقاتهن بأخرى دون أن تدعوهنّ في يوم أو تذهب إلى احتفالاتهنّ كنّ يشتكين سرّاً إلى صاحبة السموّ التي كانت في الأيّام التي يجيء فيها السيّد «دو غيرمانت» وحده لزيارتها تقول له كلمة في ذلك. بيد أنّ السيّد الماكر، وهو زوج سيءٌ للدوقة بما كان له من عشيقات ولكنّه صاحب يعتمد عليه فيما يتعلّق بسير صالتها الصحيح (وبظرف «أوريان» الذي كان يشكّل الجاذب الرئيسيّ فيها)، كان يجيب قائلاً: «ولكن هل تعرفها امرأتي؟ آه كان عليها الفعل أن تقدم على ذلك. ولكنّي سأقول الحقيقة لسيّدتي: «إن «أوريان» في الأساس لاتحبّ حديث النساء. وهي محاطة ببلاط من العقول المتفوقة– أما أنا فلست زوجها، لست سوى خادمها الخاص الأوّل. وإن النساء، باستثناء عدد هيّن جدّاً هنّ، فيما يخصهنّ، بالغات الظرف، يبعثن الملل في نفسها. هيّا ياسيّدتي، لن تقولي لي، سموّك، وأنت على هذا القدر من الرهافة، إن المركيزة «دو سوفريه» تملك شيئاً من الذكاء. أجل، أدرك تماماً، إن الأميرة تستقبلها تكرّماً. ثمّ إنّها تعرفها. تقولين إنّ «أوريان» شاهدتها، هذا ممكن، ولكن أقلّ القليل، أؤكّد لك. ثم إني سأقول للأميرة، ثمة أيضاً بعض ذنب لي. إن زوجتي متعبة جداً وما أكثر ما تحبّ أن تكون لطيفة حتّى لتتوالى الزيارات إلى مالا نهاية إن تركتّها تفعل. ليس أبعد من مساء البارحة كان بها حمّى، وكانت تخشى أن تغمّ الدوقة «دو بوربون» بالاحجام عن الذهاب إلى بيتها. كان لابد أن أكشّر عن أسناني فمنعتّ أن يسرجوا. هاك، تدرين ياسيدتي، إنّي شديد الرغبة حتّى في ألاّ أقول لـ«أوريان» إنّك حدّثتني عن السيّدة «دو سوفريه». إنّ «أوريان» تحبّ سموّك إلى حدّ أنّها ستبادر في الحال إلى دعوة السيّدة «دو سوفريه» وسيكون ثمّة زيارة إضافيّة وسيضطرّنا الأمر إلى الاتّصال بالشقيقة التي أعرف زوجها تمام المعرفة. أظن أني لن أقول شيئاً البتّة لـ«أوريان» إن أذنت لي الأميرة بذلك. سوف نجنّبها على هذا النحو كثيراً من التعب والاضطراب. وإنّي أؤكّد لك أن الأمر لن يشكّل حرماناً للسيّدة «دو سوفريه». إنّها تذهب إلى كل مكان وتحلّ في أشهر المطارح. أمّا نحن فانّنا حتّى لانستقبل، أعشية

صغيرة لا شأن لها، والسيّدة «دو سوفر يه» قد يصيبها ملل قاتل» . أمّا الأميرة «دو بارما»، فإذا اقتنعت بسذاجة بأنّ الدوق «دو غير مانت» لن ينقل طلبها إلى الدوقة واغتمّت أنّها لم تستطع الحصول على الدعوة التي كانت ترغب فيها السيّدة «دو سوفريه» ، فقد زاد ذلك من زهوها لأن تكون واحدة ممّن يتردّدن على صالة قلّما يمكن الوصول إليها. وليس من شكّ أن هذا الارتياح ما كان يحصل دون إزعاجات. ففي كل مرّة كانت الأميرة «دو بارما» تدعو فيها السيّدة «دو غير مانت» كان ينبغي لها أن تجهد الفكر كي لايكون لديها من يستطيع أن يسوء في عيني الدوقة ويحول دون أن تعود.

في الأيّام المعتادة وبعد العشاء حيث يجتمع لديها على الدوام (من فترة مبكّرة جداً، إذ هي احتفظت بالعادات القديمة) بعض المدعوّين كانت صالة الأميرة «دو بارما» مفتوحة في وجه الروّاد وعلى نحو عام في وجه كبار الأرستقراطيّين الفرنسيّين والأجانب كافّة. وكان الاستقبال قوامه أن تجلس الأميرة لدى مغادرة قاعة الطعام على أريكة أمام طاولة كبيرة مستديرة وتتحدّث إلى اثنتين من أكثر النساء اللواتي تعشّين أهمية أو تلقي نظرة على مجلّة مصوّرة وتلعب بالورق (أو تتظاهر باللعب حسب عادة مستقاة من البلاط الألماني) إمّا بالقيام بترتيب الورق ترتيباً معيناً وإمّا باتّخاذ شخصية بارزة بمثابة شريك حقيقي أو مُفْتَرض. وفي حوالي الساعة التاسعة كان باب الصالة الكبرى لايكف من بعد عن أن ينفتح على مصراعيه وينغلق وينفتح من جديد كي يسمح بمرور الزائرين الذين سبق أن تناولوا عشاءهم أربعة أربعة (أو هم إن تناولوا عشاءهم في المدينة تحاشوا القهوة بقولهم إنّهم يزمعون العودة، وهم يتوقعون بالفعل «الدخول من باب والخروج من الآخر») كي يوافقوا ساعات الأميرة. إلا أنّ هذه الأخيرة كانت تتظاهر، وهي تصرف النفس إلى لعبها أو إلى الحديث، بأنّها لاتبصر الوافدات ولم تكن تقف بلطف وهي تبتسم ابتسامة رقيقة للنساء إلاّ لحظة يكنّ على خطوتين منها. بيد أنّهنّ كنّ يقمن أمام سمّوها الواقفة بانحناءة تبلغ حدّ الجثّو بحيث يضعن شفاههنّ بموازاة اليد الجميلة التي تتدلّى كثيراً ويقبلّنها. ولكنّ الأميرة في تلك اللحظة كانت تنهض الجاثية كما لو أنّها تدهش في كلّ مرّة من جرّاء مراسم كانت تعرفها مع ذلك حقّ المعرفة. تنهضها كأنّما عنوة برقّة وعذوبة لامثيل لهما وتقبلها على الوجنتين. والرقة والعذوبة شرطهما، يقول قائل، الاتّضاع الذي تثني به الوافدة ركبتها. لاشكّ في ذلك ؛ ويبدو أن التهذيب قد يزول في مجتمع ينادي بالمساواة لا من جرّاء غياب التربية، كما يظنّون، بل لأنّه قد يزول لدى بعضهم الإجلالُ الواجب للمهابة التي ينبغي أن تكون خياليّة كيما تكون فعّالة، ويزول على وجه الخصوص لدى الآخرين اللطف الذي يُبْذَلُ ويرق حين يتمّ الإحساس بأنّه يكتسب في نظر من يناله ثمناً لاحد له، ثمناً قد يتهاوى فجأة إلى لاشيء في عالم مبنيّ على المساواة على غرار كل مالم يكن يملك سوى قيمة ائتمانية. ولكنّ زوال التهذيب هذا في مجتمع جديد ليس أكيداً وإنّنا لنغالي أحياناً في استعدادنا للاعتقاد بأن الشروط الراهنة لحالة معينّة إنّما هي الوحيدة الممكنة. لقد ظنّت عقول حصيفة أن الجمهورية لن تستطيع أن توفّر لنفسها ديبلوماسية وأحلافاً وأن طبقة الفلاحين لن تطيق الانفصال بين الكنيسة والدولة. والتهذيب في مجتمع ينادي المساواة قد لايكون في جميع الأحوال معجزة أعظم من نجاح السكك الحديدية واستخدام الطائرة عسكرياً. ثم إنه لاشيء يثبت، حتّى إذا التهذيب زال، أن الأمر يشكّل مصيبة. وأخيراً ألن يتراتب مجتمع في الخفاء كلّما أضحى في الواقع أكثر ديموقراطية؟ ذلك ممكن تماماً. لقد تعاظم سلطان البابوات السياسيّ كثيراً منذ أن لم يعد لديهم دول أو جيش ؛ والكاتدرائيات كانت تلقي المهابة في نفس متديّن من

القرن السابع عشر أقل منها بكثير في نفس ملحد من القرن العشرين، ولو أن الأميرة «دوبارما» كانت مليكة إحدى الدول لكان خطر لي دونما شكّ أن أتحدث عنها بمقدار ما أفعل تقريباً عن رئيس للجمهورية، يعني ألا أفعل على الإطلاق.

وما أن يتّم إنهاض ذات اللقب وتقبيلها على يد الأميرة حتّى تعود هذه الأخيرة إلى الجلوس وتنصرف ثانية إلى ترتيب الورق، ولاتفعل، إن كانت الوافدة الجديدة ذات شأن، دون أن تكون تحدّثت إليها فترة وهي تجلسها على مقعد.

وعندما تمتلىء الصالة بما يجاوز الحدّ كانت وصيفة الشرف المكلّفة بحفظ النظام تفسح المكان إذ تقود الروّاد إلى بهو فسيح كانت الصالة تطلّ عليه وكان مليئاً بالرسوم وبالتحف النادرة العائدة إلى بيت آل «بوربون». حينئذ كان مدعوّو الأميرة المعتادون يقومون راضين بدور الدليل ويقولون أموراً ذات بال لايملك الشبّان الصبر لسماعها وهم أكثر اهتماماً بالنظر إلى صاحبات السموّ اللواتي على قيد الحياة (وأن يطلبوا إلى وصيفة الشرف والفتيات التابعات أن يعرّفن بهم إن قضت الحاجة) منهم بتأمّل بقايا العاهلات المتوفيّات. وماكانوا، وهم شديدو الانصراف إلى المعارف التي يمكن أن تتوافر لهم والدعوات التي ربّما تصيّدوها، وما كانوا يعرفون شيئاً على الإطلاق حتّى بعد سنوات ممّا في هذا المتحف الثمين من محفوظات النظام الملكي ويتذكّرون فحسب على نحو غامض أنّه كان مزيّناً بأشجار الصبّار والنخيل العملاق التي تجعل مركز الأناقات هذا شبيهاً بمركز النخيل في حديقة الأقلمة.

لاشكّ أنّ الدوقة «دو غير مانت» كانت تجيء أحياناً لتقوم في تلك الأمسية، تقشّفاً، بزيارة هضم للأميرة التي كانت تحتفظ بها طوال الوقت إلى جانبها فيما تمازح الدوق. ولكن حينما كانت الدوقة تجيء للعشاء كانت الأميرة تتحاشى وجود روّاد بيتها وتغلق بابها لدى مغادرة المائدة مخافة أن يسوء زوّار غير مصطفين تماماً في عيني الدوقة المتشدّدة. فإن أقبل في تلك العشيّات خلّص لم يتّم إعلامهم على باب صاحبة السموّ كان البوّاب يجيب: «إن صاحبة السموّ الملكّي لاتستقبل هذا المساء» فيعودون أدراجهم. كان كثيرون من أصدقاء الأميرة يعلمون سلفاً على أيّة حال أنّهم لن يُدْعَوا في التاريخ. لقد كانت حلقة خاصّة، حلقة مغلقة دون العديد ممّن لعلّهم تمنّوا أن تضمّهم. كان بمقدور المستبعدين أن يسمّوا المختارين بما يشبه اليقين وكانوا يقولون فيما بينهم بلهجة يلوّنها الغضب: «تعلمون أنّ «أوريان دو غير مانت» لا تتنقّل البتّة دون كامل أركانها». كانت الأميرة «دو بارما» تحاول بوساطة هذه الأركان أن تحيط الدوقة كأنّما بسور يقيها الأشخاص الذين ربّما كان تجاحهم بالقرب منها أكثر مدعاة للشكّ. بيد أنّ الأميرة «دو بارما» كانت تضيق ذرعاً بملاطفة العديد من أصدقاء الدوقة المفضّلين، العديد من أعضاء هذه الأركان اللامعين إذ كانوا يبدون لها القليل من اللطف. وليس من شكّ أن الأميرة «دوبارما» كانت تسلّم تماماً بامكان الارتياح إلى مخالطة السيّدة «دو غيرمانت» أكثرممّا لمخالطتها هي. لقد كانت تلاحظ اضطراراً أن الناس يتدافعون إلى «أيّام» الدوقة وأنّها غالباً ما كانت تلتقي بنفسها هناك بثلاثة أو أربعة من أصحاب السموّ ممّن يكتفون بوضع بطاقاتهم في بيتها. وعبثاً تحاول حفظ عبارات «أوريان» وتقليد فساطينها وتقديم معجنّات توت الأرض نفسها في حفلات الشاي لديها فقد كان يتّفق لها مرّات أن تظلّ وحيدة طوال النهار برفقة وصيفة شرف ومستشار مفوّضية

أجنبيّة. ولذلك لم يكن يداخل الأميرة «دو بارما» رغبة كبيرة، حينما لم يكن أحدهم (كما سبق أن كانت تلك حال «سوان» فيما مضى على سبيل المثال) يختم نهاره قطّ دون أن يكون قد بادر إلى قضاء ساعتين في منزل الدوقة فيما يقوم مرّة واحدة في كلّ عامين بزيارة لها. في استدراج أيّ «سوان» من هذا القبيل لدعوته للعشاء. وقصارى القول إنّ دعوة الدوقة كانت بالنسبة إلى الأميرة «دو بارما» مدعاة لصنوف من الحيرة لشدّة ما تتأكلها خشية أن تجد «أوريان» كلّ شيء رديئاً. بيد أن الأميرة «دو بارما» في مقابل ذلك وللسبب نفسه كانت على يقين مسبق، حينما تجيء للعشاء في منزل السيّدة «دو غير مانت»، أن كلّ شيء سيكون حسناً ولذيذاً ولاتداخلها إلا خشية قوامها ألاّ تحسن الإدراك والحفظ والإمتاع، ألاّتحسن تمثّل الأفكار والناس. كان وجودي يثير من هذه الزاوية اهتمامها وطمعها تماماً كما ربّما فعلت طريقة جديدة في تزيين المائدة بجبال من الفواكه وهي لاتدري إن كان هذا أم ذاك، تزيين الطاولة أم وجودي، الذي كان يشكّل على نحو أكثر خصوصية واحداً من صنوف الروعة تلك التي هي سرّ نجاح حفلات استقبال «أوريان»، وقد صمّمت أن تحاول الحصول على هذا وذاك في مأدبة عشائها المقبلة. وما كان يبرّر على أي حال أتمّ التبرير الفضول المفتون الذي تحمله الأميرة «دوبارما» إلى منزل الدوقة فإنّما هذا الجزء المضحك الخطر المثير الذي كانت الأميرة تغوص فيه بضرب من الخشية والدهشة والسعادة (كما هي الحال على شاطئ البحر في واحد من «حمامات الموج» التي يشير أدلاّء السباحة إلى خطرها لمحض أن ليس منهم من يحسن السباحة) والذي كانت تطلع منه منشطّة سعيدة مجدّدة الشباب وهو ما كان يدعى بظرف آل «غير مانت» كان ظرف آل «غير مانت» — وهو كيان لاوجود له شأن تربيع الدائرة، حسبما ترى الدوقة التي كانت تحكم أنّها الوحيدة من آل «غير مانت» التي تملكه —صيتاً كـ«مفرومة» مدينة تور أو بسكويت مدينة رانس. وليس من شكّ (إذ لا تستخدم خاصيّة عقليّة من أجل انتشارها الطرق نفسها التي يستخدمها لون الشعر أو البشرة) أن بعض آلاف الدوقة ممّن لم يكونوا من سلالتها كانوا يملكون مع ذلك هذا الظرف الذي لم يستطع بالمقابل أن يغشى بعضاً من آل «غيرمانت» يستعصون بشدّة على أيّ من أنواع الظرف. وإن أصحاب ظرف آل «غير مانت» من غير أقرباء الدوقة كانوا يمتازون بعامّة بما سبق أن كانوا أفراداً لامعين ومهيئين لوظائف فضّلوا عليها، سواء في ذلك الفنون والديبلوماسية والبلاغة النيابية والجيش، حياة العشيرة المترابطة. وربما أمكن تفسير هذا التفصيل بشيء من النقص في الأصالة أو روح المبادرة أو الإرادة أو الصحّة أو الحظ أو بالتحذلق.

ولئن كانت صالة آل «غير مانت» بالنسبة إلى بعضهم (وينبغي الإقرار على أيّة حال بأنّ ذلك استثناء) حجر العثرة في وجه مستقبلهم فانّما كان ذلك على كره منهم. من ذلك أن طبيباً ورساماً وديبلوماسيّاً ذوي مستقبل عظيم لم يستطيعوا النجاح في مهنتهم، مع أنّهم كانوا ألمع مواهب من الكثيرين بالنسبة إليها، لأن ألفتهم لدى آل «غيرمانت» أفضت إلى أن يُعدّ الأولان من رجال المجتمعات والثالث رجعياً، الأمر الذي حال دون ثلاثتهم أن يعترف بهم أقرانهم. إن الحلّة القديمة والقلنسوة الحمراء، ولاتزال هيئة الناخبين في الكلّيات ترتدي تلك وتعتمر هذه، ليستا أو ما كانتا على الأقلّ منذ فترة ليست ببعيدة محض استمرار خارجي بحت لماضٍ ضيق الأفكار أعمى في تشيعّه. فقد كان الأساتذة بعد، تحت القلنسوة ذات الشراريب الذهبيّة شأن كبار الكهنة تحت قبعة اليهود المخروطية، لايزالون في الأعوام التي سبقت مسألة «دريفوس» سجناء داخل أفكار فريّسية تماماً. كان «دي بولبون» فنّاناً في أساسه ولكنّما كان خلاصه في أنّه لم يكن يحبّ المجتمع الراقي.

وكان «كوتار» يتردّد على قوم الـ«فيردوران» ولكن السيّدة «فيردوران» كانت إحدى زبائنه، ثمّ إن سوقيّته كانت تحميه، وما كان أخيراً يستقبل في منزله سوى جماعة الكلّية في ولائم تفوح منها رائحة حمض الفينيك. ولكنّ الأستاذ، داخل الهيئات الشديدة التماسك حيث لاتعدو قسوة الأفكار المسبقة كونها الثمن لأجمل صنوف النزاهة ولأرفع الأفكار الأخلاقية التي تضعف في أوساط أكثر تسامحاً وأكثر حرّية وسرعان ما تضحي أكثر انحلالاً، إن الأستاذ بحلّته التي من الساتين القرمزي المبطنّ بفراء القاقوم كحلّة دوج (يعني دوقاً) من البندقيّة حبيس في القصر الدوقي كان يماثل في فضائله وتعلّقه بالمبادئ السامية، بل في قسوته التي لا ترحم إزاء كل عنصر غريب، ذلك الدوق الآخر الرائع والمخيف، عنينا السيّد «دو سان سيمون» كان التعيس الذي نتحدّث عنه هنا، بغية أن يحسن صنعاً وكي لايتهمه زملاؤه باحتقاره لهم (إيّة فكرة هذه لدى رجل مجتمعات راقية!) إنه هو خبّأ الدوقة «دو غير مانت»، كان يأمل أن يهدّئ سخطهم بإقامة مآدب عشاء مختلطة يضيع فيه العنصر الطبي داخل عنصر المجتمعات. وما كان يعلم أنّه إنّما يحكم هكذا على نفسه بالهلاك، أو هو بالأحرى يُبَلّغُ الأمر حينما كان ينبغي أن يشغل مجلس العشَرَة (وهو أكبر عدداً بقليل) كرسيّاً شاغراً فلا يخرج من صندوق الاقتراع المشؤوم على الدوام سوى اسم طبيب أقرب إلى العاديّ، وإن يكن أكثر ضحالة، ويتردّد «الفيتو» في الكلّية القديمة رسمياً مضحكاً مخيفاً شأن «القَسَم» الذي توفّي «موليير» في إبّانه. كذلك هو أمر الرسّام الذي صنّفَ أبد الدهر رجل مجتمعات حينما أفلح رجال مجتمعات يتعاطون الفنّ في أن يصنفّوا فنّانين ؛ وكذلك أمر الديبلوماسيّ الذي أفرط في ارتباطاته الرجعيّة.

ولكن هذه الحالة كانت من أكثرها ندرة. فإن نموذج الرجال البارزين الذين كانوا يؤلّفون خلفيّة صالة آل «غير مانت» كان نموذج الناس الذين تخلّوا طوعاً (أو ظنّوا ذلك على الأقلّ) عن الباقي، عن كلّ مالاينسجم وروح آل «غيرمانت»، وتهذيب آل «غير مانت»، وهذا السحر الخفّي البغيض في نظر أيّة «هيئة شرعيّة التنظيم» إلى حدّ ما.

ولعلّه كان بمقدور الذين كانوا يعلمون أنّ أحد روّاد صالة الدوقة سبق له أن نال الميدالية الذهبية في المعرض، وأنّ الآخر، وهو أمين سرّ مؤتمر المحامين، كانت له بدايات مدويّة في المجلس، وأنّ ثالثاً خدم قضية فرنسه ببراعة كقائم بالأعمال، لعلّه كان بمقدورهم أن يضعوا موضع الفاشلين أناساً لم يأتوا من بعد بشيء منذ عشرين عاماً. ولكن هؤلاء «المطّلعين» كانوا قلّة وربّما كان المعنّيون أنفسهم آخر من يذكّر بالأمر إذ يرون تلك الألقاب القديمة عديمة القيمة بموجب روح آل «غير مانت» ذاتها: أفما كانت تصف وزراء بارزين، هذا الرسميّ بعض الشيء وذاك المغرم بالتلاعب اللفظيّ، من الذين تتغنّى الصحف بمدائحهم ولكنّما تتثاءب السيّدة «دو غير مانت» بجانبهم وتبدي نفاد صبر إن جاءتها قلة تبصر ربّة بيت بهذا أو ذاك جاراً لها، بالرجل المملّ أو المردّد أو على العكس بأجير المخازن؟ وبما أن كونك رجل دولة من الطراز الأوّل لم يكن على الإطلاق ليشفع لك لدى الدوقة فقد كان يحكم أولئك الذين سبق أن قدّموا استقالتهم من «السلك» أو الجيش ولم يرشحوا أنفسهم ثانية للمجلس، إذ يجيئون كلّ يوم لتناول الغداء أو التحدّث مع صديقتهم العظيمة، إذ يلقونها في منزل صاحبات سمّو لايقدرونهنّ إلاّ قليلاً على أية حال، أو هكذا يقولون» على الأقلّ، كانوا يحكمون أنّهم اختاروا أفضل حصة مع أنّ مظهرهم الحزين حتّى في صميم المرح كان يناقض بعض الشيء صحّة هذا الحكم.

أضف أنّه لابدّ من الإقرار بأنّ لطاقة الحياة الاجتماعية ونعومة الأحاديث في منازل آل «غير مانت» كان يطبعهما شيء من الحقيقة مهما دقّ الطابع. فليس من لقب رسمّي يساوي فيها متعة بعض المفضّلين لدى السيّدة «دو غيرمانت» الذين ربّما لم يستطع أكثر الوزراء اقتداراً أن يفلحوا في اجتذابهم إلى منازلهم. ولئن دُفِنَتْ إلى الأبد في تلك الصالة طموحات فكريّة ما أكثرها، بل جهود كريمة، فقد نبت فيها على الأقلّ أندر أزهار الكياسة من ترابها. صحيح أن رجال فكر من أمثال «سوان» كانوا يحكمون أنّهم يفوقون رجالاً ذوي قدر هم يحتقرونهم، ولكنّما ذلك لأنّما كانت الدوقة تضعه فوق كلّ شيء لم يكن العقل بل الظرف– وهو حسبما ترى صيغة رفيعة من العقل أكثر ندرة وأوفر روعة، العقل الذي سموا به حتى شكل كلامي من الموهبة. وحينما كان «سوان» فيما مضى يعدّ «بريشو» و«ايلستير»، في منزل آل «فيردوران»، الأوّل بمثابة متحذلق والآخر بمثابة فظّ على الرغم من كلّ علم الأوّل وكلّ عبقرية الآخر فانّما تسرّب ظرف آل «غيرمانت» هو الذي حمله على تصنيفهما على هذا النحو. وما كان ليجرؤ البتّة أن يقدم هذا أو ذاك للدوقة إذ يحس سلفاً بأيّة هيئة لعلّها استقبلت مقالات «بريشو» وهراء «ايلستير» إذ إنّ ظرف آل «غيرمانت» يضع الأقوال المتكلّفة المطوّلة من النوع الجدي أو النوع الهازل موضع أقلّ أنواع الغباء احتمالاً.

فأمّا ما يخصّ آل «غير مانت» بحسب اللحم والدم فإن لم تَغْشَهُمْ روح آل «غيرمانت» بمثل التمام الذي يقع على سبيل المثال في الندوات الأدبية حيث يتخذ جميع الناس طريقة واحدة في النطق، في التعبير، وبنتيجة ذلك في التفكير فليس يعني ذلك بالتأكيد أن الأصالة أشدّ زخماً في أوساط المجتمعات الراقية وتقيم فيها حاجزاً في وجه المحاكاة. ولكنّ للمحاكاة شروطاً ليس قوامها غياب أصالة لا يمكن ردّها إلى سواها فحسب بل رهافة نسبيّة في الأذن أيضاً تسمح بأن نميّز أولاً ما نحاكيه فيما بعد. ولكنّما ثمة من آل «غيرمانت» من كان ينقصهم هذا الحسّ الموسيقيّ تماماً كآل «كورفوازييه».

وكيما تتخذ على سبيل المثال التمرين الذي يدعونه، بمعنى آخر للفظة محاكاة، «المعارضة» (وما يدعونه لدى آل» «غيرمانت» بـ «التحميل»)، فعبثاً كانت السيّدة «دو غير مانت» تفلح فيه إلى حدّ خلب الألباب فقد كان آل «كورفوازييه» عاجزين عن تبيّن ذلك عجزهم لو كانوا جماعة من الأرانب بدلاً من رجال ونساء لأنّهم لم يفلحوا يوماً في ملاحظة العيب أو النبرة التي تحاول الدوقة ردّها. فحينما كانت «تعارض» الدوق «دو ليموج» كان آل «كورفوازييه» يحتجون قائلين: «لا، إنّه لايبلغ هذا المبلغ في حديثه، فانّي تعشيّت مساء البارحة معه في مطعم «بيبيت» وقد كلّمني طوال السهرة، وما كان يتكلّم على هذا النحو»، في حين يصرخ من كان من آل «غيرمانت» على شيء من الثقافة: «ياالله كم هي مضحكة «أوريان»! وأغرب الأمر أنّها فيما تقلّده تشبهه. أخالني اسمعه، هيّا، قليلاً من«الليموج» يا«أوريان»! وعبثاً يفتقر هؤلاء «الغير مانتيّون» (دون أن نذهب حتّى أولئك الذين كانوا يقولون باعجاب حينما تقلّد الدوقة الدوق «دوليموج»: «آه! يمكن أن نقول إنّك تمسكين بتلابيبه») إلى الظرف فقد توصّلوا، حسبما ترى السيّدة «دو غيرمانت» (وكانت مصيبة فيما ترى) لكثرة ما يسمعون كلمات الدوقة، أن يحاكوا كيفما تيسر الأمر طريقتها في التعبير وإبداء الرأى وما لعلّ «سوان» كان سمّاها، شأن الدوقة نفسها، طريقتها في «الصياغة» إلى حدّ يقدّمون فيه في حديثهم شيئاً كان يبدو في نظر آل «كورفوازييه» وكأنّما يشبه أفظع الشبه ظرافة «أوريان» وكانوا يعتبرونه بدورهم روح آل «غيرمانت». وبما أن هؤلاء «الغيرمانتيّين» لم يكونوا من أقرباء «أوريان» فحسب بل من المعجبين فانّها (هي

التي كانت تستبعد أشدّ الاستبعاد باقي أسرتها فتثأر الآن بصنوف ازدرائها للاساءات التي ألحقتها بها هذه عندما كانت فتاة) كانت تذهب أحياناً لزيارتهم وتفعل عامّة بصحبة الدوق في الربيع حينما كانت تخرج برفقته. كانت تلك الزيارات تشكّل حدثاً. كان قلب الأميرة «دييينيه» يسرع قليلاً في خفقاته، وهي تستقبل في صالتها الكبرى في الطابق الأرضي، حينما تلمح من بعيد، وكأنما أوّل الأضواء تنبعث من حريق لا أذيّة فيه أو «استطلاعات» غزو غير متوقّع، الدوقة تجتاز الباحة على مهل مائلة المشية وهي تعتمر قبعة رائعة وتحني شمسية تنهمر منها رائحة صيفيّة. «ويحكم، هي أوريان»، تقول وكأنّما تلك عبارة «انتبه!» تحاول أن تخطر زائراتها بحذر وكيما يتّسع الوقت للخروج بانتظام ولإخلاء الصالات دونما ذعر، كان نصف الأشخاص الحاضرين لايجرؤ على البقاء فينهض. وكانت الأميرة تقول بلهجة طليقة مطمئنّة (لتظهر بمظهر السيّدة الكبيرة) ولكن بصوت أصبح متكلّفاً: «لا، ما الخبر؟ عودوا إلى مقاعدكم، فانّما يغبطني استبقاؤكم بعد قليلاً».— «قد تودّون التحدّث فيما بينكم». وتجيب سيّدة البيت اللواتي تودّ أن يمضين في سبيلهنّ: «أأنت حقّاً معجلة؟ إذاً أذهبُ إلى منزلك». كان الدوق والدوقة يحييان بأدب بالغ أناساً كانا يبصرانهم هناك منذ سنوات، دون أن يزيدهما الأمر معرفة بهم، وممّن لايقرئونهم السلام إلألماماً بداعي التحفظ. فما أن يمضوا حتّى يطلب الدوق بلهجة لطيفة معلومات حولهم كي يبدو وكأنّه يهتمّ بالصفة الذاتيّة لدى الأشخاص الذين ماكان يستقبلهم بسبب قسوة القدر أو بسبب حالة «أوريان» العصبية التي تؤذيها مخالطة النساء: «من تراها كانت تلك السيّدة الصغيرة ذات القبعّة الورديّة؟»— «ولكنّك كثيراً ما رأيتها ياابن عمّي، إنها الفيكونتيسة «دو تور» من عائلة «لامارزيل».— «ولكن هل تدرين أنّها جميلة، إنّها تبدو ظريفة. ولو لم يكن ثمّة عيب صغير في الشفة العليا لكانت بكلّ بساطة رائعة. وإن كان ثمّة فيكونت «دوتور» فلا بدّ أنّه لايصيبه الملل. أتدرين يا «أوريان» بمن ذكّرني حاجباها وأغراس شعرها؟ بابنة عمّك «هيدويج دولينيي». أمّا الدوقة «دو غيرمانت» التي كانت تفتر ما أن يأخذوا في الحديث عن امرأة غيرها فتهمل الحديث. بيد أنّها لم تدخل في حسابها الميل الذي لدى زوجها إلى إبراز علمه التام بحال الأشخاص الذين لم يكن يستقبلهم، الأمر الذي يظنّ أنّه يبدي به«جديّة» أكثر من امرأته. ثم يقول فجأة بنبرة قويّة: «ولكنّك أتيت على اسم «لامارزيل». إنّي أذكر أن خطاباً ملفتاً تماماً قد ألقي حينما كنت في المجلس...»— «إنّه عمّ المرأة الشابّة التي التقيتها منذ قليل».— «آه! ياللموهبة...»أو يضيف قوله للفيكونتيسة «ديغرمون» التي لاتطيق السيّدة «دو غيرمانت» احتمالها والتي ما كانت تبرح منزل الأميرة «دييينيه» حيث تتنازل طوعاً إلى دور خادمة (وإن هي ضربت خادمتها إذ تعود) وتظلّ، خجلة حزينة المظهر، ولكنّها تظلّ حينما يحضر الدوقان وتأخذ المعاطف وتجهد في أن تكون مفيدة وتعرض من باب التحفظ الانتقال إلى الغرفة المجاورة: «لا، ياصغيرتي، لاتحضري الشاي من أجلنا، ولنتحدث بهدوء إنّنا قوم بسطاء لانتكلّف الأمور». ويضيف وهو يلتفت إلى السيّدة «دييينيه» (ويدع «ديغرمون» خجلى متواضعة طامحة مندفعة): «لا نملك على أيّ حال سوى ربع ساعة نخصكم بها». وكان ربع الساعة يُشْغَل بتمامه بما يشبه عرضاً للكلمات التي حضرت الدوقة في أثناء الأسبوع والتي ما كانت لتجيء بنفسها على ذكرها ولكنّ الدوق يدفعها بحذق كبير إلى تردادها وكأنّما غير متعمد إذ يبدو وكأنّه يؤنبها بشأن الحوادث التي استجرتها.

أمّا الأميرة «دييينيه» التي كانت تحبّ ابنه عمومتها وتعلم أنّها تهوى المديح فقد كانت تطرب أيّما

طرب لقبعتّها وشمسيتّها وظرفها. «حديثها ما شئت عن ملابسها وزينتها»، يقول الدوق بلهجة خشنة كان قد اعتمدها ولكنّما يلطفها بابتسامة ساخرة كي لايؤخذ استياؤه مأخذ الجدّ، «لاعن نباهتها، بحقّ السماء، فلعلّني في غنى تامّ عن أن يكون لي امرأة بمثل نباهتها. إنّك تشيرين على الأرجح إلى التلاعب اللفظيّ غير اللائق الذي ألفته على شقيقي «بالاميد»، يضيف قوله وهو يعلم تمام العلم أن الأميرة وباقي الأسرة لايزالون يجهلون هذا التلاعب ويغبطه أن يبرز مواهب زوجته. «فلست أرى بادئ الأمر أنّه يليق بامرئ قال أحياناً، إنّي مقرّ بذلك، أموراً على شيء من الحلاوة أن يؤلّف صنوفاً غير لائقة من التلاعب بالألفاظ ولاسيما بحقّ شقيقي الذي هو سريع التأثّر ؛ وإن كان لابدّ أن يفضي ذلك إلى خلفي معه فما أجمل الداعي!».

– «ولكنّما لاندري! ثّمة نكتة لـ «أوريان» ؟ ذلك لابدّ رائع، هيّا، أسمعنا!».

وعاد الدوق يقول، ولايزال حردان وإن تعاظمت بسمته: «لا،لا، إنّي شديد الاغتباط أنّكم لم تبلغّوها. إنّي جادّ في أنّي أودّ شقيقي كثيراً».

وتقول الدوقة وقد آن الأوان لتردّ على زوجها: «اسمع يا «بازان»، لست أدري لماذا تقول إن الأمر يمكن أن يغضب «بالاميد» وأنت تعلم العكس تماماً. فإنّه أشدّ ذكاء بكثير من أن يجرحه ذلك المزاح السخيف وليس فيه مايسيء، أيّاً كان. سوف توحي بأنّي قلت قولاً مسيئاً وقد أجبت محض إجابة لاغرابة فيها، وإنّما أنت من يوليها أهمية من جرّاء استنكارك، لست أفهمك».

– «تثيرون أشدّ فضولنا، فما الأمر؟»

ويصرخ السيّد «دو غيرمانت» قائلاً: «ليس بالتأكيد ما كان هامّاً. ربما سمعتم من قال إن شقيقي كان يبغي أن يهب «بريزيه»، وهو قصر زوجته، لشقيقته «مارسانت»».

– «أجل، غير أنّه قيل لنا إنّها لا ترغب فيه وإنّها لاتحبّ المنطقة التي يقع فيها. وإن المناخ لايلائمها».

– «لقد قال قائل بالضبط كلّ ذلك لزوجتي وإنّ أخي إن كان يهب ذاك القصر لشقيقتنا فما ذلك لإدخال السرور على قلبها بل ليشاكسها. ذلك أنه مشاكس جدّاً، «شارلوس»، يقول ذاك الشخص. ولكنكم تعلمون أن «بريزيه» شيء ملوكي ويمكن أن يساوي عدّة ملايين، إنّها أرض قديمة للملك وثمة واحدة من أجمل غابات فرنسه. هنالك الكثيرون ممّن يرغبون أن تتم مشاكستهم على هذا النحو. ولذلك لم تستطع «أوريان»، وهي تسمع كلمة «مشاكس» هذه تطلَق على «شارلوس» لأنّه يهب قصراً جميلاً إلى هذا الحدّ، أن تملك نفسها عن الصراخ، دون تعمّد، لابدّ لي من الإقرار بذلك، فانّها لم تحمّله ما يسيء والنكتة جاءت سريعة كالبرق: «مشاكس... مشاكس...إذن هو «مشاكس المتكبّر»» (*) !– ثم يضيف الدوق وهو يستعيد لهجته المخشوشنة ولايغفل أن يلقي نظرة دائرية ليحكم على الأثر الذي خلفته ظرافة امرأته، يضيف وبه بعض

(*) لم أجد سبيلا إلى رد هذا التلاعب اللفظي القائم بين Tarquin, taquin والمقصود هو التذكير بـ«تركوينيوس المتكبر» وهو من ملوك روما واشتهر بصلفه واستبداده برأيه.

الشكوك على أيّة حال فيما يخصّ معرفة السيّدة «دييبنيه» بالتاريخ القديم: «تفهمين، ذلك بسبب «تركوينيوس المتكبّر» ملك روما. تلك سخافة وتلاعب بالألفاظ رديء ولايليق بـ«أوريان» ثم إنّي أنا أشدّ حذراً من امرأتي، وإن كنت أقلّ ظرفاً فاني أفكّر بالعواقب، فإن شاء سوء الطالع أن يردّدوا ذاك لشقيقي كان ثمة قصّة، أي قصّة». وأضاف يقول: «أضف أنّه لابدّ من الإقرار، بما أن «بالاميد» بالضبط شديد الاستعلاء وصعب المراس كذلك إلى حدّ بعيد وشغوف بالقيل والقال حتّى في غير مسألة القصر، بأن «مشاكس المتكبّر» يلائمة إلى حدّ ما. تلك منجاة نكات السيّدة وهي أنّها تلبث ظريفة على الرغم من كل شيء وتصف الناس وصفاً جيّداً إلى حدّ ما حتّى حينما تشاء النزول إلى مستوى التقريبات السخيفة».

وهكذا كانت زيارات الدوق والدوقة لأسرتهما، بفضل «مشاكس المتكبّر» مرّة وأخرى بفضل نكتة ثانية، إنّما تجدّد مؤونة الحكايات وكان الاضطراب الناجم عنها يدوم فترة طويلة جدّاً بعد رحيل المرأة النبيهة ومدير أعمالها الفنّيّة. كانوا يتلذّذون أوّل الأمر بالنكات التي قالتها «أوريان» مع أصحاب الحظّ الذين حضروا الاحتفال (أولئك الذين مكثوا هناك). كانت الأميرة «دييبنيه» تسأل قائلة: «أما كنت تعرفين «مشاكس المتكبّر؟» فتجيب المركيزة «دو بافينو» والحمرة تكسو محيّاها: «لقد سبق للأميرة «دو سارسينا لاروشفوكو» أن حدّثتني عن ذلك ولكنّما لم تفعل باللفظات نفسها. بيد أنّه لابدّ كان أكثر إثارة بكثير أن تسمع من يرويها في حضرة ابنة عمّي على هذا النحو»، تضيف قولها كما لعلّها كانت تقول «أن تسمعها يرافقها المؤلّف فيها». وكانوا يقولون لزائرة كانت ستغتمّ لأنّها لم تجئ قبل ساعة: «كنّا نتحدّث عن آخر نكتة لـ«أوريان» التي كانت ههنا منذ قليل».

– «عجباً، هل كانت «أوريان» ههنا؟».

فتجيبها الأميرة «دييبنيه» غير لائمة ولكنّما توحي بكلّ مالم تصبه الطائشة: «بالطبع، ولو اتّفق أن جئت مبكّرة بعض الشيء...» فالذنب ذنبها أن لم تشهد خليقة العالم أو آخر عرض للسيّدة «كارفالهو». «ماقولك في نكتة «أوريان» الأخيرة؟ إني أقرّ بأنّي أقدّر كثيراً مشاكس المتكبّر». ويتم تناول «النكتة» باردة أيضاً في الغد على مائدة الغداء وتعود إلى الظهور بمختلف أنواع المرق في أثناء الأسبوع. حتى الأميرة تستغل أنّها تقوم في ذاك الأسبوع بزيارتها السنوية للأميرة «دو بارما» لتسأل صاحبة السمّو إن كانت تعرف النكتة وترويها لها. «آه! مشاكس المتكبّر»، تقول الأميرة «دو بارما» محملقة العينين من جرّاء إعجاب قَبْلي ولكنّه يلتمس شروحاً إضافية لا تمانع بها الأميرة «دييبنيه» فتخلص الأميرة إلى القول: «اعترف أن «مشاكس المتكبّر» تروقني كثيراً على صعيد الصياغة». وكلمة «صياغة» كانت بالحقيقة غير ملائمة البتّة بالنسبة إلى هذا التلاعب اللفظي، ولكن الأميرة «دييبنيه» التي كانت تدّعي أنّها تمثّلت روح آل «غيرمانت» قد أخذت من «أوريان» عبارتي «مصوغ وصياغة» وتقوم باستعمالها دونما تمييز كبير. بيد أن الأميرة «دو بارما» التي ما كانت تودّ كثيراً السيّدة «دييبنيه» إذ تجدها قبيحة وتعلم أنّها بخيلة وتظنّها شرّيرة، على ذمّة آل «كورفوازييه»، تعرّفت كلمة «الصياغة» هذه التي سبق أن سمعت السيّدة «دو غير مانت» تتفوّه بها وما كانت لتعرف وحدها كيفيّة تطبيقها. فقد خيّل إليها بالفعل أن «الصياغة» هي التي كانت تؤلف سحر «مشاكس المتكبّر» ولم تستطع، ودون أن تغفل تماماً نفورها من السيّدة القبيحة البخيلة، أن تتمالك عن شعور بالاعجاب عظيم بامرأة تملك

إلى هذا الحدّ روح آل «غير مانت» حتّى عزمت أن تدعو الأميرة «ديبينيه» إلى الأوبرا. ولم يحل دون ذلك سوى أنّه ربّما كان من اللائق استشارة السيّدة «دو غيرمانت» بادئ الأمر. أمّا السيّدة «ديبينيه» التي كانت، على اختلافها الشديد عن آل «كورفوازييه»، تبدي الكثير من صنوف اللطف لـ «أوريان» وتحبّها ولكنّها تغار من علاقاتها في حضرة جميع الناس بشأن بخلها فقد روت لدى عودتها إلى منزلها كم صادفت الأميرة «دو بارما» من المشقة لتفهم «مشاكس المتكبّر» وكم كان ينبغي أن تكون «أوريان» سنوبية كي تدخل في ألفتها بلهاء على هذه الشاكلة. وقد قالت للأصدقاء الذين كانوا على مائدة عشائها: «لو شئت لما استطعت قطّ مخالطة الأميرة «دو بارما» لأن السيّد «ديبينيه» ما كان البتّة ليصرّح لي بذلك بسبب فجورها»، قالت تشير بذلك إلى بعض تجاوزات محض وهميّة للأميرة: « ولكنّي اعترف أنّي ما كنت أستطيع حتّى لو اتّفق لي زوج أقلّ قسوة. ولست أدري كيف تفعل «أوريان» لتلقيها باستمرار. أمّا أنا فأذهب إليها مرّة كلّ عام وألاقي الكثير من المشقّة لأصل إلى نهاية الزيارة».

فأمّا من كانوا من آل «كورفوازييه» في منزل «فيكتور نيين» آن زيارة السيّدة «دو غير مانت» فإن وصول الدوقة كان يدفعهم عامّة إلى الهرب بسبب السخط الذي تسبّبه لهم السلامات المفرطة التي تقابل بها «أوريان». واحد منهم فقط ظلّ يوم «مشاكس المتكبّر». ولم يفهم المزحة تمام الفهم ولكنّه فهم نصفها مع ذلك لأنّه كان متعلماً. وراح آل «كورفوازييه» يردّدون أنّ «أوريان» دعت العمّ «بالاميد» «تركوينيوس المتكبّر»، الأمر الذي كان يصوّره، حسبما يرون، على نحو مقبول. ثم يضيفون قولهم: «ولكن لم يثار كل هذا الضجيج حول «أوريان، فما كانوا ليفعلوا أكثر منه للملكة. وماعسى تكون «أوريان» باختصار القول؟ لست أقول أنْ ليس آل «غيرمانت» من أصل عريق، ولكنّ آل «كورفوازييه» لايقلّون عنهم في شيء لا على صعيد الشهرة ولا على صعيد العراقة ولا على صعيد المصاهرة. وينبغي ألاّننسى أنّه فيما كان ملك انكلتره في مخيّم الملاءة الذهبيّة يسأل «فرانسوا» الأوّل من كان أعرق الأسياد الحاضرين. أجاب ملك فرنسه قائلاً: «إنّه «كورفوازييه» ياسيّدي».
ولو مكث جميع آل «كورفوازييه» لتركتهم النكات في جمود متزايد بمقدار ما قد ينظرون إلى الحوادث التي أورثتها بعامّة من وجهة نظر مختلفة تماماً. فإن اتّفق على سبيل المثال لواحدة من آل «كورفوازييه» أن تعوزها المقاعد في حفل استقبال تقيمه أو أن تخطئ في الاسم وهي تتحدّث إلى زائرة لم تتعرّفها، أو إن وجّه إليها أحد خدمها جملة سخيفة كانت «الكورفوازيّة» تأسف وهي في أشدّ الأزعاج لمثل هذا الحادث الطارئ خجلى راعشة من اضطرابها. وحينما كان لديها زائر وتزمع «أوريان» المجيء كانت تقول بلهجة مستفهمة يشوبها الضيق والإلحاح: «هل تعرفها؟»مخافة أن يخلف وجود الزائر إن كان لايعرفها انطباعاً سيئاً في نفس «أوريان»، ولكنّ السيّدة «دو غير مانت» كان تستخلص على العكس من مثل هذه الحوادث مناسبة لحكايات تضحك آل «غير مانت» حتّى لتدمع عيونهم فيرى الناس لزاماً عليهم أن يحسدوها لأنّها أعوزتها المقاعد، لأنّها هفت أو سمحت أن يهفو خادمها هفوة، لأنّها استقبلت في منزلها شخصاً لايعرفه أحد مثلما يرون لزاماً عليهم أن يغتبطوا أن يكون الكتّاب العظام قد استبعدهم الرجال وخانتهم النساء حينما كان إذلالهم وعذابهم مادّة أعمالهم الفنّية على الأقل إن لم يكن حافزاً لعبقريتهم.

ولم يكن آل «كورفوازييه» أكثر قدرة على التسامي حتّى روح التجديد الذي كانت الدوقة «دو غير مانت» تدخله في حياة المجتمع والذي كانت تجعل منه، إذ تكيفّه بغريزة سليمة مع ضرورات الساعة، شيئاً فنياً

حيث كان التطبيق المعقلن لقواعد صارمة سوف يفضي إلى نتائج بمثل سوء مايجنيه من ينبغي نجاحاً في الحبّ أو السياسة فيكّرر في حياته الخاصّة مآثر «بوسّي دامبواز» بحذافيرها. وإن أقام آل «كورفوازييه» عشاء عائلياً أو تكريماً لأحد الأمراء بدا لهم أن أضافة رجل فكر أو أحد أصدقاء ابنهم أمر شاذ من شأنه أن يخلفّ أسوأ الأثر. فقد استنتجت «كورفوازية» سبق أن كان والدها وزيراً لدى الإمبراطور، وكان عليها أن تقيم حفلة بعد الظهر على شرف الأميرة «ماتيلد»، استنتجت بذهنيّة هندسيّة أنّها لاتستطيع أن تدعو غير «بونا برتيّين». لكنّها لم تكن تعرف أحداً منهم تقريباً. وقد تمّ استبعاد جميع النساء الأنيقات من معارفها وجميع الرجال الظرفاء دون رحمة إذ ربّما أمكن، وهم أصحاب رأي أو صلات مع المنادين بالشرعية، ربّما أمكن، حسب منطق آل «كورفوازييه» أن يسوءوا في عيني صاحبة السمّو الأمبراطوري. أمّا هذه الأخيرة التي كانت تستقبل في منزلها صفوة حيّ «سان چيرمان» فقد دهشت إلى حدّ ما حينما لم تجد في منزل السيّدة «دو كورفوازييه» سوى متطفلة شهيرة، وهي أرملة حاكم سابق في زمن الإمبراطوريّة، وأرملة مدير البريد وبعض الأشخاص المعروفين بولائهم لنابليون الثالث وغبائهم وثقالتهم. ولم يحل ذلك دون أن تنشر الأميرة «ماتيلد» لطفها الملكي الفيّاض الحلو على هؤلاء القبيحات المفجعات اللواتي تحاشت الدوقة «دو غير مانت». فيما يخصها أن تدعوهن حينما جاء دورها في استقبال الأميرة واللواتي استبدلت بهنّ، دون تفكير قبلّي بالبونبارتيّة، أثمن باقة مؤلّفة من جميع ربّات الجمال وجميع ذوي الشأن وجميع المشاهير الذين يدفعها ضرب من الفطنة واللباقة والحذاقة إلى الإحساس بأنّهم لابدّ سيروقون ابنة شقيق الإمبراطور حتّى إن هم كانوا من أسرة الملك الخاصّة. حتى الدوق «دومال» لم يتغيّب عنها. وحينما قبلّت الأميرة، وهي تغادر المكان وتنهض السيّدة «دو غير مانت» التي كانت تنحني محيّة وتهمّ بتقبيل يدها، حينما قبلّت هذه الأخيرة على الوجنتين فانّما أمكنها أن تؤكد من صميم الفؤاد للدوقة أنّها لم تقض في يوم نهاراً أفضل ولم تشهد احتفالاً أوفر نجاحاً. كانت الأميرة «دو بارما» كورفوازيّة بعجزها عن التجديد على الصعيد الاجتماعي ولكنّما الدهشة التي تسببّها أبداً لها الدوقة «دو غير مانت» إنّما كانت تبعث في نفسها، بخلاف آل «كورفوازييه، لا النفور،كما هي الحال لديهم، بل الانبهار. وكان يزيد من ذلك العجب أن ثقافة الأميرة كانت متخلفة إلى ما لا حدود. كانت السيّدة «دو غيرمانت» بدورها أقلّ تقدّماً بكثير مما تعتقد. بيد أنّه كان يكفي أن تكون أكثر تقدّماً من السيّدة «دو بارما» كيما تدهش هذه الأخيرة، ومثلما يكتفي كلّ جيل من النقاد باتّخاذ عكس الحقائق التي أقرّها أسلافهم، فقد كان يكفيها أن تقول إن «فلوبير» عدوّ البورجوازيّين هذاكان بورجوازيّاً قبل كلّ شيء أو إنّ ثمة الكثير من الموسيقي الإيطالية لدى «فاغنر» كيما توفّر للأميرة ، مقابل إرهاق دائم الجدّة وكأنّما لشخص يسبح داخل العاصفة، آفاقاً تبدو لها خارقة وتظلّ غامضة لديها. والدهشة على إيّة حال إزاء المفارقات المعلنة لابصدد الأعمال الفنية فحسب، بل حتّى بصدد أشخاص من معارفهم والأعمال الاجتماعية كذلك. وليس من شكّ بأنّ العجز الذي كان لدى السيّدة «دو بارما» في تمييز روح آل «غيرمانت» الحقيقيّة عن أشكال هذه الروح التي تمّ تعلّمها على نحو بدائي (الأمر الذي كان يجعلها تؤمن بالقيمة الفكريّة الرفيعة التي تميزّ بعض «الغيرمانتيّين» وعلى، وجه الخصوص بعض «الغيرمانتيّات» اللواتي كان يذهلها فيما بعد أن تسمع الدوقة تقول عنهنّ والبسمة على شفتيها إنهنّ محض غبيّات) إنّما كان احداً من أسباب الدهشة التي تنتاب الأميرة على الدوام لدى سماعها السيّدة «دو غيرمانت» تطلق أحكامها على الناس. بيد أنّه كان ثّمة سب آخر أوضحته لنفسي، أنا الذي كان يعرف في تلك الفترة من الكتب أكثر ممّا يعرف من الناس، والأدب أفضل من دنيا المجتمع، بتصوّري أنّ

الدوقة، إذ تحيا هذه الحياة الاجتماعية التي تشكّل البطالة والعقم فيها بالنسبة إلى أي نشاط اجتماعي حقيقي ما يشكلّه النقد في الفنّ بالنسبة إلى الإبداع، إنّما كانت تعمّم على من يحيطون بها تقلب وجهات النظر والعطش غير السليم الذي يبديه المحاجّ الذي يمضي في سبيل إرواء فكره المفرط في جفافه باحثاً عن أيّة مفارقة لاتزال على شيء من الندوّة ولايحجم عن مساندة الرأي المروّي القائل بأنّ أجمل «إيفيجيني» هي ماوضع «بيتشيني» لا ماوضع «غلوك» وأن «فيدر» الحقيقية لدى الاقتضاء ماكتب «برادون». فان تزّوجت امرأة ذكيّة متعلّمة نبيهة رجلاً فظاً خجولاً يندر أن يراه الناس ولايسمعونه البتّة استنبطت السيّدة «دو غير مانت» ذات يوم لنفسها متعة روحيّة لا في ذمّ الزوجة فحسب بل في «اكتشاف» الزوج. فلو أنّها، فيما يخصّ الزوجين «كامبرمير» على سبيل المثال، لو أنّها عاشت آنذاك في ذلك الوسط لقرّرت أنّ السيّدة «دو كامبرمير» بلهاء وأن الشخص الممتع المنتقص القدر الرائع الذي كُتب عليه الصمت على يد امرأة ثرثارة ولكنّه يساويها ألف مرّة إنّما هو المركيز على العكس ولأحسّت الدوقة في الإعراب عن ذلك بنوع البرودة نفسها التي يحسّ بها الناقد الذي يعترف، وقد مضى سبعون عاماً على إعجاب الناس بـ«هيرناني»، أنّه يفضلّ عليها «الأسد العاشق». وبسبب الحاجة المرضيّة نفسها إلى اللقيات الاعتباطيّة كانت السيّدة «دو غير مانت»، إن رثوا لحال امرأة نموذجية وقدّيسة حقيقيّة لأنّها منذ شبابها زوّجت وغداً، كانت تؤكدّ ذات يوم أنّ ذاك الوغد كان رجلاً طائشاً ولكنّه يفيض شهامة وقد دفعته قسوة زوجته التي لاترحم إلى أعمال طائشة حقيقيّة. كنت أعلم أنّ النقد يتلهىّ في أن يعيد إلى العتمة ما كان منذ فترة طويلة جدّاً متألقاً وأن يخرج منها ما كان يبدو وكأنّما كتب عليه ليل نهائيّ، وذلك لابين الأعمال الفنّية فحسب، في سلسلة القرون الطويلة، بل حتّى في صميم العمل الفنّي الواحد. ولم أر فحسب «بلليني» و«فنتر هالتر» والمهندسين المعماريّين اليسوعيّين ونجاراً من عهد عودة الملكية يحلّون محلّ عباقرة قيل إنّهم متعبون لمحض أنّ المثقفين العاطلين عن العمل تعبوا منهم مثلما مرضى الأعصاب هم على الدوام متعبون ومتقلّبون. فقد رأيت من يفضّل في «سانت بوف» الناقد طوراً والشاعر تارة، و«موسيّه» ينكرونه فيما يخصّ أشعاره، ما خلا مقطوعات صغيرة عديمة الشأن إلى حدّ بعيد، ويشيدون به قاصاً وليس من شكّ أنّ بعض كتّاب المقالة على غير حق أن يؤثروا على أشهر مشاهد مسرحيّة «السيّد» أو «بوليوكت» هذا المقطع أو ذاك من مسرحيّة «الكذّاب» الذي يزوّد، شأن خريطة قديمة، بمعلومات عن باريس في تلك الحقبة، ولكن إيثارهم الذي إن لم تبرّره دواعٍ جمالية فاهتمام وثائقي على الأقل لايزال مفرطاً في عقلانيته بالنسبة إلى النقد المجنون. فإنّه يستبدل بكلّ «موليير» بيت شعر من مسرحيّة «الطائش» وهو وإن عدّ أوبرا «تريستان» لـ«فاغنر» قاتلة فإنّما يستبقي منها «نغمة حلوة للبوق» لحظة مرور الصيّادين. ولقد أعانني هذا الفساد على إدراك ذاك الذي كانت تبديه السيّدة «دو غيرمانت» حينما تقرّر أن رجلاً من دنياهم مشهوداً له بطيبة القلب ولكنّه أحمق كان فظيع الأنانية وأكثر إرهاقاً ممّا يظنّون، وأن آخر معروفاً بكرمه يمكن أن يكون رمزاً للبخل، وأنّ والدة مخلصة لاتهتّم بأبنائها. وأن امرأة خيلت فاسقة تحمل أنبل المشاعر. كان عقل السيّدة «دو غيرمانت» وإحساسها شديدي التردّد، وكأنما عبث بهما عدم الحياة الاجتماعية، كي لايعقب الاشمئزاز لديها الافتتان بسرعة (على أن تحسّ ثانية أنّها مجتذبة إلى نوع التفكير الذي سبق أن سعت إليه وهجرته على التوالي)، وكي لاينقلب السحر الذي لقيته لدى رجل عزيز النفس، إن كان يفرط في التردّد عليها ويكثر من البحث لديها عن اتجاهات كانت عاجزة عن تزويده بها، إلى تبرّم تظنّه من صنع المعجب بها وإنّما هو ناجم عن العجز الذي يلك أن تلقى المتعة حينما تكتفي بالبحث عنها.

وما كانت تقلبّات أحكام الدوقة ترحم أحداً باستثناء زوجها. فهو وحده لم يحبّها في يوم، وقد أحست دوماً لديه طبعاً حديدياً لايأبه لنزوات لديها غير عابئ بجمالها عنيفاً. وإرادة من النوع الذي لايلين البتّة والذي يعرف العصبيّون تحت حكمه وحده سبيلهم إلى الهدوء. ولم يكن لدى السيّد «دو غير مانت» من جهة ثانية، وهو يلاحق نمطاً واحداً من الجمال النسائي ولكنّه يبحث عنه لدى عشيقات كثيراً مايجدّدهن، لم يكن لديه بعدما يهجرهنّ وكيما يسخر منهنّ سوى شريكة دائمة لاتتبدّل وغالباً ماتثير حنقه بثرثرتها ولكنّه يعلم عنها أنّ الجميع يعدّونها الأكثر جمالاً والأوفر فضيلة والأشدّ ذكاء والأكثر علماً بين الأرستقراطيّين وامرأة أسعده جدّاً هو السيّد «دو غيرمانت» أن وجدها وكانت تستر سائر مفاسده وتستقبل كما لايفعل أحد وتحافظ لصالتهم على مكانتها كأوّل صالة في حيّ «سان جيرمان». ورأي الآخرين هذا إنّما كان يشاطره بدوره، فقدكان فخوراً بزوجته وهو غالباً ساخط عليها. ولئن كان يفضلها، وهو بخيل بمثل بذخه، أقلّ المال في سبيل أعمال خيريّة ومن أجل الخدم فقد كان يصرّ على أن تحوز أروع الملابس وأجمل الجياد والعربات. وكان يهمّه أخيراً إبراز ذكاء امرأته. ففي كلّ مرّة يتفق للسيّدة «دو غيرمانت» فيها أن تبتكر مفارقة جديدة وشهيّة بخصوص مزايا واحد من أصدقائهما ومعايبه، وقد جرى قلبها فجأة على يدها، كانت تتحرّق إلى تجريبها بحضرة أشخاص قادرين على تذوقّها، وأن تحمل على التلذّذ بتميزّها السيكولوجي وعلى إبراز أذاها السريع المقتضب، ولاشكّ أنّ هذه الآراء الجديدة لم تكن تتضمنّ عادة قدراً من الحقيقة أكبر من القديمة، بل أقل في الغالب. ولكن مابها من مظهر اعتباطيّ غير متوقّع كان يضفي عليها شيئاً من صيغة فكريّة تجعل إيصالها مؤثراً. بيد أن المريض الذي تناولته سيكولوجيه الدوقة كان بعامّة أحد الألاف وكان أولئك الذين ترغب إليهم نقل اكتشافها يجهلون أتمّ الجهل أنّه لم يعد في أعلى درجات الحظوة. ولذلك فإن السمعة التي عرفت بها السيّدة «دو غيرمانت» بأنّها صديقة لاتضاهى عاطفيّة رقيقة متفانية كانت تجعل من العسير بدء الهجوم ؛ وإن اقصى ماتستطيعه هو التدخّل فيما بعد وكأنها مجبرة ملزمة وذلك بالردّ كي تهدّيء، كي تكذّب في الظاهر وتساند في الواقع شريكاً أخذ على نفسه أن يستثيرها ؛ كان ذلك بالضبط الدور الذي يبرع فيه السيّد «دو غير مانت».

فأمّا الأعمال المجتمعيّة فقد كانت أيضاً متعة أخرى ممسرحة على نحو اعتباطيّ تحسّ بها السيّدة «دو غيرمانت» في إصدار أحكام عليها من تلك اللامتوقّعة التي تهزّ الأميرة «دو بارما» بمفاجآت لذيذة لاتنقطع. ولكنّ متعة الدوقة هذه إنّما حاولت إدراك ما يمكن أن تكون انطلاقاً من الحياة السياسيّة والأنباء البرلمانية أكثر منّي بوساطة النقد الأدبي. فلّما لم تعد الأوامر المتوالية والمتناقضة التي كانت السيّدة «دو غير مانت» تقلب بها دونما انقطاع ترتيب القيم لدى جماعة وسطها كافية لتسليتها كانت تحاول كذلك بالطريقة التي تنظّم بها سلوكها الاجتماعي وتعرض أقلّ قراراتها المجتمعيّة أن تتذوّق هذه الانفعالات المصطنعة وتخضع لهذه الواجبات المتكلّفة التي تثير مشاعر المجالس وتفرض نفسها على فكر السياسيّين. فإنّنا نعلم أنّه حينما يشرح وزير للمجلس النيابي اعتقاده بأنّه أحسن فعلاً في اتّباع خطّ سلوك معين يبدو بالفعل بسيطاً جدّاً في نظر الإنسان ذي الحسّ السليم الذي يقرأ في الغد محضر الجلسة في صحيفته، فإن هذا القارئ السليم الحسّ يشعر مع ذلك أن مشاعره تهتزّ فجأة ويشرع يشكّ أنّه كان على حقّ في تصديق الوزير إذ يرى أنّ خطاب هذا الأخير قد جرى الإصغاء إليه وسط بلبلة شديدة وأنّه قوطع بعبارات لوم من مثل: «ذلك خطير جدّاً» تتفوّه بها نائب يغطّي اسمه وألقابه مساحة كبيرة جدّاً وتعقبها حركات أبرزت إلى حدّ بعيد حتّى لتشغل الكلمات «ذلك خطير جدّاً!»

داخل مقاطعة الخطاب كلّها مكاناً أقلّ من عجز بيت من البحر الطويل. مثال ذلك فيما مضى حينما كان السيّد «دو غيرمانت» أمير«لوم» يحتّل مقعداً في المجلس أنّك كنت تقرأ أحياناً في صحف باريس، مع أنّ ذلك موجّه خصوصاً إلى مقاطعة «ميز يكليز» وكيما يبيّنَ للناخبين أنّهم لم يمنحوا أصواتهم لمرشّح خامل أو أبكم:

«السيّد دو غير مانت– بويّون أمير لوم: «هذا خطير!» (عظيم! عظيم! في الوسط وعلى بعض مقاعد في اليمين، صيحات شديدة في أقصى اليسار).

والقارئ السليم الحسّ يحتفظ بعد بومضة إخلاص للوزير الحكيم ولكنّ فؤاده تزعزعه خفقات جديدة من جرّاء أولى كلمات الخطيب الجديد الذي يردّ على الوزير:

– «إن العجب والذهول، ولست أبالغ في ما أقول، (تأثير شديد في القسم اليميني من القاعة النصف دائرية) اللذين بعثهما في نفسي من لايزال، في افتراضي، عضواً في الحكومة... (عاصفة من التصفيق ؛ بعض النوّاب يسارعون إلى مقعد الوزراء ؛ السيّد أمين الدولة المساعد لشؤون البريد والبرق يشير برأسه من مكانه بالايجاب).

وتقضي «عاصفة التصفيق» هذه على آخر معاقل مقاومة القارئ ذي الحسّ السليم، ويجد من المهين للمجلس والفظيع طريقة في التصرّف هي في حدّ ذاتها غير ذات بال. وربّما بلغ به، إزاء أمر عاديّ ؛ كالعزم، مثلا، على أن يدفع الأغنياء أكثر من الفقراء، والضوء يلقى على مظلمة، وتفضيل السلم على الحرب، أن يلقى ذلك فاضحاً ويرى فيه إهانة لمبادئ لم يكن قد فكّر فيها بالفعل وليست مسجلة في فؤاد الإنسان ولكنّها تهزّ المشاعر بقوّة بسبب الهتافات التي تطلقها والأغلبيّات المتراصّة التي تجمعها.

على أنّه لابدّ من الاعتراف بأنّ رهافة السياسيّين هذه التي أفدت منها في أن أوضح لنفسي الوسط «الغيرمانتّي» وأوساطاً غيره فيما بعد لاتعدو كونها انحراف دقّة معيّنة في التفسير غالباً ما يطلقون عليها عبارة «القراءة ما بين السطور» فلئن كان في المجالس سخف صادر عن انحراف هذه الرهافة فثمّة غباء لانعدام تلك الرهافة في صفوف الجمهور الذي يأخذ كلّ شيء «حرفياً» ولا يفترض العزل حينما يقال صاحب رتبة عالية من وظيفته «بناء على طلبه» ويقول في نفسه: «إنّه لم يعزل بما أنّه هو من طلب ذلك»، ولا الهزيمة حينما يتراجع الروس بحركة استراتيجية أمام اليابانّيين إلى مواقع أكثر قوة وقد أُعدت سلفاً، ولا الرفض حينما تطلب مقاطعة استقلالها من إمبراطور ألمانيه فيمنحها هذا الأخير الاستقلال الذاتي الديني. ومن المحتمل من ناحية ثانية، كيما نعود إلى جلسات المجلس تلك، أن يكون النوّاب أنفسهم، لدى افتتاحها، مماثلين للرجل ذي الحسّ السليم الذي سوف يقرأ محضرها. فربّما تساءلوا بسذاجة إذ يعلمون أن عمّالاً مضربين قد أرسلوا مندوبيهم إلى أحد الوزراء: «هيّا، ماعساهم قالوا فيما بينهم؟ نرجو أن يكون كلّ شيء قد سويّ»، لحظة يصعد الوزير إلى المنصّة وسط صمت عميق يهيء النفس مذ ذاك للانفعالات المصطنعة وتجيء أولى كلمات الوزير: «لا حاجة بي أن أقول للمجلس إنّي أملك حساً بواجبات الحكومة أرفع من أن أكون استقبلت هذا الوفد الذي ليس من اختصاص السلطة التي أنا مكلّف بها». بمثابة انقلاب بفاجئ إذ تلك الفرضيّة الوحيدة التي ما كان حسّ النوّاب السليم ليفترضها. ولأنّه بالضبط انقلاب مفاجئ يستقبل بتصفيق يبلغ حدّاً لايستطيع الوزير معه أن

يُسْمَعَ صوته إلأبعد انقضاء بضع دقائق، الوزير الذي سيتقبّل لدى عودته إلى مقعدة تهاني زملائه. ويبلغ الانفعال الحدّ الذي بلغه يوم أغفل أن يدعو رئيس المجلس البلدي الذي كان يعارضه إلى احتفال رسمي كبير، ويعلن الناس أنّه تصرّف في هذا الظرف وذاك على السواء تصرّف رجل دولة حقيقيّ.

وكثيراً ما كان السيّد «دو غيرمانت» في تلك الحقبة من حياته في عداد زملائه الذين يذهبون لتهنئة الوزير، مما يثير استنكار آل «كورفوازييه». وقد سمعت فيما بعد من يروي أنّه، حتّى في الفترة التي مثّل فيها دوراً كبيراً إلى حدّما في المجلس وكانت الأنظار متّجهة إليه لوزارة أو سفارة، كان، حينما يجيئه صديق يسأله خدمة، أكثر بساطة بما لايقاس ويتصنّع الشخصية الكبيرة على صعيد السياسة أقلّ بكثير من آخر سواه لم يكن الدوق «دو غيرمانت» فلئن كان يقول إن طبقة النبلاء شيء يسير ولئن كان يعدّ زملاءه مساوين له فيما كان يفكّر في كلمة مّما يقول. كان يسعى إلى المراكز السياسيّة ويتظاهر بتقديرها ولكنّه يحتقرها، ولّما كان يلبث بالنسبة إلى ذاته السيّد «دو غيرمانت» فلم تكن تحيط شخصه بتصنّع الوظائف الكبرى الذي يجعل سواه عسيري المقابلة. وكانت كبرياؤه بذلك لاتحمي من أي سوء تصرّفاته التي تتصنّع الألفة فحسب بل ما كان يمكن أن يكون لديه من بساطة حقيقيّة.

لم تكن السيّدة «دو غير مانت»، إمّا عدنا إلى قراراتها المصطنعة والمؤثرة على غرار قرارات السياسيّين، أقلّ إذهالاً لآل «غيرمانت» وآل «كورفوازييه» وسائر «الحيّ» والأميرة «دو بارما» أكثر من سواها من جرّاء قرارات غير متوقّعة تحسّ من خلفها مبادئ تزيد من دهشتك بقدر ما قلّ توقّعك لها. فإن أقام وزير اليونان الجديد حفلة راقصة تنكّرية كان كلّ ينتقي حلّته ويتساءلون ماعسى أن تكون حلّة الدوقة. فتظنّ إحداهنّ أنّها تود أن تظهر بملابس الدوقة «دو بورغونيي». وتقول ثانية باحتمال تنكّرها بملابس أميرة من «دو جابار»، وثالثة بتنكّرها على هيئة «بسيشيه»،(*) وإذ تسأل أخيراً واحدة من آل «كورفوازييه» قائلة: «ماذا تراك تختارين من لباس يا «أوريان»، يأتيها الجواب الوحيد الذي ما كانوا ليفكّروا فيه: «لاشيء على الإطلاق! «الأمر الذي كان يطلق الألسنة كثيراً على أنّه يكشف رأي «أوريان» حول موقع وزير اليونان الجديد الحقيقي في الوسط الراقي وحول السلوك الواجب اتّباعه إزاءه، يعني الرأي الذي كان ينبغي توقّعه وقوامه أنّه «لايقع على» دوقة أن تذهب إلى الحفلة الراقصة التنكّرية التي يقيمها هذا الوزير الجديد. «لست أرى ثمّة ضرورة للذهاب إلى منزل وزير اليونان الذي لاأعرفه، لست يونانيّة فلماذا أذهب إلى هناك؟ لا شغل لي لديه»، تقول الدوقة.

وتصيح السيّدة «دو غالارودن» قائلة: «ولكنّ الجميع ذاهبون ويبدو أنّها ستكون ممتعة».

فتجيب السيّدة «دو غيرمانت»: «ولكنّما من الممتع كذلك البقاء إلى جانب الموقد».

ويصاب آل «كورفوازييه» بدهشة أيّما دهشة أمّا آل «غير مانت» فكانوا يقرّون الموقف دون أن يقلّدوه: «ليس الجميع بالطبع في موقع يمكنّهم على غرار «أوريان» من مقاطعة كلّ العادات. ولكنّنا لا نستطيع أن نقول من جهة إنّها مخطئة في عزمها على إظهار أنّنا نبالغ في ارتمائنا أمام هؤلاء الغرباء الذين لانعلم على

(*) Psyché من الأساطير اليونانية، فتاة رائعة الجمال عشقها إله الحب.

الدوام من أين يجيئون».

وإذ كانت السيّدة «دو غيرمانت» تعلم التعليقات التي سيثيرها هذا الموقف أو ذاك فقد كان يغبطها أن تذهب إلى حفلة لايجرؤون على توقّعها فيها بقدر مايغبطها أن تمكث في المنزل أو أن تقضي الأمسية مع زوجها في المسرح عشيّة حفلة «يذهب إليها الجميع»، أو حينما يظنّون أنّها سوف تغطّي على أجمل الماسات بتاج تاريخي أن تدخل دون أيّة حلية وفي ملابس غير تلك التي كانوا يظنّون خطأ أنّها إلزامية. ومع أنّها كانت من مناهضي «دريفوس» (فيما تعتقد ببراءته تماماً كما كانت تقضي حياتها في دنيا المجتمعات وهي لاتعتقد إلاّ بالأفكار)، فقد خلفت إنطباعاً ضخماً في أمسية لدى الأميرة «دولينيي» حينما ظلّت بادئ الأمر جالسة في حين وقفت جميع السيّدات لدى دخول اللواء «ميرسييه»، ثم بوقوفها ومناداتها على خدمها على نحو بيّن حينما شرع خطيب وطنّي يحاضر مظهرة بذلك أنّها لاترى أن المجتمع الراقي جعل للتحدّث في السياسة. وقد اتجهت جميع الرؤوس إليها في حفلة موسيقيّة يوم الجمعة العظيمة لم تلبث فيها، مع أنّها من فكر «فولتير»، لأنّها رأت من غير اللائق تمثيل المسيح على المسرح. وإنّنا نعلم ما تمثّله، حتّى في نظر أعظم نساء المجتمعات الراقية، هذه الفترة من العام التي تبدأ فيها الحفلات: إلى حدّ أن المركيزة «دامونكور» التي كانت، لحاجة تحسّها للكلام وهوس سيكولوچي وانعدام للعاطفة كذلك، غالباً ما يبلغ بها أن تتفوّه بالحماقات، استطاعت أن تجيب واحداً جاء يعزّيها بموت والدها السيّد «دومونمو رانسي»: «ربّما جاءك بمزيد من الحزن أن يتفق لك مثل هذا الغمّ في فترة يتجمع لك فيها في مرآتك مئات من بطاقات الدعوة». ففي تلك الفترة من العام حينما كانوا يدعون الدوقة «دو غير مانت» إلى العشاء ويسرعون كي لا تكون قد حجزت بعد كانت ترفض للسبب الوحيد الذي ما كان ليخطر يوماً ببال رجل مجتمعات: لقدكانت تزمع الذهاب في حلة لزيارة خلجان النرويج التي تثير اهتمامها. لقد ذهل رجال المجتمع للأمر، ودون أن يهتموا بمحاكاة الدوقة أحسّوا مع ذلك تجاه فعلتها بنوع الارتياح الذي يداخلنا في قراءة «كانت» حينما نكتشف بعد إقامة البراهين الأكثر إحكاماً على الحتميّة أن ثمة فوق عالم الضرورة عالم الحريّة. إن أيّ اختراع لم يسبق أن انتبهنا له في يوم إنّما يستثير الفكر حتّى لدى أولئك الذي لايعلمون كيف يفيدون منه. لقد كان اختراع السفن البخارية أمراً يسيراً في مقابل استخدام السفن البخارية في الفترة غير المترحّلة من الـ «season» (*) . ولم تبدُ فكرة إمكان التخلّي طوعاً عن مئة عشاء أو غداء وعن ضعفها من حفلات الشاي وثلاثة أمثالها من الأمسيات وعن أجمل أيّام الإثنين في الأوبرا وأيّام الثلاثاء في مسرح «الفرنسيون» من أجل الذهاب لزيارة خلجان النرويج، لم تبدُ لآل «كورفوازييه» أكثر وضوحاً من كتاب «عشرون ألف فرسخ تحت البحار»، ولكنّها أشاعت فيهم الشعور نفسه بالاستقلال والظرف. ولذلك لم يكن ثّمة يوم لاتسمع من يقول فيه لا هذه العبارة فحسب «هل تعرف آخر نكتة لـ «أوريان» ؟بل هذه أيضاً «أتعرف الأخيرة لـ«أوريان» ؟ وعن «الأخيرة لأوريان» و«آخر نكتة لأوريان» كانوا يرددون على السواء: «إنّها بالضبط من أوريان»، «هذا أسلوب أوريان بالضبط»، «هذا أسلوب أوريان الخالص». وآخر ما جادت به «أوريان» كان على سبيل المثال، إذ وقع عليها أن تجيب باسم جمعية وطنّية الكاردنيال س... مطران مدينة «ماكون» (الذي كان السيّد «دو غير مانت» يدعوه حينما يتحدّث عنه «السيّد دو ماسكون» لأنّ الدوق كان

(*) أبثتاها بالإنكليزية لابراز تصنع بعض الأرستقراطيين وتعني فصل الشتاء هنا.

يرى ذلك من النمط الفرنسيّ القديم» وإذ كان كلّ يحاول أن يتخيّل كيف تصاغ الرسالة ويجد بالضبط أولى كلماتها: «صاحب النيافة» أو«صاحب السيادة» ولكنّما يحار إزاء الباقي، أنّ رسالة «أوريان» كانت، وبالدهشة الجميع، تبدأ بـ«سيّدي الكاردينال» بسبب عادة أكاديميّة قديمة أو بـ«ابن العمّ» إذ اللفظة مستخدمة بين أمراء الكنيسة وآل «غيرمانت» والملوك الذين كانوا يدعون الله أن يكلأ هؤلاء وأولئك «برعايته المقدّسة الكريمة». وكيما يجري الحديث عن «نكتة أخيرة لأوريان» كان يكفي، إبّان عرض تجد فيه كلّ باريس ويتّم فيه تمثيل مسرحيّة حلوة جدّاً، وفيما يبحثون عن السيّدة «دو غير مانت» في مقصورة الأميرة «دوبارما» والأميرة «دو غيرمانت» وأخريات كثيرات كنّ دعونها، كان يكفي أن يجدوها وحيدة بأثواب سوداء وقبّعة صغيرة جدّاً على مقعد وصلت إليه آن رفع الستارة. وكانت توضح قائلة: «السماع أفضل بالنسبة إلى مسرحية على جانب من الأهميّة»، ممّا يثير استنكار آل «كورفوازييه» وانبهار آل «غيرمانت» والأميرة «دو بارما» إذ يكتشفون فجأة أنّ «طريقة» سماع بداية مسرحيّة ما كانت أكثرجدّة وتدلّ على قدر أعظم من الابتكار والذكاء (الأمر الذي ماكان ليدهش على لسان«أوريان») من الوصول ساعة الفصل الأخير عقب عشاء كبير وظهور في إحدى الأمسيات.. تلك كانت طرق الإدهاش المختلفة التي كانت الأميرة «دو بارما» تعلم أنّه يمكن أن تستعدّ لها إن هي طرحت سؤالاً أدبياً أو اجتماعياً على السيّدة «دو غيرمانت» والتي كانت تحمل صاحبة السمّو في أثناء هذه الأعشية لدى الدوقة على ألاّ تزجّ نفسها في أيّ موضوع إلاّ بالحذر الخائف المغتبط الذي تبديه السبّاحة إذ تطلع من بين موجتين.

ومن بين العناصر التي غابت عن الصالتين أو الثلاث الأخرى المتساوية تقريباً والتي كانت على قمّة حيّ «سان چيرمان»، من تلك العناصر التي كانت تّميز صالة الدوقة «دو غير مانت» عنها، ومثلما يسلّم «لايبنتس» بانّ كلّ مونادا تضيف إلى الكون، فيما تعكسه بكامله، شيئاً خاصاً، كان أقلّ ما يستحبّ من عناصر فيها إنّما توفره عادة امرأة أو امرأتان على جمال عظيم وليس ما يسوّغ حضورهما هنالك سوى جمالهما، سوى ما سبق أن فعل به السيّد «دو غيرمانت»، وكان وجودهما يكشف في الحال، مثلما هذه اللوحات أو تلك في صالات أخرى، عن أن الزوج في هذه الصالة كان محبّذاً متحمساً لمحاسن النساء. كنّ كلّهن متشابهات إلى حدّ ما لأنّ الدوق كان يميل إلى النساء ذوات القامات الطويلة المهيبات الطليقات في آن واحد ومن نوعيّة متوسطة بين «فينوس ميلو» وتمثال «نصر ساموتراس». كنّ في الغالب شقراوات وفيما ندر سمراوات وصهباوات أحياناً كاقربهنّ عهداً، وكانت في ذاك العشاء، وهي الفيكونتيسّة «دار باجون» التي سبق أن أحبّها حبّاً جمّاً إلى حدّ أنّه أرغمها مدّة طويلة على أن تبعث إليه قرابة عشر برقيّات في اليوم (الأمر الذي كان يزعج الدوقة بعض الشيء)، والتي كان يراسلها بوساطة الحمام الزاجل حينما يقيم في «غيرمانت» وقد لبث أخيراً فترة طويلة عاجزاً تماماً عن أن يكون في غنى عنها إلى حدّ أنّه كان ذات شتاء اضطرّ أن يقضيه في «بارما» يعود في كل أسبوع إلى باريس فيقوم برحلة تدوم يومين ليلتقيها.

لقد سبق أن كانت تلك الممثلات الصامتات الجميلات عشيقاته عادة وما عدن كذلك (كما هي الحال بالنسبة إلى السيّدة «دار باجون») أو كنّ على شفا أن يكففن عنه. إلاّ أنّ المهابة التي تخلقّها الدوقة في نفوسهنّ وأمل أن يتّم استقبالهنّ في صالتها مع أنهنّ ينتمين إلى أوساط ارستقراطيّة جدّاً ولكن من مرتبة ثانية حملاهنّ على الإذعان لرغبات الدوق حتّى أكثر مما لجمال هذا الأخير وكرمه. وما كانت الدوقة على أيه حال

لتعارض دخولهنّ إلى بيتها معارضة مطلقة، فقد كانت تعلم أنّها لقيت لدى أكثر من واحدة من بينهن حليفة حصلت بفضلها على مالا يحصى من أمور كانت راغبة فيها وكان السيّد «دو غير مانت» يرفضها لزوجته دونما شفقة مادام لايعشق أخرى غيرها. ولذلك فإنّ ما يفسّر انتفاء استقبالهنّ لدى الدوقة مالم تكن علاقتهنّ قد قطعت شوطاً بعيداً إنّما كان بادئ الأمر ناجماً بالأحرى عن أن الدوق ظنّ في كل مرّة خاض فيها حبّاً جديداً أنّه محض نزوة عابرة يحسب من المغالاة أن يجيء في مقابلها الاستقبال لدى زوجته. ولكنّما كان يتفق أن يقدّمه لأقلّ من ذلك بكثير، من أجل قبلة أولى لأنّ صنوفاً من المقاومة لم يكن قد أخذها في الحسبان جرت، أو لأنّه لم يكن ثّمة على العكس مقاومة. ففي الحبّ غالباً مايحمل الامتنان والرغبة في الإبهاج على عطاء يجاوز حدود ماوعد به الأمل والمصلحة. ولكنّما كانت تعترض سبيل تحقيق ذاك العطاء حينئذ ظروف أخرى. فقد كانت تحتجز بادئ الأمر، كل بدورها على يد السيّد «دو غير مانت»، جميع النساء اللواتي استجبن لحبّه وأحياناً حتّى حينما لم يكنّ بعد قد استجبن. فما كان يسمح لهنّ من بعد بلقاء أحد وكان يقضي بالقرب منهنّ ساعاته كلّها تقريباً ويهتم بتربية أطفالهنّ الذين اتّفق له أحياناً، إن انبغى أن نحكم في الأمر فيما بعد بناء على وجه شبه صارخ، أن يوفّر لهم أخاً أو أختاً. ولئن كان للتعريف بالسيّدة «دو غير مانت» الذي لم تراود فكرته الدوق على الإطلاق، لئن كان له في أوّل العلاقة دور في ذهن العشيقة، فإن العلاقة نفسها قد حوّلت وجهات نظر تلك المرأة ؛ فلم يعد الدوق في نظرها زوج أكثر نساء باريس أناقة فحسب، بل رجل أخذت العشيقة الجديدة تحبّه، رجل غالباً ما وفّر لها إلى ذلك وسائل مزيد من البذخ وميل إليه وقد قلب الترتيب السابق على صعيد الأهمية بين مسائل السنوبية ومسائل المصلحة وأخيراً كانت ثّمة أحياناً غيرة من كلّ صوب تعتمل في صدور عشيقات الدوق ضدّ السيّدة «دو غير مانت». ولكنّ هذه الحالة كان من أندرها. وحينما كان يحلّ أخيراً على أيّ حال يوم التعريف (في فترة أضحى عادة فيها مذاك غير ذي بال في نظر الدوق الذي كانت تحكم أعماله، شأن أعمال كل الناس، الأعمال السابقة أكثر منها الدافع الأول الذي لم يعد موجوداً) غالباً ما كان يتّفق أن تكون السيّدة «دو غير مانت» هي التي سعت إلى استقبال العشيقة التي كانت تأمل أن تلقى فيها وهي بحاجة كبرى إلى أن تلقى فيها حليفة ثمينة-تنصرها على زوجها المرهوب الجانب. وليس يعني ذلك أنّ السيّد «دو غير مانت» كان يخلّ إزاء زوجته بما يدعى بـ« الشكليّات» فيما عدا فترات نادرة في المنزل كان يطلق فيها، حينما تفرط الدوقة في الكلام، أقوالاً وعلى وجه الخصوص لحظات صمت صاعقة. أمّا أولئك الذين لايعرفونها فقد كان يمكن أن يخدعوا ففي الخريف أحياناً، بين فترتي سباقات «دوفيل» والحمّامات والرحيل إلى «غير مانت» وطلعات الصيد، وفي غضون بضعة أسابيع يقضونها في باريس، وإذ كانت الدوقة تحبّ المقاهي الغنائية، كان الدوق يمضي معها ليقضي أمسية فيها. كان الجمهور يلاحظ في الحال في واحدة من تلك المقصورات الصغيرة المكشوفة التي لا تتسّع إلا لاثنين ذاك الجبّار بلباس «السموكنغ» (بما أنهم في فرنسه يطلقون على كلّ شيء ذي طابع بريطاني في كثير أو قليل الإسم الذي لايحمله في انكلتره) وعلى العين نظارته وفي يده السمينة والجميلة مع ذلك التي تلتمع في بنصرها ياقوتة زرقاء سيكار ضخم ينفث منه بين الحين والحين دفعة دخان، ونظراته تتجه عادة إلى خشبة المسرح ولكنما يلطفها، حينما يخفضها على القاعة حيث لايعرف أحداً على الإطلاق على أية حال، بمظهر من العذوبة والتحفظ والتأدب والاحترام. وحينا يبدو له مقطع مضحكاً ولا يفرط في قلة الاحتشام كان الدوق يلتفت إلى زوجته باسماً ويشاطرها، بإشارة تعرف عن الإدراك والعطف، المرح البريء الذي توفره له الأغنية

الجديدة. وكان بوسع النظارة أن يحسبوا أن ليس من زوج أفضل منه وأن ليس من امرأة خليقة بان تُحسد أكثر من الدوقة – هذه المرأة التي كانت كلّ اهتمامات الحياة في نظر الدوق خارج نطاقها، هذه المرأة التي ما كان يحبها ولم يكف في يوم عن خداعها. وحينما تحسّ الدوقة أنّها متعبة كانوا يبصرون السيّد «دو غير مانت» ينهض فيلبسها معطفها بنفسه وهو يرتبّ عقودها كي لا تعلق بالبطانة، ويشقّ لها درباً بصنوف من العناية تتّسم بالاهتمام والاحترام فتتقبّلها ببرود امرأة المجتمع التي لاترى في ذلك سوى شيء من محض آداب السلوك، بل تضيف أحياناً المرارة الساخرة قليلاً تبديها الزوجة المخيّبة التي لم يظلّ لها وهم تفقده من بعد. بيد أنّ حياة الدوقة كانت صعبة على الرغم من هذه المظاهر، وهي جزء من ذلك التهذيب الذي نقل الواجبات من الأعماق إلى السطح في فترة أضحت قديمة ولكنّها لاتزال مستمرّة للباقين منها على قيد الحياة. ولايعود السيّد «دو غير مانت» فيضحي كريماً وانسانياً إلاّ بالنسبة إلى عشيقة جديدة تتّخذ، مثلما كان يتّفق ذلك في الأغلب، جانب الدوقة وتناصرها. وترى هذه الأخيرة أنّ صنوفاً من السخاء إزاء مرؤوسيها وحسنات للفقراء وحتّى بالنسبة إليها فيما بعد سيارة جديدة رائعة تعود فتصبح في حيزّ الممكن بيد أنّ عشيقات الدوق ما كنّ مستثنيات من الغيظ الذي تبعثه بشيء من السرعة عادة في صدر السيّدة «دو غير مانت» نساء يفرطن في خضوعهنّ لها، فلا يمضي سوى القليل حتّى تملّهنّ الدوقة. والحقيقة أن علاقة الدوق بالسيّدة «دار باجون» أخذت تقرب في تلك الفترة أيضاً من نهايتها. ذلك أن عشيقة أخرى كانت تطلع في الأفق.

ليس من شكّ أن الحبّ الذي داخل السيّد «دو غير مانت» على التوالي إزاءهنّ كافّة كان يعود ذات يوم إلى الظهور: فقد كان ذلك الحبّ يخلفّهنّ إذ يتلاشي كتماثيل جميلة من المرمر–تماثيل من المرمر جميلة في نظر الدوق وقد أضحى على هذا النحو فنّاناً في جزء من ذاته لأنّه سبق أن أحبّها وأضحى الآن يقدّر خطوطاً ماكان لولا الحبّ ليقدّرها –تتقابل في صالة الدوقة أشكالها المتعادية فترة طويلة والتي تأكّلتها صنوف الغيرة والمشاجرات وتوافقت أخيراً في السلام الذي توليه الصداقة. ثمّ إن هذه الصداقة نفسها كانت من نتائج الحبّ الذي أبرز للسيّد «دوغير مانت» لدى أولئك اللائي كنّ عشيقاته فضائل موجودة لدى كلّ كائن بشري ولكنّما لاتدركها إلاّ اللذّة وحدها حتّى لتصبح العشيقة السابقة، وقد أضحت «رفيقاً ممتازاً» قد يقدم على أيّ أمر في سبيلنا، روسماً شأن الطبيب الوالد الذي ليس طبيباً أو والداً بل صديق. على أن المرأة التي كان السيّد «دو غير مانت» يشرع في هجرها كانت تشتكي في فترة أولى وتثور وتبدي تشدّداً وتبدو غير متحفظّة ومنكّدة.. ويشرع الدوق في النفور منها. حينئذ كان يتسنّى للسيّدة «دو غير مانت» أن تبرز المعايب الحقيقيّة أو المفترضة لدى امرأة كانت تزعجها. كانت السيّدة «دو غيرمانت» التي اشتهرت بطيبتها تستقبل هواتف المهجورة ونجاواها ودموعها ولاتشكو من الأمر. كانت تضحك من ذلك مع زوجها، ثمّ مع بعض الألآف. وما كانت السيّدة «دو غير مانت»، وهي تحسب أنّ لها الحقّ من جرّاء الإشفاق الذي تبديه لمنكودة الحظّ أن تضايقها في حضرتها هي وأيّاً كان ما تقول هذه الأخيرة بشرط أن يتسنّى حشر ذلك في إطار الطباع المضحكة التي صنعها لها الدوق والدوقة منذ عهد قريب، ما كانت ترى حرجاً في تبادل نظرات متواطئة ساخرة مع زوجها.

وفيما كانوا يجلسون إلى المائدة تذكّرت الأميرة «دو بارما» أنّها تبغي دعوة السيّدة «دو ديكور» إلى الأوبرا وإذا كانت راغبة أن تعلم إن كان الأمر لن يسوء في عيني السيّدة «دو غير مانت» حاولت أن تسبر أعماقها.

وفي تلك اللحظة دخل السيّد «دو غروشي» الذي تعطّل قطاره ساعة بسبب خروجه عن الخطّ، فاعتذر جهد المستطاع. ولو أن امرأته كانت من آل «كورفوازييه» لماتت خجلاً. ولكنّ السيّدة «دو غوشي» لم تكن من آل«غيرمانت» عبثاً. ففيما كان زوجها يعتذر عن تأخّره قالت مستهلّة كلامها: «أرى أنّ التاخّر حتّى في الأمور الصغيرة تقليد في أسرتكم».

وقال الدوق: «إجلس يا «غروشي» ولا تفقد رباطة جأشك».

– «أرى لزاماً عليّ أن اعترف، مع أنّي أماشي زماني، بأن لمعركة «واترلو» جوانب جيّدة بما أنّها سمحت باعادة حكم آل «بوربون»، وأفضل من ذلك أنّها فعلت بطريقة جعلتهم بعيدين عن نفوس الشعب. ولكنّي أرى أنّك «نمرود» حقيقي!».

– «لقد عدت بالحقيقة ببعض الطرائد الجميلة، وسوف أسمح لنفسي أن أبعث إلى الدوقة غداً بدزينة من التدارج».

وبدا كأنّما تلوح فكرة في عيني السيّدة «دو غير مانت»، فألحّت ألا يكلّف السيّد «دو غروشي» نفسه عناء إرسال التدارج، رقالت وهي تشير إلى الخادم الخطيّب الذي سبق أن تحدّثت إليه وأنا أغادر قاعة عائلة «ايلستير»:

–«بولان، إذهب لجلب تدارج السيّد الكونت وعدْ بها في الحال، أليس أنّك تسمح يا «غروشي» أن أقدم على بعض المجاملات؟ فلن نأكل أنا و«بازان» بمفردنا اثني عشر تدرج.

وقال السيّد «دو غروشي»: «لعلّ في بعد الغد ما يكفي من تبكير».

وتلحّ الدوقة: «لا، أفضّل الغد».

وشحب «بولان» أشدّ الشحوب، لقد فشل موعده مع خطيبته. وكان ذلك كافياً لتسلية الدوقة التي كانت تصرّ أن يحتفظ كلّ شيء بمظهر إنساني، فقالت لـِ«بولان»:«أعلم أنّه يوم عطلتك، ماعليك إلاّ أن تبادل جورج فيخرج غداً ويمكث بعد غد).

ولكنّ خطيبة «بولان» قد لا تكون حرّة بعد الغد، وسيان لديه أن يخرج. وما أن غادر «بولان» القاعة حتّى هنّأ كلّ منهم الدوقة على رفقها بخدمها.

–«ولكنّي لاأفعل أكثر من أن أكن معهم كما أودّ أن يكون الناس معي».

– «بالضبط! بوسعهم أن يقولوا إن لهم لديك عملاً ممتازاً».

– «ليس خارقاً إلى هذا الحدّ. ولكنّي أعتقد أنّهم يودّونني. أمّا ذاك فمزعج إلى حدّ ما لأنّه عاشق ويحسب أنّه يجدر به اتّخاذ ملامح حزينة».

ودخل «بولان» في تلك اللحظة، فقال السيّد «دو غروشي».

– «بالفعل، فليس يبدو باسم الوجه. لابدّ أن نكون طيبيّن معهم، ولكن دون إفراط في الطيبة».

–«اعترفُ أنّي لست قاسية ؛ فلن يقع عليه في كامل نهاره سوى الذهاب لجلب تدارجك والمكوث ههنا لايفعل شيئاً وتناول حصتّه منها»

وقال السيّد «دو غروشي» : «كثيرون يودّون لو يحتلّون مكانه فالحسد أعمى».

وقالت الأميرة «دوبارما» : «أوريان، لقد حظيت ذاك اليوم بزيارة ابنة عمّك «دوديكور». هي بالطبع امرأة ذات ذكاء رفيع؛ إنّها «غيرمانتيّة» وذلك يختصر كلّ شيء. ولكنّما يقولون إنّها نمامة...».

وألقى الدوق على زوجته نظرة طويلة محمّلة بدهشة مقصودة. وأخذت السيّدة «دو غير مانت» في الضحك ؛ ولاحظت الأميرة ذلك في النهاية فسألت يساورها القلق:

– «ولكن... ألاتوافقيني... الرأي...».

–«ولكنّ سيّدتي بالغة الطيبة أن يشغلها مايبدي «بازان». هيّا يا«بازان»، لايوحيّن مظهرك أنّك تغتاب أقرباءنا».

وسألت الأميرة بحرارة: «أويجدها بالغة السوء؟».

فردّت الدوقة قائلة: «لا! على الإطلاق لست أدري من قال لسمّوك إنّها نمامة. إنّها على العكس مخلوقة ممتازة لم تغتب أحداً في يوم ولا أساءت إلى أحد».

وقالت السيّدة «دوبارما» وقد انزاح الهمّ عن صدرها: «آه! لم أكن قد لاحظت ذلك بدوري. ولكنّي لمّا كنت أعلم أنّه يصعب في الغالب ألاّ يداخل المرء شيء من الخبث حينما يتمتّع بكثير من الذكاء...».

– «آه! أمّا هذا مثلاً فنصيبها منه أقلّ».

وسألت الأميرة ذاهلة: «أقلّ ذكاء؟...»

وقاطع الدوق الحديث بلهجة شاكية وهو ينظر من حواليه يميناً وشمالا نظرات ساخرة: «ويحك يا«أوريان، أنت تسمعين أنّ الأميرة تقول لك إنّها امرأة متفوقة».

– «أفليست كذلك؟».

– «إنها على الأقل متفوقة ببدانتها».

– «لاتصغي إليه ياسيّدتي إنّه ليس صادقاً. إنّها غبيّة غباء (هم...) إوزّة»، تقول السيّد «دوغير مانت» بصوت قويّ أبحّ، وكانت، وهي أكثر إغراقاً في الماضي من الدوق حينما لاتجهد في الأمر، تحاول غالباً أن تبدو كذلك، ولكن على نحو مناقض لطريقة زوجها الأرستقراطية المتميّعة إلا أنّها في الواقع أشدّ إرهافاً بكثير،

بضرب من تلفّظ فلاّحيّ تقريباً له طعم الأرض القوي واللذيذ. «ولكنّها أفضل امرأة في الدنيا. ثم إنّي لاأدري إن كان يمكن في هذا الحدّ أن نسمّي ذلك غباء. ولا أظنّ إني عرفت في يوم مخلوقة شبيهة بها. إنّها حالة جديرة بطبيب وبها شيء من الحالة المرضيّة، إنّها من نوع «البريئة» البلهاء «المتخلفة» كما هي الحال في الميلو دراما أو في أوابر «الآرليزيين». وإنّي اتساءل على الدوام حينما تكون ههنا إن لم يحن الوقت الذي سيستفيق فيه عقلها، الأمر الذي يورث دوماً بعض الخشية». كانت الأميرة تعتريها الدهشة لتلك العبارات فيما تظلّ مذهولة من جرّاء الحكم، وتجيب: «لقد ذكرت لي، وكذلك فعلت السيّدة «ديبينيه»، نكتتك حول «مشاكس المتكبّر» ؛ إنّها رائعة».

وشرح لي السيّد «دو غير مانت» الطرفة. كنت راغباً أ أقول له إنّ شقيقه الذي كان يدّعي أنّه لايعرفني ينتظرني في المساء نفسه الساعة الحادية عشرة. بيد أنّي لم أكن سألت «روبير» إن كنت أستطيع التكلّم عن هذا الموعد، وبما أن كون السيّد «دو شارلوس» قد حدّده لي على وجه التقريب يناقض ما سبق أن قاله للدوقة فقد رأيت لياقة أكبر في أن أصمت.

وقال السيّد «دو غير مانت»: «مشاكس المتكبّر لابأس به.، ولكنّ السيّدة «دو ديكور» لم ترو لكم على الأرجح طرفة أجود بكثير قالتها لها «أوريان ذاك اليوم جواباً عن دعوة إلى الغداء؟»

– «لا، لا! قلها!»

– «اصمت، ويحك، يا «بازان»، فهذه الطرفة سخيفة بادئ الأمر وسوف تحمل الأميرة على الحكم بأنّي أدنى بعدُ من ابنة عمّي البلهاء ثم إني لا أدري لماذا أقول ابنة عمّي، فإنّها ابنة عمّ لـ«بازان»، ولكنّها مع ذلك على شيء من القرابة معي».

وصاحت الأميرة «دو بارما» لدى التفكير بأنّها قد تجد السيّدة «دو غيرمانت» غبيّة وهي تحتجّ بشدّة أنّه لايمكن لأمر أن ينتقص من المنزلة التي تشغلها الدوقة في اعجابها: «أوه!»

– «ثم إنّنا قد خلعنا عنها صفات الفكر، ولّما كانت الطرفة تنزع إلى انكار بعض صفات القلب لديها فيبدو لي أنّها في غير محلّها».

وقال الدوق بسخرية متصنعّة وكي يحمل على الإعجاب بالدوقة: «إنكار! في غير محلّها! كم تحسن التعبير!».

– «هيّا يابازان، لاتسخر من امرأتك».

وعاد الدوق يقول: «لابدّ أن أقول لسمّوك الملكي أن ابنة عمّ «أوريان» راقية طيبّة بدينة وما شئت لها أن تكون، ولكنّها ليست بالضبط، ماذا عساي أقول... مسرفة».

قاطعته الأميرة قائلة: «أجل، أدري، إنّها شديدة الشحّ».

– «ما كنت لأسمح لنفسي بالعبارة، ولكنّك لقيت الكلمة الصحيحة. إنّ ذلك بيّن في نمط معيشتها

البيتّية وعلى وجه الخصص في طعامها، فهو رائع ولكنّه مقنّن».

وقاطعه السيّد «دو بريوتيه» قائلاً: «بل إنّ ذلك يفضي إلى مشاهد مضحكة إلى حد ما. من ذلك، ياعزيزي «بازان»، أنني مررت ذات يوم في «أوديكور» حيث كانوا في انتظاركما أنت و«أريان» وكانا قد أعدّوا أشياء فاخرة عندما حمل أحد الخدم الخاصيّن بعد الظهر برقية بأنكما لن تجيئا».

فقالت الدوقة التي لم يكن من العسير التقاؤها فحسب بل هي تحبّ أن يعرف الناس ذلك: «لست أستغرب الأمر!»

— «وتقرأ ابنة عمّك البرقيّة وتغتمّ ثم تعود في الحال، دون أن تفقد رباطة جأشها، فتستدعي الخادم قائلة في نفسها إنّه لاضرورة لنفقات لاطائل تحتها تجاه سيّد لا أهمية له مثلي وتصيح به: «قل للطاهي أن يرفع الفرّوج». وفي المساء سمعها تسأل رئيس الخدم:«قل لي، وبقايا «بقر» البارحة؟ ألا تقدّمونها؟»».

— «لابدّ أن نعترف على أيّ حال بأنّ المآكل لاغبار عليها»، يقول الدوق الذي يظنّ باستخدامه هذه العبارة أنّه يبدو من العهد السابق، «فسلت أعرف داراً فيها الطعام أطيب».

— «أقلّ»، تضيف الدوقة مقاطعة.

وأردف الدوق قائلاً: «إنّه صحّي جدّاً وكاف تماماً لما يدعونه بالرجل الفظّ السخيف مثلي، فهو لايشفي من جوع».

— «آه! إن كان بمثابة استشفاء فالأمر حينئذ مختلف تماماً. إنّه بالطبع صحّي أكثر منه فاخراً. على أنّه ليس طيباً إلى هذا الحدّ»، تضيف السيّدة «دو غير مانت» التي ما كانت تحبّ كثيراً أن يمنح لقب أفضل مائدة في باريس لغير مائدتها. «وابنة عمّي إنّما يتّفق لها ما يتّفق لمؤلفين يعانون من الإمساك ويبيضون في كلّ خمسة عشر عاماً مسرحية من فصل واحد أو قصيدة قصيرة. ذلك مايدعونه بالروائع الصغيرة وبالهنات التي هي جواهر هو باختصار القول الأمر الذي أمقته أكثر ما أمقت. ليس الطعام لدى «زينائيد» رديئاً لكنّك قد تجده عادياً وأكثر من عادي لو كان أقلّ تقتيراً. ثمة أشياء يحسن طاهيها صنعها، وأشياء يفشل فيها. لقد تناولت لديها شأني في أي مكان آخر أعشية رديئة جدّاً لكنّها ألحقت بي ضرراً أقلّ من أي مكان آخر لأنّ المعدة أكثر تأثراً في الأساس بالكمية منها بالكيفيّة».

وخلص الدوق إلى القول: «وأخيراً وفي نهاية المطاف أخذت «زينائيد» تلحّ كي تأتي «أوريان» لتناول طعام الغداء، وبما أن امرأتي لاتحبّ كثيراً الخروج من منزلها فقد كانت تقاوم وتستعلم إن كانوا لايزجونها مخادعين، بحجة وليمة خاصة، في احتفال كبير وتحاول دون جدوى أن تعلم أيّ مدعوّين سيحضرن إلى هناك كانت «زينائيد» تلحّ وهي تمتدح الطيبّات التي ستقدم في الغداء: «تعالي، تعالي. ستأكلين مهروس الكستناء، لن أقول تلك غير ذلك، وسيقدم سبع قطع صغيرة من «لقم الملكة». وصاحت «أوريان» قائلة: «سبع لقم صغيرة. ذلك يعني إذاً أنّنا سنكون ثمانية على الأقلّ!».

وبعد بضع لحظات أطلقت الأميرة ضحكتها، بعدما فهمت. وكأنها هزيم الرعد. «آه! سنكون ثمانية

إذن، ذلك رائع! وما أحسن الصياغة!» تقول وقد عادت فلقيت في جهد أخير العبارة التي سبق أن استخدمتها السيّدة «ديبينيه» والتي كانت أحسن موقعاً هذه المرّة.

– «أوريان، جميل جدّاً ما تقوله الأميرة، تقول إنّه «حسن الصياغة».

وأجابت السيّدة «دو غيرمانت» التي كانت تستسيغ بيسر طرفة حينما تنطق بها صاحبة سموّ وتمتدح نباهة فكرها في الآن نفسه: «ولكنّك لاتعلمني شيئاً ياصديقي. إنّي شديدة الاعتزاز أن تقدرّ سيّدتي صياغتي المتواضعة على أنّي لا أذكر أنّي قلت ذلك. وإن كنت فعلت فلأدغدغ مشاعر ابنة عمّي، ذلك لأنّه لو كان لديها سبع لقم فلابدّ أنّ الأفواه، إن توفّرت لي جرأة التعبير على هذا النحو، كانت تتجاوز الدزّينة».

وفي هذه الأثناء كانت الكونتيسة «دار باجون» التي سبق أن قالت لي قبل العشاء إنّ عمتّها كانت ستسعد أعظم السعادة أن تفرّجني على قصرها في النورماندي، كانت تقول لي من فوق رأس الأمير «داغريجانت» إن المكان الذي تودّ على وجه الخصوص أن تسقبلني فيه واقع في منطقة «الساحل الذهبي» لأنّها هناك، في «بون لودك؛» ، إنّما هي في دارها.

أكدّت لي الكونتيسة، التي سبق أن أخطرتني السيّدة «دو غير مانت» أنّها طويلة الباع في الآداب، قائلة: «قد تثير محفوظات القصر اهتمامك فثمة مراسلات غريبة إلى حد بعيد بين جميع أبرز الشخصيات في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. إنّي أقضي هناك ساعات رائعة وأعيش في الماضي».

وعادت الأميرة تقول، وهي تتحدّث عن السيّدة «دو ديكور» ، وكانت تريد أن تجهد في إبراز الأسباب الوجيهة التي يمكن أن تكون لديها لإقامة علاقات صداقة معها: «إنّها تملك جميع مخطوطات السيّد «دو بورنييه».

فقالت الدوقة: «لابدّ أنّها حلمت بذلك وأظنّ أنّها ما كانت حتّى تعرفه».

وتابعت الكنتيسة «دار باجون» التي كانت تربطها بالبيوتات الدوقية في أوروبا، وحتّى الملكيّة منها، علاقات مصاهرة يسعدها أن تذكر بالأمر: «ماهو جدير بالاهتمام على وجه الخصوص أن تلك المراسلات صادرة عن شخصيّات من بلدان مختلفة».

وقال السيّد «دو غيرمانت» دون أن يكون خالي القصد: «بلى. يا أوريان، تتذكّرين تماماً ذاك العشاء الذي كان فيه السيد «دوبورنييه» جاراً لك!».

فقاطعته الدوقة قائلة: «إن كنت تقصد أن تقول يا «بازان» إنّي عرفت السيّد «دو بورنييه» فبالطبع، وهو حتّى جاء عدّة مرّات ليلقاني ولكنّي ما استطعت في يوم أن أعقد العزم على دعوته فقد كنت أضطر في كلّ مرّة إلى طلب التطهير بالفورمول. فأما عن ذلك العشاء فإنما اتذكّره تمام التذكّر ولم يكن على الإطلاق في منزل «زينائيد» التي لم تبصر «بورنييه» طوال حياتها ولابدّ أنّها تعتقد، إن حدثوها عن «ابنة رولان»، بأنّ الحديث عن أميرة من أسرة «بونابرت» يزعمون أنّها خطيبة ابن ملك اليونان. لا، كان ذلك في سفارة النمسا.

لقد ظنّ «هريوس» الظريف أنّه يسعدني وهو يطرح على كرسيّ إلى جانبي عضو الأكاديمية النتن هذا. لقد خلت سرية من رجال الدرك جيراناً لي، واضطررت أن أكم أنفي قدر المستطاع في أثناء العشاء كلّه ولم اجرؤ على التنفّس إلاّ حين تقديم جبنة «الغروير»!.

وتفحصّ السيّد «دو غيرمانت». بعدما بلغ هدفه الخفيّ، تفحّص خلسة الأثر الذي خلفّته كلمة الدوقة على وجوه المدعوين.

وتابعت السيّدة «الطويلة الباع في الأدب والتي كانت تملك في قصرها رسائل غريبة إلى هذا الحدّ، وذلك على الرغم من اعتراض وجه الأمير «داغر يجانت»: «إنّي أجد للمرسلات على أيّ حال سحراً خاصاً. فهل لاحظتم أنّ رسائل الكاتب غالباً ما تفوق بقيّة آثاره؟ ماعساه يدعى ذاك الكاتب الذي ألفّ «سالمبو»؟

وددت ألاّ أجيب كي لاأطيل هذا الحديث، ولكنّي شعت أنّي سأكدّر الأمير «داغر يجانت» الذي تظاهر بأنّه يعرف أتمّ المعرفة ممّن كانت «سالمبو» وأنّه يدع لي لذّة الإعلان عنه محض مجامل، لكنّه كان في أشدّ الحيرة.

وقلت آخر الأمر: «فلوبير»، ولكنّ إشارة الموافقة التي رسمها رأس الأمير قضت على صدى إجابتي حتّى أنّ محدثّتي لم تعلم بالضبط إن كنت قلت «بول بير» أو «فولبير» وهما اسمان لم يخلفّا في نفسها رضى تامّاً.

فأردفت تقول: «وفي جميع الأحوال ما أغرب مراسلاته وكم تفوق كتبه! وإنّها لتفسّره على أيّ حال إذ إننا نبصر في كلّ ما يقال عن المشقّة التي يصادفها في وضع أيّ كتاب أنّه لم يكن كاتباً حقيقيّاً وإنساناً موهوباً».

— «تتحدثّين عن المراسلات، وإنّي أجد مراسلات «غامبيتّا» رائعة، تقول الدوقة «دو غير مانت» كي تبرز أنّها لاتخشى الاهتمام ببروليتاري وراديكالي. وأدرك السيّد «دو بريوتيه» كامل معنى هذه الجرأة ونظر من حوله بعين زائغة ورفيقة معاً، وبعد ذلك مسح نظّارته.

وقال السيّد «دو غير مانت»: «ياإلهي، ما أسأمها كانت ابنة رولان!»، وهو لايزال بعد في أمر السيّد «دو بورنييه»، وبالرضى الذي يخلّفه لديه شعوره بالتفوق إزاء مؤلفّ قد أضجره إلى هذا الحدّ وربما أيضاً من جرّاء «يطيب لك، والبحر هائج» (*)، الذي تحسّ به، أثناء عشاء فاخر، في تذكّر أمسيات مريعة إلى هذا الحدّ. «على أنّه كان فيها بعض البيوت الجميلة وعاطفة وطنيّة».

وألمحت إلى أنّي لم يكن يداخلني أيّ إعجاب بالسيّد «دو بورنييه».

وسألني الدوق باستغراب: «ألديك ماتلومه عليه؟»، وكان يظنّ على الدوام، حينما يتناولون بالسوء أحدهم، أنّ الأمر ناجم عن استياء شخصي، وامرأة بالحسنى، أنّها بداية حبّ عابر. «أرى أنّك حاقد عليه، فما

(*) ورد في النص استشهاد بالشاعر الروماني «لوكريس»: Suave marimagno وهي بداية قصيدة تقول: «يطيب لك، والبحر هائج، أن تنظر من اليابسة إلى المخاطر الرهيبة التي يتعرض لها الغير».

الذي فعله بك؟ قصّ ذلك علينا! بلى، لابدّ أنّ بينكما جثّة بما أنك تذمّه. «ابنة رولان» مؤلّف طويل ولكنّه صادق الشعور إلى حدّ ما».

وقاطعته السيّدة «دو غيرمانت» قائلة: «صادق الشعور» كلمة صحيحة تماماً بالنسبة إلى كاتب ذكّي الرائحة إلى هذا الحدّ. فإن اتّفق أن كان هذا الصغير برفقته في يوم فمن المنطقي إلى حدّ ما أن يعلق في أنفه!».

وعاد الدوق يقول وهو يوجّه الحديث للأميرة «دوبارما»: «لابدّ لي على أيّ حال أن أعترف لسيّدتي أنّني في الأدب وحتّى في الموسيقى، باستثناء «ابنة رولان»، قديم الهوى فليس من هزار مهما شاخ إلاّ ويروقني. قد لاتصدّقيني ولكنّما يتّفق لي في المساء، أن جلست زوجتي إلى البيانو، أن أطلب منها لحناً قديماً لـ«أوبير»، لـ«بوالديو» وحتّى لـ«بيتهوفن»! ذلك ما أحب. أمّا بخصوص «فاغنر» في مقابل ذلك فانّه ينوّمني في الحال».

وقالت السيّدة «دو غيرمانت»: «لست على حقّ، فقد كان «فاغنر»، إلى جانب تطويل لايطاق، يملك العبقريّة. إن «لوهانغرين» رائعة فنّية. حتى في غنائيّة «تريستان» ثمة ههنا وهناك صفحة طريفة. أمّا كورس الغزّالات في «السفينة الشبح» فآية محضة.

وقال السيّد «دو غيرمانت» موجّهاً كلامه للسيّد «دو بريوتيه»: «أليس أنّنا نفضل يا «بابال».

«إنّ مواعيد الرفاقة الكريمة

تُضرب كلّها في هذا المقام الساحر»(*).

ذلك رائع. و«فرا ديافولو» و«المزمار المسحور» و«الشاليه» و«عرس فيغارو» و«ماسات التاج»، تلكم هي الموسيقى! والأمر واحد في الأدب. وهكذا فانّي أعشق «بلزاك» و«حفلة سو الراقصة» و«موهيكان باريس».

– «آه! ياعزيزي، إن أنت انطلقت في الحديث عن «بلزاك» فما أبعد أن ننتهي. احتفظ بذلك ليوم يكون فيه «ميميه» حاضراً هو في ذلك بعد أفضل ، إنّه يعرفه عن ظهر القلب».

وسلّط الدوق، وقد غاظته مقاطعة زوجته، سلّط عليها بضع لحظات نيران صمت متوعدّ. وكانت عيناه الحادتان تبدوان وكأنّهما مسدّسان محشوان. وفي أثناء ذلك كانت السيّدة «دار باجون» قد تبادلت والأميرة «دو بارما»، حول الشعر المأساوي وغيره، أقوالاً لم تبلغ مسامعي على نحو واضح حينما سمعت هذا القول تجود به السيّدة «دار باجون»: «آه! كلّ ما تشاء سيّدتي إنّي أوافقها أنّه يرينا العالم قبيحاً لأنّه لايحسن التمييز بين القباحة والجمال أو بالأحرى لأن غروره الذي لايطاق يحمله على الاعتقاد بأن كلّ مايقوله جميل، وإنّي أقرّ مع سموّك أنّ في المقطوعة المعنية أموراً مضحكة ومتعذرّة الفهم وأخطاء ضدّ الذوق وأنّها عسيرة الإدراك وهي توليك في قراءتها مشقة بقدر ما لو كانت مكتوبة بالروسية الصينية، فهي كلّ شيء بالطبع باستثناء

(*) هي بداية الثنائي «جيرو» و«نيسيت» في غنائية لـ«هيرولد» (١٨٣٢).

الفرنسيّة. ولكننا، بعد ما ننفق هذه المشقة، أيّة مكافأة ننال، فما أكثر ما فيها من خيال!» لم أكن قد سمعت بداية هذا الخطاب الصغير. وأدركت في النهاية أنّ الشاعر العاجز عن التمييز بين الجمال والقباحة هو «فيكتور هوغو»، وليس ذلك فحسب بل إن القصيدة التي كانت تقتضيك لفهمها قدراً من المشقّة يساوي ما تقتضيه الروسيّة الصينيّة هي:

«عندما يطلع الطفل

يضجّ مجلس العائلة بالصياح والتصفيق...»

وهي مقطوعة من فترة الشاعر الأولى وربّما كانت حتّى أكثر قرباً من «مدام ديزولبير» منها من أسلوب فيكتور هوغو في «أسطورة القرون». وعوضاً عن أن أجد السيّدة «دار باجون» سخيفة رأيتها «وهي الأولى على هذه المائدة الحقيقية إلى حدّ بعيد، العاديّة إلى حدّ بعيد. التي جلست إليها بهذا القدر من خيبة الأمل)، رأيتها بعيني الفكر في قلنسوة الدانتيلا تلك التي تفلت منها قصيبات مستديرة لذوائب طويلة والتي اعتمرتها السيّدة «دوريموزا» والسيّدة «دو بروي» والسيّدة «دو سانت أولير» وسائر النساء العظيمات الأناقة اللواتي يستشهدن في رسائلهنّ الرائعة وبالكثير من العلم وحضور البديهة بسوفوكليس وشيلر وكتاب «المضاهاة» واللواتي كانت أولى قصائد الرومانتيكيّين تبعث في نفوسهنّ هذا الرعب وهذا التعب اللذين لاينفصلان في نظر جدّتي عن آخر أشعار «ستيفان مالارميه».

وقالت الأميرة «دو باما» للسيّدة «دو غيرمانت» وقد أثّرت فيها اللهجة الحماسيّة التي قيل بها الخطاب: «إن السيّدة «دار باجون» تحبّ الشعر كثيراً».

وأجابت السيّدة «دو غيرمانت» بصوت خافت: «لا، إنّها لاتفهم شيئاً منه على الإطلاق»، مستغلّة أنْ كانت السيّدة «دارباجون» فيما تردّ على اعتراض للواء «دو بوتريّي» أكثر انصرافاً إلى أقوالها الخاصّة من أن تسمع تلك التي همست بها الدوقة. «لقد أضحت أدبيّة النزعة منذ أن هُجِرَتْ. سوف أقول لسموّك إنّي إنّما أحمل أنا وزر كلّ هذا لأنّها إنّما تجيء إليّ شاكية في كلّ مرّة لم يذهب فيها «بازان» للقائها، يعني كلّ يوم تقريباً. على أنّ الذنب ليس ذنبي إن كانت تشيع الملل في نفسه ولا أستطيع إجباره على الذهاب إلى منزلها مع أنّني ربّما فضّلت أن يكون بعض الشيء أكثر إخلاصاً لها لأنّني أراها بذلك أقلّ بعض الشيء. لكنّها «تزهقه» وليس ذلك بغريب. ماهي بالمرأة السيئة ولكنّها مزعجة إلى درجة لاتستطيعين تخيلها. وإنّها تورثني في كلّ يوم أوجاعاً في الرأس شديدة إلى حدّ اضطر معه أن أتناول في كلّ مّرة قرصاً من البيراميدون. كلّ ذلك لأنّه طاب لـ«بازان» طوال عام أن يخدعني معها. وليكن لك فوق ذلك خادماً خاصاً يعشق بلهاء صغيرة ويحرد إن لم أطلب إلى هذه المرأة الشابّة أن تغادر رصيفها المربح فترة لتأتي وتتناول الشاي معي!» واختتمت الدوقة الحديث بلهجة فاترة: «آه! إنّ الحياة قاتلة».

كانت السيّدة «دار باجون» تزهق السيّد «دو غيرمانت» بوجه خاص لأنّه كان منذ وقت وجيز عشيقاً لأخرى علمتُ أنهّا المركيزة «دو سورجي لو دوك». وكان الخادم الخاصّ الذي حرم يوم عطلته يقوم بالضبط بتقديم الطعام. وحسبته يفعل ذلك، ولايزال حزيناً، بكثير من الاضطراب إذ لاحظت وهو يقدمّ الأطباق للسيّد

«دوشاتيلرو» أنّه يودّي مهمتّه برعونة كبيرة إلى حدّ أن اتفق أن يصدم مرفق الدوق عدّة مرّات مرفق الخادم. ولم يغضب الدوق على الطلاق من الخادم الذي كست وجهه الحمرة بل نظر إليه على العكس وهو يضحك بعينه الزرقاء الصافية. وبدا لي أنّ البشاشة فيما يخصّ المدعوّ كانت برهاناً على الطيبة. ولكنّ الإلحاح في الضحك حملني على الاعتقاد بأنه على علم بخيبة الخادم وأنّه ربما داخله على العكس فرح ماكر.

وتابعت الدوقة تقول وهي توجّه الحديث هذه المرّة إلى السيّدة «دار باجون» التي أبصرتها منذ قليل تدير رأسها بادية القلق: «ولكنّك تعلمين ياعزيزتي أنّك لاتقومين باكتشاف وأنت تحدّثيننا عن «فيكتور هوغو». لا تأملي أن تروجّي لهذا المبتدئ، فالكلّ يعلم أنّه صاحب موهبة. إنّ ماهو مقيت هو «فيكتور هوغو» الفترة الأخيرة. فترة «اسطورة القرون»، لم أعد أعرف العناوين. ولكنّ «أوراق الخريف» و«أناشيد الغروب» هما في الغالب من عمل شاعر حقيقي». وأضافت الدوقة التي لم يجرؤ محدثوها على مخالفتها، والسبب وجيه: «حتّى في «التأمّلات» لايزال هناك أشياء حلوة. ولكنّي أقرّ أنّي أفضلّ ألا أغامر بعد «الغروب»! ثم إنّك غالباً ما تلقى في قصائد «فيكتور هوغو» الجميلة، وهي موجودة، فكرة، بل فكرة عميقة».

ثمّ قالت الدوقة على مهل وباحساس صحيح وهي تستخلص الفكرة الحزينة بكامل قوى نبرتها وتضعها خلف حدود صوتها وتحدّق أمامها بنظرة حالمة رائعة:

– «خذي مثلاً:

«إن الألم ثمرة ليس ينميها الله على غصن لايزال شديد الضعف كيما يحملها».

أو هذا أيضاً:

«ما أقلّ مايدوم الأموات...

وإنّهم وأأسفي لينقلبون في التابوت تراباً

بأقلّ سرعة ممّا يفعلون في قلوبنا!»

وفيما كانت ابتسامة مخيبة تغضّن فمها الذي ينضح ألماً بالتواءة ناعمة ثبتت الدوقة على السيّدة «دارباجون» نظرة حالمة من عينيها الصافيتين الساحرتين. لقد أخذت أعرفهما كما أعرف صوتها المتمهلّ المتثاقل المستملح كأشدّ ما يكون. وكنت ألقى في هاتين العينين وهذا الصوت الكثير من طبيعة «كومبريه». كان ثّمة بالتأكيد أشياء كثيرة في التصنّع الذي كان يبرز به ذاك الصوت بين الحين والحين خشونة تفوح منها رائحة الأرض: فالمنشأ الريفي تماماً لفرع من أسرة «غير مانت» ظلّ محدد المكان فترة أطول، وأكثر إقداماً وأشد انعزالاً وأكثر تحدّياً ؛ ثمّ تعوّد جماعة من أهل الأناقة الحقّة وجماعة فكر يعلمون أنّ الأناقة ليست في التحدّث من طرف الشفتين وكذلك نبلاء يرتضون التآخي مع فلاحيهم أكثر منهم مع جماعة من البورجوازيين ؛ كلّ هذه الخصائص التى سمح وضع السيّدة «دو غير مانت» ملكةً أن يبرزها بسهولة أكبر وأن ينشرها على الملأ. ويبدو أنّ هذا الصوت نفسه كان يميّز شقيقات لها تكرههّن وكنّ. وهنّ أقلّ ذكاء وقد

زوّجن زواجاً يكاد يكون بورجوازياً تقريباً، إن أمكن استخدام هذه الصفة حينما يتناول الأمر زيجات من نبلاء مغمورين يقبعون في مقاطعتهم أو في باريس في زاوية من حيّ «سان جيرمان» لا ألق فيها، كنّ يمتلكن ذاك الصوت لكنّهن كبحنه وأصلحن منه ولطّفنه جهد المستطاع مثلما يندر أن تتوافر لأحد منّا جرأة الأخذ بتفرّده وألاّ يصرف جهده إلى محاكاة النماذج الأكثر تحبيذاً. ولكنّ «أوريان» كانت أكثر ذكاء بما لا يقاس وأوفر ثراء وأقرب إلى الموضة على وجه الخصوص من شقيقاتها ولقد كان تأثيرها، بوصفها أميرة «لوم»، عظيماً جداً على أمير «غال» إلى حد أدركت معه أنّ ذاك الصوت الناشز كان من السحر وأنّها جعلت منه، على صعيد المجتمع الراقي، بالجرأة التي يوفّرها التفردّ والنجاح، ماصنعت على صعيد المسرح مثيلات «ريجان» و«جان غرانيبه» (دون مقارنة بالطبع وعلى أيّ حال بين قدر هاتين الفنّانتين وموهبتهما) من صوتهما، أي شيئاً رائعاً ومتميّزاً ربما حاولت شقيقات يدعين «ريجان» و«غرانيبه» ولم يعرفهن أحد في يوم أن يطمسنه على أنّه عيب من العيوب.

وقد جاء الكتّاب المفضلون لدى السيّدة «دو غيرمانت»: «ميريميه» و«ميلاك» و«هاليفي» يضيفون إلى هذا العدد من الأسباب الداعية إلى إبراز تفرّدها المحلّي، يضيفون، إلى جانب احترام «الفطريّ» من الأمور، ميلاً إلى العبارة العادية تبلغ به حدّ الشعر وظرفاً مجتمعياً صرفاً كان يوقظ مساحات أمام عينّي. وكانت الدوقة قادرة تماماً على أيّ حال، إذ تضيف إلى هذه التأثيرات سعياً فنياً، أن تكون اختارت لمعظم المفردات النطق الذي يبدو لها أقرب ما يكون إلى منطقة «إيل دو فرانس» وأكثر ما يكون من محلّة «الشامبانييي» لأنّها، وإن لم تبلغ تماماً مبلغ شقيقة زوجها «مارسانت»، قلما كانت تلجأ إلى غير المفردات الصرفة التي ربّما أمكن أن يستخدمها كاتب فرنسيّ قديم. وحينما كنت تملّ اللغة الحديثة المخلّطة المرقّشة كان الإصغاء إلى حديث السيّدة «دو غيرمانت» راحة عظيمة، مع علمك التامّ أنّها تعبر عن أشياء أقل بكثير – الراحة نفسها التي تحسّ بها، إن اتّفق أن تكون وحدك معها وحدت من غزارة القول ووضّحته، في الاستماع إلى أغنية قديمة. وفيما كنت أنظر إلى السيّدة «دو غيرمانت» وأصغي إليها كنت أبصر حينذاك، وأنا سجين عصر عينيها الدائم المطمئن، سماء من مقاطعة «إيل دو فرانس» أو «الشامبانيي» تمتد زرقاء مائلة وبها زاوية الميل نفسها التي كانت تتخذها لدى «سان لو».

هكذا، وبفضل هذه الثقافات المختلفة، كانت السيّدة «دو غيرمانت» تعبر في الآن نفسه عن أعرق الأرستقراطية الفرنسية، وبعد ذلك بكثير عن الطريقة التي ربّما استطاعت الدوقة «دو بروي» بها أن تتذوق «فيكتور هوغو» وتذمه في عهد ملكية تموز، وأخيراً عن ميل قوي إلى الأدب صادر عن «ميريميه» و«ميلاك». كانت أولى هذه الثقافات تروقني أفضل من الثانية وتعينني أكثر منها على تعويض خيبة الرحلة والوصول إلى حيّ «سان جيرمان» هذا، وما أكثر اختلافه عمّا كنت قد ظننت، ولكنّي كنت أفضلّ الثانية على الثالثة. ففيما كانت السيّدة «دو غيرمانت» غير مانتيّة عن غير قصد تقريباً كانت نزعتها «البايرونية» (*). وحبّها لـ«دوماس» الإبن صادرين عن ترو وقصد ولمّا كان هذا الحب نقيض حبّي، فقد كانت توفر لفكري الأدب حينما تحدثني عن حيّ «سان جيرمان» ولاتبدو لي البتّة بمثل التصاقها الغبي بحيّ «سان جيرمان» إلا حينما

(*) نسبة إلى الكاتب المسرحي الفرنسي Pailleron

تحدّثني في الأدب.

صاحت السيّدة «دارباجون» وقد هزّتها الأبيات الأخيرة:

«إن لبقايا القلب هذه ترابها أيضاً!».

وقالت للسيّد «دو غيرمانت»:

«ينبغي أن تكتب لي ذلك على مروحتي ياسيّدي».

فقالت الأميرة «دو بارما» للسيّدة «دو غيرمانت»: «ياللمرأة المسكينة، إنّها تبعث الأسى في نفسي».

- «لا، لايرقّ قلب سيّدتي، فليست تنال إلاّ ما تستحق».

- «ولكن.... عفوك أن أقول ذلك لك أنت... ولكنّها تحبّه حقاً!».

- «لا، على الإطلاق، إنّها عاجزة عن ذلك، تظن أنّها تحبّه كما تظنّ في هذه اللحظة أنّها تروي لـ«فيكتور هوغو» لأنّها تذكر بيتاً لـ«موسيّه». وأضافت الدوقة بلهجة حزينة: «خذي، ليس من قد يهزه شعور صادق أكثر منّي: ولكنّي سأقدم لكِ مثالاً. البارحة أقامت الدنيا وأقعدتها على رأس «بازان»، وربّما ظننت، سموّك، أنّها فعلت لأنّه يحبّ أخريات غيرها، لأنّه لم يعد يحبّها. لا على الإطلاق. لقد فعلت لأنّه لايريد أن يقدّم أبناءها في نادي الفروسيّة! أفترى سيّدتي أنّ تلك فعلة عاشقة؟» وأضافت السيّدة «دو غيرمانت» تتوخّي الدقّة «لا! سوف أقول لك أكثر من ذلك، إنّها امرأة نادرة في قلّة إحساسها».

كان السيّد «دو غيرمانت» أثناء ذلك قد أصغى، والعين يلتمع فيها الرضى، إلى زوجته وهي تتحدّث عن «فيكتور هوغو» دون سابق استعداد وتروي له بضعة أبيات. وعبثاً يتفق له أن تزعجه الدوقة فقد كان فخوراً بها في مثل هذه اللحظات. «أوريان» رائعة حقّاً. تستطيع التحدّث في كلّ شيء وقد قرأت كلّ شيء لم يكن بوسعها أن تحزر أنّ الحديث سيتناول «فيكتور هوغو» في هذا المساء. إنّها على استعداد أيّاً كان الموضوع الذي يطرح عليها وتستطيع مجابهة أكثرهم علماً. لابدّ أنها خلبت لبّ هذا الشابّ».

وأضافت السيّدة «دو غيرمانت» تقول: «لكن هيّا نغيّر الحديث لأنّها سريعة الغضب». وأردفت قائلة وهي تلتفت إليّ: «لابدّ أنّك تجدني من طراز قديم جدّاً، فانّي أعلم أن حبّ الأفكار في الشعر يعتبر اليوم ضعفاً شأن الشعر الذي يحوي فكراً».

- «من طراز قديم؟» تقول الأميرة «دو بارما» بالدهشة الخفيفة التي كانت تسبّبها لها هذه الموجة الجديدة التي لم تكن تتوقعها، مع أنّها تعلم أن حديث الدوقة «دو غيرمانت» يخبيء لها دوماً هذه الصدمات المتلاحقة اللذيذة وهذا الرعب الذي يقطع الأنفاس وهذا التعب الصحّي الذي كانت تفكرّ بعده على نحو غريزي بضرورة غسل قدميها في حجرة حمّام والسير بسرعة للحصول على ردّة الفعل».

وقالت السيّدة «دو بريّساك»: «لا يا أوريان فيما يخصني، فلست غاضبة من «فيكتور هوغو» لأنّه يملك

أفكاراً، بل على العكس تماماً، وإنّما للبحث عنها في كلّ ما كان فظيعاً. فهو الذي عوّدنا في الأساس على القباحة في الأدب. إنّ في الحياة ما يكفي من قباحات، فلماذا لا ننساها على الأقلّ حينما نقرأ؟ إن المشهد المؤلم الذي ربّما أشحنا بوجهنا عنه في الحياة، ذلك مايجتذب «فيكتور هوغو».

وسألت الأميرة «دو بارما» قائلة: «ليس فيكتور هوغو بقدر واقعية «زولا» مع ذلك؟».

ولم يحرّك اسم «زولا» عضلة في وجه السيّد «دو بوتر يّي». لقد كان عداء اللواء لـ«دريفوس» أعمق من أن يحاول التعبير عنه. كان سكوته اللطيف حينما يطرقون تلك الموضوعات يهزّ مشاعر غير العارفين بالأمور بالرقة نفسها التي يبديها كاهن إذ يتجنّب التحدّث إليك عن واجباتك الدينية، ورجل مال إذ يجهد ألاّ يوصي المشروعات التي يديرها، وجبار حين يبدي اللطف ولا يوجّه إليك اللكمات.

وقالت لي السيّدة «دو فارامبون» بلهجة العارف، وكانت وصيفة شرف للأميرة «دو بارما» وامرأة ممتازة ولكنّها محدودة الأفق وقد وفرّتها للأميرة «دو باما» فيما مضى والدة الدوق: «أعلم أنّك قريب أمير البحر «جوريان دو لاغرافيير» ولم تكن بعد قد وجهّت إليّ الحديث ولم أستطع البتّة فيما بعد، على الرغم من تعنيفات الأميرة «دوبارما» واحتجاجاتي الخاصّة، أن أنزع من ذهنها فكرة أنّ لي صلة أيّة كانت بأمير البحر عضو الأكاديمية الذي كان مجهولاً تماماً عندي لقد كان في إصرار شرف الأميرة «دو بارما» أن تبصر في شخصي ابن أخ لأمير البحر «جوريان دو لاغرافيير» ما يثير الضحك إلى حدّ الابتذال. ولكن الخطأ الذي كانت ترتكبه لم يكن سوى النموذج اليابس المبالغ فيه لأخطاء ما أكثرها أقلّ وزناً وأفضل تنوعاً غير مقصودة أو متعمدة ترافق اسمنا في البطاقة التي يخطها المجتمع فيما يتعلق بنا. وإني أذكر أنّ صديقاً لآل «غيرمانت» أبدى رغبته الشديدة في التعرف بي« وقدّم لي بمنزلة السبب أني كنت أعرف أتمّ المعرفة ابنة عمّه السيّدة «دو شوسغرو»، «إنّها فاتنة وتحبّك حبّاً جمّاً» وتوخيتّ الدقّة، دونما جدوى، في الإلحاح على أن ثمّة خطأ وأنّي ما كنت أعرف السيّدة «دو شوسغرو»: «أنت تعرف أختها إذاً، والأمر واحد. لقد التقت بك في سكوتلندا». ولم أكن ذهبت قط إلى سكوتلندا وتكلفت عبثاً عناء تنبيه محدّثي إلى الأمر بداعي النزاهة. كانت السيّدة «دو شوسغرو» نفسها هي التي قالت إنّها تعرفني وكانت تعتقد ذلك دونما شكّ عن حسن نيّة من جرّاء التباس سابق لأنها لم تنفك تمد لي يدها بعد ذلك حينما كانت تشاهدني. وقصارى القول إنه لما كان الوسط الذي أرتاده هو بالضبط وسط السيّدة «دو شو سغّرو» فإنّ نواضعي ما كان ليعني شيئاً أمّا أن أكون من ألاف عائلة «شو سغّرو» فضلالة بالمعنى الحرفي للكلمة ولكنّه على الصعيد الاجتماعي مكافيء لمكانتي، إن أمكن التحدّث عن مكانة بالنسبة إلى من كان بمثل شبابي. فعبثاً لا ينقل إليّ صديق آل «غير مانت» سوى أمور خاطئة عنّي فإنّه لم يخفض ولا رفع من قدري (على الصعيد الإجتماعي) في الفكرة التي لم ينفك يحملها عنّي. ومجمل القول أن سأم العيش الدائم داخل الشخصية نفسها إنّما يتبدّد برهة، بالنسبة إلى الذين لايتصنّعون أدورهم، كما لو يعتلي المرء خشبة المسرح حينما يكوّن شخص آخر فكرة زائفة عنك ويظنّ أنّنا على علاقة صداقة بسيّدة لانعرفها ويسجّل علينا أنّنا عرفناها في أثناء رحلة بديعة لم نقم بها البتّة. إنّها أخطاء مكثّرة ولطيفة حينما لا تّتسم بالتصلب الذي لايلين والذي يميز ذاك الذي كانت ترتكبه وارتكبته طوال حياتها كلّها، على الرغم من صنوف إنكاري، وصيفة الشرف البلهاء لدى السيّدة «دو بارما»، الوصيفة التي ترسخ أبداً في اعتقادها أنّي

كنت قريب أمير البحر المملّ «جوريان دو لاغرافيير». وقال لي الدوق: «ليست قوية جداً، ثم إنّه لايلزمها الكثير من الشراب المراق وأظنّها قليلاً تحت وطأة «باخوس» (*). ولم تكن السيّدة «دو فارامبون» شربت بالحقيقة غير الماء ولكنّ الدوق كان يعشق استخدام عباراته المفضّلة.

— «ولكن «زولا» ليس واقعياً ياسيّدتي! إنه شاعر!» تقول السيّدة «دو غيرمانت» مستلهمة الدراسات النقدية التي سبق أن قرأتها في هذه السنوات الأخيرة وموائمة بينها وبين موهبتها الخاصّة. أمّا الأميرة «دو بارما» التي طاب لها مازحمها من أمور حتّى الآن خلال الجوّ الفكريّ الذي لفّها هذا المساء، وهو جوّ مضطرب فيما يخصّها، والذي حكمت أنّه لابدّ سيفيدها على نحو خاصّ، وإذ استسلمت تتقاذفها المفارقات التي كانت تتدفق الواحدة تلو الأخرى، فقد قفزت إزاء هذه الأخيرة، وهي أكثر حسامة من الأخرى، مخافة أن تسقط أرضاً وقالت بصوت متقطع وكأنّما تفقد أنفاسها:

— «زولا» شاعر!» فأجابت الدوقة ضاحكة وقد أبهجها أثر الاختناق هذا: «أجل، ولتلاحظي سموّك كيف يُعلي قدر كلّ ما يلمسه. سوف تقولين لي إنّه لايلمس بالضبط إلاّ ما.... يجلب السعد! ولكنّه يجعل منه شيئاً مترامي الحدود. إن في زبالته طابع الملحمة! إنّه هوميروس الأقذار! وليس يملك ما يكفي من حروف كبيرة ليخطّ بها كلمة «كامبرون»» (**).

كانت الأميرة مغتبطة على الرغم من التعب العظيم الذي أخذت تحسّ به، فلم يسبق لها قطّ أن ألفت نفسها أفضل حالاً. وما كانت لتستبدل إقامة في «شون برون»، مع أنّها الأمر الوحيد الذي يدغدغ مشاعرها، بهذه الأعشية الرائعة لدى السيّدة «دو غير مانت» والتي توليها نشاطاً من جرّاء ما يداخلها من ظرف كبير.

وصاحت السيّدة «دار باجون» قائلة: «إنّه يكتبها بحرف C كبير» وتجيب السيّدة «دو غير مانت»: «بل بحرف M كبير فيما أعتقد ياصغيرتي»، ولايفوتها أن تبادل زوجها نظرة مرحة تقول بها: «ما أشدّ غباءها!» ثمّ قالت لي السيّدة «دو غير مانت»: «إليك بالضبط مثلاً»، وهي تثبت عليّ نظرة مشرقة عذبة ولأنّها كانت تبغي كربّة بيت كاملة أن تظهر لي علمها حول الفنّان الذي كان يهمني على نحو خاص وتوفر لي فرصة إظهار علمي إن دعت الحاجة، قالت لي وهي تحرك قليلاً مروحتها التي من ريش لشدّة ماتعي في تلك اللحظة أنّها تؤدي على أتمّ وجه واجبات الضيافة وتومئ كذلك، كي لاتخل بأي منها، ليقدّموا لي مرّة أخرى هليوناً بالمرق الهلاميّ، «إليك مثلاً، إنّي أعتقد بالضبط أنّ «زولا» كتب دراسة حول «إيلستير» هذا الرسّام الذي رحت منذ قليل تتأمل لوحاته»، وتضيف قولها: «وهي الوحيدة التي أحبّها له على أي حال».

كان في الواقع تكره رسم «إيلستير» ولكنّها ترى في كلّ ما تملك في بيتها ميزة فريدة. وسألت السيّد «دو غير مانت» إن كان يعرف اسم السيّد الذي يظهر بقبعة رسمية في اللوحة الشعبية والذي عرفت أنّه هو

(*) إله الخمر لدى قدماء الرومان.

(**) Cambronne جنرال فرنسي من القرن التاسع عشر عرف بإكثاره من استخدام كلمة merde بالفرنسية وتقابلها بالعربية كلمة ط... حتى درج الناس على استخدام اسمه بدلا من الكلمة تلك وهو ما يفسر قول الدوقة فيما بعد.

نفسه الذي كانت عائلة «غير مانت» تملك رسمه بلباسه الرسمّي إلى جانب تلك تماماً ويعود تاريخه تقريباً إلى تلك الفترة نفسها التي لم تكن شخصيّة «إيلستير» قد برزت بعد فيها بروزاً تاماً وتستلهم «مانيه» قليلاً. فأجابني: «يالهي، أعلم أنّه ليس بالرجل المجهول ولا هو معتوه في اختصاصه، ولكنّي على خصام مع الأسماء. إنّه ههنا، على رأس لساني، إنّه السيّد... السيّد... لا أهمية لذلك على أية حال، فلم أعد أعرف. قد ينبئك «سوان» عن الأمر فهو الذي حمل السيّدة «دو غير مانت» على شراء هذه البضاعة، وهي أبداً بالغة اللطف وبها أبداً فرط خشية تكدير الناس إن هي رفضت أمراً ما. وإنّي أظنّ، وأقولها فيما بيننا، أنّنا ابتلينا بالرديء من اللوحات. ما يمكنني أن أقوله لك أنّ هذا الرجل كان بالنسبة إلي «إيلستير» بمثابة مناصر لفنّه وقد روّج له وغالباً ماجنّبه خطر الضائقة المالية بأن أوصاه على لوحات. وقد رسمه بداعي الامتنان– إن كنت تسمّي ذلك امتناناً، إذ الأمر رهن بالأذواق – في ذلك المكان حيث يخلّف فيك أثراً غريباً. قد يكون حبراً طويل الباع ولكنّه يجهل بالبداهة في أيّة مناسبات يعتمر المرء قبعّة رسميّة. وإنّه ليبدو بقبعته، وسط البنات الحاسرات وكأنّه كاتب عدل صغير من الريف لعبت الخمرة برأسه. ولكن، قل لي، تبدو لي مغرماً تماماً بهذه اللوحات. فلو أنّي عرفت ذلك لجمعت المعلومات لأجيبك. ولا ضرورة بأيّة حال أن تهتّم كثيراً للغوص في رسم «إيلستير» كما لو تناول الأمر لوحة «النبع» لـ«أنغر» أو لوحة «أولاد إدوار» لـ«بول دولاروش». إن ما تقدره فيها أن الأمور تمت ملاحظتها على نحو دقيق وهي مسليّة وعليها مسحة باريزيّة، ثمّ تمرّ مرور الكرام. ولاحاجة بك أن تكون واسع الاطّلاع لتشاهد ذلك. أعرف تماماً أنّها محض رسوم بسيطة وسريعة ولكنّي لا أرى أنّه صرف فيها ما يكفي من جهد. وقد بلغت الجرأة بـ«سوان» أن ابتغى حملنا على شراء لوحة «حزمة هليون» ؛ بل هي ظلّت ههنا بضعة أيّام. لم يكن في اللوحة سوى ذلك، حزمة هليون شبيه تماماً بهذا الذي تبتلعه. ولكنّي أنا رفضت ابتلاع هليون السيّد «إيلستير». كان يطالب بثلاث مئة فرنك. ثلاث مئة فرنك لحزمة هليون! عشرون فرنكاً، هذا كلّ ما تساوية،. حتى البواكير منها! لقد وجدت ذلك صعب التصديق. فما أن يضيف شخصيّات إلى هذه الأشياء حتّى يضحي لها جانب مبتذل تشاؤمي لايروقني. وإني أعجب لرؤية فكر مرهف وعقل متميزّ على نحو ما أنت عليه بحبّ ذلك».

وقالت الدوقة التي لم تكن تحبّ أن ينتقص ما تحويه صالاتها: «ولكنّي لا أدري لماذا تقول ذلك يا «بازان» ما أبعدني أن أقبل كلّ شيء دون تمييز في لوحات «ايلستير»، ففيها الغثّ والسمين، ولكنّها على الدوام لاتخلو من موهبة. وينبغي الإقرار بأنّ اللوحات التى ابتعتها نادرة الجمال».

– «أوريان»، إنّي أفضّل ألف مرّة، في ما كان من هذا القبيل، دراسة السيّد «فيبير» الصغيرة التي شاهدناها في معرض الرسّامين المائيّين. إنّها لاشيء إن شئت وربّما وسعتها قبضة اليد، ولكنّ فيها ذكاء حتّى أصغر خطّ فيها: إن هذا المرسل المهزول الوسخ في حضرة هذا الحبر الناعم الذي يلاعب كلبه الصغر، إن ذلك لقصيدة صغيرة صيغت من رهافة وحتّى من عمق».

وقالت لي الدوقة: «أظنّك تعرف السيّد «إيلستير». إن الرجل ممتع».

وقال الدوق: «إنّه ذكيّ ويدهشك حينما تتحدّث إليه أن يكون رسمه عادياً إلى هذا الحدّ».

– «إنّه أكثر من ذكيّ، بل هو ظريف إلى حدّ ما»، تقل الدوقة بلهجة العارف الذوّاقة المطلّع على

بواطن الأمور.

وسألت الأميرة «دو بارما» قائلة: «ألم يكن قد باشر رسماً لك يا «أوريان» ؟

فأجابت السيّدة «دو غير مانت»: «بلى، باللون الأحمر السرطاني. وما ذلك ما سيحمل اسمه إلى الأجيال القادمة. إنّه شيء مقيت وكان «بازان» ينوي إتلافه».

كانت السيّدة «دو غير مانت» كثيراً ما تقول هذه الجملة، ولكنّ تقييمها كان مغايراً في مرّات أخرى: «لست أحب فنّه في الرسم ولكنّه أنجز فيما مضى رسماً جميلاً لي». كان أحد هذين الرأيين يوجّه عادة إلى الأشخاص الذين يحدثون الدوقة عن صورتها والآخر لمن لايحدثونها عنها وهي راغبة أن تطلعهم على وجودها. فالأوّل كانت تستوحيه من غنجها والثاني من غرورها.

وقالت الأميرة «دو بارما» بسذاجة: «ينجز شيئاً مقيتاً في رسم لك! إنّه ليس إذ ذاك رسماً، إنّه كذبة ؛ فأنا التي تكاد لاتدري كيف تمسك ريشة إنّما يبدو لي أنّني لو رسمتك لأنجزت رائعة فنّية بمحض تمثيل ما أرى».

وقالت السيّدة «دو غير مانت»: «إنّه يراني على الأرجح كما أرى نفسي، أعني خلواً من الجاذبيّة»، قالت بالنظرة الحزينة والمتواضعة والمغناجة في آن واحد والتي بدت لها أكثر ما يكون من شأنها أن تظهرها على غير ما أظهرها «إيلستير».

وقال الدوق: «لابدّ أن هذا الرسم لايسوء في عيني السيّدة «دو غالاردون».

وسألت الأميرة «دو بارما» التي كانت تعلم أن السيّدة «دو غير مانت» تحتقر ابنة عمّها إلى مالاحدود: «ألانّها غير عارفة بأمور الرسم؟ ولكنّها امرأة طيبة جدّاً، أليس كذلك؟» قالت. فعلت وجه الدوق دهشة عميقة.

– «ويحك يا «بازان»، ألا ترى أنّ الأميرة تسخر منك؟» (ولم يكن ذلك يخطر على بال الأميرة.) وأردفت السيّدة «دو غير مانت» تقول: «إنّها تعلم مثلما تعلم تماماً أن «غالاردون» الصغيرة عجوز مشاكسة»، وكانت مفرداتها، وقد اقتصرت عادة على سائر هذه العبارات القديمة، لذيذة كتلك الأطباق التي يمكن اكتشافها في كتب «بامبيي» الرائعة ولكنّها أضحت في الواقع شديدة الندرة والتي تكون المجمّدات فيها والزبدة والعصير والفطائر حقيقيّة ولاتحوي أيّ خليط آخر بل التي جيء لها بالملح من ملاّحات بريتانيه: فقد كنت تحسّ في النبرة واختيار المفردات أنّ أساس حديث الدوقة يصدر مباشرة عن «غير مانت». بذلك كانت الدوقة تختلف اختلافاً عميقاً عن ابن أختها «سان لو» الذي ازدحم رأسه بالكثير من الأفكار والعبارات الجديدة. فمن الصعب حينما تقلقك أفكار «كنت» وحنين «بودلير» أن تكتب الفرنسية الحلوة التي استخدمها «هنري الرابع»، حتّى إنّ صفاء لغة الدوقة نفسه إنّما كان علامة حصر وأن العقل والعاطفة قد ظلاّ لديها مغلقين دون جميع صنوف التجديد. في هذه النقطة أيضاً كان فكر السيّدة «دو غير مانت» يروقني بالضبط بما يستبعده (وما يشكّل بالدقّة مادّة تفكري الخاص) وبكلّ ما استطاع من جراء ذلك نفسه أن يحافظ عليه، هذه الحيوية

الجذّابة في الأجسام المرنة التي لم يفسدها أيّ تفكر مرهق أو همّ خلقي أو اضطراب عصبيّ. كان فكرها الذي تشكّل قبل فكري بكثير، كان في نظري المرادف لما سبق أن قدّمته لي مشية فتيات الزمرة الصغيرة على شاطئ البحر. كانت السيّدة «دو غير مانت» تعرض لناظريّ، وقد روّضتها وأخضعتها الدماثه والاحترام الذي تبديه إزاء القيم الروحية، القوّة والفتنة لدى فتاة صغيرة قاسية القلب من ارستقراطييّ ضواحي «كومبريه» كانت، منذ طفولتها، تمتطي الجياد وتقصم ظهور الهررة وتنزع عيون الأرانب، ولعلّها كانت استطاعت، تماماً مثلما لبثت زهرة فاضلة، أن تكون قبل سنوات ليست بالقليلة، ولشدّة ما تمتاز بصنوف الأناقة نفسها، ألمع عشيقة للأمير «دو ساغان». بيد أنّها كانت عاجزة عن إدراك ما بحثت عنه في شخصها — السحر الكامن في اسم «غيرمانت»— والقليل الذي لقيته فيه، بقية قرويّة من آل «غير مانت». كانت علاقاتنا قائمة على أساس سوء تفاهم لايمكن إلاّ أن يبرز ما أن تذهب صنوف تقديره، بدلاً من أن تتّخذ طريقها إلى المرأة المتفوّقة نسبياً التي تظنّ أنّها تمثّلها، باتّجاه أيّة امرأة أخرى بمثل ضحالتها وينبعث منها السحر اللا متعمدّ نفسه. وسوء التفاهم هذا طبيعيّ جدّاً وسوف يظلّ قائماً أبداً بين شاب حالم وامرأة من دنيا المجتمعات ولكنّه يبعث في نفسه اضطراباً عميقاً مادام لم يتعرّف بعد طبيعة قدراته التخيّلية ولم يسلّم بخيبات الأمل المحتّمة التي لابدّ سيعانيها بالقرب من الناس، شأنه في المسرح والسفر وحتّى في الحبّ.

حينما أعلن السيّد «دو غير مانت» (بنتيجة هليون «إيلستر» والهليون الذي قُدِّمَ لي منذ قليل بعد الفروج المعدّ بمرق العجل والدجاج) أن الهليون الأخضر الذي ينبت في الهواء الطلق والذي «لايملك صلابة شقيقه المذهلة»، على حدّ غريب القول الذي ينقله إلينا المؤلف الظريف الذي يوقّع باسم «أ. دو كليرمون تونّير»، يجدر أن يؤكل مع البيض أجاب السيّد «دو بريوتيه» قائلاً: «الأمر الذي يروق بعضهم ويسوء البعض الآخر والعكس بالعكس. ففي مقاطعة «كانتون» في الصين لايمكن أن يقدّموا لك طبقاً أطيب مذاقاً من بيض الأرطلاق الفاسد تماماً». ولم يكن السيّد «دو بريوتيه»، وهو مؤلّف دراسة على قوم المورمون ظهرت في «مجلّة العالَمَيْن»، لم يكن يخالط غير أكثر الأوساط ارستقراطيّة، ومن بينها فحسب تلك التي تتمتّع ببعض الشهرة في دنيا الذكاء، حتّى ليعرف الناس من جرّاء حضوره، المتواصل منه على الأقلّ، إلى منزل امرأة إن كانت هذه الأخيرة تملك صالة. كان يدّعي أنّه يكره دنيا المجتمعات ويؤكّد لكلّ دوقة على حدة أنّه إنّما يسعى إليها نظراً لظرفها. وكنّ جميعهنّ واثقات من ذلك. وفي كلّ مرّة كان يسلّم، والأسى يعتصر فؤاده، بالذهاب إلى أمسية كبرى لدى الأميرة «دوبارما» كان يستدعيهن جميعهنّ كي يشجّعنه ولايظهر هكذا إلاّ وسط مجموعة أليفة. وكيما يظل صيته كمثقفٍ في منجى من واجباته المجتمعيّة كان يمضي، مطبقّاً بذلك بعض قواعد مأثورة من روح آل «غيرمانت»، بصحبة سيّدات أنيقات ليقوم برحلات علميّة طويلة في فترة الحفلات الراقصة وحينما يأخذ شخص متحذلق، وبالتالي لامركز له بعد، في التردّد على كلّ مكان، كان يصرّ إصراراً عنيفاً على رفض التعرّف به وألاّ يسمح بأن يُقَدَّم له. كان كرهه للمتحذلقين نابعاً من سنوبيتّه ولكنّه يحمل السذّج، يعني سائر الناس، على الاعتقاد بأنّه خلو منها.

وصاحت الدوقة «دو غير مانت» قائلة: «بابال» يعرف دوماً كلّ شيء. إنّ بلداً تودّ فيه التأكد من أنّ بائع الألبان يبيعك بيضاً فاسداً تماماً، بيضاً من عام المذنّب، إنّما أجده رائعاً. وأراني من هنا أغمس فيه كعكتي المطلية بالزبدة. وينبغي أن أقل إنّه يتفّق لدى العمة «مادلين» (السيّدة «دو فيلباريزيس») أن يقدموا أشياء

متفسخة وحتّى بيضاً (وإذ أخذت السيّدة «دارجون» تحتجّ): ولكن عجباً يا «فيلي» إنّك تعرفين ذلك تماماً كما أعرفه. الصوص مذ ذاك في البيضة. ولست حتّى أعلم كيف يقودهم العقل إلى المكوث هناك. فليست عجّة، إنّها خمّ دجاج ولكنّما لم يشرّ إلى ذلك على الأقلّ في لائحة الطعام. حسناً فعلت أن لم تجيئي للعشاء قبل البارحة فقد كان ثمّة سمكة شبّوط بحمص الفينيك! ولم تكن تبدو مائدة ممدودة بل دائرة أمراض سارية. حقاً إن «نوربوا» يبلغ بالإخلاص حدّ البطولة: لقد عاد فصبّ منها!».

— «أظنّ أنّي رأيتك في منزلها يوم حملتْ على السيّد «بلوك» (ولم يلفظ السيّد «دو غير مانت» اسم «بلوك» بالكاف بل بالخاء كما هي الحال في الألمانية ربّما ليضفي على اسم يهوديّ كهذا سمة أجنبية أكبر) الذي قال عن شاعر لم أعد أدري من كان إنّه رائع. وعبثاً كان «شاتيلرو» يضرب على عظم ساق «بلوك» فلم يكن هذا الأخير يفهم وفي ظنّه أنّ همزات ركبة ابن أخي موجّهة لامرأة شابّة كانت تلاصقه تماماً» (وهنا كست حمرة طفيفة وجه السيّد «دو غير مانت»). ولم يتبيّن انّه يزعج عمتنا «بروائعه» التي يوزّعها ذات اليمين وذات الشمال. وقصارى القول إنّ العمّة «مادلين»، وليست قصيرة لسان، ردّت عليه قائلة: «ويحك ياسيد ماذا عساك تبقي إذن للسيّد «دو بوسّويه»؟ «وكان السيّد «دو غير مانت» يحسب أن لفظة السيّد والأداة قبل اسم مشهور كانا بالضرورة مطبوعين بطابع العهد السابق) (*). «كان ذلك في غاية الامتاع».

ــ «فبم أجاب السيد «بلوخ» هذا؟ «تقول السيّدة «دو غير مانت» ساهية وقد ظنّت من واجبها، إذ نضب معين تفردّها في تلك اللحظة، أن تقلّد لفظ زوجها الألمانيّ.

— «آه! أؤكدّ لك أنّ السيّد «بلوك» لم ينتظر، ولايزال يجري».

وقالت لي السيدة «دو غير مانت» بلهجة واضحة: «أجل، إنّي أذكر تماماً أنّي رأيتك في ذلك اليوم»، وكأنّما كان في تلك الذكرى فيما يخصها أمر ينبغي أن تغتبط له نفسي كثيراً. «الأمور على الدوام مسلّية جدّاً في منزل عمّتي. كان بودّي في الأمسية الأخيرة التي التقيت بك بالضبط فيها أن أسألك إن لم يكن ذاك السيّد العجوز الذي مر بالقرب منّا «فرانسوا كوبيه». لابدّ أنّك تعرف جميع الأسماء»، تقول وهي تحسدني صادقة علاقاتي الشعرية وكذلك بداعي التلطف إزائي وكيما تزيد في نظر مدعويها من قدر شاب طويل الباع إلى هذا الحدّ في الأدب. وأكدت للدوقة أنّي لم أر أيّاً من الوجوه المشهورة في أمسية السيّدة «دو فيلباريزيس». فقالت السيّدة «دو غير مانت» بلهجة طائشة: «عجباً! عجباً! لم يكن ثمة كتّاب كبار! إنّك تذهلني مع أنّ كان ثمة هيئات لاتطاق!» تقول فتقرّ بذلك أن إجلالها لأهل الأدب وازدراءها لدنيا المجتمعات كانا أكثر سطحية مما تقول بل ربّما مما تعتقد.

كنت أتذكّر بوضوح تام ذلك المساء بسبب حادثة غير ذات شأن البتة. فقد قدّمت السيّدة «دو فيلباريزيس» «بلوك» للسيدّة «ألفونس دو روتشيلد» لكنّ رفيقي لم يسمع الإسم ولم يجب، وقد ظنّ الأمر أمر

(*) Bossuet مطران ذائع الصيت من القرن السابع عشر، ويحسب السيد «دو غير مانت» أنه يزيده مكانة باستخدام كلمة السيد بالإضافة إلى الأداة «دو de» التي تميز أسماء النبلاء.

إنكليزية عجوز مجنونة بعض الشيء، إلاّ بكلمات متقطعة على الأقوال المسهبة التي جادت بها جميلة الجميلات السابقة حينما قالت السيّدة «دو فيلباريزيس»، وهي تقدّمها لآخر غيره، بوضوح شديد هذه المرّة: «البارونة ألفونس دو روتشيلد». حينئذ انصبّ في شرايين «بلوك» فجأة ودفعة واحدة عدد كبير من أفكار الملايين والمهابة التي كان ينبغي أن يقوم بتفريعها بحذر إلى حدّ أنّه أصيب وكأنّما بطعنة في القلب وحمّى في الدماغ وصاح في حضرة السيّدة العجوز اللطيفة: «لو أني عرفت!» صيحة حال غباؤها دون أن ينام على مدى ثمانية أيّام. كانت كلمة «بلوك» تلك قليلة الشأن ولكنّي أتذكرها بمثابة البرهان على أننا نقول أحياناً في حياتنا ما نفكرّ فيه وذلك تحت وطأة انفعال غير عاديّ..

وقالت الأميرة «دو بارما»: «أعتقد أنّ السيّدة «دو فيلباريزيس» ليست... أخلاقيّة تماماً»، وكانت تعلم أنّهم لايرتادون منزل عمّة الدوقة وترى، انطلاقاً ممّا أقدمت هذه على قوله، أنّه يمكن التحدث بحرية عن ذلك. ولكنّها أضافت تقول، وقد بدا أنّ السيّدة «دو غير مانت» لاتوافقها:

– «ولكن الذكاء كفيل بتمرير كلّ شيء على هذا المستوى».

فأجابت الدوقة: «إنّك تحملين عن عمّتي الفكرة التي يحملها الناس بعامّة وهي باختصار القول مغلوطة تماماً. ذلك بالضبط ما كان يقوله لي «ميميه» وليس بأبعد من البارحة». (وكست الحمرة وجهها وغامت عيناها من جرّاء ذكرى مجهولة لديّ. وافترضت أن السيّد «دو شارلوس» طلب إليها أن تحجم عن دعوتي مثلما سبق أن رجاني بوساطة «روبير» ألا أذهب إلى بيتها. وخيل إليّ أنّ الحمرة – وسرها خافٍ عليّ بأية حال– التي كست وجه الدوق وهو يتحدث عن شقيقه لايمكن ردّها إلى السبب نفسه.) «مسكينة عمّتي! سوف تلازمها سمعة امرأة من العهد السابق ذات فكر خلاّب، وتهتّك لا ضابط له، وليس من عقل أكثر برجوازيّة وأوفر جديّة وأقلّ رونقاً. سوف تعد حامية للفنون، الأمر الذي يعني أنّها كانت عشيقة رسّام كبير ولكنّه لم يستطع في يوم أن يفهمها ماعسى تكون اللوحة. أمّا فيما يخصّ حياتها فلم تكن امرأة فاسدة، وما أبعد أن تكون، بل كانت معدّة للزواج وقد ولدت تطبعها الزوجيّة إلى حدّ أنّها إذ لم تستطع الحفاظ على الزوج لم تقدم على علاقة إلا أخذتها مأخذ الجدّ كما لو كانت قراناً شرعياً تصحبه صنوف الانفعال نفسها وصنوف الغضب نفسها والإخلاص نفسه. ولاحظي أنّها أحياناً من أكثرها صدقاً، فثمة باختصار القول عدد يأبى العزاء أكبر بين العشاق منه بين الأزواج».

– «ومع ذلك فهيّا انظري يا «أوريان» إلى سلفك «بالاميد» الذي تتحدّثين عنه، فليس من عشيقة يمكن أن تحلم بمن يبكيها على غرار ماتمّ للسيّدة « دو شارلوس» المسكينة».

فأجابت الدوقة: «فلتسمحي سمّوك ألاّ أكون تماماً من رأيك. ليس يحبّ الجميع أن يُبْكَوْا بالطريقة نفسها فلكّل ميوله».

– «ولكنّه خصّها بتكريم حقيقيّ منذ وفاتها. صحيح أنّ المرء يقدم أحياناً في سبيل الأموات على أمور ما كان ليقدم عليها في سبيل الأحياء».

فأجابت السيّدة «دو غيرمانت» بلهجة حالمة كانت تناقض مقصدها المستهزئ: «أولاً نذهب إلى مأتمهم

وهو مالا نفعله البتّة من أجل الأحياء!» (ونظر السيّد» «دو غيرمانت» إلى السّيد «دو بريوتيه» على نحو ماكر وكأنّما ليستثير ضحكه إزاء تظرّف الدوقة). وأردفت السيّدة «در غيرمانت» تقول: «بيد أنّي اعترف بصراحة أنّ الطريقة التي أتمنّى أن يبكيني بها رجل أحبّه ليست طريقه سلفي».

وتجهّم وجه الدوق، فما كان يحبّ أن تطلق امرأته أحكاماً كيفما تيسّر ولاسيّما بحقّ السيّد «دو شارلوس»، وقال بلهجة خشنة متعالية: «أنت صعبه الإرضاء، فإن أسفه كان له أحسن الأثر لدى الجميع». لكنّ الدوقة كانت تبدي مع زوجها نوع الجسارة الذي يميّز المروَحنين أو أولئك الذين يعيشون مع مجنون ولايخشون إغضابه:

– «بالطبع لا، ماذا عساك تريد، إنّه له أحسن الأثر، لست أقول العكس، فهو يمضي كلّ يوم إلى المقبرة ليروي لها عن عدد الذين دعاهم إلى مائدة الغداء، وهو يأسف عليها أعظم الأسف، ولكن أسفه على ابنة عمّ، أسفه على جدّة، أسفه على شقيقة ليس ذلك حداد زوج. صحيح أنّهما كانا قدّيسين، الأمر الذي يجعل الحداد غير عاديّ بعض الشيء.» (كان السيّد «دو غيرمانت»، وقد ضاق بثرثرة زوجته، يثبت عليها بجمود مخيف حدقتين مشحونتين تماماً). وعادت الدوقة تقول: «وماذلك لأتناول بسوء «ميميه» المسكين الذي لم يكن، وأقولها بين قوسين، حرّاً هذا المساء، فانّي أعترف بأنّه طيب مثلما لايتفق لأحد، إنّه رائع ويمتاز بلطافة ويملك قلباً لايملك الرجال بعامّة مثله، إنّه قلب امرأة «ميميه» هذا!».

فقاطعها السيّد «دو غيرمانت» بلهجة حادّة: «ما تقولين محال، «ميميه» ليس على شيء من التخنّث وليس من هو أكثر رجولة منه». وعادت الدوقة تقول: «ولكنّي لا أقول لك إنّه مخنثٌ أقلّ ما يكون التخنّث. إفهم على الأقلّ ما أقوله. آه! هذا الأخير، ما أن يظنّ أنّهم يبغون المساس بشقيقه...»، تضيف قولها وهي تلتفت إلى الأميرة «دو بارما».

فقالت الأميرة «دو بارما»: «ذلك لطيف جدّاً ويلذّ الأذن سماعه. فليس ما كان أجمل من أخوين متحابين، على نحو ماقد يفعل الكثيرون من طبقة الشعب، لأنّك يمكن أن تنتمي بالدم إلى أسرة أمراء، وبالفكر إلى أسرة عاميّة جدّاً».

وقالت الأميرة: «بما أنّنا كنّا نتحدّث عن أسرتك يا «أوريان» فقد رأيت البارحة ابن اختك «سان لو»، وأظنّ أنّه يودّ أن يسألك خدمة».

وقطّب الدوق «دو غير مانت» حاجبه «الجوبيتريّ» (*)، فلم يكن يودّ حينما لايحبّ أن يؤدّي خدمة أن تتكفل بها زوجته إذ يعلم أنّ الأمر واحد وأنّ الأشخاص الذين ربّما اضطرّت أن تسألهم إيّاها سوف يدوّنونها على حساب الزوجين المشترك كما لو طلبها الزوج بمفرده.

وقالت الدوقة: «لماذا لم يطلبها منّي بنفسه؟ فقد ظلّ البارحة ساعتين ههنا ويعلم الله إلى أي حدّ كان

(*) نسبة إلى جوبيتر كبير آلهة الرومان.

مملاً. قد لايكون أكثر غباءً من غيره لو عرف مثل العديد من رجال المجتمعات كيف يظلّ أبله. ولكنّما قشرة العلم هذه هي المريعة. إنّه يودّ أن يكون مفتوح العقل... مفتوح العقل على جميع الأمور التي لايدركها. إنّه يحدّثك عن المغرب وذلك أمر فظيع».

فقال الأمير «دوفوا»: «لايريد الرجوع إلى هناك بسبب «راحيل»».

فقاطعه السيّد «دوبريونيه» قائلاً: «ولكنّ القطيعة وقعت بينهما».

وأجاب الأمير «دوفوا» الذي كان يحبّ نشر جميع الشائعات التي من شأنها أن تعطّل زواج «روبير» والذي كان يمكن أن تضلّله جميع المعاودات المتقطعّة لعلاقة قضي عليها بالحقيقة: «إن القطيعة بينهما يسيرة إلى حدّ أنّي لقيتها منذ يومين في شقّة «روبير» الخاصّة وأؤكّد لك أنّهما لم يظهرا بمظهر المتخاصمين».

– «راحيل هذه حدثّتني عنك، إنّي أراها هكذا عرضاً في الصباح في محلّة الشانزيليزيه، وهي نوع من الفتاة الطائشة العقل مثلما تقول، وما تدعوة بالمتطرّفة وضرب من «غادة الكاميليا»، بالمعنى المجازيّ طبعاً». كانت تلك المقالة تردني على لسان الأمير «فون» الذي كان يهمّه الظهور بمظهر المحيط بالأدب الفرنسي وبالظرافات الباريزيّة».

وصاحت الأميرة منتهزة على عجل هذه القرينة: «بالضبط، كان ذلك بصدد المغرب...».

فسأل السيّد «در غيرمانت» بلهجة صارمة: «وماذا عساه يبغي بالنسبة إلى المغرب؟ إن «أوريان» لا تستطيع شيئاً على الإطلاق في هذا المجال، وهو يعرف ذلك تماماً».

وتابعت السيّدة «دو غيرمانت» تقول: «يظنّ أنه اخترع الإستراتيجية، ثم إنّه يستخدم كلمات مستحيلة لأدنى الأمور، الأمر الذي لايحول دون زرعه لطخات الحبر في رسائلة. فقد قال ذاك اليوم إنّه أكل بطاطا «فائقة» ووجد مقصورة «فائقة» للإيجار».

وزاد الدوقة فقال: «ويتكلّم اللاتينيّة».

فسألت الأميرة: «كيف ذلك، اللاتينيّة؟».

– «بشرفي! فلتسأل سيّدتي «أوريان» إن كنت مبالغاً».

– «كيف ذلك ياسيّدتي، لقد قال في ذلك اليوم في جملة واحدة ودفعةً واحدة: «لست أعرف مثالاً على «Sic transit gloria» (هكذا يزول مجد العالم) أوقع في النفس» ؛ وإنّي أقول الجملة لسموّك لأنّنا توصلّنا بعد عشرين سؤالاً وباللجوء إلى اللسانيّين إلى استعادتها، ولكنّ «روبير» قذف بذلك دون أن يلتقط أنفاسه وكاد المرء لايستطيع أن يميّز أنّ ثمة جملة لاتينيّة، وكان يبدو وكأنّه شخصيّة من مسرحية «المريض بالوهم»! وكلّ ذلك كان ينطبق على موت امبراطورة النمسا!».

وصاحت الأميرة قائلة: «ياللمرأة المسكينة! ما أروعها مخلوقة كانت!».

فأجابت الدوقة: «أجل، مع ذرّة من الجنون وذرّة من الحمق، ولكنّها كانت امرأة بالغة الطيبة ومجنونة محبّبة بالغة اللطف، على أنّي لم أفهم قطّ لماذا لم تشتر في يوم طقم أسنان ثابت، فقد كان طقمها يفلت دوماً قبل نهاية جملها فتضطرّ أن تقطعها كي لاتبتلعه».

وقال الأمير «فون»: «راحيل هذه حدثتني عنك وقالت لي إنّ «سان لو» العزيز يعشقك ويفضلك حتّى عليها»، قال، وهو يأكل كالغول، قرمزيّ اللون وضحكته الدائمة تكشف عن سائر أسنانه.

فأجبت قائلاً: «هي لابدّ منّي إذن وتكرهني».

– «لا على الإطلاق، لقد أثنت عليك كثيراً أمامي ؛ ربّما غارت عشيقة الأمير «دوفوا» لو فضّلك عليها. أما فهمت؟ عد معي وسوف أشرح لك كلّ هذا».

– «لست أستطيع فانّي ذاهب إلى منزل السيّد «دو شارلوس» في الحادية عشرة».

– «عجباً، لقد أرسل يطلب إليّ البارحة المجيء لتناول العشاء هذا المساء، على ألا أجيء بعد الحادية عشرة إلاّ ربعاً. فإن أصررت على الذهاب إلى منزله فهلمّ معي على الأقل حتّى المسرح الفرنسيّ وستكون في «الدوائر»، يقول الأمير الذي كان يعتقد دونما شكّ أنّ الأمر يعني «على مقربة من» أو ربما «في المركز».

ولكنّ عينيه الموسّعتين في وجهه الأحمر السمين والجميل أثارتا مخاوفي فرفضت قائلاً إن أحد الأصدقاء سوف يجيء ليصحبني. ولم تبد لي هذه الإجابة مهينة. وقد خلفّت دونما شكّ في صدر الأمير انطباعاً مغايراً إذ لم يوجّه قطّ إليّ الحديث من بعد.

– «ينبغي لي بالضبط أن أذهب للقاء ملكة «نابولي»، فما أعظم مابها من غمّ»، تقول الأميرة «دوبارما» أو بدا على الأقلّ أنّها قالت. ذلك لأنّ أقوالها لم تبلغ مسامعي إلاّ مبهمة من خلال تلك الأقرب التي وجهها إليّ الأمير «فون»، مع أنّه قالها بصوت منخفض جداً.

وقد خشي دون شكّ، إن هو تحدّث بصوت أعلى، أن يسمعه السيّد «دو فوا».

فأجابت الدوق: «لا، أعتقد فيما يخصّ ذلك أن ليس بها غم البتّة».

– «لاغمّ البتّة؟ إنّك على الدوام يا«أوريان» متطرّفة»، يقول السيّد «دو غيرمانت» وقد استعاد دوره كصخرة تضطرّ الموجةّ فيما تقاومها إلى أن تقذف خصل زبدها إلى نقطة أعلى.

فأجابت الدوقة: «بازان يعرف خيراً منّي أنّي أقول الحقيقة، ولكنّه يظنّ أنّه ملزم باتّخاذ مظاهر صارمة من جرّاء وجودك ويخشى أن أصدمك».

وصاحت الأميرة «دو بارما»: «لا، أرجوك»، وقد خشيت أن يفسدوا شيئاً بسببها في أيّام الأربعاء الرائعة التي تقيمها الدوقة «دو غيرمانت»، هذه الثمرة المحرّمة التي لم تستحق بعد ملكة السويد نفسها أن تذوق طعمها.

– «ولكنّها أجابته هو فيما كان يقول لها بلهجة مبتذل حزنها: «لكنَّ الملكة في حداد ؛ على من ياترى؟ أفيه مايغمّ جلالتك؟– لا، ليس حداداً عظيماً، إنّه حداد طفيف، حداد طفيف جداً، إنّها شقيقتي». والحقيقة أنّها مغتبطة بذلك، و«بازان» يعرف الأمر تمام المعرفة، فقد دعتنا إلى حفلة في اليوم نفسه ووهبتي لؤلؤتين. وددت لو تفقد في كلّ يوم شقيقة! إنّها لاتبكي موت شقيقتها بل «تقهقهه» عالياً. وإنّها على الأرجح تقول في نفسها، شأن «روبير»، أنَّ «Sic transit» (هكذا يزول). ولكنّي ماعدت أعرف»، تضيف قولها بداعي الاتّضاع مع أنّها تعرف أتمّ المعرفة.

كانت السيّدة «دو غيرمانت» على أيّة حال تبدي بذلك ظرفاً فحسب، ظرفاً من أشدّها زيفاً لأن ملكة «نابولي»، شأن الدوقة «دالانسون» التي وافتها بدورها منيّة مفجعة، كانت كبيرة القلب وقد بكت ذويها بصدق. لقد كانت السيّدة «دو غيرمانت» تعرف الشقيقات الباڤاريّات الكريمات بنات عمومتها إلى حدّ لاتجهل معه ذلك.

وقالت الأميرة «دو بارما» وهي تنتهز ثانية اسم «روبير» هذا الذي كانت السيدة «دو غيرمانت» تقدمّه لها بمثابة عون غير مقصود: «كان بودّه ألا يعود إلى المغرب. واعتقد أنّك تعرفين اللواء «دو مونسيرفوي»».

فأجابت الدوقة: «معرفة يسيرة جدّاً»، كات وثيقة العلاقة بذاك الضابط. وشرحت الأميرة مايبغيه «سان لو».

– «ياإلهي، إن رأيته... فقد يتّفق أن أصادفه»، تجيب الدوقة كي لايبد أنها ترفض، وقد بدا أن علاقاتها باللواء «دو نسير فوي» أخذت تتباعد بسرعة منذ أن اقتضى أن تطالبه بأمر ما. على أنَّ هذا الشكّ لم يكن كافياً في نظر الدوق الذي قاطع امرأته قائلاً:

– «تعلمين تماماً أنّك لن تلتقيه يا «أوريان»، ثم إنّك قد سألته أمرين لم يبر بهما». وأردف يقول متزايد الحنق كي يرغم الأميرة على سحب طلبها دون أن يقود ذلك إلى التشكيك بلطف الدوقة وكي تردّ السيّدة «دو بارما» الأمر إلى طباعه الشخصية المتقلّبة في جوهرها: «إن زوجتي شغوفة بأن تكون لطيفة. وإن «روبير» لقادر على نيل ما يبتغيه من «مونسيرفوي». ولكنّه إذ لايدري مايريد فانّه يحملنا نحن على طلبه لأنه يعلم أن ليس من طريقة أفضل لإفشال الأمر. لقد طلبت «أوريان» من «مونسيرفوي» أكثر من الكثير. وإن طلباً يصدر عنها الآن لسبب كافٍ كي يرفضه».

فقالت السيّدة «دو بارما»: «من الأفضل إذن في هذه الظروف ألا تفعل الدوقة شيئاً».

وقال الدوق في ختام حديثه: «بالطبع».

فقالت الأميرة «دو بارما» بغية تغيير الحديث: «ياللواء المسكين، لقد هُزِمَ مرة أخرى في الانتخابات».

– «أوه، الأمر ليس بالخطير فما هي إلاّ المرّة السابعة»، يقول الدوق الذي كان يحبّ إلى حدّ ما خيبات الآخرين الانتخابيّة وقد اضطرّ هو نفسه أن يتخلّى عن السياسة.

- «وقد تعزّى بعزمه على أن تنجب امرأته ولداً جديداً».

فصاحت الأميرة قائلة: «عجباً! أهي حامل بعد هذه المسكينة «دو مونسيرفوي»؟

وأجابت الدوقة: «تماماً، وإنّها «الدائرة» الوحيدة التي لم يفشل فيها اللواء المسكين قطّ».

لم ينفكّ القوم بعد ذلك طلك يدعونني باستمرار، حتّى مع بضعة أشخاص فحسب، إلى تلك المآدب التي سبق أن تمثلت مدعويها بالأمس وكأنهم رسل «الكنيسة الصغيرة المقدّسة». فقد كانوا يجتمعون هناك على غرار المسيحيّين الأوائل لا ليقتسموا غذاء مادياً فحسب، غذاء لذيذاً على أيّ حال، بل في ضرب من العشاء السريّ الإجتماعي، حتّى انّي بعد عدد قليل من الأعشية تمثلت معارف جميع أصدقاء مضيفيّ، هؤلاء الأصدقاء الذين كانوا يقدّمونني لهم بمسحة من العطف بارزة (كمن لعلّهم فضّلوه أبداً تفضيل الآباء) إلى حدّ أن ليس من بينهم من كان لايظنّ أنّه يسيء إلى الدوق والدوقة إن هو أقام حفلة راقصة دون أن يدّون اسمي على اللائحة، وكنت اتذّوق في الوقت نفسه، فيما اتناول واحداً من الخمور التي تحتويها أقبية آل «غيرمانت»، طيور أورطولان محضّرة وفق الوصفات المختلفة التي كان الدوق يضعها ويبدّل فيها بحذر. بيد أنّ تناول هذه الأخيرة لم يكن محتّماً على من سبق أن جلس أكثر من مرّة إلى المائدة السريّة. وكان يجيء أصدقاء قدامى للسيّد «دو غيرمانت» وعقيلته للقائهما بعد العشاء «وكأنّما تلك على حدّ ما تقول السيّدة سوان «خطرة المساويك» على غير موعد ويتناولون في الشتاء كوباً من مغلي الزيزفون تحت أضواء الصالة الكبيرة وفي الصيف كأساً من عصير البرتقال في ظلام الحديقة المستطيلة الصغيرة. ولم يعرف أحد قطّ، عن آل «غير مانت»، في عشيّات الحديقة تلك، سوى عصير البرتقال. لقد كان يتّسم بما يشبه الطابع الطقسيّ. ولعلّ إضافة مرطبّات أخرى إليه، لعلّها كانت بدت إفساداً للتقليد مثلما لاتلبث حفلة راقصة كبرى في حيّ «سان جيرمان» حفلة راقصة من بعد إن كان ثمّة مسرحية هزليّة أو موسيقى. فلا بدّ أن يفترض أنّك تجيء- وإن حضر خمس مئة شخص- لمحض زيارة الأميرة «دو غيرمانت» مثلاً. وقد أعجب القوم بنفوذي لأنّني استطعت حملهم على أن يضيفوا إلى عصير البرتقال زجاجة تحوي عصير كرز مطبوخ أو إجّاص مطبوخ.وقد داخلني من جرّاء ذلك عداء للأمير «داغريجانت» الذي كان شأنه شأن جميع الناس الذين يفتقرون إلى الخيال لا إلى البخل والذين يعجبون بما تشرب ويستأذنونك في تناول شيء منه، حتّى أنّ السيّد «داغيرجانت» كان في كلّ مرة يفسد سروري بانقاص حصّتي. ذلك لأنّ عصير الفواكه هذه لايتوافر البتّة بكميّة كبيرة إلى حدّ ما كيما يروي. فليس ما يقلل مللك مثل انقلاب لون الثمرة طعماً، هذه الثمرة التي تبدو مطبوخة وكأنها تعود القهقرى إلى فصل الأزهار. فالعصير الذي اكتسى حمرة مثل بستان في الربيع أو كان فاقد اللون ندياً كالنسيم في ظلّ الأشجار المثمرة إنّما يستسلم للشمّ والنظر قطرة فقطرة ويحول السيّد «داغر يجانت» بانتظام دون أن أرتوي منه. وعلى الرغم من هذه الفواكه المطبوخة فقد ظلّ عصير البرتقال التقليدي موجوداً شأن مغليّ الزيزفون. وظلت المشاركة الاجتماعية تحت هذه الأعراض المتواضعة على أنّ أصدقاء السيّد والسيّدة «دو غيرمانت» لبثوا في ذلك دونما شكّ، على نحو ما سبق أن تمثّلتهم بادئ الأمر، أكثر اختلافاً ممّا ربّما حملني على الاعتقاد به مظهرهم المخيّب. فقد كان العديد من الشيوخ يجيئون إلى منزل الدوقة لينعموا، إلى جانب الشراب الذي لايتبدلّ، باستقبال قليل الودّ في الغالب. وما كان يمكن أن يكون ذلك بداعي السنوبيّة إذ هم

في مكانة لايسمو عليهم فيها أحد، ولابداعي حبّ البذخ: فربّما كانوا يحبّونه لكن ربّما كان بمقدورهم، في شروط اجتماعية أدنى، أن ينعموا بالرائع منه إذ ربّما فعلت الزوجة الفاتنة لأحد رجال المال الطائلي الثراء، ربّما فعلت في تلك الأمسيات نفسها كلّ شيء في سبيل دعوتهم إلى حفلات صيد بديعة تقيمها طوال يومين من أجل ملك اسبانيه. ولكنّهم رفضوا مع ذلك وجاؤوا على سبيل الاحتياط ليروا إن كانت السيّدة «دو غيرمانت» في منزلها. وما كانوا حتّى على يقين أنّهم واجدون هناك آراء مطابقة تماماً لآرائهم أو مشاعر تتّسم بحرارة خاصّة فقد كانت السيّدة «دو غيرمانت» ترسل أحياناً حول مسألة «دريفوس» أو حول الجمهورية أو حول القوانين المناهضة للدين أو حتّى، وتخفض الصوت، حولهم وحول عاهاتهم والطابع المملّ لحديثهم ملاحظات كان ينبغي لهم أن يتظاهروا بأنّهم لاينتبهون لها. وليس من شكّ أنّهم إن كانوا يحتفظون بعاداتهم هناك فمن جرّاء تربية مرهفة تميّز ذواقة المجتمعات الراقية من جرّاء معرفة واضحة بميزة الكمال الأولى في الطبق الاجتماعي ذي الطعم المألوف المطمئن الحلو المذاق الذي لا اختلاط فيه ولاغشّ والذي يعرفون منشأة وتاريخه بقدر ما تعرف تلك التي تقدّمه لهم وقد ظلّوا أكثر «ارستقراطية» في ذلك ممّا يدرون هم أنفسهم. وفي عداد هؤلاء الزوّار الذين عرّفت بهم بعد العشاء شاءت المصادفة أن يكون اللواء «دو مونسيرفوي» هذا الذي سبق أن تحدثت عنه الأميرة «دو بارما» والذي لم تكن السيّدة «دو غيرمانت» التي كان أحد روّاد صالتها تعلم أنّه يزمع المجيء في هذا المساء. وانحنى أمامي لدى سماع اسمي كما لو كنت رئيس المجلس الحربّي الأعلى. كنت ظننت أنّ الدوقة رفضت أن توصي السيّد «دو مونسيرفوي» بابن اختها لمجرّد عزوف عن المعروف متأصّل كان الدوق فيه شريكاً لزوجته شأنه في أمر التظرّف الفكري إن لم يكن في أمر الحبّ. وكنت أرى هنا لا مبالاة يزيد من جرمها أنّه خيّل إليّ من جرّاء بضع كلمات أفلتت من الأميرة «دو بارما» أن مركز «روبير» كان محفوفاً بالمخاطر وأنّ من الحكمة العمل على إبداله. على أنّي إنّما ثارت ثائرتي من جرّاء قسوة السيّدة «دو غيرمانت» الحقيقيّة حينما اقترحت الأميرة «دوبارما» بلهجة وجلة أن تحدّث بنفسها ولحسابها هي، اللواء عن ذلك ففعلت الدوقة كلّ ما بوسعها كي تصرف صاحبة السمّو عن الأمر، وصاحت قائلة:

– «ولكن «مونسيرفوي» ياسيّدتي لانفوذ له من أيّ نوع ولاسلطة مع الحكومة الجديدة وسوف يكون ذلك ضربة في الهواء».

وهمست الأميرة وهي تدعو الدوقة إلى التكلّم بصوت أخفض: «أظنّ أنّه قد يستطيع سماعنا».

فقالت الدوقة دون أن تخفض الصوت وقد سمعه اللواء تماماً: «لاتخشي سّموك شيئاً فانّه اصمّ كالحجر».

وقالت الأميرة: «ذلك أنّي اعتقد أنّ السيّد «دو سان لو» ليس في مكان مطمئن جدّاً».

فأجابت الدوقة قائلة: «ماعساك تبغين، إنّ حاله حال جميع الناس مع فارق أنّه هو الذي طلب الذهاب إلى هناك، ثم إن المكان ليس خطراً، لا، وإلاّ لكنت اهتممت للأمر بالطبع، ولكنت حدّثت بذلك «سان چوزيف» في أثناء العشاء، فهو أشدّ نفوذاً وكم هو مثابر! ترين، ها إنّه قد ذهب. ولعل الأمر من جهة أخرى أقلّ إحراجاً منه مع هذا الأخير، فثلاثة بالضبط من أبنائه في المغرب ولم يشأ أن يطلب تغيير مكانهم. وربّما أثار

الأمر. وبما أن سموّك تصرّ على ذلك فسأفاتح به «سان جوزيف»... إن التقيته، أو «بوتربي». أمّا إذا لم ألقهما فلا ترثي كثيراً لحال «روبير». لقد أوضحوا لنا في ذاك اليوم مكان إقامته، وفي اعتقادي أنّه لايمكن أن يكون في أيّ مكان أفضل حالاً من هناك».

وقالت الأميرة «دو بارما»: «ياللزهرة الجميلة، إنّي لم أشاهد البتّة مثيلتها، وليس سواك يا «أوريان» من يملك مثل هذه الروائع!»، قالت تحاول أن تغير الحديث مخافة أن يكون اللواء «دو مونسيرفوي» قد سمع الدوقة. فتعرفت نبتة من صنف تلك التي سبق أن رسمها «إيلستير» أمامي.

– «يغبطني أنّها تروقك. فهي رائعة، انظري إلى دائرة عنقها الصغيرة التي من مخمل ليلكي. بيد أن لها اسماً شنيعاً ورائحتها قبيحة مثلما يمكن أن يتفق ذلك لأشخاص شديدي الجمال وأنيقي الملبس إلى حدّ بعيد. ولكنّي أحبّها كثيراً على الرغم من ذلك. بيد أنّ مايغمني بعض الشيء أنّها ستموت عمّا قريب».

فقالت الأميرة: «ولكنها في الآنية وليست أزهاراً مقطوعة».

وأجابت الدوقة ضاحكة: «لا، ولكن الأمر واحد بما أنّها من صنف السيّدات. إنّها ضرب من النباتات لاتوجد فيها السيّدات والسادة على النبتة نفسها. مثلي مثل الجماعة الذين يملكون كلبة. لابدّ لي من زوج لأزهاري، وبدون ذلك لن أحصل على صغار».

– «ياللغرابة ؛ ففي الطبيعة إذن...»

– «أجل، ثمة بعض الحشرات التي تتولى إتمام الزواج بالتفويض، شأن الحال بالنسبة إلى الملوك، دون أن يكون الخطيب والخطيبة قد التقيا في يوم. ولذلك فانّي أقسم لك أنّني أوصي خادمي بوضع نبتتي في النافذة قدر المستطاع تارة من جانب الباحة وطوراً من جانب الحديقة عسى أن تجيء الحشرة التي لاغنى عنها. ولكنّ الأمر قد يتطلب مصادفة وأيّة مصادفة فكّري، ينبغي بالضبط أن تكون مضت للقاء شخص من الصنف نفسه من جنس مختلف وأن يخطر لها المجيء لحمل بطاقات إلى البيت. ولكنّها لم تجيء إلى هنا وأظنّ أن نبتتي لاتزال أهلاً لأن تكون فتاة فاضلة وأقرّ أن قليلاً من التهتّك ربّما سرّني أكثر من ذلك. خذي، إنّها حال هذه الشجرة الجميلة التي في الباحة فسوف تموت دون أطفال لأنّها صنف نادر جداً في بلادنا. الريح هي المكلّفة، فيما يخصّها، بعقد القران، ولكنّ الجدار عال قليلاً».

وقال السيّد «دو بريوتيه»: «بالفعل كان عليك أن تهدمي بضعة سنتميترات فحسب فربّما كان ذلك كافياً. تلك عمليّات ينبغي أن نحسن القيام بها. إن عطر الفانيليا الكائن في المثلجة الرائعة التي قدّمتها لنا منذ قليل أيتّها الدوقة مصدره نبات يدعى شجرة الفانيليا. وصحيح أن هذه الشجرة تنتج أزهاراً مذكّرة ومؤنثة في الآن نفسه ولكنّ نوعاً من الحاجز الصلب القائم بينها يمنع الاتصال أيّا كان. ولم يكن قطّ ممكناً لذلك الحصول على ثمار إلى أن خطر ذات يوم لزنجي شاب من مواليد جزيرة «الريونيون» يدعي «ألبان»، الأمر الذي يثير الضحك إلى حدّ ما بالنسبة إلى أحد السود، ونقولها بين قوسين، بما أن الاسم يعني «الأبيض»، أن يصل ما بين الأعضاء المفصولة بوساطة رأس صغير فصاحت الدوقة قائلة: «أنت رائع يا «بابال»، إنّك عالم بكلّ

شيء».

وقالت الأميرة: «وأنت أيضاً يا «أوريان» علّمتني أموراً كنت أشكّ بوجودها».

– «سوف أقول لسموّك إنّ «سوان» هو الذي حدثني كثيراً على الدوام عن علم النبات، فقد كنّا نمضي أحياناً إلى الريف، حينما كان يزعجنا أشدّ الإزعاج أن نذهب إلى حفلة شاي أو إلى «عصريّة»، وكان يدلّني على تزاوجات غريبة للأزهار، والأمر أبعث على السلوة من زيجات الناس دون حفل غداء ودون سكرستيّا(*). وما كان يتّسع لنا الوقت البتّة للذهاب بعيداً جداً. أمّا الآن وقد وجدت السيّارة فربّما كان ذلك رائعاً. ولكنّه أقدم في هذه الأثناء لسوء الحظّ على زواج أشد إدهاشاً بكثير ويجعل كلّ شيء عسيراً. آه! ياسيّدتي، إن الحياة لأمر فظيع، فإنك تقضين الوقت في القيام بأمور تبعث الملل في نفسك فإن عرفت مصادفة من يمكنك الذهاب برفقته لرؤية أشياء جديرة بالاهتمام لانبغى أن يتزوج زواج «سوان» وإذ لقيتني بين التخلّي عن النزهات النباتية وواجب مخالطة امرأة تلحق بي العار فقد اخترت أولى هاتين البليتين. قد لا تدعو الحاجة على أيّ الحال إلى المضيّ بعيداً جداً. ذلك إنه يجري فيما يبدو، في حديقتي الصغيرة وحدها، وفي وضح النهار أمور غير محتشمة أكثر مما يجري ليلاً... في «غابة بولونيا»! ولكنّنا لا ننتبه للأموز لأنّ ذلك يتّم بأبسط حال بين الأزهار إذ ترى رذاذاً برتقاليّ اللون أو ذبابة مثقلة بالغبار تقبل لتمسح قدميها أو تغتسل قبل الدخول في زهرة. وينقضي كل شيء!».

قالت الأميرة: «الصوان الذي وضعت فوقه النبتة بديع هو الآخر، إنّه من الطراز الأمبراطوري فيما أعتقد»، وكانت لاتدرك تماماً دلالة دعابات الدوقة إذ لا عهد لها بأعمال «داروين» وخلفائه.

فأجابت الدوقة: «أليس أنّه جميل. يغبطني أن تحبّة سيّدتي. إنها قطعة رائعة. سأقول لك إنّني عشقت على الدوام الطراز الأمبراطوري حتّى في حين لم يكن شائعاً. وإني أذكر أنّ حماتي شنّعت عليّ في «غيرمانت» أنّني قلت بأن ينزلوا من السّقيفة جميع الأثاث الرائع الإمبراطوري الطراز الذي سبق أن ورثه «بازان» عن آل «مونتسكيو» وأنّني أثثت به الجناح الذي كنت أسكنه».

ابتسم السيّد «دو غيرمانت». على أنّه كان لابدّ يتذكّر أنّ الأمور جرت على نحو مغاير تماماً. ولكن مزحات الأميرة «دي لوم» حول رداءة ذوق حماتها إذ ظلّت عادة أثناء الزمن القليل الذي كان فيه الأمير مولعاً بزوجته فقد أعقب حبّه للثانية شيء من الإزدراء لقلّة نباهة الأولى، ازدراء كان يقترن على أيّ حال بالكثير من التعلّق والاحترام.

– «لدى أسرة «إيينا» المقعد نفسه بتطعيم من يد «ودجوود»، إنّه جميل ولكنّي أفضّل مقعدي»، تقول الدوقة باللهجة المتجرّدة نفسها التي تتّخذها لو أنّها لم تملك أيّة من قطعتي الأثاث. «وإنّي أقرّ من جهة أخرى أنّ لديهم أشياء بديعة لا أملكها».

(*): مكان ملحق بالكنيسة يحوي ملابس الكهنة وأشياء أخرى تستخدم في الطقوس الدينية ؛ المقصود بالعبارة: دون أخذ بالمستلزمات الاجتماعية.

وظلّت الأميرة «دو بارما» صامتة.

-« ولكن صحيح، إن معاليك لاتعرف مجموعتهم. وينبغي لها بالتأكيد أن تجيء برفقتي إلى هناك. إنّها من أروع الأمور في باريس، إنّها متحف تدبّ فيه الحياة».

ولمّا كان هذا المقترح أحد صنوف القحة الأكثر اتساماً «بالغرمانتية» لدى الدوقة لأن آل «إيبنا» كانوا في نظر الأميرة «دو بارما» محض منتحلين إذ يحمل ابنهم، شأن ابنها، لقب دوق «غاستالا»، فإنّ السيّدة «دو غيرمانت» لم تملك وهي تلقي به على هذا النحو «لشدّة ما يغلب الحبّ الذي تكنّه لتفردها على إجلالها للأميرة «دو بارما») أن ترمق المدعوّين الآخرين بنظرات هازئة مشرقة. هم كذلك كانوا يجهدن في التبسم وبهم فزع وذهول وافتتان على وجه الخصوص إذ يفكّرن أنّهم شهود «آخر نكتة» لـ«أوريان» وسوف يستطيعون نقلها «ساخنة تماماً». كانوا نصف ذاهلين فحسب إذ يعلمون أنّ الدوقة تملك فنّ اللامبالاة بجميع آراء آل «كورفوازييه» مقابل عمل ناجح في الحياة أكثر إثارة وأشدّ إمتاعاً. أفلم تجمع في غضون هذه السنوات الأخيرة بالأميرة «ماتيلد» الدوق «دومال» الذي سبق أن كتب لشقيق الأميرة نفسه الرسالة الشهيرة: «جميع الرجال في أسرتي شجعان وجميع النساء عفيفات»؟ ولما كان الأمراء على هذا حتّى حينما يبدو أنّهم يودّون تناسي أنّهم كذلك، فقد طاب المقام للدوق «دومال» والأميرة «ماتيلد» في منزل السيّدة «دو غيرمانت» إلى حدّ أن ذهب كلّ منهما فيما بعد إلى منزل الآخر وبهما تلك القدرة على تناسي الماضي التي أبداها لويس الثامن عشر حينما اتّخذ بمثابة وزير له «فوشيه» الذي سبق أن صوّت على موت شقيقه. كانت السيّدة «دو غيرمانت» تفكّر في مشروع التقارب نفسه بين الأميرة «مورا» وملكة «نابلي». وفي أثناء ذلك كانت الأميرة «دو بارما» تبدو بمثل الحيرة التي يمكن أن تنتاب وريثي عرش هولندا وبلجيكا، وهما، كلّ فيما يخصّه، أمير «أورانج» ودوق «برابان»، لو اعتزموا أن يقدّموا لهما السيّد «دو مايّي نيل» أمير «أورانج» والسيّد «دو شارلوس» دوق «برابان». ولكنّ الدوقة الي توصّل «سوان» والسيّد «دو شارلوس» (على الرغم من تصميم هذا الأخير على تجاهل آل «إيبينا») بجهد عظيم إلى تحبيبها بالطراز الأمبراطوري، صاحت بادئ الأمر قائلة:

- «صدقاً ياسيّدتي، لا أستطيع أن أقول لك إلى أيّ حدّ ستجدين ذلك جميلاً! أنّي أقرّ أن الطراز الإمبراطوري قد أثّر فيّ على الدوام. أمّا في منزل آل «إيبنا» فالأمر هناك بالحقيقة أشبه بالاستيهام. إن هذا النوع، ماذا عساي أقول لك، من... تراجع حملة مصر وكذلك عودة العصور القديمة إلينا وكلّ ذلك الذي يجتاح منازلنا وتماثيل أبي الهول التي تجيء لتقف على أقدام المقاعد والحيات تلتف على الشمعدانات وربّة شعر ضخمة تمدّ إليك مشعلاً صغيراً لتعلب الورق أو هي اعتلت مطمئنّة موقدك واسندت ذراعها إلى ساعة جدارك، وجميع المصابيح التي من طراز «بومبيّي» والأسرة الصغيرة المراكبية الشكل التي تبدو وكأنما عثر عليها في النيل ونتوقع رؤية «موسى» خارجاً منها، وهذه العربات القديمة التي تجري على أطراف طاولات الأسرة.».

وتجرّأت الأميرة فقالت: «لايجلس المرء مرتاحاً على الأثاث الذي من الطراز الإمبراطوري».

فأجابت الدوقة: «لا»، وأردفت تلحّ بابتسامة: «ولكنّي أحبّ أن أجلس جلسة غير مريحة على مقاعد الأكاجو هذه المغطّاة بالمخمل الرمّاني أو الحرير الأخضر. إنّي أحبّ شظف المحاربين الذين لايفهمون سوى

الكرسّي العسكري البسيط والذين كانوا يشبّكون الأسلحة ويكوّمون أكاليل الغار وسط الصالة الكبرى. وإنّي أؤكّد أنّهم لايفكّرون لحظة واحدة لدى آل «إيينا» في الطريقة التي يجلسون بها حينما يبصر المرء أمامه تمثال «نصر» كبير لعين رسم على الجدار بطريقة الرسم المائي. سوف يجدني زوجي ملكيّة رديئة جداً ولكنّي غير سديدة الرأي إلى حدّ بعيد، تدرين، على أنّي أؤكّد لك أن الأمر يبلغ بك لدى هؤلاء القوم أن تخبّي كلّ حروف «النون» تلك وجميع تلك النحلات(*). ولمّا كنّا لم نَحْظَ في عهد الملوك، منذ زمن ليس باليسير، بنصيب من الدلال عظيم في زاوية الأمجاد فإنّ هؤلاء المحاربين الذين كانوا يجلبون معهم الكثير من التيجان إلى حدّ أن يخلقّوا بعضاً منها حتّى على سواعد المقاعد، إنّي أجد في ذلك شيئاً من الأناقة! يجدر بسموّك أن تفعلي».

وقالت الأميرة: «ياإلهي، إن كنت ترين ذلك، ولكنّما يبدو لي أن الأمر لن يكون سهلاً».

– «لكن سيّدتي سترى أنّ كلّ شيء سيسوّى على أحسن حال. إنّهم جماعة طيّبون جداً وليسوا بالأغبياء». وتضيف الدوقة قولها، وهي عالمة بقوّة المثال: «لقد اصطحبنا إلى هناك السيّدة «دو شوفروز» فاغتبطتْ بذلك أيّما اغتباط. بل إنّ الابن محبّب جداً...» وأردفت تقول: «إنّ ما سأقوله ليس لائقاً جداً، ولكن لديه غرفة وسريراً على وجه الخصوص يودّ المرء لو ينام فيه– بدونه! وما كان أقلّ لياقه بعد أنّي ذهبت مرّة لزيارته فيما كان مريضاً يلازم سريره. كان إلى جانبه على حافّة السرير حفر لعروس بحر طويلة مستلقية فاتنة لها ذيل صدفي وتمسك في يدها مايشبه أزهار اللوتس». أضافت السيّدة «دو غيرمانت» وهي تتمهل في إلقائها كي تحسن أكثر فأكثر إبراز الكلمات التي بدت وكأنّها تقولبها في التواء شفتيها الجميلتين وانطلاقة يديها الطويلتين المعبّرتين وفيما ترمق الأميرة بنظرة عذبة ثابتة عميقة: «وإنّي أوكّد لك أن المشهد كان مؤثراً مع وريقات النخيل والتاج الذهبي الذي كان إلى جانبه، كان ذلك عين الترتيب الذي في لوحة «الشاب والموت» لـ«غوستاف مورو» (وسموّك تعرف بالتأكيد هذه الرائعة).

أمّا الأميرة «دو بارما» التي كانت تجهل حتّى اسم الرسّام فقد هزّت رأسها هزّاً عنيفاً وابتسمت بحماسة كي تعرب عن إعجابها بتلك اللوحة. ولكن شدّة إيمائها لم تفلح في النيابة عن ذلك الضوء الذي يظلّ غائباً عن عينينا مادمنا لانعرف عمّا يودّون أن يحدّثونا».

وتسأل قائلة: «هو شابّ جميل فيما اعتقد؟».

– «لا، فإن له هيئة تابير هندي. فالعينان إلى حدّ ما عينا «هورتانس» الملكة المستخدمة كحامل مصابيح. ولكنّه ظنّ على الأرجح أنّ تعزيز هذا الشبه قد يكون فيما يخصّ الرجال مدعاة للسخرية إلى حدّ ما، فيضيع الأمر في وجنتين ملمّعتين تضفيان عليه نوعاً من مظهر المماليك. ويوافيك احساس بأن الملمّع لابدّ يمرّ كلّ صباح». ثمّ تضيف قولها: «لقد ذهل «سوان» في عودته إلى سرير الدوق الشاب من الشبه بين عروس البحر هذه ولوحة «الموت» لـ«غوستاف مورو». وأردفتا تقول بلهجة أكثر سرعة ولكنّها جديّة مع ذلك بغية الزيادة في

(*) إشارة إلى الحرف الأول من اسم نابليون والنحل الذهبي الذي كان يزين رداء الإمبراطور.

الإضحاك: «ليس لنا أن نعجب على أيّ حال إذ الأمر رشحاً كان وصحّة الشاب كأنّها من خشب السنديان».

وسأل السيّد «دو بريوتيه»: «يقولون إنّه سنوبّي؟» سأل بلهجة تبطنّها الأذيّة مستثارة تنتظر في الجواب ما ينتظر من دقّة لو أنّه قال: «قيل لي أن ليس في يده اليمنى سوى أربعة أصابع، أصحيح ذلك؟».

فأجابت السيّدة «دو غيرمانت» بابتسامة عذبة في تسامحها: «لـ... لا.يـ... ياربّي ؛ ربّما كان على قليل من السنوبية في الظاهر لأنّه حديث السنّ جدّاً ولكنّما قد يدهشني أن يكون كذلك في الواقع لأنّه ذكيّ»، تضيف قولها كما لو كان ثمّة فيما ترى تعارض مطلق بين السنوبيّة والذكاء. وأضافت تقول: «إنّه مرهف الذكاء وقد وجدته غريب الأطوار»، تقول وهي تضحك ضحكة الذوّاقة العارف بالأمور وكأنّما يستوجب الحكم بغرابة الأطوار على أحدهم مظاهر المرح أو كأنّما تعود إلى ذهنها في هذه اللحظة نوادر الدوق «دوغاستالا». وأردفت قائلة: «ولمّا كان لايرحب به على أيّ حال فلن يتسنّى لهذه السنوبيّة أن تلقى صيغتها العملية»، دون أن تفطن إلى أنّها لم تكن تشجعّ كثيراً على هذا النحو الأميرة «دو بارما».

– «أتساءل ماعسى أن تقول الأمير «دو غير مانت» الذي يدعوها السيّدة «إيينا» إن علم أنّني ذهبت إلى منزلها».

وصاحت الدوقة بحدّة غريبة: «ولكن عجباً، تعلمين أنّنا إنّما تخلّينا نحن لـ«چيلبير» (وهي اليوم نادمة ندماً مريراً)! عن قاعة لعب كاملة من الطراز الإمبراطوي ورثناها عن «كيوكيو» وهي آية في الجمال! لم يكن يتّسع المكان ههنا مع أنّي أرى أنّها أكثر ملائمة هنا منها في منزله. إنّها حاجة في غاية الجمال نصفها «اتروسكّي» والنصف مصري».

فسألت الأميرة التي كانت لفظة «اتروسكي» لاتعني لها إلاّ القليل: «مصري؟»

– «ياربّي، الإثنان إلى حدّ ما، كان «سوان» يقول لنا ذلك وقد أوضحه لي ولكنّي، تدرين، جاهلة مسكينة، ثمّ إن ما ينبغي أن نقوله في الأساس ياسيّدتي إنّ مصر الطراز الإمبراطوري لاصلة لها البتّة بمصر الحقيقيّة، ولا رومانييهم بالرومانيّين، ولا ما يقولون عن «اتروريا»...

فقالت الأميرة: «حقاً!»

– «لا، بالطبع، فذلك من قبيل ما كان يدعى بلباس لويس الخامس عشر في فترة الإمبراطورية الثانية وفي شباب «آنا دو موشي» أو والدة «بريغود» العزيز. منذ قليل كان «بازان» يحدّثكم عن بيتهوفن. لقد عزفوا لنا في ذاك اليوم حاجة منه جميلة جدّاً على أيّ حال وعلى شيء من البرودة وفيها فكرة روسيّة.

ويوتّر في نفسك أن تفكرّ أنّه كان يحسب ذلك روسيّاً. كذلك ظنّ الرسامون الصينيّون أنّهم يقلّدون «بلليني». أضف أن أربعة أرباع الناس حتّى في البلد الواحد لايرون، في كل مرّة ينظر فيها أحدهم إلى الأشياء نظرة على شيء من الجدّة، لايرون شيئاً لبتّة فيما يعرضه عليهم. ولابدّ من أربعين عاماً على الأقل كي يفلحوا في التمييز».

وصاحت الأميرة مذعورة: «أربعون عاماً!».

فأردفت الدوقة: «أجل»، وهي تضيف أكثر فأكثر إلى الكلمات (التي كانت كلمات لي تقريباً، إذ سبق لي بالضبط أن أعربت أمامها عن فكرة مشابهة)، بفضل نطقها، المقابل لما يسمّى بالنسبة إلى حروف الطباعة «الحرف المائل»، «إنّه ضرب من الرجل الأوّل المعزول عن جنس لايزال غير موجود وسوف يتكاثر، رجل يتمتّع بنوع من «الحسّ» لايملكه الجنس البشري في عصره. ليس باستطاعتي الاستشهاد بنفسي لأنّني أنا أحببت دوماً على العكس ومنذ البداية جميع ما يبرز من أمور مثيرة مهما ارتدت من جدّة. ولكنّي رحت في ذاك اليوم إلى متحف اللوفر برفقة الدوقة الكبرى فمررنا أمام لوحة «أولمبيا» من أعمال «مانيه». والآن لايدهش أحد من ذلك بعد، إنّها تبدو وكأنّها من أعمال «أنغر»! والله يعلم مع ذلك كم حربة انبغى لي أن أكسر في سبيل هذه اللوحة التي لا أحبّذ فيها كل شيء ولكنّها بالتأكيد من صنع شخص ذي شأن. وربّما لم يكن اللوفر مطرحها بالضبط.

وتسأل الأميرة «دو بارما» قائلة: «أهي على مايرام الدوقة الكبرى؟» وكانت عمّة القيصر أقرب إليها بما لايقاس من مثال «مانيه».

– «أجل، وقد تكلّمنا عنك». وأردفت الدوقة قول، وبها إصرار على فكرتها: «الحقيقة في الأساس، كما يقول سلفي «بالاميد»، أنّ بيننا وبين أيّ إنسان جدار لغة أجنبيّة. وإني أقرّ من ناحية أخرى أن الأمر لايصح عن أحد بقدر ما يصحّ عن «جيلبير». وإن طاب لك الذهاب إلى منزل آل «إيينا» فأنت أكثر نباهة من أن تربطي أفعالك بما يمكن أن يخطر لهذا الرجل المسكين، وهو مخلوق عزيز بريء، ولكنّ له على كلّ حال أفكاراً من غير عالمنا. وأحسنّي أكثر قرباً وأقرب، عصباً من حوذيّي وجيادي منّي من هذا الرجل الذي يرجعك باستمرار إلى مالعلّهم كانوا يفكّرون في عهد «فيليب الجسور» أو في عهد «لويس الثخين». تصوّري أنّه حينما يتنزّه في الريف يبعد الفلاّحين بعصاه بهيئة ساذجة وهو يقول: «تنحّوا أيّها الحقراء!» وإنّي في الأساس، حينما يكلّمني بمثل الاستغراب الذي ينتابني لو كنت أسمع تماثيل «رقّد» القبور القوطية القديمة تحدثني وعبثاً يكون هذا الحجر الحيّ ابن عمّ لي فإنّه يخيفني ولاتراودني سوى فكرة واحدة وهي أن أدعه في عصره الوسيط. على أنّي اعترف فيما عدا ذلك أنّه لم يقتل أحداً في يوم».

وقال اللواء: «لقد تعشّيت بالضبط وإيّاه منذ قليل في منزل السيدة «دو فيلباريزيس» ولكن دون أن يبتسم ودون أن يتبنّى مزحات الدوقة.

وسأل الأمير «فون»، وكان دائم التفكير بأكاديمية العلوم الأخلاقية: «هل كان السيّد «دو نوربوا» حاضراً؟».

فقال اللواء: «أجل، وقد جاوز فتحدّث عن امبراطوركم».

– «يبدو أن الأمبراطور «غليوم» ذكيّ جداً ولكنّه لايحبّ رسم «ايلستير». ولست أقول ذلك على أيّة حال ضدّة فانّي أشاطره نظرته إلى الأمور»، تجيب الدوقة. «مع أنّ ايلستير صنع رسماً جميلاً لي. عجباً! ألا

تعرفه؟ ليس فيه من شبه ولكنّه غريب. إنّه مثير في أثناء جلسات الرسم. لقد جعل منّي ما يشبه العجوز، وفي ذلك تقليد للوحة «المشرفات على المشفى» من أعمال «هالز». ثم قالت الدوقة وهي تلتفت إليّ وتحرّك ببطء مروحتها التي من ريش أسود: «في اعتقادي أنّك تعرف هذه الروعات كيما ألجأ إلى تعبير عزيز على قلب ابن أختي»، كانت الدوقة منتصبة على كرسيّها، بل أكثر من ذلك، وكانت تردّ رأسها إلى الوراء بإباء، ذلك أنّها كانت تمثّل بعض الشيء دور السيّدة الكبيرة مع أنّها ظلّت على الدوام سيّدة كبيرة. وقلت إني ذهبت فيما مضى إلى امستردام ولاهاي، ولكنّي بغية ألاّ أخلط الحابل بالنابل تركت «هارلم» جانباً إذ كان وقتي محدوداً.

وصاح السيّد «دو غير مانت» قائلاً: «آه! لاهاي، أيّ متحف ذاك!» فقلت له إنّه أعجب فيه ولاشكّ بلوحة «منظر ديلفت» من أعمال «فيرمير». ولكن الدوق كان أقلّ علماً منه كبرياء، لذلك اكتفى بأن يجيبني بلهجة متغطرسة شأنه في كلّ مرّة يحدّثونه فيها عن عمل فنّي في أحد المتاحف أو عن «الصالون» ولا يتذكّر: «إن كان لابدّ من رؤيته فقد رأيته!».

وصاحت الدوقة بدورها: «عجباً! قمت برحلة إلى هولندا ولم تذهب إلى «هارلم»؟ فأن تكون شاهدت لوحات «هالز» أمر غير عاديّ حتّى لو لم يتّسع لك سوى ربع ساعة. وربّما طاب لي أن أقول إنّه ينبغي لمن قد لا يستطيع رؤيتها إلاّ من أعالي عربة حافلة كهربائية دون أن يتوقف، إن اتّفق عرضها في الهواء الطلق، أن يفتح عينيه وسعهما».

وصدمني هذا القول من جرّاء أنّه يتجاهل كيفيّة تشكّل الانطباعات الفنيّة في داخلنا وأنّه يبدو وكأنّه يفترض أن عيننا في هذه الحالة محض آلة مسجّلة تأخذ لقطات آنيّة.

كان السيّد «دو غير مانت» ينظر إلى مهابة زوجته المشهورة، وهو سعيد أن تحدّثني بمثل تلك الكفاءة عن موضوعات تستأثر باهتمامي، ويصغي إلى ما تقوله عن «فرانس هالز» ويفكّر في نفسه قائلاً: «إنّها طويلة الباع في — كل شيء، ويستطيع ضيفي الشاب أن يقول بينه وبين نفسه إنّ في حضرته سيّدة كبيرة من الأمس بكلّ ما للكلمة من معنى وكما لايتفقّ لها من مثيلة في يومنا». هكذا كنت أبصرهما كليهما وقد أُخرجا من اسم «غيرمانت» هذا الذي كنت بالأمس أتخيّلهما فيه يعيشان حياة يتعذر تصورّها، وهما اليوم شبيهان بالرجال الآخرين والنساء الأخريات، بيد أنّهما يتخلفّان قليلاً عن معاصريهما ولكن على نحو غير متساوٍ شأن العديد من الأسر في حيّ «سان جيرمان» حيث أفلحت المرأة في التوقّف في العصر الذهبي وساء حظّ الرجل فانحدر إلى عهد الفظاظة من الماضي، فلا تزال الأولى من عهد لويس الخامس عشر في حين تحيط بالزوج فخامة عصر «لويس فيليب». فأمّا أن تكون السيدة «دو غيرمانت» شبيهة بالنساء الأخريات فقد كان الأمر بالنسبة إليّ بادئ الأمر مخيباً للآمال ويكاد يبدو الآن من جرّاء ردّة الفعل وبفضل الكثير من طيبّ الخمور اندهاشاً. إن أمثال «دون جوان» النمسوي و«إيزابيل ديسته» الواقعين بالنسبة إلينا في دنيا الأسماء إنّما تكون صلتهم بالتاريخ الحقيقيّ قليلة بقدر الصلة التي تجمع بين جانب «ميزيكليز» وجانب «غيرمانت» لقد كان «إيزابيل ديسته» دونما شكّ أميرة صغيرة جداً في الواقع شبيهة باللواتي ما كنّ يبلغن في عهد لويس الرابع عشر أيّة مكانة خاصّة في البلاط. ولكنّنا لانستطيع، إذ تبدو لنا من ماهيّة فريدة ولاتضاهي بالتالي، أن نتصوّرها أقلّ عظمة منه حتّى أنّ عشاء مع لويس الرابع عشر ربّما بدا يحمل في نظرنا بعض الأهميّة فحسب

في حين نجدنا نبصر بأمّ العين، بفضل مصادفة خارقة، بطلة روائية في شخص «إيزابيل ديسته» وإننا، بعدما نلاحظ، بدراسة «ايزابيل ديسته» ونقلها من هذا العالم الخرافي إلى عالم التاريخ، أنّ حياتها وتفكيرها لايحويان شيئاً من تلك الغرابة الزاخرة بالأسرار التي سبق أن أوحى لنا بها اسمها، وبعد ما تبلغ هذه الخيبة تمامها، إنّما نبدي امتناناً لاحدّ له لهذه الأميرة أنْ تجمعّ لديها حول رسم «مانتينيا» معلومات مساوية لما تجمعّ من معلومات احتقرناها حتّى ذاك ووضعناها، على حدّ قول «فرانسواز» «في أسفل السافلين»، لدى السيّد «لافنيتر» لقد كنت أحسّ، بعد ما تسلّقت مرتفعات اسم «غيرمانت» المنيعة وانحدرت على السفح الداخلي من حياة الدوقة، كنت أحسّ إذ أجد فيه أسماءً، هي مألوفة في أمكنة أخرى، أسماء «فيكتور هوغو» و«فرانس هالز» و«فيبير» للأسف، بالاستغراب نفسه الذي يحسّ به مسافر، بعدما أخذ في اعتباره، كيما يتخيل تميزّ العادات في واد موحش من أميركا الوسطى أو أفريقيا الشمالية، البعد الجغرافي وغرابة التسميات والنباتات، إذ يكتشف بعد اجتياز ستار من السولع أو شجر المنسنيلاّ سكاناً يقرؤون «ميروب» أو «ألْزير» (وربّما اتّفق ذلك أحياناً أمام خرائب مسرح روماني أو عمود مكّرس لـ«فينوس»). وكان للثقافة المماثلة التي جهدت السيّدة «دو غيرمانت» دون مصلحة ودون علّة طموح أن تنحدر بها إلى سويّة اللائي لن تعرفهنّ في يوم، كان لتلك الثقافة البعيدة جداً المنعزلة جداً والتي تفوق كثيراً البورجوازيات المتعلمات اللواتي عرفتهنّ الطابع الحميد، المؤثّر تقريباً لشدّة مايبدو غير ذي جدوى، طابع التبحّر في مادّة الآثار الفينيقيّة لدى أحد رجال السياسة أو أحد الأطباء.

قالت لي السيّدة «دو غيرمانت» بلهجة لطيفة وهي تحدّثني عن «هالز»: «كان بمقدوري أن أريك لوحة جميلة جداً، بل أجملها فيما يزعم بعض الناس، ورثتها عن ابن عمّ ألمانّي. ولكنّما اتّفق لسوء الحظّ أنّها «أُقْطعَتْ» للقصر. ألا تعرف هذه العبارة؟ ولا أنا بدوري»، تضيف قولها من جرّاء هذا الميل الذي بها في إطلاق المزاح (الذي تخال أنّها عصريّة به) حول العادات القديمة التي كانت مع ذلك شديدة التعلّق بها على نحو غير واعٍ. «يسرّني أنّك شاهدت لوحاتي التي من أعمال «ايلستير» ولكنّي أقرّ أنّني كنت سأسرّ أكثر بكثير لو استطعت أن أرحبّ بك أمام لوحة «هالز»، أمام تلك اللوحة «المُقْطَعَة».

وقال الأمير «فون»: «أعرفها، إنّها لوحة دوق «هيسّ» الأكبر».

فقالت السيّدة «دو غيرمانت»: «بالضبط، لقد سبق أن تزوّج أخوه أختي، وكانت والدته على أيّة حال ابنة عمّ والدة «أوريان».

وأضاف الأمير يقول: «أمّا فيما يخصّ السيّد «ايلستير» فسوف أسمح لنفسي أن أقول، دون أن يكون لي رأي في أعماله الفنيّة التي لا أعرفها، إنّ الكراهية التي يكنّها له الإمبراطور لايبدو لي أنّه ينبغي اتّخاذها حجّة ضدّه. إنّ الأمبراطور رائع الذكاء».

— «أجل، لقد تعشّيت مرتّين معه، مرّة في منزل عمتي «ساغان» ومرّة في منزل عمتّي «رادزيفيل» ويجدر بي» أن أقول إنّي وجدته غريباً. لم أجده بسيطاً! ولكنّ لديه شيئاً مسلياً، شيئاً «صنعياً» (تقول وهي تبرز الكلمة) مثل قرنفلة خضراء، أعني شيئاً يدهشني ولا يروقني إلى مالاحدود، شيئاً يدهشك أنّهم استطاعوا أن يفعلوه، ولكنّي أرى أنهم كانوا أحسنوا فعلاً كذلك لو انّهم لايستطيعون. آمل أنّي لا أصدم مشاعرك؟»

وأردف الأمير: «يتمتّع الإمبراطور بذكاء لايصدّق، وهو يحبّ الفنون إلى حدّ التولّه. وإنّ له في الأعمال الفنّية ذوقاً منزّهاً من الخطأ إلى حدّ ما، إنّه لايخطئ البتّة. فإن اتّفق ما كان جميلاً تعرّفه في الحال وأضمر له الكراهية، وإن كره شيئاً فهو، ما من شكّ في ذلك، ممتاز».

وابتسم الجميع.

وقالت الدوقة: «تطمئني».

وعاد الأمير يقول (وما كان يحسن لفظ كلمة «أركيولوغ» (Archéologue)(*) - كما لو أنّها كتبت بالكاف- ولايضيّع قطّ فرصة يستخدمها فيها): «يطيب لي أن أشبّه الإمبراطور بأركيولوغ عجوز (ويقول الأمير أرشيولوغ) من برلين. إن الأرشيولوغ العجوز يبكي أمام الاثار الآشورية القديمة. فإن كانت من الحديث المزّيف، وإن لم تكن قديمة حقاً، فانّه لايبكي. فإن ودّوا أن يعلموا إن كانت هذه القطعة الإرشيولوغية أو تلك قديمة حقاً حملوها إلى الأرشيولوغ العجوز. فإن بكى ابتاعوا القطعة للمتحف. وإن ظلّت عيناه ناشفتين ردّوها إلى التاجر ولوحق بتهمة التزييف. وإنّي في كل مرّة أتناول فيها عشائي في «بوتسدام» أدوّن جميع القطع التي يقول لي الإمبراطور بشأنها: «أيّها الأمير، عليك برؤية ذلك فانّه يفيض عبقريّة» وذلك كي احترز من الذهاب إليها، وحينما أسمعه يصبّ جام غضبه ضدّ معرض فإنّي أجري إليه حالما يمكنني ذلك».

وقال السيّد «دو غير مانت»: «أليس «نوربوا» إلى جانب تقارب انكليزي - فرنّسي؟».

فسأل الأمير «فون» بلهجة غاضبة ماكرة، وكان لايطيق احتمال الإنكليز: «وما عساكم تفيدون من ذلك؟ فما أعظم غباءهم. أعرف تماماً أنّهم لن يكونوا عوناً لكم على الصعيد العسكري. على أنّه يمكن الحكم عليهم بناء على غباء جنرالاتهم. لقد تحدّث أحد أصدقائي مؤخراً إلى «بوتا»، تدري، القائد البويري. كان يقول له: «جيش كهذا شيء مخيف. غير أني لى على حال أحبّ بالأحرى الإنكليز، ولكن فكّر أنّي أنا، ولست سوى فلاّح، قد نلت منهم في جميع المعارك. وفي المعركة الأخيرة وفيما كنت أتهاوى تحت عدد من الأعداد يفوقني عشرين مرّة لقيت الوسيلة، وأنا أستسلم لأنّني أرغمت على ذلك، أن آخذ ألفي أسير! وحسناً كان ذلك لأنني كنت محض رئيس فلاحين، ولكن لو اتّفق لهؤلاء المعوهين في يوم أن يجابهوا جيشاً أوروبيّاً حقيقاً فانّي ارتجف خوفاً عليهم لدى التفكير فيما قد يحدث!» وما عليك على أيه حال إلا أن ترى أنّ ملكهم الذي تعرفه كما أعرفه يعد رجلاً عظيماً في انكلترة».

كنت لا أكاد أصغير إلى هذه القصص وهي من نمط التي كان السيّد «دو نوربوا» يرويها لو الدي، فما كانت توفّر أيّ غذاء للأحلام التي أعشقها. وحتّى لو ملكت على أيه حال تلك الأغذية التي كانت خلواً منها فكم كان ينبغي أن تّتسم بميزة الإثارة الشديدة كي يمكن لحياتي الداخلية أن تستيقظ في أثناء هذه الساعات الإجتماعية التي كنت أسكن فيها جلدي وشعري الحسن التصفيف وصدار قميصي يعني تلك التي ما كنت أستطيع فيها الاحساس بأيّ شيء ممّا كان يشكّل المتعة في الحياة بالنسبة إليّ.

(*) عالم آثار وقد عربنا اللفظ فحسب لنستطيع رد الخطأ الذي غالباً ما يقع فيه الألمان في لفظ.. arché (وتقال «أركيه» بالفرنسية) أرشيه...

وقالت السيّدة «دو غيرمانت» التي كانت ترى أنّ الأمير الألماني يخلّ باللياقة: «آه! لست من رأيك، فانّي أجد الملك «ادوار» رائعاً وبسيطاً جداً وأكثر رهافة ممّا يظنّون. والملكة لاتزال حتّى الآن أجمل ما أعرف في العالم».

- «لكن ياسيّدتي الدوقة»، يقول الأمير غاضباً وهو لاينتبه إلى أنّه يسوء في عين الناس، «ولكن لو كان أمير «غال» فرداً بسيطاً لما كان ثمة منتدى إلا ويشطب اسمه ولما رضى أحد أن يشدّ على يده. إن الملكة رائعة بالغة العذوبة محدودة الأفق. بيد أنّ ثمة ما يصدم في هذه الأسرة الملكيّة التي ينفق عليها رعاياها بالمعنى الحرفي للكلمة والتي تحمل كبار رجال المال من اليهود على دفع جميع نفقاتها، التي كان جديراً به هو أن يدفعها، فيعينّهم من صغار البارونات في مقابل ذلك. كما هي حال أمير «بلغاريه»...

قالت الدوقة: «هو ابن عمنّا وهو على ظرف».

فقال الأمير: «وهو ابن عمّي أيضاً، ولكنّنا لا نعتقد لذلك أنّه طيّب القلب. لا، إنّما يجدر بكم أن تتقاربوا وإيّانا، تلك أعظم رغبة لدى الإمبراطور، ولكنّه يودّ أن يأتي ذلك من القلب، ويقول: «ما أبغيه أن تصافحني يدهم لاتحيّة إجلال! هكذا يتعذّر قهركم. ولعلّ الأمر عمليّ أكثر من التقارب الإنكليزي - الفرنسي الذي يكرز به السيد «دو نوربوا».

وقالت الدوقة «دو غيرمانت» كي لاتدعني خارج دائرة الحديث: «أنت تعرفه، أدري». وإذ تذكّرت أنّه سبق للسيّد «دو نوربوا» أن قال إنّه بدا عليّ وكأنّي أبغي تقبيل يده وإذ حسبت أنّه لابدّ روى تلك الحكاية للسيّدة «دو غيرمانت» وأنّه ما كان يمكن في جميع الأحوال إلاّ أن يحدّثها عنّي حديث الأذيّة بما أنّه لم يتردّد على الرغم من صداقته لوالدي في أن يهزئني إلى حدّ بعيد، فانّي لم أفعل مالعل رجل مجتمعات كان فعل. كان قال إنّه يكره السيد «دو نوربوا» وأشعره بذلك، كان قال ذلك كي يبدو وكأنّه السبب المتعمّد لنميمة السفير التي لاتضحي من بعد سوى عمليّة انتقامية كاذبة ومغرضة. وقد قلت على العكس إنّني أظنّ، وبي أسف شديد، أنّ السيّد «دو نوربوا» لايحبّني فأجابت السيّدة «دو غيرمانت»: «أنت مخطىء، إنّه يحبّك كثيراً. تستطيع مساءلة «بازان». فإن عُرِفَ عنّي أنّني لطيفة أكثر ممّا ينبغي فانّه ليس كذلك. سوف يقول لك إنّنا لم نسمع السيد «دو نوربوا» في يوم يتحدّث عن أحد بمثل اللطف الذي يتحدّث به عنك. وقد عزم مؤخّراً أن يسند إليك في الوزارة مركزاً عظيماً. ولمّا علم أنّك تعاني من مرض وقد لايمكنك القبول به أبدى لباقة حتّى في ألاّ يحدّث بجميل قصده والدك الذي يقدّره لى مالا حدود». كان السيّد «دونوربوا» بالتأكيد آخر من لعلّني توقعت منه خدمة طيبّة. ولمّا كان بالحقيقة متهكمّا بل سيء الطويّة إلى حدّ فإن الذين خُدعوا مثلي بما يبدي من مظاهر القدّيس «لويس» يقيم العدالة في ظلّ سنديانة وبنغمات صوته السريعة الإشفاق التي كانت تخرج من فمه الرخيم يجاوز قليلاً الحد اللازم كانوا يظنّونها خيانة حقيقيّة حينما يطلّعون على قدح بحقّهم صادر عن رجل بدا بالأمس وكأنّه يضع قلبه في أقوالة. كانت صنوف القدح تلك كثيرة إلى حدّ لديه. ولكنّما لايحول ذلك دون أن يبدي ضروباً من الودّ وأن يمتدح من يحبّهم ويسرّه أن يبدو صاحب معروف إزاءهم.

وقالت لي السيّدة «دو غيرمانت»: «ليس يدهشني على أيّ حال أن يقدّرك، فإنّه ذكيّ». وأضافت من أجل الآخرين وهي تشير إلى مشروع زواج كنت أجهله: «وإنّي أدرك تماماً أن تبدو له عمتّي، وهي لاتسره كثيراً كعشيقة قديمة، عديمة النفع كزوجة جديدة، ولاسيّما أنّها لم تعد تلك حالها، حتّى كعشيقة، منذ زمن طويل فهي تفيض من حلاوة التقوى. ويستطيع «بوعز – نوربوا»(*) أن يقول كما ورد في أبيات فيكتور هوغو:

«هو ذا قد انقضى زمن طويل منذ أن هجرت فراشي إليك،

يارب، تلك التي اضطجعت معها».

حقاً إن عمتّي لشبيهة بهؤلاء الفنّانين الطليعيين الذين هاجموا الأكاديميّة طوال حياتهم ثم هم يؤسّسون في أواخر سنيهم أكاديميتهم الخاصّة ؛ أو هولاء الذين خلعوا ثوب الرهبان ويصنعون لنفسهم ديناً شخصياً. لقد كان من الأجدى إذ ذاك الاحتفاظ بالثوب أو الامتناع عن الزواج». وأضافت الدوقة بهيئة حالمة: «ومن ذا يدري، ربّما كان ذلك استشفافاً لترمّل آت. وليس أبعث على الغمّ من حداد لاتستطيع أن تلبسه».

فقال اللواء «دو سان جوزيف»: «آه! إن أضحت السيّدة «دو فيلباريزيس» السيّدة «دو نوربوا» فأظنّ أن ابن عمنّا «جيلبير» سوف يصاب بمرض من جرّاء ذلك».

وقالت الأميرة «دو بارما»: «إن الأمير» «دو غيرمانت» ظريف ولكنّه بالفعل شديد الحرص على مسائل المولد واللياقة. لقد ذهبت لقضاء يومين في منزله الريف في أثناء ما كانت الأميرة مريضة لسوء الحظّ. كانت «الصغيرة» ترافقني (وكان ذلك لقباً يطلقونه على السيّدة «دو نولشتاين» لأنّها كانت ضخمة). لقد جاء الأمير ينتظرني في أسفل الدرج وقدّم لي ذراعه وتظاهر بأنّه لايرى الصغيرة. وصعدنا إلى الطابق الأول حتّى مدخل الصالات وحينئذ قال وهو يتنحّى ليفسح لي الطريق: «آه! صباح الخير سيّدة «دو نو لشتاين» (فهو لايناديها البتّة إلاّ هكذا منذ افتراقه)، متظاهراً بأنّه يلمح الصغيرة آنذاك فقط كي يبرهن أنّه لايقع عليه الذهاب لتحيتّها في الأسفل».

– «ذلك لايدهشني إطلاقاً، ولا حاجة بي أن أقول لك»، يقول الدوق الذي كان يخال أنّه عصري جدّاً وأنّه يزدري أكثر من أيّ سواه كرم المولد، بل أنّه جمهوري، «إنّي لا أشاطر ابن عمّي الكثير من الأفكار. تستطيع سيّدتي أن تخمنّ أنّنا نكاد نتفق حول جميع الأمور مثلما النهار والليل، بيد أنّه ينبغي أن أقول إنّي سوف انحاز هذه المرّة إلى رأي «جيلبير» إن تزوجّت عمتّي «نوربوا» فأن تكون ابنة «فلوريمون دو غيز» وتقدم على زاوج كهذا إنّما يضحك منّا الدجاج على حدّ قولهم، ماذا عساك تريدني أن أقول؟» (كانت هذه الكلمات الأخيرة التي ينطق بها الدوق عامّة في سط الجملة لاجدوى منها ههنا. ولكنّما كانت به حاجة مستمرة إلى قولها تحمله على دفعها إلى آخر المقطع إن لم تجد مكاناً في محلّ آخر. كان ذلك بالنسبة إليه، من بين ما كان، أشبه بمسألة أوزان شعريّة). وأضاف يقول: «لاحظي أنّ آل «نوربوا» نبلاء طيبّون من بيت

(*) بوعز: هو في الكتاب المقدس زوج راعوث وقد خصه فيكتور هوغو بفصل في ملحمته «أساطير القرون».

كريم وأصل عريق».

وقالت السيّدة «دو غيرمانت»: «اسمع يا «بازان»، لاداعي للسخرية من «چيلبير» والتحدّث على غراره»، وكانت عراقة المولد في نظرها، ولاتقلّ عن عراقة أحد الخمور، إنّما تقوم بالضبط، شأنها في نظر الأمير ونظر الدوق «دو غيرمانت» في قدمها. ولكنّها كانت تصرّ، وهي أقلّ صراحة من ابن عمّها وأكثر رهافة من زوجها، على ألاّ تكذّب في حديثها روح آل «غيرمانت» فكانت تزدري المكانة في أقوالها على أن تجلّها بأفعالها.

وسأل اللواء «دو سان چوزيف»: «أليس أنّكما حتّى على بعض قرابة خؤولة؟ يبدو لي أنّ «نوربوا» سبق أن تزوّج واحدة من آل «لا روشفوكو».

فأجاب الدوق:

– ولكن لم تكن القرابة بتاتاً بالطريقة تلك. فقد كانت من فرع دوقة «دولاروشفوكو»، وجدّتي من دوقة «دودوفيل»، إنّها جدّة «ادوار كوكو» الرجل الأكثر حكمة في الأسرة»، يجيب الدوق الذي يحمل آراء بشأن الحكمة سطحية بعض الشيء، «ولم يلتق الفرعان منذ لويس الرابع عشر، وقد يكون ذلك بعيداً إلى حدّ ما».

وقال اللواء: «عجباً، هذا أمر مثير وما كنت أعرفه».

فأردف السيّد «دو غيرمانت» قائلاً: «كانت أمّه على أيّ حال باعتقادي شقيقة الدوق «دو مونمورانسي» وسبق أن تزوّجت بادئ الأمر واحداً من أسرة «لاتور دوفيرنيي». ولكن لمّا كاد هؤلاء «المونمورانسيون» لايكونون من آل «مونمورانسي» وأنّ جماعة «لاتور دو فيرنيي» ليسوا باتاً «لتوردوفيرنيي» فلست أرى أنّ ذلك يوفّر له مركزاً كبيراً. يقول، وقد يرتدي الأمر أهميّة أكبر، إنّه ينحدر من «سانتراي»، وبما أنّنا ننحدر منهم على نحو مباشر...»

كان ثمّة في «كومبريه» شارع باسم «دو سانتراي» لم أكن قد عدت بالفكر إليه البتّة. وكان يقود من شارع «لابروتونّري» إلى شارع «لوازو». ولمّا كان «سانتراي» رفيق «جان دارك» هذا قد أدخل في هذه الأسرة، بزاوجه من «غيرمانتيّة»، دوقيّة «كومبريه» فقد كان شعاره يتوسّط شعار آل «غيرمانت» في أسفل زجاج ملوّن من كنيسة «سانت إيلير». وعدت فرأيت أدراجاً من حجر رمليّ ضارب إلى السواد فيما يعيد تموّج اسم «غيرمانت» هذا إلى النغمة المنسيّة التي كنت أسمعه فيها بالأمس وهي مختلفة جدّاً عن تلك التي يعني فيها المضيفين اللطيفين اللذين كنت أتعشّى هذا المساء في منزلهما. ولئن كان اسم الدوقة «دو غيرمانت» في نظري اسم جماعة فما كان ذلك في التاريخ فحسب باضافة جميع النساء اللواتي حملنه، بل على امتداد صباي القصير أيضاً الذي سبق أن رأى في الدوقة «دو غيرمانت» هذه وحدها العديد من النساء المختلفات يتناضدن، تزول الواحدة منهنّ بعدما يتّفق للتالية ما يكفي من تماسك. إن الكلمات لاتغيّر من مدلولها على مدى قرون بقدر ما تّغير الأسماء بالنسبة إلينا على مدى بضع سنين. وليست ذاكرتنا وقلبنا على اتّساع كافٍ ليمكن أن يكونا أمينين. وليس لدينا في فكرنا الراهن ما يكفي من مكان لنحتفظ فيهما بالأموات إلى جانب

الأحياء. وإنّنا لنضطرّ أن نبنى فوق ما سبق ومالا نعود فنعثر عليه إلاّ أتّفاقاً في عملية تنقيب من طراز تلك التي قام بها اسم «سانتراي» منذ قليل. ورأيت من غير المفيد أن أوضح كلّ ذلك بل إنّي كذبت ضمنياً قبل قليل حين لم أحر جواباً عندما قال لي السيّد «دو غيرمانت» : «ألا تعرف ضيعتنا؟» وربّما كان حتّى على علم بأنّي أعرفها ولم يلحّ بداعي حسن التهذيب على الأقلّ. وقطعت عليّ السيّدة «دو غيرمانت» تأمّلاتي.

– إنّي أنا أجد كل ذلك قاتلاً. اسمع، ليست الأمور دوماً مُملّة إلى هذا الحدّ في منزلي، وأملي أنّك ستعود بسرعة لتناول العشاء للتعويض عليك، ودون أنساب هذه المرّة» وتقول لي الدوقة بصوت خافت، وهي عاجزة أن تدرك نوع الروعة التي يمكن أن ألقاها في منزلها وأن تتواضع في ألاّ تروقني إلاّ بمثابة معشبة مليئة بالنباتات القديمة العهد.

لقد كان ما تظنّه السيّدة «دو غيرمانت» مخيباً لآمالي، كان على العكس ما ينقذ أمسيتي في أواخرها – لأنّ الدوق واللواء لم يكفّا من بعد عن حديث الأنساب – من خيبة تامّة. وكيف لي ألاّ أشعر بخيبة حتّى ذاك؟ فكلّ واحد من المدعوّين إلى العشاء إذ كان يُلبِس الاسمَ الزاخر بالأسرار الذي سبق أن عرفته به وحلمت به عن بُعد فحسب جسماً وعقلاً مساويين لما يتّفق منهما لجميع الناس الذين كنت أعرفهم أو هما أدنى إنّما خلفَ لديّ انطباعاً بالتفاهة السخيفة التي يمكن أن يورثها الدخول في مرفأ «ايلسنور» الدانمركي لكلّ قارئ محموم لـ«هملت». وليس من شكّ أن تلك المناطق الجغرافية وذلك الماضي القديم التي كانت تضع أدواحاً وقباب أجراس قوطيّة في أسمائهم إنّما ألفّت إلى حدّ ما وجههم وعقلهم وآراءهم ولكنّها لاتظلّ فيها إلاّ كالسبب في النتيجة، يعني أنّه يمكن استخلاصها بالعقل لكنّها غير محسوسة بالخيال.

وقد أعادت آراء الأمس هذه فجأة إلى أصدقاء السيّد «دو غيرمانت» وعقليته شاعريتهم المفقودة. صحيح أنّ المفاهيم التي يملكها النبلاء تجعل منهم المثقفين وعلماء أصول اللسان، لافيما يخصّ الكلمات بل الأسماء (وبالنسبة إلى الوسطيّ الجاهل في البورجوازية فحسب، ذلك لأنّه إن كان متديّن، في تساوي الضحالة، أقدرَ من ملحد على إجابتك عن الطقوس الدينيّة فإنّ عالم آثار مناهض لرجال الدين غالباً ما يتمكّن في المقابل أن يبزّ كاهن رعيته في كلّ ما يتعلّق حتّى بكنيسة هذا الأخير)، تلك المفاهيم، إن شئنا البقاء في دائرة الصواب، أي في دائرة العقل، لم تكن تملك حتّى في نظر هؤلاء السادة العظام الروعة التي ربّما ملكتها في نظر أحد البورجوازيّين. ربّما علموا خيراً منّي أنّ الدوقة «دو غيز» كانت أميرة «كليف» و«أورليان» و«بورسيان» إلخ، ولكنّهم كانوا قد عرفوا حتّى قبل هذه الأسماء جميعاً وجه الدوقة «دو غيز» الذي كان هذا الاسم يعكسه مذ ذاك لناظريهم. لقد بدأت بالجنّية وإن انبغى أن تزل بعد حين ؛ أمّا هم فبالمرأة.

إنّنا نبصر أحياناً ضروباً من الغيرة تنشأ في الأسر البورجوازية إن تزوجّت الشقيقة الصغرى قبل الكبرى. كذلك كان عالم الأرستقراطيّين، ولاسيّما آل «كورفوازييه»، بل آل «غيرمانت» أيضاً، يقلّص عظمته الأرستقراطيّة إلى حدّ محض تفوّق في دنيا الخدم بموجب سخافة سبق أن عرفتها بادئ الأمر (وتلك كانت في نظري فتنتها الوحيدة) في بطون الكتب. أليس يبدو أنّ «تالمان دي ريو» إنّما يتحدّث عن آل «غيرمانت» بدلاً من آل «روهان» حينما يروي بارتياح جليّ أن السيّد «دو غيمينيه» كان يصرخ قائلاً لأخيه: «تستطيع الدخول هنا، فليس هذا متحف اللوفر!» ويقول عن الفارس «دو روهان» (لأنّه كان ابناً غير شرعي للدوق «دو

كليرمون» «أما هو فأمير على الأقلّ!» أمّا الأمر الوحيد الذي غمّني في ذاك الحديث فأن ألاحظ أن الحكايات اللامنطقيّة المتعلّقة بالدوق الأكبر الظريف وريث عرش «لوكسمبور» كانت تجد آذاناً صاغية في هذه الصالة شأنها لدى رفقاء «سان لو». حقاً لقد كان ذلك وباءً لعلّه لن يدوم سوى سنتين ولكنّه يمتدّ إلى الجميع. وأعادوا الحكايات الكاذبة نفسها وأضافوا أخرى إليها. وأدركت أن أميرة «و كسمبور» نفسها كانت توفّر، فيما تبدو وكأنّها تدافع عن ابن اختها، أسلحة لمهاجمته. وقال لي السيّد «دو غيرمانت» مثلما سبق أن فعل «سان لو»: «إنّك مخطئ في الدفاع عنه. إليك مثلاً، فلندع جانباً حتّى رأي أهلنا الإجماعي، حدّث عنه خدمه، فهم في الأساس خير من يعرفنا. كانت السيّدة «دو لو كسمبور» قد أعطت زنجيّها الصغير لابن اختها. فعاد الزنجيّ باكياً يقول: «دوق أكبر يضرب أنا، أنا غير سافل، دوق أكبر شرّير، ياللروعة!» وأستطيع التكلّم عن ذلك كلام العارف فإنّه ابن عم لـ«أوريان».

ولايمكنني على أي حال أن أقول كم مرّة سمعت في هذه الأمسية لفظي ابن عم وابنة عم. فقد كان السيّد «دو غيرمانت» من جهة يصرخ تقريباً لدى كلّ اسم ينطقون به: «ولكنّه ابن عم لـ«أوريان!» بالابتهاج نفسه الذي يبديه رجل ضلّ سبيله في غابة ويقرأ على طرف سهمين رتّبا بالتعاكس فوق لوحة اتّجاه ويليهما عدد صغير جداً من الكيلو مترات: «منظرة كازيمير بيريبه» و«صليب كبير الصيادين» فيدرك ذلك أنّه على الدروب الصحيح. ومن جهة أخرى كانت لفظتا ابن عم وابنة عم تستخدمان بمقصد مغاير تماماً (وكان شاذاً ههنا) على لسان عقيلة سفير تركيا التي كانت قد جاءت بعد العشاء. كان يتأكّلها الطموح الاجتماعي وقد وهبت ذكاء حقيقياً سريع التمثّل وكانت تتعلّم بالسهولة نفسها حكاية «تقهقر العشرة آلاف»(*) أو الانحراف الجنسي لدى الطيور. ولعلّه كان يستحيل أن تخطئّها حول أحدث الدراسات الألمانية، أبحثت في الاقتصاد السياسيّ أم الأمراض العقليّة أم مختلف أشكال الأونانيّة أم فلسفة «ابيقور». وكانت إلى ذلك امرأة عاقبة الإصغاء إليها وخيمة فقد كانت، وهي أبداً على ضلال، تعدّ بمثابة نساء طائشات تماماً من يتحلّين بفضائل لايدانيها شكّ وتحذّرك من رجل تحرّكه أشرف المقاصد وتروي ضروباً من الحكايات تبدو وكأنّها تخرج من بطون الكتب لامن جرّاء جدّيتها بل من جرّاء لامعقوليتّها.

كانوا قليلاً ما يستقبلونها في تلك الفترة. كانت تتردّد بضعة أسابيع على نساء لامعات تماماً كالدوقة «دو غيرمانت» لكنّها اقتصرت بعامّة وعلى الرغم منها، فيما يخصّ أكثر الأسر ارستقراطية، على فروع مغمورة لم يعد آل «غيرمانت» يتردّدون عليها. وكانت تأمل أن تبدو تماماً من دنيا المجتمعات الراقية بذكر أعظم الأسماء لأناس قليلاً ما يتمّ استقبالهم وكانوا أصدقاء لها. ويهتزّ السيّد «دو غيرمانت» في الحال فرحاً أن يلقى نفسه في بلاد يعرفها ويطلق صيحة تجمّع ظنّاً منه أن الأمر يتعلّق بأناس كثيراً ما يتناولون عشاءهم في منزله: «لكنّه ابن عمّ لـ«أوريان»! إنّي أعرفه كما أعرف حبيبي، إنّه يسكن في شارع «فانو» وكانت والدته الآنسة «دوزيس». وتضطرّ عقيلة السفير أن تقرّ بأن مثالها مأخوذ من حيوانات أدنى قدراً. وكانت تحاول أن تربط بين أصدقائها وأصدقاء السيّد «دو غيرمانت» باللحاق به مواربةً: «أعلم تماماً من تعني. لا، ليسوا هؤلاء، إنّهم ابناء عمّ لهم». لكنّ هذه الجملة المرتدّة التي تطلع بها السفيرة المسكينة سرعان ماتتلاشى. فقد كان السيّد «دو

(*) للمؤرخ اليوناني «كزينوفون» Xénophon

غيرمانت» يجيب خائب الآمال: «آه! أنا لا أرى إذ ذاك من تقصدين». ولا تنبس السفيرة ببنت شفة لأنّها إن لم تعرف في يوم سوى «ابناء عمّ» من كان ينبغي، فكثيراً مالم يكن أبناء العم هؤلاء حتّى من ذوي القربى. ثم ينطلق، فيما يخصّ السيّد «دو غيرمانت» مدّ جديد من عبارات «ولكنّما هي ابنة عمّ لـ«أوريان»، وهي كلمات تبدو وكأنّها توفّر للسيّد «دو غيرمانت» في كلّ من جمله الفائدة نفسها التي توفّرها بعض النعوت المريحة لشعراء الرومان لأنّها تزوّد أبياتهم السداسية المقاطع بتفعلية مناسبة»(*).

على أن انطلاقة «ولكنّما هي ابنة عمّ لـ«أوريان» بدت على الأقلّ طبيعيّة تماماً في انطباقها على الأميرة «دو غيرمانت» التي كانت بالفعل شديدة القربى من الدوقة. ولم يكن يبدو أنّ السفيرة تحبّ تلك الأميرة، فقد قالت لي بصوت خافت تماماً: «إنّها غبيّة. لا، ليست جميلة إلى هذا الحدّ، وتلك شهرة مغتصبة». وأضافت بلهجة يطبعها التروّي والاشمئزاز والتصميم: «وإنّها لتوحي إليّ على أيّ حال بنفور شديد». ولكنّ العمومة غالباً ما كانت تمتدّ إلى أبعد من ذلك بكثير إذ ترى السيّدة «دو غيرمانت» من واجبها أن تقول «عمتّي» لنسوة ما كنت لتلقى لهنّ جداً مشتركاً معهم دون الرجوع أقلّه حتّى لويس الخامس عشر، تماماً كما هي الحال في كل مرّة كانت مصائب الدهر تقضي أن تتزوّج ميلياردديرة أميراً، أيّ أمير، سبق أن تزوّج جدّة الثالث، شأن جدّ السيّدة «دو غيرمانت» ، إحدى بنات «لوفوا» فتقوم إحدى مسرّات الأميرة على استطاعتها، منذ أوّل زيارة لفندق آل «غيرمانت»، حيث يسيئون على أيّ حال استقبالها في كثير أو قليل ويجرحّون في سلوكها في كثير أو قليل، أن تقول «ياعمتّي» للسيدة «دو غيرمانت» التي تدعها تفعل بابتسامة أموميّة. ولكن قليلاً ما كان يهمني ماعسى أن يكون «المولد» في نظر السيّد «دو غيرمانت» والسيّد «دو بوسيرفوي»، فما كنت أبحث في الأحاديث التي يتبادلانها بهذا الشأن إلاّ عن متعة شعريّة. كانا يوفرّانها لي، دون أن يعرفاها، كما ربّما فعل فلاّحون أو بحّارة يتكلّمون عن الزراعة وظاهرات المدّ والجزر، وهي حقائق قليلاً ما تنفصل عن ذواتهم حتّى يمكنهم أن يتذوّقوا فيها الجمال الذي كنت أقوم شخصياً باستخلاصه منها.

كان الاسم يذكّر أحياناً بواقعة خاصّة، بتاريخ أكثر منه بسلالة. فحينما سمعت السيّد «دو غيرمانت» يذكّر بأنّ والدة السيّد «دو بريوتيه» كانت من أسرة «شوازول» وجدّته من أسرة «لوسانج» خلتني أبصر تحت القميص العادي ذي الأزرار اللؤلؤيّة البسيطة هاتين الذخيرتين الرفيعتين تقطران دماً داخل كرتين من الكريستال: قلب السيّدة «دوبرالان» وقلب الدوق «دو بيرّي». كان ثمّة أخرى أكثر إمتاعاً: الشعور الطويلة الناعمة للسيّدة «تاليّان» أو السيّدة «دو سابران».

وأحياناً لم يكن ما أرى محض ذخيرة. فقد كان السيّد «دو غيرمانت» ، وهو أكثر اطلاعاً من زوجته على ما كان عليه أجداده، يحمل ذكريات تضفي على حديثه مظهراً جميلاً لمسكن قديم خال من الروائع الفنيّة الحقيقيّة ولكنّه مليء بلوحات أصيلة المستوى فخمة يخلّف مجملها مظهراً جليلاً. فحينما سأل الأمير «داغريجانت» لماذا قال الأمير س... في حديثه عن الدوق دومال «عمّي» أجاب السيّد «دو غيرمانت» قائلاً:

(*) بدا من العسير تقريب ماورد في النص من إشارة إلى الشعر اليوناني واللاتيني حيث جاءت لفظتنا dactyle (وتعني مقطعاً يضم طويلة وقصيرتين) و spondée و (وتعني مقطعاً يضم طويلتين) فاستبدلنا بهما التفعيلات.

«لأن شقيق والدته والدوق«دو فو تنبيرغ» سبق أن تزوّج إحدى بنات «لويس فيليب» حينذاك تأمّلت مذخرة كاملة شبيهة بالتي كان يرسمها «كارباتشيو» أو «ميملنغ» من الخانة الأولى حيث تظهر الأميرة في احتفالات عرس شقيقها الدوق «دورليان» وهي تلبس فسطان نزهة بسيط لتعرب عن استيائها إذ رأت مبعوثيها يردون على أعقابهم، وكانوا قد ذهبوا يطلبون من أجلها يد الأمير «دو سيراكوز»، إلى الأخيرة التي تقوم فيها من ولادة صبّي، هو الدوق «دو فورتنبرغ» (عمّ الأمير الذي تعشّيت وإيّاه منذ قليل)، في قصر «فانتيزي» هذا، وهو أحد الأمكنة الأرستقراطية، ارستقراطيّة بعض الأسر: فهي بدورها ترى على مدى أكثر من جيل أكثرَ من شخصية تاريخية ترتبط بها؛ ففي هذا الأخير على وجه الخصوص تعيش جنباً إلى جنب ذكريات دوقة «بايروث»، وهذه الأميرة الأخرى الغريبة الأطوار بعض الشيء «شقيقة الدوق «دورليان»» التي كانوا يقولون لها إنَّ اسم قصر زوجها يروق الأسماع، وملك «البافيير»، وأخيراً الأمير س.، وكان يشكلّ بالضبط العنوان الذي طلب منذ برهة إلى الدوق «دو غيرمانت» أن يراسله إليه، إذ كان قد ورثه ولم يكن يؤجرّه إلاّ في أثناء عروض «فاغنر» للأمير «دو بولينياك»، وهو متظرّف آخر ارئع. وكان الأمر واحداً كذلك حينما كان السيّد «دو غيرمانت» يضطّر في سبيل أن يوضح كيف أنّه قريب للسيّدة «دار باجون» أن يعود بعيداً جداً إلى الوراء وببساطة عظيمة، عن طريق سلسلة ثلاث أو خمس جدّات وأيديهنّ المتشابكة، إلى «ماري لويز» أو «كولبير»: فلا يظهر الحدث التاريخي الكبير عرضاً في جميع تلك الحالات إلاّ من خلف قناع مشوّهاً مقلّصاً في اسم عقار وفي أسماء امرأة اختيرت على نحو ماهي عليه لأنّها حفيدة «لويس فيليب» و«ماري أميلي» لابوصفهما ملك فرنسه وملكتها بل بمقدار ماخلفا ميراثاً بوصفهما جدّين. (نشاهد لأسباب أخرى في قاموسٍ لآثار «بلزاك» لاتظهر فيه أكثر الشخصيّات شهرة إلاّ بحسب صلاتهمّ بـ«الكوميديا البشريّة»، نشاهد نابليون يحتّل مكاناً أقلّ بكثير من «راستينياك» ولايحتلّه إلاّ لأنّه تحدّث إلى الآنسات «دو سان سينيي»). كذلك الأرستقراطية، ببنائها الثقيل الذي تنفتح فيه نوافذ قليلة تجلب اليسير من الضوء، وإذ تبرز القصور نفسه في الإنطلاقة ولكنّما إلى ذلك القوّة الكثيفة المعمّاة التي تطبع الهندسة الرومانية، إنّما تحتبس التاريخ كلّه وتسدّ عليه المنافذ وتوليه عبوساً.

وهكذا أخذت مساحات ذاكرتي تغطّيها شيئاً فشيئاً الأسماء التي تتراتب ويتشكّل بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر وتترابط فيما بينها بصلات أكثر فأكثر تعدّداً فتحاكي تلك الأعمال الفنيّة الكاملة حيث ليس من ضربة ريشة معزولة عن غيرها وحيث يأخذ كل جزء من الأجزاء الأخرى علّة وجوده مثلما يفرض عليها علّة وجوده.

وقد روت عقلية سفير تركيا، إذ عاد اسم السيّد «دو لوكسمبور» على بساط البحث، أنّ جدّ المرأة الشابّة (ذاك الذي كان يملك تلك الثروة الضخمة التي جاءته من الطحين والعجائن) دعا إلى مأدبة غداء السيّد «دو لوكسمبور» فرفض هذا الأخير طالباً أن يوضع على المغلّف: «السيّد...، طحّان»، الأمر الذي أجاب عليه الجدّ بما يلي: «إنّما يزيد من اغتمامي أن لم تتمكّن من المجيء، ياصديقي العزيز، أنّني كنت أستطيع الابتهاج بك في جوّ حميم، فقد كنّا شلّة صغيرة وما كان ليحضر المأدبة سوى الطحّان وابنه وأنت»»(*) . ولم تكن تلك الرواية شنيعة فحسب في نظري أنا الذي كان يعلم الاستحالة الخلقيّة في أن يكتب عزيزي السيّد «دو

(*) إشارة إلى أحد أمثال الشاعر الفرنسي «لافونتين» وهو بعنوان: «الطحان وابنه والحمار».

ناسوّ» إلى جدّ زوجته (وهو يعلم أنّه سوف يرث منه) ناعتاً إيّاه بـ«الطحّان»، ولكنّ الغباء كان يبرز واضحاً منذ الكلمات الأولى إذ إن تسمية الطحّان قد وضعت على نحو جليّ جدّاً لاستدراج عنوان مثل «لافونتين». ولكنّ في حيّ «سان جيرمان» من الغباوة ما يجد كلّ بها، حينما يزيد منها سوء الطويّة، أنّها كانت «ضربة معلّم» وأنّ الجدّ الذي أعلن الجميع في الحال عن مصدر ثقة أنه رجل مرموق قد أبدى نباهة أكبر من صهر ابنه. وشاء الدوق «دو شاتيلّرو» أن يستغلّ هذه الحكاية ليروي تلك التي سبق أن سمعتها في المقهى: «كان الجميع يأوون إلى أسرّتهم».، ولكنّ الدوق أوقفته منذ الكلمات الأولى وبعدما نقل عن مطالبة السيّد «دو لوكسمبور» بأن ينهض السيّد «دو غيرمانت» قدّام زوجته واحتجتّ قائلة: «لا، إنّه سخيف جدّاً ولكن ليس إلى هذا الحدّ». كنت مقتنعاً في الصميم أن جميع الروايات المتعلّقة بالسيّد «دولو كسمبور» كانت كاذبة على حدّ سواء وأنّني سوف أسمع التكذيب نفسه في كل مرّة أجدني فيها في حضرة أحد الممثّلين أو الشهود. هلى أنّي تساءلت إن كان تكذيب السيّدة «دو غيرمانت» ناجماً عن حرصها على الحقيقة أو عن اعتزازها بنفسها. ولكنّ هذا الأخير تراجع أمام سوء الطويّة لأنها أضافت تقول ضاحكة: «لقد مُنيت على أي حال بإهانتي الصغيرة أيضاً فإنّه دعاني إلى العصرونية وهو راغب في أن يعرّفني بالدوقة الكبرى «دو لوكسمبور»، إذ هكذا يطيب له أن يدعو زوجته وهو يكتب إلى عمتّه. وقد أجبته بأسفي وأضفت: «أمّا بشأن «الدوقة الكبرى دو لوكسمبور»، بين قوسين، فقل لها إن جاءت لزيارتي إنّي في منزلي بعد الساعة الخامسة من كل يوم خميس». بل لقد لحقت بي إهانة ثانية. فقد هتفت إليه وأنا في «اللوكسمبور» أن يجيء ويكلّمني على الهاتف. ولكن سموّه يزمع أن يتناول غداءه، قد انتهى من تناول غدائه، وانقضت ساعتان دونما نتيجة فلجأت حينذاك إلى وسيلة أخرى: «هل تكرّمت بأن تقول للكونت «دو ناسوّ» أن يجيء ويكلّمني؟» وأسرع في الدقيقة نفسها وقد استثرته في الصميم». وضحك الجميع من حكاية الدوقة ومن أخرى مشابهة، يعني من أكاذيب، إني مقتنع بذلك، لأنّني لم التق يوماً رجلاً أشدّ ذكاء وأفضل وأوفر رهافة، ولنقل الكلمة الفصل، أكثر روعة من هذا المدعّو «لوكسمبور – ناسوّ». وسوف نرى ممّا يلي أنني أنا من كان على حقّ. على أنّه يجدر بي الاعتراف بأن السيّدة «دو غيرمانت» قد جادت بجملة لطيفة وسط كلّ «غلاظاتها».

قالت: «لم يكن دوماً على هذه الشاكلة. فقبل أن يفقد رشده، وأن يكون، كما هي الحال في الكتب، الرجل الذي يظنّ أنّه أصبح ملكاً لم يكن غبياً بل كان يتحدّث في بدايات خطوبته،. كان يتحدّث عنها حديثاً قريباً إلى القلب إلى حدّ ما وكأنّما عن سعادة غير متوقعّة: «إنّها حكاية جنيّات حقيقيّة وينبغي أن أدخل إلى اللوكسمبور في عربة جنيّات»، يقول لعمّه «دونيسّان» الذي أجابه، لأنّ اللوكسمبور كما تعلم ليس كبيراً: «عربة جنيّات، إنّي أخشى ألاّ تستطيع الدخول، وإنّي أنصحك بالأحرى بعربة الماعز». فلم يغضب الأمر «ناسوّ»، وليس ذلك فحسب بل كان أوّل من روى لنا الكلمة وضحك منها».

– «أو رنيسان» يفيض ظرافة، ولديه من يورثه إيّاها فإنّ والدته من آل «مونجو» إنّه على غير مايرام هذا المسكين «أورنيسان».

وقد كان لهذا الاسم فضل قطع دابر الأذيّات التي كانت ستتوالى إلى مالانهاية. فقد أوضح السيّد «دو غيرمانت» بالفعل أن جدّة السيّد «دورنيسّان» الثانية كانت شقيقة «ماري دو كاستيي مونجو» زوجة «تيموليون

دو لورين» وعمّة «أوريان» بالنتيجة. وبذلك ارتدّ الحديث إلى الانساب فيما كانت سفيرة تركيا المعتوهة تهمس في أذني: «يبدو لي أنّك على أحسن اعتبار في أوراق الدوق «دو غيرمانت» فحذار»، وإذ سألتها إيضاح ذلك قالت: «أقصد، وستفهمني بالتلميح، أنّه رجل يمكنك ائتمانه دونما خطر على ابنتك لاعلى ابنك». وبعد، لئن كان ثمّة رجل شغف يوماً، على العكس، بحبّ النساء حصراً فقد كان بالتأكيد الدوق «دو غيرمانت». ولكنّ الضلالة وعكس الحقيقة الذي يؤخذ بسذاجة إنّما كان بالنسبة إلى السفيرة بمثابة الوسط الحيوي الذي لايمكنها التحرّك خارجه. «إن شقيقه «ميميه» الذي ينفرني في الصميم لأسباب أخرى «ما كان يحبّيها) قد أورثه سلوك الدوق غماً حقيقياً. كذلك هو شأن عمتّهما «فيلباريزيس». آه! إنّي أعشقها. تلكم امرأة قديسة والنموذج الحقيقي لسيّدات الأمس العظيمات. فليست الفضيلة بعينها فحسب بل الاحتشام. إنّه لاتزال تقول: «ياسيّدي» للسفير «نوربوا» الذي تلقاه كلّ يوم والذي خلّف في تركيا، بين قوسين، ذكراً طيباً».

ولكنّي لم أجب السفيرة بغية سماع الأنساب. ولم تكن كلّها ذات شأن بل لقد اتّفق في أثناء الحديث أنّ إحدى المصاهرات اللامتوقّعة التي اطلعني عليها السيّد «دو غيرمانت» كانت زواجاً غير متكافئ لكنّه لايخلو من روعة إذ قرن في العهد الملكّي الذي بدأ في تموّز الدوق «دو غيرمانت» والدوق «دوفزنزاك» بالابنتين الفاتنتين لأحد رجال البحر المرموقين فأضفى على هذا النحو على الدوقتين الإثارة اللامتوقعّة المنبعثة من ظرافة غريبة في طابعها البورجوازي من عصر لويس فيليب في طابعها الهندي. أو أنّ أحد آل «نوربوا» سبق أن تزوّج في عهد لويس الرابع عشر ابنة الدوق «دو مورتمار» الذي كان لقبه الشهير ينعكس، في أقاصي ذلك العهد، على اسم «نوربوا» الذي كنت أجده كامداً ويخيل إليّ أنّه حديث العهد وينحت فيه بعمق جمال ميدالية. ولم يكن أقلّ الأسماء شهرة، في تلك الحالات، هو الذي يكسب فحسب من جرّاء التقارب، فقد كان الآخر، وقد أضحى عادياً من كثرة الألق، يدهشني أكثر فأكثر خلف هذا المظهر الجديد والأقلّ ذيوعاً مثلما يتّفق أحياناً أن يكون الأكثر روعة من بين لوحات رسّام خلاّب الألوان رسمٌ خطّ كلّه باللون الأسود. وما كان مردّ سرعة الحركة الجديدة الي يبدو لي أن تلك الأسماء تّتسم بها إذ تقبل فتتخذ مكانها إلى جانب أخرى كنت ظننتها شديدة البعد عنها، ما كان مردّها جهلي فحسب ؛ فهذه التنقّلات التي كانت تقوم بها في ذهني لم تفعلها بأقلّ يسراً في تلك العهود حيث كان اللقب دائم الارتباط بالأرض فيتبعها من أسرة إلى أخرى حتّى إنّي كنت أستطيع على سبيل المثال، داخل البناء الإقطاعي الجميل الذي يؤلفّه لقب دوق «نومور» و دوق «شوفروز»، أن اكتشف على التوالي أفراداً من آل «غيز» وأميراً من ال «سافوا»، وآخرين من آل «أورليان» و«لوين» يقبعون وكأنّما في دار مضيافة لأمثال «بيرنار» الناسك. وأحياناً يظلّ العديد منهم يتنافسون على قوقعة واحدة: فعلى أمارة «أورانج» الأسرة المالكة في البلاد المنخفضة والسادة «دو مايّي – نيل»، وعلى دوقيّة «برابان» البارون «دو شارلوس» والأسرة المالكة في بلجيكا، وآخرون غيرهم ما أكثرهم على ألقاب أمارة «نابولي» ودوقيّة «بارما» ودوقيّة «ريجّيو» ويتّفق العكس أحياناً، فالقوقعة قد خلت منذ زمن بعيد جداً من ملاكها الذين طواهم الموت منذ عهد بعيد إلى حدّ أني لم أنتبه في يوم أن اسم القصر هذا أو ذاك كان يمكن أن يؤلّف في فترة هي بإجمال القول غير بعيدة جداً اسم إحدى الأسر. من ذلك أنّي، فيما كان السيّد «دو غيرمانت» يجيب عن سؤال للسيّد «دو مونسيرفوي»: «لا، لقد كانت ابنة عمّي ملكيّة مهووسة، فهي ابنة المركيز «دو فيتيرن» الذي قام بدور لايستهان به في حرب الشوان»، حلّ بي لدى رؤية اسم «فيتيرن»، هذا الذي كان في نظري اسم قصر

منذ إقامتي في «بالبيك»، يضحي مالم يخطر لي البتّة أنّه يمكن أن يكون، أي اسماً لأسرة، حلّ بي مايحلّ من دهشة في مشهد خرافي تدبّ فيه الحركة في أبراج صغيرة وفسحة درج فتضحي أشخاصاً. ويمكننا أن نقول بهذا المعنى إن التاريخ، وحتّى تاريخ الأنساب حصراً، إنّما يعيد الحياة إلى الأحجار العتيقة. لقد كان في المجتمع الباريسيّ أناس لعبوا فيه دوراً مرموقاً ولاقوا فيه بداعي أناقتهم أونباهتهم وداً أكثر من الدوق «دو غيرمانت» أو الدوق «دولاتريمواي» وكانوا بمثل كريم محتدهما. واليوم لفّهم النسيان لأن اسمهم الذي لم يعد يسمع البتّة بما أنّهم لم يخلفوا ذرية إنّما يتردّد بمثابة اسم مجهول، ويظلّ على الأكثر اسم شيء لا يخطر لنا أن نكتشف خلفه اسم بشر ويطلق على قصر، أيّ قصر، على قرية بعيدة، وفي يوم قريب سوف يجهل المسافر الذي سيتوقّف في أقاصي مقاطعة «بورغونيا» في قرية «شارلوس» الصغيرة بغية زيارة كنيستها أن اسم «شارلوس» هذا كان اسم رجل ماشى أعظم الرجال. وذكّرتني هذه الفكرة بأنّه ينبغي لي أن أرحل وأن ساعة موعدي مع شقيق السيّد «دو غيرمانت» كانت تقترب فيما أنا أصغي إلى حديثه عن الأنساب. وتابعت التفكير في نفسي قائلاً: من ذا يعلم إن كان «غيرمانت» سوف يبدو ذات يوم بدوره شيئاً مختلفاً عن اسم المكان، إلاّ في نظر علماء الاثار الذين توقّفوا صدفة في «كومبريه» وسوف يتوافر لهم أمام زجاج «چيلبير لو موفيه» الصبر للاستماع إلى خطابات خلف «تيودور» أو قراءة دليل الخوري. ولكن الاسم العظيم إنّما يستبقي الذين حملوه، مادام بعد لم ينطفئ، في دائرة الضياء. وليس من شكّ أنّ الأهميّة التي كانت توفّرها لناظريّ، في قسم منها، شهرة تلك الأسر أنّك تستطيع انطلاقاً من يومنا هذا أن تتابعها بالارتفاع درجة فدرجة حتّى مابعد القرن الرابع عشر وأن تعثر على مذكرات سائر جدود السيّد «دو شارلوس» والأمير «داغريجانت» والأميرة «دو بارما» ومراسلاتهم في ماضٍ ربّما حجب فيه ليل دامس أصول أسرة بورجوازية وفيه نميّز خلف الارتسام المضيء الراجع لأحد الأسماء منشأ بعض السمات العصبيّة وبعض العيوب وفساد هذه الفئة أو تلك من آل «غيرمانت» واستمرارها جميعها. وإنّهم ليثيرون، وهم يشبهون تقريباً على نحو مرضيّ جماعة اليوم، يثيرون من قرن إلى قرن اهتمام مراسليهم المحاذر سواء أكانوا سابقين للأميرة البالاتينية والسيّدة «دو موتّفيل» أو جاؤوا بعد الأمير «دولينيي».

كان فضولي التاريخي ضعيفاً على أيّ حال إذا ماقورن بالمتعة الجماليّة. فقد كان من شأن الأسماء المذكورة أن تعرّي مدعوّي الدوقة الذين أحالهم قناع الجسد والغباء أو الذكاء العاديّ أناساً، مطلق أناس عاديّين، فلكأنّي حططت على حصيرة الردهة في أقاصي عالم الأسماء المسحور لا على عتبته كما سبق وخيّل إليّ. فقد تخلّص الأمير «داغر يجانت»، ما أن سمعت أن والدته كانت من أسرة «داماس» وحفيدة الدوق «دو مودين»، من الهيئة والأقوال التي كانت تحول دون أن أتعرّفه، وكأنّما من رفيق كيميائي غير مستقرّ، وراح يؤلف مع لفظتي «داماس» و«مودين» اللتين كانتا من محض الألقاب مركباً أكثر روعة بما لايقاس. كان كل اسم تحرّك من جرّاء اجتذاب آخر له ما ارتبتُ أن أيّ قارية تجمعه إليه يهجر المكان الثابت الذي كان يشغله في دماغي حيث كسته العادة لوناً كامداً ويروح يلحق بآل «مورتمار» أو آل «ستيوار» أو آل «بوربون» ويرسم معهم فروعاً رشيقة الأشكال متغيّرة الألوان. واسم «غيرمانت» نفسه كان يكتسب من جميع الأسماء الجميلة التي انطفأت وعادت فاشتعلت متزايدة اللهب لذلك والتي كان يبلغني فحسب أنّه مرتبط بها تحديداً جديداً شاعرياً صرفاً. كنت أستطيع على الأكثر أن أبصرها على طرف كلّ انتفاخ في الساق الشامخة تتفتّح على هيئة ملك

حكيم أو أميرة مشهورة كوالد هنري الرابع أو الدوقة «دو لو نغفيل». ولمّا لم تكن أيّة بقيّة من خبرة مادّية وضحالة مجتمعية تضخّم في نظري تلك الوجوه، وهي مختلفة في ذلك عن وجوه المدعوّين، فقد كانت تلبث بخطوطها الجميلة وألوانها المتغيّرة مجانسة لتلك الأسماء التي كانت تنفصل على فترات منتظمة، كلّ بلون مختلف، عن شجرة عائلة «غيرمانت» ولاتعكّر بأيّة مادّة غريبة وعاتمة البراعم الشفّافة المتعاقبة المتعدّدة الألوان التي كانت تزهر على كلا جانبي الشجرة الزجاجية مثلما جدود يسوع على زجاج» «چيسيّه» الملوّن العتيق.

كنت قد وددت مراراً وتكراراً أن انسحب وذلك، أكثر منّي لأيّ سبب آخر، من جرّاء التفاهة التي يفرض حضوري طابعها على هذا الاجتماع، مع أنّه واحد من تلك التي كثيراً ما تصوّرتها بالغة الجمال، ولعلّه كان دونما شكّ كذلك لو لم يكن ثمّة شاهد مزعج. كان رحيلي سوف يمكّن المدعوّين على الأقلّ، بعدما يغادر الغريب المكان، من أن يؤلفّوا أخيراً لجنة سريّة. سوف يستطيعون الاحتفال بالأسرار التي اجتمعوا من أجل إقامة طقوسها لأنّهم لم يفعلوا بالطبع للتحدّث عن «فرانس هالز» أو عن البخل وللتحدّث عنهما على نحو ما يفعل جماعة البورجوازيّين. ما كانوا يقولون سوى التوافه لأنّني كنت حاضراً، لاشكّ في ذلك، فيؤنّبني ضميري، إذ أرى كلّ هاتيك النساء الجميلات المتفرّقات، أن أحول بحضوري دون أن يحيين حياة حيّ «سان چيرمان» الخفيّة في أبهى صالاتها. على أن ذلك الرحيل الذي كنت أبغي تنفيذه في كلّ لحظة إنّما كان السيّد «دو غيرمانت» والسيّدة عقليته يبلغان بروح التضحية حدّ تأخيره بالاحتفاظ بي. والأمر الأكثر غرابة بعد أنّ العديد من السيدات اللائي جئن مسارعات مغتبطات مزينّات مرصّعات بالأحجار الكريمة كي لايشهدن بسببي سوى احتفال ما كان يختلف اختلافاً أكثر جوهريّة من تلك التي تقام في غير حيّ «سان چيرمان» أكثر ممّا يحسّ المرء في «بالبيك» أنّه في مدينة تختلف عمّا تعوّدت عيوننا رؤيته – أن العديد من هؤلاء السيّدات انسحبن لاخائبات الآمال كما كان ينبغي أن يكنّ بل شاكرات بحرارة للسيّدة «دو غيرمانت» الأمسية البديعة التي قضينها كما لو لم يكن يجري أمر آخر في الأيّام الأخرى التي لم أكن فيها هنالك.

أفحقاً لمثل أعشية من نمط هذا الأخير كانت تتزيّن كلّ هذه النساء ويرفضن السماح لبورجوازيّات بالدخول إلى صالاتهنّ المغلقة إلى هذا الحدّ؟ لأعشية من نمط هذا الأخير؟ وهي واحدة لو كنت غائباً؟ وداخلني لحظةً من ذلك ارتياب ولكنّه كان مستحيلاً إلى أبعد الحدود وكان محض الحسّ السليم يمكّنني من استبعاده. ثم إنّي لو أخذت به فما الذي كان بقي من اسم «غيرمانت» وقد دبّ فيه البلى منذ «كومبريه» ؟

كان من اليسير إلى درجة غريبة على أيّ حال إرضاء تلك الفتيات الزهرات على يد شخص آخر بل كنّ هن راغبات في إرضائه، ذلك أنّ أكثر من واحدة من اللواتي لم أوجّه إليهنّ في كامل الأمسية إلاّ جملتين أو ثلاثاً أخجلني غباؤها أصررن قبل مغادرة الصالة على المجيء ليقلن لي، وهنّ يحدّقن إليّ بعيونهنّ الجميلة الناعمة فيما يرفعن شريط زهور الأوركيدا الذي يلفّ صدورهنّ، أيّة متعة شديدة أصبن من تعرفهنّ بي ويحدّثنني عن رغبتهنّ «في ترتيب شيء ما» بعدما يكنّ قد «حدّدن يومهن» مع السيّدة «دو غيرمانت» وذلك تلميح من خلف ستار إلى دعوة عشاء.

لم ترحل أي من تلك السيدات الزهرات قبل الأميرة «دوبارما». فقد كان وجود هذه الأخيرة – إذ ينبغي ألاّ يمضي أحد قبل إحدى صاحبات السمّو – واحداً من السببين اللذين لم أفطن لهما واللذين ألحت

الدوقة من أجلهما كلّ هذا الإلحاح لكي أبقى. وما أن نهضت السيّدة «دو بارما» حتّى كان مايشبه الخلاص. فبعد ما ثنت كلّ السيدات ركبتهنّ أمام الأميرة التي أنهضتهنّ، نلن منها عبر قلبة، وكأنّما تلك بركة طلبنها جاثيات، الإذن في طلب معطفهنّ وخدمهنّ، وكان من جرّاء ذلك أمام الباب ما يشبه تلاوة مهتوفة لأسماء كبيرة في تاريخ فرنسه. وكانت الأميرة «دو بارما» قد منعت السيّدة «دو غيرمانت» من النزول لمرافقتها حتّى الردهة مخافة أن تصاب بالبرد فكان أن أضاف الدوق يقول: «هيّا يا «أوريان»، بما أن سيّدتي تأذن بذلك، وتذكّري ما قاله لك الدكتور».

«اعتقد أن الأميرة «دو بارما» قد سعدت جداً بتناول العشاء معنا». كنت أعرف العبارة، وقد اجتاز الدوق كامل الصالة كي يأتي وينطق بها في حضرتي بلهجة لطيفة مشبعة بما يقول، وكأنّما يسلّمني شهادة أو يقدّم لي معجنات محمصّة. وشعرت من المسرّة التي كان يبدو وكأنّه يحسّ بها في تلك اللحظة والتي كانت تضفي على وجهه تعبيراً مؤقتاً من العذوبة الشديدة أن نوع الاهتمامات التي يمثّلها ذلك في نظره كان من تلك التي قد يفي بها حتى آخر لحظة في حياته شأن تلك الوظائف الفخريّة السهلة التي يظلّ المرء يحتفظ بها حتّى في خرفه.

وفي اللحظة التي كنت أزمع فيها الذهاب عادت إلى الصالة وصيفة شرف الأميرة وقد نسيت أن تحمل معها أزهار قرنفل بديعة وردت من «غيرمانت»، وكانت الدوقة قد أعطتها للسيّدة «دو بارما» كانت وصيفة الشرف محمرّة الوجه إلى حدّ ما وكنت تحسّ أنّها استُعجِلَتْ في ذلك لأن الأميرة التي كانت لطيفة جداً إزاء الجميع ما كانت تستطيع تمالك نفاد صبرها إزاء حماقة وصيفتها. ولذلك فقد كانت هذه الأخيرة تجري بسرعة حاملة أزهار القرنفل، ولكنّها، بغية الاحتفاظ بمظهر الارتياح والممازحة لديها، ألقت هذه الكلمات وهي تمرّ أمامي: «ترى الأميرة أنّني متأخّرة وتودّ أن نكون ذهبنا ومعنا أزهار القرنفل مع ذلك. أنا لست بالطبع عصفوراً صغيراً ولايمكنني أن أكون في أمكنة عدّة في آن واحد».

لم يكن سبب الإحجام عن القيام قبل إحدى صاحبات السمّو السبب الوحيد للأسف. فلم استطع الذهاب في الحال إذ كان ثمّة سبب آخر قوامه أن ذلك البذخ المشهور والمجهول لدى آل «كورفوازييه» والذي كان آل «غيرمانت» المنعمون أو نصف المفلسين يجيدون إمتاع أصحابهم به لم يكن محض بذخ ماديّ ولكنّه إلى ذلك، كما سبق لي أن اختبرته مرّات عديدة لدى «روبير دو سان لو» ترف أقوال رائعة وأعمال لطيفة ومجمل أناقة كلاميّة يغذوها ثراء داخليّ حقيقيّ. ولكن بما أنّ هذا الثراء يظلّ دون استعمال في بطالة المجتمعات الراقية فقد كان أحياناً ينساب باحثاً عن تصريف في ضرب من الحنان العابر المتزايد قلقاً لذلك ولعلّه كان يمكن أن يوهم بالمودّة إن جاء على يد السيّدة «دو غيرمانت». كانت تحسّ بها على أيّة حال لحظة تدع لها أن تفيض إذ كانت تجد إذ ذاك في عشرة الصديق أو الصديقة التي تكون معها ضرباً من نشوة غير شهوانية على الإطلاق شبيهة بتلك التي تهبها الموسيقى بعض الناس. فقد كان يتفق لها أن تنزع زهرة من صدارها، ميدالية كبيرة، وأن تعطيهما لمن لعلّها تمنتّ أن تطيل السهرة معه فيما تشعر بمرارة بأنّ مثل هذا التطويل ما كان يمكن أن يقود إلى غير أحاديث لا طائل تحتها ولن يتخلّلها شيء من المتعة العصبيّة والانفعال العابر، وهي شبيهة في ذلك بأوّل دفء الربيع بما يخلّف من إحساس بالإرهاق والحزن. أمّا بشأن الصديق فما كان

ينبغي أن تضلّله الوعود كثيراً، وهي أبعث نشوة في النفس من أيّ وعد سمعه في يوم، تنطق بها تلك النسوة اللواتي يشعرن شعوراً ما أشدّه بعذوبة إحدى اللحظات فيجعلهن منها بنعومة ونبل تجهلهما المخلوقات العاديّة رائعة مؤثّرة من الظرافة والطيبة ولايظلّ لديهنّ شيء يهبنه من ذواتهنّ بعدما تحلّ لحظة أخرى. فودادهن لايبقى بعد الحماسة التي تمليه، وإنّ رهافة الفكر التي قادتهنّ آنذاك إلى استشفاف جميع الأمور التي كنت راغباً في سماعها وإلى اسماعك إيّاها سوف تمكّنهنّ كذلك بعد بضعة أيّام من الوقوف على مواطن الهزء فيك فيضحكن منها آخر من زوّارهن يتذوّقن بصحبته إحدى تلك «اللحظات الموسيقيّة» التي تتّسم بالقصر الشديد.

وفي الردهة التي طلبت فيها إلى الحجّاب حذائي الثلجي الذي كنت قد أخذته بدافع الحيطة من الثلج، وقد سبق أن تساقطت منه بعض رقع سرعان ما استحالت أوحالاً، دون أن انتبه إلى أن في الأمر قلّة لياقة، شعرت من جرّاء ابتسامة متعالية صدرت عن الجميع بخجل بلغ أعلى درجاته حينما تبيّنت أنّ السيّدة «دو بارما» لم ترحل وكانت تراني انتعل حذائي المطّاطيّ الأميركي. وعادت الأميرة إليّ وصاحت قائلة: «أوه! ياللفكرة الجميلة، وكم هي عمليّة! إليكم رجلاً ذكياً». وقالت لوصيفتها: «سيّدتي، ينبغي أن نبتاع ذلك»، فيما كانت سخرية الخدم تنقلب إجلالاً ويسارع المدعوّون من حولي كي يستفسروا منّي أين أمكن أن أعثر على مثل هذه الغرائب. وقالت لي الأميرة: «بفضل هذا لن يصيبك ما تخشاه حتّى وإن عادت إلى الإثلاج وذهبت أنت بعيداً».

وقاطعتها وصيفة الشرف بلبهجة حاذقة: «يمكن لسموّك الملكي أن يطمئنّ بهذا الشأن فلن يعود الثلج إلى التساقط».

وسألت الأميرة «دو بارما» الرائعة بلهجة حادّة، وكان غباء وصيفتها يفلح وحده في أزعاجها: «وما عساك تدرين عن ذلك ياسيّدتي؟»

– «أستطيع أن أؤكّد الأمر لسموّك الملكي، لايمكن أن تعود إلى الإثلاج ففي ذلك استحالة ماديّة».

– «ولماذا؟».

– «لايمكن أن تعود إلى الإثلاج فقد قاموا باللازم لذلك: لقد رشوا الملح على الأرض».

ولم تلاحظ السيّدة الساذجة غضب الأميرة وابتهاج الآخرين لأنّها قالت لي بابتسامة وديعة دون أن تأخذ في حسابها انكاري فيما يتّصل بأمير البحر «دولا غرافيير»: «وماهمّ على أيّة حال؟ لابدّ أنّ للسيّد قدماً بحّارة، والأصيل يعمل بأصله».

بعدما صحب السيّد «دو غيرمانت» الأميرة «دو بارما» قال لي وهو يأخذ معطفي: «سأساعدك على دخول قشرتك». وما كان حتّى يتبسّم وهو يستخدم هذا التعبير لأنّ أكثرها عاميّة قد أصبح من جرّاء ذلك، وبسبب تكلّف آل «غيرمانت» البساطة، ارستقراطياً.

ولّما كانت الحماسة لاتفضي إلاّ إلى الحزن لأنّها كانت متصنّعة فإن ذلك هو ما أحسست به، وإن على نحو يغاير تماماً حال السيّدة «دو غيرمانت»، بعدما خرجت في نهاية المطاف من منزلها، داخل العربة التي

كانت تزمع نقلي إلى فندق السيّد «دو شارلوس». ذلك أنّنا نستطيع باختيارنا أن ننصرف إلى إحدى قوّتين، أولاهما ترتفع من ذاتنا وتصدر عن انطباعاتنا العميقة، والثانية تجيئنا من الخارج. فالأولى تحمل بالطبع معها فرحاً، ذاك الذي تبعثه حياة المبدعين. أمّا التّيار الثاني الذي يحاول أن يدخل فينا الاضطراب الذي يهزّ الأشخاص الخارجيّين فلا ترافقه المتعة. ولكنّنا نستطيع أن نضيف إليه متعة عن طريق الارتداد وبنشوة متكلّفة إلى حدّ أنّها سرعان ما تنقلب مللاً وحزناً. ومن هنا ذاك الوجه المتجهّم الذي يميزّ الكثيرين من رجال المجتمعات وماليديهم من الحالات العصبيّة الكثيرة التي يمكن أن تبلغ حدّ الانتحار. وقد كنت داخل العربة التي تقودني إلى منزل السيّد «دو شارلوس» فريسة هذا النوع الثاني من الحماسة وهي مختلفة تماماً عن تلك التي يخلّفها فينا انطباع شخصي كذاك الذي وافاني داخل عربات أخرى: فمرّة في «كومبريه» داخل عربة الدكتور «بيرسبييه» التي أبصرت منها قبّتي أجراس «مارتنفيل» ترتسمات في الغروب ؛ وذات يوم في «بالبيك» داخل عربة السيّدة «دو فيلباريزيس» وأنا أحاول تمييز الذكرى التي يحملها إليّ ممرّ مشجّر. فأمّا ما كان قبالة عيني فكري في هذه العربة الثالثة فالأحاديث التي سبق أن بدت لي مملّة إلى هذا الحدّ في عشاء السيّدة «دو غيرمانت»، كقصص الأمير «فون» مثلاً عن امبراطور ألمانيه واللواء «بوتا» والجيش الإنكليزي. لقد قمت بوضعها في المنظار المجسّم الداخليّ الذي نضفي بروزاً عبره، منذ اللحظة التي لم نعد فيها ذواتنا، ومنذ اللحظة التي نتخذ فيها نفساً مجتمعيّة فلا نبغي أن تجيئنا حياتنا من بعد إلاّ على يد الآخرين، نضفي بروزاً على ما قالوا وعلى ما فعلوا. وكمثل رجل ثمل يفيض رقّة مشاعر إزاء نادل المقهى الذي قام على خدمته أخذت أذهل لسعادتي التي لم أشعر بها بالحقيقة في اللحظة ذاتها، سعادتي أن تناولت عشائي مع رجل كان يعرف حقّ المعرفة «غليوم الثاني» وقد روى عنه نوادر تتّسم صدقاً بالظرف. وإذ تذكّرت، بالإضافة إلى نبرة الأمير الألمانية، قصّة اللواء «بوتا» أخذت أضحك بصوت عال كما لو كانت هذه الضحكة ضروريّة لتلك القصّة من أجل تدعيم مواطن الهزل فيها شأن بعض ضروب التصفيق التي تزيد من الأعجاب الداخليّ. حتّى ما سبق أن بدا لي من أحكام السيّدة «دو غيرمانت» متّسماً بالغباء (حول «فرانس هالز» مثلاً الذي ينبغي أن تراه من حافلة ترام) أخذ يكتسب حياة وعمقاً خارقين. ولابدّ لي أن أقول إنّ هذه الحماسة لم تكن مطلقة الحماقة وإن تهاوت بسرعة. ومثلما يمكن أن تسعدنا ذات يوم معرفة المرأة التي كنّا نزدريها أكثر ما نزدري إذ يتّفق أن تكون على صلة بفتاة نحبّها ويمكن أن تعرّف بنا وتيسّر لنا على هذا النحو الفائدة والمتعة، وهما أمران لعلنّا ظنّناها خلت منهما إلى الأبد، فليس من أقوال ولا من علاقات يمكن أن نوقن أنّنا لن نستخلص منهما يوماً شيئاً ما. إنّ ما قالته لي السيّدة «دو غيرمانت» حول اللوحات التي ربّما بدا مفيداً أن نراها حتّى من حافلة ترام كان خطأً ولكنّما يحتوي جزءاً من حقيقة كان بالنسبة إليّ كبير الأهمية فيما بعد.

وكذلك كانت أبيات «فيكتور هوغو» التي ذكرتها لي، ولابدّ من الإقرار بذلك، من فترة سابقة لتلك التي أضحى فيها أكثر من رجل جديد وأبرز فيها عبر التطوّر نوعاً أدبياً مجهولاً بعد يمتاز بأدوات أكثر تعقيداً. ففي هذه القصائد الأولى لا زال «فيكتور هوغو» يفكّر عوضاً عن أن يكتفي، شأن الطبيعة، بالدفع إلى التفكير. «فالفكر» إنّما كان يعبّر عنها حينذاك بأكثر الصيغ مباشرة وبما يقارب المعنى الذي كان يطلقه الدوق على اللفظة حينما كان يجد من قديم الطراز والإزعاج أن يقوم المدعوّون إلى حفلاته الكبرى في «غيرمانت» باتباع توقيعهم على دفتر صور القصر بفكرة فلسفيّة شعريّة فينبه الوافدين الجدد بلهجة متوسّلة: «اسمك، ياعزيزي،

ولكن بدون فكرة!» وكانت «فكرُ» فيكتور هوغو تلك (وهي غائبة تقريباً في «أسطورة القرون» غياب «الأنغام»، غياب «الألحان» في طريقة «فاغنر» الثانية) هي التي كانت السيّدة «دو غيرمانت» تحبّها في طريقة «هوغو» الأولى، وما كانت على ضلال مطلق. فقد كانت مؤثّرة، وكان تدفّق الكلمات الكثيرة والقوافي الغنيّة المخارج من حولها، ودون أن يكون الشكل قد اكتسب بعد العمق الذي لن يبلغه إلاّ فيما بعد، يجعلها غير شبيهة بتلك الأبيات التي يمكن اكتشافها لدى أمثال «كورنيي» على سبيل المثال حيث لم تنفذ رومانتيكيّة متقطعة مكتومة، وهي لذلك أكثر تأثيراً فينا، لم تنفذ مع ذلك إلى منابع الحياة المادّية ولم تغيّر الجسم اللاواعي القابل للتعميم الذي تقبع فيه الفكرة. وقد كنت لذلك غير محقّ في الاقتصار حتّى ذاك على مجموعات «هوغو» الأخيرة. كان حديث السيّدة «دو غيرمانت» لايزدان بالحقيقة إلاّ بجزء زهيد من الأولى. ولكنّك إذا ذكرت على هذا النحو بيتاً معزولاً فإنّما تضاعف بالضبط عشر مرّات قوّة الجذب فيه. وإنّ الذي ولج منها ذاكرتي أو عاد فولجها في أثناء ذلك العشاء إنّما كان يمغنط بدوره ويستدعي إليه بقوّة عظيمة المقطوعات التي تعوّد أن تضمّه إلى حدّ لم تستطع معه يداي المكهربتان أن تقاوم أكثر من ثمان وأربعين ساعة القوّة التي كانت تقودهما إلى المجلّد الذي جمعت فيه «الشرقيّات» و«أناشيد الشفق». ولعنت خادم «فرانسواز» الخاصّ أن أهدى مسقط رأسه نسختي من «أوراق الخريف» وأرسلته ليبتاع أخرى دون إضاعة لحظة واحدة. وقرأت هذه المجلّدات من أوّلها إلى آخرها وماعدت فوجدت الطمأنينة إلاّ حينما أبصرت فجأة الأبيات التي ذكرتها لي السيّدة «دو غيرمانت» وهي تنتظرني في الضياء الذي غمرتْها بها. كانت المحادثات مع الدوقة تشبه، من جرّاء كامل تلك الأسباب، تلك المعلومات التي نستقيها من مكتبة قصر متقادمة العهد ناقصة عاجزة عن تكوين العقل ومجرّدة تقريباً عن كلّ مانحبّ ولكنّها تقدّم لنا أحياناً إحدى المعلومات الغريبة وحتّى استذكاراً لصفحة جميلة ما كنّا نعرفها ويسعدنا فيما بعد أن نتذكّر أنّنا مدينون في معرفتها لمسكن سيّدي رائع. ويغرينا إذ ذاك، لأنّنا وجدنا مقدّمة «بلزاك» لكتاب «الشارتروز»(*) أو رسائل لم تنشر بعد لـ«جوبير»، أن نبالغ في تقدير الحياة التي قضيناها فيه والتي ننسى طيشها العقيم مقابل هذا الحظّ الذي أصبناه ذات مساء.

ولئن لم يستطع هذا العالم، من وجهة النظر هذه، أن يستجيب في الوهلة الأولى لما كان ينتظره خيالي وكان سيدهشني بالتالي في أوّل الأمر بما له من أسس تجمعه إلى جميع العوالم أكثر منه بما يختلف عنها فقد تكشّف مع ذلك لناظريّ شيئاً فشيئاً على أنّه متميّز تماماً. إن الأسياد العظام هم الجماعة الوحيدة تقريباً التي يمكن أن نتعلّم منها بقدر ما نعلّم من الفلاّحين، فحديثهم يزدان بكلّ ما يتعلّق بالأرض وبالمنازل وكيفيّة سكناها بالأمس وبالعادات القديمة وبكلّ مايجهله عالم المال جهلاً عميقاً. فإنْ بلغ بأكثر الأرستقراطيّين اعتدالاً في مطامحه أن يلحق بالعصر الذي يعيش فيه فإنّ أمّه وأعمامه وجدّات عمّاته يصلون بينه، حينما يتذكّر طفولته، وبين ما كان يمكن أن تكون عليه حياة مجهولة تقريباً في يومنا. ولعلّ السيّدة «دو غيرمانت» ما كانت لتشير في غرفة أموات سُجيّ فيها ميت اليوم إلى جميع مواطن الإخلال بالعادات بل كانت أدركتها في الحال. فقد كان يصدمها أن تبصر النساء في جنازة يختلطن بالرجال في الوقت الذي ينبغي أن يقام فيه للنساء طقس خاصّ. أمّا الجلالة التي ربّما حسب «بلوك» دونما شكّ أن استخدامها كان وقفاً على الجنازات

(*) La chartreuse: هو دير محبس وعنوان رواية مشهورة! «ستندال».

بسبب أشرطة الجلالة التي يتحدّثون عنها في محاضر المآتم فقد كان السيّد «دو غيرمانت» لايزال يستطيع أن يذكر الزمن الذي شاهدها فيه، وهو طفل بعد، مستخدمة في زفاف السيّد «دومانّي – نيل». وفيما كان «سان لو» قد باع «شجرة نسبه» الثمينة ورسوماً قديمة لآل «بويّون» ورسائل للويس الثالث عشر لشراء لوحات لـ«كاريير» وأثاثاً من طراز عصري، احتفظ السيّد «دو غيرمانت» والسيّدة عقيلته، يدفعهما شعور ربّما كان فيه لحبّ الفنّ المتقّد دور أدنى وجعلهما في صورة أكثر ضحالة، بأثاثهما الرائع الذي من طراز «دو بول» والذي يوفّر مجموعة أكثر إغراء لعين الفنّان. ولعلّ الأديب كذلك كان وجد فتنة في حديثهم الذي ربّما ألفّ في نظره – إذ الجائع لا حاجة به إلى جائع آخر – قاموساً حيّاً لكلّ تلك العبارات التي يزداد كلّ يوم نسيانها: فربطات عنق من طراز «سان جوزيف» وأطفال حكم عليهم باللون الأزرق، ممّا لاتجده من بعد إلاّ لدى أولئك الذين جعلوا من أنفسهم المحافظين اللطفاء المتطوّعين على الماضي. وإنّ المتعة التي يحسّ بها كاتب فيما بينهم أكثر ممّا بين كتّاب آخرين، إن هذه المتعة ليست بمعزل عن الخطر إذ يحتمل أن يحسب أن أمور الماضي ترتدي روعة في حدّ ذاتها، وأن ينقلها على حالها إلى كتبه التي تموت في هذه الحالة منذ ولادتها وتبعث مللاً يتأسّى عنه بقوله: «هذا جميل لأنّه صحيح ويؤدّى على هذا النحو». كانت تلك الأحاديث الأرستقراطية تتّسم على أيّ حال في منزل السيّدة «دو غيرمانت» بروعة أدائها بفرنسيّة ممتازة. وكانت بذلك تضفي، من جانب الدوقة، شرعيّة على ضحكها إزاء كلمات «نبوءاتي، كونّي، «بيثي»(*)، فائق» التي كان يستخدمها «سان لو» وكذلك إزاء أثاثه الذي من عتد «بينغ».

كانت الحكايات التي سبق أن سمعتها في منزل السيّدة «دو غيرمانت»، وهي مختلفة في ذلك تمام الاختلاف عمّا أمكن أن أحسّ به أمام أزاهير الزعرور أو لدى تذوّقي إحدى الكعكات، كانت على الرغم من كلّ شيء غريبة عنّي. لكأنّها، وقد داخلتني لحظة، أنا الذي لم تمتلكه إلاّ جسدياً، لكأنّها (وهي من طبيعة اجتماعيّة وليس فرديّة) كانت في عجلة للخروج منّي. وكنت أضطرب في العربة شأن إحدى العرّافات. كنت انتظر مأدبة عشاء جديدة أستطيع أن أضحي فيها بدوري من أمثال الأمير س... والسيّدة «دو غيرمانت» وأن أرويها. وبانتظار ذلك كانت ترجّف شفتيّ اللتين تتمتمانها، وعبثاً أحاول أن أردّ فكري إليّ وقد جرفته على نحو مدوّخ قوّة نابذة. فكان أن قرعت لذلك جرس السيّد «دو شارلوس» يتلهفّ محموم إلى ألاّ أحمل عبثها وحدي فترة أطول في عربة كنت أشاغل النفس فيها على أيّ حال عن قلّة الحديث بالكلام بصوت عال، وأن قضيت، في حوار طويل بيني وبين ذاتي كنت أردّد فيه لنفسي كلّ ما أزمع أن أقصّه عليه وأكاد لا أفكّر من بعد بما يمكن أن يقوله لي، كامل الوقت الذي مكثت فيه في صالة أدخلني إليها خادم خاص وكنت على أي حال أكثر اضطراباً من أن أتفحصّها. وكانت بي حاجة عظيمة إلى أن يصغي السيّد «دو شارلوس» إلى القصص التي كنت أتحرّق إلى روايتها له إلى حدّ أنّي أصبت بخيبة قاسية إذ حسبت أنّ سيّد البيت ربّما كان نائماً وأنّه لابدّ لي من العودة إلى منزلي أدفن فيه سكري الكلاميّ. فلقد تمّ لي أن ألاحظ بالفعل أنّه انقضى خمس وعشرون دقيقة على وجودي هناك وأنّهم ربّما نسوني في هذه الصالة التي ربّما أمكنني على الأكثر أن أقول على الرغم من ذاك الانتظار الطويل إنّها كانت شاسعة ضاربة إلى الخضرة، إلى جانب بعض الرسوم. إن

(*) نسبة إلى «بيثيا» التي كانت تتنبأ في معبد «أبولو» في «دلفي».

الحاجة إلى الكلام لاتحول دون الإصغاء فحسب، بل دون الرؤية، وإنّ غياب أيّ وصف للوسط الخارجيّ في هذه الحالة إنّما يؤلف مذ ذاك وصفاً لحالة داخليّة. وكنت أوشك الخروج من الصالة لأحاول استدعاء أحدهم، فإن لم ألق أحداً فلاستدلال طريقي إلى الردهات والرجاء بأن يفتحوا لي حينما دخل خادم خاصّ، وهو بادي الاهتمام، في هذه اللحظة نفسها التي أقدمت فيها على النهوض والقيام ببضع خطوات على الأرض الخشبيّة المقطعّة قطعاً صغيرة، وقال لي: «لقد شغل السيّد البارون بمواعيد حتّى الآن، ولايزال ثمّة عدّة أشخاص ينتظرونه. سأبذل كلّ ما بوسعي كي يستقبل سيّدي وقد أرسلت من هتف مرّتين للسكرتير».

– «لا، لاتزعج نفسك، لقد كنت على موعد مع السيّد البارون ولكنّ الوقت تأخرّ كثيراً وبما أنّه مشغول في هذا المساء فسوف أعود في يوم آخر».

فصاح الخادم يقول:

– «لا، لايذهبن سيّدي، فقد يستاء السيّد البارون ؛ سأحاول مرّة ثانية».

وتذكّرت ما سبق أن سمعته عن خدم السيّد «دو شارلوس» وعن تفانيهم في سبيل سيّدهم. لم يكن يمكن أن يقال عنه تماماً، شأن الأمير «دو كونتي»، إنّه كان يحاول أن يروق الخادم والوزير على حدّ سواء ولكنّه أحسن في أن يجعل من أقلّ الأمور التي يطلبها ضرباً من المنّة إلى حد أنّه حينما كان يقول، وقد تحلّق حوله خدّامه على مسافة يفرضها الاحترام وبعدما ينقّل فيهم نظراته: «الشمعدان ياكوانييه!» أو «القميص يادوكريه!» فإنّما كان الآخرون ينسحبون وهم يدمدمون غيرة ويحسدون هذا الذي ميزّه المعلّم. بل كان ثمّة اثنان، وكانا متكارهين، يحاول كلّ منهما أن يخطف الحظوة من الآخر بالمبادرة لأتفه حجّة إلى إبلاغ البارون بالأمر، إن كان صعد قبل ذلك، عسى أن يكلف في هذا المساء مهمة الشمعدان أو القميص. فإن وجّه الحديث مباشرة إلى واحد منهم لأمر لايدخل في نطاق الخدمة، بل أكثر من ذلك إن هو قال في فصل الشتاء وفي الحديقة، وهو يعلم أنّ أحد حوذيّيه يعاني من رشح، إن قال له بعد انقضاء عشر دقائق: «ضع قبعّتك»، لم يعد الآخرون يكلّمونه على مدى خمسة عشر يوماً من باب الغيرة وبسبب المنّة التي نالها.

وانتظرت عشر دقائق أخرى ثم أدخلت بالقرب منه بعدما طلب إليّ ألا أمكث طويلاً جدّاً لأنّ السيّد البارون قد اضطّر، من تعب، أن يصرف عدّة أشخاص من أكثرهم أهمية سبق أن حصلوا على موعد منذ أيام طويلة. كان ذلك الإخراج من حول السيّد «دو شارلوس» يبدو وكأنّه يتّسم بعظمة تقلّ كثيراً عن بساطة أخيه «غيرمانت»، ولكنّ الباب كان قد فتح وأبصرت البارون بمبذل صينّي مكشوف العنق مستلقياً على أريكة. وقد أدهشني في اللحظة نفسها رؤية قبعّة رسميّة بـ«ثماني لمعات» على كرسي إلى جانب فراء وكأنّما عاد البارون منذ قليل. وانسحب الخادم الخاصّ. وظننت أنّ السيّد «دوشارلوس» سيتقدمّ نحوي. فحدّق إلي بعينين قاسيتين دون أن يقوم بحركة واحدة. واقتربت منه وحيّيته فلم يمدّ إليّ يداً ولم يجبني ولم يسألني أن اتّخذ لنفسي كرسياً. وسألته بعد فترة، كما قد تفعل بطبيب سيء التهذيب، إن كان من الضرورة أن ألبث واقفاً. وقد فعلت ذلك دون نيّة سوء ولكنّما بدا أن مظهر الغضب الهادئ الذي كان يداخل السيد «دوشارلوس» ازداد. وكنت أجهل على أيّ حال أنّه تعودّ في بيته في الريف وفي قصر «شارلوس» أن يستلقي بعد العشاء، لشدّة ما يحبّ

أن يلعب دور الملوك، على مقعد في حجرة التدخين تاركاً مدعوّيه وقوفاً من حوله. كان يسأل أحدهم ناراً ويقدّم لآخر سيكاراً ثم يقول بعد بضع لحظات: «ولكن هيّا اجلس يا «أرجنكور»، خذ كرسياً ياعزيزي، إلخ»، وقد أصرّ على إطالة وقفتهم لمحض أن يبرهن لهم أنّ الإذن بالجلوس إنّما يجيئهم منه. وأجابني بلهجة آمرة وبغية أن يرغمني على الابتعاد عنه أكثر منه ليدعوني إلى الجلوس: «اجلس في المقعد الذي من طراز لويس الرابع عشر». فأخذت مقعداً لم يكن ببعيد. وصاح مستهزئاً: «آه! هذا ما تسميّه مقعداً من طراز لويس الرابع عشر! أرى أنّك شاب متعلّم». وأصابني من الذهول مالم أبرح معه مكاني، لا لأنصرف كما كان يجدر بي أن أفعل، ولا لأبدّل مقعدي مثلما كان يبغي. فقال لي وهو يزن جميع الألفاظ التي كان يضع في مقدّمة أكثرها وقاحة زوجاً مضاعفاً من السواكن: «ياسيّد، إن الحديث الذي تنازلت فمنحتك إيّاه تلبية لرجاء شخص يرغب ألاّ أسميّه يشير إلى النقطة النهائية في علاقاتنا. ولن أكتمك أنّني أمّلت أفضل من ذلك. وربّما تحاملت قليلاً على معنى الكلمات، وهو مالا يجدر أن نفعل حتّى مع من يجهل قيمتها ولمحض احترام ذواتنا، إن قلت لك إنّه سبق أن داخلني بعض الودّ لك. على أنّي اعتقد أنّ «العطف» بما يتضمنّ من معنى الرفق الأكثر فعاليّة قد لايجاوز لا ما كنت أحس به ولا ما كنت عازماً على الإعراب عنه. لقد سبق أن أبلغتك منذ عودتي إلى باريس وفي «بالبيك» بالذات أنّك تستطيع الإعتماد عليّ». أمّا أنا الذي كان يذكر بأيّ فلتة لسان فارقه السيد «دو شارلوس» في «بالبيك» فقد هممت بحركة تفيد الإنكار. فصرخ غاضباً: «ويحك!» وكان وجهة المتشنّج الشاحب يختلف بالفعل عن وجهه العاديّ بمقدار ما يختلف البحر حينما تبصر في صبيحة عاصفة بدلاً من الصفحة المشرقة المعتادة ألف أفعى من رغوة وزبد، «تزعم أنّك لم تتبلّغ رسالتي – وهي تقارب البوح – في وجوب أن تتذكّرني؟ فما الذي كان بمثابة تزويق حول الكتاب الذي بعثت به إليك؟».

فقلت له: «مشبّكات منمّقة في غاية الجمال».

فأجاب بازدراء: «آه! معرفة الشبّان الفرنسيّين بروائع بلدنا يسيرة. ما عسى أن نقول عن برلينّي شابّ لايعرف الـ«فالكيري»»(*) ؟ ولابد على أيه حال أنّك تملك عينين لاتبصر بهما بما أنّك قلت لي إنّك أمضيت ساعتين أمام هذه الرائعة الفنيّة. وأرى أنّك لست أفضل خبرة في الأزهار منك في «الطُرز». وصاح بلهجة حانقة حادّة: «لاتحتجّ فيما يخصّ الطرز فانّك حتّى لاتعرف ما أنت جالس فوقه وتقدّم لعَجزك كرسياً من طراز عصر المديرين بمثابة كرسيّ من طراز لويس الرابع عشر. وسوف يخيّل إليك في يوم أنّ ركبتي السيّدة «دو فيلباريزيس» هما المغسلة ولاندري ما عساك تفعل بها. وأنت كذلك حتّى لم تتعرّف في جلدة كتاب «بيرغوت» إفريز أزهار آذان الفار في كنيسة «بالبيك» فهل كان ثمّة طريقة أكثر صفاء في أن أقول لك: «لا تنسني» ؟. (**)

كنت أتأمّل السيّد «دوشارلوس». صحيح أن رأسه البديع، والذي كان يبعث الاشمئزاز في النفس، كان يرجح على رأس جميع ذويه؛ لكأنّه «أبولون» هرم، ولكنّ زبداً بلون الزيتون صفراوياً كان يبدو وكأنّه يوشك أن يطفر من فمه الشرّير. فأمّا الذكاء فما كان بمقدور أحد أن ينكر أنّ ذكاءه كان يشرف بخطّة فرجار واسعة

(*) La Walkyrie هي اليوم الثاني لرباعية «فاغنر» مستوحاة من قصص «نيبلونغن».

(**) «لاتنسني» هو الاسم الآخر لزهر آذان الفار.

على أمور كثيرة ربّما ظلّت على الدوام مجهولة لدى الدوق «دو غيرمانت». ولكن أيّة كانت الكلمات المعسولة التي يلوّن بها صنوف حقده فقد كنت تحسّ. وإن كان فيها شيء من الكبرياء المجروحة تارة، ومن الحبّ المخيّب أخرى أو ضغينة أو ساديّة أو مشاكسة أو فكرة ثابتة، كنت تحسّ أن هذا الرجل قادر أن يقتل وأن يقيم البرهان لفرط المنطق والكلام المنّمق أنّه كان محقاً في أن يفعل ولا يقلّل ذلك من تفوّقه مئة باع على شقيقه وزوجة شقيقه، إلخ. إلخ.

وأضاف يقول: «وكما هي الحال في «حراب» الرسّام «فيلاسكيز» فإن الغالب يتقدّم باتّجاه من كان الأكثر اتّضاعاً، ومثلما يجدر بكل بشر نبيل، بما أنّي كنت كلّ شيء ولم تكن شيئاً، فقد قمت أنا بالخطوات الأولى باتّجاهك. وقد استجبت استجابة حمقاء لما لايقع عليّ أنا أن أسميّة رفعة النفس. ولكنّي لم أدع لعزيمتي أن تنهار. إن ديننا يدعو إلى طول الأناة، وأملي أنّ ما أبديته أزاءك من طول أناة سوف يحتسب لي وأني لم أقابل بغير الابتسامة ما يمكن أن يوصف بالوقاحة لو كان في متناولك أن تبدي شيئاً منها تجاه من يفوقك بهذا القدر من الباعات. على أيّ حال لم يعد ذلك مسألة بحث. لقد أخضعتك للاختبار الذي يدعوه الرجل البارز الوحيد في عالمنا، يدعوه بذكاء اختبار اللطف المفرط والذي يعلن بحقّ أنّه من أكثرها قسوة والوحيد الذي يستطيع أن يفصل الحنطة عن الزؤان. وأكاد لا ألومك على أنّك لم تجتزه بنجاح لأنّ الذين يفلحون فيه قليلون جداً. ولكنّما مرادي على الأقلّ، وتلك هي النتيجة التي أبغي استخلاصها من الكلمات الأخيرة التي سنتبادلها على هذه الأرض، أن أكون بمأمن من اختلاقاتك وافتراءاتك».

لم يكن قد خطر لي حتّى ذاك أن يكون سبب غضب السيّد «دو شارلوس» مقالة مسيئة نقلوها إليه. وساءلت الذاكرة ؛ ولم أكن قد كلّمت أحداً عنه. لقد لفّقها أحد الأشرار جملة وتفصيلاً. وأكدّت محتجاً لدى السيد «دو شارلوس» أنّني لم أقل شيئاً على الإطلاق. «لا أحسب أنّه يمكن أن أكون أغظتك بقولي للسيّدة «دو غيرمانت» أنّني على صلة صداقة بك». وابتسم بتعال وارتفع بصوته إلى أقصى درجاته وهنا أخذ بلطف على أكثر النغمات ارتفاعاً وأشدّها وقاحة وقال وهو يعود ببطء شديد إلى النبرة الطبيعيّة وكأنّما به افتتان عارض لغرابة هذا السلّم الموسيقي النازل:

«أوه! ياسيّد، في اعتقادي أنّك تلحق الأذى بنفسك حينما تقرّ بأنّك قلت إنّنا نرتبط بصلة صداقة. لست أتوقّع صحّة لفظيّة كبيرة جداً ممّن قد يتّخذ بسهولة قطعة أثاث من طراز «شيبندال» بمثابة كرسيّ من طراز «الروكوكو». وأضاف يقول بتنغيمات صوتية متزايدة السخرية يطفو منها على شفتيه ما يبلغ حدّ الإبتسامة الرائعة: «على أنّي لا أحسبك قلت أو صدّقت أنّنا نرتبط بصلة صداقة! فأمّا أن تكون باهيت بأنّك عرفت بي وأنّك تحدثت إليّ وأنّك على معرفة قليلة بي وأنّك نلت دونما سعي تقريباً إمكان أن تكون يوماً في حمايتي فانّي أرى على العكس من الطبيعي جداً ومن قبيل الذكاء أن تكون فعلته. إن فارق السنّ العظيم الذي بيننا يخوّلني أن اعترف دونما سخرية تصيبني أن هذا التعريف وهذه الأحاديث ووهم بداية العلاقات هذا كانت بالنسبة إليك، ليس يجدر بي أنا أن أقول شرفاً، وإنّما أقلّه مكسباً أرى أنّ غباوتك قامت لا على اذاعته بل على أنّك لم تحسن الحفاظ عليه». وقال وهو ينتقل فجأة وللحظة من الغضب المتعالي إلى نعومة تلوّنها كآبة عظيمة إلى حدّ أنّني ظننته يزمع أن يأخذ في البكاء: «بل سوف أضيف أنّي، حينما تركتَ عرضي لك في باريس

دون جواب، إنّما بدا لي الأمر لايصدّق فيما يخصّك أنت الذي سبق أن تراءى لي حسن التهذيب ومن أسرة بورجوازية طيبّة» (وكان لصوته أزّة وقاحة على هذه الصفة وحدها)، «حتّى بلغت بي السذاجة أن أصدّق جميع المزحات التي لا تقع في يوم والرسائل المفقودة والعناوين الخاطئة. وإنّي أقر بأنّها كانت سذاجة عظيمة فيما يخصني، ولكنّ القدّيس «بونفانتور» كان يفضلّ أن يصدّق أنّ ثوراً يمكن أن يطير على إمكان أن يكذب أخوه. كلّ ذلك قد انقضى على أيّ حال والأمر لم يحسن في عينك ولم يعد موضع بحث غير أنّه يبدو لي أنّه كان بامكانك»، (وحقاً كانت الدموع تبلّل صوته) «إجلالاً لسني على الأقل، أن تكتب إلي. وكنت قد صمّمت بشأنك أموراً مغرية إلى مالاحدود حاذرت تماماً أن أقولها لك. وقد فضّلت أن ترفض دون أن تعلم، وذلك شأنك أنت. ولكن، مثلما أقول لك، الكتابة ممكنة دوماً. ولعلّني في موقعك، وحتّى في موقعي، كنت فعلت ذلك. وإنّي أفضل بسبب ذلك موقعي على موقعك، وأقول بسبب ذلك لأنّي اعتقد أن جميع المواقع متساوية وإني لأودّ عاملا ذكياً أكثر من العديد من الدوقة. ولكنّ بمقدوري أن أقول إنّي أفضل موقعي لأن مافعلتّه أعلم أني ما فعلته قطّ في حياتي كلّها التي أخذت تبدو طويلة إلى حد ما». (كان يدير رأسه في الظلام فلا أستطيع أن أبصر إن كانت عيناه تفيضان بالدمع مثلما يوحي بذلك صوته). «كنت أقول لك إنّي قمت بمئة خطوة في ملاقاتك، الأمر الذي كان من شأنه أن دفعك إلى القيام بمئتي خطوة إلى الوراء. والآن جاء دوري في الإبتعاد ولن يعرف أحدنا الآخر من بعد. لن أحفظ اسمك، بل حالتك كي أتذكّر في الأيّام التي ربّما أغراني فيها الاعتقاد بأن الناس يملكون قلباً ويتّسمون بالتهذيب، أو يملكون الفطنة فحسب في تجنّب السماح لفرصة لاثانية لها بالإفلات منهم، أنّي أضعهم أعلى موقعاً ممّا ينبغي. لا، أن تكون قلت إنّك تعرفني حينما كان ذلك صحيحاً – إذ سيكفّ الأمر الآن عن كونه صحيحاً – فليس بمقدوري إلاّ أن أرى ذلك طبيعياً وإنّي أعدّه بمثابة تكريم أي على أنّه يشرح الصدر. ولكنّك لسوء الحظّ تفوّهت بأقوال مختلفة جداً في مكان آخر وظروف أخرى».

– «أقسم لك ياسيّد أنني لم أقل شيئاً من شأنه إلحاق الإهانة بك».

فصاح بحنق وهو ينتصب بعنف على الكرسيّ الطويل الذي كان قد مكث فيه حتّى ذاك لايبدي حراكاً في حين كان صوته يضحي على التوالي حاداً وخفيضاً كعاصفة هائجة تصمّ الآذان، فيما تتلوّى حيّات وجهه الشاحبة المزبدة: «ومن ذا يقول إني أحسّ في ذلك إهانة؟» (كانت الشدّة التي يتحدّث بها عادة والتي كانت تضطّر الغرباء في الخارج إلى الالتفات تتضاعف مئة مرّة مثلما هي إشارة «بقوّة» إن عزفتها الأوركسترا بدلاً من أن يعزفها البيانو وإن هي انقلبت فوق ذلك إلى إشارة «بقوّة كبيرة». لقد كان السيّد «دو شارلوس» يزعق بأعلى صوته)، «أتحسب أنّ من شأنك إهانتي؟ أفلا تعلم إذن إلى من تتحدّث؟ أو تظنّ أن الزبد المسموم يطلقه خمس مئة من الصبية أصدقائك الذين تكدّس بعضهم فوق بعض قد يفلح حتّى في بلّ أصابع قدميّ؟».

كان قد أعقب منذ هنيهة رغبتي في إقناع السيّد «دو شارلوس» أنّني لم أسيء مرّة إليه ولاسمعت من يسيء إليه حنق مجنون مبعثة الأقوال التي كانت تمليها عليه، فيما أرى، كبرياؤه اللا محدودة. وربّما كانت في جزء منها على أيّ حال نتيجة تلك الكبرياء. وكان الباقي بأسره تقريباً ينجم عن شعور كنت أجهله وما

كان ذنبي إذن أنّني لم أفرد له حصتّه. لعلّني كنت أستطيع على الأقلّ، في تعذّر وجود الشعور المجهول، أن أمزج بالكبرياء، لو أنّني تذكّرت أقوال السيدة «دو غيرمانت»، قليلاً من الجنون. ولكنّ فكرة الكبرياء لم تخطر حتّى على بالي في تلك اللحظة. فلم يكن في صدره حسبما أرى سوى الكبرياء، وفي صدري سوى الحنق. ولم يقف هذا الحنق (لحظة كان يكفّ السيد «دو شارلوس» عن الصياح كي يتحدّث عن أصابع قدمه السامية بجلال ترافقه تكشيرة وإقياءة اشمئزاز تجاه لاعنيه المغموررين)، لم يقف عند حدّ من بعد. وودت بحركة نزقة أن أضرب شيئاً ما وإذ دفعتني بقية من روّية إلى احترام رجل يكبرني بكثير وحتّى أواني الخزف الألمانية الموضوعة من حوله بسبب رتبتها الفنية انقضضت على قبعّة البارون الرسميّة الجديدة وألقيت بها أرضاً ودستها بقدمّي وانكببت عليها تقطيعاً ونزعت العمرة ومزّقت التاج قسمين دون أن أصغي إلى زعاق السيّد «دو شارلوس» المتوالي واجتزت الغرفة لأمضي في سبيلي ففتحت الباب. كان على جانبيه ما أثار كبير دهشتي، كان يقف خادمان خاصّان ابتعدا ببطء كي يبدو وكأنّهما وجدا هنا لمحض مرورهما من أجل أمور وظيفتهما (وقد علمت مذ ذاك اسميهما، فالأوّل كان يدعى «بورنييه» والآخر «شارميل»). ولم ينطل عليّ لحظة واحدة ذلك التفسير الذي كانت تبدو مشيتهما الكسولة وكأنّها تقدّمه لي. فقد كان مستحيلا. وبدت ثلاثة أخرى أقلّ استحالة: أحدها أنّ البارون كان يستقبل أحياناً ضيوفاً كان يحكم من الضروريّ، إذ يمكن أن يحتاج إلى عون ضدّهم (ولكن لماذا؟)، أن يتوافر له مركز نجدة قريب؛ والآخر أنّ الفضول قد اجتذبهما فأخذا يتنصتّان دون أن يخطر لهما أنّني قد أخرج بهذه السرعة؛ وثالثها أنّ كامل الحنق الذي أبداه لي السيد «دو شالوس» كان مهيّأ سلفاً ومتكلفاً وقد طلب إليهما بنفسه أن يتنصتّا حبّاً بالعروض التي ربّما اقترنت بـ «Nunc eru di-mii»(*) يفيد كلّ منه بدوره.

لم يكن غضبي قد هدّأ غضب البارون، أمّا خروجي من الغرفة فقد بدا أنّه يورثه ألماً شديداً فاستدعاني، وأمر من يستدعيني وفاته أخيراً أنّه ظنّ قبل لحظة، وهو يتحدّث عن «أصابع قدميه السامية»، أنّه سيجعل منّي شاهداً على تأليهه فجرى بأقصى سرعته ولحق بي في الردهة واعترض سبيلي إلى الباب وقال لي: «هيّا، لا تكن طفلاً، عد دقيقة واحدة، فخير المحبّة في خير العقاب ولئن كنت عاقبتك فلأنّما أحبّك». وزال غضبي وتغاضيت عن كلمة «عقاب» وتبعت البارون الذي نادى خادماً خاصّاً وأمره دون أي اعتزاز بالنفس أن يحمل نتف القبّعة المتلفة التي استبدلت بها أخرى.

وقلت للسيّد «دو شارلوس: «إن تكرّمت ياسيّدي وقلت لي من الذي غدربي وافترى عليّ فأظلّ لأعلم ذلك وألحق الخزي بالمنافق».

— «من؟ ألست تعرفه؟ أفلا تتذكّر ما تقول؟ أو تحسب أنّ الذين يؤدّون لي معروفاً باطلاعي على هذه الأمور لايبدؤون بمطالبتي بالسرّ؟ وتظنّ أنّي سأخلف بما وعدت؟».

وسألت وأنا أبحث للمرّة الأخيرة في رأسي (حيث لا أجد أحداً) إلى من أمكن أن أتحدّث عن السيّد «دو شارلوس»: «أيستحيل أن تقول لي ذلك ياسيّد؟».

(*) اثبتنا العبارة اللاتينية في النص عمداً لاتصالها بلغة الأرستقراطيين وتعني: «الآن احطتم علماً».

فقال لي بصوت داوٍ: «ألم تسمع أنّي وعدت مبلّغي بالسرّ؟ وإنّي أرى أنّك تجمع إلى ميلك إلى الأقوال الممجوجة ميلاً إلى الإلحاح اللامجدي. وحريّ بك على الأقلّ أن تحسن الإفادة من محادثة أخيرة وأن تتكلّم لتقول شيئاً لايكون بالضبط لاشيء».

فأجبت وأنا ابتعد عنه: «إنّك تشتمني ياسيّد، وأرى أنّي أعزل من السلاح بما أنّ عمرك أضعاف عمري فلا تكافؤ بيننا. وإنّي عاجز من جهة أخرى عن إقناعك وقد أقسمت لك أنّني لم أقل شيئاً».

فصاح بصوت مخيف ووثب وثبة حطّت به على خطوتين منّي: «فانّي أكذب إذاً!» – «لقد خدعوك».

حينئذ قال لي بصوت ناعم حنون كئيب كما هي الحال في هذه السمفونيات التي تُعزف دونما انقطاع بين مختلف المقطوعات حيث تعقب حركة سريعة رشيقة لطيفة شاعرية صواعق المقطوعة الأولى: «ذلك ممكن تماماً، فنادراً ما يصدق قول منقول من حيث المبدأ. والحقّ عليك إن كنت لم تستغلّ الفرص التي وفّرتها لك لزيارتي فلم تزودّني» عبر تلك الكلمات الصريحة اليومية الي تصنع الثقة، بالواقي الوحيد والمطلق في وجه قول كان يصوّرك بمثابة الخائن. وإن يكن صحيحاً أو باطلاً فقد فعل القول في جميع الأحوال فعلته. ولست أستطيع من بعد التخلّص من الإنطباع الذي خلّفه في نفسي. لست حتّى أستطيع القول بأنّ خير المحبّة في خير العقاب لأنّني عاقبتك خير عقاب ولكنّي لا أحبّك من بعد». وفيما كان يقول هذه الكلمات أجبرني على الجلوس ثانية وقرع الجرس. ودخل خادم خاصّ جديد. «جيئونا بشراب وبلّغوا باسراج جياد العربة». وقلت إني لم أكن عطشاً وان الساعة تقدّمت بي كثيراً وإنّ لي عربة في جميع الأحوال». فقال لي: «لابدّ أنّهم نقدوها وردّوها فلا تهتمّ بها. لقد أمرت بالإسراج كي يعيدوك... وإن خشيت أن يكون الوقت قد تقدم... فلعلنّي استطيع أن أقدم لك غرفة ههنا...» فقلت إن والدتي قد تقلق. «أجل، لقد فعل القول فعلته إن يكن صحيحاً أو كاذباً. لقد أزهر ودّي المبكّر بعض الشيء قبل أوانه بكثير، وكمثل أشجار التفاح التي كنت تتحدّث عنها في «بالبيك» لم يقوَ على مقاومة أوّل جمدة». ولو أن ودّ السيّد «دو شارلوس» لم يتهدّم لما استطاع مع ذلك أن يفعل غير ما يفعل إذ هو يحملني على البقاء والشرب، فيما هو يقول لي إنّنا على خلاف، ويسألني أن أنام ويزمع أن يطلب اعادتي إلى المنزل. بل كان يبدو أنّه يخشى لحظة فراقي وأن يعود فيلقى نفسه وحيداً، من نوع الخشية تلك التي يشوبها بعض القلق والتي سبق أن بدا لي لساعة خلت أن زوجة أخيه وابنة عمّه «الغيرمانتيّة» أحسّت بها حينما خطر لها أن ترغمني على البقاء قليلاً بعد بنوع من الميل العابر نفسه إليّ والجهد نفسه للإطالة دقيقة واحدة.

وعاد يقول: «ومن سوء الطالع أنّي لا أملك موهبة أن أعيد الزهر إلى ما سبق أن ولّى. لقد مات ودّي لك موته الأخير وليس ما يقوى على بعثه من جديد. ولا أظنّ أنّ من غير اللائق بي الاعتراف بأنّي آسف لذلك. فانّي أحسني على الدوام مثل «بوعز» فيكتور هوغو إلى حدّ ما:

«إنّي أرمل وأنا وحيد وحولي يحلّ الظلام».

وعدت فاجتزت برفقته الصالة الكبيرة الخضراء. وقلت له على نحو عارض تماماً إلى أي حدّ كنت أراها جميلة. فأجاب: «أليس كذلك؟ لابدّ لنا أن نحبّ شيئاً ما. إنّ الخشبيّات من يد «باغار» وما هو لطيف إلى

حدّ ما، كما ترى، أنّها صنعت من أجل المقاعد التي من طراز «بوفيه» وطاولات الجدارن. تلاحظ أنّها تكرّر موضوعها التريني نفسه. ولم يظلّ ثمّة غير دارين بقي فيهما الأمر على هذا النحو: اللوفر ومنزل السيّد «دينيسدال» ولكن ما أن عزمت على المجيء للسكني في هذا الشارع حتّى اتّفق لي بالطبع فندق قديم يدعى «شيميه» لم يكن قد رآه أحد بما أنّه لم يجئ ههنا إلاّ من أجلي. ذلك حسن باختصار القول. ربّما أمكن أن يكون أفضل، ولكن لا بأس على أيّ حال. أليس أنّ ثمّة أشياء حلوة، رسم أعمامي، ملك بولونيا وملك انكلترا بريشة «مينيار» ولكن ما هذا الذي أقوله لك، إنّك تعرفه بقدر ما أعرفه بما أنّك انتظرت في هذه الصالة. لا؟ فهم وضعوك إذاً في الصالة الزرقاء»، يقول بلهجة تنّم عن وقاحة إزاء خلوّي من الفضول وإمّا عن تفوّق شخصي وأنّه لم يسأل عن المكان الذي طلب إليّ الانتظار فيه. «خذ مثلاً، في هذه الحجرة جميع القبّعات التي اعتمرتها السيّدة «اليزابيت» والأميرة «دو لامبال» والملكة. ذلك لايثير اهتمامك، لكأنك لاتبصر. ربما عانيت من إصابة في العصب البصري. فان كنت أكثر حبّاً لهذا النوع من الجمال فهوذا قوس قزح بريشة «تورنر» أخذ يلمع بين هاتين اللوحتين لـ«رامبرنت» وذلك كعنوان لمصالحتنا. أتسمع: إن بيتهوفن ينضمّ إليه». وكنّا نميزّ بالفعل التناغمات الأولى من القسم الثالث في «السمفونية الرعويّة»، «الحبّ بعد العاصفة»، يعزفها موسيقيون غير بعيد عنّا، في الطابق الأول دون شك. وسألت بسذاجة بأي مصادفة يعزفون ذلك ومن كان الموسيقيّون فقال لي بلهجة تشوبها بعض الوقاحة ولكنّها تذكّر قليلاً مع ذلك بتأثير «سوان» ونبرته: «إيه! لاندري، لسنا ندري البتّة. إنّها من نوع الموسيقى الخفيّة. ولكنّك لاتعبأ بها، شأن سمكة بتفّاحة. إنّك تودّ العودة وإن قصّرت في واجب احترامك لبيتهوفن ولشخصي». وأضاف بلهجة وديّة حزينة حينما آن أوان رحيلي: «إنّك تصدر على نفسك الحكم وتدينها». وقال لي: «أعذر لي أنّي لا أصحبك مثلما يقضي عليّ حسن السلوك أن أفعل. فليس يهمنّي كثيراً، وأنا راغب ألاّ أراك من بعد، أن أقضي خمس دقائق إضافيّة وإيّاك. ولكنّي متعب ولدي عمل كثير». وإذ لا حظ أن الطقس جميل جدّاً: «ولكن بلى، سأستقل العربة. ثمة ضياء قمر رائع وسأمضي لأتأمله في الغابة بعدما أكون صحبتك». وقال لي وهو يمسك بذقني بين اصبعين ممغنطين، إن جاز القول، صعداً، بعد مقاومة دامت لحظة، حتّى أذنيّ كأصابع الحلاّقين: «عجباً! إنّك لاتعرف كيف تحلق، وتحتفظ ببضع شعرات حتّى في مساء تتناول فيه عشاءك في المدينة». ثم قال لي بعذوبة مفاجئة وكأنّما لا أراديّة: «آه! إنّها لمتعة أن أتأمل «ضياء القمر الأزرق هذا» في الغابة برفقة رجل مثلك»، ثمّ أضاف بهيئة حزينة: «لأنّك مع ذلك لطيف» ؛ وأردف يقول وهو يربت أبويّاً على كتفي: «وربّما استطعت أن تكون أكثر لطفاً من سواك. وينبغي لي أن أقول إنّي كنت أراك بالأمس غير ذي شأن إلى أبعد حدّ». ولعلّه كان يجدر بي الظنّ بأنّه لايزال يراني على مثل ذلك وما عليّ سوى أن اتذكّر الحنق الذي حدّثني به لنصف ساعة خلت أولاتكاد. وكان يخيّل إليّ مع ذلك أنّه صادق في هذه اللحظة وأن قلبه الطيبّ فاق ما كنت اعدّه بمثابة حالة تكاد تكون هذيانية من فرط الحساسية والكبرياء. كانت العربة أمامنا وهو لايزال يطيل الحديث. وقال لي فجأة: «هيّا، اصعد، بعد خمس دقائق سنكون في منزلك وسوف احييك تحيّة تضع إلى الابد حدّاً لعلاقاتنا. وخيرلنا، بما أنّنا سنفترق إلى الأبد، أن نفعل ذلك كما هي الحال في الموسيقى بتناغم تامّ». ولعلّني كنت أقسم، على الرغم من هذه التوكيدات الرسميّة بأنّنا لن نلتقي ثانية بعد اليوم، أنّ السيّد «دو شارلوس» ما كان ليغضبه أن نتلاقى مرّة أخرى، وقد أزعجه أن يكون نسي نفسه قبل قليل وهو يخشى أن يكون غمّني لم أكن مخطئاً إذ قال لي بعد لحظة: «ويحك! ها إنّي نسيت الأمر الرئيسي. فقد أمرت، تذكاراً للسيّدة جدّتك، بتجليد طبعة غريبة للسيدة «دو سيفينييه» من أجلك. وهو ذا ما سيحول دون أن يكون هذا اللقاء هو الأخير. ولابدّ أن يعزّينا

عن ذلك قولنا إنّا نادراً ما ماننهي في يوم واحد مسائل معقّدة. فانظر كم امتدّ مؤتمر فيينّا».

فقلت بلطف: «ولكنّي استطيع أن أبعث في جلبها دون أن أكلّفك هذا العناء».

فأجاب بغيظ: «تفضّل واصمت، أيها الغبيّ الصغير، ولاتبدُ مضحكاً في اعتبار شرف استقبالك المحتمل على يدي (ولست أقول الأكيد فربّما كان خادماً خاصاً من سيحمل إليك المؤلفات) أمراً قليل الشأن».

وتمالك نفسه وقال: «لا أودّ أن أفارقك على هذه الكلمات. فلا نغم شاذّ، وقبل الصمت الأبدي تناغم على العلامة الرئيسيّة!» وإنّما بدا أنّه يخشى على أعصابه هو من العودة حالاً، بعد أقوال خلاف جافية، فقال لي بلهجة التأكيد لا الأستفهام، وليس ذلك فيما بدا لي لأنّه لايريد أن يوفّر لي ما يقول بل لأنّه يخشى أن تمنى عزّة نفسه بالرفض: «لا تريد أن تأتي حتّى الغابة» ؛ ثمّ قال لي وهو يتباطأ أيضاً: «هيا انتبه، إنهّا الفترة التي يعود فيها، حسبما يقول «ويستلر»، البورجوازيون»(ربّما كان يودّ ارضاء اعتزازي بنفسي) «والتي يجدر بنا فيها أن نشرع في التأمل. ولكنّك لا تعرف حتّى من عساه يكون «ويستلر».

وغيّرت موضوع الحديث وسألته إن كانت أميرة «إيينا» امرأة ذكيّة. فاستوقفني السيد «دو شالوس» وقال وهو يتّخذ أكثر للهجات التي عرفتها لديه احتقاراً:

- «آه! ياسيّد، إنّك تلمح ههنا إلى رتبة من التسميات لاتعنيني على الإطلاق. ربّما كان ثمّة طبقة ارستقراطيه لدى سكّان «تاهيتي» ولكنّي أقرّ بأنّي لا أعرفها. والغريب مع ذلك أن الاسم الذي نطقت به منذ قليل قد دوى في مسمعي لبضعة أيام خلت. كانوا يسألونني إن كنت أتكرّم بالموافقة علي تقديم الدوق الشاب «دو غواستالا» لي. وقد أدهشني الطلب لأنّ الدوق «دو غواستالا» لاحاجة به البتّة لأن يعرّف بي والسبب أنّه ابن عمّي وقد عرفني على الدوام. إنّه ابن الأميرة «دو بارما» ولا يفوته البتّة بوصفه قريباً حسن التهذيب أن يجيء ليفي بواجباته تجاهي في يوم رأس السنة. ولكنّما الأمر، بعد حصولي على معلومات بهذا الشأن، لم يكن أمر قريبي بل أمر ابن المرأة التي تعنيك. وإذ ليس من أميرة بهذا الاسم فقد افترضتُ أنّ الأمر يدور حول متسوّلة تنام تحت جسر «إيينا» واتّخذت على نحو مثير لقب أميرة «إيينا»، كمثل قولهم فهد «باتينيول» و«ملك الفولاذ». والحقيقة أن لا، فقد كان ذلك شأن امرأة غنيّة أُعْجِبَتْ في أحد المعارض بأثاث لها جميل جداً يسمو على اسم صاحبه بأنّه غير مزيّف. فأما دوق «غواستالا» المزعوم فلابدّ أنّه مأمور صرافة أمين سرّي، إذ يوفّر المال الكثير من الأمور. والحقيقة أن لا، فانّه الإمبراطور فيما يبدو الذي تلهّى بتزويد هؤلاء الناس بلقب ليس بالضبط في المتناول. ربّما دلّ على السلطان أو الجهل أو الخبث، ولكني أرى على وجه الخصوص أنّه شرك ماكر نصبه على هذا النحو لهؤلاء المغتصبين رغماً عنهم. ولكنّي لا أستطيع على أيّ حال تزويدك بايضاحات حول كل ذلك، فإن صلاحيّتي تتوقّف حتى عند حيّ «سان جيرمان» حيث أنت واحد بين جميع آل «كورفوازييه» وآل «غالاردون»، إن أفلحت في اكتشاف من يوصلك إليهم، عجائز شرّيرات تمّ استخراجهنّ عمداً من «بلزاك» وسوف يشعن السرور في نفسك. كلّ ذلك بالطبع لايعني في شيء مهابة الأميرة «دو غيرمانت» ولكن مسكن هذه الأخيرة لايبلغ إليه بمعزل عنّي وعن «افتح ياسمسم» الذي أملكه».

- «حقاً إنّه لجميل جداً، ياسيّدي، فندق الأميرة «دو غيرمانت».

— «آه! ماهو بالجميل جدّاً، إنّه ما كان الأكثر جمالاً، بعد الأميرة بالطبع».

— «أفتفوق الأميرة «دو غيرمانت» الدوقة «دو غيرمانت» ؟

— «أوه! ليس ثمة من نسبة». (ينبغي أن نلاحظ أنّ جماعة المجتمعات الراقية ما أن يكونوا على شيء من الخيال حتّى يتوّجوا أو يخلعوا من كانت تبدو حالهم أكثر ما تكون صلابة وأوفر ثباتاً وذلك على هوى ضروب ودّهم أو خلافهم.) «إنّ الدوقة «دو غيرمانت» (وربّما أراد، إذ لا يسمّيها «أوريان»، أن يزيد من المسافة بيني وبينها)، «رائعة وتفوق إلى حدّ بعيد ما أمكن أن تخمنّه. ولكنّما لا يمكن بأية حال أن تُقاس بابنة عمّها. وهذه بالضبط ما يمكن أن يتصوّر جماعة «الهال» ما كانت عليه الأميرة «دو ميترنيخ» ولكنّ «ميتيرنيخ» هذه كانت تعتقد أنّها شهرت «فاغنر» لأنّها تعرف «فيكتور موريل». إنّ الأميرة «دو غيرمانت»، أو بالأحرى والدتها، قد عرفت الحقيقي ؛ وذلك جاه، ناهيك عن جمال هذه المرأة الذي لايصدّق. تكفي حدائق «ايستير» وحدها!».

— «ألا تمكن زيارتها؟».

— «لا، لابدّ من دعوة، ولكن لادعوة البتّة لأحد إلاّ أن أتدخّل.»

ولكنّه سحب في الحال طُعم هذا العرض بعدما ألقاه ومدّ إليّ يده لأنّنا كنّا قد بلغنا منزلي.

— «لقد انتهى دوري ياسيّد، وإنّني أضيف إليه بضع الكلمات هذه فحسب. ربّما عرض آخر عليك ودّه ذات يوم مثلما فعلت. فليكن المثال الحاليّ عظة لك. لاتهمله. إن الوداد ثمين على الدوام، وما لانستطيع القيام به وحدنا في الحياة لأنّ ثمة أموراً لايمكننا أن نطلبها أو نفعلها أو نبتغيها أو نتعلّمها بأنفسنا، فاننا نستطيعه جماعة ودونما حاجة لأن نكون ثلاثة عشر كما في رواية «بلزاك» ولا أربعة كما في «الفرسان الثلاثة». إلى اللقاء.

لابدّ أنه كان متعباً وقد تخلّى عن فكرة الذهاب لرؤية ضياء القمر إذ سألني أن أقول للحوذيّ أن يعود. وقام في الحال بحركة مفاجئة وكأنما يبغي التراجع، ولكنّي كنت مذ ذاك قد أصدرت الأمر، وكي لا أتأخر أكثر من ذلك مضيت أقرع بابي دون أن أكون فكّرت من بعد أنّه كان عليّ أن أروي للسيّد «دو شارلوس»، فيما يخصّ امبراطور ألمانيه واللواء «بوتا»، روايات كانت للتوّ تستحوذ عليّ إلى حدّ كبير ولكنّ استقباله اللا متوقعّ الصاعق قد جعلها تقرّ بعيداً جداً عنّي.

ورأيت على مكتبي، وأنا أعود، رسالة كان قد كتبها خادم «فرانسواز» الشابّ إلى أحد أصدقائه ونسيها هناك. فمنذ أن غابت والدتي لم يكن يتراجع أمام أيّ فعلة لامبالية ؛ وكنت أقبح ذنباً منه في أنّي قرأت غير مبال الكتاب الذي لم يوضع في مغلّف، وكان مبسوطاً في كامل عرضه ويبدو، وذلك كان عذري الوحيد، وكأنّه يقدّم ذاته إليّ.

«صديقي وابن عمّي العزيز،

آمل أنّ صحتّك دوماً على مايرام وأن الأمر كذلك بالنسبة إلى كامل الأسرة الصغيرة وبشكل خاصّ فليوني الصغير جوزيف الذي لم أفرح بعد بمعرفته ولكن أفضّله عليكم كلكّم لأنّه فليوني، إن بقايى القلب»(*) هذه لها هي الأخرى ترابها، فلا نرفع الأيدي على بقاياها المقدّسة. وعلى أيّ حال ياصديقي العزيز وابن عمّي ومن يقول لك إنّك لن تقذف غدن أنت وزوجتك العزيزة ابنة عمّنا «ماري» إلى اعماق البحر مثل البحّار المربوط في أعلا الصاري الكبير لأنّو هذه الحياة ليس سوى وادي مظلم. صديقي العزيز، وجب أقول لك أن انشغالي الرئيسي وأنا متأكّد من تعجّبك هو الآن الشعر الذي احبّه بابتهاج لأنّو يجب تمضية الوقت. ولذلك ياصديقي العزيز لا تكون مدهوشاً إن كنت لم أجاوب بعد على رسالتك الأخيرة فدع النسيان يفعل إن لم يكن ثّمت عفو. كما تعلم والدة سيّدتي توفّاها الله في عذابات لا توصف أتعبتها قليلاً لأنّها زارت حتّى ثلاث أطبّاء. ويوم جنازتها كان يوم عظيم لأن جميع معارف سيّدي جاؤوا جماعة وكذلك ثلاث وزراء. وقد قضينا أكثر من ساعتين للذهاب إلى المقبرة الأمر الذي سيجعلكم تفتحوا عيونكم واسعة في قريتكم لأنّو لن يفعلوا بالتأكيد كذلك للعمّة «ميشو». ولذلك لن تكون حياتي من بعد سوى زفرة طويلة. إنّي أتسلّى كثيراً بالدرّاجة النارية التي تعلمتّ عليها مؤخراً وماذا تقولوا يا اصدقائي الأعزاء لو وصلت هكذا بأقصى السرعة إلى «ايكور»، ولكنّي لن أسكت أكثر عن ذلك لأنّي أحسّ أنّ نشوة المصيبة تذهب بعقله. إنّي أخالط الدوقة «دو غيرمانت» وشخصيات ما سمعت قطّ حتّى باسمها في مناطقنا الجاهلة. ولذلك سأرسل بكلّ سرور كتباً لـ«راسين» و«فيكتور هوغو» وصفحات مختارة لـ«شيندوليه» و«ألفريد دو موسيّه» لأنّي أحبّ أشفي البلد الذي رأيت فيه النور من الجهل الذي يقود حتماً إلى الجريمة. لا أرى شيء أقوله لك بعد وأبعث لك مثل البجعة التي أرهقتها رحلة طويلة تحيّاتي الطيبّة وكذلك لزوجتك وفيلوني وأختك «وردة». رجائي أن لايقولوا عنها: «ووردة لم تعش إلاّ ما تعيش الورود» مثلما قالها «فيكتور هوغو» ومقطوعة «دارفير» و«ألفريد دو موسيّه» وكلّ هؤلاء العباقرة العظيمين الذين موّتوهم على نار المحرقة مثل «جان دارك». فالي رسالتك القريبة وتقبّل قبلاتي كقبلات أخ». «بيريغو جوزيف».

إنّنا إنّما تجتذبنا كلّ حياة تمثّل في نظرنا شيئاً مجهولاً من جرّاء وهم أخير ينبغي القضاء عليه. وان الكثير من الأمور التي قالها لي السيد «دو شالوس» قد حفزت خيالي حفزاً شديداً، وبعدما أنسته إلى أيّ حدّ خيبّ الواقع ظنّه في منزل الدوقة «دو غيرمانت» (فأمر الأشخاص ما كان من أمر أسماء البلدان) وجهتّه إلى ابنة عمّ «أوريان». ولم يخدعني السيد «دو شارلوس» بعض الوقت على أيّ حال حول قيمة رجال المجتمع الراقي وتنوّعهم الوهميّين إلاّ لأنّه كان بدوره مضلّلاً. وربّما كان ذلك لأنّه ما كان يفعل شيئاً، لا يكتب ولايرسم وهو حتّى لايقرأ أي شيء قراءة جديّة عميقة. ولكنّه إذ كان يفوق جماعة المجتمع الراقي عدّة درجات فإنه وإن كان يستخلص مادّة حديثه منهم ومن مشهدهم ما كان لذاك السبب مفهوماً لديهم. وإذ كان يتحدّث حديث الفنانين فقد كان يستطيع على الأكثر استخلاص الروعة الخدّاعة لدى رجال المجتمعات الراقية، ولكنّما الاستخلاص من أجل الفنّانين فحسب الذين كان يمكن أن يؤدي فيما يخصّهم الدور نفسه الذي يؤديّه الأيّل لجماعة الأسكيمو: فإن هذا الحيوان الثمين ينتزع من أجلهم عن صفحة الصخور المقفرة أشنيات وطحالب

(*) النص الفرنسي الأصلي زاخر بالاخطاء الاملائية والقواعدية الفاحشة وقد وضعنا في النص العربي شيئاً من هذا القبيل على أن ذلك من لغة الخادم صاحب الرسالة.

لايفلحون لا في اكتشافها ولا في استخدامها ولكنّها تضحي، بعدما يهضمها الأيّل غذاء يمكن تمثله بالنسبة إلى سكان الشمال الأقصى.

وأضيف إلى ذلك أنّ تلك اللوحات التي كان السيد «دو شارلوس» يرسمها عن المجتمع الراقي إنّما كان يداخلها الكثير من الحيويّة من جراء اختلاط صنوف حقده الضاري بصنوف وداده المتبعد – والحقد موجّه خصوصاً ضدّ الشبّان والتعبّد تستثيره بصورة رئيسية بعض النسوة.

ولئن كانت الأميرة «دو غيرمانت» من بينهن قد وضعت على يد السيد «دو شارلوس» على أرفع عرش فإن أقواله الخفية حول «قصر علاء الدين لايمكن بلوغه» والذي كانت تسكنه ابنة عمّه لاتكفي لتوضح دهشتي التي سرعان ما أعقبتها خشية أن أكون ضحية خدعة شريره دبّرها من ربّما ابتغى طردي من مسكن قد أذهب إليه دونما دعوة حينما قرأت، بعد قرابة شهرين عقب عشائي في منزل الدوقة وبينما كانت هذه الأخيرة في كان» وبعدما فضضت مغلقاً لم ينبئني مظهره بأي أمر غريب، قرأت هذه الكلمات المطبوعة على بطاقة: «الأميرة «دو غيرمانت»، دوقة منطقة «بافيير» بالمولد، ستكون في منزلها في...». ليس من شكّ أن الدعوة إلى منزل الأميرة «دو غيرمانت» ربّما لم تكن، على الصعيد المجتمعيّ، أمراً أكثر عسراً من تناول العشاء في منزل الدوقة وقد علمتني معلوماتي الضعيفة في دنيا الشعارات أن لقب أمير ليس أرفع من لقب دوق ثم إني كنت أقول في نفسي إنّه لايمكن أن يكون ذكاء امرأة من المجتمع الراقي من ماهيّة تختلف عن ذكاء مثيلاتها بقدر مايدّعي السيّد «دو شارلوس» ولكنّ خيالي، شأنه شأن «ايلستير» إذ يمضي في ترجمة بعض مايوحي به المنظور دون أن يأخذ في اعتباره مفاهيم فيزيائية يمكن من جهة ثانية أن يكون محيطاً بها، كان يرسم لي لا ما كنت أعرفه بل ما كان يراه، ما كان يراه، يعني ما كان يبرزه الاسم له. وإن اسم «غيرمانت» المسبوق بلقب أميرة قد ذكّرني دوماً، حتّى حين لم أكن أعرف الدوقة، على نحو علامة موسيقيّة أو لون أو كميّة تتبدّل تبدلاً عميقاً من جراء قيم محيطة ومن جراء الإشارة الرياضية أو الجمالية التي تؤثّر فيها، بشيء مختلف تماماً. وإنّنا لنجده مقروناً بهذا اللقب في مذكّرات عصر لويس الثالث عشر. ولويس الرابع عشر على وجه الخصوص. وكنت أتمثّل فندق الأميرة «دو غيرمانت» وكأنّما تتردّد عليه، كثر أو قلّ التردّد، الدوقة «دو لو نغفيل» و«كونديه» الكبير اللذان كان وجودهما يقلّل إلى حدّ بعيد احتمال أن ألجة في يوم.

وعلى الرغم من كلّ ما يتعلّق بمختلف وجهات النظر الذاتية التي سأتحدّث عنها في ضروب التضخيم المصطنعة فإنّما يبقى شيء من الحقيقة الموضوعية في جميع تلك الكائنات، وبالتالي يظلّ فارق فيما بينها.

بل كيف يمكن أن تكون الأمور بخلاف ذلك؟ إنّ الإنسانية التي نخالطها والتي تشبه أقلّ الشبه أحلامنا هي مع ذلك الإنسانية نفسها التي شهدنا، في مذكّرات رجال مرموقين وفي رسائلهم، وصفاً لها وتمنينا أن نعرفها. إن أقلّ الشيوخ شأناً من الذين نتناول عشاءنا وإيّاهم هو ذاك الذي قرأنا بانفعال، في كتاب حول حرب السبعين، رسالته المستكبرة إلى الأمير «فريديريك شارل» يداخلك الضجر في عشاء لأنّ الخيال غائب عنه وتلهو بصحبة كتاب لأنّ الخيال يصحبنا فيه. ولكن الأمر يدور حول الأشخاص عينهم نودّ لو أنّنا عرفنا السيّدة «دو بومبادور» التي ناصرت الفنون إلى حدّ بعيد وربّما أصابنا بالقرب منها ما يصيبنا من ملل بالقرب من ربّات الإلهام المعاصرات اللواتي لانستطيع التصميم على العودة إليهنّ لشدّة ضحالتهنّ. على أنّ

تلك الفوارق تظلّ قائمة مع ذلك. لايشبه الناس تماماً بعضهم بعضاً وإن تصرّفهم إزاءنا، بمقدار متساو من الصداقة إن جاز القول، إنّما يكشف عن فوارق تتولّى التعويض في نهاية المطاف. لقد حلا للسيّدة «دو مونمورانسي» حينما عرفتها أن تسمعني أشياء مكدّرة ولكنّها، إن كانت بي حاجة إلى خدمة، كانت تلقي في سبيل الحصول عليها، وعلى نحو فعّال، كامل ما تملك من نفوذ ولا توفّر شيئاً في هذا السبيل في حين أنّ أخرى غيرها، كالسيّدة «دو غيرمانت»، ما كانت لتبغي في يوم أن تغمني ولا تقول عنّي إلاّ ما يمكن أن يبهجني وتغدق عليّ جميع صنوف اللطف التي تؤلّف نمط العيش الأدبيّ الغني لآل «غيرمانت»، ولكنّها ما كانت، لو أنّي سألتها أقلّ الأشياء فيما عدا ذلك، لتقوم بخطوة واحدة لتوفّره لي، كما هي الحال في تلك القصور التي يضعون بتصرّفك فيها سيّارة ووصيفاً ولكنّما يستحيل الحصول فيها على كوب من عصير التفّاح لم يلحظ في ترتيب الاحتفالات. فمن كانت الصديقة الحقيقية بالنسبة إليّ، السيّدة «دو مونمورانسي» السعيدة جدّاً بجرح مشاعري والمستعدة أبداً لتخدمني أم السيّدة «دو غيرمانت» التي تعاني من أقلّ تكدير ربّما ألحق بي وتعجز عن أقلّ جهد في سبيل إفادتي؟ كانوا يقولون من جهة أخرى إنّ الدوقة «دو غيرمانت» تتحدث عن أمور طائشة فحسب وابنة عمّها عن أمور مهمّة أبداً بالفكر الأكثر ضحالة. إن صيغ الفكر متنوّعة ومتعارضة لافي الأدب فحسب بل في الدنيا كذلك إلى حدّ أن ليس لـ«بودلير» و«ميريميه» وحدهما الحقّ في أن يحتقر أحدهما الآخر. وهذه الخصائص إنّما تؤلف لدى جميع الناس منظومة نظرات وأقوال وأفعال متماسكة مستبدة إلى حد أنها تبدو لنا، حينما يكون في حضرتها، فوق كل ماعداها أمّا لدى السيّدة «دو غيرمانت» فإن أقوالها كانت تبدو لي، وهي مستنتجة شأن نظرية من نوعيّة تفكيرها، وكأنّها بالوحيدة التي كان ينبغي أن تقال. وقد كنت أساساً من رأيها حينما كانت تقول لي إن السيدة «دو مونمورانسي» بلهاء ومفتوحة الذهن لجميع الأمور التي لا تدركها، أو حينما كانت تقول لي الدوقة وقد بلغها إساءة منها: «هذا ماتدعوه امرأة طيبّة وما أدعوه أنا مسخاً». ولكنّ استبداد الواقع هذا الذي يمثل أمامنا ووضوح ضوء المصباح هذا الذي يتضاءل به الفجر وقد تباعد مذ ذاك كأنّه محض ذكرى كانا يتلاشيان حينما أضحي بعيداً عن السيّدة «دو غيرمانت» وتقول لي سيّدة مختلفة وهي تضع نفسها على قدم المساواة معي وتحكم أنّ الدوقة واقعة دوننا بكثير: «أوريان لاتهتّم في الأساس بشيء ولابأحد»، بل «هي متحذلقة» (وهو ما لعلّه بدا في حضرة السيّدة «دو غيرمانت» مستحيل التصديق لشدّة ما تعلن العكس بنفسها). وإذ ليس من علوم رياضية تسمح لنا بتحويل السيّدة «دار باجون» والسيّدة «دو مونبانسييه» إلى كمّيات متجانسة فقد كان يستحيل عليّ أن أجيب إن سئلت في أيهما تبدو لي متفوّقة على الأخرى.

فلقد كانت الميزة التي يذكرونها أكثر مايذكرونها من بين الميزات الخاصة بصالة الأميرة «دو غيرمانت» استبداداً بالرأي ناجماً في جزء منه عن محتد الأميرة الملكّي، وبخاصّة التشدد المتحجّر تقريباً لآراء الأمير الأرستقراطية المسبقة (آراء لم يفت الدوق والدوقة على أيّ حال أن يسخرا منها في حضرتي) والذي كان لابدّ سيحملني بالطبع على أن اعتبر من قبيل اللامعقول أن يكون هذا الرجل قد دعاني وهو من كان لايعد سوى أصحاب السمّو والدوقة ويستشيط غيظاً في كلّ مأدبة عشاء لأنّه لم يخص على المائدة بالمكان الذي كان من حقّه في عهد لويس الرابع عشر، مكان كان يعرفه وحده بفضل تبحّره الواسع في مادّة التاريخ وعلم الأنساب. وكان الكثيرون بسبب ذلك يفصلون لصالح الدوق والدوقة في الفوارق التي تفصل بينهما وبين ابني

عمومتهما. «إنّ الدوق والدوقة أكثر عصرية بكثير وأشدّ ذكاء ولايهتمان شأن الآخرين بمحض عدد مراتب النبالة، إن صالتهما تتقدّم صالة ابن عمّهما بثلاث مئة عام»، تلك التي كانت الجمل المعتادة التي كان ذكرها يبعث الرعدة في الآن وأنا أنظر إلى بطاقة الدعوة التي كانت توليها عدداً أكبر من احتمالات أن يكون بعث بها إليّ مضلل.

ولو أن الدوق والدوقة «دو غيرمانت» ما كانا في «كان» لتسنّى لي أن أحاول أن أعلم بوساطتهما إن كانت الدعوة التي وردتني حقيقيّة. وليس هذا الشكّ الذي كنت فيه، ليس حتّى على الإطلاق، مثلما تبادر إليّ حيناً، شعوراً لايحسّ به رجل المجتمعات الراقية وينبغي للكاتب بنتيجة ذلك، وأن انتمى فيما عدا ذلك إلى طبقة رجال المجتمع الراقي، أن ينقله كي يبدو «موضوعياً» تماماً ويصورّ كل طبقة على نحو مختلف. فقد وجدت مؤخراً بالفعل في كتاب مذكّرات رائع تسجيلاً لشكوك مماثلة لتلك التي كانت تزجّني فيها بطاقة دعوة الأميرة. «أنا وجورج «أو أنا وهيلي فليس الكتاب في متناول يدي للتحقّق» كنّا نتحرّق أشدّ التحرّق إلى قبولنا في صالة السيّدة «دولوسير» وقد رأينا من باب الحذر، بعدما وصلتنا دعوة منها، أن نتأكد كلّ من جهته أننا لم نكن ضحيّة إحدى كذبات نيسان وليس الراوي سوى الكونت «دوسّو نفيل» (الذي تزوّج ابنة الدوق «دو بروي»)، أمّا الرجل الآخر الذي يمضي، «فيما يخصّه»، للتأكيد من أنّه لم يقع ضحيّة الخداع فهو، حسبما يدعى «جورج» أو «هيلي»، أحد صديقين لاينفصلان عن السيّد «دو سونفيل»: السيّد «داركور» أو الأمير «دو شاليه».

وفي اليوم الذي كانت تزمع أن تُقام فيه الأمسية في منزل الأميرة «دو غيرمانت» بلغني أن الدوق والدوقة قد عادا إلى باريس منذ الليلة السابقة وعزمت أن أذهب لزيارتهما في الصباح. ولكنّهما لم يكونا بعد قد عادا بعدما خرجا في ساعة مبكرة. فترقّبت بادئ الأمر، من حجرة صغيرة كنت أحسبها مركز مراقبة ممتاز، وصول العربة. ولكنّي كنت في الواقع قد اخترت مرصدي أسوأ اختيار إذ كدت لا أميزّ منه باحتنا ولكنّي رأيت منه عدّة باحات أخرى، الأمر الذي ألهاني فترة دونما فائدة تذكر. وليس يتوافر لنا في البندقيّة وحدها مشارف كهذه على عدّة بيوت معاً أغرت الرسّامين، بل في باريس أيضاً على السواء. ولست أقول البندقيّة اعتباطاً. فانّما تذكّرنا بعض أحياء باريس الفقيرة في الصباح بأحيائها الفقيرة بمداخنها العالية الموسّعة الفوّهات التي تضفي عليها الشمس الألوان الورديّة الأكثر زهواً والحمراء الأكثر إشراقاً؛ إنّها حديقة كاملة تزهو فوق البيوت، تزهر ألواناً متنوّعة حتّى لكأنّها حديقة هاوي خزامى من «ديلفت» أو «هارلم» غرست فوق المدينة. وإن تقارب البيوت الشديد من جهة أخرى بنوافذها المتقابلة المطلّة على باحة واحدة إنّما يجعل من كلّ نافذة الإطار الذي تحلم فيه طاهية وهي تنظر إلى الأرض، والذي تدع فيه فتاة أبعد منها شعرها تسرّحه عجوز لها وجه ساحرة تكاد لا تميّزه في الظلام؛ وهكذا تؤلّف كلّ باحة بالنسبة إلى جار المنزل، إذ تلغي الضجّة بمسافتها الفاصلة وتبرز الحركات الصامتة ضمن مربّع وضع تحت الزجاج من جرّاء إقفال النوافذ، معرضاً من مئة لوحة هولنديّة متقابلة. صحيح أنّه ما كان يتوافر من فندق «غيرمانت» نوع المناظر نفسه، ولكنّما كان ثّمة مناظر طريفة ولاسيّما من النقطة المثّلثية الغريبة التي كنت قد اتّخذت مكاني فيها والتي ما كان يستوقف النظر فيها أيّ شيء حتّى المرتفعات البعيدة التي كان يؤلفّها، إذ الأراضي المقفرة نسبياً التي تسبقها شديدة الانحدار، فندق الأميرة «دو سيليستري والمركيزة «دوبلاسّاك»، وهما ابنتا عم ارستقراطيّتان جداً للسيّد «دو غيرمانت» وما كنت

أعرفهما. وحتى هذا الفندق (الذي كان فندق والدهما السيّد «دو بريكينيي»)، لاشيء سوى كتل أبنية قليلة الارتفاع موجهة بأكثر الطرق اختلافاً وكانت تزيد من طول المسافة بمستوياتها المائلة ودون أن تستوقف النظر. وكان برج المرآب الذي يوقف فيها المركيز «دو فريكور» عرباته، وهو من قرميد أحمر، كان ينتهي بمسلّة أكثر ارتفاعاً ولكنّها دقيقة حتّى إنّها لاتحجب شيئاً وتذكّر بهذه الأبنية السويسرية القديمة الجميلة التي تندفع وحيدة على حضيض أحد الجبال. وكانت جميع هذه النقاط المبهمة المختلفة التي ترتاح فوقها العيون تبرز فندق السيّدة «دو باسّاك» أكثر بعداً ممّا لو تفصله عنّا عدّة شوارع أو عدّة سلاسل جبليّة، وهو في الواقع على شيء من القرب ولكنّما يتّخذ بعداً وهميّاً كمنظر في جبال الألب. وحينما كانت نوافذة المربّعة العريضة الملتمعة بالشمس كوريقات بلّور صخري مفتوحة من أجل تدبير المنزل كنت تصيب في متابعة الخدام الذين يستحيل تمييزهم تمييزاً دقيقاً ولكنّهم يقومون بطرق السجاد، كنت تصيب في متابعتهم في مختلف الطوابق المتعة نفسها التي تصيبها إذ تشاهد في منظر من أعمال «تورنر» أو «ايلستير» مسافراً في عربة أو دليلاً على ارتفاعات مختلفة من جبل «سان غوتار». بيد أنّي ربّما أمكن ألا أرى من المكان المشرف الذي وقفت فيه السيّد أو السيّدة «دو غيرمانت» في عودتهما، حتّى إنّي حينما اتيح لي بعد الظهر أن أعاود رصدي اتخذت مكاني ببساطة على الدرج حيث لايمكن أن يخفى عليّ فتح البوّابة، فكان أن وقفت في الدرج مع أنّه لاتظهر منه مواطن الجمال «الألبي» في فندق «دو بريكيفي» وهي رائعة إلى حدّ بعيد بخدّامها الذين جعلهم البعد صغاراً جداً وهم آخذون في التنظيف. وسوف يسفر هذا الانتظار على الدرج بالنسبة إليّ عن نتائج بالغة الأهمية ويكشف لي عن منظر ليس «تورنريّاً» من بعد بل أخلاقيّ على جانب كبير من الأهمية يبدو من الأفضل معه تأجيل روايته بعض الوقت مسبقاً عليها بادئ الأمر قصّة زيارتي لأسرة «غيرمانت» حينما علمت أنّهم رجعوا.

كان الدوق وحده هو الذي استقبلني في مكتبته. وفي اللحظة التي دخلت فيها خرج رجل قصير أبيض الشعر تماماً فقير المظهر وله ربطة عنق سوداء كالتي كان يلبسها الكاتب العدل في «كومبريه» وعدّة أصدقاء لجدّي ولكن مظهره أكثر استحياء ولم يشأ البتّة، فيما كان يحيّيني تحيّات كبيرة، أن ينحدر قبل أن أكون مررت. وقد صرخ الدوق من المكتبة يطلب إليه أمراً لم أفهمه وردّ الآخر بتحيّات جديدة وجههّا إلى الحائط، لأنّ الدوق لا يستطيع أن يراه، ولكنّما ردّدها إلى مالا نهاية على الرغم من ذلك، شأن هذه الابتسامات النافلة لأولئك الذين يتحدّثون ليك بالهاتف. كان له صوت رأسيّ وقد حياني مرة ثانية بتواضع رجل الأعمال. وكان يمكن على أيّ حال أن يكون رجل أعمال في «كومبريه» لفرط ما يتّصف بالطراز الريفّي المتقادم العذب الذي يميّز فقراء القوم والشيوخ المتواضعين هناك.

وقال لي الدوق بعدما دخلت: «سوف تلتقي «أوريان» بعد قليل. فقد فضّلتْ، بما أنّ «سوان» يزمع المجيء عمّا قليل ليجلب لها مسوّدات دراسته حول عملات جمعيّة مالطا، بل ماهو أسوأ من ذلك، صورة شمسية ضخمة نسخ عليها وجهي تلك العملات، فضلّت «أوريان» أن ترتدي ملابسها أوّلاً كي تستطيع المكوث معه إلى حين الذهاب إلى العشاء. إن بيتنا يزدحم بالحاجات حتّى لانعلم أين نضعها وأتساءل أين ستحشر هذه الصورة. ولكنّ لديّ زوجة مفرطة اللطف تبالغ في حبّها إبهاج الغير. وقد ظنّت من قبيل اللطف أن تسأل «سوان» إمكانية تأمّل جميع أرباب هذه الجماعة العظام الذين لقي صورهم في «رودس» الواحد بجانب الآخر. كنت أقول مالطا، إنّها رودس ولكنّها جماعة القديس يوحنا الأورشيليمي نفسها. وهي في

الأساس لاتهتم بذلك إلاّ لأنّ «سوان» يهتّم به. إن لأسرتنا ضلعاً كبيراً في كلّ هذه القصّة. فشقيقي الذي تعرفه هو حتّى في يومنا هذا أحد أعلى أصحاب المراتب في جماعة مالطا. على أنّي لو تحدثت عن كل ذلك لـ«أوريان» لما كانت حتّى أصغت إليّ. ولقد كان كافياً، في مقابل ذلك، أن تكون بحوث «سوان» حول الداويّة (فإن اندفاع اتباع دين معيّن إلى دراسة دين الآخرين من أغرب الغريب) قد قادته إلى تاريخ فرسان رودس ورثة الداويّة حتّى تبغي «أوريان» في الحال مشاهدة وجوه هؤلاء الفرسان. لقد كانوا قوماً صغاراً جدّاً إذا ما قيسوا بآل «لوزينيان» ملوك قبرص الذين تنحدر منهم على نحو مباشر. ولكنّ «سوان» لم يتهّم بهم حتّى الآن ولذلك لاتريد «أوريان» أن تعرف شيئاً عن آل «لوزينيان».

لم يسعني أن أقول للدوق في الحال لأيّ سبب جئت. فقد جاءت بالفعل بضع صديقات أو قريبات، كالسيّدة «دو سيليستري» والدوقة «دو مونروز» للقيام بزيارة للدوقة التي كثيراً ما كانت تستقبل قبل العشاء ولّما لم يجدنها مكثن برهة مع الدوق. كانت أولى تلك السيّدات (وهي الأميرة «دو سيليستري») بسيطة الملبس جافّة ولكنّما تبدو لطيفة وتمسك في يدها عصا. وخشيت بادئ الأمر أن تكون مصابة بجرح أو عاجزة. ولكنّها كانت على العكس رشيقة جداً. وحدّثت الدوق بكآبة عن ابن عم له – لامن جانب آل «غيرمانت» بل من جانب أكثر شهرة بعد إن كان ذلك ممكناً– تدهورت حالته الصحيّة فجأة بعد أن كان مرضه شديداً منذ بعض الوقت. وكان واضحاً أنّ الدوق فيما كان يرثي لمصير ابن عمّه ويردّد: «مسكين «ماما»! إنّه فتى شديد الطيبة» كان يشخصّ تشخصياً مشجعاً. فقد كان العشاء الذي يزمع الدوق حضوره يبهجه بالفعل ولاتزعجه الأمسية الكبرى في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ولكنّ كان على وجه الخصوص يزمع الذهاب في الواحدة صباحاً برفقة زوجته إلى عشاء كبير وحفلة راقصة تنكّرية تمّ من أجلها تجهيز حلّه له من طراز لويس الحادي عشر وللدوقة من طراز «إيزابو دو بافيير». وكان الدوق عازماً على ألاّ يلقى إزعاجاً في صنوف اللهو المتعدّدة هذه من جرّاء آلام «آمانيان دوسمون» الطيبّ القلب. وجاءت بعد ذلك سيّدتان من حاملات العصا، السيدة «دو بلاسّاك» والسيّدة «دو تريم»، وكلتاهما ابنتا الكونت «دوبريكينيي»، لزيارة «بازان» وأعلنتا أن حالة «ماما» لم يظلّ فيها أمل. وبعدما ارتفع الدوق بمنكبيه سألهما كيما يبدّل سياق الحديث إن كانتا ستذهبان في المساء إلى منزل «ماري چيلبير». فأجابتا أن لا بسبب حالة «دامانيان» التي كانت تداني الرمق الأخير، بل هما اعتذرتا عن مأدبة العشاء التي يذهب إليها الدوق والتي عدّدتا له مدعويّها، كشقيق الملك «تيودوز» وسليلة العرش «ماري كونيبسيون» إلخ. ولّما كان المركيز «دوسمون» على درجة أقلّ من القربي بالنسبة إليهما منه بالنسبة إلى «بازان» فقد بدا «نكوصهما عن الحضور» في نظر الدوق بمثابة لوم غير مباشر لسلوكه فبدا قليل الأنس. ولذلك لم تمكثا طويلاً مع أنّهما انحدرتا من مرتفعات فندق «بريكينيي» للقاء الدوقة (أو بالأحرى لإخبارها بالطابع المقلق والذي لاينسجم بالنسبة إلى الأقرباء واللقاءات المجتمعيّة، طابع مرض ابن عمومتهما)، وعادت «والبورج» و«دوروتيه» (وهما اسماء الشقيقتين) أدراجهما في طريق قممهما الوعرة تحملان عصا متسلّقي الجبال. لم يخطر لي البتّة أن أسال آل «غيرمانت» ما الذي كانت تعنيه تلك العصيّ وهي كثيرة جدّاً في بعض أجزاء حيّ «سان چيرمان». ربّما عدّتا كامل الرعيّة بمثابة ملك لهما وكانتا تقومان، وهمالاتحبّان استقلال العربات، بمشاوير طويلة. جعَل العصا ضرورية فيها كسر قديم ناجم عن الافراط في مزاولة الصيد وما تتضمّنه في الغالب من سقوط عن صهوة الجياد أو محض إصابات بالرئية تتأتى من رطوبة الضفة اليسرى

والقصور القديمة وربّما لم تذهبا في الحيّ في حملة بعيدة إلى هذا الحدّ بل انحدرتا فقط إلى حديقتهما (وهي على مسافة غير بعيدة عن حديقة الدوقة) لقطاف الفواكه اللازمة للثمار المغليّة وجاءتا قبل العودة إلى منزلهما لتحيه السيّدة «دو غيرمانت»، وما كان ليبلغ الأمر بهما مع ذلك أن يحملا معهما مقراضاً أو رشّاشة.

بدا الدوق متأثراً أن أكون جئت إلى منزلهما في يوم عودته نفسه. ولكنّ وجهه اكفهرّ بعدما قلت له إنّي آت لأسأل زوجته أن تستعلم إن كانت ابنة عمّها قد دعتني بالفعل. وكنت قد لامست بذلك واحداً من أنواع الخدمات التي ما كان السيّد «دو غيرمانت» والسيّدة عقليته يرغبان في تأديتها. وقال لي الدوق إنّ الوقت تأخر بي وإنّه سوف يبدو، إن كانت الأميرة لم تبعث لي بدعوة، وكأنّه يلتمس واحدة، وانّ ابناء عمّه قد سبق ورفضوا له واحدة منها ذات مرّة وإنّه لايريد من بعد لا من قريب ولا من بعيد أن يبدو وكأنّه يتدخّل في شؤون لوائحهم، كأنّه «يقحم نفسه فيها» وأنه حتّى لايعلم في النهاية إن كان هو وزوجته، وهما يتناولان عشاءهما خارج المنزل، لن يعودا بعده في الحال إلى المنزل، وأنّ أفضل عذر لديهما في هذه الحالة لأنّهما لم يذهبا إلى أمسية الأميرة أن يخفيا عليها عودتهما إلى باريس، وأنّهما لولا ذاك بالتأكيد كانا على العكس سارعا إلى إعلامها بارسال كلمة أو هاتف بشأني متأخّر جداً بالتأكيد لأن لوائح الأميرة قد أقفلت بالتأكيد في جميع الاحتمالات. وقال لي بلهجة متريبّة، لأنّ آل «غيرمانت» يخشون دوماً ألا يكونوا على علم بآخر الخلافات وأن تتمّ محاولة الصلح على ظهورهم: «لابأس بحالك معها». ثم قال لي الدوق فجأة، وقد تعوّد أن يأخذ على عاتقه جميع القرارات التي يمكن أن تبدو قليلة الوداد، وكأنّما تمرّ الفكرة فجأة في خاطره: «إليك، ياصغيري، إنّي حتّى راغب ألا أقول البتّة لـ«أوريان» إنّك حدّثتني عن ذلك. فأنت تعلم مدى لطفها، وهي إلى ذلك تحبّك حبّاً جمّاً، وسترغب في إبلاغ ابنة عمّها على الرغم من كلّ ما يمكن أن أقوله لها وإن كانت متعبة بعد العشاء فلن يظلّ ثمة عذر لها وستضطّر أن تذهب إلى الأمسية. لا، بالتأكيد لن أقول لها شيئاً عن ذلك. سوف تراها عمّا قليل على أيّة حال، فلا تنبس ببنت شفة، رجوتك. وإن قررتَ الذهاب إلى الأمسية فلا أرى حاجة بي إلى أن أقول لك أية فرحة ستداخلنا لقضاء السهرة برفقتك». إنّ الدوافع الإنسانية أكثر قدسيّة من ألاّ ينحني أمامها ذاك الذي يتّم التذرّع بها أمامه، سواء أظنّها صادقة أم لا. ولم أشأ أن أبدو وكأني أوازن لحظة واحدة بين دعوتي وتعب السيّدة «دو غيرمانت» المحتمل ووعدت بألاّ أحدثّها عن غرض زيارتي كما لو انطلت بالضبط عليّ المهزلة الصغيرة التي مثّلها عليّ السيّد «دو غيرمانت». وسألت الدوق إن كان يظنّ لي حظاً أن ألقى في منزل الأميرة السيّدة «دو ستير ماريا».

فقال لي بلهجة العارف: «لا، أعرف الإسم الذي» تقوله لمشاهدتي إيّاه في دليل المنتديات، وليس على الإطلاق من نوعيّة المجتمعات التي تذهب إلى منزل «جيلبير». إنّك لن تجد هناك سوى أناس مهذّبين أشدّ التهذيب ومملين إلى أبعد حدّ، من دوقات يحملن ألقاباً ظنّوها اندثرت ثم استعيدت بالمناسبة، وجميع السفراء والعديد من آل «كوبور» ومن أصحاب السموّ الأجانب ولكن لا تأمل أدني أثر لـ«ستيرماريا»، فقد يمرض «جيلبير» حتّى من جرّاء افتراضك، اسمع، أنت الذي يحبّ الرسم، ينبغي أن أطلعكَ على لوحة رائعة اشتريتها من ابن عمّي مقابل لوحات «إيلستير» جزئياً وما كنّا نحبّها. لقد باعوني إيّاها بمثابة لوحة لـ«فيليب دو شامبانيي»، ولكنّي أعتقد أنا أنّها بعد أعظم. أتريد رأيي في ذلك؟ أظنّ أنها لوحة لـ«فيلاسكيز» ومن أبهى فترة له». يقول لي الدوق وهو يحدّق في عينّي إما ليعرف انطباعي، وإمّا ليزيد منه. ودخلَ أحد الخدّام.

– «السيّدة الدوقة تبعث في سؤال الدوق إن كان السيّد الدوق سيتلطّف باستقبال السيّد «سوان» لأنّ السيّدة الدوقة ليست جاهز بعد».

فقال الدوق بعد أن تبيّن في ساعته أنّه لايزال لديه بضع دقائق قبل أن يمضي لارتداء ملابسه: «أدخل السيّد «سوان» زوجتي بالطبع غير جاهزة وهي التي قالت له أن يجيء» وقال لي الدوق: «لاداعي للتحدّث أمام «سوان» عن أمسية «ماري چيلبير»، فلست أعلم إن كان مدعوّاً. إن «چيلبير» يحبّه كثيراً لأنّه يظنّه حفيداً غير شرعيّ للدوق «دو بيّري»، إنّها قصّة، أيّة قصّة. (فكّر، لولا ذاك! ابن عمّي الذي يصاب بنوبة حينما يبصر يهودياً على بعد مئة متر). ولكن الأمور تتفاقم الآن من جرّاء مسألة «دريفوس» وكان جديراً بـ«سوان» أن يدرك أنّه ينبغي له أكثر من آخر سواه أن يقطع كلّ علاقة بهؤلاء الناس، وهو على العكس يتفوّه بأقوال مغيظة».

واستدعى الدوق الخادم الخاصّ من جديد ليعلم إن كان الذي سبق أن أرسله إلى منزل ابن العم «دوسمون» قد عاد. فقد كانت خطّة الدوق بالفعل هي التالية: كان يهمّه، إذ يظنّ بحقّ أن ابن عمّه على شفا الموت، أن يُوافى بأخبار قبل الوفاة، يعني قبل الحداد الاضطراريّ. وما أن يحتمي خلف اليقين الرسميّ بأنّ «آمانيان» لايزال حيّاً حتّى ينطلق إلى مأدبة عشائه وأمسية الأمير والحفلة الراقصة التي سيرتدي فيها لباس لويس الحادي عشر ويتوافر له فيها الموعد الأشدّ إثارة بعشيقة جديدة ولايسعى من بعد إلى أن يوافى بأخبار جديدة قبل الغد بعد أن تكون المسرّات قد انتهت. حينذاك يتّم لبس الحداد إن توفّي في المساء. «لا ياسيّدي الدوق، لم يعد بعد»– «يالعنة الله! إنّ الأمور لاتتّم ههنا إلاّ في الدقيقة الأخيرة»، يقول الدوق وفي ظنّه أنّ «آمانيان» قد وسعه الوقت «لأن يرحل» على صفحات جريدة مسائيّة وأن يفوّت عليه حفلته الراقصة. وأرسل في طلب صحيفة «الزمان» التي لم يجد فيها شيئاً.

لم أكن قد التقيت «سوان» منذ زمن طويل جدّاً وتساءلت لحظة إن كان بالأمس يقصّ شاربه أو لم يكن قصير الشعر لأنّني ألفيته على غير حاله بعض الشيء. وكان ذلك فقط لكونه بالفعل قد «تغيّر» كثيراً لأنّه كان مريضاً جدّاً والمرض يخلّف في الوجه تبدلات عميقة عمقها لو أنشأت تطيل لحيتك أو تبدّل مطرح مفرقك. (كان مرض «سوان» ذاك الذي سبق أن أودى بوالدته والذي أصيب به بالضبط في السنّ الذي كان فيه. وإن حياتنا في الواقع لمليئة من جرّاء الوراثة بالأرقام الخفيّة وصنوف السحر كما لو كان ثمّة بالحقيقة ساحرات. وكما أن ثمّة مدّة معينّة للعمر بالنسبة إلى البشريّة عامّة، هنالك كذلك مدّة بالنسبة إلى الأسر خاصّة، يعني، داخل هذه الأسر، بالنسبة إلى الأعضاء الذين يتشابهون.) كان «سوان» أنيق اللباس أناقة تجمع، شأن أناقة زوجته، إلى ما كان ما سبق أن كان. كان يشدّ جسمه داخل سترة رسميّة رماديّة بلون اللؤلؤ تبرز قامته المديدة، وكان رشيق القوام يلبس قفازين أبيضين بخطوط سوداء ويعتمر قبعة رسمية رمادية موسّعة في أعلاها لايصنعها «دو ليون» من بعد إلاّ له وللأمير «دو ساغان» والسيّد «دو شارلوس» والمركيز «دو مودين» والسيّد «شارل هاز» والكونت «لويس دو تورين». وأدهشتني الابتسامة الفاتنة وشدّة اليد الودّية التي ردّ بها على تحيّتي، لأنّني كنت أظنّ أنّه ما كان ليعرفني في الحال بعد زمن طويل إلى هذا الحدّ. وأعربت له عن دهشتي، فتلقاها بقهقهة عالية وشيء من الاستنكار وشدّ من جديد على يدي كما لو أن الأمر من باب التشكيك

بسلامة دماغه وصدق مودّته في افتراض أنّه لايتعرفّني وهو مع ذلك ما كان، فإنه لم يعرفني، وقد علمت ذلك بعد زمن طويل، إلاّ بعد بضع دقائق إذ سمع من يذكّر باسمي. بيد أنّه لم ينبئ بالاكتشاف الذي يسّرته له كلمة قالها السيّد «دو غيرمانت» أيُّ تبدّل في وجهه وفي أقواله وفي الأمور التي أفضى إليّ بها لفرط ما كان يتمتع به من رباطة جأش وثقة في ممارسة الحياة المجتمعيّة. وكان يبرز فيها على أيّة حال تلك العفوية في التصرّف وتلك المبادرات الشخصيّة، حتّى فيما يخصّ اللباس، التي كانت تطبع طراز آل «دو غيرمانت». من ذلك أن التحيّة التي حيّاني بها، دون أن يتعرّفني، رجل المنتديات العتيق لم تكن التحيّة الباردة الجافية التي لرجل المجتمعات الشكّلي المحض، بل تحيّة تفيض باللطف الحقيقيّ والظرف الأكيد على غرار ماتبدي الدوقة «دو غيرمانت» مثلاً (التي يبلغ بها أن تبتسم أوّل من يبتسم قبل أن تكون حيّيتها حينما كانت تلتقي بك)، على عكس التحيّات الأكثر آلية والمألوفة لدى سيّدات حيّ «سان جيرمان». ومن ذلك أيضاً أنّ قبعتّه التي وضعها على الأرض بالقرب منه حسب عادة آخذة في الزوال كانت مبطنّة بالجلد الأخضر، الأمر الذي لم يكن مرعيّ الاجراء ولكنما كان لأنه (فيما يقول) أقل توسيخاً وفي الواقع (وهو مالا يقوله) لأنّ الأمر لائق جداً.

– «هيّا يا «شارل»، أنت الخبير الكبير، تعال وشاهد شيئاً ما. وبعد ذلك ياصغيريّ سأستأذنكما وأدعكما حيناً معاً فيما أمضي لارتداء بدلة. وأحسب على أيّ حال أنّ «أوريان» لن تتأخّر». وعرض لوحة «فيلاسكيز» على «سوان»، فقال بتقطيب المرضى الذين يشكّل الكلام بالنسبة اليهم إرهاقاً: «ولكنما يبدو لي أني أعرف هذا».

وقال الدوق وقد أولاه التأخير الذي يبديه الخبير في الإعراب عن إعجابة جديّة: «أجل، لابدَّ أنّك رأيتها في منزل «چيلبير».

– «آه! إنّي أتذكّر، بالفعل».

– «وما عساك تظنّ ذلك؟».

فقال «سوان» بمزيج من السخرية والإجلال إزاء صاحب سمّو لعلّه يجد من قبيل سوء التهذيب وإثارة الهزء أن يتجاهله ولكنّه لايريد بداعي حسن الذوق أن يتحدّث عنه إلاّ كمن يلهو: «إذاً، إن كان ذلك في منزل «چيلبير» فلابدّ أنّه أحد أجدادك».

وقال الدوق بخشونة: «بالتأكيد. إنّه «بوزون»، ولا أدري أي رقم يحمل بين آل «غيرمانت». ولكنّي لا آبة لذلك، فأنت تعلم أنّي لست قطاعيّ النزعة شأن ابن عمّي. لقد سمعت من يلفظ اسم «ريغو» و«مينيار» وحتّى «فيلاسكيز»! يقول الدوق وهو يحدّق إلى «سوان» بنظرة المحقّق والجلاّد كي يحاول في الآن نفسه أن يقرأ أفكاره ويؤثرّ في جوابه. واختتم قائلاً (إذ كان قادراً، حينما يحملونه على استجرار مصطنع لرأي هو راغب فيه، أن يعتقد بعد بضع لحظات أنّه قد صدر تلقائيا): «هيّا على كلّ حال، وبدون تملّق. أتظنّ أنّها لأحد الأساطين العظام الذين أتيت على ذكرهم»؟

فقال «سوان»: «لـ... لـ... لا».

– «ولكن، على أيّ حال أنا لا أدري شيئاً من ذلك وليس لي أن أقرّر لمن تكون هذه اللوحة. ولكن أنت الهاوي والمعلّم في الموضوع إلى من عساك تنسبها؟».

وتردّد «سوان» لحظة أمام هذه اللوحة التي كان من الواضح أنّه يجدها قبيحة وقال: «إلى سوء الطويّة»! قال وهو يجيب الدوق ضاحكاً ولم يَسَعْ هذا الأخير أن يدع المجال لحركة غاضبة تصدر عنه. وبعدما هدأت: «كلاكما بالغ اللطف، فانتظر «أوريان» برهة، سوف أرتدي بدلتي الرسميّة وأعود. وسأبعث من يقول لقرينتي انكما تنتظرانها كلاكما».

وكلّمت «سوان» برهة عن قضيّة «دريفوس» وسألته كيف يتّفق أن يكون جميع آل «غيرمانت» مناهضين لـ«دريفوس». فأجاب «سوان»: «لأن هؤلاء القوم بادئ الأمر مناهضون للساميّة جميعهم في الأساس»، يقول وهو يعلم مع ذلك تمام العلم بالتجربة أن بعضهم على غير ذلك ولكنّه، شأن جميع الناس الذين يحملون رأياً حماسيّاً، كان يفضل كيما يفسّر أن بعض الناس لايشاطرونه إيّاه، أن يفرض لديهم سبباً سابق التصوّر وتحيزاً لايمكن أن تفعل شيئاً إزاءه أكثر منه أسباباً يمكن مناقشتها. لقد كان يمقت على أي حال، وقد بلغ نهاية حياته قبل الأوان، كان يمقت كحيوان متعب يمعنون في مطاردته تلك الاضطهادات ويعود إلى حظيرة آبائه الدينيّة.

وقلت: «فيما يخص الأمير «دو غيرمانت» صحيح، لقد قيل لي إنّه من أعداء الساميّة».

– «أوه: هذا الأخير، إنّي حتّى لا أجيء على ذكره.. فقد بلغ به، حينما كان ضابطاً وأصيب بألم أسنان مريع، أن فضّل البقاء في عذابه على أن يستشير طبيب الأسنان الوحيد في المنطقة وكان يهوديّاً، وأن ترك فيما بعد للنيران جناحاً من قصره شبت النار فيه لأنّه كان ينبغي أن يطلب الإطفاء في القصر المجاور الذي يخص آل «روتشيلد»».

– وهل أنت ذاهب هذا المساء إلى منزله؟».

فأجابني قائلاً: «أجل، مع أنّي أجدني متعباً جدّاً. ولكنّه بعث إليّ بعجالة ينبئني فيها أنّ لديه ما يقوله لي. وإنّي أحسّ أنّي سأكون شديد المرض في هذه الأيام كيما أذهب إلى هناك أو استقبله فسوف يهزني ذلك وأفضل التخلّص منه في الحال».

– ولكن الدوق «دو غرمانت» ليس مناهضاً للسامية».

– «ولكنك ترى تماماً أن بلى بما أنّه مناهض لـ«دريفوس» يجيبني «سوان» دون أن ينتبه أنّه يقوم بمصادرة على المطلوب. «وليس يحول ذلك دون اغتمامي لأنّي خيبت أمل هذا الرجل– ماذا أقول! هذه الدوق – إذ لم أعجب بلوحته المزعومة لـ «مينيار» ومالست أدري». وأردفت أقول وأنا أعود إلى قضيّة «دريفوس»: «ولكنّما الدوقة ذكيّة فيما يخصّها».

– «أجل، إنّها رائعة، وقد كانت على أيّ حال أكثر من ذلك، فيما أرى، حينما كانت لاتزال تدعى

الأميرة «دي لوم». لقد اتّخذ فكرها طابعاً أكثر نتوءاً، وكان كلّ ذلك أكثر رقّة في السيّدة الكبيرة الفتيّة. ولكن ما عساك تريد، جميع هؤلاء الناس، أكانوا أكثر شباباً أم أقلّ وسواء في ذلك الرجال أو النساء، هم من سلالة أخرى، فليس يمرّ ألف عام من الإقطاع في الدم بسلام. وهم يظنّون بالطبع أن لا أثر لذلك البتّة في رأيهم».

– «ولكنّ «روبير دو سان لو» مع ذلك مناصر لـ«دريفوس» ؟

– «لحسن الحظّ لاسيّما أنّ والدته كما تعلم مناهضة شديدة له.

لقد سبق أن قيل لي إنّه على ذلك ولكنّي لم أكن متيقناً. إن ذلك يسرّني كثيراً. وليس يدهشني الأمر فإنّه شديد الذكاء. وهذا شيء عظيم».

كانت الدريفوسية قد أولت «سوان» سذاجة غريبة وأضفت على نظرته إلى الأمور اندفاعاً وانحرافاً أكثر بروزاً ممّا فعل بالأمس زواجه بـ«أوديت». على أنّه من الخير أن يسمّى هذا الانحطاط إعادة اعتبار فما كان إلاّ مشرّفاً بالنسبة إليه بما أنّه كان يرده إلى الطريق التي جاء منها ذووه والتي حرفته عنها مخالطاته الأرستقراطية. على أنّ «سوان» كان يبدي في اللحظة نفسها التي قدر له فيها، وهو واضح الرؤية إلى حدّ بفضل المعطيات التي ورثها عن أجداده، أن يبصر حقيقة لاتزال خافية على جماعة المجتمعات الراقية، كان يبدي مع ذلك غباوة مضحكة. فقد أعاد جميع صنوف إعجابه وازدرائه على محكّ معيار جديد هو الدريفوسيّة. فأن تكون نزعة السيّدة «برنتان» المناهضة للدريفوسيّة قد جعلته يراها غبيّة لم يكن أكثر إدهاشاً من أن يكون رآها ذكيّة بعدما تزوّج. ولم يكن من الخطورة بمكان كذلك أن تصيب الموجة الجديدة فيه كذلك أحكامه السياسيّة وأن تنسيه أنّه نعت «كليمانصو» برجل المال وبجاسوس لإنكلترة (وكانت تلك إحدى سخافات وسط آل «غيرمانت»)، «كليمانصو» الذي يعلن الآن أنّه عدّه على الدوام بمثابة الوجدان الحيّ والرجل الحديديّ شأن «كورنيلي». «لا، لم أقل لك قطّ غير ذلك. إنّك تخلط». ولكنّ الموجة كانت تتجاوز الأحكام السياسيّة وتقلب لدى «سوان» الأحكام الأدبيّة وحتّى صيغة التعبير عنها فـ«بار يّس» قد افتقد كلّ موهبة، بل إن مؤلّفات شبابه ضعيفة وتكاد لاتستطيع إعادة قراءتها. «حاول، ولن تستطيع المضي حتّى النهاية. وأيّ فارق بينه وبين «كليمانصو»! لست شخصياً مناهضاً للإكليروس، ولكن كم تتبيّن أنّ «باريس» لاتماسك لديه إلى جانبه! إنّه لرجل عظيم هذا العمّ «كليمانصو» وكم يحيط بلغته!» وما كان لمناهضي «دريفوس» على أيّ حال الحقّ في انتقاد هذه الحماقات. فقد كانوا يفسرون انتصارك لـ«دريفوس» أنّك من أصل يهوديّ. فإن أصر كاثوليكيّ ممارس من أمثال «سانييت» على إعادة النظر في الدعوى فلأنّه كان سجين السيّدة «فيردوران» التي كانت تتصرّف تصرف راديكالية شرسة. فقد كانت قبل كلّ شيء ضدّ لابسي القلنسوات. لقد كان «سانييت» غبيّاً أكثر منه شريراً وما كان يعلم الضرر الذي تلحقه به «ربّة المنزل». فإن قال قائل إن «بريشو» كان صديق السيّدة «فيردوران» بالمقدار نفسه وهو عضو في جماعة «الوطن الفرنسيّ» فذلك لأنّه أشدّ ذكاء.

وقلت لـ«سوان» وأنا أتكلّم عن «سان لو»: «هل تراه أحياناً؟»

– «لا، إطلاقاً. لقد كتب إليّ ذاك اليوم كي أسأل الدوق «دو موشي» وآخرين غيره أن يصوتّوا إلى جانبه في نادي الفروسية حيث سارت أموره على أيّ حال سير رسالة في البريد».

– «على الرغم من القضيّة!».

– «لم تُثر المسألة. وسوف أقول لك على أيّ حال إنّي منذ ذلك كلّه لا أطأ بقدمي ذلك المكان».

وعاد السيّد «دو غيرمانت»، وعادت بعد قليل زوجته وهي جاهزة تماماً مديدة القامة رائعة في فسطان من الساتين الأحمر زركشت حاشية تنّورته بالبروق. وكانت تضع في شعرها ريشة نعامة كبيرة صبغت باللون الأرجواني وعلى كتفيها شال من التول باللون الأحمر نفسه. قالت الدوقة التي لم يكن يفوتها شيء: «ما أحسن أن يبطّن المرء قبعتّه بالأخضر. وعلى أيّ حال كل شيء فيك جميل يا «شارل»، سواء في ذلك ما تلبس وما تقول، ما تقرأ وما تفعل.» أمّا «سوان» فكان يتأمّل الدوقة، دون أن يبدو أنّه يسمع، كما لعلّه كان فعل بلوحة معلّم، وبحث بعد ذلك عن عينيها وهو يقوم بالتواءة في الفم تعني: «ياويحي»! وانفجرت السيّدة «دو غيرمانت» ضاحكة: «إن لباسي يروقك وإنّي مغتبطة بذلك. ولكنّما يجدر بي أن أقول إنّه لايروقني كثيراً» تضيف قولها بهيئة متجهمّة. «ياإلهي، ما أزعج أن يرتدي المرء ملابسه وأن يخرج فيما يودّ إلى أبعد حدّ أن يظلّ في بيته!»

– «ما أروع هذه الياقوتات الحمراء!».

– «آه! يا «شارلي» الصغير، إنّ المرء ليبصر على الأقلّ أنّك خبير بها ولست كهذا الحيوان «دو مونسير فوي» الذي كان يسألني إن كانت حقيقيّة. لابدّ لي أن أقول إنّي ما رأيت قطّ بمثل جمالها. إنّها هديّة من الدوقة الكبرى. وهي ضخمة قليلاً بالنسبة إلى ما أشتهي وتشبه إلى حدّ ما كأس خمور مليء حتّى الحفاف ولكنّي وضعتها لأنّنا سوف نلقى في هذا المساء الدوقة الكبرى في منزل «ماري چيلبير»، تضيف السيّدة «دو غيرمانت» دون أن ترتاب بأنّ هذا التوكيد إنّما يقضي على توكيدات الدوق.

وسأل «سوان» قائلاً: «وماذا لدى الأميرة؟»

فسارع الدوق إلى الإجابة وقد حمله سؤال «سوان» على الظنّ بأنّه لم يكن مدعوّاً: «لاشيء تقريباً».

– «كيف ذلك يا «بازان»؟ أعني أنّ جميع الأنصار والمؤيّدين مستدعون. ستكون ثمّة مجزرة، وما يكفي لتودي بحياتك». وأضافت وهي تنظر إلى «سوان» نظرة رقيقة: «الجميل، إن لم تعبّ العاصفة الكامنة في الجوّ، سيكون تلك الحدائق الرائعة. إنّك تعرفها. لقد كنت هنالك قبل شهر مضى آن كان الليلك مزهراً، ولايمكن تكوين فكرة عمّا أمكن أن تكون عليه من جمال. ثمّ هنالك نافورة الماء، وخلاصة القول إنّها حقاً «فيرساي» في باريس».

وسألت: «أيّ نوع من النساء هي الأميرة؟».

– «ولكنّك تعلم، بما أنّك التقيتها ههنا، أنّها جميلة كالنهار وأنّها كذلك على قليل من الغباء وهي شديدة اللطف على الرغم من كلّ تعاليها الجرمانّي، تفيض طيبة وهفوات».

كان «سوان» أكثر رهافة من ألاّ يتبيّن أنّ السيّدة «دو غيرمانت» كانت تحاول في تلك اللحظة أن «تبرز

الظرف الغيرمانتّي» ودون كبير عناء لأنّها إنما كانت تعيد فحسب طُرفاً لها قديمة في صيغة أقلّ كمالاً. ولكنّه بغية أن يبرهن للدوقة أنّه يدرك مقصدها في أن تبدو مستهجنة وكما لو كانت بالحقيقة كذلك ابتسم ابتسامة متكّلفة فبعث في نفسي من جرّاء هذا النوع الخاصّ من قلّة الصدق الضيق نفسه الذي كان ينتابني بالأمس لدى سماعي ذويّ يتحدّثون إلى السيّد «فانتوي» عن فساد بعض الأوساط (فيما يعلمون تمام العلم أنّ ما يسود «مونجو فان» أكبر منه) أو لمحض سماعي السيّد «لوغراندان» في المجتمعات الراقية ينّوع في إلقائه من أجل أغبياء وينتقي نعوتاً رقيقة يعلم تماماً أنّها لايمكن أن تُدرك في جمهور ثريّ أ أنيق ولكنّه جاهل.

وقال السيد «دو غيرمانت»: «ويحك يا «أوريان»، ماذا تقولين؟ ماري غبيّة؟ لقد قرأت كلّ شيء وهي موسيقيّة كالكمان».

— «ولكن ياصغيري المسكين «بازان»، إنّك طفل وُلد لتوّه. كما لو أنّها لاتستطيع أن تكون كلّ ذلك وعلى شيء من الغباء! والغباء مبالغ فيه على أيّ حال، لا إنّها غائمة، إنّها من أسرة «هيسّه — دار مشتات» وتحمل طابع الإمبراطورية المقدّسة و«البلادة». إن محض تلفّظها يثير أعصابي. ولكنّي أعترف على أية حال أنّها رائعة في غرابة أطوارها. وأول الأمر محض فكرة أن تكون انحدرت من عرشها الألماني لتأتي وتتزوّج فرداً بسيطاً زواجاً بورجوازياً تماماً. صحيح أنّها انتقته!» وقالت وهي تلتفت صوبي: «ولكن، صحيح، أنت لاتعرف «چيلبير»! سأزوّدك في الحال بفكرة عنه: لقد لزم الفراش فيما مضى لأنّي بعثت ببطاقة للسيّدة «كارنو»... ثمّ قالت الدوقة بغية تغيير الحديث وإذ رأت أنّ حكاية بطاقتها بدت وكأنّها تثير غضب السيّد «دو غيرمانت»: «ولكن يا «شارلي» الصغير تدري أنّك لم ترسل صورة فرسان «رودس» الذين أحبّهم بفضلك والذين أرغب أشدّ الرغبة في التعرّف بهم».

ولم يكن الدوق قد كفّ مع ذلك عن التحديق إلى زوجته:

— «أوريان، يجدر بك على الأقلّ أن تنقلي الحقيقة وألاّ تبلعي نصفها». وقال مصحّحا وهو يلتفت إلى «سوان»: «ينبغي أن نقول إن سفيرة انكلتره في تلك الفترة، وكانت امرأة بالغة الطيبة ولكنّها تعيش بعض الشيء في القمر وقد تعوّدت هذا النوع من الهفوات، خطر لها هذا الخاطر الغريب إلى حد ما بأن تدعونا والرئيس وزوجته. وقد دهشنا، وحتّى «أوريان»، بعض الدهشة، يزيد منها أنّ السفيرة كانت تعرف معرفة كافية من نعرف من أشخاص كي لاتدعونا بالضبط إلى اجتماع غريب إلى هذا الحدّ. كان ثمّة وزير قام باختلاس، وأتغاضى عن ذلك على أيّ حال، ولم نكن قد أخطرنا بذلك ووقعنا في الشرك، على أنّه لابدّ من الإقرار بأنّ جميع هؤلاء الناس كانوا مهذّبين أبعد التهذيب. كانت الأمور كافية إلى هذا الحدّ. ولكنّما بدا للسيّدة «دو غيرمانت» التي لاتوليني كثيراً شرف استشارتي أنّ من واجبها المبادرة إلى وضع بطاقة في غضون الأسبوع نفسه في قصر «الإيليزيه». ربّما بالغ «چيلبير» إذ رأى في الأمر كأنّما لطخة تلطخ اسمنا. ولكنّما ينبغي ألاّ ننسى، إن وضعنا السياسة جانباً، أن «كارنو» الذي كان يشغل منصبه، من ناحية أخرى، على نحوٍ مرضٍ جدّاً، هو حفيد أحد أعضاء المحكمة الثوريّة التي أهلكت في يوم واحد أحد عشر من جماعتنا».

— «فلماذا كنت تذهب إذاً يا «بازان» لتناول طعام العشاء في «شانتيي» كلّ أسبوع؟ لقد كان الدوق

«دومال» بدوره حفيد أحد أعضاء المحكمة الثرية بفارق أنّ «كارنو» كان رجلاً طيبَ القلب و«فيليب- المساواة» نذلاً مريعاً».

وقال «سوان»: «اعتذر للمقاطعة كي أقول لك إنّي بعثت بالصورة ولست أفهم أنّهم لم يعطوك إيّاها».

فقالت الدوقة: «لا يدهشني الأمر إلاّ جزئياً. فإن خدّامي لايقولون لي إلاّ ما يلقونه مناسباً. إنّهم لابدّ لايحبّون جمعيّة القدّيس يوحنّا». وقرعت الجرس.

- «تعلمين يا «أوريان» أنّي حينما كنت أتناول العشاء في «شانتيي» إنّما كنت أفعل دونما حماسة».

- «دونما حماسة ولكن بقميص نوم كي تظلّ وتنام إن سألك الأمير ذلك، وقليلاً ما كان يفعل على أيّ حال بوصفه إنساناً فظّاً شأن جميع آل «أورليان».. وسألت السيّدة «دو غيرمانت» زوجها قائلة: «أتعلم مع من نتناول العشاء في منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت؟»

- «فيما عدا الجلساء الذين تعرفينهم سيكون ثّمة شقيق الملك «تيودوز»، وهو مدعوّ الساعة الأخيرة».

واكتست، لدى هذا الخبر، ملامح الدوقة بالرضى، وأقوالها بالسأم»: «آه! ياإلهي. يزيدوننا أمراء».

وقال «سوان»: «ولكنّ هذا الأخير لطيف وذكّي».

فأجابت الدوقة وهي تبدو كمن يبحث عن كلماته كي تضفي جدّة أكبر على فكرتها: «ليس تماماً على أيّ حال. فهل لاحظت، بين الأمراء، أن أكثرهم لطفاً ليسوا لطفاء تماماً؟ بلى، أؤكّد لك ذلك! ينبغي أبداً أن يكون لهم رأي في كل شيء. وإذهم لايملكون أيّ رأي فانّهم يقضون الجزء الأول من حياتهم في طلب آرائنا منا، والجزء الثاني في تقديمها ثانية لنا. لابدّ لهم حتماً أن يقولوا إن هذا الأمر قد تمّ القيام به خير قيام وإنّ ذاك أقلّ منه. وليس من فارق مطلقاً. خذ مثلاً شقيق «تيووز» الأصغر هذا (لست أذكر اسمه) الذي سألني أيّ اسم يطلقون على اللحن المميّز للأوركسترا». وقالت الدوقة وقد التمعت عيناها وأطلقت ضحكة عالية من شفتيها الحمراوين الجميلتين: «فأجبته إنهم يطلقون عليه اسم اللحن المميّز للأوركسترا». ولكنّه في أساس الأمر لم يكن مسروراً». وأردفت السيّدة «دو غيرمانت» تقول بصوت واهن: «آه! يا «شارلي» الصغير، ما أكثر ما يبعث على السأم أن تتناول عشاءك في المدينة! ثمّة أمسيات نفضّل فيها الموت! صحيح أنّ الموت ربّما كان مزعجاً بالمقدار نفسه إذ لانعلم ماعسى أن يكون».

وأقبل أحد الخدم. وكان الخطيب الشاب الذي سبق أن تخاصم مع البوّاب إلى أن أقامت الدوقة فيما بينهما بطيبة نفسها سلاماً ظاهراً.

وسأل قائلاً: «هل ينبغي لي أن استعلم في هذا المساء أُخبار السيّد المركيز «دوسمون» ؟

- «لا، على الإطلاق، لاشيء قبل صباح الغد! إنّي لا أريد حتّى أن تمكث ههنا هذا المساء. فعلى خادمه الخاصّ الذي تعرفه أن يجيء ويزوّدك بالأخبار ويقول لك أن تذهب وتأتي بنا. أخرج واذهب حيثما

تشاء افعل الموبقات ونم خارج المنزل، ولكنّي لا أريدك ههنا قبل صباح الغد».

وفاض وجه الخادم الخاص بفرح لاحدّ له. هاهو يستطيع أخيراً أن يقضي ساعات طويلة برفقة خطيبته التي كان لايستطيع أن يلقاها من بعد مذ أوضحت له الدوقة بلطف، على إثر شجار جديد مع البوّاب، أنّه من الخير له ألاّ يخرج من بعد ليتجنّب منازعات جديدة. كان يسبح، لدى التفكير بأنّه ينال أخيراً أمسيته الحرّة، في لجّة سعادة لاحظتها الدقة وفهمتها. وأحسّت بانقباض في الصدر وأكال في جميع الأعضاء لدى رؤية هذه السعادة التي يأخذونها على غير علم منها وبالخفية عنها والتي تبعث في صدرها الغيظ والغيرة. «لا، يا«بازان»، فليمكث ههنا ولايبرحنّ، على العكس، المنزل».

– «ولكن يا «أوريان»، ذلك غير معقول فخدمك كلّهم حاضرون وسيجيئك بالإضافة إليهم في منتصف الليل الكاسية وصانع الملابس التنكّرية من أجل حفلتنا الراقصة. إنّه لايمكن أن يفيد البتّة في شيء، وبما أنّه وحده صديق لخادم «ماما» الخاص فإنّي أفضّل ألف مرّة أن أرسله بعيداً عن هنا».

– «اسمع، دعني يا «بابال»، إنّ لديّ بالضبط أمراً أريد أن يُنقل إليه في السهرة ولست أدري تماماً في أيّ ساعة». وقالت للخادم اليائس: «خصوصاً لاتبرح المكان دقيقة واحدة».

لئن كان ثمّة على الدوام مشاجرات ولئن مكثوا قليلاً في منزل الدوقة فإن الشخص الذي كان ينبغي أن تُعزى إليه هذه الحرب الدائمة كان بالتأكيد غير قابل للعزل، على أنّه لم يكن البوّاب. لاشكّ أنّ الدوقة، بالنسبة إلى الأعمال الشاقّة وصنوف التعذيب التي يتطلّب إنزالها مشقّة أكبرو المشاجرات التي تنتهي بالضرب، كانت تعهد بآلاتها الثقيلة إليه، وكان يقوم بدوره على أيّ حال دون أن يرتاب أن يكونوا عهدوا به إليه. كان ينظر باعجاب إلى طيبة الدوقة شأن الخدم. وكان الخدّام القليلو التبصّر يجيئون كثيراً بعد رحليهم للقاء «فرانسواز» قائلين بأن منزل الدوق ربّما كان أفضل مكان في باريس لو لم يكن ثمّة المحفل. وكانت الدوقة تستخدم المحفل مثلما استخدمت على مدى فترة طويلة الإكليروسيّة والماسونية والخطر اليهودي، إلخ. ودخل أحد الخدم الخاصّين.

– «لماذا لم يأتوني إلى فوق بالرزمة التي بعث بها السيّد «سوان» إليّ؟ ولكن، مادمنا بهذا الصدد «تدري يا «شارل» أنّ «ماما» مريض جداً)، «جول» هذا الذي ذهب يستعلم أخبار السيّد المركيز «دو سمون» هل عاد؟».

– «لقد وصل لتوّه ياسيّدي لدوق. إنّهم ينتظرون بين لحظة وأخرى أن يفارق السيد المركيز».

فصاح الدوق بزفرة ارتياح: «آه! إنّه على قيد الحياة. إنّهم ينتظرون، إنّهم ينتظرون! يالك من شيطان أنت». قال لنا الدوق بهيئة مبتهجة: «مادام ثّمة حياة فثّمة أمل. لقد صوّروه لي وكأنّه قضى ووري تحت الثرى. في ثمانية أيّام يكون أفضل عافية منّي».

– «الأطبّاء هم الذين قالوا إنّه لن يُمضي السهرة. وكان أحدهم يبغي العودة في الليل، ولكن رئيسهم قال إنّ الأمر لايجدي. كان لابدّ أن يكون المركيز قد مات، ولم يبق على قيد الحياة إلاّ بفضل حقن شرجيّة

من الزيت الممزوج بالكافور».

وصاح الدوق وهو في سورة الغضب: «اخرس، يالك من غبيّ! فمن ذا يطلب منك كلّ ذلك؟ إنّك لم تفهم شيئاً ممّا قيل لك».

– «ماقيل لي، بل لـِ«جول».

فزعق الدوق عالياً: «ألن تخرس؟» والتفت إلى «سوان»: «أيّة سعادة أن يكون حيّاً. سوف يستعيد قواه شيئاً فشيئاً. إنّه على قيد الحياة بعد نوبة كهذه، والأمر مذ ذاك رائع، فلا يمكننا أن نطلب كلّ شيء دفعة واحدة.» وقال الدوق وهو يفرك يديه: «لابدّ أنّ حقنة طفيفة بالزيت الممزوج بالكافور ليست مزعجة. إنّه على قيد الحياة، فماذا يودّون أكثر من ذلك؟ إنّها لنتيجة طيبّة جداً بعد أن قاسى ماقاسى. بل إنّي أحسده أن يكون بمثل هذا المزاج. آه! المرضى، إنّهم يحيطونهم بعناية لايحيطوننا بها. لقد حضّر لي طاه في الصباح فخذ خروف بالمرق الكثيف الحارّ ناجح أروع النجاح، إنّي مقرّ بذلك، ولكنّي لهذا السبب بالضبط أخذت منه إلى الحدّ الذي لايزال يثقل معدتي. لكنّ ذلك لايحول دون امتناعهم عن استعلام أخباري على نحو مافعلوا إزاء العزيز «آمانيان» إنّهم حتّى يجاوزون الحدّ، والأمر يرهقه. لابدّ أن يدعوا له أن يرتاح. إنّهم يقتلون هذا الرجل إذ يوفدون دوماً من يسأل عنه».

وقالت الدوقة للخادم الذي كان خارجاً: «ويحك! سبق أن طلبت أن تحملوا إليّ إلى فوق، الصورة المغلّفة التي بعث بها إليّ السيّد «سوان».

– «سيّدتي الدوقة، إنّها ضخمة إلى حدّ أنّي ما كنت أعلم إن هي ستعبر من الباب. لقد تركناها في الردهة. فهل تودّ سيّدتي الدوقة أن أحملها إلى فوق؟».

– «لا، في هذه الحال. وكان يجدر أن أُبلّغ ذلك، ولكن إن كانت كبيرة إلى هذا الحدّ فسوف أشاهدها عمّا قليل لدى نزولي».

– «نسيت كذلك أن أقول لسيّدتي الدوقة إن السيّدة الكونتيسّة «موليه» قد تركت في هذا الصباح بطاقة لسيّدتي الدوقة».

فقالت الدوقة بلهجة الاستياء ومن ترى أنّ امرأة شابّة مثلها لايمكن أن تسمح لنفسها بأن تترك بطاقات في الصباح: «كيف ذلك، في هذا الصباح؟».

– «نحو الساعة العاشرة ياسيّدتي الدوقة».

– «أرني هذه البطاقات».

وأردف الدوق يقول، وقد عاد إلى حديثه الأوّل: «على أيّ حال، حينما تقولين يا «أوريان» إنّ ماري قد راودتها فكرة غريبة في زواجها من «جيلبير» فأنت التي تنهج طريقة فريدة في كتابة التاريخ فإن كان ثّمة غبّي

في هذا الزواج فإنّما «چيلبير» في زواجه من قريبة وثيقة القربى إلى هذا الحدّ بملك البلچيكّيين الذي اغتصب اسم «برابان» الذي نملكه. إنّنا باختصار القول من سلالة آل «هيسّه» نفسها ومن فرع البكوريّة». ثم قال وهو يوجّه الحديث إليّ: «إنّه من قبيل الغباء دوماً أن يتحدّث المرء عن نفسه، ولكنّنا حين ذهبنا لا إلى «دار مشتات» فحسب بل حتّى إلى «كاسيّل» وفي سائر أنحاء أمارة «هيسّه» فقد تلطّف الأعيان جميعهم وتظاهروا على الدوام بتقديمنا عليهم وبايلائنا مكان الصدارة بوصفنا من فرع البكوريّة».

– «ولكنّما لن تقول لي يا «بازان» إنّ تلك المرأة التي كانت قائدة لجميع فيالق بلدها والتي خطبوها لملك «السويد»....

– «أوه! تبالغين يا «أوريان»، لكأنّك لاتعلمين أن جدّ ملك «السويد» كان يزرع الأرض في مدينة «بو» حينما كنّا نحتّل على مدى تسع مئة سنة خلت مكان الصدارة في أوروبا بأسرها».

– «ذلك لايمنع أنّه لو قيل في الشارع: «ويحك، إنّه ملك السويد» فسوف يجري الجميع لرؤيته حتّى إلى ساحة «الكونكورد»، فإن قيل: «هو ذا السيّد «دو غيرمانت»، فلن يعلم أحد من عساه يكون».

– «ياله من سبب!».

– «ولايمكن أن أفهم على أيّة حال كيف تستطيع، بما أنّ لقب دوق «باربان» قد انتقل إلى الأسرة المالكة البلچيكيّة، أن تدّعيه لنفسك».

وعاد الخادم الخاصّ ببطاقة الكونتيسّة «موليه»، أو بالأحرى بما تركته بمثابة بطاقة. فقد تذرّعت بأنّها لاتحمل بطاقات معها وأخرجت من جيبها رسالة سبق أن وردتها فاحتفظت بالمضمون واقتطعت زاوية المغلّف التي تحمل اسم: الكونتيسّة «موليه». ولّما كان المغلّف كبير الحجم إلى حدّ ما حسب قياس ورق الرسائل الذي كان شائعاً في ذلك العام فإن هذه «البطاقة» التي سُطّرت بخطّ اليد قد بلغت تقريباً ضعف حجم بطاقة الزيارة العاديّة.

فقالت الدوقة هازئة: «هذا ما يدعونه بساطة السيّدة «موليه». تريدنا أن نعتقد أنّها لم تكن تحمل بطاقات وأن تعرب عن تفرّدها. ولكنّا نعرف كلّ ذلك، أليس أنّنا نعرفه ياعزيزي «شارل»؟ لقد بلغنا من السنّ وقدراً من التفرّد أكثر من أن نتعلّم التظّرف على يد سيّدة صغيرة خرجت إلى الدنيا منذ أربع سنوات. إنّها فاتنة ولكنّما لايبدو لي أنّها بلغت مع ذلك حجماً كافياً لتتصوّر أنّها تستطيع إدهاش الناس بكلفة زهيدة إلى الحد الذي تترك فيه مغلّفاً بمثابة بطاقة وترميها في العاشرة صاحباً. سوف تبرهن لها الفأرة العجوز أنّها عارفة بهذا الشأن بمقدار ما تعرف».

ولم يتمالك «سوان» أن ضحك وهو يفكّر أنّ الدوقة التي كانت غيرى بعض الشيء من نجاح السيدة «موليه» سوف تجد بالتأكيد في «ظرف آل غير مانت» جواباً وقحاً بحقّ هذه الزائرة.

وعاد الدوق يقول: «أمّا بخصوص لقب الدوق «دوبرابان»، فقد قلت لك مئة مرّة يا «أوريان»... ولكنّ

الدقة قطعت عليه الكلام دون أن تصغي.

– «ولكنّني توّاقة إلى صورتك ياعزيزي «شارل».

فقال «سوان»: «آه! Extinctor draconis latrator Anubis»

– «أجل، جميل جداً ماقلته لي بهذا الشأن بالمقارنة مع القديس جاروجيوس في البندقيّة. ولكنّي لا أفهم لماذا تقول «أنوبيس»(*).

وسأل السيّد «دو غيرمانت» قائلاً: «كيف هو من كان جدّ «بابال» ؟

فقالت السيّدة «دو غيرمانت» بلهجة جافّة لتعرب أنّها كانت تزدري هذا التلاعب اللفظيّ: «بودّك أن ترى الجدّة «بابال». وأضافت قولها: «أودّ لو أراهم جميعاً».

وقال الدوق: «اسمع يا «شارل»، هيّا ننزل بانتظار أن يتمّ تقديم العربة وستقوم بزيارتك لنا في الردهة لأنّ زوجتي لن تدعنا بسلام مادامت لم تشاهد صورتك». وأضاف بلهجة الراضي عن نفسه: «إني والحق يقال أطول بالاً، إنّي رجل هادئ أنا، ولكنّها قد توردنا حتفنا».

وقالت الدوقة: «إنّي أوافقك الرأي تماماً يا «بازان»، هيّا إلى الردهة، فإنّنا نعلم على الأقلّ لماذا ننحدر من حجرتك فيما لن ندري في يوم لماذا ننحدر من كونتات آل «برابان».

فقال الدوق «فيما كنّا نمضي لمشاهدة الصورة وكنت أفكّر في تلك التي كان يحملها «سوان» إليّ في «كومبريه»): «لقد كرّرت لك مئة مرة كيف دخل اللقب بيت آل «هيسّه» بزواج أحد آل «برايان» في عام ١٢٤١ بابنة آخر أمير لمقاطعتي «تورانج» و«هيسّه» حتّى إنّ لقب أمير «هيسّه» هو بالأحرى الذي دخل بيت «برابان» أكثر منه لقب دوق «برايان» بيت «هيسّه» وتذكرين على أيّ حال أنّ شعارنا الحربي كان شعار دوقة «برابان»: «ليمبور لمن احتلّها»، إلى أن استبدلنا بشعار آل «برابان» شعار آل «غيرمانت»، الأمر الذي أجد أنّنا كنّا فيه على غير حقّ، وإن مَثَلَ آل «غرامون» ليس من شأنه أن يحملني على تغيير رأيي».

وأجابت السيّدة «دو غير مانت»: «ولكن، بما أنّ ملك البلچيكيّين هو الذي احتلّه... وعلى أيّ حال فوريث بلچيكا يدعى دوق «برابان».

– «ولكنّ ما تقولين ياصغيرتي لايقوم على أساس وهو خاطئ منذ البداية. فإنّك تعلمين مثلما أعلم أنّ ثمة ألقاباً مدّعاة تبقى بكلّ تأكيد إن اتّفق احتلال المنطقة على يد مغتصب. فملك إسبانيه مثلاً يسمّي نفسه دوق «برابان» متذرّعاً في ذلك بملكية أقلّ قدماً من ملكيّة أقلّ قدماً من ملكيّتنا ولكنّها أكثر قدماً من ملكيّة

(*) باللاتينية في النص: «أنوبيس النباح يا مجندل التنين»، والاستشهاد من ملحمة «الانياذة» لڤيرجيليوس» وهو غير دقيق، وقد عدت إلى الأصل اللاتيني فإذا هو كالآتي: «آلهة من جميع الأصناف الخرافية وفي عدادهم النباح أنوبيس يوجهون سهامهم إلى نبتون وڤينوس ومينيرڤا».

ملك البلچيكيّين. ويقول كذلك إنّه دوق «بورغونيي» وملك الهند الغربيّة والشرقيّة ودوق «ميلانو». ولكنه لايملك «برغونيي» ولا الهند لا «برابان» أكثر ممّا أملك أنا هذا الأخير أو يملكه أمير «هيسّه» ولايحول ذلك دون أن يعلن ملك اسبانيه أنّه ملك أورشليم، وكذلك يفعل ملك النمسا وليس يملك أورشليم هذا ولاذاك.»

وتوقف لحظة وبه ضيق أن يكون استطاع اسم أورشليم أن يزعج «سوان» بسبب «المسائل القائمة»، ولكنّه عاد يتابع بسرعة أكبر: - «ماتقولينه ههنا يمكن أن تقوليه عن كلّ شيء. فقد كنّا دوقة «أومال»، هذه الدوقة التي انتقلت إلى أسرة «فرنسه» بمثل انتظام «چوانفيل» و«شوفروز» إلى أسرة «ألبير» وانّنا لانطالب بهذه الألقاب أكثر ممّا نطالب بلقب المركيز «دو نوار موتييه» الذي كان ملك أيدينا والذي أصبح على نحو نظاميّ تام وقفاً على أسرة «لاتريموّاي»، ولكنّما لاينتج عن كون بعض التنازلات مقبولة أنّها جميعها كذلك». وقال وهو يلتفت صوبي: «إن ابن اخت زوجتي مثلاً يحمل لقب أمير «أغريجانت» الذي آل إلينا عن «چانّ المجنونة» مثلما آل إلى أسرة «لاتريموّاي» لقب أمير «تارانت». ولكنّ نابليون قد منح لقب «تارانت» هذا أحد الجنود الذي ربّما كان على أيه حال جندياً ممتازاً، ولكنّ الإمبراطور قد تصرّف في ذلك بما كان حتّى أقلّ مآلا إليه من نابليون الثالث يوم نَصَّبَ دوقاً على «مونمورانسي» بما أن والدة الأمير «بيريغور» كانت على الأقلّ من آل «مونمورانسي»، فيما لم يكن في «تارانت» نابليون الأوّل من أثر لـ«تارانت» سوى مشيئة نابليون أن يكون كذلك. ولم يثن ذلك «شيه ديستانغ»، وهو يلمح إلى عمّك «كونديه»، عن سؤال المدّعي الإمبراطري إن هو لملم لقب دوق «مونمورانسي» في حفر «فانسين».

- «اسمع يا «بازان»، لست أطلب خيراً من أن أتبعك في حفر «فانسين» وحتّى إلى «تارانت». وبهذه المناسبة، ياعزيزي «شارل، ذلك بالضبط ما كنت أنوي قوله لك حينما كنت تحدّثني عن القدّيس جاورجيوس. الذي في البندقيّة، ذلك أنّ في نيتّنا أنا و«بازان» قضاء الربيع القادم في ايطاليه وصقليّه. فلو تجيء معنا، فكّر كم سيكون الأمر مختلفاً! إنّي لا أتحدّث عن سروري بلقائك فحسب، ولكن تصوّر تصوّر ما الذي تضحي عليه رحلة كهذه نقضيها برفقتك بالإضافة إلى كلّ ماورويته لي في العديد من المرّات عن ذكريات الاحتلال النورمانديّ والذكزيات القديمة! أعني أنّ «بازان». نفسه، ماذا أقول، و«چيلبير» قد يفيدان من ذلك لأنّني أحس أنّه ربّما أثارت اهتمامي حتّى مطالباتنا بعرش «نابولي» وسائر تلك الأمور إن شرحتها لي أنت في كنائس رومانية قديمة أو في قرى صغيرة جاثمة شأنها في لوحات الأوائل. ولكنّنا سنشاهد صورتك». وقالت الدوقة لأحد الخدم الخاصّين: «انزع الغلاف».

وتوسّل إليها الدوق الذي سبق أن توجّه إليّ باشارات مذعورة وهو يبصر ضخامة الصورة: «ولكن لايكن الأمر في هذا المساء يا «أوريان».

- «ولكنّما يسرّني أن أشاهد ذلك برفقة «شارل»، تقول الدوقة بابتسامة متكّلفة في رغبتها مرهفة في عمقها النفسيّ، فقد كانت تتحدّث، وسط رغبتها في التحبب لـ«سوان»، عن المتعة التي ستصيبها من مشاهدة هذه الصورة وكأنّما عن المتعة التي يحسّ مريض أنّه سيصيبها من أكل برتقالة أو كما لو أنّها دبّرت في الآن نفسه طلعة برفقة أصدقاء وأطلعت كاتب سيرة على ميول لها تشرّفها.

وأعلن الدوق، فاضطرّت زوجته إلى موافقته، أعلن قائلاً: «سوف يجيء إذاً خصيّصاً ليراك». وأضاف بسخرية: «وتقضيان ثلاث ساعات معاً أمامها إن حلا لك. ولكن أين تضعين لعبة بهذا الحجم؟»

–«في غرفتي بالطبع، فاني أود الاحتفاظ بها أمام عيني».

– «آه! على قدر ما تشائين إن كانت في غرفتك، فمن المحتمل ألا أشاهدها في يوم»، يقول الدوق دون أن يفطن إلى التصريح الذي يعلن به على هذا النحو الطائش عن الطابع السلبيّ لعلاقاته الزوجيّة.

وأمرت السيّدة «دو غيرمانت» الخادم قائلة (وكانت تضاعف التوصيات بداعي التودّد لـ«سوان»): «انزع هذا إذن باهتمام بالغ، ولا تتلف الغلاف كذلك».

وهمس الدوق في أذني وهو يرفع ذراعيه إلى السماء: «ينبغي لنا حتّى أن نحترم الغلاف!» ثم أضاف قوله: «ولكن يا «سوان»! أنا الذي لايعدو كونه زوجاً مسكيناً وعادياً جداً إنّما يثير اعجابي في ذلك أنّك استطعت العثور على غلاف بمثل هذا الحجم. فأين اكتشفت ذلك؟»

– «إنّها دار حفر الرواسم التي كثيراً ما تقوم بهذا النوع من الإرساليّات. ولكنّه رجل فظّ، فاني أرى أنّه كتب عليها: «الدوقة «دو غيرمانت» وأغفل «السيّدة».

وقالت الدوقة ساهية: «إنّي أصفح عنه»، ثمّ بدا فجأة وكأنّما أدهشتها فكرة أشاعت السرور في نفسها فكتمت ابتسامة خفيفة وسرعان ماعادت تقول لـ«سوان»: «عجباً! لاتقول إن كنت ستجيء معنا إلى ايطاليه؟».

– «أظنّ ياسيّدتي أنّ الأمر لن يكون ممكناً».

– «إذاً فالسيّدة «دو مونمورانسي» أوفر حظاً. لقد ذهبت برفقتها إلى البندقية و«فيسانس». وقد قالت لي إنّ المرء يشاهد معك أشياء ما كان ليراها في يوم لولا ذاك ولم يتحدث أحد عنها قطّ، وإنّك أريتها أموراً لاتصدّق وأنّها استطاعت حتّى في الأمور المعروفة أن تدرك تفاصيل لعلّها لولاك كانت مرّت عشرين مرّة أمامها دون أن تلاحظها البتّة. لقد كانت بالتأكيد أكثر حظوة منّا...» وقالت للخادم: «خذ غلاف صور «سوان» الضخم واذهب وضعها، بعدما أطوي أنا زاويتها، في منزل السيّدة الكونتيسّة «موليه» في العاشرة والنصف من هذا المساء».

وانفجر «سوان» بالضحك.

وسألته السيّدة «دو غيرمانت»: «أودّ مع ذلك أن أعلم كيف تستطيع قبل عشرة أشهر أن تعلم أنّ الأمر سيكون مستحيلاً».

– «سوف أقول لك ذلك يادوقتي العزيزة إن كنت تصرّين عليه، ولكنّك ترين، بادئ الأمر، أنّي مريض جداً»

- «أجل، ياعزيزي «شارل»، إنّي أرى أنّك لست البتّة على مايرام ولستُ مسرورة من لون وجهك، ولكنّي لا أسألك ذلك إلى ما بعد ثمانية أيّام، إنّي أسألك ذلك إلى مابعد عشرة أشهر. وفي عشرة شهور، تدري، يتّسع الوقت للمعالجة».

وجاء خادم خاصّ يعلن في تلك الحظة أن العربة قد جيء بها. فقال الدوق الذي كان قد أخذ منذ فترة يضرب الأرض بقدمه من نفاد صبر كما لو كان هو نفسه أحد الأحصنة التي تنتظر: «هيّا يا «أوريان»، إلى الجياد».

وسألت الدوقة وهي تنهض لتستأذننا: حسن! والسبب بمختصر القول؟ الذي سيحول دون مجيئك إلى ايطاليه؟».

فأجاب «سوان» وهو يبتسم، فيما كان الخادم يفتح باب الردهة المزجّج ليسمح للدوقة بالمرور: «ذلك لأنّي، ياصديقتي العزيزة، أكون قد فارقت منذ عدّة شهور. ففي رأي الأطباء الذين استشرتهم لن يدع لي المرض الذي بي، والذي يمكن على أيّ حال أن يقضي عليّ في الحال، أكثر من ثلاثة شهور أو أربعة وذلك كحد أقصى».

وصاحت الدوقة وهي تتوقّف ثانية في سيرها إلى العربة وترفع عينيها الزرقاوين الجميلتين الحزينتين اللتين امتلأتا حيرة. فإذ ألفت نفسها لأوّل مرة في حياتها واقعة بين واجبين مختلفين اختلاف استقلال عربتها للمبادرة إلى تناول العشاء في المدينة والإعراب عن اشفاقها لرجل تدنو منّيته لم تكن ترى شيئاً في مرمزّة اللياقات يشير إلى الاجتهاد الواجب اتّباعه، ولّما لم تعلم أيّهما تفضّل ظنّت من واجبها أن تتظاهر بأنها لاتصدّق امكانيّة طرح الخيار الثاني كيما تنصاع للأوّل الذي كان يقتضيها في هذه اللحظة جهداً أقلّ وحسبت أن خير طريقة لحلّ النزاع تكمن في إنكاره: «ماهذا الذي تقوله لي؟» ثم قالت لـ«سوان»: «مرادك أن تمزح؟».

فأجاب «سوان» بلهجة ساخرة: «قد يكون ذلك مزاحاً رائع الذوق. لست أدري لماذا أقول لك ذلك فلم أحدّثك عن مرضي حتّى الآن. ولكن مادمت سألتني عن ذلك وأنّه يمكن الآن أن أموت بين يوم وآخر... ولكنّي فوق كلّ شيء لا أودّ أن تتأخّري فإنّك تتعشّين في المدينة»، يضيف قوله لأنّه كان يعلم أن الالتزامات المجتمعيّة في نظر الآخرين تسمو على موت أحد الأصدقاء وأنّه كان بفضل تهذيبه يضع نفسه في مكانهم. على أن تهذيب الدوقة كان يمكنّها بدورها أن تتبيّن على نحو مبهم أن العشاء الذي تمضي إليه هو لابدّ أقلّ وزناً في نظر «سوان» من موته. ولذلك فقد خفضت منكبيها فيما توالي طريقها إلى العربة وقالت: «لاتشغل بالك بهذا العشاء فلا أهميّة له البتّة!» ولكن هذه الكلمات عكّرت مزاج الدوق الذي صاح قائلاً: «هيّا يا «أوريان»، لا توالي الثرثرة هكذا وتبادل المراثي مع «سوان»، مع أنّك تعلمين تماماً أن السيّدة «دو سانت أوفيرت» تحرص أن تجلس إلى المائدة في الساعة الثامنة تماماً. لابدّ أن تعلمي أيّ أمر تريدين فقد انقضت خمس دقائق وجيادك تنتظر». ثمّ قال وهو يلتفت إلى «سوان»: «إني استميحك عذراً يا «شارل» ولكنّ الساعة بلغت الثامنة إلاّ عشراً؛ إنّ «أوريان» متأخرة على الدوام ويقتضينا الأمر أكثر من خمس دقائق للذهاب إلى

منزل العمّة «دو سانت أوفيرت».

وتقدّمت السيّدة «دو غيرمانت» بثبات إلى العربة واستودعت «سوان» مرّة أخيرة. «تدري، سوف نعاود الحديث عن ذلك، إنّي لا أصدّق كلمة واحدة مما تقول، ولكن لابدّ أن نتحدّث عن ذلك سويّة. فربّما أشاعوا الرعب في نفسك بغباء، تعال للغداء وفي اليوم الذي تريد» (كان كلّ شيء يلقى حلّه على الدوام في حفلات غداء)، «وتبلّغني باليوم والساعة»، ورفعت تنّورتها الحمراء ووضعت قدمها على المرقاة. كانت على وشك أن تدخل العربة حينما صرخ الدوق بصوت مخيف إذ أبصر هذه القدم: «أوزيان، ما الذي كنت تزمعين الإقدام عليه أيتها التعيسة. لقد احتفظت بحذائك الأسود! مع ملابس حمراء! هيا اصعدي ثانية لانتعال حذائك الأحمر، أو قل في الحال لوصيفة السيّدة الدوقة»، يقول للخادم الخاصّ، «أن تجيء بالحذاء الأحمر».

وأجابت الدوقة بلطف وقد أربكها أن تلاحظ أنّ «سوان» الذي كان يخرج برفقتي ولكنّه شاء أن يسمح للعربة بالمرور أمامنا قد سمع: «ولكن ياصديقي مادمنا تأخّرنا...».

– «لا، الوقت كلّه يتّسع لنا. فلم تتجاوز الساعة الثامنة إلاّ عشراً ولن نقضي عشر دقائق للذهاب إلى حديقة «مونسو»، ثمّ ماعساك تبغين، سوف ينتظرون وإن بلغت الساعة الثامنة والنصف فلا يمكنك الذهاب بفسطان أحمر وحذاء أسود. ومهما يكن من أمر فلن نكون آخر القوم، اطمئنّي، هنالك أسرة «ساسناج»، فأنت تعلمين أنّهم لايحضرون قبل التاسعة إلاّ ثلثاً».

وعادت الدوقة إلى غرفتها.

وقال لنا السيّد «دو غيرمانت»: «يا للأزواج المساكين، يسخرون منهم ولكنّما فيهم بعض الخير مع ذلك. كانت «أوريان» تزمع تناول عشائها بحذاء أسود».

وقال «سوان»: «ليس ذلك قبيحاً، فقد سبق أن لاحظت الحذاء الأسود الذي لم يصدمني على الإطلاق».

فقال الدوق: «لست أقول العكس، ولكنّما يبدو أكثر أناقة أن يكون من لون الفسطان. اطمئنّ على أيه حال، فلو أنّها وصلت قبل الأوان للاحظتْ ذلك في الحال واضطرتْ أنا أن آتي لجلب الحذاء، وكنت تعشيت في التاسعة». وقال لنا وهو يدفعنا بلطف: «إلى اللقاء يا أبنائي الصغار، هيّا اذهبا قبل أن تنزل «أوريان». وليس يعني ذلك أنّها لاتحبّ لقاءكما كليكما. إنّها على العكس تحبّ لقاءكما كثيراً. فإن وجدتكما بعد ههنا فسوف تعود إلى الحديث، إنّها متعبة جداً وستصل إلى العشاء فاقدة الأنفاس. ثمّ إنّي سأقرّ لكما بصراحة أنّني أنا أموت جوعاً. فقد تغذّيت أسوأ غداء هذا الصباح وأنا أغادر القطار. صحيح أنّه كان ثمّة مرق كثيف حارّ مشؤوم، ولكنّي على الرغم من ذلك لن يغضبني البتّة، أقول البتّة، أن أجلس إلى المائدة، الثامنة إلاّ خمساً! آه! ياللنساء! سوف تلحق الأذى بمعدتنا كلينا. إنّها أقل عافية ممّا يعتقدون».

لم يكن الدوق يحسّ أيّ حرج في التحدّث عن متاعب زوجته ومتاعبه إلى مشرف على الموت لأنّ الأولى التي تثير اهتمامه بقدر أكبر كانت تبدو له أكثر أهميّة. ولذلك فقد صاح بداعي حسن التهذيب

والعافية فحسب وبعدما صرفنا بلطف، صاح كأنّما في الفراغ وبصوت جهوري من الباب إلى «سوان» الذي كان مذ ذاك في الباحة:

– «وأنت لاتسمح بأن تؤثّر فيك سخافات الأطبّاء، يااللعنة! إنّهم حمير هؤلاء. صحتّك أمتن من «الجسر الجديد» وسوف تدفننا جميعاً!».

❖

مطابع انترناشيونال برس ت : ٢٤٧٤٢٥٩

عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

• عبدة الصفر

الان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

• مدام بوفاري

جوستاف فلوبير

ترجمة : محمد مندور

• الكلمات

چان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

• الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

• المكان

آني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد
وسيد البحراوي

• الآثار الشعرية الكاملة

إديث سودرجران

ترجمة : محمد عفيفي مطر
ومحمد عيد إبراهيم

• چاز

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم

دار شرقيات للنشر والتوزيع

Comme un géant
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~ des
années com-
me [illegible]
— [illegible] de plus
en plus énorme
et qui fait
peur [illegible]
— les traces
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
des [illegible] place

Si [illegible] image de ce que ~~[illegible]~~
multiplie en moi la [illegible] par [illegible]
hommes apporter [illegible] changé
~~[illegible]~~
autres d'autre le ~~[illegible]~~ raconter si on veut [illegible]
comme de la vérité, dans [illegible]
monstrueux d'une manière qui
ressemblera ~~tout~~ en entier à
~~[illegible]~~ quelquefois avait [illegible] ch
décrire les hommes) ~~et cela [illegible]~~
~~donner la forme d'un [illegible]~~
~~indéfini et prolongé~~ comme
~~[illegible]~~ [illegible]
~~[illegible]~~ que celle
~~qui leur est réservée dans l'espace~~
~~place dans le Temps. [illegible]~~
— il faudrait ~~donner~~ faire les ressembler à
~~[illegible]~~
~~une place indéfinie~~ [illegible]
~~[illegible]~~, une ~~occupant~~ ~~prolongée~~
~~dans le Temps~~ place si [illegible] à côté de
celle si restreinte qui leur est réservée
une place au contraire prolongée sans
~~dans le Temps~~ puisqu'ils ~~[illegible]~~ touchent
~~[illegible]~~ [illegible] sont
lesquelles tant de jours sont venus se placer — Dans
Fin.

Puisque nous
avons ~~[illegible]~~
accolé le
temps que
nous avons
si la vraie
place, puisque
nous avons le
[illegible] de
nos années
que c'est elle
et non pas
seulement notre
corps que nous
avons à
[illegible]
[illegible]
ce qui fait que
nous [illegible]
[illegible]